العذب النمير

من مجالس الشنقيطي في التفسير

اعتنى به وعلّق عليه
خالد بن عثمان السبت

المجلد الأول

دار ابن القيم
دار ابن عفان

العَذْبُ النَّمِيرُ

مِنْ مَجَالِسِ الشَّنقِيطِيِّ

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

رقم الإيداع :	١٦٨٥١ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولي :	977-375-000-0



دار ابن القيم للنشر والتوزيع

هاتف: ٨٢٧٤٥٤٥ - فاكس: ٨٠٥٦٥٥٤
الدمام - مدينة العمال - ص.ب: ٢٠٧٤٥
الرمز البريدي: ٣١٩٥١ بريد الخبر
المملكة العربية السعودية

دار ابن عفان

للنشر والتوزيع

القاهرة : ١١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر

ت : ٥٠٦٦٤٢٠ - محمول : ٠١٠١٥٨٣٦٢٦

الإدارة : الجيزة برج الأطباء أول ش فيصل

ت : ٥٦٩٣٦١٥ - تليفاكس : ٥٦٩٢٨٥٠ - ٣٢٥٥٨٢٠

ص . ب ٨ بين السرايات

جمهورية مصر العربية

E-mail:ebnaffan@hotmail. com



بسم الله الرحمن الرحيم

«فنحن - أيها الإخوان - نذكر هذه المناسبات؛ لأننا نعلم أن القرآن العظيم هو مصدر العلوم، وله في كل علم بيان، فنتطرق الآية من وجوهها، وقصدنا انتفاع طلبة العلم؛ لأن القرآن أصل عظيم تُعرف به أصول التخريج، والنحو، وأصول الفقه، والتاريخ، والأحكام إلى غير ذلك من جميع النواحي، فنحن جرت عادتنا بأن نتطرق الآية من جميع نواحيها بحسب الطاقة؛ لينتفع كل بحسبه» اهـ.

محمد الأمين الشنقيطي
رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا الكتاب مبارك، أي: كثير البركات والخيرات، فمن تعلّمه وعمل به غمرته الخيرات في الدنيا والآخرة؛ لأن ما سماه الله مباركاً فهو كثير البركات والخيرات قطعاً. وكان بعض علماء التفسير يقول: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات والخيرات في الدنيا، تصديقاً لقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢] ونرجو أن يكون لنا مثل ذلك في الدنيا. وهذا الكتاب المبارك لا ييسر الله للعمل به إلاّ الناس الطيبين المباركين، فإنه كثير البركات والخيرات؛ لأنه كلام رب العالمين؛ إذا قرأه الإنسان وتدبّر معانيه ففي كل حرف عشر حسنات في القراءة، إذا تدبر معانيه عرف منها العقائد التي هي الحق، وعرف أصول الحلال والحرام، ومكارم الأخلاق، وأهل الجنة وأهل النار، وما يصير إليه الإنسان بعد الموت، وما يسبب له النعيم الأبدي، وما يسبب له العذاب الأبدي، فكله خيرات وبركات؛ لأنه نور ينير الطريق التي تميّز بين الحسن من القبيح، والنافع من الضار، والباطل من الحق، فهو كله خيرات وبركات، من عمل به غمرته الخيرات والبركات في الدنيا والآخرة، وأصلح له الله الدارين».

محمد الأمين الشنقيطي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب تبياناً لكل شيء، والصلاة والسلام على القائل: **«ألا إني أُوتيتُ القرآنَ ومثلَه معه»**[١].

وعلى صحابته المروي عنهم: (إلا فهماً يعطيه الله رجلًا في كتابه)[٢]... الأثر، الموعودِين بالحسنى؛ وأتباعِهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فلقد تصفحت ما كتبه فضيلة الشيخ د. خالد بن عثمان السبت (حفظه الله) وقام به من جهد ينبىء عن علو همة ورغبة في الخير، وقد ظهر في الذي وقفت عليه من عمله أمانة علمية، وتجشم للصّعاب.

وإِذا كانت النفوسُ كباراً تعبتْ في مرادِهَا الأجْسَامُ[٣]

وأخبرني بقيامه بسماع الأشرطة عدة مرات أولًا، ثم عهد بنسخها ثانياً، ثم قام بتوثيق المعلومات ثالثاً. وهي معلومات غزيرة ومتنوعة، مما

---

(١) أخرجه أحمد (١٣١/١)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، حديث رقم: (٤٥٨٠) (٣٥٤/١٢)، والبيهقي في السنن (٢٣٢/٩)، وفي الدلائل (٥٤٩/٦)، وابن حبان (١٠٧/١)، والدارقطني (٢٨٧/٤)، والطبراني في الكبير (٢٨٣/٢٠)، والطحاوي في شرح المعاني (٢٠٩/٤)، وابن عبدالبر في التمهيد (١٥٠/١)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٢٦٣/١). وانظر صحيح أبي داود (٣٨٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم: (١١١) (٢٠٤/١). وأطرافه في (٣٠٤٧، ٣٩٠٣، ٦٩١٥) من قول علي (رضي الله عنه).

(٣) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه (بشرح البرقوقي ٦٤/٤).

يتطلب الوقت الكثير والبحث المتواصل، والتأمل والتحري، مما يكلف المرء عناءً هو عند طلبة العلم من أشهى المتع، كما قال الشاعر:

وتَـمَـايُـلـي طَـرَبـاً لـحـلِّ عَـوِيـصـةٍ   في الدرسِ أَشْهى من مُدَامَةِ سَاقِ[1]

وكما قال الشيخ:

أَبِـيْـتُ مُـفـكـراً فـيـهـا فَـتَـضْـحَـى   لـفَـهْـمِ الـفَـدْمِ خَـافِـضَـةَ الـجَـنَـاحِ[2]

وكان الشيخ (رحمه الله) يوظف جميع معارفه لفهم القرآن.

وقد كفاني مؤنة ذلك الشيخ خالد. وقد أخذ القوس باريها.

ونحن طلبةَ العلم وتلاميذ الشيخ (رحمه الله)، مَنْ منا يستطيع أن يقوم بخدمة كتبه أو أشرطته أو محاضراته على الوجه الصحيح، فلا ينبغي أن يتوانى في القيام بذلك، والعلم رَحِمٌ بين أهله.

رحمة الله على الشيخ، وجزى الله الشيخ خالداً بالخير. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، والسلام.

عبدالله بن محمد الأمين الشنقيطي
٢٠/٢/١٤١٨هـ

---

(١) البيت للشافعي، وهو في ديوانه ص٦٤.

(٢) البيت ضمن أبيات للشيخ أوردها الشيخ عطية (رحمه الله) في ترجمته (وهي مطبوعة في آخر الأضواء ص٣١).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي جعل في كل زمانِ فترةٍ من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون مَنْ ضَلَّ إلى الهدى، ويَصبرون منهم على الأذى، يُحيُون بكتاب الله الموتى، ويُبَصِّرُون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيَوْه، وكم من ضال تائه قد هدَوْه، فما أحسن أثرَهم على الناس، وأقبح أثرَ الناس عليهم. ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مُجْمِعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يُشَبِّهُون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين[١].

أما بعد:

فإن القرآن العظيم هو مأدبة الله (عز وجل)[٢]، فيه نبأ ما قبلنا، وخبر

---

(١) مقتبس من كلام الإمام أحمد (رحمه الله) في مقدمة الرد على الزنادقة والجهمية، ص٦. وأورد نحوه ابن وضاح في كتاب البدع والنهي عنها ص١٠ عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بغير إسناد.

(٢) اقتباس من حديث ابن مسعود (رضي الله عنه) مرفوعاً وموقوفاً، والصحيح وقفه، وقد=

ما بعدنا، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، وهو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تَرَكَه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو الصراط المستقيم الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أُجِرَ، ومن حكم به عَدَلَ، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم[(١)].

ولقد بين النبي ﷺ حروف القرآن كما بيَّن ما قد يَخفى من معانيه؛ إذ إنَّ بِعْثته تدور على ذلك، كما أخبر (تعالى) عن هذا المعنى بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: آية ٤٤].

وإنما المقصود من إنزال القرآن فهمه والعمل به، ولم ينزل من أجل القراءة فحسب ـ مع أنها مطلوبة ـ كما لا يكفي فهم معانيه من غير العمل به، ولا يمكن العمل به من غير فهم معانيه.

وطريق فهم القرآن هي تدبر ألفاظه ومعانيه، والتفكر فيها، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: آية ٨٢] وقال (تعالى): ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ

= أخرجه ابن المبارك في الزهد ص٢٧٢، وأبو عبيد في فضائل القرآن (١/ ٢٤٠)، والدارمي (٢/ ٣٠٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٤٨٢)، وعبدالرزاق في المصنف (٣/ ٣٧٥)، وسعيد بن منصور في سننه (تحقيق الحميد ١/ ٤٣)، والحاكم (١/ ٥٥٥)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٣٨)، والمروزي (مختصر قيام الليل ص١٥٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٠ ـ ١٣١) والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٢٥، ٣٤٣)، وابن حبان في المجروحين (١/ ١٠٠)، والخطيب في الجامع (١/ ١٠٧)، وابن الجوزي في العلل (١/ ١٠١ ـ ١٠٢)، وذكره في الذهبي في الميزان (١/ ٦٦).

(١) مقتبس من حديث رُوي مرفوعاً وموقوفاً، ولا يصح رفعه، وقد أخرجه جماعة من أصحاب المصنفات كما في: سنن الدرامي (٢/ ٣١٢، ٣١٣)، مسند الإمام أحمد (١/ ٩١)، مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٨٢)، سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل القرآن، حديث (٢٩٠٦)، (٥/ ١٧٢)، المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ٨٤)، وابن نصر في قيام الليل (المختصر ص١٥٧)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٢٦)، وانظر: شرح السنة (٤/ ٤٣٧، ٤٣٩)، مجمع الزوائد (٧/ ١٦٤).

قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: آية ٢٤] وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: آية ٢٩].

كما أن فهمه يحصل بتطلب تفسيره من كلام العلماء الراسخين في هذا الباب الشريف، الشارحين لآيات القرآن الكريم، والمبينين لمدلولاتها، سواء كان الأخذ عنهم مشافَهةً، أو عن طريق مصنفاتهم.

وإن من العلماء الأفذاذ الذين بلغوا شأواً عظيماً في علم التفسير، العلَّامة المفسرَ الأصوليَّ محمد الأمين الشنقيطي (رحمه الله)، وهو وإن كان من المتأخرين، إلا أن سماع كلامه في التفسير يُذكِّر سامعه بالأئمة المتقدمين.

ومعلوم أن التأخر والمعاصرة لا يُطَفِّفَانِ حق العالم إذا كان متحققاً في العلم. فـ «ليس لقِدَمِ العهدِ يُفَضَّلُ القائل[1]، ولا لحِدْثَانِ عهدٍ يُهْتَضَمُ المُصيب، ولكن يُعطَى كلٌّ ما يستحق»[2].

ذلك أن نتائج الأفكار لا تنقضي لانقضاء عصر بعينه؛ بل لكل عالم ومتعلم من ذلك حظ بحسب إِخَاذِهِ، وليس ثَمَّةَ ما يمنع أن يُدخر لبعض المتأخرين ما لم يُوهب لبعض المتقدمين، وعليه فلا عبرة بقول بعضهم: «ما ترك الأول للآخِر»!! فإن هذه الكلمة بالغة الضرر بالعلم؛ لكونها قاطعة للآمال عن تحصيله والإضافة فيه، كما لا يخفى. ولكن ينبغي أن يُقال: «كم ترك الأول للآخر». والشيء إنما يُستجاد ويُسترذل لجودته ورداءته لا لتقدم قائله أو تأخره[3].

قال أبو محمد بن قتيبة (رحمه الله) في مقدمة (الشعر والشعراء):

---

(١) هكذا ضبطه القرافي وجماعة (القائل) بالقاف، وذهب الزبيدي وجماعة إلى أنه بالفاء (الفائل) من: فال رأيه إذا ضعف. انظر: تاج العروس (٢٩/١).

(٢) ما بين الأقواس « » من كلام المبرد في «الكامل» (٤٣/١).

(٣) انظر: كشف الظنون (٣٩/١)، ولأحمد بن فارس (رحمه الله) كلام مفيد في هذا الموضوع نقله الأُستاذ عبدالسلام هارون (رحمه الله) في مقدمة التحقيق لكتاب (المقاييس في اللغة) (١٥/١ ـ ٢٠).

«ولم أسلُك فيما ذكرتُه من شعر كل شاعر مختاراً له سبيلَ من قلَّد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرتُ إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتَقَدُّمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرتُ بعين العدل على الفريقين، وأعطيتُ كلّاً حظَّه، ووفرت عليه حقَّه، فإني رأيتُ من علمائنا من يستجيدُ الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيّره، ويُرْذِل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله، ولم يَقْصُرِ الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مُشْتَركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كلَّ قديم حديثاً في عصره، وكلَّ شَرَفٍ خارجيَّةً[1] في أوَّله، فقد كان جرير، والفرزدقُ، والأخطل وأمثالهم يُعَدُّون مُحْدَثين...، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا بِبُعْدِ العهد منهم، وكذلك يكون مَنْ بعدهم لِمَن بَعْدَنَا،... فكل من أتى بحَسَنٍ من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله، ولا حداثة سنه؛ كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه» اهـ[2].

وقال في مقدمة (عيون الأخبار): «وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المُحدَثين، إذا كان متخيَّرَ اللفظ، لطيفَ المعنى، لم يُزْرِ به عندنا تأخُّرُ قائلِه، كما أنه إذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدُّمُه، فكل قديم حديث في عصره، وكل شرف فأوله خَارجيَّة، ومن شأن عوام الناس رفع المعدوم، ووضع الموجود، ورفض المبذول، وحب الممنوع، وتعظيم المتقدم وغفران زلته، وبخس المتأخر والتجني عليه، والعاقل منهم ينظر بعين العدل لا بعين الرضا، ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم» اهـ[3].

---

(١) الخارجيَّة: خيل لا عِرْقَ لها في الجودة، فتُخرَّج سوابق، والخارجي: الذي يخرج ويشرف بنفسه من غير أن يكون له قديم، وتقول: «خرجت خوارج فلان» إذا ظهرت نجابته. انظر اللسان (مادة: خرج) (٨٠٨/١)، القاموس (مادة: خرج) ص٢٣٧.

(٢) الشعر والشعراء ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) عيون الأخبار (١/م ـ ن).

وقال ابن مالك (رحمه الله) في مقدمة التسهيل: «وإذا كانت العلوم مِنَحاً إلٰهية، ومواهب اختصاصية، فغير مُستبعد أن يُدَّخَرَ لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين»[1] ا.هـ.

وقال الزبيدي (رحمه الله) في مقدمته لشرح القاموس: «وكأني بالعالم المُنصف قد اطلع عليه فارتضاه، وأَجَال فيه نَظْرَةَ ذي عَلَقٍ فاجتباه، ولم يلتفت إلى حُدوث عهده وقرب ميلاده؛ لأنه إنما يُستجَاد الشيء ويُستَرذل لجودته ورداءَته في ذاته لا لِقِدَمِه وحُدوثه، وبالجاهل المُشِطُّ قد سمع به فسارع إلى تمزيق فروته وتوجيه المَعَاب إليه... والذي غَرَّهُ أنه عَمَلٌ مُحْدَثٌ ولا عمل قديم، وحسبك أن الأشياء تُنْتَقَدُ أو تُبَهرجُ؛ لأنها تَليدةٌ أو طَارِفَةٌ» ا.هـ[2].

وقد أحسن القائل[3]:

قل لمن لا يرى المعاصر شيئاً ... ويرى للأوائل التقديما
إن ذاك القديم كان حديثاً ... وسَيُمْسِي هذا الحديث قديماً

والشيخ الأمين (رحمه الله) عالم متضلع في فنون عدة من أبرزها التفسير. وسيأتي قوله في سياق ترجمته: «لا توجد آية في القرآن إلا درستها على حدة» اهـ.

وللشيخ (رحمه الله) كتاب في تفسير القرآن بالقرآن يُعد من أحسن التفاسير وأجودها.

وإذا كان علم التفسير معدوداً في جملة العلوم الضرورية، وكان الشيخ الأمين بهذه المنزلة من الرسوخ فيه، فحق على طلبة العلم أن يُعنوا بما تركه الشيخ (رحمه الله) في هذا الباب.

---

(١) المساعد على تسهيل الفوائد (٣/١).
(٢) تاج العروس (٥/١).
(٣) البيتان في كشف الظنون (٣٩/١)، إضاءة الراموس (١٠٩/٢)، تاج العروس (٢٩/١).

وإن من هذه التركة النفيسة: عشرات من الأشرطة الصوتية التي تحوي كثيراً من دروس الشيخ (رحمه الله) في التفسير.

وقد كنتُ أَعْجَبُ من إغفال كتابتها وإخراجها للناس مقروءة كي يعم الانتفاع بها؛ ذلك أن تلك الأشرطة يصعب الانتفاع بها بسبب عدم وضوحها في الغالب، سواء من جهة ضعف التسجيل آنذاك، أو من جهة سرعة الشيخ (رحمه الله) في الإلقاء. فصح العزم على إخراج ذلك خدمة لكتاب الله (تعالى)، ووفاءً للشيخ المفسِّر (رحمه الله تعالى).

ولا يخفى أن مثل هذا الأمر يتطلب جهداً كبيراً من ناحيتين:

الناحية الأولى: صعوبة كتابة محتويات الأشرطة لما سبق.

الناحية الثانية: صعوبة توثيق المادة العلمية التي يوردها الشيخ (رحمه الله)؛ ذلك أن درسه حافل بالمعلومات المختلفة من شتى الفنون، من تفسير، ولغة، وإعراب، وسيرة، وتاريخ، وأصول، وقراءات، وغير ذلك.

ومما يزيد التوثيق صعوبة أن الشيخ (رحمه الله) لا يُعنى بالعزو إلى كتب التفسير أو أعلامه، الأمر الذي قد لا يتميز معه بعضُ ما أخذه من غيره مما فتح الله به عليه.

لمحة عن دروس الشيخ (رحمه الله) في التفسير[١]:

درَّس الشيخ (رحمه الله تعالى) التفسير في أماكن متعددة، منها:

١ ـ المسجد النبوي، وقد أتم فيه تفسير القرآن كاملًا، وتوفي ولم يتم الثانية، وهي هذه[٢].

وقد كان هذا الدرس يُعقد في كل يوم على مدار العام. كما ذكر ذلك

---

(١) انظر ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، للسديس ص٦٩، ترجمة الشيخ (رحمه الله) الملحقة في آخر الأضواء ص٣٩ ـ ٤٨.

(٢) تجد ذلك صريحاً عند تفسير الآية رقم (٩٩) من سورة الأعراف.

بعض تلامذته الذين لازموا درسه في التفسير منذ عام (١٣٦٩هـ).

ثم صار الدرس مقتصراً على الإجازة الصيفية منذ سنة (١٣٧١هـ) حين انتقل الشيخ (رحمه الله) إلى الرياض في ذلك العام. فكان الشيخ (رحمه الله) يعود إلى المدينة النبوية ـ في الإجازة ـ ويواصل هذا الدرس في مسجد رسول الله ﷺ.

وقد استمر الأمر على ذلك إلى أن انتقل الشيخ (رحمه الله) إلى المدينة النبوية مرة ثانية عام (١٣٨١هـ) ليُدرِّس في الجامعة الإسلامية.

وفي سنة (١٣٨٥هـ) صار وقت الدرس مقتصراً على شهر رمضان فقط؛ فكان يتوقف سائر العام، فإذا جاء رمضان أكمل التفسير من حيث وقف في العام قبله وهكذا.

وقد استمر الأمر على هذا الحال إلى وفاة الشيخ (رحمه الله) عام (١٣٩٣هـ).

وكان درسه في رمضان يبدأ بعد صلاة العصر مباشرة ويستمر إلى قرب أذان المغرب، وربما كان وقت الدرس قصيراً لعارض، كما وقع للشيخ (رحمه الله) عند تفسيره لسورة الأعراف، فبعد أن فرغ من الكلام على الآية رقم (٩٧) منها توقف معتذراً بقوله: «وقد نقتصر الآن على هذه الكلمات القليلة لأن البارحة أخذنا دواء أثَّر علينا، فمعي الآن بعض الأثر» ا.هـ.

٢ ـ دار العلوم بالمدينة النبوية، وذلك في عامي (١٣٦٩و ١٣٧٠هـ) إلى أن انتقل الشيخ (رحمه الله) إلى الرياض.

٣ ـ المعهد العلمي، وكليتي الشريعة، واللغة العربية بالرياض. وذلك لما انتقل إليها عام (١٣٧١هـ)، وبقي على ذلك إلى عام (١٣٨١هـ) حين انتقل إلى المدينة النبوية.

٤ ـ الجامعة الإسلامية. حيث دَرَّس فيها التفسير والأصول إلى أن توفي،

إضافة إلى آداب البحث والمناظرة كما سيأتي في ترجمته.

٥ - في بيته في مدينة الرياض، أو بعد انتقاله إلى المدينة النبوية (وهي دروس خاصة لبعض تلامذته).

يقول تلميذه الشيخ عطية (رحمه الله): «ولم يكن لي معه (رحمه الله) من وقت مُعَيَّن، مع كثرة الإخوان الدارسين عليه، المقيمين معه في بيته، إلا وقت واحد، هو ما بين المغرب والعشاء، لمدة سنتين دراسيتين ونحن بالرياض، قرأت خلالهما تفسير سورة البقرة»[١] اهـ.

منهج الشيخ (رحمه الله) في تدريس التفسير[٢]:

كان لدرس الشيخ (رحمه الله) في التفسير من حيث التوسع وعدمه - كما ذكر أحد تلامذته[٣] - ثلاثة أحوال:

الأولى: الإسهاب والتوسع. وعلى هذه الحال كانت دروسه في المسجد النبوي.

الثانية: التوسط بين التوسع والاقتضاب. وهذه حال دروسه في الجامعة في الأحوال العادية.

الثالثة: الاقتضاب الشديد. وهو المرور السريع على بعض المفردات في الآية، والإشارة السريعة إلى بعض معانيها، وكان يلجأ إلى ذلك في آخر السنة الدراسية عندما يرى أنه لا يمكن إكمال المنهج المقرر بأسلوب الحالة الثانية.

وسوف أقتصر في الكلام هنا على الحالة الأولى؛ لأنها هي التي تتعلق بغالب المادة التي بين أيدينا.

---

(١) ترجمة الشيخ (رحمه الله) لتلميذه الشيخ عطية (رحمه الله) في آخر الأضواء (١٤/٩).

(٢) انظر: ترجمة الشيخ لتلميذه الشيخ عطية (رحمه الله) في آخر الأضواء (٤٠/٩)، علماء ومفكرون عرفتهم (١٨١/١)، ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، للسديس ص٢٢٢.

(٣) معارج الصعود إلى تفسير سورة هود ص١٤.

لقد كان درس الشيخ (رحمه الله) يمتاز بتسخير جميع علوم العربية وغيرها من العلوم الإسلامية في تفسير كتاب الله (تعالى)، ومحاكمة الآراء والمعاني التي تقال في الكلمة أو الآية إلى ما غلب في القرآن نفسه، ثم تفسيره بالسنة، ثم بما ورد عن السلف، مع التعمق في فهم ذلك بالأساليب العربية[١].

كانت حلقة الدرس تفتتح بآي من السورة المقصود تفسيرها، يتلوها أحد التلاميذ ـ وهي بمعدل خمس آيات تقريباً ـ فإذا فرغ القارىء شرع الشيخ في التفسير مبتدئاً بالمناسبة بين الآية وما قبلها في بعض الأحيان، ثم يعرض للمفردات اللغوية بحيث يعرض معانيها واشتقاقاتها وكل ما يتصل بها من قريب أو بعيد، مستعيناً على ذلك بما لا يحصى من شواهد اللغة[٢]، ومن ثم يتناول العلائق التركيبية بين المفردات، فيعرض لضروب القراءات الواردة فيها مع عزوها وتوجيهها، كما يذكر وجوه الإعراب وما تقرره من المدلولات، فإذا انتهى من ذلك صرف الأذهان إلى الاستنباط الفقهي، مع ذكر الخلاف والأدلة والترجيح، مستعيناً على ذلك بكل ما يتطلبه المقام من علوم اللسان، والبيان، والأصول، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وما يتصل بذلك من العموم والخصوص والإطلاق والتقييد، ولا يفوته أن يربط بعض المعاني ببعض الوقائع المشابهة على صورة تُثري المعرفة، وتعمق أسباب الإقناع.

وإذا كان المضمون قصصياً عمد إلى عناصر القصة، فاستخرج عبرها، وكشف نُذُرها، وقاس ما فيها من صور الماضي على ما يعايشه الناس من أحداث الحاضر[٣]، فكان كثير الربط بين هذا وهذا، فتجده يتحدث عن

---

(١) المصدر السابق ص١١.

(٢) وربما كانت بعض تلك الشواهد تحمل معاني غير مستحسنة، وقد برر الشيخ (رحمه الله) إيرادها بقوله: «وقصدنا بهذا الكلام الخبيث بيان لغة العرب، لا المعاني الخسيسة التافهة؛ لأن معاني لغة العرب يُستفاد منها ما يعين على فهم كتاب الله وسنة رسوله، وإن كان مُفَرَغاً في معاني خسيسة تافهة، فنحن نقصد مطلق اللغة لا المعاني التافهة التي هي تابعة لها» ا.هـ من كلامه على الآية رقم (٢) من سورة الأعراف.

(٣) علماء ومفكرون عرفتهم (١٨١/١).

أسباب ضعف المسلمين اليوم، وعن الموقف من الحضارة الغربية، ولزوم الأخذ بأسباب القوة، وأسباب النصر والتمكين... وغير ذلك مما تجده في مواضعه من هذه الدروس.

وهكذا حينما يعرض لغزوة من الغزوات فإنه يستطرد في ذكر تفاصيلها المختلفة، وقد قال (رحمه الله) عند تفسير الآيات المتعلقة بغزوة حنين من سورة براءة: «ونحن دائماً في هذه الدروس إذا جاءت غزوة من مغازي رسول الله ﷺ في الآيات القرآنية نفصلها ونذكر تفاصيلها لتمام الفائدة، كما أوضحنا فيما مضى غزوة أُحد في سورة آل عمران، وغزوة بدر في سورة الأنفال، وسيأتي في سور القرآن العظيم أكثر مغازيه ﷺ» ا.هـ.

وإذا كانت الآية المفسرة مما يتعلق به بعض المبتدعة فإنه ينبه على ذلك ثم يستطرد في الرد عليهم، وقد قال عند تفسير الآية رقم (١٠٧) من سورة الأعراف حين عرض لشبهة الجبر والقدر: «ونحن في هذه الدروس دائماً نبين كيفية رد هذه الشبه» ا.هـ.

وكان (رحمه الله) كثيراً ما يعرض السؤال الذي يتوقع انقداحه في أذهان السامعين ثم يجيب عنه، وقد قال عند تفسير الآية رقم (٣٧) من سورة التوبة: «إن من عادتنا التي نجري عليها في هذه الدروس أن نتعرض لما نظن أنه يسأل عنه طلبة العلم» ا.هـ وهذا تجده مبثوثاً في هذا التفسير في ما يقرب من سبعين موضعاً.

وكثيراً ما يقرن الشيخ ذلك كله بالوعظ والتذكير بالاستعداد للآخرة واستحضار المراقبة لله (عز وجل).

وقد يستطرد في بعض الأحيان في قضية واحدة تستغرق الدرس كله - وهذا قليل فيما وقفت عليه - كما فعل عند الكلام على قوله (تعالى) من سورة الأعراف: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: آية ١٢] حيث أطال في الرد على ابن حزم في رده القياس، كما ستقف على ذلك في موضعه من سورة الأعراف.

وكذلك عند الكلام على قوله (تعالى) من السورة نفسها: ﴿إِنَّ

رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: آية ٥٤] حيث بسط الكلام على مسألة الصفات.

وكذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: آية ٥٧] حيث أطال النَّفَس في الرد على أهل الفلك.

وربما أحال إلى بعض كتبه، كما نرى ذلك عند كلامه على المجاز أثناء تفسير الآية رقم (٢١) من سورة براءة.

ومما يُذكر في هذا المقام مما يدل على غزارة تلك الدروس بالعلم، أن الشيخ (رحمه الله) حينما عُرض عليه درسه السابق المتعلق بالرد على ابن حزم في إنكار القياس - مُفرَّغاً من الشريط المسجَّل بعد سنة من إلقائه - وسمعه الشيخ بصوته، قال: «لولا أني أسمع صوتي بأذني وأنت - يعني تلميذه الشيخ عطية - أتيتني بها مكتوبة؛ ما صدقت أن شخصاً يقول هذا ارتجالًا»(١).

ولمَّا راجعه أحد تلامذته في تخفيف مستوى الدرس، أجاب بقوله: «إن الله يفتح على المرء ما لم يكن يتوقع، ثم إن المسجد يجمع عجائب من أجناس مختلفة، ويكفيني واحد يحمل عني ما بَلَّغْتُ مما عندي»(٢) اهـ.

وقد نبه الشيخ (رحمه الله) على ذلك عند الكلام على قوله (تعالى) من سورة براءة: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ...﴾ [التوبة: آية ٤٤] لما تكلم على بعض النواحي الإعرابية واللغوية المتصلة بالآية، فقال بعد ذلك: «ونحن نذكر هذه الأشياء العربية، وإن كان أكثر المستمعين لا

---

(١) ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، للسديس ص٢٢٢.

(٢) المصدر السابق.

يفهمونها؛ لأنَّا نريد أن تكون هذه الدروس القرآنية يستفيد منها كل الحاضرين على قدر استعداداتهم، والله يوفق الجميع للخير» اهـ.

وذكر (رحمه الله) بعض التحقيقات اللغوية في موضع آخر، ثم عقب ذلك بقوله: «فنحن ـ أيها الإخوان ـ نذكر هذه المناسبات؛ لأنَّا نعلم أن القرآن العظيم هو مصدر العلوم، وله في كل علم بيان، فنتطرق الآية من وجوهها، وقصدنا انتفاع طلبة العلم؛ لأن القرآن أصل عظيم تُعرف به أصول التصريف، والنحو، وأصول الفقه، والتاريخ، والأحكام، إلى غير ذلك من جميع النواحي، فنحن جرت عادتنا بأن نتطرق الآية من جميع نواحيها بحسب الطاقة لينتفع كل بحسبه»[1] اهـ.

وقال عند تفسير قوله (تعالى): ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ...﴾ [التوبة: آية ٣٤]: «ونحن ـ عادةً في هذه الدروس ـ إذا مررنا بآية من كتاب الله هي أصل باب من أبواب الفقه نتعرض إلى مسائله الكبار، ونبين عيونها ومسائلها التي لها أهمية» اهـ.

ولم يكن الشيخ (رحمه الله) يترك الحديث عن الأحكام المتعلقة بالآية نظراً لأن موضوعها قد عُطِّل أو كاد في هذا العصر أن يُعطَّل، فنجده عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ ...﴾ [الأنفال: الآية ٤١] يقول: «وهذه الآية الكريمة من سورة الأنفال قد تضمنت أحكاماً كثيرة من أحكام الجهاد، ومن أحكام الغنائم، وقد يحتاج لها المسلمون؛ لأنا نرجو الله (جل وعلا) أن يرفع علم الجهاد ويقوي كلمة لا إلٰه إلا الله، وأن تخفق رايات المسلمين في أقطار الدنيا فيحتاجون إلى تعلم ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أحكام الجهاد. ولما كان القرآن العظيم هو مصدر جميع العلوم؛ لأنه الكتاب الذي حوى جميع العلوم، وكانت أصول جميع الأشياء كلها فيه أردنا هنا أن نبين جُملًا من الأحكام التي أشارت إليها هذه الآية الكريمة» ا.هـ.

وقد ينسى الشيخ (رحمه الله) مسألة يرغب في عرضها عند تفسيره

(١) ذكره عند تفسير الآية (١٠١) من سورة الأعراف.

للآية فيستدرك ذلك في الدرس الذي يليه ويتكلم عليها قبل أن يشرع في تفسير الآيات التي بعدها، كما وقع عند تفسير الآية رقم (٣٧) من سورة براءة. ولربما وقع له ذهول عن أحد الأقسام التي هو بصدد الحديث عنها فلا يذكره، ثم ينبه على ذلك في مناسبة أخرى تماثلها، كما في كلامه على مادة (بَيَنَ) والمعاني التي تأتي لها في حال لزومها وتعديها، فقد تكلم عليها في سبعة مواضع، ثلاثة في الأنعام وأربعة في الأعراف، وقد قال عند كلامه عليها في الموضع السادس، وذلك ضمن تفسير الآية رقم (١٠١) من سورة الأعراف: «وقد ذكرنا فيما مضى في الكلام على قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ [الأنعام: آية ١٥٧] تصريف هذه الكلمة وما جاء من أمثلتها في القرآن ببعض أمثلتها، وكان ذلك الذي ذكرنا هنالك سقط منه قسم نسياناً، وكنا نتحرى إن جاءت لها مناسبة أخرى أن نبين القسم الذي سقط من كلامنا سهواً لئلا يضيع على بعض طلبة العلم الذين يسمعون هذه الدروس...» إلى آخر ما ذكره (رحمه الله).

ومع هذه الغزارة في المعلومات؛ فقد كان الشيخ (رحمه الله) حين يُلقي درسه كالسيل المنحدر؛ فهو يُسرع في الإلقاء، وتتوارد عليه هذه المعلومات المتنوعة، التي تمده بها تلك الذاكرة النادرة، فيضع كل معلومة في موضعها، فتأتي متسقة مترابطة، كل ذلك في لغة عالية، لا لحن فيها ولا سوقية[1].

ومع هذا الإسراع في العرض، بالإضافة إلى ذلك الكم الهائل من المعلومات المتنوعة، مع ما في ضمن ذلك من عزو للقراءات إلى قارئيها، والأحاديث إلى مخرجيها، والأقوال والمذاهب الفقهية لأصحابها، والأشعار والشواهد لقائليها، إلى غير ذلك مما عرض له في هذا التفسير؛ فإنك مع ذلك كله يندر أن تقوله على غلط مُحَقَّق، وقد تتبعت كل ما يذكره في هذا التفسير بغية توثيقه فهالني قوة ضبطه وحفظه وإتقانه. ولعل من الطريف أن أذكر أن الشيخ (رحمه الله) عند كلامه على القراءات في معرض تفسيره للآية

---

(١) انظر: علماء ومفكرون عرفتهم (١٨٢/١).

رقم (٦١) من سورة براءة أخطأ فنسب قراءة الخفض في قوله تعالى: ﴿ورحمةٍ﴾ إلى الكسائي، فترددت في التعليق على ذلك لما عهدته من ضبطه وحفظه، ثم وجدته بعد أن جاوزها وتكلم على بعض المسائل يرجع ويقول: «وأما على قراءة حمزة الذي قرأ ﴿ورحمةٍ﴾ بالخفض ـ هو حمزة لا الكسائي ـ أما على قراءة حمزة. . .» إلى آخر ما ذكر.

ولربما عزا الحديث إلى بعض المصنفات فتطلبته فيه مرة بعد مرة بشتى الطرق المعروفة في تخريج الحديث حتى إذا كدت أن أجزم بعدم وجوده فيه وجدته بعد ذلك في غير مظانه.

هذا وقد جرى كثير من المفسرين على إيراد الأدلة والتفصيلات المختلفة عند أول مناسبة تعرض لهم، ثم إذا تكرر نظائر لذلك فإنهم يكتفون بالإشارة لما حرروه في الموضع المتقدم، وهذا أمر يفيد في اختصار حجم الكتاب بلا ريب وإن كان يؤثر على القارىء كما لا يخفى، وقد جرى على هذه الطريقة الشيخ نفسه في كتابه أضواء البيان. وأما الطريقة الثانية وهي أن يبين ما احتاج إلى بيان في كل موضع وإن كان ذلك متكرراً، فهذه الطريقة أنفع للقارىء من التي قبلها خاصة في التفسير، يقول الشيخ عبدالرحمٰن بن سعدي (رحمه الله): «اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها ولا أكتفي بذكري ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه ﴿مَثَانِيَ﴾ ثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام وجميع المواضيع النافعة لحِكَم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف وصلاح الظاهر والباطن وإصلاح الأمور كلها»ا.هـ[1] ثم إن الحاجة لذلك تعظم إذا كان التفسير درساً يُلقى في سنين متطاولة في مواسم معينة مع ما بينها من التباعد في المدة وما يحصل مع ذلك من النسيان لدى السامعين إضافة إلى تجدد الكثير من الوجوه في كل مرة؛ ولذا جرى الشيخ (رحمه الله) في هذا التفسير على بيان الآية من جميع الوجوه مع صرف

(١) تيسير الكريم الرحمٰن ص٢٨ .

النظر عن كون ذلك يقع متكرراً، فنجده يبين أن ﴿لَعَلَّ﴾ تأتي لمعنى التعليل في جميع القرآن إلا في موضع واحد؛ يذكر ذلك في أحد عشر موضعاً، وينبه على الفرق بين النبأ والخبر في تسعة مواضع، كما نجد بعض القضايا يكررها في ثمانية مواطن كبيان الفرق بين الخوف والحزن، ولزوم الحمل على ظاهر القرآن إلا لدليل، وأن الشيء قد يُقصر على بعض أفراده؛ لأنهم المنتفعون به، وقضية الحكم بغير ما أنزل الله، وأن علم الغيب يختص بالله (عز وجل)، وهناك بعض المسائل التي تكررت في سبعة مواضع، كالكلام على أطوار خلق الإنسان، وأن الله خلق الخلق ليختبرهم في إحسان العمل، وشرحَ الأُسس الثلاثة التي يُبنى عليها الاعتقاد في باب الأسماء والصفات، والرد على القدرية القائلين بأن الله لم يشأ الكفر والمعاصي، والمناظرة المشهورة التي وقعت بين أبي إسحاق الإسفرائيني والقاضي عبدالجبار المعتزلي في القدر، وغير ذلك مما تكرر هذا التكرر في هذا التفسير، وأما القضايا التي تكررت دون ذلك فهي كثيرة لا أطيل بذكرها، علماً بأن ما بأيدينا من هذه الدروس إنما يمثل أجزاء قليلة من هذا التفسير المبارك، فكيف لو وُجد كاملا؟

* موقفه من الروايات الإسرائيلية:

إن المطالع لكتب التفسير يجد أن عامتها لم يسلم من دخول الروايات الإسرائيلية على تفاوت بينها في ذلك، فمن مُقِلٍّ ومن مُسْتكثر، مع أن التفسيرفي غُنية عنها، إلا أن كثيراً من المفسرين قد أُولِعُوا بالتتبع لتفاصيل لا طائل تحتها ولا فائدة في معرفتها، كما نبه الشيخ (رحمه الله) على ذلك عند تفسير الآية رقم (٧٣) من سورة البقرة؛ ولذا نرى الشيخ في هذه الدروس لا يكاد يُورد شيئاً منها إلا ما ندر، ثم ينبه على ذلك بعد إيراده أو قبله، كما قال عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأعراف: «وستأتي قصة الرجل في سورة الصافات؛ لأن الله ذكر في الصافات قصة رجل وأجملها، والمفسرون يبسطونها ويشرحونها؛ إلا أن شرحهم لها وبسطها من القصص الإسرائيلية التي لا يُعوَّل عليها...» ا.هـ ثم أورد القصة، وكما في كلامه

على الآية رقم (١٦٨) من سورة الأعراف حيث يقول: «وجرت عادة المفسرين أن يذكروا قصة غريبة عنهم في آية ذكرناها قبل هذا من سورة الأعراف ـ ثم ذكر الآية والقصة المشار إليها ثم عقب ذلك بقوله - هكذا يقولون، وتكثر هذه القصة... في كلام المفسرين عند هذه الآية الكريمة، وقد ألمحنا بالآية ولم نذكرها لأنها لم يثبت عندنا فيها شيء» ا.هـ وهكذا عند كلامه على الآية رقم (١٧٥) من سورة الأعراف حيث ذكر بعض الأقوال التي مُعَوَّلُها على الإسرائيليات ثم عقب ذلك بقوله: «وكل هذه إسرائيليات» ثم نقل كلاماً من قبيل الإسرائيليات وعقبه بقوله: «وهذه إسرائيليات لا معول عليها يذكرها المفسرون» ثم نقل كلاماً لبعضهم من ذلك القبيل وعقبه بقوله: «وغير هذا من روايات كثيرة إسرائيلية يحكيها المفسرون في تفسير هذه الآية من سورة الأعراف لا طائل تحتها ولا دليل على شيء منها» ا.هـ.

وهذا يُعد مزية لهذا التفسير كما لا يخفى.

وكان من عادته (رحمه الله) أن يختم الدرس بدعاء يُؤَمِّنُ عليه مَنْ حضر، وقد علل ذلك بقوله عند تفسر الآية رقم (٥٥) من سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾: «ونحن وإن كنا نعلم أن الإخفاء في الدعاء أفضل من [الجهر] به وندعو غالباً في هذا المجلس دعاءً ظاهراً، قصدنا به أن يسمعنا إخواننا ويُؤَمِّنُون لنا فنكون مجتمعين على الدعاء في هذا الشهر المبارك، ولو أسررنا الدعاء لما سمعوه ولما أَمَّنُوا لنا، والمُؤَمِّن أحد الداعِيَيْن...» إلى آخر ما ذكر.

القيمة العلمية لهذه الدروس:

يمكن أن أُلخص الكلام على هذه القضية في الأمور الآتية:

١ ـ علو كعب صاحبها في العلم، ورسوخه في التفسير، الأمر الذي يجعل لاختياراته وترجيحاته قيمة معتبرة.

٢ ـ غزارة المادة العلمية التي احتوتها هذه الدروس[1]؛ فهي ـ كما سبق ـ تشتمل على معلومات كثيرة مستقاة من مُختلف العلوم المحتاج إليها في التفسير، منها ما هو موجود في بعض كتب التفسير، ومنها ما هو مفرق في كتب تتعلق بفنون أخرى كتاريخ ابن جرير، وفتح الباري، وكتب اللغة وغيرها، إضافة إلى بعض الفوائد والشواهد التي تلقاها الشيخ (رحمه الله) عمن أخذ عنهم العلم.

٣ ـ تجد في هذه الدروس كثيراً من الاستنباطات العلمية التي تَوَصَّل إليها الشيخ بعد اطلاع واسع، وفهم ثاقب، ونظر صحيح.

٤ ـ من الأمور الجلية في هذه الدروس أن الشيخ (رحمه الله) حينما يلقيها ليس هو مجرد ناقل يسرد ما قرأ فحسب، بل نجده ينقل كلام العلماء، ويقارن بين تلك المنقولات ويناقشها، ويختار منها ما يترجح لديه.

٥ ـ في هذه الدروس تقف على نموذج رفيع من توظيف القواعد والضوابط العلمية في الفهم والاستنباط والترجيح. وهذا من أنفع الأمور التي يحتاج إليها طالب العلم.

٦ ـ تشتمل هذه الدروس على بيان مواطن العبر في القرآن، وربط ما جاء فيه بحياة الناس وواقعهم؛ فالشيخ لا يشرح الآيات على أنها تخاطب قوماً ذهبوا وقضوا، بل يبينها بطريقة تجعل السامع يعيش معها كلمة

---

(١) وإذا أردت أن تعرف حقيقة ذلك فاعلم أن هذا القدر الذي وقفنا عليه من هذا التفسير المبارك لا يمثل إلا أجزاء قليلة من القرآن لا تتجاوز الأربعة، ومع ذلك تجد فيها من الأحاديث والآثار ـ من غير المكرر ـ ما يقارب الخمسمائة، وفيها من الأشعار والشواهد والمنظومات ما يزيد على ستمائة بيت، وفيها من القراءات ما يقارب خمسين ومائتي قراءة، وأكثر من عشرين ومائة فرع فقهي، وفيه نحو هذا الكم من المسائل المتعلقة بالعقيدة، كما تجد فيه أكثر من سبعين قاعدة من القواعد المتنوعة، وما يقرب من سبعين إشكالاً أجاب عنها، إضافة إلى ما يذكره من الفروق المتنوعة وهي تقارب الخمسين فرقاً، فضلاً عن القضايا الإعرابية والصرفية والبلاغية وغير ذلك.

كلمة، وآية آية، حتى يدرك أنه مخاطب بها.

٧ ـ يتعرض الشيخ (رحمه الله) في هذه الدروس لتحليل كل كلمة في الآية، ويبين معناها وما تدل عليه، كما يبين أصل مادتها وهكذا. فهو لا يترك شاردة ولا واردة إلا ويتكلم عليها غالباً. وبهذا تدرك فرقاً جلياً بين هذه المادة التي بين يديك وبين ما ذكره الشيخ (رحمه الله) في كتابه (أضواء البيان)؛ إذ إنه في (الأضواء) لا يتعرض لتفسير جميع الآيات، بل يتكلم على بعضها، كما لا يتطرق إلى تفسير جميع الألفاظ في الآية التي يفسرها؛ ذلك أنه قصد من تأليفه أمرين اثنين ـ كما صرح بذلك في مقدمته[١] ـ هما:

١ ـ بيان القرآن بالقرآن.

٢ ـ بيان الأحكام الفقهية في جميع الآيات المُبَيَّنَة.

وقفة مع تسجيل دروس الشيخ (رحمه الله) في التفسير:

يبدو أن دروس الشيخ (رحمه الله) في الكلية لم تكن تُسجل صوتياً؛ إذ يقول أحد تلامذته في الكلية: «ولم نكن في ذلك الوقت نفكر في إحضار مسجل للصوت لأسباب: منها كبر حجم المسجلات، حيث يصعب حملها مع حمل الكتب، ومنها أنها تحتاج إلى أشرطة كثيرة قد يصعب على الطالب شراؤها، لقلة النفقة»[٢] اهـ.

أما في المسجد النبوي فقد كانت تلك الدروس تسجل صوتياً، وبين أيدينا مجموعة منها تُعد بالعشرات.

يقول أحد تلامذة الشيخ: «ومرة من المرات أحصيت أربعين مسجلًا للصوت تُسجل دروسه»[٣] اهـ.

---

(١) انظر الأضواء (١/٥ ـ ٦).

(٢) معارج الصعود ص١٢.

(٣) نقله صاحب كتاب: جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف ص٦٩.

إلا أن من المؤسف أن المتداول بين أيدينا منها يُعد ضئيلًا مقارنة بكثرة تلك الدروس! والظاهر أن جميع الدروس المسجلة في المسجد النبوي والمتداولة إنما هي من المرة الثانية من المرتين اللتين فسر فيهما الشيخ (رحمه الله) القرآن، وقد مات ولم يتمها وقد صرح (رحمه الله) بذلك عند تفسير الآية رقم (٩٩) من سورة الأعراف.

هذا وقد تطلبت ما سُجِّل من تلك الدروس العامرة فوقع لي منها سبع نسخ[١]، في كل نسخة منها زيادات ـ ولو يسيرة ـ قد سقطت من النسخ الأُخرى، وبعد استعراض محتوياتها والمقارنة بينها صنعت من مجموعها نسخة مُكمَّلة تحوي جميع التفسير المسجل في تلك النُسخ، وبهذا أمكن التخلص من كثير من المسح والانقطاع في التسجيل الواقع في كل نسخة مما وقفت عليه من تلك الدروس المسجلة، ثم رقمتها ترقيماً خاصاً وهو ما سأذكره قريباً ـ إن شاء الله تعالى[٢] ـ.

---

(١) بعد المقارنات بين هذه النُسخ وتكرار سماعها تبين لي بما لا يدع مجالًا للشك أنها تدور على نسخة واحدة في الأصل قد سُجِّلت منها، وهي نسخة الشيخ عطية (رحمه الله) إلا أن قلة العناية بالتسجيل أدى إلى هذا التفاوت، والله المستعان.

(٢) ولتسهيل الوقوف على هذه النسخة بعثت بنسخة منها للمكتبة الصوتية في المسجد النبوي، كما تجدها أيضاً في تسجيلات البخاري بمكة، بالإضافة إلى بعض المواقع في الشبكة العنكبوتية، مثل:

١ ـ موقع رسالة الإسلام http://www.islammessage.com

٢ ـ موقع السلفيون http://www.alsalafyoon.com

(*) تنبيه: عند تصحيح طباعة هذا الكتاب وقفت على نسخة صوتية جديدة لهذه الدروس تفضل بها الشيخ الدكتور بسام الغانم فوجدت فيها بعض المادة التي ذهبت من النسخ الأخرى بسبب انقطاع التسجيل أو المسح، فألحقتها في مواضعها من الكتاب، وهي إجمالاً على النحو التالي:

١ ـ زيادة بقدر سطرين ضمن تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

٢ ـ زيادة بقدر ثلاثة أسطر ضمن تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

٣ ـ زيادة بقدر ورقتين ضمن تفسير الآية السابقة.

٤ ـ زيادة بقدر خمسة أسطر ضمن تفسير الآية (٤٨) من سورة الأعراف.

٥ ـ زيادة بقدر ثلاثة أسطر ضمن تفسير الآية (٥٢) من سورة الأعراف.

=

ذكر محتويات الأشرطة التي أمكن الوقوف عليها:

إن مجموع ما بأيدينا من هذه الأشرطة المتعلقة بالتفسير يبلغ ستة وسبعين شريطاً موزعة على خمس سور من القرآن الكريم هي: (البقرة، الأنعام، الأعراف، الأنفال، التوبة) وإليك عرضاً لمحتوياتها تفصيلًا.

أولاً: من سورة البقرة: وهي ثلاثة أشرطة:

الشريط رقم [١] فسر فيه الآيات: (٤٥) ـ (٥٣).

الشريط رقم [٢] فسر فيه الآيات: (٥٤) ـ (٥٩)، (٦٧) ـ (٦٩).

الشريط رقم [٣] فسر فيه الآيات: (٦٩) ـ (٧٩).

وهذه الأشرطة ليست ضمن سلسلة دروس الشيخ (رحمه الله) في المسجد النبوي؛ وإنما سجلها تلميذه الشيخ عطية سالم (رحمه الله) في منزل الشيخ (رحمه الله) حين أقعده المرض عن إلقاء درسه في الجامعة، فكان هذا التسجيل للطلبة تعويضاً لهم من انقطاع الشيخ (رحمه الله) عنهم.

ثانياً: من سورة الأنعام:

الشريط رقم [١] فسر فيه الآيات: (٣٣) ـ (٣٨).

الشريط رقم [٢] فسر فيه الآيات: (٣٨) ـ (٤٢)، نصف الآية (٤٣) قوله: ﴿تَضَرَّعُوا﴾.

الشريط رقم [٣] فسر فيه الآيات: (٤٣) ـ (٤٨).

الشريط رقم [٤] فسر فيه الآيات: (٤٩) ـ (٥٣).

= ٦ ـ زيادة كثيرة بقدر شريط لمدة ساعة تقريباً ضمن تفسير الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

٧ ـ زيادة بقدر نصف سطر ضمن تفسير الآية (٦٨) من سورة الأعراف.

٨ ـ زيادة بقدر سطر ضمن تفسير الآية (٨١) من سورة الأعراف.

الشريط رقم [٥] فسر فيه الآيات: (٥٣) ـ (٥٧).

الشريط رقم [٦] فسر فيه الآيات: (٥٧) ـ (٥٩)، (٧٤).

الشريط رقم [٧] فسر فيه الآيات: (٧٤) ـ (٨٢).

الشريط رقم [٨] فسر فيه الآيات: (٨٣) ـ (٨٩).

الشريط رقم [٩] فسر فيه الآيات: (٩٠) ـ (٩٣).

الشريط رقم [١٠] فسر فيه الآيات: (٩٣) ـ (٩٧).

الشريط رقم [١١] فسر فيه الآيتين: (٩٨) ـ (٩٩).

الشريط رقم [١٢] فسر فيه الآيات: (١٠٠) ـ (١٠٢).

الشريط رقم [١٣] فسر فيه الآيات: (١٠٣) ـ (١٠٨).

الشريط رقم [١٤] فسر فيه الآيات: (١٠٨) ـ (١١١).

الشريط رقم [١٥] فسر فيه الآيات: (١١٢) ـ (١١٦).

الشريط رقم [١٦] فسر فيه الآيات: (١١٦) ـ (١٢٠)، (١٢٨).

الشريط رقم [١٧] فسر فيه الآيات: (١٢٨) ـ (١٣١).

الشريط رقم [١٨] فسر فيه الآيات: (١٣١) ـ (١٣٥)، (١٤١) ـ (١٤٤).

الشريط رقم [١٩] فسر فيه الآيات: (١٤٤) ـ (١٤٦).

الشريط رقم [٢٠] فسر فيه الآيات: (١٤٦) ـ (١٥٠).

الشريط رقم [٢١] فسر فيه الآيتين: (١٥٠) ـ (١٥١).

الشريط رقم [٢٢] فسر فيه الآيات: (١٥١) ـ (١٥٢). بداية (١٥٥).

الشريط رقم [٢٣] فسر فيه الآيات: (١٥٥) ـ (١٥٨).

الشريط رقم [٢٤] فسر فيه الآيتين: (١٥٨) ـ (١٥٩).

الشريط رقم [٢٥] فسر فيه الآيات: (١٥٩) ـ (١٦٥).

ثالثاً: سورة الأعراف:

الشريط رقم [١] فسر فيه الآيات: (١) ـ (٣).

الشريط رقم [٢] فسر فيه الآيات: (٤) ـ (٧).

الشريط رقم [٣] فسر فيه الآيات: (٨) ـ (١١).

الشريط رقم [٤] فسر فيه الآية: (١١).

الشريط رقم [٥] فسر فيه الآيات: (٣١) ـ (٣٥).

الشريط رقم [٦] فسر فيه الآيات: (٣٥) ـ (٣٨).

الشريط رقم [٧] فسر فيه الآيات: (٣٨) ـ (٤٤).

الشريط رقم [٨] فسر فيه الآيات: (٤٤) ـ (٥٢).

الشريط رقم [٩] فسر فيه الآيات: (٥٢) ـ (٥٤).

الشريط رقم [١٠] فسر فيه الآيات: (٥٤) ـ (٦٢).

الشريط رقم [١١] فسر فيه الآيات: (٦٣) ـ (٧٢).

الشريط رقم [١٢] فسر فيه الآيات: (٧٣) ـ (٨١).

الشريط رقم [١٣] فسر فيه الآيات: (٨١) ـ (٨٩).

الشريط رقم [١٤] فسر فيه الآيات: (٨٩) ـ (٩٩).

الشريط رقم [١٥] فسر فيه الآيات: (٩٩) ـ (١٠١).

الشريط رقم [١٦] فسر فيه الآيات: (١٠١) ـ (١٠٦)، (١١٥) ـ (١٢٤).

الشريط رقم [١٧] فسر فيه الآيات: (١٢٤) ـ (١٣٥)، (١٣٧).

الشريط رقم [١٨] فسر فيه الآيات: (١٣٨) ـ (١٤٤).

الشريط رقم [١٩] فسر فيه الآيات: (١٤٨) ـ (١٥٥).

الشريط رقم [٢٠] فسر فيه الآيتين: (١٥٦) ـ (١٥٧).

الشريط رقم [٢١] فسر فيه الآيتين: (١٥٨) ـ (١٥٩).

الشريط رقم [٢٢] فسر فيه الآيات: (١٥٩) ـ (١٦٣).

الشريط رقم [٢٣] فسر فيه الآيات: (١٦٤) ـ (١٧٤).

الشريط رقم [٢٤] فسر فيه الآيات: (١٧٥) ـ (١٨١).

الشريط رقم [٢٥] فسر فيه الآيات: (١٨٢) ـ (١٨٩).

الشريط رقم [٢٦] فسر فيه الآيات: (١٨٩) ـ (١٩٩).

الشريط رقم [٢٧] فسر فيه الآيات: (١٩٩) ـ (٢٠٦).

رابعاً: من سورة الأنفال:

الشريط رقم [١] فسر فيه الآيات: (١) ـ (٧).

الشريط رقم [٢] فسر فيه الآيات: (٧) ـ (١١).

الشريط رقم [٣] فسر فيه الآيات: (١١) ـ (١٣)، (٢٤) ـ (٢٨).

الشريط رقم [٤] فسر فيه الآيات: (٢٩) ـ (٤١).

الشريط رقم [٥] فسر فيه الآية: (٤١) فقط.

الشريط رقم [٦] فسر فيه الآيات: (٤١) ـ (٤٤).

الشريط رقم [٧] فسر فيه الآيات: (٤٥) ـ (٥٠).

الشريط رقم [٨] فسر فيه الآيات: (٥٠) ـ (٦١).

الشريط رقم [٩] فسر فيه الآيات: (٦١) ـ (٦٩).

الشريط رقم [١٠] فسر فيه الآيات: (٧٠) ـ (٧٣).

الشريط رقم [١١] فسر فيه الآيات: (٧٣) ـ (٧٥).

خامساً: من سورة التوبة:

الشريط رقم [١] فسر فيه الآيات: (١) ـ (٧).

الشريط رقم [٢] فسر فيه الآيات: (٧) ـ (١٦).

الشريط رقم [٣] فسر فيه الآيات: (١٧) ـ (٢٥).

الشريط رقم [٤] فسر فيه الآيات: (٢٥) ـ (٢٨).

الشريط رقم [٥] فسر فيه الآيات: (٢٨) ـ (٣١).

الشريط رقم [٦] فسر فيه الآيات: (٣١) ـ (٣٥)، (٣٧).

الشريط رقم [٧] فسر فيه الآيات: (٣٨) ـ (٤٠).

الشريط رقم [٨] فسر فيه الآيات: (٤٠) وبعض (٤١)، ثم (٤٤) ـ (٥٧).

الشريط رقم [٩] فسر فيه الآيات: (٥٧) ـ (٦٣).

الشريط رقم [١٠] فسر فيه الآيات: (٦٣) ـ (٦٧).

الطريقة المتبعة في إخراج هذا التفسير:

أولاً: فيما يتعلق بتفريغ محتويات الأشرطة ومراجعتها:

١ ـ قمت باستخراج نسخة مسجلة تحوي جميع محتويات النسخ التي توفرت لدي.

٢ ـ فيما يتعلق بتفريغ محتويات هذه الأشرطة فقد وكلت ذلك إلى مجموعة من طلبة العلم الذين تفضلوا بالقيام بهذه المهمة.

٣ ـ بعد أن تم تفريغ محتويات الأشرطة قمت بمراجعتها، وذلك بالمقابلة بين المكتوب على الورق وبين التسجيل الصوتي، وذلك للتأكد من سلامة النص المُثبت. وقد التزمت أن لا تقل هذه المقابلة عن مرتين في كل شريط.

ثانياً: ما يتعلق بالتوثيق والعزو:

١ ـ قمت بترقيم الآيات القرآنية، وتخريج الأحاديث والآثار من مصادرها، وكذلك الشواهد الشعرية.

٢ ـ عملت على ذكر مصادر المادة العلمية التي يذكرها الشيخ (رحمه الله) من قراءات، وتصريف، وبلاغة، وإعراب، وأحكام، وقواعد، وغير ذلك مما تجده في حاشية الكتاب.

٣ ـ عَرَّفْتُ ببعض المصطلحات القليلة التداول، وبعض الكلمات الغامضة.

ثالثاً: ما يتعلق بمنهج الكتابة والتوثيق:

١ ـ إذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بالعزو إليهما أو إلى أحدهما في حال التفرد.

٢ ـ عند ذكر مصادر القراءات، أو الشواهد، أو القواعد، أو المسائل العلمية، فإني أكتفي ـ غالباً ـ بذكر مصدر واحد، أو اثنين، أو ثلاثة، دون التوسع في هذا الباب.

٣ ـ أثبتُّ كلام الشيخ بنصه من غير تصرف إلا ما تقتضيه صناعة الإعراب، وفي هذه الحالات على الوجه الصحيح من غير إشارة إلى ذلك. وفي حال وجود انقطاع في التسجيل، أو مسح في الشريط، أو لفظة غير واضحة، فإني أضع مكان ذلك ما يتم به المعنى من كلام الشيخ في موضع آخر ـ إن وُجد ـ وإلا كملته بما يتناسب مع السياق، وأجعل ذلك بين معقوفتين [ ]، وهكذا فيما يقع من سبق اللسان، ثم أنبه إلى ذلك في الحاشية.

٤ ـ في بعض الأحيان يذكر الشيخ (رحمه الله) كلمة أو أكثر ثم يستدرك فيذكر كلاماً آخر، وفي هذه الحالة أترك الكلام الذي أعرض عنه الشيخ، وأُثبت كلام الشيخ بعد الاستدراك. كما أن الشيخ (رحمه الله) قد يكرر الجملة ليفهم السامع مراده أو يعيدها بعد الفراغ منها تأكيداً لمضمونها في ذهن المستمع وهذا أمر يحتاج إليه الملقي، لكن إن وقع في المادة المكتوبة فإنه يُخل بتتابع الكلام وترابط أجزائه؛ ولذا فإني ـ غالباً ـ أحذف الجملة المكررة التي لا تحمل أي فائدة زائدة من جهة المعنى ولا أُشير لذلك.

٥ - يوجد في آخر كل درس من دروس سورة البقرة سؤالات موجهة من الشيخ عطية لشيخه الأمين (رحمه الله)، وهي تتصل ببعض المواضع من الآيات المفسَّرة في الدرس نفسه، ثم يجيب الشيخ عنها. وقد قمت بوضعها في مواطنها التي تتصل بها (في الهامش) مع الإحالة عند موطنها من المتن على الهامش، وقد أَثْبَتُّ جواب الشيخ بنصه، أما السؤال فقد أختصره أو أُعيد صياغته.

٦ - إذا وقع للشيخ خطأ في الآية القرآنية فإني أصلحه دون الإشارة لذلك.

٧ - الأحاديث التي يوردها الشيخ (رحمه الله) أَثْبَتُّهَا كما نطق بها. مع أنه قد يذكرها بالمعنى في بعض الأحيان، وإنما اكتفيت بتخريجها.

٨ - فيما يتعلق بالشواهد والأشعار التي يوردها الشيخ (رحمه الله)، قد أجد مغايرة في بعض الألفاظ فيما بين ما نطق به الشيخ وما وقفت عليه من المصادر التي ذُكر البيت فيها. فإن وقفت في هذه الحالة على رواية للبيت توافق ما ذكره الشيخ اكتفيت بذلك وأثبتُّه كما قاله. وإلا أثبتُّه كما قاله الشيخ المفسر، وأشرت في الهامش إلى نوع المغايرة التي وقفت عليها.

أما إذا كان البيت من ألفية ابن مالك، أو مراقي السعود، أو غير ذلك من المنظومات العلمية فإني أُثبته كما في الأصل الذي أُخذ منه.

٩ - عند بداية كل وجه من تلك الأشرطة أضع علامة (/) مع كتابة رقم الشريط والوجه في البياض الأيسر من الصفحة، هكذا (١/أ) أو (١/ب) وهلم جراً.

١٠ - بعد كل درس يختتم الشيخ (رحمه الله) بدعاء قدر نصف صفحة، وقد تركت نقل ذلك اختصاراً، ولأنه لا تعلق له بموضوع التفسير[١].

---

(١) وقد نقلت نص دعائه في أحد الدروس في آخر الكتاب.

رابعاً: فيما يتعلق بالفهارس:

كنت قد أعددت فهارس متنوعة تُقَرِّبُ مادة الكتاب لدى القراء، ثم عدلت عن ذلك لأمرين:

الأول: أن الكتاب لم يكتمل، ولا زلنا نأمل الحصول على مزيد من الدروس المسجلة للشيخ (رحمه الله)، وهذا يعني أنه بمجرد حصول زيادة في المحتويات يحصل إخلال في الفهارس من جهة أرقام الصفحات كما لا يخفى.

وهذا السبب بعينه هو الذي ألجأ إلى أن تكون الإحالات إلى المواضع السابقة واللاحقة في الحاشية مرتبطة بأرقام الآيات في السور.

الثاني: كنت قد عهدت لأحد الفضلاء من طلبة العلم(١) صناعة فهارس علمية شاملة لجميع ما ورَّثه الشيخ (رحمه الله) من العلم، سواء كان أصل مادته مؤلفاً للشيخ، أم كان دروساً مسجلة كُتبت بعد ذلك، كبعض المحاضرات، أو هذا التفسير، بالإضافة إلى بعض الفتاوى الخطية التي كتبها الشيخ (رحمه الله) ولم تطبع بعد، وهذا يغني عن وضع فهارس خاصة لهذا الكتاب. ولتيسير الوقوف على الآية المطلوب تفسيرها قمت بترقيم الآيات بالإضافة إلى كتابة اسم السورة ورقم الآية المفسَّرة في رأس كل صفحة.

هذا وقد سميته **(العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)**.

أسأل الله (عز وجل) أن ينفع به مَنْ كَتَبَه، أو قرأه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.



(١) وهو الأستاذ زاهر الشهري حفظه الله.

شكر ورجاء

أشكر كل من أعان على إخراج هذا العمل برأي، أو فائدة، أو مقابلة، أو مراجعة، أو غير ذلك، ولا سيما إخواني الفضلاء الذين تكبدوا عناءً كبيراً في سبيل تفريغ محتويات الأشرطة على الورق.

فأسأل الله أن يُجزل لهم المثوبة ويعظم لهم الأجر ويختم لهم بالسعادة إنه قريب مجيب.

كما أرجو كل من وقف عليه ورأى فيه نقصاً أو خللًا أن يرشدني إليه وله مني الشكر والدعاء.

ثم من كان لديه مزيد على ما وقفت عليه من دروس الشيخ المسجلة ـ وهي المذكورة ضمن هذه المقدمة ـ فليطلعني عليه إتماماً لهذا العمل، ونشراً لعلم الشيخ (رحمه الله)، ومشاركة في بذل النفع للخلق.

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غِلًّا للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم، ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

كتبه: خالد بن عثمان السبت
المدينة النبوية
٩/رجب/١٤١٧هـ

ترجمة العلاّمة المفسّر الأصولي محمد الأمين الشنقيطي[(١)]

أولاً: اسمه ونسبه:

هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر بن محمد بن أحمد نوح بن محمد بن سيدي أحمد بن المختار. من أولاد الطالب أوبك، الذي هو من أولاد كرير بن الموافي بن يعقوب بن جاكن الأبر، جد القبيلة المعروفة بالجكنيين، والتي يرجع نسبها إلى حِمْيَرَ.

ثانياً: مولده ونشأته:

وُلد الشيخ (رحمه الله) سنة (١٣٢٥هـ) عند ماء يُسمى (تَنْبَه) من أعمال مديرية (كيفا) من موريتانيا.

وقد نشأ الشيخ (رحمه الله) يتيماً؛ إذ توفي والده وهو صبي صغير لا زال يقرأ في جزء عمَّ من القرآن الكريم. فترعرع الغلام في بيت أخواله الذين هم من بني عمومته؛ ذلك أن والدته كانت ابنة عم أبيه، وكان ذلك

(١) مصادر الترجمة: ترجمة تلميذه الشيخ عطية سالم، وهي مطبوعة في آخر أضواء البيان، «علماء ومفكرون عرفتهم»، للمجذوب (١٧١/١)، «ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي»، للسديس، «جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف»، للطويان (مطبوع على الراقمة، وهو عبارة عن رسالة ماجستير مقدمة في الجامعة الإسلامية عام ١٤١٢هـ).

البيت الذي تربى فيه الشيخ (رحمه الله) يزخر بمزيد من العلم فضلًا عمَّا يكتنف تلك البيئة من قطر شنقيط عموماً من انتشار للعلم وذويه، والأدب وأربابه، والفروسية ورجالاتها.

وكان أبوه قد خلَّف له ثروة من المال والحيوان، ولم يخلف ولداً سواه.

يقول الشيخ (رحمه الله) متحدثاً عن بعض أيام الصبا: «كنت أميل إلى اللعب أكثر من الدراسة، حتى حفظت الحروف الهجائية، وبدؤوا يقرئونني إياها بالحركات (ب، فتحة با، ب كسرة بِي، ب ضمة بُو) وهكذا.. فقلت لهم: أَوَ كل الحروف هكذا؟ قالوا: نعم، فقلت: كفى، إني أستطيع قراءتها كلها على هذه الطريقة؛ كي يتركوني، فقالوا: اقرأها. فقرأت بثلاثة حروف أو أربعة، وتنقَّلْت إلى آخرها بهذه الطريقة، فعرفوا أني فهمت قاعدتها، واكتفوا مني بذلك، وتركوني، ومن ثَمَّ حُبِّبَت إليَّ القراءة» ا.هـ.

ولمَّا أتمّ العاشرة من عمره فرغ من حفظ القرآن الكريم على خاله عبدالله بن محمد المختار بن إبراهيم بن أحمد نوح.

ثالثاً: طلبه للعلم

بعد أن أتم حفظ القرآن في سن العاشرة تعلم رسم المصحف العثماني على ابن خاله، وهو سيدي محمد بن أحمد بن محمد المختار، كما قرأ عليه التجويد في مقرأ نافع، برواية ورش، من طريق أبي يعقوب الأزرق، وقالون من رواية أبي نشيط، وأخذ عنه سنداً بذلك إلى النبي ﷺ، وكان قد بلغ من العمر ستة عشر عاماً.

كما درس أثناء تلك القراءة بعض المختصرات في الفقه على مذهب الإمام مالك، كرجز ابن عاشر، كما درس الأدب مع شيء من التوسع على زوجة خاله، وأخذ عنها إضافة إلى الأدب: مبادىء النحو كالآجرومية، وبعض التمرينات، كما أخذ عنها بتوسع: أنساب العرب وأيامهم، والسيرة

النبوية، ونظم الغزوات لأحمد البدوي الشنقيطي ـ وهو يربو على خمسمائة بيت مع شرحه لابن أخت المؤلف المعروف بحماد، ودرس عليها أيضاً نظم عمود النسب للمؤلف نفسه، وهو نظم طويل يُعد بالآلاف، بالإضافة إلى شرحه لابن أخت المؤلف (القدر المتعلق بالعدنانيين).

كل ذلك حصَّله في بيت أخواله!! وقد أخذ عن غيرهم الفقه المالكي من مختصر خليل، والنحو من ألفية ابن مالك وغيرها، والصرف، والأصول، والبلاغة، وشيئاً من الحديث، والتفسير.

أما المنطق وآداب البحث والمناظرة فكان تحصيله لها عن طريق المطالعة.

يُحدثنا الشيخ (رحمه الله) عن بداية الطلب فيقول: «ولما حفظت القرآن، وأخذت الرسم العثماني، وتفوقت فيه على الأقران، عُنيت بي والدتي وأخوالي أشد عناية، وعزموا على توجيهي للدراسة في بقية الفنون، فجهزتني والدتي بجملين، أحدهما عليه مركبي وكتبي، والآخر عليه نفقتي وزادي، وصحبني خادم ومعه عدة بقرات، وقد هيّأت لي مركبي كأحسن ما يكون من مركب، وملابس كأحسن ما تكون، فرحاً بي، وترغيباً لي في طلب العلم، وهكذا سلكت سبيل الطلب والتحصيل» اهـ.

رابعاً: همته في طلب العلم

كان الشيخ (رحمه الله) يتمتع بهمة عالية في طلب العلم، فلم يكن يُفَوِّت مسألة مما درس دون استيعاب وتمحيص، وإن كلَّفه ذلك جهوداً مضنية وأوقاتاً طويلة، وإليك هذه الواقعة التي تنادي بما ذكرت، يقول الشيخ (رحمه الله): «جئت للشيخ في قراءتي عليه، فشرح لي كما كان يشرح، ولكنه لم يشف ما في نفسي على ما تعودت، ولم يرو لي ظمئي، وقمت من عنده وأنا أجدني في حاجة إلى إزالة بعض اللبس، وإيضاح بعض المشكل، وكان الوقت ظهراً، فأخذت الكتب والمراجع، فطالعت حتى العصر، فلم أفرغ من حاجتي، فعاودت حتى المغرب، فلم أنته أيضاً،

فأوقد لي خادمي أعواداً من الحطب أقرأ على ضوئها، كعادة الطلاب، وواصلت المطالعة، وأتناول الشاهي الأخضر كلما مللت أو كسلت، والخادم بجواري يوقد الضوء، حتى انبثق الفجر وأنا في مجلسي لم أقم إلا لصلاة فرض أو تناول طعام، وإلى أن ارتفع النهار وقد فرغت من درسي وزال عني لبسي، ووجدت هذا المحل من الدرس كغيره في الوضوح والفهم..» ا.هـ.

هكذا كان يصنع (رحمه الله) حينما يعرض له إشكال!! بالإضافة إلى ما كان يكابده من سهر في تتبع كلام الشراح للكتاب الذي يشتغل بدراسته طلباً لاستيفاء كل ما قيل في المسألة أو الباب.

خامساً: غزارة علمه وسعة اطلاعه:

حبا الله الشيخ (رحمه الله) ذكاءً مفرطاً، وحافظة نادرة، وهمة عالية، فسخَّر ذلك كله في تحصيل العلم وجَمْعِه بمختلف فنونه وصنوفه، من عقيدة، وتفسير، وحديث، وأصول، وعربية...

وكان كلامه في العلم يشد كل من سمعه، حتى يُخيل للسامع أن الشيخ أفنى عمره في ذلك الفن ولا يُحسن غيره!

وهذه ليست من المبالغة في شيء، ومن قرأ كتابه الرحلة، أو سمع شيئاً من محاضراته ومناظراته، سواء في المدينة النبوية، أو ما سُجِّل له إبَّان زيارته لعشر دول إفريقية على رأس وفد من الجامعة، عرف حقيقة ما ذكرت، كما أن دروسه المُسجَّلة في التفسير أكبر شاهد على ذلك.

ولقد صدق (رحمه الله) حينما قال: «لا توجد آية في القرآن إلا درستها على حدة» ا.هـ.

وقال: «كل آية قال فيها الأقدمون شيئاً فهو عندي»!!

ولمَّا قال له أحد الأشخاص: «إن سليمان الجمل ـ صاحب حاشية الجمل على الجلالين ـ لم يقل هذا». قال: «أحلف لك بالله أني أعلم

بكتاب الله من سليمان الجمل بكذا؛ لأني أخذت المصحف من أوله إلى آخره، ولم تبق آية إلا تتبعت أقوال العلماء فيها، وعرفت ما قالوا».

وكان (رحمه الله) يحفظ من أشعار العرب وشواهد العربية الآلاف المؤلفة من الأبيات، كما كان يحفظ أكثر أحاديث الصحيحين، وألفية ابن مالك، ومراقي السعود، وألفية العراقي، وغير ذلك من المنظومات في السيرة النبوية، والغزوات، والأنساب، والمتشابه من ألفاظ القرآن، وشيئاً من المتون في الفقه نثراً ورجزاً.

ومن سمع شيئاً من دروس التفسير لم يستكثر ذلك عليه.

سادساً: عقيدته:

إن من الأمور البارزة التي تشد انتباه المستمع لدروس الشيخ (رحمه الله) أو القارىء لهذا المكتوب منها، كثرة تقريره لاعتقاد أهل السنة والجماعة في جميع الأبواب الاعتقادية ـ خاصة ما يتعلق بالأسماء والصفات ـ فهو يقرر ذلك كله بعبارة واضحة على قواعد راسخة مع حشد من الأدلة النقلية والعقلية، حتى إن المستمع لكلامه أو القارىء له يُخيل إليه أن الشيخ (رحمه الله) لا يُحسن غير هذا الباب من العلم. ومع توسع الشيخ (رحمه الله) في تقرير عامة هذه المسائل وإفاضته في الاحتجاج للمعتقَد الحق فيها، كان لا يكل ولا يمل من تكرار ذلك عند كل مناسبة، فنجد أنه يتكلم في بيان الأُسُس الثلاثة التي يُبنى عليها المعتقد الصحيح في الصفات في ثمانيةِ مواضع من هذه الدروس التي وصلت إلينا، وهكذا كلامه على موضوع التشريع والحكم بغير ما أنزل الله، وكذا عند بيان اختصاص الله تعالى بعلم الغيب، كما نجد الرد على القدرية في سبعة مواضع، وكذا عرض المناظرة بين الإسفرائيني والقاضي عبدالجبار في القدر، وفي ستة مواضع يقرر صفة الاستواء، وفي مثلها يذكر المحاورة التي وقعت بين الأعرابي وعمرو بن عبيد في القدر، إلى غير ذلك مما يتكرر في هذه الدروس المباركة من مسائل الاعتقاد.

وهذا التقرير لمسائل الاعتقاد لا يقتصر على الدروس التي كان يلقيها في التفسير في مسجد رسول الله ﷺ بل نجدها مبثوثة في كتبه، لا سيما «أضواء البيان»[(١)].

ولم يكن تمكن الشيخ (رحمه الله) مقتصراً على اعتقاد أهل السنة، بل هو راسخ المعرفة بمذاهب المتكلمين ووجوه بطلانها، وهذا ظاهر بجلاء فيما يقرره في هذه الدروس وفيما ذكره في كتبه، وقد قال (رحمه الله) عند تفسير الآية رقم (٥٤) من سورة الأعراف، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ...﴾ بعد تقريره للمعتقد الصحيح في باب الصفات وبيان بطلان مذهب المتكلمين في ذلك: «ونحن نقول لكم هذا ونقرر لكم مذهب السلف على ضوء القرآن العظيم مع أنَّا ما دَرَسْنَا دراسة شديدة مثل علوم الكلام والمنطق، وما تنفي به كل طائفة بعضاً من صفات الله، ونحن مطلعون على جميع الأدلة وعلى تركيبها التي نفي بها بعض الصفات، عارفون كيف جاء البطلان، ومن الوجه الذي جاء البطلان، واسم الدليل الذي تُرد به، ولكن ذلك لا يليق في هذا المجلس الحافل؛ لأنه لا يعرفه إلا خواص الناس، فبعد النظر العام الطويل في علم الكلام وما يستدل به طوائف المتكلمين، وما ترد به كل طائفة على الأخرى، والأقيسة المنطقية التي رتبوها ونفوا بها بعض الصفات، ومعرفتنا من الوحي ومن نفس الكلام والبحوث والمناظرات كيف يُبطل ذلك الدليل، ومن أين جاء الخطأ، وتحققنا من هذا كله، بعد ذلك كله تحققنا كل التحقق أن السلامة كل السلامة، والخير كل الخير في اتباع نور هذا القرآن العظيم، والاهتداء بهدي هذا النبي الكريم...» إلخ.

وبعد هذا العرض بقي أن تعلم أن الشيخ (رحمه الله) لم يحصل له هذا الرسوخ في هذا الباب في أُخريات حياته بل تجد ذلك أيضاً في بعض مؤلفاته القديمة قبل استقراره في هذه البلاد، ومن ذلك ما كتبه في كتابه **(رحلة الحج إلى بيت الله الحرام)** جواباً على سؤال وُجِّه إليه عن مذهب

---

(١) وقد جُمع في ذلك رسالة علمية مقدمة إلى الجامعة الإسلامية.

أهل السنة في الصفات فأجاب بنفس الأسلوب والمستوى الذي كان يقرر فيه اعتقاد أهل السنة في هذا الباب في أُخريات حياته. فرحمه الله رحمة واسعة.

سابعاً: الوظائف والأعمال التي تقلدها في بلاده:

تصدى الشيخ (رحمه الله) للتدريس والفتيا، كما اشتُهر بالقضاء، وكانت طريقته فيه أن يستكتب المتقاضيين رغبتهما في التقاضي إليه، وقبولهما ما يقضي به، ثم يستكتب المدعي دعواه، ويكتب جواب المُدَّعى عليه أسفل كتابة الدعوى، ثم يكتب الحكم مع الدعوى والإجابة، ثم يحيلهما إلى من شاءا من المشايخ أو الحكام للتصديق عليها وتنفيذها.

وكان يقضي في كل شيء إلا في الدماء والحدود، إذ كان للدماء قضاء خاص، وكان الحاكم الفرنسي في البلاد يقضي بالقصاص في القتل بعد محاكمة ومرافعة، وبعد تمحيص القضية وإنهاء المرافعة، وصدور الحكم، يعرض على عالمين من علماء البلاد للمصادقة عليه، ويطلق على العالمين: لجنة الدماء، وكان (رحمه الله) أحد عضوي هذه اللجنة.

ولم يخرج الشيخ (رحمه الله) من بلاده حتى علا قدره، وذاع صيته، وعظمت منزلته بين الخاص والعام والقاصي والداني، وصار عَلَماً من أعلام البلاد، وموضعاً لثقة الجميع.

ثامناً: سفره إلى الحج واستقراره في المدينة النبوية، وأثر ذلك عليه من الناحية العلمية:

سافر الشيخ (رحمه الله) من بلاده لسبع مضين من جمادى الآخرة، من سنة سبع وستين وثلاثمائة وألف، قاصداً الحج عن طريق البر على نية العودة بعد ذلك إلى البلاد، وقد كانت تلك السفرة حافلة بالفوائد والمباحثات العلمية القيمة التي تبرهن على رسوخ الشيخ في العلم، وطول باعه فيه، يُسلِّم بذلك كل من قرأ ما دَوَّنه في تلك الرحلة بعنوان: «الرحلة إلى بيت الله الحرام».

وبعد فراغ الشيخ من مناسك الحج توجه صوب المدينة النبوية، ثم عزم على البقاء والاستقرار فيها، وكان (رحمه الله) يقول: «ليس من عملٍ أعظم من تفسير كتاب الله في مسجد رسول الله ﷺ».

وقد كان لاستقراره في هذه البلاد أثر ظاهر في زيادة اطلاعه، وتوسيع دائرة علمه؛ ذلك أن الدراسة في بلاده كانت منصبة على الفقه في مذهب الإمام مالك خاصة دون غيره من المذاهب، إضافة إلى علوم العربية، والأصول، والسيرة، والتفسير، والمنطق، ولم تكن دراسة الحديث تحظى بما يحظى به غيرها، لاقتصار الناس على مذهب مالك (رحمه الله).

فلما بدأ الشيخ (رحمه الله) يزاول التدريس في المسجد النبوي، وخالط العامة والخاصة، ألفى من يمثل المذاهب الأربعة، ومن يناقش فيها، ويبحث عن الدليل ويتطلبه، كما وجد الدراسة في المسجد النبوي لا تقتصر على مذهب معين، فكان من المتعين على من تصدر للتدريس في مثل هذه البيئة الاطلاع على سائر المذاهب المعتبرة، والوقوف على أقوال العلماء في المسألة، مع التضلع بعلوم الكتاب والسنة، فَدَأب الشيخ (رحمه الله) في تحصيل ذلك، وقد ساعده على هذا التوسع تمكنه من علوم الآلة.

وإن هذا الأثر المشار إليه تجده بارزاً في كتابه «أضواء البيان» عندما يتعرض للمسائل الفقهية.

تاسعاً: الأعمال التي زاولها (رحمه الله) بعد استقراره في بلاد الحرمين:

١ ـ تفسير القرآن الكريم في المسجد النبوي، وقد أتم تفسير جميع القرآن، ثم شرع في تفسيره ثانية إلا أن المنية عاجلته، فمات (رحمه الله) ولم يُجاوز سورة براءة.

٢ ـ تدريس التفسير في (دار العلوم) في المدينة النبوية منذ عام (١٣٦٩هـ) إلى أن انتقل إلى الرياض عام (١٣٧١هـ).

٣ ـ تدريس التفسير والأصول منذ سنة (١٣٧١هـ) حينما افتتحت الإدارة

العامة للمعاهد والكليات بالرياض معهداً علمياً، تلاه عدة معاهد، وكليتا الشريعة واللغة العربية، وكان الشيخ (رحمه الله) ممن اختير للتدريس هناك، فانتقل إلى الرياض، وبقي يُدرس هناك حتى انتقل إلى المدينة كما سيأتي.

- تدريس بعض مؤلفات شيخ الإسلام (رحمه الله) حيث خصص الشيخ (رحمه الله) ـ إضافة إلى ما سبق ـ درساً لمدرسي المعهد في بعض كتب شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله)، وكان ذلك في صحن المعهد بدخنة بين العشاءين.

- تدريس الأصول، وذلك في مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم (رحمه الله) حيث كان الأمين (أكرم الله مثواه) يدرس الأصول لكبار الطلبة.

- تدريس الأصول لخواص تلامذته في بيته بعد العصر، كما أملى على أحد تلامذته شرحاً لـ«مراقي السعود».

٤ ـ التدريس في الجامعة الإسلامية منذ سنة (١٣٨١هـ) حينما افتتحت الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، فانتقل الشيخ (رحمه الله) للتدريس فيها، إضافة إلى كونه عضواً في مجلسها، وقد استمر على ذلك يُدرس التفسير والأصول حتى وافاه الأجل، كما دَرَّس فيها آداب البحث والمناظرة.

٥ ـ السفر في الدعوة إلى الله (تعالى) وذلك في عام (١٣٨٥هـ) حيث سافر الشيخ (رحمه الله) على رأس بعثة من الجامعة الإسلامية إلى عشر دول إفريقية، بدأت بالسودان، وانتهت بموريتانيا، وكانت سفرته هذه حافلة بالدروس والمحاضرات، واللقاءات العلمية، والمباحثات النافعة، وقد كانت مدة تلك السفرة تزيد على الشهرين.

٦ ـ التدريس في المعهد العالي للقضاء منذ افتتاحه سنة (١٣٨٦هـ) في مدينة الرياض، وكانت الدراسة فيه آنذاك على نظام استقدام الأساتذة الزائرين، فكان (رحمه الله) يذهب هناك لإلقاء المحاضرات المطلوبة في التفسير والأصول.

٧ ـ في (١٣٩١/٧/٨هـ) تم تشكيل هيئة كبار العلماء من سبعة عشر عضواً، وكان الشيخ (رحمه الله) واحداً من هؤلاء الأعضاء.

٨ ـ كان الشيخ (رحمه الله) أحد أعضاء المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي.

عاشراً: زهده وورعه:

إن العالم بحق من حَمَلَهُ علمه على خشية الله (عز وجل) ومراقبته، مع مجانبة أعمال السفهاء من التكالب على الدنيا، والتهارش عليها، والتشاغل بها عن الله والدار الآخرة.

وإن المرء ليشتد عجبه حينما يقف على حال الشيخ (رحمه الله) في هذا الباب، حتى يخيل إليك أن المُترجم واحد من أولئك السلف الصالح المُقتدى بهم في العلم والعمل، والزهد والورع.

كان الشيخ (رحمه الله) يقول: «الذي يفرحنا أنه لو كانت الدنيا ميتة لأباح الله منها سد الخَلَّة» ويُحَذِّر ابنه من جمعها والحرص عليها بحجة التصدق، وبناء المدارس، والأربطة، لأنها كالماء الملح، والله عز وجل لم يوجب على العبد جمع المال من أجل التصدق به، مع أن الواقع في الغالب أن العبد إذا جمع المال لا يعطيه للناس»[1].

وقال الشيخ (رحمه الله): «وأنا أَقْدَرُ الناس على أن أكون أغنى الناس، وتركت الدنيا لأني أعلم أنه إذا تلطخ بها العبد لا ينجو منها، إلا من عصمه الله».

وكان الشيخ (رحمه الله) لا يُبقي عنده من المال إلا ما يكفيه في الشهر، ويوزع ما زاد على ذلك على فقراء الطلبة، والعجزة، والأرامل من قرابته، وكان يقول: « والله لو عندي قوت يومي ما أخذت راتباً من الجامعة، ولكنني مضطر، لا أعرف أشتغل بيدي، وأنا شايب ضعيف».

---

(١) هذا الكلام خلاصة لبعض كلام الشيخ (رحمه الله) لابنه الشيخ عبدالله.

ولم يكن الشيخ (رحمه الله) يبيع كتبه التي ألفها، وكان يقول: «علم نتعب عليه ويباع وأنا حي؟ لا يمكن هذا، ولكن أنا أدفع العلم، وواحد يدفع الفلوس، ويوزع للناس مجاناً، وأنا أعلم أنه سيصل إلى من لا يستحقه، ولكن سيصل أيضاً إلى من لا يستطيع الحصول عليه بالفلوس».

بل كان الشيخ (رحمه الله) لا يميز بين فئات العملة الورقية، وكان يقول: «لقد جئت من البلاد ومعي كنز قلّ أن يوجد عند أحد، وهو القناعة، ولو أردت المناصب لعرفت الطريق إليها، فإني لا أوثر الدنيا على الآخرة، ولا أبذل العلم لنيل المآرب الدنيوية».

والشيخ (رحمه الله) من أبعد الناس عناية بالمظهر، وربما خرج بنعلين متغايرين أحدهما أحمر والآخر أخضر.

يقول الشيخ محمد العثيمين (رحمه الله): «كنا طلاباً في المعهد العلمي في الرياض، وكنا جالسين في الفصل، فإذا بشيخ يدخل علينا إذا رأيته قلت: هذا بدوي من الأعراب، ليس عنده بضاعة من علم!! رث الثياب، ليس عليه آثار الهيبة، لا يهتم بمظهره، فسقط من أعيننا، فتذكرت الشيخ عبدالرحمٰن السعدي، وقلت في نفسي: أترك الشيخ عبدالرحمٰن السعدي وأجلس أمام هذا البدوي؟! فلما ابتدأ الشنقيطي درسه انهالت علينا الدرر من الفوائد العلمية من بحر علمه الزاخر، فعلمنا أننا أمام جهبذ من العلماء، وفحل من فحولها، فاستفدنا من علمه، وسمته، وخُلقه، وزهده، وورعه»[1] ا.هـ.

وقدم إلى الرياض في بعض زياراته لمعهد القضاء، وعليه ثوب مبتذل، فلما كلمه أحد تلامذته في ذلك، أجابه بقوله: «يا فلان القضية ليست بالثياب، وإنما ما تحت الثياب من العلم» وقد صور الشافعي (رحمه الله) هذا المعنى بقوله:

عـلـيَّ ثـيـابٌ لَـو تُـبـاعُ جَـمـيـعُـهـا ... بِفَلْسٍ لكَانَ الفَلْسُ منهُنَّ أَكْثَرا

---

(١) مجلة الحكمة، العدد الثاني، ص٢٢.

وفيهنَّ نفسٌ لو تُقَاسُ ببعضِهَا ... نُفُوسُ الوَرَى كانتْ أَجَلَّ وأَكْبَرَا
وما ضَرَّ نَصْلَ السَّيفِ إِخْلاَقُ غِمْدِهِ ... إذا كانَ عَضْباً حيثُ وجَّهْتَهُ فَرَى
فإن تَكُنِ الأيامُ أَزْرتْ بِبَزَّتي ... فكَمْ مِنْ حُسَامٍ في غِلافٍ تكسَّرَا(١)

ولما حاول أحد تلامذته ثنيه عن الحج في العام الذي توفي فيه لضعف صحته، أجابه بقوله: «دع عنك المحاولة، سفري إلى لندن أريد الشفاء بها لا بد أن أكفر عنه بحج».

ومات الشيخ (رحمه الله) ولم يخلف شيئاً من حطام الدنيا، فرحمه الله رحمة واسعة.

الحادي عشر: مؤلفاته:

ترك لنا الشيخ (رحمه الله) مجموعة من المؤلفات، وهي من جهة التعلق بزمن التأليف على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما ألفه في بلاده وهي:

١ - نظم في أنساب العرب، سماه: (خالص الجمان في ذكر أنساب بني عدنان). وقد ألفه قبل البلوغ، ثم دفنه بعد ذلك، معللًا هذا الصنيع بأنه كتبه على نية التفوق على الأقران. وقد قال فيه:

سميتُه بخالِصِ الجُمَانِ ... في ذِكْرِ أنسَابِ بني عدنانِ

٢ - رجز في فروع مذهب مالك (رحمه الله)، يختص بالعقود من البيوع والرهون، وهو يُعد بالآلاف. (مخطوط).

٣ - ألفية في المنطق (مخطوط).

٤ - نظم في الفرائض (مخطوط).

---

(١) الأبيات في ديوانه ص٤٣ - ٤٤ سوى الأخير، وهو في الحلية (١٣١/٩).

القسم الثاني: ما كتبه أو أملاه في طريقه إلى الحج وهو قادم من بلاده:

١ ـ شرح على سلم الأخضري في المنطق (مخطوط).

٢ ـ الرحلة إلى بيت الله الحرام (مطبوع).

القسم الثالث: ما كتبه في هذه البلاد:

١ ـ منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز(مطبوع).

٢ ـ دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب (مطبوع).

وقد كتبه الشيخ (رحمه الله) في خمس عشرة ليلة، وهي إجازة الامتحانات عام (١٣٧٣هـ).

٣ ـ مذكرة أصول الفقه (مطبوع).

وقد أملاها على طلابه في كلية الشريعة التي افتتحت في الرياض عام (١٣٧٤هـ) فأملاها في السنوات الأولى من تدريسه في الرياض.

٤ ـ آداب البحث والمناظرة (مطبوع).

وقد فرغ من الجزء الأول بتاريخ (١٣٨٨/٣/٢٨هـ) كما فرغ من الجزء الثاني بتاريخ (١٣٨٨/٥/١٤هـ).

٥ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (بلغ فيه سورة قد سمع) (مطبوع).

٦ ـ بيان الناسخ والمنسوخ في آي الذكر الحكيم (مطبوع في آخر أضواء البيان).

وهي رسالة صغيرة تقع في نحو أربع صفحات ونصف، وهي عبارة عن شرح للأبيات العشرة التي ذكرها السيوطي في الآيات المنسوخة.

٧ ـ شرح على مراقي السعود (مطبوع).

أملاه على أحد تلامذته، وقد فرغ منه بتاريخ (١٣٧٥/٧/٢٢هـ) وكان قد شرح جميع المراقي، لكن قطعة من النظم تقرب من أربعة وستين ومائة بيت لم يدوّن شرحها.

وقد طُبع هذا الكتاب بعنوان «نثر الورود على مراقي السعود».

٨ ـ رسالة في حكم الصلاة في الطائرة (مخطوط).

وهي رسالة صغيرة تقع في ست صفحات، كتبها عام (١٣٨٥هـ).

٩ ـ حول شبهة الرقيق (مخطوط).

١٠ ـ رسالة في جواب سؤال ورد إليه من أحد أمراء بلاد شنقيط، يسأله عن العَالَم هل هو مخلوق ومرزوق من بركة النبي ﷺ، أو ذلك بأسباب أخرى؟

ويقع الجواب في ست عشرة صفحة، ولا تزال مخطوطة.

١١ ـ رسالة في جواب سؤالات ثلاثة، مقدمة من الشيخ محمد الأمين بن الشيخ محمد الخضر، والسؤالات هي:

١ ـ أين مقر العقل في الإنسان؟

٢ ـ هل يشمل لفظ (المشركين) أهل الكتاب؟

٣ ـ هل يجوز للكافر أن يدخل مساجد الله غير المسجد الحرام.

ويقع الجواب في إحدى عشرة صفحة، ولا زالت مخطوطة.

وللشيخ (رحمه الله) العديد من المحاضرات، وقد طُبع بعضها، ومن ذلك:

١ ـ حكمة التشريع.

٢ ـ المُثُل العليا.

٣ ـ المصالح المرسلة.

٤ ـ الإسلام دين كامل.

٥ ـ آيات الصفات. وقد ألقاها (رحمه الله) في الجامعة الإسلامية بتاريخ (١٣٨٢/٩/١٣هـ). وقد طُبعت بعنوان: **(منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات)**.

الثاني عشر: تجافيه عن الفتيا في أُخريات حياته:

غلب على الشيخ (رحمه الله) في السنوات الأخيرة من حياته التحرز الشديد من الفتيا، والتباعد عنها، وكان إذا اضطره أحد إلى الجواب يقول: «لا أتحمل في ذمتي شيئاً، العلماء يقولون كذا وكذا».

ولما سُئل عن ذلك أجاب بقوله: «إن الإنسان في عافية ما لم يُبْتَل، والسؤال ابتلاء؛ لأنك تقول عن الله ولا تدري أتصيب حكم الله أم لا؟ فما لم يكن عليه نص قاطع من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ وجب التحفظ فيه».

وكان يتمثَّل بقول الشاعر[١]:

إذا مَا قَتَلْتَ الشَّيْءَ عِلْماً فَقُلْ به ... ولا تَقُلِ الشَّيءَ الَّذِي أَنْتَ جَاهِلُهْ
فَمَنْ كان يَهْوَى أَن يُرى مُتَصَدِّراً ... وَيَكْرَهُ «لا أَدْرِي» أُصيبت مقاتِلُهْ

ولا يخفى أن هذا الصنيع ـ أعني التحرز من الفتيا ـ هو حال السلف الصالح، والمنقول عنهم في هذا المجال كثير لا يسع المقامَ نقلُه، فليراجَعْ في مظانه[٢].

الثالث عشر: رجوعه للحق إذا ظهر له ذلك:

لم يكن الشيخ (رحمه الله) ممن يأنف من إعلان رجوعه إلى الحق إذا تبين له ولو كان القول الذي رجع عنه قد أذاعه ونشره وانتصر له سنين متطاولة، وهذا نجده جلياً عند كلام الشيخ (رحمه الله) على الآية رقم (٥) من سورة براءة حين تعرض للكلام على القتال في الأشهر الحُرم حيث يقول: «وكنا نرى هذا القول ـ وهو نسخ تحريم القتال فيها ـ مكثنا كثيراً من الزمن ونحن ننصر هذا القول ونقرر أنه الأصوب، ثم ظهر لنا بعد ذلك أن أصوب القولين وأولاهما بالصواب أن تحريم الأشهر الحرم باق لم يُنسخ» ا.هـ.

---

(١) البيت الأول في جامع بيان العلم (٨٤٢/٢)، بلا نسبة.

(٢) انظر: الفقيه والمتفقه (١٦٥/٢ ـ ١٧٥)، جامع بيان العلم (٨٢٦/٢ ـ ٨٤٣).

وقال عند تفسير الآية رقم (٣٤) من السورة نفسها: «وقد ذكرنا بالأمس أن الذي كان يظهر لنا وننصره أن تحريم الأشهر الحُرم قد نُسخ، وأن الذي تحققناه بعد ذلك وصرنا نجزم به أنها باقية التحريم إلى الآن...» ا.هـ.

الرابع عشر: وفاته:

توفي الشيخ (رحمه الله) ضحى يوم الخميس، السابع عشر من شهر ذي الحجة، عام ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف، في منزله في مكة المكرمة، وقد صلى عليه سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز بعد صلاة الظهر من ذلك اليوم، ودُفن بمقبرة المَعْلَاة برِيْع الحَجُون، فرحمه الله رحمة واسعة.





تفسير سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

١/أ /﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: الآيات ٤٥ ـ ٤٧].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: الآيتان ٤٥ - ٤٦].

﴿ٱسْتَعِينُوا۟﴾ استفعال من العون، وياؤه مُبْدَلة من واو، أصله: (استعوِنوا) تحركت الواو بعد ساكن صحيح؛ فوجب نقل حركتها إلى الساكن الصحيح(١)، على حد قوله في الخلاصة(٢):

لساكنٍ صحَّ انْقُلِ التحريكَ مِنْ ذي لينٍ اتٍ عَيْن فعلٍ كأَبِنْ

والسين والتاء للطلب، فمعنى ﴿ٱسْتَعِينُوا۟﴾ اطلبوا العون على أموركم الدنيوية والأخروية.

﴿بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ الصبر: مصدر صبر صبراً، وهذه المادة تتعدَّى

---

(١) انظر: الدر المصون (٣٢٩/١، ٥٩).

(٢) الخلاصة ص٧٨، وراجع شرحه في الأشموني (٦٢٩/٢)، ضياء السالك (٤٠٥/٢).

وتلزم، فمن تعدِّيها في القرآن ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية [الكهف: ٢٨]، ومن لزومها في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾ الآية [آل عمران: آية ٢٠٠]، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: آية ٤٣]. وقال بعض العلماء: هي متعدية دائماً إلا أنها يكثر حذف مفعولها، ومن تعديتها في كلام العرب قول عنترة[1]، وقيل أبو ذؤيب:

فَصَبَرتُ عارفةً لذلك حُرَّةً ترسو إذا نفسُ الجبانِ تَطَلَّعُ

والصبر خصلة من خصال الخير عظيمة، صرح الله في سورة فصلت أنه لا يعطيها لكل الناس، وإنما يعطيها لصاحب الحظ الأكبر، والنصيب الأوفر، وذلك في قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: آية ٣٥].

وهذه الخصلة التي هي الصبر لا يعلم جزاءها إلا الله، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: آية ١٠]، والصائمون من خيار الصابرين، ولذا قال ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**إلا الصوم فهو لي، وأنا أجزي به**»[2].

والصبر يتناول الصبر على طاعة الله، وإن كنت كالقابض على الجمر، والصبر عن معصية الله، وإن اشتعلت نار الشهوات، ويدخل في ذلك الصبر على المصائب[3] عند الصدمة الأولى، والصبر على الموت تحت ظلال السيوف.

---

(١) شرح ديوان عنترة ص٨٥ وفي القرطبي (٣٧١/١) ونسبه لعنترة جازماً بذلك.

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الصيام، باب: فضل الصوم، حديث رقم (١٨٩٤) (١٠٣/٤)، وقد أخرجه في مواضع أخرى، انظر: الأحاديث رقم (١٩٠٤، ٥٩٢٧، ٧٤٩٢، ٧٥٣٨)، ومسلم في صحيحه ـ واللفظ له ـ كتاب الصيام، باب: فضل الصيام، حديث رقم (١١٥١) (٨٠٦/٢).

(٣) انظر هذه الأنواع الثلاثة في مدارج السالكين (١٥٦/٢)، بصائر ذوي التمييز (٣٧٥/٣، ٣٨١).

وقوله: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: واستعينوا بالصلاة؛ لأن الصلاة نِعْمَ المُعين على نوائب الدهر، وعلى خير الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ الآية [العنكبوت: آية ٤٥]، وقال جل وعلا: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: آية ١٣٢] وكان ﷺ إذا حزبه أمر صلى[١]، وروي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه نُعي له أخوه قُثَم، فأناخ راحلته وصلّى، وتلا: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[٢] [البقرة: آية ٤٥] يستعين بالصلاة على صبر مصيبة أخيه.

ولا شك أن لطالب العلم هنا سؤالًا وهو أن يقول: أما الاستعانة بالصبر على أمور الدنيا والآخرة فهي أمر واضح لا إشكال فيه؛ لأن من حبس نفسه على مكروهها في طاعة الله، كان ذلك أكبر معين على الطاعة، ولكن ما وجه الاستعانة بالصلاة على أمور الدنيا والآخرة؟

الجواب[٣]: أن الصلاة هي أكبر معين على ذلك؛ لأن العبد إذا وقف بين يدي ربه، يناجي ربه ويتلو كتابه، تذكر ما عند الله من الثواب، وما لديه من العقاب فهان في عينه كل شيء، وهانت عليه مصائب الدنيا، واستحقر لذاتها، رغبة فيما عند الله، ورهبة مما عند الله.

ثم إن الله قال جلَّ وعلا: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: آية

(١) جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه عند أحمد (٣٨٨/٥)، وأبي داود في الصلاة، باب: وقت قيام النبي ﷺ من الليل، حديث رقم: (١٣٠٥) (٢٠٢/٤)، وابن جرير برقم: (٨٤٩، ٨٥٠) (١٢/٢)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة رقم: (٢١٢) (٢٣١/١)، وقد صححه أحمد شاكر في تعليقه على ابن جرير (١٢/٢)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٥/١).

(٢) أخرجه ابن جرير، انظر: الأثر رقم: (٨٥٢) (١٤/٢)، والبيهقي في الشعب، انظر الأثرين رقم: (٩٦٨١، ٩٦٨٢) (١١٤/٧)، وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح» ابن جرير (١٤/٢).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (١١/٢ ـ ١٢)، البحر المحيط (١٨٤/١)، أضواء البيان (٧٥/١).

٤٥] للعلماء في مرجع الضمير في ﴿وَإِنَّهَا﴾ أقوال كثيرة[١]، منها: أنه راجع إلى الاستعانة، المفهوم من قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟﴾. ومنها: أنه راجع إلى المذكورات في الآية قبل هذا، والتحقيق: أنه راجع إلى الصلاة، والمعنى: ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: عظيمة شاقة على كل أحد ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾، والصبر كذلك على المصائب وعلى طاعة الله وعن معاصي الله، كبير جداً إلا على الخاشعين، والظاهر أن الضمير إنما رجع لأحد المتعاطفين اكتفاءً به عن الآخر؛ لأن مثل ذلك يفهم في الآخر، وهذا يكثر في القرآن، وفي كلام العرب[٢]، فمنه في القرآن قوله هنا: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا﴾ [البقرة: آية ٤٥]، ونظيره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ الآية [التوبة: آية ٣٤]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: آية ٦٢] ولم يقل: يرضوهما.

وقوله جلا وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ [الأنفال: آية ٢٠] ولم يقل: عنهما. ونظيره من كلام العرب قول حسان بن ثابت[٣]:

إنَّ شَرْخَ الشباب والشَّعَر الأَسْـ ... ـودَ ما لم يُعَاصَ كان جُنُونَا

ولم يقل: «ما لم يعاصيا».

وقول نابغة ذبيان[٤]:

وقد أراني ونُعْماً لاهيين بها ... والدهرُ والعيشُ لم يهمم بإمرار

---

(١) انظر: ابن جرير (٢/١٥)، البيهقي في الشعب (٧/١١٣)، القرطبي (١/٣٧٣)، البحر المحيط (١/١٨٥)، الدر المصون (١/٣٣٠).

(٢) للتوسع في هذا الموضوع انظر: ابن جرير (١٤/٢٢٨ ـ ٢٢٩)، (١٥/٢٣)، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٢٨٨، الصاحبي ص٣٦٢، فقه اللغة للثعالبي ص٢٩٨، المدخل للحدادي ص٢٧٤، البرهان (٣/١٢٦، ٤/٢٨، ٣٠)، الإتقان (٢/٢٨٣)، الكليات ص٣٨٦، ٥٦٩، قواعد التفسير ص٤٠٦.

(٣) ديوان حسان بن ثابت ص٢٤٦.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ص١٩.

وقول الأضبط بن قريع[١]، وقيل كعب بن زهير:

لكل هم من الهموم سعة والمُسْيُ والصُّبْح لا فلاح معه

ولم يقل: «لا فلاح معهما».

والكبيرة هنا: وصف من (كَبُر) بضم الباء، (يكبُر) بضمها، إذا عظم وشق وثقل، ومنه قوله: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: آية ١٣] وهذا النوع في المعاني من (كَبُر الأمر) إذا شق وثقل، أو (كبُر) بمعنى (عظُم)، كقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: آية ٣] يكبُر الأمر فهو كبير، مضموم في الماضي، تقول: كبُر يكبُر فهو كبير. كما بينًا.

أما كِبَر السن: ففعله (كبِر) بكسر الباء (يكبَر) بفتحها على القياس، وهو معروف[٢]، ومن أمثلته قول قيس المجنون[٣]:

تعشقتُ ليلى وهي ذاتُ ذوائبٍ ولم يبدُ للعينين من ثديها حجمُ
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا إلى اليوم لم نَكْبَرْ ولم تَكْبَر البهمُ

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: آية ٤٥] استثناء مفرغ[٤]، وأصل تقرير المعنى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: ثقيلة عظيمة شاقة على كل أحد ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾، والخاشعون جمع: الخاشع، وهو الوصف من: خشع. وأصل الخشوع في لغة العرب: الانخفاض في طمأنينة، كل

---

(١) انظر: اللسان (مادة: مسا) (٤٨٦/٣)، البيان والتبيين (٣٤١/٣)، الأمالي (١٠٧/١) ونسبوه للأضبط بن قُريع، وهو في تفسير القرطبي (٣٧٤/١)، من غير نسبة.

(٢) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الكاف، باب الكاف والباء وما يثلثهما، (مادة: كبر) ص٩١٥، إكمال الإعلام لابن مالك (٥٤٠/٢)، بصائر ذوي التمييز (٣٢٣/٤).

(٣) البيتان في الخزانة (١٧١/٢)، مع شيء من المغايرة في اللفظ، إذ المُثبت هناك:

تعلقت ليلى وهي غِرٌّ صغيرة ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا صغيران لم نكبر ولم تكبر البهم

(٤) انظر: الدر المصون (٣٣١/١).

منخفض مطمئن تسميه العرب: خاشعاً[١]، ومنه قول نابغة ذبيان[٢]:

توهَّمتُ آياتٍ لها فعرفتُها لستة أعوام وذا العامُ سابعُ
رمادٌ ككُحْلِ العينِ لأياً أُبينُه ونؤيٌ كجذمِ الحوض أثلمُ خاشعُ

أي: منخفض مطمئن، هذا أصل الخشوع في لغة العرب.

وهو في اصطلاح الشرع[٣]: خشية تداخل القلوب، تظهر آثارها على الجوارح، فتنخفض وتطمئن خوفاً من خالق السماوات والأرض.

والمعنى: أن الصلاة صعبة شاقة على غير من في قلوبهم الخوف من الله، ويدل لذلك شدة عِظَمِها على المنافقين، كما قال جل وعلا: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: آية ١٤٢] وقال جل وعلا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: الآيتان ٤، ٥].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: آية ٤٦] ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل خفض نعت للخاشعين[٤] أي: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾. والظن هنا معناه اليقين، على التحقيق[٥]، خلافاً لمن شذ فزعم أنه الظنُّ المعروف، وأن المتعلق محذوف، والمعنى: يظنون أنهم ملاقو ربهم بذنوب، فهم وجلون من تلك الذنوب. فهذا غير ظاهر، ولا يجوز حمل القرآن عليه وإن قال به بعض العلماء[٦]. والتحقيق أن معنى ﴿يَظُنُّونَ﴾: يوقنون، وقد تقرر في علم العربية أن الظن يطلق في العربية وفي القرآن إطلاقين[٧]:

---

(١) المصدر السابق.
(٢) ديوان النابغة الذبياني ص٥٢ ـ ٥٣.
(٣) انظر: تفسير القرطبي (١/٣٧٤ ـ ٣٧٥)، مدارج السالكين (١/٥٢١ ـ ٥٢٢).
(٤) انظر: القرطبي (١/٣٧٥)، الدر المصون (١/٣٣٢).
(٥) انظر: أضواء البيان (١/٧٥)، دفع إيهام الاضطراب (ملحق بالأضواء ص٢٠).
(٦) انظر: الدر المصون (١/٣٣٢).
(٧) انظر: المقاييس في اللغة: كتاب الظاء، باب الظاء وما معها في المضاعف والمطابق، (مادة: ظنَّ) ص٦٣٩، ابن جرير (٢/١٧ ـ ١٨).

يطلق الظن بمعنى اليقين، ومنه قوله هنا: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: آية ٤٦] أي: يوقنون، ومنه بهذا المعنى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ [الحاقة: آية ٢٠] أي: أيقنت أني ملاق حسابيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: آية ٥٣] أي: أيقنوا أنهم مواقعوها... إلى غير ذلك من الآيات. ومن أمثلة إطلاق العرب الظن على اليقين قول دُريد بن الصِّمَّة[1]:

فقلت لهم ظُنُّوا بألفَي مدجج سَرَاتُهم في الفارسي المُسَرَّدِ

فقوله: «ظُنُّوا» أي: أَيْقِنُوا.

وقول عميرة بن طارق[2]:

بأن تَغْتَزُوا قومي وأَقْعُدُ فِيكُم وأجعل منِّي الظنَّ غيباً مرجَّماً

أي: أجعل مني اليقين غيباً مرجماً، فمعنى ﴿يَظُنُّونَ﴾ أي: يوقنون.

﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: آية ٤٦] و ﴿مُّلَٰقُوا﴾ أصله (مُلاقيون) (مُفاعلون) منقوص، والمنقوص تُحذف ياؤه عند التصحيح[3]، وحُذفت نون (مُلاقون) للإضافة[4]، أي: ملاقو ربهم. والمراد بهذه الملاقاة: أنهم يُعرضون على ربهم يوم القيامة، فيجازيهم على أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقة: آية ١٨] وقال (جل وعلا): ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ الآية [العنكبوت: آية ٥].

وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: آية ٤٦] أي: يوقنون أنهم أيضاً

---

(١) انظر: ابن جرير (٢/١٨)، اللسان (مادة: ظنن) (٢/٦٥٤).

(٢) انظر: ابن جرير (٢/١٨).

(٣) قال في معجم مفردات الإبدال والإعلال: ص٢٣٨، (ملاقوا: اسم فاعل من الثلاثي المزيد «لاقى» جُمع جمعاً سالماً على وزن مُفاعُوا، أصله «ملاقيُو» استُثقِلت الضمة على الياء فحذفت، فالتقى ساكنان، فحُذفت الياء، وضُم ما قبل الواو للمجانسة، أو: نُقِلت ضمة الياء إلى القاف قبل حذف الياء) اهـ ص٢٣٨.

(٤) انظر: المحرر الوجيز (١/٢٠٧).

إليه راجعون (جل وعلا) يوم القيامة فمجازيهم على أعمالهم، وقدم المعمول الذي هو الجار والمجرور في قوله: ﴿إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ لأمرين، أحدهما: المحافظة على رؤوس الآي، والثاني: الحصر، وقد تقرر في فن الأصول في مبحث دليل الخطاب ـ أعني مفهوم المخالفة ـ[(١)]: أن تقديم المعمول من أدوات الحصر، وكذلك تقرر في فن المعاني في مبحث القصر[(٢)] أن تقديم المعمول من أدوات الحصر، وهذا معنى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: آية ٤٦].

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: آية ٤٧].

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ معناه: يا أولاد يعقوب، وإسرائيل معناه في العبرية: عبدالله، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام)، وإنما ناداهم بهذا النداء: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ونسبهم إلى هذا النبي الكريم ليبعثهم بذلك على امتثال الأمر واجتناب النهي، كما تقول العرب لمن يستحثونه للأمر: يا ابن الكرام افعل كذا.

وقوله: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ﴾ المراد بالذكر هنا: ذكرٌ يحمل على الشكر، ومن شكر تلك النعمة المأمور به: تصديق النبي ﷺ واتباعه فيما جاء به. و﴿نِعْمَتِىَ﴾: اسم جنس مضاف إلى معرفة، واسم الجنس إذا أضيف إلى معرفة فهو من صيغ العموم كما تقرر في الأصول[(٣)]، فمعنى نعمتي: أي: نعمي، كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: آية ١٨] أي: نعم الله لا تحصوها، وكقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: آية

---

(١) انظر: البرهان للزركشي (٢/٤١٤)، (٣/٢٣٦)، البحر المحيط للزركشي (٤/٥٦)، الكوكب الدري ص٤٢٧، الكليات ص١٠٣٢، ١٠٦٥، أضواء البيان (٣/٢٧٨).

(٢) انظر: التلخيص في علوم البلاغة (وشرحه للبرقوقي) ص١٤١ ـ ١٤٢، الإيضاح للقزويني ص١٢٦.

(٣) انظر: البحر المحيط للزركشي (٣/٩٧، ١٠٨، ١٤٦)، شرح الكوكب المنير (٣/١٢٩ ـ ١٣٦)، أضواء البيان (١/٩٢)، (٣/٢٥٣)، (٤/٣٣٢)، (٥/٢٩)، (٧٧٦)، (٧/٧٣٠).

٦٣] أي: أوامره، ومن هذه النعم التي ذكَّرهم بها حملًا على شكرها: إنجاؤهم من عدوهم فرعون، وإغراق عدوهم وهم ينظرون، ومنها: تظليل الغمام عليهم، وإنزال المنِّ والسلوى، وتفجير الماء من الحَجَر... إلى غير ذلك مما قصَّ الله في كتابه.

وجرت العادة في القرآن أن الله يمتن على الموجودين في زمن النبي ﷺ بالنعم التي أنعمها على أسلافهم الماضين، وكذلك يعيبهم بالمعائب التي صدرت من أسلافهم الماضين؛ لأنهم أمة واحدة؛ ولأن الأبناء يتشرفون بفضائل الآباء، فكأنهم شيء واحد[1]. ولذلك كان (جل وعلا) يمتن على هؤلاء بنعمه على الأسلاف، وكذلك يعيبهم بما صدر من الأسلاف؛ لأنهم جماعة واحدة.

وقوله: ﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: التي أنعمتها عليكم، كإنزال المنِّ والسلوى، وتظليل الغمام، والإنجاء من فرعون... إلى غير ذلك.

﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المصدر المنسبك من (أنَّ) وصلتها في محل نصب عطفاً على ﴿نِعْمَتِىَ﴾، أي: اذكروا نعمتي وتفضيلي إياكم على العالمين[2]. و «العالَمون»: جمع عالَم، وهو يطلق على ما سوى الله[3]. والدليل على أنه يشمل أهل السماء والأرض من المخلوقين: قوله (جل وعلا): ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٢٣، ٢٤] والعالَم: اسم جنس يُعرَب إعراب الجمع المذكر السالم. وقوله هنا: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على عالَم زمانكم الذي أنتم فيه. فلا ينافي أن هذه الأمة التي هي أمة محمد ﷺ

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢٣/٢)، (٣٨)، (٣٩)، (٤١)، (٦٣)، (١٦٤)، (١٦٥)، (٢٤٥)، (٢٩٩)، (٣٠٢)، (٣٥٣)، (٤٠٩)، (٣٢٠/١٢)، (٣٢١)، المزهر (٣٣٤/١)، تفسير السعدي (٤٢/١).

(٢) انظر: الدر المصون (٣٣٤/١).

(٣) انظر: ابن جرير (١٤٣/١ ـ ١٤٦، ١٥١، ١٥٢)، ابن كثير (٢٣/١)، أضواء البيان (٣٩/١).

أفضل منهم[(١)]، كما نص الله على ذلك في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: آية ١١٠] وفي حديث معاوية بن حيدة القشيريّ (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ: «**أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله**»[(٢)]. ومن الآيات المبينة لفضل أمة محمد ﷺ على أمة موسى أنه قال في أمة موسى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: آية ٦٦] فجعل أعلى مراتبهم الفئة المقتصدة، بخلاف أمة محمد ﷺ فقسمهم إلى ثلاث طوائف، وجعل فيهم طائفة أكمل من الطائفة المقتصدة، وذلك في قوله في فاطر: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: آية ٣٢] فجعل فيهم سابقاً بالخيرات، وهو أعلى من المقتصد، ووعد الجميع بظالمهم ومقتصدهم وسابقهم بجنات عدن في قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر: آية ٣٣] وقال بعض العلماء: حُقَّ لهذه الواو أن تُكتب بماء العينين[(٣)]. يعني: واو ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾؛ لأنه وَعْدٌ من الله صادق، شامل بظاهره الظالم والمقتصد والسابق.

وفي الآية سؤال معروف وهو أن يقال: ما الحكمة في تقديم الظالم لنفسه في الوعد بجنات عدن وتأخير السابق[(٤)]؟ وللعلماء عن هذا أجوبة معروفة، منها: أنه قدَّم الظالم لئلا يقنط، وأخَّر السابق بالخيرات لئلا يعجب

---

(١) انظر: ابن جرير (١/١٥١ ـ ١٥٢، (٢/٢٤)، المحرر الوجيز (١/٢٠٨)، القرطبي (١/٣٧٦)، دفع إيهام الاضطراب ص٢١.

(٢) أخرجه أحمد (٥/٣، ٥)، والدارمي في السنن، حديث رقم: (٢٧٦٣) (٢/٢٢١)، والترمذي، كتاب التفسير باب: ومن سورة آل عمران، حديث رقم: (٣٠٠١) (٥/٢٢٦)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب: صفة أمة محمد ﷺ، حديث رقم: (٤٢٨٧، ٤٢٨٨) (٢/١٤٣٣)، والحاكم (٤/٨٤)، وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني، انظر: المشكاة حديث رقم: (٦٢٨٥)، (٣/١٧٧١)، صحيح الترمذي رقم: (٢٣٩٩)، (٣/٣٢)، صحيح ابن ماجه رقم: (٣٤٦٠، ٣٤٦١)، (٢/٤٢٦).

(٣) انظر: أضواء البيان (٦/١٦٥).

(٤) انظر: القرطبي (١٤/٣٤٩)، الأضواء (٦/١٦٥).

بعمله فيحبط. وقال بعض العلماء: أكثر أهل الجنة الظالمون لأنفسهم، فبدأ بهم لأكثريّتهم.

ومما يدل على أفضلية أمة محمد ﷺ على بني إسرائيل: أن الابتلاء الذي يظهر به الفضل وعدمه إنما يكون بخوف أو طمع، وقد ابتلى أصحاب النبي ﷺ بخوف، وابتلاهم بطمع، وابتلى بني إسرائيل بخوف، وابتلاهم بطمع، أما الخوف الذي ابتلى الله (جل وعلا) به أصحاب محمد ﷺ: فهو أنهم لما غزوا غزاة بدر، وسَاحَلَ أبو سفيان بالعير، واستنفر لهم النفير، وجاءهم الخبر بأن العير سَلِمَتْ، وأن الجيش أقبل إليهم، وأخبرهم النبي ﷺ بذلك، قال له المقداد بن عمرو (رضي الله عنه): والله لو سِرتَ بنا إلى بَرْكِ الغِمَادِ[1] لجالدنا مَنْ دونه معك، ولو خضت بنا هذا البحر لخضناه، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: آية ٢٤]، بل إنَّا معك مقاتلون[2]. ولما أعاد الكلام قال له سعد بن معاذ (رضي الله عنه): كأنك تعنينا معاشر الأنصار - لأنهم اشترطوا عليه ليلة العقبة أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، بشرط أن يكون في داخل المدينة، ولم يشترط عليهم خارج المدينة - فأخبره النبي ﷺ أنه يعنيهم فقال كلامه المعروف المأثور، قال: «والله إنَّا لقوم صُبُرٌ في الحربِ، صُدُقٌ عند اللقاء، والله ما نكره أن تلقى بنا

---

(١) (بَرْك) بفتح الباء وإسكان الراء، وهو المشهور في روايات المحدثين. و (الغِماد) بغين معجمة مكسورة، ومضمومة لغتان مشهورتان، والكسر أفصح، وهو الأشهر عند المحدثين، والضم أشهر في كتب اللغة، وهو موضع من وراء مكة بخمس ليال، بناحية الساحل، وقيل غير ذلك، قال إبراهيم الحربي: «برك الغماد، وسعفات هجر كناية، يُقال فيما تباعد» انظر: النووي على مسلم (٤١١/٤)، معجم البلدان (٣٩٩/١)، فتح الباري (٢٣٢/٧).

(٢) أخرجه البخاري مع شيء من المغايرة في اللفظ، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾... حديث رقم: (٣٩٥٢)، (٢٨٧/٧)، وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٤٦٠٩)، وقد أخرج مسلم نحوه عن سعد بن عبادة رضي الله عنه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر، حديث رقم: (١٧٧٩)، (١٤٠٤/٣)، وانظر كلام الحافظ على رواية مسلم: الفتح (٢٨٨/٧).

عدوك حتى ترى منّا ما يقرُّ عينك، والله لقد تخلف عنك أقوام لو علموا أنك تلقى كيداً ما تخلف عنك منهم رجل»[١].

بخلاف بني إسرائيل لما امتُحنوا بخوف كهذا صدر منهم ما ذكره الله في سورة المائدة في قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: آية ٢٢] وقالوا له: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: آية ٢٤].

كذلك ابتلى بني إسرائيل بصيد، وهو صيد السمك المذكور في الأعراف، المشار له في البقرة[٢]: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف: آية ١٦٣] فحداهم القَرَمُ[٣] والطمع في أكل الحوت إلى أن اعتدوا في السبت، فمسخهم الله قردة. وقد امتحن الله (جل وعلا) أصحاب النبي ﷺ في عمرة الحديبية بالصيد وهم محرمون، فهيَّأ لهم جميع أنواع الصيد، من الوحوش، والطير، من كبارها وصغارها، ولم يَعْتَدِ رجل منهم، ولم يصد في الإحرام، كما بينه (جل وعلا) بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: آية ٩٤]، فما مدَّ رجل منهم يده إلى صيد.

فظهر بهذا أن كلتا الأُمتين امتُحنت بصيد، وأن هؤلاء اعتدوا على ذلك الصيد فمُسِخُوا قردة، وأن أولئك اتقوا الله.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٧٣ ـ ٢٧٤)، البيهقي في الدلائل (٣/٣٤)، السيرة لابن هشام (٢/٦٥٣)، وذكره ابن كثير في تاريخه (٣/٢٦٢) وعقبه بقوله: «هكذا رواه ابن إسحاق (رحمه الله) وله شواهد من وجوه كثيرة» ا.هـ ثم ذكر شواهده عند البخاري والنسائي وأحمد وابن مردويه والأموي في مغازيه. وراجع تعليق الألباني على فقه السيرة ص٢٣٩، ومرويات غزوة بدر لأحمد باوزير ص١٤٤ ـ ١٤٩.

(٢) أي: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: آية ٦٥].

(٣) وهو شدة شهوة اللحم. القاموس (مادة: القرم) (١٤٨١).

كذلك امتُحنوا بخوف من عدو فصبر هؤلاء وثبتوا، وخاف هؤلاء وجبنوا، فدل هذا على أنهم أفضل منهم، وهذا مما لا خلاف فيه، وهذا مما يبين أن قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ أن المراد: عالم زمانِهِمْ[(١)]. وقال بعض العلماء: هو نوع من التفضيل آخر لا يعارض أَشْرَفِيَّة هذه الأمة وأفضليتها عليهم، وهو كثرة الرسل فيهم؛ لأن الأنبياء أكثر فيهم منهم في غيرهم[(٢)]، وكثرة الأنبياء فيهم لا تجعلهم أفضل من هذه الأمة، بل هذه الأمة أفضل منهم وإن كانت الأنبياء فيها إنما جاءها نبي واحد ﷺ. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: الآيتان ٤٨ ـ ٤٩].

يقول الله (جل وعلا): ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة: آية ٤٨] معنى الاتقاء في اللغة العربية هو: أن تجعل بينك وبين ما يضرك وقاية[(٣)]. وأصل مادته: (وقى) دخلها تاء الافتعال، كما تقول في قرب: اقترب، وفي كسب: اكتسب، وفي وقى: اوتقى. والقاعدة المقررة في التصريف: أن تاء الافتعال إذا دخل على مادةٍ واوها فاء وجب إبدال الواو تاء وإدغامها في تاء الافتعال[(٤)]. فمعنى ﴿وَٱتَّقُواْ﴾: اجعلوا بينكم وبين ذلك اليوم وقاية تقيكم مما يقع فيه من الأهوال والأوجال. والاتقاء: هو جعل

---

(١) مضى قريباً.

(٢) انظر: القرطبي (٣٧٦/١)، أبو حيان (١٨٩/١).

(٣) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الواو باب الواو والقاف وما يثلثهما، ص١١٠٠، القرطبي (١٦١/١)، المفردات، (مادة: وقى) ص٨٨١.

(٤) انظر: القرطبي (١٦١/١)، الدر المصون (٩٠/١)، (١٩١)، (٣٣٥)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٤٩١ ـ ٤٩٢.

الوقاية دون ما يضر، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان[١]:

سقط النَّصِيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَهُ فتناولته واتقتنا باليد

يعني: استقبلتنا بيدها جاعلة إياها وقاية بيننا وبين رؤية وجهها.

والاتقاء في اصطلاح الشرع[٢]: هو جعل الوقاية دون سخط الله وعذابه، تلك الوقاية هي امتثال أمره، واجتناب نهيه (جل وعلا).

والمراد باتقاء اليوم: اتقاء ما يكون فيه من الأهوال والأوجال[٣]؛ لأن القرآن بلسان عربي مبين، والعرب تُعبّر بالأيام عما يقع فيها من الشدائد، ومنه: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: آية ٧٧] أي: لما فيه من الشدة، وهذا معنى قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: آية ٤٨] و(اليوم) مفعول به لـ «اتقوا»[٤]. وقيل: المفعول محذوف، واليوم ظرف. أي: اتقوا العذاب يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً. وقوله: ﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: آية ٤٨] الجملة نعت لليوم[٥]، وقد تقرر في العربية: أن الجُمل تُنعت بها النكرات؛ كما عقده في الخلاصة بقوله[٦]:

ونَعَتُوا بجملةٍ مُنكَّراً فأُعطِيت ما أُعطِيَته خبراً

ولطالب العلم أن يقول: أين الرابط الذي يربط بين الجملة التي هي وصف وبين المنعوت؟

الجواب[٧]: أنه اختُلف في تقديره على قولين: أحدهما أن العائد

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص١٠٧.
(٢) انظر: القرطبي (١/١٦١ ـ ١٦٢)، المفردات (مادة: وقى) ص٨٨١، الكليات ص٣٨.
(٣) انظر: ابن عاشور (١/٤٨٤).
(٤) انظر: القرطبي (١/٣٧٧)، البحر المحيط (١/١٨٩).
(٥) انظر: البحر المحيط (١/١٨٩)، الدر المصون (١/٣٣٥).
(٦) الخلاصة ص٤٥، وانظر شرحه في الأشموني (٢/٦٦ ـ ٦٧)، النحو الوافي (٣/٤٧٢).
(٧) انظر: البحر المحيط (١/١٨٩ ـ ١٩٠)، الدر المصون (١/٣٣٥ ـ ٣٣٦).

(واتقوا يوماً لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً) فالعائد هو: المجرور المحذوف هو وحرف الجر.

وقال بعض العلماء[١]: حُذف حرف الجر فوصلَ العامل إلى الضمير بعد حذف حرف الجر، ثم حُذف، وعليه فالتقدير: (واتقوا يوماً لا تجزيه نفس عن نفس شيئاً) بحذف الفاء، وعلى كل حال فحذف الضمير الرابط للجملة التي هي وصف للنكرة الموصوفة موجود في كلام العرب، ومن أمثلته في كلام العرب قول الشاعر[٢]:

وما أدري أغيَّرهم تَناءٍ   وطولُ العهدِ أم مالٌ أصابوا

فجملة (أصابوا) نعت للنكرة التي هي (مالٌ) والعائد محذوف، وتقرير المعنى: (أم مال أصابوه). وقوله: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تقضي عنها حقاً وجب عليها، ولا تدفع عنها عذاباً حقَّ عليها، أما تفسير من فسر ﴿تَجْزِى﴾ بـ (تغني) فهو إنما يتمشى على قراءة من قرأ ﴿تُجْزِي﴾[٣] بصيغة الرباعي؛ لأنها هي التي تأتي بمعنى الإغناء، وتقرير المعنى: (واتقوا يوماً لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً) أي: لا تقضي نفس عن نفس حقاً وجب عليها، ولا تدفع عنها عذاباً حق عليها، والرابط المحذوف محذوف من الجمل المعطوفة على الجملة النعتية[٤]، وتقرير المعنى: (لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً ولا يُقبل فيه شفاعة، ولا يُؤخذ فيه عدل، ولا هم يُنصرون فيه) فالرابط محذوف من الجمل المعطوفة على الجملة التي هي وصف، وتقرير المعنى: (واتقوا يوماً لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً)، أي: لا تقضي نفس عن نفس شيئاً أي: حقاً وجب عليها، ولا تدفع عنها عذاباً حق عليها، وعلى هذا التقرير فـ ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به لـ ﴿تَجْزِى﴾[٥]، وقال

---

(١) انظر: تهذيب اللغة للأزهري (١١/١٤٣).

(٢) البيت للحارث بن كَلَدَة. انظر: الكتاب لسيبويه (١/٨٨، ١٣٠).

(٣) انظر: المحرر الوجيز (١/٢٠٨)، القرطبي (١/٣٧٨)، البحر المحيط (١/١٨٩).

(٤) انظر: البحر المحيط (١/١٩٠).

(٥) انظر: البحر المحيط (١/١٩٠).

بعض العلماء: ﴿شَيْئًا﴾ في محل المصدر، أي: لا تجزي عنها شيئاً، أي: جزاءً قليلًا ولا كثيراً[١].

وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ فيه قراءتان سبعيتان[٢]: قرأه أكثر السبعة ﴿وَلَا يُقبَلُ مِنهَا شَفَٰعَةٌ﴾[٣] والتذكير في قوله: ﴿يُقْبَلُ﴾ لأمرين[٤]: أحدهما: أن تأنيث الشفاعة تأنيث غير حقيقي. الثاني: الفصل الذي بين الفعل وفاعله، والفصل يبيح ترك التاء، كما عقده في الخلاصة بقوله[٥]:

وقد يُبيح الفصلُ تركَ التاءِ في نحو أتى القاضِيَ بنتُ الواقِفِ

والشفاعة في الاصطلاح[٦]: هي التوسط للغير في جلب مصلحة أو دفع مضرَّة، وأصلها من الشفع الذي هو ضد الوتر؛ لأن صاحب الحاجة كان فرداً في حاجته فلما جاءه الشفيع صار شفعاً، أي: اثنين، صاحب الحاجة ومن يتوسط له فيها، هذا [أصل][٧] معنى الشفاعة، والشفاعة في الدنيا إذا كانت في حق واجب فللشافع أجر، وإذا كانت في حرام فعليه وزر[٨]، كما صرح تعالى بذلك في قوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾[٩] [النساء: آية ٨٥]

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: المبسوط في القراءات العشر ص١٢٩.

(٣) وقرأه ابن كثير وأبو عمرو: ﴿ولا تُقبل﴾ بالتاء. انظر: المبسوط ص١٢٩، ومن قرأ بالتاء فلتأنيث (الشفاعة). انظر: حجة القراءات ص٩٥.

(٤) انظر: حجة القراءات ص٩٥.

(٥) الخلاصة ص٢٥، وانظر: شرح الأشموني (١/٣٠٩).

(٦) انظر: تفسير ابن جرير (٢/٣١ ـ ٣٢)، القرطبي (١/٣٧٨).

(٧) في الأصل: (أصله).

(٨) انظر: الفتح (١٠/٤٥١ ـ ٤٥٢).

(٩) سئل الشيخ رحمه الله عن قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [النساء: آية ٨٥] ما الفرق بين النصيب والكفل في هذه الآية الكريمة؟

فأجاب: قال بعض العلماء: النصيب: نصيب من الخير، والكفل: نصيب من الشر، مستدلّاً بظاهر هذه الآية، والحق أن الكفل نصيب قد يكون من الخير كما في قوله: =

وقال ﷺ: «**اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء**»(١). وقد دلَّ الكتاب والسنة أن نفي الشفاعة المذكور هنا ليس على عمومه(٢)، وأن للشفاعة تفصيلًا، منها ما هو ثابت شرعاً، ومنها ما هو منفيٌّ شرعاً(٣). أما المنفي شرعاً الذي أجمع عليه المسلمون فهو الشفاعة للكفار؛ لأن الكفار لا تنفعهم شفاعة ألبتة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدثر: آية ٤٨] وقال عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠﴾ [الشعراء: آية ١٠٠] وقال (جل وعلا): ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: آية ٢٨] مع أنه قال في الكافر: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: آية ٧] فالشفاعة للكفار ممنوعة شرعاً بإجماع المسلمين، ولم يقع في هذا استثناء ألبتة، إلا شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب(٤)، فإنها نفعته بأن نُقل بسببها من محل من النار إلى محل أسهل منه، كما صح عنه ﷺ أنه قال: «**لعله تنفعه شفاعتي فيُجعل في ضحضاح**(٥) **من النار يبلغ كعبيه، له نعلان يغلي منهما دماغه**»(٦). أما

= ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨] وقد يكون نصيباً من الشر، كما في قوله: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: آية ٨٥] والظاهر أن التعبير بالنصيب وبالكفل من التفنن في العبارة؛ لأنه أطرف من تكرير النصيب، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي موسى رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب: التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، حديث رقم: (١٤٣٢)، (٢٩٩/٣)، وقد أخرجه البخاري في مواضع أخرى انظر: الأحاديث رقم: (٦٠٢٧، ٦٠٢٨، ٧٤٧٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب: استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام، حديث رقم: (٢٦٢٧)، (٢٠٢٦/٤).

(٢) انظر: ابن جرير (٣٣/٢)، القرطبي (٣٧٩/١)، أضواء البيان (٧٥/١).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٤٤/١ ـ ١٥٤، ٣٣٢).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١٤٤/١)، أضواء البيان (٧٦/١).

(٥) هو في اللغة: ما رقّ من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين. انظر: مجمع بحار الأنوار للفتني (مادة: ضحضح) (٣٨٦/٣).

(٦) أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، كتاب مناقب الأنصار، باب: قصة أبي طالب، حديث رقم: (٣٨٨٥)، (١٩٣/٧)، وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٦٥٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان باب: شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، حديث رقم: (٢١٠)، (١٩٥/١).

غير هذا من الشفاعة للكفار فهو ممنوع إجماعاً، وإنما نفعت شفاعة النبي ﷺ عمَّه أبا طالب في نقلٍ من محل من النار إلى محل آخر.

الشفاعة المنفية الأخرى هي الشفاعة بدون إذن رب السماوات والأرض[١]، فهذه ممنوعة بتاتاً بإجماع المسلمين، وبدلالة القرآن العظيم، كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥]. وادعاء هذه الشفاعة شرك بالله وكفر به، كما قال (جل وعلا): ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: آية ١٨]. ووجه كون هذه الشفاعة من أنواع الشرك ـ ولله المثل الأعلى ـ: أن ملوك الدنيا قد يتمكنون من مجرم يتقطعون عليه غيظاً، ويريدون أن يُقَطِّعوه عضواً عضواً، فيأتي بعض أهل الجاه والشرف ويشفع عندهم له، فيضطرون إلى قبول شفاعته؛ لأنهم لو ردوا شفاعته لصار عدواً لهم، وترقبوا منه بعض الغوائل، فيضطرون إلى أن يُشفِّعوه وهم كارهون، خوفاً من سوئه، ورب السماوات والأرض لا يخاف أحداً، ولا يمكن أن يضره أحد، فلا يمكن أن يتجاسر أحد عليه بمثل هذا، وله المثل الأعلى؛ ولذا قال (جل وعلا): ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥].

أما الشفاعة للمؤمنين بإذن رب السماوات والأرض فهي جائزة شرعاً وواقعة، كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة[٢]، كما في قوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: آية ٢٨]، وقوله (جل وعلا): ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: آية ٢٣]، ونحو ذلك من الآيات والأحاديث. والشفاعة الكبرى للنبي ﷺ كما يأتي إيضاحه في سورة بني إسرائيل في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: آية ٧٩] وقد يُشفِّع الله من شاء من خلقه، من الأنبياء، والمرسلين، والصالحين[٣].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/١٣٠)، (١٥٠)، (٣٣٢)، (١٤/٣٨٠ ـ ٤١٥)، شرح الطحاوية ص٣٠٠ ـ ٣٠٢.

(٢) انظر: أضواء البيان (١/٧٥).

(٣) انظر: أنواع الشفاعة المثبتة في شرح الطحاوية ص٢٨٢ ـ ٢٩٣، معارج القبول (٢/٢٥١ ـ ٢٦٥).

وقد تكون الشفاعة بإخراج من دخل النار، وقد تكون الشفاعة بأن يشفع لمن عليه ذنوب فيُنْقذ من النار، وقد تكون برفع الدرجات، والشفاعة الكبرى في فصل القضاء بين الخلق، فمعنى قوله إذاً: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ هذا إذا كانت كافرة على الإطلاق، ولو كانت مؤمنة لا تُقبل شفاعة إلا بإذن رب السماوات والأرض.

/وقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ العَدْلُ: الفداء، وإنما سُمي الفداء عدلًا؛ لأن فداء الشيء كأنه قيمة مُعادِلَة له ومُماثِلَة له تكون عوضاً وبدلًا منه. قال بعض علماء العربية[١]: ما يُعادل الشيء ويماثله إن كان من جنسه قيل له (عِدل) بكسر العين، ومنه (عِدلا البعير) أي: عِكْمَاه[٢]؛ لأنهما متماثلان. أما إذا كان يماثله ويساويه وليس من جنسه قيل فيه (عَدل) بفتح العين؛ ولذا سُمي الفداء عدلًا؛ لأنه شيء مماثلٌ للمفدي ليس من جنسه. ومن هذا المعنى قوله (جل وعلا): ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ [المائدة: آية ٩٥]؛ لأن ما يعادل الإطعام من الصيام ليس من جنسه، فإذا كان من جنسه قيل فيه (عِدْل)، وهو معروف في كلام العرب، وقد كرره مهلهل بن ربيعة في قصيدته المشهورة في قوله[٣]: (١/ب)

---

(١) انظر: ابن جرير (٢/٣٥)، القرطبي (١/٣٨٠).

(٢) العِكْمَان: عِدْلان يُشدَّان على جانبي الهودج بثوب، انظر: اللسان (مادة: عكم) (٨٥٥/٢).

(٣) الأمالي (١٣٢/٢)، وقد سقط منها ـ هنا ـ أحد الأبيات، كما وقع بين أبياتها شيء من التقديم والتأخير، وهي في الأمالي هكذا:

على أنْ ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... إذا طُرِدَ اليتيم عن الجَزُور
على أنْ ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... إذا رجف العِضَاه من الدَّبُور
على أنْ ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... إذا ما ضِيمَ جيران المُجير
على أنْ ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... إذا خيف المخوف من الثغور
على أنْ ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... غداة بلابِلِ الأمرِ الكبير
على أنْ ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... إذا برزت مُخَبَّأة الخدور
على أنْ ليس عِدْلاً من كُليبٍ ... إذا عَلَنَتْ نَجِيَّاتُ الأمور

على أَنْ ليس عِدْلاً من كُليبٍ إذا طُرِدَ اليتيمُ عن الجَزُورِ
على أن ليس عِدْلاً من كُليبٍ إذا ما ضِيمَ جيران المُجير
على أن ليس عِدْلاً من كُليبٍ غداة بلابِلِ الأمرِ الكبير
على أن ليس عِدْلاً من كُليبٍ إذا برزت مُخبَّأة الخُدور
على أن ليس عِدْلاً من كُليبٍ إذا اضطرب العِضَاه[١] من الدَّبُور[٢]

يعني أن القتلى التي قتلها بكليب من بني بكر بن وائل لا تُماثِله في الشرف ولا تساويه، وإنما كسر العين لأنهم من جنس واحد. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أصل النصر في لغة العرب إعانة المظلوم. ومعنى هنا ﴿وَلَا يُنصَرُونَ﴾ أي: ليس لهم معين يدفع عنهم عذاب الله.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربي معروف، وهو أن يقول طالب العلم: أفرد الضمير في قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ أفرده مؤنثاً، وجمعه مذكراً في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ مع أن مرجع هذه الضمائر واحد؟[٣].

الجواب ظاهر؛ لأن قوله: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تعمُّ[٤]، وعُمُومها يجعلها شاملة لكثير من أَفراد النفوس، فأنث الضمير وأفرده في قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ نظراً إلى لفظ النفس، وجمع الضمير المذكر في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ نظراً إلى معنى النكرة في سياق النفي، وأنها شاملة لكثير من الأنفس، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

---

(١) العِضاه من الشجر: كل شجر له شوك، وقيل: ما عظُم من شجر الشوك وطال واشتد شوكه، وقيل غير ذلك، انظر: اللسان (مادة: عضه) (٨٠٨/٢).

(٢) هي ريح تهب من جهة الغرب تقابل الصَّبا. ويقال: تُقبل من جهة الجنوب ذاهبة نحو المشرق. انظر: المصباح المنير (مادة: دبر) ص٧٢.

(٣) انظر: البحر المحيط (١٩١/١).

(٤) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه (١١٠/٣، ١١٨)، شرح الكوكب المنير (١٣٦/٣)، أضواء البيان (٣٦٢/٥)، (١٣٠/٦).

وقوله (جل وعلا): ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: آية ٤٩] أي: واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون، يعني: من فرعون وقومه القبط؛ لأنهم كانوا يهينون بني إسرائيل.

قال بعض العلماء[١]: أصل (الآل): أهل، بدليل تصغيره على (أُهيل)، وبعضهم صغَّره على (أويل)، ولا يطلق (الآل) على الأهل إلا إذا كان مضافاً لمن له شرف وقدر، فلا تقول: آل الحجام، ولا آل الإسكاف[٢][٣].

و(فرعون) ملك مصر المعروف، وهو يُطلق على من مَلَك مصر. وقال بعضهم: كل من مَلك العمالقة يُطلق عليه (فرعون)[٤].

واختُلف في لفظ (فرعون) هل هو عربي أو أعجمي؟[٥] قيل: هو اسم أعجمي، مُنع من الصرف للعلمية والعجمة. وقال بعض العلماء: هو عربي، من تفرعن الرجل إذا كان ذا مكر ودهاء. والأول أظهر. وعلى أنه عربي فوزنه (فِعْلَول) بلامين لا (فعلون) بالنون.

وقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ تقول العرب: سامه خسفاً، إذا أولاه ظلماً، وأذاقه عذاباً، ومن هذا المعنى قول عمرو بن كلثوم في معلقته[٦]:

إذا ما المَلْكُ سام الناسَ خسفاً أَبَيْنَا أَنْ نُقرَّ الذلَّ فينا

وقوله: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: يذيقونكم ويولونكم سوء العذاب، أي: أصعب العذاب وأشده وأفظعه؛ لأنهم كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب شاقة ذكر الله بعضاً منها هنا حيث قال: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾

---

(١) انظر: ابن جرير (٣٧/٢)، القرطبي (٣٨٣/١)، الدر المصون (٣٤١/١).

(٢) هو الخرّاز، وقيل: كل صانع، انظر: المصباح المنير: (مادة: الإسكاف) ص١٠٧.

(٣) انظر: المفردات (مادة: آل) ص٩٨، الدر المصون (٣٤٣/١).

(٤) انظر: ابن جرير (٣٨/٢)، القرطبي (٣٨٣/١)، الدر المصون (٣٤٣/١).

(٥) انظر: الدر المصون (٣٤٤/١)، اللسان (مادة: فرعن) (١٠٨٣/٢).

(٦) شرح القصائد المشهورات (١٢٤/٢).

فالفعل المضارع الذي هو ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بدل من الفعل المضارع الذي قبله[(١)] الذي هو ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، على حد قوله في الخلاصة[(٢)]:

ويُبْدلُ الفعلُ من الفِعْل كَمَنْ   يَصِلْ إلَيْنَا يَسْتَعِنْ بِنَا يُعَن

وإنما عبر بالتشديد في قراءة الجمهور في قوله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ دلالة على الكثرة؛ لأنهم ذبحوا كثيراً من أبنائهم[(٣)]. ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي: الذكور ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: بناتكم الإناث، يبقوهنَّ حيات، ولم يذبحوهن. والنساء على التحقيق اسم جمع[(٤)] لا واحد له من لفظه، واحدته امرأة.

وفي هذه الآية سؤال معروف؛ لأن الله لما ذكر أنهم ساموهم سوء العذاب فسَّر قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ بالبدل بعده، وبيَّن أن من ذلك العذاب العظيم السيِّء: تذبيح الأبناء، واستحياء البنات. وفي هذا سؤال، وهو أن يقول: تذبيح الأبناء ظاهر أنه من ذلك العذاب الذي يسومونهم، أما استحياء البنات، وهو قوله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ فأين وجه كون هذا من سوء العذاب، مع أن بقاء البعض قد يظهر للناظر أنه أحسن من تذبيح الكل؟ كما قال الهُذلي[(٥)]:

حمدتُ إلٰهي بعد عروة إذ نجى   خِراش وبعض الشر أهون من بعض

الجواب عن هذا: أن استحياءهم للنساء استحياء هو من جملة العذاب؛ لأنهم يستحيونهم ليُعَمِّلُوهم في الأعمال الشاقة، وليفعلوا بهم ما لا يليق من العار والشنار[(٦)]، وبقاء البنت ـ وهي عورة ـ تحت يد عدو لا يشفق عليها، يفعل بها ما لا يليق، ويكلفها ما لا تطيق، هذا من سوء العذاب بلا شك،

---

(١) انظر: الدر المصون (١/٣٤٥ ـ ٣٤٦).
(٢) الخلاصة ص٤٩، وانظر شرحه في الأشموني (٢/١٣٣).
(٣) انظر: القرطبي (١/٣٨٥، ٣٨٦).
(٤) اسم الجمع: ما دل على آحاده دلالة الكل على أجزائه، والغالب أنه لا واحد له من لفظه، نحو: (قوم، رهط، طائفة، جماعة) انظر: حاشية الصبان(١/٢٩).
(٥) البيت لأبي خراش الهذلي، انظر: الخزانة (٢/٤٥٨).
(٦) انظر: ابن عطية (١/٢١٢)، البحر المحيط (١/١٩٤)، دفع إيهام الاضطراب ص٢١.

وقد قال جل وعلا: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء: آية ٩] والعرب كانوا ربما قتلوا بناتهم شفقةً وخوفاً عليهم مما يلاقونه مما لا يليق بعد موت الآباء، وهو كثير في شعرهم وقد قال رجل منهم في ابنة له تسمى مودَّة[١]:

مـودةُ تـهـوى عُـمْـرَ شـيـخٍ يـسـرُّه لها الموت قبل الليل لو أنها تَدْري
يـخـافُ عـلـيـهـا جـفـوةَ الـنـاسِ بعدَهُ ولا خَـتَـنٌ يُـرجـى أودّ مـن الـقَـبـرِ

ولما خُطبت عند عقيل بن عُلَّفَة المري ابنته الجرباء أنشد[٢]:

إنـي وإن سـيـق إلـي الـمـهـر عـبـد وألـفـان وذودٌ[٣] عـشـر
أحـب أصـهـاري إلـي الـقـبـر

وقد قال الشاعر[٤]:

تـهـوى حـيـاتـي وأهـوى مـوتـهـا شَـفَـقَـاً والـمـوتُ أكـرمُ نَـزَّالٍ عـلـى الـحُـرَمِ

وهذا هو وجه كون استحياء النساء من ذلك العذاب الذي يسومونهم.

وقال جل وعلا: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ في الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ وجهان لا يكذب أحدهما الآخر مبنيان على المراد بالبلاء[٥]؛ لأن البلاء في لغة العرب الاختبار[٦]، والاختبار قد يقع بالخير

---

(١) انظر: أضواء البيان (٣/٢٨٦)، دفع إيهام الاضطراب ص٢٢.

(٢) انظر: القرطبي (١٠/١١٨)، مختصر تاريخ دمشق (١٧/١٢٧)، زهر الآداب (١/٤٨٤)، دفع إيهام الاضطراب ص٢٥. أضواء البيان (٣/٢٨٦) والمثبت في هذه المصادر: «ألف وعبدان».

(٣) في القرطبي (وخورٌ) وهي: جمع خوَّارة، وهي الناقة الغزيرة اللبن. انظر: القرطبي (١٠/١١٨). وأما الذَّود من الإبل: فهو من الثلاثة إلى العشرة. المصباح المنير (مادة: ذود) ص٨٠.

(٤) البيت لأبي إسحاق بن خلف. انظر: القرطبي (١٩/٢٧٥)، الدر المصون (١٠/٧٣٦)، ابن عاشور (١٥/٨٧)، زهر الآداب (١/٤٨٥)، دفع إيهام الاضطراب ص٢٥.

(٥) انظر: ابن عطية (١/٢١٢)، الدر المصون (١/٣٤٨).

(٦) انظر: ابن جرير (٢/٤٩)، المفردات (مادة: بلى) ص١٤٥.

وقد يقع بالشر، كما قال جل وعلا: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: آية ٣٥] وقال (جل وعلا): ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٨] والله ذكر في الآية الماضية أنه ابتلى بني إسرائيل بخير وشر؛ أما الشر الذي ابتلاهم به فهو ما كان يسومهم فرعون من سوء العذاب، وأما الخير الذي ابتلاهم به فهو إنجاؤه إياهم من ذلك العذاب.

قال بعض العلماء: ﴿فِي ذَٰلِكُم﴾ أي: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ العذاب الذي كان يسومكم فرعون، ﴿بَلَآءٌ﴾ بالشر ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، وقال بعض العلماء: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ الإنجاء الذي أنجاكم الله به من عذاب فرعون ﴿بَلَآءٌ﴾ بالخير ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، وكلما كان الشر أكبر كان الإنقاذ منه مماثلًا له في الكبر، ولا شك أن العرب تطلق البلاء على الاختبار بالشر والاختبار بالخير، خلافاً لمن منعه في الاختبار بالخير، وهو معروف في كلام العرب، ومن أمثلته في الخير قول زهير[1]:

جَزَى الله بالإحسانِ ما فَعَلا بكم وأَبلاهُما خيرَ البلاءِ الذي يَبْلُو

وهذا معنى قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة: الآيات ٥٠ ـ ٥٣].

يقول الله (جل وعلا): ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: آية ٥٠] أي: واذكروا إذ فرقنا بكم البحر. ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: فلقناه، بدليل قوله: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: آية ٦٣] وأصل الفرق: الفصل بين أجزاء الشيء[2]. فمعنى ﴿فَرَقْنَا

---

(١) شرح ديوان زهير ص٩١، وأوله: (رأى الله)، وهي إحدى روايات البيت. والبيت في ابن جرير (٤٩/٢)، معاني القرآن للزجاج (١٣٢/١)، الدر المصون (٣٤٨/١).

(٢) انظر: المفردات (مادة: فرق) ص٦٣٢، القرطبي (٣٨٧/١).

﴿بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: فصلنا بين بعضه وبعض حتى كانت بينه مسالك تسلكون فيها. ومن هذا المعنى قوله: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: آية ٢٥] أي: افصل بيننا وبينهم، ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾﴾ [المرسلات: آية ٤] أي: على القول بأنها الملائكة تنزل بالوحي الذي يفصل بين الحق والباطل. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: فصلنا بعض أجزائه عن بعض حتى كانت بينه مسالك تسلكون فيها من طرق يابسة كما قال جلَّ وعلا: ﴿طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: آية ٧٧]. و (الباء) في قوله: ﴿بِكُمُ﴾ فيها لعلماء التفسير أوجه[١]، أظهرها أنها سببية. والمعنى: فصلنا بعض أجزاء البحر عن بعض، بسبب دخولكم فيه؛ ليمكنكم المرور سالكين بين أجزائه، كما قال تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: آية ٦٣]. وقال بعض العلماء: (الباء) بمعنى اللام، فمعنى ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ﴾ أي: فرقنا لكم. وهو عائد إلى معنى الأول؛ لأن اللام للتعليل، والباء للسبب، فالمعنى متقارب. وقال بعض العلماء: الجار والمجرور في محل حال، أي: فرقنا البحر في حال كونه متلبساً بكم. وقال بعض العلماء: ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: جعلناكم كأنكم حاجز بين بعضه وبعض، كما تقول: فصلت بين أجزاء الشيء بكذا.

و(البحر) معروف، قال بعض العلماء: اشتقاقه من الشقِّ[٢]؛ لأنه شقٌّ في الأرض كبير، ومنه البَحِيرَة؛ لأنها مشقوقة الأذن. وقال بعض العلماء: هو من البحر بمعنى الاتساع لاتساعه.

وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ أي: أنجيناكم من فرعون وما كان يسومكم من العذاب. وأصل الإنجاء والتنجية أصل اشتقاقه من النجوة، وهي المرتفع من الأرض[٣]. فكأن الإنسان إذا سلم من هلاك، ونجا من أمر خطر ارتفع عن هوة الهلاك إلى نجوة السلامة. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ الهمزة في ﴿وَأَغْرَقْنَآ﴾ للتعدية،

---

(١) انظر: الدر المصون (٣٤٩/١).

(٢) انظر: البحر المحيط (١٩٥/١)، الدر المصون (٣٥٠/١).

(٣) انظر: المفردات (مادة: نجو) ص٧٩٢.

وأصل الفعل الثلاثي قبل أن تدخل عليه همزة التعدية: (غَرِقَ يَغْرَقُ غَرَقاً)، ومنه قول ذي الرُّمَّة(١):

وإنسان عيني يَحْسِرُ الماءُ تارةً فيبدو وتاراتٍ يَجِمُّ فَيَغْرَقُ

والعرب تعدِّيه بالهمزة والتضعيف فتقول: أغرقه الله، وغرَّقه، إذا جعله يغرق. ومن هذا المعنى قول الشاعر(٢):

.... ألا ليتَ قيساً غرَّقَتْهُ القوابِلُ

فالهمزة في (أغرقنا) همزة التعدية، والمعروف أن همزة التعدية إذا دخلت على فعل لازم أكسبته مفعولًا، وإذا دخلت على فعل متعد لمفعول أكسبته مفعولين، وإذا دخلت على فعل متعد لمفعولين أكسبته ثالثاً، كما قال في الخلاصة(٣):

إلى ثلاثةٍ رَأى وعَلِمَا عَدَّوا إذا صارا أرى وأَعْلَمَا

و ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾(٤) قدمنا معناه. وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ جملة حالية(٥)، والظاهر أنه نظر بالأبصار(٦)؛ لأن الله أراهم ما أحل بفرعون وقومه من الغرق في البحر، وهو البحر الأحمر، ليكون ذلك أقرَّ لأعينهم؛ لأن هلاك العدو وعدوه ينظر إليه أقرّ لعينه. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

---

(١) انظر: المحتسب (١/١٥٠)، ضياء السالك (٣/١٨٧)، المعجم المفصَّل (٢/٥٩٠).

(٢) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٥٦، وصدره:
أَطَوْرَيْنِ في عامٍ غزاةٌ ورِحْلَةٌ

(٣) الخلاصة ص٢٤، وانظر: شرحه في الأشموني (١/٢٩٥).

(٤) سئل الشيخ رحمه الله عن التعبير هنا بقوله: ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ مع قوله في حق موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [البقرة: آية ٥٤]؟.
فأجاب رحمه الله بقوله: عبر بـ ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ يريد فرعون وقومه، كما قال جل وعلا: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: آية ٧٣] يدخل فيهم إبراهيم، وكما قال النبي ﷺ لأبي موسى: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود» يعني: داود.

(٥) انظر: الدر المصون (١/٣٥١).

(٦) انظر: القرطبي (١/٣٩٢).

وقوله: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: آية ٥١] (إذ) منصوب بـ(اذكر) مقدراً على أحد الأقوال[١]، وهو معطوف على المذكورات قبله[٢]، وقرأ هذا الحرف جمهور القراء ما عدا البصري أبا عمرو: ﴿وَٰعَدْنَا﴾ بصيغة المُفَاعَلَة، وقرأه أبو عمرو وحده من السبعة: ﴿وإِذْ وَعَدْنَا﴾[٣] ثلاثياً مجرداً من الوعد.

أما على قراءة أبي عمرو فلا إشكال: صيغةُ الجمع للتعظيم. والله وعد نبيه موسى أن يُنزل عليه كتاباً فيه الحلال والحرام، وكل ما يحتاجون إليه، بعد أربعين ليلة.

أما على قراءة الجمهور ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا﴾ بصيغة المُفَاعَلَة، فالمقرر في فن التصريف: أن المُفَاعَلَة تقتضي الطرفين. أعني اشتراك الفعل بين فاعلين؛ ولذا استشكل بعض العلماء التعبير بالمواعدة هنا، قال: إن الله يَعدُ وحده، ولا يَعِدُه غيره، والجواب عن هذا[٤]: أن المُفَاعَلَة باعتبار أن الله وعد موسى بوحي يبين له فيه الأمور، وموسى وعد ربه بالإتيان للميقات المُعيَّن لتلقِّي ذلك الوحي، ومن هنا صارت المُفَاعَلَة معقولة.

وقوله: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ قال بعض العلماء: هو على حذف مضاف، أي: تمام أربعين ليلة[٥]. وقد بيَّن تعالى في سورة الأعراف أن الوعد بهذه الأربعين كان مفرقاً بأن وَعَد ثلاثين أولًا ثم أتمها بعشر[٦]، وذلك في قوله: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: آية ١٤٢] قال بعض العلماء: هذه الأربعون ليلة هي شهر ذي

---

(١) انظر: البحر المحيط (١٣٩/١)، الدر المصون (٦٩٥/٤).
(٢) المصدر السابق (١٩٧/١).
(٣) المبسوط لابن مهران ص١٢٩، الإقناع (٥٩٧/٢).
(٤) انظر: تفسير ابن جرير (٥٨/٢ ـ ٦٠)، حجة القراءات ص٩٦، الكشف لمكي (٢٣٩/١)، الموضح لابن أبي مريم (٢٧٤/١).
(٥) انظر: القرطبي (٣٩٥/١).
(٦) انظر: أضواء البيان (١٥/١، ٧٧).

القعدة وعشر من ذي الحجة[١]، واليوم الذي أغرق الله فيه فرعون وأنجى فيه بني إسرائيل هو يوم عاشوراء، وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، أن النبي ﷺ لما قدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم فأخبروه بأنه اليوم الذي أنجى الله فيه موسى وقومه، وأهلك فيه فرعون وقومه، فقال النبي ﷺ: «**نحن أولى بموسى منهم**». فكان يصومه حتى نزل صيام رمضان[٢][٣]. وثبت في الصحيح عن عائشة (رضي الله عنها) أن قريشاً كانوا يصومون[٤] يوم عاشوراء في

---

(١) انظر: القرطبي (١/٣٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصيام، باب صيام عاشوراء، حديث رقم: (٢٠٠٤)، (٤/٢٤٤)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر: الأحاديث رقم: (٣٣٩٧)، (٣٩٤٣)، (٤٦٨٠)، (٤٧٣٧)، ومسلم في الصحيح، كتاب الصيام، باب: صوم يوم عاشوراء، حديث رقم: (١١٣٠)، (٢/٧٩٥).

(٣) سئل الشيخ رحمه الله: على التعليل لصيامه في الإسلام بأن الرسول ﷺ رأى اليهود يصومونه وسألهم... إلخ. بم يجاب على حديث: «**خالفوا اليهود والنصارى**» مع وقوع هذا الصيام موافقاً لفعل اليهود في ذلك اليوم؟

فأجاب رحمه الله بقوله: الظاهر - والله تعالى أعلم - أن النبي ﷺ لم يصمه إلا لأولويته بموسى، لا لمجرد اتفاق اليهود، وقد علل ذلك بقوله في الحديث: «**نحن أولى بموسى منهم**» والظاهر أنه لم يُصدِّق بني إسرائيل في أن هذا اليوم هو الذي نجَّى الله فيه موسى وقومه، وأنه قد عرف ذلك من طريق غير إخبارهم، لما تقرر عند العلماء: أن شرع من قبلنا لا يكون شرعاً لنا، ولا يتعبد به نبينا ﷺ إلا بعد ثبوته في شرعنا، فإن ثبت في شرعنا فأصح الأقوال أنه شرع لنا، وأن نبينا ﷺ متعبد به، ومما يدل على ذلك: ما ثبت في صحيح البخاري في تفسير سورة (ص) أن مجاهداً سأل ابن عباس رضي الله عنهما: من أين أخذت السجدة في (ص)؟ فأجابه ابن عباس: أَوَمَا تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ. فعلى قياس هذا لا يبعد أن يوحي الله إليه أن هذا اليوم أنجى الله (جل وعلا) فيه موسى ويصوموه.

(٤) سئل الشيخ رحمه الله عن علة صيام عاشوراء في الجاهلية.

فأجاب الشيخ رحمه الله بقوله: « الله تعالى أعلم، ويمكن أن يكون قريش في الجاهلية تسرَّب إليهم صومه من بني إسرائيل؛ لأنه اليوم الذي أنجى الله فيه موسى وأغرق فيه فرعون، والله تعالى أعلم». اهـ جواب الشيخ. وللاستزادة راجع: القرطبي (١/٣٩١)، الفتح (٤/٢٤٦).

الجاهلية، وأن النبي ﷺ كان يصومه[١]. ولا تعارض بين الأحاديث؛ لأنه لا مانع من أن يكون النبي ﷺ كان يصومه لأن قريشاً في الجاهلية كانوا يصومونه. ولما جاء تمادى على صومه، ووجد اليهود يصومونه، ولا مانع من كون الفعل الواحد أو النص الواحد له سببان فأكثر[٢]. وعلى كل حال فصوم يوم عاشوراء وجوبه منسوخ بإجماع العلماء[٣].

وقوله جل وعلا: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ عبر بالليالي لأنها قبل الأيام[٤] والمقرر في فن العربية أن التاريخ بالليالي لأنها قبل الأيام[٥]. فلما انتهى هذا الميعاد أنزل الله (جل وعلا) عليه التوراة، وكتبها له في الألواح، كما يأتي تفصيله في سورة الأعراف.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ قرأه بعض السبعة: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذتُّمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ وقرأه بعضهم: **﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾** بالإدغام[٦].

وأصل (الاتخاذ) على التحقيق عند علماء العربية: افتعال من الأخذ، أصله (أتخاذ)[٧]، وإبدال الهمزة تاء يُحفظ ولا يقاس عليه، وإنما المقيس إبدال فاء المثال، أعني واوي الفاء، أو يائي الفاء، كالاتجاه، والاتسار، إبدال الواو فيه تاء، أما إبدال الهمزة تاء فهو شاذ يحفظ ولا يقاس عليه، كاتَّكل، واتَّزر، واتَّخذ، بناء على الصحيح أنها (افْتَعَل) من الأخذ. وأصل

---

(١) البخاري في الصحيح، كتاب الحج، باب: قول الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ حديث رقم: (١٥٩٢)، (٣/٤٥٤)، وقد أخرجه في مواضع أخرى، انظر: الأحاديث رقم: (١٨٩٣)، (٢٠٠١)، (٢٠٠٢)، (٣٨٣١)، (٤٥٠٢)، (٤٥٠٤)، ومسلم في الصحيح، كتاب الصيام، باب: صوم يوم عاشوراء، حديث رقم: (١١٢٥)، (٢/٧٩٢).

(٢) انظر: القرطبي (١/٣٩١)، الفتح (٤/٢٤٨).

(٣) انظر: التمهيد (٧/٢٠٣)، (٢٢/١٤٨).

(٤) انظر: القرطبي (١/٣٩٦).

(٥) انظر: القرطبي (٧/٢٧٦)، البحر المحيط (١/١٩٩).

(٦) أي تُقرأ هكذا: (اتَّخَتُّم)، انظر: الإقناع في القراءات السبع (١/٢٦٥)، النشر (٢/١٥).

(٧) انظر: القرطبي (١/٣٩٦ ـ ٣٩٧)، الدر المصون (١/٣٥٤ ـ ٣٥٥).

العِجْل: ولد البقرة، ويجمع على (عَجَاجِيل، عَجَاجِل) على غير قياس، كما عقد مثله في الخلاصة بقوله[١]:

وحـائـدٌ عَـنِ الـقـيـاسِ كُـلُّ مـا خَـالَفَ في البابين حُكْماً رُسِمَا

وهذا العجل هو العجل الذي صاغه لهم السامري من حُليِّ القبط المذكور في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: آية ١٤٨]، وبيَّنه في سورة طه بقوله: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: آية ٩٦] وحَذَف مفعول الاتخاذ الثاني، وهو محذوف في جميع القرآن، وتقرير المعنى: ثم اتخذتم العجل من بعده، أي: من بعد موسى لمَّا ذهب إلى الميقات، أي: اتخذتم العجل إلهاً. وهذا المفعول الثاني محذوف في جميع القرآن ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: آية ٥٤] أي: إلهاً. ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ [الأعراف: آية ٥٤] أي: إلهاً. فهذا المفعول الثاني الذي تقديره (إلهاً) محذوف في جميع القرآن[٢].

قال بعض العلماء: النكتة في حذفه التنبيه على أنه لا ينبغي لعاقل أن يتلفظ بأن عجلًا مصطنعاً من حُلي أنه إله[٣].

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ جملة حالية[٤]، يعني: اتخذتم العجل والحال أنتم ظالمون باتخاذكم العجل إلهاً. وأصل الظلم في لغة العرب: هو وضع الشيء في غير محله، فكل من وضع شيئاً في غير محله فقد ظلم في لغة العرب[٥]. وأكبر أنواع الظلم - أي وضع الشيء في غير محله - وضع

---

(١) الخلاصة ص٦٨، وانظر: شرحه في الأشموني (٢/٤٦٥)، وراجع اللسان (مادة: عجل) (٢/٦٩٦)، القاموس (مادة: العجل) ص١٣٣١.

(٢) انظر: الأضواء (١/٧٨).

(٣) انظر: الأضواء (١/١٧).

(٤) انظر: القرطبي (١/٣٩٧).

(٥) انظر: ابن جرير (١/٥٢٣)، المفردات (مادة: ظلم) ص٥٣٧، القرطبي (١/٣٠٩ - ٣١٠).

العبادة في غير من خَلَق، فمن عبد غير خالق السماوات والأرض فقد وضع العبادة في غير موضعها؛ ولذا هو ظالم لغة؛ ولأجل هذا البيان فإن القرآن يكثر الله جل وعلا فيه إطلاق الظلم على الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤]، وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: آية ١٠٦] وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه فسَّر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ٨٢] أي: بشرك[1]. وقال جل وعلا عن العبد الصالح لقمان الحكيم: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣]. هذا معنى الظلم في لغة العرب، ومنه قيل لمن يضرب لبنه قبل أن يروب: ظالم؛ لأنه وضع الضرب في غير موضعه؛ لأن ضَرْبَهُ قبل أن يروب يضيع زبده. وفي لُغزِ الحريري هل تجوز شهادة الظالم؟ قال: نعم، إذا كان عالماً[2]. يعني بالظالم: الذي يضرب لبنه قبل أن يروب. ومن هذا المعنى قول الشاعر[3]:

وصاحِبِ صدقٍ لم تَرِبني شَكَاتُه ظَلَمْتُ وفي ظَلْمِي له عامِداً أَجْرُ

يعني بصاحب الصدق الذي لم تَرِبْهُ شَكَاتُه في ظلمه إياه: سقاء له، ضربه قبل أن يروب. ومن هذا المعنى قول الشاعر[4]:

وقائلة ظَلَمتُ لكم سقائي وهل يخفَى على العَكَدِ الظليم

فقولها: (ظلمت لكم سقائي) أي: سقيتكم منه قبل أن يروب؛ ولأجل هذا قيل للأرض التي حُفر فيها ولم تُحفر قط، إذا لم تكن محلًا للحفر:

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، حديث رقم (٣٣٦٠) (٦/٣٨٩)، وأخرجه في مواضع أخرى من صحيحه، انظر الأحاديث: (٣٤٢٨، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨، ٦٩٣٧). ومسلم، كتاب الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه. حديث رقم: (١٩٧) (١/١١٤).

(٢) مقامات الحريري مع شرح الشريشي (٣/١٤٨) في المقامة الثانية والثلاثون.

(٣) انظر: اللسان (مادة: ظلم) (٢/٦٥٠).

(٤) المصدر السابق.

مظلومة؛ لأن الحفر وقع في غير موضعه. ومن هذا المعنى على التحقيق قول نابغة ذبيان[١]:

إلاَّ الأَوَارِيَّ لأياً ما أُبيِّنُها والنُّؤيُ كالحوضِ بالمظلومة الجَلَدِ

خلافاً لمن زعم أن (المظلومة) التي أبطأ عنها المطر. ومن هنا قيل للقبر (ظليم)؛ لأنه حَفْرٌ في محل لم يُحفر قبل ذلك. ومنه بهذا المعنى قول الشاعر[٢]:

فأصبح في غبراء بعد إشاحةٍ على العيشِ مردودٍ عليها ظَلِيمُها

هذا أصل معنى الظلم في لغة العرب، وشواهده العربية، وهو يُطلق في القرآن إطلاقين: يطلق بمعناه الأعظم، وهو وضع العبادة في غير من خَلق، وهذا أكبر أنواع الظلم، ومنه بهذا المعنى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤]، ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: آية ١٠٦]، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣].

وقد يطلق الظلم في القرآن أيضاً على ظلم الإنسان نفسه ببعض المعاصي التي لا تبلغ به الكفر، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الآية [فاطر: آية ٣٢]، بدليل قوله في الجميع: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ الآية [فاطر: آية ٣٣]، لأن هذا أطاع الشيطان وعصى ربه فقد وضع الطاعة في غير موضعها، كما قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: آية ٥٠].

وقوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: آية ٥٢] (عفونا) أصله

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٩ وسيأتي شرح بعض مفردات البيت عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٢) اللسان (مادة: ظلم) (٦٥١/٢).

من (العفو)، من عَفت الريح الأثر، إذا طمسته. فالعفو ـ مثلًا ـ هو: طمس الله أثر الذنب بتجاوزه حتى لا يبقى له أثر يتضرر به العبد[(١)]. والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى اتخاذهم العجل إلهاً، وهو ذلك الذنب العظيم، وأشار إليه إشارة البعيد؛ لأن مثل ذلك الفعل يجب أن يُتباعد منه تباعداً كلياً.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قال بعض العلماء: يغلب إتيان (لعلّ) في القرآن مُشَمَّة معنى التعليل، إلا التي في الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[(٢)] [الشعراء: آية ١٢٩] وإتيان (لعل) حرف تعليل مسموع في كلام العرب، ومن إتيان (لعلّ) للتعليل قول الشاعر[(٣)]:

وَقُلْتُم لَنَا كُفُّوا الحُرُوبَ لَعَلَّنَا نكفُّ ووثَّقْتُم لنا كُلَّ موثِقِ
فلما كَفَفْنَا الحربَ كانَتْ عُهُودُكُم كَشِبْهِ سرابٍ بالمَلا مُتألِّق

فهذه ليست للترجي بتاتاً؛ لأنه قال: «ووثقتم لنا كل موثق». وقوله: «ووثقتم لنا كل موثق» دلَّ على أن المراد: فقلتم لنا كفُّوا الحروب لأجل أن نكف، ووثقتم لنا كل موثق في وعدكم بالكفِّ المعلَّل بكفنا. هذا هو التحقيق.

وقال بعض العلماء[(٤)]: المراد بـ(لعل) يعني: افعلوا ما أمرناكم به مترجين أن يقع ما بعد لعل، وتقريره في هذا المعنى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾. وذلك العفو ينبغي ـ مثلًا ـ أن ترجوا، وذلك العفو الذي عفونا عنكم يُرجى من مثلكم فيه أن تشكروا ذلك العفو. فتكون للترجي على

---

(١) انظر: القرطبي (٣٩٧/١)، الدر المصون (٣٥٦/١).
(٢) انظر: البرهان للزركشي (٥٧/٤)، الإتقان (٢٣٣/٢)، فتح الباري (٤٩٨/٨)، أضواء البيان (٤١٤/٢) (٢٠٤/٦)، الدر المصون (١٨٩/١).
(٣) انظر: ابن جرير (٣٦٤/١)، القرطبي (٢٢٧/١)، الدر المصون (١٨٩/١) والمثبت في هذه المصادر: «كَلَمْعِ سراب في المَلاَ...».
(٤) القرطبي (٢٢٧/١).

بابها. والأول لا ينافي الثاني؛ لأنا لو قلنا: إنها للتعليل، فالمعلل مرجو الحصول عند وجود علته.

وأصل (الشكر) في لغة العرب: الظهور، ومنه (الشَّكِير) وهو العُسْلُوج الذي يظهر في جذع الشجرة التي قُطعت إذا أصابها الماء فظهر فيها عُسْلُوج يُسمى شَكِيْراً؛ لأنه ظهر بعد أن لم يكن، ومنه: (ناقة شكور) يظهر عليها أثر السِّمَن[1].

والشكر يطلق في القرآن من الله لعبده، ومن العبد لربه، فمن إطلاق شكر الرب لعبده قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: آية ٣٤] ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: آية ١٥٨].

ومعنى شكر الرب لعبده: هو إثابته له الثواب الجزيل من عمله القليل. ويطلق الشكر من العبد، كما في قوله هنا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ومعنى شكر العبد لربه: هو أن يستعمل نعمه في طاعاته؛ فهذه العين الباصرة التي أنعم عليه بها شكرها أن لا ينظر بها إلَّا إلى ما يرضي الله، وهذه اليد الباطشة التي أنعم عليه بها شكر نعمتها أن لا يبطش بها إلا فيما يرضي الله، وهذا اللسان الذي يُبين به ويفصح عما في ضميره شكره أن لا ينطق به إلا فيما يرضي الله، وهكذا في جميع سائر النعم والمنح البدنية والمالية إلى غير ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

وقوله: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة: آية ٥٣] (إذ) معطوف على ما قبله، وأكثر العلماء على أنه منصوب بـ(اذكر) مقدراً[2]. وقد بينَّا مراراً أن الدليل على عمل هذا العامل الذي هو (اذكر) في (إذ) أنه مفهوم من استقراء القرآن، لكثرة إعمال (اذكر) في (إذ) نحو: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: آية ٢١]، ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ

---

(١) انظر: اللسان (مادة: شكر) (٢/٣٤٤ ـ ٣٤٥)، المفردات (مادة: شكر) ص٤٦١، المصباح المنير (مادة: شكر) ص١٢٢.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: آية ٢٦]، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٨٦] وهكذا.

و ﴿ءَاتَيْنَا﴾ معناه أعطينا، والألف فيه مبدلة من همزة فاء الفعل، فوزنه: (أَفْعَلْنَا) والأصل (أَأْتَيْنَا) فأبدلت همزة فاء الفعل مداً مجانساً لحركة همزة (أَفْعَل)[1] على القاعدة التصريفية المجمع عليها المشهورة التي عقدها ابن مالك في الخلاصة بقوله[2]:

ومداً ابْدِلْ ثانِيَ الهَمْزَيْنِ مِنْ كِلْمَةٍ انْ يَسْكُنْ كَآثِرْ واؤْتَمِنْ

وصيغة الجمع للتعظيم. ومعنى (آتينا): أعطينا، وهي تطلب مفعولين، والمفعول الأول هو موسى، والثاني الكتاب، وهذه من باب: (كسا) لا من (ظن). ومعلوم عند علماء العربية أن الفرق الواضح الموضِّح بين باب (ظن) وباب: (كسا)[3] ـ مع أن كلّا منهما تنصب مفعولين ـ هو: أن تحذف الفعل من كلا البابين، ثم تجعل المفعولين مبتدأ وخبراً، فإن صَدَقَتِ القضية فهي من باب (ظن)، وإن كذبت فهي من باب (كسا)، وهذا ضابط مطَّرد مفيد لطالب العلم، فلو قلت مثلًا: «ظننت زيداً قائماً». فحذفت الفعل الذي هو (ظننت) وجعلت المفعولين مبتدأ وخبراً، فقلت: «زيد قائم» كان كلاماً مستقيماً. فهذا من باب (ظن)، بخلاف «كسوت زيداً ثوباً» و«سقيت عَمْراً ماءً». و ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ لو حذفت الفعل منها وقلت: «زيد ثوب»، «عمرو ماء»، «موسى الكتاب»، فهذه القضية كاذبة، فدلّ على أنها من باب (كسا).

والمراد بالكتاب التوراة، بإجماع العلماء[4].

والتحقيق أن المراد بالفرقان هو التوراة أيضاً[5]، وقد تقرر في فن العربية أن

---

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٣٠٢.

(٢) الخلاصة ص٧٦، وانظر شرحه في الأشموني (٢/٦٠٤).

(٣) انظر: التوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل (١/٣٨٥).

(٤) انظر: القرطبي (١/٣٩٩).

(٥) انظر: ابن جرير (٢/٧١).

الشيء الواحد إذا وُصف بصفات مختلفة يجوز عطفه على نفسه نظراً إلى اختلاف صفاته، وتنزيلًا لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات[(١)]. ومن أمثلته في القرآن قوله جل وعلا: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: الآيات ١ ـ ٤]، فالمتعاطفات بالواو مدلولها واحد، إلا أنها عُطفت بحسب تغاير الصفات، ونظير هذا من كلام العرب قول الشاعر[(٢)]:

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمام وليثِ الكتيبَةِ في المُزْدَحَمْ

فعطف هذه بعضها على بعض، مع أن الموصوف بها واحد، نظراً إلى تغاير الصفات. والدليل على أن (الفرقان) كتاب موسى، وأن من زعم أن المعنى: آتينا موسى الكتاب، ومحمداً ﷺ الفرقان، أنه قول باطل، بدليل قوله[(٣)] (جل وعلا) في الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الأنبياء: آية ٤٨].

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: لأجل أن تهتدوا كما بينّا. أو على أن إنزال هذا الكتاب يُرجى منه أن تهتدوا؛ لأنه مظنة لذلك، ومحل للرجاء في هداكم بهذا الكتاب العظيم السماوي.

و ﴿تَهْتَدُونَ﴾ معناه تسلكون طريق الهدى، من طاعة الله جل وعلا، بامتثال أوامره واجتناب نهيه.

٢/أ /﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾ [البقرة: الآيات ٥٤ ـ ٥٦].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ

---

(١) انظر: القرطبي (٣٩٩/١)، المدخل للحدادي ص٢٣٦، أضواء البيان (٧٧/١)، (١٩٥/٣).
(٢) انظر: الخزانة (٢١٦/١).
(٣) انظر: الدر المصون (٣٥٩/١)، الأضواء (٧٧/١ ـ ٧٨).

أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: آية ٥٤] أي: واذكروا ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ حين قال موسى ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ أصله: (يا قومي) منادى مضاف إلى ياء المتكلم، وحُذفت ياء المتكلم اكتفاءً عنها بالكسرة[1]. وفي المنادى المضاف إلى ياء المتكلم إن كان صحيح الآخر خمس لغات[2]، كلها صحيحة، أكثرها حذف ياء المتكلم كما في هذه الآية. وتلك اللغات عقدها في الخلاصة بقوله[3]:

واجْعَلْ مُنَادىً صحَّ إِنْ يُضَفْ لِيَا كَعَبْدِ عَبْدِي عَبْدَ عَبْدَا عَبْدِيا

أصله: يا قومي. ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ قدمنا معنى الظلم[4] بشواهده العربية، ومعناه في القرآن، وقد جاء في القرآن في موضع واحد مراداً به النقص في قوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: آية ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئاً[5].

وهذه الآية تدل على أن من خالف أمر الله أنه إنما ظلم بذلك نفسه حيث عرّضها لسخط الله وعذابه، فضرر فعله عائد إليه وحده، وذلك أكبر باعث على الانزجار والكفّ؛ لأن الإنسان لا يُحب أن يضرّ نفسه، ولا أن يجني عليها، فإذا عرف الإنسان أن ضرر فعله إنما هو عائد إليه حاسب.

والباء في قوله: ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ سببية[6]، يعني أن اتخاذهم العجل هو السبب الذي ظلموا به أنفسهم. وقد قدمنا[7] أن (الاتخاذ) مصدر اتخذ،

(١) انظر: القرطبي (١/٤٠٠).
(٢) في القرطبي (١/٤٠٠)، والدر المصون (١/٣٩) (ست لغات). وانظر: التوضيح والتكميل (٢/٢١٧ ـ ٢١٨).
(٣) الخلاصة ص٥١، وانظر شرحه في الأشموني (٢/١٥٦)، التوضيح والتكميل (٢/٢١٧ ـ ٢١٨).
(٤) مضى عند تفسير الآية (٥١) من هذه السورة.
(٥) انظر: المفردات (مادة: ظلم) ص٥٣٨.
(٦) انظر: الدر المصون (١/٣٦١).
(٧) مضى عند تفسير الآية (٥١) من هذه السورة.

وأن الظاهر أن أصله (افتعال) من (الأخذ)، إلا أن الهمزة التي هي في محل فاء الكلمة أُبدِلَتْ تاءً وأُدغِمَت في تاء الافتعال، وهذا يُحفظ ولا يُقاس عليه، كما عقده في الخلاصة بقوله[(١)]:

ذُو اللِّينِ فَا تَا في افْتِعَالٍ أُبْدِلا وشَذَّ في ذي الهَمْزِ نَحْوُ ائْتَكَلا

و ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ﴾ مصدر من فعل يطلب مفعولين، والمصدر هنا مضاف إلى فاعله[(٢)]. والمفعول الأول العجل، والمفعول الثاني محذوف دائماً في القرآن، وتقرير المعنى: باتخاذكم العجل إلهاً.

وقد قدمنا[(٣)] أن هذا المفعول الثاني في (اتخاذهم العجل إلهاً) محذوف في جميع القرآن، وأن بعض العلماء قال: النكتة في حذفه دائماً هي التنبيه على أنه لا ينبغي أن يُتلفظ بأن عجلًا مصطنعاً من حليّ إله.

وقال جل وعلا: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ الفاء سببية، وقد تقرر في فن الأصول في مسلك (الإيماء والتنبيه)[(٤)] أن الفاء من حروف التعليل، وأن ما قبلها علّة لما بعدها، كقولهم: «سها فسجد»، أي: لعلة سهوه، و«سرق فقُطعت يدُه» أي: لعلة سرقته، ﴿ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ﴾ أي: لعلة ظلمكم. ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ قد قدَّمنا معنى التوبة واشتقاقها في أول هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي: خالقكم ومبرزكم من العدم إلى الوجود. وقد ذكر (جل وعلا) الخالق البارىء من صفاته كما قال في أُخريات الحشر: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ [الحشر: آية ٢٤] و(الخالق) اسم فاعل الخلق، والخلق في اللغة: التقدير. و(البارىء) هو الذي يفري ما خلق؛ فمعنى خلق: قدَّرَ، ومعنى برأ: أنفذ ما قدَّر، وأبرز من العدم إلى الوجود،

---

(١) الخلاصة ص٧٩، وانظر: شرحه في الأشموني (٦٤١/٢).

(٢) انظر: الدر المصون (٣٦١/١).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٤) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١٧١/١) شرح الكوكب المنير (٤٧٧/٣) (١٢٥/٤).

والعرب تسمي التقدير خلقاً، ومنه قول زهير بن أبي سُلمى[١]:

ولأَنْتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبَعْـ ـضُ القومِ يخلُقُ ثم لا يَفْرِي

وكثيراً ما يطلق اسم الخلق على الإبراز من العدم إلى الوجود. وعلى كل حال فمعنى (البارىء): المبدِع الذي يبرأ الأشياء، أي: يبرزها من العدم إلى الوجود.

وفي الآية سرٌّ لطيف[٢]، وهو أن من أَبْرَزَ من العدم إلى الوجود هو الذي يستحق أن يُعبد، ويُتاب إليه من الذنوب؛ لأن عنوان استحقاق العبادة إنما هو الخلق، فمن يخلق ويُبْرِزُ من العدم إلى الوجود فهو المعبود الذي يعبد وحده، ويُتَنَصَّل إليه من الذنوب، ومن لا يخلق فهو مربوب محتاج إلى خالق يخلقه؛ ولذا كثر في القرآن الإشارة إلى أن ضابط من يستحق العبادة هو الخالق الذي يُبرز من العدم إلى الوجود، كما تقدم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: آية ٢١]، وكما في قوله: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: آية ١٦] وخالق كل شيء هو المعبود وحده. وقال جل وعلا: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ﴾ [النحل: آية ١٧]، الجواب: لا. وهذا معنى قوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾.

وقرأ هذا الحرف جمهور القراء: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ وعن أبي عمرو فيه روايتان عنه: قراءة: ﴿إلى بارئْكم﴾ بإسكان الهمزة، وعنه قراءة أخرى رواها عنه الدوري باختلاس الهمزة، واختلاس الهمزة: هو تخفيف حركتها حتى يأتي ببعض الحركة ولا يأتي بها كاملة، وهذه الرواية الأخيرة رواية الدُّوري عن أبي عمرو هي التي بها الأخذ، والمشهورة عند القراء[٣]. وما زعمه بعض علماء العربية من أن الرواية الأخرى عن أبي عمرو بإسكان

(١) القرطبي (٢٢٦/١)، الدر المصون (١٨٨/١).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٠٧/١)، تفسير أبي السعود (١٠٢/١).

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٢٩.

الهمزة في ﴿بارئكم﴾ أنها لحن، وأن حركة الإعراب لا يجوز تسكينها، فهو غلط[١]، ولا شك أنها لغة صحيحة، وقراءة ثابتة عن أبي عمرو، وتخفيف الحركة بالإسكان لغة تميم وبني أسد، ويكثر في كلام العرب إسكان الحركة للتخفيف، ولا سيما إذا توالت ثلاث حركات، كما في قراءة الجمهور ﴿بَارِئِكُمْ﴾ بثلاث حركات. ومن تسكين الحركة للتخفيف قول امرىء القيس[٢]:

فاليوم أَشْرَبْ غيرَ مُسْتَحْقَبٍ ... إِثْماً من الله ولا واغِلِ

وعلى هذا التخفيف قراءة أبي عمرو ﴿أَرْنا الَّذَيْنِ﴾[٣] [فصلت: آية ٢٩]، وقراءة حفص: ﴿ويخش الله ويَتَّقْهِ﴾[٤] [النور: آية ٥٢] فإن هذا السكون إنما هو تخفيف؛ لأن المحل ليس محل سكون؛ لأن الأصل (يتقيه) و ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[٥] [البقرة: آية ١٢٨]. ومنه قول الشاعر[٦]:

أَرْنَا إِدَاوَة عبدالله نَمْلَؤُهَا ... مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ إِنَّ القَومَ قَدْ ظَمِئُوا

وقول الآخر[٧]:

ومَنْ يَتَّقْ فَإِنَّ اللَّهَ مَعْهُ ... وَرِزْقُ الله مُؤْتَابٌ وغَادِ

وقول الراجز[٨]:

قالتْ سُلَيْمَى اشْتَرْ لَنَا سَوِيقَا ... وهاتِ خُبْزَ الْبُرِّ أو دقيقا

(١) انظر: الدر المصون (١/٣٦١ ـ ٣٦٥).
(٢) ديوان امرىء القيس ص١٣٤.
(٣) المبسوط ص٣٩٤.
(٤) المصدر السابق ص٣٢٠.
(٥) المصدر السابق ص١٣٦، السبعة لابن مجاهد ص١٧٠.
(٦) هذا البيت مجهول النسبة، وهو في القرطبي (٢/١٢٨)، الدر المصون (٢/١١٩).
(٧) الخصائص (١/٣٠٦)، المحتسب (١/٣٦١).
(٨) البيت للعذافر الكندي، وقد ورد بروايات متعددة، انظر: المحتسب (١/٣٦١)، الخصائص (٢/٣٤٠).

وقوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ كأنهم قالوا: بم نتوب إلى بارئنا توبة يقبلها منا؟ قيل لهم: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾. أو الفاء للتعقيب[١]؛ لأن هذا القتل عقب الذنب هو الذي حصلت به التوبة.

وأصل القتل في لغة العرب[٢]: إزهاق الروح بشرط أن يكون من فعل فاعل، كالطعن، والضرب، والخنق، وما جرى مجرى ذلك، أما إزهاق الروح بلا سبب من ضرب أو نحوه فهو موت وهلاك لا قتل.

وقال بعض العلماء: القتل إماتة الحركة.

وقد تطلق العرب مادة القاف والتاء واللام على غير إزهاق الروح، فتطلقه على التذليل، فالتقتيل: التذليل، وتطلق القتل أيضاً على إضعاف الشدة، فمن إطلاق التقتيل على التذليل قول امرىء القيس[٣]:

وما ذرفت عيناكِ إلاَّ لتضرِبي بسهميك في أعشارِ قلبٍ مُقَتَّلِ

أي: مُذلل. وقول زهير[٤]:

كأنَّ عَيْنَيَّ في غَرْبَيْ مُقَتَّلةٍ من النواضِحِ تَسْقِي جنَّة سُحُقاً

أي: مذللة.

وكذلك يطلق القتل على كسر الشِّدَة، ومنه قتل الخمر بالماء، أي: كسر شدتها بالماء، كما قال حسان (رضي الله عنه)[٥]:

إن التي نَاوَلْتَنِي فَرَدَدْتُها قُتِلَتْ قُتِلْتَ فَهَاتِها لم تُقتل

يعني بقتلها: إضعاف شدتها بمزجها بالماء.

(١) انظر: البحر المحيط (١/٢٠٨).

(٢) انظر: المفردات (مادة: قتل) ص٦٥٥.

(٣) ديوان امرىء القيس ص١١٤.

(٤) انظر: البحر المحيط (٧/٣٤)، اللسان (مادة: سحق) (٢/١٠٩)، الدر المصون (٨/٥٤١).

(٥) ديوان حسان بن ثابت ص١٨٥، الخزانة (٢/٢٣٨).

وقوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ جمع قلة؛ لأن (الأفعُل) من صيغ جموع القلة[(١)]. وما يزعمه بعض النحويين والمفسرين من أن مثل هذه الآية جيء فيه بجمع القلة موضع جمع الكثرة فهو خلاف التحقيق؛ لأن ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ أُضيف إلى معرفة، واسم الجنس مفرداً كان أو جمعاً إذا أُضيف إلى معرفة اكتسب العموم[(٢)]. والشيء الذي يعم جميع الأفراد لا يعقل أن يقال فيه: إنه جمع قلة؛ لأن جمع القلة لا يتعدى العشرة، وهو بعمومه يشمل آلاف الأفراد، فالتحقيق ما حرره علماء الأصول في مبحث التخصيص[(٣)] من أن جموع القلة وجموع الكثرة لا يكون الفرق بينها ألبتة إلا في التنكير، أما في التعريف فإن الألف واللام تفيد العموم، والإضافة إلى المعارف تفيد العموم[(٤)]، وما صار عاماً استحال أن يقال هو جمع قلة؛ لأن العموم يستغرق جميع الأفراد. هذا هو التحقيق. وهذا معنى قوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ في مرجع الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ وجهان للعلماء لا يُكَذِّب أحدهما الآخر[(٥)]، أحدهما: أنه راجع إلى مصدر القتل المفهوم من قوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ﴾ أي: ذلك القتلُ لأنفسكم خير لكم عند بارئكم، وقد قرر علماء العربية أن الفعل الصناعي ـ أعني فعل الأمر، أو الفعل المضارع، أو الماضي ـ ينحلُّ عن مصدرٍ وزمن، فالمصدر كامن في مفهومه إجماعاً[(٦)]. قال في الخلاصة[(٧)]:

المصدر اسمُ ما سِوَى الزمانِ مِنْ مَدْلُولَي الفِعْلِ كأَمْنٍ مِنْ أَمِنْ

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٣٩١).
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من هذه السورة.
(٣) انظر: البحر المحيط للزركشي (٣/٨٤ ـ ٩٣).
(٤) المصدر السابق (٣/١٠٨).
(٥) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (١/٢٠٩).
(٦) انظر: الكليات ص٦٨٠.
(٧) الخلاصة ص٢٩، وانظر: شرحه في الأشموني (١/٣٦٤).

ونحن نرى القرآن يلاحظ المصدر تارة، ويلاحظ الزمن تارة. فمن أمثلة ملاحظته للمصدر: ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ ٱعۡدِلُواْ هُوَ﴾ [المائدة: آية ٨] أي: العدل الكامن في مفهوم ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾، وتارة يلاحظ الزمن، ومن أمثلة ملاحظته لزمان الفعل الصناعي قوله (جل وعلا) في (ق): ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠﴾ [ق: آية ٢٠] فالإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ لزمن النفخ المفهوم من بناء الفعل في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ﴾.

وقال بعض العلماء[(١)]: الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ راجعة إلى شيئين هما: التوبة المفهومة من قوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾، والقتل المفهوم من قوله: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾، وعلى هذا القول فالمعنى: ذلكم المذكور من التوبة والقتل. ونظير هذا في القرآن - أي: بأن يكون لفظ الإشارة مفرداً ومعناه مثنى - قوله (جل وعلا) في هذه السورة الكريمة: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ﴾ [البقرة: آية ٦٨] أي: ذلك المذكور من الفارض والبكر.

وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول عبدالله بن الزبعرى[(٢)]:

إنَّ للشرِّ وللخيرِ مَدىً ... وكِلا ذلِكَ وجْهٌ وَقَبَلْ

أي: كلا ذلك المذكور. ولما قال رؤبة بن العجاج في رجزه المشهور[(٣)]:

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَق ... كأنّه في الجلْدِ تَوليعُ البَهَقْ

فقيل له: ما معنى قولك: «كأنه» بالتذكير، إن كنت تريد الخطوط لَزِمَ أن تقول: (كأنها)، وإن كنت تريد السواد والبلق لزم أن تقول: (كأنهما) فَلِمَ

---

(١) انظر: البحر المحيط (٢٠٩/١).
(٢) انظر: البحر المحيط (٢٠٩/١)، مغني اللبيب (١٧٢/١)، أوضح المسالك (٢٠٣/٢)، وصدره: «إنَّ للخير وللشر مدى».
(٣) انظر: المحتسب (١٥٤/٢).

قلت: (كأنَّه)؟ قال: (كأنه) أي: ما ذُكر من سواد وبلق.

وقوله: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الظاهر أنها هنا صيغة تفضيل، وقد تقرر في فن العربية أن لفظة (خير وشر) حذفت العرب منها الهمزة في صيغة التفضيل لكثرة الاستعمال في الأغلب، كما عقده ابن مالك في الكافية بقوله[1]:

وغالباً أغناهم خير وشر عن قولهم أخيرُ منه وأشر

ووجه كونها هنا صيغة تفضيل: أن هذا القتل بهذه التوبة يقطع حياتهم الدنيوية، ولكنه يكسبهم حياة أخروية، وهذه الحياة الأخروية خير من الحياة الدنيوية[2]، وهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ أي: ذلكم المذكور من توبتكم وقتلكم أنفسكم خير لكم عند بارئكم من عدمه، أي: عند خالقكم ومبرزكم من العدم إلى الوجود.

وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ معطوف على محذوف دل المقام عليه، أي: فامتثلتم ما أُمرتم به، وقدمتم أنفسكم للقتل، فتاب عليكم[3].

واختلف العلماء في كيفية هذا القتل الذي أُمروا به[4]، قال بعض العلماء: كيفية هذا القتل الذي أُمروا به أن من لم يعبد العجل منهم أُمر بأن يقتل من عبد العجل، وقيل: أُمروا أن يقتل بعضهم بعضاً، من عبد العجل ومن لم يعبده، وعلى هذا القول فذنب من لم يعبد العجل أنه لم ينههم، ولم يغير المنكر؛ لأن المنكر إذا وقع ولم يغير عمَّ العذاب.

وأظهر القولين: أن البريء منهم أُمر بقتل الذي عبد العجل. ذكر المفسرون في قصتهم أنهم لما كان الرجل ينظر إلى قريبه وأخيه لا يقدر أن يتجاسر على قتله، فأنزل الله ضباباً حتى صاروا لا يرى بعضهم بعضاً، فوضعوا فيهم السيف حتى قتلوا منهم نحو سبعين ألفاً، فدعى موسى

(١) شرح الكافية الشافية (١١٢١/٢).
(٢) انظر: البحر المحيط (٢٠٩/١).
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: ابن جرير (٧٣/٢)، القرطبي (٤٠١/١)، ابن كثير (٩٢/١).

وهارون ربهما، فقبل الله توبتهم، ورفع القتل عن بقيَّتِهم[١]. هذا معنى قوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. قد أوضحنا معنى ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧] بما أغنى عن إعادته هنا.

وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: آية ٥٥] أي: واذكروا أيضاً حين قلتم لنبي الله موسى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ أي: لن نصدقك فيما ذكرت من أن الله كلمك به. قال بعض العلماء[٢]: هم السبعون الذين اختارهم موسى، سمعوا الله يكلم موسى فقالوا: لن نصدقك في أن هذا كلام الله حتى نرى الله جهرة. والقاعدة باستقراء القرآن أن لفظ (الإيمان) إذا عُدِّي باللام معناه عدم التصديق[٣][٤] كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: آية ٢٧] أي: بمصدقنا، وقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ٦١] أي: يصدق المؤمنين، فالمعنى على هذا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ لك أي: لن نصدقك فيما ذكرت من أن الله كلمك وأمرك ونهاك. وهذا ـ نفيهم للتصديق ـ غيَّوه بغاية يتمادى إليها هي: ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: إلى رؤيتنا الله جهرة.

وقوله: ﴿جَهْرَةً﴾ فيه وجهان من التفسير[٥]، أحدهما: أنه متعلق بـ﴿نَرَى﴾ والمعنى: ﴿نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: عياناً، وانتصابه على أنه مصدر مؤكِّد لعامله مزيل توهم أنها رؤية منام، أو رؤية علم بالقلب، وقال بعض العلماء: هو يتعلق بقوله: ﴿قُلْتُمْ﴾ أي: قلتم جهاراً ـ من غير مواربة ـ هذا

---

(١) انظر: المصادر السابقة.

(٢) انظر: القرطبي (١/٤٠٣).

(٣) أي: في سياق النفي كما في الآية، أما في سياق الإثبات فيكون معناه: التصديق.

(٤) فائدة: لمعرفة الفروقات بين الإيمان والتصديق انظر: كتاب الإيمان لابن تيمية ص١١٢ ـ ١٢٥، ٢٧٤ ـ ٢٨١، ٣٠٠، الإيمان الأوسط ص٧١ ـ ٧٥، ١٧٨ ـ ١٧٩، شرح الطحاوية ص٢٩٠ ـ ٢٩٢، معارج القبول (٢/٢١ ـ ٢٥).

(٥) انظر: القرطبي (١/٤٠٤)، الدر المصون (١/٣٦٧).

القول العظيم الشنيع، وعلى هذا فأظهر القولين فيها أنه مصدر مُنَكَّر حال، أي قلتم هذا القول جهرة أي: في حال كونكم جاهرين بهذا الأمر العظيم.

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ الفاء سببية دلت على أن أخذ الصاعقة إياهم سببه هذا الاجتراء العظيم، وامتناعهم من تصديقهم نبيهم حتى يروا الله عياناً، كما قال جل وعلا: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: آية ١٥٣].

والصاعقة تطلق إطلاقات[(١)]: تطلق على النار المحرقة، وعلى الصوت المزعج المهلك، وأكثر إطلاقاتها عليهما معاً، صوت مزعج مشتمل على نار مهلكة، وعلى كل حال فعلى أنهم السبعون المذكورون في الأعراف فقد بيَّن أن هذه الصاعقة رجفة، كما في قوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ الآية [الأعراف: آية ١٥٥]. على كل حال فهذه الصاعقة سواء قلنا: إنها نار محرقة، أو صوت مزعج أهلكهم، أو هما معاً صوت مزعج أرجف بهم الأرض، فالتحقيق أنهم ماتوا، وأنه صَعْق موت، كما صرَّح الله بذلك في قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: آية ٥٦] أنهم ماتوا، أماتهم الله عقاباً لمقالتهم هذه الشنعاء، ثم أحياهم بدعاء نبيهم ﷺ وعلى نبينا ﷺ، خلافاً لمن زعم أن صَعْقهم هذا صَعْق غشية قائلًا: إن الصعق قد يُطلق على [غير][(٢)] الموت، وذكروا منه قول جرير يهجو الفرزدق[(٣)]:

وهَلْ كانَ الفرزدَقُ غَيْرَ قِردٍ أَصَابَتْه الصواعِقُ فاسْتَدارا

فقوله: «أصابته الصواعق» ليس معناه أنه مات. والتحقيق أنه صعق موت؛ لأنه لا أحد أصدق من الله، والله صرح بأنه موت في قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ البعث بعد الموت معناه الإحياء بعد الموت، أي:

---

(١) انظر: ابن جرير (٨٣/٢)، المفردات (مادة: صعق) ص٤٨٥، القرطبي (٢١٩/١).
(٢) انظر: ابن جرير (٨٣/٢).
(٣) زيادة يقتضيها السياق.

بعد أن مُتم. أحياهم الله جل وعلا أحياءً.

وعامة المفسرين يقولون إنَّ الزمن الذي مَكثوا في هذا الموت أو الغشية ـ على القول الباطل عند من يزعم أنه صعق غشية لا صَعْق موت، مدة هذا الصعق الذي التحقيق أنه موت ـ يوم وليلة، كما عليه عامة المفسرين[١] إلا من شذ.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ جملةٌ حالية، وأصل هذه الجملة فيها إشكال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: كيف ينظرون، وينظر بعضهم إلى بعض، مع إصابة الصاعقة إياهم؟

وللعلماء عن هذا أجوبة[٢]: أظهرها أن الصاعقة أصابتهم غير دفعة، بل تصيب البعض والبعض ينظر إلى إهلاكه؛ لأن ظاهر القرآن يجب الحمل عليه إلا بدليل جازم من كتاب وسنة[٣]، وظاهر القرآن أن هنالك نظراً لوقوع هذه الصاعقة، أن الصاعقة وقعت في حال نظرهم، وبهذا قال بعض العلماء، وهو الأظهر؛ لأنه يتمشى مع ظاهر القرآن، ولا مانع من أن تصيب الصاعقة بعضهم والبعض الآخر ينظر إليه، ثم تصيب بعضاً والبعض الآخر ينظر إليه، وكذلك قال بعض العلماء[٤]: إن الله أحياهم متفرقين في غير دفعة واحدة، يحيي بعضهم والبعض الآخر ينظر إليه كيف يحييه الله. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قد قدمنا معنى (لعل) ومعنى (الشكر) في درس البارحة[٥].

وهذه الآية الكريمة فيها دليل جازم على البعث؛ لأن بني إسرائيل

---

(١) انظر: البحر المحيط (٢١١/١)، ونقل عليه الإجماع.

(٢) انظر: القرطبي (٤٠٤/١)، البحر المحيط (٢١٢/١).

(٣) في هذه القاعدة انظر: ابن جرير (٣٨٨/١، ٤٧١، ٤٨٥، ٥٥٠)، (١٥/٢، ٦١، ١٨٠، ٤٥٦، ٤٥٧، ٥٤٥، ٥٦٠) الصواعق المرسلة (٢٠٤/١)، قواعد التفسير (٨٤٣/٢ ـ ٨٥٠).

(٤) انظر: البحر المحيط (٢١٢/١).

(٥) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من هذه السورة.

هؤلاء، هذه الطائفة منهم التي أماتها الله فأحياها دليل قاطع على أن الله (جل وعلا) قادر على إحياء الموتى. وقد ذكر الله (جل وعلا) في هذه السورة الكريمة خمسة أمثلة من إحيائه للموتى في دار الدنيا[١] هذا أولها.

الموضع الثاني: قوله في قتيل بني إسرائيل: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [البقرة: آية ٧٣] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بيّن به أن إحياءه قتيل بني إسرائيل في دار الدنيا دليل على البعث وإحيائه الموتى، وبعثه إياهم بعد أن صاروا عظاماً.

الموضع الثالث: قوله جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ﴾ [البقرة: آية ٢٤٣].

الموضع الرابع: قوله في عزير وحماره: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ﴾ [البقرة: آية ٢٥٩]. وفي القراءة الأخرى[٢] ﴿كَيْفَ نُنشِرها ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الموضع الخامس: طيور إبراهيم المذكور في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: آية ٢٦٠][٣].

---

(١) انظر: ابن كثير (١/١١٢).

(٢) المبسوط لابن مهران ص١٥١.

(٣) سئل الشيخ (رحمه الله): من أدلة إحياء الله الموتى في الدنيا: الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فأماتهم الله ثم أحياهم، فقال الله: ﴿مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٤٣]، هل هذه الإماتة على حقيقتها أو هناك نوع آخر معنوي؟ =

....

= فأجاب الشيخ رحمه الله بقوله: الجواب: أنه هذه الإماتة إماتة حقيقية، وإحياء حقيقي؛ لأن القرآن لا يجوز صرفه عن ظاهره المتبادر منه إلا بدليل يجب الرجوع إليه من كتاب أو سنة صحيحة، والقرينة ـ قرينة الآية ـ تدل على أنه موت حقيقي، ففي نفس الآية قرينة دالة على ذلك؛ لأن سبب نزول الآية تشجيع المؤمنين على القتال، وأن الله يريد أن يفهمهم أن من ردَّه الجبن عن لقاء العدو سيجد حتفه أمامه، كهذه الألوف من بني إسرائيل، لما وقع الطاعون وفرُّوا هاربين حذراً من الموت وجدوا الموت أمامهم، فأماتهم الله، ولهذا أتبع هذه الآية بقوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: آية ٢٤٤] ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: فليس الحذر والجبن والتخلف عن القتال يضمن لكم الحياة، بل قد يفرُّ الإنسان من الموت فيجد الموت أمامه، كما وقع لهؤلاء الألوف، وكما قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الأحزاب: آية ١٦] فقوله بعدها: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قرينة على أنه موت حقيقي، وأن الحذر من الموت لا ينجي من الموت! ولقد أجاد من قال:

في الجبن عار وفي الإقدام مكرمة والمرء في الجبن لا ينجو من القدر

وسئل الشيخ (رحمه الله): هل يوجد دليل ـ هو نص ـ على أن الإماتة إذا كانت معنوية يكون معها قرينة ودليل على المراد؟

فأجاب الشيخ رحمه الله بقوله: الموت إذا أُطلق في لغة العرب معروف أنه يصدُق بمفارقة الروح للجسد، ولا يجوز حمله على غير هذا المعنى المتبادر إلا لدليل، ولا شك أن القرآن جاء فيه إطلاق الموت على الموت المعنوي، كالكفر، كقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: آية ١٢٢] أي: كان كافراً فهديناه إلى الإيمان. وقد أجمع العلماء على أن قوله في الأنعام: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ٣٦] أي: الكافرين يبعثهم الله، كما عليه عامة أهل التفسير، إلا أن إطلاق الموت على هذا المعنى كإطلاقه على الكافر في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: آية ٢٢] وقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: آية ١٢٢]، هذا لا يُحمل عليه إلا بقرينة سياق. أما الآية: ﴿خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ [البقرة: آية ٢٤٣] فالموت الذي حذروه لا شك أنه الموت المضاد للحياة القاطع لها. وقوله: ﴿خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ من قال له الله: «مُت» مات بلا شك؛ لأن الله إذا قال للشيء «كُنْ» كان، وهم إنما خرجوا من ديارهم حذر الموت الحقيقي الذي يحذره كل إنسان، القاطع للحياة. فقوله: ﴿خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ ثم قوله بعده: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٤٣] أدلة واضحة على أنه موت حقيقي، وعليه عامة المفسرين، وهو الحق الذي=

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: الآيات ٥٧ ـ ٥٩].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة: آية ٥٧] لما كان بنو إسرائيل في التيه، واشتكوا الحرَّ، دعا نبي الله موسى لهم، فظلل الله عليهم الغمام. والغمام: اسم جنس واحده غمامة، وهو غمام أبيض رقيق يُظلهم من الشمس[(١)]. وفي قصتهم أنه إذا كان في الليل ارتفع ليستضيئوا بضوء القمر.

وصيغة الجمع في قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ للتعظيم.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ لما اشتكوا في التيه من الجوع، دعا اللَّهَ نبيُّهم، فأنزل الله المنَّ والسلوى. وأكثر علماء التفسير[(٢)] على أن المنَّ: التَّرَنْجَبِين، وهو شيء ينزل كالندى ثم يجتمع، أبيض، حلو، يشبه العسل الأبيض، هذا قول أكثر المفسرين في المراد بالمنِّ.

= لا شك فيه، فادعاء أنه موت معنوي أو غير هذا تلاعب بكتاب الله (جل وعلا)، وحمل له على غير معناه من غير دليل يجب الرجوع إليه. والله الموفق للصواب.

(١) سئل الشيخ (رحمه الله) عن الفرق بين الغمام والسحاب؟

فأجاب بقوله:

السحاب غير المطر بإجماع العلماء، فالسحاب هو الوعاء الذي فيه ماء المطر، ويُسمَّى الغمام، إلا أن هذا الغمام الذي أنزل الله عليهم يقول العلماء فيه: إنه لم يكن وعاء كالسحاب، وإنما هو غمام أبيض رقيق يشبهه، أنزله الله عليهم، مع أن الغمام يطلق على السحاب.

(٢) انظر: القرطبي (٤٠٦/١)، دفع إيهام الاضطراب ص٢٥.

قال بعض العلماء[١]: ولا يعارض هذا ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ من أنه قال: «**الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين**»[٢]. قالوا: فمراده ﷺ بقوله: «**من المن**» أي: من جنس ما منَّ الله به على بني إسرائيل، حيث إنه طعام يوجد ـ فضلًا من الله ـ من غير تعب، وظاهر الحديث أن الكمأة من نفس ما منَّ الله به على بني إسرائيل في التيه.

/وقوله: ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ جمهور المفسرين، أو عامة المفسرين على أن (٢/ب)
(السلوى): طير[٣]، قال بعضهم: هو السُّمَانَى، وقال بعضهم: طائر يشبه السُّمَانَى. وتفسير من فسَّر السلوى بأنه (العسل) غير صواب، وكذلك ادعاء أن السلوى لا يُطلق على العسل في لغة العرب غير صواب. والتحقيق: أن السلوى يطلق في لغة العرب على العسل، ومنه قول الهُذَلي[٤]:

وَقَاسَمْتُهَا بالله جَهْداً لأَنْتُمُ ... أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَى إذا ما نَشُورُهَا

والشور: استخراج العسل خاصَّة.

لكن ليس المراد بالسلوى في الآية العسل، وإنما المراد به طائر، كما عليه عامة المفسرين، هو السمانى أو طائر يشبه السمانى.

وقوله: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ محكي قول محذوف[٥]، أي: وقلنا لهم: كلوا من طيبات ما رزقناكم كهذا المن والسلوى، وهما طيبان

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ حديث رقم: (٤٤٧٨)، (٨/١٦٣)، وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الحديثين رقم: (٤٦٣٩، ٥٧٠٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب: فضل الكمأة، ومداواة العين بها، حديث رقم: (٢٠٤٩)، (٣/١٦١٩).

(٣) انظر: القرطبي (١/٤٠٧)، دفع إيهام الاضطراب ص٢٥.

(٤) اللسان (مادة: سلا)، القرطبي (١/٤٠٧)، الدر المصون (١/٣٧٠).

(٥) انظر: القرطبي (١/٤٠٨)، الدر المصون (١/٣٧٠).

حِسّاً ومعنى؛ للذاذة طعمهما وحلّيتهما شرعاً؛ لأنهما منٌّ وفضل من الله جل وعلا.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ هنا محذوف دلَّ المقام عليه[١]، والمعنى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: أنعمنا عليهم هذه النعم فقابلوا نعمنا بعدم الشكر، وارتكاب المعاصي، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بتلك المعاصي التي قابلوا بها نعمنا ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وقال بعض العلماء: أُمروا أن لا يدَّخِرُوا من المنِّ والسلوى فخالفوا أمر الله وادَّخروا، وما ظلمونا بذلك الادخار المنهي عنه ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[٢]. والقول الأول أشمل، وهو الصواب.

وقوله (جل وعلا) في هذه الآية: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ فيه الدليل الواضح على أن نفي الفعل لا يستلزم إمكانه[٣]؛ لأن الله نفى عنه أنهم ظلموه، ونفيه (جل وعلا) عن نفسه أنهم ظلموه، لا يدل على أنه يمكن أن يظلموه، بل نفي الفعل لا يدل على إمكانه.

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (لكن) واقعة في موقعها، والمعنى: أن هذا الظلم واقع على أنفسهم حيث عرَّضوها به لسخط الله (جل وعلا) وعقابه، فضرر فعلهم عائد إليهم، والله (جل وعلا) لا تضره معاصي خلقه، ولا تنفعه طاعاتهم ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: آية ٦].

وقد بيَّن القرآن في آيات كثيرة أن الله (جل وعلا) لا يتضرر بمعاصي خلقه ولا ينتفع بطاعاتهم، كقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: آية ٨]، وقوله: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: آية ٦]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ

---

(١) انظر القرطبي (٤٠٩/١)، الدر المصون (٣٧١/١).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢١٥/١).

(٣) المصدر السابق.

﴿ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر: آية ١٥]، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربِّه: «**يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**» الحديث[(١)].

هذا معنى قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: قابلوا نعمنا بالمعاصي، وما ظلمونا بذلك ولكن ظلموا أنفسهم بذلك.

وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: آية ٥٨] أي: واذكر ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي: حين قلنا. وصيغة الجمع للتعظيم. ﴿ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ الصواب الذي عليه أكثر المفسرين أن هذه القرية هي (بيت المقدس)[(٢)]. وقال جماعة من العلماء: (هي أريحا)[(٣)]. وعن الضحاك أنها (الرَّملة)، و(فلسطين)، و(تَدْمُرْ) ونحو ذلك[(٤)].

والتحقيق الذي عليه جمهور المفسرين أنها (بيت المقدس)، ويدل عليه قوله في المائدة: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: آية ٢١] هذه القرية. ولما زال عنهم التيه، ومات موسى وهارون، وكان الخليفة بعدهما يوشع بن نون، وجاؤوا وجاهدوهم الجهاد المعروف في التاريخ[(٥)]، الذي ردَّ الله فيه الشمس ليوشع بن نون، وفتحوا البلد، أمرهم الله (جل وعلا) أن يشكروا هذه النعمة بقولٍ يقولونه، وفعل يفعلونه، فبدلوا القول الذي قيل لهم بقول غيره، وبدلوا ـ أيضاً ـ الفعل الذي قيل

---

(١) مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: (٢٥٧٧)، (١٩٩٤/٤).

(٢) انظر: ابن جرير (١٠٢/٢)، القرطبي (٤٠٩/١).

(٣) انظر: ابن جرير (١٠٣/٢)، القرطبي (٤٠٩/١).

(٤) انظر: القرطبي (٤٠٩/١).

(٥) انظر: البداية والنهاية (٣٢٣/١).

لهم بفعل غيره، وتقرير المعنى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ فكلوا من هذه القرية حيث شئتم. (حيث) كلمة تدل على المكان كما تدل (حين) على الزمان، ربما ضُمِّنَتْ معنى الشرط، وهي تعمُّ، أي: في أي مكان من أمكنة هذه القرية شئتم[١].

وقوله: ﴿رَغَدًا﴾ نعت لمصدر محذوف[٢] أي: (أكلا رغداً) أي: واسعاً لذيذاً لا عناء فيه ولا تعب. وهذا الذي أُبيح لهم هنا الذي يظهر أنه يدخل فيه ما طلبوه ـ أي: طلبوا نبيهم موسى أن يدعو الله لهم أن يعطيهم إياه ـ الآتي في قوله: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: آية ٦١] الظاهر أن الله لما قال لهم: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: الآية ٦١] وفتح عليهم هذه القرية قال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: الآية ٥٨] وأنه يدخل في ذلك ما طلبوه أيام التيه من البقول والفوم والعدس والبصل وما ذكر معها.

ثم إن الله (جل وعلا) أمرهم بفعل وقول شكراً لنعمة الفتح، وهو قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: ادخلوه في حال كونكم سجداً. والسُّجَّد جمع ساجد، و (الفاعل) إذا كان وصفاً من جموع تكسيره المعروفة ـ جموع الكثرة ـ أن يُجمع على (فُعَّل)، كساجد وسُجَّد، وراكع ورُكَّع[٣].

قال بعض العلماء: هو سجود على الجبهة، والمعنى: إذا دخلوا الباب سجدوا. أي: ادخلوه في حال كونكم سُجَّداً، أي: عندما تدخلون تتصفون بحالة السجود.

وقال بعض العلماء: هو سجود ركوع وانحناء تواضعاً لله، وشكراً على نعمة الفتح[٤]. وقد يُفهم من هذا أن نعمة الفتح ينبغي أن تشكر

---

(١) انظر: الدر المصون (١/٢٨١ ـ ٢٨٣)، اللسان (مادة: حيث) (١/٧٦٥).

(٢) انظر: القرطبي (١/٤١٠).

(٣) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٣٩٩).

(٤) انظر: ابن جرير (٢/١٠٤).

بالسجود لله (جل وعلا). ولما فتح النبي ﷺ مكة صلى الضحى ثمان ركعات[١]. وكان العلماء يرون أنها صلاة شكر على ما أنعم الله عليه به من الفتح، والله (تعالى) أعلم. وهذا معنى قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ﴾ الباب: واحد الأبواب، وألفه الكائنة في موضع العين مبدلة من واو، بدليل تصغيره على (بُويب)، وجمعه على (أبواب)[٢].

و ﴿سُجَّدًا﴾ حال من الواو في ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾[٣]، أي: حال كونكم سجداً لله شكراً على نعمة الفتح. وقال بعض العلماء: هو سجود انحناء وتواضع. ومنهم من شذ فزعم أنه مطلق التواضع لله. والسجود وإن كان في لغة العرب قد يطلق على مطلق التواضع فليس هو المراد في الآية.

وقوله: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ هذا القول الذي قيل لهم أيضاً. و ﴿حِطَّةٌ﴾ (فِعْلَةٌ) من (الحطِّ)، و(الحطُّ) معناه الوضع، وهو خبر مبتدأ محذوف، ومتعلَّقها محذوف. وتقرير المعنى بإيضاح: (وقولوا مسألتنا لربنا حطة)[٤] أي: غفران لذنوبنا وحط، أي: وضع لأوزارنا عن ظهورنا، فهو لفظ عربي فصيح. هذا هو القول الذي قيل لهم، أمرهم الله أن يدخلوا سجوداً متواضعين، وأن يقولوا قولاً هو استغفار وطلب لحطِّ الذنوب. وهذا معنى قوله: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾.

وقوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ فيه ثلاث قراءات سبعيات[٥]: قرأه نافع المدني: ﴿يُغفَر لكم خطاياكم﴾ بالياء المضمومة وفتح (الفاء) مبنيّاً للمفعول. وإنما جاز تذكيره والإتيان بالياء لأن تأنيث الخطايا غير حقيقي؛ ولأنه فصل

---

(١) البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب: صلاة الضحى في السفر، حديث رقم: (١١٧٦)، (٥١/٣)، ومسلم في الصحيح، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة الضحى، حديث رقم: (٣٣٦)، (٤٩٧/١).

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٥٦.

(٣) انظر: الدر المصون (٣٧٣/١).

(٤) انظر: القرطبي (٤١٠/١)، الدر المصون (٣٧٣/١).

(٥) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٣٠.

بينه وبين الفعل فاصل، وهو (لكم)، والفصل يبيح ترك (التاء)[(١)] كما تقدم[(٢)]. وقرأه الشامي ابنُ عامرٍ: ﴿تُغفَرْ لكم خطاياكم﴾ بضم (التاء) وفتح (الفاء) مبنياً للمفعول. ﴿خَطَيَـٰكُمْۚ﴾ نائب عن الفاعل في كلتا القراءتين. وقرأه غيرهما من القراء: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَيَـٰكُمۡۚ﴾ ﴿خَطَيَـٰكُمۡۚ﴾ في محل نصب على المفعول به، و ﴿نَّغۡفِرۡ﴾ بكسر (الفاء) مبنياً للفاعل. وقراءة الجمهور أشد انسجاماً بالسياق؛ لأن الله قال قبلها: ﴿قُلۡنَا﴾، ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَيَـٰكُمۡۚ﴾ وقال بعدها: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بصيغة التعظيم، فقراءة الجمهور أشد انسجاماً وملاءمة مع السياق من قراءة نافع وقراءة ابن عامر[(٣)].

و(الخطايا): جمع الخطيئة، والخطيئة: الذنب العظيم[(٤)] الذي يستحق صاحبه التنكيل، أي: نغفر لكم ذنوبكم العظيمة.

ثم قال (جل وعلا): ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ للعلماء في تفسير المحسنين هنا أقوال[(٥)]، والحق الذي لا ينبغي العدول عنه أن لا يُعدل في تفسيرها عن تفسير النبي ﷺ وهو قوله لما سأله جبريل عن الإحسان: «**هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(٦)]. يعني: الذين كانوا أشد مراقبة لله في أعمالهم سيزيدهم الله إيماناً؛ لأن الإنسان كلما ازداد تقواه لله (جل وعلا) زاده الله، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: آية ١٧] معناه: وسنزيد المحسنين منكم، أي: الذين هم أشد

---

(١) انظر: حجة القراءات ص٩٧، القرطبي (٤١٤/١)، الدر المصون (٣٧٦/١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٣) انظر: حجة القراءات ص٩٨، القرطبي (٤١٤/١).

(٤) انظر: المفردات (مادة: خطأ) ص٢٨٨.

(٥) انظر: القرطبي (٤١٥/١)، البحر المحيط (٢١٨/١).

(٦) البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان.. حديث رقم: (٥٠)، (١١٤/١)، وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٤٧٧٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الإيمان والإسلام والإحسان.. حديث رقم: (٩)، (٣٩/١).

مراقبة لله سنزيدهم من الخير والإيمان. وقال بعض العلماء: سنزيد في جزاء أعمال المحسنين؛ لأن العمل الذي يراقب صاحبه الله قد يكون ثوابه أكثر ممن هو أقل منه مراقبة.

ثم قال جل وعلا: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٥٩] وفي الكلام حذف الواو وما عَطَفَت، وحذف المُتَعَلَّق. وتقرير المعنى: فبدل الذين ظلموا قولًا غير الذي قيل لهم بقول غيره[١]، وبدَّلوا فعلًا غير الذي قيل لهم بفعل غيره. والقول الذي قيل لهم هو (حِطَّة) فبدلوه بقول غيره، وقالوا: (حبة في شعرة). وقال بعض العلماء: قالوا: (حنطة في شعيرة) وثبت في الصحيح[٢]أن القول الذي بدَّلوه: (حبة في شعرة). وفي بعض روايات الحديث (حنطة في شعيرة)[٣]. وعلى كل حال فقد بدَّلوا هذا القول الذي قيل لهم بغيره، كما بدلوا الفعل الذي قيل لهم بفعل غيره؛ لأن الفعل الذي أُمروا به هو دخولهم الباب سجداً، فبدلوه بفعل غيره، فدخلوا يزحفون على استاههم، وهذا من كفرهم، عياذاً بالله.

وما قاله بعض العلماء[٤]: من أن هذه الآية الكريمة يؤخذ منها عدم نقل الحديث بالمعنى؛ لأن الله ذمَّ من بدَّل قولًا بقولٍ غيره، فيلزم أن يكون القول هو نفس ما أُمِر به، لا قولًا غيره، غيرُ صواب. ويجاب عنه: بأن القول المأمور به له حالتان: إما أن يكون مُتَعَبَّداً بلفظه كـ (الله أكبر) في الصلاة، وما جرى مجرى ذلك من العبادات القولية، فمثل هذا لا يجوز تبديله، ومن بدَّله يلحقه من الوعيد ما لحقهم بقدر ما ارتكب في قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ ولا يجوز تبديله. أما الذي

---

(١) انظر: الدر المصون (١/٣٧٩).

(٢) البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام. حديث رقم: (٣٤٠٣)، (٦/٤٣٦)، وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الأحاديث رقم: (٤٤٧٩، ٤٦٤١)، ومسلم في الصحيح، كتاب التفسير، حديث رقم: (٣٠١٥)، (٤/٢٣١٢).

(٣) انظر: الفتح (٨/٣٠٤).

(٤) انظر: القرطبي (١/٤١١ ـ ٤١٤).

لم يُتَعَبَّد به بلفظه فلا مانع من أن يُبدل بلفظ يؤدي معناه إذا لم يكن هناك تفاوت في المعنى. وجماهير العلماء من المسلمين قديماً وحديثاً على جواز نقل الحديث بالمعنى إذا كان ناقله بالمعنى عارفاً باللسان، متبحراً فيه، لا تخفى عليه النكت والتفاوت الذي يكون بين الألفاظ، ونَقَلَه بحالة ليست أخفى من نص الحديث، ولا أظهر من نص الحديث، فلا يجوز نقله بلفظ أظهر منه. قال بعض العلماء: لأنه قد يعارضه حديث آخر، والظهور من المرجحات بين النصوص المتعارضة، فيظن المجتهد أن لفظ الراوي الظاهر الذي بدَّله بلفظ هو أقل منه ظهوراً أنه من لفظ النبي ﷺ، فيرجحه بهذا الظهور على حديث آخر، فيكون استناد هذا الترجيح مستنداً لتصرف الراوي، وهذا مما لا ينبغي. وعلى كل حال فمسألة نقل الحديث بالمعنى مسألة معروفة في الأصول[1]، وفي علوم الحديث[2]، منعها قوم واستدلوا بالحديث: أن النبي ﷺ لما سمع الرجل قال: «آمنت بكتابك الذي أنزلت ورسولك الذي أرسلت». ردَّ عليه وقال: **«ونبيك الذي أرسلت»**[3]. ولا شك أن اللفظ الذي قاله النبي ﷺ لا يقوم مقامه اللفظ الذي تصرَّف فيه الراوي؛ لأن **«ونبيك الذي أرسلت»** واضح بليغ لا تكرير فيه؛ لأن النبي ﷺ قد يكون مُرسلًا وغير مرسل، والرسول مرسل قطعاً، فيكون «رسولك الذي أرسلت» تكرار ـ يعني ـ لأن «الذي أرسلت» معناه يؤديه «رسولك» أما **«نبيك الذي أرسلت»** فيكون كل من الكلمتين عمدة وتأسيساً لا لغواً، والحاصل أنه معروف أن الجمهور من العلماء على جواز نقل الحديث بالمعنى إذا وَثِق الراوي أنه لم يزد في معناه ولم ينقص، وأن قوماً منعوا ذلك، وأن الآية لا دليل فيها لذلك ألبتة؛ لأنهم إنما بدلوا قولًا منافياً للقول الذي قيل لهم في

---

(١) انظر: البحر المحيط للزركشي (٤/٣٥٥ ـ ٣٦١)، شرح مختصر الروضة (٢/٢٤٤).

(٢) انظر: الكفاية للخطيب (١٩٨ ـ ٢١١)، تدريب الراوي (٢/٩٨ ـ ١٠٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب: فضل من بات على الوضوء، حديث رقم: (٢٤٧)، (١/٣٥٧)، وأخرجه في مواضع أُخرى، انظر الأحاديث رقم: (٦٣١١)، (٦٣١٣)، (٦٣١٥)، (٧٤٨٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب: ما يقوله عند النوم وأخذ المضجع، حديث رقم: (٢٧١٠)، (٤/٢٠٨١).

المعنى، والتبديل إذا كان منافياً في المعنى ممنوع بإجماع المسلمين، وليس مما فيه الخلاف، إنما الخلاف في تبديل الألفاظ مع بقاء المعنى، وهم بدَّلوا اللفظ بلفظ لا يؤدي معناه، أُمروا بأن يقولوا (حطة)، فقالوا: (حبة في شعرة)، أو (حنطة في شعيرة)!! فالقول الذي بدَّلوا به ليس معناه يؤدي معنى القول الذي أُمروا به، فكأنهم رفضوه بتاتاً، وعصوا الله، وجاؤوا بما لم يؤمروا به، لا لفظاً ولا معنى. والفعل الذي بدَّلوا به: أنهم أُمروا بالسجود فدخلوا يزحفون على استاههم.

وقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الفاء سببية، وصيغة الجمع للتعظيم، أي: فبسبب تبديلهم القول الذي قيل لهم بقول غيره، والفعل الذي قيل لهم بفعل غيره أنزلنا عليهم، وإنما أظهر في محل الإضمار قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ولم يقل: (فأنزلنا عليهم) ليُسَجِّل عليهم موجب هذا العذاب؛ وأنه الظلم؛ ولذا عَدل عن الضمير إلى الظاهر قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ ليبين أن هذا الرجز منزل عليهم بسبب ظلمهم، والضمير لا يعطي هذا، وإن كان معناه يؤدي المعنى في الجملة[1]. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: ظلموا أنفسهم بتبديل القول بقول غيره، والفعل بفعل غيره.

﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الرجز: العذاب، وهذا العذاب طاعون أنزله الله عليهم. قال العلماء: أهلك الله به منهم سبعين ألفاً[2].

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ (الباء) سببية، و(ما) مصدرية، أي: بسبب كونهم فاسقين[3]. والفسق[4] في لغة العرب الخروج، ومنه قوله جل وعلا: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: فخرج عن طاعة ربه،

---

(١) انظر: الدر المصون (٣٨١/١).

(٢) انظر: ابن جرير (١١٦/٢ ـ ١١٨).

(٣) انظر: الدر المصون (٣٨٢/١).

(٤) انظر: ابن جرير (٤٠٩/١)، القرطبي (٢٤٥/١)، المفردات (مادة: فسق) ص٦٣٦، الدر المصون (٢٣٤/١).

والعرب تقول: (فسقت الرُّطَبَةُ من قشرتها) إذا خرجت، و(فسقت الفأرة). إذا خرجت من جحرها للإفساد. وكون الفسق يطلق على الخروج معروف في كلام العرب، ومنه قول رؤبة بن العجاج[(١)]:

يَهْوِينَ في نَجْدٍ وغَوراً غائراً فواسِقاً عن قَصْدِها جَوَائِرا

فقوله: «فواسقاً عن قصدها» أي: خوارج عن طريق القصد إلى طريق آخر. وقال بعض العلماء[(٢)]: إنما كرر لفظ (الظلم) في قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ لأن هذا الفعل الذي هو ظلمهم ذِكْرُهُ له أهمية في السياق؛ لأنهم ظلموا في الوقت الذي أنعم الله عليهم، وعصوا أمر ربهم، ومن عادة العرب إذا كان الأمر له أهمية أن تكرره، سواء كانت أهميته من جهة خير، أو أهميته من جهة شر[(٣)]، كما قال الشاعر[(٤)]:

ليتَ الغُرابَ غداةَ يَنْعَبُ دائما[(٥)] كان الغُرابُ مُقَطَّعَ الأوْدَاجِ

لأن الغراب لما نعب ببين أحبته صار الغراب له أهمية عنده فكرر لفظه، ومنه قول الآخر[(٦)]:

لا أرى الموتَ يَسْبِقُ الموتَ شيءٌ نَغَّصَ الموتُ ذا الغِنَى والفقيرا

لما كان الموت له أهمية في قطعه الحياة كرره، ونظائر هذا كثيرة في كلام العرب، وعلماء البلاغة يقولون إن إعادة قوله: ﴿ظَلَمُواْ﴾ في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ليُسَجِّل عليهم الذنب الذي بسببه أنزل عليهم

---

(١) انظر: الكتاب لسيبويه (١/٩٤)، الخصائص (٢/٤٣٢)، القرطبي (١/٢٤٥)، الدر المصون (١/٢٣٤).

(٢) انظر: القرطبي (١/٤١٦).

(٣) انظر: الإكسير ص٢١٥، بدائع الفوائد (٢/٤٧ ـ ٤٨)، الإتقان (٣/٢١٦).

(٤) البيت لجرير، انظر: تفسير ابن جرير (٢/٣٩٦)، القرطبي (١/٤١٦).

(٥) في القرطبي (دائباً) وهكذا في الدر المصون (١/٣٨١).

(٦) البيت لعدي بن زيد، وينسب ـ أيضاً ـ لأمية بن أبي الصلت، انظر: الكتاب لسيبويه (١/٦٢)، الخصائص (٣/٥٣)، الخزانة (١/١٨٣).

العذاب[١] كما قدمنا، والله (تعالى) أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: الآيات ٦٧ - ٧١].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: الآية ٦٧] قرأ هذا الحرف جمهور القراء: ﴿هُزُؤًا﴾ بضم الزاي والهمزة، وقرأه حمزة: ﴿هُزْءًا﴾ وهي لغة تميم، وأسد، وقيس، وقرأه حفص عن عاصم ﴿هُزُوًا﴾ بإبدال الهمزة واوا[٢].

ومعنى قوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ كما ذكره المفسرون[٣]: أنه قُتِل في بني إسرائيل قتيل كما يأتي في قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: آية ٧٢] يزعمون أن اسم القتيل (عاميل)[٤]. قال بعضهم: كان له أقرباء فقراء، وهو غني، فقتلوه ليرثوه. وقيل: كانت تحته امرأة جميلة فقتله بعض الناس ليتزوجها. والأول أكثر قائلًا. وعلى كل حال فالذين قتلوا القتيل ادَّعوه على غيرهم، وسألوا من نبي الله موسى أن يسأل الله لهم ليبين لهم قاتل القتيل، فأمرهم الله (جل وعلا) على لسان نبيه أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل بجزء منها، فيحيا

(١) انظر: تفسير أبي السعود (١/١٠٥).
(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٣٠، الكشف (١/٢٤٧).
(٣) انظر: ابن جرير (٢/١٨٣ - ١٨٩)، ابن كثير (١/١٠٨).
(٤) انظر: البحر المحيط (١/٢٤٩)، مفحمات الأقران ص٤٣.

القتيل، ويخبرهم بقاتله. وهذا معنى قوله: واذكر ﴿إِذْ قَالَ﴾ أي: حين قال ﴿مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ لما ادَّارؤوا في القتيل وتدافعوه، كُلٌّ يدفع قتله عن نفسه إلى غيره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ أي: وتضربوا القتيل ببعضها فيحيا، فيخبركم عن قاتله. وقرأ هذا الحرف جماهير القراء: ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ بضمة مشبعة على القياس. وقرأه أبو عمرو: ﴿يَأْمُرْكُمْ﴾ بإسكان الراء، وزاد عنه الدُّوري باختلاس الضمة[١]، وقد قدَّمْنا وجه ذلك في قراءته في ﴿فَتُوبوا إلى بارِئْكُمْ﴾[٢].

وقوله: ﴿أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ المصدر المنسبك من (أن) وصلتها هو متعلَّق الأمر، وأصل (أَمَرَ) تتعدَّى بالباء، والأصل: (يأمركم بأن تذبحوا بقرة) أي: بذبح بقرة، وضرْب القتيل بجزء منها، كما عَدَّى الأمر بالباء في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: آية ٩٠] فالمصدر المنسبك من (أن) وصلتها مجرور بحرف محذوف[٣]، وحَذْف هذا الحرف قياسٌ مطّرد كما عقده في الخلاصة بقوله[٤]:

وَعَـدِّ لازماً بحرفِ جَـرِّ ... وإنْ حُذِفْ فالنَّصْبُ للمُنْجَرِّ
نقلاً وفي أَنَّ وأَنْ يطَّرِدُ ... مع أَمْنِ لَبْسٍ كعجِبْتُ أَنْ يَدُوا

ولطالب العلم هنا سؤال، وهو أن يقول: عرفنا أن المصدر المنسبك من (أَنْ) وصلتها المجرور بالباء المحذوفة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ أي: (يأمركم بأن تذبحوا بقرة)، فهذا المصدر بعد حذف الباء هل محله الجر بالباء المحذوفة، أو محله النصب لمَّا نُزِع الخافض؟

الجواب: أن جماهير النحويين أنه في محل نصب[٥]، وأنه لو عُطف

---

(١) انظر: القرطبي (٤٤٤/١)، البحر المحيط (٢٤٩/١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٣) انظر: البحر المحيط (٢٤٩/١ ـ ٢٥٠)، الدر المصون (٤١٧/١)، (٦٥٦/٤).

(٤) الخلاصة ص٢٨، وانظر: شرحه في الأشموني (٣٤٤/١).

(٥) انظر: القرطبي (٤٤٤/١)، تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد ص٥١١، الدر المصون (٢١١/١ ـ ٢١٢، ٤١٧).

عليه لَنُصِب على اللغة الفصحى. وخالف في هذا (الأخفش) فقال: إن محله الجر. واستدل على أن محله الجر بأنه سُمع عن العرب خفض المعطوف عليه في قول الشاعر(١):

وما زُرتُ ليلى أَنْ تكُونَ حبيبةً إلـيَّ ولا دَيْـنٍ بـهـا أنـا طـالِـبُـه

فخفض قوله: «ولا دين» بالعطف على المصدر المنسبك من (أن) وصلتها المجرور بحرف محذوف. وتقرير المعنى: «فما زُرت ليلى أن تكون حبيبة» أي: لكونها حبيبة، ولا لدين بها أنا طالبه. وأجاز سيبويه الوجهين، أن محله الكسر، والعطف عليه بالخفض، وأن محله النصب، والعطف عليه بالنصب(٢).

وأجاب الجمهور عن البيت الذي أورده الأخفش بأن الخفض فيه من عطف التوهم، وعطف التوهم يكفي فيه مطلق توهم جواز الخفض. وعطف التوهم مسموع في كلام العرب، ومن أمثلته قول زهير(٣):

بَدا لِيَ أَنّي لستُ مدرِكَ ما مضى ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائياً

فالرواية نصب «مدْرِك» وخفض «سابق»، والمخفوض معطوف على المنصوب، وهو عطف توهم. أعني توهم (الباء) في خبر (ليس)؛ لأن (بدا لي أني لست مدرك ما مضى) يجوز فيه: لست بمدركٍ ولا سابق، كما قال(٤):

وبعد (ما) و (ليس) جر (البا) الخبر ....

---

(١) وهو الفرزدق، انظر: الكتاب لسيبويه (٢٩/٣)، تخليص الشواهد ص٥١١، الدر المصون (٢١٢/١).

(٢) انظر: الكتاب (٢٨/٣ ـ ٣٠).

(٣) الكتاب لسيبويه (٢٩/٣)، تخليص الشواهد ص٥١٢.

(٤) هذا الشطر الأول من أحد أبيات الخلاصة، وشطره الثاني:

.... وبعد لا ونفي كان قد يُجر

انظر: الخلاصة ص٢٠، وانظر: شرحه في الأشموني (٢٠٥/١).

فتوهموا (الباء) لمطلق الجواز، وعطفوا عليه خفضاً عطف توهم، ونظيره قول الآخر[١]:

مشائيمُ ليسوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً ... ولا ناعِبٍ إلاَّ ببينٍ غُرابُها

بخفض (ناعب) عطفاً على (مصلحين)، لتوهم جواز دخول الباء. قالوا: من ذلك:

وما زُرت ليلى أن تكون حبيبة ... إليَّ ولا دينٍ...

لتوهم اللام.

وقوله جل وعلا: ﴿أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ الذبح معروف، و (بقرةً) قال بعض العلماء: تاؤه للتأنيث، وذَكَرُه يُسمى ثوراً[٢]. وقال بعض العلماء: هي تاءُ الوحدةِ، والبقر يُطلق على ذكره وأنثاه.

وهذه الآية الكريمة تدلُّ بظاهرها على أنهم لو ذبحوا أيَّ بقرة لأجزأت، ولكنهم شدَّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم.

وقوله جل وعلا: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي: قال قوم موسى لموسى لَمَّا قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي: مهزوءاً منا من قِبلك بأن نقول لك: ادع لنا ربك يبين لنا قاتل القتيل، فتجيبنا بقولك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فهذا الجواب غير مطابق للسؤال، فكأنك تستهزىء منا، وتسخر منا، ولم يفهموا أن المراد بذبح البقرة أنه يُضرب القتيل ببعض منها فيحيا - بإذن الله - ويخبرهم بقاتله، فقال نبي الله موسى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أعتصم وأتمنع بربي أن أكون من الجاهلين. الجاهلون: جمع الجاهل، وهو الوصف من (جهِل). وأحسن تعاريف الجهل عند علماء الأصول: أنه هو انتفاء العلم بما من شأنه أن يُقصد ليُعلم، وللعلماء فيه أقوال متعددة محل ذكرها في فن الأصول[٣].

---

(١) البيت للفرزدق، وهو في الكتاب لسيبويه (٢٩/٣)، الخصائص (٣٥٤/٢).
(٢) انظر: القرطبي (٤٤٥/١)، الدر المصون (٤١٧/١).
(٣) انظر: حاشية البناني (١٦١/١)، شرح الكوكب (٧٧/١)، الكليات ص٣٥٠، نثر الورود (٧٤/١).

والمعنى: أن نبي الله موسى استعاذ بربه (جل وعلا) من أن يكون معدوداً، وفي عداد الجاهلين[١]. والآية تدل على أن من يستهزىء من الناس أنه جاهل[٢]؛ لأن نبي الله موسى استعاذ بالله من أن يكون اتخذهم هزؤاً كما قالوا؛ ولذا قال: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فلما علموا أن الأمر من الله جدّ، وأن الجواب مطابق لسؤالهم، وأن المراد بذبح البقرة أن يُضرب القتيل بجزء منها فيحيا، فيخبرهم بقاتله، تعنتوا وأكثروا الأسئلة فشدَّدُوا على أنفسهم، فشدَّدَ الله عليهم، قالوا مخاطبين نبيهم: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: آية ٦٨] أي: اسأل لنا ربك ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، المراد بقوله: ﴿مَا هِيَ﴾ هنا يعنون: ما سِنُها[٣]؛ لأن السؤال يوضِّحه الجواب، حيث قال لهم نبي الله موسى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ﴾ ﴿إِنَّهَا﴾ أي: البقرة التي سألتم عن سِنِّها ﴿بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، ﴿عَوَانٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف[٤]. والمعنى: لا فارض ولا بكر، هي عوان بين ذلك. الفارض: المُسنَّة التي طعنت في السن، وكل طاعن في السِّنّ تسميه العرب (فارضاً)، وكل قديم تسميه (فارضاً)[٥]، ومن أمثلته في كلام العرب قول خفاف بن نُدبة السُّلَمي يهجو العباس بن مرداس، وقيل: القائل علقمة بن عوف[٦]:

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٥٣/١).

(٢) سُئل الشيخ (رحمه الله) عن الفرق بين الجهل الذي هو ضد العلم، وبين الجهل الذي هو ضد الحلم.

فأجاب بقوله: «مما يبين ذلك المناظرة التي عقدها بعض الأدباء بين الحلم والعقل حيث قال:

حلم الحليم وعقل العاقل اختلفا ... من ذا الذي منهما قد أكمل الشرفا
فالعقل قال أنا أحرزت غايته ... لأنني بي رب الناس قد عُرِفا
فأفصح الحلم إفصاحاً وقال له ... بأينا الله في تنزيله اتصفا
فبان للعقل أن الحلم سيده ... فقبَّل العقل رأس الحلم وانصرفا»

(٣) انظر: أضواء البيان (٧٨/١).

(٤) انظر: القرطبي (٤٤٩/١)، الدر المصون (٤٢١/١).

(٥) انظر: القرطبي (٤٤٨/١)، الدر المصون (٤٢٠/١).

(٦) القرطبي (٤٤٨/١)، اللسان (مادة: فرض) (١٠٧٨/٢)، البحر المحيط (٢٤٨/١)، الدر المصون (٤٢٠/١).

لَعَمْرِي لَقَدْ أَعْطَيتَ جَارَكَ فارِضاً تُساقُ إليه ما تقومُ على رِجْلِ
ولم تُعْطِه بِكْراً فَيَرْضَى سَمِينةً فكيفَ تُجازَى بالمودةِ والفَضْلِ

ومن إطلاق العرب الفارض على ما تقادم عهده قول الراجز[١]:

يا رُبَّ ذي ضِغْنٍ عَلَيَّ فارض لَهُ قروءٌ كقُرُوء الحائِضِ

يعني: بالضغن الفارض: أنه تقادم عهده وطالت سِنُّه. قال بعض العلماء: ومنه قول الآخر[٢]:

شَيَّبَ أَصْداغِي فرأْسِي أبيَضُ محافلٌ فيها رجالٌ فُرَّضُ

قال: أي طاعنون في السن، والأظهر أن المراد بقول هذا الراجز «فُرَّضَ» أي: ضخام الأبدان؛ لأن العرب تُطلق الفارض أيضاً على الضخم عظيم البدن.

وقوله: ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ البكر: هي التي لم يَفْتحِلها الفحل لصغرها[٣]. وقال بعض العلماء: البكر: التي وَلَدَت مرّة[٤]، ولكن المراد هنا التي لم يفتحلها الفحل لصغر سنها، والمعنى: ليست هذه البقرة التي أُمرتم بذبحها بطاعنة في السن فارض، ولا بصغيرة جداً لم يفتحلها الفحل، بل هي ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ العوان: النَّصَف، أي: لا طاعنة في السن ولا بكر، أي: لا صغيرة جداً بل هي: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ والعوان: النَّصَف، وأصل النَّصف: التي انتصف عُمُرها[٥]، وهي وسط في السن، ليست بصغيرة جداً، ولا كبيرة جداً، وكل متوسطة في السن نَصَفٌ تسميها العرب

(١) انظر: الطبري (٢/١٩٠)، اللسان (مادة: فرض) (٢/١٠٧٨)، القرطبي (١/٤٤٨).
(٢) انظر: اللسان (مادة: فرض) (٢/١٠٧٨)، القرطبي (١/٤٤٨)، الدر المصون (١/٤٢٠).
(٣) انظر: القرطبي (١/٤٤٩)، الدر المصون (١/٤٢١).
(٤) نفس المصدرين، أدب الكاتب ص١٥٩.
(٥) انظر: القرطبي (١/٤٤٩)، الدر المصون (١/٤٢١).

(عواناً)، وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الطِّرِمَّاح قال[١]:

حَصَانٌ مواضِعِ النقبِ الأعالي   نواعمُ بين أبكارٍ وعُونِ

يعني بالأبكار جمع بِكْر، الصغيرة التي لم تتزوج. والعُون: جمع عوان، وهي النَّصَف، والنَّصَف التي انتصف عُمرها، فهي في وسط سنها، ليست بكبيرة جداً، ولا بصغيرة جداً، ومنه قول كعب بن زهير[٢]:

شَدَّ النهارُ ذِراعا عَيْطَلٍ نَصَفٍ   قامَتْ فَجاوَبَها نُكْدٌ مَثاكِيلُ

وفسّر بعض الأدباء في شعره (النَّصَف) بالتي انتصف عمرها، حيث قال[٣]:

وإنْ أَتَوكَ وقالوا إنها نَصَفٌ   فإنَّ أطيب نصفَيها الذي ذَهَبَا

وقوله: ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ فيه سؤال معروف وهو أن (ذلك) إشارة إلى مفرد مذكر، كما قال في الخلاصة[٤]:

بذا لمفردٍ مذكرٍ أَشِرْ   ....

و (بين) لا تضاف للمفرد إلا إذا أُريدت أجزاؤه.

والجوابُ[٥]: أن ذلك وإن كان لفظه مفرداً فمعناه مثنى؛ لأن الإشارة راجعة إلى ما ذُكر من الفارض والبِكْر، أي بين ذلك المذكور من فارض وبِكْر؛ لأن العوان أصغر من الفارض وأكبر من البِكْر، ونظير هذا من كلام العرب قول ابن الزِّبعرى كما تقدم[٦]:

---

(١) انظر: الكشاف (٧٤/١)، تفسير أبي السعود (١١١/١)، الدر المصون (٤٢١/١).

(٢) شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام ص٢٢٩.

(٣) عيون الأخبار (٤٣/٤)، والبيت من شواهد ابن هشام في شرحه لقصيدة كعب بن زهير ص٢٣٠.

(٤) الخلاصة ص١٤. وهذا هو الشطر الأول في البيت.

(٥) انظر: الدر المصون (٤٢٢/١)، مغني اللبيب (١٧٢/١).

(٦) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من هذه السورة.

إنَّ لـلـشـرِّ ولـلـخـيـرِ مَـدىً ... وكِـلا ذلـك وجْـهٌ وقَـبَـلْ

أي: وكِلَا ذلك المذكور من شر وخير؛ لأن (كِلَا) لا تضاف إلا لمثنى لفظاً أو معنىً، وهذا معنى قوله: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ الأصل (ما تؤمرون به) فحُذِف الباء، فوصل الفعل إلى الضمير فحُذف[1].

وهذا الذي يؤمرون به هو ذبح البقرة ليضربوا القتيل بجزء منها فيحيا. وهذا معنى قوله: ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ فزادوا تعنتاً وسؤالًا وتشديداً
١/٣ فشدَّد الله عليهم أيضاً/ قال: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ [البقرة: الآية ٦٩] ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن﴾ (يبين) في هذه المواضع مجزوم بجزاء الأمر، والفعل المضارع المجزوم في جزاء الطلب يقول المحققون من علماء العربية: إنه مجزوم بشرط مقدر دلَّ عليه الأمر[2]. وتقرير المعنى: إن تدعُ لنا ربك يبين.

﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ اللون هو إحدى الكيفيات التي يكون عليها الجرم، كالسواد والبياض. يعني ما اللون الذي هي متلونة به؟

﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أي: ربكم جل وعلا: ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ﴾ أي: متصفة بلون الصُّفرة، والتحقيق أن المراد بالصفرة هنا الصفرة المعروفة، وما ذهب إليه بعض أهل العلم من أن المراد بالصفرة (السواد) مردود من وجهين[3]:

أحدهما: أنه أكَّد الصفرة بقوله: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ والفقوع لا يوصف به إلا الصُّفرة الخالصة تماماً.

[ثانيهما][4]: أن العرب لا تُطلق الصفرة وتريد السواد إلا في الإبل

---

(١) انظر: الدر المصون (٤٢٣/١).

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (٣٠١/٢)، الدر المصون (٣٦٢/٥).

(٣) انظر: ابن جرير (١٩٩/٢ ـ ٢٠١)، القرطبي (٤٥٠/١)، الدر المصون (٤٢٥/١).

(٤) في الأصل: ثانية.

خاصة دون غيرها، كما يأتي في تفسير قوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ۝٣٣﴾ [المرسلات: الآيتان ٣٢ ـ ٣٣] الجمالة جمع الجمل. والمراد بـ (الصفر) هناك (السود)؛ لأن شرر نار الآخرة أسود[1]، والعرب إنما تطلق الصفرة على السواد في الإبل خاصة دون غيرها من سائر الحيوانات، ومن إطلاق العرب الصُفرة على سواد الإبل قول الأعشى[2]:

تِلْكَ خَيْلي منه وتلك رِكَابِي هُنَّ صُفر أولادُها كالزَّبِيب

يعني بقوله: (صفر): سود. فالتحقيق أن المراد بالصفرة هنا: هي الصفرة المعروفة.

وقوله: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ هذا نعت سببي.

والتحقيق في إعراب ﴿لَّوْنُهَآ﴾ أنه فاعل لقوله: ﴿فَاقِعٌ﴾ وأن ﴿فَاقِعٌ﴾ نعت سببي لقوله: ﴿بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ﴾ و ﴿لَّوْنُهَآ﴾ فاعل به لقوله: ﴿فَاقِعٌ﴾.

وقال بعض العلماء: (لونها) مبتدأ مؤخر، و(فاقع) خبر مقدَّم، وجملة المبتدأ والخبر في محل النعت. أي: بقرة صفراء لونها فاقع. أي: صفرتها خالصة جداً[3].

وقوله: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ أي: يدخل السرور على من نظر إليها لكمال حسنها. ذكروا في قصتها أن الشمس تتوضح في جلدها لشدة حسنها[4]. وعادةً إذا نظر الإنسان إلى شيء جميل سرّه النظر إلى ذلك الشيء الجميل؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: الآية ٧٠].

---

(١) انظر: القرطبي (١٩/١٦٤).

(٢) ابن جرير (٢/٢٠٠)، القرطبي (١/٤٥٠)، (١٩/١٦٤)، اللسان (مادة: خشب) (١/٨٣٣)، (مادة: صفر) (٢/٤٤٨).

(٣) انظر: الدر المصون (١/٤٢٤).

(٤) انظر: ابن جرير (٢/٢٠٢).

فالسؤال الأول عن سنها، وهل هي كبيرة، أو صغيرة، أو متوسطة؟

والسؤال الثاني عن لونها، وقد تقدم الجواب فيهما.

والسؤال الثالث عن صفتها، هل هي مذللة مروضة عاملة، أو هي صعبة غير مروضة؟ وهل فيها لون يخالف لون جلدها الآخر؟ ولذا أجابه بما يأتي.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ يعنون [أن] هذه الأوصاف كثيرة في البقر، فيكثر في البقر: الصفرة، والفقوع، والتوسط في السن، فلم تتميز لنا هذه البقرة من غيرها من البقر للاشتراك في الصفات.

وأفرد الضمير في ﴿تَشَـٰبَهَ﴾ وذلك يدل على أن أسماء الأجناس يجوز تذكيرها وتأنيثها[١]. وقراءة الجمهور هنا ﴿تَشَـٰبَهَ﴾ هُو. أي: البقر، بصيغة الماضي. وتذكير الضمير لأن (البقر) جنس يجوز تذكيرها وتأنيثها. وفي بعض القراءات: ﴿تَشَّابَهُ علينا﴾ وأصله: تتشابه هي، أي: البقر، وأدغم التاء في التاء، وهذه قراءة شاذة[٢]. و(البقر) يجوز تذكيره وتأنيثه، وهو اسم جنس يقال فيه: باقر، وبيقور، وفيه لغات غير ذلك[٣]. ومِن إطلاقه على (البيقور) قول الشاعر[٤]:

أجاعِلٌ أَنْتَ بَيْقُوراً مُسلَّعَةً ذَرِيعَةً لك بَيْنَ الله والمطَرِ

قيل: سمي البقر بقراً لأنه يَبْقُر الأرض، يعني بحيث يشقها للحرث[٥]. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا﴾.

﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ مفعول المشيئة محذوف، وتقرير المعنى: وإنا لمهتدون إن شاء الله هدايتنا[٦]. ففصل بين اسم (إن) وخبرها، وحذف

(١) انظر: الدر المصون (٤٢٦/١).
(٢) انظر: القرطبي (٤٥١/١)، البحر المحيط (٢٥٣/١).
(٣) انظر: الحيوان للجاحظ (٤٦٨/٤)، القرطبي (٤٤٥/١، ٤٥١).
(٤) البيت للورل الطائي، انظر: الحيوان للجاحظ (٤٦٨/٤)، اللسان (مادة: بقر) (٢٤٢/١).
(٥) انظر: الدر المصون (٤١٧/١).
(٦) المصدر السابق (٤٢٧/١).

مفعول (إن شاء) لدلالة المقام عليه. وتقرير المعنى: وإنا لمهتدون إلى نفس البقرة المطلوبة إن شاء الله هدايتنا إليها. ذُكر عن ابن عباس أنه قال: لو لم يقولوا إن شاء الله لما اهتدوا إليها أبداً[1]. ﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أي: ربكم جل وعلا ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ [البقرة: الآية ٧١] الذلول: هي التي ذُلِّلَتْ بالرياضة حتى صار يُعمل عليها، يُحرث عليها ويُستقى. تقول العرب مثلاً: هذه دابة ذلول، بيِّنة الذِّل (بالكسر)، ورجل ذليل، بيِّن الذُّل (بالضم)[2].

﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ أي: لم تذلل بالرياضة، بل هي صعبة متوحشة.

وقوله: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني لم تُذلل، ليست بذلول مروضة، ولا تثير الأرض، أي: لا يُحرث عليها؛ لأن البقر تثار عليها الأرض

---

(١) ورد في هذا المعنى عدة روايات، منها المرفوع ومنها الموقوف؛ أما الروايات المرفوعة ـ وكلها ضعيفة ـ فعلى النحو التالي:
١ ـ من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند ابن أبي حاتم في التفسير (١/١٤١)، والبزار (كشف الأستار ٣/٤٠)، وأورده ابن كثير في التفسير (١/١١١) من طريق ابن أبي حاتم، ومن طرق ابن مردويه. كما ذكره الهيثمي في المجمع (٦/٣١٤)، والسيوطي في الدر (١/٧٧)، والشوكاني في التفسير (٦/١٦٢) وعزواه لابن أبي حاتم وابن مردويه.
٢ ـ عن عكرمة ـ مرسلاً ـ عند سعيد بن منصور (٢/٥٦٥)، وأورده السيوطي في الدر (١/٧٧)، والشوكاني في التفسير (١/١٦٢) وعزواه للفريابي، وسعيد بن منصور، وابن المنذر.
٣ ـ عن ابن جريج ـ مرسلاً ـ عند ابن جرير (٢/٢٠٥)، وأورده السيوطي في الدر (١/٧٧)، والشوكاني في التفسير (١/١٦٢) وعزواه لابن جرير.
٤ ـ عن قتادة ـ مرسلاً ـ عند ابن جرير (٢/٢٠٦)، وأورده السيوطي في الدر (١/٧٧)، والشوكاني في التفسير (١/١٦٢) وعزواه لابن جرير.
وأما الروايات الموقوفة فهي:
١ ـ عن عكرمة، عند ابن جرير (٢/٢٠٤ ـ ٢٠٥).
٢ ـ عن أبي العالية، عند ابن جرير (٢/٢٠٥ ـ ٢٠٦).
(*) وقال الشوكاني بعد أن أورد حديث أبي هريرة ـ السابق ـ: «وأخرج نحوه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس» ا.هـ (فتح القدير ١/١٦٢). قلت: ولم أقف على هذه الجملة ـ من كلام ابن عباس ـ في الكتابين المذكورين، فالله أعلم.
(٢) انظر: الدر المصون (١/٤٢٩).

للحرث، وهذه البقرة لم تُذلل بالرياضة، ولم تُثر أرض الحرث لصعوبتها وتوحُشها، فليست مروضة.

﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ يعني: ليست مما يُحرث عليه، ولا يُستنى عليه لسقي الزرع؛ لأنها صعبة متوحشة. وهذا هو التحقيق: أن ﴿تُثِيرُ﴾ و ﴿تَسْقِى﴾ كلها معطوفات على النفي فهي منفية[١]. والمعنى: ﴿لَّا ذَلُولٌ﴾ ليست مذللة مروضة، وليست ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ للحرث و ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أيضاً؛ لأنها صعبة متوحشة. خلافاً لمن زعم أن ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ مؤتنف.

والذين قالوا: «تثير الأرض»[٢] يردُّ قولهم أنه قال: ﴿لَّا ذَلُولٌ﴾ والمروضة للحرث ذلول.

وأجاب بعضهم[٣]: أن المراد بـ ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: تثيرها بشدة وطء أظلافها لنشاطها وقوتها. وهذا خلاف الظاهر، بل معنى الآية: أن من صفات هذه البقرة أنها غير مروضة، وغير مذللة، فليست تثير الأرض؛ لأنها لم تُذلل لذلك، ولا تسقي الحرث، ولا يُستَنى عليها؛ لأنها لم تُرَض، ولم تذلل لذلك. وهذا هو معنى الآية.

وقوله: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي: من جميع العيوب، ليس فيها عرج، ولا عور، ولا كسر قرن، ولا أي عيب. أي: مسلمة من جميع العيوب.

وقوله: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ وزن الشِيَة: (عِلَة)، وأصل مادتها: (وشى)، ومعروف أن المثال ـ أعني واوي الفاء ـ يطَّرد حذف فائه في المصدر ـ مثلًا ـ إذا كان على (عِلَة)[٤]، وكذلك في المضارع والأمر، كما عقده في الخلاصة بقوله[٥]:

---

(١) انظر: القرطبي (٤٥٢/١)، الدر المصون (٤٢٨/١).
(٢) أي: على الإثبات.
(٣) انظر: القرطبي (٤٥٣/١).
(٤) انظر: القرطبي (٤٥٤/١)، الدر المصون (٤٣١/١).
(٥) الخلاصة ص٧٩، وانظر شرحه في الأشموني (٦٥٣/٢).

فـا أَمْـرٍ اوْ مُـضَـارِعٍ مِـنْ كَـوَعَـدْ   احْـذِفْ وَفِـي كَـعِـدَةٍ ذاكَ اطَّـرَد

فأصل الشِّيَة: (وشية) من الوَشي، والوَشْيُ: هو - مثلًا - أن يكون في الشيء لونان مختلفان، فكل - مثلًا - شيء فيه لونان مختلفان تقول العرب: فيه وشي[1]. وإذا كان - مثلًا - حمار الوحش أو الثور فيه خطوط - يعني تُخالف لونه في أرجله - يقولون له: مَوْشِي. أي: فيه وشي. ومن هذا المعنى قول نابغة ذبيان[2]:

كَـأَنَّ رَحْـلِـي وقَـدْ زَالَ الـنَّـهَـارُ بِـنَـا   بِذِي[3] الجليل[4] على مُسْتَأْنَسٍ وَحَدِ
مِنْ وَحْشِ وجْرَةَ[5] موشيٍ أكارعُه   طاوي المصير[6] كسيفِ الصَّيْقَلِ الفَرَدِ

(موشي أكارعه) يعني [أن][7] فيها وشياً. أي: خطوطاً تخالف لونه، فمعنى ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ أي: لا وشي من خطوط مخالفة للونها، بل لونها كله أصفر فاقع على وتيرة واحدة، حتى قال بعض العلماء[8]: إن أظلافها وقرونها صفر. وهذا معنى قوله: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾.

﴿قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ﴾ الألف واللام زائدتان لزوماً في ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾[9]. وهي يُعبَّر عنها بالوقت الحاضر. وبعض العلماء يقول: هو مبني على الفتح؛ لأنه خُولفت به نظائره. وعلى كل حال فالمراد بـ ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾: الوقت الحاضر، في هذا الوقت الحاضر ﴿جِئْتَ﴾ - يعني في صفات هذه البقرة

---

(١) انظر: القرطبي (٤٥٤/١)، الدر المصون (٤٣١/١).
(٢) ديوان النابغة الذبياني ص١٠ - ١١.
(٣) في الديوان: (يوم).
(٤) واد قرب مكة، وقد جاوزه البنيان في هذا الوقت.
(٥) وجرة: اسم مكان معروف بين مكة والبصرة، بينها وبين مكة نحو أربعين ميلًا، ليس فيها منزل، فهي مرتع للوحش. انظر: معجم البلدان (٣٦٢/٥).
(٦) أي: ضامر البطن.
(٧) في الأصل: أنها.
(٨) انظر: ما نقله ابن جرير عن بعض السلف في هذا المعنى في التفسير (١٩٩/٢ - ٢٠٠).
(٩) انظر: الدر المصون (٤٣٣/١).

المطلوبة - ﴿بِالْحَقِّ﴾، ويتعين هنا حذف الصفة؛ لأنه لو لم تقدر الصفة لكانوا كفاراً؛ لأنهم لو قالوا: لم يأت بالحق إلا في هذا الوقت، فقبل هذا الوقت لم يكن آتياً بالحق!! كانوا مكذبين لنبي كريم، ومن كذب نبياً كريماً فهو كافر؛ ولذلك يتعين تقدير النعت هنا[١]، والمعنى: جئت بالحق الذي لا يترك في هذه البقرة لبساً لإيضاحها بصفاتها الكاشفة تماماً، وقد تقرر في علم العربية: أن حذف الصفة إذا دلَّ المقام عليه موجود في القرآن، وفي كلام العرب[٢]، فمن أمثلته في القرآن ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: آية ٧٩] حُذف نعتها، أي: كل سفينة صحيحة. إذ لو كان يأخذ المعيبة لما كان في خرق الْخَضِر للسفينة فائدة، ولَمَا قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: آية ٧٩].

قال بعض العلماء[٣]: ومنه ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ [الإسراء: آية ٥٨] قالوا: حذف وصفه. أي: وإن من قرية ظالمة. بدليل قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: آية ٥٩]. ومن شواهد حذف النعت في لغة العرب قول الشاعر، وهو المرقَّش الأكبر[٤]:

وَرُبَّ أَسِيلَةِ الخَدَّينِ بِكْرٍ مُهَفْهَفَةٍ لها فَرْعٌ وجِيدُ

أي: لها فرع فاحم، وجيد طويل. ومن هذا القبيل قول عبيد بن الأبرص الأسدي[٥]:

مَنْ قَولُه قَولٌ ومَنْ فِعْلُهُ فِعْلٌ ومَنْ نائِلُه نَائِلُ

يعني: من قوله قول فصل، ومن فعله فعل جميل، ومن نائله نائل جزل. فحذف النعوت لدلالة المقام عليها، وهذا كثير في كلام العرب، وإن

(١) انظر: البحر المحيط (٢٥٧/١).
(٢) انظر: التوضيح والتكميل (١٥٣/٢). أضواء البيان (٦٠٠/٣)، (١٨٠/٤).
(٣) راجع الهامش السابق.
(٤) ضياء السالك (١٨/٣)، المعجم المفصَّل في شواهد النحو الشعرية (٢٢٧/١).
(٥) ديوان عبيد بن الأبرص ص١٠٠.

ذكر ابن مالك في الخلاصة أن حذف النعت قليل حيث قال[١]:

وَمَا مِنَ المَنْعُوتِ والنَّعْتِ عُقِل   يجوزُ حذفُهُ وفي النَّعت يَقِلْ

وهذا معنى قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: جئتَ في الوقت الأخير بالحق الذي لا يترك في هذه البقرة لبساً، ولا يتركها تتشابه مع غيرها من البقر؛ لأنه مُيِّزَت بصفاتها الكاشفة التي تفصلها وتميزها عن غيرها.

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة جواز السَّلَم في الحيوانات[٢]، وأنها تنضبط بصفاتها الكاشفة حتى تصير كالمرئية؛ لأن هؤلاء الناس لا يوجد ناس أشد منهم تعنتاً، فاضطرتهم الصفات الكاشفة إلى أن اعترفوا بأن هذه البقرة ظهرت صفاتها وتميزت عن غيرها، ويدل لهذا قول النبي ﷺ: «**لا تصف المرأةُ المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظر إليها**»[٣]. فبين ﷺ أن الصفات الكاشفة تقوم مقام النظر؛ لأنها تعيِّن الموصوف. وهذا دليل واضح لما ذهب إليه جمهور العلماء من السلف في الحيوانات إذا بُينت صفاتها؛ لأن الوصف يجعلها كالمرئية ويضبطها. خلافاً للإمام أبي حنيفة (رحمه الله) الذي منع السَّلم في الحيوانات بناءً على أنها لا تنضبط صفاتها[٤]. ومما يؤيد السَّلم فيها ـ خلافاً للإمام أبي حنيفة (رحمه الله): ما ثبت عن النبي ﷺ أنه استسلف بَكْراً وردَّ رباعياً[٥]، وكما دلت عليه هذه النصوص.

قال بعض العلماء: ويؤخذ من هذه القصة أيضاً جواز النسخ قبل

---

(١) الخلاصة ص٤٥، وانظر: شرحه في الأشموني (٧٤/٢).

(٢) انظر: الأم للشافعي (١١٧/٣)، أحكام القرآن لابن العربي (٢٦/١)، الإنصاف (٨٥/٥).

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، باب: لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها، حديث رقم: (٥٢٤٠ ـ ٥٢٤١)، (٣٣٨/٩)، بلفظ: «لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها». واللفظ الذي ذكره الشيخ (رحمه الله) وهو لفظ الحديث عند الطبراني في الكبير، رقم: (١٠٢٤٧)، (١٧٣/١٠) مع اختلاف يسير.

(٤) انظر: بدائع الصنائع (٢٠٩/٥)، القرطبي (٤٥٣/١).

(٥) مسلم، كتاب المساقاة، باب من استسلف شيئاً فقضى خيراً منه، حديث رقم: (١٦٠٠)، (١٢٢٤/٣).

التمكن من الفعل؛ لأن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ نكرة في سياق الإثبات، والنكرة في سياق الإثبات إطلاق، فلو ذبحوا أي بقرة كانت لصدقت باسم تلك البقرة المطلقة، ولأجزأتهم، ولَمَّا شددوا نَسَخَ الله الاكتفاء ببقرة مجردة أيةً كانت إلى بقرة موصوفة بصفات منعوتة بنعوت كثيرة شديدة. ومن هنا قال بعض العلماء[(١)]: هذه من الأدلة على النسخ قبل التمكن من الفعل. وقال بعض العلماء: هذا لا يصلح مثالًا للنسخ قبل التمكن من الفعل؛ لأن هذا حكم زيدت فيه صفات، ولم ينسخ ذبح البقرة بالكلية، بل بقي محكماً، وإنما زيدت في البقرة صفات.

وأجاب القائلون بأنه نسخ قالوا: زيادة هذه الصفات تضمَّن نسخاً في الجملة؛ لأن مضمون النص الأول يدل على أن كل بقرة ذبحت كائنة ما كانت ولو مجردة عن تلك الصفات [أجزأت][(٢)]، فَوَصْفُهَا بالصفات الآتية الجديدة نَسَخَ الاجْتِزَاء بأي بقرة كانت. وعلى كل حال فهذه مسألة أصولية هي - مثلًا -: هل يجوز النسخ قبل التمكن من الفعل أو لا يجوز[(٣)]؟ والجماهير من العلماء على أنه جائز، وواقع، ومن أمثلته: نَسْخُ خمس وأربعين صلاة ليلة الإسراء بعد أن فُرضت خمسين، ونُسخ منها خمس [وأربعون][(٤)]، ثم أُقرَّت خمساً. ومن أمثلته قوله (جل وعلا) في إبراهيم في قصة ذبح إبراهيم لولده: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾ [الصافات: آية ١٠٧]. لأنه أمره أن يذبح ولده، ونسخ عنه هذا الأمر قبل التمكن من الفعل.

والتحقيق أن هذا جائز وواقع. ولا شك أن فيه سؤالًا معروفاً، وهو أن يقول طالب العلم: إذا كان الحكم يشرَّع وينسخ قبل العمل فما الحكمة في تشريعه الأول إذا كان يُنسخ قبل أن يُعمل به؟

---

(١) انظر: القرطبي (٤٤٨/١)، البحر المحيط (٢٥٨/١).

(٢) في الأصل: لأجزأت.

(٣) انظر: المستصفى (١١٢/١)، البحر المحيط للزركشي (٨١/٤)، شرح الكوكب (٥٣١/٣)، شرح مختصر الروضة (٢٨١/٢، ٣٠٩)، مجموع الفتاوى (١٤٦/١٤، ١٤٧)، نثر الورود (٣٤٨/١)، المذكرة ص٧٣.

(٤) في الأصل: وأربعين.

الجواب: أن التحقيق أن حكمة التشريع منقسمة قسمة ثنائية، وهي دائرة بين الامتثال والابتلاء[١]. فإذا نُسخ الحكم بعد العمل به فحكمته الامتثال وقد امتُثِل، وإذا نُسخ قبل العمل به فحكمة تشريعه الأول الابتلاء، وهو اختبار الخلق هل يتهيؤون للامتثال؟ وقد وقع الابتلاء، وقد نصَّ الله (جل وعلا) في قصة إبراهيم على أن الحكمة في أمره بذبح ولده ـ مع أن الله يعلم أنه لا يُمكِّنه من ذلك ـ هو الابتلاء هل يتهيأ ويطيع ربه في أن يذبح ثمرة قلبه؟ كما قال جل وعلا: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات: آية ١٠٣] يعني: تلَّه للجبين لينفذ فيه الذبح حتى ـ مثلًا ـ قال له ربه: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: الآيتان ١٠٤ ـ ١٠٥] وقال: ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: آية ١٠٧] ثم إن الله نصَّ على أن الحكمة الابتلاء في قوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: آية ١٠٦].

وقوله جل وعلا: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أي: فذبحوا البقرة، وضربوه بجزء منها فحيي، وأخبرهم بقاتله كما يأتي.

وقوله: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ يعني: ما كادوا يذبحونها إلا بعد جَهدٍ جهيدٍ؛ لما جاؤوا به دون ذبحها من السؤالات والتعنتات.

وقول بعض العلماء: إنَّ (كاد) إذا كانت في الإثبات دلت على النفي، وإذا كانت في النفي دلت على الإثبات، وأن هذا يُلغز به: هو في الواقع غير صحيح[٢]، وأن (كاد) فعل مقاربة تدل على مقاربة حصول الخبر للمبتدأ، وإذا نُفيت نُفيت المقاربة. يعني: ما قاربوا أن يذبحوا. يعني في

---

(١) انظر: نثر الورود (٣٤٨/١)، المذكرة (٧٣ ـ ٧٤).

(٢) في الكلام على (كاد) راجع: تفسير ابن جرير (١٥١/١٨)، تهذيب اللغة للأزهري (٣٢٩/١٠)، شرح الكافية لابن مالك (٤٦٦/١)، المساعد على تسهيل الفوائد (٣٠٣/١)، البحر المحيط (٢٥٨/١)، الكليات ص٧٤٩، القاموس (مادة: الكود) ص٤٠٣، الدر المصون (١٧٦/١)، الأشباه والنظائر للسيوطي (٢٦/٣)، التحرير والتنوير (٥٥٧/١ ـ ٥٥٩)، تفسير سورة النور للشيخ (رحمه الله) ص١٥٥، النحو الوافي (٦١٨/١).

زمن التعنت والأسئلة، حتى انقضى زمن التعنت والأسئلة، في آخر الأمر ذبحوها، والقرينة على أن هذا المراد: أنه صرَّح بأنهم ذبحوها ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ يعني: في الآونة الأخيرة ﴿وَمَا كَادُوا۟﴾ قبل ذلك في الأزمان التي قبله ﴿يَفْعَلُونَ﴾ لتعنتهم وكثرة سؤالاتهم وعدم امتثالهم. وهذا معنى قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: الآيات ٧٢ ـ ٧٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [البقرة: آية ٧٢] ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: الآية ٦٧] وقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾ هو أول القصة في الوقوع، ولكنه متأخر في النزول(١) وترتيب القرآن على الظاهر، أي: واذكروا ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ هو القتيل المتقدِّم، قيل اسمه: (عاميل)(٢). والعرب تعبر عن الشخص بالنفس، تقول: (قتل نفساً) أي: شخصاً ذكراً كان أو أنثى، والظاهر أن هذا القتيل ذَكَر، بدليل تذكير الضمير العائد عليه في قوله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: الآية ٧٣] أي: القتيل الذي فيه النزاع(٣).

وهنا سؤال، وهو أن يقال: ما المسوغ لإسناد قتل هذا القتيل إلى جميعهم في قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾؟

الجواب(٤): أن القرآن بلسان عربي مبين، ومن أساليب اللغة العربية إسناد

---

(١) انظر: القرطبي (٤٤٥/١، ٤٥٥)، البحر المحيط (٢٥٨/١ ـ ٢٥٩).
(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.
(٣) انظر: الأضواء (٢٤/١، ٧٩).
(٤) انظر: البحر المحيط (٢٥٩/١)، الدر المصون (٤٣٤/١) وانظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٣٣) من سورة الأنعام.

الأمر إلى جميع القبيلة إذا فعله واحد منها. ونظيره في القرآن قراءة حمزة والكسائي[١]: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: آية ١٩١]؛ لأنه ليس من المعقول أمر من قُتِل بالفعل أن يقتل قاتله، ولكن: فإن قتلوا بعضكم فليقتلهم البعض الآخر. فأسند الفعل إلى الجميع وهو واقع من البعض. وهذا أسلوب معروف في لغة العرب، ومنه قول الشاعر[٢]:

فَإِنْ تَقْتُلُونَا عِنْدَ[٣] حَرَّةِ واقِمٍ ... فَلَسْنَا عَلَى الإسلامِ أَوَّلَ مَنْ قُتِل

يعني: تقتلوا بعضنا.

وقوله: ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾ أصله: فَتَدَارَأْتُمْ فِيها. وهو (تَفَاعُل) من الدَّرْءِ، بمعنى الدفع، والقاعدة المقررة في علم العربية: أن (تفاعلَ) و(تفعَّلَ) ـ مثلًا ـ إذا أريد فيهما الإدغام استُجْلِبَت همزة الوصل ليُمكن النطق بالساكن؛ إذ العرب لا تبتدىء بساكن. أصله: (تدارأتم) فأريد إدغام تاء التفاعُل في الدال التي هي فاء الكلمة فسكن لأجل الإدغام، فاستُجْلِبت همزة الوصل توصُّلًا للنطق بالساكن[٤]. وهذا كثير في القرآن في (تفاعل) و (تفعَّل) نحو ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ [التوبة: آية ٣٨] أصله: تثاقلتم ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا﴾ [النمل: آية ٤٧] أصله: تطيرنا ﴿وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ [يونس: آية ٢٤] أصله: تزينت، إلى غير ذلك من الآيات. ونظير هذا الإدغام في (تَفَاعَل) ونحوها من كلام العرب قول الشاعر[٥]:

تُولي الضَّجِيعَ إذا ما التذها[٦] خَصِراً ... عَذْبَ المَذَاقِ إذا ما اتَّابَعَ القُبَلُ

يعني: إذا ما تتابع القُبَل.

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٤٤.

(٢) المحتسب (١٢٨/٢).

(٣) في المحتسب: (يوم).

(٤) انظر: الدر المصون (٤٣٤/١).

(٥) انظر: ابن جرير (٢٢٤/٢)، القرطبي (١٤٠/٨).

(٦) في ابن جرير: (استافها).

ومعنى ﴿فَادَّارَءْتُمْ﴾: تدارأتم من الدرء، والدرء معناه: الدفع. والمعنى: تدافعتم قتل القتيل. أي: كل منكم يدفع قتله عن نفسه إلى صاحبه، بأن يقول هؤلاء: قتله غيرنا، أنتم قتلتموه، وهؤلاء يقولون: بل أنتم الذين قتلتموه، ونحن لم نقتله. واختلاف العلماء فيه[1] ـ بمعنى قول بعضهم: ﴿فَادَّارَءْتُمْ﴾ أي: تنازعتم. وقول بعضهم: ﴿فَادَّارَءْتُمْ﴾ اختلفتم ـ كله عائد إلى ما ذكرنا.

وقوله: ﴿فِيهَا﴾ أنث الضمير، يعني: راجعاً إلى النفس. يعني: (فيها) أي: في النفس المقتولة، كلكم يدفع قتلها عن نفسه إلى صاحبه.

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ﴿مُخْرِجٌ﴾ اسم فاعل (أخرج) أي: مُظهر ما كنتم تكتمون. و (ما) موصولة، والعائد محذوف؛ لأنه منصوب بفعل، على حدِّ قوله في الخلاصة[2]:

.... والحَذْفُ عندهُم كثيرٌ مُنْجَلِي
فـي عـائِدٍ مُـتَّصِلٍ إنِ انْـتَـصَـبْ بِفِعْلٍ اوْ وَصْفٍ كَمَنْ نَرجُو يَهَب

وتقريره: (والله مخرج الذي كنتم تكتمونه من أمر القتيل) وكذلك أسند الكتم هنا للجميع، والكاتم هو القاتل.

وقال بعض العلماء: القَتَلَةُ جماعة تمالؤوا على عمهم فقتلوه ليرثوه.

ومعنى قوله: ﴿مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: مخرج الذي كنتم تكتمونه. أسند الكتم إلى الكل وأراد بعضَهم، سواء قلنا: إن القاتل واحد أو جماعة.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربي وهو: أن (ما) مفعول به لاسم الفاعل الذي هو: (مُخرج)، والقصة ـ التي هي هذه ـ قصة ماضية قبل نزول الآية الكريمة؛ لأنها واقعة في زمن موسى، فهي في وقت نزول الآية ماضية، مَضَتْ لها أزمان كثيرة، والمقرر في علم العربية: أن اسم الفاعل

(١) انظر: ابن جرير (٢/٢٢٢، ٢٢٤).
(٢) الخلاصة ص١٦، وانظر: شرحه في الأشموني (١/١٢٨).

إذا لم يُحلَّ بالألف واللام لا يعمل إلَّا إذا كان مقترناً بالحال أو المستقبل، فلا يعمل مقترناً بالماضي[(١)]، وهنا أُعمل وهو واقع في زمن الماضي؟ هذا وجه السؤال.

الجواب[(٢)]: أنه إنما أُعْمِل اسم الفاعل في هذا المفعول؛ لأن هذه حكاية حال ماضية في وقتها، فإنما حُكيت الحال في وقتها؛ فكأنها في وقتها؛ لأن الحكاية تُحكى فيها الأحوال في حال وقتها. ونظير هذا يُجاب به عن قوله جل وعلا: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾؛ لأنها أيضاً حكاية حال ماضية، وهي في وقتها مُطابقة للزمن الحالي.

والآية تدل على أن من فعل سوءاً وكتمه أن الله يظهره، غالباً لا يُسر الإنسان سريرةً إلا ألبسه الله رِداءها[(٣)]. وكان بعض العلماء يقول: لو عَمِل الإنسان الشر في غاية الخفاء لا بد أن يظهره الله، كما يُفهم من قوله: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: الآية **٧٣**] صيغة الجمع للتعظيم، و(الفاء) عاطفة للجملة على ما قبلها، يعني: تدارأتم في القتيل، فقلنا لكم: اضربوه ببعض البقرة؛ لِيُبَيِّنَ لكم الواقع، وتعرفون القاتل، وينتهي النزاع ﴿فَقُلْنَا﴾ صيغة الجمع للتعظيم، ﴿اضْرِبُوهُ﴾ أي: القتيل. فالضمير عائد إلى القتيل. المفهوم من النفس في قوله: ﴿نَفْسًا﴾، فأنث الضمير باعتبار لفظ النفس، وذكَّره باعتبار معناها؛ لأن القتيل ذكر، وقد يكون الذَّكر يُعبر عنه بلفظ مؤنث، فيجوز التأنيث مراعاة للفظ، والتذكير مراعاة للمعنى[(٤)]. ومنه في كلام العرب قول الشاعر[(٥)]:

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٥٨، ٦١).

(٢) انظر: الدر المصون (١/٤٣٥).

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/٢٢٩)، شرح الطحاوية ص١٤٤، تفسير ابن كثير (١/١١٢)، (٤/١٨٠).

(٤) انظر: البحر المحيط (١/٤٣٥).

(٥) البيت لنُصيب بن رباح الأموي، انظر: اللسان (مادة: خلف) (١/٨٨٣)، (مادة: فلح) (٢/١١٢٦).

أَبُـوكَ خَـلِـيْـفَـةٌ وَلَـدَتْـهُ أُخْـرَى ... وأَنْـتَ خَـلِـيـفَـةٌ ذاكَ الْـكَـمَـالِ

فأنث (الخليفة) وأطلق عليه لفظ (الأخرى) نظراً إلى تأنيث لفظه، مع أنه يجوز تذكيره؛ لأنه رجل. فقلنا لهم: اضربوا القتيل ببعض هذه البقرة، فضربوه ببعضها فحيي.

وهذا البعض الذي ضربوه به منها اختلف فيه المفسرون[١]، فمنهم من يقول: هو لسانها. ومنهم من يقول: فخذها. ومنهم من يقول: عجب ذنبها. ومنهم من يقول: الغضروف، غضروف الأذن.

والحق أن هذا البعض الذي ضربوه به منها لا دليل عليه، ولا جدوى في تعيينه. وكثيراً ما يولع المفسرون بالتعيين في أشياء لم يرد فيها دليل من كتاب ولا سُنَّة، ولا جدوى تحت تعيينها، فيتعبون بما لا طائل تحته، كاختلافهم في خشب سفينة نوح من أي شجر هو؟ وكم كان عرض السفينة؟ وطولها؟ وكم فيها من الطبقات؟ وكاختلافهم في الشجرة التي نُهي عنها آدم وحواء، أي شجرة هي؟ وكاختلافهم في كلب أصحاب الكهف ما لونه، هل هو أسود أو أصفر؟ وكثير من هذه الأمور التي يُولعون بها ولا طائل تحتها، ولا دليل عليها من كتاب وسنة[٢]. غاية ما دلَّ عليه القرآن: أنهم ضربوه ببعض من تلك البقرة غير مُعين، ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ﴾ أي: فضربوه ببعض منها فحيي بإذن الله، فأخبرهم بقاتله، ثم عاد ميتاً، ولم يَرِثْه قاتله الذي قتله. قال بعض العلماء: ومن ذلك اليوم لم يرث قاتل عمداً[٣].

وعامة العلماء على أن القاتل لا يرث، سواء كان القتل عمداً أو خطأ، لا من المال ولا من الدية. وعن مالك بن أنس (رحمه الله) التفصيل بين الدية والمال في خصوص القتل خطأ، قال: إن القاتل خطأ يرث من المال، ولا يرث من الدية. والجمهور على خلافه، وشذ قوم فورثوه من

---

(١) انظر: ابن جرير (٢/٢٢٩ ـ ٢٣١).

(٢) انظر: مقدمة في أصول التفسير ص١٩.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/٢١٥)، تفسير ابن كثير (١/١٠٨).

المال والدية في القتل خطأ(١).

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني: كما أحيا الله هذا القتيل وهذا الجم الغفير من الناس ينظرون، كذلك الإحياء المُشاهد يحيي الله الموتى يوم القيامة، فهو دليل قرآني على البعث؛ لأن من أحيا نفساً واحدة فهو قادر على إحياء جميع النفوس؛ لأن ما جاز على المِثْل يجوز على مماثله، والله (جل وعلا) يقول: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: آية ٢٨].

وهذه الآية الكريمة تؤخذ منها فوائد، من الفوائد التي تؤخذ منها: أن الخالق الفاعل كيف يشاء هو رب السماوات والأرض. وأن الأسباب لا تأثير لها إلا بمشيئة الله. وأن الله يُسبِّب ما شاء على ما شاء من الأسباب، ولو لم تكن بين السبب والمُسَبَّب مناسبة، فهذا القتيل لو ضُرب بالبقرة وهي حَيَّة لقال قائل جاهل: اكتسب الحياة من حياتها فالله (جل وعلا) أمرهم أن يذبحوها حتى تكون ميّتة، وأن يأخذوا قطعة ميتة منها لا حياة فيها فيضربوا بها هذا القتيل فيحيا. فَضَرْبُهُ بهذه القطعة الميتة من هذه البقرة المذبوحة كان سبباً لوجود الحياة فيه. وهذا السبب لا مناسبة بينه وبين المُسَبَّب(٢)، فدلَّ على أن خالق السماوات والأرض يفعل ما يشاء كيف يشاء، ويرتب ما شاء من المُسَبَّبات على ما شاء من الأسباب باختياره وقدرته ومشيئته، ولو لم تكن هناك مناسبة بين السبب ومُسَبَّبه.

---

(١) انظر: العذب الفائض (١/٢٨ ـ ٢٩).

(٢) سُئل الشيخ (رحمه الله) عن مدى تعلق قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [البقرة: آية ٦٠] بما ذُكر من أن الله (تعالى) يُسبب ما شاء على ما شاء من الأسباب، ولو لم تكن بين السبب والمُسَبَّب مناسبة.

فأجاب الشيخ (رحمه الله) بقوله: ضَرْب الحجر بالعصا في هذا المقام شبيه بضرب القتيل بالجزء من هذه البقرة؛ لأن ضرب الحجر بالعصا لا يجعل الماء في الحَجَر، بل الماء إنما يخلقه الله بقدرته، كما أن ضَرب القتيل بالجزء من البقرة لا يجعله يحيا، ولكن الله أحياه، ورتب ما شاء من الأسباب على ما شاء، وقد أجاد من قال:

ألم تر أن الله قال لمريم ... وهزي إليك الجذع يسَّاقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزِّه ... جنته ولكن كل شيء له سبب

أخذ مالك (رحمه الله) دون عامة العلماء من هذه الآية حُكماً، وهو أنه يُثبت القَسَامة[١]. بقول المقتول: «دمي عند فلان»[٢]؛ لأن هذا القتيل لما حيي أخبرهم أن قاتله فلان، وعملوا بقوله، قال مالك: فعملهم بقوله الذي دلّ عليه القرآن دليل على أن من قال: «قتلني فلان». أنه يُعمل بقوله، ومن هنا جعل قول المقتول إذا أُدرك وبه رمق وقيل له: مَنْ ضَرَبَك؟ فقال لهم: «قتلني فلان، أو دمي عند فلان». فهذا لَوْثٌ[٣] عند مالك[٤] تُحلف معه أيمان القَسَامة، ويُستحق به الدم أو الدية، على التفصيل المعروف فيما تُستحق به القَسَامَة من عمد أو خطأ.

وخالف مالكاً في هذا الفرع عامّةُ العلماء، وقالوا: قول القتيل: «دمي عند فلان» هذا لا يمكن أن يُسوِّغ القَسَامة؛ لأنه لو قال: «لي درهم على فلان، أو أُطالب فلاناً بكذا» لا يثبت من ذلك شيء، فكيف يثبت به القتل ودم المعصوم؟ ومالكٌ استدل بهذه القصة، واستدل أيضاً بأن الإنسان إذا كان في آخر عهد من الدنيا زال غرضه من الكذب، وصار منتقلًا إلى دار الآخرة، وصارت الدواعي إلى الكذب بعيدة جداً في حقه، فالذي يغلب على الظن أنه لا يخبر إلا بواقع.

وأجاب الجمهور عن القصة قالوا[٥]: هذه القصة لا يقاس عليها غيرها؛ لأن هذا قتيل أحياه الله معجزة لنبي، وأخبرهم ـ مثلًا ـ أنه يحييه، وأنه يخبرهم بمن قَتَل وهذا الإخبار مستند إلى دليل قطعي، فليس كإخبار قتيل آخر.

---

(١) هي حلف مُعَيَّن عند التهمة بالقتل على الإثبات أو النفي. انظر: القاموس الفقهي ص٣٠٣.

(٢) انظر: القرطبي (٤٥٧/١)، أضواء البيان (٥٦٣/٣).

(٣) اللَّوْثُ: يطلق عند المالكية على الأمارة التي تغلب على الظن صدق مدّعي القتل، كشهادة العدل الواحد على رؤية القتل، أو يرى المقتول يتشحَّط في دمه والمتهم نحوه أو قربه عليه آثار القتل، انظر: القرطبي (٤٥٩/١)، القاموس الفقهي ص٣٣٤، أضواء البيان (٥٦٣/٣).

(٤) انظر: القرطبي (٤٥٩/١)، أضواء البيان (٥٦٣/٣).

(٥) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٢٤/١)، القرطبي (٤٥٧/١).

وأجاب ابن العربي في أحكامه عن هذا قال: المعجزة إنما هي في إحياء القتيل، أما كلام القتيل، فهو كسائر كلام الناس، يجوز في حقه أن يكون حقاً، وأن يكون كذباً.

وعلى كل حال فهذا الفرع خالف فيه مالكاً جمهور العلماء.

وقوله جل وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فيه دليل على أن قصة إحياء هذا القتيل من الأدلة على البعث، وقد بينًا فيما مضى خمسة أمثلة منها في هذه السورة الكريمة[١].

وقوله: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ﴿وَيُرِيكُمْ﴾ مضارع (أراه)، أصلها يُرئيكم آياته. أي: يبينها لكم حتى ترونها. ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ الآية: تطلق في اللغة إطلاقين، وتطلق في القرآن إطلاقين، وجمهور علماء العربية أن أصل وزن الآية (أَيَيَة) فهي وزنها: (فعَلَة) فاؤُها همز، وعينها ياء، ولامها ياء، اجتمع فيها موجبا إعلال، على القاعدة المقررة في التصريف، التي عقدها في الخلاصة بقوله[٢]:

مِنْ [واوٍ أو ياءٍ][٣] بتحريكٍ أُصِلْ أَلِفاً ابْدِلْ بَعْدَ فَتْحٍ مُتَّصِلْ

والأصل المشهور أن يكون الإعلال في الأخير، فالجاري على القياس أن يقال: أياة، وتُبدل الياء الأخيرة ألفاً، إلا أنه أُبدلت هنا الياء الأولى[٤]. وإعلال الأول من الحرفين اللذَيْنِ اجتمع فيهما موجبا إعلال موجود في القرآن، وفي كلام العرب، كآية، وغاية.

والآية تطلق في لغة العرب إطلاقين[٥]: تطلق الآية بمعنى: (العلامة).

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من هذه السورة.

(٢) الخلاصة ص٧٧، وانظر: شرحه في الأشموني (٢/٦٢٢).

(٣) في الأصل: ياء أو واو.

(٤) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٤٢.

(٥) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الهمزة، باب: الهمزة والياء وما يثلثهما في الثلاثي، (مادة: أبي) (١٠٢/١)، القاموس (مادة: أبي) (١٦٢٨)، الأضواء (٣٨/٤ ـ ٣٩).

وهذا إطلاقها المشهور. ومنه قول نابغة ذبيان[١]:

تَوَهَّمْتُ آياتٍ لها فَعَرَفْتُها ... لستةِ أعوامٍ وذا العامُ سابِعُ

ثم صرح بأن مُراده بالآيات علامات الدار في قوله:

رَمَادٌ كَكُحْلِ العينِ لأياً أُبِينُهُ ... ونُؤْيٌ كجذمِ الحوضِ أَثْلَمُ خاشِعُ

ومن هذا المعنى قوله: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ أي: علامة ملكه ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ الآية [البقرة: الآية ٢٤٨].

وتطلق الآية على: (الجماعة)، تقول العرب: جاء القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم، ومنه قول بُرج بن مُسهر[٢]:

خرجنا من النقبينِ لا حَيَّ مِثْلُنا ... بآيتنا نُزْجِي اللِّقَاحَ المَطَافِلا

أي: بجماعتنا.

والآية تطلق في القرآن إطلاقين: آية كونية قدرية، كقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٩٠] وهذه الآية الكونية القدرية من (الآية) بمعنى (العلامة) باتفاق، أي: لعلامات على كمال قدرة من وضعها، وأنه الرب وحده، المعبود وحده.

وتطلق الآية في القرآن بمعناها الشرعي الديني، كقوله: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الطلاق: آية ١١] أي: آياته الدينية الشرعية.

والآية الدينية الشرعية قيل: من (العلامة)؛ لأنها علامات على صدق من جاء بها، لما فيها من الإعجاز. أو لأن لها مبادىء ومقاطع علامات على انتهاء هذه الآية وابتداء الآية الأخرى.

وقال بعض العلماء: هي من (الآية) بمعنى (الجماعة)؛ لأن الآية كأنها

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٢) القرطبي (٦٦/١)، اللسان (مادة: أيا) (١٤٠/١).

نبذة وجماعة من كلمات القرآن، تتضمن بعض ما في القرآن من الإعجاز، والأحكام، والعقائد، والحلال، والحرام[(١)].

هذا معنى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يعني: يجعلكم ترونها واضحة. أي: علاماته الواضحة على كمال قدرته وإحيائه للموتى، وأنه يبعث الناس بعد أن يموتوا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يعني: لأجل أن تدركوا بعقولكم أنه (جل وعلا) يُحيي الناس بعد الموت، ويبعثهم من قبورهم، وأنه قادر على كل شيء، وأنه المعبود وحده، و ﴿تَعْقِلُونَ﴾ معناه: تدركون بعقولكم.

٣/ب / يقول الله جل وعلا: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: الآية ٧٤].

قال بعض العلماء[(٢)]: (ثم) في قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ للاستبعاد؛ لأن هذا الذي نظروه من آيات الله، وعِبَرِه، وإحيائه للقتيل سبب عظيم للين القلوب، فقسوة القلوب بعد مشاهدته من الأمر المستبعد؛ ولذا قال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ من بعد ذلك الأمر الذي عاينتموه، وهو إحياء القتيل، الذي هو أعظم سبب للين القلوب، فـ (ثم) هنا للاستبعاد، كما قاله بعض العلماء. ونظيره من إتيان (ثم) للاستبعاد قوله تعالى في أول سورة الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: آية ١]؛ لأن من خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور يُستبعد جداً أن يُجعل له عديل ونظير. ونظير (ثم) للاستبعاد من كلام العرب قول الشاعر[(٣)]:

---

(١) في تعريف الآية اصطلاحاً انظر: ابن جرير (١/١٠٦)، ابن كثير (١/٧)، القرطبي (١/٦٦) قواعد التفسير (١/١٠٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (١/٢٦١ ـ ٢٦٢).

(٣) البيت لجعفر بن عُلبة الحارثي. انظر: الدر المصون (٩/٨٩)، (٦٤٢).

ولا يكشف الغمَّاء إلا ابن حُرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

لأن من رأى غمرات الموت تُستبعد منه زيارتها.

والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائدة إلى ما ذُكر من إحياء القتيل لمَّا ضُرب بالجزء من البقرة الميتة، ومعنى قسوة القلوب: شدتها وصلابتها حتى لا يدخل فيها خير؛ لأن ذا الشيء القاسي ليس بقابل لدخول شيء فيه، فقلوبهم صلبة شديدة نابية عن الخير لا يدخلها وعظ ولا ينجع فيها خير. والسبب الذي قست به قلوبهم نهى الله عن ارتكابه المسلمين في قوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: آية ١٦].

وقوله: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾ أي: في شدة القسوة والصلابة، فكما أنك لو أردت أن تُدخل ماءً أو دهناً في جوف حجرٍ صلبٍ أصم لا يمكن لك ذلك، فلا يمكن أن تُدخل في قلوبهم خيراً، ولا موعظةً، ولا شيئاً ينفعهم؛ لقساوتها ـ عياذاً بالله ـ.

وقوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾؛ ﴿أَوْ أَشَدُّ﴾ مرفوعٌ عطفاً على الكاف من قوله: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾ أي: فهي مثل الحجارة أو أشد قسوة؛ لأن الكاف في معنى (مثل). وقيل: عطف على محل الجار والمجرور؛ لأنه في محل رفع خبر المبتدأ، أي: فهي كالحجارة، أو فهي أشد قسوة[١].

و ﴿قَسْوَةً﴾ تمييز مُحَوّل عن الفاعل؛ لأنه بعد صيغة التفضيل، على حد قوله في الخلاصة[٢]:

والفَاعِلَ الْمَعْنَى انْصِبَنْ بِأَفْعَلا مُفَضِّلاً كَأَنْتَ أَعْلَى مَنْزِلاً

لأن ﴿قَسْوَةً﴾ تمييزٌ فاعلٌ في المعنى، فنُصب بأَفْعَل مُفَضِّلًا تمييزاً محوّلًا عن الفاعل.

---

(١) انظر: البحر المحيط (١/٢٦٣).

(٢) الخلاصة ص٣٤، وانظر: شرحه في الأشموني (١/٤٤٥).

ثم إن الله (جل وعلا) بيّن أن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة، قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يعني: إن بعض الحجارة ربما [تفجر منه الأنهار](١)، وبعضها ربما لَانَ فتشقق فخرج منه ماء، وقلوبهم لا تلين ولا ينفجر منها خير، لا قليل ولا كثير.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: ما معنى (أو) في قوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ والمُخبر بهذا الكلام (جل وعلا) يستحيل في حقِّه الشك، فما معنى (أو) في قوله: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾؟

للعلماء عن هذا السؤال أجوبة معروفة(٢)، أظهرها: أن «أو» للتنويع، و «أو» التي هي للتنويع تدل على نوع. والمعنى: أن منهم نوعاً قلوبهم كالحجارة، وهنالك نوعٌ آخر دلَّتْ عليه (أو) التنويعية أقسى قلوباً من هذه(٣)(. . .).

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: الآيات: ٧٥ ـ ٧٩].

---

(١) في الأصل: (لَانَ فتتفجر منه ماء)؛ وذلك لأنه وقع للشيخ (رحمه الله) سهو في الآية السابقة حيث نطق بها هكذا: (لما يتفجر منه الماء) فجاء التفسير هنا كما ترى.

(٢) انظر: ابن جرير (٢/٢٣٥)، القرطبي (١/٤٦٣)، البحر المحيط (١/٢٦٢)، الدر المصون (١/٤٣٦)، وراجع أيضاً منه ص١٦٧.

(٣) في هذا الموضع انقطع التسجيل وكلام الشيخ (رحمه الله) على هذا المعنى الذي استظهره تام، وللوقوف على المعاني الأخرى راجع المصادر السابقة.

يقول الله جل وعلا: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان اليهود وغيرهم من أهل الكتاب؛ لأن عندهم علماً من الكتب السماوية المتقدمة. ولو آمنوا لكان ذلك داعياً إلى إيمان غيرهم لما عندهم من العلم، فقنَّطه الله في هذه الآية الكريمة من إيمان اليهود وأنكر عليه أن يعلق طمعه بشيء لا مطمع فيه، قال: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٧٥] يعني: أتعلقون الطمع بما لا طمع فيه فتطمعون أن يؤمنوا لكم أي: يتصفوا بالإيمان لكم. أي: لأجل دعوتكم وطلبكم منهم الإيمان.

والعادة في القرآن أن الإيمان إذا كان تصديقاً بالله (جل وعلا) عُدِّي بالباء، فتقول: «ويؤمنون بالله»، «آمنت بالله»[(١)]. وإذا كان تصديقاً ببشر عُدِّي باللام. وهذا معروف من استقراء القرآن، كقوله هنا: ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي: يصدقوكم ويتبعوكم في هذا الدين الحنيف، ومنه قوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: آية ١٧] أي: بمصدقنا في أن يوسف أكله الذئب ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾، وقوله: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: آية ٢٦]، وجمع المثالين قوله: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ٦١] والمعنى: أن الله أنكر عليهم الطمع بإيمانهم؛ لأنهم لا مطمع في إيمانهم.

ثم بيَّن صعوبة الإيمان عليهم وبعدهم منه قال: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ يعني: أتطمعون بإيمان قوم وهم بهذه المثابة من العناد واللجاج وعدم امتثال الأوامر، والحال: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ الفريق: الطائفة من الناس، ويجوز انقسام الناس إلى جماعات متعددة، ولا يلزم أن يكونوا فريقين فقط، بل يجوز أن يكونوا فريقين وأكثر، ومن هذا المعنى قول نُصَيب[(٢)]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من هذه السورة.

(٢) البيت في الكتاب لسيبويه (٣/٥٠٣)، ولفظه:

فقال فريق القوم لمَّا نشدتُهم نَعَم، وفريقٌ لَيمُنُ الله ما ندري

فقال فريق القوم: لا، وفريقهم: نعم، [وقال فريق][1]: ويحك ما ندري

واختلف العلماء في المراد بهذا الفريق الذين سمعوا كلام الله وحرفوه بعد أن عقلوه[2]:

قال جماعة من العلماء: هذا الفريق هم علماؤهم، ومعنى ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ يسمعون كلام الله يُتلى في كتابه التوراة ويفهمونه ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ من بعد ما أدركوه بعقولهم، فيجدون فيه صفات النبي ﷺ: (أبيض)، فيحرفونها إلى (أسمر)، ويجدون من صفاته: (رَبْعَة)، فيحرفونها إلى أنه طويل مُشَذَّب، ونحو ذلك من تغيير الصفات.

فعلى هذا الوجه فالفريق الذين يسمعون كلام الله: العلماء يسمعون كتاب الله التوراة يتلى ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ يعني يبدلونه ويحرفونه، ويجعلون فيه ما ليس فيه، بأن يحلوا حرامه، ويحرموا حلاله، ويغيروا فيه صفات النبي ﷺ، وينكروا بعض آياته كآية الرجم، وما جرى مجرى ذلك من التحريف.

وعلى هذا القول فالفريق: العلماء منهم بالتوراة، وتحريفهم له معروف.

فإذا كان خيارهم وعلماؤهم يعقلون عن الله كلامه في كتابه ثم يغيرونه ويحرفونه ويحملونه على غير محمله، فما بالكم تطمعون في أن مثل هؤلاء يؤمنون لكم ويهتدون إلى خير.

الوجه الثاني: أن هذا الفريق هم السبعون الذين اختارهم موسى، المذكورون في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ الآية [الأعراف: آية ١٥٥] ومن قال هذا القول قال: إنهم لما خرجوا مع موسى إلى الميقات سألوه أن يسأل الله أن يُسمعهم كلامه. فسأل

(١) في الأصل: وفريق قال.

(٢) انظر: ابن كثير (١/١١٥).

لهم نبيهم ذلك. وأن الله أمرهم أن يصوموا. ولما أراد الله أن يكلم موسى، وألقى عليه الضباب، سمعوا كلام الله يأمر موسى وينهاه، فبعد أن سمعوا كلام الله وعقلوه حرفوه. قالوا: سمعناه يقول في آخر الكلام: إن شئتم فافعلوا، وإن شئتم لا تفعلوا.

فإذا كانوا يسمعون من الله كلامه، هذه السبعون المختارة منهم تسمع كلام الله وتحرفه وتغيره، فما بالكم تطمعون في إيمان من هذه صفتهم؟

هذان الوجهان في قوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

وقد بينا مراراً أن همزة استفهام الإنكار إذا جاء بعدها حرف عطف كالفاء، كما في قوله هنا: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ و (الواو) أو (ثم) أن فيها للعلماء وجهين معروفين[١]:

أحدهما: أن همزة الاستفهام تتعلق بمحذوف دل المقام عليه، و(الفاء) تعطف الجملة التي بعدها على الجملة المحذوفة التي دل المقام عليها. والمعنى: أتطمعون بما لا طمع فيه، فتطمعون أن يؤمنوا لكم؟ ونحو هذا. أو: ألا تعرفون الحقائق فتطمعون بما لا طمع فيه؟ والأحوال متقاربة، وإلى هذا الوجه ميل ابن مالك في الخلاصة في قوله[٢]:

وَحَذْفَ مَتبوعٍ بَدَا هُنَا اسْتَبِحْ وَعَطْفُكَ الفِعْلَ على الفِعْلِ يَصِحّ

والوجه الثاني: أن همزة الاستفهام مزحلقة عن محلها، وأنها متأخرة بعد الفاء، إلا أنها قُدمت عن محلها؛ لأن للاستفهام صدر الكلام، وعلى هذا فالمعنى: فأتطمعون. فتكون الجملة معطوفة بالفاء على ما قبلها، كأن المعنى: فأعطف على ذلك إنكار طمعكم بما لا طمع فيه، فيكون المعنى: فأتطمعون أن يؤمنوا لكم والحال ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾.

---

(١) انظر: البحر المحيط (١/٢٧١).

(٢) الخلاصة ص٤٨، وانظر: شرحه في الأشموني (٢/١٢٠).

التحريف: يعني: وضع الشيء في غير موضعه، يصدق بأن يبدلوه بما ليس منه وأن يغيروه، وأن يحملوه على غير محمله، إلى غير ذلك من أنواع التحريف.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي أدركوه بعقولهم. العرب تقول: عقلت الأمر أعقله، إذا أدركته بعقلي.

والعقل نور روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية[١]، ومحله القلب، كما نص عليه الكتاب والسنة. لا الدماغ كما يزعمه الفلاسفة.

وبحوث العقل بحوث فلسفيه لا طائل تحتها.

فللفلاسفة في بحث العقل ما يزيد على مائة طريق، من جهة البحث في العقل هل هو جوهر أو عَرَض؟ والكلام على العقول العشرة، والعقل الفياض. كله بحث فلسفي لا طائل تحته[٢].

وإنما قال جل وعلا: ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ أي: تدركون بعقولكم؛ لأن العقل نور روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية. وقد دل القرآن على أن محله القلب لا الدماغ؛ لأن الله يقول: ﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: آية ٤٦] ولم يقل: أدمغة يعقلون بها. ويقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: آية ٣٧] ولم يقل: لمن كان له دماغ. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[٣] ولم يقل: ألا وهي الدماغ.

---

(١) انظر: الكليات ص٦٧.

(٢) انظر: المعجم الفلسفي (٢/٨٤ ـ ٨٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه. حديث رقم: (٥٢)، (١/١٢٦)، وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٢٠٥١)، ومسلم في الصحيح، كتاب المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم: (١٥٩٩)، (٣/١٢١٩).

وجمع بعض العلماء بين قول أهل السنة وقول الفلاسفة بأن قال: إن أصل العقل في القلب كما في الكتاب والسنة، إلا أن نوره يتصل شعاعه بالدماغ. واستدلوا على هذا بدليل استقرائي عادي، قالوا: بالعادة المطردة والاستقراء أنك لا تجد رجلًا طويل العنق طولًا مُفرِطاً إلا كان في عقله بعض الدخل؛ لبُعد ما بين طرفي شعاع نور عقله.

والتحقيق: أن العقل في القلب[1] كما دلَّ عليه الوحي[2] [والذين قالوا: إن العقل في] الدماغ استدلوا: بأن كل ما يؤثر على الدماغ يؤثر على العقل. وهذا لا دليل فيه؛ لإمكان أن يكون العقل في القلب ـ كما هو الحق ـ وسلامته مشروطة بسلامة الدماغ، وهذا لا إشكال فيه.

والعقل الصحيح هو الذي يعْقِل صاحبه عن الوقوع فيما لا ينبغي، كما قال (جل وعلا) عن الكفار: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: آية ١٠] أما العقل الذي لا يزجر عمّا لا ينبغي فهو عقل دنيوي يعيش به صاحبه، وليس هو العقل بمعنى الكلمة.

وقوله جل وعلا: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية يعني: أنهم سمعوا كلام الله فحرَّفُوه بعد أن أدركُوه بعقولهم وفهموه، والحال أنهم يعلمون أنهم حرفوه وافتروا على الله، فمن[3] [كان] بهذه المثابة لا يطمع أحد في إيمانه.

ثم إن الله (جل وعلا) ذكر طائفة أخرى من اليهود هم منافقون، وهذه الطائفة المنافقة ذكرها تعالى بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة:

---

(١) في هذه المسألة راجع: مجموع الفتاوى (٣٠٣/٩)، أقسام القرآن لابن القيم (٤٠٤ ـ ٤٠٥)، أضواء البيان (٧١٥/٥)، وللشيخ (رحمه الله) رسالة لا تزال مخطوطة، وهي تقع في إحدى عشرة صفحة، وهي متضمنة أجوبة لسؤالات ثلاثة بعث بها إليه الشيخ محمد الأمين ابن الشيخ محمد الخضر، والأول من تلك السؤالات: مقر العقل من الإنسان.

(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل. وما بين المعقوفين زيادة يتم بها الكلام.

(٣) في الأصل كلمة ممسوحة وما بين المعقوفين زيادة يتم بها الكلام.

الآيتان ٧٦ ـ ٧٧] (إذا): ظرف فيه معنى الشرط، العامل فيه دائماً جزاء الشرط لا فعل الشرط، وهو من الأسماء الملازمة للإضافة إلى جُمل الأفعال خاصة، كما قال في الخلاصة[(١)]:

وَأَلْـــزَمُـــوا إِذَا إِضَـــافَـــةً إِلَـــى جُـمَـلِ الأَفْـعَـالِ كَـهُـنْ إِذَا اعْـتَـلَـى

و (لقوا) أصله: لقِيُوا (فَعِلُوا)[(٢)]، والقاعدة المقررة في التصريف: أن كل فعل ناقص ـ أعني معتل اللام ـ سواء كان واوي اللام، أو يائي اللام، إذا أُسند إلى واو جماعة، أو ياء مؤنثة مخاطبة، وجب حذف لامه المعتلة بقياس مطرد. فحُذِفَت هذه الياء التي هي لام الكلمة، وأُبدلت كسرة القاف ضمة لمجانسة الواو. فأصله: (لقِيُوا) على وزن (فَعِلُوا)، ووزنه الحالي ﴿وَإِذَا لَقُوا۟﴾ (فعُوا)؛ لأن الياء التي في موضع اللام حُذِفَتْ لإسناد الفعل الناقص إلى واو الجماعة، كما هو مقرر في التصريف[(٣)].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في محل نصب مفعول به لـ﴿لَقُوا۟﴾، والمعنى: أن هؤلاء الطائفة من المنافقين إذا اجتمعوا بالمؤمنين ـ النبي ﷺ وأصحابه ـ ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾. ذكروا لهم أنهم آمنوا نفاقاً، وبينوا لهم أن النبي المنتظر المبشر به أن صفاتِه الموجودة في كتبهم مُتطبِّقة على هذا النبي الكريم ﷺ. هذا معنى قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾.

﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني: رجعوا إلى أصحابهم وكان الموضع خالياً من المؤمنين، بأن كان الموجود فيه هم فيما بينهم.

﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني: أصحابهم الذين لم ينافقوا. قالوا منكرين على الذين نافقوا وموبخين لهم: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ أي: أتحدِّثون المؤمنين ـ النبي ﷺ، وأصحابه ـ ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: بما فتح عليكم علمه في التوراة من أن هذا هو النبي المنتظر، وأن هذه صفاته، أنها متطبِّقة، وأنه هو لا

---

(١) الخلاصة ص٣٧، وانظر: شرحه في الأشموني (١/٥١١).

(٢) انظر: القرطبي (١/٢٠٦).

(٣) انظر: الدر المصون (١/١٤٤)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٤٦٤.

شك فيه، وأنكم مؤمنون به لما علمتم من أنه هو النبي الموعود به المنتظر.

﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾ بهذا الإقرار ﴿عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾ أنكم أقررتم بأنكم تعرفون أنه الحق، وأن صفاته متطبقة على صفات النبي المنتظر، فإن هذا يحاجونكم به يوم القيامة، أنكم عرفتم الحق وتركتموه.

وهذا يدل على أنهم في غاية الجهل؛ لأنهم لو كتموه أليس الله عالماً بما في ضمائرهم؟ وما الفرق بين ما لو أقروا بأنهم عرفوا الحق وكتموه، أو كتموه ولم يقولوا؟ ولذا وبخهم الله بقوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة: الآية ٧٧] أيقولون مثل هذا ولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون؟ ﴿يُسِرُّونَ﴾ هو المضارع من الإسرار، و ﴿يُعْلِنُونَ﴾ المضارع من الإعلان، والفعل إذا كان ماضيه على وزن (أَفْعَل) تُحذف همزته في المضارع، واسم الفاعل، واسم المفعول، بقياس مطَّرد.

فالأصل: (يُؤَسْرِرُون) و (يُؤَعْلِنون) إلا أن حَذْفَ همزة (أَفْعَل) يطَّرد في المضارع وفي اسم الفاعل واسم المفعول، كما عقده في الخلاصة بقوله(١):

وَحَذْفُ هَمْزِ أَفْعَلَ اسْتَمَرَّ فِي ... مُضَارِعٍ وَبِنْيَتَي مُتَّصِفِ

والمعنى: أن إسرارهم وإعلانهم عند الله (جل وعلا) سواء؛ لأن الله يعلم السر وأخفى، السر عنده علانية، يعلم ما تخفيه الضمائر ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: آية ١٦].

وعلى هذا الذي قررنا فمعنى: ﴿فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: علمكم إياه وأزال عنكم الحجاب دونه من العلم مما في التوراة.

وقوله: ﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾ أصله (يُحاججوكم) (يُفَاعِلُون) من المُحَاجَجَة يقتضي الطرفين، والحجة: كل ما أدلى به الخصم باطلًا كان أو حقاً(٢).

---

(١) الخلاصة ص٧٩، وانظر: شرحه في الأشموني (١/٦٥٧).

(٢) انظر: المفردات (مادة: حَجَّ) ٢١٨، الكليات ٤٠٦.

بدليل قوله: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: آية ١٥].

وقال بعض العلماء: المراد بالفتح في هذه الآية: الحكم. وذلك أن النبي ﷺ يوم خيبر ذكر لهم اسم القِرَدَة. قال بعضهم: ما علموا أن أوائلكم وقع مسخ بعضهم قِرَدَة إلا منكم، بعضكم أخبرهم بهذا[١]!!. وعلى هذا فالمراد ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما حكم عليكم به من المسخ، والعرب تطلق الفتح على الحكم[٢]، وقد جاء في القرآن العظيم، ومنه على التحقيق: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: آية ١٩] يعني: إن تطلبوا الحكم من الله على الظالم بالهلاك فقد جاءكم ذلك، وهلك الظالم، أبو جهل وأصحابه، ومن هذا المعنى قوله (جل وعلا) عن شعيب: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: آية ٨٩] أي: احكم بيننا بالحق وأنت خير الحاكمين، وهذه لغةٌ حميرية، يسمون الحاكم: فَتَّاحاً، والحُكم فُتَاحَة[٣]، ومن هذا المعنى قول الشاعر[٤]:

أَلاَ أَبْلِغْ بَنِي عمرو رَسُولاً ... بِأَنِّي عَنْ فُتَاحَتِكُمْ غَنِيُّ

أي: عن حكمكم غني.

هذا قيل به في الآية، ولكنه قول مرجوح غير ظاهر، والتحقيق ـ إن شاء الله ـ هو الأول، ثم إنهم قالوا لهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أتقولون قول من لا يعقل؟ فلا تعقلون أنه لا ينبغي لكم أن تخبروهم وتحدثوهم بما فتح الله

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢/٢٥٢)، وابن أبي حاتم (١/٢٣٨)، عن مجاهد مرسلاً.

(٢) انظر: ابن جرير (٢/٢٥٤).

(٣) انظر: القرطبي (٢/٤).

(٤) تفسير ابن جرير (٢/٢٥٤)، الأمالي (٢/٢٨١)، اللسان (مادة: فتح) (٢/١٠٤٥)، مع شيء من المغايرة في اللفظ، فهو في اللسان هكذا:

ألا من مبلغ عَمْراً رسولاً ... فإني عن فُتاحتكم غني

وفي ابن جرير والأمالي:

ألا أبلغ بني عُصَم رسولاً ... فإني عن فُتاحتكم غني

عليكم من علم التوراة مما خفي عليهم؛ ليكون حجة لهم عليكم عند الله يوم القيامة، أنكم أقررتم بأنهم على حق، وخالفتموهم ولم تتبعوهم.

ثم إن الله ذكر طائفة ثالثة، وهي الطائفة الجاهلة التي لا تدري، وإنما تسمع كلاماً فتقلّد فيه تقليداً أعمى، قال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ [البقرة: الآية ٧٨] الأمّيّ: هو الذي لا يقرأ ولا يكتب. أي: طائفة جاهلة لا يكتبون الكتب ولا يقرؤون ما في الكتب. ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي هو التوراة ولا غيره من الكتب.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ في قوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ وجهان معروفان من التفسير عند العلماء[١]: أحدهما تُبعده قرينة في نفس الآية.

أما القولان المعروفان: أن المراد بالأماني هنا: جمع (أُمْنِيَّة) بمعنى (القراءة). والعرب تطلق (الأمنيّة) على (القراءة)، وهذا معنى معروف في كلام العرب، تقول العرب: (تمنّى) إذا قرأ، ومنه قول حسان[٢]:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ آخِرَ لَيْلِهِ تَمَنِّيَ داودَ الزَّبُورَ على رِسْلِ

وقول كعب بن مالك أو حسان[٣]:

تَمَنَّى كتابَ اللهِ أوَّلَ ليلةٍ[٤] وآخِرَها[٥] لاقَى حِمَامَ المقَادِرِ

فمعنى (تمنى): قرأ، وعلى هذا فالاستثناء متصل. وتقرير المعنى: لا يعلمون من الكتاب إلا قراءة ألفاظ ليس معها تفهم وتدبر لما تحويه الألفاظ من المعاني، ومن لم يكن عنده من علم الكتاب إلا قراءة ألفاظ لا يفهم ما

---

(١) انظر: ابن جرير (٢/٢٥٩)، القرطبي (٢/٦)، أضواء البيان (١/٧٩).

(٢) لم أقف على من نسب البيت لحسان (رضي الله عنه)، وهو في القرطبي (٢/٦)، الدر المصون (١/٤٤٧).

(٣) البيت لكعب بن مالك (رضي الله عنه)، انظر: القرطبي (٢/٦)، الدر المصون (١/٤٤٧).

(٤) في المصادر السابقة: (ليلِهِ).

(٥) في المصادر السابقة: (وآخره).

تحتها من المعاني فهذا جاهل لا علم عنده. هذا وجهٌ في الآية، وهو الذي قلنا: إن في الآية قرينة تبعده؛ لأن هذا يدل على أنهم يقرؤون التوراة قراءة ألفاظ لا يفهمون ما تحتها من المعاني، والعبر، والحِكَم. وقوله في أول الآية: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ يدل على أنهم لا يقرؤون. فكأن حمل الأماني على القراءة فيه شِبْهُ مناقضة مع قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾.

الوجه الثاني في الآية الكريمة: أن الاستثناء منقطع، وأن (الأماني) جمع (أُمْنِيَة)، وهي الأمنية المعروفة، وهي أن يتمنَّى الإنسان حصول ما ليس بحاصل. وعلى هذا القول فتقرير المعنى: لا يعلمون الكتاب، لكن يتمنون أماني باطلة صادرة عن جهل لا مبدأ لها من علم، كأن يقولوا: ما عليه محمد وأصحابه ليس بحق، و ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾، ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾، والدليل على أن هذا من أمانيهم الباطلة، وأن خير ما يُفسر به القرآن القرآن: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: الآية ١١١] فصرح (جل وعلا) بأن أمانيهم من هذا القبيل، كما قال جل وعلا: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ الآية [النساء: آية ١٢٣] وهذان الوجهان في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (إنْ) هي النافية. والمعنى: ما هم إلا يظنون، يسمعون عند علمائهم قولًا فيقولونه تقليداً وظناً وجهلًا.

والظن قد قدمنا أنه يُطلق إطلاقين[1]: يطلق على الشك. وهو المراد هنا، وهو المراد في قوله: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: آية ٣٦] وقول النبي ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»[2]. ومنه

(١) انظر: المفردات (مادة: ظن) ص٥٣٩، القرطبي (٦/٢)، البحر المحيط (٢٧٦/١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب: لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع، حديث رقم: (٥١٤٣)، (١٩٨/٩)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر: الأحاديث رقم: (٦٠٦٤)، (٦٠٦٦)، (٦٧٢٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، حديث رقم: (٢٥٦٣)، (١٩٨٥/٤).

قوله عن الكفار: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: آية ٣٢] واصطلاح الأصوليين: أن الظن لا يُطلق على الشك؛ لأن الشك نصف الاعتقاد. والظن عندهم جُلُّ الاعتقاد، وما بقي عن الظن من الاعتقاد يسمونه وهماً، هذا اصطلاح أصولي(١).

أما أهل اللغة العربية فإنهم يطلقون اسم الظن على الشك.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: الآية ٧٩] (ويل): كلمة عذاب، وهو مصدر لا فعل له من لفظه، معناه: هلاك عظيم هائل كائن لهم(٢).

وقال بعض العلماء: (ويل): وادٍ في جهنم تستعيذ جهنم من حرِّه.

ولو فرضنا صحّة هذا القول لكان راجعاً إلى الأول.

ولفظة (ويل) تتعدَّى باللام ولذا عدَّاه بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو مبتدأ خبره جملة: (للذين)، وإنما سَوَّغ الابتداء بهذه النكرة لأنها مُشَمَّة معنى الدعاء، وقد تقرر في علم العربية: أن النكرة إذا كانت مُشَمَّة معنى الدعاء بخير أو بشر كان ذلك مسوغاً للابتداء بها(٣)، ومثاله في الدعاء بالخير: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ [هود: آية ٦٩] (سلام عليكم) مبتدأ، سوغ الابتداء به أنه في معرض الدعاء، والدعاء بالشر كقوله هنا: ﴿فَوَيْلٌ﴾ أي: هلاك عظيم لا خلاص منه للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله، فهؤلاء اليهود ـ قبحهم الله ـ كانوا يأخذون أوراقاً وقراطيس ينقلون فيها من التوراة، يقولون مثلًا: في المحل الفلاني من التوراة كذا وكذا وكذا، ويكتبون أموراً باطلة ليست في كتاب الله، كما يأتي في قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأنعام: آية ٩١] وهذا

---

(١) انظر: نشر البنود (٦٢/١ ـ ٦٣)، نثر الورود (٧٢/١ ـ ٧٣).

(٢) انظر: ابن جرير (٢٦٧/٢)، القرطبي (٧/٢)، البحر المحيط (٢٧٦/١).

(٣) انظر: الأشموني (١٥٨/١)، الدر المصون (٤٤٩/١).

الذي يكتبونه بأيديهم في هذه القراطيس كذب مُختلق على الله (جل وعلا). وهذا الاختلاق والتحريف إنما فعلوه ليتعوضوا به عرضاً من عرض الدنيا، ذلك أنهم لو أخبروا بالواقع لآمن كل الناس، وصاروا تبعاً لا متبوعين، وضاعت عليهم رئاسة الدين، والأموال التي يأخذونها عن طريق الرئاسة الدينية، فصاروا يكتبون أموراً محرَّفَة مزورة، منها تغيير صفات النبي ﷺ، وغيرُ ذلك. فقال الله فيهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يكتبون الكتاب في تلك القراطيس بأيديهم.

وقوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ هذا نوع من التأكيد جرى على ألسنة العرب، فنزل به القرآن؛ لأنه بلسان عربي مبين[1]. نحو: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ٣٨]، ومعلوم أنه لا يطير إلا بجناحيه. ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ [آل عمران: آية ١٦٧] ومعروف أنهم إنما يقولون بأفواههم. ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[2] (ثم) هذه ـ كمان[3] ـ تدل على الاستبعاد؛ لأن الكتاب إذا كان مُخْتَلَقاً على الله يبعُد كل البعد أن يقول الإنسان إنه من عند الله.

ثم بيَّن عِلَّة افترائهم وتزويرهم، ودعواهم أن الكتاب من عند الله، وهو ليس من عند الله، بيَّن عِلَّة ذلك وعِلَّته الغائية المقصودة عندهم بقوله: ﴿لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الاشتراء في لغة العرب: الاستبدال، فكل شيء استبدلته بشيء فقد اشتريته، ومن هذا المعنى قول علقمة بن

---

(١) انظر: ابن جرير (٢/٢٧٢)، القرطبي (٢/٩)، البحر المحيط (١/٢٧٧)، الدر المصون (١/٤٥١)، وانظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٢) سئل الشيخ (رحمه الله): هل هناك علة أخرى غير التأكيد يحتملها مثل هذا الاستعمال؟ فأجاب الشيخ (رحمه الله) بقوله: نعم، ذكر بعض العلماء فيه نكتة غير هذا، وأن المُراد بذكر الأيدي التسجيل عليهم حيث اختلقوه وكتبوه بأيديهم ثم نسبوا هذا الذي اختلقوه وكتبوه بأيديهم إلى الله (جل وعلا)، فلو وجدوه مكتوباً قبل هذا لكان الافتراء أخف، فالذي يكتب الشيء بيده ثم ينسبه إلى الله (جل وعلا)، فهذا أبعد؛ فيكون فيه شبه تسجيل زيادة في تقبيح فعلهم.

(٣) أي: (أيضاً) كما في اللهجة الدارجة.

عَبَدَة التميمي[١]:

والحَمْدُ لا يُشْتَرَى إلاَّ لَهُ ثَمَنٌ   ممَّا تَضِنُّ بِه النُّفُوس مَعْلُومُ[٢]

وقول الراجز[٣]:

بُدلت[٤] بالجمة رأساً أزعرا   وبالثنايا الواضحات الدردرا[٥]

..........................[٦]   كما اشترى المسلم إذ تنصرا

أي: كما استبدل.

و (الثمن) تطلقه العرب على كل عوض مبذول في شيء تسميه العرب ثمناً، ومنه بيت علقمة المذكور آنفاً في قوله:

والحَمْدُ لا يُشْتَرَى إلا لَهُ ثَمَنٌ   ....

وقول عمر بن أبي ربيعة[٧]:

إن كنتَ حاولتَ دنياً أو أقمتَ لها   ماذا أخذتَ بترك الحمد من ثَمَن

ومعنى الآية الكريمة: أنهم يغيرون كلام الله، ويكتبون على الله ما لم يقل، ويقولون: إنه من عند الله، وما هو من عند الله، ويقولون على الله

---

(١) المفضليات ص٤٠١.

(٢) في المفضليات: (مما يضن به الأقوام معلوم). وبه يستقيم الوزن.

(٣) انظر: مشاهد الإنصاف (ملحق في آخر الكشاف) (٤/ ٤٠).

(٤) في شواهد الإنصاف: (أخذت).

(٥) في شواهد الإنصاف: (دردرا).

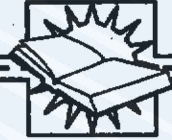
(٦) لم يذكر الشيخ (رحمه الله) صدر هذا البيت وهو في شواهد الإنصاف، ونصه: (وبالطويل العمر عمراً حيدراً).
وهو في الدر المصون (٣/١٧٧)، (٧/٦٧)، (٩/٢٢٩).

(٧) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٢١٧، ورواية الديوان:
إن كنت حاولت دنيا أو نعمت بها   فماذا أخذت بترك الحج من ثمن
وهو في السير للذهبي (٦/ ٣٣٦) مع مغايرة في بعض الألفاظ.

الكذب وهم يعلمون؛ لأجل أن يعتاضوا بذلك ثمناً قليلًا من عرض الدنيا، وهو ما ينالونه من المال على رئاستهم الدينية.

ثم إن الله قال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: هلاك عظيم لا خلاص منه كائن لهم، مبدؤه وسببه مما كتبت أيديهم مُزوراً على الله أنه من عند الله وليس من عند الله، ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من الرُشا والأموال عوضاً عن ذلك التزوير والافتراء على رب السماوات والأرض، وهذا غاية التهديد والوعيد العظيم حيث قال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: وتقوّلوه على الله كذباً، ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من المال عوضاً عن ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾.





تفسير سورة الأنعام

١/١ / ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٣٣ ـ ٣٦].

يقول الله جلّ وعلا: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: آية ٣٣].

قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ﴾ قرأه عامّة القراء، ما عدا نافعاً: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ﴾ مضارع حَزَنَه الأمر ـ بالثلاثي ـ يَحْزُنُه، وقرأه نافع وحده: ﴿قد نعلم إنه لَيُحْزِنُك﴾ من أحزنه الأمر ـ بصيغة الرباعي ـ يُحزنه (بضم الياء)[١].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ قرأه عامة القراء ما عدا نافعاً والكسائي: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بصيغة (التفعيل). وقرأه نافع والكسائي من بين القُراء ﴿فإنهم لا يُكْذِبُونَك﴾ بصيغة (الإفعال) لا

(١) انظر المبسوط لابن مهران ص١٧١.

بصيغة (التفعيل)[١].

وسبب نزول هذه الآية كما ثبت عن علي (رضي الله عنه) أن الكفار ـ كفار مكة ـ كأبي جهل ونظرائه قالوا للنبي ﷺ: نحن لا نكذبك، ونعلم أنك صادق أمين، ولكن هذا الذي جئت به هو الذي نكذبه، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[٢].

و(قد) في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ هي للتحقيق[٣]، أي: لتحقيق علم الله جلّ وعلا.

وما جاء على ألسنة علماء العربية[٤] من أن (قد) إذا دخلت على المضارع أنها تكون للتقليل، وأنها تارة تكون للتكثير كـ «ربما»، واستدلوا بأنها تكون تارة للتكثير بقول الشاعر[٥]:

---

(١) المصدر السابق ص(١٩٣).

(٢) أخرجه الترمذي في السنن، كتاب تفسير القرآن، باب (٧)، حديث رقم: (٣٠٦٤) (٢٦١/٥)، والحاكم (٣١٥/٢) عن علي رضي الله عنه. وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ا.هـ وعقبه الذهبي بقوله: «قلت: ما خرجا لناجية شيئاً» ا.هـ. كما أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١٢٨٢/٤)، والدارقطني في العلل (١٤٣/٤)، وأورده السيوطي في الدر (٩/٣) وعزاه للترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والحاكم، والضياء.
وأخرجه الترمذي (٢٦١/٥)، وابن جرير (٣٣٤/١١)، والواحدي في أسباب النزول (٢١٦) وابن أبي حاتم في التفسير (١٢٨٢/٤)، والدارقطني في العلل (١٤٣/٤). عن ناجية بن كعب مرسلاً. قال الترمذي: (وهذا أصح) ا.هـ.
وجميع طرق هذا الحديث ـ بالوصل والإرسال ـ تدور على أبي إسحاق السبيعي الذي يرويه عن ناجية بن كعب. وأبو إسحاق السبيعي (رحمه الله) قد رُمي بالاختلاط والتدليس كما في التهذيب (٥٧/٨ ـ ٥٩) وقد عنعنه عن ناجية. وقد ضعف الألباني هذا الحديث (موصولاً ومرسلاً) انظر ضعيف سنن الترمذي ص(٣٧٤) وصححه أحمد شاكر والأرناؤوط. انظر عمدة التفسير (٢٤/٥ ـ ٢٥)، جامع الأصول (١٣٢/٢).

(٣) انظر الدر المصون (٦٠١/٤).

(٤) في هذه المسألة انظر: البحر المحيط (١١٠/٤)، الدر المصون (٤١٢/١)، (٦٠٢/٤)، الخزانة (٥٠٢/٤)، البرهان للزركشي (٤١٧/٢)، قواعد وفوائد لفقه كتاب الله تعالى ص٤٥.

(٥) البيت لعبيد بن الأبرص وهو في الكتاب لسيبويه (٢٢٤/٤)، البحر المحيط (١١٠/٤)، الخزانة (٥٠٢/٤)، الدر المصون (٤١٢/١).

=

قد أَتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرّاً أنامِلُه كأنَّ أثوابَه مُجَّتْ بِفُرصادِ

وقول الآخر[١]:

أخي ثقةٍ لا تُتْلِفُ الخمرُ مالَه ولكنه قد يُتْلِفُ المالَ نائلُه

قالوا: «قد يُتلفُ المال» أي يَكْثُر من نائله إتلاف المال، وكذلك يكثر في هذا المفتخر بقتل الأقران: قتل الأقران. كل هذا خلاف التحقيق في هذه الآية؛ لأن (قد) فيها للتحقيق، يُبيّن الله لخلقه مُحققاً لهم أن علمه مُحيط بما ذكر أنه يعلمه، وهو كثير في القرآن، كقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: آية ١٨] ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: آية ١٤٤] ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ [الحجر: آية ٩٧] كل هذه الآيات (قد) فيها قبل الفعل المضارع للتحقيق كما هنا.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ﴾ الضمير في قوله: «إنه» هو ضمير الشأن[٢]، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ﴾ أي الأمر والشأن، والله ﴿لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾.

وهذا الذي يقولونه، الذي يحزنه، أشارت له آيات أُخر، كما بيّن تعالىٰ أن هذا الذي يقولونه له يُحزنه، وأنه يضيق به صدره كما قال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر: آية ٩٧] وبيّن في سورة هود أن هذا الذي يضيق صدره مما يقولون له إنه من نوع التكذيب والتعنت كما قال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ [هود: آية ١٢] يعني: ضائق صدرك؛ لأجل أن يقولوا تكذيباً وتعنتاً: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يصدقه.

وقال بعض العلماء[٣]: هذا الذي يحزنه من كلامهم قولهم له: «أنت

= واصفرار الأنامل هنا كناية عن الموت. والفرصاد: ماء التوت، أي من الدم.

(١) البيت لزهير. وهو في البحر المحيط (٤/١١٠) الدر المصون (٤/٦٠١، ٦٠٢) والمُثبت فيهما: «ولكنه قد يُهْلِكُ».

(٢) انظر الدر المصون (٤/٦٠٣).

(٣) انظر البحر المحيط (٤/١١١).

شاعر، ساحر، كاهن، هذا الذي جئت به أساطير الأولين، لا نقبل دينك»، هذا التكذيب ونسبته إلى أنه ساحر، مجنون، كاهن، هذا الذي يؤذيه ويضيق به صدره، ويحزنه. وقد بيّن له الله (جلّ وعلا) في آخر سورة الحجر علاج هذا الداء من هذا الذي يقولون له فيحزنه، وبيّن له أنه إذا أحزنه ذلك القول الذي يقولون أنه يُبادر إلى الصلاة؛ فإن الصلاة يعينه الله بها ويُذهب عنه ذلك الحُزن، كما قال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: آية ٤٥].

وقال له في آخر سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر: آية ٩٧] فرتب على ضيق صدره بما يقولون ـ بالفاء ـ قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: آية ٩٨].

عرفنا أن هذا التسبيح، والصلاة، والإنابة إلى الله هو دواء ذلك الحزن والأذى الذي يناله منهم؛ ولذا كان ﷺ ـ كما في حديث نعيم بن عمار كان ـ إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة[1]، صلوات الله وسلامه عليه، كما دلّ على ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ﴾ [الحجر: الآيتان ٩٧، ٩٨] أي فدواء ذلك هو ما أمرك ربك به بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ وقال هنا: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ هذا الذي يقولونه لك نحن نعلم أنه يحزنك، أي: يورثك الحزن لما يلقونك به من التكذيب، ونسبتهم إياك إلى السحر، والشعر، والكهانة، والجنون، هذا يؤذيه ﷺ، فيضيق به صدره، ومن أشد ما يؤذيه: امتناعهم من الإيمان؛ لأنه صلوات الله وسلامه عليه مجبول على الشفقة، وقد وصفه الله بالرأفة والرحمة بالمؤمنين في قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: آية ١٢٨] فمعنى ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يعزُّ عليه ويعظم، ويكبر عليه كل ما يصيبكم منه العنت، وهو المشقة والأذى[2] ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ إلى أن قال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كان إذا امتنعوا من الإيمان أسِف، وحزن حزناً شديداً، كما قال له الله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: آية

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.
(٢) انظر تذكرة الأريب لابن الجوزي (١/٢٢٩).

٣] أي: لأجل أن لا يكونوا مؤمنين. و(الباخع) معناه: المهلك[(١)]، أي: فلعلك مهلك نفسك أسفاً لأجل أنهم لم يؤمنوا ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: آية ٦] أي حزناً شديداً عليهم ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: آية ٨] ونحو ذلك من الآيات[(٢)]؛ ولذا قال له الله: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾ ﴿ٱلَّذِي﴾ موصول، وجملة الموصول ﴿يَقُولُونَۖ﴾ والضمير العائد إلى الصلة محذوف؛ لأنه منصوب بفعل، وتقديره: (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولونه) فالهاء المحذوفة التي في محل المفعول هي الرابط بين الصلة والموصول.

ثم إن الله قال لنبيه: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾. ﴿**فإنهم لا يُكْذِبونَك**﴾[(٣)] قال بعض العلماء: معنى القراءتين واحد[(٤)]، والعرب تُعدّي الثلاثي بالتضعيف كما تُعدّيه بالهمزة؛ كما يقال: «كثَّرت الشيء» و«أكثرته». وجماهير العلماء على أن بينهما في المعنى فرقاً[(٥)]، أن معنى (كذّب) ليس معنى (أكذب)، والمقرر في علوم القراءات: أن القراءتين حُكمهما حكم الآيتين المختلفتين، فكل منهما تفيد ما تضمنته من الأحكام والمعاني[(٦)]. أما على قراءة الجمهور: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ فالتحقيق أن المعنى: أن الكفار لا يُكذبونك.

واعلم أنه معروف في القرآن وفي لغة العرب أن الفعل يُسند إلى المجموع والمراد بعض المجموع لا جميعهم[(٧)]، ومما يوضح هذا المعنى

---

(١) انظر تفسير المشكل من غريب القرآن ص(١٤١)، الدر المصون (٧/٤٤٢).

(٢) راجع الأضواء (٢/١٨٩).

(٣) انظر المبسوط ص(١٩٣).

(٤) انظر حجة القراءات (٢٤٨).

(٥) انظر المصدر السابق (٢٤٧).

(٦) في هذه القاعدة انظر مجموع الفتاوى (١٣/٣٩١ ـ ٣٩٨، ١٥/٢٤٨، ١٧/٣٨١ ـ ٣٨٢)، شفاء العليل (٩٦)، البرهان للزركشي (١/٣٢٦)، الإتقان (١/٢٢٧)، أضواء البيان (٢/٨، ١٢٠، ٦/٢٢٦، ٦٨٠).

(٧) في هذا المعنى انظر ابن جرير (١/٥٠١)، (٢/٤٨٥ ـ ٤٨٧، ٥٠٠)، (١٦/٩١) وراجع ما مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

غاية الإيضاح من القرآن قراءة حمزة والكسائي[١]: ﴿فَإِن قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: آية ١٩١] بصيغة (القَتْل) في الفعلين؛ لأنه لا يُعقل أن الذي قُتل بالفعل يُؤمر بقتل قاتله، ولكن المعنى: فإن قتلوا بعضكم فليقتلهم البعض الذي لم يُقتل[٢]. وهذا أسلوب معروف في القرآن وفي غيره. وإذا عرفت هذا فاعلم أن بعض الكفار علموا صدق النبي ﷺ في الباطن، وقلوبهم مُوقنة أنه صادق[٣]، كما قال أبو جهل ـ لعنه الله ـ لما قال له الأخنس بن شُريق قال له: أنا وأنت في خلوة، ليس معنا أحد من قريش، فأخبرني عن صحة ما يقوله محمد (صلوات الله وسلامه عليه). فقال له أبو جهل: والله إني لأعلم أنه صادق، وأنه نبي، ووالله ما كذب محمد قط ولا يكذب، ولكن كنا نحن وبنو هاشم فرسي رهان، طعِموا فأطعمنا، وفعلوا ففعلنا، واليوم يقولون: مِنّا نبيّ! فمن لنا بهذه؟ والله لا نعترف بنبوته أبداً[٤]!! ولا شك أن هنالك قوماً من الجهلة يسمعون كلام الرؤساء فيظنون أنه كاذب، ويعتقدون كذبه. إذا عرفتم هذا فقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ راجع إلى الذين علموا صدقه. وكثير من عقلائهم عالم في قرارة نفسه أن النبي ﷺ نبيّ، وأنه رسول، وهم يجحدون ذلك ظلماً. وعليه فالمعنى: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ في الحقيقة، فيما بينهم وبين أنفسهم، ولكن الظالمين يجحدون آيات الله التي أُنزلت عليه، فلم يعترفوا بأنها من الله، كما قال له أبو جهل: أنت عندنا صادق، ولا نكذبك، ولكن نكذب هذا الذي جئت به[٥].

أما على قراءة: ﴿فإنهم لا يُكْذِبُونَكَ﴾ فـ (أَكْذَبَ) بصيغة (الإفعال)

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.
(٢) انظر حجة القراءات ص (١٢٨).
(٣) انظر ابن جرير (٣٣١/١١)، الدر المصون (٦٠٤/٤).
(٤) أخرجه ابن جرير (٣٣٣/١١)، والواحدي في أسباب النزول ص (٢١٦) عن السدي مرسلاً. على أن ذلك كان في يوم بدر.
وروى ابن إسحاق نحوه عن الزهري مرسلًا. على أن ذلك كان في مكة قبل الهجرة. انظر السيرة لابن هشام (٣٢٨/١ ـ ٣٢٩)، تفسير ابن كثير (١٢٩/٢).
(٥) مضى قريباً.

تفترق مع (كذَّب) بمعنيين[1]، أحدهما: أن الفرق بين (كذَّب) و(أكذب): أنك إذا كذّبت إنساناً، معناه قلت له: كذبت، ونسبته إلى افتراء الكذب. وإذا قيل: أكذب إنسانٌ إنساناً، معناه: أن كلامه يعتقد أنه كذب، ولا ينسب ذلك الإنسان إلى الكذب، بل يقول: لعله أخطأ، أو نسي، أو سها وهو لا يقصد الكذب أو تخيل له غير الحق. فمعنى «أَكْذَب» على هذا: أنه لا يتعمد الكذب، وأنه لا يُنسب إلى الاختلاق والافتراء، ولكن القول الذي جاء به غير مطابق للحق.

الوجه الثاني في قراءة ﴿يُكْذِبُونَكَ﴾: - وهو الذي عليه الأكثر -: أنه تقرر في فن التصريف أن من معاني «أَفْعَل» إذا قلت: أَفْعَلْتُ الرجل، إذا وجدته كذا، تقول: أَحْمَدتُه إذا وجدته حميداً، وأَبْخَلْتُه إذا وجدته في نفس الأمر بخيلاً، وأَكْذَبْتُه إذا وجدته في نفس الأمر كاذباً، وعلى هذه القراءة: إن ظنت نفوسهم أنك كاذب، وكذبوك، وقالوا: إنك كاذب، ساحر، كاهن، فإنهم لا يصادفونك في نفس الأمر كاذباً، فأنت على حق فيما بينك وبين الله، فهوِّن عليك، ولا تثقل عليك افتراءاتهم.

هذان الوجهان من التفسير في قراءة ﴿يُكْذِبُونَكَ﴾ وقد قدمنا معنى ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قد قدمنا معنى الظلم[2].

﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي الشرعية الدينية ﴿يَجْحَدُونَ﴾ أي يجحدونها وينكرون أنها حق.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٣٤].

هذه الآية تسلية للنبي ﷺ وتهوين عليه؛ لأنك إذا وجدت إنساناً وقع في مصيبة وبليّة وقلت له: هذه المصيبة التي نزلت بك قد نزلت بإخوان لك

(١) انظر حجة القراءات ص (٢٤٧)، القرطبي (٦/٤١٦)، البحر المحيط (٤/١١١).
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

كرام أفاضل، وصبروا عليها، وكان لهم في عاقبة الأمر الظفر والنجاح، والعاقبة المحمودة؛ فإن هذا يُهوِّن ويُسهِّل المصيبة على ذلك المُبتلي. وقد نصّ الله في أخريات سورة هود على أنه يقص على النبي أخبار الرسل؛ ليُهوِّن عليه ويُثبِّت قلبه، وذلك في قوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: آية ١٢٠] يقول له: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: آية ٤٣] هذا الذي لقيك به قومك لُقي الرسل من قِبَل قومهم بمثله وأشد، فاصبر كما صبروا، فستكون لك العاقبة الحميدة كما كانت لهم. وفي هذا أعظم بشارة وأكرم تسلية له ﷺ. واللام في (لقد) موطئة قسم محذوف. والله لقد كُذبت رسل من قبلك، هؤلاء الرسل الذين كُذبوا من قبلك منهم من جاء مفصلاً في هذا القرآن العظيم، كقول قوم نوح لنوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: آية ٢٧] وقولهم له: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: آية ٣٢]، وقد سخروا منه كما قال: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ [هود: آية ٣٨]، والمفسرون يقولون[1]: سُخريتهم منه التي ذكرها الله أنه لما أراد أن يصنع السفينة [وتعلم][2] النجارة صاروا يضحكون، ويقولون: بعد أن كنت نبياً صرت [نجاراً، وهكذا عاد قالوا لهود، وثمود][3] قالوا لصالح!! قالوا لنبي الله هود: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود: آية ٥٣]، وقالوا لصالح: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: آية ٦٢] يعني: وأما إذا ادعيت النبوة، ودعوت إلى عبادة الله فلا رجاء لنا فيك. وهذا جاء مفصلاً عن الرسل في القرآن العظيم، كتكذيبهم لنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وتكذيب فرعون وقومه لموسىٰ وهارون، وما جرى مجرى ذلك، وهنالك رسل لم تُقص عليه أخبارهم، كما نص الله عليه في سورة

---

(١) انظر القرطبي (٣١/٩).

(٢) في هذا الموضع كلمة غير اضحة وما بين المعقوفين زيادة ينتظم بها الكلام.

(٣) في هذا الموضع وقع مسح وانقطاع. وما بين المعقوفين زيادة يتم بها المعنى.

النساء[1]، وفي سورة المؤمن: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: آية ٧٨].

وإنما قال: ﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ بتاء التأنيث لما تقرر في علم العربية: أن ثلاثة من الجموع ـ أعني الجمع المُكَسَّر مذكراً كان أو مؤنثاً، والجمع السالم المؤنث، كلها تجري مجرى الواحدة المؤنثة مجازية التأنيث[2]؛ ولذلك أُنث الفعل هنا وقيل فيه: ﴿كُذِّبَتْ﴾ وأُنثت الإشارة إليه لهذا كما قال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ [البقرة: آية ٢٥٣] ونحو ذلك ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ حذف الفاعل هنا وأناب المفعول به منابه؛ لأنه يوضحه. أي كذبهم قومهم فصبروا على ذلك التكذيب والأذى.

﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟﴾ (ما) هنا مصدرية. فصبروا على التكذيب.

وقوله: ﴿وَأُوذُوا۟﴾ فيما يُعطف عليه وجهان[3]: أظهرهما أنه معطوف على: ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟﴾ أي: فصبروا على التكذيب، وعلى الإيذاء الذي ينالهم من قومهم، حتى جاءهم نصرنا.

وعلى هذا فقوله: ﴿وَأُوذُوا۟﴾ معطوف على قوله: ﴿كُذِّبُوا۟﴾ فصبروا على ما كُذبوا، وصبروا على ما أُوذوا. و(ما) مصدرية، أي: صبروا على التكذيب والإيذاء حتى جاءهم نصرنا، وهنالك قوم قالوا: الإيذاء لم يتقدم له ذكر حتى يكون الصبر عليه مذكوراً؛ ولذا قالوا: ﴿وَأُوذُوا۟﴾ عطف على قوله: ﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني: لقد كُذب الرسل وأوذوا، فصبروا على ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني: أن الله من كلماته (جل وعلا) نصره لرسله، وأن العاقبة الحميدة كائنة لهم[4]، كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: آية ١٦٤].

(٢) انظر: ضياء السالك (٢/٢٥).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/١١٢)، الدر المصون (٤/٦٠٥).

(٤) انظر: القرطبي (٦/٤١٧)، البحر المحيط (٤/١١٢ ـ ١١٣).

لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: الآيات ١٧١ ـ ١٧٣] ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: آية ٢١] وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر: آية ٥١] مثل هذه الكلمات من الوعد الصادق بنصر الرسل، وأن العاقبة لهم، كما قال عن مجموع الرسل: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: الآيتان ١٣، ١٤] هذه الكلمات - وغيرها من سائر كلمات الله التي لا نهاية لها كما قال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: آية ١٠٩] ـ لا مبدل لها. والمعنى قال الله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: الآيات ١٧١ ـ ١٧٣] فليس يمكن لأحد أن يُبدل هذا الخبر ويجعل إيجابه سلباً، فيجعل الرسل مقهورين غير منصورين، لا أبداً، وقس على ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ومعنى التبديل هو إذهاب هذا والإتيان ببدل غيرها.

﴿لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وعده رُسله بالنصر والعاقبة المحمودة، فتبديل هذا أن ينزع النصر عنهم، ويجعل مكانه غلبتهم وإذلالهم. لا أحد يستطيع هذا التبديل لكلمات الله.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فاعل (جاء) هنا محذوف دل عليه المقام[1]. و(من) في قوله: ﴿مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تبعيضية، أي: ولقد جاءك بعض أنباء المرسلين؛ لأن الله يقول: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: آية ٧٨] وفي هذا البعض الذي جاءك من أنبائهم تسلية لك، وتثبيت لك، كما قال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: آية ١٢٠] ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: آية ٤٣] ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: آية ٣٥].

(١) انظر: القرطبي (٦/٤١٧)، البحر المحيط (٤/١١٣)، الدر المصون (٤/٦٠٦).

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: آية ٣٥].

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ كان النبي ﷺ إذا دعا قومه إلى الإسلام، وعرض عليهم هذا القرآن العظيم بما فيه من الآيات البينات التي لا تترك في الحق لبساً، قابلوه بالرد القبيح والإعراض، أي: التولي والصدود عن دين الله (جل وعلا) وآذوه ﷺ، فبيّن في هذه الآية أن من أسوإ ما يسوؤه، وأحزن ما يحزنه، ويضيق به صدره إعراضهم وتوليهم عن الحق؛ لما جُبل عليه من الشفقة والرحمة؛ ولذا نهاه الله مراراً عن شدة أسفه وحزنه عليهم[1]، قال له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: آية ٨] لأجل أن لم يؤمنوا فهوّن عليك، وقال له: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: آية ٣] ومعنى ﴿بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ مهلك نفسك بالأسف والحزن؛ لأجل عدم إيمانهم.

و(الباخع) في لغة العرب: المهلك[2]، ومنه قول غيلان ذي الرمة[3]:

ألا أيُّهذا الباخعُ الوجدُ نفسَه لشيء نَحَتْه عن يديه المقادِرُ

«الباخع الوجد نفسه» أي: المهلك الوجد نفسه.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: مهلكها.

﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لأجل عدم إيمانهم، فهوّن عليك، وقال له: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: آية ٦] وهو شدة الحزن، أي: لشدة الحزن عليهم أن لم يؤمنوا، وقال له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: آية ٨] من شدة التأسف على عدم إيمانهم، فهوّن عليك. والله يعني بهذا: يعني أنت رسول مهمتك

---

(١) انظر: الأضواء (١٨٩/٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٣) من سورة الأنعام.

(٣) البيت في معاني القرآن للزجاج (٢٦٨/٣)، الدر المصون (٤٤٢/٧).

الرسالة، وقد بلغت، ونصحت، وأديت كما ينبغي، فهداهم ليس عليك، وحسابهم ليس عليك، فربهم أعلم بهم، هو الذي يُشقي ويهدي، وهو الذي إليه مرجعهم وحسابهم، فَهَوِّن عليك، فقد قمت بما عليك: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾؛ ولذا شدد عليه هنا في هذه الآية، قال له: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي شق وعظم عليك ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: صدودهم وتوليهم عما جئت به، وقد أمرتك مراراً أن تترك عنك هذا الحزن، وتعلم أنّ ما عليك قد أديته، بلغت ونصحت، وأن هداهم ليس بيدك ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: آية ٤١] ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: آية ٣٧] قال له هنا: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: شق وعظم عليك وأحزنك[1] ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: صدودهم عما جئت به. و(الإعراض) مصدر أعرض يعرض إعراضاً، إذا صدّ وتولىٰ عن الشيء. فكأن الله يقول له: إن عظُم وشق عليك وأحزنك صدودهم وتوليهم، وقد نهيتك مراراً عن هذا الحزن، فإن كانت لك طاقة أو قدرة فأت بها، وإن عجزت عن ذلك فاعلم أن ذلك بيد الله، فكِلْ الأمر إليه، وهون عليك؛ ولذا قال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ الاستطاعة على الشيء: القدرة عليه.

﴿أَن تَبْتَغِىَ﴾ تطلب.

﴿نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ النفق السَّرَب في بطن الأرض، الذي يكون له وجه من جهة أخرى ينفذ منه الإنسان[2]، أن تبتغي سَرَباً في الأرض [فتغوص][3] به في بطن الأرض؛ لتُخرج آية تقهرهم بها، ﴿أَوْ سُلَّمًا﴾ أو مصعداً تصعد به إلى السماء[4]، حتى تحصّل من الأسفل أو من الأعلى آية تقهرهم بها؛ إن قدرت على هذا فافعل. فجواب ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ محذوف، وتقديره:

---

(١) انظر: القرطبي (٦/٤١٧).
(٢) انظر: القرطبي (٦/٤١٧)، الدر المصون (٤/٦٠٩).
(٣) في الأصل: فتغيص.
(٤) انظر: القرطبي (٦/٤١٧)، الدر المصون (٤/٦١٠).

فافعل. إن قدرت على ذلك فافعل[١]، وإن كنت عاجزاً عن ذلك ـ كما هو الحق ـ فهون عليك، واعلم أن أمرهم إلى الله، ومصيرهم إلى الله، فهون عليك.

وقوله في صدر هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ﴾ المعروف في فن العربية: أن مادة (الكاف والباء والراء) تستعمل في القرآن العظيم، وفي لغة العرب استعمالين، ويتغير شكلها بحسب الاستعمالين[٢]، إن كانت (كَبُر) معناه: أنه عظُم وكبر، فهي مضمومة الباء في مضارعها وماضيها، تقول: «كبُر عليه الأمر»، إذا عظم وشق. ومنه قوله هنا: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، وقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: آية ٥] ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ﴾ [الصف: آية ٣] ومضارع هذه أيضاً: (يكبُر) بضم الباء على القياس، كما في قوله: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: آية ٥١] فهذه كبُر يكبُر. أما معناها الآخر، وهو (الكِبَر في السّن)، بأن تقول: «كبِر هذا الغلام في سِنه»، فهي مكسورة الباء في الماضي، تقول: (كبِر)، بكسر الباء. ولا تقول: (كبُر)، وتقول في مضارعها: (يكبَر) بفتح الباء، ولا تقول: (يكبُر)، على القياس، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ [النساء: آية ٦] لأنه هنا مضارع (كبِر) بكسر الباء، (يَكْبَر) بفتحها على القياس، ومنه بهذا المعنى الأخير قول مجنون بني عامر[٣]:

تَعَشَّقْتُ ليلىٰ وهي ذاتُ ذوائب ... ولم يبدُ للعينين من ثديها حجم
صغيرين نرعىٰ البهم يا ليت أننا ... إلى اليوم لم نَكْبَر ولم تَكْبَر البهم

هذان معنى (كبُر) و(كبِر)؛ لأنهما معنيان مختلفان يتغير المعنى بهما. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي

---

(١) انظر: الدر المصون (٤/٦٠٧)، ضياء السالك (٤/٥١ ـ ٥٢).
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.
(٣) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ النفق: السرب في داخل الأرض[١]، وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[٢]:

ولا لكما مَنجىً من الأرض فابغِيا بها نَفَقاً أو في السموات سُلَّماً

ويُجمع النفق على أنفاق، ومنه قول امرئ القيس[٣]:

خَفَاهنّ مِنْ أنفاقهنّ كأنّما خفاهنّ وَدْقٌ من عَشيّ مجلِّبِ

يعني أخرجهن من جحورهن؛ لأن جحور الحشرات تسمى أنفاقاً، واحدها نفق. والسُّلم: هو المصعد إلى الشيء، معروف في كلام العرب. والسُّلم إلى السماء: المصعد الذي يصعد فيه إلى السماء[٤]. ومنه قول زهير في معلقته[٥]:

ومَن هاب أَسْبَابَ المَنَايَا يَنَلْنَهُ ولَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

وكل مصعد يصعد فيه الإنسان تسميه العرب سُلماً، ولو كان معنوياً، فالشيء الذي يُرتَقَى به إلى الأمر ـ ولو معنوياً غير محسوس ـ تقول له العرب: سُلم، ومنه قول الحطيئة[٦]:

الشعر صعب وطويل سُلَّمُه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلَمُه
زلت به إلى الحضيض قدَمُه

---

(١) مضى قريباً.

(٢) البيت لكعب بن زهير. وهو في البحر المحيط (١١٤/٤)، الدر المصون (٦١٠/٤).

(٣) ديوان امرئ القيس ص (٣٦). وقبله:

ترى الفأر في مستنقع القاع لاحباً على جدَد الصحراء من شد مُلهبِ

والمعنى: خفاهن: أظهرهن، يعني الفئران. أنفاقهن: أجحارهن. الودق: المطر. فهو يقول: إن شدة وقع حوافر هذا الجواد على الأرض أوهم الفئران في أجحارهن بأنه وقع مطر شديد فتركت أنفاقها، وخرجت ناجية بأرواحها إلى مرتفعات الأرض.

(٤) مضى قريباً.

(٥) انظر: شرح القصائد المشهورات (١٢٢/١).

(٦) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت ص (٢٩١).

وقوله جل وعلا: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم﴾ هذا الفعل المضارع منصوب؛ لأنه معطوف على فعل منصوب، والمضارع المعطوف على منصوب يُنصب. والأول المنصوب قوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ﴾ فقوله: ﴿تَبْتَغِىَ﴾ منصوب بـ(أن). وقوله: ﴿فَتَأْتِيَهُم﴾ معطوف عليه، ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ قاهرة تقهرهم بها فافعل إن قدرت، وإن لم تقدر على ذلك فهوِّن عليك، واعلم أن أمرهم بيد الله، هُدَاهُم بيده وحسابهم عليه، فهون عليك.

ثم إن الله قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ هذا الهدى الذي يؤسفك أن لم يهتدوا هو بيد الله، لو شاء ربك ﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ لفعل. والقاعدة المقررة في علم العربية: أن فعل المشيئة إذا قُرن بشرط أنه يُحذف مفعوله دائماً[(١)]؛ لأن جزاء الشرط يكفي عنه. والمفعول محذوف تقديره: (ولو شاء الله جَمْعَهُم على الهدى لجمعهم على الهدى) فغالباً إذا عُلق فعل المشيئة بالشرط حُذف مفعوله لدلالة جواب الشرط عليه، ولم نجده موجوداً في القرآن، ولا في كلام العرب، إلا إذا كان المفعول مصدراً منسبكاً من (أن) وصلتها، كقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: آية ١٧] ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ﴾ [الزمر: آية ٤] لأن الأسلوب الشائع في القرآن هو حذف هذا المفعول، أن يقول: (لو أراد الله لاصطفى ولداً، لو أراد لاتخذ لهواً)، ولكنه هنا أثبت المفعول، وهو مصدر منسبك من (أن) وصلتها. ونظيره في إثبات المفعول ـ وهو مصدر منسبك من (أن) وصلتها ـ قول الشاعر[(٢)]:

ولو شئتُ أنْ أبْكِي دماً لبَكَيْتُهُ عليك ولكن ساحةُ الصَّبرِ أوسَعُ

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (جلّ وعلا) ﴿لَجَمَعَهُمْ﴾ جميعاً ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، والهدىٰ هنا بمعناه الخاص؛ لأنا قدمنا في هذه الدروس ـ في

---

(١) انظر: الإتقان (٣/١٧٢ ـ ١٧٣)، الدر المصون (١/١٨٣، ٤/٦١٤).

(٢) البيت للخُريمي، وهو في الكامل للمبرد (٣/١٣٦٢)، تاريخ دمشق (٨/٢٠٢).

الكلام على سورة الفاتحة ـ أن الهدى يطلق في القرآن إطلاقين: يطلق إطلاقاً عاماً، ويطلق إطلاقاً خاصاً، أما الهدى بمعناه العام: فهو إبانة الطريق، وإيضاحها، وتوضيح الخير من الشر. ومنه بهذا المعنى في القرآن: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: آية ١٧] أي: أوضحنا لهم طريق الخير والشر بيّنة على لسان نبينا صالح. وليس هذا الهدىٰ (هدىٰ توفيق)، وإنما هو (هدى بيان) فقط بدليل قوله: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: آية ١٧] فتبين أن قوله: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ ليس (هدى توفيق)، وإنما هو (هدى بيان) وإيضاح للحق من الباطل، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى في الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: آية ٣] لأن معنى قوله: ﴿هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي بيّنا له طريق الخير والشر، وأوضحنا له ما يُتقى وما يُفعل، بدليل قوله بعده: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: آية ٣] لأنه لو كان (هدىٰ توفيق) لما فصّله بقوله: ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ومن إطلاق الهدى بمعناه الخاص قوله في النبيين الذين ذكرهم في الأنعام: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] وهو بمعناه الخاص: التوفيق إلى ما يرضي الله.

وإذا علمتم أن للهدى إطلاقين: إطلاقاً عاماً، وإطلاقاً خاصاً[(١)]، وأن إطلاقه العام معناه الهدى بمعنى البيان، والإرشاد، وبيان الحق وإيضاحه، وأن معناه الخاص هو تفضُّل الله بالتوفيق على عبده، وأن يهديه إلى طريق الخير، كما قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ [الأنعام: آية ١٢٥] أي: بهذا الهدى الخاص ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ﴾.

بهذا التفصيل تزول عنكم إشكالات في كتاب الله؛ لأن الله مثلاً قال لنبيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: آية ٥٦] وقال له في آية أخرى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: آية ٥٢] فيقع فيه لطالب العلم أن يقول: كيف قال له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: آية ٥٦] وقال

(١) انظر: شفاء العليل ص (٦٥)، دفع إيهام الاضطراب ص (٧ ـ ٨) (ملحق بآخر الجزء التاسع من أضواء البيان).

له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: آية ٥٢]؟

والجواب عن الآيتين: هو ما بيّنا الآن أن للهدىٰ إطلاقاً عاماً، وإطلاقاً خاصاً، فالهدىٰ المثبت له في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: آية ٥٢] هو الهدى العام، وهو بيان الطريق وإيضاحها. وقد بين ﷺ الطريق حتى تركها محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

أما الهدى المنفي عنه في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: آية ٥٦] فهو التفضل بالتوفيق؛ لأن التوفيق بيد الله وحده ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ﴾ الآية [المائدة: آية ٤١]. وقوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: آية ٣٧] وفي القراءة الأخرى: ﴿فإنَّ اللَّهَ لا يُهدَى مَن يُضِلُّ﴾[1] أي: من يضله الله لا يُهدى، لا هادي له أبداً. إذا عرفتم هذا فقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ﴾ [الأنعام: آية ٣٥] يعني به الهدى الخاص والتوفيق، أما الهدى العام فقد بيّن لهم النبي ﷺ، وهداهم، وأرشدهم إلى طريق الخير.

ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: آية ٣٥] والجاهلون: جمع الجاهل، فهو اسم فاعل الجهل، وكلام العلماء في (الجهل) وفي تفسيره معروف[2]، أشهر تفسيراته: أن الجهل عدمي، وأن المراد به عدم العلم بما من شأنه أن يُعلم.

وهذه الآية وأمثالها في القرآن يخاطب الله بها نبيه ﷺ ليُشرّع على لسانه لخلقه؛ لأن النبي ﷺ مُشرّع، يخاطبه الله خطاب السيد لعبده؛ ليُشرّع على لسانه لخلقه.

---

(١) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وأبي جعفر، ويعقوب. انظر: المبسوط لابن مهران ص (٢٦٣).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

١/ب ثم إن الله بيّن لنبيه ﷺ أن عدم هداهم الذي كان يحزنه ويؤسفه/ أنه لا يهتدي إلا من جعله الله قابلًا لذلك الهدى، لا من أضله الله وأمات قلبه ـ والعياذ بالله ـ ولذا قال بعد هذا: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ﴾ [الأنعام: آية ٣٦] أي: لا يجيبك إلى ما تطلب وتدعو من الهدى، إلا الذين يسمعون، أي: جعل الله لهم سماع حق وتفهّم يسمعون به عن الله، أما الذين [أعمى][1] الله أبصارهم، وختم على آذانهم فلا يجيبونك أبداً، فلا تحزن عليهم، فليس فيهم حِيلة؛ لأن ربهم قضى عليهم بالشقاء الأزلي؛ ولذا قال هنا: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ أي: يستجيب لك، ويجيبك فيما تدعوه إليه من الإسلام ﴿ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ﴾ سماع تَفَهُّم بأن وفقهم الله، وأعطاهم سماع تَفَهُّم يفهمون به ويقبلون، أما الذين لم يعطهم الله سماع تفهم فهم صُمّ وإن كانوا يسمعون، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾ [البقرة: آية ١٨] صرح بأنهم (صم) وأنهم (بكم) وأنهم (عُمي)، ومع ذا يقول فيهم: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: آية ١٩] كيف يسلق بألسنة حداد من هو أبكم؟ وقال: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ [المنافقون: آية ٤] أي: لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم. ومعنى هذا: أن الله أصمهم عن سماع الحق، وعن الدين، وعمَّا ينفعهم عند ربهم، وإن كانوا يسمعون غيره، وكذلك جعل ألسنتهم بُكماً عن النطق بالقول فيما يرضي الله، وبما ينفعهم عنده، وإن نطقوا بغيره.

ومن أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن: أن الشيء إذا كان قليل الجدوى أُطلق عليه: لا شيء[2]. فأسماعهم لما لم يفهموا بها عن الله، وأبصارهم لما لم يبصروا بها ما يرضي الله، وقلوبهم لما لم يعقلوا بها بما يرضي الله، صارت كلها كأنها عدم؛ ولذا أُطلق عليهم اسم الصمم؛ لأن

(١) في الأصل: أصم.

(٢) انظر: فقه اللغة للثعالبي ص (٣١٠)، مجموع الفتاوى (١٥٥/٢٥ ـ ١٦٠)، البرهان (٣٩٥/٣)، فتح الباري (٦١/٢، ٢٤١)، (٢٠٨/٩)، الإتقان (٢٣١/٣)، الكليات (٨٩٠)، القواعد الحسان ص (١٣٤).

سمعهم لم ينفعهم(١)، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: آية ٢٦] فمعلوم في لغة العرب أن السماع الذي لا جدوى له تُطلق العرب عليه: لا شيء، وتسمي صاحبه أصمّ(٢). وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول قعنب بن أم صاحب(٣):

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خيراً ذُكرت به وإن ذُكرتُ بسُوءٍ عندهم أَذِنوا

فسماهم (صمّاً) وهو يقول: (إذا سمعوا خيراً) فأطلق عليهم الصمم مع أنه صرّح بأنهم يسمعون. وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول الآخر(٤):

قل ما بدا لك من زُوْرٍ ومن كذب حلمي أصم وأُذني غير صماء

يعني: حلمي لا يبالي بما تقول، وإن كانت أُذني تسمعه؛ ولذا قال هنا: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ لأنهم أحياء يسمعون عن الله سماع تَفَهُّم.

ثم قال: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ الموتى جمع (المَيِّت) ومثل (مَيِّت) يُجمع على (موتى)، وقد يطّرد الجمع على (فَعْلَى) في كل (فَعِيل) إذا كان يُرثى له. وكذلك (فَيْعِل)(٥) و(فَعِل) كـ(مَيِّت ومَوْتَى) و(زَمِنٍ وزَمْنَى)، هذا

---

(١) انظر: الأضواء (٤٩/١)، دفع إيهام الاضطراب ص (١٢) (ملحق في آخر ج(٩) من الأضواء).

(٢) انظر: المفردات (مادة: صمم) ص (٤٩٢)، دفع إيهام الاضطراب ص (١٢).

(٣) البيت في معاني القرآن للزجاج (٣٠٣/٥)، القرطبي (٢٦٩/١٩)، الدر المصون (٧٣٢/١٠).

(٤) أنشده ثعلب في مجالسه (٣٧٨/٢)، وهو في كتاب الحيوان للجاحظ (٣٩٠/٤)، واللسان (مادة: صمم) (٤٧٦/٢).

(٥) قال ابن هشام في تعداد أبنية الكثرة: «السابع»: «فَعْلَى» بفتح أوله وسكون ثانيه. وهو لما دل على آفة من (فَعِيل) وصفاً للمفعول، كجريح وأسير. وحُمِل عليه ستة أوزان مما دل على آفة؛ من (فَعِيْل) وصفاً للفاعل، كمريض، و(فَعِل) كزَمِن، و(فاعِل) كهالك، و(فَيْعِل) كميِّت، و(أَفْعَل) كأحمق، و(فَعْلان) كسكران» ا.هـ أوضح المسالك (٢٦٠/٣).

على الأكثر، أما في (فَعِيْل) بمعنى (مفعول) إذا كان يُرثى لصاحبه فتطرد فيه: (فَعْلَى).

وأطبق العلماء على أن المراد بالموتى هنا: الكفار. لا يكادُ يختلف في هذا اثنان من علماء التفسير[1]. كأنه يقول: إنما يستجيب الأحياء الذين يسمعون، كما قال له: ﴿لِتُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: الآية ٧٠] وفي القراءة الأخرى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[2] أي: الذي له حياة، أما المَيْت: الذي أمات الله قلبه.

وكثيراً ما يطلق القرآن اسم (الميت) على (الكفر)، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٢] وكقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: آية ٢٢] يعني بالأحياء: المؤمنين، وبالأموات: الكفرة؛ لأن الكافر ـ والعياذ بالله ـ كأنه ميت؛ لأن حركات حياته لم تكن في شيء ينفعه عند ربه - جل وعلا - في حياته الأخرى، فصار ميت القلب كأنه ميت بالكلية؛ ولذا قال: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي: الكفار الذين ختم الله على قلوبهم، وأمات قلوبهم، لا حيلة في إيمانهم، فلا تحزن عليهم، ولكن هوِّن عليك، فحسابهم إلى الله، وهداهم عليه، الله هو الذي أضلهم في الدنيا، ويوم القيامة يبعثهم، ثم إليه يرجعون، فيجازيهم على أعمالهم. فهداهم بيده، وشقاؤهم بيده، وحسابهم إليه. وأنت إنما أنت نذير، وقد بلغت ونصحت، وأديت الأمانة، فقمت بما عليك، وهوِّن عليك. ولذا قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: آية ٣٦].

والعرب تطلق (استجاب) بمعنى: (أجاب). والمعنى: ﴿يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يجيبونك إلى ما تدعوهم إليه. ولا شك عند العلماء في

---

(١) انظر: ابن جرير (٣٤١/١١)، القرطبي (٤١٨/٦)، الأضواء (١٨٩/٢).

(٢) الأولى قرأ بها نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب.
والثانية قرأ بها أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف. انظر: المبسوط لابن مهران (٣٧٢).

إطلاق (استجاب) بمعنى (أجاب)[١]. ومن الدليل عليه أن العرب الفصحاء نطقوا بما يدل على ذلك، ومنه قول كعب بن سعد الغنوي[٢]:

وداعٍ دعا يا مَنْ يُجيبُ إلى الندى فلم يَسْتَجِبْهُ عند ذاك مُجيبُ

فجاء بـ(المجيب) اسم فاعل (لم يستجبه)، فعرفنا أنه أراد بـ(لم يستجبه): لم يجبه مجيب. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ الذي يجيبك إلى ما تدعو إليه، ويؤمن بك الإيمان الذي تطلب ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ الأحياء الذين لهم سمع يفهمون به عنك ﴿وَالْمَوْتَى﴾ أي: الكفار الذين ختم الله على قلوبهم وأسماعهم، فإنك لا يمكن أن تُسمعهم؛ لأنهم موتى، كما قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [النحل: آية ٨٠] ولذا قال: ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: من قبورهم يوم القيامة إلى الجزاء.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ قد تقرر في فن المعاني في مبحث القصر، وفي فن الأصول في مبحث دليل الخطاب ـ أعني مفهوم المخالفة ـ أن من الصيغ الدالة على الحصر: تقديم المعمول[٣]. وقد قدّم المعمول هنا، وهو الجار والمجرور إيذاناً بالحصر. ثم يرجعون إليه وحده؛ لأنه ليس هناك عدة ملوك يرجع بعض الناس إلى واحد ليحاسبه، وبعض إلى واحد ليحاسبه. بل هو الملك الواحد القهار، الذي إليه مرجع الجميع؛ ولذا قدّم المعمول فقال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٣٧].

﴿وَقَالُوا﴾ يعني الكفار ـ كفار مكة ـ هم الذين قالوا هذا القول[٤].

وقوله: ﴿لَوْلَا﴾ اعلم أولًا: أن (لولا) جاءت في القرآن العظيم لثلاثة

---

(١) انظر: الدر المصون (١٥٩/١)، (٢٩١/٢)، (٥٠٠/٤).

(٢) البيت في المصدر السابق (١٥٩/١).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٤) انظر: البحر المحيط (١١٨/٤).

معان معروفة في القرآن العظيم، وفي كلام العرب[١]:

الأول: من هذه المعاني الثلاثة: (لولا) المعروفة بأنها تأتي لامتناع لوجود، وهي التي تدل على امتناع شيء لوجود شيء، كقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ انتفى مسيس العذاب العظيم لوجود فضل الله ورحمته.

هذه التي يقال فيها إنها تدل على امتناع لوجود، وخبر مبتدئها محذوف دائماً في الأغلب[٢].

الثانية: هي (لولا) التي بمعنى التحضيض[٣]، وهذه تنقسم قسمين. ومنها كانت (لولا) مشتركة بين ثلاثة معانٍ. لولا التحضيضية إنما تدل على التحضيض، والتحضيض معناه الطلب بحثٍّ وحضٍّ، ومنه هذه التي عندنا. (لولا) أي: نطلب منك بحض وحث أن تنزل عليك آية مثل آية موسى التي جاءت، صارت عصاه ثعباناً مبيناً، وكآية صالح التي خرجت له ناقة عشراء جوفاء، وَبْراء، من صخرة، وما جرى مجرى ذلك، وكآية عيسى الذي يُبرىء الأكمه، والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وما جرى مجرى ذلك، وهذا طلب منهم وتحضيض، وهو طلب بحثٍّ وحضٍّ، إلا أنه طلب عناد وتعنت.

الثالث من معاني (لولا)، لم نتكلم عليه الآن، وهو أن (لولا) التحضيضية ـ ومعنى التحضيضية: أنها دالة على تحضيض، والتحضيض: هو طلب الفعل بحثٍّ وحض ـ لها حالتان: تارة يكون فعلها المطلوب بها ممكن الفعل لم تَضِع فرصته، فهذه هي التحضيضية، كالتي عندنا. وتارة

---

(١) وذكر لها ابن هشام معنى رابعاً في (مغني اللبيب ٢١٦/١) وهو: الاستفهام. وعقبه بقوله: «وأكثرهم لا يذكره» ا.هـ.

(٢) انظر: المفردات (مادة: لولا) (٧٥٣)، الكليات ص (٧٨٧ ـ ٧٩٠)، بصائر ذوي التمييز (٤٥٨/٤)، مغني اللبيب (٢١٥/١).

(٣) انظر: المفردات (مادة: لولا)، وانظر الكليات ص (٧٧٧، ٧٨٨ ـ ٧٩٠)، بصائر ذوي التمييز (٤٥٨/٤) مغني اللبيب (٢١٦/١).

يكون فعلها المطلوب فيها بأداة الطلب التي هي حرف التحضيض - أعني (لولا) - فات ولم يمكن تداركه؛ لأن فرصته ضاعت ولم يمكن تداركه. فإن التحضيضية في هذه الحالة ينقلب معنى تحضيضها إلى توبيخ وتنديم على التفريط فيما مضى[(١)]، كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ [يونس: آية ٩٨] فتلك القرى الماضية هلكت ومضت، إلا أن توبيخ الله لها، وتنديمه لها بعد أن ماتت ليعتبر به غيرها، وكما قال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ [النور: آية ١٦] لأن الفرصة فاتت عليهم؛ لأنهم تكلموا بما لا يليق، فصارت (لولا) التحضيضية في شأنهم يُراد بها التوبيخ والتنديم على التفريط فيما مضى.

وقوله: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾.

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعنون: يكون مبدأ إنزالها وابتداؤه من ربه، ينزل عليه آية لا لبس في الحق معها، كعصا موسى، وناقة صالح، وما جرى مجرى ذلك. فالله أمر نبيه أن يقول، قل لهم يا نبي الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾.

ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يدل على أن طلبهم للآية بأداة التحضيض التي هي ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ أنه نشأ عن جهل لا عن علم، ولو كانوا عالمين لما تعنتوا، ولما اقترحوا هذا الاقتراح، وذلك من أوجه[(٢)]:

منها أن الله (جل وعلا) أجرى العادة بأن القوم إذا اقترحوا آية، وأنزلها الله لهم، وكفروا بعد ذلك أن الله يهلكهم هلاك الاستئصال، كما يأتي في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: آية ٥٩] أي: وهي الآية التي اقترحوها فكفروا بها، فكان ذلك سبب هلاك مستأصل، وتدمير عام أهلكهم الله به، وجعلهم أثراً

(١) انظر: الكليات ص (٧٨٨ - ٧٩٠، ٩٥٨)، بصائر ذوي التمييز (٤/٤٥٨)، مغني اللبيب (١/٢١٦).

(٢) انظر: الأضواء (٢/١٩٠).

بعد عين. فقد يقترحون آية، ويأتيهم الله بها، فيكفرون بها فيمحقهم كما محق ثمود، كما أشار له بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: آية ٥٩] اقترحوها عناداً وتعنتاً، فلما أُتوا بها كفروا بها، فكانت سبباً لهلاك مستأصل. وقد ذكروا في بعض المواضع من القرآن أن الكفار قالوا للنبي: «سل ربك يجعل لنا الصفا ذهباً». وتعنتوا بأمور كثيرة، وأنه جاءه التخيير من ربه إن شاء فعل لهم ما اقترحوا، وإن كفروا أهلكهم، وإن شاء تركهم، وهدى من يهدي منهم ومن أصلابهم؛ ولذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ واعلموا أن الله تبارك وتعالى أنزل على عبده آيات ومعجزات عظيمة، لا لبس في الحق معها، فلو كان طلبهم للآية طلب مسترشد يريد الهدى غير متعنت لأعطاهم الآية، ولكن الله أعطاهم من الآيات ما لا يبقى في الحق معه لبس، فتركوه وسألوا ذلك عناداً.

وأعظم الآيات وأكبر المعجزات هو هذا القرآن العظيم الذي تحداهم الله به، وكان عجز الخلق عن معارضته أكبر آية عظمى؛ ولذا أنكر الله على من لم يكتف بمعجزة القرآن وطلب آية غيرها حيث قال منكراً عليه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: آية ٥١] فقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ صيغة إنكار، ينكر الله به على من لم يكتف بهذا القرآن؛ لأنه آية أعظم آية.

ومما امتازت به عن الآيات: أن آيات الرسل ومعجزاتهم تنقضي، وتكون أخباراً لا وجود لها في العيان، وآيته ﷺ الكبرى وهي هذا القرآن العظيم باقية تتردد في آذان الناس إلى يوم القيامة؛ ولذلك أشار النبي ﷺ في الحديث الصحيح [إلى][1] حصر معجزاته في هذا القرآن، وإن كانت معجزاته كثيرة لا تحصر لكثرتها، حيث قال في الحديث الصحيح: «**ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»[2] ولذا قال

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول=

هنا لما اقترحوا هذه الآية، اقترحوها عناداً لا استرشاداً وطلباً للهدى، مع أنهم جاءهم من الآيات ما يكفي، والناس عاينوا من معجزاته ﷺ أشياء تبهر العقول، كشق القمر[(١)]. وتسبيح الحصى في يده[(٢)]، وكحنين الجذع في هذا المسجد لما تحول عنه إلى المنبر، سمعوه يحنّ حنين العشار، ولم يسكت حتى جاءه ﷺ يسكته كما تسكت الأم ولدها[(٣)]. ومعجزاته صلوات الله وسلامه عليه كثيرة جداً، ولكن أعظمها القرآن؛ ولذا حصرها فيه بقوله: **«وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً**

= ما نزل. حديث (٤٩٨١) (٣/٩)، وأخرجه في موضع آخر. انظر حديث رقم: (٧٢٧٤) ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته. حديث (١٥٢) (١/١٣٤).

(١) قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: آية ١] وقد روى واقعة انشقاق القمر جماعة من الصحابة منهم:

١ - ابن مسعود عند البخاري، الأحاديث: (٣٦٣٦، ٣٨٦٩، ٣٨٧١، ٤٨٦٤، ٤٨٦٥)، ومسلم، حديث (٢٨٠٠).

٢ - أنس بن مالك. عند البخاري، الأحاديث (٣٦٣٧، ٣٨٦٨، ٤٨٦٧، ٤٨٦٨)، ومسلم، حديث (٢٨٠٢).

٣ - ابن عباس. عند البخاري، الأحاديث (٣٦٣٨، ٣٨٧٠، ٤٨٦٦)، ومسلم، حديث (٢٨٠٣).

٤ - ابن عمر. عند مسلم، حديث (٢٨٠١).

(٢) ذكره البخاري في التاريخ الكبير (٨/١٤٤) في ترجمة الوليد بن سويد. وأخرجه البزار كما في كشف الأستار (٣/١٣٥ - ١٣٦) حديث (٢٤١٣، ٢٤١٤)، وساق له الدارقطني في العلل (٦/٢٤٢) عدة طرق، وعقبه بقوله: «والحديث مضطرب» ا.هـ كما أخرجه البيهقي في الدلائل (٦/٦٤ - ٦٥)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/٨٠٦ - ٨٠٧). والحديث ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/٢٠١ - ٢٠٣)، والهيثمي في المجمع (٥/١٧٩، ٨/٢٩٩).

قال الحافظ في الفتح (٦/٥٩٢): «وأما تسبيح الحصى فليست له إلا هذه الطريق الواحدة مع ضعفها» ا.هـ.

(٣) أخرجه البخاري من حديث جابر، كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر، حديث (٩١٨، ٢٠٩٥، ٣٥٨٤، ٣٥٨٥)، (٢/٣٩٧).

كما أخرجه أيضاً من حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) حديث (٣٥٨٣).

يوم القيامة». ولذا أنكر الله على من لم يكتف بهذا القرآن العظيم حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: آية ٥١] وقال: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس: آية ٣٧] ولأجل تعنتهم وعدم علمهم بأن الآيات إذا أُتي بها من اقترحها ثم كفر جاءه العذاب المستأصل، كان طلبهم للآية طلب جهلة متعنتين لا يتأملون في العواقب؛ ولذا قال الله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن أكثرهم الذين لا يعلمون هم الذين تعنتوا واقترحوا وطلبوا هذه الآيات؛ لأن عندهم تعنتات كثيرة، كما ذكره الله عنهم في آيات كثيرة من كتابه، كقوله في أخريات سورة بني إسرائيل: ﴿**وقالوا لن نؤمن لك حتى تُفجِّر لنا**﴾ [الإسراء: آية ٩٠] وفي القراءة الأخرى[1]: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ [الإسراء: الآيات ٩٠ - ٩٢] يعنون قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: آية ٩] ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ يعنون بالزخرف الذهب ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: الآيتان ٩٢، ٩٣] هذه تعنتاتهم، ومن هذه التعنتات: اقتراحهم للآيات، فأخبرهم أن ربه قادر على أن ينزلها، ولكن إنزالها لا خير لهم فيه، أولاً هو تعنت لا يُراد به الحق، ولو أنزلها لكفروا فأهلكهم كما أهلك من كفر قبلهم، كما أشار له بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: آية ٥٩] وقد أتاهم من المعجزات بما فيه الكفاية، ولا يبقى في الحق معه لبس. أما التعنتات فلا داعي للإجابة فيها؛ ولذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: آية ٣٧].

---

(١) قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر: (تُفجِّر) بضم التاء، وفتح الفاء، وتشديد الجيم مكسورة.

وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف (تَفْجُر) بفتح التاء، وسكون الفاء، وضم الجيم خفيفة. انظر: المبسوط لابن مهران ص (٢٧١).

١/٢ / ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٣٨ ـ ٤١].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٣٨].

قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أصله: وما دابة في الأرض. وإنما زيدت قبله (من) في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لتنقلها زيادة (من) من الظهور في العموم، إلى التنصيص الصريح في العموم. فقد تقرر في الأصول: أن النكرة في سياق النفي من صيغ العموم[١]. إلا أنها تكون ظاهرة في العموم، فإذا زيدت قبل النكرة لفظة (من) نقلتها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم[٢]. فلو قيل: «وما دابة في الأرض» كانت الصيغة ظاهرة في العموم. ولما أكد شمول النفي بـ(من) وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ نقلتها زيادة (من) من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم. والمراد بالعموم: شمول النفي لكل دابة[٣]. أنه ما دابة في الأرض، ولا طائر يطير إلا أمم أمثالكم.

واعلم أن زيادة (من) قبل النكرة في سياق النفي لتنقلها من الظهور في العموم، إلى التنصيص الصريح في العموم، تطّرد في القرآن وفي اللغة

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) انظر: شرح تنقيح الفصول (١٨٢، ١٩٤)، شرح الكوكب المنير (١٣٨/٣)، البرهان للزركشي (٤٢١/٤)، الكليات (٨٤٠)، المحلي على الجمع (٤١٤/١)، الفتح (٨٨/١)، الأضواء (١٠/١)، (٣٦/٢)، (٢٨٩/٣)، (١٧٢/٤، ٢٧٨)، (٦٦٠/٦)، (٦٥١/٧).

(٣) انظر: البحر المحيط (١١٩/٤).

العربية في ثلاثة مواضع[١]:

الأول: أن تُزاد قبل المبتدأ، كما هنا؛ لأن الأصل: وما دابةٌ. و(دابة) مبتدأ سوَّغ الابتداء فيه بالنكرة اعتمادها على النفي قبله.

الثاني: زيادة (من) قبل النكرة في سياق النفي إذا كانت النكرة فاعلاً. نحو: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [القصص: آية ٤٦] أصله: (ما أتاهم نذير) فاعل زيدت قبله (من).

الثالث: أن تزاد قبل المفعول، نحو: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ [الأنبياء: آية ٢٥] الأصل: ما أرسلنا من قبلك رسولاً.

فزيدت (من) فتحصَّل أن (من) إذا زيدت قبل النكرة في سياق النفي نقلتها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم. وأنها تُزاد قبل النكرة باطراد في ثلاثة مواضع: قبل المبتدأ، وقبل الفاعل، وقبل المفعول.

وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال بعض العلماء: إنما خص دواب الأرض دون دواب السماء - مع أن في السماء دواباً أيضاً، كما قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الشورى: آية ٢٩] - لتهوين أمرهم؛ لأنه أراد أن يُبيّن - لما قال الكفار: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ - أنه لا يُهمل شيئاً، وهو قائم بمصالح دواب الأرض التي هي من أحقر الأشياء، فكيف يهمل مصالح الآدميين[٢]!! ولو كان لكم في الآية المقترحة فائدة لأتاكم بها.

وقال بعض العلماء: عُبِّر لهم بما عرفوا في الأرض، وتُرك غيره؛ لأنهم لم يعرفوه، فأُريد مخاطبتهم بما علموا[٣].

وقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قال بعض

---

(١) انظر: ضياء السالك (٢/٢٨٠).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/٣٤٤)، البحر المحيط (٤/١١٩).

(٣) انظر: القرطبي (٦/٤٢٠).

العلماء: إذا كان الطير نازلًا يمشي في الأرض فقد يصدق عليه اسم (الدابة) لدبيبه في الأرض، وإذا طار في جوّ السماء قابضاً وصافّاً لم يصدق عليه في ذلك الوصف اسم الدبيب، وإنما يصدق عليه أنه يطير بجناحيه لا يدبّ برجله.

وقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ في هذه الآية سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: ما الفائدة وما الحكمة في قوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ ومعلوم أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه؟

الجواب عن هذا السؤال عند العلماء من أوجه منها[1]: أن القرآن نزل بلغة العرب ومن عادة العرب هذا النوع من التوكيد، نحو: (قال لي هذا بفيه)، و(مشى إلي برجله)، ومنه في القرآن: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: آية ٧٩] ومعلوم أنهم لا يكتبونه إلا بأيديهم، وكقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ [آل عمران: آية ١٦٧] ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ [الفتح: آية ١١] ومعلوم أن القول بالفم واللسان وما جرى مجرى ذلك.

القول الثاني: أن مادة (الطاء والياء والراء) ـ مادة (الطيران) ـ قد تطلقها العرب على الإسراع بالرجلين، لا بالجناحين. وقد تقول لعبدك: «طر يا غلام في حاجتي». تعني: أسرع، وفي الحديث في مدح المجاهد: «**إذ سمع هيعة طار إليها**»، أي: أسرع إليها[2]. وفي شعر الحماسي، بيته المعروف[3]:

---

(١) انظر: ابن جرير (٣٤٩/١١)، القرطبي (٤١٩/٦)، البحر المحيط (١١٩/٤)، الدر المصون (٦١١/٤) وراجع ما تقدم عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة.

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط حديث (١٨٨٩)، (١٥٠٣/٣).

(٣) البيت لقُريط بن أُنيف. وهذا هو الشطر الثاني من البيت، وشطره الأول قوله:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ....

وهو في المفردات (مادة: طير) ص (٥٢٩)، اللسان (مادة: طير) (٦٣٥/٢)، الدر المصون (٦١٢/٤).

.... طاروا إليه زرافات ووحدانا

وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول قعنب بن أم صاحب[١]:

صُمٌّ إذا سمعوا خيراً ذُكرتُ به وإن ذُكرتُ بسوء عندهم أَذِنوا
إن يسمعوا سُبّة طاروا بها فرحاً مني وما سمعوا من صالح دفنوا

ولما كان يكثر في لغة العرب [إطلاق][٢] الطيران على الإسراع بالرجلين، قد يكون لقوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ فائدة؛ لتُخرِج من الإسراع بغير الجناحين كما ذكرنا. وكان بعض العلماء يقول: قد يكون بعض ما يطير يطير بأكثر من جناحين، كما قال في الملائكة: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: آية ١] قالوا: هنالك من الملائكة من يطير بأربعة أجنحة؛ ولذا احترز عن ذلك بقوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾.

وأظهر الأقوال هو ما صدَّرنا به: أن هذا الأسلوب معروف في كلام العرب، كقوله: «قاله لي بفيه»، و«مشى إلي برجله»، و«كتبتُ له بيدي»، و«طار الطائر بجناحيه»، ومنه: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: آية ٧٩] ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ [آل عمران: آية ١٦٧] وما جرى مجرى ذلك و﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في قوله: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾ سؤال، وهو أن يُقال: أفرد الله هنا الدابة، قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ بلفظ (دابة) واحدة ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾ بلفظ (طائر) واحد. فكيف يجمعهم على أمم ويقول: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾؟

والجواب[٣]: في هذا واضح؛ لأن قوله: ﴿مَا مِن دَآبَّةٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾ كلاهما نكرة في سياق النفي، تعُمّ كل دابة، كائنة ما كانت، وكل

(١) البيت الأول تقدم عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام، والبيت الثاني ذكره ابن جني في المحتسب (١/٢٠٦) وهو أيضاً في الدر المصون (٤/٢٤٤).
(٢) زيادة يقتضيها السياق.
(٣) انظر: البحر المحيط (٤/١٢٠)، الدر المصون (٤/٦١٢).

طائر يطير بجناحيه كائناً ما كان، فالمعنى عام؛ ولذا قال في مثل هذا: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: آية ٢٧] أفرد اسم الضامر وقال: ﴿يَأْتِينَ﴾ بصيغة الجمع؛ لأن ﴿كُلِّ ضَامِرٍ﴾ بمعنى: ضوامر كثيرة، وكذلك ﴿مَا مِن دَآبَّةٍ﴾ بمعنىٰ: دواب كثيرة ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾ يعم طيراً كثيراً؛ ولذا قال: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ اختلف العلماء في مثلية هذه الأمم للآدميين على أقوال متعددة[(١)]، بعضها حق. وحاصل هذا أن الله صرّح بأن الدواب بأنواعها: بأنواع الوحوش، وأنواع السباع، وأنواع الطيور، كل نوع من هذه الأنواع أمة من الأمم التي خلق الله، أمثال الآدميين؛ لمشابهات بينها وبين الآدميين؛ لأن كلّاً من الجميع مخلوق يحتاج إلى خالق يخلقه، مرزوق يحتاج إلى خالق يرزقه ويدبر شؤونه. والكُلّ مضبوط في كتاب: أوصاف الجميع، وآداب الجميع، وصفات الجميع، ومقاديرهم، وألوانهم، إلى غير ذلك. ومما يكون من تلك المماثلة: أن الجميع يحشرون إلى الله، كما قال هنا: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ ونص على ذلك في التكوير في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير: آية ٥] فلما كانوا أُمماً وأجناساً يعرف بعضها بعضاً، وتُسافِدُ ذكورُها إناثَها فيتناسلون، وهذا أبٌ، وهذا أمٌ، والكل مرزوق، يرزقه رازق، يدبر شؤونه، وقَدّر أرزاقه، وقَدَّر آجاله، القَدْر الذي يرزقهم الله محدد، والقَدْر الذي يعيشون في الدنيا محدد، وأوصافهم، وألوانهم، وغير ذلك، وكل هذا في كتاب، والآدميون كذلك يحتاجون إلى رازق يرزقهم، ويدبر شؤونهم، يضبط آجالهم، وأعمالهم، وأرزاقهم. من هذه الحيثية صارت هذه أمماً أمثالنا.

وقد كان لسفيان بن عيينة (رحمه الله) في هذه الآية تفسير مشهور[(٢)] ارتضاه بعض العلماء، ولا يظهر عندنا كل الظهور، كان ابن عيينة (رحمه الله) يقول في هذه الآية الكريمة: إن الله تبارك وتعالى جعل في الآدميين شبهاً من أنواع البهائم، فجعل في بعضهم جراءة الأسد، وجعل في بعضهم سرعة

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/٣٤٥)، القرطبي (٦/٤٢٠)، البحر المحيط (٤/١٢٠).

(٢) انظر: القرطبي (٦/٤٢٠)، البحر المحيط (٤/١٢٠)، شفاء العليل لابن القيم ص٧٧.

عدو الذيب، وجعل في بعضهم فخر الطاووس وزهوه، وجعل في بعضهم شَرَه الخنزير، وهكذا، وأن بينهما مشابهات من هذا النوع.

وأكثر العلماء على أنهم إنما كانوا أمماً أمثالنا؛ لأن كلنا مخلوق، مسكين، مرزوق، يدبر شؤونه خالق رازق، وأن ذلك الخالق الرازق قدّر الأوقات الذي يوجدنا فيها، والأوقات التي يميتنا فيها، والأرزاق التي يرزقنا فيها، وقدّر لكل منا قدر حياته، ورزقه، وأجله، وقدر صفته التي يكون عليها، ومقداره الذي يكون عليه، ونحو ذلك.

وبهذه الآية يتفكر المسلم ويعتبر، ويعلم أنه بالنسبة إلى ضعفه وافتقاره؛ وعظمة الله (جل وعلا) وجلاله، أنه كالحيوانات والبهائم.

وكان بعض العلماء يقول: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ كما أنكم تعرفون الله، وتسبحون الله، وتوحدونه، فهم أمم أمثالكم كذلك[1]. ويدلّ لهذا أن الله (جل وعلا) قال: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: آية ٤٤] وقال جل وعلا: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ [النور: آية ٤١].

ومما يقدح في هذا القول أن هذا النوع تستوي فيه الجمادات مع البهائم؛ [لأنه][2] دلّ الكتاب والسنّة على أن الجمادات تشارك البهائم في هذا، والله في آية الأنعام هذه خص الحيوانات حيث قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ أما ذلك الإدراك، وتسبيح الله، فالجمادات تشارك فيه البهائم، ويشملها عموم قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: آية ٤٤] وقد سبّح الحصىٰ بيد النبي ﷺ[3]. وقد ثبت في صحيح البخاري في قصة الجذع - وهي متواترة[4] - أن الجذع الذي كان يخطب

(١) المصدران السابقان.

(٢) في الأصل: «لأن الله بين» والكلام غير منتظم.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنعام.

(٤) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/٥٦٣)، شمائل الرسول ﷺ لابن كثير ص٢٤٣، فتح الباري (٦/٦٠٣)، شرح الشفا (١/٦٢٢).

عليه النبي ﷺ لما تحوّل عنه إلى المنبر فَقَد النبي ﷺ فحَنّ حنين العِشَار، والمسجد غاصٌ بالناس، والصحابة يسمعون حنينه، حتى جاءه النبي ﷺ يُسكّته كما تُسكّت الأم ولدها[١]. وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**إني لأعرف حجراً كان يُسلّم علي بمكة**»[٢]. وقد قال الله (جل وعلا) في كتابه: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا﴾ - أي: من الحجارة - ﴿لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: آية ٧٤] لما يصعق من أعلى الجبل إلى أسفله نازلاً خوفاً من رب العالمين (جل وعلا)، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: آية ٢١] وقد قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ [ص: آية ١٨] فصرّح بتسبيح الجبال، وقد قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: آية ٧٢] والإشفاق: الخوف. معناه: أن هذه الجمادات، من السموات والأرض والجبال، عندها إدراك يعلمه الله، ونحن لا نعلمه، حيث أبت من التزام التكليف وأشفقت، وهذه حقائق دلّ عليها الكتاب والسنة. والملحدون الذين يقولون: «هذه أمثلة، وتخييل، وتصوير بما ليس بواقع». كل ذلك من صرف كتاب الله عن ظاهره المتبادر منه بغير دليل، وذلك لا يجوز؛ إذ لا مانع عقلاً أن يخلق الله للجمادات إدراكات يعلمها هو ونحن لا نعلمها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: آية ٤٤] وكذلك يخلق للبهائم إدراكات، وقد نص القرآن على كثير من ذلك، نص على قضية النملة وخطبتها العظيمة التي قال فيها: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: آية ١٨] وذكر قصة الهدهد ومحاجته لسليمان، ونسبته الإحاطة لنفسه ونفيها عن سليمان ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: آية ٢٢] وبيّن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنعام.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة. حديث (٢٢٧٧) (١٧٨٢/٤).

أنه يفهم أن يذهب بالكتاب إلى بلقيس وجماعتها ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا﴾ [النمل: آية ٢٨].

وقوله (جلّ وعلا) في هذه الآية الكريمة: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: آية ٣٨] في المراد بالكتاب هنا وجهان معروفان[١]:

أولاً: الكتاب (فِعال) بمعنى (مفعول)، بمعنى المكتوب، قال بعض العلماء: هو هذا القرآن العظيم؛ لأنه مكتوب عند الملائكة في صحف، كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [عبس: الآيات ١٣ ـ ١٥] ومكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: الآيتان ٢١، ٢٢].

الوجه الثاني: أن المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ؛ لأنه مكتوب فيه جميع وقائع ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وأصل مادة (الكتابة) ـ مادة (الكاف والتاء والباء) (كتب) ـ معناها في لغة العرب: الضمّ والجمع[٢]، فكل شيء ضممت بعضه إلى بعض، وجمعت بعضه مع بعض، فقد كتبته؛ ولذا قيل للخياطة: كتابة. وفي ألغاز الحريري في مقاماته[٣]:

وكـاتـبـيـن ومـا خـطّـت أنـامـلـهـم حرفاً ولا قرؤوا ما خُط في الكتب

يعني بهم: الخياطين؛ ولأجل أن الخياطة تسمى كتابة؛ لأنها تضم طرفي الثوب، وتجمع بعضها إلى بعض، أو طرفي الأديم، وتضم بعضها إلى بعض؛ لأجل ذلك سمّت العرب الرقعة التي في السِّقاء، سموها: (كُتْبة). وسموا الثوب الذي تُخاط به الرقعة في السِّقاء: (كُتْبَة)، وجمعها: (كُتَب). وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول غيلان ذي الرمة[٤]:

(١) انظر: القرطبي (٦/٤٢٠)، البحر المحيط (٤/١٢٠).

(٢) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الكاف، باب الكاف والتاء وما يثلثهما (مادة: كتب) ص (٩١٧)، المفردات (مادة: كتب) ص (٦٩٩).

(٣) مقامات الحريري ص (٣٤٧).

(٤) البيت في اللسان (مادة: سرب) (٢/١٢٧)، (مادة: كتب) (٣/٢١٧) والوفراء: الوافرة. =

ما بالُ عينكَ منها الماءُ ينسكبُ كأنه من كُلى مفْرِيَّةٍ سَرَبُ
وفْرَاءَ غَرْفِيَّةٍ أَثْأَى خَوَارِزَهَا مُشَلْشَلٌ ضَيَّعَتْه بينها الكُتَبُ

يعني بالكُتَب: الثغور التي تكون في الكُتْبَةِ يسيل منها الماء. يُشبّه ذلك الماء السائل بدمعه؛ ولأجل هذا كانت العرب تسمي الخياطة: كتابة. ومنه قول عمرو بن دارة[١] يهجو فَزَارة، يهجوهم ويُعيّرهم بأنهم يفعلون الفاحشة مع إناث الإبل، قال[٢]:

لا تأمَنَنَّ فَزَارِيّاً خلوتَ به على قَلُوصِكَ واكتُبْها بأسيار

يعني: خِطْ فرجها بأسيار لئلا يفعل بها؛ ولأجل هذا المعنى قيل للكتيبة: (كتيبة)؛ لأنها جماعة من الجند ينضم بعضها إلى البعض حتى تكون كتلة مُجتمعة.

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم بهن فلولٌ من قِرَاعِ الكَتَائِبِ[٣]

هذا أصل مادة (الكاف والتاء والباء) في لغة العرب.

ومعنى الكتابة[٤]: هي مصدر سيال، أنك تضم نفس حرف إلى حرف إلى حرف، حتى يجتمع من ذلك نقوش دالة على ألفاظ ومعاني.

و(الكتاب) في قوله هنا: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ﴾ أكثر المحققين على أنه اللوح المحفوظ[٥]، أي ما فرطنا فيما كتبنا في اللوح المحفوظ، ما ضيعنا فيه شيئاً.

= والغرفية: المدبوغة بالغَرْف، وهو شجر يُدبغ به. وأثأى: أفسد. والخوارز: جمع خارزة.

(١) نسبه في الشعر والشعراء ص٢٥٨ لسالم بن دارة.

(٢) البيت في المقاييس في اللغة، كتاب الكاف، باب الكاف والتاء وما يثلثهما، (مادة: كتب) ص (٩١٨)، الشعر والشعراء ص٢٥٨، اللسان (مادة: كتب) (٢١٧/٣)، تفسير الماوردي (٢٤/١)، القرطبي (١٥٨/١)، والدر المصون (٨٥/١).

(٣) البيت للنابغة، وهو في ديوانه ص (٣٢).

(٤) انظر: الكليات ص (٧٦٧).

(٥) انظر: ابن جرير (٣٤٤/١١ - ٣٤٦:)، البغوي (٩٥/٢)، القرطبي (٤٢٠/٦)، شفاء العليل لابن القيم ص٤٠، البحر المحيط (١٢٠/٤).

و(مِنْ) هنا هي التي تُزاد قبل النكرة التي تكلمنا عليها الآن[١]، وهي هنا مزيدة قبل المفعول؛ لأن التفريط: التضييع. أي: ما ضيعنا شيئاً في الكتاب، بل كتبنا فيه كل شيء، ومن ذلك: آجال الطيور، وأعمارها، وأرزاقها، وأقدارها، وألوانها، والوقت الذي تولد فيه، والوقت الذي تموت، كما فعلنا ذلك ببني آدم.

الوجه الثاني: أن المراد بالكتاب: القرآن، والمعنى: ما ضيعنا في هذا الكتاب من شيء، بل جمعنا فيه كل شيء يحتاج إليه الخلق. وقد نصّ الله على هذا المعنى صريحاً في سورة النحل، ليس فيه خلاف، وهو قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: آية ٨٩] فهذه في القرآن بلا خلاف تدل على أنه يُبيّن كل شيء؛ لأن في القرآن كل شيء، والناس إنما يأخذون بقدر استعداد أذهانهم، كل يغرف بحسب فهمه، وقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي جحيفة أنه لما سأل علياً (رضي الله عنه): «هل خصّكم رسول الله ﷺ بشيء؟» قال علي (رضي الله عنه) فيما ثبت عنه في صحيح البخاري: «لا والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة، إلا فهماً يُعطيه الله رجلاً في كتاب الله، وما في هذه الصحيفة». قال: «وما في هذه الصحيفة؟» قال: «العقل، وفكاك الأسير، وألا يُقتل مسلم بكافر»[٢] فقول علي (رضي الله عنه) في هذا الحديث الصحيح جواباً لـ: «هل خصّكم رسول الله بشيء؟»: «لا، إلا فهماً يعطيه الله. . .» يُفهم منه أن من أعطاه الله فهماً في كتاب الله يُخص بخصائص من العلوم لم يُخص بها غيره، وما ذلك إلا أن القرآن جمع كل شيء، منه ما يطّلع عليه كل الناس، ومنه ما يطّلع عليه الراسخون في العلم، ومنه ما يعلمه النبي، ومنه ما لا يعلمه إلا الله (جل وعلا).

وكلّ ما في السنة جميعاً، فهو في كتاب الله؛ لأن الله قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: آية ٧]. فالسنة كلها

---

(١) مضى قريباً.

(٢) تقدم تخريجه في مقدمة الكتاب.

تشملها كلمة من بحر القرآن. وهذا معنى قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ التفريط في الشيء: هو تضييعه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الضمير عائد إلى الأمم المذكورة ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

ويُشكل عليه: أنه رد عليه الضمير بصيغة ضمير العقلاء، والطيور والدواب ليست من العقلاء؟

والجواب(١): أنه لما شبههم بالعقلاء وقال: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ فعند هذا التشبيه بالعقلاء يُسوِّغ ذلك أن يبني عليهم ضمير العقلاء.

وقد تقرر في فن العربية: أن غير العاقل كلما شُبِّه بالعاقل جرى عليه في الضمائر ونوع الصِّيغ ما يجري على العاقل(٢). ونظيره في القرآن قوله تعالى في رؤيا يوسف: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: آية ٤] فجمع جمع المذكر السالم المختص بالعقلاء؛ لأنها لما اتصفت بالسجود أشبهت العقلاء من هذه الحيثية، فجرت عليها صيغة العقلاء. وكذلك قوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: آية ١١] لأنه لما خاطب السماوات والأرض خطاب العقلاء، وصرّحت بالإطاعة كما يطيع العاقل، أجرى عليها جمع المذكر السالم المختص بالعاقل كما هنا.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يحشرهم الله يوم القيامة أحياء.

وقد جاء في حديث عن أبي هريرة(٣)،

---

(١) انظر: البحر المحيط (١٢١/٤).

(٢) انظر: ابن جرير (٢٥٦/٣)، (٥٥٦/١٥)، فقه اللغة للثعالبي (٢٩٧)، البرهان للزركشي (٢٤٦/٢)، البحر المحيط (١٩٩/٤)، الدر المصون (١٠٠/٥)، قواعد التفسير (٣٠٧).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٣٢٢٢)، (٣٤٧/١١)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٢٨٦/٤)، وكذا الحاكم (٣١٦/٢) وقال: (صحيح على شرطه - أي مسلم - ولم يخرجاه) ووافقه الذهبي. وأورده ابن كثير في التفسير (١٣١/٢)، والسيوطي في الدر المنثور (١١/٣) وعزاه لعبدالرزاق، وأبي عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم. وهو موقوف على أبي هريرة (رضي الله عنه) لكن له حكم الرفع. =

وأبي ذر[1] ـ وحديث أبي هريرة صححه الحاكم وغيره ـ أن الله يحشرهم هذا الحشر، ويعدل بينهم، حتى إنه ليقتص للجمّاء من القرناء التي كانت تنطحها في دار الدنيا. هكذا جاء في حديث صححه بعض العلماء، والله تعالى أعلم.

وهذه الآية صرحت بأن الحيوانات، والطيور، كلها يحشرها الله بعد الموت، وظاهر هذا أنه حشر إحياء بعد الموت، وتدل عليه آية التكوير: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير: آية ٥] في معرض يوم القيامة.

فالقول المروي عن ابن عباس: أن حشر الطيور والدواب: موتها. هذا القول روي عن ابن عباس من طرق[2]، والظاهر أنه خلاف الصحيح، وأن الصحيح ما عليه الجمهور، ودل عليه ظاهر القرآن: أنه حشر بعد الموت، كما قال: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير: آية ٥].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٩﴾ [الأنعام: آية ٣٩].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ﴾ المعنى أن الذين كذبوا بآيات الله ـ كالذين جحدوا هذا الوحي المنزل (القرآن العظيم)، وزعموا أنه شعر، أو سحر، أو كهانة، أو أساطير الأولين، ونحو ذلك ـ قال الله فيهم: إنهم صم بكم.

= وأصله عند مسلم (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم) حديث: (٢٥٨٢) (١٩٩٧/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(١) أخرجه أحمد بألفاظ مختلفة (١٥٣/٥، ١٦٢، ١٧٢، ١٧٣)، وابن جرير. انظر: الأثرين رقم: (١٣٢٢٣، ١٣٢٢٤) (٣٤٧/١١ ـ ٣٤٨)، والطبراني في الأوسط (١٧٣/٦). وأورده ابن كثير في التفسير (١٣١/٢)، والهيثمي في المجمع (٣٥٢/١٠) وألمح إلى ضعفه. والسيوطي في الدر (١١/٣). وقال أحمد شاكر معلقاً على أحد طرقه عند أحمد (١٧٣/٥): «وهذا إسناد حسن متصل» ا.هـ. وانظر تعليقه على تفسير ابن جرير (٣٤٨/١١)، كما صحّح الألباني (رحمه الله) بعض طرقه. انظر السلسلة الصحيحة (٦٠/٤).

(٢) أخرجه ابن جرير من طريقين. انظر الأثرين رقم (١٣٢١٩، ١٣٢٢٠) (٣٤٦/١١) وابن أبي حاتم في التفسير (١٢٨٦/٤). وأورده ابن كثير (١٣١/٢) من طريق ابن أبي حاتم.

الصم: جمع الأصم. وقد تقرر في فن التصريف: أن صيغة (أَفْعَل) إذا كانت صفة مشبهة، وكذلك أُنثاها (فَعْلاء) ينقاس جمع كل منهما تفسيراً على (فُعْل)[1]، كالأصم والصُّم، والأعمى والعُمي، والأبكم والبُكم، والأحمر والحُمر، إلى غير ذلك.

ومعنى صم: أنهم صم عن سماع الحق وإن كانوا يسمعون غيره. كما بينا أنه قال عن المنافقين: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ﴾ [البقرة: آية ١٨] فحكم عليهم بالبَكَم مع أنه يقول فيهم: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: آية ١٩] ومن أين للبُكْم أن تكون لهم الألسنة الحداد؟ وقال في المنافقين: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ [المنافقون: آية ٤] أي لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم، مع أنه يحكم بأنهم بُكْم.

وهذا (الصَّمَم) وهذا (البَكَم) المراد به: أنهم صم عن سماع ما يقربهم إلى الله ويدخلهم الجنة، وإن سمعوا غيره، بُكْمٌ عن النطق بالحق وإن تكلموا بغيره.

والعادة المعروفة في العربية: أنهم يطلقون على قليل الجدوى اسم (لا شيء). وأنهم يطلقون على السماع الذي لا فائدة فيه، اسم: (الصمم)[2]. ومنه قول قعنب ابن أُم صاحب[3]:

صُمٌّ إذا سمعوا خيراً ذُكرتُ به ... وإن ذُكرتُ بسوء عندهم أذنوا

ومعنى (أذنوا): أنصتوا بآذان صاغية. فهو يقول: (صم إذا سمعوا) يُصرح بأنهم صم في الوقت الذي يصرح بأنهم يسمعون، كما في الآيات؛ لأن السماع الذي لا فائدة فيه يطلق عليه اسم (الصمم) وقد قال النبي ﷺ

(١) انظر: ضياء السالك (١٩١/٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٦) من هذه السورة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من هذه السورة.

لما سُئل عن الكهان، قال في الكهان: «ليسوا بشيء»(١). نفى عنهم اسم (الشيء) لخساستهم وقلة فائدتهم، وهذا معروف في كلام العرب.

والذي عليه الجمهور: أن هذا الصمم والعمى في الدنيا، كما قال الله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: آية ٢٣] وقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: آية ٧] وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: آية ٤٥].

وقد قدمنا أن هذا الصمم والعمى إنما هو من ذلك الختم الذي يضع الله على قلوبهم، الذي عُبّر عنه تارة بـ(الختم) في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: آية ٧] وتارة بـ(الطبع): ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: آية ١٥٥] ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: آية ٧٤] وعنها تارة بـ(الرَّان): ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: آية ١٤] ومرة بـ(الأكنة): ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: آية ٥٧].

قد بينا في الدروس الماضية وجه الجواب منه عن حُجة الجبرية(٢)؛ لأنهم يقولون: «إذا كان الله جعل على قلبه الختم، وعلى عيونه [الغشاوة](٣)، وجعل عليه الطبع والأكنة، ومنعه من الفهم والسماع إذن هو مجبور»!! وقد أجبنا عن هذا: أن الآيات القرآنية دلت بكثرة: أن ذلك الختم والطبع إنما يجعله الله عليهم بعد أن بادروا إلى الكفر، وتمردوا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الكهانة، حديث (٥٧٦٢)، (١٠/٢١٦) وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الحديثين رقم: (٦٢١٣، ٧٥٦١)، ومسلم في الصحيح، كتاب السلام، باب: تحريم الكهانة، وإتيان الكهان، حديث: (٢٢٢٨) (٤/١٧٥٠).

(٢) في هذا الموضوع راجع الباب الخامس عشر (في الطبع والختم والغل والسد والغشاوة، والحائل بين الكافر وبين الإيمان، وأن ذلك مجعول للرب تعالى) من كتاب شفاء العليل ص (٨٥).

(٣) في الأصل «وقر» وهو سبق لسان.

على الله، وكذبوا رسله، وعاندوا، ولجّوا في الباطل، فعند هذا يطمس الله بصائرهم جزاءً وفاقاً، كما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف: آية ٥] بأن ختم عليها وطبع، ومنعها من الخير، وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: آية ١٥٥] أي: بسبب كفرهم، فالباء سببية، بينت أن سبب ذلك الطبع هو كفر سابق. وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١١٠] أي: نقلبها كي لا تسمع الحق أو تبصره ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لمّا سارعوا وبادروا إلى الكفر طمسنا على قلوبهم، كما بينه في قوله: ﴿بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: آية ١٤] فبيّن أن ذلك (الران) الذي غطّى القلوب ومنعها من الفهم سببه ما كانوا يكسبونه من الشر، والكفر، والمعاصي ـ والعياذ بالله ـ ولذا قال تعالى هنا: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِۚ﴾ قوله: ﴿فِى ٱلظُّلُمَـٰتِۚ﴾ كأنه يقول: (عمي)، (صمّ بكم عمي)، إلا أنه عبّر عن عماهم بكونهم ﴿فِى ٱلظُّلُمَـٰتِۚ﴾؛ لأن الذي هو في الظلمات لا يبصر شيئاً، و﴿ٱلظُّلُمَـٰتِۚ﴾: جمع ظلمة.

وقد بيّنا في هذه الدروس مراراً: أن من أصعب المسائل شبهة الجبر والقدر[1]، هي من أصعب المسائل، وأن القرآن أشار إليها في آيات؛ لأن كثيراً من الجهلة والملحدين يقولون: «إن كان الله هو الذي يشاء أفعال العبد، وهو الخالق لكل شيء - ومنه أفعال العبد ـ وأفعال العبد بمشيئته، فكيف يعاقب العبد المسكين على شيء شاءه الله، وخلقه الله؟ فالعبد إذن لا يؤاخذ بشيء»!! فلأجل هذه الشبهة، ضلت القدرية ـ والعياذ بالله ـ فقالوا: إن العبد يستقل بأعمال نفسه. زاعمين أن قدرة العبد مستقلة بأعماله بلا تأثير لقدرة الله فيها، ففروا من شيء ووقعوا فيما هو أعظم منه ـ والعياذ بالله ـ.

وقد قدمنا في الدروس الماضية: أنه لو تناظر جبري وسني فقال الجبري مثلًا: هذه الذنوب والمعاصي التي صدرت من البعيد أن الله كتبها عليه، وقدرها عليه في الأزل، وطُويت الصحف، وجفت الصحف، وكان ما كان، ولا مبدل لما سبق في علم الله.

---

(١) انظر ما استدل به كل فريق والجواب عنها في (القضاء والقدر) للمحمود (٢١٧ ـ ٢٤٣).

يقول البعيد: لو أردتُ التخلص مما سبق به العلم الأزلي لا يمكنني ذلك بحال. فيقول البعيد: أنا إذاً مجبور، فكيف نُعاقب؟ وهذا فعل الله وتقديره في أزله قبل أن أُولد، وما سبق في العلم فهو حتم واقع لا محالة!!

والصحابة سألوا النبي ﷺ عن هذه المسألة، وقالوا: «أهو أمر مُؤتنف، أو كان ما كان فيما مضىٰ؟» أخبرهم أنه كان ما كان. فقالوا له: إذاً لمَ لا نترك ونتّكل على الكتاب السابق، ونترك العمل حيث فُرغ من كل شيء، ومضى ما مضى؟ فبيّن لهم بنكتة من جوامع الكلم، قال: «**كلٌ مُيسّر لما خُلق له**»[1]. فهي كلمة مجملة تدل على معاني هذا بالتفصيل، فالمؤمن ـ مثلاً ـ إذا ناظر الجبري يقول له: اعلم يا جبري أن جميع الأسباب الذي اهتدى بها المهتدون، وأعطاها الله لهم: أعطاك مثلها: العيون التي أبصروا بها آيات الله وغرائبه وعجائبه فآمنوا: أعطاك عينين صحيحتين مثلها، والقلوب التي فهموا بها عن الله: أعطاك عقلاً صحيحاً

---

(١) في هذا المعنى وردت عدة أحاديث رواها جمع من الصحابة منهم:

١ ـ علي (رضي الله عنه)، عند البخاري، كتاب الجنائز، باب: موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله. حديث رقم: (١٣٦٢) (٣/٢٢٥)، وأخرجه أيضاً في عدة مواضع، انظر الأحاديث رقم: (٤٩٤٥، ٤٩٤٦، ٤٩٤٧، ٤٩٤٨، ٤٩٤٩، ٦٢١٧، ٦٦٠٥، ٧٥٥٢) ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه. . .، حديث رقم: (٢٦٤٧) (٤/٢٠٣٩).

٢ ـ جابر بن عبدالله (رضي الله عنه)، عند مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي. . .، حديث (٢٦٤٨) (٤/٢٠٤٠).

٣ ـ عمران بن حصين (رضي الله عنه)، عند البخاري، كتاب القدر، باب: جف القلم على علم الله. حديث (٦٥٩٦) (١١/٤٩١)، وأخرجه في موضع آخر. انظر حديث (٧٥٥١)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه. . .، حديث (٢٦٤٩)، (٤/٢٠٤١).

٤ ـ عبدالله بن عمر (رضي الله عنه)، عند الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء في الشقاء والسعادة، حديث (٢١٣٥)، (٤/٤٤٥)، وذكره في موضع آخر، انظر حديث (٣١١١).

٥ ـ عبدالله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه)، عند أحمد (٢/١٦٧)، والترمذي، كتاب القدر، باب: ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار، حديث: (٢١٤٢)، (٤/٤٤٩).

مثلها، والرسول النذير الذي أنذر الكل وخوّفه وبيّن له: أعطاك مثله، فجميع ما أعطاهم أعطاك إياه، إلا أن الفرق بينك وبينهم في شيء واحد هو: أن الله تفضّل عليهم بالتوفيق إلى ما بيّن لهم وأمرهم به، وأنت لم يتفضل عليك، وتفضُّله بالتوفيق مُلْكُه المحض، من تفضل عليه فَفَضْلٌ، ومن منعه من التوفيق فَعَدْلٌ، كما قال جلّ وعلا: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: آية ١٤٩] مُلْكُه للتوفيق بمشيئته: حجته البالغة على خلقه، من أعطاه فَفَضْل، ومن منعه فَعَدْل.

وقد بيّنا في الدروس الماضية مناظرة عبدالجبار مع أبي إسحاق الإسفراييني في هذه المسألة(١)؛ لأن أبا إسحاق فهم مضمون هذه الآية، وحاجّ به هذا المبتدع المفتري. فجاء عبدالجبار يتقرب بمذهبهم الخسيس أن السرقة والزنى لا تكون بمشيئة الله؛ لأن السرقة والزنى من القبائح والرذائل، وأن الله - في زعمهم - أنزه وأكرم وأجل من أن تكون هذه الخسائس والقبائح بمشيئته، فجاء عبدالجبار يتقرب إلى الله ويعبده بهذا المذهب الباطل، فقال: سبحان من تنزه عن الفحشاء!! يعني: أن فُحش السرقة والزنى ليس بمشيئة الله.

فقال أبو إسحاق: كلمة حق أُريد بها باطل!! ثم قال: سبحان من لايقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال عبدالجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه؟

فقال أبو إسحاق: أتراك تفعله جبراً عليه؟ أأنت الرب وهو العبد؟

فقال عبدالجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدى، وقضى علي بالردى، دعاني وسد الباب دوني، أتراه أحسن إليّ أم أساء؟

فقال أبو إسحاق: أرى أن الذي منعك إن كان حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء، إن كان ملكه المحض فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل. وبُهت عبدالجبار، وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب!!

---

(١) انظر: طبقات الشافعية للسبكي (٤/٢٦١)، شرح الطحاوية (٣٢٣)، فتح الباري (١٣/٤٥١) منهج الجدل والمناظرة (٢/١٠٧٤).

وقد بيّنا فيما مضى القصة التي ذكروها عن عمرو بن عبيد ـ مع أنه من عظمائهم الأجلاء عندهم ـ أنه جاءه ذلك البدوي، وقال له إن حمارته أو دابته سُرقت، وأنه [يطلب منه أن][1] يدعو الله له أن يردها عليه. فقام يدعو ويتقرب بهذا المذهب الباطل: اللهم إن دابته سُرقت ولم تُرِدْ سرقتها؛ لأنك أكرم وأنزه وأجل من أن تُريد هذه الرذيلة القبيحة ـ يعني السرقة ـ!! فالبدوي قال له: ناشدتك الله يا هذا إلا ما كففت عني من دعائك الخبيث، إن كانت سُرقت ولم يُرِدْ سرقتها فقد يريد ردّها ولا تُرد، ولا ثقة لي برب يُفعل في ملكه أشياء ليست في مشيئته، فهذا ليس برب، ولا ثقة لي به، فاكفف عني من دعائك الخبيث[2]!!

٢/ب فحقيقة هذا الأمر أن الله (جل وعلا) غني عن الخلائق،/ ولكنه خلق الخلق، وجبل بعضهم في الأزل على القُبح والسوء، وجبل بعضهم في الأزل على الطيب والطهارة، ويسّر كُلّاً لما خلقه له، والحكمة في ذلك: أن يكون فيهم مطيعون يظهر فيهم مظاهر بعض أسماء الله وصفاته، يظهر فيهم من مظهر اسمه: الرحيم، الكريم، الغفور الجواد، إلى غير ذلك من صفات الجود، والرحمة، والمغفرة، والكرم، كما أنه شاء أن يخذل قوماً آخرين، فتكون أعمالهم غير طيبة؛ ليظهر فيهم أيضاً بعض مظاهر أسمائه وصفاته من شدة البطش وقوة الانتقام، وعظمة النكال والعقاب، إلى غير ذلك. والله (جلّ وعلا) إذا خلقهم وأوجدهم يصرف قُدَرَهم وإراداتهم بقدرته وإرادته إلى ما سبق به العلم الأزلي، فيأتونه طائعين ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الدهر: آية ٣٠].

وقوله جل وعلا: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: آية ٣٩] جمهور العلماء على أن المراد بصممهم وعماهم وكونهم في الظلمات: أنه في دار الدنيا[3]، والمراد به عمى أبصارهم عن الحق، وصمم أسماعهم عن الحق،

(١) زيادة يقتضيها السياق.
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٧٤٠/٤)، شرح الطحاوية (٣٢٣).
(٣) انظر: ابن جرير (٣٥٠/١١)، القرطبي (٤٢٢/٦)، البحر المحيط (١٢٢/٤)، ابن كثير (١٣٢/٢).

وعمى عيونهم عن الحق؛ لأنها في الظلمات - والعياذ بالله - لا تُبصر شيئاً، كما في قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: آية ١٨] ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: آية ٢٦] خلافاً لبعض العلماء القائل: الذين كفروا في دار الدنيا ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في الآخرة؛ لأجل تكذيبهم في الدنيا(١)، واستدل بأن الله قال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٩٧] وذكر بأنهم في الظلمات، بدليل قوله: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: آية ١٣].

والقول الأول هو الذي عليه الجمهور.

ثم قال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: آية ٣٩].

قد بيّنا فيما مضى(٢) أن فعل المشيئة إذا قُرن بأداة شرط حُذف مفعوله باتفاق؛ لأن جزاء الشرط يكفي عنه. وتقرير المعنى: (من يشأ الله إضلاله يضلله، ومن يشأ جَعْلَهُ على صراط مستقيم يجعله على صراط مستقيم).

وهذه الآية الكريمة تدل على رد مذهب القدرية رداً واضحاً لا شك فيه؛ لأنه بيّن أن الضلال بمشيئته، والهدى بمشيئته، فلا يقع في الكون تحريكة ولا تسكينة إلا بمشيئته جل وعلا ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الدهر: آية ٣٠] يعني من شاء أن يُضله، أي: يُزيغه عن طريق الصواب.

وقد قدمنا فيما مضى أن الضلال جاء إطلاقه في القرآن وفي لغة العرب على ثلاثة أنحاء متقاربة(٣).

---

(١) انظر: القرطبي (٤٢٢/٦)، البحر المحيط (١٢٢/٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: المفردات (مادة: ضل) (٥٠٩)، نزهة الأعين النواظر (٤٠٦)، إصلاح الوجوه والنظائر للدامغاني (٢٩٢)، بصائر ذوي التمييز (٤٨١/٣)، أضواء البيان (٥٣/٣).

وبعض العلماء يحاول أن يجعل مرجعها في الأصل إلى شيء واحد.

أشهرها: هو الذهاب عن طريق الجنة إلى طريق النار، وعن طريق الهدى ـ التي جاء بها النبي ـ إلى طريق الكفر والمعاصي التي سنّها الشيطان. وهذا الإطلاق هو أشهر إطلاق أنواع الضلال، ومنه هذه الآية: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ [الأنعام: آية ٣٩] أي: يضلله عن طريق الحق التي تدخله الجنة إلى طريق الضلال التي تدخله النار.

الإطلاق الثاني من إطلاقات الضلال أن معناه: الغيبوبة والاضمحلال، وكل شيء غاب وانعدم واضمحل تقول العرب: (ضل). تقول العرب: «ضل السّمن في الطعام» إذا غاب واضمحل فيه، وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه بهذا المعنى الآية المتقدمة: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٤] أي: غاب واضمحل وزال، ومنه قوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: آية ١٠] يعنون أنهم اختلطت عظامهم بالأرض فأكلتها، فانعدمت واضمحلت فيها كما يضمحل السّمن في الطعام. ومن الضلال بهذا المعنى قول الأخطل[1]:

كُنْتَ القَذى في مَوْجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ قَذَفَ الأتيُّ بِهِ، فَضَلَّ ضَلالاً

وقول الآخر[2]:

أَلَم تَسْأَلْ فَتُخْبِرَكَ الدِّيارُ عن الحيِّ المُضَلَّلِ أين ساروا

فقوله: «الحي المضلل» أي: الذي ذهبت به الأيام، وانقضى ذِكْرُه فغاب واضمحل.

(١) ديوان الأخطل (٢٥٠).
والقذى: الأوساخ التي تطفو على الموج.
والأكدر: الذي تغير لونه من الأوساخ.
والأتي: السيل الذي يأتي من كل مكان.

(٢) البيت في القرطبي (١/١٥٠)، الدر المصون (١/٧٦).

الإطلاق الثالث من إطلاقات الضلال: هو الذهاب عن معرفة الشيء، لا عن طريق الصواب، ولا جنة ولا نار، بل كل شيء ذهبت عن حقيقة معرفة الواقع فيه تقول العرب: «ضل عنه»، ومنه بهذا المعنى على أصح التفسيرات: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: آية ٧] يعني: ذاهباً عما تعرفه الآن من العلوم فهداك إلى تلك العلوم بالوحي؛ لأنها علوم لا تُعرف بالعقل، ولا تُعرف بالفطرة، ومن الضلال بهذا المعنى قوله تعالى في الدَّين: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٢] أي: تذهب عن معرفة المشهود به فتذكرها الأخرى، ومنه بهذا المعنى ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾ [طه: آية ٥٢] أي: لا يذهب عنه علم شيء، بل جميع الأشياء يحيط بها علمه.

ومنه بهذا المعنى قول أولاد يعقوب ليعقوب: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: آية ٩٥] ذهابك عن معرفة حقيقة يوسف، وما جرى مجرى ذلك، ومن أمثلة هذا النوع في كلام العرب قول الشاعر[(١)]:

وتظنُّ سلمى أَنَّني أبغي بها بدلاً، أُراها في الضلال تهيمُ

يعني: أنها ظنت أنه يبغي بها بدلًا، والأمر بخلاف ذلك.

ولأجل أن الضلال يطلق على الغَيْبَةِ والاضمحلال (من إطلاقه الثاني): سمت العرب الدفن (إضلالًا)، تقول: «ذهبوا بالميت فأضلوه» إذا دفنوه في قبره، ومن هذا المعنى قول نابغة ذبيان[(٢)]:

فآبَ مُضِلُّوهُ بعينٍ جليّةٍ وغُودرَ بالجولانِ حَزْمٌ ونَائِلُ

وهذه الآية الكريمة تردّ مذهب المعتزلة، وتوضح أن الهدى والضلال

---

(١) البيت في الإيضاح للقزويني ص (١٥٨) والتلخيص في علوم البلاغة ص (١٨٥) للمؤلف نفسه، جواهر البلاغة ص (١٦٥)، بلا نسبة.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص (١٥٥).

كل ذلك بمشيئة الله، يضل قوماً وله بذلك الحكمة البالغة، ويهدي آخرين وله في ذلك الحكمة البالغة.

اعملوا فكل مُيسَّر لما خُلق له، فمن خلقه الله للخير هداه إلى ما يرضيه، ومن خلقه للشر ـ والعياذ بالله ـ بعكس ذلك؛ ولذا قال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الصراط) في لغة العرب: هو الطريق الواضح[١]. فكل طريق واضح تُسميه العرب: (صراطاً). و(المستقيم): هو الذي لا اعوجاج فيه[٢]. ووزنه بالميزان الصرفي[٣]: (مُسْتَفِعِل) وياؤه مُبدلة من واو، أصله: (مُسْتَقْوِم) على وزن (مُسْتَفْعِل)؛ لأن مادة (الاستقامة) واوية العين، وهذا معروف في كلام العرب؛ وذلك أن دين الإسلام طريق واضح، محجّة بيضاء، تركها نبينا ﷺ بما أوضح به وبيّنها محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وقوله: ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق دين الإسلام في غاية الاستقامة، ليس فيه اعوجاج. ومعنىٰ استقامته: أن طرفه بيد المسلمين، وطرفه الآخر في الجنة، إذا ثبتوا عليه استقام بهم إلى الجنة، فأدخلهم إياها من غير أن يعدل بهم عنها يميناً ولا شمالاً، وإذا تركوه ذهبوا إلى بُنَيَّات الطرق.

وقد ضرب النبي ﷺ لهذا مثلاً[٤]، فخطّ ذلك الخط المستقيم، وخط حوله خطوطاً كثيرة؛ ليبين أن دين الله مستقيم، وأن حوله بدع، وبُنَيَّات طرق، من سلكها ضل وهلك ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا

---

(١) انظر: القاموس (مادة: سرط) (٨٦٥).

(٢) انظر: ابن جرير (١٧٠/١)، المحتسب (٤٣/١)، الدر المصون (٦٤/١).

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص (٢٢٧).

(٤) جاء هذا في حديث أخرجه الإمام أحمد في المسند، رقم: (٤١٤٢، ٤٤٣٧) (٨٩/٦، ١٩٩) (تحقيق أحمد شاكر)، والحاكم (٣١٨/٢) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ا.هـ، وابن جرير في التفسير، رقم: (١٤١٦٨، ١٤١٧٠) (٢٣٠/١٢).
وقد أطال ابن كثير في تخريجه وذكر طرقه، انظر: تفسير ابن كثير (١٩٠/٢)، والحديث صححه أحمد شاكر (رحمه الله) في تعليقه على المسند، وتفسير ابن جرير، والألباني في تعليقه على كتاب السنة لابن أبي عاصم (١٣/١).

ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ الآية [الأنعام: آية ١٥٣].

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٤٠، ٤١].

هذه الآية الكريمة عاب الله فيها الكفار بسخافة العقول[١]، وأنهم إذا نزلت بهم شدّة من عظائم الشّدَد أخلصوا في ذلك الوقت الدعاء إلى الله، وتركوا دعاء غير الله؛ لعلمهم بأنه لا ينفع ولا يضر، فإذا نجّاهم الله من تلك الكربة، وأمِنوا: رجعوا إلى ما كانوا عليه من الشرك بالله. وهذه سخافة عقول؛ لأنهم في وقت الشدائد يُخلصون إلى الله، ثم إذا كان في غير ذلك الوقت رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر!! وهذا ذمّ من الله للكفار، ذمهم به في آيات كثيرة من كتابه؛ ذلك أن الإنسان إذا نزلت به عظيمة من عظائم الشدة ـ في الدنيا ـ والأهوال، فإن الالتجاء في ذلك الوقت إلى من ينقذه. هذا من خصوص خالق الكون (جل وعلا)، هذا أمر من خصائص الله، ليس فيه شرك لأحد. فالله (جل وعلا) إذا نزلت بالناس الشّدَد، والبلايا، والفظائع العظام فملجؤهم الذي يلجؤون إليه هو خالقهم (جل وعلا). وسيدهم في ذلك وقائدهم فيه: هو سيدنا محمد ﷺ، كان إذا نزل به المكروه والشدائد أخلص الالتجاء في ذلك الوقت لمن له ذلك الحق الخالص، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: آية ٩].

وهذا المستغيث هو محمد ﷺ يلتجىء إلى الله عند الشدة ليشرّع ذلك [لأمته][٢]، ويبين لهم أن هذا حق ربهم الخالص له وحده.

وقد أوضح الله هذا المعنى بالسورة الكريمة ـ سورة النمل ـ حيث قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

---

(١) سيأتي عند تفسير الآية (١٥١) من هذه السورة.

(٢) في الأصل: لخلقه.

[النمل: آية ٥٩] وفي القراءة الأخرى: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١] الجواب: الله خير من كل شيء. ثم[٢] قال: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: آية ٦١] ذكر في هذه الآيات خلقه البحر، والجبال، وما فعل من عظائم ربوبيته (جل وعلا)، وهذه خصائصه وحقوقه الخالصة. ثم قال في الأثناء: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النمل: آية ٦٢] ثم قال: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ نُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ﴾ [النمل: آية ٦٣] وفي القراءة الأخرى: ﴿نُشراً بين يدي رحمته﴾[٣] ثم قال: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النمل: آية ٦٤] هذه حقوق الله الخالصة له، فنحن معاشر المؤمنين نخلصها لله، إرضاء لله ولرسوله ﷺ، واقتداء برسوله؛ ولئلا نتعدى حدود الله، ونصرف حقوقه لغيره، والكفار يعلمون هذا، ويعلمون أن هذه حقوق الله الخالصة له، فإذا كان وقت الجدّ، ورأوا الشدائد[٤]، كأن يهيج عليهم البحر بأمواجه وأهواله فيظنوا الموت، عند هذا يُخلصون العبادة والدعاء لله وحده، فإذا أنجاهم الله رجعوا إلى ما كانوا عليه، كما عابهم فيه في آية الأنعام هذه ـ التي نحن بصددها ـ وأمثالها في القرآن كثيرة، كقوله في سورة بني إسرائيل: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ يعني: بمسيس الضر: إن هاجت عليهم الأمواج، وعصفت الريح، وكادت السفينة تغرق بما فيها ﴿وَإِذَا

---

(١) قرأ أبو عمرو، وعاصم، ويعقوب بالياء، وقرأ الباقون بالتاء. انظر: المبسوط في القراءات العشر (٣٣٤).

(٢) قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾ الآية [النمل: آية ٦٠].

(٣) قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: (نُشُراً) بضم النون والشين.
وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: (نَشْراً).
وقرأ ابن عامر: (نُشْراً) بضم النون وسكون الشين.
وقرأ عاصم: (بُشْراً) بالباء وسكون الشين.
انظر: المبسوط لابن مهران ص (٢٠٩).

(٤) انظر: أضواء البيان (٢/١٩٠ ـ ١٩٢).

مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ أي: غاب عنكم كل ما كنتم تدعونه واضمحل ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وأنقذكم من ذلك الكرب في البحر ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: ورجعتم إلى كفركم، ثم قال: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: الآيات ٦٧ ـ ٦٩] وقال جلّ وعلا: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ في هذا الوقت ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: الآيتان ٢٢، ٢٣] ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: آية ٣٢] ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: آية ٦٥] وأمثال هذا في القرآن كثيرة جداً.

وكان سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل ـ رضي الله عن عكرمة وأرضاه ـ: كان شديد العداوة للنبي هو وأبوه، فلما فتح النبي ﷺ مكة في عام ثمان من الهجرة هرب عكرمة، وركب في سفينة من البحر الأحمر رائحاً إلى الحبشة، فلما لججت بهم السفينة في البحر هاجت عليهم الريح، وأيقنوا بالهلاك، وطغت عليهم الأمواج، فإذا جميع من في السفينة يتنادون، وينادي بعضهم بعضاً: احذروا في هذا الوقت أن تدعوا غير الله؛ لأنه لا يخلصكم من هذا إلا الله وحده. فلما سمعهم يقولون قال: والله إن كان لا يُنجي من كربات البحر إلا هو، فلا يُنجي من كربات البر إلا هو، ثم قال: اللهم لك عليّ العهد إن أنجيتني من هذه لأضعنّ يدي في يد محمد ﷺ فلأجدنه رؤوفاً رحيماً، فأنجاهم الله، فرجع وأسلم، وصار من خيار أصحاب النبي ﷺ[1]،

---

(١) أخرج قصة عكرمة (رضي الله عنه) هذه: الحاكم (٣/٢٤١) وابن عساكر في تاريخه، انظر: (مختصر تاريخ دمشق) (١٧/١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨) وأوردها الحافظ في الإصابة (٢/٤٩٧) وعزاها للدارقطني، والحاكم، وابن مردويه. والذي في سنن الدارقطني (٤/١٦٧ـ ١٦٨) طرف الخبر في أمر النبي ﷺ ـ حينما فتح مكة ـ بقتل أربعة، ثم قال الدارقطني: «وذكر باقي الحديث» ا.هـ.

فنحن معاشر المؤمنين، إذا نزلت بنا البلايا، كأن يهيج علينا البحر في سفينة، أو تقع أمور لا يقدر على دفعها إلا الله، فاقتداءً بنبينا، وعملًا بكتابنا، وتوحيداً لربنا، نعطي الله حقه الخالص، ولا نفعل كما يفعل الكفار؛ لأن الله عاب الكفار؛ لأنهم وقت الشدائد يخلصون العبادة لمن خلقهم، وفي وقت الرخاء يرجعون لشركهم؛ ولذا قال جلّ وعلا: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ [الأنعام: آية ٤٠] هذه الكلمة المشهور فيها عند علماء العربية[١] وعلماء التفسير: أنها كلمة أطلقتها العرب بهذه (التاء) مفتوحة، سواء كان المخاطب ذكراً أو أنثى، أو جماعة أو اثنين، إلا أن (الكاف) بعدها حرف خطاب يَتَلَوَّن بِتَلَوُّن المخاطبين، ككاف الخطاب في الإشارة في (ذلكم)، و(ذلك) و(ذلكن)، ومعناها عند الجمهور: أَخْبِرْنِي. والتحقيق: أن الكاف فيها لا محل له من الإعراب؛ لأنه حرف خطاب؛ وأنها كلمة وضعتها العرب بمعنى: أَخْبِرْنِي.

﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ أخبروني، أخبروني أيها الكفار الذين تعدلون بالله غيره، وتصرفون حقوقه لغيره، وتدعون معه غيره، أخبروني إن جاءتكم بليّة من البلايا ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ بأن هاج عليكم البحر ورأيتم الموت عياناً ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ من بلاء عظيم وداهية عظمى، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾؟؟ أتدعون في ذلك الوقت غير الله من هذه الأصنام التي تعبدون دونه؟ والمعنى: كَلَّا لا تدعون في ذلك الوقت إلا إياه وحده، كما صرح به في قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: آية ٤١] وقدم المفعول للحصر، أي: لا تدعون وقت الشدائد إلا إياه وحده؛ لأنكم تعلمون أنه هو الذي بيده إزالتها، وأن غيره لا يقدر على رفع الكربات عنكم، ثم قال: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ استشكل بعض العلماء (إلى) بعد (تدعون) وقد قال بعض المحققين[٢]: إن [(دعا) قد تُضَمَّن مادة (لَجأ) كما قد تتعدى بـ][٣] (إلى) كما في قوله: ﴿وَإِذَا

---

(١) انظر: ابن جرير (٣٥١/١١)، القرطبي (٤٢٣/٦)، البحر المحيط (١٢٤/٤ ـ ١٢٨)، الدر المصون (٦١٥/٤ ـ ٦٢٢).

(٢) انظر: البحر المحيط (١٢٩/٤)، الدر المصون (٦٣١/٤).

(٣) في الأصل: «(تدعون) قد تُضَمَّن مادة (دعا) قد تتعدى إلى». ولا يخفى أن الكلام بهذا السياق مُختل؛ وذلك أن مادة: (دعا) تتعدى بنفسها إلى المفعول إذا كانت بمعنى=

دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وكما قال الشاعر[(١)]:

وإن دعوتِ إلى جُلّى ومكرمةٍ   يوماً سَرَاةَ كرام الناس فادعينا

الشاهد: أن (دعا) تعدى بـ(إلى).

﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ هذا الذي تدعون الله إليه، أي: إلى أن يكشفه عنكم، ويزيله عنكم، قد يكشفه إن شاء، وإن شاء لم يكشفه، فهذه قُيِّدت بالمشيئة.

قال بعض العلماء[(٢)]: هذه قُيدت بالمشيئة، وآية البقرة أُطلقت، لم تقيد، وهي قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: آية ١٨٦] ولم يقل: إن شئت، وهنا قيّد بالمشيئة.

قال بعض العلماء: يُحمل المطلق على المقيد، ويُقيّد بالمشيئة.

وأظهر القولين: ما قاله بعض العلماء: أن آية البقرة مطلقة، وأن دعاء المؤمن لا يُرد إلا إذا كان بإثم أو قطيعة، وما جرى مجرى ذلك، وهذه التي قُيدت بالمشيئة: في دعاء الكفار، أما دعاء المؤمنين فلم يُقيد بالمشيئة.

وعلى كل حال لا شيء إلا بمشيئة الله، إلا أن وعد الله صادق، وقد وعد المؤمنين بالإجابة، ولم يقيده بشيء، وإنما جاء بقيد المشيئة في دعاء الكفار.

= السؤال والاستغاثة والطلب، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: آية ٨]. وقد تأتي بمعنى الحث على فعل شيء أو تركه، وحينها تتعدى بـ(إلى) كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: آية ٣٣]. وهنا في آية الأنعام المُراد بالدعاء: سؤال الله واللَّجأ إليه، وقد استشكل بعض العلماء تعدية (تدعون) بـ(إلى)، وبناء على ذلك وقع الخلاف في توجيه ذلك، فقيل: معنى الآية: «فيكشف ما تدعون ـ أي: تطلبون وتحثون ـ إلى كشفه». وبهذا يصح تعدية (تدعون) بـ(إلى). وقيل: بل هي على معنى سؤال الله وطلبه، ولكنها قد ضُمِّنت معنى (تلجؤون) فصح تعديتها بـ(إلى). والله أعلم.

(١) البيت لبشامة بن حزن النهشلي. وهو في البحر المحيط (١٢٩/٤)، الدر المصون (٤٦٨/١).

(٢) انظر: أضواء البيان (١٢١/١).

ثم قال: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ فيه للعلماء وجهان[1]: أن معنى ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ تتركونه عمداً، تنسون الشركاء، أي: تتركون دعاءها وقت الشدة عمداً؛ لعلمكم بأن الكربات والشدائد لا يكشفها إلا الله (جل وعلا)، فتتركونها عمداً.

والنسيان يُطلق على ترك الشيء عمداً، كما قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: آية ٥١] معناه: نتركهم عمداً كما تركوا العمل للقاء يوم القيامة عمداً. وهذا معروف في كلام العرب، أنها تُطلق النسيان على ترك الفعل عمداً، وتطلقه على تركه نسياناً.

الوجه الثاني: أنه من شدة الهول نسوا غير الله (جل وعلا)، ولم يخطر في أذهانهم إلا الله؛ لأنهم عارفون أنه لا يكشف الكربات إلا هو؛ ولذا قال: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾.

٣/١ / ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٤٢ ـ ٤٧].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٤٢ ـ ٤٥].

---

(١) انظر: القرطبي (٤٢٣/٦)، البحر المحيط (١٢٩/٤)، الدر المصون (٦٣٢/٤).

يقول الله (جل وعلا) لنبيه: لستَ أول نبي كذّبه قومه، فقد أرسلنا قبلك رسلًا كراماً، وجاؤوا بالبينات والمعجزات الواضحات، فكذبتهم أممهم كما كذّبتك أمتك. وكل هذا من تسلية النبي ﷺ.

واللام في (لقد) توطئة لقسم محذوف (والله لقد أرسلنا) وصيغة الجمع في ﴿أَرْسَلْنَا﴾ للتعظيم.

وفي هذه الآية الكريمة حذفان، كلاهما دلّ المقام عليه[1]:

الحذف الأول: حذف المفعول به، وتقديره: (ولقد أرسلنا رسلًا إلى أمم من قبلك) فحذف المفعول لدلالة المقام عليه، وحذف الفَضْلَة إذا دل المقام عليها سائغ مطّرد.

الحذف الثاني الذي دلّ المقام عليه: هو حذف (الفاء) وما عَطَفَت. وحَذْف (الفاء) وما عَطَفَت إن دل المقام عليه: فهو مطّرد في لغة العرب، كثير في القرآن، أشار له ابن مالك في الخلاصة بقوله[2]:

والفَاءُ قَدْ تُحْذَفُ مَعْ مَا عَطَفَتْ ....

وتقديره هنا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ أي: (أرسلنا رسلًا) ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فكذبت تلك الأمم ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ ابتلاء لمّا كذبوا. هذان الحذفان.

والأمم هنا: جمع أمة. والمعروف عند علماء العربية: أن لفظ (الأمة) أُطلق في القرآن العظيم أربعة إطلاقات مشهورة، ولو قيل إن هنالك إطلاقاً خامساً لكان غير بعيد.

أما إطلاقات لفظ (الأمة) في اللغة وفي القرآن فمن أشهرها[3]:

---

(١) انظر: القرطبي (٤٢٤/٦)، البحر المحيط (١٣٠/٤)، الدر المصون (٦٣٢/٤).

(٢) الخلاصة ص (٤٨)، وانظر شرحه في الأشموني (١١٩/٢).

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص (٤٤٥)، نزهة الأعين النواظر ص (١٤٢)، إصلاح الوجوه والنظائر ص (٤٢).

إطلاق (الأمة) على الطائفة المتفقة في الدين. أي: في نحلة كائنة ما كانت. وهذا أكثر إطلاقاتها ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: آية ٢٤] ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ [يونس: آية ٤٧] ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: آية ٣٨].

الإطلاق الثاني: إطلاق (الأمة) على الرجل العظيم المُقتدى به، وقد أطلق الله (الأمة) بهذا المعنى على نبيه إبراهيم في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: آية ١٢٠].

الإطلاق الثالث: إطلاق الأمة على البُرْهَة والقطعة من الزمن، ومنه بهذا المعنى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: آية ٤٥] أي: تذكر بعد برهة من الزمان، ومن هذا الإطلاق قوله تعالى في أول سورة هود: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [هود: آية ٨] أي: إلى برهة معينة في علمنا من الزمن.

الإطلاق الرابع: إطلاق الأمة على الشريعة، والدين، والملة.

العرب تقول: «هذه أمتنا». أي: ديننا، وشريعتنا، ومِلتُنا. ومنه بهذا المعنى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: آية ٥٢] أي: شريعتكم، وطريقتكم، ودينكم.

ومنه بهذا المعنى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: آية ٢٣] أي: على شرع، وملّة، ودين. ومنه بهذا المعنى قول نابغة ذبيان(١):

حَلَفتُ فلم أَتْرُكْ لنَفسِكَ ريبةً وهل يأثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وهو طائعُ؟

يعني: أن صاحب الدين والشرع لا يأثم ويخالف دينه وشرعه وهو طائع.

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص (٥٥).

والإطلاق الخامس: ـ الذي قلنا إنه لو زاده إنسان لكان غير بعيد[١] ـ هو ما جاء في الآية الماضية بالأمس من إطلاق (الأمة) على الجنس من الحيوانات والطيور، كما قال تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ [الأنعام: آية ٣٨] فقد أطلق تعالى على كل نوع من أجناس الدواب والطيور اسم (الأمة).

وقوله هنا: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ﴾ [الأنعام: آية ٤٢] هذه الأمم هي أمم بني آدم، كما جاء مفصلاً في بعض الآيات: أرسل نوحاً إلى قومه، وبيّن لنا ما قابلوه به، وكذلك فصّل لنا سير جماعة منهم، كقضية نوح مع قومه، وهود مع قومه، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى وهارون مع فرعون، ونحو ذلك مما بيّنه القرآن.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ أي: أرسلنا رسلًا ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ أي: من الناس الذين مضوا من قبلك، في الزمن الماضي، يعني: فكذبوا رسلهم؛ لأن الله ما أرسل رسولًا إلى قوم إلا كذبوه وأهلكهم الله، ولم يُستثنَ من هذا أمة إلا أمة يونس، كما سيأتي في قوله: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: آية ٩٨] أما غيرهم من الأمم فكل أمة تكذّب رسولها فيهلكها الله، كما قال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: آية ٤٤].

وقال هنا: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأنعام: آية ٤٢] أصل (الأخذ) في لغة العرب: هو التناول بقوة وشدة[٢].

---

(١) وهو موجود في نزهة الأعين النواظر ص (١٤٤)، إصلاح الوجوه والنظائر (٤٤).

(٢) لم أقف على من اعتبر ذلك أصلًا لمعنى (الأخذ) في كلام العرب. وإنما يُفسّرون (الأخذ) بالتناول وما في معناه. وفسّره الراغب في المفردات بأنه حَوْزُ الشيء وتحصيله، وذلك تارة بالتناول، وتارة بالقهر. (انظر المفردات، مادة: أخذ ص٦٧) وسيأتي قول الشيخ (رحمه الله): «قدمنا أن (الأخذ) إذا أُسند إلى الله هو الأخذ بقوة وشدة...» ا.هـ عند تفسير الآية رقم (٤٤) من هذه السورة. والذي يظهر أن هذا مراد الشيخ (رحمه الله) هنا لكن سبق لسانه إلى غيره، والله أعلم.

فكل ما تناولته بقوة وشدة فقد أخذته. وأَخْذ الله عظيم، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه)، أن النبي ﷺ قال: «**إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته**» ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: آية ١٠٢][1] و﴿ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في هذه الآية: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ كلاهما مصدر أُنث بألف التأنيث الممدودة تأنيثاً لفظياً، وأكثر العلماء[2] على أن (البأساء): هي ما كان من جهة الفقر، والفاقة، والجوع، وضياع الأموال. وأن (الضراء): هي ما كان من قبيل أمراض الجسوم وآلامها، وما يقع فيها. والمعنى: أنّا ابتليناهم بالضر في أموالهم وفي أبدانهم فأفقرناهم، وأعدمنا أموالهم، حتى صاروا في جوع، وفي فقر، وفي فاقة، اختبرناهم بهذا ليُنيبوا إلى الله، ويبتهلوا إليه، فلم ينفع فيهم هذا الاختبار بالشّر، فلما لم ينجح فيهم هذا الاختبار بالشّر ابتليناهم بالخير، وبدّلنا عنهم السيئة بالحسنة، فجعلنا لهم مكان المرض صحة وعافية، ومكان الفقر غنى، ومكان الجوع شبعاً، فلم ينفع فيهم هذا أيضاً. والله (جل وعلا) يبتلي خلقه بالشر والخير ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: آية ٣٥] ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٨].

وهذه الآية الكريمة ـ من سورة الأنعام ـ بينت أن الله إذا أرسل رسولًا إلى قوم ابتلاهم أولًا بالشدائد، فسلّط عليهم الفقر، والجوع، والفاقة، فإذا لم ينفع فيهم هذا أزال عنهم ذلك، وأغناهم، وصحّحهم، وأغدق عليهم نعم الدنيا، حتى يهلكهم وهم في غفلة، في أشد وقتٍ غفلةً وبطراً ـ والعياذ بالله ـ وقد صرح تعالى في سورة الأعراف أن هذا النوع من الابتلاء ـ المبدوء بالابتلاء بالشر ثم الابتلاء بالخير ـ عام في جميع الأمم التي أُرسلت إليها الرسل، وهنا ـ في الأنعام ـ لم يأتِ بصيغة عامة، وإنما قال: ﴿وَلَقَدْ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ...﴾ حديث (٤٦٨٦) (٨/٣٥٤)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، حديث (٢٥٨٣) (٤/١٩٩٧).

(٢) انظر: ابن جرير (٣/٣٤٩ ـ ٣٥٠)، (٤/٢٨٨)، (١١/٣٥٤)، القرطبي (٦/٤٢٤).

أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: آية ٤٢] وقوله: ﴿أُمَمٍ﴾ جمع مُنكَّر. والتحقيق: أن الجموع المنكّرة إذا كانت في سياق الإثبات ليست من صيغ العموم[١]، [ومن][٢] زعم من علماء الأصول: «أن الجمع المُنَكَّر من صيغ العموم» فهو قول مردود، كما هو معروف في الأصول، أما في الأعراف فقد بيّن أن هذه السنة من سنن الله، أنها عامة حيث قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: الآيتان ٩٤، ٩٥] يعني: بدلنا مكان الجوع شبعاً، ومكان الفقر غنى، ومكان المرض صحة وعافية؛ ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذه سُنة الله في خلقه، ذكرها هنا في الأنعام، وبيّن الشمول والعموم في الأعراف.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ (التضرع): التذلل والخضوع لله[٣]، وكثيراً ما يظهر أثر ذلك في الدعاء بأن يبتهل ذلك الذليل الخائف من الله يبتهل متضرعاً يناجي ربه (جلّ وعلا). و(الضارع): هو الذليل الخائف، و(الضراعة): الذل والخشوع والخوف، وهو معنى معروف في كلام العرب، مشهور في كلامهم، ومنه قول الشاعر[٤]:

لِيُبْكَ يزيدٌ ضارعٌ لخصومةٍ ....

---

(١) في هذه المسألة راجع: شرح الكوكب المنير (١٣٩/٣)، شرح مختصر الروضة (٤٧٣/٢)، أضواء البيان (٢١٨/١)، (٣٢١/٣)، (١٧٤/٤).

(٢) في الأصل: «وما».

(٣) انظر: المفردات (مادة: ضرع) (٥٠٦).

(٤) البيت لنهشل بن حري، أو ضرار بن نهشل، وقيل غير ذلك. وعجزه:

ومُختَبِطٌ مِمَّا تُطيحُ الطوائحُ

وهو في الكتاب لسيبويه (٢٨٨/١، ٣٦٦، ٣٩٨)، المحتسب (٢٣٠/١)، الخصائص (٣٥٣/٢)، الخزانة (١٤٧/١).

أي: (ذليل) يبكيه ذليل؛ لأنه ملجأ له.

وفي هذه الآية سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: المعروف في لغة العرب، أن حرف (لعل) أنه للترجّي والتوقع، والله عالم محيط علمه بعواقب الأمور، فكيف يُصرّح بلفظ هو يدلّ على الترجي والتوقع، وكيف يصح في كلام الله الترجي والتوقع، وهو القادر على كل شيء، المحيط علمه بعواقب الأمور؟ هذا وجه السؤال.

وللعلماء عن هذا جوابان[1]:

أحدهما: أن (لعل) هنا للتعليل. والمعنىٰ: أخذناهم بالبأساء والضراء لأجل أن يتضرعوا. ولا شك أن (لعل) أنها من حروف التعليل. وقد سُمع في لغة العرب من كلام العرب الفصحاء التعليل بـ(لعل). ومن إتيان «لعل» للتعليل في كلام العرب قول الشاعر[2]:

فقُلْتُم لَنَا كُفُّوا الحُرُوبَ لَعَلَّنَا ... نكفُّ ووثَّقْتُم لنا كُلَّ موثِق
فلما كَفَفْنَا الحربَ كانَتْ عُهُودُكُم ... كَشِبه سَرَابٍ بالمَلا مُتَألِّق

فقوله: «كفّوا الحروب لعلنا نكف» يعني: كفّوا الحروب لأجل أن نكف عنكم.

ومن هنا قال بعض العلماء: كل (لعل) في القرآن فهي للتعليل، إلا التي في سورة الشعراء ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: آية ١٢٩] قالوا بمعنى: كأنكم تخلدون[3].

الوجه الثاني: أن (لعل) على بابها من أنها للترجي والتوقع، إلا أن معنى الترجي والتوقع فيها هو بحسب ما يظهر للناس، أمّا الله (جل وعلا) فهو عالم بما كان وما يكون. ومما يؤيد هذا: أن الله عالم في أزله بأن

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.
(٢) السابق.
(٣) السابق.

فرعون شقي يموت كافراً ـ والعياذ بالله ـ وهو يقول لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: آية ٤٤] على ترجيكما وتوقعكما بحسب ما يظهر لكما. أمّا عاقبة الأمر وما يؤول إليه فهي عند الله جلّ وعلا.

وهذا معنى قوله: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: آية ٤٢] لأجل أن يتضرعوا. أي: لترجّي تضرعهم بحسب ما يظهر للناس الجاهلين بعواقب الأمور.

ثم قال: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ [الأنعام: آية ٤٣] قد قدمنا بالأمس[1] أن لفظة (لولا) أصلها تأتي في اللغة العربية وفي القرآن مشتركة بين معنيين، إلا أن أحد المعنيين ينقسم إلى قسمين، فتكون أقسام (لولا) ثلاثة في القرآن وفي كلام العرب. (لولا) في القرآن إذن تَردُ على ثلاثة أقسام، بثلاثة معان معروفة:

الأول: هي (لولا) المعروفة عند العلماء بأنها حرف امتناع لوجود، والمعنى: أنها تدل على امتناع شيء لوجود شيء نحو: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾ [النور: آية ٢١] يعني: أنه هنا انتفى عدم الزكاة والطهارة لوجود فضل الله. وهذا معروف مشهور.

الثاني: هو (لولا) التحضيضية. ومعنى (لولا) التحضيضية: أن (لولا) حرف يدل على طلب الفعل بحثّ وحضّ؛ ولذا سُميت حرف تحضيض. وهذه هي التي تنقسم قسمين؛ لأن لها حالتين: تارة يكون الفعل المطلوب فيها بحرف التحضيض ـ الذي هو (لولا) ـ تارة يكون مُمْكِناً تداركه مُمْكِناً فعله، وتارة يكون ذلك الفعل لم يبقَ فعله ممكناً؛ لأن فرصته ضاعت ومضت، ولم يمكن تداركه. وإذا كان فعله ممكناً فهي المعروفة بالتحضيضية نحو: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾ [المنافقون: آية ١٠] (لولا) هنا معناه: أطلب منك يا رب بطلب شديد مُحضّض عليه،

(١) مضى عند تفسير الآية رقم (٣٧) من هذه السورة.

بحثٌ وحضٍّ أن تؤخرني ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ...﴾ الآية.

النوع الثاني: ـ ومنه الآية التي بين أيدينا ـ هي أن يكون الفعل المطلوب بأداة الطلب التي هي حرف التحضيض ـ أعني (لولا) التحضيضية ـ يكون الفعل فات تداركه ولم يبق ممكناً أبداً. فهي في هذا المعنى ينقلب تحضيضها إلى التوبيخ والتنديم، تارة يُوبّخ بها موجود، كقوله للذين تكلموا في عائشة وصفوان: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: آية ١٦] هذا العمل المطلوب بـ(لولا) ضاعت فرصته عليهم؛ لأنهم قد تكلموا بما لا يليق، فهي في هذا المعنى ينقلب تحضيضها إلى التوبيخ والتنديم. فكأنه يوبخهم ويندمهم على ما فرط منهم. وتارة يكون المُوبّخ بها قد مات ولم يكن موجوداً، كقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ [الأنعام: آية ٤٣] لأن وقت نزول الآية هؤلاء الأمم قد ماتوا وانقضوا في أزمان متناهية، قد مضوا في الزمان الماضي، فلا يمكن حصول الفعل منهم، وليسوا موجودين حتى يسمعوا التوبيخ. ولكن المقصود من توبيخ هذا الذي غاب ومات ليعتبر به غيره، فيعلم بأن قصص القرآن إنما قُصّت علينا لنعتبر بها ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: آية ١١١] ولذا كان من الحسن أن يُوبّخ أولئك لنعتبر بتوبيخهم فنجتنب ذلك الأمر الذي استحقوا التوبيخ من أجله، هذا معناه؛ ومن هذا المعنى ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ [هود: آية ١٦] لأن القرون مضت، فهو توبيخ لغائبين، وتنديم لهم؛ ليعتبر به المخاطبون؛ ولذا قال: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ [الأنعام: آية ٤٣] كان المطلوب منهم وقت وجودهم ـ بحثٌ وشدةٍ ـ أن يتضرعوا، واختبرهم الله بالبأس أن يتضرعوا.

ويُفهم من الآية أن المسلم إذا ابتلاه ربه بمصائب الدنيا، من أمراض، أو مصائب في الأموال، أو جوع، أو نحو ذلك: أن عليه أن يتضرع إلى ربه (جل وعلا) ليزيل عنه ذلك؛ لأنه وبّخ هؤلاء وذمهم على عدم التضرع إليه عند نزول الشدائد بهم، وهذا معنى قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ ثم قال: ولكنهم لم يتضرعوا ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ لأن القلوب القاسية تشتد

كما تشتد الحجارة، فكما أن الحجر الصلب القوي إذا أردت أن تُدخل في جوفه ماء لا يدخل، فكذلك قلب الكافر لصلابته وقسوته إذا أردت أن تُدخل فيه الموعظة والفهم عن الله لا يدخل؛ لشدة قسوة القلب ـ والعياذ بالله ـ.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ اعلم أن الشيطان في لغة العرب[1] يُطلق على كل عاتٍ متمرد كائناً ما كان. فكل عاتٍ متمرد فهو (شيطان) في لغة العرب التي نزل بها القرآن، سواء كان من الإنس، أو من الجن، أو من غيرهما. إلا أن (الشيطان) كان بالحقيقة العُرفية يسبق إلى إبليس وذرية إبليس. أما في الوضع اللغوي فكل متمرد عاتٍ تسميه العرب (شيطاناً)، سواء كان من الإنس، أو من الجن، أو من غيرهما، ومن إطلاق (الشيطان) على المتمرد العاتي من بني آدم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة: آية ١٤] أي: عُتاتهم المتمردين من رؤساء الكفرة، وقوله تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: آية ١١٢] وقد جاء حديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ: أن من الإنس شياطين[2]. وكل عات متمرد من الإنس فهو

---

(١) في معنى (الشيطان) انظر: تفسير ابن جرير (١١/١)، المقاييس في اللغة، كتاب الشين، باب الشين والطاء وما يثلثهما، (مادة: شطن) ص٥٢٤، اللسان (مادة: شطن) (٣١٧/٢)، القرطبي (٩٠/١)، الدر المصون (١٠/١)، الأضواء (٢٠٨/٢).

(٢) ولفظ الحديث المشار إليه عن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد فجلست، فقال: **«يا أبا ذر هل صليت؟»** قلت: لا، قال: **«قم فصل»**. فقمت فصليت ثم جلست، فقال: **«يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن»**. قلت يا رسول الله: وللإنس شياطين؟ قال: **«نعم..»** الحديث.
وقد أخرجه أحمد (١٧٨/٥، ١٧٩)، والنسائي، كتاب الاستعاذة «الاستعاذة من شر شياطين الإنس» حديث: رقم (٥٥٠٧)، (٢٧٥/٨)، وابن جرير في التفسير (٥٣/١١ ـ ٥٥)، وابن حبان (الإحسان) (٢٨٧/١)، والطيالسي ص٦٥، والبيهقي في الشعب (١٧٨/٧)، كلهم من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
وللحديث طرق متعددة لا تخلو من ضعف إلا أن بعضها قد يتقوى ببعض والله أعلم.
وهذا الحديث له شاهد من حديث أبي أمامة عند أحمد (٢٦٥/٥ ـ ٢٦٦)، والطبراني في الكبير (٢٥٨/٨)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٣٧١/٤).
=

(شيطان)، كما دلّ عليه: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ ومنه بهذا المعنى قول جرير ـ وهو عربي قُح ـ قال[(١)]:

أيامَ يدعُونَني الشيطانَ من غَزَلِ وكُنَّ يَهْوَيْنَني إذْ كُنتُ شيطانَا

ومن إطلاق (الشيطان) على غير الإنس والجن حديث: «**الكلب الأسود شيطان**»[(٢)]. وما جرىٰ مجرىٰ ذلك. هذا إطلاق (الشيطان) في لغة العرب، وهو حقيقة عُرفية في إبليس وذريته؛ لأن ذرية إبليس شياطين، يفعلون كما يفعل، كما يأتي في قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: آية ٥٠].

واعلم أن المادة التي اشتُقَّ منها (الشيطان) اختلف فيها علماء العربية على قولين[(٣)]، أشار لكل واحد منهما الشيخ عمرو ـ أعني سيبويه ـ في كتابه[(٤)]. وباختلاف القولين يختلف وزن (الشيطان) بالميزان الصرفي، فجماعة من العلماء ـ وهو أصح القولين ـ قالوا: إن مادة (الشيطان) أصلها من (شَطَنَ)، ففاء المادة شين، وعينها طاء، ولامها نون، (شطن). ومعنىٰ

= قال ابن كثير بعد أن ساق بعض طرق الحديث: «فهذه طرق لهذا الحديث، ومجموعها يفيد قوته وصحته. والله أعلم» اهـ من التفسير (١٦٦/٢) وانظر في الكلام على سنده: مجمع الزوائد (١٥٩/١ ـ ١٦٠)، الفتح الرباني (٢٩/١٩)، تعليق شاكر على ابن جرير (٥٣/١١ ـ ٥٤)، ضعيف سنن النسائي ص٢٤٢، الجامع لشعب الإيمان (هامش) (١٧٨/٧).

(١) البيت في المقاييس في اللغة، كتاب الشين، باب الشين والطاء وما يثلثهما ص٥٢٤، القرطبي (٩٠/١)، اللسان (مادة: شطن) (٣١٧/٢) والمثبت في هذه المصادر: «وهُن يهويننى».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يستر المصلي حديث (٥١٠)، (٣٦٥/١).

(٣) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الشين، باب الشين والطاء وما يثلثهما. (مادة: شطن) ص٥٢٤، وباب الشين والياء وما يثلثهما. (مادة: شيط) ص٥٤٥، اللسان (مادة: شطن) (٣١٧/٢)، (مادة: شيط) (٣٨٩/٢)، الدر المصون (١٠/١)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٥٣.

(٤) الكتاب (٢١٧/٣ ـ ٢١٨).

هذه المادة في لغة العرب معناها: البعد، فكل شيء شطن فهو بعيد جداً. وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[(١)]:

نأت بسعادَ عنكَ نوىً شَطُون   فبانتْ والفؤادُ بها حزين

«نوىٰ شطون» أي: بعيدة. ومما يدل على أن (الشيطان) أصله من (شطن) قول أمية بن أبي الصلت الثقفي ـ وهو عربي قُح ـ يمدح سليمان بن داود (عليهما الصلاة والسلام وعلىٰ نبينا)، قال في مدحه[(٢)]:

أيُّ شاطِنٍ عصاهُ عكاهُ   ثم يُلْقَىٰ في السِّجْن والأكبال

عبّر عن (الشيطان) بالشاطن، والشاطن: اسم فاعل (شَطَنَ) بلا خلاف، وهذا مما يؤيد أن مادة (الشيطان) من (شَطَنَ) بمعنىٰ بعُد. ومناسبتها للتسمية هي بُعده عن رحمة الله ـ والعياذ بالله (جل وعلا) ـ وعلى هذا القول أن (الشيطان) من مادة (شَطَنَ) فوزنه بالميزان الصرفي (فَيْعَال).

القول الثاني: أن (الشيطان) أصله من مادة (شاط يشيط) إذا هلك، والعرب تقول: (شاط يشيط) إذا هلك، وعليه فإنما سُمي شيطاناً لهلاكه ـ والعياذ بالله ـ لأنه هالك مخلد يوم القيامة في عذاب الله. والعرب تقول: (شاط يشيط). إذا هلك، وهو معنىٰ معروف في كلام العرب، ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس[(٣)]:

قد نَخْضِبُ العيرَ من مكنونِ فائِلِهِ[(٤)]   وقد يَشِيطُ على أرماحِنا البطلُ

---

(١) البيت للنابغة، وهو في ديوانه ص٧٢ والمثبت في الديوان وغيره من المصادر التي وقفت عليها: «رهين» بدلًا من: «حزين».

(٢) البيت في المقاييس في اللغة ص٥٢٥، ابن جرير (١١٢/١)، اللسان (مادة: شطن) (٣١٧/٢)، القرطبي (٩٠/١)، الدر المصون (١٠/١).
ومعنى (عكاه) أي: شَدَّه.

(٣) البيت في القرطبي (٩٠/١)، اللسان (مادة: شيط)، (٣٩٣/٢).

(٤) الفائل: عرق في الفخذين يكون في خربة الورك.

يعني بقوله: (يشيط) أي: يموت ويهلك. وعلى هذا فوزن (الشيطان) بالميزان الصرفي: (فَعْلَان) فعلى أنه من (شاط) فوزنه: (فَعْلَان)، وعلى أنه من (شَطَن) فوزنه: (فَيْعَال)، هذا وزنه بالميزان الصرفي، واختلاف العلماء في اشتقاقه ومعناه.

والمراد بالشيطان هنا: جنس الشيطان، وهو إبليس وذريته، والعياذ بالله من تضليلهم.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الشيطان يزين للكفرة والعصاة أعمالهم الخبيثة، وذلك التزيين إنما هو بالوسوسة، يوسوس لهم، وينفث في قلوبهم ما يزين لهم به المعاصي والكفر ـ والعياذ بالله ـ وهذا معنى قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٤٤].

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ النسيان هنا معناه: الترك عمداً.

وقد بينّا أن مادة (النسيان) تطلق في القرآن وفي اللغة العربية إطلاقين[1]:

يطلق (النسيان) على ترك الفعل عمداً نحو قوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: آية ١٩] وكقوله: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السجدة: آية ١٤] والله لا ينسى أبداً النسيان الذي هو زوال العلم؛ لأن الله يقول: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: آية ٥٢] ويقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: آية ٦٤] فهذا الاصطلاح تقول العرب: «أمرت زيداً فنسي أمري». يعنون تركه عمداً.

الثاني: هو (النسيان) بمعنى زوال العلم. كالنسيان الاصطلاحي المعروف. ومنه قوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنعام.

أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الكهف: آية ٦٣] وقوله: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الأنعام: آية ٦٨] ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ [المجادلة: آية ١٩] هذا (النسيان) بمعنى زوال العلم، والمراد في الآية: النسيان بمعنى الترك عمداً، وهو قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ [الأنعام: آية ٤٤] أي: تركو عمداً ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ ما ذكرهم الله به من البأساء والضراء، فلم يتضرعوا في حالة الضر، ولم يشكروا في حالة النعيم؛ لأن الله بيّن أن الكافر عند حالة النعماء أنه فخور أَشِرٌ بَطِر، وعند حالة الضراء يؤوس قنوط، لا يدعو الله، ولا يضرع إليه، كما قال: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۝٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود: الآيتان ٩ ـ ١٠] هو فخور فَرِح أَشِر بَطِر وقت العافية، يؤوس قنوط وقت الشدة. وهذا قد استثنىٰ الله منه عباده المؤمنين، حيث قال في سورة هود، لما ذكر هذه الصفات الذميمة عن الإنسان، استثنىٰ منها المؤمنين الطيبين، قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١١﴾ [هود: آية ١١] وقد بيّن النبي ﷺ في الحديث الصحيح أن المؤمن الطيب مخالف لهذه الصفات الخبيثة حيث قال ﷺ: **«عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس هذا إلا للمؤمن»**(١). المؤمن عندما يأتيه البأساء والضراء يضّرّع إلى رب العالمين صابراً محتسباً فيثيبه الله، ويعظم له الأجور، وإذا كان وقت السراء، وأنعم الله عليه، كان شاكراً نعم الله، مراعياً بذلك حقوق الله (جل وعلا)، ويكون ذلك خيراً له. وهذا أيضاً خير له، كما في الحديث الصحيح.

ومعنى قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ أي: تركوا وأعرضوا عما ذُكروا به من الباساء والضراء، حوّلنا لهم البؤس إلى نعمة ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ

---

(١) أخرجه ـ بنحوه ـ مسلم في صحيحه، من حديث صهيب (رضي الله عنه)، كتاب الزهد والرقاق، باب: المؤمن أمره كله خير، حديث رقم (٢٩٩٩)، (٤/٢٢٩٥).

﴿شَيْءٍ﴾ قرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا الشامي ـ أعني ابن عامر ـ: ﴿فَتَحْنَا﴾ بتخفيف التاء. وقرأه ابن عامر من السبعة ﴿فَتَّحْنَا﴾ بتشديد التاء[1].

وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: كيف قال الله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهو أصدق من يقول، مع أن كثيراً من الأشياء لم تفتح عليهم أبوابه، لم تفتح عليهم أبواب الهدىٰ، ولا أبواب التوفيق، ولا أبواب طاعة الله، ولا أبواب خيرات الجنة. ويصدق عليها اسم (الشيء)؟

وللعلماء عن هذا جوابان[2]:

أحدهما: ما قاله بعض العلماء أن المعنىٰ: فتحنا عليهم أبواب كل شيء مما كنّا أغلقناه عليهم أيام الابتلاء بالشر. يعني فتحنا لهم أبواب الصحة وقد كانت مغلقة أيام المرض، وفتحنا لهم أبواب الغنىٰ بعد أن كانت مغلقة أيام الامتحان بالشر وهكذا.

الوجه الثاني: أن هذا من العام المخصوص، وجرت العادة في القرآن بأن يذكر الله (كل شيء) وهو يُراد به أنه عام مخصوص. كقوله في بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: آية ٢٣] مع أن بعض الأشياء لم تُؤته بلقيس. وكقوله في مكة المكرمة حرسها الله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: آية ٥٧] مع أن بعض الثمار لا يُجبىٰ إليها. فهذا من العام المخصوص، وهو أسلوب عربي معروف، وتذكر العرب مثل هذا تقصد به الأغلبية. وهذا معنى قوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ [الأنعام: آية ٤٤] يعني ولم يزل ذلك الفتح ممتداً إلى غاية، هي كونهم فرحوا بما أوتوا. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٩٤.

(٢) انظر: ابن جرير (٣٥٨/١١)، القرطبي (٤٢٦/٦)، الموافقات (٢٦٨/٣ ـ ٢٨٦)، قواعد التفسير ص٦٠٨.

أي: ما أُعطوا من الصحة بدل المرض، ومن الغنىٰ بدل الفقر، ومن الري والشبع بدل الجوع، فرحوا بهذا فَرَحَ أَشَرٍ وبَطَر، لأنه ما كل فرح مذموم؛ لأن الفرح المذموم: هو الفرح بالدنيا المحضة، والأَشَر والبَطَر، لا من حيث أنها تُقرب إلىٰ الله ولا ترضيه. هذا الفرح المذموم المصحوب بالأَشَر والبَطَر، وعندما فعلوه أهلكهم الله. وهذا هو الذي ذمّ الله به الإنسان بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: آية ١٠] أما الفرح بالخير، والفرح بالدين، ومعرفة القرآن فهذا أمر مطلوب من كل مسلم، كما نصّ الله على ذلك آمراً به بالسورة الكريمة ـ سورة يونس ـ حيث قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: آية ٥٨] ولام الأمر في قوله: ﴿فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ تدل على أن ذلك النوع من الفرح مأمور به من الله. والأمر إن تجرد من القرائن اقتضىٰ الوجوب، كما هو معروف في فن الأصول[١].

وقوله هنا: ﴿فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ أي: بما أعطوا من الصحة، والعافية، والغنىٰ، والأموال، والدَّعة، والراحة، فرح بَطرٍ وأَشَر، حتىٰ إذا حصل فيهم ذلك: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ قدّمنا أن (الأخذ) إذا أُسند إلى الله هو الأخذ بقوة وشدة[٢]. كما قال: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: آية ١٠٢].

وقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ مصدر مُنكّر بمعنىٰ الحال[٣]. ومعنى البغتة: الفجأة. وذلك أشد ما يُؤخذ به الإنسان؛ لأنه إذا علم بالعذاب قبل نزوله يكون مُتجلداً مستعداً. أما إذا بغته قبل استعداد له فهذا أشد وأنكى؛ ولأجل هذا بعينه أخبر الله المؤمنين بالبلايا التي تَرِدُ عليهم قبل أن تقع؛ ليكونوا مستعدين لها، ولئلا تفاجئهم. حيث قال لهم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: آية ١٥٥] أخبرهم بأن

---

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/٣٩)، أضواء البيان (١/٢٦٠)، (٣/٢٢٢، ٣٥٧، ٤٤٢)، (٤/٥٠٥)، (٥/١١٣، ١١٤، ٢٤٥)، (٦/٢١٦، ٢٣١، ٢٥٣)، قواعد التفسير ص٤٧٩.

(٢) مضى قريباً عند تفسير الآية (٤٢).

(٣) انظر: القرطبي (٦/٤٢٦).

الابتلاء سيأتيهم؛ لئلا يباغتهم، ويكونوا مستعدين له قبل نزوله، ولذا قال: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ (الفاء) فاء السببية، و(إذا) هي الفجائية[(١)]، و(المبلسون): جمع المُبْلِس، والمُبْلِس: اسم فاعل الإبلاس. و(الإبلاس) في لغة العرب يطلق على معان متقاربة، هو في الحقيقة يرادف الوجوم، والوجوم هو: أن يكون الإنسان ساكتاً منقطعاً لا يقدر أن يتكلم؛ لشدة اليأس من الخلاص من البلايا والدواهي التي وقع فيها. ومعنى ﴿مُّبْلِسُونَ﴾: آيسون قانطون مما وقعوا فيه من عذاب الله ـ والعياذ بالله ـ إياساً وقنوطاً يمنعهم من أن يتكلموا. فمعناه: ساكتون لا يُحيرون جواباً من شدة اليأس والقنوط مما نزل بهم ـ والعياذ بالله ـ وكل من دهاه أمر فتحيّر غير قادر أن يتكلم لشدة الأمر الذي دهاه تقول له العرب: (أَبْلَسَ)[(٢)]. وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول رؤبة بن العجاج[(٣)] في رجزه:

يَا صَاح هل تَعْرِفُ رسماً مُكْرَساً[(٤)] قال: نعم أعرفُه وأبلسا

أي: تحيّر مندهشاً لا يقدر أن يتكلم. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

قال بعض العلماء: اشتقاق (إبليس) من (الإبلاس)[(٥)]، وهو اليأس الشديد، والقنوط من الخير، حتى يبقىٰ صاحبه ساكتاً لا يُحير جواباً.

ثم قال جل وعلا: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنعام: آية ٤٥] (الدابر): اسم فاعل دَبَرَ القومَ يَدْبُرُهم، العرب تقول: «دَبَرَهُ يَدْبُرُه» إذا كان يمشي خلفه؛ لأنه يمشي عند دُبره[(٦)]. كما تقول العرب: «قَفَاه». إذا كان

---

(١) انظر: البحر المحيط (١٣١/٤)، الدر المصون (٦٣٤/٤).

(٢) انظر: ابن جرير (٣٦٠/١١ ـ ٣٦٣)، القرطبي (٤٢٦/٦)، البحر المحيط (١٣١/٤)، الدر المصون (٦٣٥/٤).

(٣) البيت في: ابن جرير (٥٠٩/١)، (٣٦٣/١١)، القرطبي (٤٢٧/٦).

(٤) المكرس: الذي صار فيه الكرس، وهو أبوال الإبل وأبعارها يتلبد بعضها على بعض في الدار.

(٥) انظر: ابن جرير (٥٠٩/١)، القرطبي (٤٢٧/٦).

(٦) انظر: ابن جرير (٣٦٤/١١)، القرطبي (٤٢٧/٦)، البحر المحيط (١٣١/٤).

يمشي عند قَفاه ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ [البقرة: آية ٨٧] وأولاد الناس كأنها دابر لهم يدبرهم ويتبعهم، كلما انقضىٰ قَرن دَبَرَه قرن. أي: كان ذلك القرن تابعاً له، كأنه يمشي عند دُبُرِه كما يمشي التابع عند دُبرِ المتبوع، فالدابر يُقال للخَلَف، وآخر القوم، كأولادهم. ومعنىٰ (قُطع دابرهم): استؤصلوا ولم يبق منهم تابع؛ لإهلاك الأولاد مع الآباء، حتىٰ ينقرضوا كُلّاً - والعياذ بالله جل وعلا - وهذا معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول أمية بن أبي الصلت الثقفي[1]:

فأُهلكوا بعذابٍ حَصَّ دابِرَهُم ... فَمَا اسْتَطَاعوا لَهُ صَرْفاً ولا انْتَصَرُوا

(حص دابرهم): يعني قطع دابرهم، وأهلك البقية، فلم يبق منهم تابع؛ لأن الولد كأنه دابر للوالد، أي: تابع له يقفوه من بعده ويُحيي ذِكْره بعد موته. ومعنىٰ: (قَطْع الدابر) أنه هلك الأولاد والآباء، وانقضىٰ الجميع، فلم يبق منهم تابع. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

و(الظلم) هنا معناه: الشرك. كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: آية ١٠٦].

ثم قال: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: آية ٤٥] أثنىٰ الله (جل وعلا) على نفسه الكريمة بهذا الثناء العظيم؛ ليُعلّم خلقه أن يحمدوا الله (جل وعلا) ويثنوا عليه عند إهلاكه الظلمة الذين ليس فيهم خير، وليس فيهم إلا الشر للبلاد والعباد، فإراحة المسلمين من الظلمة الذين ليس فيهم إلا الضرر، من غير أن يكون هنالك نفع، نعمة من نعم الله، علّم الله خلقه أن يحمدوه عليها.

(١) البيت في ابن جرير (١١/٣٦٤)، القرطبي (٦/٤٢٧)، الدر المصون (٤/٦٣٥).

و(الحمد) في لغة العرب[١]: هو الثناء[٢] باللسان على المحمود بجميل صفاته، سواء كان من باب الإحسان، أو من باب الاستحقاق. وهو معنى معروف في كلام العرب.

و(الشكر) في لغة العرب[٣]: فعل ينبىء عن تعظيم المنعم بسبب كونه مُنعماً. إلا أن الشكر اصطلاحاً هو الحمد لغة، والحمد لغة هو الشكر اصطلاحاً[٤].

والمعنى: كل ثناء جميل ثابت لخالق/ السماوات والأرض. فمعنى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنه سيد الخلائق ومُدبّر شؤونهم الذي لا يستغنون عنه طرفة عين، وكل من يُدبّر الأمور ويسوسها تقول العرب له (رباً)، و(الرِّبَابَة): سياسة الأمور وتدبيرها، تقول العرب: «فلان رب هذا الحي». يعنون: أنه هو المدبِّر شؤونه. وهو معنى معروف في كلام العرب[٥]، ومنه قول علقمة بن عَبَدَةَ التميمي[٦]: ٣/ب

وكُنْتَ امْرَأً أَفْضَتْ إِلَيْكَ رِبَابَتِي وَقَبْلَكَ رَبَّتْنِي فَضِعْتُ رُبُوبُ

معنى: (ربتني ربوب) أي: ساستني ساسة، وملكتني ملوك قبلك.

وهذا معنى معروف في كلام العرب، تقول العرب: «رَبَّه يربُّه»، إذا ساسه ودبّر شأنه. وقد عرفتم في السيرة أن صفوان بن أمية بن خلف طلب من النبي ﷺ مهلة ينظر في نفسه، واستعار النبي ﷺ منه بعض السلاح

---

(١) انظر: المفردات (مادة: حمد)، ص٢٥٦، المصباح المنير (مادة: حمد) (٥٧ ـ ٥٨).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «الحمد: الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبة لها» ا.هـ (الفتاوى ٣٧٨/٨، وانظر (٢٥٩/٦، ٢٦٦)، واللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب ص٢١٣.

(٣) راجع ما مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٤) انظر: الكليات ص٣٦٦، ٥٢٣، ٥٣٤، ٥٣٥، وفي الفرق بينهما راجع (اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب ص٢١٤).

(٥) انظر: المفردات (مادة: رب) ص٣٣٦ ـ ٣٣٧.

(٦) البيت في المجمل ص٢٧٩، المفضليات ص٣٩٤، المفردات (مادة: رب) ص٣٣٧.

والدروع، وحضر مع النبي ﷺ غزوة حنين، وكان معه رجل آخر، فلما وقع بالمسلمين ما وقع، حيث صلوا الصبح في غلس الصبح، تبقى بقية من الظلام، وانحدروا في وادي حنين، ووجدوا مالك بن عوف النصري ألبد لهم هوازن في مضيق من مضايق وادي حنين، وشدّوا عليهم شدة رجل واحد، وهم في غفلة، حتى كانت الرماح والسهام كأنها مطر تزعزعه الريح، ووقع بالمسلمين ما وقع حيث قال الله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢٥] فعند هذا قال ذلك الرجل الذي مع صفوان[(١)]: الآن بطل سحر محمد ﷺ. وظنوا أن الهزيمة ستستمر، وأن هوازن يغلبونه ويملكون. فقال له صفوان بن أمية - وهو عدو في ذلك الوقت للنبي ﷺ - قال لذلك الرجل: اسكت فُضّ فُوك، لئن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن[(٢)]. قوله: «يربني» يعني: يسودني فيسوسني ويدبر شؤوني. هذا أصله معنى (الرب). والرب الحقيقي الذي يُدبر خلائق الكون هو خالق السماوات والأرض (جل وعلا)، لا تقع في الدنيا تحريكة ولا تسكينة إلا بمشيئته وتدبيره.

و ﴿الْعَالَمِينَ﴾: يطلق على أهل السماوات وأهل الأرض وما بينهما[(٣)]، فالعَالَم اسم لِما سوى الله، وقد دلت آية من سورة الشعراء أن (العالمين) شامل لأهل السماوات والأرض وما بينهما، حيث قال الله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾

---

(١) وهو كلدة بن حنبل، ويقال: ابن عبدالله بن الحنبل، وسماه ابن إسحاق: جبلة بن الحنبل. انظر السيرة لابن هشام ص١٢٩٠، وفي الإصابة (٣/٣٠٥): «كلدة بن حسل. ويقال: ابن عبدالله بن الحسل. وعند ابن قانع: كلدة بن قيس بن حسل» إ.هـ.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/١٢٨)، والطبري في تاريخه (٣/١٢٨)، وذكره ابن هشام في السيرة ص١٢٨٦، ١٢٩٠، والهيثمي في المجمع (٦/١٧٩ - ١٨٠) وابن كثير في تاريخه (٤/٣٢٧) وصححه الألباني في تعليقه على فقه السيرة ص٤٢٢، وانظر: مرويات غزوة حنين (١/١٤٣، ١٦٣).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

[الشعراء: الآيتان ٢٣ ـ ٢٤] وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام: آية ٤٦].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: معناه أخبروني. وقد قدمنا[١] أن العرب تطلق (أرأيت) بمعنى: أخبرني، وتستعملها استعمالين، إذا جعلت معها الكاف، كقوله: «أرأيتك» أو: «أرأيتكم» لزمت التاء الفتح، وكانت الكاف تتغير بحسب تغيّر المخاطب، وإذا حذفوا منها الكاف، كانت التاء تتغير بحسب تغيّر المخاطب، وهي معناها: أخبرني.

والمحققون من علماء العربية: أنها مع تحويل معناها إلى (أخبرني) أنها تطلب مفعولين، وهي ومفعولاها بمعنىٰ: أخبرني عن كذا. وعليه فقوله هنا: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ أخبروني. المفعول الأول: أرأيتم سمعكم وأبصاركم إن أخذها الله من هو الذي يأتيكم بها؟ فالمفعول الأول في قوله: أرأيتم سمعكم وأبصاركم إن أخذها الله، من هو الذي يأتيكم [بها][٢]؟ والمفعول الثاني: الجملة[٣].

أولًا: هذه الآية تهديد للخلائق، وهو أن الله (جل وعلا) أعطاهم هذه العيون التي يبصرون بها، وهذه الآذان التي يسمعون بها، وهذه القلوب المشتملة على العقول التي يفهمون بها، وهذا أعطاه لهم لأجل أن يعتبروا هذه النعم فيشكروا لمن منّ بها فيطيعوه، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: آية ٧٨] أي: لأجل أن تشكروا له هذه النعم فتطيعوه، كأنه يقول لهم هنا: هذه النعم الجلائل التي أنعمت بها عليكم من

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٠ ـ ٤١) من هذه السورة.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) قال في الدر المصون (٤/٦٣٥): «المفعول الأول محذوف تقديره: أرأيتم سمعكم وأبصاركم إن أخذها الله. والجملة الاستفهامية في موضع الثاني» ا.هـ ولأبي حيان نحوه في البحر المحيط (٤/١٣٢).

هذا البصر الذي تبصرون به، والسمع الذي تسمعون به، والقلب الذي تفهمون به، منحتكم إياها لتشكروني ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: آية ٧٨] لما كفرتم نعمي أخبروني إن أخذت نعمي، وسلبتُها منكم، فتركتكم عمياً بعد الإبصار، وتركتكم صُمّاً بعد السماع، وتركتكم لا عقول لكم بعد الإدراك، فصرتم لا بَصر عندكم تبصرون به، ولا سمع تسمعون به، ولا عقل تفهمون به، من هو الذي يقدر أن يَردّ عليكم هذه المنافع، ويجعلكم تسمعون وتبصرون وتفهمون؟! المعنىٰ: لا أحد يقدر أبداً على ذلك إلا الله وحده. يعني: لما كان إنعام الله عليكم بهذه المثابة، وقدرته على سلب إنعامه عنكم بهذه المثابة، ما كان ينبغي لكم أن تتمردوا، وتكفروا، وتصرفوا نِعمه (جل وعلا) فيما يسخطه. وهذا في الحقيقة أمرٌ يعرق منه الجبين، ويخجل منه من له عقل، أن الله مع عظمته، وجلاله، وكماله يمنّ على الواحد منّا مع ضعف المسكين وحقارته، ويمنّ عليه بهذه النعم، ويفتح له هاتين العينين في هذا الوجه، على هذا الأسلوب الجميل الغريب، ويعطيه هذا السماع، ويعطيه هذا العقل، ثم يصرف هذه النعم فيما يسخط خالقه (جل وعلا)، فهذا أمر فظيع، يعرق منه جبين العاقل، ويستحي منه من له عقل.

وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أرأيتم - أخبروني - أيها الناس ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ في أخذه السمع وجهان[1]:

أحدهما: أنه يأخذ الأذن بحاستها، ولا يترك لها أثراً، ويأخذ العين حتى يترك الوجه مطموساً، كما قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ [النساء: آية ٤٧].

الوجه الثاني: أن المعنىٰ أنه يأخذ حاسة الإبصار، والسمع، والعقل، وإن كانت الجوارح باقية؛ لأن صورة العين إذا نزع منها الإبصار لا فائدة فيها، وجرم الأذن إذا نزع منه السماع لا فائدة فيه. هذان الوجهان معروفان.

(١) انظر: القرطبي (٦/٤٢٨)، البحر المحيط (٤/١٣٢).

وقوله: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ ﴿مَّنْ﴾ مبتدأ، و ﴿إِلَٰهٌ﴾ خبره، و ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ نعت للإله. والفعل في قوله: ﴿يَأْتِيكُم بِهِ﴾ في محل النعت أيضاً. مَنْ إله غير الله يرده عليكم[1]؟

في هذه الآية الكريمة سؤالان عربيان معروفان:

أحدهما: أن الله هنا أفرد السمع، وجمع الأبصار والقلوب، حيث قال: ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ فجمع الأبصار، وجمع القلوب، وأفرد السمع ولم يجمعه، وهكذا في سائر القرآن، يجمعُ ما ذكر مع السمع، ويُفرد السمع، ولا يجمعه في القرآن؟

السؤال الثاني: أن الله ذكر أشياء متعددة في قوله: ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ ثم ردّ عليها ضمير اسمه الواحد في قوله: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ بضمير مذكر مفرد؟

هذان السؤالان العربيان في هذه الآية الكريمة. والجواب عنهما معروف من لغة العرب.

أما الجواب عن الأول ـ وهو إفراد السمع في سائر القرآن ـ فلعلماء العربية فيه وجهان معروفان:

أحدهما[2]: أن أصل (السمع) مصدر، وأنّه مصدر: سمعه، يسمعه، سمعاً، والعرب إذا نعتت بالمصدر ألزمته الإفراد والتذكير، كما قال ابن مالك في الخلاصة[3]:

وَنَعَتُوا بِمَصدرٍ كثيراً ... فالْتَزَمُوا الإفراد والتذكيرا

وقالوا لأجل هذا: لم يُجمع السمع في القرآن أبداً.

---

(١) انظر: القرطبي (٤٢٨/٦)، الدر المصون (٦٣٦/٤).

(٢) انظر: القرطبي (١٩٠/١)، (٤٢٧/٦)، البحر المحيط (٤٩/١)، الدر المصون (١١٤/١).

(٣) الخلاصة ص٤٥، وانظر شرحه في الأشموني (٦٨/٢).

الوجه الثاني[١]: هو ما تقرر في علوم العربية: أن كل مفرد هو اسم جنس فمن أساليب اللغة العربية أن يُطلق مفرده مُراداً به الجمع، نظراً إلى أن أصله اسم شامل للجنس. وهذا كثير في القرآن، وفي كلام العرب في حالاته الثلاث، أعني بقولي: «في حالاته الثلاث» أن يكون مُنكّراً، وأن يكون مُعرّفاً بالألف واللام، وأن يكون مضافاً.

فمن أمثلته في القرآن واللفظ مُنكّر: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤﴾ [القمر: آية ٥٤] يعني: وأنهار، بدليل قوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ الآية. [محمد: آية ١٥] وكقوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: آية ٧٤] يعني: أئمة، وكقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: آية ٥] يعني: أطفالا، وكقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا﴾ [المؤمنون: آية ٦٧] يعني: سامرين تهجرون، وكقوله جل وعلا: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ [المائدة: آية ٦] ويعني: إن كنتم جنبين أو أجناباً. وقوله: ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: آية ٦٩] أي: رفقاء ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: آية ٤] أي: أنفسا. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: آية ٤] مظاهرون. وهو كثير جداً.

ومن أمثلته في القرآن واللفظ مُعرّف قوله جل وعلا: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران: آية ١١٩] يعني: بالكتب كلها، بدليل قوله: ﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: آية ٢٨٥] ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: آية ١٥] وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾ [الفجر: آية ٢٢] يعني: الملائكة، بدليل قوله: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ لأن الملَك الواحد لا يكون صفاً صفاً، وكما يدل عليه قوله في البقرة: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: آية ٢١٠] وكقوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر: آية ٤٥] يعني: الأدبار، بدليل قوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾

---

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (١٢٩/٣ ـ ١٣٦)، البحر المحيط للزركشي (٩٧/٣، ١٠٨، ١٤٦)، أضواء البيان (٩٢/١، ٢٥٣/٣)، (٣٣٢/٤)، (٢٩/٥، ٧٧٦)، (٧٣٠/٧)، قواعد التفسير ص٥٥٣.

[الأنفال: آية ١٥] وكقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ [الفرقان: آية ٧٥] يعني: الغرف، بدليل قوله: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ [الزمر: آية ٢٠] ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ يعني: الأعداء. وهو كثير جداً.

ومن أمثلته واللفظ مضاف قوله: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ [النور: آية ٦٣] أي: أوامره، وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: آية ٣٤] أي: نعم الله، وقوله: ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾ [النور: آية ٦١] أي: أصدقائكم. وهو كثير في القرآن.

والشيخ سيبويه في كتابه[(١)] يقول: «إن اسم الجنس إذا كان مفرداً: يوجد قصد الجمع به بِقِلّة»، ونحن نقول: بتتبع القرآن واللغة العربية فهو بكثرة، عكس ما قاله الشيخ عمرو سيبويه ـ رحمه الله ـ وهو كثير في كلام العرب، ومن أمثلته في كلام العرب: ما أنشده سيبويه في كتابه من قول علقمة بن عَبَدَةَ التميمي[(٢)]:

بها جيفُ الحَسْرَى فأما عِظَامُها فَبِيضٌ، وأما جِلْدُها فَصَلِيبُ

يعني: وأما جلودها فصليبة. وأنشد له أيضاً سيبويه قول الآخر[(٣)]:

كُلُوا في بعض بَطْنِكُم تَعُفُّوا فإن زَمَانَكُم زمنٌ خَمِيصُ

أنشد له هذين البيتين فقط، وهو في كلام العرب كثير، ومنه قول عقيل بن عُلّفة المري[(٤)]:

وكان بنو فَزَارَة شَرَّ عمّ وكنتُ لهم كَشَرّ بني الأَخِينَا

يعني بقوله: «شر عم» شّر أعمام. ومنه قول العباس بن مرداس السُّلمي[(٥)]:

---

(١) الكتاب (١/٢٠٩ ـ ٢١٠).

(٢) البيت في المصدر السابق، المفضليات ص٣٩٤، الدر المصون (١/١١٤).

(٣) البيت في الكتاب (١/٢٠٩)، المحتسب (٢/٨٧).

(٤) البيت في الخزانة (٢/٢٧٦)، اللسان (مادة: أخا) (١/٣١).

(٥) البيت في ديوانه ص٧١، الخصائص (٢/٤٢٢)، الخزانة (٢/٢٧٧)، اللسان (مادة: أخا) (١/٣١).

فَقُلْنَا أَسْلِمُوا إِنَّا أَخُوكُم وقد سَلِمَت من الإِحَنِ الصدور

يعني: إنّا إخوانكم. ومنه قول جرير[1]:

إذا آبَاؤُنَا وأبُوكَ عُدُّوا أبانَ المُقْرِفاتِ من العِرَاب

يعني: وأباؤك. ومنه قول قعنب بن أم صاحب[2]:

ما بالُ قومٍ صَدِيقٍ ثُمَّ ليس لهم عَقْلٌ وليس لهم دِيْنٌ إذا ائْتُمِنُوا

قال: «ما بال قوم صديق» يعني: أصدقاء. ومن هذا المعنىٰ ـ بنفسه ـ قول جرير قال[3]:

نَصَبْنَ الهوى ثم ارتَمَيْنَ قلوبنا بأَعْيُنِ أعداء وهُنَّ صديق

يعني: وهن صديقات. ومن هذا المعنى قول الآخر[4]:

يا عاذلاتي لا تَزِدْن ملامة إن العَوَاذلَ ليس لي بأمير

وهو كثير جداً. والقصد التمثيل، وعلىٰ هذا خرّج بعضهم [إفراد][5] (السمع)؛ لأنه اسم جنس أُطلق وأُريد به الجمع، كما بيّنا نظائره في القرآن، وفي لغة العرب.

الجواب الثاني: عن رجوع ضمير مفرد مذكر مفرد إلىٰ أشياء متعاطفة حيث قال: ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾

---

(١) ديوان جرير ص٢٩.

(٢) البيت في اللسان (مادة: صدق) (٤٢١/٢)، أضواء البيان (٣٠/٥) ولفظ شطره الثاني فيهما:

.... دين وليس لهم عقل إذا ائتمنوا

(٣) ديوان جرير ص٣١٥.

(٤) البيت في الخصائص (١٧٤/٣)، مغني اللبيب (١٧٧/١) ولفظه فيهما:

يا عاذلاتي لا تردن ملامتي إن العواذل لسن لي بأمير

وأما اللفظ الذي ذكره الشيخ هنا فهو المثبت في الأضواء (٣٠/٥).

(٥) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

يُجاب عنه بجوابين[١]:

أحدهما: أن قوله: (به) أي: بما ذُكر، أي: بذلك الشيء المأخوذ، وهذا معروف في كلام العرب، ولما قال رؤبة بن العجاج في رجزيته القَافِيَّة المشهورة، قال فيها[٢]:

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَق كأنه في الجِلْدِ تَوْليعُ البَهَق

فقال له واحد: لِمَ قلت: كأنه بالإفراد؟ إذا كنت تعني (الخطوط) لا بد أن تقول: «كأنها»، وإذا كنت تعني (السواد والبلق) لا بد أن تقول: «كأنهما»، فمن أين قلت «كأنه» بالإفراد؟

قال له: (كأنه) أي: ما ذُكر.

الوجه الثاني: هو ما عُرف في القرآن، وفي لغة العرب، أنه قد تأتي المتعاطفات سواء كانت متعاطفات بـ(واو)، أو متعاطفات بـ(أو)، أو متعاطفات بـ(فاء)، ويرجع الضمير على واحد منها، وتكون الأُخر مفهومة من ذلك[٣]؛ لأنه لما رجع على واحد فُهم أن الباقي مثله، وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب. فمن أمثلته في القرآن في العطف بـ(أو): ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: آية ٢٧٠] وقال جل وعلا: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾ [النساء: آية ١١٢] بالإفراد، وقال (جل وعلا) في مثل هذا: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: آية ١١] فرده إلى التجارة دون اللهو. وفُهم منه أن اللهو كذلك انفضوا إليه أيضاً. مع أنه ربما رجع لهما معاً، كقوله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: آية ١٣٥] وهو في العطف بـ(الواو) ـ كما هنا ـ كثير جداً، ومنه قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/٣٦٦ ـ ٣٦٧)، القرطبي (٦/٤٢٨)، البحر المحيط (٤/١٣٢)، الدر المصون (٤/٦٣٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ [التوبة: آية ٣٥] وقوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا﴾ [البقرة: آية ٤٥] وقوله جل وعلا: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: آية ٦٢] وقول جل وعلا: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ [الأنفال: آية ٢٠] وهو كثير في القرآن، ومن أمثلته في كلام العرب قول نابغة ذبيان[١]:

وقد أراني ونُعماً لاهيين بها والدهرُ والعيشُ لم يهمم بإمرار

ولم يقل: «يهمما».

وقول الآخر[٢]:

إن شرخَ الشباب والشَّعَر الأسْـ ـوَدَ ما لم يُعاص كان جُنُونَا

ولم يقل: (ما لم يُعاصيا). هذا كثير في كلام العرب.

ومن أمثلته في المتعاطفات بالفاء: قول امرىء القيس في معلقته[٣]:

فَتُوضحَ فالمِقْرَاة لم يَعْفُ رَسْمُها ....

فردّ الضمير على أحدهما، وهذا كثير في كلام العرب.

وأظهر الوجهين: الأول، أن المعنى ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي: بما ذُكر مما أخذه الله منكم. كقوله جل وعلا: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٢) البيت لحسان (رضي الله عنه)، وهو في الموضع السابق.

(٣) هذا هو الشطر الأول من البيت، وأما شطره الثاني فقوله:

.... لِمَا نَسَجَتها من جَنُوب وشَمْأَل

وقبله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وسقط اللوى: منقطع الرمل، والدخول وحومل: قيل إنهما موضعان في شرق اليمامة.

وتوضح والمقراة: قيل إنهما موضعان قريبان من الدخول وحومل.

انظر ديوانه ص١١٠.

بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: آية ٦٨] أي: ذلك المذكور، ولم يقل: «ذلكما»، ونظيره قول ابن الزبعرى[١]:

إن للشر وللخير مدىً وكلا ذلك وَجْهٌ وقَبَل

هذا معروف في كلام العرب، وهذا معنىٰ قوله: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ وهذه الآية الكريمة ينبغي لكل مسلم أن يعتبر بها، فيعلم أن الله شق له في وجهه عينين، وصبغ له بعضهما بصبغ أسود، وبعضهما بصبغ أبيض، وأعطاه لهما سِلْكاً من جفونه، وجعل لعينيه شحماً لئلا يجففها الهواء، وجعل ماء عينه مِلْحاً لئلا تُنتن الشحمة، وجعل له عقلًا، وهو هذا العقل الذي يميز به بين الأشياء، ويفعل[٢] به هذه الأفعال الغريبة العجيبة، وأعطاه حاسة السماع، كل هذا أعطاه له ليبذل هذه النعم فيما يرضي ربه (جل وعلا)، فلا ينبغي منه ولا يجمل به أن يستعين بنعم ربه على معصية خالقه (جل وعلا)، فهذا عمل لا يليق بعاقل. ثم إنه يُلاحظ قدرة الله، وعظمته، وجلاله، وأنه قادر علىٰ أن ينزع منه السمع، والبصر، والعقل، فيتركه كالجماد لا يسمع شيئاً، ولا يبصر شيئاً، ولا يعقل شيئاً، فلا ملجأ له غير الله يزيل ذلك عنه؛ ولذا قال: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾.

ثم إن الله عجَّب نبيه من جراءة الإنسان، وجهله، وإعراضه عن الحق، مع فقره، وحاجته، وفاقته إلى ربه (جل وعلا)، فقال له: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ معنىٰ تصريف الآيات: هو نقلها من حال إلى حال بأساليب واضحة بينّة، تارة - يعني - بالوعيد، وتارة بالوعد، وتارة بالابتلاء بالسراء، وتارة بالضراء، بأنواع مختلفة من جهات مختلفة، ومع هذا ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ بعض المحققين من العلماء يقول: إن (ثم) في هذا المكان [٣] للاستبعاد[٤]، وأن التراخي المفهوم بـ (ثم) أنها للاستبعاد؛ لأنه

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.
(٣) في الأصل زيادة: (إنها).
(٤) انظر: تفسير أبي السعود (٣/١٣٤).

يستبعد عند العقول السليمة أن يكون الله مع عظمته وجلاله، ومع ما يُحسن به إلىٰ الإنسان يُصرّف له الآيات، ومع هذا هو يصدف، أي: يُعرض. فمعنىٰ قوله: ﴿يَصْدِفُونَ﴾ أي: يعرضون، ويصدون، والعرب تقول: «صَدَفَ عنه، يَصْدِفُ، صَدْفاً وصُدُوفاً»، إذا أعرض عنه ومال[(١)].

و (صَدَفَ) تُستعمل استعمالين[(٢)]: تستعمل مُتعدية للمفعول، تقول: «صَدَفْتُه عن قوله». أي: صددته عنه حتى أعرض عنه. وتستعمل لازمة، صدف فلان عن كذا: إذا أعرض عنه، وهو معنىٰ معروف في كلام العرب، ومنه قول ابن رواحة[(٣)]:

عجبتُ للطف الله فينا وقد بدا ... له صَدْفُنا عن كل وحي مُنَزَّلِ

(صَدْفُنَا) أي: إعراضُنا. ومن هذا المعنىٰ قول ابن الرّقاع يمدح نسوة، قال[(٤)]:

إذا ذكرْنَ حَدِيْثاً قُلْنَ أَحْسَنَهُ ... وَهُنَّ عن كُلِّ سُوء يُتّقى صُدُفُ

جمع صادفة، أي: مُعرضات صادات عنه، وهذا يُستبعد؛ لأن (ثم) هنا للاستبعاد كما حققه بعض العلماء؛ لأنه يُستبعد ممن صرّف له خالقه الآيات، وبيّن له هذا من البيان، يستبعد منه بعد هذا: الإعراض والصدود عن الله جل وعلا.

ومن إتيان (ثم) للاستبعاد قول الشاعر[(٥)]:

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/٣٦٥ ـ ٣٦٦)، القرطبي (٦/٤٢٨)، الدر المصون (٤/٦٣٦).
(٢) انظر ما سيأتي عند تفسير الآية (١٥٧) من سورة الأنعام.
(٣) البيت في الدر المنثور (٣/١٢)، والأضواء (٢/٢٨٣)، وعزاه لأبي سفيان بن الحارث، ولفظ الشطر الثاني فيهما:
.... له صدفنا عن كل حق منزل
(٤) البيت في ابن جرير (١١/٣٦٦)، القرطبي (٦/٤٢٨)، البحر المحيط (٤/١١٧)، الدر المصون (٤/٦٣٦)، الأضواء (٢/٢٨٣).
(٥) مضى عند تفسير الآية (٧٤) من سورة البقرة.

ولا يكشفُ الغمَّاءَ إلا ابن حُرة يرىٰ غَمَراتِ الموتِ ثم يزورُهَا

لأن من عاين غمرات الموت يُستبعد منه اقتحامها والوقوع فيها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٤٧] ﴿قُلْ﴾ لهم يا نبي الله: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ كان الحسن البصري يقول: ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ أي: ليلًا أو نهاراً[1]، وهذا التفسير ليس كما ينبغي، بل التحقيق أن معنىٰ بغتة: أي: أتاكم العذاب في حال كونه باغتاً. أي: مُفاجئاً[2] من أن تعلمونه بأسباب، ولا علم لكم به.

وقوله: ﴿جَهْرَةً﴾ أن يأتيكم العذاب بعد أن تُعاينوا أسبابه، وتروا أوائله، حتى يقع بكم ﴿جَهْرَةً﴾ عياناً وأنتم تنظرون إليه[3].

هذا التحقيق في الفرق بين البغتة والجهرة هنا. إن أتاكم عذاب الله مفاجئاً من غير أن يتقدم لكم به علم، أو جهرة بأن عاينتم مبادئه، ورأيتم أول نزوله، حتى وقع جهاراً وأنتم تنظرون. ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هذا الاستفهام بمعنىٰ النفي؛ ولذا جاء مُقابلًا بـ (إلا) التي تُقابل النفي[4]. والمعنىٰ: ما يُهلك إلا القوم الظالمون الكافرون.

وفي الآية سؤال معروف: جاء في الأحاديث الصحيحة[5] أن العذاب إذا نزل بقوم كفار شمل من فيهم من المسلمين، وهذه الآية بيَّنت أنه لا يُهلك إلا القوم الظالمون؟

---

(١) انظر: القرطبي (٦/٤٢٩).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/٣٨٦)، القرطبي (٦/٤٢٩).

(٣) انظر: ابن جرير (١١/٣٨٦).

(٤) انظر: الدر المصون (٤/٦٣٧).

(٥) ورد في هذا المعنى من حديث أم سلمة، وعائشة، وزينب بنت جحش (رضي الله عنهن). انظر: جامع الأصول (٢/٢٣١)، (١٠/٤١٥)، (١١/٧٢٦).

أُجيب عن هذا: بأن العذاب لو شمل وأهلك من هو معهم، أن هذا الهلاك تمحيص له، وأنه يبعث يوم القيامة في نعمة من الله ورحمة وأجوز.

وقال بعض العلماء: لا يتعين هذا كما دلت عليه قصص الرسل؛ لأن الغالب أن الكلام في الأمم والرسل، والقرآن قد قصّ علينا أن كل أمة علم الله أن الهلاك سيأتيها أمر نبيها ومن معه فخرجوا منها ونجوا، كما ذكر أنه نَجّىٰ هوداً بقوله: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: آية ٥٨] ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: آية ٩٤] ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾ [هود: آية ٦٦] إلى غير ذلك مما جاء مفصلًا في الآيات، وهذا يبين معنىٰ قوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: آية ٤٧].

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٤٨ ـ ٥٢].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٤٨ ـ ٤٩].

كان كفار مكة يكثرون الاقتراحات على النبي ﷺ[١] ومما يقترحون عليه أن يقولوا له: سلْ ربك أن ينزل علينا كثيراً من الأرزاق من خزائن رزقه، وأن يُعلمنا بالغيب لنتقي ما يضر ونجتلب ما ينفع. ومما اقترحوا إنزال الآيات كما في قوله في هذه الآية السابقة ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من هذه السورة.

ءَايَتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وقد بيّن الله بعض اقتراحاتهم في سُور من كتابه، كقوله في سورة بني إسرائيل: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾، قال الله له: قل لهم: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: الآيات ٩٠ ـ ٩٣] وبيّن في آية الأنعام هذه أن الله ما أرسل المرسلين لتكون بيدهم خزائن السماوات والأرض، أو يكونوا ملائكة، أو يقترح عليهم من شاء كل ما شاء من التعنتات، لا ليس الأمر كذلك ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ لا لأن تكون بأيديهم الخزائن، ولا ليكونوا ملائكة، ولا ليقترح عليهم كل متعنت ما شاء أن يقترح عليهم، لا.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ صيغة الجمع في قوله: ﴿نُرْسِلُ﴾ للتعظيم، والمرسلون جمع (المُرْسَل)، والمراد بهم هنا: المرسلون من بني آدم، مع أن المرسلين يكونون من الآدميين ومن غيرهم كالملائكة، كما يأتي في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: آية ٧٥].

وقوله: ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ حال[1]، وقوله: ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ حال معطوفة على حال[2]. والمعنىٰ: ما نرسلهم إلا في حال كونهم مبشرين ومنذرين، وقد حُذِف هنا معمول البشارة ومعمول الإنذار، وتقديره: إلا مبشرين من أطاعهم بالجنة وما عند الله من الخير، ومنذرين من عصاهم بالنار وما عند الله من النكال. فحذف المفعول والمُتعلّق لدلالة الكلام عليهما.

وقد قدمنا غير ما مرة: أن (المُبشّر) اسم فاعل (التبشير). والتبشير والبشارة: هو الإخبار بما يسر، قال بعض العلماء: سُمي الإخبار بما يسر (بشارة): لأن الإنسان إذا سمع خبراً يسره أثّر ذلك في دمه فجرىٰ دمه

(١)(٢) انظر: الدر المصون (٤/٦٣٧).

جرياناً من البشارة فظهر أثر ذلك على بشرته، ومنها ـ قالوا ـ سموها (بشارة).

والبشارة أغلب ما تُطلق على الإخبار بما يسر خاصة، وجاء في القرآن العظيم إطلاقها على الإخبار بما يسوء كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: آية ٢١].

والعلماء الذين يقولون بالمجاز في القرآن، معلوم أنهم يُسمّون مثل قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يجعلون هذا من نوع (الاستعارة العنادية)، و(الاستعارة العنادية) عندهم يقسمونها إلى: تهكمية، وتمليحية، كما هو معلوم في فن البيان[١].

ومن منع المجاز في القرآن من العلماء ـ وهو الذي نرى أنه الأصوب ـ يقول: هذا أسلوب من أساليب اللغة العربية، فالعرب يستعملون البشارة غالباً فيما يَسُر، وربما استعملوها فيما يسوء، إذا دلت على ذلك قرائن تفهمه، والكل أسلوب من أساليب اللغة العربية[٢]. ومعلوم عن العرب أنهم يطلقون البشارة نادراً على الخبر بما يسوء، ومن إطلاق البشارة على الخبر السيِّئ قول الشاعر[٣]:

وبَشَّرْتَني يا سَعْدُ أن أحبتي جَفَونِيْ وقالوا الودّ موعده الحَشْرُ

فجفاء الأحبة أمر يسوء، والبشارة به بشارة بسوء، ومنه قول الآخر[٤]:

---

(١) انظر: جواهر البلاغة ص٢٥١.

(٢) انظر: القرطبي (٢٣٨/١)، المفردات (مادة: بشر) (١٢٤ ـ ١٢٥)، البحر المحيط (١١١/١)، الدر المصون (٢٠٩/١ ـ ٢١٠).

(٣) البيت في البحر المحيط (١١١/١)، الدر المصون (٢١٠/١)، ولفظه الشطر الثاني هكذا:

.... جفوني وإن الودَّ موعدُهُ الحشر

(٤) البيت في البحر المحيط (١١١/١)، الدر المصون (٢٠٩/١).

يبشرني الغُرابُ بِبَيْنِ أهلي فَقُلْتُ له: ثَكِلْتُكَ مِنْ بشير

هذا أسلوب عربي معروف، وعلماء البيان يسمونه نوعاً من أنواع المجاز، ونوعاً من أنواع الاستعارة، يسمونه (الاستعارة العنادية)، كما بيّنا أقسامها عندهم.

والقصر في قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ هو الذي يسميه البلاغيون: قصراً إضافياً[1]؛ لأنه يرسلهم بأعمالٍ أُخر طيبة من تعليم الآداب، والمكارم، وغير ذلك مما هو زائد على البشارة والإنذار.

والبشارة: الإخبار بما يسر، والإنذار: الإعلام المقترن بتهديد خاصة[2]. والإنذار أخص من مطلق الإعلام؛ لأن الإنذار لا يطلق إلا على إعلام مقترن بتهديد. فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ من أطاعنا بالجنة، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من عصانا بالنار، ثم بيّن من هم المُبَشَّرون، وما صفاتهم، ومن هم المُنْذَرُون وما صفاتهم، فقال مبيّناً صفات المُبَشَّرين على ما يسمونه: (اللف و النشر المرتب)، فمن آمن وعمل صالحاً فلهم البشارة العظمىٰ؛ بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، مع ما ينالون من النعيم.

وقوله: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ أصل الإيمان في لغة العرب: التصديق[3]. وهو في اصطلاح الشرع: التصديق التام، أعني: التصديق من الجهات الثلاث، وهو تصديق القلب بالاعتقاد، واللسان بالإقرار، والجوارح بالعمل. فالإيمان: قول وعمل[4]، كما عليه مذهب أهل السنة والجماعة، والآيات

(١) انظر: جواهر البلاغة ص١٥٠.

(٢) انظر: المفردات (مادة: نذر) ص٧٩٧.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة البقرة.

(٤) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٨٣٠/٤ ـ ٨٥١)، (٨٨٥/٥ ـ ٨٨٩)، تعظيم قدر الصلاة (٢٩٢/١ ـ ٤٣٧)، الإيمان لابن تيمية (١١٢ ـ ١٢٥، ١٣٥ ـ ١٤١، ١٥٢، ١٦٢، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٨ ـ ١٨١، ١٩٠، ٢٠٧، ٢٤٥، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٨١ ـ ٢٨٧، ٣٠٠).

والأحاديث الدالة عليه لا تكاد تُحصىٰ. في الحديث: «**من صام رمضان إيماناً**»[١] فسمّىٰ الصوم: إيماناً. «**من قام ليلة القدر إيماناً**»[٢] فسمّى الصلاة: إيماناً ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: آية ١٤٣] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل أن تُنسخ. وفي الحديث الصحيح: «**الإيمان بضع وستون**» وفي بعض رواياته: «**وسبعون بضعاً، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق**»[٣] وفي هذا الحديث الصحيح أن هذا الفعل ـ الذي هو إماطة الأذىٰ عن الطريق ـ يُسمّىٰ: إيماناً كما هو معروف.

والعادة المقررة عند العلماء: أن الإيمان إذا جاء مطلقاً ولم يُعطف عليه العمل الصالح فهو يشمل الإيمان من الجهات الثلاث: يشمل إيمان القلب بالاعتقاد، وإيمان اللسان بالإقرار، وإيمان الجوارح بالعمل. وإذا عُطف عليه العمل الصالح، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [يونس: آية ٩] وقوله هنا: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ [الأنعام: آية ٤٨] انصرف الإيمان إلى ركنه الأكبر، وهو الاعتقاد القلبي[٤]، وصار الإصلاح بعده يُراد به الأعمال، كما قال تعالى هنا: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ آمن قلبه، وأذعن، واعتقد ما يجب اعتقاده إثباتاً ونفياً، وأصلح ـ مع ذلك الإيمانِ القلبي عَمَلَه ـ بجوارحه ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ آمن قلبُهُ، وأصلح عمَلَ جوارحه، بأن امتثل الأوامر، واجتنب النواهي، هذا القسم من الناس هم المُبَشَّرون الذين فيهم ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ وقال الله فيهم: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني يوم القيامة: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

---

(١)(٢) كلاهما من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، وقد أخرجهما الشيخان. انظر: البخاري، كتاب الإيمان، باب: قيام ليلة القدر من الإيمان (٣٥)، (٩١/١)، تطوع قيام رمضان من الإيمان (٣٧)، (٩٢/١)، باب: صوم رمضان احتساباً من الإيمان (٣٨)، (٩٢/١)، وقد أخرجهما في مواضع أخرى، انظر الأحاديث (١٩٠١، ٢٠٠٨، ٢٠٠٩، ٢٠١٤)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٥٩، ٧٦٠)، (٥٢٣/١ ـ ٥٢٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: أمور الإيمان. حديث رقم (٩)، (٥١/١)، ومسلم كتاب الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان. حديث رقم (٣٥)، (٦٣/١) وقول الشيخ (رحمه الله) هنا: «بضعاً» سبق لسان، وإنما الرواية: «شعبة».

(٤) انظر: الإيمان الكبير لابن تيمية (١ ـ ١١).

و(الخوف) في لغة العرب: هو الغمّ من أمر مستقبل خاصة.

و(الحزن) في لغة العرب: هو الغمّ من أمر قد فات ومضىٰ. تقول: «فلان أُصيب بالأمس، فهو اليوم حزين»، وتقول: «فلان خائف»، أي: يغتمّ من أمر مستقبل. هذا أصله معنىٰ (الخوف)، ومعنىٰ (الحزن)[١] ـ أعاذنا الله والمسلمين منهما ـ وربما وُضع أحدهما موضع الآخر، وربما أطلقت العرب (الخوف) على غير (الحزن)، ومن إطلاقات العرب الخوف: إطلاقها الخوف على العلم[٢]، تقول العرب: «إني أخاف أن يقع كذا» بمعنىٰ: أعلم أن يقع كذا، وقد بينّا هذا المعنىٰ في سورة البقرة في الكلام على قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ﴾ [البقرة: آية ٣٢] قال بعض العلماء معنىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا﴾ أي: فإن علمتم ألا يقيما حدود الله. ومن إطلاق (الخوف) لا بمعنىٰ (الحزن)، بل بمعنىٰ العلم اليقيني: قول أبي محجن الثقفي في بيتيه المشهورين[٣]:

إذا مُتُّ فادفنِّي إلى جَنْبِ كَرْمَةٍ ... تُرَوِّي عظامي في الممات عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مِتُّ ألا أذوقها

لأنه هو عالم بأنه إذا مات لا يشرب الخمر في قبره أبداً، فقوله: «أخاف» أطلق الخوف في شيء هو عالم به علماً يقيناً؛ ولذا قال هنا: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: لا يغتمون من أمر مستقبل؛ لأن مستقبلهم كله طيب، ليس يُترقب فيه شيء فيه أذية، وإنما فيه الفرح والسرور، ولا يحزنون على شيء فائت؛ لأنهم لم يفتْهم شيء إلا وعندهم أضعاف أضعافه من أنواع النعيم، فلا يفوتهم مطلب يحزنون عليه، ولا يخافون من ضرر ولا غم مستقبل يخافون منه.

---

(١) في الفرق بين الخوف والحزن انظر: القرطبي (٣٢٩/١)، الكليات ص٤٢٨.

(٢) الكليات ص٤٢٩، الخزانة (٥٥٠/٣ ـ ٥٥١)، الدر المصون (٢٦٤/٢ ـ ٢٦٥).

(٣) البيتان في الخزانة (٥٥٠/٣)، الدر المصون (٢٦٥/٢)، الكامل لابن الأثير (٣٣١/٢)، الإصابة (١٧٥/٤).

وفي هذه الآية الكريمة سؤال نحوي، وهو أن يقول طالب العلم: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أُهملت (لا) هنا ولم تعمل، فلِمَ لا يقول: «لا خوفَ عليهم»، كما قال: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ [البقرة: آية ١٩٧]؟

والجواب عن هذا[1]: أن (لا) لا تعمل إلا في النكرات، سواء قلنا إنها التي لنفي الجنس، أو قلنا إنها العاملة عمل (ليس)، والجملة الأخيرة: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ المبتدأ فيها ضمير، والضمائر معارف، فلا يجوز أن تعمل فيها (لا) بكل حال، فلما مُنع عملها في الجملة الثانية لمكان الضمير وهو مُعرّف، وامتنع عملها فيها، أُلغي عملها في الأُولى لتنسجم الجملتان وتتفقا في الإهمال دون الإعمال.

١/٤ / ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام: آية ٤٩].

هذا هو القسم الثاني الذي فيه الإنذار ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: جحدوا آيات هذا القرآن العظيم، وزعموا أنه أساطير الأولين، أو أنه سحر، أو شعر، أو من كهانة الكهان. الذين كفروا هذا الكفر، وهم أظلم الناس، كما تقدم في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأنعام: آية ٢١].

﴿أُولَئِكَ﴾ هؤلاء الذين هذه صفتهم ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ والمسيس معناه: وقوع الشيء على الشيء مباشرة من غير أن يحول بينهما حائل. وعبَّر بالمسيس ليبين أن حرّ ذلك العذاب وألمه يباشرهم مباشرة عظيمة شديدة من غير حائل، كما يأتي في قوله: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: آية ٧] لأنها تباشر الأجسام، وتغوص فيها حتى تحرق سويداء القلب، وداخل جسم الإنسان؛ ولذا قال: ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الأنعام: آية ٤٩] أي: عذاب الله، وعذاب الله (جل وعلا) لا يماثله عذاب ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: الآيتان ٢٥ ـ ٢٦].

(١) انظر: القرطبي (١/٣٢٩).

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الباء) سببية، و(ما) مصدرية. والمعنىٰ: يمسهم العذاب بسبب كونهم كانوا فاسقين في دار الدنيا.

و(الفسق) في لغة العرب: الخروج. وهو في اصطلاح الشرع: الخروج عن طاعة الله[١]. والعرب كل ما خرج إنسان عن شيء سمّته (فاسقاً). ومنه قول رؤبة بن العجاج[٢]:

يَهْوَيْنَ في نَجْدٍ وغَوْراً غائِراً فواسِقاً عن قَصْدِهَا جَوائِراً

لأنه يذكر مراكب ضلت طريقها التي كانت تمشي عليها، فقال: «فواسقاً عن قصدها» أي: خوارج عن الطريق التي كانت تقصدها. هذا أصل (الفسق) في لغة العرب.

وهو في اصطلاح الشرع: الخروج عن طاعة الله. والخروج عن طاعة الله جنس تحته نوعان:

أحدهما: الخروج الذي هو أكبر أنواع الخروج وأعظمها، وهو: الخروج عن طاعة الله بالكفر الصُّراح. هذا أكبر أنواع الفسق. وكثيراً ما يطلق في القرآن اسم (الفسق) على هذا؛ لأنه صرّح بأنهم كذبوا بآيات الله، وهذا أعظم الكفر، ثم سمّىٰ هذا الكفر فسقاً بقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ لأنه أعظم أنواع الخروج عن طاعة الله. ومنه بهذا المعنىٰ قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة: آية ٢٠] هذا الفسق بمعنىٰ الخروج الأكبر، أي: الخروج عن طاعة الله بالكفر والعياذ بالله.

النوع الثاني من أنواع الفسق: هو خروج دون خروج، وفسق دون فسق، بأن يخرج الإنسان عن طاعة الله إلى المعصية، خروجاً لا ينقله من اسم الإسلام إلى الكفر، كارتكاب الكبيرة. ومنه بهذا المعنىٰ قوله في

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

القاذفين: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٤﴾ [النور: آية ٤] فهذا القذف خروج عن طاعة الله، ولم يبلغ بصاحبه الكفر، بدليل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ [النور: آية ١١] ولم ينقلهم عن اسم المسلمين بسبب قذفهم. ولا يُقال: إن عبدالله بن أبيّ منهم،، وإنه منافق كافر؛ لأن دين الإسلام يحكم له بشهادة أن لا إله إلا الله في الظاهر، فكان يحضر جُمعات المسلمين وجماعاتهم باسم الإسلام، فالله (جل وعلا) يقبل من المنافقين كلمة (لا إله إلا الله) ظاهراً، كما أرادوا أن يخدعوه فهو يخدعهم حيث يقبلها منهم ظاهراً في الدنيا، وهو يُعدّ لهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار، كما في قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: آية ١٤٢].

ومن هذا النوع من الفسق الذي لم يُخرج عن دين الإسلام: قوله في قصة الوليد بن عقبة بن أبي معيط لما كذب على بني المصطلق[1]: ﴿يَا أَيُّهَا

---

(١) القصة مشهورة، وقد رواها عدد من الصحابة والتابعين، إلا أن جميع طرقها لا تخلو من ضعف. وإليك من نُقلت عنهم هذه القصة على سبيل الاختصار:

١ ـ الحارث بن ضرار: عند أحمد (٢٧٩/٤)، والطبراني في الكبير (٢٧٤/٣)، وابن أبي حاتم في التفسير (٣٣٠٣/١٠)، والواحدي في أسباب النزول ص٣٩١، وابن عساكر في تاريخ دمشق (مختصر ابن منظور) (٣٣٧/٢٦)، وانظر: الهيثمي في المجمع (١٠٨/٧)، تفسير ابن كثير (٢٠٨/٤ ـ ٢٠٩)، الكافي الشاف ص١٥٦، (وعزاه لأحمد وابن مردويه)، الإصابة (٢٨١/١)، (٦٣٨/٣)، الدر المنثور(٨٧/٦)، (وعزاه لأحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه) تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٣٣٣/٣).

٢ ـ علقمة بن ناجية. عند الطبراني في الكبير (٦/١٨ ـ ٧)، وانظر مجمع الزوائد (١٠٩/٧ ـ ١١٠)، الإصابة (٥٠٦/٢)، أسد الغابة (٨٨/٤)، الدر المنثور(٨٨/٦)، (وعزاه لابن منده والطبراني وابن مردويه).

٣ ـ جابر بن عبدالله. عند الطبراني في الأوسط (٤٧٧/٤ ـ ٤٧٨)، وانظر: مجمع الزوائد (١١٠/٧)، الكافي الشاف ص١٥٦، تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٣٣٤/٣)، الدر المنثور(٨٨/٦)، الفتح السماوي (١٠٠٢/٣).

٤ ـ أم سلمة. عند الطبراني في الكبير (٤٠٠/٢٣ ـ ٤٠١)، وراجع (٢٩٠/٢٣)،=

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الآية [الحجرات: آية ٦].

وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ۝٤٩﴾ [الأنعام: آية ٤٩] ومسيس العذاب هذا: هو الذي أنذرتهم به الرسل في دار الدنيا إن لم يقلعوا عن ذلك التكذيب والكفر، كما في قوله هنا: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: آية ٤٨].

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنعام: آية ٥٠].

أول الرسل الذين أُرسلوا إلى أهل الأرض بعد أن وقع فيهم الكفر

= وابن جرير (١٢٣/٢٦)، وانظر: الهيثمي في المجمع (١١٠/٧)، تفسير ابن كثير (٢٠٩/٤)، الكافي الشاف ص١٥٦، (وعزاه لإسحاق والطبراني)، والزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣٣٢/٣)، الدر المنثور (٨٨/٦)، (وعزاه لإسحاق بن راهويه وابن جرير والطبراني وابن مردويه)، الفتح السماوي (١٠٠١/٣).

٥ ـ ابن عباس. عند عبدالرزاق في التفسير (٢٣١/٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥٤/٩)، وابن جرير (١٢٣/٢٦ ـ ١٢٤)، وانظر: ابن كثير (٢٠٩/٤)، الدر المنثور (٨٨/٦)، (وعزاه لابن جرير وابن مردويه والبيهقي في السنن وابن عساكر).

٦ ـ مجاهد. عند ابن جرير (١٢٤/٢٦)، البيهقي في الكبرى (٥٥/٩)، وانظر: مجمع الزوائد (١١١/٧)، (وعزاه للطبراني)، الاستيعاب (٦٣٢/٣)، ابن كثير (٢١٠/٤)، الإصابة (٦٣٨/٣)، الدر المنثور (٨٨/٦)، (وعزاه لآدم وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي).

٧ ـ قتادة عند ابن جرير (١٢٤/٢٦)، وانظر: الاستيعاب (٦٣٢/٣)، تفسير ابن كثير (٢١٠/٤)، الإصابة (٦٣٧/٣ ـ ٦٣٨)، الدر المنثور (٨٩/٦)، (وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير).

٨ ـ عكرمة. انظر: الإصابة (٦٣٨/٣)، الدر المنثور (٨٩/٦)، (وعزاه لعبد بن حميد).

٩ ـ ابن أبي ليلى: انظر: الاستيعاب (٦٣٢/٣).

وهو مروي عن غير هؤلاء مثل: يزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل بن حيان، كما في ابن جرير (١٢٤/٢٦)، عبدالرزاق في التفسير (٢٣١/٢)، وابن كثير (٢١٠/٤).

والشرك بالله: هو نبي الله نوح، كما قدمنا في قوله: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: آية ١٦٣].

فدلّ على أنه أول ذلك النوع الذي يُرسل إلىٰ الناس بعد أن كفروا، وآخرهم: محمد ﷺ. فالله قال لأولهم في سورة هود: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ [هود: آية ٣١] ومثل هذه القصة بعينها كانت فيما أُنزل على محمد ﷺ حيث قال: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: آية ٥٠] قل لهم يا نبي الله: لا أدّعي لكم دعوىٰ بعيدة ولا كاذبة، ولا أخرج لكم عن طوري وحقيقتي، لا أقول لكم: إن عندي خزائن الله.

والخزائن: جمع الخزانة، وهي المحل الذي تخزن فيه الأرزاق ونحوها[1]، فخزائن الملوك مثلًا: المحل الذي يجعلون فيه العدة من الطعام والسلاح وما جرىٰ مجرىٰ ذلك. وكل شيء عند الله في خزانة؛ لأن الله جميع الأشياء كلها في خزائنه (جل وعلا)، كما سيأتي في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾ [الحجر: آية ٢١] لا أقول لكم: إن بيدي الأرزاق والآيات، وما اقترحتم من كل شيء، وخزائن الأمور ليست بيدي، وإنما هي بيد الله، وإنما أنا عبد أُرسلت إليكم [لأُبشِّر] من أطاعني بالجنة، [وأُنذر] من عصاني بالنار[2]، وأبلغكم رسالات ربي، وأوضح لكم طريق الخير والشر، وأُقيم لكم المعجزات الواضحات التي لا تترك لمنصف في صدق شيئاً؛ ولذا قال: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ الجمهور من العلماء علىٰ أن هذا معطوف على ما قبله[3]، وأنه من جملة ما أُمر أن يقوله. وتقرير المعنىٰ: قل لهم أيضاً: لا أعلم الغيب. كما قال الله له: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: آية ١٨٨]

---

(١) انظر: المفردات (مادة: خزن) ص٢٨٠، القرطبي (٦/٤٣٠).
(٢) في الأصل: «لأنذر من أطاعني بالجنة، وأبشر من عصاني بالنار» وهو سبق لسان.
(٣) انظر: البحر المحيط (٤/١٣٤)، الدر المصون (٤/٦٣٨).

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ بل أقول لكم: إني رجل ابن رجل وابن امرأة، أذهب إلى السوق، وأشتري منه حاجتي. لأنهم قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: آية ٧] كيف يرسل الله من يأكل ويشرب، ويروح إلى السوق؟ والله يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: آية ٢٠] ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾ [الأنبياء: آية ٨] هذه سنة الله في رسله.

وقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ كان المعتزلة يستدلون بظاهر هذه الآية على أن الملائكة أفضل من الآدميين(١)؛ لأن هذه كأنها مناصب عالية. لا أقول لكم إني في رتبة إلهية، بحيث تكون عندي خزائن السماوات والأرض، وأعلم الغيب، ولا أدعي لكم الرتبة الأخرى الكبيرة، التي هي رتبة المَلَك.

وأكثر العلماء على أن خِيار الرسل من الآدميين أفضل من الملائكة(٢).

وهذا النوع من الخلاف والبحث مما فيه: «من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»؛ لأننا لم نؤمر به، ولم نكلف به، والخوض فيه لا حاجة لنا فيه، ولا لنا من ورائه نفع.

وقد قدمنا مراراً: أن أكثر العلماء على أن أصل المادة اللغوية التي منها (المَلَك)(٣) أنها: (أَلَكَ) ففاء الفعل همزة، وعينها لام، ولامها كاف،

---

(١) انظر: الكشاف (١٥/٢).

(٢) في هذه المسألة انظر: الحجة في بيان المحجة (٣٨٧/٢)، القرطبي (٢٨٩/١)، (٤٣٠/٦)، (٢٧/٩)، (٢٩٤/١٠ ـ ٢٩٥)، (٢٧٨/١١)، (١٤٥/٢٠)، مجموع الفتاوى (٣٥٠/٤ ـ ٣٩٣)، (٣٠٠/١٠)، بدائع الفوائد (٦٦/١)، (١٦٣/٣)، شرح الطحاوية (٤١٠ ـ ٤٢٣)، البداية والنهاية (٥٤/١)، منهج الجدل والمناظرة (٥٢١/١).

(٣) انظر: ابن جرير (٤٤٤/١ ـ ٤٤٧)، القرطبي (٢٦٢/١ ـ ٢٦٣)، اللسان (مادة: ألك) (٨٤/١ ـ ٨٥)، الدر المصون (٢٤٩/١ ـ ٢٥١)، معجم مفردات الإبدال والإعلال (٢٤٨ ـ ٢٥٠).

(أَلَكَ) وأصل هذه المادة، مادة (الهمزة واللام والكاف)، معناها: الرسالة. والأَلُوكة: الرسالة، والمألُكة: الرسالة.

وغُلامٍ أَرْسَلَتْهُ أُمُّه ... بأَلُوكٍ فَبَذَلْنَا ما سَأَلْ[1]

والعرب تقول: (أَلِكْنِي إليها): (حمل إليها مَأْلَكتِي) أي: رسالتي فبلِّغها عني، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[2]:

أَلِكْني إليها وخيرُ الرسو ... لِ، أعلمهم بنواحي الخَبَر

وعلىٰ هذا فأصل المَلَك: (مَأْلَك) على وزن (مفْعَل) من (الأَلُوكَة) وهي: الرسالة. فدخله القلب الصرفي المعروف، وهو جعل العين مكان الفاء، والفاء مكان العين، فجُعلت الهمزة التي كانت موضع الفاء في موضع العين، فصار: (مَلأْك)، ووزن (المَلْأَك) بالميزان الصرفي: (مَعْفَل) لأن العين جاءت في موضع الفاء، والفاء في موضع العين. وربما نطقت العرب به علىٰ هذا القلب بلفظ (مَلأَك)، كقول الشاعر[3]:

ولستَ لإنسيٍ ولكنَّ ملأكاً ... تحدّر من جوّ السماء يصوبُ

فخففت همزة المَلْأَك، وأُلقيت حركتها على اللام، فقيل: (مَلَك). كما تسقط في قوله: (سَلْهُم). أصلها: (اسألهم). ومما يدل على أن أصله: (مَأْلَك)، وأن الهمزة أصلها فيه؛ لأنه يجمع على (ملائكة) فتأتي الهمزة التي خففت من الأصل. هذا أصله عند جمهور العلماء، ومن يقول: إن أصله من (المَلْك) قول ضعيف.

---

(١) البيت للبيد، وهو في ابن جرير (٤٤٦/١)، القرطبي (٢٦٢/١)، اللسان (مادة: ألك) (٨٥/١)، الدر المصون (٢٥٠/١).

(٢) البيت في ابن جرير (٧/١٣)، القرطبي (٢٥٥/٧)، اللسان (مادة: ألك) (٨٥/١).

(٣) نسبه بعضهم لعلقمة بن عبدة، وبعضهم نسبه إلى غيره. وهو في الكتاب (٣٨٠/٤)، المفضليات ص٣٩٤، ابن جرير (٣٣٣/١)، القرطبي (٢٦٣/١)، الدر المصون (٢٥٠/١)، اللسان (مادة: ألك) (٨٥/١) ولفظه في بعض هذه المصادر:

وَلَسْتَ لإِنْسِيٍّ ولكنْ لِمَلأَكٍ ... تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ

وعلى هذا الذي قررنا، فَوَزْنُ (الملك) حالياً: (مَعَل) لأن الفاء المزحلقة إلى مكان العين ساقطة منقولة حركتها. فوزنه (مَعَل) بإسقاط الفاء، قالوا: وإنما سُمّي المَلَك مَلَكاً من (المَأْلُكة) وهي الرسالة؛ لأن الملائكة عباد الله المكرمون، الذين يحملون مَآلِكَ الله، أي: رسالاته، كما يأتي في قوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: آية ٥] فمنهم من يُرسل لتكثير الريح، ومنهم من يُرسل لتكثير المطر، ومنهم من يُرسل لقبض الأرواح، ومنهم من يُرسل لحفظ الأعمال، ومنهم من يُرسل لحفظ الآدميين لئلا تتخطفهم الشياطين، كما يأتي، في أحد التفسيرات في قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ الآية [الرعد: آية ١١].

وقوله جل وعلا: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (إن) هنا هي النافية. والمعنىٰ: ما أتبع إلا ما أوحاه ربي إليّ، لا أزيد عليه، ولا أخرج عن طوري، فأنا رسول كريم، أوحىٰ الله إليَّ أن أنذركم وأبشركم، وأنا أتبع ما يوحىٰ إلي، فمن أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني دخل النار.

وبهذه الآية وأمثالها في القرآن يتمسك الظاهرية بأن القياس لا يجوز في الشرع[١]. قالوا: لأن النبي قال: ما أتبع إلا ما يُوحىٰ إلي. فحصر الاتباع في المُوحىٰ إليه، والله يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: آية ٢١] فعلينا أن لا نتبع إلا خُصوص الوحي، ولا نخرج عنه إلىٰ رأي. وأمثال هذا من الآيات التي يستدل بها الظاهرية كثيرة جداً[٢].

ونحن نقول: إن الجواب: أنَّا لا نخرج عمَّا يُوحىٰ، إلا أن ما يُوحىٰ منه ما هو منصوص به ظاهر، ومنه ما هو مفهوم من حكم المنصوص به، ولا خروج في هذا عن حكم الوحي؛ لإجماع العقلاء علىٰ أن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، فالشرع قد يذكر الشيء ويسكت عن نظيره

---

(١) انظر: القرطبي (٧/١٧١ ـ ١٧٣)، وسيأتي للشيخ (رحمه الله) بحث مطوّل في هذه المسألة عند الكلام على الآية (١٢)، من سورة الأعراف.

(٢) انظر: الإحكام ص٩٤٦، المحلى (١/٥٦).

المماثل له في علة الحكم فيفهم العقلاء أنه مثله، وهذا الجمود الذي يدّعيه ابن حزم متمسكاً بعشرات أو مئات الآيات من هذا النوع، يقول: كل ما نصّ عليه الله فحكمه ظاهر، وما لم يأتِ في نص من كتاب الله، ولا سنة نبيه، فهو مسكوت عنه، وهو عفو، ولا لنا أن نبحث عنه، ولا نسأل عنه؛ لأن الله سكت عنه غير نسيان، بل سكت عنه رحمةً بنا، فليس لنا أن نبحث عنه.

هذا الذي يقوله ابن حزم، ويستدل عليه بعشرات الآيات، نحن نقول بِمُوجَبِهِ. ومعنىٰ: (نقول بمُوجَبه) أننا نقدح فيه بالقادح المعروف في علم الأصول بـ(القول بالمُوجَب)[1]، وهو أن نقول: أنت صادق فيما قلت، ولكن هذا لا حجة لك فيه، ولا يقطع نزاعنا معك. والمعنىٰ: نحن نصدقك بأن الله أباح أشياء، وحرّم أشياء، وسكت عن أشياء رحمةً بنا لا نسياناً، والتي سكت عنها ليس لنا البحث عنها، وهي عفو، ولكن هذا الذي تقول أنت: إن الله سكت عنه، نحن نقول: أنت في هذا لست بمُصيب، بل الله لم يسكت عنه، بل بيّن حكمه بذلك الشيء الذي نصّ عليه، وأمثال هذا كثيرة في كتاب الله وفي سنة نبيه، فنحن معاشر عامّة المسلمين نعلم أن الله (جل وعلا) لمّا قال في الوالدين: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ ابن حزم يقول: ضَرْبُ الوالدين مسكوت عنه، ولم تدل هذه الآية على منعه[2]!! ونحن نقول: هذا غير صحيح، بل آية: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: آية ٢٣] ليست ساكتة عن ضرب الوالدين؛ لأن النهي عن التأفيف يُفهم منه قطعاً من دلالة هذه الآية أنه أحرم وأحرم وأحرم؛ لأنه أشد إيذاء، كذلك حديث أبي بكرة الثابت في الصحيحين، أن النبي ﷺ قال: «**لا يقضين حَكَمٌ بين اثنين وهو غضبان**»[3]. صرح النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح أن

---

(١) وهو بفتح الجيم وبالكسر، وهو نفس الدليل؛ لأنه الموجِبُ للحكم.
وفي الاصطلاح: تسليم مقتضىٰ الدليل مع بقاء النزاع في الحكم. انظر: شرح الكوكب المنير (٤/٣٣٩ ـ ٣٤٠)، نثر الورود (٢/٥٤١).

(٢) انظر: الإحكام لابن حزم ص٩٣٢.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الأحكام، باب: هل يقضي القاضي أو يفتي وهو=

القاضي في وقت الغضب لا يجوز له أن ينظر في قضايا الناس؛ لأن الغضب أمر مُشَوِّش للفكر، لا يتمكن معه القاضي من استيفاء النظر في الحقوق، فلو حكم في ذلك الوقت، فهو مظنه لضياع حقوق الناس، وسكت النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح عما لو كان القاضي مُشوش الفكر تشويشاً أعظم من الغضب، كأن كان في حزن أو سرور مُفرِطَين، أو كان في جوع أو عطش مُفرِطَين، أو كان في حقن أو حقب مُفْرِطين؛ فإنه ينال من شدة العطش، ومن شدة الجوع، ومن شدة الحزن، ومن شدة السرور، ومن شدة الحقن (وهو ـ بالنون ـ: مدافعة البول. والحَقْب ـ بالباء ـ: مدافعة الغائط، إذا كان في هيجان شديد للخروج). هذه الأشياء تشوش فكر الإنسان حتى لا يبقىٰ له نظر تشويشاً أشد من الغضب.

فيقول ابن حزم: هذه مسكوت عنها، فالحكم في وقتها عفو!!

ونحن نقول: لا والله، ليست مسكوتاً عنها؛ لأن النبي ﷺ لما نبّه علىٰ أن القاضي في وقت الغضب لا يجوز له أن يحكم، عرفنا أن هذا الحديث في معنىٰ: أن كل مُشَوِّش للفكر يمنع من استيفاء النظر، ويؤدي إلى ضياع حقوق الناس، أن الحكم في وقته ممنوع، كذلك صحّ عن النبي ﷺ أنه نهىٰ عن البول في الماء الراكد[1]، وسكت عما لو بال في قارورة وصبها في الماء من القارورة. فمقتضىٰ ما يقوله ابن حزم: أنه لو قطّر فيه قطرات قليلة من ذكره مباشرة: هذا منطوق به، ولو صبّ فيه مئات الأطنان من الأواني: أن هذا مباح ومسكوت عنه!! وهذا هَوَسٌ لا يقوله عاقل؛ لأن النبي ﷺ إنما نهىٰ عنه لأن البول يُقذّره، وصَبّه فيه من الإناء لا فرق بينه وبين بوله فيه مباشرة.

= غضبان؟ حديث رقم: (٧١٥٨)، (١٣/١٣٦)، مسلم، كتاب: الأقضية، باب: كراهة قضاء القاضي وهو غضبان. حديث رقم (١٧١٧)، (٣/١٣٤٢).

(١) أخرجه الشيخان بألفاظ متقاربة، انظر: البخاري، كتاب الوضوء، باب البول في الماء الدائم، حديث رقم (٢٣٩)، (١/٣٤٦)، مسلم، كتاب الطهارة، باب: النهي عن البول في الماء الراكد، الحديثان (٢٨١، ٢٨٢)، (١/٢٣٥).

مثلًا النبي ﷺ نهىٰ الإنسان عن أن يُضحّي بالشاة العوراء[1]، وسكت

(١) جاء ذلك من حديث علي، والبراء، وعتبة بن عبدالسلمي (رضي الله عنهم).

أما حديث علي (رضي الله عنه) فهو قوله: «أَمَرَنَا رسول الله ﷺ أن نَسْتَشْرِفَ العين والأذن، ولا نضحي بعوراء ولا مُقَابَلَة ولا مُدَابَرَة ولا خَرْقَاء ولا شَرْقَاء». وقد أخرجه أحمد (١/٨٠، ١٠٨، ٩٥، ١٠٥، ١٢٥، ١٣٢، ١٤٩، ١٥٢)، والدارمي (٢/٤)، وأبو داود في الضحايا، باب ما يُكره من الضحايا، حديث رقم: (٢٧٨٧)، (٧/٥٠٨)، والترمذي في الأضاحي، باب ما يُكره من الأضاحي، حديث رقم: (١٤٩٨)، (٤/٨٦)، وأخرجه في موضع آخر برقم (١٥٠٣)، والنسائي في الضحايا، باب المُدَابَرة، حديث رقم: (٤٣٧٣)، (٧/٢١٦)، وأخرجه في موضع آخر برقم: (٤٣٧٥)، وابن ماجه في الأضاحي، باب ما يُكره أن يُضَحَّى به، حديث رقم: (٣١٤٣)، (٢/١٠٥٠)، وابن خزيمة (٢٩١٤، ٢٩١٥)، والطحاوي في شرح المعاني (٤/١٦٩، ١٧٠)، والحاكم (٤/٢٢٤، ٢٢٥) وصححه، والبيهقي (٩/٢٧٥). بعضهم يرويه مختصراً فيقتصر على صدر الحديث، وهو قوله: «أَمَرَنَا رسول الله ﷺ أن نَسْتَشْرِفَ العين والأذن». وبعضهم يرويه بتمامه (على اختلاف في بعض ألفاظه). وإنما صحَّ من هذا الحديث صدره، دون قوله: «ولا نضحي بعوراء...» إلخ. انظر: صحيح أبي داود (٢/٥٣٩)، وضعيفه ص٢٧٤، صحيح النسائي (٣/٩١٤)، وضعيفه ص١٧٧، ١٧٨، وصحيح ابن ماجه (٢/٢٠٢)، وضعيفه ص٢٤٩، وضعيف الترمذي ص١٧٥ ـ ١٧٦، الإرواء (٤/٣٦٢)، التعليق على المشكاة (١٤٦٣)، التعليق على ابن خزيمة (٢٩١٥).

وأما حديث البراء (رضي الله عنه) فهو قوله ﷺ: «**أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء بَيِّنٌ عَوَرُها، والمريضة بَيِّنٌ مرضها، والعرجاء بين ظَلَعُها، والكسير التي لا تُنقى**». وهو حديث ثابت صحيح أخرجه مالك (١٠٣٥)، والطيالسي ص١٠٢، وأحمد (٤/٢٨٤، ٢٨٩، ٣٠٠، ٣٠١)، والدارمي (٢/٤)، وأبو داود في الضحايا، باب ما يكره من الضحايا، حديث رقم: (٢٧٨٥)، (٧/٥٠٥)، والترمذي في الأضاحي، باب ما لا يجوز من الأضاحي، حديث رقم: (١٤٩٧)، (٤/٨٥)، والنسائي في الضحايا، باب ما نُهي عنه من الأضاحي، حديث رقم: (٤٣٦٩)، (٧/٢١٤) وأخرجه في موضعين آخرين برقم: (٤٣٧٠، ٤٣٧١)، وابن ماجه في الأضاحي، باب ما يُكره أن يُضَحَّى به (٢١٤٤)، (٢/١٠٥٠)، وابن خزيمة (٢٩١٢)، والطحاوي في شرح المعاني (٤/١٦٨، ١٦٩)، وابن حبان (الإحسان): (٥٨٨٩، ٥٨٩١ ـ ٥٨٩٢)، والحاكم (١/٤٦٧) وصححه، والبيهقي (٥/٢٤٢)، (٩/٢٧٤) وابن الجارود (٤٨١، ٩٠٧). وانظر: صحيح أبي داود (٢/٥٣٩)، صحيح الترمذي (٢/٨٨)، صحيح النسائي (٣/٩١٣، ٩١٤)، صحيح ابن ماجه (٢/٢٠٢)، الإرواء (٤/٣٦٠ ـ ٣٦١). =

عن الشاة العمياء، فلا نقول: إن الشاة العمياء عفو، ومن شاء أن يُضحّي بها؛ لأنّا نقول: إن النص المانع من التضحية بالعوراء يُعرف منه حكم العمياء.

وهذا - لو تتبعنا - أمثالُه كثيرة في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

واستدل بعض العلماء - من علماء الأصول - بآية الأنعام هذه على أحد قولين؛ في مسألة اختلف فيها العلماء؛ لأنه معلوم في علم الأصول أن العلماء مختلفون: هل النبي ﷺ يمكن أن يجتهد في شيء، أو لا يجتهد في شيء؟[1].

فالذين قالوا: الاجتهاد ممنوع عليه، استدلوا بهذه الآية من سورة الأنعام، وآية النجم، وما جرى مجراهما. قالوا: لأن النبي قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ﴾ [الأنعام: آية ٥٠] فحصر ما يتبع في الوحي، وهذا يمنع الاجتهاد، وأنه لا سبيل إلى الاجتهاد.

وآية النجم التي أشرنا إليها هي قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣ - ٤].

فأجابوا عن هذا قالوا: وقعت وقائع تدل على الاجتهاد في الجملة، كما دلت عليه آيات من كتاب الله، كقوله في سورة الأنفال: قال له الله (جل وعلا) لما اجتهد في أُسارى أهل بدر، ولم يقتلهم، قال الله - كأنه لائم له، مقرّع له -: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [الأنفال: آية ٦٧] فقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قالوا: دليل على أنه أسر

= وأما حديث عُتْبَة بن عَبْد السلمي (رضي الله عنه) وفيه: «إنما نهى رسول الله ﷺ عن المُصْفَرَة والمُسْتَأْصَلَة، والبَخْقَاء، والمُشَيَّعَة، والكَسْرَاء». والبَخْقَاء: هي التي تبخق عينها، أي يذهب بصرها. وقد أخرجه أبو داود في الضحايا، باب ما يُكره من الضحايا، حديث رقم: (٢٧٨٦)، (٥٠٦/٧)، والحاكم (٢٢٥/٤) وصححه، والبيهقي (٢٧٥/٩). وهو ضعيف الإسناد. وانظر: ضعيف أبي داود ص٢٧٤.

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (٤٧٥/٤)، نثر الورود (٦٢٩/٢ - ٦٣١).

الأسارىٰ اجتهاداً منه، ولو كان بوحي لما لامه الله هذا اللوم. وكقوله في براءة: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: آية ٤٣] فلو كان ذلك العفو بوحي لما قال له: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ قالوا: هذه النصوص وأمثالها معناه: أنه يفعل بعض الأمور من غير وحيٍ صريح، بل باجتهاد منه.

وكان بعض العلماء يقول: أما ما يقول: إنه يُوحىٰ إليه، فلا شك أنه وحي من الله، وهو الذي فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: الآيتان ٣ ـ ٤].

وأظهر الأقوال: أن الشرع والتحليل والتحريم، أنه لا يحكم فيه إلا بالوحي، كما جاءت قصص متعددة أنه إذا جاءه الأمر لا وحي فيه: كف عنه وأحجم، ينتظر حكم الله فيه، حتى يأتيه الوحي فيه، وأن مثل الحروب كما ذكرنا في قصة بدر، ومن أُسر منهم هنالك، والأمور الدنيوية، أنه ربما يفعل فيها الأمر، ولا يفعله إلا جائزاً؛ لدلالة ظواهر الشرع عليه. إلا أنه ربما يكون غيره أولىٰ منه؛ ولهذا يقول الله: لِمَ فعلت كذا؟ من حيث إن غيره أولىٰ منه، وإن كان جائزاً. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

ثم أمر الله نبيه أن يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الأنعام: آية ٥٠]. الله (تبارك وتعالىٰ) ذكر طائفتين من الناس، طائفة ذكرها في قوله: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: آية ٤٨] وطائفة ذكرها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [الأنعام: آية ٤٩] فهؤلاء الذين عموا عن طريق الحق حتى دخلوا النار، هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ عُمي، وهؤلاء الذين أبصروا فعملوا لله حتى دخلوا الجنة، فهؤلاء هم المبصرون، كما قال تعالىٰ في سورة هود يضرب المثل بفريق الكفار وفريق المؤمنين: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود: آية ٢٤] فالأعمىٰ والأصم: هو فريق الكفار، والسميع والبصير: هو فريق المؤمنين، كما قال هنا: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الأنعام: آية

٥٠] لا والله لا يستويان، فالأعمىٰ هو من طمس الله بصيرته ولم ينور قلبه بنور الإيمان؛ لأن الله يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ ومن أراد أن يعرف معنىٰ هذه الآية ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦] فلينظر إلى رجلين يمشيان في الطريق، أحدهما: صحيح العينين قوي البصر، حديده جداً، وهو مفقود العقل. والثاني: أعمىٰ، إلا أنه عاقل. فيجد ذا العينين الصحيحتين الذي يفقد عقله، يجده يضرب الجدار، ويقع على الحيّة، ويقع على العقرب، ويسقط في البئر، ويسقط علىٰ النار، لا يُبصر شيئاً، ويرىٰ ذلك الكفيف الذي عنده عقله، عصاه أمامه، يروغ كما يروغ الثعلب، ويُحصّل جميع منافعه، فيعلم حقيقة قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

إذا أدركَ القلبُ المروءةَ والتُّقىٰ فإنَّ عمىٰ العينين ليس يَضِيْر[1]

وذكر غير واحد كابن عبدالبّر في استيعابه، وغير واحد من المؤرخين، أن ابن عباس (رضي الله عنهما) أخبره النبي ﷺ أنه سيعمىٰ في آخر عمره[2]، وقال عند ذلك[3]:

إنْ يَأْخُذِ الله من عَيْنَيَّ نُورَهما ففي لساني وقلبي عنهما نُورُ
عقلي ذكي وقلبي غير ذي دَخَلٍ وفي فمي صَارِمٌ كالسيف مأثور

والحاصل أن الأعمىٰ هنا: هو الكافر، والبصير: هو المسلم المؤمن؛

---

(١) البيت لبشار بن برد، وهو في ديوانه (٥١/٤)، وشطره الأول: (إذا أبصر المرء..).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٩٢/١٠)، وذكره ابن عبدالبر في الاستيعاب (٣٥٦/٢)، وابن عساكر في تاريخه (مختصر ابن منظور ٢٩٥/١٢، ٢٩٩)، والذهبي في السير (٣٤٠/٣) وقال: «إسناده لين» ا.هـ وقال الهيثمي في المجمع (٢٧٧/٩) وفيه من لم أعرفه» ا.هـ.

(٣) البيت في الاستيعاب (٣٥٦/٢)، سير أعلام النبلاء (٣٥٧/٣)، ولفظ صدر البيت الثاني:
قلبي ذكي وعقلي غيرُ ذي دَخَلٍ ....

لأن المؤمن على نور من ربه، وبصيرته يُشِعُّها نور الوحي. والكافر ـ والعياذ بالله ـ مطموس البصيرة، والله يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

ثم قال (جل وعلا): ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ قد قدمنا مراراً[1] أن هذه الهمزة التي تأتي في القرآن كثيراً قبل أداة عطف ـ كالتي تأتي قبل (الفاء) و(الواو) و(ثم)، وهي كثيرة في القرآن، قد قدمنا مراراً أن فيها للعلماء وجهان:

أحدهما ـ واختاره غير واحد، وإليه جنح ابن مالك في ألفيته ـ: أن الهمزة تتعلق بجملة محذوفة، والفاء أو الواو تعطف الجملة التي صُدّرت بها على الجملة المعطوفة التي هي مُتَعَلَّق الاستفهام، ولا بد أن يكون في الجملة المذكورة ما يدل وتفهم منه الجملة المقدرة، وعليه فتقديره هنا: أفلا تتفكرون؟ أتغفلون عن هذه الأشياء، فلا تتفكرون حتى تفهموها؟ وما جرىٰ مجرىٰ ذلك. وهذا هو الذي اختاره ابن مالك في الخلاصة حيث قال[2]:

وحَذْفَ متبوعٍ بدا هُنا استبح ....

وهنالك جماعة آخرون يقولون: إن همزة الاستفهام هي في الرتبة بعد حرف العطف، إلا أنه لما كان للاستفهام صدر الكلام تزحلقت الهمزة عن محلها، وتقدمت على أداة العطف، وهي بعدها في الرتبة. وعلىٰ هذا فيكون المعنىٰ: (فألا تتفكرون) فتكون الفاء عاطفة للجملة المُصَدَّرة بالاستفهام على ما قبلها، كأنه يقول: فأعطف على ذلك وأذكر بعده توبيخكم وتقريعكم أنكم لا تتفكرون حتى تفهموا عن الله آياته.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: آية ٥١].

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وأصح الأقوال في

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.
(٢) السابق.

مرجع الضمير: أنه راجع للقرآن[١] المُعبّر عنه بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أنذر بما يوحى إليك ـ الذي لا تتبع إلا إياه ـ أنذر به الذين يخافون.

وفي الآية هنا سؤال، وهو: لِمَ قصر الإنذار على الذين يخافون أن يحشروا في حال كونهم متجردين من الأولياء والشفعاء من دون الله، مع أن القرآن إنذار للأسود والأحمر ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ عن بكرة أبيهم ﴿نَذِيرًا﴾ [الفرقان: آية ١] وكقوله: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: آية ٢] لِمَ خصّ هنا الذين يخافون؟[٢].

أجاب بعض العلماء عن هذا السؤال: بأن من أساليب القرآن العظيم، واللغة العربية، أن يُقصر الفعل علىٰ الذين ينتفعون به؛ لأن غير المنتفع به هو في شأنه كلا شيء. ونظير الآية من القرآن: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: آية ٤٥] مع أنه تذكير للأسود والأحمر ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: آية ١١] وهو منذر للأسود والأحمر ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ [فاطر: آية ١٨] وهو منذر للأسود والأحمر. أي: بأنهم هم المنتفعون.

ومعنىٰ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أعلمهم بما عند الله في الأوامر والنواهي، مقترناً ذلك الإعلام بالتهديد والتخويف من خالق السماوات والأرض إن لم يمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه.

وقوله: ﴿يَخَافُونَ﴾ هو معنىٰ الخوف على بابه[٣]. ﴿يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مادة (خاف) تتعدّى بنفسها، وتتعدّىٰ بالحرف. وهي هنا متعدية بنفسها، والمصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿أَن يُحْشَرُوٓا۟﴾ في محل نصب معمول به للخوف. والمعنىٰ: يخافون الحشر إلى ربهم. والحشر معناه: جمع الناس.

---

(١) انظر: القرطبي (٦/٤٣٠)، البحر المحيط (٤/١٣٤).

(٢) انظر: المصدرين السابقين، والأضواء (٦/٢٢٤).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/١٣٥).

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ هذه الجملة الفعلية المصدرة بهذا الفعل الناقص هي في محل الحال[(١)]. وهذه الحال هي التي يَنْصَبُّ عليها الخوف. أي: يخافون حشر الناس في حال كونهم ليس لهم من دون الله وليّ ولا شفيع.

ومعنىٰ: ﴿وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ الوليّ في لغة العرب[(٢)]: هو كل من ينعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويواليك؛ ولذا كان كل قريب للرجل من عَصَبَتِهِ يُسمىٰ (ولياً)، وكل صديق حميم يسمىٰ (ولياً)؛ ولهذا كان الله وليّ المؤمنين، والمؤمنون المتقون أولياء الله؛ لأن الإيمان سبب منعقد بين العبد وربه، يكون بسببه الله يوالي العبدَ بالإحسان والرحمة والجزاء، والعبدُ يوالي الله بالطاعات ونحو ذلك. والمعنىٰ: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ يحشرون في حال كونهم وقت ذلك الحشر ليس لهم ﴿وَلِيٌّ﴾ أحد بينهم وبينه سبب يجعله يواليهم فيكون ولياً لهم يمنعهم مما أراد الله أن يفعل بهم إذا عصوه.

وقوله: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ (الشفيع) في لغة العرب[(٣)]: فعيل بمعنىٰ فاعل. أصله: (شافع). وأصل (الشفاعة) مشتقّة من (الشَّفْع)، و(الشَّفْع) ضد الوتر، وإنما قيل للشفيع: (شفيع) لأن صاحب الحاجة كان فرداً في حاجته فلما جاء إلى من يشفع له شَفَعَه فصارا اثنين في حاجته، ومنها قيل له: (شفيع)؛ لأنه من (الشَّفْع).

والشفاعة في الاصطلاح[(٤)]: هي التوسط للغير في جلب [نفع][(٥)] أو دفع ضرّ، وهو علىٰ قسمين: شفاعة في الدنيا وشفاعة في الآخرة، أما شفاعة الدنيا فهي قد تكون عند الملوك، وعند غيرهم من العظماء، وهي نوعان[(٦)]: إذا كان الإنسان يشفع لينقذ مظلوماً، أو يحقق حقاً، أو يبطل

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: المفردات (مادة: ولي) ص٨٨٥.

(٣) المصدر السابق (مادة: شفع) ص٤٥٧.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٥) في الأصل: مكروه.

(٦) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

باطلًا، أو يوصل إنساناً إلى حقه الممنوع منه فهذه الشفاعة طيبة، صاحبها مأجور عليها، وهي التي قال فيها النبي ﷺ في الحديث الصحيح: **«اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء»**[1]. وتارةً تكون الشفاعة هي التوسط في أمر خبيث لا يجوز، كأن يتوسط رجل لرجل في امرأة لتمكنه من نفسها، أو يتوسط له عند سلطان لينزع حق رجل آخر، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك من الشفاعة، أو يشفع ليسقط حداً من حدود الله. وهذه الشفاعة خبيثة، قبيحة، صاحبها يؤزر عليها، وهي من عظائم الذنوب، وقد أشار الله إلى هذا التفصيل في سورة النساء في قوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: آية ٨٥].

أما الشفاعة في الآخرة فكلها لله جل وعلا ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ [الزمر: آية ٤٤] لا شافع ذلك اليوم إلا بإذن الله.

والشفاعة يوم القيامة قسمان: شفاعة باطلة مردودة، وهي التي كان يفهمها الكفار، وهي من أنواع الكفر بالله، وهي: ادعاء الكفار أن الأصنام تشفع لهم بلا إذن من الله (جل وعلا)، إذ من المعلوم أن الأوثان لا تشفع بإذن الله كما قال: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يونس: آية ١٨] وهذا النوع من الشفاعة سماه الله في سورة يونس: (شِركاً) حيث قال: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا النوع إنما سماه الله (شِرْكاً) ـ وله المثل الأعلىٰ ـ لأن فيه نوعاً من القدح في عظمة الربوبية. وضرب العلماء لهذا مثلًا قالوا: ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ ترىٰ أكبر جبارٍ طاغ في الدنيا يتقطع غيظاً علىٰ مجرم، ونيته أنه يقطع ذلك المجرم عضواً عضواً، فيمكنه الله من ذلك المجرم ويقع في قبضته، ونيته أن يُنَكِّلَه أعظم نكال، فيأتي واحد من عظماء دولته ـ رجل له عظمة وجاه، وله شعبية عظيمة ـ ويتجرأ على ذلك الملك

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

رغم أنفه، ويقول له: بارك الله فيك شفّعني في هذا المجرم!! فينظر ذلك الملك، يقول: إذا رددت شفاعة هذا العظيم قد يكون ضداً علي، وحرباً علي، فقد يأتيني بغائلة!! فيخاف المسكين، ويضطر إلىٰ أن يشفعه رغم أنفه. فخالق السماوات والأرض لا يقدر أحد أن يُدل عليه بعظمة ولا جاه، ولا يخاف من أحد أن يدبر عليه شيئاً؛ ولذا يقول مخاطباً لخلقه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: آية **٢٥٥**] الجواب: لا أحد يمكن أن يتجاسر علىٰ ذلك أبداً؛ لأن هذا ملك الملوك الذي لا يخاف من أحد، ولا يمكن أحداً أن يدبر شيئاً ضده؛ ولذا قال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: آية **٢٣**].

فالحاصل أن الشفاعة يوم القيامة قسمان: قسم مقبول، وقسم مردود، ولقبوله شرطان إذا حصلا كانت الشفاعة شرعية واقعة، وإذا فُقدا أو واحد منهما فالشفاعة ممنوعة شرعاً. أما هذان الأصلان:

فأحدهما: أن يكون المشفوع له مسلماً؛ لأن الله (جل وعلا) لا يقبل شفاعة لكافر ألبتة، كما قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: آية **٤٨**] ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: آية **٢٨**] مع أنه يقول: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: آية **٧**].

الثاني: أن يأذن خالق السماوات والأرض (جل وعلا)، فإذا أذن الله في الشفاعة، وكان المشفوع له مؤمناً. بهذين الشرطين تكون شفاعة مقبولة واقعة في الشرع، دلّ عليها كتاب الله وسنة نبيه.

ومما يوضح هذا المعنىٰ: أن سيد الخلائق على الإطلاق ـ نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه ـ عنده وعد صادق من الله في دار الدنيا، كما يأتيكم في تفسير قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: آية **٧٩**] عنده وعد من الله بالشفاعة الكبرىٰ، وهو عالم أن الله لا يخلف وعده، فإذا وقع الناس في مأزق يوم القيامة، وجاؤوا إلى آدم، وقال كلامه المعروف، ثم جاؤوا إلى نوح، ثم إبراهيم، ثم موسىٰ، ثم عيسىٰ، حتى إذا

بلغوا النبي ﷺ قال لهم: «**أنا لها**»(١). لأنه عالم بالوعد الصادق من خالق السماوات والأرض، ومع علمه بالوعد، وعظم جاهه، ومكانته عند الله، لم يتجرأ أن يشفع من غير إذن؛ بل خرّ ساجداً، فألهمه الله (جل وعلا) من المحامد ما لم يلهمه لأحد قبله ولا بعده، ولم يزل ساجداً حتىٰ قيل له: ارفع رأسك، وسلْ تُعْطَ، واشفع تُشفع. هذا مصداق لقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: آية ٥٥] الجواب: لا أحد، فالشفاعة للكفار ممنوعة بتاتاً، والشفاعة بغير إذن الله ممنوعة بتاتاً. وقد دلت السنة الصحيحة علىٰ أن الشفاعة للكفار خرج منها فرد واحد لا نظير له، وهو ما ثبت في الصحيحين: أن شفاعة النبي ﷺ نفعت أبا طالب، مع أنه مات كافراً. إلا أن هذا النفع لهذا الكافر الذي هو وحيد لم يكن له نظير، إنما كان في نَقْلٍ من موضع من النار إلى موضع آخر أخفّ منها؛ ولذا ثبت في الصحيحين: «**لعله تنفعه شفاعتي فَيُجْعَل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه، له نعلان يغلي منهما دماغه**»(٢). والعياذ بالله جل وعلا.

---

(١) حديث الشفاعة رواه عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، منهم:

١ ـ أبو هريرة، عند البخاري في الأنبياء، باب قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾. حديث رقم (٣٣٤٠)، (٦/٣٧١)، وطرقه (٣٣٦١، ٤٧١٢).

ومسلم في الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها. حديث رقم (١٩٤)، (١/١٨٤).

٢ ـ أنس، عند البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ حديث رقم (٧٤١٠)، (١٣/٣٩٢)، ومسلم في الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها. حديث رقم (١٩٣)، (١/١٨٠).

٣ ـ أبو هريرة وحذيفة، عند مسلم (الموضع السابق) حديث رقم (١٩٥)، (١/١٨٦).

٤ ـ أبو بكر الصديق، عند أحمد (١/٤)، والدارمي في الرد على الجهمية ص٥٧، ٨٨، وابن أبي عاصم في السنة (٧٥١، ٨١٢)، وأبي يعلى (٥٦، ٥٧)، وابن حبان (الإحسان (٨/١٣٤)، والدولابي في الكنى (٢/١٥٥).

٥ ـ ابن عباس، عند أحمد (١/٢٨١، ٢٩٥)، وأبي يعلى (٤/٢١٣)، والطيالسي ص٣٥٣.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

فهذه شفاعة خاصة نفع الله بها كافراً نفعاً مخصوصاً، وهو نقله من محل من النار إلى محل أخف منه من النار والعياذ بالله جل وعلا.

وهذا معنى قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ الشفيع المنفي هنا: هو الشفيع الذي يشفع لكافر، أو يشفع بغير إذن الله (جل وعلا). أما الذي يشفع بإذن الله للمؤمن فهذا ثابت كتاباً وسنةً.

وأنواع الشفاعة كثيرة، وليست مخصوصة بالأنبياء، بل يشفع الصالحون، والمؤمنون وغيرهم ممن أراد الله أن يشفّعه فيمن شاء من خلقه.

قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ في (لعل) هنا وجهان بيّناهما بالأمس:

أحدهما: أنها للتعليل[١]، وعليه فالمعلل هو الإنذار المذكور في قوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أي: أنذر الذين يخافون، أنذرهم لأجل أن يتقوا. أي: لأجل أن يؤثِّر فيهم ذلك الإنذار ويخوفهم فيتقون الله جل وعلا.

وأصل الاتقاء في لغة العرب[٢]: هو اتخاذ الوقاية التي تقيك من المكروه. وهذا معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان[٣]:

سقط النَّصِيْفُ ولم تُرِدْ إسقاطَه فتَنَاولَتْه واتقتنا باليد

أي: جعلت يدها وقاية بيننا وبينها، حيث جعلتها؛ دون وجهها لئلا نراه. هذا أصل (الاتقاء)، تقول العرب: «اتقيت السيوف بمجنّي»، و«اتقيت الرمضاء بنعلي».

هذا أصل (الاتقاء)، وهو في اصطلاح الشرع[٤]: اتخاذ العبد وقاية تقيه من عذاب الله وسخطه.

وهذه الوقاية مركبة من شيئين هما: امتثال أمر الله، واجتناب نهي الله.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

ومعلوم أن مادة (الاتقاء) أصلها من (وَقَى) ففاء المادة واو، وعينها قاف، ولامها ياء، فهي مما يسميه الصرفيون: (اللفيف المفروق). فأصل الاتقاء من الوقاية: (و. ق. ى). إلا أنها دخلها (تاء) الافتعال، كما تقول في (قَرب): اقترب، وفي (كسب): اكتسب، وفي (قطع): اقتطع، وفي (وقىٰ): اوْتَقَىٰ. والقاعدة المقررة في التصريف: أن كل فعل واوي الفاء إذا دخله (تاء) الافْتِعَال أُبدلت الفاء التي هي الواو تاء، وأُدغمت في التاء، فقيل فيه: (اتّقىٰ). فهذا التشديد مركب من حرفين: الأول منهما أصله واو في محل فاء الكلمة. والثاني: تاء الافتعال الزائدة. هذا أصل المادة[١]. ومعنىٰ ﴿يَتَّقُونَ﴾: يجعلون وقاية بينهم وبين عذاب الله وسخطه، هذه الوقاية هي امتثال أمره بإخلاص علىٰ الوجه الذي شرع، واجتناب نهيه (جل وعلا). وهذا معنىٰ قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

٤/ب /﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: آية ٥٢].

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا ابن عامر: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ وقرأه ابن عامر وحده: ﴿**بالغُدوةِ والعشي**﴾ بضم الغين والواو المفتوحة. وهما قراءتان صحيحتان[٢]، ولغتان فصيحتان.

وسبب نزول هذه الآية الكريمة: أن عظماء الكفار ـ بعض الروايات: كفار قريش[٣]، وفي بعضها: عظماء غيرهم من العرب، كالأقرع بن حابس

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٩٤.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: في فضل سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه)، حديث رقم (٢٤١٣)، (١٨٧٨/٤)، من حديث سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه).

=

من سادات تميم وعيينة بن حصن من سادات الفزاريين[١]. وأشهر الروايات وأولاها بالصواب: أن الكفار الذين قالوا هذا كفار مكة؛ لأن الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن إنما جاؤوا للنبي ﷺ في المدينة بعد الهجرة، وهذا مما يؤيد الروايات الواردة بأنهم عظماء الكفار من أهل مكة - كانوا يأتون النبي ﷺ فيجدون معه ضعفاء المسلمين الفقراء، كخَبَّاب، وعمار، وصهيب، وبلال، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك. وفي بعض الروايات الثابتة أن من الذين قالوا فيه ذلك من الفقراء: سعد بن أبي وقاص وجماعة معه. قالوا للنبي: نحن كبار رؤساء العرب، وإن اتبعناك اتبعك الناس، ونُحن لا نرضىٰ أن نجالس هؤلاء الأَعْبُد، ويؤذينا نَتَنُ جِبَابِهم - لأنهم كانوا يلبسون جِبَاباً من الصوف ليس لهم غيرها، فيكون فيها ريح العرق - اطرد عنّا هؤلاء النتنى لنجلس معك ونكلمك. وفي بعض الروايات أنهم قالوا له: إن جئناك فأقمهم عنا حتىٰ نقول لك ما نشاء، وإن خرجنا فإن شئت فاقعد معهم. وفي بعض الروايات: أنه ﷺ همّ بأن يجعل للعظماء الرؤساء مجلساً ليس فيه أولئك. وذكروا أنه دعا علياً (رضي الله عنه)، وأخذ الصحيفة ليكتب فيها عليّ؛ لأنهم قالوا له: اكتب لنا ذلك. فجاءه جبريل وأنزل الله عليه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ ثم لمّا نزلت ألقىٰ الصحيفة وامتنع من طردهم، وكان يجلس معهم، فإذا أراد القيام قام عنهم قبل أن يقوموا فأنزل الله عليه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: آية ٢٨] فكانوا

= وقد جاء من حديث ابن مسعود (رضي الله عنه) عند أحمد حديث رقم (٣٩٨٥)، والطبراني في الكبير، حديث رقم (١٠٥٢)، (١٠/٢٦٨)، وابن جرير (١١/٣٧٤ - ٣٧٥)، والواحدي في أسباب النزول ص٢١٧.

وورد أيضاً من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) عند ابن جرير (١١/٣٧٥)، كما ورد عن عدد من التابعين مرسلاً، انظر: ابن جرير (١١/٣٧٨ - ٣٨٠) الواحدي في أسباب النزول ص٢١٨.

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب مجالسة الفقراء، حديث رقم (٤١٢٧)، (٢/١٣٨٢)، والبيهقي في الدلائل (١/٣٥٢)، وابن جرير (١١/٣٧٦ - ٣٧٧)، والواحدي ص٢١٧، وانظر: صحيح ابن ماجه (٢/٣٩٦ - ٣٩٧).

إذا جاء وقت قيامه يقومون ليفسحوا له في القيام؛ لأنهم يعرفون أنهم إن لم يقوموا لا يمكنه أن يقوم. هذا سبب نزول الآية.

والمعنى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام: آية ٥٢] يعني: لأجل أن الكفار الفجرة يحبون ذلك ويرغبون فيه، كما قال له: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: آية ٢٨].

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ يدعونه معناه: يعبدونه ويتضرعون إليه. وذهبت جماعة من العلماء إلى أن المراد بالدعاء هنا: الصلاة[1]؛ لأنها أعظم العبادات، وهي فيها دعاء. يقول المصلي فيه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: آية ٦] ثم يقول: آمين. ففيها أعظم دعاء، وقد ثبت في حديث مسلم عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: أن المسلم إذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ قال الله: «**هذه لعبدي ولعبدي ما سأل**»[2]. كما بيّناه مراراً.

وعلى هذا فقوله: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ يعني بـ(الغداة): صلاة الصبح، وبـ(العشي): صلاة العصر.

وقال بعض العلماء: الآية أعم من الصلاة. وهو الظاهر؛ لأنهم يدعون الله ويعبدونه بأنواع العبادات من صلاة وغيرها، أول النهار وآخره.

وفي تخصيص الغداة والعشي للعلماء أوجه[3]:

أحدها: أن العرب إذا أرادت الدوام أطلقت الليل والنهار، والغداة والعشي. يعنون أنهم دائمون على ذلك.

القول الثاني: أن أول النهار وآخره من أفضل الأوقات التي تُنتهز فيها فرصة العبادات.

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/٣٨١ ـ ٣٨٨).

(٢) مسلم، كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، حديث رقم (٣٩٥)، (١/٢٩٦).

(٣) انظر: القرطبي (٦/٤٣٢)، البحر المحيط (٤/١٣٥).

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ إذا جاء في القرآن العظيم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ معناه: أن ذلك العمل بإخلاص لله (جل وعلا)، ليس فيه رياء ولا سمعة، ولا طلب غرض من أغراض الدنيا.

وصفة (الوجه) صفة من صفات الله (جل وعلا) أثبتها لنفسه، وأثنىٰ علىٰ هذه الصفة ثناءً خاصاً لم يُثن به على صفة غيرها حيث قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: آية ٢٧].

ونحن في هذه الدروس القرآنية مراراً[١] نقول لكم: إن الطريق السليمة ـ التي إن متم عليها ولقيتم الله عليها في هذا المأزق الذي ضلّ فيه الآلاف [فإنكم تلقون ربكم بعقيدة صحيحة في هذا الباب][٢] ـ أنها مركزة على ثلاثة أُسس، كل واحد منها في ضوء القرآن العظيم بغاية الوضوح، من لقي الله على اعتقاد هذه الأسس الثلاثة لقيه سالماً، ومن أخلّ بواحد منها دخل في مهواة، قد لا يتخلص منها.

أول هذه الأسس الثلاثة هو ـ أيها الإخوان ـ أن تلزموا قلوبكم بالطهارة من أقذار التشبيه، وتُنزهوا خالق الكون (جل وعلا) عن أن يُشبهه شيء من خلقه في أي صفة من صفاته، كائنة ما كانت، ومَن الخلق حتىٰ يشبهوا خالق السماوات والأرض؟ كيف يشبهونه وهم أثر من آثار قدرته وإرادته؟ فالأثر لا يشابه مخترعه.

وهذا الأصل هو الأساس الأكبر في معرفة الله، والحجر الأساسي لصلة العبد بربه صلة صحيحة على أساس صحيح، وهو تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة الخلق. وهذا الأساس منصوص في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: آية ٤] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: آية ٧٤] لأنه لا مثيل له ولا شبيه.

---

(١) للشيخ (رحمه الله) محاضرة في موضوع الصفات، وقد طُبعت بعنوان (منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات)، وانظر الأضواء (٢/٣٠٤ ـ ٣٢١).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

وهذا الأصل هو الأصل الأعظم في التوحيد، وهو أساس الصلة الصحيحة بين العبد وربه، فمن حقق هذا الأصل قرب من الخير، ومن لم يحقق هذا الأصل جرّه إلى تشبيهات وإلىٰ معاني لا خلاص منها. فإذا حقق العبد هذا الأصل، وألزم قلبه بأن يعلم أن خالق السماوات والأرض أعظم وأكبر وأنزه وأجل من أن يشبهه شيء من خلقه بأي صفة من صفاتهم [فإنه يكون قد طَهَّر قلبه من دَنَس التعطيل وأقذار التشبيه][(١)].

والأساس الثاني: هو أن يصدق الله بما وصف به نفسه، ويصدق رسوله بما وصف به ربه، تصديقاً مبنياً على أساس ذلك التنزيه، على غرار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فلا يتنطع بين يدي الله، وينفي عن الله وصفاً مدح الله به نفسه، أو مدحه به من قال في حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣ ـ ٤] إذ لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: آية ١٤٠] ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ.

وهذا الأصل الثاني علّمناه خالق الكون (جل وعلا) تعليماً سماوياً أعظم، لا يقع في الحق بعده لبس، وذلك قوله جل وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ فإتيانه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ فيه سرّ أعظم، ومغزىً أكبر، وتعليم خالق السماوات والأرض، وإيضاحه لهذه العقائد إيضاحاً كالشمس.

والمعنى: لا تتنطع يا عبدي، يا مسكين، اعرف قدرك، ولا تنف عني صفة سمعي وبصري مدعياً أنك إن أثبتَّ لي سمعي وبصري شبهتني بالحيوانات التي تسمع وتبصر، لا، ما هكذا الأمر. المعنى: أثبت لي سمعي وبصري، وراع في ذلك الإثبات قولي قبله مقترناً به: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ فأول الآية تنزيه كامل من غير تعطيل، وآخرها إيمان بالصفات

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

إيماناً تاماً من غير تشبيهه ولا تمثيل، فعلينا أن نُنَزِّه خالقنا (جل وعلا) بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وأن نُثبت له ما أثبت لنفسه، ولا نقول إذا أثبتناه: كنا مشبهين؛ لأن الحيوانات تتصف بهذا!! ولأجل هذا وصف نفسه بالسمع والبصر، مع أنهما من حيث هما سمع وبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فكل الحيوانات تسمع وتبصر؛ ولذا وصف نفسه بالسمع والبصر بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يعني: لا تنفِ عني سمعي وبصري بدعوىٰ أنك إن أثبتهما كنت مشبهاً لي بالحيوانات التي تسمع وتبصر، لا. أثبت لي صفة سمعي وبصري إثباتاً مراعىً فيه قولي قبله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ولأجل هذه الحكمة قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

فأول هذين الأصلين ـ الذي هو الأساس الأكبر للتوحيد والصلة بالله صلة صحيحة ـ: تنزيه خالق السماوات والأرض عن أن يُشبه شيئاً من خلقه بأي شيء من صفاتهم.

الأساس الثاني: هو أن لا تتنطع ـ أيها المسكين ـ وتنفي عن الله وصفاً مدح به نفسه، أو أثنىٰ عليه به رسوله، بل أثبت له هذا الوصف مراعياً في ذلك أنه (جل وعلا) ليس كمثله شيء، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

فعلينا أن ننزه الله عن مشابهة الخلق، وعلينا أن نُصَدِّق الله بما وصف به نفسه، ونُصَدِّق رسوله بما وصف به ربه، ولا يخطر في عقولنا التشبيه بصفات المخلوقين. ومَنْ المخلوقون حتى تشبه صفاتهم صفات خالقهم؟ أليسوا أثراً من آثار قدرته وإرادته؟ وكيف تشبه الصنعة صانعها؟

ولو تَنَطَّعَ مُتنطِّع وقال: نحن ما عرفنا صفة سمع ولا بصر منزهةً عن صفة الخلق، وما علمنا صفة وجه منزهة عن صفات الخلق، وما علمنا كيفية صفة استواء منزهةً عن استواءات الخلق، فبينوا لنا كيفية هذه الصفات حتى نعقل كيفية منزهة نعتقدها.

فنقول في هذا: قال مالك بن أنس: السؤال عن هذا بدعة[١]. ولكن نتنزل معه ونقول: أيها المتنطع: هل عرفت كيفية الذات الكريمة المقدسة المتصفة بهذه الصفة؟ فلا بد أن يقول: لا، فنقول: معرفة كيفية الاتصاف بهذه الصفات متوقفة على معرفة كيفية الذات.

هذان أصلان:

الأول منهما: تنزيه خالق السماوات عن أن يشبه شيئاً من خلقه.

الثاني: تصديقه فيما وصف به نفسه، وعدم تكذيبه، وتصديق رسوله بما وصف به ربه تصديقاً مبنياً على أساس التنزيه، على نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فأول الآية تنزيه من غير تعطيل، وآخرها إثبات للصفات من غير تشبيه ولا تمثيل، وإن كانت الحيوانات تسمع وتبصر.

الأصل الثالث: هو أن نقطع طمعنا عن إدراك كيفية صفات الله (جل وعلا). والله قد نص على عجز الخلق عن الإحاطة بإدراك كيفياته. أشار إلىٰ ذلك في السورة الكريمة ـ سورة طه ـ حيث قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: آية ١١٠].

هذه الأصول الثلاثة:

الأول: تنزيه الله.

الثاني: الإقرار بصفات الله مبنياً على أساس التنزيه على غِرار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

الثالث: قطع الطمع عن إدراك الكيفية.

وأنا أؤكد لكم ـ أيها الإخوان ـ أنّا جميعاً سننتقل من هذه الدار إلىٰ القبور، وننتقل سريعاً من القبور إلى عرصات القيامة. ولا شك أننا هناك

---

(١) الرد على الجهمية للدارمي ص٣٣، البيهقي في الأسماء والصفات ص٥١٥، اللالكائي رقم (٦٦٤)، شرح السنة (١٧١/١)، مختصر العلو رقم (٢٠٨)، فتح الباري (٤٠٦/١٣ ـ ٤٠٧).

نُناقَش عن كل ما قدمنا، وما أسلفنا من خير أو شر، ومما يسألنا الله عنه: هل ما مدحت به نفسي وأثنيت به على [نفسي](١) أو أثبته لي [رسولي يُعد تشبيهاً؟ لو متم يا إخواني وأنتم على هذا المعتقد، أترون الله يوم القيامة يقول لكم: لِمَ نزهتموني عن مشابهة الخلق؟ ويلومكم على ذلك؟ لا وكلّا، والله لا يلومكم على ذلك. أترون أنه يلومكم على أنكم آمنتم بصفاته، وصدقتموه فيما أثنى به على نفسه، ويقول لكم: لِمَ آمنتم بما أثبتُّ لنفسي..](٢) ولا بما قد نص رسولي ﷺ فيما أثنىٰ به علي، تصديقاً مبنياً على أساس التنزيه. لا وكلا، أبداً، فهو طريق سلامة محققة، ولا يقول له: لِمَ لا تدعي أن عقلك المسكين القصير محيط بكيفيات صفاتي؟ لا أبداً. فهذه طريق سلامة محققة، وهي التي سار عليها النبي ﷺ، والسلف الصالح، والقرون المشهود لهم بالخير، بيضاء ليلها كنهارها؛ لأن علىٰ العبد أن ينزه خالقه عن مشابهة الخلق، وأن يؤمن بصفات ربه، ولا يُكَذِّب ربه، ولا نبيه، إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، ويعرف قدر عقله، ويعلم أنه عاجز عن الإحاطة بكيفيات خالق السماوات والأرض.

الأصل الأول بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ والثاني بقول: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ والثالث بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ فعلينا ـ معاشر المؤمنين ـ أن نُمر آيات الصفات وأحاديثها، ونصدق الله بما مدح به نفسه، ونعلم أنه لا يمدح نفسه بنقص ولا باطل، ولا يثني على نفسه إلا بكمال وجلال، ونُنزه ربنا عن صفات المخلوقين، فبالتنزيه نسلم من ورطة التشبيه، وبالإيمان والتصديق بصفات الله نسلم من ورطة التعطيل ونكون مؤمنين موحدين منزهين، لسنا مرتطمين في تشبيه، ولسنا مرتطمين في تعطيل، هذا هو

---

(١)(٢) في هذين الموضعين انقطع الصوت في التسجيل. وقد استدركتُ النقص من المواضع التي تكلم فيها الشيخ (رحمه الله) على هذه المسألة بنحو هذا الكلام، كما في محاضرة الصفات ص٤٤ ـ ٤٥، ومن كلامه في هذا التفسير كما في الأنعام عند الآيتين (١٠٣، ١٥٨)، الأعراف (٥٤، ٩٩، ١٤٤)، التوبة (٢١).

الوجه فيما جاء من هذه الصفات؛ ولذا قال الله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ ابتغاء وجه الله. فالمعنىٰ: أن ذلك العمل خالص لله، لا يشوبه رياء ولا سمعة ولا غرض من أغراض الدنيا. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: آية ٥٢] هذه الآية والآيات التي نزلت مثلها في قضية نوح في سورة هود(١)، وفي سورة الشعراء(٢)، معناها: أن الكفار قالوا له: هؤلاء الضعاف النتنى الذين معك، ليس لهم إيمان، ولا معرفة بالله، ولا التجاء إلىٰ الله، وإنما هم يقولون هذا الكلام لتسمعهم وتعطيهم شيئاً يأكلونه ويشربونه، فهم يراؤون لأجل الطعام. الله (جل وعلا) بَرَّأَهُم من هذه الدعوىٰ، وبيّن أنهم مخلصون لله، وقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ ثم قال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ يعني: عملهم لهم، صالحه لهم وطالحه عليهم، ولست مأخوذاً بالتنقيب عنهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ يعني: لستَ محاسباً بما يفعلون، وليسوا محاسبين بما تفعل، فعليك أن تأخذ بالظاهر من أحوالهم ـ الإيمان ـ مع أن الله نص له علىٰ أن باطنهم سليم، وأن نيتهم صحيحة، وأنهم بريئون مما قال الكفار حيث قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

ثم قال: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال بعض العلماء(٣): الفاء الأُولى ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ في جواب النفي، والفاء الأخرىٰ من جواب النهي. والمعنىٰ: لا تطرد الذين يدعون ربهم فتكون من الظالمين، ما عليك من

---

(١) وهي قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [هود: آية ٢٩] وقوله في الآية بعدها: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [هود: آية ٣٠] وذلك بعد قولهم له: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: آية ٢٧].

(٢) وهي قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الشعراء: آية ١١٤].

(٣) انظر: القرطبي (٤٣٤/٦)، البحر المحيط (١٣٨/٤)، الدر المصون (٦٤٥/٤).

حسابهم من شيء فتطردهم. أي: لو كان حسابهم عليك، لو كانوا فعلوا في الباطن شيئاً أمكن أن تطردهم؛ لئلا يكون فعلوه في الباطن[١]. لكن لو فرضنا أنهم فعلوا في الباطن غير طيب فحسابهم عليهم لا عليك، فأي موجب تطردهم عليه، فعلى كل حال فقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ قولًا واحداً منصوب في جواب النفي؛ لأنها فاء السببية بعد النفي نحو ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾[٢] [فاطر: آية ٣٦] ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه معطوف عليه ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بسبب طردهم.

الثاني: أنه في جواب ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ فتكون من الظالمين. وأن الجملة اعتراضية بين هذا وهذا.

والطرد: الإبعاد.

والظالمون: قد قدمنا أن معناه وَضع الشيء في غير موضعه[٣]. ومن طَرَدَ مسلماً طيباً كريماً يستحق التقدير والإحسان على خَاطِرِ خبيثٍ خسيسٍ - يستحق الطرد - فقد وضع الأمر في غير موضعه، حيث طرد من يستحق القُرْب على خاطرِ من يستحق البُعد؛ ولذا قال: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

[٤]وهذه القضية أجرىٰ الله العادة بأن الرؤساء يقولون للأنبياء: اطردوا هؤلاء النتنى الضعاف، لا نؤمن بكم ومعكم هؤلاء. والدليل على هذا: أن نوحاً - صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ نبينا - أول الأنبياء، قالوا له: ﴿مَا

---

(١) المعنى المُراد تقريره هو: لو كان حسابهم مُوَكَلًا بك فوقع منهم شيء في الباطن فلك أن تطردهم لأجل ما وقع منهم في الباطن.

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٢٩٦).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٤) مضى قريباً.

نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ [هود: آية ٢٧] وطلبوا منه أن يطردهم؛ ولذا قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: آية ٢٩] وقال في شأنهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ [هود: آية ٣٠] وقال في هذا في سورة الشعراء: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: آية ١١١] وبينوا له أن أعمالهم رياء ـ كما قال هؤلاء في أصحاب النبي ـ فقال نوح: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ١١٢ ـ ١١٣] ليس علي من حسابهم من شيء، ولا عليهم من حسابي من شيء، ثم قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الشعراء: آية ١١٤] لا أطردهم أبداً. فالقصة شبيهة بالقصة؛ ولذا قال هنا: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٥/أ / ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٥٣ ـ ٥٥].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: آية ٥٣].

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: وكذلك الفتون المتقدم الذي فتن الله فيه أغنياء العرب ورؤساءهم فتنهم بضعفاء المسلمين حيث احتقروهم، وأبوا أن يجالسوا النبي ﷺ وهم معه في المجلس، وقالوا له: اطردهم عنا، فإنّا لا نرضى أن نجلس معهم. حتى أنزل الله في ذلك ما أنزل.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما فتن هؤلاء الأغنياء بهؤلاء الفقراء، كذلك فتنا بعضهم ببعض، فالله يفتن بعض الناس ببعض، يفتن الغني بالفقير، والفقير بالغني.

وقد قدمنا مراراً أن الفتنة أُطلقت في القرآن ثلاثة إطلاقات، وبعضهم

يقول: أربعة إطلاقات[(١)]، أما الإطلاقات الثلاث الذي لم يخالف فيها أحد:

فمنها إطلاق الفتنة على (الاختبار)، وهو أشهرها في القرآن.

ومنها إطلاق الفتنة على (الإحراق بالنار)؛ لأن العرب تقول: فتنت الذهب، إذا سبكته في النار وأذبته، أي: ليتبين أخالص هو أم زائف. ومن إطلاق الفتنة على مطلق الوضع في النار قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾ [الذاريات: آية ١٣] أي: يحرقون بالنار ـ والعياذ بالله ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: آية ١٠] أي: أحرقوهم بنار الأخدود على أصح التفسيرين.

وكذلك تطلق الفتنة على نتيجة الاختبار إن كانت سيئة خاصة، كالمعاصي والكفر، فإن الكفار والعصاة اختبرهم الله بالأوامر والنواهي، فكانت نتيجة الاختبار فيهم غير محمودة حيث كفروا وعصوا؛ ولذا يُطلق اسم (الفتنة) على الكفر والمعاصي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: آية ١٩٣] أي: حتى لا يبقى شرك. وهذا أصح التفسيرين، والدليل على صحة هذا التفسير: قوله ﷺ: «**أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله**»[(٢)]. فغاية «**حتى يشهدوا أن لا إله**

---

(١) انظر: المفردات (مادة: فتن) ص٦٢٣، نزهة الأعين النواظر ص٤٧٧، إصلاح الوجوه والنظائر ص٣٤٧.

(٢) هذه الجملة وردت في عدة أحاديث رواها عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة منهم:

١ ـ ابن عمر (رضي الله عنه)، عند البخاري في الإيمان، باب: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] رقم (٢٥)، (٧٥/١)، ومسلم في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله. حديث رقم (٢٢)، (٥٣/١).

٢ ـ أبو هريرة (رضي الله عنه)، عند البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة، حديث رقم (١٣٩٩)، (٢٦٢/٣)، ومسلم في الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. حديث رقم (٢٠، ٢١)، (٥١/١، ٥٢).

٣ ـ جابر (رضي الله عنه)، عند مسلم في الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ورقمه في الباب (٣٥)، (٥٣/١).

٤ ـ أنس (رضي الله عنه)، عند البخاري في الصلاة، باب: فضل استقبال القبلة، حديث رقم (٣٩٢)، (٤٩٧/١).

=

إلا الله» في هذا الحديث الصحيح يفسر الغاية في قوله: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ﴾ أي: لا يبقىٰ أحد إلا وهو يشهد أن لا إله إلا الله على أظهر التفسيرين، وخير ما يُفسر به القرآن بعد القرآن: السنة الصحيحة؛ لأن النبي ﷺ قيل له: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: آية ٤٤] فالسنة بيان للقرآن.

الرابع: إطلاق الفتنة بمعنىٰ (الحجة)، كما قاله بعض العلماء في قوله المتقدم: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ﴾ [الأنعام: آية ٢٣] أي: حجتهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ على القول بذلك.

والمراد بالفتنة في هذه الآية التي نحن بصددها: الاختبار والابتلاء. أي: ﴿فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ﴾ أي: اختبرنا وابتلينا بعضهم ببعض. فالأغنياء يُبتلون بالفقراء، والفقراء يُبتلون بالأغنياء، وقد بين الله في سورة الفرقان: أن هذا الابتلاء يحتاج إلى صبر، وأن لله فيه حكمة كما قال: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٍ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: آية ٢٠] غالباً الأغنياء يُبتلون ويُفتنون بما يعطيه الله للفقراء من الدين والإيمان بالله (جل وعلا)، والفقراء غالباً يُبتلون بما يعطيه الله للأغنياء من الدنيا، فيقول الفقراء: كيف أُعطي هؤلاء الغنى والدنيا، ونحن خير منهم ولم نعطها؟ ويحسدونهم على غناهم، كما أن الأغنياء يقولون: كيف يكون هؤلاء الفقراء على حق ودين ويكونون أفضل منا ونحن خير منهم؟

وهذا النوع من الابتلاء هو المقصود هنا. أي: جعلنا فقراء المسلمين ابتلاءً وامتحاناً لأغنياء الكفار، حيث قالوا: هؤلاء الضعفاء كيف يعبأُ الله بهم وهم لا جاه لهم ولا مكانة؟ والله لا يعبأُ الله بهم، ولو كان ما هم عليه فيه خير لكنا سابقين إليه؛ لأنَّا أفضل منهم وأولىٰ منهم بكل خير.

= ٥ ـ النعمان بن بشير (رضي الله عنه)، عند النسائي في تحريم الدم، حديث رقم (٣٩٧٩)، (٧/٧٩ ـ ٨٠).

٦ ـ أوس بن حذيفة (رضي الله عنه)، عند النسائي في تحريم الدم الأحاديث (٣٩٨٠ ـ ٣٩٨٣)، (٧/٨٠ ـ ٨١).

كما قال تعالى عن الكفار في هذا الموضوع: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: آية ١١] وكما قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم: آية ٧٣] أينا أحسن مجالس وأكثر غنىً وأثاثاً؟ يعنون: أنّا أفضل منكم، ولو لم نكن أفضل عند الله منكم في الآخرة لما فضلنا عليكم في الدنيا!! يقيسون الدنيا على الآخرة، ويحتقرون المسلمين، ويحلفون أن هؤلاء الضعفاء لا يرحمهم الله، ولا يعبأُ بهم لسقوط مكانتهم فيما يظنون. كما يأتي في الأعراف في قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: آية ٤٩] وكانوا إذا رأوهم يحتقرونهم، ويسخرون منهم، ويغمز بعضهم بعضاً فيقولون: هؤلاء الضعفاء الفقراء، والأعبُد الموالي الذين لا يعبأُ بهم أحد، هم الذين يقول محمد ﷺ: إن لهم عند الله المكانة العظيمة، وأنهم خير منا، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [المطفيفين: آية ٣٠] أي: يغمز بعضهم بعضاً احتقاراً لضعفاء المؤمنين، كانوا يسخرون منهم في دار الدنيا، ويتغامزون عليهم، ثم إنه يوم القيامة يكون أولئك الضعفاء في أعلىٰ عليين، ويسخرون في ذلك الوقت من الذين كانوا يسخرون منهم، كما في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [البقرة: آية ٢١٢] وقد نص الله تبارك وتعالىٰ في السورة الكريمة ـ سورة الصافات ـ علىٰ أن أهل الجنة يمكنهم أن ينظروا أهل النار، وقد يتكلمون مع بعضهم، كما جاء في قصة ذلك الرجل المقصوص خبره في الصافات، وذلك كما بينه المفسرون[1]: أنه كان رجلان شريكين في تجارة كثيرة، ثم اقتسما، وأخذ كل منهما نصيبه، وأحدهما مؤمن، والثاني كافر، وكان المؤمن ينصح الكافر للدين، والكافر يرشد المؤمن إلىٰ الكفر وإنكار البعث ـ والعياذ بالله ـ فتزوج الشريك

(١) انظر: ابن جرير (٢٣/٥٩)، وأورد السيوطي في الدر (٥/٢٧٥ ـ ٢٧٦) روايات متعددة في هذا المعنى.

الكافر امرأة حسنة جميلة، وأعطاها مالًا طائلًا، فقال شريكه المؤمن: اللهم إن فلاناً تزوج امرأة جميلة، وأعطاها كذا وكذا، وإني أخطب إليك من نساء الجنة بمثل المهر الذي تزوج به، وتصدق بقدر ذلك المهر. ثم إن فلاناً ـ الكافر ـ اشترىٰ بساتين وضياعاً، فقال أيضاً صاحبه: اللهم إن فلاناً اشترىٰ كذا وكذا بكذا، وإني أشتري منك في الجنة بذلك الثمن، فتصدق بالثمن علىٰ الفقراء والمساكين. حتى افتقر ذلك المؤمن، وجاء لشريكه الكافر يطلب أن يكون عنده أجيراً، فامتنع أن يشغله، ولامه ووبخه، فدخل ذلك المؤمن الجنة وذلك الكافر النار، وكان ذلك المؤمن يتحدث [مع] جلسائه [في][1] الجنة، وقال لهم: كان لي في الدنيا صديقٌ صاحِبٌ من أمره كيت وكيت، فاطَّلِعوا معي لنرىٰ حاله وما هو عليه في النار، فأخبروه أنهم لا يعرفونه معرفة سابقة، ولا حاجة لهم فيه، وأنه هو إن شاء يطّلع لينظر إليه، فاطّلع فرآه في النار، وقال له ذلك الكلام الذي ذكره الله في الصافات، أشار الله إلى هذه القصة بقوله في أهل الجنة: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ إنكاراً للبعث ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ إنّا لمُجازَوْن؟ لا يكون ذلك. إنكاراً منه للبعث ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ يعني: مطلعون معي في النار لنشرف على حاله ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات: الآيات ٤٨ ـ ٥٧].

ومعنىٰ قوله (جل وعلا) هنا: ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: جعلنا بعضهم فتنة لبعض، كما جعل الله فقراء المسلمين الضعفاء، الذين ليس لهم مال ولا جاه في ذلك الوقت، كبلال، وعمار، وصهيب، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك من الفقراء، الذين ليسوا أصلًا من قريش، ولا مال عندهم، فتن الله بهم أولئك الأغنياء. كأن الله (جل وعلا) قال: إنه من حكمته

(١) في الأصل: «في جلسائه في الجنة». وهو سبق لسان.

أن يفتنهم بهم ليقولوا هذا القول محتقرين لهؤلاء، ليسوا عارفين بحقيقة الأمر ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ لأجل أن يقولوا. أي: أن يقول أولئك الأغنياء محتقرين لأولئك الفقراء إنكاراً: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنون: أهؤلاء المساكين الفقراء الذين لا يُعبأ بهم، ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ فأعطاهم المنّة العظمى، وهي التوفيق والإيمان لما يرضي الله جل وعلا، والفضل برضا الله (جل وعلا) عنهم، إنكاراً لهم أن الله يمنّ على الضعفاء في زعمهم أنهم أحق بذلك منهم، وأن الذي هم عليه لو كان حقاً لكان أولئك الأغنياء سابقين إليه. كما قال عنهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: آية ١١] وقال الواحد منهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: آية ٥٠] ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: آية ٣٦] ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: آية ٧٧] هذا كله جهل منهم، يظنون أن الله ما أعطاهم الغنى والجاه في الدنيا إلا لأنهم يستحقون ذلك، وأن لهم مكانة عند الله وشرفاً استحقوا به ذلك، والله (جل وعلا) كذبهم مراراً في هذه المقالة الكاذبة، قال: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم﴾ يعني: التي تفتخرون بها في الدنيا وتقيسون عليها الآخرة ﴿بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: آية ٣٧] وقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٥٥ ـ ٥٦] وبين أن ذلك استدراج من الله، كما قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٨٢ ـ ١٨٣] ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: آية ١٧٨] ولذا قال هنا: ﴿لِّيَقُولُوٓا۟﴾ محتقرين ضعفاء المسلمين ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الضعفاء الذين لا مكانة لهم، ولا مال، ولا جاه ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أي: أعطاهم المنّة العظمى برضاه، ودينه، وهداه ﴿مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ أي: لم يعطنا نحن ذلك؟ كما قال قوم صالح عنه: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر: آية ٢٤] إلى أن قالوا: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [القمر: آية ٢٥] أجاءه الوحي من الله من بيننا، ولم يكن أفضلنا ولا

أغنانا؟ هذا لا يمكن أبداً!! كما قال كفار مكة: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف: آية ٣١] صاحب مال وجاه؛ لأن محمداً ﷺ لم يكن عنده الغنى، وقد ردّ الله عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: آية ٣٢] لا وكلا؛ ولذا قال هنا: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ واللام هنا (لام كي)، وهي للتعليل، والله يبتلي الخلق ليقع منهم ما يشاء الله من خير وشر، وله في ذلك حكمة، وبيّن أنه يبتلي لينجح بعض الناس في ذلك الامتحان، ويسقط بعضهم في ذلك الامتحان، أوضح ذلك في سورة المدثر، حيث قال (جل وعلا) ـ لأنه لما جاء في القرآن أن خَزَنَة جهنم تسعة عشر ملكاً، كان هذا فتنة للكفار، حيث قالوا: كيف ونحن الآلاف المؤلفة يقهرنا تسعة عشر شخصاً؟ فقال لهم واحدٌ منهم كان قوياً: أنا أكفيكم منهم كذا وكذا ـ قدر سبع عشرة ـ وأنتم تقتلون الباقي فنحتل الجنة، وندخلها قهراً[1]!! ولذا قال الله ـ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾ ثم قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ثم بيّن نتيجة هذه الفتنة، وهذا الاختبار، وصرح بأن قوماً ناجحون فيه، وقوماً بعكس ذلك. قال: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ثم قال في غير الناجحين: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ كذلك قوله هنا: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ محتقرين ضعفاء المسلمين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ لا يمكن ذلك؛ لأن الله لو كان ما أعطاهم خيراً لأعطانا؛ لأنّا أولىٰ منهم وأعظم وأحق بالخير ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: آية ١١] رد الله عليهم هنا بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ هذا النوع من الاستفهام هو الاستفهام المسمىٰ بـ(استفهام التقرير) والمقصود من استفهام التقرير ليس السؤال عن شيء يفهمه السائل، بل المراد به: حمل المُخاطَب على أن يُقِر فيقول: «بلىٰ»، ولا يكون استفهام التقرير إلا في شيء لا يمكن أن

(١) انظر: ابن جرير (٢٩/١٥٩ ـ ١٦٠).

يُنازِع فيه، وإن كان يمكن فيه النزاع فالمُخاطَب يَعْرِفُ المخاطِبُ أنه لا ينازع في ذلك الشيء، وأنه مُقر به. فمثال الذي لا يمكن أن يكون فيه نزاع قوله هنا: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الجواب: بلىٰ، هو والله أعلم. ولا يمكن جواب غير هذا لأحد. أما الجواب الذي يمكن الخلاف فيه، إلا أن المخاطِب يعلم أن المخاطَب مُقرّ به ويكفيه ذلك عن غيره: فكقول جرير يمدح عبدالملك بن مروان[1]:

أَلَسْتُم خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وأَنْدىٰ العَالَمِيْنَ بُطُونَ رَاحِ

فهو يعلم أن الممدوح يعتقد هكذا، وإن كان غيره قد يخالف ويقول: ليسوا أندى الناس بطون راح.

وقوله: ﴿بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ هذه (الباء) التي تأتي بعد (ليس) وبعد (ما) النافية باطراد إنما فائدتها أنها تدل علىٰ توكيد النفي، فالنفي الذي تدخل فيه هذه (الباء) أوكد من غيره، فإن هذه (الباء) تؤكد الإسناد الخبري في حالة السلب، كما يُؤَكَّد الإسناد الخبري بـ(إن) و(اللام) في حالة الإثبات.

﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ جمع الشاكر. و(الشاكر): اسم فاعل الشكر، و(الشكر) أصله في لغة العرب: الظهور[2]. ومنه: ناقة شكور. يظهر عليها السِمن، ومنه سَمَّت العرب (العُسْلُوج) الذي ينبت في الشجرة التي كانت مقطوعة إذا ظهر فيها غصن جديد بعد أن لم يكن، قالوا: (شَكِير)؛ لأنه يظهر بعد أن لم يكن ظاهراً. هذا أصله في اللغة.

وهو في القرآن[3] يُطلق من الرب لعبده، ومن العبد لربه، كما قال في شكر الرب لعبده: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: آية ١٥٨] ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: آية ٣٤] وقال في شكر العبد لربه هنا: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: آية ٥٣] ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾

---

(١) انظر: الخصائص (٤٦٣/٢)، (٢٦٩/٣)، مغني اللبيب (١٦/١).

(٢)(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

[لقمان: آية ١٤] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء: آية ٣].

قال بعض العلماء: معنىٰ شكر الله لعبده: هو إثابته الثواب الجزيل من عمله القليل. ومعنىٰ شكر العبد لربه: هو أن يصرف العبد نِعم ربه فيما يرضي ربه.

فعلينا جميعاً أن نصرف نعم ربنا فيما يرضيه، فهذه العيون التي فتح لنا في أوجهنا علىٰ هذا الشكل الغريب شُكْرُها عند الله أن لا ننظر بها في شيء إلا في شيء يرضي مَنْ خَلَقَها ومنّ بها (جل وعلا). وهذه اليد التي فرّق الله أصابعها، وشدّ رؤوسها بالأظفار، شُكْرُ نعمة من أنعم بها أن لا نمدّها ولا نبطش بها إلا في شيء يرضي من خَلَقَها ومنّ بها. وهذه الرِّجْل التي جعلها الله للإنسان، يمشي عليها إلى حيث يشاء، شُكْرُ نعمتها أن لا يمشي بها الإنسان إلا إلى شيء يرضي من خَلَقَها ومنّ بها. وهكذا، فالجاه إذا منّ الله علىٰ إنسان بجاه وقبول كلمة فشُكْرُ هذا أن لا يستغل ذلك الجاه والنفوذ إلا في شيء يرضي من خَلَقَه ومنّ به، وكذلك الأموال، شُكْرُ المال أن لا يصرفه العبد ولا يفعل فيه إلا شيئاً يرضي خالقه (جل وعلا) الذي منّ به.

وفي[1] الحقيقة أن الإنسان يفعل أموراً يعرق منها الجبين، ويخجل منها العاقل؛ لأن هذا الإنسان المسكين الضعيف يمنّ عليه هذا الخالق الجليل العظيم بهذه النعم، ثم يصرف هذه النعم أمام ربه فيما يسخط ربه (جل وعلا) ويغضبه، فهذا أمر يعرق منه الجبين، وهو عظيم جداً، فعلىٰ المسلم أن يستحيي من ربه الذي خلقه وأنعم عليه، ويحترز من أن يصرف نعمة من نعم خالقه إلا في شيء يرضي خالقه (جل وعلا)، وعلىٰ الأقل إلا في شيء لا يُسخطِ مَنْ خلقه (جل وعلا) ويغضبه عليه.

هذا أصل شُكر العبد لربه كما قاله العلماء. وقد قدمنا معنىٰ الشكر

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

لغة[١]. ومادة «شكر» لها حالتان[٢]: قد تتعدّى إلى النعمة، وتعديها إلى النعمة تتعدىٰ إليها بنفسها بلا حرف بإطباق أهل اللسان العربي، كأن تقول: «شكرت نعمة زيد». ومنه قوله جل وعلا: ﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل: آية ١٩] أما إذا أوقعت الشكر علىٰ نفس المنعم، كأن ينعم عليك إنسان فتقول له: «أنا أشكر لك». فاللغة العربية الفصحىٰ هي تعديته باللام، ولا تكاد العرب تعديه بنفسه، تقول: «شكرت لك، وشكر الله لك». ولا تقول: «شكرتك». وتقول: «أحمد الله وأشكر له». ولا تقول: «أشكره». فاللغة الفصحىٰ هي تعدية (شكر) إلى المنعم باللام لا بالفعل بنفسه. [هذه][٣] هي لغة القرآن، وهي اللغة الفصحىٰ بإطباق أهل اللسان العربي، ولم يأتِ في القرآن مادة (الشكر) مُعدّاة إلىٰ المنعم إلا باللام، نحو قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾ ولم يقل: «أن اشكرني» ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: آية ١٤] ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: آية ١٥٢] ولم يقل: «واشكروني» فيُعدّيها للمفعول.

وظن قوم أن تعدية (شكر) إلى المنعم بالفعل نفسه لا بالحرف أنها لحن، وقالوا: (أشكره) لحن، و(شكرتك) لحن. والتحقيق: أنه ليس بلحن، وأنه لغة مسموعة في كلام العرب، إلا أن تعديته باللام أجود. ومن إطلاق مادة (الشكر) متعدية إلىٰ المنعم بنفسها لا باللام قول أبي نُخيلة[٤]:

شكرتُكَ إن الشكر حبلٌ من التُّقىٰ وما كل مَنْ أَوْلَيْتَهُ نعمةً يقضي

فإن هذا الشاعر العربي قال: «شكرتك». ومن هذا المعنىٰ قول جميل ابن معمر الشاعر المشهور، قال[٥]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز (٣/٣٣٤)، الدر المصون (١/٣٥٧)، (٢/١٨٤).
(٣) في الأصل: هذا.
(٤) البيت في عيون الأخبار (٣/١٦٥)، اللسان (مادة: شكر) (٢/٣٤٤).
(٥) ديوان جميل بن معمر ص١٠٢.

خَلِيْلَيَّ عُوْجَا اليومَ حتى تُسَلِّما على عَذْبَةِ الأنياب طيبة النَّشْرِ
فإنكما إن عُجْتُما لي ساعة شكرتُكما حتى أُغَيَّبَ في قبري

فقوله: «شكرتكما» لم يقل: «شكرت لكما» على هذه اللغة القليلة. وهذا معنى قوله: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٥٤].

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾ في هذين الحرفين[1] ثلاث قراءات سبعيات[2]: قرأه ابن عامر وعاصم: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بفتح همزة الحرفين، ووافقهما نافع في فتح الحرف الأول، وخالفهما فكسَر الثاني، فقراءة نافع: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ وقرأ: ﴿**فإنه غفور رحيم**﴾ فتحصّل من هذا: أن ابن عامر وعاصماً يفتحون الهمزة من (أن) في الحرفين، وأن نافعاً يفتحها في الأُولى ويكسرها في الثانية، وباقي السبعة يكسرها في الحرفين ﴿**كتب ربكم على نفسه الرحمة إنه من عمل منكم**﴾ ثم يقرؤون: ﴿**فإنه غفور رحيم**﴾ وكَسْر الحرفين قراءة بقية السبعة، وهم: ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم، هؤلاء كسروا الحرفين، وابن عامر وعاصم فتحوهما برواية أبي بكر شعبة وحفص معاً، ليس عن عاصم إلا الفتح فيهما، ونافع فتح الأول وكسر الثاني، والباقي منهم - وهم: أبو عمرو، وابن كثير، والكسائي، وحمزة ـ كسروا في الحرفين.

---

(١) المراد بالحرفين: الهمزة في قوله ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ﴾ والهمزة كذلك في قوله ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ﴾.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٩٤ ـ ١٩٥.

هذه هي قراءة السبعة في هذين الحرفين.

ومعنى الآية الكريمة ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ جمهور المفسرين(١) على أن المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هم الفقراء، فقراء المؤمنين الذين طلب الكفار طردهم وإبعادهم وقت مجالستهم للنبي ﷺ، فجمع الله لهم بين ثلاثة أشياء تدل على عِظَم مكانتهم، وعِظَم منزلتهم عند الله (جل وعلا)، وإن احتقرهم الكفرة الفجرة:

الأول: هو نهيه ﷺ عن أن يطردهم.

وشهادة الله لهم بالإخلاص والعبادة حيث قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

ونهى النبي عن طردهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ثم في سورة الكهف أمره بالصبر معهم، وأن لا يقوم حتى يقوموا ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ ونهاه أن يطيع الكفرة فيهم ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: آية ٢٨] ثم هنا أمره إذا جاؤوا أن يتلقاهم، ويُسلِّم عليهم، ويخبرهم بسعة رحمة الله (جل وعلا)؛ لتطمئن قلوبهم، ويُسروا بذلك. وعلى هذا فالمعنى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: وهم ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ إذا جاؤوك ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ فابتدرهم وسلم عليهم.

وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيه ثلاثة أوجه(٢):

أشهرها: أن النبي ﷺ أُمر بأن يُسلم عليهم مبتدئاً إياهم بالسلام.

القول الثاني: ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي من ربكم. وعلى هذا

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/٣٧٦ ـ ٣٨٠) (ولم يرجح هذا القول). وابن عطية (٦/٥٩) (وعزاه للجمهور) والقرطبي (٦/٤٣٥)، البحر المحيط (٤/١٣٩) والشوكاني (٢/١٢٤).

(٢) انظر: القرطبي (٦/٤٣٥)، البحر المحيط (٤/١٤٠).

التفسير فالله يُقرئهم السلام على لسان نبيه ﷺ لما احتقرهم أعداء الله.

الوجه الثالث: أن السلام من النبي ﷺ، وأنه ردٌّ لسلامهم عليه، وهذا لم يقم ما يدل عليه، فأشهرها: أن النبي أُمر بالتسليم عليهم.

ومعنىٰ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ ﴿سَلَٰمٌ﴾ هنا مبتدأ، و ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾ خبره، وإنما سوَّغ الابتداء به وهو نكرة: أنه مُشَمٌّ رائحة الدعاء[1]، وقد تقرر في فن العربية: أن النكرة إن كان فيها معنىٰ الدعاء بِخَيْر، نحو: (سلام)، أو بِشَرّ، نحو: (ويل لهم)، أنها يجوز الابتداء بها[2].

و ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ معناه: سلمكم الله من الآفات والمحذور.

وهذه تحية الإسلام، هي أكمل تحية وأفضلها؛ لأن معنىٰ (السلام عليكم): سلمكم الله (جل وعلا) من الآفات ومما يؤذيكم. وهي أحسن من تحية الجاهلية الذين كانوا يقولون: (حياك الله) فـ (السلام عليكم) أفضل من (حياك الله)، وإنما كانت أفضل منها لأن معنىٰ (السلام عليكم): سلمكم الله من كل ما يؤذي ومن جميع الآفات. ومعنىٰ (حياك الله) لا تزيد (حياك الله) على معنىٰ أطال الله حياتك؛ وهذا الدعاء لا يستلزم الفائدة؛ لأنه كم من إنسان تكون حياته ويلًا عليه، وضرراً عليه، ويكون يتمنىٰ الموت. وما كل حياة مرغوبة ولا مرغوب فيها، بل رُبَّ حياةٍ الموتُ خير منها، وهذا معروف في كلام العرب، وقد سمعتم بعض الناس من المتأخرين، وإن كان مثله يذكر للمثال لا للاستدلال يقول[3]:

ألا موتٌ يُباعُ فأشتريه فهذا العَيْشُ ما لا خير فيه

---

(١) انظر: البحر المحيط (١٤٠/٤)، الدر المصون (٦٤٩/٤).

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (١٦٩/١).

(٣) الأبيات للوزير المهلبي وهو في زهر الآداب (١٣٩/١ - ١٤٠)، صبح الأعشى (٤١/١)، قصص العرب (٢٦٤/٣)، معجم الأدباء (٩٧٧/٣)، وفيه بين البيتين بيت آخر وهو قوله:

إذا أبصرتُ قبراً من بعيد وددتُ لو أنني فيما يليه

ألا رحِمَ المُهَيمِنُ نَفسَ حُرٍّ تَصَدَّقَ بالوفاة على أخيه

فهذا الذي يطلب من يتصدق عليه بالموت لا يرغب في [الحياة][١] فلو قلت له: «حياك الله» لقال لك ـ البعيد ـ: «لا حياني الله»!! لأنه يرغب في الموت، بخلاف (السلام عليكم) فليس هذا معناه، ومن هذا المعنىٰ قول الأعشىٰ أو غيره في الأبيات التي اختُلف في قائلها[٢]:

المرءُ يرغبُ في الحيا ة وطول عيشٍ قد يضره
تفنىٰ بشاشته ويبـ قى بعد حلو العيش مُره
وتسوؤهُ الأيامُ حتـ ىٰ ما يرىٰ شيئاً يسره

فمن كان بهذه المثابة لا خير له في الحياة.

وقوله في هذه الآية: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ ليس يمكن لأحد أن يلزم الله شيئاً، ولكن الله يلزم نفسه ما شاء، ومعنىٰ إلزامه: أن يُخْبِر به، ووعده (جل وعلا) صادق لا يتخلف، فما وعد الله به فهو واجب الوقوع لازمه محتوم؛ لأن الله لا يخلف الميعاد، وقد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح من حديث أبي هريرة ما يدل علىٰ أن الله (جل وعلا): كتب في كتاب فهو عنده فوق عرشه: «**إن رحمتي غلبت غضبي**»[٣]، وسيأتي في قوله جل وعلا: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٦] فرحمة الله (جل وعلا) وسعت كل شيء، ولا يهلك على الله إلا هالك. ألا ترون ما يدل على نظائر كثيرة من هذا في القرآن؟

(١) في الأصل: (الموت) وهو سبق لسان.

(٢) هذه الأبيات نسبها بعضهم لمضرس بن ربعي، كما في (المعمرون والوصايا) لأبي حاتم كما تُنسب لأبي العتاهية، وهي في ديوانه ص١٠٤ وهي في الحماسة للبحتري ص٩٥ مع بعض الاختلاف في اللفظ.

(٣) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ...﴾ حديث رقم (٣١٩٤)، (٢٨٧/٦)، وأخرجه في مواضع أُخرى، انظر الأحاديث: (٧٤٠٤، ٧٤٢٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٣، ٧٥٥٤)، ومسلم، كتاب التوبة، باب: في سَعة رحمة الله تعالى. حديث رقم (٢٧٥١)، (٢١٠٧/٤).

تعلمون أنه لا أحد أشنع قولًا من الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، ومع هذه الفرية العظمىٰ، والوقوع في جَنَاب الله (جل وعلا) بهذا الأمر الهائل العظيم، فالله مع هذا يستعطفهم ويتلطف بهم للتوبة ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: آية ٧٤] ويأمر نبيه أن يخاطب الكفرة الفجرة ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: آية ٣٨] ومن أصرح ذلك: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ هذا خطاب موجه بخصوص المسرفين على أنفسهم دون غيرهم، يقول لهم الله: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: آية ٥٣] فأمرُ النبي ﷺ من خالق السماوات والأرض أن يوجه هذا الخطاب العظيم لخصوص المسرفين يدل علىٰ سعة رحمة الله جل وعلا ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ لم يقل: «الذين آمنوا»، ولا «الذين أخلصوا». خص به المسرفين علىٰ أنفسهم ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ الآية؛ ولذا قال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾ [الأنعام: آية ٥٤] على قراءة من قرأ: ﴿أَنَّهُۥ﴾ بفتح (أنه) هنا، وهي في هذا الحرف قراءة ابن عامر، وعاصم، ونافع. فالمصدر المنسبك من (أن) وصلتها يعرب بدلًا من الرحمة[(١)].

والمعنىٰ: كتب ربكم على نفسه الرحمة. معنىٰ هذه الرحمة: هي غفرانه لمن عمل منكم سوءاً. فقوله: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ مُفسّر لتلك الرحمة مُبين لها، فهو بدل منها، وعلىٰ قراءة من قرأ: **﴿إنه من عمل منكم سوءاً﴾** فهو على الاستئناف، قُطع مما قبله، وكان مستأنفاً[(٢)]، و (إنَّ) إذا كانت في ابتداء الجُمَل الاستئنافية كُسِرت. والضمير في (إنه) ضمير الشأن.

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ قال بعض العلماء: ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ هنا شرطية، وجوابها مقترن بالفاء. وقال بعضهم: هي موصولة، والمبتدأ إذا كان موصولًا اقترن خبره بالفاء، كما قدمناه مراراً.

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ السوء: هو كل ما يسوء صاحبه إذا رآه في صحيفته.

---

(١) انظر: القرطبي (٤٣٦/٦)، البحر المحيط (١٤١/٤)، الدر المصون (٦٥٠/٤).

والأعمال قد دل الكتاب والسنة على أنها أربعة أنواع[١]، كلها إذا عملها الإنسان على غير الوجه المشروع كان عاملًا سوءاً، والله (جل وعلا) يقول: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: آية ٣٠] أي: لكراهتها إياه.

العمل على أربعة أنواع، هي التي إذا عملها الإنسان على غير الوجه المشروع كان عمله عمل سوء:

منها: فعله ـ المعروف ـ الزنى والسرقة.

الثاني: فعل اللسان، فهو عمل، والدليل على أن قول اللسان من الأفعال: أن الله صرح أن قول اللسان من الأفعال في سورة [الأنعام][٢]، في قوله جل وعلا: ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: آية ١١٢] فأطلق على زخرف القول اسم (الفعل)، فدل على أن قول اللسان فعل. هذان قسمان: الفعل ـ المعروف ـ بأحد الجوارح، وفعل اللسان.

الثالث: العزم المُصَمِّم[٣]؛ لأن عزم الإنسان المُصَمِّم دلت السنة الصحيحة على أنه من الأفعال السيئة التي تُدخل صاحبها النار، والدليل على ذلك: ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي بكرة (رضي الله عنه): «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» قالوا: يا نبي الله قد عرفنا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»[٤]. فقولهم: ما بال المقتول؟ سؤال من الصحابة واستفهام عن إبراز السبب الذي دخل به المقتول النار، فبين النبي ﷺ جواباً مطابقاً للسؤال أن حرصه وعزمه

---

(١) انظر: نثر الورود (٧٨/١)، مذكرة أصول الفقه ص٣٨ ـ ٤٠.

(٢) في الأصل: (الأعراف) وهو سبق لسان.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٧٢٠/١٠)، فتح الباري (٣٢٤/١١ ـ ٣٢٩)، (١٩٧/١٢)، نثر الورود (٧٨/١)، مذكرة أصول الفقه ص٣٩.

(٤) البخاري، كتاب الديات، باب: قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا...﴾ حديث رقم (٦٨٧٥)، (١٩٢/١٢)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، حديث رقم (٢٨٨٨)، (٢٢١٣/٤).

المُصَمِّم على قتل أخيه هو السبب الذي أدخله النار. أما الهم الذي لم يكن عزماً مُصَمِّماً، فليس من الأفعال، كما قال جل وعلا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: آية ١٢٢] وإتباعه لذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ دل على أنه هَمٌّ لم يستقر، ولم يكن عزماً مَصَمِّماً حتى يُعد من الأفعال، ومن ذلك الهم - الذي ليس من العزم المُصَمِّم الذي هو من الأفعال - ما في الحديث: **«وإذا هم بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة»**[1] / ٥/ب
وإنما كُتبت له حسنة؛ لأنه تركها لوجه الله (جل وعلا)، فكان تركه إياها امتثالًا لأمر الله، وكانت بذلك حسنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: الآيتان ٤٠ - ٤١].

الرابع: هو الترك، والترك من الأفعال الحقيقية، فهو فعل على التحقيق[2]، وإن خالف فيه من خالف، فمن ترك الصلاة حتى ضاع وقتها فقد عمل بهذا الترك عملًا سيئاً يدخل به النار، وكان ابن السبكي في بعض

---

(١) هذه الجملة رواها عن النبي ﷺ ثلاثة من الصحابة:

الأول: أنس بن مالك (رضي الله عنه) في حديث الإسراء الطويل الذي أخرجه الشيخان وغيرهما. إلا أن هذه الجملة لم ترد في لفظ البخاري وإنما هي في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، وفرض الصلوات، حديث رقم (١٦٢)، (١٤٥/١).

الثاني: حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ حديث رقم (٧٥٠١)، (٤٦٥/١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب: إذا هم العبد بحسنة كُتبت، وإذا هم بسيئة لم تُكتب، حديث رقم (١٢٨ - ١٣٠)، (١١٧/١ - ١١٨).

الثالث: حديث ابن عباس (رضي الله عنه) عند البخاري، كتاب الرقاق، باب: من هم بحسنة أو بسيئة، حديث رقم (٦٤٩١)، (٣٢٣/١١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب: إذا هم العبد بحسنة كُتبت، وإذا هم بسيئة لم تُكتب. حديث رقم (١٣١)، (١١٨/١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨٢/١٤ - ٢٨٥)، القواعد والفوائد الأصولية ص٦٢، المسودة ص٨٠، المستصفى (٩٠/١)، شرح مختصر الروضة (٢٤٢/٢ - ٢٤٧)، شرح الكوكب المنير (٤٩١/١)، نشر الورود (٧٨/١)، مذكرة أصول الفقه ص٣٨ - ٤٠، أضواء البيان (٣١٧/٦).

تآليفه في الأصول يقول: طالعت كتاب الله لأجد فيه آية تدل على أن الترك فعل فما وجدت فيه شيئاً يدل على أن الترك فعل إلا شيئاً يفهم من آية في سورة الفرقان هي قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾ [الفرقان: آية ٣٠] قال: الاتخاذ أصله من الأخذ، والأخذ: التناول. فقال: تناولوه مهجوراً. فدل على أن الهجر فعل.

ونحن نقول: إنّا باتباع كتاب الله وجدنا آيات صريحة من كتاب الله تدل بصراحة لا شك فيها على أن الترك من الأفعال، منها: آيتان في سورة [المائدة][١]، ذكرناهما فيما مضى، إحداهما قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ۝٦٣﴾ [المائدة: آية ٦٣] فسمى عدم نهيهم وتركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سماه: (صُنْعاً)، والصُّنع أخص من مطلق الفعل، ومنه قوله تعالى في المائدة أيضاً: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ ثم قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: آية ٧٩] يعني به تركهم للتناهي عن المنكر، سماه (فعلاً) وأنشأ له الذم بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾. هذه الأقسام الأربعة هي الأفعال، واللغة العربية تدل على أن الترك من الأفعال، وقد قال بعض الصحابة لما أراد النبي ﷺ عند أول مجيئه لهذه المدينة مهاجراً عند بنائه هذا المسجد الكريم، كانوا يحملون المؤونة ليبنوه، وواحد جالس، فرأى النبيَّ ﷺ يعمل معهم، فقال راجزاً[٢]:

لئن قعدنا والنبي يعملُ لَذاكَ منا العملُ المُضَلَّلُ

فسمى تركهم للعمل سماه (عملًا مضللًا) وبهذا يُعلم أن قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ أن عمل السوء قد يكون بفعل أحد الجوارح، وقد يكون بفعل اللسان، وقد يكون بالعزم المصمم، كما قال النبي ﷺ: «**إنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»[٣]. وقد يكون بترك ما أوجبه الله جل وعلا.

---

(١) في الأصل: (الأنعام) وهو سبق لسان.

(٢) البيت في السيرة النبوية لابن هشام (٥٢٢/١)، نثر الورود (٧٩/١).

(٣) مضى تخريجه قريباً.

هذه الأعمال التي يعملها الإنسان سيئة.

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا﴾ السوء: كل عمل يسوء صاحبه إذا رآه في صحيفته يوم القيامة.

وقوله: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ الجار والمجرور في منزلة الحال. أي: حال كونه متصفاً بالجهالة. ولا يعصي الله أحد إلا هو متصف بجهالة؛ لأن المعاصي غالباً لا تحمل عليها إلا أغراض دنيوية عاجلة، ومن آثر هذا الغرض الدنيوي العاجل علىٰ ما عند الله (جل وعلا) فهو جاهل، وإن كان في الجملة يعلم أن فعله هذا حرام، وأنه عالم بما يأتي، فلا بد أن يكون جاهلًا من تلك الحيثية، وكل من وقع في أمر لا ينبغي تقول له العرب: «جاهل»[1]، و«وقع فيه بجهل»، وهو كلام معروف في كلام العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، ومن هذا المعنىٰ قول الشاعر[2]:

علىٰ أنها قالت عَشِيَّةَ زُرْتها جَهِلْتَ علىٰ عمد ولم تَكُ جاهلاَ

تعني أنه فعل ما لا ينبغي أن يفعل، وهذا معنىٰ قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾.

﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد ذلك العمل الذي عمل به السوء بجهالة ﴿تَابَ وَأَصْلَحَ﴾.

قوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ دليل على أن التوبة ليست قولًا باللسان مع الرجوع للمعاصي، هذا ليس كما ينبغي، بل يتوب توبة نصوحاً، ثم بعد ذلك يصلح ولا يرجع لما كان يعمل من السوء، وحذف مفعول (أصلح) لقصد التعميم، وأصلح جميع أقواله، وأفعاله، ونياته، وقصده، فلم يفعل إلا طيباً.

والتوبة عند العلماء تتركز على ثلاثة أُسس[3]، إذا اجتمعت كلها

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٢) البيت في مشاهد الإنصاف ص٩٣.

(٣) انظر: القرطبي (٩١/٥).

فالتوبة نصوح، وإذا اختل واحد منها فليست بتوبة نصوح:

أولها: أن يُقلع عن الفعل إن كان متلبساً به.

والثاني: أن يندم على الفعل الذي صدر منه ندماً شديداً ويأسف.

والثالث: أن ينوي أن لا يعود إلى الذنب حتى يعود اللبن في الضرع.

ومعلوم أن التوبة واجبة بإجماع المسلمين من كل ذنب يجترمه الإنسان، وتأخيرها ذنب يحتاج إلى توبة، والله أمر بها أمراً صارماً، قال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: آية ٣١] وقوله: ﴿تُوبُوٓاْ﴾ صيغة أمر واجبة، فالتوبة واجبة من كل ذنب بإجماع المسلمين. وقد بيّن (جل وعلا) أنها مظنة لغفران الذنوب حيث قال جل وعلا: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ وأتبع ذلك بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: آية ٨] فـ (عسى) من الله عظيمة تدل على أن من تاب توبة نصوحاً كفّر الله عنه سيئاته.

واعلموا أن العلماء مطبقون على أن التوبة تتركز على هذه الأشياء الثلاثة: الإقلاع عن الذنب إن كان متلبساً به، والندم على فعل الذنب، ونية أن لا يعود إلى ذلك الذنب.

ومعروف أن في أركان التوبة ـ هذه ـ إشكالات وسؤالات معروفة عند العلماء[1]، منها: أن الندم ركن من أركان التوبة بالإجماع، والتوبة واجبة بالإجماع، وركن الواجب واجب، فالندم على الذنب واجب إجماعاً، وهذا مما لا خلاف فيه، ومحل الإشكال في هذا الركن من أركان التوبة هو أن يقول المُسْتَشْكِل: أما الندم فإنه ليس من أفعال الإنسان الاختيارية، وإنما هو انفعال وتأثر نفساني، والانفعالات والتأثرات النفسانية ليست تحت قدرة البشر، وليست من أفعال البشر، وليست من عمل البشر باختيارهم حتى يُطلق عليها أنها واجبة، ونحن نشاهد هذا، ترى الرجل البائع المغبون إذا

---

(١) انظر: الأضواء (٢٠٦/٦).

باع وغُبِن في بيعه غبناً شديداً تراه في شدة الندم، وهو يتجلد ويحاول أن يدفع الندم عن نفسه فلا يستطيع، فهذا يبين أن الندم ليس من الأفعال الاختيارية، وإنما هو انفعال، وتأثر نفساني، وترىٰ الرجل ـ والعياذ بالله ـ إذا كان يعشق امرأة جميلة، بارعة في الجمال، إذا نال منها قبلة، إذا أراد أن يتندم يتخيل له خيال ذلك الجمال فينبسط إليه قلبه، ولا يستطيع الندم؛ فلذا كُنَّا نعاين الرجل قد يريد أن يندم ولا يندم، وقد يريد أن لا يندم فيندم، فالندم انفعال نفساني، وتأثر ليس من الأفعال الاختيارية، فكيف نقول: إنه واجب، وإنه ركن للواجب؟ هذا السؤال الأول.

والجواب عن هذا هو ما حققه بعض العلماء من أن الندم لا يعجز عنه الإنسان إلا إذا كان مسترسلًا مع النفس، محابياً لها فيما [لا] ينبغي[(١)]؛ لأن أسباب الندم قائمة بكثرة، متوفرة كل التوفر، ومن أخذ بالأسباب كان في استطاعته حصول المسبب[(٢)]، ذلك لأن عامة العقلاء يطبقون علىٰ أن الإنسان إذا قُدِّم إليه شراب في غاية الحلاوة واللذاذة، لا يوجد شراب أحلى منه، ولا ألذ، إلا أن هذا الشراب فيه سم قاتل فتاك، فعامة العقلاء لا يَسْتَحْلُون حلاوة هذا الشراب، ولا يلتذون بلذته، لما فيه من السم القاتل الفتاك، وحلاوة المعاصي ـ أعاذنا الله والمسلمين منها ـ تنطوي علىٰ السم القاتل الفتاك، وهو سخط رب العالمين وغضبه (جل وعلا)؛ لأن الإنسان لا يدري إذا سخط عليه ربه أن يهلكه في وقته، ثم يجعله في عذاب، فإذا عرف الإنسان أن حلاوة المعاصي تنطوي علىٰ السم القاتل الفتاك من سخط رب العالمين، وألزم نفسه بالحقائق، وعرف أنه تَعَرَّض لسخط خالق السماوات والأرض بلذة فانية، تنطوي على السم الفتاك من سخط رب العالمين، فالعاقل إذا أخذ هذه الأسباب على حقيقتها، ولم يجامل نفسه، ولم يُحابها، لا بد أن يندم، فبسبب كون أسباب الندم متيسرة، متوفرة، قائمة، وأن من أخذ بالأسباب غالباً يُحَصِّل المُسَبَّب، من هنا قيل: إن الندم واجب من هذه الحيثية.

---

(١) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر: البرهان للزركشي (٢/٢٠٣ ـ ٢٠٤)، قواعد التفسير (٢/٧٨٤).

الثاني: أن الإنسان قد يتوب إلى الله توبة نصوحاً، ويحاول الإقلاع عن الذنب، ولكنه يكون تمادي فعله الأول متمادياً[(١)] لا يقدر على نزعه، فهل يكون تائباً؛ لأنه فعل مقدوره، أو لا يكون تائباً؛ لأنه لم يُقلِع[(٢)]؟ ومن أمثلة هذا عند العلماء: رجل كان مبتدعاً، وبث بدعته في الناس، حتى طار بها أتباعه في مشارق الأرض ومغاربها، وجنوبها وشمالها، وبقوا على ذلك البدعة، ومعلوم أن من سَنّ سُنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، وأعمال أولئك من ذنوبه؛ لأنه سنّها لهم، والله يقول في رؤساء الضلال الذين يسنون البدع والضلالات: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: آية ١٣] ويقول فيهم: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: آية ٢٥] هذا المبتدع الذي طارت بدعته في مشارق الأرض ومغاربها، ففسادها منتشر، إذا عرفنا أنه كان مبتدعاً وراجع التوبة، هل نقول: هو تائب توبة مستكملة الشروط؛ لأنه فعل قدر ما يقدر عليه؟ أو نقول: ليس بتائب؛ لأنه لم يقلع؛ لأن شر فعله باق متماد في مشارق الأرض ومغاربها؟ ومن هذا المعنى: إذا غصب الرجل أرضاً نحو عشرين كيلًا مربعاً، ثم ندم على الغصب وأراد أن يخرج منها، لو أدركه الموت وهو ماش خارجاً منها، هل نقول: مات تائباً؛ لأنه فعل قدر ما يستطيع؟ أو نقول: لم يمت تائباً؛ لأنه أخذ الأرض بغير وجه شرعي، ومات وجرمه باق فيها: سالب أرضاً لغيره؟ وكذلك الإنسان، إذا رمى إنساناً بسهم من بعيد، فلما فارق السهم الرمية تاب وأقلع قبل أن يصيب السهم المرمي، فلو فرضنا أن هذا الإنسان عندما رمى السهم، والسهم في الهواء، وأقلع وتاب إلى الله توبة نصوحاً، فأخذه أحد وقطع رأسه قبل أن يصل السهم إلى المرمي، فنقول: هل مات تائباً؛ لأنه فعل قدر ما يقدر عليه؟ أو نقول: لم يتب؛ لأنه لم يقلع؛ لأن شر فعله باقٍ متماد؟ ولهذا نظائر كثيرة.

---

(١) أي: أن تأثيره باق مستمر.

(٢) انظر: الموافقات (٢٣١/١)، نشر الورود (٢١٥/١).

للعلماء في هذا الأخير وجهان، كما هو مقرر في الأصول، وأظهر القولين وأجراهما علىٰ قواعد الشرع: أنه تائب، وأن توبته كاملة؛ لأنه فعل قدر طاقته، وما عجز عنه فهو معفو؛ لأن النبي ﷺ يقول: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»[1]. والله يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: آية ١٦] هذا هو الظاهر. وهذا معنىٰ قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ إصلاحه لعمله يأتي بثلاثة أشياء[2]، إذا تحصلت هذه الأشياء كان عمله صالحاً، وإذا اختلتْ أو واحد منها كان العمل غير صالح.

أولها: أن يكون عمله مطابقاً لما جاء به محمد ﷺ؛ لأن الله مَلِك لا يقبل أن يُتقرب إليه إلا تقرباً مطابقاً لما شرع، والله يقول: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: آية ٢١] ويقول الله جل وعلا: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: آية ٧] ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: آية ٨٠] ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ الآية [آل عمران: آية ٣١] هذا هو الأول من الثلاثة.

الثاني: أن يكون العبد الذي جاء بذلك العمل ـ مطابقاً لما جاء به النبي ﷺ، أن يكون ـ فيما بينه وبين الله ـ في نيته التي لا يطّلع عليها إلا الله. أن يكون مخلصاً لله؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: آية ٥] ويقول: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١)﴾ [الزمر: آية ١١] فمن عبد بغير إخلاص جاء بما لم يُؤمر به؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: آية ٥].

الثالث: من هذه الأمور الثلاثة: أن يكون ذلك العمل ـ الذي وقع بإخلاص، مطابقاً للشرع ـ أن يكون مبنياً على أساس التوحيد والإيمان

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ حديث رقم (٧٢٨٨)، (٢٥١/١٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر، حديث رقم (١٣٣٧)، (٩٧٥/٢)، وفي كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، ورقمه في كتاب الفضائل (١٣٠)، (١٨٣٠/٤ ـ ١٨٣١).

(٢) انظر: أضواء البيان (٣٥٢/٣ ـ ٣٥٣).

الصحيح، والعقيدة الصحيحة؛ لأن العقيدة كالأساس، والعمل كالسقف، فإذا وجد السقف أساساً ثبت عليه، وإن لم يجد أساساً انهار؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: آية ١٢٤] فجعل الإيمان قيداً في ذلك العمل، وبيّن مفهوم قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أن العامل لو كان غير مؤمن فعمله لا فائدة فيه، كما قال في أعمال غير المؤمنين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: آية ٢٣] ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ [إبراهيم: آية ١٨] ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ [النور: آية ٣٩] وقوله جل وعلا: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: آية ١٦] إلى غير ذلك من الآيات، وهذا معنىٰ قوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: آية ٥٤] على قراءة: ﴿فإنه غفور رحيم﴾[1] فالهمزة مكسورة للاستئناف.

وعلىٰ قراءة ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو خبر مبتدأ محذوف، وتقرير المعنىٰ: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ﴾ أي: فله غفران الله (جل وعلا)؛ لأن المصدر المنسبك من (أن) وصلتها يُسبك من لفظ باسم المُسْتَقِلَّيْنِ فيها، أي: الفعل، فمعنىٰ ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فغفران الله، أي: فله غفران الله ورحمته (جل وعلا)، وهذا أظهر الوجهين، واختاره سيبويه، خلافاً لمن قدّره مبتدأ لخبر محذوف؛ لأن حذف المبتدأ أكثر من حذف الخبر. وغلط من قال: إنه معطوف على (أنه) الأولى؛ لأن العطف لا يصح هنا؛ لأن بينهما أداة شرط، ولو قلنا إن (مَنْ) موصولة، وجعلناه معطوفاً، لم يبق هنالك خبر للمبتدإ الذي هو (مَنْ)، فكونه عطفاً على (أن) الأولى لا يصح، وإن غلط فيه جماعة[2].

ومعنىٰ قوله: ﴿غَفُورٌ﴾ أي: كثير المغفرة لعباده ﴿رَّحِيمٌ﴾ يرحم عباده (جل وعلا)، والرحيم: مختص بالمؤمنين في الآخرة، كما بيّناه

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٣ ـ ٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: القرطبي (٤٣٦/٦)، البحر المحيط (١٤١/٤)، الدر المصون (٦٥٠/٤ ـ ٦٥٤).

في البسملة[١]، وكما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: آية ٤٣].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: آية ٥٥] في هذا الحرف ثلاث قراءات سبعيات[٢]: قرأه من القراء نافع وحده: ﴿**ولِتَسْتَبينَ سبيلَ المجرمين**﴾ بالتاء في ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ ونَصْبِ (سبيلَ المجرمين)، وعلىٰ هذه القراءة فـ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ تاؤه تاء خطاب والفاعل محذوف لزوماً، تقديره: أنت. وعليه فالمعنىٰ: ولتستبين أنت يا نبي الله سبيلَ المجرمين.

وقرأه حمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم: ﴿**وليستبينَ سبيلُ المجرمين**﴾ بالياء وضم (السبيلُ)، علىٰ أن (السبيل) مذكر ﴿**وليستبينَ سبيلُ المجرمين**﴾ و(السبيلُ) يُذكر ويُؤنث[٣]، وتذكيره لغة التميميين وغيرهم من أهل نجد. وعلىٰ لغة التذكير قراءة حمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم في قوله هنا: ﴿**وليستبينَ سبيلُ المجرمين**﴾ أي: يظهر ويتضح طريق **المجرمين**. ومن تذكير (السبيل) قوله في الأعراف: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: آية ١٤٦] بتذكير (السبيل).

وقرأ باقي السبعة، وهم: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم، قرأ هؤلاء: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بالتاء في (تستبين) ورفع (السبيلُ)، على أن ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فاعل (تستبين) وأن (السبيل) مؤنثة، وتأنيث (السبيل) كهذه القراءة كقوله في سورة يوسف: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ [يوسف: آية ١٠٨] ولم يقل: هذا سبيلي.

---

(١) انظر: الأضواء (١/٤٠).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٩٥، حجة القراءات ص٢٥٣، تفسير ابن جرير (١١/٣٩٥).

(٣) انظر: ابن جرير (١١/٣٩٦)، القرطبي (٦/٤٣٧)، الدر المصون (٤/٦٥٥)، بصائر ذوي التمييز (٣/١٨٥).

فتحصّل أن قراءة التاء ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ رفع بعدها - غير نافع - (السبيل) فقالوا: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾أي: لتظهر وتتضح طريق المجرمين. والتاء في قراءة هؤلاء: هي تاء المؤنثة، كما تقول: «تستبين هند وتقوم فلانة». و«تستبين السبيل» على أنها مؤنثة.

أما علىٰ قراءة نافع: فالتاء في (تستبين) تاء خطاب ليست تاء تأنيث، والفاعل غير (السبيل)، مضمر، أي: ولتستبين أنت يا نبي الله سبيلَ المجرمين.

و (استبان) تأتي لازمة ومتعدية[1]، (استبان) و (أبان) و (تبيّن) هذه الأفعال الثلاثة من المزيد من (بان) تأتي في لغة العرب لازمة ومتعدية، أما (استبان) فقد جاءت لازمة على قراءة الجمهور، مَنْ قرؤوا: **﴿وليستبينَ سبيلُ المجرمين﴾** ومَنْ قرؤوا ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ على قراءتهم كلهم فـ (تستبين) هنا لازمة، و (سبيل المجرمين) فاعل، ولا مفعول للفعل، أما علىٰ قراءة نافع: ففعل الاستبانة هنا متعد إلىٰ المفعول؛ لأن المعنىٰ: ولتستبينَ أنت سبيلَ المجرمين، أي: تتبينها وتعرفها. فهاتان القراءتان فيهما مثال للزوم (استبان) ولتعديها.

ونحو (استبان): (أبان) و (بَيَّن) فالعرب أيضاً تستعمل (أبان) لازمة، تقول: «أبان هذا الأمر واتضح». بمعنىٰ: ظهر. وتستعملها متعدية للمفعول، تقول: «أبان زيد كلامه، وأبان الله الأمر الفلاني». كما هو معروف، ومن إتيان (أبان) لازمة: يكثر في القرآن اسم فاعلها ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [المائدة: آية ١٥] و (الكتاب المبين) هو من (أبان) اللازمة. ومن إتيان فاعل (أبان) اللازمة: قول كعب بن زهير في بانت سعاد[2]:

قنواءُ في حُرَّتيها للبصير بها   عتقٌ مبينٌ وفي الْخدينِ تَسْهيلُ

(مبين): اسم فاعل (أبان) اللازمة، بمعنىٰ: بيّن ظاهر. ومن إتيان

---

(١) انظر: الدر المصون (٤/٦٥٥)، الأضواء (٦/٢٢٤).

(٢) شرح قصيدة كعب بن زهير، لابن هشام ص٢١٠.

(أبان) لازمة: قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي[١]:

لـو دبَّ ذرٌّ فـوقَ ضـاحـي جِـلْـدِهـا لأبــان مــن آثــارهــن حُــدورُ

يعني: لظهر من آثار النمل حُدور، أي: ورم. و (أبان) لازمة، وفاعلها: الحدور، ولا مفعول لها، ومنه قول جرير[٢]:

إذا أبــاؤنَــا وأبــوكَ عُــدُّوا أبان الـمُـقْـرِفَـاتِ[٣] من العِـرَاب[٤]

أي: ظهر وتبين المقرفات من العِراب، وكذلك (بَيَّن) تأتي لازمة في كلام العرب، ومنه المثل: (قد بَيَّنَ الصبحُ لذي عينين)[٥] معناه: بيّن الصبح، أي: بان وظهر وتبين. ومنه بهذا المعنىٰ قول قيس بن ذُريح في رواية الجمهور[٦]:

ولـلـحُـبِّ آيـاتٌ تَـبَـيَّـنُ بـالـفـتـى شحوبٌ وتعرىٰ من يديه الأصابع[٧]

فرواية الجمهور، فيمن روىٰ بيت ابن ذُريح هذا يرويه: (شُحوبٌ) بالضم، والمعنىٰ: وللحب آيات تبين بالفتى، أي: تظهر وتلوح بالفتىٰ. ما هذه الآيات؟ شحوب وتعرى من يديه الأصابع. وروىٰ بيت ابن ذريح هذا ثعلب، رواه ثعلب:

ولـلـحـب آيـاتٌ تُـبَـيِّـنُ بـالـفـتـىٰ شـحـوبـاً...............

بالنصب[٨] وعلى هذه الرواية فلا شاهد في البيت. ومن إتيان (بيّن)

---

(١) البيت في اللسان (مادة: بين) (١/٣٠٢).
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.
(٣) جمع (مُقْرِف) وهو من الفرس وغيره: ما يُداني الهُجْنَة، أي أُمه عربية لا أبوه. انظر: القاموس (مادة: القِرْف) (١٠٩١).
(٤) العراب: هي التي عتقت وسلمت من الهُجنة. انظر: القاموس (مادة: العُرب) (١٤٥).
(٥) انظر: الأمثال لأبي عبيد ص٥٩، معجم الأمثال العربية (٣/٢٦٠).
(٦) البيت في اللسان (مادة: بين) (١/٣٠٢).
(٧) في اللسان: الأشاحم.
(٨) انظر: المصدر السابق.

لازمة قول جرير(١):

رأى الناسُ البصيرة فاستقاموا ... وبيَّنَت المراضُ من الصحاح

يعني: ظهرت وتبينت. وقوله يهجو الفرزدق(٢):

وجُوه مُجاشع طُليت بلؤمٍ ... يبين في المُقلد والعذار

ومعنىٰ الآية الكريمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ وكذلك التفصيل الذي فصلنا لك فيه آيات هذه السورة الكريمة مما كنا نُفَصِّل، كذلك التفصيل والبيان الواضح نُفصل آيات القرآن في كل ما يحتاج إليه الخلق من أمور دينهم وفي كل إبطال المقالات الباطلة التي يأتي بها الخصوم ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: آية ٣٣].

وقوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ - على قراءة الجمهور من (استبان) اللازمة - معناه: ولتظهر طريق المجرمين. و(المجرمون) جمع (المجرم)، و(المجرم): اسم فاعل (الإجرام)، و(الإجرام): ارتكاب الجريمة، و(الجريمة): الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه النكال، تُستعمل مادته رباعية وثلاثية، تقول: «أجرم»، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ [المطففين: آية ٢٩] وتقول: «جرم الذنب، فهو جارم»، ففاعل الثلاثية: (جارم) علىٰ القياس، وفاعل الرباعية (مجرم) علىٰ القياس، ومن إطلاقه ثلاثياً قول الشاعر(٣):

ونَنْصُرُ مولانا ونَعْلَمُ أنَّه ... كما الناسِ مَجْرومٌ عليه وجَارِمُ

لأن (المجروم) و(الجارم) اسم مفعول، واسم فاعل لجرم الثلاثية إذا ارتكب الجريمة(٤).

وقوله هنا: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولتظهر طريق المجرمين،

---

(١) ديوان جرير (١/٩٠)، الأضواء (٦/٢٢٥).
(٢) ديوان جرير ص١٤٦، الأضواء (٦/٢٢٥).
(٣) البيت لعمرو بن براقة. وهو في الأمالي (٢/١٢٢).
(٤) انظر: اللسان (مادة: جرم) (١/٤٤٥)، المصباح المنير (مادة: جرم) ص٣٨.

وعلىٰ قراءة نافع: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ لتستبين يا نبي الله طريق المجرمين وتبينها وتعلمها. والنبي وإن كان عالماً بسبيل المجرمين فإنه يشرع على لسانه لأمته، فيخاطب ليشرع على لسانه لأمته كما بيّنا[١].

وفي هذه الآية الكريمة سؤالان معروفان:

أحدهما: في الواو، واو ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ علامَ عطف، وبمَ يتعلق[٢]؟

الثاني: لم خَص سبيل المجرمين، ولم يذكر سبيل المؤمنين[٣]؟

الجواب عن الأول: أن الواو في قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تتعلق بمحذوف، واختلفوا في تقديره، قال بعضهم: هو مُقدر بعدها وتقرير المعنىٰ: ولأجل أن تستبين سبيل المجرمين فصلنا لك هذا التفصيل. أي: ولأجل استبانتها فصلنا. وقال بعض العلماء: هو معطوف على علّة محذوفة، فدل المقام عليه: وكذلك نفصل الآيات لنبين لكم، ولتستبين سبيل المجرمين.

أما الجواب عن السؤال الثاني: وهو لِمَ خص سبيل المجرمين؟ فللعلماء عنه جوابان:

أحدهما: أن سبيل المجرمين إذا عُرفت عُرفت منها سبيل المسلمين؛ لأن الأشياء تُعرف بأضدادها، وإذا عرف الإنسان الشر عرف أن مقابله هو الخير، وكان حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) ـ كما ثبت عنه في الصحيحين ـ يسأل عن الشر ليعرفه، ومعرفة الشر على هذا طيبة يعلمها الناس ليتجانبوها ويعلموا أن ما سواها هو الخير، كما ثبت في الصحيحين عن حذيفة (رضي الله عنه): كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير،

---

(١) انظر: القرطبي (٦/٤٣٧)، البحر المحيط (٤/١٤١) وانظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٩٠) من هذه السورة.

(٢) المصدران السابقان، الدر المصون (٤/٦٥٦).

(٣) المصادر السابقة.

وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني(١).

قال بعض العلماء: في الآية هنا حذف الواو وما عَطَفَت، أي: لتستبين سبيل المجرمين وسبيل المؤمنين. قالوا: ومنه ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: آية ٨١] أي: والبرد ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: آية ١٣] أي: [وما تحرك](٢)، وحَذْف الواو وما عَطَفَت إن دل المقام عليه معروف في كلام العرب، وإليه أشار ابن مالك في الخلاصة بقوله(٣):

والفَاءُ قد تُحذف مع ما عَطَفَتْ والــواوُ إذْ لا لَــبْــسَ.....

يعني: وكذلك الواو تُحذف مع ما عَطَفَت كالفاء إن لم يكن هنالك لبس.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٥٦ ـ ٥٩].

يقول الله جل وعلا: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام: آية ٥٦].

---

(١) أخرجه البخاري مختصراً، كتاب مواقيت الصلاة، باب: الصلاة كفارة، حديث رقم (٥٢٥)، (٨/٢)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث (١٤٣٥، ١٨٩٥، ٣٥٨٦، ٧٠٩٦)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، حديث رقم (١٨٤٧)، (١٤٧٥/٣).

(٢) في الأصل: «والنهار». وهذا سبق لسان أو وهم من الشيخ ـ رحمه الله ـ لأن النهار مذكور في الآية. وإنما الذي يذكره العلماء عند هذه الآية هو ما أثبته أعلى، والله أعلم. انظر: قواعد التفسير (٣٧٤/١).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من هذه السورة، وبقية البيت: «وهي انفردت».

كان الكفار يقولون للنبي ﷺ: اعبُد معنا آلهتنا مرة، ونعبد معك إلهك مرة أُخرىٰ!! فأمر الله نبيه أن يقول لهم: إنه لا يعبد ما يدعون من دون الله، قل لهم يا نبي الله: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ أي: نهاني ربي ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ والمعنىٰ: نهاني أن أعبد الأصنام التي تعبدونها من دون الله، والمصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ مجرور بحرف محذوف؛ لأن (نهىٰ) تتعدىٰ بـ(عن) تقول: «نهاني ربي عن كذا». كما تقدم في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: آية ٢٦] لأن (نهىٰ) تتعدىٰ بـ(عن)، والمصدر المنسبك من (أن) وصلتها يَطَّرد جره بحرف الجر المحذوف، كما هو معروف[1]، وتقرير المعنىٰ: نهاني ربي عن أن أعبد الذين. وسَبْك المصدر: نهاني ربي عن عبادة الذين تدعون من دون الله، وهذا نهي عظيم، ومعلوم أن النبي ﷺ لا يعبد شيئاً من دون الله؛ إلا أن الله يأمره وينهاه ليشرع على لسانه لأمته.

إذا عرفتم أن المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ﴾ مجرور بـ (عن) محذوفة، فاعلموا أن علماء العربية مختلفون في المصدر المنسبك من (أن) وصلتها المجرور بحرف محذوف، هل محله الجر أو محله النصب[2]؟ وفائدة هذا الخلاف تظهر فيما لو عَطَفْت عليه اسماً خالصاً، فعلىٰ أن محله النصب ينصب المعطوف بعده، وعلىٰ أن محله الخفض يخفض المعطوف عليه، وكبراء النحويين ـ منهم الخليل والكسائي فمن حاذاهم ـ يقولون: إن محله النصب، وخالفهم في هذا الأخفش الصغير ـ علي بن سليمان النحوي المشهور ـ قال: محله الخفض؛ لأنه مخفوض بالحرف المحذوف. قال: والدليل علىٰ ذلك أنّا وجدنا في كلام العرب الفصحاء خفض المعطوف عليه، كقول الشاعر[3]:

وما زُرْتُ ليلىٰ أن تكون حبيبةً إليَّ ولا دَيْنٍ بها أنا طالبُهْ

(١) انظر: الدر المصون (٤/٦٥٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

فالرواية: «ولا دَينٍ» بالخفض وهو معطوف علىٰ مصدر مُنْسَبِك من (أن) وصلتها، مجرور بحرف محذوف، وهو: «أن تكون» في قوله: «وما زرتُ ليلىٰ أن تكون حبيبة» أي: لكونها حبيبة، ولا لِدَين. وقد أجاز سيبويه الوجهين، واحتج جماهير النحويين عن هذا البيت - الذي أنشده الأخفش مدعياً به أن المصدر المنسبك من «أن» وصلتها المجرور بحرف محذوف، أن محله الخفض - أجابوا عن ذلك: بأن محله النصب، وأن خفض «ولا دَيْن» - بالجر - أنه من نوع العطف المعروف بعطف التوهم، وعطف التوهم معروف عند النحويين، وهو أن تكون الكلمة منصوبة أو مرفوعة، إلا أنها يجوز فيها أن تُجر فيتوهمون أنها مجرورة، يتوهمون الوقوع من مطلق الجواز، ويعطفون عليها بالجر، ومنه قول زهير وهو عربي قح جاهلي[١]:

بَدَا ليَ أنّي لستُ مُدْرِكَ ما مضى ... ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائياً

فإن الرواية بنصب (مُدركَ)، وخفض (سابقٍ)؛ لأن «لستُ مدركَ ما مضىٰ» يجوز جره بالباء؛ لأن خبر ليس يجوز جره بالباء، فتوهموا أنها مجرورة من جواز دخول الباء عليها، فعطف عليها بالجر، ونظيره قول الآخر[٢]:

مشائيمُ ليسُوا مُصلحين عشيرةً ... ولا ناعبٍ إلا بِبَيْنٍ غُرابُها

فعطف (ناعب) بالجر علىٰ (مصلحين) وهو منصوب لتوهم دخول الباء.

وقوله جل وعلا: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ﴾ أي: نهاني ربي عن عبادة الأوثان، والأصنام، والمعبودات التي تعبدونها من دون الله؛ لأن الله يقول لنبيه في هذا المنوال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ﴾ أي بل الله وحده ﴿فَٱعْبُدْ وَكُن

(١) السابق.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: الآيتان ٦٥، ٦٦]. هذا معنىٰ قوله: ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدون من دون الله (جل وعلا) من جميع أنواع العبادات، قل لهم يا نبي الله: ﴿لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ الأهواء: جمع (هَوَى)، بفتحتين، و(الهوىٰ): ميل النفس، وأكثر ما يطلق في الشرع: إلىٰ ميلها إلى ما [لا][1] ينبغي[2]. و(الهوىٰ): هو ميل النفس إلى ما لا ينبغي هنا. فـ ﴿أَهْوَآءَكُمْ﴾ يعني: مهوياتكم التي تميل إليها نفوسكم باتباع الهوىٰ والباطل، كما قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: آية ٢٣] وهمزة (الأهواء) مبدلة من (ياء)، علىٰ القياس المعروف: أن كل واو أو ياء تطرفت بعد ألف زائدة وجب إبدالها همزة. وأصل الهوىٰ: (هَوَيٌ) بفتحتين[3]. والمادة مما يسميه علماء الصرف: اللفيف المقرون[4]. عينها واو، ولامها ياء، قُلبت الياء في محل اللام ألفاً، فقيل لها: «هوىٰ» وأُبدلت عند التكسير همزة، كما هو معروف في فن الصرف[5]، والمعنىٰ: لا أتبع أهواءكم الباطلة في عبادة الأصنام والإشراك بالله (جل وعلا)؛ لأني لا أتبع الهوىٰ، ولا أتبع إلا الحق، كما يأتي في كونه على بينة من ربه. وهذا من جملة ما أمره ربه أن يقول.

﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قُرِىء بإدغام الدال في الضاد ﴿قد ضَّللت إذاً﴾ وقرأه بعض السبعة بالإظهار[6] ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾. ﴿إِذًا﴾ معناه: إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت ولم أكن من المهتدين. والمعنىٰ: لا أضل، ولا أخرج عن طريق الهدىٰ، ولا أتبع أهواءكم أبداً.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر: المفرادت (مادة: هوى) ص٨٤٩، المصباح المنير (مادة: هوى) ص٢٤٦، جامع العلوم والحكم (٤٣٨/٢)، الدر المصون (٤٩٩/٤)، الكليات ص٩٦٢.

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٤٧٨، التوضيح والتكميل (٤٨٢/٢).

(٤) انظر: الكليات ص٧٩٨.

(٥) انظر: شرح الكافية (٢١٢٩/٤ ـ ٢١٣٠)، الدر المصون (٤٩٩/١)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٢٧١، التوضيح والتكميل (٤٨٢/٢).

(٦) انظر: النشر (٣/٢).

وهذه الآية تدل على أن من اتبع هواه بغير علم ولا دليل أنه ضال، وأنه ليس من المهتدين.

١/٦ / ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝٥٧﴾ [الأنعام: آية ٥٧].

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ لما أمر الله نبيه ﷺ أن يقول للكفار: إنه لا يعبد معبوداتهم، ولا يتبع أهواءهم، وأنه لو فعل ذلك كان ضالّاً غير مهتد، أمره أن يقول لهم: إنه على بينة من أمره ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ البينة: هي البيان والدليل القاطع، الذي لا يترك في الحق لبساً[1]. وأصله صفة مشبهة من (بان يَبِينُ)، إذا ظهر، فهو (بيّنٌ). وإنما أُنثت (البينة) لأنها كأنها تُضَمَّن معنى الحجة الواضحة التي يعضدها الدليل القاطع، الذي لا يترك في الحق لبساً ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أي: بيان، وبرهان، وعلم، ويقين من ربي، وليس لي في الحق شك معه، وهذا معروف في كلام العرب، كل أمر واضح لا يترك في الحق لبساً يسمونه: (بينة)؛ ولأجل هذا أُطلقت (البينات) على معجزات الرسل ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف: آية ١٠١] أي: بالمعجزات؛ لأنها لا تترك في الحق لبساً. وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[2]:

أَبَيِّنَةً تَبْغُونَ بعدَ اعْتِرَافِهِ ... وقَولِ سُويدٍ: قد كَفَيْتُكُمُ بِشْرا

يعني: هذا أمر واضح في البيان، لا يُحتاج معه إلى ما يبين الحقيقة.

وقوله: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ ذكَّر الضمير مع أن (البينة) مؤنثة لفظاً نظراً إلى المعنى؛ لأن (البينة) معناها البيان والبرهان واليقين ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: ذلك البرهان واليقين الذي أنا عليه، المُعبر عنه بالبينة، وهذا هو الظاهر، خلافاً لمن قال: إن الضمير عائد إلى الله، أي: كذبتم بالله (جل وعلا) أنه المعبود وحده جل وعلا[3].

---

(١) انظر: ابن جرير (٣٩٧/١١)، القرطبي (٤٣٨/٦)، المفردات (مادة: بان) ص١٥٧.
(٢) البيت في ابن جرير (٣٩٨/١١).
(٣) انظر: القرطبي (٤٣٨/٦)، البحر المحيط (١٤٢/٤)، الدر المصون (٦٥٧/٤).

﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ كان الكفار يقولون للنبي ﷺ: هذا الذي تهددنا به من عذاب الله، إن كنت صادقاً، إن كنت نبياً فعجله علينا الآن[١]. كما بيّن الله ذلك عنهم في آيات من كتابه، كقوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: آية ١٦] والقِط في لغة العرب: أصله كتاب الجائزة الذي يكتبه الملك[٢]. فالملك إذا أراد أن يُجيز الوفود كتب لكل رئيس جائزة معينة في صك، وذلك الصكّ يُسمىٰ: (القِط). وعليه فقولهم: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ معناه: عَجِّل لنا نصيبنا من مَلِك السماوات والأرض الذي تقول إنه نصيبنا منه، وهو العذاب في الدنيا والآخرة، كما قال الشاعر، وهو نابغة ذبيان[٣]:

ولا الملكُ النعمانُ حينَ لَقِيْتَه على مُلكه يُعطي القُطُوط ويَأْفِقُ

ومعنىٰ (يأفق) أي: يفضل في العطاء بعضهم علىٰ بعض ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: آية ٣٢] ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ [هود: آية ٨] أيّ شيء يحبس العذاب ويؤخره، ولِمَ لا تعجله؟ والله يقول: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [العنكبوت: آية ٤٥] ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: آية ١٨] ونحو ذلك من الآيات الدالة علىٰ استعجالهم العذاب[٤]، وقالوا له: إن كنت نبياً حقاً فعجّل لنا العذاب الذي تهددنا به، فأمره الله أن يقول لهم ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ (ما) وهو الاسم المبهم الموصول واقعة على العذاب، والمعنىٰ: ليس بيدي العذاب الذي تطلبون استعجاله عليكم ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي ص٢١٩.

(٢) انظر: اللسان (مادة: قطط) (١١٧/٣).

(٣) البيت للأعشىٰ، وهو في ديوانه ص١١٨، ولفظه في الديوان:

وَلاَ المَلِكُ النُّعمانُ يَوْمَ لَقِيتَه بِإِمّتِهِ يُعْطِي القُطُوطَ وَيَأْفِقُ

وقوله: (بإمته) أي: نعمته.

(٤) انظر: أضواء البيان (١٩٤/٢، ٤٩٠)، (٧٨/٣)، (٧١٦/٥)، (٢٣/٧).

[ص: آية ١٦] ليس بيدي، وإنما هو بيد الله.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ قرأ هذا الحرف قارىء أهل المدينة، وقارىء أهل مكة ـ أعني: نافعاً، وابن كثير ـ وقرأ معهما عاصم من الكوفيين، هؤلاء الثلاثة من القراء السبعة ـ أعني: نافعاً، وابن كثير، وعاصماً ـ قرؤوا: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ بضم القاف، وصاد مهملة مضمومة. وقرأ باقي السبعة ـ وهم: أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي ـ قرؤوا: ﴿يقضِ الحق﴾ بسكون القاف والضاد المكسورة[1].

وعلىٰ قراءة الحَرَمِيَّيْن وعاصم ـ أعني: نافعاً، وابن كثير، وعاصم ـ فمعنىٰ: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يتلو علينا في كتابه الحق الواضح، الذي لا لَبسَ فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: آية ٣] وعلىٰ هذا فإعراب (الحق) واضح؛ لأنها مفعول به لـ (يقص).

وأما على قراءة البصري والشامي والاثنين من الكوفيين[2] ﴿يقضِ الحق﴾ ففي إعراب (الحق) إشكال، وبِمَ نُصبت؟ وفي إعرابه للعلماء ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه نعت لمصدر محذوف، أي: ما ناب عن المطلق. والمعنىٰ: يقضي القضاء الحق، الذي لا جور فيه، ولا حيف.

الثاني: أنه منصوب بنزع الخافض. أي: يقضي بالحق، فحُذف حرف الجر فنُصب الاسم. ومما يدل علىٰ هذا قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ [غافر: آية ٢٠].

الوجه الثالث: أن (يقضي) معناه: يصنع. أي: يصنع الحق؛ لأن كل

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٩٥.

(٢) البصري: أبو عمرو، والشامي: ابن عامر، والكوفيان هنا: حمزة والكسائي.

أعماله التي يعملها، من تشريع، وإثابة، وعقاب كله حق واقع موقعه منه (جل وعلا). والعرب تُطلق (القضاء) وتريد (الصُّنع) وهو معنىً معروف في كلام العرب[١]، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[٢]:

وعليهما مَسْرُودتان قَضَاهُما داودُ أو صَنَعُ السوابِغِ تُبَّعُ

قضاهما: يعني صنعهما.

وقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (إن) هي النافية، والألف واللام في (الحكم) هي للاستغراق، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب[٣]؛ لأن سبب نزول الآية في الحكم الكوني القدري، حيث قالوا له: عَجِّل لنا العذاب، وأنزل علينا الآيات. فأخبرهم الله أن ذلك الحكم الكوني القدري من تعجيل العذاب وإنزال الآيات إنما هو لله وحده، هو الذي بيده ذلك، وعموم الآية يقتضي أن الحكم من حيث هو: هو لله (جل وعلا) وحده، كذلك الحكم الشرعي له وحده. ويدل على دخول الحكم الشرعي: أنه قال في الآية: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ لأن (الفاصلين) جمع (الفاصل)، وهو الذي يفصل الخصوم، وينصف بينها، ويُحقِّق الحق بينها. ولا شك أن الحكم من حيث هو حكم سواء كان شرعياً أو قدرياً فإنه لله وحده، فالأحكام القدرية له، لا يقع تحريك ولا تسكين، ولا خير ولا شر، ولا شيء كائن ما كان إلا بحكمه (جل وعلا) وقدرته ومشيئته. وكذلك الأحكام الشرعية، لا تشريع لأحد، ولا تحليل لأحد إلا له (جل وعلا) وحده، فالحلال ما أحلّه الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله؛ لأنه من المعلوم أنه لا تشريع إلا للسلطة العليا، والسلطة الحاكمة على السماوات والأرض هي التي لها الأمر والنهي والتشريع. فالتشريع لرب العالمين ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ

---

(١) انظر: البحر المحيط (١٤٣/٤)، الدر المصون (٦٥٧/٤ ـ ٦٥٩).

(٢) البيت في البحر المحيط (١٤٣/٤)، الدر المصون (٨٦/٢).

(٣) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه (١٩٨/٣، ٢١٠، ٢٢٠)، شرح الكوكب المنير (١٧٧/٣)، قواعد التفسير (٥٩٣/٢).

﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: آية ١٢] ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: آية ٥٧] ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ٢٦] فالحاكم هو الله، والتشريع تشريع الله، والنبي ﷺ مُبلّغ عن الله شرعه لخلقه، والمشرع هو الخالق جل وعلا.

ويُفهم من هذا أن من زيّن له الشيطان أن يكون مُشرّعاً يُحلل ويُحرم، ويضع النُّظم والقوانين ليُحكّمها في دماء الناس وأموال الناس وأعراضهم وعقولهم: أن هذا متمرد على نظام السماء، يُحاول أن يجعل لنفسه خصوصية خالق السماوات والأرض، عُتواً وتمرداً على الله، فهو كافر، وقد دلّ القرآن العظيم في آيات كثيرة أن من يتبع نظماً وقوانين وضعية شرّعها الشيطان على ألسنة أوليائه مُدعياً أن تشريع خالق السماوات والأرض لا يصلح لتنظيم العالم، ولا يُساير التطور، فمن يرى هذا، ويرى نظام إبليس هو الذي يقوم بمصالح البشر، ونظام خالق السماوات والأرض - الذي خلق هذا الكون وهو أعلم بمصالحه - أنه لا يُساير التطور، ولا ينظم علاقات الدنيا على الوجه الذي ينبغي: فهذا لا شك بين أهل العلم في أنه كافر كفراً بواحاً مخرجاً عن دين الإسلام(١)، والآيات القرآنية الدالة على هذا كثيرة جداً، من ذلك ما بيناه مراراً: أن إبليس عليه لعنة الله، لما جاء تلامذته وإخوانه من أهل مكة، وأراد أن يُهيىء لهم وحي الشياطين ليجادلوا به النبي ﷺ، قال لهم: سلوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ فلما أخبرهم أن الله هو الذي قتلها، قالوا له من وحي الشيطان: ما ذبحتموه بأيديكم - يعنون المذكاة - تقولون: حلال، وطاهر، وطيب، مستلذ، وما ذبحه الله بيده الكريمة - يعنون الميتة، أن الله قتلها - تقولون: هو حرام، ميتة، مستقذر، فأنتم إذاً أحسن من الله!! وأنزل الله في وحي الشياطين جواباً لنبيه عنه(٢) قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] يعني الميتة، وإن زعم أولياء الشيطان أنها ذبيحة الله، ثم

---

(١) انظر: الأضواء (١٦٢/٧).

(٢) انظر: ابن جرير (٧٧/١٢ - ٨٢) الأضواء (١٦٩/٧). وسيأتي تخريجه عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ أي: وإن أكل الميتة لفسق، وخروج عن طاعة الله، ثم قال ـ وهو محل الشاهد ـ ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وإن أطعتموهم في تحليل الميتة إنكم لمشركون.

اعلم أن تحليل الميتة وتحريمها ليس عقيدة من العقائد، ولا أصلًا من الأصول، وإنما هو فرع من الفروع. مضغة لحم شرّع الله علىٰ لسان نبيه تحريمها؛ لأنها ماتت ولم يُذكر عليها اسم الله، وشرّع إبليس علىٰ لسان أوليائه تحليلها، فهذا نظام إبليس، وهو تحليل الميتة، وهذا نظام خالق السماوات والأرض الذي شرعه على لسان نبيه. الله يقول: هذه ماتت حتف أنفها، ولم تُذَك ولم يُذكر اسم الله عليها. والشيطان يُشرّع بفلسفته ويقول: هذه ذبيحة الله، وما ذبح الله أطهر وأحل مما ذبحتموه بأيديكم، والله يقول بالمقارنة بين تشريع الشيطان وتشريع الله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ إن أطعتموهم في تحليل الميتة الذي هو تشريع إبليس، تاركين تحليل وتشريع الله ـ وهو تحريمها ـ إنكم لمشركون.

وهذه الآية الكريمة من سورة الأنعام هي عند علماء العربية[1] مثال لحذف لام توطئة القسم، قالوا: والأصل: (ولئن أطعتموهم) فحُذفت اللام الموطئة للقسم. قالوا: والقرينة علىٰ لام القسم: أنه لو كان الشرط وحده ليس معه قَسَم لاقترنت الجملة بالفاء، لقال: «وإن أطعتموهم فإنكم لمشركون» فلمّا لم تقترن بالفاء علمنا أن عدم اقترانها بالفاء لأنها جواب القسم المقدر المحذوفة لامه، لقرينه عدم الفاء؛ ولأن الشرط إذا جاء معه القسم ـ يكون القسم قبله ـ ويكون الجواب والقسم، ويُحذف جواب الشرط، كما هو معروف في علم النحو[2].

---

(١) انظر: البحر المحيط (٢١٣/٤)، الدر المصون (١٣٢/٥)، الأضواء (١٧٠/٧).

(٢) المراد: أنه إذا اجتمع شرط وقسم، وكان القسم سابقاً على الشرط، فالجواب للقسم، وجواب الشرط يكون محذوفاً؛ لأن الجواب في هذه الحالة للسابق منهما. انظر: البحر المحيط (٣٤٥/٤)، ضياء السالك (٥٣/٤)، التوضيح والتكميل (٣٢١/٢)، النحو الوافي (٤٨٦/٤)، الدر المصون (٣٨٥/٥).

وإذا تقرر هذا، فقد أقسم الله ـ كما قلنا ـ في هذه الآية الكريمة على أن من أطاع الشيطان واتبع تحليله مخالفاً لتشريع الله أنه مشرك، وهذا الشرك شرك ربوبية؛ لأن التشريع، والأمر، والنهي للرب الخالق، فالشيطان أراد أن يشارك الله في السُلطة العليا، والأمر والنهي، فمن اتبعه فكأنه جعله رباً، وهذا الشرك في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ هو شرك أكبر مخرج عن ملة الإسلام، وسيوبخ الله مرتكبه على رؤوس الأشهاد، كما بيّنه الله في سورة يس في قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠] عبادتهم للشيطان التي عهد الله إليهم في دار الدنيا النهي عنها ليس معناها أنهم يسجدون للشيطان، ولا يركعون له، ولا يصومون، ولا يصلون له، وإنما هو اتباعهم تشاريعه ونظمه، تاركين تشريع الله ونظامه؛ ولذا قال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ واتبعوا تشريعي ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: الآيتان ٦٠، ٦١] ثم بيّن (جل وعلا) كثرة من اتبع نظام الشيطان واختار تشريعه ودينه عن تشريع الله، وبيّن مصيرهم، قال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: آية ٦٢] أليست عندكم عقول تعلمون أن التشريع هو تشريع الله الذي خلقكم فتمتثلوا أوامره، وتجتنبوا نواهيه، وتتركوا تشريع الشيطان؛ لأن كله كفر ومعاص ـ والعياذ بالله ـ ثم بين مصير من كان يتبع نظام الشيطان ويترك نظام الله فقال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: الآيتان ٦٣ ـ ٦٥] إلى آخر الآيات؛ ولأجل هذا المعنى قال نبي الله إبراهيم الخليل الذي قال له الله: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: آية ١٢٤] وشهد له في قوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: آية ٣٧] وبقوله له: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: آية ١٢٤] قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: آية ٤٤] عبادته للشيطان التي ينهاه عنها ليست السجود له، ولا الركوع، ولا الصيام، وإنما هي اتباع نظامه من عبادة الأصنام، ومعاصي الله (جل وعلا)؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن

دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: آية ١١٧] يعني: لا يعبدون إلا الشيطان؛ لأن اتباعهم لتشريعه ونظامه وتركهم تشريع الله ونظامه هو عبادتهم له؛ ولذا سمى الله (تبارك وتعالىٰ) في هذه السورة - سورة الأنعام - سمى فيها الذين يُطاعون في معاصي الله، سماهم (شركاء) حيث قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ [الأنعام: آية ١٣٧] فسماهم (شركاء) لمَّا زينوا لهم الحرام واتبعوهم فيه. وقد صح عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) أنه سأل النبي ﷺ عن آية التوبة - وكان عدي هذا نصرانياً - قال له: يا نبي الله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣١] كيف اتخذوهم أرباباً؟ يعني أنهم لم يسجدوا، ولم يركعوا لهم، ولم يصوموا لهم. قال له ﷺ: «**ألم يُحلوا لهم ما حرم الله، ويحرموا عليهم ما أحل الله، فاتبعوهم؟**» قال: بلىٰ. قال: «**بذلك اتخذوهم أرباباً**»(١).

وهو نصٌّ في أن من يتبع تشريع الشيطان تاركاً تشريع الله، أنه اتخذ الشيطان رباً، ومعنىٰ هذا واضح؛ لأن الأمر والنهي والتحليل والتحريم لا يكون إلا للأعظم الذي بيده كل شيء، فإذا جعله لغير الله فقد أعطى منصب الربوبية الكامل لغير الله (جل وعلا)، وجعله رباً غير الله، وبيّن الله (تعالى) في سورة النساء أن الذي يريد أن يُحكِّم قوانين الشيطان دون نظام الله، ويَدَّعي مع ذلك أنه مؤمن، أن دعواه هذه كاذبة بعيدة، تستحق أن يُتعجب منها، والآية التي بيّن الله بها هذا هي قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى

---

(١) أخرجه الترمذي، في التفسير، باب: ومن سورة التوبة. حديث رقم (٣٠٩٥)، (٢٧٨/٥)، وعقَّبه بقوله: «هذا حديث غريب لا نعرفه! إلا من حديث عبدالسلام بن حرب، وغُطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث»اهـ.
كما أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١٠٦/٧)، والطبراني في الكبير (٩٢/١٧)، والبيهقي في السنن (١١٦/١٠)، وابن جرير (٢٠٩/١٤ - ٢١١)، وقال عنه شيخ الإسلام (وهو حديث حسن طويل) (الإيمان ص٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٥٦/٣)، وغاية المرام ص١٩، والحديث له شواهد يتقوى بها، والله أعلم.

﴿ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: آية ٦٠] والتحاكم إلىٰ الطاغوت يشمل كل تحاكم إلىٰ غير ما أنزله الله، فقوله: ﴿أَلَمْ تَـرَ إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ صيغة يُعجِّب الله بها نبيه، يقول: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ كيف يزعمون الإيمان، ومع ذا يريدون التحاكم للطاغوت، فهذا شيء لا يجتمع!! ولذا عجَّب الله منه نبيه.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ فالواقع أن خالق السماوات والأرض له الحكم كله، له الحكم الكوني القدري، وله الحكم الشرعي، فهو الذي يفعل ما يشاء، ولا يكون خيراً ولا قدراً إلا ما شاءه (جل وعلا). وكذلك له الحكم الشرعي، فهو الذي يأمر، وهو الذي ينهىٰ، وهو الذي يُحلل، وهو الذي يُحرم، فالحلال ما أحلّه الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، فليس لأحد تحليل ولا تحريم، ولا شرع دين ولا نظام. وقد بينّا أن من ادعىٰ أنه يملك هذه السلطة ـ وهي سلطة التشريع ـ أنه جعل نفسه له أن يأخذ حقوق الله الخالصة له؛ لأجل ربوبيته فيجعلها لنفسه.

وهذا الذي ذكرنا ـ أن اتباع نظام إبليس، وترك نظام خالق السماوات والأرض ـ أنه كفر، قد بينا في هذه الدروس مراراً أن النظم ليست كلها على وتيرة واحدة، بل هي نوعان: نظام إداري، ونظام شرعي.

أما النظام الإداري الذي لا يخالف نصوص الشرع، بل قد تشهد أصول الشرع للمصلحة فيه، فهذا ليس أحد يقول: إنه كفر، ولا حرام، والصحابة (رضي الله عنهم) جعلوا بعد النبي ﷺ أشياء كثيرة من هذا، ولم يقع بينهم فيها خلاف، بينّا بعض أمثلتها، من ذلك أنه في زمن النبي ﷺ وزمن أبي بكر لم يكن الجُند مكتوباً في ديوان، فمن أراد أن يتخلف قد يتخلف ولا يُطّلع على تخلفه إلا بعد زمن؛ ولأجل ذلك ثبت أن النبي ﷺ لما تخلف عنه ـ في غزوة تبوك ـ كعب بن مالك (رضي الله عنه) لم يتفقد كعباً، ولم يسأل عنه حتى وصل تبوك[1]، ولم يَدْرِ أهو موجود في الجيش

---

(١) قصة تخلف كعب (رضي الله عنه) أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب: إذا تصدق أو وقف بعض رقيقه أو دوابه فهو جائز. حديث رقم (٢٧٥٧)، (٥/٣٨٦)، =

أو غير موجود فيه؛ لأنهم لم يكن عندهم ديوان، وكذلك زمن أبي بكر، فلما كانت الخلافة إلى عمر كتب أسماء الجُند في ديوان، فدوّن جميع أسماء المقاتلين في ديوان[١]، فصار إذا تخلف واحد عُرف من وقته أنه تخلف، وعرف مُقَاتِلَة كل جهة من الجهات، وجعل كل جهة في جهتهم يحمونها مما يكون إليهم، وصارت كل جهة أهلها أهل ديوان، فكتب أسماء الجند في ديوان. هذا نظام عسكري لم يفعله النبي ﷺ ولا أبو بكر، ولكنها مصلحة محضة لا تخالف نصاً من كتاب الله ولا سنة نبيه، فهي مصلحة عملها عمر بن الخطاب، ولم يخالف أحد من الصحابة مع كثرتهم وعلمهم. ومن هذا المعنىٰ: أن زمن النبي ﷺ وزمن أبي بكر لم يكن عند المسلمين سجن يقفون فيه الجُناة، ولا يسجنون فيه، فلما كانت الخلافة لعمر (رضي الله عنه) اشترىٰ دار صفوان بن أمية في مكة، وجعلها سجناً يقف فيه الناس حتى ينظر في أمورهم، وربما سجن به بعض المذنبين[٢]. فهذا السجن هو مصلحة إدارية لم تكن في زمن النبي ﷺ ولا أبي بكر، والقصد مطلق التمثيل.

فهذا النوع من ضبط الأمور وتنظيم الإدارة بما لا يخالف نصاً من كتاب الله ولا سنة نبيه، فهذا لا نقول: إنه كفر، ولا نقول: إنه حرام. وهو من المصالح المرسلة التي عمل بها الصحابة، ولم يخالف منهم أحد، وكان مالك يجعل هذا النوع أصلًا من أصول مذهبه[٣]، وهو (المصالح المرسلة) قال: لأن الصحابة أجمعوا عليه؛ لأن أفضل الصحابة بعد النبي ﷺ أبو

= وأخرجها في مواضع متفرقة، انظر الأحاديث: (٢٩٤٧)، (٢٩٤٨)، (٢٩٤٩)، (٢٩٥٠)، (٣٠٨٨)، (٣٥٥٦)، (٣٨٨٩)، (٣٩٥١)، (٤٤١٨)، (٤٦٧٣)، (٤٦٧٦)، (٤٦٧٧)، (٤٦٧٨)، (٦٢٥٥)، (٦٦٩٠)، (٧٢٢٥)، ومسلم، كتاب التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، حديث رقم (٢٧٦٩)، (٤/٢١٢٠).

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٣١٩/١٨)، التراتيب الإدارية (٢٢٥/١).

(٢) انظر: البخاري، الخصومات، باب الربط والحبس في الحرم، (٧٥/٥)، تغليق التعليق (٣٢٦/٣)، أخبار مكة للأزرقي ج (١٦٥/٢، ٢٦٣)، تهذيب الأسماء واللغات (١٢٢/٢)، التراتيب الإدارية (٢٩٨/١).

(٣) انظر: نثر الورود (٥٠٥/٢).

بكر، عمل بالمصلحة المرسلة لما حضرته الوفاة ـ يعني باحتضار الوفاة، في ذلك الوقت يتوب المجرم، وينيب الظالم، أحرى أبو بكر (رضي الله عنه)، فهذا فرعون الذي كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: آية ٢٤] لمّا عاين الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: آية ٩٠] ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: آية ٨٤] أحرى أبو بكر في آخر لحظة من حياته ـ عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: كتب أبي وصيته في سطرين: هذا ما أوصى ابن أبي قحافة: إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذلك ظني به، وإن يَجُرْ فلا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: آية ٢٢٧][١]. لم ترد آية في كتاب الله، ولا نص من سنة رسول الله لأبي بكر أن ينيب عمر على الناس، ولكن رأى المصلحة تقتضي ذلك، ففعل هذه المصلحة، ولم ينكر عليه أحد من الناس، فتوليته له من المصلحة المرسلة[٢]، لا من قياس العهد على العقد، كما قال به بعض الناس.

والحاصل أن النظام نوعان: نظام لا يتعرض لقواعد الشرع، وإنما هو تنظيم مصلحي لا يتعرض للقواعد، فهذا هو الذي ذكرنا أنه لا بأس به، وأن الصحابة فعلوه.

والثاني: نظام تشريعي، وهو الذي كنا نتكلم عليه ونورد فيه الآيات، كالذي يقول: إن الأنثى تَمتُّ بالقرابة التي يَمتّ بها الذكر، فتفضيله عليها ظلم وجور. وكالذي يقول: إن تعدد الزوجات يجعل الرجل دائماً في شغب، ولو أخذ واحدة لكان معها في خفض ودعة، وأن الشغب دائم لا يزول، وأن هذا أمر لا يصلح في الاجتماع. والذي يقول: إن قطع اليد عمل وحشي لا ينبغي أن يكون في النظم التي يعامل بها الإنسان. وما جرى مجرى ذلك، مع أن كل هذه الأمور حكمته بالغة، وسنبين ـ إن شاء الله ـ حِكَم الجميع إن مررنا على الآيات التي هي بها.

---

(١) الطبقات الكبرى (١٤٢/٣)، عيون الأخبار (١٤/١)، مختصر تاريخ دمشق (١٢٠/١٣).
(٢) انظر: نثر الورود (٥٠٦/٢ ـ ٥٠٧).

فهذا النوع من النظام هو الضلال والكفر، وقد بيّن الله أن من يقول: إن الأنثىٰ كالذكر في الميراث، أنه ضال، كما قال (جل وعلا) في آية الصيف، الآية الأخيرة من سورة النساء: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۗ﴾ ثم أتبعه بقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ [النساء: آية ١٧٦] يبين لكم هذا البيان كراهة أن تقولوا: هما سواء في الميراث فتضلوا. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾.

﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّۖ﴾ [الأنعام: آية ٥٧]:

يقص الحق كقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: آية ٣] و﴿يَقْضِ الحقَّ﴾ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ [غافر: آية ٢٠] ﴿وَهُوَ﴾ (جل وعلا) ﴿خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ الذين يفصلون بين الخصوم، وسيفصل بين الخلائق يوم القيامة، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [السجدة: آية ٢٥].

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٥٨].

هذا أمر من الله لنبيه أن يقول للكفار الذين يستعجلون بالعذاب ويقولون له: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: آية ١٦] ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: آية ٣٢]، ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ﴾ [هود: آية ٨] قل يا نبي الله لهؤلاء المتمردين المتعنتين، الذين يستعجلون بالعذاب تعنتاً وعناداً: ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ أي: العذاب الذي تستعجلون به، لو كان بيدي لعجّلته عليكم، وقُضي الأمر بيني وبينكم، وسلمت من ذلك لأنني علىٰ حق، وأهلككم العذاب هلاك استئصال، واسترحت منكم.

وفي هذه الآية الكريمة سؤالان، لطالب العلم أن يسأل عنهما: أحدهما نحوي، والثاني وحيي[1].

(١) لم يذكر السؤال الثاني هنا، وقد ذكره في أضواء البيان (١٩٤/٢) حيث قال: =

أما النحوي فهو أن يقول طالب العلم: همزة (أن) إذا فُتحت دلت علىٰ مصدر، فهي في محل اسم مفرد؛ لأنها إن فُتحت سدّت مَسَدَّ مصدر، وهذا المصدر ـ طبعاً ـ معروف أنه اسم، و(لو) حرف شرط، وحروف الشروط لا تتولىٰ إلا الجمل الفعلية، فَلِمَ تولى حرف الشرط اسماً، وهو هذا المصدر المنسبك من (أن) وصلتها؟ هذا وجه السؤال.

والجواب عنه: هو ما حققه علماء العربية: أن المصدر المنسبك من (أن) وصلتها فاعل فعل محذوف، والفعل المضمر هو الذي يلي حرف الشرط، وتقدير المعنىٰ: لو ثبت أن عندي، لو ثبت كون ما ستطلبونه عندي لعجلته عليكم. ولم يكن بعده إلا فعل، والمصدر المنسبك من (أن) وصلتها فاعل الفعل. هكذا يقولون[(١)].

﴿لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ قضاء الأمر هنا كناية عن إنزال العذاب عليهم، واستراحته منهم.

ومن قال: «إن قضاء الأمر هنا معناه ذبح الموت»[(٢)]. فهو غلط ووهم منه؛ لأن ذلك الذي معناه ذبح الموت هو في آية مريم، وليس في هذه الآية، وهو قوله (جل وعلا) في أُخريات مريم: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [مريم: آية ٣٩] فقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ تفسير

= تنبيه: قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ الآية، صريح في أنه ﷺ لو كان بيده تعجيل العذاب عليهم لعجله عليهم، مع أنه ثبت في الصحيحين من حديث عائشة (رضي الله عنها): أن النبي ﷺ أرسل الله إليه ملك الجبال، وقال له: إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين ـ وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها ـ فقال ﷺ: **«بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً»**.

والظاهر في الجواب: هو ما أجابه به ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية، وهو أن هذه الآية دلّت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبون تعجيله في وقت طلبهم تعجيله لعجله عليهم، وأما الحديث فليس فيه أنهم طلبوا تعجيل العذاب في ذلك الوقت، بل عرض عليه الملك إهلاكهم فاختار عدم إهلاكهم، ولا يخفى الفرق بين المتعنت الطالب تعجيل العذاب وبين غيره.

(١) انظر: ضياء السالك (٤/٦٦).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/٤٠٠).

آية مريم[1] هذه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ قال: إذ ذُبح الموت ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أنذرهم وهم في غفلة ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ وذُبح الموت. ولا يصح في آية الأنعام هذه هذا التفسير؛ لأن المعنىٰ هنا: ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ لعجلت لكم العذاب الذي تطلبونه فهلكتم، ونفذ القضاء بيني وبينكم. ونفوذ القضاء: هو إهلاك الظالم وبقاء المطيع سالماً، وهذا معنىٰ قوله: ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الكافرين الذين يتعنتون ويستعجلون، هو أعلم بهم، عالم من يهديه الله فيتوب، ومن يخذله فلا يتوب، وعالم بالوقت الذي يأتيهم فيه العذاب، وعالم بما يستحقون من العذاب، ووقت مجيئه لهم، وسيكون ذلك على حسب ما سبق في علمه (جل وعلا). وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قال بعض العلماء: صيغة التفضيل هنا ليست على بابها؛ لأن المقرر في علم العربية: أن صيغة التفضيل تدل على مشاركة بين المُفَضَّل والمُفَضَّل عليه، إلا أن المُفَضَّل أكثر في المصدر من المُفضَّل عليه[2]. و (زيد أعلم من عمرو) يدل علىٰ أنهما مشتركان في العلم، إلا أن المُفَضَّل يفضل فيه المُفَضَّل عليه. والعلم بالظالمين: بأحوالهم وما يؤولون إليه، ووقت نزول

---

(١) البخاري، كتاب التفسير، باب (وأنذرهم يوم الحسرة) حديث رقم (٤٧٣٠)، (٤٢٨/٨)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون، حديث رقم (٢٨٤٩)، (٢١٨٨/٤)، وانظر: حديث رقم (٢٨٥٠) ولفظه عند البخاري: عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤتى بالموتِ كهيئةِ كبشٍ أملَحَ، فيُنادِي منادٍ: يا أهل الجنة فيَشرئِبُّون ويَنظُرون، فيقول: هل تَعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلُّهم قد رآه. ثم يُنادي: يا أهلَ النار، فيَشرَئبون ويَنظُرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلُّهم قد رآه. فيُذبَح. ثم يقول: يا أهلَ الجنة، خلودٌ فلا مَوت. ويا أهلَ النار، خلودٌ فلا موت. ثم قرأ:** ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ وهؤلاء في غفلةِ أهل الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (١٢٦/٢).

العذاب عليهم، هذا لا يُشارك الله فيه أحد، وهذا إنما يعلمه الله وحده؛ ولذا يقولون: إنَّ صيغة (أَفعَل) هنا بمعنىٰ (الوصف) بمعنىٰ: والله عليم بالظالمين، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ لأن هذه لا يشاركه فيها غيره، وقد تقرر في علم العربية: أن صيغة (أَفْعَل) قد تأتي مراداً بها الوصف من غير إرادة التفضيل[1] وشواهد ذلك كثيرة في كلام العرب، ومنه قول الشَّنْفَرَى[2]:

وإنْ مُـدّت الأيـدِي إلـىٰ الـزاد لـم أكـن
بـأعـجَـلِـهِـم إِذْ أجـشـعُ الـقـومِ أعـجَـلُ

يعني بـ(أجشع القوم): هو العَجِل منهم، وقول الفرزدق[3]:

إن الـذي رفـع الـسـمـاء بـنـىٰ لـنـا بـيـتـاً دعـائـمـه أعـزُّ وأَطـولُ

يعني عزيزة طويلة. وهذا أسلوب معروف في كلام العرب.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: آية ٥٩].

ذكر بعض أهل العلم أن سبب نزول هذه الآية الكريمة: أن النبي ﷺ جاءه بدوي فقال له: إني تركت امرأتي حُبلىٰ، وتركت قومي في جدب، فأخبرني عما في بطن امرأتي: أذكراً هو أم أنثى؟ وأخبرني عن الوقت الذي يأتي فيه الغيث لقومي فإنهم مُجدبون. ثم قال له: ولقد عرفت الوقت الذي وُلدت فيه، فأخبرني عن الوقت الذي أموت فيه. فأنزل الله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[4].

---

(١) المصدر السابق (٢/١٣٣).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (٢/١٣٤)، خزانة الأدب، (٣/٤٨٦)، وفيه: (سمك السماء).

(٤) أخرجه ابن جرير (٢١/٨٧)، وابن أبي حاتم (٩/٣١٠١)، عن مجاهد مرسلًا، وعزاه في=

ومفاتح الغيب المذكورة في هذه الآية هي المذكورة في أُخريات سورة لقمان في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: آية ٣٤]. وتفسير النبي ﷺ لمفاتح الغيب هنا بأنها الخمس المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلى آخرها، ثبت في الصحيح عن أبي هريرة[١] وعبدالله بن عمر[٢]، وجاء بأسانيد لا بأس عليها عن /قوم آخرين من ٦/ب الصحابة، منهم بريدة[٣]، وابن مسعود[٤]، وابن عباس[٥]، وصحابي من بني عامر[٦]: أن النبي ﷺ فسر مفاتح الغيب المذكورة هنا بأنها المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[٧]؛ لأن هذه الخمس أمهات عظيمة لها أهميتها من أمهات علم الغيب، ففسر النبي بها هذه الآية؛ لأن الساعة هي أفظع أمر وأهم أمر يوجد، ليس علمها إلا عند الله وحده، كما قال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: آية ١٨٧] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: الآيات ٤٢ ـ ٤٤]

= (الدر) إلى الفريابي، وابن أبي حاتم. وأورده الواحدي في أسباب النزول بغير سند ص٣٤٧. وذكر في (الدر) نحوه عن عكرمة، وعزاه إلى ابن المنذر. انظر: الدر المنثور (١٦٩/٥).

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام.. حديث رقم (٥٠)، (١١٤/١)، وأخرجه في موضع آخر، انظر الحديث: (٤٧٧٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.. الأحاديث (٨ ـ ١٠)، (٣٦/١ ـ ٤٠).

(٢) البخاري، كتاب الاستسقاء، باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله. حديث رقم (١٠٣٩)، (٥٢٤/٢)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث (٤٦٢٧، ٤٦٩٧، ٤٧٧٨، ٧٣٧٩).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣٥٣/٥).

(٤) أخرجه ابن جرير (٨٩/٢١)، وانظر: الدر المنثور (١٦٩/٥).

(٥) أخرجه أحمد (٣١٩/١).

(٦) أحمد في المسند (١٢٩/٤، ١٦٤)، وانظر: الدر المنثور (١٦٩/٥، ١٧٠) من حديث أبي عامر الأشعري رضي الله عنه.

(٧) انظر: الأضواء (١٩٥/٢).

ولما سأله جبريل في حديثه المشهور عن الساعة. قال له: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. وبيّن له شيئاً من أماراتها[(١)].

هذه هي مفاتح الغيب، فالوقت الذي تقوم فيه الساعة لا يعلمه إلا الله وحده (جل وعلا)، لا يعلمه أحد ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأعراف: آية ١٨٧] ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ الوقت الذي ينزل فيه المطر لا يعلمه إلا الله وحده ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ﴾ الذي هو في رحم أمه لا يعلم حقيقته إلا الله، أذكر هو أم أنثىٰ؟ قبيح أو جميل؟ شقي أو سعيد؟ لا يدري الإنسان ماذا يكسب غداً. والمراد بـ(ما يكسب غداً): من خير أو شر، ما يكسب من الحسنات التي تقربه لله، وما يكسب من السيئات التي تبعده عن الله (جل وعلا)، ويدخل في ذلك: ما يكسبه من مال ونحوه؛ لأن الله قد يغنيه من حيث لا يشعر، وقد يفقره من حيث لا يشعر؛ لأن الله بيده كل شيء ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ﴾ لا يعرف الإنسان المحل الذي فيه قبره، وإن كان ساكناً في محل وإذا كتب الله أجله في محل لا بد أن تكون له حاجة إلى ذلك المحل، فيذهب إليه ليدركه أجله فيه، وينفذ قضاء الله كما سبق في علمه الأزلي، وجاء بذلك حديث عن جماعة من أصحاب النبي ﷺ: أن الله إذا كتب أن يموت رجل في محل، لا بد أن يجعل له حاجة إلىٰ ذلك المحل حتى يذهب إليه ويدركه أجله فيه[(٢)]. هذه مفاتح الغيب الخمس التي بين النبي أنها معنى هذه الآية، وخير التفسير تفسيره ﷺ.

---

(١) هذا الحديث رواه جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم) وقد مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٧/٥)، والترمذي في السنن، كتاب القدر، باب: ما جاء أن النفس تموت حيث ما كُتب لها. حديث رقم (٢١٤٦)، (٤٥٢/٤)، من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنه. وانظر: صحيح الترمذي (٢٢٧/٢)، المشكاة (٣٩/١). وأخرجه الترمذي أيضاً من حديث أبي عزة (رضي الله عنه). انظر: السنن، حديث رقم (٢١٤٧)، (٤٥٣/٤)، وابن أبي حاتم (١٣٠٣/٤ ـ ١٣٠٤)، (٣١٠٢/٩) وانظر: صحيح الترمذي (٢٢٧/٢) ولفظ الحديث عند الترمذي: **«إذا قضىٰ الله لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة»**.

وقد بيّن (جل وعلا) في آية عامة أن الغيب كله لا يعلمه إلا الله، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: آية ٦٥] وقد بينّا فيما مضىٰ أمثلة لمصداق هذه الآيات، و بينّا أن أعظم الخلق: الملائكة، والرسل، والملائكة لما قال لهم الله: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؟ أجابوا بأن قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: آية ٣٢] وقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ النكرة فيه مبنية مع (لا) والنكرة لا تُبنىٰ على الفتح مع (لا) إلا التي هي لنفي الجنس. فمعنىٰ الآية: أنهم نفوا جنس العلم من أصله عن أنفسهم إلا شيئاً علمهم الله إياه. وهؤلاء الرسل الكرام (عليهم صلوات الله وسلامه) مع ما أعطاهم الله من العلم والمكانة يقولون: إنهم لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله. هذا سيدهم وخاتمهم ﷺ قد بينّا أن الله أمره قال: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۚ﴾ [الأنعام: آية ٥] وأمره أيضاً في سورة الأعراف أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾ [الأعراف: آية ١٨٨] وقد قال في أُخريات أيام حياته صلوات الله وسلامه عليه: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة**»(١). كما هو معروف. وقد بينا أن نبي الله نوحاً ذكر الله عنه في سورة هود: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ﴾ [هود: آية ٣١] وقد بينّا أمثلة من هذا، فهذا سيد ولد آدم علىٰ الإطلاق، وأفضل الرسل، وأعلم الناس (صلوات الله وسلامه عليه)، رُميت أحب أزواجه

---

(١) قطعة من حديث جابر (رضي الله عنه) عند البخاري، كتاب الحج، باب تقضي الحائض المناسك كلّها إلا الطواف بالبيت. حديث رقم (١٦٥١)، (٣/٥٠٤)، وأطرافه في: (١٥٦٨، ١٥٧٠، ٢٥٠٦، ٤٣٥٢، ٧٢٣٠، ٧٣٦٧)، ومسلم، كتاب الحج، باب: بيان وجوه الإحرام. حديث رقم (١٢١٣، ١٢١٦، ١٢١٨)، (٢/٨٨١ ـ ٨٨٥).
وقد روى هذا الحديث أيضاً البراء بن عازب (رضي الله عنه) عند أبي داود، والنسائي. وأخرج الشيخان نحوه من حديث أنس ولفظه: «**لولا أن معي الهدي لأحللت**».

بأعظم فرية، أم المؤمنين عائشة، لما رموها بصفوان بن المُعَطل في غزوة بني المُصْطَلق، كما قص الله القصة مُوضحة في سورة النور، كان (صلوات الله وسلامه عليه) مع ما آتاه الله من العلم والمكانة العظيمة لا يدري أحق ما قالوا عن زوجته أم كذب، وكان يقول: «**كيف تيكم؟**» وفَقَدَت منه العطف الذي كانت تجده إذا مرضت، وكان يقول لها غير دارٍ بالحقيقة: «**يا عائشة إن كنتِ ألممتِ بذنب فتوبي، وإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله**». ولم يعلم بالحقيقة حتى أخبره عالم الغيب والشهادة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ [النور: آية ١١] فسماه: إفكاً، ثم قال في آخر الآيات: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ [النور: آية ٢٦] فلم يعلم الحقيقة إلا بعد أن علمه الله إياها. ولما نزلت عليه آيات براءتها في بيت أبي بكر، وسُرِّي عنه وهو يتبسم، وقال: «**أمَّا أنت يا عائشة فقد برأك الله**». فقالت لها أمها أم رومان: «قومي إليه فاحمديه». قالت لها: «والله لا أحمده، ولا أحمد اليوم إلا الله؛ لأنه لم يبرئني، وإنما برأني الله»[1]. وهذا نبي الله إبراهيم، وهو هو، ذَبَحَ عجله، وتعب هو وامرأته بإنضاج العجل وحَمْلِه، كما قال الله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: آية ٦٩] ولم يدرِ أن الذين ينضج لهم عجله أنهم ملائكة كرام لا يأكلون! ولأجل عدم علمه بذلك لما لم يأكلوا خاف منهم ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ﴾ [هود: آية ٧٠] وما هذا إلا لأنه لا يعلم بحقيقتهم، وما درى عن الأمر حتى أخبروه! سألهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؟ [الحجر: آية ٥٧] ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: آية ٧٠] ولما ارتحلوا من عنده، ونزلوا على نبي الله لوط، وكانوا في صفة شباب مُرد حسنة ثيابهم، حسنة ريحهم، خاف عليهم أن يفعل بهم قومه فاحشة اللواط، فحزن أشد الحزن؛ ولذا قال تعالى عنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ

---

(١) البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً. حديث رقم (٢٦٦١)، (٢٦٩/٥)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك، حديث رقم (٢٧٧٠)، (٢١٢٩/٤).

﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾ [هود: آية ٧٧] وما سبب مساءته بهم وضيقه ذرعاً بهم ـ كقوله: إن ذلك يوم عصيب ـ إلا لعدم علمه بحقيقة الواقع، حتى قال ذاك الكلام المؤسف المحزن: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: آية ٨٠] ولم يعلم بحقيقة الأمر حتى أخبروه، وقالوا له: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ الآيات [هود: آية ٨١] . وقال المفسرون[١]: عند ذلك نشر جبريل أجنحته عليه وِشَاحُه، وضرب أوجههم بريشة من جناحه، فتركها ليس فيها محل العيون، لا أثر فيها للعيون، كأن وجوههم لم تكن بها عيون أصلًا!! كما أشار الله إلىٰ ذلك في سورة القمر بقوله في قصة لوط، والملائكة، وقوم لوط: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ والعياذ بالله ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: آية ٣٧]. وهذا نبي الله يعقوب قال الله فيه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ [يوسف: آية ٦٨] مدحه الله بالعلم الذي علمه، ومع هذا فولده يوسف كان في مصر، ما بينه وبينه ثمان مراحل، لا يعلم عن أمره شيئاً ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: آية ٨٤] يقول لأولاده: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ [يوسف: آية ٨٧] يطلب من أولاده التحسس ليعثروا له على خبر، وهو لا يدري عنه حقيقة حتى جاء البشير بالقميص، كما هو مبين في سورة [يوسف][٢].

وهذا نبي الله نوح، وهو هو، لمّا قال له ربه: ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ﴾ [المؤمنون: آية ٢٧] ظن أن ولده الفاجر أنه من أهله، ولم يدرِ أنه ليس من أهله حتىٰ قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هود: آية ٤٥] ولم يعلم بحقيقة الأمر حتى قال له عالم الغيب والشهادة ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: آية ٤٦] كان جوابه أن قال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٧/١٠٥ ـ ١٠٦).

(٢) في الأصل: (هود). وهو سبق لسان.

تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: آية ٤٧]. وهذا نبي الله سليمان أعطاه الله الريح، غدوها شهر، ورواحها شهر، وسخر له مَرَدَة الشياطين مع قدرتهم على الطيران في آفاق الأرض، ما كان يدري عن قصة (. . .)[١] بلقيس وجماعتها حتى جاءه الهدهد الضعيف المسكين، وكان قد خرج بغير إذن، وكان نبي الله سليمان يتهدده ويتوعده على الخروج بلا إذن، كما قصّ الله في سورة النمل: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل: الآيتان ٢٠، ٢١] فعلم من تاريخ اليمن، ومن جغرافية اليمن، ما لم يعلمه سليمان (عليه السلام)!! وهذا العلم الضيئل البسيط ـ علم تاريخ وجغرافية ـ أعطىٰ هذا الضعيف قوة، وكان له سلاحاً، وقوّاه علىٰ سليمان، حيث كان هو يعلم شيئاً يجهله سليمان؛ ولذا قام غير مبالٍ بالوعيد، مع أن سليمان ملك نبي، له هيبة الملك، وهيبة النبوة، ومع هذا وقف ذلك الهدهد بين يديه وقفة البطل غير مكترث بالوعيد، وإنما قوّاه أنه علم شيئاً من جغرافية اليمن وتاريخهم لم يعلمه سليمان، ونسب الإحاطة إلىٰ نفسه، ونفاها عن سليمان، وقال له: إني ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: آية ٢٢] وهذا النبأ بيَّن فيه بعض تاريخهم، أنهم كفرة يسجدون للشمس، وأن ملكتهم امرأة، قال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: الآيتان ٢٣، ٢٤] وعند خبر الهدهد إياه لم يعلم أيضاً حقيقة الأمر؛ لأنه [ما كان يعلم صِدْق][٢] الهدهد؛ ولذا قال مُخاطِباً له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: آية ٢٧] ثم أرسله بكتاب، كما في هذه الآيات من سورة النمل، كل هذه الأمور من [عدم][٣] علم الأنبياء الكرام، والملائكة الكرام

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة. ولعلها: «أهل مأرب» والكلام مستقيم بدونها.

(٢) في الأصل كلمتان غير واضحتين، وما بين المعقوفين زيادة ينتظم بها الكلام.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

هذه الأمور من الغيب كله مصداق لقوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[1] [النمل: آية ٦٥] وقوله هنا: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: آية ٥٩].

والله (جل وعلا) يُطلع رسله علىٰ ما شاء من غيبه، ويُطلع ملائكته علىٰ ما شاء من غيبه، كما بينه في آيات من كتابه: ﴿عَٰلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ الآية [الجن: الآيتان ٢٦، ٢٧]، وكقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: آية ١٧٩] أي: فيطلع من اجتبى من رسله علىٰ ما شاء من غيبه، وقد أطلع نبينا ﷺ علىٰ أمور كثيرة، أخبر بكثير منها، منه ما حفظه الناس حتى وقع، ومنه ما نسوه.

وهذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن العظيم أجمع العلماء علىٰ أنه أكبر واعظ وأعظم زاجر نزل من السماء إلىٰ الأرض، فهي أعظم موعظة تُلقى يتعظ بها الناس. إلا أنه مع الأسف تمر على آذانهم ولم تكن في قلوبهم!! وهذا أكبر واعظ؛ لأنه أطبق العلماء على أن أعظم المواعظ، وأعظم الزواجر، هو واعظ المراقبة والعلم.

وضرب العلماء لهذا مثلًا قالوا[2] ـ ولله المثل الأعلى ـ: لو فرضنا أن هذا البراح من الأرض، فيه ملك قتّال للرجال إن انتُهكت حرماته، سفّاك للدماء إن انتُهكت حرماته، ذو قوة وعزة ومَنَعَة، وحوله جيوشه، وحول هذا الملك بناته ونساؤه وجواريه، أيخطر في بال أحد أن أولئك الحاضرين مجلس هذا الملك الجبار يقوم واحد منهم بغمزة عين إلى حرم ذلك الملك، أو ريبة؟ لا، وكلا، كلهم خاضعون خاشعة عيونهم، خاشعة جوارحهم، غاية أمانيهم السلامة!! ولا شك أن خالق الكون ـ وله المثل الأعلى ـ أعظم بطشاً، وأشد نكالًا إن انتُهكت حرماته، وحِمَاه في أرضه محارمه.

---

(١) انظر: الأضواء (٢/١٩٦).

(٢) انظر: الأضواء (٣/١٠).

ولو قيل لأهل بلد: إن أمير ذلك البلد يبيت عالماً بكل ما يفعلونه في الليل من الخسائس والدسائس لباتوا متأدبين، لا يفعلون إلا شيئاً طيباً!! وهذا خالق السماوات والأرض، الملك الجبار، يخبرهم في آيات كتابه، لا تكاد تقلّب ورقة واحدة من أوراق المصحف الكريم إلا وجدت فيها هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ الآيات [الأنعام: آية ٥٩] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: آية ١٦] ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: آية ٢٣٥] ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: آية ٦١] فينبغي علينا جميعاً أن نعتبر بهذا الزاجر الأكبر، والواعظ الأعظم، وأن لا نتناساه، لئلا نهلك أنفسنا، ونعتقد أنّا لو كنّا في حضرة ملك جبار من ملوك الدنيا يموت ويأكله الدود، أنَّا بحضرته وملاقاته لا يمكننا أن نفعل إلا شيئاً يسرّه ويرضيه، فعلينا أن نعلم أننا بين يدي ملك السماوات والأرض (جل وعلا)، وأنه أعظم بطشاً وأفظع نكالًا إن انتُهكت حرماته، وأنه عالم بكل ما نُسرّ وما نعلن، فعلينا أن نعتبر هذا لنتعظ، فقد بيّن النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور[(١)] (...)[(٢)] أن جبريل أراد أن يبين هذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم لأصحاب النبي ﷺ لمّا لم ينتبهوا له. وإيضاح ذلك: أن الله بيّن لنا في آيات من كتابه أن الحكمة التي خلق من أجلها الخلق والسماوات والأرض، وخلق من أجلها الموت والحياة، هي أن يبتلي خلقه، أي: يختبرهم بنقطة واحدة، هي نقطة العمل، من يحسن عمله فيأتي به حسناً كما ينبغي، ومن لا يحسنه؛ ولذا قال في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ثم بين الحكمة والعلة الغائية قال:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، والكلام مستقيم بدونها.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: آية ٧] ولم يقل: أيكم أكثر عملًا، وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بيّن الحكمة في ذلك قال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: آية ٧] وقال في أول سورة المُلك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ثم بيّن الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: آية ٢] ولم يقل: أكثر عملًا، فدلت هذه الآيات القرآنية أنّا خُلقنا لنُختبر ونُبتلى في شيء هو إحسان العمل، ولا شك أن العاقل يقول: إذا كان ربي (جل وعلا) خلق الخلائق، والسماوات والأرض، والموت والحياة؛ لأجل الابتلاء في إحسان العمل، يا ليتني عرفت الطريق إلى إحسان العمل لأنجح بهذا الاختبار. وجاء جبريل يبين هذا المغزى الأكبر، والمقصد الأعظم لأصحاب النبي ﷺ حيث قال للنبي ﷺ: يا محمد (صلوات الله وسلامه عليه) أخبرني عن الإحسان ـ المعنى الذي خُلق الخلق لأجل الاختبار فيه ـ فبين النبي ﷺ أنه لا طريق إلى الإحسان الذي خُلقنا من أجله إلا باعتبار هذا الزاجر الأكبر، والواعظ الأعظم، وهو مراقبة خالق السماوات والأرض، والعلم بأنه رقيب، علمه محيط بكل شيء؛ ولذا قال له: «**الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». ولا شك أن من عَبَدَالله كأنه يرىٰ الله، وإذا تَنَزَّل فقال: لا أرىٰ الله، فهو عالم أن الله يراه، مطّلع عليه، من كان يعمل أمام الملك الجبار، وهو مطلع عليه، ناظر إليه، لا يمكن أن يسيء العمل، فلا بد أن يحسن العمل ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: آية ٧] في هذه الآيات القرآنية زاجر أعظم، وواعظ أكبر.

وإذا علمتم من هذا أن الغيب لا يعلمه إلا الله، كما قال هنا: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: آية ٥٩] وقال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: آية ٦٥] فاعلموا أن كل طريق يفعلها الإنسان ليصل بها إلىٰ شيء من الغيب أنها طريق باطلة، وبعضها يكون كفراً؛ لأن الغيب من خصائص الله التي اختص بعلمها، ولا يعلم الناس إلا ما علمهم الله؛ ولأجل ذلك لا يجوز اتخاذ شيء يدّعي صاحبه أنه يصل به إلى

الغيب، فكل ذلك حرام، كالطَّرْق[(١)]، والزَّجْر[(٢)]، والعيافة[(٣)]، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك من الأمور التي يُراد بها الاطلاع على الغيب. وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: **«من أتىٰ عرافاً فسأله عن شيء لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً»**[(٤)]. هذا لفظ مسلم في صحيحه، والمراد بالعرّاف: هو من يدعي أنه يعرف موضع الضالة، وموضع الشيء المسروق وما جرىٰ مجرىٰ ذلك، مع أن العَرَّاف قد يدخل فيه الكاهن، والحازي، والزاجر[(٥)]. وهذه أمور كلها حرام، وهي من أمور الشر، فبعضها يكون كفراً. وما تجري به العادة في هذه البلاد من أن الواحد يأتي للواحد هنا ويقول: ضاعت لنا شاة أو جفرة، فاعرف لي محلها بعرافة أو بشيء!! هذا من كبائر الذنوب، وصاحبه لن تقبل له صلاة أربعين ليلة على لسان محمد ﷺ، كما ثبت عنه في صحيح مسلم. والسائل والمسؤول كلاهما في غاية الضلال. فهذه أمور لا تجوز، وكل هذا يدخل في الكهانة. فالكهانة، والطَّرْق، والزَّجْر، والعرافة، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك، كل هذا حرام[(٦)]، ولا يجوز منه شيء الزجر ولا العيافة.

والمراد بالعيافة: زجر الطير، وادعاء أهلها الذين يزجرونها أنهم يعرفون المغيبات، ويطّلعون علىٰ الأمور من أحوال طيران الطيور، من

---

(١) الطرق: ضرب الكاهن بالحصى. انظر: القاموس (مادة: طرق) (١١٦٦)، وانظر: الأضواء (١٩٩/٢).

(٢) قال في القاموس: الزجر: «العيافة والتكهن» القاموس (مادة: زجر) (٥١١)، وفي المعجم الوسيط: «زَجَر الطير: أثارها ليتيمن بِسُنُوحِها أو يتشاءم ببروحها» اهـ (المعجم الوسيط (مادة: زجر) (٣٨٩/١)، وانظر: الأضواء (١٩٩/٢).

(٣) عيافة الطير: زجرها. والمقصود الاعتبار بأسمائها ومساقطها وأصواتها، فيتفاءل بذلك أو يتشاءم، والعائف هو المتكهن بالطير أو غيرها. انظر: القاموس (مادة: عاف) (١٠٨٦)، وانظر: الأضواء (١٩٩/٢).

(٤) مسلم، كتاب السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان، حديث رقم (٢٢٣٠) (١٧٥١/٤)، وفيه (ليلة) بدل (يوماً).

(٥) انظر: القرطبي (٣/٧)، الأضواء (١٩٨/٢).

(٦) انظر: الأضواء (١٩٧/٢).

أسمائها، وألوانها، وجهاتها، ومواقعها التي تقع عليها. وهذا النوع من العيافة كان موجوداً عند العرب، ومما اشتهر به من قبائل العرب: بنو لِهْب، حتىٰ كان الشاعر يقول فيهم[(١)]:

خبير بنو لِهْبٍ فلا تكُ مُلغياً   مَقَالَةَ لِهْبِيٍ إذا الطير مَرَّت

والطَّرْقُ بعض العلماء يقول: هو الخط الرملي الذي يخطّونه، ويدّعون به الإطلاع علىٰ الغيب. وبعضهم يقول: هي حجارة كان يرمي بها النساء، ويزعمون أنهم يطّلعون بها على الغيب. وقد صدق لبيد حيث قال[(٢)]:

لعمرك ما تدري الضواربُ بالحصىٰ   ولا زاجراتُ الطير ما الله صانعُ

والذي يعمل هذه العلوم الشرية ويقول: «عرفت منها غيباً». فهو ضال. وبعض العلماء يقول: إنه في [مسائل منها][(٣)] كافر. قالوا: فمن قال: «أنا أعلم الوقت الذي يأتي فيه المطر، وأعلم ما في بطن هذه المرأة هل هو ذكر أو أنثىٰ». جزم ابن العربي المالكي في أحكام القرآن[(٤)]، والزجاج[(٥)]، أن من يقول هذا أنه كافر. اللهم إلا إذا ادّعىٰ أنه يستند لعادات وأمور، كالذي يقول: إذا اسودت حلمة ثدي المرأة الأيمن فهو ذكر، وإذا اسودت حلمة الثدي الأيسر فهو أُنثىٰ[(٦)] والظاهر أن هذه عوائد أجراها الله بمشيئته وقدره، فهذا قد لا يُكفّر عند من قالوا هذا، ولكنهم يقولون: يُنهى. وكذلك الذي يقول: العادة جرت بأن الحامل إن كانت ترى جنبها الأيمن أثقل فهو ذكر، وإن كانت ترىٰ جنبها الأيسر أثقل فهو أنثى[(٧)]. هذه كلها أمور باطلة. ومن

---

(١) البيت في ضياء السالك (١٣٦/١)، وانظر: المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية (١٤٦/١)، وهو في الأضواء (١٩٩/٢).

(٢) البيت في الدر المصون (٧٥١/١٠)، الأضواء (١٩٩/٢).

(٣) في هذا الموضع كلمة غير واضحة في الأصل، وهي شبيهة بما أَثْبَتُّ.

(٤) أحكام القرآن (٧٣٨/٢)، وانظر: القرطبي (٢/٧)، الأضواء (١٩٧/٢).

(٥) معاني القرآن وإعرابه (٢٠٢/٤).

(٦)(٧) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٧٣٨/٢)، والقرطبي (٢/٧)، إكمال المُعْلم (٧٦/١)، الأضواء (١٩٧/٢).

ادعىٰ أن السحابة [تُمطر][(١)] بعلة: أن الله ربط بمجاري عادته أن النوع الفلاني ينزل الله عنده [المطر][(٢)] ناسباً الأمر لله، وأنها عادات ربطها الله، وإن شاء خرمها. مثل هذا لا يُكفّر صاحبه، ولكنه ينهىٰ. ولو قال: إن عنده مقدمات يعلمها هو من نفسه يعلم بها أذكراً هو أم أنثىٰ، ويعلم بها أن المطر سينزل. فهذا الذي جزم ابن العربي بكفره، والزجاج، وغير واحد من العلماء، والذين كفروه قالوا: لأنه كذَّب كلام الله، وعارض كلام الله الصريح: أن هذا لا يعلمه إلا الله، أما الذين يقولون: إن في اليوم الفلاني ستكسف الشمس ويخسف القمر. وعامة العلماء علىٰ أن هؤلاء لا يُكَفرون؛ لأن هذا شيء قد يُدرك بالحساب؛ لأن الله يقول في قضية القمر: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: آية ٣٩] ويقول فيه: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: آية ٥] إلا أن علماء المالكية منعوا علىٰ من علم هذا بالحساب أن يبوح به. قالوا: ولو تكلم به لوجب علىٰ الإمام تعزيره وحبسه. قالوا: لأنه يشوش علىٰ الجهلة الذين لا يُميزون بين الأمور الغيبية، وبين ما جعل الله له منها علامات يُعرف بها، وما لم يجعل له علامات واختص الله بعلمه[(٣)]. وعلىٰ كل حال فهذه الأمور، قول إنسان لإنسان: «فتش لي بعلم غيب القراءة علىٰ محل الضّالة». هذا ـ والعياذ بالله ـ ضلال كبير، من كبائر الذنوب. ولو جاء واحد وقال لإنسان: «افعل لي هذا»، أو سَأَله عن شيء: «أين ضالتي؟» أو شيئاً من المسروق، لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة، كما صرح النبي ﷺ بذلك. هذا السائل، فكيف بالذي يفعل ذلك ويتعاطاه؟ وقد أجمع العلماء أن ما يدفع للكاهن من الحلوان وللعراف أنه مما لا يجوز، كل تلك المكاسب بإجماع العلماء[(٤)] باطلة، كالذي يُعطى للكاهن لكهانته ويسمىٰ حلواناً، والذي يُعطى للنائح في نياحته، والذي يُعطى للمُغَنّي في غِنَائه، والذي يُعطى لكل مبطل

---

(١) في الأصل كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين زيادة يتم بها الكلام.

(٢) في الأصل: «السحاب» وهو سبق لسان.

(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٢/٧٣٩)، القرطبي (٧/٣)، الأضواء (٢/١٩٨).

(٤) انظر: الكافي لابن عبدالبر ص١٩١، القرطبي (٧/٣)، الأضواء (٢/١٩٨).

ولهو، والذي يُعطى لاطلاع الغيب، كل ذلك من المكاسب السيئة التي هي حرام بإجماع العلماء، لا يجوز شيء منها.

ومعنىٰ قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ ﴿وَعِندَهُۥ﴾ أي: عند الله وحده جل وعلا ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ في مفرد المفاتح هنا وجهان معروفان عند العلماء[1]:

أحدهما: أن مفرد المَفَاتِح هنا (مَفتح) بفتح الميم، و(المَفتح) بفتح الميم هو الخزانة. وعلىٰ هذا فالقول ﴿وَعِندَهُۥ﴾ جل وعلا ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: خزائن الغيب، يعلم كل ما يغيب مما يجهله خلقه. وهذا مروي عن ابن عباس، وجزم به السدي.

القول الثاني: أن واحد المفاتح في هذه الآية أنه (مِفْتَح) بكسر الميم. و(المِفتح) بكسر الميم هو المفتاح. وقد تقرر في فن التصريف أن (المِفْعَل) وزن قياسي لآلات الفعل، و (المفْتَح): آلة الفتح، فهو أمر قياسي، بحسب الميزان الصرفي[2] أن يكون على (مِفعَل) ويأتي علىٰ مفتاح (مِفْعَال) أيضاً.

قال بعض العلماء[3]: (المِفْتَح) أفصح من (المِفتاح). والذين قالوا: إن (المفاتح) جمع (مفتاح)، وأنها قُصرت، وأن القياس (المفاتيح)؛ لأن المفرد (مفتاح) إلا أنها قُصرت، كما قالوا في القطر: قواطر، وقالوا في المحراب: محارِب، هذا لا يُحتاج إليه؛ لأن (المفتاح) فيه لغة فصيحة هي (المِفْتَح) بلا ألف. وعليها فتكون (مفاتح) جمع لـ(المفتاح) قياسياً. وعلىٰ كل التقديرين فالمعنىٰ: إنما خزائن الغيب ومفاتحه التي يُفتح بها ويظهر كل هذا عند الله وحده، لا يعلمها إلا هو وحده (جل وعلا)، ولا ينافي ذلك أن الله يُعَلِّمها لمن شاء.

---

(١) انظر: ابن جرير (٤٠١/١١)، القرطبي (١/٧)، البحر المحيط (١٤٤/٤)، الدر المصون (٦٥٩/٤)، أضواء البيان (١٩٥/٢).

(٢) انظر: ضياء السالك (٤٨/٣).

(٣) انظر: القرطبي (١/٧)، البحر المحيط (١٤٤/٤).

المعنىٰ أنه ليس عند أحد قدرة ولا اكتساب يكتسب هذه، ولا مانع من أن يعلِّم الله ما شاء من خلقه، فقد يَعْلَمُ الملائكةُ الموكلون بالسحاب الوقت الذي تنزل فيه السحاب؛ لأن الله يقول لهم: احملوا هذا المطر حتى تنزلوه في وقت كذا، في موضع كذا، فهم يعلمون هذا بتعليم الله قبل أن يعلمه غيرهم، وكذلك المَلَك الموكل بالرحم، كما ثبت في حديث ابن مسعود الصحيح[(١)]: أنه يقول: أذكر أم أنثىٰ، شقي أم سعيد؟ فيخبره الله وهو في بطن أمه قبل أن يعلم به الآخرون. وهكذا.

وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ ثم قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يعني يعلم ما يختص بعلمه، ويعلم كل شيء، الذي يعلمه الخلق هو يعلمه، والذي لا يعلمه إلا هو وحده فقد استأثر بعلمه جل وعلا.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ﴾ والتحقيق أن البرّ ضد البحر[(٢)]، والمراد بـ﴿مَا فِى ٱلْبَرِّ﴾ أي: جميع ما في [البر][(٣)].

قال الله تعالى:

١/٧ / ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ
ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ
ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى
لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ

---

(١) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، حديث رقم (٣٢٠٨) (٦/٣٠٣)، وأخرجه في مواضع أُخرى من صحيحه، انظر الأحاديث (٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه... حديث رقم (٢٦٤٣)، (٢٠٣٦/٤).

(٢) انظر: البحر المحيط (١٤٥/٤).

(٣) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل.

فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٧٤ ـ ٨٢].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٧٤].

قرأ هذا الحرف نافع، وأبو عمرو، وابن كثير[1] ﴿إِنِّيَ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وقرأه الباقون من السبعة: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهما قراءتان سبعيتان، ولغتان فصيحتان.

ووجه مناسبة هذه الآية الكريمة للتي قبلها التي كنا نفسرها بالأمس: أن الكفار قالوا للنبي ﷺ وأصحابه: ارجعوا إلى ديننا، فاعبدوا معنا معبوداتنا، وأنزل الله في ذلك: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَٰطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ [الأنعام: آية ٧١][2] لما بيّن الله أنهم دعوهم إلىٰ عبادة الأوثان، وأنهم لا يمكن أن يرجعوا إلىٰ [الكفر][3] بعد أن علمهم الله الدين، وعلمهم توحيده الصحيح ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا اللَّهُ﴾ هذا لا يكون، بيّن الله في هذه الآية سفاهة عقول مشركي مكة، وهم يقولون إن إبراهيم جدهم، وإنه علىٰ دين

---

(١) فَتح الياء في هذا الموضع: نافع، وابن كثير، وأبو جعفر، انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٦.

(٢) انظر: ابن جرير (٤٥٢/١١).

(٣) في هذا الموضع يوجد مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

صحيح، وملة حنيفية سمحة!! فأمر الله نبيه أن يذكر لهم قصة إبراهيم مع أبيه وقومه، وتفنيده لعبادة الأوثان، وتحذيرهم من ذلك؛ ليعلموا أن الذي يدعونكم إليه أنه كفر وضلال وسفه، وأنه مخالف لملّة إبراهيم التي يقرون بأنها حسنة[١].

ومعنىٰ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ واذكر يا نبي الله ﴿إِذْ﴾ أي: حين ﴿قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ جرت عادة العلماء أن يُقدّروا الناصب لـ (إذْ) يقدروه: (اذكر)[٢].

ولطالب العلم أن يقول: أين القرينة علىٰ أن العامل في هذا الظرف الذي هو (إذ) أنه لفظة (اذكر)، أين قرينة ذلك؟

الجواب: أن العلماء فهموا ذلك من استقراء القرآن، وأن الله في القصص يأتي بلفظة (اذكر) عاملة في (إذْ) هذه ونحوها، كقوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: آية ٢١] ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦] ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٨٦] ونحو ذلك في القرآن، كذلك قوله هنا: واذكر ﴿إِذْ قَالَ﴾ أي: حين قال نبي الله وخليله إبراهيم قال: ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ التحقيق الذي لا شك فيه أن (آزر) بدل، أو عطف بيان من الأب[٣]، وأنه أبوه، وإن كان عامة المؤرخين يقولون: إن أبا إبراهيم اسمه (تارح). وقد أجاب عن هذا ابن جرير وغيره[٤]، قالوا: لا أصدق من الله، وذكر هنا أن أباه (آزر)، وقد يكون له اسمان، أي: اسم ولقب، أحدهما: (تارح)، والثاني: (آزر). وهذه قراءة السبعة، وجماهير القراء[٥]،

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/١٦٣).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) في سورة البقرة.

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/١٦٣).

(٤) انظر: تفسير ابن جرير (١١/٤٦٨)، القرطبي (٧/٢٢)، البحر المحيط (٤/١٦٣)، ابن كثير (٢/١٥٠)، كلمة الحق للشيخ أحمد شاكر ص٣٠٢.

(٥) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٩٦.

وهناك قراءات شاذة[١]: منها من قرأ: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزرُ﴾ بضم الراء. وعلىٰ هذا فالمعنىٰ: يا آزرُ أتتخذ أصناماً آلهة. ومنهم من يقول: إن (آزر) ليس اسم أبيه، إنما هو اسم صنم[٢]. والذين قالوا: هو اسم صنم، قالوا: كثُرت عبادته لذلك الصنم، وملازمته إياه حتى نُبز به، كما قيل في ابن قيس الرُّقَيَّات[٣]؛ لأنه تَشَبَّب بنساء متعددة، كلهن تُسمىٰ (رقية)، فنبزوه بها. وفيه قراءات شاذة غير هذا، وأقوال أُخر لا مُعَوَّل عليها.

واعلموا أن قصة أبي إبراهيم هذه ذكرها الله مراراً كثيرة في سور متعددة من كتابه، وكلها صريح في أنه أبوه لا عمّه، ولم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله حرف واحد يدل علىٰ أنه عمّه، إلا أن أهل السير أُولعوا بأن قالوا: أبوه: عمّه. والذي يجب علينا جميعاً هو تصديق الله، وأن لا نُحرّف كلام الله، ولا نفسره بغير معناه إلا بدليل يجب الرجوع إليه من كتاب أو سنة، فاحترام الله واجب، واحترام كتابه واجب، ومن أوْجَبِ احترامه: أن لا نحرفه، ولا ننقل لفظاً[٤] منه عن ظاهره المتبادر منه إلا بدليل يجب الرجوع إليه، لا سيما والله في آيات كثيرة من كتابه جاء بالقصة بعبارات مختلفة، منها ما هو في الخطاب، ومنها ما هو في غيره، كلها صريحة في أنه أبوه لا عمّه.

والأبُ إذا أطلقته العرب انصرف إلىٰ أب الرجل الذي وَلَدَه، ولا يجوز أن يُحمل علىٰ أنه عمه إلا بدليل يجب الرجوع إليه، لا سيما لو كثُر ذكره في القرآن بعبارات كثيرة مختلفة، علىٰ أنحاء مختلفة، كلها صريح في أنه أبوه، فنقلها إلى عمه من غير دليل من كتاب ولا سنة تجرؤ علىٰ الله وعلىٰ كتابه بما لا يجوز. وأهم شيء في التعظيم والاحترام: كلام خالق السماوات والأرض، والحذر من أن يُبدل أو يُحرف، الله قال هنا: ﴿وَإِذْ قَالَ

---

(١) انظر: المحتسب (١/٢٢٣)، ابن جرير (١١/٤٦٧).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/٤٦٧)، القرطبي (٧/٢٢)، ابن كثير (٢/١٤٩).

(٣) هو عبيدالله بن قيس، أحد بني عامر بن لؤي. انظر: الشعر والشعراء ص٣٦٦.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة البقرة.

إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: آية ٧٤] وقال في موضع آخر في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٥١، ٥٢] وقال في الشعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٦٩، ٧٠] وقال في سورة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ إلى آخر الآيات. [مريم: الآيات ٤١ ـ ٤٣]. وقال في براءة: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [براءة: آية ١١٤] وهذا كثير في القرآن، وكذلك قال نفس إبراهيم: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: آية ٨٦] فجاء مراراً كثيرة بكلام خالق السماوات والأرض، وليس لنا أن نُحَرِّف كلام الله، ولا أن نحمله علىٰ غير معناه إلا بدليل يجب الرجوع إليه من كتاب وسنة، وكونه أباه لو كان فيه منقصة أو مضرّة علىٰ إبراهيم لما كان إبراهيم يقول: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: آية ٨٦] ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: آية ١١٤] فشرف إبراهيم، وجلالته، ومكانته هي هي، لا ينقصها شيء من ذلك، وعلىٰ كل حال فعلينا أن نُصدِّق الله، ولا نُحَرِّف كلامه، ونحمله علىٰ غير معناه افتراء علىٰ الله من غير برهان من كتاب ولا سنة.

ومعنىٰ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ واذكر ﴿إِذْ قَالَ﴾ نبي الله ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾ وخليله ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ وكان في قوم يعبدون الكواكب السيارة السبعة، ويعبدون تماثيل أصنام أرضية، فلهم معبودات أرضية، ومعبودات سماوية، معبوداتهم الأرضية: أصنام، وتماثيل، يزعمون أنهم يجعلون صورها وأشكالها علىٰ هيئة الملائكة، ويعبدونها لتشفع لهم عند الله، وكذلك يعبدون الكواكب السيارة التي هي الشمس، والقمر، وزُحل، والمشتري، والزهرة، وعطارد، والمريخ، كما هي معروفة. قال لهم نبي الله إبراهيم موبخاً لهم مُسَفِّهاً أحلامهم: قال لأبيه (آزر) مُنكراً عليه بهمزة الإنكار:

﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ المعنى: أتتخذ تماثيل مصورة من حجارة، أو من غيرها من الأجسام، تتخذها آلهة تعبدها من دون الله، وتصرف لها حقوق الله، مع أنها لا تنفع ولا تضر؟ هذا مما لا يليق!! كما قال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: آية ٤٢] وقد أفحمهم بالحجة في سورة الأنبياء، ذلك كما قصّه الله في الأنبياء(١)، والصافات(٢)، أنه ما كان يجد فرصة يكسر أصنامهم فيها؛ لأنه إن كسرهم وهم ينظرون أهانوه وآذوه، وكان يرتقب فرصة يكسرهم فيها، حتى جاء يوم عيدهم، فجاؤوا بطعامهم وشرابهم ووضعوه عند الأصنام، وقالوا للأصنام: اجعلوا لنا البركات والخيرات في هذا الطعام والشراب حتى نرجع من عيدنا، وقالوا لإبراهيم: اخرج معنا إلى عيدنا. ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾. يريد أن يتخلص منهم ليكسر الأصنام، فلما خرجوا جاء إلى الأصنام وبيده الفأس، فوجد الطعام عندهم ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ مستهزئاً بهم، لِمَ لا تأكلون من الطعام؟ كما قال في الصافات: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: آية ٩١] ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: آية ٩٣] يضربهم ويُكسرهم بيمينه بالفأس، فلما كسرهم ترك كبيرهم، وهو أعظم صنم عندهم، يقولون: إنه مرصّع بالجواهر، وأن عليه ياقوتتان. علق الفأس في عنقه(٣)، فلما جاؤوا من عيدهم وجدوا الأصنام مكسّرة، والفأس معلقاً في عنق الكبير، فقالوا: من فعل هذا بآلهتنا؟ فدُلوا على إبراهيم، كما فصّله الله في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء: الآيات ٥١ ـ ٥٤] وكما قال هنا في الأنعام: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: آية ٧٤] فأجابوا: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: آية ٥٥] فأجابهم أنه جاء بالحق: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

(١) كما في قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ والآيات بعدها.
(٢) كما في قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ والآيات بعدها.
(٣) انظر: تاريخ ابن جرير (١/١٢٢)، البداية والنهاية (١/١٤٥).

﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: آية ٥٦] ثم قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ يعني بكيدها: أن يكسرها من حيث لا يحضر أحد يراه ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿جِذَاذاً﴾[1] أي: كسَّرهم ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ فلما رجعوا ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ يعيبهم ويقول: إنه يكيدهم ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ يشهدون عليه أنه الذي فعل هذا، فاستنطقوه وقالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟ ﴿هَٰذَا﴾ يعني: جَعْلهم جذاذاً، قال إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: الآيات ٥٧ - ٦٣] إلى أن قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: آية ٦٥] أنت تعرف أن هؤلاء جماد، ما عندهم نطق، ولا يتكلمون. وكان هذا هو قصده، فقال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: آية ٦٧] فلما أفحمهم بالحجة والبرهان والدليل لجؤوا إلى القوة ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: الآيات ٦٨ - ٧٠] هذه القصة مكررة في القرآن، ومما بسطها الله فيه: سورة الأنبياء، وذلك معنى قوله هنا في الأنعام: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: آية ٧٤] أي: في ذهاب عن طريق الحق بيّن واضح لكل من له أدنى عقل، كيف تتركون عبادة الخالق، الرازق، النافع، الضار، المحيي، المميت، وتعبدون جمادات لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر؟!! هذا هو الضلال المبين الواضح لكل من له أدنى عقل.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: آية ٧٥] الإشارة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما بصَّرنا إبراهيم العقيدة الصحيحة، وعرّفناه إخلاص العبادة لله، حيث وبّخ المشركين، وبيّن لهم أنهم

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ٣٠٢.

في الضلال المبين، كذلك التبصير والتعريف بالدين الصحيح، وإخلاص العبادة لله، كذلك التعريف والتبصير نُريه ـ أيضاً ـ ملكوت السموات والأرض؛ ليكون من الموقنين في عقيدته ودينه[١]، و(الملكوت): أصله مصدر الملك، إلا أنه تُزاد فيه الواو والتاء، كالرَّهَبُوت، والرَّحَمُوت، والرَّغَبُوت في: الرحمة، والرهبة، والرغبة، وهي مصادر مسموعة في كلام العرب، نزل بها القرآن العظيم[٢].

﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ملك السموات والأرض، وما أبدع الله في ملكه في السماوات والأرض من غرائب صنعه وعجائبه؛ ليكون من الموقنين.

وفي ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في هذه الآية الكريمة وجهان لعلماء التفسير معروفان[٣]: قالت جماعة كثيرة من العلماء: إن الله فتح له السماوات، فنظر كل ذلك، حتى إلى العرش، وأنه شقّ له الأرضين، وأطلعه حتى الأرض السفلى. وهذا قال به جمع كثير من العلماء، ولكن التحقيق في الآية: أن ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ التي أراه ليكون بها من الموقنين هو الظاهر من غرائب صنع الله وعجائبه، مما أبدع في أرضه وسمائه حيث جعل السماء سقفاً محفوظاً، تمر عليه آلاف السنين لا يتفطر، ولا يتشقق، ولا يحتاج إلى ترميم، مرفوعاً على غير عمد ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾﴾ [الملك: الآيتان ٣، ٤] أي: ذليلاً من عِظم ما رأى، وجلالة ذلك الصنع، وكذلك الأرض بما أودع الله فيها من غرائب صنعه، وعجائبه، من أنواع الثمار، والجبال، وألوانها، والحيوانات، والناس، واختلاف ألسنتهم، وما أودع فيها من المنافع، والمعادن، والثمار، مما هو آيات تبهر العقول، كما قال: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) انظر: ابن جرير (١١/٤٧٠)، الدر المصون (٥/٥).

(٢) ابن جرير (١١/٤٧٠)، ابن عطية (٦/٨٨)، القرطبي (٧/٢٣)، البحر المحيط (٤/١٦٥)، الدر المصون (٥/٦).

(٣) انظر: ابن جرير (١١/٤٧٠ ـ ٤٧٥)، القرطبي (٧/٢٣ ـ ٢٤).

وَٱلْأَرْضِ﴾ مخاطباً لكل الناس الذين لم يشقّ لهم السماوات ولا الأرض ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: آية ١٨٥] وقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [يونس: آية ١٠١] ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: آية ١٠٥] ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً﴾ [ق: الآيات ٦ ـ ٨] هذه (التبصرة) المذكورة هنا هي (الإيقان) المذكور في قوله: ﴿نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: آية ٧٥] هذا هو القول الصحيح الذي دلّ عليه استقراء القرآن[١]، لا ما زعموا من أنه شُقّت له السماوات إلى العرش، وأنه شُقّت له الأرضون إلى السفلى، وأن الله (جل وعلا) رفعه حتى اطلع على أعمال بني آدم، وكلما رأى إنساناً على فاحشة دعا عليه فهلك، وأن الله نهاه عن ذلك، وأخبره أن من أسمائه الصبور. كل هذه مقالات ذكرها كثير من علماء السلف من أكابر المفسرين[٢]. والظاهر أن التحقيق خلاف ذلك كله، وهو ما ذكرنا، وهو أن ملكوت السماوات والأرض: ما أودع الله فيهما من غرائب صنعه، وعجائبها، مما يدل العقلاء على أن من صنعها هو العظيم القادر على كل شيء، وأنه المعبود وحده، كما قال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] وأمثال ذلك من الآيات.

هذا معنى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الظاهر أن ﴿نُرِيٓ﴾ هنا من (رأى) البصرية. وقال بعض العلماء: من (رأى) العلمية. و﴿نُرِيٓ﴾ عُدّي، أصله مضارع (أَرَيْنَا) بهمزة التعدية؛ ولذا كانت (رأى) بصرية، فعدتها إلى المفعولين[٣].

---

(١) وهو ما رجحه ابن جرير (رحمه الله). انظر جامع البيان (٤٧٥/١١)، وابن كثير، كما في التفسير (١٥٠/٢).

(٢) انظر: ابن جرير (٤٧٢/١١ ـ ٤٧٣).

(٣) انظر: ابن عطية (٨٨/٦)، البحر المحيط (١٦٥/٤)، الدر المصون (٥/٥).

وقوله جل وعلا: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ فيه الوجهان اللذان ذكرنا في قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[1] [الأنعام: آية ٥٥] أحدهما: وليكون من الموقنين أريناه ذلك. والمعنى: ولأجل أن يكون من الموقنين أريناه ملكوت السماوات والأرض.

وقال بعض العلماء: نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ليُحَاجِج قومه، وليكون من الموقنين. والمعنى متقارب.

و(الموقنون) جمع (الموقن)، و(الموقن) اسم فاعل (الإيقان)، وواوه مبدلة من ياء، أصله (مُيْقِن) (مُفْعِل) من (اليقين)[2]. و(اليقين) هو العلم الذي لا تتطرقه الشكوك ولا الأوهام، لا يقبل التغير بحال[3]. وهذا معنى قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ۝٧٦﴾ [الأنعام: آية ٧٦].

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ العرب تقول: «جنّ عليه الليل، وجنّه الليل، وأَجَنَّ عليه الليل، وأَجَنَّه الليل». فإذا قالت: «أَجَنَّ» رباعية كان قولها: «أَجَنَّه الليل» أفصح من «أَجَنَّ عليه الليل». وإذا قالت: «جنَّ عليه الليل»، فهو أفصح من «جَنَّه الليل»، والكل معروف في لغة العرب[4]. ومن تعدية (جَنَّ) ـ ثلاثية ـ قول الهذلي[5]:

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية المشار إليها. وفي هذه الآية انظر: ابن كثير (٢/١٥٠ ـ ١٥١)، البحر المحيط (٤/١٦٥)، الدر المصون (٥/٧).

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال، ص ٢٩٥.

(٣) انظر: المفردات (مادة: يقن) ٨٩٢، التعريفات للجرجاني ٣١٦.

(٤) انظر: ابن جرير (١١/٤٧٨ ـ ٤٧٩)، الدر المصون (٥/٨).

(٥) البيت في ابن جرير (١١/٤٧٩)، البحر المحيط (٤/١٦٢)، الدر المصون (٥/٨).
والسَّدَف: الظُلْمة من أول الليل، أو آخره عند اختلاط الضوء.
والأدهم: الضارب إلى السواد.

وأصل مادة (الجيم، والنون، والنون) (جَنَنَ) أصل هذه المادة في جميع تصرفاتها معناها: الاستتار والتغطية[(١)]، ومنه (الجِنَّة) وهم ـ مثلًا ـ إبليس وجنده؛ لأنّا لا نراهم. ومنه: (الجنين)؛ لأنه مستتر في بطن أمه، ومنه: (الجُنَّة) للدَّرَقَة؛ لأنها تستر صاحبها وتغطيه عن السهام، ومنه: (جَنَانُ الليل). أي: ظلامه وادْلِهْمَامه. وهذا معروف، كما قال الشاعر دُريد بن الصِّمَّة[(٢)]:

وَلَـولاَ جَـنَـانُ الـلَّـيـلِ أدرَكَ رَكْـضُـنَـا ... بِذِي الرِّمْثِ والأرطَي عِيَاضَ بن نَاشِبِ

هذا أصل المادة، ومعنى ﴿جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أظلم عليه الليل، وأرخى سدوله، حتى غطى الأجرام بسواده؛ لأنه عند ذلك الوقت تظهر الكواكب نيّرة؛ لأنه قبل ادلهمام الليل وظلامه لم تُنر الكواكب. ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أظلم وادلهم وغطّى الأجرام بظلامه.

﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ ﴿رَءَا﴾ معناه: أبصر بعينه ﴿كَوْكَبًا﴾ والكوكب: النجم الكبير، وعلماء التفسير يقولون: إن ذلك الكوكب الذي رآه هو الكوكب المسمى بالزُهرة[(٣)]. وهو من الإسرائيليات، وغاية ما دلّ عليه القرآن أنه رأى نجماً كبيراً، وهو مُراده بقوله: ﴿كَوْكَبًا﴾، وكان أبوه وقومه يعبدون معبودات أرضية ومعبودات سماوية، منها الكواكب السبعة[(٤)].

قال: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾، قول إبراهيم: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ في رؤيته للكوكب، ورؤيته للقمر، ورؤيته للشمس، أصله فيه بحث معروف للعلماء، غلط جماعة في هذا المقام من العلماء، منهم العالم الكبير ابن جرير الطبري،

---

(١) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الجيم، باب: ما جاء من كلام العرب في المضاعف والمطابق أوله جيم. ص٢٠٠، المجمل، كتاب الجيم، باب ما جاء من كلام العرب أوله جيم في المضاعف والمطابق، ص١٢٠، المفردات (مادة: جن) ٢٠٣.

(٢) البيت في المحتسب (٢/٢٩٣).

(٣) انظر: القرطبي (٧/٢٥)، البحر المحيط (٤/١٦٦)، البداية والنهاية (١/١٤٣)، الدر المنثور (٣/٢٥).

(٤) انظر: البداية والنهاية (١/١٤٠).

فزعم أن إبراهيم قال هذا ناظراً لا مُناظراً، وأنه قال هذا قبل أن يتيقن الدليل، يظن أن الكوكب ربه. هذا قاله[١] ونقله عن ابن عباس[٢]، واستدل عليه بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: آية ٧٧] قال: فقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ هذا يدل على أنه قال هذا قبل أن يتيقن الحقيقة، وقبل أن يتم له النظر، فبعد أن تمّ نظره وعلم الحق، قال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: الآيتان ٧٨، ٧٩].

والتحقيق بدلالة القرآن والسنة: أن هذا القول لهذه الطائفة من العلماء، منهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري، ورواه عن ابن عباس، أن هذا القول غلط لا شك فيه، وأن إبراهيم لم يظن يوماً في ربوبية كوكب، ولم يشك يوماً واحداً في ربوبية الله، هذا التحقيق الواجب اعتماده، الذي دل عليه كتاب الله وسنة نبيه ﷺ[٣]، أما القرآن: فقد دل على هذا في مواضع كثيرة:

منها: أنه أولاً قال رافعاً لهذا الاحتمال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: آية ٧٥] فلما أثبت له اليقين قال بعد ذلك مرتّباً عليه بالفاء: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ﴾ [الأنعام: آية ٧٦].

والثانية: أن الله ذكر أنه قال هذا في سبيل المناظرة والمحاجّة، لا في سبيل النظر بنفسه، حيث قال: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ [الأنعام: آية ٨٠]، وقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: آية ٨٣] ومن أصرح الأدلة في هذا: أن الله نفى عن إبراهيم كون الشرك في ماضي الزمن مطلقاً، حيث قال في آيات كثيرة من كتابه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/٤٨٣ ـ ٤٨٥).

(٢) المصدر السابق (١١/٤٨٠).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج (٢/٢٦٦)، القرطبي (٧/٢٥)، ابن كثير (٢/١٥١)، البداية والنهاية (١/١٤٢)، فتح الباري (٦/٣٩١).

كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: آية ١٢٣] ونَفْي الكون الماضي يستغرق الكون في جميع الزمن كائناً ما كان، وكذلك قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: آية ٦٧] هذا جاء في آيات كثيرة، ونفي الإشراك عنه في الكون الماضي يدلّ بدلالة القرآن ـ دلالة المطابقة ـ على أنه لم يتقدم له كون إشراك ألبتة. والله يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: آية ٥١] فَعِلْمُ الله به وبصلاحه يدل على ذلك، هذا هو الحق الذي لا شك فيه.

ولطالب العلم أن يقول: قررتم لنا أن إبراهيم لا يعتقد ربوبية الكوكب، وأن القرآن دل على ذلك، ومن السنة الصحيحة الدالة عليه: ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ: **«لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، اثنتين منها في ذات الله..»** الحديث[1].

وهذا حديث صحيح متفق عليه، وهذه الكذبات الثلاث التي قالها النبي ﷺ يعني أنها في الصورة كصورة الكذب، وهي في نفس الأمر ليست من حقيقة الكذب[2]، بدليل أنه قال: **«اثنتين منها في ذات الله»** وكيف يكون الكذب في ذات الله؟ فالذي يأتي في ذات الله هو أحق الحق، وأصدق الصدق.

والكذبات الثلاث التي يعنيها رسول الله ﷺ في حديث أبي هريرة المتفق عليه:

أحدها: قوله لقومه لما أرادوا أن يخرج معهم إلى عيدهم، وهو يريد

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾. حديث رقم: (٣٣٥٧، ٣٣٥٨) (٦/٣٨٨)، وأطرافه: (٢٢١٧، ٢٦٣٥، ٥٠٨٤، ٦٩٥٠) ومسلم في الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ، حديث رقم: (٢٣٧١) (٤/١٨٤٠).

(٢) انظر: الفتح (٦/٣٩١).

أن يتخلف عنهم ليتسنى له تكسير الأصنام: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: الآيات ٨٨ ـ ٩٣] فقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ـ وهو صحيح ـ قال بعض العلماء[١]: يريد أني سقيم عليكم، سقيم القلب لخساسة عقولكم، وأنكم تعبدون مع الله جمادات، وأنكم ذاهبون بفعلكم إلى النار. أو: إني سقيم في المستقبل؛ لأن الإنسان لا بد أن يمرض فيأتيه الموت. وفي المعاريض منادح كثيرة عن الكذب.

الثانية: هي قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: آية ٦٣] وبعض العلماء يقول: إنه قال ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ قصده ليُلجئهم إلى الإقرار؛ لأن كبيرهم لا يفعل، وأنه جماد لا يفعل شيئاً، فكأنه يُعرض ويقول: أنتم تعبدون ما لا ينفع ولا يضر، إلى غير ذلك من الأجوبة[٢].

أما الثالثة: فهي أنه لما هاجر من بلاد قومه، لما أنجاه الله من النار، مرّ على ذلك الجبار، في القصة المشهورة الثابت في الصحيحين[٣]، وكانت امرأته ـ سارة ـ من أجمل النساء، فعلم بها ذاك الجبار فطلبها، ولما قال له: ما هي منك؟ قال: هي أُختي. ولم يقل: هي زوجتي. خوف أن يغار عليه فيلحقه منه بأس، وجاءها وقال لها: يا سارة، إني قلت لهذا الجبار: إنك أُختي، وأنت أُختي في الدين، ليس هنا من يدين بدين الإسلام إلا أنا وأنتِ، فأنتِ أختي في الإسلام، فلا تكذبيني. في القصة المشهورة الثابت في الصحيح فلما أُدخلت عليه، وأراد أن يتناولها بسوء أُخذ، فقال لها: ادعي الله لي ولا أعود، فدعت له فبرىء، فهمّ أن يعود فأُخذ أشد من الأول، فقال لخدمه: ما أتيتموني بإنسان، وإنما أتيتموني بشيطان!! وأَخْدَمها هاجر التي أعطتها لإبراهيم، فتسرّاها وكانت أم إسماعيل. ويذكرون في التاريخ ـ وقد دل عليه بعض الأحاديث ـ أن هاجر أصلها بنت ملك القبط ـ

---

(١) انظر: الفتح (٦/٣٩١).

(٢) المصدر السابق (٦/٣٩١ ـ ٣٩٢)، وانظر البداية والنهاية (١/١٤٥).

(٣) مضى تخريجه في الصفحة السابقة.

ملك مصر ـ أخذها منه هذا الملك الجبار[١].

هذه الثلاث محل الشاهد من هذا الحديث الصحيح: أن إبراهيم لو كان معناه أن الكوكب رب، وأن القمر رب، وأن الشمس رب، لكان هذا أعظم فرية، وأعظم كذب. فلم يقل النبي: إنه لم يكذب إلا هذه الكذبات، وإن كانت في نفس الأمر ليست بكذبات، إلا أن صورتها كأنها صورة الكذب، وهي في الحقيقة بعيدة من الكذب، لطالب العلم أن يقول: قد قررتم لنا أن قول إبراهيم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ في الكوكب، وفي القمر، وفي الشمس، ليس يظن أن الكوكب رب، ولا يشك في ذلك، ولكن إذاً فما معنى قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾؟ وأين نصرِف هذا اللفظ عن الاعتراف بربوبية الكوكب، والقمر، والشمس؟؟

الجواب: أن العلماء خرّجوا هذا على وجهين[٢]، كلاهما قد يُغني عن الآخر:

الأول: الذي عليه الجمهور: أن المُناظِر إذا أراد أن يُفحم خصمه سلَّم له مقدمة تسليماً جدلياً ليمكِنه أن يفحمه؛ لأنه إذا نفى المقدمة لا يمكن أن يفحمه. فالمعروف في فنون الجدل: أنه لا بد للخصمين من أن يتفقا على قاعدة، وإن اختلفا مِنَ الأول لا يمكن أن يفحمه. وعليه فالمعنى: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على التسليم الجدلي، وفي زعمكم الكافر الفاسد كما قال الله جل وعلا: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ [النحل: آية ٢٧] فنسب إلى نفسه الشركاء ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ وليس له شريك (جل وعلا) ليقرِّعهم، ويوبّخهم، كأنه يقول: هذا ربي على التسليم الجدلي والتنزّل، وفَرْض المُحال، وتسليم المُحال، على قولكم الكاذب الفاسد، فكيف يكون الرّب وهو يأفل ويسقط؟ فمقصوده بهذا ليُفْحِمَهم، فلو قال لهم عند أول وهلة: الكوكب مخلوق مُسَخَّر، لا يمكن أن يكون

(١) انظر: الفتح (٦/٣٩٤).

(٢) انظر معاني القرآن للزجاج (٢/٢٦٦)، القرطبي (٧/٢٥)، ابن كثير (٢/١٥١)، البداية والنهاية (١/١٤٢)، فتح الباري (٦/٣٩١)، القاسمي (٦/٥٨٩ ـ ٥٩٠).

رباً. لقالوا له: أنت كذاب، الكوكب رب لا محالة. فلما تنزّل معهم، وسلّم لهم الكذب والمحال، أمكنه أن يُفحمهم، وعلى هذا فمعنى قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ أي: في زعمكم الكافر الفاسد. فمن أين يكون الرب وهو يأفل؟ أي يسقط.

الوجه الثاني: هو ما قاله بعض العلماء: من أن المقرر في علوم العربية أن الجملة إذا صُدِّرت بهمزة استفهام أو همزة تسوية، وكان المقام يدل عليها، أن حذفها جائز، وعليه فالمعنى: أهذا ربي؟! إنكاراً لهم. وحَذَفَ همزة الاستفهام. قالوا: وحَذْفُ همزة الاستفهام إذا دل المقام عليه، ذهب غير واحد من علماء العربية إلى أنه جائز، وقال باطّراده جماعة من النحويين، منهم: الأخفش، واعتمده ابن مالك في شرح الكافية، وقال به غير واحد[1].

وإذا نظرت كلام العرب وجدته كثيراً فيه، فائضاً فيه، كثرة تعرف منها أنه جائز.

وهو يوجد في كلام العرب على ثلاثة أنحاء ـ أعني حذف همزة الاستفهام إذا دل المقام عليها ـ: يوجد بدون (أَمْ)، وبدون ذكر الجواب، ويوجد بدون (أَمْ) مع ذكر الجواب. وهو مع (أَمْ) كثير مُطَّرد شائع.

فمثال وجوده دون (أم) ودون ذكر الجواب: قول أبي خراش الهذلي ـ واسمه خويلد[2] ـ:

رَفَوْني وقالوا يا خويلدُ لم تُرَعْ   فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/٤٨٤)، الكتاب (٣/١٧٤)، الصاحبي ٢٩٦، الخصائص (٢/٢٨١)، شرح الكافية لابن مالك (٣/١٢١٥ ـ ١٢١٧)، الخزانة (٤/٤٤٧ ـ ٤٥٠)، القرطبي (٧/٢٦)، الدر المصون (٥/١٢)، التوضيح والتكميل (٢/١٧٧)، ضياء السالك (٣/١٩٧).

(٢) البيت في: الخصائص (١/٢٤٧)، (٣/٣٣٧)، الصاحبي ٢٩٦، ابن جرير (١١/٤٨٤)، الخزانة (١/٢١١).

يعني: أَهُم هُم؟ فحذف همزة الاستفهام، ومن هذا المعنى قول الكُميت[١]:

طربتُ وما شوقاً إلى البِيْضِ أطربُ ولا لعباً منّي وذو الشَّيْب يلعبُ؟

يعني: أَوَذُو الشيب يلعب؟! فحذف همزة الاستفهام.

ومنه دون (أم) مع ذكر الجواب على التحقيق: قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي[٢]:

أَبْـرَزُوهَـا مـثـل الـمَـهَـاة تـهـادَى بـيـن خَـمْـسٍ كـواعـبٍ أتـرابِ
ثـم قـالـوا: تُـحـبـهـا؟ قـلـت بَـهْـراً عـدد الـنـجـم والـحـصـى والـتـراب

فقوله: «تحبها»، يعني: أتُحبها؟؟ وإتيانه مع (أَمْ) لا تكاد تحصيه في كلام العرب وأشعارهم، فَمِن حَذْف همزة الاستفهام قبل (أَمْ) قول عمر بن أبي ربيعة[٣]:

بدا لي منها مِعْصَمٌ يوم جَمَّرتْ وكـفّ خَـضِـيـب زُيِّـنـت بـبـنـانِ
فـوالـلّـه مـا أدري وإنـي لـحـاسـب بـسـبـع رميـتُ الـجـمـر أم بـثـمـان

يعني: أبسبع أم بثمان.

ومنه بهذا المعنى قول الأخطل[٤]:

كَذَبَتْكَ عـيـنُـك أم رأيـتَ بـواسـطٍ غَـلَـسَ الـظـلام مـن الـرَّبـابِ خَـيـالاً

(١) البيت في: الخصائص (٢٨١/٢)، شرح الكافية (٣٩٩/١)، (١٢١٧/٣)، الخزانة (٤٤٨/٤).

(٢) هذان البيتان يفصل بينهما نحو ستة أبيات من القصيدة. وهما في ديوانه ٥٩ ـ ٦٠، الخصائص (٢٨١/٢) والمثبت فيهما: «عدد القطر».

(٣) البيت في: الكتاب (١٧٥/٣)، الصاحبي ٢٩٧، شرح الكافية (١٢١٥/٣)، الخزانة (٤٤٧/٤).

(٤) البيت في ديوانه ٢٤٥، الكتاب لسيبويه (١٧٤/٣)، الخزانة (٤٥٢/٤).

يعني: أكذبتك، بحذف الهمزة. كما جَوَّزه سيبويه في كتابه خلافاً للخليل[١]. ومنه بهذا المعنى قول الأسود بن يعفر التميمي[٢]:

فوالله ما أدري وإن كنت دارياً شُعَيثُ بن سَهْمٍ أم شُعيثُ بن مِنْقَرِ

يعني: أشعيث بن سهم؟ ومنه بهذا المعنى قول أُحيحة بن الجُلاح الأنصاري المشهور[٣]:

وما تدري وإن ذَمَّرْتَ سَقْباً لغيرك أم يكون لك الفصيل

يعني: ألغيرك.

وقول الخنساء الشاعرة[٤]:

قَذىً بعينيكَ أمْ بالعينِ عُوَّارُ أمْ خِلْتَ إذْ أَقْفَرتْ من أهلها الدارُ

وقول امرىء القيس[٥]:

تَرُوحُ مِنَ الحيِّ أو تَبْتَكِرْ وَمَاذا عَلَيْكَ بأنْ تَنْتَظِرْ؟

وهو كثير شائع، قالوا: فعلى هذا فيكون المعنى: أهذا ربي؟ فحذفت أداة الاستفهام، وعلى هذا القول فالقرينة على أداة الاستفهام: إيقان إبراهيم المذكور قبله في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام: آية ٧٥] وتصريح الله بأنه مُحاجّ ومناظر لا ناظر بقوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ [الأنعام: آية ٨٠] وقوله: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ

---

(١) انظر: الكتاب لسيبويه (١٧٤/٣).

(٢) البيت في الكتاب (١٧٥/٣)، الخزانة (٤٤٨/٤ ـ ٤٥٠) شرح الكافية (١٢١٣/٣)، وشطره الأول هكذا:

(لعمرك ما أدري. . .) إلخ.

(٣) البيت من قصيدة لأُحيحة بن الجلاح الأوسي الجاهلي كما في ديوانه، ص٧٥.

(٤) شرح ديوان الخنساء ٣٨ ولفظه في الديوان:

قذى بِعَيْنِكِ أمْ بالعَينِ عُوَّارُ أمْ ذَرَفَتْ إذْ خَلَتْ من أهلها الدارُ

(٥) ديوان امرىء القيس ٦٨.

﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: آية ٨٣] قالوا: ومن حذف الاستفهام في القرآن قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: آية ٧٤] لأن المعنى: أفئن مت أفهم الخالدون بعد موتك؟ في نظائر ذكروها. هذان الوجهان في قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: آية ٧٦].

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أُفول النجم هو سقوطه وغيبوبته، إذا طلع النجم تقول العرب: طلع، وتقول في القمر والشمس: بَزَغ. فإذا غاب تقول العرب: أَفَل، فالأُفُول: الغيبوبة[1]، ومنه قول العرب: أين أَفَلْتَ عنا؟ أين غِبْتَ عنا؟ فلمَّا أَفَل ذلك النجم - أي: غاب - قال إبراهيم: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ﴾ يعني بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ﴾ لا أحب أن أعبد هذا الساقط المُتَغَيِّر المُسَخَّر؛ لأنه لا يمكن أن يكون هو المُدبرَ لشؤون هذا العالم، الذي بيده النفع والضر، فمن يتصف بصفة الأفول والغيبوبة والسقوط لا يحب عبادته؛ لأنه ليس متصفاً بصفات الرب؛ لأن صفات الرب: العظمة، والقدرة الكاملة، وهذا متصف بصفة نقص وتغير، لا يصلح أن يكون رباً. قال بعض العلماء: ووافق هذا أن في معتقدهم أن الكواكب التي يعبدونها أنها وقت أُفولها يسقط تأثيرها في ذلك الوقت، وأنها تضعف حتى ترجع طالعة، فيرجع لها ما كان لها من التأثير في
٧/ب زعمهم/ فوافق هذا أُفوله؛ ولذا قال لهم: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ﴾.

فكأنه هنا استنتج لهم إنتاجاً واضحاً أن الكوكب لا يمكن [أن يكون][2] رباً من مقدمتين:

أحدهما: أنه آفل، وكونه آفلاً يدل على أنه مُسَخَّر، أنه جرم مُسَخَّر بقدرة وإرادة غيره.

الثانية: هي أنه لا يحب الآفلين، فكأنه يقول: هذا آفل، وكل آفل كائناً ما كان متصف بصفات النقص لا يمكن أن يكون رباً، فهذا لا يمكن أن يكون رباً.

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/٤٨٥).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

ثم قال جل وعلا: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: آية ٧٧] أصل البزوغ: أول الطلوع، لمّا رآه طالعاً في أول طلوعه قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على ما بينا في غيره.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غاب القمر وذهب. ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾. العلماء قالوا: قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ فيه وجهان من التفسير(١):

أحدهما: أنه تواضع من إبراهيم، كقوله هو وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: آية ١٢٨] يطلب الله أن يجعله من جملة المسلمين تواضعاً لله (جل وعلا). وكقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: آية ٣٥] كل هذا تواضع من الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم)، وإظهارهم للفقر والعجز بين يدي الله (جل وعلا)، ولذا قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: آية ٧٧].

الثاني: هو ما قال بعض العلماء: أن هذا تعريض بقومه، يعني من لم يهده الله فإنه ضال، فكيف تضلون وتعبدون من دون الله أجراماً لا تنفع ولا تضر، وليس بيدها شيء؟ والمعنى: من لم يهده الله فلا هادي له، فهو ضال، كأنه تعريض بقومه على هذا القول.

ثم لما رأى الشمس ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ أي: طالعة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: آية ٧٨] والمعنى: هذا الطالع المنير ربي، فعبّر عنها بالمعنى، هذا الطالع المنير ربي(٢). قال بعض العلماء(٣): ووجه تذكيره لأنه لا ينبغي أن يُطلق على الرب اسم أنثى، ولو على لفظه؛ ولذا قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ هذا الطالع المنير ربي.

ثم قال: ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ هذا من التنزّل كالأول، يعني: هذا أكبر من

---

(١) انظر: القاسمي (٥٩١/٦).

(٢) انظر: ابن جرير (٤٨٦/١١)، البحر المحيط (١٦٧/٤)، ابن كثير (١٥١/٢).

(٣) انظر: البحر المحيط (١٦٧/٤)، الدر المصون (١٤/٥)، القاسمي (٥٩١/٦).

الكوكب ومن القمر، فحذف (مِنْ) وما بعدها[1]، هذا أكبر من الكوكب ومن القمر، ومقصوده بـ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ هو إسقاط الشمس أيضاً؛ لأن الأكبر الأعظم إذا كان يتصف بصفة النقص فصفة النقص أعظم في الكبير الجليل منها في الصغير الحقير.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ أي: غابت الشمس ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ أقام عليهم الحجة ثلاث مرات، فأظهر حقيقة أمره، وقد قضى وَطَرَه من التنزّل لهم حتى ألقمهم الحجر، فصرح لهم بعقيدته، قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ أبرأ إلى الله مما تعبدون من دونه.

ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾ [الأنعام: آية ٧٩] أي: أخلصت عبادتي وقصدي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ للقادر النافع الضار الذي هو الخالق الرازق. وقوله: ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ يُشير به إلى أن علامة استحقاق العبادة شيء واحد، العلامة لمن يستحق العبادة شيء واحد، وهو أنه الذي يخلق ويُبرز من العدم إلى الوجود، فمن يبرزك من العدم إلى الوجود هذا ربك الذي يستحق أن تعبده، ومن لا يقدر على إبرازك من العدم إلى الوجود فهو عبد مربوب محتاج إلى خالق يعبده مثلك؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة: آية ٢١] وقال: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل: آية ١٦] لا والله ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: آية ١٦] وخالق كل شيء هو المعبود وحده.

ومعنى: ﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: آية ٧٩] فطرهما يعني: خلقهما واخترعهما على غير مثال سابق. فـ(الفَطْر) معناه: الاختراع والابتداع على غير مثال سابق، روي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: ما كنت أتحقق حقيقة معنى ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: آية ١٤] حتى اختصم إلي أعرابيان في بير، فقال أحدهما: إنها بيري، وأنا الذي

(١) انظر: ابن جرير (٤٨٦/١١).

فطرتها[١]. يعني: اخترعتها، وابتدأت حفرها. فعلمت أن العرب تطلق هذا على اختراع الفعل وابتدائه. وهذا معنى قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي: أخلصت عبادتي وقصدي للذي خلق السموات والأرض.

﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: خلقهما وابتدعهما بما فيهما.

﴿حَنِيفًا﴾ أي: حال كوني حنيفاً، أي: مائلًا عن الدين الباطل إلى دين الحق، أصل الحنيف: (فَعِيْل) من (الحَنَف) بفتحتين، و(الحَنَف) أصله في لغة العرب أن يميل مقدم الرجل اليمنى إلى جهة الرجل اليسرى، ويميل مقدم الرجل اليسرى إلى جهة الرجل اليمنى، فيقال للرجل: (أحنف)، وللمرأة: (حَنفَاء). وقد كان كذلك الأحنف بن قيس المشهور، وقد قالت أمه تُرقصه وهو صغير[٢]:

والله لولا حَنَفٌ برِجْلِه ما كانَ في فِتْيانكم مِنْ مِثْلِه

فهذا الميل صار حقيقة عُرفية في الميل عن الدين الباطل إلى دين الحق، فمعنى ﴿حَنِيفًا﴾: مائلًا عن كل دين باطل إلى دين الله الصحيح[٣].

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (٢/١٧٤)، وفي غريب الحديث له (٤/٣٧٣)، وابن جرير (١١/٢٨٣)، والبيهقي في الشعب (٤/٣١٦)، وفي الأسماء والصفات له ص٤٤، وابن عبد البر في الاستذكار (٨/٣٨٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (انظر مختصره لابن منظور (١٣/٣١٣))، وذكره السيوطي في الدر (٣/٧)، وعزاه لأبي عبيد، وابن جرير، وابن الأنباري في الوقف والابتداء. ومداره على إبراهيم بن مهاجر، وهو البجلي. قال عنه في التقريب (ص٢٥٦): «صدوق لين الحفظ» اهـ. وانظر ترجمته في تهذيب الكمال (٢/٢١١).

قال الحافظ في الكافي الشاف (ملحق بالكشاف (٤/٦١)): «بإسناد حسن ليس فيه إلا إبراهيم بن مهاجر» اهـ. وانظر: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزيلعي (١/٤٣٤).

(٢) البيت في القرطبي (٢/١٤٠)، الدر المصون (٢/١٣٧).

(٣) انظر: ابن جرير (٣/١٠٤)، المفردات (مادة: حنف) ٢٦٠، القرطبي (٢/١٣٩ ـ ١٤٠)، الدر المصون (٢/١٣٧).

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: آية ٧٩] يعني في قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: آية ٧٦] لست أشرك بربي شيئاً، ولا أعتقد ربوبية كوكب، ولا شمس، ولا قمر. هذا هو الظاهر في هذه الآيات الكريمة أن نبي الله إبراهيم مُناظر لا ناظر، وأنه يريد بهذا التنزّل: التوصل إلى إفحام خصومه بدليل قوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ [الأنعام: آية ٨٠] حاجّه: أصله (حَاجَجَه) من (المُحَاجَجَة)، بأن يُدلي كل منهما بحجته ضد الآخر، وكل كلام يُدلي به خصم ضد آخر يُسمى: (حجة) ولو كان في غاية البطلان، كما قال تعالى في قوم أدلوا بكلام باطل: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: آية ١٦] فهو يطلق على كل ما أدلى به خصم ضد آخر، تقول له العرب: (حجة)[1]، و(المُفَاعَلَة): (حَاجَّ) أصلها: (حَاجَجَ)، على وزن (فَاعَلَ) أُدغمت إحدى الجيمين في الأُخرى.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ قوم الرجل أصلهم: جماعته، و(القوم) في وضع اللسان العربي يُطلق على الذكور خاصة، وربما دخل فيهم الإناث بحكم التبع[2]. فالدليل على إطلاقه على الذكور خاصة في الوضع العربي قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: آية ١١] فَعَطْفُ النساء عليهم يدل على اختصاص اسم (القوم) بالذكور دون الإناث، ونظيره من كلام العرب قول زهير بن أبي سُلمى[3]:

وما أَدْرِي وسوفَ إخالُ أَدْري ... أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نِساءُ

والدليل على دخول النساء في اسم (القوم) بحكم التبع قوله تعالى في بلقيس: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: آية ٤٣] دخلت بالتبع، بدليل قرينة السياق.

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من سورة البقرة.
(٢) انظر: المفردات (مادة: قوم) ٦٩٣، اللسان (مادة: قوم) (٣/١٩٥)، الكليات ٧٢٨.
(٣) البيت في اللسان: (مادة: قوم) (٣/١٩٥)، الدر المصون (١/٣٦٠).

ومعنى محاجة قومه له: أنهم قالوا له: كيف تدّعي أن المعبود واحد، وأن العالم كله يدبر شؤونه ويسمع نداءه معبود واحد؟ هذا لا يمكن!! كما قال قوم نبينا له: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: آية ٥] فقالوا له: من يعبد آلهة متعددة خير ممن يقتصر على واحد؛ لأن هؤلاء المتعددين تتكرر بهم الشفاعة من جهات، وهذا واحد. ومحاجتهم له في توحيد الله؛ ولذا قال: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: آية ٨٠] دل ذلك على أن محاجتهم في الله وفي عبادته، قال منكراً عليهم: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى﴾ قرأ هذا الحرف عامة القراء، ما عدا نافعاً وحده، وابن ذكوان عن ابن عامر، وهشام عن ابن عامر ـ بخلاف عنه ـ قرأه كلهم: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى﴾ بتشديد النون، وقرأه نافع برواية ورش وقالون وهشام ـ بخُلف عنه ـ عن ابن عامر كذلك ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِى﴾ بتخفيف النون. والياء مثبتة عند جميع القراء، فهما قراءتان سبعيتان[1] ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى﴾ وهذه قراءة الجمهور، وقراءة نافع وهشام ـ في إحدى الروايتين ـ: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِى﴾ بنون بعدها ياء، نون مخففة.

أما قراءة الجمهور فلا إشكال في الآية عليها، أصلها تأتي هنا نونان، النون الأولى: نون الرفع، والثانية: نون الوقاية، فأُدغمت إحدى النونين في الأخرى، وهذا لا إشكال فيه[2].

أما على قراءة نافع: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِى فِى ٱللَّهِ﴾ وقرأ بها هشام عن ابن عامر ـ في إحدى الروايتين ـ ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِى فِى ٱللَّهِ﴾ فقد استشكلها بعض العلماء، وذُكر عن بعض علماء العربية أنه قال: قراءة نافع في هذا لحن[3]!! وهذا خطأ، بل هي قراءة فصيحة، ولغة عربية فصحى، قرأ بها نافع في حروف كثيرة من القرآن، في قوله هنا في الأنعام: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِى فِى ٱللَّهِ﴾ وفي قوله في الزمر: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: آية ٦٤] وفي قوله

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ١٩٧.

(٢) انظر: حجة القراءات ٢٥٧، القرطبي (٢٩/٧)، البحر المحيط (١٦٩/٤)، الدر المصون (١٥/٥).

(٣) انظر: القرطبي (٢٩/٧)، البحر المحيط (١٦٩/٤)، الدر المصون (١٩/٥).

في النحل: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ﴾ [النحل: آية ٢٧] وفي قوله في الحجر: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونِ﴾ [الحجر: آية ٥٤] بكسر النون. كل هذه الحروف قرأها نافع على هذه الوتيرة. والتحقيق في هذا: أن هذه لغة فصحى، كما جزم به سيبويه[(١)] أن من عادة العرب إذا اجتمع مِثْلاَن أن يخففوا ويحذفوا أحد المثلين، وأنشد له سيبويه قول عمرو بن معدي كرب الزبيدي[(٢)]:

تراه كالثَّغَام يُعَلُّ مِسْكاً يسوءُ الفَالِيَاتِ إذا فَلَيْنِ

قال: الأصل: فَلَيْنَني. فلما اجتمع نونان حُذفت إحداهما[(٣)]. والتحقيق المقرر في علوم العربية: أن نون الرفع المعروفة في الأفعال الخمسة أنها لها حالات متعددة ـ لها تقريباً خمس حالات ـ في ثلاث حالات يجب حذفها بقياس مُطَّرد، وهذه الثلاث التي يجب فيها حذف نون الرفع[(٤)]:

أولها: ما إذا دخل عليها جازم.

والثانية: إذا دخل عليها ناصب. وقد جمعهما قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: آية ٢٤].

الثالثة[(٥)]: إذا دخلت عليها نون التوكيد الثقيلة نحو: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾، فإنها يجب حذفها في هذه الأمور الثلاثة بقياس مُطَّرد. ما إذا تقدمها جازم، أو تقدمها ناصب، أو دخلت عليها نون التوكيد الثقيلة. فتحذف نون الرفع

(١) انظر الكتاب (٥١٩/٣).
(٢) البيت في: الكتاب (٥٢٠/٣) وحجة القراءات ٢٥٨، القرطبي (٢٩/٧)، الدر المصون (١٨/٥).
والثغام: نبت له نور أبيض يُشَبَّه به الشيب.
ويُعلّ: أي: يطيب شيئاً بعد شيء.
(٣) انظر: حجة القراءات ٢٥٨.
(٤) انظر: التوضيح والتكميل (٦٠/١ ـ ٦١).
(٥) انظر: الكتاب لسيبويه (٥١٩/٣)، المصدر السابق (٢٥٨/٢ ـ ٢٥٩).

باطراد، وبقاؤها مع الجازم أو الناصب لغات قليلة مسموعة، وبقاؤها مع الجازم كقول الشاعر(١):

لـولا فـوارسُ مـن نُـعْـمٍ وأُسْـرَتِـهِـم يـومَ الـصُّـلَـيْـفَـاءِ لـم يـوفُـونَ بـالـجارِ

فهذه لغة قليلة تُحفظ ولا يقاس عليها. وكبقائها مع الناصب، كقول الشاعر(٢):

أن تـقـرآن عـلـى أسـمـاءَ وَيْـحَـكُـمـا مـنِّـي الـسـلامَ وأن لا تُـشْـعِـرَا أَحَـدا

هذا أيضاً كذلك.

أما الموضع الرابع: فهو يجوز فيه حذفها وإبقاؤها بقياس مُطَّرد، كأن تجتمع نون الرفع مع نون الوقاية ـ كهذه الآيات التي ذكرنا ـ فإنها يجوز إثبات نون الرفع كقراءة الجمهور، ويجوز حذفها كقراءة نافع، وقد غلِط من ظن أن النون المحذوفة أنها نون الوقاية، فالمحذوفة نون الرفع(٣).

الموضع الخامس: هو أن تُحذف نون الرفع لغير واحد من الأسباب الأربعة ـ لأَنْ لا يدخل عليها ناصب، ولا جازم، ولا تكون مع نون التوكيد الثقيلة، ولا مع نون الوقاية ـ فحَذْفها في مثل هذا شاذ يُحفظ ولا يُقاس عليه، كقول الراجز(٤):

أبـيـتُ أَسْـرِي وتـبـيـتِـي تَـدْلُـكـي وجـهـكِ بـالـعَـنبرِ والـمِـسْـك الـذَّكِـي

فالتحقيق أن قراءة نافع في هذا الحرف وفي غيره أنها على لغة عربية فصحى.

ومعنى الآية الكريمة: أتحاجونني، أتجادلونني في الله، وأني لا أعبده

---

(١) البيت في المحتسب (٤٢/٢)، الخصائص (٣٨٨/١)، الخزانة (٦٢٦/٣).
والصُّليفاء: مصغَّر صلفاء، وهي الأرض الصلبة. ويوم الصلفاء: من أيام العرب. وقد صغّره الشاعر هنا. وهو لهوازن على فزارة وعبس.

(٢) انظر: الخصائص (٣٩٠/١)، أوضح المسالك (١٦٦/٣)، الخزانة (٥٥٩/٣).

(٣) انظر: القرطبي (٢٩/٧)، الدر المصون (١٦/٥).

(٤) البيت في الخصائص (٣٨٨/١)، الخزانة (٥٢٥/٣)، الدر المصون (١٧/٥).

وحده، والحال قد هداني ربي، وشرح صدري بما أوحى إلي، وبما أراني من ملكوت السموات والأرض حتى صرت من الموقنين، أَبَعْدَ هذا من العلم واليقين الذي أعطاني الله، تحاجونني وتجادلونني في الله، في أنه المعبود وحده؟ هذا مما لا يكون ولا يصح. ثم إنهم قالوا له على عادة الكفار: ترى أنك عِبت آلهتنا وأصنامنا، وعبتها وكسرتها، وقلت: إنها لا تنفع ولا تضر. ترى أنها ستصيبك ببرص أو جُذام أو تُخَبِّلك فتجننك[١]!! وهذه عادة الكفار، يخوفون أنبياء الله من أصنامهم. فأجابهم إبراهيم قال لهم: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ قال لهم: لا أخاف ما تشركون به؛ لأنه لا ينفع ولا يضر، ولا يُترقب منه خوف ولا نفع، فلا أخافه أبداً.

والتحقيق في الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ﴾ أنه استثناء منقطع. هذا هو التحقيق[٢]، والمعنى: لكن إن شاء ربي أمراً مَخُوفاً أوقعني فيه، أمّا أصنامكم فليس منها خوف، وليس منها نفع؛ لأنها جمادات لا تنفع ولا تضر. وهذا هو التحقيق، خلافاً لقوم زعموا أن الاستثناء متصل، وقالوا: لا أخاف من معبوداتكم إلا أن يشاء الله أن يجعل لي منها ضرراً، كأن يُسقط عليّ قطعة من القمر الذي تعبدون، أو من الشمس الذي تعبدون، وأن يخلق في الحجارة عقولًا وقوة تبطش بي بها[٣]. هذا كله خلاف التحقيق.

والتحقيق أن الاستثناء منقطع، وأن المعنى: ولا أخاف ما تشركون به شيئاً، فلا أخاف ما تشركون به، ثم إنه لما نفى الخوف عن نفسه استثنى مشيئة الله، إلا أن يشاء الله أن يخوفني بما شاء، فله في ذلك ما شاء، والاستثناء استثناء منقطع، والتحقيق: أن الاستثناء المنقطع جائز في لغة العرب، وفي كلام العرب، خلافاً للمقرر في أصول الإمام أحمد بن حنبل،

---

(١) انظر: ابن جرير (٤٨٩/١١).

(٢) انظر: ابن جرير (٤٨٩/١١)، القرطبي (٢٩/٧)، ابن كثير (١٥٢/٢)، البحر المحيط (١٦٩/٤)، الدر المصون (٢٠/٥).

(٣) انظر: البحر المحيط (١٧٠/٤).

فالمقرر في الأصول(١) عند ثلاثة من الأئمة: مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، أن الاستثناء المنقطع صحيح، وأنه جائز في القرآن وفي كلام العرب، خلافاً للمقرر في أصول الإمام أحمد بن حنبل أن الاستثناء المنقطع لا يجوز؛ لأن غير ما دخل لا يمكن أن يُخرج بالاستثناء، وحجة الجمهور ورود الاستثناء في القرآن وفي كلام العرب، ومن ورود الاستثناء المنقطع في القرآن: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: آية ١٥٧] فاتباع الظن ليس من جنس العلم، وكقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: الآيتان ١٩، ٢٠].

فليس من جنس نعمة لأحد عنده، وكقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: الآيتان ٢٥، ٢٦] فالسلام ليس من جنس اللغو. وهو كثير في كلام العرب، ومن أمثلته في كلام العرب قول نابغة ذبيان(٢):

وقفتُ فيها أُصيلاناً أُسائلها ... عَيَّت جواباً، وما بالرَّبْعِ من أَحَدِ
إلا الأَوَاريَّ لأياً ما أُبيِّنُهَا ... والنُّؤي كالحوض بالمظلومة الجَلَدِ

فالأواري التي هي مرابط الخيل ليست من جنس الأحد. وكقول الراجز(٣):

وبلدةٍ ليس بها أنيسُ ... إلا اليعافيرُ وإلا العيسُ

وذلك ليس من جنس الأنيس. وقول الفرزدق(٤):

---

(١) في هذه المسألة راجع: ابن جرير (٢/٢٦٤)، (٨/١٣٦، ١٣٧)، (٩/٣١)، البحر المحيط في أصول الفقه (٣/٢٧٧)، شرح الكوكب المنير (٣/٢٨٦)، المذكرة في أصول الفقه ٢٢٦، نثر الورود (١/٢٨١)، أضواء البيان (٤/٣٣٦ ـ ٣٣٩).

(٢) البيت الثاني مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة، وهما في ديوان النابغة ص٩. وقوله: (أُصيلاناً) أي: عند الأصيل. و(عيت جواباً) أي: عجزت عن الإجابة. و(الأواري) مفردها الآري، وهي الآخيّة التي تشد بها الدابة. و(اللأي) الشدة. و(النؤي) ما يُحفر حول الخيمة لعدم تسرب الماء أو غيره إلى داخلها. و(المظلومة الجلد) أي: الأرض الشاقة التي أُقيم فيها حوض على غير استحقاق منها لذلك.

(٣) البيت لجران العود. وهو في الخزانة (٤/١٩٧)، الدر المصون (١١/٣٣) واليعافير: جمع يعفور، وهو الظبي بلون التراب، أو عام.

(٤) البيت في المقاصد النحوية (٣/١١٠).

وبنت كريم قد نكحنا ولم يكن لها خاطب إلا السنان وعامله

فالسنان ليس من جنس الخاطب.

وينبني في الأصول على الخلاف في الاستثناء المنقطع: ما لو قال رجل في إقراره: أُقر لزيد أن له علي ألف دينار إلا ثوباً. فالذين قالوا بجواز الاستثناء المنقطع، قالوا: تسقط قيمة الثوب من الألف. وعلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ـ المانع للاستثناء المنقطع ـ لا يسقط من الألف شيء؛ لأن الثوب ليس من جنس الدنانير التي أقر بها.

وعلى هذا فالمعنى: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ لا أخاف الأصنام التي تشركونها بالله (جل وعلا). فالتحقيق في الضمير في (به) أنه عائد إلى الله[1]. (تشركونها بالله) أي: به (جل وعلا). لا أخافها لأنها لا تنفع ولا تضر. ثم استثنى وقال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ لكن إن شاء ربي مخوفا أن يوقعني فيه فله (جل وعلا) ما شاء، فالاستثناء منقطع، وليس المراد أنه استثنى مخافة من الأصنام أبداً؛ لأنها جماد لا ينفع ولا يضر، والاستثناء منقطع، كما جزم به غير واحد من المحققين، وقد غلط من جعله متصلًا، كمن قال: إن الله قادر على أن يخلق في الأصنام عقولًا وبطشاً تضره به، وقادر على أن يسقط عليه فلقة من القمر الذي يعبدون فتضره!! هذا بعيد من كلام العرب، والظاهر ما ذكرنا. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ يخوفني به فمشيئة الله نافذة كائنة ما كانت.

﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿عِلْمًا﴾ تمييز مُحَوَّل عن الفاعل[2]. والمعنى: وسع علمه كل شيء، فهو عالم بكل شيء، وعلمه المحيط بكل شيء إذا أحاط بأنه يجعلني في مخافة فذلك حقيق، فلما نفى الخوف من الأصنام تدارك وقال: لا يمكنني أن أنفي الخوف، بل أُنيطه بمشيئة الله، إذا شاء أن يخيفني أخافني، وإلا فلا. هذا معنى الكلام.

---

(١) انظر: القرطبي (٧/٢٩)، البحر المحيط (٤/١٦٩)، الدر المصون (٥/٢٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/١٧٠)، الدر المصون (٥/٢١).

ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتعظون وتعلمون أنني لا ينبغي لي أن أخاف من جمادات لا تنفع، مع أنكم لا تخافون من شديد البطش، ملك السماوات والأرض، حيث تكفرون به، وتصرفون حقوقه لغيره؛ ولذا أتبعه بقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ [الأنعام: آية ٨١] في غاية الإنكار، كيف أخاف هذه الجمادات التي أشركتموها بالله، لا تنفع ولا تضر، وأنتم لا تخافون جبار السماوات والأرض، حيث تكفرون به، وتشركون به غيره؟

﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ (ما) موصولة، وهي في محل المفعول لـ: ﴿أَشْرَكْتُمْ﴾[1] أي: أشركتم بالله الشيء الذي لم ينزل به سلطاناً. أي: حجة.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن نفي الشيء لا يدل على إمكانه؛ لأن نفي السلطان عن الآلهة لا يدل على إمكانه، كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ [البقرة: آية ٥٧] فنفيه ظلمهم عنه لا يدل على إمكانه[2]، فهذا يدل على أن نفي الفعل لا يدل على إمكانه، كما قال جل وعلا: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: آية ١١٧] فنفي البرهان لا يدل على إمكان البرهان، إذ لا يقوم عليه برهان أبداً. وهذا معنى قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا﴾ [الأنعام: آية ٨١] أي: حجة واضحة.

ثم قال: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ أي الفريقين أحق بالأمن، أهو الفريق الذي يعبد الله، ويوحد الله، ويطيع الله، الذي بيده النفع والضر، ويُرقب ويُرجى من قِبَله كل شيء، أو هذا الذي يكفر بالله، ويغضبه، ويسخطه، ويصرف حقوقه للجمادات؟ أي هذين الفريقين أحق بالأمن والسلامة من الآخر؟ الجواب: أن فريق الله الذي يعبده ويوحده ويطيعه

(١) انظر: الدر المصون (٥/٢١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة البقرة.

لا شك أنه أحق بالأمن؛ ولذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنعام: آية ٨٢] وهم إبراهيم ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وقد ثبت في صحيح البخاري، في تفسير هذه الآية الكريمة، أنه لما نزل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال لهم النبي ﷺ: «**ليس الذي تريدون**». ثم تلا قوله: «﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[(١)] [لقمان: آية ١٣]» وبين لهم أن المراد بالظلم هنا: الشرك.

وكان الزمخشري يقول: لا يمكن أن يُفَسَّر الظلم هنا بالشرك؛ لأن الله يقول: ﴿إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ لأن الشرك لا يختلط مع الإيمان؛ لأنهما ضدان[(٢)]. وهذا في الحقيقة أمر غير صحيح؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: آية ١٠٦] فإنهم يؤمنون بربوبية الله (جل وعلا)، وبأنه النافع الرازق، ويشركون معه غيره في عبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ وقد جاء في بعض الأحاديث: أن النبي ﷺ خرج في سفر من أسفاره من المدينة، ثم بعد ذلك لحق بهم بدوي راكب على بعير، وقد قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، إني أتيتك من بلادي وتلادي، أُريد أن تعلمني مما علمك الله، وأدخل في دينك، فعلمه النبي شرائع الإسلام، وآمن على يد النبي ﷺ إيماناً صحيحاً، وفي ذلك الوقت سقطت يد بعيره في جحر في الليل، فانكسر عنقه فمات، فقال لهم النبي ﷺ: «**هذا من الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم**». لأنه عندما آمن إيماناً صحيحاً نقياً أخذه الله إليه.

وفي بعض الروايات: فيه أن النبي ﷺ قال لهم: «**إنه رأى ملكاً يدسّ**

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) عبارة الكشاف: «أي: لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم. وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظُ اللّبس». اهـ. الكشاف (٢/ ٢٥).

في فيه من ثمار الجنة؛ لأنه مات جائعاً». جاء هذا في أحاديث مرفوعة، الله أعلم بأسانيدها[(١)].

وقوله جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ كإبراهيم ومن سار على سيره. ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ على طريق صحيحة.

يُفهم من مفهوم مخالفة الآية: أن الذين لم يؤمنوا، وكانوا يلبسون كل شيء بظلمهم، وكفرهم، وعبادتهم للأصنام لا أمن لهم في الدنيا، ولا في الآخرة، وليسوا مهتدين. هذا معنى الآية الكريمة.

١/٨ / قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٨٣ ـ ٨٥].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٨٣].

في هذا الحرف قراءتان سبعيتان[(٢)]: قرأه أربعة من السبعة: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿نَرْفَعُ درجاتِ مَنْ نَشَاءُ﴾ غير مُنوَّن مُضافاً

---

(١) أخرجه أحمد (٣٥٧/٤، ٣٥٨، ٣٥٩)، والطبراني في الكبير (٣١٩/٢ ـ ٣٢٠)، والبيهقي في الشعب (٢٥٤/٨)، وفي الحلية (٢٠٣/٤)، وابن عدي في الكامل (١٨١٤/٥)، وأورده الهيثمي في المجمع (٤١/١)، وابن كثير في التفسير (١٥٣/٢)، والسيوطي في الدر (٢٧/٣)، وعزاه لأحمد، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب. من حديث جرير (رضي الله عنه) مع شيء من التفاوت في لفظه، حيث يرويه بعضهم بمثل السياق الذي ذكره الشيخ هنا، وبعضهم يرويه مختصراً.
وللحديث طرق لا تخلو من ضعف ولا يتقوى الحديث بمثلها، والله أعلم. وقد أخرج ابن أبي حاتم في التفسير (١٣٣٤/٤) نحوه من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، ومن طريقه أورده ابن كثير في التفسير (١٥٣/٢)، والسيوطي في الدر (٢٧/٣) وعزاه للحكيم الترمذي وابن أبي حاتم.

(٢) انظر المبسوط لابن مهران ١٩٨.

إلى (مَنْ)، وقرأهُ الكوفيون ـ عاصم، وحمزة، والكسائي ـ ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بتنوين درجات، وإدغام نون التنوين في الميم.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ اختلف العلماء في المشار إليه بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ فعن مجاهد: أنَّ الحجة المُشار إليها بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ أنها قول نبي الله إبراهيم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الأنعام: آية ٨١]. قال: لما خوَّفوه أصنامهم، وزعموا أنها تُخَبِّلُه وتستجلب له البرص ونحوه، قال لهم: كيف أخاف أصناماً لا تنفع ولا تضر، وأنتم تشركون مع الله غيره ولا تخافونه؟ قال مجاهد وغيره: هذه هي حجة الله التي آتاها إبراهيم[(١)]. والظاهر أن الإشارة في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ راجعة إلى المناظرة كلها[(٢)]، من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ﴾ [الأنعام: آية ٧٦]. كما جزم به غير واحد، وهو الصواب، أما عدم الخوف من الأصنام، فهذا أمر حجته أُعطيت لجماعة من الرسل، ولم يخص بها إبراهيم، ألا ترى أن قوم هود قالوا له: إنَّ بعض آلهتهم اعتراه بسوء، كما نص الله عليه في قوله: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ﴾ [هود: آية ٥٤]. قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ﴾ يعنون: أنَّ بعض معبوداتهم مس نبي الله هوداً بسوء، حتى جعله مجنوناً مختبلًا، يقول: اعبدوا الله، اعبدوا الله، اعبدوا الله. كأن هذا عندهم هذيان وجنون، وأن آلهتهم خبَّلته، حتى صار يقول هذا. فأجابهم نبي الله هود: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: الآيات ٥٤ ـ ٥٦] وقد بين الله في سورة الزمر، أنهم خوفوا نبينا ﷺ بآلهتهم، ثم أمره أن يقول: إنها لا تنفع ولا تضر، لا تكشف ضراً ولا تستجلب نفعاً. وذلك في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ [الزمر: آية ٣٦] يعني يهددونك بالأصنام أن

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/٥٠٥).

(٢) انظر القرطبي (٧/٣٠)، البحر المحيط (٤/١٧١ ـ ١٧٢)، أضواء البيان (٢/٢٠٢)، آداب البحث والمناظرة (٢/٨٢).

تضرك كما خوفوا بها إبراهيم وهوداً على الجميع صلوات الله وسلامه عليه. ثم إن الله أمر نبيه أن يبين أنها لا تنفع ولا تضر، في قوله بعد الآية التي ذكرنا: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ الآية. [الزمر: آية ٣٨]. وهذا مما يبين أن الحجة التي آتاها الله نبيه إبراهيم هي إفحامه الخصوم، ومناظرته لهم جميعاً؛ ذلك أنهم كانوا يعبدون كواكب مسخرة، ويعبدون أصناماً أرضية، وأجراماً سماوية، فقال لهم في الأجرام الأرضية: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: آية ٩٥] ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: آية ٦٧] ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٧٢-٧٣] ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: آية ٤٢] هذا في الأجرام الأرضية، وهي أصنامهم، وقد أشار له في هذه الآيات بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٧٤] حيث تعبدون ما لا ينفع ولا يضر، وتتركون عبادة الخالق الرازق النافع الضار. ثم ناظرهم في عبادتهم الأجرام السماوية، فلما رأى كوكباً: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ [الأنعام: آية ٧٦] فكأنه يتنزل لهم في المناظرة ويُسلِّم لهم مقدمة باطلة، هي مقدمة كفر، يُسلِّمُها لهم على زعمهم الفاسد الكافر(١)؛ ليمكنه إفحامهم، ويبين لهم أن الأُفول صفة نقص محققة، تنافي صفات الربوبية، فاتصافه بالأفول ينافي كونه رباً، كما بينه، وكأنها نتيجة ترتبت على مقدمتين:

إحداهما: كون ذلك المزعوم معبوداً، كونه آفلاً. وهذه في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ لأن أصل المعنى: رأى كوكباً فأفل ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ بحذف الفاء وما عُطفت عليه. فقوله ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ تضمنت مقدمة معناها: هذا الجرم آفل.

ثم رتب المقدمة الأخرى: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ لا أحب أن أعبد من يتصف بصفة الأفول والغيبوبة؛ لأنها صفة نقص، تدل على النقص

(١) انظر: الأضواء (٢٠١/٢).

والتسخير، فمن كان كذلك لا يستحق أن يكون رباً. فهذا نظر عقلي صحيح، واستنتاج صحيح، وقد تقرر عند عامة النظار أن الاستنتاج العقلي إذا كان على طَرِيقِهِ الصحيحة أنه أمر صحيح. وقالوا: نَوَّه الله بشأنه حيث جعله حجة أضافها لنفسه، وآتاها إبراهيم على قومه[1]، حيث قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: آية ٨٣].

ومعلوم أن النظر العقلي أنه محصور في أربعة أنواع؛ لأن المُسْتَدَلَّ به: إمَّا وجود، وإمَّا عدم. والمُسْتَدَلّ عليه: إما وجود، وإما عدم. فتضرب حالتي الدليل في حالتي المدلول، اثنين باثنين: بأربعة. بسطها وتَصْطِيْحُها: استنتاج وجود من وجود، واستنتاج عدم من عدم، استنتاج عدم من وجود، واستنتاج وجود من عدم. هذا معروف.

مثال استنتاج الوجود من الوجود: هو استنتاج وجود خالق هذا الكون من وجود هذا الكون على هذه الأساليب الغريبة العجيبة، الدالة على أن له خالقاً مدبراً هو الرب المعبود وحده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] فبين أنَّ وجود هذا الكون دليل على وجود صانعه، فهو وجود يلزم منه عقلاً وجود خالق مدبر، هو الرب المعبود.

ومثال استنتاج العدم من العدم: قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: آية ٢٢] فهنا: عدم فساد السماوات والأرض يستلزم عدم تعدد الآلهة. فهو عدم ينتج عدماً، كما في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فعدم الفساد المشاهد يلزمه عدم تعدد الآلهة.

وكذلك ربما يُستنتج عدم من وجود ـ كما في هذه الآية ـ فإن أُفول الكوكب صفة وجودية عاينوها بالحس فيه، استنتج منها عدم الربوبية، حيث قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ [الأنعام: آية ٧٦].

وأما استنتاج الوجود من العدم: فهو معروف باستنتاج عدم النقيض من وجود نقيضه، أو مساوي نقيضه، كما هو معروف.

---

(١) انظر آداب البحث والمناظرة (٨٣/٢).

والشاهد أن نبي الله إبراهيم ناظر قومه مناظرة عقلية، بين لهم فيها أن هذه المعبودات التي يزعمونها أرباباً هي آفلة، وهذه المقدمة - التي كون تلك المعبودات آفلة - مقدمةٌ قطعية؛ لأنها تُدرك بالحواس، فهم يشاهدون أفولها بأعينهم، فهي مقدمة لا يمكن إنكارها. ثم رتب لهذه المقدمة المحسوسة مقدمة عقلية ضمَّها معها، أشار لها بقوله ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ هي أن الأُفول صفة نقص لا شك فيها، تدل على حدوث وتسخير، وهذه تنافي صفات الربوبية، فالآفل لا يمكن أن يكون ربّاً. ثم قال لهم مثل هذا في الشمس والقمر، حتى ألقمهم الحجر[١]. ثم بعد ذلك بين لهم معتقده، وأظهر حقيقته، وقال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٧٨ - ٧٩] وكان الله (جل وعلا) أعطى إبراهيم حُسن الحجج والمناظرة، واللطف فيها. من ذلك أنه لما ناظر نمرود، وهو الذي بُعث إبراهيم في زمن ولايته، وكان ملكاً جباراً طاغياً، نمرود بن كنعان بن سنجاري بن كوش بن سام بن نوح[٢]، الفاجر المعروف، لما قال له: من ربك الذي تدعونا إليه؟ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: آية ٢٥٨] وكان نمرود جاهلاً، فأخذ رجلين، أحدهما كان محكوماً عليه بالقتل فأطلقه، وأخذ آخر بريئاً فقتله، فقال: هذا كان حياً فأنا أَمَتُّه، وهذا كان سيموت الآن فأنا أحييته[٣]!! فَلِمَا أعطاه الله من الحجة وحسن المناظرة لم يقل له: هذه ليست الحياة التي أُريد، ولا الموت الذي أُريد. بل ترك له هذا كله، ولم يجبه بشيء منه، وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ فزعموا في

---

(١) في هذا الموضوع انظر: آداب البحث والمناظرة (٧٨/٢، ٨٢ - ٨٣).

(٢) في تاريخ ابن جرير (١٤٧/١): «نمروذ بن كنعان بن حام بن نوح». وفي التفسير (٤٣٠/٥): «نمروذ بن كنعان بن كُوش بن سام بن نوح. وقيل: إنه نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح». وانظر البداية والنهاية (١٤٨/١).

تنبيه: هناك شيء من الاختلاف بين هذه المصادر في بعض هذه الأسماء، بل هذا الاختلاف موجود في المصدر الواحد في المواضع المتعددة، فـ(فالخ) في بعض المصادر: (فالح)، وفي بعضها: (فالغ). وهكذا (شالخ) فهو في بعضها: (صالح)، وفي بعضها: (شالح).

(٣) انظر ابن جرير (٤٣٣/٥، ٤٣٦ - ٤٣٧).

قصته أنه أولًا أراد أن يكذب وأن يقول: أنا هو الذي آتي بها من المشرق، فقل لربك يأتي بها من المغرب!! فنظر فإذا في المجلس رجال كبار السن، يعلمون الشمس تطلع من المشرق، يطلعها الله قبل أن يولد نمرود، فخاف أن يكذبوه فيفتضح في المجلس، فبُهت الذي كفر. هذه المناظرات التي يُفحم بها الخصوم، كما في آية الأنعام هذه، هي التي نوّه الله بشأنها، وأضافها إلى نفسه، وقال: إنه آتاها إبراهيم، مُعظِّماً نفسه ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ تلك الحجة التي أفحم بها الخصوم حجتنا، أضافها الله لنفسه تشريفاً وإعظاماً.

﴿ءَاتَيْنَٰهَآ﴾ أي: أعطيناها ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، فهمناه إياها، وألهمناه إياها ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، هذه الحجة يحتج بها على قومه الكفرة الذين يجادلونه، كما قال: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ [الأنعام: آية ٨٠] حتى يفحمهم ويلقمهم الحجر.

ثم قال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: آية ٨٣] هذه الآية تدل على أنَّ من علَّمه الله الحُجج، ومناظرات الخصوم التي يثبت بها التوحيد، ويدفع بها شُبَه المُبْطِلين، أن هذا رَفع من الله في درجاته، حيث أتبع قوله: ﴿حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أتبعه بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي: كما رفعنا درجة إبراهيم، بما آتيناه من تلك الحجة التي صدع بها بالحق، وقهر بها الخصوم.

أما على قراءة الجمهور: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتِ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالإضافة، فالدرجات: مفعول به لـ﴿نَرْفَعُ﴾ و﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ مضاف إليه ما قبله. ومن رُفعت درجاته فقد رُفع[1]، كقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ وفي الحديث: «**اللهم ارفع درجته**»[2] والدرجة: المرتبة والمنزلة، فإن من رُفعت درجته ومنزلته فقد رُفع، وعلى هذا فمعناه: نرفع رُتب ومنازل من نشاء أن نرفع رتبته ومنزلته.

أما على قراءة الكوفيين ـ عاصم، وحمزة، والكسائي ـ[3]: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ فـ﴿مَّن﴾ الموصولة هي مفعول ﴿نَرْفَعُ﴾ أي: نرفع من نشاء رفعه، نرفعه درجات.

---

(١) انظر القرطبي (٣٠/٧)، البحر المحيط (١٧٢/٤)، الدر المصون (٢٦/٥).

(٢) قطعة من حديث أم سلمة عند مسلم (في وفاة أبي سلمة رضي الله عنه). كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حُضر. حديث (٩٢٠) (٦٣٤/٢).

(٣) مضت هذه القراءات عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

وفي إعراب ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ على هذه القراءة أوجه معروفة للعلماء[١]:

أحدها: أنها ما ناب عن المطلق؛ لأن معنى نرفع من نشاء درجات أي: رفعات عالية، فالدرجة في معنى الرفع، فهي في معنى المفعول المطلق لا بلفظه.

وقوم قالوا: هي منصوبة بنزع الخافض. أي: نرفعه في درجات. إلى غير ذلك من الأعاريب.

ومفعول المشيئة محذوف، (نرفع درجاتٍ من نشاء رَفْعَ درجاته). أو: (نرفع درجاتٍ من نشاء رَفْعَه). فعلى الإضافة: فالتقدير: (نرفع درجاتِ من نشاء رَفْعَ درجاته). وعلى التنوين: فالتقدير: (نرفع درجاتٍ من نشاء رفعه). هذا معناه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ جل وعلا ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الحكيم في الاصطلاح: هو من يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها. فالله (جل وعلا) حكيم لا يضع أمراً إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه، ولا يأمر إلا بما فيه الخير، ولا ينهى إلا عما فيه الشر، ولا يعذب إلا من يستحق، وهو (جل وعلا) ذو الحكمة البالغة، له الحجة والحكمة البالغة. وأصل (الحكيم): هو المتصف بالحكمة. وأصل (الحكمة): (فِعْلة) من الحُكم. وأصل مادة (الحُكم) في لغة العرب[٢]: أصلها معناها (المَنْع). تقول العرب: «حَكَمَه وأَحْكَمَه» إذا منعه.

أَبَني حَنَيْفَةَ أَحكِموا سُفَهَاءَكم إني أخافُ عليكُمُ أن أَغْضَبا[٣]

لنا في كلِّ يومٍ من مَعَدٍّ سبابٌ أو قتالٌ أو هجاءُ
فنُحْكِمُ بالقوافي من هَجَانا ونضربُ حين تَخْتَلِطُ الدماءُ[٤]

---

(١) انظر: البحر المحيط (١٧٢/٤)، الدر المصون (٢٦/٥).

(٢) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الحاء، باب الحاء والكاف وما يثلثهما ص٢٧٧.

(٣) البيت لجرير، وهو في المقاييس في اللغة ص٢٧٧، الدر المصون (٢٦٧/١).

(٤) البيتان لحسان بن ثابت (رضي الله عنه) وهما في ديوانه، ص٢٠.

هذا أصل (الحكم): المنع، ومنه: (حَكَمَة الدابة). لأنها تمنعها من الجري على غير مراد صاحبها. والحِكْمةُ: (فِعْلة) من (الحُكم) بمعنى: المنع. وأظهر تفسيراتها: أنها العلم النافع. لأن العلم النافع هو الذي يحكم الأقوال والأفعال. أي: يمنعها أن يعتريها الخلل. فمن كان عنده العلم الكامل كان لا يضع الأمر إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه؛ لأن كل إخلالٍ في الإحكام إنما هو من الجهل بعاقبة الأمور، فترى الرجل الحاذق القُلَّب البصير يفعل الأمر يظن أنه في غاية الإحكام، ثم ينكشف الغيب عن أن فيه هلاكه، فيندم حيث لا ينفع الندم، ويقول: ليتني لم أفعل، ولو فعلتُ لكان كذا!! كما قال الشاعر[1]:

أُلامُ على لوٌ ولو كنتُ عالماً بأذناب لوٌ لم تَفُتْني أوائلُه

يقولون لي: لو فَعَلْتَ كذا لكان خيراً!! أنا لو كنتُ عالماً بما يصير إليه الأمر لفعلته من أول. فرب السماوات والأرض وحده لا يجري عليه: لو فعلتُ كذا لكان أحسن؛ لأنه عالم بعواقب الأمور، وما تصير إليه، وعالم بما كان، وما يكون، فلا يضع أمراً إلا في موضعه، ومحال عن أن ينكشف الغيب عن أن ذلك الأمر على خلاف الصواب؛ لأنه عالم بعاقبة الأمر، وما يؤول إليه، كما بيناه مراراً.

والعَليم: صيغة مبالغة؛ لأن عِلْمَ الله (جل وعلا) محيط بكل شيء، يعلم خطرات القلوب، وخائنة الأعين وما تخفي الصدور، حتى قدمنا أنه من إحاطة علمه: يعلم المعدوم الذي سبق في علمه أنه لا يوجد، هو عالم أن لو وُجد كيف يكون؛ لشدة إحاطة علمه بالموجودات والمعدومات. وقد بيناه في هذه السورة الكريمة؛ لأن أهل النار لما عاينوا النار، ورأوا الحقيقة، وندموا، تمنوا أن يُردوا إلى دار الدنيا مرة أُخرى ليُصدقوا الرسل، ورَدُّهم ذلك الذي تمنوه: الله عالم أنه لا يكون، وقد صرح بأن ذلك الرد

---

(١) البيت في الكتاب لسيبويه (٣/٢٦٢)، ما ينصرف وما لا ينصرف للزجاج، ص٦٦، فتح الباري (١٣/٢٢٦).

ـ الذي هو عالم أنه لا يكون ـ صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٢٧] هذا الرد الذي تمنوه هو عالم أنه لن يكون، ثم صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال بعده: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] والمُتَخلِّفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً؛ لِمَا سبق في علم الله من تثبيطهم عنها، والله ثبطهم عنها بإرادته لحكمة ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ وخروجهم إلى غزوة تبوك، الذي ثبطهم عنه، وسبق في علمه أنه لا يكون، صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ الآية [التوبة: الآيتان: ٤٦، ٤٧]. وأمثال هذا في القرآن كثيرة. الله (جل وعلا) محيط علمه بكل شيء. وفي اسميه: (الحكيم، العليم) أكبر مدعاة للعباد أن يطيعوه ويتبعوا تشريعه؛ لأن بحكمته يعلمون أنه لا يأمرهم إلا بما فيه الخير، ولا ينهاهم إلا عما فيه الشر، فلا يوقع لهم أمراً إلا في موقعه، ولا يضعه إلا في موضعه، وبإحاطة علمه: يعلمون أنه ليس هنالك غلط في ذلك الفعل، ولا عاقبة تنكشف عن غير ما أراد، بل هو في غاية الإحاطة والإحكام. وإذا كان من يأمرك عليم لا يخفى عليه شيء، حكيم في غاية الإحكام، لا يأمرك إلا بما فيه الخير، ولا ينهاك إلا عما فيه الشر، فإنه يحق لك أن تطيع وتمتثل.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ [الأنعام: آية ٨٤]، صيغة الجمع في قوله ﴿وَوَهَبْنَا﴾ للتعظيم، ومعنى ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾: أعطيناه إياهما. وقد بين الله (جل وعلا) أن هبته إياه إسحاق كانت على كِبَر عظيم منه، وعلى كِبَر من امرأته، بحيث لا يحمل مثلها عادة، وأن الرسل الذين بُعثوا إلى قوم لوط لما نزلوا عنده، وذبح لهم عجله، وأنضجه، ونَكِرَهُم لما رأى أيديهم لا تصل إليه وخاف منهم، في ذلك الوقت بَشَّروه بإسحاق، ومن وراء إسحاق: يعقوب، بشَّروه بأن امرأته تلد إسحاق، وأنه يُولد له يعقوب، حتى تَقَرّ به أعينهما وهما حيان، كما نص الله عليه في سورة هود:

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: آية ٧١] حتى إن امرأته لشدة تعجبها من أنها تلد وهي عجوز فانية صرخت، وصَكَّت وجهها، كما قال تعالى في الذاريات: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾ [الذاريات: آية ٢٩] يعني: في صيحة وضجة ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ لاستعجابها واستغرابها من هذا الخبر، وكذلك قال عنها في سورة هود: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾ [هود: آية ٧٢]. أما إسماعيل فقد أعطاه الله إياه قبل ذلك من سُرِّيته هاجر، كما هو مشهور في التاريخ، ولم يعطه إسماعيل أيضاً إلا بعد أن كبرَ وطعن في السن، كما نص عليه في سورة إبراهيم الخليل ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: آية ٣٩]. إلا أن وقت بشارته بإسحاق كان كبيراً كِبَراً شديداً، وامرأته عجوز فانية، أكبر من زمن إيتائه إسماعيل، وإن كان كبيراً عند الوقتين. وهذا معنى قوله: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ [الأنعام: آية ٨٤].

وآية هود هذه من النصوص الدالة على أنَّ الذبيح: إسماعيل، وليس بإسحاق؛ لأن ذلك دل عليه القرآن في موضعين، وهو الصحيح. إلا أن الإسرائيليين يحكون إسرائيليات كثيرة في أنه إسحاق، اغتر بها بعضٌ من علماء المسلمين، فظن أنه إسحاق، وهو غلط، والتحقيق أن الذبيح: إسماعيل، وأن آية هود التي ذكرنا هي دليل قوي على ذلك، كما دلت عليه آية الصافات.

أما وجه دلالة آية هود لأن الله قال، وهو أصدق من يقول ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: آية ٧١] أي: وبشرناها بأن إسحاق ـ وهو ولدها ـ يلد يعقوب، وهو ولد ولدها، فبعد البشارة بالوحي الصادق أن إسحاق لن يموت حتى يلد يعقوب فليس من المعقول أن يؤمر بذبحه وهو صغير!! وهذا معروف.

أما الآية الأخرى التي هي في الصافات فهي واضحة جداً في ذلك؛ لأن الله قال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ

﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: آية ١٠٢] حتى جاء بقصة إسماعيل الذبيح تامة، قال بعدها لما أنهاها: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ [الصافات: الآيتان ١١٢، ١١٣]. فصار صريح القرآن أن الذبيح غير إسحاق، حيث قال في ذلك الغلام: ﴿بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: الآيتان ١٠١، ١٠٢] حتى انتهى من قصته، وجاء بقصة إسحاق مستقلة بعدها، حيث قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾... [الصافات: الآيتان ١١٢، ١١٣]. وهذه الآية الكريمة يُفهم منها معنى أوضحه الله في سورة مريم؛ ذلك أنه قال هنا إن إبراهيم سفَّه أحلام قومه، وعاداهم وكفَّرهم وضللهم، حتى اضطره ذلك إلى الخروج عنهم، والهجرة إلى بلاد الشام، كما يأتي في قوله: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت: آية ٢٦] وكان في قرية بسواد العراق تسمى (كوثى)[١].

لما هجر قومه وخرج من الوطن في الله عوضه الله عنهم قرة عين تؤنسه، وهي الأولاد الصالحون الكرام، يخلفون له الوطن والأقارب؛ لأنه لما ذكر قصته معهم هنا قال بعدها: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: آية ٨٤] فهذا يدل على أن إقرار عينه بالذرية الصالحين؛ لأنه هجر الوطن، وخرج عن القرباء والأحباء في الله، وقد أوضح الله هذا في سورة مريم حيث قال: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: آية ٤٩].

ويفهم من هذه الآيات أن من هجر الأوطان والأقارب لله أقر الله عينه من ظهره بما يسليه عنهم[٢]؛ ولذا قال هنا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: آية ٨٤] نون التنوين عوض عن كلمة، أي: كل

(١) انظر: تاريخ ابن جرير (١١٩/١).

(٢) في هذا المعنى انظر: البداية والنهاية (١٤٦/١)، تفسير ابن كثير (١٥٤/٢)، (١٢٤/٣).

واحد منهم هدينا، و﴿كُلًّا﴾ مفعول به لـ﴿هَدَيْنَا﴾. وهذا تمام إقرار العين؛ لأن الولد إذا كان غير صالح لم يكن قرة عين، فهبته والنعمة به إنما تتم إذا كان مهدياً، لا إن كان غير مهدي؛ ولذا قال: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾.

ثم قال: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ لما كانت قصة نوح شبيهة بقصة إبراهيم ذكره معه؛ لأن نبي الله نوحاً نشأ في قوم يعبدون الأصنام، وهو أول نبي أُرسل لقوم يعبدون الأصنام، وجادلوه جداً في الأوثان ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: الآيتان ٢٣، ٢٤] وكان يجادلهم في عبادة الأصنام حتى قالوا له: ﴿قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: آية ٣٢] وكان إبراهيم نشأ في قوم يعبدون أجرام السماء وأجرام الأرض كذلك، وخاصمهم مثل مخاصمة نوح، بيَّن أنه هدى نوحاً من قبل إبراهيم، كما هدى إبراهيم، وهذا معنى قوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: آية ٨٤]. (نوح): يسمونه (آدم الصغير)؛ لأنه ليس على الأرض إنسان إلا وهو من ذريته، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: آية ٧٧] ونبي الله إبراهيم لم يكن بعده نبي إلا وهو من ذريته، فالأنبياء الذين ليسوا من ذريته: إما مَنْ سبقه، وإما مَنْ كان معاصراً له، كلوط ابن أخيه، أما مَنْ بعده فهم جميعهم من ذريته، فالأنبياء من ذرية نوح وإبراهيم، فالذي لم يكن من ذرية إبراهيم فهو من ذرية نوح، وإبراهيم من ذرية نوح، كما قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: آية ٢٦] وقال في سورة العنكبوت في إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ الآية [العنكبوت: آية ٢٧] ولذا قال: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾، ﴿نُوحًا﴾: مفعول به لـ﴿هَدَيْنَا﴾ مقدماً عليه.

وأهل التاريخ يزعمون أن (نوحاً) أنه: ابن لمك بن متوشَلَخ بن خنوخ[1]. ويزعمون أن خنوخ هو إدريس[2]. هكذا يقولون. ويزعمون أن

(١) (٢) انظر: البداية والنهاية (١/١٠٠)، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٦/١٩٠).

إبراهيم بن تارح. هذا المعروف في التاريخ، يقولون: إنه ابن تارح بن ناحور بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشد بن سام بن نوح[١]. هكذا يقول المؤرخون، وهي أمور تُذكر في التاريخ شبه الإسرائيليات، لم يقم على ضبطها وتحقيقها دليل. وهذا معنى قوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾.

قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أي: وهدينا من ذريته داود. فهذا معطوف على معمول ﴿هَدَيْنَا﴾. أي: وهدينا من ذريته داود.

واختلف العلماء في الضمير في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾[٢] قال بعضهم: هو راجع إلى إبراهيم؛ لأنه هو المُحدَّث عنه[٣]، وهذا في حِجَاجِه مع قومه، والآيات كلها فيه. وقال بعض العلماء: الضمير راجع إلى نوح. والذين قالوا: «يرجع إلى نوح» عضدوه بأمرين:

أحدهما: أنه هو أقرب مذكور، والضمير يرجع لأقرب مذكور[٤].

الثاني: أن هؤلاء الرسل الذين قيل من ذريته ذُكر فيهم لوط، ولوط ليس من ذرية إبراهيم؛ لأنه ابن أخيه، وذُكر فيهم يونس، وأكثر المؤرخين أن يونس ليس من ذرية إبراهيم، وإن زعم قوم أنه منه، ولا يكاد يختلف المؤرخون أن لوطاً ليس ابن إبراهيم، وإنما هو ابن أخيه؛ لأن لوط بن هاران بن تارح ابن أخي إبراهيم[٥]. قالوا: لو كان الضمير لإبراهيم لما ذكر لوطاً؛ لأنه ليس من ذريته. واختار أن الضمير راجع إلى نوح، اختاره ابن

---

(١) في تاريخ ابن جرير (١/١١٩): «إبراهيم بن تارح بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشد بن سام بن نوح».
وهو في البداية والنهاية (١/١٣٩) مع بعض الاختلافات (إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح) وانظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٣/٣٤٤).
وراجع التنبيه المذكور سابقاً في الحاشية عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ابن جرير (١١/٥٠٧)، القرطبي (٧/٣١)، البحر المحيط (٤/١٧٣)، الدر المصون (٥/٢٧).

(٣) انظر: قواعد الترجيح (٢/٦٠٣).

(٤) المصدر السابق (٢/٦٢١).

(٥) انظر: تاريخ الطبري (١/١٥٠).

جرير[١] لِذِكر لوط؛ ولأن نوحاً أقرب إلى الضمير من إبراهيم. وعن ابن عباس: أن الضمير لإبراهيم[٢]، وأن يونس من أنبياء بني إسرائيل، أو من ذرية إبراهيم، خلاف ما يزعمه أكثر المؤرخين، وأن لوطاً جُعل من ذريته تغليباً؛ لأنه ابن أخيه، فجُعل من ذريته تغليباً؛ كما جُعل إسماعيل أباً له تغليباً، لما ذُكرت آباؤه، وهو عمه. هكذا يقولون[٣].

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ أي: وهدينا من ذريته. أي: إبراهيم، أو نوح على الخلاف الذي ذكرنا.

﴿دَاوُۥدَ﴾ هو نبي الله داود، وهو أول من جمع من أنبياء بني إسرائيل بين المُلك والنبوة. وهو داود بن إيشى، يزعمون أنه ابن إيشى بن عوبد. على كل حال لهم أسماء يختلف فيها المؤرخون[٤]، عجمية، وعلى كل حال داود يقولون: هو داود بن إيشى بن عوبد. يزعمون أنه من سبط يهوذا. هكذا يقولون: ﴿وَسُلَيْمَٰنَ﴾ ولده.

وقوله: ﴿وَأَيُّوبَ﴾ أكثر المؤرخين يقولون: إن أيوب بن موص، وأنه من ذرية عيص بن إسحاق بن إبراهيم. وفيه غير ذلك[٥].

﴿وَيُوسُفَ﴾: هو يوسف نبي الله ابن يعقوب. ﴿وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ﴾

---

(١) انظر تفسير ابن جرير (١١/٥٠٧).

(٢) ذكره في الدر المنثور (٣/٢٨) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر القرطبي (٧/٣١).

(٤) في تاريخ ابن جرير (١/٢٤٧) «داود بن إيشى بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عمى نادب بن رام بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». وانظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٨/١٠٥).
وفي البداية والنهاية: (٢/٩) «داود بن ايشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن أرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب...».

(٥) في تاريخ ابن جرير (١/١٦٥): «أيوب بن موص بن رازح بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم» وذكر قولين آخرين. وانظر تفسير ابن جرير (١١/٥٠٨) البداية والنهاية (١/٢٢٠) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٥/١٠٥).

معروفان، أبناء عمران، وعمران: ـ يزعمون ـ ابن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب[١].

ويعقوب: بن إسحاق بن إبراهيم. كما هو معروف.

وهؤلاء الأنبياء ـ كل هؤلاء المذكورين ـ لهم قصص معروفة في القرآن، بيَّنها الله جل وعلا.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ كما هدينا هؤلاء الرسل الكرام، ووفقناهم لطريق الصواب: كذلك الجزاء نجزي المحسنين، فنهديهم ونوفقهم إلى ما يرضينا. والمحسنون: جمع المُحْسِن، وهو اسم فاعل الإحسان. والإحسان هو: الإتيان بالعمل حسناً. وطريق الإتيان بالعمل حسناً بينها النبي ﷺ في قوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٢].

والآية تدل على أن من أحسن العمل لله زاده الله هدى؛ لأن التشبيه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾ عائد إلى الهدى في قوله: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ أي: وهدينا من ذريته داود. كذلك الهدى والتوفيق نجزي ذلك الجزاء الحسن ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مثل ذلك الجزاء؛ لأن من آمن بالله وأحسن العمل زاده الله هدى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: آية ١٧].

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: آية ٨٥] يعني: وهدينا أيضاً زكريا ويحيى. قرأه أكثر القراء: ﴿**وزكرياء ويحيىٰ**﴾ بهمزة. وقرأه بعض الكوفيين ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ﴾ بلا همزة. وهما قراءتان سبعيتان معروفتان[٣].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (١/١٩٨)، وكذا التفسير له (١١/٥٠٨)، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٥/٣٠٠).

وفي البداية والنهاية (١/٢٣٧): «موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب».

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٣) انظر: الكشف لمكي (١/٣٤١ـ٣٤٢)، الإقناع في القراءات السبع (٢/٦١٩)، النشر (٢/٢٣٩).

وأكثر المؤرخين يقولون: إن زكريا بن برخيا[(١)]. وهو من ذرية سليمان بن داود (عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام). قص الله قصصه في سورة مريم[(٢)]، وسورة آل عمران[(٣)]، والأنبياء[(٤)]، وغيرها.

﴿وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يحيى: هو ابن زكريا، وقصته معروفة بيناها في آل عمران، وستأتي في سورة مريم. وعيسى: هو عيسى بن مريم.

وذِكْرُ عيسى هنا أخذ العلماء منه حكماً فقهياً معروفاً، وهو أنه إذا قال رجل: «هذا وقف على ذريتي». أو أوصى لذريته، أن أولاد البنات يدخلون؛ لأن عيسى ولد بنت؛ لأنه لا يدلي إلى إبراهيم ـ الذي إليه الضمير في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ (أو نوح، على القول بأن الضمير له)[(٥)]. لا يدلي بواحد منهما
٨/ب ـ إلا ببنته مريم؛ لأنه لا أبَ له./ فالله (جل وعلا) أدرجه في اسم الذرية، ومن هنا يُعرف أن أولاد البنات من الذرية، وهذه المسألة التي هدد الحجاج عليها يحيى بن يعمر، قال له: أتقول إن الحسن والحسين (رضي الله عنهما) من ذرية النبي ﷺ؟ قال: نعم. وأنه قال له: إن لم تجئني بدليل من كتاب الله فعلت بك وفعلت. قال: أتقرأ في سورة الأنعام؟ قال: نعم، قال: قال الله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ ثم إلى أن قال ﴿وَعِيسَىٰ﴾ وعيسى ابن بنت[(٦)]. وهذا صريح في دخول

---

(١) في تفسير ابن جرير (٥٠٨/١١): «زكريا بن إدُو بن برخيًا». وفي مختصر تاريخ دمشق (٤٥/٩): «زكريا بن حنا. ويقال: زكريا بن دان. ويقال: زكريا بن أدن بن مسلم بن صدوف». وقيل: زكريا بن برخيا. انظر البداية والنهاية (٤٧/٢).

(٢) كما في الآية ٢ من سورة مريم. وهي قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ والآيات بعدها.

(٣) كما في الآية ٣٨ من سورة آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ والآيات بعدها.

(٤) كما في الآية ٨٩ من سورة الأنبياء وهي قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ والآيات بعدها.

(٥) انظر: القرطبي (٣١/٧ ـ ٣٢)، ابن كثير (١٥٥/٢)، البحر المحيط (١٧٣/٤).

(٦) هذا الأثر أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٣٥/٤) ونقله ابن كثير (١٥٥/٢)، وهو في الدر المنثور (٢٨/٣).

ابن البنت في الذرية، وعلى هذا أكثر العلماء[١]. على أنه لو أوصى للذرية، أو وقف عليهم، أن أولاد البنات يدخلون لهذه الآية.

واختلفوا في البنين والأولاد[٢]، لو قال: «هذا وقف على بنيَّ، أو على ولدي». قال جماعة: يدخل أولاد البنات في لفظ الأبناء؛ لأن النبي ﷺ ثبت عنه في الصحيح أنه قال في الحسن بن علي (رضي الله عنه): «**إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من أمتي**». الحديث المشهور[٣]. قالوا: سماه ابناً، وهو ابن بنت. وقال بعض العلماء: تسميته هنا ابناً ليست على حقيقتها؛ لأن الله يقول: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: آية ٤٠] فالله نفى هذه البنوة، فدل على أنها كقول الرجل للقريب: «يا بني». وكذلك لو قال: «وَقْفٌ على ولدي». أو أوصى لولده. أكثر العلماء على أن أولاد البنات لا يدخلون؛ لأن الشاعر يقول[٤]:

بنونا بنو أبنائِنا وبناتُنا ... بنوهُن أبناءُ الرجال الأباعد

ولإجماع من يُعتد به من العلماء في قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء: آية ١١] أنه لم يقل أحد إنه يدخل فيها أولاد البنات فيكونون عاصبين كأولاد الذكور. ومن هنا قالوا: لما قال الله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ﴾ ولم يدخل في الميراث أولاد البنات في هذه الآية: عُرف أنه إذا قال: «وَقْفٌ على ولدي، أو: أولادي». لم يدخل فيه أولاد البنات، كما هو معروف.

وقوله: ﴿عِيسَىٰ﴾ هو عيسى ابن مريم الذي خلقه الله بقدرته من غير أب

---

(١) في هذه المسألة: انظر المدونة (١٠٣/٦)، كتاب الوقوف للخلال (٤٠٧/١ ـ ٤١٢)، المجموع (٣٥٢/١٥)، المغني (٢٠٢/٨)، الإنصاف (٧٩/٧). القرطبي (١٠٤/٤) (٣٢/٧)، ابن كثير (١٥٥/٢)، البحر المحيط (١٧٣/٤).

(٢) راجع الحاشية السابقة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي (رضي الله عنهما): «إن ابني هذا سيد...»، حديث (٢٧٠٤) (٣٠٦/٥). وأخرجه في مواضع أخرى من الصحيح، انظر الأحاديث: (٣٦٢٩، ٣٧٤٦، ٧١٠٩).

(٤) البيت في المجموع للنووي (٣٥٣/١٥)، المغني (٢٠٤/٨)، الخزانة (٢١٣/١). ونسبه بعضهم للفرزدق.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ [آل عمران: آية ٥٩]. ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ إسماعيل على التحقيق: هو نبي الله إسماعيل بن إبراهيم، جد النبي ﷺ. وقال قوم: هو نبي آخر من بني إسرائيل[١]. والذين قالوا هذا قد غلطوا. والتحقيق أنه إسماعيل، وأنه رسول كريم، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: آية ٥٤]. والمؤرخون يقولون: إنه أُرسل إلى قبيلة جرهم من العرب البائدة[٢].

وقوله: ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ المؤرخون يقولون إنه: إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران أخي موسى[٣]. هكذا يقولون، والله تعالى أعلم. وقد ذكر الله قصته في آياتٍ من كتابه، وبين أنه رسول كريم، وبين في سورة الصافات محاجته لقومه في قوله: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ [الصافات: الآيات ١٢٣ ـ ١٢٦] إلى غير ما ذكر من خبره.

وقوله: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يعني: ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء الأنبياء الذين هديناهم من ذرية إبراهيم أو من ذرية نوح ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. والصالحون جمع الصالح، وهو من كانت أعماله ونياته صالحة لله (جل وعلا). والصلاح يتفاوت تفاوتاً كثيراً.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: آية ٨٦] ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ﴾ قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا حمزة، والكسائي: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾. وقرأه حمزة والكسائي: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ واللَّيْسَعَ﴾ بتشديد اللام وسكون الياء وهما قراءتان سبعيتان معروفتان[٤]. أي: وهدينا إسماعيل، وهدينا اللَّيْسَع، وهدينا اليسع.

بعض العلماء يقول: اليسع هو يوشع بن نون. وأكثر المؤرخين

(١) انظر: البحر المحيط (٤/١٧٤).

(٢) انظر: البداية والنهاية (١/١٩٣).

(٣) انظر: تاريخ الطبري (١/٢٣٩)، والتفسير له (١١/٥٠٩)، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٥/٢٣).

(٤) انظر: المبسوط لابن مهران ١٩٨.

يقولون: إنه اليسع بن أخطوب بن العجوز[١]. والله (جل وعلا) ذكره في مواضع من كتابه في جملة الأنبياء.

وقوله: ﴿وَيُونُسَ﴾ هو نبي الله يونس بن متى، أرسله الله إلى مئة ألف أو يزيدون، في بلد (نِيْنَوَى) من بلاد الموصل. وقصته مشهورة، ذكرها الله في آيات كثيرة من كتابه. أرسله الله إلى مئة ألف أو يزيدون، ولم يرسل الله نبياً لقوم إلا كذبوه وأهلكهم الله بعذاب مستأصل، ولم يُسْتَثْنَ من هذا أحد إلا الجماعة الذين أُرسل إليهم نبي الله يونس بن متى (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام). سيأتيكم في مواضع في الصافات، وفي القلم، وغيرها: أن نبي الله يونس لما كذبه قومه وعدهم بالهلاك، وأن العذاب ينزل عليهم، وخرج عنهم، وسافر من قبل أن يأذن له ربه، كأنه ضجر منهم وعجل. وذلك الضجر والعجلة هو الذي نهى الله عنه نبينا محمداً ﷺ في سورة القلم، مؤدباً له بالتأني والحَمْل والصبر، قال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يعني يونس بن متى ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: آية ٤٨] حيث ضجر وعجل.

زعم بعض المفسرين أنه كان شرعهم ونظامهم أن من جُرِّب عليه الكذب أنهم يقتلونه. هكذا زعموا، وأن نبي الله يونس وعدهم بالعذاب، والله (جل وعلا) جاءهم بالعذاب، فلما أظلهم وعاينوا أوائله خافوا خوفاً عظيماً، وأنابوا إلى الله إنابة صادقة، وتوبة عظيمة، وضجُّوا جميعهم، وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الآدميين والحيوانات، وصار الجميع يضج مبتهلين إلى الله، فرفع الله عنهم العذاب، ولم يوجد هذا لناس غيرهم أبداً، كما نص الله عليه في سورة يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: آية ٩٨] فقوله هنا ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَآ﴾ الظاهر أنه ما كشف عنهم خزي العذاب في الحياة الدنيا إلا وهو يكشفه عنهم في الآخرة إذا داموا ولم ينكثوا[٢]. ويدل عليه الإطلاق في

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١١/٥١٠)، البداية والنهاية (٢/٤) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٨/٣٧).

(٢) انظر: ابن كثير (٢/٤٣٣)، البداية والنهاية (١/٢٣٢).

الصافات في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: الآيتان ١٤٧، ١٤٨] فلما سَلِمُوا ولم يأتهم العذاب كان نبي الله يونس زعم أنه إن رجع إليهم قالوا: قلت: إنَّا نهلك بالعذاب ولم نهلك، فقد جربنا عليك الكذب. فخرج من غير إذن، فدخل في البحر، فلما دخل معهم في البحر وقفت السفينة ولم تمشِ، فقالوا: لعل فيها عبداً آبق على ربه، هنا عبد آبق على ربه، فاجعلوا القرعة نقترع، فإن سقطت القرعة على واحد ألقيناه في البحر، فهو العبد الآبق على ربه. فصاروا كلما اقترعوا تسقط القرعة على يونس. فقالوا: هذا العبد آبق على ربه؛ لأنه خرج بغير إذن[1]. كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصافات: الآيتان ١٤٠، ١٤١] يعني كان سهمه داحضاً؛ لأنه هو الذي تأتي القرعة أنه يُرمى في البحر. فرموه في البحر ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: الآيات ١٤٢ ـ ١٤٤] كما قص الله قصته في آيات من كتابه، وهو نبي الله يونس بن متى. والمؤرخون لا يكادون يصلون له نسباً إلى محله، وهو ابن متى كـ(حَتَّى) أُرسل لجماعة في (نِينَوَى) من بلاد الموصل، هكذا يقولون.

وقوله: ﴿وَلُوطًا﴾ هو نبي الله لوط ابن أخي إبراهيم، وقد هاجر معه من بلاد العراق، إلى بلاد الشام، مُهَاجَر إبراهيم، كما قال الله جل وعلا: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: آية ٢٦] بعض المؤرخين يقولون: هاجر معه[2]، وبعضهم يقول: لم يهاجر معه. واستدل بما ثبت في الصحيح أنَّ إبراهيم قال لسارة: ليس على وجه الأرض مسلم غيري وغيرك[3]. وعلى كل حال: الله بين أن لوطاً آمن بإبراهيم.

---

(١) انظر: تاريخ ابن جرير (٢/٤٣).

(٢) انظر تاريخ الطبري (١/١٥٠)، البداية والنهاية (١/١٥٠).

(٣) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الأنعام.

والمعروف في التاريخ أنه هاجر معه إلى الشام، ثم إن الله أرسل لوطاً إلى قرى (سدوم)، كما هو معروف.

﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وكلًا من أولئك الأنبياء فضلنا على العالمين، عالمي زمانهم[١]، فلا يلزم من ذلك تفضيلهم على من بعدهم كالنبي ﷺ، فإنه أفضلهم.

وكان بعض العلماء[٢] يقول: آية الأنعام هذه مما استدل به العلماء على أن الأنبياء من الآدميين أفضل من الملائكة؛ لأن الملائكة يدخلون في اسم ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، بدليل قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٢٣، ٢٤] قالوا: والله فضلهم على العالمين، والتفضيل بين الرسل والملائكة معروف عند العلماء[٣]، ولم يقم عليه دليل قاطع، ولا حاجة لنا فيه. لو لقي الإنسان ربه وهو لم يبحث في التفضيل بينهم لم يسأله عن ذلك، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. وهذا معنى قوله: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٨٧] قوله: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ معطوف على معمول (هدينا) أي: وهدينا أيضاً من آبائهم وذرياتهم. ودل بـ(من) على أن مفعول (الهداية) البعض. أي: وهدينا أيضاً بعض ذرياتهم. ﴿وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ لما بين الله هؤلاء الرسل الكرام ذكر أنه هدى بعض أصولهم وفروعهم، وبعض حواشيهم. فبعض الأصول كآدم وإدريس، وبعض الفروع كأولادهم من الطيبين، وبعض الحواشي كإخوة يوسف ومن جرى مجرى ذلك. أي: وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم.

(١) انظر: ابن جرير (١١/٥١٢).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/١٧٤).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من هذه السورة.

﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ أي: اجتبينا هؤلاء الرسل المذكورين. والاجتباء: الاصطفاء والاختيار. أي: اخترناهم واصطفيناهم ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. أي: وفقناهم وأرشدناهم إلى صراط مستقيم. والصراط في لغة العرب: الطريق الواضح[1]. والمستقيم: الذي لا اعوجاج فيه[2] ومنه قول جرير يمدح عمر بن عبد العزيز[3]:

أمير المؤمنين على صراطٍ إذا اعوجَّ المَوَارِدُ مستقيمِ

وهذا الصراط المستقيم، أي: الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه: طريق دين الإسلام، دين الحنيفية السمحة، التي بعث الله بها إبراهيم، وحاصلها: اعتقاد نافع، اعتقاد بجميعه لله (جل وعلا) وما يجب اعتقاده، مع امتثال الأمر، واجتناب النهي بإخلاص، مطابقاً للوجه الذي شرعه الله (جل وعلا).

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٨٨] ذلك الهدى الذي هدى الله به هؤلاء الأنبياء الكرام المذكورين في سورة الأنعام هو هدى الله، ولا هدى إلاَّ هدى الله، كما قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ﴾ [البقرة: آية ١٢٠].

﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾ أي: يهداه من يشاء أن يهديه من عباده. ومفهوم مخالفة الآية: أن من لم يشأ أن يهديه فلا هادي له؛ لأن من هداه الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. فالهداية والإضلال كلها بمشيئته وحده (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ ومفعول ﴿يَشَآءُ﴾ محذوف. أي: من يشاء هدايته من عباده.

ثم قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هؤلاء الرسل الكرام الذين هداهم الله لو أشركوا بالله غيره، وعبدوا معه غيره، كما كان أبو إبراهيم

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (١/١٧٠)، المحتسب (١/٤٣)، الدر المصون (١/٦٤).

يُراود إبراهيم أن يرجع لعبادة الأصنام، لو أشركوا مع الله غيره لحبط عنهم ما كانوا يعملون، فبطل جميع ما عملوه من الخير؛ لأن الشرك كفر يبطل جميع الحسنات، كما قال تعالى مخاطباً لنبينا وغيره من الأنبياء في سورة الزمر: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: آية ٦٥]، وهذه الآية الكريمة تدل على أن الشرك ـ والعياذ بالله ـ مَحْبَطَةٌ للعمل، وأنه يُبطل جميع أعمال الإنسان[1].

ومن هذه الآية الكريمة أخذ الإمام مالك بن أنس (رحمه الله) فرعاً فقهياً، قال: إن الرجل إذا ارتد بانت منه زوجته[2]. تارة يقول: بفسخ، وتارة يقول: بطلقة بائنة. لأن ذلك النكاح الذي عَمِلَ مِنْ عَمَلِه، وقد أشرك، وإذا أشرك حبط جميع ما كان يعمل، حتى معاشرته؛ لأنه أخذ تلك المؤمنة بكلمة الله، وبكتاب الله (جل وعلا)، والشرك يحبط ذلك[3].

وهنا بحث أصولي؛ لأن القاعدة المقررة في الأصول: أنه إذا جاء في كتاب الله نص مطلق، ثم جاء في موضع آخر مقيداً، فالجماهير على أنه يُحمل المطلق على المقيد[4]. وإحباط الشرك للأعمال جاء مطلقاً في آيات من كتاب الله، وجاء مقيداً في آية أُخرى، فمن الآيات المطلقات: قوله هنا: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: آية ٦٥] وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: آية ٥] هذه الآيات تدل على أن الكفر بالله يحبط العمل من غير قيد. وهذا إذا كان مسلماً ثم ارتد. وقد بين في موضع من سورة البقرة أن محل إحباط الإشراك، والرجوع للكفر بعد الإيمان، محل إحباطه للعمل ما إذا مات على

---

(١) انظر: الأضواء (٢/٧، ٢٠٢).

(٢) المصدر السابق (٢/٦٧).

(٣) انظر: القرطبي (٣/٤٨)، (١٥/٢٧٧).

(٤) انظر: البحر المحيط للزركشي (٣/٤١٦)، أضواء البيان (١/١٩٦، ١٩٧، ٢٦٤، ٢٨١، ٢/٧، ٣٠، ١٢٧، ١٣٨)، وغير ذلك من المواضع.

ذلك، حيث قال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ [البقرة: آية ٢١٧] فقيد بقوله: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾.

وذهب مالك في جماعة من العلماء إلى أن الآيات المطلقة هنا على بابها، قال: إذا ارتد الإنسان حَبِطَ جميع عمله، وبطلت حَجَّةُ الإسلام - إن كان حجها - وبانت منه امرأته. وإذا راجع الإسلام ليس عليه قضاء فائت من صوم ولا صلاة؛ لأن جميع أعماله حبطت.

وذهبت جماعة من العلماء، منهم محمد بن إدريس الشافعي (رحمه الله)، إلى أن الكفر بعد الإيمان، والإشراك بعد الإسلام، لا يحبط جميع عمله إلا إذا مات على الكفر[1]. بدليل القيد الذي في قوله: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾.

وقول الشافعي في هذه المسألة أجرى على الأصول؛ لأن المقرر في الأصول: أنه إذا جاء نص من كتاب الله عاماً أو مطلقاً، وجاء مقيداً في موضع آخر، فله عند العلماء حالات[2]: تارة يكون الحكم والسبب واحداً، وتارة يكون الحكم واحداً دون السبب، وتارة يكون السبب واحداً دون الحكم، وتارة لا يتحد حكم ولا سبب.

فإذا كان الحكم والسبب متحدين فجمهور العلماء على أن المطلق يُحمل على المقيد، وأنه يقيد بقيده؛ ولأجل هذا فقد جاءت في تحريم الدم أربع آيات من كتاب الله، ثلاث منها مُطْلَقَات، وواحدة مقيدة:

أما المُطْلَقَات: فقوله في سورة النحل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [النحل: آية ١١٥] وقوله في سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: آية ٧٣] وقوله في سورة المائدة:

---

(١) انظر: القرطبي (٣/٤٨)، (١٥/٢٧٧).

(٢) في هذه المسألة راجع: البحر المحيط (٣/٤١٦)، شرح مختصر الروضة (٢/٦٣٥)، شرح الكوكب (٣/٣٩٥)، المذكرة في أصول الفقه ٢٣٢، نثر الورود (١/٣٢٣).

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: آية ٣] فالدم في آية النحل، وآية البقرة، وآية المائدة، مطلق عن قيد.

وقد جاء في سورة الأنعام هذه مقيداً بالمسفوحية، في قوله: ﴿لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: آية ١٤٥] وجماهير العلماء على أن القيد بالمسفوحية في الأنعام يقيد به إطلاق الآيات في النحل والبقرة والمائدة؛ ولذا أطبق من يُعتد به من العلماء على أن الحُمرة التي تعلو القدر من أثر تقطيع اللحم أنها لا تنجسه؛ لأن ذلك الدم غير مسفوح، خارج بقيد المسفوحية في قوله: ﴿إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [البقرة: آية ١٤٥] وهذا يدل على أن العلماء يحملون المطلق على المقيد، ولو كان المقيد هو السابق نزولاً؛ لأن القيد في آية الأنعام، وهي نازلة قبل البقرة، وقبل المائدة، وقبل النحل. أما نزولها قبل المائدة والبقرة فهو معروف؛ لأن سورة الأنعام نازلة قبل الهجرة بلا خلاف، إلا آيات معروفة منها[1]. والمائدة والبقرة من القرآن المدني بالإجماع، نزلتا في المدينة بعد الهجرة، والمائدة من آخر ما نزل، وفيها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: آية ٣] بقيت: النحل والأنعام، هما مكيتان على التحقيق، إلا أن القرآن دل في موضعين على أن سورة الأنعام نازلة قبل سورة النحل، وهي التي فيها القيد، والموضعان الذي دل القرآن فيهما على أن الأنعام نازلة قبل النحل: أن الله قال في سورة النحل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النحل: آية ١١٨] وهذا المحرم المحال، المقصوص عليه من قبل، في سورة الأنعام بلا خلاف، في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ الآية [الأنعام: آية ١٤٦]. الموضع الثاني: أن الله قال في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: آية ١٤٨] فبين أنهم سيقولون هذا

---

(١) انظر: القرطبي (٣٨٢/٦)، ابن كثير (١٢٢/٢)، مصاعد النظر (١١٥/٢).

في المستقبل، وأنهم لم يقولوه فعلاً. وبين في سورة النحل أن ذلك القول الموعود به في المستقبل أنه وقع فعلاً في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية. [النحل: آية ٣٥] فهذا دل على أن النحل بعد الأنعام. والمائدة والبقرة بعدها بلا نزاع. فتبين أن المطلق يُحمل على المقيد، ولو كان المقيد سابقاً نزولاً. هذا هو المعروف عند العلماء.

أما إذا اتحد حكمهما واختلف سببهما: فكثير من العلماء ـ منهم أكثر الشافعية، والحنابلة، وجماعة من المالكية ـ أن المطلق يحمل على المقيد في هذه.

ومثال ما اتحد حكمه واختلف سببه: قوله (جل وعلا) في كفارة القتل خطأً: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: آية ٩٢] فقيّد الرقبة بالإيمان، وأطلقها عن قيد الإيمان في كفارة اليمين، وكفارة الظهار حيث قال في كفارة اليمين في سورة المائدة: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: آية ٨٩] ولم يقل: مؤمنة. وقال في الظهار في سورة المجادلة: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: آية ٣] ولم يقل: مؤمنة. فالحكم هنا واحد، وهو التكفير بتحرير رقبة، والسبب مختلف؛ لأن المقيد سببه: القتل خطأً، والمطلق سببه: إما حنث في يمين، وإما ظهار. وأكثر العلماء من الشافعية والمالكية والحنابلة يقولون: يُحمل المطلق هنا على المقيد، فيشترط في كفارة الظهار وكفارة اليمين الإيمان. خلافاً للإمام أبي حنيفة ـ رحمة الله على الجميع ـ قال في مثل هذه: لا يُحمل، ولو أعتق الحانث في اليمين أو المظاهر رقبة غير مؤمنة لأجزأته؛ لأن القيد في كفارة القتل خطأً، وهذه مطلقة.

ومثال عكس هذا: وهو ما إذا اتحد السبب واختلف الحكم، في مثل هذه يخالف الحنابلة، ويقولون: لا حمل في هذه. ويبقى المالكية والشافعية يقولون: فيها الحمل. ومثَّل الحنابلة لهذا، قالوا: الله (جل وعلا) في كفارة الظهار قيَّد بكونها قبل المسيس بالعتق والصوم، قال: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: آية ٣] وقال في الصوم: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن

قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: آية ٤] وأطلق الإطعام عن كونه قبل المسيس، مع أن السبب في الجميع واحد، وهو الحنث في الظهار، والحكم مختلف؛ لأن هذا عتق، وهذا إطعام، وهذا صوم، فلا يُحمل المطلق على المقيد، فيجوز أن يعطي الطعام بعد المسيس، ولا يشترط في الطعام أن يُقال فيه: من قبل أن يتماسا. وقال غيرهم: إن هذا يُحمل فيه المطلق على المقيد. قالوا: ومثاله قوله في سورة المائدة، قال الله جل وعلا: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ﴾ [المائدة: آية ٨٩] فقيد الإطعام بكونه من أوسط ما تطعمون، ثم قال: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ ولم يقيد الكسوة بكونها من أوسط ما تكسون أهليكم. قالوا: فنحمل المطلق على المقيد، ونقول: إن الكسوة من أوسط ما تكسون أهليكم. كما قاله جماعة من العلماء. والحكم هنا مختلف؛ لأن المطلق: كسوة، والمقيد: إطعام، إلا أن السبب واحد، وهو الحنث في كفارة اليمين.

ومحل هذه الأقوال ما إذا كان المُقَيَّدُ واحداً، أما إذا كان هناك مطلق وهناك مُقَيَّدَين بقيدين مختلفين، فلهما حالتان[1]: إن كان المُقَيَّدَان بقيدين مختلفين ليس أحدهما أقرب للمطلق، فلا يُحمل على واحد منهما. وإن كان أحدهما أقرب للمطلق، فذهبت جماعة من العلماء إلى أن المطلق يُحمل إلى أقرب المُقَيَّدَيْن له، ويقيد بقيده.

مثال ما إذا كان أحدهما أقرب: أن الله (تبارك وتعالى) ذكر صوم أيام اليمين، قال: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: آية ٨٩] وأيام اليمين لم يقيدها بتتابع ولا بتفريق، مع أنه جاء هنالك صوم مقيد بالتتابع، وهو صوم الظهار في قوله: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [المجادلة: آية ٤] وجاء هناك صوم آخر مقيد بالتفريق، وهو صوم التمتع؛ لأن الله قيده بالتفريق، حيث قال: ﴿فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: آية ١٩٦] فقيد صوم الظهار بالتتابع، وقيد صوم التمتع بالتفريق، وأطلق صوم كفارة اليمين، لم يقيده بتتابع ولا بتفريق.

(١) انظر: مذكرة أصول الفقه ٢٣٤، نثر الورود (٣٢٧/١).

وقراءة ابن مسعود: ﴿فصيام ثلاثة ثيام متتابعات﴾[(١)] لم تثبت قرآناً. وإذا لم يأت بها إلا على أنها قرآن، وبطل كونها قرآناً بطل الاحتجاج بها عند من يقول بذلك، خلافاً لجماعة آخرين[(٢)]. قال بعض العلماء في هذه: نحمل الإطلاق في كفارة اليمين على أقربهما لها، والظهار أقرب لليمين من التمتع؛ لأن الظهار واليمين كلاهما كفارة، والتمتع أبعد منهما.

ومثال ما لم يكن أقرب لواحد منهما: أن الله قيد صوم الظهار بالتتابع، وقيَّد صوم التمتع بالتفريق، وأطلق قضاء رمضان، ولم يقيده بتتابع ولا تفريق قال: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: آية ١٨٤] ولم يقيد قضاء صوم رمضان الفائت بمرض أو سفر، لم يقيده بتتابع ولا تفريق، حيث قال: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، من غير أن يقول: متتابعات، ولا متفرقات، مع أن صوم الظهار مقيد بالتتابع. وصوم التمتع مقيد بالتفريق. فنقول: قضاء رمضان، الذي هو المطلق عن قيد التتابع أو قيد التفريق ليس أقرب إلى الظهار ولا إلى التمتع، فليس بأقرب لهذا وهذا، فلا نقيده بقيد التفريق ولا نقيده بقيد التتابع، فيبقى مطلقاً، من شاء تابعه، ومن شاء فرقه، إلا أن جماعة من العلماء قالوا: يُندب تتابعه. والله تعالى أعلم.

يقول الله جل وعلا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: آية ٨٩] قرأه أكثر القراء ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ بالإدغام، وقرأه نافع: ﴿والنبوءة﴾ بتحقيق الهمزة[(٣)].

الإشارة في قوله ﴿ ﴾ إلى الأنبياء الكرام المذكورين في قوله:

---

(١) انظر تفسير ابن جرير (١٠/٥٥٩ ـ ٥٦٠).

(٢) في هذه المسألة راجع: المستصفى (١/١٠٢)، تفسير القرطبي (١/٤٧)، الفتاوى (١٣/٣٩٤، ٣٩٧)، (٢٠/٢٦٠)، البحر المحيط للزركشي (١/٤٧٥)، النشر (١/٥٣ ـ ٥٤)، شرح الكوكب المنير (٢/١٣، ١٣٦)، أضواء البيان (٥/٢٤٨)، المذكرة في أصول الفقه ٥٦، قواعد التفسير (١/٩٢).

(٣) انظر: السبعة لابن مجاهد (١٥٧ ـ ١٥٨)، الإقناع لابن الباذش (١/٤٠٣)، النشر (١/٣٨٣)، الموضح لابن أبي مريم (١/٢٧٨)، الكشف لمكي (١/٢٤٣ ـ ٢٤٥)، إتحاف فضلاء البشر (١/٣٩٥ ـ ٣٦٠).

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ [الأنعام: آية ٨٤] إلى آخر من عدَّ منهم. أولئك الرسل الكرام: نوح، وإبراهيم، ومن ذُكر معهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ﴾ أي: أعطيناهم ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: جنس الكتاب، الصادق بصحف إبراهيم، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وزبور داود، ونحو ذلك. وهذا معنى قوله ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الرسل المذكورون ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ﴾ أي: أعطيناهم ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: جنسه الصادق بالكتب المنزلة عليهم.

وقوله: ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾، قال بعض العلماء: الحكم هو الفهم في الدين، والفصل بين الخصوم. ومعنى الحكم على هذا: هو فهم الكتاب، والاطلاع على دقائقه[1]، والعمل بما فيه.

وقوله: ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ هو مصدر معنوي، معناه: أن الله جعلهم أنبياء. و(النبوة) أصلها من (النبأ)، و(النبأ) في لغة العرب: الخبر الذي له شأن وخطب. لا تكاد العرب تطلق (النبأ) إلا على الخبر الذي له شأن. تقول: «جاءنا نبأ الأمير». ولا تقول: «جاءنا نبأ حمار الحجام»؛ لأن هذا لا شأن له ولا خطب. فالنبأ أخص من الخبر؛ لأن كل نبأ خبر، وليس كل خبر نبأً؛ لاختصاص (النبأ) عادة بالخبر الذي له شأن؛ وذلك لأن الأنبياء يخبرهم الله عن طريق الوحي أخباراً لها شأن وأمر عظيم، خلافاً لمن زعم أن (النبوة) و(النبي) أنها من (النَّبْوَةِ) بمعنى: الارتفاع؛ لارتفاع شأنهم بما أوحاه الله إليهم. وهذا معنى قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾.

ثم قال: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ الضمير في قوله: ﴿بِهَا﴾ قال بعض العلماء: عائد إلى النبوة؛ لأنها أقرب مذكور[2]. فإن يكفر بالنبوة، كنبوة محمد ﷺ، التي هي من جنس نبوتهم، كما صرح به في قوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: آية ١٦٣] وقال بعض العلماء: الضمير في ﴿بِهَا﴾ راجع إلى المذكورات الثلاث، وهي: النبوة، والحكم، والكتاب[3]. ﴿ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ﴾

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/٥١٤).
(٢) انظر: ابن كثير (٢/١٥٥).
(٣) المصدر السابق.

بالثلاثة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: كفار مكة، الذين كذبوا النبي ﷺ[1]. ولا شك أن الله أعطاه النبوة، وأعطاه الحكم، وأعطاه الكتاب. فإن كفروا بنبوته وحكمه وكتابه ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي: بالنبوة، أو بالمذكورات ﴿قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ كأن معنى الآية: يقول الله: إن كان هؤلاء تمردوا، وكذبوا رسلي، وكفروا بي، ولم يعبدوني، فلي قوم آخرون غيرهم، يعبدونني ويوحدونني كما ينبغي. وقوله ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي: وفقناهم للإيمان بها. أي: بالنبوة. أو: النبوة والحكم والكتاب. ومعنى وكلناهم بها: أي: وفقناهم لها، وهيأناهم لها، حتى كانوا يقومون بها، ويحافظون عليها، كما يقوم الوكيل بما أُسند إليه. وهذا معنى قوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ بل هم مؤمنون بها بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم.

وهؤلاء القوم المؤمنون ـ الذين هم ليسوا بها بكافرين، الذين وكلهم الله بالإيمان بها ـ للعلماء فيهم أوجه من التفسير، لا يكذب بعضها بعضاً[2]:

أظهرها: أنهم الأنبياء المذكورون. يعني: إن كفر هؤلاء الكفرة، وكفروا بالنبوة، فلنا من صفوة خلقنا أُناس طيبون يؤمنون كما ينبغي، ويعظمون الله كما ينبغي، تظهر بإيمانهم حكمة الله في خلقه الخلق، ليعبدوه ويعظموه. وعلى هذا فالقوم في قوله: ﴿قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ الأنبياء المذكورون. ويدل عليه: أنه قال بعده ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: آية ٩٠].

وقال بعض العلماء: المراد بهؤلاء القوم الذين وُكلوا بها، وليسوا بها بكافرين: المؤمنون من المهاجرين والأنصار، حيث تلقوه بالإيمان والعمل الصالح.

وقال بعض العلماء: هي تشمل كل مؤمن آمن بالله (جل وعلا). وعليه فالمعنى: إن كفر بعض خلقي وتمردوا وكذبوا رسلي فلي بعضٌ آخر من الناس الطيبين وفقتهم للعمل والإيمان، يحصل بهم غرض التشريع،

(١) انظر: ابن جرير (١١/٥١٥)، ابن كثير (٢/١٥٥).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/٥١٥ ـ ٥١٨).

وخلق الخلق؛ لأن الغرض الأكبر من خلق الناس: أن يعبدوا ربهم (جل وعلا)، ويحسنوا العمل له، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: آية ٥٦] فهؤلاء الطيبون تحصل بهم الحكمة المرادة في قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ ويحسنون العمل لله، فيحصل بهم المعنى المراد في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: آية ٧] وهذا معنى قوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

١/٩ / ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٠].

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ قرأ هذا الحرف حمزة والكسائي: ﴿فبهداهم اقتدِ﴾ في الصلة بلا هاء، وقرأه غيرهما وغير ابن عامر: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ بهاء السكت وصلًا ووقفاً، وقرأه ابن عامر من رواية هشام: ﴿اقتدهِ﴾ بكسرة مُخْتَلَسَة، وقرأه ابن عامر من رواية ابن ذكوان: ﴿اقْتَدِهي﴾ بكسرة مشبعة.

فتحصَّل أن القراءات فيه متعددة[1]، قراءة الجمهور: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ بهاء السكت الساكنة وصلًا ووقفاً، وقرأه حمزة والكسائي: ﴿اقْتَدِ﴾ بلا هاء في حالة الوصل. ﴿اقْتَدِهْ﴾ بالهاء في حالة الوقف، وقرأه ابن عامر بهاء مكسورة تُخْتَلَسُ كسرتها في رواية هشام عنه، وتُشبع كسرتها في رواية ابن ذكوان عنه.

هذه هي القراءات: ﴿اقْتَدِ﴾ وصلاً ﴿اقْتَدِهْ﴾ وقفاً ﴿اقْتَدِهْ﴾ وصلًا ووقفاً ﴿اقتدهي﴾ وصلاً ﴿اقْتَدِهِ﴾ وصلاً هذه قراءات القراء السبع في هذا الحرف.

و﴿اقتد﴾ معناه: فعل أمر من الاقتداء، والاقتداء معناه: الائتساء والاتباع في العمل. يقول العرب: «اقتدى به». إذا ائتسى به وتبعه في عمله.

وقال قوم: إن قراءة ابن عامر هنا﴿اقتدهي﴾ ﴿اقْتَدِهِ﴾ زعم قوم أنها لحن لا تجوز؛ لأن هاء السكت لا يجوز كسره[2]. وهذا غلط؛ لأن قراءة

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ١٩٨.

(٢) انظر: القرطبي (٣٦/٧).

ابن عامر قراءة صحيحة متواترة، والعلماء خرَّجوها على أن الهاء في قراءة ابن عامر ـ في حرف هشام وابن ذكوان ـ ليست هاء السكت؛ لأن هاء السكت ساكنة على كل حال[١]، وإنما هي ضمير راجع إلى المصدر.

ومعنى ﴿**اقتدهي**﴾ أي: الاقتداء فيكون بمعنى اقتدِ اقتداءً بهم. هذا تخريج قراءة ابن عامر[٢].

ومعنى ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ اقتد بهداهم، وافعل كما يفعلون من الهدى.

وهذه الآية الكريمة هي التي أخذ منها جماهير العلماء ـ هي وأمثالها في القرآن ـ أن شرع من قبلنا شرع لنا إن ثبت في شرعنا إلا بدليل يدل على أنه ليس شرعاً لنا.

وهذه مسألة معروفة في الأصول[٣]. اعلم أولًا: أن شرع من قبلنا له ثلاث حالات: تارة يكون شرعاً لنا بلا خلاف، وتارة يكون غير شرع لنا بلا خلاف، وتارة يكون محل خلاف، هو الذي فيه كلام العلماء؛ لأن شرع من قبلنا واسطة وطرفان: طرف هو شرع لنا إجماعاً، وطرف ليس شرعاً لنا إجماعاً، وواسطة هي محل بحث العلماء وخلافهم.

أما الطرف الذي هو شرع لنا إجماعاً: وهو ما ورد في شرعنا أنه كان شرعاً لمن قبلنا، ثم جاءنا في شرعنا أنه مشروع لنا ـ كقتل النفس بالنفس قصاصاً، فإن قتل النفس بالنفس قصاصاً كان شرعاً لمن قبلنا، كما نص الله عليه بقوله: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة: آية ٤٥]. ثم إن الله بين في كتابنا أنه شرع لنا، حيث قال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ [البقرة: آية ١٧٨] وقال: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: آية ١٧٩] وقال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ [الإسراء: آية ٣٣] ـ فمثل هذا الطرف هو شرع لنا بإجماع.

(١) انظر: البحر المحيط (١٧٦/٤).

(٢) انظر: حجة القراءات ٢٦٠.

(٣) انظر: إحكام الفصول للباجي ٣٢٧ ـ ٣٣٢، القرطبي (٣٥/٧)، البحر المحيط (٤١/٦ ـ ٤٧)، شرح الكوكب المنير (٤١٢/٤)، المذكرة في أصول الفقه ١٦١، الأضواء (٦٣/٢).

الطرف الثاني: يكون شرع من قبلنا ليس بشرع لنا إجماعاً، وهذا الطرف له صورتان:

إحداهما: ألّا يثبت بشرعنا أصلًا، بأن لا يوجد دليل من كتاب ولا سنة على أنه كان شرعاً لمن قبلنا، وإنما تُلقي عن الإسرائيليات. فهذا لا يكون شرعاً لنا بالإجماع؛ لأن النبي ﷺ نهانا عن تصديق الإسرائيليات وتكذيبها[(١)] ما لم يقم دليل على صدقها أو كذبها. وما نُهينا عن تصديقه لا يمكن أن يكون شرعاً لنا.

الثاني من هذا الطرف: هو ما ثبت في شرعنا أنه كان شرعاً لمن قبلنا، إلا أنه نُص لنا في شرعنا أنه غير مشروع لنا. ومثال هذا كالآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا، فإن الله بين لنا في كتابنا أنه رفعها عنا، كما قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧] ومن هذه الآصار: ما جاء في سورة البقرة من أن عَبَدَة العجل لما أرادوا أن يتوبوا إلى الله لم يقبل الله توبتهم حتى قدَّموا أنفسهم للقتل، كما تقدم في قوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: آية ٥٤]،

(١) ورد هذا النهي في عدة أحاديث منها:

١ ـ حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) بلفظ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**...» الحديث وقد أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب التفسير، باب: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ حديث رقم: (٤٤٨٥)، (١٧٠/٨) وأطرافه (٧٣٦٢، ٧٥٤٢).

٢ ـ حديث أبي نملة الأنصاري (رضي الله عنه) بلفظ: «**ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم**...» الحديث. وقد أخرجه عبدالرزاق (١١١/٦)، (٣١٤/١٠)، (١٠٩/١١ ـ ١١٠)، وأحمد (١٣٦/٤)، وأبو داود في السنن، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب. حديث رقم: (٣٦٢٧)، (٧٦/١٠)، والدولابي في الكنى (٥٨/١)، وابن حبان (الإحسان ٥١/٨ ـ ٥٢)، والطبراني (٣٤٩/٢٢ ـ ٣٥١)، والبيهقي في السنن (١٠/٢)، وفي الشعب (٤٢٠/٩ ـ ٤٢١)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم (٨٠١/٢ ـ ٨٠٢)، والخطيب في الجامع (١١٥/٢)، والبغوي في شرح السنة (٢٦٨/١)، والآحاد والمثاني (١٤٠/٤)، وفي التفسير (٤٧٠/٣)، وابن الأثير في أسد الغابة (٣١٥/٦)، والمزي في تهذيب الكمال (٣٥٤/٣٤). وهو في ضعيف الجامع (٥٠٥٤).

٣ ـ عن عطاء بن يسار مرسلاً. أخرجه عبدالرزاق (١١١/٦)، (٣١٢/١٠)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم (٨٠٣/٢).

لأن الله وضعها عنا بنص قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧] والإصر في اللغة: الأثقال. والمراد به: الأثقال الشاقة في التكاليف. وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة أن النبي ﷺ لما قرأ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٦]. أن الله قال: «نعم». في رواية أبي هريرة: قال الله: «نعم». وفي رواية ابن عباس: قال الله: «قد فعلت»[١]. وهو حديث صحيح، يصرح بأن الله وضع عنا الآصار والأثقال التي كانت على من قبلنا.

بقيت واسطة هي محل الخلاف بين العلماء، وهي ما ثبت بشرعنا أنه كان شرعاً لمن قبلنا، ولم يثبت في شرعنا أنه شرع لنا، ولا غير شرع لنا. هذا محل الخلاف، وجمهور العلماء ـ وهو المشهور عن الأئمة الثلاثة، مالك وأحمد وأبي حنيفة ـ أن شرع من قبلنا الثابت بشرعنا يكون شرعاً لنا، إلا لدليل يدل على أنه منسوخ عنا. وعن الشافعي في أصح الروايات في أصوله: أنه لا يكون شرعاً لنا إلا بدليل منفصل. واحتج الشافعي بقوله تعالى في الأنبياء والرسل ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: آية ٤٨] قال: لكل نبي شرعة مستقلة، ومنهاج مستقل.

واستدل الجمهور على أن شرع من قبلنا ـ إن ثبت بشرعنا ـ شرع لنا بأدلة كثيرة، من آيات كثيرة[٢]:

قالوا: الله (جل وعلا) لما ذكر الأنبياء في سورة الأنعام، قال لنبينا وهو قدوتنا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] وأمْرُ القدوة أمْرٌ لأتباعه. قالوا: والله (جل وعلا) بين أنه ما قص علينا قصصهم إلا لنعتبر بها، فنتباعد عن موجب الهلاك، ونتسارع إلى موجب النجاة، كما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: آية ١١١] فصرح بأنه يقص قصصهم للاعتبار والعمل بما تضمنته قصصهم،

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق. حديث (١٢٥، ١٢٦) (١/١١٥ ـ ١١٦).

(٢) انظر الأضواء (٢/٦٣).

ووبخ من لم يعقل ذلك، قال في قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾ [الصافات: الآيتان ١٣٧، ١٣٨] وبَّخ من لم يعقل عن الله وقائعه في الأمم الماضية ليعتبر بها، وفائدة ذلك العمل، وهو أن يكف عن أسباب الهلاك الذي هلك بها الهالكون، ويسارع إلى أسباب النجاة. وقال جل وعلا: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: آية ١٣] وقال في التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: آية ٤٤] والموجود من النبيين عند نزول الآية: محمد ﷺ وحده.

وكان الإمام الشافعي (رحمه الله) يقول: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] المراد بالهدى هنا في قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ والمراد بالدين في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ خصوص العقائد والأصول، لا الفروع العملية؛ لأن الله قال في الفروع العملية: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: آية ٤٨].

ونحن نقول: إن هذا الذي يُذكر عن الإمام الشافعي (رحمه الله)، وإن كان هو هو في الجلالة، إلا أن هذا الكلام غير مستقيم؛ لما ثبت في صحيح البخاري عن مجاهد في تفسير سورة (ص) أنه سأل ابن عباس: أفي (ص) سجدة؟ يعني: ومن أين أخذت السجدة في (ص)؟ فقال له ابن عباس: أَوَمَا تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ ثم قال ﴿أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ اقْتَدِهْ﴾ وكان داود ممن أُمر نبيكم أن يقتدي به، فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ[1]. هذا حديث ثابت في صحيح البخاري عن ابن عباس، صرح فيه ابن عباس أن النبي ﷺ اقتدى بداود في سجدة تلاوة، وسجود التلاوة فرع من الفروع كما هو معلوم، لا أصل من الأصول. وكذلك كان الإمام الشافعي (رحمه الله) يقول: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ اقْتَدِهْ﴾ هذا الأمر الخاص بالنبي ﷺ لا يشمل الأمة. هذا الصحيح في مذهب الشافعي. قال: الأوامر الخاصة بالنبي ﷺ لا تشمل أحكامها الأمة إلا بدليل منفصل. قال: لأن اللفظ الخاص بالرسول ﷺ لم يشمل الأمة بحسب الوضع ومقتضى الصيغة،

(١) البخاري، كتاب التفسير، (سورة ص) حديث (٤٨٠٧) (٨/٥٤٤).

وإدخالنا في كتاب الله شيئاً لم يتناوله اللفظ لا يجوز إلا بدليل منفصل. وقد بينا فيما مضى أن جماهير العلماء على أن الخطابات الخاصة بالنبي ﷺ أنها تشمل أحكامها الأمة، وإن كان اللفظ لا يتناول الأمة لأدلة خارجية عن مادة اللفظ[١]، منها: أنه هو القدوة المُشرِّع (صلوات الله وسلامه عليه)، وأَمْرُ القدوة أمرٌ لأتباعه، والله يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: آية ٢١] أي: اقتداء كريم. وذلك الاقتداء في أفعاله وأقواله وتقريراته ﷺ. والله جل وعلا يقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: آية ٨٠] ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: آية ٣١] واتباعه يقتضي في كل شيء مما أمر به، ولو بِأوامر خاصة. وثبت عن عائشة (رضي الله عنها) أنها ردَّت على من زعم أن تخيير الزوجة طلاق لها: بأن النبي ﷺ خير أزواجه فاخترنه، فلم يَعُدَّ ذلك طلاقاً[٢]. مع أن الصيغة خاصة به ﷺ في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآيتين [الأحزاب: الآيتان ٢٨، ٢٩]. وقد بينا مراراً أن القرآن دل باستقرائه أن الله يخاطب نبينا بصيغة خاصة به ﷺ، ثم يبين لنا أن مراده بالصيغة الخاصة أن يشمل حكمها الأسود والأحمر. هذا كثير في القرآن، يورد الله الخطاب خاصاً بالنبي ﷺ، ثم يبين أن مراده عموم حكم ذلك الخطاب الخاص، كقوله في صدر سورة الطلاق بخطاب خاص به ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ثم قال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ بصيغة الجمع الشاملة للأسود والأحمر، ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ [الطلاق: آية

---

(١) في هذه المسألة انظر: البحر المحيط للزركشي (١٨٦/٣ ـ ١٨٨)، شرح الكوكب المنير (٢١٨/٣)، نهاية السول (١٠١/٢)، شرح مختصر الروضة (٤١١/٢)، الفتاوى (٢٧٤/١٤، ٢٧٥)، (٨١/١٥ ـ ٨٢، ٤٤٤ ـ ٤٤٥)، (٣٢٢/٢٢)، أضواء البيان (٢١٩/١)، (٦٤/٢ ـ ٦٧، ٢٨٥)، (٤٩٤/٣، ٤٩٥، ٦٣٤) وغير ذلك من المواضع. وراجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٢) البخاري، كتاب الطلاق، باب من خيَّر أزواجه، حديث (٥٢٦٢، ٥٢٦٣)، (٣٦٧/٩)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية. حديث: (١٤٧٧)، (١١٠٣/٢).

١] فلو لم يكن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ يُقصد منه شمول الحكم لجميع الأمة لأفرد الخطابات بعده، ولقال: (إذا طلقت النساء فطلقهن لعدتهن وأحصِ) (واتق الله) (لا تُخرج) فلما جاء بها مجموعة تبين أنه أراد إدخال الأمة تحت خطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾. ونظير هذا أيضاً في سورة التحريم، في قوله بخطاب خاص به ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: آية ١] ثم بين قصد شمول الخطاب للجميع حيث قال بعده: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم: آية ٢] بصيغة الجمع الشاملة للأسود والأحمر. ونظيره أيضاً قوله في صدر سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَٱتَّبِعْ﴾ [الأحزاب: الآيتان ١، ٢]. كل هذه خطابات خاصة به ﷺ، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بصيغة الجمع الشاملة للجميع، فدل على أن المراد شمول الجميع بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ومن ظواهر هذا في القرآن قوله في سورة يونس: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾. ثم قال بصيغة الجمع الشاملة للجميع: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: آية ٦١] وقد بينا أن من أصرح الأدلة في هذا آيتي الأحزاب، وآية الروم. أما آيتا الأحزاب: فالأولى منهما قوله تعالى في قصة زواج النبي ﷺ زينب بنت جحش (رضي الله عنها): ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ فكاف الخطاب في قوله: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ خاصة بالنبي ﷺ؛ لأنه هو وحده الذي زُوِّجها في ذلك الوقت، ثم بين أن هذا الخطاب الخاص به ﷺ أنه يُراد تعميم حكمه للأسود والأحمر حيث قال بعده: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: آية ٣٧] وآية الأحزاب الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ ثم قال: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: آية ٥٠]. أي: هذا الحكم يخصك دون أمتك. والخطاب أوله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ﴾ فلو لم تكن الأمة داخلة حكماً تحت اسم (النبي) لما كان لقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فائدة، ولَمَا كانت إليه حاجة.

وأما آية الروم: فقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى

فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ [الروم: الآيتان ٣٠، ٣١]. فقوله: ﴿مُنِيبِينَ﴾ حال من ضمير الفاعل، المُخَاطَب به النبي ﷺ في قوله: ﴿فَأَقِمْ﴾ أنت يا نبي الله ﴿وَجْهَكَ﴾ في حال كونكم ﴿مُنِيبِينَ﴾، فلو لم تدخل الأُمة تحت الخطاب بقوله: ﴿فَأَقِمْ﴾ لقال: منيباً إليه واتقه، ولم يقل: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ وقد أجمع أهل اللسان العربي على أن الحال الحقيقية ـ أعني الحال التي لم تكن سببية ـ[1] تجب مطابقتها لصاحبها في الإفراد، والجمع، والتثنية، والتأنيث، والتذكير، فلا يقول: «جاء زيد ضاحكين». ولا يجوز أن تقول: «ادخل الدار قائمين». كل هذا لا يجوز[2]. فلما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ في حال كونكم ﴿مُنِيبِينَ﴾ عرفنا شمول الصيغة الخاصة به لجميع الأمة. ومن هنا نعرف أن قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] أنه خطاب للنبي ﷺ، وأن الخطاب الخاص به يشمل حكمه أُمته، كما دل عليه استقراء القرآن.

وهنا مسألة تخطر في ذهن طالب العلم، يقول: الله أمر النبي ﷺ في هذه الآية من سورة الأنعام أن يقتدي بهؤلاء الرسل الكرام، وهو سيد الرسل وخيرهم وأفضلهم، فكيف يأمر الأفضل أن يقتدي بمن هو [أقل][3] منه؟

الجواب عن هذا[4]: أن اقتداءه بهم أعلى لظهور فضيلته وأوضح لذلك؛ لأنه إن اقتدى بهم شاركهم في كل ما كانوا عليه من الهدى والخير،

---

(١) انظر الأضواء (٦٦/٢) وقد جرت العادة على ذكر هذا التقسيم عند الكلام على النعت، فيقولون: هو حقيقي وسببي. فالحقيقي: هو الذي يدل على صفة في المتبوع نفسه. ومن علامته أن يرفع الضمير المستتر. مثل: جاءني زيد العالم.
والسببي: هو الذي يدل على صفة في اسم ظاهر بعده متعلق بالمنعوت. وعلامته أن يرفع الاسم الظاهر المشتمل على ضمير يعود على المنعوت. مثل: جاءني زيد العالم أبوه.
وعلى ضوء ما سبق تعرف الفرق بين نوعي الحال هنا، والله أعلم.
(٢) انظر: التوضيح والتكميل (١٤٤/٢ ـ ١٤٥)، توضيح النحو (٨/٤).
(٣) في الأصل: أفضل.
(٤) انظر التفسير الكبير (٧٠/١٣ ـ ٧١)، محاسن التأويل (٦١٨/٦).

وزاد عليهم بأمور عظيمة خصه الله بها لم تكن لديهم. وإذا كان مشاركاً لهم بما عندهم، زائداً عليهم بما ليس عندهم، ظهر بذلك الفضل، كما هو معروف.

والحاصل أن أكثر العلماء على أن شرع من قبلنا شرع لنا، وأن من أدلته: هذه الآية الكريمة؛ لأن الله قال لنبينا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] وما أنزله الله عليهم كله هدى، إلا ما ثبت نسخه، ولم يزل العلماء يستدلون بقصص الأمم الماضية عملاً بهذه الآية وأمثالها في القرآن من جميع المذاهب وفقهاء الأمصار. ومن هنا كان علماء المالكية يقولون: إن القرينة إذا قويت ربما قامت مقام البينة[1]؛ ولأجل هذا لمَّا سُئل مالك بن أنس (رحمه الله) عن رجل استُنْكِهَ فَشُم من فيه ريح الخمر!! أفتى بجلده؛ لأن ريح الخمر قرينة جازمة على أنه شرب الخمر، إذ لو لم يشربها لما كانت ريحها في فيه[2]. قالوا: لأن الله دل في القصص الماضية - بين ما يدل - على أن القرائن الجازمة ربما قامت مقام البينات؛ ذلك لأن نبي الله يوسف لما بهتته امرأة العزيز وقالت ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: آية ٢٥] واضطر نبي الله يوسف إلى الدفاع فقال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: آية ٢٦] ولم تكن هناك بينة ولا شيء يصدقه أو يصدقها، فجاء ذلك الشاهد وقال لهم: هذا أمر يقوم مقام البينة، وهي قرينة تبين الحقيقة تركن إليها النفس كما تركن للبينة. قال: انظروا إلى قميص الرجل فإن كان مشقوقاً من جهة وجهه فهو يَرْكُضُ على المرأة، والمرأة تدفعه عن نفسها، وإن كان القميص مشقوقاً من الوراء فهو هارب وهي تَنْتَاشُه من وراء. قال الله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ يعني من الأمام ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: آية ٢٦،

---

(١) في العمل بالقرائن انظر: الكافي في فقه أهل المدينة ٤٧٨، أحكام القرآن لابن العربي (١٠٧٧/٣، ١٠٨٥)، تفسير القرطبي (١٤٩/٩، ١٧٤)، الطرق الحكمية ص٤ فما بعدها. الإثبات بالقرائن ٧٧ وما بعدها، الأضواء (٦٩/٢).

(٢) انظر الأضواء (٦٩/٢) (٧٠/٣).

٢٧] ومحل الشاهد قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ لما وجدوا القميص مشقوقاً من دبر جزموا بأنها كاذبة وألزموها، وقالوا: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: آية ٢٨] والله (جل وعلا) ما ذكر هذه القصة في معرض الاستحسان والتسليم مُبرِّئاً بها ساحة نبيه يوسف إلا أن مثل هذا يجوز أن يُعتمد عليه إذا كانت القرائن واضحة بينة لا تترك في الحق لَبْساً[١]. وقد أخذها العلماء بالإجماع في بعض الأفراد. أجمع العلماء في أقطار الأرض أن الرجل يتزوج المرأة ولم ير وجهها قط، ولم يعرفها، وإنما يسمع أن عند فلان ابنة فيخطبها، ويتزوجها من غير أن يراها. ثم إنها وقت الزفاف تزفها إليه ولائد وإماء لا يثبت بقولهن حقير ولا جليل، فقد أجمع العلماء على أن له بأن يجامعها، وليس عليه أن يتوقف حتى تقوم بينة عدول تشهد أن هذه عين فلانة ابنة فلان التي وقع عليها العقد؛ لأن قرينة العقد، ودَفْع الصداق، والتهيؤ للزفاف، قرائن قامت مقام البينة في هذا الموضوع[٢]. والرجل ينزل عند القوم فيأتيه الولد والجارية بطعام القوم، والطعام مال معصوم محترم، وليس عليه أن يتثبت حتى تقوم بَيِّنة على أنهم أذنوا له في الأكل؛ لأن القرينة تقوم مقام ذلك[٣].

وقد أخذ علماء المالكية وغيرهم من قصة يعقوب وأولاده أن القرينة تبطلها قرينة أقوى منها[٤]. وهو أَخْذٌ صحيح من كتاب الله؛ ذلك أن أولاد يعقوب لما أرادوا أن يجعلوا يوسف في غيابة الجب ذبحوا سخلة، ولطَّخوا قميصه بدم السخلة، ليكون الدم قرينة لهم على صدقهم بأن يوسف أكله الذئب، ونسوا أن يشقوا القميص!! فلما جاؤوا بالليل إلى يعقوب بالقميص عليه الدم تأمل في القميص، فإذا هو ليس فيه شق، وهو صحيح سليم، فقال: سبحان الله!! متى كان الذئب حليماً كيِّساً؟ يقتل يوسف ولا يشق قميصه؟! فجزم بأنهم كاذبون. كما نص الله عنه في

(١) انظر: القرطبي (١٥٠/٩)، الأضواء (٦٩/٣).
(٢) انظر قواعد الأحكام (١٣٦/٢ ـ ١٣٩)، الأضواء (٦٩/٢)، (٧٠/٣).
(٣) انظر الأضواء (٦٩/٢)، (٧٠/٣).
(٤) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (١٠٧٧/٣)، القرطبي (١٤٩/٩)، الأضواء (٦٩/٢) (٧٠/٣).

قوله: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ [يوسف: آية ١٨] وحكى غير واحد إجماع العلماء[١] على أن مستند يعقوب في قوله: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ﴾ أنه عدم شق القميص، وتيقن أن الذئب لو كان أكله لا بد أن يكون في القميص شق من نابه أو ظفره، كما هو معروف.

وكذلك أخذ المالكية ضمان الغُرْم من قوله في قصة يوسف وإخوته: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ [يوسف: آية ٧٢][٢].

وأخذ بعض الشافعية - مع أنهم يقولون: إن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا - أخذوا ضمان الوجه المعروف في الاصطلاح بـ(الكفالة) من قول يعقوب لأولاده: ﴿لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ [يوسف: آية ٦٦][٣].

وأخذ علماء المالكية وغيرهم أن القاضي إذا توجه حكمه إلى أحد الخصمين لا بد أن يُعذر إليه بـ: (أَبَقِيَتْ لك حجة)؟ أخذ هذا من قوله في قصة الهدهد: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ [النمل: آية ٢١] أي: ما لم يكن عنده مَدْفع وعُذر يدفع به عن نفسه[٤].

وأخذ علماء المالكية وغيرهم أن القاضي إذا انتهت الآجال والتَّلَوُّمات للخصوم ينبغي له أن يستظهر لمن توجه عليه الحكم بثلاثة أيام، أخذاً من قوله في قصة صالح: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ﴾ [هود: آية ٦٥][٥].

---

(١) نقله القرطبي (٩/ ١٥٠) وانظر: الأضواء (٣/ ٧١).

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٠٩٦)، القرطبي (٩/ ٢٣٣)، الأضواء (٢/ ٧٠).

(٣) انظر: القرطبي (٩/ ٢٢٥)، الأضواء (٢/ ٧٠).

(٤) انظر: الأضواء (٢/ ٧٠).

(٥) المصدر السابق.

وأخذ علماء الحنابلة جواز طول مدة الإجارة من قوله في موسى وصهره شعيب أو غيره: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ الآيات [القصص: آية ٢٧](١).

أما الذين قالوا: إن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا ـ وهو أصح الروايات في الأصول عن الإمام الشافعي ـ فتمسكوا بظاهر قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: آية ٤٨] وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**إنا معاشر الأنبياء أولاد عَلاَّت، ديننا واحد**»(٢). وأولاد العلاَّت: هم أولاد الرجل الواحد إذا كانت أمهاتهم شتى مختلفة. يعني أن العقيدة والأصل واحد، والفروع تختلف، أما اختلاف الفروع الذي أشار إليه النبي بقوله: (أولاد عَلاَّت) وبيَّنه الله بقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ فهو لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن بعض الشرائع يكون فيها نسخ لم يكن فيما قبلها، ويُزاد في بعض الشرائع أحكام لم تكن موجودة فيما قبلها، وبواسطة نسخ بعض الأحكام السابقة، وزيادة بعض الأحكام التي لم تكن، تختلف الشرائع بهذا الاعتبار، ويكون لكلٍّ شريعةٌ ومنهاج؛ لأنها لم تتحد في كل شيء. وهذا معنى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] العائد إلى الصلة هنا محذوف، والأصل: أولئك الذين هداهم الله، فحذف الضمير العائد على الصلة(٣) لأنه منصوب بفعل، وإذا كان منصوباً بفعل أو وصف فَحَذْفه مطَّرد، كما هو معروف.

---

(١) انظر: المغني (١٠/٨)، حاشية الروض المربع لابن قاسم (٣١٦/٥)، الأضواء (٧٠/٢).

(٢) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦]. حديث (٣٤٤٢)، (٤٧٧/٦)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب: فضائل عيسى (عليه السلام)، حديث (٢٣٦٥)، (١٨٣٧/٤).

(٣) انظر: الدر المصون (٣١/٥).

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] قل لهم يا نبي الله: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ أي: لا أطلب منكم ﴿عَلَيۡهِ﴾ أي: على هذا التبليغ الذي بلغتكم به ما فيه لكم خير الدنيا والآخرة، لا أطلب منكم في مقابلته جُعلًا، ولا أجرة أنتفع بها في الدنيا، لا، وكلا، إنما أجري في ذلك على الله، وهذه عادة كل الأنبياء، يُبلِّغون العلم من غير أن يأخذوا عليه جُعلًا ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا﴾ [يس: الآيتان ٢٠، ٢١] ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾ [سبأ: آية ٤٧] وقد ذكر الله قصص الأنبياء في سورة الشعراء(١)، قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، كل واحد يقول: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩﴾ [الشعراء: آية ١٠٩] وذكر في (هود) عن نوح: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [هود: آية ٢٩] وهذه عادة الرسل، يبلغون ويبذلون العلم والنصائح والخير مجاناً من غير عوضٍ في ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ لا أطلب منكم جُعلًا في مقابلة هذا الذي أتيتكم به، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرًا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠﴾ [القلم: آية ٤٦] والله (جل وعلا) منع على الأنبياء أن يأخذوا جُعلاً في مقابلة التبليغ؛ لأنهم لو أخذوه لكانوا يتهمونهم ويقولون: يأتي بهذه الدعوى التي جاء بها لأجل أن يأخذ؛ ولئلا تثقل الناس من المغارم؛ لأن النفوس مجبولة على بغض المغرم، كما قال: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرًا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠﴾ [القلم: آية ٤٦] ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾ [سبأ: آية ٤٧] أما قوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: آية ٢٣] فالتفسير الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين، وأكثر علماء السلف(٢): أن النبي ﷺ له في كل فخذ من قريش قرابة. ومعنى الآية: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ على هذا الذي جئتكم به من الفضل ﴿أَجۡرًا﴾، جُعلًا ولا شيئاً ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ إلا أن

(١) كما في الآيات (١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠).

(٢) انظر: ابن جرير (٢٥/٢٣).

تودوني في قرابتي منكم، وتراعوا فيَّ حق القرابة، فلا تؤذوني. وهذا مضمون للأسود والأحمر.

وفي الآية أقوال: منها ما رُوي عن جماعة من آل البيت، وجماعة من العلماء، أن المعنى: إلا أن تودوني في قرابتي، فتراعوني فيهم[(١)]. هذا الوجه الآخر في الآية، والأول هو المشهور، وبقية الأوجه ضعيفة. وإذا كان لا يطلب أجراً إلا الشيء المبذول للأسود والأحمر من مودة كل قريب لقريبه تبين أنه لا يطلب أجراً، كما قال ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: آية ٤٧] وهذا معنى قوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] يعني: ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ (ذكرى): اسم مصدر بمعنى التذكير، مؤنث بألف التأنيث المقصورة تأنيثاً لفظياً. فما هو إلا ذكرى. أي: تذكير وعظة للعالمين، يتذكرون ويتعظون بما فيه من الغرائب والعجائب والمواعظ، وما كان بهذه المثابة لا يحسن ولا يجمل أن يؤخذ عليه جُعل أو أجر، لا، وكلا[(٢)].

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: آية ٩١].

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ ذهبت جماعة من العلماء إلى أن هذه الآية نزلت في مالك بن الصيف، وهو حبر من أحبار اليهود، ذكروا في قصته: أن النبي ﷺ ناشده: «**أَوَجدت في التوراة أن الله يُبغض الحبر السمين؟**» وأنه قال: نعم. وأنهم قالوا له: أنت حبر سمين!! فغضب، وقال: «ما أنزل الله على بشر من شيء»[(٣)]. مع أن أثر: «**إن الله يبغض الحبر السمين**» لم يثبت من طريق صحيح، إلا أن هذا ذكره بعض العلماء في سبب نزول هذه

---

(١) انظر: القرطبي (٢١/١٦)، الصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي ص٢٥٨.

(٢) انظر: القاسمي (٦/٦١٩ ـ ٦٢٢).

(٣) أخرجه ابن جرير (١١/٥٢١)، وابن أبي حاتم (٤/١٣٤٢)، والواحدي في أسباب النزول ٢٢٠ من طريق سعيد بن جبير مرسلاً. وعزاه في الدر (٣/٢٩) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.
وفي سنده ـ إضافة إلى الإرسال ـ (يعقوب القمي) و(جعفر بن أبي المغيرة) وكلاهما قال عنه الحافظ في التقريب (ص٢٠١، ١٠٨٨): «صدوق يهم» ا.هـ.

الآية. والذين قالوا هذا قالوا: هذه آية مدنية من سورة مكية؛ لأن سورة الأنعام مكية، نزلت قبل الهجرة إلا أن فيها آيات مدنية، منهن عند بعض العلماء هذه الآية[١]. قالوا: نزلت في مالك بن الصيف اليهودي، والتي بعدها نزلت في مسيلمة والأسود العنسي. أعني قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: آية **٩٣**] وأن آخرها: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ [الأنعام: آية **١٥١**] أنه مما نزل في المدينة، هكذا قال بعض العلماء.

والمعنى كما ذكره المفسرون: أن هذا اليهودي لما قال: ما أنزل الله على بشر من شيء.

وقال قوم: هذه المقالة لكفار مكة، والآية مكية من سورة مكية[٢].

وعلى كل حال فالذين قالوا هذه المقالة سواءً قلنا إنه مالك بن الصيف، أو غيره من اليهود، أو كفار مكة الذين قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، هؤلاء ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ يعني ما قدروا الله حق قدره: ما عظموا الله حق تعظيمه، ولا عرفوه حق معرفته، حيث نفوا إنزال الله الكتب السماوية على الأنبياء.

ولطالب العلم أن يقول: إذا نفوا عن الأنبياء إنزال شيء، فأي شيء في هذا من عدم تعظيم الله؟

الجواب: أن هذا نزَّه الله نفسه عنه في سورة (قد أفلح المؤمنون) وبين أنه لا يليق به؛ لأن الحكيم الخبير خلق هذا الخلق، وأبدع هذا الكون، كيف يفعل هذا إلا لِحِكَم بالغة؟ وهو أنه يمتحنهم ويجازيهم، ويكلفهم ويجازيهم. فهذا هو الذي نزَّه الله عنه نفسه، إذ لو كان يخلق الخلق ولا يكلفهم ولا يجازيهم كان خلقه إياهم كأنه من العبث، ومن ظن أن الله يفعل هذا لا لحكمة فويل له من النار، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾

---

(١) انظر: القاسمي (٦/٦٢٤، ٦٢٧).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/٥٢٤)، ابن كثير (٢/١٥٦).

[ص: آيــة ٢٧] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: الآيتان ٣٨، ٣٩] وقال جل وعلا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: آية ١١٥] ثم نزَّه نفسه عن هذا ـ وهو محل الشاهد ـ فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: آية ١١٦] تعالى وتقدس وتنزَّه عن أن يخلق هذا العالم عبثاً من غير تكليف ولا جزاء، لا يكون ذلك أبداً. ومن هنا لما قالوا: لم ينزل الله على بشر من شيء، وليست هنالك كتب على ضوئها التكاليف والجزاء، بين الله أنهم ما قدروه حق قدره، ما عظَّموه حق عظمته، ولا عرفوه حق معرفته، حيث يترك هذا العالم سُدى عبثاً ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: آية ٣٦] لا، وكلا، ثم قال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ تُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿يُمْنَىٰ﴾[1] ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة: الآيات ٣٦ ـ ٣٨] فهؤلاء الذين نفوا إنزال الكتب على الرسل وتكليف الخلائق ومجازاتهم، هؤلاء ظنوا بالله أنه خلق الخلق عبثاً، ولم يخلقه للحِكَم البالغة، فما عظموه حق عظمته، ولا عرفوه حق قدره ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾ حين قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: آية ٩١] المعروف عند جماعة المفسرين: أن مالك بن الصيف لما قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ قالوا: إن قومه قالوا: كيف تنكر إنزال شيء على أحد من البشر وأنت تعلم أن التوراة أُنزل على موسى[2]؟ يذكرون في قصته أنه كان حبرهم، وأنهم خَرَّجوه بسبب هذا، ووضعوا بعده كعب بن الأشرف، أو عبد الله بن صوريا الأعور، كما هو مذكور في التاريخ.

والعلماء في هذا يقولون: إن مناظرة هذا اليهودي أو غيره، أنها متطبقة على المناظرة الاصطلاحية تماماً؛ لأن هذا اليهودي قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ فهذه المقدمة التي جاء بها هي التي تسمى في الاصطلاح:

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ٤٥٣.

(٢) انظر: ابن جرير (١١/٥٢٢).

(كلية سالبة). ولا شك أنه حذف مقدمة أُخرى، وأنه يقصد: أنت يا محمد من جملة البشر، والبشر جميعهم ـ بالعنوان الأعم الذين أنت من جملتهم ـ ما أنزل الله عليهم من شيء. ينتج من ذلك: أنت لم ينزل عليك شيء، حيث كنت داخلًا في جملة البشر، وحيث إن البشر بالعنوان الأعم حُجِبَ عن جميعهم إنزال شيء. ينتظم من المقدمتين: أنت لم ينزل عليك شيء!! وقد تقرر في فنون المناظرة: أن (السالبة الكلية) إنما تنقضها (مُوْجَبَة جزئية). فالخصم إذا أراد نقض كلام خصمه؛ إذا كان مبنى كلام خصمه على (سالبة كلية)؛ إنما ينقضها بـ(مُوْجَبَة جزئية)، كما هو معروف. قالوا: ولذا قال الله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ أنت قلت: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ من هو الذي أنزل الكتاب الذي هو التوراة على موسى؟! فهذا في قوة: موسى بشر، وأنتم يا يهود تُسَلِّمون بشرية موسى، موسى أُنزل عليه الكتاب، وهو التوراة، فأنتم تُسَلِّمون بشريته، ونزول الكتاب عليه. ينتج: بعض البشر ـ وهو موسى ـ أُنزل عليه الكتاب[1].

إلا أن هذا في الاصطلاح يتطرقه سؤال، قد يكون بعض الحاضرين لا يفهمه؛ لأنه يقال: هذا اليهودي بنى دليله على (كلية سالبة) ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ وأن الله لما نقض عليه، كان النقض في قوةِ (مُوْجَبَةٍ جزئية)؛ لأن معنى قوله: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام: آية ٩١] هو في قوة: موسى بشر، موسى أُنزل عليه كتاب. ينتج: بعض البشر أُنزل عليه كتاب.

العارف باصطلاحات هذه الفنون يقول: هذا الميزان من الشكل المعروف بـ:(الشكل السالب) وأهله يشترطون فيه كلية إحدى المقدمتين، وهما هنا: شخصيتان.

والجواب عن هذا هو: ما هو مقرر: أن كل ما تُنتج فيه الكلية تُنتج فيه الشخصية؛ لأن المراد أن لا يبقى شيء من أفراد الموضوع الداخلة تحت

(١) انظر: آداب البحث والمناظرة (٢/٧٨ ـ ٨٠).

العنوان، سواء حصرها سُوَرٌ، أو حصرها مجرد الوضع[١]. وعلى كل حال فهذا اليهودي أو غيره قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ فالله ألزم اليهود، وقال لهم: من هو الذي أنزل الكتاب على موسى؟

٩/ب / وهم يعترفون ببشرية موسى، أنه بشر، وأن الله أنزل عليه الكتاب، يلزم من ذلك أن بعض البشر أُنزل عليه الكتاب. وهو نقض لمقالتهم، وتكذيبٌ لهم في قولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ أي: وهو التوراة.

وقوله: ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ قوله: ﴿نُورًا وَهُدًى﴾ كلاهما حال. أي: جاء به موسى في حال كونه نوراً يكشف ظلام الجهل، والشك، والشرك ﴿وَهُدًى﴾ يُهتدى به من الضلال. الجواب: أنزله الله (جل وعلا)، والله (جل وعلا) لم يَكِل هذا إليهم؛ لأنه قال لنبيه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩١] قل لهم يا نبي الله: أنزله الله. وهو محل الشاهد. وإذا كان الجواب: أنزله الله على موسى. أي: هذا الكتاب أنزله الله على موسى، وهو بشر، تبين كذب مقالتهم ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ وهذا معنى قوله: قل لهم يا نبي الله ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من هو الذي أنزل الكتاب ﴿ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ في حال كونه ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ هذا السؤال في قوله: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾. أمر الله نبيه أن يجيب بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ معناه: قل أنزله الله جل وعلا ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وقوله جل وعلا: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ فيه قراءتان سبعيتان[٢]، قرأه أكثر السبعة: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾. وقرأه بعض السبعة: ﴿يَجْعَلُونَه قَرَاطِيسَ يُبْدُونَها ويُخفُونَ كَثِيراً﴾ أما على قراءة: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ﴾ فهو خطاب لليهود[٣]. وسياق الكلام يُعَيِّنُ أن الآية نازلة في

(١) المصدر السابق (٢/٧٩ ـ ٨٠).

(٢) انظر المبسوط لابن مهران ١٩٨.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٦١، القرطبي (٧/٣٧).

اليهود لا في مشركي مكة، كما قاله بعض العلماء. ومعنى: ﴿يَجْعَلُونَه﴾ أي: اليهود. أو ﴿تَجْعَلُونَهُۥ﴾ أنتم أيها اليهود.

وقوله: ﴿قَرَاطِيسَ﴾ (القراطيس) جمع (قرطاس)، و(القرطاس): الورقة. كما هو معروف؛ لأن نسخة التوراة الكبيرة كلها فيها الحق، فإذا أرادوا التحريف أخذوا أوراقاً مفرقة، وكتبوا فيها أشياء متعددة مما يريدون أن يحرفوه، وتركوا نسخة الكتاب الكبيرة غير حاضرة، فإذا أرادوا التحريف قالوا: هذا القرطاس نقلنا فيه من محل التوراة في المحل الفلاني كذا وكذا، وهذا نصه!! وهو محرف، ولم يأتوا بأصل الكتاب؛ لأنه لو جاء لظهرت الحقيقة فيه. وهذا معنى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ ﴿تُبْدُونَهَا﴾ أي: القراطيس المحرفة على أهوائكم ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ وجعله بهذه القراطيس ليستعينوا بها على إخفاء ما يحبون وإبداء ما يحبون؛ لأنه لو جاءت نسخة الكتاب كاملة لعُرف الحقيقة فيه؛ ولذلك يكتبونها كُتباً مُحرَّفة، كما قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: آية ٧٩] وقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: آية ٧٨] وهذا معنى قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا﴾ محرفة للناس ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ في النسخة الكبيرة لا تُظهرونه. كانوا يخفون صفات النبي ﷺ، فيجدونه في التوراة: (أبيض مُشرَباً بحُمْرة)، فيكتبون لوناً غير ذلك. يجدون: (رَبْعَة)، يكتبون: (طويلًا مُشَذَّباً). (جَعْد الشعر): يكتبون: (سَبْط الشعر) ويغيرون الحقائق؛ ولذا قال تعالى: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أظهر الأقوال فيها: أن المراد: بهم اليهود الذين أنزل عليهم التوراة، أن الله علمهم بواسطة القرآن من غرائب ما في التوراة وعجائبه ما كانوا جاهلين به؛ لأن القرآن مهيمن على الكتب، وكانت أشياء غامضة عليهم لا يعرفونها، فبينها القرآن حتى عرفوها، وعلموا بواسطة القرآن من أسرار التوراة ما لم يكونوا يعلمونه، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: آية ٧٦] وقال الله جل وعلا: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: آية ١٥] إلى غير ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي وعُلِّمتم الشيء الذي لم تعلموه أنتم ولا آباؤكم من قبل، علمكم الله إياه بواسطة القرآن العظيم؛ لأنه مهيمن على الكتب يبين ما فيها، كما قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: آية ٧٦] مما كانوا لا يعلمونه.

ثم قال جل وعلا: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ جواب للاستفهام في قوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ قل لهم: من هو الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس، ثم أمره بالجواب: قل لهم: أنزله الله (جل وعلا). ثم بعد أن تفحمهم ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿ذَرْهُمْ﴾ معناه: اتركهم.

ومعنى: ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾ أي: في خوضهم في الباطل، والكفر، والتكذيب بآيات الله ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يتخذون ذلك لعباً واستهزاءً.

وهذا الأمر قال بعض العلماء: هي مُتَارَكَةٌ منسوخة[1]؛ لأن أهل الكتاب كان النبي ﷺ مأموراً بتركهم، حيث قال ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: آية ١٠٩] ثم جاء الله بأمره فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: آية ٢٩].

﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٢] لما قال اليهود: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ وأن الله (جل وعلا) كذبهم تكذيبتين: الأولى: قوله: ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ

---

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (٢/٣٢١).

مُوسَىٰ﴾ ثم قال في جواب هذا الاستفهام: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ الله أنزله. وهذا تكذيب صريح لقولهم: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء. ثم كذبهم التكذيبة الأخرى: أن الله أنزل على محمد ﷺ أعظم كتاب، وهو الكتاب المبارك، حيث قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ وهذا أيضاً كتاب آخر غير الذي أنزل على موسى، أنزلناه على بشر تكذيباً لقولكم ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ وصيغة الجمع في قوله ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ للتعظيم؛ لأن منزل هذا الكتاب عظيم جداً، فهو جدير بالتعظيم.

وقوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي: كثير البركات والخيرات، فهذا القرآن كله بركات وخيرات؛ لأن الله قال إنه مبارك. والمبارك: كثير البركات؛ لأن فيه خير الدنيا والآخرة، يعتقد الإنسان عقائده، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، ويتأدب بآدابه، ويعتبر بأمثاله وقصصه، فيكون على أكمل حال في الدنيا والآخرة. فهو فيه البركات والخيرات لمن وفقه الله ـ للعمل به ـ (جل وعلا)؛ ولذا بينا مراراً أنه أعظم نعمة أنزلها الله على خلقه؛ ولذا علمهم أن يحمدوه على هذه النعمة والبركات في هذا القرآن العظيم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: آية ١] وبَيَّن أن إيراثه علامة الاصطفاء، وبَيَّن أن ذلك فضل كبير من الله حيث قال في (فاطر): ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فبين أن إيراث هذا الكتاب أنه لا يكون إلا لمن اصطفاه الله. ثم قال في معرض التنويه به: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: آية ٣٢] أي: إيراثنا الكتاب إياهم عن نبيهم هو الفضل من الله الكبير عليهم، كما قال هنا إنه ﴿مُبَارَكٌ﴾.

وقوله: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ معناه: أن القرآن العظيم مصدق للكتب السماوية التي قبله، وتصديقه لها من جهات متعددة منها[1]: أنه لا يخالفها. أن العلامات التي قامت عن النبي وعن كتابه الذي ينزل عليه جاءت كلها مطابقة، وأن ما تدعو إليه الكتب السماوية من التوحيد وطاعة الله ومكارم الأخلاق كذلك جاء القرآن آمراً به. ومن تصديقه للكتب

(١) انظر: القاسمي (٢/١١٥).

السماوية: أنه يهيمن عليها ويمنعها من التحريف، كلما أرادوا أن يحرفوا منعهم القرآن، كما قال: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: آية ٤٨] وبين الله ذلك في مواضع من كتابه حيث قال: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: آية ١٥] ولما أنزل الله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: آية ١٦٠] قال اليهود: لم يُحرم علينا إلا ما كان محرماً من الطعام على أبينا إسرائيل. وهو يعقوب. فالقرآن كذبهم وألقمهم الحجر حيث قال: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: آية ٩٣][(١)]. والمفسرون يقولون: إن هذا الذي حرم على نفسه هو لبن الإبل ولحمها. قالوا: إنه أصابه مرض (عِرق النسا) وأنه نذر لله إن شفاه الله ليُحَرِّمن لله أحب الطعام والشراب إليه، وأن ذلك كان جائزاً في شرعه، فشفاه الله، فحرم لبن الإبل ولحمها. هكذا يقولون[(٢)]. ومحل الشاهد قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: آية ٩٣] فهذا إلقام الحجر أنهم كاذبون على كتاب الله؛ ولذا قال هنا: ﴿مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

وقوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ يقول بعض العلماء[(٣)]: المُعَلَّل محذوف ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أنزلنا إليك هذا الكتاب. وبعض العلماء يقول: هو معطوف على معنى ما قبله. والمعنى: كتاب أنزلناه إليك لأجل البركات المشتمل عليها؛ ولتصديق الذي بين يديه؛ ولتنذر أُم القرى. وأكثر العلماء على أن المُعلل محذوف، والمعنى: ولتنذر أم القرى أنزلناه إليك. و(أم القرى) هي مكة المكرمة حرسها الله. ومعنى ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ لتنذر أهلها.

وقوله: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني: ومن حول أُم القرى.

وبقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ تمسك جماعات من اليهود، قالوا: لم يُرسل

(١) انظر: ابن جرير (٧/٧).
(٢) انظر: ابن جرير (٧/١٣ ـ ١٥).
(٣) انظر: البحر المحيط (٤/١٧٩).

محمد ﷺ إلا إلى جزيرة العرب؛ لأنه قال له: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ في موضعين[(١)].

وقد أجمع العلماء، ودل القرآن العظيم، والسنة الصحيحة، وإجماع العلماء، أن رسالة نبينا ﷺ شاملة عامة للأسود والأحمر[(٢)]. وعليه يقول السائل: ما الجواب عن قوله ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ والاقتصار على هذا هنا، وفي قوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾؟

للعلماء عنه جوابان[(٣)]:

أحدهما: أن ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ صادق بالدنيا كلها؛ لأن الدنيا عند الله شيء بسيط كأنها نقطة.

وقال بعض العلماء: غاية ما في الباب أن هذه الآية الكريمة اقتصرت على إنذار أم القرى ومن حولها، وسكتت عما سوى ذلك، وجاءت آيات أخر صرَّحت في الإنذار بالتعميم، كقوله ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: آية ١] ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: آية ١٥٨] وقال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: آية ٢٨] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: آية ١].

والآية على هذا الوجه الأخير الذي ذكرنا كقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: آية ٢١٤] فليس لنا أن نقول: ليس مرسلاً إلا لعشيرته الأقربين؛ لأن الله قال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ لأنه في هذه الآية أمره أن ينذر عشيرته، وعمم الإنذار في آيات أخر، كذلك في هذه الآية: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: آية ٩٢] وعمم الإنذار في آيات أخر.

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: ابن كثير (١٥٦/٢ ـ ١٥٧)، القاسمي (٦٢٩/٦).

(٣) انظر: البحر المحيط (١٧٩/٤)، ابن كثير (١٥٦/٢)، فتح القدير (١٣٩/٢)، القاسمي (٦٢٩/٦)، أضواء البيان (١٥٨/٧)، دفع إيهام الاضطراب (مطبوع في آخر الأضواء (١١٩/٩)).

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩٢] وفي بعض القراءات: ﴿عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾(١).

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ قد بينا مراراً أن معنى (الآخرة) أنها لا دار بعدها يُنتقل إليها؛ ولذلك سُميت (آخرة). والإنسان قبل أن يصل إليها ينتقل من طَور إلى طَور. وقد بينا أن رحلة الإنسان يجب عليه النظر فيها؛ لأن الله أمره بذلك. وأن مبدأ رحلة الإنسان أنه تراب بلَّه الله بماء، ثم صار طيناً، ثم ذكر عن هذا الطين أطواراً صار فيها حمأً مسنوناً، ثم يُبِّس فصار صلصالاً كالفخار، ثم إن الله بقدرته خلق من هذا الطين بشراً سوياً في غاية الجمال، اسمه آدم، ثم خلق من ضلعه امرأة، ثم كان بين هذا الرجل والمرأة ما يكون بين الرجل والمرأة. فالطَّور لنا جميعاً: هو ذلك التراب، والطَّور الثاني: هو تلك النطفة الأمشاج من ماء الرجل وماء المرأة، والطَّور الثالث: هو الدم الجامد، المُعبَّر عنه بـ(العَلَقَة)، والطَّور الذي بعد ذلك: هو طَور (المُضْغَة)، وهو استحالة الدم مضغة، قطعة لحم، ليس فيها تخطيط، ولا تشكيل، ولا رأسٌ، ولا يدٌ، ولا رِجْل، ثم إن الله (تبارك وتعالى) يقلب تلك المضغة هيكل عظام، والله (جل وعلا) يرتب تلك العظام بعضها ببعض على هذا الأسلوب الغريب العجيب، في غاية من الإحكام، ثم إن الله (جل وعلا) بعد أن يصنع هيكل العظام يكسوه اللحم، ويجعل فيه العروق، فيفصِّله ويخططه، ويفتح فيه العينين، والأنف، والفم، والأذنين، ويجعل فيه الأعضاء، ويضع كل عضو في محله، ويضع الكبد في محله، والطحال، والكليتين، إلى غير ذلك، ويجعل الإنسان على هذا الأسلوب الغريب العجيب الهائل، الذي لو شُرِّح منه عضو واحد لحارت عقول العقلاء بما أبدع الله فيه من غرائب صنعه وعجائبه، فليس في بدن الواحد منا موضع إبرة إلا والله أودع فيه من غرائب صنعه وعجائبه ما يبهر العقول، وكل هذا فعله فينا لم يشق أمهاتنا، لم يشق طبقة بطنها السفلى، ولا الوسطى، ولا العليا، ولم يخطها، ولم يُبَنِّجها، ولم يُنومها في صِحِّية. يفعل في بطنها هذه الأفعال الهائلة الغريبة العجيبة وهي

(١) انظر: البحر المحيط (٤/١٨٠).

لاهية تفرح وتمرح، لا تدري عن شيء من ذلك، بكمال قدرته وصنعه. والله يُلفت أنظارنا إلى هذا ونحن نُلفت أنظار إخواننا إليه دائماً؛ لأن الله يقول: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: آية ٦] يعني: بعد النطفة علقة، وبعد خلق العلقة مضغة، وبعد خلق المضغة عظاماً، إلى آخره. وهو يقول: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ يعني: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة التي هي على الولد في داخل الرحم. لم يحتج إلى أن يزيحها أو يسلط عليها أشعة كهربائية. العلم والبصر نافذ لهذا الصنع الغريب العجيب في بطن أمه ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: آية ٦] ولذا لما قال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾.

قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم قال - وهو محل الشاهد -: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: آية ٦] أين تصرفون؟ أين تذهب عقولكم عن هذه الغرائب والعجائب التي يفعلها فيكم خالق السماوات والأرض؟ ثم إن الله (جل وعلا) يخرجه من بطن أمه، ويسهل له طريق الخروج ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾ [عبس: آية ٢٠] ويكون في هذه المحطة التي نحن فيها، فكل ما قبلها جاوزناه، ثم إنه عن قريب ينتقل الجميع من هذه المحطة إلى محطة القبور، فيمكثون فيها ما شاء الله، ثم ينادي خالق السماوات والأرض أن يرحلوا من القبور ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: آية ٢٥] فيجيبون داعي الله مهطعين إلى الداعي، فيجمعهم في صعيد واحد، صعيد المحشر، ينفذهم البصر، ويُسمعهم الداعي، ثم يمكثون ما شاء الله، ثم يتفرقون كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة: آية ٦] متشتتين متفرقين، وهذه الأشتات في سورة الزلزلة أوضحها الله في سورة الروم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦﴾ [الروم: الآيات ١٤ - ١٦] فبعد ذلك يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وعند ذلك تُلقى عصى التسيار، ويُذبح الموت، ويقول: يا أهل الجنة خلود

فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. وهو معنى قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: آية ٣٩].

بهذا تعرفون حقيقة معنى (الآخرة)؛ لأن الأطوار قبلها كلها ينتقل من طور إلى طور، بعد التراب نطفة، وبعد النطفة علقة، وبعد الدنيا قبر، وبعد القبر بعث. أما في الآخرة فالدار التي يحلها الإنسان ليس بعدها انتقال آخر إلى شيء، ومن هنا قيل لها (الآخرة)؛ لأنها ليس بعدها شيء، والمنزل في ذلك إما غرفة من غرف الجنة، وإما سجن من سجون النار.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: آية ٩٢] بهذا القرآن العظيم. كل من يؤمن باليوم الآخر يؤمن بهذا القرآن العظيم، لوضوح أدلته. أما الذي لا يؤمن باليوم الآخر فهو لا يخاف من عقاب، ولا يرجو ثواباً، فلا يؤمن بشيء.

ثم خص الصلاة لعظم مكانتها[1]، قال: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٣].

نزلت هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام في مسيلمة الكذاب، وكذاب صنعاء: الأسود العنسي[2]، كلٌّ منهما ادعى أنه نبي كذباً وافتراءً على الله،

---

(١) انظر: البحر المحيط (١٧٩/٤).

(٢) انظر: ابن جرير (٥٣٣/١١)، أسباب النزول للواحدي ٢٢٠، الدر المنثور (٣٠/٣).

قال ابن عاشور تعقيباً على هذا القول: «وهذا يقتضي أن يكون مسيلمة قد ادعى النبوة قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة؛ لأن السورة مكية. والصواب: أن مسيلمة لم يدَّع النبوة إلا بعد أن وفد على النبي ﷺ في قومه - بني حنيفة - بالمدينة سنة تسع طامعاً في أن يجعل له رسول الله ﷺ الأمر بعده، فلمّا رجع خائباً ادعى النبوة في قومه. وفي تفسير ابن عطية أن المراد بهذه الآية مع مسيلمة الأسود العنسي المتنبيء بصنعاء. وهذا لم يقله غير ابن عطية، وإنما ذكر الطبري الأسود تنظيراً مع مسيلمة. فإن الأسود العنسي ما ادعى النبوة إلا في آخر حياة رسول الله ﷺ» ا.هـ التحرير والتنوير (٣٧٥/٧).

فبين الله (جل وعلا) أنه لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله، أو يدعي أن الله أوحى إليه وهو لم يوح إليه.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الاستفهام إنكاري. والمعنى: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾.

وقد بينا في هذه الدروس مراراً: أن مثل هذه الآية فيه سؤال معروف؛ لأن معنى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ معناه: لا أحد أظلم. وإذا كان المعنى في قوله هنا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً. فإن هذا تُشكل عليه آيات أُخر كقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: آية ١١٤] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: آية ٥٧] إذ يصير المعنى: لا أحد أظلم ممن افترى، لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، لا أحد أظلم ممن ذُكِّر بآيات ربه فأعرض عنها. فينشأ من هذا سؤال، فيقول طالب العلم: كيف يقول: لا أحد أظلم من هذا، ثم يقول في موضع آخر: لا أحد أظلم من هذا، في شيء آخر؟

وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة معروفة[1]، أشهرها اثنان، فيهما الكفاية:

أحدهما: أنه لا معارضة ألبتة بين الآيات، وأن هؤلاء المذكورين لا يوجد أحد أظلم منهم، وهم متساوون في مرتبة الظلم، فلا يكون هنالك تعارض، كما لو قلت: لا أحد أعلم في هذا البلد من زيد، ولا أحد أعلم فيه من عمرو. فيكون زيد وعمرو مستويين في العلم، ولا يفوقهما أحد فيه، فيكون كِلاَ المقالين حق.

الوجه الثاني: أن هذه المواضع تتخصص بِصِلاَتِها. ومعنى (تتخصص بِصِلاَتها): أن كل واحد منها تُفَسّره صلة موصوله، فيكون المعنى هنا: لا

(١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣٥٧/١، ٤١٥)، البرهان للزركشي (٧٤/٤ ـ ٧٥)، أضواء البيان (١٤٣/٤ ـ ١٤٤)، دفع إيهام الاضطراب (ملحق في آخر الأضواء ٢٥/٩)، قواعد التفسير (٥٢٨/٢).

أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذباً، ولا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله، ولا أحد من المعرضين أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها، إلى آخره.

وقوله ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ افتراء الكذب: اختلاقه. والكذب في أصح معانيه: هو عدم مطابقة الخبر للواقع(١)، فالكفار كذابون، خبرهم لا يطابق الواقع، وإن ظنوا في نفس الأمر أنه خير وسداد، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: آية ٣٠] وقال جل وعلا: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: آية ١٠٣، ١٠٤] فقوله: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ كمن ادعى لله الشركاء، أو ادعى له الأولاد، أو ادعى أنه حرم ما لم يحرمه، أو أحل ما لم يحلله، أو قال: أوحي إلي. هذا داخل في افتراء الكذب، إلا أنه عطفه عليه بـ(أو) لأنه من أعظم أنواع الافتراء، كأنه لعِظَمه صار قسماً مقابلًا للافتراء وهو من أشنع أنواع الافتراء.

﴿أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي: قال: إن الله أوحى إليه، كمسيلمة الكذاب (رحمٰن اليمامة)، وكالأسود العنسي (صاحب صنعاء)، ويدخل في حكمهم غيرهم من المتنبئين، حيث قال كل من هؤلاء: إنه أوحي إلي.

وذكروا في تاريخ مسيلمة أنه أرسل رسولًا إلى النبي ﷺ ـ يُذكر أنه ابن النواحة الذي قتله بعد ذلك ابن مسعود، أرسله إليه ـ بكتاب فيه: «من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله، إن الأرض نصفان، نصفها لي، ونصفها لك، ولكن قريشاً قوم يعتدون». فأجابه النبي ﷺ: **«من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»**(٢).

ومعلوم أن ما يدعي أنه قرآن بالغ من التفاهة والسقوط ما لا يخفى

---

(١) انظر: التعريفات للجرجاني ٢٣٤.

(٢) انظر السيرة لابن هشام (١٤٥٦/٤ ـ ١٤٥٧)، زاد المعاد (٦١١/٣).

على أحد، كقوله: «والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، فالفاردات فرداً، فاللاقمات لقماً». وغير ذلك من الترهات والخرافات.

الذين يدعون النبوة - كمسيلمة والأسود العنسي - لا أحد أظلم منهم، حيث قالوا: إن الله أوحى إليهم - ولم يوح إليهم - ظلماً وعدواناً. وهذا معنى قوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ والحال: ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾.

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (من) في قوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هذا كله معطوف على المجرور في قوله: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ولا أحد أظلم ممن قال: أُوحي إلي، ولا أحد أظلم ممن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله.

وقوله: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هذه نزلت في عبد الله بن سعد بن سرح، على قول أكثر المفسرين[1]. أسلم أولًا، وكان من كتاب الوحي للنبي ﷺ، ولما أنزل الله في سورة (قد أفلح المؤمنون): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: الآيات ١٢ - ١٤] عجب عبد الله بن سعد بن أبي سرح من تفصيل الله هذا لخلق الإنسان فقال: «فتبارك الله أحسن الخالقين» فقال له النبي ﷺ: «**هكذا أُنزلت**» فشك في كلام النبي ﷺ، قال: إني أُوحي إلي مثل ما أُوحي إليه، إن كان صادقاً فقد أُوحي إلي مثل ما أُوحي إليه، وإن كان كاذباً فقد جئت بمثل ما جاء به. وارتد عن الإسلام - والعياذ بالله[2] - وهو ممن أمر النبي ﷺ بقتلهم يوم فتح مكة، وكان أخاً لعثمان بن عفان (رضي الله عنه) من الرضاعة، فأخفاه

---

(١) انظر: المستدرك (٣/٤٥)، ابن جرير (١١/٥٣٣ - ٥٣٤)، أسباب النزول للواحدي ٢٢٠، لباب النقول ١١٩، الدر المنثور ٣/٣٠.

(٢) هذا الخبر بهذا التفصيل لم أقف عليه بسند صحيح. وإنما ورد في بعض المراسيل. فالله تعالى أعلم. قال ابن عاشور معقباً على القول بأنها نزلت في عبدالله بن أبي السرح: «وهذا أيضاً مما لا ينثلج له الصدر؛ لأن عبدالله بن أبي السرح ارتد بعد الهجرة ولحق بمكة، وهذه السورة مكية» ا.هـ التحرير والتنوير (٧/٣٧٥).

عثمان عنده حتى سكنت الحركة واستأمن النبي ﷺ له فأمّنه[١]، وحَسُن إسلامه، وكان والياً لعثمان على جهة مصر، وهو الذي فتح إفريقية، وقتل ملكها (جرجير)، والذي تولى قتله عبد الله بن الزبير كما هو معروف في التاريخ[٢]. أنزل الله فيه عندما ارتد: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ٩٣] ونظيره قول بعض الكفار: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: آية ٣١].

ثم إن الله (جل وعلا) لمّا بين أنواع الكفرة الظالمين باجترائهم على الكذب، كادعائهم لله الأولاد والشركاء، وكقول بعضهم: إنه أُوحي إليه، وكقول بعضهم: إنه قادر على أن يُنزل مثل ما أنزل الله. بين وعيده لهؤلاء الكفرة، قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا نبي الله ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حين الظالمون كالذين يفترون على الله الكذب، ويقولون: إنهم أُوحي إليهم. أو يقولون: سنُنزل مثل ما أنزل الله. لو ترى حين الظالمون أمثال هؤلاء حين هم ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ غمرات الموت: سكراته وشدائده وكرباته. وأصل (الغَمْرَة) هي ما يغمر الشيء، كالماء الذي يغمر الوادي فيغطيه، كل ما غمر شيئاً حتى غطاه وستره[٣]. المصدر من ذلك: (غَمْراً) والمراد بـ(غمرات الموت): شدائده وسكراته وكرباته، حين هم في سكرات الموت وشدائده وكرباته. والحال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ باسطو أيديهم: يعني باسطوها إليهم بالضرب الوجيع، والأذى الفظيع. والعرب تكني عن السوء بـ(بسط اليد)، كقوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ [المائدة: آية ٢٨] وكقوله: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة: آية ٢] والدليل على أن بسط الملائكة أيديهم إليهم أنه

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الحدود، باب الحكم فيمن ارتد، حديث (٤٣٣٦، ٤٣٣٧)، (عون المعبود) (١٢/١٢ ـ ١٣)، النسائي في تحريم الدم، باب: توبة المرتد، حديث (٤٠٦٩) (١٠٧/٧)، والحاكم (٤٥/٣). وانظر: صحيح سنن أبي داود (٨٢٣/٣ ـ ٨٢٤)، صحيح سنن النسائي (٨٥٣/٣).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣٤/٣، ٣٧١).

(٣) انظر: ابن جرير (٥٣٨/١١)، القرطبي (٤١/٧)، الدر المصون (٤١/٥).

للأذى والضرب الوجيع: آيات جاءت بذلك، كقوله ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [الأنفال: آية ٥٠] فضَرْبُهم هذا لوجوههم وأدبارهم هو الذي بسطوا إليهم أيديهم به في قوله: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ هذا هو الأظهر[١]، خلافاً لمن قال: إنهم يمدون أيديهم إليهم ليأخذوا أنفسهم وأرواحهم من أبدانهم، كما يمد الغريم يده لغريمه ليأخذ حقه عليه بشدة وعنف.

وقوله: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ أخرجوا أنفسكم: فيه وجهان معروفان من التفسير[٢]:

أحدهما: أن المعنى: أخرجوا أيها المُحتضَرون أنفسَكم من هذه الكربات إن كانت لكم قدرة. والمعنى: لا تقدرون على الخروج عما يريد الله أن يفعله فيكم.

القول الثاني: أن روح الكافر إذا علمت بما لها عند الله من العذاب الشديد تفرقت في جسده وامتنعت من الخروج، فهم يقولون: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ قدموا أرواحكم وأخرجوها من أبدانكم لنأخذها.

ثم قال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ الهون: هو أشد الهوان، وهو الذل والخزي ـ والعياذ بالله ـ وإنما أضاف العذاب إلى (الهون) لأنه عذابٌ موصوف بأن صاحبه يقع عليه أعظم الهوان وأشده، كقولك: رجل سوء، وعذاب هون، وما جرى مجرى ذلك[٣].

وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ لأن الله بين أن الذين يفترون على الله الكذب لا أحد أظلم منهم في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

ثم بين أنهم عند الاحتضار تتوفاهم الملائكة، ويبسطون أيديهم إليهم

---

(١) انظر ابن جرير (١١/٥٣٨ ـ ٥٣٩)، القرطبي (٧/٤١)، الأضواء (٢/٢٠٣).

(٢) انظر: القرطبي (٧/٤٢).

(٣) انظر: الدر المصون (٥/٤٣).

بضرب الوجوه والأدبار. ثم بين علة ذلك: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في دار الدنيا ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ كادعائكم له الأولاد والشركاء، وأنه حرم ما لم يحرمه، وأحل ما لم يحلله، وكقول بعضكم إنه أُوحي إليه ولم يُوح إليه شيء، وكقول بعض الكفار: إنه سينزل مثل ما أنزل الله. كل هذا من افتراء الكذب على الله، الذي بين الله أنه سبب لعذابه وضرب الملائكة إياه، حيث بيّن العلة بقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ من افتراء الكذب بادعاء الأولاد والشركاء، وما جرى مجرى ذلك ﴿وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وكنتم عن آياته (جل وعلا) إذا تُليت عليكم تستكبرون، تتكبرون عنها وتأنفون من اتباعها؛ لأن قادة الكفار ورؤساءهم كانوا إذا تُلي عليهم القرآن ودُعوا إلى الدين قالوا بجهلهم: نحن الآن رؤساء متبوعون، كيف نتنازل ونكون أتباعاً مأمورين مرؤوسين؟ لا يكون ذلك!! ولذا أجرى الله العادة أن من يُناصب الرسل بالعداوة هو أشراف الناس، والمترفون منهم، كما صرح الله به في آيات من كتابه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ: آية ٣٤] وفي حديث هرقل مع أبي سفيان الثابت في الصحيح: أن ملك الروم (هرقل) لما سأل أبا سفيان: أأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. قال: أولئك أتباع الأنبياء[(١)]. أجرى الله العادة بذلك، ومما يوضح هذا أن أول الأنبياء الذين بُعثوا إلى الأرض بعد أن وقع الكفر والإشراك بالله: هو نوح (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام)، كان أتباعه من ضعفاء قومه؛ ولذا قال له قومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: آية ١١١] وقالوا له: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: آية ٢٧] وآخرهم نبينا ﷺ. كذلك قدمنا في هذه السورة الكريمة العظيمة ـ سورة الأنعام ـ أن رؤساء الكفرة قالوا له: لا نجالسك حتى تطرد عنا هؤلاء النتنى، يعنون

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي، باب (٦)، حديث رقم: (٧)، (١/٣١)، ومسلم في الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام. حديث رقم: (١٧٧٣)، (٣/١٣٩٣).

ضعفاء المسلمين. وقد مر معنا ما أنزل الله فيهم في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: آية ٥٢] وأنه ﷺ لما نُهي عن طردهم كان يجلس معهم، فإذا كانت له الحاجة قام عنهم، فأنزل الله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: آية ٢٨] حتى صاروا يقولون: قوموا عن النبي ﷺ ليمكنه أن يقوم لحاجته. ولما أجرى الله العادة بأن أول من يكذب الرسل ويُناصبهم بالعداوة الرؤساء المترفون، قال هنا فيهم: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

١/١٠ / ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٤].

لما بين الله (جل وعلا) في هذه الآيات من سورة الأنعام أنه لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، ولا أحد أظلم ممن ادعى الوحي كذباً، ولا أحد أظلم ممن ادعى أنه قادر على إنزال مثل ما أنزل الله، وبين الله (جل وعلا) أن هؤلاء الظالمين الذين قالوا هذه المقالات أنهم إذا حضرتهم الوفاة بسطت الملائكة أيديهم إليهم بالعذاب والنكال، وقالوا لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: آية ٩٣] بيَّن حالتهم التي يُبْعثون عليها، وشدة ضعفهم وعدم قوتهم التي كانت هي سبب تمردهم في الدنيا.

وقوله في هذه الآيات: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يدخل في معناه: من ادعى أنه ينظم للبشرية ما يغنيها عن نظام الله (جل وعلا) الذي وضعه، ومن اتبع هذا ـ والعياذ بالله ـ فقد اتبع أحداً لا أظلم في الدنيا منه ـ والعياذ بالله ـ فالذي ينزله الله لا يقدر أحدٌ على أن ينزل مثله. ومن ادعى أنه ينزل مثله صَرَّح الله في هذه الآيات الكريمة أنه لا أحد ألبتَّة أظلم منه.

وبهذا تعلمون أن الذين يتنطعون ويدَّعون أنهم ينظمون للبشرية نظاماً أحسن مما أنزل الله، أنهم يدخلون في هذه الآية، وأن الملائكة ستضربهم عند الموت. ستضرب وجوههم وأدبارهم، وتقول لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: آية ٩٣] ومعلوم أنه لا تشريع إلا للسلطة العليا. فالسلطة العليا الحاكمة على كل شيء هي التي لها الأمر والنهي.

فهؤلاء الذين يتمردون على نظام السماء، ويحاولون قلب الحكم السماوي لو جاء أحد يريد أن يقلب الحكم عليهم ويحكم بغير ما شَرَّعوا لقتلوه شرَّ قتلة، مع أنهم يتجاهرون بأن نظام خالق السماوات والأرض الحكيم الخبير، الذي نظَّم فيه علاقات الدنيا، وأوضح فيه طرق الخير في الدنيا والآخرة، وأتبع فيه متطلبات الروح بالتربية والتهذيب، ومتطلبات الجسم على الوجوه الشرعية، يقولون: إنه لا يصلح، ولا ينظم الحياة، ولا يساير التطور الحالي للحياة. الذين يقولون هذا والذين يتبعونهم، لا شك أنهم داخلون في هذا الوعيد في قوله: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾. لأن من أعظم ما أنزله الله: وَضْعُ النظام البشري الذي يمشي عليه البشر ليؤاخي بينهم، وينشر بينهم العدالة، والطمأنينة، والرخاء، والمساواة في الحقوق الشرعية.

قد قدمنا في هذه الدروس مراراً كثيرة[(١)]: أن من ادَّعى أن هنالك تنظيماً ينظم الحياة البشرية في الدنيا مثل تنظيم الله أو أحسن من تنظيم الله، أن هذه الدعوى كفر بواح، لا يشك فيه من له أدنى عقل، والآيات المُصَرِّحة بذلك بإيضاح كثيرة في القرآن العظيم[(٢)]، منها: أن الشيطان لما جاء تلامذته من كفار قريش، وجاءهم بوحي الشياطين، وقال لهم: سلوا محمداً ﷺ عن الشاة تصبح مَيِّتَة، من هو الذي قتلها؟ فلما أجاب وقال: «الله قتلها». أوحى إليهم الشيطان أن قالوا: ما ذبحتموه بأيديكم ـ يعنون المُذَكَّى ـ تقولون: حلال. وما ذبحه الله بيده الكريمة ـ يعنون الميتة ـ تقولون: هو حرام؟ فأنتم إذاً أحسن من الله؛ حيث كانت ذبيحتكم أحلّ من ذبيحته[(٣)]!! فهذه قضية اختلف الحق والباطل فيها في مضغةٍ لحم شاةٍ ماتت ولم تُذَكَّ، فجاء تشريع الشيطان بأنها: حلال؛ لأن الله هو الذي ذبحها، وجاء نظام الإسلام، وتشريع السماء، على لسان سيد الخلق: أنها حرام؛ لأنها لم تُذَكَّ، ولم يُذكر عليها اسم الله، فصرّح الله (جلّ وعلا) بأن الذين يتبعون قانون إبليس، ونظام الشيطان،

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من هذه السورة.

(٢) انظر: أضواء البيان (٣/٤٣٩).

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/٧٨)، ابن كثير (٢/١٧١).

ويحلّلون لحم الميتة الذي حرمه نظام السماء، أنهم كفرة مشركون؛ ولذا قال الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعني الميتة. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ ثم قال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ يجادلوهم بوحي الشيطان: ما ذبحتموه حلال وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذاً أحسن من الله. هذا معنى قوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾. ثم قال ـ وهو محل الشاهد ـ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] وإن أطعتموهم في نظام إبليس في تحريم تلك اللحمة التي حللها إبليس على لسان أتباعه ـ بدعوى شبهة أنها ذبيحة الله، وحرمها الله في تشريعه السماوي على لسان نبيه ﷺ ـ صرح الله بأن من اتبع نظام إبليس وأحل تلك الميتة، وترك نظام الله الذي هو تحريمها: أنه مشرك بالله، كما قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لأن الرب هو الذي يحلل ويحرم، فمن اتبعت تحريمه وتحليله فقد جعلته ربك. وهذا الشرك: شرك طاعة، ونظام، وقانون في التحريم والتحليل، وسيوبِّخ الله مرتكبيه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، ويبين مصيرهم الفظيع الشنيع من النار؛ وذلك أن الله يقول لمن كانوا يتبعون نُظم الشيطان وقوانينه التي شرعها على ألسنة أوليائه، تاركين نظام السماء الذي أنزله خالق الخلق على لسان نبيه، يقول الله لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: الآية ٦٠] يعني: باتباع نظامه وتشريعه وقوانينه ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ والجِبلُّ الكثير الذي أضله: هم الذين يتبعون تزيينه في المعاصي، وتشريعه، ونظامه المخالف لتشريع السماء، ونظام خالق الكون ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ لا عقول لكم حيث تتبعون نظام إبليس، وتتركون نظام خالقكم (جل وعلا)، ثم قال: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾ [يس: الآيات ٦٠ ـ ٦٥] وقال الله (جل وعلا) عن نبيه إبراهيم أنه يقول لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ يعني بقوله: ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ لا تتبع نظامه وتشريعه بالكفر والمعاصي، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: آية ٤٤].

وقد سمّى الله (جل وعلا) الذين يُطاعون في معصية الله، سماهم (شركاء) في هذه السورة الكريمة، سورة الأنعام، في قوله جل وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٣٧] فسماهم (شركاء) لمَّا أطاعوهم في التحليل من قتل الأولاد، وقال جل وعلا: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: آية ١١٧] يعني: ما يعبدون إلا شيطاناً مريداً. وعبادتهم له هي: اتباع تشريعه، وقد بين النبي ﷺ هذا البيان لما سأله عدي بن حاتم (رضي الله عنه) عن قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: آية ٣١] قال عدي للنبي: كيف اتخذوهم أرباباً؟. قال: «**ألم يُحلوا لهم ما حرم الله، ويحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم؟**» قال: بلى، قال: «**بذلك اتخذوهم أرباباً**»[1].

وقد صرّح الله (جل وعلا) في سورة النساء أن من يدعي الإسلام ويزعم أنه مؤمن، ثم يريد التحاكم إلى الطاغوت من تشاريع الشيطان، أن دعواه للإيمان مع ذلك بالغة من الكذب والبطلان ما يستوجب التعجب منها، وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: آية ٦٠].

والآيات بمثل هذا كثيرة، وعلى كل حال فعلينا جميعاً نحن المسلمين أن نعرف ونعتقد أنه لا تشريع إلا لخالق السماء والأرض، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرّمه الله، والدين ما شرعه الله، والأمر أمر الله، والنهي نهي الله، والحسن ما حسّنه الله، والقبيح ما قبّحه الله، وكل نظام وتشريع غير تشريع السماء وبال وويل على صاحبه ـ والعياذ بالله جل وعلا ـ ولذا أولئك يدخلون في قوله هنا: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ٩٣].

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

وقد بين (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة، أن أولئك المستكبرين في دار الدنيا، الذين يستكبرون عن آياته، الذين كان لهم في الدنيا خدم، وحشم، وأتباع، وأُبَّهة، أنهم يوم القيامة يُبعثون ويُعرضون إلى ربهم لا أتباع لهم، ولا حشم، ولا خدم، حتى ولا نعال، ولا ثياب، كل واحد بمفرده ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: آية ١١١] ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: آية ٩٤] لأن الإنسان يخرج من بطن أمه وحيداً فريداً، لا مال له، حافياً، عارياً، لا نعال له، ولا لباس، غير مختون، لا خدم له، ولا حشم، كذلك يخرج من قبره وحيداً فريداً متجرداً من الأُبَّهة التي كان فيها، ليس معه خادم، ولا وزير، ولا مال، ولا نعل، ولا لباس، يحشرون يوم القيامة حفاةً عُراةً غُرلا. أي: غير مختونين؛ ولذا يقول الله للذين يستكبرون ويكفرون - كانوا يجمعون في دار الدنيا بين أمرين: التكبر، والتعاظم، وعدم الإذعان لآيات الله والإيمان به، ويزعمون أن الأصنام التي يعبدونها من دون الله أنها تشفع لهم يوم القيامة، وتنجيهم من كربات يوم القيامة، فوبخهم الله هذا التوبيخ العظيم - قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ هو مجيئهم يوم القيامة محشورين معروضين على خالقهم (جل وعلا) ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ الفُرادى: جمع فَرْد أو فَرَد. خلافاً لمن قال: إن واحده (الفَرْدَان) كالسكران والسكارى. وواحده في الحقيقة: الفَرْد والفَرَد، وتقول: هو فَرْد وفَرَد، إذا كان واحداً[(١)]. وربما قيل فيه: فَرِد، ويُروى بهما معاً قول نابغة ذبيان[(٢)]:

كَأَنَّ رَحْلِي وقَدْ زَالَ النَّهارُ بِنَا بِذِي الجَلِيلِ على مُسْتَأْنِس وَحَدِ
مِن وَحْشِ وَجْرَةَ مَوْشي أكارِعُه طاوي المصير كسيفِ الصَّيْقَلِ الفَرَد

ويروى: الفَرِد[(٣)]، والفَرَد: هو الوحيد الذي لا شيء معه، ﴿جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ كل واحد منكم فرداً بمفرده، ليس معه مال، ولا ولد، ولا حشم،

---

(١) انظر: الأضواء (٢٠٤/٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧١) من سورة البقرة.

(٣) انظر: ابن جرير (٥٤٣/١١ - ٥٤٤)، المفردات (مادة: فرد) ٦٢٩، القرطبي (٤٢/٧)، الدر المصون (٤٤/٥ - ٤٥).

ولا خدم، حتى إنه حافٍ عارٍ ليس بمختون[1]. وهذا معنى: ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وفي إعراب (الكاف) من (كما خلقنا) وجهان من الإعراب[2]:

أحدهما: أنه في محل نصب نعتاً لمصدر. والمعنى: جئتمونا مجيئاً مشابهاً لخلقنا لكم أولاً في التجرد عن المال، والأعوان، والحشم، والخدم.

الثاني: أنه في محل الحال. أي: جئتمونا فرادى في حال كونكم مشابهين حالتكم الأولى التي ولدتم عليها، لأن الواحد منكم يخرج من بطن أمه فرداً لا مال له، ولا ولد، ولا حشم، ولا خدم. وهذا معنى ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ العرب تقول: «خوَّله» إذا أعطاه وأنعم عليه، ﴿مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾: أي: ما أعطيناكم، وأنعمنا عليكم به من المال والخَوَل، والخدم، تركتموه وراءكم، أي: خلفكم، حيث مُتّم عنه ولم يأتِ معكم.

ثم قال: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ الشفعاء الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لنا فيكم، وأن نصيباً لهم من حقوقنا، وتعبدونهم معنا، وتزعمون أنهم يشفعون لكم، ما نراهم معكم. وهذا توبيخ لهم - والعياذ بالله - كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: آية ١٨].

وقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ فيه قراءتان[3]: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنُكُمْ﴾، ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُم﴾ فعلى قراءة: ﴿لَقَد تَقَطَّعَ بَيْنُكُم﴾ فـ(البَيْنُ) من الأضداد، يطلق على البُعد، وعلى الوصل. والمعنى: تقطع وصلكم، والوصالات:

(١) انظر: ابن جرير (١١/٥٤٣)، البحر المحيط (٤/١٨٢)، القرطبي (٧/٤٢ - ٤٣)، الأضواء (٢/٢٠٤).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/١٨٢)، الدر المصون (٥/٤٥).

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ١٩٩.

الاتصالات التي كانت بينكم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: آية ١٦٦]، الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا تنقطع يوم القيامة، كما قال الله في سورة العنكبوت: ﴿مَوَدَّةَ بَيْنَكُمْ فِي الحياةِ الدُّنيا﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الآية [العنكبوت: آية ٢٥][1]. وعلى قراءة: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ فبعض العلماء يقول: فاعل الفعل هو المصدر (لقد تقطع هو) أي: التقطع، أي: وقع التقطع بينكم، وبعض العلماء يقول: أصله (لقد تقطع ما بينكم)، وهو في بعض القراءات الشاذة[2]. ومعنى القراءتين واحد[3]؛ ذلك لأن العابدين والمعبودين يوم القيامة يتعادون غاية المعاداة[4]، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: الآيتان ٨١، ٨٢] وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: الآيتان ٥، ٦] وهذا هو معنى قوله هنا: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

قد بيّنا مراراً[5] أن (الضلال) في القرآن وفي لغة العرب يُطلق على معان متعددة، منها: يطلق الضلال على (الغَيْبُوبَة والاضمحلال)، كما هنا. فكل ما غاب واضمحل تقول العرب فيه: (ضل). ومنه قوله هنا: ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: غاب واضمحل، ولم يوجد معكم، كما قال: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: آية ١٠] يعنون: أن الأرض

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٤٤. وفي الآية قراءات أخرى غير ما ذُكر.

(٢) انظر: حجة القراءات ٢٦١ ـ ٢٦٢، ابن جرير (٥٤٩/١١)، القرطبي (٤٣/٧)، البحر المحيط (١٨٢/٤)، الدر المصون (٤٨/٥).

(٣) انظر: ابن جرير (٥٤٩/١١)، القرطبي (٤٣/٧).

(٤) انظر: الأضواء (٢٠٤/٢).

(٥) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

أكلت عظامهم فاختلطت بها، فذهبت بها، واضمحلت فيها، كما تقول العرب: ضل السمن في الطعام. وهو معنى مشهور في كلام العرب، ومنه قول الأخطل[(١)]:

كُنْتَ القَذى في موجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ   قَذَفَ الأتيُّ به فضلَّ ضلالا

أي غاب واضمحل، وهذا معروف في كلام العرب، ومنه تقول العرب للدفن إضلالًا، تقول: أضلوه إذا دفنوه، ومنه قول الشاعر[(٢)]:

وآب مُضِلُّوهُ بعَيْنٍ جَلِيَّةٍ   وغُودِرَ بالجَوْلَانِ حَزْمٌ ونَائِلُ

وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ أي: غاب، وذهب، واضمحل عنكم، ما كنتم تفترونه من أن هذه الأصنام أنها تشفع لكم، وتنقذكم من كربات يوم القيامة. وهذا توبيخ من الله (جل وعلا)، وهذا التوبيخ وبخهم الله بمثله في سورة الكهف، وزاد توبيخهم بأنهم كانوا يُنكرون هذا البعث، كما قال: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: آية ٤٨].

ثم بيّن أنه إذا جمعهم فُرادى يجدونه مُحصياً عليهم جميع أعمالهم، كما قال بعده: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: آية ٤٩] فالناس يوم القيامة يُحشر كل واحد منهم بمفرده، لا مال معه، ولا خدم، ولا حشم، والدليل على أن (الفُرَادَى) واحده فَرْد أو فَرَد: قوله في سورة مريم: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: آية ٩٥]، دل ذلك على أنه واحدُ قولِهِ هنا: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والعرب تقول: تركت هذا وراء ظهري. يعني: خلفي. أي: تركتم ما خولناكم خلفكم، أي: وراء ظهوركم حيث ارتحلتم عنه في الدنيا، فعلى الإنسان أن لا يترك ـ أعني خلف ظهره ـ ما خَوَّله الله، وأن ما أعطاه الله يقدمه لآخرته بصرفه في وجوه

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من هذه السورة.

(٢) السابق.

الخير، والاستعانة به على ما يرضي الله جل وعلا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٩٥ ـ ٩٧].

يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٩٥، ٩٦].

بيّن الله (جل وعلا) في هذه الآيات عجائب صنعه الدالة على أنه المعبود وحده، القادر على كل شيء. وهذه مع أنها آيات، فهي نِعَم عِظَام، فهو يُذَكِّر الخلق بنعمه العِظَام، وآياته العظام.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: آية ٩٥] الفَلْقُ في لغة العرب معناه: الشّق[(١)]. وفي هذه الآية ثلاثة أوجه معروفة من التفسير[(٢)]:

أشهرها وعليه الجمهور، وهو ظاهر القرآن العظيم الذي دل عليه بعض القرائن أن معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ إن الله (جل وعلا) فالق الحب، يفلق حب القمح ـ مثلًا ـ إذا بُذِرَ في الأرض يفلقه ويشقه عن سنبلة فيها مئات الحب، ويفلق النواة.

﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾ جمع نواة، وقيل: هو اسم جمع[(٣)] للنواة[(٤)]، كنوى

---

(١) انظر: المفردات (مادة: فلق) ٦٤٥، الدر المصون (٥/٥٦).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/٥٥٠)، القرطبي (٧/٤٤)، البحر المحيط (٤/١٨٤).

(٣) في عمدة الحفاظ (٥٩٩) والدر المصون (٥/٥٧): (اسم جنس).

(٤) انظر: ابن جرير (١١/٥٥٠)، القرطبي (٧/٤٤)، الدر المصون (٥/٥٧)، عمدة الحفاظ (مادة: نوى) ٥٩٩.

التمر وغيره، فكل ثمر في داخله عجم يسمى: نوى. فإن الإنسان يبذر النواة في الأرض - نواة النخلة مثلًا، وهي صلبة قاسية - فيشقها الله، ويُخرج منها هذه النخلة، هذه الشجرة العظيمة، ذات الخوص، وذات العيدان، وينبت من تلك النخلة تمراً أيضاً، فالذي يشق الحبة إذا بذرت في الأرض، ويُخرج منها سنبلة، ويشق النواة، ويُخرج منها نخلة، أو شجرة أخرى - إذا كانت نواة غير نواة النخل - من يفعل هذه الأفعال التي تشاهدونها فهو العظيم القادر على كل شيء، وهو الرب وحده، المعبود وحده (جل وعلا)، فعلى هذا الوجه الذي عليه جمهور المفسرين يذكرنا الله بعظمته، وكمال قدرته، حيث ينبت السنبلة من الحبة، والنخلة من النواة، فمن يفعل هذا فهو عظيم قادر على كل شيء، وكأنه يشير إلى أن ذلك السنبل الذي يفلق عنه الحبّة هو معيشتنا التي لا نستغني عنها، فكما أنه من باهر آياته فهو من نعمه العظمى علينا، وقد أوجب الله على كل إنسان منّا أن ينظر في هذا؛ لأن الله قال بصيغة أمر تقتضي الوجوب، في سورة عبس قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ [عبس: آية ٢٤] فأوجب على الإنسان بصيغة الأمر النظر إلى طعامه، ومعناه: كأنه يقول: أيها الإنسان انظر إلى طعامك، انظر إلى الخبز الذي تأكله، من هو الذي خلق الماء الذي أنبته الله بسببه؟ أيقدر أحد غيره على أن يخلق الماء؟! لا، هب أن الماء خُلق، من يقدر على إنزاله على هذا الأسلوب العجيب رشاشاً يُسقي الأرض من غير أن يضر بأحد، لا يقدر على هذا إلا الله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ يعني المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: آية ٤٣] من فتوق السحاب ومخارجه رشاشاً؛ لأنه لو نزل مجتمعاً لأهلك ما سقط عليه. هبْ أن الماء خُلق، وأنه أُنزل إلى الأرض على هذا الأسلوب الغريب العجيب حتى شربت الأرض ورويت، من هو الذي يقدر على شق الحبة عن السنبلة أولاً، ثم على شق الأرض وإخراج مسمار النبات منها؟ هبْ أن مسمار النبات خُلق؟ من هو الذي يقدر أن يُخرج منه السنبلة؟ هبْ أن السنبلة خرجت، من هو الذي يقدر على تنمية حبها، ونقله من طَور إلى طَور، حتى يصير

صالحاً مُدْرِكاً، صالحاً للأكل؟ ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩٩] هذا ذكره الله بقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ إنّا صببنا الماءَ صبّاً﴾. وفي القراءة الأخرى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾[1] [عبس: الآيتان ٢٤، ٢٥] يعني: فسقينا به الأرض، ثم شققنا الأرض عن النبات شقاً بعد أن شققنا الحبة عن السنبلة، كما قال هنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ هذه غرائب صنع الله وعجائبه يبينها لخلقه، ويذكرهم بنعمته ليعلموا عظمة من خلقهم (جل وعلا) فيعبدوه وينيبوا إليه.

هذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ﴾ يعني: فالق الحب عن السنبل، وفالق النوى عن الشجر، كالنخل مثلًا. هذا من غرائب صنعه وعجائب قدرته، ومن نعمه العظمى عليكم، حيث أنبت لكم الحبوب والثمار لتأكلوا منها.

وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ هذا التفسير هو الذي عليه جمهور المفسرين، وهو المعروف عن علماء السلف والخلف، وفي الآية قولان آخران:

أحدهما: أن معنى كونه فالق الحب والنوى: أن حبة القمح مثلًا فيها شبه شق في بعض جوانبها، والنواة فيها شق في جانبها، أنه هو الذي جعل ذلك الشق في الحب، وجعله في النوى ليُري الناس كمال قدرته.

الوجه الثاني: هو ما ذكره بعض أهل العلم: أن الفلق والفطر والخلق كلها مترادفة. فمعنى: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ أي: خالق الحب والنوى وغير ذلك.

والأول هو أشهرها.

وقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ فقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالتفسير لقوله: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ لأن الحبة اليابسة كأنها

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ٤٦٢.

ميتة، وكل شيء ينمو ويتزايد تُسميه العرب حيّاً؛ ولذا يُسمون النبات حياً؛ لأنه ينمو، ويُسمون اليابس منه ـ الذي لا ينمو ـ يسمونه ميْتاً. ومن هنا كانوا يقولون للأرض الجدبة القاحلة: ميتة؛ لأن نباتها يابس لا ينمو، فإذا نبت فيها النبات الأخضر النامي سمّوها: حية. كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ [يس: الآيات ٣٣ ـ ٣٥]. ولذا قال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الحي هنا: هو السنبل الأخضر النامي، والنخل، والشجر الأخضر النامي يُخرجه الله من ذلك الميت اليابس الذي لا ينمو، وهو الحب اليابس، أو النوى اليابس، وكذلك يخرج الله النطفة ـ وهي ميتة ـ يُخرجها من الحي الذي هو الإنسان، والبيضة من الدجاجة. فقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي يخرج النامي من النبات والحيوانات من الميت وهو بذر النبات اليابس الذي لا ينمو بذاته، وكذلك ما يخرج من الإنسان، كالنطفة فإنها لا تنمو بنفسها إلا أن الله (جل وعلا) يُخرج منها الحي، كما قال: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ المعنى: أن الله (جل وعلا) يخرج الحي النامي كالنخلة، والسنبلة من الحبة، والنوى، ويخرج الإنسان من النطفة، والدجاجة من البيضة مثلًا، كما أنه يخرج الميت من الحي، يخرج أيضاً ذلك الزرع الميت من الحي الذي هو النبات، ويخرج الثمر من الشجر الذي هو النامي، كما يخرج أيضاً النطفة والبيضة من الحي الذي هو الإنسان والدجاجة.

هذا معنى قوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ وهذا هو الذي عليه جمهور المفسرين، خلافاً لمن قال: إنه يخرج الكافر من المؤمن، والمؤمن من الكافر، وما جرى مجرى ذلك(١). القول الأول هو المشهور.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربي: وهو أن يقول طالب العلم: قال ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ بصيغة المضارع، وعطف عليه قوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ

---

(١) انظر: ابن جرير (٥٥٣/١١)، القرطبي (٥٦/٤)، (٤٤/٧).

﴿مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ بصيغة اسم الفاعل، فما النكتة العربية في عطف اسم الفاعل هنا على المضارع؟ ولِم لا يُعطف عليه مضارعاً آخر؟ كما فعل في سورة آل عمران حيث قال: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [آل عمران: آية ٢٧].

عن هذا السؤال للعلماء وجهان(١):

أحدهما: أن قوله: ﴿وَمُخْرِجُ﴾ معطوف على اسم الفاعل، وعليه فالمعنى: إن الله فالق الحب والنوى، ومخرج الميت من الحي. فهو اسم فاعل معطوف على اسم فاعل؛ لأن قوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كأنه تفسير لقوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ فجاء باسم الفاعل في ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ وفسّره بأن معناه: يخرج الحي من الميت. أي: يخرج النخلة التي هي نامية حيّة من النواة التي هي ميتة، والسنبلة التي هي نامية حيّة من الحبة التي هي ميتة. وإذا كان قوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالتفسير لقوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ يكون قوله: ﴿وَمُخْرِجُ﴾ عطفاً على ﴿فَالِقُ﴾ فهو اسم فاعل معطوف على اسم فاعل. وعلى هذا فالتقدير: إن الله فالق الحب والنوى. أي: مخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي.

الوجه الثاني: هو أن عطف اسم الفاعل على الفعل، وعطف الفاعل على الاسم المشتق، كلها أساليب معروفة في القرآن وفي لغة العرب. ومن أمثلة عطف الفعل على اسم الفاعل: قوله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: آية ١٩] لم يقل: وقابضات، وقوله: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾ [العاديات: الآيات ١ ـ ٤] ولم يقل: فالمثيرات. وكذلك عكسه، وهو: عطف الاسم على الفعل ـ اسم الفاعل على الفعل ـ أمر معروف موجود في كلام العرب، ومنه قول الراجز(٢):

---

(١) انظر: ملاك التأويل (٢٩٥/١)، البحر المحيط (١٨٥/٤)، الدر المصون (٥٧/٥).
(٢) البيت في البحر المحيط (١٨٥/٤)، الدر المصون (١٧٨/٣).

بـات يُـغَـشِّـيـهـا بِـعَـضْـبٍ بـاتـرٍ يَـقْـصِـدُ فـي أَسْـوُقِـهـا وجـائِـرِ

فقوله: «جائر» معطوف على «يقصد» بمعنى: قاصد وجائر. وهذا أسلوب معروف في كلام العرب.

﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ ثم إن الله لما نبهنا على عظمته وكمال قدرته، وأنك أيها الإنسان تشاهدك تبذر حبة في الأرض، فيُخرجها لك سنبلة خضراء فيها مئات الحب، وتبذر نواة في الأرض فيُخرج لك منها نخلة ذات أغصان، وذات خوص وجريد، وذات ثمر، وهذا من أبدع صنعه (جل وعلا)، دال على أنه الرب وحده. قال بعد هذه الآيات: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أين تُصرفون عن النظر في هذا؟ كيف تشاهدون غرائب صنعه وعجائبها الدالة على كمال قدرته، وتسوّون به غيره، وتعبدون معه ما لا ينفع ولا يضر؟ أين تصرفون؟ وأين تذهب عقولكم عن أفعال ربكم العظيمة الدالة على أنه المعبود وحده؟

و﴿تُؤْفَكُونَ﴾ مضارع مبني للمفعول، من (أَفَكَه يَأْفِكُه) إذا قلبه، العرب تقول: «أَفَكَ الأمر يَأْفِكُه» إذا قلبه، ومنه قيل لقرى قوم لوط: (المؤتفكات) لأن جبريل أفكها، أي: قلبها فجعل عاليها سافلها، ومن هنا قيل للكذب: إفك؛ لأن الإفك أسوأ الكذب؛ لأنه صرف للكلام عن وجهه الحقيقي إلى وجهه الباطل. فمعنى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أين تصرفون وتقلبون عن هذه البراهين والآيات العظيمة الدالة على عظمة ربكم وجلاله، وأنه المعبود وحده جل وعلا.

١٠/ب / ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٦].

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ قرأ هذا الحرف القراء السبعة ما عدا الكوفيين: ﴿**وجاعِلُ الليل سكناً**﴾ وقرأه الكوفيون ـ حمزة والكسائي وعاصم ـ: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ بصيغة الفعل الماضي[1].

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ١٩٩.

وإعراب ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ فيه للعلماء ثلاثة أوجه لا يُكذّب بعضها بعضاً[(١)]:

أحدها: أنه خبر مبتدأ محذوف. أي: هو (جل وعلا) فالق الإصباح.

الثاني: أنه نعت للرب في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾، الله فالق الإصباح. فهو نعت لاسم الجلالة.

وقال بعض العلماء: هو خبر آخر لقوله: ﴿إِنَّ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ والخبر يتعدد للمبتدإ، وإذا دخلت (إن) على مبتدإٍ متعدد الخبر: تعددت الأخبار لها، والمعنى كله على هذه الأعاريب الثلاثة معنى واحد.

ومعنى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ الإصباح: أصله مصدر (أَصْبَحَ يُصْبِحُ إِصْبَاحاً)، إذا جاء ضوء النهار من بعد ظلام الليل[(٢)].

وعامة القراء السبعة قرؤوا: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ بكسر الهمزة. مصدر (أَصْبَحَ، يُصْبِح، إِصْبَاحاً). وهو مصدر سُمّي به، [والعرب][(٣)] تقول للصبح: إصباحاً، وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول امرىء القيس[(٤)]:

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجَلِ بصبحٍ وما الإصباح فيك بأمثلِ

فبيّن أنه يقصد بالإصباح: الصبح، فأصله مصدر (أصبح، يصبح، إصباحاً).

وهناك قراءة شاذة قرأ بها الحسن وغيره: (فالق الأصباح وجاعل الليل

---

(١) انظر: فتح القدير (١٤٣/٢).

(٢) انظر: ابن جرير (٥٥٤/١١)، القرطبي (٤٤/٧)، البحر المحيط (١٨٥/٤)، الدر المصون (٥٨/٥).

(٣) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين زيادة يتم بها المعنى.

(٤) ديوان امرىء القيس، ص١١٧.

(٥) انظر: ابن جرير (٥٥٦/١١)، القرطبي (٤٥/٧)، البحر المحيط (١٨٥/٤)، الدر المصون (٥٨/٥).

القراءة: (الأصباح) بفتح الهمزة جمع (صبح)، والعرب تقول: «أصباحٌ، وأَمْساء». جمع (صبح، ومساء). و«إصباح وإمساء»، مصدر (أصبح، وأمسى) وهو كلام معروف في كلام العرب، ومنه قول الراجز[(١)]:

أَرْبَى رَبَاحاً وبني رَبَاحِ تَنَاسُخُ الأَمْسَاءِ والأَصْبَاحِ

ويروى:

.... تَنَاسُخُ الإِمْسَاءِ والإِصْبَاحِ

وعلى قراءة الجمهور: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ معناها: مُبدي ضوء الصبح بعد ظلام الليل.

وفي هذا المعنى سؤال معروف، لطالب العلم أن يقول: الله ذكر هنا أن الإصباح هو الذي يفلقه الله. والذي يُفلق في الحقيقة: الظلام، هو الذي يُفلق ويُشق عن نور الصباح، أما كون نور الصباح هو الذي يُفلق ويُشق فهذا فيه إشكال، فيه سؤال معروف للعلماء.

وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة[(٢)]:

منها قول بعضهم: الكلام على حذف مضاف: فالق ظلمة الإصباح. وأنه حذف المضاف إليه، ولا يخلو من بُعد؛ لأن هذا المضاف لم تحتف به قرينة.

وقال بعض العلماء: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ لأن الإصباح يبدأ شعاع الصبح أولًا وتحته ظلام، ولم يُسفر إسفاراً تاماً يكشف الظلام كشفاً كلياً، ثم ينصدع ذلك الإصباح انصداعاً كلياً عن ضوء النهار كما ينبغي، وهذا معروف ومنه قول أبي تمام[(٣)]:

وأزرقُ الفجرِ يبدو قَبْلَ أَبْيَضِهِ وأولُ الغَيْثِ قَطْرٌ ثم ينسكبُ

---

(١) البيت في البحر المحيط (١٨٥/٤)، الدر المصون (٥٩/٥) وشطره الأول فيهما هكذا: «أفنى رياحاً وبني رياح».

(٢) انظر: البحر المحيط (١٨٥/٤)، الدر المصون (٦٠/٥).

(٣) البيت في مشاهد الإنصاف (ملحق بالكشاف ١١/٤)، الدر المصون (٦٠/٥).

فعلى هذا القول: أن الإصباح يبدو أولاً وهو مختلط بغَلَس الظلام، ثم إن الله يشق ذلك الإصباح الذي بدأت أوائله مختلطة بالظلام شقاً واضحاً عن وَضَح النهار، وهذا هو المعروف، أن الظلام سواء كان ظلاماً دامساً، أو ظلاماً مختلطاً ببعض ضوء الصبح، هو الذي يُشقّ عن الصباح كما هو معروف، ومنه قول أبي نواس[1]:

تردَّت به ثم انفرى عن أَدِيمِها   تفرِّي ليلٍ عن ضياء نهارِ

هذا هو المعروف، وهم إما يُقَدِّرون مضافاً فيقولون: فالق ظلمة الإصباح. أي: شاقها بضوء الصبح، أو ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾. أي: أوائل الإصباح المختلطة بغَلَس الظلام، فالقها وشاقها عن النور، نور النهار الحقيقي.

وقوله: ﴿وجاعِلُ الليلِ سكناً﴾ على قراءة: ﴿وجَاعِلُ الليلِ سكناً﴾ فلا إشكال، اسم فاعل معطوف على اسم فاعل. وعلى قراءة: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾[2] هو مما كنا نقول: إن الاسم إذا كان مشتقاً ـ كاسم الفاعل هنا ـ يُعطف عليه الفعل، ويُعطف هو على الفعل، كما قال في الخلاصة[3]:

واعطِفْ على اسمٍ شبهِ فعلٍ فعلاً   وعكساً استعمِلْ تجدْهُ سهلاً

ومثاله في القرآن: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: آية ١٩] وقوله جل وعلا: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾ [العاديات: الآيات ١ ـ ٤] كما قال هنا: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾[4].

---

(١) البيت في مشاهد الإنصاف (ملحق بالكشاف ٤/٤٥)، البحر المحيط (٤/١٨٥)، الدر المصون (٥/٦٠) وفي هذه المصادر: «عن بياض....» إلخ.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ١٩٩، حجة القراءات ٢٦٢، ابن جرير (١١/٥٥٦)، القرطبي (٧/٤٥)، البحر المحيط (٤/١٨٦)، الدر المصون (٥/٦٠).

(٣) الخلاصة ص٤٨، وانظر شرحه في التوضيح والتكميل (٢/١٨٩).

(٤) انظر: ابن جرير (١١/٥٥٧)، القرطبي (٧/٤٥)، البحر المحيط (٤/١٨٦)، الأضواء (٢/٢٠٤).

أحدهما: أنه جعله سكناً أي: شيئاً يسكن الناس فيه؛ لأن الناس في النهار يكدحون في أعمالهم، ثم يروحون في تعب، فيجدون ظلام الليل مناسباً للهدوء والراحة. وعلى هذا فهو من السكون الذي هو ضد الحركة. يسكنون فيه وينامون لينقطع عنهم تعب الكدّ بالنهار، كما في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ [الفرقان: آية ٤٧] من (السَّبْت) بمعنى القطع. يعني: يقطع عنهم تعب الكد في النهار، ومما يدل على هذا: أن الله في سورة القصص لما بيّن أن الليل والنهار آيتان من آيات الله العظام، بيّن أيضاً أنهما نعمتان من نعم الله العظام، وجعل السُّكنى في الليل من ذلك الإنعام حيث قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ يعني في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: الآيات ٧١ ـ ٧٣] من طلب حوائجكم وأرزاقكم بالنهار، وهذه الآية تبين أن السكن هنا: أي محلاً تسكنون فيه مُلائماً للسكنى؛ لأن الليل ظرف مناسب للسُّكنى.

وعلى هذا: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ جعله ساجياً مظلماً مناسباً للسُّكنى، كما قال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى: آية ٢] أي: إذا صار ساجياً مظلماً، صالحاً للسكنى، ملائماً للهدوء، وعدم الحركة.

وقال بعض العلماء[1]: السكن في لغة العرب: هو كل ما ترتاح إليه وتحبه فتسكن إليه؛ ولذا قيل لامرأة الرجل: (سَكَنُه) لأنه يأوي إليها، وكل شيء أويتَ إليه وارتحت إليه فهو سكن لك. والمعنى: شيء يستريحون إليه، ويأوون إليه، لمناسبته للراحة والهدوء. وهذا معنى قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ ﴿وجاعِلُ الليل سكناً﴾.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ الحُسْبان هنا: هو من (الحِسَاب) على أشهر التفسيرات.

---

(١) انظر: البحر المحيط (١٨٦/٤).

قال بعض العلماء[١]: هو جمع حِسَاب، كشهاب وشُهبان، وحِسَاب وحُسْبَان.

وقال بعض العلماء[٢]: هو مصدر (حَسَب) بفتح السين، (يَحْسِب) [بكسرها][٣]، (حِسَاباً وحِسَابَة وحُسباناً)، إذا عدّ الشيء، والمعنى: جعل الشمس والقمر حُسْبَاناً يعني: خلقهما بحُسْبَان، يحسب حركتهما وسيرهما بأسلوب متقن لا يتغير في السَّنَة؛ لتعلموا بذلك الحساب عدد السنين والأشهر والأيام. وهذه من نتائج الشمس والقمر التي ذكرها الله (جل وعلا)؛ لأنهم يعرفون بها الشهور والأيام والأعوام، فيعرفون من ذلك شهر الصوم، وشهر الحج، ويعرفون عِدد النساء، وآجال الديون، وما جرى مجرى ذلك، هذه من فوائد الشمس والقمر التي أكثر الله (جل وعلا) من ذكرها.

ومعلوم أن أصحاب النبي ﷺ ـ كما قدمناه في هذه الدروس في سورة البقرة ـ أنهم تاقت نفوسهم إلى هيئة القمر، فقالوا للنبي ﷺ: ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم لم يزل يكبر حتى يستدير بدراً[٤]؟ وهذا سؤال عن هيئة

---

(١)(٢) انظر: ابن جرير (٥٥٩/١١)، القرطبي (٤٥/٧)، البحر المحيط (١٨٦/٤)، الدر المصون (٦٤/٥).

(٣) في الأصل: (بفتحها). وهو سبق لسان.

(٤) الروايات الواردة في أن الآية نزلت بسبب سؤالهم عن الأهلة متعددة، ومن ذلك:
١ ـ ما أورده الواحدي في أسباب النزول ص٥٣ ـ من غير إسناد ـ أن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) قال: يا رسول الله، إن اليهود تغشانا ويُكثرون مسألتنا عن الأهلة، فأنزل الله... الحديث. وذكره الحافظ في العُجَاب (٤٥٣/١) وقال ص٤٥٤: «لم أر له سنداً إلى معاذ، ويُحتمل أن يكون اختصره أولاً، ثم أورده مبسوطاً» ا.هـ.
٢ ـ ما أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٢٦٩/٣)، وابن عساكر في تاريخه (مختصر ابن منظور ٢٥/١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت في معاذ بن جبل، وثعلبة بن عَنَمَة ـ وهما رجلان من الأنصار ـ قالا: يا رسول الله، ما بال الهلال... فنزلت... الحديث. وقد أورده ابن الأثير في أُسد الغابة (٢٩٢/١)، والسيوطي في الدر (٣٠٢/١) وقال: «أخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس... إلخ. كما أورده في لُبَاب النقول ص٢٨ وعزاه لأبي نعيم، وابن عساكر.
وقد أورده الواحدي في أسباب النزول ص٥٣ ـ من غير إسناد ـ والحافظ في الإصابة (٢٠١/١) عن الكلبي من غير ذكر الواسطة، وهما: أبو صالح الذي يرويه عن ابن=

القمر، والنبي ﷺ أُرسل ليبين للناس كل ما لهم فيه فائدة، وما يحتاجون إلى بيانه من آيات الله، وغرائبه، وعجائب صنعه، فأنزل الله جواباً لسؤالهم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: آية ١٨٩] فبين أنها مواقيت، وهذه المواقيت إنما كانت مواقيتَ لأنها بحساب معين مقدر نظمه العزيز العليم (جل وعلا). ومشارق الشمس ومغاربها معروفة في كل يوم من السنة، وكذلك منازل القمر معروفة، وفي هذه المشارق والمغارب - التي تُشرق منها الشمس وتغرب، ومنازل القمر - يعرف الناس بها عدد السنين، والشهور، والحساب، ويعرفون شهر صومهم، وشهر حجهم،

عباس. كما أورده الحافظ في العُجاب (٤٥٥/١) وقال: «وأما أثر الكلبي فلعله في تفسيره الذي يرويه عن أبي صالح عن ابن عباس، وقد وجدتُ مثله في تفسير مقاتل بن سليمان بلفظه، فلعله تلقاه عنه» ا.هـ وقال المُناوي في الفتح السماوي (٢٣٢/١): «إسناده واه» ا.هـ.

٣ - ما أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٢٢/١)، وابن جرير (٥٥٤/٣) من طريق العوفي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت... الحديث. وقد أورده السيوطي في الدر (٢٠٣/١)، ولُباب النقول ص٢٨ وإسناده ضعيف أيضاً.

٤ - ما أخرجه ابن جرير (٥٥٣/٣) عن قتادة مرسلاً. وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٥٣ - من غير إسناد - والسيوطي في الدر (٢٠٣/١) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير. وانظر تفسير ابن أبي حاتم (٣٢٢/١) كما أورده الحافظ في العُجَاب (٤٥٣/١) وقال (ص٤٥٤): «أخرجه يحيى بن سلاَّم عن شعبة عنه بهذا اللفظ، وأخرجه الطبري...» ا.هـ.

٥ - ما أخرجه ابن جرير (٥٥٣/٣) عن الربيع بن أنس مرسلاً. وذكره الحافظ في العُجاب (٤٥٤/١)، والسيوطي في الدر (٢٠٣/١).

٦ - ما أخرجه ابن جرير (٥٥٤/٣) عن ابن جُريج مرسلاً. وذكره الحافظ في العُجاب (٤٥٤/١).

٧ - ما أخرجه ابن أبي حاتم (٣٢٢/١) عن الربيع عن أبي العالية مرسلاً. وذكره الحافظ في العُجاب (٤٥٥/١)، والسيوطي في الدر (٢٠٣/١)، ولُباب النقول ص٢٨.

وقد رُوي عن جماعة غير هؤلاء كعطاء، والضحاك، والسدي، كما أشار لذلك ابن أبي حاتم في التفسير (٣٢٢/١).

قال الحافظ في العُجاب (٤٥٥/١): «وقد توارد من لا يد لهم في صناعة الحديث على الجزم بأن هذا كان سبب النزول مع وهاء السند فيه، ولا شعور عندهم بذلك، بل كاد يكون مقطوعاً به لكثرة من ينقله من المفسرين وغيرهم» ا.هـ.

وعِدَدَ نسائهم، وآجال ديونهم، وما جرى مجرى ذلك. أما غير ذلك، فقد بين القرآن أنه مما ليس لهم فيه جدوى ولا فائدة. ومعلوم أن القرآن العظيم يبين للناس كل ما يحتاجون إليه، والنبي ﷺ بين كل ما يُحتاج إليه. ونحن نقول هذا، ونقول: إن الله (جل وعلا) لم يجعل لخلقه في القمر أشياءَ غير ما هو مُشاهد من عدد السنين والحساب، ومما جعل الله في الشمس والقمر بمجاري عادته وقدرته من المنافع للنباتات، والثمار، والمعادن، وغير ذلك.

نحن نتكلم على هذا القرآن ولا نرضى لأحد أن يُؤَوِّله بغير تأويله، ولا أن يعطفه على آراء الكفرة الفجرة، في الوقت الذي نعلم فيه أن دين الإسلام يأمر بالتقدم في جميع ميادين الحياة. دين الإسلام يأمر المجتمع بالتقدم في جميع ميادين الحياة. والإخلادُ إلى الأرض، والتواكلُ والكسلُ: مُخَالفة للأمر السماوي الذي يأمر به خالق السماوات والأرض؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: آية ٦٠] فهذا أمر. فالمتواكل المُخْلِد إلى العجز والاستسلام، ولم يُعِد ما يُستطاع من قوة، فهو مخالف لأمر الله في قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ وبهذا يُعلم أن التقدم، والكفاح، والإعداد للقوة: كل هذا أوامر القرآن العظيم، ونظام السماء، وأن العاجز المتكاسل المخلد إلى الأرض مخالف لأوامر الله، والله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: آية ٦٣] وعلى كل حال فلا شك أن دين الإسلام، وهذا القرآن العظيم، ينظم للإنسان جميع ميادين الحياة في دينه، ودنياه، هذا هو الحق. ودين الإسلام دين تقدم، ودين كفاح في الميدان، ودين قوة، وإذا قرأتم آيات من كتاب الله عرفتم ذلك واضحاً، إذا قرأتم مثلاً آيتين من سورة النساء يقول الله فيهما: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: آية ١٠٢] هذا وقت التحام الكفاح المسلح، والمفروض أن الرجال تنزل رؤوسهم عن أعناقهم، والقرآن في هذا الوقت الضنك الحَرِج، ترونه يُنَظِّم الخطة العسكرية على أحسن الوجوه، وأبدعها، وأحصنها من العدو، في

الوقت الذي يأمر فيه بالاتصال[١] بخالق هذا الكون، والتأدب بالآداب الروحية السماوية، التي هي الصلاة في الجماعة، هكذا أوامر القرآن، الاتصال بالله، وتربية الأرواح وتهذيبها على ضوء النور السماوي، مع القوة الجسمية المادية في جميع مظاهرها مهما تطورت، وتسمعون الله يقول في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾ [الأنفال: آية ٤٥] قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ يعني: إذا التقى الصفان وقت التحام الكفاح المسلح، وقوله: ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ هذا تعليم عسكري سماوي عظيم، معناه: الصمود في الخطوط الأمامية من خطوط النار، عند التقاء الصفين، وفي هذا الوقت يقول الله جل وعلا: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ وهذا مما يدل أن دين الإسلام دين كفاح، ودين قوة، ودين عظمة وتقدم في الميدان، ودين تربية الأرواح على ضوء تعاليم خالق هذا الكون، والاتصال بخالق هذا الكون (جل وعلا)؛ لأن الإنسان المسكين إذا فقد حظه من ربه خسر كل شيء، وماله في الحياة فائدة.

فعلينا جميعاً معاشر المسلمين أن نعلم أن الدين ـ ديننا ـ أنه تراث سماوي عظيم، وأنه يأمر بالتقدم والقوة في كل الميادين، وأن الإخلاد إلى العجز والضعف خلاف أوامر القرآن، وأنه مع هذا يُهذِّب أرواحنا على ضوء تعليم السماء، ويقربنا من ربنا (جل وعلا). وقد بين لنا القرآن في مواضع منه: أن من كان متمسكاً بهذا الدين كما ينبغي، وكانت صلته بالله قوية كما ينبغي، ذا روح مُربى على ضوء نور القرآن، أنه ولو بلغوا من القلة لا يمكن أن تقهرهم قوة، ولا أن يغلبهم غالب؛ لأن الله الذي اعتمدوا إليه، وصاروا من حزبه: قوي قاهر، لا يغلبه شيء. ونضرب لكم بعض الأمثال بهذا:

أنتم تعلمون في التاريخ، وتاريخ القرآن، أن النبي ﷺ وأصحابه عام غزوة الأحزاب ـ غزوة الخندق ـ لما حاصره المشركون ذلك الحصار العسكري التاريخي العظيم، الذي نوّه الله به معظِّماً أمره: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ

---

(١) في الأصل: على الاتصال.

بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١] هذا لقوة ذلك الحصار العسكري، وهم في ذلك الوقت، جميع من في الأرض يقاطعونهم في السياسة، والاقتصاد، ليس بينهم روابط سياسية، ولا اقتصادية مع أحد، وهم في فقر، وقلة، وجوع، وسيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه) في ذلك الوقت يطوي حزامه على الحجارة من الجوع، هم في هذا الوقت من الجوع وشدة الأعداء، وقوة الحصار العسكري، وكل من في الأرض أعداء لهم يقاطعوهم سياسة، واقتصاداً، ما العلاج؟ وما قاوموا به هذا الأمر العظيم، وهذا الحصار العسكري؟

الجواب: أنه قوة الإيمان بالله، وصدق الالتجاء لخالق هذا الكون، كما نص الله على ذلك في قوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: آية ٢٢] هذا الإيمان والتسليم لله، وقوة الإيمان به، والاستسلام له (جل وعلا)، كان من نتائجه ما قص الله علينا في سورة الأحزاب ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: من حصونهم ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: الآيات ٢٥ ـ ٢٧] يعني: إن كنتم ضعافاً عاجزين فمن توكلتم عليه وآمنتم به وكنتم عباده حقاً ليس بعاجز، بل هو قادر على كل شيء؛ ولذا ختم القصة بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾.

ونظير ذلك ما قصه الله في سورة (الفتح) عام الحديبية، لما نزلت سورة (إنا فتحنا) عام ست من الهجرة، رجوع النبي ﷺ من عمرة الحديبية، لما عقد الصلح مع قريش، وأنزل الله عليه سورة (الفتح). كان لما بلغهم أن قريشاً قتلوا عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وبايعوا النبي ﷺ تحت سمُرة من شجر الحديبية، بايعوه بيعة الرضوان، عند هذه البيعة علم الله من قلوبهم الإخلاص، والإيمان الكامل، والصدق كما ينبغي، ونوّه بإيمانهم الذي علمه في قلوبهم قال: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ

﴿ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: آية ١٨] فَنَوَّه عن إيمانهم بالاسم المُبْهَم الموصول. أي: ما في قلوبهم من الإيمان بالله (جل وعلا) كما ينبغي، عدّد نتائج هذا الإيمان الخالص الكامل، عدّد نتائجه عليهم، ثم ذكر من نتائجه أن قال: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ فصرح بأن إمكانياتهم العددية والعُددية لم تُقدرهم عليها. ثم قال: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ فأقدركم عليها. وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: آية ٢١] كما قال في (الأحزاب). يعني: إن كنتم في ضعف فهو قوي قادر.

وعلى هذا تعلمون أن دين الإسلام أولّا يأمر بالقوة والتقدم في كل الميادين، وقهر الكفار، والعظمة والقوة في كل الميادين، مع أن أهله منصورون من خالق السموات والأرض (جل وعلا)، فالإسلام هو هو، وصلته بالله هي هي، وقوته (...)[1].

وأهلها، فنجحوا في ذلك بعد عشرات القرون، نجحوا فيه عن طريق تعليم النشء، يأخذون أولاد المسلمين ويغرسون في قلوبهم ما شاؤوا من الكفريات، والإلحاديات، وتصوير الإسلام ورجال الإسلام العظام بصور مُشَوَّهة مُنَفِّرة، بعيدة من الحقيقة بُعد الشمس من اللمس، واليوم نجحوا نجاحاً باهراً، فصار جميع شباب المسلمين - إلا من شاء الله - ينظرون إلى الإسلام بعين عوراء لا تعرف الحقيقة، يتصورونه بصورة مشوهة خسيسة، بعيدة عن الحقائق كل البعد - والعياذ بالله - وبهذا فصلوا المسلمين عن شرعهم وتراثهم، حتى صاروا يُحَكِّمون قوانين إبليس، وفصلوهم عن مجدهم، وعن قوتهم بالله جل وعلا.

ونحن دائماً نذكر أمثال هذا لنُوَجِّه المسلمين إلى قوة الإسلام، وقوة صلته بالله، وأن أعداء الله إنما توصلوا لإهانتهم وتشتيتهم بعد أن حالوا بينهم وبين الدين بكل الوسائل.

فعلى المسلمين أن يعلموا أن خالق السماوات والأرض هو الذي له

---

(١) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل. وللشيخ رحمه الله كلام بنحو هذا في تفسير سورة الأنعام، الآيات (١١٥، ١٥٥)، الأعراف (٣، ٣٨)، الأنفال (٣٠، ٤٥، ٦٠)، التوبة (٣٠)، وفي الرحلة إلى إفريقيا.

التشريع، وأن تشريعه هو التشريع الذي يقوم بالمصالح البشرية في الدنيا، يربي الأرواح، ويعطي الأجسام حقوقها، وينير الطريق للإنسان في جميع ميادين الحياة الدنيا، والحياة الأخروية.

والمسلمون إذا ألهمهم الله الرجوع إلى دينهم ذلّ لهم كل شيء، وخضعت لهم رقاب كل جبار في الدنيا؛ لأن دين الإسلام دين لا يُغلب المتمسك به حقيقة ولا يُقهر؛ ولذا كان من علامات دين الإسلام: أن الطائفة الضعيفة القليلة المتمسكة به تغلب الطائفة القوية الكثيرة التي لم تتمسك به؛ ولأجل هذا سمّى الله (يوم بدر) سماه (فرقاناً)، وسمّاه (بيّنة)، وسماه (آية)؛ لأنه برهان فارق بين الحق والباطل. قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: آية ٤١] يعني بقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾: يوم بدر؛ لأنه يوم فرق الله فيه بين الحق والباطل؛ لأن الفئة الضعيفة القليلة لا يمكن أن تقهر الفئة القوية الكثيرة إلا بتوفيق ونصر من الله. وقال (جل وعلا) في يوم بدر: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: آية ٤٢] وقال في يوم بدر أيضاً في سورة آل عمران: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران: آية ١٣] وهذه الآية - التي هي لهم - والعبرة: أن الفئة القليلة الضعيفة غلبت الفئة القوية الكثيرة، وهذا لا يكون إلا بنصر الله كما قال الله جل وعلا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من فَلْقِ الحب عن السنبل، والنوى عن النخل مثلاً، وفَلْقِ الإصباح عن ضوء النهار، وجَعْلِ الليل ساجياً مظلماً ملائماً للسكون، وتسيير الشمس والقمر بحساب متقن، وليعرف الناس بها عدد السنين والحساب، وغير ذلك من الحِكَم، كل هذه الغرائب والعجائب ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ تقديره الذي قدّر هذا؛ لأن كل شيء عنده (جل وعلا) بمقدار.

و﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: معناه الغالب الذي لا يغلبه شيء؛ لأنه لا يقدر على هذه الأفعال العظيمة إلا الغالب القاهر الذي لا يغلبه شيء.

والعزّة في لغة العرب: الغَلَبَة. ومنه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

أي: الغَلَبَة، وفي الذِّكر الحكيم: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي: ظلمني في المخاصمة. ومن أمثال العرب: (من عَزَّ بَزَّ)[١] يعنون مَنْ غَلَبَ اسْتَلَب. ومنه قول الخنساء الشاعرة[٢]:

كَأَنْ لَمْ يَكُونُوا حِمىً يُخْتَشَى إِذِ النَّاسُ إِذْ ذَاكَ مَنْ عَزَّ بَزَّا

وربما أطلقت العرب نادراً العزة على (قلة الوجود وصعوبته)، فيقولون: «الشيء الفلاني عزيز». أي: قليل الوجود وصعب المنال، إلا أن (العزيز) في أسمائه (جل وعلا) معناه: الغالب الذي لا يغلبه شيء.

وقوله: ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ المحيط علمه بكل شيء (جل وعلا)؛ لأن الله (جل وعلا) عِلْمُه محيط بكل شيء، ومن أراد أن يعلم عظمة علم الله (جل وعلا) فلينظر إلى الحُجّاج يوم جمرة العقبة، يجد هذا العَالَم على اختلاف ألوانه، وأشكاله، ونواحيه، وألسنته، يجده كله مصبوباً صبة واحدة، الأنف مجعول هنا، والعينان هنا، والفم هنا، ومع هذا لم يضق العلم حتى يكون اثنان مصبوبين في قالب واحد، كل واحد منهما مُغايَر بينه وبين الآخر، لا يلتبس منهم اثنان، حتى إن آثارهم في الأرض، وبصماتهم في الأوراق، وأصواتهم، كل هذا لا يشتبه منه شيء، وكل هذا أحاط به العلم قبل أن يوجد!! فعِلْمُ الله محيط بهذا قبل أن يوجد، وكلٌّ يُوضع ويُطبع ويُخلق على ما سبق به العلم الأزلي، فالله (جل وعلا) عِلْمُه محيط بكل شيء.

وقد قدمنا مراراً: أن الله (جل وعلا) يحيط علمه بالشيء وغير الشيء؛ لأن (الشيء) لا يُطلق في الاصطلاح إلا على (الموجود)، في مذهب أهل السنة؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: آية ٩] فقوله: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ دليل على أن العدم ليس بشيء[٣]. وقد دلت على هذا آيات أُخر، والله (جل وعلا) يعلم المعدوم الذي هو ليس بشيء، وقد بينا في هذه السورة الكريمة فيما مضى أمثلة

---

(١) انظر: الأمثال لأبي عبيد، ص١١٣.

(٢) ديوان الخنساء، ص.٥٩ وفيه: «حِمىً يُتَّقى».

(٣) انظر: شرح الطحاوية ص١١٨.

كثيرة من ذلك؛ لأن الله قال في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأنعام ـ: ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ فالكفار إذا رأوا العذاب يوم القيامة وعاينوا الحقيقة ندموا على تكذيب الرسل، وتمنوا الردّ مرة أُخرى إلى الدنيا فقالوا ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ يعنون إلى الدنيا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٧] يعني: ليتنا رُدِدْنَا ونحن نصدق الرسل ولا نكذبهم كالمرة الأولى، هذا الردّ الذي تمنوه: الله (جل وعلا) عالم بأنه لا يكون، ومع علمه بأنه لا يكون فقد صرّح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] وقد قدمنا مراراً: أن المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين لن يحضروها أبداً؛ لأن الله هو الذي ثَبَّطَهُم عنها بإرادته لحكمة، كما قال: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٤٦] وخروجهم هذا الذي كرهه وثبطهم عنه هو عالم بأنه لا يكون، ومع ذلك صرَّح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: آية ٤٧] إلى آخر الآيات، والآيات القرآنية كثيرة دالة على هذا. فالله يعلم الجائزات، والواجبات، والمستحيلات، المعدومات، والموجودات، ويعلم المعدوم الذي سبق في علمه أنه لا يكون، يعلم أن لو كان كيف يكون، يعلم ما تخفي الضمائر، ويعلم خطرات القلوب، وكيف يجهل خطرات القلوب خالق خطرات القلوب؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: آية ١٤] وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: آية ١٦].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٧] ﴿وَهُوَ﴾ أي: الله جل وعلا.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ أي: خلق لكم النجوم.

﴿لِتَهْتَدُواْ بِهَا﴾ كل هذا من غرائب صنعه وعجائبه؛ لأن النجوم يهتدي بها الناس في ظلمات الليل، سواء كانوا في بر أو بحر، وقد يكون الناس

مُلَجّجين في البحر لا يعرفون جهة قصدهم إلا بالنجوم، وكذلك تأتيهم الظلمات في فيافي الأرض الواسعة فيستدلون بالنجوم، وربما كانوا في مسافة بعيدة إذا جاءهم غيم هلكوا، فإذا رأوا النجوم فرحوا كل الفرح؛ لأنهم يعرفون بها الجهات، ويستدلون بها على قصد الطريق، كما قال الشاعر[١]:

يُهِلُّ بالفرقدِ رُكبانُها كما يُهِلُّ الراكبُ المُعْتَمِر

يذكر فيفاء من الأرض إذا رأى ركبانها الفرقد بعد أن غاب عنهم: أَهَلُّوا يصيحون بالفرقد فرحاً منهم أنهم رأوه؛ لأنهم يهتدون به، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النحل: آية ١٦].

وقد بيّن القرآن العظيم ثلاثاً من حِكم خلق النجوم، ثلاثة أشياء[٢]:

منها: أنها يهتدي بها الضالّون في ظلمات البر والبحر، يعني: ظلمات الليل الكائنة براً أو بحراً كما قاله غير واحد.

الثاني: أن الله زيّن بها السماء كما قال: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: آية ٥].

الثالث: أنها تُرجم بها الشياطين كما قال: ﴿رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: آية ٥].

هذه الحِكَم الثلاث: مِنْ رَجْم الشياطين بالنجوم، وتزيين السماء الدنيا بها، واهتداء الناس بها في ظلمات البر والبحر، هي حِكَم ثلاث ذكرها الله من حِكَم خلقه للنجوم.

والنجوم: هي الكواكب التي تُرى في السماء. قيل: سُمّي النجم نجماً لأنه يطلع، والعرب تُسمي الطلوع نجماً، تقول: «نَجَم النبات». إذا طلع[٣].

---

(١) البيت لابن أحمر، وهو في القرطبي (٢/٢٢٤).

(٢) انظر: ابن كثير (٢/١٥٩)، فتح القدير (٢/١٤٣)، معارج القبول (١/٤٢٨)، الأضواء (٢/٢٠٥).

(٣) انظر: المفردات (مادة: نجم) ٧٩١.

وهذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إنما أضاف الظلمات إلى البر والبحر لأن المسافرين قد يكونون في ظلمات الليل تارة في برّ، وتارة في بحر، فأضاف الظلمات إلى مكانها من بر أو بحر للملابسة بينهما[١].

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: الدلالات الواضحة على قدرتنا وكمالنا، وأنه ليس لأحد أن يعبد غيرنا.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وهذه الآيات التي فَصّل كما ذَكر من أنه يفلق الحب عن السنبل، والنوى عن النخل، وأنه (جلِ وعلا) يأتي بالليل بدل النهار، والنهار بدل الليل، وأنه (جل وعلا) يُسَخِّر الشمس والقمر، وأنه (جل وعلا) خلق النجوم، وبيّن من حِكمها: اهتداء الخلق بها، هذه الآيات الباهرة القاهرة قد فَصَّلناها لقوم يعلمون.

وإنما خصّ القوم الذين يعلمون لأنهم هم المنتفعون بها[٢]، ومن أساليب القرآن العظيم: أن يُخصص بالكلام المُنْتَفِع به[٣]، كقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: آية ٤٥] وهو مُذكِّر للأسود والأحمر، وكقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [يس: آية ١١] وهو منذر للأسود والأحمر، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: آية ٤٥] ونحو ذلك.

وقد بينّا فيما مضى[٤] أن (الآيات) جمع (آية)، وأنها عند المحققين من علماء العربية، أصلها: (أَيَيه) على وزن (فَعَلَة). وقع الإعلال بموجبه الأول، فأُبدلت الياء الأولى ألفاً، فقالوا: (آية).

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/١٨٨).

(٢) انظر: القرطبي (٧/٤٦)، البحر المحيط (٤/١٨٨) وراجع ما مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

إطلاقين، أما الإطلاقان في لغة العرب فأشهرهما: أن العرب تطلق (الآية) على (العلامة)، تقول: «آية كذا»، أي: علامته. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ [البقرة: آية ٢٤٨] أي: علامة أن الله مَلَّك طالوت عليكم: أن يأتيكم التابوت. وهذا أشهر اصطلاح الآية. وقد جاء في شعر نابغة ذبيان ـ وهو عربي قح جاهلي ـ تفسير الآية بالعلامة، حيث قال[(١)]:

تَـوَهَّـمْـتُ آيـاتٍ لـهـا فَـعَـرَفْـتُـهـا لِـسـتـةِ أَعْـوامٍ وذا الـعـامُ سـابـعُ

[ثم بين][(٢)] أن مراده بالآيات: علامات الدار وآثارها، حيث قال[(٣)]:

رَمَـادٌ كَـكُـحْـلِ الـعـيـنِ لأْياً أُبِـيْـنُـه ونؤيٌ كجذمِ الحوضِ أَثْلَمُ خاشعُ

المعنى الثاني من إطلاق الآية في اللغة: أن العرب تطلق الآية على الجماعة، تقول: جاء القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم. ومنه قول بُرج بن مسهر[(٤)]:

خَرَجْنَا من النَّقْبَينِ لا حَيَّ مِثْلُنا بـآيـتـنـا نُـزجـي الـلِّـقَـاحَ الـمَـطَـافِـلا

أي: بجماعتنا.

إذا عرفتم أن (الآية) في لغة العرب تطلق على (العلامة)، وتطلق على (الجماعة)، فاعلموا أن (الآية) في القرآن تطلق إطلاقين[(٥)]:

أحدهما: الآية الكونية القدرية.

الثاني: الآية الشرعية الدينية.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(٢) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وقد أتممتُ النقص من كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ عند تفسير الآية (٩) من سورة الأعراف.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٥) السابق.

أما الآية الكونية القدرية فهي العلامة التي نصبها الله كوناً وقدراً، ليبين بها لخلقه أنه الرب وحده، المعبود وحده، كَفَلْقِهِ الحَبَّ عن السُّنْبُل، والنوى عن النخل، وكإتيانه بالليل بدل النهار، والنهار بدل الليل، وكتسخيره الشمس والقمر، وكخلقه النجوم ليُهتدى بها، هذه آيات كونية قدرية، وضعها خالق هذا الكون كوناً وقدراً، جعلها علامة لخلقه أنه القادر على كل شيء، المعبود وحده، والآية الكونية القدرية في القرآن هي من الآية اللغوية التي بمعنى (العلامة) لا غير.

الثاني من إطلاقي الآية في القرآن: الآية الشرعية الدينية، كقوله: ﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الطلاق: آية ١١] أي آياته الشرعية الدينية، كآيات هذا القرآن العظيم.

أما الآية الشرعية الدينية فقد قال بعض العلماء: هي من (العلامة) لغة أيضاً؛ لأنها علامات على صدق من جاء بها لِمَا فيها من الإعجاز.

وقال بعض العلماء: الآية الشرعية الدينية من الإطلاق اللغوي الآخر، أي: بمعنى الجماعة؛ لأن الآية: جماعة من كلمات القرآن اشتملت على بعض ما اشتمل عليه القرآن من الإعجاز، والعقائد، والحلال، والحرام[1].

وهذا معنى قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. أما القوم الذين لا يعلمون فتفصيل هذه الآيات لا ينفع فيهم؛ لأنهم لا يفهمون عن الله شيئاً، فهم كالأنعام؛ لأن الحمير والبغال والبعير لا يفهمون هذه الآيات عن الله، والله (جل وعلا) فضّل عليهم الأنعام، قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٩] ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الفرقان: آية ٤٤] فالكفار ـ والعياذ بالله ـ أنزل درجة من الأنعام، وإيضاح ذلك: أن البغل ـ مثلاً ـ والبعير، البغلة التي تعطيها الشعير وتُعلفها إذا رأتك صَهَلَت إليك، وظهر عليها الفرح إذا رأتك، الكافر يُغدق الله عليه نِعَمَه، وهو يرتكب مساخطه، ويناصبه بالعداء جل وعلا!!

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

١١/أ / ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٩٨، ٩٩].

يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٨].

هذه الآيات من سورة الأنعام بين الله فيها براهين العقائد العقلية الدالة على أنه الرب وحده، المعبود وحده، ومن ذلك أنه خلق جميع الآدميين من نفس واحدة، أبوهم رجل واحد، وأمهم امرأة واحدة، مع اختلاف أشكالهم، وألوانهم، وألسنتهم، وذلك دليل على إبداع عظيم. والله (جل وعلا) ينبهنا في القرآن العظيم في آيات كثيرة على ما أودع في أنفسنا من غرائب صنعه وعجائبه، الدالة على أنه وحده هو الرب، وهو المعبود وحده جل وعلا.

وقوله هنا ﴿وَهُوَ﴾ أي: الله الذي أدعوكم إلى توحيده وطاعته، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أصل الإنشاء: الإبراز من العدم إلى الوجود[١]. والمراد بهذه النفس الواحدة: أبونا آدم، كما أطبق عليه العلماء[٢].

وإنما قال: ﴿وَٰحِدَةٍ﴾ بالتاء الفارقة بين الذكر والأنثى مع أن آدم ذكر[٣]: لأنه أطلق عليه اسم النفس، فهو تأنيث لفظي لا حقيقي، كقول الشاعر[٤]:

أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى ... وَأَنْتَ خَلِيفَةٌ ذاكَ الكَمالُ

هذه النفس الواحدة هي: آدم. والله (جل وعلا) أرشدنا في هذه الآية

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/٥٦٢).

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٤) السابق.

إلى أن نتأمل ونتعقّل مم خُلقنا، وما العنصر والأصل الذي خُلقنا منه؛ لنعرف أقدارنا، ونعرف عظمة ربنا، فأول مَنْشَئنا تُراب بلّه الله (تبارك وتعالى) بماء. هذا الأصل الأول لنا، كما قال ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: آية ٥] أخذ الله تراباً فَبَلَّه بماء، فلمّا بُلّ وعُجن بالماء صار طيناً؛ ولِذا قال تارة: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: آية ٢٠] وتارة: ﴿مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: آية ٢]. ثم إن الله (جل وعلا) ذكر أحوال ذلك الطين، مرة قال: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: آية ١١] يلزق باليد إذا مسه الإنسان، بين أنه: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: آية ٢٦] ثم بين أن ذلك الطين يبس فصار صلصالاً كالفخّار، تُسمع له صلصلة إذا قرعه شيء، ثم خلق من ذلك الطين - الذي أصله ماء وتراب، خلق منه - بشراً سوياً، ذا لحم وعظام ودم، هو أبونا (آدم) المراد بقوله هنا: ﴿أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: آية ٩٨] ثم خلق من آدم امرأته (حواء) أُمّنا، خلقها من زوجها آدم، وقد نص على ذلك في آياتٍ كثيرة[1] كقوله في أول سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: آية ١] يعني حواء. وكقوله في سورة الأعراف: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: آية ١٨٩]. وقوله في سورة الزمر: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: آية ٦] وهذا من غرائب صنعه وعجائبه، حيث كان العنصر الأول: الماء والتراب، وخلق منه رجلاً جميلاً في غاية الحسن والجمال، ثم خلق من نفس الرجل امرأةً أنثى. وهذا أحد القسمة الرباعية، لأن الله خلق نوع الإنسان على قسمة رباعية: قسم منه خلقه من ذكر دون أنثى، وقسم منه خلقه من أنثى دون ذكر، وقسم منه خلقه بلا أنثى ولا ذكر، وقسم منه خلقه من أنثى وذكر.

أما الذي خُلق من دون الأنثى ومن دون الذكر: فهو أبونا آدم؛ لأن الله خلقه من تراب ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ [آل عمران: آية ٥٩].

---

(١) انظر: الأضواء (٢/٢٠٥).

والذي خُلق من ذكر دون أنثى: هو حواء، خلقها الله من آدم دون أنثى.

والذي خُلق من أنثى دون ذكر: هو نبي الله عيسى، أوجده الله من أمه مريم بلا ذكر.

والذي خُلق من ذكر وأنثى: هو سائر جنس الإنسان.

وهذه غرائب وعجائب تدل على كمال قدرة خالق هذا الكون. إن شاء خلق دون أنثى ودون ذكر، وإن شاء خلق من ذكر دون أنثى، وإن شاء خلق من أنثى دون ذكر، وإن شاء خلق من أنثى وذكر.

ثم إن الله أشار إلى الطور الثاني من أطوار الإنسان؛ لأن الطور الأول من أطوار الإنسان: الماء والتراب، والطور الثاني: هو النُطفة. أشار الله إلى بعض تلك الأطوار بقوله: ﴿أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ثم أتبعه بقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ على قراءة: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[1] وبعضهم قرأ: ﴿فَمُسْتَقِرٌّ﴾ بكسر القاف. أما: ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فجميع السبعة قرؤوها بفتح الدال. وأما: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ ففيها قراءتان سبعيتان: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ ﴿فَمُسْتَقِرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[2].

أما على قراءة: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[3] فالأظهر أنهما اسما مكان. أي: مكان استقرار، ومكان استيداع. وقيل: هما مصدران ميميان. أي: فاستقرار واستيداع.

---

(١) في هذا الموضع وقع وهم للشيخ (رحمه الله) استدركه بعده بأسطر وقد حذفت الكلام الذي وقع فيه الوهم هنا وأثبت الكلام على وجهه بعد استدراك الشيخ رحمه الله.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٩٩.

(٣) في توجيه هذه القراءات انظر: حجة القراءات ٢٦٢ ـ ٢٦٣، ابن جرير (٥٦٢/١١ ـ ٥٧٢)، القرطبي (٤٦/٧)، البحر المحيط (١٨٨/٤)، الدر المصون (٦٦/٥).

أما على قراءة: ﴿فَمُستقِرٌ وَمُستودَعٌ﴾ ﴿فَمُسْتَقِرٌ﴾: اسم فاعل، و﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ اسم مفعول. كما يأتي شرحه.

وقد تقرر في فن العربية: أن الفعل إذا زاد ماضيه على ثلاثة أحرف فإن اسم مكانه، واسم زمانه، ومصدره الميمي كلها بصيغة وزن اسم المفعول، كما هو معروف في فن الصرف(١).

وأكثر علماء التفسير أن المراد بـ: (المُسْتَقَر): المُسْتَقَر في الأرحام، والمراد بـ(المُسْتَودع): المُسْتَقَر في الأصلاب. يعني أول نشأتكم من نفسٍ واحدة، ثم صار بعد ذلك النُطف يقرها الله في الأصلاب، ثم ينقلها فتستقر في الأرحام، فَيُخْرِج منها بشراً سوياً، وهذا عليه أكثر المفسرين، أن (المُسْتَقَر): هو استقرار الجنين في الرحم، و(المُسْتَودَع): هو استيداع الله للنطفة الذي خُلق منها في أبيه(٢).

وكان بعض العلماء يختار: أن (المُسْتَقَر): الاستقرار على وجه الأرض أيام الحياة، وأن (المُسْتَودَع): الاستيداع في بطن الأرض في القبور(٣).

وبعض العلماء يقول: المُسْتَقَر في الأصلاب، والمُسْتَودَع في الأرحام(٤). عكس ما ذكرنا.

والذي عليه أكثر المفسرين: أنها تشير إلى بعض أطوار الإنسان؛ لأن الله (تبارك وتعالى) نبه الإنسان على أنه نقله من حال إلى حال، وجعل خلقه طوراً بعد طور كقوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: الآيتان ١٣، ١٤] أي: خلقكم على طَور ثم نقلكم من ذلك الطَّور إلى طَور آخر. وقال جل وعلا: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: آية ٦] بعد أن كنتم نُطفاً تصيرون علقاً، ثم مُضغاً، ثم

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٨٣، ٨٤).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/٥٦٣)، القرطبي (٧/٤٦)، البحر المحيط (٤/١٨٨).

(٣) انظر: ابن جرير (١١/٥٦٤)، البحر المحيط (٤/١٨٨).

(٤) انظر: ابن جرير (١١/٥٦٥)، البحر المحيط (٤/١٨٨).

عظاماً. وقد بيّن الله (جل وعلا) هذه المراتب بياناً شافياً في آياتٍ كثيرة من أوضحها آية (قد أفلح المؤمنون) لأن الله بيّن فيها الأطوار الذي مر بالإنسان عليها إلى حالته هذه حيث قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ١٢ ـ ١٦].

وعلى هذا: فالمُسْتَقَر: هو القرار المكين الذي يجعل الله فيه الإنسان في رحم أمه بعد أن خلق آدم من تراب، كما قال في آية (قد أفلح) هذه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ يعني: رحم أمه. وهذا نبهنا الله عليه، وحذّرنا أن ننصرف عن هذا، وأن نغفل عنه؛ لأنكم كلكم تعلمون أن الواحد منا لم يدخل رحم أمه مُخَطَّطاً، وليس فيه يدٌ، ولا رجل، ولا رأس، ولا عين، بل يدخل رحم أمه وهو نطفةٌ من مني، ثم إن الخالق (جل وعلا) ينقل بقدرته تلك النطفة فيجعلها دماً جامداً، وهو المعبَّر عنه بـ(العلقة)، ثم يقلب ذلك الدم مضغة لحم ليس فيها تخطيط، ولا رجلٍ، ولا يد، ثم إنه يقلب تلك المضغة هيكل عظام، ويرتب هذه العظام بعضها ببعض هذا الترتيب المُحْكَم المتقن الذي يجده الواحد منكم، فيرتب السُّلاميات في السُّلاميات، والمفاصل بالمفاصل، وفقارى الظهر بفقارى الظهر، ويجعل هذه العظام على أم الدماغ، فيجعل له دماغه في هذا الغلاف الذي هو أم الدماغ، ويفتح في وجهه العينين، ويصبغ بعضهما بصبغ أسود، وبعضهما بصبغ أبيض، ويزينها بشعر الحواجب والجفون، ويجعل فيهما حاسة البصر، ويفتح له الأنف، ويجعل فيه حاسة الشم، ويفتح له الفم، ويجعل فيه اللسان ليرد به شارد الطعام على أضراسه عند المضغ، ويبين به الكلام، حتى يقضي حاجته من بني الإنسان، ثم إنه (جل وعلا) يضع الكبد في محله، والكليتين في محلهما، وكل موضع في محله، ويوكله بوظيفته في تدبير الجسم، ويفتح الشرايين ليدور الدم، ويفتح مجاري البول والغائط. ولو شُرِّح عضوٌ واحد

من أعضاء الإنسان تشريحاً حقيقياً لبهر العقول ما أودع الله (جل وعلا) فيه من غرائب صنعه وعجائبه، فليس في الواحد مِنَّا موضع رأس إبرة إلّا وفيه من غرائب صنع خالقه وعجائبه ما يبهر العقول لو فكر(١).

وأنا أُؤكد لكم أن هذه العمليات الهائلة التي تُفعل في الواحد منا، العليم القدير الذي فعلها لم يحتج إلى أن يشق بطن أم الواحد مِنَّا، ولم يُبَنِّجْها، ولم يُنَوِّمها في صحية، بل فعل فيها هذه الأعمال الهائلة العجيبة الغريبة من حيث لا تشعر، وهي لاهية تفرح وتمرح، لا تدري عما يُفعل في بطنها من غرائب الصُّنع وعجائبه، مع أن الجنين الذي يُفعل فيه هذا من الغرائب والعجائب هو مندرج في ثلاث ظلمات: ظُلمة بطن أمه، وظلمة رحمها داخل البطن، وظلمة المشيمة التي على الولد؛ لأنه في داخل الرحم يكون عليه المشيمة، والسَّلَا يغطيه، فالله (جل وعلا) عِلْمُه نافذ، وبصره نافذ، لا يحتاج إلى كهرباء، ولا إلى نور يكشف به تلك الظلمات، بل علمه وقدرته نافذة، فيفعل في الإنسان هذه الأفعال الغريبة العجيبة، ويرتب بعضه مع بعض، ويخلقه هذا الخلق العجيب.

ونحن دائماً نذكر هذا لأن الله ينبهنا عليه، وينكر علينا أن نغفل عنه؛ لأن الله يقول في السورة الكريمة ـ سورة الزمر ـ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم قال: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: آية ٦] أين تصرفون وتروح عقولكم عن فعل خالقكم فيكم؟ فَأَنَّى تصرفون عما يفعل الله (جل وعلا) فيكم؟ هذه غرائب صُنْع ربنا وعجائبه، حتى إنه من شدة لطفه وحكمته: أن ما يحتاج الإنسان إلى تقصيره دائماً، كشعره وأظفاره: نزع منه روح الحياة، إذ لو جعل الحياة في الشعر والظفر لم يحلق الإنسان، ولم يُقَصّر، ولم يُقَلِّم أظفاره إلا وهو مُنَوَّم في صحية بعملية. هذا من غرائب صُنعه وعجائبه (جل وعلا) ولطفه بخلقه؛ ولذا نبهنا على هذا حيث قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ

---

(١) للاستزادة في هذا الموضوع انظر مثلًا: مفتاح دار السعادة (١٨٧/١، ٢٥٥) فما بعدها، أقسام القرآن ٢٩٥ فما بعدها.

وَٰحِدَةٍ﴾ كما قال جل وعلا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ الآية. [الروم: الآيتان ٢٠، ٢١] وقال هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ فلكم بعد إنشاء تلك النفس، وإنشاء زوجها منها، لكم بعد ذلك ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الأرحام، تُنقلون فيها من طَور النطفة إلى طَور العَلَقَة، ومن طَور العَلَقَة إلى طَور المُضْغَة إلى آخر الأطوار.

﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾: نُطفاً في أصلاب الآباء. هذا قول أكثر المفسرين.

وبعض العلماء عَكَس، قال: الاستيداع في بطن الأمهات، والاستقرار في أصلاب الرجال.

وبعض العلماء يقول: مُسْتَقَر على ظهر الأرض، ومُسْتَودَع في بطنها في القبور وأنتم أموات، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ [المرسلات: الآيتان ٢٥، ٢٦] الكِفَات هنا: محل الكَفْت. والكَفْت في اللغة: معناه الضم(١). أي: محلاً يضمهم أحياءً على ظهرها، ويضمهم أمواتاً في بطنها. وهذا معنى قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ ولذا قال: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ التفصيل: البيان والإيضاح وإزالة الإجمال. والمراد بالآيات: آيات هذا القرآن العظيم مع ما تضمنته من آياته الكونية (جل وعلا)، الدالة على كمال قدرته.

وفي هذه الآية سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: قال في الآية الأولى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩٧] وهنا قال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩٨] فما الحكمة في تلوين الكلام، والتعبير في الأول بـ(قوم يعلمون) وفي الثاني بـ(قوم يفقهون)(٢)؟

---

(١) انظر: المفردات (مادة: كفت) ٧١٣.

(٢) في الإجابة على هذا السؤال انظر: درة التنزيل وغرة التأويل ص٦٨، البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ص٦٥، مِلاَك التأويل (٤٦٢/١)، البحر المحيط (١٨٨/٤)، الدر المصون (٦٧/٥).

قال بعض العلماء: إنما قال بعد ذكره الاهتداء بالنجوم: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأن ذلك أمرٌ يعلمه جُلّ الناس. وقال هنا: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ لأن أسرار نقل الإنسان من هذه الأطوار وإيجاده الأول لا يُدْرِك حقائقها وما انطوت عليها من الغرائب والعجائب إلا الذين يفقهون. أي: لهم فقه وفهم دقيق في الأمور. وهذا معنى قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

وهذه الآيات الكريمة قد بينا مراراً أنها تشير إلى براهين البعث الثلاثة الكثيرة في القرآن؛ لأن الله تبارك وتعالى أجرى العادة بأنه يُكثر في القرآن العظيم من ثلاثة براهين على البعث، ذكرها كلها في هذه الآيات من سورة الأنعام. وهذه البراهين الثلاث:

منها: إيجادنا أولاً؛ لأن من خلقنا أولًا من تراب، ثم من نفس واحدة، ثم خلق من تلك النفس زوجها، ثم صار يجعل نطفنا مستودعة في أصلاب آبائنا، ثم ينقل منها ويجعل لنا قراراً في أرحام أمهاتنا، وينقلنا في تلك الأطوار إلى أن نكون بشراً ننتشر في الأرض، من قدر على هذا الإيجاد الأول فلا شك أنه قادرٌ على البعث مرةً أخرى بعد الموت؛ لأن عامة العقلاء متفقون على أن إعادة الفعل أسهل من ابتدائه، والله (جل وعلا) كل شيء عنده سهل.

والآيات الدالة على أن الإيجاد الأول برهان عقلي قاطع على الإيجاد الثاني - الذي هو البعث - كثيرة جداً في هذا القرآن العظيم، كقوله جل وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: آية ٢٧] وكقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: آية ١٠٤] وكقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: آية ٦٢] وتتعظون بأن من أنشأ أولاً قادرٌ على أن ينشىء ثانياً، وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ [الحج: آية ٥] إلى أن قال في آخر آيات الحج هذه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا

رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: الآيتان ٦، ٧] بهذه الدلائل العظيمة؛ لأن البعث والإيجاد بعد عدم لا يمكن أن يكون أعظم من الإيجاد الأول من التراب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: آية ٥] فَعَيْنُ المقدمة التي تنكرون: هي المقدمة التي أنتم موجودون بها، مقرون بها، وكقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: الآيتان ٧٨، ٧٩] وكقوله جل وعلا: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ تُمْنَى﴾[1] وفي القراءة الأخرى: ﴿مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: الآيات ٣٧ ـ ٤٠] بلى والله هو قادرٌ على ذلك. وهذا كثير في القرآن؛ ولأجل هذا قال الله جل وعلا: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: الآيات ١ ـ ٤] ثم بيَّن أن مُراده بالقَسَم على أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم ليقيم بذلك البرهان القاطع على البعث بعد الموت؛ ولذا أتبعه بقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾﴾ [التين: آية ٧] أيُّ شيء يحملك على التكذيب بالبعث والجزاء، وقد علمت أني أوجدتك أولاً، وليس الإيجاد الأخير بأصعب من الإيجاد الأول؟ ولأجل هذا بيّن الله تعالى أنه لا ينكر الإيجاد الثاني ـ الذي هو البعث بعد الموت ـ إلا من نَسِيَ الإيجاد الأول حيث قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ [يس: آية ٧٨] إذ لو تَذَكَّر خلقه الأول لما أمكنه أن ينكر خلقه الثاني. وكما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [مريم: الآيات ٦٦ ـ ٦٨] وهذا كثير. وهذا البرهان القطعي على البعث أشار له بقوله هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: آية ٩٨].

---

(١) وهي قراءة أكثر السبعة. انظر: المبسوط لابن مهران ٤٥٣.

البرهان الثاني: خلقه السماوات، وتزيينها بالنجوم، وخلقه الأرض، وأشار له هنا بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ [الأنعام: آية ٩٧] والنجوم زُينت بها السماء. ومن خلق هذا العالم العلوي والسفلي فهو قادرٌ على بعث الإنسان الصغير المسكين؛ لأن من خلق الأكبر الأعظم فهو قادرٌ على خلق الأصغر من باب أولى؛ ولأجل هذا كثر في القرآن العظيم الاستدلال على البعث بإيجاد السماوات والأرض المشار لها بإيجاد النجوم والاهتداء بها في العالم العلوي، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: آية ٥٧] أي: ومن قدر على خلق الأكبر فهو قادرٌ على خلق الناس الذين هم أصغر. وكقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ﴾ [الأحقاف: آية ٣٣] وكقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: آية ٩٩] وكقوله جل وعلا: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: الآيات ٢٧ ـ ٣٢] والجواب: السماء أشد خلقاً منّا، أي: فمن قدر على خلق الأشد فهو قادرٌ على خلق الأضعف الأصغر. والآيات في مثل هذا كثيرة.

البرهان الثالث: إحياء الأرض بعد موتها، المشار إليه بقوله هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: آية ٩٩] لأن من يحيي الأرض، ويُخرج النبات بعد الانعدام قادرٌ ـ بلا شك ـ على أن يحيي الأنفس الإنسانية بعد العدم؛ لأن الكل من باب واحد، كله جرم خلقه الله أولاً وانقرض وانمحى. وقد عاينا أنه يُعيد النباتات، فتجد الأرض بحُليِّها وحُللها من أنواع النبات، ثم ييبس، وتذروه الريح، ويصير هشيماً، ثم إن الله يوجد في الأرض شيئاً كثيراً بعد فنائه. فمن أحيا الأرض وأنبت النبات بعد أن انعدم: فلا شك أنه قادرٌ على خلق الإنسان، وإنبات الآدميين بعد أن أكلتهم الأرض.

تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: آية ٣٩] وكقوله جل وعلا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: آية ٥٧] أي: فإخراجنا للنبات بعد الانعدام كذلك إخراجنا للموتى بعد أن أكلتهم الأرض. وكقوله جل وعلا: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: آية ٥٠] وكقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الروم: الآيات ١٧ ـ ١٩] أي: من قبوركم أحياءً بعد الموت، وكقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: الآيات ٩ ـ ١١] أي: كخروج النبات الذي تشاهدون ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أي: خروجكم من قبوركم أحياءً بعد الموت. والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً كما قال جل وعلا: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأعراف: آية ٥٧] كذلك الإخراج نخرج الموتى؛ ولذا قال (جل وعلا) هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام: آية ٩٩] الله (جل وعلا) ينزل الماء من السماء؛ لأن إنزال الماء من السماء فيه غرائب وعجائب، يجب على الإنسان تأملها؛ لأن الله قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ [عبس: آية ٢٤] وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ صيغة أمر تدل على الوجوب، فإذا لم ينظر الإنسان إلى طعامه كان مخالفاً للأمر السماوي من خالق السماوات والأرض. وما يدريه أن الله يقول له كما قال لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: آية ١٢] ما منعك ألا تنظر إلى طعامك إذ أمرتك؟

وهذا النظر المأمور به إلى الطعام كأن الله يقول لك: انظر يا عبدي لتعلم عظمتي وقدرتي، وتعرف قدرك، وضعفك، وعجزك، انظر إلى الخبز الذي تأكله، وتُقيم به أَوَدَك، من هو الذي خلق الماء الذي نبت بسببه؟

أيقدر أحد غير الله أن يخلق هذا الجرم اللطيف الذي يحيي به الله الأجسام، وينبت به النباتات؟ لا والله لا يقدر على خلقه إلا الله.

هب أن الماء خُلِق، فمن يقدر على إنزاله، وسقي الأرض به مع سعة رقعتها؟ من يقدر على إنزاله على هذا الأسلوب الغريب العجيب الذي ينزل رَشَاشاً؟ فلو كان مُنْزِلُه أخْرَقَ لأنزله قطعة واحدة متصلًا بعضه ببعض. ولو نزل المطر الغزير قطعة واحدة لأهلك كل من سقط عليه، وترك الخلق أثراً بعد عين؛ لأن الله تعالى بين كيفية إنزاله إياه، وما في ذلك من الغرائب والعجائب ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: آية ٤٣] الوَدْق: المطر يخرج من خلال السحاب، أي: من فتوق المُزن وثقوبه التي جعلها الله فيه، وهو إنما يأتي به قادر يُصرفه كيف شاء. ولكن الله بين في السورة الكريمة ـ سورة الفرقان ـ أنه يُنزل الماء هذا الإنزال الهائل الغريب العجيب، وأن كثيراً من الناس يأبى في هذه الغرائب والآيات إلا الكفر ـ والعياذ بالله ـ؛ لأن الله قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان: الآيات ٤٨ ـ ٥٠] يعني: صَرَّفْنا الماء بين الناس، تارة نُغْدِق المطر على قوم لتخصب أرضهم، وتنبت زروعهم، ويكثر خير مواشيهم، اختباراً لهم وابتلاءً هل يشكرون نعمنا؟ ونَصْرِفه عن قوم كانوا في خِصْب حتى يُجْدِبوا؛ لنختبرهم بذلك الجدب، والفقر، وهلاك المواشي، والزروع: أيتعظون، وينيبون إلينا؟ ولما قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ قال: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: آية ٥٠] ومن الناس الذين أبوا إلا كفوراً: الكفرة، وأذناب الكفرة، الذين يزعمون أن السحاب لم ينزله ملك مقتدر، وإنما هي طبائع، وأن الماء تتفاوت عليه درجات الشمس، أو احتكاك الهواء حتى يتبخر وتتصاعد أبخرته، فتتجمع ثم تلاقي هواءً حاراً، ثم تزعزعها الريح، فتفرقها، وأن هذا ليس فعل فاعل!! هؤلاء الذين يقول الله فيهم: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ في تلك السحابة ـ التي أنزلها الله ليلًا ـ أن النبي ﷺ قال: «**أسمعتم ما قال ربكم البارحة؟ قال:**

أصبح من عبادي مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأصبح من عبادي كافر بي مؤمن بالكوكب. أما الذين قالوا: مُطرنا بفضل الله وبرحمته، فهذا مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما الذي قال: مُطرنا بنوء كذا، فهو كافر بي مؤمن بالكوكب»(1). ومثله الذي يقول: مُطرنا ببخار كذا!! لأن السحاب ينزله ملك مقتدر، يخلق ماءه أولاً. وبين خلقه قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ أي: يسوقه ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ يضم بعضه إلى بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ متراكباً يعلو بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ يعني المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: آية ٤٣] جمع خَلَل، أي: من ثقوب المُزن وفروجه: ينزل منها؛ لأنه يجعل وعاءه كالغرابيل؛ ينزل منها المطر، على قدر ما يشاء الله جل وعلا ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠)﴾ [الفرقان: آية ٥٠].

هب أن الماء خُلق، وأن المطر أُنزل على هذا الأسلوب الغريب العجيب، من هو الذي يقدر أن يشق الأرض ويُخرج منها مسمار النبات؟

هب أن مسمار النبات خرج، من هو الذي يقدر أن يشقه ويخرج منه السنبلة؟

هب أن السنبلة وُجدت، من هو الذي يقدر أن يخرج حبها وينميه، وينقله من طَور إلى طَور حتى يصير صالحاً مُدْرِكاً نافعاً للأكل؟ كما ينبهنا الله على هذا في هذه الآية التي نحن عندها في قوله: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩٩] انظروا الثمر عندما يبدو، وانظروه عندما يُدرِك ناضجاً صالحاً للأكل، تعلمون أن الذي نقله منذ تلك الحال الأولى إلى حالة الانتفاع هذه، أنه رب قادرٌ عظيم، هو الخالق وحده، المعبود وحده (جل وعلا)؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: آية ٩٩] الباء: سببية، والله (جل وعلا) يُسَبِّب ما شاء على ما شاء

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلَّم. حديث (٨٤٦)، (٣٣٣/٢)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مُطِرنا بالنوء. حديث رقم: (٧١)، (٨٣/١).

من الأسباب، ولو شاء أن تنخرم الأسباب لانخرمت، فهو (جل وعلا) يفعل كيف يشاء، ويسبب ما شاء من المُسَبَّبات، على ما شاء من الأسباب، ويبين لنا في كتابه غرائب وعجائب وعبراً نعلم بها أنه لا تأثير إلا لله وحده، وأنه لو شاء أن لا تؤثر الأسباب لم تؤثر، ومن ذلك ما قصّ علينا في سورة الأنبياء وغيرها من سور القرآن أنه أُلقي إبراهيم في نار نمرود وقومه، أُلقي إبراهيم في نار تضطرم، تأكل الحطب حتى تتركه رماداً، أُلقي فيها إبراهيم والحطب، فأكلت الحطب بحرارتها فتركته رماداً، وصارت برداً على إبراهيم. ولو لم يقل الله: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء: آية ٦٩] لو لم يقل: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لأهلكه بردها، والنار لا عقل لها ولا إدراك تحرق به الحطب وتترك إبراهيم. وذلك يبين أن الفاعل هو الخالق (جل وعلا)، وأنه يسبب ما شاء على ما شاء من المُسَبَّبات. ويوضح لنا هذا: أن السبب تارةً يكون مناقضاً للمُسبَّب وينتج الشيء من نقيضه، كما قدمنا في هذه الدروس في قصة قتيل بني إسرائيل[1]؛ لأنه لما أراد الله أن يُحييه قال لهم: اذبحوا بقرة، فذُبحت البقرة، وصارت ميتة، وقُطعت منها وصلة، وهي ميتة، قطعة
١١/ب من بقرة ميتة، ليس فيها من الحياة شيء، فضربوه بها فحيي، /وأخبرهم بقاتله!! لو ضربوه بالبقرة حية لربما قال جاهل: قد استفاد الحياة منها، وسرت حياتها فيه!! أما هو فقد أمرهم أن يميتوها، ويذبحوها، ويضربوه بقطعة منها فحيي!! فمن أين وُجدت هذه الحياة من هذا الضرب بقطعة من بقرة ميتة؟ وذلك برهان قاطع على أن الله يسبب ما شاء على ما شاء من الأسباب؛ ولأجل هذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي: بسببه ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

قوله: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: جميع أصناف النباتات مما يأكله الناس والأنعام، كما قال جل وعلا: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ [طه: آية ٥٤] فينبت للناس أنواع النبات مما هو قوت كالقمح والشعير ونحوهما، ومما هو فاكهة، وينبت لهم المرعى لحيواناتهم؛ لأن الحيوانات إذا أكلت المرعى المليء كثرت ألبانها، وأزبادها، وأسمانها، ولحومها، وكثرت جلودها،

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

وأصوافها، وأوبارها، وأشعارها، إلى غير ذلك من منافعها بسبب الماء؛ ولذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ أي: من نبات كل شيء.

﴿خَضِرًا﴾ الخَضِر: هو صفة مشبهة من (خَضِرَ) فهو (خَضِرٌ وأَخْضَرُ). والمراد بالخَضِر هنا: الذي ينبت أخضر كالبقول ونحوها[1]؛ لأن القمح والشعير وما جرى مجراهما ينبت أولًا نبات البقول.

ثم قال: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ أي: من ذلك الخَضِر النابت.

﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ يعلو بعضه بعضاً كالسنبل، فإنك تجد السنبلة يتراكب فيها الحب ويعلو بعضه بعضاً[2]. وهذا معنى قوله: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ قراءة الجمهور[3]: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ﴾ بالنصب؛ لأن الكسرة علامة هنا للنصب.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ النخل: من جنس المُنْبَت بهذا الماء، إلا أن الله قَطَعَه، وجاء به في صيغة جملة مُسْتَأنَفَة من مبتدأ وخبر تنويهاً بشأن النخل[4]؛ لأن النخل كله منافع.

وجرت العادة في القرآن: أنه إذا ذُكر الإنعام بالتمر ذكره باسم شجرته التي هي النخلة، وإذا ذكر الإنعام باسم العنب ذكره باسم الثمرة التي هي العنب. هذه قاعدة مطردة في القرآن.

قال بعض العلماء: إنما ذكر شجرة التمر التي هي النخلة لأن النخلة

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/٥٧٣)، القرطبي (٧/٤٧)، الدر المصون (٥/٦٩).

(٢) انظر: ابن جرير (١١/٥٧٤)، القرطبي (٧/٤٨)، البحر المحيط (٤/١٨٩).

(٣) والقراءة الأخرى: برفع «جناتٌ». انظر: المبسوط لابن مهران، ص١٩٩.

(٤) انظر: البحر المحيط (٤/١٨٩).

كلها منافع، فتمرها بعض منافعها[١]. فلو عبّر بالتمر لأهمل منافع النخل الكثيرة؛ لأن النخل كلها منافع؛ لأن خوصها تُصنع منه القفاص، وجريدها تُصنع منه الحُصر، وتصنع منها الحبال، ولبها يؤكل، وجذعها يُسقف به، وكُرْنَافها يُوقد به، فجميع ما فيها منافع.

أما شجرة العنب: فليس في نفس الشجرة من المنافع ما في النخلة[٢]، فأعظم منافعها في ثمرتها.

وقوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾ النخل: جمع نخلة. وقيل: هو جنس أو اسم جمع[٣]. وهو يُذكَّر ويُؤنث؛ لأن الله ذكَّره في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: آية ٢٠] ولم يقل: منقعرة. وأنثه في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: آية ٧] وهذا معروف في كلام العرب، أن أسماء الأجناس تُذكَّر وتُؤنَّث.

قال بعض العلماء: فإن قيل له: (نخيل) لم يجز تأنيثه.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا﴾ يطلق (الطلع) على أول ما يخرج من النخلة؛ لأنه يخرج أولًا قبل أن ينفتح يسمى (كِمّاً)، ثم ينفتح على النَّوْر المسمّى بـ(الإغْرِيض). وهذا هو المراد بقوله: ﴿مِن طَلْعِهَا﴾. وربما يُطلق الطلع على ثاني الحال؛ لأنه يكون أولًا طَلْعاً نَوْراً أبيض، ثم يُنقل من طَور إلى طَور حتى يكون بُسْراً ورُطَباً وتمراً يابساً. وقوله: ﴿مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ المراد بالطلع هنا: حاله الأخيرة، إلا أن ذلك يوجد من الطلع،

---

(١) انظر تفصيل ذلك في مفتاح دار السعادة (١/٢٣٠).

(٢) قال ابن القيم: «وعموم المنفعة به وبالعنب فوق كل الثمار. وقد اختلف الناس في أيهما أنفع وأفضل، وصنف الجاحظ في المحاكمة بينهما مجلداً فأطال فيها الحِجَاج والتفضيل من الجانبين. وفَصْلُ النزاع في ذلك: أن النخل في معدنه ومحل سلطانه أفضل من العنب وأعم نفعاً، وأجدى على أهله، كالمدينة والحجاز والعراق. والعنب في معدنه ومحل سلطانه أفضل، وأعم نفعاً، وأجدى على أهله، كالشام، والجبال، والمواضع الباردة التي لا تقبل النخيل» اهـ. مفتاح دار السعادة (١/٢٣٠).

(٣) انظر: الكليات ٩١٢.

وهو النَّوْر الذي ينفتح عنه الكِمُّ أولًا[١].

وقوله: ﴿قِنْوَانٌ﴾ القِنْوَان: جمع القِنْو، كالصِّنْوَان والصِّنْو.

وفيه قراءة: ﴿قِنوانٌ﴾ و ﴿قُنوانٌ﴾ أما قراءة: ﴿قَنوان﴾ بفتح القاف فليست سبعية[٢].

والقِنْوَان: جمع القِنْو. والقِنْو: هو عِذْقُ النخلة الذي فيه الثمر[٣].

وقوله ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة المُتَنَاوَل؛ لأن النخل إذا كان صغاراً قد يثمر الثمرة الجيدة، مع أنها دانيةٌ قريبة سهلة المُتَنَاوَل، لا يحتاج صاحبها إلى طلوع، ولا إلى صعود. ومعنى قوله: ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة المُجْتَنَى، ينالها الإنسان من غير تعب.

قال بعض العلماء: ذكر دانية الثمر ولم يذكر السَّحُوق ـ التي هي النخلة الطويلة ـ قال بعض العلماء: ذكر الدانية لأن النعمة بها أتم؛ لأن ثمرها يوجد بلا تعب ولا كلفة. بخلاف السَّحُوق فإنها لا بد من أن يُصعد عليها[٤].

وقال بعض العلماء: هنا حذف الواو وما عَطَفَت عليه: ومن النخل من طلعها قنوان دانية وسَحُوق[٥]. أي: نخل طِوَال.

وقوله: ﴿قِنْوَانٌ﴾ مبتدأ، خبره الجار والمجرور قبله[٦].

---

(١) انظر: القرطبي (٤٨/٧، ٥٠)، الدر المصون (٧٥/٥)، وقد ذكر مراتب ثمر النخلة، ونقل قول بعضهم:

إن شِئْتَ أن تَضْبِطَ يا خليلُ أسماءَ ما تُثْمِرهُ النخيلُ
فاسْمَعْه موصوفاً على ما أذكرُ طَلْعٌ وبعده خَلال يظهر
وبَلَحٌ ثم يليه بُسُرُ ورُطَب تجنيه ثم تَمْرُ
فهذه أنواعُها يا صاحِ مضبوطةً عن صاحب الصحاح

(٢) وكذلك القراءة بضم القاف (قُنوان) شاذة أيضاً. انظر المحتسب (٢٢٣/١)، القرطبي (٤٨/٧).

(٣) انظر: ابن جرير (٥٧٥/١١)، القرطبي (٤٨/٧)، الدر المصون (٧٣/٥).

(٤)(٥) انظر: القرطبي (٤٨/٧)، البحر المحيط (١٨٩/٤).

(٦) انظر: القرطبي (٤٨/٧)، البحر المحيط (١٨٩/٤)، الدر المصون (٦٩/٥).

وقوله: ﴿مِن طَلْعِهَا﴾ بدل من قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾[١].

و﴿قِنْوَانٌ﴾ في محل مبتدأ، و﴿دَانِيَةٌ﴾ نعتٌ له.

والخبر قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾[٢].

وقوله: ﴿مِن طَلْعِهَا﴾ جارٌ ومجرور مُبدل من الجار والمجرور قبله، وهذا معروف.

وقوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ جماهير القراء قرؤوا: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾[٣] هو معطوف على قوله: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من عَطْف الخاص على العام[٤]. أي: فأخرجنا به نبات كل شيء، وأخرجنا به جنات من نخيل وأعناب. ولم يقل: وجناتٌ من أعناب؛ لأن جنات الأعناب ليست من قِنْوَان النخيل. ولو رُفع في قوله: «وجناتٌ من أعناب» لصار المعنى: من النخل قِنْوَان دانية، ومن النخل جناتٌ من أعناب. وهذا لا يصح. وعلى بعض القراءات: ﴿وجناتٌ﴾ بالرفع، قالوا: يُقَدَّر له محذوف. أي: ولهم من نِعَمِه ـ جل وعلا ـ جناتٌ من أعناب[٥].

(الجنات) جمع الجنة، والجنة في لغة العرب: البستان[٦]. ومنه قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ [القلم: آية ١٧] هو بستان معروف وقعت فيه هذه القضية. أصل الجنة: البستان. والعرب تسمي كل بستان (جنة). وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول زهير[٧]:

كأَنَّ عَيْنَيَّ في غَرْبَيْ مُقَتَّلَةٍ من النَّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحُقا

---

(١) انظر: البحر المحيط (١٨٩/٤، ١٩٠)، الدر المصون (٦٩/٥).
(٢) انظر: القرطبي (٤٨/٧)، البحر المحيط (١٩٠/٤)، الدر المصون (٦٩/٥).
(٣) تقدمت هذه القراءة قريباً، وأشرت هناك إلى القراءة الأُخرى، وهي برفع (جنات).
(٤) انظر: البحر المحيط (١٩٠/٤)، الدر المصون (٧٥/٥).
(٥) انظر توجيه قراءة الرفع في: حجة القراءات ص٢٦٤، القرطبي (٤٩/٧)، البحر المحيط (١٩٠/٤)، الدر المصون (٧٦/٥).
(٦) انظر: المفردات (مادة: جنَّ) ص٢٠٤.
(٧) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

يعني: بستان نخلٍ نخله طِوَال؛ لأن السُّحُق: جمع سَحُوق، وهو النخلة الطويلة. هذا أصل الجنة في لغة العرب.

وهي في اصطلاح الشرع: دار الكرامة التي أعد الله لعباده المؤمنين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: آية ١٧].

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ الأعناب: جمع العنب، وهو الثمر المعروف. وفي العنب غرائب وعجائب؛ لأنها ثمرة كأن جُلّها ماء يمسكه الله جل وعلا[١].

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ أما قوله: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ فلم يقرأه أحد كائناً ما كان إلّا بالنصب.

أما ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ فقراءة الجمهور: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ وفي بعض القراءات ﴿وجناتٌ﴾ بالرفع.

أما ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ فقرأه عامة القراء بالنصب، ولم يرفعه أحد.

الزيتون: هو الشجر المعروف، وهو الذي وصفه الله بالبركة في قوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: آية ٣٥] لأن منافع الزيتون كثيرة؛ لأنه وقود ودهن وإِدام، إلى غير ذلك من منافعه[٢]. يذكرون أنه أول شجرة نبتت في الأرض شجرة الزيتون، وأول شجرة نبتت بعد الطوفان يزعمون أنها شجرة الزيتون، ويزعمون أن شجرة الزيتون هي أطول الشجر عمراً، وأنها تمكث في الأرض ما لا تمكثه شجرة غيرها.

﴿وَٱلرُّمَّانَ﴾ معروف.

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ كان بعض العلماء يقول: في

---

(١) انظر: زاد المعاد (٤/٣٤٠).

(٢) انظر: زاد المعاد (٤/٣١٦ ـ ٣١٧)، أقسام القرآن ص٤٤.

الكلام حَذْف دل المقام عليه، أي: والزيتون مشْتَبِهاً وغير متشابه، والرمان مُشْتَبِهاً وغير متشابه[١]. أنها راجعة لكليهما. وحُذف أحدهما لدلالة المقام عليه، ونظير هذا التفسير من كلام العرب قول عمرو بن أحمر الباهلي[٢]:

رماني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي   بَريئاً ومن أَجْل الطَّوِيِّ رماني

يعني كنتُ منه بريئاً، وكان والدي بريئاً.

ومنه قول ضابىء بن الحارث البرجمي[٣]:

فَمَنْ يَكُ أَمْسَى بالمدينة رَحْلُهُ   فإني وقَيَّاراً بها لغريبُ

وهو أسلوب عربي معروف.

ومعنى كون الزيتون مُشْتَبِهاً وغير مُتَشَابِهٍ: أن شجره يتشابه ورقه في القَدْر، ويتشابه في نباته في جميع الغصن، وغير متشابه لأنه أنواع تختلف طُعُومُها. الذي يعرفه يجد في اختلاف طعمه فروقاً يستدل بها على كمال قدرة من صنعه، وأن صانعه ليس بطبيعة؛ لأن الطبيعة معنى واحد لا ينقسم، وكذلك الرمان: تجده متشابهاً بالمنظر، أغصانه وورقه متشابه، وقد تجد طعمه متبايناً أيضاً كما هو معروف[٤].

كونه يتشابه من جهة، ويختلف من جهة، هذا دليل على كمال قدرة من خلقه، وأن خالقه ليس بطبيعة؛ لأن الطبيعة عند من يزعمونها معنى واحد، جوهر لا يتقسم، ولا يقبل الانقسام. يستحيل أن تؤثر الطبيعة في مطبوعين مختلفين. فالنار لو فرضنا ـ كما يقولون ـ «إنها بطبيعتها تحرق» فلا يمكن أن يكون من طبيعتها الإبراد، وكذلك السكين، وقلنا: «طبيعتها

---

(١) انظر: البحر المحيط (١٩١/٤)، الدر المصون (٧٩/٥).

(٢) البيت في الكتاب لسيبويه (٧٥/١)، الدر المصون (٦٠٨/٢).
وقوله: «الطوي» أي: البئر. وقد كان بينه وبين رجل خصومة فيها.

(٣) البيت في الكتاب لسيبويه (٧٥/١)، الخزانة (٨١/٤، ٣٢٣). وقيار: اسم فرسه.

(٤) انظر: ابن جرير (٥٧٨/١١)، القرطبي (٤٩/٧)، البحر المحيط (١٩١/٤)، الدر المصون (٧٩/٥).

القطع»، فلا يكون من طبيعتها الوصل، وهكذا. فلا يمكن أن تكون الطبيعة الواحدة تنتج أشياء مختلفة.

واختلاف هذه الأشياء دليل على أن فاعل ذلك صانع مختار يفعل ما يشاء، كما نَبَّهنا على ذلك في أول سورة الرعد؛ لأن الله (جل وعلا) في أول سورة الرعد لما بين غرائب صنعه وعجائبه، نَبَّه خلقه أن ما يزعمه الكفرة الفجرة الكلاب، أبناء الكلاب، من أن فعل الله (جل وعلا) في هذا الكون من غرائبه وعجائبه، أنه فعل طبيعة، ألقمهم الحجر في أول سورة الرعد، ذلك أن الله لما قال: ﴿الٓمٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ثم نوه بشأن هذا القرآن ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ذكر صفات خالق هذا الكون ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ ثم قالوا هو محل الشاهد **﴿وفي الأرض قطعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ من أعناب وزرعٍ ونخيلٍ﴾** وفي قراءة أخرى[(١)]: ﴿وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ﴾ وفي القراءة الأخرى[(٢)]: **﴿تُسقى بماءٍ واحدٍ﴾** ﴿وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ [الرعد: الآيات ١ - ٤] وفي القراءة الأخرى: **﴿في الأُكْل﴾**[(٣)(٤)] يعني تجد هذا البستان أرضه أرض واحدة، وقِطَع يجاور بعضها بعضاً، والماء الذي يُسقى به ماءٌ واحد، والأرض بقعةٌ واحدة لا اختلاف في مائها، ولا في أرضها، ثم ترى ذلك البستان تخرج منه ثمارٌ مختلفة ألوانها، وأشكالها، ومقاديرها، وطعومها، ومنافعها. فهذا لا يمكن أن يكون من طبيعة، إذ لو كانت طبيعة الماء لما اختلفت إلى هذا

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٥١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وهناك قراءة أخرى في قوله ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ حيث قُرىء بالنون ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ وبالياء **﴿ويُفَضِّل﴾**. انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٥٢، القرطبي (٢٨٣/٩).

(٤) انظر: النشر (٢١٦/٢).

الاختلاف، ولو كانت طبيعة الأرض لما اختلفت إلى هذا الاختلاف؛ لأن الماء واحد، والبقعة واحدة، فدل اختلاف هذه الثمار في أصنافها، وألوانها، وأشكالها، ومقاديرها، وطعومها، ومنافعها: على أن خالقها هو القادر وحده، الرب وحده، المعبود وحده، الذي له السلطان على هذا الكون، وأَمْره (جل وعلا) هو الأمر، ونهيه هو النهي، وشرعه هو الشرع، ودينه هو الدين؛ ولذا قال (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾.

ثم قال: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ هذا إلفات خالق الكون نظر خلقه إلى غرائب صنعه وعجائبه، انظر مثلًا إلى النخلة، إلى (الكُمّ) عندما يطلع كاللسان غير مفتوح، ثم انظره عندما ينفتح عن ذلك النَّوْر الأبيض اللين، ثم بعد ذلك، بعد أن يصير تمراً يابساً مُذْرِكاً، انظر حالته الأولى عندما نبت، وحالته الثانية عندما طاب وأدرك، تعرف أن الذي نقله من ذلك الطَّور إلى هذا الطَّور أنه ملك قادر، هو رب كل شيء، ومعبود كل شيء جل وعلا.

ولذا قال: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩٩] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ﴾ الذي يلفت ربكم نظركم إليه ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي: دلالات واضحات ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون، يعرفون بذلك من غرائب صنع ربهم وعجائبه أنه هو الرب وحده، المعبود وحده جل وعلا.

وإنما خص المؤمنين في قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأن الكفرة لا يتعظون بالآيات، ولا يفهمون عن الله غرائبه وعجائبه؛ لأن الله أعمى بصائرهم والعياذ بالله.

ومن عادة القرآن أنه غالباً يخص بالفعل المنتفع به، وإن كان الفعل في أصله عاماً(١)، كقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: آية ٤٥]

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

وهو مذكر به الأسود والأحمر، وكقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس: آية ١١] وهو منذر الأسود والأحمر، وكقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: آية ٤٥] ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [فاطر: آية ١٨] وأمثال ذلك، مع أنه منذرٌ للجميع، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: آية ١].

هذه غرائب صنع الله وعجائبه يبينها لخلقه (جل وعلا) ليعرفهم بربهم (جل وعلا) بما يرون في هذا الكون من باهر صنعه، وعظيم قدرته (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾.

﴿ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ ﴿أَثْمَرَ﴾ معناه: عندما يبدو ويطلع.

والينع: تقول العرب: «يَنَعَ الثمر، يَيْنَع، ويَيْنِع يَنْعاً، فهو يَانِع»، إذا نضج وأدرك وصار صالحاً للأكل[(١)]. معناه: انظروه عند حالته الأولى، وانظروه عند ينعه. أي: طِيبِه، ونُضجه، وإدراكه صالحاً للأكل، تعرفون بذلك أن الذي نقله من الطَّور الأول عندما يثمر، إلى الحالة التي أينع فيها وصار صالحاً للأكل، تعلمون أن ذلك فعل عليم قدير عظيم، هو رب كل شيء، ومعبود كل شيء؛ ولذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

١/١٢ / ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام: الآيات ١٠٠ ـ ١٠٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/٥٨١)، القرطبي (٧/٥٠)، الدر المصون (٥/٨٢).

﴿وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠﴾ [الأنعام: آية ١٠٠].

قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا نافعاً: ﴿وَخَرَقُوا لَهُۥ بَنِينَ﴾ بتخفيف الراء. وقرأه نافع وحده: ﴿وَخَرَّقُوا﴾ بتشديد الراء[١]. أما على قراءة عبد الله ابن مسعود: (وحرّفوا له بنين وبنات) فهذه قراءة شاذة[٢].

ومعنى هذه الآية الكريمة: أن الله (جل وعلا) لما بين غرائب صنعه وعجائبه الدالة على أنه الرب وحده، المعبود وحده، كما في الآيات الماضية، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّۚ﴾ [الأنعام: آية ٩٥] وكقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌۗ﴾ [الأنعام: آية ٩٨] وكقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ الآية [الأنعام: آية ٩٧]. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: آية ٩٩] إلى آخر الآيات، بين الله فيها كمال قدرته، وغرائب صنعه، وعجائبه، الدالة على أنه الرب وحده، المعبود وحده، فقال في هذه الآية، كأنه يقول: مع ما أبديت لخلقي من آياتي الدالة على عظمتي وجلالي، وأني الرب المعبود، مع هذا أشركوا بي الجن، وعبدوا معي المعبودات التي لا تنفع ولا تضر[٣].

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ في إعراب قوله: ﴿ٱلْجِنَّ﴾ أوجه:

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٠.

(٢) هذه القراءة إنما تُنسب لابن عمر، وابن عباس (رضي الله عنهما). كما في البحر المحيط (١٩٤/٤)، والدر المصون (٨٧/٥)، وفي المحتسب (٢٢٤/١): (عمر، وابن عباس).

وابن عمر يُشَدِّد الراء، وخففها ابن عباس.

أما القراءة المنسوبة لابن مسعود (رضي الله عنه)، فهي في قوله: (وخلقهم) حيث قرأها بإسكان اللام (وخَلْقَهم). والظاهر أنه معطوف على الجن. أي: وجعلوا خلقهم الذي ينحتونه أصناماً شركاء لله. انظر: المحتسب (٢٢٤/١)، البحر المحيط (١٩٤/٤)، الدر المصون (٨٦/٥)، وقد استشكل مؤلفه نسبة هذه القراءة لمصحف ابن مسعود، ومعلوم أن المصاحف آنذاك لم تكن مشكولة ولا منقوطة. فالله ـ تعالى ـ أعلم.

(٣) انظر: البحر المحيط (١٩٢/٤ ـ ١٩٣).

أشهرها(١): أنه أحد مفعولي ﴿جَعَلُوا۟﴾. والمعنى: جعلوا الجن شركاء لله. فهو المفعول الأول، أُخِّر لأمن اللَّبْس.

و(جعل) هنا ذهب كثير من العلماء إلى أنها التي بمعنى (صيَّر)(٢) وهو غلط. وإن قاله كثير من أجلاء العلماء.

والتحقيق: أن (جعل) هنا بمعنى (...)(٣).

منافعها من ألبان، وأصواف، وأوبار، وأشعار، وأسمان إلى غير ذلك، وكذلك خلق السماء، ورفعها، وأبعد سَمْكها، وزينها بالنجوم، وجعلها سقفاً محفوظاً تمر عليه آلاف السنين لا يتفطر، ولا يتصدع، ولا يتشقق، ولا يحتاج إلى إصلاح وترميم ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: الآيتان ٣، ٤] أي: من عظم ما رأى؛ ولذا قال هنا: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: آية ١٠١] أي خالق السماوات والأرض، ومخترعهما ومن فيهما.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ وهذه الآية يُفهم منها أن المُلك والوَلَدِية لا يمكن أن يجتمعا؛ لأنهم لما ذكروا له الولد كان من رده عليهم: أنه مخترع الأرض والسماء. أي: ومن فيهما، وصانع الشيء هو مالكه، والولد لا يكون مملوكاً أبداً(٤).

وجرت العادة في القرآن: بأن الله يرد على الكفرة في ادعاء الولد بأنه مالك كل شيء، وأن الخلق عبيده، كما قال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ لأن العبد لا يمكن أن يكون ولداً.

---

(١) انظر: ابن جرير (٧/١٢)، القرطبي (٧/٥٢)، البحر المحيط (٤/١٩٣)، الدر المصون (٥/٨٣).

(٢) انظر: الدر المصون (٥/٨٣). وما سيأتي عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٣) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل. والكلام على (جعل) ومعانيها تجده عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام، والآية (١٨٩) من سورة الأعراف. والكلام بعد الانقطاع يتعلق بالآية التي بعدها (١٠١) وهي قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ...﴾ الآية.

(٤) انظر: القرطبي (٢/٨٥)، البحر المحيط (٤/١٩٥)، التسهيل لابن جزي ص٢١١ - ٢١٢، التحرير والتنوير (٧/٤١٠).

ومن هذه الآيات القرآنية أخذ العلماء أن الإنسان إذا ملك ولده ـ بأن تزوج أمة لغيره، وكان ولده رقيقاً واشتراه ـ أنه يعتق عليه بنفس الملك، ولا يمكن أن يملكه؛ لأن الملكية والولدية متنافيان[1]؛ ولذا قال هنا: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

﴿أَنَّىٰ﴾ هنا: هذا استفهام للاستبعاد والإنكار والنفي. لا يمكن أن يكون له ولد؛ لأن كل ما في السماوات والأرض إنما هو خلقه وملكه، فكيف سيكون له ولد من صُنْعِه ومُلْكِه الذي خلقه وأبرزه من العدم إلى الوجود.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ أي: امرأة؛ لأنه يتنزه (جل وعلا) عن ذلك؛ ولذا قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وجميع الكائنات خَلْقه، فلا يمكن أن يكون شيء من خَلْقه ولداً له بحال؛ لأن الولد كالجزء من الوالد، والخلق صنع الوالد، والجزء والصنعة متباينان لا يمكن أن يجتمعا في شيء؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ ـ جل وعلا ـ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية، فهو (جل وعلا) يعلم كل شيء، ويعلم غير الشيء؛ لأن (الشيء) عند أهل السنة والجماعة لا يطلق إلا على الموجود، والله يعلم الموجود الذي هو شيء، ويعلم المعدوم الذي هو ليس بشيء، فهو عالم بالموجودات، والمعدومات، والجائزات، والمستحيلات، حتى إنه من إحاطة علمه ليعلم المعدوم الذي سبق في علمه أنه لا يوجد، يعلم أن لو كان كيف يكون؟ كما قد بينا نصه تعالى على ذلك في هذه السورة ـ سورة الأنعام ـ فقد بيناه مفسراً في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨][2] لأن الكفار إذا عاينوا النار ندموا على تكذيب الرسل، وتمنوا الردّ للدنيا مرة أخرى ليصدقوا الرسل؛ ولذا قالوا: ﴿**يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبُ بآيات ربِّنا**

(١) انظر: القرطبي (١١/١٥٩).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران، ص١٩٢.

(جل وعلا) عالم أن هذا الردّ الذي تمنوه عالم أنه لا يكون، وقد صرح (جل وعلا) أنه عالم أن لو كان كيف يكون؟ كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً؛ لأن الله هو الذي ثبطهم عنها بإرادته لحكمة يعلمها ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَٰعِدِينَ ۝٤٦﴾ [التوبة: آية ٤٦] وخروجهم هذا الذي ثبطهم عنه، وسبق في علمه أنه لا يكون، هو عالم أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ الآية [التوبة: آية ٤٧]. وكقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾ [المؤمنون: آية ٧٥] إلى غير ذلك من الآيات. ولذا قال هنا: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: آية ١٠١] فمن أحاط علمه بكل شيء فكيف يكون جنساً له ـ كالولد ـ من لا يعلم شيئاً إلا ما علمه الله؟ يعني: فالذي تدَّعون من الأولاد لله لا يعلمون شيئاً إلا ما علمهم الله، فكيف يكونون كالجزء والجنس لمن لا يخفى عليه شيء؟

وقد قدمنا مراراً(١): أن العلم المحيط لله وحده، وأن المخلوقين يعلمون من علم الله ما علمهم الله فقط، وبينا أمثلة كثيرة لذلك، منها:

أن أعلم الخلائق ـ الملائكة والرسل ـ الملائكة قد قدمنا في سورة البقرة أن الله لما قال لهم: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: الآيتان ٣١، ٣٢] فقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ النكرة إذا بُنيت على الفتح مع (لا) فـ(لا) التي معها هي (لا) التي لنفي الجنس(٢). والمعنى: أنهم نفوا جنس العلم من أصله عن أنفسهم، إلا شيئاً علمهم الله إياه.

والرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) ـ مع ما أعطاهم الله من الفضل

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

(٢) انظر: ضياء السالك (١/٣٥١).

والمكانة والعلم - دلت آيات كثيرة أنهم لا يعلمون إلا ما علمهم خالقهم جل وعلا.

هذا سيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه)، الذي فضّله الله في الأرض والسماء على جميع الخلق - نبينا محمد ﷺ؛ لأنكم تعرفون في قصة الإسراء والمعراج الثابتة بالأحاديث الصحيحة التي لا كلام فيها، أنه لما ارتفع (صلوات الله وسلامه [عليه])(١) إلى السماء، واخترق السبع الطباق، بلغ مبلغاً لم يبلغه رسول من الأنبياء، فظهرت مكانته على الجميع في العالم العلوي. ولما نزل إلى الأرض (صلوات الله وسلامه عليه) صلى بهم، فكان هو الإمام الأعظم، بإشارة من جبريل (صلوات الله على الجميع) - قد رُميت أحب زوجاته إليه بأعظم فرية، رموها بالفاحشة مع صفوان بن المعطل، وهو (صلوات الله وسلامه عليه) يغدو الملك ويروح عليه بالوحي، فلما رموها كان (صلوات الله وسلامه عليه) لا يدري أحق ما قالوا عنها أم لا؟؟ حتى هجرها، وكان يقول: كيف تِيكُم؟ قالت: فقدت من رسول الله ﷺ العطف الذي كنت أجده منه إذا مرضت. وكان يقول لها: «**يا عائشة إن كنت أَلْمَمْتِ بذنب فتوبي إلى الله، وإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله**». لا يدري عن الحقيقة حتى أخبره المحيط علمه بكل شيء - رب السماوات والأرض - وقال له: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ﴾ [النور: آية ٢٦] وصرح بأن المقالة التي قيلت عليهم إفك وزور ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [النور: آية ١١] ولما قالت لها أمها - لما نزلت براءتها في بيت أبي بكر -: قومي إليه فاحمديه. قالت (رضي الله عنها): والله لا أحمده اليوم، ولا أحمد اليوم إلا الله؛ لأنه هو الذي برأني، فهو (صلوات الله وسلامه عليه) لم يبرئني(٢).

وهذا نبي الله إبراهيم - وهو هو - مع ما أعطاه الله من المكانة ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [البقرة: آية ١٢٤] وشهد له الله الشهادات العظيمة

---

(١) زيادة يقتضيها الكلام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ [النجم: آية ٣٧] ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: آية ١٢٤] وقيل للنبي ـ وهو هو ـ (صلوات الله وسلامه عليه): ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: آية ١٢٣] ذبح عجله، وتعب هو وامرأته في إنضاج العجل، ولم يدرِ أن ضيفه ملائكة حتى قدّم العجل المُنضج إلى الملائكة، ولما رآهم لا يمدون إليه أيديهم نَكِرَهم وخاف منهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: آية ٧٠] وصرح لهم في سورة الحجر بأنه خائف منهم ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: آية ٥٢] أي: خائفون منكم، ولم يدر حقيقة الأمر حتى سألهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨﴾[1] [الحجر: الآيتان ٥٧، ٥٨] (...)[2].

وهذا نراه مشاهداً اليوم، كل كفر وإلحاد، وكل خساسة في الخُلُق ارتكبوها، دخلوا معهم كل جحر، حتى إنه وُجد واحد إفرنجي نبتت قرحة تحت أنفه، فلم يقدر على حلق شعرات الشارب، صاروا يتركون من ذلك شيئاً، دخولًا في ذلك الجحر، واتباعاً لتلك القرحة، فحلقوا لحاهم، وتركوا دينهم، ودخلوا مع الإفرنج في كل جحر دخلوه!! وهذا من غرائب معجزاته[3] (صلوات الله وسلامه عليه)، حيث أقسم على هذا، وتحقق بعد عشرات القرون، والغيوب التي أخبر بها كثيرة جداً، كثير منها شاهده الناس، والباقي منها سيشاهدونه. وهذا معنى قوله (جل وعلا): ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: آية ١٠١].

ثم إن الله (جل وعلا) لما بين غرائب وعجائب صنعه وكمال قدرته، وبين لنا هذا في آيات كثيرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الأنعام: آية ٩٥]، وبين (جل وعلا) أنه الذي أنشأنا وخلقنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: آية ٩٨]، وبين أنه خلق لنا أرزاقنا على ذلك الأسلوب الغريب العجيب ﴿وَهُوَ

---

(١) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل.

(٢) سيأتي نحو هذا البسط عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأعراف، والآية (٣٠) من سورة التوبة.

(٣) سيأتي عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأعراف.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: آية ٩٩] وبين أنه الواحد الذي لا مثيل له ولا نظير، المتنزه عن الأولاد والصاحبات، وأنه خالق كل شيء، وأنه العليم بكل شيء، أشار لنا وقال: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي سمعتم صفاته وغرائب فعله وعجائبه هو ﴿ٱللَّهُ﴾ خالق هذا الكون الذي يأمركم وينهاكم على لسان نبيه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٢]، لا معبود يُعبد بالحق إلا هو وحده، وكل معبود من دونه ـ كالجن الذي عبدها أولئك الكفرة ـ هو وعابدوه في النار ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء: آية ٩٨].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: آية ١٠٢] (جل وعلا) لأنه (جل وعلا) خالق كل شيء، وإذا نظر الإنسان في أصناف المخلوقات بهر عقله قدرة الله (جل وعلا)، فإذا نظرتم إلينا معاشر الآدميين تجدون خالق السماوات والأرض أودع في الواحد منا من غرائب صنعه وعجائبه ما يبهر العقول، ويفتت الكُبود.

من أظهر ذلك: أنه صَبَّنا صَبَّة واحدة، فجعل الأنف هنا، والعينين هنا، والفم هنا، ولم يتفق منا اثنان، لا يمكن أن يتفق اثنان، حتى لا يُعرف [فرق][1] بينهما، ولو جاءت الآلاف والملايين، مضروباً في الآلاف والملايين: لم يضق العلم أن يجعل لكل واحد صورة وهيئة مخالفة لصورة الآخر وهيئته، حتى إن الأصوات، وآثار الأقدام، وبصمات الأصابع في الأوراق، كل هذا لم يشتبه منه شيء. وهذا من غرائب صنع هذا الخالق وعجائبه جل وعلا.

وأبدع في كل واحد منا، لو شُرِّح عضو واحد تشريحاً صحيحاً لبهر العقول ما أودع الله فينا من غرائب صنعه وعجائبه.

إذا نظرت في العينين تجد في العينين من غرائب صنع الله ما يبهر

(١) زيادة يقتضيها السياق.

العقول، كيف جعل هذا النور الذي يشع لهذا الإنسان يجتلب عليه جميع مصالحه، ومن ذلك - من الظاهر الواضح - أنه جعل للعين شحمة لئلا يجففها الهواء والريح، وجعل ماء العين مِلْحاً لئلا تُنتن الشحمة؛ لأن الملح يزيل النتن، وصبغ له بعضها بصبغ أسود، وبعضها بصبغ أبيض، وفتح له فماً، وجعل له عيناً عذبة من الريق يأكل بها الطعام، لو جف ريقه لما قدر أن يبتلع الزبد الذائب، ومن كمال قدرة الله أن الريق إذا كان يأكل به يبُل به الطعام ويبتلعه ويجم له الريق، وإذا كان غير وقت الحاجة ينقطع عنه الجَمّ؛ لئلا يتعبه التفل. فلو جعل له عينيه في قدميه لما رأى بهما شيئاً، ولو جعله عموداً واحداً كالخشبة من غير مفاصل لتعب، رتب بعض مفاصله ببعض لينثني، ورتب فقرات الظهر بعضها ببعض، وفرق له أصابع يديه، لو جعل يده ملتصقة كيد البعير لم يحُل شيئاً ولم يعقد شيئاً، وشد له رؤوس أصابعه بالأظفار، وأودع فيه من الغرائب والعجائب شيئاً يبهر العقول.

ونحن نلفت أنظار إخواننا دائماً لما لفت الله أنظارنا إليه، بأن كل هذه العمليات - أيها الإخوان - عملها ربنا فينا من غير أن يشق بطن أمهاتنا، ولا أن يخيطها، كل هذه العمليات الهائلة والأم بطنها لم يُشق، ولم يحتج إلى أن تُبنج، ولا أن تنوم في صحيّة، يعمله خالق الكون وهي لا تدري ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: آية ٦].

وهذا ننبه الناس إليه دائماً؛ لأن الله يُعجِّب خلقه منهم كيف ينصرفون عن هذا؟!! حيث قال في السورة الكريمة سورة غافر: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: آية ٦].

أنتم كُلّا تعلمون أن الواحد منكم يدخل رحم أمه ليس مخططاً مفصلًا، ليس فيه رأس، ولا يد، ولا رجل، ولا عظم، نطفة ماء من مني، ثم الله (جل وعلا) يخلق هذا المني دماً، ثم يخلق الدم علقة، ثم يخلق الدم مضغة، ثم المضغة عظاماً، إلى آخر ما ذكر. ويخططكم هذا التخطيط، ويفصلكم هذا التفصيل، ويفتح لكم العيون، والأفواه، والآناف، والأسماع، ويجعل في العين حاسة البصر، وفي اللسان حاسة الذوق، وفي [الأذن]

حاسة [السمع][1] إلى غير ذلك. ويُرَتَّب ـ أيها الإخوان ـ هذه العظام والسُّلاميات هذا الترتيب الغريب العجيب ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: آية ٢٨] الأسر: معناه شد الشيء بالشيء وإلصاقه به. إذ لو كان الذي ألصق هذه العظام والسُّلاميات بعضها ببعض، بل ولو لم يجعله قوياً مشدوداً لقالوا: سقطت يد فلان البارحة، وسقطت رجله، وطاح فخذه؛ لأنه لم يكن مشدوداً!! لا، شَدَّهُ خالق السماوات والأرض، وألصق العظام بعضها ببعض، والغضارف بالعظام واللحم، وشدّ هذا شداً محكماً ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان: آية ٢٨].

الشاهد أن الله نبهنا على فعله فينا ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: آية ٢١] وبين لنا أنَّا ندخل بطون أمهاتنا نُطف ماء؛ ولذا قال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: آية ٦] ينقلكم من طَور إلى طَور ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: الآيتان ١٣، ١٤] وهذا كله والواحد في ظلمات ثلاث: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: آية ٦] ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، لم يحتج خالق السماوات إلى أن يشق البطن، ويشق الرحم، ويزيل المشيمة التي على الولد، حتى يتمكن بصره، لا، بصره (جل وعلا) وعلمه نافذ، يفعل هذه الأفعال الغريبة العجيبة، ولم تمنعه من ذلك الظلمات الثلاث، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم قال ـ وهو محل الشاهد ـ: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: آية ٦]. ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أين تُصرف عقولكم، وتذهب عن فعل خالقكم جل وعلا فيكم؟! ولذا قال (جل وعلا): ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: آية ١٦] وقد بين غرائب صنعه وعجائبه، أشار لخلقه للإنسان كما كنا نقول: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: آية ٦] وهذا الخلق بعد الخلق، والطَّور بعد الطَّور، المذكور في قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: آية ١٤] بينه (جل وعلا) في سورة (قد أفلح

---

(١) في الأصل: «وفي السمع حاسة الأذن» وهو سبق لسان.

المؤمنون) قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ١٢ ـ ١٤] هذه أفعال الله جل وعلا فينا الدالة على أنه الرب وحده، المعبود وحده (جل وعلا)(١)؛ ولذا قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ يعني: أن من فعل هذه الأفعال، وكانت قدرته بهذه المثابة من العظمة هو المعبود وحده جل وعلا.

﴿وَهُوَ﴾ ـ جل وعلا ـ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: الآيتان ١٠١، ١٠٢] أصل الوكيل: هو الذي تُفوض إليه الأمور وتسند؛ ليجلب المصالح فيها، ويدفع المضار، وهو (جل وعلا) هو الوكيل بكل شيء، الذي كل شيء بيده، تُفوَّض أمور كل شيء إليه، يفعل فيها ما يشاء (جل وعلا). هذا الذي هذه صفاته هو الذي يستحق أن يُعبد جل وعلا.

١/١٣ / قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠٣].

استدل المعتزلة بهذه الآية الكريمة على أن الله لا يُرى بالأبصار. واستدلالهم بهذه الآية على ذلك باطل(٢).

واعلموا أولًا: أن التحقيق في رؤية الله بعين الرأس أنها يُنظَر إليها بنظرين:

أحدهما: النظر إليها بالحكم العقلي.

---

(١) مضى نحو هذا البسط عند تفسير الآيتين (٩٢، ٩٨) من سورة الأنعام، وسيأتي نحوه عند تفسير الآيتين (١١، ٤٥) من سورة الأعراف، والآية (٣٨) من سورة التوبة.

(٢) انظر: ابن جرير (١٦/١٢ ـ ١٨، ٢٠ ـ ٢٢)، الشريعة للآجري ٢٥١ فما بعدها. اللالكائي (٤٥٤/٣) فما بعدها، ابن كثير (١٦١/٢)، شرح العقيدة الطحاوية ٢١٢. وللدارقطني في الرؤية كتاب مفرد، وهو مطبوع.

والثاني: النظر إليها بالحكم الشرعي.

أما رؤية الله بالنظر إلى حكم العقل: فهي جائزة في الدنيا، وجائزة في الآخرة.

فالدليل على جوازها عقلًا في دار الدنيا: أن نبي الله موسى - وهو هو - قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: آية ١٤٣] فلو كانت رؤية الله مستحيلة عقلاً في الدنيا لما خفي ذلك على نبيه موسى؛ لأنه لا يجهل المستحيل في حق الله.

أما بالنظر إلى الحكم الشرعي: فهي جائزة وواقعة في الآخرة قطعاً، ممتنعة في الدنيا. وهذا هو التحقيق، فعُلم من هذا التحقيق: أن رؤية الله بالأبصار وعيون الرؤوس جائزة عقلًا في الدنيا والآخرة، جائزة وواقعة شرعاً في الآخرة، ممتنعة شرعاً في الدنيا[١]. فالله جل وعلا في دار الدنيا لا يُرى بالأبصار فعلًا، وإن كان ذلك يجوز عقلًا، ولكنه في الآخرة يراه المؤمنون (جل وعلا)، هذا هو التحقيق.

ومذهب أهل السنة والجماعة الذي دلت عليه آيات القرآن، والأحاديث الصحيحة المتواترة، أن رؤية الله واقعة شرعاً، يراه المؤمنون يوم القيامة بأبصارهم، كما جاء عن حوالى عشرين صحابياً في أحاديث متواترة[٢]: أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة. وقد نص الله على ذلك في آيات من كتابه[٣]، كقوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣] وكقوله (جل وعلا) في الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين: آية ١٥] يُفهم من مفهوم مخالفته: أن

---

(١) انظر: مختصر الصواعق، ص١٧٩.

(٢) انظر: كتاب الرؤية للدارقطني، الشريعة للآجري ٢٥٣ فما بعدها، اللالكائي (٣/٤٧٠) فما بعدها. شرح الطحاوية ٢١٥، ٢١٧، وقد ساق ابن القيم (رحمه الله) أحاديث الرؤية عن سبعة وعشرين صحابياً. انظر: حادي الأرواح ص٢٠٥ فما بعدها.

(٣) انظر: الأضواء (٢/٢٠٦).

(٤) انظر: اللالكائي (٣/٤٦٨)، الشريعة ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، شرح الطحاوية ص٢١٢.

النبي ﷺ أنه فسر قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «**الحسنى الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم**»[١].

هذا هو التحقيق في رؤية الله، أنها جائزة في حكم العقل في الدنيا والآخرة، ممتنعة في حكم الشرع في دار الدنيا، واقعة في الآخرة.

ولطالب العلم هنا سؤال، وهو أن يقول: إذا كانت جائزة عقلًا في الدنيا فما وجه منعها وعدم إمكانها شرعاً؟

أجاب بعض العلماء عن هذا السؤال: بأن الناس في دار الدنيا رُكّبوا تركيباً ضعيفاً مُعَرَّضاً للتغير، والفناء، والزوال، وهذا التركيب الضعيف المُعَرَّض للفناء، والتغير، والزوال، لا يقدر، ولا يستطيع، ولا يقوى على رؤية خالق السماوات والأرض، والدليل على ذلك: أنه لما تجلّى للجبل صار الجبل دَكّاً لعظم رؤية الله (جل وعلا)، كما يأتي في الأعراف في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: آية ١٤٣] فما يدك الجبال لا يقدر عليه بنو آدم، ولا يقوون عليه[٢]. أما في الآخرة فإن الله يُرَكِّبهم تركيباً جديداً قوياً ليس قابلاً للتغير ولا للفناء، فيقوون بتلك القوة على رؤية الله جل وعلا.

فتبين بهذا أنها جائزة عقلًا في الدنيا، إلا أن البشر يعجزون ولا يقوون عليها، وأنها واقعة شرعاً؛ لأنهم في ذلك الوقت يطيقونها لتركيبهم الجديد الدائم.

هذا مذهب أهل السنة والجماعة، وقد قدمنا مراراً في هذه الدروس[٣]: أن الواجب على كل المسلمين في آيات الصفات: أن يعتقدوا

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم (سبحانه وتعالى)، حديث رقم: (١٨١) (١٦٣/١) من حديث صهيب (رضي الله عنه). وقد رواه جماعة من الصحابة والتابعين ذكرهم اللالكائي (٤٥٥/٣)، والآجري في الشريعة ٢٥٧ وغيرهما.

(٢) انظر: شرح الطحاوية ص٢٢٠، مختصر الصواعق ١٨٠.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأنعام، وسيأتي في مواضع أخرى متعددة.

ثلاثة أُسس كلها في ضوء القرآن العظيم، فمن اعتقد الأُسس الثلاثة كلها لقي ربه سالماً على محجة بيضاء، ومن أخل بواحد منها وقع في مهواة قد لا يتخلص منها، هذه الأُسس الثلاث:

أولها: ـ وهو الأساس الأكبر للتوحيد، وهو الحجر الأساسي لمعرفة الله الصحيحة، والصلة بالله على أساس صحيح وثيق. هذا الأصل العظيم الذي هو أساس التوحيد، والحجر الأساسي لمعرفة الله معرفة صحيحة وثيقة ـ: هو اعتقاد أن خالق السماوات والأرض منزه غاية التنزيه عن أن يشبه شيئاً من صفات خلقه، أو ذواتهم، أو أفعالهم. فهو (جلّ وعلا) العظيم الأعلى الذي لا يشبه شيئاً من خلقه، ومَنْ الخلق حتى يشبهوا مَنْ خَلَقَهم؟ أليسوا أثراً من آثار قدرته وإرادته؟ كيف تشبه الصنعة صانعها؟ لا.

وهذا الأساس العظيم، الذي هو أساس التوحيد، والحجر الأساسي لمعرفة الله معرفة صحيحة، الذي هو تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة الخلق، بيّنه الله في آيات من كتابه، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: آية ٤] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: آية ٧٤] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: آية ٦٥] هذا أساس التوحيد الأكبر، فإذا نظّف الإنسان ضميره من نجاسة وتقذير التشبيه كان سهلاً عليه أن يؤمن بما وصف الله به نفسه، وما وصفه به رسوله ﷺ إيماناً مبنياً على أساس التنزيه؛ لأن كل البلايا منشؤها من أقذار القلوب بنجاسات التشبيه، فمن طهر قلبه عن أقذار التشبيه ونجاساتها، وعلم أن صفات الله بالغة من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينها وبين صفات المخلوقين: سهل عليه أن يؤمن بالصفات؛ لأنه يعتقد في معانيها التنزيه الكامل عن مشابهة الخلق.

وهذان الأصلان اللذان بيناهما الآن ـ اللذان هما: تنزيه الله عن مشابهة خلقه، والإيمان بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، وعدم مشابهة الخلق ـ لم نقله من تلقاء أنفسنا، وإنما قلناه في ضوء تعليم خالق السماوات والأرض في ضوء المحكم المنزل؛ لأن الله لما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

[الشورى: آية ١١] فإتيانه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فيه تعليمٌ أعظم، ومغزىً أكبر، وسِرٌّ سماوي لا يخفى، لا يبقى معه في الحق لبس؛ لأنه قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ مع أن السمع والبصر ـ ولله المثل الأعلى ـ من حيث هما سمعٌ وبصر يتصف بهما جميع الحيوانات ـ ولله المثل الأعلى ـ فكأن الله يقول: لا تتنطع يا عبدي يا مسكين فتنفي عني صفة سمعي وبصري، مدعياً أن المخلوقات تسمع وتبصر، وأنك إن أثبتَّ لي سمعي وبصري كنتَ مُشبِّهاً لي بالمخلوقات التي تسمع وتبصر. لا، وكَلَّا!! أَثْبِتْ لِي سمعي وبصري، مراعياً في ذلك الإثبات: تنزيهي، وقولي قبله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فجميع الصفات من هذا الباب الواحد. فأول الآية ـ أعني: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ـ يدل على التنزيه الكامل عن مشابهة المخلوقين من غير تعطيل، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يدل على الإيمان بالصفات إيماناً حقاً على أساس التنزيه، من غير تشبيه ولا تمثيل.

فالأساس الأول من هذه الأُسُس الثلاثة: هي تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم، وذواتهم، وأفعالهم.

الأساس الثاني: هو أن لا تكذب الله فيما أثنى به على نفسه؛ لأنه لا يصفُ اللَّهُ أعلمُ بالله مِنَ الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: آية ١٤٠] ولا يصفُ الله بعد الله أعلمُ بالله من رسول الله ﷺ الذي قال في حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤].

فعلينا أولًا أن نطهر قلوبنا من أقذار التشبيه، وأن نُنزه خالق السماوات والأرض عن أن تشبه صفتُه صفة خلقه، ثم إذا طهَّرنا القلوب من أقذار التشبيه، ونَزَّهْنا خالق السماوات والأرض عن مشابهة الخلق، سهل علينا الإيمان بصفاته ـ صفات الكمال والجلال ـ إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، وعدم المماثلة، على غِرَار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١].

الأساس الثالث من هذه الأُسس: هو قطع الطمع عن إدراك الكيفيات؛ لأن من أدرك كيفية الشيء فقد أحاط به، والله يقول: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه: آية ١١٠].

فهذه الأُسس الثلاثة التي هي: تنزيه الله عن مشابهة خلقه، والإيمان بصفاته الثابتة في كتابه وسنة رسوله، إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، وقَطْع الطمع عن إدراك الكيفية. هذا معتقد السلف الذي كان عليه النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون. لا يفسرون صفات الله إلا بدليل جليل لائق منزه عن الأقذار ومشابهة الخلق، ولا ينفون عن الله ما أثبته لنفسه، بل يثبتونه له على أساس التنزيه، على غِرَار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١].

وأنا أؤكد لكم: أننا في هذه الدار ـ دار الدنيا ـ وسنرتحل جميعاً منها إلى القبور، ثم ننتقل من القبور إلى عَرَصَات القيامة، إلى محل المناقشة والسؤال عن الحقير والجليل، فإذا جئتم الله وأنتم معتقدون هذه الأُسس الثلاثة، أؤكد لكم أنه لا تأتيكم بلية، ولا وَيْلَة، ولا مشكلة، ولا لوم، ولا توبيخ من واحد من هذه الأُسس التي بينتُ لكم على ضوء القرآن العظيم. فلا يقول الله لواحد منكم: لِمَ تنزهني عن مشابهة المخلوقات؟ لا، وكَلَّا. هذا التنزيه طريق سلامة محققة. ولا يقول الله لأحد منكم: لِمَ أثبتَّ لي ما أثْبَتُّه لنفسي، أو أثْبَتَه لي رسولي؟ ولِمَ تصدقني فيما أثنيت به على نفسي؟ لا، وكَلَّا. فتصديق الله والإيمان بما قال على أساس التنزيه طريق سلامة محققة لا شك فيها. ولا يقول الله لواحد منكم: لِمَ لا تَدَّعي أن عقلك الضعيف المسكين محيط بكل صفاتي وكيفياتها؟ لا، وكَلَّا.

فهذه الأسس الثلاثة في ضوء القرآن العظيم طريق سلامة محققة؛ ولذا ما ثبت من رؤية الله بالأبصار نُمِرُّه كما جاء، ونعتقد أنه حق على الوجه اللائق بكماله وجلاله، المُنزه عن مشابهة صفات المخلوقين من جميع النواحي.

إذا عرفتم هذا: فاعلم أن العلماء أجابوا عن استدلال المعتزلة بهذه الآية الكريمة على مذهبهم الباطل بأجوبة متعددة:

منها: أن معنى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: آية ١٠٣] كما جاء عن ابن عباس وجماعة من السلف: أن الإدراك المنفي هنا هو الإحاطة[1]. والمعنى: لا تحيط به الأبصار.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/١٣).

والإدراك قد يطلق على الإحاطة كثيراً[١]، كقوله: ﴿أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ [يونس: آية ٩٠] أي: أحاط به من جميع جهاته. ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: آية ٦١]. أي: محاط بنا.

وعلى هذا فمعنى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ أي: لا تُحيط به الأبصار، وإن كانت تراه في الجملة، فالإدراك المنفي هو الإحاطة. والإحاطة لا يستلزم نفيها نفي مطلق الرؤية الثابت في الأحاديث المتواترة، والآيات القرآنية[٢].

الوجه الثاني: أن معنى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: آية ١٠٣] أي: لا تدركه في دار الدنيا[٣]، بدليل قوله: في الآخرة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣]. فلما قيد نظرها إلى ربها بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، عرفنا أن ذلك النظر مقيد بالقيامة، وأَنَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي: في دار الدنيا.

وقال بعض العلماء: لو سَلَّمنا ما يقوله المعتزلة من أن الإدراك: الرؤية، وأن الآية عامة ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فعمومها تخصصه آيات أُخر بيوم القيامة[٤]: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣] وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)﴾ [المطففين: آية ١٥] أي: بخلاف المؤمنين فليسوا بمحجوبين عن ربهم.

وقد تقرر في الأصول أن المفهوم يُخَصِّص العام[٥]، سواءً كان مفهوم موافقة، أو مفهوم مخالفة. فمثال تخصيص العام بمفهوم الموافقة[٦]:

(١) السابق (١٢/١٤).
(٢) انظر: أضواء البيان (٢/٢٠٦).
(٣) انظر: ابن جرير (١٢/١٨ ـ ١٩).
(٤) انظر: السابق (١٢/١٩).
(٥) انظر: الفقيه والمتفقه (١/١١٢)، روضة الناظر (٢/١٦٧)، شرح مختصر الروضة (٢/٥٦٨)، شرح الكوكب المنير (٣/٣٦٦ ـ ٣٦٨)، نهاية السول (٢/١٧٤)، الفتاوى (٣١/١٠٥ ـ ١١٠) أضواء البيان (٥/٥٦٠).
(٦) انظر: شرح الكوكب (٣/٣٦٦).

قوله ﷺ: **«لِيُّ الواجِدِ ظُلْمٌ يُحِل عِرْضَه وعقوبته»**[١] ومعنى قوله: **«لِيُّ الواجد»** يعني: ظلم الغني يُحِل عقوبته. يعني: بالحبس. وعِرْضَه: بأن يقول: ظلمني، ومطلني. وظاهر هذا العموم يشمل الوالد إذا مطل دَيْن ولده؛ لأن لفظة «الواجد» يصدق بكل غريم موسر، فيدخل فيه الأب، إلا أن مفهوم الموافقة في قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: آية ٢٣] يُفهم منه: أن حَبْسَه في دَيْنِه من باب أولى لا يجوز. فَخُصِّصَ الحديث بمفهوم الموافقة في الآية.

ومثاله في مفهوم المخالفة: قوله ﷺ: **«في أربعين شاة شاة»**[٢]. ظاهر عمومه: سواء كانت سائمة، أو معلوفة، فلما قال في الحديث الآخر: **«في**

---

(١) الحديث بهذا اللفظ أخرجه أحمد (٢٢٢/٤، ٣٨٨، ٣٨٩)، وأبو داود في الأقضية، باب في الدَّين هل يُحبس به؟ حديث رقم: (٣٦١١)، (٥٦/١٠)، والنسائي، كتاب البيوع، باب مطل الغني، حديث رقم: (٤٦٨٩، ٤٦٩٠)، (٣١٦/٧)، وابن ماجه، كتاب الصدقات؛ باب الحبس في الدَّين، حديث رقم: (٢٤٢٧)، (٨١١/٢)، والحاكم (١٠٢/٤) وصححه ووافقه الذهبي. وانظر الإرواء رقم: (١٤٣٤)، وصحيح ابن ماجه رقم: (١٩٧٠)، صحيح النسائي رقم: (٤٣٧٢، ٤٣٧٣)، صحيح أبي داود رقم: (٣٠٨٦)، المشكاة رقم: (٢٩١٩). وهو من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه (رضي الله عنه).

(٢) هذه الجملة ـ بهذا اللفظ ـ وردت في عدة أحاديث وآثار، فمن ذلك:

١ ـ عن ابن عمر (رضي الله عنهما) مرفوعاً. عند ابن ماجة في الزكاة، باب صدقة الغنم. حديث رقم: (١٨٠٥، ١٨٠٧)، (٥٧٨/١ ـ ٥٧٩).

٢ ـ عن أنس (رضي الله عنه) مرفوعاً. عند الطبراني في الأوسط (٣٠٤/٧) وقال: «لم يرو هذا الحديث عن داود بن أبي هند إلا سلام أبو المنذر، تفرد به حاتم بن عبيدالله. وانظر: مجمع الزوائد (٧٣/٣).

٣ ـ ما رواه قزعة عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) (وشك قزعة في رفعه) عند أحمد (٣٥/٣) وقال في المجمع (٧٣/٣): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح» ا.هـ.

٤ ـ الحسن البصري (رحمه الله) مقطوعاً. عند ابن أبي شيبة (١٣٢/٣).

٥ ـ إبراهيم النخعي (رحمه الله) مقطوعاً. عند ابن أبي شيبة (١٣٢/٣).

كما ورد في هذا المعنى عدة أحاديث وآثار بألفاظ متفاوتة عن أنس وابن عمر (رضي الله عنهم) وكتاب النبي ﷺ في الصدقات الذي يرويه أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده، وكتاب أبي بكر (رضي الله عنه) في الصدقات، وكذا كتاب عمر (رضي الله عنه)، وورد عن علي (رضي الله عنه) موقوفاً وغير ذلك وحديث أنس في الصحيح.

الغنم السائمة زكاة»(١) خُصص عموم «**في أربعين شاة شاة**» بمفهوم المخالفة في قوله: «**في الغنم السائمة زكاة**». أي: فمفهومه: أن غير السائمة لا زكاة فيها. فيُخَصَّص بهذا المفهوم عموم: «**في كل أربعين شاة شاة**» ولذا يُخَصَّص عموم: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: آية ١٠٣] بمفهوم: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: آية ١٥] أي: بخلاف المؤمنين فليسوا محجوبين عن ربهم. وقد نص الله على ذلك في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣] وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: آية ٢٦] ولا شك أن القرآن تخصصه السنة، وأن السنة تخصص القرآن. فلو قلنا: إن عموم ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ عموم عام، بمعنى: لا تراه الأبصار. فإنه تخصصه الأحاديث المتواترة عن النبي أن المؤمنين يرونه يوم القيامة بأبصارهم، ودلت عليه الآية المذكورة كما هو معروف.

وتخصيص الكتاب بالكتاب والسنة معروف(٢).

فمثال تخصيص القرآن بالقرآن: تخصيص قوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: آية ٢٢٨] في قوله جل وعلا: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: آية ٤] فالمطلقة الحامل تخصص من القروء بوضع الحمل، وكما خصص منه المطلقة قبل الدخول بقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: آية ٤٩] ومعلوم أن تخصيص الكتاب بالسنة كثير؛ ولذا خُصِّصَ قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: آية ٢٤] بقوله: «**لا تُنكح المرأة على عمتها أو خالتها...**» الحديث(٣). وخُصِّصَ قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: آية ١١]

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب: زكاة الغنم. حديث: (١٤٥٤) (٣١٧/٣).

(٢) انظر: الفقيه والمتفقه (١١٢/١)، المستصفى (١٠٢/٢) فما بعدها، البحر المحيط للزركشي (٣٦١/٣) فما بعدها، شرح الكوكب المنير (٣٥٩/٣) فما بعدها، الروضة (١٦١/٢)، شرح مختصر الروضة (٥٥٨/٢)، نهاية السول (١٦٣/٢).

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، باب: لا تنكح المرأة على عمتها، حديث (٥١٠٩،=

بأولاد الأنبياء فلا يرثون، والولد الكافر فلا يرث، والولد الرقيق فلا يرث. كل ذلك بالسنة، وهذا معروف[١].

فمعنى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: آية ١٠٣] أو: لا تحيط به الأبصار، أو: لا تدركه الأبصار في الدنيا، ولكنها تراه في الآخرة.

واختار غير واحد: أن الإدراك هنا المنفي معناه: الإحاطة. أي: لا تحيط به الأبصار، ولا ينافي أنها تراه، ولكن لا تحيط به؛ لأنه لا يحيط به شيء، وهو محيط بكل شيء، وفي الحديث: «**لا أُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[٢] فكما أن المؤمنين يعلمون صفات ربهم ـ صفات الكمال والجلال ـ ولا يحيطون بكيفية كُنْهِها فكذلك يرونه يوم القيامة بعيونهم ولا تحيط به أبصارهم.

والحاصل هو ما قدمناه: أن التحقيق في رؤية الله بعيون الرؤوس بالأبصار أنها جائزة عقلًا في الدنيا والآخرة، ممتنعة شرعاً في الدنيا، جائزة وواقعة عقلًا في الآخرة بالأحاديث المتواترة، والآيات القرآنية كما بينا.

وقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الأبصار: جمع بَصَر، ولعلماء اللغة حدود متقاربة في معنى البصر[٣]:

قال بعضهم: البصر: العين، إلا أنه مُذَكَّر.

وقال بعضهم: البصر: حاسة الرؤية.

٥١١٠)، (٩/١٦٠)، ومسلم، كتاب النكاح، باب: تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح. حديث: (١٤٠٨)، (٢/١٠٢٨) من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه).

وقد أخرجه البخاري أيضاً في النكاح، باب لا تنكح المرأة على عمتها، حديث (٥١٠٨)، (٩/١٦٠) من حديث جابر (رضي الله عنه).

(١) انظر هذه الموانع وأدلتها في العذب الفائض (١/٢٣ ـ ٤١).

(٢) قطعة من حديث أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث (٤٨٦)، (١/٣٥٢).

(٣) انظر: المفردات (مادة: بصر) ص١٢٧، المصباح المنير (مادة: بصر) ص٢٠، الكليات ص٢٤٧.

وقال بعضهم: البصر: حِسُّ العين. أي: إحساسها الذي تُدرك به المرئيات.

وقال بعضهم: البصر: هو الجوهر اللطيف الذي ركَّبه الله في حاسة الرؤية تُرى به المُبْصَرات. معناه: أن هذا البصر الذي في العين ـ المعنى القائم فيها، الذي تُدرك به المُبصرات ـ لا يحيط بخالق السماوات والأرض وإن كانوا يرونه، كما جاء في الآيات القرآنية.

﴿وَهُوَ﴾ جل وعلا ﴿يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٣] أي: يحيط بها علماً وبصراً.

وهذه الآية تدل على أن الخلق لا يحيطون بكيفية البصر، ولا يعلمون كيفية هذا النور، وحقيقة هذا النور الذي جعله الله في العين تبصر به المرئيات. لا يبصر الإنسان بيده، ولا بأنفه، ولا بجبهته، ولا برجله، وإنما يبصر بخصوص عينه. فهذا المعنى الذي أودعه الله في العين لا تحيط الناس بكُنْه كيفيته، ولا حقيقته، والله (جل وعلا) يدركه، أي: يحيط به، ويراه، ويعلم حقيقته (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أصل (اللطيف): (فَعِيْل) من اللطف. واللطف أصله في لغة العرب: هو إيصال النفع، والإكرام، والبر بالطرق الخفية[1]. فكل ما يوصل إليك النفع، والبر، والإحسان فإنه لطيف بك. والعرب تقول: صديق مُلاطِف. إذا كان يلاطفك بالبر، والإحسان، والإكرام.

وسُئل بعض علماء العربية عن: (صديقك المُلاطِف) ما معنى كونه ملاطفاً لك؟

أجاب: بأن الصديق المُلاطِف ينطبق عليه قول الراجز[2]:

---

(١) انظر: المفردات (مادة: لطف) ص٧٤٠، الكليات ص٧٩٧.

(٢) هذا الرجز في المستطرف للأبشيهي (١٣٦/١)، ويُنسب لعبدالملك بن مروان، ونسبه ابن خميس في الشوارد (٧٦/٢) إلى القرشي، وهو في جمهرة الأمثال للعسكري (٥٨/١) بلا نسبة.

إن أخاك الحق من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

فعلى كل حال اللطف: إيصال البر والإكرام والإحسان. وكثيراً ما يُطلق على إيصاله بالطرق الخفية التي لا يعلمها كل الناس.

والله (جل وعلا) لطيف بخلقه، محسن إليهم، يدرك حقائقهم، ولا يخفى عليه منهم شيء، لطيف إليهم، محسن بَرٌّ بهم، يوصل لهم طرق الإكرام، والبر، والإحسان من حيث لا يشعرون. وقوله: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ (فَعِيل) من الخُبر. و(الخبير) في لغة العرب لا يكاد يطلق إلا على العالِم بما من شأنه أن يخفى، فلا يُطلق (الخبير) على العالم بالظاهر غالباً، وإنما يطلق (الخبير) على من عَلِم شيئاً من شأنه أن يخفى، ومنه قول العرب: «على الخبير سَقَطْتَ»[1] ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: آية ١٤]. فلو قلت مثلاً: «أنا خبير بهذا الأمر». وهو أمرٌ معنوي يخفى، كان كلاماً عربياً. ولو قلت: «أنا خبير بأن الواحد نصف الاثنين» لم يكن هذا من لغة العرب؛ لأن كون الواحد نصف الاثنين ليس من شأنه أن يخفى حتى يُعبَّر عنه بلفظ (الخبير). هذا هو معنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾. وكان بعض المتأخرين من العلماء يقول[2]: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ في استخراج الأشياء لقدرته عليها ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بمكانها، لا يخفى عليه شيء. والأول هو التفسير المعروف، وهو المعروف في كلام العرب. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠٤]. ﴿قَدْ﴾: هنا حرف تحقيق. و﴿جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ إنما ذكّر الفاعل ولم يقل: «جاءتكم بصائر»؛ لأن الجمع المُكسَّر يجري مجرى الواحدة المؤنثة المجازية التأنيث[3]، ويجوز التجريد

(١) انظر: الأمثال لأبي عبيد ٢٠٦.

(٢) وهو قول أبي العالية. انظر ابن جرير (١٢/٢٣).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٤) من سورة الأنعام. وانظر: الدر المصون (٥/٩١).

من التاء. وحسَّنه هنا الفصل بالمفعول ـ أعني: ﴿جَآءَكُم﴾ ـ فإن الفصل يبيح ويجوز به ترك التاء في المؤنثة الحقيقية، أحرى غيرُها[(١)].

وقوله: ﴿بَصَآئِرُ﴾ البصائر: جمع البصيرة (فَعِيْلَة) مجموعة على (فَعَائِل) على القياس. والبصيرة أشهر معانيها في لغة العرب أنها تُطلق إطلاقين يرجع إليهما غالب استعمال البصيرة في القرآن، وفي لغة العرب[(٢)]:

أحدهما: أن البصيرة هي الحُجَّة والدليل القاطع. ومعنى (البصائر): الحُجَج والأدلة القاطعة، وإنما قيل للدليل القاطع والحجة والبرهان: (بصيرة) لأنه يُنَوِّر البصيرة التي هي نور العقل، يُنَوِّرها حتى ترى الحق حقاً، والباطل باطلًا، والنافع نافعاً، والضار ضاراً، والحَسَن حَسَناً، والقبيح قبيحاً. وعلى هذا فمعنى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ أي: قد جاءتكم حُجَج قاطعات، وأدلة واضحات في هذا القرآن العظيم، بيّن الله لكم بها توحيده، وأدلة براهينه القاطعة، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ﴾ [الأنعام: آية ٩٥] إلى آخر ما تقدم من آيات البراهين، والحجج القاطعة في هذه السورة الكريمة.

ومن إطلاق البصيرة على الدليل القاطع: قوله جل وعلا: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: آية ١٠٨] أي: على علم، ودليل واضح، وبرهان قاطع لا يترك في الحق لَبْساً. ومنه بهذا المعنى: قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: الآيتان ١٤، ١٥] معناه: أن الإنسان حجة على نفسه. ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ وجهان معروفان من التفسير[(٣)]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة. وانظر: الدر المصون (٥/٩١).

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/٢٤)، البحر المحيط (٤/١٩٦)، الدر المصون (٥/٩١)، بصائر ذوي التمييز (٢/٢٢٣).

(٣) انظر: ابن جرير (٢٩/١٨٤ ـ ١٨٦)، ابن كثير (٤/٤٤٩)، اللسان (مادة: بصر) (١/٢١٩ ـ ٢٢٠).

أحدهما: أنه لو اعتذر كل الأعذار، كما قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٣] فنفسه حجة عليه؛ لأن جِلْدَه وجوارحه تنطق بما فعل، كما يأتي في قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت: آية ٢٢] وكقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يس: آية ٦٥] فكلام أيديهم وشهادة أرجلهم هو كون الإنسان بصيرة وحجة على نفسه، حيث يشهد عليه جِلْدُه وأعضاؤه ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [فصلت: آية ٢١] فعلى هذا: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ لو أتى بالأعذار الكاذبة كقولهم: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: آية ٢٢] ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [النحل: آية ٢٨] ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٣] فنفسه منها حجة قاطعة عليه، وهي شهادة أعضائه وجلده على أنه فعل كذا يوم كذا، في وقت كذا، في مكان كذا.

الوجه الثاني: أن (المِعْذَار) يطلق في لغة بعض العرب من اليمانيين وغيرهم على (السِّتْر)، فيقولون: «أرخى مِعْذَاره» أي: سِتْرَه. والمعنى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ تقوم حجة منه بما فعل على نفسه بشهادة جوارحه ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ أي: ولو أرخى ستوره وقت الذنب بحيث لا يطَّلع عليه أحد، فجوارحه تُخبر بما فعل. هذا هو معنى البصيرة، ومعانيها راجعة إلى هذا.

والظاهر أن تسمية العرب الدم الذي يخرج من البكر عند افتضاضها ـ فقطعة الدم التي تخرج من البكر عند افتضاضها ـ تسميها العرب: (بصيرة) لأنها حجة على أن الزوج وجدها بكراً غير ثيب[1]. ومن هنا قيل لدم القتيل الذي يكون عند أولاده ـ يأخذون دمه ـ تقول العرب لدمه: (بصيرة)؛ لأنه حجة

---

(١) (٢) انظر: القاموس (مادة: بصر) ص٤٤٨، اللسان (مادة: بصر) (٢٢٠/١).

(٣) البيت في ابن جرير (٢٤/١٢)، اللسان (مادة بصر) (٢٢٠/١). =

رَاحُوا بصائِرُهُم على أكتَافِهِم وبَصِيرَتِي يَغدُو بها عَتَدٌ وأَى

فمعنى قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ أي: قد جاءتكم في هذه السورة الكريمة حُجَج وبراهين قاطعات على كمال قدرته (جل وعلا) وآياته الباهرة، الدالة على أنه رب كل شيء، وأنه المعبود وحده.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ أي: بعين قلبه؛ لأن الإبصار إنما هو بالبصيرة، وهو المعنى الثاني للبصيرة، وهو الاستبصار والعلم بالقلب بحقائق الأشياء ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ يعني: ببصيرة قلبه؛ لأن الإبصار النافع هو الإبصار ببصيرة القلب كما يأتي في قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦].

ومن أراد أن يقرب عنده معنى هذه الآية الكريمة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ فلينظر إلى رجلين في وسط الشارع، أحدهما صحيح العينين، تام البصر جداً، إلا أنه مفقود العقل بتاتاً. والثاني أعمى، مكفوف لا يبصر شيئاً، إلا أنه كامل العقل تامه. فتجد صحيح العينين قوي النظر حديده، الذي يفقد العقل يضرب رأسه في الجدار، ويسقط في البئر، ويسقط في النار، ويسقط على الحيّة، فهو لا يرى شيئاً، وبصره الحديد لا ينتفع به، وتجد ذلك الأعمى وعصاه أمامه، يروغ من هنا ومن هنا، كأنه يرى كل ما يضره وما ينفعه، بهذا تعلموا مدى قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾(١).

إذا أبصر القلبُ المروءةَ والتقى فإن عمى العينين ليس يضير(٢)

ومعنى قوله: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ أي: ببصيرة قلبه وأدرك عظمة الله، وفهم عن الله آياته التي جاءت بها رسله فآمن بالله، وصَدَّق رسله، وامتثل أمر الله، واجتنب نهيه.

وقوله: «عَتَد» أي: الفرس الشديد التام الخلق، السريع الوثبة، المعد للجري.
وقوله: «وأى» أي: الفرس السريع الطويل.

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فقد أبصر لنفسه؛ لأن فائدة ذلك الإبصار راجعة عليه في الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ أي: عمي قلبه، ولم يفهم عن الله ـ والعياذ بالله ـ فلم يفهم عن الله آياته، ولم يفهم هذه البصائر والحُجج والأدلة القاطعة، لم يفهمها، ولكن عمي قلبه عنها ـ والعياذ بالله ـ فعلى نفسه، فعماه على نفسه، نفسه عمي عليها، وإياها أضر.

وهذه الآيات تدل الإنسان على أنه إن أبصر عن الله فإنما ينفع نفسه، وإن عمي عن الحق فإنما يضر نفسه ـ والعياذ بالله ـ فعلى المسلم أن يجتهد فيما يبصر به من إخلاص النية، وطاعة الله (جل وعلا).

وهذا معنى قوله: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ وهذا الكلام كأن الله أمر النبي ﷺ أن يقوله؛ ولذا قال في آخره: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ الحفيظ: (فَعِيل) بمعنى (فَاعِل) أي: بحافظ عليكم أعمالكم[1]، أوفقكم إلى خير، وأوفقكم لترك الشر، وإلى فعل الخير، وأحسب أعمالكم، وأضبطها عليكم، لا، وكَلَّا، ليس من شأني حفظ أعمالكم وتوفيقكم، ولا إحصاء أعمالكم عليكم، ولا مجازاتكم عليها، إنما أنا رسول مُبلِّغ، إنما عليَّ البلاغ، وقد بلَّغتُ، وحِفْظُ أعمالكم وتوفيقكم إلى الخير والشر ومجازاتكم على ذلك كله بيد الله وحده، كما قال جل وعلا: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: آية ٤٠] ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي: وهو التبليغ ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: آية ٥٤] أي: وهو الطاعة. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: آية ١٠٤] ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠٥].

في هذه الآية الكريمة ثلاث قراءات سبعيات[2]: قرأه من السبعة نافع،

---

(١) انظر ابن جرير (٨/٥٦٢).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٠، أضواء البيان (٢/٢٠٦).

غير ممدودة بألف، و(التاء) مفتوحة ـ تاء المخاطَب ـ ﴿دَرَسْتَ﴾ بعدم مدّ الدال، وفتح التاء. هذه قراءة نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي.

وقرأه من السبعة أبو عمرو، وابن كثير: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَارَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ على وزن (فَاعَلْت) بتاء المُخَاطَب المفتوحة.

وقرأه ابن عامر وحده من السبعة: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسَتْ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ على وزن (فَعَلَتْ) بتاء التأنيث الساكنة.

اعلم أولًا أن معنى الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: وكذلك التصريف الواضح الذي تُصَرِّف عليه الآيات على أنحاء مختلفة، من إقامة البراهين العقلية، وإفحام الخصوم، والوعد والوعيد، وبيان المَحَجَّة، كذلك التصريف الذي نصرِّف به الآيات في هذه السورة: نصرِّفها بغيرها من جميع القرآن مما يحتاج له البشر على أنحاء مختلفة من العقائد، والحلال والحرام، والآداب، والمكارم، والأمثال، والوعد والوعيد، كذلك التصريف الواضح على الأنحاء المختلفة، نُصرف الآيات. وتصريف القرآن بهذه الأساليب العظيمة لحكمة مفترقة إلى شيئين: أي: ليؤمن به من وفقه الله، وليُكذب به من خذله الله فيقول: دَرَسْتَ هذا القرآن على غيرك، وأخذته من غيرك[1]، كما قالوا: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان: آية ٥] ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: آية ٤] والمعنى: نُصَرِّف آيات القرآن على أنحاء مختلفة، في أكمل بيان وأوضحه؛ لنخذل قوماً، ونوفق آخرين؛ لأن الله أنزل هذا القرآن، وصدق في علمه أنه يؤمن به قوم فيُدخلهم الجنة، ويكفر به آخرون فيدخلهم النار؛ لأن هذا القرآن منذ أنزله الله لا يدخل أحد الجنة إلا عن طريق العمل به، ولا النار إلا عن طريق الإعراض عنه، فالعمل به مفتاح الجنة، والإعراض عنه مفتاح النار ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن

(١) انظر: أضواء البيان (٢/٢٠٧).

رَبِّكَ﴾ [هود: آية ١٧] والله (جل وعلا) يبتلي بابتلاءاته فيضل قوماً ويهدي آخرين، وله في ذلك الحكمة البالغة؛ ولأجل هذا جعل القرآن هدى لقوم وفقهم للعمل به، وجعله هلاكاً على آخرين، وحجة عليهم، خذلهم فأعرضوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: آية ٨٢] ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: آية ٤٤] والعياذ بالله ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ١٢٤، ١٢٥] هذا معنى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْأَيَٰتِ﴾ ولأجل أن ينقسموا إلى أشقياء وسعداء: صرفنا هذا القرآن على هذا التصريف.

﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ أي: وليقول الكفار الذين خذلهم الله ولم يوفقهم للعمل به: ﴿دَرَسْتَ﴾ يعنون درست هذا القرآن على غيرك، وأخذته عن بعض البشر[1]، كما يأتي في قوله: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: آية ١٠٣] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي: يرويه محمد عن غيره ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر: الآيات ١٨ ـ ٢٦] وكقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ افْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: آية ٤] وكقولهم: ﴿اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: آية ٥] أي: ليقول من خذله الله: دَرَسْتَ هذا القرآن، وأَخَذْتَه عن غيرك من البشر، وتعلمته منه، كما قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: آية ١٠٣] أي: لأجل أن يخذل الله من خذلهم فيكذبون بكتاب الله، وينكرون أنه منزل من الله، ويزعمون أنه درسه على غيره، وأخذه من بشر.

---

(١) انظر: أضواء البيان (٢/٢٠٦).

هذا على قراءة نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي[(١)].

أما على قراءة ابن كثير، وأبي عمرو: ﴿وليقولوا دَارَسْتَ﴾ فمعناه راجعٌ إلى الأول، والمعنى: دَارَسْتَ غيرك من البشر، دَارَسْتَهم فدَارَسُوك، وقرأت عليهم وقرؤوا عليك، فاستعنت بهم حتى حصّلت هذا الكلام الذي جئت به من عندهم.

أما على قراءة ابن عامر: ﴿وليقولوا دَرَسَتْ﴾ فأصلها قراءة معناها مُشْكِل، وأظهر أقوال العلماء فيها وجهان[(٢)]:

أحدهما: وليقول من خذله الله وأشقاه ولم يوفقه للقرآن: دَرَسَتْ هذه الآيات التي تأتي بها؛ لأنها متقادم عهدها؛ لأنها من أساطير الأولين أخذتها عنهم؛ فهو ليس بشيء جديد أُنزل عليك، وإنما هي دارسة قديمة، كانت عند الأولين من أساطيرهم، أخذتها عنهم، وعلى هذا فالمعنى يرجع إلى قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: آية ٥] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل: آية ٢٤] لأن أساطير الأولين أساطير قديمة دارسة أخذتها عنهم، ليست بأمر جديد منزل عليك. وهذا من أبين الوجوه في قراءة ابن عامر: ﴿وليقولوا دَرَسَتْ﴾.

الوجه الثاني: أي: وليقول من خذله الله وأشقاه ولم يوفقه للعمل بالقرآن: دَرَسَتْ هذه الآيات، طال علينا العهد بها وانمحت، فينبغي لك أن
١٣/ب تأتي بغيرها/ وتبدلها بجديد، فإن هذه الأولى دَرَسَتْ ولم تنفع، كما قال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: آية ١٥]. والأول أظهر.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٥] هذه الحكمة، أي: ليقول من خذلهم الله وأشقاهم: دَرَسْتَ هذا القرآن وأخذتَه عن بشر، فهو أساطير الأولين وليس بكلام الله؛ ولأجل أن نبينه لمن وفقناهم، فيكون

(١) في توجيه هذه القراءات انظر: حجة القراءات ٢٦٤، ابن جرير (١٢/٢٦)، القرطبي (٧/٥٨)، البحر المحيط (٤/١٩٧)، الدر المصون (٥/٩٦)، أضواء البيان (٢/٢٠٦ ـ ٢٠٧).

(٢) انظر: أضواء البيان (٢/٢٠٧).

عميَ على هؤلاء وهدىً لهؤلاء، كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: آية ٤٤] فقوله: ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ كقوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٥] كقوله: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: آية ٤٤] وكقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: آية ٨٢] أي: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لهم عقول وعلم يُظهر لهم ما ضَمَّنَّا في هذا القرآن من تصريفنا الآيات من غرائبنا، وعجائبنا، وبصائرنا، أي: أدلتنا القاطعة الواضحة التي لا تترك في الحق لبساً. وهذا معنى قوله: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ١٠٦، ١٠٧].

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لمّا بين الله (جل وعلا) أنه أنزل علينا على لسان نبينا بصائر حيث قال: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ والمعنى: جاءتكم من قِبَلنا على لسان نبينا بصائر، أي: حُجَج قاطعات، وأدلة واضحات، لا تترك في الحق لبساً. فهذه البصائر التي جاءتكم يلزمكم اتباعها، وعدم المَيْل والحَيْدة عنها؛ ولذا أتبع قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ [الأنعام: آية ١٠٤] بقوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٦] وهو تلك البصائر والبينات والحُجَج القاطعات التي أنزلها الله عليك، وهذه البصائر: هي هذا القرآن العظيم، وهو المأمور باتباعه في قوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٦] وهذا القرآن العظيم يجب علينا جميعاً أن نتّبعه، ونتأدب بآدابه، ونتخلق بما فيه من مكارم الأخلاق، ونُحلّ حلاله، ونُحرم حرامه، ونعتقد عقائده، ونزجر [بوعيده]، ونبسط [لوعده][1]، ونتأسى بأمثاله، إلى غير ذلك من العمل به.

واعلموا أن هذا القرآن العظيم هو أعظم نعمة أعطاها الله لهذا الخلق

(١) في الأصل: «ونزجر بوعده، ونبسط لوعيده». وهو سبق لسان.

الذي أنزله عليه، وقد بين (جل وعلا) أن إيراث هذا القرآن العظيم هو العلامة الوحيدة في الاصطفاء، فالله لا يورث هذا الكتاب إلا من اصطفاه من خلقه، حيث قال تعالى بعد أن نوّه بالقرآن والعمل به: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟﴾ إلى أن قال: ﴿يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فبيَّن أن إيراث هذا الكتاب علامة للاصطفاء؛ ولذا قال: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ والجمهور من العلماء على أن الذين أُورثوا الكتاب الذين اصطفاهم الله بإيراث هذا الكتاب لا يختصُّون بحَمَلَة القرآن الذين يحفظونه، بل يشمل جميع الأمة الذين يعملون به، فيُحِلُّون حلاله، ويُحَرِّمون حرامه، ويعتقدون عقائده، إلى غير ذلك، وإن لم يكونوا يحفظونه[(١)]، وسواء وقع منهم تقصير؛ لأن الله لما بين إيراثه للكتاب، وأن إيراثه الكتاب علامة الاصطفاء، قسَّم هذه الأمة التي أورثها هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام، قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ثم نَوّه بالقرآن العظيم فقال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إيراثنا الكتاب إياهم عن نبيهم ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ من الله عليهم. فصرحت الآية بأن إنزال القرآن، وإيراثنا إياه أعظم فضل وأكبره علينا؛ ولذا علّمنا الله أن نحمده على هذه النعمة الكبرى، والفضل الأعظم، حيث قال في أول سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ①﴾ [الكهف: آية ١] يعني لم يجعل فيه اعوجاجاً من جهة الألفاظ ولا المعاني، فألفاظه بليغة مستقيمة، [ومعانيه][(٢)] كريمة جليلة، أخباره صدق، وأحكامه عدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: آية ١١٥] يعني: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام. ثم قال (جل وعلا) وهو محل الشاهد: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ يعني جميع الذين أُورثوا الكتاب، هذا القرآن العظيم، وعلى رأسهم الظالم لنفسه؛ لأنه أول من ذُكر، حيث

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣٣/٢٢)، ابن كثير (٥٥٤/٣).

(٢) في الأصل: ومغناه.

قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ثم قال عن الجميع: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ ولم يبق غير الذين أُورثوا الكتاب بظالمهم، ومقتصدهم، وسابقهم إلا الكفرة الفجرة؛ ولذا قال بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: الآيات ٢٩ ـ ٣٦] وكان بعض العلماء يقول: حُقَّ لهذه (الواو) أن تُكتب بماء العينين[١]. يعني واو ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ لأنها حَكَمَت بدخول الجميع في الجنة، وعلى رأسهم الظالم لنفسه.

وأصح التفسيرات في (الظالم)، و(المقتصد)، و(السابق)[٢]:

أن الظالم: هو الذي يطيع مرة ويعصي أُخرى، من الذين قال الله فيهم: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: آية ١٠٢].

والمقتصد: هو الذي يأتي بالواجبات، ويترك المحرمات، ولا يتقرب بالنوافل.

والسابق بالخيرات: هو الذي يأتي بالواجبات، ويتقي المحرمات، ويتقرب إلى الله بالنوافل، تقرباً إليه بغير الواجبات.

وكان بعض العلماء يقول: ما الحكمة في تقديم الظالم في آية فاطر هذه، والظالم إذا كان في هذا الوعد الكريم بدخول الجنة ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ فمن أين له أن يُقَدَّم فيقدمه الله بالذكر على المقتصد والسابق؟

للعلماء عن هذا أجوبةٌ معروفة[٣]:

منها: أن بعضهم قال: هذا المقام أظهر الله فيه كرمه وتعظيم هذا القرآن العظيم، وقوّة آثاره على من أورثهم إياه بدخول الجنة؛ ولذا بدأ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٢) انظر: ابن جرير (٢٢/١٣٣)، ابن كثير (٣/٥٥٤).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

بالظالم لئلا يقنط، وأخّر السابق بالخيرات لئلا يعجب بعمله فيحبط.

وقال بعض العلماء: أكثر أهل الجنة الظالمون لأنفسهم؛ لأن الله يقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: آية ٢٤] ولما كان أكثر أهل الجنة الظالمين لأنفسهم بدأ بهم لشأن الكثرة.

كذا قالوا والله ـ تعالى ـ أعلم؛ ولذا لما نوّه بهذه البصائر التي هي النعمة العظيمة ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٠٤] أمر باتباعها وقال: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٦] وهذا الذي أُوحي إليك من ربك هو تلك البصائر، أي: الحُجج القاطعات، والأدلة الساطعات الواضحات، التي لا تترك في الحق لبساً، التي صرّفها الله في هذا القرآن العظيم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [الأنعام: آية ١٠٥] كما قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: آية ٨٩] وهذا معنى قوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٦].

وهذه الآية نص بأن الذي يجب اتباعه هو الوحي، وهو القرآن العظيم، فلا يجوز اتباع غيره، فمن اتبع تشريعاً غيره فَرَبُّه من اتبع تشريعه، كما بيناه مراراً[(١)]، وكما سيأتي إيضاحه مراراً في هذه السورة الكريمة سورة الأنعام[(٢)]؛ لأن التشريع إنما هو لخالق السماوات والأرض، كما أنه لا شريك له في عبادته: كذلك لا شريك له في حكمه؛ ولذا قال تعالى في العبادة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: آية ١١٠] وقال في حكمه: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ٢٦] وفي قراءة ابن عامر: ﴿وَلاَ تُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾[(٣)] فالحكم لله وحده، كما أن العبادة له وحده، فهو المعبود وحده (جل وعلا)، فيجب توحيده في العبادة، وهو الحاكم وحده (جل وعلا)، فالحكم له وحده ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: آية ٥٧] لأن الحكم لا يكون إلا

---

(١) ما سبق عند تفسير الآية (٥٧) والآية (٩٤) من سورة الأنعام.

(٢) انظر ما سيأتي عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام، والآية (١٥٨) من سورة الأعراف، والآيتين (٢٨، ٣١) من سورة التوبة.

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران، ص٢٧٧.

لمن هو أعلى من كل شيء، وأكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: آية ١٢] لأن العلي الكبير الذي هو متصف بغاية العلو والكبر والعظم هو الذي له أن يأمر وينهى، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، وليس لأحد ألبتة تشريع مع الله، فكل من اتبع تشريعاً وضعياً سواء سمّاه نظاماً، أو قانوناً، أو دستوراً من التشاريع الوضعية التي وضعها إبليس على ألسنة أوليائه من الكفرة: فَرَبُّه ذلك الذي اتبع تشريعه، وهو كافر بالله كفراً بواحاً مخرجاً عن الملة. والله بيّن هذا في آيات كثيرة؛ لأن التشريع لا يمكن إلا أن يكون للسلطة العليا الحاكمة، التي لا يمكن أن تكون فوقها سلطة، وهي سلطة خالق السماوات والأرض، فهو الآمر الناهي، فالأمر أمره، والنهي نهيه، والدين ما شرع، والحلال ما أحل، والحرام ما حرم، ومن أراد أن يتبع تحليلاً وتشريعاً لغيره فقد اتخذ غيره رباً، وهو مشرك بخالق السماوات والأرض؛ لأن الشرك به في حكمه كالشرك به في عبادته؛ ولذا سيأتيكم في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأنعام ـ براهين قاطعة من هذه البصائر التي قال الله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ﴾ [الأنعام: آية ١٠٤] موضحاً أن من اتبع تشريع الشيطان فقد اتخذ الشيطان رباً، وهو مشرك بالله شركاً أكبر مخرجاً عن دين الإسلام[١]؛ ذلك أن إبليس اللعين لما قال لتلامذته من كفار مكة: سلوا محمداً ﷺ عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ قال لهم: الله قتلها. قالوا: إذاً هي ذبيحة الله، وأنتم تقولون: هي ميتة نجسة، فما ذبحتموه بأيديكم ـ يعنون المُذكى ـ تقولون: حلال طيب مستلذ!! وما ذبحه الله بيده الكريمة تقولون: حرام ميتة نجس، فأنتم إذاً أحسن من الله!! فأنزل الله ـ بإطباق العلماء[٢] ـ فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] يعني:

---

(١) انظر الإحالات السابقة.

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/٧٨).

الميتة. أي: وإن زعموا أنها ذبيحة الله، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني: الأكل من الميتة ﴿لَفِسْقٌ﴾ وخروج عن طاعة الله. ثم قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ أي: وإن أطعتموهم في أن الميتة حلال في تشريع الشيطان؛ لأن الصحابة والكفار اختلفوا في لحم الميتة، فقال الصحابة: حرام بتشريع الله؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] وقال أتباع الشيطان في تشريع الشيطان: الميتة حلال؛ لأنها ذبيحة الله، فما ذبحه الله أحسن مما ذبحه البشر.

فهي قطعة لحم اختلف فيها شرع الله مع قانون الشيطان، فقال الله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] يعني: إن أطعتم الكفار، بأكل الميتة الذي أباحه قانون إبليس، ونظام الشيطان ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ بالله حيث أشركتم به في حكمه، وهو يقول: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ٢٦].

وهذا الشرك الذي حكم الله به في سورة الأنعام على من اتبع قانون الشيطان، ونظام إبليس، هو الذي يوبخ الله مرتكبيه يوم القيامة - في سورة (يس) - على رؤوس الأشهاد، ويبين مصيرهم النهائي، وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: آية ٦٠] وقد أجمع العلماء أن عبادتهم للشيطان التي نهاهم عنها وعهد إليهم ألا يفعلوها إنما هي اتباع نظامه، وتشريعه، وقانونه، في سَنِّ المعاصي، والكفريات، والمنكرات، ثم قال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ حيث عبدوه واتخذوا تشريعه ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ ثم بين المصير النهائي لعَبَدة الشيطان، ومتبعي نظام إبليس: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)﴾ [يس: الآيات ٦٠ - ٦٥] ولأجل هذا سمى الله تعالى الذين يُطاعون في المعصية: (شركاء) حيث قال: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٣٧] ولما سأل عدي بن

حاتم النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: آية ٣١] كيف اتخذوهم أرباباً؟ قال: ألم يحلوا لهم ما حرم الله؟ ويحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم؟ قال: بلى. قال: بذلك اتخذوهم أرباباً[١].

فكل من يتبع نظام إبليس، وقانون الشيطان، فهو مشرك بالله في حكمه، والله يقول: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ٢٦]، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: آية ٥٧]، ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: آية ١٠]، ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: آية ١٢]، الحكم للعلي الكبير وحده (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٦] يعني: لا معبود بالحق يُعبد إلا هو، فلا يجوز أن يُشرك بعبادته أحد، ولا أن يُشرك في حكمه أحد، سبحانه (جل وعلا) أن يكون له شريكٌ في عبادته، أو شريك في حكمه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٦] بعض العلماء يقول: هذا الإعراض المأمور به عن المشركين في سورة الأنعام في مكة قبل الهجرة منسوخ بآية السيف[٢]؛ لأن الإعراض زمن مكة، ولما جاء إلى المدينة أُذن له في القتال أولاً بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: آية ٣٩] ثم أُمر بقتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: آية ١٩٠] ثم أُمروا بالقتال العام في قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥].

وبعض العلماء يقول: هذه الآية ليست منسوخة[٣]؛ لأن المراد بالإعراض عن المشركين عدم الكلام معهم، وعدم سبابهم، وهذا أمرٌ قد

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ابن جرير (٣٢/١٢)، الناسخ والمنسوخ للنحاس (٣٥٥/٢)، الإيضاح لمكي ص٢٨٦.

(٣) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (٣٥٥/٢)، الإيضاح لمكي ص٢٨٦.

يكون غير منسوخ. وهذا معنى قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٦].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: الآيات ١٠٧ ـ ١١٠].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠٧] لما قال الله (جل وعلا) لنبيه: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠٦] لما أمره بالإعراض عن المشركين؛ بين أن إشراكهم بالله واقعٌ بمشيئة الله (جل وعلا)، وأتبعه بقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾. قد تقرر في فن المعاني: أن فعل المشيئة إذا ربط بأداة شرط يحذف مفعوله دائماً[(١)]، فمفعول المشيئة هنا محذوف[(٢)]، وتقديره: ولو شاء الله عدم إشراكهم ما أشركوا.

وهذه الآية الكريمة تبين أنه لا يقع شيءٌ إلا بمشيئة الله، وأنه لو شاء عدم إشراك الكفار لم يشركوا. وقد دلت على هذا آياتٌ كثيرة كقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: آية ٣٥] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: آية ١٣] وهذه الآيات ترد على القدرية الزاعمين أن الكفر والمعاصي بمشيئة العبد لا بمشيئة الله، فمذهبهم باطل، فروا من شيء فوقعوا فيما هو أشنع وأكبر منه، فهم يريدون التقرب لله، بأن يزعموا أن الخسائس كالسرقة، والزنا، والشرك أنها بمشيئة العباد لا بمشيئة الله، زاعمين أن الله أنزه وأعظم وأجل من أن تكون هذه الرذائل بمشيئته.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: الدر المصون (٥/٩٩).

وهذه الشبهة - التي هي شبهة الجبر والقدر - هي أعظم الشبه التي في دين الإسلام، وكثيرٌ من ضعفاء العلم يصعب عليهم أن ينفكوا عنها، ويتخلصوا منها، ونحن في هذه الدروس دائماً نبين كيفية رد هذه الشبه[١]، وخلوص مذهب أهل السنة والجماعة بين مذهب القدرية والجبرية كخلوص اللبن من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً للشاربين.

ونقول مثلًا: لو أراد سنيٌّ أن يناظر جبرياً وقدرياً متمسِّكَين بمذهب القدرية والجبرية، القدري [يزعم][٢] أن أفعال العبد القبيحة بمشيئة العبد لا بمشيئة الله، ويزعم الجبري أن الأفعال كلها من الله، فليس للعبد فعل. فلو قال جبريٌّ مثلًا: هذه الأفعال الصادرة من الإنسان، كالإشراك والزنا والسرقة وما جرى مجرى ذلك من الرذائل، هي مكتوبة عليه قبل أن يولد، قدرها الله وكتبها في الأزل، وما قدره الله وكتبه لا يمكن أن يتغير!! يقول الجبريُّ مثلًا: ما سبق في علم الله من أن المشرك يشرك، وأن الزاني يزني، وأن السارق يسرق، سبق به العلم الأزلي، فلا يمكن أن يتغير؛ لأن ما سبق في علم الله لا يمكن أن يتغير!! فإذن يقول هذا الجاهل: إنه مجبور ما دام الفعل كُتب عليه قبل أن يولد، وجفت الأقلام وطويت الصحف، فالواقع واقعٌ لا محالة، فيقول: هو مجبور!!

فيجيب السنيُّ مثلًا فيقول: كل الأسباب التي هدى الله بها المهتدين أعطاكها، فالأبصار الذي أبصروا بها آيات الله أعطاك بصراً مثلها، والأسماع التي سمعوا بها آيات الله فاهتدوا أعطاك سمعاً مثلها، والقلوب التي فهموا بها عِظَم الله، وأدلته، وبراهينه فاهتدوا أعطاك عقلًا مثلها، والرسل التي نصحتهم، وبينت لهم، واهتدوا بهديها أرسلها إليك كما أرسلها لهم، فجميع الأسباب الذي اهتدى بها المهتدون أعطاكها، ولم يبق فرق بينك أيها الضال وبين المهتدي إلا أن الله تفضل عليه بتوفيقه، ولم يتفضل عليك بتوفيقه،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) في الأصل: «فيقول القدري مثلًا الزاعم...». فالكلام غير متلائم مع ما بعده.

ويوضح هذا المقام: مناظرة أبي إسحاق الإسفرائيني وعبدالجبار المعتزلي[(١)]. وذلك أن عبدالجبار جاء إلى أبي إسحاق متقرباً بمذهب القدرية فقال: سبحان من تنزه عن الفحشاء!! يعني أن السرقة والزنا والإشراك ليست بمشيئته، وأنه يتنزه عن أن يشاء هذا.

فقال أبو إسحاق: كلمة حق أريد بها باطل!! ثم قال: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال عبدالجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه؟

فقال أبو إسحاق: أتراك تشاؤه جبراً عليه، أأنت الرب وهو العبد؟

فقال عبدالجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدى وسد الباب دوني، دعاني ولم يسهل لي طريق الخروج، تراه أحسن إليَّ أم أساء؟

فقال أبو إسحاق: إن كان هذا الذي منعك حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء ـ سبحانه عن ذلك ـ وإن كان مُلكه المحض فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل.

فبُهت عبدالجبار، وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب.

وهذا مفهومٌ من قوله في هذه السورة الكريمة: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: آية ١٤٩] مُلكه التوفيق يتفضل به على من يشاء، ويمنعه ممن يشاء. هو حجته البالغة على خلقه؛ لأن المالك إذا تفضل فأعطى ففضلٌ منه، وإذا منع فعدلٌ منه؛ ولذا قال: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

وذكروا عن عمرو بن عبيد، كبير المعتزلة، مع قوته، وذكائه، ومعرفته، أنه جاءه بدوي وقال له: كنتُ أعمل على دابتي فسرقها اللصوص، فادع الله أن يردَّها عليّ. فقام عمرو بن عبيد يتقرب بهذا المذهب الباطل، فقال: اللهم إنها سُرقت، ولم تُرد سرقتها؛ لأنك أكرم وأجل وأنزه من أن تُريد السرقة. فقال له ذلك البدوي: ناشدتك الله يا هذا

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من هذه السورة.

إلا ما كففت عني من دعائك الخبيث. إن كانت قد سُرقت ولم يُرد سرقتها فقد يريد ردها ولا تُرد[١].

فالحاصل أنه لا يقع في الكون شيءٌ كائناً ما كان إلا بمشيئة خالق السماوات والأرض، وأنه لا جبر ولا قدر. وأن الله تبارك وتعالى قَدَّر في سابق أزله أن يخلق قوماً مجبولين على الخير والفضل، ويوفقهم إلى ما يرضيه؛ لتظهر فيهم أسرار أسمائه وصفاته، من اسمه الكريم، واللطيف، وغير ذلك من أسماء الكرم والجود، وقَدَّر في أزله أن يخلق آخرين مطبوعين على القذارة والنجاسة؛ ليظهر فيهم بعض أسرار أسمائه كالقهار، يظهر فيهم قهره، وجبروته، وعظمته، وشدة عقابه؛ ليجتمع للناس الخوف والطمع؛ لأنه لو كان خوفٌ لا طمع معه فقد يكون هنالك بغض، وإن كان طمعٌ لا خوف معه فقد يكون هنالك أمنٌ يحمل على الدلال وسوء الأدب، فَخَلَق بعض الخلق وقَدَّر لهم الشقاء الأزلي، لِمَا جبلهم عليه من الخُبث، ليظهر فيهم بعض أسرار أسمائه وصفاته، من قهره، ومُلكه، وقوة بطشه، وإنصافه، وقَدَّر لقومٍ آخرين الهدى ليظهر فيهم بعض أسرار أسمائه وصفاته من رحمته، وفضلهِ، ولطفه، وكرمه. ولكن قدرة الله وإرادته صرفت قُدر الخلق وإراداتهم إلى ما شاءَه الله وقَدَّره في أزله، فأتوه طائعين. فالله (جل وعلا) بقدرته وإرادته يصرف قدرة العبد وإرادته إلى ما سبق به الكتاب في علمه الأزلي، فيأتيه طائعاً: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: آية ٣٠] هذا هو أصل هذه المسألة. فالله يشاء، ويقدر، ويصرف قُدَرَ العباد وإراداتهم إلى ما سبق به العلم الأزلي، فيأتوه طائعين. وله المثل الأعلى، والحكمة البالغة في كل ما يُقَدِّر.

ولا يخفى أن الجبريين الذين يقولون: إن العبد لا فعل له، وإنما هذا فعل الله!! لو جئت إلى جبري وفقأت عينه، أو قتلت ولده، أو أتلفت ماله، وقلت له: أنا مسكين لا فعل لي؛ لأن هذا فعل الله!! لا يقبل منك

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام، وسيأتي في مواضع متعددة في هذا التفسير.

هذا العذر، ويقول: أنت الذي فعلت وفعلت. وينتقم منك غاية الانتقام، ولكنه بالنسبة إلى التكاليف يتعلل هذا التعلل الباطل. فكل شيء في الكون لا يقع في العالم تحريكه ولا تسكينه من خير أو شر إلا بمشيئة خالق السماوات والأرض. وهو يوجه قُدر الخلق وإراداتهم إلى ما سبق به العلم الأزلي، فيأتوه طائعين، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير؛ ليظهر فيهم أسرار أسمائه وصفاته.

وبهذا يتضح أن القائلين بالجبر مفترون، وأن النافين للقدر أنهم كذلك مجوس هذه الأمة. فالله يقدر الأشياء في أزله، ويكتب كل شيء، ثم يصرف بقدرته وإرادته إرادات الخلق وقُدرهم، فيأتون ما سبق به العلم الأزلي طائعين.

وهذه المسألة قد سأل أصحابُ النبيِّ عنها النبيَّ ﷺ، فسألوه: هل هذا الذي نعمل له شيءٌ مُؤتَنَف، أو أمرٌ قد قُضي في السابق وانتهى وفُرغ منه؟ فبين لهم ﷺ أنه أمرٌ قُضي وفُرغ منه. فقالوا له: لِمَ لا نترك العمل ونتكل على ما سبق به الكتاب في العلم الأزلي؟ فالنبي ﷺ أجابهم فقال: **«اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له»**[1]. فمعنى هذا الحديث: أن الله يخلق الخلق ويجبلهم على ما شاء من خُبثٍ، ومن خيرٍ، ومن شر، ثم يُسهل كل واحدٍ منهم وييسر له ما خُلق له، فييسر للسعيد عمل الخير، وللشقي عمل الشر، يصرف قُدَرهم وإراداتهم بقدرته وإرادته، فيأتوه طائعين؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ [الأنعام: آية ١٠٧] أي: لو شاء عدم إشراكهم بالله ما أشركوا.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ﴾ كان النبي ﷺ بما جبله الله عليه من الرأفة والرحمة يحزنه عدم إيمانهم، فالله يقول له: أنا ما جعلتك حفيظاً عليهم، حافظاً تحفظهم من الوقوع في الشر، وتيسرهم إلى الخير، ولا جعلتك وكيلًا عليهم تحاسبهم بأعمالهم وتجازيهم، بل أنا الذي أُوفق من شئت، وأُضل من شئت، وأُحصي عليهم أعمالهم فأجازيهم عليها،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: الآيتان ٢١، ٢٢] وكقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: آية ٤٠]. والمعنى: كأنه يقول له: لست موكلاً بأعمالهم، ولا حافظاً لهم توفقهم، حفظهم ومحاسبتهم على الله، وإنما أنت نذير، وقد قمت بوظيفتك، وبلَّغت، فأرِح نفسك، ولا تحزن، كما قال له: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: آية ١٢٧] وقد تقدم في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي: فتقهرهم بها على الإيمان فافعل. ثم قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: الآيات ٣٣ ـ ٣٥]. وقال له: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: آية ٣]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: آية ٦] ومعنى ﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: مهلكها من الحزن عليهم؛ ولذا قال له هنا: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: آية ١٠٧].

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠٨].

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لما أنزل الله قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: آية ٩٨] اجتمع رؤساء قريش من كفار مكة إلى أبي طالب في آخر أيام حياته وقالوا له: إن ابن أخيك يعيب آلهتنا ويذمها. والله لتنهين ابن أخيك عن سب آلهتنا أو لنهجونَّ إلهه الذي أمره بهذا. فأنزل الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(١).

---

(١) المعروف أن آية الأنبياء: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ...﴾ الآية كانت سبباً لنزول قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ وقوله في سورة الزخرف: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾. =

وقال بعض العلماء: كان المؤمنون يسبون الأصنام بأنها أجرام لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر، فأنزل الله نهيهم عن ذلك لئلا يتذرع به المشركون فينتقمون منهم فيسبون ربهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾. السب معناه: الذم والثَّلب بذكر المساوىء التي لا تليق. والعرب تقول: سبه يسبه، وتسابّا سِبَاباً. إذا هجا كل واحدٍ منهما الآخر وقال فيه قولًا قبيحاً. والسِّباب: المهاجاة والمشاتمة. وسِبُّ الرجل هو الذي يكافئه فيرد عليه إذا سبه[1]. ومنه قول حسان بن ثابت (رضي الله عنه)[2]:

لا تَسُبَّنَّني فلستَ بِسِبِّي ... إن سِبِّي من الرجالِ الكريمُ

والمعنى: لا تهجوا أصنامهم وتقولوا ما هي متصفةٌ به من الخساسة، فيتسبب عن ذلك أن يسبوا الله (جل وعلا). وإذا سبوا الله معناه: أنهم قالوا فيه ما ليس بواقع؛ لأن الله ليس متصفاً إلا بالكمال والجلال، فليس فيه نقصٌ حتى يكون موضعاً للسب. ولكن الكفرة الفجرة يكذبون.

فمعنى: ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾ يتكلمون فيه بما لا يليق بكماله وجلاله (جل وعلا).

انظر: أسباب النزول للواحدي ص٣٠٥، تفسير ابن كثير (١٩٧/٣)، أسباب النزول للسيوطي ص١٨٤، الدر المنثور (٣٣٩/٤).

أما آية الأنعام فإن سبب نزولها ما سيذكره الشيخ من أن المؤمنين كانوا يسبون آلهة المشركين، وفي بعض الروايات: القصة المشار إليها في ذهابهم إلى أبي طالب، لكن لا تعلق لذلك كله بآية الأنبياء، اللهم إلا ما ذكره أبو حيان في البحر (١٩٩/٤) بقوله: «وقيل: قالوا ذلك عند نزول قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ...﴾» اهـ. هكذا ذكره من غير سند، ولم يعزه لقائل معين. والله أعلم. انظر: ابن جرير (٣٣/١٢ ـ ٣٥)، الواحدي في أسباب النزول ص٢٢١ ـ ٢٢٢، تفسير ابن كثير (١٦٤/٢)، أسباب النزول للسيوطي ص١٢٠، الدر المنثور (٣٨/٣).

(١) انظر: المفردات (مادة: سبب) ٣٩١، القرطبي (١٨١/٢)، بصائر ذوي التمييز (١٦٩/٣)، اللسان (مادة: سبب) (٧٧/٢).

(٢) البيت في اللسان (٧٨/٢)، وقد عزاه لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت، وانظر: القرطبي (١٨١/٢).

وقوله: ﴿عَدْوًا﴾ العَدْو معناه: الظلم والعدوان. أي: فيسبوه ظلماً وعدواناً، وهو خالقهم ورازقهم المحسن إليهم[١].

وإعراب قوله: ﴿عَدْوًا﴾ فيه أوجه من الإعراب معروفة[٢]:

أحدها: أنه مصدرٌ منكَّرٌ بمعنى الحال، أي: فيسبوه في حال كونهم معتدين ظالمين.

الثاني: أنه ما ناب عن المطلق من «يسبوا»؛ لأن سب الله عدوان ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾ معناه: يعتدو بسبِّ الله ﴿عَدْوًا﴾، أي: عدواناً. وعليه فهو ما ناب عن المطلق.

والإعراب الثالث فيه: أنه مفعولٌ من أجله، أي: فيسبوا الله لأجل عدوانهم، وطغيانهم، وظلمهم.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الظاهر أن الجار والمجرور في محل حالٍ ثانية[٣]، أي: حال كونهم معتدين جاهلين، لا علم لهم بما ينبغي أن يقال في الله، حيث يسبوا الله (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وهذه الآية الكريمة ـ من آيات الأحكام ـ أخذ العلماء منها أصل (سد الذرائع)[٤]؛ لأن سب الأصنام بالنسبة إلى ذاته جائزٌ مطلوب، ولكن لما كان هذا الأمر المحمود الطيب ـ وهو سب الأصنام وتقبيحها ـ قد يؤدي إلى أمرٍ آخر لا يجوز، وهو سب الله، مُنع هذا الشيء الطيب سداً للذريعة التي

---

(١) انظر: ابن جرير (٣٥/١٢)، القرطبي (٦١/٧)، البحر المحيط (٢٠٠/٤)، المفردات (مادة: عدا) ص٥٥٣.

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٠٠/٤)، الدر المصون (١٠٠/٥).

(٣) انظر: الدر المصون (١٠١/٥).

(٤) انظر: القرطبي (٦١/٧)، البحر المحيط لأبي حيان (١٩٩/٤).

١٤/أ وذريعة الشيء /أصلها طريقه الموصلة إليه[(١)].

ومعروف عند علماء الأصول أن الذرائع ثلاثة أقسام[(٢)]:

قسم منها يجب سَدُّهُ إجماعاً، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام، ودل عليه الحديث الصحيح المتفق عليه[(٣)]. وهذا القسم هو أن يكون هذا الأمر جائزاً أو مطلوباً، وليس في نفسه فساد في ذاته، أو فيه خير، إلا أنه يؤدي إلى شر عظيم، كَسَبِّ الأصنام، فإنه في ذاته طيب مطلوب، إلا أنه لما كان يكون سبباً لسب الله كان محرماً.

ومن هذا النوع، وهي الذريعة التي يجب سدها إجماعاً: حفر الآبار في طرق المسلمين، فلو جاء رجل إلى طريق المسلمين وحفر فيها بئراً ليلًا، وغطى فم البئر بشيء خفيف، فمن جاء مع الطريق وتردى في البئر ففعله وحفره البئر ليس نفس إهلاك لنفس ولا مال، ولكنه ذريعة لذلك يجب سدها ومنعها بالإجماع.

ومن هذا النوع: إلقاء السم في مياه المسلمين وأطعمتهم. فإلقاء السم في مياه المسلمين التي يشربون، وإلقاؤه في أطعمتهم ذريعة للفساد يجب سدها بإجماع المسلمين.

هذا إحدى أنواع الذرائع الثلاث؛ لأن نوعاً منها يجب سده بإجماع المسلمين كما مثلنا له ودلت عليه هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام ﴿وَلَا

---

(١)(٢) انظر: المصباح المنير (مادة: ذرع) ص٧٩، اللسان (مادة: ذرع)، (١/١٠٦٤ ـ ١٠٦٥)، المعجم الوسيط (مادة: ذرع) (١/٣١١).

(٣) في مسألة الذرائع وأدلتها انظر: الفروق للقرافي (٢/٣٢)، (٣/٢٦٦)، شرح تنقيح الفصول ص٤٤٨، القواعد للمقري (٢/٤٧١ ـ ٤٧٤)، إحكام الفصول ص٥٦٧ ـ ٥٧١، تفسير القرطبي (٢/٥٧ ـ ٦٠)، الفتاوى (٢٣/١٨٦ ـ ١٨٧)، إعلام الموقعين (٣/١٣٥ ـ ١٥٩)، إغاثة اللهفان (١/٣٦١ ـ ٣٦٧)، تهذيب سنن أبي داود (٥/١٠٢)، الموافقات (٤/١٩٨ ـ ٢٠٠)، البحر المحيط للزركشي (٦/٨٢ ـ ٨٦)، فتح الباري (١٠/٤٠٤)، إرشاد الفحول ص٢٤٦، نثر الورود (٢/٥٧٥).

(٤) سيأتي ذكره بعد قليل.

تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وفي الحديث الصحيح المتفق عليه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن من العقوق شتم الرجل والديه**». قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[(١)]، هذا الحديث الصحيح سمى [به] النبي ﷺ[(٢)] ذريعة السب: (سباً) وهو كالآية يدل على أن ذريعة الحرام حرام.

النوع الثاني من أنواع الذرائع الثلاث: نوع لا يجب سده بإجماع المسلمين، فهو ذريعة يجب إهدارها وإلغاؤها، ولا يجب سدها بإجماع المسلمين. وهذا النوع من الذرائع نوعان:

أحدهما: أن يكون الفساد بعيداً فيه، والمصلحة أرجح من الفساد فيه. ومثال هذا النوع: غرس شجر العنب. فإن غرس شجر العنب ذريعة إلى عصر الخمر التي هي أم الخبائث، قبحها الله، وقبح شاربها، إلا أن الذين يعصرون الخمر من المجتمع ويشربونه قلة في أقطار الدنيا، فمنفعة انتشار العنب والزبيب في أقطار الدنيا مصلحة عظمىٰ أُلغي من أجل هذه المصلحة المفسدة التي قد تكون من شجر العنب بعصر الخمر منه؛ لأن الذي يعصرها أفراد قليلون ويشربونها، ولو ضاعت عقولهم بسبب شربها فمصلحة العالم العامة بوجود العنب والزبيب في أقطار الدنيا أعظم من هذه المفسدة الجزئية، فأُلغيت هذه الذريعة وأُهدرت.

ومن هذا النوع: إجماع العلماء من زمن النبي ﷺ إلى اليوم في أقطار الدنيا أنه يجوز في البلد الواحد أن يكون ـ يسكن ـ فيه الرجال والنساء. في هذا البيت رجال ونساء، وفي هذا رجال ونساء، مع هذا بناته وأزواجه

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب: لا يسب الرجل والديه، حديث رقم (٥٩٧٣)، (١٠/٤٠٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها. حديث رقم (٩٠)، (١/٩٢)، وصدر الحديث عند البخاري: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**». وعند مسلم: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**».

(٢) في الأصل: «سمى النبيّ صلى الله عليه ـ به ـ وسلم سمى...». وهو سبق لسان.

وأخواته وهكذا، مع أن اجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد قد يكون ذريعة للزنى - أعاذنا الله والمسلمين منه - من بعض الأفراد؛ لأنه قد يشير إليها من غرفة أو سطح كما هو معروف، وكما قال نصر بن حجاج[1]:

ليتني في المؤذنين نهاراً إنهم ينظرون مَنْ في السطوح
فيشيرون أو يُشار إليهم حَبَّذَا كل ذات دَلٍّ مَلِيْحِ

أو تلقي إليه ورقة، أو يلقيها إليها في موعد يجتمعان فيه على القبيح الخسيس قبح الله من يفعله، فاجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد لا شك أنه ذريعة لفعل بعض الفواحش، ولم يقل أحد من المسلمين بسد هذه الذريعة، فلم يقل أحد من العلماء: إنه يجب أن يُجعل جميع النساء في البلد على حدة، ويُجعل عليهن حصن من حديد قوي، وأن يكون الباب قوياً من حديد، والمفتاح عند رجل تقي ورع مأمون ذي شيبة وذي أزواج، لم يقل أحد هذا من الناس!! لأن وقوع الفاحشة ولو وقعت من بعض الأخساء أمر نادر بالنسبة إلى مصالح المجتمع، ومعاونة الرجال والنساء على المجتمع الإنساني في مصالحه الدنيوية والأخروية، فهذه الذريعة أُلغيت لعِظَم هذه المفسدة.

والحاصل أن المفسدة إذا عارضتها مصلحة فلذلك ثلاث حالات:

إما أن تكون المصلحة أعظم وأرجح، والمفسدة أقل وهي مرجوحة.

وإما أن تكون المفسدة أعظم.

وإما أن يستويا.

فإن كانت المصلحة أعظم - كما مثلنا - أُلغيت الذريعة، وأُهدرت.

وإن كانت المفسدة أعظم، أو استويا فإنه يجب سد الذريعة فيهما.

ومثالهما معاً: ما لو كان من المسلمين أُسارى عند الكفار في الجهاد

---

(١) هذان البيتان يُنسبان للسري بن عبدالرحمن الأنصاري. كما في الأغاني (٢٠/١٦٤).

مع الكفار، فَأَسَر العدو من الكفار أسرى من المسلمين، وطلب إمامُ المسلمين فداءَ الأسرى المسلمين من أيدي الكفار، فقال الكفار: لا نقبل فداءهم إلا بسلاح، وكان هذا السلاح يقدرهم على الفتك بالمسلمين، فإن كان بقدر الظن والتخمين أنهم يقتلون من المسلمين بذلك السلاح قدر الأسارى أو أكثر منهم، فمصلحة فداء الأُسارى تعارضها مفسدة قتل عددهم من المسلمين أو أكثر، فيجب سد هذه الذريعة، ولا يُفدى أولئك الأُسارى.

أما إذا كان السلاح لا يقدر به الكفار على أن يقتلوا المسلمين، فإن هذه المفسدة تكون مرجوحة، ويجوز فداؤهم. هذان نوعان من أنواع سد الذرائع، الأول مجمع على سده، والثاني مجمع على [عدم][1] سده، وهما طرفان وواسطة، طرف من الذرائع يجب سده إجماعاً، مثلنا له بسب الأصنام إن كان عَبَدَتُها يسبون الله، وكحفر الآبار في طرق المسلمين، وإلقاء السم في مشاربهم ومآكلهم. هذا النوع يجب سده إجماعاً، ونوع لا يجب سده إجماعاً، كما مثلنا له بغرس شجر العنب، ومساكنة الرجال والنساء في البلد الواحد. وواسطة هي محل الخلاف بين العلماء.

ومثال هذه الواسطة التي هي محل الخلاف بين العلماء: البيوع المعروفة بالفقه المالكي ببيوع الآجال التي يسميها الحنابلة والشافعية: بيوع العينة، فهذه ذريعة لمحرم، والعلماء مختلفون فيها، كما لو باع إنسان سلعة إلى أجل معين بعشرة دراهم مثلًا، ثم اشتراها بثمن أكثر لأبعد من الأول، أو بثمن أقل من الثمن الأول بدون الأجل، فإن ظاهر هاتين البيعتين أن كلًّا منهما بيعة لسلعة بثمن إلى أجل، وهي في ظاهرها جائزة، إلا أنها يمكن أن تكون ذريعة إلى رباً محرم، لأن السلعة الخارجة من اليد، العائدة إليها ملغاة، فيؤول الأمر إلى أنه أخذ أولًا خمسة دراهم، ثم أخذ عنها في الأجل الثاني عشرة دراهم، وأَخْذُ عشرة مؤجلة بدل خمسة هو ربا الجاهلية بعينه.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

فهذه الذريعة الوسطى ذهبت جماعة من العلماء إلى وجوب سدها، وهو مذهب مالك بن أنس وأصحابه، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه، وهو مذهب أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها).

وخالف في هذا النوع من الذرائع الإمام الشافعي، وزيد بن أرقم (رضي الله عنه)[1].

قال الإمام الشافعي: هما بيعتان، كل واحدة منهما بيع سلعة بثمن معلوم، إلى أجل معلوم، وهذا لا شيء فيه.

وقد قالت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) لامرأة زيد بن أرقم: قُولي لزيد: إن لم يرجع عن هذا فإنه يبطل جهاده مع رسول الله ﷺ[2]. ومراد عائشة (رضي الله عنها): أن هذا النوع من الذريعة ذريعة للربا؛ لأن السلعة الخارجة من اليد العائدة إليها ملغاة، فيؤل الأمر إلى أنه عند الأجل الأول دَفَعَ خمسة دراهم مثلًا، وأَخَذَ عند الأجل الثاني عشرة دراهم، وهذا ربا الجاهلية، وإنما قالت عائشة لامرأة زيد: إنه إن لم يرجع عن هذا أبطل جهاده؛ لأن هذا ربا، وآكل الربا محارب الله؛ لأن أَكْل الربا هو محاربة الله، ومن أعظم الدواعي للغَلَبَة

---

(١) للوقوف على مذاهب العلماء في هذه المسألة انظر: الأم للشافعي (٧٨/٣)، الاستذكار لابن عبدالبر (٢٤٧/١٩)، المحلى (٤٧/٩)، الشرح الكبير (مطبوع مع المغني) (٤٥/٤)، إعلام الموقعين (١٦٥/٣ ـ ١٦٩)، تهذيب سنن أبي داود (٩٩/٥ ـ ١٠٨)، نيل الأوطار (٢٠٦/٥).

(٢) أخرجه عبدالرزاق (١٨٤/٨ ـ ١٨٥)، وابن الجعد في مسنده (٣٧٧/١) وأحمد وسعيد بن منصور (كما في نصب الراية (١٥/٤)، والدارقطني (٥٢/٣)، والبيهقي (٣٣٠/٥ ـ ٣٣١).

وقد أعله الدارقطني (٥٢/٣)، وابن حزم في المحلى (٤٩/٩)، والشوكاني في النيل (٢٠٦/٥)، وهو ظاهر كلام الشافعي في الأم (٧٨/٣).

وقد جَوَّده ابن القيم كما في تهذيب السنن (١٠٠/٥)، وقال في إعلام الموقعين (١٦٧/٣): «رواه الإمام أحمد وعمل به. وهذا حديث فيه شعبة ـ يعني ابن الحجاج ـ وإذا كان شعبة في حديث فاشدد يديك به، فمن جعل شعبة بينه وبين الله فقد استوثق لدينه» اهـ.

في الجهاد أكلُ الربا؛ لأن آكل الربا محارب الله، ومحارب الله لا يفلح ولا ينجح، والله يقول في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: الآيتان ٢٧٨ ـ ٢٧٩] فلما كان آكل الربا حرباً لله ولرسوله، لا يمكن أن يكون مجاهداً من حزب الله ورسوله؛ لأن الضدين لا يجتمعان. وهذا هو مراد عائشة (رضي الله عنها)؛ لأنه إن لم يرجع عن هذا أبطل جهاده.

وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ١٠٨] في هذه الآية الكريمة سؤال عربي معروف، وهو أن لفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ولفظ: ﴿يَدْعُونَ﴾ من خَواصِّ العقلاءِ، ومعبوداتُهم أصنامٌ وحجارةٌ لا تعقل، فكيف يُعَبَّر عنها بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ التي هي صفة العقلاء الذكور؟

والجواب عن هذا: أن القاعدة المقررة في علم العربية أن كل شيء غير عاقل إذا نَزَّله بعض الناس منزلة العاقل، أو وَصَفَه ببعض صفات العاقل أنه يُجرى مجرى العاقل(١)؛ ولذا قال تعالى في رؤيا يوسف: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: آية ٤] فجاء بـ ﴿سَٰجِدِينَ﴾ الذي هو جمع مذكر سالم يختص بالعقلاء، للكواكب والشمس والقمر؛ لأنه وصفهم بالسجود، والسجود من خواص العقلاء؛ ولهذا المعنىٰ قال تعالى عن السماوات والأرض: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: آية ١١] لأن السماوات سبع والأرضين سبع، فصارت أربعة عشرة جزءاً؛ ولذا قال: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ لأنه لما أمرها وخاطبته صارت متصفة بصفات العقلاء. وهذا أمر عام معروف، ومن شواهده في كلام العرب الشاعر في هذا المقام(٢):

إذا ما الغانياتُ برزْنَ يوماً وَزَجَّجْنَ الحواجِبَ والعيونا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من هذه السورة.

(٢) البيت الأول للراعي النميري، وهو في الخصائص (٤٣٢/٢)، تأويل مشكل القرآن ص٢١٣ أوضح المسالك (٥٨/٢).

تــرى مـنــا الأيــور إذا رأوهــا قـيـامـا راكـعـيـن وسـاجـديـنـا[(١)]

فوَصْفُ «ساجدين» و «راكعين» وصَفَ بها ذلك الجزء من الإنسان الذي لا يعقل لَمَّا وصَفَه بصفة العاقل، وهذا أسلوب عربي معروف، والكفار وصفوا الأصنام بصفات العاقل حيث قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: آية ٣] ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: آية ١٨] فلما وصفوهم هذه الصفات أُجري عليهم ذلك اللفظ وإن كانوا في الحقيقة أخس شيء. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ [الأنعام: آية ١٠٨].

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٠٨] كما زينا لهؤلاء الكفرة الكفر. وهذا التزيين معناه ـ والعياذ بالله ـ: صَرْف قُدَرهم وإراداتهم إلى ما سبق عليهم به الكتاب الأزلي ـ كما كنَّا نبين ـ لكل أمة من الأمم عملهم؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ولفظ (الأمة) في قوله هنا: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أُطلق في القرآن العظيم أربعة إطلاقات، كلها لغة صحيحة جاء بها القرآن[(٢)]:

أُطلقت الأمة على الطائفة من الناس المتفقة في دين أو نِحْلَة. وهذا أغلب استعمالاتها، ومنه قوله هنا: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: لكل طائفة من الناس متفقة في دين أو نِحْلَة. ومنه بهذا المعنى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ﴾ [يونس: آية ٤٧] ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: آية ٢١٣].

الإطلاق الثاني في القرآن للأمة: إطلاق الأمة على الرجل العظيم المُقتدى به، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: آية ١٢٠] أي: إماماً مُقتدى به، كما قال الله له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ﴾ [البقرة: آية ١٢٤].

---

(١) هذا البيت ليس من القصيدة، وإنما هو لبعض المُجّان. والبيت الأول للراعي النميري، وهو في الخصائص (٢/٤٣٢)، مشكل غريب القرآن لابن قتيبة ص٢١٣، الدر المصون (٣/١٨٨)، النهاية في غريب الحديث (٢/٢٣٧).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من هذه السورة.

المعنى الثالث: هو إطلاق الأمة على البُرهة من الزمن، القطعة من الدهر والبرهة من الزمن تُسمى: أمة، ومنه في القرآن: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: آية ٤٥] أي: تذكر بعد بُرهة من الزمن، ومنه بهذا المعنى قوله في أول هود: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: آية ٨] أي: إلى قطعة من الزمن معينة.

الإطلاق الرابع: إطلاق الأمة على الشريعة والدين؛ لأن العرب تُسمي الأمة شريعة وديناً[(١)]، ومنه بهذا المعنى قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: آية ٢٢] أي: على شريعة وملة ودين، ومنه بهذا المعنى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: آية ٩٢] أي: شريعتكم وطريقتكم شريعة واحدة. وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان[(٢)]:

حَلفتُ فلم أَترُك لنفسكَ ريبةً وهل يأثَمَنْ ذو أمةٍ وهو طائعُ

يعني: أن مَنْ كان له دين لا يخالف دينه، فيأثم وهو طائع، هذا لا يمكن.

هذه معاني (الأمة) في القرآن؛ ولذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٠٨] والعمل هو ما يفعله الإنسان يُجازى عليه بالخير والشر.

وقد دل استقراء الكتاب والسنة على أن العمل الذي يُجازى عليه الإنسان بالخير والشر أربعة أنواع لا خامس لها[(٣)]:

الأول منها: هو الفعل الصريح، كالسرقة والزنى ـ والعياذ بالله ـ.

---

(١) لعله سبق لسان، إذ الأولى أن يُقال: لأن العرب تُسمي الشريعة والدين (أمة). أو يُقال: «لأن العرب تُطلق الأمة على الشريعة والدين». والله أعلم.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من هذه السورة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من هذه السورة.

الثاني منها: القول؛ لأن القول فعل اللسان، وقد سمى الله في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأنعام ـ سمى فيها القول (فعلاً)؛ لأنه فعل اللسان، وذلك في قوله: ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ ثم قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: آية ١١٢] فأطلق على قول اللسان (الفعل)؛ لأنه فعل اللسان. هذان اثنان: القول والفعل.

الثالث من هذه الأشياء: إنما هو العزم المُصَمِّم؛ لأن العزم المُصَمِّم على الشيء فعل له، يدخل صاحبه به النار، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي بكرة: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**». قالوا: يا رسول الله قد عرفنا القاتل، فما بال المقتول؟ يعني: بأي ذنب دخل المقتول النار، وهو لم يقتل أحداً. فبين النبي ﷺ أن العمل الذي دخل به النار هو عزمه المُصَمِّم على قتل أخيه؛ ولذا قال مجيباً لقولهم: فما بال المقتول؟ قال لهم النبي ﷺ: «**إنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»(١).

فهذا الحديث المتفق عليه يبين أن العزم المُصَمِّم الذي لم يمنع صاحبه منه إلا العجز عنه أنه فعل قلب يؤخذ به صاحبه، ويدخل به النار.

ومن هذا النوع هَمُّ امرأة العزيز، أما هَمُّ يوسف على القول به فهو ميل طبيعي مزموم بالتقوى، فَبَيْن هَمِّه وهَمِّها الفرق(٢).

ومن هذا الهَمّ الذي لا يؤاخذ به: ما ثبت في الحديث الصحيح: «**ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة**»(٣) كاملة؛ لأنها خطرات

---

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) في الفرق بين هَمّ يوسف (عليه السلام) وهَمّ امرأة العزيز كلام كثير للمفسرين، وأحسنه ما قاله الإمام أحمد (رحمه الله): «الهَمُّ همَّان: هَمُّ خطرات، وهَمُّ إصرار. فيوسف (عليه السلام) هَمَّ هماً تركه لله فأُثيب عليه. وتلك همت همَّ إصرار ففعلت ما قدرت عليه من تحصيل مرادها، وإن لم يحصل لها المطلوب» اهـ مجموع الفتاوى (٥٧٤/٦ ـ ٥٧٥)، وانظر: (٧٣٩/١٠ ـ ٧٤٠)، (١٥٠/١٥)، قواعد التفسير (٢٠٦/١ ـ ٢٠٧).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

تخطر في القلب يزمها التقوى.

ومن ذلك النوع قوله تعالى في بني سلمة وبني حارثة[١] يوم أُحد: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ لأن قوله بعده: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: آية ١٢٢] يدل على أن ذلك الهَمّ خَطْرَة قلب[٢] مزمومة بالتقوى لا تُعَد من الذنوب. وكان جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما) من بني سلمة، ـ وبنو سلمة وبنو حارثة هما الطائفتان اللتان نزل فيهما قوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ ـ كان جابر يقول: والله لا أكره أن الله قال فينا: ﴿هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ لأنه قال بعدها ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فهذه الأخيرة تُداوي الأولى[٣].

الرابع من الأعمال: هو الترك؛ لأن الترك هو في الحقيقة عمل يدخل صاحبه به النار، ويدخل به الجنة؛ لأن الترك فعل للنفس وكفها وزجرها؛ ولذا الذي ترك الصلاة يُقتل ويدخل النار، وهو لم يفعل شيئاً إلا أنه ترك الصلاة.

وقد قدمنا في سورة المائدة كلام العلماء في الترك هل يُسمى فعلًا، أو لا يسمى فعلًا؟ وبينا أن التحقيق عند العلماء الذي دل عليه القرآن ولغة العرب: أن الترك من الأفعال، وأنه عمل من الأعمال، يدخل صاحبه به الجنة والنار[٤]، وكان ابن السبكي[٥] يقول في بعض كتبه في الأصول قال: «طالعت كتاب الله (جل وعلا) من أوله إلى

---

(١) انظر: ابن جرير (١٦٥/٧).

(٢) انظر: فتح الباري (٣٥٧/٧).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ حديث رقم: (٤٠٥١)، (٣٥٧/٧)، وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٤٥٥٨)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل الأنصار (رضي الله تعالى عنهم). حديث رقم: (٢٥٠٥)، (١٩٤٨/٤).

(٤) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٥) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

آخره هل نجد فيه آية يُفهم منها أن الترك فعل؟ وقال: ما وجدت آية يُفهم منها ذلك إلا آية من سورة الفرقان، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان: آية ٣٠] لأن الاتخاذ معناه: التناول. أي: أخذوه في حال كونه مهجوراً. قال: يُؤخذ من هذا: أن الترك فعل»، ونحن نقول: إنَّا طالعنا في كتاب الله فوجدنا في كتاب الله آيات صريحة ـ وإن لم يطّلع عليها ابن السبكي، هي صريحة ـ في أن الترك فعل، وقد نص الله على ذلك مرتين في سورة المائدة وحدها، كما بيناه في هذه الدروس، أحد الموضعين من سورة المائدة الذي دل القرآن الصريح فيه على أن الترك فعل من الأفعال، وعمل من الأعمال، وصنع من الصنائع: هو قوله تعالى: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾ ثم قال: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: آية ٦٣] فسمى عدم أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر سماه (صُنعاً). والصُّنع أخص من مطلق الفعل؛ لأنه لا يطلق الصُّنع إلا على الفعل الذي يتكرر من صانعه مراراً.

الموضع الثاني من الموضعين الذين بين الله فيهما أن الترك فعل: هو قوله في المائدة أيضاً: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: آية ٧٩] فهذا الذي كانوا يفعلونه، الذي قال الله فيه: «بئس» هو عدم تناهيهم فيما بينهم عن المنكر، فهو صريح في أن عدم النهي عن المنكر فعل مذموم، فهاتان الآيتان صريحتان في أن الترك فعل، وهو كذلك في لغة العرب، ومنه قول الراجز لما كان الصحابة يبنون هذا المسجد الكريم، عندما جاء النبي ﷺ وبنى هذا المسجد، كان بعض الصحابة جالساً، والنبي يعمل معهم في المسجد، فقال ذلك[1]:

لئن قعدنا والنبيُ يَعْمَلُ   لَذاكَ مِنّا العَمَلُ المُضَلَّلُ

---

(١) السابق.

فسمى قعودهم وتركهم العمل سماه: عملاً مُضَلَّلاً. ومن الأحاديث الدالة على ذلك، قول النبي ﷺ: **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»**[١] فسمى ترك الأذية (إسلاماً)، وذلك يدل على أن ترك الأذية فعل؛ لأن الإسلام أعمال.

هذه الأشياء الأربعة هي أنواع العمل، وهي: القول، والفعل، والعزم المُصَمِّم، والترك، وجميعها يدخل في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾.

﴿مَّرْجِعُهُمْ﴾ هنا: مصدر ميمي، ومعناه: رجوعهم. والمقرر في فن التصريف: أن المصدر الميمي أصله (مفْعَل) بفتح العين، إلا إذا كان من مثال. أعني: واوي الفاء، غير معتل اللام، فالقياس أن يقال في (المَرْجِع) - بمعنى الرجوع - أن يقال فيه: (مَرْجَع) لأن المصدر الميمي في مثل هذا قياسه: (مَفْعَل) بفتح العين، إلا إنه كسر المرجع هنا وقيل فيه: (مَفْعِل) سماعاً لا قياساً، فهو سماع يُحفظ ولا يقاس عليه[٢]، وهو مصدر ميمي بمعنى (الرجوع).

---

(١) وردت هذه الجملة في عدة أحاديث رواها عدد من الصحابة (رضي الله عنهم) وهم كالآتي:
الأول: حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند الترمذي في الإيمان، باب: ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، حديث رقم (٢٦٢٧)، (١٧/٥)، والنسائي في الإيمان، باب: صفة المؤمن. حديث رقم (٤٩٩٥)، (١٠٤/٨ - ١٠٥).
الثاني: حديث أنس (رضي الله عنه) عند ابن حبان (الإحسان ٣٦٤/١).
الثالث: حديث عبدالله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما)، عند البخاري في الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده. حديث رقم (١٠)، (٥٣/١)، ومسلم في الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام. حديث رقم (٤٠)، (٦٥/١).
الرابع: حديث جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما) عند مسلم في الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام. حديث رقم (٤١)، (٦٥/١).
الخامس: حديث أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) عند البخاري في الإيمان، باب: أي الإسلام أفضل. حديث رقم (١١)، (٥٤/١)، ومسلم في الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام. حديث رقم (٤٢)، (٦٦/١).
(٢) انظر: ضياء السالك (٤٦/٣).

وقدم الجار والمجرور على عامله الذي هو المصدر الميمي إيذاناً بالحصر ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ لأنه قد تقرر في فن المعاني في مبحث القصر، وفن الأصول في مبحث دليل الخطاب ـ أعني مفهوم المخالفة ـ أن من صيغ الحصر: تقديم المعمول على عامله(١)؛ فقدم المعمول الذي هو الجار والمجرور على عامله الذي هو المصدر الميمي إيذاناً بالحصر.

والمعنى: رجوعهم يوم القيامة إلى الله وحده، فليس هنالك معه ملك آخر يرجع إليه بعضهم، بل يرجعون إليه وحده (جل وعلا).

وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿يُنَبِّئُهُمْ﴾ مضارع (فعَّل، ويُفَعِّل) من النبأ، والنبأ في لغة العرب: أخص من الخبر؛ لأن النبأ لا يُطلق إلا على الإخبار بشيء له شأن وخَطْب، تقول: جاءنا نبأ الأمير، ونُبِّئنا بخبر الأمير والجيش، ولا تقول: جاءنا نبأ عن حمار الحجام. لأن هذا لا أهمية فيه، فتقول فيه: (خبر) ولا تقول: (نبأ)(٢).

فمعنى ﴿يُنَبِّئُهُمْ﴾ أي: يخبرهم خبراً عظيماً عندهم له خَطْب وشأن عظيم.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (ما) موصولة، والعائد محذوف، والمعنى: بالذي كانوا يعملونه في دار الدنيا. وليس المراد بهذه التنبئة والإخبار مجرد التنبئة فقط، لا، وكلا، بل المراد به: الجزاء؛ لأن كل إنسان يوم القيامة يُخبر بجميع ما عمل من جهات متعددة:

أولًا: تشهد على الكافر جوارحه، تشهد عليه يده، ورجله، وجلده، كما يأتي في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يس: آية ٦٥] وكقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: آية ٢٢] وكقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: آية ٢١] ويُنبئه ويشهد عليه المكان؛ لأن البقعة من الأرض الذي عمل الإنسان عليها المعصية تأتي يوم القيامة وتشهد عليه عند ربها،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.

وتقول البقعة: إن فلان بن فلان فعل علي كذا وكذا في ساعة كذا، في يوم كذا، في شهر كذا، في سنة كذا، كما يأتي في قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ يعني: الأرض ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ بما فُعِلَ عليها ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: الآيات ١ ـ ٥] أمرها بذلك أن تشهد، ومن ذلك، وهو الشيء العظيم: أن كل إنسان يجد جميع ما قدم من خير وشر مكتوباً في كتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ٤٩] ويُقال لكل إنسان في ذلك الوقت: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء: آية ١٤] وتلك الكتب تُعطى للناس، آخذ كتابه بيمينه، أو آخذ بشماله، أو من وراء ظهره ـ والعياذ بالله ـ.

وهذه الآيات معناها: اعلم أيها الإنسان أن كل ما عملت من خير وشر هو محفوظ لك مدَّخر عليك، إن كان خيراً فإنما تنفع به نفسك، وإن كان شراً فإنما تضر به نفسك، فعليك أن تجتهد في دار الدنيا وقت إمكان الفرصة، ولا تضيع الوقت؛ لأنه إذا ضاع الوقت ندم الإنسان حيث لا ينفع الندم، فعلينا معاشر المسلمين أن نعلم أن ربنا يخبرنا أن جميع ما عملنا سنجده محفوظاً لنا أمامنا على رؤوس الأشهاد، ونُخبر به، ونُجازى به، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. فيجب على العبد المسلم في دار الدنيا أن يلاحظ هذا، وأن يخاف الله، ويخشى من أن يجعل في صحيفته الفضائح التي يفتضح بها على رؤوس الأشهاد؛ لأن فضيحة يوم القيامة ليست كفضيحة الدنيا؛ لأن من افتضح في الدنيا ضاع عرضه أمام المجتمع، وهو صحيح يأكل، ويشرب، وينام، وينكح، ويركب!! ولكن من افتضح في الآخرة سيُجر إلى دركات النار ـ والعياذ بالله (جل وعلا) ـ ففضيحة الآخرة على رؤوس الأشهاد أعظم. وعلى المسلم أن يُحاسِب في دار الدنيا، وينظر فيما يقول، وفيما يعمل، ولا يقدم لصحيفته إلا شيئاً يعلم أنه يسره يوم القيامة إذا رآه. هذا على العاقل أن يعمل به، ويجتهد فيه، ما دامت الفرصة ممكنة، وعلى كل

إنسان أن يعلم أنه ليس متروكاً سدى، فكل إنسان حركاته وسكناته في الدنيا بجميع جوارحه وقلبه، كل هذه الحركات والسكنات محصاة عليه، وكلها بناء مسكنه الذي إليه مصيره النهائي، فإن كانت حركاته وسكناته فيما يرضي الله وجد تلك الحركات والسكنات، بنى بها قصوراً في غرف الجنة مع الحور، والولدان، ومجاورة رب غير غضبان، في نعيم لا ينفد، وملك لا ينفد ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾ [الإنسان: آية ٢٠] وإذا كانت حركاته على غير الصراط المستقيم، فإن تلك الحركات والسكنات التي يستعملها في معصية الله، هو يبني بها مصيره النهائي، وهو سجن من سجون جهنم - والعياذ بالله -، وقد قال بعض العلماء: إن الكفرة يدخلون منازلهم في جهنم لضيقها كما يُدخل الوتد في الحائط بالقوة[(١)]. وكما سيأتي في قوله: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾ [الفرقان: آية ١٣] فقوله: ﴿ضَيِّقًا﴾ أي: شديد الضيق، وكما هو أحد التفسيرين في قوله: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ [الهمزة: الآيتان ٨، ٩] لأن بعض العلماء يقولون: «يدخلون في أماكن منها ضيقة كما يُدخل الإنسان في العمود المنقور، فيُدخل في وسطه والعياذ بالله»[(٢)] وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٨].

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٩] سبب نزول هذه الآية الكريمة[(٣)]: أن كفار مكة اقترحوا على النبي ﷺ اقتراحات كثيرة، قصدهم بها التعنت، لا طلب الحق، قالوا له: أنت تزعم لنا أن عيسى بن مريم يحيي الموتى، وأن سليمان كان يركب الريح، وأن صالحاً خرجت له ناقة عُشَرَاء جَوْفَاء وبْرَاء من صخرة، فأَحْيِ لنا قصياً لنكلمه ونسأله عنك، وائتنا بالملائكة لنسألهم: هل أنت على حق؟ واجعل لنا

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٣١١).

(٢) انظر: ابن جرير (٣٠/٢٩٥ - ٢٩٦)، ابن كثير (٤/٥٤٨).

(٣) ما سيذكره الشيخ (رحمه الله) من سبب النزول ورد نحوه عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا كما في ابن جرير (١٢/٣٨ - ٣٩)، أسباب النزول للواحدي ص٢٢٢، لباب النقول للسيوطي ص١٢٠.

الصفا ذهباً، وباعِدْ عنا جبال مكة لنزرع بينها، في تعنتات كثيرة سيأتي كثير منها في قوله[١]: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ يعنون: من ذهب ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: الآيات ٩٠ ـ ٩٣] هذا من تعنتاتهم، ومنها أنهم قالوا: «اسأل ربك ينزل علينا الملائكة»[٢] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: آية ٢١] وقدمنا في هذه السورة الكريمة[٣] تفسير قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ﴾ [الأنعام: آية ٨] وما جرى مجرىٰ ذلك من الاقتراحات، فقالوا له: أَحْيِ لنا قصياً لنكلمه، وائتنا بالملائكة، كما يأتي في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كقصي بن كلاب الذي اقترحوا إحياءه ليكلموه ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ أي: ولو جئناهما بالملائكة وجميع المخلوقات جماعات جماعات يشهدون لك ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ١١١] ولما قالوا للنبي ﷺ: اسأل ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، والله لئن جعله الله لنا ذهباً لنتبعنك ولنؤمنن بما جئت به، فطمع قوم من أصحاب النبي ﷺ في إيمانهم، فقالوا له: يا رسول الله ﷺ: اسأل ربك أن يجعل الصفا ذهباً لأجل أن يؤمنوا، فَهَمَّ ﷺ أن يدعو الله ليجعل الصفا ذهباً، فجاءه جبريل (عليه السلام) وخيَّره قال: إن شئت جعله الله لهم ذهباً، ولكن إن كفروا بعد تلك الآية التي اقترحوها أهلكهم الله، ودمرهم، ولم يُنظرهم، وإن شئت ترك عنهم الآيات المقترحة، وأمهلهم ليتوب تائبهم. فاختار النبي ﷺ الأخيرة[٤]؛ لأن قوماً إذا اقترحوا آية عظمى وجاءتهم ولم يؤمنوا

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي ص٢٩٢، لباب النقول ص١٧٣.

(٢) انظر: ابن جرير (١/١٩).

(٣) انظر: أضواء البيان (٢/١٨٤).

(٤) مضى تخريجه قريباً.

أهلكهم الله، كما يأتي في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ [الإسراء: آية ١٩] يعني: فأهلكهم الله ودمرهم فأنزل الله ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [الأنعام: آية ١٠٩] الإقسام معناه: الحلف[(١)]. تقول العرب: «أقسم فلان». إذا حلف. وأصل (القسم) الذي هو اليمين من (الانقسام)؛ لأنه لا يكون إلا في طائفتين منقسمتين، كل منهما تُكَذِّب الأُخرى، فيُقسم أحد الطرفين ليقوي خبره ويؤكده.

ومعنى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ حلفوا بالله قائلين: والله لئن جَعلْتَ لنا الصفا ذهباً لنؤمنن بك ولنتبعنك.

وقوله: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ﴾ معناه: أقسموا جهد أيمانهم، أي: غاية ما يمكنهم من تغليظ اليمين وتوكيدها، و (جهد اليمين) معناه: بلوغ غاية ما يمكن من تغليظها وتوكيدها[(٢)].

وفي إعراب قوله: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ﴾ أوجه من الإعراب[(٣)]:

أعربها بعض العلماء مفعولاً مطلقاً بالمعنىٰ من ﴿وَأَقْسَمُوا۟﴾ أي: فهي ما ناب عن المطلق، كما تقول: ضربه أشد الضرب، وسار أشد السير، وأقسم أشد الإقسام.

فمعنى: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ﴾ أوكد أقسامهم وأغلظها. وعلى هذا فهو مفعول مطلق بالمعنىٰ، ما ناب عن المطلق من ﴿وَأَقْسَمُوا۟﴾ لأن معنىٰ ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ﴾ أشد إقساماتهم وأغلظها وأوكدها.

الوجه الثاني من أوجه الإعراب: أنه حال. أي: أقسموا بالله في حال كونهم جاهدين في تغليظ أيمانهم وتوكيدها. ولا ينافي هذا أن الحال تكون نكرة، وأن المصدر المؤول بالحال هنا مضاف إلى معرفة؛ لأن الحال إن

---

(١) انظر: المفردات للراغب (مادة: قسم) ص٦٧٠، البحر المحيط (٢٠١/٤).

(٢) انظر: ابن جرير (٣٧/١٢)، البحر المحيط (٢٠١/٤)، القرطبي (٦٢/٧).

(٣) انظر: القرطبي (٦٢/٧)، البحر المحيط (٢٠١/٤)، الدر المصون (٣٠٥/٤).

عُرِّفت لفظاً فهي مُنَكَّرة معنى، كما قال في الخلاصة[١]:

والحالُ إنْ عُرِّف لفظاً فاعْتَقِدْ تنكيرهُ مَعْنىً كَوَحْدكَ اجْتَهِدْ

والأيمان: جمع اليمين، وأوكد الأيمان وأغلظها هو ما كان بالله، وهم كانوا يحلفون بآلهتهم وأصنامهم، وإذا أرادوا جهد اليمين وتوكيدها وإغلاظها حلفوا بالله[٢].

وقوله جل وعلا: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ أي: لئن جاءتهم آية من الآيات التي اقترحوها، أما الآيات التي لم يقترحوها فقد جاءتهم بكثرة، وأعظم الآيات: هذا القرآن العظيم؛ لأنه آية عظمى ومعجزة كبرى باقية تتردد في آذان الناس إلى يوم القيامة؛ ولأجل أنه أعظم الآيات، وأكبر المعجزات، أنكر الله في سورة العنكبوت على من لم يكتف به، وطلب آية غيره، حيث قال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ ثم قال منكراً عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: الآيتان ٥٠، ٥١] فإنكاره على من لم يكتف بأكبر الآيات وأعظمها، وهو هذا القرآن العظيم دليل على أنه أعظم آية.

والآيات التي سألوها واقترحوها، إنما اقترحوها تعنتاً وعناداً، لا طلباً للحق؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ هذه صورة إقسامهم حكاها الله من غير حكاية لفظهم؛ لأنه لو حكى لفظهم لقال: «لئن جاءتنا آية لنؤمنن بها» فحكى القصة بالمعنى لا باللفظ. أقسموا جاهدين قائلين: لئن جاءتهم آية من الآيات التي اقترحوها، كأن يجعل الله لهم الصفا ذهباً، أو يبعث لهم قصياً ليكلمهم، أو يأتيهم بالملائكة، أو يشق عنهم جبال مكة ويباعدها ليزرعوا في متسع من الأرض؛ لأنهم يزعمون أن الجبال لا

---

(١) الخلاصة ص٣٢، وانظر شرحه في التوضيح والتكميل (٤٦٩/١).

(٢) انظر: القرطبي (٦٢/٧).

تمكنهم من الزراعة، كما يأتي في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: آية ٣١].

/ على حد قوله[١]: ١٤/ب

لو طَارَ ذُو حافرٍ قبلها لطارتْ ولكنه لم يطرْ

وقال بعض العلماء: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لكفروا بالرحمن؛ لأنهم ما اقترحوا الآيات طلباً للحق، ولكن اقترحوها عناداً وتعنتاً؛ ولذا قال هنا: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ أصل الآية في لغة العرب ـ قدمنا في هذه الدروس مراراً[٢] ـ أن أصل الآية بالميزان الصرفي، أن وزنها: (فَعَلَة) وأن أصلها (أَيَيَة) فاؤها همزة، وعينها ياء، ولامها ياء، على وزن (فَعَلَة) فكان فيها موجب الإعلال في الحرفين، أعني: الياءين، والقاعدة في التصريف: أن الأغلب أن يكون الإعلال في الحرف الأخير، فلو كانت على الأغلب لقيل: (أَيَاه) وكان المبدل (ألفاً): (الياء) الأخرى، ولكنه هنا وقع الإعلال في الياء الأولى، فأُبدلت (ألفاً)، وهذا يوجد في كلام العرب، وجاء به القرآن، هذا أصلها في الميزان الصرفي.

وهي في لغة العرب[٣]: الآية تطلق إطلاقين، وفي القرآن العظيم تطلق إطلاقين، أما أشهر معاني الآية في لغة العرب: فهو العلامة العرب يقولون: «آية كذا». معناه: علامة كذا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٤٨] أي: علامة ملكه، وقد جاء في شعر نابغة ذبيان ـ وهو عربي قح جاهلي ـ جاء فيه تفسير الآية بالعلامة، حيث قال[٤]:

تَوَهَّمْتُ آياتٍ لها فَعَرَفْتُها لِسِتَّةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

---

(١) البيت في ديوان الحماسة (١/٢١٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

ثم بين أن مراده بالآيات: علامات الدار، وآثار رسومها حيث قال مفسراً للآيات[١]:

رمادٌ ككُحلِ العينِ لأياً أُبينُه ونُؤيٌ كجذمِ الحوضِ أَثْلَمُ خاشعُ

فأشهر معنيي الآية في اللغة: العلامة، وقد تُطلق الآية في لغة العرب على الجماعة، يقولون: «جاء القوم بآيتهم» أي: بجماعتهم، ومنه بهذا المعنى قول بُرج بن مُسْهِر[٢]:

خرجنا من النقبينِ لا حيَّ مِثْلُنَا بآيتنا نُزجي اللقاحَ المطَافلا

أي: بجماعتنا.

هذان المعنيان للآية في لغة العرب: الآية بمعنى (العلامة)، الآية بمعنى (الجماعة).

والآية تُطلق في القرآن العظيم إطلاقين[٣]: تُطلق مراداً بها الآية الكونية القدرية. والكونية القدرية من الآية بمعنى (العلامة) لغة قولًا واحداً، كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] أي: لعلامات واضحات لأصحاب العقول على أن خالق هذا الكون قادر كل شيء، وأنه رب كل شيء، وأنه المعبود وحده (جل وعلا)، فهذه الآية الكونية القدرية في القرآن من معنى الآية بمعنى العلامة في لغة العرب.

الإطلاق الثاني للآية في القرآن: إطلاق الآية بمعنى الآية الشرعية الدينية، كقوله: ﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الطلاق: آية ١١] وهذه هي الآيات الشرعية الدينية كآيات هذا القرآن العظيم. وهذه من الآية أيضاً بمعنى العلامة؛ لأنها علامات على صدق من جاء بها؛ لما تضمنته من الإعجاز، أو بأن لها علامات تُعرف بها مبادئها ومقاطعها.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

وقال بعض أهل العلم: إن الآية بالمعنىٰ الشرعي الديني بمعنى الجماعة؛ لأنها جماعة من كلام القرآن وحروفه اشتملت على بعض مما تضمنه القرآن(١).

إذا عرفتم هذا فالآية في الآية التي نحن بصددها ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ هي الآية الكونية القدرية، الدالة على صدق من جاء بها. أي: علامة خارقة للعادة أنك رسول مرسل من الله (جل وعلا)، كأن يجعل الصفا ذهباً، وكأن يُحيي لنا قصياً لنكلمه، وما جرىٰ مجرى ذلك.

وهذا معنى قوله: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ اللام الأولى موطئة للقسم، واللام في قوله: ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ جواب للقسم؛ لأن القسم قبل الشرط، والقاعدة المقررة في علم العربية: أنه إذا اجتمع شرط وقسم فالجزاء للسابق منهما(٢). والسابق هنا: القَسَم. يعني: لئن جاءتهم آية من الآيات التي اقترحوها عليك ليؤمنن بها، ويصدقون بأنها من الله، وأنها معجزة دالة على أنك نبي حقاً. فأمر الله نبيه بأمرين:

أحدهما: أن يقول لهم: إن الآيات عند الله، هو الذي يأتي بها إن شاء، كما قال جل وعلا: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ [الشعراء: آية ٤].

الأمر الثاني: أنه يقول: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فمعنىٰ قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: الآيات التي اقترحتموها عند الله وبيده، إن شاء أنزلها، وإن شاء لم ينزلها، إنما أنا نذير، وقد جئتكم به من المعجزات ما يوضح الحق، ويقطع الشُّبه، ويثبت لكم ثبوتاً ضرورياً أني نبي كريم. أما التعنتات والآيات المقترحات فهي عند الله، إن شاء أنزلها عليكم فأهلككم إن لم تؤمنوا، وإن شاء لم ينزلها عليكم.

وقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الإشعار في لغة

---

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

العرب: الإعلام[١]، أي: ما يعلمكم، وما يدريكم.

وقرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا البصري أبا عمرو ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ بضم الراء، ومن يُرقق - كَوَرْش - يُرقق، ومن يُفَخِّم يُفخِّم. وقرأ هذا الحرف أبو عمرو في رواية الدُّوري والسُّوسي: ﴿وَمَا يُشْعِرْكُم﴾ بسكون الراء وروى عنه الدُّوري: ضم الراء مُخْتَلَسَة. هذه قراءة أبي عمرو[٢]، أما الاختلاس فهو للتخفيف قولًا واحداً، وأما إسكان الراء في قراءة أبي عمرو هذه ﴿وما يُشعِرْكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ فهو على إسكانه الراء. فالراء مُرَقَّقة؛ لأن الراء الساكنة بعد كسرة مُرَقَّقَة بإجماع القراء، وإجماع أهل اللسان العربي، إلا إذا جاء بعدها حرف استعلاء كما هو معروف.

لطالب العلم أن يقول: ما وجه قراءة أبي عمرو هذه وجَزْمُ مضارعٍ من غير جازم، وأصل المضارع إذا لم يدخل عليه جازم أو ناصب فحكمهُ الرفع كما هو معروف؟

والجواب عن هذا: أن إسكان بعض الحروف المحركة للتخفيف أُسلوب عربي معروف، جاء ذلك في القرآن وفي لغة العرب في حرف الإعراب، وفي غير حرف الإعراب[٣]، ومثاله في حرف الإعراب قوله هنا: ﴿وما يشعرْكم﴾ الأصل: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ كقراءة الجمهور، إلا أن الراء سُكنت للتخفيف، ونظيره من كلام العرب قول امرىء القيس[٤]:

فاليوم أَشْرَبْ غير مُسْتَحْقَبْ إِثْماً من الله ولا واغِلِ

فسكن المضارع تخفيفاً، وكذلك قد تُسكن العرب حرفاً متحركاً غير

(١) انظر: القرطبي (٦٤/٧)، القاموس (مادة: شعر) ص٥٣٣.

(٢) انظر: السبعة لابن مجاهد ص٢٦٥، الكشف المكي (٢٤٠/١ - ٢٤٢)، إتحاف فضلاء البشر (٢٦/٢)، البحر المحيط (٢٠١/٤).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٤) السابق.

حرف الإعراب تخفيفاً، وعليه قراءة حمزة[١]: ﴿أَرْنَا مناسكنا﴾ [البقرة: آية ١٢٨] وقراءة حفص[٢]: ﴿ويخشى الله ويَتَّقْه فأولئك هم الفائزون﴾ [النور: آية ٥٢] لأن «أَرْنَا» أصله (أَرِنَا) سُكِّن في قراءة حمزة تخفيفاً، وكذلك في لسان العرب، كقول الشاعر[٣]:

أَرْنَـا إداوَةَ عـبـدالله نَـمْـلَـؤُهـا ... من ماءِ زَمْزَمَ إنَّ القومَ قد ظَمِئُوا

وكذلك قراءة حفص عن عاصم ﴿ويخشى الله ويَتَّقْه﴾ بسكون القاف؛ لأن أصلها (ويتَّقِه) والقاف متحركة، سُكنت للتخفيف، وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[٤]:

ومـن يَـتَّـقْ فـإن الله مَـعْـهُ ... ورزقُ الله مُـؤْتَـابٌ وغَـادِ

وقول الراجز[٥]:

قـالـتْ سُلَيْمَى اشْتَرْ لنا سويقا ... وهـاتِ خُـبْـزَ الـبُـرِّ أو دقـيـقـا

هذا توجيه قراءة أبي عمرو ﴿وما يُشْعِرْكُم﴾.

وفي قوله: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قراءتان سبعيتان[٦]: قرأ هذا الحرف أبو عمرو وابن كثير وشعبة عن عاصم في رواية: ﴿وما يشعركم إِنَّها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ بكسر ﴿إِنَّها﴾ وياء الغيبة في ﴿يؤمنون﴾: ﴿وما يشعركم إنّها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ قراءة أبي عمرو ﴿وما يُشعِرْكم إِنَّها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ وقراءة ابن كثير، وشعبة عن عاصم في رواية: ﴿وما

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة. ونِسْبَة هذه القراءة لحمزة وَهْم، وإنما قرأ بها ابن كثير من السبعة، وأما حمزة فقرأها بالكسر. انظر: السبعة لابن مجاهد ص١٧٠، المبسوط لابن مهران ص١٣٦.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

(٦) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٠، النشر (٢٦١/٢).

يُشعِرُكُم إِنَّها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ فاتفق ابن كثير، وأبو عمرو، وشعبة عن عاصم ـ في رواية ـ على كسر ﴿**إنَّها**﴾ وياء الغَيبة في قوله: ﴿**يؤمنون**﴾.

وقراءة أبي عمرو هذه، وابن كثير، ورواية شعبة هي أوضح القراءات[1]، واضحة لا إشكال في الآية عليها، فمتعلق الإشعار محذوف[2]، والمعنىٰ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ ما يدريكم ماذا يكون.

ثم بين بخبر مؤكد ﴿**إنَّها إذا جاءت**﴾ ﴿**إنَّها**﴾ أي: الآية المقترحة إذا جاءتهم لا يؤمنون. كما قال: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ وكما قال جل وعــلا: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: آية ١٥] وكقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ١١١] ونحو ذلك من الآيات فقراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وشعبة ـ في رواية ـ لا إشكال في الآية عليها، قراءة أبي عمرو: ﴿**وما يُشعِرُكم إنَّها إذا جاءت لا يؤمنون**﴾ وقراءة ابن كثير، وشعبة عن عاصم ـ في رواية ـ ﴿**وما يُشعِرُكم إنها إذا جاءت لا يؤمنون**﴾ وهذه أوضح القراءات وأظهرها معنى. والمعنى: ما يشعركم، وما يدريكم عن حقيقة الأمر الذي سيكون لو جاءت الآية المقترحة؟ ثم بين بخبر باتٍّ أنها إذا جاءت لن يؤمنوا؛ ولذا قال: ﴿**إنَّها إذا جاءت**﴾ أي: الآية المقترحة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم متعنتون معاندون كفرة.

وقرأ هذا الحرف نافع، والكسائي، وحفص عن عاصم، وشعبة عن عاصم ـ في الرواية الأخرى ـ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بفتح همزة ﴿أَنَّهَآ﴾ وياء الغيبة في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقرأ هذا الحرف ابن عامر، وحمزة ﴿**وما يُشعِرُكم أَنَّها إذا جاءت لا تؤمنون**﴾ بفتح همزة ﴿أَنَّهَآ﴾ وتاء الخطاب في قوله: ﴿**تؤمنون**﴾ فهي ثلاث قراءات سبعيات، وما عداها شاذ: ﴿**إِنَّها إذا جاءت لا يؤمنون**﴾ ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿**أنها إذا جاءت لا تؤمنون**﴾.

---

(١) في توجيه هذه القراءات انظر: المُوضح لابن أبي مريم (٤٩٢/١)، حجة القراءات ص٢٦٥، القرطبي (٦٤/٧)، البحر المحيط (٢٠١/٤)، الدر المصون (١٠١/٥).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٠١/٤).

أما كسر الهمزة مع تاء الخطاب في ﴿تؤمنون﴾ فلم يأت في قراءة سبعية وإن ذكره بعض القراء عن شعبة ـ أبي بكر ـ من رواية الأعشى[(١)]، فهو لم يثبت عن عاصم في طريق شعبة.

أما على القراءة التي قدمنا فمعنى الآية واضح لا إشكال فيه كما بينا.

وأما على قراءة نافع، والكسائي، وحفص عن عاصم، وشعبة عن عاصم في رواية: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ففي الآية إشكال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: المتبادر إلى الأذهان أن المعنى: وما يدريكم أنها إذا جاءت يؤمنون حتى ترغبوا في إيمانهم، وتسألوا النبي ﷺ فـ(لا) في هذا المقام كأن المتبادر منها أن (لا) النافية هنا تقلب المعنى، وأن الأصل: وما يدريكم أنها إذا جاءتهم يؤمنون، حتى تطلبوا النبي أن يسألها.

والجواب عن هذا الإشكال من أوجه متعددة معروفة عند العلماء[(٢)]:

أحدها: أن الآية لا إشكال فيها، والمعنى: الله (جل وعلا) علم في سابق أزله أنهم لو جاءتهم الآيات لا يؤمنون، كما دلت عليه قراءة أبي عمرو، وابن كثير التي بيناها الآن ﴿إنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ يعني: الله يعلم أنهم لا يؤمنون لو جاءتهم؛ لأنه يعلم عواقب الأمور، وما تؤول إليه، وأنتم حيث إنكم بشر لا تعلمون عواقب الأمور. والمعنى: ما يدريكم، ما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون؟ يعني: أنا الذي أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، وأنتم لا تعلمون عواقب الأمور؛ ولذلك طمعتم في إيمانهم، فسألتم النبي ﷺ أن يدعو الله أن يأتيهم بالآية المقترحة!! وهذا الوجه من التفسير واضح لا إشكال فيه، واختاره أبو حيان في البحر[(٣)] والزمخشري في كشافه[(٤)]، وهو أيضاً واضح لا إشكال فيه، وعليه فالمعنى: الله يعلم

---

(١) انظر: المحتسب (٢٢٧/١)، البحر المحيط (٢٠١/٤)، الدر المصون (١٠٩/٥).

(٢) انظر: ابن جرير (٣٩/١٢ ـ ٤٣)، القرطبي (٦٤/٧)، البحر المحيط (٢٠١/٤)، الدر المصون (١٠٢/٥).

(٣) انظر: البحر المحيط (٢٠١/٤).

(٤) انظر: الكشاف (٣٤/٢).

أنهم لا يؤمنون، وأنتم أيها البشر ما يدريكم بما علم الله به من غيبه قبل أن يقع. والمعنى: لا تعلمون أنهم لا يؤمنون، ولو كنتم تعلمون أنهم لا يؤمنون لما قلتم للنبي: اسأل ربك أن يجعل الصفا ذهباً، طمعاً في إيمانهم. هذا وجه أيضاً لا إشكال فيه على قراءة نافع، والكسائي، وحفص عن عاصم، وشعبة عنه في رواية.

وكان بعض العلماء يقول[١]: (لا) هنا صِلَة.

ومعنى قولهم «صِلَة» أن يتأدبوا عن لفظ (زائدة)[٢] وذكر كثير من علماء العربية أن لفظة «لا» قد تزاد في الكلام مقصوداً بها توكيد الإيجاب[٣]، وهي من الأمور العكسية؛ لأن أصلها النفي، وهي ربما أُكِّد بها الإيجاب، كما في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: آية ١] فـ(لا) هنا ليست نافية؛ لأن الله أقسم بذلك البلد في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: آية ٣] وقالوا: إن (لا) قد تأتي في الكلام صِلَة مُؤَكِّدة للثبوت، وأن هذا أسلوب عربي معروف، ومنه قوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝٩٥﴾ [الأنبياء: آية ٩٥] على أحد الوجهين[٤]، ومنه قوله عندهم: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: آية ٣٤] أي: والسيئة، ومنه قوله عندهم: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [النساء: آية ٦٥] قالوا: الأصل: فوربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم. قالوا: ومنه قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ [الأعراف: آية ١٢] قالوا: (لا) هنا صِلة، بدليل قوله في ص: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: آية ٧٥] بحذف (لا).

---

(١) انظر: ابن جرير (٤١/١٢)، الكشاف (٣٤/٢)، القرطبي (٦٥/٧)، البحر المحيط (٢٠٢/٤)، الدر المصون (١٠٤/٥).

(٢) انظر: البرهان للزركشي (٣٠٥/١)، (٧٠/٣)، قواعد التفسير (٣٥٠/١).

(٣) انظر: البحر المحيط (٢١٣/٨)، البرهان للزركشي (٧٨/٣ ـ ٨٢)، فتح القدير (١٥٩/٥)، الدر المصون (٢٢٠/١٠)، رصف المباني ص٢٧٣، دفع إيهام الاضطراب ص٣٢١.

(٤) انظر: الدر المصون (١٩٨/٨).

وكان الفراء يقول[١]: إن حذف (لا) في الكلام الذي فيه معنى الجحد ـ أي النفي ـ هو معروف مطرد في كلام العرب، وأن حذفها في الكلام الذي ليس فيه معنىٰ الجحد ليس معروفاً مشهوراً في كلام العرب.

والحاصل أن زيادة لفظ (لا) في الكلام الذي فيه معنى الجحد، ـ أي: النفي ـ فهذا مما لا خلاف فيه، كقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: آية ٦٥] وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: آية ١٢] لأن المنع مُشَمٌّ معنى رائحة النفي، وهو كثير في كلام العرب، ومنه قول أبي النجم[٢]:

وما أَلُومُ البِيضَ ألاَّ تَسْخَراَ ... لما رَأَيْنَ الشَّمَطَ القَفَنْدرَا

ومنه قول الآخر[٣]:

ما كان يَرْضَى رسولُ الله دينهم ... والأطيبان أبو بكر ولا عمر

الأصل: أبو بكر وعمر. وهو معروف في كلام العرب، والتحقيق: أن زيادة (لا) لتوكيد الكلام المُثْبَت أسلوب عربي مسموع كثيراً في الكلام الذي فيه معنى الجحد، وربما جاء في الكلام المُثْبَت الذي ليس فيه معنى الجحد، ومن شواهده فيه قول ساعدة بن جؤية الهذلي[٤]:

أَفَعَنْكَ لا برقٌ كأنَّ وميضَه ... غابٌ تَسَنَّمه ضِرامٌ مُثْقَبُ

---

(١) عبارة الفراء: «المعنى ـ والله أعلم ـ ما منعك أن تسجد. و(أن) في هذا الموضع تصحبها (لا)، وتكون (لا) صلة. كذلك تفعل بما كان في أوله جحد..»اهـ معاني القرآن (٣٧٤/١).

(٢) البيت في المحتسب (١٨١/١)، الخصائص (٢٨٣/٢)، القرطبي (١٨٢/٢)، البحر المحيط (٢٩/١)، الدر المصون (٧٣/١)، والشمط: الشيب، والقفندر: القبيح.

(٣) البيت في البحر المحيط (٢٩/١)، الدر المصون (٧٣/١)، رصف المباني ص٢٧٣، وفي جميع هذه المصادر: «فعلهم» بدل «دينهم» و «الطيبان» بدل «الأطيبان».

(٤) البيت في البحر المحيط (٢٧٣/٤)، الدر المصون (٢٦٢/٥)، والغاب: نوع من الشجر، والضرام: النار في الحطب.

الأصل: أَفعَنْكَ برق. و(لا) زائدة، والكلام مُثْبَت لا نفي فيه، ومنه قول الآخر، (قالوا عن ابن عباس إنه أنشده)[١]:

تَذَكَّرْتُ ليلى فاعْتَرَتْني صَبَابَةٌ وكادَ ضميرُ القلبِ لا يتقطَّعُ

قالوا معناه: كاد يتقطع. هذان وجهان في الآية.

الوجه الثالث: وقال به سيبويه[٢]، واختاره المفسر الكبير ابن جرير[٣]: أن (أن) هنا في هذه الآية معناها (لعل) ومعروف في كلام العرب بإطباق أهل اللسان العربي: أن (لعل) يقال فيها: (لأنَّ) ويقال فيها: (أنَّ) كما هو معروف، ففي (لعل) لغات عديدة، منها: (لأن) ومنها: (أن) كما هو معروف، وسُمع بالإطباق عن العرب: «اذهب إلى السوق أنك تشتري لنا شيئاً». معناه: لعلك تشتري لنا شيئاً. وهذا أسلوب عربي معروف، ومنه قول امرىء القيس[٤]:

عُوْجَا على الطَّلَلِ المُحيلِ لأننا نبكي الديار كما بكى ابن خَذَامِ

وقوله: «لأننا»: لعلنا.

قال ابن جرير: ومنه قول عدي بن زيد حيث قال[٥]:

أَعَاذِلَ ما يُدريكِ أَنَّ منيَّتي إلى ساعةٍ في اليومِ أَوْ في ضُحى الْغَدِ

---

(١) البيت في رصف المباني ص٢٧٤.

(٢) انظر: الكتاب (١٢٣/٣).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (٤٣/١٢)، وانظر: الكشاف (٣٤/٢)، القرطبي (٦٤/٧)، البحر المحيط (٢٠٢/٤)، الدر المصون (١٠٢/٥).

(٤) ديوان امرىء القيس ص١٥٦، الكشاف (٣٤/٢)، البحر المحيط (٢٠٢/٤)، مشاهد الإنصاف ص١١٣، (ملحق بالكشاف ج٤)، والعَوج: عطف رأس البعير بالزمام. والمُحيل: الذي حال وتغير عن صفة الجِدَّة إلى صفة البِلَى، وابن خذام يقال إنه أول من بكى الديار من شعراء العرب.

ويقال له: ابن خدام، وابن خذام، وابن حذام.

(٥) البيت في ابن جرير (٤١/١٢)، القرطبي (٦٤/٧).

يعني: ما يدريك لعل منيتي. ومنه قول الآخر[١]:

أَرِينِي جَوَاداً مَاتَ هَزْلاً لأنني ... أرى ما ترين أو فقيراً مُخَلَّدا

يعني: لعلني. ومنه قول أبي النجم[٢]:

قلتُ لشيبانَ ادنُ من نَعْمَائِهِ ... أَنَّ تُغَدِّي القومَ من شِوَائِه

(أن) يعني: لعل.

وعلى هذا القول فالمعنى: وما يشعركم، وما يدريكم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون. قالوا: و(لعل) تأتي بعد (ما يدريك) و(ما يشعرك) ومن إتيانها بعد (ما يدريك) ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: آية ١٧] ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: آية ٦٣] ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ [عبس: آية ٣] فعلى هذا الوجه الذي اختاره ابن كثير[٣] وقال به سيبويه[٤] أن معنى (أن) هنا: (لعل). والمعنى: وما يشعركم ماذا يكون، لعلها إذا جاءت لا يؤمنون. قالوا: ويؤيد هذا المعنى: ما في مصحف أُبي بن كعب؛ لأن في مصحف أُبي «وما أدراكم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون»[٥] ومثل هذا كالتفسير؛ لأنه ليس بقرآن.

هذه الأوجه الثلاثة في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٩].

---

(١) البيت في ابن جرير (١٢/٤٢)، القرطبي (٧/٦٤)، وفيهما: أو بخيلًا. وانظر: تعليق محمود شاكر على ابن جرير (٣/٧٨)، (١٢/٤٢).

(٢) البيت في الكتاب (٣/١١٦)، ابن جرير (١٢/٤٣)، القرطبي (٧/٦٤)، الدر المصون (٥/١٠٣). وفيها: «ادن من لقائه».

(٣) لعل قوله «ابن كثير» سبق لسان. والمراد: (ابن جرير) كما سبق. ويدل عليه أن ابن كثير لم يرجح هذا القول.

(٤) كما في الكتاب (٣/١٢٣).

(٥) انظر: الكشاف (٢/٣٤)، القرطبي (٧/٦٥)، البحر المحيط (٤/٢٠٢)، الدر المصون (٥/١٠٣).

وعلى هذا القول، فالخطاب بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ للمؤمنين[١].

أما على قراءة ابن عامر، وحمزة: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا تؤمنون﴾ فالأوجه في (لا) في هذه القراءة كلها هي عين الأوجه التي في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلا أن الخطاب في القراءة الأولى ﴿وما يشعركم﴾ هو للمسلمين، أي: ما يدريكم أيها المسلمون أن الكفار إذا جاءتهم الآيات يؤمنون أولا يؤمنون.

أما على قراءة ابن عامر، وحمزة فالخطاب للكفار[٢] ﴿وما يشعركم﴾ أيها الكفرة المقترحون للآيات الزاعمون المقسمون جهد أيمانكم أنها إن جاءتكم آمنتم، ماذا يدريكم أنها إذا جاءتكم كفرتم ولم تؤمنوا؟ كقوله جل وعـــلا: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [الأنعام: آية ٧].

فعلى قراءة: ﴿تؤمنون﴾ فالخطاب بـ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ للكفار. وعلى قراءة ﴿يؤمنون﴾ فالخطاب بـ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ للمؤمنين.

وبهذا يزول النطاح والخصام المعروف بين علماء التفسير في الخطاب في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ طائفة تقول: هو للمؤمنين، وطائفة تقول: هو للكافرين. والفصل في هذا: أنه على قراءة ﴿تؤمنون﴾ فالخطاب للكفار. وعلى قراءة ﴿يؤمنون﴾ فالخطاب للمسلمين. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٩].

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام: آية ١١٠].

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/٣٩)، الكشاف (٢/٣٤)، القرطبي (٧/٦٤)، البحر المحيط (٤/٢٠١)، الدر المصون (٥/١٠٨).

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/٣٩)، القرطبي (٧/٦٤)، البحر المحيط (٤/٢٠١)، الدر المصون (٥/١٠٧).

في هذه الآية الكريمة كلام كثير لعلماء التفسير، وأقوال كثيرة[1]، أظهرها وأولاها بالصواب، وهوالحق ـ إن شاء الله ـ الذي دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله، وخير ما يُفسَّر به القرآن القرآن: أن الكفار لما أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم بعض الآيات المقترحات ليؤمنن بها، وبين الله أنهم لا يؤمنون، كما هو واضح في قراءة أبي عمرو، وابن كثير، وشعبة في رواية: ﴿**إنها إذا جاءت**﴾ بخبر مؤكد بـ(إن) بَاتّ أنهم لا يؤمنون، بيَّن سبب عدم هذا الإيمان، كأنه قال: إني قلت: إنهم لا يؤمنون، والسبب في ذلك: أنهم أول مرة قابلوا رسلي بالكفر، والعناد، والتعنت، فطمست على قلوبهم، وخذلتهم، وطبعت عليها.

وهذا معنى قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ فلا تعقل حقاً ﴿وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ فلا تبصر حقاً.

فقوله: ﴿كَمَا﴾ هنا تعليلية[2]: أي: لأنهم لم يؤمنوا بالقرآن أول مرة؛ فلأجل ما سبق منهم من العناد والتعنت طمسنا على قلوبهم، وقلّبنا أبصارهم وقلوبهم، والله (جل وعلا) مقلب القلوب، وكل قلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها ويصرفها كيف شاء، وفي الحديث: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[3]. وعلى هذا فالمعنى المانع الذي يمنعهم من

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/٤٤)، ابن كثير (٢/١٦٥)، شفاء العليل ص٩٩ ـ ١٠٠ بدائع الفوائد (٣/١٨٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/٢٠٣)، شفاء العليل ص٩٩.

(٣) رواه عن النبي ﷺ بهذا اللفظ جماعة من الصحابة وهم:

١ ـ أنس بن مالك (رضي الله عنه) عند أحمد (٣/١١٢)، (٢٥٧)، والترمذي في القدر، باب: ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، حديث رقم (٢١٤٠)، (٤/٤٤٨)، وقال: «حسن» اهـ. وابن ماجه في الدعاء، باب: دعاء رسول الله ﷺ. حديث رقم (٣٨٣٤)، (٢/١٢٦٠)، والحاكم (٢/٢٨٨)، وابن أبي عاصم في السنة رقم (٢٢٥)، والآجري في الشريعة ص٣١٧.

وقد صححه الألباني كما في ظلال الجنة، حديث رقم (٢٢٥)، وصحيح الترمذي، حديث رقم (١٧٣٩)، وصحيح ابن ماجه، حديث رقم (٣٠٩٢). =

الإيمان لو جاءتهم الآيات المقترحات: أنهم بادروا بتكذيب الرسل أول مرة عندما جاءهم عناداً وتعنتاً، وبسبب ذلك الكفر والعناد قلّبنا أبصارهم فأزغناها عن الحق، وقلّبنا أفئدتهم فأزغناها عن الحق. والدليل على هذا: أن المبادرة بالعمل السيء سبب لطمس البصيرة، والطبع، والران على القلوب، كما بينه الله في آيات كثيرة، كقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: آية ١٠] وكقوله: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: آية ١٤] وكقوله جل وعلا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: آية ٥] فقوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في مكان ﴿زَاغُوا﴾ في هذه الآية، وقوله: ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ في مكان قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾، لأن المعاصي والكفر ـ والعياذ بالله ـ من سبب طمس القلوب، وذلك يقع في المؤمن، الإنسان المؤمن إذا أذنب ـ والعياذ بالله ـ ذنباً. نُكِتَ في قلبه نكتة

---

٢ ـ عاصم بن كليب عن أبيه عن جده. عند الترمذي في الدعوات، باب: (١٢٥)، حديث رقم (٣٥٨٧)، (٥٧٣/٥)، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

٣ ـ النواس بن سمعان (رضي الله عنه). عند أحمد (١٨٢/٤)، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، حديث رقم (١٩٩)، (٧٢/١)، وابن أبي عاصم في السنة، حديث رقم (٢١٩)، (٢٣٠)، (٥٥٢)، والحاكم (٢٨٩/٢)، (٣٢١/٤)، وابن حبان (الإحسان (١٤٦/٢ ـ ١٤٧) والآجري في الشريعة ص٣١٧.

وقد صححه الألباني كما في ظلال الجنة (٩٨/١)، (١٠٣ ـ ١٠٤)، وصحيح ابن ماجه، حديث رقم (١٦٥)، والسلسلة الصحيحة، رقم (٢٠٩١).

٤ ـ أم سلمة (رضي الله عنها). عند أحمد (٩١/٦، ٢٩٤ ـ ٣٠٢، ٣١٥)، والترمذي في الدعوات، باب: (٩٠)، حديث رقم (٣٥٢٢)، (٥٣٨/٥)، وابن أبي عاصم في السنة، رقم (٢٢٣، ٢٣٢)، والآجري في الشريعة ص٣١٦، وصححه الألباني كما في ظلال الجنة (١٠٠/١، ١٠٤).

٥ ـ عائشة (رضي الله عنها). عند أحمد (٩١/٦، ٢٥١)، والآجري في الشريعة ص٣١٧، وابن أبي عاصم في السنة، حديث رقم (٢٢٤)، (٢٣٣)، وصححه الألباني كما في ظلال الجنة (١٠١/١، ١٠٤).

وقد أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص بلفظ مقارب. انظر: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، حديث رقم (٢٦٥٤)، (٢٠٤٥/٤)، وقد رواه غير هؤلاء من الصحابة كبلال، وجابر (رضي الله عنهم أجمعين).

سوداء، فإذا كان عاقلًا ذكياً من الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: آية ٢٠١] وأناب إلى الله وتاب إليه زال ذلك السواد، وصار قلبه صقيلًا؛ لأن القلب كالزجاجة، ونور الإيمان الذي يُبْصَرُ به الحق والباطل في داخله كأنه النور وسط الزجاجة، والزجاجة إذا تلطخت بالأوساخ انكسف النور داخلها، وإذا كانت صقيلة نظيفة شع النور.

أما ترى الذُّبال في المصباح إذا صفا يرضيك في استصباح
وإن يكن بوسخ مُلَطَّخاً كسف نوره لذلك الطَّخا[1]

فإذا أذنب العبد ذنباً صارت وساخة سوداء على قلبه، فإذا بادر إلى الإنابة والتوبة غسلها، فبقي القلب صقيلًا نظيفاً، فشع نور الإيمان فيه، كالنور في الزجاجة الصقيلة، فإذا كان المسكين مغفلًا جاهلًا، وزاد في الذنوب، لم يزل يزيد في الذنوب، والسواد يزداد حتى يعلو جميع القلب، فيسودُّ جميعه، فيبقى النور لا أثر له، وعلامة هذا من طمس البصائر ـ والعياذ بالله ـ أن ترى من وقع به هذا الاسوداد القلبي، والران المستولي على قلبه، تراه يرتكب فظائع الذنوب وهو يضحك في فرح ولهو؛ لأن البصيرة والنور الذي يرى به شدة ضرر هذا انطمس، فلا يرى ضرراً، وتراه تفوته الصلوات والرغائب العظام في الدين وهو فرح مسرور!! لا يرى هذا الحق حقاً، ولا هذا الباطل باطلًا؛ لأن البصيرة التي يرى بها الحق حقاً والباطل باطلًا، والنافع نافعاً والضار ضاراً، إذا اسودت القلوب انطمس نورها، فلا يبصر بها شيئاً، فكما أن الكفار بادروا إلى تكذيب الأنبياء، وكانوا قبل ذلك قد يكونون على فطرة، وقد يكونون معذورين، اسودت قلوبهم فطبع الله عليها، وختم عليها، وقلبها عن الحق ـ والعياذ بالله ـ، كما قال جل وعلا: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: آية ٧] وكما قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾

(١) البيت من قصيدة للهلالي تُعرف بـ(وصية الهلالي) كما أفاد بذلك الشيخ (بُدّاه) مفتي موريتانيا حفظه الله.

[الكهف: آية ٥٧] وقال هنا: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١١٠] وذلك جزاء وفاق، وعدل؛ لأن المعاصي ترين على القلوب، وتطمسها حتى لا تبصر حقاً.

وهذا هو الأظهر في معنى قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ حتى تزيغ عن إدراك الحق، ونقلب ﴿أَبْصَٰرَهُمْ﴾ حتى تزيغ عن إدارك الحق ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ لأجل أنهم لم يؤمنوا بهذا القرآن ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ جاءهم به الرسول، فكان كفرهم وزيغهم الأول سبباً للطبع على قلوبهم، وتقليب قلوبهم وأبصارها عن الحق. كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: آية ٥] ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: آية ١٥٥] فالباء سببية. وكقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: آية ١٢٥] ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: آية ١٤] وهذا معنى قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: آية ١١٠] فـ ﴿كَمَا﴾ من حروف التعليل، ومعنى نقلبها: لأجل أنهم لم يؤمنوا به أول مرة، فذلك الكفر يجر إلى الخذلان، وطمس البصيرة، وتقليب القلوب والأبصار، ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم.

وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ معناه: نتركهم.

وقوله: ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾: الطغيان في لغة العرب مجاوزة: الحد[1]، ومنه قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: آية ١١] أي: جاوز الحدود التي يبلغها الماء العادي. وطغيان الإنسان: مجاوزته الحدود. ومجاوزتهم الحدود ككفرهم بربهم، وجعلهم له الشركاء والأولاد.

وقوله: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ المضارع جملته حالية[2]، ومعلوم أن جملة المضارع لا تقترن بالواو، وأن الرابط فيها ضمير، هذا معروف[3].

---

(١) انظر: المفردات (مادة: طغى) ص٥٢٠.
(٢) انظر: الدر المصون (٥/١١٢).
(٣) انظر: التوضيح والتكميل (١/٤٨٨).

والْعَمَهُ في لغة العرب[1]: هو عمى القلب خاصة، العمى: ـ مقصور بالألف ـ يُطلق على عمى البصر، وعلى عمى البصيرة، كما يأتي في قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦] أما العَمَه ـ بالهاء ـ فلا يطلق إلا على عمى البصيرة خاصة، ومن عَمِيَتْ بصيرته لم ير حقاً من باطل، ولم يميز حسناً من قبيح، ولا نافعاً من ضار والعياذ بالله جل وعلا.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: آية ١١١] قد اقترحوا على النبي ﷺ أن ينزل عليهم الملائكة، كما بينه تعالى في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: آية ٢١] وكقوله عنهم: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: آية ٩٢] ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: آية ٨] هذه الآيات الدالة على اقتراحهم إتيانه بالملائكة، وقد اقترحوا عليه أن يحيي لهم آباءهم الذين ماتوا [ليسألوهم عنه][2]، كما بينه تعالى في الجاثية، وأوضح كثرة قولهم له: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية: آية ٢٥] أحيوا لنا آباءنا وأسلافنا الذين ماتوا لنسألهم عنكم أنتم على حق أم لا، كذلك قالوا له: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: آية ٩٢] قال الله هنا: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ كما اقترحوا أو ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كما اقترحوا اقتراحهم لنزول الملائكة ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: آية ٢١] ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الإسراء: آية ٩٢] ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: آية ٧] واقتراحهم لتكليم آبائهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الدخان: آية ٣٦] ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية: آية ٢٥] يعني: لو أتيناهم بما اقترحوا فنزلنا عليهم الملائكة، والملائكة لو نزلت عليهم، لجاءهم العذاب؛ لأن الله لا يمهلهم بعد نزول العذاب، كما يأتي

(١) انظر: القاموس (مادة: العمه) ص١٦١٣، الكليات ص٦٥٢.
(٢) في الأصل: «ليسألوه عنهم» وهو سبق لسان.

في قوله: ﴿ما تَنزَّلُ الملائكةُ إلا بالحق﴾ وفي القراءة الأخرى[١]: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحجر: آية ٨] أي: لو نزل الملائكة لا يُنظرون بعد ذلك، وكقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: آية ٢٢] أي: حراماً محرماً عليكم أن تؤذونا كما سيأتي؛ ولذا قال هنا: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ كما اقترحوا، وأخبرتهم بأنك نبي الله ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كأن أحيينا لهم قصياً فسألوه، وأخبرهم بأنك نبي الله ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ قرأه الجمهور ﴿قُبُلًا﴾. وقرأه اثنان من السبعة ﴿قِبلا﴾[٢]. أما على قراءة: ﴿قِبلا﴾ فهو من المعاينة. معنى: ﴿وحشرنا عليهم كل شيئ قِبَلا﴾ أي: معاينةً وجهاً لوجه من غير مواراة بشيء[٣]. وعلى قراءة ﴿قُبُلًا﴾ ففيه وجهان[٤]: أحدهما: أن القُبُل جمع قبيل، أي: جماعات جماعات. كأن تأتيهم الملائكة جماعات.

وقال بعض العلماء[٥]: ظاهر قوله ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ أن تأتيهم الملائكة قبيلًا، وكل نوع من أنواع الحيوانات قبيلًا قبيلًا، فأنطقها الله على خرق العادة، وكَلَّمَتْهُم، كل هذا لو وقع لم يؤمنوا.

وكان بعض العلماء يقول[٦]: ﴿قُبُلًا﴾ و ﴿قِبَلاً﴾ معناهما واحد؛ لأن القُبل: هو ما تستقبله بوجهك وتعاينه. ومنه قيل لما يستقبله الرجل من وجهه: «قُبُل» ولما خلفه «دُبُر» وعلى هذا القول فـ ﴿قِبَلاً﴾ و ﴿قُبُلًا﴾ معناهما واحد، وعلى القول الثاني: أن (القُبُل) جمع قبيل، والمعروف في فن التصريف أن (الفعيل) إذا كان اسماً يُجمع غالباً على (فُعُل) كَقَذَال وقُذُل، وسرير وسُرُر وما جرى مجرى ذلك[٧].

والمعنى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي:

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٥٩.
(٢) وهما: نافع وابن عامر. المصدر السابق ص٢٠١.
(٣)(٤) انظر: حجة القراءات ص٢٦٧] ابن جرير (٤٨/١٢ ـ ٤٩).
(٥) انظر: القرطبي (٦٦/٧).
(٦) انظر: المصدر السابق.
(٧) انظر: التوضيح والتكميل (٣٩٦/٢).

جمعنا عليهم ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من جميع الأشياء قبيلًا قبيلًا، أي: فوجاً فوجاً، وجماعة جماعة، أو: (قِبَلًا) معاينة، لو فعلنا لهم كل هذا ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ هذه اللام هي التي تسمى (لام الجحود) والفعل المضارع منصوب بـ(أن) بعدها،[١] والمعنى: ما كانوا مُريدين لأن يؤمنوا، أو: ما كانوا مستعدين لأن يؤمنوا ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ التحقيق: أن الاستثناء متصل، خلافاً لمن زعم أنه منفصل[٢].

والمعنى: ما كانوا ليؤمنوا في حالة من الأحوال إلا في حالة أن يشاء الله ذلك؛ لأنهم متعنتون.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربي معروف، وهو (أنَّ) المفتوحة إنما تكون لسد مصدر، فهي بمعنى اسم بالتأويل، و (لو) حرف شرط لا يدخل إلا على الجملة الفعلية، فكيف دَخل هنا على الاسم الذي هو المصدر المنسبك من (أنَّ) وصلتها[٣]؟

وهذا السؤال جوابه معروف، لأن إتيان (أنَّ) بعد (لو) كثير جداً في القرآن العظيم ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ [لقمان: آية ٢٧] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: آية ٦٤] فهو كثير في القرآن وفي كلام العرب، ومنه في كلام العرب قول لبيد[٤]:

لَو أَنَّ حَياً مُدْرِكَ الفَلاَحِ   لَنَالَهُ مُلاَعِبُ الرماحِ

والجواب عند علماء العربية: أن المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في محل رفع فاعل فعل محذوف، قالوا: تقديره «ولو ثبت أننا نزلنا إليهم الملائكة» أي: لو ثبت ووقع تنزيلنا الملائكة عليهم ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن

---

(١) انظر: الكتاب لسيبويه (٧/٣)، الدر المصون (١١٤/٥) الكليات ص٨٧١، معجم الإعراب والإملاء ص٣٥٤.

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٠٦/٤)، الدر المصون (١١٤/٥).

(٣) انظر: ضياء السالك (١٥٢/١)، (٦٠/٤ ـ ٦١)، مغني اللبيب (٢١٣/١)، المعجم المفصّل في شواهد النحو الشعرية (١١٣٧/٣).

(٤) البيت في اللسان (مادة: لعب) (٣٧٢/٣)، مغني اللبيب (٢١٤/١)، وشطره الثاني: (أدركه ملاعب الرماح).

﴿يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إيمانهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ﴾ أي: أكثر الكفار.

قال بعض العلماء: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ﴾ أي: أكثر الكفار.

وقال بعض العلماء: ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ أي: أكثر الجميع من الكفار والمسلمين ﴿يَجۡهَلُونَ﴾ أنهم لو أنزلت عليهم الآيات التي اقترحوا لم يؤمنوا.

والقول الأول أظهر؛ لأن التعبير بالمضارع في ﴿يَجۡهَلُونَ﴾ يدل على أنهم من عادتهم وشأنهم الجهل وعدم المعرفة بالله. وهذا أليق بالكفار.

١٥/أ / ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام: آية ١١٢].

لما كان كفار مكة، أعداءً للنبي ﷺ، عادوه شدة المعاداة، حتى اضطر إلى أن يخرج مهاجراً إلى هذه المدينة حرسها الله، عن مسقط رأسه الذي وُلد به، لما لقي من أذاهم وهمهم بأن يقتلوه كما يأتي في سورة الأنفال في قوله: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: آية ٣٠].

أراد الله أن يُسلي نبيه في هذه الآية الكريمة(١)، أن هذا الذي جرىٰ عليه جرىٰ علىٰ إخوانه وآبائه من الرسل الكرام، كإبراهيم وإسماعيل، يعني: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما جعلنا لك أعداءً كفرة من قومك، يعادونك، ويهمُّون بقتلك، وإخراجك، وحبسك، كما جعلنا لك أعداء، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ من الأنبياء ﴿عَدُوّٗا﴾ أي: أعداء، يعني لم يبق نبي إلا جعل الله له أعداءً؛ لأن الحق لا يأتي به أحد إلا كان خصوم الحق أعداءً له؛ ولذا تعرفون في حديث البخاري المشهور: أن خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) لما ذكرت أمر النبي لورقة بن نوفل، وقال للنبي ﷺ: (ليتني جَذَع إذ يخرجك قومك أكون معك، فأنصرك نصراً مُؤَزَّراً) لما قال له النبي ﷺ في الحديث الصحيح المشهور: «**أَوَمُخرِجِيَّ هم؟**» أجابه ورقة

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٤) من سورة الأنعام.

بقوله: «لم يأت بهذا الدين أحد إلا عُودي»[(١)]. لأن الحق لا يأتي به أحد إلا عاداه خصوم الحق، وهم شياطين الإنس والجن، فهم أعداء للحق، وأعداء لمن قام بالحق، كما قال جل وعلا.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: الآيات ١١٢ ـ ١١٥].

يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٢].

لما بين الله (جل وعلا) في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأنعام ـ ما لاقى النبي ﷺ من أذى المشركين، ومن عداوتهم، وعدم انقيادهم إليه ـ كما قدمنا في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام: الآيات ٣٣ ـ ٣٥] أي: إن استطعت ذلك فافعل ـ بين الله لنبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أنه ما أرسل نبياً من الأنبياء إلا جعل له أعداء كفرة فجرة من شياطين الإنس والجن، والقصد من هذا تسلية النبي ﷺ؛ لأن ما لُوقي به من العداوة إذا كان قد لاقاه إخوانه الكرام من الرسل الكرام هوّن ذلك الأمر عليه، كما قال له: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: آية ٤٣] ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ [الأنعام: آية ٣٤] ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: آية ٣٥] ونحو ذلك من الآيات.

---

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي، الباب: (٣)، حديث رقم (٣)، (٢٣/١)، وأخرجه في مواضع أخر، انظر الأحاديث: (٣٣٩٢، ٤٩٥٣، ٤٩٥٥، ٤٩٥٦، ٤٩٥٧، ٦٩٨٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم (١٦٠)، (١٣٩/١).

ومعنىٰ الآية الكريمة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما جعلنا لك أعداء كفرة من كفار قريش يعادونك، ويناصبونك العداوة، كذلك الجعل ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ من الأنبياء قبلك ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ جعلناهم عدواً للأنبياء، وقد نص الله على هذا في الفرقان حيث قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: آية ٣١] فبين أن أعداء الأنبياء هم المجرمون، وهم شياطين الإنس والجن.

وقرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا نافعاً وحده: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ بالإدغام. وقرأه نافع وحده برواية ورش وقالون: ﴿جعلنا لكل نبيءٍ عدوّاً﴾ ونافع يقرأ جميع ما في القرآن من النبيء والأنبئاء كله بالهمزة في رواية ورش، وكله بالهمزة في رواية قالون عن نافع، إلا حرفين في سورة الأحزاب[1][2].

أما على قراءة نافع: ﴿جعلنا لكل نبيء﴾ فالنبيء مشتق من (النبأ)[3]، والنبأُ: الخبر الذي له خَطْب وشأن، وإنما قيل للنبيء (نبيء) لأنه يُوحىٰ إليه، والوحي: خبر له خَطب وشأن، فكل نبأ خبر، وليس كل خبر نبأً؛ لأن العرب لا تُطلق النبأ إلا على الخبر الذي له شأن وخَطْب، أما الخبر فتطلقه على الحقير والجليل، فلو قلت: جاءنا نبأ الأمير، وجاءنا نبأ عن الجنود، وعن الأمور العظام. كان هذا من كلام العرب، فلو قلت: جاءنا نبأ عن حمار الحجام. لم يكن هذا من كلام العرب؛ لأن قصة حمار الحجام لا خطب لها ولا شأن، فلا يُعبّر عنها بالنبإ، وإنما يُعبر عنها بالخبر[4].

أما على قراءة الجمهور: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ بالإدغام ففيه

---

(١) وهما الآيتان (٥٠، ٥٣).

(٢) انظر: الكشف لمكي (٢٤٣/١ ـ ٢٤٤)، الإقناع لابن الباذش (٤٠٣/١)، النشر (٤٠٦/١)، إتحاف فضلاء البشر (٣٩٥/١) وراجع ما مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: الكشف لمكي (٢٤٤/١)، إتحاف فضلاء البشر (٣٩٥/١).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.

أحدهما: أن أصله من (النبأ)، إلا أن الهمزة أُبدلت ياءً، وأُدغمت الياء في الياء. وعليه فالقراءة بالنبيء والنبي كالقراءتين السبعيتين ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ [التوبة: آية ٣٧] **﴿إنما النسيُ زيادة في الكفر﴾**[1] وعلى هذا التأويل فمعنى قراءة الجمهور كمعنى قراءة نافع.

الوجه الثاني: أن النبي على قراءة الجمهور ليس اشتقاقه من (النبأ) بمعنى الخبر، وإنما هو من (النَّبْوَة) بمعنى الارتفاع[2] لارتفاع شأن النبي، وعلى هذا التفسير فأصل النبي على قراءة الجمهور ليس بمهموز، والأظهر أن أصله مهموز، وأن الهمزة أبدلت ياءً، بدليل قراءة نافع بالهمزة.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا﴾ اختلف العلماء في إعراب قوله: ﴿عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ فذهب بعض العلماء إلى أن ﴿عَدُوّٗا﴾ و ﴿شَيَٰطِينَ﴾ هما المفعولان لـ ﴿جَعَلۡنَا﴾. أي: جعلنا ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ أعداءً، أي: صيرناهم أعداء لكل نبي. وعلى هذا فتكون ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ﴾ هو المفعول الأول، وقوله: ﴿عَدُوّٗا﴾ هو المفعول الثاني. و (جعل) هنا هي التي بمعنى: (صيّر).

الوجه الثاني من الإعراب: أن أحد المفعولين هو الجار والمجرور في قوله: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ والمفعول الثاني هو قوله: ﴿عَدُوّٗا﴾ وعليه فيكون إعراب ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ أنه بدل من ﴿عَدُوّٗا﴾ هذان الإعرابان في الآية[3] و (جعل) هنا بمعنى (صيّر) أي: صيرنا شياطين الإنس والجن أعداءً لكل نبي من الأنبياء.

---

(١) انظر: الكشف لمكي (١/٥٠٢)، الإقناع لابن الباذش (١/٤٠٤)، النشر (١/٤٠٥)، إتحاف فضلاء البشر (٢/٩١).

(٢) انظر: الكشف لمكي (١/٢٤٥)، زاد المسير (١/٩٠).

(٣) انظر: القرطبي (٧/٦٧)، البحر المحيط (٤/٢٠٧)، الدر المصون (٥/١١٥)، أضواء البيان (٢/٢٠٨).

و (جعل) تأتي في كلام العرب على أربعة أنحاء[١]، ثلاثة منها في القرآن، والرابع موجود في لغة العرب وليس في القرآن:

الأول من الأقسام الأربعة: (جعل) التي بمعنى (اعتقد) وهي تنصب المبتدأ والخبر مفعولين، وهي بمعنىٰ (اعتقد) ومنه قوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَٰٓئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الزخرف: آية ١٩] وفي القراءة الأخرى: ﴿الذين هم عند الرحمن إناثاً﴾[٢] المعنى: اعتقدوا الملائكة إناثاً. فـ (جعل) هذه بمعنىٰ (اعتقد) وهي تنصب مفعولين، أصلها مبتدأ وخبر.

الثاني: (جعل) بمعنى (صيّر) كهذه التي عندنا ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ﴾ [الأنعام: آية ١١٢] أي: صيرنا شياطين الإنس عدواً لكل نبي. وهي أيضاً تنصب المبتدأ والخبر مفعولين.

الثالث: (جعل) بمعنىٰ (خلق) وهي تنصب مفعولًا واحداً، وهي التي تقدمت في أول هذه السورة الكريمة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَٰتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: آية ١] أي: خلق الظلمات والنور.

هذه الأقسام الثلاثة من معاني (جعل) أعني كونها بمعنى (اعتقد)، وكونها بمعنى (صيّر)، وكونها بمعنى (خلق)، كلها في القرآن العظيم.

أما معناها الرابع فهو في اللغة، وليس في القرآن، وهو إتيان (جعل) بمعنى شرع في الأمر، كقولهم: جعل فلان يفعل كذا. أي: شرع يفعله. ومنه بهذا المعنى قول الشاعر[٣]:

وَقَدْ جَعَلْتُ إذا ما قُمْتُ يُثْقِلُني ثَوْبي فَأَنْهَضُ نَهْضَ الشَّاربِ السَّكِرِ

---

(١) انظر: نزهة الأعين النواظر ص٢٢٨، بصائر ذوي التمييز (٢/٣٨٣)، إصلاح الوجوه والنظائر ص١٠٦، وراجع ما مضى عند تفسير الآية (١٠٠) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٩٨.

(٣) البيت لعمرو بن أحمر، أو أبو حية، أو الحكم بن عبدل. وهو في الخزانة (٤/٩٤).

وهذا معنى قوله أي: وكذلك الجعل الذي جعلنا لك يا نبي الله أعداء من كفار قريش في مكة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الجعل ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ قبلك من الأنبياء ﴿عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾.

في هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يُقال: إن المراد: أعداء؛ لأنهم شياطين الإنس والجن، وهم جماعة، وأعداء الرسل جماعات لا مفرد، وهنا قال: ﴿عَدُوًّا﴾ بصيغة المفرد، ولم يقل: «وكذلك جعلنا لكل نبي أعداء» بل قال: ﴿عَدُوًّا﴾ وجاء في القرآن إطلاق العدو مراداً به الجمع في آيات متعددة كقوله: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ أي: أعداء لكم. وكقوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ أي: هم الأعداء فاحذرهم. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً: أن المقرر في علوم العربية: أن المفرد إذا كان اسم جنس جاز إطلاقه مفرد اللفظ مراداً به الجمع إذا دلت على ذلك قرائن[1]. وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب في الحالات الثلاث، أعني بقولي «في الحالات الثلاث»: أن يكون مُنكَّراً، وأن يكون معرَّفاً بالألف واللام، وأن يكون مضافاً. فمثال إطلاق الجنس مفرداً مراداً به الجمع منكّراً في القرآن قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ [القمر: آية ٥٤] يعني: وأنهار، بدليل قوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ [محمد: آية ١٥] وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: آية ٥] يعني أطفالاً. وقوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: آية ٧٤] أي: أئمة. وقوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: آية ٤] أي: أنفساً. وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ [المائدة: آية ٦] أي: وإن كنتم جنبين أو أجنابا فاطَّهَّروا. وقوله جل وعلا: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون: آية ٦٧] أي: سامرين. وهو كثير في القرآن. ومن أمثلته في القرآن واللفظ مُعرَّف بالألف واللام قوله جل وعلا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: آية ٧٥] يعني: الغرف. بدليل قوله: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: آية ٢٠] ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: آية ٣٧] وقوله:

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾ [النور: آية ٣١] يعني: الأطفال ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: آية ٤٥] أي: الأدبار.

وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: آية ٢٢] أي: والملائكة؛ لأن الملك الواحد لا يكون صفاً صفاً، وكما دلّ عليه قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: آية ٢١٠] وهذا كثير في القرآن. ومن أمثلته واللفظ مضاف: قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ [الحجر: آية ٦٨] أي: أضيافي، وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: آية ٦٣] أي: أوامره ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: آية ٣٤] أي: نعم الله، وأنشد الشيخ سيبويه في كتابه لإطلاق اسم الجنس مفرداً مراداً به الجمع، أنشد له بيتين، أحدهما قول علقمة بن عَبَدَة التميمي[1]:

بها جِيَفُ الحَسْرَى فأمَّا عِظَامُها ... فَبِيْضٌ وأمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيْبُ

يعني: وأما جلودها فصليبة. وقول الآخر[2]:

كُلُوا في بعض بَطْنِكُم تَعُفُّوا ... فإن زَمَانَكُم زَمَنٌ خَمِيصُ

يعني: في بعض بطونكم. هذان البيتان أنشدهما سيبويه لهذا المعنى في كتابه، وهذا كثير في كلام العرب.

ومنه واللفظ مُنكَّر في كلام العرب: قول عقيل بن عُلَّفة المري[3]:

وكان بنو فَزَارة شَرَّ عَمٍ ... وكُنتُ لهم كَشَرِّ بني الأَخِيْنَا

يعني: شر أعمام.

ومنه واللفظ مضاف: قول العباس بن مرداس السُّلمي[4]:

فَقُلْنَا أَسْلِمُوا إنَّا أخوكم ... وقد سَلِمَت من الإِحَنِ الصدورُ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

أي: إنا إخوانكم. وقول جرير[١]:

إذا آبَـاؤُنَـا وأبُـوكَ عُـدُّوا   أبَانَ الـمُـقْـرِفـات مـن الـعِـرَابِ

وهو كثير جداً في كلام العرب، ومنه قوله هنا: ﴿عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ والعدو: هو الذي يعاديك، ويتربص بك الدوائر، وكلما وجد فرصة لضررك ضَرَّكَ [وشياطين الإنس والجن يعادون الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام)][٢] وهم أعداء النبي ﷺ.

وقوله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ الشياطين: جمع الشيطان، والشيطان في لغة العرب: هو كل عاتٍ متمرد في الطغيان. فكل ما زاد وبرز في جنسه بأن زاد طغيانه، وعصيانه، وعُتُوُّه تسميه العرب: (شيطاناً)، سواء كان من الإنس، أو من الجن، أو من غيرهما. فكل عاتٍ متمرد فهو شيطان[٣]، سواء كان من الإنس، كقوله هنا: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ [البقرة: آية ١٤] أي: عتاتهم المتمردين من رؤساء الكفرة من الإنس. وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول جرير[٤]:

أيامَ يدعُونَني الشيطانَ من غَزَلِي   وكُنَّ يَهْوَيْنَنِي إذْ كُنْتُ شيطانَا

أي: متمرداً عاتياً. هذا أصل الشيطان في لغة العرب، ومن إطلاق الشيطان على المتمرد العاتي من غير الإنس والجن: حديث النبي ﷺ: «**الكلب الأسود شيطان**»[٥].

وقد قدمنا في تفسير الاستعاذة: أن علماء العربية اختلفوا في وزن الشيطان بالميزان الصرفي[٦]، فذهب جماعة ـ وهو أظهر القولين اللذين

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٢) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة ليتسنى ربط أطراف الكلام وأجزائه بعضها مع بعض.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من سورة الأنعام، مما سبق.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من سورة الأنعام.

(٥) السابق.

(٦) السابق.

ذكرهما سيبويه، كل منها في موضع من كتابه ـ أن أصل المادة التي منها الشيطان: هي (الشين والطاء والنون)، فحروفُه الأصلية (شطن) والياء والألف زائدتان، وعليه فوزنه بالميزان الصرفي: (فَيْعَال) فاءُ مادته: شين، وعينها: طاء، ولامها: نون، أصلها من (شطن)، ومادة (شطن) تستعملها العرب في البُعد، فكل شيء بعيد تطلق عليه هذا الاسم، تقول العرب: «نوىً شطون». أي: بعيدة. و«بئر شطون». أي: بعيدة القعر، ومنه قول الشاعر[١]:

نأتْ بسعادَ عنك نوىً شَطُون ... فبانَتْ والفؤادُ بها حزين

وعلى هذا القول فوزن الشيطان بالميزان الصرفي (فَيْعَال) واشتقاق مادته من: (شطن) بمعنى: (بَعُد) ووجه المناسبة: هو بُعده عن رحمة الله (جل وعلا) لما سبق له من الشقاء الأزلي. ومما يؤيد هذا ـ أن الشيطان من مادة (شطن)، وأن وزنه (فَيْعَال) ـ هو ما جاء في شعر أُمية بن أبي الصلت الثقفي[٢]، وهو عربي جاهلي قُح:

أيما شَاطِنٍ عصَاهُ عكَاهُ ... ثم يُلقى في السجن والأكبال

فأطلق على الشيطان: شاطن. والشاطن: اسم فاعل (شطن) بلا خلاف.

الوجه الثاني في وزن الشيطان بالميزان الصرفي ـ وقد أشار له أيضاً سيبويه في كتابه ـ: أن أصله من (شاط، يشيط). وعلى هذا: فأصل مادته (شَيَط) فاءُ المادة: شين، وعينها: ياء، ولامها: طاء. وعلى هذا فوزنه بالميزان الصرفي: (فَعْلَان) لا (فَيْعَال)، والعرب تقول: «شاط يشيط» إذا هلك. ومنه قول الأعشى ـ ميمون بن قيس[٣] ـ:

قد نَخْضِبُ العيرَ من مكنونِ فائلِهِ ... وقد يشيطُ على أَرْمَاحِنَا البطلُ

---

(١) البيت للنابغة، وقد مضى عند تفسير الآية (٤٣) من هذه السورة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

وعلى هذا القول الأخير، أن وزنه (فَعْلَان) وأنه من (شَاطَ يَشِيط) فمعناه: أنه هالك لا محالة، لما سبق له من الشقاء والعذاب، وعلى هذا فمعنى: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ أي: عتاتهم المتمردين في الطغيان، الفائقين جنسهم وأمثالهم في الكفر والمعصية.

وقوله: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ فيه وجهان معروفان من التفسير[١]:

أحدهما: وهو الأظهر الصحيح، وقد جاء في حديث مرفوع عن أبي ذر (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال له: «**يا أبا ذر: تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن**» فقال أبو ذر: أَوَللإنس شياطين؟ فقال ﷺ: «**نعم**». وفي بعض رواياته: «**أن شياطين الإنس شر من شياطين الجن**»[٢].

وحديث أبي ذر هذا جاء من طرق متعددة، لا يخلو بعضها من مقال، إلا أن مجموعها يقوي بعضها بعضاً، ويدل على أن الحديث له قوة وأصل. وعلى هذا القول فأعداء الرسل شياطين على نوعين: شياطين من العتاة الكفرة من الإنس، وشياطين عتاة كفرة من الجن، كلهم أعداء الرسل. وهذا القول الصحيح.

وقال بعض العلماء: المراد به أن أعداء الرسل شياطين، إلا أن هؤلاء الشياطين منهم شياطين يضللون الإنس، ومنهم شياطين يضللون الجن. ورُوي هذا عن جماعة من العلماء، وجاء فيه حديث ضعيف.

قال بعض العلماء: إن إبليس يُفَرِّق الشياطين يضللون الجن، ويضللون الإنس، فللإنس شياطين يضللونهم، وللجن شياطين يضللونهم. قالوا: فيجتمعون، فيقول بعض لبعض: أنا أضللت صاحبي بكذا وكذا فَضَلّ، فاسْتَعْمِل هذا الذي أضللتُ به صاحبي لتُضِلّ به صاحبك.

هذا وجهٌ في الآية، والقول الأول أظهر، للحديث المذكور.

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٣٧١/٤ ـ ١٣٧٢) ابن جرير (٥١/١٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من سورة الأنعام.

وقوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ ﴿يُوحِي﴾ مضارع (أَوْحَى، يُوحي، إيحاءً)، والوحي في لغة العرب: يطلق على كل شيء يُلقى في سرعة وخفاء[١]. فكلما ألقيته في سرعة وخفاء فقد أوحيت به. ومن هنا كان الوحي يطلق على الإشارة، ويطلق على الكتابة، ويُطلق على الإلهام، ويطلق على ما يلقيه الإنسان لصاحبه سراً في خفية. كل هذا يُسمى وحياً. ومن إطلاق الوحي على الإشارة: قوله في قصة زكريا: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: آية ١١] أي: أشار إليهم على أظهر التفسيرين. ويؤيده قوله: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: آية ٤١] لأن الرمز: الإشارة. فدل على أن الوحي في حقه: الإشارة. ويطلق الوحي على الكتابة، وإطلاق الوحي على الكتابة كثير في كلام العرب جداً، ومنه قول لبيد في معلقته[٢]:

فمدافعُ الريَّانِ عُرِّيَ رَسْمُها خَلَقاً كما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها

فـ (الوُحِيَّ): جمع (وَحْي)، وهو الكتابة في الحجارة. وهذا معروف في كلام العرب بكثرة، ومنه قول عنترة[٣]:

كَوَحْيِ الصَّحَائفِ من عَهْدِ كسْرى فَأَهْدَاهَا لأَعْجَمَ طِمْطِمي

ومنه قول غيلان ذي الرمة[٤]:

سوى الأربعِ الدهمِ اللواتي كأنَّها بقيةُ وحيٍ في بطونِ الصحائفِ

أي: كتابة. وكذلك منه قول جرير[٥]:

كأن أخا الكِتَاب يخطُّ وحياً بكافٍ في منازِلها ولام

أي: خطّاً.

---

(١) انظر: المفردات (مادة: وحى) ص٨٥٨، المصباح المنير (مادة: الوحي) ص٢٤٩.

(٢) البيت في شرح القصائد المشهورات (١/١٣٠)، اللسان (مادة: وحى) (٣/٨٩٢).

(٣) البيت في فتح القدير (٣/٣٢٤).

(٤) السابق.

(٥) البيت في ديوانه ص٣٧٥، وشطره الأول: (كأن أخا اليهود..).

وفي إطلاقه على الإلهام: قوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النحل: آية ٦٨] أي: ألهمها.

فمعنى: ﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أي: يلقيه إليه في خفاء وسرعة. ولذلك لمّا جاء عن المختار بن أبي عبيد أنه ادعى النبوة، وأنه يُوحى إليه، وكانت أخته صفية بنت أبي عبيد (رضي الله عنها) زوجة عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما). فقيل لعبدالله بن عمر: إن المختار ادعى أنه يُوحى إليه. قال: صدق!! قال الله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾[1] [الأنعام: آية ١٢١] فذلك وحي الشيطان، وهو ما يلقيه الشيطان إلى قرينه من الوساوس والزخارف ليُضل بها الناس. ذلك هو وحي الشياطين. وهذا معنى قوله: ﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: آية ١١٢] ذلك صادق بأن شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، كما يأتي في قوله جل وعلا: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ أي: يلقون إليهم الوساوس والأمور. وكذلك يوحي بعض شياطين الإنس إلى بعض شياطين الجن. وهو على ثلاثة أنحاء؛ لأن شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، ويوحون إلى شياطين الجن، كما أن شياطين الإنس يوحون إلى شياطين الإنس. فهذا وحي الشياطين بعضهم لبعض.

وعن مالك بن دينار (رحمه الله) أنه قال: إن شيطان الإنس أشد علي من شيطان الجن؛ لأن شيطان الجن أتعوذ بالله منه فيذهب عني، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعصية عياناً[2].

واعلموا أن الله (جل وعلا) قد بين علاج ما يريد أن يضرك من شياطين الإنس والجن في ثلاث آيات من كتابه، فبين (جل وعلا) أن الذين يحاولون ضرك وعداوتك من شياطين الإنس لهم علاج سماوي، وأن أمثالهم من شياطين الجن لهم علاج سماوي، وبين علاج هذا وهذا في

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٧٩/٤) وأورده ابن كثير في التفسير (١٧٠/٢)، نقلًا عن ابن أبي حاتم، كما أخرج ابن أبي حاتم (١٣٧٩/٤) نحوه عن ابن عباس (رضي الله عنهما)، وأثر ابن عباس هذا أخرجه ـ أيضاً ـ ابن جرير (٨٦/١٢).

(٢) ذكره القرطبي في التفسير (٦٨/٧)، وأبو حيان في البحر (٢٠٧/٤).

ثلاثة مواضع من كتابه، فبين (جل وعلا) أن الذي يريد أن يضرك من الإنس، ويجرك إلى ما يضرك كعمل الشياطين، يعاديك ويترقب لك الضرر أن دواءه الوحيد الذي ينجيك منه هو أن لا تتبعه في شر، وأن تعامله مكان السيئة بالحسنة، فإذا أساء إليك سترت إساءته وقابلتها بالإحسان فيندحر وينكسر، ويكون صديقاً بعد أن كان عدواً، وأما شيطان الجن فإنه لا علاج له ألبتة إلا الاستعاذة بالله (جل وعلا) منه؛ لأن المُلاينة لا تزيده إلا طغياناً، وأنت لا تراه لتنتصف منه، فلا دواء له إلا الاستعاذة بالله (جل وعلا) من شره.

الموضع الأول من هذه المواضع الثلاثة: قوله تعالى في أُخريات سورة الأعراف: في شياطين الإنس: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: آية ١٩٩] أي: عاملهم بالعفو واللين والإعراض عن سيئاتهم. ثم قال في شيطان الجن: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف: آية ٢٠٠].

الموضع الثاني في سورة قد أفلح المؤمنون، وهو قوله في الإنسي المعادي: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: ادفع سيئة الإنسي بالحسنى ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ثم قال في نظيره من شياطين الجن: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ٩٨﴾ [المؤمنون: الآيات ٩٦ ـ ٩٨].

الموضع الثالث: في سورة حم السجدة ـ سورة فصلت ـ: والله (جل وعلا) بين فيها أن هذا العلاج السماوي لا يعطيه الله لكل أحد، بل لا يعطيه إلا لمن جعل له البخت الأعظم، والنصيب الأوفر عنده؛ ولذا قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يعني: ادفع عداوة شيطان الإنس بالتي هي أحسن، ثم قال: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: صديق في غاية الصداقة، ثم بين أن هذا لا يُعطى لكل الناس، قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٣٥﴾ ثم قال في شيطان الجن: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٣٦﴾ [فصلت: آية ٣٦].

فعلينا معاشر المؤمنين أن نقدر هذا العلاج السماوي، ونعامل من عادانا وأراد ضرنا من إخواننا المؤمنين بالصفح والإحسان، ومقابلة السيِّىء بالجميل، حتى تنكسر شوكة شؤمه، فيرجع خَجِلًا صديقاً حميماً، ونستعيذ من الشيطان بخالق السماوات والأرض ليكفينا شره.

وهذا الذي نقوله فيمن يعاديك من إخوانك المسلمين، وأمثالهم ممن لهم حرمة، كالكتابي الذي تحت ذمة الإسلام، الذي له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم. أما الكفرة الحربيون فلا مُلاينة معهم، وإنما معهم الشدة والغلظة، كما قال الله لنبيه: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: آية ٧٣] ومَدَحَ المؤمنين والنبي ﷺ بأنهم في غاية اللين والرحمة للمؤمنين، وفي غاية الشدة والقسوة على الكفرة ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: آية ٢٩] وقال جل وعلا: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: آية ٢٩] لأن الشدة في محل اللين هي من الحُمْق والخَرَق، واللين في محل الشدة هو من الضعف والخَوَر، والسداد والحكمة أن تكون الشدة في محل الشدة، واللين في محل اللين.

ومعنى قوله جل وعلا: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: آية ١١٢] الزخرف: هو كل شيء زينته، وزخرفته، ومَوَّهْتَه فهو زخرف[١]. وإنما سماه ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ لأنهم يزينون لهم المعاصي، ويحببون إليهم الشهوات، ويرغبونهم في لذات الدنيا، وتقديم [العاجل على الآجل][٢]، يزخرفون لهم هذا، ويزينونه لهم، أما شياطين الجن فهم يزينونه بالوساوس. وأما شياطين الإنس فقد يزينونه بالكلام الصريح فيزخرفونه، حتى يوقعوا أصحابهم فيه ـ والعياذ بالله ـ.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/٥٥)، القرطبي (٧/٦٧)، البحر المحيط (٤/٢٠٥)، الدر المصون (٥/١١٦).

(٢) في الأصل: «الآجل على العاجل» وهو سبق لسان.

وقوله: ﴿غُرُورًا﴾ الغرور: مصدر (غَرَّه، يَغُرُّه، غروراً) إذا خدعه. أي: خديعة ـ والعياذ بالله[١] ـ. والخديعة: هي أن يوقع الشخص الإنسان في الضرر من حيث يريه أنه ينفعه.

وإعراب قوله: ﴿غُرُورًا﴾ فيه ثلاث أوجه من الإعراب[٢]:

أجودها وأظهرها: أنه مفعول لأجله، والقرينة على ذلك أنه عطف عليه بلام التعليل في قوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ [الأنعام: آية ١١٣] أي: زخرف القول لأجل أن يغروهم؛ ولأجل أن تصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ ولأجل أن يرضوه؛ وليقترفوا ما هم مقترفون. فهذا أظهر الأعاريب.

وبعض العلماء يقول: ﴿غُرُورًا﴾ مصدر مُنَكَّر وهو حال. أي: يزينون لهم زخرف القول في حال كونهم غَارِّيْن إياهم.

وبعضهم يقول: هو ما ناب عن المطلق من قوله: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ لأن ذلك الإيحاء غرور. ف (يوحي) كأنه مُضَمَّن معنى: يغرونهم غروراً.

وأجودها: أنه مفعول من أجله؛ لأنه عطف عليه بلام التعليل، حيث لم تتوفر شروط النصب فيما بعده لاختلاف الفاعل؛ لأن المفعول من أجله لا بد أن يكون فاعله وفاعل عامله واحد، كما هو معروف في فن العربية[٣].

وفي هذه الآية ترتيب غريب عجيب، بالغ في الحسن؛ لأن السبب الأول: هو الغرور والخديعة، فتسبب عن الغرور والخديعة: أن صغت إليه قلوبهم ومالت، ثم تسبب عن صوغ القلب وميلها: أنهم أحبوه ورضوه، ثم تسبب عن كونهم أحبوه ورضوه: أن اقترفوه؛ ولذا رتبها على هذا الترتيب، قال أولًا: ﴿غُرُورًا﴾ أي: لأجل أن يغروهم. ثم نتج من الغرور: صوغ أفئدتهم إليه. قال: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ﴾ ثم تسبب عن كونها صغت إليه: أنها رضيته وأحبته؛ ولذا قال: ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ ثم تسبب عن رضاهم ومحبتهم له أنهم فعلوه واقترفوه؛ ولذا جاء بعدها بقوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/٥٦).

(٢) انظر: القرطبي (٧/٦٧)، البحر المحيط (٤/٢٠٧)، الدر المصون (٥/١١٦).

(٣) انظر: التوضيح والتكميل (١/٤٢٠).

وقوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ هو معطوف على ﴿غُرُورًاۚ﴾ والمعنى: يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول لأجل الغرور. أي: لأجل أن يغروهم؛ ولأجل أن تصغى. و (تصغى) معناه: تميل. تقول العرب: «صَغَى يَصْغُو»، و«صَغَى يَصْغَى»، و«صَغِيَ يَصْغَى» كلها بمعنى: مال إليه، و«أَصْغَى يُصْغِي إصغاء» أيضاً إذا مال[1]. وهذا معروف في كلام العرب، وفي القرآن العظيم: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التحريم: آية ٤] أي: مالت إلى أمر تعلمان أن النبي لا يحبه.

وقوله هنا: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ أي: تميل إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، ومادة (صغى) تستعمل واوية اللام ويائية اللام. تقول العرب: «صَغَى يَصْغَى»، و«صَغَى يَصْغُو»، و«صَغِيَ يَصْغَى»، كلها بمعنى: مال. وأصغى الإناء: إذا أماله، ومنه: رجل مُصغى الإناء. إذا كان منقوص الحظ. تقول: «بنو فلان يُصغون إناء فلان». إذا كانوا ينقصونه من حقه؛ لأن الإناء المائل لا يحمل من الملء قدر ما يحمله الإناء المعتدل، فالناس إذا وضعت أوانيها لتُملأ لها فالإناء المُصغى ـ أعني المائل ـ لا يحمل كثيراً، بخلاف الإناء المعتدل فإنه يمتلىء. وهذا معنى معروف في كلام العرب[2]، ومنه قول غسان بن وعلة، ويُروى للنمر بن تولب العكلي قال[3]:

إذا كنتَ في سَعْد وأمكَ منهم فقيراً فلا يغررك خالُك من سعدِ
فإن ابن أُخت القومِ مُصْغَىً إناؤه إذا لم يُزاحِم خالَه بأبٍ جَلْدِ

معنى «مُصْغَىً إناؤه» أي: مُمال إناؤه؛ لأن الإناء المُمَال لا يمتلىء كما ينبغي، فحقه منقوص. هذا معنى المادة في لغة العرب، والعرب تقول:

---

(١) انظر: ابن جرير (٥٨/١٢)، القرطبي (٦٩/٧)، البحر المحيط (٢٠٥/٤)، الدر المصون (١١٩/٥).

(٢) انظر: المفردات (مادة: صغا) ص٤٨٥.

(٣) وقيل: حسان بن وعلة، وقيل: ضمرة بن ضمرة، وهما في بهجة المجالس لابن عبدالبر (٢٢٥/١) الكامل ص٧١٢، والبيت الأول في اللسان (مادة: كيس) (٣٢١/٣) وأول شطره الثاني في هذين المصدرين: «غريباً».

«أَصْغَى إليه» إذا أمال إليه أذنه. ومنه قولهم: «أَصْغَتِ الناقة إلى من يشد الرحل عليها». إذا صارت تميل إلى من يشد الرحل عليها، كالذي يستمع. ومنه قول غيلان ذي الرمة[(١)]:

تصغي إذا شدها بالكُورِ جانحةً حتى إذا ما استوَى في غَرْزِها تثبُ

والعرب تستعمله رباعياً، (أصغى إليه إصغاءً) إذا مال إليه، ومنه قول الشاعر[(٢)]:

إن السَّفيه به عن كل مكرمةٍ زَيْغٌ وفيه إلى التَّشْبِيهِ إِصْغَاءُ

أي: ميل. والمراد بالتشبيه هنا: التخليط.

ومعنى قوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي: لتميل إليه، أي: ذلك القول المزخرف المزين الباطل، الذي توحيه شياطين الإنس والجن، تميل إليه ﴿أَفْـِٔدَةُ﴾ أي: قلوب. الأفئدة: جمع الفؤاد، والفؤاد: القلب.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ مفعول المشيئة محذوف، والمعنى: لو شاء ربك عدم فعلهم إياه ما فعلوه، فالضمير في ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ يرجع في أظهر الأقوال إلى ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ الذي يوحونه إليهم، فزخرف القول الذي يوحونه إليهم لو شاء ربك ما فعلوه. والمعنى: لو شاء الله لكف شياطين الإنس والجن عن غرور الناس، وزخرفة الأقوال لها ليغروها، ولكن له (جل وعلا) في ذلك حكمته البالغة، يفتن خلقه ليظهر المطيع من العاصي.

وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ذرهم: معناه اتركهم. وهذا الفعل لا يوجد منه في اللغة العربية إلا الأمر والمضارع. تقول العرب: «ذر»، وتقول: «يذر». بالمضارع والأمر. ولا يوجد من مادته فعل ماض، ولا مصدر، ولا اسم فاعل ولا اسم مفعول، فماضي (ذر) هو قولك: «تَرَكَ».

---

(١) البيت في القرطبي (٦٩/٧)، الدر المصون (١٢٠/٥).

(٢) في المصادر التي وقفت عليها: «ترى السفيه». انظر ابن جرير (٥٨/١٢)، القرطبي (٦٩/٧)، البحر (٢٠٥/٤)، الدر المصون (١٢٠/٥).

واسم فاعله: تارك، واسم مفعوله: متروك. ومصدره: الترك. ولا يُستعمل منه إلا الأمر والمضارع[١]. ومعنى ﴿ذَرْهُمْ﴾: اتركهم.

﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (ما) منصوبة لأنها مفعول معه. ويحتمل أن تكون مصدرية[٢] والمعنى: ذرهم وافتراءهم. وعلى أنها موصولة فالمعنى: اتركهم والذي يفترونه على الله. وصيغة الأمر هنا إنما هي للتهديد، والمعنى: خلهم وافتراءهم فسيجدون غِبَّ ذلك، ويعلمون عاقبته الوخيمة. وقد تقرر في فن الأصول في مباحث الأمر[٣]، وفي فن المعاني في مباحث الإنشاء[٤]: أن من المعاني التي تأتي لها صيغة (افعل) منها: قصد التهديد والتخويف، كقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر: آية ٣] وقوله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: آية ٨] وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: آية ٢٩] كل هذه صيغ مراد بها التهديد؛ ولذا قال هنا: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ والافتراء: هو اختلاق الكذب والعياذ بالله جل وعلا.

وقوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١١٣] أي: ليغروهم، ولتميل إليه، أي: إلى ذلك القول المزخرف المزين الباطل؛ ليكون سبباً للضلال، تميل إليه أفئدة: أي: قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ـ والعياذ بالله ـ لأن المؤمنين يعرفون زخارف الشيطان ووحيه، فيتباعدون منه ويجتنبونه؛ ولذا قال: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ﴾. إذا مالت قلوبهم إليه يرضوه ويحبوه، ثم إذا رضوه وقعوا في الكفر المزين المزخرف والعياذ بالله.

﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: آية ١١٣] الاقتراف في لغة العرب: معناه الاكتساب[٥]. والمعنى: وليكتسبوا ما هم مكتسبون إياه من

---

(١) انظر: المفردات (مادة: وذر) ص٨٦٢، القرطبي (٦٩/٧)، الدر المصون (٦٣٧/٢).

(٢) انظر: الدر المصون (١٧٧/٥).

(٣) (٤) انظر: شرح الكوكب المنير (٢٣/٣، ٣٧)، الإيضاح للقزويني ص١٤٨.

(٥) انظر: المفردات (مادة: قرف) ص٦٦٧.

الكفر والمعاصي ـ عياذاً بالله ـ بسبب ذلك القول المزخرف، الذي صغت إليه قلوبهم ورضوه وأحبوه، ووقعوا بسببه بالكفر والمعاصي. والاقتراف: الاكتساب. وتقول: راح فلان يقترف لأهله أي يكتسب لهم من الدنيا. والمراد بالاقتراف هنا: اكتساب المعاصي هذا معنى قوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: الآية ١١٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٤].

قرأ هذا الحرف جمهور القراء ما عدا حفصاً، وابن عامر: ﴿مُنزَلٌ من ربك بالحق﴾ بصيغة اسم مفعول (أَنزَل). وقرأه حفص عن عاصم، وابن عامر ﴿مُنَزَّلٌ﴾ بصيغة اسم المفعول من (نَزَّله) مُضَعَّفاً[(١)].

كان كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: احْتَكِم معنا إلى علماء اليهود والنصارى، الذين عندهم بقية علم من التوراة والإنجيل، ليخبرونا أأنت رسول حقاً أم لا[(٢)].

وقال بعضهم[(٣)]: قالوا له: نحن وأنت اختلفنا فلنتحاكم إلى بعض الكهنة. فبين الله جل وعلا ـ أَمَرَ نبيه أن يبين ـ أنه لا يبتغي حَكَماً غير الحَكَم العدل، خالق السماوات والأرض، الذي أنزل هذا الكتاب وفصَّله. وأهل الكتاب الذين تريدون أن نتحاكم معكم إليهم يعلمون أن هذا الكتاب حق، وأنه منزّل من الله، وأن النبي ﷺ رسول حقاً. كما أُخذ عليهم بذلك العهد في كتبهم، كما قدمناه مراراً.

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠١.

(٢)(٣) انظر: البحر المحيط (٤/٢٠٨ ـ ٢٠٩)، ولم أقف على ذلك في غيره.

﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: آية ١٤٦] وقد أخذ الله العهد على جميع الرسل، وعلى أممهم أن منهم من أدرك النبي ﷺ أن يؤمن به ويصدقه، كما قدمنا بيانه في سورة آل عمران في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: آية ٨١] ومعنى الآية الكريمة: قل لهم يا نبي الله: أأضل عن سواء الطريق ضلالًا بعيداً في الحكومة فأبتغي حَكَماً غير الله؟! لا يكون ذلك مني أبداً.

قال بعض العلماء: والحَكَم: أعظم من الحاكم؛ لأن الحَكَم لا تكاد العرب تطلقه إلا على من هو معروف بالإنصاف والعدالة في حكومته، أما الحاكم فيطلق على كل من يحكم، سواءً حكم بجور أم بحق[1].

والهمزة للإنكار. أي: لا أبتغي حَكَماً غير الله. وقد قدمنا بعض الكلام في الليلة الماضية على بعض هذه الآية[2] وأوضحنا إعراب (غير) و (حَكَماً).

وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ أي: لا يكون ذلك؛ لأن الهمزة إنكار، بمعنى النفي[3]. أي: وهو الذي أنزل، الحَكَمُ الذي لا أبتغي حَكَماً سواه هو الله الذي أنزل إليكم على لساني هذا الكتاب ـ القرآن العظيم ـ الذي جمع الله فيه ثمرات الكتب المنزلة، وجمع فيه علوم الأولين والآخرين.

وقوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾ أي: موضحاً مبيناً، آياته توضح فيها العقائد، والحلال والحرام، والأمثال، والمواعظ، والآداب، والمكارم؛ لأنه في غاية

---

(١) انظر: القرطبي (٧/٧٠)، البحر المحيط (٤/٢٠٩)، الدر المصون (٥/١٢٣).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/٢٠٩).

الإيضاح والتفصيل، والذي فصّله هو الحكيم الخبير ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: آية ١].

وقوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾ حال من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾[١] أي: أنزله إليكم في حال كونه مُفصّلًا، أي: موضَّحاً مبيناً فيه العقائد، مُبيناً فيه الحق من الباطل، والنافع من الضار، والحسن من القبيح، بين الله فيه العقائد، والحلال والحرام، وما يقرِّب إلى الله، وما يوصل إلى جنته، وما يُبعد من الله ويسخطه، ويوصل إلى ناره، وبين مصير الفريقين، وما أعدَّ لأوليائه، وما أعدَّ لأعدائه، كل هذا موضح مفصل في القرآن، و إن كان في القرآن بعض الآيات المتشابهات، فإنها تُرد إلي المحكمات، ويُعرف إيضاحها بردها إلى المحكمات.

كما قدمنا في سورة آل عمران في تفسير قوله: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: آية ٧].

يعني: أن المحكمات هن أم الكتاب التي يُرَدُّ إليها ما أشكل من متشابهاته. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: آية ١١٤] التفصيل: ضد الإجمال، وهو الإيضاح والبيان[٢]. وقول من قال: «﴿مُفَصَّلًا﴾ أي: بَيْنَه فَتَرات وفَصْل؛ لأنه ينزل أنجماً مُنَجَّماً». هو غير الصواب، والتحقيق: أن معنى قوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾: أنه مُبَيَّن مُوَضَّح، بين الله فيه العقائد، والحلال والحرام، ومصير أهل الجنة، ومصير أهل النار، وكل شيء يحتاج إليه الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: آية ٨٩] فالقرآن فيه تبيان كل شيء، ولكن الناس [كل منهم][٣] يأخذ منه بقدر ما أعطاه الله من الفهم، فهو بحر، وكل يغرف منه بحسب ما عنده، كما بينه حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه وأرضاه)، كما ثبت عنه في صحيح البخاري[٤]: أنه لما سأله أبو جحيفة:

---

(١) المصدر السابق (٢٠٩/٤)، الدر المصون (١٢٣/٥).

(٢) انظر: ابن جرير (٣٩٦/١١)، (٦٠/١٢)، البحر المحيط (٢٠٩/٤).

(٣) في الأصل: كلهم.

(٤) تقدم تخريجه في مقدمة الكتاب.

هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ أجاب علي (رضي الله عنه): لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يعطيه الله رجلًا في كتاب الله، وما في هذه الصحيفة. قال: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألا يُقتل مسلم بكافر. ومحل الشاهد من الحديث: قول علي (رضي الله عنه): «إلا فهماً يعطيه الله رجلًا في كتاب الله» فهو يدل على أن من أعطاه الله فهماً في كتاب الله فَهِمَ علوماً خصه الله بها لم تكن عن أحد؛ لأن القرآن يتضمن جميع الأشياء، والناس في فهمه بحسب ما أعطاهم الله من المواهب؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ معناه: أعطيناهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ والمراد بالكتاب: جنس الكتاب الصادق بالتوراة والإنجيل، وصيغة الجمع في قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ للتعظيم. والمعنى: والإسرائيليون والنصارى الذين أعطيناهم علماً من علم التوراة والإنجيل يعلمون أن هذا القرآن ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أن الله نزله عليك في حال كونه متلبساً بالحق؛ لأن كل ما فيه حق، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهىٰ إلا عن شر، ولا يخبر إلا بصدق، إلى غير ذلك من أمور أحقيته.

ومعنى الآية: علماء اليهود والنصارىٰ الذين تطلبون أن نتحاكم إليهم هم يعلمون أن هذا الكتاب الذي أنزله الله عليّ حق، وأني رسول الله، ولأنهم يعلمون أن الكتاب حق [وأنه][1] ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ كأنه في محل حال. أي: في حال كونه متلبساً بالحق[2]، والحق: ضد الباطل. ومعناه: أن هذا القرآن لا باطل فيه، كله حق، وكله هدىٰ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: آية ٣٢] كما يأتي إيضاحه في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: آية ١١٥] وهذا معنى قوله: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: آية ١١٤] (الفاء) كأنها سببية. أي:

---

(١) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة لربط أجزاء الكلام.

(٢) انظر: الدر المصون (٥/١٢٤).

وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ [هود: آية ١٠٣] ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات: آية ٧١] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الشعراء: آية ٨] وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أن نصيب الجنة من الناس واحدٌ من الألف، وأن نصيب النار تسعةٌ وتسعون وتسعمائة. هذا ثابت في الصحيحين عن النبي ﷺ. وفي الصحيح: أن الله يقول لآدم يوم القيامة: يا آدم. فيقول آدم: لبيك ربي وسعديك، والخير كله في يديك. فيقال له: يا آدم أخرج خلق النار. فيقول: يا ربي، وما خلق النار؟ فيخبره ربه أنه تسعة وتسعون وتسعمائة من كل ألف، ولما ذكر النبي ﷺ هذا ضاق على الصحابة، وحزنوا من هذا لقلة نصيب أهل الجنة، وكثرة نصيب النار، فبين لهم النبي ﷺ كثرة الكفرة الفجرة، وأن يأجوج ومأجوج يمكن أن يكون منهم الألف ومنكم الواحد(١)؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: آية ١١٦] المراد بالأرض على التحقيق: جميع أهل الدنيا الذين هم في الأرض، خلافاً لمن زعم أن المراد بها أرض مكة، وأن المراد أكثر أهلها من رؤساء الكفرة. التحقيق هو التعميم(٢).

وقوله: ﴿يُضِلُّوكَ﴾ هو جزاء الشرط، منصوب بحذف النون، مضارع (أضله، يُضِلُّه) إذا جعله ضالًّا، وتسبب له في الضلال عن طريق الصواب.

وقد بينا في هذه الدروس مراراً: أن الضلال ـ أعاذنا الله والمسلمين منه ـ يُطلق في القرآن العظيم وفي اللغة العربية إطلاقات متعددة على ثلاثة أنحاء(٣): يطلق الضلال في اللغة والقرآن على الذهاب عن طريق الحق إلى

---

(١) الحديث أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج، حديث رقم (٣٣٤٨)، (٦/٣٨٢)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣). ومسلم، كتاب الإيمان، باب: قوله: (يقول الله يا آدم أخرج بعث النار...) حديث رقم (٢٢٢)، (١/٢٠١).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/٢١٠).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

طريق الباطل، كالذي يذهب عن طريق الهدى إلى طريق الكفر، وعن طريق الجنة إلى طريق النار. وهذا الاستعمال أكثر استعمالات الضلال. ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: آية ٧] وهذا أكثر معناه في القرآن. ويطلق الضلال في القرآن، وفي لغة العرب: على الغيبوبة والاضمحلال. فكل شيء غاب واضمحل وذهب تقول العرب: «ضل». ومنه قول العرب: «ضل السمن في الطعام» إذا طُبخ فيه وغاب فيه، ومنه بهذا المعنى في القرآن: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٤] أي: غاب وبطل واضمحل، ومنه بهذا المعنى في القرآن: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: آية ١٠] يعنون: أن عظامهم أكلتها الأرض، فاختلطت بالتراب، فذهبت واضمحلت فيها كما يضمحل السمن في الطعام؛ ومن أجل هذا المعنى كانت العرب تسمي الدفن (إضلالًا)، إذا دفنوا الميت في قبره تقول العرب: «أضلوه». أي: غيبوه في قبره؛ لأن مآله إلى أن تأكله التراب، كما قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: آية ١٠] ومن إطلاق العرب الإضلال على الدفن كما ذكرنا، قول المُخَبَّل السعدي يرثي قيس بن عاصم المنقري التميمي[1]:

أَضَلَّتْ بنُو قيسِ بن سعدٍ عميدَهَا ... وفارِسَهَا في الدهرِ قيسَ بن عاصمِ

فقوله: «أضلت» يعني: دفنت عميدها قيس بن عاصم لمّا مات. ومنه بهذا المعنى: قول نابغة ذبيان يرثي النعمان بن الحارث بن أبي شمر الغساني[2]:

فإنْ تحيا لا أملكْ حياتي، وإن تمتْ ... فما في حياتي بعد موتكَ طائلُ
فآبَ مُضِلُّوه بعينٍ جَلِيَّةٍ ... وغُودِر بالجَولاَن حَزْمٌ ونَائِلُ

فقوله: «آبَ مُضِلُّوه» يعني: رجع دافنوه في قبره. (بعين جَلِيَّة) أي: بخبر يقين أنه قد مات. ومن هذا المعنى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

---

(١) البيت في اللسان (مادة: ضلل) (٥٤٦/٢).
(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

[السجدة: آية ١٠] ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٤] أي: غاب واضمحل. وقول الشاعر(١):

ألم تسأل فتخبرك الديارُ   عن الحي المُضَلَّلِ أين ساروا

يعني بالحي المضلل: الذين ذهبت بهم الأيام والليالي فماتوا وغابوا.

ويطلق الضلال أيضاً في القرآن، وفي لغة العرب على: الذهاب عن معرفة حقيقة الشيء، فكل من لم يعرف حقيقة شيء تقول العرب: «ضل». وهذا ليس من الضلال في الدين، وإنما هو الذهاب عن علم معرفة الشيء. وهذا الإطلاق كثير في القرآن، ومنه على أصح التفسيرات: قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: آية ٧] أي: ذاهباً عما تعلمه الآن من العلوم والأسرار، فهداك إليه بالوحي؛ لأنه لا يُعلم إلا بالوحي. ومنه بهذا المعنى: قول أولاد يعقوب في حق أبيهم: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: آية ٩٥] ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: آية ٨] يعنون: لفي ذهاب عن حقيقة الأمر، حيث فضل ابنين على عشرة بنين، وحيث رجا يوسف أنه حي وهو قد مات، فهو ذاهب عن علم الحقيقة في زعمهم، ومن الضلال بهذا المعنى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: آية ٥٢] أي: لا يخفىٰ عليه علم شيء، ولا تذهب عليه حقيقة شيء، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٢] أي: تذهب عن علم حقيقة المشهود به بنسيان ونحوه ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ ومن الضلال بهذا المعنى قول الشاعر(٢):

وتظن سلمى أنني أبغي بها   بدلاً أراها في الضلال تهيمُ

يعني بالضلال: عدم معرفتها للحقيقة حيث ظنت أنه يبغي بها بدلًا، وهو لا يبغي بها بدلًا. هذه معاني الضلال في القرآن وفي لغة العرب.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يُضِلُّوكَ﴾ هو من المعنىٰ الأول. أي: يُذهِبُوك عن طريق الصواب إلى طريق الباطل، عن طريق الهدىٰ إلى طريق الجَور، وعن طريق الجنة إلى طريق النار.

وهذا معنى قوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: آية ١١٦] السبيل في لغة العرب: الطريق[(١)]. وهي تُذَكَّر وتؤنث، فمن تأنيثها في القرآن: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف: آية ١٠٨] ولم يقل: «هذا سبيلي».

ومن تذكيرها في القرآن: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ الرشد لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: آية ١٤٦] فهي من أسماء الأجناس التي تُذَكَّر وتؤنث[(٢)]. والسبيل: الطريق. وسبيل الله معناه: طريق الله. وأضاف تلك الطريق
١/١٦ إلى الله/؛ لأنه هو الذي شرّعها، وبين معالمها، وأمر بسلوكها، ووعد من سلكها خير الدنيا والآخرة[(٣)]. فسبيل الله ـ التي هي الحق، التي أمر بها، وبعث بها أنبياءه ـ من أطاع أكثر من في الأرض أضلوه عنها إلى سبيل الشيطان، وطريق الجور عن الحق. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

ثم بين (جل وعلا) أن أكثر أهل الأرض الضالين المضلين لم يكن عندهم مُستند علمي في ضلالهم، وإنما هي ظنون وتخمينات، حيث قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ يعني: ما يتبعون إلا الظن ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: آية ١١٦] (إن) هنا نافية بمعنىٰ: (ما)[(٤)]، والمعنى: ما يتبعون شيئاً إلا الظن، وما هم إلا يخرصون.

والخَرْص معناه: الكذب، وأصل الخَرْص: هو الحَزْر والتخمين[(٥)]،

---

(١) انظر: المفردات (مادة: سبل) ص٣٩٥.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: مدارج السالكين (١١/١).

(٤) انظر: القرطبي (٧١/٧)، الدر المصون (١٢٥/٥).

(٥) انظر: المفردات (مادة: خرص) ص٢٧٩، القرطبي (٧١/٧)، البحر المحيط (٢١٠/٤)، الدر المصون (٦٥/٥).

ومنه: «خَرَص ما على النخلة فَحَزَرَه». لأن الكاذب لا يتحرىٰ في الأمور، بل يُخمِّن ويحزُر، ولا يتحرى الحقائق، ومن هنا قيل للكذب خرص. ومنه: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾ [الذاريات: آية ١٠] أي: لُعن الكذَّابون؛ لأن الخارص يظن ويحزُر، ولا يتحرى ويتحقق.

والظن يُطلق في القرآن وفي لغة العرب يُطلق إطلاقين[1]:

أحدهما: يُطلق (الظن) على الشك المستوي الطرفين. وكون الظن جُل الاعتقاد اصطلاح حادث للأصولين والفقهاء، أما لغة العرب فتُطلِقُ الظن إطلاقين، وهما في القرآن: أحدهما: إطلاق الظن بمعنى الشك، ومنه قوله هنا: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: آية ٢٨] الشك في تقليد آبائهم، وهذا الظن ـ الذي هو شك ـ هو المراد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: آية ٢٨] ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ [يونس: آية ٣٦].

الثاني من إطلاق (الظن) في القرآن: هو إطلاق الظن مراداً به اليقين، وهذا كثير أيضاً في القرآن، وفي كلام العرب، فمن إطلاق الظن مراداً به اليقين في القرآن: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: آية ٢٤٩] أي: يوقنون أنهم ملاقو الله ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: آية ٤٦] ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ [الحاقة: آية ٢٠] أي: أيقنت ذلك ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟﴾ أي: أيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: آية ٥٣]. ومن إطلاق الظن في لغة العرب بمعنى اليقين: قول دُريد بن الصِّمَّة الجُشَمي حيث قال[2]:

فقلتُ لهم ظُنُّوا بألْفَي مُدَجَّج سَرَاتُهم في الفارسيِّ المُسرَّدِ

فقوله: «ظنوا» أي: أيقنوا بألف فارس مُدَجَّج بالسلاح. ومنه بهذا المعنى قول عمَيرَة بن طارق[3]:

بأنْ تَغْتَزُوا قومي وأَقْعدُ فيكم وأجعلُ مني الظنَّ غيباً مُرَجَّمَا

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

يعني: أجعل مني اليقين غيباً مُرَجَّماً.

ومن إطلاق (الظن) في كلام العرب بمعنى (الشك) قول طَرَفَة بن العبد[١]:

وأَعْلَمُ علماً ليس بالظنِّ أنَّه إذا ذلَّ مولى المرءِ فهو ذَلِيْلُ

فقوله: «ليس بالظن»: ليس بالشك. هذه إطلاقات (الظن) في القرآن وفي لغة العرب، والمراد بالظن في الآية: الشك. والمعنى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [الأنعام: آية ١١٦] أي: ما يتبعون إلا الشك حيث قلدوا آباءهم في أَمْرِ جهل لا يعلمون حقيقته ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾: يكذبون؛ لأن الخرص الحَزْر والتخمين من غير معرفة الحقيقة؛ ومن هنا أُطلق على الكذب[٢]، كقوله: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الذاريات: آية ١٠] أي: لُعن الكَذَّابون. وقوله هنا: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: آية ١١٦] أي: ما هم إلا يكذبون في قولهم: إن الميتة حلال؛ لأنها ذبيحة الله، وفي ادعائهم الشركاء والأولاد لله - سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً -. ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ [يونس: آية ٦٦] أي: لا يتبعون شركاء في نفس الأمر، ولا في الحق، إن يتبعون إلا ظناً.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٧] لما بين الله لنبيه أن أكثر أهل الأرض ضالون مضلون، وأنه إن أطاعهم أضلوه، بين أنه (جل وعلا) عالم بمن سبق له الضلال في الأزل، ومن سبق له الهدى في الأزل، فييسر كُلّاً منهما لما خلقه له؛ لأن أصحاب النبي ﷺ لما سألوه وقالوا: هذه الأعمال التي نسعى لها، وجزاؤها، وما نصير إليه، هل هو أمر مُؤتَنَف، أو أمر قُضي، وكُتب، وفُرغ منه؟ فلما بين لهم أن الله قَدَّر ما سيكون، قالوا: أفلا نتكل على الكتاب السابق، ونترك العمل؟ فمن قَدَّر الله له الجنة لا بد أن يدخلها، ومن قدر له النار لا بد أن

---

(١) ديوانه ص٨٤، اللسان (مادة: حظرب)، (٦٦٦/١).

(٢) انظر: المفردات (مادة: خرص) ص٢٧٩.

يدخلها؟ فأخبرهم ﷺ أن كُلّاً مُيَسَّر لما خُلِقَ له[١]. فهو يخلق الخلق ويجبلهم على ما يشاء، من خُبث وطِيب ثم ييسر كُلّاً لما خلقه له. ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: آية ٢] ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: آية ٧] ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: آية ١٠٥] فهو (جل وعلا) يخلق الناس وييسر كُلّاً لما خلقه له من خير أو شر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: آية ١١٧] الذي سبق له الهدى في الأزل فييسره للهدى. وأعلم بالمعتدي الضال الذي سبق له الضلال في الأزل فييسره للعسرى ـ والعياذ بالله ـ كما قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: الآيات ٥ ـ ١٠] ولذا قال هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝١١٧﴾ (أعلم) هنا ليست في معنى صيغة التفضيل، بل هي هنا بمعنى الوصف[٢]؛ لأن صيغة التفضيل لا بد أن يشترك فيها المُفَضَّل والمُفَضَّل عليه في نفس المصدر، ثم يكون المُفَضَّل أكثر فيه من المُفَضَّل عليه[٣]، فإذا قلت: «زيد أعلم من عمرو» معناه: أنهما مشتركان في العلم إلا أن هذا يفوق هذا فيه، ولا يجوز أن تقول: «زيد أعلم من الحمار»؛ لأن الحمار لا يشاركه في العلم. وكذلك قوله هنا: ﴿أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ لا يشارك الناس ربهم في علم عواقب الناس، وما يؤولون إليه من ضلال وهدى؛ لأن ذلك لا يعلمه إلا الله؛ ولذلك صيغة التفضيل هنا بمعنى الوصف، وقد تقرر في علوم العربية: أن صيغة التفضيل تأتي بمعنى الوصف ليست مراداً بها التفضيل، كقولهم[٤]: «الناقص والأشج أعدلا بني أُمية»[٥]

---

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: الدر المصون (١٢٦/٥).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من هذه السورة.

(٤) انظر: الدر المصون (١٠/٢)، ضياء السالك (١٢٠/٣)، التوضيح والتكميل (١٣٣/٢).

(٥) الناقص: هو يزيد بن الوليد بن عبدالملك بن مروان، سُمي بذلك لنقصه أرزاق الجند.
والأشج: هو عمر بن عبدالعزيز، سُمي بذلك لشجة كانت في وجهه من ضرب دابة.
انظر: التوضيح والتكميل (١٣٣/٢).

أي: هما العادلان منهم. وهذا موجود في كلام العرب، ومنه قول الفرزدق[١]:

إنَّ الذي رفَعَ السماءَ بنى لنا بيتاً دعائِمهُ أعزُّ وأَطْوَلُ

يعني: دعائمه عزيزة طويلة. وقول الشَّنْفَرَى[٢]:

وإنْ مُدَّتْ الأيدي إلى الزَّادِ لم أكنْ بأعجلهم إذْ أَجْشَعُ القومِ أعجلُ

يعني: لم أكن أنا هو العَجِلُ منهم. وكذلك هنا: ﴿أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ﴾ هو العالم مَنْ يضل عن سبيله.

واختلف علماء العربية في إعراب (مَنْ) في قوله هنا: ﴿مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[٣] فعلماء الكوفة يقولون: إنها مفعول به لـ (أعلم)؛ لأنهم يجيزون عمل صيغة التفضيل في نصبها للمفعول، هذا قول الكوفيين. وخالفهم عامة نحاة البصرة زاعمين أن صيغة التفضيل لا يمكن أن تنصب المفعول؛ ولذا اختلفوا في إعراب بيت العباس بن مرداس السُّلمي المشهور حيث قال[٤]:

فلم أرَ مثلَ الحيِّ حياً مُصَبَّحاً ولا مثلنا يومَ التقينَا فَوَارِساً
أكرَّ وأحمىٰ للحقيقةِ منهم وأَضْربَ منا بالسيوفِ القَوَانِسَا

فالكوفيون يقولون: (القوانس) مفعول به لـ (أَضْرَب) التي هي صيغة التفضيل. والبصريون يقولون: لا يمكن أن تُنصَب بصيغة التفضيل فهي منصوبة بفعل محذوف دلت عليه صيغة التفضيل، أي: نضرب القوانس. وعلى قول البصريين فيكون قوله: ﴿مَن يَضِلُّ﴾ منصوب بفعل محذوف دلت عليه صيغة التفضيل، أي: يعلم من ضل عن سبيله. وقال قوم: هو منصوب

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من هذه السورة.
(٢) البيت في شرح الأشموني (٢/٥٥)، التوضيح والتكميل (٢/١٣٣).
(٣) انظر: ابن جرير (١٢/٦٥)، القرطبي (٧/٧٢)، البحر المحيط (٤/٢١٠)، الدر المصون (٥/١٢٦).
(٤) البيتان في الخزانة (٣/٥١٧)، البحر المحيط (٤/٢١٠)، الدر المصون (١/٢٦١)، الأشموني (٢/٦٠).

بنزع الخافض؛ لأن الأصل: (هو أعلم بمن ضل عن سبيله) فحُذف الباء ونُصِب بنزع الخافض، قالوا: ويدل لهذا قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فجاء بالباء في قوله: ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وقوله في أُخريات النحل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [النحل: آية ١٢٥] فجاء بالباء. وهذا الإعراب ضعفه الكوفيون؛ لأن النصب بنزع الخافض لا يكون إلا بعامل يعمل، وصيغة التفضيل لا تعمل في المفعول ونحوه. هذا قول العلماء.

والذي يظهر لنا في القواعد العربية: أن هذه المسألة الصواب فيها مع الكوفيين لا مع البصريين، وأن صيغة التفضيل تنصب المفعول، وأنه لا مانع من ذلك؛ لأن صيغة التفضيل مستندة على مصدر، فقوله: «وأَضْربَ منا بالسيوفِ القَوَانِسَا» في معنى قولك: يَزِيْدُ ضَرْبُنَا القَوانِسَ على غيرنا. وهذا لا مانع من عمله، فالمصدر الكامن فيها؛ القياس أن يعمل عمل فِعْلِه. وخالف البصريون في ذلك، وهذا معنى كلام علماء العربية في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: آية ١١٧] عالم بالضالين في الأزل وهو ميسرهم لما خلقهم له، وعالم بالمهتدين في الأزل وميسرهم لما خلقهم له، وهو يعلم أنك يا نبي الله ومن اتبعك من المهتدين، وأن من خالفك من الضالين المعتدين. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ هذه الآيات كلها إلى قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: الآيات ١١٨ ـ ١٢٠] نزلت لما قال الكفار للنبي ﷺ: كيف تأكلون ما قتلتموه بأيديكم، ولا تأكلون ما قتله الله؟ يعنون الميتة. ذبيحتكم التي قتلتموها تأكلونها، وتقولون: هي طيبة حلال مُسْتَلَذَّة، والتي قتلها الله تقولون: هي ميتة جيفة قذرة حرام، فأنتم إذن أحسن من الله!! فجاءت هذه الآيات رداً عليهم[1]. فقال لهم الله (جل

(١) أبو داود، كتاب الضحايا باب في ذبائح أهل الكتاب. حديث رقم (٢٨٠١)، (٨/١٣)، وانظر: حديث رقم (٢٨٠٢)، والترمذي كتاب التفسير، باب: ومن سورة الأنعام. حديث رقم (٣٠٦٩)، (٥/٢٦٣)، والنسائي، كتاب الضحايا، باب تأويل قول الله عز وجل ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ حديث رقم (٤٤٣٧)، (٧/٢٣٧)، من=

وعلا): ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١١٨] لأن المسلمين إذا أرادوا أن يذبحوا سمّوا الله (جل وعلا) على ذبائحهم عند الذبح، وكذلك إذا أرادوا أن يعقروا الوحش سمّوا عند ذلك، وإذا أرادوا أن يرسلوا جوارحهم كالكلاب، والصقور، والبزاة، أرسلوها وسموا الله على الصيد عند إرسالها؛ ولذا قال لهم الله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

قوله: ﴿فَكُلُوا۟﴾ أصله (اؤكلوا) لأنه مضارع (أكل)[(١)] ومعروف في لغة العرب ثلاثة أفعال من فعل الأمر هي الأمر من (أَخذ)، و (أَمر)، و (أَكل) كلها يجوز حذف الهمزة في الأمر[(٢)]، فتقول في (أَخَذ) في أَمْرِها: (خُذ)[(٣)]، وفي أَمْرِ (أَكَل): كُل، وفي أَمْرِ (أَمَرَ) مُر[(٤)]. أما (أَمَر) إذا كان قبلها حرف عطف فالأجود ردها إلى الأصل[(٥)]، كقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: آية ١٣٢] وأما إذا كان ليس قبلها حرف عطف فإن الهمزة تُحذف، كقوله: «**مره فليراجعها**»[(٦)]، «**مروهم بالصلاة لسبع، واضربوهم لعشر**»[(٧)]. أما

حديث ابن عباس (رضي الله عنهما). وانظر: صحيح الترمذي رقم (٢٤٥٤)، وصحيح أبي داود رقم (٢٤٤٤)، (٢٤٤٥)، وصحيح النسائي رقم (٤١٣٤).

وقد أخرجه ابن أبي حاتم، وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس (رضي الله عنهما) كما أخرجه عن غيره مرسلًا. انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٣٧٨/٤، ١٣٨٠)، وابن جرير (٧٨/١٢) فما بعدها، أسباب النزول للواحدي ص٢٢٣ . وراجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص. ٣٢١

(٢) انظر: شرح الكافية (٢١٦٦/٤)، الدر المصون (٢٨٠/١)، التوضيح والتكميل (٤٧٨/٢).

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٣١٥.

(٤) انظر: شرح الكافية الشافية (٢١٦٦/٤).

(٥) المصدر السابق (٢١٦٧/٤)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٣٢٣، ٣١٥.

(٦) البخاري في الطلاق، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ الآية. حديث رقم (٥٢٥١، ٥٣٣٣)، (٣٤٥/٩)، ومسلم في الطلاق، باب: تحريم طلاق الحائض بغير رضاها. حديث رقم (١٤٧١)، (١٠٩٣/٢).

(٧) ورد هذا الحديث مرفوعاً عن ثلاثة من الصحابة، وهم:

١ ـ سبرة بن معبد (رضي الله عنه) عند ابن أبي شيبة (٣٤٧/١)، والدارمي (٢٧٣/١)، وأبي داود في الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة. حديث رقم (٤٩٠)، (١٦١/١)، والترمذي في الصلاة، باب: ما جاء متى يؤمر الصبي بالصلاة. حديث رقم=

يتسبب عن كون هذا القرآن حقاً لا شك فيه ألا يمتري أحدٌ فيه.

وقوله: ﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ هو جمع الممتري. والممتري: اسم فاعل امترى، يمتري، فهو ممتري: إذا كان شاكّاً[١]. وأصله: (ممتريُ) من المِرْيَة، والمِرْيَة: الشك.

[ومعلوم أن النبيّ ﷺ لم يكن شاكاً فيما أوحى الله إليه، وإنما هذا كقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: آية ٢٤] وكقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: آية ١٤] وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: آية ١] ولا يخفى أن رسول الله صلوات الله][٢] وسلامه عليه أنه متق لله وأنه لا يطيع منهم آثماً ولا كفوراً، وأنه لا يشرك. وقد قدمنا مراراً[٣] أنه جرت العادة في القرآن أن الله (جل وعلا) يأمر نبيه ﷺ وينهاه ليُشرِّع ذلك الأمر والنهي لأمته على لسانه ﷺ؛ لأنه هو القدوة لهم، المُشَرِّع لهم بقوله، وفعله، وتقريره، ومن أكبر الأدلة على ذلك: هو ما قدمنا في آية بني إسرائيل، وهي قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: آية ٢٣] هذا خطاب للنبي ﷺ على التحقيق؛ لأن كل الخطابات في الآيات له، يقول له الله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ يعني: إن يبلغ عندك والداك الكبر أو أحد والديك ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ ومعلوم أن وقت نزولها أن والديه قد ماتا من زمان؛ لأن أباه مات وهو حَمْل، وأمه ماتت وهو (صلوات الله عليه وسلامه) صغير، فعُرِف أنه أَمَرَه بأنه إن بلغ والداه أو أحدهما الكِبَر أن يبرهما، وهما قد ماتا، لا يمكن برهما، عرفنا من ذلك أنه يأمره ليُشرِّع للناس على لسانه ﷺ، وقد بينا مراراً أن من أساليب اللغة العربية المعروفة:/ أن الإنسان يُخاطب إنساناً ١٥/ب
والمراد عنده بالخطاب غيره[٤]، وذكرنا فيه مراراً المثل المعروف: (إياكِ أعني

---

(١) انظر: المفردات (مادة: مرى) ص٧٦٦.

(٢) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٩٠) من هذه السورة.

(٤) انظر: ابن جرير (٤٨٥/٢ ـ ٤٨٧، ٥٠٠)، (١٩١/٣)، بصائر ذوي التمييز (١٠٩/١)، فتح الباري (١٧٤/٣، ٣٥٥).

واسمعي يا جارة)[١] وبينا فيما مضى أنه من رَجَز لرجل من بني فزارة، يُسمىٰ: سهل بن مالك، نزل في بيت حارثة بن لأم الطائي، ووجده غائباً، فأكْرَمَتْه أخته، وأُعجب بجمالها، فأراد أن يُعَرِّض لها بالخطبة فخاطب أُخرىٰ غيرها قائلًا:

يا أُختَ خير البدو والحضَارة كيف ترين في فتى فَزَارة
أصبح يهوى حُرةً مِعْطَارة إياكِ أعني واسمعي يا جارة

فَعَلِمَت بنتُ[٢] حارثة بن لأم الطائي أن الخطاب مُوَجَّه إليها وإن كان يخاطب غيرها حيث قال: «إياكِ أعني واسمعي يا جارة».

فأجابت قائلة:

إني أقولُ يا فتى فَزَارة لا أبتغي الزوجَ ولا الدعارَة
ولا فراق أهل هاذي الحارة فارحل إلى أهلك باستحارة

والشاهد من هذا الرَّجَز قوله: «إياكِ أعني واسمعي يا جارة» فهو أُسلوب عربي، يخاطب الإنسان إنساناً لينقل الخطاب بواسطته إلى غيره، والقرآن بلسان عربي مبين، ولا سيما أن النبي ﷺ هو المشرّع، فما أُمر به أو نُهي عنه صار مُشَرَّعاً لأمته (صلوات الله وسلامه عليه)؛ ولذا قال هنا: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: آية ١١٤] وقالت جماعة من أهل العلم: الخطابات في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: آية ٦٥] كالخطاب العام المُوَجَّه لجميع الناس وإن كان لفظه مفرداً[٣]، كما هو معروف، كقول طَرَفَة بن العبد[٤]:

ستُبديَ لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيكَ بالأخبار من لم تُزَوِّدِ

---

(١) انظر: المثل ومناسبته في كتاب الأمثال لأبي عبيدالقاسم بن سلّام ص٦٥، (وانظر معه في الهامش رقم (٢)، مجمع الأمثال للميداني (١/٨٠ ـ ٨١).
(٢) هذا من سبق اللسان. وإلا فهي أخته.
(٣) انظر: البحر المحيط (٤/٢٠٩).
(٤) البيت من معلقته. وهو في شرح القصائد المشهورات (١/٩٤).

فإن هذا الخطاب لفظه كأنه مفرد، ومعناه عام مُوَجَّه لكل من يصح منه الخطاب. هذا معنى قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: لا تكونن يا نبي الله. أي: يا مخاطب ممن يصح منه الخطاب ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: في الشاكين في أن هذا الكتاب منزل من الله. أي: لا تكونن من الممترين في أن الذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٥] ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قرأ هذا الحرف جمهور القراء ما عدا الكوفيين الثلاثة، قرأه من السبعة: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، كلهم قرؤوا: ﴿**وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً**﴾ بصيغة الجمع، وقرأه الكوفيون، أعني: عاصماً، وحمزة، والكسائي: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ بالإفراد[(١)]. ومعنى القراءتين واحد؛ لأن (الكلمة) أُضيفت إلى معرفة فتعمُّ، كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: آية ٣٤] أي: نعم الله ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: آية ٦٣] أي: أوامره ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: كلمات ربك. وقد بين الله (جل وعلا) في آيات من كتابه أن كلماته (جل وعلا) لا حصر لها ولا نهاية، كما قال في قوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: آية ٢٧] وكقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: آية ١٠٩] والمراد بالتمام هنا: الكمال التام من جميع الجهات، والمعنى: أن كلمات الله ـ ومنها هذا القرآن العظيم ـ أنها بالغة غاية الكمال والتمام.

وقوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال بعضهم[(٢)]: هما تمييز مُحوَّل عن الفاعل. أي: تم صدقها وعدلها.

وقال بعض العلماء[(٣)]: هما مصدران حالان. أي: تمت في حال

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٠.

(٢)(٣) انظر: الدر المصون (٥/١٢٤).

وأعربهما بعض العلماء بأن كليهما ما ناب عن المطلق؛ لأن التمام يتضمن معنى الصدق والعدالة، أي: تمت، أي: صَدَقَت وعَدَلَت. ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ والمعنى أنها كاملة صدقاً في أخبارها، وعدلًا في أحكامها. وقوله: ﴿صِدْقًا﴾ أي: في جميع الأخبار ﴿وَعَدْلًا﴾ أي: في جميع الأحكام. فما في القرآن من أحكام فهو في غاية العدالة، والإنصاف، ومراعاة مصالح البشر في دنياهم وأُخراهم، وما فيه من الأخبار فهو صحيح حق مطابق للواقع، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. يعني أن ما تُخبرون فيه من الأخبار هو حق، وما تُؤمرون فيه وما تُنهون عنه فيه من الشرائع فهو في غاية العدالة والكمال، وإذا كانت كلمات الله بهذه المثابة من الكمال والصدق في الأخبار، والعدالة في الأحكام، فليس لأحد أن يطلب عنها غيرها، فالله (جل وعلا) كلماته تامة في عدالتها، كل شرعه في غاية العدالة، والإنصاف، والإحكام، وكل أخباره في غاية الصدق؛ ولذا فإن هذا القرآن العظيم جاء للبشرية بخير الدنيا والآخرة، أما في دار الدنيا: فجاء فيه تنظيم علاقاتها، أُمر فيه الفرد بأن يكون لبنة صالحة لبناء المجتمع، بأن يكون سَخياً باذلًا لما لديه، وأن يكون شجاعاً مضحياً، وأن يكون مخلصاً لأمته لا يغشها، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق. وعَلَّم الإنسان كيف يعاشر أقرب الناس إليه، زوجته، وأبنائه، وأُسرته الأدنين، أمره أن يتحفظ منهم غاية التحفظ لدينه ودنياه؛ لأنهم ربما أوقعوه فيما لا ينبغي، ثم أمره إذا وجد منهم ما لا يحب أن يعاملهم باللين والصفح والمغفرة، كما قال في التغابن: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: آية ١٤] فمن شدة حكمته يُعَلِّم الإنسان كيف يعاشر أُسرته الأدنين، وأن يحذر من شر امرأته وأولاده؛ لئلا يضيّعوا عليه دينه أو دنياه، ثم إذا عثر منهم على ما لا ينبغي أمره ألا يعاملهم بالشدة والمكروه؛ ولذا قال في هذه الآية: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ ثم قال ـ إذا رأى منهم ما يكره ـ: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وعلم الإنسان كيف يعاشر مجتمعه، وبين له ما يعاشر به مجتمعه من الوفاء، والإخلاص، والبذل، والسخاء، والتضحية، وأمر الرؤساء أن يلينوا

للمرؤوسين، وأن يسعوا في مصالحهم، وينصفوهم، ويلينوا لهم الجانب ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: آية ١٥٩] ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: آية ٨٨] وأمر المرؤوسين أن يُطيعوا الرؤساء، ويعاونوهم على الخير، والسمع والطاعة، لتتحد جهود الجميع إلى ما فيه مصلحة الدنيا والآخرة. وأحاط الجواهر الست التي عليها مدار المظالم والإنصافات في دار الدنيا؛ لأن جميع المظالم والإنصافات في دار الدنيا إذا تأملتها فهي راجعة إلى ستة جواهر، اعتنىٰ دين الإسلام بالإحاطة بها، وهذه الجواهر الست - أعني بها - الدين، والنفس والنسب، والعقل، والمال، والعِرْض. هذه الجواهر الست التي تدور حولها المظالم والإنصافات في الدنيا[1]، وأعظمها: دين الإنسان. فهؤلاء الذين يأتون البلاد متمسكة بدين، ويدسون لهم السموم، والمذاهب الهدامة، والتعاليم الخبيثة، حتى يضيعوا دينهم، ويفصلوا بينهم وبين خالقهم، هذا أكبر عدوان، وأعظم جريمة عرفها التاريخ. كذلك الأنفس بعد ذلك، الذي يظلم إنساناً فيقتله ظلماً، ثم بعد ذلك تكون العقول، كالذي يضيع عقل الإنسان، أو إنسان يضيع عقل نفسه، كالذي يشرب الخمر. فالله (جل وعلا) حمى الدين، كما قال ﷺ: **«من بدّل دينه فاقتلوه»**[2] حماية للدين. وقال الله جل وعلا: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: آية ٣٩] وقد حمىٰ الله الأنفس؛ ولذلك شرع القصاص حياطة لأنفس الناس؛ لأن من أعظم السد دون القتل وهو شرعية القصاص، والله يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: آية ١٧٩] هذا من مراعاة القرآن لمصالح البشرية في دينها ودنياها؛ لأن القاتل إذا احترق قلبه من الغضب فأخذ الآلة ليقتل تذكر إيقافه للقصاص على الخشبة للقتل فارتعدت فرائصه، وخاف من ذلك الموقف الهائل، فَسَلِم هو من القتل، وسلم من كان يريد أن يقتله، كما قال: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: آية ١٧٩] وقد جعل على العقول حمىٰ،

---

(١) انظر: المستصفى (٢٨٧/١)، أضواء البيان (٤٤٩/٣).

(٢) البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم، حديث رقم (٦٩٢٢)، (٢٦٧/١٢).

حيث حرم شرب كل ما يضر بالعقل من مسكر ونحوه، قال ﷺ: **«كل مسكر حرام»**(١) **«ما أسكر كثيره فقليله حرام»**(٢) **﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ**

---

(١) هذه الجملة رواها عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم) منهم:

١ ـ عبدالله بن عمر (رضي الله عنه): ـ أخرجه مسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام برقم: (٢٠٠٣) (١٥٨٧/٣).

٢ ـ أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها): ـ أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب لا يجوز الوضوء بالنبيذ ولا المسكر، برقم: (٢٤٢)، (٣٥٤/١)، وأطرافه في: (٥٥٨٥، ٥٥٨٦)، ومسلم في الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام. برقم: (٢٠٠١)، (١٥٨٥/٣) بلفظ: (كل شراب أسكر فهو حرام).

٣ ـ جابر بن عبدالله (رضي الله عنه): ـ أخرجه مسلم في كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام برقم: (٢٠٠٢)، (١٥٨٧/٣).

٤ ـ أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه): ـ أخرجه البخاري في المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، برقم: (٤٣٤٣، ٤٣٤٤، ٤٣٤٥)، (٦٢/٨)، وأطرافه في (٦١٢٤، ٧١٧٢)، وأخرجه مسلم في الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر، وكل خمر حرام، برقم: (١٧٣٣)، (١٥٨٦/٣).

٥ ـ بريدة (رضي الله عنه): ـ أخرجه مسلم في الأشربة، باب النهي عن الانتباذ في المزفت. حديث رقم: (٩٧٧)، (١٥٨٥/٣).

وفي الباب ـ في غير الصحيحين ـ عن ابن مسعود، وأشج عبدالقيس، وأبي هريرة، وعمر بن الخطاب، وأبي وهب الجيشاني، ووائل بن مُحبر، وابن عباس، وأنس، وعبدالله بن عمرو، وقيس بن سعد بن عبادة، وبريدة، وفيروز بن الديلمي، وأبي سعيد الخدري، وعلي، وعبدالله بن المغفل، وقرة بن إياس، وميمونة (رضي الله عنهم أجمعين).

(٢) الحديث جاء عن جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم) منهم:

١ ـ عائشة: ـ أخرجه أحمد في المسند (٧١/٦، ٧٢، ١٣١)، وأخرجه في كتاب الأشربة كذلك ص٩٧، وأبو داود في السنن، كتاب الأشربة، باب ما جاء في السكر، برقم: (٣٦٧٠) (١٥١/١٠)، والترمذي في السنن، أبواب الأشربة، باب ما جاء أن ما أسكر كثيره فقليله حرام، برقم: (١٨٦٦) (٢٩٣/٤)، وابن الجارود في المنتقى كما في الغوث (١٥٤/٣)، وأبو يعلى في المسند (٣٢٢/٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢١٦/٤ ـ ٢١٧)، وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (٣٧٩/٧)، والطبراني في الأوسط (١٩٤/٤، ٢١٦، ٢٢٣، ٢٤٩)، (١٣٠/٩)، وأخرجه ابن عدي في الكامل (١٢٥٥/٣)، (٩٩٤/٣)، (١٦٢٤/٤)، وأخرجه الدارقطني في السنن بألفاظ مختلفة (٢٥٤/٤ ـ ٢٥٦) وأخرجه ابن حزم في المحلى (٥٠٠/٧، ٥١٠)، والبيهقي في السنن=

﴿وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾ [المائدة: آية ٩٠] إلى قوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ وتحريم هذه

(٢٩٦/٨) وفي الشعب (١٩١/١٠)، والجوزجاني في الأباطيل والمناكير (٢٣٨/٢)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٣٠١/٤)، وابن حجر في التلخيص (٧٣/٤)، وفي الدراية (٢٥٠/٢)، والألباني في صحيح الجامع برقم: (٥٤٠٧)، وصحيح أبي داود (٧٠٣/٢).

٢ ـ زيد بن ثابت: ـ أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٣٩/٥) وفي الأوسط (٢٩١/٦)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٣٠١/٤)، وابن حجر في التلخيص (٧٣/٤)، وفي الدراية (٢٥٠/٢).

٣ ـ سعد بن أبي وقاص: ـ أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم: (٣٨١٥)، والنسائي في الكبرى، كتاب الأشربة، باب تحريم كل شراب أسكر كثيره، برقم: (٥١١٨، ٥١١٩)، (٢١٦/٣) بلفظ: (نهى عن قليل ما أسكر كثيره)، وأخرجه في السنن الصغرى، كتاب الأشربة، باب تحريم كل شراب أسكر كثيره، برقم: (٥٦٠٨ ـ ٥٦٠٩) (٣٠١/٨)، والدارمي في سننه (٣٩/٢)، وابن الجارود (١٥٤/٣)، وأبو يعلى في المسند (٥٥/٢)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢١٦/٤)، وابن حبان في الصحيح (كما في الإحسان ٣٧٥/٧)، والدارقطني (٢٥١/٤)، وابن حزم في المحلى (٥٠٠/٧) والبيهقي في الكبرى (٢٩٦/٨)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٣٠١/٤)، وابن حجر في التلخيص (٧٣/٤)، وهو في الدراية (٢٥٠/٢).

٤ ـ ابن عمر: ـ أخرجه أحمد (٩١/٢)، وابن ماجه في السنن، كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام، برقم: (٣٣٩٢)، (١١٢٤/٢)، والطبراني في الأوسط (١٩٧/١)، (١٥٥/٤)، (١٠٦/٥)، (٥٢/٨) وفي الكبير (٣٨١/١٢)، وابن عدي (٣٨٧/١)، (١٥٨٩/٤)، (٢٢٥٤/٦، ٢٣٨٩)، (٢٥١٩/٧)، والدارقطني في العلل (١٧/٢) وانظر السنن له (٢٦٢/٤)، وابن حزم في المحلى (٥٠٠/٧) والبيهقي (٢٩٦/٨)، وهو في نصب الراية (٣٠١/٤) وفي التلخيص (٧٣/٤)، وفي الدارية (٢٥٠/٢)، وصحيح ابن ماجه (٢٤٥/٢).

٥ ـ جابر بن عبدالله: ـ أخرجه أحمد (٣٤٣/٣)، وأخرجه في كتاب الأشربة برقم (١٤٨)، وأبو داود في السنن، كتاب الأشربة، باب ما جاء في السكر، برقم: (٣٦٦٤)، (١٢١/١٠)، والترمذي في السنن، كتاب الأشربة، باب ما جاء ما أسكر كثيره فقليه حرام، برقم: (١٨٦٥)، (٢٩٢/٤)، وقال: وفي الباب عن سعد، وعائشة، وعبدالله بن عمرو، وابن عمر، وخَوَّات بن جبير، وأخرجه ابن ماجه، كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام، برقم: (٣٣٩٣) (١١٢٥/٢)، وابن الجارود (١٥٣/٣)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢١٧/٤)، وابن حبان (كما في ٣٧٩/٧)، وابن عدي (١١٧٧/٣)، وابن حزم في المحلى (٥٠٠/٧)، والبيهقي في السنن (٢٩٦/٨) وفي شعب=

المسكرات كلها محافظة من النظام السماوي على عقول الناس؛ لأن من شرب فضاع عقله ارتكب كل فاحشة وكل سوء ـ والعياذ بالله ـ لأن نور العقل هو النور الذي يميز الإنسان به بين الحسن والقبيح، والنافع والضار، فربما إذا سكر ربما وقع على ابنته، وربما ضرب جاره. وذكر بعضهم في تفسير آية الخمر في سورة المائدة: أنه رأى شائباً شارباً ـ والعياذ بالله ـ يبول

الإيمان (١٠/١٩٢)، وابن عبدالبر في التمهيد (١/٢٥٥)، والبغوي (١١/٣٥٠ ـ ٣٥١)، والجوزجاني في الأباطيل (٢/٢٣٧)، والمزي في تهذيب الكمال (٨/٣٧٧)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٤/٣٠١)، وابن حجر في التلخيص (٤/٧٣)، وفي الدراية (٢/٢٥٠)، والألباني في صحيح الجامع برقم: (٥٤٠٦)، صحيح أبي داود (٢/٧٠٢)، صحيح الترمذي (٢/١٧٠)، صحيح ابن ماجه (٢/٢٤٥).

٦ ـ خَوَّات بن جبير: ـ أخرجه العقيلي في الضعفاء (٢/٢٣٣)، والطبراني في الكبير (٤/٢٠٥) وفي الأوسط (٢/١٧١)، والدارقطني في السنن (٤/٢٥٤) والحاكم في المستدرك (٣/٤٦٦)، وابن الأثير في الاستيعاب (١/٤٤٥)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٤/٣٠١)، وابن حجر في التلخيص (٤/٧٣)، وفي الدارية (٢/٢٥٠).

٧ ـ أنس بن مالك: ـ أخرجه أحمد (٣/١١٢)، وأبو يعلى (٧/٥٠)، وذكر الزيلعي في نصب الراية (٤/٣٠١)، والهيثمي في المجمع (٥/٥٦) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى. . . والبزار باختصار، ورجال أحمد رجال الصحيح» ا.هـ، وذكره ابن حجر في التلخيص (٤/٧٣)، وفي الدراية (٢/٢٥٠).

٨ ـ عبدالله بن عمرو: ـ أخرجه أحمد (٢/١٦٧، ٢/١٧٩)، والنسائي في الكبرى، كتاب الأشربة، باب تحريم كل شراب أسكر كثيره، برقم: (٥١١٧)، (٣/٢١٦)، وفي كتاب الأشربة المحظورة، باب تحريم كل شراب أسكر كثيره، برقم: (٦٨٢٠)، (٤/١٨٦)، وأخرجه في الصغرى في كتاب الأشربة، باب تحريم كل شراب أسكر كثيره. برقم: (٥٦٠٧)، (٨/٣٠٠)، وابن ماجه في السنن، كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام. برقم: (٣٣٩٤)، (٢/١١٢٥)، وأخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/٢١٧)، والدارقطني (٤/٢٥٤، ٢٥٧، ٢٥٨)، وابن حزم في المحلى (٧/٥٠٠)، والبيهقي (٨/٢٩٦)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٤/٣٠١)، وابن حجر في الدراية (٢/٢٥٠)، وفي التلخيص (٤/٧٣)، وانظر صحيح ابن ماجه (٢/٢٤٥)، صحيح النسائي (٥١٨٠).

٩ ـ علي بن أبي طالب: ـ أخرجه الدارقطني (٤/٢٥٠)، والبيهقي (٨/٢٩٦)، وذكره الزيلعي في نصب الراية (٤/٣٠١)، وابن حجر في التلخيص (٤/٧٣)، وفي الدراية (٢/٢٥٠) وقال فيه: «إسناده ساقط» ا.هـ.

١٠ ـ ابن عباس: ـ أخرجه الدارقطني (٤/٢٥٦).

في يديه ـ يتخيل للخبيث أنه يتوضأ ـ ويستنشق ويتمضمض بالبول، ويغسل وجهه ولحيته بالبول، ويقول: الحمد لله الذي جعل الإسلام نوراً، والماء طهوراً[(١)]!! وهو لا يدري أنه يغسل وجهه بالبول والعياذ بالله!! فالخمر أم الخبائث، ولمحافظة دين الإسلام على العقول حرم كل ما يضر بالعقل، فحرم شرب الخمر، وأوجب النبي ﷺ الحد في شربها، كذلك حافظ القرآن العظيم على أنساب الناس، فمنع الزنى صيانة للأنساب، وتطهيراً للفُرش من التقذير؛ لئلا تتقذر فُرش المجتمع، وتختلط أنسابه. ولذا قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: آية ٣٢] وأوجب في الزنا الجلد الرادع ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: آية ٢] كل هذا محافظة على الأنساب ومكارم الأخلاق؛ لئلا تتقذر فرش المجتمع، وتختلط أنسابه. وفي آية محكمة الحكم منسوخة التلاوة: أن الزاني المحصن أنه يرجم؛ لأن جريمته عظمى، والذي اعتاد النساء لا يصبر عنهن، فكان الزجر في جنبه أغلظ؛ لأنه ارتكب أخس جريمة، وتعرض لاختلاط أنساب الناس، وتقذير فرش المجتمع، فَقَتَلَه القرآن أشد قتلة، في آية منسوخة التلاوة، باقية الحكم «الشيخ [والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» فهذا الحد][(٢)] يطهر به البدن.

---

(١) انظر: التفسير الكبير (٤٦/٦)، روح المعاني (١١٤/١)، تفسير المنار (٣٢٧/٢)، وانظر: ما يشبه هذه الحكاية في القرطبي (٥٧/٣).

(٢) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام. وقد جاء في بعض الروايات زيادة: «بما قضيا من اللذة».

وأصل الخبر المشار فيه لآية الرجم ـ دون لفظها ـ ثابت مشهور، أخرجه الشيخان وغيرهما من طريق الزهري عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة عن ابن عباس.

وقد رواه عن الزهري: ابن عيينة، ومعمر، ويونس، ومالك، وصالح بن كيسان، وعقيل، وعبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وهُشيم، وسعد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف، وعبدالملك بن أبي بكر، والحسن بن محمد بن الصبّاح.

وكلهم يرويه من غير هذه الزيادة (والشيخ والشيخة) إلخ، سوى سفيان بن عيينة عند بعض من أخرج الحديث من طريقه؛ كما في ابن أبي شيبة (٧٥/١٠، ٧٦)، وابن ماجه، كتاب الحدود، باب الرجم، حديث رقم (٢٥٥٣)، (٨٥٣/٢)، والنسائي في الكبرى، باب: تثبيت الرجم، حديث رقم (٧١٥٦)، (٢٧٣/٤)، والبيهقي (٢١١/٨).

وأما رواية البخاري ومسلم للحديث من طريق سفيان فمن دون هذه الزيادة، وهو عند=

وهذه نُبَذٌ قليلة يفهم بها الإنسان كيف حافظ دين الإسلام على مصالح البشر، وأحاط أديانهم، وأحاط أنفسهم، وحفظ عقولهم، وأنسابهم، وأعراضهم، وأموالهم، كل هذا تشريع رب العالمين، ينظم فيه علاقات الدنيا على أكمل الوجوه، ويهذب أرواحها لتتقي. والقرآن العظيم اعتنى بالإنسان من ناحيتيه: من ناحيته الجسدية، وناحيته الروحية؛ لأن هذا الحيوان المسمى بالإنسان هو مركب من عنصرين مختلفين في الحقيقة أشد الاختلاف، أحدهما: يُسمى الروح. والثاني: يُسمىٰ الجسد. ولا بد لكلٍّ منهما من متطلبات، فللروح متطلبات لا تكفي عنها متطلبات الجسد، وللجسد متطلبات لا تكفي عنها متطلبات الروح. فالقرآن العظيم جاء للإنسان بمتطلباته الجسدية، ومتطلباته الروحية، فَنَظَّم له جميع

عبدالرزاق في المصنف (٣٣٠/٧)، عن ابن عباس من غير طريق الزهري.
وقد أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الحدود، (ما جاء في الرجم) حديث رقم (١٥٠١)، ص٥٩٢، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (٣٢٣/٦)، وفي الكبرى (٢١٢/٨ ـ ٢١٣)، من طريق سعيد بن المسيب ـ منقطعاً ـ عن عمر بهذه الزيادة. مع أن هذه الرواية أخرجها أحمد والترمذي من غير الزيادة السابقة.
والحديث ـ بهذه الزيادة ـ له عدة شواهد وهي:
١ ـ من حديث زيد بن ثابت (رضي الله عنه) عند أحمد (١٨٣/٥)، والدارمي (١٠٠/٢)، والنسائي في الكبرى، كتاب الرجم، باب: نسخ الجلد عن الثيب، حديث رقم (٧١٤٥)، (٧١٤٨)، (٢٧٠/٤ ـ ٢٧١)، والبيهقي (٢١١/٨)، والحاكم (٣٦٠/٤)، وابن حزم (٢٣٥/١١).
٢ ـ من حديث أُبي بن كعب (رضي الله عنه) عند أحمد (١٣٢/٥)، وعبدالرزاق (٣٢٩/٧ ـ ٣٣٠)، والنسائي في الكبرى، كتاب الرجم، باب: نسخ الجلد عن الثيب، حديث رقم (٧١٥٠)، (٢٧١/٤)، والبيهقي في السنن (٢١١/٨)، وفي المعرفة (٤٧٣/٣)، والضياء في المختارة (٣٧٠/٣ ـ ٣٧١)، والطيالسي ص٧٣، وابن حبان (٣٠١/٦ ـ ٣٠٢)، والحاكم (٤١٥/٢)، (٣٥٩/٤)، وابن حزم في المحلى (٢٣٤/١١).
وقال ابن كثير (٤٦٥/٣): «هذا إسناد حسن» اهـ. وقال ابن حزم في المحلى (٢٣٥/١١): «هذا إسناد صحيح كالشمس لا مغمز فيه» اهـ.
٣ ـ من حديث أبي أمامة (سهل بن حنيف) عن خالته العجماء، عند النسائي في الكبرى، كتاب الرجم، باب: نسخ الجلد عن الثيب، حديث رقم (٧١٤٦)، (٧١٤٧)، (٢٧٠/٤ ـ ٢٧١)، والحاكم (٣٥٩/٤).
وهذه الزيادة قد صححها بعض أهل العلم وضعفها آخرون. انظر: الإرواء (٣/٨)، صحيح ابن ماجه (٨١/٢).

العلاقات التي بها تَقَدُّمه وقوته في الدنيا في جميع الميادين من حيث إنه جسد حيواني، وبين له طرق الصلة بالله لتتهذب روحه على ضوء النور السماوي؛ لأن الروح هي التي لها الأهمية، والمادة إذا طغت وقويت ولم تقدها روح مهذبة كانت ويلة عظمىٰ على البشرية. وأنتم تشاهدون هذا في الدنيا، تشاهدون الكتلة الشرقية والغربية، كلتاهما نجحت غاية النجاح في خدمة الإنسان من حيث إنه جسد حيواني، وأفلستا كل الإفلاس في خدمة الإنسان من ناحيته الروحية، وصارت هذه المادة لم تقدها روح مرباة مهذبة على ضوء تعليم سماوي، فكانت ويلة عظمى على البشرية، وخطراً داهماً يهدد الإنسان، ولذلك تجدونهم يعقدون المؤتمر بعد المؤتمر، والمجلس بعد المجلس ليُدمِّروا القوة التي بذلوا فيها النفس والنفيس خوفاً منها، وكل منهم يبيت في قلق وخوف من القوة التي بذلوا فيها النفس والنفيس!!

كل ذلك إنما جاءهم من إهمالهم الناحية الروحية؛ لأن أرواحهم لو كانت مرباة على ضوء نور سماوي من تعاليم رب العالمين كان البشر في أمن وطمأنينة أن تلك الروح المهذبة المرباة لا تقود تلك المادة الطاغية، والقوة الهائلة إلا قيادة طبيعية لخير البشرية، وخير الدنيا والآخرة. فإهمال الناحية الروحية هو من أعظم البلايا والويلات.

ونحن دائماً ننبه أبناءنا معاشر المسلمين؛ لأنا نأسف كل الأسف أنهم أضلتهم الحضارة الغربية، فانفصلوا عن تعاليم السماء، وقطعوا الصلة بينهم وبين من فتح أعينهم، ونحن نبين لهم الحقائق، ونضرب لهم الأمثال؛ لأن الحضارة الغربية بالاستقراء التام الذي لا يمكن أن يكابر فيه إلا مكابر جاحد للمحسوس جمعت بين نافع لَا مِثَال لنفعه، وبين ضار لَا مِثَال لضره. أما الذي حصلته من النفع: فهو ما حصلت عليه من التقدم المادي، والتقدم التنظيمي في جميع ميادين الحياة، فهذا الأمر كماء المُزْن، والتواكل عنه عجز، وضعف، وتمرد على نظام السماء؛ لأن نظام السماء يأمر المسلم أن يكون قوياً متقدماً في جميع الميادين العملية، سابحاً في جميع الميادين العملية ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: آية ٦٠] هذا الأمر كأنه يقول: أعدوا ما يكون في المستطاع من القوة كائناً ما كان، مهما تطورت القوة، ومهما بلغت، فالمتواكلون العَجَزَة الذين لا يُعِدون القوة متمردون

على نظام السماء، مخالفون لأمر خالق السماوات والأرض ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: آية ٦٣] ومن نظر في القرآن وجده جامعاً بين الأمرين: الأمر بالقوة والتقدم، مع المحافظة على الآداب الروحية.

ونحن دائماً نضرب بعض الأمثال: اقرؤوا آيتين من سورة النساء: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟﴾ إلى آخر الآيتين. [النساء: الآيتان ١٠٢، ١٠٣] هذا وقت التحام الكفاح المُسَلَّح، والرؤوس تنزل عن الأعناق، وفي هذا الوقت الحَرِج نظام السماء والقرآن العظيم يدبر الخطة العسكرية على أكمل الوجوه، في الوقت الذي يُحافظ فيه على الاتصال بخالق هذا الكون، وتربية الروح بأدب سماوي من آداب السماء، وهو الصلاة في الجماعة، والله (جل وعلا) يقول في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾ [الأنفال: آية ٤٥] وقوله: ﴿فَٱثْبُتُوا۟﴾ تعليم عسكري سماوي، يأمر به خالق السماوات والأرض بالصمود في الميدان في خطوط النار الأمامية. وفي هذا الوقت الضنك يقول الله (جل وعلا): ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ هكذا فليكن المؤمن، قوياً في جميع الميادين، محافظاً على آدابه الروحية متصلًا بربه صلة روحية؛ لأن الروح المهذبة على ضوء التعليم السماوي تقود المادة والقوة قيادة طبيعية حكيمة، ليس بها ويلة على البشر.

وما أنتجته الحضارة الغربية من المنافع، وما جنته من المضار نضرب له في المناسبات مثلًا يصير به المعقول كالمحسوس، مثال ذلك[١]: هو أن رجلًا بعيداً من العمران، منقطعاً في آخر رمق من الحياة، وجد ماءً عذباً زُلالًا وسماً قاتلًا فتاكاً، فحاله مع هذا السم القاتل والماء العذب الزلال، حاله لا بد أن تكون واحدة من أربع حالات: إما أن يشربهما معاً، وإن شربهما معاً لم ينتفع بالماء الزلال؛ لأن السم الفتاك يقتله، وإن تركهما معاً انقطع عن الركب، ومات في الطريق. وإن شرب السم وترك الماء فهذا رجل أحمق أهوج لا يبين نافعاً من ضار، وإن كان رجلًا عاقلًا شرب الماء وترك السم.

(١) انظر: الأضواء (٣٨١/٤).

فالحضارة الغربية فيها ماء عذب زلال، وفيها سم فاتك قتّال. أما ما فيها من الماء الزلال: فهو ما أنتجته من القوة المادية؛ والقوة التنظيمية في جميع ميادين الحياة. وأما ما فيها من السم الفاتك القتّال: فهو التمرد على نظام السماء، والطغيان والعصيان لخالق هذا الكون (جل وعلا)، والإفلاس الكلي في الآداب الروحية السماوية.

فعلينا معاشر المؤمنين أن نتنبه لهذا، ونفرق بين السم والماء، فنأخذ من الحضارة الغربية ما استطعنا من قوتها المادية، ونجتنب كل التجنب، ونتباعد كل البعد عن سمها الفتاك القتّال، مما جنته من التمرد على نظام السماء، ومعصية خالق هذا الكون، والانحطاط الخلقي، وضياع الأخلاق والقيم الروحية الإنسانية.

والذي يؤسف كل الأسف أن أغلب ـ إلا من شاء الله ـ من يُحَرِّكُون الدَّفَّات ربما أخذوا منها ضارها من الانحطاط الخلقي؛ والزهد في الإسلام، وقطع الصلة بالله، وعدم صلة السماء بالأرض، في الوقت الذي هم فيه مفلسون كل الإفلاس من مائها الزلال، ومنافعها الدنيوية، فعكسوا القضية والعياذ بالله.

ما أحسنَ الدينَ و الدنيا إذا اجتمعا وأقبحَ الكفر والإفلاسَ بالرجلِ[1]

فعلى المسلم أن يفرق بين ما يضر وما ينفع، ويفرق بين ضار الحضارة الغربية ونافعها، ويستفيد من نافعها من القوة المادية والتنظيمية، ويحذر كل الحذر من ضارها من الانحطاط الخلقي، والتمرد على نظام السماء، ومعصية خالق هذا الكون؛ لأن الإنسان في هذه الدنيا إذا فقد صلته بخالق السماء الذي فتح عينيه، وجعل له فيها النور، وأبدعه من غرائب صنعه وعجائبه ما يبهر العقول، مَنْ خسر صلته بالله خسر كل شيء، ولم يبق له في الدنيا شيء، فعلى المسلمين أن يحافظوا على تراثهم الروحي، وآدابهم السماوية من طاعة خالق هذا الكون، في الوقت الذي هم فيه ينتفعون بالمادة والقوة.

---

(١) هذا البيت يُنسب لأبي دلامة الأسدي، وهو في ديوانه ص٧٧.

ونحن نبين لإخواننا مراراً أن دين الإسلام يأمر بالمحافظة على التعاليم السماوية، والآداب الروحية، ويأمر بالتقدم الدنيوي في جميع الميادين، حتى ولو كان ذلك التقدم الدنيوي العقولُ الذي أنتجته: عقولُ كفرة فجرة، وكذلك كان سيد البشر، مربي هذا الخلق، ومبين الطريق له ـ نبينا ﷺ ـ كان كذلك يفعل[١].

أنتم تعلمون في التاريخ أنه لما حاصره الأحزاب في غزوة الخندق ذلك الحصار العسكري التاريخي العظيم. المنصوص في قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١] لما وقع هذا قال له سلمان الفارسي (رضي الله عنه): كنا إذا خفنا خَنْدَقْنا[٢]. فالخندق خطة عسكرية، العقولُ التي ابتكرتها عقولُ فارس، وهم مجوس يعبدون النار، فالنبي ﷺ لم يقل: هذه الخطة العسكرية نجسة قذرة؛ لأن العقول التي ابتكرتها عقول كفرة. لا، بل أخذ الخطة الكافرية التي مبدؤها من الكفار، واستعان بها في دنياه، وهو مُرْضٍ ربه فيما بينه وبين الله، متمسك بالآداب السماوية، والتصفية الروحية.

وكذلك لمَّا تكالبت عليه قوىٰ الشر، واضطُر إلى أن يخرج من وطنه مهاجراً إلى هذه المدينة حرسها الله، والناس كلهم حرب عليه، واضطر إلى أن يدخل هو وصاحبه الصدِّيق (رضي الله عنه) إلى أن يدخلا في غار خوفاً من المشركين، كما بينه الله في سورة براءة ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: آية ٤٠] وجد رجلًا كافراً يُسمىٰ عبدالله بن الأُريقط الدؤلي[٣]، ولكنه عنده خبرة دنيوية، فهو خبير دنيوي كافر، يعرف الطرق، والطرق المعهودة بين مكة والمدينة جعل الكفار عليها الرَّصَد والعيون، إذا سلكوها أُخذوا، فصار هذا الخبير الكافر ـ عبدالله بن الأُريقط الدؤلي ـ يعلم طرقاً غير معهودة. ساحَلَ به إلى جهة البحر، وجاء به من

---

(١) انظر: الأضواء (٣٨٣/٤).

(٢) تاريخ الطبري (٤٤/٣).

(٣) هناك بعض الاختلاف في اسمه انظر: الفتح (٢٣٧/٧ ـ ٢٣٨).

طرق غير معهودة، حتى أوصله المدينة بسلام[١] [فلم يمنعه كفره من الانتفاع بخبرته الدنيوية][٢] على حد قولهم: (اجتنِ الثمار، وألق الخشبة في النار). لم يمنعه من ذلك كونه كافراً، وهو فيما بينه وبين ربه مرضٍ ربه، محافظ على الآداب السماوية، والتهذيب الروحي على ضوء تعليم السماء.

وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ همَّ أن يمنع وطء النساء إذا كانت ترضع أولادهم؛ لأن العرب كانوا يظنون أن المرأة إذا أتاها زوجها وهي ترضع أن ذلك الوطء يُضعف عظم ولدها ويضره، هذا كان مشهوراً عند العرب، وكانوا إذا رمىٰ الرجل بالسيف فَنَبَا سيفه عن الضريبة، ولم يقطع، قالوا: هذا رجل وُطئت أُمه وهو يَرْضَع، كما قال شاعرهم[٣]:

فوارسُ لم يُغالوا في رضاعٍ فتنبُو في أكفهم السيوفُ

فلما أخبرته فارس والروم أنهم يفعلون ذلك ولا يضر أولادهم أخذ هذه الخطة الطبية من الكفار[٤].

والقصد أن ننبه إخواننا على أن دين الإسلام دين تقدم في الميدان، ودين قوة، ليس دين جمود، ولا دين إخلاد إلى الأرض، بل هو دين كفاح، وقوة، وجهاد، وتقدم في الميدان، وَقَود الدنيا وإضاءتها بالنور إلى ما ينفعها في دنياها ودينها، وقد نظم الله فيه - في كتابه - علاقات البشر في الدنيا والآخرة، وأوضح لهم ما يَحْيَون به في الدنيا حياةً سعيدةً، ويَحْيَون به الحياة الأبدية بعد الموت حياة سعيدة، فعلى المسلم أن يعلم أن دين الإسلام دين كفاح وتقدم في الميدان، إلا أنه يجب فيه المحافظة على طاعة خالق هذا الكون؛ لأن هذا الكون له خالق هو الذي خلقه، ومَلِكٌ هو

---

(١) انظر: البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة. حديث رقم (٣٩٠٥)، (٧/٢٣٠).

(٢) وقع في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) البيت في الكامل ص١٧٧.

(٤) مسلم، كتاب النكاح، باب: جواز الغَيلة، حديث رقم (١٤٤٢)، (٢/١٠٦٦).

الحكم العدل فيه، ولم يترك الناس سدى. أَمَرَهُمْ ونهاهم، فلا بد أن تُطاع أوامره، وتُسلك طرقه التي أمر بها، وكل ذلك ما فيه للإنسانية إلا خير الدنيا والآخرة؛ ولذا قال (جل وعلا) هنا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ﴾ [الأنعام: آية ١١٥] صدقاً في كل ما تخبر به من الأخبار، وعدلًا في كل ما تحكم به من الأحكام، وكل ما تشرعه للبشرية.

وقوله جل وعلا: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ قوله: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ لأن كلمات الله (جل وعلا) هي في غاية الحق، والصدق، والعدالة، لا يمكن أحد أن يبدلها ويُحوِّل عدالتها جوراً، أو يُحَوِّل صدقها كذباً، لا يمكن أحد أن يفعل ذلك، فهي في غاية العدالة والصدق والكمال، لا يمكن أحداً أن يغيرها فيجعل عدلها جوراً، ولا أن يجعل صدقها كذباً أبداً.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ هو السميع لكل ما يقوله خلقه، العليم بكل ما يعمله خلقه، وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً(١): أنه جرت العادة في القرآن: أن الله لا يذكر آيات تتضمن أوامر ونواهي إلا وترى بعدها الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم؛ لأنه لا خلاف بين العلماء أنه لا يوجد واعظ أكبر، ولا زاجر أعظم من زاجر المراقبة والعلم. وهو أن يعلم هذا الإنسان المسكين أن خالق السماوات والأرض مطلع عليه، يعلم ما يسر وما يُعلن، حتى ما يخطر في قلبه فهو يعلمه (جل وعلا). إن الله يعلم خطرات القلوب، وكيف يجهل خطرات القلوب من هو خالق خطرات القلوب؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: آية ١٤] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: آية ١٦] فالله يقول لنا في كل موضع من كتابه، لا تكاد تقلب ورقة واحدة من المصحف الكريم إلا وجدت فيها هذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم (سميع عليم)، (عليم حكيم)، (سميع بصير) يعلم كذا. لا تكاد تجد ورقة إلا فيها أن الله يعلم ما نفعل، وهذا أكبر واعظ، وأعظم زاجر، وقد ضرب العلماء لهذا مثلًا قالوا: لو فرضنا أن في هذا البراح من الأرض مَلِكاً عظيماً شديد البأس، عظيم النكال، شديد الغضب

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

إذا انتُهكت حرماته، قتّالًا للرجال، سفاكاً للدماء، وحوله سيافه، والنطع مبسوط، والسيف يقطر دماً، وحول هذا الملك بناته ونساؤه وجواريه، أيخطر في البال أن أحداً من الحاضرين يُطل بريبة، أو غمزة، أو إشارة عين؟! لا، وكَلَّا، كلهم خاضع الطرف، خاشع الجوارح، أُمنيته السلامة[1].

ونحن نؤكد لكم أن خالق السماوات والأرض أعظم اطلاعاً، وأشد بطشاً، وأفظع فتكاً إذا انتهكت حرماته جل وعلا.

فعلىٰ الإنسان أن يعلم أن هذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم، أن ربه يسمع ما يقول، ويعلم ما ينوي وما يفعل، إذا علم الإنسان هذا فإنه يُحاسِب ويطيع ربه، فلو علم أهل بلد من البلاد أن أمير ذلك البلد يعلم كل ما يفعلونه بالليل من الخسائس والدسائس باتوا متأدبين، كَافِّين عن كل ما لا ينبغي. وهذا خالق السماوات والأرض ـ مع عظمته وجلاله ـ يبين لخلقه أنه مطلعٌ عليهم، عالم بما يفعلون، ومع هذا لا يتأدبون، ولا ينزجرون!! فهذه وقاحة عظمىٰ، وجهل كبير؛ ولأجل هذا أنتم تعلمون في آيات من كتاب الله أن الله بين أن الحكمة التي خلق من أجلها الخلائق، والموت والحياة، والسماوات والأرض، هي أن يبتليهم على ألسنة رسله، أيهم يحسن العمل ممن لا يحسنه، كما قال تعالى في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: آية ٧] وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: آية ٧] وقال في أول سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: آية ٢] وإذا عرف العاقل أن خالق السماوات والأرض خلقه ليبلوه ويختبره: أهو يحسن العمل أم لا يحسنه؟ وربنا يقول: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل: (أيكم أكثر عملا) فلا بد أن يقول الإنسان: يا ليتني عرفت الطريق التي أنجح بها في هذا الاختبار، ويكون عملي حسناً؛ ولأجل

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

هذه المهمة العظمى لَمَّا غفل عنها أصحاب النبي ﷺ جاء جبريل (عليه السلام) في صفة أعرابي في حديثه المشهور الصحيح[(١)]؛ ليبين لهم هذه المهمة الكبرى، والواعظ الأكبر؛ ولذا قال للنبي ﷺ في ضمن حديثه المشهور: يا محمد (صلوات الله وسلامه عليه) أخبرني عن الإحسان. يعني: والإحسان هو الذي خُلق الخلق من أجل الاختبار فيه، فالنبي ﷺ بين أن الإحسان الذي خُلق الخلق للاختبار فيه لا يمكن أن يحصل إلا بهذا الزاجر الأعظم والواعظ الأكبر (...)[(٢)].

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٦ ـ ١٢٠].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٦].

أخبر الله في هذه الآية الكريمة نبيه ﷺ ليبين على لسانه لأمته أن من أطاع أكثر الناس أضلوه عن سبيل الله، وهذه الآية الكريمة تدل على أن أكثر الخلق ضالون مضلون، وهو كذلك، كما جاء مبيناً في أحاديث كثيرة صحيحة، وآيات من كتاب الله[(٣)]، فمن الآيات الدالة على ذلك قوله: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: آية ١٧] ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل. ولاستيفاء النقص راجع كلام الشيخ (رحمه الله) في هذا الموضوع عند تفسير الآيات: (٥٩، ١٢٨) من سورة الأنعام، (٥٦، ٦١) من سورة الأعراف، (٤٣، ٧١) من سورة الأنفال.

(٣) انظر: أضواء البيان (٢/٢٠٨).

(أَخَذ) و (أكل) فالأجود فيهما حذف الهمزة في الأمر، تقول: «خُذ» ولا تقول: «أُخذ» وتقول: «كُل» ولا تقول: «ءُأكل» ورَدُّهُما إلى أصلهما لغة قليلة.

والأمر في قوله هنا: ﴿فَكُلُوا﴾ أمر إباحة، وقد تقرر في فن الأصول أن من صيغ (افْعَل) التي تأتي لها: الإباحة[1]. يعني: فكلوا. والفاء هنا مُسَبِّبَة عما قبلها، إن زعموا أن الميتة ذبيحة الله، وأنها خير من ذبيحتكم؛ فكلوا مما ذكيتم وذكرتم اسم الله عليه عند الذكاة، ولا تأكلوا من الميتة، ومما ذبحه الكفار وذكروا عليه اسم الأصنام. كما يأتي في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فإنه قابل بين الأمر والنهي، أمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١١٨] ونهى عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

ومعنى ذكر اسم الله عليه: هو أن يُسمَّى على الذبيحة عند الذكاة، أو على العقيرة عند الاصطياد، أو على الجارح إذا أُرسل إلى الصيد، كل هذا يُسمى الله عليه ويُؤكل منه، وسيأتي ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ

= (٤٠٧)، (٢/٢٥٩)، وابن خزيمة (٢/١٠٢)، والدارقطني (١/٢٣٠)، والبيهقي (٢/١٤)، (٣/٨٣)، والطحاوي في مشكل الآثار (٣/٢٣١)، وصحيح ابن خزيمة رقم (١٠٠٢)، وانظر: صحيح أبي داود رقم (٤٦٥)، وصحيح الترمذي رقم (٣٣٤)، ومشكاة المصابيح رقم (٥٧٢)، والإرواء (١/٢٦٦).

٢ ـ عبدالله بن عمرو (رضي الله عنه). عند أحمد (٢/١٨٠، ١٨٧)، وابن أبي شيبة (١/٣٤٧)، وأبي داود في الصلاة، باب: متى يؤُمر الغلام بالصلاة. حديث رقم (٤٩١)، (١/١٦٢)، والدارقطني (١/٢٣٠)، والحاكم (١/١٩٧)، والبيهقي (٣/٨٤)، وانظر: صحيح أبي داود رقم (٤٦٦)، والمشكاة رقم (٥٧٢)، والإرواء (١/٢٦٦).

٣ ـ أنس بن مالك (رضي الله عنه) عند الدارقطني (١/٢٣١)، وفي سنده داود بن المُحبَّر، قال أحمد: لا يدري ما الحديث اهـ. وقال ابن المديني: ذهب حديثه، اهـ وقال الدارقطني: متروك اهـ الميزان(٢/٢٠).

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/١٨)، مذكرة الأصول ص١٨٩.

﴿ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ وسنتكلم عليه هناك، وحاصله أن للعلماء فيه ثلاثة مذاهب[١]:

أحدها: أن كل ما ذبحه مسلم ولم يذكر اسم الله عليه، أو صاده ولم يذكر اسم الله عليه، أو أرسل عليه جارحه من كلبه أو صقره أو بازه ولم يسمّ الله عليه؛ أنه لا يؤكل، سواء ترك التسمية عمداً أو نسياناً. وهذا قال به طائفة قليلة في الذبيحة، وقال به جماعة في الصيد، وهو رواية قوية عن أحمد بن حنبل. وجمهور العلماء على أنه إن ترك التسمية نسياناً فالذبيحة تؤكل؛ لأنه ما تركها إلا نسياناً، والنسيان معفو عنه، وإن تركها عمداً فلا تُؤكل عند جماهير العلماء، خلافاً للإمام الشافعي وعامة أصحابه في مشهور مذهبه أنه إن ترك التسمية وهو مسلم أُكلت ذبيحته مطلقاً، سواء تركها عمداً أو نسياناً؛ لأن الشافعي يفسر قوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ بما أُهل به لغير الله، أما المسلم عنده فذبيحته حلال سواء سمَّى الله أو لم يسمِّ، سواء تركها عمداً أو نسياناً. وسيأتي تفاصيل هذا في قوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾.

وقوله هنا: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ أي: مما ذكيتم وذكرتم اسم الله عليه. والآية على التحقيق في الذكاة، خلافاً لبعض العلماء القائل: هي عامة. أي: كل طعام: من خبز، أو لحم، أو غيره، أو فاكهة تسمي الله عليه وأن تأكل منه[٢]. وعلى هذا فلا ينبغي للإنسان أن يأكل من شيء كائناً ما كان إلا إذا سمى الله عليه. والتحقيق أنها في الذكاة كما يقتضيه السياق. وهذا معنى قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾ هذه (إنْ) الشرطية هي كثيرة في القرآن وفي السنة، وفيها إشكال معروف كثير؛ لأنهم يؤمنون قطعاً. وقد تقرر في فن المعاني: أن تعليق فعل الشرط بجزاء الشرط بأداة الشرط التي هي (إنْ) لا تكون إلا فيما لا يُتحقق وقوع الشرط فيه[٣]، فلو قلت لعبدك وهو عارف باللغة

---

(١) انظر: المجموع (١٠٢/٩)، المغني (٢٨٩/١٣ ـ ٢٩١)، المحلى (٤١٢/٧ ـ ٤١٤)، القرطبي (٧٥/٧)، ابن كثير (١٦٩/٢).

(٢) انظر: ابن جرير (٦٧/١٢)، القرطبي (٧٢/٧).

(٣) انظر: الكليات ص٦٩، ٧٠، ٧١، ١٩٣، ٨٣٩، جواهر البلاغة ص١٣٣.

العربية: «إن جاءك زيد فأعطه درهماً». هو يعلم أن معنى كلامك: أن زيداً قد يأتي وقد لا يأتي؛ لأن (إنْ) لا تدل على تحقيق وقوع الشرط، بل قد يقع الشرط فيقع الجزاء، وقد لا يقع الشرط فلا يقع الجزاء. وقوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ يُفهم من «إنْ» الشرطية أنهم قد يكونون مؤمنين وقد يكونون غير مؤمنين، وهم مؤمنون حقاً قطعاً، فَمِن هذا جاء الإشكال في (إنْ) هذه، وهذا كثير في القرآن، كقوله للمؤمنين: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وكقول النبي ﷺ في حديث زيارة القبور: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون**»[1] وهم لاحقون بهم قطعاً يقيناً. وكقوله جل وعلا: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: آية ٢٧] وهم داخلوه قطعاً بلا شك، فما وجه التعليق بأداة الشرط التي هي (إنْ) التي تدل على أن جزاء الشرط قد يقع، وقد لا يقع، مع أنها أمور مُحققة؟ هذا وجه الإشكال. وهذه مسألة عربية معروفة، وهي من مسائل العربية الكبار المشهورة التي اختلف فيها علماء البصرة وعلماء الكوفة من النحاة[2]، فذهب عامة علماء الكوفة إلى أن (إنْ) في جميع هذه الآيات بمعنى (إذْ) التعليلية، قالوا: وتأتي (إنْ) بمعنى (إذْ) التعليلية، وعليه ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم﴾ أي: لأجل كونكم مؤمنين بآياتي. قال الكوفيون: ومن هذا المعنى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ [الأعلى: آية ٩] قالوا معناها: إذْ نفعت الذكرى ذَكِّر؛ لأجل أن الذكرى تنفع. قالوا: وهذا أسلوب عربي

---

(١) ورد في هذا المعنى ثلاثة أحاديث:

الأول: حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند مسلم في الطهارة، باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء. حديث رقم (٢٤٩)، (٢١٨/١)، وهو اللفظ المطابق لما ذكر الشيخ (رحمه الله).

الثاني: حديث عائشة (رضي الله عنها) عند مسلم في الجنائز، باب ما يُقال عند دخول المقابر، حديث رقم (٩٧٤)، (٦٦٩/١).

الثالث: حديث بريدة (رضي الله عنه) عند مسلم في الجنائز، باب ما يُقال عند دخول المقابر، حديث رقم (٩٧٥)، (٦٧١/١).

(٢) انظر: مغني اللبيب (٢٤/١)، الدر المصون (١٩٢/٤ ـ ١٩٣)، خزانة الأدب (٦٥٥/٣).

معروف. واستدلوا له من أشعار العرب بقول الفرزدق - وهو عربي فصيح قُح[(١)] -:

أَتَغْضَبُ إنْ أُذْنَا قُتَيبةَ حُزَّتَا ... جِهَاراً ولم تَغْضَبْ لقَتْلِ ابن خَازِمِ

قالوا: (إن) هنا بمعنى (إذ)، أتغضب إذْ حُزَّت أُذنا قتيبة. هذا قول البصريين؛ ولذا كله أَجْرَوه على سَنَن واحد. «وإنا إن شاء الله» قالوا: وإنا لاحقون إن شاء الله ذلك. ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: آية ٢٧] أي: إن شاء الله ذلك. وهذا قول الكوفيين. وأما البصريون ففصلوا بين الأمرين، قالوا: أما قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فهي أداة شرط جيء بها للتهييج والإلهاب؛ لأن من عادة العرب أن يُهَيِّجُوا المُخَاطب، تقول للرجل: «إن كُنتَ ابن الكرام، ابن فلان وفلان، فافعل لي كذا». وليس مقصودك تعليق الشرط بالجزاء، بل مقصودك تهييجه وبعثه للفعل، وهذا أسلوب معروف في كلام العرب، ومنه قول أحد أولاد الخنساء الشاعرة[(٢)]:

لستُ لخنساءَ ولا للأَخْزَمِ ... ولا لعمرو ذي السَّناءِ الأقدمِ

إن لم أَرِدْ في الجيش جيشَ الأعجمي ... ماضٍ على الهَولِ خِضَم خِضْرِمِ

يقول: لست لأبي ولا لأمي إن لم أَرِد في الجيش. ليس يعني التعليق، وإنما يعني تحريض نفسه.

قالوا: قوله: «**وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**» وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: آية ٢٧] قال علماء البصرة: المراد بالتقييد بالمشيئة في هذا الأمر المُحَقَّق: هو تعليم الخلق ألا يتكلموا عن أمر مستقبل إلا معلقين بمشيئة الله. وإنما جيء بالأمر المُحَقَّق لتوكيد ذلك، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يتحدث عن مستقبل أنه سيقع أو سيفعل إلا إذا قيد بمشيئة الله، كما قال الله لنبيه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾

---

(١) البيت في الكتاب لسيبويه (٣/١٦١)، مغني اللبيب (١/٢٤)، خزانة الأدب (٣/٦٥٥)، الدر المصون (٤/١٩٣).

(٢) البيتان في الاستيعاب (٤/٢٩٧)، الإصابة (٤/٢٨٨).

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: الآيتان ٢٣، ٢٤] وهذا معنى قوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾.

و(الآيات) جمع تصحيح مؤنث، مفرده (آية)، وقد بينا[١] أن الآية أصلها عند المحققين من علماء التصريف أن أصلها (أَيَيَة) اجتمع فيها موجبا إعلال، فوقع الإعلال في الحرف الأول، على خلاف القاعدة الكثيرة المُطَّرِدَة، وهو جائز، فلو جرى على الأغلب لكان الإعلال في الحرف الأخير. وقيل: (أَيَاه) ولكن الإعلال وقع هنا في الحرف الأول، فصار (آية) ووزنه بالميزان الصرفي: (فَعَلَة) وحروفه: فاؤه همزة، وعينه ولامه كلاهما ياء. هذا أصل وزنها وصرفها.

وهي في لغة العرب ـ قد بينا مراراً[٢] ـ أن (الآية) في لغة العرب تطلق إطلاقين، وذكرنا هذا كثيراً في هذه الدروس.

أما الإطلاق الأول المشهور: فهو إطلاق الآية بمعنى (العلامة). تقول العرب: «الآية بيني وبينك كذا». أي: العلامة بيني وبينك كذا. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ [البقرة: آية ٢٤٨] أي: علامة ملكه أن يأتيكم التابوت. وقد جاء في شعر نابغة ذبيان ـ وهو عربي جاهلي ـ تفسير الآيات بالعلامات حيث قال[٣]:

تَوَهَّمتُ آياتٍ لها فعرفتُها ... لِسِتَّةِ أعوامٍ وذا العامُ سَابعُ

ثم بين أن مراده بالآيات: (علامات الدار) فقال:

رمادٌ كَكُحْلِ العينِ لأياً أُبينُه ... ونُؤْيٍ كجِذْمِ الحوضِ أَثْلَمُ خَاشِعُ

إطلاق الآية الآخر في لغة العرب: تُطْلِق العرب الآية على

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(الجماعة)، وهو إطلاق عربي مشهور، يقولون: «جاء القوم بآيتهم». أي: بجماعتهم، ومنه بهذا المعنى: قول بُرج بن مُسْهِر الطائي[1]:

خَرجْنَا من النَّقبينِ لا حَيَّ مثلنا بآيتنا نُزجي اللِّقَاحَ المَطَافِلاَ

أي: بجماعتنا.

إذا عرفتم أن (الآية) تُطلق في لغة العرب: إطلاقين، تطلق بمعنى (العلامة)، وتطلق بمعنى (الجماعة)، فاعلموا أن (الآية) في القرآن تُطلق أيضاً إطلاقين:

تطلق على الآية الكونية القدرية، وهي: ما نصبه الله كوناً وقدراً دالًا على ربوبيته، وأنه المعبود وحده، وهي بهذا المعنى من الآية بمعنى (العلامة) قولًا واحداً. كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] أي: علامات واضحات لأصحاب العقول على أن لهذا الكون مُدَبِّراً هو رب كل شيء، وهو المعبود وحده جل وعلا.

الإطلاق الثاني في القرآن: إطلاق الآية بمعنى الآية الشرعية الدينية، كآيات هذا القرآن العظيم، كقوله: ﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الطلاق: آية ١١] فهي بهذا من الآية الشرعية الدينية، والآية الشرعية الدينية قيل: من الآية بمعنى (الجماعة)؛ لأن الآية جمعت كلمات من القرآن اشتملت على بعض معانيه ومقاصده.

وقال بعض العلماء: الآية الشرعية الدينية أيضاً من الآية بمعنى (العلامة)؛ لأنها علامات على صدق من جاء بها؛ لما فيها من الإعجاز؛ ولأن لها علامات: مبادىء، ومقاطع تدل على انتهاء هذه الآية وابتداء هذه.

وهذا معنى قوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

والإيمان في لغة العرب: التصديق[١]، ومنه قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: آية ١٧] أي: بمصدق لنا في أن يوسف أكله الذئب. ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: آية ١٧].

والإيمان في اصطلاح الشرع في مذهب أهل السنة والجماعة: هو التصديق الكامل من جميع الجهات، أعني: تصديق القلب بالاعتقاد، واللسان بالإقرار، والجوارح بالعمل؛ ولذا ثبت في الصحيح أن: «**أن الإيمان بضع وستون**» وفي بعض الروايات: «**بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[٢] فسمى إماطة الأذى عن الطريق (إيماناً). وفي الحديث الصحيح: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً**»[٣] فسمى الصوم (إيماناً) «**من قام ليلة القدر إيماناً**»[٤] فسمى القيام (إيماناً). وقد قدمنا في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: آية ١٤٣] أن معناه: وما كان الله ليضيع صلاتكم إلى بيت المقدس قبل نسخ القبلة، كما قدمناه مراراً. وهذا معنى قوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٩].

في هذه الآية الكريمة قراءات سبعيات[٥]: قرأ نافع وحفص عن عاصم: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ببناء الفعلين للفاعل.

وقرأ ابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو قرؤوا: ﴿**وقد فُصِّل لكم ما**

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٢.

وقرأ هذا شعبة عن عاصم، وحمزة، والكسائي: **﴿وقد فصَّل لكم ما حُرِّم عليكم﴾** ببناء «فَصَّل» للفاعل، و «حُرِّم» للمفعول. فتحصَّل أنها ثلاث قراءات سبعيات: **﴿فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ﴾** لنافع، وحفص، **﴿فُصِّلَ لكم ما حُرِّم﴾** لابن عامر، وابن كثير، وأبي عمرو، **﴿فصَّل لكم ما حُرِّم﴾** لحمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم.

والجمهور ـ غير الكوفيين ـ قرؤوا: **﴿وإن كثيراً ليَضِلُّون﴾** بفتح الياء. وقرأ الكوفيون الثلاثة ـ أعني: عاصماً، وحمزة، والكسائي ـ **﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾** بضم الياء[1] **﴿بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾**. هذه القراءات في الآية.

ومعنى الآية الكريمة[2] **﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾** (ما) استفهامية، أيُّ شيء ثبت لكم يمنعكم من أن تأكلوا مما ذُكر اسم الله عليه؟ والاستفهام هنا بمعنى الإنكار[3]، أي: لا يوجد شيء يمنعكم من ذلك. وقال بعض العلماء: هو بمعنى التقرير بأن يقولوا: ليس هنالك شيء يمنعنا مما ذُكر اسم الله عليه. وهذا معنى قوله: **﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾** أيُّ شيء ثبت لكم يمنعكم من ذلك؟ والمعنى: لا شيء يمنع من ذلك؛ لأنكم ذكيتموه، وذكرتم اسم الله عليه، وفعلتم فيه الطريقة الشرعية التي أُمرتم بها، فأيُّ مانع يثبت يمنعكم من أكل هذا؟ والمعنى: لا مانع منه، وإنما جاء المانع في الأكل مما لم يُذكر اسم الله عليه. وهذا معنى قوله: **﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾** أي: والحال أنه حلال كماء المزن؛ لأن الله فصَّل لكم ما حرم عليكم، أي: أوضحه وبينه غاية البيان والإيضاح، ولم يجعل مما حرم عليكم ما ذبحتموه، وذكيتموه، وسميتم الله عليه؛ فإذا كان الله فصَّل لكم ما حرمه عليكم

---

(١) المصدر السابق ص٢٠١.

(٢) انظر: الأضواء (٢/٢٠٨ ـ ٢٠٩).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/٢١١).

بالتفصيل والبيان، ولم يكن منه أنه حرم ما ذكيتموه، وذكرتم اسم الله عليه، فما لكم ألا تأكلوا منه؟ لا مانع من الأكل منه.

واعلم أن هذه الآية غلط فيها كثير من المفسرين[1] فقالوا: ﴿فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فصّله بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: آية ٣] وهذا غلط لا شك فيه؛ لأن هذه الآية التي نفسرها من سورة الأنعام، وهي من القرآن النازل بمكة بإجماع العلماء، إلا آيات معروفة منها[2]، كقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات [الأنعام: آية ١٥١]، وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: آية ٩١] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: آية ٩٣] فهي آيات معدودة مدنية في سورة مكية، أما جُل سورة الأنعام فهي نازلة في مكة قبل الهجرة بلا خلاف بين العلماء، وهي نازلة قبل النحل بلا شك، والنحل من القرآن المكي على التحقيق، وقد دل القرآن في موضعين أن سورة الأنعام نزلت قبل سورة النحل[3]:

أحدهما: قوله في سورة النحل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النحل: آية ١١٨] فهذا المحرم المقصوص من قبل المُحال عليه هو النازل في سورة الأنعام بالإجماع في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ [الأنعام: آية ١٤٦].

الثاني: أن الله قال في سورة الأنعام هذه: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: آية ١٤٨] فبين أنهم سيقولونه في المستقبل بدلالة حرف التنفيس الذي هو السين، ثم بين في سورة النحل أن ذلك الموعود به في المستقبل وقع وثبت في سورة النحل حيث

(١) انظر: ابن جرير (٦٩/١٢)، القرطبي (٧٣/٧).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٨٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: آية ٣٥] فدل على أنها بعدها، وإذا كانت سورة الأنعام التي فيها: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: آية ١١٩] نازلة في مكة قبل الهجرة، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: آية ٣] من سورة المائدة نزلت بعد الهجرة في المدينة في آخر ما نزل من القرآن؛ لأن المائدة من آخر ما نزل من سور القرآن، وفيها: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: آية ٣] المُؤْذِنَة بكمال الدين، وقرب انقضاء الوحي، كيف يكون هذا التفصيل المذكور في الأنعام في سورة المائدة، والمائدة لم تنزل إلا بعد ذلك بسنين كثيرة؟ والتحقيق أن قوله هنا: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: آية ١١٩] أنه هو التفصيل المذكور في سورة الأنعام؛ لأنها نزلت جملة واحدة، وهذا مما فَصَّله في الأنعام، وهو قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: آية ١٤٥] فقوله: ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: آية ١٤٥] هذا التفصيل للحرام يدل على أن ما ذبحتم، وذكيتموه، وذكرتم اسم الله عليه أنه ليس من المحرم الذي فُصِّل لكم، وهذا معنى قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (ما): موصولة، وهي في محل المفعول، والعائد إلى الصلة محذوف، والتقدير: وقد فصل لكم ما حرمه عليكم. وعلى قراءة (حُرِّم) فالرابط هو ضمير النائب المحذوف أي: ما حُرِّمَ هو عليكم وهذا معنى قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ جرت العادة في القرآن أن الله إذا ذكر هذه المحرمات الأكل، أنه يستثني منها حالة الضرورة كما قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] وقال في النحل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [النحل: آية ١١٥].

وقال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ [المائدة: آية ٣] وقال هنا: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ يعني: أن هذا الذي حرمه عليكم، وفصل تحريمه، إذا ألجأتكم الضرورة إليه فهو حلال عليكم للضرورة؛ لأن الضرورة تبيح المحظورات.

ومن يأتِ الأُمورَ على اضطرارٍ فليسَ كمثلِ آتيهَا اختياراً[١]

فالميتة حرام بالإجماع، ولكن الإنسان إذا خاف على نفسه الهلاك ولم يجد إلا الميتة أو الخنزير أو ما جرىٰ مجرى ذلك فإنه يباح له ذلك الحرام. وقد قدمنا في سورة البقرة كلام العلماء في الضرورة التي تبيح الميتة، وفي القدر الذي يباح منها هل هو ما يسد الرمق ويمسك الحياة، أو هو الشبع والتزود حتى يجد غيرها كما قدمناه موضحاً[٢].

وقوله: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ يدل على أن هذه المحرمات التي فصلها الله، وبين أنها حرام إذا اضطر الإنسان إليها، وألجأته الضرورة إليها كانت حلالًا عليه؛ لأن نبينا ﷺ بُعث بالحَنِيفِيَّة السمحة، وسُهِّل له فيها كل التسهيل، ورُفعت عنا على لسانه الآصار ـ وهي أثقال التكليف التي كانت على من قبلنا ـ وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم أن النبي ﷺ لما قرأ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ الآيات [البقرة: آية ٢٨٦]. أن الله قال: «قد فعلت» في رواية ابن عباس عند مسلم، وأن الله قال: «نعم» في رواية أبي هريرة عند مسلم[٣]. ولذا كان من علامات نبوته ﷺ أنه يحل الطيبات، ويحرم الخبائث، ويضع الآصار، والأغلال، وأثقال التكليف التي كانت على من قبلنا؛ لأن ذلك من صفاته

---

(١) البيت لسيدي محمد بن الشيخ سيدي من أدباء شنقيط، وهو ضمن قصيدة له مذكورة مع ترجمته في كتاب: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص٢٤٧.

(٢) انظر: المجموع (٣٩/٩)، المغني (٣٣٠/١٣)، المحلى (٤٢٦/٧)، القرطبي (٢٢٥/٢)، الأضواء (١٠٧/١).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

في الكتب المتقدمة كما يأتي في سورة الأعراف في قوله: ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧] والآصار والأغلال هي: الأثقال التي كانت شديدة في التكليف على من قبلنا؛ لأن من قبلنا ربما إذا أذنب الواحد منهم ذنباً لا تقبل توبته حتى يقدم نفسه للموت والقتل، كما قدمناه في البقرة(١) في قوله: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: آية ٥٤] وما كانوا تصح صلاتهم إلا في المساجد، ولا تصح صلاتهم إلا بالماء، ولا طهارتهم من الخبث إلا بالماء، فهي آصار، وتكليفات، وأثقال شديدة رفعها الله عنا على لسان نبينا ﷺ حيث قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: آية ٧٨] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٦] ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: آية ١٦] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: آية ١٨٥] ونحو ذلك من الآيات؛ ولذا قال هنا: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ والطاء في قوله: ﴿مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أصلها مبدلة من تاء الافتعال، وقد تقرر من فن العربية(٢): أن تاء الافتعال إذا جاء بعد واحد من حروف الإطباق أنه يُبدل طاء، والحقيقة أصل مادة هذا الفعل (ضَرَرَ). ففاء المادة: ضاد، وعينها: راء، ولامها: راء. فدخلها تاء الافتعال، كما تقول في قَرُب: اقترب، وفي كَسَب: اكتسب، وفي ضرر: اضترر فأُبدلت تاء الافتعال طاء، ثم بُني الفعل للمفعول ورُكب للنائب، فقيل: اضطررتم(٣).

والمعنى: أن هذه المحرمات التي فصلها الله لنا أن محل تحريمها علينا ما لم تلجئنا إليها ضرورة، فإن ألجأتنا إليها ضرورة فهي حلال لنا.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (٥١١/٢).

(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٥٤/١)، القرطبي (٢٢٥/٢)، شرح الكافية (٢١٥٨/٤)، البحر المحيط (٣٧٣/١)، الدر المصون (١١٣/٢)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٤٢٥.

وقد قدمنا كلام العلماء في قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ فالإنسان إذا خاف على نفسه الهلاك جاز له أكل الميتة إن لم يجد غيرها، وجاز له أكل الخنزير إن لم يجد غيره، وجاز له ما حُرم عليه للضرورة. وأعظم الأشياء هو كلمة الكفر إذا أُلجىء الإنسان، وأُكره عليها، وقالها إكراهاً، وقلبه مطمئن بالإيمان لا يؤاخذه الله بها؛ لأن الله قال كما يأتي في سورة النحل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الآية [النحل: آية ١٠٦] وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.

وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ قرأه القراء[١]: ﴿وإن كثيراً ليَضلون﴾ وقرأه الكوفيون[٢]: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ فعلى قراءة ﴿يَضلون﴾ فالفعل لازم لا مفعول له. والمعنى: أنهم يَضِلُّون ويذهبون عن طريق الحق. وعلى قراءة الكوفيين ﴿يُضلون﴾ فهو متعد للمفعول، والمفعول محذوف. والمعنى: كثيراً من الناس ليُضلون الناس عن طريق الحق بأهوائهم[٣]. وحَذْفُ المفعول إذا دل المقام عليه سائغ أسلوب عربي معروف مشهور.

﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ الأهواء: جمع الهوى، وأصل الهوى: (هَوَيٌ) بواو وياء، اجتمع فيه موجبا إعلال فوقع الإعلال في الحرف الأخير الذي هو الياء على القاعدة الأغلبية[٤].

وأصل (الهوى) في لغة العرب ميل النفس. وكثيراً ما يُطلق على ميلها إلى ما لا ينبغي[٥]، وربما أُطلق نادراً على ميلها لما ينبغي[٦].

والهمزة في قوله: ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ مبدلة من الياء؛ لأن مادة (الهوى) مما يسميه الصرفيون «اللفيف المقرون»[٧] معتل الواو واللام. والقاعدة المقررة

---

(١) وهم: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر.

(٢) وهم: عاصم، وحمزة، والكسائي. انظر: السبعة ص٢٦٧.

(٣) انظر: حجة القراءات ص٢٦٩، الدر المصون (١٣٠/٥).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة الأنعام.

(٥) السابق.

(٦) انظر: جامع العلوم والحكم (٤٣٨/٢).

(٧) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة الأنعام.

في التصريف: أن كل واو أو ياء تطرفت بعد ألف زائدة وجب إبدالها همزة[١]. فهمزة (الأهواء) مبدلة من ياء الهوى، أصلها: (هَوَيٌ) بالياء؛ لأن لام الكلمة ياء، فأُبدلت همزة لتطرفها في الأخير بعد ألف.

والمعنى: أن كثيراً من الناس ليُضلون الناس. على قراءة حمزة، والكسائي، وعاصم. أو ليَضلون في أنفسهم فيكونون ضالين. وذلك الإضلال ـ على قراءة الكوفيين ـ والضلال ـ على قراءة غيرهم ـ إنما هو بسبب أهوائهم، أي: ميول أنفسهم إلى الباطل والكفر ـ والعياذ بالله ـ وهو ميل الهوى واتباع النفس في الحرام والكفر، لا إلى الشَّرع، ولا إلى بيان، ولا إلى دين. وهذا معنى قوله: ﴿لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم﴾.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ لا علم لهم بذلك الذي سلكوه وضلوا به وأضلوا، وإنما اتبعوه جهلًا منهم؛ ولذا قال: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (أعلم): كـ(أعلم) التي قبلها. والمعتدون: جمع المعتدي، والمعتدي (مُفْتَعِل) من العُدوان، وأصل العُدوان: مجاوزة الحد، فكل من جاوز حده فقد اعتدى. قال بعض العلماء: أصل العدوان مشتق من العُدْوَة، والعُدوة: شاطىء الوادي؛ لأنه كأنه جاوز شاطىء الحلال والحق إلى شاطىء الحرام والضلال، فالعدوان: مجاوزة الحد[٢]. وهذا معنى قوله: إن الله جل وعلا ﴿أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ الذين سبق لهم الضلال في أزله، ويسرهم لما خلقهم له، فهو أعلم بهم. وكأن هذا فيه تسلية للنبي ﷺ، كأنه يقول له: ربك أعلم بالضالين المضلين، ولا بد أن ييسرهم لما خلقهم له، فلا تحزن عليهم إذا لم يؤمنوا وهذا معنى قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام: آية ١٢٠] ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ (ذروا) معناه: اتركوا. و (ذر) بمعنى: اترك. وهذا الفعل ـ الذي هو (ذَر) ـ لم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من هذه السورة.

(٢) انظر: المفردات (مادة: عدا) (٥٥٣ ـ ٥٥٤)، بصائر ذوي التمييز (٣١/٤).

يستعمل منه في لغة العرب إلا الأمر والمضارع[١]، تقول العرب: (ذَر) بمعنى: اترك، و (يَذَر) بمعنى: يترك. ولم يُستعمل منه ماضي، ولا مصدر، ولا اسم فاعل، ولا اسم مفعول، ولا صيغة تفضيل، لم يُستعمل منه إلا المضارع والأمر خاصة. ومعنى (ذَر): اترك. ومعنى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾ اتركوا ظاهر الإثم. وعلماء العربية يقولون: إن الحرف المحذوف في مكان الفاء إنها واو، وإن أصل (ذَر) أن أصل ماضيه (وَذَرَ) بواو[٢]، إلا أن هذه الواو لم تثبت؛ لأن (فَعَل) إذا كانت مفتوحة العين تُحذف فاؤها في المضارع والأمر، ويُحذف في المصدر، وذلك إنما ينقاس في (فَعَلَ يَفْعَل) وأما (وَذَر يَذَر) فليس مقيساً فيها؛ إلا أن العرب لم تنطق بالواو ولم تنطق بها إلا في المضارع والأمر[٣]. وعلى كل حال ف(ذَرُوا) معناه: اتركوا.

وقوله: ﴿ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ الظاهر: كل ما ظهر وعلن. والباطن: كل ما خفي واستتر[٤]. والإثم: أصله ضد الطاعة، فكل ما هو خلاف التقوى والطاعة من الوقوع في المعاصي يُسمى: (إثماً)[٥]. وقد قال الشاعر ـ وصدق[٦] ـ:

إني رأيتُ الأمرَ أعجبه تقوى الإله وشره الإثمُ

فقابل الإثم بالتقوى.

واعلموا أن ظاهر الإثم وباطنه فيهما أقوال [...][٧].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من هذه السورة.

(٢) انظر: الدر المصون (٦٣٦/٢ ـ ٦٣٧)، (٥٠٨/٣)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٤٨٦.

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٤٨٦.

(٤) انظر: ابن جرير (٧٢/١٢)، ابن كثير (١٦٨/٢)، البحر المحيط (٢١٢/٤).

(٥) انظر: المفردات (مادة: أثم) ص٦٣، اللسان (مادة: أثم) (٢٢/١).

(٦) البيت للمخبل السعدي، وهو في ديوانه ص٣١٦.

(٧) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وللوقوف على الأقوال المشار إليها راجع: القرطبي (٧٤/٧)، ابن كثير (١٦٨/٢) وقد تم استدراك النقص هنا من كلام الشيخ رحمه الله عند تفسير الآية (٣٣) من سورة الأعراف.

[وأنها كلها ترجع إلى شيءٍ واحد، فقال بعضهم: الفواحش الظاهرة هي الزنىٰ مع البغايا ذوات الرايات، والفواحش الباطنة هي الزنىٰ مع الخليلات والصديقات التي يُزنى بهن سراً في البيوت. وقال بعض العلماء: ما ظهر من الفواحش: كنكاح زوجات الآباء، كما تقدَّم في قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: آية ٢٢] وأن ما بطن منها هو الزنىٰ. والتحقيق: أنّ الآية الكريمة تشمل جميع المعاصي والذنوب، لا تفعلوا شيئاً منها ظاهراً علناً بين الناس، ولا شيئاً باطناً في خفية لا يطلع عليه أحد، وهو يشمل جميع التفسيرات الواردة عن الصحابة وغيرهم.

والفواحش ظاهرها وباطنها تشمل جميع الذنوب؛ إلا أن الله عطف بعضها على بعض عطف خاص على عام. وقد تقرر في المعاني: أن عطف الخاص على العام، وعطف العام على الخاص، إن كان في كل منهما في الخاص أهمية لا تكون في غيره من أفراد العام أنه سائغ، وأنه من الإطناب المقبول لأجل الخصوصية التي في الخاص. فكأن تميزه بخصوصيته جعله كأنه قسم آخر من أقسام العام فحسن عطفه عليه[(١)]. وهنا عطف الخاص على العام لأن المعطوفات الآتية كلها داخلة في الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقول من قال: إن ﴿مَا ظَهَرَ﴾ هو الزنىٰ مع البغايا ذوات الرايات، و ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزنىٰ مع الخليلات الصديقات التي يُزنى بهن سراً. أو: إن ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ هو نكاح زوجات الآباء، وأن ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ هو الزنىٰ إلى غير ذلك من الأقوال كله يشمله التفسير العام الذي هو الصواب، وإن الله نهى عن ارتكاب جميع المحرمات سواء كان ذلك ظاهراً أمام الناس، أو خفية بحيث لا يطلع عليه الناس].

---

(١) انظر: فقه اللغة للثعالبي ص٢٩٤، الإكسير للطوفي ص٢٥٦، المدخل للحدادي ص٢٩٥، البرهان للزركشي (٤٦٤/٢)، الإتقان (٢١٢/٣، ٢١٣)، قواعد التفسير (٤٢٩/١، ٤٣٠).

١٦/ب

/ يقول الله جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: آية ١٢٨].

قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا حفصاً عن عاصم: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ وقرأه حفص ـ وحده ـ عن عاصم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ بالياء التحتية[١].

أما قراءة الجمهور ففاعل الفعل ضمير محذوف تقديره: نحن. أي: نحشرهم نحن. وصيغة الجمع في (نحشرهم) وفي (نحن) للتعظيم، كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: آية ٩] ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [يس: آية ١٢] وهو جل وعلا واحد إلا أنه يعبر عن نفسه بصيغة الجمع؛ لأجل التعظيم والإجلال. وعلى قراءة حفص: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ فالفاعل ضمير يرجع إلى الله. (يحشرهم) هو. أي: الله.

وقوله هنا: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ قال بعض العلماء: هو منصوب بـ (اذكر) مقدراً، أي: اذكر يوم نحشرهم. وقال بعض العلماء: هو منصوب بالقول المحذوف الذي دل عليه المقام[٢]. والمعنى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: نقول: يا معشر الجن قد استكثرتم. نقول ذلك القول: ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.

والحشر في لغة العرب معناه: الجمع. وكل شيء قد جمعته فقد حشرته[٣]. ومنه قول قوم فرعون لفرعون: ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الأعراف: آية ١١١] ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء: آية ٣٦] أي: قوماً

---

(١) انظر: السبعة ص٢٦٩، الموضح (٥٠٣/١)، النشر (٢٦٢/٢).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢١٩/٤)، الدر المصون (١٤٨/٥).

(٣) انظر: القاموس (مادة: الحشر) ص٤٨٠.

العرب: الجمع؛ لأن الله يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين، إنسهم وجنهم، في صعيد واحد، يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر، كما قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: آية ٩] ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ [النساء: آية ٨٧] ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: الآيتان ٤٩، ٥٠] ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ٤٧] والمعنى: يقول الله جل وعلا: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] يقول ذلك القول حين يحشرهم جميعاً.

وقد بين الله في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأنعام ـ أنه يحشر جميع المخلوقات مما يدب على رجلين، ومما يطير في السماء، وسائر المخلوقات كما تقدم في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ۚ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٣٨] فبين أنه يحشر كل دابة وكل طير ـ جل وعلا ـ، والذي يُجازَى من هذا إنما هو الثقلان: الإنس والجن.

وقوله: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾: نجمعهم جميعاً يوم القيامة بعد أن نخرجهم من قبورهم أحياء يمشون بعد أن كانوا عظاماً رميماً.

وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ يُعرب حالًا[1]، ومعناه: التوكيد، بدليل أنك لو حذفت التنوين وأضفته لكان توكيداً محضاً، لو قلت: «نحشرهم جميعهم». لكان توكيداً، فلما حُذفت الإضافة أُعرب حالًا ومعناه التوكيد. أي: نحشرهم في حال كونهم مجتمعين فلم يشذ منهم أحد.

﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ فسره بعض العلماء[2]: (يُقال). قال: لأن الله ليس هو القائل؛ لأن كفرة الإنس لا يكلمهم الله، لأن الله يقول عن الكفار: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾.

والتحقيق: أن الله يكلم الكفار كلام توبيخ وتقريع، الذي هو من

---

(١) انظر: الدر المصون (١٤٨/٥).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٢٠/٤)، الدر المصون (١٤٨/٥).

جنس العذاب، كقوله لما قالوا: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧ قَالَ اخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾ [المؤمنون: الآيتان ١٠٧، ١٠٨] لأن هذا التكليم لهم ليس تكليم تشريف، إنما هو تكليم توبيخ وتقريع، وهو من أنواع عذابه لهم، ولا مانع منه.

يقول الله ذلك اليوم مُخَاطِباً عُتاة الشياطين الذين أضلوا بني آدم حتى أغووهم وأدخلوهم النار: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ المَعْشَر في لغة العرب[1]: الجماعة، كل جماعة تُسمى مَعْشَراً، ويُجمع على: مَعَاشِر. كان بعضهم يقول: لأن بعضهم يُعَاشِر بعضاً. وقد يُطلق المَعْشَر على الجماعة المتفقين في نِحْلَة أو ناحية وإن لم يُعَاشِر بعضهم بعضاً، كما في الحديث: «**إنا معاشر الأنبياء لا نورث**»[2] والنبي ﷺ لم يدرك منهم أحداً، ولم يُعَاشِر منهم أحداً.

والحاصل أن المَعْشَر: الجماعة، أي: يا جماعة الجن.

وأصل (الجن) مشتق من الاجتنان، وكل ما يخفى عنك ويجتن فهو

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٢٢٠)، الدر المصون (٥/١٤٨ ـ ١٤٩)، القاموس (مادة: العشرة) ص٥٦٦.

(٢) روى هذا الحديث عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة بألفاظ متقاربة. وممن رواه منهم:

١ ـ عمر (رضي الله عنه): عند البخاري في الفرائض، باب: قول النبي ﷺ: «**لا نورث ما تركنا صدقة**» حديث رقم (٦٧٢٨)، (١٢/٦)، وأخرجه في مواضع أُخرى، انظر الأحاديث: (٢٩٠٤، ٣٠٩٤، ٤٠٣٣، ٤٨٨٥، ٥٣٥٧، ٥٣٥٨، ٧٣٠٥)، ومسلم في الجهاد والسير، باب: حكم الفيء. حديث رقم (١٧٥٧) (٣/١٣٧٦).

٢ ـ عائشة (رضي الله عنها): عند البخاري في فضائل الصحابة، باب: مناقب قرابة رسول الله ﷺ. حديث رقم (٣٧١١ ـ ٣٧١٢)، (٧/٧٧)، وانظر الأحاديث (٦٧٢٥، ٦٧٢٧، ٦٧٣٠)، ومسلم في الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «**لا نورث ما تركنا فهو صدقة**» حديث رقم (١٧٥٩)، (٣/١٣٨٠)، وانظر: حديث رقم (١٧٥٨).

٣ ـ أبو هريرة رضي الله عنه عند البخاري في الوصايا، باب: نفقة القيم للوقف. حديث رقم (٢٧٧٦)، (٥/٤٠٦)، وأخرجه في موضعين آخرين، انظر: حديث رقم (٣٠٩٦، ٦٧٢٩)، ومسلم في الجهاد، باب: قول النبي ﷺ: «**لا نورث ما تركنا فهو صدقة**». حديث رقم (١٧٦٠)، (٣/١٣٨٢).

وقد أخرجه أحمد (٢/٤٦٣)، بنفس اللفظ الذي أورده الشيخ رحمه الله هنا.

مجنون عنك، أي: مغيب. ومنه: جَنَّ عليه الليل، وقيل للجنين: (جنين) لأن بطن أمه يُجِنُّه، ومنه سُمي المجنون (مجنوناً) لغيبوبة عقله[(١)]. وبعضهم قال: تُسمي العرب الملائكة (جِنّاً)؛ لأنهم محجوبون عن الأبصار، وهو أحد التفسيرين في قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[(٢)] [الصافات: آية ١٥٨] والعرب تعرف ذلك، ومنه قول الأعشى يمدح سليمان[(٣)]:

وسَخَّرَ من جِنِّ الملائِكِ تِسْعَةً قِيَاماً لديْهِ يَعْمَلونَ بلا أَجْرِ

والمراد بالجن هنا: عُتاتهم وشياطينهم الذين كانوا يضلون الآدميين ويغوونهم في دار الدنيا، يقول لهم الله يوم القيامة: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ أعني: يا جماعة الشياطين ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ والمعنى: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾، أكثرتم من إغوائهم وإضلالهم[(٤)] ـ والعياذ بالله ـ حتى أضللتم منهم أعداداً طائلة وجِبلّاً كثيراً ضخماً، كما يأتي في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: آية ٦٢].

وهذه الآيات يبينها الله لنا في دار الدنيا لنحذر من أن تكون الشياطين تستهوينا وتضلنا لتدخلنا النار، وقد بين القرآن أن هذا العدد الكثير من الإنس الذي أضلتهم شياطين الجن الذين قال الله فيهم: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] أن منهم الذين يتبعون تشريع الشيطان، ويحيدون عن تشريع الله فيتبعون ما نَظَّمه الشيطان من النُظُم على ألسنة أوليائه، صرح القرآن بأن هؤلاء داخلون في هذا الاستكثار وما أكثرهم؛ لأن الله يقول في السورة الكريمة ـ وكل سورة من القرآن كريمة ـ أعني سورة يس: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: آية ٦٠] ومعنى عبادتهم للشيطان ليست أنهم سجدوا للشيطان، ولا ركعوا للشيطان،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ابن جرير (٢٣/١٠٨)، القرطبي (١٥/١٣٤).

(٣) البيت في ابن جرير (١/٥٠٦)، القرطبي (١/٢٩٥)، البحر المحيط (١/١٥٣)، اللسان (مادة: جنن) (١/٥١٧).

(٤) انظر: ابن جرير (١٢/١١٥).

ولا صاموا للشيطان، ولا حجوا للشيطان، وإنما عبادتهم للشيطان: هي اتباعهم ما شرعه من النُّظُم على ألسنة أوليائه، كما قدمنا في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ ثم قال: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فالله ـ مثلاً ـ يقول: إن الميتة حرام ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فالميتة حرام ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] هذا من تشريع الله الذي شرعه على لسان نبيه. فيأتي الشيطان فيشرع نظاماً آخر غير هذا ويقول: ما قتله الله بيده الكريمة بسكين من ذهب أحل وأكرم مما قتله الإنسان بيده؟ فالميتة ذبيحة الله، وهي أحل من ذبيحة الناس!! فهذا تشريع إبليس على ألسنة أولياء إبليس، فصرح الله بأن من اتبع تشريع إبليس وقال: بأن الميتة حلال: أنه مشرك بالله، وهو قوله: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] وهذا الشرك بالله هو عبادة الشيطان التي نهى الله عنها في (يسٓ) في قوله: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ وليس المراد بعبادته أنهم يسجدون له ويركعون، لا؛ وإنما بطاعته فيما شرع، واتباعه في نُظُمِه وقوانينه، ثم بين أن الذين يتبعون ذلك من هذا الاستكثار المذكور في (الأنعام) حيث قال في (يس): ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ أي: ومنهم الذين عبدوه باتباع نظامه وشرعه وقانونه ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ فتتركون تشريع خالق السماوات والأرض إلى عبادة الشيطان باتباع نظامه وقانونه، ثم بين مصير هؤلاء فقال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ [يس: الآيات ٦٠، ٦٢ ـ ٦٥] هؤلاء عابدي الشيطان باتباع تشريعه. ومن هذا المعنى قول خليل الله إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [مريم: آية ٤٤] وما كان أبوه يسجد للشيطان، ولكنه كان يتبع نظام الشيطان، وشرع الشيطان، وقانون الشيطان الذي شرعه من عبادة الأوثان، ومعاصاة الرسل. فليعلم كل إنسان أن للشيطان مذهباً وقانوناً وشرعاً وضعه على ألسنة أوليائه من مَرَدَة الإنس، ولخالق السماوات والأرض نظاماً وشرعاً: نوراً منزلاً من السماء شرعه على ألسنة أوليائه، فالذين يعدلون عن نور الله الذي شرعه على ألسنة أوليائه إلى

تشريع الشيطان الذي شرعه على ألسنة أوليائه داخلون في قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] وداخلون في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: آية ٦٢] سواء سموا ذلك قانوناً، أو سموه نظاماً، أو تشريعاً؛ لأن خالق السماوات والأرض لا يقبل أن يُعبد إلا بما شرع؛ لأنه ملك الملوك لا يقبل غير شرعه وتشريعه، كما قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: آية ٢١] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: آية ٥٩] فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، وكل من يتبع نظاماً شيطانياً وضعه الشيطان على مردة شياطين الإنس من أوليائه فإنه يوم القيامة صائر إلى النار، داخل في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: آية ٦٢] وفي قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨].

والنبي ﷺ قد بين هذا لعدي بن حاتم رضي الله عنه، فإنه لما قال له: يا نبي الله: قول الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: آية ٣١] كيف اتخذوهم أرباباً؟ فقال: ألم يُحلوا لهم ما حرّم الله، ويُحرِّموا عليهم ما أحلَّ الله فاتبعوهم؟ قال: بلى. قال: بذلك اتخذوهم أرباباً[(١)]. وذلك هو عبادتهم إياهم. فكل تشريع غير تشريع الله، وكل نظام غير نظام السماء الذي يمشي عليه كأنه يقول: تشريع خالق السماوات والأرض أفضل منه تشريع غيره!! فهو ينزل درجة الخالق - جل وعلا، سبحانه عن ذلك وتعالى علواً كبيراً - إلى أن أوضاعاً ملفقة من أذهان الكفرة الفجرة الخنازير أنه أحسن من تشريع الله!! ولذا يعدلون عن نور القرآن والسنة النبوية الصحيحة إلى ما يسمونه قانوناً ونظاماً وضعه أبناء الكلاب القردة الخنازير من اجتهاداتهم، تارة يحرمون ما أحل الله صريحاً، ويحللون ما حرم الله صريحاً، يزعمون أن الهدى في هذا!! هذا - والعياذ بالله - من أشنع الكفر والطغيان على الله، والتمرد على نظام السماء، واحتقار الخالق -

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

جل وعلا ـ حيث كان تشريعه لا ينفع، وتشريع غيره من سفلة الخنازير أحسن من تشريعه!! وهذا إنما وقع ـ والعياذ بالله ـ بسبب طمس البصيرة؛ لأن نور البصيرة إذا طُمس من قلب الإنسان صار يرى الباطل حقاً، والحق باطلًا، والحسن قبيحاً، والقبيح حسناً، والذين يعدلون عن نور الله يطلبون النور في تشريع المخلوقين هم في الحقيقة ـ بالكلمة التي هي بمعنى الحرف الصحيح ـ هم خفافيش البصائر، أعماهم ضوء القرآن فصاروا يطلبون الضياء في ظلام أفكار الكفرة الفجرة.

خفافيشُ أعماهَا النهارُ بضوئِهِ ووافَقها قِطَعٌ من الليلِ مظلمُ(١)

مثل النهار يزيدُ أبصارَ الورى نوراً ويُعمي أعينَ الخفاشِ(٢)

والله (جل وعلا) يقول: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٠] وفي بعض التفسيرات: تكاد أنوار القرآن تعمي بقية بصائرهم، والله يقول: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: آية ٤٤] لأن النور الساطع الشديد يقضي على البصر الأعشى الضعيف، وقد بين الله تعالى في السورة الكريمة ـ سورة الرعد ـ أن الذي لا يعلم أحقية القرآن، ومنزلته، وكونه هو الذي ينبغي أن يُتبع أن ذلك إنما جاءه من قِبَل عماه؛ لأن الله يقول: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: آية ١٩] فصرح بأن الذي منعه من ذلك عماه، وعدم رؤية الأعمى للشمس لا يجعل الشمس فيها ريب.

إذا لم تكن للمرءِ عينٌ صحيحةٌ فلا غَرْوَ أن يرتابَ والصبح مُسفرُ(٣)

---

(١) البيت لابن الرومي، وهو في ديوانه (١/١٥٧)، تحقيق حسين نصار، ولفظه هناك:

خفافيش أعشاها نهار بضوئه ولاحمها قطع من الليل غيهب

(٢) البيت في المغني لابن قدامة (١٣/٣٢٣)، حياة الحيوان للدميري (١/٢٩٦)، صبح الأعشى (٢/٨٨)، الأضواء (٢/٢٧٤).

(٣) البيت ذكره الشيخ في «رفع الإيهام والاضطراب».

والذين عموا عن نور القرآن ونور السنة النبوية التي نظمت حياة البشرية على أكمل الوجوه وأبدعها وأنصفها، وميزت الأوضاع على ضوء نور السماء، فجمعت بين خير الدنيا والآخرة يرفضونها وينصرفون عنها ذاهبين إلى النظام الذي شرعه إبليس ـ عليه لعائن الله ـ على ألسنة أوليائه إنما جرهم إلى ذلك أنهم خفافيش، والخفاش يعميه نور الشمس، وإذا كان النهار وانتشر ضوء الشمس صار الخفاش أعمى لا يرى شيئاً، ولا يقدر أن يقوم من محله، وإذا جاء الليل وأرخى الظلام سدوله قام الخفاش يسرح ويمرح؛ لأن هذا عنده ضياء!! فهذا مثلهم ـ ولله المثل الأعلى ـ.

وعلينا معاشر المسلمين أن نعلم أن الله خصنا بسيد الرسل، وسيد الخلق، وأشرف الأنبياء، وجعل معجزته باقية، وهي هذا النور المنزل الذي يتردد في أسماع البشر إلى يوم القيامة. وفي الحج تلتقي ببعض الحجاج من جميع أقطار الدنيا، ترى الذين يعرفون القرآن منهم على الحقيقة لا يختلف اثنان منهم في حرف ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: آية ٨٢] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: آية ٩] بين الله لنا فيه العقائد، وأصول الحلال والحرام، وطريق الجنة، وطريق النار، وتهذيب النفوس، وتربيتها، ومعالي الأمور، والتنزه عن سفسافها، وبين لنا فيه كيف نستعد لأعدائنا، وكيف نواجههم في حالة الحرب، وحالة الصلح والهدنة، وقد بينه النبي ﷺ بياناً شافياً كافياً، حتى تركها محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فعلينا أن نعمل به، ونترك آراء الكفرة الفجرة؛ لأن اتباع نظام الشيطان دلت هذه الآيات على أنه كفر بالله.

واعلموا أن الأنظمة ليست سواء، منها نظام إداري، ومنها نظام شرعي، والأنظمة الإدارية التي لا تصادم الشرع وإنما تجري على المصالح المرسلة لضبط أمور الرعية وأوطانها، فهذا النوع لا بأس به، وقد فعل الصحابة كثيراً منه؛ فإن المسلمين لم يكن عندهم ديوان للجند تكتب فيه أسماء الجند في زمن النبي ﷺ وأبي بكر، ولَمَّا تخلف كعب بن مالك (رضي الله عنه) في غزوة تبوك لم يعلم النبي ﷺ بأنه تخلف حتى بلغ تبوك؛ لأنه لم يكن عنده ديوان يكتب فيه أسماء الجند، وقام عمر بن

الخطاب لما أفضت الخلافة إليه، وكتب أسماء الجند في ديوان؛ فصار جميع الجند المقاتلين مكتوبة أسماؤهم في دواوين، إذا تخلف واحد عُرف الوقت الذي تخلف فيه ووجههم إلى الجهاد، وأعد لكل جهة قدراً معيناً بأسمائه. فهذا نظام عسكري لم يفعله النبي ﷺ، ولا أبو بكر، ولكنه إداري لا يخالف شيئاً من الشرع.

ولم يكن في زمن النبي ﷺ ولا زمن أبي بكر سجن يُوقَف فيه المجرمون حتى يُحقق معهم فيعاقبوا فيه، حتى كان في زمن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، فاشترى دار صفوان بن أمية في مكة، واتخذها سجناً.

ومثل هذا من الأنظمة الإدارية لضبط أمور الرعية مما لا يخالف الشرع، هذا أمر كان يفعله الصحابة، وأجمع عليه جميع المسلمين في قرونهم الماضية، وليس كلامنا عليه، وإنما كلامنا على الذين يتبعون نظام الشيطان في التحليل والتحريم، ويتركون نظام الله، كالذين يقولون: إن المرأة أضعف من الرجل، وصلتهما بالميت واحدة، فلا بد أن يكونا سواء، وتفضيله عليها غلط وحيف عليها!! وكالذين يقولون: إن قطع يد السارق إنه عمل وحشي، لا ينبغي أن يكون في النُّظم الإنسانية!! وكالذين يقولون: إن الرجم والقتل بالحجارة عمل وحشي، لا ينبغي أن يكون في النُّظم الإنسانية!! ونحو هذا مما يقوله الكفرة، وأتباع الكفرة، حتى تركوا تشاريع السماء لآراء الكفرة، وخفيت عليهم الحِكَم.

أما قطع اليد مثلًا الذي يقولون: إنه عمل وحشي لا ينبغي أن يكون في نظام سماوي، ولا أن يعامل به الإنسان. فإنما هو لجهلهم؛ لأن اليد الواحدة إذا لم تُعاقَب عقوبة رادعة قد تُقَطِّعُ آلاف الأيادي بسرقتها، وإن الله (جل وعلا) خلق هذه اليد وفرَّق أصابعها، وأبعد إبهامها عن أصابعها؛ لأنه لو جعل الإبهام قريباً من السبابة لما قدر صاحبها أن يحل ولا أن يعقد، وشد رؤوسها بالأظفار لتكون أداة فعَّالة عاملة في الخير، وفي الإعانة على ما يرضي الله، على غرار: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: آية ٢] فلما مدَّها هذا الخائن الخبيث الخسيس ليأخذ أموال الناس على أخس وجه

وأدناه وأردئه صارت هذه اليد في نظر من خَلَقَها وفي شرعه صارت كأنها قذرة نجسة، وإن استمرت بالبدن قَذَّرت ذلك البدن كله ونجّسته، فقُطع عضو فاسد، كعملية تطهيرية؛ ليصح بها بقية البدن من ذلك التنجيس، وتلك الرذيلة، ولتطمئن الناس على أموالها؛ ولذا ثبت في الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ما يدل على أن الحدود كفارات[1]، وأنه إن قُطعت يده الخبيثة النجسة الفاجرة المجرمة أنه يطهر بذلك بقية بدنه[2].

وقد يحصل في ذهن طالب العلم هنا سؤال، وهو أن يقول: العدوان على المال ذو وجوه كثيرة؛ لأنه قد يكون بالغصب، وقد يكون بالاختلاس، وقد يكون بالتعدي، وقد يكون بالمطل، وما جاء القطع إلا في نوع واحد منه وهو السرقة، فما الحكمة في أن يكون قطع اليد في خصوص السرقة دون غيرها من الاعتداءات المالية[3]؟!

والجواب عن هذا: أن غير السرقة من الاعتداءات المالية الغالب على حاله أن صاحبه لا بد أن يرى الشهود؛ لأنه لا يكون غالباً في خصوص ومفارقة، وإذا جاء الشهود رفع بهم صاحب الحق إلى من بسط الله يده فاستخرج له حقه، وعاقب الجاني بقدر ما يستحق. أما السرقة: فإن السارق يتحرى أخفى الأوقات، وأبعدها عن اطلاع الناس بحيث لا يشعر به أحد، ولا يطلع عليه أحد، ولو لم يعاقب صاحبها بعقوبة رادعة لَمَا اطمأن أحد على سبيل مالي؛ لحذق اللصوص في الحيل الخفية التي يسرقون بها أموال الناس، والمال شريان الحياة؛ لأن المال هو أساس هذه الحياة الدنيا، فهو شريانها في جميع المجالات، إذ لا عسكرية إلا بالمال، ولا سياسة إلا بالمال، ولا اجتماعية إلا بالمال، ولا ثقافة إلا بالمال، فهو شريان الحياة، والله (جل وعلا) جعل هذه العقوبة لأمرين:

---

(١) البخاري في الحدود، باب: الحدود كفارة. حديث رقم (٦٧٨٤)، (٨٤/١٢)، ومسلم في الحدود، باب: الحدود كفارة لأهلها. حديث رقم (١٧٠٩)، (١٣٣٣/٣).

(٢) انظر: الأضواء (٤٣١/٣).

(٣) المصدر السابق (٤٣٢/٣).

أحدهما: تطهير الجسد الذي أنجسه ذلك الجزء النجس كعملية تطهيرية بقطع عضو فاسد لتصح بقية البدن.

والثاني: لتطمئن الناس على مالها، فإذا قُطعت يد واحدة طهر صاحبها من تلك الرذيلة، وصار إنساناً طيباً بعد أن صار قذراً نجساً، وسَلِمَ المسلمون من أذاه بعد ذلك، ومن أذى غيره؛ لأن من علم أنه إذا سرق قُطعت يده كف عن الناس؛ ولذلك ترى أقل البلاد أن يوجد فيها حوادث السرقة هي هذه البلاد ـ نرجوا الله أن يوفق ولاتها إلى ما يحبه ـ وإنما ذلك بفضل الله ثم بفضل قطع يد السارق، وإن الإحصاءات العالمية إذا أُحصيت تجد آلاف حوادث السرقة بل ملايينها في كل محل، وأقل ما يوجد فيه هذا المحل، الذي يُقام فيه هذا الحد من حدود الله؛ وذلك مما يبين أن حكمة الله في تشريعه هي الحكمة الكفيلة للمخاليق بجميع مصالحهم.

ولا يسعنا في الوقت أن نتتبع جميع هذه التي ينكرون فنُظْهِر حِكَمَها الواضحة بفلسفة عقلية لا تخفى على أحد، كتعدد الزوجات، وكتفضيل الرجل في الميراث، وكالرجم، وما جرى مجرى ذلك، فإنها أحكام عادلة في تشريعات سماوية، وكمسألة الرق، إلى غير ذلك من المسائل، فهي في الحقيقة من أبرز المسائل وأظهرها. ومن أشد ما ينكره الفجرة على الإسلام: مسألة الرق، وهم في الحقيقة يرتكبون أعظم منها!! وسنبين حكمتها تنبيهاً بها على غيرها[1]. وإنما أوجب الإسلام الرق لأن الله خلق هذا الإنسان وأمره أن يكون إعانة وعضواً صالحاً في المجتمع ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: آية ٥٦] وقد وضع الله نظاماً أراد به الخير لخلقه، هو نظام السماء الذي شرعه على لسان نبيه ﷺ، يريد للناس إذا اتبعته أن يسودهم العدالة، والطمأنينة، والرخاء، والمساواة في الحقوق، إلى غير ذلك من أنواع الخير، فقام الكافر واستعمل جميع نعم الله في كل ما يسخط الله، وخرج على نظام السماء ليقلب الحكم السماوي إلى غيره!! ومعلوم أن كل دولة من هذه الدول التي تنكر الرق لو أَغْدَقَت النعم

---

(١) انظر: الأضواء (٣/٤٢٤)، (٧/٤١٩).

على رجل منها، ثم تمرد عليها وحاول إسقاط حكمها، وقَلْبَ نظام الحكم، ثم تمكنت منه أن تقتله شر قِتْلَة فالكافر تمرد على نظام مَنْ خَلَقَه، واستعمل نعم الله في معصية الله، يريد بذلك قَلْبَ نظام حُكْم السماء، لعدم رضاه بنظام السماء، فأصحاب الدولة الإسلامية الذين هم وكلاء الله في أرضه، ويستعملهم في طاعته؛ لينفذوا ما يريد من خير، وينهون عما ينهى عنه من شر قاتلوا هذا الكافر قتالًا مريراً، فبعد أن أمسكوه كان لهم أن يقتلوه؛ لأنه كان عدواً لهم يريد أن يقلب نظام السماء، فأَمَرَ من خَلَقَه بِقَتْلِهِ قِتْلَةً دون قِتْلَة، وهي أنه طرده عن مرتبة الإنسان إلى مرتبة تَقْرُب من مرتبة الحيوان، بل هي مرتبة الحيوان؛ لأنه يباع، ويُشرى، ويُوهب، مع أنه لم يقتله من الدنيا، بخلاف الدولة التي تنشر الكفر لو تمكنت من المتمرد عليها الذي يريد قلب نظامها لشنقته وقتلته شر قِتْلَة!! فالله أمر بِقَتْلِهِ قِتْلَةً دون قِتْلَة، وأنه تُنزل منزلته عن درجة الإنسان الكامل إلى درجة الحيوان، ويبين حقوقه كاملة، فيأمر سيده بالإحسان إليه، وألا يكلفه من العمل إلا ما يطيق، وإن كَلَّفه أعانه.

نعم، هنا يبقى سؤال: وهو أن يقول طالب العلم: ما دام كافراً متمرداً على نظام السماء فَقَتْلُه قِتْلَةً دون قِتْلَة هذا أمر معقول، ولكن إذا أسلم وصار أخاً لنا يصلي معنا في المساجد، ويصوم معنا رمضان، ويعبد الله معنا، فما الحكمة إذاً وما المُسَوِّغ بأنَّا نشتريه، ونبيعه وقد زال الموجب المُسَوِّغ لذلك؟

والجواب عن هذا: هي قاعدة معروفة لدى جميع العقلاء، وهي أن الحق الثابت لا يرفعه الحق اللاحق، فالمجاهدون عندما وضعوا عليه أيديهم وهو كافر ثبتت لهم ملكيته، فلما أسلم استحق رفع الملكية، ولكن كان حقه متأخراً، فقُدم عليه الحق السابق، وتقديم الحق السابق على الحق المتأخر أمر يقرُّ به جميع العقلاء، نعم لطالب العلم أن يقول: إن كان هذا الحق قبل هذا الحق، والحق الآخر لا يرفع الحق الأول، لكن يجدر بالمسلم أن يُعتق أخاه، ويُسقط حقه الأول لحق أخيه الأخير!!

فنقول: نعم بهذه جاء القرآن، ورَغَّب المؤمن بعتق أخيه، وأنه يعتق كل عضو منه بعضو منه، وفتح الأبواب الكثيرة للعتق: من كفارة الأيمان، والظهار، وغيره، إلى غير ذلك، فهذه حِكَم الله في تشريعه لا يضل عنها إلا من خذله الله، وجعله كالخفاش.

ومعنى قوله: ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] أي: قد أكثرتم من إغواء الإنس، وإضلالهم باتباعهم تشاريعكم ونُظُمكم، وقد يُضِلُّون لو لم تتبع تشريعهم، فيُضِلُّون المسلم الذي هو على تشريع السماء بأن يزينوا له المعاصي كالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، ويتبعهم في ذلك، ويغوونه بذلك مع أنه لم يكفر، ولم يقر بتشريع غير تشريع الله؛ لأن الذي يشرب الخمر، ويزني، ويسرق ـ والعياذ بالله ـ إن كان يعتقد أن ذلك حلال فهو كافر متبع نظام الشيطان داخل في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: آية ٩] أما إذا زين له الشيطان الزنى، والسرقة، وهو يعلم أنه مرتكب خسيسة، وأنه فاعل أمراً حراماً، وأن هذا لا يجوز، فهذا لا يخرج عن دين الإسلام، بل هو مسلم من عصاة المسلمين، مرتكب كبيرة تُرجى لهم التوبة. والشياطين قد يستكثرون من الآدميين بالنوعين، يستكثرون باتباع تشاريعهم كما هو جار الآن في أقطار الدنيا، ويستكثرون بتزيين الشهوات، كالزنا، والسرقة، والمعاصي ـ والعياذ بالله ـ مع أنه مسلم. وهذا معنى قوله: ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] ثم إن أولياءهم من الإنس، والمراد بأوليائهم: هم الذين كانوا يتبعون تشريعهم في الدنيا، أو يطاوعونهم فيما زينوا لهم من المعاصي كالزنى، وشرب الخمر، وما جرى مجرى ذلك. هؤلاء أولياؤهم؛ لأنهم يوالونهم، هؤلاء يوالونهم في التشريع، وهؤلاء يوالونهم في الطاعة، والفاجر ولي الفاجر، والكافر ولي الكافر، والمؤمن ولي المؤمن.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] معناه: يا خالقنا ومدبر شؤوننا، ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] الاستمتاع: هو التمتع، والتمتع في لغة العرب: الانتفاع، وقد انتفع بعضنا في دار الدنيا من بعض.

﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] أما انتفاع الإنس

بالشياطين: فهو أنهم يدلونهم على لذات الدنيا الحرام، ويزينونها لهم، فيستمتعون بالزنا، والتلذذ بالنساء الجميلات زنا، وبشرب الخمر، بقتل الأعداء ظلماً، حتى يتشفوا ويشفوا غيظهم، ومن جنس المظالم التي يزينونها لهم ينتفعون ويتمتعون بها في الدنيا. وأما انتفاع الشياطين: فهو أنهم يكونون سادة مطاعين؛ لأن لذة الطاعة والرياسة أمرٌ عظيمٌ، أكثر من لذة ما يناله ذلك. وكان بعض العلماء[١] يقول في انتفاع الإنس بالجن، والجن بالإنس: إنه كان قبل الإسلام إذا نزل الرجل بواد في الليل، وخاف من الجن قال: أعوذ بسيد هذا الحي من سفهاء قومه. فيعيذه ذلك السيد، فينتفع الإنسي بأن كبير الشياطين منعهم من الدنو، وينتفخ كبير الشياطين، وينتفع، ويقول: نحن صرنا سادة الجن والإنس، الإنس يعوذون منا، والجن سدناهم، وإلى هذا الإشارة بقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: آية ٦] ولكن هذا لا تفسر الآية به؛ لأن هذا يقع قليلًا؛ والله يقول: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ فدل على أنه كثير، وأنه اتباع تشريعهم، أو ما زينوا من المعاصي، والشهوات - والعياذ بالله جل وعلا -. هذا معنى قوله: ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] أظهر الأقوال أن أجلهم الذي أَجَّل لهم: الموت؛ لأن كل إنسان حياته محددة بدقائقها، لم يزالوا - والعياذ بالله - في تزيينهم لهم المعاصي، والشهوات، والكفر، واتباعهم إياه - إلى أن - حتى انتهى الأجل وماتوا.

وقال بعض العلماء: إن الأجل الذي أَجَّله لهم هو يوم القيامة؛ لأنه هو اليوم الذي أَجَّله لمعاقبة الجميع بما يليق بكل منهم[٢]. وهذا معنى قوله: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ قال الله مجاوباً لهم: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ - والعياذ بالله - يعني أن عذركم هذا عذر بارد غير مقبول، لا حجة لكم فيه، وأنتم وإياهم في النار (...)[٣].

و(النار) - عياذاً بالله - هي نار الآخرة. وأَلِفُ النار - التي بين النون

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/١١٦)، القرطبي (٧/٨٤)، ابن كثير (٢/١٧٦)، البحر المحيط (٤/٢٢٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/٢٢٠).

(٣) في هذا الموضع كلام غير واضح ولعله بيت من الشعر.

والراء ـ مبدلة من واو، أصلها: (نَوَر) بدليل تصغيرها على (نُويرة)، ولو كانت يائية العين لقيل فيها: (نُييرة) ويقال: «تَنَوَّرْتُ النار» إذا نظرتها من بعيد.

تنورتُها من أذرعاتٍ وأهلُها بيثربَ أدنى دارها نظرٌ عالِ[1]

ولو كانت يائية العين لقال: تَنَيَّرْتُها بالياء، ولم يقل: «تَنَوَّرْتُها»[2]، واشتقاق النار من «نارت الظبية» إذا ارتفعت جافلة؛ لأن عادتها إذا أُوقدت الارتفاع. ونار الآخرة ـ والعياذ بالله ـ أشد حراً من هذه بسبعين ضعفاً.

وقوله: ﴿مَثْوَىٰكُمْ﴾ المثوى: مكان الثَّوَاء. والثَّوَاء: الإقامة على الدوام. ومنه قوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: آية ٤٥] أي: مقيماً فيهم[3]. وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول الحارث بن حِلِّزَة[4]:

آذنتنا بِبَيْنِها أسماءُ ربَّ ثاوٍ يُملُّ منه الثَّوَاءُ

فالمثوى: مكان الثَّوَاء. وهو مفتوح الواو على القياس؛ لأن المقرر في فن التصريف أن الفعل المعتل اللام الثلاثي يبقى مصدره الميمي، واسم مكانه، واسم زمانه على (المَفْعَل) بفتح العين. وهذا مُطَّرد[5]. والمثوى: مكان الثَّوَاء.

وقوله: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا﴾، ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال، ويُشْكِل العامل في الحال؛ لأن المَثْوى اسم مكان، والمكان لا يعمل في الحال.

قال بعضهم: العامل في الحال فعل محذوف، تقديره: النار مثواكم تدخلونها خالدين فيها. وقال بعض العلماء: العامل في الحال معنى الإضافة[6].

ومعنى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ لابثين فيها على الدوام.

---

(١) البيت لامرىء القيس، وهو في ديوانه ص١٢٤.

(٢) انظر: المفردات (مادة: نور) ص٨٢٨، اللسان (مادة: نور) (٧٣٩/٣)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٢٦٣.

(٣) انظر: ابن جرير (١١٧/١٢)، المفردات (مادة: ثوى) ص١٨١.

(٤) شرح القصائد المشهورات (٥١/٢).

(٥) انظر: التوضيح والتكميل (٨٣/٢)، الدر المصون (٤٣٦/٣)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٧٦.

(٦) انظر: البحر المحيط (٢٢٠/٤)، الدر المصون (١٤٩/٥).

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ هذه الآية ونظيرتاها في القرآن هما اللتان أخذ منهما بعض أهل العلم أن النار تفنى[1]، وقد جاءت في القرآن ثلاث آيات يفهم من بعض ظاهرها بعض الشيء:

أولها: آية الأنعام هذه ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾.

الثانية: آية هود: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا﴾ [﴿مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ [هود: الآيتان ١٠٦ ـ ١٠٧].

الثالثة: آية النبأ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ: الآية ٢٣]][2].

/ (...)[3] وجاء عن جماعة من الصحابة منهم[4] عمر بن ١٧/ب
الخطاب[5]، وابن مسعود[6]، ....

(١) في مسألة فناء النار راجع: حاوي الأرواح ص٢٤٨، الرد على من قال بفناء الجنة والنار لابن تيمية، كشف الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار للصنعاني، دفع إيهام الاضطراب ص١٢٢ ـ ١٢٨.

(٢) في هذا الموضع ذهب بعض التسجيل. وتم استدراك النقص من كلام الشيخ (رحمه الله) عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأعراف. وللاستزادة راجع كلام الشيخ (رحمه الله) على هذه المسألة في دفع إيهام الاضطراب ص١٢٢ ـ ١٢٣، معارج الصعود إلى تفسير سورة هود ص٢٥٤.

(٣) في هذا الموضع جملة غير واضحة، والكلام مستقيم بدونها.

(٤) انظر: ابن جرير (١٥/٤٨٤)، ابن كثير (٢/٤٦٠)، الدر المنثور (٣/٣٥٠)، الرد على من قال بفناء الجنة والنار ص ٥٣، ٦٩، رفع الأستار ٦٤ ـ ٨٧، حادي الأرواح ٢٤٩، ٢٥٢.
قال الصنعاني بعد أن ذكر بعض هذه الآثار وأجاب عنها: «فعرفت بطلان نسبة هذا القول إلى ابن مسعود وأبي هريرة، كما عرفت بطلان نسبته إلى عمر» إلى أن قال: «وبعد تحقيقك لما أسلفناه، وإحاطتك علماً بما سقناه تعلم أن هؤلاء الأربعة من الصحابة الذين هم: عمر، وابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو سعيد... هم بريئون من هذا القول، ومن نسبة فناء النار إليهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب...» ا.هـ رفع الأستار ص٧٧، ٨٠.

(٥) أخرجه ابن جرير (١٥/٤٨٤)، وأشار له ابن كثير (٢/٤٦٠)، وذكره ابن القيم في حادي الأرواح ص٢٥٢، ٢٥٣، وعزاه في الدر (٣/٣٥٠) لابن المنذر وأبي الشيخ.
وقال الألباني عن إسناده عند ابن جرير: «وهذا إسناد مظلم» ا.هـ رفع الأستار ص٧٦.

(٦) ذكره البغوي في التفسير (٢/٤٠٣) وابن تيمية في كتاب «الرد على من قال بفناء الجنة والنار» ص٥٣ وعزاه لعبد بن حميد، كما ذكره ابن القيم في حادي الأرواح ص٢٤٩ وعزاه لعبد بن حميد، وأشار له ابن كثير (٢/٤٦٠)، وعزاه في الدر (٣/٣٥٠) لابن=

وعبدالله بن عمرو بن العاص[(١)] أنهم قالوا: «يأتي يوم على النار ـ زمان ـ تصفق أبوابها ليس فيها أحد».

وهذه النار هي في الحقيقة يجب حملها على الطبقة التي كان بها عصاة المسلمين؛ لأنه ثبت في الأحاديث الصحيحة أن النار يدخلها بعض عصاة المسلمين ثم يُخرجون منها. هذا ثابت متواتر عن النبي لا نزاع فيه. والنار طبقات وأبواب ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: آية ٤٤] وبيّن أنها دركات، وأن المنافقين في الدرك الأسفل منها، فالطبقة التي كان فيها عصاة المسلمين إذا أُخرجوا منها هي التي تفنى، أما النار التي فيها الكفار فالتحقيق أنها باقية لا تفنى، وأنه لم يدل كتاب ولا سنة على أنها تفنى، فهي باقية لا تزول أبداً؛ لأن الله صرح بذلك في آيات كثيرة، فصرح بأنها لا تفنى حيث قال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٩٧] ومعلوم أن (كلما) تتكرر بتكرر الفعل بعدها[(٢)]. ولو قلت لعبدك: كلما جاءك زيد فأعطه درهماً. وجاءه زيد عدة مرات. فعليه في كل مرة أن يعطيه درهماً؛ لأن (كلما) تتكرر دائماً بتكرر الفعل، فمن ادّعى أن للنار خَبْوَة نهائية ليس بعدها زيادة سعير يُرد عليه بقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ وبين أنهم لا يخرجون منها بقوله جل وعلا: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: الآية ٢٠] ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [المائدة: الآية ٣٧] وبين أنهم لا يخفف عنهم عذابُها قال: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ

المنذر، وعزاه الحافظ ـ كما في تخريج أحاديث الكشاف (١٤٩/٢) لمسند الحارث بن أبي أسامة، وعقبه بقوله: «منقطع، ومراسيل الحسن عندهم واهية؛ لأنه كان يأخذ من كل أحد...» ا.هـ. والأثر ضعفه الصنعاني في رفع الأستار ص٦٥، وكذا الألباني في التعليق على رفع الأستار ص٦٥، والسلسلة الضعيفة (٧٣/٢).

(١) ذكره البسوي في تاريخه (١٠٣/٢)، وأورده القرطبي في التذكرة ص٤٣٧ وابن تيمية في «الرد على من قال بفناء الجنة والنار» ص٦٩ من طريق حرب الكرماني. كما نقله ابن القيم في حادي الأرواح ص٢٥٢، والذهبي في الميزان (٣٨٥/٤) في ترجمة أبي بَلْج الفزاري الواسطي. وعَدَّ هذا الأثر من بلاياه!! وبعد أن ساق الأثر عقبه بقوله: «وهذا منكر. قال ثابت البناني: سألتُ الحسن عن هذا فأنكره» ا.هـ وأشار له ابن كثير (٤٦٠/٢)، وذكره الحافظ في التهذيب (٤٩/١٢) في ترجمة أبي بَلْج، وانظر: تخريجه لأحاديث الكشاف (١٤٨/٢). وقد ضعفه الألباني في الضعيفة (٧٢/٢) وفي التعليق على «رفع الأستار» ص٨١، ٨٢.

(٢) انظر: البرهان للزركشي (٣٢٤/٤)، الكليات ٧٤٤.

فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: الآية ٣٦] ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: الآية ٣٠] إلى غير ذلك من الآيات[1]. وهنا سؤالان: أحدهما سؤال علىٰ بابه، سؤال إسلام، والثاني سؤال إلحادي معروف.

أما السؤال الإلحادي المعروف فهو أن يقول الملحد: أنتم تقولون: إنّ ربكم في غاية العدالة والإنصاف ـ ونحن نقول: بلىٰ هو في غاية الكمال والعدالة والإنصاف ـ والمعاصي التي فعلها[2]، والكفر الذي كان عليه، كان في أيام معدودة، وجزاء النار الذي تقولون إنه لا ينقطع في ملايين السنين، فأين العدالة والإنصاف؟ المعصية كان في وقت قليل معين، والجزاء بهذا الصنف، فأين المعادلة بين العذاب، والذنب، والجزاء، والإنصاف أن يكون العقاب بقدر الفعل؟ هذا سؤال إلحادي معروف، يُدْلي به هنا كل ملحد. والجواب عن هذا السؤال[3] أن نقول: إن الله (جلّ وعلا) بيّن أن خبثهم وكفرهم الذي جُبلوا عليه باق دائم لا يزول، ولو مرت عليه ملايين السنين، فكان جزاؤه دائماً لا يزول. ومن الآيات الدالة على بقائه أبداً أنهم لما عاينوا العذاب، ورأوا النار، وندموا على الكفر وقالوا: ﴿**يا ليتنا نرد ولا نكذبُ بآيات ربنا ونكونُ من المؤمنين**﴾ [الأنعام: الآية ٢٧] وفي قراءة أخرىٰ[4]: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ الآية. الله لما تمنوا أنهم يُرَدُّون إلىٰ الدنيا مرة أُخرى ليُصَدِّقوا الرسل بين أنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا مرة أخرى وأُمهلوا، وأُرسلت لهم الرسل لبقوا علىٰ خبثهم الذي لا ينفك عنهم أبداً، قال: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٨]. وقال في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْۖ﴾ [الأنفال: الآيتان ٢٢، ٢٣] وقوله: ﴿خَيْرًا﴾ نكرة في سياق الشرط فهي تعمّ[5]، فهي تدل علىٰ أنّ الله لو يعلم فيهم

---

(١) انظر: حادي الأرواح ص ٢٥٤.

(٢) أي: الكافر.

(٣) انظر: كشف الأستار ص ١٢٦.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١٠١) من هذه السورة.

(٥) انظر: المسودة ١٠٣، شرح الكوكب المنير (١٤١/٣)، البرهان للزركشي (٦/٢)، أضواء البيان (٣٢٢/٣)، (١٧٤/٤) قواعد التفسير (٥٦٠/٢).

خيراً ما، في وقت ما، كائناً ما كان، فهم منفي عنهم جميع الخير لا يطلبوه أبداً، والخبث باق فيهم أبداً، فكان الجزاء دائماً أبداً، ومن هنا تطابق الجزاء والعمل.

أما السؤال الثاني: وهو السؤال الذي علىٰ بابه، وهو أن يقول: إذا قررتم أن النار باقية، وأن الكفار باقون فيها، مخلدون، عذاباً سرمدياً، فما الحكمة في الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨] وفي قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: الآية ١٠٧] وفي قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ [النبأ: الآية ٢٣]؟ وفي هذا أوجه كثيرة[١]، وبحوث كثيرة، نقتصر منها على القليل، وسنبينها جميعاً ـ إن شاء الله ـ في سورة هود. من أحسن الأجوبة: الذي اختاره كبير المفسرين محمد بن جرير الطبري[٢]، ونسبه لقتادة، والضحاك، وخالد بن معدان، وأبي سنان: أن (ما) بمعنىٰ: (مَن) وعليه فلا إشكال، فخالدين فيها إلا من شاء الله عدم خلوده من العصاة الذين أدخلوا فيها لتمحصهم وتطهرهم من الذنوب، وغاية ما في الباب أنه أطلق (ما) وأراد (من)[٣]، وإطلاق (ما) مراداً بها (من) كثيرٌ في القرآن، كقوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: الآية ٣] أي: من طاب لكم. وقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ [المؤمنون: الآية ٦] أي: من ملكت أيمانهم.

والآيات موجودة كثيرة غير هذا. أما آية النبأ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ [عم: الآية ٢٣] فالآية التي بعدها تبينها، بقرينة آيةٍ في سورة (ص) فهي بيان قرآني واضح، وخير ما يُفسر به القرآن القرآن؛ لأن معنىٰ ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ أي: لابثين فيها أحقاباً في حال كونهم لا يذوقون فيها برداً وشراباً، إلا حميماً[٤] وغساقاً. [فالآية بينت][٥] أحقاب الحميم والغساق [مع كونهم

---

(١) انظر: ابن جرير (٤٨١/١٥)، ابن كثير (٤٦٠/٢)، رفع الأستار ٩٠ فما بعدها، حادي الأرواح ٢٥١ فما بعدها.

(٢) انظر: ابن جرير (٤٨١/١٥ ـ ٤٨٣).

(٣) انظر: البحر المحيط (٢٢١/٤)، الدر المصون (١٥١/٥).

(٤) يحتمل أن تكون عبارة الشيخ هكذا: «لا يذوقون فيها إلا برداً وشراباً وحميماً وغساقاً». ولضعف التسجيل لم أجزم بذلك.

(٥) في الأصل قدر كلمتين غير واضحتين. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يستقيم بها الكلام.

يُعذبون][١] بأشكال أُخر وأنواع أُخر، غير أنواع الحميم والغسّاق، وهذا التفسير دلت عليه آية (ص) دلالة واضحة؛ لأن الله قال: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ۝٥٧﴾ ثم قال: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ۝٥٨﴾ [ص: الآيات ٥٥ ـ ٥٨] وقوله: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ۝٥٨﴾ المذكورة في سورة (ص) بينت أن آية: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ۝٢٥ جَزَآءٗ وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [عم: الآيات ٢٣ ـ ٢٦] أنها الأحقاب المقصورة عليها الحميم والغساق، وأن هنالك أشكالاً وأزواجاً أُخر لا نهاية لها، كما قال: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ قال: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ۝٥٨﴾. وهذا معنى قوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ الحكيم: هو الذي يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها، فالله لا يضع أمراً إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه، فلا يشرع شرعاً إلا لمصلحة، ولا ينهىٰ عن شيء إلا وهو ضار، ولا يعذب إلا من يستحق، ولا يجازي بالخير إلا مَنْ مجازاته له واقعة موقعها. فأحكامه كلها عدل، وأفعاله، وتشريعاته، وجزاؤه. لا يضع الأمر إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه؛ لأنه حكيم خبير، والحكمة إنما [تتم وتتحقق][٢] بوصف العلم، فترى الرجل القُلّب الحكيم الخبير يفعل الأمر ويظنه سداداً ثم ينكشف الغيب عن أن فيه غيره، ويقول: يا ليتني لم أفعل، ولو لم أفعل لكان خيراً! كما قال الشاعر[٣]:

لَيتَ شعري وأَينَ مني ليتُ ... إن لَيْتاً وإن لَوّاً عَناءُ

ونهىٰ النبي عن (لو)، وبيّن أنها تفتح باب الشيطان، وقال الشاعر[٤]:

---

(١) في الأصل كلمة غير واضحة. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يستقيم بها الكلام.

(٢) في هذا الموضع كلمة غير واضحة. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) البيت لأبي زبيد الطائي، وهو في الشعر والشعراء ص ١٩١ وفي الكتاب لسيبويه (٢٦١/٣) فتح الباري (٢٢٦/١٣).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

ألامُ على (لوْ) ولو كنتُ عالماً بأذناب (لوْ) لم تفتني أوائله

فالله وحده هو الذي لا يجري عليه: (ليتني لم أفعل) أو: (لو فعلت كذا لكان كذا) لأنه عالم بعواقب الأمور، وما تؤول إليه، فحكمته لا اختلال فيها. بخلاف المخلوقين، فقد يفعل الإنسان بوصف يظنه حكمة لجهله بما تنكشف عنه الغيوب؛ ولذا كان الحكيم الحكمة التامة هو وحده جل وعلا. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ صيغة مبالغة؛ لأنه (جل وعلا) يحيط علمه بكل شيء.

واعلموا أيها الإخوان أن وصف ربنا لنفسه بأنه عليم هو من أكبر المواعظ، وأعظم الزواجر، فعلينا أن نتبعه، وهو واعظ أكبر، وزاجر أعظم، لا تكاد تخلو ورقة من المصحف منه، كأنه يقول: ﴿عَلِيمٌ﴾ اعلموا يا عبادي أني حكيم في تشريعي، وأني ما أمرتكم إلا بما فيه الخير لكم، وما نهيتكم إلا عمّا فيه الشر لكم، وأنني تقتضي حكمتي أن أُعذب من عصاني، وأُدخل الجنة من أطاعني، واعلموا أني عليم لا يفوتني شيء مما تفعلون، وما تقولون، وما تحدثون به أنفسكم ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [ق: الآية ١٩]. وقد قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: الآية ١٦].

وقد أطبق العلماء أنه لم ينزل من السماء إلى الأرض واعظ أكبر، ولا زاجر أعظم من واعظ العلم والمراقبة[١]، وقد ضرب العلماء لهذا مثلًا - ولله المثل الأعلىٰ - قالوا: لو فرضنا أن هذا البراح من الأرض فيه ملك قتّال للرجال، سفاك للدماء، عظيم الغضب والنكال إذا انتُهكت حرماته - ولله المثل الأعلىٰ - وحول هذا الملك زوجاته، وبناته، وجواريه، هل يخطر في قلب أحد من الحاضرين، يمكن أحداً منهم أن يغمز إلىٰ واحدة من تلك النساء أو يشير أو يهم بريبة؟ لا، وكَلّا. كلهم خاضعة أبصارهم، خائفة جوارحهم، غايتهم السلامة. ونحن نقول - ولله المثل الأعلىٰ - إن خالق السماوات والأرض أشد اطلاعاً، وأعظم بطشاً في سخطاته، وأشد فتكاً عند سخطه؛ لأن حماه في أرضه محارمه، وأنه لا تخفىٰ عليه خافية. فأهل هذا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

البلد وغيرهم من البلاد لو خافوا أن أمير البلد يعلم كل ما يفعلونه من الخسائس بالليل لباتوا متأدبين هائبين لا يعملون إلا خيراً.

وهذا ملك السماوات والأرض، العظيم الجبار، يُعلم خلقه بأنه مُطّلع علىٰ كل ما يفعلون من الخسائس، فهذا أكبر واعظ، فعليهم أن يعلموا مراقبة الله، ويعلموا أن الله عليم بما يعملون، فلا يفعلون إلا ما يرضيه، وهذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم كان جبريل عليه السلام يعرف قيمته حق المعرفة.

فجبريل يعلم أن الله خلق هذه الخلائق ليبتليها في خصوص إحسان العمل، حيث قال في أول سورة هود: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ـ ثم بيّن الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧] وقال في أول الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: الآية ٧] ثم قال في الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: الآية ٢] فعرفنا أنا خُلقنا لنُبتلىٰ في إحسان العمل، ومن عرف أنه خُلق ليُختبر في شيء تاقت نفسه إلىٰ أن يعرف النجاح في ذلك الشيء ما هو طريقه؟؟. فجاء جبريل يبين هذه النقطة العظيمة للصحابة، لما جاء في صورة الأعرابي، في حديث جبريل المشهور فقال: «يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أخبرني عن الإحسان؟» المهم الذي خُلقوا من أجل الاختبار فيه. فالنبي ﷺ بيّن له أن الإحسان لا يقع إلا بملاحظة هذا الزاجر الأكبر والواعظ الأعظم. فقال له: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(١)]. فعلينا جميعاً أن نعرف ربنا في القرآن من أن الله عليم خبير، يعلم خائنة الأعين، ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: الآية ١٦]. فهذا أكبر زاجر وأعظم واعظ، فعلىٰ المرء إذا همّ بشيء أن يراقب خالق السموات والأرض، ويعلم أنه حاضر يرىٰ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: الآية ٧] ليُحاسِب.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٢٩ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام: الآيات ١٢٩ ـ ١٣٤].

يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٩].

في هذه الآية الكريمة أوجه متقاربة من التفسير معروفة عند العلماء، لا يكذب بعضها بعضاً، بل كلها حق. قوله جلّ وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما سلّطنا شياطين الجن علىٰ شياطين الإنس حتى أغووهم واستكثروا منهم فأدخلوهم النار، كما تقدم في قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨] ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ في قوله: ﴿نُوَلِّى﴾ أوجه معروفة[(١)]:

أحدها: أن معنىٰ: نوليهم عليهم أي: نوليهم ولاية تسليط، أي: نسلط بعض الظالمين علىٰ بعض فيضره ويؤذيه، ثم ننتقم من الجميع.

ومَا مِنْ يدٍ إلا يدُ اللّهِ فوقَها ولا ظالم إلا سيُبلى بظالمِ[(٢)]

فكما سلطنا شياطين الجن على شياطين الإنس فأغووهم وأضروهم حتى أدخلوهم النار، كذلك نسلط بعض الظالمين علىٰ بعض، فننتقم من بعض الظالمين ببعضهم، ثم ننتقم من الجميع. واختار أبو جعفر بن جرير الطبري أن معنىٰ: ﴿نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ أي: نجعل بعضهم أولياء بعض، فالكافر ولي الكافر حيثما كان، وأينما كان[(٣)]. واستدل له بقوله: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨]

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/١١٨)، القرطبي (٧/٨٥)، البحر المحيط (٤/٢٢٢).

(٢) هذا البيت أورده ابن كثير في التفسير (٢/١٧٦).

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/١٢٠).

وكان قتادة يقول: ﴿نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: نتابعهم طائفة بعد طائفة في النار يوم القيامة(١)، كما سيأتي في قوله لمَّا ذكر الجن والإنس: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: الآية ٣٨] وكونه يوم القيامة بالموالاة في النار ليس بأظهرها، بل إنما هو تسليط بعضهم علىٰ بعض، فيؤذيه انتقاماً من الله من بعض الظلمة ببعض، أو يُولىٰ بعضهم لبعض؛ لأن الكافرين بعضهم أولياء بعض، كما صرحوا به لله في قوله: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨] وجاء في حديث أخرجه ابن عساكر: «**من سلط ظالماً أعانه الله عليه**»(٢) وهو من تولية بعض الظالمين علىٰ بعض. والحديث فيه غرابة معروفة (غريب). ولما سمع عبد الله بن الزبير بقتل عبد الملك للأشدق(٣) ذكر هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾(٤) يريد أن معناها عنده: أن الله ينتقم من بعض الظالمين ببعض. هذا جُلّ أقوال العلماء في معنىٰ: ﴿نُوَلِّي﴾.

وأما (الظالمين) فهو جمع تصحيح للظالم، والظالم: اسم فاعل الظلم، والظلم في لغة العرب: هو وضع الشيء في غير موضعه، وكل من وضع شيئاً في غير موضعه فهو ظالم في لغة العرب(٥)، ومنه يقولون للذي يضرب لَبَنَه قبل أن يروب: هذا ظالم؛ لأنه وضع الضرب في غير موضعه؛ لأن ضَرْبه قبل أن يروب

---

(١) المصدر السابق (١٢/١١٩).

(٢) لفظه: «من أعان ظالماً سلّطه الله عليه» وقد أخرجه ابن عساكر (تاريخ دمشق ٤/٣٤) (وانظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ١٤/١٥٣)، وأورده القرطبي في التفسير (٧/٨٥)، وابن كثير في التفسير (٢/١٧٦). وقال: «هذا حديث غريب» ا.هـ.
وانظر: كشف الخفاء (٢/٢٩٧)، مختصر المقاصد الحسنة ص ١٨٦، وقال: (ضعيف جداً) ا.هـ وضعيف الجامع رقم: (٥٤٥٣)، السلسلة الضعيفة رقم: (١٩٣٧) وقال: موضوع.

(٣) وهو: عمرو بن سعيد بن العاص. انظر ترجمته في مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور (١٩/٢١٤).

(٤) انظر: البحر المحيط (٤/٢٢٢).

(٥) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

يضيع زبده، وفي لُغَز الحريري[1] في مقاماته: هل يجوز أن يكون القاضي ظالماً؟ قال: نعم إذا كان عالماً. يعني بكونه ظالماً: أنه يضرب لبنه قبل أن يروب. وهذا المعنىٰ مطروق في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[2]:

وقائلة: ظَلَمتُ لكم سقائي وهل يخفَىٰ علىٰ العَكَد الظَّليم؟

(ظلمت لكم سقائي) تعني: أنها ضَرَبَتْه لهم فشربوه قبل أن يروب. وقوله: «وهل يخفىٰ علىٰ العَكَدِ الظليم» العَكَد: عَصَب اللسان، لا يخفىٰ عليه اللبن المضروب قبل أن يروب من غيره. ومنه بهذا المعنىٰ قول الآخر في سقاء له فيه لبن[3]:

وصاحبِ صدقٍ لم تَرِبْني شَكَاتُه ظلمتُ وفي ظَلْمي له عَامِداً أَجْرُ

يعني أنه سقى الناس به قبل أن يروب. وفي هذا الضرب هو يريد الأجر؛ لأنه صدقة منه؛ ولذا قال:

وصاحبِ صدقٍ لم تَرِبْني شَكَاتُه ظَلَمتُ، وفي ظَلمي له عامداً أجرُ

ومن هنا كانت العرب تسمي الأرض التي لم تُحفر، وليست محلّاً للحفر، إذا حُفِرَت: (مظلومة) لأن الحفر وُضِعَ في غير موضعه. ومنه علىٰ التحقيق قول نابغة ذبيان[4]:

إلاَّ الأَوَاريَّ لأياً ما أُبَيِّنُهَا والنُّؤْيُ كالحوضِ بالمظلومةِ الجَلَدِ

أي: بالأرض التي ليست محلّاً لأن يُحفر فيها، وحفر النؤي فيها حفر في غير محله؛ لأنها في فلاة من الأرض. هذا هو التحقيق، دون قول من قال: إن الأرض المظلومة: التي تأخر عنها المطر. هذا ليس بالصحيح في معنىٰ البيت. ومنه تقول العرب للتراب الذي يُخرج من القبر إذا حُفر، تقول له: ظليم، (فَعِيل) بمعنىٰ (مَفْعُول) أي: مظلوم؛ لأن العادة أن القبور إنما

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

تُحفر في المَحَالِّ التي ليس من شأنها أن يُحفر فيها سابقاً، وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر يذكر ميتاً(١):

فأصبحَ في غبراءَ بعد إشاحةٍ ... من العيشِ، مردودٍ عليها ظَلِيمُها

يعني بـ(غبراء): القبر و(مَرْدُود عليها ظَلِيمُها) أي: الأرض التي أُخرجت منها عند الحفر رُدّت عليها عند الدفن. هذا أصل الظلم في لغة الغرب، هو وضع الشيء في غير موضعه. وقد جاء في القرآن في موضع واحد معناه: النقص، وهو قوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: الآية ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئاً. إذا عرفتم أن الظلم في لغة العرب هو وضع الشيء في غير موضعه، اعلموا أنّ وضع الشيء في غير موضعه على نوعين:

أحدهما: أن يكون بالغاً في غاية القباحة والشناعة.

والثاني: أن يكون دون ذلك.

أما وضع الشيء في غير موضعه البالغ غاية الشناعة: فهو وضع العبادة في غير خالق السماوات والأرض، فمن عَبَد غير الذي خَلَقَه ورَزَقَه فقد وضع الأمر في غير موضعه، فهو أعظم الظالمين، وأخبث الواضعين للشيء في غير موضعه؛ ولهذا المعنى(٢) كثر في القرآن العظيم إطلاق الظلم مراداً به الكفر، وهو أخبث أنواعه، ومنه قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: الآية ٥٠] وقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٤] وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: الآية ١٠٦] وقال عن العبد الحكيم لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣] وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه فسر قوله في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأنعام ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] قال: معناه لم يلبسوا إيمانهم بشرك(٣).

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

النوع الثاني من أنواع الظلم: هو وضع الطاعة في غير موضعها، والمعصية في غير معصيتها[1] بما لا يؤدي إلى الكفر، كأن يزين لك الشيطان أن تعمل عملًا يخالف الشرع فتطيع الشيطان، وتعصي الله، وأنت عالم أنك عاص مجرم، وأنك فعلت قبيحاً، فهذا ظلم دون ظلم، ووضع للطاعة في غير موضعها، والمعصية في غير موضعها، وليس بكفر، وهو ظلم دون ظلم. ومنه بهذا المعنىٰ: قوله تعالىٰ في سورة فاطر لما نوَّه بشأن القرآن العظيم، وأنه أعظم فضل أُعطيه الخلق، وأن جميع الأمة التي أُعطي لها هي قد اصطفاها الله، وأن كلها في الجنة، قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: الآية ٣٢] وبين أن هذا النور المنزل لا يعطيه الله إلا لمن اصطفاه واختاره، وهو النصيب الأعظم الأكبر الذي يعطيه الله، ثم قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهذا ظلم دون ظلم، كالذي يعصي تارة ويطيع أُخرىٰ، من الذين قال الله فيهم: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: الآية ١٠٢] والعلماء يقولون: «عسى» من الله واجبة[2]. ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: إيراثنا الكتاب إياهم عن نبيهم هو الفضل العظيم عليهم منا؛ فلذا علَّمنا الله أن نحمده علىٰ هذا الفضل العظيم في قوله في أول سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ①﴾ [الكهف: الآية ١] أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً ما، لا في معانيه، ولا في ألفاظه، ولا في أحكامه، ولا في أخباره. أخباره كلها حق، صدق، وأحكامه كلها عدل، وهو في غاية الاستقامة، لم يجعل الله فيه اعوجاجاً ﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيماً في غاية الاستقامة. ثم لما ذكر هذه الأصناف الثلاثة التي انقسمت إليها أمة الكتاب الذي أُورثت إياه

---

(١) أي: تكون طاعته تبعاً للنفس، والهوى، والشيطان. وتكون معصية لله بدلًا من أن يعصي هواه وشيطانه.

(٢) انظر: ابن جرير (٨/٥٧٩) (١٤/١٦٧، ٤٤٧)، حجج القرآن ص٨٣، تفسير ابن كثير (٣/٣٩٧)، البرهان للزركشي (٤/٥٧، ١٥٨، ٢٨٨) الإتقان (٢/٢٠٤ ـ ٢٠٥)، الكليات ص٢٩٧، ٦٣٥، فتح البيان (٧/١١٠ ـ ١١١، ١٦٩).

بدأ بالظالم لنفسه في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ ثم وعد الجميع بوعده الصادق الذي لا يُخلف دخول الجنة، قال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: الآيات ٣٣ ـ ٣٥] فهذا الظالم المعدود ممن أُورثوا الكتاب، الموعود بالجنة، ظُلْمُه: ظُلْمٌ دون ظُلْم. وأصح التفسيرات في (الظالم)، و(المقتصد)، و(السابق)[1]، فيما يظهر:

أن (الظالم) هو من يطيع الشيطان مرة، ويعصيه أُخرىٰ، ويطيع الله مرة، وربما عصاه، من الذين قال الله فيهم: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: الآية ١٠٢].

والمقتصد: هو الذي يمتثل أوامر الله، ويجتنب نواهي الله، ولكنه لا يتقرب بزيادة الطاعات الغير الواجبة.

وأما السابق بالخيرات: فهو الذي يجتنب محارم الله، ويمتثل أوامر الله، ويستكثر من القربات والطاعات الغير الواجبة مرضاةً لله.

وفي آية فاطر هذه ـ التي ذكرناها استطراداً ـ فيها سؤال معروف، وهو أن يُقال: كيف بدأ الله بالظالم في هذه الآية، وقدّمه على المقتصد، وأخّر السابق بالخيرات، مع أنهما خير من الظالم، وخيرهم السابق بالخيرات، ثم المقتصد، ثم الظالم. فَلِمَ قدم هذا الذي غيره أفضل منه؟[2]

وللعلماء عن هذا التقديم أجوبة معروفة، منها:

أن هذا إظهار كرم من الله يستدعيهم بالقرآن بفضل آثاره على الأمة التي أُورثت إياه، فبدأ بالظالم لئلا يقنط، وأخّر السابق بالخيرات لئلا يعجب بعمله فيحبط.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

وقال بعض العلماء: أكثر أهل الجنة الخَطَّاؤون الذين يظلمون أنفسهم، يخالفون مرة ويُنيبون إلىٰ الله. وأما السابقون بالخير فقليل جداً، والمقتصدون أقل من الظالمين؛ ولذا لما سُئلت عائشة رضي الله عنها عن معنىٰ هذه الآية قالت: المقتصد الذي ربما خالف، مثلي ومثلك[1]. ـ جعلت نفسها من الظالمين ـ فقدّم الظالمين لأنفسهم لأنهم أكثر أهل الجنة، والأكثرية لها شأن، فعُلم من هذه الآية أن الظلم قد يكون ظلماً دون ظلم، والظلم معناه: وضع الشيء في غير موضعه، تارة يَعْظُم فيكون كفراً، وتارة يكون ظلماً دون ظلم فلا يكون كفراً. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ أي: نولي البعض منهم البعض الآخر، كما بينّا.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ وهذه التولية بينهم هي: تسليط بعضهم علىٰ بعض ليؤذيه ويضره، أو: جعل بعضهم ولياً للآخر أو قريناً له، كلها بسبب ما كانوا يعملونه، فعلىٰ أنها تسليط فهي انتقام منه لعمله السيىء، وعلىٰ أنها ولاية بعضهم البعض فهي بسبب اتحادهم بالعمل الخبيث والعمل السيء؛ لأن الخبيث ولي الخبيث، والكافر ولي الكافر، والناس يوم القيامة أزواج، أي: أصناف، كل خبيث يُحشر مع من يطابقه من الخبثاء. كما سيأتي في قوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: الآية ٢٢] أي: أصنافهم وأشكالهم الملائمين لهم بالخبث ـ والعياذ بالله ـ. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٩].

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٠].

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ص ٢٠٩ رقم(١٤٨٩)، والحاكم (٤٢٦/٢)، والطبراني في الأوسط رقم (٦٠٩٠) (٥٦/٧)، وذكره السيوطي في الدر (٢٥١/٥) وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه. وسنده ضعيف جداً.

هذا يُقال لهم يوم القيامة، يُقال لأهل النار يوم القيامة من الجن والإنس: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ يا جماعة الجن وجماعة الإنس، الذين طغيتم وكفرتم في دار الدنيا حتى دخلتم النار، وقيل لكم: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨] ألم تصلكم في دار الدنيا وقت إمكان الفرصة رسلٌ ينذرونكم من هذا اليوم، ويحذرونكم من العذاب الذي أنتم فيه، ويبينون لكم طرق النجاة من هذا قبل أن تضيع الفرصة، فتكونوا قد حذرتم هذا العذاب، ونجوتم مع من نجىٰ؟ وهذا معنىٰ قوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾. قال بعض[1] علماء التفسير: كل فعل مضارع في القرآن مجزوم بـ(لم) إذا تقدمته همزة الاستفهام؛ فيه وجهان معروفان من التفسير في جميع القرآن:

أحدهما: أن الاستفهام استفهام تقرير، وهو الظاهر في هذه الآية. ومعنىٰ استفهام التقرير: هو الاستفهام الذي لا يريد المخاطِب به أن يُفهِم الشيء، وإنما يريد أن يَحمِل المخاطب علىٰ أن يُقر ويقول: بلىٰ، ويُقر بالحقيقة، كقول جرير لعبد الملك بن مروان[2]:

ألستم خيرَ من ركبَ المطايا ... وأندىٰ العالمينَ بطونَ راحِ

مقصود جرير أن يقول عبد الملك: بلىٰ، فيقول: هذه [منزلتكم][3] ما دمتم بهذه المثابة، هذا قصده.

الثاني: أن يَخْتَلِج المُضارَعة مَاضَوِيَّة، وينقلب النفي إثباتاً، فيصير المضارع المنفي بـ(لم) معناه الماضي المُثْبَت، كقوله: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾ [الانشراح: الآية ١] معناه: شرحنا لك صدرك، وقوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨﴾ [البلد: الآية ٨] جعلنا له عينين، ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ أتاكم رسل منكم. وطالب العلم يعرف أن انقلاب المُضارَعة مَاضَوِيَّة أنه هنا واضح لا إشكال فيه؛ لأن لفظة (لم) حرف قلب، تقلب المضارع من معنىٰ الاستقبال إلىٰ معنىٰ الماضي. وهذا معروف، كقولك: «لم يأت

(١) (٢) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

(٣) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

زيد». بمعنىٰ: ما جاء زيد في الماضي. وهذا معروف، فقلب المضارع ماضَوِيّاً ظاهر، ولكن قلب النفي إثباتاً هو الذي يُشكل علىٰ طالب العلم، وإيضاحه علىٰ هذا التفسير: أن همزة الاستنكار المتقدمة علىٰ حرف (لم) أصلها حرف إنكار، فهو مشتمل علىٰ معنىٰ النفي، ويتسلط النفي الكامن في الهمزة علىٰ النفي الصريح في (لم) فينفيه، ونفي النفي إثبات، ويرجع النفي إلىٰ الإثبات، والمُضَارَعَة إلىٰ المَاضَوِيَّة. ومعنىٰ القولين واحد.

ومعنىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يجئكم في دار الدنيا رسل منكم. الرُّسل: جمع الرسول، والرسول: (فَعُول) بمعنىٰ (مُفْعَل) والمراد بهم هنا: من أرسله الله، فالرسول ـ طبعاً ـ يكون من الإنس، ومن الملائكة، كما سيأتي في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: الآية ٧٥] أما الجن فسنذكر الخلاف فيهم ـ الآن ـ المعروف عند العلماء، فالرسل: جمع رسول، وهو (فَعُول) بمعنىٰ (مُفْعَل) أي: مُرسل، وأصله مصدر، وإتيان المصادر علىٰ (فَعُول) قليل جداً، كالرسول، فأصله من معنىٰ الرسالة، وكالقبُول، والوَلُوع، وكون الرسول أصله مصدر فيه فوائد، تفيد في التفسير؛ لأن أصل الرسول مصدر، تقول العرب: «أرسلتُه رسولاً». أي: رسالة. و«ما أرسلتُه برسول». أي: برسالة: فأصله: مصدر، ومنه قول الشاعر[1]:

لقد كذبَ الواشون ما فُهْتُ عندهم   بقولٍ ولا أرسلتُهُم برسولِ

أي: برسالة. والمصدر إذا نُعت به ـ بأن أُجري مجرى الوصف ـ جاز إفراده، وربما جاز جمعه وتثنيته نظراً إلىٰ وصفيته العارضة[2]. وتارة يُنظر إلىٰ أصله وهو المصدر، فلا يُجمع ولا يُثنىٰ، وتارة يُنظر إلىٰ ما عرض له من الوصفية فيُجمع ويُثنىٰ. وبهذا التقرير يزول الإشكال في قوله عن موسىٰ

(١) البيت لكُثيِّر عزة. وهو في ديوانه ص١٧٦ اللسان (مادة: رسل) (٧١/٣)، ولفظه في الديوان:

لقد كذب الواشون ما بُحْتُ عندهم   بِلَيْلى ولا أرسلتُهم برسولِ

مشاهد الإنصاف ص ٩٩ وفيه (بِسِرٍّ) بدلاً من (بقول).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

وهارون في الشعراء: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: الآية ١٦] وفي طه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: الآية ٤٧] فَثَنَّىٰ في آية، وأفرد في أخرىٰ، وهما رجلان: موسىٰ وهارون، فإفراد الرسول نظراً إلىٰ أصله وهو المصدر، وتثنيته في قولهم: ﴿إِنَّا رَسُولَا﴾ نظراً إلىٰ الوصفية العارضة له؛ ولذلك جمع الرسل هنا في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ وفي قوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٣] فيجوز إطلاق الرسول مراداً به الجمع أيضاً، كما أُريد به الاثنان، لكن إطلاق الرسول مراداً به الجمع ما جاء في القرآن، وإنما جاء في كلام العرب بكثرة، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي في رائيته المشهورة[١]:

أَلِكْنِي إِليها وخَيْرُ الرسولِ أَعلَمُهم بنواحي الخَبَر

فرد علىٰ الرسول ضمير الجمع؛ لأن أصله مصدر.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ ظاهر قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ أن من الإنس رسلاً ومن الجن رسلاً، هذا هو المتبادر من الآية؛ ولأجل هذا الظاهر تمسك قوم قليلون بأن الله بعث من الجن رسلاً إلىٰ الجن[٢]. وزعم بعضهم أنه ما أرسل للجن منهم إلا رسولاً واحداً، واسمه يوسف. والذي عليه جماهير العلماء، خلفاً وسلفاً، أن الرسل جميعهم إنما هم من الإنس، وإنما قال: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ لمجموع الإنس والجن، نظراً إلىٰ أن العرب تطلق المجموع وتريد بعضه. أي: من مجموعكم الصادق بالإنس دون الجن. وهو كثير في القرآن، وفي كلام العرب[٣]، فمنه في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: الآيتان ١٥، ١٦] أي: في مجموعهن الصادق بواحدة منها. وأظهر الآيات الدالة عليه في القرآن قراءة حمزة، والكسائي[٤]: ﴿**وَلاَ تَقْتُلُوهُم عِندَ المَسْجِدِ**

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من هذه السورة.

(٢) في هذه المسألة راجع: ابن جرير (١٢/١٢١)، القرطبي (٧/٨٦)، ابن كثير (٢/١٧٧)، (٤/١٧٠) البحر المحيط (٤/٢٢٢)، أضواء البيان (٢/٢١٠).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

الحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ [البقرة: الآية ١٩١] لأن المرادَ هنا: بأنه لا يصح أن تقول: «فإن قتلوكم ومتم وخرجتم من الدنيا، فاقتلوهم» [وعلى هذا المعنى يُحمل قول الشاعر:

فـإن تـقـتـلـونـا عـنـد حـرة واقـم فلسنا على الإسلام أول من قُتل][1]

هو حي يتكلم، ويقول: «فإن تقتلونا» يعني: تقتلوا بعضنا. هذا هو المعروف في كلام العرب، أي: من مجموعكم الصادق بالإنس، بناء علىٰ أن الجن لم تُرسل منهم رسل.

وجمع بعض العلماء بين القولين فقال: رسل الإنس هم الذين يرسلهم الله بواسطة الملك، ورسل الجن هم الذين ينذرون قومهم بما سمعوا من الأنبياء، فهم رسل الرسل/ ولذا أطلق عليهم (الرسل) هنا. ١٧/ب
ويطلق عليهم (النُّذر)، كما يأتي في قوله: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩﴾ [الأحقاف: الآية ٢٩] فالنُّذر كأنهم جاؤوهم منذرين مُرْسَلين من النبي ﷺ، وقد ثبت في الأحاديث ـ وكما يأتي في سورة الجن ـ أن الجن جاؤوا النبي ﷺ وكادوا يكونون عليه لبداً، وأنه دعاهم إلىٰ الإسلام، وعلمهم الدين، وأمرهم أن يبلغوا قومهم. ومن هنا قال جمهور العلماء: الرسل من الإنس، والجن ليسوا برسل [وإنما يكون منهم نُذر][2] إلىٰ قومهم، كما قال: ﴿وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

وقد أجمع جميع المسلمين أن نبينا ﷺ مرسل إلىٰ الجن والإنس معاً، وأنه بلّغ الرسالة لمن استطاع أن يبلغه من الجنسين، وأمر كُلّا منهم أن يبلغ من لقي، وقال: «**فليبلغ الشاهد الغائب**»[3]، وقد يأتي صريحاً في سورة الرحمٰن لما قرأ علىٰ الجن سورة الرحمٰن، وقال: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن

---

(١) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) في هذا الموضع كلام غير واضح. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) هذه الجملة جزء من خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، وسيأتي عند تفسير الآيتين (٨٩ ـ ٩٠) من سورة التوبة.

تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرحمٰن: الآية ٣٣] كلما قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرحمٰن: الآية ٣٢] والتثنية للجن والإنس، والجن يقولون: ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب[1]. وذكر الله كثيراً من قصصهم في سورة الجن، وبَيَّن أنهم ما كانوا يظنون أن الله يُمَكِّنُ أحداً أن يفتري عليه، قالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الجن: الآية ٥] وبينوا أن منهم طيبين وخبثاء: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن: الآية ١١] وتحصَّل أن قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ جمهور العلماء علىٰ أن الرسل كلهم من الإنس، وأنه أُطلق المجموع مراداً بعضه، لا أن الجن رسل أُرسلوا إلىٰ قومهم. وخالف بعض قليل من أهل العلم وقالوا: أُرسلت للجن رسل منهم لظاهر هذه الآية الكريمة، قالوا: ولأن كون الرسل منهم أدرىٰ بأحوالهم، وأقدر علىٰ تبليغهم، وذلك ليس بقاطع؛ لأن النبي ﷺ لما جاءه جن نصيبين تكلم معهم، وخاطبوه في كل ما يفيد، وأباح لهم ما أباح لهم من الزاد، كما هو معروف في الأحاديث الصحيحة، ودعاهم إلى الإسلام[2]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾.

---

(١) ورد ذلك في حديث مرفوع أخرجه الترمذي في التفسير، باب «ومن سورة الرحمٰن»، حديث رقم: (٣٢٩١) (٥/٣٩٩)، والحاكم (٢/٤٧٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي. من حديث جابر رضي الله عنه. وللحديث شاهد من حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) عند البزار (كشف الأستار ٣/٧٤)، وابن جرير (٢٧/١٢٣ - ١٢٤). وانظر: السلسلة الصحيحة رقم: (٢١٥٠)، صحيح الترمذي (٣/١١٢).

(٢) جاء في وفد نصيبين من الجن عدة أحاديث، منها:
١ - حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، عند البخاري في مناقب الأنصار، باب ذكر الجن، حديث رقم: (٣٨٦٠)، (٧/١٧١).
٢ - حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، عند الطبري في التفسير (٢٦/٣٠، ٣١، ٣٣).
٣ - حديث الزبير بن العوام (رضي الله عنه)، عند الطبراني في الكبير (١/١٢٥) وحسنه الهيثمي في المجمع (١/٢١٠).
٤ - حديث ابن مسعود (رضي الله عنه)، وقد جاء بروايات وطرق كثيرة بألفاظ متفاوتة، وممن أخرج حديثه: الإمام أحمد في المسند (١/٤٥٨)، وابن جرير في التفسير (٢٦/٣٢)، والطبراني في الكبير (١٠/٧٧، ٧٩، ٨٠) وابن أبي عاصم في السنة (٢/٦١١)، والخطيب في تاريخه (٢/٣٩٨). وللوقوف على بعض روايات أحاديث استماع الجن للنبي ﷺ انظر: =

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ معنى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ أي: يقرؤون عليكم آياتي التي أنزلت، ويبينون لكم ما فيها من العقائد، ومن الحلال والحرام، ومما أمرت به وبيّنت أنه يُدْخِل الجنة، ومما بينت في آياتي أنه سبب لدخول النار - وهي التي أنتم فيها - وحذرت جميعكم على ألسنة الرسل من ذلك الفعل الذي يكون سبباً لدخولها.

وقد أجمع جميع العلماء على أن الكفرة من الجن في النار، هذا لا نزاع فيه بين العلماء، والآيات الدالة عليه كثيرة في القرآن العظيم، كقوله جلّ وعلا: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: الآية ٣٨] فصرح بأن أُمماً منهم كثيرة في النار في آيات كثيرة، وقالوا لقومهم: إنهم إن لم يجيبوا داعي الله يعذبهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم﴾ إلى أن قال: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: الآية ٣١] فلا خلاف أن الجن يُعذب كافرهم وعاصيهم، كما يُعذب كافر الإنس وعاصيهم، وإنما الخلاف المشهور بين العلماء: هل الجن يدخلون الجنة أو لا يدخلون الجنة؟؟[1] وهذا خلاف معروف قديم بين العلماء، ويُروى عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله أنه من الطائفة الذين يقولون: لا يدخل الجن الجنة، وأن الجنة لا يدخلها أحد من الجن. وغالب ما استدل به هؤلاء: أن الله جعل جزاءهم هو الإجارة من العذاب فقط، وغفران الذنوب فقط، حيث قال: ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: الآية ٣١] ولم يقل: ويدخلكم الجنة. بخلاف الإنس، فإنه إذا ذُكر ثواب الطاعة تُذكر الجنة جزاء لها، ولم يذكر الله في القرآن جزاءً للجن إلا غفران الذنوب، والإجارة من العذاب الأليم. ومن هنا قال من قال: إن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة.

والتحقيق الذي عليه جمهور العلماء: أنهم كما أن كافرهم في النار فمؤمنهم المطيع في الجنة، وقد دلت على هذا بعض ظواهر آيات، ومنها قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: الآية ٥٦] فعُلم أن في

دلائل النبوة للبيهقي (٢/٢٢٥ - ٢٣٣)، مجمع الزوائد (٨/٣١٣ - ٣١٤)، فتح الباري (٧/١٧١ - ١٧٢)، الدراية (١/٦٣ - ٦٧)، نصب الراية (١/١٣٩ - ١٤٧).

(١) انظر: القرطبي (١٦/٢١٧ - ٢١٨)، ابن كثير (٤/١٧٠ - ١٧١) طريق الهجرتين ٤١٧ - ٤٢٧، أضواء البيان (٧/٤٠٢ - ٤٠٧) دفع إيهام الاضطراب ٢٦٣ - ٢٦٨.

الجنة جاناً يطمثون النساء، ومن أصرح الأدلة في ذلك: قوله تعالىٰ مُخَاطِباً الجن والإنس: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: الآية ٤٦] ثم قال مبيناً دخول الجن والإنس فيه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمٰن الآية ٤٧]. فلو لم يكن من الآلاء على الجن دخولهم الجنة لما قال فيهم وفي الإنس معاً: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ بعد قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ فدل قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ الصادق علىٰ الجن والإنس، علىٰ أن قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ أي: للجن والإنس. وهذا هو الأظهر.

وهذا معنىٰ قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾. (ينذرون) هو مضارع فعل الإنذار. والإنذار في لغة العرب: هو الإعلام المقترن بتخويف وتهديد، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً، وكل إعلام اقترن بتخويف وتهديد فهو المسمىٰ بالإنذار[(١)].

ومعنىٰ: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: يُعلمونكم بما في هذا اليوم من الأهوال والأوجال وشدّة عذاب النار، في حال كونهم مهددين لكم ومخوفين من الأعمال التي تُؤدي إليه. وهذا [معنى][(٢)] قوله: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ وعبّر عن اليوم باللقاء لأنهم يُلاقون ما فيه من الأهوال والأوجال، وعادة العرب أن تذكر اليوم ومرادها ما فيه من البلايا والأوجال[(٣)]، كقول نبي الله لوط: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: الآية ٧٧] والزمن بنفسه كسائر الأزمان، وإنما المراد ما فيه؛ ولذا قال تعالىٰ: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: الآية ١٧] والذي يجعل الولدان شيباً إنما هو ما فيه من الأهوال الأوجال؛ لأن نفس اليوم ظرف من الظروف كسائر غيره من الظروف. ومنه قول الشاعر[(٤)]:

وكنت لزاز خصمكَ لم أُعَرِّد ... وقد سلكُوكَ في يومٍ عَصِيْبِ

(١) انظر: المفردات (مادة: نذر) ٧٩٧، القاموس (مادة: النذر) ٦١٩، الأضواء (٢/٢٨٨).

(٢) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) انظر: المزهر (١/٣٣٦).

(٤) البيت لعدي بن زيد. وهو في تفسير ابن جرير (١٥/٤٠٩)، تاريخ دمشق (٤٠/١١٩)، الدر المصون (٦/٣٦١). وقوله: «لزاز» أي: ملازم. وقوله: «لم أعرد» أي: لم أُحجم.

(. . .)[١] هذه عادة العرب والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

لما وبخهم الله هذا التوبيخ، وقرعهم هذا التقريع، أقرّوا نادمين حيث لا ينفع الندم، فبين (جلّ وعلا) في سورة الملك أن ذلك الاعتراف في الوقت الذي لا ينفع فيه الاعتراف والندم ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: الآية ١١]. ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ أقروا في ذلك الموضع على رؤوس الأشهاد ﴿شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٠] أن الرسل بلغونا، وحذرونا، وأنذرونا لقاء هذا اليوم، فحذرونا مما نحن فيه من البلايا غاية التحذير، لكنهم ـ والعياذ بالله ـ عَصَوا، وأَبَوا وتمردوا، فأقروا بالحقيقة كما هي.

ثم بيّن الله السبب الذي كذبوا به الرسل ولم يعتنوا بالإنذار، قال: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ لأن الدنيا دار الغرور، تغر الجاهل فيشتغل بشهواتها ولذاتها وراحتها عن موجبات الجنة؛ لأن ما يُدخل الجنة فيه تكاليف شاقة، تشقّ على من لم يهدهم الله، وإن الصلاة يقول الله فيها: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: الآية ٤٥] فالرجل يكون عزيزاً مطاعاً، فإذا دخل الإسلام كان واحداً من عامة الناس، مأموراً مرؤوساً من غيره، فيشق هذا عليه، وكذلك أوقات التكاليف يتكاسلون عنها ويختارون عنها لذات الدنيا، فالذي يصوم، ويجوع، ويعطش، يفضل على ذلك أن يأكل، ويشرب، ويجامع، إلى غير ذلك من لذات الدنيا، فلذات الدنيا عاجلة، وتشغل الإنسان عن معاده، حتى يضيع عمره فيما لا ينبغي، فيدخل النار، فيندم حيث لا ينفع الندم. وهذا [معنى][٢] قوله: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾والعياذ بالله ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ في دار الدنيا، مع أن الرسل أنذرتهم وحذرتهم الكفر، وقد نص الله على أنهم شهدوا على أنفسهم بالدنيا بالكفر، والظاهر أنها شهادة صريحة منهم، ونص على شهادتهم في دار الدنيا بالكفر أيضاً حيث قال في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ

---

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، والكلام مستقيم بدونها.

(٢) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: الآية ١٧] وهذه الشهادة قيل: هي شهادة لسان الحال، وقيل أيضاً: شهادة مقال[١]، ونظيره قوله في العاديات: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ [العاديات: الآيتان ٦، ٧]. بناءً على التحقيق من أن الضمير عائد إلى الإنسان[٢].

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: الله في آية الأنعام هذه بيّن أنهم لما سُئلوا اعترفوا، وهذا جاء في مواضع كثيرة ـ هذا الاعتراف ـ كقوله في سورة الزمر التي وصف فيها يوم القيامة كأنك تنظر إليه: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: الآية ٦٩] وقال فيه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ يعنون في دار الدنيا ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الزمر: الآية ٧١] ولما قالوا في سورة المؤمن لخزنة النار: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝٤٩ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝٥٠﴾ [غافر: الآيتان ٤٩، ٥٠] وهذه الآيات تدل على أنهم أقرّوا بما كانوا فيه. ونظيرها قوله في النساء: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: الآية ٤٢] بل يُقرون بكل ما فعلوا. قد يقول طالب العلم: هذه الآيات وأمثالها تدل على أنهم أخبروا بالواقع ففي القرآن آيات أُخر تدل على إنكارهم وحلفهم على الإنكار، كقوله عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٣] ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ﴾ [النحل: الآية ٢٨] وقوله جلّ وعلا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ﴾ [غافر: الآية ٧٤]. فهذه الآيات تدل على إنكارهم لِمَا جاؤوا به من الكفر، وهذه تدل على إقرارهم. وقد سُئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾

---

(١) انظر: فتح القدير (٣٤٤/٢).

(٢) انظر: أضواء البيان (١٢/١)، قواعد التفسير (١١٦/١، ٢٧٩، ٤١٩).

[النساء: الآية ٤٢] مع قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٣] فأجاب ترجمان القرآن عبد الله بن عباس قال: إنهم إذا رأوا أهل الشرك لا خلاص لهم قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فعند ذلك يختم الله على ألسنتهم وتشهد أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون[1]. فهذه الأسرار التي يقولها ويفصح عنها إنما هي أيديهم، وألسنتهم، وجلودهم، كما قال: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت: الآية ٢٢] وقال: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: الآية ٢١] ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: الآية ٦٥] قال ابن عباس: فالاثنان من جهة اللسان، والإقرار والإيضاح من جهة الجوارح، والجلود، والأرجل، والأيدي.

وقال بعض العلماء: وجه الجمع بين الآيات: أن يوم القيامة يوم طويل؛ لأن الله قال فيه: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: الآية ٤] ولا خلاف بين العلماء أن اليوم الذي قيل فيه خمسين ألف سنة أنه يوم القيامة[2]. أما يوم الألف السنة في الحج، ويوم الألف السنة في السجدة، ففيهما أقوال غير هذا[3]؛ لأن الله يقول في الحج: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: الآية ٤٧] ويقول في السجدة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: الآية ٥] وقال في سورة المعارج: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المعارج: الآيتان ٤، ٥] ويوم الخمسين ألف سنة: هو يوم القيامة بلا خلاف[4]، إلا أن العلماء ذكروا أنه

---

(١) أخرجه ابن جرير (٨/٣٧٣ ـ ٣٧٤)، وهو في الدر المنثور (٢/١٦٤).

(٢) ذكر فيه ابن كثير (رحمه الله) أربعة أقوال. انظر: تفسير ابن كثير (٤/٤١٨ ـ ٤٢٠)، القرطبي (١٨/٢٨١ ـ ٢٨٣).

(٣) انظر: القرطبي (١٢/٧٨) (١٤/٨٧)، ابن كثير (٣/٢٢٨، ٤٥٧)، أضواء البيان (٥/٧١٨).

(٤) في الجمع بين هذه الآيات انظر: الأضواء (٦/٥٠٣).

إنما يطول هذا الطول على الكافرين خاصة أما على المؤمنين فهو كنصف نهار، وجاءت آية في سورة الفرقان تدل على ذلك، وهي قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: الآية ٢٤] لأنه سمّاه ﴿مَقِيلًا﴾ والمقيل: الاستراحة بالقيلولة في وسط النهار[١]. وأتبع هذه الآية بأن هذا لخصوص المؤمنين دون الكافرين حيث قال بعد آية الفرقان هذه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: الآية ٢٦] وقال: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: الآيتان ٩، ١٠]. فيُفهم منه أنه على المؤمنين يسير. فإذا كان على الكافرين مقداره خمسين ألف سنة فهذه أزمان متطاولة ومواطن متعددة، ففي بعضها ينكرون، وفي بعضها يقرون، ومثل هذا الإقرار الذي أقروا به في بعض المواطن، والإنكار الذي أنكروا به في بعض المواطن، والكلام إذا كان في أزمنة مختلفة لا تناقض بينه أبداً؛ لأن هذا الإثبات في وقت، والنفي في وقت آخر، فلا تناقض بين الآيات[٢]. وهذا معنى قوله: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام: الآيات ١٣١ ـ ١٣٤].

يقول الله جلّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣١].

---

(١) انظر: القرطبي (٢٢/١٣)، دفع إيهام الاضطراب ص ٢٢٢، أضواء البيان (٣٠٨/٦ ـ ٣١١).

(٢) انظر: ابن عطية (١٥٣/٦)، البحر المحيط (٢٢٣/٤)، دفع إيهام الاضطراب ص ٨١، ٢٢، أضواء البيان (٧١٨/٥)، (٣٠٨/٦ ـ ٣١١).

اختلفوا في موقع (ذلك) من الإعراب[١]، فعن سيبويه: أنها تتعلق بمحذوف، جملة ـ مبتدأ وخبر ـ أي: الأمر ذلك الذي قصصنا عليكم. وذهب بعضهم إلىٰ أنها في محل نصب، أي: فعلنا ذلك؛ لأجل أن لم يكن ربك مهلك القرىٰ بظلم. و (أنْ) هنا زعم بعضهم أنها المصدرية الناصبة للمضارع. وزعم بعضهم أنها المُخَفَّفة من الثقيلة. والمعنىٰ متقارب[٢].

ومعنىٰ الآية الكريمة: ذلك الذي ذكرنا من أنَّا أرسلنا إلىٰ معاشر الجن والإنس رسلنا في دار الدنيا لينذروهم ويحذروهم حتىٰ شهدوا علىٰ أنفسهم أن الرسل بلغتهم في دار الدنيا، وأنهم كانوا كافرين، ذلك الإنذار والإعذار علىٰ ألسنة الرسل في دار الدنيا واقع من أجل أن ربك لم يكن ليهلك القرىٰ بظلم، أي: ليهلكها بظلمها بكفرها ومعاصيها. والقول الذي يقول: «ليهلك القرىٰ بظلمه لها قبل أن ينذرها» ليس علىٰ الصحيح، وإنما التحقيق أن المعنىٰ: ذلك الإنذار والإعذار علىٰ ألسنة الرسل في دار الدنيا؛ لأجل أن ربك لم يكن ليهلك القرىٰ بظلمها، أي: بكفرها ومعاصيها، والحال: هم غافلون، لم يُنبهوا برسول ولا بكتاب. بل لا بد من إزالة الغفلة في دار الدنيا بإرسال الرسول والكتاب[٣].

وهذه الآية الكريمة صرح الله فيها بأنه لم يكن ليهلك القرىٰ بظلمها وهي غافلة غير مُنَبَّهَة علىٰ ألسنة الرسل، مُنْذَرَة مُحَذَّرة علىٰ ألسنة الرسل.

فمعنىٰ قوله: ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أي: غافلون عن حجج الله وتوحيده، لم يُنبَّهوا عليها بإنذار الرسل، بل لا بد من إنذار الرسل. والنفي هنا في قوله: ﴿لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ مُنْصَبٌّ علىٰ الحال؛ ولأن المنفي هنا إهلاكهم في حال كونهم غافلين، فالنفي مُنْصَبّ علىٰ الحال لا علىٰ إهلاك القرىٰ؛ لأن

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/١٢٥)، القرطبي (٧/٨٧)، البحر المحيط (٤/٢٢٤)، الدر المصون (٥/١٥٥).

(٢) انظر: المصادر السابقة.

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/١٢٤)، القرطبي (٧/٨٧)، البحر المحيط (٤/٢٢٤)، ابن كثير (٢/١٧٧ ـ ١٧٨). طريق الهجرتين ٤١٣.

القرىٰ أُهلكوا، فالنفي مُنْصَبٌ علىٰ الحال[1]، ونظيره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان: الآية ٣٨] فالنفي منصب علىٰ اللعب الذي هو الحال لا علىٰ خلق السماوات والأرض.

وهذه الآية الكريمة تدل علىٰ أن الله لن يعذب قوماً لا بهلاك مستأصل في الدنيا، ولا بعذاب في الآخرة، حتىٰ ينذرهم علىٰ ألسنة رسله في دار الدنيا، ويكذبوا. والآيات الدالة علىٰ هذا المعنىٰ كثيرة، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] فبين (جلّ وعلا) أن حكمة إرسال الرسل هي قطع حجة البشر عن خالقهم، حيث قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: الآية ١٦٥]. وهذه الحجة التي كانت تكون للناس علىٰ الله لو لم يرسل الرسل، أوضحها في أخريات (طه)، وأشار لها في (القصص)، قال في (طه): ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: الآية ١٣٤] وقال في (القصص): ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص: الآية ٤٧] فهذه الآيات جاءت آيات تُصدقها، أن الله ما عذب أحداً بالنار إلا بعد إنذارهم في دار الدنيا علىٰ ألسنة الرسل، ومن الآيات الدالة علىٰ ذلك قوله تعالىٰ في سورة (الملك): ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: الآيتان ٨، ٩] وقوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا﴾ إن كلمة (كلما) تعمّ أزمنة الإلقاء كلها، فتُعمّ جميع المُلْقَيْن من الأفواج في النار، أنهم جاءهم نذير في الدنيا. ونظيرها من الآيات أن الله لما قسم أهل المحشر في سورة الزمر قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ و (الذين) موصول، وقد تقرر في علم الأصول[2] أن الموصولات من صيغ العموم؛ لأنها تعمّ كل ما تشمله

(١) انظر: أضواء البيان (٢/١١١).

(٢) انظر: شرح الكوكب المنير (١/١٢٣)، نشر الورود (١/٢٥١).

صلاتها، قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وظاهر النص أنه شامل لكل من صدق عليه اسم الكافر. ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: الآية ٧١] فمعنىٰ قولهم: (بلىٰ) أي: قد جاءنا نذير، والله ذكره عنهم في معرض التصديق والتسليم، ونظيره في سورة (فاطر) أنه لما قسم الأمة إلىٰ من أورثوا القرآن، وقسمهم إلىٰ الطوائف الثلاثة: مقتصد، وسابق بالخيرات، وظالم، ووعد جميعهم الجنة، لم يبق إلا الكفار، قال في جميعهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ [فاطر: الآيتان ٣٦، ٣٧] وقوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ راجع لجميع الذين كفروا، المذكورين في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ ونظيرها من الآيات قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ﴾ [غافر: الآيتان ٤٩، ٥٠] أي: جاءتنا رسلنا بالبينات، والآيات بنحو هذا كثيرة.

وهذه الآيات تدل علىٰ أن أهل الفترة معذورون؛ لأن الله يقول: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾ [الأنعام: الآية ١٣١] ويقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] وتمسك بظاهر هذه الآيات جماعات من أهل العلم.

وذهب جماعات آخرون، إلىٰ أن الكفر وعبادة الأوثان لا يُعذر فيه أحد، وأن كل من مات كافراً يعبد الوثن، أنه في النار، وإن لم يأته نذير. واستدلوا بظواهر آيات من كتاب الله، وبأحاديث جاءت عن النبي ﷺ.

والحاصل أن هذه المسألة مسألة اصطدمت فيها عقول الفحول، واختلف فيها العلماء، وجاء كل منهم بحجج وأدلة، وسنذكر طرفاً من أدلة

الجميع، ومناقشة أدلتهم، ثم نذكر ما يرجحه الدليل إن شاء الله تعالىٰ[١].

أما الذين قالوا: إن من مات في الفترة معذور، فدلالة قوله: الآيات - التي ذكرنا - القرآنية، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣١] ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: الآية ١٦٥] ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: الآية ١٣٤] وأن الله بيّن أنه ما أدخل أحداً النار إلا بعد الإنذار والإعذار في دار الدنيا ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الملك: الآيتان ٨، ٩] إلىٰ آخر ما ذكرنا من الآيات.

أما الذين قالوا: إن الكفر وعبادة الأوثان لا يُعذر فيها أحد، وأن كل من مات كافراً يعبد الأوثان فهو في النار - فاعلموا أولًا: أن الفروع كالصيام، والحج، والصلاة، والواجبات، والمحرمات، فهذا محل إجماع بين العلماء أن الله لا يؤاخذ به أحداً إلا بعد إبانة الرسل، وإنما الخلاف في شهادة أن لا إله إلا الله وعبادة الأوثان من دون الله. هذا محل خلاف العلماء، الذين قالوا: إن كل من مات مشركاً بالله يعبد الأصنام أنه في النار، ولو لم يأته نذير - استدلوا بظواهر آيات دلت علىٰ ذلك، وبأحاديث، وناقشهم فيه خصماؤهم مناقشات سَنُلم ببعضها. قالوا: قال الله: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: الآية ١٨]

---

(١) في هذا المسألة راجع: مجموع الفتاوى (١٧/٣٠٨ - ٣١٠) أحكام أهل الذمة (٢/٦٤٨ - ٦٥٦)، لوامع الأنوار البهية (٢/٣٩٨)، تفسير ابن كثير (٣/٢٨ - ٣٢) دفع إيهام الاضطراب ١٧٨ - ١٨٦، نثر الورود (١/٤٥)، أضواء البيان (٣/٤٧١ - ٤٨٤)، نواقض الإيمان الاعتقادية (١/٢٩٤ - ٣٠١)، الجهل بمسائل الاعتقاد وحكمه ٢٠٩ - ٢١٥، منهج الجدل والمناظرة (٢/٨٢٧).
ومما يتصل بهذا الموضوع: مسألة (أطفال المشركين)، وقد أطال الكلام عليها الحافظ ابن عبد البر في التمهيد (١٨/٩٦ - ١٤١)، وفي الاستذكار (٨/٣٩٠ - ٤٠٨)، وابن القيم في طريق الهجرتين ٣٨٨ فما بعدها. وانظر مجموع الفتاوى (٢٤/٣٧٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: الآية ٩١] ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: الآية ٣١] ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: الآية ٧٢] ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٥٠] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: الآية ٤٨] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

واستدلوا بأحاديث ثابتة في الصحيح، صرح فيها النبي بتعذيب بعض من مات في الفترة، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك (رضي الله عنه) أن النبيّ ﷺ سأله رجل فقال: أين أبي؟ قال: «**في النار**»، فلما ولّى الرجل دعاه، فقال: «**إن أبي وأباك في النار**»[١] فهذا ثابت من لفظ النبي في صحيح مسلم. وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ استأذن ربه أن يزور أمه فأذن له أن يزورها، واستأذنه أن يستغفر لها فلم يُؤذن له. وفي بعض رواياته عند مسلم: فزار قبرها فبكىٰ وأبكىٰ، وقال: «**فزوروا القبور فإنها تذكر الآخرة**»[٢].

وأمثال هذا من الأحاديث الثابتة في تعذيب بعض أهل الفترة. وهذا القول: أن كل من مات في الفترة علىٰ الإشراك، وعلىٰ دين الآباء، كما قال أبو طالب في آخر كلامه: «إنه علىٰ دين الأشياخ» الذين عاشوا في الفترة، وأنزل الله فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: الآية ٥٦] ولما **استغفر** له النبي ﷺ وقال: (**لأستغفرن لك ما لم أُنه عن ذلك**) واستغفر المسلمون لموتاهم، أنزل الله في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ﴾

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: (بيان أن من مات على الكفر فهو في النار. . .) حديث رقم: (٢٠٣) (١٩١/١).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه (عزّ وجلّ) في زيارة قبر أمه، حديث رقم: (٩٧٦) (٦٧١/٢).

الآية[(١)] [براءة: الآية ١١٣]. ولما قالوا: «لنا في إبراهيم أسوة حسنة، وقد استغفر إبراهيم لأبيه». أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ۝١١٤﴾[(٢)] [التوبة: الآية ١١٤] والموعدة التي وعدها إياه: هي المذكورة في سورة (مريم): ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝٤٦ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ۝٤٧﴾ [مريم: الآيتان ٤٦، ٤٧] ثم إن الله في سورة الممتحنة استثنى الاستغفار للمشركين من أسوة إبراهيم، حيث قال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ثم استثنى من هذه الأسوة: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: الآية ٤] فلا أسوة لكم بإبراهيم فيه.

وهذا القول الذي يقول: إن كل من مات مشركاً دخل النار، ولو لم يأته نذير، جزم به النووي في شرح مسلم[(٣)]، وحكى عليه القرافي الإجماع في شرح التنقيح في الأصول[(٤)].

وأجاب من قال بهذا عن الآيات التي ذكرنا من أربعة أوجه:

قال: قوله مثلاً: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] قالوا: يعني عذاب الدنيا، كما وقع لقوم نوح من الإغراق، وقوم هود

---

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله. حديث رقم: (١٣٦٠) (٣/٢٢٢). وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث رقم: (٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢، ٦٦٨١) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت... حديث رقم: (٢٤، ٢٥) (١/٥٤ ـ ٥٥) من غير الزيادة التي في آخره، وهي قوله: (فاستغفر المسلمون...) وهي عند الواحدي في أسباب النزول ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٢) أخرج ابن جرير في هذا المعنى جملة من المراسيل عن مجاهد (١٧٣٢٦) وعمرو بن دينار (١٧٣٢٧).

(٣) عبارة النووي: «وفيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة، فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم» ا.هـ شرح مسلم (١/٤٨٢).

(٤) انظر: شرح تنقيح الفصول ص ٢٩٧ .ولا يخفى أن الإجماع لم ينعقد على ذلك.

من الريح العقيم، وقوم لوط من أن الله رفع أرضهم إلىٰ السماء فجعل عاليها سافلها. أما عذاب الآخرة فلم يُقصد، وحكىٰ القرطبي وأبو حيان علىٰ هذا أن عليه إجماع المفسرين(١).

الوجه الثاني: قالوا: إن الواضح الذي لا يلتبس علىٰ أحد، وهو عبادة الأوثان، لا عذر فيها؛ لأن عابديها يعلمون في قرارة أنفسهم أنها لا تنفع ولا تضر، وأنها حجارة، ومثل هذا لا يُعذر فيه أحد؛ ولذا لما قال إبراهيم لقومه: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٣] أجابوه فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٥] قالوا: والدليل علىٰ أنهم يعلمون أن الأصنام لا تنفع ولا تضر، وأنها جمادات لا يُعذر أحد في عبادتها: أنهم إذا نزلت بهم شدائد، أو قامت عليهم كُربات، تركوا دعاء الأصنام، وأخلصوا الدعاء لله وحده؛ لأنهم يعرفون في أنفسهم أنه النافع الضار، المحيي المميت، الذي بيده الخير والشر، والآيات الدالة علىٰ ذلك كثيرة جداً، كقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أي: وخافوا الهلاك في البحر ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: الآية ٣٢] وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: وهاجت عليهم أمواج البحر، وخافوا الهلاك ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٥] وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: الآيات ٦٧ ـ ٦٩] وقال جلّ وعلا: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

---

(١) تتبعت جميع الآيات التي لها تعلق بهذا الموضوع في التفسيرين المذكورين فلم أجد لهذا الإجماع ذكراً. ولعله وهم من الشيخ ـ رحمه الله ـ بدليل أنه ذكر جميع هذه التفاصيل في أضواء البيان، وفي هذه الجزئية قال: «ونسب هذا القول القرطبي، وأبو حيان، والشوكاني، وغيرهم في تفاسيرهم إلى الجمهور» ا.هـ. الأضواء (٤٧٦/٣). وانظر: القرطبي (٢٣١/١٠)، والبحر المحيط (١٦/٦).

﴿الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: الآيتان ٢٢، ٢٣] والآيات في مثل هذا كثيرة، ومعلوم في التاريخ أن سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه: أن النبي ﷺ لما فتح مكة خرج عكرمة بن أبي جهل لشدة عداوته للنبي ﷺ؛ لأنه قتل أباه يوم بدر. شرد هارباً إلىٰ الحبشة، فركب في قوم سفينةً من البحر الأحمر إلىٰ الحبشة، فلما توسطوا داخل البحر هاجتَ عليهم الريح، واضطربت أمواج البحر، ورأوا الهلاك، وظنوا الموت، فإذا جميع من في السفينة يتنادون ويقولون من أطراف السفينة: ألا فليحذر كل أحد منكم أن يدعو في هذا الوقت غير الله؛ فإنه لا ينقذ من هذه الكربات إلا هو وحده، ففهمها عكرمة، ثم قال: والله إن كان لا ينقذ من كربات البحر إلا هو، فلا ينقذ من ظلمات البر إلا هو. ثم قال: اللهم لك علي عهداً إن أنقذتني من هذه لأضعن يدي في يد محمد ﷺ فلأجدنه رؤوفاً رحيماً. فهدأ البحر وسكنوا، فرجع إلىٰ النبي ﷺ وأسلم، وصار من فضلاء الصحابة[١]. قالوا: كون الكفار يعلمون أن الله هو النافع الضار، وأن الأصنام جمادات لا تنفع ولا تضر، وأنهم إذا كان وقت الشدائد لجؤوا إلىٰ من بيده الأمر والنهي، هذا يدل علىٰ أنهم غير معذورين في عبادة الأوثان.

الوجه الثالث: زعموا أن عندهم بقية نذارة من إرث دين إبراهيم والرسل الذين أُرسلوا قبل محمد ﷺ.

الوجه الرابع: هو ما ذكرنا من الأحاديث عن النبي ﷺ، من أنه ذكر أن بعض أهل الفترة في النار.

وأجاب القائلون [بعذرهم بالفترة][٢] عن هذه الأوجه الأربعة رادّين لها، مجيبين عن كل واحد، فقالوا: قولكم: «إن العذاب يختص بالدنيا». فالدليل علىٰ أنه باطل أمران:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٠ ـ ٤١) من سورة الأنعام.
(٢) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق.

أحدهما: أنه خلاف ظاهر القرآن، والله لم يخصص بعذاب الدنيا دون عذاب الآخرة. فلم يقل: وما كنا معذبين في الدنيا. حتى تقصروا الظاهر عليه، وظاهر القرآن لا يجوز العدول عنه إلا بدليل يجب الرجوع إليه[١]، ولا دليل عندكم من ظاهر القرآن.

الوجه الثاني قالوا: إن الله صرح لنا في كتابه أن الذين عذبهم في النار أنذرهم في دار الدنيا علىٰ ألسنة رسله، كقوله: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الملك: الآيتان ٨، ٩] إلى آخر الآيات التي ذكرناها آنفاً.

وأجابوا عن كون الأمر الواضح لا عذر فيه بأمرين:

أحدهما: أن ظاهر القرآن لم يفرق بين الأمر الواضح وغيره، ولا يجوز العدول عن ظاهره إلا بدليل.

الثاني: أن الله صرح بأنه ما عذب علىٰ ذلك الأمر الواضح أحداً إلا بعد إنذار الرسل في دار الدنيا ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الملك: الآيتان ٨، ٩].

أما قول من قال: إنهم كانت عندهم بقية نَذَارَة من نَذَارَة إبراهيم وغيره من الرسل الذين كانوا قبل نبينا ﷺ، فهذا الوجه جزم به النووي في شرح مسلم[٢]، ومال إليه ابن قاسم العبادي في الآيات البينات[٣]، وهو قول باطل بشهادة القرآن، وأنا أستغرب كيف يقوله عالم كالعبادي والنووي؟! مع أن الآيات القرآنية صريحة في بطلانه غاية الإبطال؛ لأن معناه أن الأمة التي بُعث فيها النبي كان مَنْ مات منها يُعذب بسبب نَذَارَة إبراهيم، والله يصرح في آيات كثيرة أن الأمة التي بعث فيها محمداً ﷺ لم تكن عندها نذارة ألبتة من أحد، من ذلك قوله في سورة (يس): ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ [يس: الآية ٦] و (ما) في قوله: ﴿مَّآ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة البقرة.

(٢) انظر: شرح مسلم (١/٤٨٢).

(٣) انظر: الآيات البينات (٤/٢٦٢).

أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ نافية قطعاً. ومن قال: إنها موصولة فهو غالط. والدليل علىٰ أنها نافية أنه قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [يس: الآية ٦] ولو كانت موصولة لما قال: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾. ومنها قوله في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [القصص: الآية ٤٦] فصرح بأنهم ما أتاهم من نذير، وقد تقرر في علم الأصول: أن النكرة في سياق النفي إن زيدت قبلها لفظة (مِنْ) كانت نصاً صريحاً في العموم[1]، وقاله شيخ النحو سيبويه[2] إنها إن زيدت قبلها (مِنْ) كانت صريحاً في العموم، فهي تعم نفي كل نذير. ومنه قوله تعالىٰ في سورة سبأ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۝٤٤﴾ [سبأ: الآية ٤٤] ومنه قوله في سورة السجدة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [السجدة: الآية ٣] الله تعالى يصرح بأنهم لم يأتهم نذير، فليس لأحد أن يقول: إن عندهم نَذَارة باقية
١٨/أ يعاقبون/ عليها. ويقول ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: الآية ١٩] فصرح بأنها فترة.

أما الوجه الرابع، وهو ذَكَرْتُهُ بعض الأحاديث، كحَدِيثَي مسلم الذي ذكرنا، وهو محل مناقشة طويلة عريضة بين العلماء.

أجاب المخالفون قالوا: حديثا مسلم هما خبرا آحاد، فلا يُقَدَّمان على القاطع؛ لأن قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] دليل قاطع متواتر محفوظ لا يمكن أن يكون كذباً بحال، وهو صريح الدلالة ظاهرها، وحديث مسلم وما جرىٰ مجراه أخبار آحاد، والمتواترات تُقدم على الآحاد.

وأجاب المخالفون عن هذا، قالوا: لا نُسَلِّم هذا؛ لأن حديثي مسلم ونحوهما أحاديث خاصة، والآيات التي ذكرتم عامة، والخاص مقدم على

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٢) الكتاب (٢/٣١٥، ٣١٦)، (٤/٢٢٥).

العام؛ لأن المقرر في الأصول: أنه لا يتعارض عام وخاص، بل يقدم الخاص على العام، إلا عند الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله[١] ـ فإن المقرر في أصوله: أن الخاص لا يقدم على العام؛ لأن دلالة العموم عنده قطعية، فيرجح بينهما[٢]؛ ولذا كان جمهور العلماء، منهم الأئمة الثلاثة، يخصصون عموم: «فيما سقت السماء العشر»[٣] بخصوص: «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة»[٤] وكان أبو حنيفة يقول: هذا الحديث خاص: «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة» لا أقدمه على العام الذي هو: «فيما سقت السماء العُشر» وقد جهلنا التاريخ، فلم نعرف أيهما المتأخر حتى نقدمه؛ ولذا أوجب الزكاة في كل شيء خرج من الأرض قليلًا أو كثيراً، تبرئة للذمة، وعدم تقديم للخاص على العام[٥].

وأجاب المخالفون عن هذا بمناقشة أُخرى، قالوا: لو سلمتم هذا الخاص، وقلتم: إن النبي ﷺ ثبت عنه في بعض الأحاديث أن الله عذب أحد أهل الفترة ـ لو قدمنا هذا الخاص ـ لانتفت الحكمة التي تمدَّح الله بها، وأثنى بها على نفسه، لأن الله تمدَّح وأثنى على نفسه بأنه بالغ من

---

(١) في مسألة تقديم الخاص على العام انظر: الفروق للقرافي (٢٠٩/١ ـ ٢١٢)، البرهان للجويني (٧٧٣/٢، ٧٧٤)، نهاية السول (١٦٢/٢)، (٢٣٩/٣)، إحكام الفصول ١٦٠، إيثار الحق على الخلق ١٠٢. وانظر هذه المسألة وما ينبني عليها من الفروع في كتاب: أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء ص ٢١٥ ـ ٢٢٩، وتفسير النصوص لمحمد أديب الصالح (٨٣/٢) فما بعدها.

(٢) انظر: تيسير التحرير (٢٦٧/١، ٢٧١).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة، باب العشر فيما يُسقى من السماء...، حديث رقم: (١٤٨٣)، (٣٤٧/٣) من حديث عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) بلفظ مقارب لما ذكر الشيخ (رحمه الله) هنا. وأخرج مسلم نحوه من حديث جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما)، كتاب الزكاة، حديث رقم: (٩٨١)، (٦٧٥/٢).

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة، باب ما أُدي زكاته فليس بكنز، حديث رقم: (١٤٠٥)، (٢٧١/٣) وأطرافه: (١٤٤٧، ١٤٥٩، ١٤٨٤). ومسلم في الزكاة، حديث رقم: (٩٧٩)، (٦٧٣/٢) من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه)، كما أخرجه من حديث جابر (رضي الله عنه) (٩٨٠)، (٦٧٥/٢).

(٥) انظر: المبسوط للسرخسي (٣/٣).

العدل والإنصاف ما لم يُعَذِّب [معه][١] أحداً إلا بعد الإنذار في دار الدنيا، وأنه لو عذب أحداً لكان بذلك لأحد حجة، حيث قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾ [النساء: الآية ١٦٥] قالوا: فلو عذب إنساناً واحداً لانخرمت هذه الحكمة، وقال له ذلك الإنسان: لولا أرسلت إليَّ رسولاً فأتبع آياتك قبل أن أذل أو أخزىٰ، وصارت حكمة آية (طه) منخرمة أيضاً، ولا يمكن هذا.

وأجاب المعارضون عن هذا أيضاً، قالوا: كل ما أخرجه الدليل الخاص يخرج من العام، ولا يقدح في حكمة العلّة؛ لأنه قد يكون في ذلك الإنسان خصوصية يعلمها الله، فأخرجه من العموم لأجلها. وهذا مبني على مبحث أصولي عظيم: هل عدم اطراد العلة نقض لها؟ أو هو تخصيص لعمومها[٢]؟ إلى غير ذلك من الأبحاث. فهذا نموذج قليل من مناظرات العلماء في هذه المسألة.

والتحقيق في هذه المسألة ـ إن شاء الله ـ هو ما حققه العلامة ابن كثير في شرح قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] وغيره من المحققين: أن الله (جل وعلا) يعذر أهل الفترة في دار الدنيا، ثم إنه يوم القيامة يمتحنهم بالنار، ويقول لهم: اقتحموا في هذه النار، فمن اقتحم فيها دخل الجنة، وهو الذي كان يطيع الرسل لو جاءته، وهو المؤمن في علم الله الداخل للجنة، ومن تمرد وعصاه، وامتنع أن يدخلها دخل النار، وهو الذي كان يعصي الرسل لو جاءته ولا يصدقها، وهو الكافر في علم الله، والله أعلم بما كانوا إليه صائرين. وهذا المعنىٰ جاء عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، منها أحاديث صحاح بشهادة أئمة الحديث الحفاظ، ومنها أحاديث حسان، ومنها أحاديث ضعاف تعتضد بالصحاح والحسان، وهذه الأحاديث الواردة بهذا هي نصٌّ في محل النزاع تجتمع عليها الأدلة. وقد أنكرها ابن عبدالبر ـ رحمه الله ـ[٣] قال:

---

(١) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه (٥/١٣٥ ـ ١٤٢، ٢٦١) فما بعدها، المذكرة في أصول الفقه ٢٧٨، ٢٩٢، نثر الورود (٢/٥٢٧)، الأضواء (٣/٤٧٩ ـ ٤٨١).

هذه الأحاديث لا يمكن أن تصح؛ لأن القيامة دار جزاء وليست دار عمل حتى يُكلفوا فيها فيدخلوا الجنة والنار بالتكليف فيها؛ لأنها دار جزاء لا دار عمل، وهذا الذي قاله ابن عبدالبر لا تُرد به النصوص الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، وقد دلّ القرآن والسنة الصحيحة أن الله يكلف خلقه في عرصات المحشر بعض التكاليف، وقد ثبت في سورة القلم أنه يأمر جميعهم بالسجود، وأَمْرُهُم بالسجود تكليف في عرصات المحشر، كما سيأتي في قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: الآيتان ٤٢، ٤٣] لأنه قد جاء في الأحاديث الصحيحة أن الله يدعوهم ذلك اليوم إلىٰ السجود، كما دلت عليه الآية. فأما المؤمنون فيسجدون فيرفعون من السجود وعلىٰ وجههم نضرة النعيم، وأما الكافر فيكون ظهره كالصفيحة فلا يستطيع أن يسجد، وإذا أراد تَكَلُّفَ السجود خرَّ على قفاه[1]؛ لأنه لا يستطيع السجود، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

وقد ثبت عن النبي ﷺ في الأحاديث الصحاح في قصة الرجل المشهورة الذي هو آخر أهل النار خروجاً من النار أنه يقول: «يا رب أخرني عن النار. يقول: يا بن آدم إن أخرتك لعلك تطلب غير ذلك. فيقول: لك علي من العهود والمواثيق أن لا أطلبك غير ذلك. ثم يمكث ما شاء الله، ثم يقول له: افعل لي كذا، أو: إلىٰ هذه الشجرة. ويقول له: ويلك يا بن آدم ما أغدرك!! فيعطيه من المواعيد والمواثيق أنه لا يطلب شيئاً سوىٰ ذلك، حتى يقول له: رب اصرف وجهي عن النار. إلىٰ أن يدخله الجنة»[2]. والتكاليف إنما هي

---

(١) انظر: التمهيد (١٨/١٣٠)، الاستذكار (٨/٤٠٤). وفيما يتعلق بالتكليف في الآخرة انظر: الفتاوى (١٧/٣٠٩)، (٢٤/٣٧٣)، مختصر الفتاوى المصرية ٦٤٥، أحكام أهل الذمة (٢/٦٥٤ ـ ٦٥٦)، طريق الهجرتين ٣٩٧ ـ ٤٠١، تفسير ابن كثير (٣/٣١)، فتح الباري (٣/٢٤٦ ـ ٢٤٧)، أضواء البيان (٣/٤٨٢ ـ ٤٨٣).

(٢) الحديث أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ حديث رقم (٧٤٣٩) (١٣/٤٢٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية. حديث رقم: (١٨٣) (١/١٦٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) الحديث أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ=

عهود ومواثيق تؤخذ على الإنسان أن يفعل أو أن لا يفعل. فهذا هو الصواب في هذه المسألة، أنهم معذورون في الدنيا بشهادة الآيات، وأن الله يوم القيامة يمتحنهم بنار يأمرهم بالدخول فيها، فمن دخلها دخل الجنة[1]، وظهر فيه علم الله أنه كان يطيع الرسل لو جاءته، ومن امتنع دخل النار، وظهر فيه

رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ حديث رقم: (٧٤٣٧)، (٤١٩/١٣)، وأخرجه في موضع آخر، حديث رقم: (٦٥٧٣) ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، حديث رقم: (١٨٢) (١٦٣/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) ورد في ذلك عدة أحاديث من أشهرها:

١ ـ حديث الأسود بن سريع (رضي الله عنه) عند أحمد (٢٤/٤)، وأبي نعيم في معرفة الصحابة، (٢٨١/٢)، والطبراني في الكبير (٢٨٧/١)، وابن حبان (الإحسان (٢٢٥/٩)، والبيهقي في الاعتقاد ص ٧٦، والبزار (كشف الأستار ٣٣/٣)، والضياء في المختارة (٢٥٤/٤، ٢٥٦). وقد صححه البيهقي في الاعتقاد ص ٧٧، وابن القيم في طريق الهجرتين ٣٩٧، والهيثمي في المجمع (٢١٦/٧)، والألباني في السلسلة الصحيحة (٤١٩/٣).

٢ ـ حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند أحمد (٢٤/٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١٧٦/١)، والضياء في المختارة (٢٥٥/٤ ـ ٢٥٦)، والبيهقي في الاعتقاد ص٧٧، والبزار (كشف الأستار ٣٣/٣ ـ ٣٤). وقد صححه البيهقي في الاعتقاد ص٧٧، وابن تيمية في الدرء (٣٩٩/٨)، وابن القيم في أحكام أهل الذمة (٦٥٤/٢)، والهيثمي في المجمع (٢١٦/٧)، والألباني في تخريجه لكتاب السنة (١٧٦/١)، والسلسلة الصحيحة(٤١٩/٣).

وللحديث طرق وشواهد عن عدد من الصحابة منهم: أبو سعيد الخدري، ومعاذ بن جبل، وأنس بن مالك. انظر في ذلك: مسند أبي يعلى (٢٢٥/٧)، المعجم الكبير للطبراني (٦٠٥/٢٠)، التمهيد (١٢٧/١٨ ـ ١٣٠)، كشف الأستار عن زوائد البزار (٣٤/٣)، الاعتقاد للبيهقي ص ٧٧، مختصر الفتاوى المصرية ٦٤٣، طريق الهجرتين ٣٩٨، أحكام أهل الذمة (٦٥٠/٢ ـ ٦٥٣)، تفسير ابن كثير (٢٩/٣ ـ ٣٠)، مجمع الزوائد (٢١٥/٧ ـ ٢١٧)، سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٠٣/٥).

قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية (رحمه الله): «وقد رُوي بأحاديث حسان عن النبيّ ﷺ أن من لم يكلف في الدنيا من الصبيان والمجانين، ومن مات في الفترة، يُمتحنون يوم القيامة...» ا.هـ مختصر الفتاوى المصرية ص ٦٤٣ .وقال ابن كثير في التفسير (٣١/٣): «إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن. وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها» ا.هـ وقال الحافظ في الفتح (٢٤٦/٣): «وقد صحت مسألة الامتحان في حق المجنون، ومن مات في الفترة من طرق صحيحة» ا.هـ.

علم الله أنه لو جاءته الرسل لكذبها. وقول ابن عبدالبر: إن هذا تكليف بمحال، وأن القول للرجل: «ادخل النار» هذا تكليف بما لا يطاق!! هذا لا يردّ - أيضاً - الأحاديث الصحيحة، وقد جاء أمثاله في الشرع، فقد ثبت في الأحاديث الصحاح عن النبي ﷺ في علامة الأعور - المسيح الدجال - أن معه جنة وناراً، والنبي يأمر المؤمنين أن يقتحموا في ناره التي معه؛ لأنهم إن اقتحموها وجدوها ماء عذباً وشربوا منه، وأن ماءه نار[1]، ففي هذه الأحاديث الصحيحة أمر النبي ﷺ باقتحام النار التي مع الدجال، وقد أمر الله بني إسرائيل - قد بيّنا أنه لا يتوب عليهم حتى يقتلوا أنفسهم، كما قدمناه في سورة البقرة ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٥٤] فلم يقبل توبة أحد منهم إلا بعد أن يُقدِّم نفسه للموت فيُقتل، فمعنىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: فَلْيَقْتُل الذين لم يعبدوا العجل منكم الذين عبدوه، وليس المعنىٰ: أن الإنسان يقتل نفسه بيده. حتى تاب الله عليهم، ورفع القتل عن بقيتهم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣١].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٢].

قرأه عامة القراء، غير ابن عامر: ﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وقرأه ابن عامر: ﴿عما تعملون﴾[2] والمعنىٰ واحد.

---

(١) ورد هذا المعنى في عدة أحاديث، منها:
١ - حديث أبي هريرة عند البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾. حديث رقم (٣٣٣٨)، (٦/٣٧٠)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، حديث رقم: (٢٩٣٦)، (٤/٢٢٥٠).
٢ - حديث حذيفة عند البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، حديث رقم: (٧١٣٠)، (١٣/٩٠)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال، حديث رقم: (٢٩٣٤)، (٤/٢٢٤٨).
٣ - حديث أبي مسعود الأنصاري عند البخاري (٧١٣٠)، ومسلم (٢٩٣٥) بمثل حديث حذيفة.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٢.

وقوله (جل وعلا): ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۚ﴾ التنوين: تنوين عِوَض. أي: ولكل الناس من كافرين ومؤمنين على التحقيق. خلافاً لمن خصّه بالكافرين(١). لكل واحد منهم درجات.

والدرجات: جمع الدرجة، وهي المرتبة والمنزلة(٢). أي: لكل عامل مطيع وعاص، لكل واحد من المطيعين والعاصين درجات. أي: منازل ومراتب يستحقونها بأعمالهم، فمنهم من هو بدرجته في أعلى الجنان، ومنهم من هو بأعماله في دركات النار، وقد بين (جل وعلا) أن الآخرة يتفاوت أهلها بدرجاتهم(٣)، كما في قوله: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٢١] وبين أن أهل النار يتفاوتون في دركاتهم قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: الآية ١٤٥] وفي القراءة الأخرى: ﴿فِى ٱلدَّرَكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(٤) فهم يتفاوتون، ففي أعمال أهل الشر تفاوت، تتفاوت بها منازلهم في النار. ولأعمال أهل الخير تفاوت، تتفاوت بها منازلهم في الجنة. وهذا معنى قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۚ﴾.

والآية فيها موعظة عظيمة، يعني: أيها المخاطبون ما دمتم في دار الدنيا فاعلموا أن الدركات في النار والدرجات في الآخرة إنما تُنال بالأعمال في الدنيا، فراقبوا الله واجتهدوا في أن تكون أعمالكم صالحة، لِأَنْ تكون درجاتكم ومنازلكم في الجنة عالية. وكذلك يُحذِّر من أن تكونوا في دركات النار ـ والعياذ بالله ـ وهذا معنى قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۚ﴾.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، و (ما) نافية، والباء في قوله: ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ هي لتوكيد النفي؛ لأن للإسناد الخبري المنفي

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٢٢٤ ـ ٢٢٥).

(٢) انظر: المفردات (مادة: درج) ٣١٠.

(٣) انظر: أضواء البيان (٢/٢١١).

(٤) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

توكيداً كما للإيجابي توكيداً، فلو قلت مثلًا: «زيدٌ قائم». فهذا ليس فيه توكيد، ولو قلت في الإثبات: «إن زيداً لقائم». فقد أكّدت إثبات قيامه بـ(إن) واللام. ولو قلت: «ما زيد بقائم». فقد أكدت نفي قيامه بـ(الباء)، والباء في النفي تفيد التوكيد الذي تفيده (إنَّ) في حالة الإثبات. وهي توكيد للنفي، والجار والمجرور في مثل هذا هو مفرد، وليس بشبه جملة؛ ولذا لا يُقدَّر له الكون ولا الاستقرار، فلا يجرىٰ على قول ابن مالك[1]:

وأَخْبَرُوا بظَرفٍ او بحرفِ جَرْ ناوِينَ مَعْنَى (كائنٍ) أو (اسْتَقَرْ)

فهذا لا يُقدَّر فيه كَوْنٌ ولا استقرار؛ لأنه مفرد زِيْدَت به (باء) للتوكيد، ليس بِشِبْه جملة.

والغفلة هي: الغفلة عن الشيء وخروجه عن الذهن للاشتغال بغيره، فالله لا يغفل عما يعمله الظَلَمة، فهو (جل وعلا) لا يغفل عن شيء، ولكنه يُمْهِل ولا يُهْمِل. وقد نهىٰ الله خلقه أن يظنوا به هذه الغفلة، قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٤٢] يعني: على قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[2] [الأنعام: الآية ١٣٢] ليس بغافل عما يعملونه من الكفر، فهو مُدَّخِرُه لهم، ومجازيهم عليه، ومخلدهم به بالنار. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ليس الله غافلًا عما تعملون أيها المسلمون من الخير والحسنات، فهو مُدَّخِرُه لكم ومجازيكم عليه، فجميع الأعمال تُحفظ عند الله، لا يغفل عن شيء منها، يجازي بها أهلها يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٢].

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا

(١) الخلاصة ص ١٧، وانظر شرحه في التوضيح والتكميل (١/١٦٢).

(٢) «يعملون» على قراءة ابن عامر.

يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٣].

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ قوله: ﴿وَرَبُّكَ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ، وأضاف لفظة الرب إليه إضافة تشريف وتكريم. والرب في لغة العرب: يطلق على عشرة معان[١]: منها: السيد الذي يسوس الناس ويُدبر شؤونها، وكل من يسوس بلداً ويدبر شؤونه تقول العرب: هذا ربه. وتقول العرب: فلان رب بني فلان. أي: سيدهم الذي يسوسهم ويدبر شؤونهم. والعرب تقول: ربَّه يربُّه. إذا أصلح شؤونه، وساسه، وأصلح أموره. فالفاعل: رب، والمفعول: مربوب. ومن إطلاق العرب الرب على الذي يسوس الأمور ويدبرها: قول علقمة بن عَبَدَة التميمي، قال لرجل ساد قومه[٢]:

وكُنْتَ امْرَأً أَفْضَتْ إِلَيْكَ رِبَابَتِي وقَبْلَكَ رَبَّتْني فَضِعْتُ رُبُوبُ

أي: سادتني قبلك سادة وساسة، وضيعوني، والآن أفضت إليك ربابتي، فَصِرْتَ ربي الذي يُدبر شؤوني، فلا تضيعني. وتعرفون في السيرة، أن صفوان بن أمية بن خلف كان عدواً للنبي ﷺ؛ لأن النبي قتل يوم بدر أباه أُمية بن خلف، وقتل أخاه علي بن أُمية بن خلف يوم بدر، وقتل عمه أُبي بن خلف يوم أُحد، وهو من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ، فلما فتح النبي مكة ـ ﷺ ـ وطلب منه إعارة السلاح، المشهورة الثابتة في الحديث، طلب صفوان النبي ﷺ أن يعطيه مهلة ينظر فيها في أمره، فأعطاه النبي مهلة ينظر فيها في أمره، ويتدبر فيما يفعل، وكان في تلك المهلة أن غزىٰ النبي ﷺ هوازن ـ غزوة حنين ـ المذكورة في القرآن، وكانت الرياسة في ذلك الوقت صارت من دُريد بن الصِّمَّة إلىٰ مالك بن عوف النصري، وكان دُريد شائباً أعمىٰ، وكانت فكرته: أن هوازن يفعلون مثل ما فَعَلَت ثقيف، يبقون في ديارهم، ويُخرجون النبال والرماح من كوى الحصون، ويحاصرهم القوم فيرامونهم وهم في مقرهم. وأبى عن هذه الفكرة مالك بن

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

عوف النصري سيد هوازن في ذلك اليوم، وقال: إن لم تطيعوني لأتكئنّ على سيفي (في قصة حنين المشهورة). فخرج بهوازن، بنسائهم، وأطفالهم وأموالهم، حتىٰ نزل بهم في مضيق وادي حنين، في طريق النبي ﷺ، وكان دريد أعمىٰ، فقال: ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير؟ يظن أن الخارجين جيش فقط. فقيل له: خرج مالك بن عوف النصري بالمال، يقول: إن الرجل إذا كان معه أهله وماله وزوجاته لا يفر. فحرك بشفتيه استهزاءً برأيه، وقال: إن الرجل إذا انتفخ سحره ـ أي: رئته ـ من الخوف لا يلوي على مال ولا ولد. ونزلوا مضيق حنين، وصلىٰ النبي ﷺ الصبح في غَلَس من ظلام الليل، ثم انحدر مع وادي حنين هو وأصحابه، فلم يعلموا بشيء حتى أتوا هوازن، وهم أمامهم في مضيق الوادي، فصبوا عليهم النبال والسهام كأنها مطر تزعزعه الريح، فوقع ما وقع، وقصّه الله في سورة براءة: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: الآية ٢٥] وفي ذلك الوقت لم يبق مع النبي ﷺ إلا أحد عشر رجلاً، ونزل عن بغلته (دُلْدُل)، بغلة لا تصلح لِكَرّ ولا لِفَرّ، وهو يقول:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»

والشاهد: أنه لما وقع ما وقع بالمسلمين في أول وهلة، وصفوان بن أُمية حاضر، ومعه رجل يرافقه، قال ذلك الرجل: بطل الآن سحر محمد!! يعني: أن هوازن غلبوه، وأن قومه انهزموا، وأن ما كان عنده سحر، وأنه بطل. فقال له صفوان ـ وهو محل الشاهد ـ: اسكت فُضّ فوك، لئن يرّبني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربّني رجل من هوازن[1]!! ومعناه: أن يسودني ويسوسني قرشي، ابن عمي، أحب إليَّ من أن يسودني واحد من ثقيف، أهل الطائف. فهذا يبين أن معنىٰ (ربّه يربّه) أي: ساده وساسه ودبر أموره، وهو بالنسبة إلى الله (جل وعلا): السيد الذي يدبر شؤون الناس، ويسوس أمورها، فلا يستغني عنه العَالَم طرفة عين.

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

وقوله: ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ معناه: هو الذي عنده الغِنى، والله (جل وعلا) غني بذاته غِنىً مطلق، لا يحتاج إلى خلقه، وخلقه محتاجون إليه. والنكتة في الآية: أن الله بما مضى أَمَرَ ونهىٰ، وبيّن ما يُدخل الجنة وما يُدخل النار، ثم نبّه خلقه، فكأنه يقول: يا عبادي: لا تظنوا أنني آمركم وأنهاكم لأجل أن أجرَّ بذلك لنفسي نفعاً أو أصرف عنها ضراً، لا، أنا الغني بذاتي الغِنىٰ المطلق، وإنما النفع لكم لا لي، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: الآية ١٥] وفي الحديث القدسي، الثابت في صحيح مسلم، عن النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربه، أن الله (جل وعلا) يقول: «**يا عبادي لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم كانوا على أتقىٰ قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**» **الحديث**[١]. فهو (جل وعلا) لا ينتفع بطاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٨] ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: الآية ٦] ولذا قال هنا: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾ الذي لا تنفعه طاعة من أطاع منكم، ولا تضره معصية من عصىٰ منكم، وهو غني بذاته غِنىً مطلق.

﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ﴾: هو الرحيم الذي يرحمكم - إن اتبعتم أوامره - يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٤٣] أي: يدعوكم إلى طاعته - وهو رحيم - ليرحمكم ويدخلكم جنته.

وقد قدمنا أن (الرحمٰن) هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا، و (الرحيم) هو الذي يرحم عباده المؤمنين في الآخرة[٢]،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: (٢٥٧٧) (١٩٩٤/٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) في الفرق بين (الرحمٰن) و(الرحيم) انظر: ابن جرير (١٢٦/١)، القرطبي (١٠٥/١)، ابن كثير (٢٠/١)، مدارج السالكين (٧٥/١)، بدائع الفوائد (٢٤/١)، أضواء البيان (٣٩/١ - ٤١).

ومن رحمانيته (جل وعلا): لطفه بالطير الصافات، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الملك: الآية ١٩] أي: ومن رحمانيته: لطفه بالطير صافات وقابضات في جوّ السماء، وإمساكه لها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ يعني: ومن شدة غناه عنكم وعن أعمالكم، وعدم حاجته إليكم، ولا إلى طاعتكم، ولا إلىٰ معصيتكم، فهو في قدرته أن يذهبكم جميعاً ويجعلكم أثراً بعد عين، ويأتي بقوم آخرين غيركم، كما جاء بكم أنتم من ذرية قوم آخرين. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾.

﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم﴾: أي: يجعل خلفاء في الأرض بعدكم خلفاً منكم ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ من خلقه. وهذا المعنى تكرر في القرآن، يبين الله للناس أنه قادر علىٰ أن يزيلهم عن بكرة أبيهم، ويستبدل قوماً غيرهم، وقد يكون المستبدلون خيراً منكم أيها المخاطبون، كقوله في سورة النساء: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: الآية ١٣٣] وقوله (جل وعلا): ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ [هود: الآية ٥٧] إذا استخلف غيركم فما عليه في ذلك من ضرر، وقوله في سورة فاطر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: الآيات ١٥ ـ ١٧] أي: ليس فيه صعوبة عليه ولا مشقة، بل هو هين عليه يسير. وقوله في أُخريات سورة القتال ـ سورة محمد ـ حيث قال فيها: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: الآية ٣٨] وقد قال في الواقعة: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ [الواقعة: الآيتان ٦٠، ٦١] وقد قال في الإنسان: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان: الآية ٢٨] يعني: فذهابكم جميعاً والإتيان ببدل منكم، سهل علي، خفيف عندي، لا يضرني شيئاً، فأنتم إنما تنتفعون بطاعتكم وتتضررون بمعصيتكم، وأنا الغني بذاتي عنكم، القادر علىٰ أن

أُذهبكم، وآتي بغيركم، وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ المراد هنا: الإذهاب بوقت واحد، بأن يذهبهم جميعاً، وليس المراد أن يذهبهم تدريجاً بالموت[١]، كما هي عادته في القرون أن يفني قرناً تدريجاً بالموت، ثم يأتي بعده بقرن آخر تدريجاً بالولادة؛ لأن هذا هو الواقع، فلو كان هو المراد لما قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ لأنه مُذهِبُهم قطعاً ومستخلف بعدهم ما يشاء على التدريج، هذا واقع قطعاً.

وقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ عبّر بـ(ما) هنا للإبهام في الشيء، وإن كان قد يقع على العاقل؛ لأن المقرر في علم النحو: أن الشيء إذا أُبهمت صفاته ـ أي: كان المراد صفاته مثلًا ـ أنه يُعبَّر عنه بـ(ما)[٢]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ كما أنه كان في الأرض قبلكم ناس غيركم ـ قال بعضهم: هم الذين كانوا في سفينة نوح، وقال بعضهم: يعمّ ما قبلهم من القرون. كان قبلكم ناس أهل ثروة وأهل غنى في الدنيا، وأهل تمدن ومكانات[٣] ـ أذهبناهم جميعاً، وجئنا بكم، وجعلناكم خلفاء في الأرض بعدهم، كما أذهبنا أولئك وجعلناكم خلفاً بعدهم، فنحن قادرون أيضاً علىٰ أن نفعل بكم مثل ذلك، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾.

يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٤].

(ما) هنا موصولة، وعائد الصلة محذوف[٤]، والتقدير: إن الذي توعدونه لآت لا محالة. اعلموا أولًا: أن ﴿تُوعَدُونَ﴾ هنا يحتمل أن يكون من الوعد، ويحتمل أن يكون من الإيعاد، والوعد: هو الوعد بالخير،

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٢٢٥).
(٢) انظر: الكوكب الدري ص ٢١٠، التوضيح والتكميل (١/١١٥).
(٣) انظر: البحر المحيط (٤/١٢٥).
(٤) انظر: الدر المصون (٥/١٥٧).

والإيعاد: هو الوعيد بالشر(١)، كما قال الشاعر(٢):

وإني وإن أوعدتُه أو وَعدتُه لَمُخلفُ إيعادي ومُنجزُ موعدي

فقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ بناء على أنه من الوعد، فالله (جل وعلا) لا يخلف وعده أبداً؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: الآية ٩] أما إخلاف الوعيد ففيه تفصيل غلط فيه جماعات من العلماء، حتى كان من يقول من العلماء بفناء النار، أن الله لو صرّح بأنها [لا] تفنىٰ(٣) أن ذلك وعيد، وإخلاف الوعيد من المدح لا من الذم، إذ إنَّ مَنْ أوعدك بشرّ ثم عفا عنك وأعطاك الخير فهذا من الجميل، وإنما المذموم القبيح هو إخلاف الوعد بالخير.

والتحقيق في هذا المقام: أن الله (جل وعلا) إن وعد بخير فإنه لا يخلف وعده أبداً؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وإن أوعد بشر فإيعاده بالشر له حالتان:

تارة يكون وعيداً للكفار. وهذا لا يُبدّل بحال، ويدل عليه قوله هنا: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾؛ لأن الكلام في الكفار الذين يهددهم الله. أي: ما يوعدكم الله من العذاب واقع لا محالة، يدل عليه قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ كما سنفسره، وقد صرح الله في آيات من كتابه أن وعيده للكفار لا يُخلف حيث قال في سورة (ق): ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق: الآيتان ٢٨، ٢٩] والمراد به على التحقيق: ما وعد الكفار به من عذاب النار. وقال جل وعلا: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: الآية ١٤] حَقَّ: معناه ثبت ووجب، وما قال الله فيه: «إنه ثبت ووجب» لا يمكن أن يتخلف، و(الفاء) في قوله: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ من حروف التعليل، وقد تقرر في الأصول في (مسلك النص)

---

(١) انظر: القرطبي (٨٨/٧).

(٢) البيت لعامر بن الطفيل. وهو في اللسان (مادة: وعد) (٩٥١/٣)، وانظر: المعجم المفصّل في شواهد النحو الشعرية (٢٥٥/١).

(٣) في الأصل: «بأنها تفنى» وهو سبق لسان.

وفي (مسلك الإيماء والتنبيه) أن (الفاء) من حروف التعليل[1] كما تقول: «سها فسجد»، أي: لعلّة سهوه. و«سرق فقُطِعَت يده» أي: لعلّة سرقته. و«أساء فأُدّب». أي: لإساءته. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: وجب الوعيد لأجل تكذيب الرسل، ونظيره قوله في (ص): ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: الآية ١٤].

أما الوعيد الذي يجوز أن يُخلف: هو وعيد الله لعصاة المسلمين، فإن الله أوعد مرتكبي الذنوب الكبائر بأنه يعذبهم، وهذا الوعيد إن شاء الله أنفذه، وإن شاء الله عفا عن أهله. وصرح الله بهذا في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: الآية ٤٨] فجعل غير الشرك من الكبائر تحت مشيئته، إن شاء عفا، وإن شاء عذّب. هذا هو تحقيق المقام في الوعد والوعيد[2].

قوله هنا: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ﴾ أي: ما يوعد به من ثواب وخير فهو آتٍ لا محالة، وما يُوعد به الكفار المكذبون للرسل من العذاب والتنكيل فهو آتٍ لا محالة.

ثم قال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ المعجزون: جمع تصحيح للمعجز، والمعجز: اسم فاعل الإعجاز، ومفعول اسم الفاعل هنا محذوف. والمعنىٰ: وما أنتم بمعجزين ربكم. أي: لستم بفائتيه حتىٰ تعجزوه فيعجز عن التمكن منكم وتعذيبكم، بل أنتم في قبضة يده، وتحت قهره وسلطانه، لا تعجزونه ولا تفوتونه، بل أمره واقع فيكم، نافذ فيكم، ليس لكم مفر ولا ملجأ، ولا يمكن أن تُعجزوا ربكم وتفوتوه حتى لا يعذبكم. فعُرف من هذا أن المفعول محذوف، العرب تقول: «طلب فلاناً فأعجزه». أي: فاته ولم يقدر علىٰ إدراكه، والله يقول: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لا تعجزونني فتسبقونني حتىٰ لا أُنفذ فيكم ما أوعدتكم به، بل أنتم تحت قهري وسلطاني، وفي قبضة يدي، وسأنفذ فيكم ما أشاء من وعيدي الذي قلت:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١١/٦٤٦ ـ ٦٤٩).

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٥].

قرأ هذا الحرف عامة القراء، ما عدا شعبة عن عاصم: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ بالإفراد، وقرأه شعبة ـ وحده ـ عن عاصم: **﴿اعملوا على مكاناتكم﴾** بمدّ النون جمع مكانة. وكذلك قرأ شعبة في جميع القرآن. وقرأ عامة القراء أيضاً ما عدا حمزة والكسائي: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ بالتاء الفوقية في قوله: ﴿مَن تَكُونُ﴾ وقرأ حمزة والكسائي: **﴿فسوف تعلمون من يكونُ له عاقبة الدار﴾**[1].

ولا إشكال في قراءة شعبة، ولا في قراءة حمزة والكسائي؛ لأن قراءة شعبة أن كل واحد له مكانة يعمل عليها، فَجُمعت المكانات اعتباراً بتعدد المخاطبين. وعلىٰ قراءة الجمهور: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ فالمكانة أُضيفت إلىٰ معرّف وهي مفرد فعمّت جميع المكانات؛ لأن المقرر في الأصول: أن المفرد إذا أُضيف إلى معرَّف صار صيغة عموم يشمل جميع الأفراد[2]، كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ [النحل: الآية ١٨] أي: نعم الله. وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: الآية ٦٣] أي: عن أوامره ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ [الحجر: الآية ٦٨] أي: ضيوفي كما هو معروف. فكلتا القراءتين معناهما واحد، وكذلك قراءة حمزة والكسائي: ﴿مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ يجوز فيه التذكير بأمرين:

أحدهما: أن العاقبة تأنيثها مجازي، والتأنيث المجازي إذا كانت (الفَاعِلَة) تأنيثها مجازياً جاز في الفعل التذكير والتأنيث[3].

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٣، وانظر توجيه هذه القراءات في حجة القراءات ص ٢٧٢، البحر المحيط (٢٢٦/٤)، الدر المصون (١٥٨/٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٣) انظر: حجة القراءات ص ٢٧٢، الكليات ٨١٨.

الثاني: أنه فَصَلَ بين الفعل وفاعله فَصْلٌ، وهو قوله: ﴿من **يكون له**﴾ والفَصْلُ بين الفعل وفاعله يُسَوِّغُ تذكير الفعل، ولو كان فاعله مؤنثاً حقيقياً، كما هو معروف في علم النحو[١].

ومعنىٰ الآية الكريمة: أن الله (جل وعلا) أمر نبيه ﷺ أن يهدد الكفار تهديداً عظيماً بأُسلوب لطيف في غاية الإنصاف واللطافة، مع اشتماله على أعظم التهديد، وأشنع التخويف، وهو قوله: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾. ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟﴾ أصله: (يا قومي) حُذفت ياء المتكلم، وحَذْفُ ياء المتكلم اكتفاء بالكسرة لغة فصحىٰ مطّردة في القرآن وفي لغة العرب[٢].

وقد قدمنا في الدروس الماضية[٣] أن (القوم) اسم جمع لا واحد له من لفظه، وأن معناه في لغة العرب: جماعة الرجال دون النساء، وأن النساء ربما دخلن في اسم (القوم) تبعاً. أما الدليل علىٰ أن لفظ (القوم) في النطق العربي يختص بالرجال دون النساء: فقوله تعالىٰ في الحجرات: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ (. . .)[٤].

(. . .)[٥] فيها الربا إجماعاً، التي هي: القمح والشعير والتمر والزبيب، قالوا: كل واحدة من هذه الأربع مُقتاتة مدخرة، معناه أنها قوت يتقوت به الإنسان، وأنه يدخرها أزماناً فلا تضيع، فكل مُقتات مدخر من الحبوب والثمار تجب فيه الزكاة عند مالك والشافعي[٦]. وأنهما اتفقا أيضاً على أن الأشجار ليس في ثمارها شيء مُقتات مدخر إلا الزبيب والتمر خاصة، ولم يوجب مالك والشافعي الزكاة إلا في التمر والزبيب خاصة، أما غيرهما من

---

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.
(٤) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وتمام الآية لا يخفى، ويمكن استدراك باقي النقص فيما يتعلق بمعنى القوم بمراجعة ما ذكره الشيخ (رحمه الله) في الموضع السابق.
(٥) هذا المقطع يتعلق بتفسير الآية رقم (١٤١) ولاستدراك ما ذهب من التسجيل عليك بمراجعة ما كتبه الشيخ رحمه الله في الأضواء (٢/٢١٣ ـ ٢٤٦).
(٦) انظر: الكافي لابن عبدالبر ص١٠٠، المهذب (١/١٦٣).

ثمار الأشجار فليست عندهما مما يُقتات ويُدخر[١]، ولم يوجبا فيها شيئاً إلا الزبيب والتمر. وأما الحبوب فإن مالكاً والشافعي اتفقا أيضاً على أن كل ما يُقتات ويُدخر من الحبوب أنه تجب فيه الزكاة، وهي العشر ونصف العشر على ما قررنا، والحبوب المُقتاتة المُدَّخرة: كالقمح والشعير اللذين ـ مثلًا ـ دل الإجماع والنص عليهما، ونحوهما من السُلْت[٢]، والعَلَس[٣]، والأرز، والذرة، وأنواع القطاني الثمانية[٤]: كالبَسِيلَة[٥]، والجُلُبَان[٦]، والحِمَّص، والتُرْمُس[٧]، والفول، إلى غير ذلك من أنواع القطاني الثمانية؛ لأن القطاني ثمانية أنواع. وضابطها: ما يثبت فيه الربا من الفول، والحِمَّص، والتُرْمُس، واللوبيا، والجُلُبَان، والجُلْجُلَان[٨]، والبَسِيْلَة. أما الكِرْسِنَّة[٩]: فالمشهور في

(١) انظر: الكافي لابن عبدالبر ص١٠٠، المهذب (١/١٦٠).

(٢) السُلْت: قيل: نوع من الشعير ليس له قشر. وقيل: نوع من الشعير رقيق القشر، صغار الحب. وقيل: حب بين الحنطة والشعير، ولا قشر له كقشر الشعير، فهو كالحنطة في ملامسته وكالشعير في طبعه وبرودته. وهي أقوال متقاربة. انظر: المصباح المنير (مادة: سلت) ص ١٠٨ حلية الفقهاء ص ١٠٥.

(٣) العَلَس: قيل هو نوع من الحنطة، يكون في القشرة منه حبتان، وقد تكون واحدة أو ثلاث. وقيل هو حبة سوداء تؤكل في الجدب. وقيل: مثل البر إلا أنه عسر الاستنقاء. انظر: المصباح المنير (مادة: علس) ص ١٦١، حلية الفقهاء ص ١٠٥.

(٤) القطاني: اسم جامع للحبوب التي تُطبخ، كالعدس، والباقلاء، واللوبياء، والحمص، والأرز، والسمسم ويقال لها ـ أيضاً ـ: القِطْنِيَّات، واحدتها قِطْنِيَّة. انظر: المصباح المنير (مادة: قطن) ص ١٩٤ حلية الفقهاء ص ١٠٥.

(٥) قال في اللسان: «والبسيلة: الترمس» ا.هـ. (مادة: بسل) (١/٢١٥).

(٦) هو حب أغبر أكدر على لون الماش، إلا أنه أشد كدرة منه وأعظم جرماً. انظر: اللسان (مادة: جلب) (١/٤٧٨).

(٧) هو حَمْلُ شجر له حب مضلَّع محزَّر. أو الباقلاء المصري. انظر: القاموس (مادة: الترمس) ص ٦٨٨.

(٨) يطلق على السمسم في قشره قبل أن يُحصد، وعلى ثمرة الكزبرة. انظر: المعجم الوسيط (مادة: جلجل) (١/١٢٨).

(٩) قال في القاموس: «شجرة صغيرة لها ثمر في غُلُف، مُصدِّع مُسهِّل مُبوِّل للدم، مسمِّن للدواب، نافع للسعال، عجينه بالشراب يُبرىء من عضة الكلب، والأفعى، والإنسان» ا.هـ. القاموس: (مادة: الكرسنة) ١٥٨٤.

مذهب مالك، أنها لا زكاة فيها لأنها علف، خلافاً لأشهب من أصحاب مالك، إلا أن مشهور مذهب مالك أن الكِرْسِنَّة من أنواع القطاني في باب الربا لا في باب الزكاة[١]. وزعم قوم أن الكِرْسِنَّة هي البَسِيْلَة من أنواع القطاني. هذه الحبوب هي التي تُقتات وتُدخر، وتجب فيها الزكاة: القمح، والشعير، والسُّلْت، والعَلَس، والذرة، والأرز، والدخن، وأنواع القطاني: كالتُّرْمُس، والحِمَّص، والبَسِيْلة، والفول، والجُلُبَان، والجُلْجُلان، واللوبيا، إلى غير ذلك، هذه الحبوب التي تُقتات وتُدخر تجب فيها الزكاة عند مالك والشافعي. وإنما اختلفا في شيئين: أحدهما: أن مالكاً يقول[٢]: إن القطاني يُضم بعضها إلى بعض في الزكاة، وإن القمح والشعير والسُّلْت يُضم بعضها إلى بعض، فمن حصد عند مالك وسقاً من فول، وحصد وسقاً من جُلُبَان، وحصد وسقاً من بَسِيْلَة، ووسقاً من لوبيا، ووسقاً من حِمَّص فإنه تجب عليه الزكاة؛ لأنها خمسة أوسق من جنس واحد. وإن اختلفت أنواعها يضم بعضها إلى بعض ويُخرج من كل نوع بحسبه. والشافعي يقول[٣]: لا يُضم شيء منها إلى شيء، فلا يضم فول إلى لوبيا، ولا تُرْمُس إلى حِمَّص؛ بل كل في جرابه، وإذا حصد خمسة أوسق من واحد وجبت الزكاة، وإلا فلا. كما أن الشافعي يقول: لا يضم قمح إلى الشعير، ولا الشعير إلى القمح، ولا السُّلْت إلى واحد منهما. ومالك يقول: إنه إذا قطع وسقين من قمح، ووسقين من شعير، ووسقاً من سُلْت، أنها تكون خمسة أوسق، يُضم بعضها إلى بعض، فتجب فيها الزكاة، فيخرج عن كلٍ بحسبه.

أما العَلَس عند مالك فلا يُضم إلى هذه الثلاثة.

والحاصل أن مالكاً لا يضم عنده إلا أنواع القطاني الثمانية. يُضم بعضها إلى بعض، ويضم عنده القمح، والشعير، والسُّلْت، هذه الثلاثة

---

(١) انظر: المنتقى للباجي (١٦٨/٢)، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (٤٤٧/١)، أضواء البيان (١٩٢/٢).

(٢) انظر: المدونة (٣٤٨/١)، الكافي في فقه أهل المدينة ١٠٣، القرطبي (١٠٧/٧)، الأضواء (٢١٥/٢ ـ ٢١٦).

(٣) انظر: المجموع (٥٠٥/٥ ـ ٥١٣).

بعضها إلى بعض. وأما غير هذا فلا ضمّ، فلا يُضم تمر إلى قمح، ولا سُلْت إلى ذرة، ولا ذرة إلى أرز، بل كل بحسبه. والشافعي لا يرى ضم شيء من هذا إلى شيء. هذا حاصل مذهب مالك والشافعي.

وقد اختلفا في أشياء: منها الزيتون هل فيه زكاة أو لا؟ فمشهور مذهب الإمام مالك (رحمه الله) أن الزيتون تجب فيه الزكاة إذا بلغ حبه خمسة أوسق، ولكنه لا يُخرج إلا من زيته، فإذا كان حب الزيتون خمسة أوسق وجبت الزكاة فيه، ولكن الإخراج من زيته، وهو العُشر أو نصف العُشر. فالوجوب في الحب، والإخراج من الزيت. هذا مشهور مذهب مالك، ومثل الزيتون عند مالك في هذا ـ من أنه يُنظر نصاب الأوسق من الحب، ثم يُخرج من الزيت مثل الزيتون عنده ـ السمسم، وبذر الفجل الأحمر، والقرطم. والقرطم: حب العصفر. هذه الأربعة التي هي: الزيتون، والسمسم، والقرطم، وبذر الفجل الأحمر خاصة، هي عند مالك إذا كانت حبوبها تبلغ النصاب وجبت فيها الزكاة، وأُخرج العشر أو نصفه من زيتها، هذا مشهور مذهبه (رحمه الله)[١]، ولا زكاة عند مالك في كتان ولا في غيره مما ذكرنا.

ومذهب الإمام الشافعي مختلف ـ أيضاً ـ في الزيتون[٢]، فقال في القديم: إن الزيتون فيه زكاة إن صحَّ أثر عمر الذي ورد فيه. وقد ورد عن عمر[٣] وابن عباس[٤] أثران أن في الزيتون زكاة، والأثران ضعيفان لا تقوم

---

(١) انظر: المدونة (١/٢٩٤، ٣٤٩)، الكافي في فقه أهل المدينة ص١٠٠، الاستذكار (٩/٢٥٢)، القرطبي (٧/١٠٣، ١٠٤)، أضواء البيان (٢/٢١٥).

(٢) انظر: المجموع (٥/٤٥٢)، أضواء البيان (٢/٢١٧).

(٣) أخرجه البيهقي (٤/١٢٥ ـ ١٢٦). وعقبه: بقوله: «حديث عمر رضي الله عنه في هذا الباب منقطع، وراويه ليس بقوي» ا.هـ. وقال الحافظ في التلخيص (٢/١٦٦): «رواه البيهقي بإسناد منقطع، والراوي له: عثمان بن عطاء، ضعيف» ا.هـ. وضعفه النووي في المجموع (٤/٤٥٣)، وانظر ابن أبي شيبة (٣/١٤١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/١٤١). وقال الحافظ في التلخيص (٢/١٦٧): «وفي إسناده ليث بن أبي سُليم» ا.هـ. وضعفه أيضاً: النووي في المجموع (٤/٤٥٣).

حجة بواحد منهما؛ ولذا كان مذهب الشافعي في الجديد: أن الزيتون لا زكاة فيه[١]. والخلاف عنده في القِرْطُم[٢] - أيضاً - كالخلاف في الزيتون، فيه الزكاة في القديم، وفي الجديد لا زكاة فيه، وهذا معروف عندهم[٣].

واختلاف العلماء في زكاة العسل معروف، يُذكر في هذا المحل عند الآيات الدالة على هذا، وإن كان العسل ليس في نفسه مما تنبته الأرض، ولكن نحله ترعىٰ فيما تنبته الأرض فتخرجه. وزكاة العسل الخلاف معروف فيها بين العلماء[٤]، فعند مالك لا زكاة في العسل، والخلاف عن الشافعي، في القديم: يُزكَّى العسل، وفي مذهبه الجديد: لا يُزكىٰ، ومذهب الإمام أحمد زكاة العسل، ومذهب أبي حنيفة أنه إن كان في أرض العُشر زُكِّي وإلا فلا.

وقد وردت في زكاة العسل أحاديث متعددة، كحديث بني شبابة، وهم بطن من بني فهم، أنهم كانوا يؤدون زكاة عسلهم إلى النبي ﷺ[٥].

وقال البخاري وغير واحد من المحدثين: إن زكاة العسل لم يثبت فيها

---

(١) انظر: المجموع (٥/٤٥٢ - ٤٥٥)، أضواء البيان (٢/٢١٧ - ٢١٨).

(٢) هو حب العُصْفُر، كما في المهذب (١/١٦١)، القاموس (مادة: القرطم) ص١٤٨٢.

(٣) انظر المجموع (٥/٤٥٢ - ٤٥٣، ٤٥٦)، أضواء البيان (٢/٢١٨).

(٤) انظر: بدائع الصنائع (٢/٦١)، الاستذكار (٩/٢٨٤ - ٢٨٧)، المجموع (٥/٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٥ - ٤٥٦)، المغني (٢/٥٧٧)، أضواء البيان (٢/٢٢٠ - ٢٢٢).

(٥) ابن أبي شيبة في المصنف (٣/١٤١)، وأبو عبيد في الأموال ص٤٤٤، وأبو داود في الزكاة، باب زكاة العسل. حديث رقم: (١٥٨٥ - ١٥٨٧)، (٤/٤٨٨ - ٤٩١)، وابن ماجه في الزكاة، باب زكاة العسل. حديث رقم: (١٨٢٤)، (١/٥٨٤)، والنسائي في الزكاة، باب زكاة النحل، حديث رقم: (٢٤٩٩)، (٥/٤٦)، والبيهقي (٤/١٢٦ - ١٢٧).

قال ابن عبدالبر في الاستذكار (٩/٢٨٦): «فأما حديث عمرو بن شعيب فهو حديث حسن» ا.هـ. وقال ابن الملقن في تحفة المحتاج (٢/٥١): «رواه ابن ماجه بإسناد جيد» ا.هـ.

والحديث له طرق وشواهد متعددة، انظر ذلك في: تنقيح التحقيق (٢/١٤١٣)، التلخيص (٢/١٦٧، ١٦٨)، الدارية (١/٢٦٤)، نصب الراية (٢/٣٩١ - ٣٩٢)، إرواء الغليل (٣/٢٨٤ - ٢٨٦)، صحيح ابن ماجه (١/٣٠٦)، صحيح النسائي (٢/٥٢٦).

حديث واحد قائم، ولم يصح فيها شيء عن النبي ﷺ، وجميع الأحاديث الواردة في زكاة العسل لا يخلو إسناد شيء منها من قادح وكلام[١]. قالوا: والأصل براءة الذمة، وعَضَّدُوا عدم الزكاة في العسل بالقياس على اللبن، قالوا: إن العسل واللبن كلاهما مائع خارج من حيوان، واللبن لا زكاة فيه، والعسل كذلك.

والحاصل أن العسل وردت في الزكاة فيه أحاديث متعددة. قال بعضهم: بعضها يشدّ بعضاً. وأخذ بمضمونها الإمام أحمد في طائفة من العلماء، فأوجب الزكاة في العسل، والجمهور: منهم الشافعي في الجديد، ومالك، قالوا: لا زكاة في العسل؛ لأنه لم يثبت فيه شيء، والأصل براءة الذمة، وليس هو مما تنبته الأرض مباشرة حتى يدخل في عموم: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٧].

أيضاً كذلك اختلفت الرواية عن الإمام أحمد في الزيتون[٢]، وروىٰ عنه بعض أصحابه أن فيه الزكاة، وروىٰ بعضهم أنه ليس فيه الزكاة.

وليس عند الإمام أحمد زكاة في العُصْفُر، ولا في الكتان[٣]، وإنما الزكاة عند أحمد ـ رحمه الله ـ بما استوجب ثلاثة أشياء؛ لأن علّة الزكاة عنده مركبة من ثلاثة أوصاف، وهي: أن يكون الشيء مكيلًا، وأن يكون ييبس، لا يبقىٰ مبلولًا دائماً، وأن يكون يبقىٰ ويجوز ادخاره لبقائه، فكل ما جمع هذه الأوصاف الثلاثة، بأن كان يُكال،

---

(١) وقال الترمذي (السنن ١٦/٣): «ولا يصح عن النبي ﷺ في هذا الباب كبير شيء، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، وبه يقول أحمد وإسحاق. وقال بعض أهل العلم: ليس في العسل شيء» ا.هـ. وقال ابن المنذر: «ليس فيه شيء ثابت» ا.هـ. انظر: التلخيص (١٦٨/٢)، تنقيح التحقيق (١٤١٢/٢) وللوقوف على كلام العلماء على الأحاديث الواردة في هذا الباب، انظر: تنقيح التحقيق (١٤١١/٢ ـ ١٤١٤)، التلخيص (١٦٧/٢ ـ ١٦٨)، الدراية (٢٦٤/١)، نصب الراية (٣٩٠/٢ ـ ٣٩٣)، الإرواء (٢٨٤/٣ ـ ٢٨٧).

(٢) انظر المغني (٥٥٣/٢).

(٣) انظر: المصدر السابق (٥٥٢/٢).

ويببس، ويبقى، ففيه الزكاة عند الإمام أحمد[١]؛ ولذا قال: إن بعض الأشجار إن ثمارها تُكال وتيبس وتبقىٰ، ولا يُشترط كونها قوتاً، سواء كانت قوتاً أو غير قوت؛ ولذا أوجب الإمام أحمد الزكاة في بعض ثمار الأشجار التي لم يوجبها مالك والشافعي؛ لأن مالكاً والشافعي اشترطا الاقتيات والادخار، وأحمد لم يشترط الاقتيات، قال: إن كان الشيء يُكال وييبس ويبقىٰ وجبت فيه الزكاة؛ ولذا أوجب الزكاة في بعض ثمار الأشجار؛ لأنها تيبس وتبقىٰ، وإن كانت لا يمكن أن تكون قوتاً، فأوجبها في بعض ثمار الأشجار، كالفستق، والبندق، وما جرىٰ مجراهما. هذا مذهب الإمام أحمد. وكذلك أوجب الزكاة في كل حبّ ييبس ويبقىٰ ويكال، وإن كان لا يُقتات، وتجب الزكاة عنده في الأبازير التي تُصلح الطعام، كالكمون بنوعيه: الأحمر والأسود، والكراويا، واليانسون، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك. وتجب عنده في كل بذر يزرع، وتجب عنده الزكاة في بذر الكتان، وفي بذر الخيار والقثاء، وكل ما جرىٰ مجرىٰ ذلك؛ لأنها حبوب تيبس وتُكال وتبقىٰ، هذا مذهب الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ[٢].

وهؤلاء الأئمة الثلاثة لا تجب عندهم الزكاة إلا فيما بلغ الخمسة الأوسق[٣]. أعني: مالكاً والشافعي والإمام أحمد؛ لأن عموم «**فيما سقت السماء العُشر**»[٤] وعموم: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٧] يخصصه عندهم حديث: «**ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة**»[٥] فأقل نصاب الحبوب والثمار أن يبلغ خمسة أوسق.

---

(١) انظر: المصدر السابق (٥٤٩/٢).

(٢) انظر: المصدر السابق (٥٤٩/٢).

(٣) انظر: المدونة (٣٣٩/١)، الكافي لابن عبد البر (١٠١/١، ١٠٣)، المجموع (٤٥٦/٥، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩)، المغني (٥٥٣/٢)، القرطبي (١٠٧/٧)، أضواء البيان (٢٢٥/٢، ٢٢٩).

(٤) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

(٥) السابق.

والوسْقُ ـ بالفتح والكسر ـ ستون صاعاً بإجماع العلماء[١].

والصاع الشرعي النبوي بالتقريب: ملء اليدين المتوسطتين، لا مقبوضتين ولا مبسوطتين[٢]، وهو بالضبط[٣]: وزن رطل وثلث بالبغدادي[٤]، فوزن الرطل وثُلث الرطل بالبغدادي هو الصاع النبوي[٥].

فعدة الأوساق بالأمداد: ألف مُدّ ومائتا مدّ[٦]، وبالصيعان: ثلاثمائة صاع، وبالأرطال: ألف وستمائة رطل[٧]. هذا هو نصاب الحبوب والثمار.

---

(١) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ١٠٣، المجموع (٤٥٨/٥)، المغني (٥٦٠/٢)، حلية الفقهاء ص ١٠٣، المحلى (٢٤٠/٥)، القرطبي (١٠٧/٧).

(٢) في الكافي لابن عبد البر ص ١٠٣، والمحلى (٢٤٠/٥) والأضواء (٢٣٠/٢) وغيرها من المصادر: «والصاع: أربعة أمداد بمد النبي عليه الصلاة والسلام» ا.هـ. ولعل الشيخ رحمه الله أراد المد فسبق لسانه إلى الصاع. ويدل على ذلك قوله في الأضواء (٢٣٠/٢): «واعلم أن الصاع أربعة أمداد بمده ﷺ والمد بالتقريب: ملء اليدين المتوسطتين، لا مقبوضتين ولا مبسوطتين، وتحديده بالضبط: وزن رطل وثلث بالبغدادي. فمبلغ الخمسة الأوسق من الأمداد: ألف مد ومائتا مد، ومن الصيعان: ثلاثمائة، وهي بالوزن: ألف رطل وستمائة رطل. والرطل: وزن مائة وثمانية وعشرين درهماً مكياً، وزاد بعض أهل العلم: أربعة أسباع درهم، كل درهم وزن خَمْسِين وخُمُسَي حبة من مطلق الشعير...» ا.هـ.

ومما يدل أيضاً على أن مراده (المد): أنه ذكر مقداره بعده بقوله: «وهو بالضبط...» إلخ.

(٣) أي (المد) المشار إليه.

(٤) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ١٠٣، حلية الفقهاء ص ١٠٤، القرطبي (١٠٧/٧).

(٥) هذا سبق لسان، والصواب: (المد النبوي) كما في المحلى (٢٤٥/٥)، والكافي لابن عبد البر (ص ١٠٣)، والمغني (٥٦١/٢)، القاموس الفقهي (ص ٣٣٧). وإنما الصاع: خمسة أرطال وثلث من الحنطة.

وقد نقلت لك كلام الشيخ (رحمه الله) في أضواء البيان.

(٦) انظر: الكافي لابن عبد البر (ص ١٠٣)، القرطبي (١٠٧/٧).

(٧) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ١٠٣، المجموع (٤٥٨/٥)، المغني (٥٦١/٢)، القرطبي (١٠٧/٧).

والرطل عندهم عندما حققه مالك وأصحابه - وهم أدرى الناس بقدر الصاع والمدّ؛ لأنهم في محل الصاع والمد، قَدْرُه عندهم يعني بالوزن - ألف وستمائة رطل.

ووزن الرطل عندهم مائة وثمانية وعشرون درهماً مكياً[١]؛ لأن وزن الذهب والفضة وزن مكة، والكيل كيل أهل المدينة[٢]، ووزن الرطل: مائة وثمانية وعشرون درهماً مكياً، ووزن الدرهم المكي: خمسون وخُمُسا حبة من مطلق الشعير[٣] وزيادة ابن حزم خمسة أسباع حبة[٤] ردّها المحققون من علماء المالكية. هذا هو النصاب، وهو خمسة أوسق؛ لأن النبي ﷺ قال: **«ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة»**.

والمُزَكَّيَات فيها - عندهم - تفصيل، فيها نوعان يُخرصان قبل إخراج الزكاة بلا نزاع[٥]، وهما: التمر والزبيب. والزبيب: العنب اليابس، فإنه إذا بدا صلاح التمر وتهيأ العنب للأكل يُخرصان، فيرسِل السلطان إليهما خارصاً حازراً يخرصهما، بشرط أن يكون أميناً عدلاً، عارفاً بالخرص، صادق الحزر غالباً، فيأتي لهذا البستان ويخرصه نخلة نخلة، فيقول: في هذه النخلة الآن كذا من البلح من الزهو، ثم يكون فيها من الرطب كذا، فإذا يبست وجفّ رطبها نقص بكذا. فيحصل منها من التمر اليابس قدر كذا وكذا، ثم إذا خرصوا ذلك وحزروا قَدْر ما يحصل منه من التمر اليابس قيدوه على لصاحبه، وقالوا لصاحبه: بينك وبين بستانك، فَكُلْ ما شئت، وبع ما شئت، وتصرف فيه كيف شئت، ولكنه عند الجذاذ أدِّ قدر هذا

(١) انظر: المجموع (١/١٢٢)، (٥/٤٥٨)، المغني (٢/٥٦١).
(٢) انظر: المحلى (٥/٢٤٤ - ٢٤٥).
(٣) انظر: الأضواء (٢/٢٣٠).
(٤) في المحلى: (٥/٢٤٦): «فوزن الدرهم المكي: سبع وخمسون حبة وستة أعشار حبة وعشر عشر حبة» ا.هـ.
(٥) انظر: المدونة (١/٣٣٩)، التمهيد (٦/٤٦٩ - ٤٧٢)، الاستذكار (٢١/٢١٣)، المجموع (٥/٤٧٧، ٤٧٨)، القرطبي (٧/١٠٥)، المغني (٢/٥٦٧ - ٥٧٢)، فتح الباري (٣/٣٤٤)، أضواء البيان (٢/٢٣١).

الخرص تمراً يابساً، أو زبيباً يابساً[١]. وهذا لم يخالف فيه إلا القليل من العلماء، فجماهير العلماء على الخرص، وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ في غزوة تبوك، لما مرّ بوادي القرى نزل بحائط امرأة، فقال لقومه: اخرصوا كم يخرج منه؟ فخرصوا، وخرصه النبي ﷺ مع الخارصين، وقال لها: في خرصه: «**أرى أن تحصل منه عشرة أوسق من التمر اليابس، واحفظيه حتى نرجع من سفرنا**» فلما رجعوا من غزوة تبوك سألوا المرأة فقالت: خرج منه عشرة أوسق مطابقة لحزره ﷺ[٢]. مضمون هذا الحديث ثابت في صحيح مسلم والبخاري، وهو يدل على أن الخرص حق، وأنه سُنَّة. والظاهر أنهم ما خرصوه إلا ليأخذوا زكاته إذا كانوا قافلين. والأحاديث الكثيرة في أن النبي ﷺ كان يبعث الخارصين، كعبدالله بن رواحة وغيره إلى يهود خيبر، فيخرص عليهم النخل، ويقول لهم: إن شئتم خذوه بهذا الكيل، وإن شئتم دعوه لنا بهذا الكيل[٣]. هذا معروف.

---

(١) انظر: المجموع (٥/٤٧٧)، المغني (٢/٥٦٩)، القرطبي (٧/١٠٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب: خرص التمر، حديث رقم: (١٤٨١) (٣/٣٤٣ - ٣٤٤)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (١٨٧٢، ٣١٦١، ٣٧٩١، ٤٤٢٢). ومسلم، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ، حديث رقم: (١٣٩٢) (٤/١٧٨٥).

(٣) في بعث النبي ﷺ عبدالله بن رواحة (رضي الله عنه) خارصاً ورد عدة أحاديث منها:
١ - حديث عائشة (رضي الله عنها) عند أحمد ٦/١٦٣)، وعبدالرزاق (٤/١٢٩)، وأبي عبيد في الأموال ص٤٣٢، وأبي داود في الزكاة، باب متى يخرص التمر. حديث رقم: (١٥٩١) (٤/٤٩٥) وفي البيوع، باب في الخرص. حديث رقم: (٣٣٩٦)، (٩/٢٧٦)، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء في الخرص (٣/٢٨)، والبيهقي (٤/١٢٣)، والدارقطني (٢/١٣٤)، وابن خزيمة (٤/٤١). وقال الألباني: «إسناده صحيح على شرط مسلم» ا.هـ. وانظر: تلخيص الحبير (٢/١٧١)، والإرواء (٣/٢٨٠).
٢ - حديث ابن عباس (رضي الله عنهما). عند ابن ماجه في الزكاة، باب خرص النخل والعنب. حديث رقم: (١٨٢٠) (١/٥٨٢). وانظر: الإرواء (٣/٢٨٢)، صحيح ابن ماجه (١/٣٠٥).
٣ - حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) عند أحمد (٢/٢٤)، والطحاوي في شرح المعاني (٢/٣٨)، وانظر: الإرواء (٣/٢٨١). =

وشذّت طائفة من العلماء[١]، فقال الشعبي: الخرص بدعة[٢]. وقال سفيان الثوري: لا يجوز الخرص؛ لأنه ظن وتخمين، والظن أكذب الحديث[٣]. وهذا مذهب الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله[٤] ـ قال: الخرص ظن وتخمين لا يثبت به حكم أبداً، وإنما كان النبي يأمر بخرص النخيل تخويفاً للقائمين عليه من أن يخونوا، فالمقصود به عنده تخويفهم من الخيانة. وقالوا: لا يُعمل بالخرص، ولا يثبت به حكم؛ لأنه ظن وتخمين، والظن لا يُغني من الحق شيئاً.

وجمهور العلماء علىٰ أن الخرص حق، ولكن اختلفوا: هل هو واجب أو سنة؟[٥] فبعضهم يقول: واجب؛ لئلا يُضيق علىٰ أهل النخيل في ثمارهم؛ لأنهم يحتاجون إلى الأكل منها، ولا تضيع حقوق الفقراء إذ لو

---

٤ ـ حديث جابر (رضي الله عنه) عند أحمد (٣/٢٩٦، ٣٦٧)، وعبدالرزاق (٤/١٢٤)، وابن أبي شيبة (٣/١٩٤)، وأبي داود في البيوع، باب الخرص، حديث رقم: (٣٣٩٧ ـ ٣٣٩٨) (٩/٢٨٠ ـ ٢٨١)، والدارقطني (٢/١٣٣)، والبيهقي (٤/١٢٣)، والطحاوي (١/٣٨ ـ ٣٩). وانظر الإرواء (٣/٢٨١)، صحيح أبي داود (٢/٦٥٤).

٥ ـ حديث أبي هريرة (رضي الله عنه). عند الدارقطني (٢/١٣٤). وانظر: الاستذكار (٢١/١٩٦).

٦ ـ عامر بن عبدالرحمن. مرسلاً. عند عبدالرزاق (٤/١٢٤).

٧ ـ عبدالله بن عبيد بن عمير. مرسلاً. عند عبدالرزاق (٤/١٢٣).

٨ ـ الشعبي. مرسلاً. عند أبي عبيد في الأموال ص٤٣٢، وابن أبي شيبة (٣/١٩٤).

٩ ـ سليمان بن يسار. مرسلاً. عند مالك في المساقاة، باب ما جاء في المساقاة. حديث رقم: (١٣٨٨) ص٤٩٤، والبيهقي (٤/١٢٢). وانظر: الاستذكار (٢١/١٩٦).

١٠ ـ سعيد بن المسيب. مرسلاً. عند مالك في المساقاة، باب ما جاء في المساقاة. حديث رقم: (١٣٨٧) ص٤٩٤، والبيهقي (١/١٢٢).

١١ ـ عطاء. مرسلاً. عند عبدالرزاق (٤/١٢٢ ـ ١٢٤).

١٢ ـ الزهري. مرسلاً. عند عبدالرزاق (٤/١٢٢، ١٢٣).

(١) انظر: الأموال لأبي عبيد ص٤٣٩ ـ ٤٤١، التمهيد (٦/٤٧٠)، القرطبي (٧/١٠٥)، فتح الباري (٣/٣٤٤)، أضواء البيان (٢/٢٣٢).

(٢) انظر: مصنف عبدالرزاق (٤/١٢٧)، ابن أبي شيبة (٣/١٩٤)، الاستذكار (٢١/٢١٤).

(٣) انظر: الاستذكار (٢١/٢١٤).

(٤) انظر: شرح معاني الآثار (٢/٤١).

(٥) انظر: الأضواء (٢/٢٣٥).

أكلوها قبل الخرص، ولم يُعلم قدر ما فيها لضاع هؤلاء. والخرص يجمع مصلحة الطرفين، بأن يُخلىٰ بين أهل البساتين وبساتينهم، وتُحفظ للفقراء حقوقهم.

وقال بعض العلماء: الوجوب لا يلزم إلا بدليل جازم. وبعضهم يقول: هو سُنَّة.

والدليل علىٰ الخرص: هو حديث عَتَّاب بن أسيد أن النبي ﷺ أمر أن يُخرص العنب كما يُخرص النخل، فتُؤدىٰ زكاته زبيباً عند الجذاذ، كما تُؤدىٰ زكاة النخل تمراً[١]. هذا الحديث من مراسيل سعيد بن المسيب، ورواه سعيد بن المسيب عن عتاب بن أسيد، وسعيد لم يُدرك عتاب بن أسيد رضي الله عنهما؛ لأن سعيداً وُلد في خلافة عمر، وعتاب بن أُسيد توفي في اليوم الذي توفي فيه أبو بكر رضي الله عنهما فلم يدركه، إلا أن مراسيل سعيد بن المسيب معروف حكمها في علوم الحديث[٢]. وقد أقرّ علماء الشافعية أن هذا النوع من مرسل سعيد يتفق الشافعية على قبوله؛ /ولأنه شاع عن الشافعي أنه يقبل جميع مراسيل سعيد بن المسيب؛ لأنها تُتبعت كلها فَوُجدت مسانيد. وقال النووي في شرح المهذب وغيره: إن الشافعي لم يقل بالعمل بمراسيل سعيد مطلقاً بل بقيد، وهو أن يرِد الحديث مرسلًا من جهة أُخرىٰ، أو مسنداً من جهة أُخرىٰ، أو يعمل به ١/١٨

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/١٩٥)، وأبو داود في الزكاة، باب في خرص العنب. حديث رقم: (١٥٨٨ ـ ١٥٨٩)، (٤/٤٩١ ـ ٤٩٢)، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء في الخرص. حديث رقم: (٦٤٤)، (٣/٢٧). وقال: «حسن غريب» ا.هـ. وأخرجه ابن ماجه في الزكاة، باب خرص النخل والعنب. حديث رقم: (١٨١٩)، (١/٥٨٢)، والنسائي في الزكاة، باب شراء الصدقة. حديث رقم: (٢٦١٨)، (٥/١٠٩)، والدارقطني (٢/١٣٢ ـ ١٣٣، ١٣٤)، والبيهقي (٤/١٢١ ـ ١٢٢)، والحاكم (٣/٥٩٥)، وابن خزيمة (٤/٤١)، وابن الجارود (غوث المكدود ٢/١٧)، والطحاوي في شرح المعاني (٢/٣٩)، وابن حبان (الإحسان ٥/١١٨)، والطبراني في الكبير (١٧/١٦٢). وقد ضعفه كثير من العلماء. انظر: تلخيص الجبير (٢/١٧١)، إرواء الغليل (٣/٢٨٢، ٢٨٣).

(٢) انظر: جامع التحصيل ص٩٩، تدريب الراوي (١/١٩٩).

بعض الصحابة، أو يعمل به أكثر العلماء[١]. وهذه الشروط موجودة هنا؛ لأن الخرص عمل به بعض الصحابة، وعمل به أكثر العلماء. فمرسل سعيد هذا اتفق الشافعية على قبوله، مع أن المشهور في مذهب مالك، ومذهب أبي حنيفة، ومذهب أحمد: الاعتداد بالمرسل مطلقاً. فظهر إجماع الأئمة الأربعة على الاحتجاج بمرسل سعيد هذا في خرص التمر والعنب[٢].

ولا يخرص غير التمر والعنب من الأشجار، ولا من الحبوب على التحقيق الذي عليه جمهور العلماء؛ لأن النص إنما ورد بخرص التمر والعنب فقط، ولم يرد في خرص شيء غيرهما. والثاني: أن خرص التمر ممكن لأن أعذاقه تجتمع في رأس النخلة في محل متقارب، فيمكن خارصها أن ينظر جميعها حتى يحزر ما فيها، وكذلك العنب تجتمع عناقيده وتتميز ويمكن خرصها، أما غير ذلك من الأشجار فإن ثماره تتفرق في كل الشجرة وتختلط بأوراقها، والحب مستتر في سنبله، فلا يمكن الخرص فيه[٣].

وكأن الأئمة الثلاثة: مالكاً والشافعي وأحمد، اتفقوا على أن التين لا زكاة فيه[٤] وهذا من الغريب؛ لأن التين ييبس ويُقتات ويُدخر. وكان ابن عبدالبر يقول: أظن أن مالكاً رحمه الله ما كان يعرف التين، ولا يظن أنه ييبس، ويُقتات، ويُدخر، ولو كان يظن ذلك لجعله كالزبيب ولم يعُدّه مع الفواكه.

---

(١) في تحقيق مذهب الشافعي في المرسل انظر: الأم (١٨٨/٣)، مختصر المزني ص٧٨، المجموع للنووي (٦٠/١ ـ ٦٣)، إرشاد طلاب الحقائق للنووي (١٧١/١، ١٧٥ ـ ١٧٩)، الكفاية للخطيب ٤٠٤ ـ ٤٠٥، اللمع ص٧٤، التبصرة ص٣٢٩ (كلاهما للشيرازي).

(٢) انظر: أضواء البيان (٢٣٣/٢).

(٣) انظر: أضواء البيان (٢٣٧/٢).

(٤) انظر: الكافي لابن عبدالبر ص١٠٠، الاستذكار (٢٧٢/٩)، المجموع (٤٥٢/٥، ٤٥٣)، المغني (٥٤٩/٢).

أما الفواكه: كالرمان، والتفاح، والفِرْسِك - وهو الخوخ - والإجّاص[(١)]، والكمثرى، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك، والخَضْراوات: كالقثاء والخيار وأنواع البقول المعروفة من: كَرَفْس ونعناع وما جرىٰ مجرىٰ ذلك، فهذا لا زكاة فيه عند الأئمة الثلاثة[(٢)]، وقد جاء بعض الآثار وبعض الأحاديث في وجوب الزكاة في الخَضْراوات ولم يصح فيها شيء[(٣)].

ودليل الجمهور أن الفواكه جميعها، والخَضْراوات جميعها، لا زكاة فيها: أنه لم يؤخذ عن أحد من المسلمين أن النبي ﷺ أخذ في المدينة شيئاً من زكاة الخَضْراوات ولم يتعرض لها أبداً، ولمَّا فتحوا الطائف كانت الفواكه فيه بكثرة من غيرها من رمان وفِرْسِك وغير ذلك، ولم ينقل عن النبي ولا عن أحد من أصحابه أن أحداً منهم تعرض للفواكه أو الخَضْراوات وأخذ منها شيئاً.

ومعلوم أن أبا حنيفة يوجب الزكاة في الجميع نظراً للآية التي ذكرنا[(٤)].

فبهذا تعلمون أن مالكاً والشافعي يوجبان الزكاة في كل مُقتات مُدَّخر، وليس مُقتاتاً عندها من الأشجار إلا التمر والزبيب، وأن الإمام أحمد يوجب الزكاة في كل ما ييبس ويُكال ويبقىٰ.

وكان داود بن علي الظاهري يقول: ما تنبته الأرض إن كان مكيلًا فلا

---

(١) نوع من الثمر، حلو، شجرته من الفصيلة الوردية. ويطلق في بعض البلاد على الكمثرى. انظر: المعجم الوسيط (٧/١).

(٢) انظر: الكافي لابن عبدالبر ص١٠٠، الاستذكار (٢٧٠/٩ - ٢٧٥)، المجموع (٤٥٢/٥)، المغني (٥٤٩/٢).

(٣) للوقوف على كلام العلماء على الأحاديث والآثار الواردة في هذا الموضوع، انظر: تنقيح التحقيق (١٤٠٢/٢ - ١٤٠٧)، تلخيص الحبير (١٦٥/٢ - ١٦٩)، الدراية (٢٦٣/١)، نصب الراية (٣٨٦/٢ - ٣٨٩)، إرواء الغليل (٢٧٦/٣ - ٢٧٩).

(٤) انظر: المبسوط (٢/٣).

يُزكىٰ حتى يبلغ الخمسة أوسق، وإن كان غير مكيل وجبت الزكاة في قليله وكثيره[(١)].

والحق أن هذا المذهب لولا أنه عُورض بما هو أقوىٰ منه كان أقرب المذاهب إلىٰ ظاهر النصوص؛ لأن قوله ﷺ: «**ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة**»[(٢)] يدل علىٰ أن الزكاة تختص بما هو موسّق، والوسق يختص بالكيل بإجماع العلماء؛ لأن الوسق معيار كيلي بلا نزاع؛ لأنه ستون صاعاً، والصاع معيار كيلي. وهذا معروف، وإن كان ليس مكيلاً يدخل في عموم: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٧] إلا أن مذهب داود هذا مع اتجاهه وجمعه للنصوص يَرِدُ عليه ما ذكرناه الآن، من أن النبي ﷺ لم يتعرض هو ولا أحد من أصحابه إلىٰ أخذ الزكاة من الفواكه، والخَضْراوات، ولا شيء من ذلك.

وهذا الذي ذكرنا يُعلم منه أن أبا حنيفة (رحمه الله) لا يشترط النصاب، ولا خمسة أوسق، ولا كون النابت في الأرض قوتاً، أو غير قوت، ييبس، أو لا ييبس، مدخراً أو لا، وأن الأئمة الثلاثة اشترطوا كما ذكرنا.

وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: الآية ١٤١] علىٰ أن المراد بها الزكاة.

وهذا الذي ذكرنا يعرف به الإنسان مذاهب العلماء في كل ما يخرج من الأرض. وقد بينا خلافهم في عين ما تجب فيه الزكاة، وبينا أنه عند الشافعي ومالك: كل ما يُقتات ويُدخر، وأنه عند أحمد: كل ما ييبس ويُكال ويبقىٰ، وأنه عند أبي حنيفة: لا يُشترط فيه شيء. هذا عين الذي تجب فيه الزكاة. وقد بينا أنها عند الجميع القدر الذي تجب فيه هو: خمسة أوسق فصاعداً، وأن أبا حنيفة يوجبها في القليل والكثير، وأن القدر اللازم إخراجه هو العُشر فيما لا يُسقى بكلفة، ونصف العُشر فيما سُقي بهذا[(٣)].

---

(١) انظر: المحلى (٥/٢١٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: القرطبي (٧/١٠٩)، الأضواء (٢/٢٣٠).

هذا هو حاصل كلام العلماء في هذه المسائل الثلاثة. وإذا عرفت عين ما تجب فيه الزكاة، وقدر النصاب الذي تجب فيه، وقدر الزكاة التي تخرج منه، فقد عرفت المسألة.

وقوله: ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ فيه للعلماء إشكال ـ على أنه الزكاة [١] ـ لأنه يوم الحصاد لم يكن تمراً يابساً، ولم يكن زبيباً يابساً، والزكاة إنما تُخرج منه بعد أن يكون تمراً يابساً، أو زبيباً يابساً. قالوا: المراد بيوم الحصاد: أن المراد به عند حصاده. ويراد: أن زمن الحصاد قد يطول إلىٰ أن يصح يُبسه من زبيب، وتمر، ونحو ذلك. وهذا يوجد في كلام العرب، يقول: افعله عند كذا. ويريد به الاتساع في الوقت، كما تقول: لقيت زيداً سنة كذا. وتقول: لقيته في يوم أول منها. ويكون جميع السنة بعده لم تلقه فيه. هذا يمكن في كلام العرب. وهذا معنىٰ قوله ـ على هذا القول ـ: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[٢]. قرأه أبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ وفَتْح الحاء في (الحصاد) هي لغة التميميين وغيرهم من قبائل نجد. وقرأ الآخرون: ﴿يَوْمَ حِصَادِهِ﴾ بكسر الحاء. وهي لغة الحجازيين. وهما لغتان معروفتان، وقراءتان مشهورتان[٣]: كالحَصاد والحِصاد، والجَذاذ والجِذاذ، والقَطاف والقِطاف[٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ في هذه الآية أوجه معروفة متقاربة من التفسير[٥]:

أحدها: كلوا من ثمره إذا أثمر، وآتوا حقه، ولا تسرفوا في الإعطاء حتى تتركوا عائلتكم وأولادكم فقراء ليس عندهم شيء يأكلونه. والذين قالوا هذا قالوا: نزلت هذه الآية في المدينة في ثابت بن قيس بن شَمَّاس، كان

(١) انظر: ابن جرير (١٢/١٥٨) فما بعدها.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/٢٣٨)، الدر المصون (٥/١٩٠)، التحرير والتنوير (٨/١٢٢).

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٤.

(٤) انظر: حجة القراءات ص٢٧٥، القرطبي (٧/١٠٤)، أضواء البيان (٢/٢٤٦).

(٥) انظر: ابن جرير (١٢/١٧٣)، القرطبي (٧/١١٠)، ابن كثير (٢/١٨٢).

عنده خمسمائة نخلة فجذَّها، وقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته. فلم يزل يُطعم الناس حتىٰ راح وليس عنده ثمر، فنزل: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ﴾[1].

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ في الإيتاء حتى لا تتركوا لأنفسكم ولعيالكم ما يأكلون. وهذا التفسير كقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: الآية ٢٩]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان: الآية ٦٧].

وقال بعض العلماء: لا تسرفوا في شيء من الأعمال؛ لأن الإسراف كله مذموم.

وقال بعض العلماء: إنه راجع إلى قوله: ﴿وَكُلُوا۟﴾ أي: كلوا من ثمره ولا تسرفوا في الأكل، كما قال: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: الآية ٣١] وهذا أظهرها؛ لأن الإسراف في الأكل معروف معهود النهي عنه في الكتاب والسنة.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المسرفون: جمع المُسرف، اسم فاعل الإسراف. وأصل الإسراف: مجاوزة الحد. تقول: أسرف في الشيء. إذا جاوز به حده. وهو مسرف علىٰ نفسه. إذا كان يتعدىٰ حدود الله إلىٰ ما حرمه الله (جل وعلا)[2]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

وهذه الآية كأنَّا ذكرنا عندها نوعاً من أنواع الزكاة، وهو ما تنبته الأرض، وسيأتي في سورة براءة زكاة النقود: الذهب والفضة، وما جرىٰ مجراهما من التجارات، والمعادن، والحُلي المباح، وغير ذلك، وسنذكره - إن شاء الله - عند محله[3]، وسيأتي في بعض المواضع في آيات الزكاة

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٧٤/١٢) عن ابن جريج مرسلاً. وعزاه في الدر (٤٩/٣) لابن أبي حاتم. والرواية التي أخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره (١٣٩٩/٥) إنما هي عن معاذ لا ثابت بن قيس. والله أعلم.

(٢) انظر: ابن جرير (١٧٦/١٢)، القرطبي (١١٠/٧، ١١١)، المفردات (مادة: سرف) ٤٠٧.

(٣) انظر: الأضواء (٤٣٤/٢) فما بعدها.

المطلقة ما تدخل فيه زكاة الحيوانات، وسنتكلم عليه - إن شاء الله - في موضعه. أما هذه الآية فهي خاصة بما تنبته الأرض، وقد تكلمنا علىٰ زكاة ما تنبته الأرض عند الأئمة الأربعة، ومع كل واحد منهم موافقون من فقهاء الأمصار، والله (جل وعلا) نسأل أن يوفقنا جميعاً إلى ما يرضيه.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٢].

قوله: ﴿حَمُولَةً﴾ معطوف علىٰ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مما قبله[(١)]. وتقرير المعنىٰ: وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشا. فهو منصوب بالعطف علىٰ منصوب. أي: وهو الذي أنشأ جنات معروشات، وأنشأ حمولة وفرشاً من الأنعام، والمعنىٰ: هو الذي رزقكم أنواع النباتات والحبوب، وأنواع الأنعام، فما كان لكم أن تقولوا: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ ولا أن تجعلوا لشركائه من الأنعام والزروع شيئاً. أي: وهو الذي أنشأ لكم من الأنعام حمولة وفرشاً.

التحقيق أن الأنعام: أنها الإبل، والبقر، والغنم بأصنافها الثلاثة[(٢)]. والحمولة: هي ما يُحمل عليه الأثقال، ويُسافر عليها - بها - من بلد إلىٰ بلد[(٣)]، كما قال: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾[النحل: الآية ٧] ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: الآية ٧٢] ومن نقل عن ابن عباس أن الحمولة: الإبل، والبغال، والخيل، وكل ما يُحمل عليه من الدواب[(٤)]؛ فهو قول لا يصح؛ لأن الأنعام لا تطلق إلا علىٰ الإبل، والبقر، ونوعي الغنم، فلا تطلق علىٰ الخيل، ولا علىٰ البغال؛ ولذا فسَّر الله الأنعام في هذه السورة بقوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣]

---

(١) انظر: القرطبي (١١١/٧)، البحر المحيط (٢٣٨/٤)، الدر المصون (١٩٠/٥).

(٢) انظر: القرطبي (١١١/٧)، (٦٨/١٠).

(٣) انظر: ابن جرير (١٧٨/١٢) فما بعدها، القرطبي (١١١/٧ ـ ١١٢)، ابن كثير (١٨٢/٢).

(٤) أخرجه ابن جرير (١٨٠/١٢) من طريق علي بن أبي طلحة. وهو إسناد جيد. وقول ابن عباس هذا هو الذي رجحه ابن جرير (رحمه الله) في تفسيره (١٨١/١٢).

كما يأتي إيضاحه. أي: وهو الذي أنشأ لكم من الأنعام حمولة. أي: مراكب تحملون عليها أمتعتكم، وتركبون عليها، كالإبل. قال بعض العلماء: وكالبقر في بعض البلاد. وهو صادق؛ لأنّا شاهدنا بعض الأقطار يحملون الأحمال الثقيلة علىٰ ذكور البقر من بلاد بعيدة إلىٰ بلاد بعيدة، وقد يكون عندهم ذكور البقر يحمل الواحد منهم فوق ما يحمله البعير(١)، ويسافرون عليها من بلاد إلى بلاد. وإن كان بعض علماء المالكية أفتى بأن البقر لا يجوز ركوبه، ولا الحمل عليه، ظناً منه أن ركوبه والحمل عليه من تكليفه ما لا يطيقه(٢). ونحن شاهدنا ذي الأيام في بعض الأقطار ذكور البقر تكون معروضة تحمل الأثقال العظيمة من بلاد إلىٰ بلاد رأي العين. وبذلك نعلم أنها داخلة في قوله: ﴿حَمُولَةً﴾ أي: ما يحملون عليه أثقالهم كالإبل، وربما دخل البقر في بعض الأقطار.

وقوله: ﴿وَفَرۡشٗاۚ﴾ الفرش هنا فيه أقوال متقاربة للعلماء(٣): حكى الفراء إجماع أهل اللغة علىٰ أن الفرش صغار الإبل، وهي الفصلان(٤). وقال بعض العلماء: الفرش: الغنم.

والتحقيق: أن الآية تشمل كل ذلك، وأن الأنعام منها ركوبة كالإبل، ومنها فرش، وهو ما يؤكل، ويُشرب من لبنه، مع أنه ليس صالحاً للركوب، فيدخل في الفرش: الغنم، وفِصال الإبل، وعجاجيل البقر؛ لأن ولد البقرة يُقال له: عِجل. ويُجمع علىٰ: عجاجيل. علىٰ غير قياس(٥). فالغنم، وفِصَال الإبل، وعجاجيل البقر كلها يدخل في الفرش.

---

(١) انظر: الحيوان للجاحظ (١٩٥/٧).

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (١١٤٣/٣)، القرطبي (٧٢/١٠، ٧٧)، إكمال إكمال المعلم للأبي (١٩٧/٦).

(٣) انظر: ابن جرير (١٧٨/١٢) فما بعدها، القرطبي (١١٢/٧)، ابن كثير (١٨٢/٢).

(٤) لم يرد ذكر لهذا الإجماع عند تفسير الفراء لهذه الآية في كتابه: (معاني القرآن ٣٥٩/١) وإنما الذي نقل الإجماع في ذلك هو الزجاج في معاني القرآن (٢٩٨/٢) فلعل الشيخ عناه لكن سبق لسانه إلى الفراء.

(٥) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

قيل: وإنما سُميت هذه الصغار: (فرشاً) لقربها من الفراش والمهاد الذي هو التراب؛ لأنها صغيرة قصار قريبة من الأرض. هكذا قالوا، والله أعلم[١].

وعلى كل حال فجميع الأقوال راجعة إلىٰ أن الله أنشأ الأنعام، وجعل فيها منّة الركوب والأكل.

أما قول من قال: (فرشا) فإنه لا يتناول إلا ما يُصنع منه الفِرَاش، كالضأن الذي يُصنع من صوفها الفراش، والمعز الذي يصنع من بعض شعرها الفراش ونحو ذلك، وأن الفرش هو ما يستمده الخلق من جلود الأنعام، وأصوافها، وأشعارها، وأوبارها[٢] - كما يأتي في سورة النحل - فهذا قول غير متجه؛ لأن المنة تكون بمجرد الأصواف، والأوبار، والأشعار، والجلود، لا بنفس الأنعام، والمعروف في القرآن - وإنْ ذَكَر المِنَّة بالأصواف، والأوبار، والأشعار، والجلود في قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ [النحل: الآية ٨٠] وفي قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ الآية [النحل: الآية ٨٠] إلا أن المراد هنا: - الامتنان بها جميعاً، وأعظم أنواعه: الأكل منها. وهذا المعروف في القرآن، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس: الآيتان ٧١، ٧٢] ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾ [النحل: الآية ٥] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [غافر: الآية ٧٩] إلىٰ غير ذلك من الآيات. فتبين أن المنة في الركوب، وغيره من الأكل، وغير ذلك من النعم، يعني: هذا الذي أنشأ لكم الأنعام - حمولتها وفرشها - هو الله جل وعلا.

ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: هذا الذي خلقته لكم، وهي: الأنعام، والفرش، كلوا من الذي

---

(١) انظر: القرطبي (١١٢/٧).

(٢) انظر: القرطبي (١١٢/٧)، البحر المحيط (٢٣٩/٤)، الدر المصون (١٩١/٥).

رزقكم الله من الأنعام، والفرش، والزروع، المعطوف عليها في قوله: ﴿أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤١] فهذا رزق الله كلوا منه، ولا تُحرّموا منه شيئاً علىٰ أنفسكم افتراءً علىٰ الله، ولا تجعلوا منه شيئاً للأوثان، كما قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني: كلوا من رزقي ونعمتي، ولا تتبعوا في نعمتي ورزقي تشاريع الشيطان وقوانينه، بأن تُحلّوا هذه وتُحرموا هذه، فتُحرموا البَحِيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، وتقولوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا. وتقولوا: هذه أنعام وحرث حجر. كل هذا اتباع خطوات الشيطان.

والآية نص صريح في أن من مشىٰ علىٰ تشريع جعله الشيطان، يُحل فيه ما لا يُحله الله، ويحرم فيه ما لا يحرمه الله، أنه اتبع خطوات الشيطان.

والخُطوة ـ بضم الخاء ـ هي ما بين قدميّ الماشي[1]، فكما بين قدمي الماشي من المسافة: (خُطوة). والمرّة من خَطْوهِ تُسمىٰ (خَطْوَه) بالفتح. وفيه قراءتان سبعيتان: قرأه ابن عامر، والكسائي، وقُنبل عن ابن كثير، وحفص عن عاصم: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ بضم الطاء إتْباعاً للخاء ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وقرأه باقي السبعة: نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والبَزِّيّ عن ابن كثير، وشعبة عن عاصم: ﴿خُطْوات الشيطان﴾ بسكون الطاء[2].

والشيطان ـ قبحه الله ـ معروف، وهو هنا: الشيطان الذي سنّ المعاصي. وقد قدمنا مراراً[3] أن كل متمرد عات شيطان، وذكرنا ـ في الدروس الماضية ـ أن الشيطان فيه قولان للعلماء: هل اشتقاقه من (شَطَنَ الشيء) بمعنىٰ بعُد، أو اشتقاقه من (شَاطَ الشيء) إذا هلك؟ قال بعض العلماء: الشيطان من (شَطَن) تقول العرب: «شَطَنَ، يشطن، فهو شطين». أي: بعيد، ومنه قول الشاعر[4]:

(١) انظر: المفردات (مادة: خطو) ص٢٨٨.
(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٣٩.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من هذه السورة.
(٤) السابق.

نَأَتْ بِسُعَادَ عنكَ نَوىً شَطُون فَبَانَت والفُؤادُ بها حزين

وهذا القول جاء في شعر العرب ما يدل عليه، فقد قال أُمية بن أبي الصلت الثقفي - وهو عربي قُح - يمدح سليمان[1]:

أيما شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ ثم يُلْقَى في السجن والأكبال

فقوله: «أيما شَاطِن»: يعني: أيما شيطان، والشَّاطِن: اسم فاعل من (شَطَنَ) بلا نزاع، فدل هذا البيت علىٰ أن أصله من (شَطَن) فالعرب تقول: «شَطَنَ قَعْرُ البير». إذا بعدت مسافة عمقها.

وعلىٰ هذا القول فاشتقاق الشيطان من (شَطَنَ) بمعنىٰ (بعُد) أي: لشدة بُعده عن رحمة الله - والعياذ بالله - وعلىٰ هذا القول: فوزن الشيطان بالميزان الصرفي: (فَيْعَال) والياء زائدة، والنون أصلية، بناء علىٰ أنه من (شَطَنَ) بمعنىٰ (بعُد) ذكر هذا سيبويه في موضع من كتابه، ثم ذكر القول الآخر في موضع آخر من كتابه، أن أصل الشيطان من (شَاطَ يشيطُ) إذا هلك. تقول العرب: «شَاطَ الفارسُ يَشِيطُ». إذا هلك[2]. وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول الأعشىٰ ميمون بن قيس[3]:

قد نَخْضِبُ العيرَ من مكْنُونِ فَائِلِهِ وقد يشيطُ علىٰ أرماحنا البطلُ

أي: يهلك عليها.

وعلىٰ أنه من (شَاطَ يَشِيطُ) فوزنه بالميزان الصرفي (فَعْلان) لأن الألف والنون زائدتان؛ لأن أصل حروفه الأصلية علىٰ هذا: (شَيَط) فاؤها شين، وعينها ياء، وطاؤها لام، والألف والنون زائدتان. فعلىٰ القول الأول فوزنه: (فَيْعَال) وعلىٰ الثاني فوزنه (فَعْلَان) وكل متمرد عات شيطان، سواء كان من الإنس أو الجن أو غيرهما، ومن شعر جرير[4]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من هذه السورة.
(٢) السابق.
(٣) السابق.
(٤) السابق.

أَيَامَ يَدْعُونَنِي الشيطانَ من غَزَلِي وكنَّ يَهْوَيْنَنِي إذْ كُنْتُ شيطاناً

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشيطان ﴿لَكُمْ﴾ يا بني آدم ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: بيّن العداوة ظاهرها؛ لأن الشيطان هو عدو بني آدم؛ لأن زَعْمَ الخبيث أن سبب شقائه هو آدم، حيث امتنع من السجود له، وقال: ما دام آدم هو سبب شقاء البعيد فسيبذل كل مجهود حتى يُشقي أولاد آدم. وقد أظهر العداوة لله لبني آدم مجاهراً بها، ولم يكتمها، ولم يوارِ حيث قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٦، ١٧] ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ الأظهر في تفسيرها أن معنىٰ: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الإسراء: الآية ٦٢] لأقودنهم إلى المهالك بتزييني، من قول العرب: «احْتَنَكَ الرجل البعير». إذا جعل الحبل علىٰ حنكيه فقاده بالحبل علىٰ حنكيه حيث شاء. وقال هذا مراراً: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: الآية ٣٩] ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: الآية ١١٩] فقد أظهر العداوة. فربنا يقول: كونوا عقلاء، واعرفوا عدوكم من صديقكم، واعرفوا أن الشيطان عدوكم، فلا تتبعوا خطوات الشيطان ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: الآية ٦] ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: الآية ٥٠] وهذا قد قاله للأب والأم الكبيرين، ولكن الله لم يشأ أن ينفعهما بذلك، حيث قال لآدم: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: الآية ١١٧] بين له عداوته، وحذره منها، ولكن قضاء الله غالب، وقدره نافذ. فعلينا معاشر المسلمين أن نعلم أن الشيطان عدونا فنعاديه، ولا ننجر معه إلىٰ ما يريد أن يجرنا إليه من المعاصي والهلكات؛ لأنه عدو طالب ثأر، يريد أن ينتقم منا، فالمسلم الفاهم إذا قرأ آيةً في سورة سبأ ـ إن كان يفهم عن الله ـ عرق جبينه من الخجل، إن كان يتبع الشيطان؛ لأن الشيطان احتقرنا معاشر الآدميين احتقاراً عظيماً لا مثيل له، حيث إنه عدونا، واعتقد

فينا أن عندنا من سذاجة العقول، وعدم الفهم، وعدم عمق العقل أنه إذا أراد أن يجرنا إلىٰ المَهْلَكة بوساوس، وتزيينات، وزخارف فاضية أننا نبلغ من سذاجة العقول، وعدم التفكير، وسوء النظر أننا ننجر معه حتى يدخلنا في المهلكة، ويشفي غيظه منا، وينتقم منا، ظن هذا في بني آدم اعتقاداً منه سوء عقولهم، وعدم نظرهم، إلا القليل منهم؛ لأن قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ظَنٌّ منه؛ ولذا قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٣٩، ٤٠] زعموا أنه خاف أن يظهر عليه الكذب. ومن هنا قال بعض العلماء: لا خصلة أقبح من الكذب؛ لأن الشيطان تحرز عنها حيث قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وما قال هذا إلا ظناً ببني آدم ضَعْفَ العقول، وضَعْفَ النظر، وعدم التفكير، ومع هذا يقول الله في سورة سبأ، وهي الآية التي تُحزن المؤمن المتبع للشيطان: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾ [سبأ: الآية ٢٠] هذه الآية إذا تأملها المسلم الذي يعلم من نفسه أنه يتبع الشيطان، عرق جبينه من الخجل، حيث يكون الشيطان يعتقد فيه من السذاجة، وضعف العقل، وعدم النظر والتفكير أن عدوه إذا أراد أن يقوده حتى يوقعه في مَهْلَكَة، ويشفي غيظه منه، ويأخذ بثأره، وينتقم، انقاد معه. قال هذا ظناً، ومع هذا يصدق هذا الظن!! فهذا شيء يُحزن المؤمن، وينبغي التنبه له: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا﴾[1] هم الذين قال فيهم: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: الآية ٤٠]. وكان حُذّاق العلماء يقولون: علينا معاشر الآدميين أن نعتقد أن الشيطان عدونا، وأنه سبانا من دار الكرامة التي كان فيها الأبوان: الجنة، التي قيل لآدم فيها: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: الآيتان ١١٨، ١١٩] فأخرجنا الشيطان من دار الكرامة، فنحن سبي الشيطان، أخرجنا من تلك الدار إلىٰ هذه الدار، التي هي دار الشقاء، والمصائب، والأحزان، والبلابل، لا يكاد إنسان يسلم يوماً ولا ليلة

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٦٣.

من أذيّة من أذاياها، وكان العلاّمة ابن القيم (رحمه الله) يقول في هذا الموضوع[١]:

ولكنَّنا سَبيُ العدوِّ فهل تُرىٰ نُرد إلىٰ أوطاننا ونُسلِّم

فعلينا أن نجاهد العدو ونعاديه، حتى يمكننا الرجوع إلىٰ الوطن الأول؛ لأنه لما وقعت الزلة من الأبوين - آدم وحواء - حكم الله أنه لا يُدخل أحداً من ذريتهما جنته إلا بعد الامتحان في الأوامر والنواهي. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فلا تتبعوا خطواته.

والمبين: اسم فاعل (أبان) و(أبان) تأتي في العربية علىٰ لغتين:

أحدهما[٢]: (أبان) اللازمة، تقول العرب: «أبان الشيءُ يُبين، فهو مُبين». إذا كان بيناً ظاهراً لازماً غير متعد للمفعول. وهذه لغة فصحىٰ معروفة في كلام العرب، وفي القرآن العظيم، ومن إطلاقها في كلام العرب قول جرير[٣]:

إذا آباؤُنَا وأبوكَ عُدُّوا أبَانَ المُقْرِفَات من العِرَابِ

أبان: أي: ظهر المُقْرِفَات من العِرَاب. وقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي[٤]:

لو دبَّ ذرٌ فوقَ ضاحي جلدِهَا لأبَانَ من آثارِهِنَّ حُدورُ

يعني: لظهر من آثار دبيب النمل ورم لشدة رقة بشرة الجِلْد. فـ (أبان) هنا لازمة لا مفعول لها. ومن إتيان (المُبين) لازماً من اسم فاعل (أبان) اللازمة: قول كعب بن زهير في (بانت سعاد)[٥]:

---

(١) طريق الهجرتين ص٥١، شرح القصيدة الميمية ص٣٤، وأول الشطر الثاني: «نعود».
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من هذه السورة.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من هذه السورة.
(٥) السابق.

قَنْوَاء في حُرَّتَيْهَا للبصيرِ بها عِتْقٌ مُبينٌ وفي الخَدَّينِ تَسْهيلُ

عِتْقٌ مُبِيْن: أي: كرم ظاهر.

وعلى أن (مبيناً) هنا من (أبان) اللازمة، والمعنىٰ: إن الشيطان لكم عدو مبين. أي: بيّن العداوة ظاهرها واضحها. من (أبان يُبين) فهو: مبين. لازماً. وقد يحتمل أن يكون من (أبان) المتعدية، والمفعول محذوف، أي: مبين عداوته ومظهرها، حيث صرح بذلك في قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: الآية ١٦] ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الإسراء: الآية ٦٢] ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: الآية ٣٩] فهنا أبان عداوته. وعلىٰ أنه من (أبان) المتعدية: فالمفعول محذوف، وحَذْفُ المفعول إذا دل المقام عليه جائز كما هو معروف في كلام العرب.

في قوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣] أوجه معروفة من الإعراب[1]: أظهرها وأصحها: أنها بدل من قوله: ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الأنعام: الآية ١٤٢] أي: أنزل لكم من الأنعام حمولة وفرشاً. ثم بيّن الحمولة والفرش ما هي؟ فبينها بالإبدال منها فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾.

والمراد بالأزواج هنا: الأصناف. وكل شيء يحتاج إلىٰ أن يجتمع مع واحد من جنسه تُسميه العرب: زوجاً[2]. كالخُفّ فإنه يحتاج إلىٰ خُفّ آخر فهو زَوْجُه، وكأحد مصراعيّ الباب فإنه يحتاج إلىٰ مصراع آخر فهو زَوْجُه، وكالذَّكَر فإنه يحتاج إلىٰ الأنثىٰ فهي زَوْجُه؛ لأنهما مزدوجان.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الضأن معروف، وهو نوع الغنم الذي فيه الصوف، ومُقَابِله: المعز. وقرأه عامة القراء: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ﴾ بتحقيق الهمزة، وأبدلها السوسي عن أبي عمرو: ﴿مِّنَ ٱلضَّانِ ٱثْنَيْنِ﴾[3].

---

(١) انظر: ابن جرير (١٨٣/١٢)، القرطبي (١١٣/٧)، البحر المحيط (٢٣٩/٤)، الدر المصون (١٩١/٥).

(٢) انظر: القرطبي (١١٣/٧).

(٣) انظر: الإقناع (٤٠٨/١، ٤٢٥)، النشر (٣٩٠/١).

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْمَعَزِ ٱثْنَيْنِۗ﴾ قرأه نافع والكوفيون الثلاثة ـ وهم: عاصم، وحمزة، والكسائي، قرؤوا: ـ ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ﴾ بسكون عين المعز، وقرأه الباقون ـ وهم: ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو ـ ﴿وَمِنَ ٱلْمَعَزِ ٱثْنَيْنِۗ﴾ بفتح عين المعز[١]. وهما لغتان في (المَعَز، والمَعْز)، وكذلك (الضأَن، والضأْن)[٢] ولكن (الضأَن) لم يُقرأ بها، إنما قرأوا بـ (الضأْن) بالسكون، وأبدلها السوسي عن أبي عمرو، وأظهر اللغتين: (المَعْز) بالسكون؛ لأن (الفَعْل) قد يُجمع على (فَعِيل) والمعز يجمع على مَعِيز، كالعبد، والعبيد، والمعز، والمعيز. ومن جَمْعِه على (المَعِيز) قول امرىء القيس[٣]:

أَبَعْدَ الحارث الملك ابنِ عمرو ... له مُلكُ العراقِ إلى عُمانِ
ويَمْنَعُها بنو شَمَجى بنِ جرمٍ ... مَعِيْزَهمُ حَنَانَكَ ذا الحنانِ

﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: زوجان، ذكر الضأن وأُنثاه، وهما: الكبش والنعجة ﴿وَمِنَ ٱلْمَعَزِ ٱثْنَيْنِۗ﴾ ذكره وأنثاه، وهو: التيس والمعزة. ويقال لها: المعزى والعنز. والمعزى تطلق على جنس المعز أيضاً، ومنه قول امرىء القيس[٤]:

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٤.
(٢) انظر: القرطبي (١١٤/٧)، الدر المصون (١٩٤/٥).
(٣) ديوان امرىء القيس ص١٦٩. وبين البيتين المذكورين بيت لم يذكره الشيخ (رحمه الله)، وهو قوله:
مُجَاورةَ بني شَمَجَى بنِ جَرْمٍ ... هَوَاناً ما أُتيحَ من الهوانِ
وقوله: (الحارث) هو: الحارث الأكرم بن عمرو بن معاوية.
وقوله: (بنو شمجى) حي من طيء. قال ذلك حينما نزل بهم فلم يحمد نزلهم.
وقوله: (حنانك) أي: تحننك وترحمك. يتهكم بهم.
وقوله: (ويمنعها) يرويه بعضهم: (يمنحها).
(٤) ديوان امرىء القيس ص١٧١.
وقوله: (جلتها) أي: كُبراها. والمعنى: إذا لم يكن في اليد إبل مقتناة فإن الاجتزاء بالمعزى فيه سداد من عوز.

أَلاَ إلأَ تـكُـنْ إبِـلٌ فـمِـعْـزَى كـأنَّ قُـرون جِـلـتـهـا الـعِـصـيُ

فهذه أربعة أصناف من الغنم، وهي: الكبش، والنعجة، والتيس، والمعزة ـ التي هي العنز ـ هذه أربعة في الغنم من الأزواج الثمانية.

ثم قال بعد هذا: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ وهما: الجمل والناقة.

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر البقر وأنثاه، البقرة والثور. فهذه هي الأصناف الثمانية، التي هي الأنعام، التي يُباح أكلها من الحيوانات، كما سيأتي في قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: الآية ٦] وهي هذه الثمانية. وهذا معنىٰ قوله: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ الهمزة الأولى همزة استفهام، والثانية همزة الوصل. والقاعدة: أن همزة الوصل إذا كانت همزة (أل) وجاءت قبلها همزة الاستفهام، أن همزة الوصل تُبدل مدّاً بهمزة الاستفهام[1]، ويجوز تسهيلها بين بين، وبعضهم يُجيز إبدالها هاء. وزعم بعض علماء القراءات أن الذين مدّوها هنا قالوا: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ أنهم جاءت عنهم قراءات بتسهيلها بين بين ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ وعلىٰ تسهيلها لم يكن بينهما أَلِف الإدخال؛ لأن الأَلِف في التسهيل بين بين إنما يأتي بالهَمَز المحققة. ومن تسهيل العرب لهمزة الوصل بعد همزة الاستفهام قول الشاعر[2]:

أَيَا ظَبيةَ الـوَعْـسـاء بـيـن جُـلاجـلٍ وبـيـن الـنـقـا آأنـتِ أَمْ أُمُّ سـالـمِ

هي تمدها العرب وتسهلها، فشاهد مدها ـ كقوله هنا ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ ـ قول الشاعر:

أَيَا ظَبيةَ الـوَعْـسـاء بـيـن جُـلاجـلٍ وبـيـن الـنـقـا آأنـتِ أَمْ أُمُّ سـالـمِ

الأصل: (ءأنت) ولكنها هنا ليست همزة وصل، بل همزة أُخرىٰ،

---

(١) انظر: الكتاب لسيبويه (٣/٥٥١)، الإقناع لابن الباذش (١/٣٥٩)، المُوضح لابن أبي مريم (١/١٩١)، النشر (١/٣٦٢) فما بعدها، الكليات ص٢٠ ـ ٢١، ٩٥٦، معجم الإعراب والإملاء ص٢٨، الهمزة في الإملاء العربي ص٢٢ ـ ٢٤.

(٢) البيت لذي الرمة. وهو في الكتاب (٣/٥٥١)، الأمالي (٢/٥٨)، الدر المصون (١/١١٠).

وتسهيلها وهي همزة وصل شاهده قول الشاعر(١):

أَأَلْـحَـقُّ إنْ دارُ الـرَّبـابِ تـبـاعَـدَتْ ... أو انـبَـتَّ حـبْـلٌ أنَّ قَـلْـبَـكَ طـائِـرُ

قوله: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾، ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾: مفعول ﴿حَرَّمَ﴾ مقدم عليه. والمعنى: أحرم الله الذكرين، ذكر المعز والضأن ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أم حرم أُنثيي الضأن والمعز ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ حرم الذكور والإناث كُلاً. كأنه يقول: تفريقكم بين بعض الذكور وبعض الإناث، وبعض ما في بطون الأنعام بأن تُحِلُّوا بعض هذا، وتُحرموا بعضه، إن كانت العلة في تحريم الذكر الذكورة، فكان اللازم أن يحرم كل ذكر لاطراد العلّة، وإن كانت الأنوثة لزم أن تحرم كل أنثى لاطراد العلّة، وإن كان كونه في البطون - مشتملة عليه الرحم - لزم أن يحرم كل مولود من ذكر وأنثى، وكل لبن؛ لأن الكُلّ اشتملت عليه الرحم!! فكأنه يقول: تفريقكم هذا باطل؛ لأنه لو كانت العلة الذكورة لحرم ذكر الضأن والمعز معاً وأنثاهما كُلاً. ولو كانت التخلق في الرحم لحرم ما اشتملت عليه الرحم مطلقاً. فَلِمَ حرمتم بعض هذا، وحللتم بعض هذا؟ وما الفارق بين ما حللتم وحرمتم؟

ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ الجمل والناقة. ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ البقرة والثور. ثم أعاد القضية ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ عجزهم في الأول فقال: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾ أخبروني عن هذا الذي حرمتم، وهذا الذي حللتم، ما وجه تحريمكم لهذا؟ وتحليلكم لهذا؟ مع استواء الجميع!! وقال في الثاني: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ﴾؟.

وآية الأنعام هذه مثال معروف لعلماء الجدل للدليل الذي يسميه الجدليون: (الترديد والتقسيم)(٢)، ويسميه المنطقيون: (الشَّرْطي المُنْفَصل)(٣)

---

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة. وهو في الكتاب لسيبويه (٣/١٣٦)، النشر (١/٣٧٧).

(٢) انظر: الكافية في الجدل ص٣٩٤ علم الجذل في علم الجدل للطوفي ص٦٠، الإيضاح لابن الجوزي ص٨٠، الجدل لابن عقيل ص١٩، البحر المحيط للزركشي (٥/٢٢٥)، القبس لابن العربي (٣/١٠٧٠) وفي المصدرين الأخيرين تجد النص على هذه الآية.

(٣) انظر: إيضاح المبهم للدمنهوري ص٩٠، تسهيل المنطق ص٤٣.

ويسميه الأصوليون: (السبر والتقسيم)[١]، فكأنه يقول: حرمتم بعض هذه الإناث، وحللتم بعضها، وحرمتم بعض الذكور، وحللتم بعضها، وفرقتم بين ما في بطون الأنعام فقلتم: إنه خالص للذكور، محرم علىٰ الأزواج، فرقتم بين هذه الأحكام، فلا يخلو تفريقكم بينها من أحد أمرين في التقسيم الصحيح:

إما أن يكون مُعَلّلًا بعلة معقولة.

وإما أن يكون تعبدياً.

وهذا الحصر هو المُعَبَّر عنه بالتقسيم في اصطلاح الأصوليين الجدليين، والمْعَبَّر عنه بالشرطي المنفصل في اصطلاح المنطقيين. فكأنه يقول: لا يخلو الحال من أمرين: إما أن يكون مُعَللًا، وإما أن يكون تعبدياً. ثم قال ـ مثلًا ـ بناء علىٰ أنه مُعلل: إما أن تكون العلة في الذكور: الذكورة، وفي [الإناث][٢]: الأنوثة، أو التخلق في الرحم. فلو كانت العلة الذكورة لحرم كل ذكر، ولم يحرم الحام دون غيره من الذكور. ولو كانت العلة الأنوثة لحرمت كل أنثىٰ، ولم يختص بالبحيرة والسائبة والوصيلة. ولو كانت العلة اشتمال الرحم، لحرم الجميع، وحرم اللبن أيضاً الذي فرقتم فيه، فحرم الجميع.

ثم قال بناء علىٰ أنه تعبدي أبطله بقوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ أم كنتم حاضرين حتى قال لكم الله: هذا حلال وهذا حرام؟ فهذا باطل أيضاً. فبين أن جميع دعاويهم أنها باطلة كلها بهذا الدليل الذي هو السبر والتقسيم. وقد بينا أن هذا الدليل من أمهات الجدل العظام، حيث حصر جميع الأوصاف، ثم أبطلها كلها، ولا يكون بهذا المعنىٰ إلا عند الجدليين؛ لأنه عند الأصوليين لا يكون إلا في مسالك العلّة، ولا بد أن يبقىٰ وصف صحيح هو العلّة. كأن تقول: العلّة في تحريم البر: إما أن تكون الطَّعْم، أو الكيل، أو الاقتيات والادخار. فلا بد أن تُبطل بعض الأوصاف، وتترك وصفاً صالحاً في زعمك، تقول: إنه علّة.

---

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (١٤٢/٤)، المذكرة في أُصول الفقه ص٢٥٧.

(٢) في الأصل: «الأنوثة».

وقد ذكرنا في كثير من المناسبات[١] وفي بعض ما كتبنا في الكتب[٢] أشياء كثيرة عن هذا الدليل، وذكرنا له آثاراً تاريخية في العقائد، وآثاراً تاريخية في الآداب، وذكرنا له أمثلة قرآنية.

فمن أمثلته القرآنية: هذه الآية، ومن أمثلته القرآنية قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: الآية ٣٥] فكأنه يقول: لا يخلو حالهم من واحدة من ثلاث حالات: إما أن يكونوا خَلَقُوا أنفسهم، أو خُلقوا من غير خالق، أو خَلَقَهم خالق. فهذه ثلاثة أقسام، اثنان منها باطلان بلا نزاع، وهو كونهم خلقوا أنفسهم، أو خُلقوا من غير خالق. فتغلب القسم الثالث أن لهم خالقاً هو رب السموات والأرض، تجب عليهم طاعته وعبادته. ولا نطيل من أمثلته في القرآن، ونقتصر على أن نذكُر له أثراً تاريخياً في العقائد، وأثراً تاريخياً في الآداب.

أما أثره التاريخي في العقائد، فما جاء عن بعض المؤرخين من أن هذا الدليل هو أول مصدر لكبح المحنة العظمىٰ، التي قُتل فيها العلماء، وعُذِّب فيها أفاضلهم، وقُتلوا، وهي: محنة القول بخلق القرآن؛ لأن محنة القول بخلق القرآن نشأت في الدولة العباسية أيام المأمون، واستحكمت أيام المأمون، وأيام المعتصم، وأيام الواثق، فهؤلاء الخلفاء الثلاثة العباسيون مضت مدتهم ومحنة القول بالقرآن قائمة علىٰ ساق وقدم، يُمتحن العلماء، فمنهم من قُتّل، ومنهم من عُذِّب، ومنهم من وافق مداهنة خوفاً علىٰ نفسه من الموت. وكان القائم بهذه الدعوة: الخبيث أحمد بن أبي دؤاد الإيادي المشهور، الذي يقدسه العباسيون، وهو العالم الوحيد في نظرهم، وهي التي ضُرب فيها سيد المسلمين في زمانه: الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، ـ غمده الله برحمته الواسعة، وجزاه خيراً ـ؛ لأنه هو الذي بقي وحده صامداً، وضُرب في أيام المعتصم ضرباً مُبَرِّحاً، حتىٰ يُرفع من محل الضرب لا يدري

(١) راجع ما تقدم عن تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام، وما سيأتي عند تفسير الآية (٣٠) من سورة التوبة.

(٢) انظر: نشر الورود (٤٨٥/٢)، مذكرة أصول الفقه ص٢٥٧، آداب البحث والمناظرة (٤٧/١)، (٧/٢ ـ ٢٠) أضواء البيان (٣٦٥/٤ ـ ٣٨٤).

ليلًا من نهار، وكلما أفاق وقالوا له: قل القرآن مخلوق!! يقول: لا، القرآن كلام الله غير مخلوق. حتى جاء المتوكل علىٰ الله بعد الواثق، فأزال الله هذه المحنة علىٰ يديه ـ جزاه الله عن هذه الحسنة خيراً ـ وأظهر السنة[١].

ومقصودنا ما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه، وذكره غير واحد[٢]، وإن كانت القصة ذكر ابن كثير في تاريخه أن في إسنادها عند الخطيب بعض من لا يُعرف[٣]، فهي قصة مشهورة، تلقاها العلماء بالقبول في أقطار الدنيا، وهي مشهورة، والاستدلال بها صحيح بلا شك، وهو بهذا الدليل، وذلك أنه في أيام الواثق جيء بشيخ من أهل السنة من الشام[٤]، مقيد بالحديد، يُمتحن في القول بخلق القرآن، وَرَدَ الامتحان علىٰ أنه عُزم علىٰ قتله. روىٰ هذه القصة محمد المهدي، ولد الواثق، قال: كان أبي إذا أراد أن يقتل رجلًا أحضرني، فلما أراد قتل هذا الشيخ الشامي أحضرني، وقال: ءإذنوا لأبي عبد الله. يعني: أحمد بن أبي دؤاد، فجاء، فقال الشيخ الشامي المُكَبَّل بالحديد، السني: السلام عليك يا أمير المؤمنين!!

فقال له الواثق بالله ـ وهو غضبان ـ: لا حياك الله، ولا سلمك!!

فقال له: بئس ما أدبك مؤدبك يا أمير المؤمنين، الله يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: الآية ٨٦] والله ما حييتني بأحسن منها ولا رددتها!!

قال له ابن أبي دؤاد: الرجل متكلم!!

فقال الواثق: ناظره. وفي بعض روايات القصة: أن الشيخ الشامي

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٠/٣١٦).

(٢) انظر: تاريخ بغداد (٤/١٥١ ـ ١٥٢)، الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (الكتاب الثالث) (٢/٢٦٩ ـ ٢٧٧)، الشريعة للآجري ص٩١، مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٤٣١ ـ ٤٣٧، محنة الإمام أحمد لعبدالغني المقدسي ص١٦٧ ـ ١٧٥. سير أعلام النبلاء (١٠/٣٠٧ ـ ٣١١)، (١١/٣١٢، ٣١٣ ـ ٣١٦) وأشار إلى ضعفها، وفي تاريخ الإسلام في حوادث (٢٣١ ـ ٢٤٠هـ) في ترجمة الواثق.

(٣) انظر: البداية والنهاية (١٠/٣٢١).

(٤) وهو أبو عبدالرحمٰن عبدالله بن محمد بن إسحاق الجزري الموصلي الأذرمي.

قال: هو أحقر من أن يُناظرني!! فازداد غضب الواثق عليه، ثم إن ابن أبي دؤاد قال للشيخ الشامي: ما تقول في القرآن؟؟

فقال الشيخ الشامي: ما أنصفتني!! يعني: ولي السؤال. إن المقيد الذين يريدون أن يقدموه للموت أولىٰ بالسؤال!!

فقال: سل!!

فقال: ما تقول أنت يا ابن أبي دؤاد في القرآن؟؟

فقال: مخلوق.

قال: مقالتك هذه التي تدعو الناس إليها، ويقتل الخلفاءُ العلماءَ بسبب دعوتك إليها، هل كان رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون، وأبو بكر وعمر وعلي وعثمان عالمين بها أو لا؟؟

قال ابن أبي دؤاد: لم يكونوا عالمين بها.

فقال الشيخ الشامي: سبحان الله!! جهلها رسول الله، وعلمها أحمد بن أبي دؤاد!!

فقال ابن أبي دؤاد: أَقِلْني، والمناظرة علىٰ بابها.

فقال له: لك الإقالة.

ثم قال: ما تقول في القرآن؟

قال: مخلوق.

قال: هل كان رسول الله وخلفاؤه الراشدون عالمين بدعوتك هذه التي تدعو الناس إليها أو جاهلين؟

قال: كانوا عالمين بها، ولكن لم يدعوا الناس إليها.

فقال له الشيخ الشامي: يا ابن أبي دؤاد، ألم يسعك في أمة رسول الله ما وسع رسول الله؟ ولم يسعك في أمة رسول الله ما وسع خلفاءه الراشدين؟! ففهم الواثق الحقيقة، وقام من مجلسه، واضطجع في محل خلوته واستلقىٰ، وجعل رجله على رجله ثم قال: جهلها رسول الله وعلمتها أنت يا ابن أبي دؤاد!! ثم قال: علمها رسول الله وخلفاؤه الراشدون ولم يدعُوا الناس إليها، ألم يسع ابن أبي دؤاد في أمة محمد ما وسع رسول الله وخلفاءه الراشدين؟! وعلم أن ابن أبي دؤاد مُبْطِل.

قالوا: فمن ذلك اليوم لم يَمْتَحِن أحداً بعدها، ولم يُقَدِّم عالم ليُمتحن في القول بخلق القرآن.

وذكر الخطيب: أن الواثق مات بعد أن تاب منها[١] بسبب قصة هذا الشيخ.

وهذا الشيخ إنما استدل بهذا السبر والتقسيم. كأنه يقول: مقالتك هذه لا تخلو بالتقسيم الصحيح من أحد أمرين: إما أن يكون النبي وخلفاؤه عالمين أو جاهلين؟ فلا قِسْم إلَّا هذان القسمان. ثم نرجع إلى القسمين فنسبرهما ونختبرهما، ونظنك يا ابن أبي دؤاد ضالًا على كل تقدير. إذا كان
١/١٩ عالماً ولم يَدْعِ الناس إليها فقد يسعك ما وسعه، /وإن كان غير عالم بها وأنت عالم بها فهذا لا يمكن أن يُقال!! فأنت ضال مبطل على كل تقدير.

ومن آثار هذا الدليل الأدبية: ما ذكره المؤرخون: أن عبدالله بن همام السلولي وشى به واشٍ إلىٰ عبيدالله بن زياد المعروف. ـ زياد ابن أبيه، الذي يقولون له: زياد ابن أبي سفيان؛ لأنه استلحقه معاوية بعد موت أبي سفيان، وهو معروف ـ قال لعبيدالله بن زياد واشٍ من الوشاة: إن ابن همام السلولي يعيبك ويقول فيك كذا وكذا. فأحضر ابنُ زياد الواشي، وجعله في غرفةٍ قريبةٍ، وأحضر السلولي، وقال: لِمَ تعيبني وتقول فيَّ كذا وكذا؟ قال: أصلح الله الأمير، ما قلت شيئاً من ذلك!! ففتح وأخرج الواشي، وقال: هذا أخبرني أنك قلت كذا وكذا!! فسكت ابن همام هُنيهة ثم قال يخاطب الواشي:

وأنت امرؤ إما ائتمنتُك خالياً فخنتَ، وإما قلتَ قولاً بلا علم
فأنت من الأمرِ الذي كان بيننا بمنزلةٍ بينَ الخيانةِ والإثم[٢]

فكأنه يقول: لا يخلو الحال بالتقسيم الصحيح من أحد أمرين: إما أن أكون قلت لك سرّاً واستكتمتك إياه، أو قلتَ عليَّ بهتاناً وكذباً، ثم نرجع

(١) انظر: تاريخ بغداد (١٤/١٨).

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور(١٤/١٢٧).

إلى القسمين فنجدك ـ أيها الواشي ـ مُبْطِلًا علىٰ كليهما!! إن كنتُ أفشيت لك سرّاً وطلبت منك الستر فما سترتني، فأنت خسيس خائن، وإن كنتَ قُلْتَه عليّ افتراءً فهذا أظهر وأظهر!!

ففهمها ابن زياد، وقال للواشي: اخرج عنّي. ولم يتعرَّض لابن همام السلولي بسوء.

وهذا هو الذي ذكره الله هنا، بأن حصر الأوصاف بالذكورة، والأنوثة، والتخلق في الرحم، وبيَّن بطلان كلها، إذ لو كانت الذكورة لحرم كل ذكر، ولو كانت الأنوثة لحرّم كل أنثىٰ، ولو كانت التَّخَلُّق في الرحم لحرّم الجميع. فتبين كذبهم وبطلانهم. ثم أتبع هذا بقوله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾: لأنهم لما أعيتهم الحجة، ذكر المؤرخون أن رئيسهم الذي ناظر النبي ﷺ في هذا مالك بن عوف الجُشَمي الهوازني، وأن النبي ﷺ قال له: «**إذا كنتم تحرمون الذكور فَلِمَ فرقتم بين ذكر وذكر؟ وإذا كنتم تحرمون الإناث فما العلة التي فرقتم بها بين أنثىٰ وأنثىٰ، أو الله أمركم بهذا؟**» ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾؟ [الأنعام: الآية ١٤٤] فَبُهِتَ وسكت[(١)].

وكانوا إذا عجزوا وغُلبوا بالدليل قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها. فقطع الله دابر ذلك أيضاً فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وقال: إنه أمره بالباطل ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: الآية ٢٨] لأجل أن يضل الناس بغير علم، أي: بتشريع جاهلي بغير علم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذه الآية يدخل فيها كلُّ من قال بأمورٍ لا توافق الشرع، ودعا خلقاً يتبعونه إليها فإنه يدخل في عمومها.

---

(١) هذه الرواية أوردها البغوي في التفسير (١٣٧/٢)، وأبو حيان في البحر (٢٣٩/٤) دون عزوٍ لمن خرّجها.

ولمالك بن عوف مع النبيّ ﷺ حين قدم عليه حديث له تعلق بهذه الآية لكنه بسياق آخر غير هذا. وقد أخرجه أحمد (٤٧٣/٣)، (١٣٦/٤، ١٣٧)، والطيالسي ص ١٨٤، وابن جرير (١٢١/١١، ١٢٢)، والبيهقي في السنن (١٠/١٠)، وابن أبي حاتم (١٢٢٠/٤)، وعزاه السيوطي في الدر (٣٣٧/٢) لعبد بن حميد، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات.

وقوله: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه سؤال معروف؛ لأن الله ربما هدىٰ بعض الظالمين، كم من كافرٍ ظالمٍ يهديه الله. وللعلماء عنها جوابان[1]:

أحدهما: أنها في خصوص الظالمين الذين سبق لهم في الأزل الشقاء، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: الآيتان ٩٦، ٩٧].

القول الثاني: لا يهدي الظالمين ما داموا مصرِّين على ظلمهم، فإن رزقهم الله التوبة والإنابة زال اسم الظلم عنهم، ولم يدخلوا في عداد الظالمين، فصار لا إشكال في هدايتهم. وهذا معنىٰ الآية الكريمة.

يقول الله جل وعلا: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤٥﴾ [الأنعام: الآية ١٤٥].

تكلمنا بالأمس بعض الكلام علىٰ هذه الآية[2]، وذكرنا حكم الميتات البرية والبحرية، وذكرنا بعض ما زادته النصوص من المحرمات على هذه المحرمات الأربع، وذكرنا خلاف بعض العلماء في أشياء منه. وسنتكلم ـ إن شاء الله ـ الآن بعض الكلام علىٰ بقية الآية.

والمعنىٰ: أن النبيّ ﷺ لما كان المشركون في زمانه يحرمون بعض ما أحلّ الله، وأقام عليهم الحجج الواضحة، وأفحمهم بالمناظرة في قوله: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣] كما بينا وجه إفحامهم بالسبر والتقسيم في الآية، أخبرهم أنه لا تحريم إلا بالوحي، لا بالاجتهاد والهوى، فإنما الذي يحرم: الله، والطريق التي يُعرف بها تحريم الله وتحليله هي الوحي، لا اتباع الهوىٰ، أُمِرَ أن يقول: ﴿لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ شيئاً من

(١) انظر: البحر المحيط (٢/٢٨٩)، (٤/٢٤٠)، التحرير والتنوير (٨/١٣٥ ـ ١٣٦).

(٢) الدرس المُشار إليه لم أقف عليه، وللوقوف على كلام الشيخ (رحمه الله) على هذه المسائل انظر: الأضواء (٢/٢٤٦) فما بعدها.

هذه المحرمات التي تزعمون أنها حرام، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وكما في بطون تلك الأنعام التي قلتم هو محرم. وما حرمتم من الحروث، والزروع، والأنعام، كل هذا لا أجده حراماً علينا فيما أوحىٰ الله إلينا، وإنما أجد فيما أُوحي تحريمه: هذه الأربعة.

﴿لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ لطالب العلم أن يقول: لـمّا قال: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ لِمَ لا تكفي عنه قوله: ﴿يَطْعَمُهُۥٓ﴾؟ وهو أسلوب عربي معروف تذكره العرب في لغتها، وهو كثير في القرآن، كقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨] ومعلوم أنه لا يطير إلا بهما. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: الآية٧٩] ومعلوم أنهم لا يكتبونه إلا بأيديهم[١].

﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ قدمنا فيه أوجه القراءات[٢]، وأحكام أنواع الميتة[٣].

وقوله: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ عطف علىٰ قوله: ﴿مَيْتَةً﴾. أما علىٰ قراءة الجمهور[٤] فهو منصوب معطوف علىٰ منصوب ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا﴾. فهو معطوف علىٰ ﴿مَيْتَةً﴾[٥] المنصوب علىٰ أنه خبر كان.

وأما علىٰ قراءة ابن عامر **﴿لاَ أَجِدُ في مَا أُوحِيَ إلِيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَ أَن تكون مَيْتةٌ أَو دَماً مَّسْفُوحاً﴾** فَعَطْفُ المنصوب علىٰ المرفوع قدْ يُشكل علىٰ طالب العلم، والجواب[٦]: أن قوله: ﴿أَوْ دَمًا﴾ بالنصب في قراءة ابن عامر معطوف علىٰ المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ إلا كونه ميتة أو دماً، هكذا قاله بعض المُعْرِبين.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٣٨/٨) ومضى عند تفسير الآية (١٤٢) من سورة البقرة، (٤٨) من سورة الأنعام.

(٢) انظر القراءات الواردة في الآية في المبسوط لابن مهران ص ٢٠٤.

(٣) انظر: أضواء البيان (٩٠/١) فما بعدها.

(٤) وهي: ﴿إلاَّ أن يكونَ﴾ بالياء ﴿مَيْتَةً﴾ بالنصب. انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٤.

(٥) انظر: ابن جرير (١٩٧/١٢)، البحر المحيط (٢٤١/٤)، الدر المصون (١٩٧/٥).

(٦) انظر: البحر المحيط (٢٤١/٤)، الدر المصون (١٩٧/٥).

والدم المسفوح: المسفوح اسم مفعول (سَفَحَه يَسْفَحه) إذا صبّه[١]. وتقول العرب: «سفح الماءُ فهو سافح، وسَفَحَه بولُه يَسْفَحه فهو سافح». والمفعول: مسفوح. وقد يستعمل متعدياً ولازماً. فمن استعماله متعدياً قوله هنا: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ لأن المسفوح اسم مفعول (سَفَحَه يَسْفَحه) فالفاعل سافح، والمفعول مسفوح، إذا أراقه وصبّه، ومن إتيان (السافح) اسم فاعل (سَفَحَ) اللازمة قول ذي الرمة غيلان بن عقبة[٢]:

أَمِنْ دِمْنَةٍ جَرَّتْ بها ذيلَها الصَّبا لصيداء ـ مهلاً ـ ماء عَيْنَك سافحُ

أي: جارٍ مُنْصَبّ. وهو هنا من (سَفَحَ) اللازمة.

والدم المسفوح: هو المصبوب من شيءٍ حيٍّ، كما كان يفعله العرب، أو يكون خارجاً من أجل الذكاة أو العقر. كانت عادة العرب إذا جاعوا أن يفصد الواحد منهم عِرْقاً من جَمَله، ثم يجعل تحت الدم إناءً، حتى يجتمع من عِرْق الجمل دمٌ في الإناء، ثم يطبخه بالأبازير ويأكلونه، فحرم الله عليهم أكل الدم. وهو حرام، والانتفاع به حرام.

وأصل الدم: أصله (دَمَيٌ) بالياء على التحقيق، فلامه المحذوفة ياء، وغلط من علماء العربية من زعم أن لامه المحذوفة واو[٣] ووزنه بالميزان (. . . .)[٤].

فتكون بالعين (يَدْمَى) والألف مبدلة من الياء، أصله (يَدْمَي) كما هو معروف.

فَلَسْنَا علىٰ الأعقابِ تَدْمىٰ كُلومُنَا ولكنْ علىٰ أَقْدامِنَا تقطُرُ الدَّمَا[٥]

---

(١) انظر: القاموس (مادة: السفح) ٢٨٧، عمدة الحفاظ (مادة: سفح) ص ٢٤٢، الدر المصون (١٩٨/٥).

(٢) ديوان ذي الرمة (٨٥٩/٢).

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ١٠٩، وقد ذكر في أصل (الدم) ثلاثة مذاهب للعلماء.

(٤) في هذا الموضع انقطع التسجيل. ويمكن استدراك ذلك بمراجعة أضواء البيان (١٠٤/١ ـ ١٠٥).

(٥) البيت للحصين بن الحمام المري. وهو في اللسان (مادة: دمي) (١٠١٧/١)، الفروسية لابن القيم ص٤٩٣، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٩٧/١٢).

هَــلْ أَنْــتِ إلا إصْبَــعٌ دَمِـيْــتِ وفـي سبيـل الـلّـهِ ما لـقيـتِ[١]

هذا أصل الدم، وهو من الكلمات التي حذفت العرب لامها ولم تُعَوِّض عنها شيئاً، وأعربتها على العين كدم، وغدٍ، ويدٍ، وثدٍ، كما هو معروف[٢]. فلامه محذوفة لم يُعَوَّض عنها شيء.

والدم المسفوح: هو الذي صُبَّ من شيءٍ حي، كفصد عرق الدابة، أو جرحها فيسيل منها دم، أو هو الذي يسيل عند التذكية، كأن تذبح فيسيل من عروقها، أو عند العقر كأن يرميها بالنبل فيسيل الدم. هذا هو الدم المسفوح.

واعلموا أن الدم نزلت في تحريمه أربع آيات من كتاب الله، ثلاث منها مطلقة لا قيد فيها، وهي قوله في النحل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [النحل: الآية ١١٥] وقوله في سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٧٣] وقوله في المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: الآية ٣] فقد أُطلق الدم عن قيد المسفوحية في النحل والبقرة والمائدة، وجاء مقيداً في الأنعام بكونه مسفوحاً. وجماهير العلماء على أن المطلق يحمل على المقيد، ولا سيما إن اتحد سببهما وحكمهما كما هنا[٣]، سواءً كان المقيد هو الأول في النزول، أو هو الآخر؛ لأن المقيد هنا هو المتقدم في النزول؛ لأن سورة الأنعام نازلة قبل السور الأُخر الثلاث التي حرم فيها الدم، التي هي النحل، والبقرة، والمائدة[٤]. أما كون الأنعام قبل البقرة والمائدة فهو واضحٌ لا يخفى؛ لأن الأنعام مكية بالإجماع، والبقرة والمائدة مدنيتان بالإجماع، فهذه قبل

---

(١) عن جندب بن سفيان (رضي الله عنه) قال: «دميت إصبع رسول الله ﷺ في بعض تلك المشاهد فقال. . .» وذكره. وهو في البخاري (٢٨٠٢، ٦١٤٦)، ومسلم (١٧٩٦).
وساق الذهبي بإسناده إلى جندب بن سفيان (رضي الله عنه) وفيه أن الذي قاله إنما هو أبو بكر (رضي الله عنه) حينما دخل الغار فأصاب إصبعه شيء. (السير ٩/٥٢٨).

(٢) انظر: أضواء البيان (١/١٠٤ ـ ١٠٥).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٨) من سورة الأنعام.

(٤) السابق.

الهجرة، وهاتان بعدها، فكونهما بعدها لا إشكال فيه. أما النحل فالتحقيق أنها مكية، وزعم بعضهم أنها مدنية، وهو غلط ممن زعمه، والذي سبَّب هذا الغلط: أن خواتيم سورة النحل نزلت في المدينة في شهداء أُحد لما مثَّل المشركون بحمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ وعبد الله بن جحش وغيره من شهداء أُحد، فقد قطّعوا آنافهم وآذانهم، وأخذت هند بنت عتبة بن ربيعة ـ وهي يوم أُحد كافرة ـ نظمت قلادةً من آذان الصحابة وآنافهم، كما هو معروف في السيرة، وتقلدتها، وأخذت قلادتها وجعلتها في عنق الوحشي، عبد جبير بن مطعم بن نوفل بن عديٍ النوفلي؛ لأنه هو الذي قتل حمزة، ثم رقيت على صخرةٍ من صخرات أُحد وبكت؛ لأنهم كانوا اشترطوا يوم بدر ألاَّ يبكي أُحدٌ منهم على قتيله حتىٰ يقتصوه، فلما قُتل حمزة وعبد الله بن جحش، هذا عم النبي، وهذا ابن عمته، وقتل شماس بن عثمان من المهاجرين، ومن الأنصار سبعون من خيارهم، رقيت علىٰ صخرةٍ من صخرات أُحدٍ وبكت تقول:

نــحــنُ جــزيـنـاكُـمْ بـيـومِ بـدرِ   والـحربُ بـعدَ الـحربِ ذاتُ سُعْرِ
مـا كـان عـن عـتبةَ لـي مـن صبر   ولا أخـي وعَـمِّـهِ وبِـكْـري
شَـفَـيْـتُ نَـفْـسـي وقَـضَـيْـتُ نـذري   شَـفَـيْـتَ وحـشـيُّ غـلـيـلَ صدري
فَـشُـكـرُ وحـشـيٍّ عـلـيّ عُـمْـري   حتَّى تَرِمَّ أَعْظُمي في قَبْري[1]

يذكرون في سبب نزولها أن النبي ﷺ لما وقف علىٰ عمه حمزة ـ رضي الله عنه ـ قتيلًا وقد مُثِّل به، أنه قال: لئن أظفرني الله بقريشٍ لأمثلنَّ بكذا وكذا رجلًا منهم. وأن الله أنزل في ذلك خواتيم سورة النحل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: الآية ١٢٦] هكذا ذكره بعض العلماء[2]، والمشهور عند المفسرين

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٨٧٢ ـ ٨٧٣).

(٢) ورد في هذا المعنى أحاديث وروايات متعددة لا تخلو من ضعف إلا أن الحديث يتقوى بها. والله أعلم.

ومن ذلك:

=

في أسباب النزول أن خواتيم (النحل) هذه مدنية، أما نفس سورة النحل فهي مكية.

وقد نزلت سورة النحل في مكة بعد سورة الأنعام، ودلّ القرآن في موضعين على أن النحل نازلة بعد الأنعام، أحد الموضعين: أن الله قال في النحل: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النحل: الآية ١١٨]، والمحرم المُحال عليه المَقْصُوص من قبل هو المذكور في الأنعام إجماعاً في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ الآية [الأنعام: الآية ١٤٦].

الموضع الثاني من الموضعين الدّالين على نزول الأنعام قبل النحل: أن الله قال في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] فبين أنهم سيقولونها في المستقبل، فعُلم أنهم لم يقولوها فعلاً في ذلك الوقت، وبَيَّنَ في سورة النحل أنَّ ذلك القول الذي كان موعوداً بأنه يُقال: أنه قيل ووقع في سورة النحل، حيث قال في النحل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا﴾ الآية [النحل: الآية ٣٥]، فدلّ هذا على أن النحل بعد

---

١ ـ حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، عند الواحدي في أسباب النزول ص ٢٨٢، ٢٨٤، والدارقطني (١١٦/٤)، (١١٨)، والطبراني في الكبير (٦٢/١١)، والبيهقي في الدلائل (٢٨٨/٣) وعزاه في الدر (١٣٥/٤) لابن المنذر، وابن مردويه. وانظر: مجمع الزوائد (١٢٠/٦)، تخريج الأحاديث الضعاف من سنن الدارقطني للغساني ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥، تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٢٥٠/٢). تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر (٩٧/٤).

٢ ـ حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، عند الواحدي في أسباب النزول ص ٢٨٣، والبيهقي في الدلائل (٢٨٨/٣)، والحاكم (١٩٧/٣)، وابن سعد في الطبقات (٧/٣)، والبزار كما في (كشف الأستار ٣٢٦/٢ ـ ٣٢٧) وعزاه في الدر (١٣٥/٤)، لابن المنذر وابن مردويه. وانظر: مجمع الزوائد (١١٩/٦)، تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٢٥١/٢)، ولابن حجر (٩٧/٤)، الفتح السماوي (٧٦٠/٢ ـ ٧٦١).

وقد ورد في هذا المعنى جملة من المراسيل. انظر: ابن جرير (١٩٥/١٤ ـ ١٩٦)، دلائل النبوة للبيهقي (٢٨٦/٣)، الدر المنثور (١٣٥/٤).

الأنعام[١]، وأن السور الثلاث ـ أعني النحل، والبقرة، والمائدة ـ جاء فيها تحريم الدم مطلقاً من غير قيد. وجاء في السورة النازلة أولاً وهي الأنعام تقييده بكونه مسفوحاً بقوله هنا: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾.

فجماهير العلماء من الصحابة وفقهاء الأمصار علىٰ أن تلك الآيات المطلقة في النحل، والمائدة، والبقرة، تُقَيَّد بقيد (الأنعام) هذه[٢]، فلا يحرم الدم غير المسفوح؛ ولذا أطبق العلماء علىٰ أن الحُمْرة التي تعلو القِدْر من أثر تقطيع اللحم وهي من الدم أنها معفوٌ عنها وليست بنجس؛ لأنها ليست من الدم المسفوح. ويدخل في غير المسفوح: الكبد والطِّحال[٣].

والحاصل أن الذي يظهر من الدم عند تقطيع اللحم وفصل الأعضاء بعضها عن بعض أن جمهور العلماء علىٰ أنه ليس بحرام، وليس من المسفوح. وأن الخارج عند الذكاة، أو المُخْرَج من شيءٍ حي، أو عند العقر أنه هو الدم المسفوح.

واختلف العلماء في الدم الذي يتجمد في القلب عند ذبح الشاة، والذي ينقع في جوفها، خلاف معروف، ومنهم من يقول: هما حلالان، ومنهم من يقول: هما مسفوحان، وفَصَّل علماء المالكية قالوا: الذي يتجمد في القلب طاهر؛ لأنه ليس بمسفوح، والذي ينقع في الجوف مسفوح؛ لأنه منعكس إليه من العروق التي سُفح منها وقت الذبح. وهذا أظهر والله تعالىٰ أعلم.

هذا معنىٰ قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ جميع هذه الآيات إنما صرحت بتحريم لحم الخنزير. والخنزير حيوانٌ معروف خسيس قبحه الله. ولم تتعرض آية من كتاب الله إلىٰ حكم شحم الخنزير، والعلماء مجمعون علىٰ أن شحم الخنزير حكمه حكم لحم الخنزير[٤].

---

(١) انظر: أضواء البيان (٢/٢٤٨).

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (١/٥٣)، القرطبي (٢/٢٢٢).

(٣) انظر: القرطبي (٢/٢٢١) (٧/١٢٤).

(٤) انظر: مراتب الإجماع ص١٤٩، أحكام القرآن لابن العربي (١/٥٤)، القرطبي (٢/٢٢٢).

واستُدِل بهذا علىٰ بطلان دعوىٰ ابن حزم أنه لا يحرم شيءٌ إلا ما نص الله علىٰ تحريمه؛ لأن ابن حزم توسع توسعاً شنيعاً اجتنىٰ به علىٰ الشرع، مع علمه وقوة ذهنه، وزعم أن كل ما [لم ينص](1) الله علىٰ أنه حرام أنه لا يمكن أن يكون حراماً، ومن هنا حمل علىٰ الأئمة ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد، وغيرهم من فقهاء الأمصار، وتكلم عليهم كلاماً شديداً شنيعاً غير لائق، وزعم أنهم مشرعون، يشرعون من تلقاء أنفسهم، ولما احتُج عليه بإجماع العلماء علىٰ أن شحم الخنزير حرام، والله لم يذكره في كتابه قياساً علىٰ لحمه الذي نُصَّ علىٰ تحريمه، أجاب ابن حزم عن هذا بأن قال: الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ عائد علىٰ الخنزير، فيدخل فيه شحمه ولحمه(2). وخالف في هذا القاعدة العربية المعروفة، لأن الضمائر في الأصل إنما ترجع للمضاف لا المضاف إليه؛ لأن المضاف هو المُحَدَّث عنه(3)، فلو قلت: جاءني غلامُ زيدٍ فأكرمته. يتبادر أن المُكْرَم هو الغلام لا نفس زيد، وكذلك قوله: ﴿لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ﴾ أي: لحم الخنزير؛ لأنه هو المُحَدَّث عنه.

وربما رجع الضمير علىٰ المضاف إليه نادراً(4)، وجاء في القرآن رجوع الضمير إلىٰ المضاف إليه لكن مع قرائن تدل علىٰ ذلك، كقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾ [غافر: الآيتان ٣٦، ٣٧] أي: موسىٰ. وهو المضاف إليه هنا. فهذا قد يقع، وجاء في القرآن قليلاً، إلا أنّ القرينة تُعَيِّنُه، أما الأصل اللغوي العربي فهو رجوع الضمائر والإشارات إلىٰ المضاف لا المضاف إليه، وإتيان الأحوال من

---

(١) في الأصل: «ما نص» وهو سبق لسان، والصواب: أن كل ما لم ينص... إلخ.

(٢) انظر: المحلى (٧/٣٩٠ ـ ٣٩١).

(٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤/٢٤١)، البرهان للزركشي (٤/٣٩)، الإتقان (٢/٢٨٤)، الكوكب الدري ٢٠٢، مختصر من قواعد العلائي ١٠١، الكليات ١٣٤ ـ ١٣٥، ٥٦٩، قواعد التفسير (١/٤٠٢).

(٤) انظر قواعد التفسير (١/٤٠٣).

المضاف لا المضاف إليه، إلا إذا كان عاملاً فيه، أو جزءاً منه، أو كجزءٍ منه، كما هو معروف في النحو.

والحاصل أن القرآن سكت عن شحم الخنزير وحرم لحمه، وأجمع العلماء علىٰ تحريم شحمه قياساً علىٰ لحمه. وفيه أمور كثيرة يغلط فيها ابن حزم ومن وافقه من المتشددين؛ لأنه في الآونة الأخيرة صار يطلع طلبة علم صغار، قليلة بضاعتهم من العلم، ينظرون شيئاً قليلًا من الحديث، ويطعنون في الأئمة ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ ويقولون: قال في الحديث الفلاني، وشرعوا من أنفسهم اعتماداً علىٰ كتب ابن حزم، وكل هذا غلط، وكثيرٌ من الأشياء يدعي ابن حزم أن الله سكت عنها، وأن الوحي لم يتعرض لها، ويستدل بحديث: «إن الله أباح أشياء، وحرم أشياء، وسكت عن أشياء لا نسياناً، فما سكت عنه فهو عفوٌ»[١] فيدعي أنه سكت عنه[٢]، وهو قد يكون لم يسكت عنه. وسلفه الذي هو داود بن علي الظاهري ما كان يبالغ هذه المبالغة، ولا يغلو هذا الغلو.

---

(١) ورد في هذا المعنى عدة أحاديث، وهي وإن كانت لا تخلو من ضعف إلا أن بعضها يتقوى بغيره، والله أعلم. فمنها:
١ ـ حديث سلمان (رضي الله عنه) (مع الخلاف في رفعه ووقفه) عند الترمذي في اللباس، باب ما جاء في لبس الفراء. حديث رقم: (١٧٢٦)، (٤/٢٢٠)، وابن ماجه في الأطعمة، باب أكل الجبن والسمن. حديث رقم: (٣٣٦٧)، (٢/١١١٧)، والحاكم (٤/١١٥)، والبيهقي (٩/٣٢٠)، (١٠/١٢). وانظر: صحيح الترمذي (٢/١٤٥)، وصحيح ابن ماجه (٢/٢٤٠)، غاية المرام ص ١٥، المشكاة (٢/١٢٢٠).
٢ ـ حديث أبي ثعلبة الخشني (رضي الله عنه) (مع الخلاف في رفعه ووقفه). عند الدارقطني (٤/١٨٤)، والحاكم (٤/١١٥)، والبيهقي (١٠/١٢ ـ ١٣). وانظر مجمع الزوائد (١/١٧١) وهو أضعف هذه الأحاديث.
٣ ـ حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عند الدارقطني (٤/٢٩٧ ـ ٢٩٨) والبزار كما في (كشف الأستار (٣/٨٥، ٣٢٥)، والحاكم (٢/٣٧٥)، والطبراني في الصغير (٢/١٢٢). وانظر: مجمع الزوائد (١/١٧١)، (٧/٥٥، ٢٠٨). وقد حسنه الألباني في غاية المرام ص ١٤.

(٢) انظر: الإحكام ١٠٥٨ ـ ١٠٧٠.

والحاصل أن ما يسميه علماء الأصول: (الإلغاء بنفي الفارق)، ويسمونه نوعاً من تنقيح المناط. وهو المعروف عند الشافعي في كتبه القديمة بـ (القياس في معنىٰ الأصل)(١) أجمع جميع العلماء علىٰ أن المسكوت عنه فيه يلحق بالمنصوص؛ لأنه لا فرق بينهما يؤثر، وما كان داود ينكر هذا.

ومعروف أنه عند علماء الأصول ينقسم إلىٰ أربعة أقسام(٢)؛ لأن المسكوت عنه: إما أن يكون أولىٰ بالحكم من المنطوق به، وإما أن يكون مساوياً له، وبكل منهما إما أن يكون وجه الفرق بينهما مُحَقَّقاً يقيناً، وإما أن يكون مظنوناً ظناً غالباً مزاحماً لليقين، فالمجموع أربعة، من ضرب اثنين في اثنين.

الأول: ما كان المسكوت عنه أولىٰ بالحكم من المنطوق به، ونفي الفارق بينهما في الحكم مُحَقَّق لا شك فيه. ومن أمثلته في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: الآية ٢٣]، فالمنصوص عنه هنا النهي عن التأفيف أمام الوالدين، والمسكوت عنه ضرب الوالدين، وهذا المسكوت عنه ـ الذي هو الضرب ـ أولىٰ بالحكم الذي هو التحريم من هذا المنطوق به الذي هو التأفيف؛ لأن الضرب أشد أذيةً من التأفيف، فابن حزم يقول هنا: إن الضرب مسكوت عنه، ولم يؤخذ حكمه من هذه الآية(٣). ونحن نقول: لا، الضرب ليس مسكوتاً عنه في هذه الآية، بل هو مفهوم من باب أولى من النهي عن [التأفيف](٤). ونظيره قوله تعالىٰ في الرجعة والطلاق: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: الآية ٢]

(١) انظر: الرسالة للشافعي ٥١٢ ـ ٥١٦، شرح الكوكب المنير (٤٨١/٣)، (٢٠٧/٤ ـ ٢٠٩)، المذكرة في أصول الفقه ٢٣٧، ٢٧١، نثر الورود (١٠٢/١ ـ ١٠٣)، (٥٢٢/٢ ـ ٥٢٣، ٥٥٨).

(٢) انظر: شرح الكوكب المنير (٤٨٦/٣)، المذكرة في أصول الفقه ص ٢٣٧، نثر الورود (١٠٤/١).

(٣) انظر: الإحكام ص ٨٩١.

(٤) في الأصل: «التحريم» وهو سبق لسان.

فالمنطوق: شهادة العدلين، والمسكوت عنه: شهادة أربعة عدول، فلو أشهد رجل أربعة عدول على رجعته أو طلاقه فلا شك أن ذلك نافذ، ولا نقول: إن المنصوص عليه الاثنين، والأربعة غير منصوصة؛ لأن هذا المسكوت عنه الذي هو الأربعة أولى بالحكم من هذا المنطوق به الذي هو الاثنان، ونفي الفارق هنا مُحقَّق لا شك فيه. ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى في الزلزلة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: الآيتان ٧، ٨]، فالمنطوق به المجازاة بمثقال ذرة، والمسكوت عنه المجازاة بمثقال الجبل. ولا شك أن هذا المسكوت عنه أولى بالحكم - الذي هو المجازاة - من المنطوق به، ونفي الفارق مُحقَّق.

الثاني: أن يكون المسكوت عنه مساوياً للمنطوق به في الحكم، ونفي الفارق بينهما مُحقَّق. كالتنصيص على لحم الخنزير، والسكوت عن شحمه، ولا فرق بين لحمه وشحمه؛ لأنه كله رجس، وحكم شحمه حكم لحمه. ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: الآية ١٠] فالمنطوق به أكل مال اليتيم، والمسكوت عنه إغراقه في البحر، وإحراقه بالنار، ولا شك أن إحراق مال اليتيم، وإغراقه أنه حرام، لا فارق بينه وبين أكله، ونفي الفارق هنا مُحقَّق. وكقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: الآية ٢٣] فإن الآية إنما نصت على أن يكون القاذفون ذكوراً، والمقذوفات إناثاً؛ لأنه قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ بصيغة الذكور، ثم قال: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ بصيغة الإناث، فمنطوق الآية: أن يكون القاذف ذكراً، والمقذوف أنثى، وقد أجمع العلماء على أنه لا فرق في ذلك بين قذف الذكر للذكر، وقذف الأنثى للأنثى، وقذف الأنثى للذكر، وقذف الذكر للأنثى. فهذا المسكوت مُلحق بهذا المنطوق به إجماعاً. ومحاولة ابن حزم أن يجيب عن هذه الآية، قال: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: الآية ٢٣]، أي: يرمون الفروج المحصنات. فشمل فروج الرجال والنساء، فلم يكن فيه إلحاق، مردودٌ؛

لأن المحصنات في لغة القرآن لم تطلق على الفروج قط، وإنما تطلق على النساء. كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النور: الآية ٢٣] فهل يمكن قائلاً أن يقول: إن الفروج مؤمنات غافلات؟ هذا مما لا يقوله أحد. ومن هذا: أن الله تبارك وتعالىٰ نصَّ في سورة البقرة علىٰ أن الرجل إن طلق امرأته ثلاثاً، ثم تزوجت زوجاً بعده - وبيّن النبيُّ ﷺ اشتراط أن جامعها ذلك الزوج - ثم طلقها هذا الزوج الثاني بعد أن جامعها حلت علىٰ الأول. وإنما نصَّ علىٰ الطلاق وحده، ولم يتكلم علىٰ ما لو مات عنها إذا كانت مطلقةً ثلاثاً، ثم تزوجت زوجاً جامعها وأحلّها، ثم مات الزوج الأخير ولم يطلقها، فإن الله لم يقل: إنه إذا مات إنها تحل للأول. ولكن قال: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ يعني: الزوج الثاني بعد أن جامعها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: الآية ٢٣٠] أي: على المرأة المبتوتة التي كانت حراماً، والزوج الأول الذي بتَّها أن يتراجعا؛ لأنها حلت لوطء الثاني، وطلقها الثاني، ولم يتكلم هنا علىٰ ما إذا مات عنها الزوج الثاني بعد أن جامعها، وقد أجمع العلماء أن موته عنها كطلاقه. وأمثال هذا كثيرة.

الوجه الثالث: أن يكون المسكوت عنه أولىٰ بالحكم من المنطوق به، ولكن نفي الفارق بينهما مظنون ظناً قوياً مزاحماً لليقين. ومن أمثلته في السنة: ما جاء عن النبيّ ﷺ أنه نهىٰ عن التضحية بالعوراء[1]. فالمنطوق به هنا منع التضحية بالعوراء، والمسكوت عنه مَنْع التضحية بالعمياء التي هي عمياء العينين؛ لأنها أولىٰ بالحكم من المنطوق بها؛ لأن العوراء عميت لها عين واحدة، والعمياء عميت عيناها معاً، فالعمياء مسكوت عنها في الحديث، وهي أولىٰ بالحكم من المنطوق به التي هي العوراء، ونفي الفارق هنا مظنون ظناً قوياً مزاحماً لليقين، وقد يظهر لطالب العلم أن نفي الفارق هنا قطعي، ونحن نقول: ذكر غير واحدٍ من علماء الأصول أن نفي الفارق هنا ظني،

---

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

وإنما قالوا إنه ظني لأن الغالب علىٰ الظن غلبةً مزاحمةً لليقين، أن علة منع التضحية بالعوراء أن العور عيب ناقصٌ لثمنها، وقيمتها، وذاتها، وهذه العلة موجودة في العمياء بلا خلاف، فهي مثلها. ولكن هنالك احتمال ضعيف مرجوح هو الذي منعنا من أن نجزم باليقين، أن علة منع التضحية بالعوراء أن العور مظنة الهزال، لأنَّ العوراء لا ترىٰ من المرعىٰ إلا ما يقابل عينها المبصرة، وما يقابل عينها العوراء لا تراه، فناقصة البصر ناقصة الرعي، ونقص الرعي مظنة لنقص السِّمَن، وعلىٰ أن العلة هذه فلا تشاركها العمياء؛ لأن العمياء يعلفها ذو عينين فيختار لها أحسن العلف وأجوده، فهي مظنة السِّمَن، فلا تكون كالعوراء. إلا أن هذا الاحتمال ضعيف.

الرابع: أن يكون المسكوت عنه مساوياً للمنطوق في الحكم، ولكنه مظنون ظناً قوياً مزاحماً لليقين. ومثاله في السنة: قوله ﷺ: «**من أعتق شِرْكاً له في عبدٍ قُوِّم عليه قيمة عبد فأعطىٰ شركاءه حصصهم...**» الحديث المشهور[1]. أي: إن النبي نصَّ في سراية العتق هنا علىٰ العبد الذكر، وسكت عن الأَمَة الأنثىٰ، ولم يقل: من أعتق شِرْكاً له في أَمَة، فالأَمَة مسكوتٌ عنها هنا، وعامة العلماء علىٰ أن العِتْق يسري في الأَمَة كما يسري في الذَّكَر، إلحاقاً للمسكوت عنه بالمنطوق به، ونَفْي الفارق هنا مظنون ظناً قوياً مزاحماً لليقين؛ لأن الذكورة والأنوثة في باب العتق أوصاف طردية، أعني لا يُفرق بينهما في الأحكام، ولا يُعلل بهما أحكام مختلطة في باب العتق، مع أن هنالك احتمالاً ضعيفاً أن النبي ﷺ نصَّ علىٰ العبد، وجعل سراية العتق فيه دون الأمة؛ لأن عتق الذكور يحصل به من الفوائد ما لا يحصل في عتق الإناث؛ لأن الذكر إذا عتق فهو شهادته شهادة عدل عند من لا يقبل شهادة العبيد. وصار يزاول مناصب الرجال، كالإمامة،

(١) أخرجه البخاري في الشركة، باب تقويم الأشياء بين الشركاء، حديث رقم: (٢٤٩١)، (١٣٢/٥)، ومسلم في العتق. حديث رقم: (١٥٠١)، (١١٣٩/٢).

والجهاد، وغير ذلك مما يختص بمناصب الرجال التي لا تصلح لها الإناث، ولكن هذا يبقى احتمالاً ضعيفاً.

فمثل هذه الأشياء يزعم ابن حزم أن الوحي سكت عنها، ونحن نقول: لا، لم يسكت الوحي عنها، ولكنه دل عليها، وكذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان**»[1] هذا حديث صحيح ثابت في الصحيحين، نهى به النبي ﷺ القاضي أن يحكم بين الخصمين في حالة غضبه؛ لأن الغضب يُشَوِّش فكره، فيمنعه من أن يستوفي النظر في دعاوي الخصوم، وفي الأحكام المترتبة علىٰ دعاويهم. وقد أجمع العلماء علىٰ أن كل مشوش للفكر كتَشْويش الغضب أو أشد غير مسكوت عنه، فلا يجوز للقاضي أن يحكم بين الخصمين في حالة العطش والجوع المُفْرِطَين، ولا في حالة الحزن والسرور المُفْرِطَين، ولا في حالة الحَقْن والحَقْب المُفْرِطَين، والحَقْن: مدافعة البول، والحَقْب: مدافعة الغائط. فكل هذه الأمور التي تُشَوِّش فكره لا نقول هي مسكوت عنها، بل هي منطوقة؛ ولأجل هذا كان العلماء أجمعوا علىٰ إلحاق المسكوت عنه بالمنطوق به إذا تحققنا وغلب علىٰ ظننا أنه لا فرق بينهما.

فعُلم أن دعوىٰ ابن حزم علىٰ العلماء أنهم حرموا هذا من تلقاء أنفسهم وشرعوه من غير دليلٍ أنه ليس بصحيح، وأن الأئمة ـ رضي الله عنهم ـ ما فعلوا إلا شيئاً واقعاً في موقعه؛ لأن هذا المنطوق به والمسكوت عنه لا فرق بينهما البتة.

فالنبي ﷺ ربما نبهنا بالنظير علىٰ النظير. وقد أجمع العلماء علىٰ أن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، فإلحاق النظير بالنظير من الحق الذي شهد له القرآن والسنة والعقل الصحيح، وقد نبّه النبي ﷺ

---

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

في أحاديث متعددة علىٰ أن إلحاق النظير بنظيره من الحق لا من الباطل؛ لأنه ثبت في الصحيحين أن سأله رجل، وثبت في الصحيحين أنه سألته امرأة عن حج كان علىٰ أبيها أو أمها هل تقضيه عنها. قالت: أمي ماتت وعليها حج أفأقضيه عنها؟ فالنبي ﷺ قال: **«أرأيت لو كان علىٰ أبيك دَينٌ فقضيتيه أكان ينفعه؟»** قالت: نعم. قال: **«فَدَيْن الله أحق أن يُقْضَىٰ»**. والحديث ثابت في الصحيح في رجلٍ، وثابت في الصحيح في امرأة[(١)]. وهي قصص متعددة لا اضطراب في الحديث؛ لأنه ثابت في الصحيحين. فنبه النبي ﷺ بإلحاق دَيْن الله بديْن الآدميين بجامع أن الكل دَيْن ينفع صاحبه قضاؤه عنه ويؤدى بدفعه لمستحقه. وهو تنبيه بأن النظير له حكم النظير. وقد ثبت في الصحيحين أيضاً أن النبيّ ﷺ جاءه رجلٌ ـ هذا الرجل كان أبيض، وكانت امرأته بيضاء، فولدت له غلاماً أسود، ففزع من سواد الغلام، واعتقد أن امرأته زنت بأسود، وجاءت بهذا الغلام، فجاء للنبي فزعاً، والظاهر أنه كان يريد اللعان لينفي عنه هذا الولد الأسود ـ فأخبر النبيَّ أن امرأته ولدت أسود!! فالنبي ﷺ قال لهذا الرجل: **«ألك إبل؟»** قال: نعم. قال: **«ما ألوانها؟»**. قال: حمر، قال: **«هل فيها من أورق؟»** قال: نعم. ـ والأورق: الذي لونه الوُرْقة. وأشبه شيء بلون الوُرقة هو لَوْن حمام الحرم هذا؛ ولذاكم تسمى الواحدة منه بالورقاء. ويسمىٰ جمعه بالوُرق، أي: أخضر اللون ـ قال: نعم، إن فيها لَوُرْقاً. قال: **«من أين جاءتها تلك الوُرْقَة والسواد؟ مع أن أباها أحمر وأمها حمراء»**. قال: لعل عِرْقاً

---

(١) أخرجه البخاري في جزاء الصيد، باب الحج والنذور عن الميت. حديث رقم: (١٨٥٢)، (٤/٦٤). وأخرجه في مواضع أخرى. انظر الحديثين رقم: (٦٦٩٩، ٧٣١٥). وهو من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (في سؤال المرأة الجهنية). وقد ورد عنه، وعن أخيه الفضل، وعن غيرهما أحاديث في الصحيحين وفي غيرهما من غير موضع الشاهد هنا. وقد تكلم الحافظ على هذه الأحاديث والروايات المتعددة بكلام طويل راجعه ـ إن شئت ـ في الفتح (٤/٦٥ ـ ٦٦، ٦٨ ـ ٧٠).

نَزَعَها. يعني جَدّاً بعيداً كان أسود نزعها. قال له: **«وهذا الغلام لعل عرقاً نزعه»**(١). لعل أحد أبويه كان عنده جد أسود من بعيد فنزعه. فاقتنع الأعرابي لما جعل له النبي ـ قاس له ـ النظير بالنظير فكما أن أولاد الإبل تنزعها عروق فتصير بها سوداً، فكذلك أولاد الآدميين قد تنزعها عروقٌ بعيدة. وهو إلحاق النظير بالنظير.

ومن هذا المعنىٰ أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سأل النبي ﷺ عن الصائم يقبل امرأته؟! فقال له: **«أرأيت لو تمضمض؟»** وهذا الحديث في سنن أبي داود بسندٍ أقل درجاته القبول(٢). فقال له: **«أرأيت لو تمضمض؟»**. فكأن النبي يشير إلى أن التقبيل إذا لم يُنْزِل منه صاحبه، ولم يخرج منه شيء أنه كالمضمضة، بجامع أن كلاً منهما مقدمة الإفطار. وليس في واحدٍ منهما إفطار؛ لأن المضمضة مقدمة الشرب، والتقبيل مقدمة للجماع. فألحق النظير بنظيره. وأمثال هذا كثيرةٌ جداً.

ومن هنا نعلم أن قول ابن حزم: إن الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ عائدٌ إلىٰ الخنزير كله ـ ليكون الشحم داخلاً في النص، لا مسكوتاً عنه ملحقاً بالمنطوق به ـ أنه غير صحيح، وأن الضمير راجع إلىٰ لحم الخنزير الذي هو المُحدَّث عنه، وأن الشحم مسكوت عنه، ولكنه أُلحق به، والشحم هو واللحم قد يفترقان في الأحكام، كما سيأتي في فيما حُرِّمَ على اليهود: أنه قد يُحرم عليهم هذا دون هذا.

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق، باب إذا عرَّض بنفي الولد. حديث رقم: (٥٣٠٥)، (٩/٤٤٢)، ومسلم في اللعان. حديث رقم: (١٥٠٠)، (٢/١١٣٧، ١١٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (١/٢١، ٥٢)، وابن أبي شيبة (٣/٦٠ ـ ٦١)، والدارمي (١/٣٤٥)، وأبو داود في الصوم، باب القُبلة للصائم. حديث رقم: (٢٣٦٨)، (٧/١١)، والنسائي في الكبرى، كتاب الصيام، باب المضمضة للصائم. حديث رقم: (٣٠٤٨)، (٢/١٩٨ ـ ١٩٩)، وابن خزيمة (١٩٩٩)، (٣/٢٤٥)، وابن حبان (الإحسان ٥/٢٢٣)، والحاكم (١/٤٣١)، والبيهقي (٤/٢١٨، ٢٦١)، والطحاوي في شرح المعاني (٢/٨٩). وانظر: صحيح سنن أبي داود (٢/٤٥٣).

وقد يُجاب في خصوص آية لحم الخنزير هذه جواب آخر، /هو ١٩/ب معروفٌ عند العلماء، لكن ابن حزم لم يهتد للاحتجاج به، أن اللحم أعم من الشحم، فإن العرب تقول: «اكْتَل لي لحم هذه الشاة». وقد يكون لحمها معه شحم كثير وهو داخل فيه. فهذا الجواب لو أجاب به ابن حزم لكان مقبولًا[١]، وهو مذهب مالك ـ أن [اللحم] أعم من [الشحم][٢] ـ ولذا لو حلف في مذهب مالك لا يأكل اليوم لحماً فأكل شحماً فإنه يحنث، بخلاف ما لو حلف لا يأكل شحماً وأكل لحماً أحمر غير شحم فإنه لا يحنث[٣]؛ لأن وجود الأعم لا يستلزم وجود الأخص، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، كما هو معروف[٤].

والحاصل أن العلماء مجمعون علىٰ إلحاق النظير المسكوت عنه بالنظير المنطوق به، وأنه من الحق، وأنه غير مسكوت عنه، بل النص يدل عليه. فمن قال لك: «لا تقل لوالديك أف». فكأنه قال لك من باب أولىٰ: لا تضربهما. ومن قال ـ مثلًا ـ لك: لا تضح بعوراء. فكأنه قال لك: لا تضح بالعمياء من باب أولىٰ، وهكذا.

وهذا معنىٰ قوله ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾. الله (جل وعلا) حرم هذه الأشياء التي هي: الميتة، والدم، ولحم الخنزير. ومعروف أن الله لا يحرم شيئاً إلا لحِكْمَة، ولا يحرم شيئاً إلا للضرر، فقد يهتدي بعض الناس إلىٰ حِكْمَة ذلك الشيء، وقد يعجز البشر عن إدراكها. فالله (جل وعلا) محيط علمه بكل شيء، ولا يحرم إلا لحكمة. لا يحرم شيئاً إلا وهو متضمنٌ أضراراً عظيمة، وهذه الأضرار قد يتحصلها البشر،

(١) انظر أحكام القرآن لابن العربي (٥٤/١)، القرطبي (٢٢٢/٢).

(٢) في الأصل: «أن الشحم أعم من اللحم». وهو سبق لسان.

(٣) انظر: القرطبي (٢٢٢/٢).

(٤) انظر: البرهان للزركشي (٤٠٢/٣)، الاتقان (٢٣٢/٣)، الكليات ٨٨٩، قواعد التفسير (٥٢١/٢).

وقد يعجز عنها إدراك البشر؛ لأن علم الخالق (جل وعلا) محيط بكل شيء، يعلم أشياء يتقاصر عنها فهم البشر.

وتحريم هذه الأشياء بعضهم يقول: إنه يفهم علته. وقال بعض العلماء: تحريم الميتة من جهة الطب[(١)]؛ لأن الدم الذي يسيل عنها بالذكاة يطيِّب لحمها ويصححه، فإذا ماتت فسد ذلك الدم واختلط في اللحم. بدليل أنك لو فصدت عرقاً من الميتة لا يقطر منه دم، فذلك الدم قد يختلط بذلك اللحم، واختلاطه به فيه نوع من السلب له، يسبب بعض الأمراض؛ ولذا لم يبحه الله إلا للمضطر. قالوا: لأن شدة حرارة الجوع وألمه وشدته قد يقاوم تلك الأضرار فلا تهلكه، ولم يبحه إلا عند الضرورة التي يخاف صاحبها الموت.

وزعموا[(٢)] أن تحريم الدم لأنه لا فائدة فيه ألبتة، لا يستفيد الإنسان من أكل الدم في جوفه شيئاً؛ لأنه إما أن [يستقر][(٣)] في المعدة فيضرها، ولا يتسرب في العروق، ولا يستفيد صاحبه منه شيئاً عن طريق الفم.

قالوا: وتحريم الخنزير[(٤)] لأن الخنزير قد تكون فيه مضار جدِّية، قالوا: ومن نتائج أكله أن صاحبه يصير ديوثاً غالباً، تُنزع منه غيرة الرجال، وغيرة الإنسانية التي تكون في الرجال، وهذا كالمشاهد، فإن الذين يأكلون لحم الخنزير لا تكاد تجد فيهم غيرة الرجال المعروفة، كالشهامة المعروفة عند العرب، فتجد زوجة الرجل تمشي من عنده مع الذكور، وتنفرد معهم!! هكذا قاله بعضهم، والله تعالىٰ أعلم.

والله (جل وعلا) كأنه علَّله، قال: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا

---

(١) انظر: تفسير المنار (٦/١٣٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) في هذا الموضع كلمة غير واضحة. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

(٤) المصدر السابق (٦/١٣٥).

﴿مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ وقد تقرر في الأصول، في مسلك النص، وفي مسلك الإيماء والتنبيه: أن الفاء من حروف العلة[1]. كقولهم: «سهىٰ فسجد» أي: لعلة سهوه، «سرق فقُطعت يده» أي: لعلة سرقته. «حُرِّم لحم الخنزير فإنه رجس» أي: حرم لكونه رجساً.

والرجس في لغة العرب: النجس القذر الذي تعافه النفوس، الذي هو بالغٌ في غاية الاستقذار الغاية القصوىٰ[2]. وقال بعض العلماء: أصله من (الرِّكْس) والعرب ربما بادلت بين الحروف. و (الرِّكْس) بالكاف في لغة العرب: عَذِرة الناس وفضلاتهم ـ أكرمكم الله[3] ـ هذا معنىٰ قوله: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾.

وقوله: ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ أو فسقاً: منصوب قبله مرفوع، إلا أنه عَطْفٌ علىٰ المنصوبات قبله. ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾. فهو معطوف علىٰ قوله: ﴿مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾[4].

والمراد بهذا الفسق: هو ما ذبح لغير الله. وسماه الله (فسقاً) جعله كأنه بعينه هو عين الفسق. لتَوَغُّلِه في الفسق الذي هو: الخروج عن طاعة الله؛ لأن النحر وإراقة الدم من أعظم القربات التي يُتقرب بها إلىٰ الله (جل وعلا). وهي من الحِكَم التي نادىٰ فيها للحج: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: الآية ٢٧] ثم بين الحِكَم فقال: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: الآية ٢٨]. ذكرها عند التذكية تقرباً بها إلىٰ الله، وقد بين الله (جل وعلا) أن من تقرب بالدماء يريد وجه الله أن ذلك من التقوىٰ الذي يرضي الله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) انظر: المفردات (مادة: رجس) ٣٤٢، المصباح المنير (مادة: رجس) ٨٣.

(٣) انظر: المصباح المنير (مادة: ركس) ص ٩٠.

(٤) انظر: الدر المصون (١٩٨/٥).

مِنكُمْ﴾ [الحج: الآية ٣٧] ولذا كان الشيء إذا ذُبح لغير الله كان ذلك من أكبر الكفر، وكانت تلك الذبيحة من أخبث الخبث، وذلك الفعل من أفسق الفسق؛ ولذا سماه الله فسقاً.

وأصل الإهلال في لغة العرب هو رفع الصوت[١]. تقول: استهلّ المولود صارخاً. إذا رفع صوته عند الولادة، وإنما سُمي الشهر (هلالًا) لأنهم كانوا يرفعون أصواتهم عند رؤيته، وإنما قيل له: ﴿أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ لأنهم كانوا إذا ذبحوا لغير الله رفعوا أصواتهم باسم الأصنام، فصار يُطلق على كل ما ذُبح لغير الله: (أهل لغير الله به).

ثم بين (جل وعلا) أن هذه المحرمات الأربع، التي هي: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهل لغير الله به، أن محل تحريمها ما لم تدعُ الضرورة الفاحشة إليها، أما إن دعت الضرورة إليها فإنها تباح للضرورات؛ لأن هذا النبي الكريم ـ سيد الرسل، الذي اختاره الله لهذه الأمة، وجعلها به خير أمةٍ أخرجت للناس ـ بُعث بالحنيفية السمحة، ورُفعت عنه التكاليف، والآصار، والأثقال التي كانت علىٰ من قبله فجاء بها سهلة حنيفية سمحة، إذا اضطر الإنسان إلى هذا الحرام رُخص له فيه، كما قدمنا إيضاحه، وأنه عامٌّ في كل ما دعت الضرورة الملجئة إليه في قوله في هذه السورة الكريمة: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: الآية ١١٩].

قرأه بعض السبعة في جميع القرآن: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ بكسر النون، كما قرأه عاصم وأبو عمروٍ وغيرهما. وأكثر القراء: ﴿فمنُ اضْطُرَّ﴾ وكل هذا في كل ساكنين بعدهما ثالث مضموم، فإنه في جميع القرآن يُقرأ بالكسر، علىٰ عادة التخلص من التقاء الساكنين بكسر الأول، والضم إتْبَاعاً للضمة بضمة الطاء في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾[٢].

---

(١) انظر ابن جرير (٣١٩/٣)، المفردات (مادة: هلل) ٨٤٣، القرطبي (٢٢٤/٢).
(٢) انظر: السبعة لابن مجاهد ١٧٤ ـ ١٧٦، الكشف لمكي (٢٧٤/١ ـ ٢٨٠).

والطاء في قوله: ﴿اضْطُرَّ﴾ أصلها مُبْدَلَة من تاء الافتعال. وأصل حروف الكلمة الأصلية: (ضَرَرَ). ففاؤها ضاد، وعينها راء، ولامها راء: (ضَرَرَ)، فدخل عليها تاء الافتعال، كما تقول في قرب: اقترب. وفي كسب: اكتسب، وفي ضرر: اضْترر[١]. والمقرر في علم النحو: أن تاء الافتعال إذا جاءت بعد حرفٍ من حروف الإطباق كالصاد، والطاء، والضاد أنها تُبدل طاءً[٢]، فأُبدلت تاء الافتعال طاءً، وبُني الفعل للمفعول، فقيل: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: فمن أُلجِىء.

ولم يبين هنا هذه الضرورة المُلْجِئَة، وقد بين في موضع آخر أنها الجوع، كما قال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ [المائدة: الآية ٣] والمَخْمَصَة: الجوع[٣]. والقرآن يبين بعضه بعضاً. يعني: فمن ألجأته الضرورة إلىٰ أكل الميتة، أو ما أُهل به لغير الله، أو لحم الخنزير، فإن ذلك يباح.

والضرورات المُلْجئة عند العلماء هي: أن يخاف علىٰ نفسه الموت، أو يظن ذلك ظناً قوياً[٤].

وقد قدمنا في سورة البقرة مسائل متعددة من الاضطرار إلىٰ الميتة، منها: إذا اضطر إلىٰ الميتة بأن خاف علىٰ نفسه الهلاك إن لم يأكل، هل يجوز له أن يشبع؟ أو لا يأكل إلا قدر ما يسد الرَّمَق ويُمْسِك الحياة[٥]؟ فذهب جماعة من العلماء إلىٰ أن له أن يشبع ويتزود، وهو المشهور المعروف من مذهب مالك[٦].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) انظر: المفردات (مادة: خمص) ٢٩٩.

(٤) انظر: أضواء البيان (١٠٩/١). وراجع ما سبق عند تفسير الآية (١١٩) من سورة الأنعام.

(٥) انظر: السابق (١٠٧/١). وراجع ما سبق عند تفسير الآية (١١٩) من سورة الأنعام.

(٦) انظر: الموطأ ص ٣٣٤، أحكام القرآن لابن العربي (٥٥/١)، القرطبي (٢٢٧/٢).

أما قول خليلٍ في مختصره: «وللضرورة ما يسد» فذلك مشهور مذهب مالك، وليس هو المروي عن مالك، وإنما هو قول لبعض أصحابه. فمذهب مالك المعروف، أنه يأكل، ويشبع، ويتزود. فإن وجد عنها غِنىً طرحها. ووجه هذا القول: أنه لما اضطر إليها صارت حلالاً بالنسبة إليه، والحلال يشبع صاحبه ويتزود.

وقالت جماعة أخرىٰ من أهل العلم من الأئمة الأربعة وفقهاء الأمصار[١]: لا يجوز له أن يأكل إلا قدر ما يسد الرَّمَق ويُمْسِك الحياة؛ لأنه إذا أكل ما يسد الرَّمَق ويُمسك الحياة فقد زال الضرر الذي هو خوف الموت، والميتة إنما أُبيحت لخوف الهلاك، وقد زال بأكل ما يسد الرَّمَق، فلا يشبع ولا يتزود. وهي أقوالٌ معروفةٌ في فروع المذاهب.

ومن هذا: إذا تيسرت لك ميتة ومال غير وأنت مضطر، فهل تتعدىٰ وتأكل مال الغير أو تقدم الميتة؟ اختلف العلماء في هذا[٢]. فذهب جماعة إلىٰ أنه يقدم مال الغير، وهو مذهب مالك إذا كان يأمن من أن يجعله سارقاً ويقطع يده. أما إذا كان يخاف أن يجعله سارقاً وتُقطع يده فإنه يأكل الميتة، فإن أَمِنَ أن يجعله سارقاً قدم مال الغير علىٰ الميتة. وكثيرٌ من العلماء يقدمون الميتة علىٰ مال الغير [ونظير][٣] هذه المسألة ما إذا كان مُحْرِماً، واضطر إلىٰ الميتة، وخاف الهلاك من الجوع، ووجد صيداً وهو مُحْرِم: هل يصطاد الصيد ويقدمه علىٰ الميتة؟ أو يأكل الميتة؟ في هذا خلاف معروف[٤]. وأكثر أهل العلم

---

(١) انظر: المحلى (٤٢٦/٧)، الاستذكار (٣٥١/١٥) فما بعدها. المغني (٧٣/١١)، أضواء البيان (١٠٧/١).

(٢) انظر: الاستذكار (٣٥٧/١٥)، القرطبي (٢٢٥/٢)، المغني (٧٨/١١)، أضواء البيان (١١٢/١).

(٣) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

(٤) انظر: المغني (٧٨/١١)، أضواء البيان (١١٤/١).

علىٰ أنه يقدم الميتة علىٰ الصيد؛ لأنه إن قَتَل الصيد وهو مُحْرِم صار ميتة، ورجعت المسألة في حافرتها[١]. واجتمع عليه أنه قاتل صيد وآكل ميتة. أما إن أكل الميتة فقد أكل الميتة ولم يقتل صيداً. وفي قولٍ عن الشافعية: أنه يقدم الصيد، بناءً علىٰ أن المضطر إذا قتل صيداً لم يكن ميتة، والأكثر علىٰ خلافه. وقد أشبعنا الكلام علىٰ هذه المسألة في سورة البقرة في الكلام علىٰ قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [البقرة: الآية ١٧٣].

وقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ دل القرآن في موضع علىٰ أن الاضطرار هنا: الجوع، وأن الباغي والعادي هما المائلان لإثم يخالف الشرع، وذلك في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ [المائدة: الآية ٣] أي: غير مائلٍ للحرام، وهكذا قَدْرُ بيان القرآن.

واختلف العلماء في ذلك الإثم الذي يُتجانف إليه الذي استُثني بقوله هنا: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾[٢]. فذهبت جماعة من أهل العلم ـ وهو القول المشهور عند الفقهاء والمفسرين ـ أن معنىٰ الباغي: الخارج عن طاعة إمام المسلمين، والعادي: الذي يعدو علىٰ الناس فيقطع عليهم الطريق، ويخيفها عليهم. وعلىٰ هذا القول فالباغي: الخارج عن طاعة الإمام، والعادي: الذي يخيف الطريق، ويقطع الطريق علىٰ الناس، لا يباح لهم أكل الميتة؛ لأن هؤلاء غالباً هم الذين يضطرون إلىٰ الميتات؛ لأنهم لا يقدرون أن يخالطوا الناس فيشتروا منهم زاداً ولا طعاماً. فيضطرون غالباً إلىٰ الميتات. وعلىٰ هذا فمن كان خارجاً عن طاعة إمام المسلمين، أو قاطعاً طريق المسلمين، مخيفاً لها، لا يجوز له الأكل من الميتة إلا أن يتوب. فإن لم يتب فلا يجوز له

---

(١) يُشير إلى المثل «رجع على حافرته» أي: إلى حالة الأولى، أو الطريق الذي جاء منه. انظر: المُجمل ص١٧٨، المفردات ٢٤٤.

(٢) انظر: الاستذكار (٣٥٤/١٥)، ابن جرير (٢٢٢/٣)، أحكام القرآن لابن العربي (٥٧/١)، القرطبي (٢٣١/٢، ٢٣٢)، المغني (٧٥/١١)، أضواء البيان (١٠٥/١).

الأكل ولو مات. فلو قيل: كيف تبيحون له ترك الأكل ولو مات؟ قالوا: لأنه قادر على أن يبيح ذلك بالتوبة. وهو الذي أصرَّ وامتنع أن يتوب إلى الله، فلو تاب إلى الله أجاز له ذلك.

وأجاز الإمام مالك وأصحابه أكل الميتة للمضطر، ولو كان قاطع طريق، أو خارجاً على الإمام؛ لأنهم فسَّروا الباغي والعادي بتفسير غير هذا، قالوا: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير باغ مُتَشَهٍّ لأكل الميتة وهو قد يجد غِنىً عنها. ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: جاوز إلى الحرام. وهو في غِنىً عنه بالأكل بالحلال. وعلى هذا التفسير فهي كالتكميل لقوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ والقول الأول أولى؛ لأن التأسيس مقدم على التأكيد(١).

وقال بعض العلماء: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي باغٍ: مُتَشَهٍّ في نيل الحرام ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: مجاوز قدر سد الرمق إلى الشبع. إلى آخر الأقوال التي قدمناها في البقرة. هذا معنى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾.

قال بعض العلماء: يلحق بالباغي والعادي كل مسافر سفراً حراماً، فإنه لا يترخص في أكل الميتة، كالذي يسافر لقطيعة الرحم، أو يسافر ليقتل رجلًا مُعَيَّناً مسلماً، ونحو ذلك من السفر الحرام، فإنه لا يباح له أكل الميتة وإن ألجأه الجوع(٢). والذين يقولون هذا يقولون: كذلك لا يترخص بقصر الصلاة، فعليه أن يصليها رباعية؛ لأن الرخصة وُجِدَت من باب التسهيل فكأنه إعانة له على ظلمه، والله (جل وعلا) يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: الآية ٢] فكأن إباحة الميتة له والتسهيل له بقصر الصلاة إعانة له على ظلمه. وهذا معنى قوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ

---

(١) في هذه القاعدة انظر: البحر المحيط للزركشي (١١٧/٢، ١٢٠)، شرح الكوكب المنير (٢٩٧/١) شرح مختصر الروضة (٧٤٧/٣ ـ ٧٤٨)، أضواء البيان (٣٥٥/٣)، (٧٥٩/٥)، (٢٤٤/٦ ـ ٢٤٥، ٦٩٢)، (٤١٤/٧، ٨٢١).

(٢) انظر: المغني (٧٥/١١)، القرطبي (٢٣٢/٢)، أحكام القرآن لابن العربي (٥٨/١).

غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ﴾ أي: خالقك وسيدك. ﴿غَفُورٌ﴾. ومن مغفرته أنه يبيح له الأكل عند الضرورات. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده، ومن رحمته: أنه أباح لهم ما اضطروا إليه، وألجأتهم إليه الضرورات. وهذا معنىٰ قوله جل وعلا: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٦].

لمَّا بيَّن الله (جل وعلا) أشياء حرمها علىٰ هذه الأمة علىٰ لسان نبيه ﷺ، وكان حرمها عليهم لمصالح معلومةٍ عنده (جل وعلا)، بيّن أنه حرم علىٰ اليهود بعض الأشياء مؤاخذة لهم وجزاءً لهم باجترامهم السيئات، قال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ المراد بالذين هادوا هنا: اليهود، والعرب تقول: «هاد يهود» إذا تاب من ذنبه ورجع إلىٰ الصواب. وهذا معروفٌ في كلام العرب، ومنه قول الله في الأعراف عن نبيه موسىٰ: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦] أي: تبنا ورجعنا منيبين إليك. فمعنىٰ (هاد، يهود): إذا رجع تائباً إلىٰ الحق، متنصلاً من ذنبه[١]. واسم فاعله: (هائد)، ويُجمع علىٰ (هُوْد)، ومنه: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: الآية ١٣٥] وجَمْعُ (الفاعل) علىٰ (فُعْل) مسموعٌ في أوزانٍ قليلة، كهائدٍ وهُود، وحائلٍ وحُول، وعَائِذٍ وعُوْذ، وبَازِلٍ وبُزْل[٢]. وقد قال بعض الأدباء[٣]:

---

(١) انظر: الدر المصون (٤٠٥/١).

(٢) انظر: السابق (٦٩/٢). والحائل: الأنثى التي لم تحمل. (المصباح المنير، مادة: حول. ص٦٠). والبازل: البعير الذي فَطَرَ نابُه بدخوله في السنة التاسعة. (المصباح المنير، مادة: بزل. ص١٩).

(٣) نسبه المرزوقي للزمخشري كما في شواهد الكشاف ص ٢٩. وهذه النسبة غير صحيحة؛ لأن الزمخشري حينما أورده في الكشاف (٩٦/٢) قال: «ولبعضهم» وذكره. وأوله: «يا راكب...».

يـا صـاحـبَ الـذنـبِ هُـدْ هُـدْ واسـجُـد كـأنـكَ هُـدْهُـدْ

فقوله أولًا: «هُدْ، هُدْ» معناه: تُبْ، تُبْ. «واسجد كأنك هُدْهُد» وهو الطائر المعروف. يعني: وإنما قيل لليهود: ﴿ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ لأنه في تاريخهم توبة عظيمة سجلها لهم القرآن، وهي توبتهم من عبادة العجل، لما رجع موسىٰ من الميقات من الطور، ووجدهم يعبدون العجل، جاء الوحي بأن الله لا يقبل توبة أحدٍ منهم حتىٰ يقدم نفسه للموت، كما قدمنا إيضاحه[1] في البقرة في قوله: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٥٤] أي: فقدمتم أنفسكم فتاب عليكم. هذه التوبة التي تجر الإنسان إلى أن يقدم نفسه لله صابراً محتسباً علىٰ الموت توبة عظيمة سجلها لهم القرآن؛ ولذلك ربما أُطلق عليهم اسم: (الذين هادوا): تابوا. أي: بتلك التوبة المعروفة، وإن كانت هذه حسنة فخسائسهم المذكورة في القرآن لا تكاد أن تحصر.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ معناه: أن كل حيوانٍ له إصبع فيها ظفر؛ حرام علىٰ اليهود، ومن ذلك: الإبل، والنعام، والإوَز، والبط، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك؛ لأن كل هذه من ذوات الظفر، فكل حيوانٍ ذي ظفر كان محرماً علىٰ اليهود جميعه، شحمه ولحمه، كالنعام، وكالإبل، وكالبط، والإوَز، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك[2].

وقول بعض العلماء: الظفر: الحافر، فإنه يحرم عليهم كل ذات حافر[3]. غير صحيح؛ لأنهم يعدّون أظلاف البقر والغنم من ذوات الحوافر، ولحومهما مباحة لهم كما سيأتي.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.
(٢) انظر: ابن جرير (١٢/١٩٨)، القرطبي (٧/١٢٥).
(٣) انظر: القرطبي (٧/١٢٥).

وقول بعضهم: المراد بذات الظفر هي: ذات المخالب، أو ذات السباع من الطير[(١)]. لا يساعده لفظ القرآن، فالصحيح أنه ما كالبعير، وما كالنعامة، وما كالبط، وما كالإوَز، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك.

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ أي: حرمنا عليهم شحوم البقر والغنم لا لحومهما.

والتحقيق: أن الشحوم المحرمة عليهم من البقر، والغنم مقصورة علىٰ الثروب، وشحم الكليتين[(٢)].

والثُّرُوب: جمع ثَرْب؛ وهو الغطاء - الغشاء - من الشحم الرقيق الذي يغطي الجوف فيكون علىٰ الكرش والمصارين[(٣)]. هذا هو وشحم الكُلَىٰ هو الحرام عليهم، أما غيره فيدخل في الاستثناءات الآتية؛ ولذا قال: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ قرأ بعض السبعة: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ بإظهار التاء، وقرأ بعضهم: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَت ظُّهُورُهُمَآ﴾ بالإدغام - الإدغام الصغير[(٤)] - يعني: أن ما عَلق بظهر البقر والغنم من الشحوم، كالشرائح التي تكون علىٰ الظهر من الشحم، فإنها مباحة لهم[(٥)].

وقوله: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ التحقيق أن ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ في محل رفع معطوف على الظهور[(٦)]، يعني: إلا ما حملت ظهورهما أو ما حملته

---

(١) المصدر السابق. ولفظه: «وقيل: يعني كل ذي مخلب من الطير، وذي حافر من الدواب» ا.هـ.
(٢) انظر: ابن جرير (١٢/٢٠١)، القرطبي (٧/١٢٥).
(٣) انظر: القرطبي (٧/١٢٥)، المصباح المنير (مادة: ثرب) ص ٣١.
(٤) انظر: السبعة لابن مجاهد ص ١٢٤، الكشف لمكي (١/١٣٥).
(٥) انظر: ابن جرير (١٢/٢٠٢).
(٦) انظر: ابن جرير (١٢/٢٠٣)، القرطبي (٧/١٢٥)، البحر المحيط (٤/٢٤٤)، الدر المصون (٥/٢٠٣).

الحوايا، فهو مستثنىٰ بالتحريم، خلافاً لمن زعم أن الحوايا يعني منصوباً معطوفاً علىٰ شحومهما، حرمنا عليهم شحومهما أو الحوايا، فهي محرمة، فهذا القول ضعيف مرجوح[١]. والمعنىٰ: أن ما حملته الظهور من الشحوم حلالٌ لهم، وما حملته الحوايا.

والحوايا: تختلف فيها عبارات المفسرين بألفاظٍ متقاربة، معناها راجعٌ إلىٰ شيءٍ واحد[٢]. منهم من يقول: هي المبَاعِر، أي: المَحَالّ التي يجتمع فيها البَعْر والزِّبل. ومنهم من يقول: هي بنات اللبن، ويسمونها بأسماء، والتحقيق: أنها كل ما كان مُدَوَّراً في البطن مما يُسَمَّىٰ: الدُّوَّارَة، والمصارين، ومحل البعر الذي يخرج منه. ما تعلق بذلك الجوف من الشحوم غير الثُّرُوب التي هي غشاء فوق الجوف، كل ما تعلق بذلك فهو حلال لهم. وهذا معنىٰ: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ وهو جمع (حاوية)، كقَاصِعَة وقَاصِعَاء[٣]. وقيل: جمع (حويَّة) كـ: (فَعِيْلَةٍ) و(فَاعِلَة)[٤]. وهي ما احتوت عليه البطن من الأمعاء، وما جرىٰ مجراها من الدُّوَّارَة، والمباعر، ونحو ذلك. فالمتعلق بهذا من الشحم لا يحرم عليهم، وإنما يحرم عليهم الثُّرُوب، وهي الغشاء الذي فوق الكرش والأمعاء من الشحم، وشحم الكُلَىٰ. وهذا معنىٰ قوله: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾.

والتحقيق أن: ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾ معطوف علىٰ المستثنىٰ الحلال[٥]، أي: فما اختلط بالعظم فهو حلالٌ لهم، فكل شحم مختلط بعظم كالشحم الذي يكون في عظام البقرة والشاة فكله حلالٌ لهم.

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٢٠٣).

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/٢٠٣)، القرطبي (٧/١٢٦)، الدر المصون (٥/٢٠٦).

(٣)(٤) في القرطبي (٧/١٢٦): «وواحد الحوايا: حاوياء، مثل: قاصعاء وقواصع. وقيل: حاوية. مثل: ضاربة وضوارب. وقيل: حويَّة، مثل: سفينة وسفائن» ا.هـ. وانظر: الدر المصون (٥/٢٠٦).

(٥) انظر: ابن جرير (١٢/٢٠٥)، القرطبي (٧/١٢٥)، البحر المحيط (٤/٢٤٤ ـ ٢٤٥)، الدر المصون (٥/٢٠٧).

ويدخل فيه الذَّنَبُ الكبير السمين الذي يسمىٰ الإلية فإنه مختلط بعظم؛ لأنه مختلط بعظم العصعص، وهو عجب الذنب المعروف. ويدخل في ﴿مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾: شحم العينين، وشحم الأذنين، وكل شحم اختلط بعظم فإنه حلالٌ لهم. وهذه الاستثناءات تبين أن الحرام عليهم إنما هو الثروب، وشحم الكُلَىٰ فقط. وهذا معنىٰ قوله: ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾.

ثم بيَّن الله أنه حرَّم عليهم بعض هذه المحرمات بسبب ظلمهم، فضيق عليهم بالتحريم لمخالفتهم واجترامهم، كما بينه في النساء بقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ﴾ [النساء: الآيتان ١٦٠، ١٦١] أي: وقتلهم الأنبياء، وتحريفهم للكتب، كل هذه الذنوب حُرم عليهم بسببها بعض الطيبات؛ ولذا كان نبي الله عيسى ابن مريم (عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام) بُعث بأن يكون جميع عمله وأحكامه في الغالب عملاً بالتوراة، ولا يزيد إلا أن يُحلل لهم بعض ما حرم عليهم بسبب ذنوبهم، كما سيأتي في قوله عن عيسىٰ ابن مريم: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ﴾ [آل عمران: الآية ٥٠] فجاء تخفيف وتحليل علىٰ لسان عيسىٰ ابن مريم، ولكنهم ـ قبحهم الله ـ لعداوته لم يقبلوا منه شيئاً، وزعموا أنه ابن زانية!!

وقد يشكل علىٰ كثيرٍ من الناس أن من يزعمون أنهم علىٰ دين النصرانية دائماً يَفْصِلُون الدين من السياسة، ويزعمون أن الدين مقتصر علىٰ الكنيسة، وأنه لا دخل له في تنظيم العلاقات البشرية، والأعمال الدنيوية!! وسبب ذلك: أن النصارىٰ يزعمون أنهم علىٰ دين عيسى ابن مريم، ودين عيسىٰ ابن مريم جُلّ شريعته التي فيها الحلال، والحرام، والحدود، وإقامة صلاح المجتمع إنما هو بالكتاب الذي هو التوراة، وفي الإنجيل زيادات ليس فيها شرعٌ قائمٌ مستقل، فالنصارىٰ لشدة بغضهم لموسىٰ كذبوا بكتابه، ولم يأخذوا من شريعة عيسىٰ إلا

ما اختص به الإنجيل، وتركوا ما في التوراة مما بُعث عيسىٰ بالعمل به، وصارت ليس في الإنجيل شريعة كاملة وافية يُفَصَّل فيها الحلال والحرام وأحكام علاقات الدنيا، فاضطروا إلىٰ أن يجعلوا تشريعاً سموه (الأمانة الكبرىٰ) وهي الخيانة العظمىٰ!! كما هو معروف في تاريخهم[1]. أما التوراة فهو كتابٌ فيه شرعٌ واضح تُبَيَّنُ فيه العقائد، والحلال والحرام، وكل شيء، كما قال الله (جل وعلا) عن التوراة: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٥] مع أن الإنجيل جاء به بعض الأحكام: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: الآية ٤٧]. وكثيرٌ من أحكام الإنجيل يُحال فيها علىٰ ما أنزل الله علىٰ موسىٰ في التوراة، كما قال الله في التوراة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: الآية ٤٤]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم﴾ ذلك التحريم والتضييق جزيناهم بسبب بغيهم، أي: كفرهم، وظلمهم، وعدوانهم، كما بينه بقوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: الآيتان ١٥٦، ١٥٧] وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: الآيتان ١٦٠، ١٦١] وكقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء: الآية ١٥٥] وقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: الآية ٢١] هذا الظلم والبغي حرم الله عليهم بسببه بعض ما كان حلالاً عليهم، كما قال هنا: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٣٦٦).

وفي إعراب (ذلك) وجهان معروفان[1]:

أحدهما: أنها في محل رفع. الأمر ذلك الذي قصصنا عليك جزيناهم ذلك الجزاء ببغيهم.

الثاني: أنها في محل نصب بمصدر، أي: جزيناهم ذلك الجزاء. وهذا الإعراب اختاره غير واحدٍ. ولكن ابن مالك قال: إن اسم الإشارة لا يكون منصوباً علىٰ المصدر إلا إذا ذُكر بعده المصدر، كأن تقول: قمت هذا القيام، وقعدت ذلك القعود. أما لو لم تَذكر بعده المصدر كأن قلت: «قمت هذا» تعني: القيام، أو «جلست هذا» تعني: الجلوس. يزعم ابن مالك أن هذا لا يجوز[2]. وقال بعض العلماء: هي مفعول أول لـ(جزيناهم)؛ لأن (جزىٰ) تتعدىٰ لمفعولين، تقول: جزيت عمراً خيراً، وجزيته شراً، فتكون (ذلك) أحد مفعولي (جزىٰ)، أي: جزيناهم ذلك الجزاء ببغيهم، فتكون مفعولاً به مقدماً، وعليه فلا إشكال.

والبغي: أصله الإرادة[3]، وكثيراً ما يستعمل في إرادة الظلم.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ صيغة الجمع للتعظيم. والله يقول: إني لصادق. معظماً نفسه، ومعلوم أن الله صادق علىٰ كل حال، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: الآية ٨٧]. والسبب في هذا أن اليهود زعموا أن هذا الذي حُرم عليهم لم يكن جزاءً ولا عقوبة، بل إنما كان حراماً علىٰ إسرائيل، حرمه إسرائيل علىٰ نفسه فاقتدوا به[4]. وقد تقدم أن الله أكذبهم في هذه الدعوىٰ وألقمهم فيها حجراً في سورة آل عمران، في قوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٢٤٥)، الدر المصون (٥/٢٠٧).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/٢٤٥)، الدر المصون (٥/٢٠٨).

(٣) انظر: المفردات (مادة: بغى) ١٣٦.

(٤) انظر: ابن جرير (١٢/٢٠٦).

﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ٩٣] فلما أفحمهم وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ خجلوا ولم يأتوا بالتوراة، وعلموا أن القرآن مهيمنٌ على الكتب، كما قال: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: الآية ٤٨] ولذا قال هنا: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، فيما ذكرنا من أنَّا حرمنا عليهم ذلك لظلمهم، لا أنه حرمه إسرائيل على نفسه، والذي حرمه إسرائيل على نفسه قد قدمنا في سورة آل عمران أن المفسرين يذكرون أن نبي الله يعقوب أصابه المرض المسمَّى بعرق النَّسا وآلمه جداً، فنذر لله إن شفاه الله ليُحَرّمن على نفسه أحبَّ الطعام والشراب إليه، وكان هذا النذر سائغاً في شرعهم إذ ذاك، فشفاه الله، فإذا أحب الشراب إليه لبن الإبل، وأحب الطعام إليه لحم الإبل، فَحَرَّمَهما على نفسه لذلك النذر[١]. وأن هذا معنى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: الآية ٩٣] أي: وهو لبن الإبل ولحمها. وقد قدمنا في تفسير البقرة أن سيد اليهود المسلمين عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ أنه لمَّا أسلم فحَسُن إسلامه كان يتقي [أكل] لحم الإبل[٢] لِمَا كان متمرناً عليه من تحريمه، فنزل فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[٣] [البقرة: الآية ٢٠٨]. أي: ادخلوا في فروع الإسلام وأحكامه بجميعها، لا تحرموا شيئاً أحله الإسلام، ولا تمتنعوا من أكل شيءٍ أحله الإسلام، وإن كان محرماً في شرعٍ قبله. وهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

ومن أعظم بغيهم: افتراؤهم على مريم البتول، ودعواهم عليها أنها زانية، حيث قالوا لها: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: الآية ٢٨] يعنون: لم يكن أبوك فاحشاً زانياً، ولم تكن أمك بغياً زانية، فمن أين أتيت بهذا الغلام؟ يعنون رميها بالفاحشة، كما

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٢) من سورة الأنعام.
(٢) في الأصل: «الحكم أكل» وهو سبق لسان.
(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٦٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما وإسناده ضعيف. وذكره الحافظ في العُجاب منبهاً على ضعفه (٥٢٩/١).

بينه الله بقوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ١٥٦﴾ [النساء: الآية ١٥٦] ومن أعظم بغيهم - قبحهم الله - زعمهم أنهم قتلوا المسيح ابن مريم، وأنهم صلبوه، وتصديق الجهلة النصارىٰ لهم في ذلك؛ ولذا كان شعارهم الصليب، يزعمون أنها الخشبة التي صلب عليها عيسىٰ (عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام)، والله - وهو أصدق من يقول - يقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: الآية ١٥٧].

واعلموا أن كثيراً من طلبة العلم من المسلمين استحوذت عليهم آراء الإفرنج، فزعموا أن عيسىٰ مات، وأن اليهود قتلوه، وأنه ليس حياً الآن، وأنه لا ينزل في آخر الزمان. وكل هذه أكاذيب إنما حمل عليها ضعافَ طلبة العلم اغترارُهم بآراء الكفرة، وظواهر بعض النصوص. والحق الذي لا شك فيه أن الأخبار متواترة[1] عن الصادق المصدوق (صلوات الله وسلامه عليه) أن الله رفع عيسىٰ إليه حياً، وأنه حيٌّ عند الله، وأنه ينزل في هذه الأمة في آخر الزمان، وأن الله ينسخ علىٰ لسانه بعض الأحكام التي كانت مشروعةً علىٰ لسان النبي، وهو أنه لا يقبل الجزية من أحد، فلا يبقى في زمنه إلا السيف أو الإسلام، ويقتل جميع الخنازير، ويضع الجزية. والتحقيق أن القرآن دلَّ علىٰ أنه حيٌّ، وأنه سينزل، وأن أهل الكتاب يؤمنون به؛ لأن الضمير في قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: الآية ١٥٩] التحقيق أنه عيسىٰ، والمعنىٰ: أنهم يؤمنون بعيسىٰ قبل موت عيسىٰ بعد نزوله. هذا التفسير هو الصحيح، وسياق القرآن يدل عليه، والأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ تدل عليه، والدليل علىٰ أنه سياق القرآن: أن الله قال: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ﴾ أي: عيسىٰ ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ أي:

---

(١) انظر: إتحاف الجماعة بما جاء من الفتن والملاحم وأشراط الساعة (١٢٨/٣)، إقامة البرهان في الرد على من أنكر خروج المهدي والدجال ونزول المسيح في آخر الزمان ص٧، أشراط الساعة للوابل ص٢٧٢، وقد نقل عن جماعة من أهل العلم القول بتواتر هذه الأحاديث.

عيسىٰ ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: عيسىٰ. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: عيسىٰ ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: عيسىٰ ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ [النساء: الآيات ١٥٦ ـ ١٥٩] أي: عيسىٰ. لتكون الضمائر علىٰ نسقٍ واحد(١).

أما الرواية الأخرىٰ التي جاءت عن ابن عباس أن المعنىٰ: لا أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسىٰ قبل موت أحد أهل الكتاب، لا قبل موت عيسىٰ، وأنهم قالوا لابن عباس: إذا قُطع رأسه غفلةً فأين له أن يؤمن به قبل موته؟ وأنهم زعموا أنه قال: ينطق لسانه بعد أن فارق رأسُهُ جُثَّته بالإيمان بعيسى(٢).

هذا لا يخفىٰ ضعفه، وبطلانه، وعدم مساعدته علىٰ سياق القرآن، وكم من كتابي يموت فجأةً لا يؤمن بعيسى. فالتحقيق هو الأول، وقد دلت عليه الأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ.

نعم يبقى لطالب العلم هنا سؤال معروف وهو أن يقول: إن الله قال:
﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾
١/٢٠ [آل عمران: الآية ٥٥] فيقول:/ إن الله قال: إنه متوفيك، وقال بعد ذلك:
﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ فهذا دليل علىٰ أنه توفاه. وقوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: الآية ١١٧]. أما قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ فلا يستدل به إلا جاهل؛ لأن هذا من كلام عيسىٰ يوم القيامة، ومعلوم أنه لا يأتي يوم القيامة إلا وقد مات عيسىٰ. وإن كان حياً إلىٰ آخر هذه الأمة؛ لأن ذلك يوم القيامة، يقول الله له: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ إلى أن قال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ [المائدة: الآيتان ١١٦، ١١٧] كل هذا قوله يوم القيامة،

---

(١) انظر: أضواء البيان (٧/٢٦٣ ـ ٢٦٥)، قواعد التفسير (١/٤١٥).

(٢) هذا القول ثابت عن ابن عباس (رضي الله عنهما) من وجوه وطرق متعددة. وقد أخرج جملة منها ابن جرير في التفسير (٩/٣٨٢ ـ ٣٨٦)، وابن أبي حاتم (٤/١١١٣، ١١١٤)، وذكرها ابن كثير (١/٥٧٦ ـ ٥٧٧).
وقال: «فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عباس. وكذا صح عن مجاهد، وعكرمة، ومحمد بن سيرين، وبه يقول الضحاك، وجويبر» ا.هـ.

ومعلوم أنه يوم القيامة لا بد أن يكون توفاه الله، بل آية المائدة هذه تدل على أنّ توفيه الذي توفاه به ليس قبض روح؛ لأنه لم يقابله بالحياة؛ لأنه قال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ ولم يقل ما دمت حيًا. وقابل ديمومته فيهم بقوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ فعلمنا أنها وفاة جسد وروح لا وفاة روح فقط، إذ لو كانت وفاة روح لما قابلها بقوله: ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ ولقابلها بقوله: «ما دمت حيًا» لأن الذي يُقابل بوفاة الروح إنما هو الحياة كما قال ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: الآية ٣١]. ولم يقل: «ما دمت فيهم».

والجواب عن قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: الآية ٥٥] من أوجه متعددة[1]:

أولها: أنه أجمع أهل اللسان العربي الذي نزل به القرآن أن العرب تقول: «توفاه، يتوفاه» إذا قبضه إليه كاملًا تاماً، كما تقول العرب: توفيتُ دَيْني من فلان. أي: قبضته. ولكن إطلاق التوفي على خصوص قبض الروح دون البدن اصطلاح عرفي لا لغوي، فالاصطلاح اللغوي: يطلق على التوفي وقبض الشيء ببدنه وروحه جميعاً[2]، وإطلاقه على الروح دون البدن إطلاق عرفي لا لغوي، ومع أن المعروف في الأصل عند أكثر العلماء أن الحقيقة العرفية مقدمة على الحقيقة اللغوية[3]، وأن الله إذا قال: «توفى الله فلاناً». أن الأغلب الذي يسبق إلى الذهن أنها الروح دون الجسم؛ لأن هذا هو العُرف، والعُرف ينسخ الحقيقة اللغوية، ولكن الحقيقة اللغوية هنا التي هي ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: قابضك إلي كاملًا، ورافعك إلي بروحك وجسمك. هذه الحقيقة اللغوية وإن كانت تقدم عليها العُرفية التي هي (قبض

---

(١) انظر: ابن جرير (٦/٤٥٥)، القرطبي (٤/٩٩)، ابن كثير (١/٣٦٦)، أضواء البيان (١/٢٨٠).

(٢) انظر: اللسان (مادة: وفى) (٣/٩٦١).

(٣) انظر: البحر المحيط للزركشي (٣/٤٧٣ ـ ٤٧٦)، شرح الكوكب المنير (٣/٤٣٣ ـ ٤٣٦)، المذكرة في أصول الفقه ١٧٤ ـ ١٧٥، أضواء البيان (٣/١٠٠)، (٦/٥٢٢)، (٧/٢٦٨)، نثر الورود (١/١٥٦)، قواعد التفسير (١/١٥١).

الروح دون البدن) إلا أنها اعتضدت بأحاديث صحيحة عن النبي ﷺ، فصارت حقيقة لغوية معتضدة بأحاديث متواترة، ولا إشكال في ذلك.

الثاني: أن الله لما أراد قبض عيسى إليه ألقى عليه النوم لئلا يزعجه الارتفاع إلى العالم العلوي، فقال: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: منيمك وقابضك في نَوْمَه. والعرب تطلق الوفاة على النوم، وجاء في القرآن إطلاق الوفاة على النوم في موضعين:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ أي: يعني في النوم ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: الآية ٦٠].

الثاني: قوله في الزمر: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: الآية ٤٢].

الجواب الثالث: أن الله نعم قال: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: الآية ٥٥] وهو متوفيه قطعاً يوماً ما، ولكنه لم يبين وقت ذلك التوفيّ هل هو فيما مضى أو سيأتي بعد آلاف السنين؟ والتَّحكُّم على الله بأنه أوقعه تَحكُّم بلا دليل، والله متوفيه قطعاً وليس بمخلده، ولكن لم يُعيِّن ذلك التوفي.

فإن قال قائل: هذا التوفي قبل الرفع؛ لأنه قال بعده: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

فالجواب: أن جماهير علماء العربية أن الواو لا تقتضي الترتيب، وإنما تقتضي التشريك[1] فيجوز بإجماع أهل اللسان العربي أن يكون المعطوف بها سابقاً على المعطوف عليه. تقول: «جاء زيدٌ وعمرو» ويكون عمرو هو الأول؛ لأن الواو إنما تقتضي التشريك فقط؛ ولذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: الآية ٧] فقدم النبي، وعطف عليه نوحاً بالواو، ونوح قبل النبي. وهذا لا نزاع فيه بين العلماء.

---

(١) انظر: الصاحبي ١٥٦، البحر المحيط للزركشي (٢/٢٥٣)، شرح الكوكب المنير (١/٢٢٩)، مجموع الفتاوى (١٦/٧٧)، أضواء البيان (٧/٢٦٩).

فإن قال قائل: قد جاء عن النبي ﷺ حديث يدل على أن الواو تقتضي الترتيب، وهو تفسيره للواو في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٥٨] فبدأ بالصفا، وقال: «**نبدأ بما بدأ الله به**»[١] وفي بعض رواياته: «**ابْدَؤوا بما بدأ الله به**»[٢].

فالجواب عن هذا هو ما أجاب به غير واحد من علماء العربية: أن الواو من حيث وضعها العربي لا تقتضي تقديماً ولا تأخيراً، وإنما تقتضي مطلق التشريك، سواء كان المعطوف بها هو الأول، أو هو الآخر، أو كانا مجتمعين في وقت واحد، كقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: الآية ١٥] لأن إنجاءهما في وقت واحد، إلا أنه إذا دلّ دليل خارجي على أنها يراد بها الترتيب فلا مانع، ولكن الترتيب بذلك الدليل الخارجي لا لأصل الواو في نفسها، ومنه قول حسّان ـ على من رواه بالواو[٣] ـ:

هَجَوْتَ مُحمداً فأَجَبْتُ عنه وعند الله في ذاكَ الجَزاءُ

لأن الإجابة إنما هي بعد الهجاء لا مانع من أن تقتضي الترتيب إذا دل عليه دليل خارجي. وهنا لم يدل عليه دليل خارجي. وجماهير المفسرين ـ كما قاله كبير المفسرين أبو جعفر الطبري ـ أن معنى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: قابضك إليّ كاملاً وافياً بجسدك وروحك. وإنما كانت الحقيقة اللغوية هنا مقدمة على العُرفية ـ التي هي قبض الروح ـ [لأمرين][٤]:

أحدهما: أن الله قد ثبت أنه رفع جسم عيسى إليه، والأحاديث الدالة المتواترة عن النبيّ أن الله رفع عيسى.

وعلى كل حال فالمعروف عن الذين قتلوه أنهم قتلوه بأن صلبوه،

---

(١) أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي ﷺ. حديث رقم: (١٢١٨) (٨٨٦/٢).
(٢) الحديث بهذا اللفظ: أخرجه أحمد (٣٩٤/٣)، الدارقطني (٢٥٤/٢)، والبيهقي (٨٥/١). وقد حكم بعض العلماء على هذه اللفظة بالشذوذ. انظر: التلخيص الحبير (٢٥٠/٢)، خلاصة البدر المنير (١١/٢)، نصب الراية (٥٤/٣)، إرواء الغليل (٣١٦/٤).
(٣) انظر: ديوان حسان ص ٢٠.
(٤) في الأصل: أمران.

والله نفى هذا الصلب نفياً باتاً، قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: الآيتان ١٥٧، ١٥٨] فنفى أنهم قتلوه نفياً يقيناً، وهم معذورون؛ لأنهم ظنوا أنهم قتلوه، والله بين السبب الذي جاءهم منه الكذب والغلط؛ لأنه قال: ﴿وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: الآية ١٥٧] لأن الله ألقى شبهه على رجل فصار مَنْ نظر إلى ذلك الرجل يجزم بأنه عيسى؛ لأن الله ألقى شبه عيسى عليه، فصار الناظر إليه لا يشك في أنه عيسى، فقتلوا ذلك الرجل وصلبوه، واعتقدوا أنه عيسى. فبين الله سبب كذبهم، وعُذْرهم في غلطهم فقال: ﴿وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أما هو نفسه فقد رفعه الله إليه، وهو عند الله (جل وعلا)، وسينزل في هذه الأمة آخر الزمان، ويقتل الدجال، وهذا ثابت عن النبي ﷺ ثبوتاً لا مطعن فيه، وإن أحيا الله من أدركه من هذه الأمة سيجد أخبار الصادق المصدوق حقاً، وسيجد خرافات الكذابين من أتباع الإفرنج باطلاً؛ لأن الله أصدق من يقول، وهو يقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ويقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: الآيتان ١٥٧، ١٥٨]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٢٢] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: الآية ٨٧] الله أصدق من يقول.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٧].

الواو في قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ قال بعض العلماء[1]: راجعة إلى اليهود؛ لأنهم أقرب من ذُكر في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ فإن كذبوك وقالوا: لم تُحرم علينا هذه الأشياء جزاءً ببغينا، بل ما كان حراماً علينا إلا ما حرمه إسرائيل على نفسه ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾.

الوجه الثاني: أنه راجع إلى كفار مكة الذين أُرسل إليهم النبي ﷺ، وبين لهم أن شركهم بالله باطل، وأن تشريعهم الحلال والحرام بالكذب باطل. فإن كذبوك وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/٢٠٧)، البحر المحيط (٤/٢٤٥ ـ ٢٤٦)، الدر المصون (٥/٢٠٩).

على أزواجنا، والبَحِيْرَة حق، والسائبة حق، وما جرى مجرى ذلك، فقل: ربكم ذو رحمة واسعة.

وقال بعض العلماء: يرجع إلى الجميع، فإن كذبك الكفرة المعادون المعاندون من مشركين ويهود فقل لهم: ربكم الذي أنشأكم وأوجدكم ذو رحمة واسعة، إلا أن هذه الرحمة الواسعة ذكر الله في سورة الأعراف أنها مخصوصة بالمتقين حيث قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦] لا لكل كافر وفاجر.

وقد قدمنا في تفسير (البسملة) و(الفاتحة) أن (الرحمة) صفة من صفات الله، اشتق لنفسه منها اسم (الرحمٰن) و(الرحيم)، وأن (الرحمٰن) هو: ذو الرحمة الشاملة في الدنيا لجميع المخلوقين [في الدنيا، و(الرحيم): هو الذي يرحم عباده المؤمنين في الآخرة] (. . .)[1].

﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: الآية ١٤٤] ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٦] ووصف بعض خلقه بالكلام فقال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: الآية ٥٤] وقال: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: الآية ٦٥] ولا شك أن لله كلاماً لائقاً بكماله وجلاله، وللمخلوقين كلام مناسب لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وبين كلام الخالق والمخلوق من المنافاة كما بين ذات الخالق والمخلوق.

هذه صفات المعاني السبع[2] الذي أقرّ بها من جحد كثيراً من الصفات.

---

(١) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل، وجرت عادة الشيخ رحمه الله في مثل هذا الموضع أن يذكر عقيدة أهل السنة في باب الصفات، وأنها تنبني على ثلاثة أسس، ثم يذكر عقيدة المتكلمين في هذا الباب وتقسيمهم الصفات قسمة سُداسية، ثم يرد عليهم. وهو كلام طويل أكتفي بالإحالة عليه في أحد المواضع، وذلك عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأنعام، وكذا محاضرة الشيخ (رحمه الله) في الأسماء والصفات، وهي مطبوعة بعنوان: (منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات). انظر ص ١٣ ـ ١٦، ١٩ ـ ٢٢ من المطبوع.

تنبيه: ما بين المعقوفين زيادة تم بها استدراك بعض النقص المتعلق بالكلام على صفة (الرحمة) وقد نقلته من كلام الشيخ (رحمه الله) عند تفسير الآية (١٣٣) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: شرح المواقف ص ٧٥ فما بعدها، الاقتصاد في الاعتقاد ص ٥٣ فما بعدها، منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص ١٣.

كذلك الصفات التي يسمونها السَّلْبية، والصفة السَّلْبية في اصطلاح المتكلمين: هي التي لا تدل بدلالة المطابقة علىٰ معنىً وجودي، وإنما تدل علىٰ سلب ما لا يليق بالله عن الله. وهي عند المتكلمين خمس صفات(١): وهي: البقاء، والقِدَم، والغِنَى المطلق - الذي يسمونه: القيام بالنفس، يعنون به: الاستغناء عن المحل والمُخَصِّص - والمخالفة للخلق، والوحدانية. أما القِدَم، والبقاء: فالمتكلمون أثبتوهما لله، وقد قال بعض العلماء: إنه ورد في مثل ذلك حديث، وبعضهم ينفي صحته. والمتكلمون يقصدون بهما معنىً صحيحاً؛ لأن القِدم عندهم: هو سَلْب العدم السابق، والبقاء: هو سَلْب العدم اللاحق. زاعمين أن الله أثبتهما لنفسه في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: الآية ٣] أي: الأول الذي لا ابتداء لأوليته، والآخِر الذي لا انتهاء لآخِرِيَّتِه. قالوا: هذا معنىٰ القِدم والبقاء.

فنقول: القِدَم وَصَفَ الله به المخلوقين، قال: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: الآية ٣٩] ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: الآية ٩٥] ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦﴾ [الشعراء: الآية ٧٦] والبقاء وَصَفَ به الحادث حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾ [الصافات: الآية ٧٧] ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: الآية ٩٦] والوحدانية وَصَفَ بها نفسه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: الآية ١٦٣] ووصف بعض المخلوقين بها قال: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ [الرعد: الآية ٤] والغِنَىٰ وَصَفَ به نفسه: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٨] ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: الآية ٦] وقال في بعض المخلوقين: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: الآية ٦] ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ [النور: الآية ٣٢]. ولا شك أن ما وُصِفَ به الله من هذه الصفات مخالف لما وُصِف به المخلوق، كمخالفة ذات الله لذات المخلوق، فلا مناسبة بين الذات

(١) انظر: شرح المواقف ص ٢٩ فما بعدها، منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص ١٧.

والذات، ولا بين الصفة والصفة، فالله حق، وصفاته حق، والمخلوقون حق، وصفاتهم حق، إلا أن صفة كل بحسبه، فصفة الله بالغة من الكمال والتنزيه ما تتعاظم أن تُشبِه صفات المخلوقين، كما أن ذات الخالق تتعاظم أن تشبه ذوات المخلوقين.

وهذه الصفات الجامعة:[١] كالعلو، والكِبَر، والعِظم، والمُلك، والجبروت، كل هذا جاء في القرآن العظيم وَصْفُ الخالق والمخلوق به، فقد وصف تعالىٰ نفسه بالعلو والكِبَر والعِظَم، قال في وصف نفسه بالعلو والعِظَم: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥]. وقال في وصف نفسه بالعلو والكِبَر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: الآية ٣٤] ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد: الآية ٩]. (. . .)[٢] فإن كذبوك، وتمردوا، وكفروا فقل لهم، رغِّبهم ورهِّبهم، واجمع لهم بين الوعد والوعيد، فأخبرهم أن ربك واسع الرحمة لمن أطاعه، يرحمه ويدخله جنته، شديد العقاب والنكال لمن عصاه؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين: هما جلب النفع ودفع الضر، ومن أمثال العرب: (سَوْط وتمرة)[٣] ليكون الخوف والرجاء جناحين يطير بهما الإنسان إلى امتثال أمر الله. هذا الملك الجبار الذي أدعوكم إليه رحيم عظيم الرحمة الواسعة لمن أطاعه، شديد النكال والبأس لمن عصاه، فعليكم أن تخافوا بأسه ونكاله، وتطمعوا في رحمته فتطيعوه.

قال بعض العلماء: ومن معاني قوله: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾

---

(١) انظر الكلام على هذا النوع من الصفات في محاضرة الشيخ (رحمه الله) في الأسماء والصفات (ص ٢٣ ـ ٢٥).

(٢) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل. ويمكن استدراك النقص بمراجعة محاضرة الشيخ (رحمه الله) في الأسماء والصفات (ص ١٧ ـ ١٩) مع مراجعة كلام الشيخ (رحمه الله) على هذه المسألة في هذا التفسير عند الآية (١٣٣) من سورة الأنعام وغيره من المواضع بالإضافة إلى محاضرة (منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات).

(٣) الذي وقفت عليه في كتب الأمثال: «تمرة وزنبور». كما في المستقصى في الأمثال للزمخشري (٣٢/٢)، معجم الأمثال العربية (٢٧٠/١)، (٣١١/٢).

[الأنعام: الآية ١٤٧] حيث أمهلكم، وأغدق عليكم نعمه، وأعطاكم العافية والإمهال، وأنتم تكذبون رسله، وترتكبون مساخطه، وتتمردون عليه، فما أرحمه، وما أعظم لطفه (جل وعلا)!! إلا أنه قال: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إذا أراد بطشاً بقوم مجرمين لا يُرد بأسه عنهم، ﴿بَأْسُهُۥ﴾ أي: عذابه ونكاله، لا يقدر أحد أن يردّه، لا بقوة ولا بشفاعة، ولا بغير ذلك، كبأس غيره من ملوك الدنيا الذي يُردّ بأسه بالقوة، ويُردّ بالشفاعة من غير إذن، فهو إذا أراد بقوم سوءاً فلا مردّ له.

وكثيراً في القرآن أن يجمع الله بين الوعد والوعيد، يجمع بين الخوف والطمع، كقوله هنا: ﴿ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وقوله في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٥] ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: الآيتان ٤٩، ٥٠] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: الآيتان ٢، ٣] وقوله جل وعلا: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: الآية ٦] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً أن لفظ (القوم) قال بعض العلماء: إنما سُمّي قوم الرجل (قوماً) لأنه يرجع إليهم فيكونون قواماً له؛ لأنه لا يستغني الإنسان عن جماعة يستند إليهم فيساعدوه في أموره.

وقد قدمنا مراراً[1] أن القوم في الوضع العربي مُختص بالذكور، وأنه ربما دخل فيه الإناث بحكم التبع، وبينّا أن الدليل علىٰ اختصاص القوم بالذكور: قول الله في الحجرات: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: الآية ١١] فعطفه النساء على القوم يدل علىٰ المُغايرة، ونظيره قول زهير[2]:

وما أدري وسوفَ إِخَالُ أدري ... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من هذه السورة.

(٢) السابق.

والدليل علىٰ دخول النساء في القوم بحكم التبع: قوله في بلقيس ملكة اليمن: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ٤٣﴾ [النمل: الآية ٤٣].

وقوله: ﴿بَأْسُهُۥ﴾ أي: عذابه ونكاله.

وقوله: ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هو جمع تصحيح للمجرم، والمجرم: اسم فاعل الإجرام، والإجرام ارتكاب الجريمة. والجريمة: الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه العذاب[١]. كالذين كفروا بالله، وجعلوا له الشركاء، وسَاوَوا به شركاءه، وحَرَّمُوا ما رزقهم افتراء عليه، وحرّموا وحلّلوا بالباطل، وفعلوا الفواحش، وقالوا: الله أمرنا بها. هؤلاء كلهم من القوم المجرمين.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨].

هذه الآية الكريمة من معجزات النبيّ ﷺ؛ لأنه أخبر فيها عن أمر غيب، ثم تحقق ذلك الغيب طبقاً لما ذكر، قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ ذكر أنهم سيقولونه في المستقبل، وهو أمر غيب، ثم بيّن الله أن إخباره عن ذلك الغيب وقع كما قال، بيّنه في (النحل) و(الزخرف)، حيث قال في (النحل): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: الآية ٣٥] وقال في (الزخرف): ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: الآية ٢٠] فتحقق ما قال: إنهم سيقولونه[٢].

وهذه شبهة جاء بها الكفار ـ عليهم لعائن الله ـ وتمسّك بها المعتزلة، فهذه الآية محطّ رِحَال عند المعتزلة في أن العبد يخلق عمل نفسه بلا تأثير لقدرة الله فيها[٣] ـ سبحانه وتعالىٰ عن قولهم وافترائهم ـ وكلام الزمخشري في هذه الآية في غاية الخبث والقبح؛ لأنه يزعم أن هذه الآية تُبَرِّىء الله

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: أضواء البيان (٢/٢٧٧).

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من هذه السورة.

وتنزهه من أن يكون شيء من الشرّ بإرادته أبداً، وأن جميع الشرّ بإرادة العباد. في كلام قبيح خبيث[(١)].

ولما أفحم القرآن الكفار في تحريم ما حرموه بالأدلة والمناظرات، حيث قال: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣] وأفحمهم بالحجة في أنه لم يحرم هذا، وأفحمهم أنه ليس له شركاء، قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤١] وهو الخالق الصانع المدبر الذي لا حرام إلا ما حرمه، ولا حلال إلا ما أحلّه، ولا معبود إلا هو، لما أفحمتهم الأدلة، وألقمتهم البراهين الحجر [قالوا كلمة][(٢)] حق أرادوا بها باطلاً، قالوا للنبيّ ﷺ: هذا الكفر والتحريم، وتحريم البحائر والسوائب، وهذه الأنعام والحرث التي قلنا: إنها حِجْر، وهذا جَعْل النصيب لغير الله، هذا الكفر، وهذا التحريم، كله بمشيئة الله؛ لأن الله لو شاء أن يمنعنا منه فهو قادر؛ لأنه قوي ونحن ضعفاء، فهو قادر جداً علىٰ أن يمنعنا، فلما كان قادراً علىٰ مَنْعِنَا ولم يمنعنا عرفنا أنه راضٍ بفعلنا؛ لأنه إن رآك تفعل شيئاً قبيحاً وهو قادر علىٰ أن يمنعك وتركك تفعله، ولم يمنعك منه، معناه: أنه راضٍ بفعلك، وأنه حسن عنده!! هذا مقصودهم - قبحهم الله - كما أنهم لما قيل لهم: تصدقوا علىٰ المساكين!! قالوا: الرزق أكثر عند الله، وهو الذي خلقه، والطعام أكثر عنده، فلو كان يحب أحداً أن يطعمه لأطعمه هو!! كما يأتي في (يس) في قوله: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: الآية ٤٧] فقد احتجوا بهذه الحجة الباطلة، والكلام الذي هو من جهةٍ حق أُريد به الباطل ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قالوا: نعم، إنَّ شركنا كفر، وأنه مودي للنار، وإن ما حرمنا تحريمٌ افتراءً علىٰ الله، وأنّا ندخل به النار، هذا الذي فعلنا بمشيئة الله، لو شاء الله عدم إشراكنا ما أشركنا، ولو شاء أن لم نحرم شيئاً ما حرمنا شيئاً، فلما كان قادراً على منعنا ولم يمنعنا

---

(١) انظر الكشاف (٤٦/١).

(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

دلّ ذلك على أنه راضٍ بفعلنا؛ ولذا قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عدم إشراكنا ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ يعني: ولا أشرك آباؤنا. وإنما سوّغ العطف هنا على ضمير الرفع المنفصل: الفصلُ بين العطف والمعطوف بـ (لا)، وهو مذهب الكوفيين، وهو صحيح؛ لأن القرآن جاء بمذهب الكوفيين هنا، وفي مذهب البصريين في (النحل)؛ لأن مذهب البصريين: أن ضمير الرفع المتصل لا يُعطف عليه إلا في الإتيان بضمير رفع منفصل كـ (نحن) في قوله في (النحل): ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: الآية ٣٥] والكوفيون يقولون: يكفي أي فاصل[١] و (لا) هنا فاصلة، فهي تكفي. وهو الحق؛ لأن القرآن نزل به.

﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] يعني هذا التحريم الذي فعلنا، والشرك الذي فعلنا، هو بمشيئته، ولو شاء لمنعنا، فلما لم يمنعنا عرفنا أنه راضٍ بفعلنا. وهذه الجُمل، قولهم منها: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ هذا كلام صحيح لا شك فيه، ولكنه كلام حق أُريد به باطل؛ لأنهم يزعمون أنه لما كان قادراً على منعهم ولم يمنعهم أن ذلك رضاً منه، والله يقول: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: الآية ٧] فهو لا يرضىٰ بذلك الفعل، فهو أنذركم وحرمه عليكم، وإن ارتكبتموه فلا يرضىٰ بذلك الفعل بل يدخلكم به النار. وحاصل هذا: أن الكفار احتجوا بأن الله قادر على أن يمنعهم [من الوقوع فيما وقعوا فيه][٢] من الشرك وتحريم ما حرموا، دلَّ ذلك على أنه راضٍ بذلك. فالله كذبهم في هذه وقال: إن عدم منعه لهم مع قدرته على ذلك لا يدل على رضاه؛ لأن الله (جل وعلا) يأمر خلقه جميعاً بالدعوة، ويوفق من شاء، ويخذل من شاء، فالذي وفّقه للخير يرضىٰ بفعله، والذي لم يوفقه للخير لم يرض الله (جل وعلا) بالكفر، والإرادة الكونية القدرية لا تستلزم الرضا[٣]،

---

(١) انظر: البحر المحيط (٢٤٦/٤)، الدر المصون (٢١٠/٥)، التوضيح والتكميل (١٨٤/٢)، النحو الوافي (٦٣٠/٣).

(٢) في هذا الموضع وُجد مسح في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٤٧٥/٨)، شرح الطحاوية ص ٣٢٤.

فالله (جل وعلا) قد أراد كوناً وقدراً كفر الكافرين؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٧] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: الآية ١٣] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ﴾ [الأنعام: الآية ٣٥] وهذا الكفر بمشيئته ولكنه ليس برضاه، والإرادة الكونية القدرية لا تستلزم الرضا، وإنما يستلزم الرضا: الإرادة الشرعية الدينية، فما أحبه الله شرعاً، ورضيه ديناً، وأراده ديناً هذا هو الذي يلازم الرضا. أما الإرادة الكونية القدرية فإنها لا تستلزم الرضا، فقد يريد الله كوناً وقدراً ما يرضاه، كإيمان المؤمنين، وقد يريد كوناً وقدراً ما لا يرضاه ككفر الكافرين، وقد بينّا احتجاج المعتزلة بهذا، وذكرنا بعض المناظرات التي توضح هذا[1]. والحاصل أن الله تبارك وتعالىٰ خلق خلقه، وسبق في سابق أزله أن قوماً صائرون إلىٰ الجنة، وقوماً صائرون إلىٰ النار، ثم إن الله صرف بقدرته وإرادته قُدرهم وإراداتهم إلىٰ ما سبق به العلم الأزلي، فأتوه طائعين: **«اعملوا فكل ميسر لما خُلق له»**[2].

وقد بينا أن عبد الجبار المعتزلي لما جاء يتقرب بهذا المذهب ويقول: «سبحان من تنزه عن الفحشاء». يعني: أن الله لا يشاء السرقة والزنى؛ لأنهم يزعمون ـ في زعمهم الباطل ـ أن الله أكرم، وأنزه، وأجل من أن تكون هذه القبائح بمشيئته؛ ولذا قال معبراً عن هذا: «سبحان من تنزه عن الفحشاء».

فناظره أبو إسحاق الإسفراييني فقال: «سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء».

فقال عبد الجبار: «أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه»؟

فقال أبو إسحاق: «أتراك تفعله جبراً عليه، أأنت الرب وهو العبد»؟

فقال عبد الجبار: «أرأيت إن دعاني إلىٰ الهدىٰ، وقضىٰ علي بالردىٰ، دعاني إلىٰ الخير، وأوضح لي طريق الخير، ولكن سدّ بابه دوني، أتراه أحسن إلي أم أساء»؟!

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

قال: «إن كان الذي منعك حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء، وإن كان مُلكه المحض فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل». فَبُهِتَ عبد الجبار، وقال الحاضرون: «والله ما لهذا جواب»[(١)].

وهذه المسألة بعينها هي التي ذكرنا أن البدوي الجاهل أسكت بها كبير المعتزلة عَمْرَ بن عبيد المشهور، الذي رثاه أبو جعفر المنصور؛ لأنه لما سُرقت له دابة كان يعمل عليها، فجاء لعمرو بن عبيد فقال: ادع الله أن يردّها لي. قالوا: إنه قام يتقرب بهذا المذهب فقال: اللهم إنها سُرقت، ولم تُرد سرقتها؛ لأنك أكرم، وأجل، وأنزه من أن تريد هذه الخسيسة القبيحة!! فالبدوي الجاهل قال له: ناشدتك الله يا هذا إلا ما كففت عني من دعائك الخبيث، إن كانت سُرقت ولم يُرد سرقتها فقد يريد ردّها ولا تُرد[(٢)]!! فهم حاولوا أن ينزهوا الله عن أن تكون القبائح بمشيئته فَقَدَحُوا في قدرته وإرادته، وجعلوا الخلق يفعلون شيئاً بلا قدرة الله ولا إرادته، أرادوا أن يُنزهوه فَقَدَحُوا في ربوبيته ـ والعياذ بالله ـ فمن كان منهم حسن الظن فقد وقع في أمر عظيم، ومن كان سيء الظن فهو سيء الظن، والإنسان قد يُحسن الظن ويريد البرّ ويقع في آثام عظيمة كبيرة، وقد قال الشافعي رحمه الله[(٣)]:

رَامَ نـفـعـاً فَـضَـرَّ مِـنْ غَـيْـرِ قَـصْـدِ ... وَمِـنَ الـبِـرِّ مـا يـكُـونُ عُـقُـوقـاً

والحاصل أن الله (تبارك وتعالىٰ) أعلم بخلقه، فخلق خلقه، وقدّر مقادير الكائنات قبل أن يخلقها، ثم إنه خلق قوماً جبلهم علىٰ القبح، والخساسة، والخبث ـ عياذاً بالله ـ وخلق قوماً جبلهم علىٰ الطهارة، ويسر كُلّاً لما خلقه له، فصرف الطيبين ـ صرف قدرتهم وإرادتهم ـ بقدرته وإرادته إلىٰ ما شاء من خير، فأتوه طائعين، فأدخلهم جنته، وصرف قدرة قوم آخرين وإرادتهم بمشيئته وقدرته إلىٰ ما سبق به علمه فأتوه طائعين فدخلوا النار ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠]. فالله (جل وعلا)

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) ديوان الشافعي ص ٦٧.

يصرف قُدر الخلق وإراداتهم حتى يأتوا ما سبق به العلم الأزلي، يأتوه طائعين؛ ولذا قال ﷺ: «**كلٌ ميسر لما خُلق له**»(١).

ولا شك أن الجاهل يقول هنا: ما الحكمة عند الله وهو الرؤوف الرحيم الكريم أن يخلق قوماً ويجبلهم علىٰ الخبث، ويصرف إراداتهم إلى ما يستوجبون به العذاب الأليم مع أنه الرحمٰن الرحيم؟؟.

هذا سؤال إلحادي قد يقع في قلوب كثير من الملاحدة.

والجواب عن هذا: إن خالق السماوات والأرض، الجبار (جل وعلا)، غني عن جميع الخلائق، غني بذاته الغنىٰ المطلق ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٨] وإنما خلق الخلق ليُظهر فيهم بعض أسرار عظمته، وأسرار أسمائه وصفاته، فلو لم يخلق إلا المطيعين، ولم يكن - أبداً - إلا الثواب كان ذلك إدلالاً عليه، وسبباً للجراءة علىٰ الجناب الكريم؛ لأن الذي لا يخاف يدل بمحبته، وقد يقع في الجناب الأعظم بما لا يليق، ولما خلق قوماً أشقياء ظهر فيهم ما عنده من الإنصاف والحكمة البالغة، وظهر فيهم بعض أسرار أسمائه كالجبار، والقهار، وظهر فيهم عظمته، وقوته، وشدة عقابه ونكاله؛ ليحصل الخوف من جانب، وخلق قوماً آخرين ووفقهم إلى الخير؛ ليظهر فيهم بعض أسرار أسمائه وصفاته، من الرأفة، والرحمة، والحلم، والكرم، والجود؛ ليجمع بين المحبة والخوف، فلو كانت محبة لا خوف فيها لكان لا عظمة في القلوب، ولوقع الناس في الجناب الإلٰهي؛ لأنهم لا يخافون من شيء. ولو كان خوفاً محضاً لا محبة معه ولا رحمة لكان الكل يمقتون الله ويكرهونه، وكان ذلك غير لائق، فاقتضت الحكمة أن يقسم الخلق إلى صنفين؛ ليظهر في هؤلاء بعض أسرار أسمائه وصفاته، من الرأفة، والرحمة، والكرم، والجود، وجبل قوماً آخرين علىٰ خلاف ذلك؛ ليُظهر فيهم بعض أسرار صفاته وأسمائه من القوة، والبطش، والقهر، والعظمة، والجلال - سبحانه وتعالىٰ - وله الحكمة البالغة في ذلك، وقد

---

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

خلق خلقاً وقال: هؤلاء للنار ولا أُبالي، وخلق قوماً وقال: هؤلاء للجنة ولا أُبالي.

يقول الله جل وعلا: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۢ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍۢ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨].

قد ذكرنا بالأمس أن الكفار ـ قبحهم الله ـ لما أفحمتهم براهين القرآن وحججه في إشراكهم بالله، وتحريمهم ما أحل الله، وأفحمتهم براهين القرآن التجؤوا إلىٰ شبهة كافرة ضالة ملحدة، وقالوا: هذا الإشراك الذي تنهانا عنه يا نبي الله ﷺ، وهذا التحريم الذي نحرمه، كالبحيرة والسائبة، الذي تنهانا عنه، وتُقيم الحجج أنه حرام، نحن ما فعلناه إلا بمشيئة ربنا، فهو قادر علىٰ أن يمنعنا منه، لو شاء لمنعنا. ولمَّا تركنا عليه وهو قادر علىٰ منعنا عرفنا أنه راضٍ عنا، وأن هذا الذي نفعل يرضيه؛ إذ لو كان لا يرضيه لمنعنا منه؛ لأنه قادر علىٰ منعنا منه، إما منع قهر، وإما منع لطف وتوفيق، فيلطف بنا ويوفقنا!! فصارت هذه المقالة شبهة فيها كلام حق أُريد به باطل. فقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ هذا كلام حق لا شك فيه؛ لأنه لا يقع في الكون خير ولا شر، ولا تحريكة ولا تسكينه إلا بمشيئة الله ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ٣٥] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: الآية ١٣] ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩] فقول الذين أشركوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ هذا كلام صدق وحق لا شك فيه.

فلطالب العلم أن يقول: ما دام كلامهم حقاً، وهم صادقون في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ ـ أي: ولا أشرك آباؤنا ـ ﴿وَلَا حَرَّمْنَا﴾ أي: نحن ولا آباؤنا شيئاً لم يحرمه الله، كالبحيرة والسائبة. وهذا الكلام الذي ذكر هنا أن الكفار سيقولونه في المستقبل صرح بأنهم قالوه في (النحل) و(الزخرف)، هو بالنظر إلى ذاته كلام حق لا شك فيه؛

لأن الله لو شاء ألا يشركوا ما أشركوا، ولو شاء ألا يحرموا شيئاً ما حرموا شيئاً.

ولطالب العلم أن يقول: إذا كان كلامهم هذا حقاً - فَلِمَ قال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ وفي بعض القراءات - وقد تمسك بها المعتزلة لمذهبهم - قال: (كذلك كَذَبَ الذين من قبلهم) بالتخفيف(١). فما وجه هذا التكذيب؟؟ وما قالوا إلا حقاً.

الجواب: أنها كلمة حق أُريد بها باطل؛ لأنهم قالوا ذلك يستدلون به على أن الله راضٍ عنهم بفعلهم هذا، وهذه المقالة الكاذبة الكافرة هي التي أرادوها بكلامهم، فصار التكذيب مُنْصَبّاً عليها. المعنىٰ عندهم: لو شاء الله أن لا نشرك ما أشركنا، فلما تَرَك بيننا وبين الشرك دلّ على رضاه به عنّا!! فادعاؤهم أن ذلك دال علىٰ الرضا هو محل الكذب، وهو الباطل الذي أرادوه بهذا الحق، وهو الذي ينصبّ عليه التكذيب؛ ولذا قال لما قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ قدمنا أن هذه من المعجزات؛ لأنه أخبر عن غيب أنه سيقع قبل أن يقع جازماً بذلك ثم وقع كما قال، فتبين أنه لو لم يكن عالماً أنه وحي من الله لما تجرأ أن يقول: إنه سيقع، خوفاً من أن لا يقع فيقولون: كذاب، فلما أخبر بأنه سيقع جازماً بذلك غير مُحجم، ووقع فعلاً دل ذلك علىٰ أنه نبي صحيح، وأن الله أوحىٰ إليه أن هذا الأمر سيكون فكان، وبين أنه كان بالفعل في سورة النحل في قوله عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية [النحل: الآية ٣٥] وقال في (الزخرف): ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ [الزخرف: الآية ٢٠] فبيّن أن ذلك الذي ذكر أنه سيقع أنه وقع بالفعل. وحاصل الآيات أن الكفار استدلوا بأن كفرهم واقع بمشيئة الله علىٰ أنه راضٍ به منهم(٢)، وهذا الاستدلال باطل، وكونه واقعاً بمشيئته حق، وكون ذلك يدل علىٰ رضاه به هو محل الكفر. فالله لا يرضىٰ الكفر، كما قال: ﴿وَلَا

(١) وهي قراءة شاذة. انظر: البحر المحيط (٤/٢٤٧)، الدر المصون (٥/٢١١).

(٢) مضى قريباً.

يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: الآية ٧]، والله قد يريد بإرادته الكونية القدرية ما لا يرضىٰ؛ لأنه لا يرضيه إلا العمل الصالح، مع أنه خلق الخلق أزلاً، وقدّر عليهم أعمالهم التي هم سيعملونها ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٦٣] ثم يسّر كُلاً لما خلقه له، فصَرَفت قُدْرَتُه وإرادتُه أَهَلَ الجنة صَرَفَت قُدَرَهُم وإراداتهم إلى فعل الخير، طبقاً لما سبق به العلم الأزلي، وصَرَفَت إرادات وقُدر غيرهم إلىٰ ما سبق به العلم الأزلي، فوجّهت قدرةُ الله وإرادتُه كلَّ مخلوق لما سبق له به العلم الأزلي، فأتاه طائعاً ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠]/. ٢٠/ب

ومن هنا يظهر سقوط استدلال المعتزلة بهذه الآية[١]؛ لأن هذه الآية عندهم هي محل خصب عظيم لدعواهم أن الإشراك ليس بمشيئة الله؛ لأنهم زعموا أن الكفار لما قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ كذَّبهم الله في أن الشرك بمشيئته وقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ ولم يتفطنوا؛ لأن المنفي في الحقيقة هو استلزام تلك المشيئة بالرضا. هذا هو المنفي حقاً. وقد قدمنا حلّ هذه الشبهة مراراً، فالمعتزلة ـ قبحهم الله ـ أرادوا أن ينزهوا الله عن شيء فقدحوا في ربوبيته (جل وعلا)، فوقعوا في أعظم مما فروا منه، أرادوا أن يجعلوا القبائح كالشرك، والردة، والزنى، والسرقة أنها ليست بمشيئة الله، وأنها بمشيئة العبد، يزعمون أنهم ينزهون الله عن غير اللائق، فقدحوا في ربوبية الله، وجعلوا خلقه وكونه يقع فيه شيء من غير مشيئته، فوقعوا في أعظم مما فرّوا منه بأضعاف.

والتحقيق الذي لا شك فيه: أنه لا يمكن أن يقع في العالم تحريكة ولا تسكينة، ولا خير ولا شر، إلا بمشيئة الله (جل وعلا). وادعاء المعتزلة أن العبد يخلق أعمال نفسه بلا تأثير لقدرة الله فيها لا يخفى أنه قدح في ربوبية الله، إذ لا شيء أعظم من أن يكون خالق الكون يقع في ملكه شيء ليس بمشيئته. هذا أعظم الكفر والقدح بالله ـ عياذاً بالله ـ ففروا من شيء فوقعوا في أعظم مما فروا منه، والله (جل وعلا) يقدر الأشياء ويخلقها،

---

(١) مضى قريباً عند تفسير الآية (١٠٦) من هذه السورة.

وتضاف لمكتسبيها. فالسرقة والزنى لا تكون إلا بمشيئة الله، وكل شر لا يكون إلا بمشيئة الله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: الآيتان ١، ٢] لأن كل ذلك الشر إنما خلقه الله، فالله (جل وعلا) خالق، والعبد كاسب وفاعل، فلا تضاف السرقة إلى الله، فلا يجوز أن تقول في حقه: سارق ـ سبحانه جل وعلا عن ذلك علواً كبيراً ـ وإنما السارق من أوجد الله منه الفعل وقَدَّره عليه، فالله (جل وعلا) يوجه إرادات المخلوقين وقدرتهم إلى ما سبق به علمه الأزلي مما هم صائرون إليه، فيتوجهون إليه بمشيئة الله طائعين فيعملونه ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠] وهذه المسألة قد سأل عنها الصحابة النبي ﷺ كما هو ثابت في الصحيحين وغيرهما ـ أنهم سألوه: هذا العمل الذي نعمل أنعمله لأمر مُؤْتَنَف، ونُحدِث به سعادة لم تكن سابقة، أو شقاوة لم تكن سابقة؟ فأخبرهم بأن الأمر ليس بأُنف، وأنه مفروغ منه، وأن القلم جرى بما هو كائن، وأن السعيد من كُتب عند الله سعيداً، والشقي من كُتب شقياً. فسألوه لِمَ لا يتكلون على الكتاب الذي كتبه الله، ويتركون الأعمال، فمن كُتبت له الجنة فهو داخلها، ومن كُتبت له النار فهو داخلها؟ فبين لهم ﷺ أن كلاً ميسر لما خُلق له، فالذين سبقت لهم السعادة يستعملهم الله بقدرته وإرادته في فعل الخيرات، ويوجه قدرتهم ومشيئتهم إلى الخير بقدرته وإرادته، والعكس بالعكس[1] ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠].

وقد بينا مراراً[2] القصص والمناظرات التي تدل على إفحام المعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن الأعمال السيئة بمشيئة العبد لا بمشيئة الله. وهذا تلزم عليه محاذير عظيمة: أحدها: القدح في علم الله؛ لأن الله (جل وعلا) عالم بما سيفعله خلقه، وما هم عاملون إلى يوم القيامة، مقدر ذلك في أزله، فلو فرضنا ـ والعياذ بالله ـ قول مجوس هذه الأمة ـ المعتزلة ـ أن العبد يستقل بعمل فعله، فلو كان سبق علم الله أن هذا العبد لا يزني يوم كذا وكذا، وأراد العبد بمشيئته

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

أن يخترع ذلك الزنى، فإذا فعله بدون مشيئة الله فقد انقلب علم الله جهلاً ـ سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ بل هو المحيط علمه بكل شيء، المقدر كل شيء في الأزل، الذي يقضي الأمور في أوقاتها التي قدرها لها ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: الآيتان ٤٩، ٥٠]. فالمُجْبِرَة ضُلاَّل حيث ينفون عن العبد أن له فعلاً، والقدرية ضُلاَّل حيث ينفون أن هذا بمشيئة الله. ومذهب أهل السنة والجماعة خارج من بين المذهبين خروج اللبن من بين الدم والفرث لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، فهو لا كما تقوله الجبرية، ولا كما تقوله المعتزلة، فكل شيء بمشيئة الله، والله يصرف مشيئات الخلق إلى ما سبق به علمه الأزلي، فيأتونه طائعين ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠] والمعتزلة يقولون: إن الله يجب عليه أن يفعل الأصلح، وإذا فعل للعبد غير الأصلح فقد أخل بالواجب عليه؛ ولذا عندهم لا يفعل للعبد إلا الأصلح. وسبب ترك أبي الحسن الأشعري لمذهبهم؛ لأنه كان على مذهب المعتزلة زمناً طويلاً، وألّف فيه مئات الكراريس، ينصر مذهب المعتزلة، وكان شيخه الجبائي كبيرَ المعتزلة؛ لأنه كان زوج أمه، والأشعري ربيب الجبائي، وكان يوماً معه يقرر أن الله يجب عليه فعل الأصلح، فقال الأشعري للجبائي: إذا كان يجب عليه فعل الأصلح فَلِمَ قَتَلَ الغلام صغيراً؟ ولِمَ لا تركه يكبر حتى يعمل كثيراً من عمل الخير فينال الدرجات العالية في الجنة؟

فقال له الجبائي: يقول له الله: قد سبق في علمي أني لو تركتك تكبر كنت كافراً فمت على الكفر، فكان الأصلح لك أن قتلتك صغيراً.

فقال له الأشعري: إذاً يحتج عليه الكافر الكبير الذي مات، ويقول له: يا رب لمّا سبق علمك أن البعيد سيموت كافراً لِمَ لا تفعل له الأصلح فتقتله صغيراً قبل أن يكتب عليه، كما فعلت الأصلح لذلك الصغير؟ فانقطع الجبائي، وقال للأشعري: أبك جنون؟ قال: لا، ولكن وقف حمار الشيخ في العَقَبَة. ثم ترك مذهب المعتزلة، ورجع إلى مذهب أهل السنة[1]. وهذا من مذاهب المعتزلة الباطلة.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٨٩/١٥).

وقد قدمنا مراراً، وكررنا بعض المناظرات الدالة على إدحاض مذهبهم، كمناظرات الإسفرائيني لعبد الجبار، كررناها مراراً[1]؛ لأن العاقل إن نظر فيها يعلم أن أبا إسحاق الإسفرائيني اهتدى إلى مذهب أهل الحق فأفحم به مذهب أهل الباطل على لسان عبد الجبار من كبار المعتزلة المشهورين، جاء يتقرب بهذا المذهب كما يقوله الزمخشري هنا: إن الله قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ يعني: أن شركهم بمشيئته. وأنه كذبهم في هذا وقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وقال ـ ولا سيما القراءة الأخرى[2] ـ: (كذلك كَذَب الذين من قبلهم) فجعل أن من قال: إن الشرك بمشيئة الله أنه كاذب عند الله، وأن الله نص على كذبه!! وهذا تحريف في آيات الله، وقَدْح في ربوبية خالق السماوات والأرض، سبحانه أن يقع في ملكه شيء دون مشيئته (جل وعلا)؛ لأن من يقع في ملكه شيء بغير مشيئته صار ليس برب، ناقص القدرة الكاملة، والله يتعالى عن ذلك علواً كبيراً، فلما جاء عبد الجبار يتقرب بهذا المذهب في مجلس الإسفرائيني، أبي إسحاق، الشافعي المعروف، فقال عبدالجبار: سبحان من تنزه عن الفحشاء. يعني أن السرقة، والزنى، والشرك ليست بمشيئته.

فقال أبو إسحاق: كلمة حق أُريد بها باطل. ثم قال: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال عبدالجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني أنا عليه؟!

فقال له أبو إسحاق: أتراك تفعله جبراً عليه؟! أأنت الرب وهو العبد؟!

فقال عبد الجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدى وقضى علي بالردى. بيَّن لي الخير، ودعاني إليه، وسد الباب دوني، أتراه أحسن إلي أم أساء؟!

قال: أرى أن الذي منعك إن كان حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء، وإن كان مُلكه المحض، فإن منعك فعدل، وإن منحك ففضل.

---

(١) مضى قريباً.

(٢) مضى قريباً.

فبُهت عبد الجبار، وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب.

وذكرنا مراراً أن رئيسهم الكبير عَمْرَ بن عبيد ـ الذي يطريه الزمخشري غاية الإطراء، والذي رثاه أبو جعفر المنصور؛ لأنه توفي في خلافته، وهو من رؤساء وكبراء المعتزلة المشهورين ـ أفحمه بدوي جاهل، لا يعرف شيئاً؛ لأن الكبير العالم من أهل الإلحاد والضلال قد يفحمه العامي من أهل الحق؛ لظهور دلالة الحق؛ ذلك لأنه لما سُرقت دابته، وجاءه يسأل منه الدعاء أن يردها الله عليه، وأراد التقرب بهذا المذهب، وقال: اللهم إنها سُرقت ولم تُرد سرقتها، ولم تكن سرقتها بمشيئتك؛ لأنك أنزه، وأعظم، وأكرم، وأجل من أن تكون هذه الخسيسة بمشيئتك. ففهم البدوي الجاهل، وقال له: ناشدتك الله يا هذا إلا ما كففت عني من دعائك الخبيث، إن كانت قد سُرقت ولم يُرد سرقتها فقد يُريد ردها ولا تُردا! فإن كان أول الأمر ليس بمشيئته فَلَسْتُ بواثق منه في آخر الأمر؛ لأن الرب لا بد أن يكون كل شيء بمشيئته أولًا وآخراً. فأفحمه وألقمه الحجر[1].

والحاصل أن هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام أخبر الله فيها أن الكفار سيقولون: إن كفرهم وتحريمهم للحلال بمشيئة الله، وأن وقوعه بمشيئة الله دليل على رضاه به! فكذبهم القرآن، والتكذيب منصب على أن كون ذلك بمشيئته لا يدل على رضاه، فلا يقع شيء إلا بمشيئته، ولا يرضيه إلا ما كان طاعة له، كما قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: الآية ٧] لأنه صرف قُدر الخلق وإراداتهم إلى ما سبق به العلم الأزلي، فأتوه طائعين، فما كان إيماناً وطاعة فهو مرضي عند الله، وما كان كفراً وعصياناً فهو غير مرضي عند الله، وإن كان كل شيء من خير أو شر بإرادته الكونية القدرية، فالله (جل وعلا) يعم جميع الخلق بدعوتهم إلى الدين، ثم يخصص من شاء للتوفيق، فالدعوة إلى الخير عامة، والتوفيق خاص، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: الآية ٢٥]. وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ يعني: ولا

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من هذه السورة.

أشرك آباؤنا من قبلنا. والذي سوَّغ العطف هنا على الفاعل الذي هو ضمير الرفع المتصل: الفصلُ بلفظة (لا) وكل فاصل مسوِّغ، وهو مذهب الكوفيين، وهو الصواب، خلافاً لمذهب البصريين القائلين: لا بد من ضمير منفصل مُسَوِّغ للعطف، كما في آية النحل(١). وهذا معنى قوله: ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: ولا أشرك آباؤنا من قبلنا، ولا حرمنا من شيء. أي: لا من بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام، ولا من أنعام، ولا من حرث، إلى غير ذلك.

وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أصله مفعول (حرّمنا) وقد تقرر في علم الأصول أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها لفظة (مِنْ) نقلتها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم(٢). وذكره الشيخ سيبويه في كتابه.

والنكرة في سياق النفي قد تُزاد قبلها لفظة (مِنْ) فتنقلها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم ويكون ذلك قياساً مطرداً في ثلاثة مواضع لا رابع لها(٣):

أحدهما: أن تُزاد لفظة (مِنْ) قبل النكرة التي هي فاعل، كقوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [القصص: الآية ٤٦] الأصل: ما أتاهم نذير.

أو أن تكون قبل المفعول، كقوله هنا: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] الأصل: «ما حرمنا شيئاً». ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥] أي: ما أرسلنا قبلك رسولاً.

الثالث: أن تُزاد قبل المبتدأ، نحو: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: الآية ٧٣] الأصل: وما إله إلا إله واحد. فزيدت قبلها (مِنْ) لتنقلها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٨) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من هذه السورة.

(٣) السابق.

قوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ الشيء يطلق في اصطلاح الشرع على كل موجود حتى الله (جل وعلا) قد يطلق عليه اسم الشيء[١]، كما قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: الآية ٨٨] وقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية ١٩] والمعتزلة يزعمون أن الشيء يطلق على المعدوم، ومناقشاتهم في هذا لأهل السنة معروفة[٢]. والدليل على أن المعدوم ليس الشيء، ولا يطلق عليه اسم الشيء: آيات قرآنية كثيرة، كقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: الآية ٩] فنفى عن العدم أن يكون شيئاً، وكقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: الآية ٦٧] فنفى عنه في حال عدمه اسم الشيء، والمعتزلة يزعمون أن الشيء يطلق على المعدوم، وبعضهم يقول: المعدوم قسمان:

معدوم ممكن، كإيمان أبي لهب، فإن إيمان أبي لهب معدوم قطعاً؛ لأن الله يقول: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ [المسد: الآية ٣] مع أن هذا المعدوم يمكن عقلاً؛ لأن إيمانه يجوز عقلاً، إذ لو كان مستحيلاً عقلاً لكان تكليفه بالإيمان تكليفاً بالمحال، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

الثاني: أن يكون الشيء المعدوم مستحيلًا عقلًا، كشريك الله ـ جل وعلا سبحانه عن ذلك وتعالى علواً كبيراً ـ.

وبعضهم يقول: إن الشيء يطلق على المعدوم مطلقاً.

وبعضهم [يقول][٣]: يُطلق على المعدوم الممكن دون المعدوم المستحيل. واستدلوا بأدلة لا تنهض، منها: قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [يس: الآية ٨٢] قالوا: فسماه (شيئاً) قبل أن يقول له: (كن). وهو إذ ذاك معدوم. فدل على تسمية المعدوم (شيئاً). وهذا يناقضه قوله:

---

(١) قال الإمام البخاري في صحيحه: «باب: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾. فسمى الله (تعالى) نفسه شيئاً، وسمى النبي ﷺ القرآن شيئاً وهو صفة من صفات الله. وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾». البخاري مع الفتح (١٣/٤٠٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: الآية ٩] وإنما أطلق عليه اسم الشيء نظراً إلى عادة العرب أنهم ينزلون الواقع المتحقق وقوعه كالواقع بالفعل، كما قال: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: الآية ١] ذكر أنه أتى فعلاً وهو لم يأت بالفعل؛ لأن تحقق وقوعه كوقوعه بالفعل. وهذا كثير في القرآن ـ فقد ذكر الله منه في سورة الزمر ـ جداً: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ معناه: سيكون ذلك يوم القيامة ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ [الزمر: الآيات ٦٩ ـ ٧٣] كل هذه الأفعال الماضية إنما هي بمعنى المستقبلات التي ستقع يوم القيامة؛ لأن تَحَقُّقَ وقوعها نزّلها منزلة الواقع فعلاً، كما هو معروف في فن المعاني[1]. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾.

ثم قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما كذب هؤلاء الكفرة الفجرة رسولي محمداً ﷺ في أن الله واحد لا شريك له، وأنه لا حرام إلا ما حرمه الله، كما كذبوه وادّعوا أن وقوع ذلك بمشيئة الله دليل على رضاه، كما كذبوه بهذه الشُّبَه الكافرة الملحدة ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الرسل، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التكذيب، ولم يزالوا مكذبين ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] أي: ذاقوا ألم عقابنا وشديد نكالنا، وقد يكون ذلك بهم في الدنيا كما وقع لقوم نوح حيث استأصلهم الطوفان بالغرق، ووقع لقوم هود حين أرسل عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. قال الله فيهم: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ أي: قتلى أمواتاً ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة: الآيتان ٧، ٨] وكما فعلنا بقوم صالح حيث أُرسلت عليهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وكما أحرق قوم شعيب بالظلة، وكما رفع الأرض بقوم لوط وجعل عاليها سافلها، وكما أغرق فرعون وقومه في البحر. هذا من نكال العذاب الدنيوي، ويتلوه العذاب الأخروي ـ والعياذ بالله ـ كما قال تعالى في التنكيل بالمشركين يوم بدر

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن ٢٩٥، الصاحبي ٣٦٤، فقه اللغة للثعالبي ٣٠١، البرهان للزركشي (٣/٣٧٢)، المزهر (١/٣٣٥)، قواعد التفسير (١/٢٩٢).

مع اتصال العذاب الأخروي على ما ذكره بعض أهل العلم: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: الآية ٢١].

ومعنى: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ لم يزالوا مصرين على تكذيب الرسل معاندين ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: ذاقوا طعم ألم العذاب والنكال الكائن مما في الدنيا، المتصل بعذاب الآخرة ـ والعياذ بالله ـ قل لهم يا نبي الله: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ دعواكم أن كل ما وقع بمشيئة الله هو راضٍ به حسن عنده؟ هل عندكم من علم بهذا أن الكفر الواقع بمشيئته أنه لما كان بمشيئته كان برضاه، وكان حسناً عنده؟ هل عندكم على هذه الدعوى الفاجرة من علم فتخرجوه لنا؟ أي: تبرزوه لنا. الفعل هنا منصوب، وأصله: (تخرجونه) إلا أن المقرر في علم النحو أن فاء السببية إذا جاء بعد طلب أو نفي محضين فإنه ينصب بـ (أن) مضمرة[1]. والطلب هنا محض؛ لأنه استفهام ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: الآية: ١٤٨]، ولو كان استفهام التقريع يقتضي النفي، فالنفي أيضاً محض، فعلى كل حال فهو منصوب، كقوله: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ [الأعراف: الآية ٥٣].

هَلْ مِنْ سبيلٍ إلى خَمْرٍ فأَشْرَبَهَا أم هل سبيلٌ إلى نَصْر بن حَجَّاجِ[2]

وما جرى مجرى ذلك.

وقوله: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ أصله مبتدأ جاءت قبله (مِنْ) والأصل: (هل عندكم علم). فالعلم: مبتدأ استند على الظرف قبله، وهو خبره[3]. ويجب تقديم المبتدأ هنا؛ لأن الذي سوَّغ الابتداء به: النكرة التي كانت خبراً[4]، إلا أنَّا ذكرنا ـ الآن ـ أن زيادة لفظة (مِنْ) قبل النكرة في

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٢٩٦). مضى عند تفسير الآية (٥٢) من هذه السورة.

(٢) البيت لفريعة بنت همّام، وهو في اللسان (مادة: مني) (٣/٥٣٩).

(٣) انظر: الدر المصون (٥/٢١١).

(٤) قوله: «ويجب تقديم المبتدأ ـ إلى قوله:ـ التي كانت خبراً» هذه الجملة فيها اضطراب في المعنى والصواب أن يُقال: «يجب تأخير المبتدأ هنا؛ لأن الذي سوَّغ الابتداء به ـ وهو نكرة ـ تقدم الخبر وهو شبه جملة».

سياق النفي ـ الذي ينقلها من الظهور في العموم ـ إلى التنصيص الصريح في العموم مطرد في ثلاثة مواضع[١]: تُزاد قبل الفاعل، وتزاد قبل المفعول، وقبل المبتدأ، كما هنا. والأصل: هل عندكم علم فتخرجوه لنا؟ ولو قال: (هل عندكم علم) لأن الاستفهام هنا استفهام إنكار مشتمل على معنى النفي.

﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ أي: فتبرزوه لنا وتظهروه لنا. وهذا ـ مَثَلاً ـ إعجاز؛ لأن الله يعلم أنهم ليس عندهم علم، وإنما قالوه تخرصاً وكذباً.

ثم قال: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ والمعنى: لا علم عندكم ألبتة.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ ما تتبعون في هذه الأمور إلا الظن. وأصل الظن في الاصطلاح: جُل الاعتقاد. والعرب تطلقه على الشك[٢]. وجدتُم آباءكم يقولون شيئاً فاعتقدتموه، باطلاً وتقليداً أعمى، من غير دليل.

﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ معناه: وما أنتم إلا تكذبون.

الخرص هنا معناه: الكذب، ومنه: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الذاريات: الآية ١٠] لُعن الكذابون، وأصل اشتقاقه من الخرص الذي هو الحزر؛ لأن الكذاب لا يتحرى حتى يتحقق، وإنما يقول حزراً وتخمينا، ومن هنا أُطلق الكذب على الخرص[٣]. وقوله: ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ معناه: وما أنتم إلا تكذبون، كَذَبَة فَجَرَة حيث زعمتم أن شرككم وإن كان واقعاً بمشيئة الله أن الله راضٍ به، وأنه حسنٌ عنده، كلا، لا دليل، ولا علم بذلك، وإنما هو افتراء، وكذب، وتخرص على الله. وهذا معنى قوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: والظنّ لا يغني من الحق شيئاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: الآية ٣٦] وقال ﷺ في الحديث الصحيح: **«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»**[٤]، وهذا في الظن فيما يُطلب فيه اليقين، كعبادة الله (جل وعلا) وحده، فإن هذه أمور يقينية لا تختلجها ظنون.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.
(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة.

وتمسك ابن حزم بظاهر هذه الآيات أن كل اجتهاد باطل، وأن كل اجتهاد ظن، وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً[١]. فهذا ليس على بابه؛ لأن الأمور العملية إنما يُعمل فيها بالظنون، وقد يكون الظاهر قطعياً لا شك فيه وباطن الأمر مظنون لا ندري أحق هو أم كذب؟ وقد دلَّ القرآن في بعض المواضع أن الظاهر يكون قطعياً لا شك فيه، والباطن باطن[٢] لا شك فيه. وهذا الشرع الكريم لا يأمر في نفس الواقع بمعرفة الواقع، فنحن جميعاً هؤلاء موجودون، كل واحد منا يُقال له فلان بن فلان، يُنسب إلى أبيه، وتكون أخوات أبيه عماته، ويرث في أبيه، ونحن لا نجزم قطعاً بأن كل واحد منا مخلوق من ماء أبيه، فقد تكون بعض النساء فاجرة، وتدخل لزوجها ولداً من غيره. وهذا الظن يُحكم له بالقطع، والله أمرنا بالبينة، قال: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [الطلاق: الآية ٢] فنحن نُشهد العدلين، ونقتل المسلم بشهادة عدلين، ولو سُئلنا: هل أنتم جازمون في نفس الأمر أنهما صادقان؟ لقلنا: لا والله، لا نجزم؛ لأنهما غير معصومين، ويجوز في حقهما الكذب، ولكننا نظن ظناً غالباً لعدالتهما أنهما صادقان، فإن كانا صادقين فذلك، وإن كانا كاذبين فعليهما، ونحن نبرؤ من ذلك.

ومن هذا المعنى ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أم سلمة، أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ هند بنت أمية، أن النبيّ ﷺ قال: «**إنما أنا بشر، وإنكم لتختصمون إليّ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته** من **بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له فلا يأخذ من حق أخيه شيئاً، فكأنما أقطع له قطعة من نار**»[٣] هذا حديث ثابت في الصحيحين، بين فيه النبيّ أنه ليس على يقين أن ما

---

(١) انظر: المحلى (١/٦٨، ٧١).

(٢) يحتمل أن تكون: «باطل».

(٣) أخرجه البخاري في المظالم، باب: إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه. حديث رقم: (٢٤٥٨)، (٥/١٠٧)، ومسلم في الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة. حديث رقم: (١٧١٣)، (٣/١٣٣٧).

يقضي به مطابق للواقع في نفس الأمر، بل هو يقضي على نحو ما يسمع من ظواهر الدعاوي والبينات، وقد يكون الأمر مخالفاً في باطن الأمر؛ ولذا قال: «**فمن قضيتُ له فلا يأخذ من حق أخيه شيئاً، فكأنما أقطع له قطعة من نار**».

وقد بين الله في سورة النور أن هذا التشريع الذي يُراعى فيه الظاهر - ولو كان الظاهر باطلًا - أن الله إنما قَبِلَه رأفة بهذه الأمة، وتسهيلًا عليها، أوضح ذلك في آية اللعان؛ لأنه لما جاء هلال بن أُمية[1]، وعويمر العجلاني[2]، ورمى كلّ منهما زوجته بالزنى لرجل، وقال هلال: رأت عيني وسمعت أذني، وأنزل الله آية اللعان. قام الرجل فحلف أَيْمَانَه، وخمَّس باللعنة. يقول في الأَيْمَان الأربعة: أشهد بالله إني لصادق فيما رميتها به من الزنى، ثم خمَّس في الخامسة باللعنة، لعنة الله عليه إن كان كاذباً فيما رماها به من الزنى. ثم قامت المرأة فحلفت أَيْمَانَها، وخمَّست بغضب. تقول: أشهد بالله إنه لكاذب عليّ فيما رماني به من الزنى. ثم قالت في الخامسة: غَضِبَ الله عليها إن كان صادقاً فيما رماها من الزنى. فلما انتهت الأَيْمَان قال لهما الشرع الكريم: أنت مُصَدَّق، وأنتِ مُصَدَّقَة. ليس عليكَ أنت قَذْفُ مُحْصَنَة، وليس عليكِ أنتِ حد الزنى. فصارت المرأة لا شيء عليها، والرجل لا شيء عليه، ونحن نتيقن يقيناً جازماً أن باطن هذه القضية خراب!! لأنه لا بد أن واحداً منهما كاذب. وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**الله أعلم إن أحدكما لكاذب**». ولو لم يقلها ﷺ فنحن

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب: (ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين) حديث رقم: (٤٧٤٧) (٤٤٩/٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم في اللعان، حديث رقم: (١٤٩٦) (١١٣٤/٢) من حديث أنس رضي الله عنه مختصراً.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ حديث رقم: (٤٧٤٥) (٤٤٨/٨)، وانظر حديث رقم: (٤٧٤٦). ومسلم في اللعان. حديث رقم: (١٤٩٢)، (١١٢٩/٢) من حديث سهل بن سعد (رضي الله عنه). وقد جاء نحوه عن ابن عمر وابن عباس (رضي الله عنهما).

نعرفها كل المعرفة، ونجزم كل الجزم أن الكاذب منهما في ظهره حد من حدود الله، فإن كانت كاذبة فعليها حد الزنى، وإن كان كاذباً فعليه حد القذف، هذا لا محيص منه.

وهذا الحكم السماوي الذي أنزله خالق السماوات والأرض فيه هذا الحكم لهذه الأمة، صدّق الرجل، وصَدّق المرأة، وذهبا مُصَدَّقين، لم يثبت على أحدهما شيء. ونحن نعلم أن واحداً منهما خائن كاذب. ومحل الشاهد: أن الله لما فَصَّل هذا في آية اللعان أتبعه بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ [النور: الآية ١٠] أي: لولا فضله عليكم، ورحمته بكم، وتوبته عليكم، وحكمته في تخفيف التشريع عليكم. وحذف جواب (لولا)، أي: لَمَا قَبِلَ منكم هذا. أو: لَفَضَح الكاذب على رؤوس الأشهاد. فهذا تسهيل، وهذا مما يدل على أنَّا في الشرائع العملية، لسنا مكلفين بمعرفة الباطن في نفس الأمر، فالباطن عند الله. فعلينا أن نعمل بما ظهر من الظنون الغالبة على الظن، وإن كنا لا نجزم بالواقع في نفس الأمر، فتبين أن قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: الآية ٣٦] فيما يُطلب فيه اليقين، كعبادة الله (جل وعلا) وحده، وتنزيهه عن الأولاد والشركاء، وأنه لا حرام إلا ما حرمه، ولا حلال إلا ما أحله مما يجب فيه القطع والجزم اليقيني. أما المسائل العملية فما في باطن الأمر لا نجزم به. وكذا بأنَّا نعمل بأخبار الآحاد بإجماع من يُعتد به من العلماء، ولو سُئلنا عنهم: أيجوز في حقهم الكذب؟ لقلنا: نعم؛ لأنهم غير معصومين!! وهذا معنى قوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨].

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩] إن احتججتم بأمور باطلة وشُبَه كاذبة، فللّه الحجة البالغة على خلقه، وليس لأحد حجة على الله. والبالغة معناه: هي التي يبلغ بها صاحِبُهَا غَرَضَه لإفحام خصمه، وإظهار الحق. والعلماء يقولون: هذه الحجة البالغة هي إرسال الرسل، وإقامة المعجزات، وبيان أنه (جل وعلا) واحد لا شريك له.

وظاهر القرآن يدل على أن هذه الحجة البالغة على مذهب الجبرية هي قوله جل وعلا: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فهذا داخل فيها دخولاً أولياً؛ لأن مُلْك التوفيق حجة بالغة على الخلق، وهذه الآية هي التي احتج بضمنها أبو إسحاق على عبد الجبار؛ لأنه كأنه قال له: مُلكه تعالى للتوفيق حجة بالغة على خلقه، فتمام الحجة البالغة أنك إذا قارنت بين سُنِّي - مثلاً - وجبري، فقال الجبري: إن كفره - والعياذ بالله - ومعاصيه كُتِبَ عليه في الأزل قبل أن يُولد، وإن الأقلام جفت، والصحف طُويت، وما كان فقد كان، ولم يبق شيء حادث إلا وقد سبق في الأزل. فيقول هذا الجبري الكافر: إن كفر البعيد قد كتبه الله عليه أزلاً، وإنه لو شاء أن يتخلص من ذلك المكتوب أزلاً لما كانت له القدرة؛ لأن علم الله الأزلي لا يتغير. فيقول البعيد: هو مقهور، وإذاً هو مجبور!! فله حجة في زعمه على ربه، فكأن ربه يقول: جميع الأسباب التي اهتدى بها المهتدون أعطيتك إياها، فالأعين التي أبصروا بها سمائي، وأرضي، وجبالي، وبحاري، وحدائقي، وحيواناتي حتى عرفوا بها قدرتي، وأني رب كل شيء، وأني المعبود وحده، أعطيتك عيوناً مثلها، والآذان التي سمعوا بها مواعظي، وآياتي، وكتبي عن الرسل أعطيتك مثلها، والقلوب التي عقلوا بها عن الله، وعرفوا مخالفة الخالق للمخلوق، وعرفوا بها عظمة جبار السماوات والأرض، وأنه جدير بأن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى أعطيتك قلباً مثل قلوبهم، فكل ما أعطيت المهتدين من أسباب الهداية أعطيتك مثل ما أعطيتهم، إلا خصوصية التوفيق، فقد تفضلت به على قوم ولم أتفضل به على آخرين، فمن تفضلت به فهو فضل مني، ومن لم أتفضل به فهو عدل مني. كما قال أبو إسحاق: «إن كان الذي منعك حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك، وإن كان مُلكه المحض فإن منعك فَعَدْل، وإن مَنَحك ففضل»[1]. ولذا قال هنا: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ على خلقه، وهي ما أنذرهم به من الإنذار، وما أرسل لهم من الرسل، وما أعطاهم من العقول، والأسماع، والأبصار ﴿وَٱللَّهُ

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من هذه السورة.

أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: الآية ٧٨] ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩] لأنه قطع عُذر عبده بأن أعطاه كل ما أعطى المهتدين: إلا خصوص التوفيق، فهذا الذي منعه. وبملكه للتوفيق قامت حجته البالغة؛ ولذا أَتْبَعه بقوله: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فلو شاء لمنحكم التوفيق كُلاً، ولكنه تفضل به على بعض، ولم يتفضل به على الآخرين، فمن تفضل به عليهم فهو فضل، ومن منعهم إياه فهو عدل لا ظلم فيه؛ ولذا قال: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ومفعول المشيئة محذوف، وقد ذكرنا مراراً أن فعل المشيئة إن كان معلقاً بشرط فإنه يكفي عن مفعوله جزاء الشرط(١). والأصل: فلو شاء هدايتكم أجمعين لهداكم أجمعين، ولكنه لم يشأ، كما قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: الآية ١٣] وهذا معنى قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩].

وهذه تقضي على مذهب المعتزلة؛ لأن الله صرح بأنه لو شاء لهداهم أجمعين، فعُرف بأن شركهم بمشيئته، وأنه لو شاء أن لا يُشركوا ما أشركوا ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: الآية ١٣] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: الآية ١٠٧] ونحو ذلك من الآيات.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٥٠].

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ﴾ قل يا نبي الله لهؤلاء الذين حرموا السائبة والبحيرة والوصيلة والحام، وقالوا: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٩] ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٨] أي: حرام.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من هذه السورة.

قل للمُحَرِّمين هذه الأشياء، الزاعمين أن الله أمرهم بتحريمها، كما صرح به في (الأعراف) في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: الآية ٢٨] قل لهم يا نبي الله: هذا الذي ادعيتم على الله من أنه حرم هذا وأمركم بتحريمه هَلُمَّ شهداءكم الذين يشهدون لكم على الله أنه حَرَّم هذا.

و(هَلُمَّ) معناه: أَحْضِرُوا وقَرِّبُوا. وهذه الكلمة ـ كلمة (هَلُمَّ) ـ فيها خلاف، هل هي مفردة، أو مركبة؟ لا يعنينا بحثه الآن. وهي فيها لغتان[1] ـ:

لغة الحجازيين التي نزل بها القرآن: أن لفظة (هَلُمَّ) اسم فعل لا فعل أمر؛ ولذا إذا خاطبوا الأنثى قالوا لها: «هَلُمَّ يا فلانة». ولم يقولوا: «هَلُمِّي» بياء المؤنثة. فيقول الحجازيون للذَّكَر الواحد: «هَلُمَّ» وللذَّكَرين: «هَلُمَّ». وللذكور: «هَلُمَّ». وللإناث: «هَلُمَّ». فهي اسم فعل. وهي لغة القرآن؛ لأن المخاطب هنا جماعة، والأصل لو مشى على لغة التميميين من النجديين لقال: «هَلُمُّوا شهداءكم».

أما لغة التميميين، وبعض القبائل النجديين: فـ (هَلُمَّ) فعل أمر لا اسم فعل؛ لأنهم يقولون للجماعة: «هَلُمُّوا» وللإثنين: «هَلُمَّا» وللأنثى: «هَلُمِّي» فإذا قالوا لها: «هَلُمِّي» دخلتها ياء المؤنثة المخاطبة، وهي من علامات الأفعال، كما قال في الخلاصة[2]:

(بِتَا فَعَلْتَ، وَأَتَتْ، وَيَا افْعَلِي) ....

فهي في لغة الحجازيين اسم فعل، وفي لغة التميميين وبعض القبائل النجديين فعل أمر. ويظهر الفرق في كونها اسم فعل، وبين كونها فعل أمر: أنها إن كانت فعل أمر اتصلت بها ضمائر المخاطبين، نحو: (هلموا) للرجال و (هَلْمُمْنَ) للنساء، و (هَلُمَّا) للاثنين، و (هَلُمِّي) للواحدة. والقرآن جاء فيها على لغة الحجازيين، أنها اسم فعل لا فعل أمر.

---

(١) انظر: القرطبي (١٢٩/٧)، الكليات: ص ٩٥٩، القاموس (مادة الهليم) ١٥١١، الدر المصون (٢١١/٥)، معجم الإعراب والإملاء ص٤٣٨.

(٢) الخلاصة ص٩.

وتأتي متعدية ولازمة، فمن إتيانها متعدية قوله هنا: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٠] أي: أَحْضِرُوا شهداءكم وقَرِّبُوهم. ومن إتيانها لازمة قوله في الأحزاب: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: الآية ١٨] أي: اقربوا قريباً منا. ولم تكن هناك متعدية. والمعنى: أَحْضِرُوا شهداءكم الذين يشهدون لكم أن الله حرم هذا الذي ادعيتم أنه حرام.

ثم قال لنبيه: فإن تجرؤوا على الشهادة الكاذبة الباطلة ـ شهادة الزور على الله ـ فلا تشهد معهم؛ لأنهم كلهم كَذَبَة فَجَرَة مُتَعَاضِدُون على الكذب، يُصَدِّق بعضهم بعضاً في الكذب ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فالخطاب للنبي ﷺ، ومعلوم أن النبي لا يتبع أهواء الذين كذبوا بآيات الله. هذا أمر لا شك فيه، كقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: الآية ٢٤]. ومعلوم أنه لا يطيع آثماً ولا كفوراً، هذا معروف، فالله (جل وعلا) يخاطب النبي ﷺ مخاطبة السيد لعبده، ومراده بخطابه ـ في أشياء لا تقع منه ﷺ أبداً ـ ليشرع على لسانه لأمته، كما بيناه مراراً[1]. ومن أمثال العرب: (إياكِ أعني واسمعي يا جارة)[2] معناها: إياكِ أعني، والمقصود عندي هي جارتك الأخرى. وهذا مَثَل معروف، وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً أنه أصل هذا المثل من أبيات رَجَز لرجل من بني فزارة يُسمَّى: سهل بن مالك الفزاري، نزل في بيت حارثة بن لأم الطائي المشهور فوجده غائباً، فأنزلته أخت حارثة وأكرمته، وأُعجب بجمالها، فخاطب داية[3] من داياتها لا أهمية فيها؛ لأنها من خَدَمِها، وقال لهذه التي هي من الدايات والخدم قال لها:

يا أخت خير البدو والحضارة … كيف ترين في فتى فزارة
أصبح يهوى حُرَّةً مِعْطَارَة … إياكِ أعني واسمعي يا جارة

ففهمت الطائية أنه يريد خِطَابها، فأجابته جوابها المعروف:ـ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٤) من سورة الأنعام.
(٣) الداية: المرضع الأجنبية، والحاضنة، والقابلة (المعجم الوسيط، مادة: دوى) (٣٠٦/١).

إنـي أقـول يـا فـتـى فـزارة لا أبـتـغـي الـزوج ولا الـدعـارة
ولا فـراق أهـل هـذي الـحـارة فـارحـل إلـى أهـلـك بـاسـتـحـارة

ومن هنا صار بيت الرجز هذا مثلًا عند العرب (إياكِ أعني واسمعي يا جارة)[1].

١/٢١أ والمعنى: إنك تخاطب واحداً ومقصودك /أن تُفهِم ذلك الآخر. فالله يخاطب النبي ومقصوده إسماع أمته، والتشريع لهم. والدليل القاطع على هذا: أن النبي ﷺ مات أبواه وهو صغير؛ لأن أباه مات وهو حَمْل في بطن أمه، وأمه ماتت وهو صغير. ومعلوم أنهما وقت نزول سورة بني إسرائيل ماتا منذ سنين كثيرة والله يقول للنبيِّ مخاطباً له ببر الوالدين: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، ثم قال مخاطباً للرسول: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: الآيتان ٢٣، ٢٤] كل هذا في الرسول ﷺ وأبواه قد ماتا من زمان، فدل على أن قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ أي: يبلغ عندك الكبر أحد والديك فبرهما وقل لهما قولًا كريماً، أي: المراد خطابه ليُشرع لأمته. ومن زعم من الناس أن هذا الخطاب ـ أي: قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ ـ أنه يخاطب به مطلق الإنسان المُخاطَب، وليس النبي؛ فهذا غلط محض؛ لأن كل هذه الخطابات للنبي ﷺ ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: آية ٢٨] والدليل عليه أنه قال: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: آية ٣٩]، فدل أن الخطاب للمُوحَى إليه لا إلى مطلق الواحد من الناس.

وآية الإسراء هذه نص صريح في أنَّ النبيَّ ﷺ يُخاطَب بالخطاب ليس هو المراد به، بل المراد التشريع لأمته؛ لأنه ﷺ هو المشرِّع لهم بأقواله وأفعاله. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ككفار

(١) راجع ما تقدم في الحاشية قبل السابقة.

قريش، الذين كذبوا بآيات الله، لا تتبع أهواءهم في الشرك، ولا في تحريم ما أحل الله.

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ظاهر العطف أنهما طائفتان، والتحقيق: أنهما طائفة واحدة[1]، إلا أن المعروف في علم العربية: أن الشيء يُعطف على نفسه بألفاظ مختلفة إذا كانت الصفات مختلفة. نزَّلوا تغايُر الصفات منزلة تغاير الألفاظ، فعطفوه على نفسه نظراً إلى تَغَايُر الصفات[2]؛ لأن صفة التكذيب بآياتنا، وصفة عدم الإيمان بالآخرة متغايرتان. فصار الموصوف كأنه متغاير لتغاير الصفات. ومن أمثلة هذا في كلام العرب قول الشاعر[3]:

إلى السيد القَرْمِ وابن الهُمَام ... وليثِ الكتيبةِ في المُزدَحَم

وهو واحد. ومن أمثلته الواضحة في القرآن - غير هذا الموضع - قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤)﴾ [الأعلى: الآيات ١ - ٤] وهو واحد (جلّ وعلا). وإنما عطف بعضها على بعض لتغاير الصفات، وهذا هو التحقيق، أنهما طائفة واحدة، تغايرت صفاتها فعُطفت على نفسها نظراً لتغاير الصفات. كما قررنا.

والأهواء: جمع (هوى، هوىً) بفتحتين، وألفه مبدلة من (ياء) لأن أصله (هَوَيٌ) على وزن (فَعَل) والياء المتطرفة بعد ألف زائدة يجوز إبدالها همزة، كما هو معروف في فن التصريف[4].

والهوى: ميل النفس. وأكثر ما يُستعمل في ميلها إلى ما لا ينبغي[5]. وهو المُراد هنا. أي: لا تتبع مهوياتهم الزائغة من الإشراك بالله، وتحريم ما

(١) انظر: البحر المحيط (٢٤٨/٤).
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة. وصدره: «إلى الملك...».
(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة الأنعام.
(٥) السابق.

أحل الله، وجَعْل بعض الأرزاق التي خلقها الله جَعْلها للأصنام. لا تتبع مهوياتهم في شيء من ذلك.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فهم جامعون بين التكذيب بالقرآن والتكذيب بالبعث والآخرة - عياذاً بالله - وقد صرح (جل وعلا) بأن المكذب بالبعث أنه من أهل النار الذين يُجَرُّون بالسلاسل في أعناقهم في غير ما آية، من أصرحها آية الرعد؛ لأن الله (جلّ وعلا) لما بين في سورة الرعد - في أولها - عظمته، وبراهين كماله، وقدرته، وأنه المعبود وحده، وأبطل فيها أدلة الطبائعيين إبطالًا كلياً لا شبهة فيه، حيث قال في السورة - في أولها -: ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وزرع ونخيلٍ﴾ - وفي القراءة الأخرى -: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾[1] ﴿صنوانٍ وغيرِ صنوانٍ﴾ - وفي الأخرى -: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾[2] ﴿تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ - وفي الأخرى -: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَيُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ﴾[3] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أتبع هذا بقوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ - في البعث -: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ﴾ هذا تعجب منكري البعث من البعث الذي هو خلق جديد. ثم قال مخبراً عن هؤلاء الذين شكوا في البعث وأنكروه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [الرعد: الآيات ١ - ٥] والعياذ بالله. فهؤلاء جمعوا بين التكذيب بالقرآن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٥١.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الأنعام.

والتكذيب بالبعث. ثم قال جل وعلا: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ العرب تقول: «عدل به، يَعْدِل به». إذا جعل الشيء عديلًا ونظيراً له يماثله ويعادله. وهم يعدلون بالله أي: يجعلون له العديل، والنظير، والمثيل حيث قالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: الآية ١٣٦] فجعلوا له النظراء، والعديلين بسبب عبادتهم له مثله، وجَعْلهم له مثل ما جعلوا. والعرب تقول: «أعَدَلْتَ بفلان فلاناً»؟ إذا جَعَلْتَه عِدلاً ونظيراً له. وهو مشهور في كلام العرب، ومنه قول جرير[1]:

أَثَعْلَبَةَ الفَوَارِسَ أَمْ رِيَاحاً عَدَلْتَ بِهِمْ طُهَيَّةَ والخِشَابَا

أي: جعلتهم نظراء وأمثالًا لهم وليسوا كذلك.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام: الآيات ١٥١ ـ ١٥٣].

يقول الله جل وعلا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾ [الأنعام: آية ١٥١] كان بعض السلف يقولون: من سرّه أن ينظر إلى وصيّة محمد ﷺ عليها خاتمها لم يُفك فليقرأ هذه الآيات الثلاث من سورة الأنعام: ﴿قُلْ

(١) البيت في ديوانه ص٥٨، الكتاب لسيبويه (١٠٢/١) (١٨٣/٣).

تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١] وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن هذه الآيات الثلاث من سورة الأنعام هي المحكمات المذكورات في آل عمران ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٢] [آل عمران: آية ٧] لم ينسخ الله حكماً من أحكامها في شريعة من الشرائع قط بل أحكامها مثبتة في جميع التشاريع السماوية منذ خلق الله الدنيا، فهي محكمات؛ ولذا قال ابن عباس: إنها المذكورة في قوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كما قدمنا في آل عمران.

وهذه الآيات تضمنت أصول الشرائع من عقائد ومعاملات واجتماعيات. كما سيأتي إيضاحه في محله.

قل لهم يا نبيّ الله، الظاهر أنه خطاب لجميع الخلق، وإن كان الكلام السابق مع المشركين. قل لجميع البشر الذين أُرسلت إليهم: ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ (تعال) التحقيق أن (تعال، وهات) فعلا أمر، وغلط فيهما جماعة من علماء العربية [فزعموا][٣] أنهما اسما فعل[٤]. والدليل على أن (هات) و (تعال) فعلا أمر: أنهما تلحقهما ياء المؤنثة المخاطبة، وياء المؤنثة المخاطبة من علامات الأفعال، ولا تلحق أسماء الأفعال. فالعرب تقول للأنثى: «تعالي يا فلانة» بياء المؤنثة المخاطبة. ومنه قول نابغة ذبيان[٥]:

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب: ومن سورة الأنعام. رقم: (٣٠٧٠)، (٥/٢٦٤)، والطبراني في الكبير (١٠/١١٤)، والأوسط (٢/٤٣)، والبيهقي في الشعب (١٤/٦٣ ـ ٦٤)، وابن أبي حاتم في التفسير (٥/١٤١٤)، وابن جرير في التفسير (١٢/٢٢٧ ـ ٢٢٨)، وذكره السيوطي في الدر (٣/٥٤) وعزاه للترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب من قول ابن مسعود (رضي الله عنه). وقد أخرج ابن جرير (١٢/٢٢٧)، نحوه عن الربيع بن خثيم. وذكره السيوطي في الدر (٣/٥٤) وعزاه لعبد بن حُميد، وأبي عبيد، وابن المنذر.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٢/٢٢٦)، والحاكم في المستدرك (٢/٢٨٨) وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضاً بإسناد آخر (٢/٣١٧) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ا.هـ ووافقه الذهبي. كما أخرجه ابن أبي حاتم (٥/١٤١٤).

(٣) في الأصل: «فزعما».

(٤) انظر: التوضيح والتكميل (١/٢٠).

(٥) ديوان النابغة ص (١٢١) وصدره: «فقال».

فَقُلْتُ: تَعَالَيْ نجعلِ اللَّهَ بيننا على ما لنا، أو تُنجزي ليَ آخِرهْ

وكذلك (هات) فالعرب تقول للذكر: (هاتِ) بلا ياء، وللأنثىٰ: (هاتي) بياء المؤنثة المخاطبة، فدلَّ أيضاً على أن (هات) كـ: (تعال) فعل أمر لا اسم فعل، خلافاً لمن زعم ذلك. ومن دخول ياء المؤنثة المخاطبة على (هات) قول امرئ القيس[1]:

إذا قلتُ هاتي نَوِّليني تَمَايَلَت عليَّ هضيم الكشح ريَّا المُخَلْخَلِ

وهذه الكلمة أصلها خاص، ثم صار استعمالها عاماً؛ لأن أصل (تعال) يقولها الذي هو مرتفع إلى من هو أسفل منه، فيقول له: تعال. أي: ارتفع حتى تحضر عندي، هذا أصلها، إلا أن العرب توسعت فيها فصارت تطلق (تعال) على: احضر عندي. ولو كان الآمر أسفل والمأمور أعلى، فيقول الرجل في الأرض لمن على السطح: تعال عندي. وهو في الحقيقة تَسَافَلْ إليّ، إلا أن العرب صارت تطلق (تعال) بمعنى: احضر. من غير نظر إلى أصل العلو والسفل[2]. فمعنى ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ احضروا عندي، وادنوا مني، واقربوا مني ﴿أَتْلُ﴾ عليكم ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿أَتْلُ﴾ معناه: أقرأ وأقص. والمضارع مجزوم في جواب الأمر. وعلماء العربية يقولون: إن المضارع المجزوم في جواب الأمر أنه في الحقيقة مجزوم بشرط مقدر دل عليه الأمر، وتقريره: إن تتعالوا[3]، أي: إن تحضروا عندي أتل عليكم ما حرم ربكم. و (أتل) معناه: أقرأ وأقص. وأصل (التلاوة) من: (تلاه يتلوه) إذا تبعه؛ لأن (التلاوة) مصدر سيال لا تحصل إلا من حرف يتلوه حرف، يتلوه حرف، وهكذا. فأصلها من: (تلاه يتلوه) إذا تبعه، والعرب تسمي التابع: تالياً، والمتبوع: متلواً. والتِّبَاعَة تلاوة، ومنه سموا الجمل: تالياً؛ لأنه يتبع النوق فيشمها ليعرف منها المستعدة للقاح

(١) ديوان امرئ القيس ص (١١٥).
(٢) انظر: القرطبي (١٣١/٧)، المصباح المنير (مادة: علو) ص (١٦٢).
(٣) مضى عند تفسير الآية (٦٩) من سورة البقرة.

واللاقح كما هو معروف[١]. ومنه قول غيلان ذي الرمة[٢]:

إذا الجَافِر التالي تَنَاسَينَ عهده ... وعَارَضْنَ أنفَاسَ الرياحِ الجَنَائِبِ

أصل (التلاوة) مصدر سيال؛ لأنها من مقاطع حروف يتلو بعضها بعضاً.

والمصادر قسمان: مصدر سيال، ومصدر غير سيال. فالمصدر الذي ليس بسيال هو الذي يحصل بأدنى مرة، كالضرب، فإنك لو ضربت شيئاً بشيءٍ مرة واحدة حصلت ماهية الضرب. فالضرب مصدر غير سيال، بخلاف التلاوة والكلام، فلو نطقت بحرف واحد لم تحصل التلاوة؛ لأنها مصدر سيال لا بد من بعض يتبع بعضاً حتى يتم معنى المصدر.

قوله: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ (ما) هنا: موصولة، وهي على التحقيق في محل المفعول، مفعول (أتل). معناه: اقرأ وأقص عليكم الذي حرمه ربكم عليكم. وقيل: إنها استفهامية مُعَلِّقة للفعل. وهو ضعيف؛ لأن المعروف في علم العربية أن الاستفهام إنما يعلق أفعال القلوب، والتلاوة ليست من أفعال القلوب، فالتحقيق أن (ما) موصلة، وأنها في محل المفعول. أي: تعالوا اقرأ وأقص عليكم الذي حرم ربكم عليكم[٣].

والتحريم في لغة العرب معناه: المنع. وهو يطلق في الشرع وفي اللغة. يطلق في الشرع على ما حرمه الله، أي: منعه على لسان نبيه، وتوعد مرتكبه بالعقاب[٤]. ويطلق في اللغة على منع الشيء، فكل شيء منعته بالقوة فقد حرمته[٥]. ومن إطلاقه بمعناه الشرعي: قوله هنا: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فهو تحريم شرعي. ومن إطلاق التحريم بمعناه

---

(١) انظر: المفردات (مادة: تلى) (١٦٧)، القاموس (١٦٣٤).

(٢) البيت في ديوانه ص (٩٦). وفيه: «وصله» بدلاً من: «عهده».

(٣) انظر: القرطبي (١٣١/٧)، البحر المحيط (٢٤٩/٤)، الدر المصون (٢١٣/٥).

(٤) انظر: الكليات ص (٤٠٠).

(٥) انظر: المقاييس في اللغة (كتاب الحاء، باب الحاء والراء وما يثلثهما) ص (٢٥٦)، المصباح المنير (مادة: حرم) ٥١.

اللغوي في القرآن: قوله في بني إسرائيل وهم في التِّيه، قال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: آية ٢٦] فإنه تحريم كوني قدري؛ لأن الله منعهم إياه، لا تحريم شرعي على التحقيق. ومن إطلاق العرب التحريم على التحريم بمعنى المنع لا بمعنى الشرع قول امرىء القيس[(١)]:

جَالَتْ لِتَصْرَعَنِي فَقُلْتُ لَهَا اقْصِرِي
إِنِّي امْرُؤٌ صَرْعِي عَلَيْكِ حَرَامُ

أي: لا تقدرين عليه. ومنه: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝﴾ [الأنبياء: الآية ٩٥] فهو من التحريم الكوني القدري لا الشرعي، ومنه قول الشاعر[(٢)]:

حَرامٌ على عَيْنَيَّ أَنْ تَطْعَمَا الكَرَى
وأَنْ تُرْقَآ حتى أُلاقِيكِ يا هِنْدُ

والتحريم هنا[(٣)] شرعي. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وجهان[(٤)]:

أحدهما: أنه يتعلق بـ ﴿حَرَّمَ﴾، (حرمه عليكم) أو يتعلق بـ ﴿أَتْلُ﴾ أتلو عليكم ما حرم ربكم.

والثاني: سيأتي في الجواب عن الإشكال الذي في لفظة (لا) من قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾.

و ﴿رَبُّكُمْ﴾ معناه: سيدكم وخالقكم المدبر لشؤونكم.

وقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ بدأ هذه الوصية بعدم الإشراك بالله؛ لأن إخلاص العبادة لله، وعدم الإشراك به هذا رأس الأمر، وهو الذي بعث الله جميع الرسل من أجله، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل والأمم، والله قد أوضح

---

(١) ديوان امرىء القيس ص (١٥٧).

(٢) البيت في الكشاف (٢/٦٥)، مشاهد الإنصاف ملحق في آخر الكشاف ص (٢٩)، البحر المحيط (٤/٣٠٥)، الدر المصون (٥/٣٣٥).

(٣) يعني في آية الأنعام.

(٤) انظر: القرطبي (٧/١٣١)، البحر المحيط، (٤/٢٤٩)، الدر المصون (٥/٢١٣).

في كتابه ذلك إجمالًا وتفصيلًا، قال على سبيل الإجمال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ بِمَ بعثنا؟ ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: آية ٣٦] وقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ هو حظ الإثبات من (لا إله إلا الله)، ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ هو حظ النفي من (لا إله إلا الله) وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَى إليه﴾، وفي القراءة الأخرى: ﴿إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ﴾[(١)] ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: آية ٢٥]، وقوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: آية ٤٥] هذه الآيات الإجمالية ونظائرها في القرآن.

أما التفصيل: فإنَّا إذا نظرنا إلى دعاوى الرسل وقصصهم مع أممهم وجدنا هذا هو دعوة كل نبيّ[(٢)]، فأول من بُعث بعد الكفر في الأرض: نوح يقول الله فيه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ماذا قال نوح؟ ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] ثم قال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا. ماذا جاءهم به؟ اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: آية ٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ ماذا قال؟ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: آية ٧٣] ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ماذا قال؟ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: آية ٨٥]، وهكذا على سبيل التفصيل. فالسماوات والأرض إنما قامت على أشرف كلمة، هي كلمة (لا إله إلا الله) هي التي خُلقت من أجلها الجنة والنار، وامتُحن الخلق فيها، ودخل من دخل الجنة بالعمل بها، ودخل من دخل النار بعدم العمل بها، وهي مركبة من جزأين: نفي وإثبات.

فمعنى نفيها: خلع جميع أنواع المعبودات في جميع أنواع العبادات غير خالق السماوات والأرض (جل وعلا).

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٣٠١.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٥) من سورة الأعراف.

ومعنى إثباتها: إفراده (جل وعلا) وحده بالعبادة التي هي التقرّب إلى الله بما أمر أن يُتقرب إليه به على وجه الذل، والخضوع، والمحبة. فلا يكفي الذل والخضوع عن المحبة، ولا المحبة عن الذل والخضوع. وضابط هذا: من أراد أن يخلص هذه الكلمة لله فلينظر إلى كل شيء أمر الله أن يتقرب إليه به، وأن يتعبد به خلقه، وليخلص في هذا لله، فإنه يلقى الله مسلماً موحداً، وليحذر كل الحذر من أن يصرف شيئاً من حقوق الخالق للمخلوق؛ لأن من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، والأحاديث في ذلك في حكم المتواترة لكثرتها.

من أشهرها: حديث أبي ذر الثابت في الصحيحين: «**من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة**»، قال: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإن زنى وإن سرق**» قال: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإن زنى وإن سرق**». حتى قال في الثالثة: «**وإن رغم أنف أبي ذر**».

وكان أبو ذر إذا حدَّث بالحديث يقول: «**وإن رغم أنف أبي ذر**»(١) والعبد إذا لقي ربه بقراب الأرض ذنوباً ولم يشرك به شيئاً لقيه بقرابها مغفرة. وهو يقول في محكم كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: آية ٤٨]، وفي بعض الروايات عن سبب إسلام الوحشي - وإن زعم قوم أنها غير ثابتة، إلا أنها ذكرها بعض العلماء - أن الوحشي، عبد جبير بن مطعم، لما قال له: إن قتلت عم محمد ﷺ - يعني حمزة - بعمي طُعَيْمَة بن عدي الذي قتله يوم بدر فأنت حر. وحضر الوحشي، وأصله عبد حبشي، مملوك لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، حضر أُحداً لا يريد إلا حمزة؛ لأجل أن يعتقه سيده، فأخذ حربة حبشية ذات حدَّين، وكمن في صخرة من صخرات سفح جبل أُحد،

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب في الجنائز، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله. حديث رقم: (١٢٣٧)، (١١٠/٣) وأخرجه في مواضع أُخرى، انظر الأحاديث: (١٤٠٨، ٢٣٨٨، ٣٢٢٢، ٥٨٢٧، ٦٢٦٨، ٦٤٤٣، ٧٤٨٧). ومسلم في الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. حديث رقم: (٩٤)، (٩٤/١).

حتى رأى حمزة، فرماه فأصابه في ثُنَّتِه تحت السرة، فخر صريعاً (رضي الله عنه وأرضاه). بعد أن قتل حمزة لم يف له سيده بوعده بالعتق، فغاضب سيده، وهَمَّ أن يأتي النبي ويسلم. زعموا في هذه القصة أنه كاتَبَ النبي ﷺ وقال: يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إني أردت الدخول في دينك فمنعتني آية مما أُنزل عليك، قَنَّطَتْني من رحمة الله، وهي قول ربك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان: الآيتان ٦٨، ٦٩] قال: ربك صادق لا يكذب، وقد قال: إن من فعل هذه الثلاث إنه يلقى العذاب ويخلد فيه مهاناً، فإذاً لا فائدة لي في الإسلام، ولا طمع لي في الخير بعد أن فعلت الثلاثة ـ يعني نفسه البعيد ـ قالوا: فأنزل الله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: آية ٧٠] زعموا أن النبي بعث بها إليه، وأنه لما نظرها رد إليه الجواب وقال: ربك يقول: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فهذه على شرط قوي، ومن يقدر على العمل الصالح؟ فقد لا أقوم بهذا الشرط. فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: آية ٤٨] فأرسل إليه بها، فلما تأملها قال: هو يعلق على مشيئته، يقول: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ ومن هو الضامن والكفيل لي أنه يشاء؟ فأرسل بها إليه، فأنزل الله ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: آية ٥٣] قالوا: فتأملها فقال: أما هذه فنعم. وأسلم[١].

---

(١) أخرجه بهذا السياق: الطبراني في الكبير (١١/١٩٧)، ح(١١٤٨١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٢/٤١٣) وانظر: (مختصر ابن منظور (٢٦/٢٦٢ ـ ٢٦٣) عن ابن عباس (رضي الله عنهما)، وعزاه الهيثمي في المجمع (٧/١٠١) للطبراني في الأوسط، وقال: «وفيه أبين بن سفيان ضعفه الذهبي» ا.هـ كما أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص (٣٣٦)، وقد أورده السيوطي في أسباب النزول ص (٢٤٥) وأشار لضعفه.

=

هكذا قاله بعض العلماء مع أن غيره يقول: لم يثبت ترتيب النزول على هذا الوضع.

والحاصل أن هذه الآية من أعظم الآيات التي خاطب الله بها هذه الأمة؛ لأن الخطاب بها لخصوص المسرفين على أنفسهم، لم يقل: «يا عبادي الذين آمنوا» بل قال: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ وهذا يستثنى منه الشرك، فإن الله لا يغفره، كما صرح به في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: آية ٤٨] فحقه في العبادة لا مسامحة فيه ولا مُهَاوَدَة، ولا يقبل إشراك أحد معه فيه. وغير ذلك من الذنوب إن شاء عفاه عن صاحبه، وإن شاء أخذه به، كما هو معلوم.

فعلينا أن نتأمل هذه الآيات، ونحذر كل الحذر من أن نصرف شيئاً من حقوق الله لأحد من خلقه، بل نفرق بين حقوق الخالق وحقوق المخلوق، ونُفْرِد الخالق بحقوقه، ونُعطي المخلوقين حقوقهم. ومن حقوق الله التي غلط فيها كثير من عوام المسلمين، فصرفها لغير مستحقها ودخل بذلك أمراً هائلًا عظيماً، هو أنه قرر الله في كتابه في آيات واضحة: أن الإنسان إذا أنزل الله به الكروب والشدائد التي لا يقدر على رفعها إلا الله، فالالتجاء في هذا الوقت من خصائص الربوبية، وحقوق خالق السماء الخالصة.

فنحن علينا معاشر المسلمين ـ ونسأل الله العافية ـ إذا نزل بأحدنا كرب، أو مكروه، أو داهية، أن يعلم أن الالتجاء في ذلك الوقت من خصائص الربوبية، كخلق السماوات والأرض، وقد أوضح الله هذا في آيات كثيرة، ومن أصرح الآيات التي أوضح فيها أن الالتجاء وقت نزول الكروب والشدائد التي لا يقدر على كشفها إلا الله: آيات في سورة النمل؛ لأن الله

كما ذكر نحوه (مختصراً) في الدر المنثور (٧٨/٥) عن سعيد بن جبير مرسلاً، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

وأخرج ابن جرير (١٤/٢٤) نحوه مختصراً عن عطاء بن يسار مرسلاً.

بين ما يختص به، وما يلزم لربوبيته من الحقوق فقال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تشركون ﴿٥٩﴾﴾ وفي قراءة أخرى: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] ثم قال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ ثم قال وهو محل الشاهد: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ ثم قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ يستحق هذه الحقوق؟ ثم قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: الآيات ٥٩ ـ ٦٤]. فهذه حقوقه الخالصة، وسيد الخلق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لعلمه بالوحي، ونور بصيرته بالقرآن، كان إذا نزلت به الشدائد والكروب، عرف مَنْ صاحب هذا الحق، وصرف هذا الحق لمن هو له؛ ولذلك لما نزلت به أعظم كربة يوم بدر، وكانت معه طائفة قليلة من المسلمين، كما قال الله ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ﴾ [آل عمران: آية ١٢٣] ولو قُتلت تلك الطائفة لم يُعبد الله في الأرض قط، كما صرح به النبيّ ﷺ في الأحاديث الصحيحة: «**اللهم إن تهلك هذه الطائفة فإنك لن تعبد في الأرض**»[2] والمشركون في قوة عَددهم وعُددهم، وهذا أعظم الكرب، ولا يقدر على كشفه إلا الله، وهو ﷺ على وعد من الله أن يعطيه إحدى الطائفتين ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: آية ٧] وهو يتضرع إلى الله: (رب أنجز ما وعدتني، رب أنجز ما وعدتني) حتى يسقط رداؤه عن ظهره، فيأتي أبو بكر (رضي الله عنه)، ويجعل الرداء على ظهره ويقول: حسبك،

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص (٣٣٤).

(٢) سيأتي تخريجه قريباً ـ إن شاء الله ـ.

فإن ربك لن يخلفك. وأنزل الله في هذا، كما ثبت في الصحيح: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾(١) [الأنفال: آية ٩].

فعلينا معاشر المؤمنين أن نعلم حقوق خالقنا، وأن نكون لمحبة رسولنا وتعظيمه ﷺ واتباعه نقر عينه بإفراد خالق السماوات والأرض بحقوقه (جل وعلا)؛ فإن الشيطان يدخل لبني آدم من طرق خفية. فإذا قيل للجهلة: هذا حق خالص لله كخلقه للسماوات والأرض، وخلقه للبحار، وسيد الخلق كان يصرف هذا الحق لله، فنحن اتباعاً له ﷺ ومحبة وتعظيماً نصرف هذا الحق لمن هو له، كما كان ﷺ يصرفه فالشيطان يُزْدِيْه هذا الإخلاص لله، ويعلم أنه إقرار لعين الرسول، ومرضاة لله، وتعظيم لرسول الله ﷺ، ومحبة له واتباع. وهذا يغيض الشيطان ويبغضه، فيقول: من يقول لك هذا فهو من الذين لا يعظمون الرسول ولا الصالحين، ويمنعونك من أن تصرف لهم هذه الحقوق. هذه فلسفة شيطانية، والقرآن يبيِّن أن هذا الحق من خصوص الربوبية حق خالص لله، والرسل يصرفونه لله، فنحن إنما علينا ـ لمحبة الرسل وتعظيمهم ـ الاقتداء بهم، وأن نخلص لله حقه كما كانوا يخلصونه له، والكفار ـ مع جهلهم ـ صرحت عنهم الآيات التي لا تكاد تحصى في المصحف أنهم كانوا يعرفون هذا، فإذا نزلت بهم الكروب والشدائد العظام صرفوا الحق في ذلك الوقت لمستحقه تماماً، فإذا أمِنوا رجعوا يصرفونه لغيره!! والآيات في المصحف الدالة على هذا لا تكاد أن تحصيها ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني: إذا ركبوا في السفن، واضطربت عليهم أمواج البحر، ورأوا الكروب، وخافوا الموت دعوا الله مخلصين له الدين ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: آية ٦٥]، ويصرفون الحق لغير من هو له ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: آية ٣٢]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن

---

(١) البخاري في الجهاد، باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب. حديث رقم: (٢٩١٥)، (٦/٩٩)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (٣٩٥٣، ٤٨٧٥، ٤٨٧٧).

تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: الآيات ٦٧ ـ ٦٩] ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: يصرفون الحق لغير صاحبه، ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: الآيتان ٢٢، ٢٣]، والآيات بمثل هذا لا تحصى في المصحف. وقد قدمنا مراراً[(١)] أن المعروف في التاريخ أن سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل (رضي الله عنه) أنه كان شديد العداوة في الجاهلية للنبيِّ ﷺ، وهو من الجماعة الذين جاؤوا من وراء الصحابة يوم أُحد ـ لما تركوا المركز في سفح الجبل، وبقي أميرهم عبدالله بن جبير وطائفة حتى قُتِلُوا ـ هو وصفوان بن أمية في الجماعة الذين جاؤوا من وراء ظهور المسلمين حتى دارت رحى الحرب على المسلمين، وجرح النبي ﷺ، وشُج حتى غاصت فيه حِلَق المغفر، وكُسرت رَبَاعيته، وشُقت شفته، ومُثِّل بعمه وابن عمته، وقُتل سبعون من خيار الأنصار. وكذلك هو يوم فتح مكة من أشد الناس [حماسة] للقتال[(٢)]؛ ولذلك قال حِمَاس بن قيس الذي كان يقول لامرأته: سأجعل لك خدماً من نساء محمد، وإذا جئتك هارباً فأغلقي الباب دوني. فجاء هارباً يوم فتح مكة!! فقالت له: أين ما كنت تقول؟ فقال رجزه المشهور[(٣)]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٠ ـ ٤١) من سورة الأنعام.

(٢) في الأصل: «عداوة» وهو سبق لسان.

(٣) الأبيات في السيرة لابن هشام ص (١٢٥٠). معجم البلدان (٣٩٣/٢). وقد وقع هنا في الأبيات الثلاثة بعد الأول شيء من التقديم والتأخير. والذي في المصدرين السابقين.

وأبو يزيد قائم كالمؤتمة ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة ... ضرباً فلا يُسمع إلا غمغمة
لهم نَهِيت خلفنا وهمهمة ... لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

إِنَّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الْخَنْدَمَة ... إِذْ فَرَّ صَفْوَانُ وفَرَّ عِكْرِمة
وأَبُو يزيدَ قائمٌ كالمُؤْتِمَه ... واستقبلتنا بالسيوفِ المُسْلِمَة
لَهم نَهِيتٌ خَلْفَنا وَهَمْهَمَة ... يَقْطَعْنَ كلَّ ساعدٍ وجُمْجُمة
ضَرْباً فلا تسمعُ إلا غَمْغَمَة ... لم تَنْطِقِي باللومِ أدنى كَلِمَة

كان عكرمة بالغاً هذا من معاداة النبي ﷺ، فلما فتح النبي ﷺ مكة، وعرف عكرمة أن النبي ﷺ استتب له الأمر في مكة، فرَّ هارباً إلى الحبشة بغضاً للنبي ﷺ، فركب في سفينة في البحر الأحمر ذاهباً إلى الحبشة، فلما توسطت بهم بطن البحر الأحمر هاجت عليهم عواصف الريح، وهاجت عليهم الأمواج، وأيقنوا بالهلاك، فإذا جميع من في السفينة ينادي بعضهم بعضاً من أطراف السفينة؛ احذروا في هذا الوقت أن تدعوا غير الله لئلا تهلكوا؛ لأنه لا ينقذ من هذه الكروب والأهوال إلا هو وحده (جل وعلا). فجاءت في رأس عكرمة، ثم قال: والله إن كان لا ينجي من ظلمات البحر إلا هو فلا ينجي في كربات البر إلا هو. ثم قال: اللهم لك عليَّ عهد إن أنقذتني من هذه فلأضعن يدي في يد محمد ﷺ فلأجدنه رؤوفاً رحيماً.

وعلى كل حال فإخلاص حقوق الله لله مرضاة لله، ومرضاة للرسول، وإقرار لعين الرسول، واتباع له وتعظيم، وعمل بالعلم والقرآن. وهذا مما ننصح به أنفسنا وإخواننا على ضوء كتاب الله تعالى.

وقوله جل وعلا: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام فيها إشكال معروف مشهور، وأجوبة العلماء عنه معروفة مذكورة مشهورة.

اعلموا **أولاً**: أن قوله هنا: ﴿شَيْئًا﴾ فيه وجهان من الإعراب[1]:

أحدهما: أنه ما ناب عن المصدر، فهو مفعول مطلق في المعنى. أي: لا تشركوا بالله شيئا من الإشراك، أي: لا إشراكاً صغيراً كالرياء، ولا إشراكاً كبيراً. فعليه يكون اسم (الشيء) واقعاً على الإشراك/ فيكون في معنى ٢١/ب

(١) انظر: الدر المصون (٥/٢١٨).

المصدر، ويُعرب ما ناب عن المطلق. أي: لا تشركوا بالله شيئاً. أي: لا تشركوا به إشراكاً. أي: شيئاً من الإشراك، قليلاً أو كثيراً.

الثاني: أنه مفعول به بـ ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ أي: لا تشركوا به شيئاً من الشركاء؛ لأن حقوقه الخالصة لا يُشْرَكُ معه فيها أحد كائناً ذلك الأحد من كان، سواء كان نبياً؛ أو مَلَكاً، أو غيرهما. وأكره ما يكره الأنبياء والملائكة أن يُشرك بالله غيره؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: آية ٨٠] وقد أمر الله سيد الخلق أن يصدع بذلك الأمر المؤسف العظيم[1] في آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: آية ٦٤] أي: مخلصون لله العبادة وحده، لا نتخذ غيره رباً، ولا نشرك به غيره.

أما محل السؤال والإشكال في الآية: فهو في لفظة (لا) لأنه يقول: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فمعناه: أن هذا الذي يتلوه محرم، وقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ عدم الشرك ليس بمحرم بل هو واجب حتم ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ بر الوالدين ليس بمحرم بل هو واجب حتم. فصار الإشكال في لفظة (لا) وهو إشكال معروف عند العلماء.

وللعلماء عنه أجوبة كثيرة[2]: منها ما ذكره جماعة من العلماء أن من أساليب اللغة العربية زيادة لفظ (لا) لتوكيد الكلام وتقويته إذا كانت القرينة تدل على أنها لا يُقصد بها نفي[3]، وزيادة لفظة (لا) لتوكيد الكلام وتقويته أجمعَ عليها جميع علماء العربية في الكلام الذي فيه معنى الجحد ـ أعني الكلام المُشم برائحة النفي ـ لا خلاف في هذا بين العلماء، وهو كثير في

(١) أي: يصدع في بيان بطلانه، ويعلن منابذته، أي: الشرك.

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/٢١٥)، القرطبي (٧/١٣١)، البحر المحيط (٤/٢٤٩ ـ ٢٥٠)، الدر المصون (٥/٢١٣ ـ ٢١٨).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.

القرآن، ومنه قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ [طه: الآيتان ٩٢، ٩٣] يعني: ما منعك أن تتبعني. وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: آية ١٢] أي: ما منعك أن تسجد. على أصح التفسيرين[١]، بدليل قوله في (ص): ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: آية ٧٥]، ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: آية ٢٩] أي: ليعلم أهل الكتاب. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، [النساء: آية ٦٥] أي: فوربك لا يؤمنون ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: آية ٣٤] أي: ولا تستوي الحسنة والسيئة ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٩] على أحد التفسيرين[٢]. وهو كثير في كلام العرب معروف، ومن أمثلته في كلام العرب قول أبي النجم[٣]:

وما ألومُ البيضَ ألاّ تَسْخَرَا   لما رَأَيْنَ الشَّمَطَ القَفَنْدَرَا

وقول الآخر، وأنشده ابن هشام لهذا المعنى في المغني[٤]:

وتَلْحَيْنَنَي في اللّهو أن لا أُحبّه   ولِلّهوِ داعٍ دائب غير غافلِ

(. . . .)[٥] وأنشد الفراء لزيادة (لا) في الكلام الذي فيه معنى الجحد قول الشاعر[٦]:

ما كان يَرْضَى رسولُ الله دينهم   والأطيبان أبو بكر ولا عمرُ

يعني والأطيبان أبو بكر وعمر.

وأنشد الجوهري لزيادة (لا) في الكلام الذي ليس فيه معنى الجحد

---

(١) انظر: فتح القدير (١٩١/٢).
(٢) انظر: المصدر السابق (١٥٢/٢).
(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠٩) من هذه السورة.
(٤) المغني (٢٠٠/١).
(٥) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل، وهو غير مؤثر هنا.
(٦) مضى عند تفسير الآية (١٠٩) من هذه السورة وأورده الفراء في معاني القرآن (٨/١).

قول الراجز[١]:

فـي بـئـرِ لا حُـورٍ سَـرَى ومـا شَـعَـر   بـإفـكـه حـتـى رَأى الـصـبـحَ شَـجَـر

لأن الحور هو الهلكة معنى. والمقصود: في بير هلكة وقع. و (لا) زائدة، والكلام هنا ليس فيه معنى الجحد. وأنشد الأصمعي لزيادة (لا) لتقوية الكلام في الكلام الذي ليس فيه معنى الجحد. قول ساعدة بن جؤية الهذلي[٢]:

أَفَـعَـنْـكَ لا بـرقٌ كـأنَّ ومِـيـضَـهُ   غـابٌ تَـسَـنَّـمَـهُ قِـرَابٌ مُـشْـقَـبُ

يعني: أَفَعَنْكَ برق، كما هو معروف. وأنشد بعضهم له قول الآخر[٣]:

تـذكـرتُ لـيـلـى فـاعـتـرتـنـي صَـبَـابَـةٌ   وكَـادَ صَـمـيـمُ الـقـلـبِ لا يـتـقـطَّـعُ

أي: كاد يتقطع. قالوا: هذا أُسلوب معروف، و (لا) هنا صلة دل المقام عليها. وهي تفيد تقوية الكلام، والنهي عن الشرك. هذا قول بعض العلماء.

وقال بعض العلماء: (أنْ) هنا تفسيرية. وهو التحقيق، وهي مُفَسِّرَةٌ لـ(حَرَّم)[٤]، وإذا فسرنا التحريم كان ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ هو معنى التحريم؛ لأن ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ هو معنى تحريم الشرك. وضابط (أنْ) التفسيرية عند علماء العربية: أن تتقدمها جملة فيها معنى القول وليس فيها حروف القول[٥]،

---

(١) البيت للعجاج، وهو في الخصائص (٢/٤٧٧)، معاني القرآن للفراء (١/٨)، اللسان (مادة: حور) (١/٧٥٠)، الصحاح (مادة: حور) (٢/٦٣٩)، الخزانة (٢/٩٥ ـ ٩٨)، (٤/٤٩٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٠٩) من هذه السورة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠٩) من هذه السورة، وفيه: «وكاد ضمير...».

(٤) انظر: البحر المحيط (٤/٢٤٩)، الدر المصون (٥/٢١٣).

(٥) انظر: البحر المحيط (٤/٢٥٠)، الدر المصون (٥/٢١٣). الكليات ص١٩٣، معجم الإعراب والإملاء ص٨٨.

فتكون (أنْ) مفسرة للتحريم، وما بعدها هو تفسير التحريم؛ لأن النهي عن الشرك هو معنى تحريم الشرك بعينه، وعلى هذا فلا إشكال. فـ (أَنْ) يُفَسِّر ما بعدها ما قبلها، وهي (أَنْ) التفسيرية كما هو معروف.

وقال بعض العلماء: قوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ انتهى الكلام. وقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ابتداء كلام. و ﴿عَلَيْكُمْ﴾ اسم فعل، كما قال في الخلاصة[1]:

والفعلُ من أَسْمَائِه عَلَيْكَا...

والمعنى: عليكم ألا تشركوا بالله. ﴿عَلَيْكُمْ﴾.

الزموا واحتزموا وعليكم ألا تشركوا بالله، وعليكم أن تُحسنوا بالوالدين إحساناً، وعليكم ألا تقتلوا أولادكم من إملاق، إلى آخره.

وقال بعض العلماء ـ وهو ليس بوجيه ـ: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أتلوه عليكم لئلا تشركوا بالله شيئاً.

وأظهر الأوجه وأحسنها: هو ما دل عليه القرآن؛ لأن خير ما يُفَسَّر به القرآن: القرآن، أن معنى قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما حرمه عليكم فعلًا وتركاً، وأن التحريم فعلًا وتركاً هنا مُضَمَّن معنى: ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾[2] فكأنه يقول: أتلو ما وصاكم ربكم به تحريماً وإباحة. والدليل على هذا: أن الله لما علم أن في الآية شِبْه إجمال أوضحه في آخرها فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فعرفنا أن ذلك التحريم هو معنى الوصية، فيكون معنى: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: حرم عليكم فعلًا وتركاً. أي: وصاكم بأن تفعلوه أو تتركوه، كما فسره بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ونظيره في كلام العرب قول الراجز[3]:

حَجَّ وأَوْصَى بِسُلَيْمَى الأَعْبُدا   أَنْ لا تَرَى ولا تُكَلِّم أَحَدَا

وَلَا يَزَلْ شَرَابُها مُبَرَّدَا

(١) الخلاصة ص (٥٤) انظر: شرح الأشموني على الألفية (٢٠١/٢).
(٢) وهو اختيار ابن جرير. انظر جامع البيان (٢١٥/١٢)، وانظر: أضواء البيان (٢٧٨/٢).
(٣) وهو في ابن جرير (٢١٦/١٢).

وهذا معنى قوله: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً. جرت العادة في القرآن أن الله يقرن بر الوالدين بتوحيده (جل وعلا) في عبادته كقوله هنا: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: آية ٢٣] ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: آية ١٤] إلى غير ذلك من الآيات، ولا شك أن الله لم يجعل بر الوالدين مقروناً بتوحيده دائماً إلا لعظمة بر الوالدين، فإن بر الوالدين من أعظم الحسنات والقربات عند الله، وعقوق الوالدين من أخبث الخبائث، وأكبر الذنوب، فعلينا معاشر المسلمين أن من كان عنده إما والد أو والدة أن يتحمل أذاه، ويبره، ويحسن إليه، ويسارع في مرضاته الأيام القليلة من الدنيا، حتى يموت وهو عنه راض. واعلموا أن من أعطاه الله شائباً أو شائبة، أباً أو أماً، فكأنه أعطاه وسيلة الجنة سهلة، ومن قَصَّر فيها فهو مُفَرِّط مُضَيِّع، مع أن عقوق الوالدين مع ما فيه من إسخاط الله وإغضاب خالق السماوات والأرض، وسبب دخول النار، وفيه أيضاً القُبْح، وعدم الإنسانية، وخساسة فاعله.

فعلينا معاشر المسلمين أن نفهم هذا، وأن نعلم أن ربنا يجعل بر الوالدين دائماً مع توحيده ومن كان منا عنده والد أو والدة فَلْيَسْعَ كل السعي في أن يبره، وليعلم أن الكبير لا يتحمل على أذاه إلا من عنده تقوى؛ لأنه إذا شاب وكبرت سنه كان لا يُتَحَمَّل؛ لأنه يكثر سؤاله عن الأشياء التي لا تعنيه، وتكثر أغراضه فيما لا تعنيه، وهذا يستلزم صبراً. فعلى الولد أن يتحمل، ويثابر على أن يفتيه في كل ما سأل مما لا يعنيه، ويصبر على جميع أذاه، ويحسن إليه، ويبره حتى يموت وهو عنه راض؛ لأن النبيَّ ﷺ جاءت عنه الأحاديث التي لا تُحصى في الترغيب في بر الوالدين واسْتِجْلَابِهِ الجنة، والترهيب من عقوق الوالدين، وما فيه من العقوبات، ونحن لا نحتاج أن نُنَوِّه بشيء من هذا بعد أن نرى خالق السماوات والأرض يجعل بر الوالدين مقروناً بتوحيده في عبادته جل وعلا.

فعلينا جميعاً معاشر المسلمين أن نعتبر بهذا، وأن نبر أمهاتنا وآباءنا،

ونصبر على أذاهما، ولا نُغلظ لهما القول، ولا نمنعهما من شيء يحبانه، بل نسارع في مرضاتهما بحسب الإمكان. ويكفيكم على هذا دليلًا هو نص القرآن العظيم على أن الوالد يبره ولده وإن كان الوالد كافراً، لأن آية العنكبوت نزلت في أُميمة والدة سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه وأرضاه)[١]، فإنه لما أسلم حلفت أمه أُميمة أن لا تأكل، ولا تشرب، ولا تدخل الظل حتى يرجع عن دين الإسلام، فمكثت في الشمس ما شاء الله حتى خَرَّت مغشياً عليها، وجاؤوه وقالوا له: أمك ستموت!! فجاءها ثم قال لها: والله لو كانت لك مائة نفس، ومتِّ مائة موتة بكل نفس من تلك الأنفس فإني لا أرجع عن دين الإسلام أبداً، إن شئت فكُلي وإن شئت فموتي!! فأنزل الله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ﴾ [العنكبوت: آية ٨] ثم قال[٢]: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾[٣] [لقمان: آية ١٥] فأمره بأن يصاحبهما بالمعروف وهما كافران، فما بالك بالمُؤمِنَيْن؟.

وقد جاء عن بعض العلماء أن سبب نزول الآية التي في سورة الممتحنة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الممتحنة: آية ٨] أن أسماءَ بنت أبي بكر - أسماءُ بنت أبي بكر (رضي الله عنها) - ليست شقيقة عائشة وعبدالرحمن، لأن عائشة وعبدالرحمن شقيقان، أمهما أم رومان الفراسية من بني فراس، من بطون كنانة، وأسماء أمها امرأة أُخرى تسمى: قَيْلَة - وقد جاءت إلى المدينة زائرة ابنتها أسماء، والأم كافرة، فما رضيت أسماء أن تُنزل أمها حتى تستشير النبي ﷺ، مع أنها جاءت زائرة!! ومعها

---

(١) أمه هي حمنة بنت سفيان بن أُمية بن عبد شمس. انظر: الآحاد والمثاني (١٦٦/١)، (مختصر تاريخ دمشق لابن منظور) (٢٥٣/٩)، السير (٩٦/١)، فتح الباري (٨٤/٧). وفي الآحاد والمثاني: «حمنة بنت أسد».

(٢) هذه ليست من آية العنكبوت كما لا يخفى، وإنما هي من سورة لقمان. وقد جاء في بعض الروايات ما يدل على أن الآيتين نزلتا فيه.

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه)، حديث رقم: (١٧٤٨)، (١٨٧٧/٤).

هدايا من هدايا البادية، فأمرها النبي أن تنزلها وتحسن إليها[١]. قال بعض العلماء: وفيها نزلت: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[٢].

فالحاصل أن على المسلم أن يبر والديه، ولا يعقهما، فبر الوالدين من أعظم الذخائر عند الله، ومن أعظم أسباب دخول الجنة، وعقوق الوالدين من كبائر الذنوب الموجبة لسخط الله ولدخول النار مع قبحها في الدنيا.

وقوله: ﴿إِحْسَٰنًا﴾ مصدر. قال بعض العلماء: منصوب بفعل محذوف ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وأن تحسنوا بالوالدين إحسانا[٣].

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] قال هنا في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ وقال في سورة بني إسرائيل - وهي سورة الإسراء -: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: آية ٣١] قال بعض العلماء[٤]: بين الآيتين فرق؛ لأن آية الأنعام تدل على أن الرجل يكون فقيراً في هذا الوقت ويقتل ولده للفقر الحاضر، وهو معنى قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: من أجل الإملاق، وهو الفقر الحاضر.

الثانية: أن يكون غير فقير، ، ولكنه يخاف الفقر في المستقبل، فيقتله لئلا يفتقر في المستقبل. وهي قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾.

وجماهير علماء العربية على أن (الإملاق) أصله مصدر: (أملق

---

(١) البخاري في الهبة، باب الهدية للمشركين. حديث رقم: (٢٦٢٠)، (٢٣٣/٥). وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (٣١٨٣، ٥٩٧٨، ٥٩٧٩). ومسلم في الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين...، حديث رقم: (١٠٠٣)، (٦٩٦/٢).

(٢) صرح بذلك سفيان بن عيينة عقب رواية الحديث، كما عند البخاري في كتاب الأدب (٤١٣/١٠). وقد ورد ذلك صريحاً من طريق آخر لا تخلو من ضعف.

(٣) انظر: ابن جرير (٢١٥/١٢)، القرطبي (١٣٢/٧).

(٤) انظر: البحر المحيط (٢٥١/٤)، الدر المصون (٢١٩/٥)، أضواء البيان (٢٧٨/٢).

الرجل، يُمْلِق، إملاقاً) إذا كان فقيراً. قال بعض العلماء: واشتقاقه من (المَلَقَات)[١]، و(المَلَقات): الحجارة الضخام[٢]، وهو معروف [في كلام][٣] العرب، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[٤]:

أُتيحَ لَها أُقَيْدِر ذُو حَشِيفٍ إذا سَامت على المَلَقَاتِ سَامَا

فكما يقولون: «تَرِبَتْ يداه» لم يبق عنده إلا التراب، يقولون: «أملق» لم يبق تحت يده إلا الجبال والصخور العظام التي لا يقدر أن يحصل منها شيئاً.

وقال بعض العلماء: كانت لغة لخم من قبائل قحطان أنهم يطلقون (الإملاق) على الجوع[٥].

وقال بعض العلماء: الإملاق يطلق على الإنفاق. تقول العرب: «أملق ماله». إذا أنفقه[٦]، قالوا: ومنه: (التَّمَلُّق) في الكلام؛ لأن الإنسان يعطي باللسان ما ليس عنده في قلبه في الحقيقة.

والمشهور الذي عليه جمهور المفسرين وعلماء اللغة: أن (الإملاق) هنا هو الفقر[٧]. وكان العرب يئدون بناتهم خوف أن يفتقروا فتجوع بناتهم؛ لأن جوع بناتهم قد يسبب لهن أن يزوجوهن من غير الأكفاء، وأن يقعن في معرات لا تليق، وقد يخافون عليهن من السبي. فكانوا يقتلوهن لهذا السبب!! يقولون: إذا جاعت ابنته اضطرت إلى أن تتزوج غير كفء. وكانوا يتشددون في مصاهرة غير الأكفاء، ويقتلون البنات خوفاً من هذا. وإذا خاف

---

(١) انظر: اللسان، (مادة: ملق) (٥٢٧/٣).

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٤) البيت لصخر الغي الهذلي، وهو في اللسان (مادة: ملق) (٥٢٧/٣)، القرطبي (٢٥٢/١٠).

(٥) انظر: القرطبي (١٣٢/٧)، الدر المصون (٢١٨/٥)، أضواء البيان (٢٧٨/٢).

(٦) انظر: القرطبي (١٣٢/٧)، الدر المصون (٢١٨/٥)، أضواء البيان (٢٧٨/٢).

(٧) انظر ابن جرير (٢١٧/١٢)، القرطبي (١٣٢/٧)، الدر المصون (٢١٨/٥)، أضواء البيان (٢٧٨/٢).

الرجل أن يفتقر وتبقى ابنته في جوع وبؤس، فإنها إذا كانت في جوع وبؤس قد تضطر إلى أن تتزوج غنياً ليس بكفء لها، فيئدونهن.

وقد ذكرنا مراراً أن عقيل بن عُلَّفة المري لما خُطِبَت عنده ابنته الجرباء أنشد رجزه المشهور[١]:

إنِّي وإنْ سِيقَ إلَيَّ المهرُ عبد وألفان وذَود عَشْر
أحبُّ أصْهَاري إليَّ القبرُ

وكانوا يقولون: إن الزوج الذي يسترها ويكفي عارها تماماً إنما هو القبر، كما قال الشاعر وعنده ابنة تُسمى مودة[٢]:

مودَّةُ تهوى عُمْرَ شيخٍ يسرُّهُ لها الموتُ قبل الليل لو أنها تدري
يخافُ عليها جفوة الناس بعده ولا خَتَن يُرجى أَوَدّ من القبرِ

والخَتَن في اللغة: زوج البنت[٣].

يعني: لا زوج للبنت يُرجى أرجى من القبر؛ لأنه يستر عارها، ويمنعها من تزويج غير الأكفاء، ومن الإهانات على زعمهم الفاسد. ولما كان صخر أخو الخنساء كل عام يُقاسم الخنساء ماله، ويجعله شطرين، ويعطيها الشطر الأوفى، وقالت له امرأته: تقاسم مالك كل سنة مع الخنساء وزوجها مِتْلَاف سفيه يُضيع مالك: أنشد راجزاً[٤]:

وكيف لا أمنحُهَا خِيَارَهَا وهي حَصَانٌ قد كفتني عَارَهَا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.
(٢) السابق.
(٣) انظر: المصباح المنير (مادة: ختن) ص (٦٣).
(٤) في الشعر والشعراء ص (٢٢٠) هكذا:
والله لا أَمنَحُها شرارَها ولو هَلَكتُ مَزَّقَتْ خِمَارَهَا
وجَعَلَتْ من شَعَرٍ صِدَارَهَا
وفي الإصابة (٤/٢٨٩):
والله لا أمنحُها شِرَارَهَا وهي التي أَرْخَص عني عارها
ولو هلكتُ خَرقَت خِمَارَهَا واتخذت من شَعَر صِدَارَهَا

ولـــو هـــلـــكـــتُ لَـــبِـــسَـــتْ إزارهَـــا

فعندهم الشهامة العربية، والغيرة الكاملة على الحريم، إلا أن كل شيء إذا زاد عن قدره صار بلاء وخسيساً. فالأمور ينبغي أن لا تزاد ولا تنقص عن حدودها.

فلا تَغْلُ في شيء من الأمر واقتصِد كِلاَ طَرفي قَصْدِ الأمورِ ذميم(١)

فالغلو في الغيرة جَرَّهُم إلى أن دفنوا بناتهم خوف أن يجوعوا وتجوع البنات فَيَضْطَرِرْنَ بذلك إلى الوقوع فيما لا ينبغي، أو إلى الزواج من غير الأكفاء. هكذا زعمهم الفاسد، وقد صح عن النبيِّ ﷺ من حديث ابن مسعود أن النبيَّ ﷺ سُئل: أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**». قيل: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**». قال: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني بحليلة جارك**»(٢). وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ فالحديث كأنه مطابق لآية الفرقان. ثم إن الله قال هنا: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ كأنه يقول لهم: يا سفهاء العقول، يا مجانين، تقتلون أفلاذ أكبادكم خوفاً من الفقر؟! فرزقهم علينا، نحن نرزقكم ونرزقهم، ورزق الجميع علينا. قال هنا: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأنهم فقراء في الحين حيث قال: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: من فقر واقع. وقال هناك لما أرادوا أن يقتلوهم من خشية فقر مستقبل: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾ بدأ بالأولاد ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٣١].

وهذه الآيات تدل على أن الإنسان لا ينبغي له أن يستثقل كثرة أولاده خوفاً من الجوع والفقر؛ لأن خالق السماوات والأرض يرزق الجميع. وهذه

---

(١) البيت لمحمد بن مسلمة، وهو في الخزانة (٢٨١/١).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. حديث رقم: (٤٤٧٧)، (١٦٣/٨)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث رقم: (٤٧٦١، ٦٠٠١، ٦٨١١، ٦٨٦١، ٧٥٢٠، ٧٥٣٢). ومسلم في الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده. حديث رقم: (٨٦)، (٩٠/١).

من أوضح الآيات على أن ما يتلاعب به الشيطان على المتسمين باسم الإسلام مما يسمونه (تحديد النسل) وأن يمتنعوا من أن تكثر أولادهم، أن هذا جهل واقتفاء - في الجملة - للجاهلية الذين يقتلونهم؛ وذلك لأنهم مشتركون في العلة، والعلة قد تُعَمِّم معلولها؛ لأن الله صرح بأن الجاهلية إنما قتلوهم من خشية الإملاق، وهؤلاء يريدون من تقليل عددهم من خشية الإملاق، فالعلة هي العلة. وكأن قوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لم يطرق أسماعهم - أبداً - ضمان خالق السماوات والأرض لأرزاق الجميع، كأنهم لم يسمعوه، وكأنهم في جاهلية جهلاء، وظُلمة ظلْمَاء؛ لأن الله ضامن رزق الجميع. وكلما كثر النسل، وكثرت الأيدي العاملة كثر الإنتاج، وكثرت خيرات الله وأرزاقه؛ لأن الله ينزل رزقه بعدد خلقه، وصرح بهذا وهو لا يخلف الميعاد ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فهذه الآيات تدل على أن القائلين بتحديد النسل أنهم شاركوا الكفار في العلة، وإن لم يشاركوهم في الحكم، والعلة تكون واحدة وتكون لها أحكام متعددة، كما تقرر في الأصول[(١)]. فالسرقة علة واحدة، وقد تتعدد أحكامها؛ لأن من أحكامها ما هو قطع اليد، ومن أحكامها ما هو غُرْم المال - عند من يقول بِغُرْم المال - فعلة الجميع واحدة، وهي خوف الفقر، وضيق المعاش، هذه هي علة الكفار التي قتلوا من أجلها أولادهم، وعلة التابعين لأذناب الإفرنج في تقليلهم عددهم وعُددهم. والنبي ﷺ يقول: «**تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم**»[(٢)] والكثرة خير من القلة، والله (جل وعلا) بارىء لكل ذي نسمة شق فاها بارىء لها رزقها كما

---

(١) انظر: نشر الورود (٢/٤٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/١٥٨، ٢٤٥)، وابن حبان (الإحسان ٦/١٣٤)، والبيهقي (٧/٨١) من حديث أنس (رضي الله عنه). وأبو داود في النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، حديث رقم: (٢٠٣٥)، (٦/٤٧)، والنسائي في النكاح، باب كراهية تزويج العقيم (٦/٦٥)، حديث رقم: (٣٢٢٧)، والحاكم (٢/١٦٢)، والبيهقي (٧/٨١)، والطبراني في الأوسط (٥٧٤٢). وانظر: صحيح النسائي (٢/٦٨٠)، صحيح أبي داود (٢/٣٨٦)، آداب الزفاف (٨٩، ١٣٢)، إرواء الغليل (٦/١٩٥)، المشكاة (٣٠٩١).

صرح بقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: آية ٦] فهؤلاء شاركوهم في العلة وخالفوهم في الحكم، مع أن هناك بعض المقاربة.

فعلينا معاشر المؤمنين أن نعلم أولًا أن كل ما أراد الله أن يخلقه من النسمات لا بد أن يخلقه، ولو حاول الخلق ما حاول من تقليل النسل، ثم إن كل نسمة خلقها الله فهو رازقها إلى أن تموت، وإلى أن تستكمل رزقها، وأن دعوى تحديد النسل خوف الفقر أنها أذهان الكفار، وأقوال الكفار، وعقول الكفار التي لم تستضيء بضوء القرآن العظيم؛ لأن الله يقول ـ يفند هذا الرأي ـ: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: آية ٣١]، فلا تضق أذهانكم يعني من الرزق، فالرزق عندنا كثير، ونحن سنرزق الجميع من خزائن رزقنا؛ ولذا لما أراد المنافقون أن يحاصروا أصحاب النبي ﷺ حصاراً اقتصادياً وقالوا: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ قال الله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: آية ٧] أي: ومن كانت عنده خزائن السماوات والأرض لا يُضَيِّقُ رزق أحد شاء أن يرزقه. وهذا معنى قوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

والرزق عند الجمهور: هو ما رزقه الله للإنسان، سواء كان حلالًا أو حراماً[1]. فالله يرزق الإنسان بالحلال الطيب الهنيء، ويرزقه بالحرام، ثم يؤاخذه عليه. خلافاً للمعتزلة القائلين: إن الرزق من الله إنما هو الحلال، وإن الحرام لا يُسمى رزقاً؛ لأن العبد أخذه بمشيئته لا بمشيئة الله. كما كنا نقرر ونوضح، وبَحْثُ المتكلمين في الرزق هل يختص بالحلال أو الحلال والحرام معروف ومن يخصه بالحلال فهو مبني على مذهب الاعتزال؛ لأن الله (تبارك وتعالى) كما يشاء من العباد أن يقعوا في المعاصي وتذهب إرادتهم ومشيئتهم إلى المعاصي، كذلك إلى أن يرتزقوا بالحرام فذلك

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/١٣٢، ٥٤١ ـ ٥٤٦).

بمشيئته وجّه قدرتهم ومشيئتهم إليه، وهو مؤاخذهم عليه بأعمالهم، وكل مُيَسَّر لما خُلق له. وهذا معنى قوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذا من وصية محمد ﷺ التي لم يُفك عنها خاتمه هي هي كما أُنزلت مما أوصى به ﷺ مبلغاً تلك الوصية عن الله نهي جميع الخلائق عن أن يقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ فيه سر عظيم، وتعليم كبير؛ لأنه لم يقل: «وَلَا تفعلوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنهَا وَمَا بَطَنَ» لم ينه عن فعلها فحسب بل نهى عن قربانها؛ لأن من قرب من الشيء قد يقع فيه، والراتع حول الحِمَى يوشك أن يقع فيه. فبيَّن في هذه الآية أن الفواحش - وسنبين معناها - أن الإنسان منهي عن أن يقربها؛ لأن القرب منها مظنة للوقوع فيها، كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه[1]. وهذه الآية الكريمة من الأدلة القرآنية على وجوب سد الذرائع؛ لأن القرب من الشيء ذريعة للوقوع فيه، فإذا نُهي عن القرب منه كان ذلك سداً لذريعة الوقوع فيه، وقد أجمع العلماء على وجوب سد الذرائع في الجملة، ودل عليه في الجملة الكتاب، والسنة، والإجماع[2]. وتفصيل ذلك: أن الذرائع عند علماء الأصول ثلاثة أقسام: قسم يجب سده بإجماع المسلمين، وقسم لا يجب سده بإجماع المسلمين، وواسطة هي محل الخلاف، هي المعروفة عند أهل الأصول بـ (الذريعة الوسطى) التي لم تبلغ درجة المُجْمَع على سده، ولم تتنازل إلى درجة المُجْمَع على عدم سده. أما المُجْمَع على وجوب سده فهو الذي يكون ذريعة إلى الحرام، ويكون ارتكابه مظنة للوقوع في الحرام. وهذا ممنوع بإجماع العلماء. ومن أمثلة هذا القسم المجمع على سده: سب الأصنام إذا غلب على ظن من سبها أن عَبَدَتها يسبون الله. وقد قدمنا هذا في هذه السورة في قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

---

(١) انظر: فتح المجيد ٣٨٩.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من هذه السورة.

[الأنعام: آية ١٠٨] فسب الأصنام بالنظر إلى ذاته طيب حلال كماء المزن، إلا أنه إن كان ذريعة لأن يسب عبدتُها اللَّهَ كان حراماً؛ لأنه ذريعة إلى أن يُسب الله، والذريعة إلى هذا المنكر الأكبر يجب سدها. ومن هذا القسم: أن يشتم الرجل أبا رجل أو أمه، وهو عالم أن ذلك الرجل ينتقم منه فيسب أباه - انتقاماً - وأمه؛ لأن هذه ذريعة إلى أن يتسبب الرجل في أن يُذم أبوه أو أن تُذم أمه، والواجب عليه برهما لا عقوقهما بالتسبب في ذمهما. وقد ثبت في الحديث المتفق عليه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن من العقوق شتم الرجل والديه**». قالوا: يا رسول الله ﷺ وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[1] فهذا حديث صحيح لا مطعن فيه، صرح فيه النبيّ ﷺ بأن ذريعة السب: الشتم، وسب الوالدين حرام، فالذريعة إليه حرام. ومن أمثلة هذا النوع من الذريعة التي يجب سدها بالإجماع: أن يحفر الرجل بئراً في طريق المسلمين، ويغطي وجهه بغطاء ليتردى فيه المار، فنفس حفر البئر ليس هلاكاً لمسلم ولا لماله، ولكنه ذريعة للتردي الذي فيه الإهلاك. فهذا النوع من الذريعة يجب سده بإجماع المسلمين؛ لأنه يؤدي إلى محذور تَأْدِيَةً معلومة أو غالبة على الظن، فهذا يجب سده؛ لأن الراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه. ومنه: القرب من أسباب الذنوب، فإنه يكون ذريعة للوقوع فيها.

أما الذريعة التي أجمع العلماء على أنها لا يجب سدها، وأنها تُلغى وتُهدر: هي أن تكون الذريعة إلى المفسدة تُعارضها مصلحة عظمى أكبر منها، فإن المصالح العظام الكبار تُقدم على المفاسد الصغيرة. وتحرير هذا المقام: إنه إن تعارضت مفسدة أو مصلحة، فإن كانت المفسدة أكبر حُرِّم الفعل إجماعاً؛ لأن مفسدة سب الله أكبر من مصلحة سب الأصنام. وإن كانتا متساويتين وجب إلغاء المصلحة إجماعاً. أما إن كانت المصلحة راجحة هي أكبر وأرجح، والمفسدة صغيرة مرجوحة، ففي هذا تُلغى المفسدة، ويُلغى سد الذريعة إليها تقديماً للمصلحة الكبرى. ومن أمثلة هذا النوع الذي لا يجب سده؛ لأن

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

المصلحة فيه أعظم من المفسدة: غرس أشجار العنب، فإن غرس شجر العنب ذريعة إلى عصر الخمر منه، وهي أم الخبائث ـ قبحها الله ـ إلا أن هذه المفسدة أرجح منها عموم جميع الخلق بالزبيب والعنب في أقطار الدنيا.

وانظر تَدلِّي دَوَالي العِنَبِ ... في كل مشرقٍ وكل مغربِ[١]

لأن العنب والزبيب منفعتان ينتفع بهما جميع الناس، وعصر الخمر من العنب إنما يفعله أفراد قليلة، فذلك الضرر القليل يُلغَى في جنب تلك المصلحة العامة العظمى. ومن أمثلة هذا النوع من الذرائع الذي أجمع العلماء على أن سده لا يجب؛ لأن المصلحة أرجح من المفسدة: مساكنة الرجال والنساء في البلد الواحد؛ لأن مساكنة الرجال والنساء في البلد الواحد بأن تكون هذه الدُّور متجاورة، هذه الدار فيها هذا الرجل، وبناته، وزوجاته، وأخواته، وجاره الذي بجنبه معه أيضاً بناته، وزوجاته، وأخواته؛ لأن المعاونة بين الرجال والنساء مصلحة عامة لا يستغني عنها العالم، فإن المرأة تقوم بشؤون خدمات البيت في خدرها وبيتها، فترضع الرضيع من الأولاد، وتحنو على الفطيم، وتؤانس المريض، وتقوم على شؤون البيت، وتكنس، وتعجن، وتخبز، فيأتي الرجل من عمله، أو من جهاده فيجد قرينه الآخر الكريم ـ الذي هو امرأته ـ قام له بجميع مصالح الدنيا، فهم محتاجون إلى هذا التعاون والاجتماع، مع أن اجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد قد يكون ذريعة إلى وقوع الزنى من بعض الأفراد؛ لأن الرجل يمر من الطريق فتلقي إليه المرأة من الطاقة ورقة فيها موعد يجتمعان فيه، أو يعلو إلى السطح وهي على سطح فيتسايران كما قال نصر بن حجاج السلمي[٢]:

لَيْتَني في المؤذنين نَهَارَا ... إنَّهم ينظرون من في السطوحِ
فيشيرونَ أو يُشارُ إليهم ... حبذا كل ذاتِ دَلٍ مليحِ

فهذا قد يقع منه الوصول إلى الزنى من بعض الأفراد، إلا أن هذه

---

(١) هذا البيت من منظومة مراقي السعود. وهو في المتن ص (١٥٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من هذه السورة.

المفسدة التي تنشأ من اجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد قد تنشأ من أفراد قليلة، وهي مغمورة في المصلحة العامة بمعاونة الجنسين التعاون الكريم كما بينا؛ ولهذا لم يقل أحد من العلماء في جميع الدهر إنه يجب سد هذه الذريعة فيجب أن يُعزل جميع الإناث من القرية، وأن يُعزل جميع الذكور إلى جهة، وأن يكون جميع الإناث في حصن من الحديد عليه أبواب حديد قوية وأسلاك شائكة، لا يستطيع أحد خرقها، وتكون المفاتيح في يد رجل شائب ذي زوجات معروف بالتقى والعفاف. لم يقل هذا أحد من العلماء!! فهذه الذريعة أُلغيت لهذه المصلحة التي هي أعظم منها.

أما الذريعة الوسطى التي اختلف فيها العلماء: فكبيوع الآجال المعروفة في عرف أصحاب مذهب مالك ببيوع الآجال، ويسميها الشافعيون والحنبليون: (بيوع العينة) فإن العلماء اختلفوا فيها[١]، كأن تبيع سلعة بعينها لرجل إلى أجل ـ كأن تبيع له السلعة بأجل إلى شوال ـ ويكون الثمن عشرة مثلًا، ثم تشتري عين السلعة من ذلك الرجل بدين وأجل مسمى إلى جمادى مثلًا. فإن السلعة الخارجة من اليد، العائدة إليها ملغاة، فالسلعة رجعت ليد صاحبها، فكأنه آل الأمر أنه يأخذ عشرة في شوال، فإذا كان جمادى أخذ عشرين عن العشرة التي أخذ في شوال[٢]. فهذا بالنظر إلى ما يؤول إليه عين الربا، وهو عشرة بعشرين مؤجلة. أما بالنظر إلى ذات العقدين فالعقد الأول عقد على سلعة بأجل دَين إلى أَجل مسمى، والعقد الثاني عقد أيضاً على سلعة بأجل إلى أجل مسمى. وكان الشافعي (رحمه الله) يجيز مثل هذا ويقول: إن هذا مباح؛ لأن كلا العقدين مباح في ذاته. وكان غيره يحرمه سداً

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

(٢) في المثال المذكور هنا شيء من الاضطراب، وقد ذكر الشيخ (رحمه الله) هذه المسألة ص ومثَّل لها بقوله: «كما لو باع إنسان سلعة إلى أجل معين بعشرة دراهم مثلاً، ثم اشتراها بثمن أكثر لأبعد من الأول، أو بثمن أقل من الثمن الأول بدون الأجل» ا.هـ. والعلماء مختلفون في تفسير العينة، والمشهور في معناها: أن يبيع سلعة بثمن مؤجل، ثم يشتريها من المشتري قبل قبض الثمن بثمن نقد أقل من ذلك القدر. انظر: نيل الأوطار (٥/٢٠٧)، القاموس الفقهي ص٢٧٠.

للذريعة لئلا يقصد ببيع السلعة وشرائها أن تكون السلعة أداة لأن يأخذ عشرة ويأخذ بعدها عشرين، وكانت عائشة ترى أن هذا حراماً، وكان زيد بن أرقم (رضي الله عنه) من أصحاب رسول الله ﷺ يرى ـ رأي الشافعي في هذا ـ أنه حلال. قالت عائشة لامرأته: قولي لزيد: إن لم يرجع عن هذا الربا فإنه يبطل جهاده مع رسول الله[1]. وكان الشافعي (رضي الله عنه) يقول: اختلف زيد وعائشة، والقياس يؤيد قول زيد؛ لأن كلا العقدين سلعة بيعت بثمن إلى أجل معين. وغيرهم من العلماء ـ وهم الأكثر ـ يقولون: هذا قد يكون ذريعة إلى الربا فيجب سدها؛ لأن بيع السلعة بعشرة إلى شوال، ثم شراءها بعشرين إلى جمادى، فترجع السلعة إلى موضعها، فكأنها لم تخرج، فيؤول الحال إلى أن يستلم عشرة في شوال، ثم يأخذ عوضاً عنها عشرين في جمادى، فهذا ذريعة إلى الربا يجب أن تُسد. فهذا هي الواسطة المُخْتَلَف فيها، فالشافعي وأصحابه وزيد بن أرقم من الصحابة يرون جواز مثل هذا، وأن هذه ذريعة لا يجب سدها. ومالك وأحمد وعائشة وطوائف من العلماء يرون وجوب سد هذه الذريعة. فهذا هو الكلام باختصار على أنواع الذرائع، وما يجب سده منها بالإجماع، وما لا يجب بالإجماع، وما اختُلف فيه.

ومن الأدلة على سد الذريعة في الجملة هذه الآية الكريمة؛ لأن الله لما قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ولم يقل: «لا تفعلوا الفواحش» علمنا أنه أراد سد الطريق إليها بعدم القرب منها؛ لأن القرب من الشيء ذريعة إلى الوقوع فيه.

٢٢/أ / والراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه. والخطاب لعامة الناس.

والفواحش: جمع فاحشة. وقد تقرر في علم النحو أن (الفَاعِلَة) تُجمع جمع كثرة ـ جمع تكسير ـ على (فَوَاعِل) بقياس مطرد[2]، والواو في (الفواحش) مبدلة من الألف التي في مفرد الفاحشة[3]. ف (الفَاعِلَة) تُجمع على (فَوَاعِل) بقياس مطرد.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: الأشموني (٢/٤٤٩).

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص (٢١٢).

ومعنىٰ الفاحشة: أصل الفُحْش في لغة العرب: هو كل شيء بلغ نهايته تسميه فاحشة[١].

والفاحشة في اصطلاح الشرع: الخصلة المتناهية في القبح[٢]. فكل خصلة تناهت وبلغت غايتها في القبح [تُسميها][٣] العرب فاحشة. ومن قال: «إن أكثر إطلاقها في القرآن على الزنى ودلالة اللسان[٤]». فهو خلاف التحقيق؛ لأن الفاحشة تطلق على كل خصلة رديئة بالغة في القُبح، والفُحش. هذه هي الفاحشة. وكل بالغ غايته في الشيء فهو فاحش. وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته[٥]:

أرىٰ الموتَ يعْتَام الكرامَ ويصطَفي عقيلةَ مالِ الفاحشِ المُتَشَدِّد

يعني بقوله: «الفاحش» البالغ غاية الحرص على ماله. و (الفواحش) هنا: هي السيئات العظام المتناهية في القبح. نهىٰ الله خلقه عن أن يقربوا من كل خصلة سوء قبيحة يحرمها الشرع ويحذر الله منها. ثم عمم هذا تعميماً عظيماً فقال: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] فقوله: ﴿مَا﴾ بدل من (الفواحش) و ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ عطف عليه، والمعنى: احذروا كل الحذر، وتجنبوا كل التجنب، جميع الفواحش، سواء في ذلك ما هو ظاهر منها، وما هو باطن منها، كما قدمنا في قوله: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: آية ١٢٠].

واعلموا أن في ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ تفسيرات خاصة لبعض السلف، ليس المراد بها الحصر، وإنما المراد بها التمثيل، للظاهر

---

(١) انظر: المصباح المنير (مادة: فحش) ص (١٧٦)، المفردات (مادة: فحش) (٦٢٦).

(٢) انظر: الكليات ص (٦٧٥).

(٣) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٤) انظر: الكليات ص (٦٧٤).

(٥) شرح القصائد المشهورات (٨٣/١).

والباطن[١]، كقول بعض العلماء: إن العرب كانوا على قسمين فيهم أراذل أنذال يزنون بالنساء في الحواري، من غير محافظة من مرأى الناس، وفيهم ناس لهم نخوة، يجتنبون الزنى بمرأى من الناس، فيتخذون الصديقات والخدينات، ويزنون بهن سراً من غير أن يطّلع الناس. فنهى الله عن باطن الزنى وعن ظاهره. وكقول بعض السلف: إن ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: هو ما تفعله الجوارح من سرقة، وزنى، وغصب، وغير ذلك. و ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ هو ما يحتوي عليه القلب من الكبائر القلبية، كالعُجْب، والرياء، والكبر، والحسد، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك من أمراض القلوب. كل هذا من الأمثلة.

والتحقيق: أن الآية الكريمة عامة، والخطاب بها عام، فيجب على كل مكلف أن يتباعد من كل معصية خسيسة، سواء كان ذلك ظاهراً بمرأى الناس، كالذي يزني والناس ينظرون، أو يقتل والناس ينظرون، أو يرتكب محرماً ظاهراً علناً يراه الناس، وكالذي يفعل الفواحش سراً من غير اطلاع الناس، سواء الذي يزني من غير أن يراه الناس، والذي يسرق خفية من غير أن يراه الناس، وهذا لا يفعله إلا من هو في غاية الجهل؛ لأنه إذا خاف أن يطّلع الناس عليه، وترقّب للفاحشة أن تكون باطنة لا يراها الناس، أليس هو يعلم أن خالقه يراه؟ وأن الحفظة الملائكة الكرام حاضرون معه، يُسَجِّلُون عليه ما فعل؟! فعلى المسلم إذا خلا بالأمر، وسوّل له الشيطان أن يفعل تلك الفاحشة؛ لأن الناس لا يرونه، وأنه لا يطّلع عليه أحد، كالذي يخلو بامرأة في محل مقفول، يأمن عيون الناس فيه، فيخوّل له الشيطان الريبة معها، عليه أن ينظر أن الله رقيب عليه، وأن الملائكة الكرام معه ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: آية ٧]، وعلى الشخص أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: الآيات ١٠ ـ ١٢] فالذي يستحيي من البشر الضعاف الذين لا يقدرون أن يضروه، ولا يستحيي من خالق السماوات والأرض، فهو مجنون جاهل.

---

(١) انظر: ابن جرير: (١٢/٢١٨ ـ ٢٢٠).

واعلموا أولًا أنَّا نذكر أشياء في ضوء آيات القرآن عامّة، على سبيل النصيحة والإرشاد لعموم إخواننا المسلمين، في ضوء القرآن العظيم، من غير أن نقصد التعريض بشخص معين، ولا بجهة معينة.

وإذاً فإنّا نعلم أن من الفواحش الباطنة أكل الرُّشا. فهذا الإنسان الخسيس، الذي يخاف أعين الناس، ثم يأخذ الرّشوة بحيث لا يراه أحد، ظلماً وعدواناً، خيانة لولي أمر المسلمين، الذي ولاه المركز على أنه يكون ناصحاً في غاية النصح والنزاهة والأمانة، وخيانة لربه المطّلع عليه، حيث يستخفي من الناس ولا يستخفي من الله!!

وعلى هذا فاعلموا أن الرشوة أقسام: منها ما يُراد به إبطال حق أو إحقاق باطل، كالذي يدفع مالًا لمسؤول بيده الأمر، ولّاه إياه ولي أمر المسلمين، ليُبطل له حقاً أو يُحقّ له باطلًا، فهذا النوع من أخبث الرُّشَا وأخسّها، وصاحبه من أهل النار؛ لأنه أخذ هذا الأخذ الخسيس الخبيث الخائن، وهذه الفاحشة الباطنة، يريد أن يحقق بها ما أبطله الله، ويبطل بها ما أحقه الله، فعلينا جميعاً أن نعلم أن مثل هذه الأفعال بالغة من الخساسة والانحطاط ما ينبغي لمن كان له [عقل][1] حتىٰ ولو لم يكن له دين، وله نخوة وإنسانية وضمير أن يتباعد عن هذا الخلُق الخسيس المنحط؛ لأن أكبر نعمة في الدنيا يراها الإنسان أن يكون إذا راجع نفسه فيجد نفسه مرضياً ضميره، لم يرتكب خسيسة، ولا شيئاً يفضحه، هذه أكبر نعمة. وأخسّ الأشياء: الذي يرتكب الخسائس والفواحش الباطنة، مستخفياً بها من الناس، ولم يستخف بها من الله، يتجرأ على خالق السماوات والأرض، ويستخفي من الناس [وكان الواجب عليه أن يراقب ربه، ويجتهد في أن يُقدم للناس][2] خدمة نزيهة إنسانية، يلقى بها ثوابه عند الله، ويرضي بها ضميره، ويرضي بها الحَفَظَة الملازمين له، مع أنه يتقاضى من بيت مال المسلمين

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

(٢) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

على ذلك شيئاً يسد أَوَدَه وخَلَّته، لئلا يضطر إلى ما لا ينبغي، فعلى هذا المسلم أن ينزه ضميره، ويكرم ربه، ويكرم الملائكة الذين معه، وأن يكرم ولي أمر المسلمين الذي حطّه في ذلك الموضع، ولا يخون؛ لأن الإنسان إذا كان يجيئه مسكين ضعيف، له حق ثابت له شرعاً، سواء كان إدارياً أو قضائياً، ثم إنه يُسوِّفه، ويقول له: بعد بُكْرَة، ثم بعد بُكْرَة، ثم بعد أسبوعين!! وهو حقه جاهز لا شيء دونه ولا عقبة، ولم ينقصه إلا التوقيع، يريد بذلك أن يضطر المسكين إلى أن يعتصر منه فلوساً ظلماً بسطوة الحكومة وسلطتها، خيانة ومكراً وغدراً!! فهذا الشيء الذي يعرق منه الجبين، فعلى الإنسان أن يتجنبه كل التجنب؛ لأنه مما بَطَنَ من الفواحش، ومع شدة حرمته عند الله، وخساسته من جميع الوجوه، وأن صاحبه لم يتق الله، بل خاف الناس، ولم يفعله أمام الناس خوفاً من الناس، ولم يتق خالقه الذي شق عينيه، وفتح فمه وأنفه، ولم يتق الحَفَظَة الكاتبين معه. فهذه أمور فظيعة شنيعة، نرجو الله أن ينقذنا وإخواننا المسلمين من الوقوع في أمثالها من السفالات التي تربأ الحمير عنها بأنفسها؛ لأن هذا أمر قبيح، والأمر إذا كان جامعاً بين شدة القبح وشدة التحريم عند الله فلا ينبغي للعاقل أن يرتكبه.

إن للعارِ فاخْشَها مُوبِقَاتِ تُتَّقى مثل موبقاتِ الذنوبِ[1]

وعلى كل حال فهذه الآية الكريمة - من سورة الأنعام - نهى الله فيها جميع خلقه عن أن يقربوا من خصلة خسيسة محرمة، أن يقربوا منها فضلًا عن أن يرتكبوها، سواء كان في الظهور والعلن بحيث يراه الناس، أو في الباطن بحيث لا يطلع عليه إلا الله والحفظة الكرام الكاتبون معه، والله (جل وعلا) يقول: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: آية ١٨] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: آية ١٦] فعلى كل مسلم إذا قام بخدمة لأمته أن يخدم أمته بشرف وكرامة ونزاهة؛ ليرضي

(١) لم أقف عليه.

بذلك الله، ويرضىٰ عنه الحفظة الذين معه، ولا يرفعوا عنه في ليله ونهاره إلى السماء إلا عملا يبيض وجهه، ويرضي الله، ثم يكون مُرضياً ضميره، أما الذي يُلغي هذه الأوامر، ويتنازل إلى هذه الخسة لينال عرضاً قليلاً من الدنيا فهذا ساقط المروءة والدين، وهو عند الله في شرّ مكانة - والعياذ بالله - ألا ترون أن عنترة بن شداد كافر لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولم يأته نذير، بل هو جاهلي، إلا أن عنده ضميراً حياً، وشيمة عربية، يقول في معلقته[١]:

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظَلُّهُ ... حتى أنالَ به كريمَ المأكَلِ

فالذي يكون غير محتاج، وهو يقع في هذه المآثم الخسيسة، هذا لا ينبغي، فنحن نحذر منه إخواننا، ونرجو الله لنا وللجميع أن يوفقهم إلى ما يرضيه من نزاهة تليق، ومعاملة سليمة، والقيام بالخدمة على الوجه اللائق الذي يرضي الله، ويرضي الضمير الإنساني، ويرضي ولي الأمر الذي جعل الشخص ممثلًا له في ذلك المحل. والآية عامّة.

هذا معنى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] لا شك أن قتل النفس التي حرم الله أنه داخل في (الفواحش). إن فعله علناً أمام الناس فهو داخل فيما ظهر، وإن قتله غيلة من حيث لا يراه الناس فهو داخل فيما بطن؛ لأن قتل النفس من الفواحش، والله (جل وعلا) خصّه مع أنه داخل في العموم، وفي ذلك حكمتان[٢]:

أحدهما: تفظيع القتل وتهويل أمره؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: آية ٩٣].

النكتة الثانية: أن القتل منه ما هو بحق، فلا بد أن يُستثنىٰ بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] والاستثناء

---

(١) ديوان عنترة ص (٩٨).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٥٢/٤)، الدر المصون (٢١٩/٥).

الذي هو ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لا يمكن حتى يُخرج القتل من عموم الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: التي حرم الله قتلها بأن جعلها معصومة. والنفس المعصومة: هي المعصومة بـ (لا إله إلا الله) من أنفس المسلمين. والمعصومة بأداء الجزية كالذميّين الذين يُؤَدُّون الجزية عن يد وهم صاغرون. فعِصْمَة دمائهم وأموالهم كالمسلمين. وكذلك المعاهدون الذين يعطيهم الإمام أو غيره من المسلمين عهداً؛ لأن المسلمين يقوم أدناهم - يعني - بعهدهم، فلو أعطى الإمام عهداً لمعاهد يدخل (. . .)[1] فهو إذاً من النفس المحرمة. وجاء في قتله أحاديث مشددة، أن صاحبه لا يشم ريح الجنة.

فالنفس التي حرم الله: إما بالإسلام، وإما بالذمة، وإما بالمُعَاهَدَة.

فقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: لا تقتلوها إلا بالطريق الحق الموجبة لقتلها[2] شرعاً عند الله، وهذه الطريق حصرها النبي ﷺ في حديث ابن مسعود المتفق عليه في ثلاث حيث قال: «**لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[3] يعني: المرتد؛ لأن في الحديث الصحيح: «**من بدل دينه فاقتلوه**»[4] هذا الحديث الصحيح حصر قتل النفس بالحق في ثلاثة أشياء، وزاد العلماء على هذه الثلاثة أشياء أخرى دلت عليها نصوص[5]، منها ما هو مختلف فيه.

زاد بعضهم على هذا: المحاربين، على قول مالك ومن وافقه أن آية

---

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، والمعنى مستقيم بدونها.

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/٢٢٠)، القرطبي (٧/١٣٣).

(٣) أخرجه البخاري في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ. . .﴾ حديث رقم: (٦٨٧٨)، (١٢/٢٠١). ومسلم في القسامة، باب ما يباح به دم المسلم. حديث رقم: (١٦٧٦)، (٣/١٣٠٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنهما.
وقد جاء نحوه من حديث عائشة وعثمان (رضي الله عنهما) مع تغاير في الألفاظ، وليس شيء منها في أحد الصحيحين.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٥) انظر: جامع العلوم والحكم (١/٣٢٣ - ٣٣٥)، الفتح (١٢/٢٠٢ - ٢٠٤).

المحاربين لم تتنزل على أحوال؛ لأن مالكاً لا يقول ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ [المائدة: آية ٣٣] أي: إذا قتلوا ﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ إذا قتلوا وأخذوا المال ﴿أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ إذا أخافوا الطريق ولم يقتلوا ولم يأخذوا مالًا. التنزيل على هذه الأحوال، يقول مالك وجماعة من فقهاء الأمصار[1]: إن هذا ليس بصحيح، وإن القرآن العظيم لا يجوز أن تُزاد فيه قيود لم يدل عليها كتاب ولا سنة. وهذه القيود التي عليها جماهير من العلماء لم يأتِ بها نص صحيح، وإنما جاء فيها حديث عن أنس ضعيف، لم يقل أحد بصلاحيته للاحتجاج[2]. فقولٌ عند مالك ومن وافقه في التخيير يقولون: إن الإمام مُخيّر بين هذه الثلاثة، إن شاء قتلهم وإن لم يقتلوا ولم يأخذوا مالًا، وإن شاء قطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف وإن لم يقتلوا ولم يأخذوا مالًا، وإن شاء نفاهم من الأرض. وعلى هذا القول فقتل النفس بالحرابة جائز على الثلاثة.

ومما يزداد على الثلاثة ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: «**إذا بُويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما**»[3] هذا نص من النبي ﷺ على أن الناس إن بايعت خليفة ثم جاء واحد آخر فبويع له فإنه يُوجب شق العصا وإراقة دماء المسلمين، فيُقتل الأخير ليستتب الأمن، وتتفق كلمة المسلمين على الأول الذي بايعوه. وفي صحيح مسلم من حديث عرفجة (رضي الله عنه): «**من أتاكم وأمركم واحد، على رجل واحد، يريد شق عصاكم، وتفريق جماعتكم، فاقتلوه**» وفي رواية: «**فاضربوا عنقه**»[4]، وفي صحيح مسلم من حديث عبدالله بن

---

(١) انظر: القرطبي (٦/١٥٢).

(٢) وفيه: «قال أنس: فسأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام عن القضاء فيمن حارب فقال: من سرق وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقته، ورجله بإخافته، ومن قتل فاقتله...» أخرجه ابن جرير ـ وأشار لضعفه ـ في التفسير (١٠/٢٥٠، ٢٦٧) وفي سنده ابن لهيعة، والكلام فيه معروف. وانظر النسائي (٧/٩٨).

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة، باب إذا بُويع لخليفتين. حديث رقم: (١٨٥٣)، (٣/١٤٨٠).

(٤) مسلم في الإمارة، باب حكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع. حديث رقم: (١٨٥٢)، (٣/١٤٧٩).

عمرو بن العاص: «**من بايع إماماً وأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر**»(١)، هذه أحاديث ثابتة عن صحابة بقتل هذه النفس، زيادة على الثلاث المذكورة.

وزاد جمهور العلماء عليها تارك الصلاة(٢)، فإن جمهور العلماء ـ منهم مالك، والشافعي، وأحمد ـ على أن تارك الصلاة يُقتل. واستدلوا على قتله بمفاهيم كثيرة من أحاديث كثيرة وآيات، كقوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥] وكقصة الرجل الثابتة في الصحيح، الذي تكلم في النبي ﷺ وقال: قِسْمَة ما أُريد به وجه الله!! فقال بعض الصحابة: دعني أضرب عنقه. قال: «**أليس يُصلي**»؟! قال: يُصلي ولا صلاة له!! قال: «**أولئك الذين نهيت عن قتلهم**»(٣) يعني: المصلين. فدل

---

(١) مسلم في الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول. حديث رقم: (١٨٤٤)، (١٤٧٢/٣).

(٢) انظر: التمهيد (٢٢٤/٤) فما بعدها، الاستذكار (٣٤١/٥) فما بعدها، المغني (٢٩٨/٢ ـ ٣٠٢)، (٨٥/١٠)، نيل الأوطار (٢٨٧/١)، كتاب الصلاة لابن القيم.

(٣) ما ذكره الشيخ (رحمه الله) هنا مركب من حديثين وَهِمَ الشيخ (رحمه الله) فأدخل أحدهما في الآخر.

أما الأول: فمن حديث ابن مسعود (رضي الله عنه) ولفظه: قسم النبي ﷺ قَسْماً، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «**يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**».
وقد أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخُمس ونحوه. حديث رقم: (٣١٥٠)، (٢٥١/٦). وأطرافه في: (٣٤٠٥، ٤٣٣٥، ٤٣٣٦، ٦٠٥٩، ٦١٠٠، ٦٢٩١، ٦٣٣٦). ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم. حديث رقم: (١٠٦٢)، (٧٣٩/٢).

وأما الحديث الثاني: فهو من حديث عبدالله بن عدي الأنصاري (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ بينا هو جالس بين ظهراني الناس جاء رجل يستأذنه أن يُسَارّه، فأذن له فَسَارّه في قتل رجل من المنافقين يستأذنه فيه، فجهر رسول الله ﷺ بكلامه فقال: «**أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟**» قال: بلى، ولا شهادة له. قال: «**أليس يشهد أن محمداً رسول الله؟**» قال: بلى، ولا شهادة له. قال: «**أليس يصلي؟**» قال: بلى، ولا صلاة له. قال: «**أولئك الذين نُهيت عن قتلهم**».
وهذا الحديث بعضهم يرويه موصولاً مسنداً، وبعضهم يرويه عن عبيدالله بن عدي بن الخيار ـ وهو الذي رواه عن عبدالله بن عدي الأنصاري ـ مرسلاً.

بمفهومه على أن الذي لا يُصلي أنه يُقتل، وفي الحديث المشهور في صحيح مسلم أن النبي ﷺ لما ذكر أئمة السوء، وأنه سيلي عليكم قوم تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم. قالوا له: أفلا نقاتلهم؟ قال: «**لا ما أقاموا فيكم الصلاة**»[1]، فدل على أن المانع من قتلهم إقامة الصلاة. والأحاديث في مثل هذا كثيرة؛ ولذا كان ثلاثة من الأئمة على أن تارك الصلاة يُقتل. ومشهور مذهب مالك، ومذهب الشافعي، أنه يقتل حداً لا كفراً، بناء على حديث عبادة بن الصامت الذي يقول فيه: «**إنها خمس صلوات كتبهن الله**» ـ إلى أن قال في آخر الحديث ـ: «**ومن لم يأتِ بها فَأَمْرُه إلى الله، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه**»[2]. وكان الإمام أحمد في أصح الروايتين يرى أن تارك الصلاة يُقتل كفراً[3]. وقد دلت على ذلك أحاديث كثيرة: «**من ترك الصلاة فقد كفر**»، «**العهد الذي بيننا وبينهم ترك الصلاة**»[4]

وقد أخرجه مالك في الموطأ (١١٩)، والشافعي في الأم (١٥٧/٦)، وعبدالرزاق (١٦٣/١٠)، وأحمد (٤٣٢/٥ ـ ٤٣٣)، وعبد بن حميد (١٧٧/١)، والبيهقي (٣٦٧/٣)، وابن حبان (الإحسان ٥٨٤/٧)، والمرزوي في تعظيم قدر الصلاة (٩١٢/٢ ـ ٩١٤). وللحديث شواهد، انظر: التمهيد (١٤٩/١٠).

(١) مسلم في الإمارة، باب: خيار الأئمة وشرارهم. حديث رقم: (١٨٥٥)، (١٤٨١/٣).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، في صلاة الليل، باب الأمر بالوتر. حديث رقم: (٢٦٦) ص (٩٠)، وعبدالرزاق رقم: (٤٥٧٥) وأحمد (٣١٥/٥ ـ ٣١٦، ٣١٩)، وابن أبي شيبة (٢٩٦/٢)، والحميدي رقم: (٣٨٨)، والدارمي (٣٧١/١)، وأبو داود في الصلاة، باب المحافظة على وقت الصلوات. حديث رقم: (٤٢١)، (٩٣/٢) وفي باب: فيمن لم يوتر، حديث رقم: (١٤٠٧)، (٢٩٤/٤)، والنسائي في الصلاة، باب المحافظة على الصلوات الخمس. حديث رقم: (٤٦١)، (٢٣٠/١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء في فرض الصلوات الخمس. حديث رقم (١٤٠١)، (٢٤٩/١)، والبيهقي (٣٦١/١)، (٨/٢، ٢١٥، ٤٦٧).

والحديث صححه ابن عبدالبر في التمهيد (٢٨٨/٢٣)، وساق طرقه في الاستذكار (٢٦١/٥) وانظر: صحيح أبي داود (٨٥/١، ٢٦٦)، صحيح النسائي (١٠٠/١)، المشكاة رقم: (٥٧٠).

(٣)(٤) الجملتان من حديث واحد عن بريدة (رضي الله عنه) مرفوعاً. أخرجه أحمد (٣٤٦/٥)، والترمذي في الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة. حديث رقم: (٢٦٢١)، (١٣/٥ ـ ١٤)، والنسائي في الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة. حديث=

في أحاديث تُصرح بأنه كافر. وأكثر العلماء على أن قتله حد. وأصرح الأدلة تدل على أنه كافر. وهي أكثر وأشهر من حديث عبادة بن الصامت، إلا أن الجمهور الذين قالوا: إن قتله ليس بكفر، قالوا: إن النبيَّ ﷺ سماه كفراً، ولكنه قد يجيء في الشرع تسمية أشياء بالكفر وليست بمُخرجة عن الإسلام، كقوله: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»[(١)] والمراد: أنه ليس بكفر حقيقي. وكقوله ﷺ: «**إني رأيت النار، ورأيت أكثر أهلها النساء**». قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: «**بكفرهن**» هذا ثابت في الصحيح. فلما استُفسر عن كفرهن قال: «**يكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن كذا وكذا ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط**»[(٢)] واستدلوا بعموم الآيات، كقوله: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ**

رقم: (٤٦٣)، (٢٣١/١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة. حديث رقم: (١٠٧٩)، (٣٤٢/١)، والحاكم (٧/١).
وانظر: صحيح الترمذي (٣٢٩/٢)، صحيح ابن ماجه (١٧٧/١)، المشكاة، رقم: (٥٧٤) تخريج الإيمان لابن أبي شيبة (٤٦).

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر. حديث رقم: (٤٨)، (١١٠/١)، وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الحديث: (٦٠٤٤، ٧٠٧٦). ومسلم في الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**». حديث رقم: (٦٤)، (٨١/١).

(٢) روى هذا الحديث جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم) منهم:
١ ـ ابن عمر رضي الله عنهما عند مسلم في الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقصان الطاعات. حديث رقم (٧٩)، (٨٦/١).
٢ ـ أبو سعيد الخدري (رضي الله عنه) عند البخاري في كتاب الحيض، باب: ترك الحائض الصوم. حديث رقم: (٣٠٤)، (٤٠٥/١). وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (١٤٦٢، ١٩٥١، ٢٦٥٨)، ومسلم في صلاة العيدين، حديث رقم: (٨٨٩)، (٦٠٥/٢).
وراجع في حديث أبي سعيد أيضاً: البخاري، الأحاديث: (١٠١، ١٢٤٩، ٧٣١٠)، ومسلم حديث رقم: (٢٦٣٣).
٣ ـ زينب امرأة ابن مسعود، عند الترمذي في الزكاة، باب ما جاء في زكاة الحلي. حديث رقم: (٦٣٥، ٦٣٦)، (١٩/٣).
وأصله في الصحيحين، البخاري في الزكاة، باب الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر. حديث رقم: (١٤٦٦)، (٣٢٨/٣)، ومسلم في الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين. حديث رقم: (١٠٠٠)، (٦٩٤/٢).

لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: آية ٤٨] فالحاصل أن جمهور العلماء وفقهاء الأمصار ـ منهم الأئمة الثلاثة ـ على أن تارك الصلاة يُقتل؛ لأن الله يقول: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥].

أما مانع الزكاة فإنه يقاتل. يُقال له: أخرج الزكاة. فإن أبىٰ أُخرجت قسراً عليه. فإن منعها قُوتل دونها[١]. والقتال غير القتل، وهو الذي فعله أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) مع مانع الزكاة، قاتلهم. فالذي يُفعل بمانع الزكاة قِتال لا قتل؛ لأنه يُؤمر بإخراجها، فإن أبى أُخِذَت منه قهراً، فإن جاء دونها قُوتل حتى يُقتل. هذا هو المعروف.

وفي كون تارك الصلاة يُقتل عند الجمهور، عند من يقول إنه يُقتل كفراً، وهو مشهور مذهب الإمام أحمد، وهو رواية عن مالك، ودلت عليه أحاديث صريحة صحيحة في صحيح مسلم وغيره، أنه كافر. وعلى قول مالك والشافعي: أنه يُقتل حداً، قالوا: لم يُعرف عن السلف أن الذي كان لا يصلي أنهم لا يرثون بعده، ويجعلونه كالكافر المرتد الذي يُرد نصف ماله إلى بيت مال المسلمين. هكذا قالوا، والخلاف مشهور. فبهذا نعلم أن تارك الصلاة: الشرع يقتله، وأن الحياة التي يعيش بها ليست حياة شرعية، والمعدوم شرعاً كالمعدوم حسّاً. فمثال تارك الصلاة عند أرباب العقول مثال الميتة الإنسان الميت الذي هو منتن في ريحه، فيمشي بين الناس يأكل ويشرب؛ لأن حياته التي يعيش بها ليست حياة شرعية، وإنما هي حياة غير شرعية، والمعدوم شرعاً كالمعدوم حساً.

وخالف في هذا أبو حنيفة الجمهور، فقال: لا يُقتل تارك الصلاة[٢]. واستدل بحديث ابن مسعود أن النبيَّ ﷺ حصر القتل في ثلاث «**لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث**»، قال أبو حنيفة: هذا حصر من النبي ﷺ في ثلاث، ولم يذكر فيها تارك الصلاة، فلا

---

(١) انظر: المغني (٢/٤٣٥ ـ ٤٣٨).

(٢) مضى قريباً عند تفسير هذه الآية.

يمكن أن نخرق هذا الحصر، مع أن قتل تارك الصلاة أغلب أدلته مفاهيم الأحاديث، وظواهر من آيات لا تكون مثل الصريح في قوله: **«لا يحل قتل امرىء مسلم، إلا بإحدى ثلاث»**[١] هذا مذهب أبي حنيفة ووجهة نظره.

وزاد بعض العلماء أشياء أُخر، منها: الساحر، فإنه يُقتل عند العلماء[٢]، وجاء في بعض روايات البخاري من حديث بَجَالَة: **«اقتلوا كل ساحر وساحرة»**[٣] وثبت عن ثلاثة من الصحابة قتل الساحر، عن عمر بن الخطاب[٤]، وحفصة أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب[٥]، وجندب (رضي الله عنه) في قتلته المشهورة للساحر الذي كان عند الوليد بن عقبة بن أبي معيط في أيام عثمان بن عفان (رضي الله عنه)[٦].

وزاد بعض العلماء: من زنىٰ ببهيمة من البهائم. فإن بعض العلماء

---

(١) مضى قريباً عند تفسير هذه الآية.

(٢) انظر الفتح (١٠/٢٣٦)، الاستذكار (٢٥/٢٣٧) فما بعدها.

(٣) هذا الأثر قطعة من كتاب عمر لبعض عماله، فهو موقوف عليه. وقد أخرجه عبدالرزاق (٩٩٧٢، ٩٩٧٣، ١٨٧٤٥ ـ ١٨٧٤٦، ١٨٧٤٨، ١٨٧٥٦)، وأحمد (١/١٩٠ ـ ١٩١)، وأبو عبيد في الأموال رقم: (٧٧) ص (٣٥)، وأبو داود في الخراج والفيء والإمارة، باب في أخذ الجزية من المجوس. رقم: (٣٠٢٧)، (٨/٢٩٤)، وأبو يعلى رقم: (٨٦٠، ٨٦١)، (٢/١٦٦ ـ ١٦٣)، والبيهقي (٨/١٣٦، ٢٤٧ ـ ٢٤٨)، وابن حزم في المحلى (١١/٣٩٤، ٣٩٧)، وابن عبدالبر في الاستذكار (٣٧٩٤٢ ـ ٣٧٩٤٣). وقد أخرج البخاري أصل الحديث من غير موضع الشاهد، كما في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب. رقم (٣١٥٦)، (٦/٢٥٧). كما أخرجه مختصراً من غير موضع الشاهد آخرون كالشافعي في الرسالة، والأم، والدارمي، والترمذي، والطيالسي، وغيرهم.

(٤) راجع الأثر المتقدم. وورد من فعله ـ أيضاً ـ عند عبدالرزاق، رقم: (١٨٧٥٥)، وابن حزم في المحلى (١١/٣٩٧).

(٥) أخرجه مالك في الموطأ في كتاب العقول، باب ما جاء في الغيلة والسحر. رقم: (١٥٨٥) ص (٦٢٨). عن محمد بن عبدالرحمن بن سعد بن زرارة بلاغاً. وقد جاء موصولاً عند عبدالرزاق رقم (١٨٧٤٧، ١٨٧٥٧)، والبيهقي (٨/١٣٦)، وابن عبدالبر في الاستذكار (٣٧٩٢١ ـ ٣٧٩٢٤)، وابن حزم في المحلى (١١/٣٩٤، ٣٩٥).

(٦) أخرجه عبدالرزاق (١٠/١٨١ ـ ١٨٢)، والبيهقي (٨/١٣٦)، وابن عبدالبر في الاستذكار (٢٥/٢٤٠)، وابن حزم في المحلى (١١/٣٩٦).

يقول: من وقع على بهيمة من البهائم قُتل هو وقُتلت هي. وهذا ورد فيه حديث أخرجه أبو يعلىٰ وابن ماجه، قال صاحب مجمع الزوائد في السند الذي أخرجه به أبو يعلىٰ: فيه محمد بن عمرو بن علقمة، وحديثه حسن، وبقية رواته ثقات، فهو صالح للاحتجاج[١]. أما حديث ابن ماجه، وهو من رواية داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس[٢]. وبعض علماء الحديث يقولون: داود بن الحصين ثقة في غير عكرمة. كما هو معروف في محله[٣]. ففي ظاهر حديث ابن عباس هذا الذي أقلّ درجاته الحُسْن أخذ بعض العلماء، فقال: يُقتل الزاني بالبهيمة، وتُقتل البهيمة معه. ومن العلماء من يقول: لا يُؤكل لحمها. ومنهم من يقول: يُؤكل لحمها. كما هو معروف في الفروع[٤]. وأكثر العلماء يقولون: من زنىٰ ببهيمة لا يُقتل؛ لأن حديث ابن مسعود الذي حصر أكثر القتل في ثلاث لا يُنقض حصره بهذا الحديث الذي سنده أضعف منه[٥].

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٥٩٨٧)، (٣٨٩/١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الحافظ في التلخيص (٥٥/٤): «وفي إسناده كلام» ا.هـ. وقال الهيثمي (٢٧٣/٦): «رواه أبو يعلى، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة، وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات» ا.هـ. وانظر: الإرواء (١٥/٨).

(٢) أخرجه عبدالرزاق (١٣٤٩٢)، وأحمد (٢٦٩/١، ٣٠٠)، وأبو داود في الحدود، باب فيمن أتى بهيمة. حديث رقم: (٤٤٤٠)، (١٥٧/١٢) وقال: «ليس هذا بالقوي» ا.هـ. والترمذي في الحدود، باب ما جاء فيمن يقع على البهيمة. حديث رقم: (١٤٥٥)، (٥٦/٤)، وابن ماجه في الحدود، باب من أتى ذات محرم، ومن أتى بهيمة. حديث رقم: (٢٥٦٤)، (٨٥٦/٢)، والبيهقي (٢٣٢/٨، ٢٣٣، ٢٣٤)، والحاكم (٣٥٥/٤) والدارقطني (١٢٦/٣ ـ ١٢٧)، وأبو يعلى (٢٤٦٢، ٢٧٤٣)، (٣٤٦/٤ ـ ٣٤٧، ١٢٨/٥ ـ ١٨٩) من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) قال الحافظ في التلخيص (٥٥/٤): «وفي إسناد هذا الحديث كلام» ا.هـ وانظر: الدراية (١٠٤/٢)، نصب الراية (٣٤٢/٣)، الإرواء (١٣/٨)، صحيح أبي داود (٨٤٤/٣)، صحيح ابن ماجه (٨٣/٢)، صحيح الترمذي (٧٥/٢).

(٣) انظر: تهذيب التهذيب (١٥٧/٣)، التقريب ص (٣٠٥).

(٤) انظر: المغنى (١٦٤/١٠ ـ ١٦٥).

(٥) المصدر السابق: (١٦٣/١٠ ـ ١٦٤).

وزادوا أيضاً: فاعل فاحشة اللواط، فإنه جاء حديث عن النبيِّ ﷺ: «**من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»[(١)] وهذا الحديث أخرجه أحمد، والترمذي، والبيهقي، والحاكم، وغيرهم، وصحَّحه بعض الحفاظ، وبه عمِل جماعة من العلماء، قالوا: إن من فعل فاحشة قوم لوط إنه يُقتل الفاعل والمفعول معاً. ففي هذا الحديث زيادة على الثلاثة. فهذه أشياء دلت عليها نصوص أُخر اختلف فيها العلماء، فمن يقول: «إن صاحبها يُقتل». يقول: «هي داخلة في قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾». ومن يقول: «إن صاحبها لا يُقتل». يقول: «لم تدخل في قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ لأنها عارضها ما هو أقوى منها، وهو حديث ابن مسعود المتفق عليه: «**لا يحل دم امرىء مسلم**» الحديث»[(٢)]. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

ثم قال جل وعلا: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: آية

---

(١) أخرجه عبدالرزاق (١٣٤٩٢)، وأحمد (٣٠٠/١)، وأبو داود في الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط. حديث رقم: (٤٤٣٨)، (١٥٣/١٢)، والترمذي في الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي. حديث رقم: (١٤٥٦)، (٥٧/٤)، وابن ماجه في الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط (٢٥٦١)، (٨٥٦/٢)، والدارقطني (١٢٤/٣)، والبيهقي (٢٣٢/٨)، والحاكم (٣٥٥/٤)، وأبو يعلى (٢٤٦٣، ٢٧٤٣)، (٣٤٨/٤، ١٢٨/٥ ـ ١٢٩)، وابن الجارود (١١٩/٢ ـ ١٢٠) من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما).
وانظر: الدراية (١٠٣/٢)، نصب الراية (٣٣٩/٣)، الإرواء (١٦/٨ ـ ١٧)، صحيح أبي داود (٨٤٤/٣)، صحيح الترمذي (٧٦/٢)، صحيح ابن ماجه (٨٢/٢ ـ ٨٣)، المشكاة (٣٥٧٥). وضعفه الحافظ في الفتح (٢٠٤/١٢).
وجاء نحوه أيضاً من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند الترمذي في الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي (٥٨/٤). وقال: «هذا حديث في إسناده مقال، ولا نعرف أحداً رواه عن سهيل بن أبي صالح غير عاصم بن عمر العمري، وعاصم بن عمر يُضعف في الحديث من قِبَل حفظه» ا.هـ.
قال الحافظ في التلخيص (٥٤/٤): «وإسناده أضعف من الأول ـ يعني حديث ابن عباس ـ بكثير» ا.هـ. وقال أيضاً (٥٥/٤): «وحديث أبي هريرة لا يصح» ا.هـ. وكذلك ضعفه في الفتح (٢٠٤/١٢).
وانظر: نصب الراية (٣٤٠/٣)، الدراية (١٠٣/٢)، الإرواء (١٧/٨).

(٢) مضى قريباً عند تفسير هذه الآية.

١٥١]. الإشارة مفردة، والمُشار إليه كثير؛ لأن هذا شامل لـ ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ هذه الآية الأولى من هذه الآيات المحكمات تضمنت خمسة أحكام شرعها الله في جميع الأديان، ولم يَنْسَخ شيئاً منها في لسان نبي. والمعنى: ذلكم المذكور؛ لأن (ذا) إشارة إلى مفرد، والمشار إليه جماعة. وهذا معروف في كلام العرب أن يُشيروا إلى التثنية أو الجمع بإشارة المفرد؛ لأن المقصود: (ذلكم المذكور) وقد أوضحنا هذا في البقرة[١]، في الكلام على قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ﴾ [البقرة: آية ٦٨] أي بين ذلك المذكور من الفارض والبكر فرجع المفرد على الاثنين ونظيره من كلام العرب: قول عبدالله بن الزبعرى[٢]:

إن للخيرِ وللشرِّ مَدَى   وكِلاَ ذلك له وجهٌ وقَبَل

فأشار بـ (ذلك) إلى اثنين. ولمّا سُئل رؤبة بن العَجاج في رَجَزِيَّتِه القَافِيَّة المشهورة، قال فيها[٣]:

فيها خُطوطٌ من سَوادٍ وبَلَق   كأنه في الليل تَوْليعُ البَهَق

فقال له قائل: لِم قلت: «كأنه» بإفراد الضمير المذكر، إن كنت تعني الخطوط كان اللازم أن تقول: «كأنها» وإن كنت تعني السواد والبلق كان اللازم أن تقول: «كأنهما» فمن أين جئت بقوله: «كأنه»؟ قال: أعني (كأنه) أي: جميع ما ذُكر. ولذلك قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: جميع ما ذُكر من الأحكام الخمسة وصى به الله. وهذه الآية الكريمة فيها سرّ لطيف؛ لأن الذي يوصيك كأنه يعتني بك، ويجعل الأمر إليك.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

والوصية في لغة العرب: هي الأمر المؤكد[١]. تقول: «أوصيتُ فلاناً على كذا». أمرته به أمراً موكداً.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور ﴿وَصَّىٰكُم﴾ الله ﴿بِهِۦ﴾ على لسان نبيّه محمد ﷺ، أمركم به ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (لعل) في القرآن فيها أقوال معروفة للعلماء[٢]، أقربها وأشهرها قولان:

أحدها: أنها على بابها من الترجي. والمعنى: ذلكم وصاكم به على رجاء أنكم تعقلونه عن الله. وهذا الرجاء منصرف إلى الآدميين الذين لا يعرفون عواقب الأمور، أما هو (جل وعلا) فهو عالم عاقبة الأمور، وما يجري عليه معنى (لعل)؛ ولذا قال لموسىٰ وهارون في فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: آية ٤٤] أي: على رجائكما أنه يتذكر، والله يعلم أنه لا يذكر ولا يخشى.

القول الثاني: هو ما قالته جماعة من علماء التفسير: أن كل (لعل) في جميع القرآن معناها التعليل إلا التي في الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: آية ١٢٩] زعموا أنها بمعنى: (كأنكم).

والتحقيق: أن (لعل) تكون حرف تعليل. هذا لا شك فيه، وعليه فالمعنى: وصاكم به لأجل أن تعقلوا هذه الوصية عنه، فتمتثلوا أمره. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: آية ٧٨] أي: جعل لكم هذه الأسباب والنعم لأجل أن تشكروه. ومن إتيان (لعل) في كلام العرب بمعنى التعليل قول الشاعر[٣]:

فقُلتُم لنا كفُّوا الحروبَ لعلَّنا نكفُّ ووثقتُم لنا كل مَوْثِق
فلما كففنا الحرب كانت عهودكم كَشِبْه سراب بالمَلا مُتألق

---

(١) انظر: القرطبي (١٣٤/٧)، البحر المحيط (٢٥٢/٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

فقوله: «كفوا الحروب لعلنا نكف» أي: كفُّوا عنّا لأجل أن نكف عنكم. هذا معروف في كلام العرب.

وقوله: ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ معناه: تدركون بعقولكم؛ لأن العقل هو الذي فيه الإدراك. والعقل: نور روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية. وقد ذكرنا فيما مضى أن مركزه القلب لا الدماغ[1]، كما صرح به الله، وصرح به نبيُّه ﷺ. ولا شك أن من خلق العقل، وأبرزه من العدم إلى الوجود، أنه أعلم بموضعه من كفرة الفلاسفة، الذين يتحكمون على الله، ويخالفونه من غير دليل ولا برهان. وهؤلاء الذين ينفون هذا لأنهم يقولون ـ زعموا ـ أن بعض الناس صار يُجعل له قلبُ واحدٍ آخر. ولو أن هذا ـ لو فرضنا ـ صح، وأنه يدل على أن العقل ليس في القلب، فهذا لا دليل فيه؛ لأن العقل أصله نور روحاني ـ آلة للنفس ـ تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية، ومحله القلب الذي في الصدر، كما قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦] فلو فرضنا أن الله خرق العادة وأزال القلب، ولم يمت الإنسان، لم يمنع أن يكون العقل باقياً في محله الذي كان فيه. وقد زالت الأداة الذي كان فيها. وكذلك لو جُعل قلب آخر، فقد دل القرآن في سورة النور أن القلب كأنه زجاجة، ونور الإيمان فيها الذي يُضاء به كأنه نور، وإذا انكسر الزجاجة فلا مانع من أن تأتي زجاجة أخرى ويكون فيها النور الذي كان في الزجاجة التي قبلها، وعلى كل حال فلا أحد أصدق من الله ولا من رسول الله ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: آية ١٤٠] والله يقول في نبيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤] وقد صرح الله ونبيه أن العقل محله القلب، ومن خلق العقل أعلم بمحل العقل، ونحن نعرف أن جميع ما يُؤثِّر على الدماغ يُؤثِّر على العقل، وهذا لا يقتضي أن يكون محل العقل الدماغ؛ لأنه

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

كم من موضع من الجسد إذا اختلت خانة من خانات الدماغ اختل ذلك الموضع وليس يلزم أن ذلك الموضع المختل كان محله في الدماغ، بل هو خارج عن الدماغ، مشروط بسلامة الدماغ، فالعقل محله القلب، ولكن سلامته مشروطة بسلامة الدماغ، وقد ذكرنا ما ذكره بعضهم جمعاً بين القولين: أن مركزه في القلب، كما قال الله ورسوله، وأن شعاع نوره متصل بالدماغ. فمن قال إنه في الدماغ على هذا قد يكون هذا سائغاً على هذا القول، بناء على أن شعاع نوره متصل بالدماغ، ولكن هذا القول قد قدمنا أنهم لم يستدلوا عليه إلا بدليل استقرائي غير مقنع. والدليل الاستقرائي: هو تتبع الأفراد، وهو حجة عند الأصوليين. قالوا: قد استقرينا نوع البشر، ووجدنا كل رجل أو امرأة إذا كان طويل العنق طولاً مُفرِطاً خارجاً عن عادة أعناق الناس، لا بد أن يكون في عقله دَخَل. قالوا: وذلك لتباعد ما بين طرفيّ العقل؛ لأنه إذا بعُد طرف نوره الأعلى من طرفه الأسفل قد يَتَغَشَّى النور الروحاني المعلوم الذي به الإدراك وينقص الإدراك. هكذا زعموا، ولا دليل عليه، والله أصدق من يقول.

يقول الله (جل وعلا): ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: آية ١٥٢].

قوله (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ كانت عادة العرب أن يأخذوا من اليتيم ماله الذي ترك أبوه، ويظلموه في حقه، ويظلموا المرأة، ويقولون: إن الذي يستحق المال هو من يحمي الذمار، ويُدافع عن الحريم، وهم الرجال الذين يستعينون بالمال على الدفاع، أما اليتيم والمرأة فإعطاء المال لهما ضياع له، وإذا كانوا يدفعون اليتيم عن حقه، ويظلمونه، كما في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون: الآيتان ١، ٢] والدَّع: الدفع

بقوة. أي: يدفعه بقوة عن حقه ويظلمه[1]. والله (جل وعلا) أرسل هذا النبي الكريم (صلوات الله وسلامه عليه) بكمال الإنصاف، ومكارم الأخلاق، والمحافظة على حقوق الضعيف الذي لا يقدر على الدفاع عن نفسه؛ ولذا نهى عن قُربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، ونهىٰ عن ظلم المرأة، وبيّن أن من ظلم المرأة تعرض إلى بطش ملك جبار عظيم، حيث قال في سورة النساء: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: آية ٣٤] أي: لا تظلموهن إن أطعنكم وكُنَّ غير ظالمات. ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ يعني: من يحافظ على حقوقهن، وينتقم لمن ظلمهن، عليٌّ كبيرٌ عظيمٌ، يُرْهَب منه، وتُخاف سطوته.

كذلك قال هنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ تكلمنا على الحكمة في النهي عن قُرب الشيء، وأن المراد بها سدّ الذريعة والتباعد منه بالكلية. ومال اليتيم: هو ماله الذي هو ملك له، سواء ورثه من أبيه، أو حصل له بطريق أُخرى. واليتيم (فَعِيْل) من اليُتم، واليُتم في لغة العرب معناه: الانفراد. تقول العرب: هذه يتيمة عصماء. يعنون: ياقوتة منفردة لا نظير لها. وإنما قيل لليتيم (يتيم) لانفراده عن وليه الذي من شأنه أن يقوم بأمره، وهو أبوه[2]. واليتيم في بني آدم: هو من مات أبوه وإن كانت أمه حيّة، ولا يُتم بعد بلوغ بإجماع العلماء[3]. فالبالغ لا يُسمىٰ يتيماً بإجماع العلماء. واليتيم: هو الصغير الذي لم يبلغ إذا كان أبوه قد مات، ولو كانت أمه حيّة. هذا هو اليتيم. ويُجمع على (يتامى)، ويستوي في الجمع ذكره وأُنثاه، تقول في جمع اليتيمة: يتامى. وفي جمع اليتيم: يتامى. كما تقدم في قوله: ﴿فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ [النساء: آية ١٢٧] والمعنى: إذا مات

---

(١) انظر: المفردات (مادة: دع) (٣١٤).

(٢) انظر: المصباح المنير (مادة: يتم) (٢٦٠)، المفردات (مادة: يتم) (٨٨٩).

(٣) انظر: المغني (٣٠٦/٧)، القاموس الفقهي ص ٣٩٢.

والد الإنسان، وبقي الطفل صغيراً مسكيناً لا يقدر على الدفاع عن نفسه، ولا يقدر على حفظ ماله، فلا تأخذوا ماله وتظلموه لضعفه، بل لا تقربوا ماله إلا بالتي هي أحسن. أي: إلا بالخصلة التي هي أحسن الخصال وأنفعها لليتيم، وذلك بالمحافظة عليه وتنميته، وتثميره بالتجارة في مواقع النظر والسداد، كما قالت عائشة: «اتجروا في أموال اليتامى لا تأكلها
٢٢/ب /الزكاة»[1]، فالتي هي أحسن: المحافظة عليه من الضياع. والتثمير: هو تنميته بالربح بالوجوه المأمونة، التي يغلب على الظن ـ بحسب العادة ـ أن فيها سلامة وربحاً لا ضياعاً، ومن التي هي أحسن: أن القائم على مال اليتيم ـ وإن اشتغل في حفظه والتجارة فيه ـ إن كان له مال لنفسه يأكل من مال نفسه، ويُثمّر لليتيم ماله مجاناً[2]، كما تقدم في قوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا

---

(١) الحديث بنحو هذا اللفظ جاء مرفوعاً إلى النبيِّ ﷺ بروايات متعددة (وكلها ضعيفة) منها:
١ ـ من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، عند الترمذي في الزكاة، باب ما جاء في زكاة مال اليتيم. حديث رقم (٦٤١)، (٣/٣٣). وأشار عقبه إلى ضعفه، وأخرجه أيضاً الدارقطني (٢/١١٠)، وأبو عبيد في الأموال (١٢٩٩)، والبيهقي (٤/١٠٧).
٢ ـ عن يوسف بن ماهك مرسلاً عند عبدالرزاق (٤/٦٦)، والشافعي في الأم (٢/٢٩)، وأبو عبيد في الأموال (١٣٠٠)، والبيهقي (٤/ ١٠٧).
وفي الكلام على هذه الرواية والتي قبلها، انظر: تنقيح التحقيق (٢/١٣٨٠ ـ ١٣٨٤، ١٣٨٦)، نصب الراية (٢/٣٣١ ـ ٣٣٢)، تلخيص الحبير (٢/١٥٧ ـ ١٥٨)، إرواء الغليل (٣/٢٥٨).
٣ ـ عن أنس بن مالك (رضي الله عنه). عند الطبراني في الأوسط (٤١٦٤).
انظر: نصب الراية (٢/٣٣٢)، التلخيص (٢/١٥٨)، الإرواء (٣/٢٥٩).
وقد ورد موقوفاً على عمر (رضي الله عنه)، عند مالك في الموطأ ـ بلاغاً ـ في الزكاة، باب زكاة أموال اليتامى والتجارة لهم فيها. حديث رقم: (٥٨٨) ص (١٦٧). كما أخرجه الشافعي في الأم (٢/٢٩)، وأبو عبيد في الأموال (١٣٠١)، وابن أبي شيبة (٣/١٤٩ ـ ١٥٠)، والدارقطني (٢/١١٠)، والبيهقي (٤/١٠٧).
وانظر: الاستذكار (٩/٨٢)، تنقيح التحقيق (٢/١٣٨٤)، نصب الراية (٢/٣٣٣) تلخيص الحبير (٢/١٥٨)، إرواء الغليل (٣/٢٥٩).
وإنما الذي ورد عن عائشة (رضي الله عنها) في هذا الباب إنما هو من فعلها. والله أعلم.
(٢) انظر: ابن جرير (١٢/٢٢١)، القرطبي (٧/١٣٤).

﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: آية ٦] وهذه من الدلالات على أن هذا الشرع الكريم شرع سماوي، يراعي حقوق الضعيف، ويحافظ على مكارم الأخلاق.

وقوله: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (حتىٰ) حرف غاية بمعنى (إلىٰ)، والمُغيَّا بها: النهي عن قرب مال اليتيم بغير التي هي أحسن، والمضارع بعد (حتىٰ)، منصوب بـ (أن) محذوفة، وهو في محل جر بـ (حتّى) والمعني بـ (حتىٰ): إلى. إلى أن يبلغ أشده. أي: إلىٰ بلوغ أشُده. وظاهر هذه الغاية ليس مراداً بإجماع العلماء[1]، إذ ليس المعنى: لا [تقربوا][2] ماله إلا بالتي هي أحسن، حتى يبلغ أشده، فإن بلغ أشده فاقربوه بغير التي هي أحسن. ليس هذا مراداً بإجماع العلماء، وإنما الغاية تتعلق بمحذوف دل المقام عليه، أي: فحتى يبلغ أشده، فإن بلغ أشده وآنستم منه رشداً فادفعوا إليه ماله.

وإنما كانت الغاية: لأنه إذا كان بالغاً أشده، مستكملًا قوته وعقله، لا يقدر أحد على أن يغتصب منه ماله، فهو كسائر الرجال.

والأشُد هنا: التحقيق الذي لا شك فيه أنه بلوغ الحُلم مع إيناس الرشد[3]؛ لأن خير ما يفسر به القرآن القرآن، وقد قال الله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: آية ٦] فدلت آية النساء على أن الأشُد في الغاية هنا: أنه أن يبلغ الحلم، ويُؤنس منه الرشد؛ لأن ببلوغ الحلم يتقوى بدنه ويكون في قوة الرجال، وبإيناس الرشد يتقوى عقله ونظره، فاجتمع أشده بدناً وفكراً ونظراً، فعند ذلك يُعطى ماله. وخير ما يُفسر به القرآن القرآن.

أما الأشُد من حيث هو: فهو يطلق على خمس وعشرين، وعلى ثلاثين سنة، وعلى أربعين، وعلى ستين، وعلى خمسين[4]. ومن إطلاقه

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٢٥٢)، الدر المصون (٥/٢٢٠)، أضواء البيان (٢/٢٧٨ ـ ٢٧٩).

(٢) في الأصل: «تبلغوا» وهو سبق لسان.

(٣) انظر: أضواء البيان (٢/٢٧٩).

(٤) انظر: ابن جرير (١٢/٢٢٢)، القرطبي (٧/١٣٥)، البحر المحيط (٤/٢٥٢)، الكليات ٥٤٠، الدر المصون (٥/٢٢١)، أضواء البيان (٢/٢٧٩، ٢٨٠).

على الخمسين قول سحيم بن وثيل الرياحي[١]:

أخو خمسين مجتمعٌ أَشُدِّي ونجّذني مُداورةُ الشؤون

فهذه الأقوال المروية عن العلماء في الأشد ـ من خمس وعشرين، ثلاثين، أربعين، خمسين، إلى ستين ـ لا ينبغي أن تُذكر في هذا الموضع؛ لأن بلوغ اليتيم أَشُدَّه صرح القرآن بأنه بلوغ الحلم مع إيناس الرشد، كما أوضحته آية النساء ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [النساء: آية ٦] أما أقوال العلماء في (الأشد) فينبغي أن تكون عند آية قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: آية ١٥] لأن بلوغ الإنسان الأَشُد بالنسبة إلى غير دفع ماله إليه هو الذي ينبغي أن تكون فيه الأقوال المعروفة[٢].

وكلام أهل اللغة في الأَشدّ معروف[٣]، قال بعضهم: الأَشُد واحد لا مفرد له من لفظه، وإتيان المفرد على وزن (أفْعُل) نادر جداً، ومنه قولهم: «آنُك» و (الآنُك) هو الرصاص. وهو مفرد على وزن (أفْعُل)، وقال سيبويه: الأشُد جمع (شِدَّة)، كنعمة وأَنْعُم، وشِدّة وأشْدُد، أصله: (أَشْدُد)، وعلماء العربية يقولون: إن قول الشيخ سيبويه من قبيل اللغة معروف؛ لأن العرب يقولون: بلغ الغلام شِدته. إذا قوي واشتد، إلا أن جمع (فِعلة) على (أفْعُل) لم يُعرف في كلام العرب. أما قول سيبويه: «إن النعمة تجمع على أنْعُم» فقد قالوا: ليس ذلك كذلك، وإنما الأنْعُم جمع نُعْم، كما تقول العرب: نُعْمٌ وأنْعُم، وبُؤْس وأَبْؤُس. و (الفُعْل) قد يُجمع على (أفْعُل). وقال بعض العلماء: الأَشُدُ جمع (شَدّ) ـ بالفتح ـ ككلب وأكْلُب، وشَدّ وأشْدُد.

والأشدّ: أصله (أشْدُد) حصل فيه الإدغام. وقال بعضهم: مفرده (شِدّ) بالكسر، كذئبِ وأَذْؤُب. وهذه أقوال العلماء فيه. والمعنى صائر إلى شيء واحد.

---

(١) البيت في القرطبي (١٣٥/٧)، أضواء البيان (٢٨٠/٢).

(٢) انظر: أضواء البيان (٢٨٠/٢ ـ ٢٨١).

(٣) انظر: البحر المحيط (٢٥٣/٤)، الدر المصون (٢٢٠/٥ ـ ٢٢١)، أضواء البيان (٢٧٩/٢).

والأَشُد هنا لا شك أنه بلوغ الحلم مع إيناس الرشد.

ومعنى (بلوغ النكاح) وهو بلوغ الحلم. وللبلوغ علامات معروفة عند العلماء[١]، منها السّن، وأكثر العلماء على أن سن البلوغ خمس عشرة سنة[٢]؛ لأن النبي ﷺ في بعض غزواته ردّ أبناء أربع عشرة سنة، وأذِن في الغزو لأبناء خمس عشرة سنة[٣]. فدل ذلك أنهم صاروا رجالًا. وعن مالك: أن أقله بالسن ثمان عشرة سنة. وعن أبي حنيفة: تفريق بين الذكور والإناث معروف في فروع المذاهب، وليس فيه تحديد بنص من النصوص، وإنما هي اجتهادات في تحقيق المناط، كل يقول: إذا بلغ هذه السن فقد بلغ مبلغ الرجال. وكان بعض العلماء واللغويين يرى أنه إذا كان خمسة أشبار أنه بلغ مبلغ الرجال[٤]. وهذا القول يُروىٰ عن علي بن أبي طالب، واعتمده الفرزدق في شعره حيث قال[٥]:

ما زالَ مُذْ عَقَدَتْ يداهُ إِزارَهُ فَسَما فأَدْرَكَ خَمْسَةَ الأَشْبَار
يُدْنِي خَوافِقَ مِنْ خَوافِقَ تَلْتَقي في ظِلِّ مُعتبط الغبارِ مثار

فقوله ببلوغه «خمسة الأشبار» يعني أنه بلغ مبلغ الرجال. وأسباب البلوغ كثيرة معروفة في الفروع، منها: إنبات العانة، وليس المراد به إنبات الشعر؛ لأن الشعر ينبت عليها من الطفل، وإنما المراد خشونة وغلوظة تعرض للمحل عند البلوغ. والعلماء يذكرون له أسباباً كثيرة، ومنها بلوغ الحلم، كما قال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ [النور: آية ٥٩] أي: صاروا بالغين مبلغ الرجال ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ ومعنى (بلوغ الحلم): أن الصبي إذا

---

(١) انظر: الفتح (٢٧٧/٥)، أضواء البيان (٢٧٩/٢).

(٢) أضواء البيان (٢٧٩/٢).

(٣) البخاري في الشهادات، باب بلوغ الصبيان وشهادتهم حديث رقم: (٢٦٦٤)، (٢٧٦/٥). وأخرجه في موضع آخر، انظر الحديث رقم: (٤٠٩٧).
ومسلم في الإمارة، باب بيان سن البلوغ. حديث رقم: (١٨٦٨)، (١٤٩٠/٣).

(٤) انظر: أضواء البيان (٢٧٩/٢).

(٥) البيتان في اللسان (مادة: خمس) (٩٠١/١)، ضياء السالك (١٥٣/٢)، أضواء البيان (٢٧٩/٢).

رأى في نومه أنه يجامع لا ينزل منه منيّ، بخلاف البالغ، إذا رأى في النوم أنه يجامع، فإنه ينزل منه المنيّ، وذلك معنى بلوغه الحلم. أي: إنزال المنيّ بسبب ما يراه في حلم النائم. وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: فإن بلغ أشده فادفعوا إليه ماله إن آنستم منه رشداً، كما تقدم في سورة النساء.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن ظلم اليتيم حرام. ولمّا أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: آية ١٠] خاف الصحابة الذين عندهم أيتام، وعزلوا مال الأيتام عن مالهم، وطعامهم عن طعامهم، حتى صار ما فضل عن اليتيم من طعامه يبقى ولا يجد من يأكله، خوفاً منه، وربما فسد، فشكوا ذلك إلى النبيّ ﷺ، فأنزل الله آية البقرة المعروفة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾(١) [البقرة: آية ٢٢٠] ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي: لحمّلكم العنت والمشقة بحفظ أموالهم وطعامِهم معزولًا عن طعامكم؛ لأن ذلك فيه حرج ومشقة، إلا أنه خوفهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ فمن خالط اليتيم، وخلط ماله بماله يريد مصلحة اليتيم والتوفير له، فالله يعلم نيته ويُثيبه، ومن كان يريد بمخالطة مال اليتيم وطعامه لطعامه أن يأكل مال اليتيم خديعة في غضون ذلك، فالله يعلم نيته، ويجازيه على ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾. وقال هنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ

---

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا، باب مخالطة اليتيم في الطعام. حديث رقم: (٢٨٥٤)، (٧٣/٨) والنسائي في الوصايا، باب ما للوصي من مال اليتيم إذا قام عليه. حديث رقم: (٣٦٦٩، ٣٦٧٠)، (٢٥٦/٦)، والحاكم (١٠٣/٢، ٣٠٣، ٣١٨)، والبيهقي (٢٨٤/٦)، وابن جرير (٣٤٩/٤، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤)، والواحدي في أسباب النزول ص (٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
وانظر: صحيح أبي داود (٥٥٤/٢ ـ ٥٥٥)، وصحيح النسائي (٧٧٩/٢) وقد جاء ذلك أيضاً في روايات مرسلة عن سعيد بن جبير، وابن أبي ليلى، وقتادة، والشعبي، وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد. انظر ابن جرير (٣٥٠/٤ ـ ٣٥٢)، أسباب النزول للواحدي ٧١ ـ ٧٢.

أَحۡسَنُ﴾ أي: إلا بالخصلة التي هي أحسن الخصال، وأتمها وأحوطها وأحفظها لمال اليتيم، بالمحافظة عليه، وتثميره وتنميته بالطرق المأمونة، التي يغلب على الظن أنها لا خسار فيها ولا ضياع. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: يبلغ الحلم، ويُؤنَس منه رُشد، فادفعوا إليه ماله، وأشهدوا عليه إذا دفعتموه إليه.

ثم قال: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ هذه أوامر اجتماعية عظيمة، تدل على كمال تشريع الإسلام، ورعاية دين الإسلام لمصالح البشر، كبيرها وصغيرها، جليلها وحقيرها.

والمكيال والميزان هما الآلتان التي جعلهما الله (جل وعلا) لتُضبط بهما المبيعات. وهذا من فضل الله ورحمته بخلقه؛ لأن الله خلق الإنسان محتاجاً للغذاء، ومفتقراً للنساء، وخلق له ما في الأرض جميعاً، ولم يتركه سدى. فأنت محتاج إلى طعام أخيك، وأخوك محتاج إلى طعام آخر عندك، فلو لم يجعل الله المقادير بمكيال وميزان تَعْرِف به قدر ما تدفَع، وقدر ما تأكل؛ لتهارشتم على ذلك تهارش الحُمر والكلاب. فالميزان والمكيال آلات جعلها الله (جل وعلا) لخلقه ليأخذ كل واحد منهم غرضه من أخيه طيبة نفسه، عارفاً قدر ما أخذ، وقدر ما أُخذ منه، طيب النفس بذلك، بحيث ينتفع كلٌّ من أخيه، وتتبادل المصالح عن طيب نفس وسماحة وسخاء؛ ولذا قال: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ قال بعض العلماء: الكيل هنا معناه المكيال. وإيفاء الكيل وإيفاء المكيال راجعان إلى شيء واحد[1]. وكذلك إيفاء الميزان، وإيفاء الوزن، معناهما واحد. والله (جل وعلا) يعلم أن بعض الأخِسَّاء من الذين يتولَّون الكيل والوزن عندهم حيل دقيقة، ينقصون بها حقوق الناس إذا كانوا يكيلون للناس، ويزيدون حقوقهم إذا كانوا يكيلون لأنفسهم، فحذرهم الله من هذا الفعل الخسيس، وعظَّم شأنه، وتوعد عليه التوعد العظيم الهائل بالويل؛ وذلك لأن المال هو شريان الحياة، والطعام الموزون المكيل هو الذي به حياة الدنيا وقوامها ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا

---

(١) انظر: القرطبي (١٣٦/٧).

يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: آية ٨] فالآلات التي نُصبت عدلاً لذلك ينبغي الاحتياط الكامل في إقامتها على وجهها، وعدم الغش والخديعة فيها؛ ولذا كثُر في القرآن العظيم الإيصاء بإيفاء الكيل والوزن، كما قال جل وعلا: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: الآيتان ١٨١، ١٨٢] وذكر الله عن نبيه شعيب مواضع متعددة من ذلك ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: آية ٨٥] وفي آية أخرى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[1] [الأعراف: آية: ٨٥] والله جل وعلا يقول: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: الآيات ٧ - ٩] ومن عصى هذه الأوامر، ولم يتتبعها، فيا ويله، ويا ويله؛ لأن خالق السماوات والأرض يقول في الذين يُخسرون الكيل والميزان: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ ويكفيك من التهديد والوعيد لفظة (ويل) المتوجهة من الله إلى من يفعل هذا الفعل الخسيس الدنيء الرذيل، ثم فسّر المطففين بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾﴾ [المطففين: الآيتان ١، ٢] يعني: إذا كان الكيل لهم من الناس كالوا كيلاً وافياً. وإذا كالوا من متاعهم للناس أو وزنوا للناس يخسرون. أي: ينقصون بالحيل الخفية؛ لأن من تمرّن على الكيل والوزن يعلم حيلاً لا يعلمها غيره، يحسب الناظر أن المكيال تام، وأن الميزان بتمام، وهناك نقص خفي يعرفه أصحاب الصنعة بحيلهم الدقيقة. هذا معروف، فحذرهم الله من هذا، وهذا يدل على أن كل من تولى مصلحة اجتماعية عليه أن ينصح إخوانه المسلمين فيها، فالقرآن يُذكر منه الآيات ليُنبه بها على غيرها.

فهذه مصلحة اجتماعية عامة؛ لأن كل الناس يحتاج إلى طعام يكيله، أو إلى حاجة يزنها، وهذا به قوام الناس في حاجاتهم ومصالحهم المتبادلة، فالذي يغش فيه وينقص ويُخسر خسيس من أخبث خلق الله، ويكفيه خبث

---

(١) والشاهد قوله تعالى قبله في نفس الآية: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾.

ورداءة أن خالق السماوات والأرض يهدده بالويل، وأي شيء أعظم من تهديد الله للعبد بالويل ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ ثم قال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: الآيات ١ ـ ٦]، ويُفهم من فحوى الآيات: أنهم إذا بُعثوا إلى ذلك اليوم العظيم، وقام الناس لرب العالمين، واجتمع الخلائق الأولون والآخرون في صعيد واحد، ينفذهم البصر، ويُسمعهم الداعي، أن ذلك الخائن الناقص في الكيل والوزن يُنادى به على رؤوس الأشهاد، ويفتضح على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، وفضيحة القيامة ليست كفضيحة الدنيا؛ لأن الإنسان يفتضح في الدنيا، ويضيع عرضه، ويبقىٰ صحيح البدن، سالماً يأكل ويشرب، غير متألم، وإذا كان رذيلاً دنيّاً لا يؤلمه ضياع العرض، إنما يتألم من ضياع الأعراض أصحاب الشؤون والهيئات والشرف. وقد ذكر العلماء أن أعظم ما يصاب فيه الإنسان بعد نفسه إنما هو ـ مثلاً ـ قُرباؤه: كأولاده، أو ماله، أو عرضه، أو دينه، فإذا أُصيب في دينه فتلافيه سهل؛ لأنه إذا أناب إلى الله قد يتوب الله عليه، وقد يكون انكسار التوبة يبلغ به مرتبة عند الله أحسن مما كان قبل فعل الذنب؛ لأن الإنابة إلى الله، والتوبة، والتذلل، والخضوع، والانكسار من الذنوب قد يكسب العبد درجة أعظم من درجته قبل أن يواقع الذنب، والمال قد يخلفه شيء بسيط، فصفقة واحدة قد يربح منها أضعاف ما خسر، والأنفس قد تُعوض بالولادة فيموت له ولد فيولد له عشرة أولاد، قالوا: أما العِرْض فإذا ضاع من الإنسان فلا شيء يخلفه؛ لأنه إذا ضاع عرضه، وعُرفت الفضيحة أمام الناس لم يمكن أن يداوي ذلك، ولو رجع إلى مكارم الأخلاق، فتلك الفضيحة بقيت فيه. لكن فضيحة الدنيا وإن كانت من أعظم المصائب، ففضيحة الآخرة أعظم وأطم؛ لأن المفتضح في الآخرة إنما يُفضح بذنوب تؤديه إلى العذاب والنكال يوم القيامة ـ والعياذ بالله ـ فعلى من ولاّه الله الكيل أو الوزن أن يحذر من الله، ويخاف من فضيحة الآخرة، ويوفي الكيل إيفاءً تاماً، ويوفي الميزان، ولا يغش وينصب فيستوفي لنفسه، وينقص للناس. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ

بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأنعام: آية ١٥٢] القسط في لغة العرب معناه: العدل، والقَسط - بالفتح - الجور[١]، فالمقسطون من أهل الجنة، والقاسطون من أهل النار، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: آية ١٥] لأن القاسط اسم فاعل القَسْط - بالفتح - من قَسَط الثلاثية، وهو الجائر الحائد عن الهدى. والمُقْسِط: من القِسْط، وهو العدل.

ومعنى كونه بالقسط: أي: بالعدل التام، بحيث لا يزيد ولا ينقص، فلا يطلب المشتري زيادة على حقه، ولا ينقص البائع المشتري عن حقه، فليكن الحق كاملًا وافياً من غير [زيادة][٢] ولا نقصان. وهذا معنى إيفائه بالقسط. ولما كان الإنسان قد يبالغ جهده في أن يوفي المكيل، وقد يتفاوت ذلك، فبعض المكاييل يبني عليه المكيل، ويرتفع بعضه فوق بعض، حتى يكون وافياً. وبعض الناس يجتهد في أن يفعل ذلك، ويختل عليه شيء من غير قصد منه، إذا كان الله يعلم صلاح نيته وقصده للإيفاء، إلا أنه وقع تقصير أو نقص من غير قصده، فهذا معفوّ عنه، بدليل قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: آية ١٥٢] فهذا الإيفاء في الكيل والوزن الذي كلفناكم به إنما نعني به حسب ما تستطيعون، فمن بذل مجهوده في إيفاء الكيل والوزن ثم وقع نقص من غير قصده فهو معفوّ عنه؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها. هذا سبب نزول الآية[٣]، وهي عامة؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، أي: طاقتها. وهو الشيء الذي في طاقتها وقدرتها لا تعجز عنه، ولا يشق عليها مشقة عظيمة. وهذا من التسهيل على هذه الأمة، لا يكلفها الله ما أخطأت فيه، وما نسيت. وقد جاء في الذكر المحكم: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: آية ٥] وثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة: أن النبي ﷺ لما قرأ من خواتيم سورة البقرة ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٦] قال الله: نعم قد فعلت.

---

(١) انظر: المفردات (مادة: قسط) (٦٧٠).

(٢) في الأصل: «تمام» وهو سبق لسان.

(٣) انظر: أضواء البيان (٢/٢٨١).

(نعم) في رواية أبي هريرة و (قد فعلت) في رواية ابن عباس، وكلتاهما ثابتة في صحيح مسلم[1]. والله (جل وعلا) يقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: آية ٥] فالخطأ والنسيان وما لا يقصده الإنسان معفو عنه؛ ولذا قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

ثم قال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: آية ١٥٢] وهذه الآية عظيمة جداً، وهي من الآداب الاجتماعية العامة، البالغة في العظمة، وهي تشمل أشياء كثيرة، إذا كنت تشهد بحق فلا تشهد عند القاضي إلا بعدل، واخش شهادة الزور لأجل قريب، أو رشوة، أو غير ذلك، وإذا كنت قاضياً فلا تقل إلا الحق، واحذر أن تميل لقرابة، أو لغرض، أو رشوة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: آية ٥٨] وإذا كلمت أخاك المسلم فلا تقل إلا عدلاً، ولا تقل له شيئاً يؤذيه، ولا تكذب عليه، وإذا حدثت عن قصة ماضية فلا تقل إلا عدلاً ولا تكذب، وإذا حدّثت عن الله فلا تقل في صفاته إلا اللائق الكريم، وإذا قلت في كل قول فلا تقل إلا أمراً كريماً عدلاً.

ومن حفظ لسانه، وكان لسانه معتدلًا لا يقول إلا ما يرضي الله فإن هذا من أحكم الآداب الاجتماعية التي يُطْفَأُ بها الشرر العظيم المتفشي في المجتمع؛ لأن أكثر الأضرار الاجتماعية هي جنايات اللسان، وعدم اعتداله في قوله، فيقول على هذا ما لم يفعل، ويلمز هذا بما يؤذيه، ويشهد على هذا بالزور، ويحكم على هذا بالباطل. فإذا كان يزن قوله بميزان الشرع، ولا يقول إلا عدلًا، كان هذا من أعظم الآداب الاجتماعية، وأكثر المنافع للمجتمع، وأعظمها تفادياً لكثرة الأضرار الناشئة عن عدم العدل في القول؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ يعني: لا تحملك قرابة أحد على أن لا تعدل في القول فتشهد له بباطل لقرابته، أو تشهد على خصمه بما يؤذيه، أو تشهد على الشاهد لخصمه إن جرحه، أو نحو ذلك، فلا تحملنك القرابة أن تقول إلا عدلًا، ولا يصدر منك كلام إلا على الحق والعدل المطابق لما

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

يرضي الله[١]، كما قدمنا في قوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا﴾ [المائدة: آية ٨] وفي الآية الأخرى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: آية ١٣٥] أي: ولا يحملك أيضاً أن هذا فقير وهذا غني، فتشهد على الغني رحمة بالفقير، أو تكتم الشهادة على الفقير رحمة به للغني، لا تفعل هذا، فقل الحق على بابه كائناً من كان، على القريب، وعلى الفقير، وعلى الغني.

وآية النساء هذه: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ وما بعدها فيه سرّ أعظم، وتعليم أكبر؛ لأن الله يعلم أنه سيأتي في آخر الزمان مذاهب هدامة، تتصل إلى سلب حقوق الناس أموالهم بدعوى أن هذا فقير، وأن هذا غني، وأن هذا الغني ابتز ثروات الفقراء، وأنه ينبغي أن يُنزع مال الغني ليستوي هو والفقير باسم العدالة الاجتماعية!! فالله (جل وعلا) علم أن هذا سيقع، وبيّن حكمه قبل أن يقع، فقال: لا تتخذوا من كون هذا غنياً، وكون هذا فقيراً طريقاً تتصلون بها إلى ظلم الناس، وأخذ أموال الناس، اتباعاً للهوى ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا﴾ [النساء: آية ١٣٥] وتتخذوا من ذلك طريقاً تأخذون بها أموال الناس من غير رضاهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فعلى المسلم أن يعمل بقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ فإذا أراد أن يتكلم تأمل في الكلام الذي يقوله، فإذا كان حقاً صواباً مرضياً لله فليقدم عليه، وإذا كان جوراً غير حق فليُحجم عنه، كأن يعيب الإنسان، أو يشهد بشهادة الزور، أو يحكم بباطل، أو يقول عن إنسان ما ليس فيه، أو يحكي قصة فيحرفها، إلى غير ذلك. وهذا من المصالح العامة التي تدل على أن هذا الدين سماوي، وأن هذا كلام خالق الخلق ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: آية ١٥٢] أي: ولو كان المقول عليه من شهادة أو حكم أو أنه ظالم ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: صاحب قرابة، حتى ولو كان على نفسك، كما بيّنته آية النساء.

---

(١) انظر: أضواء البيان (٢/٢٨١).

ثم قال: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ هذه أيضاً من الآيات العظام الشاملة للمسائل الاجتماعية والإلهٰية، فهي من غرائب التشريع؛ لأنها شملت أحكام دين الإسلام، لأن العهد المضاف إلى الله هنا هو على التحقيق يشمل أمرين:

أحدهما: عهد بين المخلوق والخالق، كالنذور التي ينذرها طاعة لله، والله يقول: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: آية ٢٩] وقد مدح أهل الجنة بذلك حيث قال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان: آية ٧] وقد يكون عهد الله فيما بين عبيده؛ لأن العهد فيما بينك وبين أخيك هو عهد لله؛ لأنه أخذ على كل منكما العهد أن يفي لأخيه بما عاهده عليه، وأن لا يفعل معه إلا خيراً، ومن عهود الله التي يجب الوفاء بها: وصاياه التي أوصانا بها في هذه الآيات المحكمات، وجميع أوامره ونواهيه، وامتثال أمر الله واجتناب نهيه. كل هذه عهود الله على خلقه في جميع التشريع يجب الوفاء بها، وكذلك عهدك على أخيك، كأن تقول له: لك علي كذا. أو أشترط عليك كذا. أو أعهد إليك بكذا. فإنه يجب الوفاء في ذلك.

وفي هذه الآية تعليم عظيم؛ لأن كثيراً من الفقهاء غلطوا غلطاً فاحشاً في حديث، يرفع ذلك الغلط آيات من كتاب الله، منها هذه الآيات؛ لأن النبيَّ ﷺ جاء عنه في حديث أنه قال: «**من اشترط شرطاً ليس في كتاب الله فهو باطل، وإن كان مئة شرط**»[1]. فكان ابن حزم[2] ومن غرّه كلامه، وكثير من الفقهاء الذين لم يتدبروا معاني القرآن، يظنون أن كل شرط لم ينص القرآن على عينه أنه باطل؛ ولذا أبطل بعض العلماء كثيراً من الشروط، كأن تشترط على أخيك كذا في البيع من أمر مباح، أو تشترط المرأة على الزوج في عقد النكاح أمراً مباحاً. ويقولون: هذه الشروط ليست في كتاب الله، فهي باطلة.

والتحقيق: أن كل شرط لا يُحل حراماً، ولا يحرم حلالًا فهو في

---

(١) أخرجه البخاري في المكاتب، باب ما يجوز من شروط المكاتب. حديث رقم: (٢٥٦١)، (١٨٧/٥)، ومسلم في العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق. حديث رقم: (١٥٠٤)، (١١٤١/٢).

(٢) انظر: المحلى (٤٤/٩).

كتاب الله؛ لأن الله أمر بالوفاء بالعهد أمراً عاماً، كقوله هنا: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [المائدة: آية ١] فكل شرط اشترطه مسلم على مسلم، ولم يكن هذا الشرط يبيح حراماً حرّمه الله، أو يحرم حلالاً أحلّه الله، بل كان مشترطاً أمراً جائزاً، فهذا الشرط في كتاب الله؛ لأن الله أمر المسلمين بالوفاء بالعهود في آيات كثيرة، وهي شروط عامة، كقوله هنا: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ يعني: أن عهد الله هنا يشمل جميع الأمانات، من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، ويدخل فيه الوفاء بالنذور، ويدخل فيه عهود المسلمين بعضهم على بعض، وشروط بعضهم على بعض؛ لأن المسلمين عند شروطهم، فكل شرط اشترطه مسلم على مسلم، وكان ذلك الشرط لا يحل حراماً حرّمه الله، ولا يحرم حلالًا أحله الله، فهو في كتاب الله، لعموم الأدلة على وجوب الوفاء بالعهود. والشروط من أوكد العهود التي أمر الله بالوفاء فيها، وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ في الحديث المتفق عليه أنه قال: «**إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج**»[(١)] فما تشترطه المرأة على زوجها بالعقد إن كان لا يحل حراماً، ولا يحرم حلالاً.

أما الشرط الذي أحل حراماً، أو حرم حلالًا، فهو ليس في كتاب الله، فهو باطل وإن كان مئة شرط. وهذا معنى قوله: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾.

ثم أعاد الله (جل وعلا) الوصية وكررها علينا، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ ذلكم المذكور في هذه الآية من التباعد من أكل مال اليتيم، ومن بخس المكيال والميزان، ومن عدم العدل في القول، ومن الإيفاء بالعهد. هذه الأمور التي أمركم الله بها، وحذركم عن أضدادها وصاكم بها. أي: أمركم بها أمراً مؤكداً، فعليكم أن تحتزموا بها، فلا تقربوا مال اليتيم بغير الأحسن، ولا تقولوا إلا ما هو عدل، ولا تنقضوا العهود، إلى غير ما جاء في الآيات.

---

(١) البخاري في الشروط، باب: الشروط في المهر عند عقدة النكاح. حديث رقم: (٢٧٢١)، (٥/٣٢٣)، وطرفه في (٥١٥١)، ومسلم في النكاح، باب: الوفاء بالشروط في النكاح. حديث رقم: (١٤١٨)، (٢/١٠٣٥).

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قرأه هنا حفص عن عاصم، وحمزة والكسائي: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بتاء واحدة وذال مخففة، وأصله (تَتَذَكَّرُونَ) فحذفت إحدى التاءين. وقرأه الجمهور، وهم الباقون: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَّكَّرُونَ﴾ بتشديد الذال وإدغام إحدى التاءين في الذال، وعلى قراءة حفص وحمزة والكسائي: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] فقد حُذفت إحدى التاءين. والمضارع المبدوء بتاءين يجوز حذف إحداهما بقياس مطرد:

وَمَا بِتَاءَيْن ابْتُدِي قَدْ يُقْتَصَر فيهِ على تَا كَتَبَيَّنُ العِبَر[2]

وعلماء العربية مختلفون اختلافاً لا طائل تحته ولا دليل عليه في التاء المحذوفة من التاءين هل هي تاء المضارعة أو التاء الأخرى؟[3] هذا الخلاف لا طائل تحته، ولا دليل عليه، والمدار على أن إحدى التاءين محذوفة. وهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٥٢].

كان بعض العلماء يورد في هذه الآيات سؤالًا، وهو أن يقول: عبّر في الآية الأولى بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] وفي هذه الثانية بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وأجابوا عن ذلك بأجوبة ـ الله أعلم بها ـ[4] منها: أن قالوا: إن المذكورات في الآية الأولى واضحة لا خفاء فيها؛ لأنها هي عدم الإشراك بالله، وعدم قتل الأولاد، والبر بالوالدين، وعدم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وهذه أمور ظاهرة؛ ولذا قال لما كانت ظاهرة لا تحتاج إلى تفكر وتذكر، لظهورها ووضوحها، قال: قلت لكم هذا لتُدركوه عنِّي بعقولكم؛ لأنه أمر واضح. وأن المذكورات في الآية الأخيرة تحتاج إلى تأمل وإلى تفكر، كإيفاء الكيل والميزان، وعدم بخس الناس أشياءهم، وكالتحرّي في الأقوال ليعلم العدل منها من غير العدل، والوفاء بالعهود، أن هذه أمور فيها خفاء، فعبّر

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران (٢٠٤).

(٢) الخلاصة ص (٧٩).

(٣) انظر: البحر المحيط (٢٥٣/٤)، الدر المصون (٢٢٣/٥).

(٤) انظر: ملاك التأويل (٤٨٠/١)، درة التنزيل وغرة التأويل ص٧٤، البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ص٦٩، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ص١٨١ ـ ١٨٢. البحر المحيط (٢٥٣/٤)، الدر المصون (٢٢٢/٥)، فتح المجيد ص (٤١).

بعدها بالتذكر؛ لأنها تحتاج إلى تذكر. هكذا يقولون، والله تعالى أعلم.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: آية ١٥٥] ذكرنا أنه جرت العادة أن الله ينوّه بالتوراة

١/٢٣ والقرآن معاً؛ لأنهما أعظم الكتب المنزلة؛ لأنه قبل/ نزول القرآن كان التوراة أعظم الكتب المنزلة وأجمعها للأحكام، كما قال الله فيه: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: آية ١٥٤]. فلما نزل القرآن كان أشمل كتاب وأعظمه؛ لأنه جمع الله فيه علوم الأولين والآخرين، وزاد فيه أشياء لم تنزل على غيره؛ ولذا لما نزلت التوراة في قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: آية ١٥٤] نوّه بالقرآن العظيم بعده فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: آية ١٥٥] ومثل هذا يتكرر في القرآن، كقوله في التوراة: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩١]، ثم قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ٩٢] فأتبع التنويه بالتوراة التنويه بالقرآن، كقوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا﴾ يعني: القرآن ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: آية ١٧] وكقوله: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ﴾ [القصص: آية ٤٨] وفي القراءة الأخرى[1]: ﴿**ساحران تظاهرا**﴾ [والجن][2] الذين استمعوا القرآن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف: آية ٣٠].

ومعنى الآية الكريمة: وهذا الذي تُتلى عليكم آياته كهذه الآيات المحكمات: ﴿تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ . . .﴾ إلى آخر الآيات [الأنعام: آية ١٥١]، ﴿وَهَٰذَا﴾ الذي تُتلى عليكم آياته جامعة هذا من الأحكام والتشاريع، ﴿كِتَٰبٌ﴾ هو كتاب الله (جل وعلا)، الذي هو آخر كتاب نزل من السماء، وهو أعظم كتاب سماوي، على أعظم رسول أرسله الله في الأرض،

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٤١ .

(٢) في الأصل: «واليهود» وهو سبق لسان.

فهو آخر الكتب السماوية، ونازلٌ على آخر الرسل وخاتمهم ﷺ، جمع الله فيه علوم الكتب السابقة؛ ولذا صار القرآن مهيمناً على الكتب السابقة، كما قدّمناه في سورة المائدة في قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: آية ٤٨] ولذا ما حرّفه اليهود بيَّن القرآنُ أنه محرّف، وكان اليهود يختلفون في أشياء لا تعلم علماؤهم حقائقها، من غوامض التوراة، فبيّنها لهم القرآن، وأوضحها لهم، لهيمنته على الكتب قبله. ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: آية ٧٦] أي: ويوضحه لهم، ولمّا أنزل الله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: آية ١٦٠] قال اليهود: «ما حُرِّم علينا شيء بسبب ذنب، وإنما حُرِّم علينا ما كان محرّماً على أبينا إسرائيل من الأطعمة». وإسرائيل: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام. فلمّا زعموا أن الله لم يحرم عليهم إلا ما كان محرماً من الطعام على إسرائيل كذّبهم القرآن، وألقمهم الحجر، فقال: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: آية ٩٣] فلما قال لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ خافوا وخجلوا، ولم يأتوا بها[(١)].

وكذلك قصة اليهوديين الزانيين المشهورة، بأنه زنى يهوديان من يهود خيبر أو ما يقرب منها، فأرسلوا ليهود المدينة: «سلوا لنا محمداً ﷺ عن حكم الزاني المحصن، فإن أتاكم بجَلد أو شيء غير القتل فاقبلوا حكمه، ونخرج من العُهدة

(١) انظر: ابن جرير (٧/٧) وقد مضى عند تفسير الآية (٩٢) من سورة الأنعام.

(٢) الروايات الواردة في اليهوديين الزانيين كثيرة، ومنها الرواية التي أشار إليها الشيخ (رحمه الله) هنا وهي من حديث جابر بن عبدالله (رضي الله عنه) في أن ذلك وقع من يهود (فَدَك) كما في مسند الحميدي (١٢٩٤)، وذكره السيوطي في الدر (٢٨٢/٢) وعزاه للحميدي، وأبي داود، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مردويه.
وقد رواه جماعة من غير ذكر (فَدَك) كما في سنن أبي داود (٤٤٢٨)، وأبي يعلى (٢١٣٦)، والبزار (كما في كشف الأستار ١٥٥٨)، وذكره الهيثمي في المجمع (٢٧١/٦).
كما رواه بعضهم مختصراً وفيه ذكر (فَدَك). كما عند الحميدي (١٢٩٥)، وأبي داود (٤٤٣١)، وابن جرير (٣١٠/١٠، ٣١٤)، وابن أبي حاتم (١١٣١/٤)، وعزاه في الدر (٢٨٢/٢) لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

أمام الله بأنهما حكم فيهما نبيٌّ كريم» لأنهم يعلمون أنه نبي كريم ﷺ. كما تقدم في قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: آية ٤١] يعنون: إن أعطاكم الحكم السهل من عدم رجم الزانيين فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا!! وعلى كل حال ثبت في الصحيحين في قصة الزانيين المشهورة أنهما أتوا بهم إلى النبيِّ ﷺ وحكَّمه فيهم[١]، والنبيّ ﷺ قال: «**سأحكم فيهم بالحكم الذي أنزل الله في التوراة**» وهو الرجم. وكان رئيسهم الديني في ذلك الوقت: عبدالله بن صوريا الأعور، فقال له: ليس في التوراة الرجم. فقال النبيُّ ﷺ: «**بلىٰ، إن في التوراة لآية تدل على الرجم، فأتوا بالتوراة**». فجاؤوا بالتوراة، فقرأ ابن صوريا ما قبل آية الرجم وما بعدها، وجعل يده على آية الرجم يخفيها إخفاءً للحق، فجاء عبدالله بن سلام (رضي الله عنه وأرضاه)، وهو يهودي أصلاً من يهود بني قينقاع، وهو من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، وأفاضل الصحابة الكرام، فهو الذي أنزل الله فيه في الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾[٢] [الأحقاف: آية ١٠] هذا الشاهد: هو عبدالله بن سلام، وكان أعلمهم بالتوراة، فقال لابن صوريا: ارفع يدك!! وقرأ آية الرجم، فحكم النبي عليهما بالرجم، ورجمهما الصحابة. وفي الصحيحين: أن بعض الصحابة رأى الرجل يجنؤ على المرأة. أي: ينحني عليها ليقيها الحجارة، فَرُجما وقُتلا[٣]. وهذا من هيمنة القرآن على الكتب، وإنما سُمي هذا القرآن كتاباً لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: الآيتان ٢١، ٢٢] ومكتوب في

---

(١) هكذا العبارة في الأصل، والصواب أن يقال: «أنهم أتوا بهم إلى النبي ﷺ وحكموه فيهم...

(٢) كما في حديث سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) عند البخاري، وكما جاء من حديث عبدالله بن سلام نفسه، عند الترمذي وابن جرير وغيرهما، وكذا حديث عوف بن مالك عند أحمد، وابن حبان، والحاكم، والطبراني في الكبير، وأبو يعلى، وابن جرير. وحيث أن الشيخ (رحمه الله) لم يورد رواية هنا فإني أكتفي بهذا الإجمال.

(٣) البخاري في المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾. حديث رقم: (٣٦٣٥)، (٦/٦٣١)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (١٣٢٩، ٤٥٥٦، ٦٨١٩، ٦٨٤١، ٧٣٣٢، ٧٥٤٣). ومسلم في الحدود، باب رجم اليهود، أهل الذمة، في الزنى. حديث رقم: (١٦٩٩)، (٣/١٣٢٦).

صحفِ عند الملائكة لما جُمع كله في بيت العزة في السماء الدنيا، كما في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾ [عبس: الآيات ١١ ـ ١٤] ولأنه مكتوب أيضاً عند المسلمين، كما قال: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ [البينة: الآيات ١ ـ ٣].

فلما كان مكتوباً في اللوح المحفوظ، وفي الصحف عند الملائكة، وبالصحف بأيدي المسلمين قيل له: (كتاب) وأصل الكتاب: (فِعَال) بمعنى (مفعول) وإتيان (الفِعَال) بمعنى (المفْعُول) مسموع في لغة العرب في كلمات غير كثيرة، ككتاب بمعنى مكتوب، ولباس بمعنى ملبوس، وإله بمعنى مألوه، أي: معبود، ونحو ذلك في أوزان غير كثيرة.

وأصل مادة الكتابة، مادة (الكاف، والتاء، والباء) (كتب) معناها في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناها: الضمّ والجمع، فكل شيء ضممت بعضه إلى بعض وجمعت بعضه إلى بعض فقد كتبته. ومن هنا قيل للخِيَاطة كتابة. وفي لُغز الحريري[1]:

وكـاتـبـينَ ومـا خـطَّـتْ أنـامِـلُـهـم حَرْفاً ولا قرؤوا ما خُطَّ في الكُتبِ

يعني بالكاتبين: الخيّاطين. ومنه قول عمرو بن دارة يهجو بني فزارة من قبائل غطفان كانت العرب تعيّرهم بالفاحشة مع إناث الإبل، يزعمون أنهم يزنون بالنوق، تعييراً لهم، فعيّرهم هذا الشاعر فقال[2]:

لا تـأمـنَـنَّ فـزاريـاً خَـلـوتَ بـه علـى قـلـوصِـكَ واكـتُـبـهـا بـأسْـيَـارِ

يعني: خط فرجها بأسيار لئلا يزني بها. وهذا معنى معروف في كلام العرب.

ومنه قيل للرقعة التي تكون في السقاء، وقيل لها: كُتْبَة وقيل للسَّيْر الذي تُخاط به الرقعة أيضاً: (كُتْبة) لأنه يضم الرقعة إلى السقاء، ومنه قول غيلان ذي الرمة[3]:

ما بالُ عينكَ منها الماءُ ينسكبُ كـأنّـه مـن كُـلَـى مَـفْـرِيَّـةٍ سَـرَبُ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من هذه السورة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

وفَــرَاءَ غَــرفــيَّــةٍ أَثْــأَى خَــوَارِزَهَــا مُشَلْشَلٌ ضَيَّعَتْهُ بينها الكُتَبُ

يعني: بـ (الكُتب): قيل: السيور التي تُخاط بها الرقع، أي: مَسْك الرقع، يُشَبِّه كثرة دموعه بماء السقاء إذا اتسع موضع السير الذي خيطت به؛ لأنها جماعة ينضمّ بعضها إلى بعض، ويتشكل مع بعض، فسُميت الخياطة كتابة؛ لأن الخيّاط يضم طرفي الثوب أو الأديم، ويجمع بعضها إلى بعض بالخياطة، كذلك قيل للكتابة (كتابة) لأن الكاتب يضمُّ نقوشاً بعضها مع بعض، يضع حرفاً منقوشاً ثم حرفاً ثم حرفاً، حتى يتكون من ذلك كلام يدل على المعاني؛ فلأجل هذا فالكتابة مصدر سيّال.

أي: وهذا قرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الصحف عند الملائكة، وفي صحف مطهرة بأيدي المسلمين.

﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: هذا الكتاب أنزلناه من عندنا، ومن كلامنا. وصيغة الجمع للتعظيم، وجملة الفعل وفاعله في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ في محل النعت للكتاب[١]؛ لأن النكرات تُنعت بالجُمل، كما هو معروف[٢]. و (مبارك) نعت آخر[٣]، والأصل أن يُقدم النعت بالمفرد ثم بشبه الجملة ثم بنفس الجملة كما في قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غافر: آية ٢٨] فبدأ بالنعت بقوله: ﴿مُّؤْمِنٌ﴾ لأنه مفرد، ثم أتبعه بشبه الجملة، وهي: ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ثم أتبعه بالجملة ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ هذا هو الأصل المقرر في المعاني. وربما قُدِّم النعت بغير الجملة، وربما قُدم النعت بغير المفرد على النعت بالمفرد. فمثال تقديمه بشبه الجملة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ فالجار والمجرور نعت قُدِّم على النعت المفرد في قوله: ﴿عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: آية ٣١] ومثال تقديم الجملة على المفرد قوله هنا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ فجملة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ نعت قُدِّم على النعت بالمفرد. ونظيره من كلام العرب قول طرفة بن العبد[٤]:

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٢٥٦)، الدر المصون (٥/٢٢٩).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/٢٥٦)، الدر المصون (٥/٢٢٩).

(٤) البيت في معلقته. وقوله: (أحوى): هو ظبي في ظهره خُطتان خضراوان. و (المرد): =

وفي الحيّ أحوى ينفُضُ المَرْدَ شادنٌ مُظاهِرُ سِمْطَى لُؤلُؤٍ وزَبَرْجَدِ

فإن قوله: (شادن ومظاهر) مفردان، قدّم قبلهما النعت بالجملة في قوله: «ينفض المرد» وهذا معروف[١].

وقوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾ معناه: أن هذا الكتاب مبارك، أي: كثير البركات، والخيرات، فمن تعلّمه وعمل به غمرته الخيرات في الدنيا والآخرة؛ لأن ما سماه الله مباركاً فهو كثير البركات والخيرات قطعاً. وكان بعض علماء التفسير يقول: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات والخيرات في الدنيا. تصديقاً لقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ ونرجو أن يكون لنا مثل ذلك في الدنيا. وهذا الكتاب المبارك لا ييسر الله للعمل به إلّا الناس الطيبين المباركين، فإنه كثير البركات والخيرات؛ لأنه كلام رب العالمين؛ إذا قرأه الإنسان وتدّبر معانيه ففي كل حرف عشر حسنات في القراءة، وإذا تدبر معانيه عرف منها العقائد التي هي الحق، وعرف أصول الحلال والحرام، ومكارم الأخلاق، وأهل الجنة وأهل النار، وما يصير إليه الإنسان بعد الموت، وما يسبب له النعيم الأبدي، وما يسبب له العذاب الأبدي، فكله خيرات وبركات؛ لأنه نور ينير الطريق التي تميّز بين الحسن من القبيح، والنافع من الضار، والباطل من الحق، فهو كله خيرات وبركات، من عمل به غمرته الخيرات والبركات في الدنيا والآخرة، وأصلح له الله الدارين.

ومن غرائب الأشياء وعجائبها أن أكثر أهل المعمورة ممن يؤمنون بأنه كلام الله الذي أنزله على رسوله يطلبون الهدىٰ في غيره، ويطلبون التشاريع والتحليلات والتحريمات من غيره!! فهذا من الغرائب! إذ كيف يعدل عاقل عن كلام خالق السماوات والأرض؟ فهو النور المبين، والحبل المتين الذي بيّنه سيد الخلق ﷺ بسنته الصحيحة. يعدل عن هذا زاعماً أنه ليس بصالح لهذا الوقت، وأن الحياة تطورت بعد نزوله تطوراً لا يلائم هذا القرآن!! ومن أنزل القرآن عالمٌ

= ثمر الأراك. و (شادن): ظبي ليس بالكبير. و (مظاهر): قد جمع بين اللؤلؤ والزبرجد. انظر: شرح القصائد المشهورات (١/٥٦).

(١) انظر: النحو الوافي (٣/٤٩٦ ـ ٤٩٧).

بما يحدث من التطورات، وما يكون، فجعل القرآن ديناً خالداً لا ينسخه دين، باقٍ إلى يوم القيامة، وهو عالم بما ينزل وما يحدث في الدنيا، بل لو عملت الدنيا أجمعها بهذا الكتاب الكريم لأزال جميع مشاكلها، وأزال عنها كل ضرر، ونظّم علاقات حياتها على الوجوه الكاملة، وأراها الطريق الواضحة التي تحصل بها على خير الدنيا والآخرة. وهو دائماً يحث على التقدم والرقي في جميع ميادين الحياة؛ لأنه كلام ربِ العالمين.

القرآن يحث الإنسان على أن يعطي جسده حظه، وأن يعطي روحه حظها[١]. وإذا قرأ الإنسان القرآن فهم كيف يدعو الإنسان إلى الجدِّ والكدح في هذه الحياة الدنيا، وإلى طاعة خالق هذا الكون، ونحن نقرر في المناسبات، وفي الدروس دائماً، أن هذا الحيوان الذي هو الإنسان، أنه حيوان مركب من جوهرين مختلفين بالذات اختلافاً جذرياً حقيقياً، وأصلاه اللذان تركب منهما متنافيان كل التنافي ـ أعني بهما روحه وجسده ـ فحقيقة الروح من العالم العلوي، والجسد من العالم السفلي، وبين الروح والجسد تباين وتنافي تام بالجوهر والعنصر وجميع الصفات. والله ركب الإنسان منهما، فالروح وحده ليس بإنسان، والجسد وحده ليس بإنسان، وإنما هو حيوان مركب منهما، ومعلوم أن الروح له متطلبات لا تكفي عنها متطلبات الجسم، وأن الجسم له متطلبات لا تكفي عنها متطلبات الروح، فللجسم متطلبات لا بد منها، كالقوة الجسمية، والله (جلّ وعلا) يحث على هذا كل الحث؛ لأن من أعظم أنواع تربية القوة الجسمية هو إعداد القوة الكافية، والوحدة حولها وحدةً حقيقية صحيحة، والله يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: آية ٦٠] فهذه الآية الكريمة بظاهرها تساير التطور مهما بلغ التطور من أنواع القوة؛ لأن الله يأمر بإعداد كل ما يدخل في طاقة الإنسان من إعداد القوة ليتقوى بها المسلمون، ويردوا بها الهجوم المسلّح، ويحافظون بها على بيضة الإسلام. فهذا من أعظم الأمر بأسباب القوة. وكذلك يأمر بالاجتماع؛ لأن البلايا كلها من المخايلات، وعدم اتحاد

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

القلوب، واختلاف القلوب وتباغضها، وهذا هو السبب الأكبر للضعف، وهو السبب الذي يدخل منه العدو فيضرب بعضهم ببعض، ويبقون ـ مثلاً ـ لأن المختلفين لا ينجحون؛ ولهذا يقول الله في محكم كتابه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: آية ٤٦] ويقول (جل وعلا): ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: آية ١٠٣] ويحض على الاجتماع النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، وقد بيّن القرآن في سورة الحشر أن اختلاف القلوب، ومعاداة البعض للبعض أن منشأه إنما يكون من ضعف العقول، كما قال في قوم: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: آية ١٤] ثم كأن قائلاً قال: ما المُوجب الذي صيّر قلوبهم شتى وهم أمة واحدة متفقة في الأهداف والأغراض، ما الموجب الذي صيّر قلوبهم شتىٰ، أي: مختلفة متنافرة؟! فبيّن العِلة فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ وليس المراد هنا نفي العقل من أصله، والمعنىٰ: (أنهم لا يعقلون) نفي كمال العقل. يعني: أن عقولهم ليست ناضجة كما ينبغي، إمّا هم في الحقيقة فمن جملة العقلاء. وهذا يدل على أن هذه الفرق ـ التي تدّعي الإسلام ـ المختلفة، التي يبغض بعضها بعضاً، وإن تجاملت في ظاهر الأمر، أن سبب ذلك إنما هو ضعف العقول في بعضها. وقد يكون المختلفان أحدهما عنده عقل كامل، يدعو إلى الطريق المستقيم بعقله المستقيم، والآخر ضعيف العقل، يفرّ من تلك الطريق ويخالف. فهذا من ضعف العقل. وقد بيّنا أن في هذه السورة الكريمة أن ضعف العقول وموتها، أن علاجه القرآن، لأنه يصير به الميت حياً، ويصير به الذي كان في الظلام في النور ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٢] فبيّن أن اتباع القرآن حياة بعد الموت، ونور بعد الظلام؛ لأن تشريع خالق السماوات والأرض، ينوّر الأفكار، ويضيء الطريق، ويدل الخلق على ما هم عاجزون عليه من مصالحهم. ولا شك أن هؤلاء الذين يعدلون عن القرآن، والله يقول: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: آية ١٥٣] ويسميه النور الذي يضيء، فيرى في ضوئه كل حق، وكل باطل، وكل حسن، وكل قبيح، وكل نافع، وكل ضار؛ ولذا كثيراً ما يطلق على القرآن اسم النور، كما قال: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟

ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء: آية ١٧٤] ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: آية ٨] ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ [الشورى: آية ٥٢]، فالآيات المصرحة بأن هذا الكتاب نور، والنور هو الذي يُرى في ضوئه الحق حقاً، والباطل باطلاً، والنافع نافعاً، إلى آخره. فالذين يعدلون عن هذا النور ـ الذي هو كلام رب العالمين، المبيّن بسنة سيد المرسلين ـ ﷺ ـ زاعماً أن هذا لا هدىٰ فيه، ويطلب الهدىٰ في نظم وضعية، ألفها خبثاء كفرة فجرة خنازير أبناء خنازير، أن هذا من طمس البصائر الذي يُؤسَف له، ويُبْكي العيون ـ والعياذ بالله ـ والحق الذي لا شك فيه أن الذي سبب هذا إنما هو طمس البصائر؛ لأن البصيرة إذا ضعفت جداً كانت لا تتحمل النور العظيم، والنور العظيم يقضي على ذي البصر الضعيف ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٠] فالذين يعدلون عن كتاب الله إلى نظم وضعية زاعمين أنها أحسن منه، وأبلغ في تنظيم الحياة في جميع ميادينها، فهم في الحقيقة بالحرف الواحد، والكلام المطابق: خفافيش البصائر، أعماهم نور القرآن، كما تعمي الشمس الخفافيش:

خَفَافيشُ أعماهَا النهارُ بضوئِهِ ووافَقَهَا قِطْعٌ من الليلِ مُظلم[1]

مثل النَّهارِ يزيدُ أبصَارَ الوَرَى نُوراً ويُعمي أعينَ الخُفَّاشِ[2]

والدليل على هذا أن الله بيّن أن الذي لا يعلم أحقية القرآن أن الذي منعه من ذلك عَماه، مع وضوح دلالة القرآن، قال: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: آية ١٩] فبيّن أن الذي منعه أن يعلم أنه الحق إنما منعه عَماه[3].

إذا لم يكن للمرءِ عينٌ صحيحةٌ فلا غَرْوَ أن يرتابَ والصبحُ مُسفر

فلو حاولت أن تُري الشمس للأعمى لا تستطيع، فنور القرآن أعظم

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من هذه السورة.
(٢) السابق.
(٣) السابق.

من نور الشموس، والذين يطلبون الهدى في غيره أضعف بصائر من الخفافيش، فمن هذا جاءت البلية. فعلينا جميعاً أن نعرف أن القرآن نور الله المبين، وحبله المتين، المعتصم به ظافر؛ والمحتج به غالب، لا يخذل من تمسك به أبداً لأنه كلام الله؛ ولذا قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: آية ١٥٥] أي: ولا تتبعوا غيره من السبل الزائغة الضالة.

ومعنى ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾: أحِلوا حلاله، وحرموا حرامه، واعتقدوا عقائده، واعتبروا بأمثاله، وعاملوا أعداءكم بما فيه من الحِكَم؛ لأن القرآن يوضح جميع المرافق الحيوية من جميع مرافقها، وقد بيّناه مراراً، وسنضرب لذلك مثلًا بسيطاً؛ لأنه معروف أن جميع المصالح في الكتب السماوية، أنها تدور حول ثلاث، هي: دفع الضرر، المعروف بدرء المفاسد، الذي يُقال له في الأصول: (الضروريات)، وجلب المصالح، المسمىٰ في الأصول بـ (الحاجيّات)، والجري على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات. فجميع الشرائع السماوية إنما تدور حول هذه المصالح الثلاث. إمّا أن يتضمن التشريع نفي ضرر وإبعاد مفسدة، أو جلب مصلحة، أو جرياً على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات. وإذا نظرنا كتاب الله وجدنا فيه العجب العجاب، الذي يبهر العقول من المحافظة على هذه المصالح. ولو تكلمنا على هذا لما وسع الوقت شيئاً قليلًا منه، ولكن نضرب بعض الأمثال فنقول مثلًا: أطبق عامة العقلاء أن المظالم التي تتظالم بها الناس في دار الدنيا، ويكون بعضهم ظالماً بعضاً، ومعتدياً على حق بعض، أنها هي الست، المعروف بالضروريات: ستة أشياء[1]، وهي:

أولها: الدين: والعدوان على الدين من أعظم الجنايات وأكبرها. ومن ذلك أن تكون أولاد المسلمين على الفطرة الصحيحة، وهم في غاية الاستعداد لقبول ما كان عليه آباؤهم من الدين والصلاح، فيأتيهم قوم فيجعلون لهم مدارس يعلمونهم فيها العقائد الزائفة، والإلحاد والفِكَر الهدامة، فيضيّعون دينهم. فهذا ظلم وعدوان على الدين، وهو من أعظم

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

المظالم وأشنعها. هذا واحد من الستة، الدين.

الثاني: النفس: وهو الإنسان الذي يعدو على الإنسان فيقتله ويُذْهِبَ نفسه.

الثالث: العقل: ومن يعدو على الإنسان فيضيّع عقله.

الرابع: النسب: وهو من يتجرأ على المجتمع فيضيّع بعض أنسابه.

الخامس: المال.

السادس: العِرض.

فإن جميع المظالم في دار الدنيا تدور حول هذه الأشياء، وهي العدوان على دين الإنسان، أو العدوان على نفسه، أو العدوان على عقله، أو العدوان على نسبه، أو العدوان على ماله، أو العدوان على عرضه. فهذه الجواهر الستة التي تدور حولها المظالم في دار الدنيا، لا تجد نظاماً أحوط لها، وأحصن لها، وأشد محافظةً عليها من نظام السماء، الذي تضمنه هذا الكتاب المبارك، المنزّل من رب العالمين، فتراه يحافظ على الدين أشد المحافظة، فيقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: آية ١٩٣] أي: حتى لا يبقى في الدنيا شرك ولا فساد دين، ويقول: «**من بدل دينه فاقتلوه**»[1] ويقول: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: آية ٢١٧] يحثهم على أنهم يجاهدون كل المجاهدة من أراد أن يغيّر دينهم ويردهم عنه.

وأما النفس فقد جعل القرآن دونها حائطاً من حديد، وهو القِصاص؛ لأن أعظم صيانة للنفوس ومحافظة عليها: شرع القِصاص؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: آية ١٧٩] ومعنى أن كون القصاص لنا به الحياة: أن الرجل ينزغ فيه الشيطان، فيغضب، فينوي أن يقتل الذي أغضبه، فيأخذ الخنجر أو السكين، أو آلة القتل، ثم يذهب مصمماً على أن يقتله، فيتذكر أنه إن قتله يتذكر صَلْبَه على الخشبة مقدماً لولي المقتول ليقتله أمام

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

الناس، فإذا تذكر ذلك الموقف الذي يصير إليه أمره خاف، وارتعدت فرائصه، وهاب القتل، فحيي المقتول، وحيي هو. وقَتْل نفسٍ واحدةٍ قصاصاً يُحْي الله به ملايين الأنفس. وهذه حكمة القرآن وشرعه.

وهؤلاء الكفرة الذين تشبعوا بالآراء الإفرنجية، الذين يقولون إن القصاص من السفاهات، أن هذا الرجل قتل رجلًا ونقص به عدد المجتمع، فكيف نضايف بأن ننقص عدد المجتمع برجل آخر؟!! هذه فلسفة شيطانية، أصحابها لا يعرفون الحقائق. فإن الرجل الذي قتلنا أحيينا بقتله آلاف النفوس؛ لأن الشيطان ينزغ بين الناس، ويُغضِب السفهاء حتى يُقدموا على القتل، ولا يردعهم إلّا القصاص، فإذا أراد أن يقتل تذكر موقفه أمام الناس مصلوباً على خشبة، أو ممسوكاً مجعولًا على عينيه غطاء ليقتله ولي الدم، فإذا تذكر موقفه أمام الناس ليُقتل خاف وحاسب، فحيي هو، وحيي المقتول. ونحن نقول مثلًا ـ وقصدنا بيان دين الإسلام، ومحاسنه، وصيانته للحقائق، لا إطراء زيد ولا عمرو ـ أن هذه البلاد، لمّا كانت تحكم بالقصاص، وتقطع يد السارق ـ نرجو الله أن يُسدد الحاكمين عليها للخير، ويديمهم على الحكم بحكم الإسلام ـ إذا وُجدت الإحصاءات العالمية في جنايات القتل أو السرقة تجد هذه البلاد أقل من جميع البلاد المتحضرة المترقية حوادث وجنايات، فكل ذلك بفضل الله ثم بفضل هذا النظام السماوي، الذي وضعه خالق السماوات والأرض، حياطة للنفوس، وحياطة للأموال.

ثم إنا إذا وجدنا الأنساب، نجد الشرع الكريم حافظ على أنساب المجتمع غاية المحافظة؛ ولذا حرم الزنى خَوْفَ أن يختلط ماء رجل بماء امرأة، وخَوْفَ أن تحمل النساء من رجال غير معروفين فتبقىٰ الأولاد لا آباء لهم، فتضيع أنسابهم؛ ولأجل محافظته على الأنساب أوجب العدة. عندما يحصل فراق بموت أو طلاق يجب على المرأة العِدة، بأن تمكث عدة معينة ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: آية ٢٢٨] وقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: آية ٤] بالغ في الصيانة حتى ألزم العدة للتي لا تحيض، مبالغةً

في الصيانة جداً، حتى إنه من شدة محافظته على [الأنساب][(١)] منع سقي الزرع بماء غيره؛ ولذا منع تزويج المرأة الحامل؛ لأن الرجل إذا تزوج امرأةً حاملاً كان يسقي بوطئه لها ـ كان ماؤه يسقي ـ ذلك الزرع الذي كان في بطنها قبله، فسقي الزرع بماء الغير كأن الولد يكون فيه حظ لهذا وحظ لهذا، فمنع سقي الزرع بماء الغير حياطةً للأنساب، كما قال: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: آية ٤].

وإذا نظرنا العقول فلا نجد نظاماً يحافظ على العقل مثل نظام القرآن العظيم؛ ولذا حرّم شرب كل مُسكِر، كل شيء يضيّع العقل حرّم تعاطيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: آية ٩٠] وأوجب الحد في شرب الخمر محافظةً على عقول المجتمع.

وكذلك الأعراض، منع القرآن وقوع المسلم في عرض أخيه، قال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: آية ١٢] ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات: آية ١١] إلى غير ذلك من الآيات. ثم بيّن للإنسان خبث عرض أخيه وقال له: كأنك إن أكلت عرض أخيك، فأكلت لحمه، ووقعت في عرضه، كأنك أكلته ميتاً بعد أن أنتن، وصار فيه الدود، وصرت تبتلع لحمه، في قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: آية ١٢] وهذا غاية التقبيح من الوقوع في أعراض الناس، والكلام فيهم بالغيبة. ثم إن الله جعل حدّ القذف ثمانين جلدة، حفاظاً على أعراض الناس ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [النور: الآيتان ٤، ٥] كل هذا محافظة على أعراض الناس.

وأوجب حد السرقة محافظة على أموال المجتمع.

ونحن نذكر مراراً[(٢)] أن الذين طمس الله بصائرهم، ونظروا إلى

(١) في الأصل: «العقول» وهذا سبق لسان.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

التشريع السماوي بنظرة غير صحيحة، وصوّره لهم أعداء الدين بصورة مشوهة غير حقيقية، يزعمون أن قطع اليد أنه عمل وحشي، وأنه لا ينبغي أن يكون في النظم التي يُعامل بها الإنسان، وهو عمل عدالة اجتماعية من أحسن الأعمال في العدالات الاجتماعية، ومن أحسن الأعمال في الآداب الروحية أيضاً، فهو عمل جامع بين الجسم والبدن، ذلك أن الله خلق هذه اليد، وفرق أصابعها، وأبعد إبهامها من سبابتها، فلو كان الإبهام موضوعاً بقرب السبابة كقرب الوسطى منها لما قدر أن يعقد شيئاً ولا أن يحل شيئاً. وشدّ له رؤوس أصابعه بالأظفار؛ لتكون هذه اليد خير أداة عاملة لبناء المجتمع، والمعاونة على الخير ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: آية ٢] فلمّا مدت أناملها الخائنة الخسيسة الخائسة لتأخذ مال الغير على أقبح وجه وأردئِه وأخسه كانت هذه اليد في نظر الشارع الذي خلقها كأنها نجسة، فنجست هذا العضو بقذارتها وقذارة خستها وفعلها، فأمر الشارع بإزالتها كعملية تطهيرية، كعضو فاسد يفسد جميع البدن وينتنه، فهي عملية تطهيرية لإزالة عضو منتن فاسد؛ ليصح بقية البدن ويطهر؛ ولذا ثبت في حديث عبادة بن الصامت الثابت في الصحيحين(١) ما يؤيد أنه إن أُقيم عليه الحد وقُطعت يده أن ذلك يطهِره من تلك الخسيسة، فتطهر بقية البدن، مع أن المال هو شريان الحياة الذي به إقامة كل شيء، إذ لا عسكرية إلا بالمال، ولا اجتماع إلا بالمال، ولا ثقافة إلاّ بالمال. فهو شريان الحياة وأساس حجرها الأساسي، الذي يتركز عليه كل شيء من مرافق الحياة. والسرقة أخذه على وجه خبيث خسيس يعسر التحرز منه؛ لأن السارق ينظر الغفلاتِ، وأوقات الخلوات التي لا يُطَّلع عليه فيها غالباً، فلو تركناه ولم نردعه ردعاً بالغاً لأمكن لليد السارقة الواحدة أن تبطل ملايين الأيدي، فتترك ملايين الأيدي عاطلة!! فكيف نترك يداً واحدة تعيث وتفسد آلاف الملايين من الأيادي؟! فبقطعها يطهر بقية البدن، فيغفر الله للإنسان تلك الخسيسة، فيطهر من ذلك التنجيس والتقذير المعنوي. ثم إنه بعد ذلك ينزجر السفهاء

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

عن سرقة أموال الناس، فتكون عدالةً اجتماعية، وتطهيراً سماوياً من ذنب الخبيث، وهذه حكمة بالغة. فمعروف أن قطع السرقة فيه سؤال معروف، وهو أن الجنايات على المال أنواعها كثيرة، كأن يغصبه من إنسان، أو يختطفه، أو يتعدىٰ عليه بعدوان غير السرقة. والله ما جعل القطع بنوع من العدوان على المال إلاّ في النوع الواحد الذي هو السرقة. فمن غصب مال إنسان مكابرة لا تُقطع يده، والعلماء أجابوا عن هذا[1]: بأن العدوان على المال بالأوجه غير السرقة أنه غالباً يكون ظاهراً لا يخلو من أن يجد عليه بيّنة تشهد له عند ولي الأمر، فيردع وليُّ الأمر الظالمَ، ويرد للمظلوم حقه.

أما السرقة فلا تكاد توجد عليها البيّنة؛ لأن السارق يتحرىٰ أوقات الغفلات، وأوقات الخفاء الذي لا يطلِع عليها أحد، ولا توجد عليها بيّنة، فجعل الشارع الحد فيها أقوىٰ وأجدى وأغلظ، لتبقىٰ للمسلمين أموالهم، وليطهِّر السارق أيضاً من رذيلته، وأمثال هذا كثيرة. فهذا هدي القرآن، ومحافظته على الحقوق، ومساواته بين الناس في الحقوق، إذا قتل أكبرُ رجل أصغر رجل يُقتل به. وهو يساوي بين الناس في حقوقهم. فاتباع نظام السماء إذا اتبعوه انتشرت بينهم المؤاخاة، والمحبة الصادقة، والعدالة الاجتماعية بمعناها الصحيح، والموادّة، والمحبة، والإنصاف. وإذا اعتدى بعضهم على بعض فالعمل السماوي النازل من عند الله (جل وعلا) في الردع عن ذلك الفعل هو أعظم الأشياء وأوقعها موقعها، ولكن من أعماه الله فلا مبصِّر له، من يُضِلِه الله فلا هادي له.

وعلى كل حال فالهدىٰ كل الهدىٰ في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والقرآن كفيل بتنظيم الحياة بجميع أنواعها، بتنظيم حياة الرجل في نفسه، وما يأمره أن يكون عليه من الصفات الكريمة من عدم الغش، وعدم الخيانة، ومن السخاء، والتضحية، والمعاونة، والشجاعة، والصبر، والشكر إلى غير ذلك من أوصاف النفوس الحميدة، والنهي عن الأوصاف الخبيثة، كالعجب، والرياء، والحسد، والكبر، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك. فيأمره كيف

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

يعامل زوجه وأولاده أكمل معاملة. ومن أوضح ذلك أنه يحذره أولًا من ضرِّهم؛ لأن أولاده وزوجته قد يضيّعون دينه، والله يقول: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: آية ٩] فإن الأولاد قد يحملون الرجل على بعض المخالفات، والمرأة قد يحمله خاطرها على بعض المخالفات، والله يقول: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: آية ١٤] فيأمرهم بالحذر أولاً من أن يوقعوهم فيما لا ينبغي، ثم إن الله يعلم أنه لا بد أن يقع منهم شيء يسوء الرجل، فبعد ذلك يأمره بالصفح والعفو عنهم، ويحذره أولاً منهم، ثم يأمره بعد الوقوع بالمعاملة الحسنة معهم: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾/ أي: وإن وجدتم ما ٢٣/ب
لا يليق فقابلوهم بالصفح والعفو والرحمة. يأمر أولًا بالحذر خوفاً منهم، وثانياً بمعاملتهم بالإحسان إذا وقع منهم بعض الشيء.

ويأمرنا بما نعامل به الأعداء، وما نعامل به الإخوان، يقول: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: آية ٢٩] فالمسلم رحيم بالمسلم، شديد على عدو المسلم، وقال (جل وعلا): ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: آية ٥٤] فيبيّن أن صفات المسلم أن يكون ليناً هيّناً على أخيه المسلم، وأن يكون غليظاً فظاً على أعدائه؛ ولذا يقول للنبي في حق المسلمين: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: آية ٨٨]، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: آية ٢١٥] ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٩] ويقول في غير المؤمنين: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: آية ٧٣] ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: آية ١٢٣].

وجميع ما في القرآن والسنة هو الهدي الصحيح الذي ينير معالم الطريق للإنسان في جميع المصالح الدنيوية والأخروية، ويجمع بين مصالح الدنيا والآخرة، وإذا قرأتم آيتين من سورة النساء فيهما صلاة الخوف: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾

[النساء: آية ١٠٢] إلى آخر الآيتين. هذا وقت التحام الكفاح المسلَّح. والمفروض أن الرجال يموتون. والقرآن في هذا الوقت يعلِّم المسلمين وجه الخطة العسكرية، وكيف يكونون؛ ليمكنهم بذلك أن يؤدوا لله (جل وعلا) طاعة من طاعاته، وأدباً روحياً من آداب السماء، وهو الصلاة في الجماعة.

فهكذا يكفل القرآن المحافظة والقوة في الدنيا، والاتصال بخالق هذا الكون، وتهذيب الروح على ضوء تعاليمه، والاتصال به. ويقول في سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: آية ٤٥] فقوله: ﴿فَاثْبُتُوا﴾ هذا تعليم سماوي عسكري، ومعنى: ﴿فَاثْبُتُوا﴾ هو أمر العسكريين بالصمود في خطوط النار الأمامية في وجه العدو في الميدان. وهذا تعليم عسكري قوي، وفي هذا الوقت بعينه يقول: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فعاملوا الأعداء في الدنيا بالقوة والغلظة بجميع أنواعها، ولا تقطعوا صلتكم بمن خلقكم لتأكيد حظ أجسادكم وحظ أرواحكم. ومن أخل بأحد الطرفين ظهر فيه ما ظهر. الآن[١] الكفرة كالكتلة الشرقية والغربية نجحوا في خدمة الإنسان من حيث كونه حيواناً جسدياً، وأنتجوا من القوة المادية والتنظيمية ما كان لا يدخل في حسبان أحد حتى في النوم، ولكنهم أفلسوا كل الإفلاس في الناحية الروحية؛ لأن أرواحهم خبيثة كأرواح البهائم والسباع، ليست مُرباة على ضوء نورٍ سماوي، ولا تعليمٍ إلهي، فصارت هذه القوة الطاغية كأنها في يد سفيه جاهل لا يدري ماذا يفعل بها؛ ولذا تجد العالم كله في قلق من أن تنفجر هذه القوة وتُفني كثيراً من الدنيا، وتراهم يعقدون المؤتمر بعد المؤتمر، والمجلس بعد المجلس ليتخلصوا من تلك القوة التي بذلوا فيها النفس والنفيس.

وأنا أؤكد لكم تماماً أنه لو كان أحد الطرفين يعلم أنه لو بادر فدمر ما عنده من القوة الفتاكة لفعل الثاني كما فعل أنهم يبادرون ليتخلصوا من شرها وخوفها والقلق بها، ولكن الكل يخاف إن بدأ بإتلاف ما عنده أن يحتفظ الثاني بالقوة التي عنده ويهلكه بها، في الوقت الذي ليس عنده قوة تدافعها. كل هذا إنما جاءهم من أنهم أهملوا ناحية الروح، واعتنوا بناحية الجسد.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

والاهتمام بناحية الجسد لا ينفع ولا يصلح إلّا إذا كان مزدوجاً مع الاهتمام بالروح. فلو كانت الأيادي التي صنعت هذه القوة مرباة تربية سماوية على ضوء نور إلهي لكانت في غاية العدالة، وكان الناس في أمن تام أنهم لا يبطشون بها إلا في أمرٍ يرضي الله ويكون في مصلحة العالم البشري؛ ولذا فهم كأنياب الأسد وأظفاره. أنياب الأسد وأظفاره قوة حيوانية بهيمية فتاكة، ولكن النفس التي تديرها نفس بهيمية طبيعتها الافتراس والابتزاز والهدم، فلا مصلحة بها لبني الدنيا؛ لأن الذي يديرها يوجهها توجيهاً لا فائدة فيه. كذلك المسلمون عندهم تراث عظيم روحي، ضيعوا هذا التراث!!

وكان الواجب على المسلمين أن يفهموا أن ما أنتجته الحضارة الغربية من خدمة جسم الإنسان أن فيه أشياء نافعة عظيمة، يجب أخذها، وهو ما أنتجته من القوة من الناحية المادية والتنظيم، وأن فيها أضراراً عظيمة، وسموماً قاتلة، وهي ما أحدثته من الإفلاس الخُلُقي، والتمرد على نظام السماء، والكفر الصريح، والانحطاط الخلقي في جميع ميادين الأخلاق والقيم الإنسانية الروحية، فهم مفلسون في هذه الناحية، أغنياء في هذه الناحية. فكان على المسلم أن يعلم أن الحضارة الغربية أنتجت ماءً زلالًا نافعاً، وسمّاً فتاكاً قاتلًا، فيأخذ الماء الزلال، ويحذر من السمّ القاتل، فينتفع بتعلم ما أحدثته من القوة في سائر الميادين، وفي ذلك يأمر القرآن، ويحذر مما جنته من التمرد على نظام السماء، حتى إن بعض الكاتبين منهم لينفون خالق السماوات!! وبعض طرقهم الهدامة مبناها على أنه لا خالق لهذا الكون ولا دين والعياذ بالله.

والمؤسف كل الأسف أن أغلب من يديرون الدفة ـ إلا من شاء الله ـ غالباً يعكسون الأمر فيأخذون من الحضارة سُمّها الفتاك، وهي الانحطاط الخلقي، والتمرد على نظام السماء، ورمي القرآن وراء ظهورهم، في الوقت الذي لا يستفيدون فيه قوة.

ما أحسنَ الدينَ والدنيَا إذا اجتمعَا وأقبحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرجلِ(١)

---

(١) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص١٧٤.

فعلينا أن نعلم أنه لا يكفي نصيب الروح دون نصيب الجَسد، ولا نصيب الجسد دون نصيب الروح. فلو بقي المسلمون في المساجد يصومون النهار، ويقومون الليل، ويتلون القرآن، ويعبدون الله، ولم يزاولوا شيئاً من القوة التي يردون بها الكفاح المسلح عن أوطانهم، كانوا لم يأتوا بمدلول القرآن، ولم يطيعوا الله؛ لأن التكاسل والضعف، وعدم إعداد القوة مخالفة للشرع السماوي، وتمرد على نظام السماء. وكذلك الذين أعدوا جميع القوة، وخالفوا أوامر خالق السماء، فالكل من هؤلاء وهؤلاء ليس على هدىً، والهدىٰ ما كان عليه النبيّ ﷺ وأصحابه، وهو إعداد القوة الكاملة في جميع الميادين، مع المحافظة على إرضاء خالق هذا الكون، والعمل بما شرّعه من تحليل وتحريم وآداب ونحو ذلك؛ ولذا قال الله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ يعني: اتبعوا ما فيه [من الهدى والرشاد، فإنكم لو فعلتم ذلك...][1] لكفاكم شر الدنيا وشر الآخرة، ولكنتم خير أمة، وفقتم جميع البشر، وغلبتم جميع من في الدنيا؛ لأن من أطاع الله صار حِزْبَ الله، وحزب الله لا يُغلب، وطاعة الله والتمسك بكتابه هي جند لا يُغلب. فالله (جل وعلا) يأمر المؤمنين بالاستعداد، مع أن إيمانهم بالله قوة لا يغلبها شيء.

فنحن نعطيكم أمثلة قرآنية تدلكم على ذلك: ألا تعلمون غزوة الأحزاب، المعروفة بغزوة الخندق، التي قصّها الله في سورة الأحزاب، أن المسلمين كانوا في قلة عدد، وفي جوع، وفي ضيق اقتصاد، وجميع من في الأرض من الناس يقاطعهم في السياسة والاقتصاد، لا روابط بينهم وبين أحد لا سياسية ولا اقتصادية، وجاءتهم تلك الجيوش جيوش الأحزاب ومعها اليهود وقريش، وجاؤوا بعشرة آلاف مقاتل، وحاصروا المدينة ذلك الحصار العسكري التاريخي المشهور، الذي نوّه الله بشأنه، ووصف شدته البالغة في سورة الأحزاب بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١] ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ من الله أمر عظيم فظيع!! هذا الحصار العسكري، المسلمون في ضعف من العَدَد والعُدَد والعتاد والمال، وجميع الناس يقاطعونهم. فما هذا السلاح الذي قابلوا به هذا الحصار العسكري، والقوة العسكرية الشيطانية؟! الجواب: هو سلاح الإيمان بالله (جل وعلا)، كما نص الله عليه بقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: آية ٢٢] هذا الإيمان الثابت الراسخ بالله، والتسليم لله، كان هو السلاح القاضي على هذه الأعداء، صرّح الله بنتيجته بقوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: آية ٢٥] يعني: إن كنتم ضعافاً أذلاء فهو قوي عزيز لا يذل من التجأ إليه، ولا من أخلص له حقاً. ثم قال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: من حصونهم ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ﴾ ثم ختم وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: الآيتان ٢٦، ٢٧] إن كانت قدرتكم ضعيفة فقدرته ليست بضعيفة، فهو قوي قادر لا يغلب، ولا يُغلب من كان حزبه حقاً.

ولما علم الله من الذين بايعوا النبيّ ﷺ تحت شجرة الحديبية علم من قلوبهم الإخلاص والإيمان الكامل، ونوّه به بالاسم المبهم ـ الذي هو الموصول ـ بقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: آية ١٨] يعني: إخلاصاً وإيماناً كما ينبغي، فكان من نتائج ذلك الإخلاص والإيمان التام بالله أن قال: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ فصرّح بأن إمكانياتهم العَدَدية والعُدَدية لا تقدرهم عليها، قال: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ﴾، لأنه القادر، فأقدركم عليها بقدرته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: آية ٢١]، فالمسلمون إذا استمسكوا بالدين غلبوا الأعداء. وهذا الذي ذكر الله يوم الخندق شيء ما كان في حسبانهم، وما كانوا يظنونه، فهو أمر إلٰهي من الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: آية ٩] فالمسلمون إذا تمسكوا بالدين كما ينبغي، فالقرآن يأمرهم بإعداد القوة الكاملة، ولو باغتهم العدو قبل أن يستعدوا العدة الكاملة و (...)[1] للكفاح، فالنصر يأتي من السماء من حيث لا يدرون، فقد يسلط الله على العدو الطاعون فيهلكه، وقد يسلط عليه عدواً آخر فيهلكه، وقد يخالف قلوب بعضه فيضرب بعضه بعضاً. والنصر يأتي من الله من الوجوه التي لا يعرفونها.

فالحاصل: أن القرآن لا يأمر بالتكاسل والتواكل، بل إنما يأمر بالقوة والاستعداد لكل هجوم، والمتمسك به أيضاً لو بُوغت قبل أن يستعد، أو في حالة ضعف فإن الله يقويه وينصره على عدوه بالطرق التي يعلمها هو وحده، وإن لم تكن في حسبان المسلمين، كما نصر أهلَ الأحزاب ـ النبيَّ ﷺ وأصحابه ـ بالريح وبجنود لم تروها، نصرهم بالريح، كلما نصبوا خِباءً في البر نسفته الريح، وكلما وضعوا قدراً ليطبخوا فيه نسفته الريح. فبقوا مثلًا لا قرار لهم، لا كِنَّ يكنهم، ولا طعام يأكلونه، فاضطروا للفرار، حتى قال رئيسهم أبو سفيان بن حرب: ارتحلوا وأنا أول مرتحل.

وكان حذيفة بن اليمان العبسي (رضي الله عنه) معهم في ذلك الوقت عيناً من النبي ﷺ، ذكروا عنه في السيرة أن أبا سفيان ركب على بعيره وهو معقول، قال: وأنا الذي فتحت عقال البعير، ولو لم يأمرني النبيّ بأني لا أحدث شيئاً لكنت قتلت أبا سفيان في ذلك الوقت[2].

هذا دين الإسلام، وهذا شأن المتمسكين به، أما الذين ينصرفون عنه ويتركونه محتقرين إياه، زاعمين أنه لا يُنظِّم الحياة، وأن الحياة تطورت، وأن تنظيم علاقات الدنيا يحتاج إلى أمور جديدة، كما يرتبه الكفرة الفجرة،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من هذه السورة.

(٢) في هذه المسألة راجع: ابن جرير (١٢١/١٢)، القرطبي (٨٦/٧)، ابن كثير (١٧٧/٢)، (١٧٠/٤) البحر المحيط (٢٢٢/٤)، أضواء البيان (٢١٠/٢).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

هؤلاء عُمي البصائر، خفافيش البصائر، وإن سموا أنفسهم مسلمين، فالنصر لا يأتيهم من عند الله؛ لأن الله ميّز الذين وعدهم بالنصر، ميّزهم بصفاتهم الكاشفة، قال في الذين وعدهم بالنصر، ميّزهم في سورة الحشر تمييزاً كاشفاً: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ من هم الذين وعدهم الله بالنصر؟ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: الآيتان ٤٠، ٤١] أما الذين إذا مكن لهم في الأرض غيروا معالم الدين، وضيّعوا الشرع، ووضعوا المذاهب الهدامة، وأضاعوا ما في الإسلام من أخلاق، وغيروا معالم الدين، وجاؤوا بالفساد والطرق الملحدة المستوردة، هؤلاء ليس عندهم وعد من الله بنصرٍ ألبتّة، ومثالهم مثال العامل الذي عاقده رجل ليعمل له فامتنع من أن يعمل، ثم لما جاء الوقت جاء لصاحب العمل، وقال: أعطني أجرتي. قال: كيف تطلب مني أجرتك وأنت لم تعمل شيئاً؟ أنت رجل مجنون!! فهؤلاء مثل هذا يعصون الله ويناصبونه بالعداء، ويغيّرون معالم دينه، ويتحاكمون إلى الطاغوت، ثم يقولون: نحن مؤمنون ينصرنا الله!! هذا جنون وهَوَسٌ وقلب للحقائق. فالمؤمنون الذين ينصرهم الله هم الذين إن مكنهم الله في الأرض أقاموا دينه وشرعه، وعملوا بنور كتابه، كما قال هنا: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟﴾ قال بعض العلماء: اتقوا تحريفه وحمله على غير معانيه. وقال بعض العلماء: اتقوا الله واجعلوا وقاية بينكم وبين سخطه وعذابه باتباع هذا القرآن العظيم[1]. وعلىٰ كل حال فمتبع القرآن متقي. فقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ كالعطف المؤكد لقوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ اتبعوه لأجل أن يرحمكم الله، أي: اتبعوه راجين أن يرحمكم الله.

ثم إن كفار قريش كانت لهم حجة قطعها الله تبارك وتعالىٰ خصوصاً لكفار قريش: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ

(١) انظر ابن جرير (٢٣٩/١٢)، القرطبي (١٤٣/٧).

﴿مِنۡهُمۡۚ﴾[الأنعام: الآيتان ١٥٦، ١٥٧] هذا قطع لحجة كفار مكة، وإلقام لهم الحجر. يعني: هذا كتاب مبارك أنزلناه بلغتكم الواضحة الفصحىٰ.

أنزلناه ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ (أن) هنا: اختلف البصريون والكوفيون في المقدر قبلها[1]، فكان البصريون يُقدِّرونه مضافاً. يعني: أنزلنا عليكم هذا الكتاب بلغتكم كراهة أن تحتجوا حجة باطلة و ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ وكراهة أن تقولوا: ﴿لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾. والكوفيون يقولون: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ لئلا تقولوا كذا أو تقولوا كذا. فهو متعلق بـ ﴿أَنزَلۡنَآ﴾ فـ (أن) متعلقة بـ ﴿أَنزَلۡنَآ﴾، بعضهم يُقدِّر: (أنزلناه كراهة أن تقولوا كذا) وبعضهم يقول: (أنزلناه لئلا تقولوا كذا). وهذا جارٍ في كل ما يماثله في القرآن، نحو ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ [النساء: آية ١٧٦] أي: لئلا تضلوا، أو كراهة أن تضلوا. ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: آية ٦]، كراهة أن تصيبوا، أو: لئلا تصيبوا. وهو كثير في القرآن. وبعض العلماء يقول: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾: العامل فيه محذوف؛ لأن ﴿أَنزَلۡنَآ﴾ المذكورة حالَ بينها وبين المعمول أجنبيٌّ. والمعنىٰ متقارب، والمعنى: كأنه يقول: يا كفار مكة: أنزلنا هذا الكتاب المبارك بلغتكم وبلسانكم كراهة أن تتعللوا بعلل فاسدة، وأن تقولوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ﴾ وهم: اليهود والنصارى. وكتاب اليهود: التوراة، وكتاب النصارى: الإنجيل.

﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ﴾ لأن الطائفتين كلاهما جماعة وخلق[2]. فقال: ﴿عَن دِرَاسَتِهِمۡ﴾ ولم يقل: «عن دراستهما».

﴿غَٰفِلِينَ﴾ وإنما غفلنا عنها لأن لسان هؤلاء أعجمي، ولساننا عربي، ولا نفهم كلامهم، ولا يفهمون كلامنا. فلو أردنا أن نعرف منه أوامر الله ما

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٣٩/١٢)، البحر المحيط (٢٥٦/٤ ـ ٢٥٧)، الدر المصون (٢٢٩/٥).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٥٧/٤).

قدرنا؛ لأنه ليس بلغتنا ولا بلساننا، ولا نفهم ما يقول أهله، ولا يفهمون ما نقول. يعني: كراهة أن تقولوا هذه الدعوىٰ، وتعتلوا هذا الاعتلال أنزلنا عليكم كتاباً سماوياً واضحاً بلغتكم، لنقطع هذا العذر. أي: أنزلناه لئلا تقولوا. أو: كراهة أن تقولوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ اليهود، وهو: التوراة، والنصارىٰ، وهو: الإنجيل.

﴿وَإِن كُنَّا﴾ (إن) هي المخففة من الثقيلة[1]. وهي هنا مهملة لا عمل لها.

واللام في قوله: ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ لام الفرق، الفارقة بين (إنْ) المخففة من الثقيلة، و (إِنْ) النافية[2]. وكونهم غافلين عنها لا يفهمونها لأنها ليست بلغتهم، ولا يعرفون معانيها؛ لأنها ليست بلغتهم. يعني: فقد قطعنا هذا العذر، وأنزلنا إليكم كتاباً بلسانكم. أو تقولون: لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل التوراة على اليهود، أو كتاب كما أُنزل الإنجيل على النصارى، لعملنا بذلك الكتاب، وكنا أهدى منهم، ولكنا لنا عذر، وهو أنهم أنزل عليهم كتاب، ونحن لم ينزل علينا كتاب. هذا العذر. ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ فكأن الله يقول: إن ادعيتم هذه الدعاوي، واعتللتم بهذه العلل، فقد جاءكم كتاب منزل بلسانكم ولغتكم، تعرفون معناه فسمى القرآن (بيّنة) لأن البيّنة هي الدليل الواضح الذي لا لبس في الحق معه، وسُمي الشهود (بيّنة) لأنهم يبيّنون الحق بشهادتهم.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ هدى إرشاد للجميع، وهدى توفيق لمن اتبعه. ورحمة يرحم الله به من عمل به من عباده المؤمنين ووفقه لذلك.

ثم إن الله قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهم كفار قريش، بعد أن نزل عليهم الكتاب، وقطع به عذرهم، ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وقال: هي سحر، شعر، كهانة، أساطير الأولين.

---

(١) انظر: البحر المحيط (٢٥٧/٤)، الدر المصون ٢٣٠/٥).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٥٧/٤)، الدر المصون (٢٣٠/٥ ـ ٢٣١)، الكليات ص٧٨٣.

﴿وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ﴾ صدف تستعمل استعمالين[١]: صدف تستعمل بمعنى: أعرض. تقول: صدفت عن الأمر، أصدف عنه. بمعنى: أعرضت عنه. ومنه قول الشاعر[٢]:

إذا ذكَرْن كلاماً قلنَ أحسنَه   وهُنَّ عن كل سوءٍ يُتَّقى صُدُفُ

أي: عن كل سوء معرضات. ومنه قول عبدالله بن رواحة أو غيره[٣]:

عجبتُ للطف الله فينا وقد بدَا   له صَدْفُنَا عن كلِّ وحي مُنزّلِ

أي: إعراضنا. وعليه فـ (صَدَفَ) لازمة، بمعنى: أعرض. وتستعمل (صدف) متعدية، تقول: صدف زيدٌ عمراً. أي: صدّه عن طريقه، وجعله معرضاً عنها.

واختلف العلماء في (صدف) هنا، هل هي متعدية محذوفة المفعول؟ وهو قول السُدّي[٤]. وهو الظاهر؛ لأنه يكون جامعاً بين الضلال والإضلال. ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ﴾ أي: كفر هو بنفسه، وصدف الناس. أي: صدّ الناس عن الإيمان بها، فهو جامع بين الضلال والإضلال. وعلى هذا القول لو قلنا: إن (صدف) لازمة، تتكرر مع قوله: ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ﴾ لأن المكذب بآيات الله صادف عنها، فيكون تكراراً. وروي عن ابن عباس أن (صدف) هنا لازمة[٥]. أي: كذب بآياتنا وأعرض عنها. ووجهه: أنه كذب بها بلسانه، وأعرض عنها بجوارحه. كقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١﴾ [القيامة: آية ٣١] أي: لا صدق بلسانه، ولا صلى بجوارحه.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/٢٤٤) القاموس (مادة: صدف) ١٠٦٨، البحر المحيط (٤/٢٥٨)، أضواء البيان (٢/٢٨٢)، مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

(٢) البيت لابن الرقاع، ولفظه في المصادر التي وقفت عليها، ومنها: أضواء البيان: «إذا ذكرن حديثاً». وقد مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٤) انظر: ابن جرير (١٢/٢٤٤)، أضواء البيان (٢/٢٨٢).

(٥) المصدران السابقان.

وقوله: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ﴾ سنجازي الذين يصدفون. أي: يصدون الناس ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾. بناءً على أن صدف متعدية. أو سنجزي الذين يعرضون ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ بناءً على أنها لازمة.

﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف. أي: سنجزيهم العذاب السيء. وهذا يدل على أنها متعدية؛ لأن ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ عذابٌ مضاعف لضلالهم وإضلالهم، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: كفروا في أنفسهم، وصدوا الناس عن سبيل الله ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: آية ٨٨] أي: لإضلالهم وضلالهم.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ وفي هذه الآية بعض الأسئلة المعروفة اللغوية:

أحدها: أنه قال: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ فأفرد الكتاب، ثم بيّن بقوله ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ﴾ أنهما كتابان، كيف يفرد الكتاب، وهما كتابان، التوراة والإنجيل؟ هذا سؤال وارد معروف.

والجواب عنه معروف، وهو أن المفرد إذا كان اسم جنس جاز استعماله مفرداً مراداً به الجمع أو التثنية؛ لأن المراد به الجنس في حالاته الثلاث. ونعني بحالاته الثلاث: أن يكون مُنكَّراً، أو مُعرَّفاً بالألف واللام، أو مضافاً. ونحو هذا كثير في القرآن[1].

فمن أمثلته معرفاً قوله هنا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وليس بكتابٍ واحد. وقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران: آية ١١٩] أي: بالكتب كلها. ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: آية ٤٥] أي: الأدبار. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: آية ٧٥] أي: الغرف بدليل: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: آية ٢٠]. وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: والملائكة بدليل قوله: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: آية ٢٢] لأن الملك الواحد لا يكون صفاً صفاً. ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾ [النور: آية ٣١] أي: الأطفال. وهو كثير.

---

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

ومثاله واللفظ مُنكَّر: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ [القمر: آية ٥٤] يعني: وأنهار. بدليل: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ [محمد: آية ١٥] ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: آية ٥]. أي: أطفالاً. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا﴾ [المؤمنون: آية ٦٧] أي: سامرين. ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا﴾ [المائدة: آية ٦] أي: أجناباً أو جنبين. ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: آية ٤] أي: أنفساً. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: آية ٤] أي: مظاهرون. وهو كثير في القرآن.

ومن أمثلته واللفظ مضاف: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: آية ١٨] أي: نعم الله. ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: آية ٦٣] أي: عن أوامره. ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ [الحجر: آية ٦٨] أي: أضيافي. وكان سيبويه (رحمه الله) في كتابه أَلَمَّ بهذا الموضع[١]، وقال: إن إطلاق المفرد إذا كان اسم جنس مراداً به الجمع أنه يوجد في كلام العرب بغير كثرة، بقلة. ونحن نرى باستقراء اللغة العربية أنه كثير. وأنشد له سيبويه في كتابه بيتين: أحدهما قول علقمة بن عَبَدَة التميمي[٢]:

بها جيفُ الحَسْرَى فأما عِظَامُها فَبِيْضٌ، وأما جِلْدُها فَصَلِيبُ

أي: وأما جلودها فصليبة.

والثاني قول الآخر[٣]:

كُلُوا في بعض بطنكم تَعُفُّوا فإن زَمَانَكم زمنٌ خَمِيصُ

أي: بعض بطونكم. ونحن نراه في كلام العرب وأشعارها بكثرة، فمنه قول عقيل بن علّفة المرّي[٤]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

وكان بنو فزارة شَرَّ عمٍ [أي: أعمام] وكنتُ لهم كشرِّ بني الأخينا

وقول عباس بن مرداس السُلمي(١):

فقلنا أَسْلِمُوا إنَّا أخوكُم وقد سَلِمتْ من الإِحَنِ الصدورُ

أي: إخوانكم. وقول جرير(٢):

إذا آباؤنا وأبوكَ عُدُّوا أبانَ المقرفات من العِرَابِ

أي: وآباؤك. وهو كثير في كلام العرب كما بيّنا.

فبهذا يعلم أن إطلاق الكتاب مراداً به جنس الكتاب الصادق بالتوراة والإنجيل واضح لا إشكال فيه. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ بيّن أنهم كذبوا في هذه حيث قال: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: الآيتان ٤٢، ٤٣] وقوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قِبَلًا﴾ وفي الأخرى: ﴿قُبُلًا﴾ ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: الآيات ١٠٩ ـ ١١١]، وبهاتين الآيتين قطع الله حجة كفار قريش.

يقول الله جل وعلا: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: آية ١٥٨]، هذا استفهام معناه النفي، والمعنى: أن هؤلاء الكفار، والذين يكذبون بآيات الله ويصدفون عنها، يكذبون بها ويصدفون الناس عنها،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

ويحملونهم على الإعراض عنها، ما ينظرون، أي: ما ينتظرون؛ لأن معنى قوله هنا: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هل ينتظرون. والعرب تطلق (نظر) بمعنى: انتظر، والدليل عليه هنا أنه بيّنه في آخر الآية فقال: ﴿قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ونظيره من كلام العرب، من إطلاق (نظر) وإرادة: (انتظر) قول امرىء القيس[(١)]:

خَليليَّ مُرَّا بي على أم جُنْدَبِ لتُقضى لُبَاناتُ الفُؤادِ المُعذّبِ
فإنَّكما إنْ تنظرَاني ساعةً من الدهرِ تنفعني لدى أم جُندبِ

وقوله: «تنظراني» أي: تنتظراني. يعني: ما ينظر هؤلاء المكذبون إلاّ إحدى الدواهي العِظام الآتية ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ جمهور المفسرين على أن المراد بإتيان الملائكة: إتيان الملائكة لقبض أرواحهم[(٢)]؛ لأن ملك الموت الذي يقبض أرواح الناس له أعوان كثيرة يقبضون الروح. قال بعض العلماء: حتى يبلغوها الحلقوم فيأخذها ملك الموت[(٣)]. وقد قال جل وعلا: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: آية ٦١] فدل على أنها رسل متعددة أعوان ملك الموت؛ ولذا أسند التوفي لرسل متعددة ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ وأسنده مرة لملك الموت ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: آية ١١] وأسنده مرة لنفسه ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: آية ٤٢] وإسناده لنفسه واضح؛ لأن كل شيء واقع بمشيئته. وإسناده لملك الموت لأنه الملك الموكل بقبض الأرواح. وإسناده لرسل متعددة؛ لأن لملك الموت أعواناً كثيرة من الملائكة يقبضون معه الأرواح. قال بعض العلماء: ينزعونها إلى الحلقوم فيأخذها هو أي: ملك الموت[(٤)].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

(٢) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) في هذا الموضع كلام غير واضح. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٤) هذه الجملة جزء من خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، وسيأتي عند تفسير الآيتين (٨٩ ـ ٩٠) من سورة التوبة.

والمعنى: ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة فتقبض أرواحهم على الشقاء والكفر، فيخلدون في النار تخليداً مؤبداً.

﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي: يأتيهم الله لفصل الخطاب يوم القيامة، فيعذبهم العذاب الأكبر عندما يأتي ليحاسب الناس على أعمالهم، وإتيان الرب هنا هو معنى قوله جل وعلا:[1] ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: آية ٢٢] وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: آية ٢١٠].

وهذه الآيات ونحوها من الآيات، كمجيء الرب في هذه الآيات، الذي أخبر به عن نفسه، كنزوله إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخر يقول: «**هل من داع فأستجيب له، هل من مستغفر فأغفر له**»[2]، كل هذه من آيات الصفات وأحاديثها أشكلت على آلاف الخلق، وضل فيها ملايين الناس من حذاق النظار، الفحول العلماء؛ لأن التوفيق بيد الله.

ونحن نحرر لكم هذا المقام تحريراً شافياً واضحاً على ضوء نور القرآن العظيم، بحيث يتيقن العاقل أن من مات عليه لقي الله سالماً. اعلموا أيها الإخوان أنا نوصيكم وأنفسنا بهذا الذي نقوله لكم في الخروج من هذا المأزق الأكبر، ومزلة الأقدام التي زلت فيها أقدام الآلاف ممن ينتمي للعلم، في آيات الصفات، فمن مُعَطِّلٍ نافٍ لها، ومن مُشَبِّه مُجَسِّم، ومن مغير لها آت بغيرها. والحق الفصل في هذا: هو أن البيان بالقرآن، والله أوضح هذه المسألة إيضاحاً شافياً لا لبس في الحق معه، ولكن الله يهدي من يشاء. أما الذين يؤولون صفات الله، ويقولون: لها ظاهر غير مراد؛ لأنه

---

(١) ورد ذلك في حديث مرفوع أخرجه الترمذي في التفسير، باب «ومن سورة الرحمٰن»، حديث رقم: (٣٢٩١) (٣٩٩/٥)، والحاكم (٤٧٣/٢) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي. من حديث جابر رضي الله عنه. وللحديث شاهد من حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) عند البزار (كشف الأستار ٧٤/٣)، وابن جرير (١٢٣/٢٧ - ١٢٤). وانظر: السلسلة الصحيحة رقم: (٢١٥٠)، صحيح الترمذي (١١٢/٣).

ظاهر يُفهم غير اللائق بالله!! فيصرفونها ويأتون بشيء بدل ذلك من عند أنفسهم!! فهم كما قال الشافعي (رحمه الله) ـ لأنهم يقصدون الخير، ولكنهم غلطوا ووقعوا في شرٍ مما فرّوا منه، وقول الشافعي المذكور ـ بيته المشهور[١]:

رَامَ نفعاً فضرَّ من غيرِ قَصْدِ ومن البرِ ما يكونُ عقوقاً

والمخرج من هذا المأزق: هو الاعتماد على ثلاثة أصول كلها من كتاب الله، فمن لقي الله معتقداً لها ومات عليها لقي الله سالماً على المحجة البيضاء، التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه: ومن أخل بواحدٍ منها دخل في مهواة وبلايا قد لا يتخلص منها. فأوصيكم بهذه الأصول الثلاثة القرآنية؛ لأنها هي المخرج الإلهي القرآني من هذا المأزق العظيم[٢].

الأول: من هذه الأصول الثلاثة: هو أساس التوحيد، والحجر الأساسي لمعرفة الله معرفة على الوجه الصحيح، وهو تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة شيء من خلقه. هذا هو الأصل الأكبر، والحجر الأساسي لمعرفة الله على الوجه الصحيح اللائق. تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة شيء من خلقه في صفاتهم، أو ذواتهم، أو أفعالهم. ومن هم الخلق يا إخوان؟ من هم الخلق؟! أليسوا أثراً من آثار قدرته وإرادته، وصنعة من صنائعه؟ وكيف يخطر في ذهن العاقل أن الصنعة تشبه صانعها؟ لا، وكلا!! فمن رزقه الله علم هذا الأساس، وهذا الأصل الأكبر، وأساس العقيدة الصحيحة الذي هو تنزيه خالق السماوات والأرض عن أن يشبه شيئاً من خلقه في شيء من صفاتهم، أو ذواتهم، أو أفعالهم فقد رزقه الله أساس التوحيد، وحجره الأساسي. وهذا إذا امتلأ منه قلب المؤمن، وعرف أن صفة الله عندما تُسند إلى خالق السماوات والأرض تمتلىء القلوب من الإجلال والإعظام والإكبار، وتنزيه صفة الله عن أن تشبه شيئاً من صفات خلقه. هذا هو الأصل الأول وهو في ضوء قوله ﴿لَيْسَ

---

(١) جاء في وفد نصيبين من الجن عدة أحاديث، منها:

١ ـ حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، عند البخاري في مناقب الأنصار، باب ذكر

كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: آية ٤] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: آية ٧٤] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: آية ٦٥] أي: مسامياً يساميه في المكانة والقوة والفضل. إذا استحكم هذا الأساس في قلب العبد، وكان قلبه طاهراً من أقذار تنجيس ١/٢٤
التشبيه منزهاً لله، عالماً أن وصف الله أجل وأعظم وأكبر وأنزه من أن يشبه صفة المخلوق/ فإذا استحكم هذا الأصل في قلبه.

فالأصل الثاني: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله، إيماناً مبنياً على أساس هذا التنزيه؛ لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: آية ١٤٠] ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله، الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤] فهذا الذي قلت لكم في هذين الأصلين - أن **الأول**: تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة الخلق. **والثاني**: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به نبيه إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه - ما قلته لكم من تلقاء نفسي، ولا رواية عن زيد ولا عمرو، بل في ضوء نور المحكم المنزل، الذي هو آخر الكتب السماوية عهداً بالله، وهذا تعليم رب العالمين، وذلك الإيضاح السماوي في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١]، فاعلموا أيها الإخوان أن الإتيان بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فيه سرٌ أعظم، ومغزىً أكبر، وتعليم سماوي، لا يترك في الحق لبساً؛ لأن السمع والبصر صفتان هما أشد الصفات توغلًا في التشبيه، فجميع الحيوانات تسمع وتبصر؛ ولذا جاء بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يعني: لا تتنطع يا عبدي، وتشبِّه صفتي بصفة مخلوقي، وتنفي عني سمعي وبصري، بدعوى أنك إن أثبت لي السمع والبصر شبهتني بالحمير والآدميين وغيرهم من الحيوانات التي تبصر!!

لا يا عبدي، أثبت لي سمعي وبصري، ولكن لاحظ في ذلك الإثبات قولي قبله متصلًا به: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] فإثبات السمع والبصر على أساس نفي المماثلة.

فأول الآية الكريمة فيه النفي التام للتشبيه والتمثيل، وآخرها فيه الإيمان بالصفات من غير تكييف ولا تعطيل على أساس التنزيه عن التشبيه والتمثيل.

فعلينا أن نعمل بأول الآية. فننزه ربنا، وذلك هو الأساس، فإذا نزهناه عن مشابهة خلقه وحملنا أوصافه في القرآن والسنة على الأوجه الكريمة اللائقة. كان من السهل علينا أن نؤمن بالصفات؛ لأننا نؤمن بها على أساس التنزيه عن مشابهة الخلق.

فالأصل الأول: وهو أساس التوحيد: تنزيه الله عن مشابهة شيء من خلقه بشيء من صفاتهم، أو ذواتهم، أو أفعالهم.

والأصل الثاني: عدم جحد شيء مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله، بل يجب الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه، على غرار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١].

الأصل الثالث: هو أن نعلم أن العقول مخلوقة واقفة عند حدّها، لا تحيط علماً بخالقها، فهي عاجزة عن إدراك كيفية الاتصاف بالصفات، والله يقول: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: آية ١١٠].

فمعلوم أن المتكلمين الذين نفوا كثيراً من صفات الله بالأدلة العقلية المفرغة في قوالب أقيسة منطقية قسموا الصفات قسمة سداسية، قالوا: منها صفة نفسية، ومنها صفة معنى، ومنها صفة معنوية، ومنها صفة فعل، ومنها صفة جامعة، كتقسيمهم المعروف[1].

ونحن نبيِّن لكم أن كل هذه الصفات جاءت الآيات القرآنية بوصف الخالق بها، وبوصف المخلوق بها، والكل من ذلك حق، فالخالق حق، وصفاته حق، والمخلوق حق، وصفاته حق. ولكن صفة المخلوق ملائمة

الجن، حديث رقم: (٣٨٦٠)، (١٧١/٧).

لذات المخلوق، وصفة الخالق لائقة بذات الخالق، وبين صفة الخالق والمخلوق من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق، لا مناسبة ألبتة بين الذات والذات، ولا بين الصفة والصفة.

هذه صفات المعاني السبعة، الذي يقر بها من ينكر أكثر الصفات الوجودية غيرها، وهي عندهم: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام. جاءت في القرآن.

هذا السمع والبصر يقول الله فيه عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: آية ٧٥] في وَصْف نفسه وَصَف نفسه بأنه سميعٌ بصير، ووَصَف بعض خلقه أيضاً بالسمع والبصر، قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: آية ٣٨] وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: آية ٢] ولا شك أن لله سمعاً وبصراً حقيقيين لائقين بكماله وجلاله، وللمخلوق سمع وبصر حقيقيان مناسبان لعجزه وفنائه وافتقاره، وبين سمع الخالق وبصره، وسمع المخلوق وبصره من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق.

وقال (جل وعلا) في وصف نفسه بالحياة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: آية ٥٨]، ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: آية ٦٥].

ووصف بعض خلقه بالحياة، قال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ [مريم: آية ١٥]، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: آية ٣٠]، ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [يونس: آية ٣١].

فنحن نقطع أن لله حياة عظيمة حقيقية لائقة بكماله وجلاله، وللمخلوقين حياة مناسبة لحالهم، وعجزهم، وفنائهم، وافتقارهم، وبين الصفة والصفة من المنافاة كمثل ما بين الذات والذات.

ووصف نفسه بالعلم، قال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: آية ٢٨٢]، ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: آية ١٦٦]، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: آية ٧].

ووصف بعض خلقه بالعلم، قال: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات:

آيـة ٢٨]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يـوسـف: آيـة ٦٨]، ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: آية ١٢].

ولا شك أن لله علماً حقيقياً لائقاً بكماله وجلاله، وللمخلوق علماً مناسباً لعجزه وفنائه وافتقاره، فصفة الله حق، وصفة المخلوق حق، وكل بحسبه. فصفة الله لائقة بذاته، وصفة المخلوق مناسبة لذاته، وبين صفة الخالق والمخلوق من المنافاة كما بين ذات الخالق والمخلوق.

ووصف نفسه بالإرادة فقال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: آية ١٦]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: آية ٢٨].

ووصف بعض خلقه بالإرادة: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: آية ٦٧]، ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: آية ١٣].

ولا شك أن لله إرادة حقيقية لائقة بكماله وجلاله، وللمخلوق إرادة حقيقية مناسبة لحاله وعجزه وافتقاره وفنائه، فبين الإرادة والإرادة من المنافاة كمثل ما بين الذات والذات.

ووصف نفسه بأنه متكلم: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: آية ١٦٤]، ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعـراف: آيـة ١٤٤]، ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٦].

ووصف بعض خلقه بالكلام فقال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: آية ٥٤]، وقال: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: آية ٦٥].

ولا شك أن لله كلاماً لائقاً بكماله وجلاله، وللمخلوقين كلام مناسب لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وبين كلام الخالق والمخلوق من المنافاة كما بين ذات الخالق والمخلوق.

هذه صفات المعاني السبع الذي أقرّ بها من جحد كثيراً من الصفات. كذلك الصفات التي يسمونها السلبية، والصفة السلبية في اصطلاح المتكلمين: هي التي لا تدل بدلالة المطابقة على معنى وجودي، وإنما تدل على سلب ما لا يليق بالله عن الله. وهي عند المتكلمين خمس صفات:

وهي البقاء، والقدم، والغنى المطلق، الذي يُسمونه: القيام بالنفس، يعنون به الاستغناء عن المحل والمُخَصِّص. والمخالفة للخلق، والوحدانية[1].

أما القِدَم والبقاء: فالمتكلمون أثبتوهما لله، وقد قال بعض العلماء: إنه ورد بمثل ذلك حديث، وبعضهم ينفي صحته. والمتكلمون يقصدون بهما معنىً صحيحاً؛ لأن القِدَم عندهم: هو سلب العدم السابق. والبقاء: هو سلب العدم اللاحق. زاعمين أن الله أثبتهما لنفسه بقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: آية ٣] أي: الأولية الذي لا ابتداء لأوليته، والآخر الذي لا انتهاء لآخريته. قالوا: هذا معنى القدم والبقاء.

فنقول: القِدم وصف الله به المخلوقين قال: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: آية ٣٩]، ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: آية ٩٥]، ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء: آية ٧٦]، والبقاء وَصَف به الحادث حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: آية ٧٧]، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: آية ٩٦].

والوحدانية وصف بها نفسه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: آية ١٦٣].

ووصف بعض المخلوقين بها قال: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ [الرعد: آية ٤].

والغنى وصف به نفسه: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: آية ٨]، ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: آية ٦].

وقال في بعض المخلوقين: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: آية ٦]، ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ [النور: آية ٣٢].

ولا شك أن ما وُصف به الله من هذه الصفات مخالف لما وُصف به المخلوق كمخالفة ذات الله لذات المخلوق، فلا مناسبة بين الذات والذات،

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٧) من هذه السورة.

ولا بين الصفة والصفة، فالله حق، وصفاته حق، والمخلوقون حق، وصفاتهم حق، إلا أن صفة كلٍ بحسبه، فصفة الله بالغة من الكمال والتنزيه ما تتعاظم أن تشبهه صفات المخلوقين، كما أن ذات الخالق تتعاظم أن تشبه ذوات المخلوقين.

وهذه الصفات الجامعة[1] كالعلو، والكِبَر، والعظم، والملك، والجبروت، كل هذا جاء في القرآن العظيم وَصْف الخالق والمخلوق به، فقد وصف تعالى نفسه بالعلو، والكِبَر، والعظم، قال في وصف نفسه بالعلو والعظم: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥].

وقال في وصف نفسه بالعلو والكِبَر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: آية ٣٤]، ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: آية ٩].

ووصف المخلوقين بالعظم، والكِبَر، والعلو، فقال في وصف المخلوق بالعظم: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: آية ٦٣]، ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: آية ٤٠] ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: آية ٢٣]، ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: آية ١٢٩].

وقال في وصف المخلوق بالكِبَر: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٣١] ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: آية ١١]، ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ [الأنبياء: آية ٦٣].

وقال في وصف المخلوق بالعلو: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: آية ٥٠]، ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: آية ٥٧].

وقال في وصف نفسه بالملك: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ [الجمعة: آية ١]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: آية ٢٣].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٧) من هذه السورة.

ووصف بعض خلقه بالملك فقال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف: آية ٥٠]، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف: آية ٤٣]، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: آية ٧٩]، ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: آية ٢٦].

ولا شك أن ما وُصف الله به من العلو، والكِبَر، والعظم، والملك مخالف لما وُصف به الخلق من العظم، والكِبَر، والعلو، والملك، فصفة المخلوق لائقة بعجزه وفنائه وافتقاره، وصفة الخالق لائقة بجلاله وكماله. فصفة كلٍ بحسبه.

ووصف نفسه بأنه متكبر جبار، قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلى أن قال: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: آية ٢٣].

ووصف بعض خلقه بالجبار والتكبر كما قال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: آية ٦٠] ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء: آية ١٣٠] ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: آية ٣٥].

ووصف نفسه بأنه يغفر، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: آية ١٧٣]، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: آية ١٢٩]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: آية ٦].

ووصف بعض خلقه بالمغفرة، قال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: آية ٤٣]، ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: آية ١٤]، ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: آية ٢٦٣].

ووصف نفسه بأنه حليم، قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: آية ٥٩].

ووصف بعض خلقه بأنه حليم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: آية ١١٤]، ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: آية ١٠١].

ووصف نفسه (جل وعلا) بالعزة، قال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾ [الجمعة: آية ١].

ووصف بعض خلقه بالعزة قال: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف: آية ٥١]، ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: آية ٢٣].

ووصف نفسه بالقوة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ⑤⑧﴾ [الذاريات: آية ٥٨].

ووصف بعض خلقه بالقوة، وجمع المثالين قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: آية ١٥]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: آية ٥٤]، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: آية ٥٢].

ووصف نفسه بأنه رؤوف رحيم، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: آية ٧].

ووصف بعض خلقه ـ وهو سيد الخلق ﷺ ـ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: آية ١٢٨].

وإذا نظرنا إلى صفات الأفعال فنجده (جل وعلا) يصف نفسه بالفعل، ويصف عباده بالفعل، وجميع ما وصف الله به نفسه لائق بكماله وجلاله، وجميع ما وصف به خلقه مناسب لحال خلقه وفقرهم وعجزهم وفنائهم، وبين الصفة والصفة من المنافاة كما بين الذات والذات.

فمن صفات الأفعال: أن الله وصف نفسه بأنه يفعل رَزْق عباده، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ⑤⑧﴾ [الذاريات: آية ٥٨]، وقال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: آية ٣٩]، ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: آية ١١].

ووصف بعض خلقه بأنه يفعل الرَّزْق أيضاً، قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾[النساء: آية ٨]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ﴾ [البقرة: آية ٢٣٣].

ورزق الله لخلقه ليس كَرَزْق الناس بعضهم لبعض، فبين الفعل والفعل من المنافاة كمثل ما بين الذات والذات.

ووصف نفسه بأنه يعمل، قال جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس: آية ٧١].

ووصف نفسه بالفعل، الذي هو العمل.

ووصف خلقه بالعمل، قال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: آية ١٧].

ووصف نفسه بأنه يُعلِّم خلقه: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: الآيات ١ ـ ٤]، ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: آية ٦٥].

ووصف خلقه بأنهم مُعلِّمون، كقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: آية ١٢٩]، وجمع المثالين قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: آية ٤].

ووصف نفسه بأن يُنبىء، ووصف بعض خلقه بأنه يُنبىء، قال: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: آية ٣].

وأمثال هذا في القرآن لا تكاد تحصىٰ، وقصدنا أن نُمثّل بجميع الصفات أن الله وصف بها نفسه، ووصف بها خلقه، وأن لله صفات حق، وللمخلوقين صفات حق، وصفة الخالق لائقة بجلاله وكماله، وصفة المخلوق مناسبة لحاله وعجزه وفنائه وافتقاره.

وكذلك وصف نفسه بالاستواء على العرش بسبع آيات من كتابه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: آية ٥٤]، ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: آية ٥].

ووصف بعض خلقه بالاستواء على مخلوق كقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: آية ١٣]، ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ [هود: آية ٤٤].

واستواء الخالق ليس كاستواء المخلوق، فبينهما من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق. وهكذا في جميع صفات الله، إذا وصف نفسه بإتيان أو مجيء فإتيانه أو مجيئه لائق بكماله وجلاله، كسمعه وبصره، وقدرته وإرادته، منزه عن مشابهة إتيان الحوادث ومجيئهم، فكل ما يخطر في المعاني من إتيان الخلائق ومجيئهم، فصفة الخالق (جل وعلا) منزهة عنه كسائر صفاته.

فعلينا أولًا أن ننزه الله، ثم نثبت له ما أثبت لنفسه على أساس التنزيه، ثم نقطع طمعنا عن إدراك الكيفية.

ونحن نقول لكم: إن هذه الأيام والليالي سائرة بنا بسرعة إلى القبور، ثم إلى عرصات القيامة، فعن قريب ونحن أمام الله في عرصات القيامة، والله يقول: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: آية ٦]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: الآيتان ٩٢، ٩٣] ومما يوشك أن يسألنا عنه: ماذا كنتم تقولون في صفاتي التي مدحت بها نفسي؟؟ هل كنتم تنفونها وتكذبونني وتدّعون علي أني أمدح نفسي بشيء لا يليق؟ أو كنتم تنزهونني وتثبتون لي صفاتي، وتعلمون أني لا أمدح نفسي إلا بوصف كمال وجلال، وأن صفتي لا تشابه صفة خلقي؟

فهذه الأسس الثلاثة من مات عليها مات على دين محقق، وعقيدة سلفية صحيحة. وأنا أضمن له أنه لا تأتيه بليّة من واحدة من هذه الأصول الثلاث، ولا يأتيه من قِبلها لوم، ولا توبيخ، ولا عذاب بهذه الأسس الثلاث، فلا يقول الله له: لِمَ تنزهني عن مشابهة خلقي في صفاتهم، وأفعالهم، وذواتهم؟ لا، وكلا، هذه طريق سلامة محققة.

ولا يقول له ربه: لِمَ تصدقني فيما أثنيت به على نفسي، وتصدق نبيي فيما أثنىٰ علي به تصديقاً مبنياً على أساس التنزيه؟ لا، وكلا، هذه طريق سلامة محققة.

ولا يقول له: لِمَ لا تدعي أن عقلك محيط بي؟ فلا يقول له ذلك أبداً، فكل هذه الأسس الثلاث طريق سلامة محققة في ضوء القرآن، وكل البلايا وكل الشر من أن يسبق في الذهن تفسير الصفة بما لا يليق، فإذا سبق في الذهن تفسير الصفة بتفسير قذر نجس فيه تشبيه اضطر الإنسان المسكين إلى أن ينفيها. فإذا وضعتم مثلًا مقارنة بين مذهب السلف الذي كان عليه السلف الصالح، من الإيمان بالصفات إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، والتصديق بها، كما قال الإمام مالك لما قال له الرجل: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟؟؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وأمر أن يُخرج عنه[1].

فالسلف الصالح رضي الله عنهم من القرون المشهود لهم بالخير، قبل أن يظهر في الوجود الجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، ما كان في الدنيا ولا في العلماء أحد ينفي شيئاً من صفات الله، ولا يفسرها بمعنى غير لائق، بل جميع الأمة إذا سمعوا الوصف مسنداً إلى الله امتلأت قلوبهم من الإجلال والإعظام، وعلموا أن ذلك الوصف لا يُشبه شيئاً من صفات المخلوقين، وأنه بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فهان عليهم الإيمان به؛ لأن إثبات الأوصاف الكريمة لله هين على كل مسلم.

أما إذا فسر الصفة بتفسير خبيث يرمي إلى التشبيه، ويُدَّعى أن ظاهره التشبيه، فمن هنا تأتي البلايا، وتأتي الويلات، ويقع الإنسان في مشاكل؛ لأنه إذا تنجس القلب بقذر التشبيه اضطر إلى أن ينفي الصفة. ونضع ـ مثلًا ـ مقارنة: الله تعالى ـ مثلًا ـ قال: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: آية ٥]، وقال: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: آية ١٥٨]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: آية ٢٨٤]، فالسلفي يقول: هذه القدرة منزهة عن قدر

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأنعام.

المخلوقين وشبيهها، وهذا الاستواء منزه عن استواء المخلوقين، لا يشبهه في شيء من المشابهة، وهذا الإتيان إتيان لائق بكمال الله وجلاله، منزه عن كل ما يخطر في العقول من إتيان البشر. فإذا كان قلبه ممتلئاً من الإعظام والإجلال، وحمل هذه المعاني على المعاني اللائقة الكريمة الجليلة اللائقة بالله، المنزهة عن كل ما لا يليق، كان أولاً: مُنَزِّهاً، وكان ثانياً: مؤمناً غير جاحد ولا معطل.

مثلًا كان السلف الصالح إذا سمعوا ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: آية ٥]، يقول: هذا الاستواء بالغ من غايات الكمال والجلال والعظمة واللياقة بالله ما يقطع جميع أوهام علائق المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، ومن هم المخلوقون حتى يُشبه استواء الله باستوائهم؟ وهم أثر من آثار قدرته، وصنعة من صنعته، والصنعة لا تشبه صانعها!! فإذا حملوا الاستواء على المعنى العظيم اللائق بجلال الله، المُنزه عن كل استواء للمخلوقين يخطر في ذهن الإنسان، كان الإيمان بذلك الاستواء سهلاً عليهم؛ لأنهم يحملونه على معنى شريف كريم، لائق بجلال الله. وإذا سُئل أدنى الناس عقلاً، سُئل مُطْلَقُ عاقلٍ، وقيل له: يا إنسان، إذا وصف الله نفسه بوصف يمدح به نفسه فما الظاهر المتبادر من ذلك الوصف؟ أظاهره المتبادر منه أنه في غاية الكمال والجلال والتنزيه والليافة بالله حتى نقرّه على ظاهره الكريم إيماناً وتنزيهاً؟ أو ظاهره أنه يشبه صفات الخلق، وأنه قذر نجس حتى نحتاج إلى أن ننفيه بالتأويلات، ونثبت شيئاً بدله؟! فلا شك أن أطرف مؤمن يقول: كل وصف أُسند لله فهو بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين.

والأعراب البدو في زمن النبيِّ ﷺ كانوا إذا سمعوا صفة من هذه الصفات، كالاستواء والنزول، وكصفة اليد ونحوها لا يخطر في أذهانهم صفة المخلوق؛ لأنهم يعرفون أن مخالفة الرازق للمرزوق، ومخالفة الخالق للمخلوق، ومخالفة المُحيي للمحيَا، ومخالفة المُميت للمُمات تجعل بين صفاتهم مخالفات هائلة لا يعلمها إلا الله. فلا يفهمون من صفة هذا أنها

تميل إلى شيء من صفة ذلك، إذ لا مناسبة بين الخلق وخالقه، وهم أثر من آثار قدرته وإرادته.

إذاً فنعرف أن مذهب السلف هو المذهب الصحيح؛ لأن صاحبه أولًا: كان قلبه ممتلئاً من تعظيم الله، وإجلال الله، سالماً من أقذار التشبيه، يحمل استواء الله، ونزول الله، وإتيان الله على أكمل المعاني وأجملها وأليقها وأنزهها عن مشابهة المخلوقين، ثم إنه يؤمن بها على أساس هذا التنزيه، على غرار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١]، ويكون أولاً: منزهاً. وثانياً: مؤمناً مصدقاً، ثم يقطع طمعه عن إدراك الكيفية؛ لأن الله يقول: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: آية ١١٠].

فلو تنطع متنطع وقال: نحن لا نعقل نزولًا، ولا مجيئاً، ولا استواء، ولا قدرة إلا يشابه صفات المخلوقين، فبينوا لنا كيفية منزهة لنعقلها!! فنقول: فلا نقول كما قال مالك(١): السؤال عن هذا بدعة، بل نتنزل معه ونقول له: يا مسكين، أعرفت كيفية الذات الكريمة المقدسة، المتصفة بهذه الصفات؟! فلا بد أن يقول: لا. فنقول: معرفة كيفية الاتصاف متوقفة على معرفة كيفية الذات!! فسبحان من تعاظم وتكبر وتنزه عن كل ما لا يليق، وعن كل مشابهة الحوادث من جميع وجوهها، وهو (جل وعلا) متصف بصفات الكمال والجلال.

أما الذي يسمونه مذهب الخلف مثلًا - ويزعم كثير أنه أعلم وأحكم - فإنه إذا خطر في قلب الواحد: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: آية ٥] قال: هذا الاستواء ظاهره تشبيه الخلق، كاستوائي على هذا السرير. فيكون أولاً: قد ظلم نصوص القرآن، وحملها على محامل غير شريفة، وغير لائقة بالله؛ لأن كون النص ظاهره التشبيه فهذا معنىً بالنسبة إلى الله معنىً قذر نجس وسخ؛ لأن خالق السماوات والأرض

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأنعام.

لا يشبه شيئاً من خلقه. فكان هذا أول الضرر، وأول السوء. وهو الفهم من النصوص أنها تدل على معاني غير لائقة، ثم إذا تقرر في ذهنه أن ظاهر هذا النص أنه كاستواء المخلوق، اضطر المسكين إلى أن ينفيه؛ لأنه لا أحد يقول: (لا إله إلا الله) يرضىٰ أن يثبت لله وصف غير لائق، فينفي الاستواء من نفسه. فيكون الوصف الذي مدح الله به نفسه قد ظلم هذا الإنسانُ القرآنَ، وجعل أن ظاهره قذر وسخ نجس، وهو مشابهة المخلوقين. ثم يجرّه شؤم هذا التشبيه إلى أن ينفي الاستواء. ويقول: الاستواء ممنوع، ولا يمكن أن يكون؛ لأن فيه نقصاً لله، ومشابهة للمخلوقين!! فيكون قد ظلم أولاً القرآن، وحمل ما مدح الله به نفسه على الذم. وهذا لا يليق بالله، بل الاستواء الذي مدح الله به نفسه في غاية الكمال والجلال، والبعد عن مشابهة المخلوقين، والنزاهة الكاملة عن أي تشبيه كائناً ما كان. ثم إنه إذا نفى الاستواء يريد أن يأتي ببدل من تلقاء نفسه، فيقول: معناه: (استولى). فنقول له: يا مسكين، أولاً: ظلمت الوحي، وادعيت على نصوص الوحي أن ظاهرها التشبيه. والله يعلم أنها بريئة من ذلك، بل ظاهرها التنزيه، ثم نفيتها من تلقاء نفسك بلا دليل من كتاب وسنة، ثم جئت بمعنى من عند نفسك وهو (استولى)، فنقول لك يا مسكين: قد شبهت الله باستيلاء خلقه؛ لأنك إذا وصفته بالاستيلاء فقد شبهته باستيلاء العرفجي على حماره، وباستيلاء الأمير على جيشه، وباستيلاء بِشْرٍ على العراق، الذي أنشدوا له البيت[1]:

قد استوى بِشْرٌ على العراقِ من غيرِ سيفٍ ودم مُهراق

فنقول: قد مَاثَلْتَ استواء الله باستواء بِشْر!! فرجعت إلى التمثيل!! فإذا قال: استواء الله منزه عن استواء بِشْر. فنقول: كذلك يا مسكين كان ينبغي أن تقوله في الأول، وتعلم أن نفس الاستواء الذي مدح الله به نفسه

(١) البيت في اللسان (مادة: (سوى) ٢/٢٤٨).

أنه بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين.

فعلينا معاشر المؤمنين أن نعرف الحق، ونعرف من ضوء القرآن عقيدة السلف، ونعلم أن الله لا يمدح نفسه إلا بوصف كريم، وأن الاستواء الذي مدح به نفسه بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فهو في غاية النزاهة والكمال، وعدم المشابهة، فنقرّه على ظاهره من الكمال واللياقة بالله، ونعلم أن وصف الله لا يمكن أن يُشبه وصف مخلوق، وأن الله لا يمدح نفسه بوصف فيه تشبيه، ولا فيه محذور، ولا يلزم منه مشابهة مخلوق، بل هو استواء لائق بالله، كقدرته وإرادته وعلمه وسمعه وبصره، مخالف لاستواء المخلوقين كمخالفة ذات الله لذوات المخلوقين، فنكون أولًا عدلنا وأقسطنا مع النصوص، فحملناها على معانيها الكريمة الشريفة اللائقة بالله، وآمنا بذلك التنزيه.

أما هؤلاء الذين يقولون: ظاهر الاستواء أنه كاستواء المخلوقين. فقد ابتدؤا أولًا بظلم النصوص، وحملوها على معاني خبيثة غير لائقة، لا يمدح الله بها نفسه، ثم جرهم هذا التشبيه إلى أن نفوها وجاؤوا ببدلها.

وهذا الذي جاؤوا به فيه من التشبيه أكثر مما فرّوا منه أولًا، فالذي يقول: الاستواء ظاهره كاستواء المخلوق ثم ينفيه بهذا الظاهر المحذوف، ويؤوله بالاستيلاء، وأن معناه (استولى).

فنقول له: رجعت النتيجة في حافرتها، أن استواء بِشر معناه: استيلاء بِشر على العراق. فنقول: قد شبهت استيلاء الله على عرشه باستيلاء بِشر على العراق، والاستيلاء كذلك صفة من صفات الخلق، فالعرفجي يستولي على حماره، والأمير يستولي على الجيش، والمالك يستولي على دابته، فالاستيلاء الذي فسرت به الاستواء هو أوغل في التشبيه من الاستواء.

فإذا قال: هذا الاستيلاء الذي فسرت به الاستواء استيلاء منزه عن

استيلاء المخلوقين. قلنا له: كان من حقك أن تقول هذا من أول، قبل أن تقع فيما وقعت فيه، وتقول: استواء الله منزه عن مشابهة استواء المخلوقين.

فعلينا جميعاً أن نعلم أن الاعتقاد الذي كان عليه السلف الصالح قبل ظهور الجهم بن صفوان، والجعد بن درهم، هو على هذه الأسس الثلاث:
أولها: وهو الحجر الأساسي العظيم: تنزيه خالق السماوات والأرض عن أن يُشبه شيئاً من خلقه بشيء من ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم، وحمل معاني القرآن والسنة على المعاني الشريفة اللائقة بالله كل اللياقة، المناسبة لعظمته وجلاله وكبريائه، ثم نؤمن بها إيماناً مبنياً على أساس التنزيه. وكل هذا التعليم حصره الله لنا في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] فإنا لا نعلم في الدنيا سمعاً ولا بصراً إلا هما حادثان خسيسان، يموت صاحبهما ويأكلهما الدود!! فإذا كنا نذهب بكل شيء فلقائل أن يقول: السمع والبصر ظاهره التشبيه بسمع الحمار وبصره، وسمع الإنسان وبصره، فَلْنَنْفِهِ ونثبت غيره، ولا فرق بين الصفات.

والحاصل أن الله حق، وصفاته حق، وأن المخلوقين حق، وصفاتهم حق، وأن صفة الخالق لائقة بذات الخالق، وصفة المخلوق مناسبة لذات المخلوق، وبين صفة الخالق والمخلوق من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق. فنحن نثبت الصفات لله مصدقين ربنا، ومصدقين نبينا [ﷺ فيما أخبر به، مراعين في ذلك الإثبات ما بيّنه الله (تعالى) في كتابه، ذلك البيان الأوضح][(١)] والتعليم الأكبر، والمغزى الأعظم حيث جاء بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] فإن ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ السمع والبصر صفتان هما أشد الصفات توغلًا في التشبيه بالمخلوقات، فالله مدح بهما نفسه بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يعني: أَثْبِتْ لي صفاتي، وما مدحت به نفسي، ولكن راعِ في ذلك الإثبات قولي قبله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ واعلم أنه إثبات منزه لا

---

(١) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

يُشابه إثبات المخلوقين، فلا يذهب قلبك إلى صفات المخلوقين.

فأساس الخير كله في هذا المقام هو أن يكون القلب أولّا مستولياً عليه تعظيم الله وتنزيهه عن مشابهة خلقه، فهذا أساس الخير، وهو معنى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فمن رزقه الله هذا العلم بمدلول ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وعرف قداسة الله وعظمته، وعظمة أسمائه وصفاته، ونزاهتها عن مشابهة المخلوق، حمل ما مدح الله به نفسه على أكمل الوجوه، وأتمها وأشرفها، وأبعدها مشابهة للخلق، وآمن بها على أساس ذلك التنزيه. أما الذي يزيغ به الشيطان إلى أن يحمل النصوص على أنها يُراد بها ـ ظاهرها ـ صفات المخلوقين، فمن أين للمخلوقين أن يُشبهوا صفات خالقهم؟ وأين تُذكر صفة المخلوق عند صفة الخالق، وهو أثر من آثار قدرته وإرادته وصنعة من صنائعه؟

وأنا أؤكد لكم كل التوكيد أن الواحد منا إذا مات على هذه الأسس الثلاثة:

أولاً: اعتقاده تعظيم الله وتنزيهه عن مشابهة خلقه.

والثاني: الإيمان، وتصديق الله بما مدح به نفسه، أو مدحه به رسوله، إيماناً وتصديقاً مبنياً على أساس التنزيه عن مشابهة الخلق، على غرار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وقطع الطمع عن إدراك الكيفيات، أنه يلقى الله سالماً من هذه الورطات والبلايا. أما الذي يدّعي على الله أنه مدح نفسه بالاستواء في قوله: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: آية ٥] أن ظاهر هذا القرآن المتبادر منه التشبيه، وقذر ونجاسة لا تليق بالله، ثم يتجرأ فينفيه، ثم يأتي بـ (استولى) فإن هذا لا يليق بكمال الله. والذين فعلوا هذا هم في الحقيقة أكثرهم مقصدهم حسن، لا يقصدون إلا تنزيه الله، إلا أنهم غلطوا أولاً في تفسير معاني الكتاب والسنة، وحملوا مداليل الآيات والأحاديث على أن ظاهرها التشبيه، فاضطروا إلى أن ينفوا، ولو فهموا منها أولاً معانيها الصحيحة الكريمة اللائقة المنزهة لما وقعوا في شيء من

هذه المحاذير. فهم كما قال الشافعي رحمه الله[(١)]:

رامَ نفعاً فضرّ من غير قَصْدِ ومن البرّ ما يكونُ عقوقاً

وطريق الحق واضحة لا شك فيها:

والحقُّ أبلجُ لا تزيغُ سبيلُه والحقُّ يعرفُه أولُو الألبابِ[(٢)]

لأن من نزه الله كل التنزيه عن مشابهة الخلق، ثم صدّقه فيما وصف به نفسه تصديقاً مبنياً على أساس التنزيه، ووقف عند حدّه، فعرف أن عقله لا يدرك كُنه الكيفيات، فهو مؤمن ماشٍ في ضوء القرآن، لم يتكلف شيئاً، لم يحمل معنىً من معاني نصوص الكتاب والسنة محملًا خبيثاً، ولم ينف عن الله شيئاً أثبته لنفسه، ولم يأتِ من نفسه ببدل، مع أن مَنْ أَوَّلَ لا بد أن يرجع إلى ما هو أوغل في التشبيه. فالذين فسروا الاستواء بالاستيلاء، وقالوا: الاستواء ظاهره كاستواء المخلوقين، فيجب صرفه عن ظاهره، ويقال فيه: «استولى» فقد وقعوا في ثلاثة محاذير:

الأول: أنهم قالوا على الله: إن ظاهر ما مدح به نفسه أنه غير لائق. وهذا افتراء على الله، وعلى كتابه، وعلى نبيِّه؛ لأن الله لا يصف نفسه إلا بأكرم المعاني وأشرفها وأنزهها وأجلها، فما هنالك إلا المعنى الشريف اللائق بكمال الله، المنزه عن مشابهة المخلوقين.

المحذور الثاني: أنه اضطروا أن ينفوا ما وصف الله به نفسه فنفوا الاستواء، والله يثبته في سبع آيات من كتابه. ثم جاؤوا بدله بالاستيلاء!! قالوا: معنى استوىٰ: استولى. فنقول: التشبيه الذي فررتم منه في ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ جئتم بأضعافه في قولكم: «استولى» لأن (استولى) أوغل في التشبيه. فالعرفجي يستولي على حماره، والمالك يستولي على ملكه،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٨) من هذه السورة.

(٢) البيت في اللسان (مادة: خيل) (٩٣٢/١). ولفظه:

والصدق أبلج لا يُخيل سبيله والصدق يعرفه ذوو الألباب

والرجل يستولي على امرأته، وبِشْر يستولي على العراق. وهذه الاستيلاءات خسيسة، قد شبهتم بها صفة الله. فإن اضطُر في الآخر أن يقول: هذا الاستيلاء منزه عن استيلاء المخلوقين. قلنا له: الاستواء الذي وصف الله به نفسه لائق كريم جليل منزه عن أن يُشبه شيئاً من استواء المخلوقين.

هذه هي طريقة السلف، وهذا العلم القرآني هو المنجي من هذا المأزق الذي ضلت فيه أقدام الآلاف من فحول الرجال. فعلى المسلم أن يستضيء بضوء القرآن، وأن يتنبه لكتاب الله؛ لأن فيه حلّ كل معضلة، والمخرج من كل ويلة وبليّة. والله علمنا أولًا أن ننزهه عن كل ما لا يليق: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وأن نثبت له صفاته، وإن كانت المخلوقات يتصفون باسمها؛ ولذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ونعرف قدر عقولنا أنها لا تحيط بكيفيات صفات خالق الكون، كما نصّ عليه في طه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: آية ١١٠] فوالله لو مات الواحد منا وحُشر، وجاءه السؤال يوم القيامة، لا تأتيه بليّة، ولا لوم، ولا توبيخ، ولا عذاب من واحد من هذه الأسس الثلاثة. والله لا يلومه الله ويقول له: لِمَ تنزهني يا عبدي عن صفات خلقي؟؟ ولِمَ تحمل المعاني التي مدحت بها نفسي على المعاني الشريفة الجليلة الكريمة؟؟ لا والله أبداً. فهذه طريق سلامة محققة. ولا يقول له الله موبخاً له: لِمَ تصدقني فيما أثنيت به على نفسي، وتثبت لي ما أثبته لنفسي على أساس التنزيه؟!! لا والله. فهذه طريقة محققة السلامة. ولا يقول له الله: لِمَ لا تدّعي أن عقلك المسكين المخلوق محيط بإدراك كيفيات صفاتي؟؟ لا والله ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾.

فعلينا معاشر المسلمين أن نأخذ قلوبنا أولًا بتعظيم الله وتنزيهه عن مشابهة خلقه، فإذا استولى التنزيه والتعظيم والإجلال على القلوب كان سهلًا عليها أن تؤمن بصفات الله إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، ثم تقطع الطمع عن إدراك الكيفية، فتسلم من جميع الورطات، فتكون ما حملت معنى القرآن إلا على المعنى الكريم اللائق، ولا نفيتَ شيئاً أثبته الله، ولا جئتَ بشيء من تلقاء نفسك. هذا المذهب الذي كان عليه السلف الصالح، ودرج

عليه عامة المسلمين. ومن نظر في كتب فقهاء الأمصار، كالأئمة رحمهم الله، وأمثالهم من فقهاء الأمصار، كالسفيانين، والليث، ووكيع، وما جرى مجراهم، يجدهم كلهم على هذه العقيدة، ينزهون الله عن مشابهة خلقه، ويؤمنون بما وصف الله به نفسه إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، ولا يشبهونه بخلقه، ولا ينفون شيئاً أثبته (جل وعلا) لنفسه.

هذا هو الذي ينبغي أن يُعتقد في صفات الله، أولًا: تنزيه، ثم إيمان مبني على أساس التنزيه، ثم قطع الطمع عن إدراك الكيفيات ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠] هذا الذي نعتقده ونوصي إخواننا به؛ لأنه طريق سلامة محققة؛ لأنه سالم من تشبيه الله بخلقه، وسالم من نفي صفات الله، وتكذيب الله فيما أثبته لنفسه، وسالم من كل سوء. طريق سلامة محققة.

ولم يبقَ إلا لو قال القائل: هذه الصفات التي تزعمون أنها منزهة ما فهمنا كيفيتها، فما نفهم كيفية إتيان منزه عن إتيان المخلوقين، ولا كيفية مجيء منزه عن مجيء المخلوقين، ولا كيفية استواء منزه عن استواء المخلوقين، فبينوا لنا الكيفية. فنقول له:/ يا مسكين أعرفت كيفية ٢٤/ب
الذات المقدسة التي اتصفت بهذه الصفات؟ فلا بد أن يقول: لا. فنقول: معرفة كيفية الاتصاف بهذه الصفات متوقفة على معرفة كيفية الذات. والله يجيء كما قال على الوجه اللائق بكماله وجلاله، على أشرف الوجوه وأليقها. وأتمها كما قال، مع أن جميع الكائنات بيده (جل وعلا) أصغر من حبة خردل. فنحن نُقر بما جاء عن الله، ونؤمن بما قال الله، وننزه الله تعالى أكمل التنزيه وأتمه عن مشابهة شيء من خلقه، على ضوء القرآن، وعلى غرار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١].

يقول الله جل وعلا: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

[الأنعام: آية ١٥٨].

تكلمنا على أول هذه الآية، ونبدأ الكلام الآن من قوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ والمعنى: ما ينتظر هؤلاء الكفار إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، أو يأتيهم خالق السماوات والأرض لفصل الخطاب، عندما تشرق الأرض بنور ربها ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: آية ٦٩]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: آية ٢٢] ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: آية ٢١٠] وقد تكلمنا بالأمس على ما دل عليه القرآن في آيات الصفات وأحاديثها.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ أي: يأتيهم بعض آيات ربك. والمراد بذلك البعض: البعض الذي إذا جاء لا يُقبل من كافر إيمان، ولا من مذنب توبة.

فهذه تخاويف وتهديدات عظيمة، تهديد بمجيء الملائكة لقبض الأرواح، وبإتيان خالق السماوات والأرض لفصل القضاء، وبإتيان الآيات التي يمتنع عند مجيئها إيمان الكافر، وتوبة العاصي ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ هذا البعض هنا كأنه مبهم، أبهمه هنا ثم فصّله بأنه البعض الذي إذا جاء لا يقبل من كافر إيمان، ولا يقبل من عاص توبة، بل يغلق باب التوبة بمصراعيه، حتى كأنه لم يكن بينهما فتح قط، وتختم الأعمال على ما كان، وتضع الحفظة أقلامها، ويبقى الناس إلى ذلك الوقت على ما قَدَّموا. وهذا معنى قوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾.

وهذا البعض الذي هُددوا بإتيانه قال فيه: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ أي: بعض علاماته العظام الكبرى. فالآية هنا من معنى العلامة.

﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ إذا أرادت أن تـجـدد الإيمان بعد إتيان بعض تلك الآيات لا ينفع منها ذلك الإيمان. وجماهير علماء التفسير، والأحاديث الصحيحة دلت على أن المراد ببعض الآيات التي

إذا جاءت لا يُقبل إيمان من كافر، ولا توبة من عاص، أن المُراد به طلوع الشمس من مغربها[١]؛ لأن الشمس ستطلع يوماً من مغربها يقيناً، كما تواترت به الأحاديث عن النبيِّ ﷺ، وهو ثابت في الصحاح، في الصحيحين وغيرهما، وفي صحيح البخاري: أنها إذا طلعت من مغربها فرآها الناس آمن جميع من على وجه الأرض، ولم يكن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت[٢].

وهذا فيه إشكالات معروفة؛ لأن الأحاديث الصحيحة هنا فيها إشكالات معروفة، ونحن في الحقيقة لم نر من حرّر المقام فيها تحريراً شافياً[٣]؛ لأن كون الآية التي إذا أتت هي طلوع الشمس من مغربها، هذا ثابت في الصحيحين وفي غيرهما، وهو يدل على أن طلوع الشمس من مغربها ليس أول الآيات، وأن مجيء الدجال يُقبل بعده إيمان الكافر، وتوبة العاصي. ونزول عيسى يُقبل بعده إيمان الكافر كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: آية ١٥٩]، وهذا يدل على أن طلوع الشمس من مغربها ليس أول الآيات. ويُشكل عليه حديثان ثابتان في صحيح مسلم وغيره، فإنه في صحيح مسلم أن النبيَّ ﷺ قال: «**إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها**»[٤] وفي صحيح مسلم أنه قيل له[٥]: إن مروان بن الحكم يقول: إن أول الآيات خروج الدجال. فقال: ما قال مروان شيئاً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها**»[٦] وهذا الحديث مُشكل، إذا كان طلوع الشمس من مغربها قبل

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٢/٢٤٥)، القرطبي (٧/١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، حديث رقم: (٦٥٠٦)، (١١/٣٥٢). ومسلم في الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يُقبل فيه الإيمان. حديث رقم: (١٥٧)، (١/١٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: فتح الباري (١١/٣٥٣ ـ ٣٥٧)، التذكرة للقرطبي ص ٧٠٧.

(٤) مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: خروج الدجال ومكثه في الأرض... حديث رقم: (٢٩٤١)، (٤/٢٢٦٠).

(٥) أي: عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٦) راجع الحاشية التي قبل السابقة.

الدجال. والعلماء مجمعون على أنه لا إيمان يُقبل من كافر بعد طلوع الشمس من مغربها. إذاً يكون زمن الدجال وعيسى ابن مريم لا تنفع فيه الأعمال. وهذا مخالف لظواهر النصوص الكثيرة، ففي حديث عبدالله بن عمرو هذا أعظم إشكال.

ومن الأحاديث المشكلة أيضاً: ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة: «**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل**». ثم ذكر الثلاث: «**الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها**»(١) وهذا يدل على أنه لا توبة تُقبل بعد مجيىء الدجال. وهذا خلاف الظاهر المعروف من النصوص. فحديثا مسلم هذان مشكلان جداً على قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ وعلى ما عليه جمهور العلماء من أنه طلوع الشمس، والإشكال في هذه الأحاديث لم نجد من حرّر المقام فيه تحريراً شافياً يجب الرجوع إليه.

والذي يظهر لنا: أن الآيات العظام نوعان: فقد ثبت في صحيح مسلم أن الآيات الكبار أنها عشر، وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أُسيد الغفاري (رضي الله عنه) أن النبيّ ﷺ قال: «**لن تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات**»(٢) وهذه الآيات العشر عند العلماء هي العلامات الكبار. ثم عدّها النبيّ ﷺ فيما روى عنه مسلم من حديث حذيفة بن أُسيد الغفاري رضي الله عنه، وعدّ منها ثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، وخروج الدجال، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى بن مريم، وخروج دابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، والدخان. وهذا الدخان الذي ذكره مسلم في صحيحه هنا قال بعض العلماء: إنه هو المذكور في سورة الدخان، وأنه لم يأتِ إلى الآن، وأنه هو في قوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان. حديث رقم: (١٥٨)، (١٣٨/١).

(٢) مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: في الآيات التي تكون قبل الساعة. حديث رقم: (٢٩٠١)، (٢٢٢٥/٤).

﴿ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [الدخان: آية ١٠] قالوا: وهو دخان يمكث أياماً يأخذ بنفس الكافر، ويأخذ المؤمن منه شبه الزكام، وأنه من العلامات التي ستأتي ولم يأتِ إلى الآن[(١)]. وكان عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) يقول: إن الدخان المذكور قد مضىٰ، وهو ما أصاب ربيعة ومضر من الجوع لما دعا النبيُّ ﷺ عليهم وقال: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»[(٢)] وأنهم جاءهم من الجوع ما أكلوا معه العِلْهِز. والعِلْهِز: شيء كانوا يصنعونه من الوبر والدم، يأكلونه عند شدة الحاجة. كأن الإنسان لشدة الجوع يُخيل له أن أمام عينيه شبه الدخان، وأن ذلك الذي يُخيل لعينيه مما يشبه الدخان من شدة الجوع أنه هو معنى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ﴾ أي: فيما تظنه أعينهم لشدة القحط والجوع. هذا تفسير عبدالله بن مسعود وطائفة من العلماء للدخان[(٣)]. وفسَّره جماعة آخرون بالدخان الذي عدّه مسلم في الآيات العشر العظام التي هي: الدخان، والدابة، والدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم وفي بعض الروايات بدل نزول عيسىٰ بن مريم: ريح تلقيهم في البحر، وخسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، وآخرها: نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس أو ترحل الناس إلى المحشر[(٤)]. هذه الآيات العشر.

---

(١) انظر: ابن جرير (١١١/٢٥ ـ ١١٥)، ابن كثير (١٣٨/٤ ـ ١٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد. حديث رقم: (٨٠٣)، (٢٩٠/٢) وطرفه في: (٧٩٧، ٨٠٤، ١٠٠٦، ٢٩٣٢، ٣٣٨٦، ٤٥٦٠، ٤٥٩٨، ٦٢٠٠، ٦٣٩٣، ٦٩٤٠). ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة. حديث رقم: (٦٧٥)، (٤٦٦/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد جاء في دعاء النبي ﷺ عليهم بالسنين عدة أحاديث من أشهرها حديث ابن مسعود (رضي الله عنه) المخرَّج في الصحيحين، وفيه وصف بعض ما وقع لهم من الشدة بعد دعائه ﷺ.

(٣) راجع المصادر المدونة في الحاشية التي قبل السابقة.

(٤) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

أما الأحاديث الصحيحة الثابتة في أنه تخرج نار بالحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى[١]. فهذه قد مضت بلا نزاع، وهي النار التي اشتعلت في الحرّة، واشتعالها وتأريخ اشتعالها معروف[٢]، فقد فاتت، وهي من معجزاته ﷺ.

وكان الشيخ ابن الجوزي يقول: إن الخسوف الثلاثة قد مضت، وأنه وقع في عراق العجم خسف عظيم، هو خسف المشرق، هلك فيه خلق عظيم، وأنه وقع كذلك في المغرب. ويزعم أنه وقع في جزيرة العرب[٣]، فعلى كل حال هذه الآيات العشر هي التي ذكرها مسلم في صحيحه أنها الآيات العظام، العلامات الكبرى للقيامة. وقد بينا أن جُلّ علماء التفسير، والأحاديث الصحيحة تبين أن بعض الآيات التي إذا أتى لا ينفع نفساً إيمانها: أنه طلوع الشمس من مغربها. وستطلع من مغربها يقيناً بلا شك؛ لأن الصادق المصدوق ﷺ بيّن أنها ستطلع من مغربها بروايات صحيحة لا مطعن فيها، وهو الصادق المصدوق، لا يقول إلا الحق. وطلوعها من مغربها أكبر دليل على تخريف وخرق أصحاب الهيئة الكذابين، الذين يقولون: إن حالة الشمس والقمر دائبة لا تتغير ولا يعروها تغير. فسيرى الحاضرون منهم لذلك الوقت أنها تتغير، وأنها تطلع صباحاً من مغربها كما كانت تطلع من مشرقها، ويعلمون أن لها صانعاً حكيماً مدبراً، هو الذي يجريها كيف يشاء، على النحو الذي يشاء.

ووجه إشكال حديثي مسلم: أن حديث عبدالله بن عمرو الثابت في صحيح مسلم، أن النبي ﷺ قال: **«إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها»**[٤]

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن، باب: خروج النار. حديث رقم: (٧١١٨)، (٧٨/١٣)، ومسلم في الفتن، باب: لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز. حديث رقم: (٢٩٠٢)، (٢٢٢٧/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وذلك ليلة الأربعاء، بعد العشاء، ثالث جمادى الآخرة، سنة أربع وخمسين وستمائة. انظر تفصيل ذلك: في التذكرة للقرطبي ص (٦٣٦)، البداية والنهاية (١٨٧/١٣)، فتح الباري (٧٩/١٣).

(٣) انظر: القرطبي (١٤٧/٧).

(٤) مضى قريباً.

وطلوع الشمس من مغربها لا خلاف بين العلماء أنه من بعض الآيات التي إذا جاءت لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل. فيلزم على هذا الحديث الذي رواه مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه لا إيمان ولا توبة أيام الدجال وعيسى. وهذا خلاف التحقيق. فالحديث مشكل.

والحديث الثاني: هو ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: **«ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن ءامنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً»** وذكر الثلاث فقال: **«الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها»**[1]. فعلى مقتضى هذا الحديث الثابت في صحيح مسلم أن العمل لا يقبل أيضاً بعد الدجال، وهو خلاف الظاهر والتحقيق. وقد ذكرنا أنا لم نر ممن تكلموا على أحاديث مسلم من شفى الغليل في هذا شفاء واضحاً تتفق به الأحاديث مع الواقع، والذي يظهر لنا ـ والله تعالى أعلم ـ أن الآيات العظام الكبار على نوعين[2]:

أحدهما: آيات أرضية تدل على حدوث أمور عظام هائلة في العالم السفلي والأرض، وأول هذه: الدجال، كما كان يقولونه؛ لأن الدجال ينزل قبل نزول عيسىٰ بن مريم. أو أول هذه الآيات العظام: الدجال؛ لأن الدجال يدرك عيسىٰ ابن مريم فيقتله. وبعض العلماء يقول: إن عيسى ابن مريم ينزل قبل الدجال، ويصلي في إمام المسلمين المهدي، الذي ثبتت الأحاديث الصحاح به[3]، وعقد له أبو داود كتاباً باسم (المهدي)[4] وهو أيضاً آت لا محالة، وإن أنكره من أنكره؛ لأن الأحاديث الصحيحة ثابتة بمجيئه عن النبيِّ ﷺ ثبوتاً لا مطعن فيه، فأول الآيات الأرضية العظام نزول الدجال؛ لأن الدجال أكبر حادث يقع في الأرض، وأعظم فتنة تقع في الأرض. وقد صرحت الأحاديث:

(١) مضى قريباً.

(٢) انظر: الفتح (١١/٣٥٣).

(٣) انظر عقد الدرر في أخبار المنتظر للسلمي، والاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر للتويجري، والرد على من كذّب الأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي. للعباد.

(٤) عون المعبود (١١/٣٦١).

أنه منذ خلق الله الدنيا لم تقع في الأرض فتنة أعظم من الدجال؛ لأن معه ناراً ونهراً، وناره ماء، ونهره نار؛ ولأنه يأتي القوم فيصدقونه، فيقول للسماء: أمطري. وللأرض: أنبتي. فتطيعه في ذلك، فتروح سارحتهم أعظم ما كانت ضروعاً، وأَمَدّه خواصر. ويُحيي للرجل أباه وأمه، ويشق الرجل نصفين حتى يروه نصفين، ثم يجمع بين نصفيه، فيرون أنه يحيه. وهو أعظم فتنة في الأرض[١]. كأن ـ مثلاً ـ من قال: «إن أول الآيات خروجاً الدجال». يعني: أول الأحداث الأرضية، التي تكون في الأرض، تؤذن بأمور عظام، وقرب انقضاء الدنيا، وأن طلوع الشمس من مغربها أول الآيات التي هي من العالم العلوي، المؤذنة بزوال العالم العلوي وانقضائه. فيكون كون الشمس أول الآيات يعني باعتبار ما هو من جنسها، كتغيير العالم العلوي، ويكون الدجال أول الآيات باعتبار العالم الأرضي.

وعلى كل حال فالشمس إذا طلعت من مغربها أُغلق باب التوبة، وطلوع الشمس والدابة مترادفان بينهما قليل، جاء في بعض الأحاديث أن الشمس إذا طلعت من مغربها خرجت الدابة ضحىً[٢]. والدابة هي التي يأتي ذكرها في النمل، في قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ إِنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآية[٣] [النمل: آية ٨٢]. قال بعض العلماء[٤]: والحكمة في إتيان الدابة بعد الشمس: أن الشمس إذا طلعت من مغربها خُتم على الأعمال، ولم يقبل من كافر إيمان، ولم يقبل من عاص توبة، وانقطع تجديد إيمان جديد، أو توبة جديدة، فيرسل الله بعد ذلك الدابة، فتكتب على جبهة كل إنسان: (سعيد) أو (شقي) يعرفه من

---

(١) انظر جملة من الأحاديث الواردة فيما سبق، في البخاري (١٣/٨٩ ـ ٩١)، مسلم (٤/٢٢٤٩ ـ ٢٢٥٨).

(٢) وهو حديث عبدالله بن عمرو وقد مضى قريباً.

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص (٣٣٥).

(٤) انظر: فتح الباري (١١/٣٥٣).

يراه، لتبين حال الناس عند انقطاع أعمالهم، من هو الكافر منهم ومن هو السعيد، والحاصل: أن أكثر أهل العلم، والأحاديث الصحيحة، دلت على أن الآية التي إذا جاءت لا يُقبل من أحد إيمان: هو طلوع الشمس من مغربها[١]. وفيها أحاديث كثيرة، وفيها حديث أبي ذر المشهور: أنها تسير كل يوم، فتسجد لمستقر لها تحت العرش، ثم تستأذن فيؤذن لها فترجع، فإذا كان اليوم الذي يريد الله طلوعها من مغربها تستأذن فلا يُؤذن لها[٢]. ويقول المفسرون وبعض المحدثين[٣]: إن تلك الليلة تطول جداً، وينتظر الناس الصباح، فيطول عليهم الليل، فتستأذن الشمس فيقال لها: اطلعي من مغربك، فتصبح طالعة للناس من مغربهم، فإذا رأوها آمن جميع من في الأرض، وعلموا أن للكون خالقاً حقاً، ولم يبق أحد منهم إلا وهو مؤمن، وذلك الوقت ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ﴾ وذهب بعض العلماء، ونصره أبو عبدالله القرطبي[٤]: أنها بعد طلوعها من مغربها سترجع إلى عادتها وتطلع من مشرقها، وترجع الدنيا إلى حالها، وأنه إذا تقادم عهدها، وصار الناس يسمعون بخبرها، أنه حينئذ تقبل توبة الكافر إذا تاب، والعاصي إذا تاب. وهذا قال به بعض العلماء، ولكنه خلاف التحقيق؛ لأن ظاهر الأحاديث الكثيرة، والآية الكريمة، أنه بعد إتيان الآية لا ينفع نفساً إيمانها، وهو نفي مطلق إلى يوم القيامة. وقال بعض العلماء[٥]: تؤمر الحفظة بطي الصحف، وطرح الأقلام، ولا ينفع أحداً عمل، ويختم على كل بعمله.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/٢٤٦)، ابن كثير (٢/١٩٣ ـ ١٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ حديث رقم: (٤٨٠٢، ٤٨٠٣) (٨/٥٤١). ومسلم في الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يُقبل فيه الإيمان حديث رقم: (١٥٩) (١/١٣٨).

(٣) انظر: التذكرة ص ٧٠٥ فتح الباري (١١/٣٥٥)، الدر المنثور (٣/٥٧ ـ ٦١).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٧/١٤٧، ١٤٨)، التذكرة ص (٧٠٦).

(٥) انظر: فتح الباري (١١/٣٥٥).

وقوله: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ يُفهم منه أن النفس التي طلعت عليها الشمس من مغربها وهي مؤمنةٌ من قبل أنها في خير، وعلى خير، وأن إيمانها نافع لها.

وقوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ يُفهم منه أن النفس المؤمنة التي كانت تعمل الخير أنها في خير، وعلى خير، وأما النفس التي كانت مؤمنة ولم تعمل في إيمانها الخير، بأن كانت ترتكب المعاصي، وتخالف الله، ثم أرادت عند طلوع الشمس أن تتدارك ذلك بالتوبة فلا يُقبل ذلك منها لقوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ وكان بعض العلماء يقول: من طلعت عليه الشمس من مغربها وهو على الاستقامة وطاعة الله كُتب له ما كان يفعل دائماً[(١)].

وهذا القول وان كان ظاهر الآية لا يساعد عليه، إلا أنه غير بعيد؛ لأنه دلت نصوص أخر على أن الإنسان المواظب على الخير إذا عاقه عنه عائق كمرض أو سفر أنه يُكتب له ما كان يواظب عليه من الخير إذا عاقه عنه مرض، وهو أحد التفسيرين[(٢)] في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: الآيتان ٥، ٦] فعلى أحد التفسيرين في الآية: أن الإنسان إذا رُدّ أسفل سافلين إلى أرذل العمر، وكان هرماً لا يعقل، أنه يُردّ إلى أسفل السافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم من الأجر ما كان يُكتب لهم. هذا وجه في الآية، ولكن الوجه الصحيح فيها عند المفسرين: أن معنىٰ: ﴿رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: جعلناه إلى دركات النار ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ وهو الجنة. وهذا معنى قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ نفساً لم تكن ءامنت من قبل لا ينفعها إيمان جديد بعد طلوع الشمس من مغربها. وقد ثبت في الصحيح أنها إذا طلعت من مغربها آمن كل من على وجه الأرض من البشر بالله (جل وعلا)[(٣)]. ولكنه إيمان غير

---

(١) انظر: القرطبي (١٤٦/٧) من التفسير، وفي التذكرة ص (٧٠٥).

(٢) انظر: ابن جرير (٢٤٦/٣٠ ـ ٢٤٧).

(٣) مضى قريباً.

مقبول؛ لأنهم ما آمنوا حتى فات الوقت وانتهت المدة، وانقضت الفرصة. ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، ولا ينفع نفساً عاملة للخير لم تكن عملت في إيمانها السابق خيراً، فالذي ينفع: الإيمان السابق، وعمل الخير السابق في الإيمان، أما العمل الذي يُجَدَّد بعد الطلوع، والإيمان الذي يُجَدَّد بعد الطلوع فلا ينفع. واستثنى بعض العلماء من هذا من طلعت عليه الشمس وهو مستقيم على اجتناب نواهي الله، وامتثال أوامره، أنه يكتب له ما كان يعمل. وقال بعضهم[1]: إن المؤمن تُقبل توبته لإيمانه السابق. وظاهر الآية خلاف ذلك، وأنها إذا جاءت خُتم لكل بما كان يعمل، وانقضى العمل، فمن جاءته وهو على الإسلام والخير فهو إلى الجنة، ومن جاءته على الشر والكفر ـ عياذاً بالله ـ فهو إلى النار. ولا تُقال لأحد عثرة، ولا تقبل منه توبة بعد نزول الآيات. وهذا معنى قوله: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾.

ثم إن الله لما قال للكفار المكذبين لرسوله: ما تنتظرون إلا بلايا تأتيكم، إما أن تأتيكم الملائكة لقبض أرواحكم، أو يأتي خالق السماوات والأرض لفصل الخطاب فيحكم بتعذيبكم، أو يأتيكم بعض الآيات المانعة من قبول العثرة والتوبة، إذا كان يهددهم هذا التهديد، فقد أتبعه بقوله: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ فإنكم تنتظرون السوء ونحن ننتظر الخير؛ لأنا إذا جاءتنا الملائكة فقبضت أرواحنا ونحن على الاستقامة كان فيه أعظم البشارة لنا، وأحسن العُقبىٰ، وإذا أتانا ربنا لفصل القضاء حكم لنا بأحسن الحكم، وأكرم النعيم لطاعتنا واستقامتنا. وإذا جاء بعض الآيات المانعة من التوبة وجدتنا على هدى وتوبة وإنابة، فلم يضرنا مجيئها؛ ولذا قال: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ كقوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ [التوبة: آية ٥٢].

---

(١) انظر: التذكرة للقرطبي ص (٧٠٦).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: آية ١٥٩].

[قرأ الجمهور][1] غير حمزة والكسائي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ بتشديد الراء، وعدم ألف بعد الفاء، وقرأه حمزة والكسائي: **﴿إن الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾**[2] أما على قراءة حمزة والكسائي: **﴿فارقوا دينهم﴾** فالمعنى واضح؛ لأنهم ارتدوا - والعياذ بالله - عن الدين وفارقوه، وصاروا طوائف كافرة، كل طائفة ملحدة كافرة غير الأخرى. وأما على قراءة الجمهور: ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ فالمراد بتفريقهم الدين: أن كل طائفة تنتحل نحلة تزعم أنها هي الدين[3]. فهي في أهل الأهواء والبدع والضلالات، ويدخل فيهم اليهود والنصارى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: آية ١١٣] فقد فرقوا دينهم. ومعناه: أن كل طائفة وفرقة انتحلت نحلة تزعم أنها هي الدين الحق، وأن ما سواه باطل، والجميع كله ضلال وبدع وأهواء. كما ذكرنا في الحديث: أن النبيَّ بيّن هذا التفريق، وأن اليهود افترقوا إلى إحدى وسبعين فرقة، وهذه الإحدى والسبعين فرقت دينها، وجعلته إحدى وسبعين فرقة، كل واحدة تدّعي أنها على الحق، وأن غيرها ضال، وافترقت النصارىٰ إلى اثنتين وسبعين فرقة، كل فرقة تزعم أنها على الحق، وأن غيرها ضال. وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، تزعم كل واحدة أنها على الحق. وجميع الفرق في النار إلا فرقة واحدة[4].

---

(١) في هذا الموضع وُجد مسح في التسجيل وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٥.

(٣) انظر: حجة القراءات ص ٢٧٨.

(٤) أخرجه أحمد (٣٣٢/٢) وأبو داود في السنة، باب: شرح السنة. حديث رقم: (٤٥٧٢)، (٣٤٠/١٢)، والترمذي في الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة. حديث رقم: (٢٦٤٠)، (٢٥/٥). وقال الترمذي: «وفي الباب عن =

وعلامة هذه الفرقة الواحدة: هي الخالية من البدع والأهواء والمبتدعات بعد الرسول ﷺ، المخالفة لشرعه، بل هي التي تمشي على الجادة والمحجة البيضاء، التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه. هذه الفرقة هي الناجية: وهي المسماة بأهل السنة والجماعة، وإن كانوا قليلًا؛ لأن أكثر الأرض على الضلال، أكثر من في الأرض ضلال في النار، والذين هم على الهدى وأهل الجنة قلة جداً. وقد ثبت في الصحيحين عن النبيِّ ﷺ أن نصيب الجنة من الألف واحد، ونصيب النار من الألف تسع وتسعون وتسعمائة. وهذا ثابت في الصحيح عنه ﷺ، ولما شقّ هذا على أصحابه أخبرهم بكثرة المشركين، وأن هناك قبيلتين قد تكون الألف منهم، والواحد منكم: يأجوج ومأجوج[1]. ويأجوج ومأجوج من العلامات العشر التي ذكرها مسلم لم نذكرها، وهذه الفرق كلها في النار، ونصيب الجنة واحد من الألف لكثرة الكفار، والله يقول: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ [الأنعام: آية ١١٦] ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: آية ٨]، ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات: آية ٧١] ﴿وَمَآ أَكْثَرُ

= سعدٍ وعبدالله بن عمرو، وعوف بن مالك. قال أبو عيسى: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح» ا.هـ.

وأخرجه ابن ماجه في الفتن، باب: افتراق الأمم. حديث رقم: (٣٩٩١)، (٢/١٣٢١)، وابن حبان (الإحسان ٨/٤٨)، والحاكم (١/١٢٨)، وأبو يعلى (١٠/٥٩١٠)، والآجري في الشريعة ص (١٥). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد جاء في هذا المعنى عدة أحاديث عن جماعة من الصحابة كأنس بن مالك، وعوف بن مالك، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبدالله بن عمرو وغيرهم.

وانظر: صحيح أبي داود (٣/٨٦٩)، صحيح الترمذي (٢/٣٣٤)، صحيح ابن ماجه (٢/٣٦٤)، السلسلة الصحيحة رقم: (٢٠٣)، التعليق على التنكيل (٢/٥٣)، صحيح الجامع رقم: (١٠٨٣).

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج. حديث رقم: (٣٣٤٨)، (٦/٣٨٢)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣). ومسلم في الإيمان، باب: قوله: «**يقول الله لآدم: أخرج بعث النار...**». حديث رقم: (٢٢٢)، (١/٢٠١).

ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ [يوسف: آية ١٠٣] فالأكثرية أهل النار، وهي التي منها هذه البدع والأهواء والفرق الضالة الزائغة عن هدي النبي ﷺ، والهدى لا يخفىٰ:

الحقُّ أبلج لا تزيغ سبيلُه والحقُّ يعرفُه أولُو الألبابِ[1]

لأن من هو على هدي النبيِّ ﷺ لا يخفىٰ على أحد؛ لأنه خال من الابتداع، والدعاوى الكاذبة، والتضليلات، والتخريفات، والتهريجات الزائفة، بل هو على صراط مستقيم، عامل بهدي رسول الله، عارف أوامر القرآن ونواهيه، عالم بسنة رسول الله وبأحكامها، متبع ما جاء عن الله، مؤتمر بأوامر الله، منزجر عما زجر الله عنه، على المحجة البيضاء، سالم من الدعاوى الخرافية، والضلالات المبتدعة التي لم يعرف لها عهد في زمن رسول الله ﷺ وأصحابه. فالفرقة الناجية: هي التي كانت على ما عليه النبيّ وأصحابه من العقيدة الصحيحة، وامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه على الوجه الصحيح الكامل، فالصحابة (رضي الله عنهم) لم يدّعوا شيئاً مما يدّعيه المضللون من أنهم يرون النبيّ يقظة، ويجتمعون به دائماً!! لم يقولوا شيئاً من ذلك لصدقهم وعدالتهم. هذا أمير المسلمين في زمانه: عثمان بن عفان، أعز فتى في قريش، وهو أمير المؤمنين. والإسلام في شدة قوته، ولما أمر النبيُّ ﷺ عمر بن الخطاب أن يذهب بالهدايا إلى مكة لما حاصروهم في الحديبية قال له: أنا لا أستطيع؛ لأن بني عدي لا يمكن أن يمنعوني من قريش، ولكن أدلك على رجل أعز مني، وهو عثمان بن عفان. فأخذه النبيُّ ﷺ لعزته ومكانته في قريش، وأرسل معه الهدايا وتلقاه بنو عمه يقولون:

أَقْبِلْ وأَدْبِرْ ولا تَخَفْ أَحداً بنُو سعيدٍ أَعِزَّة الحرمِ[2]

وهو بهذه العزة في قريش، وهو أمير المؤمنين، وصهر رسول الله

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٨) من هذه السورة.

(٢) البيت لأبان بن سعيد بن العاص. وهو في تاريخ دمشق (١٣٤/٦)، الاستيعاب (٧٥/١)، الإصابة (١٤/١) سير أعلام النبلاء (٢٦١/١).

على ابنتيه، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ذُبح في داره ظلماً، والحجرة النبوية بجنبه، لم يأته النبيُّ ﷺ، ولم يحُل لهم المشكلة، وهذه عائشة (رضي الله عنها) ذهبت إلى العراق، ووقعت قصة الجمل، والنبيُّ ﷺ معها في الحجرة، لم تستطع أن تلقاه، ولم تأخذ رأيه: هل تفعل؟ بل قد ندمت كل الندم على ما صدر منها. ولما نزلت مسألة العول: ماتت امرأة وتركت زوجها وأختيها في خلافة عمر بن الخطاب، فقال عمر: إن أعطيت الزوج النصف لم يبق ثلثان، وإن أعطيت الأختين الثلثين لم يبق نصف، فماذا أفعل؟ وأسفوا كل الأسف على أنهم لم يسألوا النبيَّ ﷺ[(١)]، فما قال أحد منهم: إنهم يسألونه؛ لأنه صلوات الله وسلامه عليه أرسله الله لمهمة وقد بلّغها على أكمل الوجوه وأتمها وأحسنها وأنصحها، ثم تركها محجة بيضاء ليلها كنهارها، ثم اختاره الله إلى ما عنده من الكرامة، ونقله إلى الرفيق الأعلى صلوات الله وسلامه عليه.

والشاهد أن الذين هم على هدي النبيِّ ﷺ وأصحابه سالمون من الدعاوى الكاذبة، والخرافات المضللة، بل هم على صراط مستقيم، وهدي واضح لا دعاوى فيه ولا تضليل ولا تهريج، يقتفون آثار النبيِّ ﷺ بالعمل بكتابه وسنته، ومجالسهم كأن على رؤوسهم الطير فيها. فمن كان على هديه ﷺ في الأعمال والأقوال والأفعال والسمت والعقيدة فهو الفرقة الناجية، وغيره هي الفرق الضالة المضلة التي فرقت دينها وجعلته شيعاً.

وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ الشيع جمع شيعة، وكل قوم تشيعوا واجتمعوا على نصرة رجل، أو على نحلة ينتحلونها فهم شيعة، سواء كانت في الخير أو في الشر[(٢)]، ومنه قوله في نوح: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ [الصافات: آية ٨٣] أي: من جماعته الذين هم على دينه وهديه، ومنه قول الكميت[(٣)]، وهو من الشيعة الذين يتشيعون لآل النبيِّ ﷺ:

---

(١) انظر: المحلى (٩/٢٦٣)، وانظر ما سيأتي عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: المصباح المنير (مادة: شيع) ص (١٢٦).

(٣) البيت في شذور الذهب ص ٢٦٣، تلخيص الشواهد لابن هشام ص ٨٢، قطر الندى (٢٤٦).

ومَـا لـيَ إلا آلَ أحْـمَـدَ شِـيـعَـةٌ ومَـالِيَ إلا مَـذْهَـبَ الـحـقِّ مَـذْهَـبُ

﴿شِيَعًا﴾ أي: فرقاً مختلفة، كل فرقة تنصر صاحب بدعة مثلًا، أو رأس ضلالة يشيعونه وينصرونه.

﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ معناه: أنت بريء منهم، وهم برآؤا منك، لست على دينهم وليسوا على دينك. والعرب إذا كان الإنسان بريئاً من الإنسان يقولون: لستُ منك ولستَ مني. ومنه قول نابغة ذبيان(١):

إذا مـا رُمـتَ فـي أسَـدٍ فُـجـوراً فـإنّي لـسـتُ مِـنْـكَ ولـسْـتَ مـنّـي

يعني: أنا بريء منك، وأنت بريء مني.

ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إنما أمرهم ومصيرهم إلى ربهم، فالله هو الذي حكم عليهم في دار الدنيا بذلك الشقاء والخذلان وطمس البصيرة، وهو الذي يجازيهم يوم القيامة على ما كان منهم، وذلك معنى قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ يوم القيامة. أي: يخبرهم إذا جاؤوه بالذي كانوا يعملونه في الدنيا، فيجدون كل ما عملوه في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويقال للإنسان: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء: آية ١٤]، فيجد الإنسان كل ما قدم وأخر ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: آية ٣٠] وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ والمراد بالتنبئة هنا ليس مجرد الإخبار، ينبؤهم ليُقروا ويعترفوا فيعلمون أنه إنما عاقبهم على عدل وليس بظلم، والنبأ في لغة العرب أخص من مطلق الخبر؛ لأن كل نبأ خبر، وليس كل خبر نبأ؛ لأن العرب لا تُطلق النبأ إلا على الخبر الذي له شأن وخطب، فيقولون: جاءنا نبأ الجيوش، ونبأ الأمير، وخبر الجيوش، وخبر الأمير. أما

(١) البيت في ديوانه. ص (١٣٨). وروايته في الديوان: «إذا حاولت...».

لو قال قائل: تلقّينا اليوم نبأً عن حمار الحجام. فإن هذا لا يكون من كلام
١/٢٥ العرب[١]؛/ لأن حمار الحجام لا أهمية له، وإطلاق النبأ عليه وضع للنبأ في غير موضعه، فاللائق أن يقول: خبر حمار الحجام؛ لأن النبأ لا يُطلق إلا على ما له شأن[٢]، وكون التنبئة هنا لها شأن لعظمة الله بإحصائه إياها، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة، ولعظمة الخطب عليهم، كما قالوا: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ٤٩].

يقول الله جل وعلا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: آية ١٦٠].

لما أمر الله الخلق بسلوك صراطه المستقيم، ونهاهم عن اتباع السبل لئلا تتفرق بهم عن سبيله، ثم بين أن بعضاً منهم لم يمتثلوا ذلك، بل اتبعوا السبل فتفرقت بهم عن سبيله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ [الأنعام: آية ١٥٩] بيّن أنه (جل وعلا) بالنسبة إلى من عصاه فاتبع تلك السبل الضالة، وبالنسبة إلى من أطاعه فاتبع ذلك الصراط المستقيم، أن معاملته للمحسنين في غاية الإكرام والتمام والكمال، وللمسيئين في غاية الإنصاف والعدالة، فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ يعني: من جاء يوم القيامة بالخصلة الحسنة التي كان يعملها في دار الدنيا، فقول بعض أهل العلم هي: «لا إله إلا الله» كالتمثيل؛ لأن المراد بالحسنة: كل خصلة تُرضي الله (جل وعلا)، سواء كانت (لا إله إلا الله) أو غيرها من العقائد، وأفعال الجوارح، وأعمال القلوب[٣]، كل من جاء إلى الله يوم القيامة بالخصلة الحسنة من طاعة الله من جميع خصلة ترضي الله (جل وعلا)، فالله (جل وعلا) يُضاعفه على أقل التقديرات عشر أمثالها، أي: فله عشر حسنات،

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/٢٧٥)، البحر المحيط (٤/٢٦١).

كل حسنة مثلها، فأقل المضاعفة للمحسنين عشرة. ثم إنه بيّن في بعض المواضع أنه يضاعف إلى سبعمائة، وفي بعضها أنه يضاعف حسب مشيئته بحيث لا يعلمه إلا هو حيث قال في المضاعفة إلى سبعمائة: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ فجاءت الحبة بسبعمائة حبة، وهي مضاعفة الحسنة بسبعمائة.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: آية ٢٦١] أي: يضاعف لمن يشاء من الأضعاف ما شاء، فأقل المضاعفة عشر حسنات، إلى سبعمائة، إلى ما شاء الله. فتوضع الحسنة في الميزان بعشر حسنات.

ثم قال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالخصلة السيئة التي تسوء صاحبها إذا رآها في صحيفته يوم القيامة ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ فجزاء السيئة سيئة واحدة مثلها، وجزاء الحسنة على أقل التقديرات عشرة أمثال، فمن غلبت آحاده عشراته فلا خير فيه، ولا يهلك على الله إلا هالك؛ لأن هذه الحنيفية السمحة التي جاء بها سيد ولد آدم (عليه الصلاة والسلام) هيأ الله فيها طريق الجنة ويسَّرها تيسيراً عجيباً، رفع فيها الأثقال والآصار والتكاليف، من شقّ عليه السفر فليفطر، وليقصر الصلاة(١)، ومن لم يقدر على الصلاة قائماً صلى قاعداً، وهكذا في أنواع التخفيف، فمع هذا فالحسنة تكتب له بعشر حسنات، كل حسنة مثلها. والسيئة إنما تكتب عليه سيئة واحدة مثلها. ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، بل قد تكون حسنة، إن كان تركه لها لأجل ابتغاء مرضاة الله، فهذه الآيات من أعظم المبشرات للمسلمين؛ لأن جميع حسناتهم عند الوزن الذي قال الله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: آية ٨] إذا كانت حسنتك تضاعف عشر مرات، وسيئتك إنما تُجازىٰ بسيئة واحدة مثلها، ففي هذا أعظم البشارة للمسلمين، وعليهم أن يكثروا من الحسنات. ومن الحِكَم

(١) معلوم أن القصر والفطر في السفر لا يتوقفان على وجود المشقة.

العظيمة، وجوامع الكلم، قوله ﷺ: «**أتبع السيئة الحسنة تمحها**»[(١)] يعني: إن صدرت منك سيئة فأتبعها بحسنة؛ لأن السيئة تُجعل في كفة الميزان سيئة واحدة؛ وتجعل الحسنة في الكفة الأخرى عشر حسنات فيثقل وزنها عليها. وهذا معنى قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: آية ١٦٠] أصل الحسنة: هي الصفة المشبهة من حسُن، يحسن، فهو حسَن، والأنثى حسنة. وقد جرت عادة العرب بأن يجعلوا لفظ الحسنة والصالحة كأنهما اسما جنس للخصلة الطيبة، والفعلة الكريمة، حتى كادوا يتناسون الوصفية فيهما، ومنه هنا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بالخصلة الحسنة، فَحُسْنها هو كونها تُرضي الله (جل وعلا)، وتطابق ما أمر به ونهى عنه. وقد وعد الثواب عليها، وكذلك قال: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [البقرة: آية ٢٥] فالصالحة كالحسنة، أي: هي الخصلة التي هي صالحة؛ لأن الله أمر بها، ووعد فاعلها الخير. وهذا معروف في كلام العرب. أما في الحسنة فمشهور، وأما في الصالحة فمعروف في كلام العرب، ومنه قول الحطيئة[(٢)]:

كيفَ الهجاءُ وما تَنفَكُّ صَالِحةٌ ... مِنْ آلِ لأْمٍ بظهرِ الغَيْبِ تأتِيني

أي خصلة طيبة. وقول أبي العاص بن الربيع في زوجه زينب بنت رسول الله ﷺ[(٣)]:

بنتُ الأمينِ جَزَاهَا اللّهُ صالحةً ... وكلُّ بَعْلٍ سَيُثْنِي بالذي عَلِمَا

وسُئل أعرابي عن الحب ما هو؟ فقال[(٤)]:

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٣/٥، ١٥٨، ١٧٧)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في معاشرة الناس، حديث رقم: (١٩٨٧)، (٣٥٥/٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
وانظر: السلسلة الصحيحة (٣٦١/٣ - ٣٦٢)، صحيح الترمذي (١٩١/٢)، المشكاة رقم: (٥٠٨٣).

(٢) البيت في شواهد الإنصاف ص ١٢٦، الدر المصون (٢١١/١).

(٣) البيت في طبقات ابن سعد (٢١/٨)، الاستيعاب (٣١٢/٤)، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٤٤/٢٩)، أعلام النساء (١١٠/٢).

(٤) البيت في الأضواء (٩/٤).

الحبُ مشغلةٌ عن كلِ صالحةٍ وسكرةُ الحبِ تنفي سكرةَ الوسَنِ

فالصالحة، والحسنة، والسيئة كأنها أسماء أجناس، ثنتان للخصلة الطيبة، وواحدة للخصلة الخبيثة.

وأصل السيئة[1]: (سيوِئة) ووزنها بالميزان الصرفي: (فَيْعِلَة) فـ (ياء) (الفَيْعِلَة) زائدة. اجتمعت هي والواو التي في مكان العين؛ لأن أصلها من (سَوَأ) فمادة الكلمة: فاؤها سين، وعينها واو، ولامها همز، (سَوَأ). فقيل في السيئة: (سيوِئة) على وزن (فَيْعِلَة) اجتمعت ياء (الفَيْعِلَة) الزائدة، والواو التي في محل العين سكنت إحداهما قبل الأخرى سكوناً غير عارض، فأبدلت الواو ياء على القاعدة التصريفية المشهورة، فقيل: (سيئة) فالياء الأولى زائدة، والثانية مبدلة من الواو التي في محل عين الكلمة[2].

والسيئة: هي الخصلة التي تسوء صاحبها إذا رآها في صحيفته يوم القيامة[3]. ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: آية ٣٠].

﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ ومن هنا تعرفون أن ما يجري على ألسنة العامة: أن السيئات تضاعف في مكة كما تضاعف الحسنات، أن ذلك الإطلاق لا يجوز؛ لأن مضاعفة السيئات ممنوعة قطعاً؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو نص صريح قرآني في أن السيئات لا تضاعف، ولكن السيئة في حرم مكة مثلًا تعظم؛ لأن السيئة تعظم بحسب عظم الزمان والمكان، فإذا عظمت السيئة عظم جزاؤها؛ لأن الجزاء بحسب الذنب، إذا عظم الذنب عظم الجزاء، وإذا صغر الذنب صغر الجزاء. فهو من عظم الذنب، وعظم الجزاء تبعاً لعظم الذنب، لا من المضاعفة؛ لأن السيئات لا تضاعف، ولكنها تعظم وتكون أكبر في زمان من زمان، وفي محل من محل؛ ولذا قال في حرم مكة: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ

---

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٤٦.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال في القرآن الكريم ص (١٤٦).

(٣) انظر: المفردات (مادة: سوأ) (٤٤١).

بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: آية ٢٥] وقال في الأشهر الحرم: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: آية ٣٦] مع أن ظلم النفس في غيرهن حرام[١].

وهذا معنى قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: والجميع لا يظلمون، فلا يُزاد في سيئات المسيء، ولا يُنقص من حسنات المحسن، بل حسنات المحسن تُزاد، وسيئات المسيء إما أن يُعفى عنها أو يُتجاوز، وإن عُومل بها عُومل بوزرها فقط عدلًا وإنصافاً.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: آية ١٦١].

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ قرأه الجمهور: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وفتح اثنان من السبعة منهما نافع: **﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**[٢] ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ قرأ أربعة من السبعة، وهم الكوفيون الثلاث: عاصم، وحمزة، والكسائي، والشامي ـ وهو ابن عامر ـ: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ بكسر القاف وفتح الياء مخففة. وقرأ الحرميان، أعني: نافعاً وابن كثير، والبصري ـ وهو أبو عمرو ـ قرؤوا: **﴿دِيناً قَيِّماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾**[٣].

وقرأ جمهور القراء ما عدا هشاماً عن ابن عامر: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ بكسر الهاء ممدودة بياء، وقرأ هشام عن ابن عامر: **﴿إبراهام حنيفاً﴾** بفتح الهاء ومدها بألف، وهما لغتان في إبراهيم صحيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان[٤].

لما بيّن الله انقسام الخلق إلى مهتد وضال، ومفرقين دينهم شيعاً ومهتدين، أمر نبيّه ﷺ أن يُصرح على رؤوس الأشهاد أنه لم يتبع السبل

---

(١) انظر: زاد المعاد (٥١/١).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص (٢٠٦).

(٣) انظر: المصدر السابق ص (٢٠٥).

(٤) انظر: السبعة لابن مجاهد ١٦٩، الموضح (٢٩٩/١ ـ ٣٠١)، الإقناع لابن الباذش (٦٠٢/٢)، النشر (٢٢١/٢)، البدور الزاهرة (١١٣).

الزائغة، ولا الطرق الضالة، وأنه على الهدى المستقيم، والمحجة البيضاء التي هداه إليها ربه، قل يا نبي الله: ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ أي: أرشدني ودلني ووفقني للعمل ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾. الصراط في لغة العرب: الطريق الواضح[١]، ومنه قول جرير[٢]:

أميرُ المؤمنينَ على صراطٍ إذا اعْوَجَّ المواردُ مستقيم

والمستقيم الذي لا اعوجاج فيه، طرفه بيد المسلمين، وطرفه الآخر في الجنة.

وقوله: ﴿دِينٗا﴾ أعربوه أعاريب مختلفة[٣]، أجودها: أنه بدل محل من قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ لأنه مجرور في محل نصب. والأصل: (هداني ربي صراطاً مستقيماً) لأن (هدى) تتعدى إلى المفعول الثاني بنفسها دون حرف الجر، كقوله: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١١٨﴾ [الصافات: آية ١١٨] ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: آية ٦] ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [الفتح: آية ٢٠] وقد يتعدى بـ (إلى) كقوله هنا. ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وقد يتعدى بـ (اللام) إلى المفعول الثاني، كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: آية ٩] فهو وإن جر بـ (اللام) أو بـ (إلى) فهو في محل نصب؛ لأن الفعل يتعدى إليه بنفسه، ومعروف أن مراعاة المحل في الإعراب أمر معروف:

وَجُرَّ ما يَتْبَعُ مَا جُرَّ وَمَنْ رَاعَى في الاتْباع المحلَّ فَحَسَن[٤]

كما قاله ابن مالك في الخلاصة. فقوله: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ﴾ مجرور في محل نصب، إذ (هداني) تتعدى إلى المفعول الثاني بنفسها، فكأنه قال: (هداني صراطاً مستقيماً دينا قيماً) فـ (الدين) بدل من (الصراط

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٧) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) انظر: ابن جرير (٢٨٢/١٢)، القرطبي (١٥٢/٧)، البحر المحيط (٢٦٢/٤)، الدر المصون (٢٣٨/٥).

(٤) الخلاصة ص (٣٩).

المستقيم) وهو بدل محل؛ لأنه منصوب أُبدل من مجرور، لكن المجرور في محل نصب.

وأعربه بعضهم حالًا من (الصراط) أي: إلى صراط مستقيم في حال كون ذلك الصراط المستقيم ديناً قيماً. والنكرة إذا نُعتت أو خُصصت جاز مجيء الحال متأخرة منها.

وبعضهم قال: هو منصوب بـ (هداني) بتضمينها معنى (عرفني). ولا يخلو من بعُد، وفيه أعاريب غير هذا أظهرها ما ذكرنا.

﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ أي: أرشدني ووفقني إلى طريق واضح لا اعوجاج فيه.

﴿دينا قيِماً﴾ على قراءة: ﴿قيِماً﴾ فهو الصفة المشبهة من: قام، يقوم، فهو قَيِّم، بمعنى: استقام، يستقيم، فهو مستقيم. والعرب تطلق (قام) وتريد: استقام، ومنه: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ أي: مستقيمة على دين الحق ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [آل عمران: آية ١١٣]. فالقيّم هو الصفة المشبهة من: قام، يقوم، بمعنى: استقام، يستقيم، فهو كالتوكيد لما قبله.

وقال بعضهم: هذا الدين (قيّم) معناه: أن اتباعه يقوم بشؤون الدين، وينظم علاقاتها ومصالحها في الدنيا والآخرة، من قولهم: فلان قيّم على أهله، أي: قائم بمصالحهم وشؤونهم، ودين الإسلام جامع بين الوصفين، هو قيّم يعني بأحوال الدنيا والآخرة؛ لأن مُتبعه يصلح له جميع أموره من جميع الجهات في دنياه وأخراه.

وعلى أنه (فَيْعِل) من قام بمعنى: استقام، فهو أيضاً في غاية الاستقامة، وهو كالتوكيد لما قبله.

أما على قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ فالقِيَمُ هنا مصدر قليل، كقولهم: كبُر كِبراً، وعَظُم عِظَماً، وشَبِعَ شِبَعاً، وقام قِيَماً. فهو مصدر بمعنى (القيام) نُعت به. و(قام) التي مصدرها (قِيَماً) هنا من (قام) التي بمعنى (استقام)، فهو راجع في المعنى إلى الأول، إلا

أنه من النعت بالمصدر، والعرب إذا نعتت بالمصدر كقولهم: رجل كَرَم، وفلان عَدْل. لأن العدل مصدر، إذا نعتت بالمصدر فقيل هو على حذف مضاف. أي: ذو قِيَم. أي: استقامة. زيد كَرَم. أي: ذو كَرَم. أو كأنهم بالغوا فيه حتى جعلوه عين القِيَم، بمعنىٰ الاستقامة. وكأنهم بالغوا في كرم زيد حتى جعلوه عين الكرم.

الثاني: أن المصدر المنكَّر يؤول بالوصف، فيرجع معنىٰ المصدر إلى معنىٰ (قيِّماً)، الذي هو الصفة المشبهة من (قام). فيرجع معنىٰ الأقوال إلى شيء واحد؛ لأن النعت بالمصدر معناه: ذو قِيَم. أي: استقامة. أو هو استقامة بعينه، كأنه لشدة استقامته سُمي (استقامة) لشدة استقامته. أو لأنه مصدر أُريد به الوصف، فيكون (قِيماً) بمعنى: قيِّماً. هذه الأقوال الثلاثة معروفة في النعت بالمصدر، كما قال في الخلاصة(١):

ونَعَتُوا بمصدرٍ كثيراً فالتزمُوا الإفرادَ والتذكيرَا

فعلى قراءة (قِيَماً) فهو من النعت بالمصدر، فالقِيَم: مصدر كالشِّبَعِ، والصِّغَرِ، والكِبَر. وعلى قراءة من قرأ ﴿قيّماً﴾ فالأمر واضح(٢).

وقوله: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ هذه بدل من الدين(٣)؛ لأن الدين القيم هو ملة إبراهيم، والملة: الشريعة والطريقة. قال بعض العلماء: اشتقاقها من (الإملال)، و(الإملال) بلامين، وهو ما يسمونه الإملاء ـ بالهمزة ـ أن تلقي على الكاتب جملة فيكتبها، ثم تُملي عليه جملة أخرىٰ فيكتبها. ومنه قوله: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: آية ٢٨٢] ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: آية ٢٨٢] معنى أنه يملل، أي: يُلقي على الكاتب جمل عقد المداينة حتى يكتبها. أبدلوا اللام الأخيرة همزة، فجعلوه إملاء. وأصله

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

(٢) انظر هذه القراءات وتوجيهها في: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٥، ابن جرير (٢٨٢/١٢)، حجة القراءات ص ٢٧٨، القرطبي (١٥٢/٧).

(٣) انظر: الدر المصون (٢٣٨/٥).

(إملال) قالوا: لأن الملة وهي الشريعة، تنزل جُمَلاً جُمَلاً جُمَلا حتى تتم[١] كما وقع في ديننا. فُرضت الصلاة أولاً قبل الهجرة، ثم فُرضت الزكاة والصيام في عام اثنين من الهجرة، وفُرض الحج في عام تسع على أصح الأقوال، شيئاً بعد شيء حتى تتم.

وقوله: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ هو نبي الله إبراهيم، الذي جعله الله للناس إماماً، وشهد له شهادته بالوفاء ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: آية ٣٧] ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: آية ١٢٤] وقيل لنبينا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل: آية ١٢٣] وقيل له هنا: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ثم بين أنه ملة إبراهيم.

وهنا سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: دلت هذه الآيات على أن النبيَّ ﷺ أمر أن يتبع ملة إبراهيم، والمتبوع أفضل من التابع، فإذاً قد يكون إبراهيم أفضل من النبيِّ ﷺ، حيث أُمر باتباعه[٢]؟

والتحقيق أن النبيَّ ﷺ سيد الخلق، وأفضل البشر، وأفضل من خلق الله، وأفضل من إبراهيم، ومن عامة الرسل، وسيظهر فضله على الرسل يوم القيامة، وقد ظهر ذلك فيما مضى؛ لأنه (صلوات الله وسلامه عليه) ليلة الإسراء لما اجتمع بالرسل - أرواحهم مجسدة بصور أجسادهم - وخاطبوه وكلمهم، ارتفع حتى بلغ مقاماً أعلى من مقاماتهم، ولما نزل إلى الأرض، في بيت المقدس، في محل مبعث الرسل وديارهم صار إماماً للجميع بإشارة من جبريل[٣]. فتبين أنه سيدهم في السموات والملأ الأعلى، وسيدهم في الأرض (صلوات الله وسلامه عليه).

---

(١) انظر: المفردات (مادة: ملل) ٧٧٣.

(٢) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

(٣) حديث الإسراء والمعراج مستفيض مشهور مُخرّج في الصحيحين وغيرهما، وقد رواه جماعة من الصحابة، أما صلاة النبيّ ﷺ بالأنبياء فذلك ثابت في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: ذكر المسيح بن مريم. حديث رقم: (١٧٢)، (١٥٦/١ - ١٥٧). =

والجواب عن هذا: أن أمره باتباع إبراهيم مما يدل على أفضليته عليه؛ لأن كل ما كان عند إبراهيم من الشرائع التي وفاها وحاز بها الفضل يُؤمر هو باتباعها، فيساويه فيها، ثم يُزاد بتشاريع وأمور عظيمة لم تنزل على إبراهيم ولم تكن في شرعه، فيأخذ ما عنده ثم يزيد عليه، ومن هنا يتبين الفضل، وأن أمره باتباع الرسل في هذه السورة الكريمة سورة الأنعام الذي قدمناه في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] أنه يقتدى بما عندهم من الهدى، ثم يُزاد من أنواع الهدى أشياء عِظاماً لم تكن عندهم ولم يُعطوها، فيظهر فضله على الجميع (صلوات الله وسلامه عليه).

وقوله جل وعلا: ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾ ﴿حَنِيفٗاۚ﴾ هنا حال من إبراهيم(١)، والمعروف أن الحال لا تكون من المضاف إليه إلا إذا كان المضاف هو عامل الحال، أو كان المضاف كأنه جزء من المضاف إليه كما هنا، أو شبه الجزء(٢)، بدليل أنه لو حُذف لما ضرّ، لو قلت مثلًا: ديناً قيّماً ملة إبراهيم. لو قلت: اتبعوا إبراهيم. لكفى عن: اتبعوا ملة إبراهيم.

والحنيف في لغة العرب: أصله الذي به حَنَف، وأصل الحَنَف في لغة

= وأما ما رُوي من تقديم جبريل للنبي ﷺ ليؤمهم في الصلاة فهو عند ابن سعد في الطبقات (١٤٣/١ ـ ١٤٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (مختصر ابن منظور ١٢٩/٢ ـ ١٣٠) من حديث ابن عمر، وأم سلمة، وعائشة، وأم هانىء، وابن عباس (رضي الله عنهم). (دخل حديث بعضهم في بعض). وانظر الدر المنثور (١٤٩/٤).
وساق في الدر (١٥٤/٤) عن علي (رضي الله عنه) بنحو هذا المعنى. وعزاه للبزار.
وأورد (١٥٤/٤) من رواية ابن الحنفية نحوه ـ أيضاً ـ وعزاه لأبي نعيم في الدلائل.
وقد ورد هذا المعنى في حديث أنس عند النسائي في الصلاة، باب: فرض الصلاة. حديث رقم: (٤٥٠)، (٢٢١/١ ـ ٢٢٢). قال ابن كثير: (٥/٣ ـ ٦) من التفسير: «وفيها ـ أي الرواية ـ غرابة ونكارة جداً».
كما أورد ابن كثير (٦/٣ ـ ٧) رواية عند ابن أبي حاتم تدل على ما سبق، وعقبها ابن كثير بقوله: «هذا سياق فيه غرائب عجيبة» ا.هـ.

(١) انظر: القرطبي (١٥٢/٧)، البحر المحيط (٢٦٢/٤).
(٢) انظر: ضياء السالك (٢٢٩/٢).

العرب: هو أن يميل القدم الأيمن إلى جهة القدم الأيسر، والقدم الأيسر إلى جهة القدم الأيمن، فيكون في كلتا الرجلين اعوجاج، كل منهما تَعْوَج إلى الأخرى[(١)]. فيقال للرجل: أحنف. وللمرأة: حنفاء. وكان الأحنف بن قيس سيد تميم كذلك، وفيه سُمي الأحنف، وكانت أمه ترقصه وهو صبي، وهي تقول[(٢)]:

والـلّـهِ لـولا حَـنَـفٌ بـرجـلـهِ ما كـانَ في فتيانِكُم من مثلِهِ

هذا أصل الحَنَف، وصار أكثر ما يُستعمل الحَنَف في الميل عن الأديان الباطلة إلى الدين المستقيم[(٣)]. فالحنيف: المائل عن كل دين باطل لا يُرضي الله إلى الدين المستقيم الذي يرضي الله. فهذا معنى كون إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلًا صاداً عن جميع الأديان الباطلة إلى الدين المستقيم الذي يُرضي الله جل وعلا.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نفي هذا الكون الماضي، بأن الله نفى عن إبراهيم الشرك في الكون الماضي، معناه: أنه لم يقع منه كون الشرك فيما مضى أبداً. وهذا حق لا شك فيه، والآيات الدالة عليه كثيرة، كقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: آية ١٢٣] وهذا يكثر في القرآن - نفي كون الشرك الماضي عن إبراهيم - وبهذه الآيات وأمثالها في القرآن من تبرئة إبراهيم من شرك ماض أبداً، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: آية ٥١] تعلمون أنه غلط كبار من كبار العلماء، منهم كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري، والروايات المروية عن ابن عباس وغيره من أجلاء علماء التابعين، أنها كلها غلط لا شك فيه؛ وذلك لأنهم زعموا أن قول إبراهيم المتقدم في الأنعام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ﴾ [الأنعام: آية ٧٦]

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

زعموا أنه كان يظن أنه ربه وقت قوله ذلك. ولو كان يظن ربوبية الكوكب لكان من أشد المشركين شركاً، والله ينفي عنه الشرك في الكون الماضي، فدل قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في آيات كثيرة، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: آية ٥١] أن قوله في الكوكب: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ أنه ما كان يظن ربوبية الكوكب أبداً، إذ لو كان يظنها لكان سبق عليه شرك ماض، وظَنُّ ربوبية غير الله هو أكبر أنواع الشرك وأكفرها، والله يقول: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: آية ٦٦] فقول ابن جرير: إن إبراهيم كان يظن ربوبية الكوكب أولاً، وروايته لهذا عن ابن عباس وجماعة غلط فاحش لا شك فيه[1]؛ لأن الله يقول عن إبراهيم: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ونفي الشرك في الكون الماضي يدل على الاستغراق؛ لأنه من المعروف عند العلماء أن الفعل قسمان: فعل حقيقي، وفعل صناعي.

أما الفعل الحقيقي فهو الذي يسميه علماء النحو بالمصدر، وهو الحدث المتجدد، كالضرب والكلام والقعود. والفعل الصناعي: هو المعروف في صناعة النحو بالفعل، مما يسمونه: ماضياً، أو مضارعاً، أو فعل أمر، وهذا الفعل الصناعي عند عامة النحويين يَنْحَلّ عن مصدر وزمن[2]، وبيَّنه في الخلاصة بقوله[3]:

المصدرُ اسمُ ما سوىٰ الزمانِ من مدلولَي الفعلِ كأَمْنٍ مِنْ أَمِنْ

وعند المحققين من علماء البلاغة كما حرروه في مبحث الاستعارة التبعية: أن الفعل الصناعي يَنْحَلّ عن مصدر، وزمن، ونسبة، فالمصدر كامن في جوفه إجماعاً[4]. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (كان) فعل صناعي،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٤) انظر: جواهر البلاغة ص ٣١٠، الكليات (١٠٢).

فعل ماض ناقص يكمن في جوفه مصدره قطعاً. ففيه نفي كون الشرك الماضي قطعاً، نفياً باتاً من الله، فلم يكن من إبراهيم شرك ألبتة، كما صرح به الله في قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في آيات كثيرة.

ولا شك أن طالب العلم يخطر في ذهنه الآن أن يقول: برّأتم إبراهيم من كل شرك ماض؛ لأن الله نفىٰ كون الشرك الماضي عنه، وهو يستغرق ماضي الزمن إلى الأزل، ولكن ماذا تقولون في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: آية ٧٦]؟

والجواب: قررناه في محله من هذه السورة[١]، وسنُلم بنموذج قليل منه، منه: أن هذا إنما قاله نبي الله إبراهيم على سبيل التنازل الجدلي، ليمكنه إفحام خصمه؛ لأن من أمهات الجدل أن تُسلم الكذب المحض لخصمك ليمكنك إفحامه؛ لأن إبراهيم لو قال أولًا: الكوكب لا يمكن أن يكون رباً. لقالوا: أنت رجل جاهل كذاب، الكوكب رب. ولم يحصل شيء، فكأنه قال: سلمنا على زعمكم الكافر الكاذب الباطل، هذا ربي!! أي: على زعمكم الكافر الملحد الفاجر، فَلِمَ يأفل؟؟ وكيف يأفل الرب ويسقط؟!! ولذا قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ فلو لم يتنازل ويُسلمهم التسليم الجدلي ويقل لهم: هذا ربي. أي: فرضاً على كفركم وقولكم الباطل. لو لم يتنازل هذا التنازل لما أمكنه إفحامهم كما يقول الله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: آية ٢٢] ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: آية ٤٢] أي: لو كان رباً لما كان آفلا!! ولو لم يُظهر لهم بعض الموافقة للكذب الباطل لما أمكنه إفحامهم.

والوجه الثاني: أن همزة[٢] الاستفهام الإنكاري محذوفة دل المقام عليها، والأصل: أهذا ربي؟! وهمزة الاستفهام إذا دل المقام عليها جاز حذفها. والدليل عليها وعلى أن إبراهيم ما كان ظاناً ربوبية الكوكب هو

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

عظم إبراهيم، وشهادة الله له في القرآن أنه لم يكن مشركاً قط، وفي نفس الآية قرائن واضحة قاطعة على أنه ما كان يظن الكوكب رباً؛ لأن الله قال في أول الآيات: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام: آية ٧٥] فلما حكم له بأنه من الموقنين الذين لا يُخالج يقينهم شك رتب على ذلك بالفاء قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ [الأنعام: آية ٧٦] فكيف يظن أنه ربه والله يقول: ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ فرتب على كونه من الموقنين قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ وهمزة الاستفهام حذفها مطرد إذا كان مع (أم) لا نزاع فيه. وزعم الأخفش الصغير أبو الحسن علي بن سليمان، الأخفش الصغير، أن حذف همزة الاستفهام إذا دل عليه قرينة أنه مطرد في اللغة العربية، قياسي لا يحتاج إلى سماع. ومن أمثلته في القرآن: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: آية ٣٤] والمعنى: أفإن مِتَّ أفهم الخالدون. لأن محل استفهام الإنكار في قوله: «أفَهُمُ الخالِدُونَ». وهو كثير في كلام العرب دون (أم)، ودون ذكر الجواب، ومع (أم)، ومع ذكر الجواب[١].

فمن أمثلته دون (أم) ودون ذكر الجواب قول الكميت[٢]:

طربتُ وما شوقاً إلى البيضِ أطربُ ولا لعباً مني وذو الشيبِ يلعبُ؟

يعني: أَوَذُو الشيب يلعب؟ فحذف همزة استفهام الإنكار، ونظيره قول الآخر، واسمه خويلد[٣]:

رَفَوني وقالوا يا خُويلدُ لم تُرَعْ فقلتُ وأنكرتُ الوجوه هُمُ هُمُ

يعني: أَهُم هُم؟ فحذف همزة الاستفهام على التحقيق، وكما جزم به غير واحد.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

(٣) السابق.

ومن أمثلته دون (أم) مع ذكر الجواب: قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي(١):

ثم قالوا: تحبُّهَا، قلتُ بَهْراً ... عددَ النجمِ والحصَى والترابِ

فقوله: «ثم قالوا: تحبها» يعني: أتحبها؟ فحذف همزة الاستفهام.

أما هو مع (أم) فهو مطرد لا يخالف فيه أحد، وأنشد له سيبويه قول ابن يعفر التميمي(٢):

لعَمْرُكَ ما أدري وإنْ كنتُ دارياً ... شُعيثُ بن سهم أمْ شُعيثُ بن مِنْقَرِ

يعني: أشعيث بن سهم؟ ومنه في كلام العرب قول ابن أبي ربيعة المخزومي(٣):

بدا لي منها مِعْصَمٌ يوم جَمَّرتْ ... وكفٌّ خَضِيبٌ زُيِّنتْ ببنانِ

فواللهِ ما أدري وإني لحاسبٌ ... بسبعٍ رميتُ الجمرَ أمْ بثمانِ

يعني: أبسبع رميت الجمر أم بثمان؟ ومنه قول الخنساء السُلمية الشاعرة، الخنساء بنت عمرو بن الشريد المشهورة(٤):

قذىً بِعَيْنَيْكَ أمْ بالعينِ عُوَّارُ ... أمْ خِلتَ إذ أَقْفَرَتْ من أهلِهَا الدارُ

تعني: أقذىً بعينك؟ ومنه قول أُحيحة بن الجُلاح الأنصاري(٥):

وما تدري وإن ذمَّرتَ سَقْباً ... لغيرك أم يكون لك الفصيلُ

يعني: ألغيرك؟ وقول امرىء القيس(٦):

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

(٥) السابق.

(٦) السابق.

تـروحُ مـن الـحـي أو تَـبْـتَـكِـرْ ومـاذا عـلـيـكَ بـأَنْ تَـنْـتَـظِـر

وهو كثير في كلام العرب.

والحاصل أن قوله هنا: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يدل على نفي الشرك عن نبي الله إبراهيم في الزمن الماضي كله أبداً. وهذا معنى قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ١٦٢، ١٦٣].

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ بفتح ياء ﴿وَمَحْيَاىَ﴾ وسكون ياء ﴿وَمَمَاتِى﴾، وقصر ألف ﴿وَأَنَا۠﴾ وعدم مدها. وقرأ نافع وحده دون عامة القراء: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايْ﴾ بخلاف عن ورش فيه، واتفاق عن قالون: ﴿وَمَمَاتِيَ لله رَبِّ العَالِمِينَ﴾ بفتح ياء ﴿وَمَمَاتِى﴾[1]، وقرأ - مثلاً -: ﴿وَأَنَآ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وهي لغة تميم مدّ لفظة ﴿وَأَنَا۠﴾ وقرأه عامة القراء غير نافع: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ بلا مدّ ﴿وَأَنَا۠﴾[2].

والمعنى: قل لهم يا نبي الله إن جميع عباداتي منصرفة إلى من خلقني لا أشرك فيها غيره معه، فأنا موحد صِرْفاً، مخلص لربي في عبادتي ﴿إِنَّ صَلَاتِى﴾ إذا صليت ﴿وَنُسُكِى﴾ أكثر العلماء على أن النسك هنا معناه: النحر في الضحايا والهدايا. ونحري إذا نحرت ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، كقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: آية ٢] وعلى هذا فالنسك خاص بالذبح[3]. والمعنى: أنه لا يُنحر لغير الله، ولا يذكر على الذبيحة اسم

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص (٢٠٦).

(٢) انظر: السبعة لابن مجاهد ١٨٧، الموضح (٣٣٨/١)، الإقناع لابن الباذش (٦١٠/٢)، النشر (٢٣٠/٢ - ٢٣١)، البدور الزاهرة (١١٤).

(٣) انظر: ابن جرير (٢٨٣/١٢ - ٢٨٥)، أضواء البيان (٢٨٤/٢).

غير الله، كما لا يُصلىٰ لغير الله، كما أوضحناه في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

وقال بعض العلماء: ﴿وَنُسُكِى﴾ معناه: جميع عباداتي؛ لأن التنسك: التعبد، و (النسك) يطلق على جميع العبادات، ويدخل فيه دخولًا أوليًا: النحر والتقرب بالدم؛ لأن التقرب في الدماء في الضحايا والهدايا من أعظم القُرَب إلى الله، وصرفه لغير الله صرف لحقوق الخالق إلى المخلوق، وذلك معروف ما فيه. فعلى أن (النسك) خصوص الذبح فالآية كقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ فخص هاتين العبادتين وغيرهما من العبادة مثلهما. وعلى أن النسك جميع العبادة فقد شمل الذبح وغيره[1]. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾.

﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ اختلف العلماء في معنى قوله: ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ قال بعض العلماء: إن الذي يستحق مني أن أخصه بصلاتي وبنحري وبجميع عباداتي هو الذي بيده روحي، يملك موتي ويملك حياتي، إن شاء أماتني وإن شاء أحياني، فالذي يملك إحيائي وإماتتي هو ربي ومعبودي الذي يحق لي أن أخلص له حقه في عبادته. وقال بعض العلماء: ﴿وَمَحْيَاىَ﴾ هو ما قدمت في حياتي من جميع الأعمال الصالحة مخلصاً فيه لله وحده[2].

﴿وَمَمَاتِى﴾ قيل: هو ما أوصيت أن يُفعل بعد مماتي من إجراء قربات وصدقات تجري علي، كل ذلك مخلص فيه لله. أو ﴿وَمَمَاتِى﴾ أي: ما جاءني عليه الموت من الأعمال الصالحات التي أدركني الموت وأنا مقيم عليها، كما قال نبي الله يعقوب: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ١٣٢] كل ذلك مخلص فيه لله (جل وعلا) وحده لا أشرك معه غيره[3].

٢٥/ب وهذا تعليم لنا أننا نخلص [عبادة][4]/ خالقنا له (جل وعلا) ولا نشرك

---

(١) انظر: القرطبي (١٥٢/٧)، أضواء البيان (٢٥٤/٢).
(٢) انظر: القرطبي (١٥٢/٧)، البحر المحيط (٢٦٢/٤).
(٣) انظر: المصدرين السابقين.
(٤) في هذا الموضع ذهب بعض التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

معه فيه غيره؛ لأنه أغنى الشركاء عن الشرك، ولا يقبل من أحد أشرك معه غيره، وكل شيء يغفره إن شاء إلا الإشراك به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: آية ٤٨] وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في شيء من ذلك، لا شريك يُصلىٰ له غيره، ولا شريك يُنحر ويتقرب إليه بالنحر غيره، ولا شريك يُميت ويُحيي غيره، ولا شريك يقام على الأعمال لرضاه مخلصاً له في الحياة غيره، ولا شريك يُوصَى بالأعمال الصالحة بعد الممات يُراد بها رضى شريك غيره، بل هو وحده الذي له الإخلاص في جميع ذلك كله، ثم قال: ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت لكم من إخلاص العبادة لله طول أيام الحياة، وما يُوصى به بعد الممات، وما يموت عليه الإنسان من الأعمال، إخلاص التوحيد والقُرَب لله في ذلك وحده ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ هكذا أمرني ربي، وأنا عبد مأمور، وقد أمرني بالإخلاص له في جميع عباداتي.

فعلينا أن نعلم أن هذا الذي أُمر به سيدنا ﷺ من تحقيق العبودية لله، وإخلاص حقوق الله لله، وتحقيق معنى (لا إله إلا الله) علينا أن نتبع فيه نبينا ﷺ.

ثم قال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: أول المسلمين من هذه الأمة؛ لأنه هو الذي دعاها إلى الإسلام، فهو أول من أسلم؛ لأنه نزل عليه الوحي فآمن به ثم قام يدعو الناس إليه، أي: من هذه الأمة لا من جميع الناس. أما المسلمون قبله من الأمم الأخرى فهم كثير جداً، وكل الأنبياء قبله مسلمون، وهذا نبيُّ الله إبراهيم يقول الله فيه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: آية ١٣١] وهذا نبي الله نوح يقول: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: آية ٧٢] وهذا نبي الله يوسف يقول: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: آية ١٠١] والله يقول: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة: آية ٤٤] وأمثال هذا في القرآن كثيرة، فالمسلمون قبله كثير، ودين

الإسلام قبله منتشر في شرائع الرسل. ومعنى ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأمة التي بعثني الله بشيراً ونذيراً إليها.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: آية ١٦٤].

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يقول علماء التفسير: إن سبب نزول هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام: أن المشركين قالوا للنبيّ ﷺ: اعبد معنا آلهتنا مرة ونعبد معك إلهك مرات أُخرى، فأمره الله أن يُنكر عليهم هذا القول، ويقول لهم: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ والمعنى: أأبغي رباً غير الله حتى أعبد صنماً وأتخذه رباً؟ لا يمكن أن يكون هذا منّي. ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني: لا أبغي رباً غير الرب الذي هو الرب الحقيقي، الذي هو رب كل شيء، أي: خالق كل شيء، ومدبر شؤون كل شيء، إليه المرجع والمآب، هو وحده الذي هو ربي؛ لأن غيره مخلوق مربوب مملوك له (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وإنما قدم المفعول لأن محل الإنكار مُنصَبّ على غيريّة الله، واتخاذ الربوبية إنكاره منصب على غيريّة الله؛ ولذا قدّم غير الله لأنه محل مصب الإنكار، والحال هو ـ أي: الله ـ ﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فالذين تدعونني أن أعبدهم هم مخلوقون لله، ومربوبون له، فهو رب كل شيء، ومعبود كل شيء، فهو المعبود وحده، فلا أعبد غيره، ولا أتخذ غيره رباً.

ثم قال: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ والمعنى: لا تكسب كل نفس ذنباً إلا عليها. ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ يعني لا تكسب ذنباً إلا على نفسها. وأنا إن عبدتم أنتم الأصنام فضرر ذلك عليكم، وإنما يضرني لو كنت وافقتكم؛ ولذا قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ العرب تقول: وَزَرَ الذنب. إذا تحمّله، أي: ولا تحمل نفس وازرة، أي: مذنبة متحمّلة للآثام، لا تحمل وزر ذنب نفس أخرىٰ، بل كل نفس عليها ذنبها، وهذا كالتأكيد لقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ وهذا بيّن، ولو كانت أقرب الأنفس إلى النفس لا تحمل عنها من وزرها شيئاً، كما يأتي في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: آية ١٨] وكان بعض العلماء يقول: سبب نزول هذه الآيات: أنهم لما دعوا النبي ﷺ إلى أن يعبد معهم آلهتهم مرة ويعبدون معه إلهه مرات، وقنّطهم من ذلك، وأمره الله أن يقول: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ قالوا له: أنت وأصحابك اتبعوا سبيلنا واعبدوا معبوداتنا ونحن نتحمل عنكم جميع الآثام، ونضمن لكم خير الدنيا والآخرة، فكل ما يهمّكم في ذِممنا وعلينا، كما قال: إنهم قالوا: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: الآيتان ١٢، ١٣] أي: أثقال ضلالهم، وأثقال إضلالهم؛ ولذا قال هنا: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فكسبنا وآثامنا لا تكون عليكم، ولا يمكن أن تتحملوها لو أطعناكم ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس مذنبة - يعني - ذنب نفس أخرى، بل كل وعمله، والله لا يأخذ أحداً بعمل غيره، فالكل مؤاخذ بما عمل.

وهذه الآيات فيها موعظة عظيمة، وسؤال.

أما الموعظة العظيمة: فهي أن يعلم الإنسان أن حركاته في الدنيا وسكناته أن ما فيها من نفع فهو عائد إلى خصوص نفسه، وما فيها من ضرّ فهو عائد إلى خصوص نفسه، فليجتهد الإنسان وقت إمكان الفرصة أن يُسلِّم نفسه من البلايا، وأن يُكسبها الخيرات. فحركات الإنسان في دار الدنيا إنما يبني بها بيته الذي إليه مصيره الأخير، وهو إما غرفة من غرف الجنة أو سجن من سجون النار، فعلى كل مكلف أن يتأمل في نور القرآن في الحياة الدنيا في صحته وفراغه، ويعلم أن حركاته من أقواله وأفعاله ونيّاته وقصوده إنما يبني بها مقرّه الأخير النهائي: إما غرفة من غرف الجنة، وإما سجن من سجون النار.

الثاني: أن يُقال: في هذه الآية سؤال: لأن الله نص فيها أنه لا يؤاخذ أحداً بفعل أحد آخر، وقد جاءت مسألتان وقعت فيهما المؤاخذة بفعل الغير:

إحداهما: تحمّل العاقلة للديّة، فقد يقتل رجل إنساناً خطأ فتُجعل الدية على عاقلة ذلك الرجل، فيُكلفون بغرم لا ناقة لهم فيه ولا جمل. فهذه الأنفس قد أُخذت بذنب نفس أُخرى وهي لا ذنب لها فيه.

الثاني: ما ثبت في الصحيح عن عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) أنه قال: «**إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه**»[1]. وهذا كأنه عُذب بفعل غيره، والحديث ثابت في الصحيح، وتكذيب عائشة لابن عمر في هذا الحديث، - توهيمها له، وأنه غَلِطَ نظراً لهذه الآيات ـ غَلَطٌ منها هي (رضي الله عنها)، والصواب مع ابن عمر؛ لأنه حافظ سمع من النبي ﷺ غير شاك ولا متوهم[2].

فهذان سؤالان: لِمَ وجبت الديّة على العاقلة، وهي من فعل غيرها؟ ولِمَ عُذِّب الميت ببكاء أهله وهو من فعل غيره؟

والعلماء أجابوا عن هذا بأجوبة، قالوا[3]: أما العاقلة: فإن الإنسان القاتل خطأ لا ذنب عليه؛ لأنه لا يقصد شيئاً ولا مؤاخذة عليه عند الله إجماعاً؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ﴾ [الأحزاب: آية ٥] ويقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔاۚ﴾ [النساء: آية ٩٢] والكفارة التي وجبت عليه قال بعض العلماء: إنما هي مؤاخذة لعدم شدة التحفظ والتحرز أولاً والتسبب في عدم وقوع الخطأ، أما بعد وقوع الخطأ فلا إثم فيه قطعاً. قالوا: هذا رجل مسلم

---

(١) البخاري في الجنائز، باب: قول النبيّ ﷺ: «**يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه**» إذا كان النوح من سنته. حديث رقم: (١٢٨٦)، (٣/١٥١ ـ ١٥٢). وطرفه في: (١٢٨٧ ـ ١٢٩٠ ، ١٢٩٢، ٣٩٧٨).

ومسلم في الجنائز، باب: إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه. حديث رقم: (٩٢٨)، (٢/٦٤٠). وانظر الأحاديث الأُخرى التي أخرجها في الباب نفسه.

(٢) انظر: فتح الباري (٣/١٥٤)، الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص (٦٧).

(٣) انظر: المغني (٩/٤٨٩)، فتح الباري (٢/٢٤٦).

لزمته دية، وهو لم يقصد سوءاً، ولم يقصد بها ذنباً ولا جريمة، فالله (جل وعلا) أمر عاقلته من أهل ديوانه ـ ممن يقول بالديوان ـ أو من عصبته ـ ممن يقصرها على العصبة ـ أمرهم أن يساعدوه، وخالق السماوات والأرض يُدبر على البعض من البعض، ويأمر البعض بمساعدة البعض، إكراماً وجرياً على مكارم الأخلاق، كما أمر بأن تؤخذ الزكاة من أغنيائنا وترد على فقرائنا، فهذه إعانة محض، ومكارم أخلاق جاء القرآن بها معاونة لذلك الإنسان، كما أوجب الزكاة مساعدة للفقير، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك.

أما حديث ابن عمر فللعلماء عنه أجوبة كثيرة[1]، منها: أنهم حملوه على الميت الذي أوصاهم أن يبكوا عليه. أي: عرف أنهم إذا مات يبكون عليه، ولم ينههم. وكانت هذه عادة العرب. ويوضحه قول طرفة بن العبد في معلقته[2]:

فإنْ مِتُّ فانعيني بما أنا أهلُه   وشقّي عليَّ الجيبَ يا ابنةَ مَعْبَدِ

فهذا إذا شقّت عليه الجيب وبكت عليه فلا إشكال في تعذيبه ببكائها؛ لأنه أمره بها في الدنيا، وهو من فعله. وكذلك من علم أنه إذا مات يفعلونه ولم ينههم، فهو متسبب بعدم نهيهم.

وقال بعض العلماء: تعذيبه ببكاء أهله أن أهله إذا بكوا عليه أن الله يُطلعه على ذلك ويأسف ويحزن من حزن أهله. إلى غير ذلك من الأقوال، وأظهرها الأول. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ المرجع هنا: مصدر ميمي، بمعنى: الرجوع، والمصدر الميمي إذا لم يكن من مادة واوية الفاء يكون قياسه (مفعَل) بفتح العين[3]، فالقياس أن يكون (المرجَع) بفتح الجيم، ولكن هذا سماع مانع للقياس، فهو مصدر ميمي على (مفعِل) سماعاً لا قياساً، ومعناه: إليه رجوعكم يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ أي: يخبركم إخبار مجازاة

---

(١) انظر: فتح الباري (٣/١٥٢ ـ ١٥٥)، أحكام الجنائز للألباني ص٤١ ـ ٤٢.

(٢) شرح القصائد المشهورات (١/٩٢).

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

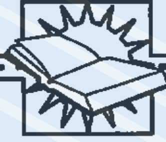
﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ بالذي كنتم تختلفون فيه. يعني: أهؤلاء الذين كانوا شيعاً وفرقوا دينهم واتبعوا الأهواء والضلالات، وهؤلاء الذين كانوا على الصراط المستقيم، مرجعهم جميعاً إلى الله، فيخبرهم بالحقيقة، ويبيِّن لهم الضال من المهتدِ، ويعاملهم بحسب ما كانوا عليه من هدىً وضلال، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: آية ١٦٥].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال بعض العلماء: هذه منَّة تخص أمة محمدٍ ﷺ ﴿وَهُوَ﴾ أي: الله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ﴾ يا أمة محمد خلفاء الأرض؛ لأنه لا يأتي نبي بعد نبيكم، ولا شرع بعد شرعكم، فيكون الحكم في الأرض تبعاً لشرعه، بل شرعكم ودينكم هو الباقي الخالد في الأرض، المُحكَّم في جميع من في الأرض، في دمائهم، وأموالهم، وأديانهم، وأعراضهم، وفروجهم، فأنتم خير الأمم، وأنتم خلفاء الأرض، لا يأتي شرع ينسخ شرعكم، ولا نبي بعد نبيكم، فأنتم خلفاء الأرض إلى يوم القيامة، وإن شرعكم باق، ونبيكم لا نبي بعده، ودينكم باق إلى يوم القيامة. وعلى هذا فالمنّة على أمة محمد ﷺ. وهذا الامتنان يقتضي أن تعطوا الخلافة في الأرض حقها، وتقتفوا آثار الرسول ﷺ، وتخلفوه خلافة حقاً، فتُرضوا الله بأن تنفذوا أوامره في أرضه، وتضعوا العدالة في أرضه، وتجعلوا المحكّم في الدنيا نظامه الذي شرع، وتجعلوا كلمته هي العليا، وتستعدوا بكل قوة حتى تجعلوا كلمة الذين كفروا السفلى، فعلى هذا القول فهو منّة على هذه الأمة. وقال بعض العلماء: (...)[1].



(١) ملحوظة: انقطع التسجيل بعد هذا الموضع.



سورة الأعراف

١/أ / قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: ١ ـ ٣] قد تكلمنا فيما مضى مراراً على الحروف المقطعة في أوائل السور، وذكرنا كلام العلماء فيها، وسَنُلِمُّ هنا ببعض قليل منه. رُوي عن ابن عباس وغيره أن قوله: ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ «أنا الله أَفْصِل»[1]. كما روي عنه: «أنا الله أعلم»[2] في ﴿ألم﴾.

ورُوي عن جماعة أن الألف واللام والميم والصاد أنها من أول اسمه المُصوِّر[3]. لأن اسمه المُصوِّر تحته غرائب وعجائب تبهر العقول. إذا رأيتم الناس يوم جمرة العقبة مجتمعة من أقطار الدنيا وجدتموها على صَبَّة واحدة: الأنف ها هنا، والعينان ها هنا، والفم ها هنا، على نمط وأسلوب واحد، مع أنه لم تشتبه صورة رجل بصورة رجل حتى لا يُفرَّق بينهما، ولا صورة امرأة بصورة امرأة، فكل منهم له صورة يُطبع عليها، سابقٌ علم الله بها، مُنفِّذ في تصويره بها. وهذا مما يدل على كمال وعظمة خالق السماوات والأرض.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٢/٢٩٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص١٢٠، والنحاس في القطع والائتناف ص١١١، وإسناده ضعيف وعزاه السيوطي في الدر (٣/٦٧) لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

(٢) أخرجه ابن جرير (١/٢٠٧)، وابن أبي حاتم (١/٢٧)، والنحاس في القطع والائتناف ص١١٠ ـ ١١١، وإسناده ضعيف، وعزاه في الدر (١/٢٢) إلى وكيع، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/٢٩٣).

ولكن تفسير الحروف المقطعة بأنها تدل على حروف من أسماء الله، هذا التفسير وإن قال به بعض أهل العلم، وإن كان له أصل في الجملة في اللغة العربية؛ لأن من أساليبها: وضع الحرف مراداً به الكلمة، كما قال الراجز[(١)]:

قلت لها: قفي فقالت لي: قافْ لا تحسبي أنَّا نسينا الإيجاف

يعني بقوله: «قاف» وقفت. ومنه قول الآخر[(٢)]:

بالخير خيراتٍ وإن شراً فَا ولا أُريد الشر إلا أنْ تَا

يعني: وإن شراً فشر، ولا أريد الشر إلا أن تشاء. فجاؤوا بالحرف واستغنوا عن الكلمة.

لكن هذا التفسير لم يقم عليه دليل، ولا يجب الرجوع إليه. وقد يفتح باب هذا التفسير للباطنية الزنادقة حيث يفسرون الكلام برموز وألغاز غير مرادة.

وقال بعض العلماء[(٣)]: إن معنى قوله: ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ أنه اسم لهذه السورة. وبعضهم يقول[(٤)]: اسم من أسماء الله.

وبعضهم يقول[(٥)]: هو من المتشابه الذي استأثر الله، بعلمه.

وأظهر أقوال العلماء فيها ـ مع كثرتها وانتشارها أظهرها ـ قول واحد؛ لأنه دل عليه استقراء القرآن في الجملة، وما دل عليه استقراء القرآن فهو أقرب من غيره. والقول الذي دل عليه استقراء القرآن: هو قول بعض العلماء: إن المراد بالحروف المقطعة في أوائل السور: إظهار إعجاز القرآن، فكأن الله يقول للبشر: ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ هذه حروف من الحروف المتداولة بين أيديكم تركبون منها كلامكم، فلو كان هذا الكلام من عند غير الله وهو مُؤلَّف من حروفكم المتداولة بين أيديكم لكنتم تقدرون على تأليف مثله، فلما

---

(١) البيت للوليد بن عقبة. وهو في ابن جرير (٢١٢/١)، تأويل مشكل القرآن ص٣٠٨.

(٢) البيت لتميم بن أوس. وهو في ابن جرير (٢١٣/١)، الكتاب لسيبويه (٣٢١/٣).

(٣) انظر: ابن جرير (٢٠٦/١).

(٤) انظر: المصدر السابق (٢٠٦/١)، (٢٩٣/١٢).

(٥) انظر: المصدر السابق (٢٠٩/١).

عجزتم عن تأليف مثله وهو من الحروف المعروفة لديكم مركب منها عرفنا بذلك أنه تنزيل من حكيم حميد لا من البشر.

ووجه الاستقراء الذي دل على هذا القول: أن الله في جميع القرآن في جميع السور المبدوءة بحروف مقطعة لم تُذكر منها سورة واحدة إلا وجاء بعدها التنويه بشأن القرآن والرفع من شأنه، فدل هذا على هذا، ولم يخلُ من هذا في سائر القرآن إلا سورتان: سورة مريم، وسورة القلم، أما غير ذلك فلا تُذكر الحروف المقطعة إلا ذُكر بعدها التنويه بشأن القرآن والرفع من أمره. قال في البقرة: ﴿الٓمٓ ①﴾ فأتبعه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ②﴾ [البقرة: الآيتان ١، ٢] وقال في آل عمران: ﴿الٓمٓ ① ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ②﴾ فأتبعه بقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية، [آل عمران: الآيات ١ ـ ٣] وقال هنا في الأعراف: ﴿الٓمٓصٓ ①﴾ ثم أتبعه بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: الآيتان ١، ٢] وقال في سورة يونس: ﴿الٓر﴾ ثم أتبعه بقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: آية ١] وقال في سورة يوسف: ﴿الٓر﴾ ثم قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: آية ١] وقال في الرعد: ﴿الٓمٓر﴾ ثم قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ الآية [الرعد: آية ١] وقال في سورة الخليل: ﴿الٓر﴾ ثم قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: آية ١] وقال في سورة الحجر: ﴿الٓر﴾ ثم قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: آية ١] وهكذا في سائر القرآن إلا في سورة مريم والقلم حيث أتبع الحروف المقطعة في سورة مريم في قوله: ﴿كٓهيعٓصٓ ①﴾ بقوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ②﴾ [مريم: الآيتان ١، ٢] وقال في القلم: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ①﴾ [القلم: آية ١] مع أن هذه يُحتمل أن المراد بـ ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ هو هذا القرآن العظيم؛ لأنه أعظم ما يُسطر فيكون في مريم فقط.

وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: الآية ٢] أكثر العلماء على أن الكتاب خبر مبتدأ محذوف[1]، وحذف المُسند إليه إذا دل المقام عليه نوع

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/٢٩٥)، الدر المصون (٥/٢٤١).

من الإيجاز معروف مقبول في النحو، وفي المعاني، لا اختلاف فيه. وهذا هو الأظهر، أن قوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف: هذا كتاب أُنزل إليك. خلافاً لمن زعم أن ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ اسم لهذه السورة، وأنه في محل مبتدأ، وأن ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبره[1]، والمعنى: السورة المسماة ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ كتاب أُنزل إليك. والقرآن يطلق على كل سورة منه أنها كتاب وأنه كتب عديدة؛ لأنه مكتوب في صحف كثيرة، كما بينه تعالى في سورة البينة حيث قال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة: الآيتان ٢، ٣] فعبر عن القرآن بأنه كتب قيمة. ولكن الأظهر هو ما عليه الجمهور: أن قوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف: هذا كتاب. والكتاب (فِعال) بمعنى: (مفعول) والمعنى: كلام الله مكتوب. فالكتاب بمعنى المكتوب. وإنما قيل له كتاب: لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال الله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج: الآيتان ٢١، ٢٢] ومكتوب في صحف بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥﴾ [عبس: الآيتان ١٣ ـ ١٥] وكون الكتاب بمعنى المكتوب هو (فِعَال) بمعنى (مفعول).

والقرآن وإن كان مكتوباً في اللوح المحفوظ فنزوله على النبي ﷺ ليس أن جبريل ينظر في اللوح المحفوظ[2]، بل الله (جل وعلا) يكلم جبريل بما يريد إنزاله من أنجم القرآن، فيسمعه جبريل من كلام الله على الوجه اللائق بكمال الله وجلاله. وإذا تكلم الله بوحيه صعق أهل السماوات من عظمة كلام رب العالمين (جل وعلا) كما جاء مبيناً في الأحاديث الصحيحة[3]، وأول من

---

(١) انظر: القرطبي (٧/١٦٠)، الدر المصون (٥/٢٤١).

(٢) للشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ رسالة بعنوان: (الجواب الواضح المستقيم في التحقيق في كيفية إنزال القرآن الكريم) رد فيها على من زعم أن جبريل (عليه السلام) أخذ القرآن من اللوح المحفوظ، وقد طُبعت مستقلة، كما أنها ضمن المجموع في فتاواه (١/٢١٤).

(٣) من حديث النواس بن سمعان، وابن مسعود، وأبي هريرة مرفوعاً إلى النبي ﷺ. وقد جاء عن ابن عباس، والضحاك، والشعبي مختصراً. كما جاء عن ابن مسعود موقوفاً. وقد خرجت جميع هذه الروايات في الدراسة التي وضعتها على مناهل العرفان (١/٢٥٣ ـ ٢٥٤)، فراجعه إن شئت.

يرفع رأسه منهم جبريل، فيقولون: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير. فيسمعه جبريل من كلام رب العالمين، يتكلم به الله على الوجه اللائق بكماله وجلاله، المخالف لكلام خلقه من جميع الجهات، ثم يأتي جبريل فيكلم به الرسول ﷺ. وأنواع الوحي بينها النبي ﷺ في الأحاديث بكثرة.

ولما كان هذا القرآن مكتوباً في اللوح المحفوظ، وفي الكتب عند الملائكة سُمي الكتاب. وقال الله فيه هنا: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ والكتاب (فِعَال) بمعنى (مفعول)، أي: مكتوب، وإتيان (الفِعَال) بمعنى (المفعول) مسموع في كلام العرب وليس قياساً مطرداً، وتوجد في العربية منه أوزان معروفة، ككتاب بمعنى: مكتوب، وإله بمعنى: مألوه، أي: معبود، ولباس بمعنى: ملبوس، وإمام بمعنى: مؤتم به. فكلها (فِعَال) بمعنى اسم المفعول.

وأصل مادة الكاف والتاء والباء (كتب) أصل هذه المادة في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناها الضم والجمع[1]، فكل شيء ضممت بعض أجزائه إلى بعض فقد كتبته، ومنه قيل للكبكبة من الجيش: (كتيبة) لأنها طائفة من الجيش جُمع بعض أطرافها إلى بعض، كما قال نابغة ذبيان[2]:

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم بهنَّ فلولٌ من قِرَاعِ الكتائبِ

ولذلك قيل للخياطين: (كاتبين) فالعرب تسمي الخائط كاتباً، وتسمي الخياطة كتابة؛ لأن الخياط يضم أطراف الثوب بعضها إلى بعض، وكذلك الخراز تسميه العرب كاتباً؛ لأنه يضم بعض أطراف الجلد إلى بعض ويخرزها فيجمعها بالسير، فقيل له: كاتب؛ لأنه ضم بعض الأجزاء إلى بعض. وفي لُغَز الحريري في مقاماته[3]:

وكاتبين وما خطَّتْ أَنَامِلُهم حرفاً ولا قرؤوا ما خُط في الكتُب

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

يعني بهم الخياطين؛ ولذا تسمي العرب الخُرْزَة الذي يجمع السير وجهيها تسميها (كُتبةْ) وتسمي السير أيضاً الذي يجمعها (كُتبةْ) (فُعلةْ) من الكَتْب بمعنى الضم والجمع. ومن هذا المعنى وهو تسمية الخُرْزَة التي يجمع السير طرف وجهيها في خياطة الجلود أنها تسمى (كُتْبَة) وتجمع على (كُتَب) بضم الكاف وفتح التاء، ومن هذا المعنى: قول غيلان ذي الرمة[1]:

ما بالُ عينيك منها الماءُ ينسكبُ كأنه من كُلا مَفْرِيَّة سَرَبُ
وَفْرَاءَ غَرْفِيَّةٍ أَثْأَى خَوَارِزَهَا مُشَلْشَلٌ ضَيَّعَتْهُ بينها الكُتَبُ

يعني أن دمعه يسيل بكثرة؛ كما أن الخُرَز إذا اتسعت عن السير وصارت فيها فجوات انصب الماء منها من السقاء بكثرة؛ ولذا كانت العرب تقول: «اكْتُب بغْلتك، واكْتُب ناقتك». يعنون: أن يجمع طرفي فرجها بحلقة لئلا يُنْزَىٰ عليها الذكر فتحمل. وكان يقول الشاعر يهجو بني فزارة من قبائل ذبيان من قيس عيلان بن مضر، كانت العرب تعيرهم بأنهم كانوا يفعلون الفاحشة مع إناث الإبل، وكان الشاعر يقول[2]:

لا تأمنَنّ فَزَار يا خَلَوْتَ به على قلوصِكَ واكتُبها بأَسْيَار

يعني: خِطْ فرجها بأسيار لئلا يزنى بها إن خلا بها. وقصدنا بهذا الكلام الخبيث بيان لغة العرب، لا المعاني الخسيسة التافهة؛ لأن معاني لغة العرب يُستفاد منها ما يعين على فهم كتاب الله وسنة رسوله، وإن كان مُفْرَغاً في معاني خسيسة تافهة فنحن نقصد مطلق اللغة لا المعاني التافهة التي هي تابعة لها. إذا عرفتم هذا فالكتابة مصدر سيال، سُميت كتابة لأن الكاتب يضم حرفاً إلى حرف، ويجمع حرفاً مع آخر، وحرفاً مع آخر، حتى تحصل من هذا نقوش وحروف تدل على معاني الكلام؛ ولهذا سُمي الكتاب كتاباً.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

وقوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الجملة الفعلية في قوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ في محل النعت لقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ لأن[١] النكرات تُنعت بالجمل، ويربط بينها وبين النكرة بالضمير كما هو معروف. وفاعل الإنزال محذوف، والأصل: أنزله الله إليك، وإنما حذف الفاعل اختصاراً؛ لأن من المعلوم أن هذا القرآن العظيم المُعجز الجامع لكل خير الشامل لعلوم الأولين والآخرين ليس هناك من يقدر على إنزاله إلا خالق السماوات والأرض. ولما كان المُنْزِل معلوماً كان هذا الاختصار والإيجاز واقعاً موقعه؛ لأن الفاعل معروف، فلو حُذف لما ضر حذفه؛ ولذا قال: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: أنزله الله إليك. وقد أنزله الله إليه أنجماً، منجماً في حوالي ثلاث وعشرين سنة.

وقوله: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ يعني: هذا الكتاب أنزله الله إليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين، فاللام في قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ - الآتي - يتعلق بقوله: ﴿أُنزِلَ﴾[٢] يعني: أُنزل إليك لأجل أن تُنذر به وأن تُذكر به، فلا تعجز عن ذلك الإنذار، ولا يضق صدرك عنه.

﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ صدر الإنسان معروف، وإذا جاء على الإنسان أمر يثقل عليه أو يشق عليه أورثه ضيقاً في صدره، والنبي ﷺ كان يشق عليه ويضيق بصدره التبليغ من حيث إن الكفار يكذبونه ويقولون له: أنت كذاب، أنت ساحر، أنت شاعر، أنت كاهن، هذه أساطير الأولين عَلَّمَكَها بشر. فتكذيبهم له وأذيتهم له يشق عليه، كما قال الله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر: آية ٩٧] وقال: ﴿**قد نعلم إنه لَيحزنُكَ**﴾ [الأنعام: آية ٣٣] وفي القراءة الأخرى: ﴿لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾[٣] أي: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ أي: ضيق. يعني: أَوْسِع صدرك، وتحمل الأذى، وشُقَّ الطريق في تبليغ هذا القرآن العظيم، والإنذار به، والتذكير به، لا تضعف، ولا تجبن، ولا تخف من الأذى، ولا يضق صدرك به.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) انظر: الدر المصون (٢٤٢/٥).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٣) من سورة الأنعام.

والحرج في كلام العرب - أصله معروف في كلام العرب أن الحرج في لغة العرب[١]: الضيق. وقد يُسمون الشجر الملتف الذي لا تصل إليه راعية يسمونه: (حَرَجَة) لضيق مكانه. وقد كانوا يقولون في قصة غزوة بدر: «فإذا أبو جهل كالحَرَجَة» - يعني لشدة ازدحام قريش عليه وصيانتهم له - يقولون: أبو الحكم لا يُخلص إليه[٢] كالشجرة الملتف عليها الشجر لا يمكن أن يُوصل لها. هذا أصل (الحرج) في لغة العرب الضيق. وقد بيناه في قوله: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: آية ١٢٥] ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرِجاً﴾ وكون (الحرج) هو: الضيق، هذا هو المعروف في لغة العرب، ومنه قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: آية ٧٨] أي: ما جعل عليكم من ضيق. وأحرجه. أوقعه في الحرج؛ ولذا سُميت الطلقات الثلاث (المُحَرِّجَات) لأنها تُضَيِّق على صاحبها وتمنعه من رجعة امرأته. واليمين قد تكون مُحَرِّجة لأنها تمنع من المحلوف عليه. وهذه المعاني معروفة في كلام العرب، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة، أو جميل بن معمر، على الخلاف المعروف في الشعر المشهور[٣]:

قالت: وعيشِ أبي وحُرمةِ إخوتي   لأُنَبِّهَنَّ الحي إن لم تَخْرُجِ
فخرجتُ خوف يمينها فتبسَّمَت   فعَلِمْتُ أن يمينها لم تُحْرَجِ

أنها يمين ليست مُضَيِّقة، وأنها كلا شيء. وكذلك قول العَرْجِي بن عمر بن عثمان[٤]:

عوجي علينا ربة الهودجِ   إنك إلاَّ تفعلي تُحْرِجي

(١) انظر: المفردات (مادة: حرج) ص٢٢٦، اللسان (مادة: حرج) (٥٩٩/١).
(٢) السيرة لابن هشام ص٦٧٤.
(٣) البيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٨٣، عيون الأخبار (٩٣/٤)، الأضواء (٢٨٦/٢).
(٤) البيت في عيون الأخبار (٩٠/٤)، الأضواء (٢٨٦/٢). قال ابن قتيبة: «هو عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان، وكان ينزل بموضع قبل الطائف يقال له: العرج، فنُسب إليه» ا.هـ الشعر والشعراء ص٣٨٦.

يرويه كثير ممن رواه: (إنك إلَّا تفعلي تَخرجي) أي: تقعي في الحرج الذي هو الإثم والضيق بالذنوب. والأظهر أن أصله (تُحْرِجِي) أي: توقعي صاحبك في حرج وضيق، حيث هجرتِهِ. هذا أصل الحرج في لغة العرب. وعليه فالآية كقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ [هود: آية ١٢] وكقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: آية ٦] وروي هنا عن جماعة من كبار المفسرين أن الحرج في هذه الآية: الشك[1] أي: فلا يكن في صدرك شك منه أنه مُنزلٌ من الله (جل وعلا). وعلى هذا فالآية كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: آية ١٤٧] أي: من الشاكين، وقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: آية ٩٤]. وتفسير الحرج في آية الأعراف بالشك في هذا الموضع قال به جماعة من أجلاء المفسرين. وعلماء العربية يقولون: إنه ـ مع أنه رُوي عن بعض أجلاء أهل التفسير أنه ـ سائغ في اللغة العربية؛ لأن الشاك قلق صدره ضيق لا يميل إلى طرف الإثبات ولا إلى طرف النفي. ومما يؤيد هذا: أن الريب في جميع القرآن معناه: الشك. كقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: آية ٢] أي: لا شك فيه. مع أن أصل الريب في لغة العرب: مصدر رابه، يريبه، ريباً إذا أزعجه وأقلقه. وفي حديث: أن النبي ﷺ وهو محرم رأى ظبياً حاقفاً[2] فقال: «**لا يريبه أحد**»[3] يعني: لا تزعجوه، ولا تقلقوه، ولا تنفروه؛ لأنكم محرمون لا يجوز لكم إزعاج الصيد. ومن هذا المعنى قول توبة بن الحُمَيِّر[4]:

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/١٠٣ ـ ١٠٧)، (٢٩٥ ـ ٢٩٦)، الأضواء (٢/٢٨٥ ـ ٢٨٦).

(٢) أي: نائماً قد انحنى في نومه.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ص٢٤١، حديث رقم (٧٨٥)، والنسائي في الحج، باب ما يجوز للمحرم أكله من الصيد. حديث رقم (٢٨١٨)، (٥/١٨٢ ـ ١٨٣)، وانظر: صحيح النسائي (٢/٥٩٤).

(٤) البيت في اللسان (مادة: برقع) (١/٢٠٠).

وكنتُ إذا ما جئتُ ليلى تَبرقَعَت فقد رابني منها الغَدَاة سفُورُها

رابني: يعني أزعجني وأقلقني؛ لأن أهلها كانوا شَكَوه إلى الوالي فأهدر دمه إن زارها، وكان إذا جاءها لبست برقعها عنه، فأنذروها وأنها إن أعلمته فعلوا بها وفعلوا، فلما زارها سفرت وكشفت عن وجهها، فشرد توبة بن الحُميِّر هارباً وقال:

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها

فعلم أنها ما كشفت عن وجهها إلا لأن النار تحت الرماد. والشاهد أن قوله: (فقد رابني منها) أزعجني وأقلقني، وأن الريب أصله الإزعاج والإقلاق، وهو في القرآن يطلق على الشك؛ لأن نفس الشاك غير مطمئنة، بل هي قلقة مضطربة لا تدري أتميل إلى طرف النفي أو إلى طرف الثبوت. وهذا معنى قوله: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾.

وقوله: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ التحقيق أنها لام كي المعروفة بلام التعليل، والفعل منصوب بأن مضمرة بعدها، وهي تتعلق بقوله: ﴿أُنزِلَ﴾[١] يعني: أنزل إليك هذا الكتاب لأي حكمة أُنزل إليك؟ ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ أصله مضارع أنذره ينذره إنذاراً، والإنذار في لغة العرب التي نزل بها القرآن هو خصوص الإعلام المقترن بتهديد خاصة وتخويف. فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً؛ لأن الإنذار: الإعلام المقترن بتخويف وتهديد خاصة[٢]. وأصل ماضي هذا الفعل: (أنذر) بالهمزة، وكان لو جرى على الأصل لقيل: «لتأنذر به» لكن[٣] القاعدة المقررة في فن التصريف أن كل فعل بُني ماضيه على (أَفْعَل) أن همزة (أَفْعَل) تحذف وجوباً بقياس مطرد في مضارعه، واسم فاعله، واسم مفعوله. ومفعول الإنذار هنا محذوف، وقد دل عليه التفصيل. أي: لتنذر به

(١) انظر: الدر المصون (٥/٢٤٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٦ ـ ٧٧) من سورة البقرة.

الكفار المتمردين العاتين، وتذكر به المؤمنين[١]. فالقرآن إنذار لقوم تمردوا وعتوا، وتذكرة وبشرى لقوم آخرين كقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: آية ٩٧] والمعنى: أنزلنا إليك هذا الكتاب لتخوف به الخلق الذين كذبوه ولم يتبعوه.

وفي هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات زواجر عظيمة ينبغي لنا أن نعتبرها؛ لأن خالقنا (جل وعلا) بين لنا في أول هذه السورة الكريمة - سورة الأعراف من هذا المحكم المنزل الذي هو آخر كتاب نزل من السماء على آخر نبي بعثه الله في أرضه (صلوات الله وسلامه عليه) - قال: إنه أنزل عليه هذا الكتاب ليخوف به الخلق من عقوبات خالق السماوات والأرض وسخطه، فإنه الجبار الأعظم الذي إذا سخط عاقب العقوبة المهلكة المستأصلة. فبهذا يجب علينا أن نتأمل في معاني القرآن، ونعرف أوامر ربنا التي أمرنا بها فيه، ونواهيه التي نهانا عنه، ونخاف من هذا الإنذار والتهديد الذي أُنزل هذا القرآن على الرسول ليفعله بمن لم يعمل بهذا القرآن العظيم. فالإنسان يجب عليه أن يتدبر هذا القرآن العظيم، وينظر أوامره، وينظر نواهيه، ويعمل بما فيه من الحلال والحرام، فالحلال ما أحله الله في هذا القرآن وبينته السنة الكريمة، والدين ما شرعه الله؛ لأنه لا حكم إلا لله، فكل الأحكام هي لله، والتشريع لله، والتحليل والتحريم لله، وقد أنزل علينا هذا الكتاب ليخوفنا إذا لم نعمل بما فيه من العبر والآيات، فَنُحل حلاله، ونُحرم حرامه، ونعتقد عقائده، ونعمل بمحكمه، ونؤمن بمتشابهه، ونعتبر بما فيه من الأمثال، وتلين قلوبنا لما فيه من المواعظ وضروب الأمثال. فهذا الإنذار لا ينبغي للمسلم أن يهمله ويعرض عنه صفحاً.

وقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذكرى هنا مصدر مؤنث تأنيثاً لفظياً بألف التأنيث المقصورة. وأصله بمعنى: التذكير، أي: لأجل الإنذار لمن عتى وتمرد، وللتذكير للمؤمنين العاملين به. والذكرى: هي الاتعاظ؛ لأن

---

(١) انظر: أضواء البيان (٢/٢٨٦).

المؤمنين يذكرهم فتنفعهم الذكرى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: آية ٥٥].

وقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ في محل إعرابه ثلاثة أوجه معروفة[١]: أظهرها: أنه في محل خفض معطوف على ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ أي: للإنذار وللتذكير. ويجوز أن يكون منصوباً عطفاً على محل ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ لأنه وإن جُر فهو في معنى مفعول لأجله. ويجوز أن يكون مبتدأ، ويكون ـ أي: يجوز ـ معطوفاً على قوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ كتاب أنزلناه إليك، وذكرى للمؤمنين أنزلناها إليك. والأول هو الأظهر.

والمؤمنون: عباد الله المصدقون بقلوبهم تصديقاً تساعده جوارحهم، فيكون القلب مصدقاً وتظهر آثار ذلك التصديق على الجوارح، بأن تطيع الله، وتمتثل أمره، وتجتنب نهيه. فالإيمان في لغة العرب يطلق على التصديق[٢]، ومنه ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي: بمصدقنا في أن يوسف أكله الذئب ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: آية ١٧]. وهو في اصطلاح الشرع[٣]: التصديق من جهاته الثلاث: وهو تصديق القلب بالاعتقاد، وتصديق اللسان بالإقرار، وتصديق الجوارح بالعمل. فالإيمان قول وعمل، ينقص ويزيد بحسب الأعمال الصالحة وعدمها على مذهب أهل السنة والجماعة الذي دلت عليه نصوص الوحي في القرآن والأحاديث الصحيحة بكثرة، كقوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: آية ٤] ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: آية ٢] وما جرى مجرى ذلك من النصوص، وفي الحديث الصحيح: «**إن الإيمان بضع وسبعون**» وفي بعضها: «**وستون شعبة أعلاها: شهادة إن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[٤] وقد سمى النبي ﷺ في الحديث الصحيح إماطة الأذى عن الطريق إيماناً، وقد سمى الصلاة إيماناً في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: آية ١٤٣]

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٢٤٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٤) السابق.

أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل نسْخ القبلة إليه. وهذا معنى قوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولما بيَّن (جل وعلا) أنه أنزل هذا الكتاب العظيم على هذا النبي الكريم، وأنه أنزله عليه لينذر به ويُذَكِّر، وأنه يجب على أمته أن تَأْتَسِي به في الإنذار بالقرآن والتذكير به، أَمَر من ذُكِّروا وأنذروا ـ أمرهم ـ بما ينبغي أن يفعلوا حول ذلك الإنذار والتذكير الذي بعث به رسوله ﷺ فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٣] هذا الأمر للوجوب بإجماع العلماء، وصيغة (افعل) وإن اختلف فيها علماء الأصول هل هي تقتضي الوجوب، أو تقتضي الندب، أو تقتضي مطلق الطلب الصادق بالندب والوجوب، أو إن كانت في القرآن اقتضت الوجوب، وإن كانت في السنة اقتضت الندب. هذه الأقوال وإن ذكرها علماء الأصول[1] فالصحيح المعروف الذي دل عليه الشرع الكريم واللغة التي نزل بها القرآن: أن صيغة (افعل) إذا جاءت في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ كانت مقتضية لوجوب الامتثال، إلا أن يدل دليل آخر صارف عن ذلك الوجوب، ويكون ذلك الدليل يجب الرجوع إليه. والأدلة على هذا كثيرة: منها أن الله لما قال للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: آية ٣٤] كانت لفظة ﴿اسْجُدُوا﴾ صيغة أمر، وهي لفظة (افعل) ومعروف أن المقرر في المعاني وفي أصول الفقه: أن الصيغ الدالة على الأمر التي تقتضي الوجوب أنها أربع صيغ لا خامسة لها[2]:

الأولى منها: فعل الأمر الصريح، نحو: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [الإسراء: آية ٧٨] وقوله هنا: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٣].

والثاني: اسم فعل الأمر، نحو: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ [المائدة: آية ١٠٥].

والثالث: الفعل المضارع المجزوم بلام الأمر، نحو: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: آية ٦٣] ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: آية ٢٩].

---

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المذكرة في أصول الفقه ص١٨٨، نثر الورود (١/١٧٦)، الأضواء (٥/٢٣٣).

والرابعة: هي المعروفة عند النحويين بالمصدر النائب عن فعله، نحو قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: آية ٤] يعني: فاضربوا رقابهم. وكقول هند بنت عتبة يوم أُحد لما انهزم المشركون هزيمتهم الأولى، وقُتل حَمَلَة اللواء من بني عبدالدار، وبقي لواء قريش طريحاً حتى رفعته عمرة بنت علقمة الحارثية التي يقول فيها حسان(١):

ولولا لواءُ الحارثيةِ أصبحوا يُباعونَ في الأسواق بَيْعَ الجلائبِ

عند ذلك قالت هند بنت عتبة بن ربيعة العَبْشَمِيَّة:

صبراً بني عبدالدار
صبراً حماة الأدبار
ضرباً بكل بتَّار(٢)

فكل هذه المصادر مصادر نابت عن أفعالها، ففيها معنى الأمر. تعني: اصبروا يا بني عبدالدار، واضربوا بكل بتَّار. هذه هي صيغ الأمر.

وقد دل القرآن والسنة ولغة العرب على أن صيغة (افعل) تقتضي الوجوب، فمن الدليل على ذلك: أن الله لما قال للملائكة: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ [البقرة: آية ٣٤] كانت ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ صيغة (افعل) فلما امتنع إبليس وبَّخه وحكم عليه بالعصيان وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ موبِّخاً له. فدل على أن عدم امتثال صيغة الأمر أنه معصية. ويؤيد ذلك أن نبي الله موسى قال لأخيه هارون لما أراد السفر إلى الميقات، قال لأخيه هارون: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٢] وهذه صيغة أمر، فلما ظن أنه لم يتبعها قال: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [طه: آية ٩٣] فصرح بأن مخالفة صيغة (افعل) معصية. ومن الأدلة على ذلك أن الله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: آية ٦٣]، وقد قال جل

---

(١) ديوان حسان ص٢٩، السيرة لابن هشام ص٨٥٩.
(٢) السيرة لابن هشام ص٨٤٦.

وعلا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن تكون لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [الأحزاب: آية ٣٦] وفي القراءة الأخرى: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(١)، ومن قضائه للأمر هو أن يقول: (افعل كذا) فدلت آية الأحزاب هذه على أن أمره تعالى قاطع للاختيار، موجب للامتثال، والأدلة بهذا كثيرة.

ووجه دلالة اللغة العربية على أن صيغة (افعل) تقتضي الوجوب: أن السيد المالك لعبد لو قال لعبده: (اسقني ماءاً) فامتنع العبد ولم يسق سيده فأدبه وضربه أن عامة أهل اللسان يقولون: إن هذا العتاب واقع موقعه. فلو قال العبد للسيد: أنت ظلمتني بعقابي هذا؛ لأن قولك (اسقني) صيغة (افعل) وهذه لا تُوجب ولا تلزم شيئاً!! لقال له أهل اللسان العربي: كذبت يا عبد، بل الصيغة ألزمتك، ولكنك امتنعت، فلسيدك أن يعاقبك. هذا وجه دلالة اللغة العربية على ما ذكرنا.

وعلى كل حال فقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هذا الأمر واجب بإجماع العلماء، فيجب على كل مسلم أن يتبع ما أنزله الله في هذا القرآن الكريم على سيد الخلق ﷺ. والسنة جميعها إنما هي قطرة من بحر القرآن العظيم؛ لأن القرآن بحر لا ساحل له، والسنة قطرة من بحره؛ لأن جميع ما جاء في سنة رسول الله يدخل في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: آية ٧] والعمل بما جاء عن رسول الله عمل بالقرآن العظيم، وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود (رضي الله عنه) أنه جاءته امرأة تسأله عن ابنتها يريدها زوجها أن تُزف إليه، وقد تمعَّط شعرها، يعني: سقط شعرها، والشعر جمال المرأة، فهي تريد أن تصل شعر رأسها بشيء تجملها به لزوجها. فذكر ابن مسعود أن الواصلة شعرها بشعر غيرها ملعونة في كتاب الله. فجاءته المرأة بعد ذلك وقالت له: لقد قرأت ما بين اللوحتين أو ما بين الدفتين فلم أجد لعن الواصلة في كتاب الله!! فقال لها: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه، أوَمَا قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ قالت: بلى. قال: هو ﷺ لعن

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٥٨.

الواصلة[١]. وهذا مما يدل على أن كل ما في سنة رسول الله فالعمل به عمل بكتاب الله.

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فعلى جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يعملوا بهذه الأوامر السماوية المنزلة من خالق السماوات والأرض، الذي فتح أعينهم في وجوههم، وصبغ لهم بعضها بصبغ أسود، وبعضها بصبغ أبيض، وفتح لهم آنافهم وأفواههم، وأعطاهم الألسنة، وأنبت لهم الأسنان، وشق لهم المحل الذي ينزل عنهم منه البول والغائط، وفتح لهم العروق والشرايين ليجري فيها الدم، فهذا لو لم يثقبه رب العالمين ويفتحه لما قدر أحد على أن يثقبه!! هذا الذي هذه عظمته، وهذا سلطانه وقدرته عليكم يأمركم بوحيه المنزل من فوق سبع سماوات أن تتبعوا أوامره ونواهيه التي أنزلها على رسله، ولا تتبعوا أولياء غيره (جل وعلا)، ولا تشريعات غير شرعه (جل وعلا)، فيجب على جميع المسلمين أن يعلموا أن الحلال هو ما أحله الله، والحرام هو ما حرمه الله، والدين هو ما

---

(١) هنا وقع للشيخ (رحمه الله) وَهْمٌ حيث أدخل حديثاً في حديث آخر؛ ذلك أن حديث ابن مسعود في أنه لعن النامصات.. إلخ، فراجعته امرأة من بني أسد محتجة بأنها لم تجد هذا اللعن في كتاب الله وهذا الحديث أخرجه البخاري في التفسير، باب (وما آتاكم الرسول فخذوه) حديث رقم (٤٨٨٦)، (٨/٦٣٠)، وأخرجه في مواضع أخرى انظر: الأحاديث (٤٨٨٧، ٥٩٣١، ٥٩٣٩، ٥٩٤٣، ٥٩٤٨)، ومسلم في اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة. حديث رقم (٢١٢٥)، (٣/١٦٧٨).
وأما المرأة التي سألت عن وصل شعر ابنتها: فهي امرأة من الأنصار سألت النبي ﷺ عن ابنة لها زوَّجتها فمرضت فتساقط شعرها، قالت: أفأصل شعرها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لعن الله الواصلة....» إلخ.
وقد روى هذا الحديث من الصحابة:
١ ـ عائشة (رضي الله عنها) وقد أخرجه البخاري في اللباس، باب: وصل الشعر. حديث رقم: (٥٩٣٤)، (١٠/٣٧٤). وطرفه في (٥٢٠٥). ومسلم في اللباس والزينة، باب: تحريم فعل الواصلة والمستوصلة. حديث رقم: (٢١٢٣)، (٣/١٦٧٧).
٢ ـ أسماء (رضي الله عنها) وقد أخرجه البخاري في اللباس، باب: وصل الشعر. حديث رقم: (٥٩٣٥)، (١٠/٣٧٤). وطرفاه: (٥٩٣٦، ٥٩٤١). ومسلم في اللباس والزينة، باب: تحريم فعل الواصلة والمستوصلة. حديث رقم: (٢١٢٢)، (١٦٧٦).
هذا وقد ورد في لعن الواصلة أحاديث أخرى منها حديث ابن عمر وحديث أبي هريرة (رضي الله عنهما) وهما في الصحيحين.

شرعه الله، والمُتَّبَعُ هو نظام الله الذي أنزله في هذا القرآن على سيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه). فالذين يتمردون على هذا الأمر ويسمعون في القرآن: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ويقولون: لا، لا يمكن أن نتبع ما أُنزل إلينا من ربنا بل نتبع قانون نابليون، أو قانون فلان، أو فلان من القوانين الوضعية المستوردة المتمردة على نظام خالق السماوات والأرض!! هذا أمر لا يليق، وصاحبه ليس من الإيمان في شيء؛ لأن هذا الكون ليس فوضىٰ، وإنما له خالق جبار ملك عظيم قهار خالق كل شيء، وبيده كل شيء، وإليه مرجع كل شيء، ولا يقبل أبداً ولا يرضى أبداً أن يُتبع شيء إلا الشيء الذي أنزل هو (جل وعلا) على رسوله الكريم لينذر به ويذكر به المؤمنين. فهذا هو الذي ينبغي أن يُتبع، وهو نظام السماء الذي يحفظ لبني آدم في دار الدنيا أديانهم أتم الحفظ، ويحفظ لهم أنفسهم، ويحفظ لهم عقولهم، ويحفظ لهم أنسابهم، ويحفظ لهم أموالهم، ويحفظ لهم أعراضهم، إلى غير ذلك من مقوماتهم الدينية والدنيوية، فيجب اتباعه وعدم العدول عنه إلى غيره.

وبهذا تعلمون أن من يقوم ويعلن في وقاحة أمام جميع الدنيا أنه لا يتبع ما أنزله الله إلى سيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه)، والله يأمر باتباع ما أنزل وترك اتباع غيره، وهو يعلن إذا كان رئيساً لقوم باسم الذين يزعم أنه ممثلهم أنه لا يحكم بما أنزل الله، ولا يتبع ما أنزل الله، بل يحكم بقانون آخر وضعي وضعه زنادقة كفرة فجرة مظلمة قلوبهم، هم في أصل وضعه عالة على علماء المسلمين، زنادقة كفرة فجرة، يرغب عن تنزيل رب العالمين المأمور باتباعه فيذهب إلى وضع الخنازير الكفرة الفجرة، يعتقد أنه هو الذي ينظم علاقات الحياة، زاعماً أن القرآن تقاليد قديمة، وأن ركب الحضارة تطور عنها، وأن الدنيا تطورت في أحوالها الراهنة تطوراً بعد نزول القرآن لا يمكن أن ينظمها القرآن!! فهذا كلام الفراعنة الجهلة المتمردين على نظام السماء. ولا يوجد في الدنيا نظام يضبط علاقات الخلق، وينشر الطمأنينة والرخاء والعدالة مثل نظام السماء الذي وضعه خالق السماوات والأرض (جل وعلا). والقرآن بين لنا في آيات كثيرة أن الذي يتمرد على هذا الأمر في آية سورة الأعراف: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ولم يتبع ما أُنزل إليه من ربه، واتبع القوانين والنُّظم الوضعية بين لنا في غير ما آية أنه كافر، وأن ربه الشيطان، وأن مصيره إلى النار خالداً مخلداً.

١/ب /[والآيات القرآنية الدالة علىٰ هذا كثيرة جداً، من ذلك ما بيناه مراراً: أن إبليس عليه لعنة الله، لما جاء تلامذته وإخوانه من أهل مكة، وأراد أن يُهيىء لهم وحي الشياطين ليجادلوا به النبي ﷺ، قال لهم: سلوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ فلما أخبرهم أن الله هو الذي قتلها، قالوا له من وحي الشيطان: ما ذبحتموه بأيديكم ـ يعنون المذكاة ـ تقولون: حلال، وطاهر، وطيب مستلذ، وما ذبحه الله بيده الكريمة ـ يعنون الميتة، أن الله قتلها ـ تقولون: هو حرام، ميتة، مستقذر، فأنتم إذاً أحسن من الله!! وأنزل الله في وحي الشياطين جواباً لنبيه عنه قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] يعني: الميتة، وإن زعم أولياء الشيطان أنها ذبيحة الله، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ أي: وإن أكل الميتة لفسق، وخروج عن طاعة الله، ثم قال ـ وهو محل الشاهد ـ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وإن أطعتموهم في تحليل الميتة إنكم لمشركون.

اعلم أن تحليل الميتة وتحريمها ليس عقيدة من العقائد، ولا أصلًا من الأصول، وإنما هو فرع من الفروع. مضغة لحم شرّع الله علىٰ لسان نبيه تحريمها؛ لأنها ماتت ولم يُذكر عليها اسم الله، وشرّع إبليس علىٰ لسان أوليائه تحليلها، فهذا نظام إبليس، وهو تحليل الميتة، وهذا نظام خالق السماوات والأرض الذي شرعه على لسان نبيه. الله يقول: هذه ماتت حتف أنفها، ولم تُذَكَّ ولم يُذكر اسم الله عليها. والشيطان يُشرّع بفلسفته ويقول:][1] الحلال ما قتله الله، وهو ذبيحة الله، وأن المذكاة التي سُمي عليها الله أنها ليست أحل من الجيفة؛ لأنكم أنتم الذين قتلتموها، وقَتْل الله أحل من قتلكم!! هذا وحي الشيطان، وفلسفة الشيطان، يريد أن يحلل لحم الميتة!! ونظام السماء يحرم لحم الميتة على لسان الرسول مأموراً بقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ومنه تحريم الميتة، أنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] يعني: الميتة، وإن زعم أولياء الشيطان وأتباعه الذي يوحي إليهم أنه ذبيحة الله بسكين من ذهب، وأنه أحل

(١) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل وتم استدراك النقص مما سبق عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

من ذبيحة المسلمين. قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي: خروج عن طاعة خالقكم. ثم قال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ يُعنى بـ (وحي الشيطان): قوله: ما ذبحتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذاً أحسن من الله!! ثم قال: وهو محل الشاهد: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] هذا فَصْلُ الله (جل وعلا) بين المتحاكمين إلى قانون الشيطان والمتحاكمين إلى قانون الرحمٰن، فقد اختصم أتباع الشيطان وأتباع رسل الرحمٰن في مضغة من لحم: هي لحم الميتة. فقال أتباع الشيطان: إنه حلال. واستدلوا على ذلك بوحي الشياطين: أنها إنما قتلها الله، وما قتله الله ذبيحة الله، وذبيحة الله أحل من كل شيء. هذا وحي الشيطان وتشريع الشيطان وإلقاء الشيطان إلى أتباع الشيطان. ثم إن الذي أنزل الرحمٰن على رسل الرحمٰن أن الميتة التي ماتت ولم تُذَكَّ ولم يذكر اسم الله عليها أنها ميتة يحرم أكلها ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فهذه طائفة الشيطان تتبع قانونه ونظامه: أن هذا اللحم حلال!! وهذه طائفة أتباع رسل الرحمٰن تحكم بأن هذا اللحم حرام بتشريع خالق السماوات والأرض، ثم هذا فَصْلُ الله وحكمه بين الطائفتين، قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] وإن أطعتموهم في تشريع إبليس، واتباع قانونه ونظامه في تحليل الميتة إنكم لمشركون بخالق السماوات والأرض؛ لأن التحريم والتحليل لا يكون إلا للسلطة العليا التي لا يمكن أن تكون فوقها سلطة، وحكم الله هو كعبادته، فكما أنه يجب إفراده في عبادته يجب إفراده في حكمه؛ ولذا قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ١١٠] وقال: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ٢٦] فجعل الحكم كالعبادة. وفي قراءة ابن عامر ـ كبير القراء، قارىء أهل الشام ـ: ﴿ولا تُشركْ في حكمه أحدا﴾[1] أي: لا تشرك أيها العبد في حكم ربك أحداً، فالحكم لله؛ لأن الحكم لا يمكن أن يكون إلا للأعظم الأكبر الأجل الذي ليس فوقه ولا أجلَّ منه شيء، كما قال تعالى:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من سورة الأنعام.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: آية ١٢] فقوله: ﴿ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ هي مُمَيِّزة لمن يستحق أن يكون الحكم له، فإن كان الطواغيت الذين يتبع الخفافيشُ تعليمهم وأحكامهم هم العَلِيُّون الأكبرون فليتقدموا، وإن كانوا هم الأصاغر الأخسون الأذلون فليعلموا أن الحكم ليس إليهم وإنما هو للعلي الكبير خالق السماوات والأرض جل وعلا.

وقوله في هذه الآية: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] هذا الشرك هو شرك أكبر مخرج عن الملة بإجماع المسلمين، فمن زعم أن الميتة حلال، وأنها ذبيحة الله، وأن وحي الشيطان حق، وأن نظامه أحق أن يُتبع، فإنه كافر بإجماع المسلمين، كما صرح الله بقوله: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ وهذا الشرك هو شرك أكبر مخرج عن الملة. وهؤلاء المشركون المتبعون قانون الشيطان ونظام إبليس، هم الذين يوبخهم الله في سورة يس يوم القيامة على رؤوس الأشهاد: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ معنى عبادتهم للشيطان ليس معناها: أنهم سجدوا له ولا صاموا ولا صلوا، وإنما معناها: أنهم اتبعوا ما شرع لهم من وحي الشياطين، وأخذوا بقانونه ونظامه في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، قال الله: ﴿۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾﴾ ثم قال: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ والله لقد أضل الشيطان منكم جمعاً وخلائق كثيراً، ويدخل فيها الدخول الأولي: هؤلاء الذين اتبعوا قانونه ونظامه وأعرضوا عن نظام الله المذكور في قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ ثم قال: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾، ثم وبخهم لخساسة عقولهم ودناءتها فقال: ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ أليست عندكم عقول تعلمون أن من يطاع ويتبع تشريعه، وتمتثل أوامره، وتجتنب نواهيه هو خالق السماوات والأرض لا إبليس؟! ثم بين مصيرهم النهائي: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: الآيات ٦٠ - ٦٥] وفي

التنزيل: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: آية ١١٧] يعني: ما يعبدون إلا الشيطان؛ لأنهم اتبعوا نظامه وقانونه، وتركوا نظام الله الذي شرعه على ألسنة رسله. والذين يتحاكمون إلى غير ما أنزل الله، ويزعمون الإيمان، بَيَّن الله في سورة النساء أن دعواهم هذه كاذبة يُتعجب من كذبها، وكيف تجرؤوا على قولها، حيث قال لنبيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: آية ٦٠] فَعَجَّب نبيه كيف ادّعوا الإيمان وهم يريدون التحاكم إلى غير ما أنزل!! والكفار ـ مع أنهم كفرة فجرة يعبدون الأصنام ـ إذا غيروا تشاريع الله، واتبعوا تشريع الشيطان مخالفاً لشيء شرعه الله كان ذلك كفراً جديداً زائداً على كفرهم الأول، كما صرح الله بهذا في سورة التوبة في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: آية ٣٧] والمراد بالنسيء: تأخير الشهر الحرام؛ لأن النَّسْءَ في اللغة: التأخير. وربا النسأ: ربا التأخير. ونسأ الله في أجله: أخّره وطول حياته. كانت ثلاثة من الشهور الحُرُم متوالية، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، فكانوا تطول عليهم ثلاثة أشهر متوالية لا يأكل بعضهم بعضاً، ولا يغير بعضهم على بعض، فكانوا يقولون: إنما نُنسىء الشهر الحرام ونؤخره!! فيحلون المحرم فيقاتلون فيه، ويؤخرونه إلى صفر، قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ﴾ أي: تأخير الشهر الحرام، إحلاله وتحريم شهر آخر كان حلالًا تحليل لما حرمه الله، وتحريم لما أحله الله، قال في هذا: ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ ولإحلالهم ما حرم الله ازدادوا كفراً إلى كفرهم[1]. وأول من نسأ من العرب: بنو فُقيم من كنانة[2]، وكان شاعرهم يقول في شعره المشهور[3]:

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٤٣/١٤).

(٢) انظر: السيرة لابن هشام ص٥٦.

(٣) البيت لعمير بن قيس جَزْلُ الطِّعَانِ، أحد بني فراس بن غَنْم، وهي في السيرة لابن هشام ص٥٦، البداية والنهاية (٢٠٦/٢ ـ ٢٠٧).

أَلَسْنا النَّاسئين على مَعَدٍّ شُهُورَ الحِلِّ نجعلُها حَرَاماً

فَجَعْلُهم شهور الحل حراماً هو النسيء الذي كان زيادة في كفرهم إلى كفر آخر، فإذا كان الكافر الذي يسجد للصنم إذا غيَّر حكم الله، وحرَّم ما أحل الله، وأحل ما حرمه الله كفر كفراً جديداً زيادة إلى كفره الأول، فما بالكم بالمؤمن الذي يدَّعي أنه مسلم إذا غيَّر منار الإسلام، وحرَّم ما أحله الله، وحلل ما حرمه الله مدعياً أن تحليل الله وتحريمه تطورت عنه الدنيا، وأن نظام السماء كان لائقاً في ذلك الوقت، وأن ركب الحضارة تقدم عن ذلك، وأنه يحتاج إلى شيء جديد يُلائم التطور الجديد!! هذا كلام المتزندقين الجهلة الذين يزعمون أنهم تقدميون!! وهم أشد الناس تأخراً، وأخس الناس عقولًا؛ حيث تنكروا لخالقهم، وسيقرون يوم القيامة أنهم لا عقول لهم حيث يقولون في جملة إخوانهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: آية ١٠].

فالتقدم كل التقدم ـ التقدم الحقيقي ـ هو طاعة خالق السماوات والأرض، وامتثال أوامره، واتباع ما أُنزل إلى النبي الكريم، مع أن هذا الذي أمرنا الله أن نتبعه في قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٣] يأمرنا بالتقدم في جميع الميادين الحيوية غاية التقدم. ودين[١] الإسلام يأمر الإنسان بأن يكون متقدماً قوياً في جميع ميادين الحياة، وأن يكون متصلاً بربه، مربياً روحه على ضوء تعليم السماء، مُنَوَّراً بصيرته بنور القرآن السماوي، فيكون علمه وعمله مزدوجاً معطياً للجسم نصيبه، معطياً للروح نصيبها، هذا تعليم السماء وأمره الحق الذي لا شك فيه.

ومن تدبر آيات القرآن وجد القرآن العظيم يدعو إلى كل تقدم حيوي في جميع ميادين الحياة، إلا أنه يدعو الخلق إلى أن يطيعوا خالقهم، ويسترشدوا بإرشاد خالق السماوات والأرض، ليدلهم على ما يصلحهم في دينهم ودنياهم، ومعاشهم، ومعادهم، سبحانه (جل وعلا) ما أحكمه، وما أجهل من خالف تعاليمه. إلا أن الذي يذهب عن نور القرآن هو في الحقيقة

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

كالخفاش، وأنتم تعلمون أن الخفاش لا يكاد ينتفع بنور الشمس؛ لأن نور الشمس لا ينتفع به إلا من أعطاه الله بصيرة، أما الخفافيش الذين سلب الله بصائرهم لا يكادون ينتفعون بنور الشمس، فإذا انتشرت أنوار الشمس، وانتشر العالم في ضوء سبيل، لا ينفق الإنسان فيه على كهرباء، ولا على زيت، ولا فتيلة، فنور رب العالمين سبيل مبذول للأسود والأحمر، فالخفاش في ذلك الوقت لا ينتفع بهذا النور، فإذا كان الظلام خرج من محله يطير ويفرح ويمرح؛ لأن الظلام هو الذي يلائمه!! فالقرآن العظيم إنما يلائم البصائر النيرة، والأرواح الكريمة، أما الأرواح الخنازيرية الخسيسة البهمية فهي خفافيش البصائر، لا يلائمها إلا الظلام والنتن، كما أن الجُعَل لا يلائمه إلا النتن، وكما أن الخفاش لا يلائمه إلا الظلام.

خفافيشُ أعماها النهارُ بضوئه فوافقها قطع من الليل مظلم[1]

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٠] لأن القرآن أعظم نور، والخفافيش البصائرية يقضي عليها ويعميها زيادة ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: آية ٤٤] والعياذ بالله جل وعلا.

والحاصل أن خالق السماوات والأرض يقول في كتابه المحفوظ الذي تولى حفظه بنفسه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: آية ٩] يقول مخاطباً لجميع الخلائق ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٣] يعني: اتبعوا ما أنزله الله على لسان هذا النبي الكريم سيد الخلق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وخاتم الأنبياء، الذي جاء بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الأولياء في لغة العرب: جمع ولي. وقد تقرر في فن التصريف: أن (الفعيل) إذا كان وصفاً اطرد جمعه جمع تكسير على (فُعَلاء) إلا إذا كان معتل اللام أو مُضَعَّفاً فإنه يَطَّرِد جمعه، جمع تكسير على (أَفعِلاء) كتقي وأتقياء، وشقي

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

وأشقياء، وسخي وأسخياء، وولي وأولياء، كما هنا[١]. والولي في لغة العرب: هو كل من انعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويواليك[٢]؛ ولذا كان الله ولي المؤمنين، والمؤمنون أولياء الله ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: آية ٢٥٧] ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: آية ٦٢] لأنهم يوالونه بالطاعة، وهو يواليهم بالنصرة والثواب الجزيل، وإصلاح الدنيا والآخرة.

وهؤلاء الذين يتخذون أولياء كالذين يتخذون الشياطين أولياء فيتبعون قانون الشيطان وتشريع الشيطان، وكالذين يتخذون بعض رؤساء الكفرة الضُلَّال أولياء فيتبعون تشاريعهم، ويحلون حلالهم، ويحرمون حرامهم، فهؤلاء كفرة فجرة، وقد ثبت في الحديث عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) أنه سأل النبي ﷺ عن قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣١] كيف اتخذوهم أرباباً؟! ـ وكان عدي في الجاهلية نصرانياً ـ قال له النبي ﷺ: **«ألم يُحلوا لهم ما حرم الله، ويحرموا عليهم ما أحل الله»**؟ قال: بلى. قال: **«بذلك اتخذوهم أرباباً»**[٣]. فمن اتبع تشريع ولي تولاه من شيطان، أو طاغية، أو كافر، أو صاحب قانون، أو بدعة فاتبع ما أحل من الحرام، وما حرم من الحلال فقد اتخذ ذلك رباً، وخرج عن قانون نظام السماء الذي وضعه خالق السماوات والأرض ـ جل وعلا ـ على لسان سيد الخلق. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: غيره ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾.

ثم قال: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ في هذا الحرف ثلاث قراءات سبعيات[٤]: قرأه ابن عامر وحده: **﴿قليلاً ما يتذكرون﴾** بزيادة ياء. وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ بتاء واحدة مع تخفيف

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٤٠٤ ـ ٤٠٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

(٤) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٧.

الذال على حذف إحدى التاءين. وإذا كان أول الفعل مبدوءاً بتاءين جاز حذف إحداهما تخفيفاً بقياس مطرد. وقرأه بقية القراء السبعة، وهم: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر - وهو شعبة - عن عاصم، قرؤوا: ﴿**قليلاً ما تذّكرون**﴾ بتشديد الذال. فعلى قراءة: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أصله: (تتذكرون) حُذفت إحدى التاءين. وعلى قراءة: ﴿**تذّكرون**﴾ فقد أُدغمت إحدى التاءين في الذال. وعلى قراءة ابن عامر: ﴿**يتذكرون**﴾ فهو من الغَيْبة لا من الخطاب، فالفعل للغائبين لا للمخاطبين[1].

وقوله: ﴿قَلِيلًا﴾ يعربونه مصدراً[2]، والمعنى: تتذكرون تذكراً قليلًا؛ لأن الكفار ربما تذكروا تذكراً قليلًا فآمنوا، ولكنهم يراجعهم شركهم وكفرهم كما قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: آية ١٠٦] وزعمت جماعة من علماء العربية أن العرب الذي نزل القرآن بلغتهم يطلقون القلة ويريدون بها العدم المحض[3]، يقولون: مررت بأرض قليل بها الكراث والبصل. يعنون: لا كراث فيها ولا بصل. وهذا أسلوب معروف، ومنه قول غيلان ذي الرمة[4]:

أُنيختْ فألقتْ بلدة فوقَ بلدةٍ　　　قليلاً بها الأصوات إلا بُغامُها

يعني: لا صوت فيها البتة إلا بُغام ناقته. ومنه قول الطِّرِمَّاح بن حكيم يمدح يزيد بن المُهلب[5]:

أشمُّ نَديٌّ كثيرُ النوادي　　　قليلُ المثالبِ والقادِحَة

---

(١) انظر: حجة القراءات ص٢٧٩.

(٢) لعله سبق لسان، والمراد: نعت مصدر محذوف. انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٦٧/٤)، الدر المصون(٢٤٦/٥).

(٣) انظر: ابن جرير (٣٢٩/٢ - ٣٣٠)، بصائر ذوي التمييز (٢٩٣/٤)، القرطبي (٢٦/٢)، ابن عاشور (٦٠٠/١)، أضواء البيان (٢٨٧/٢).

(٤) البيت في مشاهد الإنصاف ص١٤٥، دفع إيهام الاضطراب ص٧٩.

(٥) البيت في ديوانه ص٨٦، دفع إيهام الاضطراب ص٧٨، وشطره الأول في الديوان:
أشم كثير البوادي النوال　　　....................

يعني: لا مثلبة فيه ولا قادحة البتة. وهذا معروف، ومنه في كلام العرب قوله[١]:

فما بأسَ لو ردَّت علينا تحيةً   قليلاً لدى من يعرفُ الحقَّ عابُها

يعني لا عيب فيها البتة عند من يعرف الحق. وظاهر القرآن هو الأول، أنهم يتذكرون تذكراً قليلًا لا يجدي، ولو تذكروا وآمنوا بالبعض لا ينفعهم ذلك كما قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ الآية [البقرة: آية ٨٥] وهذا معنى قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: آية ٣].

والحاصل أن هذه الآية الكريمة يجب على كل مسلم أن يتدبرها، ويعلم أن النظام المتبع هو نظام الله لا نظام إبليس، ولا قانون الشيطان؛ لأن قانون الشيطان صرح الله بأن من اتبعه مشرك في قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] وآية الأنعام هذه: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ هي عند علماء العربية مثال لحذف لام التوطئة. قالوا: الأصل: (ولئن أطعتموهم إنكم لمشركون) فحُذفت لام توطئة القسم. قالوا: وهذه الآية دليل على ذلك، والقرينة على أن هناك لام التوطئة محذوفة أنه لو كان شرطاً محضاً خالياً من قَسَم لقال: وإن أطعتموهم فإنكم لمشركون؛ لأن جواب الشرط إذا كان ليس يصلح فعلًا للشرط وجب اقترانه بالفاء كما هو معروف في علم العربية. فلو لم يكن هنالك قسم مقدر لقال: وإن أطعتموهم فإنكم لمشركون. والتحقيق أن القرآن ليس فيه حذف الفاء في جملة جزاء الشرط إذا كانت جملة اسمية، أو طلبية، أو غير ذلك من الجمل التي لا تصلح أن تكون فعلًا للشرط[٢]، وما زعموا من أن قراءة نافع في سورة الشورى[٣]: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ بما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

---

(١) البيت في مغني اللبيب (٦/٢)، وأول شطره الثاني: «قليل» وذكره الشيخ (رحمه الله) بالنصب في دفع إيهام الاضطراب ص٧٩.

(٢) انظر: البحر المحيط (٢١٣/٤)، الدر المصون(١٣٢/٥).

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٩٥.

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: آية ٣٠] فإن المصحف الكبير الذي بقي في المدينة عند عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فيه: **﴿وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم﴾** بلا فاء، والمصاحف التي أُرسلت للعراق وغيره فيها الفاء: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ قالوا: (ما) هنا شرطية، والفاء لم تأت في قراءة نافع وابن عامر: **﴿وما أصابكم من مصيبة بما كسبت﴾** بلا فاء.

والحق أن آية الشورى هذه لا حجة فيها؛ لأن لفظة (ما) على قراءة نافع وابن عامر: موصولة لا شرطية[١]. والمعنى: والذي أصابكم من مصيبة هو كائن بما كسبت أيديكم. فلا شرط فيه أصلًا على قراءة نافع وابن [عامر][٢]. والمقرر في علم القراءات وعلوم القرآن: أن القراءتين كالآيتين، تكون هذه القراءة لها معنى، وهذه لها معنى[٣]. فلا مانع من أن تكون (ما) على قراءة الجمهور شرطية، فجيء بالفاء، وعلى قراءة نافع وابن [عامر][٤] موصولة، فلم يُحتج إلى الفاء. وهذا معنى قوله جل وعلا: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾.

والرب: هو السيد المدبر للشؤون. وربنا: هو خالقنا وسيدنا والمدبر لشؤوننا، الذي لا نستغني عنه. وكل من يدبر الشؤون ويدبر الأمور ويسوسها تسميه العرب (رباً) فيقولون: من رب هذا البلد؟ يعني: من هو السيد الذي يسوس أموره ويدبرها. وهذا معروف في كلام العرب[٥]، ومنه قول علقمة بن عَبَدة التميمي، وهو عربي قُح جاهلي[٦]:

وكُنْتَ امرأً أفْضَتْ إليكَ ربَابَتي وقَبْلكَ رَبَّتْني فَضِعْتُ رُبُوبُ

---

(١) انظر: حجة القراءات ص٦٤٢.
(٢) في الأصل: «وابن كثير» وهو سبق لسان.
(٣) راجع ما مضى عند تفسير الآية (٣٣) من سورة الأنعام.
(٤) راجع التعليق في الحاشية قبل السابقة.
(٥) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.
(٦) السابق.

فسمى الساسة الذين كانوا يسوسونه: (ربوباً) جمع (رب) وأصله من: (ربَّه يربُّه) إذا أصلحه وساس شؤونه. ومنه بهذا المعنى: (الربيبة) وهي بنت امرأة الرجل؛ لأن زوج أُمها في الغالب يسوسها ويدبر شؤونها، وقد يكون بعضكم قرأ في السيرة أن النبي ﷺ في غزوة حنين لما صلى الصبح وانحدر في وادي حنين في غَلَس ظلام الصبح بعد الصلاة، وكان مالك بن عوف النصري جمع له هوازن في مضيق وادي حنين، فدخل المسلمون فيهم في غَلَس ظلام الصبح، فشدوا عليهم شَدَّة رجل واحد، فصارت الرماح والنبال كأنها مطر تزعزعه الريح، ووقع بالمسلمين ما ذكر الله في قوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢٥] وكان صفوان بن أمية من أعدى خلق الله لرسول الله؛ لأن النبي قتل يوم بدر أباه أمية، وأخاه علي بن أمية، وقتل يوم أُحد عمه أُبي بن خلف، فهو من أشد الناس عداوة لرسول الله، وهو الذي استعار منه النبي سلاحاً لغزوة حنين، وأمهله مدة ينظر فيها في أمره، وكان حاضراً لِمَا وقع للمسلمين، فقال رجل معه (ابن أخيه من الأم، أو قريب له): «الآن بطل سحر محمد» فعند ذلك قال صفوان: «اسكت فُضَّ فُوك، والله لأن يربني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربني رجل من هوازن»(١) وهو محل الشاهد؛ لأنه لو كانت غلبت هوازن النبي ـ لا قدر الله ـ لكانت السيادة لهم فحكموا قريشاً. فهو يقول: أن يربني ابن عمي محمد ﷺ يسودني فيسوسني أحب إلى من أن يسودني رجل من هوازن والشاهد: أن قوله: «لأن يربني» لأن يسودني فيسوسني ويدبر أمري، هذا أصل معنى الرب. ورب السماوات والأرض: هو خالق هذا الكون وسيده ومدبر شؤونه الذي لا يستغني عنه طرفة عين.

١/٢ / قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

﴿ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: الآيات ٤ ـ ٧].

لما أمر الله (جل وعلا) جميع خلقه أن يتبعوا ما أُنزل إليهم من ربهم في قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ٣] ونهاهم أن يتبعوا أولياء من دونه ـ سواءً كانوا من أولياء الشياطين المضلين، أو من أولياء الإنس المضلين ـ في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ ثم سفَّه من اتبع أولياء من دونه فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ لما أمر باتباع ما أنزل الله، ونهى عن اتباع غيره حذر هذا التحذير العظيم من اتباع غير ما أنزل الله، وبيَّن أن قبلكم أمماً كثيرةً اتبعت غير ما أنزل الله، وامتنعت من اتباع ما أنزل الله، فأهلكها الله ودمرها تدميراً مستأصلًا، وعذبها في الدنيا عذاباً نكراً متصلًا بعذاب الآخرة، يحذر خلقه أن يتبعوا غير ما أنزل لئلا يوقع بهم ما أوقع بمن قبلهم؛ ولذا قال بعد قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ قال بعد ذلك مهدداً ومخوفاً لمن اتبع غير ما أنزل، وامتنع من اتباع ما أنزل: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الأعراف: الآيتان ٤، ٥].

قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾ (كم) في اللغة العربية هنا معناها الإخبار بعدد كثير، ومميزها هو المجرور بـ (من) معناه: وكثير من القرىٰ أهلكناه ودمرناه لأنهم اتبعوا غير ما أنزلنا، وتركوا اتباع ما أنزلنا. فـ (كم) هنا هي الخبرية، والمراد بها: الإخبار بعدد كثير. والمعنى: وكثير من نوع القرية أهلكناه ودمرناه. وإنما أَنَّث الضمير في ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ لأنه عائد إلى القرية، إلا أن هذه القرية عددها كثير كما دل عليه قوله: (كم) لأنه يخبر بعدد ضخم من القرى الظالمة أهلكها الله ودمرها؛ لأنها لم تتبع ما أنزل. فمعنى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾ كثير من نوع القرية أهلكناه. و (كم) هنا في موضع رفع على أنها مبتدأ، وجملة ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ خبره، على أجود الإعرابين. ويجوز أن تكون منصوبة على الاشتغال، منصوبة بـ (أهلكنا) مضمرة دلت عليها ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾[1]

(١) انظر: الدر المصون (٥/٢٤٧).

على حد قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: آية ٤٩] إلا أن الرفع هنا على الابتداء أجود؛ لأن ما لا تقدير فيه أولى مما فيه تقدير[(١)].

والقرية تطلق في اللغة العربية إطلاقين[(٢)]: تطلق على مطلق الأبنية من الحجارة والطين والأُسس والسقوف، وتطلق على أهل القرية التي هي عامرة بهم، دل القرآن على إطلاقها هذين الإطلاقين. والتخويف بإهلاك أهلها وإن كان نفس القرى والأبنية يدمره الله ويهلكه، إلا أن التخويف الشديد إنما هو بإهلاك أهلها. والمراد بالإهلاك: إهلاك أهلها؛ لأن الله قال بأن المراد الأهل، قال: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ فقوله: ﴿هُمْ قَآئِلُونَ﴾ يدل على أن المراد هو السكان؛ لأن نفس الأبنية لا يقال فيها: ﴿هُمْ قَآئِلُونَ﴾ فلا بد هنا من تقدير: (أهل القرية) على كل حال[(٣)]؛ لأن الله قال: ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ فقال بعضهم: يقدر في قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: أهلكنا أهلها ﴿فَجَآءَهَا﴾ أي: القرية، والمراد: أهلها ﴿بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ بدليل قوله: ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾. وقال بعض العلماء: لا حاجة إلى تقدير (الأهل) في الأول: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: دمرنا أبنيتها وجعلناها خاوية على عروشها لما سخطنا على أهلها ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ في حال كون أهلها بائتين، أو في حال كونهم قائلين، أي: مستريحين وقت القيلولة.

وفي هذه الآية الكريمة حذف النعت، وحذف النعت يقول بعض علماء العربية: إنه قليل، كما قال ابن مالك في الخلاصة[(٤)]:

وما من المنعوتِ والنعتِ عُقِل   يجوزُ حذفُه وفي النعتِ يَقِل

ولكنه بتتبع اللغة العربية يُعلم أن حذف النعت كثير. والنعت

(١) انظر: البرهان للزركشي (١٠٤/٣)، قواعد التفسير (٣٦٢/١).
(٢) انظر: المفردات (مادة: قرى) ص٦٦٩.
(٣) انظر: الدر المصون (٢٤٨/٥).
(٤) مضى عند تفسير الآية (٧١) من سورة البقرة.

المحذوف هنا هو قوله: «وكم من قرية ظالمة عاصية غير متبعة ما أُنزل إليها». والدليل على هذا النعت المحذوف: أن الله لا يهلك قرية إلا قرية ظالمة، كما صرح به في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: آية ٥٩] فدلت هذه الآيات على أن القرية يُحذف نعتها هنا. أي: «وكم من قرية ظالمة عاصية ممتنعة من اتباع ما أنزلنا، متبعة للأولياء المضلين غير ما أنزلنا، كم من قرية بهذه المثابة أهلكناها».

وحَذْفُ النعت[1] مشهور في كلام العرب، ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: آية ٧٩] لأن المراد: كل سفينة صحيحة صالحة. إذ لو كان يأخذ المعيبة المخروقة لما كان في خرق الخضر للسفينة فائدة؛ لأنه لما خرقها ليعيبها لتسلم بذلك العيب من أخذ الملك الغاصب لها؛ لأن عيبها بالخرق يزهده في أخذها؛ ولذا قال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: آية ٧٩] أي: لئلا يأخذها الملك الغاصب. فدل كون الملك لا يأخذ السفينة المعيبة على حذف النعت في قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ أي: صحيحة صالحة غير معيبة ولا مخروقة. وحذف النعت معروف في كلام العرب، ومن أمثلته في كلام العرب قول المُرقِّش الأكبر[2]:

ورُبَّ أَسِيلَةِ الخَدَّينِ بِكرٍ مُهَفْهَفَةٍ لها فرعٌ وجِيْدُ

يعني: لها فرع فاحم، وجيد طويل. فحذف النعت لدلالة المقام عليه. ومنه قول عبيد بن الأبرص الأسدي يمدح رجلاً[3]:

مَن قولُه قولٌ ومن فعلُهُ فعلٌ ومن نائلُهُ نائِلُ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

يعني: من قوله قولٌ فصلٌ، وفعله فعلٌ جميل، ونائله نائلٌ جَزْل. فحذف النعوت لدلالة المقام عليها. والمعنى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: وكثير من نوع القرية الظالمة العاصية المتبعة غير ما أنزل الله أهلكناها بسخطنا عليها فدمرناها تدميراً مستأصلًا؛ لأنها لم تتبع ما أنزلنا واتبعت غير ما أنزلنا.

وهذه القرى بينها الله بكثرة إجمالًا وتفصيلًا[1]، كقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ ثم بين عذابهم الأخروي فقال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا﴾ الآية [الطلاق: الآيات ٨ ـ ١٠] وكقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج: آية ٤٥] والمعنى: أن آبارها تعطلت لم يبق من يستقي عليها لهلاك أهلها وفنائهم عن آخرهم. وكقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: الآيات ١١ ـ ١٥] والآيات بمثل هذا كثيرة. ومن هذه القرى التي أهلكها الله قرى قوم لوط (سدوم) وغيرها، رفعها إلى السماء وقلبها فجعل عاليها سافلها، وأرسل عليها حجارة السجيل؛ ولأجل أنه قلبها وجعل عاليها سافلها سُميت القرى: (المؤتفكات) وسُميت عاصمتها: (المؤتفكة) لأن جبريل أَفَكَها، أي: قلبها فجعل عاليها سافلها. والإفك: قلب الشيء، ومنه قيل لأسوأ الكذب (إفك) لأنه قلب للحقائق عن ظواهرها. ومن تلك القرى: قوم مدين (أصحاب شعيب) الذين أهلكتهم الظُّلة، وقوم صالح الذين واعدهم ثلاثة أيام وعداً غير مكذوب، فأخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ومنهم قوم هود أرسل الله عليهم الريح العقيم فدمرهم، ومنهم قوم نوح

(١) انظر: الأضواء (٢/٢٨٨).

أرسل الله عليهم الطوفان فدمرهم، كما جاء مفصلاً في الآيات القرآنية. وكل هؤلاء القرىٰ التي دمرها الله إنما دمرها لأنه أنزل إليها وحياً وتشريعاً على لسان نبي كريم وقال لها: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ولا تتبعوا غيره. فتمردوا، ولم يتبعوا ما أنزل الله، واتبعوا غيره فدمرهم الله تدميراً مستأصلًا؛ ولذا يُحذر هذه الأمة على لسان نبيها أن لا تتبع غير ما أنزل الله، لئلا يهلكها بهلاك مستأصل.

فهذه الآيات فيها تخويف عظيم، وتهديد كبير من رب السماوات والأرض؛ لأنهم إذا تركوا العمل بما أنزل الله، وذهبوا يعملون بغير ما أنزل الله، فقد استحقوا العقوبة والهلاك، فهم مستحقون للعقوبة والهلاك، فعليهم أن يتبعوا ما أنزل الله، ويتركوا اتباع غير ما أنزل الله؛ ليسلموا بذلك من استحقاق عقوبات الله وإهلاكه العظيم؛ ولذا قال: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: إهلاكاً مستأصلًا لم يبق منها داع ولا مجيب ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا وهلاكنا المستأصل. والبأس يطلق على كل نكال شديد[١]، والمراد به هنا: إهلاكهم وتدميرهم عن آخرهم.

وقوله: ﴿بَيَاتًا﴾ مصدر مُنكَّر في موضع الحال[٢]، أي: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي: جاء أهلَها بأسُنا في حال كونهم بائتين، أي: نائمين في الليل في بيوتهم، أو جاءهم بأسنا في حال كونهم وهم قائلون.

والتحقيق: أن الجملة الحالية إذا عُطفت بأداة عطف حُذف منها واو العطف لاستثقال تكرر أدوات العطف[٣]. هذا هو التحقيق، ومناقشات النحويين في عدم حذفه كلها ساقطة. والحق الذي لا شك فيه أن الجملة الحالية إذا عُطفت على حال بأداة عطف تُحذف منها واو الحال؛ لأن واو الحال تشبه أداة العطف، فيُستثقل إثباتها مع حرف العطف، ويكون الربط بالضمير، لأن ربط الجملة الحالية بالضمير يكفي عن ربطها بالواو.

---

(١) انظر: المفردات (مادة: بؤس) ص١٥٣.

(٢) انظر: الدر المصون (٥/٢٤٩).

(٣) انظر: السابق (٥/٢٥٠).

والبيات: أصله مصدر بات الرجل، يبيت، بيتُوتة، وبياتاً[١] وسُمي البيت بيتاً لأنه يُبات فيه، وهو مصدر مُنكَّر في موضع الحال، والمصادر المُنكَّرة تقع أحوالًا بكثرة. أي: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي: جاء أهلها بأسنا في حال كونهم بائتين نائمين في غفلة. أو جاءها بأسنا في حال كونهم وهم قائلون.

والقائلون: جمع القائل، وهمزته منقلبة عن ياء، لأن الفاعل من الأجوف تُبدل عينه همزة، سواء كانت واواً أو ياء، فإن قلت: «قال زيد، يقول، فهو قائل» الهمزة مبدلة من واو؛ لأن أصل الأجوف واوي العين من (القول). وإن قلت: «قال زيد، يقيل» معناه: استراح في وقت النهار، يعني من العمل. سواء كانت القيلولة استراحاً مع نوم أو غير نوم. تقول: «قال، يقيل، فهو قائل» كـ: (باع، يبيع، فهو بائع) فالهمزة مبدلة من ياء؛ لأن (قال، يقيل) من (القيلولة) أجوف يائي العين، و (قال، يقول) من (القول) أجوف واوي العين، والهمزة تُبدل من الواو والياء، وهي هنا مبدلة من ياء؛ لأن (القائلين) هنا جمع (قائل) وهو اسم فاعل (قال، يقيل) كـ (باع، يبيع) من (القيلولة) وهي الاستراحة في نصف النهار وقت شدة الحر، سواء كانت مع نوم أو مع غير نوم[٢].

وهذان الوقتان وقت راحة ودعة واستراحة، فإتيان العذاب والإهلاك فيها أفظع. وقد أهلك الله قوم شعيب في وقت القائلة حيث أرسل عليهم الظُّلة في شدة النهار وأحرقتهم، وأهلك قوم لوط قبل أن يستيقظوا من نومهم عند انصداع الفجر، كما قال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: آية ٨١] والله (جل وعلا) يخوف الظالمين المتبعين لغير ما أنزل بأن يهلكهم وقت البيات، أو وقت القيلولة، أو أن يهلكهم في أوقات أُخر كما قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ

(١) المصدر السابق (٥/٢٤٩).

(٢) انظر: المصدر السابق (٥/٢٥٢)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٢٣٠.

﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٩٧ ـ ٩٩]، وقال جل وعلا: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: الآيات ٤٥ ـ ٤٧] إلى آخر الآيات التي يخوف الله بها خلقه من معاصيه.

وعلينا جميعاً أن نعرف أن خالق السماوات والأرض هو الجبار العظيم، شديد البطش والنكال ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج: آية ١٢] وهو يخوف خلقه أن يعملوا بمعصيته، وأن يتبعوا غير ما أنزل، فيجب على كل مسلم أن يخاف من عقوبات الله وسخطه وإهلاكه، وأن يحذر كل الحذر من أن يتبع غير ما أنزل الله، فيجب على كل أحد أن يتبع ما أنزل الله ويدع غيره.

واستدلال ابن حزم وغيره من الظاهرية بهذه الآية على منع القياس سنبسط الكلام عليه في قصة إبليس ـ عليه لعائن الله ـ الآتية في الآيات القادمة قريباً ـ إن شاء الله ـ.

وقوله جل وعلا: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: الآيتان ٤، ٥] يعني: لما أهلك الله القرىٰ بظلمها ودمرها تدميراً مستأصلاً لم يكن عندها عذر ولا حجة مقبولة؛ لأن الله (جل وعلا) هو العدل الذي لا يأخذ ظلماً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: آية ٤٠] فلا يأخذ أحداً بعذاب إلا وهو مستحق كل الاستحقاق لذلك العذاب؛ ولذا القرى التي دمرها لم تكن عندها دعوىٰ ولا معذرة تقول: يا ربنا إنك ظلمتنا؛ أو عاقبتنا ولم تنذرنا!! لأنه لا يعذب أحداً حتى يقطع حجته ويُعذر إليه من جميع الجهات، كما قال جل وعلا: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: آية ١٦٥] فلو كان عذبهم قبل أن ينذرهم لاعتذروا وقالوا: أنت لم تنذرنا ونحن جاهلون معذورون. ولكن الله يقول: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ وهذه الحجة التي أشار

لها في سورة النساء أوضحها في سورة طه، وأشار لها في سورة القصص، حيث قال في طه: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: آية ١٣٤] وقال في القصص: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص: آية ٤٧] فلما قطع عذرهم بالرسل والآيات والمعجزات لما جاءهم الهلاك لم تكن عندهم دعوىٰ يعتذرون بها، ولا حجة يبدونها إلا الإقرار والاعتراف بأنهم الخبثاء الظالمون؛ ولذا قال: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الأعراف: آية ٥] لم يكن عندهم عذر ولا دعوىٰ؛ ولذا قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

فقوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ قال بعض العلماء: فما كان قولهم؛ لأنهم لا حجة لهم ولا دعوىٰ.

وقال بعض العلماء: لم يكن عندهم ادعاء ولا معذرة إلا قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

وقال بعض العلماء: الدعوىٰ هنا بمعنى الدعاء، لم يكن عندهم دعاء ولا تضرع إلا الاعتراف بالذنب حين لا ينفع الاعتراف، والندم حيث لا ينفع الندم.

والدعوىٰ تطلق على القول، وعلى الادعاء، وعلى الدعاء[1]. أي: فما كان قولهم ومعذرتهم حين جاءهم العذاب إلا الاعتراف ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

وأظهر القولين هنا[2] أن ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ في محل رفع اسم لكان، وأن قوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في محل نصب خبراً لكان؛ لأنه إذا كان الفاعل والمفعول أو الاسم والخبر معرفتين كان الأُولى منها يستحق أن يكون هو الفاعل أو الاسم إلا بدليل يدل عليه.

---

(١) انظر: المفردات (مادة: دعا) (٣١٦)، بصائر ذوي التميز (٦٠١/٢).
(٢) انظر: الدر المصون (٢٥٣/٥).

وقول بعض العلماء: إن ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ هنا منصوب بدليل قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ [النمل: آية ٥٦] فجعل ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ هو المرفوع، و ﴿جَوَابَ﴾ هو المنصوب، كذلك ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ فيه فرق؛ لأن ﴿جَوَابَ﴾ يظهر فيه النصب فيتعين الاسم من الخبر، وقوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ لا يتعين فيه الاسم من الخبر؛ لأنه لا يظهر عليه النصب، فالأولىٰ أن يكون الأول هو المرفوع، والثاني هو المنصوب إلا بقرينة تدل عليه. والمعنى فما كان دعواهم وادعاؤهم إلا قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ يعني: إنا كنا ظالمين فيما كنا عليه من اتباع غير ما أنزل الله، وترك اتباع ما أنزل الله.

والظالمين جمع تصحيح للظالم، وهو خبر كان منصوب، وهو جمع تصحيح للظالم. والظالم: اسم فاعل الظلم، وقد قدمنا مراراً[1] أن الظلم في لغة العرب التي نزل بها القرآن أنه وضع الشيء في غير موضعه، فكل من وضع شيئاً في غير موضعه فهو ظالم.

وأكبر أنواع وضع الشيء في غير موضعه: وضع العبادة في غير الخالق (جل وعلا)؛ ولذا كان الشرك بالله وعبادة غيره هو النوع الأكبر من أنواع الظلم، كما قال العبد الحكيم لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه فسر قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ٨٢] قال: بِشِرْك. ثم تلا قول لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣][2] ونظيره في القرآن: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: آية ١٠٦] هذا أصل الظلم في لغة العرب. أعظم أنواعه: وضع الشيء في غير موضعه، وضع العبادة في غير من خلق، وهي الكفر بالله.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

ومن أنواع الظلم وضع الطاعة في غير موضعها بأن يطيع عدوه إبليس ويعصي خالقه (جل وعلا). فمن أطاع إبليس واتبع تشريعه، وعصى الله ولم يتبع ما أنزل فهو ظالم؛ لأنه وضع الطاعة في غير موضعها، والمعصية في غير موضعها، والله يقول: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: آية ٥٠] وكل من وضع شيئاً في غير موضعه تسميه العرب (ظالماً) ومن ذلك قولهم للذي يضرب لبنه قبل أن يروب: «هو ظالم»؛ لأنه وضع الضرب في غير موضعه؛ لأن ضربه قبل أن يروب يضيع زبده، وإضاعة زبده وضع للضرب في غير موضعه، ومنه سُمي الذي يضرب لبنه قبل أن يروب (ظالماً) وفي لُغَز الحريري في مقاماته[(١)]: «هل يجوز أن يكون الحاكم ظالماً؟ قال: نعم إذا كان عالماً». يعني بقوله: «ظالماً» أنه يضرب لبنه قبل أن يروب ويسقيه الناس. وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[(٢)]:

وقائلة ظلمتُ لكم سقائي ‏ ‏ ‏ ‏ وهل يخفى على العَكَدِ الظليم

قولها: «ظلمتُ لكم سقائي» يعني سقيتكم إياه قبل أن يروب ويؤخذ زبده. وقوله: «وهل يخفى على العَكَد الظليم» العَكد: عصب مؤخر اللسان؛ لأن اللسان يذوق فيعرف ما نُزع زبده من اللبن وما لم ينزع. ومنه بهذا المعنى قول الآخر[(٣)]:

وصاحب صدقٍ لم تربني شَكَاتُهُ ‏ ‏ ‏ ‏ ظلمتُ وفي ظَلْمي له عامداً أجر

يعني: أنه صبَّ سقاءه فسقاه الناس قبل أن يروب، ويقول: ظلمي لهذا السقاء ظلم أُريد به الأجر عند الله، ولذا قال[(٤)]:

وصاحبِ صدقٍ لم تربني شكاتهُ ‏ ‏ ‏ ‏ ظلمتُ وفي ظَلْمي له عامداً أَجْرُ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

ورواية البيت: «ظَلمي» بفتح الظاء، من (ظَلَمَه، يَظْلِمُه، ظَلْماً) لأن (الفَعْل) بالفتح والسكون، هو قياس مصدر الثلاثي المعدّىٰ. أما الظُلم ـ بضم الظاء ـ فهو اسم مصدر الظَلم المعروف. والرواية في البيت:

وصاحب صدقٍ لم تربني شَكَاتُه ظلمتُ وفي ظَلْمي له عَامداً أجرُ

ومنه قيل للأرض التي حُفر فيها وليست موضعاً للحفر قيل: «مظلومة» لأن الحفر وُضِعَ في غير موضعه، ومنه على التحقيق قول نابغة ذبيان[١]:

وقفتُ فيها أُصَيْلالاً أسائلها عَيَّتْ جواباً وما بالربعِ من أحدِ
إلاَّ الأَوَاريَّ لأياً ما أُبَيِّنُها والنُّؤي كالحوضِ بالمظلومةِ الجَلَدِ

النؤي هنا: يريد به ما يحفره الأعراب ـ البدو ـ حول خيامهم لئلا يجترفها السيل، فيحفرون حولها حفيراً يذهب معه الماء عن الخيمة. وإنما قال: إن هذه الأرض مظلومة؛ لأنها فلاة ليست محلّا للحفر سابقاً؛ ولذا قيل للتراب المحفور من القبر «ظليم» أي: مظلوم؛ لأن العادة أنه لا يُحفر قبر في محل هو محل لحفر سابقاً. ومنه بهذا المعنى قول الشاعر يصف رجلًا جُعل في قبره[٢]:

فأصبح في غبراءَ بعد إشاحةٍ من العيشِ مردود عليها ظَلِيْمُهَا

وأمثال هذا في لغة العرب كثيرة، أصل الظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

وهو في اصطلاح الشرع[٣]: وضع العبادة في غير موضعها، وهو الشرك بالله. أو وضع الطاعة في غير موضعها، كطاعة إبليس، ومعصية الله. وقد جاء الظلم في القرآن في موضع واحد يُراد به النقص[٤] وهو قوله تعالى:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.
(٢) السابق.
(٣) السابق.
(٤) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: آية ٣٣] يعني أي: ولم تنقص منه شيئاً. وهذا معنى قوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٥﴾ [الأعراف: آية ٥] أي: واضعين الشيء في غير موضعه حيث كنا نضع الاتباع في غير موضعه، فنتبع قانون الشيطان ونترك اتباع ما أنزل الله، ونطيع الشيطان ونعصي[1] أمر الله. فهم متبعون ما لا ينبغي أن يُتبع، وتاركون ما ينبغي أن يُتبع، فقد وضعوا الأمر في غير موضعه، وأوقعوه في غير موقعه، وذلك معنى الظلم في لغة العرب؛ ولذا قال: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

وفي الآية التي ذكرنا إشكال معروف وسؤال مشهور عند العلماء، وهو الفاء في قوله: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾[2] لأن المعروف في لغة العرب: أن الفاء حرف تعقيب، وأن ما بعدها آتٍ بعد ما قبلها؛ لأنك لو قلت: جاء زيد فعمرو. معناه: أن عَمْراً جاء بعد مجيء زيد، عقبه. والقرآن هنا قال: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ فجعل مجيء البأس كأنه واقع عقب الإهلاك، ومجيء البأس ليس واقعاً عقب الإهلاك، بل مجيء البأس هو عين الإهلاك، فالتعقيب بالفاء هنا فيه إشكال معروف وسؤال مشهور عند العلماء؛ لأن طالب العلم يقول: كيف يقول: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ ثم يقول عقبه ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ فكأن البأس لم يأتها إلا بعد أن أُهلكت، والواقع خلافه؛ لأن البأس جاءها وهو إهلاكها. فهذا وجه السؤال.

والجواب عنه للعلماء من أوجه معروفة مشهورة في التفسير:

أحدها: أن الكلام على حذف الإرادة. أي: أردنا إهلاكها بإرادتنا المُصَمِّمَة الأزلية، فنفذنا ذلك، فجاءها بأسنا. وحَذْفُ فعل الإرادة كثير في القرآن جداً، كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ أي: أردت أن تقرأ القرآن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل: آية ٩٨] ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾ [المائدة: آية ٦] أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا. وحَذْفُ فعل الإرادة معروف في القرآن وفي كلام العرب.

---

(١) في الأصل: (غير) وهو سبق لسان.

(٢) انظر: الدر المصون (٥/٢٤٨ ـ ٢٤٩).

الثاني: أن المراد بقوله: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ يعني: حكمنا بإهلاكها. يعني: في سابق أزلنا. أي: حكمنا عليها بالإهلاك، وجعلناه قدراً مقدوراً محكوماً به، فجاءها تنفيذاً لذلك القدر ﴿بَأْسُنَا﴾. وهو قريب من الأول.

[الثالث][(١)]: أن معنى ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أن الإهلاك ـ والعياذ بالله ـ هو الخذلان. أي: خذلناها وأضللناها فلم تتبع ما أنزل الله، ومن خذله الله ولم يوفقه فهو الهالك، كما قال ﷺ في الحديث المشهور: «**إنه ترك أمته على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك**»[(٢)] فسمى الزائغ عن الطريق: هالكاً. فمعنى: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ خذلناها حتى زاغت عن الطريق، وكفرت، وعتت عن أمر ربها، فجاءها بأسنا نتيجة لذلك الإهلاك الذي هو الضلال الذي خذلها الله فأضلها.

وقال بعض العلماء: جرت عادة العرب في لغتهم أن كل فعلين معناهما واحد يرتبون ما شاؤوا منهما بالفاء على الآخر. وعليه فالفاء تفسيرية؛ لأن الفاء قد تكون [تفسيرية، نحو: توضأ فغسل وجهه][(٣)] ويديه ورجليه. فقوله: «فغسل» هنا: الفاء تفسير لتوضَّأ، فهي تفسيرية؛ ولذا ﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: آية ٤] فيكون مجيء البأس تفسيراً للإهلاك. والعرب تقول: إن كل فعلين معناهما واحد يُرتب كل منهما على الآخر بالفاء والواو كالتفسير، كأن

---

(١) في الأصل: «الثاني» وهو سبق لسان.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٦/٤، ١٢٧)، والدارمي (٤٣/١)، وأبو داود في السنة، باب في لزوم السنة، حديث رقم: (٤٥٨٣)، (٣٥٨/٢)، والترمذي في العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع. حديث رقم:(٢٦٧٦)، (٤٤/٥)، وابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين. حديث رقم: (٤٢، ٤٣، ٤٤)، (١٥/١ ـ ١٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١٧/١ ـ ٢٠)، والمروزي في السنة ص٢٦ ـ ٢٧، وابن حبان (كما في الإحسان ١٠٤/١)، والطبراني في الكبير (٢٤٦/١٨ ـ ٢٤٨)، والآجري في الشريعة ص٤٦ ـ ٤٧، والحاكم في المستدرك (٩٥/١ ـ ٩٧)، وفي المدخل إلى الصحيح ص٧٩ ـ ٨١، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٢٢/١، ٧٤ ـ ٧٦) وأبو نعيم في الحلية (٢٢٠/٥ ـ ٢٢١)، والبيهقي في الكبرى (١١٤/١٠)، وفي الاعتقاد ص١١٣، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم (١١٦٣/٢ ـ ١١٦٤)، والبغوي في شرح السنة (٢٠٥/١)

(٣) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام كما في الدر المصون (٢٤٩/٥).

تقول: شتمني فأساء إلي، وأساء إلي فشتمني. ونحو ذلك وهذا مستفيض في كلام العرب. وهذه أوجه الجواب عن هذا الإشكال.

ومعنى قوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ٥] ثم إن الله (جل وعلا) علم بأنه أنزل هذا الكتاب الأعظم، وأمر النبي ﷺ بالتبليغ والإنذار به، ثم أمر باتباعه، ونهى عن اتباع غيره، ثم بيَّن أن من لم يتبع ما أنزل الله يهلكه الله ويدمره، وأنه إذا جاءه الإهلاك والتدمير ليس عنده إلا الإقرار، بيَّن أنه يوم القيامة سيسأل جميع الخلائق من مرسلين ومرسل إليهم ماذا كان موقفهم من هذا القرآن العظيم الذي أمرهم باتباعه في دار الدنيا، فيسأل المرسلين: هل بلغتم كتابي؟ وماذا أجابوكم؟ ويسأل المُرسل إليهم: هل بلغكم رسالاتي؟ وماذا أجبتم به المرسلين؟ ومما يفسر الآية: قوله جل وعلا: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: آية ١٠٩] يعني: ماذا أجابتكم به الأمم لما أمرتموهم باتباع ما أنزلت، ونهيتموهم عن اتباع غيره؟ ثم قال في الأمم: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ وفي قراءة: ﴿فعُمِّيَت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ [القصص: الآيتان ٦٥، ٦٦][(١)] فالله (جل وعلا) في ذلك الوقت يسأل جميع الخلائق ويقول للمرسلين: هل بلَّغتم رسالاتي؟ ويقول لهم أيضاً: ماذا أجابتكم به أممكم؟ هل قبلت منكم ما جئتم به أو ردته عليكم؟ ويقول للذين أُرسل إليهم: هل بلغتكم الرسل رسالاتي، وماذا أجبتم رسلي؟ فالذي عرف أن الله أقسم في هذه الآية أنه يسأل الرسل، ويسأل المُرسل إليهم، يلزم عليه في دار الدنيا وقت إمكان الفرصة أن يكون من المُصدقين للرسل، المتبعين ما أنزل الله لئلا يقع في الويلة العظمى والهلاك الأكبر عند هذا السؤال الهائل المخيف. وهذا معنى قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: بماذا أجابوا الرسل، وهل بلغتهم الرسل؟ ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: آية ٦] هل بلغوا الأمم؟ وماذا أجابتهم الأمم[(٢)]؟ كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٣٨.

(٢) انظر الأضواء (٢/٢٨٩).

أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: آية ٦٥] ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: آية ١٠٩] فعلى المؤمن أن يكون متبعاً لما أنزل الله ليكون جوابه عند هذا السؤال جواباً سديداً.

وقد قدمنا أن الأمم الكافرة إذا سُئل الرسل وقالوا: «قد بلغناهم» ينكر الأمم ويقولون: ما بلغونا ولا شيئاً، ولو بلغونا لأطعنا ربنا!! فيقول الرسل: والله لقد بلغناهم أكمل تبليغ وأتمه. فيقول الله للرسل ـ هو يسأل الجميع، وهو أعلم ـ ليُظهر براءة الرسل ونزاهتهم وأمانتهم، ويُظهر خيانة الكفرة وعنادهم وكفرهم، فيكون فضلًا لهؤلاء ونكالًا لهؤلاء، فإذا أنكر الكفار أن الرسل بلغوهم، وقيل للرسل: هل عندكم من شهداء؟ فيقولون: نعم، أمة محمد ﷺ تشهد لنا. فيُدعىٰ بنا معاشر هذه الأمة الكريمة، فنشهد في ذلك الموقف العظيم للرسل الكرام بأنهم بلغوا ونصحوا وتحملوا الأذىٰ، وبلغوا الدعوة على أكمل وجوه التبليغ، مع تحمل الأذىٰ على أكمل الوجوه، وأن الأمم الكافرة هي التي آذتهم وأهانتهم وطغت وتجبرت وتكبرت عن قبول رسالات ربها. فيقول الأمم: يا ربنا كيف تقبل علينا شهادة أمة محمد وهم وقت إرسال الرسل إلينا لم يبرزوا للوجود، فهم في ذلك الوقت معدومون؛ لأنهم آخر الأمم، وكيف يشهدون على شيء وقع قبل أن يكونوا في الوجود؟! فنُسأل عن ذلك فنقول: نعم، نحن في ذلك الوقت كنا معدومين، ولكنا بعد وجودنا حصل لنا اليقين الجازم، ومدار الشهادة على اليقين الجازم، فما شهدنا إلا بيقين جازم لا تختلجه الشكوك ولا الأوهام؛ لأنك يا ربنا أرسلت إلينا رسولًا كريماً هو خير الرسل وأصدقهم وأعظمهم أمانة، وأنزلت عليه كتاباً محفوظاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فما جاءنا في ذلك الكتاب، وأخبرنا به ذلك النبي الكريم، فنحن نقطع به ونجزم به أشد قطعاً وجزماً مما عايناه بأعيننا وسمعناه بآذاننا، وهؤلاء قد قصصت علينا أخبارهم في آياتك المحكمات قصصاً لا يختلجه شك، فهو قطع مجزوم به، فهؤلاء الكفرة قوم نوح قصصت علينا قضيتهم وأذاهم له، وما تحمل من أذاهم، وما نصح لهم من النصح، وما مكث فيهم من الزمن يبلغهم ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:

آية ١٤] وأنه قال: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ [نوح: الآيات ٥ ـ ٧] وهؤلاء قوم هود قصصت علينا قصصهم في آيات كثيرة، كقولهم له: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: آية ٥٣] وهؤلاء قوم صالح قصصت علينا أخبارهم في آيات كثيرة، كقولهم له: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى آخر الآيات [الأعراف: آية ٧٧]، وقد قدمنا أن هذا معنى قوله: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: آية ١٤٣] ومن هذا (...)[1].

٢/ب / ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: آية ٧٨] وقال: ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: آية ٣٩] فنفى سؤال الناس عن ذنوبهم، وأنه لا يُسأل أحد عن ذنبه مع أن قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: الآيتان ٩٢، ٩٣] من جملة ما كانوا يعملون: ذنوبهم، فإنهم يُسألون عنها.

ووجه الجواب: أشهر أجوبة العلماء عن هذا جوابان:

أحدهما: أن السؤال قسمان: سؤال توبيخ وتقريع، وهو من جنس التعذيب. وسؤال استخبار واستعلام واستكشاف. فالمنفي في الآيات: سؤال الاستخبار والاستعلام والاستكشاف؛ لأن الله هو العالم المحيط علمه بكل شيء، فليس كقضاة الدنيا الذين يَسْألون عن الحقيقة ليستفيدوا منها علماً، فهو

---

(١) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل وذهب معه بعض الكلام. ويمكن أن يستدرك أول المسألة الآتية من كلام الشيخ رحمه الله في الأضواء حيث قال: «وهنا إشكال معروف: وهو أنه تعالى قال هنا: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ وقال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ وهذا صريح في إثبات سؤال الجميع يوم القيامة، مع أنه قال: ...» إلخ. الأضواء (٢/٢٩٠).

كما يمكن أن يُستدرك بقية الكلام السابق بمراجعة كلام الشيخ رحمه الله على هذه المسألة عند الكلام على الآية (٩٣) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: الأضواء (٢/٢٩٠ ـ ٢٩١)، (٧/٧٥٣ ـ ٧٥٤)، دفع إيهام الاضطراب ص١٣١.

عالم بما صنعوا، مُسَجّل له عليهم في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فلا يقال للواحد منهم: هل فعلت الذنب الفلاني؟ سؤال استعلام واستكشاف، بل هو مسجل عليه ذنبه، محقق عليه، لا يُسأل عنه بهذا المعنى أبداً، وإنما يُسأل عن ذنبه سؤال توبيخ وتقريع، ويُقال له: لِمَ فعلت هذا؟! ألم أنهك يا خبيث عن هذا؟! وإذا وَجَدْتَ أسئلة الكفار في القرآن وجدتَها كلها أسئلة توبيخ وتقريع، كما قال لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: آية ٧١] ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الصافات: آية ٢٥] ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور: آية ١٥] كل الأسئلة أسئلة توبيخ وتقريع، وأما سؤال المرسلين فليس سؤال توبيخ ولا تقريع، والمراد به أن المرسلين إذا سُئلوا وقالوا: «بلّغنا ونصحنا» رجع اللوم والتقريع على الأمم. ومن ذلك القبيل: سؤال الموءودة، وهي البنت التي كانوا يدفنونها حية، كما في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: الآيتان ٨، ٩] لأن سؤال الموءودة ليس توبيخاً ولا تقريعاً للموءودة؛ لأنها لا ذنب لها، وإنما تقول: قُتِلْتُ ودُفنت حية في غير ذنب؛ ليتوجه العتاب الشديد واللوم العظيم على من فعل ذلك بها فسؤال المرسلين، وسؤال الموءودة إنما يُراد به: شدة توبيخ الكفار الذين كذبوا المرسلين، ووأدوا الموءودة. هذا معنى الآيات. وهذا معنى قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: الآية ٦] والدليل على أن سؤال الله للكفار سؤال توبيخ وتقريع، وأن سؤاله للمرسلين ليجيبوا بأنهم بلَّغوا فيتوجه التوبيخ والتقريع على الكفار زيادة على زيادة. الدليل على هذا ـ أنه لا يسألهم سؤال استعلام واستخبار واستكشاف ـ أنه أتبعه بقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأعراف: آية ٧] يعني: لا نسألهم لنستفيد منهم شيئاً لم نعلمه؛ بل نحن نقص عليهم جميع ما عملوا بعلم حقيقي أزلي محيط بكل شيء، وما كنا في دار الدنيا غائبين عن شيء فعلوه، فلا نسألهم سؤال استعلام واستكشاف، وإنما نسألهم سؤال توبيخ وتقريع، أما في الكفار فبالمباشرة، وفي المرسلين فليبرؤا أنفسهم بأنهم بَلّغوا، فيتوجه التقريع العظيم على الكفار الذين كذبوهم ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ فوالله لنقصن عليهم بعلم.

ومعنى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ نذكر لهم أعمالهم فذلك قصة، قصة، قصة، فيقول الله للعبد: يا فلان بن فلان ألم تعلم أنك فعلت في اليوم الفلاني، في الوقت الفلاني، في الساعة الفلانية، من الشهر الفلاني، في البقعة الفلانية، عملت كذا وكذا، وكذا وكذا؟ ثم يسرد عليه أعماله قصة قصة، وقعة بعد وقعة، حتى يأتي على جميع ما فعل، وكذلك تشهد عليهم بقاع الأرض؛ لأن الإنسان إذا عصى الله في بقعة من بقاع الأرض يومئذ ينطقها الله، وتشهد عليه البقعة، وتقول: أشهد على فلان بن فلان أنه في ساعة كذا في يوم كذا في شهر كذا فعل عليّ كذا وكذا. كما يأتي إيضاح هذا في سورة الزلزلة في قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ①﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤﴾ [الزلزلة: الآيات ١ - ٥] تُحدث الأرض أخبارها فتخبر بما فعل الناس عليها، كما أنهم في ذلك الوقت تشهد عليهم أيديهم وألسنتهم وجلودهم، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑥⑤﴾ [يس: آية ٦٥] ولما لاموا جلودهم في الشهادة عليهم ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: آية ٢١] والله (جل وعلا) يخبر أنهم في دار الدنيا ما كانوا يتسترون على أعضائهم خوف أن تشهد عليهم، لا يظنون أنها تشهد عليهم ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ②②وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ [فصلت: الآيتان ٢٢، ٢٣] يعني: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ [الأعراف: آية ٧] على الأنبياء والأمم ما فعله كل إنسان على رؤوس الأشهاد، فَعَلْتَ كذا وكذا، مع أنه يجد كل ما فعل من حين يخط عليه القلم إلى أن يموت مكتوباً في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها؛ وإذا وضع الكتاب خاف أهل الذنوب خوفاً هائلاً شديداً؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ مشفقين: أي خائفين خوفاً عظيماً يتخلله الإشفاق على أنفسهم من الهلاك ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ٤٩] وفي ذلك

الوقت يُعطى كل إنسان كتابه على رؤوس الأشهاد، ويؤمر بأن يقرأه هو بنفسه، كما قال جل وعلا: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: الآيتان ١٣، ١٤] فإذا عرف[1] الإنسان أن جميع ما يقول في دار الدنيا سيُلقىٰ على رؤوس الأشهاد، ويُقص عليه أمام الخلائق في الآخرة: فعلتَ كذا وكذا، في يوم كذا، في تاريخ كذا، وأنه يُلَقَّاه في كتاب منشور على رؤوس الأشهاد، إذا كان المسلم يعرف هذا وعنده مسكة من عقل يجب عليه في دار الدنيا ـ وقت إمكان الفرصة ـ أن لا يخزي نفسه ويخجلها على رؤوس الأشهاد خزياً وخجلاً يجره إلى النار، فيُحاسِبُ، وينظر إلى الملكين المصاحبين له، وأن لا يقول ولا يفعل إلا شيئاً إذا رآه مسجلاً عليه يوم القيامة، أو قيل له: «أنت فعلت» كان يُبَيِّضُ وجهه، ولا يُسَوِّده، ولا يخزيه، ولا يفضحه. وعلى كل واحد منا أن يعلم الحقائق القرآنية، وأسرار الوحي، ولا يبقى كالبهيمة التي تأكل النهار وتنام الليل، هذا لا ينبغي؛ لأن الرحيل قريب والقضاء قريب، والمحاسبة حق، وكل ما فعله الإنسان مسجل عليه، وسيُقرأ على رؤوس الأشهاد، وسيجده في كتاب منشور، فعلينا معاشر الإخوان أن لا نفضح أنفسنا يوم القيامة، وأن لا نُفوِّت الفرصة وقت الإمكان ونضيعها في قال وقيل حتى يضيع العمر المحدد، ويُجر الإنسان إلى القبر وهو صفر الكفين، فقير ليس عنده حسنات، لا ينشر عنه يوم القيامة إلا ما يفضحه ويخزيه، وفضيحة الآخرة وخزيها ليست كفضيحة الدنيا، فالذي يُفضح في الدنيا يكون خسيس العرض وهو في أشد الفضيحة وهو يفرح ويمرح، ويأكل ويشرب، صحيح الجسم، لا أثر عليه. أما فضيحة الآخرة فإنها يتبعها العذاب المخلد، والجر بالنواصي والأقدام إلى النار. فعلينا كُلاً أن ننتهز الفرصة قبل أن يضيع الوقت، وأن لا نُفرِّط لئلا نندم حيث لا ينفع الندمَ، لأن الله (جل وعلا) مسجل علينا كل ما فعلنا؛ ولذا قال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

وقد أجمع جميع العلماء أن مثل هذه الآيات لم ينزل الله من [السماء إلى الأرض][1] واعظاً أكبر، ولا زاجراً أعظم من هذا الزاجر الأكبر، والواعظ الأعظم، الذي لا تكاد تقلب ورقة واحدة من المصحف الكريم إلا وجدت فيها هذا الزاجر الأكبر، والواعظ الأعظم؛ لأن جبار السماوات والأرض، خالق الخلق يقول لكم: يا عبادي الأذلاء الضعفاء المساكين: اعلموا أني مطلع على كل ما تفعلون من الخسائس والخبائث، أُسجله عليكم بعلم حقيقي أزلي إلهي، ولست غائباً عن شيء تفعلونه، بل كل ما تفعلون بمرأى مني ومسمع، فاحذروا أن تنتهكوا حُرماتي، وأن تستوجبوا سخطي وغذابي يوم القيامة.

وضرب بعض العلماء[2] لهذا مثلًا ـ ولله المثل الأعلى ـ وقد كررناه في هذه الدروس تكراراً كثيراً لكثرة تكرار القرآن له في جميع الآيات، لو فرضنا أن هذا البراح من الأرض فيه ملك ـ ولله المثل الأعلى ـ إذا انتُهكت حُرماته يغضب غضباً شديداً، ويُنكِّل بمن أغضبه أشد النكال وأعظمه، وحول هذا الملك نساؤه وبناته وجواريه، أترون أن الحاضرين يخطر في بال أحد منهم أن يشير إلى جارية من جواريه، أو إحدى بناته؟ لا، بل كل منهم خاشع الطرف، خاضع الأعضاء، غايته السلامة، لا يتحرك، ولا يفعل أي شيء يُغضب ذلك الملك وهو ينظر إليه. هذا ـ ولله المثل الأعلى ـ في ملك من الآدميين، يموت وتأكله التراب والدود، فكيف ـ ولله المثل الأعلى ـ بخالق السماوات والأرض، وهو أشد بطشاً وأعظم نكالًا، وهو مطلع عليكم، يقول لكم: اعلموا أن كل ما تفعلون أني مطلع عليه. فلو علم أهل بلدة من البلاد أن أمير ذلك البلد يطلع على كل ما يفعلونه من الخبائث والخسائس في الليل، وأنه يراه، لباتوا متأدبين لا يفعلون إلا شيئاً حسناً خوفاً من عقابه، مع ضعف عقاب ملوك الدنيا ـ ولله المثل الأعلى ـ فالله يقول: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ

---

(١) في الأصل: «من الأرض إلى السماء» وهذا سبق لسان.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: آية ٦١] ولأجل أن هذا الزاجر الأكبر، والواعظ الأعظم، هو أعظم أسباب طاعة الله؛ لأن من راقب الله، ولاحظ أن الله مطلع عليه ـ إن كان عاقلاً ـ استحيا من الله، ولم يرتكب ما يسخط الله، ولا يفضحه هو ويخزيه يوم القيامة. أراد جبريل عليه السلام أن يُعلِّم الصحابة (رضي الله عنهم) هذا الزاجر الأكبر، والواعظ الأعظم، فجاء النبيَّ ﷺ في قصة حديث جبريل المشهورة، وقال له: «يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أخبرني عن الإحسان» والإحسان: هو أن تأتي بالعمل حسناً على الوجه اللائق عند الله (جل وعلا)، والإحسان هو الذي خُلقنا من أجله؛ لأن الله يقول في أول سورة هود: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ثم بين الحكمة في خلقه الخلائق فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: آية ٧] ولم يقل: أكثر عملاً. وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بين الحكمة في خلق الأرض وزينتها قال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: آية ٧] وقال في أول سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: آية ٢] فهذه الآيات دلت على أنه خلق الخلق ليمتحنهم، وهذا لا ينافي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: آية ٥٦] أي: إلا لآمرهم بعبادتي على ألسنة رسلي، وأمتحنهم فيظهر المحسن منهم وغير المحسن. فلما كان الإحسان هو الذي خُلقنا من أجله، أراد جبريل أن ينبه الصحابة على الطريق إليه فقال: «يا محمد أخبرني عن الإحسان» ﷺ. فبين له النبي ﷺ أن طريق الإحسان محصورة في هذا الزاجر الأكبر، والواعظ الأعظم، وهو أن يعلم العبد الضعيف الذليل المسكين أن جبار السماوات والأرض مطلع عليه، حاضر لا يغيب عن شيء من فعله، يعلم كل ما يفعل؛ ولذا قال: **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[1]. فجميع الخلائق الله (جل وعلا) مطلع عليهم، لا يخفى عليه شيء

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

من أعمالهم، لا يغيب عنه شيء من أعمالهم؛ ولذا قال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: آية ٧].

وآية الأعراف هذه وغيرها من الآيات تدل على بطلان مذهب المعتزلة النافين للصفات[١]، فيقولون: إن الله عالم لا بعلم قام بذاته، قادر لا بقدرة قامت بذاته... إلى آخرها. ويقولون: إن العلم لو كان ثابتاً لكان موجوداً أزلياً قديماً، والقديم لا يتعدد. وهذا من سخافة عقولهم، والله أثبت لنفسه أنه عالم بعلم فقال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ وأثبت لنفسه صفة العلم ونظيرها قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: آية ١٦٦] وأثبت النبي ﷺ له صفة العلم والقدرة في دعاء الاستخارة المشهور المأثور: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك**»[٢] فأثبت له صفة العلم وصفة القدرة. فهذه النصوص القرآنية النبوية من الآيات والأحاديث تدل على بطلان سخافة المعتزلة في نفيهم لصفات المعاني وإثباتهم أحكامها؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾.

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: آية ٧] صيغة الجمع في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا﴾ للتعظيم، وقد جاء عن ابن عباس (رضي الله عنه) أن السماوات السبع، والأرضين السبع ومن فيهما في يد الله (جل وعلا) أصغر من حبة خردل في يد أحدنا[٣]. وله المثل الأعلى فهو العلي الأعظم، الكبير الأكبر، الذي لا يخفى عليه شيء، ولا يغيب عنه شيء، فعلينا جميعاً أن نعلم أن كل ما نفعل أن ربنا مطلع عليه، ومُدَّخره لنا فمجازينا عليه، وليعلم كل واحد منا أن حركاته في دار الدنيا هي بيته الذي يبنيه، والذي يصير مصيره الأبدي إليه، فإن كانت حركاته طيبة كلها طاعة لله فإنه يبني بها غرفة من غرف

---

(١) انظر: الأضواء (٢/٢٩١).

(٢) أخرجه البخاري في التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى. حديث رقم (١١٦٢)، (٣/٤٨)، وأخرجه في موضعين آخرين، انظر: الأحاديث رقم: (٦٣٨٢، ٧٣٩٠).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٤/٢٥)، وفي سنده: عمرو بن مالك النكري. وللوقوف على كلام العلماء في هذا الأثر راجع: تخريج أحاديث منتقدة في كتاب التوحيد ص١٣٥.

الجنة، ينال فيها الحور العين، والولدان، ومجاورة رب غير غضبان، والنظر إلى وجه الله الكريم، وإن كانت حركاته في دار الدنيا حركات سيئة مخالفة[١] لما أنزل الله فإن تلك الحركات إنما يبني بها منزله ومصيره الأخير، وهو سجن من سجون جهنم؛ لأنه لا مسكن في الآخرة إلا غرف الجنة أو سجون جهنم، وقد يُدخل الواحد من أهل جهنم في سجنه ومقره كما يُدخل الوتد في الحائط لشدة ضيق مكانه عليه، كما قال جل وعلا: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: آية ١٣] فعلى كل مسلم أن لا يضيع الفرصة، وأن يعلم أنها ليست فوضىٰ، وأنه عبد مملوك مربوب، عليه رقابة إلهية عظمىٰ تُسجل عليه ما يفعل من خير وشر، فليتحرَّ، وأن لا يفعل إلا ما يرضي ربه، ولا يخزيه ولا يفضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد؛ لأنه إذا لم يفعل ذلك جاءه الموت من حيث لا يشعر، وقد يأتيه بغتة فتضيع عليه الفرصة ويندم حيث لا يفيد الندم.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ٨، ٩][٢].

/ بيّن الله (جل وعلا) في أول هذه السورة الكريمة ـ سورة الأعراف ـ ١/٣
أنه كتاب أنزله، وأمر نبيه ﷺ أن ينذر بهذا الكتاب المنزل إليه، وأن لا يكون في صدره حرج، ثم أمر عامة الناس باتباع ما أنزل، ونهاهم عن اتباع غيره، ثم بين لهم أنه أهلك كثيراً من القرى لما أعرضوا عن اتباع ما أنزل واتبعوا غيره. بين في هذه الآية الكريمة أن هذا الكتاب الذي أنزل إليكم والسنة المفسرة المبينة له، التي جاء بها محمد ﷺ، وقد أمركم الله بالعمل بكل ما أنزل في كتابه أو سنة رسوله ﷺ، بين لكم أن المفرط والممتثل منكم ليس واحد منهما يُترك فوضىٰ سدىٰ، بل لا بد أن يُحصىٰ على كل

(١) في الأصل: «مخالفة لغير ما أنزل الله» وهو سبق لسان.

(٢) الآية غير موجودة في التسجيل.

إنسان ما عمل من يوم تكليفه إلى يوم يموت، وأن جميع ما قدم من خير أو شر يوزن يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، فتوزن حسناته وسيئاته بميزان عدل، لا ينقص شعيرة قال: ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ أي: وزن أعمال الإنسان مما قدم في دار الدنيا من حسنات وسيئات.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تقرر في علم العربية أن تنوين (يومئذ) أنه تنوين عوض عن جملة[1]، والجملة التي تُعوض عنها نون التنوين تكون مذكورة سابقاً في أول الكلام والمعنى، فنون التنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عوض عن قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: الآيتان ٦، ٧] أي: ووزن الأعمال يومئذ نسأل الذين أُرسل إليهم ونسأل المرسلين. وزن أعمال الخلائق يومئذ، أي: يوم ذلك السؤال المتقدم وهو يوم القيامة.

﴿ٱلْحَقُّ﴾ قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ مبتدأ بلا خلاف. واختلف المعربون من علماء العربية في خبره[2]، وقال بعضهم: خبره ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، والمعنى: والوزن الحق كائن يومئذ، يوم سؤال الرسل والمرسلين. وعليه فالخبر هو الظرف الذي هو (يومئذ) يُقدر له الكون والاستقرار، والوزن كائن يومئذ، أي: يوم ذلك السؤال المذكور.

وقال بعض العلماء: خبر المبتدأ هو (الحق) أي: والوزن في ذلك اليوم الحق. ف (الوزن) مبتدأ، و (الحق) خبره.

وعلى القول الأول فهو يدل على أن الذين أجازوه من علماء العربية ـ وهم جماعة كثيرة من علماء العربية والمفسرين ـ يدل على أنهم يرون أن المبتدأ إذا كان منعوتاً لا تمتنع الحيلولة بينه وبين نعته بالخبر. هكذا ظاهر صنيعهم وإعرابهم، أن (يومئذ) خبر، و (الحق) نعت للوزن.

وأظهر الإعرابين: أن (الحق) هي خبر (الوزن)، و (يومئذ) ظرف، أي: والوزن في ذلك اليوم الحق العدل.

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (١٥/١).

(٢) انظر: الدر المصون (٥/٢٥٥).

وأصل الحق: الثابت الذي لا يضمحل. والمراد بالحق فيه أنه عدل ثابت لا جور فيه ولا حيف، فلا يُزاد في سيئات مسيء، ولا يُنقص من حسنات محسن، فهو وزن في غاية الحق، وفي كمال العدالة والإنصاف، لا يُظلم صاحبه شيئاً[١]، ولكن قد يُزاد المحسن حسنات إلى حسناته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: آية ٤٠] وفي القراءة الأخرى[٢]: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٌ يُضَٰعِفْهَا﴾.

وهذا الوزن فيه أكبر واعظ وأعظم زاجر. يعني: يا عبادي ما دمتم في دار الدنيا فانتهزوا الفرصة، ولا يضع عليكم الوقت، واعلموا أن كل ما تقدمون وما تقولون وما تفعلون من خير سيوزن بميزان عدل حق قسط على رؤوس الأشهاد، لا يخيس شعيرة، فمن ثقلت موازينه بالحسنات فهو المفلح، ومن خفت موازينه بكثرة سيئاته وقلة حسناته فلا يلومن إلا نفسه.

واعلموا أن جماهير العلماء من عامة المسلمين، سلفهم وخلفهم، علىٰ أن هذا الوزن وزن حقيقي، وأنه يقع بميزان له لسان وكفتان[٣]، توضع السيئات في كفة، والحسنات في كفة، فيثقل الله ما شاء منهما، فإن كانت حسناته أكثر ثقلت كفة الحسنات فصار إلى الجنة، وإن كانت سيئاته أكثر خفت موازينه لقلة حسناته وكثرة سيئاته. وحُقَّ لميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل، وحُقَّ لميزان توضع فيه السيئات أن يخف. والحق إنما كان ثقيلًا في الميزان يوم القيامة لأنه ثقيل على النفوس في دار الدنيا، والباطل إنما كان خفيفاً في الميزان يوم القيامة لخفته على النفوس في دار الدنيا. وهذا الوزن التحقيق الذي عليه السلف أنه وزن حقيقي، بميزان حقيقي، له لسان وكفتان، ينظر إليه جميع الخلائق، توضع أعمال العبد في كفة، الحسنات في كفة، والسيئات في كفة، فإن ثقلت كفة الحسنات صار إلى الجنة، وإن خفت كفة الحسنات صار إلى النار.

---

(١) انظر: الأضواء (٢/٢٩٢).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٧٩.

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/٣١١)، التذكرة للقرطبي ص٣١٣، الجامع لأحكام القرآن (٧/١٦٥)، شرح الطحاوية ص٦٠٩.

واختلفوا في كيفية هذا الوزن على ثلاثة أقوال لا يكذب بعضها بعضاً[١]، وقال بعض العلماء: لا مانع من أن يقع جميعها فذهب أكثر المفسرين إلى أن الموزون هو صحائف الأعمال؛ لأن كل إنسان له كتاب وصحائف فيها عمله، كما قدمنا في قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: الآيتان ١٣، ١٤] فهذا الكتاب متضمن جميع صحف عمله، وأن هذه الصحف يوضع ما كُتب منها فيه الحسنات في كفة، وما كتب فيه السيئات في كفة. وعلى هذا القول الأكثر. واستدلوا له بحديث البطاقة المشهور، الذي أخرجه الترمذي وغيره[٢] وصححه بعض أهل العلم، أن رجلاً يوم القيامة يُجاء له بتسع وتسعين سجلاً كلها مملوءة من السيئات، كل سجل منها مدّ البصر، ثم يقول له ربه: هل تنكر شيئاً من هذا؟؟ فيقول: لا. هل ظلمتك رسلي؟!! لا.. ثم يُؤتى ببطاقة ـ والبطاقة: القطعة الصغيرة قدر الأنملة ـ مكتوب فيها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً ـ ﷺ ـ رسول الله، فيقول: وما تغني هذه البطاقة مع هذه السجلات العظيمة الكثيرة؟! فيقال له: إنك لا تُظلم. فتوضع تلك البطاقة الصغيرة في كفة الميزان وتلك السجلات العظيمة الهائلة في الكفة الأخرى، فطاشت تلك السجلات، وثقلت تلك البطاقة؛ لأن اسم الله (جل وعلا) لا يعادله شيء. استدلوا بهذا الحديث على أن الموزون هو صحائف الأعمال لذكر وزن السجلات ووزن البطاقة التي فيها شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/٣١٠ ـ ٣١٤)، الجامع لشعب الإيمان (٢/٦٩)، ابن كثير (٢/٢٠٢)، التذكرة للقرطبي ص٣١٣، الجامع لأحكام القرآن (٧/١٦٥)، شرح الطحاوية ص٦١٠.

(٢) أخرجه أحمد (٢/٢١٣، ٢٢١)، والترمذي، كتاب الإيمان، باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، حديث رقم (٢٦٣٩)، (٥/٢٤)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب: ما يُرجى من رحمة الله يوم القيامة. حديث رقم (٤٣٠٠)، (٢/١٤٣٧)، والحاكم (١/٦)، (٥٢٩)، والبيهقي في الشعب (٢/٧١)، وابن جرير (١٢/٣١٣)، والبغوي في التفسير (٢/١٤٩)، وانظر: السلسلة الصحيحة، حديث رقم (١٣٥).

وذهبت جماعة من العلماء، ورواه غير واحد عن ابن عباس[١]: أن الموزون نفس الأعمال، وأن الله يُحوِّل الأعمال الحسنة إلى أجرام حسنة مضيئة نيرة، والله (جل وعلا) قادر على كل شيء، فهو قادر على أن يقلب ما ليس بجسم أن يقلبه جسماً، وقد جاء ما يدل على هذا كما جاء في حديث الترغيب في الزهراوين البقرة وآل عمران أنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو فرقان من طير صواف[٢]، وكما جاء في الحديث أن عمل الإنسان يتجسم له في صورة إنسان طيب الريح، وكذلك العمل الخبيث[٣]، وكما جاء في بعض الأحاديث أن القرآن يتمثل لصاحبه في قبره[٤]، وأمثال هذا كثيرة جداً. وعلى كل حال فالله قادر على أن يقلب الأعمال أجساماً، فهو قادر على كل ما يشاء، فيجعل الأعمال الصالحة في صور نيرة حسنة. والأعمال القبيحة في صور مظلمة قبيحة، فتوضع هذه في كفة الحسنات وهذه في كفة السيئات، فتثقل موازين بعض، وتطيش موازين آخرين والعياذ بالله.

وقال بعض أهل العلم: إن ما يوزن: أصحاب الأعمال. واستدلوا بالحديث المعروف المشهور: أن الرجل السمين ـ الأكول الشروب ـ يأتي يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة[٥]. وفي مناقب عبدالله بن مسعود:

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٩/٢)، والبغوي في التفسير (١٤٩/٢)، ونقله عنه ابن كثير (٢٠٢/٢)، وذكره السيوطي في الدر (٧٠/٣)، وهذا الأثر لا يصح عن ابن عباس (رضي الله عنهما) لأنه من طريق الكلبي عن أبي صالح.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين: باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة. حديث رقم (٨٠٤ ـ ٨٠٥)، (٥٥٣/١ ـ ٥٥٤)، من حديث أبي أمامة والنواس بن سمعان (رضي الله عنهما).

(٣) كما في حديث البراء (رضي الله عنه) مرفوعاً عند أحمد (٢٩٥/٤)، وأصله في الصحيحين.

(٤) كما في حديث بريدة (رضي الله عنه) عند أحمد (٣٥٢/٥)، وابن ماجه في الأدب، باب ثواب القرآن. حديث رقم (٣٧٨١)، (١٢٤٢/٢)، وأورده الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٠٤٨)، وقال: ضعيف يحتمل التحسين.

(٥) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ =

أنهم لما رأوا دقة ساقيه قال لهم ﷺ: **«إنها في الميزان أثقل من جبل أُحد»**[(١)].

وما قاله ابن فورك وغيره من المتكلمين: إن وزن حقيقة الأعمال مستحيل؛ لأن ما ليس بجسم يستحيل أن يكون جسماً[(٢)]!! لا يُعوّل عليه لأن الله قادر على كل ما يشاء، لا يتعاصى على قدرته شيء، فهو قادر على ما شاء، وقادر على ما لم يشأ أيضاً، فهو قادر على هداية أبي بكر وأبي لهب، وقد شاء أحد المقدورين وهو هداية أبي بكر، ولم يشأ مقدوره الثاني وهو هداية أبي لهب.

فهذه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الموزون صحف الأعمال.

والثاني: أن الموزون الأعمال، تُقلب أجساماً في صور موزونة.

الثالث: أن الموزون أصحاب الأعمال. وكان ابن جرير الطبري ـ كبير المفسرين ـ يرى أن كفة الحسنات يكون فيها نفس الشخص وحسناته، وأن الكفة الأخرى فيها سيئاته[(٣)]، هكذا يقوله العلماء. وعلى كل حال فالتحقيق أنه وزن حقيقي بميزان ذي لسان وكفتين.

وظاهر القرآن تعدد هذه الموازين؛ لأنه قال في سورة الأنبياء: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ

= حديث رقم (٤٧٢٩)، (٨/٤٢٦)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار. حديث رقم (٢٧٨٥)، (٤/٢١٤٧).

(١) أخرجه أحمد (١/٤٢٠، ٤٢١)، والطبراني في الكبير (٩/٧٥ ـ ٧٦)، (١٩/٢٨)، وابن أبي شيبة (١٢/١١٣)، والحاكم (٣/٣١٧).

(٢) عبارة ابن فورك: «وقد أنكرت المعتزلة الميزان بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها إذ لا تقوم بأنفسها، ومن المتكلمين من يقول...» ا.هـ التذكرة ص٣١٣، وانظر: القرطبي (٧/١٦٥).

(٣) ابن جرير (١٢/٣١٤).

خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ وفي القراءة الأخرى(١): ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: آية ٤٧] وقال في القارعة: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: الآيات ٤ ـ ١١] وقال في سورة (قد أفلح المؤمنون): ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ١٠١ ـ ١٠٤] فهذه الآيات تعبر بالجمع في الميزان، وظاهرها التعدد.

وذهبت جماعة من العلماء إلى أن الميزان واحد، وأنه أُطلق عليه اسم الجمع لكثرة ما يُوزن فيه من أنواع الأعمال، وكثرة الأشخاص العاملين الموزونة أعمالهم(٢).

وعلى كل حال فكل ما قدمت أيها الإنسان في دار الدنيا سيوضع لك في كفة، وما قدمت من شر سيوضع في كفة، فإن رجح خيرك على شرك ذهبت إلى الجنة فرحاً مسروراً، وإن رجح شرّك على خيرك فلا تلومن إلا نفسك. وربنا (جل وعلا) يذكرنا بهذا ويعظنا به في دار الدنيا، في وقت إمكان الفرصة؛ لئلا تضيع علينا الفرصة، فعلينا أن نكثر من الحسنات، ونُجانب السيئات؛ ليكون ما في موازيننا يثقل عندالله فنفرح به ونُسر وندخل الجنة، فالسفيه كل السفيه، والمتأخر حق المتأخر هو الذي لا يُراعي أوامر الله، وإنما يجمع في الدنيا من السيئات ليثقل بها كفة السيئات وتطيش كفة الحسنات، فيفضح على رؤوس الأشهاد ويجر إلى النار. هذا الخبيث المغفّل وإن سَمّوه في الظروف الراهنة متقدماً متنوراً مسايراً ركب الحضارة!!

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٠٢.

(٢) انظر: القرطبي (١٦٦/٧)، شرح الطحاوية ص٦١٠.

فهو الحمار المغفل الذي لا يفهم ما أمامه، وهو أشد الناس تأخراً، وسيعلم أنه الأرذل المتأخر إذا مات وفارقت روحه جسده، ووجد ما عند الله من العدل والإنصاف، ووجده لم يقدم إلا السيئات والخبائث والتمرد على من خلقه، فإذا وزنت سيئاته، وكانت كثيرة جداً، ولم توجد له حسنات فعند ذلك سيعلم هل هو كان متقدماً أم لا؟! وهل كان عاقلًا فطناً أم لا؟!! بل يعلم أنه هو المتأخر الفدم(١) البليد الحمار الذي لا يفهم عن الله شيئاً!! وعما قليل ستنكشف الحقائق ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: آية ٣٨] فسيقع ما سيقع، فعلى المؤمن أن يكون عاقلاً فطناً، وأن لا يهلك نفسه بيده، وأن يلاحظ أنه يوم القيامة ستوزن سيئاته وحسناته على رؤوس الأشهاد، فإن كانت سيئاته أرجح جُرّ مخزياً مفضوحاً إلى النار، وإن كانت حسناته أرجح جاء مسروراً كريماً إلى الجنة. فعلى الإنسان أن لا يُهلك نفسه في دار الدنيا باتباع الشهوات واتباع المضللين، وأن لا تَطَّبِهِ الشعارات الزائفة المضللة التي تصرفه عن طاعة من خلقه إلى طاعة الشيطان فيخيب يوم القيامة ويخسأ عند الوزن. فعلى كل أحد أن يُعد لهذا الوزن عدته يوم القيامة.

وقد قدمنا أن جمهور علماء المسلمين أنه وزن حقيقي بميزان ذي لسان وكفتين.

وهنا سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم:

ما اعتل به الضالون المعتزلة النافون للميزان، القائلون: إنه ليس هناك ميزان حقيقي. يقولون: إن الله عالم بأعمال خلقه فما حاجته إلى أن يزنها، فهو عالم كُلّا منها غاية العلم، محيط بقدر حسناته وبقدر سيئاته، فأي حاجة إلى وزن الأعمال والرب (جل وعلا) عالم بحقيقتها بعلمه المحيط بكل شيء، عالم أيها الراجح؟!(٢).

والجواب: أن الله (جل وعلا) يزن أعمال خلقه يوم القيامة ليُري خلقه

---

(١) الفدم: بعيد الفهم قليل الفطنة. انظر: المصباح المنير (مادة: فدم) ص١٧٧.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٣١٢/١٢)، شرح الطحاوية ص٦٣، البحر المحيط (٢٧٠/٤).

كمال عدالته وإنصافه، وإن كان ذلك لا يحتاج، كما يكتب عليهم ذلك في كتب ويُسجِّله عليهم ويقول للواحد: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء: آية ١٤] هذا خزياً له وتسجيلاً على رؤوس الأشهاد، وكذلك يُشهد عليهم ألسنتهم، وأيديهم، وأرجلهم، وجلودهم، وهو غني عن كل ذلك، كل هذا لإظهار إنصافه وعدالته، ولتوبيخ أولئك الخبثاء الأخساء على رؤوس الأشهاد.

أمَّا المعتزلة فقد قالوا: إن الميزان لا حقيقة له، وإنما المراد بالوزن: العدالة في الجزاء، قالوا: وهذا معروف في كلام العرب، يقولون: هذا الكلام يوازن هذا الكلام، وهذا الرجل يوازن هذا الرجل. والميزان معناه: القسط التام والعدالة، وأن لا يُظلم إنسان شيئاً. قالوا: وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[(١)]:

قد كنتُ قبل لقائِكُمْ ذا قوةٍ عندي لكل مُخاصمٍ ميزانُه

أي: ما يوازن كلامه وحجته. ومع الأسف قد سبق المعتزلة لهذا القول مجاهد، والضحاك، والأعمش[(٢)]!! وهو قول باطل مخالف لما عليه أهل السنة والجماعة كما ذكرنا.

وإن كان الوزن يطلق على العدل، إلا أن الأحاديث النبوية، وظواهر القرآن العظيمة، وسائر المسلمين ـ إلا من شذّ ـ كلها متفقة على أنه ميزان حقيقي له لسان وكفتان كما ذكرنا، والأحاديث بمثله كثيرة لا ينكرها إلا مكابر، وهو الحق الصحيح إن شاء الله. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: آية ٨].

متعلَّق (الوزن) هنا محذوف. و (الوزن) مصدر (وَزَنَ، يَزِنُ، زِنَةً،

---

(١) البيت في اللسان (مادة: وزن) (٩٢١/٣)، وفيه (مِرَّة) بدل (قوة).

(٢) انظر: قول مجاهد في ابن جرير (٣٠٩/١٢)، (٣١١)، (٣١٥)، البغوي (١٤٩/٢)، الدر المنثور (٦٩/٣)، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم، وعزاه إليه القرطبي وإلى الضحاك والأعمش. انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٦٥/٧)، التذكرة ص٣١٣، البحر المحيط (٢٧٠/٤)، ولعل نسبته إلى الأعمش والضحاك لا تصح، والله أعلم.

ووزناً)، كوعد، يَعِدُ، عِدَةً، ووَعْداً، ووَصَلَ، يَصِلُ، صِلَةً، ووصْلاً، ومتعلَّق المصدر محذوف، والوزن للأعمال في الموازين كائن يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ العدل الذي لا جور فيه، فلا يُزاد في سيئات مسيء، ولا ينقص من حسنات محسن.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: بكثرة حسناته. جَمَعَ الموازين لأن (من) هنا بمعنى جماعة كثيرة، سواء قلنا: إنها شرطية، أو موصولة فإنها تعم، وهي لجماعة كثيرة، بدليل قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ولم يقل: «فذلك هو المفلح» بالإفراد، فإفراد الضمير في قوله: ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ والجمع في الإشارة والضمير في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الأول بالنظر إلى لفظ (من). والثاني: بالنظر إلى معناها[(١)]. وقد قدمنا أن ظاهر الآيات تعدد الموازين، وأن كثيراً من العلماء قالوا: إنه ميزان واحد، وأُطلق عليه اسم الجمع تفخيماً له. والعرب تطلق الجمع وتريد المفرد كعكسه. كما يقولون: سار فلان إلى البصرة بالسفن. وهو في سفينة واحدة، وراح إلى الشام على البغال. وهو راكب بغلة واحدة. وقال بعض العلماء: الموازين جمع موزون، والموزون هو الحسنات والسيئات. وجمع (الموزون) على موازين جمع قياسي مُطرد. وعلى هذا فلا سؤال ولا إشكال[(٢)]. وعلى أنه جمع (ميزان) فظاهر القرآن التعدد، كقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: آية ٤٧] أو أنه لفظ جمع أُطلق وأُريد المفرد نظراً لكثرة ما يُوزن فيه من الأعمال.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: آية ٨] أي: كانت حسناته أكثر، ولا يهلك على الله إلا هالك؛ لأن الحسنة الواحدة توضع في الميزان بعشر حسنات، والسيئة توضع في الكفة الأُخرى سيئة واحدة وإن شاء الله غفرها، فمن غلبت آحاده عشراته فلا خير فيه!! وربما كانت الحسنة توضع بسبعمائة حسنة، فدرهم الإنفاق يوضع بالميزان حسنته بسبعمائة ضعف، كما قال جل

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/٣١٥).

(٢) انظر: القرطبي (٧/١٦٦)، شرح الطحاوية ص٦٠٩، البحر المحيط (٤/٢٧٠)، الدر المصون (٥/٢٥٦).

وعـــــــلا: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ ثم بين أن المضاعفة قد تزيد قال: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: آية ٢٦١] وقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: آية ٢٤٥] فالأضعاف الكثيرة أكثر من عشرة، فالله (جل وعلا) كريم لا يهلك عليه إلا هالك، فالحسنة أقل درجاتها عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله، والسيئة إما أن يغفرها، وإن لم يغفرها وُضعت في الميزان سيئة واحدة [فعلينا أن نُحاسِب][1] وأن نكثر من الحسنات، ونتجافى عن السيئات، ونخشى من خالق السموات والأرض، فمن أكثر السيئات في دار الدنيا، وأقل الحسنات فإنما يهلك نفسه بيده؛ لأنه إذا حضر الوزن، ورأى كثرة السيئات، وقلة الحسنات، والفضيحة، والجرّ بالنواصي والأقدام إلى النار ندم في ذلك الوقت حيث لا ينفع الندم. فعلينا جميعاً أيها الإخوان المسلمون أن ننتهز الفرصة وقت الإمكان، وأن لا نُضيعها لئلا نندم حيث لا ينفع الندم؛ لأن الفرصة إذا فاتت بالموت انتهى كل شيء، والله يقول: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ كيف يتناولون العمل الصالح وقد مضى أوانه بالموت. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: ثقلت كفة الحسنات بكثرة الحسنات، وطاشت كفة السيئات؛ لأنها صارت أرجح منها كفة الحسنات.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الجمع في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ﴾ نظراً إلى معنى (من)[2]، وإفراد الضمير في (موازينه) عائد إلى لفظ (من)، ولفظها مفرد ومعناها جمع.

و(المفلحون) جمع تصحيح للمفلح، والمفلح: هو اسم فاعل أفلح يُفلح فهو مُفلح. وأصل الفلاح في لغة العرب: اسم مصدر بمعنى الإفلاح؛ لأن مصدر (أفلح) القياسي أن يقال: إفلاحاً؛ لأن (أفعَل) إذا كانت صحيحة

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) انظر: ابن جرير (٣١٥/١٢).

العين ينقاس مصدرها على (الإفعال) بقياس مطرد. فالفلاح اسم مصدر نائب عن (الإفعال).

والفلاح في لغة العرب يُطلق إطلاقين مشهورين، وكل منهما يدخل في الآية الكريمة[(١)]:

الأول من إطلاقي الفلاح: أن العرب تقول: «أفلح فلان». إذا فاز بمطلوبه الأكبر، فكل إنسان كان يحاول مطلوباً أعظم ثم ظفر به وفاز بما كان يرجو فهذا قد أفلح، ومنه قول لبيد بن ربيعة[(٢)]:

اعـقـلـي إن كـنـتِ لـمَّـا تـعـقـلـي ولـقـد أفـلـحَ مـن كـانَ عَـقَـلْ

يعني: أن من رزقه الله نور العقل فقد فاز بالمطلوب الأكبر الذي يطلبه كل إنسان؛ لأن العقل يعقل صاحبه عن كل ما لا ينبغي، ويحجزه عن كل ما يشين. ومنه بهذا المعنى أيضاً قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: آية ١] فهو محتمل للمعنيين أيضاً. والفلاح في جميع القرآن محتمل للمعنيين المذكورين.

الأول: هو ما ذكرنا: أنه الفوز بالمطلوب الأكبر.

الثاني: أن المراد بالفلاح: الدوام والبقاء السرمدي في النعيم. فكل من كان له دوام وبقاء في النعيم تقول العرب: «نال الفلاح». وهذا المعنى معروف في كلامهم. ومنه قول الأضبط بن قريع، أو كعب بن زهير على أحد القولين[(٣)]:

لـكـل هـمٍ مـن الـهـمـومِ سَـعَـهْ والـمُـسْـي والـصـبـحُ لا فـلاحَ مَـعَـهْ

يعني: أن تعاقب الليل والنهار لا بقاء للإنسان في دار الدنيا معه،

---

(١) انظر: المفردات (مادة: فلح) ص٦٤٤، اللسان (مادة: فلح) (١١٢٥/٢)، الأضواء (٢٠٤/٦).

(٢) البيت في ابن جرير (٢٥٠/١).

(٣) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

ومنه بهذا المعنى قول لبيد بن ربيعة في رجزه[١]:

لـو أن حـيّـاً مُـدرك الـفَـلاحِ لـنـالَـه مُـلاعـبُ الـرمـاحِ

يعني: لو كان إنسان خالداً لا يموت لنال الخلود ملاعب الرماح. يعني عمه أبا براء عامر بن مالك، المعروف، أحد بني أم البنين الأربعة. وبهذين المعنيين فُسر حديث الإقامة والأذان (حي على الفلاح) قال بعض العلماء: حيّ: بمعنى هَلُمّ وتعالوا إلى الفوز بالمطلوب الأكبر، وهو الجنة، والسعادة، ورضى الله؛ لأن أكبر أسباب ذلك الصلاة.

القول الثاني: (حي على الفلاح) هَلُمَّ إلى البقاء السرمدي في جنات النعيم؛ لأن أكبر أسباب ذلك: الصلاة؛ لأن الصلوات الخمس هي أعظم دعائم الإسلام بعد الشهادتين. وهذا معنى قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ الخفة معناها: الطيش وعدم الرجحان. ومن طاشت موازينه سواء قلنا إنها الكفة التي فيها السيئات، أو نفس السيئات عند من يقول أي: خفت كفة الميزان لقلة ما فيها من الحسنات؛ لأن الحسنات إن كانت قليلة كان الميزان خفيفاً؛ لأن المعتبر في الحقيقة ثقله: الحسنات، فإن كثرت ثقُل الميزان، وإن قلت خفّ الميزان وخفت الكفة الأخرى التي فيها السيئات. ومعنى: ﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ كثرت سيئاته ـ والعياذ بالله ـ على حسناته.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ فأولئك الذين خفت موازينهم لقلة حسناتهم وكثرة سيئاتهم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾، والله (جل وعلا) قال هنا إنهم خسروا أنفسهم؛ لأنهم قد رُزِئُوا في أنفسهم، وأكبر الأدلة على خسرانهم أنفسهم: أنهم إن صاروا إلى النار أكبر مُنْيَةٍ يتمنونها، وأكبر غرض يطلبونه: هو أن يموتوا وتعدم أنفسهم فتصير لا شيء؛ ولذلك يقولون: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾ [الزخرف: آية ٧٧] ولكن أمنيتهم العظمى التي هي الموت لا يحصلونها أبداً؛ لأن الله يقول:

(١) مضى عند تفسير الآية (١١١) من سورة الأنعام.

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: آية ٣٦] ويقول (جل وعلا) في الكافر: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: آية ١٧] ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: آية ٧٤] فمن كانت أمنيته الموت، وغايته الكبرى أن يستريح من نفسه من وجودها إلى العدم فمعلوم أنه خسرها؛ ولذا قال: ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [الأعراف: آية ٩] وأصل الخسران في لغة العرب: هو نقصان مال التاجر، سواء كان نقصاً في ربح المال، أو نقصاً في رأس المال[١]. والخسران في اصطلاح الشرع: هو غبن الإنسان في حظوظه من ربه (جل وعلا)؛ لأن الإنسان إذا غُبن في حظوظه من ربه (جل وعلا) فقد خسر الخسران المبين، وقد أقسم الله (جل وعلا) ـ وهو أصدق من يقول ـ في سورة كريمة من كتابه ـ وكل سورة منه كريمة ـ ألا وهي (سورة العصر) أن الخسران لا ينجو منه إنسان كائناً ما كان إلا بأعمال معينة مبينة، وذلك في قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ﴾ معناه: إن كل إنسان كائناً من كان ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: الآيات ١ ـ ٣] فهذا الخسران لا يُنجي منه شيء أبداً كما أقسم عليه رب السماوات والأرض إلا الإيمان، والأعمال الصالحات، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. هذا الذي يُنجي من الخسران.

وقد بينا في هذه الدروس مراراً أن العلماء ضربوا لهذا الخسران مثلين:

أحد ذينك المثلين: أن كل إنسان كائناً من كان أعطاه الله في دار الدنيا رأس مال، ورأس مال الإنسان هو جواهر نفيسة، وأعلاق عظيمة لا يماثلها شيء من الدنيا، فهي أعظم من كل اليواقيت، وأعظم من كل الجواهر، ولا يماثلها شيء في الدنيا أبداً: هذه الجواهر التي هي رأس ماله هي ساعات عمره، أيام عمره وشُهوره ولياليه وأعوامه، فهذا رأس مال

(١) انظر: المفردات (مادة: خسر) ص٢٨١.

الإنسان. فاعلم أيها الإنسان أن عمرك هو رأس مالك[١]:

إذا كان رأسُ المال عمرك فاحترز عليه من الإنفاقِ في غيرِ واجبِ

فإن كان صاحب رأس هذا المال رجلًا متقدماً حقيقة لبقاً عارفاً حاذقاً اتجر مع ربه برأس هذا المال، فنظر ساعات العمر، فكل وقت منها يتوجه فيه أمر من خالق السماوات والأرض، كأوقات الصلوات، وأوقات الصوم، والعبادات المؤقتة، يبادر إلى مرضاة خالقه، فيتَّجر مع خالقه ـ (جل وعلا) ـ ويُحرك رأس المال مع خير من يُتجر معه، وهو رب السماوات والأرض ـ (جل وعلا) ـ ويكثر من طاعات ربه ومرضاة ربه، وينظر كل شيء حرّمه خالقه أو نهى عنه فيجتنبه ويتباعد منه. وهذه هي تحريكه رأس المال وتجارته مع رب العالمين؛ ولذا سمى الله هذا العمل الصالح، وإنفاق العمر فيما يُرضي الله، سماه في آية: تجارة، وفي آية: بيعاً، وفي آية: شراء، وفي آية: قرضاً. والكل بمعنى واحد. قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: آية ٢٤٥] فسمى العمل الصالح قرضاً. وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ ثم بين عوض هذا التاجر: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ إلى آخر الآيات [الصف: الآيات ١٠ ـ ١٢]، وقد سماه بيعاً وشراءً في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: آية ١١١] وقال: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: آية ١١١] فالإنسان اللبق الحاذق لا يضيع هذه الجواهر النفيسة، والأعلاق العظيمة، التي هي ساعات عمره ودقائقه وثوانيه، بل يحرك رأس هذا المال، ويتجر به مع خير من يُتجر معه، وهو خالق السماوات والأرض، إن جئت بحسنة جاءك بعشر حسنات إلى سبعمائة إلى ما لا يعلمه إلا الله، إن جاءه عبده يمشي أتاه ربه هرولة، وإن تقرب إليه باعاً تقرب (جل وعلا) إليه ذراعاً، سبحانه ما أعظمه وما أكرمه. فالإنسان العاقل يتجر برأس هذا المال مع رب العالمين، فلا

(١) البيت في الخزانة (١/٣١).

تضيع عليه هذه النفائس والأعلاق الثمينة، فيصرف أوقاته فيما يرضي الله، وإذا كان معه تعب. فليكف عما لا يرضي ربه، فيكون عمله إما أن يكون خيراً يستجلبه، وإما أن يكون سلامة من الشرور، فيكون على خير، فيربح من هذه التجارة: الحور، والولدان، وغُرف الجنان، ومجاورة رب غير غضبان، والنظر إلى وجه الله الكريم، ومُلك لا ينفد ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾ [الإنسان: آية ٢٠].

وإذا كان صاحب رأس هذا المال مغفلًا أحمقَ، قليل الفهم عن الله، ليس عارفاً بحقائق الأمور، لا يدري الفرق بين التقدم والتأخر، ولا بين التَّنَوّر وغير التَّنوُّر، فإنك تراه يتلاعب بهذه الجواهر النفيسة التي أعطاه الله، وهي أيام عمره، ولا يُقدرها، ويُمضيها في قيل وقال، وربما أمضى أكثرها في مساخط الله، وما يستوجب غضب الله، من الوقوع في محارمه، والتمرد على نظامه، واتباع كل ناعق من شياطين الإنس والجن الذين يدعون إلى النار، وإلى سخط الله (جل وعلا)، حتى ينقضي الوقت المحدد من أيام عمره، فيؤخذ روحه من بدنه فيموت فيضيع عليه رأس المال، فيُجر إلى القبر وهو مفلس فقير. والآخرة يا إخوان دار لا تصلح للفقراء المفاليس؛ لأنها ليس فيها سلف، ولا بيع، ولا إرفاق، وإنما فيها ما قدم الإنسان من عمل في دار الدنيا(١):

لا دارَ للمرء بعد الموتِ يسكنها ... إلا التي كان قبل الموتِ يبنيها
فإن بناها بخير طابَ مسكنُه ... وإن بناها بشرٍ خابَ بانيها

والآخرة ليس فيها منزل إلا غرفة من غرف الجنة، أو سجن من سجون النار ـ والعياذ بالله ـ وسنتكلم ـ إن شاء الله ـ في أثناء هذه السورة الكريمة على أصحاب الأعراف، وما قصتهم، وما الذي جعلهم على الأعراف، ونذكر كلام العلماء فيه. فعلينا جميعاً أن لا نضيع رأس هذا المال، فمن ضيع رأس ماله وأفنى عمره فيما لا يرضي ربه ضاع رأس المال، وإذا ضاع رأس المال فالربح

---

(١) من قصيدة منسوبة لعلي (رضي الله عنه) وهي في الديوان المنسوب إليه ص١٥٤.

أضيع وأضيع، فيصير إلى سجن من سجون جهنم ـ والعياذ بالله ـ هذا أحد مثلي الخسران الذي ضرب العلماء له.

المثل الثاني: هو ما جاء به حديث عن النبي ﷺ[١]، وحسنه بعض العلماء، ولا بأس به ـ إن شاء الله ـ أن كل إنسان كائناً من كان له منزل في الجنة ومنزل في النار، فالله يجعل منزلًا في الجنة باسم كل إنسان، ومنزلًا في النار باسم كل إنسان. فإذا أدخل الله أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أطلع أهل الجنة على منازلهم في النار لو أنهم كفروا بالله وعصوه لتزداد غبطتهم وسرورهم بما هم فيه، وعند ذلك يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: آية ٤٣] ثم إنه يُري أهل النار منازلهم في الجنة لو أنهم أطاعوا الله وآمنوا واتقوا لتزداد ندامتهم وحسرتهم، وعند ذلك يقول الواحد منهم: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: آية ٥٧] ثم إن الله يحكم بمنازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة، وبمنازل أهل الجنة في النار لأهل النار، ومن كانت صفقته بيع منزله في الجنة بمنزل غيره في النار فصفقته خاسرة، وهو من الخاسرين بلا شك. هكذا قال بعض العلماء وهذا معنى قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: آية ٩].

(ما) هنا مصدرية، والباء سببية. يعني: خسروا أنفسهم بسبب كونهم ظالمين بآياتنا.

قال بعض العلماء[٢]: إنما عدّى الظلم هنا بالباء لأنه مُضمّن معنى الكفر والجحود، والجحود يُعدّى بالباء كقوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ وقد جاء في القرآن تسمية الجحود في الآيات (ظلماً) كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ [النمل: آية ١٤].

---

(١) جاء في هذا المعنى حديث عن أبي هريرة (رضي الله عنه) مرفوعاً عند الإمام أحمد (٥١٢/٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (٣٩٩/١٠)، وقال: «وفي رواية: لا يدخل أحد النار إلا رأى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة، ولا يدخل أحد الجنة إلا رأى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً. رواه كله أحمد ورجال الرواية الأولى رجال الصحيح» ا.هـ.

(٢) انظر: الدر المصون (٢٥٧/٥).

وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قد قدمنا في هذه الدروس[١] أن الآيات جمع آية، وأن أكثر علماء الصرف على أن وزنها (فَعَلَة)، وأن أصلها (أَيَيَة) فاؤها همزة، وعينها ياء، ولامها ياء، بعدها هاء تأنيث لفظية. وقد اجتمع فيها موجبا إعلال؛ لأن فيها حرفي لين كل منهما متحرك بحركة أصلية بعد فتح، فالياءان كل منهما تستوجب إعلالاً، والمقرر في علوم العربية: أنه إذا اجتمع موجبا إعلال كان الحرف [الأخير هو الذي وقع فيها الإعلال. ولكنه وقع هنا في الحرف الأول على خلاف القاعدة الكثيرة المطردة، وهو جائز.

وقيل أصلها: (أَيَاه) ولكن الإعلال وقع هنا في الحرف الأول فصار (آية)، ولها في اللغة معنيان:

المعنى الأول: بمعنى (العلامة)، تقول العرب: «الآية بيني وبينك كذا» أي: العلامة بيني وبينك كذا. ومنه قوله تعالى:][٢]

٣/ب / ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ أي: علامة ملك طالوت عليكم ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ الآية [البقرة: آية ٢٤٨] وهذا معروف في كلام العرب. وقد جاء في شعر نابغة ذبيان ـ وهو جاهلي عربي قُح ـ تفسير الآية بالعلامة حيث قال[٣]:

توهمتُ آياتٍ لها فعرفتُها ... لستةِ أعوامٍ وذا العام سابعُ

ثم بيّن أن مراده بالآيات: علامات الدار حيث قال بعده:

رماد ككُحْلِ العينِ لأياً أُبينُه ... ونُؤيٌ كجِذمِ الحوضِ أثْلَمُ خاشعُ

هذا هو المعنى المشهور للآية، أن معناها العلامة، فآية كذا: علامة كذا.

المعنى الثاني: أن العرب تطلق الآية وتريد الجماعة، تقول: جاء القوم بآيتهم. أي: بجماعتهم، ومنه بهذا المعنى قول بُرج بن مُسْهِر الطائي[٤]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٢) في هذا الموضع ذهب بعض التسجيل. وتم استدراك النقص من كلام الشيخ (رحمه الله) في موضع سابق عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام (بتصرف).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

خرجنا من النَّقْبَين لا حيَّ مثلنا بآيتنا نُزجي اللقاحَ المطَافِلاَ

يعني: بجماعتنا. فإذا علمتم أن الآية في اللغة تطلق على العلامة، وعلى الجماعة، فهي في القرآن العظيم باستقراء القرآن العظيم تطلق إطلاقين:

أحدهما: الآية الكونية القدرية، وهي ما نصبه الله (جل وعلا) ليدل به خلقه على أنه الواحد الأحد الأعظم الصمد المستحق لأن يعبد وحده كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: آية ١٦٤] أي: لعلامات واضحة جازمة قاطعة بأن من خلقها هو رب هذا الكون، وهو المعبود وحده (جل وعلا) سبحانه عما يشركون، وهذا كثير.

وتطلق الآية في القرآن إطلاقاً آخر، ومعناها: الآية الشرعية الدينية، كآيات هذا القرآن العظيم، ومنه قوله هنا: ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: آية ٩] لأنه قال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٣] وذلك الذي أُنزل إليهم من ربهم أعظمه الآيات السماوية القرآنية التي تُتلى، وآيات الكتب، فلما ظلموا بها وجحدوا بها كانوا ظالمين ودخلوا النار. ومن الآية الشرعية الدينية قوله تعالى: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الطلاق: آية ١١] ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الجمعة: آية ٢] فالآية الكونية القدرية في القرآن من الآية بمعنى العلامة بلا نزاع. والآية الشرعية الدينية قيل هي من الآية بمعنى الجماعة؛ لأن كل آية اشتملت على جماعة وجملة من حروف القرآن وألفاظه متضمنة لبعض ما فيه من الإعجاز، والعقائد، والحلال والحرام. وقيل أيضاً: إنها من العلامة؛ لأنها علامات على صدق من جاء بها؛ ولأن لها مبادىء ومقاطع هي علامات على انتهاء هذه الآية وابتداء الأخرى. وهذا معنى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: آية ٩].

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٠ ـ ١٣].

لما أمر الله (جل وعلا) خلقه في أول هذه السورة الكريمة فقال لهم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ﴾ [الأعراف: آية ٣] ثم إنه وعظهم وأخبرهم أنه يسألهم، وأنه يقصّ عليهم أعمالهم بعلم، وأنه لم يكن غائباً عن شيء عملوه في دار الدنيا، وأنه يزن أعمالهم بميزان فلا يخيس شعيرة، بيّن لهم أنه أنعم عليهم في دار الدنيا من أنواع الإنعام إنعاماً عظيماً ينبغي لهم أن يشكروا له ذلك الإنعام، وأن لا يستعينوا بإنعامه على معصيته، فإن من أعظم أنواع اللؤم والخساسة أن ينعم علينا رب السماوات والأرض العظيم الأعظم بنعمه الكثيرة ثم نستعين بها على معصيته وما لا يرضيه!! هذا من أقبح القبيح، وأشنع الشنيع، الذي لا ينبغي لأحد أن يفعله.

وقد نبّهنا في هذه الآيات على بعض الإنعام الذي أنعم علينا قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: آية ١٠] والله لقد مكناكم في الأرض. أي: جعلناكم متمكنين فيها، متصرفين قادرين على استجلاب المعايش والرفاهية والراحة بما هيأنا لكم من الأسباب، جعلنا لكم الأرض ساكنة قابلة لأن تبنوا عليها، وتبنوا منها البيوت التي هي هنيّة لذيذة للمقام، ثم جعلناها قابلة لأنواع الازدراع لتزرعوا فيها ما تأكلون وما تلبسون، ثم خلقنا لكم الأنعام، وذللناها لكم، فمنها ركوبكم ومنها تأكلون، أنبتنا لكم فيها الأصواف، والأوبار، والأشعار لتلبسوا منها، وجعلنا لكم لحومها لتأكلوا منها، وأسمانها، وألبانها، وأزبادها، وجعلنا لكم الحديد لتستعينوا به على أمور دنياكم وفلاحتكم، إلى غير ذلك من سائر الأسباب والتمكين الذي مكنه لنا في الدنيا.

وقال بعض العلماء: (مكناكم فيها) أي: جعلنا لكم فيها أمكنة تسكنون بها في الدنيا ذاهبين وراجعين. والله جعل لنا الأرض تضمُّنا على ظهرها

أحياء، وفي بطنها أمواتاً كما يأتي في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦﴾ [المرسلات: الآيتان ٢٥، ٢٦] ﴿كِفَاتًا﴾ أي: محلًا لكفتكم. أي: ضمكم. والكَفْت في لغة العرب: الضم. أي: تضمكم على ظهرها في دار الدنيا أحياء متنعمين بما فيها من المنافع والمعايش، وتضمكم في بطنها أمواتاً إذا متم[١]. ولذا قال هنا: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والله (جل وعلا) مكَّن لعباده في الأرض. هيأ لهم الأرزاق، وأنزل لهم المطر، وأنبت لهم النبات، وخلق لهم الحيوانات وجميع المرافق التي تعينهم على دنياهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ [الأعراف: آية ١٠] قرأه عامة القراء بالياء[٢] ﴿مَعَٰيِشَ﴾ بكسر الياء غير مهموز، وما رواه خارجة بن مصعب عن نافع من أنه قرأها: ﴿معائِش﴾ بالهمز لا أصل له، والرواية ضعيفة جداً، ومخالفة للقانون العربي. وكذلك ما رُوي عن ابن عامر من السبعة كله ضعيف لم يثبت، وهو مخالف للعربية. وقد زعم قوم أن همز ﴿مَعَٰيِشَ﴾ رُوي عن علي بن زيد والأعمش[٣]. والتحقيق أن القراءة التي عليها عامة المسلمين، منهم السبعة، والعشرة، وحفاظ من روى عنهم، وعامة القراء إلا من أشرنا إليه قرؤوا: ﴿مَعَٰيِشَ﴾ بالياء المكسورة من غير همز. والقاعدة المقررة في فن التصريف: أن المَدَّة الثالثة إذا كانت زائدة وجب إبدالها همزة، كـ (صحيفة) فإن الياء زائدة؛ لأن الصحيفة أصلها من (صَحَفَ) بصاد، فحاء، ففاء. والياء زائدة. فهذه المَدَّة الزائدة تُقلب في جمع التكسير [هَمْزاً][٤]، فتقول في جمع (الصحيفة): صحائف. وفي جمع (المدينة) مدائن، وكذلك الواو والألف كلها إذا كانت زوائد أُبدلت من مَدَّتها في جمع التكسير المتناهي: هَمْزاً، فتقول في (السحابة): سحائب. فتبدل الهمزة من الألف، وفي (القلادة): قلائد، وفي (العجوز) ـ بالواو ـ عجائز، فالهمزة مبدلة من الواو؛ لأن المَدّة الثالثة زائدة. أما (معيشة) فالياء التي بعد

---

(١) انظر: المفردات (مادة: كفت) ص٧١٣.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٧.

(٣) انظر: المصدر السابق، ابن جرير (١٢/٣١٧)، القرطبي (٧/١٦٧).

(٤) في الأصل: «ياء» وهو سبق لسان.

العين فأصلها من الكلمة، أصلها: مَعْيِشَة (مفعِلة) ـ بكسر العين ـ وقيل: مَعْيَشَة (مَفْعَلة) ـ بفتح العين ـ والأول أظهر، نُقلت حركة العين المعتلة للساكن الصحيح، وسكونه إليها، فصارت (معيشة) فالياء أصلية[١]. فيجب أن تُجمع على معايش ـ بكسر الياء ـ وكذلك غيرها من الواويات يجب تصحيح الواو إذا كانت المَدّة أصلية، فتقول في (المَقَام): مَقَاوِم، وفي (المَعُونة): مَعَاوِن، وتقول في كل ما هو أصلي بالواو كمَخَافَة، ومَخاوِف، ومَلامَة، ومَلاوِم؛ لأن المَدّة فيها أصلية، كمعيشة، ومعايش. ومن تصحيح ما أصله واو قول الشاعر[٢]:

وإنِّي لقَوّامٌ مَقَاوِمَ لم يكن ... جرير ولا مولى جريرٍ يقومُها

صحح واو (مَقَاوِم) ولم يقل: مقائم؛ لأن الألف في المقام أصلية في محل العين، ومنه قول الآخر[٣]:

وما هي إلا بنت خمس وأربع ... مَغَاوِر هَمَّام على حيّ خثعمِ

فصحح الواو، وهو جمع (مُغار) من: أغار القوم على القوم، يغيرون إغارة، ومُغاراً. وألف المُغار أصلية.

والحاصل أن المَدّة الأصلية تُصَحَّح في جمع التكسير، سواء كانت ياء، أو واواً، والمَدّة الزائدة تُبدل همزة، سواء كانت ألفاً، أو ياء، أو واواً[٤]. فالقراءة الصحيحة التي عليها العشرة وجمهور القراء الموافقة لقاعدة اللغة العربية: ﴿مَعَٰيِشَۗ﴾ بكسر الياء.

والمعايش: جمع معيشة، والمراد: ما يعيشون به في دار الدنيا، مما سبَّبَ لهم من أسباب المعيشة، مما جعل لهم من الثمار، والزروع،

---

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٩٨.

(٢) البيت للأخطل وهو في ديوانه ص٣٢٢.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) انظر: ابن جرير (١٢/٣١٦ ـ ٣١٧)، القرطبي (٧/١٦٧ ـ ١٦٨)، الدر المصون (٥/٢٥٧ ـ ٢٥٨).

والدواب، وجعل لهم في الدواب من الألبان، والأسمان، والأزباد، واللحوم إلى غير ذلك مما هيأه لهم في دار الدنيا إكراماً منه عليهم يعيشون به في دار الدنيا. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ [الأعراف: آية ١٠].

ثم إن الله عابهم فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٠] فـ ﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمصدر محذوف، و (ما) توكيد للقلة. والمعنى: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ شكراً قليلًا ما؛ لأنه لا يخلو إنسان من شكر في الجملة.

وأصل الشكر في لغة العرب[١]: أصل مادته تميل إلى معنى الظهور. والعرب تقول: ناقة شكور. إذا كان يظهر عليها السِّمن. والشكر يُطلق في القرآن من الرب لعبده، ومن العبد لربه، فمن إطلاق شكر العبد لربه قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: آية ١٤] ﴿أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ [النمل: آية ١٩] ومن شكر الرب لعبده قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: آية ١٥٨] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: آية ٣٤] فمعنى شُكر العبد لربه: هو معناه في الاصطلاح. وأصل الشكر في لغة العرب: فعل يُنبىء عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعماً.

والحمد في لغة العرب[٢]: هو الثناء بالثناء الجميل باللسان على المحمود بجميل صفاته، سواءً كان من باب الإحسان أو من باب الاستحقاق.

والحمد لغة: يطلق على الشكر اصطلاحاً، والشكر اصطلاحاً يطلق على الحمد لغة. فبينهما تعاور وتعاقب.

والمراد بشكر العبد لربه: هو أن تظهر نعمة ربه عليه، فَيُظهر تلك

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

النعمة، ويستعمل جميع ما أنعم الله عليه في طاعة من خلقه (جل وعلا)[١]. فهذه العيون التي تبصرون بها نعم عظيمة أنعم الله عليكم بها، فشكر من خَلَقها عليها أن لا تنظروا بها إلا في شيء يرضي من خَلَقها، فلا تنظر أيها العبد بعينيك اللتين أنعم الله بهما عليك في شيء حرمه الله عليك، فتكون مستعيناً بنعمته على معصيته!! هذا فعل لا يليق، فعل خبيث، فعل يدل على لؤم صاحبه وحمقه وقلة عقله. وشكر هذه اليد التي أعطاك الله إياها، وفرّق لك أصابعها، وأبعد إبهامها من سبابتها ليُمكنك العقد والحلّ بها - فلو جعل الإبهام مقترناً بالسبابة لما حللت شيئاً ولا عقدت شيئاً - شكر هذه اليد أن لا تبطش بها في شيء إلا شيئاً يرضي من خلقها (جل وعلا)، فلا تكتب بها ما لا يرضي الله، ولا تضرب بها ضرباً لا يرضي الله، ولا تفعل بها فعلًا لا يرضي الله. وهذه القدم التي أنعم الله عليك بها تمشي بها، شكرها أن لا تسعى بها لشيء إلا لشيء يرضي من خلقها، وهكذا. فالمال الذي أنعم الله عليك به شكره أن لا تستعين به إلا في شيء يُرضي من أعطاك إياه. وكذلك الجاه، إذا أعطاك الله جاهاً ومنزلة ومكانة يمكنك التصرف فيها وتسهيل الأمور فلا تستعن بتلك النعمة إلا على شيء يرضي من خلقها، لا لنفسك ولا لغيرك، فلا تشفع بجاهك في وصول إنسان إلى محرم، أو ظلم إنسان لإنسان، فكل ذلك من كفر النعمة وعدم شكرها.

فعلينا جميعاً أن نشكر خالقنا، وأن نستعين بنعمه على ما يرضيه؛ لأن العبد إذا عرف قدر ذُله وضعفه ومهانته، وعرف قدر عِظَم ربه وجلالة شأنه، وعرف ما أنعم عليه ربه به من النعم من غير استحقاق عليه، ثم صرف تلك النعم فيما يسخط الله ويغضبه ولا يرضيه، واستعان بنعمه على ما يكرهه، فإن هذا أشد اللؤم وأعظم الوقاحة، ولا ينبغي أن يُقدم عليه عاقل!! فعلينا جميعاً أن نلاحظ نعم الله علينا، وأن لا نستعملها في شيء لا يرضيه؛ لأن استعانتنا بنعمه على ما يسخطه أمر قبيح منا، ولؤم شنيع لا ينبغي لعاقل أن يُقدم عليه.

أما شكر الرب لعبده فقد قال بعض العلماء: هو أن يُثيبه الثواب

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

الجزيل من عمله القليل، كما بيّن أن العبد يعمل حسنة واحدة فيجعلها الله عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء الله.

ومادة الشكر تتعدّى بنفسها إلى المفعول إذا كان المفعول هو النعمة، وتتعدّى باللام في اللغة الفصحى إذا كان المفعول هو المُنْعِم، فهنا فرق دقيق في العربية لا يلاحظه كثير من طلبة العلم، فالفعل الذي هو (شكر) إن كان مفعوله النعمة تعدّى إلى النعمة بنفسه لا بحرف تعدي، كقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل: آية ١٩] فـ﴿نِعْمَتَكَ﴾ مفعول به لـ ﴿أَشْكُرَ﴾. أما إذا كان الشكر للمنعم فاللغة الفصحى التي لم يأتِ في القرآن غيرها أنه لا يتعدىٰ الشكر إلى المنعم إلا باللام، فتقول: شكراً لك، وأنا أشكر لك، وأحمد الله وأشكر له. ولا تقول: وأشكره؛ ولذا يقول الله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: آية ١٤] ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: آية ١٥٢] ولم يأتِ في القرآن تعدية الشكر إلى المنعم إلا بحرف الجر الذي هو اللام، فهذه هي اللغة الفصحى بلا نزاع بين من يحمل القلم العربي. أما لو قال: «وأشكره» من غير لام فقد أفرط قوم وقالوا: هذا لحن لا يجوز في العربية. والتحقيق: أن تعدية الشكر إلى المنعم بدون لام أنها لغة مسموعة جائزة، إلا أنها ليست هي اللغة الفصحى المشهورة، ومن شواهد هذه اللغة قول أبي نُخيلة(١):

شكرتُك إن الشُكْرَ حبلٌ من التُقى وما كلُ من أوليتَهُ نعمةً يقضي

فقد قال: «شكرتُك» ولم يقل: شكرت لك، ومنه بهذا المعنى قول جميل بن معمر في شعره المشهور(٢):

خليليَّ عُوجَا اليومَ حتى تُسلِّما على عذبةِ الأنيابِ طيبة النشر
فإنكما إن عُجْتُما لي ساعةً شكرتُكما حتى أُغيَّبَ في قبري

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.
(٢) السابق.

فقد قال: «شكرتكما» فتحصَّل من هذا الكلام أن الشكر يقع على النعمة بلا حرف جر إجماعاً، وأن شُكْر المنعم يتعدى باللام في اللغة المشهورة، وربما تعدَّىٰ بنفسه(١).

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٠] نعت لمصدر، أي: تشكرون شكراً قليلاً. و (ما) تأكيد للقلة، ولفظة (ما) تأتي لتأكيد النكرة في قلتها وحقارتها. قال بعض العلماء: لا يخلو أحد من شكر في الجملة إلا أنه شكر قليل، والشكر القليل لا يفيد؛ لأن من عمل ببعض الكتاب وترك أكثره كمن لم يعمل به، كما قال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: آية ٨٥] وقد قدمنا فيما مضى أن بعض علماء التفسير يقولون: إن القرآن تُطلق فيه القلّة ويُراد العدم(٢). والمراد لا تشكرون النعمة أصلاً؛ لأن المفرِّط المستعمل أغلب نعم الله فيما يسخط الله لا يُعد من الشاكرين، وهذا التفسير مخالف لظاهر القرآن؛ لأن القرآن دل على أن هناك شكراً قليلاً، وهو مخالف لظاهر القرآن، ولا تجوز مخالفة ظاهر القرآن إلا لدليل(٣) يجب الرجوع إليه من كتاب أو سنة. أما استعمال القلّة في العدم فهو استعمال صحيح في لغة العرب معروف لا شك فيه بين العلماء، وقد ذكرنا في الدروس السابقة له أمثلة كثيرة، كقول غيلان ذي الرمة(٤):

أُنيختْ فألقتْ بلدةً فوقَ بلدةٍ قليلٍ بها الأصواتُ إلا بُغامُها

لأن مراده بالقلة: العدم المحض. يعني: لا صوت بتلك الفلاة ألبتة إلا بُغام ناقته. ومنه بهذا المعنى قول الطِّرِمَّاح بن حكيم يمدح يزيد بن المهلب(٥):

أشمّ نديٌ كثير النوادي قليل المثالبِ والقَادِحَة

(١) راجع ما سبق قريباً.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة البقرة.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٣) من هذه السورة.
(٥) السابق.

يعني: لا مثلبة فيه ولا قادحة، وتقول العرب: مررت بأرض قليل فيها البصل والكراث. يعنون: لا بصل ولا كراث فيها ألبتة، ومنه قول الشاعر ـ وهو شاهد على أن (ما) تأتي موضع (لا) التي لنفي الجنس ـ في قوله[١]:

فما بأسَ لو ردَّتْ علينا تحيةً قليلاً لدى من يعرفُ الحقَّ عابُها

ولكن هذا الإطلاق وإن كان صحيحاً في لغة العرب فظاهر القرآن يخالفه ويدل على أنه لا يخلو إنسان من شكر في الجملة، إلا أن الشكر القليل مع الكفر الكثير لا ينفع، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: آية ١٠٦] وهذا معنى قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٠].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: آية ١١].

في هذه الآية الكريمة إشكال معروف؛ لأن الله قال بصيغة الجمع: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ وهذا يتبادر منه أن المخاطبين في قوله: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ ذرية آدم، إلا أنه رتّب عليه قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ و (ثم) تقتضي الترتيب والمهلة، فيكون الله بعد أن خلق ذرية آدم وصورها قال للملائكة: اسجدوا لآدم. وهذا خلاف الواقع؛ لأنه أمرهم بالسجود له عندما نفخ فيه الروح قبل أن يولد له شيء، كما دلّ عليه قوله في سورة الحجر: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٢٨، ٢٩] وقوله في سورة ص: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: الآيتان ٧١، ٧٢] فيخطر في ذهن طالب العلم إشكال، وهو الترتيب بـ (ثم) فيقول: كيف يقول: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [الأعراف: آية ١١] بعد تصوير ذرية آدم،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣) من هذه السورة.

وخلقها؟!! وهذا خلاف الواقع. فهذا إشكال معروف في الآية، مشهور عند علماء التفسير. وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة[(١)]:

أحدها: وهو الذي اختاره كبير المفسرين - محمد بن جرير الطبري وغيره - أن المراد بالجمع في ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ و ﴿صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ آدم وحده، وإنما أُطلق عليه صورة الجمع لأنه لما كان أبا البشر ووجوده أصلٌ في وجوده كان خلقه وتصويره كأنه خلق وتصوير للجميع. ونحو هذا الأسلوب معروف في القرآن؛ لأن الله يخاطب اليهود في زمن النبي ﷺ ويقول: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: آية ٥٧] والذين ظُلل عليهم الغمام وأُنزل عليهم المن والسلوى أجداد أجداد أجدادهم، قبلهم بعشرات القرون، فدل على أن أصل الإنسان الذي هو منه قد يخاطب الإنسان والمراد به ذلك الأصل. وهذا كثير في القرآن، كقوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ﴾ [البقرة: آية ٦١] ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ [البقرة: آية ٥٥] المخاطب به الموجودون في زمن النبي ﷺ، والقائلون أجدادهم الموجودون قبلهم بقرون.

وعلى هذا فلا إشكال في قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: آية ١١] لأن (ثم) على بابها من الترتيب والمهلة، غاية ما في الباب أنه أطلق الأصل وأراد شموله لفروعه، ونظائره في القرآن كثيرة كما مثلنا.

القول الثاني: هو ما قاله بعض العلماء: معنى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أيها الخلق في أصلاب آبائكم، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ هذه الصور العظيمة في بطون أمهاتكم. وهذا من غرائب صنعه وعجائبه؛ لأن تصويره لنا في بطون أمهاتنا فيه من غرائب صنعه ما يبهر العقول، والله في كتابه يُعجّب خلقه كيف ينصرفون عن تصويره لهم في الأرحام، أولًا قال في ذلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٢/٣١٧ - ٣٢٣)، البغوي (٢/١٥٠)، القرطبي (٧/١٦٨ - ١٦٩)، ابن كثير (٢/٢٠٢)، الدر المصون(٥/٢٦٠).

يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران: آية ٦] ثم بيّن تصويره لنا في الأرحام بحالة تبهر العقول، ثم عجّب خلقه كيف ينصرفون عن التدبر في هذا!! لأنكم كلكم أيها الحاضرون تعلمون أنه ليس واحد منكم يدخل بطن أمه في أول دخوله له وفيه يد ولا رجل ولا عين ولا أنف ولا فم، بل يدخلها نطفة من ماء مهين مستوية الأجزاء، ليست مفصلة ولا مخلقة، ثم إن رب العالمين بقدرته العظيمة ينقله من طور إلى طور، ومن حال إلى حال، ينقله من النطفة إلى علقة ـ وهي الدم الجامد الذي إذا صُبّ عليه الماء الحار لم يذب ـ ثم ينقل العلقة مضغة، ويُصيِّر المضغة عظاماً، فيركِّب هذه العظام بعضها في بعض هذا التركيب الدقيق المحكم الهائل، لو نظرت تركيب الأنملة بالأنملة، وفقرة الظهر بفقرة الظهر، والمفصل بالمفصل، وتركيب عظام الرأس بعضها إلى بعض، وخياطة بعضها مع بعض على ذلك الوجه العظيم الهائل، ونظرت في الإنسان ـ لأن الإنسان إذا نظر في موضع رأس إبرة من جسده وجد من عجائب صنع الله وغرائبه ما يبهر العقول ـ بعد أن دخل بطن أمه نطفة من منيّ فإذا هو مصور هذا التصوير العظيم، مخلوق منه هذا الهيكل العظيم، العظام شُدّ بعضها ببعض على أحكم وجه وأتقنه وأبدعه، ومنه قوله: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان: آية ٢٨] الأسر: أصله شدّ الشيء بالإسار. والإسار في لغة العرب[1]: القِد، وهو الجلد الذي لم يُدبغ؛ لأن الجلد الذي لم يُدبغ إذا أخذت سيوره وشددت بها شيئاً وهي مبلولة يبست فاستحكم الشدّ غاية الاستحكام ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ المعنى: شددنا بعض عظامهم إلى بعض كما يُشد الشيء إلى الشيء بالإسار، وهو الجلد الغير المدبوغ، ومنه قيل للأسير: (أسير) لأنه يُشدّ بالإسار غالباً. فلو كان الذي شدّ يدك بمعصمك، ومعصمك بمرفقك، ومرفقك بمنكبك، لو كان غير متقن لتحرك الإنسان فسقطت يده!! وقيل: مع الأسف كان شدّ يده بمعصمه غير وثيق فطاحت يده، أو سقط منكبه،

(١) انظر: المفردات (مادة: أسر) ص٧٦، القاموس (مادة: الأسر) ص٤٣٧.

أو سقطت فخذه، أو سقط رأسه عن رقبته، لا، كل هذا مشدود بشد محكم، والعظام بعضها ملصق ببعض على أبدع أسلوب وأحكمه. ثم إن الله فتح في الوجه هاتين العينين، وصبغ بعضهما بصبغ أسود، وبعضهما بصبغ أبيض، ثم جعل فيهما نور البصر، ثم فتح فمه، ثم جعل فيه اللسان ليُعبّر به عن ضميره، ويردّ به شاذ الطعام على الأضراس ليمكنها طحنه ليمكن المعدة هضمه، ثم إنه فتح هذا الأنف وجعله مثقوباً من جهتين، وجعل فيه حاسة الشم، وزيّن الفم بالفك الأعلى، والفك الأسفل، ثم إنه جعل ماء العين مِلْحاً لئلا تنتن شحمتها، وجعل له شحمة لئلا يجففها الهواء، ثم أنبع عيناً عذبة في فم الإنسان وهي ريقه يبتلع بها الطعام؛ لأن الله لو أخذ ريق الواحد منكم لا يمكن أن يبتلع شيئاً ولو زبداً ذائباً، فجعل له الريق ليبل به الطعام فيسهل بلعه، وإذا أكل كثيراً يأتيه من مدد الريق ما يبلُّ له الطعام الكثير العظيم الهائل، وإذا لم يحتج إليه في الأكل أمسك عنه جمّ الريق وكثرته لئلا يُتعبه التفل، ثم إنه وضع العينين في الرأس ولم يضعهما في الرجلين، وركب فقار الظهر بعضها مع بعض، وجعل مخها داخلها، وجعل الدماغ في مخلاة حصينة، ثم جعل عليها العظام وحصنها بها، وخاط العظام خياطة هائلة محكمة، ثم خلق الكبد ووضعها في موضعها اللائق بها، ووكّلها بوظيفتها البدنية، وفعل كذلك بالكليتين والطحال والمرارة، ثم ثقب الأمعاء ليخرج منها الثُّفْل، ثم ثقب الدُبر ليخرج منه الغائط، ثم ثقب محل البول، ثم ثقب العروق والشرايين ليدور معها الدم. ولو فكرنا وشرحنا عضواً واحداً من أعضاء الإنسان لرأينا من غرائب صنع الله وعجائبه ما يبهر العقول ويعتقد به الإنسان أن خالقه أنه ذو القدرة العظيم، الذي لا يُعبد إلا هو وحده، ولا يطاع إلا هو وحده؛ ولذا من لطفه بالإنسان: كل شيء يحتاج إلى قَطْعِة كشعره وأظفاره نَزَعَ منه روح الحياة؛ ليسهل عليه قص الأظفار وحلق الشعر، وتقصيره، إذ لو جعل في الأظفار الحياة كما جعلها في سائر البدن، وجعلها في الشعر لا يمكن قصُّ ظُفر إلا بعملية، ولا حلق شعر إلا بعملية!! ثم إن القفا ـ الذي لم يجعل عنده عينين ـ جعله عظماً قوياً لو ضربه شيء عليه لم يضره. والأشياء الضعيفة كالكبد والطحال التي

إذا مسه شيء عليها أثر عليه ـ وهي جهة البطن ـ جعل عليها الحارسَين وهما: العينان يحرسانها من أن يضرها شيء. وهذه قطرة من بحر من غرائب صنع الله وعجائبه، والله (جل وعلا) فعل هذا من العمليات بكل واحد منا، وأنا أؤكد لكم أنه لم يحتج أن يأخذ لأمه غرفة في صحيّة، وأن يُبنجها ويُنومها ويُشق طبقة بطنها العليا، ثم طبقة بطنها السُّفلى، ثم ينزع المشيمة التي على الولد، ثم يسلط الأشعة الكهربائية لينظر ماذا يفعل؟! فأطباء جميع الدنيا لو اجتمعوا عن بكرة أبيهم من مشارق الأرض ومغاربها وأرادوا أن يعملوا عملية في جنين في رحم امرأة فيستحيل أن يقدروا على أن يعملوا شيئاً حتى يشقوا طبقات بطنها الثلاث، ثم يسلطوا الأشعة الكهربائية وينزعوا المشيمة عن الولد، ثم يعملون العملية، فقد يموت وهو الأغلب، وقد لا يموت. فخالق السماوات والأرض يفعل في العبد مئات العمليات، وهو لم يشق بطن أمه، ولم يحتج إلى أشعة كهربائية، بل العلم والبصر والقدرة نافذ تمام النفوذ، يفعل كيف يشاء ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: آية ٦] وإنما قصصنا عليكم هذا النموذج من قدرة الله، وصنعه فيكم، وعدم شقّه لبطون أمهاتكم؛ لأن الله أمركم أن تنتبهوا إليه، وأن لا تُصرفوا عنه. وذلك في السورة الكريمة، سورة الزمر ـ وكل سورة من القرآن كريمة ـ أعني قوله في الزمر: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظلمة الرحم، وظلمة البطن، وظلمة المشيمة؛ لأن المشيمة تكون منطوية على الولد لا يراه إلا من قشعها عنه ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم قال وهو محل الشاهد: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: آية ٦] يا ناس!! فأنى تصرفون؟! أين تروح عقولكم عن قدرة خالق السماوات والأرض الجبار الأعظم ولا تنظرون فعله فيكم وأنتم في بطون أمهاتكم ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: آية ٦] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار الآيات: ٦ ـ ٨] وهذا التصوير فيه من غرائب صنع الله وعجائبه ما يبهر العقول؛ لأنكم كلكم أيها الحاضرون طُبعتم على طابع واحد، وصُببتم صبّة واحدة،

فالأنف من جميعكم في محل الأنف، والعينان في محل العين، والفم في محل الفم، والأذن في محل الأذن، ولم يشتبه منكم اثنان حتى لا يُعرف أحدهما من الآخر، كل من رآكم يعرف أن هذه صورة فلان، وهذه صورة فلان، ولو جاء من الخلق أعداد ملايين الحصى لم يضق علم خالق السماوات والأرض حتى يعلم لكل واحد منهم صورة فيطبعه عليها لا تشابه صورة الآخر، ولم تتشابه أصواتكم ولا آثاركم في الأرض، ولا بصماتكم في الورق، كل واحد طُبع على طابع مستقل، لم يشاركه فيه غيره، ولم يشابهه غيره، وهذا يدل على كمال العلم والقدرة الباهرة العظيمة التي يجب على الإنسان أن يعلم عظمة المتصف بها ويطيعه ولا يتمرد عليه. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: آية ١١].

وعلى هذا القول ـ أن المراد بخلق بني آدم في الأصلاب، وتصويرهم في أرحام الأمهات ـ يكون قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ تكون (ثم) هنا للترتيب الإخباري، أي: ثم أخبرناكم بعد ذلك أنّا قلنا للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾. ولفظة (ثم) قد تأتي في القرآن للترتيب في الذكر لا لترتيب الحقيقة الواقعة في زمنها، وهذا الأسلوب وإن كان غير ظاهر فهو موجود في القرآن وفي كلام العرب، فمن أمثلته في القرآن قوله تعالى في الأنعام ـ يعني شريعة نبينا ﷺ وهو آخر الأنبياء: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأنعام: الآيتان ١٥٣، ١٥٤] وإتيان موسى الكتابَ قبل نزول هذا على النبي ﷺ بقرون، فدّل على أن (ثم) هناك ليست للترتيب الزماني وإنما هي للترتيب الذكري، ونظير ذلك في القرآن قوله في سورة البلد: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: الآيات ١١ ـ ١٧] لأنه ليس المراد أنه مثلاً يقتحم العقبة، وأنه يطعم ذا المسغبة، ويفعل كذا وكذا، ثم بعد ذلك يكون من الذين آمنوا. لا، ليس هذا هو المراد، وإنما هي للترتيب الذكري، لا للترتيب الزماني المعروف.

ومن إتيان ذلك في كلام العرب قول الشاعر(١):

سألتُ ربيعةَ من خيرها أباً ثم أماً فقالوا: لِمَهْ؟

لأن قوله: «من خيرها أباً ثم أماً» المعنى: من خيرها أباً وأماً؟ ولا ترتيب هنالك، وقول الآخر(٢):

إن مَنْ سادَ ثم سادَ أبُوهُ ثم قد سَادَ قبل ذلك جدُّه

لأن سيادة الأب وسيادة الجد قبل سيادة الابن، وقد عُطفت عليها بـ(ثم)، فتبين أن الترتيب في الذكر لا في الزمان. هكذا قال بعضهم، والأول أظهر. وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا﴾ [الأعراف: آية ١١].

هذا القول قاله الله معلَّقاً أولًا ـ بلا نزاع ـ قبل أن يخلق آدم؛ لأنا ذكرنا في سورة «ص» وسورة «الحجر» التصريح بذلك حيث قال في سورة الحجر ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾ [الحجر: الآيتان ٢٨، ٢٩] وقال في ص ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: آية ٧١].

أمرهم بالسجود له، وهذا السجود تعظيم لله (جل وعلا)؛ لأنه
١/٤ امتثال أمره، لا عبادة لآدم، ولا سجود إلا لأمر الله (جل وعلا)، والأمر إن كان ممتثلًا به أمر الله فالمطاع فيه الله، ونظيره أن مَلَكَ الموت يقال له: اقبض روح محمد ﷺ وسائر الأنبياء. فأي جريمة في الدنيا أعظم من قتل النبي ﷺ ونزع روحه، وقتل الأنبياء والأولياء؟ لكن ملك الموت مأمور من الله، فهو مطيع في ذلك الفعل؛ لأنه إنما فعله بأمر الله.

﴿ٱسْجُدُوا لِأَدَمَ﴾ [الأعراف: آية ١١] قال بعض العلماء: إن الملائكة صلوات الله وسلامه عليهم لمَّا عظَّموا أنفسهم وحقروا بني آدم لما قال لهم الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ

(١) البيت للأقيشر الأسدي، وهو في ديوانه ص١١٥، وفيه «من شرها».

(٢) البيت في مغني اللبيب (١٠٧/١).

ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: آية ٣٠] ثم أثنوا على أنفسهم وقالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: آية ٣٠] امتحنهم الله وعلم آدم الأسماء كلها، ثم قال لهم: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: آية ٣١] فعجزوا وقالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: آية ٣٢] ثم قال لآدم: تعال أنت فبين هذا العلم الذي عجزوا عنه وجهلوه. فقام آدم وبيّنها تماماً؛ ولذا قال: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: آية ٣٣] وإن هذا الذي حقرتم يعلم ما لا تعلمون، وعنده من الخصال ما ليس لديكم.

وكلام العلماء في تفضيل الملائكة والآدميين لا يعنينا؛ لأن أكثر الناس مختلفون فيه، وكلٌ يحتج بظواهر من كتاب الله، ولا دليل جازماً يجب الجزم واليقين به، ولا حاجة تدعو إليه، واختلاف العلماء فيه معروف[1]، وعلى كل حال فالله أظهر فضل آدم هنا حيث علمه ما جهله كل الملائكة وأمرهم بالسجود.

قال بعض العلماء: أمرهم بالسجود لمَّا عَلِم ما لم يعلموا، ويرشد له قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: آية ٣٠] ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: آية ٣١] وبعد ذلك قال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ الآية. [البقرة: آية ٣٣].

وعلى هذا القول فالملائكة لما أُمروا أن يسجدوا لآدم، أُمر جميع الملائكة، كما دل عليه قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الحجر: آية ٣٠] واستثنى في جميع السور التي ذكر فيها سجود الملائكة بجميعها كالبقرة، والأعراف، وطه، والحجر، وص، كلها بيّن فيها سجود الملائكة إلا إبليس ﴿ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الأعراف: آية ١١] أي: فسجدوا كلهم أجمعون، بدليل قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: آية ٣٠].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

إبليس: هو الشيطان اللعين عليه لعائن الله، ومَنْعُه من الصرف لأنه اسم عجمي عَلَم، والعُجْمَة والعلمية يمنعان الصرف.

وقال بعض العلماء: أصل (إبليس) عربي؛ لأنه (إفعيل) من الإبلاس، والإبلاس: القنوط واليأس من رحمة الله، حتى يبقى اليائس من شدة يأسه ساكتاً لا يحير كلاماً، ومنه قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام: آية ٤٤] ولكنه يشكل على قولهم أنه لو كان عجمياً؛ لأن العَلَم إذا وُضع على (إفعيل) كان منصرفاً؛ لأنه ليس فيه علتان مانعتان من الصرف.

وأجاب من قال هذا: بأن (إبليس) أصله من (الإبلاس) وهو القنوط واليأس من رحمة الله، ومُنع من الصرف للعلمية وشبه العجمية؛ لأن هذا اللفظ يشبه الألفاظ العجمية، هكذا يقولون، والأول أظهر[١].

وقوله: ﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: آية ١١] لم يسجد مع الملائكة، ثم إن الله (جل وعلا) سأله سؤال توبيخ وتقريع قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: آية ١٢] في (لا) هنا وجهان[٢]:

أحدهما: أن ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ مضمّنة معنى فِعل و (لا) في بابها ليست زائدة، أي: ما ألجأك وأحوجك إلى أن لا تسجد؟ ما المانع الذي ألجأك وأحوجك إلى أن لا تسجد؟! وتضمين الفعل معنى فعل معروف، قال به عامة علماء النحو من البصريين[٣].

وأظهر القولين في هذا: أن (لا) هنا جيء بها لتأكيد النفي؛ لأن (منعك) في معنى الجحود والنفي، وإتيان (لا) زائدة في الكلام الذي فيه معنى الجحد مطّرد[٤]، ذكر الفراء وغيره من علماء العربية أنه مطرد[٥].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ابن جرير (٣٢٤/١٢)، القرطبي (١٧٠/٧)، الدر المصون(٢٦١/٥ ـ ٢٦٣)، الأضواء (٢٩٣/٢).

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.

(٤) السابق.

(٥) معاني القرآن (٣٧٤/١).

والدليل على هذا أن خير ما يُفسر به القرآن القرآن، وقد قال تعالى في هذه القصة بعينها في سورة «ص»: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: آية ٧٥] ولم يأت بلفظة (لا)، وخير ما يُفسر به القرآن القرآن، فعلمنا أن لفظة (لا) لتوكيد النفي.

واعلموا أن علماء العربية مطبقون على أن لفظة (لا) تُزاد لتأكيد المعنى وتقويته، أما في الكلام الذي فيه معنى الجحد فلا خلاف بينهم في ذلك، وشواهده في القرآن وأمثلته كثيرة، فمن أمثلته في القرآن: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد: آية ٢٩] والمعنى: ليعلم أهل الكتاب. فقد جيء بـ (لا) لتوكيد المقام، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [النساء: آية ٦٥] فوربك لا يؤمنون، ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ [طه: الآيتان ٩٢ ـ ٩٣] أي: أن تتبعني، ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ [فصلت: آية ٣٤] أي: والسيئة، على أشهر التفسيرين، وقوله جل وعلا: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥﴾ [الأنبياء: آية ٩٥] على أحد القولين، ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٩] على أحد التفسيرين، ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] على أحد التفسيرات التي قدمنا في الآية[١]. وهذا كثير في كلام العرب، ومنه في كلام العرب قول أبي النجم في رجزه[٢]:

فما ألومُ البِيضَ ألاَّ تسخرا لما رَأَيْنَ الشَّمَطَ القَفَنْدَرا

يعني: لا ألوم البيض أن تسخر. أي: لا ألومها على سخريتها. وأنشد الفراء لزيادة (لا) في الكلام الذي فيه معنى الجحد، قول الشاعر[٣]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

ما كان يَرضَى رسولُ الله دينهم والأطيبان أبو بكر ولا عمر

يعني: وعمر، و (لا) زيدت لتوكيد معنى الجحد. وأنشد الجوهري لزيادة (لا) في الكلام الذي ليس فيه معنى جحد قول رؤبة بن العجاج، أو قول العجاج[١]:

في بئر لا حُورٍ سَرَى وما شَعَرْ بإفكه حتى رأى الصبح شَجَر

يعني: (في بئر حور) أي: هلكة، و (لا) زائدة. وأنشد الأصمعي لزيادتها في الكلام الذي ليس فيه معنى الجحد[٢]: قول ساعدة بن جُؤية الهذلي[٣]:

أَفعنك لا برقٌ كأنَّ وميضَه غابٌ تَسَنَّمَه ضِرامٌ مُثْقَبٌ

والتحقيق أن (لا) زائدة، لا عاطفة على جملة محذوفة كما زعمه بعضهم، ومن شواهد ذلك قول الشاعر[٤]:

تذكرتُ ليلى فاعترتني صَبَابةٌ وكَادَ ضميرُ القلب لا يتقطعُ

أي: كاد يتقطع، و (لا) مزيدة في هذا، وهي كذلك في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: آية ١] لأن المعنى: أقسم بهذا البلد. كما قال: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: آية ٣] على أحد الأوجه المعروفة، ومثل هذا كثير في كلام العرب، فقوله: (لا) على وجهين:

أحدهما: أن تكون صلة لتوكيد الكلام، ومن أساليب اللغة العربية زيادة لفظ (لا) لتوكيد الكلام كما بيّنا الآيات الدالة عليه ﴿لِئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد: آية ٢٩] أي: ليعلم أهل الكتاب، ﴿مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.
(٢) البحر المحيط (٤/٢٧٣)، الدر المصون (٥/٢٦٢).
(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.
(٤) السابق.

ضَلُّوٓا۟ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ [طه: آية ٩٢] ما منعك أن تتبعني، ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: آية ٣٤] لا تستوي الحسنة والسيئة. إلى غير ما ذكرنا من الآيات، وأبيات العرب التي ذكرنا. ويدل أنها هنا صلة لتوكيد الكلام: أن الله حذفها في (ص) حيث قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: آية ٧٥]. واختار بعض العلماء ـ وهو اختيار ابن كثير[١]، وابن جرير[٢] ـ أن الفعل مُضَمَّن كما يذهب إليه علماء البصرة، و أن (لا) على بابها. والكلام في معنى: ما أحوجك وألجأك إلى أن لا تسجد. وهذا معنى قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: آية ١٢] أي: حين أمرتك.

وهذه الآية الكريمة من أدلة العلماء على أن صيغة (افعل) تأتي للوجوب؛ لأنه قال: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [الأعراف: آية ١١] فلما لم يمتثل إبليس وبَّخه على ذلك، وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: آية ١٢] فدل على أن صيغة الأمر لا يجوز خلافها، ولما قال نبي الله موسى لأخيه: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: آية ١٤٢] بعد ذلك لما ظنّ أنه خَالَفه قال: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [طه: آية ٩٣] فسمى مخالفة صيغة (افعل) معصية، فدل على أنه يراها للوجوب كما ذكرنا أدلته مراراً[٣]، وهذا معنى قوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: آية ١١].

واعلم أن العلماء (رضي الله عنهم) اختلفوا في إبليس هل هو من الملائكة أو أصله ليس من الملائكة[٤]؟.

فذهبت جماعة كثيرة من السلف إلى أن أصله كان من الملائكة،

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٠٣).
(٢) تفسير ابن جرير (١٢/٣٢٥، ٣٢٦).
(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأنعام.
(٤) انظر: ابن جرير (١/٥٠٢ ـ ٥٠٨)، القرطبي (١/٢٩٤ ـ ٢٩٥)، ابن كثير (١/٧٥)، (٣/٨٨ ـ ٨٩)، مجموع الفتاوى (٤/٣٤٦)، البداية والنهاية (١/٥٥)، أضواء البيان (٤/١١٩ ـ ١٢١).

وأن الله نسخه من ديوان الملائكة فصيّره شيطاناً. قالوا: ويدل على هذا: استثناؤه من الملائكة في جميع السور التي فيها قصة إبليس وآدم، والأصل في الاستثناء الاتصال ولا يجوز أن يُحمل على الانفصال إلا لدليل يدل عليه.

وقال بعض [أهل][1] العلم: أصل إبليس لم يكن من الملائكة، ولكنه جني خلقه الله من مارج من نار، كان يتعبد مع الملائكة ويعمل بأعمالهم فنُسب إليهم، كالرجل الحليف في القبيلة الذي ليس منها يُنسب إليها وهو ليس في الحقيقة منها. ورجحوا هذا القول بمرجحين:

أحدهما: شهادة الله للملائكة بالعصمة حيث قال: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: آية ٢٦] ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: الآية ٦] وإبليس اللعين عصىٰ الله ما أمره. فدلّ على أنه ليس من العباد المكرمين الذين هم الملائكة. وقال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: آية ٢٧] وهذا اللعين لم يعمل بأمره، فدلّ هذا أنه ليس من الملائكة.

الدليل الثاني: أن الله صرح بأنه من الجن في سورة الكهف حيث قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: آية ٥٠] فصرح أنه كان من الجن، وكونه من الجن هو السبب الذي جعله لم يفعل كما فعل الملائكة؛ إذ لو كان من عنصر الملائكة وجنس الملائكة لفعل كما فعل الملائكة، فلما بيّن أنه أبىٰ وعصىٰ وتمرد وبين قوله إنه: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: آية ٥٠] تبين أنه من غير الملائكة، ولم يأت في الوحي دليل أظهر في محل النزاع من آية الكهف هذه حيث صرحت بأن إبليس من الجن، ونفته من الملائكة؛ لأنه لو كان من الملائكة لفعل كما فعل الملائكة.

والذين قالوا: إن جمهور العلماء على أن أصله كان ملكاً، وأنه

---

(١) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

كان يسمى: عزازيل، وأنه كان قائماً بأمر السماء الدنيا، يقولون: إن الجن قبيلة من الملائكة خُلقوا من النار من بين سائر الملائكة. وهذا خلاف ظاهر القرآن. وإن كانت العرب تُسمي الملائكة جناً فتسمية الملائكة جناً معروف في كلام العرب، ومنه قول الأعشى يمدح سليمان[(١)]:

وسخر من جنّ الملائك تسعة قياماً لديه يعملون بلا أجرِ

فقال: «من جن الملائك».

وقال بعض المفسرين: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: آية ١٥٨] قالوا: يعني بالجِنَّة: الملائكة؛ لأنهم يُجنُّون عن العيون فلا تراهم كما لا ترى الجن، وزعموا أن معنى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: آية ١٥٨] هو قولهم: الملائكة بنات الله. هكذا قاله بعض العلماء. وهذا خلافٌ مشهور، وأظهر شيء في محل النزاع آية الكهف هذه التي قالت: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: آية ٥٠] ثم رتب على كونه من الجن بالفاء ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: آية ٥٠] فدل بمسلك الإيماء والتنبيه أن علّة فسقه عن ربه كونه من أصل الجن لا من أصل الملائكة. هذا أظهر شيء في محل النزاع.

وقد دلّ القرآن على أن إبليس له ذرية، ودلت الأحاديث الصحيحة على أنه يرسلها للتضليل، وقد قال جل وعلا: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: آية ٥٠] وجاء في صحيح مسلم[(٢)] أن الشيطان الذي يوسوس للإنسان في صلاته حتى يُشغله عنها اسمه (خِنْزَب) فهو من أولاد إبليس.

---

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) مسلم، كتاب السلام، باب: التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة. حديث رقم (٢٢٠٣)، (٤/١٧٢٨).

واختلف العلماء في الكيفية التي بها كان نسل إبليس. وسُئل الشعبي (رحمه الله) قيل له: هل تزوج إبليس؟ فقال: ذلك عرس ما حضرناه[١]. وزعموا أنه بعد ذلك لما قرأ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الكهف: آية ٥٠] قال: نعم يمكن أن يكون تزوج. وهذا لا يدل على أنه تزوج، ولم يقم دليل من كتاب ولا سنة على ذريته كيف تناسلت. وكيف جاءت منه ذرية، هل هي من زوجة أو كما يقول بعضهم إن له آلة امرأة وآلة رجل، يُدخل هذا في هذا فتخرج منه بيضات، فتنفلق البيضات عن الشياطين فتنتشر. هكذا يقولونه من شِبْه الإسرائيليات ولم يقم دليل عليه[٢]، والذي دلّ عليه القرآن: أن له ذرية، كما قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: آية ٥٠] وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: آية ١١].

ثم إنه (جل وعلا) سأله: ما المانع له من السجود؟ قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟ فأجاب إبليس بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: آية ١٢] وجواب إبليس هذا يحتمل كلاماً كثيراً لا تسعه بقية هذا الوقت، فنرجو الله (جل وعلا) أن يحفظنا من مكايد إبليس، وأن يؤيسه، ويخيبه منا، اللهم لا تضلنا بإبليس، اللهم إنا نعوذ بك من الشيطان الرجيم، ونعوذ بالله من همزات الشياطين، ونعوذ بالله أن يحضرنا الشياطين، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...

يقول الله جل وعلا ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٢، ١٣] تكلمنا بالأمس على قوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ وقوله (جل وعلا) حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ كأن الله لما سأل إبليس ـ وهو عالم؛ لأنه (جل وعلا) أعلم بالمُوجِب الذي بسببه امتنع إبليس من السجود ـ قال له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣١٢/٤).

(٢) انظر: أضواء البيان (١٢٢/٤).

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟ وهو أعلم، فأجاب إبليس ـ عليه لعائن الله ـ بما كان يضمره من الكبر، وكأنه اعترض على ربه، وواجه ربه (جل وعلا) بأن تكليفه إياه أمر لا ينبغي ولا يصلح!! فخطَّأ ربه (جل وعلا) سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً!! وجعل ذلك ذريعة له ومبرراً في زعمه الباطل لعدم السجود، قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ كيف تأمرني أن أسجد لآدم؟ وأنا أفضل من آدم، والفاضل ليس من المعقول أن يُؤمر بالسجود للمفضول، فهذا التكليف ليس واقعاً موقعه!! فهذا قول اللعين لعنه الله!!

﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ (خير) تُستعمل استعمالين[١]:

تستعمل اسماً للخير الذي هو ضد الشر، وكثيراً ما تُستعمل في المال، كقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: آية ١٨٠] أي: مالاً.

وتستعمل صيغة تفضيل، وهو المراد هنا. فقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أصله: أنا أَخْيَر منه. أي: أكثر خيراً منه لفضل عُنصري على عُنصره. ولفظة (خير) و (شر) جعلتهما العرب صيغتي تفضيل، وحذفت همزتهما لكثرة الاستعمال، كما قال ابن مالك في الكافية[٢]:

وغَالِباً أَغْنَاهُم (خَيْرٌ) و (شَرّ) عَنْ قَوْلِهِم (أَخْيَر منه) و (أَشَرّ)

قال إبليس اللعين: أنا خير من آدم، والذي هو الفاضل، والذي هو أكثر فضلًا وخيراً لا ينبغي أن يُهْضَم ويؤمر بالسجود لمن هو دونه، فهذا التكليف ليس واقعاً موقعه؛ ولذا لا أمتثله!! فتكبر وتجبّر، وجعل تكليف ربه له واقعاً غير موقعه ـ عليه لعائن الله ـ فباء بالخيبة والخسران ـ نعوذ بالله (جل وعلا) ـ قال إبليس: أنا خير من آدم. ثم بيّن سبب الخيريّة فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف: آية ١٢] يعني: أن عنصري أشرف من عنصره؛ لأن النار ـ في زعمه ـ أشرف من الطين؛ لأن النار مضيئة نيرة، طبيعتها الارتفاع، خفيفة غير كثيفة، وأن الطين منسفل كثيف مظلم ليس بمرتفع!!

---

(١) انظر: المفردات (مادة: خير) ص٣٠١، وراجع ما مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

هذا قوله في زعمه. وزعم أن الفرع تابع لعنصره في الفضل، فقاس نفسه على عنصره الذي هو النار، وقاس آدم على عنصره الذي هو الطين، واستنتج من ذلك أنه خير من آدم؛ لأن عنصره في زعمه خير من عنصره [ورتَّبَ على ذلك معصية الأمر][١] الذي هو: اسجدوا لآدم ـ على إبليس لعنة الله ـ وأول من قاس قياساً فاسداً وردّ به نصوص الله وأوامره ونواهيه هو إبليس اللعين ـ عليه لعائن الله ـ فكل من ردّ نصوص الشرع الواضحة بالقياسات الباطلة عناداً وتكبراً فإمامه إبليس؛ لأنه أول من ردّ النصوص الصريحة بالمقاييس الكاذبة ـ عليه لعنة الله ـ.

وقياس إبليس هذا باطل من جهات عديدة[٢]:

الأول منها: أنه مخالف لنص أمر رب العالمين؛ لأن الله يقول: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ [الأعراف: آية ١١] وكل قياس خالف أمر الله الصريح فهو قياس باطل باطل باطل، وقد تقرر في علم الأصول[٣]: أن كل قياس خالف نصاً من كتاب أو سنة فهو باطل، ويُقدح فيه بالقادح المسمىٰ (فساد الاعتبار) ومخالفة القياس للنص تُسمى (فساد الاعتبار) وتدل على بطلان القياس. فهذا وجه من أوجه بطلانه؛ لأنه مخالف للنص الصريح، ولا إلحاق ولا قياس مع وجود النصوص الصريحة.

الثاني: أن إبليس كاذب في أن النار خير من الطين، بل الطين خير من النار؛ لأن طبيعة الطين: الرزانة، والتُؤدة، والإصلاح، والجمع، تُودِعه الحبة فيعطيكها سنبلة، وتودعه النواة فيعطيكها نخلة. وإذا نظرت إلى البساتين المغروسة في طين طيب ووجدت ما فيها من أنواع الثمار الجنية، والروائح، والأزهار، والثمار عرفت قيمة الطين، أما النار فطبيعتها الطيش، والخفة، والتفريق، والإفساد، فكلما وضعت شيئاً فيها فرَّقته وفسَّدته، وطبيعتها الطيش والخفة، يطير الشرر من هنا فيحرق ما هناك، ثم يطير

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٥/٥ ـ ٦)، بدائع الفوائد (١٣٩/٤ ـ ١٤٣)، أضواء البيان (٧٣/١).
(٣) انظر: المذكرة في أصول الفقه ص٢٨٥، نثر الورود ص٥٥١.

الشرر من هناك فيحرق ما وراءه، والذي طبيعته الطيش، والخِفَّة، والإفساد، والتفريق لا يكون خيراً من الذي طبيعته التؤدة، والرزانة، والجمع، والإصلاح، تودعه الحبة فيعطيكها سنبلة، وتودعه النواة فيعطيكها نخلة!! فالطين خير من النار بأضعاف؛ ولذا غلب على إبليس عنصره وهو الطيش والخفة، فطاش وتمرد على ربه، وخسر الخسران الأبدي، وغلب على آدم عنصره الطيني فلما وقع في الزلة رجع إلى السكينة، والتؤدة، والتواضع، والاستغفار لربه حتى غفر له.

الثالث: أنَّا لو سلمنا تسليماً جدلياً أن النار خير من الطين فشرف الأصل لا يدل على شرف الفرع، فكم من أصل شريف وفرعه وضيع، وكم من أصل وضيع وفرعه رفيع.

لئن فخرتَ بآباءٍ لهم شرفٌ قلنا صدقتَ ولكن بئسَ ما ولدُوا[(١)]

فكم من أصل رفيع وفرعه وضيع!!

واعلم أن العلماء في هذا المحل يعيبون القياس، ويذمون الرأي، ويقولون: إن من قاس فقد اتبع إبليس؛ لأنه أول من ردّ النصوص بالقياس. وعن ابن سيرين رحمه الله: ما عُبدت الشمس إلا بالقياس[(٢)]. ويكثر في كلام السلف ذم الرأي والقياس. ومن أشنع من يحمل على المجتهدين في القياس: الظاهرية، وبالأخص أبو محمد بن حزم - عفا الله عنا وعنه - فإنه حمل على أئمة الهدىٰ - رحمهم الله - وشنع عليهم تشنيعاً عظيماً، وسخر منهم سخرية لا تليق به ولا بهم، وجزم بأن كل من اجتهد بشيء لم يكن منصوصاً في كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ بأنه ضال، وأنه مشرع!! وحمل على الأئمة وسخر من قياساتهم، وجاء بقياسات كثيرة للأئمة وسفهها وسخر من أهلها، فتارة

---

(١) البيت لابن الرومي، وهو في ديوانه (٣٠٥/٢)، وشرح ديوان المتنبي للعكبري (١٤٥/٤).

(٢) انظر: إعلام الموقعين (٢٥٤/١).

يسخر من أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ وتارة من مالك، وتارة من أحمد، وتارة من الشافعي، لم يسلم منه أحد منهم في قياساتهم!! ومن عرف الحق عرف أن الأئمة ـ رحمهم الله ـ أنهم أولىٰ بالصواب من ابن حزم، وأن ما شنع عليهم فهم أولىٰ بالصواب منه، وأنه هو حمل عليهم وهم أولى بالخير منه، وأعلم بالدين منه، وأعمق فهماً بنصوص الكتاب والسنة منه. وهذا باب كثير، فابن حزم يقول: لا يجوز اجتهادٌ كائناً ما كان، ولا يجوز أن يُتكلم في حكم إلا تبعاً لنص من كتاب أو سنة، أما من جاء بشيء لم يكن منصوصاً في الكتاب ولا السنة فهو مُشَرِّع ضال، ويزعم أن ما ألحقه الأئمة من الأحكام المسكوت عنها واستنبطوها من المنطوقات أن كل ذلك ضلال، ويستدل بعشرات الآيات، إن لم تكن مئات الآيات فلا أقل من عشرات الآيات[1]. يقول: الله قال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: آية ٣] والمقاييس لم تنزل علينا من ربنا!! ويقول: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ﴾ [سبأ: آية ٥٠] فجعل الهدى بخصوص الوحي لا بخصوص المقاييس. ويقول: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: آية ٤٩] والمقاييس لم تكن مما أنزل الله. ويقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: الآيات ٤٤، ٤٥، ٤٧] والقياس لم يكن مما أنزل الله، ويأتي بنحوها الآيات من هذا بشيء كثير جداً، ويقول: إن القياس لا يفيد إلا الظن، والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ﴾ [يونس: آية ٣٦] وفي الحديث: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»[2]. ويقول: إن كل ما لم يأتِ بنص من كتاب أو سنة لا يجوز البحث عنه [لأنه عفو][3].

---

(١) انظر: الإحكام ص١٠٥٥، فما بعدها.

(٢) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة.

(٣) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

ومن ذلك: أن الله حرم أشياء، وأحلّ أشياء، وسكت عن أشياء لا نسياناً رحمة بكم فلا تسألوا عنها[1]، وفي حديث: **«ما سكت الله عنه فهو عفو»**[2]. ويقول: إن ما لم يأتِ في كتاب ولا سنة فالبحث عنه حرام، وهو معفو لا مؤاخذة به[3]. وهو غالط من جهات كثيرة، منها: أن ما سكت عنه الوحي منه ما يمكن أن يكون عفواً كما قال، فنحن مثلاً أُوجب علينا صوم شهر واحد من السنة وهو رمضان، وسكت الوحي عن إيجاب شهر آخر، فلم يجب علينا إلا هذا؛ لأن ما سُكت عنه فهو عفو. وأُوجبت علينا الصلوات وغيرها لم يكن علينا، وإن كان النبي ﷺ في حديث ضمام بن ثعلبة قال: **«لا»** لمّا قال له الأعرابي ضمام: هل عليّ غيرها؟ قال: **«لا، إلا**

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٥) من سورة الأنعام.

(٢) الترمذي في اللباس، باب ما جاء في لبس الفراء. حديث رقم (١٧٢٦)، (٢٢٠/٤)، وقال: «وفي الباب عن المغيرة، وهذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه. وروى سفيان وغيره عن سليمان التيمي عن أبي عثمان عن سلمان قوله، وكأن الحديث الموقوف قوله، وسألت البخاري عن هذا الحديث فقال: ما أراه محفوظاً...» إلخ. وابن ماجه في الأطعمة، باب أكل الجبن والسمن. حديث رقم (٣٣٦٧)، (١١١٧/٢)، والبيهقي (١٢/١٠)، والحاكم (١١٥/٤)، والعقيلي (١٧٤/٢)، وهو في صحيح ابن ماجه (٢٧١٥)، وصحيح الترمذي (١٤١٠)، وغاية المرام (٢، ٣)، والمشكاة (٤٢٢٨)، عن سلمان (رضي الله عنه). وأخرجه الحاكم (٣٧٥/٢)، والبزار (كما في كشف الأستار ٧٩/١، ٥٨/٣) من طريق عاصم بن رجاء بن حيوة عن أبيه عن أبي الدرداء (رضي الله عنه) مرفوعاً. وقال البزار في الموضع الأول الذي خرَّج فيه هذا الحديث: «إسناده صالح» ا.هـ وقال في الموضع الآخر: «لا نعلمه يُروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد، وعاصم بن رجاء حدَّث عنه جماعة، وأبوه روى عن أبي الدرداء غير حديث، وإسناده صالح...» ا.هـ وقال الهيثمي (١٢١/١): «إسناده حسن ورجاله موثقون» ا.هـ وانظر (٥٥/٧). وهذا الإسناد منقطع؛ لأن رجاء لم يلق أبا الدرداء كما نبه عليه الحافظ في التهذيب (٢٣٠/٣) والله أعلم. والحديث أخرجه أيضاً العقيلي (١٧٤/٢) عن الحسن مرسلاً. وعقبه قوله: «هذا أولى» ا.هـ كما أخرجه ابن عدي في الكامل عن ابن عمر (رضي الله عنهما) مرفوعاً، وضعَّف إسناده.

(٣) انظر: الإحكام ص١٠٦٠، فما بعدها.

أن تطوع»[١]. أما إنها توجد أشياء لا يمكن أن تكون عفواً ولا بد من النظر فيها والاجتهاد. ومن نظر إلى جمود ابن حزم علم أنه على غير هدى، وأن الهدى مع الأئمة رحمهم الله.

والذي يجب اعتقاده في الأئمة ـ رحمهم الله ـ كالإمام مالك، وأبي حنيفة، والإمام أحمد، والشافعي ـ رحمة الله على الجميع ـ أن ما اجتهدوا فيه أكثره أصابوا فيه، فلهم أجر اجتهادهم وأجر إصابتهم، وأنه لا يخلو أحدٌ من خطأ، فلا بد أن يكون بعضهم أخطأ فيما اجتهد فيه، فما أخطؤوا فيه فهم مأجورون لاجتهادهم، معذورون في خطئهم ـ رحمهم الله ـ والصحابة كانوا يجتهدون كما كان يجتهد الأئمة ـ رحمهم الله ـ وسنلمُّ بأطراف من هذا؛ لأن هذا باب واسع لو تتبعناه لمكثنا فيه زمناً طويلًا! ولكن نُلم إلمامات بقدر الكفاية:

أولًا: ليعلم السامعون أن ما كل ما سكت عنه الوحي يمكن أن يكون عفواً، بل الوحي يسكت عن أشياء لا بد ألبتة من حَلِّها. ومن أمثلة ذلك: مسألة العَوْل، فكما قال الفرضيون: إن أول عَوْل نزل في أيام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه[٢] ـ ماتت امرأة وتركت زوجها وأختيها، فجاء زوجها وأختاها إلى أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال الزوج: يا أمير المؤمنين: هذه تركة زوجتي، ولم تترك ولداً، والله يقول في محكم كتابه: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ [النساء: آية ١٢] فهذه زوجتي ولم يكن لها ولد، فلي نصف ميراثها بهذه الآية، ولا أتنازل عن نصف ميراثي بدانق. فقامت الأختان فقالتا: يا أمير المؤمنين هذه تركة أختنا، ونحن اثنتان، والله يقول: ﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا

---

(١) البخاري في الإيمان، باب: الزكاة في الإسلام، حديث رقم (٤٦)، (١٠٦/١)، وأطرافه في: (١٨٩١، ٢٦٧٨، ٦٩٥٦)، ومسلم في الإيمان، باب: بيان الصلوات الخمس التي هي أحد أركان الإسلام. حديث رقم (١١)، (٤٠/١).

(٢) أخرجه البيهقي (٢٥٣/٦)، والحاكم (٣٤٠/٤)، وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ا.هـ وابن حزم في المحلى (٢٦٤/٩)، وانظر: تلخيص الحبير (٨٩/٣).

﴿ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾ [النساء: آية ١٧٦] والله لا نقبل النقص عن الثلثين بدانق. فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: ويلك يا عمر، والله إن أعطيت الزوج النصف لم يبق للأختين ثلثان، وإن أعطيت الثلثين للأختين لم يبق للزوج نصف!! فنقول: يا ابن حزم كيف نسكت عن هذا؟ وكيف يكون هذا عفو؟! والوحي سكت عن هذا ولم يبين أي النصين ماذا نفعل فيهما؟! فهذا لا يمكن أن يكون عفواً، ولا بد من حلّه!! فلا نقول لهم: تهارشوا على التّركة تهارش الحمُر، أو ننزعها من واحد إلى الآخر، فلا بد من إلحاقِ للمسكوت عنه بالمنطوق به، وحل معقول بالاجتهاد. فجمع عمر ـ رضي الله عنه ـ الصحابة وأسف كل الأسف أنه لم يسأل رسول الله ﷺ عن العول بمثل هذا. وقال له العباس بن عبدالمطلب ـ رضي الله عنه ـ يا أمير المؤمنين: أرأيت هذه المرأة لو كانت تُطَالَب بسبعة دنانير دَيْناً، وتركت ستة دنانير فقط، ماذا كنت فاعلاً؟! قال: أجعل الدنانير الستة سبعة أنصباء، وأُعطي لكل واحد من أصحاب الدنانير نصيباً من الستة. قال: كذلك فافعل، أصل فريضتها من ستة؛ لأن فيها نصف الزوج يخرج من اثنين. وثُلثا الأختين يخرجان من ثلاثة، ومخرج الثلث ومخرج النصف متباينان، فنضرب اثنين في ثلاثة بستة، ثم اجعل نصفة زائدة هي المسماة بالعَوْل، فهي فريضة عائلة بسدسها إلى سبعة، فجعل تركة المرأة سبعة أنصباء، وقال للزوج: لك نصف الستة ـ وهي ثلاثة ـ فخذ الثلاثة من سبعة، فبقي من السبعة أربعة، فقال للأختين: لكما الثلثان من الستة ـ وهما أربعة ـ فخذاها من سبعة. فصار النقص على كل واحد من الوارثين، ولم يُضِع نصاً من نصوص القرآن. وكان ابن حزم في هذه المسألة يُخطِّيء جميع الصحابة ويقول: إن العباس وعامة الصحابة على غلط، وأن هذا الفعل الذي فعلوا لا يجوز، وأن الحق مع ابن عباس وحده الذي خالف عامة الصحابة في العَوْل، وقال: الذي أحصى رمل عالج لم يجعل في شيء واحد نصفاً وثلثين[(١)].

---

(١) أخرجه البيهقي (٦/٢٥٣)، وابن حزم في المحلى (٩/٢٦٤)، وأورده السيوطي في الدر (٢/١٢٧) وعزاه لسعيد بن منصور.

فرأي ابن عباس أن يُنظر في الورثة، إذا كان أحدهما أقوى نقدمه، ونكمل له نصيبه، ونجعل النقص على الأضعف. فابن عباس في مثل هذا يقول: إن الزوج يُعطى نصفه كاملاً؛ لأن الزوج لا يحجبه الأبوان، ولا يحجبه الأولاد، بخلاف الأختين فهما أضعف سبباً منه؛ لأنهما يحجبهما الأولاد ويحجبهما الأب. قال: ويُعطي للأختين نصفاً، وهذا تلاعب بكتاب الله!! الله يقول: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ﴾ [النساء: آية ١٧٦] وهو يقول: فلهما النصف. فهذا عمل بما يناقض القرآن. مع أن ابن حزم ورأي ابن عباس تقضي عليه وتبطله المسألة المعروفة عند الفرضيين بالمنبرية، وإنما سُميت بالمنبرية؛ لأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه وأرضاه) أفتى بها وهو على المنبر في أثناء خطبته؛ لأنه ابتدأ خطبته على المنبر فقال: الحمد لله الذي يجزي كل نفس بما تسعىٰ، وإليه المآب والرُجعى. فسمع قائلاً يقول: ما تقولون فيمن هلك عن زوجة وأبوين وابنتين؟ فقال علي (رضي الله عنه): «صار ثُمْنُها تُسعاً» ومر في خطبته[1].

وقوله: «صارت ثُمْنُها تُسعاً» لأن هذه الفريضة فيها ابنتان وأبوان وزوجة، الابنتان لهما الثلثان، والأبوان لكل واحد منهما السدس، فذلك يستغرق جميع التركة؛ لأن السدسين ثلث، وتبقىٰ الزوجة، تعول الفريضة، وأصلها من أربعة وعشرين. والأربعة والعشرون ثُمْنُها: ثلاثة، فيُعالُ بها في ثُمن الزوجة. والثمن من أربعة وعشرين: ثلاثة. وإذا ضُم الثمن الذي عالت به الفريضة إلى أصل الفريضة ضمَّت ثلاثة العول وهو الثمن الذي عيل به للزوجة إلى الأربعة والعشرين التي هي أصل الفريضة، صارت: سبعة وعشرين، والثلاثة من السبعة والعشرين تُسعها، ومن الأربعة والعشرين ثمنها.

فهذه لو قلنا لابن حزم: أيهما يحجب؟ هل البنتان تحجبان؟ لا والله. هل الأب والأم يحجبان؟ لا والله. هل الزوجة تحجب؟ لا والله. ليس فيهم من يحجبه أحد، وكلاهما أهل فروض منصوصة في كتاب الله، ولا يُحجب

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (مختصراً) (٢٨٨/١١)، وعبدالرزاق (٢٥٨/١٠)، سنن سعيد بن منصور (١٩/١)، والبيهقي (٢٥٣/٦). وانظر: تلخيص الحبير (٩٠/٣). وذكره في المغني (٣٩/٩)، وابن فارس في الصاحبي ص٧٩.

أحد منهم أبداً!! فبهذا يبطل قوله: إن من هو أضعف سبباً بأنه يُحْجَب، يُقدم عليه غيره.

ثم لتعلموا أن الحقيقة الفاصلة في هذا أنه ورد عن السلف من الصحابة ومن بعدهم كثير من الآثار المستفيضة في ذم الرأي والقياس، وأجمع الصحابة والتابعون على العمل بالقياس، واستنباط ما سُكت عنه مما نطق به الوحي. هذا أمر لا نزاع فيه، فمن جمد على النصوص ولم يُلحق المسكوت عنه بالمنطوق به فقد ضلّ وأضلّ.

ومن هذا النوع: ما أجمع عليه جميع المسلمين حتى سلف ابن حزم ـ وهو داود بن علي الظاهري ـ كان لا ينكر القياس المعروف الذي يسميه الإمام الشافعي: «القياس في معنى الأصل» ويقول له: «القياس الجلي» وهو المعروف عند الفقهاء بـ «مفهوم الموافقة» و «إلغاء الفارق» ويسمىٰ: «نفي الفارق» وهو نوع من تنقيح المناط[(١)]. فقد أجمع جميع المسلمين على أن المسكوت عنه فيه يُلحق بالمنطوق، وأن قول ابن حزم: «إنه مسكوت عنه، لم يُتعرض له» أنه كذب محض، وافتراء على الشرع، وأن الشرع لم يسكت عنه، فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: آية ٢٣] يقول ابن حزم[(٢)]: إن هذه الآية ناطقة بالنهي عن التأفيف، ولكنها ساكتة عن حكم الضرب!! ونحن نقول: لا والله، لما نهى عن التأفيف الذي هو أخف الأذىٰ فقد دلت هذه الآية من باب أولىٰ علىٰ أن ضرب الوالدين أشد حُرمة، وأشد حُرمة، وأن الآية غير ساكتة عنها بل نَبَّهَت علىٰ الأكبر بما هو أصغر منه، فلما نهت عن التأفيف وهو أقل أذيّة من الضرب لم تسكت عن الضرب. ونقول إن قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: الآيتان ٧، ٨] أن هذه الآية ليست ساكتة عمن عمل مثقال جبل أُحد، فلا نقول: نصّ على الذّرة، وما فوق الذرة ـ وهو أثقل منها ـ لا يؤخذ من الآية، فهي ساكتة عنه. بل

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٥) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: جواب ابن حزم عن هذه الإلزامات في الإحكام ص٩٣٢، فما بعدها.

نقول: إن الآية غير ساكتة عنه، وإن ذلك المسكوت يُلحق بهذا المنطوق. وكذلك قوله: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: آية ٢] لو جاء بأربعة عدول فلا نقول: أربعة عدول مسكوت عنها. بل نقول: إن الآية التي نصّت على قبول شهادة العدلين دالة على قبول شهادة أربعة عدول. ونقول: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: آية ١٠] لا نقول كما يقول ابن حزم: إنها ساكتة عن إحراق مال اليتيم وإغراقه؛ لأنها نصت على حُرمة أكله فقط. بل نقول: إن الآية التي نهت عن أكله دلت على حرمة إغراقه وإحراقه بالنار؛ لأن الجميع إتلاف.

ومما يدل على أن ما يقوله ابن حزم لا يقول به عاقل: أن ما ورد عن النبي ﷺ من النهي عن البول في الماء الراكد[١] يقول ابن حزم: لو بال في قارورة وصبها في الماء لم يكن هذا من المكروه؛ لأن النبي ﷺ لم يَنْهَ عن هذا، وإنما قال: «**لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل فيه**». ولم يقل: لا يبولن أحدكم في إناء ثم يصبه في الماء الراكد. فهذا لا يعقل!! أيعقل أحد أن الشرع الكريم ينهى عن أن يبول إنسان بقطرات قليلة أقل من ربع وزن الكِيْل ثم إنه يجوز له أن يملأ عشرات التنكات من البول بعدد مئات الكيلوات ثم يصبها في الماء؟ وأن هذا جائز[٢]!! [وكذلك قول النبي ﷺ: «**لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان**»، لأن الغضب من مشوشات الفكر، فيدخل في حكمه ما لو كان في..]. حزن مُفْرط يذهل عقله، أو فرح شديد مُفرِط يدهش عقله، أو في عطش شديد مُفْرِط يدهش عقله، أو في جوع شديد مُفْرِط يدهش عقله، ونحو ذلك من مشوشات الفكر التي هي أعظم من الغضب/ فليس في المسلمين من يعقل أنه يقال للقاضي: احكم بين الناس ٤/ب
وأنت في غاية تشويش الفكر بالجوع والعطش المُفرِطَين، أو الحزن والسرور المُفْرِطَين، أو الحَقْن والحَقْب المُفرِطَين، والحقن: مدافعة البول، والحقب: مدافعة الغائط؛ لأن الإنسان إذا كان يدافع البول أو الغائط مدافعة شديدة كان مُشَوَّش الفكر، مشغول الخاطر، لا يمكن أن يتعقل حجج الخصوم؛ فمثل

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

هذا إذا قال العلماء: إن القاضي لا يجوز له أن يحكم وهو مُشَوَّش الفكر. فنعلم أن قول ابن حزم أنهم إنما جاؤوا بتشريع جديد أنه كذب، وأن حديث: **«لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان»**[١] يدل على أن من كان فكره متشوشاً تشويشاً أشد من الغضب أولى بالمنع من هذا الحكم.

وكذلك نهيه ﷺ عن التضحية بالشاة العوراء[٢] لا نقول: إن العلماء لما نهوا عن التضحية بالشاة العمياء أن العمياء مسكوت عنها، وما سكت الله عنه فهو عفو، فله أن يضحي بالعمياء. هذا مما لا يقوله عاقل!!

وكذلك قال الله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [النور: آية ٤] ولم يصرح في الآية إلا بأن يكون القاذف ذكراً والمقذوفة أُنثىٰ، فلو قذفت أنثىٰ ذكراً، أو قذف ذكر ذكراً، أو قذفت أُنثىٰ أُنثىٰ، كيف نقول إن هذا عفو، وإن هذا القذف لا مؤاخذة فيه؛ لأن الله إنما نص على قذف الذكور للإناث، حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [النور: آية ٤] ولما أراد ابن حزم هنا أن يدخل الجميع في عموم المحصنات فقال: المحصنات نعت للفروج (والذين يرمون الفروج المحصنات) فيشمل الذكور والإناث[٣]، يُرد عليه: أن المحصنات في القرآن لم تأت قط للفروج، وإنما جاءت للنساء، وكيف يجري ذلك في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النور: آية ٢٣] وهل يمكن أن تكون الفروج غافلات مؤمنات؟! هذا مما لا يعقل.

وكذلك نص الله (جل وعلا) على أن المبتوتة إذا طلقها الأول ثلاث طلقات فصارت مبتوتة حراماً عليه إلا بعد زوج، ثم تزوجها زوج فدخل بها ثم طلقها هذا الزوج الأخير فإنه يجوز للأول أن ينكحها؛ لأنها حلت بنكاح الثاني. والله إنما صرح في هذه السورة بنص واحد، وهو أن يكون الزوج الذي حل لها إنما طلقها لأنه قال في تطليق الأول: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: آية ٢٣٠] ثم قال في تطليق الزوج الذي حللها: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) انظر: كتابه الإيصال (ملحق في آخر المحلى) (١١/٢٧٠).

﴿جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ أي: على الزوجة التي كانت حراماً؛ والزوج الذي كانت حراماً عليه ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: آية ٢٣٠] فنص على طلاق المحلل خاصة. ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أرأيتم لو حللها وجامعها مئة مرة حتى حلّت، وكانت كماء المزن، ثم مات قبل أن يطلقها، أو فسخ حاكم عقدهما بموجب آخر بالإعسار بنفقة أو غير ذلك من أسباب الفسخ، أيقول مسلم: إن هذه لا تحل للأول؛ لأن الله ما نص إلا على قوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ ولو مات لم تحل؛ لأن الموت ليس بطلاق!! هذا مما لا يقوله عاقل!! وأمثال هذا كثيرة جداً. فنحن نقول: إن هذا الذي يقول ابن حزم: «إن الوحي سكت عنه» الوحي لم يسكت عنه، وإنما أشار إليه لتنبيهه لبعضه على بعضه، فالغضب يدل على كل تشويش فكر. والمحصنات لا فرق بين المحصنات والمحصنين. وقوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ [البقرة: آية ٢٣٠] لا فرق بين ما لو طلقها أو مات عنها، فبعد أن جامعها وفارقها تحل للأول سواء كان الفراق بالطلاق المنصوص في القرآن، أو بسبب آخر كالموت والفسخ. وهذا مما لا ينازع فيه عاقل، وإن نازع فيه ابن حزم.

ثم إن ابن حزم يسخر من الإمام أبي حنيفة (رحمه الله)؛ لأن الإمام أبا حنيفة (رحمه الله) يقول: إن التشهد الأخير يخرج الإنسان به من الصلاة بكل مناف للصلاة. ورُوي عنه: حتىٰ أنه لو انتقض وضُوءه فضرط أنه خرج من الصلاة؛ لأن الضراط مناف لها. وكان ابن حزم يسخر عليه من هذا فيقول: ألا ترون قياس الضراط على (السلام عليكم) الوارد في النصوص!! إن لم يكن قياس الضراط على (السلام عليكم) قياساً فاسداً فليس في الدنيا قياس فاسد!!

ويسخر من الإمام مالك في مسائل كثيرة ويقول: إنه يقيس قياسات الألغاز. لأن مالكاً (رحمه الله) جعل أقل الصداق ربع دينار، أو ثلاثة دراهم خالصة. قال: قياساً على السرقة بجامع أن كلّا منهما فيه استباحة عضو في الجملة؛ لأن النكاح فيه استباحة الفرج بالوطء، والقطع فيه استباحة اليد بالقطع. فابن حزم يسخر من مالك ويقول: هذه ألغاز ومحاجاة بعيدة من الشرع، وتشريعات باطلة. وأمثال هذا منه كثيرة[1].

---

(١) انظر: الإحكام ص١٠٨٢.

ونحن نضرب مثلًا: فإنه من أشد ما حمل فيه على الأئمة ـ رحمهم الله ـ مسألة حديث تحريم ربا الفضل؛ لأن النبي ﷺ ثبت عنه في الأحاديث الصحيحة أنه قال: «**الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مِثلاً بمِثْل، فمن زاد أو استزاد فقد أربىٰ**»[1]. ابن حزم يقول: ليس في الدنيا ما يحرم فيه ربا الفضل إلا هذا. ويقول: الدليل على أنهم مُشَرِّعون، وأن أقوالهم كلها كاذبة؛ لأن بعضهم كالشافعي يقول: علة الربا في البر: الطعم. فيقيس كل مطعوم على البر فيقول: إن المطعومات كالفواكه كالتفاح وغيره من الفواكه يحرم فيه الربا قياساً على البر بجامع الطعم. وأبو حنيفة وأحمد يقولان: العلة: الكيل، فيقولان: كل مكيل يحرم فيه الربا قياساً على البر. فيحرمان الربا في النُّوْرة والأشنان وكل مكيل. فيقول ابن حزم: هذا يقول: «العلة الطعم». ويُلحق أشياء، وهذا يقول: «العلة الكيل» ويُلحق أشياء أخرىٰ، وكلٌّ منهم يُكَذِّب الآخر[2]!! فهذه القياسات المتناقضة، والأقوال المتكاذبة، والأحكام التي ينفي بعضها بعضاً لا يشك عاقل في أنها ليست من عند الله. وأمثال هذا كثيرة.

ونحن نضرب مثلًا بهذه المسألة فنقول: إن الأئمة (رضي الله عنهم)، أبا حنيفة، وأحمد، والشافعي ـ رحمهم الله ـ الذين سخر ابن حزم من قياساتهم هم أولى بظواهر النصوص من نفس ابن حزم. ونقول لابن حزم مثلًا: أنت قلت: إنك مع الظاهر، وقلت:

ألم تعلموا أني ظاهري وأنني ... على ما بدا حتى يقوم دليل[3]

فهذا الإمام الشافعي الذي قال: «إن علة الربا في البر: الطعم».

---

(١) البخاري في البيوع، باب: بيع الفضة بالفضة. حديث رقم (٢١٧٦، ٢١٧٧، ٢١٧٨)، (٣٧٩/٤)، ومسلم في المساقاة، باب: الربا، حديث رقم (١٥٨٤)، (١٢٠٨/٣، ١٢١١)، من حديث أبي سعيد الخدري. وقد جاء في هذا المعنى عدة أحاديث، منها حديث أبي بكرة عند البخاري (٢١٧٥)، (٢١٨٢)، ومسلم (١٥٩٠)، وحديث عمر عند مسلم (١٥٨٦)، وفيه أيضاً عن عبادة (١٥٨٧)، وأبي هريرة (١٥٨٨)، وفضالة بن عبيد (١٥٩١).

(٢) انظر: الإحكام ص١٠٦٥، ١٠٨٢.

(٣) البيت في سير أعلام النبلاء (٢٠٧/١٨)، وفيات الأعيان (٣٢٧/٣). وصدره: «ألم تر».

استدل بحديث ثابت في صحيح مسلم، وهو حديث معمر بن عبدالله (رضي الله عنه)، الثابت في صحيح مسلم، قال: كنت أسمع رسول الله ﷺ يقول: «**الطعام بالطعام مثلاً بمثل**...» الحديث[1] فالشافعي فيما سخر منه ابن حزم أقرب لظاهر نصوص الوحي من ابن حزم. وكذلك الإمام أبو حنيفة وأحمد بن حنبل ـ رحمهما الله تعالى ـ اللذان قالا: «إن علة الربا في البر: الكيل» استدلا بالحديث الثابت في الصحيح: «**وكذلك الميزان**»؛ لأن النبي ﷺ لما ذكر المكيلات وبين أن الربا حرام فيها قال: «**وكذلك الميزان**». والتحقيق: أن الموزونات مثل المكيلات. فجعل معرفة القدر علة للربا. وقوله: «**وكذلك الميزان**» ثابت في الصحيحين[2]. وفي حديث حيان بن عبيدالله الذي أخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: إنه صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، عن أبي سعيد الخدري لما ذكر الستة التي يحرم فيها الربا قال عن رسول الله ﷺ: «**وكذلك كل ما يكال أو يوزن**»[3]. وهذا الحديث حاول ابن حزم تضعيفه من ثلاث جهات، وقد ناقشناه في الكتاب الذي كتبنا على القرآن مناقشة وافية[4]. والتحقيق: أن حيان بن عبيدالله ليس بمجروح، وأن زعمه أن أبا مجلز الذي روى عنه الحديث لم يلق ابن عباس أنه كذب، وأنه أدرك ابن عباس وأبا سعيد الخدري (رحمهم الله)، وأن الحديث لا يقل عن درجة القبول بوجه من الوجوه عند المناقشة الصحيحة كما بيناه في الكتاب الذي كتبنا في القرآن. وهذا الحديث قال فيه النبي ﷺ: «**وكذلك كل ما يكال أو يوزن**». وهذا أقرب لظاهر نص

---

(١) مسلم في المساقاة، باب: بيع الطعام بالطعام مثلًا بمثل. حديث رقم (١٥٩٢)، (٣/١٢١٤).

(٢) البخاري في البيوع، باب: إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه. حديث رقم (٢٢٠١، ٢٢٠٢)، (٤/٣٩٩)، وأطراف حديث (٢٢٠١)، في (٢٣٠٢، ٤٢٤٤، ٤٢٤٦، ٧٣٥٠)، وحديث (٢٢٠٢)، أطرافه في (٢٣٠٣، ٤٢٤٥، ٤٢٤٧، ٧٣٥١).
ومسلم في المساقاة، باب: بيع الطعام مثلًا بمثل. حديث رقم (١٥٩٣)، (٣/١٢١٥)، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٤٢ ـ ٤٣)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ا.هـ وتعقبه الذهبي بقوله: «حيان فيه ضعف وليس بالحجة» ا.هـ.

(٤) انظر: أضواء البيان (١/٢٤٠).

النبي ﷺ من ابن حزم الذي يسخر من أبي حنيفة والإمام أحمد ـ رحمهما الله ـ وليس قصدُنا في هذا الكلام أن نتكلم على ابن حزم؛ لأنه رجل من علماء المسلمين، وفحل من فحول العلماء، إلا أن له زلات، ولا يخلو أحد من خطأ، ومقصودنا أن نبين لمن نظر كتب ابن حزم فقط أن حملاته على الأئمة أن الغلط معه فيها لا معهم، وأنهم أقرب للصواب، وأولى به منه، وأعلم منه، وأكثر علماً وورعاً منه، فهم لا يحملون على أحد، ولا يعيبون أحداً.

والحاصل أن إلحاق المسكوت عنه بالمنطوق أمر لا شك فيه، وأن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، والله (جل وعلا) قد بين نظائر في القرآن كثيرة يُعلم بها إلحاق النظير بالنظير. والنبي ﷺ أرشد أمته إلى ذلك في أحاديث كثيرة[١]، فمن ذلك: أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لما سأل النبي ﷺ عن القُبْلة للصائم، فقال له: «**أرأيت لو تمضمضت**»[٢]؟! فهذا إشارة من النبي ﷺ إلى قياس المضمضة على القُبْلة بجامع أن القُبْلة مقدمة الجماع، وأن المضمضة مقدمة الشرب، فكل منهما مقدمة الإفطار وليست بإفطار. فمحل كون القُبْلة كالمضمضة: إذا كان صاحبها لا يخرج منه شيء، أما إذا كانت القبلة تخرج منه شيئاً فهو كالذي إذا تمضمض ابتلع شيئاً من الماء، فحكمه حكمه. وكذلك ثبت عن النبي ﷺ في أحاديث متعددة ثابتة في الصحيحين: أنه سأله رجل مرة، وامرأة مرة، عن دَين يقضيانه على ميت لهما، مرة تقول: أبي، ومرة تقول: أمي. وكذلك الرجل. فقال النبي ﷺ: «**أرأيت لو كان على أمك دَين فقضيته أكان ينفعه؟**» قالت: نعم. قال: «**فدَين الله أحق أن يقضىٰ**»[٣]. هو تنبيه منه ﷺ على قياس دَين الله على دَين الآدمي. بجامع أن الكل حق يطالب به الإنسان، وأنه يقضى عنه بدفعه لمستحقه. وأمثال هذا كثيرة. ومن أصرحها: ما ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ جاءه رجل، كان الرجل أبيض، وامرأته بيضاء، وولدت له غلاماً

---

(١) انظر: جواب ابن حزم عن مثل هذه الأدلة في الإحكام ص٩٦٦، فما بعدها.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٤٥) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

أسود، فأصاب الرجل جزع من سواد الغلام، وظن أنها زنت برجل أسود وجاءت منه بهذا الولد، فجاء للنبي ﷺ منزعجاً وأخبره أنها جاءت بولد أسود، وكان يريد أن يلاعنها وينفي عنه الولد باللعان زعماً أن هذا الولد من زانٍ أسود، وأنه ليس ولده؛ لأنه هو أبيض وزوجته بيضاء. فقال له النبي ﷺ: «**هل لك من إبل؟**» قال: نعم. قال: «**ما ألوانها؟**» قال: حمر الألوان. قال: «**هل فيها من أورق؟**» (والأورق المتصف بلون الوُرْقة، والوُرْقة لون كلون حمام الحرم، يعني: سواد يعلوه بياض يكون في الإبل) قال الرجل: إن فيها لوُرْقاً؟ قال: «**ومن أين جاءتها تلك الوُرقة، آباؤها حمر وأمهاتها حمر، فمن أين جاءتها الوُرقة؟**» قال: لعل عرقاً نزعها! قال له: «**وهذا الولد لعل عرقاً نزعه**»[1]. فاقتنع الأعرابي. وهذا إلحاق نظير بنظير، وبالجملة فنظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، وهذا مما لا يُشك فيه، وأن القياس منه قياس صحيح لا شك فيه كالأمثلة التي ذكرنا، ومنه قياس فاسد، والقرآن ذكر بعض الأقيسة الفاسدة، وبعض الأقيسة الصحيحة، فمن الأقيسة الصحيحة في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: آية ٥٩] كما اليهود قالوا: إن عيسى لا يمكن أن تلده مريم إلا من رجل زنى بها، وقالوا لها: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: آية ٢٨] وهذا الولد لا بد أن يكون له والد، وهذا الوالد رجل فَجَرْتِ معه وزنيتِ به. فالله (جل وعلا) قاس لهم هذا الولد على آدم بجامع أن آدم ولد ولم يكن له أم ولا أب، خُلق ولم يكن له أم ولا أب، فالذي خلق آدم ولم يكن له أب ولا أم فهو قادر على أن يخلق عيسى من أم ولم يكن له أب، كما خلق حواء من ضلع رجل. فالله (جل وعلا) جعل خلق الإنسان قسمة رباعية: بعضٌ خلقه لا من ذكر ولا من أنثى، وهو آدم. وبعض خلقه من أنثى دون ذكر، وهو عيسى ابن مريم. وبعض خلقه من ذكر دون أنثى وهي حواء؛ لأن الله يقول: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: آية ١] والقسم الرابع: خلقه من ذكر

---

(١) السابق.

وأنثى فقاس عيسى على آدم بجامع أن الذي أوجد آدم بقدرته يوجد عيسى بقدرته. وأمثال هذا كثيرة. وكذلك قاس الموجودين في زمن النبي ﷺ على الأمم الماضية، وقال لهم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ثم بين إلحاق النظير بالنظير فقال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: آية ١٠] فكأن الموجودين في زمن النبي ﷺ فرع، والكفار المتقدمون أصل، والحكم الذي عمهم المهدد به: العذاب والهلاك، والعلة الجامعة: تكذيب الرسل، والتمرد على رب العالمين. وأمثال هذا في القرآن كثيرة.

وكذلك ما يسمونه: (قياس العلة) - وهو الجمع بين الأصل والفرع بدليل العلة[1] - يكثر في القرآن جداً، كقوله جل وعلا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [فصلت: آية ٣٩] فقاس إحياء الموتى الذي ينكره منكرو البعث على إحياء الأرض المشاهد؛ لأن كلاً منهما إحياء. وهذا الإحياء للموجود يدل على قدرة قادر كاملة باهرة يقدر بها من اتصف بها على إحياء الموتى كما أحيا الأرض بعد موتها. وكما استدل (جل وعلا) بقياس الأولى على الأدنى، واستدل بأن من خلق السماوات والأرض لا يعجز عن خلق الإنسان الصغير الحقير بعد الموت، كما قال: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾ الآية [النازعات: الآيات ٢٧ - ٢٩] وقال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: آية ٥٧] ومن قدر على خلق الأكبر فهو قادر على خلق الأصغر، وقال جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ﴾ [الأحقاف: آية ٣٣] وقاس النشأة الأخرى على النشأة الأولى فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الواقعة: آية ٦٢] والإيجاد الأول فهلا قستم عليه النشأة الأخرى والإيجاد الأخير، وعلمتم أن من قدر على الأول قادر على الثاني، كما قال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: آية ٧٩] وأمثال هذا كثيرة جداً.

---

(١) انظر: المذكرة في أصول الفقه ص٢٤٣، نثر الورود ص٤٤٢.

أما القياس الفاسد الذي بُني مخالفاً للنصوص كقياس إبليس لعنه الله، وكالأقيسة المخالفة للنصوص، وكأقيسة الشَّبَه المبنية على الفساد[١]، فإن الكفار جاؤوا بقياس الشَّبه كثيراً، باطلًا ـ ومِثْلُه باطل ـ كما قالوا في يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: آية ٧٧] فأثبتوا السرقة على أخي يوسف؛ لأن يوسف قد سرق قبله، قالوا: الأخ يشابه الأخ، فيلزم من مشابهتهما أن يكونا متشابهين في الأفعال، وأن هذا سرق كما سرق ذلك!! وهذا قياس شَبَهٍ باطل. وهذا النوع من القياس كقياسات إبليس الباطلة؛ والكفار ـ لعنهم الله ـ كذبوا جميع الرسل بقياسات شَبَهٍ باطلة؛ لأنه ما جاء رسول إلى قوم إلا قالوا له: أنت بشر، وكونك بشر يجعلك تشبه سائر البشر، ولا نقبل أن تكون رسولاً من رب العالمين وأنت تأكل كما نأكل، وتشرب مما نشرب، وتمشي في الأسواق كما نمشي فيها!! ونص الله على أن هذا مَنَعَ كل أمة، قال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: آية ٩٤] فشبهوا البشر بالبشر قياس شبه، واستنتجوا من ذلك أنه لا تكون له أفضلية على البشر، والرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ردوا عليهم هذا القياس، ورده الله عليهم في آيات لما قالوا للرسل: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: آية ١٠] أجابهم الرسل قالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: آية ١١] فمشابهتنا في البشرية لا تستلزم [عدم][٢] تفاوتنا في فضل الله، كما قال جل وعلا: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: آية ٦] ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: آية ٣٤] وقالوا فيه: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: آية ٣٣] ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: آية ٢٤] وهذا كثير في القرآن، وهذه الأقيسة الفاسدة.

---

(١) انظر: كلام الشيخ (رحمه الله) على قياس الشبه في المذكرة في أصول الفقه ص٢٦٥، نثر الورود ص٥٠٩.

(٢) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

والحاصل أن القياس منه صحيح ومنه فاسد، فالصحيح هو الذي أجمع عليه الصحابة والتابعون وعامة المسلمين. وأحكام الصحابة في القياس لا يكاد أحد يحصيها، فقد جاء في صحيح البخاري عن النبي ﷺ ما يدل على أن المجتهدين يختلفون في اجتهادهم، وكلهم لا إثم عليه ولا ضَيْر عليه؛ لأنه قد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: **«من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»**(١). هذا نص صريح صحيح سمعه الصحابة بآذانهم من رسول الله ﷺ ثم راحوا من المدينة إلى ديار بني قريظة وأدركتهم صلاة العصر في الطريق، فاختلفوا في فهم هذا الحديث، وكل اجتهد بحسب ما أدىٰ إليه فهمه، فجماعة قالوا: ليس مراد النبي ﷺ أن نؤخر صلاة العصر عن وقتها، ولكن مراده الإسراع إلى بني قريظة، فلنُصلِّ ونسرع. فصلوا العصر وأسرعوا. وجماعة قالوا: العصر وجبت علينا على لسانه ﷺ، فلو قال لنا: اتركوها إلى يوم القيامة تركناها إلى يوم القيامة، ولو قال: اتركوها إلى قريظة تركناها إلى قريظة، وجاؤوا النبي ﷺ ولم يصلوا، واجتمعوا عند النبي ﷺ وهم في خلاف بين مُشَرِّق ومُغَرِّب؛ لأن من صلى ومن لم يصل مختلفان، فهو ﷺ قررهم جميعاً ولم يُخَطِّىء أحداً منهم، ولو كان واحد منهم فعل غير صواب وأمراً حراماً لما أقره الرسول عليه ﷺ؛ لأنه لا يقر على باطل، ولا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه. وثبت في صحيح البخاري عن الحسن البصري (رحمه الله) ما مضمونه ومعناه: أنه كان يقول: لولا آية من كتاب الله أشفقت على المجتهدين، وهي قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ...﴾ الآية [الأنبياء: آية ٧٨]

---

(١) البخاري في صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب راكباً وإيماءً. حديث رقم (٩٤٦)، (٤٣٦/٢)، وطرفه في (٤١١٩)، ومسلم في الجهاد والسير، باب: المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين. حديث رقم (١٧٧٠)، (١٣٩١/٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

تنبيه: في البخاري (العصر) وفي مسلم (الظهر). وانظر كلام الحافظ على الروايتين في الفتح (٤٠٨/٧ ـ ٤٠٩).

الآية[١]؛ لأن الله (جل وعلا) صرح بأنهما حكما حيث قال: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ بألف الاثنين الواقعة على داود وسليمان، ثم قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ ولم يذكر شيئاً عن داود، فعلمنا أن داود لم يفهمها؛ لأنها لو فهمها الأب لما اقتصر على الابن، ولَمَا كان للاقتصار على سليمان فائدة مع أنهما فهماها، ولو كان هذا وحياً من الله لما فهمه أحدهما دون الآخر؛ لأن الوحي أمر لازم للجميع، فدل على أنهما اجتهدا، وأن داود لم يصب في اجتهاده، وأن سليمان أصاب في اجتهاده، فالله أثنىٰ على كل منهما، ولم يؤنب داود، بل قال بعده: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[٢] [الأنبياء: آية ٧٩] وقد ثبت في الصحيحين ما يُستأنس به لهذا؛ لأنه قد ثبت في الصحيحين أن داود (عليه السلام) في زمنه جاءته امرأتان نُفستا، وجاء الذئب فاختطف ابن واحدة منهما، وكانت التي اختطف ولدها هي الكبرىٰ، وبقي ولد الصغرىٰ فقالت الكبرى: هذا ولدي. وتنازعتا، فتحاكمتا إلى داود، فقضىٰ به للكبرى اجتهاداً منه، لأمارات ظهرت له، أو لشيء في شرعه يقتضي ظاهره ذلك بالاجتهاد. فرجعتا إلى سليمان، فلما رجعتا إلى سليمان قال: كل واحدة منكما تدعيه!! هاتوا بالسكين أشقه بينهما نصفين، فأُعطي نصفه لهذه ونصفه لهذه. وكان أبو هريرة يقول: ما سمعت بالسكين إلا ذلك اليوم، ما كنا نقول لها إلا المُدْيَة. فلما قال إنه يشقه جزعت أمه التي هي الصغرىٰ، وأدركتها الرأفة على الولد فقالت له: لا، يرحمك الله، هو ابنها وأنا لا حق لي فيه. وكانت الكبرى راضية بأن يُشق لتساويها أختها في المصيبة، فعلم سليمان أن الولد للصغرىٰ، فقضىٰ به للصغرىٰ[٣]. وذكر ابن عساكر في تاريخه ما يشبه هذه القصة عن داود وسليمان، إلا أنه في تاريخ ابن عساكر ـ والله أعلم بصحة القصة وعدم صحتها ـ إلا أن هذا الذي ذكرنا

---

(١) البخاري في الأحكام، باب: متى يستوجب القضاء (١٣/١٤٦).

(٢) انظر: جواب ابن حزم عن هذه الأدلة في الإحكام ص٦٩٩.

(٣) البخاري في أحاديث الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ...﴾ حديث رقم (٣٤٢٧)، (٦/٤٥٨)، وطرفه في (٦٧٦٩)، ومسلم في الأقضية، باب: بيان اختلاف المجتهدين. حديث رقم (١٧٢٠)، (٣/١٣٤٤).

الآن اتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة. والقصة التي ذكرها ابن عساكر في تاريخه: أنه كان أربعة من أشراف بني إسرائيل راودوا امرأة جميلة من بني إسرائيل عن نفسها، وكانت بارعة الجمال، [فمنعتهم وحاولوا أن يصلوا][(١)] إليها فامتنعت فاتفقوا على أن يحتالوا عليها حيلة فيقتلونها، فجاؤوا وشهدوا عند داود أن عندها كلباً علمته الزنى، وأنها تزني بكلبها. وكان مثل هذا عند داود يقتضي حكم الرجم. فدعا داود بالشهود فشهد الأربعة على أنها تزني بكلبها فرجمها داود. قالوا: وكان سليمان إذ ذاك صغيراً، فجمع سليمان الصبيان وجعل منهم شُرَطاً. قال: فلان وفلان جعلهم كالشرطيين، وأخذ قوماً وجعلهم شهوداً، وجاؤوا يشهدون، وجعل رجلاً كأنه المرأة، وقالوا: نشهد أن هذه زنت بكلبها. ثم قال سليمان للصبيان الذين جعلهم كالشُّرط: خذوا كل واحد منهم وفرقوهم وأتوني بهم واحداً واحداً. فجاؤوه بالأول فقال: ما تقول في شهادتك؟ قال: أقول إنها زنت بكلبها. قال له: وما لون الكلب؟! قال: كان كلبها أحمر. ثم دعا بالثاني فقال: وما لون الكلب؟ قال: كان كلبها أسود. ثم دعا الآخر فقال: أغبر. فاختلفت أقوالهم في لون الكلب، فعلم أنهم كَذَبَة، فقال: اقتلوهم؛ لأنهم قتلوها. فسمع داود الخبر، فأرسل بالشهود حالاً وفرقهم، وجاؤوه واحداً واحداً فسألهم فاختلفوا في لون الكلب، فعلم أنهم شهدوا عليها شهادة زور ليقتلوها حيلة، فقتلهم قصاصاً. هكذا قال، والله أعلم[(٢)].

وعلى كل حال فالقياس هو قسمان: قياس صحيح، وقياس فاسد. فما جاء به الظاهرية - من ذم القياس - والسلف هو ينطبق على القياس الفاسد. والصحابة كانوا مجمعين على القياس الصحيح[(٣)]. وقد جاء عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ لما أرسله إلى اليمن جاءه ثلاثة نفر يختصمون في غلام، كلهم يقول: هو ابني. فقال: اقترعوا على

---

(١) في الأصل: «فمنعتهما وحاولا أن يصلا».

(٢) تاريخ دمشق (٢٢/٢٣٢)، وهي في مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٠/١٢٠ - ١٢١).

(٣) انظر: مناقشة ابن حزم لذلك في الإحكام ص٩٧٩.

الغلام، فوقعت القرعة لواحد [منهم][1] فقال للذي جاء الغلام في نصيبه: خذ الغلام وادفع لكل واحد منهما ثلث الدية ـ ثلث دية الغلام ـ قالوا: فلما بلغ قضاؤه النبي ﷺ ضحك من قضاء علي هذا حتى بدت نواجذه[2]. ومن ذلك حديث معاذ الذي قال له: «**بم تقضي؟**» قال: بكتاب الله. قال: «**فإن لم تجد؟**» فبسنة رسول الله. قال: «**فإن لم تجد؟**» قال: أجتهد رأيي. فقال: «**الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ**»[3]. وهذا الحديث يقول ابن حزم: إنه باطل[4] لا أصل له؛ لأنه رواه الحارث بن عمرو بن أخي المغيرة، عن ناس من حمص مجهولين. هو رواية مجهول عن مجاهيل، وأن الاستدلال به ضلال. وقد قال ابن كثير في مقدمة تفسيره: إنه رواه أصحاب السنن بإسناد جيد[5]. وذكر بعض العلماء أنه جاء من طريق عبادة بن نُسي، عن عبدالرحمن بن غنم، عن معاذ بن جبل. وهذا الإسناد من هنا صحيح لا شك في صحته؛ لأن رجاله معروفون، إلا أن البلية مما قبل عبادة بن نُسي. والظاهر أن الذي رواه عن عبادة بن نسي هو محمد بن

---

(١) في الأصل: (منهما).

(٢) عبدالرزاق (١٣٤٧٢، ١٣٤٧٣)، وأحمد (٣٧٣/٤، ٣٧٤)، وأبو داود في الطلاق، باب: من قال بالقرعة إذا تنازعوا في الولد. حديث رقم (٢٢٥٢ ـ ٢٢٥٤)، (٣٥٩/٦ ـ ٣٦٢)، والنسائي في الصغرى، كتاب الطلاق، باب: القرعة في الولد إذا تنازعوا فيه. حديث رقم (٣٤٨٨ ـ ٣٤٩٢)، (١٨٢/٦ ـ ١٨٤)، وفي الكبرى رقم (٥٩٨٨)، وابن ماجه في الأحكام، باب: القضاء بالقرعة. حديث رقم (٢٣٤٨)، (٧٨٦/٢)، والبيهقي (٢٦٧/١٠).

وهو في صحيح أبي دواد (١٩٨٦ ـ ١٩٨٧)، وصحيح ابن ماجه (١٩٠١)، وصحيح النسائي (٣٢٦٤ ـ ٣٢٦٧).

(٣) أحمد (٢٣٦/٥)، (٢٤٢)، والدارمي (٥٥/١)، وأبو داود في القضاء، باب: اجتهاد الرأي في القضاء. حديث رقم (٣٥٧٥، ٣٥٧٦)، (٥٠٩/٩)، والترمذي في الأحكام، باب: ما جاء في القاضي كيف يقضي. حديث رقم (١٣٢٧، ١٣٢٨)، (٦٠٧/٣)، وانظر: ضعيف أبي دواد (٧٧٠، ٧٧١)، والمشكاة (٣٧٣٧)، وضعيف الترمذي (٢٢٤)، والسلسلة الضعيفة (٨٨١).

(٤) انظر: الإحكام ص٦٩٨، ٧٧٣.

(٥) تفسير ابن كثير (٣/١).

حسان[١] المصلوب، الذي صلبه أبو جعفر المنصور في الزندقة، وهو كذاب لا يُحتج به. فالحاصل أن حديث معاذ لا طريق له إلا طريق السنن التي فيها الحارث بن عمرو، عن قوم من أصحاب معاذ من أهل حمص.

والذين قالوا: إن الحديث صحيح، وإنه يجوز العمل به، استدلوا بأمرين:

أحدهما: أن الحارث بن عمرو المذكور وثقه ابن حبان، وإن كان ابن حبان له تساهل في التوثيق فالحديث له شواهد قوية يعتضد بها، كحديث الصحيحين: «**إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر، وإذا اجتهد فأصاب فله أجران**»[٢]. قالوا: أصحاب معاذ بن جبل ليس فيهم مجروح، بل كلهم عدول. وإذا كان الحارث موثقاً، وأصحاب معاذ كلهم عدول فالحديث مقبول. وكذلك قالوا: إن علماء المسلمين تلقوا هذا الحديث خلفاً عن سلف، وتلقي العلماء للحديث بالقبول يكفيه عن الإسناد، وكم من حديث اكتُفي بصحته عن الإسناد، واكتُفي بعمل العلماء به في أقطار الدنيا؛ لأن هذه الأمة إذا عمل علماؤها في أقطار الدنيا بحديث دل على أن له أصلاً، واكتُفي بذلك عن الإسناد.

وعلى كل حال فالقياس الباطل هو المذموم، والقياس الصحيح - وهو إلحاق النظير بالنظير على الوجه الصحيح - لا شك في صحته، وأن الصحابة كذلك كانوا يفعلون، يُلحقون المسكوت عنه بالمنطوق به، وهذا كثير، وقد مثلنا له بأمثلة كثيرة.

٥/أ / يقول الله جل وعلا: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف: آية ٣١] قد

---

(١) هو محمد بن سعيد بن حسان، ويقال له: ابن أبي حسان. قيل: «قلبوا اسمه على مائة وجه ليخفى» ا.هـ (التقريب ص٨٤٧) وانظر: ص٨٣٦.

(٢) البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ. حديث رقم (٧٣٥٢)، (١٣/٣١٨)، ومسلم في الأقضية، باب: بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ رقم الحديث (١٧١٦)، (٣/١٣٤٢).

تقرر في علوم الحديث أن تفسير الصحابي إذا كان له تعلق بسبب النزول أن له حكم الرفع إلى النبي ﷺ، كما هو معروف في مصطلح الحديث[١]. وإذا علمتم ذلك فاعلموا أن مسلم بن الحجاج (رحمه الله) في آخر صحيحه أخرج عن ابن عباس من طريق سعيد بن جبير أنَّ هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف نزلت فيما كان يفعله المشركون من أنهم يطوفون بالبيت عراة، فأنزل الله النهي عن ذلك[٢]، والتجمل بلباس الزينة، وستر العورة للطواف وللصلاة في جميع المساجد، فالسبب خاص واللفظ عام، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب[٣] كما سنوضحه إن شاء الله.

والمعروف في مختلقات[٤] العرب التي كانوا يفعلون: أنَّ غير الحُمس ـ والحُمس: جميع قريش[٥]؛ لأنَّ من قريش أهل بطاح وأهل ظواهر، وجميعهم هم وحلفاؤهم يُسمّون: «الحُمس» وأهل البطاح منهم: أولاد كعب فما دونه، وما فوق كعب وهم بنو عامر بن لؤي، وبنو الحارث بن فِهر، وبنو محارب بن فِهْر من قبائل قريش، هؤلاء كانوا ليسوا ببطاح مكة بل بالظواهر، فهؤلاء أهل ظواهر، وهؤلاء الأبطحيون في نفس بطحاء مكة، والجميع يسمون: «الحُمسْ» هم قريش بجميعها أهل بطاحها وأهل ظواهرها كانت عادة العرب في الجاهلية أن الإنسان إذا جاء يريد الطواف ببيت الله الحرام إن كان له صديق من الحُمس أعطاه ثوباً يطوف فيه، وذكروا أن النبي ﷺ في الجاهلية ـ قبل البعثة ـ كان له صديق من بني تميم هو عياض بن حمار الذي كان بعد ذلك صحابياً كريماً، وكان النبي ﷺ إذا أراد عياض بن حمار أن يطوف أعاره ثوبه ليطوف فيه كما

---

(١) انظر: معرفة علوم الحديث ص٢٠، البرهان للزركشي (١٧٢/٢)، النكت على ابن الصلاح (٥٣٠/٢، ٥٣١)، تدريب الراوي (١٩٣/١)، قواعد التفسير (٥٤/١، ١٧٨).

(٢) مسلم في التفسير، باب قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ حديث رقم (٣٠٢٨)، (٢٣٢٠/٤).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

(٤) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٣٥٧/٦).

(٥) المصدر السابق (٣٦٢/٦)، وانظر: ابن جرير (٥٥٧/٣).

هو معروف في التاريخ[١]. فإن أعاره أحد الحُمس ثوبه طاف فيه، وإن لم يجد من يعيره من الحُمس ثوباً فإن كان ثوبه جديداً - لم يلبسه قبل ذلك - طاف فيه، ولكنه عندما يطوف فيه يلقيه من حاله ويذهب عرياناً؛ لأنهم يقولون: لا نطوف بيت الله بثياب عصينا الله فيها. أو يتفاءلون أنهم يخرجون من الذنوب ويتعرون منها كما تعروا من الثياب[٢]. وهذه تشريعات الشيطان. والإنسان منهم إذا طاف في ثوبه لا بد أن يلقيه، وإن لم يُلْقه ضربوه حتى يلقيه ويسمى ذلك الثوب (لَقَى) وهو معروف في التاريخ؛ لأن (اللَّقى) هذا الثوب الذي يلقيه من طاف فيه يبقى طريحاً تدوسه أقدام الناس في المطاف[٣]. وبعضهم قالوا: يُلقون (اللَّقى) في منى، ومنه قول الشاعر[٤]:

كفى حَزَناً كَرِّي عليه كأنه لَقىً بين أيدي الطائفين حريمُ

يعني أخاً له ميتاً تدوسه أقدام الناس وهو ميت كأنه هذا الثوب اللَّقى الذي طرحه من طاف به. فإن لم يجد من يعيره، وكان الثوب قديماً - في زعمهم قد عصى الله فيه - طرح الثوب وجاء عرياناً، وطاف عرياناً - والعياذ بالله - وتطوف المرأة عريانة!! وبعضهم يقول: كانت النساء تطوف بالليل ليس عليهن ثياب، والرِّجال يطوفون بالنهار[٥]. والبيت الذي تقوله الطائفة[٦]:

اليومَ يبدو بعضُه أو كُله فما بدا منه فلا أُحلُّه

---

(١) انظر: الاستيعاب (٣/١٢٩).
(٢) انظر: المفصل (٦/٣٥٩).
(٣) انظر: القرطبي (٧/١٨٩)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٦/٣٥٩).
(٤) البيت في القرطبي (٧/١٨٩)، السيرة لابن هشام (١/٢٢٠).
(٥) انظر: المفصل (٦/٣٥٨).
(٦) هذا البيت ينسب لضباعة بنت عامر بن صعصعة. وهو في صحيح مسلم (٤/١٣٢٠)، وابن جرير (١٢/٣٧٧، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٣)، القرطبي (٧/١٨٩)، المفصل (٦/٣٥٨).

هو في صحيح مسلم في حديث ابن عباس الذي ذكرناه آنفاً[١]، وأنه تفسير صحابي لهذه الآية متعلق بسبب النزول فله حكم الرفع، فكأنه حديث صحيح في حكم الرفع إلى النبي ﷺ.

يقول ـ إن معنى الآية ـ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٣١] يعني: خذوا زينة اللباس واستروا بها عوراتكم عند الطواف بالبيت والصلاة. والآية وإن كان سبب نزولها في طوافهم بالبيت عراة فلفظها عام لكل مسجد. والمقرر في الأصول: أن اللفظ إن كان عاماً والسبب كان خاصاً فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب. هذا هو الحق الذي عليه جماهير العلماء، وعليه عامة الأصوليين إلا من شذ[٢]. والدلالة على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب تُفهم من نصوص الوحي، ومن اللغة العربية[٣]. أما نصوص الوحي فقد دلت على ذلك أحاديث صحيحة تدل على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما يدل عليه استقراء القرآن، وتدل عليه اللغة العربية أيضاً. فمن الأحاديث الدالة على ذلك: قصة الأنصاري المشهورة التي ذكرها الله في سورة هود، وسيأتي إيضاحها، وضابطها: أن أنصارياً كان تمَّاراً فجاءته امرأة تريد أن تبتاع منه تمراً فأُعجب بجمالها فقال لها: إن في البيت تمراً أجود من هذا. فلما دخلت في البيت تظن أنه يبيعها التمر الأجود، كان بينه وبينها ما لا ينبغي أن يكون بين رجل وغير زوجته، إلا أنه لم يقع بينهما ما يستوجب الحد، فكان شيء مثل التقبيل والضم ونحوه، ثم بعد ذلك ندم ذلك الأعرابي وسأل النبي ﷺ فأنزل الله فيه آية مدنية في سورة مكية، وهي قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ﴾ يعني كالصلوات الخمس التي يقيمها في الجماعات ﴿يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: آية ١١٤] أي: يغفر الله بهن تلك الذنوب، كتقبيل تلك الأجنبية، ثم إن ذلك الرجل لما نزلت فيه الآية وقرأها النبي ﷺ سأل ذلك

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) مضى قريباً.

(٣) انظر: أدلة ذلك في قواعد التفسير (٢/٥٩٤).

الأنصاريُ وقال له: يا رسول الله ألي هذا خاصة؟ وسؤال الأنصاري - هذا - مقتضاه: أيختص حكم هذه الآية بي لأنني سبب نزولها، أم العبرة بعموم لفظ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾؟ فقال له النبي ﷺ: «**بل لأمتي كلهم**»(١). وسؤال الأنصاري هذا وجواب النبي ﷺ له ثابت في صحيح البخاري في تفسير سورة هود، وهو نص صريح في أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

ومن النصوص الدالة على ذلك: ما ثبت في الصحيح ثبوتاً لا مطعن فيه، من أن النبي ﷺ جاء علياً وفاطمة (رضي الله عنهما وأرضاهما) وهما نائمان، وأيقظهما ليصليا من الليل، فقال له علي (رضي الله عنه): إن أرواحنا بيد الله إن شاء بعثنا. فولى ﷺ كالمغضب يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾(٢) [الكهف: آية ٥٤] مع أن آية: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ نزلت على التحقيق في الكفار المشركين الذين يجادلون في القرآن، فيقول بعضهم: شعر. ويقول بعضهم: سحر. ويقول بعضهم: كَهانة. إلى غير ذلك. ويدل لأنها في الكفار: أول الآية، وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي المكذِّب بالقرآن الذي لم يَعتَبِر بأمثاله ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: آية ٥٤] وخصومةً في التكذيب بالقرآن. فالنبي ﷺ بيَّن أنها وإن نزلت في الكفار أن عموم لفظها شامل لقول علي (رضي الله عنه): إن أرواحنا بيد الله، إن شاء أن يبعثنا بعثنا.

ومما يدل على هذا من اللغة العربية: أن الرجل مثلًا لو كان له أربع

---

(١) البخاري في الصحيح كتاب التفسير. باب ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ... ٱلَّيْلِۚ﴾ حديث رقم (٤٦٨٧)، (٨/٣٥٥)، ومسلم في الصحيح، كتاب التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ حديث رقم (٢٧٦٣)، (٤/٢١١٥).

(٢) البخاري في الصحيح، كتاب التهجُّد، باب (تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب) حديث رقم (١١٢٧)، (٣/١٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما رُوي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح. حديث رقم (٧٧٥)، (١/٥٣٧).

زوجات فآذته واحدة منهن وشتمته وأطلقت لسانها فيه حتى أغضبته، وهي واحدة، والثلاث الأُخر ساكتات لا يفعلن إلا ما يرضي زوجهن. فقال الزوج بسبب إغضاب التي أغضبته: أنتن كلكن طوالق. فإن الطلاق لا يختص بذات السبب التي أغضبته وآذته بل يطلق الجميع نظراً إلى عموم اللفظ، ويلغى سبب اللفظ الذي حمل عليه، كما هو معلوم عند أهل اللسان العربي.

وقوله (جل وعلا) في هذه الآية: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: آية ٣١] كأنه يذكرهم بقضية إبليس. لا يَدُم إبليس على النكاية فيكم بنزع ثيابكم عنكم كما فعل بأبويكم.

﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ الأصل: أُؤْخذوا بالهمزة؛ لأنه مضارع (أخذ) بالهمزة، إلا أن ثلاثة أفعال مهموزة الفاء وهي: (أخذ)، و(أمر)، و(أكل) يجوز حذف همزتها في الأمر كما بيناه مراراً[١].

﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ أي: لباسكم الذي تسترون به عوراتكم وتتجملون به.

﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ سواءً كان المسجد الحرام للطواف أو غيره من المساجد للصلاة. وكون الزينة هنا لبس اللباس للطواف والصلاة يكاد يجمع عليه المفسرون[٢]. وقد دل عليه حديث ابن عباس المذكور الذي قدمنا أن له حكم الرفع إلى النبي ﷺ.

وأخذ العلماء من ظاهر عموم الآية أنه ينبغي للرجل إذا أراد أن يخرج إلى المسجد ليحضر جماعات المسلمين ويصلي أن يلبس من الثياب أحسنها[٣]. وقد جاء عن النبي ﷺ الثناء على لون البياض في حديث: «**إن من خير ثيابكم البياض فالبسوا البياض وكفنوا فيه موتاكم، وإن من خير أكحالكم الإثمد فإنه**

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ابن جرير (٣٨٩/١٢)، القرطبي (١٨٩/٧).

(٣) انظر: القرطبي (١٩١/٧)، ابن كثير (٢١٠/٢).

يجلو البصر، وينبت الشعر»(١) وهو حديث مشهور أخرجه بعض أصحاب السنن وغيرهم؛ ولذا كانوا يتطيبون ويستاكون ويقولون: إن الطيب والسواك من كمال الزينة التي يتناولها ظاهر الآية الكريمة(٢). مع القطع بأنها نازلة في عدم العُري وستر العورات عند الطواف والصلوات.

وهي دليل واضح على أن الطواف لا يصح من العريان كما عليه جمهور العلماء، وأن الصلاة أيضاً لا تصح مع كشف العورة خلافاً للإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ في الطواف(٣). ويؤيد معنى ما دلت عليه الآية قوله ﷺ الذي أرسل عليّاً ينادي به: **«وألا يحج بعد العام مشرك، وألا يطوف بالبيت عريان»**(٤). وهذا معنى قوله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: آية ٣١] أي: لا تأتوا الطواف مكشوفة عوراتكم، ولا تأتوا مساجد المسلمين مكشوفة عوراتكم كما كان يفعله المشركون في مسجد مكة؛ لأنا ذكرنا عن

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٧/١، ٣٢٨، ٣٦٣)، وأبو داود في اللباس، باب في البياض. حديث رقم (٤٠٤٣)، (١١٠/١١)، وأخرجه في موضع آخر، حديث رقم (٣٨٦٠)، والترمذي في الجنائز، باب ما يستحب من الأكفان، حديث رقم (٩٩٤)، (٣١٠/٣ ـ ٣١١)، وابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء فيما يستحب من الكفن. حديث رقم (١٤٧٢)، (٤٧٣/١)، كما أخرجه في كتاب اللباس (٣٥٦٦). من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما). وهو في صحيح أبي داود (٣٢٨٤، ٣٤٢٦)، وصحيح الترمذي (٧٩٢)، كما أخرجه أحمد (١٠/٥، ١٣، ١٧، ١٨، ١٩)، والترمذي في الأدب، باب: ما جاء في لبس البياض. حديث رقم: (٢٨١٠)، (١١٧/٥)، وقال الترمذي: «وفي الباب عن ابن عباس وابن عمر» ا.هـ كما أخرجه ابن ماجه في اللباس، باب البياض من الثياب. حديث رقم: (٣٥٦٧)، (١١٨١/٢). من حديث سمرة بن جندب (رضي الله عنه). وهو في صحيح ابن ماجه (٢٨٧٠).

(٢) انظر: ابن كثير (٢١٠/٢).

(٣) انظر: الكافي لابن عبدالبر ص٦٣، المجموع (١٦٥/٣)، المغني (٢٨٣/٢).

(٤) البخاري في الحج، باب: لا يطوف بالبيت عريان، ولا يحج مشرك. حديث رقم (١٦٢٢)، (٤٨٣/٣)، ومسلم في الحج، باب لا يحج البيت مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان...، حديث رقم (١٣٤٧)، (٩٨٢/٢)، من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه). وجاء من حديث علي (رضي الله عنه) عند الترمذي في التفسير، باب ومن سورة براءة. حديث رقم: (٣٠٩١، ٣٠٩٢)، (٢٧٥/٥، ٢٧٦).

ابن عباسٍ من طريق سعيد بن جبير كما أخرجه مسلم في صحيحه[١] أن هذه الآية نزلت في أن المشركين كانوا يطوفون عراة حتى إن المرأة لتقول:

اليومَ يَبْدُو بعضُه أو كُله فما بدا منه فلا أُحلُّه

وهذا الحديث الذي له حكم الرفع الثابت في صحيح مسلم؛ لأنه تفسير من ابن عباس يتعلق بسبب النزول. فكأن ابن عباس يفسِّر الزينة بأنها لبس الثياب عند الطواف والصلوات، وتفسير الصحابي إن كان له تعلق بسبب النزول كان له حكم الرفع كما هو مقرر في علوم الحديث.

وهذا يدل على أن قائلة البيت من اللاتي كنَّ يطفن بالبيت وهن عريانات يتقربن بذلك إلى الله. مع أنه ذكرت جماعة من المؤرخين للبيت المذكور قصة غير ما ثبت في صحيح مسلم عن ابن عباس، والظاهر أنَّ ماثبت في صحيح مسلم عن ابن عباس أثبت، فقد ذكر غير واحد ممن تكلم على الصحابة في ترجمة ضباعة بنت عامر بن لقيط بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة[٢] ـ هي من بني قشير الذين منهم مسلم بن الحجاج القشيري ـ وكانت امرأة ذات جمال، وأنها تزوجها عبدالله بن جدعان التيمي، الجواد المشهور، وجاء بها إلى مكة، وكان من أعظم فتيان مكة في ذلك الزمن هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، والد أبي جهل، فأعجبه جمال ضباعة بنت عامر، التي هي زوجة ابن جدعان، فصار يأتيها ويقول لها إن هذا الشيخ الكبير الذي ليس له جمال لا يناسب جمالك وكمالك فتطلقي منه لأتزوجك. يُخَبِّبها عليه. فَخَبَّبها عليه، فطلبت من ابن جدعان الطلاق، فلما طلبت منه الطلاق قال: نعم، بشرط أن تنحري كذا وكذا جزوراً ـ مئة من الإبل أو أكثر ـ وتغزلي غزلًا يمتد من هنا إلى جبل كذا، وأن تطوفي ببيت الله وأنت عريانة. فقالت له: اصبر حتى أفكر في شأني، فجاءها هشام، وكان هشام من عظام فتيان مكة، وقد قال فيه الشاعر لما مات[٣]:

---

(١) مضى تخريجه قريباً.

(٢) انظر: الإصابة (٤/٣٥٣ ـ ٣٥٤).

(٣) البيت للحارث بن خالد بن العاص، أو الحارث بن أُمية بن عبد شمس. وهو في الكامل ص٦٧١، اللسان (مادة: قثم) (٣/٢٢).

فأصبحَ بطنُ مكةَ مُقشعراً ... كأن الأرضَ ليس بها هشام

فلما جاءها هشام بن المغيرة والد أبي جهلٍ، وقصَّت عليه القصة، قال لها: التزمي له كل ما اشترط عليك، فأنا أعطيكِ مئة جزور، وما شئت من الإبل تنحرينه، وآمر نساء بني المغيرة أن يغزلن لك الغزل الذي فعل[١]، وأطلب من قريش أن يُخْلُوا لك البيت حتى تطوفي به وحدك وأنت عريانة. وأنه وفَّى بما فعل، أعطاها الإبل فنحرتها، وغزل لها الغزل، وطلب من قريش فأخلوا لها البيت. والذين يذكرون القصة من كتب الصحابة كما في الإصابة والاستيعاب وغيرهما[٢] من كتب الصحابة ممن ذكروا هذه القصة، زعموا أن النبي ﷺ في ذلك الوقت طفل صغير وَلِدَته[٣] معه المطلب بن وداعة السهمي، وأنهم بقوا لصغرهم، وأنهم رأوها تنزع ثوباً ثوباً حتى بقيت ليس عليها شيء وصارت تقول:

اليومَ يَبْدُو بعضُه أو كُلُّه ... فما بَدَا منه فلا أُحِلُّهُ

قالوا ولما كشفت عنها جميع الثياب نشرت شعرها حتى تدلىَّ عليها وستر عورتها، وأنها هي التي قالت هذا البيت؛ ولذلك قال عياض في شرح مسلم في الكلام على البيت في مسلم[٤]: إن قائلته ضباعة هذه، ولكنه تلفيق لقصة بقصة أخرى، وزعم من ذكر هذه القصة أن النبي ﷺ بعد ذلك خطبها عند ابنها. والظاهر أنه ابنها سلمة بن هشام؛ لأنها ولدت منه ابنها سلمة الذي كانت ترقصه وهو صغير وتقول[٥]:

اللَّهُمَّ ربَّ الكَعْبَة المُحرَّمة ... أَظْهِر على كُلِّ عَدُوٍ سَلَمة

---

(١) هكذا في الأصل، ولعله سبق لسان، والمراد: طلب أو شرط.

(٢) هذا الخبر موجود في الإصابة (٣٥٣/٤)، ولم أقف عليه في ترجمتها في الاستيعاب.

(٣) اللِّدَةُ: التِّرب، ويجمع على: لِدَات، انظر: القاموس (مادة: الولد) ص٤١٧.

(٤) لم أقف عليه في كلام القاضي عياض (رحمه الله) على الحديث في كتابه (الإكمال) المطبوع، وقد نقله عنه القرطبي في المفهم (٣٤٦/٧)، وانظر: إكمال المعلم (٥٨٩/٨)، شرح الأبي على مسلم (٣٢٨/٧).

(٥) البيت في طبقات ابن سعد (٩٧/٤)، الإصابة (٦٩/٢).

وأنه قال: حتى أستأذنها. فذهب ليستأذنها، فأُخبر النبي ﷺ أن جمالها الذي عهده أنه تغيَّر، وأنها سقطت أسنانها وذهب جمالها. فلما جاء يستأذنها غضبت عليه وقالت: أتستأذنني في رسول الله ﷺ؟! فلما رجع إليه أعرض عنها النبي ﷺ[١]. هكذا ذكروه في هذه القصة والله أعلم بصحتها.

أما كونه نزلت في المرأة التي كانت تطوف بالبيت عريانة فقد أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عباس[٢]. والظاهر أنه أثبت من هذا والله تعالى أعلم.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٣١] أي: ثيابكم التي تسترون بها عوراتكم وتتجملون بها عند كل مسجد لإقامة الصلوات وخصوصاً المسجد الحرام للطواف والصلاة فيه خلاف ما كان يفعله المشركون.

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ نزل قوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ في بعض العرب. قال بعض العرب: كان بنو عامر بن صعصعة إذا أحرموا بالحج لا يأكلون الودك، ولا يشربون من ألبان الغنم، ولا مما خرج من لحومها، فحرَّموا على أنفسهم بعض الطيبات من الدسم كالودك، وبعضهم يحرم شرب اللبن واللحم، فأُمروا أيضاً أن لا يحرِّموا هذه الطيبات التي أحلَّ الله، كما قال لهم: البسوا الثياب، ولا تتجردوا في الإحرام، فكذلك كلوا طيبات الرزق ولا تحرموها على أنفسكم. أي: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ حتى ولو كان من الودك، ولو كان من اللبن مما يحرمه الجاهلية؛ لأن الجاهلية كانوا في الموسم بعضهم يحرم على نفسه الدسم، وبعضهم يحرم شرب اللبن واللحوم، ويزعمون أن هذا أتم لحجهم، وأنه أرضى لله[٣]. فقال الله فيهم: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ ولا تحرموا شيئاً من طيبات الله؛ لأن ذلك تشريع الشيطان ككشف العورات.

وهذا يدل على أن الإنسان لا ينبغي له أن يحرِّم شيئاً حلله الله كما قدمنا في سورة المائدة في قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا

---

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات (١١٠/٨).

(٢) مضى قريباً.

(٣) انظر: السيرة لابن هشام (٢١٩/١ ـ ٢٢١)، المُفَصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٣٦٢/٦، ٣٧١).

تَعۡتَدُوٓاْ﴾ [المائدة: آية ٨٧] وعليه فليس للإنسان أن يقول: هذا الطعام أو هذا الشراب حرامٌ عليَّ. فإن حرَّم على نفسه حلالاً كطعام أو شراب فإنه لا يحرم عليه. وبعض العلماء يقول: تلزمه في تحريم الحلال كفارة يمين. ومالك وأصحابه قالوا: إن لم يكن الذي حرمه حلالاً غير الزوجة والأمة لا تلزمه يمين ولا يلزمه شيء.

وحجة من قال: إنه تلزمه يمين: أن الله لمَّا قال لنبينا ﷺ وهو قدوتنا صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ [التحريم: آية ١] وأصح الروايات أنه العسل، وإن جاء في روايات أخرى أنه جاريته[(١)]. قال الله له بعد تحريم هذا الحلال: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التحريم: آية ٢] فعُلم أن في تحريم الحلال كفارة يمين؛ لأن تحلة اليمين هي كفارته، وذلك يدل على أنَّ فيه كفارة يمين، خلافاً لمالك وأصحابه[(٢)]. أما إذا حرم امرأته بأن قال: أنت علي حرام. أو علَّق تحريمها على شيء ووقع. فللعلماء فيه اختلافات واضطربات كثيرة تزيد على ثلاثة عشر مذهباً معروفة في كلام العلماء[(٣)]، أجراها عندي على القياس هو قول من قال: إنه تلزمه كفارة ظهار. هذا القول هو أقربها للقياس وظاهر القرآن العظيم؛ لأن الله نص في محكم كتابه في سورة المجادلة في امرأة أوس بن الصامت التي قال لها: أنت عليَّ كظهر أمي - (أنت عليَّ كظهر أمي) معناه بالحرف الواحد: أنت حرام - وقد جاء القرآن بأن في هذا اللفظ كفارة ظهار حيث قال: ﴿والذين يظَّهَّرون من نسائهم﴾ [المجادلة: آية ٣] وفي القراءة الأخرى: ﴿يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾[(٤)] إلى آخر خصال كفارة الظهار المعروفة في سورة المجادلة. فهذا

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٨/١٥٥ - ١٥٩)، القرطبي (١٨/١٧٧ - ١٧٩ - ١٨٥)، ابن كثير (٤/٣٨٦)، فتح الباري (٩/٢٨٩، ٣٧٦)، أضواء البيان (٦/٥٢٩).

(٢) انظر: القرطبي (١٨/١٧٩ - ١٨٠).

(٣) انظر: ابن أبي شيبة (٥/٧٢)، مصنف عبدالرزاق (٦/٣٩٩)، الاستذكار (١٧/٣٦ - ٤٨)، القرطبي (١٨/١٨٠ - ١٨٦)، أضواء البيان (٦/٥٢٣، ٥٣١ - ٥٣٩).

(٤) انظر: المبسوط لابن مهران ص٤٣١.

القول أقيس الأقوال، وأجراها على القياس، وأقربها لظاهر القرآن. وكذلك قول من قال: إنه يلزمه الاستغفار وكفارة يمين. فيدل عليه ظاهر آية التحريم بناءً على أن الذي حرم ﷺ: جاريته؛ لأن في بعض الأحاديث في قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: آية ١] أنَّ حفصة أم المؤمنين (رضي الله عنها) استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أهلها يومها فأذن لها، ثم دعا بجاريته في بيت حفصة؛ لأنه ذلك اليوم عندها وهو في بيتها، وكان بينه وبين الجارية ما يكون بين الرجل وامرأته، فرجعت حفصة ففطنت لما وقع، فغضبت وقالت: ليست لي حرمة، أفي بيتي وفي يومي يُفعل هذا؟! وأن النبي ﷺ حرَّم الجارية إرضاءً لها[1].

---

(١) كون ذلك وقع إرضاءً لحفصة جاء ذلك في عدة روايات وبعضها مرسلة. فمن ذلك:

١ - ابن عباس عن عمر (رضي الله عنهما) عند ابن جرير (١٥٨/٢٨)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٣٨، وعزاه في الدر (٢٣٩/٦)، لابن المنذر. قال الحافظ في الفتح (٦٥٧/٨): «ووقعت هذه القصة مدرجة عند ابن إسحاق في حديث ابن عباس عن عمر...» ا.هـ.

٢ - عن ابن عباس (رضي الله عنهما) عند ابن سعد (١٣٤/٨)، وأورده السيوطي في الدر (٢٣٩/٦)، وعزاه لابن مردويه.

٣ - عن أبي هريرة (رضي الله عنه). أورده السيوطي في الدر (٢٤٠/٦)، وعزاه لابن مردويه والطبراني في الأوسط، وضعفه الحافظ في الفتح (٢٨٩/٩)، وانظر تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٦٠/٤)، والكافي الشاف ص١٧٥.

٤ - عن أم سلمة (رضي الله عنها) عند ابن سعد في الطبقات (١٣٤/٨).

٥ - عن محمد بن جبير بن مطعم عند ابن سعد (١٣٤/٨).

٦ - عن عروة بن الزبير عند ابن سعد (١٣٤/٨).

٧ - عن القاسم بن محمد عند ابن سعد (١٣٤/٨).

٨ - عن الضحاك عند ابن سعد (١٣٤/٨)، وأورده السيوطي في الدر (٢٤٠/٦)، وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر.

أما الروايات الدالة عموماً على أنَّ ذلك وقع في تحريمه ﷺ جاريته فهي كثيرة، ومنها:

١ - عن أنس (رضي الله عنه) عند النسائي في عشرة النساء، باب الغيرة، حديث رقم (٣٩٥٩)، (٧١/٧)، والحاكم في المستدرك (٤٩٣/٢)، وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وعزاه في الدر (٢٣٩/٦)، لابن مردويه، وقد صححه الحافظ في الفتح (٣٧٦/٩)، وقال: «وهذا أصح طرق هذا السبب» ا.هـ. =

فعلى هذا القول أنه في تحريم الجارية فالله قال بعده ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٢﴾ [التحريم: آية ٢] فدل على أن في تحريم الرجل امرأته كفارة يمين والاستغفار وهذان القولان داخلان في مذهب مالك، وكل منهما قال به جماعة من العلماء. وروى مالك في الموطأ عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أنه إن قال لها:

= ٢ ـ عن ابن عباس (رضي الله عنهما). عند ابن جرير (١٥٧/٢٨)، والطبراني في الكبير (٨٦/١١)، (١١٧/١٢)، والبزار (زوائد البزار ٧٦/٣)، وعزاه السيوطي في الدر (٢٣٩/٦، ٢٤٠، ٢٤١)، للترمذي، وابن المنذر، وابن مردويه، وعبد بن حميد. وقد ضعفه ابن كثير في التفسير (٣٩٠/٤)، والحافظ في الفتح (٢٨٩/٩)، وانظر: مجمع الزوائد (١٧٨/٥)، (١٢٦/٧)، تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٥٩/٤)، الكافي الشاف ص١٧٥.

٣ ـ عن ابن عمر (رضي الله عنهما). أورده السيوطي في الدر (٢٤٠/٦)، وعزاه للضياء في المختارة، والهيثم بن كليب في مسنده. وقال ابن كثير في التفسير (٣٨٦/٤)، هذا «إسناد صحيح» ا.هـ.

٤ ـ عن عائشة (رضي الله عنها). ذكره الحافظ في الفتح (٢٨٩/٩)، وعزاه لابن مردويه.

٥ ـ عن بعض آل عمر. ذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٦١/٤)، والحافظ في الكافي الشاف ص١٧٥، وعزاه لابن أبي خيثمة في تاريخه، وابن إسحاق.

٦ ـ عن الشعبي. عند ابن جرير (١٥٦/٢٨)، وعزاه في الدر (٢٤٠/٦)، لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن سعد.

٧ ـ عن قتادة. عند ابن جرير (١٥٦/٢٨، ١٥٨)، وابن سعد (١٣٤/٨)، وعزاه في الدر (٢٤٠/٦)، لعبدالرزاق وعبد بن حميد.

٨ ـ عن زيد بن أسلم عند ابن جرير (١٥٥/٢٨، ١٥٦)، وابن سعد (١٣٤/٨)، وصحح الحافظ إسناده في الفتح (٣٧٦/٩).

٩ ـ عن مسروق. عند ابن جرير (١٥٦/٢٨)، وابن سعد (١٣٤/٨)، وعزاه في الدر (٢٤٠/٦)، لعبد بن حميد، وسعيد بن منصور، وصحح الحافظ إسناده في الفتح (٦٥٧/٨).

١٠ ـ عن عبدالرحمن بن زيد. عند ابن جرير (١٥٦/٢٨)، وعزاه في الفتح (٢٨٩/٩)، لابن مردويه.

قال الحافظ في الفتح (٦٥٧/٨): «وهذه الطرق يقوي بعضها بعضاً» ا.هـ.

أنت حرام، كانت بينونة كبرى، تعد ثلاث طلقات[١]. وكان ابن عباس يفتي بكفارة اليمين[٢]، ويقول ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: آية ٢١].

وأجراها على القياس وأقربها لظاهر القرآن أن فيها كفارة الظهار. وتتبع طرق أقوال العلماء فيها، وما استدل به كل منهم يطول علينا جداً، ويخرجنا إخراجاً بعيداً عن المقصود.

وقوله جلَّ وعلا: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ [الأعراف: آية ٣١] أي: ولا تحرموا ما لم يحرمه الله في الحج من أكل اللحوم والودك وشرب الألبان.

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: آية ٣١] أصل الإسراف في لغة العرب: هو مجاوزة الحد[٣]. والإسراف المنهي عنه هنا فيه للعلماء وجهان[٤]:

أحدهما: أن المعنى لا تسرفوا في الأكل والشرب فتأكلوا فوق الحاجة، وتشربوا فوق الحاجة؛ لأن الإسراف في الأكل والشرب يثقل البدن، ويعوق صاحبه عن طاعة الله، والقيام بالليل، فيجعل صاحبه كلما كانت بطنه ملأى من الأكل والشرب كان ثقيل الجسم، لا ينهض لطاعة الله، فنهاهم الله عن الإسراف في الأكل، وكذلك يسبب الأمراض.

وجرت عادة المفسرين أنهم يذكرون هنا في تفسير هذه الآية من سورة الأعراف قصة، ويذكرون فيها حديثاً الظاهر أنه لا أصل له ولا أساس له، إلا أن الكثير ممن تكلموا على القرآن لا يميزون بين سقيم الحديث وصحيحه فيكتبون منه كل ما رأوا من غير تمييز بين صحيحه وسقيمه.

---

(١) الموطأ ص٣٧٥، وعبدالرزاق في المصنف (٦/٤٠٣)، ابن أبي شيبة (٥/٧٢).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق. حديث رقم (١٤٧٣)، (٢/١١٠٠).

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٤١) من سورة الأنعام.

(٤) انظر: ابن جرير (١٢/٣٩٤)، القرطبي (٧/١٩١ ـ ١٩٥).

والقصة المعروفة[١]: زعموا أنه كان عند هارون الرشيد طبيب نصراني، وأن الطبيب النصراني قال: ليس في كتابكم شيء من الطب، وأصل العلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان. وأنه كان عند هارون الرشيد علي بن الحسين بن واقد، فقال له: جمع كتابنا الطب في نصف آية، هي ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ لأن من المعلوم أن الطب نوعان: طب حِمْيَة، وهو توقي للداء قبل أن ينزل الداء. والثاني: طب علاج ومداواة بعد أن ينزل الداء. وأن من أعظم طب الحمية هو ما قال: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ لأن من خفف أكله وشربه كما قال ﷺ: «**بحسب امرىء لقيمات يقمن صلبه، فإن كان ولا بد فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس**»[٢]. فتخفيف الأكل يستوجب صحة البدن، وأنه قال له: جمع الطب كله في نصف آية؛ لأن خير الطب طب الحمية. وهذه الآية جاءت على أعظم طب الحمية. وأنه قال له: وهل يؤثر عن نبيكم شيء من الطب؟ قال: نعم. وزعم أن النبي ﷺ قال: «**المعدة رأس الداء، والحمية أصل الدواء، وعَوِّدُوا كل جسم ما اعتاد**»[٣]. ويقولون هذا ويسكتون. وهذا نسبته إلى النبي ﷺ ليست بصحيحة، ولم يثبت هذا عن رسول الله ﷺ، بل لا أساس له على الصواب إن شاء الله تعالى.

وعلى هذا القول فالإسراف المنهي عنه في الأكل بما يسبب من التكاسل عن طاعات الله، وما يسبب من الأمراض وغير ذلك.

الوجه الثاني: أن معنى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ أي: لا تجاوزوا حدود الله. فتحرموا ما أحلّ الله كالودك للمحرم، وكاللباس للطائف، فهذه أمورٌ لم

---

(١) انظر: القرطبي (١٩٢/٧)، كشف الخفاء (٢٨٠/٢).

(٢) الترمذي في الزهد، باب: ما جاء في كراهية كثرة الأكل. حديث رقم (٢٣٨٠)، (٥٩٠/٤)، وابن ماجه في الأطعمة باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع. حديث رقم (٣٣٤٩)، (١١١١/٢)، وانظر: الإرواء (١٩٨٣)، السلسلة الصحيحة (٢٢٦٥)، صحيح الترمذي (١٩٣٩)، صحيح ابن ماجه (٢٧٠٤).

(٣) في الكلام على هذا القول انظر: كشف الخفاء (٢٧٩/٢)، الدرر المنتثرة ص١٦١، مختصر المقاصد الحسنة ص١٨٤.

يحرمها الله، ولا تسرفوا في التحريم والتحليل بأن تحرموا ما أحلَّ الله، وتحللوا ما حرَّم الله، وكلا الإسرافين إسراف. ولا مانع من أن تشمل الآية الجميع. فلا يجوز الإسراف بتحريم ما أحلّ الله، وتحليل ما حرَّم الله، كما لا يجوز الإسراف الكثير بملء البطن ملئاً شديداً من الأكل والشرب حتى يتكاسل الإنسان ولا يتنشط لطاعة الله، وتأتيه الأمراض؛ لأنه ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه. فإن من كان كثير الأكل والشرب لا تراه يقوم الليل، ولا يتنشط للعبادات، ولا ينشط لسانه لذكر الله، فهو كسول ملول، وكذلك ربما نشأت له الأمراض. وهذا معنى قوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ﴾ جلَّ وعلا ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: آية ٣١] المجاوزين الحدود بتحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرّم الله. ويدخل فيه المسرفون بكثرة الأكل والشرب الشاغلة عن طاعة الله، المثبطة عن القيام بما يرضي الله (جل وعلا) ونحو ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: آية ٣٢] قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا نافعاً قارىء أهل المدينة: ﴿خَالِصَةً﴾ بنصب التاء. وقرأه نافع وحده: ﴿خالصةٌ﴾ بضم التاء[1].

ومعنى الآية الكريمة: أن الكفار لمّا حرَّموا على أنفسهم لبس الثياب في الطواف، وطافوا بالبيت عراة، وحرموا على أنفسهم أيام الموسم أكل الودك، والسمن، وشرب اللبن، وأكل اللحوم، قال الله (جلَّ وعلا) موبخاً مقرعاً للذين يَتَعَدّون عليه ويحرمون ما لم يحرم: ﴿قُلْ﴾ يا نبي الله لهؤلاء الكفرة الجهلة الذين حرموا لبس الزينة عند الطواف، وحرموا أكل المذكورات وشربها في الموسم حال التلبُّس بالإحرام، (من) هو الذي ﴿حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ وهي اللباس الذي يستر العورة؛ لأنه لا حالة أقبح من أن يكون الإنسان بادي الفرج، عاري العورة، فهذا في غاية القبح. أما إن أعطاهُ الله ثياباً فجمل بها ظاهره، وستر بها قبحه وعَوَرَه فهذه زينة الله التي أخرجها

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٨.

لخلقه. من هو الذي حرَّم زينة الله كلبس اللباس الذي يجمع بين ستر العورة والتجمُّل عند الطواف وفي غيره؟!

﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أخرجها: أي أظهرها وأبرزها من العدم إلى الوجود بأن خلقها ويسَّر أسباب تناولها حتى صارت في متناولهم، وحرَّم ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾. الطيبات التي أحلها الله وطيبها، كالودك حالة الإحرام، واللبن واللحم ونحو ذلك. من هو الذي حرم عليكم هذه المحرمات والطيبات من الرزق؟ والله (جلَّ وعلا) يشدد النكير على من حرم ما لم يحرمه. والآيات الدالة على ذلك كثيرة كقوله: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ﴾ [الأنعام: آية ١٥٠] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: آية ٥٩] ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: آية ١١٦] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً. فلما قال الله لنبيه: قل لهم يا نبي الله، لهؤلاء المُحَرِّمِين ما أحل الله، من هو الذي حرّم هذا؟ وعلم أنه لا جواب لهم، أمره بالجواب الصحيح، وهو قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ قل لهم يا نبي الله: هي ليست بحرامٍ أبداً، وليست بمحرمات ألبتة. هي للذين آمنوا حلال مباحة.

وقوله: ﴿هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ غير خالصة ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: غير مختصين بها بل يشاركهم فيها الكفار، ونصيب الكفار فيها كثير، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ﴾[1] الآية [الزخرف: الآيات ٣٣ ـ ٣٥]. قال بعض العلماء: بينت هذه الآية أن سبب خلق الزينة والطيبات من الرزق أن الله خلقها في الدنيا لخصوص المؤمنين، إلا أنه رزق منهاالكفار تبعاً للمؤمنين؛

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٩٨.

لأن الدنيا متاع يأكل منه البرُ والفاجر، فتلك الزينة وطيبات الرزق في الدنيا يشترك فيها البر والفاجر، ويأكل منها المسلم والكافر، لكنها يوم القيامة تبقى خالصة للمؤمنين لا يشاركهم فيها كافر أبداً؛ ولذا قال: ﴿هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ويشترك معهم فيها الكفار، في حال كونها خالصة لهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها أحد؛ لأن يوم القيامة لا يجد الزينة ولا الرزق الطيب إلا المؤمنون خاصة، أما الكفار فلا زينة لهم ولا رزق طيب[١].

وعلى قراءة الجمهور فـ﴿خالصةً﴾ حال، وعلى قراءة نافع ﴿خالصةٌ﴾ بالرفع فهي خبر بعد خبر[٢] ﴿هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأعراف: آية ٣٢] الجار والمجرور في ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خبر، و ﴿خالصةٌ﴾ خبر آخر. وعلى قراءة الجمهور فـ ﴿خالصةً﴾ حال، وعامله الكون والاستقرار الذي يتعلق بالجار والمجرور. ﴿هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كائنة مستقرة للذين آمنوا في حال كونها خالصة لهم وحدهم يوم القيامة.

وهذا التفسير هو الصحيح الذي عليه الجمهور[٣]. ومعناه: أن الزينة والطيبات من الرزق في دار الدنيا يشترك فيها البر والفاجر والمؤمن والكافر، وأنها في الآخرة تكون خالصة للمؤمنين لا يشاركهم فيها أحد، إذ لا يجد الزينة والرزق الطيب في القيامة إلا المؤمنون خاصة؛ ولذا لم يذكر خلوصها لهم في الدنيا لاشتراك الكفار معهم، وصرّح بكونها خالصة لهم في خصوص الآخرة.

وهنالك تفسيرٌ غير ظاهر قال به جماعات من علماء التفسير: أن معنى كونها خالصة للمؤمنين أنَّ الله ينعِّمهم بها في الدنيا، وينعِّمهم في الآخرة أيضاً، ولم يحسبها عليهم، ولم ينقص أجورهم بتلك اللذات والطيبات من الرزق التي أكلوها في الدنيا[٤]. وهذا مستبعد، والقول الأول هو الذي عليه الجمهور وهو معنى الآية إن شاء الله. وهذا معنى قوله: ﴿هِىَ﴾ أي: الطيبات من الرزق والزينة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي ويشاركهم فيها غيرهم من الكفار، لكنها يوم

---

(١) انظر: ابن كثير (٢/٢١١).

(٢) انظر: حجة القراءات ص٢٨١.

(٣) انظر: القرطبي (٧/٢٠٠)، الدر المصون (٥/٣٠١ ـ ٣٠٥).

(٤) انظر: ابن جرير (١٢/٤٠١).

القيامة خالصة للمؤمنين لا يشاركهم فيها أحد. ويوضح هذا أن نبي الله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة و السلام لما قال الله له: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فلما قال الله له: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ طلب الإمامة لذريته ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ فبين له الله أن الظالمين من ذريته غير المستقيمين المطيعين لا يعهد الله لهم بالإمامة، لأنهم لا يستحقونها حيث قال مجيباً له: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: آية ١٢٣] فعرف إبراهيم أن ربَّه كأنه لامه في الجملة حيث طلب الإمامة لناس منهم من لا يصلح لها، كما قال الله لإبراهيم وإسحاق: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: آية ١١٣] ثم بعد ذلك لما أراد إبراهيم طلب الرزق خصه بالمؤمنين خوف أن يلام كالملامة الأولى وقال: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ثم قيَّد وقال: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فربه قال له: هذه في الدنيا لا تحتاج إلى القيد ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ فيأكل من الدنيا أيضاً مع المؤمن ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: آية ١٢٦] وهذا معنى قوله: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: آية ٣٢] يوم القيامة إنما سمي يوم القيامة لأنه يوم يقوم فيه جميع الخلائق بين [يدي][1] جبار السماوات والأرض للحساب، كما قال جلّ وعلا: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: الآيتان ٤ ـ ٦] فقوله: ﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هو الذي سمي به يوم القيامة؛ لأنه يوم يقوم فيه الناس لرب العالمين.

ثم قال جلّ وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [الأعراف: آية ٣٢] كهذا التفصيل الذي فصلنا لكم به الحلال والحرام، وبينا لكم به حرمة كشف العورات ولزوم سترها، وأخذ الزينة، وأنه لا يُحرم أحد ما أحله الله، كهذا البيان الواضح لهذه الأحكام نبين الآيات دائماً في هذا القرآن ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ والبيان عام، ولكنه خص به القوم الذين يعلمون لأن أهل العلم الذين يعلمون هم الذين يفهمون عن الله هذا البيان، أما الجهلة فلا يفهمون شيئاً، ومن لا ينتفع بالشيء فكأنه لم يتوجه إليه. ونظير هذا كثير في القرآن

---

(١) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

يخص الله به الحكم المُنْتَفِع به مع أن الحكم أصله عام[١]، كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: آية ٤٥] مع أنه في الحقيقة منذر الأسود والأحمر ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: آية ١١] وهو منذر للأسود والأحمر ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: آية ٤٥] لأن الذي يخاف الوعيد هو المنتفع به مع أن التذكير بالقرآن عام. وهذا كثير في القرآن أن يخص الحكم بالمنتفع به دون غيره، وذلك هو معنى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: آية ٣٣].

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قرأ هذا الحرف حمزة وحده: ﴿**قل إنما حرم ربيْ الفواحش ما ظهر منها وما بطن**﴾ وقرأ بقية القراء: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[٢] وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحدهما دون غيرهما: ﴿**ما لم يُنْزِل به سلطاناً**﴾ بضم الياء وكسر الزاي. وقرأ الجمهور: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ بفتح النون وتشديد الزاي، مضارع (نزَّل). قل لهم يا نبي الله: هذا الذي تحرمونه ليس هو الذي حرّمه الله، الذي حرمه ربي إنما حرّمه ربي على الحقيقة، والحرام هو ما حرمه الله، والحلال هو ما أحله الله.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الفواحش جمع فاحشة، وهو جمع قياسي؛ لأن (الفاعِلَة) مطلقاً و (الفَاعِل) إن كان اسماً أو صفة لما لا يعقل كله ينقاس جمع تكسيره على (فواعل)[٣] والفاحشة: هي كل خصلة تناهت في القبح حتى صارت قبيحة بالغة نهاية القبح من الذنوب والمعاصي[٤].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٩.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

(٤) السابق.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: آية ٣٣] قد قدمنا أقوال العلماء على هذا في الأنعام في قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: آية ١٢٠] وأنها كلها ترجع إلى شيءٍ واحد، فقال بعضهم: الفواحش الظاهرة هي الزنى مع البغايا ذوات الرايات، والفواحش الباطنة هي الزنى مع الخليلات والصديقات التي يُزنى بهن سراً في البيوت. وقال بعض العلماء: ما ظهر من الفواحش: كنكاح زوجات الآباء، كما تقدَّم في قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: آية ٢٢] وأن ما بطن منها هو الزنى. والتحقيق: أن الآية الكريمة تشمل جميع المعاصي والذنوب، لا تفعلوا شيئاً منها ظاهراً علناً بين الناس، ولا شيئاً باطناً في خفية لا يطلع عليه أحد، وهو يشمل جميع التفسيرات الواردة عن الصحابة وغيرهم.

والفواحش ظاهرها وباطنها تشمل جميع الذنوب؛ إلا أن الله عطف بعضها على بعض عطف خاص على عام. وقد تقرر في المعاني: أن عطف الخاص على العام، وعطف العام على الخاص، إن كان في كل منهما في الخاص أهمية لا تكون في غيره من أفراد العام أنه سائغ، وأنه من الإطناب المقبول لأجل الخصوصية التي في الخاص. فكأن تميزه بخصوصيته جعله كأنه قسم آخر غير أقسام العام فحسن عطفه عليه[1]. وهنا عطف الخاص على العام لأن المعطوفات الآتية كلها داخلة في الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقول من قال: إن ﴿مَا ظَهَرَ﴾ هو الزنى مع البغايا ذوات الرايات، و ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزنى مع الخليلات الصديقات التي يُزنى بهن سراً. أو أن ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ هو نكاح زوجات الآباء، وأن ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ هو الزنى. إلى غير ذلك من الأقوال كله يشمله التفسير العام الذي هو الصواب، وأن الله نهى عن ارتكاب جميع المحرمات سواء كان ذلك ظاهراً أمام الناس، أو خفية بحيث لا يطلع عليه الناس. وهذا معنى قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٠) من سورة الأنعام.

وعطف على ذلك ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ﴾ قال بعض العلماء: الإثم: هو كل معصية تقتصر على نفس الإنسان، والبغي: هو كل معصية يظلم بها غيره[١].

وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لا يكون بغي بحق أبداً، فكل بغي بغير حق لا شك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ومعلوم أن النبيين لا يُقتلون بحق أبداً، فهو كالتوكيد[٢]، كقوله: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ٣٨] ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: آية ٧٩].

وقال بعض العلماء: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: آية ٣٣] كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: آية ٤٠] لأن من بُغي عليه ثم انتقم قد يسمى هذا بغياً، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وكما سمّى الانتقام اعتداءً في قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: آية ١٩٤] سمى جزاء الاعتداء: اعتداءً، وجزاء السيئة: سيئة وإن كان الانتقام ليس سيئة وليس اعتداء.

وقوله: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ أي: وحرّم عليكم ﴿**أن تشركوا بالله ما لم يُنزِل به سلطاناً**﴾ على قراءة ابن كثير وأبي عمرو. ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ على قراءة الجمهور[٣]. والسلطان: الحجة الواضحة. ومعلوم أن الإشراك بالله لا ينزل به سلطان ألبتة، كقوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: آية ١١٧] فمعلوم أن الإله الثاني لا يكون به برهان ألبتة، وقد تقرر في علم الأصول[٤] أن النص من الكتاب والسنة إذا جاء مبيناً للحقيقة الواقعة لا يكون له مفهوم مخالفة. والواقع أنهم يشركون بالله ما لم ينزّل به سلطاناً، فجاءت الآية مبينة للحقيقة الواقعة ليكون النهي واقعاً على بيان الحقيقة الواقعة. وكذلك قوله: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/٤٠٣)، القرطبي (٧/٢٠١).

(٢) انظر: الدر المصون(٥/٣٠٧) ومضى عند تفسير الآية (١٤٢) من سورة البقرة، (٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: النشر (٢/٢١٨)، إتحاف فضلاء البشر (١/٤٠٧).

(٤) انظر: المذكرة في أصول الفقه ص٢٤١، نثر الورود (١/١٠٧).

﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ المصدران المنسبكان في قوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا﴾ و ﴿أَن تَقُولُوا﴾ في محل نصب عطف على ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ من عطف الخاص على العام[1].

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ بدل من الفواحش، أي: وحرّم الإثم والبغي بغير الحق، وحرم الشرك بالله، وحرّم القول على الله بلا علم.

وكان بعض العلماء يقول: هذا التكرار وعطف ما دخل فيما قبله عليه لحكمة، وهذه الحكمة بيانها وتفصيلها: أن مظالم الناس وتعدي بعضهم على بعض في دار الدنيا راجع إلى ستة أقسام، وهي أن يتعدى عليه في دينه، أو أن يتعدى على نسبه، أو أن يتعدى على عرضه، أو أن يتعدى على نفسه، أو أن يتعدى على ماله، فهي[2] ستة جواهر: الدين والنفس والنسب والعقل والمال والعرض. فهذه الجواهر الستة هي التي تدور حولها المظالم. قال من قال هذا: الآية جاءت ناهية عن التعدي في جميع هذه الجواهر الست؛ لأن قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ هذا تعدٍ على الأنساب؛ لأن الزنى سواءً كان ظاهراً أو باطناً تعدٍ على أنساب الناس وتقذير لفرش الناس؛ لأنه إذا كثر الزنى لم يدر هذا مَنْ أبوه، ولم تدر أم هذا مَنْ أبوه، فضاعت الصبيان، ولم يعرف لهذا أب، فاختلطت الأنساب، وتقذرت الفرش، وضاعت أخلاق المجتمع. وأن النهي عن الفاحشة هو ذبٌّ عن الأنساب. وهذا معنى قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: آية ٣٣].

وأن قوله: ﴿وَالْبَغْيَ﴾ المراد به: العدوان والظلم، سواءً كأن عدوت على نفسه فقتلته، أو عدوت على ماله فأخذته، أو عدوت على عرضه فتناولت منه وقذفته. قالوا: والمراد بالإثم هنا: الخمر؛ لأنها هي التي تعدو على العقول. وقال الحسن: الإثم: الخمر[3]. وكثير من علماء العربية

(١) انظر: القرطبي (٢٠١/٧)، الدر المصون(٣٠٧/٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٣) القرطبي (٢٠٠/٧).

يسمون الخمر إثماً. ولهم في ذلك شواهد كثيرة، وأشعار معروفة، منها قول الشاعر(١):

شربت الإثمَ حتى ضلَّ عقلي كذاكَ الإثمُ تذهبُ بالعقولِ

يعني: الخمر. وقال بعض العلماء: هذا البيت مصنوع. وبعضهم يقول: هو بيت عربي شاهد، ومنه قول الآخر(٢):

نشربُ الإثم بالصواع جهاراً وترى المسكَ بيننا مُسْتعارا

وهذا كثير في كلام العرب ـ تسمية الخمر إثماً ـ ومنه قول الآخر(٣):

نهانَا رسولُ الله أن نقربَ الخَنَا وأن نشربَ الإثم الذي يوجبُ الوزرَا

وقول الآخر(٤):

ورحْتُ حزيناً ذاهلَ العقل بعدهم كأني شربتُ الإثم أو مسَّني خَبَل

قالوا: فقوله: ﴿ٱلْإِثْمَ﴾ هو تحريم للخمر؛ لأنها هي التي تذهب العقول، فهو زجر عن إذهاب العقول ومحافظة على العقول. بقي الدين وحده؛ لأن الأنساب جاءت في النهي عن الزنى، والأنفس والأعراض والأموال جاءت في النهي عن البغي؛ لأنه ظلم على الإنسان في ماله أو نفسه أو عرضه. والمحافظة على العقول جاءت في تحريم الإثم وهو الخمر. على هذا القول بقي الدين والمراد بقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف: آية ٣٣] لأن أعظم إفساد الدين الإشراك بالله، والقول في دين الله بلا علم، فهذا أعظم فساد الدين، قالوا: فعلى هذا تكون الآية الكريمة إنما تداخلت عطوفها وتكررت ليكون فيها الزجر عن الأنفس، والزجر عن الأموال، والزجر عن الأعراض، والزجر عن الأنساب،

(١) البيت في القرطبي (٢٠٠/٧)، الدر المصون (٣٠٦/٥).
(٢) البيت في القرطبي (٢٠١/٧).
(٣) البيت في البحر المحيط (٢٩٢/٤)، الدر المصون (٣٠٦/٥).
(٤) البيت في المصدرين السابقين.

والزجر عن العقول، والزجر عن الأديان. وقد علمنا من استقراء الكتاب والسنة أنَّ الله (جلّ وعلا) في هذا التشريع الكريم الذي أنزله على هذا النبي الكريم ﷺ بالغ في المحافظة على هذه الجواهر الست، بالغ على حفظ الدين كما قال ﷺ: **«من بدّل دينه فاقتلوه»**[١]. محافظة على الدين لئلا يغيَّر ويبدَّل. وقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: آية ١٩٣، الأنفال: آية ٣٩] أي: حتى لا يبقى شرك، بدليل قوله: **«أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله»**[٢]. وحافظ على الأنساب فحرّم الزنى، واختلاط ماء الرجل، بماء الرجل وتقذير الفرش؛ لتبقى الأنساب مستقيمة واضحة ناصعة، قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: آية ٣٢] وأوجب جلد الزاني محافظة على أنساب المجتمع ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ﴾ [النور: آية ٢] وفي الآية المنسوخة التلاوة الباقية الحكم: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم»[٣]. ومن شدة محافظته على الأنساب أوجب العدة على المرأة إذا فارقها زوجها بموت أو طلاق ـ أوجب عليها التربص زمناً ليعلم أن رحمها صفت من ماء الرجل الأوّل ـ لئلا يختلط ماء رجل بماء رجلٍ آخر في رحم امرأة واحدة.
٥/ب ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ﴾ الآية. [البقرة: آية ٢٢٨]/ ومن أجل محافظته على الأنساب منع سقي زرع الرجل بماء غيره؛ ولذا منع تزويج الحامل، فالمرأة إذا مات عنها زوجها أو طلقها وهي حامل لا يجوز أن تتزوّج زوجاً آخر حتى تضع حملها؛ لأنه إن تزوجها وجامعها سقى ذلك الحمل وهو زرع لغيره بمائه فمنع سقي الزرع بماء الغير محافظة على الأنساب فقال: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ﴾ [الطلاق: آية ٤] وحافظ الشرع الكريم على الأعراض فنهى عن انتهاك الأعراض ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ﴾ [الحجرات: آية ١٢] ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: آية ١١] ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: آية ١١] ثم إنه أوجب حد القذف

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.
(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

ثمانين جلدة زجراً ومحافظة على أعراض الناس، وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤﴾ [النور: آية ٤] ثم جاء بالمحافظة على العقول فحَرَّم شرب المسكر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: آية ٩٠] وقال ﷺ: «**كل مسكرٍ حرام**»[١] «**ما أسكر كثيره فقليله حرام**»[٢] وأوجب حد شارب الخمر محافظة على العقول وصيانةً لها. وكذلك منع من انتهاك المال، واحترم الملكية الفردية حيث قال: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: آية ٢٩] وفي الحديث «**لا يحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفسه**»[٣].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) ورد في هذا المعنى عدة أحاديث عن جماعة من الصحابة بألفاظ متقاربة، منها:

١ ـ حديث أبي حرة الرقاشي عن عمه: أخرجه أحمد (٥/٧٢)، وأبو يعلى (٣/١٣٩)، والدارقطني (٣/٢٦)، والبيهقي في السنن (٦/١٠٠)، وفي الشعب (١٠/١١٩ ـ ١٢٠)، والبزار (كشف الأستار ٢/٢٠٤)، وذكره الحافظ في الإصابة (١/٣٦٢)، والهيثمي في المجمع (٤/١٧٢)، وقال: «رواه أبو يعلى، وأبو حُرَّة وثقه أبو داود وضعفه ابن معين» ا.هـ. وانظر: الإرواء (٥/٢٧٩)، صحيح الجامع (٧٥٣٩).

٢ ـ حديث أبي حميد الساعدي: أخرجه أحمد (٥/٤٢٥)، والبيهقي في السنن (٦/١٠٠)، وفي الشعب (١٠/١٢٠)، والبزار (كشف الأستار ٢/١٣٤)، وابن حبان (الإحسان ٧/٥٨٧)، والطحاوي في شرح المعاني (٤/٢٤١)، ومشكل الآثار (٤/٤١)، وذكره الهيثمي في المجمع (٤/١٧١)، وقال: «رواه أحمد والبزار ورجال الجميع رجال الصحيح» ا.هـ. وانظر: الإرواء (٥/٢٧٩).

٣ ـ عمرو بن يثربي: رواه أحمد (٣/٤٢٣)، (٥/١١٣)، والدارقطني (٣/٢٥، ٢٦)، والبيهقي في السنن (٦/٩٧)، والطحاوي في المشكل (٤/٤٢)، وفي شرح المعاني (٤/٢٤١)، وذكره الهيثمي في المجمع (٤/١٧١)، وقال: «رواه أحمد وابنه من زياداته أيضاً، والطبراني في الكبير والأوسط... ورجال أحمد ثقات» ا.هـ وانظر: الإرواء (٥/٢٨٠ ـ ٢٨١).

٤ ـ ابن عباس: أخرجه الدارقطني (٣/٢٥)، والبيهقي (٦/٩٧)، وانظر: الإرواء (٥/٢٨١).

٥ ـ ابن عمر أخرجه البيهقي (٦/٩٧).

٦ ـ أنس: أخرجه الدارقطني (٣/٢٥، ٢٦)، وانظر: الإرواء (٥/٢٨٢).

وقد بيَّن القرآن في سورة النساء ما يدل على أنه سيأتي قوم في آخر الزمان يتخذون وسيلة إلى ظلم الناس في أموالهم من قولهم: هذا فقير، وهذا غني، فنأخذ من الغني لنرده على الفقير!! كما هو مشاهد في المذاهب الهدامة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النساء: آية ١٣٥] بأن تقولوا: هذا غني فنأخذه للفقير، أو نكتم الشهادة عليه للفقير ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ولذا جعل حدَّ السرقة لمن أخذ المال في قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: آية ٣٨] فأوجب قطع يد السارق محافظةً على أموال المجتمع. والكفار الفجرة يرون أن قطع يد السارق أنه عمل وحشي لا ينبغي أن يكون في النُّظم الإنسانية لجهلهم وطمس بصائرهم وعدم علمهم بالحِكَم السماوية التي يُشرِّعها خالق السماوات والأرض؛ لأن الله (جلَّ وعلا) خلق هذه اليد، وفرّق أصابعها، وشدَّ رؤوسها بالأظافر، وجعلها مستعدة غاية الاستعداد للمعاونة الكريمة في بناء المجتمع في دنياه وآخرته، فمدت أناملها الخبيثة الخسيسة الخائنة لتأخذ المال على أخس وجه وأرذله وأردئه، فصارت كأنها عضو نجس قذر يريد أن يُقذِّر جميع البدن، فأمر الله بإزالته كإزالة عضو إزالة تطهيرية لئلا يُضيع جميع البدن. ومعلوم أن العضو إذا فسد وخيف منه أن يُفسد جميع البدن أن إزالته ليصح جميع البدن أنه عمل تطهيري معقول عند كل الناس؛ ولذا ثبت في الصحيح من حديث عبادة بن الصامت (رضي الله عنه)[١] ما يدل على أنه إن قطعت يده طهر من تلك الرذيلة وصار طاهراً، وبقي جسمه الآخر نزيهاً طاهراً؛ لأن العضو الفاسد الذي كان يُقَذِّر جميع الجسم أُزيل بالعملية التطهيرية. ومن غرائب القرآن أنه لو لم تُقطع يد السارق فاليد الواحدة السارقة الفاجرة قد تفقر آلاف الأيدي، فقد يكون السارق الواحد إذا لم يخف من الردع بقطع اليد يُفْقِر آلاف الأيدي، فيسرق جميع قوت آلاف الناس، فيتركهم عالة يتكففون الناس، وربما ماتوا من

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

الجوع!! فاليد الواحدة قد تُفقر آلاف الأيدي وملايين الأيدي؛ ولذا قطعها الشارع لحكمتين: ليطهِّر صاحبها من هذه الرذيلة الدنية الخبيثة، وكذلك ليردع الناس عن أموال الناس؛ لأن المال هو شريان الحياة، وبه قوام شؤون الدنيا في دينها وآخرتها، لا يصلح دونه شيء؛ لأنه هو الذي يُصْلَح به كل شيء من مرافق الدنيا والآخرة، فهو أساس الدنيا. وأساس هذه الدنيا وعمل الآخرة كله على المال. وإذا كانت هذه اليد بارية قد تُفْقِر آلاف الأيدي، فأمر الشارع بقطعها لأنها عضو نجس قذر يريد أن يلطخ جميع الجسد، كعملية تطهيرية، وليرتدع أمثاله من الفجرة عن أموال الناس. وهذا تشريع سماوي، حكمته معروفة، يتوب الله على السارق ويطهره، ويزيل عنه الخبث الذي ارتكبه، والنجاسة التي تلطخ بها، ويحفظ أموال المجتمع؛ لأن المال شريان الحياة، إذا سُرِق قوت الرجل ـ جعل جميع ما عنده في صندوق، فجاءه سارق فسرقه ـ يصبح ذلك المسكين وأولاده الصغار وزوجته في جوع، إما أن يذهب فيتكفف الناس، وقد يفضل الشريف الموت على تكفف الناس. فهذا قد تفعله اليد الواحدة لآلاف الأيدي، وقد يُفقر عشرات الناس، ويضُرُّ بهم. فَقَطْعُ هذا العضو النجس الخائن الخبيث ليطهر به بقية البدن، وينكف الناس، ويرتدع الفجرة تشريعٌ سماوي معقول.

ومن المُشَاهَد: أن هذه البلاد ـ نرجو الله أن يعصمها، ويحفظ القائمين عليها، ويوفقهم للخير، ويرزقهم بطانة الخير، ويذهب عنهم بطانة السوء ـ لما كانوا يقطعون يد السارق، ويقيمون حدود الله، كل الإحصائيات العالمية في جميع أقطار الدنيا لا توجد بلاد، أقل فيها ارتكاب الجرائم من السرقات ونحوها من أنواع الفجور مثل هذه البلاد، وكل ذلك بفضل الله (جلّ وعلا) ثم بفضل تحكيم ذلك التشريع السماوي. فأمريكا مثلًا، مع حضارتها لا يمكن أن تعد فيها جنايات السرقات، وجرائم الأخلاق وغيرها مما يزعمون أنهم في حضارة وتمدُّن، لما أهملوا تشاريع رب السماوات والأرض كثر فيهم الخبث، وكثرت الجنايات، وكثر ارتكاب الجرائم بحد لا يتصوَّر، ومن خرج من هذه البلاد يرى ذلك، ويعلم أنه ليس بآمن على نفسه ولا على ماله؛ لأنه لم تكن هنالك زواجر وروادع من رب العالمين ـ تعالى ـ تضع العدالة في الأرض، وتنشر الطمأنينة، ولكن البلاد التي تحكم

بما أنزل الله، وتقطع يد السارق، وترجم الزاني المحصن، وتجلد الزاني تراها دائماً لأجل ذلك التشريع السماوي تقل فيها الجرائم الأخلاقية. ومعلوم أن هذه البلاد ـ التي هي وحدها التي بقيت في الدنيا تعلن أنها تحكم بما أنزل الله على ما كان منها ـ أنها أقل البلاد في الإحصائيات العامة جرائم وفضائح وعظائم ذنوب؛ لأجل التشريع السماوي. فتشريع رب العالمين هو التشريع الصحيح الذي يصون الأنفس، ويصون الأموال، ويصون الأعراض، ويصون العقول، ويصون الأنساب، إلى غير ذلك من المقومات الإنسانية. ومعلوم أنه ليس قصدنا أن نثني على أحدٍ كائناً ما كان، كل الناس يعرف ذلك، وإنما قصدنا أن نثني على دين الإسلام، ونبين محاسنه، وأن تشريع رب العالمين لا يدانيه غيره، ولا يماثله غيره، وأنَّ من حكَّم شرع الله كانت العدالة في بلاده أكثر، وكانت الطمأنينة أكثر، وكان الرخاء أكثر. وهذه البلاد عليها ـ على ما كان منها ـ أن تحمد نعم الله، فهي في رفاهية، وطمأنينة على الأنفس، والأموال، والأعراض لا تكاد توجد في بلدٍ من بلاد الله، يعلم ذلك كل من سافر وذهب إلى البلاد الخارجية، وكل ذلك ليس إلا لأجل أنها تقطع يد السارق، وترجم الزاني، وتحكم بحدود الله.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٣٤ ـ ٣٧].

يقول جلّ وعلا: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: آية ٣٤] لمّا أمر الله (جلّ وعلا) ونهى هدد الأمة التي بعث بها نبيه ﷺ أن كل أمة لها وقت محدد وأجل معين، إذا انتهى ذلك الأجل جاءها أمر الله. وهذا تهديد لكفار قريش الذين كذّبوه ﷺ، والموعظة بالحكم عامة.

ويجب على كل إنسان أن يعلم أنَّ كل إنسان من أفراد كل أمة؛ وأن كل أمة - الجميع محدود له أجل معين لا يتقدمه بلحظة ولا يتأخر عنه بلحظة، كما ذكره هنا في الأمم، وبينه أيضاً في الأشخاص في آيات متعددة، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: آية ١٤] أي: شيئاً مكتوباً محدداً بأجلٍ معين ووقت محتوم لا يتقدَّم عنه ولا يتأخَّر، وإذا كان عمر الإنسان محدداً عند الله بوقت معين لا يتقدَّم عنه ولا يتأخَّر، وهو لا يدري أذلك الوقت قريب أو بعيد أو متوسط، قد يمكن أن يكون موته قريباً وهو لاهٍ يضحك، أكفانه تنسج - وهي حاضرة موجودة - وهو لاهٍ يضحك ويلعب ويعصي الله!!.

فعلى كل عاقل أن يبادر بغتة الموت، وأن يخاف أن يكون الوقت المحدد لعمره قد انتهى أو قارب الانتهاء، فيحمله ذلك على أن يشتغل بما يرضي ربه لتكون خواتيم عمله طيبة، فعلى كل إنسان أن يعتبر أن له أجلًا محدداً ووقتاً معيناً لا يتقدم عنه ولا يتأخَّر، وإذا كان لا يدري هل ذلك الوقت قريب جداً فعليه أن يعمل بعمل من هو عالم أنه يموت قريباً لئلا يعاجله الموت وهو مقيم على معاصي الله وما يسخط ربه، فيموت شر ميتة، فيجر إلى القبر مغضوباً عليه من ربه - والعياذ بالله - فعلى كل مسلم أن يلاحظ هذا، ويحسن عمله خوفاً من أن يكون الأجل المحدد له أوشك على الانتهاء. وهذه موعظة يجب على كل مسلم أن يعتبر بها، والأمم منهم من يكون أجلها المضروب لها واحداً، كالأمة التي يأتيها الهلاك في وقتٍ واحدٍ، كقوم نوح الذين اجترفهم الطوفان في وقت واحد، وكقوم هود الذين أهلكتهم الريح العقيم في وقتٍ واحدٍ، وكقوم صالح الذين أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، إلى غير ذلك من القصص المبينة في القرآن. وقد يموت من الأمة أفراد، أفراد، وأفراد من غير استئصال في وقت واحد. والأمة المُهلكة في وقت واحد، والأفراد التي تموت، كلٌ منها بأجلٍ محدد له، ووقت معلوم عند الله، لا يتقدمه ولا يتأخَّر عنه، فمن قتل فقد مات بأجله الذي قدره الله عليه، خلافاً للمعتزلة القدرية الذين يزعمون أن أعمال العباد لا مشيئة فيها لله، فيقولون: عمره كان أكثر من هذا، ولكن القاتل نقص عمره فقتله قبل أجله. فهذا جهل بالله، وقدح في علم الله؛ لأن الله

عالم بكل ما كان وما سيكون، وعالم بكل وقت يموت فيه الإنسان، فلا بد أن يموت في الوقت المعين الذي سبق علم الله أنه يموت فيه، فمن مات فقد انقضى أجله المحدد له عند الله، الذي كان الله يعلم سابقاً أنه عند انقضائه سيموت كما هو مذهب أهل السنة والجماعة(١).

والأمة أُطلقت في القرآن العظيم أربعة إطلاقات، كلها عربية فصحى(٢): وهي معنى آيات من كتاب الله.

أُطلقت الأمة في القرآن على الطائفة المجتمعة في دين أو نِحْلَة. وهذا أكثر إطلاقاتها، نحو: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: آية ٤٤] ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: آية ٢١٣] ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: آية ٣٤].

وأُطلقت الأمة في آية من كتاب الله على الرجل المُقْتَدى به، الذي هو إمام؛ لأن إبراهيم قال الله له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: آية ١٢٤] ولذا سمَّاه أمة في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾.

وأُطلقت الأمة في القرآن على البُرهة من الزمن، والقطعة من الدهر. ومنه بهذا المعنى قوله في أوّل سورة هود: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: آية ٨] إلى مدة معينة من الدهر. وقوله في سورة يوسف: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: آية ٤٥] أي: تذكَّر بعد برهة من الزمن.

وأُطلقت الأمة في القرآن ـ وهو كثير في كلام العرب ـ على نفس الشريعة والملة. وإطلاق الأمة على الدين والطريقة الذي هو الشريعة والملة متعدد جداً في القرآن، ومنه قوله تعالى عن الكفار: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: آية ٢٣] أي: على ملة وشريعة ودين ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: آية ٩٢] أي: دينكم وشريعتكم وملتكم طريقة واحدة. وهذا المعنى مشهور في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان(٣):

حلفتُ فلم أترك لنَفسِكَ رِيبَةً ... وهل يأثَمنْ ذو أمةٍ وهو طائعُ؟

---

(١) انظر: القرطبي (٧/٢٠٢)، شرح الطحاوية (١٢٧، ١٢٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

يقول: وهل يأثمن صاحب دين فيرتكب ما يخالف دينه وهو طائع؟ يقول هذا وهو كافر.

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: جاء الوقت المعين المحدد لإهلاكهم هلكوا. كقوم نوح لمّا جاء الوقت المحدد لهم - المشار إليه بقوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: آية ٤٠] - أُهلكوا، وقوم هود لمّا جاء الوقت المحدد لإهلاكهم أرسل الله عليهم الريح العقيم ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: آية ٤٢] ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: آية ٦] وكذلك قوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه. كل أمة من الأمم جاء الوقت المحدد لها وأراد الله إهلاكها أهلكها عند الوقت المعين؛ لأن قريشاً استعجلوا بالعذاب فقالوا للنبي ﷺ: ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ [هود: آية ٨] ما يحبس العذاب؟ ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: آية ١٦] وأصل (القِط) في لغة العرب: هو الصك الذي يكتب به الملك الجوائز للزائرين، لأنه يكتب أوراقاً كل واحدة فيها عطاء فلان، فتلك الورقة المكتوب فيها جائزة كل إنسان ممن زار الملك هي قِطُّه، وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

ولا الملكُ النعمانُ يوم لَقِيْتَه   على ملكه يُعطي القُطُوطَ ويَأْفِقُ[1]

ومعنى (يأفق): يفضل بعضاً على بعض في العطاء، فقوله: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: نصيبنا من العذاب الذي تزعم. فاستعجلوا بالعذاب، والله يقول ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: آية ٤٧] وقد جاء استعجالهم به في آيات كثيرة، فبين لهم في هذه الآية من سورة الأعراف أن الله إن أراد إهلاك أمة أو عذابها فلذلك وقت معين محدد عنده لا يتقدمه ولا يتأخره ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ المعين لإهلاكهم والقضاء عليهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عن ذلك الأجل ﴿سَاعَةً﴾ بل يهلكون عند وقت مجيء الأجل ولا يتقدمون عنه،

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

ولا يمكن أن يهلكوا قبله ولا أن يتأخروا عنه؛ لأنها مواقيت معينة لا يسبقها ما عُيِّن لها ولا يتأخر عنها.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ قرأ هذا الحرف ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ بتحقيق الهمزتين، وقرأه أبو عمرو، وقالون عن نافع، والبزِّي عن ابن كثير: **﴿فإذا جا أجلهم﴾** بإسقاط إحدى الهمزتين. والقرّاء مختلفون: هل الهمزة الساقطة هي الأولى أو الثانية؟ وقرأه ورش عن نافع، وقنبل عن ابن كثير: **﴿فإذا جاآجلهم﴾** [الأعراف: آية ٣٤] بإبدال الهمزة الثانية مداً للأولى[١].

وقوله: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ قرأه عامة القراء: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ بتحقيق الهمزة، إلا أن ورشاً قرأه عن نافع، والسوسي عن أبي عمرو: **﴿لا يستاخرون﴾** بإبدال الهمزة ألفاً[٢]، والكل قراءات صحيحة، ولغات عربية فصيحة.

ومعنى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه، أي: عن ذلك الأجل ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يتقدمون عنه.

وإنما ذكر الساعة مع أنهم لا يتقدمون عنه بلحظة ولا يتأخرون؛ لأن عادة العرب أن يطلقوا الساعة في أقل الأوقات، مع أنهم لا يتأخرون لحظة ولا دقيقة ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عن الوقت المضروب لذلك الإهلاك.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأعراف: آية ٣٥] قرأ هذا الحرف عامة القراء غير أبي عمرو **﴿يا بني آدم إما يأتينكم رُسُلٌ منكم﴾** بضم السين والراء، وقرأه أبو عمرو: **﴿إما يأتينكم رُسْلٌ منكم﴾** بسكون السين. وتخفيف (الفُعُل). بإسكان العين قراءة معروفة ولغة مشهورة، كما تقول العرب: كُتُب وكُتْب، ورُسُل ورُسْل[٣].

---

(١) انظر: النشر (١/٣٨٢ ـ ٣٨٣)، البدور الزاهرة ص٧٨، ص١١٤.
(٢) انظر: النشر (١/٣٩٠ ـ ٣٩٣)، البدور الزاهرة ص١١٤.
(٣) انظر: إتحاف فضلاء البشر (١/٤٠٤)، البدور الزاهرة ص١١٦.

لما أخرج الله آدم من الجنة بين لذريته أن الجنة بعد أن أُخرج منها آدم وحواء لا يمكن أن يدخلها أحد إلا بعد تكاليف ومشاق، وأخبرهم أنه سيرسل لهم الرسل بالأوامر والنواهي فمن أطاع أمره واجتنب نهيه واتبع رسله أدخله جنته ورده إلى الوطن الأوّل، ومن كفر وعصى وتمرّد أدخله النار وأخلده فيها والعياذ بالله.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ يا أولاد آدم، والنون فيه محذوفة للإضافة، وأصل (البنين) من الملحق بالجموع المذكرة السالمة؛ لأنه ليس من الوصف ولا من العَلَم، ولا ينقاس جمع المذكر السالم إلا في الأوصاف والأعلام، فهذا من الملحقات به. ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ معناه: يا أولاد آدم الذي استزَلّه الشيطان بوساوسه وغروره من الجنة إلى دار الأكدار والبلايا. ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ (إنْ) هنا هي (إنْ) الشرطية التي زيدت بعدها (ما) لتوكيد الشرط.

فقوله ﴿إِمَّا﴾ [الأعراف: آية ٣٥] أصله: إن يأتكم رسل منكم[(١)]. فزيدت (ما) لتوكيد الشرط، وزيادة (ما) بعد (إن) الشرطية لتوكيد الشرط أسلوبٌ عربي معروف. وإن زيدت (ما) [بعد][(٢)] (إن) الشرطية في الفعل المضارع، قال بعض علماء العربية: يجب حينئذٍ توكيده بنون التوكيد، وهو لغة القرآن، فما جاء في القرآن (إمّا) قبل فعل مضارع إلاّ وأُكِّد ذلك المضارع بنون التوكيد في جميع القرآن من غير استثناء حرف واحد، كقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ [فصلت: آية ٣٦] ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ﴾ [الزخرف: آية ٤١] ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾ [الأنفال: آية ٥٧] ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ [الرعد: آية ٤٠] وهكذا. ومن هنا زعمت جماعة من علماء العربية أن توكيد المضارع بنون التوكيد بعد (إما) أنه لازم؛ لأنه جاء به القرآن في جميع الحروف القرآنية التي فيها (إما) قبل المضارع وممن قال بلزوم النون: الزجّاج[(٣)] والمبرّد[(٤)].

(١) انظر: البحر المحيط (١٦٧/٤)، الدر المصون(٢٩٨/١ ـ ٣٠١).
(٢) في الأصل: «قبل» وهو سبق لسان.
(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١١٧/١).
(٤) الكامل (٣٧٨/١ ـ ٣٧٩).

وخالف جماعة آخرون فقالوا: توكيده بالنون بعد (إمّا) حسنٌ طيبٌ، إلا أنه ليس بواجب ولا بلازم. وممن قال بأنه غير لازم: سيبويه(١) والفارسي. واستدلّوا على عدم لزومه بكثرة سقوط النون في أشعار العرب، وسقوط نون التوكيد من الفعل المضارع بعد (إما) لا تكاد تحصيه في أشعار العرب، وهو كثير جداً في كلامهم، ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس(٢):

فإمّا تَرَيْني ولي لِمَّةٌ فإن الحوادث أودى بها

فلم يأت بالنون في قوله: «تريني» وهو بعد (إما) ومنه قول لبيد بن ربيعة العامري(٣):

فإما تريني يوم أصبحت سالماً ولست بأحظى من كلاب وجعفر

ومنه قول الشنفرى(٤):

فإمّا تريني كابنة الرَّمْل ضاحياً على رِقَّةٍ أحفى ولا أَتَنَعَّلُ

ومنه أيضاً قول الأفوه الأودي(٥):

إمَّا تري رأسي أزرى به ماسُ زمانٍ ذي انتكاس مَؤُوْس

ومنه قول الآخر وهو حماسي(٦):

زعمت تماضر أنني إما أمُت يسدد أُبَيْنُوها الأصاغِرُ خلتي

---

(١) الكتاب (٣/٥١٥)، وانظر: التوضيح والتكميل (٢/٢٥٦).

(٢) ديوان الأعشى ص٢٨، رصف المباني ص١٠٣، الدر المصون (١/٣٠٠).

(٣) البيت في ديوانه ص٦٧، ولفظه:

فإما تريني اليوم عندك سالماً فلست بأحيا من كلاب وجعفر

(٤) البيت في البحر المحيط (٤/١٦٧)، الدر المصون (١/٢٩٩).

(٥) البيت في البحر المحيط (٦/١٨٥)، الدر المصون (٧/٥٩١)، والماس: الطيش. والمؤوس: الإفساد.

(٦) البيت في البحر المحيط (٤/١٦٧)، الدر المصون (١/٢٩٩).

وقول الآخر(١):

يا صاح إمَّا تَجدْني غَيرَ ذي جِدَةٍ فما التخلي عن الخلاّن من شيمي

وأمثال هذا كثيرة في كلام العرب فاستدل سيبويه والفارسي ومن وافقهما بهذه الشواهد على أن [توكيد المضارع بنون التوكيد بعد (إما) غير لازم.

١/٦ كما دلت الآية على أن الرسل الذين يُبعثون إلى الناس أنهم](٢)/ آدميون مثلهم؛ لأنهم لو أُرسل لهم ملك لما تمكنوا عن الأخذ منه؛ لأن الملائكة لا يجانسون بني آدم؛ ولذا كان جبريل إذا أتى النبي ﷺ في أغلب الأحوال يتمثَّل له في صورة رجل هو دحية بن خليفة الكلبي كما هو معروف(٣). وقد قدَّمنا إيضاح هذا في سورة الأنعام في الكلام على قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝﴾ [الأنعام: آية ٩] فكون الرسل إلى بني آدم من جنسهم ومن نوعهم يسهِّل عليهم الأخذ منه، وتسهل عليهم معاشرتهم وصحبتهم والاهتداء بهديهم هو من نعم الله ـ تعالى ـ عليهم، مع أنَّ كون الرسل منهم هي شبهة أضلهم الله بها. كل قوم إذا جاءهم رسول منهم يقولون:

---

(١) البيت في البحر المحيط (١٦٧/٤)، الدر المصون(٢٩٩/١).

(٢) وقع انقطاع في هذا الموضع، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) جاء هذا في عدة روايات عن جماعة من الصحابة، منهم:

١ ـ أم سلمة (رضي الله عنها). أخرجه البخاري في المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم: (٣٦٣٤)، (٦٢٩/٦) وطرفه في (٤٩٨٠). ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أم سلمة أم المؤمنين (رضي الله عنها) حديث رقم: (٢٤٥١)، (١٩٠٦/٤).

٢ ـ عائشة (رضي الله عنها)، ذكره ابن عساكر (مختصر تاريخ دمشق ١٦٢/٨).

٣ ـ ابن عمر (رضي الله عنه) عند أحمد (١٠٧/٢)، وذكره الحافظ في الإصابة (٤٧٣/١)، وصححه.

٤ ـ أنس (رضي الله عنه) ذكره الهيثمي في المجمع (٣٧٨/٩)، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف» ا.هـ.

٥ ـ أبو هريرة وأبو ذر (رضي الله عنهما). عند النسائي في الإيمان وشرائعه، باب صفة الإيمان والإسلام. حديث رقم (٤٩٩١)، (١٠١/٨)، في آخر حديث جبريل الطويل. وقد ضعف الحافظ في الفتح (١٢٥/١)، هذه الزيادة ونسبها إلى الوهم. وانظر: ضعيف النسائي (٣٧٥).

كيف تكون رسولاً وأنت من جلدتنا، وتشرب كما نشرب، وتأكل كما نأكل، وتروح للسوق تشتري حاجتك، مثل هذا لا يكون له فضل علينا. وهذا كثيرٌ في القرآن، وبيّن الله في سورة بني إسرائيل أنه سبب مانع من إيمانهم جميعاً حيث قال في سورة بني إسرائيل: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: آية ٩٤] فجعلوا بعثة البشر من المحال، وقالوا: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: آية ٢٤] ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: آية ١٥] ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: آية ٣٤] ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: آية ٧] وقد بيّن لهم الله أن جميع الرسل من جنس الناس الذين يرسلون إليهم، كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: آية ٣٨] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: آية ١٠٩] وهذه من نعم الله علينا.

وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٣٥] يدل على أنه قد يوجد رسل آخرون ليسوا منا، وهو كذلك؛ لأن من الملائكة رسلاً، والملائكة ليسوا من جنسنا، كما قال الله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: آية ٧٥] وقال: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ الآية [فاطر: آية ١] ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: إن يجئكم من تلقائي ومن عندي رسل من جنسكم ونوعكم أرسلتهم إليكم، كما قال للنبي ﷺ في أول سورة يونس: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: آية ٢] لا عجب في هذا ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٦٣] لا عجب في هذا.

﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ ﴿يَقُصُّونَ﴾ معناه: يقرؤون ويتلون عليكم آياتي في كتبي التي نزلتها على رسلي لينذروكم بها، ويبينوا لكم فيها العقائد، والحلال، والحرام، والأمثال، والجنة، والنار، وخبر الدنيا والآخرة، وما يستوجب به العبد رضا الله، وما يستوجب به سخطه، ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ [الأعراف: آية ٣٥] فاعلموا أن من اتبع رسلي وأطاعني صار إلى أحسن ما يكون، ومن كذب رسلي

واستكبر عن آياتي وعصاني فسيصير إلى أسوأ ما يكون؛ ولذا قال: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي: اتقى الله بأن صدّق رسله وامتثل أوامره التي جاءت بها الرسل، واجتنب نواهيه التي جاء نهي عنها على ألسنة الرسل، وأطاع الله فيما جاءت به رسله، وأصلح عمله بطاعة الله (جلّ وعلا)، وجريان عمله على الوجه الذي يرضي الله، الذي شرعه الله على ألسنة رسله، فهؤلاء الصنف الذين صدّقوا رسلي، وآمنوا بي، وأطاعوني، أصلحوا أعمالهم باتباع الرسل، واتقوا ربهم بامتثال أمره واجتناب نهيه، فهؤلاء يوم القيامة عندما يكون الفزع الأكبر آمنون، لا يخافون ولا يحزنون.

فقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ الخوف في لغة العرب ـ أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منه ـ هو غم من أمر مستقبل في غالب الأحوال، فإذا كان إنسان يغتم من أمرٍ مستقبل يتوقع وقوعه عليه فهذا هو الخوف. أما الحزن: فهو الغم من أمر فائت، كأن تصيبه مصيبة أو بلية وتقع فيبقى مغموماً مما وقع، فهذا حزين. وربما وضعت العرب الخوف مكان الحزن، والحزن مكان الخوف قليلاً[(١)]، وربما أطلقت العرب الخوف وأرادت به (العِلْم) إطلاقاً غير كثير. قال بعض العلماء: منه في القرآن: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: آية ٢٢٩] أي: إلا أن يعلما، فإن علمتم. ومن إطلاق الخوف على (العلم) كما ذكرنا قول أبي محجن الثقفي[(٢)]:

إذا متُّ فادفنني إلى جَنْبِ كَرْمَةٍ ... تُروِّي عظامي في الممات عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فإنني ... أَخَافُ إذا ما متُّ ألا أذُوقها

فإن قوله هنا «أخاف»: أعلم وأتيقّن؛ لأنه عالم أنه إذا مات لا يشرب الخمر بعد موته كما لا يخفى.

---

(١) في معنى الخوف والحزن والفرق بينهما راجع ما تقدّم عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٢) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

وقوله هنا: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ المعروف في علم العربية أن (لا) التي هي لنفي الجنس إذا تكررت بأن عُطفت عليها أخرى لا يلزم إعمالها بل يجوز إعمالها وإهمالها، والذي سوَّغ إهمالها[١] في قوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ لأن المعطوفة عليها وهي: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: آية ٣٥] جاءت بعدها معرفة وهي لا تعمل إلا في النكرات[٢]. فلما استحال عمل الثانية أُهملت الأولى لتَجَانُس الحرفين في عدم العمل. هكذا قاله بعض العلماء، وله وجهٌ من النظر.

وقوله: ﴿اتَّقَىٰ﴾ أصل مادة (الاتقاء) هي من (الوقاية)، أصل (اتقى) من (وقى) ففاء الكلمة واو، وعينها قاف، ولامها ياء، أصلها (وقى) كما تقول: (وني، وودى، ووشى، ووقى) دخلها تاء الافتعال، كما تقول في (قرب): اقترب، وفي (كسب): اكتسب، وفي (وقى): اوتقى. والقاعدة المقررة في التصريف: أن تاء الافتعال إذا دخلت على كلمةٍ فاؤها واو وجب إبدال الواو تاءً، ثم تدغم التاء المبدلة من الواو في تاء الافتعال الزائدة فيصير معناه: اتقى[٣].

وأصل الاتقاء في لغة العرب[٤]: معناه أن تجعل بينك وبين الشيء وقاية تمنعك منه. تقول العرب: اتقيت السيوف بِمِجَنِّي، واتقيت الرمضاء بنعلي. فكل ما جعلت بينك وبينه شيئاً يقيك منه فقد اتقيته. وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان[٥]:

سَقَطَ النَّصيفُ ولم تُرد إسقاطه فَتَنَاولَتْهُ واتَّقَتْنا باليد

أي: جعلت يدها وقاية دون وجهها لئلا نراه. هذا أصل الاتقاء في لغة العرب.

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (١/٢٨٨ ـ ٢٩٠).
(٢) انظر: التوضيح والتكميل (١/٢٨٤ ـ ٢٨٥)، أوضح المسالك (١/٢٠٣)، الدر المصون (٥/٣٠٤).
(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.
(٤) السابق.
(٥) السابق.

وهو في اصطلاح الشرع: أن يجعل العبد في دار الدنيا وقاية تقيه من سخط الله وعذابه وعقابه. هذه الوقاية التي تقي سخط الله وعذابه، هي امتثال أوامر الله، واجتناب نهي الله. فمن امتثل أمر خالقه، واجتنب نهيه فقد اتخذ وقاية تقيه سخطه وعذابه؛ ولذا سمي: الاتقاء.

وهو مراتب كثيرة: منها اتقاء الشرك، واتقاء المحرمات، واتقاء الشبهات خوفاً من الوقوع في الحرام كما هو معروف.

وربما اعتدَّت العرب بأصل (الواو) مبدلًا من (تاء) من غير زيادة شيء، كما قالوا: (تَقَاهُ يتْقيه) والأصل: (وقاه يقيه) فأبدلوه تاء من غير إدغام. وهذا موجود في كلام العرب نادر، ومنه قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: آية ٢٨] لأن (تُقَاة) أصله (وُقَاة) من غير إدغام، ومنه بهذا المعنى قولهم: «تقى الله يَتْقيه» بمعنى: اتقاه يتَّقيه. والأصل: (وقاه يقيه) ولا موجب للإبدال هنا يستوجبه، إلا أنهم راعوا فيه المشدد الذي فيه موجب الإبدال. ومن (تَقَاه يتْقيه) بالتخفيف قول الإمام الشعبي ـ رحمه الله، الذي قال بعضهم فيه: إنه شاعر العلماء ـ رحمه الله ـ مع علمه وجلالة قدره[1]:

يقولُ لِيَ المُفْتي وهُنَّ عَشِيَّةً ... بمكةَ يَسْحَبْنَ المُهَذَّبَة السُّحْلا
تَقِ الله لا تنظر إليهن يا فتى ... وما خِلْتُني في الحج مُلْتَمِساً وصلا
ووالله لا أنسى وإن شطَّت النَّوى ... عَرَانِيْنَهنّ الشُّمَّ والأعْيُنَ النُّجْلا
ولا المِسْكَ من أعرافِهِنَّ ولا البُرا ... جَوَاعِلَ في أوساطها قَصَباً خَدْلاً
ووالله لولا الله ما قلت مرحباً ... لأول شَيْبَاتٍ طَلَعْنَ ولا أهلا

والشاهد في قوله:

تق الله لا تنظر إليهن يا فتى ... .

(١) البيت الأول ذكره العكبري في شرحه للمتنبي (٨٦/٤)، ونسبه للقحيف. فلعل الشعبي (رحمه الله) تمثل بها. والأبيات في معجم الأدباء (١٤٧٩/٤)، الأغاني (٨٨/٢٤)، وفي الأمالي (١٢٤/٢) وفيه أنهم سألوا الشعبي (رحمه الله) عن قائل هذه الأبيات فسكت ففهموا أنه قائلها. وصدر البيت الأخير في الأمالي: «خليلي لولا الله...».

لأن أصله: «اتق الله» إلا أنه خُفِّف، وأُبدلت التاء من الواو مع التحقيق، وهي لغة.

وقوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ حَذَفَ المفعولين هنا، وقد تقرر في علم النحو أن حَذْفَ المفعول إذا دل المقام عليه جائز:

وحَذْفَ فَضْلَةٍ أَجِزْ إنْ لَم يَضِرِ[1] ....

وتقرير المعنى: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ﴾ الله بامتثال أوامره واجتناب نهيه، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله باتباع الرسل ومراعاة الله (جلّ وعلا) فيما يأمر به وما ينهى عنه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: آية ٣٥] أي: ليس أمامهم شيء يغتمون منه؛ لأنه لم يكن أمامهم إلا الخير الدائم، والنعيم السرمدي ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على شيءٍ فائت؛ لأنهم كلما طلبوا أُعطوا، فلا يحزنون على فائت؛ لأن جميع رغباتهم حاضرة موجودة. وإذا كانت أُمنيات الإنسان كلها حاضرة موجودة فإنه لا يأسف على شيء فائت؛ لأنه لم يفته شيء. وهذا معنى قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: آية ٣٦] يعني: إن جاءتكم رسلي فالذين أطاعوا رسلي واتقوني فهم آمنون لا يلحقهم خوف ولا حزن، وهم في جنات النعيم، وأمّا الذين عصوني، وعصوا رسلي، ولم يطيعوني، ولم يمتثلوا أمري، وأمّا ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فقالوا للرسل: هذا الذي جئتم به كذب، بل هو سحر، أو شعر، أو كهانة، أو أساطير الأولين، هذا تلقيتموه عن غيركم ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي: تكبروا عن العمل بها كأبي جهل، وأبي لهب وأمثالهم من هذه الأمة والأمم السابقة ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [الأعراف: آية ٣٦].

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أشار لهم إشارة البعيد؛ لأنهم بُعداء بُغضاء ينبغي أن يتباعد منهم، ومن الاقتداء بهم، ومن الاتصاف بصفاتهم.

---

(١) هذا هو الشطر الأول من البيت، وشطره الآخر:

كحذف ما سيق جواباً أو حُصِرْ ....

وهو في الخلاصة ص٢٨.

وسمّاهم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ لأن العرب كثيراً ما تطلق المصاحبة على الاجتماع الطويل. والمراد بالنار ـ والعياذ بالله ـ نار الآخرة، وهي أَحَرُّ من نار الدنيا بسبعين ضعفاً ـ نعوذ بالله ـ تَنْمَاع من حرِّها الجبال، وحرُّها لا يُقَادَر قدره.

وأصل الألف التي بين النون والراء أصلها واو. أصل النار (نَوَر) بدليل أن التضعيف الذي يردُّ العين إلى أصلها يبين ذلك، تقول: «تَنَوَّرتُ» إذا نظرت النار من بعيد، فلو كانت يائية العين لقيل فيها: «تَنَيَّرْتُ» فلما قالوا: «تنورت» علمنا أن أصل الألف التي في محل العين واو. ومنه تصغير العرب لها على (نُويرة) فلو كانت يائية العين لقالوا: «نُيبرة»[(١)] ومما يدلُّ عليه قوله[(٢)]:

تَنَوَّرتُها من أذرعاتٍ وأهلها ... بيثربَ أدْنى دارها نظرٌ عالي

فَتَنَوَّرْتُ نارها من بعيدٍ ... بخزازى، هيهات منك الصَّلاءُ[(٣)]

قال بعض العلماء: والنار من قولهم: «نَارَت الظبية» إذا ارتفعت جافلة؛ لأن طبيعتها الخفة والطيش والارتفاع أعاذنا الله والمسلمين منها[(٤)].

﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أصل الخلود في لغة العرب: المكث زماناً طويلًا، ومنه قول لبيد[(٥)]:

.... صُماً خوالد ما يُبين كلامُها

يعني: أثافي القدر، أنها مكثت في محله من الديار زمناً طويلًا. والمراد بالخلود هنا على التحقيق: الخلود السرمدي الأبدي الذي لا انقضاء له أبداً. فأهل النار الكفار خالدون فيها أبدا.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) البيت للحارث بن حلزة، وهو في اللسان (مادة: نور) (٣/٧٤٠)، وقوله: «بخزازى» جبل بين منعج وعاقل.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٥) شرح القصائد المشهورات (١/١٣٥)، وصدره:
فوقفت أسألها وكيف سؤالنا ....

وما روي عن بعض السلف من الصحابة فمن بعدهم أن النار تفنى، وتخفق أبوابها ليس فيها أحد، وأنها ينبت في محلها الجرجير[١] فإن ذلك يجب حمله كما جزم به الشيخ البغوي - وهو صادق - على الطبقة التي كان فيه عصاة المسلمين[٢]، لأن عصاة المسلمين الذين ماتوا مرتكبي الكبائر يدخل بعضهم النار ويُخرجون منها حتى لا يبقى فيها أحدٌ ممن في قلبه مثقال حبة من إيمان، ولهم طبقة، لأن للنار سبعة أبواب، لكل باب منهم جزء مقسوم، فإذا خرج الموحدون منها فلا مانع من فناء الطبقة التي كانوا فيها، أما الكفّار فقد دلت نصوص الوحي العظيمة على أنهم خالدون فيها أبداً خلوداً سرمدياً لا انقضاء له أبداً. وفي خلودهم الأبدي سؤالات معروفة[٢]:

أحدهما أن الله قيده بالمشيئة في سورة الأنعام، وفي سورة هود، حيث قال في سورة الأنعام: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] وقال في سورة هود: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: الآيتان ١٠٦، ١٠٧].

السؤال الثاني: أن الظرف في سورة النبأ - الظرف المُنَكَّر - يدل على المفهوم، وهو قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ: آية ٢٣] فالأحقاب: أزمنة مُنكّرة يدل على أن لها انقضاء.

السؤال الآخر: سؤال فلسفي بارد، يستدل به الفجرة الملاحدة، يقولون: العقل لا يدرك أن يخلدوا فيها أبداً؛ لأن الله أحكم الحاكمين، وهو ذو عدلٍ وإنصافٍ بالغ، هو الحَكَم العدل (جلّ وعلا)، وهم إنما ارتكبوا المعاصي في الدنيا في أيام محدودة قليلة، فكيف يكون زمن المعصية محدوداً قليلًا وزمن الجزاء لا انقطاع له أبداً؟! قال الملحدون في هذا: لا مناسبة إذاً بين العمل والجزاء، فالعمل في مدةٍ وجيزة، والجزاء لا انقضاء له. فيقول الملحد: هذا لا

---

(١) انظر: التذكرة للقرطبي ص٤٣٧.

(٢) وانظر: تفسير البغوي (٤٠٣/٢). وراجع ما مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

يظهر فيه كمال الإنصاف؛ لأنه ينبغي أن يكون الجزاء بحسب العمل، والعمل قليل في أيامٍ معدودة فكيف يكون الجزاء لا نهاية له؟!

والجواب عن الآيات لو تتبعنا جميع الأجوبة فيه لطال جداً، ولكننا نلمُّ بطرف منه باختصار، فنقول: إن الله (جلّ وعلا) ذكر خلود أهل الجنة وخلود أهل النار، واستثنى في كل واحدٍ منهما بمشيئته، قال في خلود أهل النار: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: آية ١٠٧] ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] وقيّد خلود أهل الجنة بالمشيئة أيضاً قال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سَعِدُوا فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [هود: آية ١٠٨] وفي القراءة الأخرى[1]: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فالقيد بالمشيئة في خلود الطائفتين ـ خلود أهل الجنة، وخلود أهل النار، وهذه المشيئة ـ قد بينت الآيات في كل من الفريقين أن خلود كل واحدٍ منهما لا انقطاع له أبداً، قال تعالى في خلود أهل الجنة: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: خلوداً في النعيم غير مقطوع ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: آية ٥٤] أي: لا انقطاع له أبداً ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: آية ٩٦] أي: لا انقطاع له أبداً من نعيم الجنة.

[أما النار التي فيها الكفار فالتحقيق أنها باقية لا تفنى؛ لأن الله صرح بذلك في آيات كثيرة، فصرح بأنها لا تفنى حيث قال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ ومعلوم أن ﴿كُلَّمَآ﴾ تتكرر][2] بتكرر الفعل الذي قيّد به، والله يقول: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٩٧] وهو صريح في أنه ليس للنار خبوة نهائية ليس بعدها زيادة سعير. فمن قال: إن لها خبوة نهائية، وفناء ليس بعدها سعير، نقول: يكذبك القرآن في نص قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٩٧] فهو نص صريح في أنه لم تكن هناك خبوة إلا بعدها زيادة سعير إلى ما لا نهاية.

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٤٢.

(٢) وقع مسح في التسجيل في هذا الموضع، وتم استدراك النقص من كلام الشيخ رحمه الله عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام (مع شيء من الاختصار).

والآيات الدالة على الدوام الأبدي كثيرة ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: آية ٦٥] ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف: آية ٧٥] إلى آياتٍ كثيرة.

أما آية النبأ، وهي قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ: آية ٢٣] فقد بينتها غاية البيان آية سورة ص، وإيضاح ذلك أن المعنى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ أي: في النَّار ﴿أَحْقَابًا﴾ في حال كونهم في تلك الأحقاب ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ: الآيتان ٢٤، ٢٥] فإذا انقضت أحقاب الحميم والغسَّاق عُذِّبوا بأنواع أُخر وأشكال لا نهاية لها.

والدليل على أن هذه الأحقاب مختصة بأحقاب الحميم والغساق، وأن لهم أشكالًا من العذاب غير هذا صرّح الله به في سورة ص، وخير ما يُبَيَّنُ به القرآنُ بالقرآن، حيث قال تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: الآيات ٥٥ ـ ٥٨] فبين أن هنالك أشكالاً وأنواعاً من العذاب، غير أحقاب الحميم والغسَّاق، فدل على عدم الانتهاء.

أما الشبهة الباردة الفلسفية التي يقولون فيها: إن العبد في دار الدنيا عمل المعاصي في مدة وجيزة، وهي مدة عمره القليلة، فكيف يكون عمل المعاصي في زمن قليل وجزاؤها دائم لا يزول؟!

فجواب هذه الشبهة الباردة الملحدة: أن الخبث والكفر الذي انطوت عليه قلوبهم وتمردوا بسببه على الله منطوية عليه قلوبهم أبداً، لا يزول منها أبداً، فكان العذاب أبدياً سرمدياً؛ لأن سبب ارتكابه كامن في القلب، أبدي سرمدي، والآيات الدالة على هذا كثيرة، كقوله تعالى عنهم أنهم لما عاينوا النار، ورأوا عذاب الله، وعظمة النار، وهول ذلك الموقف، وتمنَّوا الرجوع إلى دار الدنيا مرة أخرى ليطيعوا الرسل، ويعودوا إلى رضا الله، وتمنوا ذلك فقالوا: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: آية ٢٧] وفي القراءة الأخرى[1]: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بيّن الله أن ذلك الخبث

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠١) من سورة الأنعام.

الذي كان في قلوبهم في دار الدنيا لم يَزُل أبداً حتى بعد الموت، ومعاينة النار، ومعاينة العذاب، قال وهو أصدق من يقول: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] فهو يبين أنهم كلما ردوا إلى الدنيا رجعوا إلى الكفر، وأن أصل ذلك الكفر كامن في قلوبهم لا يزول، ومما يوضحه قوله في الأنفال ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ (خيراً) نكرة في سياق الشرط، فهي تعم. معناه: أنّ الله لا يعلم في قلوبهم خيراً أبداً في وقتٍ من الأوقات كائناً ما كان، ولا زمن من الأزمان. ثم قال على الفرض: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: آية ٢٣]. فتبين أن ذلك الشر الذي عصوا به الرسل وتمردوا به على الله دائم لا يزول، فكان جزاؤه دائماً لا يزول، فتطابق الجزاء والعمل؛ ولذا قال تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [النبأ: آية ٢٦] أي: جزاءً موافقاً لأعمالهم. وهذا معنى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: آية ٣٦] أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منها.

فعلينا جميعاً في دار الدنيا أن نعمل العمل الذي يجنبنا النار، ونستعيذ بالله منها؛ لأنه لا قدرة لأحد على حر النار. وهذه النار التي هي كلا شيء بالنسبة إلى حر تلك النار إذا مسَّك منها لهب شديد، أو وقعت يدك على نارٍ عرفت شدة حرها، وأنك لا تطيق النار العظمى أبداً، كما قال تعالى في نار الدنيا: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ [الواقعة: آية ٧٣] فمن صَلِيَ بحرها تذكر نار الآخرة، وعلم أنه لا يطيقها، فعليه أن يتحرَّز منها، ويتباعد عن أسبابها التي تُقرِّب إليها في دار الدنيا ما دامت الفرصة ممكنة. أما الذي يعلم بالنار، وبِحَرِّ النار، وهو في دار الدنيا يعمل عمل النار الذي يؤدي إليها فهذا كالفراشة التي تسقط في النار وتحرق نفسها، لا عقل له ولا تذكُّر. فعلى المسلم أن يعتبر بحرِّ النار وبشدة النار، ويضع يده قريباً من حر النار الموجودة حتى يعلم أنه لا قدرة له على حرّها، وأن حرّها أليم شديد، وأن تلك أحر منها بسبعين ضعفاً، وأنه يعمل على أن يتجنبها ولا يصلاها؛ لأنه إذا عمل الأعمال التي تورده النار فهو ذاهب العقل مضيع نفسه، موردها المهالك، إذ لا قدرة لأحد على حر النار. فاعلموا أيها

الإخوان أنه لا قدرة لأجسامكم على النار، فاتقوا النار وأطيعوا الله، وأطيعوا رسوله ﷺ، واعملوا بما يرضيه، واحذروا من المعاصي والمنكرات التي تجركم إلى النار؛ لأنكم لا قدرة لكم على النار. وإذا أردتم أن تعلموا أنه لا قدرة لكم على النار فليأت منكم أحد إلى كير شديد الوقود ثم يضع رجله أو يده فيه، هل له على ذلك طاقة ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ فاحذروا من النار، والحذر منها إنما هو ممكن في هذه الأيام التي أنتم فيها، فإذا انقضى الأجل المحدد ضاعت الفرصة. وأسفه الناس، وأقلهم حلماً، وأرذلهم عقلًا هو من لا يتسبب في أن يجانب حر النار ويقدم على النار، والذين يتجرؤون قال الله فيهم: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: آية ١٧٥] لارتكابهم أسبابها ـ والعياذ بالله ـ فعلى المسلم العاقل أن يجتهد في إنقاذ نفسه من حر النار، وأن يعلم أنه لا طاقة له على النار فينظر في أوامر ربه فيمتثلها، وفي نواهيه فيجتنبها، ولا يغتر بالأساليب والشعارات الزائفة من تقدم وحضارة!! الذين يسمون أنفسهم (تقدميين) إذا ماتوا ووجدوا قبورهم تضطرم ناراً وخُلِّدوا في نار جهنم عرفوا في ذلك الوقت هل هم تقدميون أو متأخرون؟! بل هم والله متأخرون غاية التأخُّر، فالمتأخر هو الذي يهلك [نفسه][1]، ولا يكون عنده ذهن ثاقب يعلم أوامر ربه، وعظمة من خلقه، ويطيع خالقه، ويمتثل أمره، ويجتنب نهيه، ويعمل في أن يُجنب نفسه حرّ جهنم. أعاذنا الله والمسلمين منها.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف: آية ٣٧] والعياذ بالله.

قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام إنكار معناه النفي. أي: لا أحد أظلم. وفي هذه الآية سؤال معروف[2]، وهو أن معنى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا أحد

(١) في الأصل: (نفسها) وهو سبق لسان.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٣) من سورة الأنعام.

أظلم ممن افترى على الله كذباً. وهذه تدل على أن المفتري على الله الكذب، والمكذِّب بآياته هو أعظم الناس ظلماً؛ لأن (أظلم) صيغة تفضيل، وأنه يفوق غيره ويفضله في الظلم. وقد جاءت آيات أخرى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ [الزمر: آية ٣٢] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: آية ١١٤] قال بعضهم: يظهر لطالب العلم في هذا شبه تعارض؛ لأنه قال: لا أحد أظلم من هذا، ولا أحد أظلم من هذا، ولا أحد أظلم من هذا.

وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة معروفة، أشهرها اثنان:

أحدهما: ـ وجزم به أبو حيان في كتابه البحر المحيط ـ أنه لا تعارض أصلًا بين الآيات، وإنما دلت الآيات على أن كل من ذُكر في قوله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا يمكن أن يفوقه أحد من أهل الدنيا في الظلم، إلا أنهم جميعاً متساوون لا يفوق بعضهم بعضاً، وهم يفوقون غيرهم في الظلم، كما لو قلت: ليس في هذا البلد أعلم من زيد، وليس فيه أعلم من عمرو. وزيد وعمرو مستويان في العلم، فتكون صادقاً، ولا معارضة بين قوليك. و هذا وجه ظاهر لا إشكال فيه، وهو كما قال أبو حيان.

الوجه الثاني: أنها تتخصص بِصِلَاتِها. وعليه فيكون المعنى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [الأعراف: آية ٣٧] لا أحد من جنس المفترين أظلم ممن افترى على الله كذباً، ولا أحد من جنس المانعين أظلم ممن منع مساجد الله، ولا أحد من جنس المكذبين أظلم ممن كذب على الله وكذَّب بالصدق، وهكذا. والظلم قد قدمنا معناه ـ مراراً ـ بشواهده العربية[١].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الافتراء: الاختلاق، والقول بغير الواقع. والكذب: الأصح في أقواله أنه الإخبار بخلاف الواقع[٢].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٣) من سورة الأنعام.

وأقوال البيانيين فيه معروفة، والمراد هنا: الإخبار بغير الواقع، كقولهم إن مع الله شريكاً، وإن له ولداً، وإنه أمرهم بالفاحشة كطوافهم عراة، إلى غير ذلك من افتراءاتهم على الله.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِئَايَٰتِهِۦٓ﴾ التي جاءت بها رسله، فقال: إن هذا القرآن ليس بحق، إنه شعر، أو سحر، أو كهانة، أو أساطير الأولين. لا أحد أظلم ممن افترى هذا الكذب على الله بادعاء الشركاء والأولاد، وأنه حرم كذا وهو لم يحرمه، ولا أحد أظلم ممن كذّب بآيات الله فجحد بها وقال: إنها من السِّحر، أو من الشعر، أو من كلام الكهنة، أو من أساطير الأوّلين، أو أنها علمها له بشر. لا أحد أظلم من هذا وهذا.

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المراد بهذا النصيب الذي ينالهم من الكتاب فيه أقوال متقاربة لعلماء التفسير لا يكذِّب بعضها بعضاً[1]، أرجحها: ما دلت عليه القرينة القرآنية، قال بعض العلماء: ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يرجعون إلى ما هم صائرون إليه مما كُتب لهم أزلًا، فمن كُتب له أن يموت على ذلك الشقاء مات عليه، ومن كُتب له أن يتوب تاب.

والتحقيق في معنى هذه الآية: أنَّ معنى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أنهم ينالهم ما كتب الله لهم في الدنيا مما ينالونه من الخير ومن الشر، من الصحة، والعافية، والرفاهية، والأمراض، والأحزان، والأموال، والرزق، والآجال، حتى يستكملوا في دار الدنيا ما سبق في علم الله أنَّهم ينالونه من الأرزاق، والنعمة، والعافية، والأولاد، والآجال، وما يصيبهم من الخيرات، والخِصْب، والأموال، وكذلك ما يلاقونه أيضاً من البأساء، والأمراض، والفقر، وتحديد الآجال، حتى إذا انتهى نصيبهم في هذه الدنيا مما كُتب لهم من خير أو شر، ورزق ومال وأجل لا يزالون كذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ [الأعراف: آية ٣٧] وعليه فـ (حتى) هذه غائية.

(١) انظر: ابن جرير (١٢/٤٠٨)، القرطبي (٧/٢٠٣)، ابن كثير (٢/٢١٢).

وقال بعضهم: هي حتى الابتدائية التي تكون قبل ابتداء الجمل[١]. حتى إذا جاءت الواحد منهم بعد أن نال نصيبه المكتوب له في الدنيا من جميع الأنواع المكتوبة له من الأرزاق، والآجال، والأولاد، والعافية، والرزق، والأمراض، والهموم، ونحو ذلك.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا﴾ المراد بالرسل هنا: جمع رسول. وهذه الرسل هي: ملك الموت وأعوانه، يقبضون أرواحهم.

واعلموا أن الله أسند قبض الروح في آية إلى نفسه ـ جلّ وعلا ـ حيث قال عن نفسه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: آية ٤٢] وأسنده في آية لِمَلَك واحد، وهي قوله في السجدة: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ [السجدة: آية ١١] وأسنده في آيات كثيرة لملائكة كثيرة مرسلين لذلك، كقوله هنا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ [الأعراف: آية ٣٧] وكقوله: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: آية ٦١] وكقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [النساء: آية ٩٧] ولا إشكال في الآيات[٢]؛ لأن إسناد التوفي إلى الله؛ لأن كل شيء بمشيئته وقضائه وقدره، فلا تقع وفاة أحد إلا بمشيئته ـ جلّ وعلا ـ كما صرّح به في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗا﴾ [آل عمران: آية ١٤٥] وإسناده لملك الموت لأنه هو الرئيس الموظَّف بقبض الأرواح. وإسناده لملائكة كثيرين لأن لملك الموت أعواناً كثيرين يقبضون معه أرواح الناس بأمره. قال بعض أهل العلم: يقبض أعوانه الروح حتى تبلغ الحلقوم فيأخذها ملك الموت[٣]. والآيات دلت على أن له أعواناً كثيرة من الملائكة يقبضون معه الأرواح، كقوله هنا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ وكقوله: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ [الأنفال: آية ٥٠] عياذاً بالله جلَّ وعلا.

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٢٩٤)، الدر المصون (٥/٣٠٩).

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ﴾ [الأعراف: آية ٣٧] أي: ذلك الإنسان الذي استكمل في دار الدنيا نصيبه من الكتاب، بأن أكل جميع ما كُتب له من الرزق، ونال ما كُتب له من الشهوات واللذات والأجل، ونال ما قَدَّر الله عليه من الشرور في الدنيا، حتى إذا انقضى أجله، وجاء الوقت المحدد لموته جاءته ﴿رُسُلُنَا﴾ أي: ملك الموت وأعوانه ليقبضوا روحه وينزعوها من بدنه. وسنذكر كيفية ذلك في قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: آية ٤٠] في الآيات القريبة.

﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ في هذه الآية وجهان من التفسير[١]: التحقيق أنها الوفاة بقبض الأرواح في دار الدنيا، وأنهم إذا جاءهم [الملائكة][٢] يقبضون أرواحهم في دار الدنيا يوبخونهم ويقرعونهم عند أخذ الروح، ويقولون لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟ أين من كنتم تعبدون مع الله؟ نادوهم فلينقذوكم منا ويخلصوكم من هذا الموت وما بعده من العذاب. وعلى هذا القول فقوله: ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ يعني: بقبض الأرواح. وفيه قولٌ آخر، وهو ضعيف، إلا أنه ذكره جماعة من علماء التفسير[٣]، أنّ هذا يوم القيامة إذا حشر الخلق جاءت رسل الله، وهم الملائكة الموكلون بالنار يتوفونهم، أي: يأخذون أهل النَّار وافين؛ لأن جميع أهل النار مكتوبون في ديوان، مُعَيَّنة به أسماؤهم، وأسماء آبائهم، وأنسابهم، وقبائلهم، والملائكة الموكلون عندهم السجلات يأخذونهم واحداً واحداً حتى يستوفوا العدد المكتوب. هذا قول في الآية. والأوّل هو الصحيح. وعلى هذا القول فقوله: ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ يأخذون عددهم وافياً. والقول الأوّل: ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ بقبض الأرواح.

﴿قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ يقوله لهم الملائكة عند

(١) انظر: ابن كثير (٢/٢١٢).
(٢) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.
(٣) انظر: ابن جرير (١٢/٤١٥).

قبض الروح توبيخاً وتقريعاً، ويضربونهم أيضاً مع ذلك، كما قال جلّ وعلا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: آية ٥٠] والعياذ بالله.

﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (أين) هنا هي الاستفهامية. و (ما) موصولة. أين الذين كنتم ﴿تَدْعُونَ﴾؟ أي: تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: مع الله (جلّ وعلا) - وتجعلونهم شركاء معه؟ أين هم؟ نادوهم فليحضروا فليخلصوكم وينقذوكم!! وهذا من التوبيخ والتقريع والتعذيب.

وهذه الآية أُطلقت فيها الوفاة على معناها العرفي. واعلموا أن معنى (توفاه) تطلق في اللغة العربية إطلاقين[١]، إطلاقاً لغوياً، وإطلاقاً عرفياً.

أما إطلاقها اللغوي: فهو أخذ الشيء كاملًا بجميعه وافياً. تقول العرب: توفيت دَيْني. إذا أخذته وافياً كاملًا لا ينقص منه شيء. فكل شيء أخذته وافياً بتمامه فقد توفيته. وهذا معناها في اللغة العربية.

ومعناها في العرف: تقول العرب: توفاه الله. إذا قبض روحه وحدها دون جسمه. هذا معناها العرفي، وذلك معناها اللغوي.

والقاعدة المقررة عند جمهور الأصوليين: أن الحقيقة العرفية تُقدم على الحقيقة اللغوية ما لم يقم دليل يرجح الحقيقة اللغوية[٢].

وذكر بعض علماء الأصول عن أبي حنيفة - رحمه الله - أنه لا يقدم العرفية على الحقيقية اللغوية؛ لأن العرفية وإن ترجحت في الاستعمال فالحقيقية قد ترجحت بأصل الوضع[٣].

وهذا تترتب عليه مسألة غلط فيها كثير من الناس، وأضل الملحدون فيها كثيراً من الناس، وهي قضية عيسىٰ ابن مريم (عليه وعلى نبينا الصلاة

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٦) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) انظر: شرح الكوكب المنير (٤٣٥/٣)، نثر الورود (١٥٦/١).

والسلام)؛ لأن الله عبر عنه بالوفاة في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: آية ٥٥] أما قوله (جلّ وعلا) عنه/: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ [المائدة: آية ١١٧] من كلام عيسى يوم القيامة، ولا يأتي يوم القيامة إلا وعيسى قد مات قطعاً، لا نزاع في موته قبل يوم القيامة؛ لأن ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ من كلام عيسى يوم القيامة إذا قال له ربه: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: آية ١١٦] هذا كلامه يوم القيامة ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ إلى أن قال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي: قبضتني إليك ورفعتني إلى السماء ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ وقول عيسى هذا يوم القيامة لا حجة فيه على أنه قد مات. أما آية قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: آية ٥٥] فهي قول في دار الدنيا لا في الآخرة. واحتج به بعض الملاحدة الذين يزعمون أن عيسى قد مات!! وهذه فكرة إلحادية.

٦/ب

والتحقيق الذي دلت عليه السنة المتواترة عن رسول الله ﷺ، والقرآن العظيم ـ الوحي المنزّل ـ أن عيسى لم يمت إلى الآن، وأنه حي في السماء، وأنه سينزل في هذه الأمة في آخر الزمان ليقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويقتل المسيح الدجّال، وهو نازل لا محالة، دلّ على ذلك السنة المتواترة عن رسول الله، والقرآن العظيم(١).

أما القرآن العظيم فقد دل عليه دلالة صريحة ـ وإن قيل فيها قول يخالفها؛ لأن القول المخالف باطل وإن نسبوه لابن عباس؛ لأنه باطل؛ لأن ظاهر القرآن خلافه، والعقل لا يقبله أيضاً ـ ذلك أن الله قال عن عيسى بن مريم: ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: الآيتان ١٥٧، ١٥٨] ثم قال(٢): ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: آية ١٥٧] بيّن أن السبب الذي ادعى اليهود به أنهم قتلوه: أن الله ألقى شبهه على رجلٍ آخر، فظنوه إياه، فقتلوه، وظنوا أنهم قتلوه،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٦) من سورة الأنعام.

(٢) هذا الجزء من الآية متقدم على المذكور قبله من الآية (١٥٧).

والله يقول: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ثم قال: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ [النساء: آية ١٥٩] أي: بعيسى بن مريم في آخر هذا الزمان ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي: قبل موت عيسى بن مريم. وهذا هو التحقيق في معنى الآية والذي دلّ عليه ظاهر القرآن، و بينته السنة المتواترة عن رسول الله ﷺ.

أما قول بعضهم الذي يزعمونه عن ابن عباس أن معنى: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي: قبل موت ذلك الكتابي[1]. فهو أمر غير معقول؛ لأن من أهل الكتاب من يموت في نومه، ومن يموت فجأة، ومن تأخذه سكتة قلبية، ومن يُقطع رأسه فجأة. فهذا لا يمكن أن يؤمن به قبل موته، أي: قبل موت الكتابي كما لا يخفى على أحد.

أما الأحاديث بأن عيسى حي، وأنه ينزل، فهي متواترة عن رسول الله ﷺ لا يطعن فيها إلا ملحد[2].

أما قوله: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ فيجاب عنه بأجوبة:

أحدها: أن المراد بها هنا: التوفي اللغوي، كما ذكرنا. أي: قابضك إليّ وافياً بجسمك وبدنك، وغاية ما في الباب أنه قُدِّمت هنا الحقيقة اللغوية على الحقيقة العرفية التي هي إطلاق الوفاة على قبض الروح خاصة؛ لأن الحقيقة اللغوية هنا اعتضدت بظاهر القرآن وبالسنة المتواترة، والحقيقة اللغوية إذا قامت عليها مرجحات رجحت على الحقيقة العرفية كما هو معروف في الأصول.

الثاني: أن نقول: إن الله قال: إنه متوفيه، ولا شك أنه متوفيه، ولكن لم يقل: إن تلك الوفاة أنها وقعت، ولا عيّن وقتها. غاية ما في الباب أنه قال: إنه متوفيه، وهو صادق، وهو متوفيه، ولكن أين أنه توفاه بالفعل؟ فإن قالوا: عطف عليه قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: آية ٥٥] فذكر الوفاة قبل الرفع. قلنا: العطف بالواو لا يقتضي الترتيب، وإنما يقتضي مطلق

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٦) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

التشريك[١]، وقد يكون المعطوف بالواو هو الأول، كما في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: آية ٧] وهو ﷺ بعد نوح بأزمان. وأجمع أهل اللسان العربي أنه يجوز أن تقول: جاء زيد وعمرو. ويكون المعطوف بالواو هو الأوّل؛ لأنّ الواو لا تقتضي إلا مطلق التشريك.

فإن قال قائل: دل الحديث على أن الواو قد تقتضي الترتيب، كقوله ﷺ لما رقي على الصفا: «**أبدأ بما بدأ الله به**»[٢] والترتيب بين الصفا والمروة بالواو في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: آية ١٥٨] وفي رواية: «**ابدؤوا بما بدأ الله به**». وهنا واو، والنبي ﷺ جعل هذه الواو كأنها تقتضي الترتيب وتقتضي بدء ما بدأ الله به.

فالجواب ما أجاب به جماعة من قدماء علماء العربية من أنّ الواو كما أنها لا تقتضي الترتيب فإنها لا تمنع من أن يراد بها الترتيب إذا دلّ على ذلك دليل جازم خارج عن أصل الوضع، أما إذا تجردت من الأدلة فإنها لا تقتضي ترتيباً وإنما عرُف الترتيب بها هنا من حديث النبي ﷺ، فالذي دل على الترتيب دليل خارج، لا نفس أصل الواو. ومنه بهذا المعنى قول حَسَّان (على رواية الواو)[٣]:

هَجَوتَ محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاكَ الجَزَاءُ

لأن الواو هنا بـ «وأجبت عنه» الجواب بعد الهجاء. وهذا إذا دلت عليه قرينة ودليل خارج لا مانع من أن تكون الواو للترتيب، لكنها عند الإطلاق لا تكون للترتيب.

الثالث: قال بعض العلماء: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: آية ٥٥] أي: منيمك؛ لأن الله ـ قالوا ـ لما أراد رفعه ألقى عليه النوم. أي: منيمك

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٦) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ في تلك النومة لئلا تنزعج من الرفع إلى السماء. والله قد يطلق الوفاة على النوم، وأطلق الوفاة على النوم في موضعين من كتابه:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: آية ٦٠] أي ينيمكم في الليل ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾.

الثاني: قوله ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ [الزمر: آية ٤٢] فالحاصل أن هذه الآيات ليس فيها ما يدل على موت عيسى ابن مريم، وأن القرآن دلّ على أنه حي؛ لأن الله قال: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ﴾ [النساء: آية ١٥٩] والضمير عائد إلى عيسى على التحقيق لا إلى الكتابي كما بينا. وأحاديث النبي ﷺ الفائضة ـ وهو الصادق المصدوق ـ مصرحة بذلك، وهو الحق الذي لا شك فيه، فادعاء أنه مات هو من الفِكَر الإلحادية، كادعاء القاديانية أنه رُفع إلى السماء ثم نزل ومرض ومات مريضاً بكشمير!! وغير ذلك من الخرافات التي لا أساس لها[1].

ومن المؤسف أن بعض المنتسبين للعلم يتشبعون بالفِكَر الإفرنجية ويُقْدمون على هذا الإلحاد، ويقولون: إنّ عيسى قد مات. مع أن الأحاديث النبوية الصريحة الصحيحة مستفيضة بأنه حي، وأنه سينزل في هذه الدنيا، وأن الله نص على ذلك في قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ﴾ أي: قبل موت عيسى، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة، ودلّ عليه ظاهر القرآن، لا (موته) أي: الكتابي؛ لأنه من المُشاهَد أن من أهل الكتاب من يموت قبل أن يؤمن بعيسى، كالذي ينام فيموت نائماً، وكالذي تأتيه سكتة قلبية فيموت من حينه، وكالذي يُقْطع رأسه فجأة ولا تكون له فرصة ليؤمن بعيسى. وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [الأعراف: آية ٣٧] أي: تعبدون من دونه من المعبودات والأصنام والأوثان.

---

(١) انظر: القاديانية لإحسان إلهي ظهير ص١٩٩.

﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ [الأعراف: آية ٣٧] أي: غابوا واضمحلوا. وقد بيّنا أن الغيبوبة والاضمحلال من أنواع إطلاقات الضلال في القرآن[1].

﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ﴾ والعياذ بالله، لأن الكفار إذا عاينوا الحقيقة شهدوا على أنفسهم، وأقروا حيث لا ينفع الإقرار ولا ينفع الندم. كما قال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [تبارك: آية ١١] والعياذ بالله جلَّ وعلا. كما أنهم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، وتشهد عليهم جلودهم ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: آية ٢١].

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٣٨ - ٤٣].

يقول الله جلَّ وعلا: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: آية ٣٨].

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

لما اعترف الكفار بكفرهم، وندموا حيث لا ينفع الندم، وقال الله عنهم: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: آية ٣٧] لما شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا في دار الدنيا كافرين حتى ماتوا على ذلك بيَّن جزاءهم فقال إن الله يقول لهم يوم القيامة ما قصَّ هنا، قال الله لهم، أو قالها لهم خازن النار بأمر من الله (جل وعلا). والظاهر أن القائل هو الله؛ لأنه إذا لم يقيد بما يدل على أنه المَلك انصرف إلى أن الله هو الذي أمر بإدخالهم النار؛ لأنهم لا يدخلونها إلا بأمره ـ جلّ وعلا ـ قال الله لأولئك الكفار: ﴿ادْخُلُوا﴾ في النار ﴿فِي أُمَمٍ﴾ في جملة أمم. والأمم: هي أجيال الناس المتقدمة من الكفرة. ادخلوا في زمرة أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ مضت من قبلكم وماتوا وهم كافرون فدخلوا النار. ادخلوا في زمرتهم في النار ـ والعياذ بالله ـ وقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ أي: قد مضت من قبلكم، ومضى زمانها قبل زمانكم. والمعنى: أنه كانت قبلكم في الوجود أمم كافرة فأدخلتها النار، فادخلوا في جملتهم في النار ـ والعياذ بالله ـ.

وقوله: ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ قال بعض العلماء[١]: ﴿فِي النَّارِ﴾ بدل من قوله: ﴿فِي أُمَمٍ﴾ والظاهر أن الصواب أنها ليست بدلًا منها، وأن المعنى: ادخلوا في جملة أجناسكم من الكفرة، ادخلوا أنتم وهم في النار.

وقوله: ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: آية ٣٨] هذه الأمم التي أدخلت النار بعضها من الجن، وبعضها من الإنس. وهذه الآية نص صريح في أن كفرة الجن في النار مع كفرة الإنس كما قدمناه مراراً[٢].

وكون كافر الجن في النار لا خلاف فيه بين العلماء، وإنما اختلف العلماء في المؤمنين من الجن هل هم في الجنة أوَ ليسوا فيها؟ فذهب جماعة أن جزاء المؤمنين من الجن أنهم لا يدخلون النار ولا يدخلون

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٢٩٥)، الدر المصون (٥/٣١٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

الجنة، بل كان جزاؤهم الإجارة من النار فقط دون التنعم بالجنة. واغتر من قال بهذا القول بظاهر آية الأحقاف؛ لأن الجن لما قال نذيرهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: آية ٣١] رتبوا على ذلك قولهم: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولم يقولوا: ويدخلكم الجنة. فاغتروا بهذا الظاهر. والخلاف في المؤمنين من الجن هل يدخلون الجنة أو يجارون من النار ولا يدخلون الجنة؟ وبعضهم يقول: يكونون رابضين عند أبواب الجنة. خلافٌ معلوم مشهور، والظاهر أن الصواب أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة كما دخل الكافرون منهم النار. وقد دلّ على هذا بعض الآيات: من أصرح الآيات دليلًا عليه قوله تعالى في سورة الرحمن مخاطباً للإنس والجن: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: آية ٤٦] ثم بين أن هذا الوعد بالجنتين لمن خاف مقام ربه للإنس والجن حيث أتبعه بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمن: آية ٤٧] والتثنية في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ للإنس والجن بلا نزاع بين العلماء. فدل ظاهر هذه الآية أن مؤمن الجن في الجنة، ويستأنس له بظاهر قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: آية ٧٤] فيفهم منه أن في الجنة جنًا يطمثون النساء، ولكنهم لم يسبقوا هؤلاء أزواجهم في الجنة. وهذا الأخير أظهر.

وقوله جلّ وعلا: ﴿ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ والعياذ بالله ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ من هذه الأمم ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ إنما كانت أختها لأنها أختها في الديانة والملة والكفر بالله، وتكذيب الرسل، وكل شيئين متشابهين، أو متصاحبين تنسب العرب لهما الأخوة ومنه: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: آية ٤٨] فالمتشابهان تسميهما العرب (إخوان) وكذلك المتصاحبان تسميهما (إخوان) وإنما كانت الأمة أخت الأمة لمشابهتها لها في الكفر والطغيان وتكذيب الرسل حتى مات الجميع على ذلك ـ والعياذ بالله ـ كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: آية ٢٧] وهو معنى معروف في كلام العرب، وكل أمة كافرة أخت للكافرة، كما أنَّ الأمة المؤمنة

أخت للأمة المؤمنة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: آية ١٠] وإنما لعنتها لأن بعض هذه الأمم يسن الضلال والكفر حتى يقتدي به الذين جاؤوا من بعدهم ـ والعياذ بالله ـ فيلعنوهم لأنهم تسبب لهم بالاقتداء بهم دخول النار، كما قال الله (جل وعلا) عن نبيه إبراهيم إنه قال لهم: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: آية ٢٥] وقال ـ تعالى ـ عنهم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ [البقرة: الآيتان ١٦٦، ١٦٧] فهم يوم القيامة أعداء يلعن بعضهم بعضاً، ويعادي بعضهم بعضاً. وهذا معنى قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ [الأعراف: آية ٣٨] في النار ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ أي: صاحبتها المماثلة لها في الضلال والكفر، وتكذيب الرسل؛ لأن بعض الأمم تبقى سننهم في الضلال والكفر فيقتدي بها من جاء بعدهم من الأمم ـ والعياذ بالله ـ فيلعنونهم لذلك.

ثم قال جلّ وعلا: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾ ﴿ٱدَّارَكُوا۟﴾ أصله: تداركوا. والمعروف في علم العربية أن (تفاعل) و (تفعَّل) يكثر فيهما الإدغام واستجلاب همزة الوصل عند الإدغام[1]. فقوله: ﴿ٱدَّارَكُوا۟﴾ أصله (تداركوا) ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ [التوبة: آية ٣٨] أصله (تثاقلتم) ﴿فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: آية ٧٢] أصله (فتدارءتم). وكذلك في (تفعَّل) كقوله: ﴿وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ [يونس: آية ٢٤] أصله (تزينت) ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: آية ٤٧] أصله: (تطيرنا) وهذا الإدغام معروف في كلام العرب، ومثله في (تفاعل) كما هنا قول الشاعر[2]:

تُولي الضَّجِيعَ إذا ما الْتَذَّهَا خَصِرًا عذبَ المَذَاقِ إذا ما اتَّابَعَ القُبَلُ

---

(١) انظر: البحر المحيط (٢٩٦/٤)، الدر المصون (٤٣٤/١)، (٣١٣/٥)، وراجع ما مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

(٢) مضى هذا الشاهد عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

يعني: إذا ما تتابع القُبَلُ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: تلاحقوا وأدرك الآخِرُ الأول واجتمعوا في النار جميعاً ـ والعياذ بالله، أعاذنا الله منها ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل ـ شكا عند ذلك الوقت الأتباع الضعفاءُ رؤساءهم المتبوعين وقالوا لهم ـ أي لأجلهم؛ لأنهم يخاطبون الله ولا يخاطبون الرؤساء المتبوعين، قالوا يشكونهم لله (جلّ وعلا)، ويطلبونه أن يزيد عليهم العذاب لإضلالهم إياهم -: ﴿رَبَّنَا﴾ معناه: يا ربنا، يا خالقنا وسيدنا ومدبر أمورنا، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الرؤساء من قادة الكفرة ﴿أَضَلُّونَا﴾، هم الذين أضلونا عن طريق الصَّواب، ومنعونا من اتباع الرسل ومن طاعتك وامتثال أمرك، فقد أطعناهم وزينوا لنا وقالوا لنا: أطيعونا نهدكم، واتبعونا نذهب بكم إلى الخير، ومكروا بنا حتى أضلونا عن طريقك فاتبعناهم فأهلكونا ﴿أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: آية ٣٨] ﴿فَـَٔاتِهِمْ﴾: أعطهم عذاباً مضاعفاً، بأن تعذب الواحد منهم كعذاب اثنين، ويكون هذا العذاب المضاعف من النار، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: آية ٦٨] وفي القراءة الأخرى: **﴿والعنهم لعناً كثيراً﴾**[1] فسألوا الله أن يزيد عليهم العذاب، وأن يلعنهم، وشكوه بأنهم أضلوهم. ومحاججتهم مذكورة في آياتٍ كثيرة[2]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: آية ٦٤] وبسطها الله في سورة سبأ في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ:

---

(١) انظر: النشر (٢/٣٤٩)، إتحاف فضلاء البشر (٢/٣٧٨).

(٢) انظر: أضواء البيان (٢/٢٩٩).

الآيات ٣١ ـ ٣٣] الآيات. فيوم القيامة يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً، ويعادي بعضهم بعضاً، ويسأل الأتباع أن يزيد الله الرؤساء المتبوعين عذاباً فوق عذابهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: آية ٨٨] فعند ذلك الوقت يتمنون الرجعة إلى دار الدنيا ليتبرؤوا منهم، وأن لا يدخلوهم النار ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: آية ١٦٦] فلما تبرأ المتبوعون من الأتباع تمنى عند ذلك الأتباع الرجعة إلى الدنيا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ (لو) هنا تمنياً. يا ليت لنا كرة. أي: رجعة ثانية إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ لما شكا الأتباعُ المتبوعين وقالوا لربهم: هؤلاء أضلونا فضاعف لهم العذاب عذاباً على الضلال وعذاباً على الإضلال. قال الله مجيباً لهم: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: آية ٣٩] لكل منكم ومنهم ضِعْف، أما ضعف المتبوعين الرؤساء فلا إشكال في مضاعفة العذاب عليهم؛ لأن ضِعْفاً على ضلالهم، وضِعْفاً على إضلالهم؛ لأنهم هم الذين سنوا لهم الضلال «**ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً**»[1] وقد بيَّن الله أن رؤساء الضلالة المتبوعين عليهم وزر ضلالهم ووزر إضلالهم في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: آية ١٣] وكقوله جل وعلا: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: آية ٢٥].

ومضاعفة العذاب على الرؤساء قادة الضلالة لا إشكال فيه ﴿ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم من حديث جرير (رضي الله عنه) في العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة....، حديث رقم: (١٠١٧)، (٢٠٥٩/٤)، وقد أخرجه في موضع قبله (٧٠٤/٢، ٧٠٥).

كما أخرج نحوه من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) برقم: (٢٦٧٤).

كَفَرُوا۟﴾ يعني في أنفسهم ﴿وَصَدُّوا۟﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ عذاباً بكفرهم، وعذاباً بصدهم الناس عن سبيل الله ﴿بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: آية ٨٨].

أما مضاعفة العذاب للضعفاء الأتباع ففيها إشكال، وكثيرٌ من المفسرين لا يتعرضون لهذا الإشكال؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: آية ١٦٠] وهم لم يُضِلُّوا. وهذا إشكال معروف في هذه الآية. وهو مضاعفة العذاب للأتباع[١].

فقال بعضهم: إنهم وإن كانوا أتباعاً فلا بد لهؤلاء الأتباع من ضعفاء أُخر، فالواحد يكون تبعاً لرئيسه في الضلالة، ولكنه يُضِلُّ امرأته وأولاده وبعض أقاربه، فمعهم هم أيضاً رئاسة في الضلال قليلة كل بحسبه، ويضاعف العذاب لكل بحسبه.

وقال بعض العلماء: مضاعفة العذاب للرؤساء بإضلالهم وضلالهم، ومضاعفتهُ للأتباع بتقليدهم الأعمى، وتعصبهم للكفر، وعدم نظرهم في المعجزات البينات، والأدلة الواضحات التي جاءت بها الرسل، مع الكفر، فقد جمعوا بين التقليد الأعمى والإعراض عن سماع الحق، مع الكفر الذي ارتكبوه. هكذا قاله بعض العلماء.

وقوله: ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: آية ٣٨] قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا شعبة عن عاصم: ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ بتاء الخطاب[٢]. والمعنى: أن لكل من أهل النار ضِعْفاً بحسب عمله ولكنكم لا تعلمون قدر ما ينالونه من العذاب المهين وشدته وهوله وألمه. وفي قراءة شعبة عن عاصم: ﴿**ولكن لا يعلمون**﴾ ولكن لا يعلم الجميع أن لكل منهم ضِعْفاً من العذاب، كانوا لا يعلمون ذلك، ويوم القيامة سيعلمونه: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ

---

(١) انظر: تفسير الألوسي (٤/١١٧)، القاسمي (٧/٧٦)، المنار (٨/٤١٤)، التحرير والتنوير (٨/١٢٣).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٨.

﴿مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: آية ٤٧].

وهذه الآيات الكريمة تدل على أن المتبوعين في الضلالة، والأتباع في الضلالة، كلهم ـ والعياذ بالله ـ يضاعف لهم العذاب في النار، وهؤلاء الأتباع الذين يدعون على الرؤساء بقولهم: ﴿ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: آية ٦٨] وقوله هنا عنهم: ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ لو ضاعف الله العذاب على الرؤساء ما كان ذلك ينفع الأتباع بشيء ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: آية ٣٩] عذاب هؤلاء لا ينفع هؤلاء[١]. وإذا كنتم أيها الناس تعلمون أن القرآن العظيم مصرِّح في آيات كثيرة بالخصومة بين أهل النار، بين الرؤساء والمرؤوسين ـ الأتباع والمتبوعين ـ وأنَّ مصير الجميع إلى النار، فاحذروا ـ رحمكم الله ـ أن تكونوا من رؤساء الضلالة والقادة إلى النار، واحذروا أن تكونوا من الأتباع الذين يتبعون الناعقين الداعين إلى الضلالة والنار، لئلا تكونوا من الفريقين. والمؤسف ـ والعياذ بالله ـ أن كفرة الإفرنج في هذا الزمن قادة وسادة في الضلال، يدعون الناس إلى الكفر والإلحاد في آيات الله، والطعن في الدين بأنه تقاليد قديمة لا فائدة فيها ولا تساير ركب الحضارة، ولا يمكن أن تنظم علاقات العالم بحسب تطورات الدنيا الراهنة. وكثير من الخفافيش الذين ليس عندهم نور العقل يتبعونهم ـ والعياذ بالله ـ ويقلدونهم في كل شيء، فيوم القيامة إذا ماتوا تبرأ أولئك الرؤساء الكفرة المتبوعون من أولئك الأتباع الضعفاء المساكين العمي الذين يقلدونهم في كل ما يجرهم إلى النار، فعلى المسلمين أن يعلموا أن ما يسميه الإفرنج اليوم بالحضارة الغربية والتقدُّم هو حقيقته الدعاء إلى الكفر بالله، والإلحاد في آياته، والطعن في كتابه وفي رسوله ﷺ فهم قادة النار، وسادة أهل جهنم الذين يتبعهم كثيرٌ من الرعاع الذين لا عقول لهم، ولم تتنور بصائرهم بنور الوحي، فهم أتباع لأولئك في طريق جهنَّم، وعن قريب يقف الجميع أمام الله وهؤلاء متبوعون سادة في الكفر، وهؤلاء أتباع

(١) انظر: الأضواء (٢/٣٠٠).

مساكين مغرورون خدعهم أولئك حتى جروهم إلى الكفر بالله، والطعن في رسله وكتبه، والإلحاد في آياته، وزينوا لهم أن الدين مسخرة لا فائدة فيه. وبعضهم يقول لهم: إنه أفيون الشعوب. فيلحذر المسلم أن يكون من أتباع الكفرة إلى نار جهنّم.

واعلموا أن هذا الذي يطلقون عليه اسم الحضارة والتقدُّم أنه شعار يحمل في داخله حقيقة الكفر والإلحاد بالله، والتمردُ على نظام السماء، والطعن في الدين، وفي الرسول ﷺ، والازدراء بالإيمان، والاستخفاف بأوامر الله ونواهيه، فهذا الشباب المنتشر في أقطار الدنيا الذي يقلد أولئك في كل ما يقولون ويفعلون ويعتقدون، مع أنهم يتسمون باسم المسلمين، هم أتباع، وأولئك متبوعون، ويوم القيامة قد علمتم مصير المتبوعين الداعين إلى النار، ومصير الأتباع الذين يتبعونهم، فعلى المسلم في دار الدنيا قبل أن تضيع عليه الفرصة أن لا يغتر باسم الحضارة واسم التمدن واسم التقدم، وأن ينظر في الوحي السماوي، وما هي أوامر رب العالمين الذي خلق السماوات والأرض، وما هي نواهيه، فيخضع لأوامر ربه، ويمتثل أمر الله، ويجتنب نهيه، ويقتدي بالرسول الكريم ﷺ لئلا يكون تبعاً لكفرة فجرة يتبرؤون منه يوم القيامة ويندم، ويصير الجميع إلى النار.

ودين الإسلام الذي نتكلم باسمه ـ الذي هو تشريع رب العالمين جلّ وعلا ـ لا يمكن أن يكون صخرة تعثر في طريق التقدُّم، بل هو دين كل تقدم في كل ميادين الحياة، فدين الإسلام يدعو إلى التقدم والقوة في جميع ميادين الحياة، فما يخيله الكفرة الإفرنج من أنه دين ركود وجمود ودعة وإخلاد إلى الأرض، وأن المتمسك به لا يمكن أن ينهض، ولا يساير ركب الحضارة، كلها فلسفات شيطانية لا أساس لها، تُروَّج على ضعاف العقول.

أما دين الإسلام فهو في حقيقة ذاته دين التقدُّم في جميع الميادين الحيوية، فيدعو إلى كل تقدم في جميع الميادين الحيوية. إلا أنه يُعْلِمُ الناس أن هذه الدنيا ليست فوضى، وأن عليها رباً حكماً عدلًا هو خالق كل شيء،

ومدبِّر كل شيء، ومنه كل شيء، وإليه مصير كل شيء، هو الذي خلق هذه الأرض والبحار، ونصب هذه الجبال ورفع السماوات، وخلق هذا الخلق، وشق أعينهم، وصبغ بعضها بصبغ أسود، وبعضها بصبغ أبيض، وفعل بهم ما هو معروف، هذا الرب هو الذي له السلطان الأكبر، والكلمة العليا، فلا يُصدَر إلا عن أمره، فهو (جلّ وعلا) الحقيق بأن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وهو (جل وعلا) أنزل كتاباً مبيناً محفوظاً من كلامه (جلِ وعلا)، وسنة نبوية على نبي كريم، بيَّن فيها معالم الحياة، وأقام فيها أُسُس الدنيا التي إذا مشت عليها قامت بالعدالة التي لا نظير لها، والأمن والطمأنينة والرفاهية، وانتظمت علاقاتها على أكمل وجه، مع إرضاء خالق السماوات والأرض، والعمل لدار الكرامة والخلود في الجنة في الدار الأخرى.

وإذا نظرتم في القرآن فإنه لا يدعو إلى الإخلاد والضعف والعجز، لا وكلَّا، بل إنه يدعو إلى التقدُّم والقوة في جميع ميادين الحياة، اقرؤوا آية: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: آية ٦١] فتجدوا نص هذه الآية الكريمة يأمر بإعداد القوة، وهو مساير للتطور مهما بلغ التطور، ولو مما لا يتصوره الإنسان، فالمتكاسل الذي لا يُعد القوة لرد الكفاح المسلح، وقمع أعداء الله، هو مخالف لنظام القرآن، غير ممتثل أمر الله؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

وإذا نظرتم في القرآن تجدونه يبين معالم السياسة، ومعالم الاجتماع، ومعالم الاقتصاد على أبدع الوجوه وأكملها في جميع مرافق الحياة.

فالسياسة الخارجية مثلًا يعرف العاقلون بالاستقراء أنها تتركز على أصلين:

أحدهما: إعداد القوة الكافية لرد الكفاح المسلَّح، وقمع الطغاة أعداء الإسلام. وفي هذا الأساس يقول الله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: آية ٦١].

الثاني: اجتماع الكلمة اجتماعاً صحيحاً حقاً حول كلمة لا إله

إلا الله، لا تتخلله عداوات، ولا مباغضات، ولا مداهنة بالكلام جوفاء مع العداوات الباطنة. والله يقول في هذا: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾ [الأنفال: آية ٤٦] ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: آية ١٠٣] فمن عمل بهذين الأصلين فأعد القوة الكافية، وكانت كلمة المسلمين حول تلك القوة كلمة واحدة، وصفاً واحداً لا يتخلله خلل ولا فشل، كانت قوتهم وافية، وكلمتهم عالية، وعدوهم يهابهم، ولا يستطيع أن ينتهكهم.

وبيانه للسياسة الداخلية من المحافظة على الأموال، والأعراض، والأنفس، والعقول، والأديان حتى يكون المجتمع في طمأنينة، ورفاه، ورخاء، قد أشرنا إليه مراراً[1]. فدين الإسلام دين التقدُّم في جميع الميادين، لا دين إخلادٍ إلى الأرض وضعفٍ وركود، بل هو دين تقدُّم في الميادين. وخذوا أمثلة في القرآن في ذلك:

اقرؤوا إن شئتم آيتين من سورة النساء في صلاة الخوف، يقول الله فيهما: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ﴾ [النساء: آية ١٠٢] وفي هاتين الآيتين: هذا وقت التحام الكفاح المسلَّح، والمفروض أن الرجال تنزل رؤوسهم عن أعناقهم!! وكتاب الله وقرآنه العظيم في هذا الوقت يُعَلِّم تدبير الخطة العسكرية على أكمل الوجوه وأبدعها ليتسنى للمسلمين في ذلك الوقت الحَرِج، وذلك الامتحان العسكري أن يتصلوا بخالق السماوات والأرض، ويأتوا بأدب من آداب السماء، وتتصل أرواحهم بالله، وهو الصلاة في الجماعة في هذا الوقت الحَرِج.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

واقرؤوا من سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا...﴾(١) [ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ فقوله: ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ تعليم عسكري سماوي، يأمر به خالق السماوات والأرض بالصمود في الميدان في خطوط النار الأمامية. وفي هذا الوقت الضنك يقول الله (جل وعلا): ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] هكذا فليكن المؤمن قوياً في جميع الميادين، محافظاً على آدابه الروحية، متصلاً بربه صلة روحية؛ لأن الروح المهذبة على ضوء التعليم السماوي تقود المادة والقوة قيادة طبيعية حكيمة ليس بها ويلة على البشر.

١/٧ ثم أنتم تعلمون في التاريخ أنه]/ لمّا حاصرهم الأحزاب في غزوة الخندق ذلك الحصار العسكري التاريخي العظيم، الذي نوّه الله بشأنه، وذكر هوله وشدته في سورة الأحزاب في قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أي من الخوف ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١] هذا ليس زلزال أرض، ولا أن المدينة تزلزلت أرضها وجبالها، ولكنه زلزال خوف وشدة هول من كثرة العدو وإحاطته وقوته، لما جاءهم هذا الأمر العظيم ماذا قابلوا به هذا الأمر العظيم؟! وهم في ذلك الوقت ضعاف في العَدد والعُدد، يقاطعهم جميع أهل الأرض في السياسة والاقتصاد، ليست بينهم روابط سياسية مع أحدٍ من أهل الدنيا في ذلك الحين، ولا روابط اقتصادية، وهو الوقت الذي رؤي فيه ﷺ يشدُّ حزامه على الحجارة من الجوع كما ذكره الأخباريون وأصحاب السير. في هذا الوقت العظيم لم يكن عندهم في ذلك الوقت من الأصدقاء إلا بنو قريظة من اليهود، كان بينهم وبينهم عهد، فعندما أحاط بهم الأحزاب نقضوا العهد وصاروا مع العدوّ عليهم كما هو معروف، فصار جميع أهل الدنيا أعداءً لهم، والقوة العسكرية محاصرة لهم، وهم في قلة من العَدَد والعُدد والجوع، ضعيف عسكرهم، ضعيف اقتصادهم، إلا أن قوتهم بالله قوة عظيمة هائلة، فما هو الدواء والعلاج الذي قابلوا به هذا الحصار العسكري التاريخي الهائل العظيم؟! هو الإيمان بالله،

(١) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل، وتم استدراك النقص من كلام الشيخ (رحمه الله) عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

وصدق اللجوء إليه (جلّ وعلا)، كما قال الله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: آية ٢٢] ما زادهم قوة العدوّ، وإحاطته بهم، وكون الدنيا كُلاً أعداءهم إلا إيماناً بالله، وتسليماً لله، فنتيجة قوة هذا الإيمان وهذا التسليم عند هذه الشدائد العظيمة والكروب كان من نتائج ذلك الإيمان والتسليم ما قصه الله في محكم كتابه في قوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ وختمها بقوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: الآيات ٢٥ ـ ٢٧] يعني إن كنتم ضعافاً فهو جلّ وعلا ليس بضعيف بل هو قديرٌ على كل شيء، لا يخذل أولياءه الذين يُسَلِّمُون له، ويؤمنون به إيماناً قوياً. ومما يدّل على هذا المعنى أنه لما قيل للنبي ﷺ في غزوة الحديبية ـ معتمراً عام ست في ذي القعدة، قيل له ـ: إن عثمان بن عفان قُتل ـ لما أرسله بالهدايا إلى البيت ـ ثم بايعه أصحابه بيعة الرضوان تحت شجرة الحديبية البيعة المشهورة، وكانوا وقت بيعتهم تحت الشجرة علم الله من قلوبهم الإيمان الكامل، والإخلاص التامّ الذي ينبغي، كما شهد الله لهم به في قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: آية ١٨] فنوّه عما في قلوبهم من الإيمان والإخلاص بالاسم المُبْهم الذي هو الموصول، لمَّا علم من قلوبهم الإيمان والإخلاص لله كما ينبغي كان من نتائج ذلك الإخلاص والإيمان الذي علمه في قلوبهم ما قصه علينا في قوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ [الفتح: آية ٢١] فصرح أن إمكانياتهم العَدَدية والعُددية لم تُقْدِرْهُم عليها، ثم قال: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ أي: فأقدركم عليها وجعلها غنيمة لكم. ثم ختمها فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ إن كنتم ضِعَافاً فالله ليس بضعيف، وإن كنتم غير قادرين فالله (جلّ وعلا) قادر، والمتمسك بدين الإسلام لا يُغْلب ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: آية ٢٤٩] والقرآن لا يدعو إلى الإخلاد، ولا الخمول، ولا التأخر، وإنما يدعو إلى القوة والكفاح، والتقدم في جميع الميادين.

فالذين يأخذون من الإفرنج قشور حضارتهم من الكفر والإلحاد والانحطاط الخُلقي، والتمرّد على نظام السماء، ولا يأخذون من القوة التي عندهم شيئاً، ويضعون على الإسلام أنه دين ركود، ولا يساير التطور، ويمنع التقدم، كلها فلسفات شيطانية لا أساس لها، بل دين الإسلام يأمر بالتقدم والقوة في جميع الميادين، ويأذن بأن تأخذ دنياك التي تحتاج إليها من كل بّر وفاجر، فلا مانع عند دين الإسلام من أن تأخذ حاجتك الدنيوية المحض، التي لا تمت إلى الدين بصلة، أن تأخذها من الكافر الخنزير الخسيس.

وقد بيّنا مراراً[١] أننا نذكر ثلاثة أمثلة لهذا لنبين للناس مرانة دين الإسلام، وأنه ليس بدين خمول ولا دين تأخر، بل هو دين كفاح، ودين قوة، ودين تقدم في جميع الميادين، والنصر يأتي فيه من السماء لأن أهله يربون أرواحهم على ضوء تعليم الله (جلّ وعلا)، ويتصلون بخالقهم، فهم حزبه، وهم جيشه، وهو ناصرهم ـ (جلّ وعلا) ـ على عدوهم، ومما يدل على أن دين الإسلام لم يمنع أخذ الأمور الدنيوية حتى ولو من الكفرة الفجرة: أن نبينا ﷺ ـ وهو القدوة لنا صلوات الله وسلامه عليه ـ لما تعاونت عليه قوى الشر، واجتمع عليه جميع قريش، ودبّروا خطتهم أن يأتيه ـ مثلًا ـ رجل من كل قبيلة، فيضربوه ضربة واحدة، فيتفرق دمه في قبائل قريش، فيقبل أولياؤه الدية. ودبّروا هذه الخطة، واضطر ﷺ للخروج مهاجراً، ودخل هو وصاحبه في غار، كما قصه الله في تاريخ القرآن في سورة براءة ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: آية ٤٠] وجد في ذلك الوقت خبيراً كافراً عنده خبرة دنيوية، ولكنه هو كافر، وهذا الخبير يسمى عبدالله بن الأريقط الدؤلي، من بني دؤل من كنانة، عنده خبرة دنيوية وهو كافر، فالنبي ﷺ لمرانته وقوته وعلمه بمصالح الدنيا والآخرة لم يمتنع من الانتفاع بخبرته الكافرة بسبب كفره، بل أعطاه الركائب ـ مراكبه هو ومن معه ـ وقال: في الوقت الفلاني تعال عندنا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

واسلك بنا طريقاً غير معهودة؛ لأن الطرق المعهودة عليها العيون والرصد من كفار قريش، وقد جعلوا الجعائل لمن يأتيهم به ﷺ. فجاءه ابن الأريقط، وصار مع كفره أميناً في المعاملة، وجاءهم بمراكبهم في الوقت المعيّن، وذهب بهم في طريق غير مسلوك إلى جهة الساحل، حتى أوصلهم المدينة بسلام[١]، وحاشا بهم الطرق المعروفة التي عليها العيون والرصد. فهذا انتفاع من النبي ﷺ بخبرة خبيرٍ كافر، ولم يمنعه كفره من أن ينتفع في دنياه بتلك الخبرة على حدّ قولهم: «اجتنِ الثمار وألْقِ الخشبة في النار»[٢].

وكذلك لما حاصرهم المشركون ذلك الحصار العسكري المنوَّه عنه آنفاً في الأحزاب ـ كما ذكر أصحاب السير، وأصحاب الأخبار[٣] ـ أن سلمان الفارسي قال له: كنا يا رسول الله إذا خفنا خندقنا. فالخندق أشار إليه سلمان، وبيّن أنه خطة عسكرية ابتكرتها أذهان الفرس، وهم إذ ذلك مجوس يعبدون النار، فلم يمنع النبي ﷺ من الانتفاع بتلك الخطة العسكرية أن الأذهان التي ابتكرتها أذهان كفرة فجرة يعبدون النار وهم الفرس، بل جعل ذلك الخندق واستعان به على القوم، فهذه خطة عسكرية أصلها للكفار، وانتفع بها النبي ﷺ في دنياه وهو مرضٍ ربه.

وكذلك قد ثبت في صحيح مسلم[٤] أن النبي ﷺ همَّ أن يمنع وطء النساء المراضع؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن الرجل إذا أتى امرأته وهي ترضع ولدها أن غشيانه أم الولد وهي ترضعه أن ذلك يضعف عظمه، ويترك فيه ضعفاً قوياً وكان الرجل إذا ضرب بالسيف ونبا السيف عن الضريبة ولم يقطع قالوا: هذا من الغِيْلَة!! يعنون أنه وُطِئَت أمه وهي ترضعه!! كانوا يذمون هذا، وكان شاعرهم يقول[٥]:

---

(١) السابق.
(٢) السابق.
(٣) السابق.
(٤) السابق.
(٥) السابق.

فوارسُ لم يغالُوا في رضاعٍ   فتنبو في أكُفِّهم السُّيوفُ

فأخبرته فارس والروم بأنهم يفعلون هذا ولا يضرُّ أولادهم، فأخذ به ﷺ.

فتراه أخذ بخبر خبيرٍ كافر، وأخذ بخطة عسكرية كافرية، وأخذ بخطة طبية كافرية، لم يمنعه من الانتفاع بالدنيا أن أصل هذا من الكفار. وهذا من مرانة دين الإسلام، وكونه ليس دين خمول ولا دين ضعف، بل هو دين تقدم في جميع ميادين الحياة. والشاهد أن ما يوسوس به الشيطان ويفلسف به أعداء الإسلام أن الإسلام ليس دين تقدم، وأنه لا يساير ركب الحضارة، كله فلسفات شيطانية يروّجونها على ضعاف العقول لينسلخوا من الدين. أما دين الإسلام فهو في حدّ ذاته دين التقدم، ودين القوة، ودين التقدم في جميع الميادين، ودين الكفاح، ودين قمع أعداء الله بالقوة حتى يذلوا ويصغروا وتكون كلمة الله هي العليا. هذا دين الإسلام. والذين يتخذون دين الإسلام هزؤاً، وأنه تقاليد قديمة لا تنفع الآن، ولا تساير ركب الحضارة، فقادته ورؤساؤه في ذلك كفرة الإفرنج، وسيحشر الجميع يوم القيامة أتباعاً ومتبوعين يقع فيهم ما ذكر الله في هذه السورة الكريمة في رؤساء الكفر وأتباعهم والعياذ بالله جلّ وعلا.

فعلى كل مسلم ألا يغتّر بالشعارات الزائفة، والكلمات المضلة التي تحمل في وسطها الكفر والإلحاد، والتمرد على الله من اسم الحضارة، واسم التمدُّن، واسم التقدم، فإن هذه شعارات هي في حقيقتها المقصودة عند أهلها الذين جاؤوا بها تحمل الطعن في الدين، والإلحاد في آيات الله، والكفر بالله، وتحمل كل شر وطغيان فيها والعياذ بالله. فعلى شباب المسلمين أن لا يغتروا بها، ولا يجعلوا الكفرة الفجرة الخنازير سلفهم ومتبوعيهم؛ لئلا يقع بهم ما يقع بالأتباع والمتبوعين من دعاة النار والعياذ بالله، وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: آية ٣٨].

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٣٩﴾.

لما شكا الأتباع من المتبوعين، وقالوا لربهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ قرأ ﴿هؤلاء يضلونا﴾ بإبدال الهمزة الأخيرة ياءً نافع وابن كثير وأبو عمرو. وقرأ الباقون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ بتحقيق الهمزتين[١]. لما قال الأتباع هذا، وشكوا المتبوعين، وسألوا الله أن يضاعف عليهم العذاب ـ وهم المراد بقوله: ﴿أُخْرَىٰهُمْ﴾ لأن الأتباع يدخلون النار متأخرين؛ لأن الرؤساء أعظم منهم ذنباً ف ﴿أُخْرَىٰهُمْ﴾ في دخول النار، أو ﴿أُخْرَىٰهُمْ﴾ درجة في الكفر هم الأتباع، و ﴿أُولَىٰهُمْ﴾ دخولاً في النار، وفي مرتبة الكفر: هم الرؤساء المتبوعون[٢] ـ أجاب الرؤساء المتبوعون: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ﴾ أي: أولى الأمم، الرؤساء المتبوعون، وهم سادة الكفر العظام الذين دخلوا النار أولاً ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ قالوا: ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ اللام: لام التبليغ. أي للأتباع الذين شكوهم وطلبوا أن يزيد الله مضاعفة العذاب عليهم ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ الظاهر أن الفاء هي التي يقولون لها: «الفصيحة». إن شكوتمونا وسألتم لنا ضِعْف العذاب فما لكم علينا من فضل، فأنتم في النار عملتم في الدنيا بالكفر كما عملنا وستخلدون في النار كما خلدنا ـ والعياذ بالله ـ وهذا معنى: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ فذوقوا العذاب بسبب ما كنتم تكسبون في دار الدنيا، كما قال الله عنهم إنهم قالوا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: آية ٣٢] يعنون: الرسل جاءتكم بآيات واضحات، ومعجزات، وكتب سماوية، ونحن ما جئناكم بشيء، فَلِمَ تتبعونا وتتركون الحق واضحاً؟ فأنتم الذين جنيتم على أنفسكم ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ بسبب الذي كنتم تكسبونه في دار الدنيا.

ثم قال (جلّ وعلا) بعد أن ذكر ما للكفار – أتباعهم ومتبوعيهم – من عذاب النار، ومضاعفة العذاب ـ والعياذ بالله – قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا﴾ [الأعراف: آية ٤٠] من الأتباع والمتبوعين الكفرة ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قرأ هذا الحرف أبو عمرو: ﴿**لا تُفْتَح لهم أبواب السماء**﴾ بالتاء الفوقية مع التخفيف. وقرأه حمزة، والكسائي: ﴿**لا يُفْتَح لهم**

(١) انظر: إتحاف فضلاء البشر (١/١٩٦)، (٢/٤٨).

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/٤١٧، ٤١٩)، القرطبي (٧/٢٠٥)، ابن كثير (٢/٢١٢).

أبواب السماء﴾ وقرأه الباقون وهم (نافع، وابن كثير، وابن عامر، وعاصم): ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ ففي الكلمة الكريمة ثلاث قراءات سبعيات[1]: ﴿لا يُفتح لهم أبواب السماء﴾ وهي قراءة حمزة، والكسائي. ﴿لا تُفْتَحُ لهم أبواب السماء﴾ وهي قراءة أبي عمرو. ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهي قراءة نافع، وابن كثير، وعاصم، وابن عامر.

هذه القراءات الثلاث معناها واحد. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ وجحدوا أنها من عند الله، وتكبروا عن العمل بها من الكفار أتباعهم ومتبوعيهم قبحهم الله ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾. في عدم فتح أبواب السماء لهم أقوال متقاربة معروفة، لا يكذب بعضها بعضاً، وهي كلها حق[2]، قال بعض العلماء: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ فيرفع لهم منها عملٌ صالح؛ لأن أعمالهم مردودة إلى الله، كما قال الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: آية ١٠] والكفار ليس عندهم عملٌ صالح يرفع كَلِمَهم، وليس عندهم كَلِمٌ طيب، قالوا: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لترفع أعمالهم الصالحة إلى الله. وقال بعض العلماء: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لاستجابة دعواتهم؛ لأن دعواتهم مردودة ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [الرعد: آية ١٤] وقال بعض العلماء: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لا تنزل إليهم البركات والرحمات من الله (جل وعلا) نازلة مفتحة لها أبواب السماء لكفرهم. وكل هذه الأقوال حق. وذهب جماهير من المفسرين أن معنى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ﴾ لأرواحهم عند الموت ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ والآية تشمل هذا كله. لا تفتح لأعمالهم أبواب السماء فترفع، ولا تفتح لدعواتهم أبواب السماء لأنها غير مستجابة، ولا تفتح لهم أبواب السماء بالبركات، ولا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا. وحديث البراء المشهور المعروف عند العلماء يستدل به المفسرون على دخول القول الأخير في الآية؛ لأن حديث البراء المذكور أخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه،

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٨.

(٢) انظر: ابن جرير (٤٢١/١٢)، القرطبي (٢٠٦/٧)، ابن كثير (٢١٣/٢).

والإمام أحمد، وغير واحد عن البراء: أن النبي ﷺ أنهم خرجوا معه في جنازة أنصاري، وجلس ﷺ قبل أن يُلحد الأنصاري، وأمرهم أن يستعيذوا بالله من عذاب القبر، ثم ذكر لهم حال الميت المسلم والميت الكافر، فقال ﷺ ما حاصله وملخصه: إن الإنسان المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، عندهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، فجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه ويقول: أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتسيل نفسه كما تسيل القطرة من فمِ السِّقاء، فإذا سالت أخذها فلم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها ويجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط، فتخرج منها ريح كأحسن ما يكون من نفحة مسك على وجه الأرض، ثم يصعدون بها إلى السماء، كلما مروا بملأ من الملائكة قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ قالوا: هذا فلان بن فلان. بأحسن أسمائه التي كان يُسَمَّى بها في الدنيا. حتى ينتهوا إلى السماء السابعة، فيقول الله (جل وعلا): اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى. فَتُرد روحه إلى جسده، ويأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان: وما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ. فيقولان: وما علَّمك هذا؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي، فافرشوا له من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة يأتيه رَوْحُها ونعيمها.

ثم إن الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبالٍ إلى الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح ـ والمسوح: جمع مِسْح وهو الثوب الخلق البالي الخبيث الخشن السيء والعياذ بالله ـ فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه ويقول: أيتها الروح الخبيثة، اخرجي إلى سخط وغضب من الله (جل وعلا). فتتفرّق روحه في جسده، فينزعها من جسده، كما يُنزع السفود من الصوف المبلول، فإذا أخرجها لم

يَدَعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، وتخرج منها ريح كأنتن جيفة وُجدت على وجه الأرض، ثم يصعدون بها إلى السماء كلّما مرت على ملأ من الملائكة قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ قالوا: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء فيستفتحوا له فلا يؤذن له ـ والعياذ بالله ـ وتطرح روحه طرحاً. وفي حديث البراء المذكور أن النبي ﷺ قرأ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: آية ٤٠] وأنه عند طرح روحه قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ [الحج: آية ٣١] وفي القراءة الأخرى[1] ﴿فَتَخَطَّفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ ثم ترد روحه إلى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويسألانه ويقولان: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي، فافرشوه من النار، وألبسوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار. وفي بعض روايات الحديث: أنه يُسلط عليه أعمى أبكم، عنده مرزبة من حديد لو ضَرب بها جبلًا لبقي تراباً. يضربونه فيصرخ صرخة يسمعها كل الناس إلا الثقلين والعياذ بالله جل وعلا[2]. وحديث البراء هذا جاءت بمثله أحاديث تدل على أن السماوات (. . .)[3].

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ التحقيق أن المراد بالجمل هنا هو البعير زوج الناقة المعروف. وعن ابن مسعود أنه سأله رجل عن الجمل هنا فاستهجن سؤاله وقال له: الجمل هو زوج الناقة[4]. كأنه يستهجن سؤاله، وأن هذا لا ينبغي أن يُسأل عنه.

والمراد بـ (السَّم) هو الثقب. و (الخِيَاط): الإبرة، والمعنى: أن

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٧.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٨) من هذه السورة.

(٣) في هذا الموضع وجد انقطاع في التسجيل.

(٤) أصل الأثر في ابن جرير (٤٢٨/١٢، ٤٢٩)، ولم أقف عليه بهذا السياق الذي ذكره المؤلف إلا عند القرطبي (٢٠٦/٧).

الجمل - وهو البعير الضخم الكبير - لا يمكن أن تُدْخله من ثقب إبرة الخياطة هذه، لا يمكن أن تُدخل من وسطها جملًا بِعِظَمِه وتفرُّق قوائمه. فالجمل لا يدخل في ثقب إبرةٍ أبداً، فهم لا يدخلون الجنة أبداً. فهذا أسلوبٌ عربي معروف، يعلقون الشيء على ما لا يكون، فيدل على أنه لا يكون، فيقولون: لا يقع كذا حتى يقع كذا. فيكون وقوع الشيء محالًا، وهو أسلوب معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر(١):

إذا شَابَ الغرابُ أتيتُ أهلي ... وصَارَ القارُ كاللبن الحليبِ

القار: الزفت، وهو لا يَبْيَضُّ أبداً، والغراب لا يشيب أبداً. ومنه قول بشر بن أبي خازم(٢):

فرَجِّي الخير وانتظري إيابي ... إذا ما القَارظ العَنَزِيُّ آبا

والقارظان العَنَزِيَّان لا يؤوبان أبداً. وهذا أسلوب عربي معروف. والتحقيق أن المراد بالجمل هنا هو الجمل المعروف من الإبل، وأن العرب الذين نزل القرآن بلغتهم يضربون [المَثَل](٣) في العظم بالجمل كما قال الشاعر(٤):

.... جِسْمُ الجمال وأحلامُ العصافيرِ

وقال (جلَّ وعلا) في شرر النار: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المرسلات: الآيتان ٣٢، ٣٣] وفي القراءة الأخرى(٥): ﴿**كأنه جِمَالات صفر**﴾ هذا هو التحقيق، وأن المعنى: أنهم لا يدخلون الجنة حتى يدخل الجمل - البعير - الضخم الكبير مع عظمه وتفرُّق قوائمه حتى

---

(١) البيت في النكت والعيون للماوردي (٢/٢٢٣)، الدر المصون (٥/٣٢٠)، المغني لابن قدامة (١٠/٤٧٥).

(٢) البيت في القرطبي (٣/٥٠)، اللسان (مادة: رجا) (١/١١٣٨)، وفي (مادة: قرظ)، (٣/٦٣) وفيه مناسبة البيت والمُراد بالقارظين.

(٣) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٤) البيت لحسان، وهو في ديوانه ص١٢٩، والمثبت في الديوان: «جسم البغال» وصدره: «لا بأس بالقوم من طول ومن عِظَم».

(٥) انظر: المبسوط لابن مهران ص٤٥٧.

يدخل من ثقب إبرة الخياطة، وهذا لا يكون أبداً!! فدخولهم الجنة لا يكون أبداً. وهذا أسلوب عربي معروف. وهذا هو التحقيق.

والقراءات الكثيرة التي تروى هنا عن السلف: ﴿حتى يلج الجُمَّل﴾ ﴿حتى يلج الجُمَل﴾ ﴿حَتَّى يَلِجَ الجُمْلُ﴾ وغيرها من القراءات كلها قراءات شاذة. ومعانيها لا يعتمد عليها[1]؛ لأنهم رووا عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿حتى يلج الجُمَّل في سم الخياط﴾ وزعموا أن المراد بالجُمَّل هو الحبال الغليظة التي تجر بها السفينة، وأن هذه لا تدخل في عين الإبرة. فكل القراءات التي تشير إلى الجُمَّل، أو إلى الجُمَل، أو إلى الجَمْل، أو إلى الجُمْل، وغير ذلك من أنها حبال غليظة لا يمكن أن تدخل في الإبرة، كلها لا معوّل عليها، لأنها قراءات شاذة، ومعانيها غير صحيحة. والتحقيق هو قراءة الجمهور التي عليها السبعة بل والعشرة ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ﴾ [الأعراف: آية ٤٠] أي: حتى يدخل البعير الضخم العظيم في ثقب الإبرة. وهذا لا يكون أبداً، فدخولهم لا يكون أبداً. كقول الشاعر[2]:

إذا شَابَ الغرابُ أتيت أهلي وصار القارُ كاللَّبن الحَليبِ

فالغراب لا يشيب أبداً، والقار: ـ وهو الزفت ـ لا يَبْيَضُّ أبداً، فلا آتي أبداً.

وهذا هو معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ كذلك العذاب ـ والعياذ بالله ـ وإدخال النار، وتحريم الجنة ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ المجرمون: جمع تصحيح للمجرم، وهو فاعل الإجرام، والإجرام: ارتكاب الجريمة، والجريمة في لغة العرب[3]: الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه النكال، ومادته تكون رباعية وثلاثية، تقول: (أجرم) إذا

---

(١) انظر: ابن جرير (٤٢٨/١٢، ٤٣١، ٤٣٣)، القرطبي (٢٠٧/٧)، المحتسب (٢٤٩/١).

(٢) مضى قريبًا.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

ارتكب الجريمة. وتقول العرب: (جَرَم) ثلاثياً، والثلاثي لم يرد في القرآن، ولم يرد في القرآن إلا بصيغة الرباعي ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ [المطففين: آية ٢٩] ﴿فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ [هود: آية ٣٥] ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كله بصيغة الإجرام بالرباعي. أمّا (جرم) الثلاثي فهو مسموع في اللغة وغير موجود في القرآن. ومن أمثلته في اللغة قول الشاعر[1]:

ونـنـصُـرُ مـولانَـا ونـعـلـمُ أنَّـهُ كـمـا الـنـاسُ مجرومٌ عليهِ وجارمُ

لأن (المجروم) مفعول و (الجارم) فاعل، والمفعول والفاعل لا يأتيان إلا من الثلاثي كما هو معروف في فنِّ التصريف. وهذا معنى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

ثم قال: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ﴾ أي: من النَّار ﴿مِهَادٌ﴾ المهاد: الفراش. فراشهم من النار ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ الغواشي: جمع غاشية، والغاشية: هي اللحاف الذي يتغطى به الإنسان. معناها: لُحُفُهم التي تغطيهم من النار، وفرشهم التي تحتهم من النار والعياذ بالله[2]. وهذا معنى قوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: آية ٤١] ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الواضعين العبادة في غير موضعها، كالمشركين والعياذ بالله.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/٤٣٥ ـ ٤٣٦).

رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٤٢ ـ ٤٦].

يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ٤٢، ٤٣].

لما بيَّن (جلّ وعلا) ما أعدَّ للكفار من العذاب الأليم، وأنه يدخلهم جميعهم النار، وأنهم يلعن بعضهم بعضاً ـ والعياذ بالله ـ ويطلب الأتباع زيادة مضاعفة العذاب للمتبوعين، لما بين ـ والعياذ بالله ـ ما يناله أصحاب النار من العذاب، وهم الكفرة العتاة المتمردون، والذين يجاهرون بمعاصي الله ـ جلّ وعلا ـ لما بيَّن ما للعصاة والكفار من الوعيد، بين ما للمطيعين المؤمنين من الوعد الكريم، وجرت العادة في القرآن أن الله يجمع بين الوعد والوعيد؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين هما: اجتلاب النفع، واجتناب الضر. فبين ما للمتقين من النفع يوم القيامة، وما للذين لم يتقوا من العذاب والنكال، ليكون الخوف والطمع حافزين للإنسان في دار الدنيا على طاعة الله. ومن أمثال العرب: (سوط وتمرة)(١) يعنون بالسوط: الشيء المؤلم الذي يُخاف. وبالتمرة: الشيء الحلو الذي يرغّب، وهذا كثيرٌ في القرآن ـ الجمع بين الوعد والوعيد ـ كقوله: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٤٩، ٥٠] وكقوله: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر: الآيات ١ ـ ٣] وكقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: آية ٦] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الأعراف: آية ٤٢] القاعدة المعروفة

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٧) من سورة الأنعام.

عند العلماء أن الإيمان إذا لم يعطف عليه العمل الصالح يشمل جميع خصال الدين من اعتقاديات وعمليات. فالإيمان على مذهب أهل السنة والجماعة قول وعمل، وإذا أُفرد الإيمان شمل جميع مسائل دين الإسلام من الاعتقاد والعمل[١]. وقد بيَّن النبي ﷺ في الحديث الصحيح أن الإيمان «بضع» ـ في بعض الروايات: ـ «وسبعون شعبة» ـ وفي بعضها: ـ «وستون شعبة، **أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[٢] فسمى إماطة الأذى عن الطريق إيماناً، وهو من الأعمال. وفي الحديث: «**من صام رمضان إيماناً**» الحديث[٣]. فسمى الصوم إيماناً. «**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً**»[٤] الحديث، فسمى صلاة ليلة القدر إيماناً. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: آية ١٤٣] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس. وأمثال هذا كثيرة جداً.

أما إذا عُطف العمل الصالح على الإيمان كقوله هنا: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الأعراف: آية ٤٢] فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ﷺ، وبكل ما يجب الإيمان به مما بينته السنة الصحيحة والقرآن العظيم؛ لأن العمل هنا نُصّ عليه في قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولو لم يُنص على العمل لدخل في الإيمان؛ لأن القلب إذا آمن إيماناً صحيحاً تبعه جميع ـ سائر ـ الأعضاء؛ لأن القلب أمير البدن، إذا توجه إلى جهة وجّه إليها البدن، وفي الحديث الصحيح: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[٥].

وقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم، وظهرت آثار ذلك

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

الإيمان في القلوب على الجوارح، فعملت الجوارح بطاعة الله جل وعلا.

وقوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ معناها: عملوا الفَعَلات الصالحات. والعمل الصالح ضابطه عند العلماء: هو[1] ما استكمل ثلاثة أمور، فكل عمل استكملت فيه هذه الأمور الثلاثة فهو صالح، وكل عمل اختل فيه واحدٌ منها أو أكثر، فهو عمل غير صالح:

الأول من هذه الأمور الثلاثة: أن يكون ذلك العمل مطابقاً لما جاء به النبي ﷺ؛ لأن الله لا يقبل التقرُّب إليه بغير ما شرع، فكل من تقرب إلى الله بعملٍ لم يشرعه الله على لسان نبيه ﷺ فعمله مردود عليه، وذلك التقرُّب لا يزيدْ من الله إلا بُعْداً. فلو قال جاهل مثلًا: إن صلاة الصبح ركعتان، فهي قليلة، فأنا أريد أن أزيد بركعة تقرباً لله. فيجعلها ثلاثاً كالمغرب. فإنها تبطل وتُرد عليه، ويضرب بها وجهه؛ لأنه جاء بها على غير الوجه الذي جاء به النبي ﷺ. فلا يزيد ولا ينقص، فالزيادات على ما شرعه الله بدعوى التقرب هي باطلة. مثالها عند العلماء كالورم، فهو زيادة في العين بأن يكون العضو كبيراً وهو في الحقيقة نقصان؛ لأنه ألم وفساد، فالذي ينبغي هو اتباع سنته ﷺ ـ كما ينبغي طبق الأصل ـ من غير أن يزيد، وأن لا ينقص. فهذا هو الأول من الأمور الثلاثة، أن يكون مطابقاً لما جاء به الرسول ﷺ؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: آية ٧] ويقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: آية ٨٠] ويقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: آية ٣١].

الثاني: أن يكون ذلك العمل فيما بين العبد وربه. أي: في نية العبد الباطنة التي لا يطلع عليها إلا الله: أن يكون مخلصاً ذلك العمل لله لا يشرك معه فيه غيره. فإن كان ذلك العمل ـ في نية العبد وباطنه الذي لا يعلمه إلا الله ـ غير خالص لله فليس بعملٍ صالح، وإنما هو عمل طالح؛

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

لأن الله يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: آية ٥] فالذي عَبَد الله بغير الإخلاص له جاء بما لم يؤمر به، والله يقول: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر: آية ١١] وفي الآية الأخرى: ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ [الزمر: آية ١٥].

فالأول: مطابقة الشرع في الظاهر.

والثاني: الإخلاص من العبد فيما بينه وبين الله في السر الذي لا يعلمه إلا الله.

والثالث: أن يكون ذلك العمل مبنياً على أساس الإيمان والعقيدة الصحيحة؛ لأن العقيدة الصحيحة كالأساس، والعمل كالسقف، فإذا وجد السقف أساساً ثبت عليه، وإن لم يجد أساساً انهار، فالذي ليس عنده عقيدة صحيحة لو عمل الأعمال المطابقة، وأخلص فيها لله لا تنفعه في الآخرة؛ لأنها لم تُبن على أساس؛ ولهذا يقول الله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [النساء: آية ١٢٤] فيشترط الإيمان بالعقيدة الصحيحة. ويقول في عمل غير المؤمن: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: آية ٢٣] ويقول في أعمال غير المؤمنين: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾ [إبراهيم: آية ١٨] وفي آية: ﴿كَسَرَابِۭ﴾ [النور: آية ٣٩] فأعمالهم باطلة ـ والعياذ بالله ـ فالكفار الذين لا عقيدة لهم ولا إيمان بالعقيدة الصحيحة قد يعملون أعمالاً صالحة يريدون بها وجه الله، كأن يبرَّ الواحد والديه، وينفِّس عن المكروب، ويقري الضيف ويعين المظلوم، فهذه أعمال صالحة أخلص فيها لله ولكنها لا تنفعه يوم القيامة؛ لأنها لم تُبْنَ على أساس عقيدة صحيحة، وإيمان بما يجب الإيمان به في الكتاب والسنة، لكن أعمال الكفار إن وقعت في الدنيا صالحة مطابقة للشرع مخلصون فيها يثيبهم الله بها في دار الدنيا؛ لأن الله لا يضيع عنده شيء، كما قال جل وعلا: ﴿مَن
٧/ب كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا/أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

[هود: الآيتان ١٥، ١٦] وثبت في صحيح مسلم من حديث أنس[١] أن الله (جلَّ وعلا) يطعم الكافر بحسناته في الدنيا حتى يرد على الله يوم القيامة ولا جزاء له. وهو أحد التفسيرين في قوله (جل وعلا): ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: آية ٣٩] فأحد التفسيرين: فوفاه حسابه في دار الدنيا، يعني: عمل الكافر بالعافية والمال والرزق والتنعم في الدنيا على أحد القولين كما سيأتي.

فحيث اجتمعت هذه الأمور الثلاثة ـ بأن كان العمل مطابقاً للشرع، وصاحبه مخلص فيه فيما بينه وبين الله، وكان صاحبه بانيه على عقيدة صحيحة ـ فهذا عمل صالح ينفعه يوم القيامة، وهو الذي وعد الله أهله بالجنة في هذه الآية التي نحن بصددها وغيرها من الآيات، وحيث اختل أحد تلك الأمور الثلاثة لم يكن عملًا صالحاً كما بينا.

وقوله: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الأعراف: آية ٤٢] أصله يستشكل طالب العلم: ما مفرد الصالحات؟ لأن العمل الصالح لا يجمع على صالحات. وإذاً فما مفرد الصالحات؟

والتحقيق أن مفرد الصالحات: صالحة؛ لأن العرب تسمي الخصلة[٢] الطيبة: حسنة، وتسميها: صالحة. وهذا معروف في كلامهم، تقول مثلًا: فعل فلان حسنة، وفعل صالحة. كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ [الأنعام: آية ١٦٠] أي: بالخصلة الحسنة، وكذلك من فعل الصالحة كالحسنة، أي: هي الخصلة الطيبة التي ترضي الله. وهذا معروف في كلام العرب. ومن إطلاق الصالحة على الخصلة الطيبة: قول أبي العاص بن الربيع في زوجه زينب بنت رسول الله ﷺ في أبياته المشهورة[٣]:

---

(١) مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا... حديث رقم (٢٨٠٨)، (٤/٢١٦٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٦٠) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

ذكرتُ زينبَ بالأجزاع من إضَما   فقلتُ سَقْياً لشخصٍ يسكنُ الحرما
بنتُ الأمينِ جزاكِ الله صَالحةً   وكلُّ بعلٍ سيثني بالذي علما

فقوله: «صالحة» أي: خصلة حسنة. ومنه بهذا المعنى قول الحطيئة[1]:

كيفَ الهجاءُ ولا تنفكُّ صالحة   من آل لأْمٍ بظهرِ الغَيْبِ تأتيني

يمدح بني لأم من الطائيين يقول:

كيفَ الهجاءُ ولا تنفكُّ صالحة   ....

أي: فعلة صالحة طيبة

....   من آلِ لأْمٍ بظهرِ الغيبِ تأتيني

وسُئِل أعرابي فقيل له: ما الحب؟ فقال[2]:

الحبُّ مشغلةٌ عن كل صالحةٍ   وسكرة الحب تنفي سكرةَ الوَسَنِ

وقوله: «عن كل صالحة» أي: كل خصلة طيبة. فمعنى ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الأعراف: آية ٤٢] فعلوا في دار الدنيا الفعلات ـ الخصلات ـ الطيبات من كونها مطابقة للشرع، وكون فاعلها مخلصاً فيها لله، مبنية على عقيدة صحيحة، وإيمان صحيح بالله وبِرُسُله، وبكل ما يجب الإيمان به.

وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ [الأعراف: آية ٤٢] جملة اعتراضية بين المبتدأ وخبره، واعتراضها هنا من ألطف شيء؛ لأن الله لمّا بين أنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يدخلون الجنة كأنه قال: والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة، هم فيها خالدون. فكأن الإنسان يخطر في ذهنه أولاً: الجنةُ مع عظمها وما فيها من الملاذ والكرامات لا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٦٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

يمكن أن يستحقها أحد إلا بعد تعب هائل، وعناءٍ شديد عظيم طويل، فبين الله أنه في هذه الشريعة السمحة، التي جاء بها هذا النبي الكريم، أن الجنة تنال ـ مع عظم قدرها، وما فيها من اللذات والكرامة، وجميع الخيرات ـ بعملٍ سهل، لا مشقة فيه، ولا عناء ولا تعباً شديداً فيه؛ ولذا قال قبل أن يأتي بالخبر الذي هو: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: آية ٤٢] قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ اعلموا أن جنتي التي بَينت لكم ما فيها من الخير، وما فيها من النعيم، والحور، والولدان، والجنان، والأشجار المثمرة، والغرف العالية، وأنهار العسل، والماء، واللبن، وغير ذلك، والنساء الحسان، وغير ذلك من اللذات والمكارم ونضرة النعيم والخلود الذي لا يزول، الذي لا يداخله سقم ألبتة، ولا هرم ولا مرض. اعلموا أن هذه الجنة التي هي بهذه المثابة من العِظَم، وعلو الأمر، وارتفاع الشأن، أني أدخلكم إياها على عملٍ ليس بالصعب، ولا بالشديد، لا يستلزم المشقة الفادحة، ولا العناء العظيم، بل هو سهل خفيف، لا نكلف أحداً فيه إلا ما يطيقه، فمن عجز عن أن يصوم لسفر أو مرض أفطر ثم صام عدة من أيامٍ أخر، ومن لم يستطع الصلاة قائماً فليصل قاعداً، وهكذا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١١٩] فإنه عند الضرورات يبيح لكم ما كان محرَّماً، ويخفف عليكم عند المشقات، والتخفيف عند المشقات إحدى القواعد الخمس التي بني عليها الفقه الإسلامي، وهي معروفة في الأصول[١]:

الأولى منها: الضرر يزال.

الثانية: المشقة تجلب التيسير. وهو هذه.

الثالثة: لا يرتفع يقين بشك.

الرابعة: أن أعمال الناس ومعاملاتهم تبعٌ لأعرافهم وعوائدهم وما يعرفون.

الخامسة: الأمور بحسب مقاصدها.

---

(١) هذه القواعد الخمس يصدِّر بها ـ غالباً أصحاب القواعد كتبهم المصنفة في هذا الباب، كالسيوطي في الأشباه والنظائر وغيره.

والشاهد أن منها: المشقة تجلب التيسير ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ [الأعراف: آية ٤٢] أي: طاقتها. فالوسع: الطاقة. أي: لا نكلف أحداً ما يعجز عنه أو يشق عليه مشقة عظيمة فالوسع: الطاقة التي يكون صاحبها في اتساع، ولا يرهقه ضيق عظيم هائل. وهذا مما يبين أنَّ الله يسَّر الوصول إلى هذه الدار الكريمة، وهي الجنة، على لسان هذا النبي الكريم ﷺ. فقد وضع في شريعته وعلى لسانه الآصار والأثقال، وأغلال التكاليف الشاقة التي كانت على من قبلنا، وجاء بها حنيفية سمحة هينة لا ضيق فيها﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: آية ٧٨] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: آية ١٨٥] ولهذه الحكمة جاءت الجملة الاعتراضية بين المبتدأ والخبر ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ أي: طاقتها وما تفعله في سعة لا يرهقها فيه ضيق وعناء شديد. ثم جاء بالخبر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: آية ٤٢] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ و ﴿أَصْحَٰبُ﴾ خبره، والمبتدأ وخبره خبر المبتدأ الأول الذي هو الموصول في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ خلوداً أبدياً ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: آية ١٠٨] ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: آية ١٠٨] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: آية ٥٤] لا يمرضون، ولا يشيبون، ولا يزول عنهم النعيم، بل هم في سرور ونعيم دائم، يتمتعون بأنواع المآكل، والمشارب، والمفارش، والمناكح، إلى غير ذلك مما بينه الله في آيات كثيرة. وقد قدمنا[1] أن الجنة في لغة العرب: البستان؛ لأن أشجاره الملتفة تجن الداخل فيه. وجاء في القرآن إطلاق الجنة على البستان كقوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: آية ١٧] وهي قصة بستان معروف في أطراف اليمن، كما يأتي في تفسير سورة القلم إن شاء الله. وكقوله جلَّ وعلا: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [الكهف: آية ٣٥] إلى غير ذلك من الآيات. ومن إطلاق العرب الجنة على البستان كما قدمنا قول زهير[2]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الأنعام.

كأنَّ عَيْني في غَرْبَي مُقَتَّلَةٍ من النَّواضِحِ تَسْقِي جنة سُحُقا

يعني بقوله: «جنة»: بستان نخل. وقوله: «سُحُقا» جمع سَحُوق، والسَّحوق: النخلة الطويلة.

أما الجنة في اصطلاح الشرع: فهي دار الكرامة التي أعد الله لعباده المؤمنين، وهي شجرة مثمرة، ونهر مطَّرد، وغرفة عالية، وزوجة حسناء، ورضىً لا سخط بعده، والمؤمنون فيها ينظرون إلى وجه الله الكريم، كما جاء في آياتٍ وأحاديث صحيحة، كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله. وهذا معنى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: آية ٤٢] ومن أعظم السرور: الخلود؛ لأن أكبر ما يُنكد اللَّذائذ، وينغِّص اللذات، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها، وأنها زائلة عنه، فترى الإنسان في سرور متمتعاً بنسائه الحسان، وماله، ونعيمه، ولذَّته في الدنيا، فإذا خطر على قلبه أنه يموت، وتُنكح نساؤه بعده، وتقسم أمواله، تكدرت عليه تلك اللذائذ وبقي مهموماً؛ ولذا كان الخلود الأبدي وعدم الانقطاع هو ما تتم به اللذة في الدنيا؛ ولذا قال الله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يزولون عنها أبداً، فلا تورث ديارهم من بعدهم، ولا تُنكح نساؤهم من بعدهم، ولا يصير ما عندهم من النعيم لأحدٍ بعدهم، هم خالدون في ذلك النعيم، وقد صدق من قال[١]:

أشدُّ الغم عندي في سرورٍ تيقن عنه صاحبه انتقالا

فالسرور إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار عليه غمّاً. وقد أوضح هذا بعض الشعراء فقال[٢]:

أُحب ليالي الهجر لا فرحاً بها عسى الدهر يأتي بعدها بوصال
وأبغضُ أيام الوصال لأنني أرى كل وصلٍ معقباً بزوالِ

(١) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه (بشرح العكبري ٣/٢٢٤)، شواهد الكشاف ص١٠٠.

(٢) البيت في كتاب ألف ليلة وليلة ص١٤٣٦.

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة؛ ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت. ويقال للموت: هاذم اللذات؛ لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها؛ لأنه يقطعها؛ ولذا قال: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: آية ٤٢] لا يزول عنهم ذلك النعيم حتى تتكدر غبطتهم به بزواله.

قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: آية ٤٣].

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: آية ٤٣] لما كان أهل الدنيا على مصادقتهم والقرابات بينهم يكون بينهم الغل، والغش، والبغضاء، والحسد، بيّن الله أن أهل الجنة سالمون من هذا الداء الذي يصاب به أهل الدنيا.

﴿وَنَزَعْنَا﴾ صيغة الجمع للتعظيم، والله (جلّ وعلا) هو الذي نزع ﴿مَا فِى صُدُورِهِم﴾ أي: صدور عبادنا المؤمنين الذين هم أصحاب الجنة، نزعنا جميع ما في صدورهم من غلّ. واختلفت عبارات العلماء في الغلّ إلى معاني متقاربة[١]، والظاهر أنه يشملها كلها، فبعضهم يقول: الغلّ: الحقد الكامن، وبعضهم يقول: هو البغض، وبعضهم يقول: هو الحسد والكراهية. وهو يشمل ذلك كله؛ لأن الإنسان قد يكون في قلبه للآخر حقدٌ كامن، وحسد، وبغض، يكون هذا بين الآدميين، فالله (جلّ وعلا) يوم القيامة ينزع من صدور المؤمنين في الجنة جميع الأحقاد، فلا يكون هنالك أحدٌ يضمر حقداً لأخيه، ولا بغضاً، ولا حسداً، ولا غشاً، بل ليس بينهم إلا التوادّ الكامل، والتعاطف والتناصح، يحب بعضهم بعضاً، ومن آثار ذلك أن منازلهم متفاوتة ينظر بعضهم منازل بعضٍ فوقه كما ننظر النجم في السماء، ومع ذا لا يحسده على ارتفاع منزلته عليه، بل هو يحبه ولا يضمر

(١) انظر: ابن جرير (٤٣٨/١٢)، القرطبي (٢٠٨/٧).

له في ذلك حسداً ولا غلّا، وذكر غير واحد عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أنه قال: «أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾» ذكره عن علي (رضي الله عنه) غير واحد، قتادة وغيره، وكثير من طرقه فيها انقطاع، والله أعلم بصحته إليه، ولكنه مشهور فائض على ألسنة المفسرين والعلماء والله أعلم بصحته عنه[١]. ولا شك أنهم إن كان بينهم في الدنيا شيء؛ لأن طلحة والزبير ممّن قاتل علياً (رضي الله عنه) يوم الجمل. وبعضهم يزعم أنه كان بينه وبين عثمان بن عفان بعض الشيء. مع أن الذي يظهر أن علياً وعثمان لم يكن أحدهما يضمر للآخر إلا الطِّيِّب، وكان تسليم الحسن بن علي رضي الله عنه الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عن الجميع) فيها أعظم منقبة لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه)؛ لأن كثيراً من الناس كانوا يتهمون علياً (رضي الله عنه) بما هو بريء منه، أن له ضلعاً في قتل عثمان، وأنه كان يقول له الوليد بن عقبة بن أبي معيط أخي عثمان من أمّه، يعرّض بعلي[٢]:

بني هاشمٍ ردّوا سلاحَ ابن أختكم ... ولا تُنهبوه لا تحلُّ مناهبُهْ
بني هاشمٍ كيف التعاقدُ بيننا ... وعند عليٍ سيفُه وحَرائِبُهْ

وكانوا يظنون بأمير المؤمنين علي (رضي الله عنه وأرضاه) أنه مقصّر في القَوَد من قَتَلَة عثمان، وأنه قادر على أن يقتلهم، وأنه مقصّر، فلمّا سلّم الحسن (رضي الله عنه) الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان ـ مصداقاً لحديث

---

(١) الأثر في ابن أبي شيبة (٢٦٩/١٥، ٢٨١ ـ ٢٨٢)، وابن جرير (٤٣٨/١٢)، وابن سعد (٣/القسم الأول) ص٨٠، وابن أبي عاصم في السنة (١٢١٥)، واللالكائي (٢٥٧٣)، والحاكم (١٠٥/٣) وذكره الهيثمي في المجمع (٩٧/٩) وعزاه للطبراني في الكبير.
وأورده ابن كثير (٢١٥/٢)، والسيوطي في الدر (٨٥/٣)، والزيلعي في تخريج الكشاف (٤٦٢/١)، وابن حجر في تخريج الكشاف ص٦، ورواية ابن سعد وابن جرير منقطعة، بخلاف رواية ابن أبي شيبة. وانظر: الفتح السماوي (٦٣٥/٢ ـ ٦٣٦).

(٢) البيتان في تاريخ دمشق (٢٢٧/٥٦)، مختصر تاريخ ابن عساكر (مختصر ابن منظور) (٣٤٦/٢٦)، الكامل للمبرد (٩١٦/٢)، مع شيء من الاختلاف في الروايات.

جدّه: «إن ابني هذا سيّد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من أمتي»[(١)] - فصار الأمر كله إلى معاوية، وهو وليّ الدم الذي كان يطالب به في أهل الشام، وكان امتناعه من بيعة عليّ لا يعلله بعلّة إلا أنه يُمَكّن من قَتَلَة عثمان فيقتلهم قصاصاً، ثم يبايع علياً، فلما خلصت الخلافة لمعاوية ولم يبق له منازعٌ أبداً، واجتمعت عليه كلمة المسلمين، وصار والياً على جميع المسلمين لا منازع له، لما سلّمه الحسن الخلافة - رضي الله عنه - لم يستطع معاوية أن يقتل واحداً كائناً ما كان ممن قتلوا عثمان - رضي الله عنه[(٢)] - فتبينت بذلك براءة أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه وأرضاه - مما كانوا يتهمونه به، فصار في تسليم الحسن الخلافة لمعاوية أعظم منقبة لعلي - رضي الله عنه - وأعظم براءة مما كان يُتَّهمُ به مِمَّن لا يعلم ولا يقدّر فضله رضي الله عنه.

وقوله جلّ وعلا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم﴾ [الأعراف: آية ٤٣] قال بعض العلماء: الله ينزعه من صدورهم بعد أن يدخلوا الجنة. وقال بعض العلماء: ينشئهم النشأة الجديدة على فطرة سليمة خالية من الأحقاد. فظاهر الآية أنهم يوم القيامة يبعثون وهو موجود فيهم، إلا أن الله يسلُّه وينزعه منهم[(٣)]، بدليل قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: آية ٤٣] وقد قال في سورة الحجر: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: آية ٤٧] وهذا من أعظم كمال اللذات حيث يكون الإنسان خالداً مخلداً، وحيث يكون هو وإخوانه ورفقاؤه في ذلك النعيم ليس بين اثنين منهم شحناء، ولا عداوة، ولا حقد، ولا حسد، ولا مخاصمة، وكل هذا من كمال النعيم.

وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [الأعراف: آية ٤٣] أعربه بعضهم حالاً، وبعضهم منع إتيان الحال هنا لأنه قال: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ فاعلها لا دخل له في الجملة فلا يمكن أن تكون حالًا، وبعضهم يقول: يصح أن تكون حالًا.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٥) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (١٤/١).

(٣) في هذه المسألة انظر: ابن جرير (٤٣٩/١٢)، ابن كثير (٢١٥/٢).

فعلى أن الجملة حالية فلا إشكال، وعلى امتناع الحالية فيها ـ كما زعمه بعض علماء العربية ـ فهي كلام آخر مستأنف مما يعطيهم الله[١].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت قصورهم وغرفهم العالية ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ سائلة. يقول بعض العلماء: أنهار الجنة تجري في غير أخدود[٢]. ويذكرون أن المؤمن في غرفته العالية قد يشير إلى النهر تحته فيصعد إليه حتى يقضي منه حاجته. كما يأتي في تفسير قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝﴾ [الإنسان: آية ٦] ولا غرابة في ارتفاع الماء إلى ولي الله في غرفته من الأرض؛ لأنه يشاهد في الدنيا ما هو أعظم من هذا وأغرب؛ لأنك أيام البلح تأخذ بلحة من نخلة طويلة سحوق، فإذا ضغطت على البلحة بضرسك طار منها الماء!! وهذا الماء إنما أَخَذَتْهُ من عروقها، فصعد من ثرى الأرض ومن عروق النخلة وطلع مع هذا الجذع القوي الخشن، طلع معه الماء ورفعه الله من هذا البعد العالي بقدرته، فمن فعل هذا فلا يصعب عليه أن يرفع الماء إلى غرف المؤمنين العالية. وهذه الأنهار مختلفة الألوان والأشكال، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: آية ١٥]. وهذا معنى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[٣] [يونس: آية ٩] تارة يفرد الجنة نظراً إلى أنها اسم جنس، وتارة يجمعها. وإضافتها إلى النعيم لأنهم يتنعمون فيها بجميع اللذائذ، وتظهر على وجوههم نضرة النعيم، فهم في غاية النعيم، والنعيم ضدّ البؤس، فهم في نعمة دائمة ظاهرة آثارها على أبدانهم، في نضرة وجمالٍ وسرور وغبطة، لا يشيبون ولا يهرمون ولا يمرضون؛ ولذا قال: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: آية ٩].

---

(١) انظر: البحر المحيط (٢٩٨/٤)، الدر المصون (٣٢٣/٥).

(٢) انظر: ابن جرير (٣٨٤/١).

(٣) في هذا الموضع وقع للشيخ (رحمه الله) سهو حيث ساق خاتمة الآية التي في سورة يونس: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وفسر هذا القدر منها، وقد نُبِّه الشيخ ـ رحمه الله ـ على ذلك أثناء الدرس ولم يتفطن له. وعلى كلٍّ فلم يفت من تفسير آية الأعراف شيء، وإنما صار الكلام على ذلك القدر من سورة يونس من باب الزيادة.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا﴾ [الأعراف: آية ٤٣] بين الله أنه لما أدخل أهل الجنة الجنة حمدوا الله على نعمه، وذلك ذكره عنهم في مواضع كثيرة كقوله عنهم أنهم قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: الآيتان ٣٤، ٣٥] وقال عنهم هنا أنهم حمدوه أيضاً فقالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد[١]: معناه كل ثناءٍ جميل ثابت لله (جل وعلا)؛ لأنه يستحقه لذاته؛ ولأنه يستحقه علينا بما أنعم علينا حيث أدخلنا هذا النعيم الخالد الذي لا يزول.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا﴾ أي: وفقنا للطريق التي ينال بها هذا الثواب العظيم وهو الجنة. نحمد الله على أن وفقنا في دار الدنيا، وهدانا إلى الإيمان به واتباع رسله حتى نلنا بذلك العمل الصالح هذا الجزاء المقيم، والنعيم العظيم. ﴿ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا﴾ ثم قالوا: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾ [الأعراف: آية ٤٣] هذه اللام هي التي تسمى في النحو بلام الجحود، وهي تؤكد النفي، تؤكد نفي هدايتهم لولا أن الله هداهم، وتسمى (لام الجحود) ولا تكون إلا بعد كونٍ منفي، نحو: ما كان، ولم يكن، والفعل منصوب بعدها بـ(أن) مضمرة[٢].

﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾ إلى الطريق التي هذا ثوابها وجزاؤها ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: آية ٤٣] المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في محل رفع؛ لأن ما بعد (لولا) مبتدأ خبره محذوفٌ غالباً. والمعنى: لولا هداية الله موجودة لما نلنا هذا الجزاء، ولما هُدينا إلى هذا العمل الذي هذا جزاؤه. وقرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا الشامي، أعني ابن عامر: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ وقرأه ابن عامر وحده: ﴿**ما كنا لنهتدي**﴾ بلا واو[٣]. والمصاحف التي أُرسلت إلى الشام ليس فيها الواو، وإنما فيها:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٨.

﴿**ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله**﴾ بلا واو، وهما قراءتان سبعيتان، ولغتان فصيحتان؛ ولأجل هذا الاختلاف بزيادة حرفٍ في بعض القراءات الصحيحة وحذفه من القراءات الأخرى كان ذلك سبب تعدد نسخ المصحف العثماني، تعدد نسخه لتكون نسخة فيها الواو ونسخة لا واو فيها، فبعض المصاحف التي أُرسلت إلى الشام ليس فيها الواو وإنما فيها: ﴿**ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله**﴾ بلا واو، وهي قراءة الشامي، وهو ابن عامر. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

ثم قالوا على سبيل الفرح والغبطة والسرور: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: آية ٤٣] والله لقد جاءتنا رسل ربنا في دار الدنيا بالحق؛ لأن العمل الصالح الذي أَمَرْتَنَا به، والجزاء الذي وَعَدْتَنَا أن نناله هذا هو قد تحقق لنا، ودخلنا الجنة التي كانوا يعدوننا في دار الدنيا على الأعمال الصالحة. والله لقد جاءتنا رسل ربنا في دار الدنيا بالحق الثابت الذي لا شك فيه فما كذبونا ولا دلسوا لنا، وإنما جاؤونا بالحق. وقالوا هذا على وجه السرور والغبطة؛ لأن من دخل في غبطة وسرور يتكلم بهذا الكلام تلذذاً لا يقصد غير ذلك.

ولما قالوا هذا الكلام: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ قالوا هذا ﴿وَنُودُوٓا﴾ [الأعراف: آية ٤٣] أي: نودوا من قِبَل الله، ناداهم الله أو ملك من الملائكة بأمر الله ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ [الأعراف: آية ٤٣] (أن) هذه فيها وجهان[1]: زعم بعضهم أنها المخففة من الثقيلة. و (أنْ) إذا خففت من الثقيلة ـ (أن) المفتوحة ـ لم يبطل عملها، ويكون اسمها ضمير الشأن، والجملة بعدها خبرها. وأظهر القولين أنها هنا هي التفسيرية. ومعنى التفسيرية أن ما بعدها يفسر ما قبلها، فنفس النداء الذي نودوا به هو قوله: ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: آية ٤٣] وضابط أَنْ التفسيرية: التي يكون ما بعدها تفسيراً لما قبلها هي أن يتقدمها ما فيه معنى القول وليس فيه حروف القول[2]، أعني: (القاف، والواو، واللام) وقد

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٣٠٠)، الدر المصون (٥/٣٢٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١١) من سورة الأنعام.

تقدمها ما فيه معنى القول؛ لأن النداء فيه معنى القول، وليس فيه حروف القول، فيظهر أنها تفسيرية، خلافاً لمن زعم أنها مخففة من الثقيلة.

﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ (تلك) إشارة إلى الجنة، نظراً إلى أنها اسم جنس. وقوله: «كُم» هو حرف خطابٍ للمخاطبين؛ لأنهم جمعٌ كثير ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ معناه: أعطيتموها. فإيراث الجنة: إعطاؤها وليس المراد به أنها مأخوذة من أموات كميراث الميت، كما يزعمه بعضهم، بل المراد بإيراثها: أن الله أعطاهم إياها، وأدخلهم إياها، وأباحها لهم، خلافاً لمن زعم أن معنى إيراثهم لها أن الله جعل لكل نفس منفوسة مسكناً في الجنة ومسكناً في النار، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار اطلع أهل الجنة على مساكنهم في النار ـ لو أنهم كفروا بالله وعصوه ـ لتزداد غبطتهم وسرورهم، وعند ذلك يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: آية ٤٣] ثم إنه يطلع الكفار على منازلهم في الجنة ـ لو أنهم آمنوا وأطاعوا الله ـ لتزداد ندامتهم وحسرتهم، وعند ذلك يقول الواحد منهم: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: آية ٥٧] قالوا: ثم إن الله يعطي منازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة، وكأن أهل النار أموات؛ لأن من في العذاب الذي هم فيه ميت؛ لأنهم يتمنون الموت فلا يجدونها[1]، فكأنهم ورثوها عنهم. وهذا وإن جاء به حديث فلا يصلح لتفسير الآية؛ لأن الله قال: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: آية ٤٣] ولم يقل: «أورثتموها من أهل النار». فصرح أنه أورثهم إياها بما كانوا يعملون، أي: بسبب ما كنتم تعملون في دار الدنيا من طاعة الله.

وتمسك المعتزلة بظاهر هذه الآية وأمثالها من الآيات فقالوا: إن العبد هو الذي خلق فعل نفسه في الطاعات، واستحق به الجنة لا بفضلٍ من الله ـ جل وعلا ـ أعاذنا الله من مقالتهم. وهنا يشنع الزمخشري في تفسير هذه الآية[2] ـ لأنه معتزلي ـ على من يقول: إنهم دخلوا الجنة

---

(١) هكذا العبارة، ويمكن حملها على الأمنية.

(٢) انظر: الكشاف (٦٣/٢).

بفضل الله ورحمته فيقول: قال المبطلة: إنهم دخلوها بفضل الله، والله يقول: إنهم دخلوها بأعمالهم. وهذا جهل من المعتزلة وعدم علم بالسنة؛ لأن النبي ﷺ قد ثبت عنه في الحديث الصحيح أنه قال: **«لَن يُدخل أحدَكُم عملُهُ الجنة»**. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل»**[1] وهذا الحديث الصحيح أصله فيه إشكال بينه وبين هذه الآيات التي يستدل بها المعتزلة، كقوله هنا: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: آية ٦٣] وأمثال ذلك.

وللعلماء أجوبة كثيرة عنْ الإشكال بين الحديث وبين هذه الآيات وما جرىٰ مجراها من الآيات[2]، وأظهر أوجه التوفيق عندنا: أن العمل الصالح لا ينفع صاحبه إلا إذا تقبله الله منه، ولا يعمل عملًا صالحاً إلا إذا وفَّقَ الله إليه وأعانه عليه. فلما كان العمل الصالح الذي هو سبب دخول الجنة لا ينفع إلا إذا تقبله الله، ولو شاء لم يتقبله، ولا ينفع إلا إذا وفَّقَ الله إليه ولو شاء لم يُوَفِّق إليه، صار كل شيء بفضله ورحمته - جلّ وعلا - كما هو الحق وهو الصواب. وهذا معنى قوله: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: آية ٤٣] أي: في دار الدنيا من طاعات الله،

---

(١) روى هذا الحديث جماعة من الصحابة، منهم:

١ - أبو هريرة (رضي الله عنه)، عند البخاري في الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل. حديث رقم (٦٤٦٣)، (١١/٢٩٤). ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله. . .، حديث رقم (٢٨١٦)، (٤/٢١٦٩).

٢ - عائشة (رضي الله عنها)، عند البخاري في الموضع المتقدم، حديث رقم (٦٤٦٤، ٦٤٦٧)، (١١/٢٩٤)، ومسلم في الموضع المتقدم من صحيحه. حديث رقم (٢٨١٨)، (٤/٢١٧١).

٣ - جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما)، عند مسلم، في الموضع المتقدم من صحيحه. حديث رقم (٢٨١٧)، (٤/٢١٧٠).

(٢) انظر: شرح الطحاوية ص٦٤١، ولشيخ الإسلام (رحمه الله) رسالة تعرف بـ (رسالة في دخول الجنة، هل يدخل أحد الجنة بعمله أم ينقضه قوله ﷺ: **«لا يدخل أحد الجنة بعمله»** وهي ضمن جامع الرسائل (١/١٤٣)، وانظر حادي الأرواح ص٦١.

ودخلتموها بفضل الله ورحمته حيث تقبل منكم تلك الأعمال الصالحة، ووفقكم إلى فعلها في دار الدنيا، وأعانكم عليها برحمته وفضله، وتقبلها منكم، فلو لم يوفقكم لها ويعنكم عليها لما قدرتم على فعلها، ولو لم يتقبلها منكم لما نفعتكم أبداً، وكل هذا بفضله ورحمته جلّ وعلا.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: آية ٤٤] بين (جلّ وعلا) أنه إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وبيّن ما يقوله أهل النار في النار من التخاصم، ولَعْن بعضهم لبعض: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ وسؤال بعضهم مضاعفة العذاب لبعض، وما يقوله أهل الجنة من حمد الله، والثناء عليه للتوفيق، والغبطة بالخلود، ونزع الأحقاد والغلال التي كانت بينهم، لما بيّن هذا كله بيَّن أن أهل الجنة ينادون أهل النار كالموبخين على نوعٍ من التوبيخ والشماتة بهم؛ لأنهم كانوا يكذبون في الدنيا بالنار والجنة.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ وهذا النداء للعلماء فيه سؤالات: هل نادى جميع أهل الجنة جميع أهل النار؟ أو نادى بعضهم بعضاً؟ وظاهر القرآن أنه نداءٌ عام. وقال بعض العلماء: كل ناسٍ من المؤمنين ينادون من كانوا يعرفونهم في الدنيا من الكفار: يا أصحاب النار هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فنحن وجدنا ما وعدنا من النعيم حقاً، فهل وجدتم ما كان يقال لكم من الوعيد بالعذاب حقاً[(١)]؟

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا﴾ (أَنْ) هذه كالتي قبلها في القول بأنها تفسيرية أو مخففة من الثقيلة. وقد ذكرنا الكلام عليها آنفاً[(٢)].

﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من الجنة، والنعيم المقيم، والخلود الأبدي في نعم الله، وجدناه حقاً من الله، وصَدَقَنا وعده ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ [الزمر: آية ٧٤] فوجدنا

---

(١) انظر: الألوسي (١٢٢/٤).

(٢) انظر: الدر المصون (٣٢٥/٥)، وراجع ما سبق عند تفسير الآية السابقة.

وعد الله بالنعيم، والخلود الأبدي في الجنة على ألسنة الرسل، وجدناه حقاً، فهل وجدتم أنتم ما وعدكم ربكم من العذاب، والنكال، ودخول النار، هل وجدتموه حقاً؟ وهذا سؤال توبيخ وتقريع وشماتة، والعياذ بالله. قالوا في ذلك الوقت معترفين حيث لا ينفع الاعتراف، نادمين حيث لا ينفع الندم: ﴿قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ [الأعراف: آية ٤٤] وجدنا ما وعده الله من العذاب والنكال على ألسنة الرسل حقاً، ووجدنا أن تكذيبنا به في دار الدنيا سفاهة منا وجناية على أنفسنا.

وقرأ هذا الحرف عامة القرّاء ما عدا علياً الكسائي ﴿قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ بفتح النون والعين. وقرأه الكسائي وحده: ﴿قالوا نَعِم﴾[1] و(نَعَم) و (نَعِم) لغتان كلاهما تأتي بمعنى الأخرىٰ على الصواب. و (نَعَم) لا تكون جواباً إلا لاستفهام مُثْبَت، ولا تكون جواباً لاستفهام منفي، فلو كانت الآية: «ألم تجدوا ما وعدكم ربكم حقاً» بالنفي لما جاز أن يجاب بـ (نعم) وإنما يجاب بـ (بلىٰ) هذا هو المعروف؛ لأن المكان الذي تصلح به (بلىٰ) لا تصلح به (نعم) والمكان الذي تصلح به (نعم) لا تصلح به (بلىٰ). و (بلىٰ) تأتي في اللغة العربية وفي القرآن العظيم لمعنيين لا ثالث لهما:

أحدهما: أن (بلىٰ) تأتي لنفي النفي، فهي نقيضة (لا) لأن (لا) لنفي الإثبات، و (بلىٰ) لنقيض النفي، فإذا جاء نفي في القرآن ثم جاءت بعده (بلىٰ) فإن (لا) تنفي ذلك النفي، ونفي النفي إثبات. فيصير ما بعد (بلىٰ) إثبات؛ لأنها نفت النفي الذي قبلها، ونفي النفي إثبات. وهذا كثير في القرآن، كقوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ نفوا البعث بأداة النفي التي هي (لن) ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ فنفى الله نفيهم للبعث، فثبت البعث؛ ولذا قال: ﴿وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: آية ٧] وكقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [سبأ: آية ٣] نفوا إتيان الساعة بحرف النفي الذي هو (لا)، قال الله: ﴿بَلَىٰ﴾ [سبأ: آية ٣] فنفت نفيهم، وأثبتت إتيان الساعة؛ ولذا قال بعده: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: آية ٣] وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب.

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٩.

المعنى الثاني: أن تأتي (بلىٰ) جواباً لاستفهام مقترن بالنفي خاصة، لا لاستفهام إيجابي، كقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: آية ١٧٢] ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ [يس: آية ٨١] وهكذا. ولا يجوز أن يقال في هذا: نعم. أما إن كان السؤال بالإثبات فالجواب بـ (نعم) لا بـ (بلىٰ) فلو قلت: هل جاء زيد؟ فالجواب: نعم قد جاء زيد. وقلت: أليس زيد قد جاء؟ فالجواب: بلىٰ. لا بـ (نعم)[1]. وما سُمع من كلام العرب في إتيان (نعم) بعد الاستفهام المقترن بالنفي الذي هو موضع (بلىٰ) فإنه شاذٌ يُحفظ ولا يُقاس عليه. وقد سُمع في كلام العرب إتيان لفظة (نعم) في محل (بلىٰ) في الاستفهام المقترن بالنفي، ومن شواهده قول الشاعر[2]:

أَليسَ الليلُ يجمعُ أمَّ عمرٍو وإيانَا؟ فذاكَ لنَا تداني
نَعَم، وترىٰ الهلالَ كما أراهُ ويعلوهَا النهارُ كما علاني

فالمحل هنا لـ(بلىٰ) لا لـ (نعم) لأن الاستفهام مقترن بنفي، وإنما يُحفظ مثل هذا ولا يُقاس عليه.

وقوله: ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: آية ٤٤] هو حرف إثبات، جوابٌ لاستفهام إثبات. معناه: وجدنا ما وعدنا ربنا من العذاب الأليم والنكال وجدناه حقاً.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ [الأعراف: آية ٤٤] التأذين في لغة العرب: الإعلام. تقول العرب: أذّن الرجل. إذا أعلم. ومنه الأذان للصلاة؛ لأنه الإعلام بدخول وقتها، ودعاء الناس إليها ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنبياء: آية ١٠٩] أعلمتكم، وآذنه: إذا أعلمه[3]. ومنه قول الحارث بن حِلِّزة[4]:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أسماءُ رُبَّ ثاوٍ يُملُّ منه الثَّواءُ

---

(١) انظر: القرطبي (٢١٠/٧)، الدر المصون (٣٢٦/٥)، رصف المباني ص١٥٧، ٣٦٤.
(٢) البيتان في الأمالي للقالي (٢٨٢/١)، رصف المباني ص٣٦٥، الدر المصون (٤٥٦/١).
(٣) انظر: المفردات (مادة: أذن) ص٧٠.
(٤) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: نادى مناد بصوتٍ عالٍ، وأعلم مُعْلم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ قرأ هذا الحرف عامة القراء إلا ورشاً عن نافع: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ بهمزة محققة. وقرأه ورش وحده عن نافع: ﴿فأذّن مُوَذّن﴾ بإبدال الهمزة واواً. انفرد بهذه القراءة ورش عن نافع عن جميع القراء[1].

﴿بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ٤٤] قرأ هذا الحرف نافع، وعاصم، وقنبل عن ابن كثير، وأبو عمرو، قرأوا كلهم: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ بتخفيف (أن) وضمّ تاء (لعنة). وقرأه الباقون ـ وهم حمزة، والكسائي، وابن عامرٍ، والبزي عن ابن كثير:/ ﴿أنّ لعنة الله﴾[2]. بتشديد (أَنَّ) ونصب (تاء) ﴿لَعْنَةَ﴾. ١/٨

واللعنة في لغة العرب[3]: الإبعاد والطرد. فالرجل إذا كان ذا جرائم، وذا جرائر، يطلبه هؤلاء بدم، وهؤلاء بدم، ثم إن قومه تبرؤوا منه وطردوه لئلا تقاتلهم القبائل التي يطالبونه بالدم، إذا نفوه وطردوه يُسمى رجلًا لعيناً، ومنه قول الشماخ أو غيره[4]:

ذَعَرْتُ به القَطَا، ونَفَيْتُ عنه مَقامَ الذئبِ، كالرجُل اللّعينِ

فـ (لعنة الله) معناها: طرده وإبعاده.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ [الأعراف: آية ٤٤] أي: نادى مناد وأعلم مُعلم.

﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم في دار الدنيا وكانوا يضعون العبادة في غير موضعها ـ والعياذ بالله ـ وهم الكفرة. وهذا من النكال بالكفار لما اعترفوا بأن الوعيد حق عليهم نادى مناد يدعو عليهم باللعنة ـ والعياذ بالله ـ ويصفهم بالظلم الذي استحقوا به عذاب الله ونكاله.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: آية ٤٥] ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل خفض لأنه نعت للظالمين.

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٠٥، إتحاف فضلاء البشر (٤٩/٢).
(٢) انظر: السبعة لابن مجاهد ص٢٨١، المبسوط لابن مهران ص٢٠٩.
(٣) انظر: اللسان (مادة: لعن) (٣٧٤/٣).
(٤) البيت للشماخ، وهو في اللسان (مادة: لعن) (٣٧٤/٣).

﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ العرب تستعمل (صد) استعمالين[١]: تستعملها متعدية إلى المفعول، تقول: صد زيد عَمْراً يصُده، ومصدر هذه (الصد) لا غير. ومنه: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: آية ١٦٠] صده يصُده صداً، على القياس؛ لأن كل فعل ثلاثي متعدٍ إلى المفعول ينقاس مصدره إلى (فَعْل) بفتح فسكون، فصده صداً؛ لأن مصدرها: (الصد) على القياس. وهذه مضمومة الصاد، وليس فيها إلا الضم. تقول: صده يصُدُّه صداً، لا غير.

الثانية: يستعملون (صدَّ) لازمه غير متعدية إلى المفعول، تقول: كان زيد ذاهباً إلى الشام فَصَدَّ عنه إلى العراق. أي: مال عنه إلى العراق، لازماً، ومصدر هذه: (الصدود) على القياس أو الغلبة. وفي مضارعها ضم الصاد وكسرها. تقول: صد زيد عن الأمر يصِد ويصُد. وعليه القراءتان السبعيتان[٢]: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿إذا قومك منه يصُدون﴾ [الزخرف: آية ٥٧] و(صد): هنا في هذه الآية هي (صد) المتعدية للمفعول.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يصدون الناس عن سبيل الله. و(السبيل): الطريق. وإنما أُضيفت الطريق إلى الله لأنها السبيل التي أمر بسلوكها، ووعد بالثواب من سلكها، ونهى عن عدم سلوكها، ووعد بالعقاب من لم يسلكها.

والسبيل في لغة العرب وفي القرآن تُذكَّر وتؤنث[٣]، فمن تأنيثها في القرآن: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: آية ١٠٨] وقوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: آية ٥٥] على من قرأ ﴿سبيلُ﴾ بالرفع: تستبين هي أي: سبيل المجرمين[٤].

وقد يذكّر السبيل كقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: آية ١٤٦].

وسبيل الله: هي دين الإسلام وطاعة الله التي جاءت بها رسله.

﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي: يطلبونها، وهي السبيل، أَنّثها في هذه الآية. يطلبونها

(١) انظر: الدر المصون (٥/٣٢٨).
(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٩٩.
(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٤ ـ ٥٥) من سورة الأنعام.

﴿عِوَجًا﴾ هذا مصدر بمعنى الوصف، أي: في حال كونها معوجة، يبغونها معوجة زائغة مائلة، فيها عبادة الأوثان، والشركاء، والأولاد لله. يطلبون هذه السبيل العوجاء التي ليس فيها استقامة. أما القرآن العظيم فسبيله ليس فيها عوج، بل هي مستقيمة، كما قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: آية ٢٨] وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: آية ١] فسبيل الله ليس فيها عوج. والسبيل التي يبغيها الكفار ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: آية ٤٥] أي: معوجة ذات عوج، عوجاء غير مستقيمة لما تدعو إليه من الكفر بالله، وادعاء الشركاء والأولاد له. وهذا معنى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: آية ٤٥] وهم مع ذلك كافرون بالآخرة، جاحدون بها.

﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾: هي الدار الآخرة، وقد بينا مراراً[1] أنها إنما سُميت آخرة لأنها ليس بعدها مرحلة أخرىٰ.

ويجب على كل إنسان أن ينظر في مراحله، وتاريخ مراحله، حتى يفهم الآخرة، لأن الله أمره بذلك حيث قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ [الطارق: الآيتان ٥، ٦] فاعلم أيها المسكين ـ الذي هو الإنسان ـ أن أول مراحلك تراب بلّه الله (تبارك وتعالى) بماء فصار ذلك التراب طيناً، ثم بعد أن صار طيناً ونقله الله من طَور إلى طور خُمِّر حتى [صار][2] طيناً لازباً، وتغيرت ريحه حتى صار حمأً، ثم إنه يبس حتى صار صلصالاً، ثم إن الله نفخ فيه الروح، وجعله بشراً سوياً خلق منه آدم، جعله ذا جسد ودم ولحم، ثم إنه خلق من ضلعه امرأته حواء، كما قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ قال في الأعراف: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: آية ١٨٩] وقال في أول النساء: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وقال في الزمر: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: آية ٦] وقد خلق حواء من آدم بلا نزاع كما نصت عليه هذه الآيات القرآنية، ثم بعد ذلك كانت طريق التناسل أيها الإنسان أن تكون أولاً نطفة من مني،

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٢) من سورة الأنعام.

(٢) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

حقيرة مهينة، من ماء الرجل وماء المرأة في رحم المرأة، ثم تمكث ما شاء الله وأنت نطفة، ثم يقلب الله هذه النطفة علقة، أي: دماً جامداً إذا صُب عليه الماء الحار لم يذب، ثم إن الله يقلب هذا الدم مضغة، أي: قطعة لحم كما يقطعه آكل اللحم ليمضغه، ثم إن الله يقلب هذه اللحمة هيكل عظام يركب بعضها ببعض، يركب فيه المفاصل بعضها ببعض، والسُّلاميات بعضها ببعض، والفقار بعضها ببعض ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان: آية ٢٨] ثم إنه (جل وعلا) يكسو هيكل هذا العظام اللحم، ويجعل فيه العروق، ويفتح فيه العيون، والأفواه، والآناف، ويجعل الكبد في محلها، والكليتين في محلهما، والطحال في محله، إلى غير ذلك، ثم ييسر لك طريق الخروج من بطن أمك، وهو مكان ضيق، كما قال: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ [عبس: آية ٢٠] ثم يخرجك إلى الدنيا. وقد جاوزنا جميع هذه المراحل ونحن في مرحلة الخروج إلى الدنيا، وهذه المرحلة المحطة التي نحن فيها منا من يسافر منها بسرعة، ومنا من يمكث فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: آية ٥] ويقال لنا: اعلموا أن السفر طويل، وأن الشقة فادحة، وأنه لا محطة يؤخذ منها الزاد إلا هذه المحطة، فمن لم يتزود من هذه المحطة هلك وانقطع عن القافلة، وبقي في بلاء وويل لا ينقطع. فعلينا أن نتزود من هذه المحطة التي هي محل الزاد ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ [البقرة: آية ١٩٧] فنأخذ من الأعمال الصالحات، والشقة أمامنا طويلة، والسفر بعيد، والسفر لم ينته. ثم بعد هذه المحطة ننتقل جميعاً إلى محطة القبور، وهي محطة من رحلة الإنسان. وسمع بدوي رجلاً يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر: آية ١] قال: انصرفوا والله من المقابر إلى دار أخرى؛ لأن الزائر منصرف لا محالة. ثم إن القبر محطة ومرحلة من هذه المراحل يخرجنا الله منه جميعاً أحياء نُساق إلى المحشر ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: الآية ٢٥] فنُساق جميعاً من محطة القبر إلى محطة المحشر في عرصات القيامة، ويلقى الناس فيها ما يلاقون من الأهوال والأوجال ودنو الشمس منهم، وإلجام العرق إياهم كما هو معروف، ثم يشفع

النبي ﷺ سيد الخلق الشفاعة الكبرىٰ، فإذا جاء الناس، واعتذر لهم آدم، واعتذر لهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وجاؤوا إليه صلوات الله وسلامه عليهم، وقال لهم: «**أنا لها**». يعني: أن الله وعده بذلك في دار الدنيا حيث قال له: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: آية **٧٩**] ولكنه (صلوات الله وسلامه عليه) لشدة علمه بالله، وتعظيمه لله، يعلم أنه لا شفاعة إلا بإذن الله ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: آية **٢٥٥**] ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: آية **٣**] فلا يتجرأ على الشفاعة فلتة بسرعة، وإنما يسجد ويلهمه ربه من المحامد ما لم يلهمه أحداً قبله ولا بعده، ولم يزل كذلك حتى يقول له ربه: يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ارفع رأسك، وسل تُعطه، واشفع تُشفع. فيشفع ﷺ الشفاعة الكبرى(١)، ويظهر في ذلك الوقت فضله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على جميع من في المحشر من الأنبياء والمرسلين، كما ظهر فضله عليهم في دار الدنيا لما عُرج به من فوق سبع سماوات، واجتمع بهم في بيت المقدس، وصلى بجميعهم بأمر من جبريل كما هو معروف في الأحاديث(٢)، فهو سيدهم في الدنيا وسيدهم في الآخرة ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ثم إذا أذن الله في الحساب حاسب الناس، ثم إذا انتهى حسابهم تفرقوا في ذلك الوقت فراقاً لا اجتماع بعده، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة: آية **٦**] وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: آية **١٤**] وهذا التفرق مذهوب به ذات اليمين إلى الجنة، ومذهوب به ذات الشمال إلى النار، وقد أوضح الله هذه الأشتات في سورة الروم حيث قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: الآيتان **١٥، ١٦**] فيُذهب بأهل الجنة إلى الجنة، وبأهل النار إلى النار، ويُذبح الموت، ويُقال: يا أهل الجنة خلود فلا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٦١) من سورة الأنعام.

موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. فحينئذ تنقطع الرحلة، وتُلقى عصا التسيار، وتكون تلك هي المحطة الأخيرة التي لا انتقال منها أبداً إلى محطة أخرى. فأهل الجنة في نعيم دائم، وأهل النار في عذاب دائم، لن ينتقل هؤلاء إلى منزل آخر، ولا هؤلاء إلى منزل آخر، ولهذا سُميت الآخرة لأن ليس بعدها محطة أُخرى يُنتقل إليها. وهذا إيضاح معنى (الآخرة).

وقوله: ﴿كَٰفِرُونَ﴾ أي: جاحدون. أصل الكفر في لغة العرب هو: الستر والتغطية، وكل شيء سترته وغطيته فقد كفرته. وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قيل للزراع: كُفّار؛ لأنهم يكفرون البذر في بطن الأرض، يسترونه ويغطونه. وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول لبيد في معلقته[1]:

يعلو طريقة متنِها متواترٌ ... في ليلةٍ كَفَرَ النجومَ غمامُها

يعني: سترها وغطاها غمامُها. ومن هنا قيل لليل: كافر؛ لأنه يكفر الأجرام ويغطيها بظلامه، ومنه قول لبيد في معلقته[2]:

حتى إذا ألقتْ يداً في كافرٍ ... وأَجَنَّ عوراتِ الثغورِ ظلامُها

كما هو معروف، وإنما سُمي الكافر كافراً لأنه يجحد نعم الله، ويجحد آياته، ويريد أن يغطيها بالجحود والكفر والعياذ بالله. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: آية ٤٥].

قال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ

---

(١) شرح القصائد المشهورات (١٥٢/١).

(٢) شرح القصائد المشهورات (١٦٦/١).

ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٤٦ ـ ٥١].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله جل وعلا: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي: بين أهل الجنة وأهل النار، وقيل: بين الجنة وبين النار حجاب، والحجاب هو: الحاجز الساتر بين الشيئين[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: آية ٥٣]. وهذا الحجاب الذي بين أهل الجنة وأهل النار، وبين الجنة والنار هو السُّور المذكور في سورة الحديد في قوله جل وعلا: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: آية ١٣] وهذا الحجاب الذي هو هذا السُّور المبين في سورة الحديد لا يمنع من كون النار في أسفل السافلين، والجنة في أعلى؛ لأن الجنة فوق السماوات والنار منسفلة تحت الأرضين، وهذا لا يمنع من أن الله يجعل سوراً ساتراً بين أهل الجنة وأهل النار كما صرح به في قوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وقوله: مبيناً لهذا الحجاب: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: آية ١٣].

وضَرْبُ ذلك الحجاب يبيِّن أن أهل الجنة لا ينالهم شيء من عذاب النار لا من حرّها ولا من نتنها ولا من أذاها، كما أن أهل النار لا ينالهم شيء مما في الجنة من النعيم، لا من بردها، ولا من نسيم روائحها الشذية، وهذا معنى قوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ الأعراف في اللغة: جمع عُرْف، والفُعْل يُجمع على أفعال. والعُرْف في لغة العرب هو كل مكان من الأرض مرتفع تسميه العرب عُرْفاً[2]، فالجبل المرتفع والرمل المرتفع تسميه العرب عُرْفاً، ومن ذلك عُرف الديك لارتفاعه على سائر بدنه، وعُرْف الفرس لارتفاعه على

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٢/٤٤٩)، القرطبي (٧/٢١١)، الدر المصون (٥/٣٢٨).

(٢) انظر: المجمل لابن فارس، كتاب العين، باب العين والفاء وما يثلثهما. ص٥١٣ تفسير ابن جرير (١٢/٤٤٩)، القرطبي (٧/٢١١)، الدر المصون (٥/٣٢٨)، معجم البلدان (٤/١٠٥).

سائر بدنها، فكل مرتفع تسميه العرب عُرْفاً، وتجمعه على أعراف، وربما قالوا للعُرْف عُرُف بضمتين، ومنه قول الكُميت[١]:

أبكاك بالعُرُفِ المَنْزِلُ وما أنتَ والطَّلَلُ المُحْوِلُ

وهذه الأعراف معناها بإطباق المفسرين أماكن مرتفعة عالية، وأكثر المفسرين على أنها هي أعاليها والسور وشرفاته؛ لأن هذا الحجاب المضروب بين أهل الجنة والنار، والسور الذي له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب له شرفات ـ أي: أعاليه له شرفات ـ مرتفعة في أعلاه هي الأعراف التي عليها هؤلاء الرجال المذكورون. وعلى هذا القول أكثر المفسرين، خلافاً لمن زعم أن الأعراف مرتفعات فوق الصراط عليها رجال على هذه المرتفعات فوق الصراط، محبوسون عن الجنة، مزحزحون عن النار. والأكثر أن المراد بالأعراف: أعالي ذلك السور وشرفاته المرتفعة عليها رجال. الرجال: جمع الرجل، واختُلف في المراد بهؤلاء الرجال الذي هم على الأعراف المذكورة على نحو من اثنين عشر قولاً مدارها على قولين كل منهما تتفرع منه أقوال[٢]:

أحدهما: أن الرجال الذين هم على الأعراف رجال قَلَّت حسناتهم عن سائر أهل الجنة فاستوت حسناتهم وسيئاتهم؛ لأنه إذا وُزن أعمال الجميع بالميزان المتقدم في قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾ [الأعراف: آية ٨] من ثقلت حسناته على سيئاته بقدر صُؤابة ـ وهي بيضة القملة ـ دخل الجنة، وكذلك من ثقلت سيئاته على حسناته فخفت كفة حسناته بقدر ذلك دخل النار، ومن اعتدلت سيئاته وحسناته فلم ترجح كفة السيئات، ولم ترجح كفة الحسنات؛ لأن آحاده قابلت عشراته فلم يكن هنالك رجحان لهذه ولا هذه فهؤلاء هم أصحاب الأعراف على قول جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم. وممن صرح بهذا: عبدالله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وعبدالله بن عباس[٣] ـ رضي الله عنهم ـ.

---

(١) البيت في الصحاح، باب الفاء، فصل العين (١٤٠١/٤)، معجم البلدان (١٠٥/٤).
(٢) انظر: ابن جرير (٤٥٢/١٢، ٤٦١)، القرطبي (٢١١/٧)، ابن كثير (٢١٦/٢).
(٣) كما في ابن جرير (٤٥٢/١٢ ـ ٤٥٧).

فعلى هذا مدار هذه الأقوال راجع إلى هذا القول، سواء قلنا ما قاله بعضهم من أنهم رجال جاهدوا في سبيل الله، فنهاهم آباؤهم، فعصوا آباءهم وعقوهم بالخروج، وقُتلوا في سبيل الله، فمنعهم القتل في سبيل الله من دخول النار، ومنعهم عقوق الآباء من دخول الجنة فكانوا على الأعراف.

وكذلك قول من قال: إنهم بروا آباءهم وعقوا أمهاتهم، أو بالعكس، فمنعهم بر الأمهات من النار، ومنعهم عقوق الآباء من دخول الجنة. إلى نحو هذا من الأقوال فمداره راجع إلى شيء واحد، كما رُوي مصرحاً به عن عبدالله بن مسعود[١] أنه الوزن، وأن من ثقلت موازينه دخل الجنة، ومن خفت موازينه دخل النار، ومن اعتدلت موازينه فلم ترجح إحدى الكفتين على الأخرىٰ كان على الأعراف. أقوال العلماء تدور على هذا. وعلى هذا القول فأصحاب الأعراف أقل عملًا من غيرهم من أهل الجنة؛ لأن لهم سيئات ثبطتهم عن دخول الجنة، ولهم حسنات منعتهم من دخول النار. وعلى هذا فهم أقل مرتبة من أهل الجنة الذين دخلوها.

وقال بعض العلماء: كما سيأتي في أنهم إذا دخلوا الجنة تبقىٰ في كل واحد منهم شامة بيضاء يُعرف بها.

وقال بعضهم: يقال لهم مساكين أهل الجنة؛ لأنهم آخر الداخلين فيها، سواء قلنا: إن الأعراف هو أعالي السور المذكور وشرفاته، أو أنه مرتفعات فوق الصراط كما قاله بعض العلماء. وعلى هذ القول فأصحاب الأعراف أقل درجة من أهل الجنة.

وذهب قوم إلى أن أصحاب الأعراف من أعظم درجات أهل الجنة، فزعم بعضهم أنهم ملائكة، وزعم بعضهم أنهم الشهداء، وزعم بعضهم أنهم خيار أهل الجنة من العلماء العاملين، والأتقياء الكرام، أنهم جاؤوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأن الله أجلسهم على هذا المكان المرتفع ليشرفوا على أهل النار وأهل الجنة على سبيل النزهة والتمتع بمعرفة أخبار الجميع، وما صار إليه أهل النار وأهل الجنة.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٢/٤٥٣).

والذين قالوا هذا القول اختلفوا فيهم اختلافاً كثيراً، بعضهم يقول: ملائكة. وهذا لا يساعده ظاهر قوله: ﴿رِجَالٌ﴾ لأن الملائكة لا يُسمون رجال. واحتجوا بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: آية ٩] أنهم في صفة الرجال، أو أنهم أنبياء، أو أنهم الشهداء، إلى غير ذلك.

وزعم بعضهم أنهم مؤمنو الجن. كما ذكرنا أن العلماء اختلفوا في المؤمنين من الجن هل يدخلون الجنة[1]؟ فزعم بعضهم أن المؤمنين من الجن لا يدخلون الجنة، وإنما جزاؤهم الإجارة من العذاب الأليم كما صرحوا به في قوله تعالى عنهم في سورة الأحقاف عن الجن حيث قالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: آية ٣١] ولم يقولوا: يدخلكم الجنة. قالوا: فعلموا أنهم إن أجابوا داعي الله وأطاعوه كان جزاؤهم غفران الذنوب، والإجارة من العذاب الأليم، قالوا: وربما سمى الله الجن رجالاً أيضاً كقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: آية ٦] وقد قدمنا أن التحقيق أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة كالمؤمنين من الإنس، وأنه دل عليه بعض الآيات، كقوله مخاطباً للجن والإنس معاً: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: آية ٤٦] ثم بين شمول الوعد بهاتين الجنتين للإنس والجن معاً فقال بعده: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: آية ٤٧] وهو خطاب للإنس والجن بالإجماع كما بينا.

وقول من قال: إن أصحاب الأعراف من أعظم أهل الجنة رتباً، أو أنهم ملائكة لا يتجه كل الاتجاه؛ لأنه يشير إلى عدم اتجاهه قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: آية ٤٦] على التحقيق من أنها في أصحاب الأعراف؛ لأن الملائكة وخيار أهل الجنة لا يناسب أن يقال فيهم: ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ وإن احتج من قال هذا بأن العرب قد تطلق الطمع على اليقين، إلا أنه ليس بالإطلاق المعروف المشهور الذي يجب حمل القرآن عليه.

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

وأقوال العلماء في هذا كثيرة، أظهرها الذي عليه الجمهور من الصحابة فمن بعدهم أن أصحاب الأعراف أنهم رجال منعتهم حسناتهم من دخول النار، ومنعتهم سيئاتهم من دخول الجنة، ولم يكن هنالك رجحان للحسنات على السيئات، ولا للسيئات على الحسنات. وظاهر القرآن أنهم كلهم ذكور؛ لأنه قال: ﴿رِجَالٌ﴾ ولم يقل (نساء). والمقرر في الأصول: أن لفظة (الرجال) لا يدخل فيها النساء[١]. وقال بعض العلماء: إذا ذُكر الرجال فلا مانع من دخول النساء بحكم التبع. واستأنسوا لهذا بأن العرب تسمي المرأة (رجلة)، وتسمية المرأة (رجلة) لغة صحيحة معروفة في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[٢]:

كُلُّ جارٍ ظلَّ مغتبطاً غير جيران بني جَبَلَة
مَزَّقوا ثوب فتاتهم لم يراعُوا حُرمة الرجُلة

يعني: المرأة. وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: آية ٤٦] جملة حالية.

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ [الأعراف: آية ٤٦] التنوين تنوين عوض ﴿كُلًّا﴾ من أهل الجنة وأهل النار.

﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ السيما في اللغة: العلامة التي يُميَّز بها الشيء عن غيره[٣]. فسيما أهل الجنة: ابيضاض الوجوه، ونضرة النعيم، والحُسن، وسيما أهل النار: اسوداد الوجوه، والقُبح، والتشويه الخلقي بأكل النار لهم والعياذ بالله ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف: آية ٤٦].

ثم بين الله أن أصحاب الأعراف ربما نظروا تارة إلى الجنة، وربما أُجبروا إلى النظر إلى أهل النار؛ لأن منظر النار فظيع جداً، لا ينظر إليه أحد باختياره؛ ولذا قال: ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: آية ٤٦] إذا نظروا إلى أهل الجنة وما هم فيه من النعيم حيوهم تحية كريمة، نادوهم من

---

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/٢٣٤)، المذكرة (٢١٢).

(٢) البيتان في اللسان (مادة: رجل) (١/١١٣٢).

(٣) انظر: المفردات (مادة: سام) ص٤٣٨.

مكانهم: ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [الأعراف: آية ٤٦] ومعنى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ سلمتم من جميع الآفات، وصرتم في مأمن من كل ما يؤذي. وهذه[1] تحية الإسلام: (السلام عليكم) لأن (السلام) معناه السلامة من كل الآفات (عليكم)، وهي أحسن تحية يُحيًا بها، تحية الإسلام أحسن من تحيات الجاهلية وتَحَايا الملوك. فأحسن تحية هي تحية الإسلام. (السلام عليكم) معناه: سلمكم الله من جميع الآفات، ومن كل شيء يؤذيكم. وكان الجاهلية يُحيُّون فيقولون: حياك الله، و(حياك الله): أطال الله حياتك. ومن ذلك قيل للسلام: تحية؛ لأن التحية مصدر: حَيَّاه يحيِّيه تحية. أصلها: (تَحْيِيَة) لأن المقرر في فن التصريف أن (فعّل) مُضعَّفة العين إذا كانت معتلة اللام ينقاس مصدرها على (التَّفْعِلة) كزكَّاهُ تزكية، ونمَّاهُ تنمية، وحيَّاه تَحْيِيَة، إلا أن الياء أُدغمت في الياء فقيل: (تحية)[2]. ومعنى: (حيَّاك الله): أطال الله حياتك. ومطلق الدعاء بطول الحياة لا يستلزم الخير؛ لأن الإنسان قد تكون حياته تعسة نَكِدَة يتمنى أن يستريح منها بالموت، فرب حياة يفضل صاحبها عليها الموت، كما قال بعض المتأخرين[3]:

أَلاَ موتٌ يُباعُ فأشتريه … فهذا العيشُ ما لا خير فيه
أَلاَ رحمَ المهيمن نفسَ حُرٍّ … تصدَّقَ بالوفاةِ على أخيهِ

فهذا يريد من يتصدق عليه بالموت تفضيلًا لها على حياته. ومنه الأبيات المعروفة، قيل إنها للأعشى ميمون بن قيس، وقيل لغيره[4]:

المرءُ يرغبُ في الحيا … ةِ وطول عيشٍ قد يضره
تفنى بشاشتُهُ ويبـ … قى بعد حُلو العَيشِ مُرُّه
وتسوؤه الأيامُ حـ … تى ما يرى شيئاً يسرُّه
كم شامتٍ بي إذْ هلكـ … تْ وقائلٍ لله درُّه

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.
(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٩٣.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.
(٤) السابق.

فالشاهد أن (حياك الله) أي: أطال الله حياتك. طول الحياة لا يستلزم الخير؛ لأنه ربما يكون في حياة مزعجة قلقة يتمنى أن يموت، فالموت خير منها، كما جاءت الأحاديث الصحيحة المتفق عليها أنه في آخر الزمان يأتي الرجل قبر أخيه فيتمنى كل المُنى أن يكون مكانه ميتاً، قَلَقاً من حياته، وإيثاراً للراحة منها من كثرة الفتن، والعياذ بالله[١].

هذا معنى ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي: سلمكم الله سلاماً. فالسلام اسم مصدر (سلَّم) وقد تقرر في علم العربية[٢] أن (فَعَّل) مُضعَّفة العين قياس مصدرها (التفعيل) إلا إذا كانت معتلة اللام أو مهموزته فالقياس في مصدرها (التفْعِلة) ويكثر إتيان (الفَعَال) بدلًا من (التفعيل) اسم مصدر، كما تقول: سلَّم عليه سلاماً. أي: تسليماً. وكلمه كلاماً. أي: تكليماً. وبين له الأمر بياناً. أي: تبييناً. وطلّق امرأته طلاقاً. أي: تطليقاً. ومنه (السلام) لأنه مصدر (سلَّم) فمعنى (سلام عليكم) سلمكم الله من جميع الآفات. وهذه تحية عظيمة. وإنما ساغ الابتداء بالنكرة هنا لأنها في معرض الدعاء.

﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [الأعراف: آية ٤٦].

(أنْ) هذه كاللواتي قبلها التي ذكرنا احتمال كونها مخففة من الثقيلة، أو أنها تفسيرية. فعلى أنها مخففة من الثقيلة فاسمها ضمير الشأن المستكن، وخبرها جملة المبتدأ والخبر. وعلى أنها تفسيرية فهي بمعنى (أي) وما بعدها يفسر ما قبلها. وضابط (أن) التفسيرية: هي أن يتقدمها معنى القول وليس فيه حروف القول[٣]. والمناداة التي تقدمتها فيها معنى القول وليس فيها حروف القول. هذا معنى ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾.

---

(١) السابق.

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٧٧ ـ ٧٩).

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أظهر التفسيرين في قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أنه واقع على أصحاب الأعراف، ولا محل للجملة من الإعراب على أصح القولين. فكأن سائلًا سأل قال: ما شأن أصحاب الأعراف هؤلاء الذين يُحيُّون أهل الجنة ويخاطبون أهل النار، ما قصتهم، وما شأنهم؟ فأُجيب بقوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ لم يدخلوا الجنة بالفعل ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في دخولها في ثاني حال طمعاً منهم في رحمة ربهم وفضله جل وعلا. وهذا هو أصح التفسرين، خلافاً لمن قال إن الأعراف أنها شرفات عالية فوق الصراط مرتفعات في الصراط، عليها هؤلاء الرجال، تمر بهم زُمَرُ الجنة، وزُمَرُ أهل النار، فإذا رأوا زُمَر أهل الجنة عرفوهم بسيماهم، وحيوهم، وقالوا لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي: أهل الجنة الذين هم مارون بأهل الأعراف ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في دخولها لأنهم ذاهبون إليها. هذا القول قال به جماعة من علماء التفسير، والأول أظهر منه.

ومعنى ﴿يَطْمَعُونَ﴾ الطمع: هو تعلق النفس وأملها في الحصول على الشيء. وهذا معنى قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ والأول أظهر من الثاني.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: آية ٤٧] ﴿صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ معناه قُلبت عيونهم ﴿تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، إلى جهة أصحاب النار ومقابلتهم حتى يروهم. والعبارة بقوله: ﴿صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ تدل على أن الله هو الذي صرف أبصارهم إليهم، وأنهم ما كانوا يحبون النظر إليهم اختياراً لشدة الهول وفظاعة الأمر ـ والعياذ بالله ـ ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: قُلبت أبصارهم تجاه أهل النار ونظروا ما هم فيه من العذاب ـ والعياذ بالله ـ وما هم فيه من سوء الحال، واسوداد الوجوه، وتغيير الخلقة، وإحراق النار لهم، تَعَوَّذُوا بالله من النار ومن شرها، وتضرعوا ملتجئين إلى الله أن لا يجعلهم من أهل النار، قالوا: ﴿رَبَّنَا﴾ يا خالقنا وسيدنا ومدبر شؤوننا أعذنا من النار و ﴿لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ٤٧] أي: لا تصيرنا مع القوم الظالمين. يعنون: أصحاب

النار. وقد قدمنا أن (القوم) اسم جمع لا واحد له من لفظه، يطلق بأصل الوضع العربي على خصوص الذكور، وربما دخل فيه الإناث بحكم التبع[١]. والدليل على إطلاقه بالأصالة على الذكور دون الإناث قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: آية ١١] فعطفه النساء على القوم يدل على أنهن لم يدخلن فيهم بحسب الوضع. ومن ذلك قول زهير[٢]:

وما أدري وسوفَ إخالُ أدري أقومٌ آل حصنٍ أم نساءُ

فجعل النساء غير القوم. والدليل على دخول النساء في القوم بحكم التبع قوله تعالى في ملكة سبأ (بلقيس): ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: آية ٤٣] فصرح أنها من قوم. دخلت في اسم القوم بحكم التبع.

ومعنى: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قد قدمنا أن الظلم يطلق على الكفر، وهو أعظم أنواعه؛ لأن الظلم: وضع الشيء في غير موضعه[٣]، وأنه يطلق على ظلم دون ظلم، كظلم المسلم لنفسه. والظاهر أنهم يعنون الكفار، والكفار هم رؤساء الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] وقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] وقال جل وعلا: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: آية ١٠٦] وثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسَّر قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ٨٢] قال: بشرك[٤]. وقد قدمنا أن كل من وضع شيئاً في غير موضعه فقد ظلم، وأن أكبر أنواع الظلم وضع العبادة في غير الخالق؛ لأن أكل الإنسان رزقه ونعمه

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٤) السابق.

وتقلبه في فضله وهو يعبد غيره وضع للعبادة في غير موضعها. وذلك معروف في كلام العرب، فكل من وضع شيئاً في غير موضعه تقول له العرب: ظالماً، وقد ذكرنا مراراً أنهم يسمون الذي يضرب لبنه قبل أن يروب (ظالماً) لأنه وضع الضرب في غير موضعه؛ لأن ضربه قبل أن يروب يضيع زبده، فهو ضرب في غير موضعه، فهو ظلم[١]. وهذا معروف في كلامهم. وفي لُغَز الحريري في مقاماته: «هل يجوز أن يكون الحاكم ظالماً؟ قال: نعم إذا كان عالماً»[٢] يريد أن القاضي إذا كان يضرب لبنه قبل أن يروب لا مانع من أن يُستقضىٰ إذا كان من أهل العلم، وهو معروف كثير في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[٣]:

وقائلة ظلمتُ لكم سقائي ... وهل يخفىٰ على العَكَدِ الظَّليم

والعَكَد: عَصَب اللسان. ويُروى: «على العُكَد الظليم» ومنه قول الآخر في سقاء له من اللبن صبَّه وسقاه قومه قبل أن يروب[٤]:

وصاحب صدقٍ لم تربني شكاتُه ... ظلمتُ وفي ظَلْمي له عَامداً أجرُ

ومنه قيل للأرض التي حُفرت وليست محل حفر: (مظلومة)، وقيل للتراب الذي يستخرج من حفر القبر: (ظليم) لأنه حَفْرٌ في غير محل الحفر، لم يحفر قبل هذا، ولم يكن معهوداً لأن يُحفر لاستخراج ماء ونحوه. ومن إطلاقه على الأرض التي حُفرت وليست محلّا للحفر قول نابغة ذبيان[٥]:

إلا الأَوَاريَّ لأْياً ما أُبَيِّنُها ... والنُّؤي كالحوضِ بالمظلومةِ الجَلَدِ

أي: بالأرض المظلومة المحفور فيها وهي ليست محلّا للحفر؛ لأن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.
(٢) السابق.
(٣) السابق.
(٤) السابق.
(٥) السابق.

الحفر وُضع في غير موضعه. وهذا هو المعنى الصحيح، خلافاً لمن زعم أن المظلومة هي التي تأخر عنها المطر، ومنه قيل لتراب القبر (ظليم) لأن حَفْرَه ليس في محل الحَفْر عادة قبل ذلك. ومنه قول الشاعر يصف ميتاً مدفوناً في قبره مردوداً عليه تراب القبر[١]:

فأَصْبَح في غبراءَ بعد إشاحةٍ من العيشِ مردود عليها ظَليمُها

وهذا معنى معروف في كلام العرب: فأكبر أنواع الظلم وضع العبادة في غير موضعها وهو الكفر بالله ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] وفيه ظلم دون ظلم، كالذي يطيع الشيطان ويعصي الله معتقداً أنه فاعل معصية، وأنه مرتكب قبيحة؛ لأن هذا من عصاة المسلمين الذين إن شاء الله غفر لهم، وقد ذكرنا أن الظالم لنفسه من جملة المؤمنين الذين يدخلون الجنة؛ لأنه يخلط العمل الصالح والعمل السيء، فقد يتوب الله عليه.

ومعنى قوله: ﴿لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تصيرنا مع أهل النار في ذلك العذاب الشديد والإهانة العظيمة ـ والعياذ بالله ـ وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: آية ٤٧] في هذا الحرف ثلاث قراءات سبعيات[٢]:

قرأه قالون عن نافع، والبزي عن ابن كثير، وأبو عمرو في جميع الروايات: ﴿تلقَا أصحاب النار﴾ [الأعراف: آية ٤٧] بحذف إحدى الهمزتين مع المد بناءً على أن المحذوفة الأخيرة، ومع عدم المد بناء على أن المحذوفة الأولى.

وقرأه ورش عن نافع، وقنبل عن ابن كثير: ﴿تِلْقَآء اصْحَاب النار﴾ بمد الثانية همزاً للأولى، ومدها نظراً للساكن بعدها.

وقرأه بقية القراء السبعة، وهم حمزة، والكسائي، وعاصم، وابن عامر: ﴿تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ بتحقيق الهمزتين.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص(١٢٥ ـ ١٢٦)، الإتحاف (١/١٩٣)، (٢/٤٧، ٥٠).

والتلقاء: مصدر، معناه أن يكون الشيء جهة الشيء الذي يُتلقى منها. ولم يأت مصدر على (التِّفعَال) بكسر العين إلا (التلقاء، والتبيان) أما غير ذلك من المصادر فهو بالفتح في كل شيء، كالتَّسْيَار، والتَّذكار، والتَّطواف[1]. أما الأسماء فهي تأتي كثيراً على (تِفْعال) كتِقصار، وما جرى مجراه، كما هو معروف في علم العربية. ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ٤٧].

ثم بين (جل وعلا) أن أصحاب الأعراف ينادون رجالًا من أهل النار ويوبخونهم، وظاهر القرآن أنهم يعرفونهم في الدنيا، ويعرفونهم في النار بسيماهم فينادونهم ويوبخونهم ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ [الأعراف: آية ٤٨] يعني من أهل النار ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف: آية ٤٨] وبَّخوهم وقالوا لهم: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٤٨] ماذا نفعكم به؟ العرب تقول: أغنى عنه الشيء يغني. إذا نفعه. والاسم من هذا يُسمى (غَناء) لأن العرب تسمي النفع (غَناء) وتسمي المطرب الخبيث (غِناء) وتسمي الإقامة (غنىً). فالمادة موجودة منها خمس لغات[2]، وهي: (الغِناء) بالكسر والمد، و (الغَناء) بالفتح والمد، و (الغِنى) بالكسر والقصر، و (الغَنى) بالفتح والقصر، و (الغُنى) بالضم والقصر، كلها موجودة في اللغة، ولم يوجد منها (الغُناء) بالضم فالمد، هذا ليس بموجود في العربية.

أما (الغِنَى) بالكسر والقصر فهو ضد الفقر. وأما (الغِنَاء) بالكسر والمد فالمراد به المطرب قبحه الله. وأما (الغَنَاء) بالفتح والمد كسحاب فهو النفع، ومنه قول الشاعر[3]:

قَلَّ الغَنَاءُ إذا لاقى الفتى تلفاً   قول الأحِبَّةِ: لا تبعدْ وقدْ بعدَا

(١) انظر: الدر المصون (٥/٣٣١).

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/٥٦٩)، المصباح المنير (مادة: غنت) ص١٧٣، اللسان (مادة: غنا) (٣/١٠٢٤)، القرطبي (٧/٢٥١ ـ ٢٥٢)، الدر المصون (٥/٣٨٧).

(٣) البيت في المساعد على تسهيل الفوائد (٢/٢٣٥).

وقول هبيرة بن أبي وهب على إحدى روايتي بيته[1]:

لعمركَ ما وليتُ ظهري محمداً وأصحَابه جُبْناً ولا خيفة القتلِ
ولكنني قلَّبتُ أمري فلم أَجِدْ لسيفي غناءً إن ضربتُ ولا نبلي

أي: نفعاً. ويُروى (مساغاً) فالغَنَاء: النفع. ومن الغَنَاء بمعنى النفع قولهم: فلان لا يُغني شيئاً. أي: لا ينفع بشيء. و ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي: ما نفعكم بشيء. هذا[2] من هذه المادة. أما (الغُنى) بالضم والقصر فهو جمع غُنية، والغُنية ما يقتنيه الإنسان فيستغني به عن الناس. وأما (الغَنى) بالفتح والقصر فهو مصدر غَنِيَ بالمكان يَغْنَى به غَنىً على القياس إذا أقام به. ومنه قوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: آية ٢٤] أي: كأن لم تُقِم بالأمس. هذا معنى هذه المادة وتصاريفها في لغة العرب. والمعنى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ ما نفعكم بشيء، ولا دفع عنكم شيئاً.

وقوله: ﴿جَمْعُكُمْ﴾ هو ما كنتم تجمعون في دار الدنيا من الأموال، وما كنتم تتخذونه من الجمع المُؤيِّد من الأولاد والأعوان، كل ما كنتم تجمعونه في الدنيا من الأموال، وتتخذون من الأعوان والأولاد، كل ذلك لم يُغْنِ عنكم شيئاً، لم ينفعكم بشيء، ولم يدفع عنكم شيئاً إذ أنتم في دركات النار والعياذ بالله.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (ما) مصدرية. أي: ولم يغن عنكم كونكم مستكبرين في الدنيا متكبرين متعاظمين، لم يغن عنكم ذلك الاستكبار والتعاظم شيئاً؛ لأنكم صرتم إلى دركات النار. وبعض المفسرين يزعم أنهم ينادون الرؤساء بأسمائهم فيقولون: يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا فلان بن فلان، يا عتبة بن ربيعة، يا فلان بن فلان ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ توبيخاً وتقريعاً لهم والعياذ بالله.

---

(١) البيتان في السيرة لابن هشام ص(١٠٨٥ ـ ١٠٨٦)، وأوله: «العمري...» إلخ.
(٢) سيأتي قريباً عند تفسير الآية (٩٢) من هذه السورة.

وظاهر القرآن أن هذا التوبيخ والتقريع من أصحاب الأعراف لهؤلاء الذين هم في النار، وأصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة وأهل النار، ولا مانع من أن الله يطلع من في الجنة على من في النار كما سيأتي في قوله: ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: آية ٥٠] وستأتي قصة الرجل في سورة الصافات[١]؛ لأن الله ذكر في الصافات قصة رجل وأجملها، والمفسرون يبسطونها ويشرحونها، إلا أن شرحهم لها وبسطها من القصص الإسرائيلية التي لا يعُوَّل عليها، إلا أن القرآن جاء بقدر منها كاف. زعموا أنه كان رجلان في دار الدنيا شريكين ولهما مال عظيم، فاقتسما المال، وكان أحدهما مسلماً والآخر كافراً، فكان المسلم يقول للكافر: يا أخي تصدق من مالك واتق الله، وذلك يقول له: أنت مفقود العقل كيف نحيا بعد الموت؟ هذا أمر لا يكون وأنت لا عقل لك!! ثم إن الكافر اشترى بساتين جميلة، ثم سأل ذلك عن الثمن فقيل: اشتراها بكذا، فقال: اللهم إن فلاناً اشترى كذا وكذا من البساتين بكذا وكذا من المال، اللهم إني أشتري إليك من بساتين الجنة بمثل ما اشترى، ثم أخذ قدر الثمن وتصدق به. ثم إن الكافر تزوج امرأة جميلة بارعة في الجمال، وبذل لها مهراً عظيماً. فقال المؤمن: اللهم إن فلاناً تزوج فلانة، وبذل لها من المال كذا، اللهم إني أخطب إليك بقدر ذلك المال من الحور العين، ثم تصدق به على الفقراء. وهكذا إلى أن نفد ما عنده. فجاء لصاحبه الكافر يريد أن يعمل أجيراً عنده فطرده ومنعه، وكان يراوده على الرجوع إلى الكفر، فدخل ذلك المؤمن الجنة وذلك الكافر النار، فبعض الأوقات كان ذلك المؤمن يتحدث مع إخوانه في نعيم الجنة، فأخبرهم أنه كان له صاحب في دار الدنيا من أمره كيت وكيت، وقال لهم: انظروا معي في النار لنعلم ما صار إليه، وننظر ماذا كان مصيره. فقالوا له: لا حاجة لنا فيه، ولا معرفة لنا به، وأنت إن شئت فانظر. فنظر في النار فرآه يتقلب في دركات الجحيم، وهذا الذي ذكرنا الآن تفاصيله إسرائيليات تُحكى ولا يعول عليها. والصحيح الثابت هو ما نص عليه القرآن في سورة الصافات، وهو

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

قوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ يعني في دار الدنيا ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وفي القراءة الأخرى[1]: ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ ﴿لمن المصَّدِقين﴾[2] ﴿لَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: مطلعون معي لننظر مصيره ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ أي: فاطلع هو، أي: صاحبه المؤمن من الجنة إلى النار ﴿فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات: الآيات ٤٨ ـ ٥٧].

وقصة هذا الرجل التي ذكرناها استطراداً تدل على المباعدة من قرين السوء؛ لأن هذا الرجل المؤمن الكريم حلف بالله وهو في الجنة أن قرينه قرين السوء كاد أن يهلكه ويلقيه في النار حيث قال: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: معك في النار؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: الآيتان ٤٨، ٤٩].

واختُلف في قائل هذا القول[3]، فظاهر القرآن أنه من بقية كلام أصحاب الأعراف، يوبخون رؤساء أهل النار، ويقولون لهم: أهؤلاء الضعفاء المساكين الذين كنتم تسخرون منهم في الدنيا، وتستهزؤون بهم، وتضحكون منهم، وتقولون: الله أعظم من أن يعبأ بهؤلاء، والله لا يدخلهم جنة، ولا يدخلهم نعيماً أبداً! ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الضعفاء المساكين الذين كنتم تستهزئون بهم في الدنيا وتسخرون منهم وتُقسمون ـ تحلفون بالله ـ ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ ماذا قال لهم الله؟ قال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: آية ٤٩] وعلى هذا فيكون أصحاب الأعراف قد وبَّخوا رؤساء

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٧٦.

(٢) القراءة بتشديد الصاد من (المُصَّدِقين) رواية عن حمزة، كما في القرطبي (٨٢/١٥)، البحر المحيط (٣٦٠/٧)، الدر المصون (٣٠٨/٩).

(٣) انظر: ابن جرير (٤٦٩/١٢)، القرطبي (٢١٤/٧).

الكفر والقادة بأنهم لم يغن عنهم تكبرهم في الدنيا وجمعهم، وأن الضعفاء المساكين الذين كانوا يسخرون منهم أحلَّهم الله دار كرامته، ونفى عنهم الخوف والحزن أبداً.

وقال بعض العلماء: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ هي من كلام الله يوبخ بها الكفار، أو من كلام بعض الملائكة أمره بذلك، وأن قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ راجعه إلى أصحاب الأعراف، أن أصحاب الأعراف بعد أن وبَّخوا أهل النار وهم بين الجنة والنار يطمعون أنه بعد ذلك يرحمهم الله فيتفضل عليهم، ويقول لأصحاب الأعراف: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ وهذا الوجه الأخير ذكره جماعة كثيرة من المفسرين، والأول أظهر، وإن كان القائل بهذا الأخير كثيراً جداً من علماء التفسير.

والجنة هي دار الكرامة التي أعد الله لأوليائه.

﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ قد بيّنّا[1] أنّ الخوف في لغة العرب هو: الغم من أمر مستقبل ـ أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منه ـ وأن الحَزَن ـ يُسمى (حَزَناً) ويسمى (حُزْناً) وفعله يأتي على (حَزَنَ وحَزِن) ومضارعه يأتي على (يَحزِن) و (يَحْزُن) ـ أنه والعياذ بالله ـ غم من أمر فائت. تقول: فلان حزين. إذا أصابته مصيبة وكان حزيناً من أمر قد مضى ووقع. وتقول: فلان خائف إذا كان مغموماً من أمر يتوقعه ولم يأت بعد. هذا أصل الخوف والحزن في لغة العرب ـ أعاذنا الله منهما ـ وربما وضعت العرب أحدهما في موضع الآخر فعبرت بالخوف عن غم من أمر فائت. وربما عبّروا بالحزن عن الغم من أمر مستقبل، ربما وضعت أحدهما في موضع الآخر. وهذا معنى قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الأعراف: آية ٥٠] بين (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة أن الكفار في دركات النار ـ والعياذ بالله ـ إذا أحرقتهم

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

النار وأضر بهم الجوع الشديد والعطش الشديد مع إحراق النار سألوا أهل الجنة، وفي قصتهم أنهم يقولون لله: إن لنا قرابات في الجنة فَأْذَن لنا أن نراهم ونقابلهم ونكلمهم، وأنهم إذا قابلوهم يدعو الواحد أخاه، والواحد أباه، والواحد ابنه، والواحد يدعو ابن عمه؛ لأنه ـ والعياذ بالله ـ يكون أَخَوَان أحدهما في الجنة، والثاني في النار، ويكون أَخَوَان، الابن في الجنة، والأب في النار والعكس، فيقولون ـ لهم يستغيثون بقراباتهم ـ إنهم في إحراق وجوع وعطش، ويطلبون منهم أن يفيضوا عليهم من الماء ليتبردوا من شدة الحريق الذي هم فيه وشدة العطش، فيجيبوهم: بأن الله حرم ما في الجنة على الكفار ـ أعاذنا الله من الكفر ـ وهذا معنى قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [الأعراف: آية ٥٠] (أن) هي كالمذكورات قبلها في القولين الَّذين بيَّنَّا.

﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ إفاضة الماء: صبه بكثرة وسعة.

﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: آية ٥٠] (أو) هنا مانعة خلو مُجوِّزة جمع، يجوز أن يكون الماء وحده، أو ما رزقهم الله، أو الجميع.

﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ بعضهم يقول: مما رزقكم الله من الأنواع التي تشبه الماء كالألبان وكالخمر؛ لأن الإفاضة يظنون أنها تختص بالسائلات، وعلى هذا قدروا في قوله: ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أو ألقُوا إلينا مما رزقكم الله. وهذا وإن كان سائغاً في اللغة العربية ـ أن يُحذف فعل يدل [عليه][1] المقام، وهذا موجود كثيراً في اللغة العربية ـ إلا أنه لا يُحتاج إليه في هذه الآية الكريمة، وهو معروف في كلام العرب، كقول الراجز[2] ـ:

عَلَفْتُها تِبْناً وماءً بارداً حتى شَتَت هَمَّالةً عَيْنَاهَا

لأن الماء البارد لا يُعلف. يعني: علفتها تبناً وسقيتها ماءً، ومنه قول الآخر[3]:

---

(١) في الأصل: «على».

(٢) البيت في الخصائص (٢/٤٣١).

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

إذا ما الغانياتُ برزنَ يوماً وزَجَّجْنَ الحَواجِبَ والعيونَا

لأن العيون لا تُزجج. والمعنى: وأكحلن العيون. وقول الآخر[١]:

ورأيتُ زوجكِ في الوغى متقلداً سيفاً ورمحاً

لأن الرمح لا يُتقلد. أي: وحاملًا رمحاً. وهذا كثير في المنصوبات. ومن أمثلته في المرفوعات قوله جل وعلا ـ على أحد التفسيرين ـ ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ لأن الجلود لا تُصهر. أي: لا تُذاب. معناه: وتحرق الجلود. ونظيره في المرفوعات من كلام العرب قول لبيد بن ربيعة في معلقته[٢]:

فَعَلا فُرُوعُ الأَيْهُقَانِ وأَطْفلَت بالجَلْهَتين ظِباؤُها ونَعامُها

لأن النعام لا يُطْفِل، وإنما هو يبيض حتى بعد ذلك ينفلق البيض عن الأطفال. هكذا قال بعضهم، والتحقيق أن إفاضة الشيء وإلقاءه بكثرة قد يكون في المائعات وغير المائعات، وقد أطلقه الله على الآدميين المفيضين من عرفات وهم ليسوا من المائعات، كما قال: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: آية ١٩٩] ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ [البقرة: آية ١٩٨] والعرب تقول: «أفاض علينا من طعامه، وأفاض علينا من رزقه». إذا أكثر، كما هو معروف. فلا حاجة إلى هذا التقدير الذي ذهب إليه كثير من المفسرين.

﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من مآكل الجنة ومشاربها، يطلبونهم ويستجدونهم. قال بعض العلماء: يسألون مع اليأس. وقال بعضهم: لهم طمع لشدة ما هم فيه. فأجابهم المؤمنون في الجنة، فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ أي: الشيئين اللَّذين [سألتم][٣]، وهما: الماء وما رزقنا الله من نعيمه غير الماء.

---

(١) البيت في الخصائص (٤٣١/٢)، شرح القصائد المشهورات (١٣٣/١).

(٢) شرح القصائد المشهورات (١٣٢/١). وقوله: «الأيهُقَان» جمع أَيْهُقَانه، وهو الجرجير البري. وقوله: «وأطفلت» أي: كثر أطفالها. والجلهتان: جانبا الوادي. والمعنى: أن الشاعر يصف دياراً خلت من أهلها فنما فيها الجرجير البري وارتفع وكثر أولاد الوحش بها لأمنها فيها.

(٣) في الأصل: «سألتما».

﴿حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: آية ٥٠] والتحريم هنا تحريم كوني قدري، أي: منعهما من الكافرين؛ لأن التحريم يُطلق في القرآن وفي لغة العرب على التحريم الشرعي، وعلى التحريم بمعنىٰ المنع. وليس المراد هنا أنهما شرعاً محرمات، ولكنه تحريم قدري، وأن الله منع منهما الكافرين منعاً باتاً بقدره وقضائه، ونظيره من التحريم بالمعنى القدري لا بالمعنىٰ الشرعي قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: آية ٢٦] وقوله جل وعلا: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: آية ١٢] لأن الرضيع لا يؤاخذ بالتحريم الشرعي حتى يكون عليه حرام أو حلال. و المعنى: منعناه منهما. ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥﴾ [الأنبياء: آية ٥٠] هو من التحريم بمعنى المنع كوناً وقدراً. والتحريم بمعنى المنع معروف في كلام العرب، مشهور في لغتهم التي نزل بها القرآن، ومنه قول الشاعر[1]:

حرامٌ على عينيَّ أن تطعَمَ الكَرَى وأن تَرْقَأ حتى أُلاقيكِ يا هندُ

فمعنى «حرام على عيني أن تطعم الكرى»: ممنوعتان من ذوق النعاس والنوم. ونظيره قول امرىء القيس لفرسه[2]:

جَالتْ لتصرعني فقلتُ لها اقصري إني امرؤٌ صرعي عليكِ حرام

أي: لا تقدرين عليه. فمعنى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حكم بمنعهم منهما حكماً باتاً، كما قال (جل وعلا) عن عيسى بن مريم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: آية ٧٢] وكذلك الكفار كما أن الجنة حرام عليهم فما فيها من الماء والرزق والنعيم حرام عليهم لا يذوقونه أبداً. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ثم أخذوا يوبخونهم بصفاتهم الخسيسة التي كانوا يرتكبونها في دار

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

الدنيا فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف: آية ٥١] إنما أضاف الدين إليهم مع أنهم ليس لهم دين ـ قبحهم الله ـ لأن الدين أمرهم الله به، وأرسل إليهم نبيه يدعوهم إليه، فكان من حقهم أن يعتنقوه، وأن يطيعوا الله، فلم يكن لهم دين إلا هذا اللهو واللعب. واللهو واللعب متقاربان[١]، قال بعض العلماء: اللهو: هو صرف النفس عما ينفع ويفيد إلى ما لا ينفع ولا يفيد. واللعب: هو أن يطلب الإنسان لنفسه الفرح والسرور بما لا ينبغي أن يفرح به، ولا أن يُسَرّ به. وهما متقاربان.

ومعنى اتخاذهم الدين لهواً ولعباً: أنهم يسخرون من القرآن، ويسخرون من النبي ﷺ، ومن ضعفاء المسلمين، يستهزؤن بالدين وبأهل الدين. وبذلك اتخذوا الدين لهواً ولعباً كما قال (جل وعلا) أنهم إذا مر
٨/ب بهم ضعفاء المسلمين:/ ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١﴾ [المطففين: الآيتان ٣٠، ٣١] ويسخرون منهم ويستهزؤن كما قال (جل وعلا) عنهم إنهم يقولون: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾ [البقرة: الآيتان ١٤، ١٥] ويسخرون من المؤمنين كما سخروا من نبي الله نوح، وقالوا له: بعد أن كنت نبياً صرت نجاراً. وقال لهم: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٩﴾ [هود: الآيتان ٣٨، ٣٩] وهذا معنى اتخاذهم الدين لهواً ولعباً.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: آية ٥١] أي: خدعتهم الدنيا بلذائذها ونعيمها، وظنوا أنها غير زائلة، وأنها لا جزاء بعدها، فألهتهم لذاتها ـ والعياذ بالله ـ والانهماك فيها حتى ماتوا وهم كفار.

وهذه الآيات ينبغي للمسلم أن يعتبر بها، ويأخذ منها عظات كريمة، فيعلم أن يوم القيامة إنما هو بحسب الأعمال، هنالك قوم قصرت بهم أعمالهم تقصيراً شديداً فأُدخلوا دركات النار، وقوم قصرت بهم أعمالهم تقصيراً غير شديد فحُبسوا عن الجنة، وقوم لم تُقصر بهم أعمالهم فأُدخلوا

---

(١) انظر: الفروق اللغوية ص٢١٠، المفردات (مادة: لعب) (٧٤١)، (مادة: لهى) ص٧٤٨.

الجنة، ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه، كما ثبت عن النبي ﷺ[١]. والمراد من قصص هذه الأخبار أن نعتبر في دار الدنيا، ونعلم أن الأمور بحسب الأعمال، وأن من قصَّر به عمله كان في دركات النار، ومن قصر به عمله تقصيراً أخف من ذلك حُبس عن الجنة إلى ما شاء الله. فعلينا أن نحذر من التقصير في طاعة الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ لأن التقصير قد يجر إلى دركات النار، وقد يجر أيضاً إلى الحبس عن الجنة. فعلى المسلم أن يحذر من هذا ومن هذا، وأن يطيع الله ويبالغ في مرضاة الله بامتثال أوامر الله واجتناب نواهي الله بحيث لا يتخلف عن أمرٍ أمره الله به، ولا يوجد عند أمر نهاه الله عنه؛ ليدخل الجنة، ولا يدخل النار، ولا يُحبس عن الجنة بسيئاته.

هذا يلزم، كذلك لا يتخذ الدين هُزُؤاً ولعباً؛ لأن الذين يتخذون الدين هُزُؤاً ولعباً سيجدون غِبَّ ذلك. وأتباع هؤلاء كثروا في هذا الزمان والعياذ بالله؛ لأن كل نزعة كفرية تتجدد لها أغصان بعروقها القديمة، وهذه النزعة متجددة الآن تجدداً كثيراً؛ لأنك تجد كثيراً من الشباب في جميع أقطار المعمورة ممن ينتسبون إلى الإسلام يتخذون الدين هزواً ولعباً، ويتمسخرون من الذي يصلي، ومن الذي يتسم بسمت الأنبياء، فيعفي ذقنه ولا يحلقه، وربما قلدوا عليه التيس استهزاءً واستحقاراً. فهؤلاء ينالهم من وعيد الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً بقدر ما ارتكبوا. فيجب على كل مسلم شاباً كان أو غيره أن لا يتخذ الدين هزواً ولعباً، وألا يتخذ الدين لهواً ولعباً، فلا يسخر من الدين، ولا يسخر من أهله، ولا يسخر من حملة الدين، ولا من العلماء، ولا من هيئاتهم. مع أن الذين يسخرون ذوقهم معكوس، وضمائرهم منطمسة؛ لأن هذ الذي يسخرون منه هو الشيء الذي ينبغي، وهم في الحالة التي يُسخر منها، كما في أمثال العرب: (رمتني بدائها وانسَلَّت) الآن إذا رأيتَ رجلًا ذقنه مثل ذقني، له لحية بيضاء موفورة لم تقطع منها شعرة، إذا سافر ورآه صبيان المسلمين وشبابهم في

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن. حديث رقم: (٢٦٩٩)، (٤/٢٠٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الخارج ينظرون إليه نظرة ازدراء واحتقار، كأنه في أعينهم تيس، لا يفهم عن الدنيا، ولا يساير ركب الحضارة، مع أنه في الواقع أن الرجل المعفي ذقنه المتسم بسمة الأنبياء هو الرجل العاقل الآخذ بالسمت الكريم؛ لأن هذه اللحية هي أعظم ما يتميز به الذكر عن الأنثى، فحلقها والفرار منها فرار من كرم الرجولة وشرف الذكورة إلى أنوثة الخنوثة، يريد أن يتشبه بالأنثى!! وهذا شرف وكرم وجمال في وجهه، وميزة لفحولته وذكورته عن خنوثة الأنثى وضعفها. والرجال الكرام الذين أخذوا كنوز قيصر وكسرى لم يكن واحد منهم يحلق شيئاً من ذقنه، وكذلك سيد الخلق ﷺ كان أجمل الناس، وأحسن الناس وجهاً، وأكثر الرجال نساءً، ولحيته كثة معفاة، هي في غاية الجمال والكمال، فيجب على كل شاب وعلى كل مسلم أن لا يتمسخر من الإسلام، وأن لا يتخذ الإسلام لهواً ولعباً، وأن لا يسخر من حملة الدين، ولا من هيئات العلماء، وليعلم أن هيئات العلماء هي السمت الذي كان عليه السلف الصالح، والصحابة الكرام، والنبي ﷺ، وهو سمت الأنبياء الكرام في ماضي الزمان.

هذا هارون ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، من أنبياء سورة الأنعام الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأنعام: آية ٨٤] وقال الله لنبينا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] وثبت في صحيح البخاري[1] عن مجاهد أنه سأل ابن عباس: من أين أخذت السجدة في ص؟ قال: أوَمَا تقرأ؟! قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ [إلى أن قال:][2] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ وهارون من الأنبياء الذين أُمر نبينا أن يقتدي بهم، ومن الاقتداء بهم: الاقتداء في سمتهم الكريم ـ لما غضب عليه أخوه وَجَدَه كث اللحية معفاها، فقال له: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ [طه: آية ٩٤] ومرادنا بهذا الكلام أن اتخاذ دين الله هزواً ولعباً ولهواً ولعباً انتشر في أقطار الدنيا، ولا سيما من الشباب الذين يَتَسَمَّون باسم المسلمين إذا رأوا رجلاً يذهب إلى الصلاة يصلي سخروا منه وهَزَؤوا به! يظنون أن الكُرة رياضة خير من الصلاة، و إذا رأوا رجلاً متسماً

---

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

(٢) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

بسمت الإسلام، أو عليه سمت الإسلام، أو ينادي باسم الدين يقولون: هذا رجعي، هذا رجل لا يفهم، هذا لا يساير ركب الحضارة!! ويتخذون العلماء، وحملة الدين، والنور السماوي، وتعاليم الدين يسخرون منها، ويضحكون ويستهزئون فليحذروا من الاستهزاء بدين الله، ومن اتخاذ آيات الله هزواً ولعباً؛ لأن ذلك أمر عظيم عند الله. ولما ضحك بعض المنافقين، وقالوا: النبي ﷺ ـ لما ضلت راحلته في غزوة تبوك ـ هو يَدَّعى أنه يأتيه علم الغيب من السماء وهو لا يدري أين ذهبت راحلته!! وسخروا من النبي ﷺ وهُزُؤاً به، فنزل القرآن فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: آية ٦٥] يعني: كنا نسخر ونضحك بهزل غير جد. أجابهم الله ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ **﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن يُعْفَ عن طائفةٍ منكم تُعَذَّبْ طائفةٌ بأنهم كانوا مجرمين﴾** [التوبة: الآيتان ٦٥، ٦٦] وفي قراءة عاصم وحده: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾[١] وفيها قال ابن المُرحِّل[٢]:

لعاصم قراءة لغيرها مخالفة
إنْ نعفُ عن طائفة منكم نُعذِّبْ طائفة

والشاهد عندنا أن نُحَذِّر إخواننا المسلمين من أن يتخذوا دين الله وآيات الله هزواً ولعباً؛ لئلا يلحقهم ما لحق الكفار الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً، فليحذر المؤمن كل الحذر أن يسخر من دين الله، وأن يستهزىء بآيات الله، وأن يسخر من حملة العلم ومن رجال الدين، وأن يتخذهم مسخرة ومضحكة، هذا لا ينبغي ولا يليق، ومن فعله سيناله من الوعيد بقدر ما قال الله في أهل النار: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: آية ٥١] فعلى المسلم أن يحترم الدين، ويعظم الدين، ويعظم كل ما جاء من ربه من الأوامر والنواهي، ويعظم العلماء

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٨.

(٢) البيت في البحر المحيط لأبي حيان (٦٧/٥) سمعه من أبي الحكم مالك بن المرحل المالقي (ت٦٩٩) ولعله من قصيدة ابن المرحل الموسومة بـ(التبيين والتبصير في نظم كتاب التيسير) كما في ترجمته في الأعلام للزركلي (٢٦٣/٥) (٢٠١/٧ ـ ٢٠٢) كما في الهامش.

وحملة العلم، والمتَّسِمِين بسمات العلم، ولا يحتقرهم، ولا يتخذهم هزواً. وإنما بينا هذا لكثرة ما نشاهد من شباب المسلمين في أقطار الدنيا، يتخذون الدين مسخرة وملعبة ومضحكة، يضحكون ممن يصلي، ويستهزئون به، ويسخرون منه، ويتخذونه لهواً ولعباً كأنه مضحكة مسخرة!! هذا أمر خطير وعاقبته وخيمة. وقصدنا أن نحذر أنفسنا وإخواننا المسلمين منه، فعلينا أن نعظم آيات الله، ونحترم دين الله، ونحترم حملة الدين والعلماء المتصفين بحمل الدين، ولا نتخذهم لهواً ولعباً، ولا نسخر منهم، ولا نقلد عليهم التيوس إذا رأيناهم يعفون لحاهم، بل نعظمهم ونحترمهم؛ لئلا يلحقنا من الوعيد بقدر ما فعلنا من ذلك، كما قال الله في الكفار: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ لأنهم كانوا يسخرون من ضعاف المسلمين إذا رأوهم يصلون ويعبدون الله يتغامزون ويضحكون ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [المطففين: آية ٣٠] ويقولون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: آية ٥٣] ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: الآية ١١] انظروا دين محمد يقول: إن هؤلاء البؤساء النتنى الفقراء أنهم ينالون الكرامة!! فيسخرون منهم ويضحكون من دينهم. هذا أمر لا ينبغي، بل يجب على المسلم أن يكون محترماً للدين، معظماً لما جاء من الله، معظماً لرجال العلم، محترماً لرجال الدين، غير مستهزىء بالدين، ولا بحملة الدين، ولا متخذهم مسخرة، هذا هو اللازم. وهذا معنى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم. والدنيا: تأنيث الأدنى، وإنما سُميت (دنيا) لدنوها. أي: قربها، أو لدناءتها بالنسبة إلى الآخرة.

ثم قال الله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: آية ٥١] المراد بالنسيان هنا: الترك مع العلم التام؛ لأن الله لا ينسى، كما قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: آية ٥٢] والعرب تُطلق النسيان على ذهاب الشيء عن علم الإنسان بعد أن كان يعلمه، وهذا المعنى مستحيل على الله. وتطلق النسيان على الترك عمداً(١). وهو المقصود هنا وهو في آيات كثيرة

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنعام.

﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ [الأعراف: آية ٥١] أي: نتركهم عن إرادة وقصد يتقلبون في دركات النار، وأنواع العذاب.

﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: آية ٥١] أي: نسياناً كنسيانهم لقاء يومهم هذا؛ لأن هذا اليوم لم ينسوه، وإنما تركوا العمل له عمداً وقصداً وعناداً للرسل ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾.

﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: آية ٥١] في قوله: ﴿وَمَا﴾ ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وجهان من التفسير(١)، الصحيح منهما: أنها مصدرية، والمعنى: كنسيانهم لقاء يومهم هذا، وككونهم جاحدين بآياتنا في دار الدنيا، فـ (ما) مصدرية، وغلط قوم من علماء التفسير فقالوا: إنها نافية، والمعنى: ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ما كانوا يجحدون بها في قرارة أنفسهم، بل يعلمون أنها حق، ولكنهم كانوا يعاندون، كما قال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: آية ٣٣] والتحقيق أنها مصدرية، والمعنى: نتركهم في النار، وننساهم تاركين إياهم في النار عمداً وقصداً معذبين في النار خالدين فيها ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ كما تركوا العمل للقاء هذا اليوم، وكما كانوا بآياتنا يجحدون، أي: كنسيانهم لهذا اليوم، وكجحودهم لآياتنا، وتكذيبهم رسلنا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٥٢ ـ ٥٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٣٣٦).

رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ٥٢، ٥٣].

لما بين الله (جل وعلا) مصير أهل الجنة ومصير أهل النار، وما يقوله كل من أهل الجنة وأهل النار للآخرين، وما يقوله أصحاب الأعراف للطرفين، بين أن الذين هلكوا واستحقوا النار وخلدوا في النار ما جاءهم ذلك إلا عن الإعراض عن هذا الكتاب الأعظم، والنور المبين الذي أنزله رب السماوات والأرض، وفصَّل فيه العقائد، والحلال والحرام، وبين فيه الأمثال، وما يوصل إلى الجنة، وما يوصل إلى النار، وأوضح فيه كل خير، وحذر فيه من كل شر، وبشَّر فيه وأنذر، فمن أعرض عن هذا القرآن هم الذين صاروا إلى النار، ومن عمل بهذا القرآن هم الذين صاروا إلى الجنة. ومنذ أنزل الله هذا الكتاب ـ الذي هو أعظم كتاب نزل من السماء إلى الأرض، وجمع الله فيه علوم الأولين والآخرين ـ استحال شرعاً أن يدخل أحد النار إلا عن طريق الإعراض عنه أو يدخل أحد الجنة إلا عن طريق العمل به، فالعمل به مفتاح الجنة، والإعراض عنه مفتاح النار ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ الآية [هود: آية ١٧] ولأجل ذلك جعله الله رحمة لقوم وفقهم للعمل به، وحجة ووبالاً على قوم خذلهم فلم يعملوا به ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: آية ٤٤] ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: آية ٨٢] ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ﴾ [المائدة: آية ٦٤] ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ ولذا قال هنا: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم﴾ أي: الخلائق الذين كنا نقص خبرهم؛ لأن بعضهم في الجنة وبعضهم في النار. فعلى هذا القول فـ (الكتاب) جنس الكتب السماوية. والأظهر أن المخاطبين به المرادين به أمة محمد ﷺ وأن الكتاب هو هذا القرآن العظيم.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم﴾ أي: جئنا هذه الأمة التي دخل بعضها الجنة وبعضها النار.

﴿بِكِتَٰبٍ﴾ أنزلناه على نبينا محمد ﷺ. وقراءة الجمهور من السبعة بل والعشرة: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ أما قراءة: **﴿ولقد جئناهم بكتاب فضلناه﴾** أي: على سائر الكتب، فليست من القراءات السبعية، وقرأ بها ابن محيصن وغيره[1]. وهي وإن كانت شاذة فمعناها صحيح؛ لأنه مفضل على سائر الكتب. وقراءة الجميع: اللام موطئة للقسم، والله ما تركناهم سدى ولا في غفلة، والله لقد جئناهم بكتاب. يعني: أتيناهم بكتاب. قدمنا أنه قيل له (الكتاب) لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: الآيتان ٢١، ٢٢] وفي صحف عند الملائكة، كما في قوله: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾ [عبس: الآيتان ١٣، ١٤] وكذلك هو مكتوب عند المسلمين في مصاحفهم يقرؤونه.

﴿بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ صيغة الجمع للتعظيم، والله هو الآتي بهذا الكتاب وحده، المُفصِّل له وحده. وصيغة الجمع في (جئنا) وفي (فصلنا) إنما هي للتعظيم، والمعنى: ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ التفصيل ضد الإجمال. ومعنى تفصيل هذا الكتاب: جعلناه مفصلًا موضحاً بيِّنا فيه العقائد بتفصيل وإيضاح، والحلال والحرام والأمثال والمواعظ، وما يُدخل الجنة، وما يُدخل النار، وما يرضي الله، وما يسخط الله، وما تصلح به أحوال الإنسان في دنياه وآخرته، وما تفسد به، فقد فصَّل الله فيه كل شيء، وبين فيه أصول كل شيء، فأوضح فيه العقائد، ومكارم الأخلاق، والخروج من الشبهات، ورفع فيه الهمم، وبين أصول الحلال والحرام، وأصول المواعظ وجميع الأشياء. والغريب كل الغريب الذي لا يقضي الإنسان عجبه منه أن أمة ينزل عليها هذا الكتاب الذي يقول الله فيه: إنه فصله على علم منه، بينه مفصلًا بعلم الله (جل وعلا) المحيط بكل شيء، وضمَّنه جميع المصالح ودرء

---

(١) انظر: الإتحاف (٢/٥١).

جميع المفاسد وخير الدنيا والآخرة، وهذا كله من رب العالمين المحيط علمه بكل شيء، وهذا كلامه الذي فصَّله على علم منه وأوضحه، وبين فيه معالم الخير ومعالم الشر، وما يصلح دنيا الإنسان وآخرته، وما يكون به على خير في كلتا الدارين، وهو تنزيل رب العالمين، وتفصيل خالق السماوات والأرض، ومع هذا كله يرغب عن هذا الكتاب ولا يبالي به، ويذهب يطلب الخير والحق في آراء قوم كفرة فجرة كلاب خنازير!! فهذا من غرائب الدهر وعجائبه!! كيف تُصرف هذه الأمة عن هذا الكتاب المنزل الذي هو كلام رب العالمين، وما فيه من المعاني، وما فيه من العقائد والحلال والحرام والمعاملات والمواعظ ومكارم الأخلاق، وإيضاح علاقات المجتمع فيما بينه، وإيضاح حالة الإنسان في نفسه، وما ينبغي أن يكون عليه، وما ينبغي أن يكون عليه مع مجتمعه الخاص، ومع مجتمعه العام، وما يكون عليه مع أعدائه، كل هذا فصَّله رب العالمين، وأوضحه وزاده بياناً رسول كريم ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤] فتركها محجة بيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. من سلك هذا القرآن العظيم، وعمل به، وبالسنة المبينة له نال خير الدنيا وخير الآخرة، وكان أعظم الناس هيبة، وأقواهم شوكة، وأعزهم منعة، ومع هذا كله فالأمة التي نزل القرآن على أسلافها تخلت عن هذا الكتاب المحكم الذي هو كتاب رب العالمين، الذي قال فيه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: آية ٥٢] المفصِّل له هو الله على علم من الله المحيط علمه بكل شيء، ومع هذا يتركونه ولا ينظرون إليه، وينبذونه وراء ظهورهم، ويذهبون يطلبون الرشد ومصالح أمرهم في قوانين ونظم رتبها كفرة فجرة جهلة مظلمة قلوبهم، هم كالأنعام أو أضل سبيلا!! فهذا من أغرب ما يشاهده الإنسان! ولو أننا لم نره عياناً لما كنا نصدق أن عاقلاً يذهب عن كلام رب العالمين الذي بيَّن فيه الرشاد وخير الدنيا وخير الآخرة، وأوضح فيه كل شيء يتركه عمداً زاعماً أنه لا ينظم علاقات الحياة، ولا يساير ركب الحضارة، ثم يذهب إلى نُظُم وضعية، وقوانين إفرنجية وضعها ملاحدة لا يعلمون عن الله شيئاً، لا يعلمون إلا ظاهراً من

الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون. فهذا من أغرب ما وقع في التاريخ!! نسأل الله أن يبصرنا بهداه ولا يضلنا، ولكنا بينا مراراً أن الذين ينصرفون عن أنوار القرآن وهدى القرآن يطلبون الرشاد في نظم كفرية قانونية، مخالفة لهدى الله وكتابه الذي فصله على علم منه هدى ورحمة، أن الذي جرهم إلى ذلك أنَّ القرآن أعظم نور، والله يسميه النور في آيات كثيرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء: آية ١٧٤] ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: آية ٨] على عبدنا ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: آية ٥٢] فهو نور أعظم نور، وهؤلاء الذين ينصرفون عنه إلى النظم الوضعية الكافرية في الحقيقة هم خفافيش البصائر، والخفاش لا يلام إذا كان لا يمكن أن يرى ضوء الشمس؛ لأن بصيرته ليس لها استعداد ولا قوة على مقابلة الشمس.

مثل النَّهار يزيدُ أبصارَ الورى نوراً ويُعمي أعينَ الخفَّاشِ[١]

خفافيشُ أعماهَا النهارُ بضوئِهِ ووافقها قِطْعٌ من الليلِ مُظلم[٢]

كما أشار الله لهذا بقوله: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٠] وبين (جل وعلا) في سورة الرعد أن هذا القرآن لا ينصرف عنه ويجهل أحقيته وأمره إلا من أعمى الله بصيرته بالكلية، والأعمىٰ إذا كان لا يبصر الشمس فما في تبصيره لها حيلة وذلك في قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: آية ١٩] فصرح بأن الذي لا يعلم أنه الحق أن الذي منعه من ذلك هو عماه، وعدم رؤية الأعمىٰ للشمس لا يجعل في الشمس لبساً ولا شكاً ولا ريباً:

إذا لم تكن للمرءِ عينٌ صحيحةٌ فلا غَرْوَ أنْ يرتَابَ والصبحُ مُسْفِر[٣]

ولم يَكْفِ هؤلاء المساكين الخفافيش، لم يكفهم الإعراض عن القرآن،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

وتركه وراء ظهورهم، وتفضيل آراء الكفرة الفجرة عليه، لم يكفهم ذلك أن طعنوا فيه، وزعموا أن بعض تشاريعه التي نظمها الله وشرّعها أنها ليست عادلة ـ والعياذ بالله ـ ومن زعم هذا فقد طعن في حكمة الله، وكفر بالله كفراً بواحاً.

ترىٰ الجهلة الملاحدة الذين صبغهم الإفرنج كما يشاؤون يقولون: كيف يجعل دين الإسلام ميراث المرأة أقل من ميراث الرجل وعين القرابة التي يُدلي بها الرجل هي عين القرابة التي تدلي بها المرأة، فكيف يكون نفس ما يُدلي به الرجل هو ما تُدلي به المرأة ثم يفضله عليها[1]؟ والله (جل وعلا) يعلم أن هذا سيضل به قوم، وأن من زعم أن تفضيل الرجل على المرأة في الميراث ليس بحكمة ولا صواب أنه ضال؛ ولذا بين هذا من غرائب القرآن حيث قال بعد قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: آية ١٧٦] أتبعه بقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: آية ١٧٦] فبين أن من لم يتبع هذا التشريع وطعن فيه أنه ضال، وهو كما قال الله.

ثم يقولون: كيف يجعل دين الإسلام الطلاق بيد الرجل من غير إذن المرأة، مع أن عقد النكاح أولًا لم يكن إلا بإذن المرأة ورضاها، فهي عقدة اجتمعا عليها، فكيف يجعل الاستقالة منها للرجل وحده دون إذن المرأة؟ ثم يقولون بالفلسفات الشيطانية: ربما أفنى الرجل جمالها وشبابها حتى صارت لا يرغب فيها غيره ثم يلقيها ويطلقها فتبقى ضائعة، وهذا ظلم. ويلفقون نحو هذا من الفلسفات الشيطانية التي يأتي بها قوم أعمى الله بصائرهم عن أنوار القرآن، وحِكَم رب العالمين الباهرة[2].

ونحن نذكر هنا (إن شاء الله) بعض الأشياء التي طعنوا بها في التشريع الإسلامي، ونبين أن الذي جرهم إلى ذلك هو سوء فهمهم، وعدم معرفتهم، وطمس بصائرهم، وضلال قلوبهم:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفهمِ السقيمِ[3]

---

(١) انظر: الأضواء (١/١٥٨).

(٢) السابق (١/١٥٩).

(٣) البيت للمتنبي. وهو في ديوانه (بشرح العكبري ٤/١٢٠).

أما تفضيل الله للرجل على المرأة في الميراث فقد أشار لحكمته بقوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء: آية ٣٤] وتقريب هذا للأذهان: أن الميراث ما تعب فيه الرجل الوارث ولا المرأة الوارثة، ولا مسحا في تحصيله عرقاً، وإنما هو مال مَلَّكهم الله إياه تَفَضُّلاً منه مُلكاً جبرياً من غير أن يتسببا فيه بعمل ولا بكد ولا بكدح، فالله ملَّكهما إياه، وقد أجرىٰ الله عادته بحكمته أنه لما قسم الإنسان إلى ذكر وأنثى جعل الذكورة بقوة حالها وطبيعتها قوة وكمالاً. فالذكورة قوة وكمال، والأنوثة ضعف خلقي جبلي، ونقص خلقي جبل الله هذا النوع من الإنسان عليه. وعامة العقلاء لا يكادون يختلفون في هذا إلا المكابرين بالفلسفات الشيطانية. والدليل على ذلك ما أشار له الله في سورة الزخرف في قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨﴾[1] [الزخرف: آية ١٨] وفي القراءة الأُخرى: **﴿أو من يَنْشَأُ في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾** يعني: أيجعلون لله البنات، يجعلون له الولد، ثم يجعلون له أضعف الولدين جِبِلَّة وأنقصهما خِلْقَة وهو الأنثى؛ ولذلك منذ تولد الأُنثى وهي تُجعل لها الزينات، وربما ثُقِبَت آذانها وجُعلت فيها الأقراط والشنوف، ثم تُجعل في جيدها القلائد ـ من أنواع الحلي ـ وفي معاصمها، وفي خلاخلها، وتُكسى الحلي والحلل منذ تولد إلى أن تموت، كل ذلك التزيين هو جبر لذلك النقص الخلقي الذي خلقها الله عليه وجبلها عليه.

وما الحَليُ إلا زينة من نقيصةٍ يُتمم من حُسْنٍ إذا الحُسْنُ قصَّرا[2]
وأما إذا كانَ الجمال مُوفَّراً كحسنكِ لم يحْتج إلى أن يُزَوَّرا

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٩٧.

(٢) البيتان لابن الرومي، وهما في ديوانه (١٠٠٧/٣، ١٠٠٨)، (تحقيق حسين نصار) مع شيء من الاختلاف، والذي في الديوان:

وَمَا الحَلْيُ إلا حيلة لنَقِيْصَةِ تُتَمِّمُ من حُسْنٍ إذا الحُسْنُ قَصَّرَا
وليس لحلي في الجميلةِ منظرا جمال ولكن في القبيحة منظرا
تضيء نجومُ الليل في الليلِ وحده وليسَ لها ضوءٌ إذا ما الصبحُ نوَّرا
فأمَّا إذا ما الحُسنُ كان مُكمَّلا كحُسْنكِ لم يحتجْ إلى أن يُزورا

أما الذكر فجمال ذكورته وكمال فحولته هو جمال وكمال طبيعي، ولذا لا تجد الدنيا على مرور الأزمنة والقرون تخرق آذان الذكور وتجملهم بالأقراط والشنوف، ولا تجعل لهم قلائد الحلي والخلاخيل والأساور، وإنما تجعل ذلك للأنثى.

والإفرنج الذين يحاولون أنهما سواء يُحَمِّرون فم الأنثى ولا يُحَمِّرون فم الذكر، وكل ذلك يشير إلى الفرق الجبلي الطبيعي بينهما الذي جبلهما الله عليه. فلما كان الله (جل وعلا) جعل الأنوثة في أصل طبيعتها وخلقتها ضعفاً خلقياً ونقصاً جبلياً، وجعل الذكورة في أصل خلقتها كمالاً طبيعياً وقوة جبلية، اقتضت حكمة العليم الخبير أن يجعل ذلك القوي بطبعه، الكامل بجبلته قَيِّماً على ذلك الضعيف بقوته، الناقص بجبلته؛ ليستجلب له ما يعجز عنه من الخير، ويدفع عنه ما يعجز عنه من الشر، ولذلك كان الرجل يترقب النقص في حياته دائماً؛ فإنه يبذل دائماً النفقات في صَدُقَات الزوجات، والإنفاق عليهن، وفي مؤن الجهاد، وفي نوائب الدهر، فهو غارم باذل دائماً، والمرأة تترقب طول حياتها الزيادة، وأن يُملأ كيسها، تترقب رجلًا يدفع لها مالًا كثيراً في صداقها، ويقوم بجميع مُؤَنها ولوازمها في الدنيا، فهي تترقب الزيادة دائماً، والرجل يترقب النقص دائماً.

فلما كان الحكيم الخبير أراد أن يقسم عليهما الميراث آثر مترقب النقص دائماً على مترقب الزيادة دائماً جبراً لبعض نقصه المُترقب؛ ولذا تجد الرجل وأخته، تجد أخته تُدفع لها الأموال الكثيرة في صداقها، ويقوم غيره بنفقاتها وكل ما يلزم لها، والرجل أخوها الآخر هو الذي يبذل ما عنده في نفقات زوجاته ومهورهن، ونوائب الدهر، ومعونات الجهاد، وغير ذلك. وإذا وجدنا من يقسم على اثنين أحدهما يترقب النقص دائماً، والثاني يترقب الزيادة دائماً، فآثر مترقب النقص دائماً على مترقب الزيادة دائماً جبراً لبعض نقصه المُترقب لقلنا له: إن إيثارك لهذا وزيادتك لهذا عن هذا واقعة موقعها عن حكمة بالغة، ووضع أمر في موضعه، وإيقاعه في موقعه؛ ولهذا كان (جل وعلا) يفضل في الميراث الذكر على الأنثى؛ لأن الذكر باذل يبذل في مهور الأزواج، وفي نفقاتهن، وفي نفقات الأولاد، وفي مؤن الجهاد، وغير

ذلك من وجوه البر. والمرأة دائماً تترقب رجلاً يبذل لها مالاً كثيراً يُسمىٰ الصداق، ويقوم بشؤونها من إنفاق وملبس ومأكل ومشرب وكل ما تحتاج إليه. فإيثار مترقب النقص على مترقب الزيادة حكمة بالغة، وأمر واضح واقع موقعه كما لا يخفى إلا على مطموس البصيرة، وإنما جعل الله الرجال قوامين على النساء لما جعل الله في الذكورة بجبلتها وخلقتها من القوة والكمال، وقصور الأنوثة عن ذلك؛ ولذلك كان الولد ينسب إلى الرجل، والمرأة راضية، نفس المرأة تقول لولدها الذي نُفِسَت به وخرج من قُبُلها: «هذا ابن فلان». تعنى [زوجها][1]، تنسبه لأبيه وفقاً لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: آية ٥] وجعل الله الرجل هو المسؤول عن المرأة، يُقَوِّم أخلاقها، ويقوم بشؤونها، وهو مترقب النقص والبذل دائماً، وهي مترقبة الزيادة دائماً. وجَعْل الله النساء يُنْفق عليهن، ويُكفين المؤنة ليس لإهانة لهن، ولا لهضم لحقوقهن، ولكنما هو إكرام لهن بحسب طبيعتهن وخِلْقَتِهن التي جبلهن عليها خالق السماوات والأرض؛ لأن المرأة تتعرض لأعين الخونة؛ لأن المرأة كلها هي متعة وتلذذ أبت أم كرهت؛ لأن عين الإنسان إذا نظرت إلى جمالها التذت منها واستغلت جمالها كرهاً، فاقتضت حكمة الشرع أن تصان، وتجعل كالدرة المصونة، وتُكفى مؤن الدهر ولوازمه ونوائبه؛ لئلا تضطر إلى الابتذال وما لا يليق بشرفها. فهذه تعاليم الإسلام، وصيانته للمرأة وإكرامها وبذلها لحقوقها الكاملة، مع أنّا بينّا مراراً أنها تساعد في بناء المجتمع، وتربية الأسرة داخل بيتها مساعدة أعظم مما يعمله الرجل خارجاً، لكن تلك المساعدة في عفاف وستر وكرم. وهذا واضح مَنْ نَظَرَه يعلم أن تفضيل الرجل في الميراث عن المرأة لحكمة بالغة واضحة لا يجهلها إلا من طمس الله بصيرته.

كذلك جَعْل الطلاق بيد الرجل حكمته بالغة واضحة لا إشكال فيها؛ لأن القرآن بَيّن أن النساء وإن كن في غاية الكرامة على أزواجهن، وعلى أسرهن، وهن بالمنزلة العليا التي جعلها الله لهن من أنهن يُكفين جميع

---

(١) في الأصل: زوجة.

الحقوق، ويُكفين جميع المؤنات، ويُصَنَّ أكرم الصيانة وأعزها، وأن لا يبذلن لضياع شرفهن، ولا مروءتهن وهن مع ذلك مزارع تُزرع فيها النطف حتى تُسْتَحْصَد ويأخذها صاحبها فتثمر النطفة في رحم المرأة، ثم تلدها فيأخذها صاحبها الذي زرعها وهو الرجل، ويقال: هذا ابن فلان. والله يقول: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٢٣] وإنما سمى النساء حرثاً لأن طبيعة الحال والأمر الواقع هو يقتضي ذلك بلا شك ولا ريب؛ لأن آلة التناسل والازدراع هي مع الرجل، فلو أرادت المرأة أن تأخذ حملاً من الرجل، وأن تجامعه فتحمل منه وهو كاره فإن ذكره لا ينتشر إليها، ولا تقدر أن تأخذ منه شيئاً، بخلاف الرجل فعنده آلة النسل، وآلة الازدراع، فهو فاعل بطبيعة حاله، وهي مفعول بطبيعة الوضع الذي خلقها الله وجبلها عليه. فالرجل قد يجامعها راغمة مكرهة وتلد ولداً يكون هو خير الدنيا والآخرة عليها وإن حملت به كرهاً وإرغاماً غير راضية، أما الرجل فلا تكاد المرأة أن تحصل منه على حمل وهو كاره أبداً؛ لأنه إذا كان غير راغب في ذلك لا ينتشر ذكره ولا يقوم إليها، ولا تقدر منه على شيء. فتبين أنه فاعل بطبيعة الحال والجبلة الخلقية، وأنها مفعول به بالطبيعة التي خلقها الله وجبلها عليها، كما قال: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ لأنه يُحبلها وهي كارهة، كما قال أبو كبير الهذلي في ربيبه تأبط شراً[1]:

مِـمَّـنْ حَـمَـلْـنَ بـه وهـنَّ عَـوَاقِـدٌ حُـبُـكَ الـنِّطاقِ فَـشَـبَّ غير مُـهَـبَّـلِ

يعني حبلت به أمه وهي عاقدة حُبُك نطاقها، شادة إزارها، ممتنعة من أن تحل الإزار، فقد أُكرهت على ذلك الجماع الذي حبلت منه. ولأجل هذا إذا كان الرجل فاعلًا والمرأة مُزْدَرَع ليس من العقل ولا من الحكمة أن نقول لإنسان لا رغبة له في الازدراع في حقل: لا بد أن نرغمك على هذا الحقل والبقاء معه وأنت لا رغبة لك فيه. والرجل لم يُفْنِ من جمال المرأة شيئاً، إنما أفنى جمالها الليالي والأيام، أفناه قيل الله للشمس: اطلعي. فالرجل لم يُنْقص من جمالها

---

(١) البيت لأبي كبير الهذلي يصف تأبط شراً، وهو في ديوان تأبط شراً ص٨٨، الكامل (١/١٧٥)، مغني اللبيب (٢/١٩٣)، شواهد الكشاف ص١٠٥.

شيئاً، وإنما نقصه الله بطول عمرها. والمدة التي مكث معها هو قائم بجميع شؤونها، وليس ملزماً بالبقاء دائماً عند حقل لا خير له فيه، فلو أُرغم على البقاء معها دائماً وهو كاره لم تستفد منه شيئاً، ولم تقدر أن تأتي منه بولد، ولا أن تحصل منه على شيء، بخلاف الرجل.

وكذلك يزعمون أن تعدد الزوجات من التشريع الذي ليس بطيب. وكل هذا قصور منهم ـ قبحهم الله ـ لأن تعدد الزوجات فيه مصلحة المرأة، ومصلحة الرجل، ومصلحة المجتمع، فهو تشريع سماوي يشمل جميع المصالح، وهم يقولون: إن تعدد الزوجات أمر لا ينبغي؛ لأن الرجل إذا كانت امرأته واحدة أمكنه أن يأخذ بخاطرها، وأن يعيش معها في عيش مستقيم لذيذ كل منهما قرير العين بصاحبه، أما إن جمع معها أخرىٰ فإنه إن أرضىٰ هذه سخطت هذه، وإن أرضىٰ هذه سخطت هذه، فهو بين سخطتين دائماً، وفي نزاع دائم، وأن الإتيان بالضرة الأخرىٰ يؤلم قلب الزوجة الأولى، وأن هذا التشريع ليس بطيب. وكل هذا جهالة منهم قبحهم الله؛ لأن المشاغبة أمر طبيعي بين الناس، فالرجل تقع المشاغبة بينه وبين أمه، وبينه وبين أبيه وأخيه، وبينه وبين زوجته الواحدة، فهي أمر طبيعي بالنسبة إلى الناس يتخاصمون مرة ويكون بينهم بعض الشنآن والشر ثم يرجع كل منهم إلى رضا الآخر، وهذا أمر طبيعي من ضروريات الحياة. والمرأة الواحدة قد تمرض، وقد تُنفس، وقد تحيض، فتبقى منافع الرجل معطلة، والمرأة غير صالحة في ذلك الوقت ـ لنفاسها، أو حيضها، أو مرضها، غير صالحة في ذلك الوقت ـ لأخص لوازم الزوجية، فتبقى مواهب الرجل معطلة، وهذا لا ينبغي. ثم إن الله أجرى العادة بأن النساء أكثر من الذكور في جميع أقطار الدنيا، وكذلك تثبته الإحصاءات العالمية؛ لأن الذكور أكثر تعرضاً لأسباب الموت من النساء [فهم][1] أكثر خروجاً للقتال، وأكثر مزاولة في ميادين الحياة، فالموت يكثر [فيهم][2] غالباً،

(١) في الأصل: «فهن» وهذا سبق لسان.

(٢) في الأصل: «فيهن» وهذا سبق لسان.

فالنساء أكثر في جميع أقطار الدنيا، فلو قُصر كل رجل على امرأة واحدة لبقي عدد ضخم ورقم عال عظيم من النساء لا أزواج لهن فيضطررن إلى الرذيلة، وإلى الزنى، وإلى تفشي الرذيلة، وضياع الخُلق ومكارم الأخلاق. مع أنه لو جمع الرجل اثنتين أو ثلاثاً كما قال الله فلا ضرر على المرأة، لا تجد ضرراً من عدم الحظ الإنساني؛ لأن الرجل يأتيها في ليالٍ قليلة، وتجد من يقوم بشؤونها، ولذا البلاد التي تمنع تعدد الزوجات تجدها تمنع أمراً حلالًا فيه صالح الرجل وصالح المرأة وصالح المجتمع بكثرة الأولاد، وهم مع ذلك فيهم كثير من النساء همل لا أزواج لهن، لا حرفة لهن إلا الزنى، وكل واحد ـ والعياذ بالله ـ له صدائق وخليلات يُزاني بهن ـ والعياذ بالله ـ فتنتشر الرذيلة، وتضيع الأخلاق، وتضيع المروءة، فالنساء أكثر من الرجال، وكذلك النساء مستعدات كلهن للزواج؛ لأن كل امرأة بلغت مبلغ الزواج فهي مستعدة للزواج، وما كل الرجال مستعداً للزواج؛ لأنه قد يعوقه الفقر عن القيام باللازم ونحو ذلك. فلو قُصر الواحد على الواحدة لبقي عدد ضخم خالٍ من أزواج، وكانت حرفته الزنى ـ والعياذ بالله ـ فضاعت أخلاقه، وضاعت مروءته، وضاع شرفه.

هذا هو تشريع خالق السماوات والأرض. والمرأة وإن كان في الضرة عليها بعض أذىً في قلبها إلا أن هذا الأذى الخفيف أنه يُغتفر لأجل هذه المصالح العظام، وهي مصلحة الرجل حيث لا تعطل منافعه وقت حيض المرأة أو نفاسها أو مرضها، وفيه مصلحة للمرأة حيث لا يبقى عدد ضخم من النساء لا أزواج لهن؛ لأن الرجال أقل منهن، وفيه مصلحة للأمة بكثرة النسل؛ لأنه إذا تعددت الزوجات كثر النسل، وفي الحديث: أن النبي ﷺ يأمرنا بالتزويج، وأنه يكاثر بنا الأمم[1]، فتعدد الزوجات مصلحة لنفس المرأة لئلا تبقى لا زوج لها فتحترف حرفة الزنى وتضيع، ومصلحة للرجل لئلا تعطل منافعه وقت حيض المرأة أو نفاسها أو مرضها، وفيه مصلحة

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

للأمة بكثرة الرجال؛ لأن الكثرة لها شأن، وتقدر الأمة على أن تكافح بها عدو الإسلام وترد بها الكفاح الداهم لبلادها. فهذه مصالح الإسلام، وهي واضحة لا شك فيها.

وكذلك ما يزينه إبليس من أنه لا بد أن تكون النساء كالرجال في جميع الميادين، فهذا أمر قد بينا أيضاً أن الحق فيه مع القرآن كما لا يخفى، وأن الفلسفات الشيطانية إنما أضاعت أخلاق الناس، وابتذلت النساء وضيعتهن من حيث لا يشعرن؛ لأن الشيطان يسوؤه لعداوته للإنسان ما جاء به الإسلام من معاونة الرجل وامرأته على بناء أولادهما وأسرتهما، والمساعدة في مجتمعهما بأن يخرج الرجل؛ لأن فحولته وذكورته مناسبة للخروج، عظامه قوية وعضلاته قوية، وعيونه محمرة قوية لا يتلذذ به من رآه، وليس متعرضاً للفتنة، يقوم في كدح الحياة لتحصيل شؤون الحياة، وفي الجهاد لرد الكفاح المسلح وإعلاء كلمة الله، ويترك قرينه الآخر الكريم وهو امرأته الكريمةُ العفيفةُ الصيِّنَةُ المطيعةُ لله (جل وعلا)، المحافظةُ على شرفها ودينها وكرمها، المُبَيِّضة وجه نفسها ووجه أُسرتها، يتركها في بيته في صيانة وستر وعفاف فيجدها قائمة أحسن قيام، تحنو على الرضيع فترضعه، وعلى الفطيم فترحمه، وعلى المريض فتعالجه، وعلى شؤون البيت فتقوم بجميع مصالحها، فإذا جاء الرجل من عمله وجد قرينه الآخر الكريم قائماً بأكبر مساعدة وأعظم معونة وأعظم تربية للأولاد الصغار، من تعليمهم الأدب ومبادىء الدين والإصلاح البيتي، فيجد قرينه الآخر الكريم قائماً له بأعظم مساعدة على بناء الأسرة الخاص وبناء المجتمع العام؛ لأنه متركب من الأسر الخاصة، إلا أن الشيطان لعداوته لبني آدم يغيظه هذا التعاون الكريم الشريف النزيه، وبناء المجتمع من الطرفين على أكمل الوجوه وأتمها وأليقها بالشرف والمروءة، فيأتي لأوليائه ويهمس في آذانهم وأذن المرأة ويقول: الرجل يخرج ويختلط بالدنيا وتبقين أنت محبوسة كالدجاجة، فأنت لست بدجاجة، أنت إنسان، ينبغي أن تخرجي كما يخرج الرجل، وتزاولي ما يزاوله الرجل، فإذا خرجا معاً اضطرا لأن يؤجرا إنساناً يجلس في البيت ليحافظ على الأولاد وشؤون البيت الداخلية، فيصير ذلك الأجير المسكين

هو الضحية، وهو الدجاجة المحبوسة في البيت لتتمكن المرأة من الخروج، ويكون جمالها وقفاً على الخونة كما أوضحناه مراراً؛ لأنها إذا خرجت كانت كل عين فاجرة تنظر إليها وتتمتع بجمالها كما شاءت، والرجل ربما نزل منه المني بالنظرة إلى جمال المرأة الجميلة كما هو معروف، فيُستغل جمالها مجاناً بلا ثمن، غدراً وخيانة ومكراً وجناية على شرف المسكينة وعلى مروءتها وعلى فضلها وعلى أسرتها، باسم فلسفة شيطانية فاضية جوفاء، باسم التقدم، باسم الحضارة، باسم التمدن!! وكل ذلك ضلال وإضلال، وضياع للأخلاق والمروءة والشرف تحت شعارات براقة زائفة كاذبة، يضيع الشيطان تحتها كل فضيلة وكل شرف وكل مروءة، وهذا مشاهد في الأقطار التي أطلقت لنسائها الحرية، وصرن يخرجن عاريات، يزاولن ما يزاوله الرجال من الأعمال، فتراهن ذهب من جميعهن الحياء والشرف النسوي، وصارت أولاد الزنى تؤخذ من الشوارع تعد بالآلاف والملايين!!

ومن نظر في إحصائيات أولاد الزنى في العالم المتمدن يعلم أن نتيجة فلسفات الشيطان هي الزنى والانحطاط الخلقي، وضياع الشرف وذهاب المروءة والكرم. ومع هذا يسمونه التقدم والحضارة والتمدن، والذوق السليم!! والتشريع السماوي ـ الذي يقول الله فيه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف: آية ٥٢] الذي طعنوا فيه ونبذوه وراء ظهورهم وتقوَّلوا عليه كما تقوَّل الكفار أنه لا يساير ركب الحضارة، وليس بصالح لكل زمان ـ هو الذي يأمرهم بالعفاف والكرم والمحافظة على الأخلاق والشرف مع العمل الحثيث في الدنيا. وربما تضطر بعض النساء إلى مزاولة الأعمال كالتي لا زوج لها ولا ولي لها يقوم بشؤونها، فنحن لا نقول: إنها تبقى عالة لا تعمل، بل تذهب وتعمل في بعض مرافق الحياة لتسد خَلَّتها وماء وجهها عن تكفف الناس، ولكنها تعمل في عفاف وستر وصيانة وكرم، وعدم مخالطة للأجانب، وعدم إهدار للفضيلة وارتكاب للرذيلة، فرب امرأة عملت عملاً من أعمال الحياة الدنيا سَدَّت به خَلَّتها، وقومت به شأنها، وهي في غاية العفاف والتستر، والأخذ بمكارم الأخلاق.

والحاصل أن الله (جل وعلا) يقول: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ هذا الكتاب فصله خالق السموات والأرض حال كون ذلك التفصيل على علم منه (جل وعلا)، وعلمه محيط بكل شيء لا يخفىٰ عليه شيء، فهو عالم بما كان وما يكون وما لو كان كيف يكون؛ لأنا بينا مراراً أن العلم الكامل لله (جل وعلا) وحده، فهو المحيط علمه بكل شيء، يعلم ما كان وما يكون حتى إنه من إحاطة علمه ليعلم ما سبق في علمه أنه لا يكون أن لو كان كيف يكون، ومن إحاطة علم الله: أن جميع الخلائق لا يعلمون إلا ما علمهم الله من علمه، فالعلم المحيط لله (جل وعلا) وحده، ولا يعلم أحد شيئاً إلا ما علمه العليم الخبير ـ جل وعلا ـ.

ومما يوضح هذا أن أعلم الخلائق(١): الملائكة والرسل الكرام (صلوات الله وسلامه عليهم)، فالملائكة لما قال لهم خالقهم جل وعلا: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: آية ٣١] ماذا قال الملائكة؟ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: آية ٣٢] فقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ هي (لا) التي تسمى (لا) النافية للجنس، فهي لنفي جنس العلم، فنفوا جنس العلم عنهم أصلًا إلا شيئاً علمهم الله إياه.

/ وهؤلاء الرسل الكرام الذين هم صفوة الله من خلقه، وأعلم الخلق بالله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ هذا سيدهم وخاتمهم وأفضلهم على الإطلاق نبينا ﷺ رُميت زوجته أم المؤمنين عائشة بنت الصديق (رضي الله عنها) في غزوة المريسيع بأعظم فرية وأكبر شنيعة، وهو ﷺ مع ما أعطاه الله من النبوة والعلم العظيم ما كان يدري أحق ما قيل عنها أم كذب، وكان يقول لها: «**كيف تيكم**»؟ لا يدري عن حقيقة الأمر، ويقول لها: «**يا عائشة إن كنت ألممت بذنب فتوبي، وإن كنت بريئة فسيبرؤك الله**». ولم يعلم حقيقة الأمر حتى أعلمه الحكيم الخبير فقال له: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: آية ٢٦] ولما نزل الوحي ١/٩

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

ببراءتها وقالت لها أمها: قومي إلى رسول الله فاحمديه. قالت: لا والله لا أحمده ولا أحمد اليوم إلا الله، فإن الله هو الذي برأني وهو لم يبرئني[(١)]. وقد أمر النبي ﷺ أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: آية ٥٠] وقد قيل له أن يقول: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف: آية ١٨٨].

وهذا نبي الله إبراهيم ـ وهو هو ـ قال الله له: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: آية ١٢٤] ذبح عجله وتعب هو وامرأته في إنضاج العجل يظن أن الضيف الذين عنده يأكلون، ولم يعلم أنهم جبريل والملائكة معه! ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: آية ٧٠]، وبين لهم أنه خائف منهم ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: آية ٥٢] ولم يعلم أنهم ملائكة ـ رسل الله ـ حتى أخبروه. قال لهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٥٧ ـ ٥٨] ولما نزلوا بنبي الله لوط ـ وهو هو ـ ﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: آية ٧٧] يظن أنهم فتيان حسان الوجوه، حسان الثياب، حسان الروائح، وأن قومه يفعلون بهم فاحشة اللواط، حتى قال كلامه المحزن: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: آية ٨٠] ولم يعلم أنهم ملائكة حتى قال له جبريل: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: آية ٨١] وهؤلاء الذين كانوا يدفعون الباب ليكسروه يريدون أن يفعلوا فاحشة اللواط بجبريل والملائكة معه لما أذن الله لجبريل فيهم مسح وجوههم بريشة من جناحه فبقيت أعينهم كأنها لم تكن أصلاً، كما يأتي في قوله عنهم: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: آية ٣٧].

وهذا نبي الله نوح ـ وهو هو ـ (صلوات الله وسلامه عليه) ما كان يظن أن ابنه كافر، وكان يقول: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: آية ٤٥] أي: وقد قلت لي: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

وَأَهْلَكَ﴾ [هود: آية ٤٠] ولم يدر ما حقيقة ولده حتى أعلمه الحكيم الخبير فقال له: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: آية ٤٦] فما كان من نوح إلا أن قال: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: آية ٤٧].

وهذا نبي الله يعقوب الذي قال الله فيه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: آية ٦٨] ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، ولم يدر عن ولده يوسف في مصر، ما بينه وبينه إلا مراحلُ قليلة حتى جاءه البشير بخبره.

وهذا سليمان أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وسخر له الجن والطير، ما كان يدري عن ملكة سبأ، ولا عن مأرب، ولا ما جرىٰ فيها حتى أخبره الهدهد المسكين الضعيف. وكان سليمان (عليه السلام) متوعداً للهدهد لأنه خرج بلا إذن ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل: الآيتان ٢٠ ـ ٢١] فلما علم الهدهد من قضية اليمن بعض علم التأريخ وعلم الجغرافيا ـ من ملكة سبأ وقومها ـ وكان سليمان يجهله أعطاه هذا العلم قوة وصموداً أمام سليمان، ووقف أمام النبوة والمُلك وقفة الرجل الصامد، ونسب الإحاطة لنفسه ونفاها عن سليمان، وقال: إني ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: آية ٢٢] وهكذا.

أما الله (جل وعلا) فهو المحيط علمه بكل شيء، ولكنه يُطلع رسله على ما شاء من غيبه، وقد أطلع نبينا ﷺ على أمور من الغيب لا يعلم كثرتها إلا الله، فما توفي ﷺ حتى لم يكن طائر يحرك جناحه إلا أعطى لأصحابه عنه علماً، وبين لأصحابه جميع الفتن، وجميع ما يقع في آخر الزمان مما علمه الله من الغيوب ـ ولكنهم نسوه ـ ولكنه لا يعلم من ذلك إلا ما علمه الله، كما قال جل وعلا: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ الآية [الجن: الآيتان ٢٦، ٢٧] أما الله

(جل وعلا) فعلمه محيط بكل شيء، يعلم ما كان، ويعلم ما لم يكن، وما سيكون كيف يكون، ويعلم ما سبق في علمه أنه لا يكون، يعلم أن لو كان كيف يكون، فهو يعلم أن أبا لهب لن يؤمن، ويعلم لو آمن أبو لهب أيكون إيمانه تاماً أو ناقصاً. والآيات الشاهدة بهذا في القرآن كثيرة، فإن الكفار يوم القيامة إذا عاينوا العذاب ورأوا حقيقة الآخرة ندموا وتمنوا أن يُردوا إلى الدنيا مرة أخرى ليصدقوا الرسل ويؤمنوا، ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٧] وفي القراءة الأخرى[١]: ﴿ولا نُكذِّبُ بأيات ربنا ونَكونُ من المؤمنين﴾ والله يعلم أن هذا الرد الذي تمنوه لا يكون، ومع ذلك فهو عالم أن لو كان كيف يكون؛ ولذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] والمتخلفون عن غزوة تبوك علم الله في سابق أزله أنهم لن يحضروها أبداً؛ لأنه هو الذي ثبطهم عنها لحكمة، كما قال: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٦] وخروجهم الذي سبق في علمه أنه لا يكون هو عالم أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: آية ٤٧] وهذا في القرآن كثير[٢]، كقوله: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: آية ٧٥] فعلمه تعالى محيط بكل شيء، فإذا كان هذا العلم المحيط بكل شيء علم الله (جل وعلا) وهو الذي فصل هذا الكتاب بهذا العلم المحيط علمنا أنه ضمنه استجلاب كل خير، والتحذير من كل شر، ورتب فيه جميع المصالح ودَرأ جميع المفاسد، ودعا فيه إلى جميع مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، ورفع الهمم وكل شيء صالح للدنيا والآخرة في شؤون الفرد وشؤون المجتمع كما يعرفه من تأمل آيات القرآن وتدبرها. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: آية ٥٢].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: الأضواء (٣٠٣/٢).

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: آية ٥٢] في قوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ وجهان من الإعراب(١):

أحدهما: أنهما مصدران مُنَكَّران حالان. والمصدر المُنَكَّر يقع حالًا بكثرة. جئناهم بكتاب في حال كونه هادياً وذا رحمة.

وقال بعض العلماء: هما مفعولان من أجله. والمعنى: جئناهم بكتاب فصلناه لأجل هدى الناس؛ ولأجل أن نرحم باتباعه الناس. وكلا الإعرابين له وجه من النظر.

ومعنى ﴿هُدًى﴾ هذا القرآن فصلناه حال كونه هادياً، أو لأجل كونه هدى يهدي الناس إلى ما فيه صلاحهم من خير الدنيا والآخرة، فيبين لهم الخير في الدنيا والآخرة، ويأمرهم باتباعه، ويبين لهم الشر في الدنيا والآخرة، ويأمرهم باجتنابه.

﴿وَرَحْمَةً﴾ يعني: ومن سلكه واتبعه يرحمه الله (جل وعلا) ويصلح له دينه ودنياه.

وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خص القوم المؤمنين لأنهم هم المنتفعون به كما بينا الآيات الدالة عليه(٢) في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وقوله: ﴿هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: آية ٤٤] وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: آية ٨٢].

ثم لما بين أن هذا القرآن العظيم هو الذي أنزله، وهو الذي فصله وبين حلاله وحرامه وعقائده ومواعظه وأمثاله وآدابه ومكارمه، وأنه بين هذا بعلمه المحيط بكل شيء، هدد الكفار الذين لم يعملوا به فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: آية ٥٣] التأويل: يطلق ثلاثة إطلاقات(٣): أما

---

(١) انظر: البحر المحيط (٣٠٦/٤)، الدر المصون (٣٣٦/٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: أضواء البيان (٢٦٦/١، ٢٦٧)، المذكرة في أصول الفقه ص١٧٦، قواعد التفسير (٦٨٣/٢).

التأويل في لغة القرآن فهو ما يؤول إليه الأمر وتصير إليه الحقيقة في ثاني حال. وعلى هذا فتأويل القرآن هو ما يؤول إليه أمره في ثاني حقيقة، وتقع عليه الحقيقة، وهو صِدْقُ ما وعد به بأن يدخل من آمن به الجنة ويخلد في نعيمها، ويدخل من كفر به النار ويخلد في جحيمها، فهذا تأويله، أي: ما تؤول إليه حقيقة ما كان يعد به وينطق به في دار الدنيا. وهذا هو التأويل في لغة القرآن.

ويطلق التأويل أيضاً على التفسير، ومنه قوله ﷺ في ابن عباس: «**اللهم علمه التأويل**»(١). وقولهم: فلان يعلم تأويل القرآن. أي: تفسيره.

والإطلاق الثالث ـ إطلاق حادث هو اصطلاح الأصوليين لم يكن معروفاً في الزمن الأول ـ وهو أن التأويل: حمل اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى محتمل مرجوح بدليل يدل عليه. هذا اصطلاح حادث، وهو المعروف عند الأصوليين باسم التأويل.

وهو ثلاثة أنواع: تأويل صحيح، وتأويل فاسد، ولعب. فإذا كان التأويل: صرف الكلام عن ظاهره المتبادر منه إلى معنى مرجوح ليس هو الظاهر من الكلام بدليل صحيح يدل عليه حقاً في نفس الأمر، فهو التأويل الصحيح المسمى بالتأويل القريب. ومثاله: قول النبي ﷺ الثابت في صحيح البخاري: «**الجار أحق بسقبه**»(٢) فإن ظاهر هذا الحديث الثابت في صحيح البخاري أن الشفعة ثابتة للجار؛ لأن الصقب والسقب هو ما يلاصق الجار من أرض جاره. إلا أنه حُمل على محتمل مرجوح، وهو أن المراد بالجار هنا: خصوص الشريك المُقاسِم. وهذا احتمال مرجوح، إلا إنه دل عليه نص صحيح، فحُمل اللفظ عليه لدلالة ذلك النص، وهو قوله ﷺ في

---

(١) الحديث بلفظ: «**اللهم فقّهه في الدين وعلمه التأويل**» أخرجه أحمد (١/٣٢٨)، وهو في الصحيحين بلفظ: «**اللهم علمه الكتاب**». كما في البخاري (١٤٣، ٣٧٥٦، ٧٢٧٠)، ومسلم (٢٤٧٧).

(٢) البخاري في الشفعة، باب عرض الشفعة على صاحبها قبل البيع. حديث (٢٢٥٨) (٤/٤٣٧) وأطرافه في: (٦٩٧٧، ٦٩٧٨، ٦٩٨٠، ٦٩٨١).

حديث جابر: «فإذا صُرفت الطرق، وضُربت الحدود فلا شفعة»[١]. فعلم أنه لم تكن هناك شفعة إلا مع الاشتراك في الأرض أو في الطريق كما هو معروف. ومثال التأويل البعيد يمثل له بعض أهل الأصول ـ بعضهم يجيء بما يخالفه به الآخر ـ والمعروف عند علماء الأصول: أن الأصولي يكون مالكياً مثلاً فيمثل بشيء ضد مذهبه، وقصده فهم القاعدة. ويكون شافعياً مثلاً ويمثل بمثال مخالف لمذهبه لتُفهم القاعدة. وقصدنا بكلامهم هنا المثال لا مناقشة أدلة الأقوال. والشافعية والمالكية والحنبلية يمثلون للتأويل البعيد بحمل الإمام أبي حنيفة (رحمة الله على الجميع) المرأة في حديث عائشة: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل باطل»[٢] قالوا: حَمْلُ أبي حنيفة للمرأة على المُكاتَبَة تأويل بعيد؛ لأنه بعيد من ظاهر النص، ولم يقم دليل جازم عليه؛ لأن (أي) صيغة عموم، والعموم أُكِّد بلفظة (ما) فلا يَحسُن حمله على صورة نادرة قد لا تخطر في الذهن وهو المكاتبة. قالوا: وكقول الإمام أبي حنيفة (رحمة الله على الجميع): ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ﴾ [المجادلة: آية ٤] حمل المسكين على المُد، وأجاز أن يُعطى إطعام الستين لمسكين واحد. وقالوا: حَمْل (المسكين) على (المُد) من التأويل البعيد. هكذا يمثلون، وقصدنا المثال لا مناقشة أدلة أقوال العلماء هنا. أما إذا كان صرف الكلام عن ظاهره المتبادر منه لا لدليل في نفس الأمر ولا لدليل [خارجي صحيح فإن ذلك لا يُعد من التأويل المقبول][٣] بل هو تلاعب

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب بيع الشريك من شريكه، حديث رقم: (٢٢١٣)، (٤٠٧/٤). وأطرافه: (٢٢١٤، ٢٢٥٧، ٢٤٩٥، ٢٤٩٦، ٦٩٧٦) من طريق أبي سلمة عن جابر، وأخرجه مسلم في المساقاة، باب الشفعة، حديث رقم: (١٦٠٨)، (١٢٢٩/٣) من طريق أبي الزبير عن جابر بلفظ مغاير.

(٢) أحمد (٦٦/٦)، (١٦٦)، وأبو داود في النكاح، باب في الولي. حديث رقم (٢٠٦٩)، (٩٨/٦، ١٠٠)، والترمذي في النكاح، باب ما جاء لا نكاح إلا بولي. حديث رقم (١١٠٢)، (٣٩٨/٣ ـ ٣٩٩)، وابن ماجه في النكاح، باب لا نكاح إلا بولي. حديث رقم (١٨٧٩)، (٦٠٥/١)، وهو في صحيح أبي داود (١٨٣٥)، وصحيح الترمذي (٨٨٠)، وصحيح ابن ماجه (١٥٢٤)، الإرواء (١٨٤٠)، المشكاة (٣١٣١).

(٣) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

بنصوص القرآن، وكقولهم: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الرحمن: آية ١٩] البحرين: علي وفاطمة ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ [الرحمن: آية ٢٠] الحسن والحسين. فهذا ليس من التأويل وإنما هذا من اللعب والتلاعب بكتاب الله. ويكثر مثل هذا في تفسير الباطنيين وغلاة الروافض، ولا يُسمىٰ تأويلاً وإنما هو لعب.

أما التأويل في القرآن فمعناه: ما تؤول إليه حقيقة الأمر. فقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي: ما تؤول إليه حقيقته من دخول أهل الجنة الجنة، ودخول أهل النار النار.

ثم قال: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: آية ٥٣] أي: يوم يأتي الوقت الذي تحقق فيه مواعيد القرآن، وتحقق الوعد للمؤمن والوعيد للكافر.

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: آية ٥٣] أي: تركوه وتناسوا العمل به في دار الدنيا. ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: آية ٥٣] هذا القرآن ونحوه من الكتب كان حقاً، والذي أمر بأن يدخل من امتثله الجنة، ونحن ـ والعياذ بالله ـ لما لم نمتثل ذلك الأمر فمصيرنا إلى النار. وهذا معنى قولهم: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: آية ٥٣] وتمنوا الشفاعة حيث لا شفاعة.

ثم قالوا ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ [الأعراف: آية ٥٣] جمع شفيع و (هل) هنا للتمني، يتمنون الشفعاء ﴿فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ [الأعراف: آية ٥٣] ويخرجونا مما نحن فيه ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ [الأعراف: آية ٥٣] أو هل لنا أن نرد إلى دار الدنيا لنبدل تكذيب الرسل بالتصديق، ونبدل المعاصي بالطاعات؟ وهو معنى قولهم: ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: آية ٥٣] بين الله أنهم لا يجدون الشفعاء ولا يُرَدُّون وقال: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: آية ٥٣] خسروا أنفسهم ـ والعياذ بالله ـ لأنهم غُبنوا في أنفسهم ورُزِئُوا فيها. والدليل على خسرانهم أنفسهم: أن غاية أمنيتهم أن تعدم أنفسهم ويموتوا ولكن لا يجدون ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: آية ٧٧] وهذا معنى خسرانهم أنفسهم لأنهم رُزِئُوا في أنفسهم فباعوها ـ والعياذ بالله ـ بعرض من الدنيا، وصارت إلى العذاب المخلد إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ [الأعراف: آية ٥٣] غاب واضمحل ما كان

يفترونه في دار الدنيا من أن الأصنام تشفع لهم، كقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: آية ١٨] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: آية ٣] ومعنى: ﴿يَفْتَرُونَ﴾ يختلقون من الكذب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٥٤ ـ ٥٧].

يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: آية ٥٤].

لما أمر الله ـ جل ـ ونهىٰ في هذه السورة الكريمة، وبين فيها أحوال أهل الجنة وأحوال أهل النار، وأوضح عواقب طاعته وعواقب معصيته، وبين أنه أرسل إلى الدنيا كتاباً فصّله على علم منه بين أن الذي قال هذه الأشياء وأخبر بها أنه هو رب كل شيء، وخالق كل شيء، المعبود وحده، المستحق لأن يُعبد وحده، ولأن يطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسىٰ فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ إن ربكم الله، كل الناس يعلمون أن الله ربهم، ولم يكابر في هذا إلا مكابر، أو أحد كالبهائم، لا عقل له؛ لأنه جُبلت فطر العقلاء على معرفة أن الله هو الرب الخالق لكل شيء. والكفار الذين يعبدون الأصنام مقرون بهذا عالمون به، والآيات القرآنية الدالة على ذلك كثيرة ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: آية ٨٧] ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: آية ٣١] وإنكار فرعون لمعرفته ربوبية الله حيث قال الله عنه إنه قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

[الشعراء: آية ٥٣] وقال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: آية ٢٩] وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: آية ٢٤] فإن فرعون مكابر عالم أنه عبد مربوب، وأن الله ربه ورب كل شيء، كما أوضحه الله في إقسام موسى على ذلك، قال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: آية ١٠٢] والله لقد علمت يا فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات إلا رب السماوات والأرض. أي: ومن فيهن. وكقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ [النمل: آية ١٤] يعني: فرعون وقومه ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: آية ١٤] فهو جاحد مكابر ليستخف قلوب قومه ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: آية ٥٤] والذين ينفون ربوبية الله هم بهائم كالبغال والحمير لا عقول لهم ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: آية ٤٤] أما عامة العقلاء الذين ارتفع إدراكهم عن إدراك الحيوانات فهم يعلمون أن الله رب كل شيء وخالق كل شيء.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ [الأعراف: آية ٥٤] أي: إن سيدكم وخالقكم ومدبر شؤونكم ﴿اللَّهُ﴾ ـ جل وعلا ـ ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأعراف: آية ٥٤] أي: وما بينهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: آية ٥٤] هذه الأيام الستة بين الله تفصيل خلقه الخلائق فيها في سورة فصلت ـ السجدة[1] ـ حيث قال: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾ قال: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: الآيتان ٩، ١٠] أي: بإضافة يومين آخرين لليومين الأولين فصارت أربعاً، ثم قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: الآيتان ١١، ١٢] تضاف إلى الأربعة السابقة فتكون ستة.

---

(١) انظر: الأضواء (٢/٣٠٤).

والعلماء يقولون: إن هذه الأيام المراد بها أوقاتها؛ لأنه في ذلك الوقت لم يكن هنالك يوم؛ لأن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها، وإن لم يكن هنالك شمس لا يُعرف اليوم. إلا أن الله قبل أن يخلق الشمس والقمر يعلم زمن الأيام قبل وجود الشمس.

وهذه الأيام قد جاء في روايات كثيرة أن أولها الأحد وآخرها الجمعة[١]. والقرآن بين أنه خلق الأرض في يومين ثم خلق فيها الجبال والأقوات والأرزاق في يومين، ثم خلق السماوات في يومين، فهي ستة أيام. ويوم السبت ليس منها. وما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن الله خلق التربة يوم السبت[٢]، وجعل في كل من أيام الأسبوع بعض الخلق، وإن كان في صحيح مسلم، فهو غلط، غلط بعض الرواة في رفعه، والظاهر أنه أخذه أبو هريرة عن كعب الأحبار أو نحوه من الإسرائيليات[٣]؛ لأنه خلاف القرآن ـ الصحيح ـ أن السبت لم يكن من الأيام التي خُلق فيها شيء، وأن السماوات والأرض وما بينهما خلقت في ستة أيام من الأسبوع، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، خلق الله فيه آدم بعد صلاة العصر.

---

(١) جاء في هذا المعنى عدة روايات عن جماعة منهم مجاهد كما في تفسير الطبري (٤٨٢/١٢)، وعبدالله بن سلام كما في تاريخ الطبري (٢٤/١)، وابن مسعود، وابن عباس، وأيضاً عن أبي سنان عن أبي بكر مرفوعاً كما في (٢٦/١)، من تاريخ ابن جرير رحمه الله.
وقد تكلم على هذه الرواية الحافظ ابن كثير في تاريخه (١٥/١)، ورجحها على الرواية الأخرى في التفسير (٢٢٠/٢)، وقد سبقه إلى ذلك ابن جرير (رحمه الله) في تاريخه (٢٥/١).

(٢) مسلم في صفات المنافقين. باب: ابتداء الخلق، وخلق آدم عليه السلام. حديث رقم (٢٧٨٩)، (٢١٤٩/٤)، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢٢٠/٢) معلقاً على هذه الرواية: «وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار، ليس مرفوعاً» ا.هـ. وراجع كلام ابن كثير على هذه الرواية في البداية والنهاية (١٧/١).

(٣) انظر: ابن كثير (٢٢٠/٢).

وهذه الأيام قال بعض العلماء(١): إنها كأيام الدنيا. وقال بعضهم: اليوم منها هو المذكور في قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: آية ٤٧].

والله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، مع أنه قادر على أن يخلق الجميع في لحظة واحدة كلمح البصر لحكمته (جل وعلا)، قال بعض العلماء: أراد أن يعلم خلقه التمهل في الأمور، والتدرج فيها ليقدروا عليها، وهو قادر على خلق ما شاء في لحظة واحدة ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: آية ٥٠] فهو يقول للشيء كن فيكون(٢). هذا معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: آية ٥٤].

قال بعض العلماء: الستة أصلها (سِدْسَة) أُبدلت الدال تاء وأُدغمت في التاء(٣). قالوا: وتُصغر الستة على (سُدَيْسَة) رداً لها لأصلها. وعلى كل حال فالستة العدد المعروف، وهو الثلاثة مرتين كما هو معروف.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: آية ٥٤] العرش يطلق في اللغة إطلاقات متعددة(٤) من أشهرها في القرآن: سرير المُلك(٥). فالعرش سرير المُلك، سرير المَلِك الذي يُعدُّ له تسميه العرب عرشاً، ومنه سرير ملكة سبأ في قوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ وقوله: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل: آية ٤٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ جل وعلا ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وهذه صفة الاستواء ونحوها من آيات الصفات ارتبك فيه عقول كثير من

---

(١) انظر: القرطبي (٧/٢١٩)، البحر المحيط (٤/٣٠٧)، ابن كثير (٢/٢٢٠).

(٢) انظر: القرطبي (٧/٢١٩)، البحر المحيط (٤/٣٠٧).

(٣) انظر: القرطبي (٧/٢١٨)، الدر المصون (٥/٣٣٩)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٣٩ . وقد وقع للشيخ (رحمه الله) هنا سبق لسان، وصواب العبارة ـ كما في المصادر المذكورة هنا ـ أن يقال: «أبدلت السين تاء، وأُدغمت في الدال».

(٤) انظر: القرطبي (٧/٢٢٠)، الدر المصون (٥/٣٤٠).

(٥) في الأصل قال الشيخ (رحمه الله) بعد هذه الكلمة: «وإنما أُطلق على السُّقُف». ثم قال بعدها: «فالعرش سرير...» إلخ، فصنيعه يُشعر أنه تراجع عن العبارة السابقة؛ ولذا لم أثبتها . والله أعلم.

الناس، وضل فيه من الخلق المنتسبين للعلم، بل والذين عندهم علم وعقول ما لا يحصيه كثرة إلا الله (جل وعلا). ونحن نوضح لكم المقام في عقيدة السلف الصحيحة التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه والسلف الصالح، وهي العقيدة الكريمة الصافية من شوائب التشبيه والتعطيل، لا تشوبها شائبة تشبيه ولا تشوبها شائبة تعطيل، ونحن نوضح هذا في ضوء القرآن العظيم. وإيضاح ذلك أن تعلموا ـ أيها الإخوان ـ أن الله (تبارك وتعالى) أوضح في كتابه هذا القرآن العظيم الذي هو أصل الهدىٰ، ومنبع اليقين، ونور المعرفة والعلم، بين فيه أن المُعتقد المُنجي في آيات الصفات الذي يأتي صاحبه يوم القيامة سالماً من بلايا التشبيه وبلايا التعطيل هو مُركَّز على ثلاثة أُسس[1]، نوصيكم وأنفسنا بتقوى الله، وأن تعتقدوا هذه الأسس الثلاثة الكبار، فتنجيكم أمام الله من بلايا هذا المأزق الذي ضل فيه من الخلق ما لا يُحصى. هي ثلاثة أُسس عظام من جاء بها ولقي الله عليها لقيه سالماً على بصيرة من ربه، عاملًا بنور القرآن العظيم، ومن أخلَّ بواحد منها فقد أدخل نفسه في مهواة.

وهذه الأسس الثلاثة نوضحها لكم في ضوء القرآن العظيم:

الأول منها، وهو أساس العقيدة، والحجر الأساسي لمعرفة الله معرفة صحيحة، وللعقيدة التي هي على أساس سماوي صحيح. هذا الأساس المذكور هو تنزيه خالق السماوات والأرض ـ جل وعلا ـ عن أن يشبهه شيء من خلقه؛ لا في ذواتهم ولا في صفاتهم، ولا أفعالهم. وكيف يخطر في ذهن العاقل أن الخالق ـ جل وعلا ـ يشبهه شيء من خلقه في الذات أو الصفات أو الأفعال؟ لأن جميع الخلائق صَنْعَة من صُنْعِه ـ جل وعلا ـ ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: آية ٨٨] والصنعة لا يمكن أن تشبه صانعها بحال؛ لأنه هو الذي أبرزها من [العدم إلى الوجود][2]، واخترعها بعد أن لم تكن شيئاً. فكيف يخطر في ذهن عاقل أن تكون تشبهه؟ هذا مما لا يخطر في الأذهان السليمة، وأحرى الأذهان الممتلئة بنور الوحي. فأساس

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأنعام.

(٢) في الأصل: «من الوجود إلى العدم» وهو سبق لسان.

التوحيد الأكبر، وأساسه الأعظم، هو تنزيه خالق السماوات والأرض - جل وعلا - عن مشابهة خلقه؛ لأن الخلق صنعة من صنائعه، والصنعة لا تشبه صانعها. فعلينا أولاً أن نطهر قلوبنا من أقذار التشبيه، وأنجاس التشبيه، وأدران التشبيه، ونجزم جزماً باتاً قاطعاً أن الوصف إذا أُسند إلى الله، ووُصف به الله في كتاب أو سنة صحيحة فإن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقضي على جميع الوساوس، ويقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، وتجزم قلوبنا بأن الخلق صَنْعَة والخالق صانع، ولا مناسبة بين الصنعة وصانعها، لا في الذات، ولا في الصفات، ولا في الأفعال. وهذا الأساس الأكبر للعقيدة التي هي عقيدة السلف في آيات الصفات وأحاديثها الذي هو التنزيه الكامل، وتقديس صفات خالق السماوات والأرض، وتعظيمها، وإكبارها، وإجلالها عن أن تشبه شيئاً من صفات المخلوقين أو ذواتهم أو أفعالهم، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. هذا الأساس الأعظم في ضوء قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: آية ٤] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: آية ٥٦] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: آية ٧٤] فإذا رزق الله العبدَ فهم هذا الأساس الأكبر، والحجر الأساسي للعقيدة الصحيحة، وكان قلبه قلباً طاهراً من أقذار التشبيه، منزهاً لخالق السماوات والأرض كما ينبغي، جازماً بأن الخلق صَنْعَتُه، وأن الصنعة لا تشبه صانعها بحال، فإذا كان قلب المؤمن طاهراً واعتقد اعتقاداً جازماً باتاً بأن صفة الله منزهة عن مشابهة صفات خلقه كتنزيه ذاته عن مشابهة ذوات خلقه - إذا استحكم هذا الأساس العظيم في قلب المؤمن - فالأساس الثاني: هو أَنَّا كُلاًّ علينا أن نصدق الله فيما أثنى به على نفسه، ونصدق سيدنا محمداً ﷺ فيما أثنى به على ربه؛ لأن الله أصدق من يقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: آية ١٢٢] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: آية ٨٧] ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: آية ١٤٠] فإذا مدح الله نفسه بوصف كريم في كتابه، أو مدحه رسوله الصادق الأمين الذي قال في حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤] فعلينا أن لا نُكذّب الله، ولا

نُكذِّب رسوله، ولا ننفي ما أثبته الله لنفسه، ولا ننفي ما أثبته الصادق الأمين ﷺ لربه، ولكن علينا أن نؤمن بذلك الوصف الذي مدح الله به نفسه، أو مدحه به الصادق الأمين ﷺ، ولكن ذلك الإيمان إيمان مبني على أساس التنزيه وعدم مشابهة الخلق؛ لأن الخلق لا يمكن أن يشبهوا خالقهم. وهذا التعليم العظيم الذي هو تنزيه الله ـ جل وعلا ـ عن مشابهة الخلق. ثم إذا طهرت القلوب من أقذار التشبيه يتبع ذلك الإيمان بالصفات الثابتة بالقرآن العظيم والسنة الصحيحة إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه.

هذا لم نقله لكم من تلقاء أنفسنا وإنما هو تعليم خالق السماوات والأرض في المحكم المنزل؛ لأن الله أوضح هذين الأساسين غاية الإيضاح، وبينهما غاية البيان حيث قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] وأتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] ففي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ في ذلك سر أعظم، وتعليم أكبر، ومغزى عظيم. وإيضاحه أن السمع والبصر من حيث هما سمع وبصر ـ ولله المثل الأعلى ـ يتصف بهما جميع الحيوانات، فكل الحيوانات تسمع وتبصر، فكأن الله يقول في الآية الكريمة: يا عبدي اعرف قدرك ولا تتنطع، ولا تَنْفِ عني صفاتي، ولا تذهب بصفاتي إلى صفات المخلوقين حتى تقول: هذا وَصْفٌ غير لائق، هذا وَصْفٌ يجب صرفه عن ظاهره إجماعاً. لا، لا يا عبدي، أثبت لي سمعي وبصري، ولكن لاحظ قولي قبل ذلك: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فيكون إثباتك للسمع والبصر إثبات تنزيه عن مشابهة أسماع الخلائق وأبصارهم، نظراً لقولي قبله مقترناً به: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فأول الآية الكريمة وهو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ تنزيه تام عن مماثلة صفات المخلوقين من غير أن يفضي ذلك التنزيه إلى تعطيل، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ إيمان بالصفات على الحقيقة إيماناً تاماً من غير أن يفضي ذلك الإيمان إلى تشبيه ولا إلى تعطيل.

فعلينا أن نعتقد جميعاً ما دل عليه أول الآية من تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة خلقه، وأن نعتقد أيضاً ما دل عليه آخرها من إثبات الصفات الثابتة في الوحي الصحيح على أساس ذلك التنزيه، لا على أساس

مشابهة الخلق ـ سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ ولذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ والصفات كلها من باب واحد؛ لأنك لا تجد صفة يكثر اتصاف المخلوقات بها أعظم من السمع والبصر فليست هناك صفة مجيء، ولا صفة نزول، ولا صفة وجه، ولا صفة يد، ولا غير ذلك من الصفات أشدّ اتصافاً للمخلوقات بها من السمع والبصر، فضرب لك السمع والبصر مثلًا على أن تثبتهما لله وتلاحظ في ذلك الإثبات قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فهو حل وإيضاح برهاني في جميع الصفات الثابتة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن تنزه الله أولًا حتى تطهر قلبك من أقذار التشبيه وأدرانه وأنجاسه، ثم إذا طهرت أرض قلبك من أقذار التشبيه، وأنجاس التشبيه، وأدران التشبيه يجب عليك أن تؤمن بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه كما بنى ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ على قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فليس لك أن تقول: الحيوان يسمع ويبصر، الإنسان يسمع ويبصر، والبعير يسمع ويبصر، والحمار يسمع ويبصر، وكل حيوان يسمع ويبصر، فإذا أثبتُّ السمع والبصر لله كنتُ مشبهاً له بالحيوانات!! لا وكلا يا عبدي، بل أثبت لي سمعي وبصري إثباتاً مبنياً على أساس التنزيه، وانظر أني قلت قبل ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ قلت قبلها: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ليكون الإيمان بإثبات سمعي وبصري مبنياً على تنزيهي وعدم مماثلتي لخلقي، فبأول الآية يحصل للمؤمن التنزيه التام ويذهب عنه جميع أنواع التشبيهات، وبآخر الآية يؤمن العبد بما ثبت عن ربه أو عن رسوله ﷺ إيماناً كريماً طاهراً مقدساً عن مشابهة صفات الخلق، مبنياً على أساس التنزيه. فهذان أساسان أعظمان:

الأول منهما: تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة صفات خلقه في ذواتهم أو أفعالهم أو صفاتهم.

الثاني: هو الإيمان بما ثبت عن الله مما مدح الله به نفسه إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه، والتباعد كل البعد عن مشابهة الخلق. وكذلك ما أثنى عليه به رسوله ﷺ فبتنزيهك أيها المؤمن ربك من مشابهة الخلق تكون عاملًا بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: آية ٤] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: آية ٧٤] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: آية ٦] وبتصديقك ربك وتصديقك رسولك فيما أثنى الرب به على نفسه أو أثنى عليه به رسوله تكون مؤمناً بالصفات إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، فتسلم من ورطة التشبيه، وتسلم من ورطة التعطيل، وتأتي ربك يوم القيامة وقلبك سليم طاهر من أقذار التشبيه، وأقذار التعطيل، وجحود آيات الله التي مدح بها نفسه. فهذان الأساسان بينهما الله لنا في هذا المحكم المنزل في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١].

والأساس الثالث: أن تعلم أيها العبد أن عقلك المسكين الضعيف واقف عند حده، ورب السماوات والأرض أعظم وأكبر وأجل شأناً من أن تحيط به علماً، أو أن تعلم كُنْه كيفية اتصافه بصفاته ـ جل وعلا ـ؛ لأن الله يقول: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه: آية ١١٠] فنفى إحاطة العلم البشري به ـ جل وعلا ـ نفياً قرآنياً باتاً.

ونحن الآن أيها المسلمون تسير بنا الأيام والليالي لحظاتها ودقائقها وثوانيها إلى القبور، وعن قليل نُنشر من القبور إلى عرصات القيامة، والله سائلنا جميعاً كما قال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: آية ٦] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ [الحجر: آية ٩٢] واعلموا أيها الإخوان أنه لا يُؤْمَن أن يسألنا خالقنا: ماذا كنتم تقولون في صفاتي التي مدحت بها نفسي، كاستوائي على عرشي؟ فإني مدحت نفسي في سبع آيات من كتابي بأني استويت على عرشي، ماذا كنتم تقولون فيما مدحت به نفسي؟ أكنتم تقولون: إن ظاهره خبيث، وأنه قذر نجس تشبيه وتنفونه وتحرفون كلامي، تجيئون بقول لم أقله، كالذين قال الله فيهم: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: آية ٥٩] أم كنتم تنزهونني، وتعلمون أني لا أثني على نفسي إلا بصفة كمال وجلال لائقة مقدسة معظمة منزهة، وتثبتون لي ما أثبتُّ لنفسي إثباتاً مبنياً على أساس التنزيه، على نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وأنا أؤكد لكم بمعرفة القرآن العظيم ونحن في دار الدنيا أن من مات منكم وحُشر ونُشر ولقي الله ـ جل وعلا ـ على هذه العقيدة السلفية التي نلقنكم في دار الدنيا أنه يأتي آمناً من كل توبيخ وتقريع يأتيه من قِبَل واحد من هذه الأُسس الثلاثة. أما الأساس الأول ـ الذي هو تنزيه الله عن مشابهة خلقه ـ فوالله لا يأتي واحداً منكم بسببه بلية ولا تقريع ولا عذاب أبداً، فلا يقول الله لأحدكم موبخاً له مقرعاً: لِمَ كنت في دار الدنيا تنزهني عن مشابهة خلقي؟ لا والله. هذا أساس هو طريق سلامة محققة لا يشك فيها عاقل، وكذلك الأساس الثاني: وهو الإيمان بصفات الله، وتصديق الله في كتابه، وتصديق رسوله في سنته الصحيحة بما مدح الله به نفسه أو مدحه به رسوله إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، فلا يقول الله لواحد منكم يوم القيامة مُوَبِّخاً له مُقَرِّعاً له: لِمَ كنت تصدقني فيما أثنيت به على نفسي، وتؤمن بالصفات التي مدحت بها نفسي إيماناً مبنياً على أساس التنزيه؟ لا والله، لا تأتي أحداً منكم بلية من هذا الأساس، ولا يقول الله لكم: لِمَ كنتم في دار الدنيا تقولون: إن العقول البشرية لا تحيط بالله؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا﴾ [طه: الآية ١١٠] فهذه عقيدة السلف الصحيحة، الصافية من كل شائبة تشبيه، ومن كل شائبة تعطيل، فهي طريق سلامة محققة، كلها عمل بنور القرآن العظيم لا تختلجها شكوك، ولا تتطرقها أوهام؛ لأن أول أساسها تنزيه خالق[1] [السماوات والأرض عن مشابهة المخلوقين، فهي مبنية] على ثلاثة أُسس كلها واضح من نور القرآن العظيم، أولها: تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة خلقه. وثانيها: الإيمان بما مدح الله به نفسه إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه، وكذلك ما مدحه به رسوله ﷺ. والثالث: العجز عن الإحاطة بالكيف والكُنْه؛ لأنه الله يقول: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا ۝١١٠﴾ [طه: الآية ١١٠] فالسلفي بتنزيهه طاهر القلب من أقذار التشبيه، وبإيمانه بالصفات على أساس التنزيه طاهر القلب من أقذار التعطيل، وباعترافه بعجزه عن إدراك الكُنْه والإحاطة واقف عند حده، غير متكلف علم ما لم

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

يعلم، فطريقه طريق سلامة محققة، فإذا سمع السلفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤] كما في آية الأعراف هذه فيقول: هذا الاستواء على العرش الذي مدح خالق السماوات والأرض نفسه في سبع آيات من كتابه هو صفة كمال وجلال بالغة من غايات الكمال والجلال ما يقضي على جميع الوساوس ويقطع علائق أوهام التشبيه بينه وبين صفات المخلوقين، فيمتلىء قلبه لهذه الصفة من الإجلال والإعظام والإكبار والتقديس والتنزيه، فتكون أرض قلبه طاهرة بهذا التنزيه الكريم فيؤمن بالاستواء على أساس هذا التنزيه والإكبار والإجلال والإعظام والتقديس عن مشابهة صفات الخلق بوجه من الوجوه؛ لأن الخلق من هم الخلق؟ أليسوا صنعة من صنائعه وأثراً من آثار قدرته وإرادته؟ فكيف يخطر في ذهن العاقل أن يُشْبِهُوه؟ فالسلفي إذا سمع مثل هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وعلم أن الله مدح نفسه بهذا الاستواء الأعظم امتلأ قلبه من الإجلال والإعظام والإكبار والتقديس والتنزيه لهذه الصفة العظيمة فأثبتها لله (جل وعلا) إثباتاً مبنياً على أساس ذلك التنزيه على نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١] وليس الاستواء بأكثر في المخلوقين من السمع والبصر، بل استواء المخلوقين كسائر ذواتهم وصفاتهم، واستواء الله وسمعه وبصره لائقان بذاته كسائر صفاته (جل وعلا) فالمخلوق حق، وصفاته حق، والخالق حق، وصفاته حق، إلا أن صفات المخلوق مناسبة لذات المخلوق، منحطة كانحطاط ذات المخلوق، وصفات الخالق لائقة بذات الخالق، متعاظمة كعظمة ذات الخالق (جل وعلا) وبين صفة هذا وهذا مثل ما بين ذات هذا وهذا كما هو معروف، فإذا سمع السلفي: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تَلَقَّى هذا الاستواء بالإعظام والإجلال والتقديس والتنزيه فكان قلبه طاهراً من أقذار التشبيه، ثم آمن به على أساس ذلك التنزيه مع العجز عن إدراك الكيفية، فهو في أول أمره منزه، وفي ثاني أمره مؤمن بالصفة، مصدق ربه على أساس التنزيه، عالم بأنه عاجز عن إدراك الكيفية، فمذهبه طريق سلامة محققة لا شك فيها، ليس فيها شائبة تشبيه، ولا شائبة تعطيل، ولا تكلف بعلم ما لم يعلم، أما الخلفي إذا سمع قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فإنه يدخل في ثلاث بلايا عظام، كل بلية

أكبر من أختها، وليس من المظنون أن يتخلص منها يوم القيامة إن لم يعذره الله بجهله، أولها: أنه إذا سمع قوله: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: الآية ٤] قال: هذا الاستواء أول ما يتبادر منه للأذهان ـ ظاهره المتبادر منه للأذهان ـ أنه مشابه لاستواء المخلوقين، فكأنه يقول لله: هذا الوصف العظيم الكريم الذي مدحت به نفسك ظاهره قذر نجس؛ لأنه لا كلام أقذر ظاهراً ولا أنجس ظاهراً ولا أخبث ظاهراً ولا أنتن ظاهراً من كلام ظاهره تشبيه الله بخلقه، فهذا الظاهر هو أنتن ظاهر يوجد في الكلام وأقبحه وأقذره وأنجسه، فكأنه يقول لله: ظاهر ما مدحت به نفسك المتبادر منه قذر نجس خبيث لا يليق، وهو مشابهة الخلق، فأول ما يسبق في قلبه تشبيه صفة الخالق بخلقه، فيكون هذا أول بذر للشر في قلب هذا المسكين من حيث لا يشعر، ثم إذا استحكم في قلبه أن ظاهر هذا الاستواء المتبادر منه هو مشابهة الخلق اضطر إلى أن ينفيه من أصله، وقال: هذا الذي مدحت به نفسك لا يليق ظاهره!! ثم نفاه من أصله، نفى صفة الاستواء من أصلها!! وهذه هي البلية الثانية العظمى؛ لأن من يدعي على صفات الله التي مدح بها نفسه في كتابه معلماً خلقه أن يمدحوه بها من ادعى عليها أن ظاهرها قذر، وأنه نجس، وأنه خبيث؛ لأنه مشابهة الخلق، هذه هي البلية الأولى من البلايا اللازمة لمذهب الخلف.

والبلية الثانية: هو أنه إذا استحكم هذا التشبيه في قلبه اضطر إلى أن ينفي الصفة، فيقول: هذا الاستواء ظاهره مشابهة المخلوقين فيلزم أن ننفيه ونصرفه عن ظاهره إجماعاً؛ لأنه أوهم غير اللائق، فينفي الوصف الذي مدح الله به نفسه في سبع آيات من كتابه، والوصف الذي مدح الله به نفسه في سبع آيات من كتابه من نفاه فهو أجرؤ من خاصي الأسد بأضعاف، وهو واقع في بلية عظمى، وجناية كبرى بلا شك. ثم إذا ادعى على الصفة أن ظاهرها لا يليق ثم نفاها بسبب هذه الدعوى جاء بصفة أخرى من كيسه الخاص، من غير اعتماد إلى كتاب، ولا إلى سنة، يظن أنها هي الكمال، فيقول: إذاً معنى (استوى): استولى، ثم يضرب لذلك مثلاً ببيت الراجز المشهور[(١)]:

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأنعام.

قد استوى بشرٌ على العراق من غير سَيْفٍ ودَمٍ مهراق

فيقول: «قد استوى بشر» معناه: قد استولى بشر، وإذاً فمعنى قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: ثم استولى على العرش. وهذه هي البلية الثالثة من البلايا العظام، فالله قال: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ وهذا قال: «استولى» فصدق عليه قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: الآية ٥٩] ثم نقول: أيها المسكين الخَلَفي الجاهل بالله وبعظمة الله المحرف آيات الله: قولك: إن (استوى) بمعنى: (استولى) وبيت الرجز الذي جئت به ألم تخش الله في هذا؟ ألم تستح من الله استحياء يمنعك أن تُشَبِّه استيلاء الله على عرشه الذي زعمت باستيلاء بشر بن مروان على العراق؟! وهل يُعلم - أيها الإخوان - تشبيه في الدنيا أشنع ولا أفظع ولا أقبح من تشبيه استيلاء خالق السماوات والأرض على عرشه المزعوم باستيلاء بشر بن مروان على العراق؟ وهل يرضى عاقل أن يُشَبه العراق بالعرش، وأن يشبه الله (جل وعلا) ببشر بن مروان باستيلائه على العراق؟ هل تعقلون في الدنيا تشبيهاً أخس من هذا، وأشنع من هذا، وأفظع من هذا؟! فنقول: أيها الخَلَفي المستدل بهذا البيت ألم تعلم أنك بدعواك واستدلالك بالبيت على استواء بشر بن مروان على العراق أنك أنت أكثر المُشَبِّهين في الدنيا نصيباً في التشبيه حيث شَبَّهْتَ العرش بالعراق، وشَبَّهْتَ خالق السماوات والأرض في استيلائه على عرشه باستيلاء بشر بن مروان على العراق؟ ثم لتعلم أن الاستيلاء الذي جئت به وبدلت به لفظ القرآن أنه هو أشد الصفات توغلاً في التشبيه؛ لأنك لما قلت: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ معناه: (استولى) صرت مشبهاً لله بكل مخلوق قهر مخلوقاً فغلبه فاستولى عليه، والمخلوقات التي تقهر المخلوقات فتغلبها فتستولي عليها تعد بالملايين، فالاستيلاء أكثر الصفات توغلًا في التشبيه، فصاحبه يُشَبِّه الله بكل مخلوق قهر مخلوقاً فغلبه فاستولى عليه، وهذا الاستيلاء تحته من التشبيه بحور لا سواحل لها تعد بالملايين والآلاف، ولا شك أن هذا المسكين المغرور سيضطر ويقول: الاستيلاء الذي فسَّرتُ به الاستواء واستشهدت له ببيت الرجز استيلاء مُنَزَّه عن استيلاء المخلوقين. فنقول له: نناشدك الله

أنصف في الجواب ولا تعميك الأهواء والتعصبات، أيهما أحق بالتنزيه الأحق بالتنزيه الاستواء الذي هو من كلام رب العالمين، ولفظ القرآن العظيم، نزل به الروح الأمين من فوق سبع سماوات على سيد الخلق ﷺ قرآناً يُتلىٰ، الحرف منه بعشر حسنات يُقرأ به في الصلوات، ومن أنكر أنه من كلام رب العالمين كفر بإجماع العلماء، فهذا هو الأحق بالتنزيه أم الأحق بالتنزيه لفظة الاستيلاء الذي جاء به ناس من قِبَل أنفسهم من غير اعتماد على دليل من كتاب ولا سنة ولا عقل ولا لغة ولا شيء؟ ولا شك أنه إن لم يكن مكابراً سيضطر إلى أن يقول: كلام رب العالمين أحق بالتنزيه والإجلال والتقديس من كلام جاء به ناس من غير اعتماد على كتاب ولا سنة، فلذا مذهب الخلف تحته ثلاث بلايا:

أولها: أنهم يدّعون على آيات الله التي مدح بها نفسه أن ظاهرها خبيث قذر، فكأنهم يقولون لله: هذا الذي مدحت به نفسك، وأثنيت به على نفسك، وعلّمت خلقك أن يمدحوك به في كتابك هذا قذر نجس لا يليق، ونحن نأتيك بالكمال من عند أنفسنا، ويأتوا بكمال من عند أنفسهم مزعوم!! هذا هوس وجنون لا يقول به عاقل. فالبلية الأولىٰ: هي الادعاء على النصوص أن ظاهرها لا يليق بالله.

والبلية الثانية: هي نفي الصفات التي مدح الله بها نفسه.

والبلية الثالثة: هي الأمر الذي يجيئون به من عند أنفسهم الذي هو أعظم الأمور تشبيهاً، وأوغلها في التشبيه، فبأي عقل وبأي نقل، وبأي كتاب أو سنة يسوغ للخلفي أن يُشَبّه استيلاء الله على عرشه الذي زعم باستيلاء بشر بن مروان على العراق؟ فهذا أخس التشبيه وأشنع التشبيه، ولو كان عالماً بما يعلم به السلف الصالح لعلم أن الاستواء الذي مدح الله به نفسه أنه بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق الوساوس وأوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فيثبته لله كما أثبته على نفسه إثباتاً منزهاً عن مشابهة صفات المخلوقين، مقدساً مُكَبَّراً معظماً منزهاً عن مشابهة المخلوقين على نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١].

وهنا شُبه نتعرض لها وربما خطر في ذهن الإنسان أن يقول: ذكرتم لنا أن كل وصف أثبته الله لنفسه يجب أن نعتقد أن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والجلال والتقديس والتنزيه والإعظام والإجلال والإكبار ما يقطع الوساوس وعلائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، ومن ذلك صفة الاستواء، وصفة الوجه، وصفة اليد، ونحو ذلك مما ثبت مما مدح الله به نفسه في كتابه أو مدحه بها رسوله ﷺ. فإن قالوا: نحن لا نعلم كيفية استواء منزهة عن كيفية استواء المخلوقين، فلم تدرك عقولنا إلا هذا الاستواء الذي هو انتصاب مشابه لصفات المخلوقين فبينوا لنا كيفية استواء منزهة معقولة لنعتقد كيفية منزهة.

فالجواب على هذه الشبهة من وجهين:

أحدهما: أن نقول أولًا: هل عرفتم ـ أيها المتنطعون ـ كيفية الذات الكريمة المقدسة المتصفة بهذا الاستواء؟ فلا بد أن يقولوا: لا، فنقول: معرفة كيفية الاتصاف بالصفات متوقفة على معرفة كيفية الذات؛ لأن كل صفة هي بحسب موصوفاتها، والصفات تتباين باختلاف موصوفاتها، ونضرب لذلك مثلًا ـ ولله المثل الأعلى ـ ألا ترون ـ أيها الإخوان ـ أن لفظة (رأس) راء، وهمزة، وسين (رأس) إذا أضفته إلى الإنسان فقلت: «رأس الإنسان» وأضفته إلى الجبل فقلت: «رأس الجبل» وأضفته إلى الوادي فقلت: «رأس الوادي» وأضفته إلى المال فقلت: «رأس المال» ألم تكن هذه الحقائق متباينة مختلفة اختلافاً تاماً ليست بمتشابهة ألبتة مع أن لفظة (الرأس) واحدة وإنما تباينت حقائق هذه الكلمة بحسب اختلاف إضافاتها، وهذا باختلاف الإضافات إلى مخلوقات حقيرة، فما بالكم ـ أيها الإخوان ـ بما أضيف إلى الخالق وما أُضيف إلى خلقه الذي هو صنعة من صنائعه؟ فالفرق بين هذا وهذا كالفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق.

والشبه الأخرى: إذا قال معطل متنطع: القرآن نزل بلسان عربي مبين، والعرب لا تعرف في لغتها للاستواء إلا هذا المُشاهد في المخلوقين، فيكون إثباته تشبيهاً بحسب ما دل عليه الوضع العربي الذي نزل به القرآن.

فالجواب من وجهين أيضاً: فنقول: العرب الذين نزل القرآن بلغتهم

يعرفون كل المعرفة من وضع لغتهم ومعانيها أن بين الخالق والمخلوق، والرازق والمرزوق، والمُحيي والمُحيا، والمميت والمُمات، يعلمون أن بينهما فوارق عظيمة هائلة لا يُقادَر قدرها مستلزمة كل الالتزام لتباين صفاتهم، وأن تكون صفات هذا متعالية متعاظمة إلى اللياقة بذاته، وأن تكون صفات هذا منحطة منخفضة متواضعة إلى قدر ذاته، فانحطاط صفة المخلوق عن صفة الخالق كانحطاط ذات المخلوق عن عظمة ذات الخالق (جل وعلا) فهذا يعرفه أهل اللسان من لغتهم؛ ولذا لم يكن الأعراب البدو يلتبس عليهم هذا، فيعلمون أن الفوارق التي بين الخالق وخلقه، والرازق ومن رزقه، والمُميت ومن يُميته، والمُحيي ومن يُحييه، يعلمون أن بينهما فوارق عظيمة هائلة يلزمها تباين الصفات، وأن صفات هذا لا تشبه صفات هذا، وأن صفات هذا كذاته لائقة بذاته، وأن صفات هذا لائقة بذاته، وبين صفات هذا وصفات هذا من الاختلاف كما بين ذات هذا وذات هذا.

الجواب الثاني: أن نقول: القرآن نزل بلسان عربي مبين، وقد أقررتم بأن الله سميع بصير، والعرب لا تعرف في لغتها معنىً للسمع والبصر لا يدركون معنىً للسمع والبصر إلا هذا المشاهد بالجارحة في الحيوانات، هل يعلمون كيفية له غير هذا؟ لا، أبداً. فإن قالوا: لا نعلم للسمع والبصر كيفية إلا المشاهد في الحيوانات، لكنا نعلم أن سمع الله وبصره مُنَزَّهان عن مشابهة أسماع الخلق وأبصارهم لتنزيه ذاته عن ذواتهم وصفاته عن صفاتهم. قلنا: وكذلك نقول في الاستواء وسائر جميع الصفات.

فعلينا معاً أن نعلم أن الطريق الوحيد الأسلم الذي كان عليه السلف الصالح أوله أن نُنَزِّه خالقنا (جل وعلا) عن مشابهة الخلق، ونعلم أن الخلق صنعة من صنعائه، ثم لا ننكر وصفاً أثنى الله به على نفسه، ولا نجحد مدحاً مدح الله به نفسه في كتابه وعلّم خلقه أن يمدحوه، ولا نكذب رسولنا ﷺ وننفي مدحاً مدح به ربه، فالله أعلم بنفسه منا ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: الآية ١٤٠] ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ. فعلينا أن نعتقد أولاً التنزيه وأن الخلق صَنْعَة، والصَّنْعَة لا تُشبه صانعها.. ثم نؤمن بما ثبت عن الله، وما ثبت عن رسول الله إيماناً

مبنياً على أساس ذلك التنزيه على نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١] فنكون بتنزيهنا طاهرة قلوبنا من أقذار التشبيه، وبإيماننا بالصفات على أساس التنزيه طاهرة قلوبنا من أقذار التعطيل، فنلقى الله سالمين غير مشبهين ولا معطلين. وأما هذا المذهب الخلفي أول ما يبدأ به الادعاء على آيات الله أن ظاهرها قذر، وأنه نجس، ثم بعد ذلك نفيها، ثم الإتيان بشيء آخر من تلقاء أنفسهم لم يرد به كتاب ولا سنة. وكل هذه بلية عظمىٰ من ثلاث بلايا لا يُؤمَن أن يقع صاحبها في مَهْوَاة؛ لأن الادعاء على الله أن ما مدح به نفسه ظاهره خبيث لا يليق، هذه جناية كبرىٰ، ونفي ما مدح الله به نفسه جناية أُخرىٰ، وإيتان الإنسان بوصف من تلقاء نفسه ليثبته لله لم يثبته الله لنفسه كالاستيلاء الذي لم يثبته الرسول ولم يثبته الله هو الجناية الثالثة. ولو هداه الله إلى ما هدىٰ إليه السلف الصالح [لأثبت ما أثبته الله لنفسه على ما يليق بجلال الله وعظمته؛][1] لأن الوصف عندما يُسند إلى الله يعلم المؤمن أنه بالغ من غايات الكمال والجلال والعلو والشرف والرفعة واللياقة بالله ما يقضي على جميع الوساوس وأوهام علائق المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فيؤمن بالوصف على أساس التنزيه على نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لكان سالماً من بلية التشبيه، وسالماً من بلية التعطيل.

ومن المعلوم أن علماء الكلام الذين خاضوا في هذه الأمور، ونفوا بعض الصفات بأقيسة منطقية استنتجوا نفي بعض الملزومات من نفي اللوازم ـ في زعمهم ـ أن ذلك غلط منهم (. . .)[2] زعموا أن هنالك صفة نفسية، وصفة سلبية، وصفة معنى، وصفة معنوية، وصفة فعل، وصفة جامعة. ومثلوا لكل من هذا، وسنذكر لكم نموذجاً في أن كلّاً من الصفات التي ذكروها جاء في القرآن العظيم وصف الخالق بها، وجاء فيه وصف المخلوق بها علينا أن نعتقد أن وصف الله حق، وأن وصف المخلوق حق، ولكن

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، والكلام مع ذلك منتظم.

وصف الله لائق بالله، منزه عن مشابهة صفة المخلوق، ووصف المخلوق لائق بالمخلوق ولا يليق بالله (جل وعلا) وبين وصف الخالق والمخلوق من المنافاة كما بين ذات الخالق والمخلوق، فبعضهم لا يقر من صفات المعاني الثابتة إلا بسبع، وهي القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، وينفي غير هذه السبع من المعاني الثابتة في كتاب الله بدعوىٰ أن ظاهرها خبيث لا يليق ويؤولونها بأمور أُخر كما ذكرنا، ويثبتون هذه السبع المعاني، والمعتزلة ينفون هذه المعاني السبعة ويثبتون أحكامها فيقولون: هو قادر بذاته لا بقدرة قامت بالذات، سميع بذاته لا بسمع قائم بالذات. ومذهبهم يعلم كل عاقل أنه مذهب متناقض باطل لا يشك فيه أدنى عاقل.

فنقول: القدرة التي ذكروها من صفات المعاني أثبتها الله لنفسه في غير آية من كتابه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: الآية ١٠٩] وأثبتها لبعض المخلوقين فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: الآية ٣٤] فيعلمون أن قدرة الله حق، وأن للمخلوق قدرة، وأنه لا مناسبة بين قدرة الخالق وقدرة المخلوق، فقدرة المخلوق مناسبة لحاله، وقدرة الخالق لائقة به (جل وعلا) وبين القدرة والقدرة من المنافاة كمثل ما بين الذات والذات. وكذلك الإرادة وصف الله نفسه بأنه يريد قال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: الآية ١٦]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٥] ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: الآية ٨٢] ووصف بعض خلقه بالإرادة فقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٢] [التوبة: الآية ٣٢] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: الآية ٨] ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: الآية ١٣] ونحن نعلم أن لله إرادة حقه لائقة بكماله وجلاله، وللمخلوق إرادة مُنْسَفِلَة إلى قدر المخلوق واللياقة بذات المخلوق، وبين الإرادة والإرادة كمثل ما بين الذات والذات من المنافاة. وكذلك وصف نفسه بالحياة قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: الآية ٥٨] ووصف بعض خلقه بالحياة فقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم: الآية ١٩] ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ

شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠] ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: الآية ١٥] فيجزم بأن الله حياة حقيقية تليق بكماله وجلاله، وللمخلوق حياة مناسبة لحاله، وبين حياة المخلوق وحياة الخالق من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق. ووصف الله نفسه بالسمع والبصر قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: الآية ٢٨] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: الآية ٦١] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١] ووصف بعض خلقه بالسمع والبصر قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: الآية ٢] ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: الآية ٣٨] فلله سمع وبصر حقيقيان لائقان بكماله وجلاله، وللمخلوق سمع وبصر لائقان بحاله، وبين سمع الخالق وبصره وسمع المخلوق وبصره من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق. ووصف نفسه (....)[1].

وبين كلام الخالق والمخلوق من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق. هذه صفات المعاني السبع.

وكذلك المعنويات التي هي كونه قادراً، مريداً، حياً، سميعاً، بصيراً، إنما يثبتونها صفات على ما يسمونه (الحال) وهم يزعمون أن الحال المعنوية أمر ثبوتي غير موجود ولا معدوم!! وهو من خيالات المتكلمين التي لا أساس لها؛ لأن عامة العقلاء يعلمون أنه لا واسطة بين النقيضين، وأن كل ما ليس بموجود فهو معدوم، وما ليس بمعدوم فهو موجود، وهذا مما لا يشك فيه عاقل. وزعمهم أن الحال واسطة ثبوتية، لا هي معدومة على الحقيقة، ولا هي موجودة على الحقيقة من الخيالات الوهمية التي لا أساس لها، بل كونه قادراً، مريداً، حياً، متكلماً، سميعاً، بصيراً هو معنى كيفية الاتصاف بالقدرة، والإرادة، والعلم.

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وقد ذهب بسببه كلام طويل تجد نظائره في مواضع متعددة من هذا التفسير، ومن ذلك ما ذكره عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأنعام، وكذا ما ذكره في محاضرته في الأسماء والصفات.

والصفات التي يسمونها (سلبية)، معناها عندهم: هي الصفة التي لم تدل على معنى وجودي بالوضع، فالصفة عندهم إما أن تدل على معنىً وجودي بدلالة المطابقة فهذه صفة معنىً كالقدرة؛ لأنها صفة تدل على معنىً، وهي المعنى القائم بالذات التي يتأتىٰ به إيجاد الممكنات وإعدامها على وفق الإرادة. أما إذا كانت الصفة لا تدل بدلالة المطابقة على معنىً وجودي وإنما تدل على عدم محض وهو عدم ما لا يليق بالله عن الله هذه التي يسمونها السلبية وهم يقسمونها إلى خمس صفات: القِدَم، والبقاء، والمخالفة للخلق، والوحدانية، والغِنى المطلق الذي يسمونه (القيام بالنفس) وهو الاستغناء عندهم عن المحل والمُخصص، كما هو معروف في فن الكلام. فنقول: إن القِدَم والبقاء الذين وصف بهما المتكلمون الله زاعمين أن الله وصف بهما نفسه في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: الآية ٣] جاء وصف المخلوق بهما، قال الله في وصف المخلوق بالقِدَم: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: الآية ٣٩] ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: الآية ٩٥] ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء: الآية ٧٦] وقال في وصف الحادث بالبقاء: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: الآية ٧٧] ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: الآية ٩٦] فلو قدرنا أن القِدَم يجوز إطلاقه لله كما ذهب إليه جماعة من العلماء، ويدل عليه حديث أبي داود: «أعوذ بالله العظيم، وبسلطانه القديم من الشيطان الرجيم»[1] لأن القِدَم يُطلق في اللغة: على ما له زمن كثير وإن كان مسبوقاً بعدم، وهو في اصطلاح المتكلمين لا يُطلق إلا على سلب العدم السابق. والقِدَم عند المتكلمين أخص من الأزل؛ لأن القِدَم والأزل كلاهما في اصطلاح أهل الكلام عبارة عن ما لا أول له ولا افتتاح له، لكن القدم عبارة عن ما لا افتتاح له بشرط أن يكون وجودياً، والأزل عبارة عن ما لا افتتاح له ولا أول له، سواء كان وجودياً أو عدمياً. فمثال ما اجتمع فيه الأزلي والقديم في اصطلاح المتكلمين: ذات الله وصفاته؛ لأنها لا أول لوجودها وهي موجودة. ومثال ما هو أزلي وليس بقديم: أعدامنا سوى الله فإنها أزلية فإنا

---

(١) سيأتي تخريجه عند تفسير الآية (٩٩) من هذه السورة.

قبل أن نوجد كنا معدومين، وعدمنا الأول لا أولية له ولا افتتاح له، فهو أزلي ولا يُسمىٰ قديماً؛ لأنه غير موجود، كذلك الأولية والآخريّة المنصوصتان في الآية: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: الآية ٣] جاء وصف المخلوق بها أيضاً، قال في وصف المخلوق بهما: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المرسلات: الآيتان ١٦ ـ ١٧] فللّه (جل وعلا) أولية وآخرية لائقتان بكماله وجلاله، وللمخلوق أولية وآخرية لائقتان بحاله، وبين الصفة والصفة من المنافاة كما بين الذات والذات.

كذلك صفات الأفعال، فالله (جل وعلا) وصف بها نفسه، ووصف بها خلقه، فوصف نفسه بصفة الفعل التي هي الرِّزْق، وأنه يرزق الناس، قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: الآية ٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: الآية ٥٨] فهذه صفة فعل، ووصف بعض خلقه بها فقال: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ﴾ [البقرة: الآية ٢٣٣] ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: الآية ٨] فرزقُ الله لائق بكماله وجلاله، ورِزْقُ بعض المخلوقين لبعض لائق بحالهم، وبين الصفة والصفة من المنافاة كما بين الذات والذات. كذلك وصف نفسه بالفعل الذي هو العمل، قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴿٧١﴾﴾ [يس: الآية ٧١] ووصف بعض خلقه بالعمل فقال: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: الآية ١٧] وبين العمل والعمل من المنافاة كما بين الذات والذات. ووصف نفسه بأنه يُعلِّم خلقه قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾﴾ [الرحمن: الآيات ١ ـ ٣] ووصف بعض خلقه بالتعليم قال: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: الآية ١٦٤] وجمع المثالين في قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: الآية ٤] فالتعليم والتعليم بينهما من المنافاة كمثل ما بين الذات والذات. ووصف نفسه بأنه يُنَبِّىء، ووصف بعض خلقه بالفعل الذي هو التَّنْبِئة، وجمع المثالين في قوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: الآية ٣] ووصف نفسه بأنه يُؤتي، ووصف بعض خلقه بأنه يُؤتي، فالفعل الذي هو الإيتاء أسنده لنفسه مرة ولخلقه مرة، قال عن نفسه: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٩] ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن

تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: الآية ٢٦] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٨] إلى غير ذلك. ووصف بعض المخلوقين بالإيتاء قال: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: الآية ٢٠] ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: الآية ٢] وليس الإيتاء كالإيتاء، فالفرق بينهما كالفرق بين الذات والذات.

وكذلك الصفات الجامعة كالكِبَر، والعلو، والعِظَم، والجبروت، والمُلك، والتكبر، كلها وصف به نفسه في كتابه، ووصف به بعض خلقه، قال في وصف نفسه بالعلو والعِظَم والكِبَر: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] وفي الكِبَر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: الآية ٣٤] ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد: الآية ٩] ووصف بعض خلقه بالعِظَم فقال: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: الآية ٦٣] ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٠] ووصف بعض خلقه بالكِبَر فقال: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: الآية ١٤٣] ﴿إِنَّ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا﴾ [الإسراء: الآية ٣١] ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [تبارك: الآية ١٢] إلى غير ذلك. ووصف بعض خلقه بالعلو فقال: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: الآية ٥٧] ﴿وَجَعَلْنَا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [مريم: الآية ٥٠] فليس العِظَم كالعِظَم، ولا العلو كالعلو، ولا الكِبَر كالكِبَر. ووصف نفسه بالملك فقال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ [الجمعة: الآية ١] وقال جل وعلا: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: الآية ٥٥] ووصف بعض المخلوقين بالملك في قوله جل وعلا: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ وَرَفَعْنَٰهُ﴾ [الكهف: الآية ٧٩] ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف: الآية ٤٣] فليس المُلك كالمُلك، فملكه (جل وعلا) لائق بذاته، وملك المخلوقين لائق بحالهم، وبين جميع هذه الصفات من التنافي كمثل ما بين الذات والذات. ووصف نفسه بأنه جبار متكبر، قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: الآية ٢٣] وصف نفسه بأنه جبار متكبر ووصف بعض

الخلق بذلك قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: الآية ٣٥] ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء: الآية ١٣٠] ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: الآية ٦٠] فليس التكبر كالتكبر، ولا الجبر كالجبر، فبين الصفات والصفات من المنافاة كما بين الذات والذات. ووصف نفسه بأنه رؤوف رحيم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: الآية ٧] ووصف بعض الخلق بذلك كقوله في نبينا ﷺ: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ٢٨] ووصف نفسه بالحلم فقال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [الحج: الآية ٥٩] ووصف بعض خلقه بالحلم فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ١١٤] ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: الآية ١٠١] ووصف نفسه بالعزة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٠] ووصف بعض خلقه بالعزة ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف: الآية ٥١] ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [صَ: الآية ٢٣] فليست العزة كالعزة، ولا الحلم كالحلم، ولا شيء من صفات الله كشيء من صفات المخلوقين، فسائر صفات الله حق، وسائر صفات المخلوقين حق. ولو تتبعنا مثل هذا لَجِئْنَا منه بمئات الآلاف ولكن هذه الأمثلة كافية، والمقصود عندنا أن يعلم إخواننا المؤمنون أن الله حق، وأن صفاته حق، وأن المخلوقين حق، وأن صفاتهم حق، وأن صفات الله بسائرها الثابتة في الكتاب والسنة منزهة عن صفات المخلوقين كتنزيه ذاته عن ذواتهم، فصفات المخلوقين لائقة بذواتهم، وصفات الخالق لائقة بذاته، وبين الصفة والصفة من المنافاة كمثل ما بين الذات والذات هذا الواجب على كل مسلم أن يعتقده.

وبهذا التقرير الذي قررنا تعلمون أن قولهم: «مذهب السلف أسلم» أنه مع ذلك أحكم وأعلم؛ لأنه طريق سلامة محققة، ليس فيه شائبة تشبيه، وليس فيه شائبة تعطيل، ولا جحود بآيات الله، كله طرق سلامة محققة في ضوء القرآن، وحيث حاد عنه الإنسان دخل في بلايا، ونحن نقول لكم هذا ونقرر لكم مذهب السلف على ضوء القرآن العظيم مع أنَّا ما درسنا دراسة شديدة مثل علوم الكلام والمنطق، وما تنفي به كل طائفة

بعضاً من صفات الله، ونحن مطلعون على جميع الأدلة وعلى تركيبها التي نُفي بها بعض الصفات، عارفون كيف جاء البطلان، ومن الوجه الذي جاء البطلان، واسم الدليل الذي تُرد به، ولكن ذلك لا يليق في هذا المجلس الحافل؛ لأنه لا يعرفه إلا خواص الناس، فبعد النظر العام الطويل في علم الكلام وما يستدل به طوائف المتكلمين وما ترد به كل طائفة على الأخرىٰ، والأقيسة المنطقية التي رتبوها ونفوا بها بعض الصفات، ومعرفتنا من الوحي ومن نفس الكلام والبحوث والمناظرات كيف يُبطل ذلك الدليل، ومن أين جاء الخطأ، وتحققنا من هذا كله، بعد ذلك كله تحققنا كل التحقق أن السلامة كل السلامة، والخير كل الخير في اتباع نور هذا القرآن العظيم، والاهتداء بهدي هذا النبي الكريم، فما أثبته الله لنفسه نثبته مع غايات التنزيه، وما نفاه عن نفسه ننفيه مع غايات التنزيه، وما أثبته سيد الخلق ﷺ لربه نثبته مع كمال التنزيه، وما نفاه ننفيه مع كمال التنزيه، وما سكت عنه الوحي لم يتعرض له بالكلية فإن الله لم يكلفنا من صفاته إلا بما علمنا عن طريق كتابه أو سنة رسوله ﷺ. وفي الختام نسأل الله جميعاً أن يوفقنا وإخواننا المسلمين لما يرضيه، ونوصي أنفسنا وإخواننا بتقوىٰ الله، وأن لا يشبهوا الله بصفات خلقه، وأن لا يجحدوا وينفوا ما أثبته الله لنفسه ومدح به نفسه، وأن لا يكلفوا عقولهم الإحاطة بشيء عاجزة عنه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٥٤ ـ ٥٧].

يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى

سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

تكلمنا بالأمس على أول هذه الآية الكريمة وشرحنا مذهب السلف في الاستواء وما جرى مجراه من آيات الصفات وأحاديث الصفات، وبينا أن المعتقد المنجي في ذلك عند الله ينبني على ثلاثة أُسُس: أوَّلها: ـ وهو أساس توحيد الأسماء والصفات الأعظم ـ هو تنزيه خالق السماوات والأرض (جل وعلا) عن مشابهة خلقه، وكيف يخطر في ذهن المسلم العاقل مشابهة الخلق بخالقهم وهو صَنْعَةٌ من صُنْعِه ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: الآية ٨٨] والصَّنْعَةُ لا يمكن أن تُشبه صانعها بحال، فالأساس الأعظم الأول هو تنزيه خالق السماوات والأرض (جل وعلا) عن أن يشبهه شيء من خلقه في صفاتهم أو ذواتهم أو أفعالهم. والأساس الثاني: هو تصديق الله، وعدم تكذيبه، وعدم جحود ما مدح به نفسه، بل تصديق الله بما مدح به نفسه في كتابه معلماً خلقه أن يمدحوه به والإيمان بذلك إيماناً مبنياً على أساس التنزيه كما علمنا الله ذلك في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١] فبين لنا أنه يجب علينا أن ننزهه أولاً عن مماثلة الخلق بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وأن نؤمن بما وصف به نفسه إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه حيث قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾. والأساس الثالث: هو أن نعلم أن إحاطة العلم البشري منفية عن الله نفياً قرآنياً باتاً في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ فإذا مات العبد على هذه العقيدة الصحيحة جاء آمناً يوم القيامة من توبيخ يلحقه من واحد من هذه الأُسس الثلاثة، فلا تأتيه بلية من قِبَل تنزيهه لربه عن مشابهة خلقه، ولا تأتيه بلية من تصديقه ربه فيما مدح به نفسه، أو تصديقه رسوله فيما أثنى به على ربه تصديقاً مبنياً على أساس ذلك التنزيه كنحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. ولا تأتيه بلية من كونه مقراً بأن علمه لا يحيط بالله؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٠] وقد شرحنا بالأمس تقسيم المتكلمين للصفات،

وبينا ما جاء في القرآن من وصف الخالق ووصف المخلوق بها، وأن وصف الخالق حق، وأن وصف المخلوق حق إلا أن وصف الخالق منزه عن مشابهة وصف المخلوق، لائق بالخالق، ووصف المخلوق حق إلا أنه ملائم مناسب للمخلوق لا يجوز في حق الخالق (جل وعلا) وضربنا لذلك أمثلة كثيرة ونُورِد هنا نقطتين:

إحداهما: أن الله (جل وعلا) وصف نفسه بالاستواء، ووصف بعض المخلوقين بالاستواء، كما وصف نفسه بالسمع والبصر والقدرة والحياة ونحو ذلك، فالله وصف نفسه بأنه سميع بصير قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: الآية ٢٨] ووصف المخلوق بالسمع والبصر، قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: الآية ٢] ووصف نفسه بالحياة، قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: الآية ٥٨] ووصف بعض خلقه بالحياة قال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم: الآية ١٩] ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠] ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ [مريم: الآية ١٥] إلى آخر ما ذكرناه بالأمس، فالله (جل وعلا) له قدرة حقيقية وحياة وسمع وبصر، والمخلوقون لهم سمع وبصر وقدرة وحياة، إلا أن صفات المخلوقين مناسبة لذواتهم لا تليق بالله ولا تشبه صفات الله، وصفات الله من جميع ذلك لائقة بالله، منزهة عن مشابهة صفات المخلوقين كما أوضحنا أمثلته بكثرة بالأمس.

كذلك وصف نفسه بالاستواء على العرش في سبع آيات من كتابه، ولم يذكر صفة الاستواء في أحد تلك المواضع السبعة إلا مقرونة بشيء من صفات الكمال والجلال يبهر العقول ويقضي بأنه العظيم الأعظم الذي لا يماثله شيء في شيء من صفاته، ولا في ذاته، ولا أفعاله، وأن جميع تلك الصفات بما فيها الاستواء لا يجوز جحد شيء منها ولا إنكاره.

الموضع الأول من المواضع السبعة بحسب ترتيب المصحف الكريم: هو قوله هنا في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: الآية ٥٤] فانظروا هذا من صفات الكمال والجلال هل يمكن أن شيء منه، أو يُجحد شيء منه؟ لا وكلاً.

والموضع الثاني: قوله تعالىٰ في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس: الآيات ٣ ـ ٦] فانظروا هذا من صفات الكمال والجلال هل يمكن أن يُجحد شيء منه، أو يُكذب بشيء منه؟ لا وكلا.

الموضع الثالث: قوله تعالىٰ في أول سورة الرعد: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٍ وَغَيْرِ صِنْوَانٍ﴾ وفي القراءة الأخرىٰ[1]: ﴿وَزَرْعٌ

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الأنعام.

وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾. ﴿تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ وفي القراءة الأخرى[1]: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾. ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ وفي القراءة الأخرى[2]: ﴿الْأُكْلِ﴾ ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: الآية ٤] فانظروا هذا من صفات الكمال والجلال هل يمكن أن يُجحد شيء منه أو يُكذب بشيء منه؟ لا وكلا.

الموضع الرابع: قوله تعالى في سورة طه: ﴿طه ۝١ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ۝٣ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝٤ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝٥ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ۝٦ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ۝٨﴾ [طه: الآيات ١ ـ ٨] فانظروا هذا من صفات الكمال والجلال هل يمكن أن يُجحد شيء منه، أو يُكذب بشيء منه؟ لا وكلا.

والموضع الخامس: في سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۝٥٨ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ [الفرقان: الآيتان ٥٨ ـ ٥٩] فانظروا هذا من صفات الكمال والجلال هل يمكن أن يُكذب بشيء منه، أو يُجحد شيء منه؟ لا وكلا.

الموضع السادس: في سورة (ألم السجدة) في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: الآيات ٣ ـ ٩] فانظروا هذا من صفات الكمال والجلال المذكور في جميع هذه الآيات مع صفة الاستواء هل يمكن أن يُكفر بشيءٍ منه، أو يُجحد شيءٌ منه، أو يقال: إن شيئاً منه ليس لائقاً بالله؟ لا وكلا.

الموضع السابع: وهو آخرها في سورة الحديد في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ إلى آخر الآيات [الحديد: الآيات ٣ ـ ٥] فهل يمكن أن يُنكر شيء من هذا من الكمال والجلال الذي أثنى الله به على نفسه؟ فكله كمال وجلال يجب تقديسه وتنزيهه بما فيه الاستواء عن مشابهة صفات المخلوقين، والإيمان بجميع تلك الصفات على أساس ذلك التنزيه على غرار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ٢٨] كذلك ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ وصف بعض خلقه بالاستواء فقال في بعض المخلوقين: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: الآية ١٣] ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الآية [النحل: الآية ٢٨] ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ [هود: الآية ٤٤] فالله (جل وعلا) كما وصف نفسه بالقدرة والسمع والبصر والكلام والحياة إلى غير ذلك، ووصف نفسه بالاستواء، كذلك وصف بعض المخلوقين بالسمع والبصر والقدرة والإرادة والحياة والاستواء، فسمع الله وبصره وقدرته وإرادته واستواؤه وذاته جميع ذلك مُنزَّه غاية التنزيه عن مشابهة شيء من المخلوقين في الذوات والصفات والأفعال، وسمع المخلوقين وأبصارهم وحياتهم وقدرتهم وإرادتهم واستواؤهم كل ذلك لائق بحالهم وبين صفات الله من جميع ذلك وصفات المخلوقين من جميع ذلك كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق لا مناسبة ألبتة؛ لأن الخلق صَنْعَةٌ من صَنائعه أبرزهم من العدم إلى الوجود بقدرته وإرادته، فلا يخطر في العقل السليم أن يمكن أن

يشبهوه في شيء من ذواتهم أو صفاتهم أو أفعالهم، وهل تشبه الصنعة صانعها؟ لا وكلا - سبحانه وتعالىٰ عما يقول الظالمون علواً كبيراً - وهذا هو الذي أردنا أن نوضحه لكم - أيها الإخوان - من مذهب السلف الذي هو طريق سلامة محققة مبني على أساس تنزيه الله عن مشابهة خلقه، وعلى أساس تصديق الله ورسوله فيما مدح الله به نفسه، أو مدحه به رسوله تصديقاً مبنياً على أساس التنزيه، مع وقوف العقل البشري عند حده، وعدم إدراكه بكنهية كيفية الاتصاف. وقد بينا بالأمس أن هذا طريق سلامة محققة لا شك فيها، لا تستلزم تَبِعَة ولا محذوراً ولا خوفاً ولا قلقاً؛ لأنه أمر واضح في نور القرآن العظيم تنزيه رب العالمين، وتصديق رب العالمين، وتصديق رسوله تصديقاً مبنياً على أساس التنزيه، والبعد عن مشابهة الخلق، ووقوف العقل عند حده، وعدم تعديه لطوره، فهذا طريق سلامة محققة لا يشك فيها عاقل أبداً، وبينا أن ما يسمونه مذهب [الخلف][1] يستلزم بلايا أوضحناها بالأمس فأغنى ذلك عن إعادتها اليوم، ولا يأمن معتقدها أن تأتيه منها بلايا يوم القيامة قد لا يتخلص منها. فالذي نوصي به أنفسنا وإخواننا المسلمين تقوى الله، وأن لا يتهجموا على صفات الله بأن ظاهرها غير لائق، وأنه ظاهر خبيث، وأن لا يتهجموا بنفيها، بل ينزهون خالقهم أولاً ثم يصدقونه فيما مدح به نفسه، فيؤمنون بما أثبت لنفسه إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه على نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ويعلمون أن عقولهم المسكينة المخلوقة عاجزة عن إدراك الإحاطة وكيفية الكُنه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: الآية ١١٠] وإنما أكثرنا من تكرار هذه المسألة لشدة الحاجة إليها؛ ولأن كثيراً من الناس يدّعي على صفات الله أن ظاهرها غير لائق، وأنه خبيث، ثم ينفيها ويأتي ببدلها من تلقاء نفسه، وهذه أمور قد لا تُخرج صاحبها عند الله، قد لا يتخارج منها لأنه كأنه يقول لله: هذا الذي مدحت به نفسك في كتابك معلماً خلقك أن يمدحوك به، ظاهره خبيث نجس لا يليق، ثم ينفيه، ثم

---

(١) في الأصل: «السلف» وهو سبق لسان.

يأتي بتأويل آخر من تلقاء نفسه، هذه الطريق شائكة غير مأمونة، ولا سيما إذا وجد الناس من يبين لهم ما تحتها من المخاطر، ويبينوا لهم المعتقد السلفي الصحيح الواضح الذي لا إشكال فيه ولا لبس، ولا خطر ولا مخطور، وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

ثم بين (جل وعلا) من صفات كماله وجلاله أنه استوىٰ على العرش، وأنه كما أنه استوى على عرشه استواءً لائقاً بجلاله وكماله كما قال مع ذلك هو يدبر شؤون الدنيا ويدبر السموات والأرض ومن فيهما.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ قرأ هذا الحرف حمزة والكسائي وشعبة عن عاصم: ﴿يُغشّي الليل النهار﴾ مضارع غَشَّاهُ يُغَشِّيه.

وقرأه بقية القراء السبعة[1]: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: آية ٥٤] مضارع أغشاه يُغْشيه. وأغشى وغَشَّى بالهمزة والتضعيف معناهما واحد، ويأتي كل منهما في القرآن بمعنى الآخر، وتكون في كل منهما قراءتان (يُغْشي) و (يُغشِّي). أما في قوله: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النجم: آية ٥٤] فقد أجمع القراء كلهم على التضعيف. وقوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: آية ٩] أجمعوا كلهم على الهمزة وعدم التشديد.

ومعنى ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ العرب تقول: أغشاه الشيء يغشيه. إذا جعله غشاء له وساتراً ومغطياً له. معناه: يجعل الليل مُغشياً للنهار، أي: مغطياً ضوء النهار بظلامه، يذهب بضوء النهار ويغطي ضوءه بظلام الليل. وهذا من غرائب صنعه وعجائب آياته. وفي الآية محذوف دل المقام عليه، أي: ويغشي النهار الليل أيضاً، فيأتي ضوء النهار ويَغْشَى ظلام الليل فيذهبه ويحل محله، كما قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الأنعام.

﴿ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨﴾ [يس: الآيتان ٣٧، ٣٨] فالإتيان بالليل بدل النهار والإتيان بالنهار بدل الليل من أعظم آيات الله - جل وعلا - الدالة على أنه المعبود وحده، وأنه الرب وحده، ومع كون الليل والنهار آيتين فهما أيضاً نعمتان عظيمتان من أعظم نعم الله على خلقه، فهما جامعان بين كونهما آيتين وكونهما نعمتين، وبيّن أنهما آيتان بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: آية ٢٧] وبين أنهما نعمتان وآيتان في مواضع كثيرة من أصرحها سورة القصص حيث قال فيها: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾ [القصص: الآيتان ٧١، ٧٢] ثم بين أنهما نعمتان بعد بيان أنهما آيتان قال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ يعني الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: آية ٧٣] يعني النهار. فجعل الليل مظلماً مناسباً للسكون والهدوء وعدم الحركة ليستريح الناس من كد الأعمال والتعب في النهار، ثم يجعل النهار مضيئاً منيراً مناسباً لِبثّ الناس في حوائجهم واكتساب معايشهم في نور ساطع من غير فتيلة ولا زيت ولا حاجة إلى مؤنة، بل هو ضوء السراج الذي خلقه الله وجعل نوره سبيلاً للأسود وللأحمر بلا ثمن، يسعون فيه إلى معايشهم، وهذا من عظائم قدرته ومن عجائب مننه وإنعامه - جل وعلا - على خلقه؛ ولذا قال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾.

﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: آية ٥٤] الحثيث: أصل الحث في لغة العرب: الإسراع والاستعجال[1]. أي: يطلبه طلباً حثيثاً مسرعاً غاية الإسراع فلا يمهله دقيقة، عندما ينتهي وقت النهار فإذا الليل يطلبه طلباً مسرعاً فيحل محله في أسرع ما يكون، وليس بينهما واسطة بحيث تكون ليست من النهار ولا من الليل. ف

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/٤٨٣)، القرطبي (٧/٢٢١)، الدر المصون (٥/٣٤٢).

(حثيثاً) نعت لمصدر محذوف، أي: طلباً حثيثاً، أي: مسرعاً. أو بمعنى الحال، أي: حال كونه حاثّاً، أي: مسرعاً شديد الإسراع لا يمهله ساعة[(١)].

والله ـ جل وعلا ـ ذكر أن الليل ـ هنا ـ يطلب النهار طلباً حثيثاً، والمفسرون [يقولون][(٢)]: يتبعه تبع الطالب. والعادة المقررة عند العلماء: أن ظاهر القرآن لا يجوز العدول عنه إلا لدليل يجب الرجوع إليه[(٣)]. فلا مانع من أن الله ـ جل وعلا ـ يخلق في الليل إدراكاً يكون يطلب به النهار؛ لأنه يخلق الإدراك في الجمادات والأشياء التي لا إدراك لها، كما قال جل وعلا: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: آية ٤٤] وكما قال ـ جل وعلا ـ في الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: آية ٧٤] فصرح أن الحجر وهو جماد يهبط من أعلى الجبل من خشية الله. وقد ثبت في صحيح البخاري في القصة المشهورة الصحيحة أن الجذع الذي كان يخطب عليه رسول الله ﷺ لما تحول عنه إلى المنبر وافتقد الجذعُ النبي ﷺ حنَّ حنين العشار، والصحابة يسمعون، حتى جاءه ﷺ يسكته كما تسكت الأم ولدها[(٤)]. وذلك الحنين بإدراكٍ خلقه الله في ذلك الجذع لا نعلمه. وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال وهو الصادق المصدوق: «**إني لأعرف حجراً في مكة كان يسلم علي**»[(٥)] وأمثال هذا كثيرة في الكتاب والسنة، كقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: آية ٧٢] والإشفاق: الخوف. فنسب الخوف والإشفاق للسماوات والأرض والجبال، وهي جمادات، وصرح بأنه يعلم من الجمادات ما لا يعلمه خلقه حيث قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: آية ٤٤] فلا مانع عقلاً من أن يجعل الله للظلام المعبَّر عنه بالليل إدراكاً يطلب به النهار،

---

(١) انظر: القرطبي (٧/٢٢١)، البحر المحيط (٤/٣٠٩)، الدر المصون (٥/٣٤٢).

(٢) في الأصل: «يقول».

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة البقرة.

(٤) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنعام.

(٥) السابق.

لا مانع عقلاً من ذلك، ولا ينبغي أن يُصرف القرآن عن ظاهره المتبادر منه إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

وعامة المفسرين يقولون: إن معنى ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: آية ٥٤] أي: يسرع تابعاً له، كما يفعله الطالب. مع زعمهم أن الليل ليس عنده إدراك يطلب به؛ لأنه ظلام، ومعروف أن الليل ظلام، ولكن الله قادر على كل شيء. وهذا معنى قوله: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

وكذلك النهار يطلب الليل حثيثاً، أي: طلباً بإسراع جداً. وبعض المفسرين يذكر هنا مسائل الأفلاك وحركاتها، وحركة الفلك الأعظم، وكل ذلك من علوم الهيئة التي لا ينبغي أن تُدخل في القرآن. وعلوم الهيئة قد أشار القرآن العظيم إلى أنها ليست تحتها فوائد لها طائل؛ لأن أصحاب النبي ﷺ سألوه - والملك يغدو وينزل، والوحي يأتي - عن هيئة القمر، قالوا له: يا نبي الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم لم يزل يكبر حتى يستدير بدراً[1]؟ وهذا سؤال عن هيئة القمر، والنبي ﷺ لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة فيما للأمة فيه حاجة. فلم يبين لهم شيئاً مما يزعمه أصحاب الهيئة؛ لأن أصحاب الهيئة يزعمون أن القمر جرم ظلماني لا نور - أصلًا - فيه، إلا أنه جرم صقيل، والجرم الصقيل يقبل سطوع النور فيه كالمرآة إذا قابلها شعاع الشمس يسطع فيها. ويقولون: إن القمر تشرع الشمس في البعد منه حتى يتم البعد، فإذا تم البعد تكامل شعاع الشمس؛ لأن شعاع الشمس عندهم يتسرب من وراء التكور الأرضي فيقابله القمر فيسطع فيه كما يسطع نور الشمس في المرآة، فيظهر ذلك النور للناس. يقولون: إن البعد يتم ليلة أربع عشرة، وعند ذلك يتسرب نور الشمس من وراء التكور الأرضي إلى وجه القمر الذي يلي أهل الأرض فيتم نوره تماماً، ثم يبدأ القمر من القرب إلى الشمس في ليلة خمسة عشرة من الشهر، فعند ذلك يبدأ نور الشمس يتسرب من وجه القمر الذي يلي الأرض إلى وجهه الأعلى الذي يلي ما فوقه من السماء فيكون ليلة خمسة عشر وجهه الأعلى

---

(١) مضى تخريجه عند الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

كليلة الهلال، يطلع قليل من النور إلى وجهه الأعلى ثم يزداد القرب ليلة السادس عشر فينتقل نور الشمس من وجهه الأعلى، حتى تكون ليلة الهلال فيتم القرب فيكون جميع نور الشمس في طرف القمر الأعلى، ولا يظهر منه إلا قليل في حفاف القمر هو الهلال، والقمر هنالك مستتر مظلم لا يُرىٰ منه إلا الشيء الذي نزل إليه الضوء من أعلاه وهو ما يرونه الهلال. هكذا يقولون من هذه المقالات، والنبي ﷺ جاءه القرآن بالإعراض عن جميع هذه المقالات كلها وعدم الالتفات إليها، فأجاب قولهم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: آية ١٨٩] فبين المقصود منها وفائدتها الدنيوية، وترك ما لا فائدة فيه؛ لأن المُشَرِّع كالطبيب يأتي بما فيه الفائدة ويدع ما لا فائدة فيه.

ومن هنا عُرف أن الهيئة لا فائدة فيها، وما يزعمه بعض الأفدام الذين لا عقول لهم ولا حياء من أن المانع للنبي ﷺ من أن يعلمهم الهيئة الجغرافية القمرية ويبين لهم الهيئة العلوية أن عقولهم عاجزة قاصرة، وأن الإفرنج وأذناب الإفرنج هم الذين كانت لهم عقول عرفوا بها هذا، فهذا من الهوس والجنون؛ لأن أكمل الناس عقولًا وأثقبهم أذهاناً أصحاب النبي ﷺ، والله يمدهم بنور الوحي الذي ينزل به الملك من السماء؛ ولذلك بين القرآن أن النظر في الهيئة العليا ليس تحته نتيجة ولا طائل، ومن غرائب القرآن أن
هذا الباب الذي قفله القرآن/ فتحه الإفرنج بعد عشرات القرون ففتحوه عن ٩/ب
كفريات وتكذيبات للوحي السماوي وخيمة ليس تحتها طائل، لا يستفاد منها في أمور الدنيا، وإنما تستفاد منها عقليات كافرات كاذبة.

والفلاسفة من اليونانيين من أرسطاطاليس وأصحابه لما قسّموا علوم الفلسفة إلى قسمة سُداسية، وقسموها إلى فلسفة رياضية، وفلسفة منطقية، وفلسفة إلهية، وفلسفة طبيعية، وفلسفة نفسية، وفلسفة تشريعية[1] قسموها هذه القسمة السداسية، وبحثوا في كل قسم منها. قسموا القسم الرياضي منها ـ وهو الفلسفة الرياضية منقسمة ـ إلى ثلاثة أقسام: وهي الهندسة، والحساب، والهيئة.

---

(١) انظر: كشف الظنون (١٢٨٩/٢).

أما الهندسة والحساب: فكلاهما مبني على مقدمات عقلية يقينية، وقواعد حقيقية منطبقة لا يشك فيها عاقل، فهي علوم مبنية على مقدمات عقلية وأساس يقيني؛ ولذلك لا يتطرقها خطأ إلا من جهة الناظر فيها؛ ولذا لا تجد فيلسوفاً يأتي ويقول: فكرة الفيلسوف الفلاني في الحساب خاطئة. أو فكرته في الهندسة خاطئة؛ لأن الحساب والهندسة من الفلسفة الرياضية كلاهما مركب في مقدمات عقلية صحيحة لا خطأ فيها.

أما النوع الثالث من الفلسفة الرياضية ـ وهو الهيئة ـ فقد أطبق أهله على أنه لم يكن مبنياً على مقدمات عقلية، ولا قواعد يقينية، وإنما مبناه تخمينات، وظنون أكثر ما تكون كاذبة، وربما صدقت؛ ولذا تجد الفيلسوف يقول: نظرة الفيلسوف الفلاني في كذا ـ في الشمس، أو في القمر، أو في طبقات الجو، أو في كذا ـ نظرة خاطئة، بل الحق كذا وكذا؛ لأنها لم تبن على مقدمات يقينية، ولا قوانين عقلية، بل مبناها ظنون وتخمينات. وهذه الظنون والتخمينات أضلت كثيراً من الرعاع المتسمين باسم المسلمين، يكذبون نصوص القرآن ونصوص السنة نظراً إلى أقوال كفرة فجرة في شيء لا أساس لهم فيه، فقضية الفلسفة الهيئية من الفلسفة الرياضية كل دليلها ما يسمونه في المنطق: شرطية متصلة لزومية يستثنون فيها نقيض التالي فينتجون نقيض المُقدَّم أو عين المقدم، فينتجون عين التالي في زعمهم، والربط بين اللازم والملزوم أعني المُقدم والتالي قد يكون ربطاً منفكاً، فيقولون: لو لم تكن الشمس تدور حول نفسها لكان كذا وكذا، لو لم يكن الكوكب الفلاني بمسافة كذا وعلى قدر كذا لكان كذا وكذا، أو لم يكن كذا وكذا. وهي أمور لا طائل تحتها. وعلينا جميعاً أن نلتزم هذا الأساس: كل ما خالف كتاب الله مخالفة صريحة فيجب علينا أن نجزم بأن من قاله كاذب كافر ملعون، كالذي يقول: إن الشمس ساكنة وأنها لا تتحرك، وينفي عنها اسم الجريان ويقول: لا تجري، فهذا كافر ملحد مكذب نصوص القرآن؛ لأن الله يقول: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي﴾ [يس: آية ٣٨] فالذي ينفي عنها الجريان الذي أثبته الله محاد لله، مناقض لكلام الله، علينا أن نكفره ونكذبه. وكذلك من يقول: إن القمر لا يجري؛ لأن الله يقول: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ

﴿يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [لقمان: آية ٢٩] فما ناقض القرآن مناقضة صريحة فيجب علينا أن نكذبه، وما وافق القرآن أو السنة الصحيحة علينا أن نتقبله، وما لم يناقض القرآن ولا السنة الصحيحة مناقضة صريحة فيجب علينا أن لا نقدم على تكذيبه وأن لا نتجرأ على أنه كذب خوف أن يكون حقاً، وإذا كان حقاً ظن القائلون به المتمسكون به أن القرآن كذب؛ لأنه قيل لهم: إنه يخالف القرآن. والقرآن في نفس الأمر لا يخالف نظرية صحيحة أبداً؛ لأنه كلام الله الحق المقطوع بأنه حق، والحق لا يخالف حقاً أبداً، فعلينا أن نتثبت، وأن لا نتسرع في الشيء الذي لا يكون القرآن صريحاً في نفيه، ولا ننفيه إلا بتثبت تام ويقين؛ لئلا نجني على القرآن ونشكك الناس في أنه حق، ونقول: ظاهر القرآن كذا، والذي يتبادر لنا كذا، وإن وقع خلافه فهو من قصور فهمنا، والقرآن بريء من كل ما ليس بحق، فكله حق، ولا يناقض حقاً.

ومن ذلك أن الأولين من أصحاب الهيئة كانوا يظنون أن الجرم الواحد يستحيل أن يكون كرة وسطحاً، ويزعمون أن كل جسم كروي يستحيل أن يكون سطحاً، ويقولون: إن الأرض كروية. والذين يقولون: إن الكروي لا يكون سطحاً نقول له: زعمك الكروية أنت فيه كافر كذاب؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠﴾ [الغاشية: آية ٢٠] فالأرض سطح لا شك فيه؛ لأن الله - جل وعلا - صرح بأنها سطح. أما حُذّاقهم المتأخرون الذين يقولون: لا تنافي بين الكرة والسطح؛ لأن الجسم الكبير قد يكون ارتفاعه الكروي مدرجاً تدريجاً دقيقاً دقيقاً دقيقاً حتى يكون سطحاً، ولا يظهر الارتفاع الكروي إلا في جميع المجموعة العظيمة مع كبرها. فهذا نقول له: لا مانع من ذكرك أنها كرة؛ لأنك تقول بأنها سطح، وتصدق ربنا في أنها سطح. والحذاق من المسلمين الذين نظروا في حقيقة الأرض كلهم زعموا أنها كرة، وكذلك الذي يقتضيه الدليل العقلي أن الأرض كروية، إلا أنها سطح يقيناً كما قاله رب العالمين؛ لأن الارتفاع الكروي في الأرض مدرج تدريجاً دقيقاً دقيقاً بالغ من غاية الدقة ما لا ينافي السطحية، وتكون الأرض معه سطحاً، ولا يظهر الارتفاع إلا في المجموعة الكبيرة.

والحاصل أن كل ما ناقض صريح القرآن فهو كذب باطل يجب علينا تكذيبه وتكفير صاحبه إن أُنذر ولم يتب، وما لم يناقض القرآن مناقضة صريحة فعلينا أن لا نعجل ولا نتجرأ ولا نقول على طول: هذا كذب لأنه يناقض القرآن!! بل نتثبت ولا نحكم على نظرية أنها تناقض القرآن إلا بتحقيق ويقين وكون القرآن صريحاً في ذلك. وغير ذلك نقول: الذي يظهر لنا من ظاهر القرآن كذا، وهذا الذي نفهمه، فإن كان فهمنا صحيحاً فالأمر كما فهمنا، وإن كان غير ذلك فالقصور منّا ومن فهمنا، وكتاب الله حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا يخالف نظرية صحيحة.

وقوله جل وعلا: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: آية ٥٤] قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا ابن عامر ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بنصب الأسماء الأربعة. فقوله: ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ معطوفات على قوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وخلق الشمس والقمر، وخلق النجوم في حال كون المذكورات مسخرات بأمره.

وقرأه ابن عامر وحده: ﴿**والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ بأمره**﴾[1] فعلى قراءة ابن عامر بالرفع: (الشمس) مبتدأ، وما بعده معطوف عليه، وخبر المبتدأ ﴿مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[2].

والتسخير: التذليل. فقد سخر الشمس لمنافع هذا الخلق؛ ولأنها آية عظمى كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ١٣﴾ [النبأ: آية ١٣] يطلعها في كل يوم، ويسيرها بحساب معلوم طرقها وسيرها بتسخير رب العالمين دائبة. وكذلك سخر القمر على سَيْرِهِ المعتاد، وحسابه المعروف، نعرف بهما عدد السنين والشهور والحساب، وكذلك سخر النجوم ليهتدي بها خلقه، وليزين بها السماء، ويطرد بها الشياطين. فهذه المخلوقات العظام العلوية سخرها

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٩.

(٢) انظر: حجة القراءات ص٢٨٤.

خالق السماوات والأرض للاعتبار بها، ولمنافع خلقه منها؛ لأن الله جعل في الشمس والقمر منافع عظيمة في الثمار والمعادن والنباتات والحيوانات وغير ذلك بحكمته ـ جل وعلا ـ وعدله. حتى إنك لترى النخلة التي في الظل دائماً بين النخل لا يصيبها شعاع الشمس تراها رديئة الحمل جداً، كما يأتي إيضاحه في قوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ [النور: آية ٣٥] وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ (ألا) حرف استفتاح وتنبيه. (له) أي: لله (جل وعلا) وحده ﴿ٱلْخَلْقُ﴾ لأنه خالق كل شيء.

وأصل الخلق في لغة العرب(١): التقدير، فكل شيء قدَّرته فقد خلقته. فإذا رأيت الحَذَّاء ـ صاحب النعال ـ أكرمكم الله ـ يأخذ بسواد كَفَحْم أو غيره ليقيس قدر ما يقطع من النعل يُسمىٰ ذلك (خلقاً) فإذا قطعه يقال: (فَرَاه) ومن هذا قول زهير بن أبي سُلمى(٢):

ولأَنتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبعضُ القومِ يخلقُ ثم لا يَفْرِي

يعني: تُقَدِّر الأمر ثم تنفذه، وبعض الناس يقدره ثم يعجز عن تنفيذه. والله ـ جل وعلا ـ يقدر الأشياء قبل أن يوقعها ثم يفريها ويبرؤها مطابقاً لما قدر سابقاً، وتنفيذاً لما سبق في علمه الأزلي. فهذا معنى (الخلق) ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ كما قال: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ [الحشر: آية ٢٤] يعني: يخلقها ويقدرها ثم يبرؤها ويفريها وينجزها.

﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ لأن الله خالق كل شيء، وله الأمر، هو الذي وحده له الأمر، يأمر بما شاء بأوامره الكونية وأوامره الشرعية، فلا أمر كونياً قدرياً إلا له، ولا أمر شرعياً دينياً إلا له. وكان سفيان بن عيينة (رحمه الله) وجماعة من السلف يستدلون بهذه الآية من سورة الأعراف على أن القرآن ليس بمخلوق(٣)؛ لأن

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/٢١٩).

الأمر في القرآن كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [يس: آية ٨٢] ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [النحل: آية ٤٠] فالقرآن فيه الأوامر الكونية القدرية، وفيه الأوامر الشرعية، والله ـ جل وعلا ـ جعل الأمر وحده والخلق وحده، فتبين أن القرآن ليس داخلاً في جملة المخلوق. وهذا الاحتجاج معروف عند أهل السنة. ومناقشات القائلين بخلق القرآن في الاستدلال بهذه الآية كثيرة طويلة يضيع علينا الوقت بتتبعها من غير طائل. والحق الذي لا شك فيه أن القرآن غير مخلوق، وأنه كلام الله منه بدأ وإليه يعود، فكلام الله ليس بمخلوق.

وإنما نشأت محنة القول بخلق القرآن في أيام المأمون، ولم تزل مستحكمة مستفحلة أيام المأمون، وأيام المعتصم، وأيام الواثق بالله، ثم أزال الله المحنة على يد المتوكل على الله جزاه الله خيراً.

وقد ذكرنا مراراً[١] أن أول مصدر لكبح هذه الفتنة وجماحها في أيام الواثق قضية الشيخ الشامي، وهو عبدالله بن محمد الأذرمي في قصته المشهورة؛ لأن العلماء عُذبوا في القول بخلق القرآن، وامتحنوا غاية الامتحان. وكانوا وقت المناظرات مما يستدلون به آية الأعراف هذه، فيقولون: الله جعل الخلق على حِدَة والأمر على حِدَة، والأمر في القرآن؛ لأن أمره بكلامه فكلامه غير داخل في خلقه. وهم صادقون، ومناقشات الذين يجادلونهم معروفة. وكان حامل راية تلك المحنة: أحمد بن أبي دؤاد الإيادي جازاه الله بما هو أهله. وقد قُتل فيها كثير من العلماء، وامتُحن خلق من العلماء، وداهن كثير منهم، وضُرب أيام المعتصم بالله في محنة القول بالقرآن سيد المسلمين في زمانه: الإمام أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل ـ تغمده الله برحمته، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً ـ ضُرب أيام الواثق، لم يزل يُضرب حتى يرفع من محل الضرب لا يدري ليلًا من نهار، غائب العقل من شدة الضرب المبرح الأليم!! وإذا أفاق يقولون له: قل

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٤) من سورة الأنعام.

القرآن مخلوق. يقول: لا والله، القرآن كلام الله غير مخلوق، صفة الله، منه بدأ وإليه يعود، لا أقول مخلوق. وذكروا أن ذلك الشيخ الشامي هو أول من يسَّر الله على يديه خمود القول بمحنة القرآن، وأن الواثق بالله لم يمتحن بعده أحداً. وقد ذكر الخطيب في تاريخ بغداد وغيره روايته، وذكر ابن كثير في تاريخه أن السند الذي ذكرها به الخطيب فيه من لا يُعرف(١). إلا أن القصة مشهورة معروفة، لم يزل العلماء يستدلون بها قديماً وحديثاً، والاستدلال بها صحيح لا شك فيه، ودليلها الصحيح الذي استدل به هو المعروف في الأصول بـ (السَّبْر والتقسيم) وفي علوم الجدل بـ (التقسيم والترديد) وفي علوم المنطق بـ (الشرطي المنفصل) وحاصله أن القصة التي ذكرها الخطيب في تاريخ بغداد ذكرها من طريق محمد بن الواثق، قال: كان أبي إذا أراد أن يقتل أحداً أحضرني، وجيء بشيخ من الشام مكبَّل بالحديد، وهو عبدالله بن محمد الأَذْرَمي ـ رحمه الله ـ شيخ أبي داود والنسائي، جيء به مكبَّلًا بالحديد يريدون أن يقتلوه إن لم يقل إن القرآن مخلوق. قال محمد بن الواثق: فأحضرني أبي فجيء بذلك الشيخ مكبَّلًا بالحديد، فقال للواثق: السلام عليك يا أمير المؤمنين.

فقال له الواثق بالله: لا سلمك الله.

فقال الشيخ: بئس ما أَدَّبَكَ مؤدبك يا أمير المؤمنين!! الله يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: آية ٨٦] والله ما حَيَّيْتَ بأحسن منها ولا رددتها.

فقال الواثق: إئذنوا لأبي عبدالله. يعني أحمد بن أبي دؤاد ـ جازاه الله بما هو أهله ـ فحضر ابن أبي دؤاد، فقال له الواثق: ناظر هذا الرجل (في بعض روايات القصة. أن ذلك الشيخ الشامي المكبل بالحديد قال: ابن أبي دؤاد أحقر وأصغر من أن يناظرني).

---

(١) السابق.

فقال ابن أبي دؤاد لذلك الشيخ: ما تقول في القرآن؟

قال: ما أنصفتني. يعني: ولي السؤال.

فقال له ابن أبي دؤاد: سل.

فقال الشيخ الشامي لابن أبي دؤاد: ما تقول في القرآن؟

قال: مخلوق.

قال: أسألك: هل مقالتك هذه التي تدعو الناس إليها وتغري [أمير][١] المؤمنين بتقتيل العلماء وتعذيبهم وامتحانهم في شأنها هل كان رسول الله ﷺ عالماً بها؟ وهل كان خلفاؤه الراشدون عالمون بها؟ وهل كان عالماً بها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، أو كانوا جاهلين بها؟!

فقال ابن أبي دؤاد: كانوا جاهلين بها.

فقال الشيخ الشامي: ما شاء الله، ما شاء الله، جهلها رسول الله وعلمها ابن أبي دؤاد!!

فقال ابن أبي دؤاد: أقلني، والمناظرة على بابها.

فقال له الشيخ الشامي: هو كذلك. ثم قال له: ما تقول في القرآن؟

قال: مخلوق.

قال: مقالتك هذه ـ أنه مخلوق ـ التي تدعو الناس إليها هل كان رسول الله ﷺ، وخلفاؤه الراشدون، وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي عالمين بها أو جاهلين؟

---

(١) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

قال: كانوا عالمين بها ولم يدعوا الناس إليها.

فقال الشيخ الشامي: ألم يسعك يا ابن أبي دؤاد ما وسع رسول الله في أمته؟ ألم يسعك يا ابن أبي دؤاد ما وسع الخلفاء الراشدين في رعاياهم من المسلمين؟ فقام الواثق من موضعه، وسقط من عينه ابن أبي دؤاد، ولم يمتحن بعدها أحداً في خلق القرآن. وذكر عنه الخطيب أنه تاب من القول بخلق القرآن، إلا أنه لم يظهره، وإنما أظهر السنة المتوكل على الله. وفي القصة: أن الواثق خرج إلى محل خلوته واضطجع على قفاه ووضع رجله على ركبته ثم قال: جهلها رسول الله وعلمها ابن أبي دؤاد!! ما شاء الله، جهلها رسول الله وعلمها ابن أبي دؤاد!! ثم قال: علمها رسول الله وخلفاؤه ولم يدعوا الناس إليها، ألم يسع ابن أبي دؤاد ما وسع رسول الله وخلفاءه الراشدين؟ وسقط من عينه، ثم أمر بالحداد ففك الحديد عن الشيخ الشامي، وأعطاه أربعمائة دينار، وقال له: ارجع إلى أهلك راشداً. هكذا يقولون.

والشاهد: أن من أدلة من يُمتحنون في القول بخلق القرآن آية الأعراف هذه، يقولون: إن الأمر إنما هو بكلامه، وقد جعله على حِدَة عن الخلق حيث قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: آية ٥٤] فدل على أن الأمر ليس من الخلق، وأن كلام الله الذي هو أمره ليس بمخلوق. هكذا يستدلون. واستدل به قبل المحنة سفيان بن عيينة وغيره. ومناقشات القائلين بخلق القرآن في الاستدلال في هذه الآية كثيرة معروفة. وهذا معنى قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: آية ٥٤] (تبارك) معناه: تعاظم وتقدس وتنزه ـ جل وعلا ـ وأصل تبارك: (تفاعل) إذا كثرت بركاته وخيراته. والله ـ جل وعلا ـ هو المتعالي المتنزه عن كل شيء، المتقدس الأعظم، الذي يُفيض الخير على خلقه.

وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ العَالَمون: جمع العَالَم[1]، وهو من الملحقات

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

بالجمع المذكر السالم؛ لأنه ليس بوصف ولا عَلَم، فهو ملحق بالجمع المذكر السالم، لا جمع مذكر سالم. وقد بين الله في سورة الشعراء أن العالمين يشمل السماوات والأرض وما بينهما ومن فيهما، كما قال: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٢٣، ٢٤].

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: آية ٥٥] لما بين - جل وعلا - أنه العظيم الأعظم، خالق السماوات والأرض وخالق الشمس والقمر والنجوم، ومسخر الجميع، وبيَّن عظمته وجلالَه، أمر خلقه الضعاف المساكين أن يسألوه ويدعوه ليأتيهم بما يطلبون، ويكشف عنهم من الضر ما يسألون كشفه، والمراد بذلك: كأنه يقول: أنا العظيم الأعظم الجبار، الذي خلق السماوات والأرض والكواكب العظام، وأنا خالق كل شيء، وأنتم عبادي الفقراء الضعاف فادعوني؛ لأن الدعاء يستشعر به الداعي ذله وفقره وضعفه وحاجته، ويستشعر به عظمة من يدعو، وأنه عالم بكل شيء، لا يخفى عليه دعاؤه ولو كان في أخفى الخفاء، وأنه عظيم قادر على كل شيء، قادر على أن يذهب عنه بالضر ويأتيه بالخير، فالدعاء مخ العبادة، وهو من أعظم العبادات إذا كان مخلصاً فيه لله؛ ولذا أمر الله خلقه به في هذه الآية ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: خالقكم وسيدكم ومدبر شؤونكم، ادعوه ﴿تَضَرُّعًا﴾ تضرعاً: مصدر مُنكَّر حال. أي: في حال كونكم متضرعين. والتضرع: (التَّفَعُّل) من الضراعة. والعرب تقول: ضرع فلان لفلان. إذا ذل له وخشع[١]. أي: ادعوه تضرعاً، أي: في حال كونكم متضرعين أذلَّاء خاشعين له - جل وعلا - مستشعرين ذُلَّكُم وفقركم وحاجتكم، وعظمة ربكم وكبرياءه، وشدة فقركم إليه، وشدة غناه عنكم. وكل ذليل خاشع تسميه العرب: (ضارعاً)، وهو معروف في كلامهم، ومنه قول الشاعر[٢]:

لِيُبْكَ يزيدٌ ضارعٌ لخصومةٍ ومُخْتَبط مما تُطيحُ الطَّوائِحُ

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

وقوله: ﴿وَخُفْيَةً﴾ قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا شعبة عن عاصم: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ بضم الخاء، وهو (فُعْلَة) من الخفاء الذي هو ضد العلانية والجهر. وقرأه شعبة وحده عن عاصم: ﴿**ادعوا ربكم تضرعاً وخِفية**﴾ بكسر الخاء[1]. والخُفية والخِفية لغتان. فهي (فُعلة) و (فِعلة) من الخفاء. لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان.

ومعنى ادعوه خفية: أي ليكن دعاؤكم في خفاء. وكان السلف الصالح (رضي الله عنهم) من الصحابة فمن بعدهم يجتهدون في الدعاء ولا يُسمع لهم شيء، إنما هو همس خفي فيما بينهم وبين ربهم؛ لأن إخفاء الدعاء أبعد من الرياء، ولأنه يدل على ثقة العبد بأن ربه عالم بما خفي وما ظهر لا يخفى عليه شيء. فالدعاء الخفي أفضل وأعظم من الدعاء الذي هو [جهراً][2] وعلانية، وقد أثنى الله بخفاء الدعاء على عبده زكريا في قوله: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: الآيات ١ ـ ٣] فتعليم رب العالمين أن الله يأمرك أن تدعوه في جميع حوائجك إذا اضطُررت إلى شيء فادع خالق السماوات والأرض ييسره لك، وإذا نابك أمر، أو حزبك مكروه، أو دهمتك خطوب فادع خالق السماوات والأرض، وتضرع إليه بذل واستكانة في دعاء خفي لا يسمعه أحد؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ السر عنده علانية، إذا أسررت به يعلمه ولا يخفى عليه، ولو همست به في نفسك كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: آية ٧].

ومن هذه الآية الكريمة أخذ الإمام أبو حنيفة وأصحابه حكماً فقهياً وهو عدم رفع الصوت بـ (آمين) إذا قال الإمام ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قالوا: إن (آمين) دعاء؛ لأن معناها: اللهم استجب. والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: آية ٥٥] قالوا: الأمر بإخفاء الدعاء نص صريح في القرآن المتواتر المعصوم، فلا تعارضه الأحاديث التي وردت بإظهار التأمين[3]؛ لأنه جاء بعض الأحاديث أن أصحاب النبي ﷺ كان إذا

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٩٦.

(٢) في الأصل: «سرًا»، وهو سبق لسان.

(٣) انظر: الهداية (٤٨/١ ـ ٤٩)، القرطبي (١٢٩/١)، (٢٢٤/٧)، ابن كثير (٣١/١).

قرأ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ رفعوا أصواتهم بآمين حتى ترتج الجدران[(١)]. والقاعدة المقررة في أصول أبي حنيفة رحمه الله: أنه لا يقدم الخاص على العام؛ لأن دلالة العام عنده على أفراده قطعية[(٢)]، فكل فرد داخل في العام كأنه نُص عليه بنص خاص، ولا يقدم الخاص على العام بل ينظر في الخاص والعام إذا عَرَفَ المتأخر منهما نَسَخَ به الأول، وإذا لم يَعْرِف المتأخر منهما احتاط[(٣)]؛ ولأجل هذه القاعدة المقررة في أصول أبي حنيفة (رحمه الله) كان يقول بوجوب الزكاة في كل ما خرج من الأرض ولم يبلغ خمسة أوسق، ولا نصف وسق، ولا ربع وسق؛ لأن النبي ﷺ لما قال: **«ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة»**[(٤)] قال أيضاً: **«فيما سقت السماء العشر»**[(٥)] وكان أبو حنيفة لا يرى تقديم الخاص على العام. قال: يتعارض هذا العام وهو قوله: **«فيما سقت السماء العشر»** مع الخاص الذي هو قوله: **«ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة»** لأن العام عند أبي حنيفة قطعي الشمول لأفراده إلا ما أخرجه دليل، فكأن كل فرد من أفراد العام عنده دل عليه نص مستقل. فنظر أبو حنيفة في التاريخ فلم يعرف تاريخهما أيهما السابق، هل الأول الذي قال النبي: **«فيما سقت السماء العشر»** أو قوله: **«ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة»**؟ فلما جهِل التاريخ احتاط لوجوب الزكاة احتياطاً لبراءة الذمة والخروج من عهدة التكليف بالزكاة. وكذلك في هذه الآية قال: إن الأحاديث التي جاءت برفع الصوت في التأمين أخبار آحاد. ولو فرضنا أنها متأخرة؛ لأن الظاهر أنها متأخرة؛ لأن هذه السورة ـ سورة الأعراف ـ من القرآن النازل بمكة إلا ثمان آيات منها تأتي في قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب الجهر بآمين. حديث رقم (٨٥٣)، (٢٧٧/١ ـ ٢٧٨)، من حديث أبي هريرة رضي عنه. وهو عند أبي داود في الصلاة، باب التأمين وراء الإمام. حديث رقم: (٩٢٢)، ٢٠٨/٣). وليس فيه: «فيرتج بها المسجد»، وهو في ضعيف ابن ماجه برقم (١٨٢)، والسلسلة الصحيحة (٧٥٤/١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ الآيات. أما غيرها في سورة الأعراف فهي من القرآن النازل بمكة قبل الهجرة. وأحاديث التأمين بالصلاة هي في المدينة متأخرة عنها، إلا أن القاعدة المقررة في أصول الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ أنه لا تُنسخ المتواترات بأخبار الآحاد، والأحاديث أخبار آحاد، والإسرار بالدعاء متواتر؛ لأن قوله هنا في سورة الأعراف: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ نص متواتر ظاهر الدلالة يدل على إخفاء الدعاء، و (آمين) هي من الدعاء؛ لأن معناها: اللهم استجب.

وهنالك قول ضعيف شاذ يقول: إن (آمين) من أسماء الله تعالى[1]. وعلى هذا القول قال بعض أصحاب أبي حنيفة: لو قدرنا أن (آمين) من أسمائه تعالى فالله يقول: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٥] كذا يقولون!

والعلماء الذين يقولون: إن القضاء بالمتأخر، يقولون: إن هذا عام، ورفع الأصوات بالتأمين خاص، ولا يتعارض عام وخاص. وهذا مذهب الجمهور المقرر في أصول الشافعية والحنبلية والمالكية أن الخاص يقضي على العام ويقدم عليه، وكذلك المقيد على المطلق سواء تقدم أو تأخر عنه كما هو معروف في الأصول. وهذا معنى قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ جل وعلا ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: آية ٥٥] في الدعاء ولا في غيره. وقد جاء حديث في ابن ماجه وغيره أن النبي ﷺ قال: «**إنه يكون في أمتي قوم يعتدون في الدعاء**»[2].

والاعتداء في الدعاء على أنواع كثيرة[3]: منها: الذي يصيح بالدعاء

---

(١) انظر: القرطبي (١/١٢٨).

(٢) ورد هذا الحديث من رواية سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن مغفل (رضي الله عنهما)، وهو جزء من حديثيهما الآتيين.

(٣) في هذه المسألة راجع: مسائل الإمام أحمد (رواية صالح) (١/١٧١)، الفروع (١/٤٥٨)، الفتاوى (١٠/٧١٣ ـ ٧١٤)، الفروق للقرافي (٤/٢٥٩ ـ ٢٦٥)، تفسير القرطبي، والقاسمي، والمنار، للآية رقم (٥٥) من سورة الأعراف. الدعاء للطرطوشي (١٥٤ ـ ١٥٥)، تلخيص الاستغاثة (٩٣ ـ ٩٥)، بدائع الفوائد (٣/١٢ ـ ١٤)، تصحيح الدعاء من الغلط والاعتداء لبكر أبو زيد، الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية لجيلان بن خضر العروسي.

صياحاً مزعجاً، ومنها: الذي يسأل الله أن يعطيه مرتبة النبيين في الجنة، أو فوق مرتبة النبيين، فهذا اعتداء في الدعاء، وقد جاء عن عبدالله بن مغفل (رضي الله عنه) أنه سمع ابناً له يقول: «اللهم إني أسألك القصر الأبيض الذي عن يمين الجنة إذا أدخلتني الجنة»(١) فهذا من الاعتداء في الدعاء. وعن بعض الصحابة أنه سمع ولده يقول: «اللهم إني أسألك الجنة وحورها ونعيمها وكذا وكذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها وكذا وكذا وكذا. قال: هذا من الاعتداء في الدعاء، يكفيك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل»(٢).

فالله جل وعلا ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين في الحدود، سواء كان في الدعاء أو في غير الدعاء من مجاوزة ما ينبغي إلى ما لا ينبغي كما هو عام، وهي وإن نزلت في الدعاء فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

ونحن وإن كنا نعلم أن الإخفاء في الدعاء أفضل من [الجهر](٣) به وندعو غالباً في هذا المجلس دعاءً ظاهراً قصدنا به أن يسمعنا إخواننا ويُؤَمِّنُون لنا فنكون مجتمعين على الدعاء في هذا الشهر المبارك، ولو

---

(١) أخرجه أحمد (٨٦/٤، ٨٧)، (٥٥/٥)، وابن أبي شيبة (٢٨٨/١٠)، وعبد بن حميد في المنتخب برقم (٤٩٩)، وأبو داود في الطهارة، باب الإسراف في الوضوء. حديث رقم (٩٦)، (١٦٩/١). وابن ماجه في الدعاء. باب كراهية الاعتداء في الدعاء حديث رقم (٣٨٦٤)، (١٢٧١/٢)، وابن حبان (الإحسان ٢٦٩/٨)، والبيهقي (١٩٦/١)، والحاكم (٥٤٠/١)، من حديث عبدالله بن مغفل رضي الله عنه. وهو في الفتح السماوي (٦٣٧/٢)، صحيح أبي داود (٨٧)، صحيح ابن ماجه (٣١١٦)، المشكاة (٤١٨)، الإرواء (١٤٠). وقد حسنه ابن كثير في التفسير (٢٢٢/٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٢/١، ١٨٣)، وابن أبي شيبة (٢٨٨/١٠)، وأبو يعلى (٧١/٢)، والطيالسي رقم (٢٠٠)، وأبو داود في الصلاة، باب الدعاء. حديث رقم (١٤٦٧)، (٣٥٣/٤)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وهو في صحيح أبي دواد (١٣١٣)، وانظر: الزيلعي على أحاديث الكشاف (٤٦٢/١)، تخريج ابن حجر على الكشاف ص٦٤، الفتح السماوي (٦٣٦/٢).

(٣) في الأصل: «الإسرار» وهو سبق لسان.

أسررنا الدعاء لما سمعوه ولما أَمَّنُوا لنا، والمُؤَمِّنُ أحد الداعيين، وقد نص على ذلك القرآن؛ لأن الله في سورة يونس قال عن نبيه موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ ذكر موسىٰ وحده ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيَضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس: آية ٨٨] وفي القراءة الأخرى[١]: ﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ ثم قال: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: آية ٨٩] فجعل الداعي اثنين، والداعي في الآية واحد، وهو ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ قالوا: لأن هارون أمَّن، والمؤمِّن أحد الداعيين. ومن هنا أخذ بعض العلماء أن قراءة الإمام إذا قال المأموم (آمين) تكفي المأموم؛ لأن الله سمى المُؤَمِّن داعياً، كما ذكره بعض العلماء[٢].

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: آية ١٥٦] لما بين الله (جل وعلا) عظمته، وأنه خالق كل شيء المستحق لأن يطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسىٰ، وأن يُعبد وحده، نهى عن الفساد في الأرض بعد إصلاحها، وأمر بأن يدعوه عباده خوفاً وطمعاً قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ المراد بالإفساد في الأرض يشمل الشرك بالله وسائر المعاصي؛ لأن من أعظم الفساد في الأرض الشرك بالله. والشرك بالله ومعاصيه قد يحبس الله بسببها المطر فتموت الحُبارىٰ في وكرها، والجعل في جحره، بسبب ذنوب بني آدم.

---

(١) انظر: الإتحاف (٢/١١٩).

(٢) انظر: ابن كثير (٢/٤٢٩).

وقول الضحاك وغيره: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ولا تُغَوِّروا الأنهار، وتدفنوا المياه الجارية، وتقطعوا الأشجار المثمرة[١]. كل ذلك داخل في هذا وربما كان قطع الشجر مصلحةً للمسلمين إذا كان فيه حصار للكفار ومضرة عليهم[٢]، كما يأتي فيما وقع في بني النضير في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ أي: من نخلة ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الحشر: آية ٥] ومن الفساد في الأرض: قطع الدنانير، وإفساد السكة، وكل معصية لله وضرر على المسلمين وشرك بالله، جميع هذا من الفساد في الأرض الذي نهى الله عنه؛ لأن طاعة الله كلها صلاح يستوجب المطيعون بها رحمة الله ونعيمه وعافيته ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: آية ٣] ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: آية ٤] فطاعة الله وتقواه سبب لإدرار الأرزاق والعافية كما قال تعالى عن نبيه نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: الآيات ١٠ - ١٢] وقال عن نبيه هود أنه قال لقومه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: آية ٥٢] وهذا متكرر في القرآن. والمعاصي والشرك كلها إفساد في الأرض، وطاعة الله واتباع أوامره كلها إصلاح في الأرض.

ومعنى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: آية ٥٦] أي: بالشرك والمعاصي وجميع أنواع الفساد.

﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعد أن أصلحها الله بأن بعث فيها الرسل الكرام، وعلّموا أوامر الله ونواهيه، وما به صلاح الدنيا والآخرة، فإن مبعث الرسل تستقيم به أمور الدنيا، ويصلح به جميع الشؤون مما يصلح الدنيا والآخرة، فمن جاء لأمور الناس وهي صالحة قائمة على أوامر الله وشرعه الذي جاءت به رسله وغيَّر في ذلك وأفسد وأشرك وعصى فقد أفسد في

---

(١) انظر: القرطبي (٧/٢٢٦).

(٢) المصدر السابق (٧/٢٢٧)، (٩/٨٤)، (١٨/٨).

الأرض بعد إصلاحها. وهذا هو الأظهر في معنى الآية.

وقوله جل وعلا: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: آية ٥٦] قال بعضهم ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ معناه: اعبدوه. وقال بعضهم: هو الدعاء بمعنى المسألة والطلب لجلب الخير ودفع الضر. والدعاء من أعظم أنواع العبادة.

وبين (جل وعلا) أن الداعي ينبغي له إذا دعا ربه أو عبد ربه يستشعر الخوف من الله والطمع فيه، فيكون طامعاً في ثواب الله ورحمته واستجابة دعائه لما يعلم من فضل الله وكرمه ورحمته ورأفته بعباده. فعلى الداعي أن يكون خائفاً طامعاً. وبهذا يُعلم أن ما يقوله بعض من غلا: أن من عبد الله لأجل الخوف من الله، أو لأجل الطمع فيه أن عبادته ناقصة!! لأنه متاجر بعبادته ليدفع عنه الخوف، أو يستجلب له الطمع، وأن الأكمل أن يكون عَبَد الله لعظمة الله وإجلاله. هكذا يقول بعضهم! وخير الهدي هدي كتاب[1] الله وقد أمرنا في دعائه أن ندعوه خائفين من عذابه وعقابه ونكاله، طامعين في فضله ورحمته ورأفته وجوده وما عنده من الخير؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين هما: جلب النفع ودفع الضر. وإذا كان من يعبد الله أو من يدعو الله مستشعراً الخوف من الله والطمع في ثوابه وما عنده من الخير كان الخوف والطمع جناحين يطير بهما إلى الاستقامة وإلى ما ينبغي.

وهذا يُعلم منه أنه ينبغي للمسلم أن يكون في جميع أحواله إذا دعا الله أو عبد الله أن يكون جامعاً بين الخوف من الله والطمع فيما عند الله (جل وعلا)، فلا يترك الرجاء لئلا يكون من القانطين ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: آية ٨٧] ولا يترك الخوف فيأمن مكر الله؛ لأنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون فيكون خائفاً من الله، طامعاً راجياً في فضل الله.

والعلماء يقولون[2]: ينبغي للإنسان وهو في أيام صحته أن يُغلِّب

---

(١) في الأصل: «كتاب الله ﷺ». وهذا سبق لسان.

(٢) انظر: مدارج السالكين (١/٥١٧)، فتح الباري (١١/٣٠١).

الخوف دائماً على الرجاء، وأن يكون خوفه أغلب من رجائه، فإذا حضره الموت غلَّب الرجاء في ذلك الوقت على الخوف. فلا ينبغي لمؤمن أن يموت إلا وهو يحسن ظنه بالله (جل وعلا)؛ لأن ربه رؤوف رحيم كما جاء بذلك الحديث عن النبي ﷺ[1].

فالمؤمن إذا احتضر وعلم أن الموت قد حضره، وأن أيام حياته ذاهبة مدبرة، فهو في ذلك الوقت ينبغي له أن يحسن ظنه بالله، وأن يعلم أنه قادم إلى عفو كريم رؤوف رحيم، والله عند ظن عبده به.

أما في أيام صحته فيُغلِّب الخوف من الله لئلا يحمله حسن الظن على أمن مكر الله والتلاعب بأوامره ونواهيه. هكذا قال بعض أهل العلم. وقد دل الحديث على أن الإنسان لا ينبغي له أن يموت إلا وهو يحسن الظن بالله (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: آية ٥٦].

ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: آية ٥٦] الرحمة صفة من صفات الله اشتق لنفسه منها اسمه (الرحمن) واسمه (الرحيم) وهي صفة كريمة من صفات الله تظهر آثارها فيمن شاء أن يرحمه من خلقه، اشتق من هذه الصفة لنفسه اسمه (الرحمن) واسمه (الرحيم) ونحن نثبت لله ما أثبته لنفسه على أكمل الوجوه وأنزهها وأقدسها وأليقها بالله، وأبعدها عن مشابهة صفات المخلوقين.

وقوله: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المحسنون جمع تصحيح للمحسن، والمحسن: اسم فاعل الإحسان، والإحسان مصدر أحسن العمل يحسنه إحساناً، إذا جاء به حسناً.

والإحسان هو الذي خلق الله الخلائق من أجل الاختبار فيه[2]. إحسان العمل كما قال (جل وعلا) في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) مسلم في الجنة في صفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت. حديث رقم (٢٨٧٧)، (٤/٢٢٠٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

﴿وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: آية ٧] فبين أن الحكمة في الخلق: ابتلاؤه الخلق أيهم أحسن عملاً، ولم يقل: أيهم أكثر عملاً. وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: آية ٧] وقال في أول سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: آية ٢] والإحسان الذي خلقنا من أجل الابتلاء فيه قد أراد جبريل عليه السلام أن ينبه المسلمين إلى الطريق التي يصح بها الإحسان الذي خُلقوا من أجله فجاء للنبي ﷺ في حديث جبريل المشهور[1] في صفة أعرابي، وسأله عن الإيمان والإسلام، وقال له: يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أخبرني عن الإحسان؟ أي: وهو الذي خُلقتم من أجل الاختبار فيه. فبين له النبي ﷺ أن إحسان العمل لا يكون إلا بالواعظ الأكبر والزاجر الأعظم وهو مراقبة الله، وعلم العبد أنه كأنه ينظر إلى الله (جل وعلا)، وأنه إن كان لم يرَ الله فالله (جل وعلا) يراه. فمن علم أنه بين يدي ملك السماوات والأرض الجبار العظيم الأعظم، وأن الله يراه: أحسن عمله؛ لأن الإنسان ـ ولله المثل الأعلى ـ إذا كان أمام ملك جبار من ملوك الدنيا شديد البطش على من لم يمتثل أمره، وأمره بعمل، وهو حاضر ينظر إليه، لا بد أن يجدّ ويحسن ذلك العمل على أكمل الوجوه.

فعلى المؤمن أن يستشعر أنه بين يدي خالق السماوات والأرض، وأن الله يراه، وأنه ليس بغائب عنه. فإذا لاحظ هذا ملاحظة صحيحة أحسن العمل؛ ولذا قال النبي ﷺ مجيباً لجبريل في قوله: أخبرني عن الإحسان. قال ﷺ: **«الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**. لأن من لاحظ هذه الموعظة وهذه المراقبة أحسن عمله.

وفي هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف سؤال عربي مشهور عند علماء التفسير، وهو أنه قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿قَرِيبٌ﴾ بصيغة

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

التذكير ولم يقل: قريبة. يقولون: الرحمة لفظها مؤنث فَلِمَ لم يقل: إن رحمة الله قريبة من المحسنين، بل قال: قريب. وللعلماء عن هذا السؤال العربي أجوبة تزيد على العشرة[(١)]، كما هي معروفة في علوم التفسير، وبعض علوم العربية، نذكر منها بعضاً فيه كفاية:

منها: أن الرحمة مصدر بمعنى (الرُّحم) والمصدر مذكر المعنى، فمعنى ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: إن رُحْمَه بعبده قريب. فذكَّره نظراً لمعنى الرحمة؛ لأن معناها المصدر بمعنى (الرُّحم).

وقال بعض العلماء: (رحمة الله) هنا يعني أنه يرحم العبد بالثواب، فيكون المعنى: إن ثواب الله الناشيء عن رحمته بعبده قريب من المحسنين.

الوجه الثالث: هو ما قرره بعض علماء العربية: أن القرب نوعان: قرب في النَّسَب، وقرب في المسافة المكانية أو الزمانية، أما قرب النسب فالمؤنثة فيه يلزمها التاء بلا خلاف بين علماء العربية، فتقول: هذه المرأة قريبتي. تعني في النسب. ولا يجوز أن تقول: قريبي بلا تاء. فالقرابة في النسب يلزم فيها تاء الفرق بين الذكر والأنثى، فلا يجوز ـ قولًا وحداً ـ أن تقول: هذه المرأة قريب مني في النسب، بل يلزم أن تقول: قريبة مني في النسب بالتاء. أما إن كان القرب قرب مكان أو زمان فيجوز في المؤنثة التأنيث والتذكير، فتقول: هذه المرأة قريب مني. تعني في المسافة لا في النسب. ودارها قريب من داري. وإن شئت قلت: قريبة من داري. والكل مسموع في كلام العرب، فتقول: دار زيد قريب من دار عمرو، ودار زيد قريبة من دار عمرو، وهذه المرأة الفلانية قريب من فلان. تعني في المسافة وقريبة منه تعني في المسافة، والكل مسموع موجود في كلام العرب، فمن إدخال التاء على قرابة المسافة قول عروة بن حزام[(٢)]:

---

(١) انظر: ابن جرير (٤٨٨/١٢)، القرطبي (٢٢٧/٧)، البحر المحيط (٣١٣/٤)، الدر المصون (٣٤٤/٥ ـ ٣٤٦)، أضواء البيان (٣٢٢/٢).

(٢) البيت في ابن جرير (٤٨٨/١٢)، البحر المحيط (٣١٣/٤)، الدر المصون (٣٤٦/٥).

عَشِيَّةَ لا عَفْراءُ منِّي قريبةٌ فتدنُو، ولا عفراءُ منكَ بعيدُ

فقال: «قريبة» بالتاء، وهو قرب مسافة. ومن تجريد (القريبة) من التاء في المسافة قول امرىء القيس[1]:

له الويلُ إن أمسىٰ ولا أمُّ هاشمٍ قريبٌ ولا البَسْبَاسَة ابنة يشكرا

فقال: «أم هاشم قريب». يعني في المسافة. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: آية ١٧] أي: في الزمان، ولم يقل قريبة. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: آية ٦٣].

قال بعض أهل العلم: وجه تذكير الرحمة: إضافتها إلى الله جل وعلا.

وقال بعضهم: وجه تذكيرها لأنها نعت لموصوف محذوف: إن رحمة الله شيء قريب من المحسنين.

والذين يقولون: إن رحمة الله هي رحمته لعبده في الآخرة، يقولون: إن الإنسان كل يوم يقرب من الآخرة ويبعد من الدنيا؛ لأن ما أمامك قريب وما وراءك بعيد، كما قال الحطيئة أو غيره[2]:

لعمركَ ما السعادةَ جمعَ مالٍ ولكنّ التقيَّ هو السعيدُ
وما لا بدَّ أن يأتي قريبٌ ولكنّ الذي يمضي بعيدُ

فكأن الإنسان كل يوم يقرب من الآخرة ويبعد من الدنيا؛ لأن ما يستقبله الإنسان يتقرب إليه دائماً، وما يستدبره يتباعد منه دائماً، والآخرة قريب جداً، كما قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

---

(١) ديوان امرىء القيس ص٦٥.

(٢) البيت للحطيئة، وهو في الأمالي (٢/٢٠٢)، الآداب الشرعية (٣/٣٠٧)، شعر الدعوة الإسلامية ص٥١٧، وبين البيتين بيت آخر وهو قوله:
وتقوى الله خير الزاد ذُخرا وعند الله للأتقى مزيد
وصدر البيت الأول: «ولست أرى».

والذين يقولون: إن رحمة الله قريبة من عباده المحسنين بحصولها لهم في الدنيا والآخرة؛ لأنه في الدنيا يرحمهم بالتوفيق إلى الأعمال الصالحة وبالعمل بما يرضيه، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: آية ٧] ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: آية ٤٣] فبين أنه بالمؤمنين رحيم، يرحمهم بالدنيا بما ييسر لهم من التوفيق إلى ما يرضيه، ويرحمهم في الآخرة بالإدخال في دار كرامته. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الأعراف: آية ٥٧] قرأه أكثر السبعة: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع، وقرأه بعض السبعة: ﴿**يرسل الريح**﴾ بالإفراد. وعلى قراءة الإفراد فالمراد الجنس، فلا تنافي قراءة الإفراد قراءة الجمع[١].

وقوله: ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: آية ٥٧] فيه قراءات كثيرة[٢]، السبعيات منها أربع: ﴿**نُشُراً بين يدي رحمته**﴾ ﴿**نُشْراً بين يدي رحمته**﴾ ﴿**نَشْراً بين يدي رحمته**﴾ ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ هذه القراءات الأربع هي السبعيات من القراءات التي في هذه الكلمة.

فقرأ بعضهم: ﴿**نُشُراً**﴾ بضم النون والشين. وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو.

وقرأ بعضهم: ﴿**نُشْراً**﴾ بضم النون وسكون الشين. وقرأ بها من السبعة: ابن عامر وحده.

وقرأ بعضهم: ﴿**نَشْراً**﴾ بفتح النون وسكون الشين. وهي قراءة حمزة، والكسائي.

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٩، الإتحاف (٢/٥١).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٩، حجة القراءات ص٢٨٥.

وقرأ عاصم وحده: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ هذه القراءات السبعية، على أن بعض السبعة قرأ (الرياح) وبعضهم قرأ (الريح).

ومعنى قراءة (الريح): جنس الرياح، فلا تنافي قراءة الإفراد قراءة الجمع.

أما من قرأ: ﴿نُشُراً﴾ فنشراً جمع ناشرة، أو جمع نَشُور، وفيها معنيان[1]: أحدهما: أنها تنتشر أمام المطر من ها هنا وها هنا، أو أنها تلقح المطر الذي به إحياء الأرض الميتة فكأنها تنشره. والإنشار والنشور: النشور الحياة بعد الموت، وأنشره: أحياه بعد الموت. وأكثرهم على أن نُشُراً جمع نَشُور، أو جمع ناشرة كما قال بعضهم، كشاهد وشُهُد. ونُشُر هي التي تنتشر أمام المطر فتأتي منتشرة من ها هنا ومن ها هنا. وعلى هذا القول فهو من الانتشار؛ لأن الريح كأنها كانت راكدة كالشيء المطوي، فإذا كانت أمام المطر نُشرت كما ينشر الثوب، فجاءت منتشرة أمام المطر من ها هنا ومن ها هنا.

وقراءة ابن عامر ﴿نُشْراً بين يدي رحمته﴾ كقراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو إلا أن ابن عامر خفف الشين فسكَّن ضمتها. كما تقول: رُسُل ورُسْل، وكُتُب وكُتْب، ونُشُر ونُشْر. فمعنى قراءة ابن عامر كالقراءة التي قبلها، وهو أن الله يرسل الرياح في حال كونها منتشرة من ها هنا وها هنا أمام السحاب. وهذا من غرائب صنعه وعجائبه جل وعلا.

وعلى قراءة حمزة والكسائي ﴿نَشْراً﴾ ففيه من الإعراب وجهان: أحدهما: أنه ما ناب عن المطلق من ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ لأن معنى (يرسلها) في قوة: ينشر الرياح بين يدي المطر نَشْراً. فتكون مفعولًا مطلقاً بالمعنى من (يرسل). أو أنها مصدر مُنكَّر حال، أي: يرسل الريح في حال كونها منتشرة أمام المطر، أو ناشرة كما ذكرنا.

وعلى قراءة حفص ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ فالبُشر هنا جمع البشير؛ لأن الرياح تبشر بإتيان المطر بعدها فهي بشير المطر، كما

(١) انظر: الأضواء (٢/٣٢٣).

يدل عليه قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: آية ٤٦] فإجراء الريح وانتشارها من هٰهنا وهاهنا أمام المطر مبشرة به من غرائب صنعه وعجائبه، ومن عظائم نعمه على خلقه، وهو معطوف على قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هذا الذي خلق السماوات والأرض، وأغشى الليل النهار كذلك هو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته.

١/١٠ / ومعنى ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ المراد بالرحمة هنا: المطر؛ لأن المطر رحمة الله يرحم بها عباده في الدنيا فيكونون في جدب وفي فقر، ومواشيهم على وشك الهلاك، فيغيثهم الله بالمطر، فتنبت زروعهم وثمارهم وتنعم مواشيهم فتكثر عندهم اللحوم والأسمان والأزباد، وتتوفر عندهم الأشعار والأصواف والأوبار، ينسجون منهااللباس وغيره من الفرش والخيام وما جرى مجرى ذلك. فهذا من غرائب آياته وعظائم نعمه.

ومعنى (بين يدي المطر) يعني: أمام المطر قدامه منتشرة قدامه مبشرة به. وهذا من غرائب صنعه وكبائر نعمه.

والريح اختلف الفلاسفة في حدها، وربما عجزوا عنه. وبعضهم يقول: الريح هواء يتحرك. والريح هي هذا الشيء الذي تشاهدونه وتحسونه. أما تعريفهم فقد عسر على من أراده. وعرفه بعضهم بأنه: هواء يتحرك. وقد سلطها الله على قوم عاد فأهلكتهم عن آخرهم. وهذا معنى قوله: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ يعني أمام المطر. فقد سمى المطر (رحمة) لأن الله يرحم به عباده فتخصب بلادهم وتنمو زروعهم ومواشيهم وثمارهم، وهو أصل النعم الدنيوية على الخلق؛ ولذا سماه (رحمة) هنا، وفي قوله بالروم: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ أَثَرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: آية ٥٠] وفي القراءة الأخرى: ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾.

﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: آية ٥٧] من فوائد الريح: كما أن الله ينشرها مبشرة بالمطر منتشرة أمامه كذلك يحمل عليهاالمطر؛ لأن السحاب هو غير المطر بإجماع أهل اللسان، فالسحاب: الوعاء الذي فيه المطر. والمطر: هو نفس الماء، وهو نفس الودق.

وهذه الآية من سورة الأعراف تبين أن الماء أنه في وعاء، وأن ذلك الوعاء ثقيل جداً ثقلًا عظيماً، وأن الله يحمله ـ مع ثقله ـ على متن الريح، ثم إن الريح تذهب به إلى حيث شاء الله (جل وعلا)، فيسيل ذلك المطر من الثقوب والخلال التي في ذلك السحاب الذي هو الوعاء، وقد بيّن الله كيفية هذا في سورة النور في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ أي: يسوق سحاباً ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أي: متراكماً بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ وهو نفس المطر الذي هو الماء ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: آية ٤٣] أي: من ثقوب السحاب. وخلال الشيء: ثقوبه وفروجه. فهو يتقاطر من الثقوب والفروج التي جعلها الله في الوعاء الذي يحمل فيه المطر. وبين أن ذلك الوعاء ثقيل جداً في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ﴾ [الأعراف: آية ٥٣] أقلت: أي حملت. والعرب تقول: أقلته ناقته. أي: حملته. والمراد: أقلت الريح، أي: حملت الريح ﴿سَحَابًا﴾ جمع سحابة، وهي الوعاء الذي فيه الماء، وهي المزنة.

﴿ثِقَالًا﴾ جمع ثقيلة، أي: سحابة ثقيلة. وسحاب ـ بالجمع ـ ثقال. والله صرح بأنها ثقال، أي: شديدة الثقل لما هي موقرة به ـ مملوءة به ـ من الماء[1].

وهذا نص صريح من رب العالمين الذي هو أصدق من يقول أن الله يجعل ماء المطر في وعاء، وأنه يحمل تلك الأوعية الثقيلة جداً على متن الريح، ثم إنه إذا أراد نزول المطر إلى محل أخرج الماء من الثقوب والفروج والخلل الذي في ذلك الوعاء الذي فيه الماء، كما قال: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: آية ٤٣] وهذا الماء ينزله الله (جل وعلا) من حيث شاء، وهو قادر على أن ينزله من نهر تحت العرش، وعلى أن يجعله من بخار البحر ثم يرفعه فيجعله ماءاً صافياً ويجعله في المزن، وهو قادر على كل ذلك. وأكثر السلف على أن الماء ينزل في السحاب من نهر تحت العرش. وبعض العلماء يقول: لا مانع من أن يرتفع من بخار البحر ماء صاف عذب تتحلل منه الأجرام الملحة ثم يجعله الله في وعاء المزن، ثم يحمله على الريح، ثم يلقيه

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الأنعام.

حيث شاء. كما قال مسلم الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل(١):

وأسلمتُ وجهي لمن أَسْلَمَتْ لَه الأرضُ تحملُ صخْراً ثقالاً
دحاها فلما استوت شدها جميعاً وأرسىٰ عليها الجبالا
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ له المزنُ تحمل عذباً زُلالاً
إذا هي سيقت إلى بلدةٍ أطاعتْ فصبتْ عليها سجالاً

وبهذا تعلمون أن المطر إنما ينزل بأمر الله وقدرته وإرادته، يعلم قدره ويجعله في أوعية السحاب، ويحمله على متن الريح، ثم يخرجه من الثقوب والخلال التي في الوعاء الذي هو فيه وهو السحاب، كما قال وهو أصدق من يقول: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ﴾ [النور: آية ٤٣] والعرب كانوا يزعمون أن بعض المزن يمتلىء من البحر، وهو معروف في أشعارهم، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي(٢):

سَقَى أُمَّ عمروٍ كلَّ آخرِ ليلةٍ حَنَاتِمُ غُرٌّ ماؤُهنَّ ثَجِيجُ
شَرِبْنَ بماءِ البحرِ ثم ترفَّعَتْ متى لُججٍ خُضرٍ لهن نَئِيجُ

يعني: لجج البحر. ومنه قول طرفة بن العبد(٣):

لا تلمني إنها من نسوةٍ رُقَّد الصيفِ مَقَاليتَ نُزُرْ
كَبَنَاتِ البحر يَمْأَدْنَ كما أنبتَ الصيف عساليجَ الخَضِر إذا

---

(١) الأبيات ذكرها ابن هشام في السيرة (١/٢٤٧ ـ ٢٤٨)، وفيه بعض اختلاف في البيت الثاني. ولفظه في ابن هشام:

دحاها فلما رآها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا

(٢) البيت الأول في اللسان (مادة: ثج) (١/٣٤٩)، (حنتم) (١/٧٣٤)، وفيه: (حناتم سُحْم) والبيت الثاني في الخصائص (٢/٨٥)، المحتسب (٢/١١٤)، اللسان (مادة: شرب) (٢/٢٨٧)، (متى) (٣/٤٣٥)، (مخر) (٣/٤٥٠).

(٣) البيتان في ديوان طرفة ص٥٨، البحر المحيط (١/٨٦)، والأول منهما في رصف المباني ص٢٦٨، والبيت الثاني في الخصائص (٢/٨٥)، اللسان (مادة: عسلج) (٢/٧٧٩)، (مخر) (٣/٤٥٠)، وفي جميع هذه المصادر: «أنبت الصيف».

والشاهد: أن المطر لا تنزل قطرة منه إلا بمشيئة خالق السماوات والأرض وبتدبيره. وقد بين لنا كيف ينزله: أن الله يسوق سحاباً وهو المزن الذي هو وعاء الماء، ثم يجمع بعضه إلى بعض حتى يجعله متراكماً بعضه فوق بعض، ثم يخرج الماء من تلك الثقوب والفروج التي هي خلال ذلك السحاب. وهذا صريح قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: آية ٤٣] أي: ترى ماء المطر يخرج من الخلال جمع (خلَل) وهي الثقوب والفروج التي في ذلك السحاب الذي هو وعاء الماء. فهذا بفعل ملك مقتدر ينزل المطر حيث شاء، ويحمل السحاب الموقرة الثقيلة بالماء على متن الريح، ثم يأمرها بأن تصبها بالمكان الذي شاء بتصريف من عالم قدير، عالم بقدر المطر الذي ينزله وبقدر الرشاش الذي ينزله. وقد بين تعالىٰ أن كثيراً من الخلق سيكفرون بهذا، كالذين يزعمون أن المطر لم ينزله خالق، وإنما هو أمر طبيعي، كما يزعمه الكفرة الإفرنج وأتباع الإفرنج، لا يعترفون بأن المطر ينزله حكيم خبير، بل يذهبون إلى فكرة كافرة ملحدة يقررها كثير ممن لا يفهم، ثم يطمسها ويَذُرُّ في عيون الناس أن يقول: «بمشيئة الله» مجاملة. وهو يعتقد الطبيعية كما يعتقدها الكفرة الإفرنج الذين قرروا هذا!! فهم ـ والعياذ بالله ـ كالأنعام بل هم أضل، لا يعترفون بخالق حكيم مدبر ينزل المطر، فيزعمون أن نزول المطر أمر طبيعي، وأن حرارة الشمس إذا تتابعت على البحر حتى بلغت مئة درجة تبخر ماء البحر، وكذلك احتكاك الماء بالريح يبخره، فيتصاعد بخار الماء وتتحلل منه الأجرام الملحية، ثم يتكاثف البخار بعضه فوق بعض، ثم إذا اجتمع ولاقى هواء بصفة كذا جاءته ريح وفرقته، وصار هو الرشاش بطبيعته وطبيعة المطر من غير فاعل مختار!! وهذا كفر بالله، وإلحاد سافر، ونفي للخالق الذي لا يكون شيء إلا بأمره وقضائه. والله قد بين أن كثيراً من الناس سيؤُولون إلى هذا الكفر والإلحاد؛ لأنه لما ذكر المطر في سورة الفرقان قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ ﴿أَنزَلْنَا﴾ نسب الإنزال لنفسه بصيغة التعظيم قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ

صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفرقان: الآيات ٤٨ ـ ٥١] يعني: لقد صرفنا الماء بين بني آدم فأكثرنا المطر في عام على بعض الجهات فأخصبت لنختبر أهلها هل يشكروننا على ذلك الإنعام؟ وصرفنا الماء في بعض السنين عن بعض البقاع حتى تمحل وتجدب لنختبر أهلها هل يصبرون؟ وهل ينيبون إلينا ويتضرعون لنكشف عنهم الضراء؟ فهو تصريف حكيم خبير يصرف الماء بحكمته وإرادته، وينزله بمشيئته على هذا الوجه الأعظم الكريم الذي ينزل رشاشاً. والله لما قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ لأجل أن يتذكر من جاءهم الماء فأخصبوا فيشكروا نعمة الله ويتذكر من صُرف عنهم الماء فأجدبوا؛ لينيبوا إلى الله، ويتوبوا إلى الله ثم قال: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: آية ٥٠] فأبى أكثر الناس إلا كفوراً بالله ـ جل وعلا ـ ومن أعظم الكفور الذي أَبَوا إلا إياه: قولهم: إن الماء ينزله بخار كذا وكذا، وطبيعة كذا وكذا، فقد صدق الله ـ جل وعلا ـ ولا تأتي بلية ولا إلحاد يتجدد في الزمان إلا وهو مشار إليه في القرآن.

فقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ وإتباعه لذلك بقوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: آية ٥٠] من غرائب هذا القرآن وعجائبه. وتطبيقه الآن على أكثر من في المعمورة، ينفون أن المطر نازل بحكمة خبير عليم ـ قبحهم الله ـ فينطبق عليهم قوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أن النبي ﷺ كلمهم صبيحة ليلة كان فيها مطر، وقال لهم: «**هل سمعتم ماذا قال ربكم البارحة؟**» قالوا: ماذا قال؟ قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي كافر بالكوكب، وأصبح من عبادي كافر بي مؤمن بالكوكب. أما من قال مُطرنا بفضل الله وبرحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا. فهو كافر بي مؤمن بالكوكب**»(١).

---

(١) البخاري في الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم. حديث رقم: (٨٤٦)، (٣٣٣/٢). وأطرافه في: (١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣)، ومسلم في الإيمان، باب بيان كفر من قال: مُطرنا بالنوء. حديث رقم (١٢٥)، (٨٣/١)، من حديث زيد بن خالد رضي الله عنه.

وأكفر منه بالله من قال: مطرنا ببخار كذا و كذا لا بفعل الله وإرادته. فعلى المؤمن أن يعتقد أن المطر أنزله حكيم خبير، وأنه ماء ينزله من حيث شاء، إما من السماء أو من حيث شاء الله (جل وعلا) فيجعله في أوعية السحاب، فتمتلىء حتى تكون ثقيلة جداً، كما قال هنا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ [الأعراف: آية ٥٧].

والثقال: جمع ثقيلة، وإنما كانت ثقيلة لكثرة ملئها من الماء. وصرح بأن الريح تقلها، وأنه يحملها على ظهر الريح حتى تمطر في الموضع الذي شاء الله، وصرح بأنه هو الذي يصرف المطر بإرادته ومشيئته، فينزله على قوم فيخصبوا ليُختبروا هل يشكرون؟ ويرفعه عن قوم فيجدبوا ليختبروا هل ينيبون إلى الله ويتوبون؟ وهذا من غرائب صنع الله وعجائبه. والله (جل وعلا) أمر خلقه أن ينظروا في هذا وتوابعه حيث قال: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤﴾ [عبس: آية ٢٤] لام الأمر هنا صيغة أمر تقتضي الوجوب، معناه: يجب على كل إنسان أن ينظر إلى طعامه. يعني: يا أيها الإنسان المسكين الضعيف انظر إلى طعامك، انظر إلى الخبز الذي تأكل ولا تستغني عنه، من هو الذي خلق الماء الذي شربَتْ به أرضه حتى نبت بإذن الله؟ أيقدر أحد غير الله أن يخلق الماء ويبرز جرمه من [العدم إلى الوجود][1]؟ هب أن الماء خُلق وصار موجوداً من هو الذي يقدر على إنزاله بهذه الطريق الحكيمة وإخراجه من خلال السحاب رشاشاً لا يضر بأحد، فلو أرسل الله المطر كله قطعة واحدة مجتمعة لأغرقت الدنيا ودمرت البلاد والعباد، فهو ينزله رشاشاً من خلال السحاب لئلا يضر بالناس، وينزله بقدر معلوم بحيث يكون فيه الحاجة، ولا يجعله طوفاناً يغمر الأرض لئلا يهلك من عليها كما وقع لقوم نوح. هب أن الله أنزل الماء بهذه الطريقة العظيمة الحكيمة هل يقدر أحد غير الله أن يشق الأرض عن مسمار النبات الذي يكون منه الحب الذي تأكلون؟ الجواب: لا. هب أن مسمار النبات خرج، من هو الذي يقدر على أن يربيه

(١) في الأصل: «من الوجود إلى العدم». وهو سبق لسان.

وينميه؟ هب أنه نما وكبر، من ذا الذي يقدر أن يشقه ويخرج منه السنبلة؟ هب أن السنبلة خرجت، من هو الذي يقدر أن يربيها وينقلها من طور إلى طور حتى تكون حباً صالحاً للأكل؟ ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩٩].

هذه غرائب صنع الله وعجائبه، والكفرة الملاعين الذين يزعمون أن إنزال الله للمطر بهذا الأسلوب الغريب العجيب المُبيَّن في سورة النور وغيرها ـ الذي صرح الله بأنه هو الذي أنزله، وهو الذي يصرفه بين خلقه كما يشاء ـ يزعمون أن كل هذا كذب، وأنه لا خالق ولا فاعل مختار، وإنما هي أمور طبيعية، فطبيعة الماء أن يتبخر بطبيعته إما بدرجات حرارة الشمس؛ لأن الماء إذا بلغ درجة مائة من درجات الحرارة يستحيل بخاراً، أو باحتكاكه بالريح، فاحتكاك الريح بالماء قد يجعله بخاراً، ثم إن البخار يتصاعد بطبيعة حاله، ثم يجتمع بعضه إلى بعض، فيلاقي هواءً آخر بصفة كذا، فتفرقه الريح، وأن هذا أمر طبيعي لا فاعل له. هذا كفر بالله، وإنكار لخالق السماوات والأرض، وجحود له (جل وعلا). والله بين أن أكثر الخلق سيصيرون إلى ذلك في سورة الفرقان كما أوضحه بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: الآيات ٤٨ ـ ٥٠] ولا شك أن من الناس الذين أبوا إلا كفوراً: الذين زعموا أنه نزل بطبيعة بخار كذا وكذا عليهم لعائن الله، وإذا ماتوا فسيعلمون هل هناك رب مدبر ملك السماوات والأرض هو المنزل للمطر، الخالق لكل شيء أو لا؟ وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ هنا هي الابتدائية التي تُذكر قبل الجُمل. و (أقلت) معناه: حملت «حتى إذا أقلت الرياح» أي: حملت.

﴿سَحَابًا﴾ أي: مزناً مملوءة بالماء.

﴿ثِقَالًا﴾ السحاب: جمع سحابة أو اسم جمع للسحابة. والثقال: جمع ثقيلة، لثقلها بالماء الذي هي موقرة منه، يحملها الله على متن الريح.

﴿سُقْنَهُ﴾ أي: سقنا ذلك السحاب المُوقَر بالماء.

﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قرأه بعض السبعة: ﴿مَيِّتٌ﴾ بالتشديد. وقرأه بعضهم: ﴿مَيْت﴾ بالتخفيف، وهما قراءتان سبعيتان مشهورتان[1] ولغتان صحيحتان معروفتان.

ومعنى كون البلد ميتاً أنه غبار لا نبات فيه ولا شجر. ميت جدب ليس فيه نبات ولا شجر نابت.

﴿سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي: بذلك البلد. وعليه فالباء ظرفية، أي: فأنزلنا فيه، أي: في ذلك البلد ﴿الْمَآءَ﴾ أو ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي: بذلك السحاب ﴿الْمَآءَ﴾ في ذلك البلد، وصرفناه إلى ما شئنا من البلاد وصرفناه عمن شئنا من البلاد ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: آية ٥٠] وهذا معنى قوله: ﴿سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي: بسبب ذلك الماء ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ هذا من براهين البعث، كما أخرجنا النبات بعد أن لم يكن شيئاً، وأخرجناه بعد أن انعدم، كذلك نخرجكم من قبوركم أحياءً بعد أن كنتم معدومين؛ لأن الكل إخراج بعد عدم، وإعادة بعد فناء، وحكم الكل واحد.

ومعنى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[2] [الروم: آية ١٩، الزخرف: آية ١١] أي: تُخرجون من قبوركم أحياءً بعد الموت عند النفخة الثانية، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: آية ٦٨] وقال جل وعلا: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: آية ١٣] أي: على وجه الأرض أحياءً يمشون. وهذا معروف؛ لأن الله (جل وعلا) يبعث الخلائق كلهم يوم القيامة. وإحياء الأرض بعد موتها دليل على بعث الخلائق. وهذا معنى قوله: ﴿سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [الأعراف: آية ٥٧].

وقوله: ﴿سُقْنَهُ﴾ بصيغة التعظيم دليل قاطع على أن الموضع الذي يأتيه

---

(١) انظر: الإتحاف (٢/٥٢).

(٢) الظاهر أنه وقع للشيخ (رحمه الله) سهو في هذا الموضع فذكر قوله: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ وليست هذه الجملة في آية الأعراف، وإنما في آية الروم: (١٩)، وآية الزخرف: (١١)، وإنما في الأعراف: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾

المطر أن ما يأتيه بإرادة الله ـ جل وعلا ـ وأنه هو الذي ساق ذلك المطر محمولًا على الريح إلى ذلك البلد المعين بحكمته وقدرته وإرادته، لا بطبيعة الريح، ولا بطبيعة البخار، ولا بطبيعة الهواء؛ لأن الله (جل وعلا) هو الخالق لكل شيء. والطبائع لا يؤثر منها إلا ما شاء الله أن يؤثر. وقد أجمع أهل الحق وأهل الباطل جميعاً ـ عن بكرة أبيهم ـ أن المؤثر من حيث هو مؤثر لا يعدو عن ثلاثة أشياء: مؤثر بالاختيار، ومؤثر بالطبيعة، ومؤثر بالعلة[1]. والحق من هذه المؤثرات واحد، وهو المؤثر بالاختيار، وهو خالق السماوات والأرض (جل وعلا) سبحانه وحده، لا يمكن أن يقع تأثير في الدنيا ولا في الآخرة، ولا تسكينة ولا تحريكة إلا بمشيئته وقدرته (جل وعلا) فالتأثير بالاختيار هو التأثير الحق، وهو تأثير خالق السماوات والأرض الذي لا يمكن أن تقع تحريكة ولا تسكينة في الدنيا ولا في الآخرة، ولا أي شيء كائناً ما كان إلا عن قدرته وإرادته ومشيئته ـ جل وعلا ـ وإنما قسموا المؤثر ـ أهل الحق وأهل الباطل ـ إلى مؤثر بالاختيار، ومؤثر بالطبيعة في زعم الطبائعيين، ومؤثر بالعلة في زعم الفلاسفة المعللين بالعلل؛ لأنهم يقولون: المؤثر من حيث هو مؤثر إما أن يصح منه الترك، وإما أن لا. فهذان قسمان لا ثالث لهما، وهو تقسيم عقلي؛ لأن حصر المُقَسَّم في الشيء ونقيضه حصر عقلي كما هو معروف في فنون البحوث والمناظرات؛ لأنهم يقولون: إما أن يصح من المؤثر الترك، وإما أن لا، فإن كان يصح منه الترك فهو المؤثر بالاختيار. وهذا واضح؛ لأنه لما صح له أن يترك، وصح له أن يفعل وقد أثر وهو قادر على ترك التأثير علمنا أنه اختار أحد المقدورين على الآخر، وهذا هو التأثير الحق، وهو تأثير خالق السماوات والأرض (جل وعلا)، ولا تأثير ألبتة في الحقيقة إلا هذا التأثير بالاختيار من خالق السماوات والأرض.

أما النوعان الباطلان من المؤثرات وهما: التأثير بالطبيعة، والتأثير بالعلة فإنهم يقولون: إن كان المؤثر لا يصح منه الترك فله حالتان: إما أن يتوقف تأثيره على وجود شرط وانتفاء مانع، وإما أن لا، فإن

(١) انظر: الكليات ص٢٧٩، موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٣/١٣٤٦ ـ ١٣٤٧.

توقف تأثيره على وجود الشرط وانتفاء المانع فهو الذي يسميه الطبائعيون: (المؤثر بالطبيعة) وضابط تأثير الطبيعة عندهم: هو المؤثر الذي لا يصح منه الترك مع أن تأثيره يتوقف على وجود الشرط وانتفاء المانع. ومثاله عندهم: تأثير النار بالإحراق، فهو تأثير بطبيعتها؛ لأن النار لا يصح منها الترك، وتأثيرها قد يتوقف على وجود الشرط، وهو إبراز النار من كُمُونها الأصلي في الزناد ونحوه، وانتفاء المانع وهو أن لا يكون المانع الملاقي للنار في أولها منافياً للإحراق، كأن يكون أول ما يلاقي الشهاب الخارج من الزند الواري ماء، فإن الماء لا يؤثر فيه، أو يكون أول ما يلاقيه صخر لا يؤثر فيه. فهذا توقف على وجود الشرط وانتفاء المانع، وهو الذي يسمونه: (المؤثر بالطبيعة)، مع أنه لا يصح منه الترك.

أما إن كان لا يصح منه الترك ولا يتوقف تأثيره على وجود الشرط ولا على انتفاء المانع فهو الذي يسمونه: (المؤثر بالعلة). ومثاله عندهم ـ قبحهم الله ـ: تأثير حركة الأصبُع في حركة الخاتم؛ لأن الأصبُع إن كان فيه خاتم فإذا تحرك الأصبع لا بد أن يتحرك الخاتم. والفلاسفة يقولون: إن تأثير وجود الله في وجود المخلوقات تأثير بالعلة، ومن هنا زعموا قدم هيولى العالم؛ لأن المؤثر لا ينفك عن أثره. ومذاهبهم ـ قبحهم الله ـ باطلة كلها كفريات وإلحاديات.

ونعطيكم نماذج وأمثلة على أن المؤثر في الحقيقة هو الله، وأن الله يسبب ما شاء من المُسبَبات على ما شاء من الأسباب، ولو شاء انخرام السبب لانخرم. ألا تسمعون في تاريخ القرآن أن نبي الله إبراهيم أُلقي في النار هو والحطب، والحطب شيء صلب شديد قوي، وجسم إبراهيم لطيف لين، والنار لا عقل عندها تميز به بين إبراهيم وبين الحطب، فأكلت بحرارتها الحطب حتى جعلته رماداً، في عين الوقت الذي هي فيه برد على إبراهيم، والطبيعة معنى واحد لا يتجزأ أو لا ينقسم، فالطبيعة من المعاني الأفراد التي لا يمكن أن تتجزأ، ولا أن تنقسم، فالنار لو كان التأثير بطبيعتها لاستحال أن تكون برداً على إبراهيم وحراً على

الحطب حتى يصير رماداً، مع أنها معنى واحد وطبيعة واحدة. وذلك يدل على أن المؤثر في الحقيقة هو خالق السماوات والأرض لما قال للنار: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا﴾ [الأنبياء: آية ٦٩] وخصص وقال: ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: آية ٦٩] ولم يقل: «على الحطب» كانت على إبراهيم برداً إطاعة لمالك السماوات والأرض. والحطب الذي لم يقل لها أن تكون برداً عليه كانت حراً عليه فأحرقته حتى كان رماداً، وهو طبيعة واحدة، والطبائع لا تتجزأ لأنها معنى واحد لا ينقسم، فدل هذا على أن المؤثر في الحقيقة هو خالق السماوات والأرض (جل وعلا). وزعم المفسرون أن الله لو لم يقل ﴿وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء: آية ٦٩] لأهلكه البرد من شدة برد النار عليه في الوقت الذي هي فيه حر على الحطب تحرقه حتى يكون رماداً.

فالله يسبب ما شاء من الأسباب، على ما شاء من المُسَبَّبات، وهو المريد لكل ذلك، الذي كل شيء بمشيئته، لا يصدر أمر إلا عن قدرته وإرادته، وربما جعل السبب مضاداً للمسبَّب، وجعله سبباً في وجوده، كما بيناه في سورة البقرة[1] لما أراد إحياء قتيل بني إسرائيل أمرهم أن يذبحوا بقرة حتى صارت بقرة ميتة، وأمر بقطع قطعة منها وهي ميتة فضُرب الميت بها فحيي!! فمن أين للميت الحياة من قطعة لحم ميتة من بقرة ميتة؟ فهذا لا سبب فيه يعقل، فلو كانت البقرة حية لقالوا: سرت للميت الحياة من حياتها. فهي قطعة ميتة، فمن أين جاءت هذه الحياة من الضرب بهذه القطعة الميتة؟ ومثل هذا يبين الله به أنه هو الذي يربط بين الأسباب ومسبباتها، فالأسباب حق، والربط بينها وبين مسبباتها حق، وإنكاره تلاعب بالدين، وجعلها مستقلة بشيء كفر بالله (جل وعلا) وإلحاد في شرعه، بل الحق أن الله هو خالق كل شيء، ومسبب ما شاء من [المسببات][2] على ما شاء من الأسباب، هو الذي جعل تأثير الإحراق في النار، وجعل تأثير الري

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٢) في الأصل: «الأسباب» وهو سبق لسان.

في الماء، وجعل تأثير الشبع في الخبز، وجعل تأثير القطع في السكين. وهكذا فهو الخالق لكل شيء، وكل شيء بمشيئته وقدرته (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأعراف: آية ٥٧] كذلك الإخراج الذي أخرجنا به النبات بعد الانعدام نخرج الموتى من قبورهم أحياءً للبعث.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: آية ٥٧] (لعل) تأتي في القرآن بمعنيين[1]، قال بعض العلماء: هي على الترجي، ولكن الترجي بحسب ما يظهر للناس، أما الله فهو عالم بما كان فلا يصدق عليه الترجي، كقوله لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: آية ٤٤] أي: على رجائكما وعلم بني آدم القاصر، أما الله فهو عالم أنه لا يذَّكر ولا يخشىٰ.

الثاني: ما قاله بعض العلماء: إن كل (لعل) في القرآن مشمَّة معنى التعليل بمعنى: لأجل. وعليه فـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لأجل أن تتذكروا وتتعظوا بآيتنا وغرائب صنعنا وعجائبنا. و (لعل) تأتي في لغة العرب بمعنى التعليل، وهو معروف في كلامهم، ومنه قول الشاعر[2]:

وقُلتم لنا كفُّوا الحروبَ لعلنا نكفُّ ووثَّقتم لنا كل موثقِ
فلما كففْنا الحربَ كانت عهودُكم كشبهِ سرابٍ في الملا متألقِ

وهذا معنى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قرأه بعض السبعة: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بحذف إحدى التاءين. والباقون: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ بإدغام التاء في التاء.

ومعنى ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون بما أريناكم من غرائب صنعنا وعجائبه.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: آية ٥٨] لما أمر الله ـ جل وعلا ـ ونهى في هذه الآية الكريمة، وبين عظائم آياته وبرهان عبادته وربوبيته أنه الرب وحده، والمعبود وحده، وبين أنه أنزل إلى هذه الخلائق كتاباً فصَّله على علم هدى ورحمة، بين هنا أن الناس الذين أُنزل عليهم هذاالكتاب لهم شبَه بعنصرهم الأول وهو الأرض، وشبَّه الوحي الذي أنزله على نبينا ﷺ بالمطر، فالوحي كثيراً ما يُشبَّه بالمطر كما أوضحناه في سورة البقرة في الكلام على قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ الآيات [البقرة: آية ١٩] فكما أن المطر يحيي الله به الأرض بعد موتها وينبت به النباتات والزروع والثمار، ويُنعش به الحيوانات، ويهيىء به لبني آدم مصالحهم الدنيوية، فكذلك القرآن هو مطر أرض القلوب، إذا نزل مطر القرآن على أرض القلوب أثمرت القلوب ثمراتها الرائعة اليانعة من الإيمان بالله والتقوى والخشية والإنابة والإيثار وطاعة الله (جل وعلا) والخوف منه والانقياد لأوامره، والتباعد لنواهيه، فالقرآن مطر القلوب، والأرض كأنها المطر الذي يثمر فيه القرآن، كما أن الأرض هي مطر السحاب التي يثمر فيها. فضرب الله المثل هنا لقلوب بني آدم بأن بينهم شبهاً وبين الأرض؛ لأنها أصلهم وعنصرهم الذي خُلقوا منه، فإذا نزل المطر من السماء وأصاب أرضاً طيبة أثر فيها أثراً شديداً فأنبتت الزروع والحبوب والثمار والعشب والكلأ الكثير، وصارت ترفل في حلل زينتها من أنواع النباتات. وإذا نزل المطر على أرض سبخة خبيثة لا تقبل النبات كلما ازداد نزول المطر عليها ازدادت خبثاً، لا تمسك ماء عذباً يُشرب منه، ولا تُنبت مرعى يُرتع فيه، ولا ثماراً ولا زروعاً تُؤكل، فهذا مثل ضربه الله لقلب المؤمن وقلب الكافر، وضرب المثل للقرآن بأنه مطر القلوب المثمر فيها، كما أن مطر السحاب هو مطر الأرض المثمر فيها، قال: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [الأعراف: آية ٥٨] أصل البلد الطيب من الأرض إذا صادفه المطر الكثير يخرج نباته بإذن ربه أحسن ما يكون، يخرج نباته نباتاً حسناً فيه الزروع والثمار والأعشاب والكلأ وكل ما ينتفع به الناس في أمور معاشهم، هذا هو

البلد الطيب، كذلك القلب الطيب إذا نزلت عليه أمطار القرآن: زواجره ونواهيه ومواعظه وحلاله وحرامه أثمر ذلك القرآن في ذلك القلب ثمرات أحسن من ثمرات الأرض الطيبة إذا نزل عليها المطر، فأثمر الإيمان بالله، والتطهر من أدناس المعاصي والكفر، وامتثال أمر الله واجتناب نواهيه، وكل خصلة حسنة يثمرها مطر القرآن في قلب المؤمن، كالخشية من الله، والتوبة عند الزلات، والإنابة إليه، والسخاء، والشجاعة، والرضا بقضاء الله، والإيثار وعدم الشح، إلى غير ذلك من خصال الإسلام الكريمة الجميلة.

﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ أي: والبلد الذي خبث كالبلد الذي يكون سبخاً خبيثاً لا يخرج نباته ولو تتالت عليه الأمطار ﴿إِلَّا نَكِدًاۚ﴾ إلا في حال كونه نكداً عسير الخروج لا خير فيه ولا منفعة فيه ألبتة، يخرج بعسر غاية العسر، ويخرج مسلوباً من الخير والنفع.

وأصل النَّكِدِ في لغة العرب: العسير، لا يخرج إلا في حال كونه نَكِداً، أي: عسير الخروج، مسلوب الفائدة، لا يُنتفع به في أكل الناس، ولا أكل الأنعام، إذ لا فائدة فيه، فكذلك قلب الكافر لا يثمر إلا نكداً عسيراً، ثمرة لا فائدة فيها، كالأرض السبخة إذا كثرت عليها الأمطار لا تثمر شيئاً فيه فائدة. وهذا المثل بينه النبي ﷺ في حديث أبي موسى الأشعري المتفق عليه بياناً واضحاً، وفيه: «**إن مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل غيث كثير أصاب أرضاً، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرىٰ إنما هي قيعان لا تنبت كلأً ولا تمسك ماء، فذلك مثل من فقه في الدين ونفعه الله بما بعثني به فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به**»[1]. والنبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح الذي اتفق عليه مسلم

---

(١) البخاري في العلم، باب فضل من عَلِمَ وعَلَّم. حديث رقم (٧٩)، (١/١٧٥). ومسلم في الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم. حديث رقم (٢٢٨٢)، (٤/١٧٨٧).

والبخاري من حديث أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) بين أن قلوب البشر بالنسبة إلى أمطار القرآن ثلاثة أنواع: قلب كالأرض الطيبة إذا نزلت عليه أمطار القرآن أنبت العشب والكلأ الكثير، معناه: أنه يثمر فيه القرآن ومواعظه فيجمع بين العلم به والعمل، فيتعلم معانيه، ويفهم حِكَمَه، ويعمل بها، ويعلمها غيره. وفي حديث البخاري من حديث عثمان بن عفان (رضي الله عنه): «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» وفي رواية في صحيح البخاري: «**إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه**»[١] فهذه هي الطائفة الأولى من الطوائف الثلاثة التي شبهها النبي ﷺ ـ في هذا الحديث الصحيح المتفق عليه ـ بالأرض الطيبة القابلة للماء المنبتة للكلأ والعشب الكثير، فكذلك القلوب الطيبة تثمر فيها مواعظ القرآن الثمرات الكثيرة الطيبة، فترى صاحبها خائفاً من الله، طامعاً في فضل الله، مطيعاً لله، متباعداً عن معاصي الله، ممتثلاً جميع الأوامر، متباعداً عن انتهاك شيء من النواهي، فهذه الطائفة الأولى.

الطائفة الثانية: ضرب لها النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح المتفق عليه مثلًا بأنها كأنها أجادب ليس فيها مرعىً ولكن فيها مناقع تمسك الماء فيسيل الماء ويحبس فيها فتكون مجتمعة فيها مياه كثيرة، ثم هذه المياه ينفع الله بها خلقه: منهم من يأتي فيشرب، ومنهم من يسقي مواشيه من هذا الماء، ومنهم من يسلطه على زروعه وبساتينه فينتفع بهذا الماء. وهذه الطائفة هي التي حفظت عن رسول الله ﷺ العلم الذي جاء به من القرآن والحديث الصحيح، ولم يكن عندهم من قوة الفهم ما يتفهمون في معانيه ويطلعون على أسراره وحكمه، فهم كهذا المستنقع الذي أمسك هذا الماء حتى انتفع به آخرون، فهم يحفظون ذلك العلم فيرويه عنهم فطاحل علماء يقفون على أسراره ويفهمون معانيه ويستنبطون منه، فكذلك هذا الماء الذي أمسكته هذه الأجادب لم يُنبت هو فيه نفسه، ولكن الله نفع به الناس حيث

(١) البخاري في فضائل القرآن. باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه. حديث رقم (٥٠٢٨)، (٩/٧٤)، وذكر اللفظ الآخر قبله برقم (٥٠٢٧).

شربوا منه وسقوا مواشيهم وزروعهم، كذلك هؤلاء يحفظون عن رسول الله ﷺ ما أنزل الله عليه، ولم تكن أفهامهم بالغة أفهام فطاحل العلماء، إلا أن العلماء يروونه عنهم رواية صحيحة ثابتة عنه ﷺ، فيتفهمون في معانيه، ويقفون على أسراره، ويستنبطون منه ويبينونه للناس. هذه الطائفة الثانية «ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[(١)] فترى بعض الأئمة العظام يروي حديثاً صحيحاً وبعض رواته ليس من أهل العلم، وليس من أهل الاستنباط والخوض في معاني الكتاب والسنة، فيحفظ عنه ذلك الفحل من فحول الأئمة ذلك الحديث مثلًا فيستنبط منه الأحكام، ويبين فيه الأسرار المشتملة عليه.

الطائفة الثالثة: هي التي ضرب لها مثلًا بالأرض السبخة التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً، وهذه مضروبة لقلوب الكفار والمنافقين، كلما تتابعت عليهم المواعظ وسمعوا آيات القرآن تتلىٰ وأُسمعوا مواعظه وزواجره كان يمر على قلوبهم من غير أن يستفيدوا شيئاً، كما أن تلك الأرض السبخة كلما تتابع عليها المطر لم تزدد إلا خبثاً، لم تمسك ماءً عذباً يُشرب منه، ولم تنبت للناس كلأً ولا عشباً. فقلوب هؤلاء لم تحفظ عن النبي ﷺ علماً يُروىٰ عنهم حتى ينتفع به غيرهم، ولم

---

(١) روى هذا الحديث جماعة من الصحابه منهم:

١ ـ زيد بن ثابت. عند الترمذي في العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع. حديث رقم (٢٦٥٦)، (٣٣/٥)، وابن ماجه في المقدمة، باب من بلغ علماً. حديث رقم (٢٣٠)، (٨٤/١)، وهو في صحيح الترمذي (٢١٣٩)، صحيح ابن ماجه (١٨٧)، السلسلة الصحيحة (٤٠٣).

٢ ـ ابن مسعود. عند الترمذي (في الموضع المتقدم من سننه) برقم (٢٦٥٧)، (٢٦٥٨)، (٣٤/٥)، وابن ماجه (في نفس الموضع المتقدم) برقم (٢٣٢)، (٨٥/١)، وهو في صحيح الترمذي برقم (٢١٤٠)، وصحيح ابن ماجه برقم (١٨٩)، المشكاة (٢٣٠).

٣ ـ جبير بن مطعم. عند ابن ماجه (الموضع المتقدم) برقم (٢٣١)، (٨٥/١)، وهو في صحيح ابن ماجه (١٨٨).

٤ ـ أنس بن مالك. عند ابن ماجه (الموضع السابق) برقم (٢٣٦)، (٨٦/١)، وهو في صحيح ابن ماجه برقم (١٩٣).

ينتفعوا بأنفسهم مما سمعوا منه ﷺ، فهم كالسباخ التي لا تمسك ماءً ولا تُنبت كلأً.

وهذا مثل عظيم ضربه الله، وجرت العادة أن الكتب السماوية تكثر فيها ضروب الأمثال؛ لأن المثل يُصيِّر المعقول كالمحسوس؛ ولذا قال الله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: آية ٢١] وبين أن الأمثال لا يفهمها عن الله إلا أهل العلم حيث قال في العنكبوت: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: آية ٤٣] وبين (جل وعلا) أنه لا يستحي أن يضرب مثلاً ما، كائناً ما كان، وأن الأمثال التي يضرب يهدي الله بها قوماً أراد هداهم، وتكون سبباً لضلال آخرين أراد الله إضلالهم، فهي من فتنة الله التي يُضل بها من يشاء ويهدي من يشاء، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ ثم قال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: آية ٢٦] هذه أمثال القرآن يهدي الله بها من يريد هداه، وما يضل بها إلا الفاسقين. ولما سمع الكفار أنَّ الله يضرب المثل بالكلب في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ﴾ [الأعراف: آية ١٧٦] ويضرب المثل بالحمار في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ﴾ [الجمعة: آية ٥] ويضرب المثل بالذباب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ [الحج: آية ٧٣] وسمعوه يضرب المثل بهذه الأشياء قالوا: الله أعظم وأكبر وأنزه من أن يذكر الحمار والكلب والذباب والعنكبوت! فهذا الكلام الذي فيه هذه الحقيرات ليس من كلام الله؛ لأن الله أعظم من هذا. فبين الله أنه يضرب الأمثال ويبين العلوم العظيمة الجليلة في ضرب الأمثال في أمور حقيرة؛ ولذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ﴾ فترى الذباب من أحقر الأشياء ولكن المثل المضروب فيه من أعظم العلوم؛ يبين للناس أن المعبودات من دون الله بالغة من التفاهة وعدم الفائدة ما يجعلها لا تقدر

على خلق ذباب، ولو تسلط الذباب عليها فانتزع منها شيئاً ما قدرت على أن تنتصف منه. وهذا من التحقير والتصغير للمعبود من دون الله يقتضي علماً عظيماً له قدره ومكانته، وهو إفراد الله بالعبادة، وإدراك أن ما سواه لا يغني شيئاً. وكذلك ضربه المثل في العنكبوت؛ لأنه يبين أن بيت العنكبوت الذي تنسجه من خيوط ريقها لا يغني شيئاً عن أحد، فكذلك المعبودات من دون الله. فالشيء في نفسه حقير والعلم المبين في ضرب المثل فيه علم عظيم كريم له مكانته وقدره؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا﴾.

وبهذه الآيات وهذه الأمثال التي ذكرنا يجب على المسلم أن يخاف من سخط الله وأن يكون قلبه كالأرض السبخة التي لا تنتفع بمواعظ القرآن ولا بزواجره، ويسأل الله أن يجعل أرض قلبه طيبة قابلة لمواعظ القرآن وزواجره وأوامره ونواهيه؛ فإن من كانت أرض قلبه طيبة انتفع بمواعظ هذا القرآن، ونفعته أوامره فامتثلها، وزواجره فاجتنبها، وأمثاله فاعتبر بها، وقصصه فاعتبر بها. فعلينا جميعاً أن نسأل الله أن لا يجعل قلوبنا كالأرض السبخة التي لا تنتفع بما ينزل عليها من أمطار الوحي، وأن يجعل أرض قلوبنا كالأرض الطيبة القابلة للإثمار وإنبات العشب والكلأ الكثير والتأثر بآيات الله (جل وعلا) لتثمر الخير كله من الإيمان بالله وطاعته وامتثال أمره واجتناب نهيه. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ [الأعراف: آية ٥٨].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ التصريف. التصريف: قلب الشيء من حال إلى حال. والله يبين لنا المواعظ موعظة بعد موعظة، والآيات آية بعد آية في أسلوب بعد أسلوب. كذلك التصريف الذي صرفنا لكم فيه هذه الآيات، وبينا لكم ما يلزم، وبينا لكم عظم قدرتنا، وأدلة ربوبيتنا وألوهيتنا، وضربنا لكم الأمثال في من ينفع فيه ذلك ومن لا ينفع فيه، كذلك التصريف الموضح للآيات جملة بعد جملة، وآية بعد آية، كذلك التصريف ﴿نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ نأتي بها على أنحاء مختلفة، في أساليب مختلفة لعل الله يهدي بذلك من يشاء.

وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: آية ٥٨] خص القوم الذين يشكرون لأنهم هم المنتفعون بالآيات. كقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: آية ٤٥] لأن من يخاف الوعيد هو المنتفع به، كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: آية ٤٥] ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: آية ١١] ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [فاطر: آية ١٨] وما جرى مجرى ذلك[١].

وقد بينا في هذه الدروس مراراً[٢] أن لفظة (القوم) أنه اسم جمع لا واحد له من لفظه، وأنه يطلق على خصوص الذكور بالوضع العربي، وربما دخلت فيه الإناث بحكم التبع، وبينا أن الدليل على اختصاص لفظ (القوم) بالذكور قوله تعالى في الحجرات: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: آية ١١] ثم عطف النساء على القوم فقال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: آية ١١] فدل على عدم دخول النساء في القوم بحسب الوضع العربي، ودل عليه أيضاً قول زهير بن أبي سلمى[٣]:

وما أدري وسوفَ إخالُ أَدْرِي أَقَومٌ آل حِصْنٍ أمْ نساءُ

فعطف النساء على القوم، فدل على أنهن غير داخلات في اسم القوم وضعاً؛ لأن الأصل عدم التكرار، وعدم عطف الشيء على ما هو أعم منه أو أخص إلا بدليل. والدليل على دخول الإناث في القوم بحكم التبع قوله تعالى في بلقيس: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل: آية ٤٣] فصرح بأنها من قوم كافرين. أدخلها في اسم القوم تبعاً.

وقوله: ﴿يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: آية ٥٨] مفعوله محذوف، أي: يشكرون لله نعمه. وهذه الآية تبين أن من أعظم إنعام الله هو هذا القرآن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من هذه السورة.
(٣) السابق.

العظيم وتصريف الآيات فيه وبيانها للناس؛ لأن أعظم النعم هو إنزال هذا القرآن العظيم وبيان ما فيه من الآيات مما يرضي الله، ومما يستجلب المعاطب والمخاوف، ومما يستجلب السلامة؛ ولذا بين الله أن إنزاله فضل كبير على الخلق لما قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وقسمهم فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وبين أن إنزال القرآن العظيم أكبر فضل، قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: آية ٣٢] أي: الفضل الكبير من الله عليهم حيث أنزل لهم كتابه يُتلىٰ، محفوظاً، يبين لهم ما يقربهم إلى ربهم، وما يبعدهم من النار، وما يهذب نفوسهم ويربي أرواحهم، ويرفع أخلاقهم، ويبين لهم مكارم الأخلاق، إلى غير ذلك؛ ولذا قال هنا: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ فبين أن تفصيل الآيات وإيضاحها في هذا القرآن نعمة عظمىٰ من الله يستحق أن يشكر عليها؛ ولذا عَلَّم خلقه أن يحمدوه على هذه النعمة العظمىٰ التي هي إنزال القرآن، قال في أول الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ①﴾ [الكهف: آية ١] فقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تعليم من الله لخلقه أن يحمدوه أعظم الحمد على هذه النعمة العظمى الكبرىٰ التي هي إنزال هذا القرآن العظيم، وأشار لذلك بقوله هنا: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

وقد بينا في هذه الدروس مراراً[١] أن أصل الشكر في لغة العرب ربما يراد به: الظهور؛ ولذا تسمي العرب الغصن الذي ينبت في الجذع الذي كان مقطوعاً تسميه (شكيراً) لأنه ظهر بعد أن لم يكن هناك شيء ظاهر/ ١٠/ب
وتقول العرب: ناقة شكور. إذا كان يظهر عليها آثار السمن. والمراد به في اللغة: أن يكون أثر نعم الله ظاهراً على عبده، فلا يجحده ولا يكفر به، ولا يجحد نعمه، ولا يستعين بها على ما لا يرضيه.

وقد بينا أن القرآن جاء فيه شكر الرب لعبده وشكر العبد لربه[٢]. جاء

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

شكر الرب لعبده في قوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: آية ١٥٨] ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: آية ٣٤] وشكر العبد لربه كقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: آية ١٤] وقوله هنا: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: آية ١٥٢] وبينا أن بعض العلماء يقول: إن شكر الرب لعبده هو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل. وشكر العبد لربه: هو أن يستعمل نعمه في مرضاة ربه، فنعمة العين: أن لا ينظر بها إلا فيما يرضي مَنْ خلقها وامتن بها، وشكر نعمة اليد أن لا يبطش بها إلا فيما يرضي مَنْ خلقها وامتنَّ بها، وشكر نعمة الرجل: أن لا يمشي بها إلا إلى ما يرضي من خلقها وامتن بها، وشكر المال: أن لا يستعين به ويصرفه إلا فيما يرضي من خلقه وامتن به، وهكذا. وبينا أن العبد الذي يستعين بنعم الله على معاصي الله أنه بالغ من اللؤم والوقاحة شيئاً لا يقادر قدره، فمن أعظم الناس لؤماً، وأشدهم وقاحة، وأقلهم حياء هو من يستعمل نعم خالق السماوات والأرض التي أنعمها عليه يستعملها ويستخدمها في معصيته وفيما يسخطه. فهذا الإنسان ليس في وجهه ماءٌ يستحي به، فهو من أقل الناس حياءً وألأمهم وأخسهم، وكيف يجمل بعبد مسكين ضعيف أن ينعم عليه خالق السماوات والأرض نعمه الكثيرة بفضله ورحمته ثم يستعين بنعم خالقه على معصية خالقه وما يسخط خالقه، فهذا أقبح اللؤم وأخسه، وصاحبه أقل الناس حياءً وأشدهم وقاحة.

وبينا أن[1] مادة (شكر) في لغة العرب أنها تتعدىٰ إلى النعمة بنفسها بدون حرف الجر. تقول: شكرت نعمة الله. وهذا أمر لا خلاف فيه. ومنه قوله: ﴿أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ [النمل: آية ١٩] فإذا كان الشكر شكر نعمة تعدى إليه الفعل بنفسه بلا خلاف. أما شكر المنعم فاللغة الفصحىٰ التي نزل به القرآن أن يُعدى الشكر إلى المنعم باللام فتقول: «شكراً لك». وتقول: «أنا أشكر لك» ولا تقول: «أنا أشكرك». وتقول: «نحمد الله ونشكر له» ولا تقول: «ونشكره». وهذه هي اللغة الفصحىٰ،

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

تعديته باللام هي اللغة الفصحىٰ التي لا شك في أنها أفصح، وهي لغة القرآن؛ لأنه ما جاء في القرآن معدىً إلى المنعم إلا باللام، كقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي﴾ [لقمان: آية ١٤] ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: آية ١٥٢] ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: آية ١٤] ولم يقل في آية واحدة: اشكرني. بتعدية الفعل إلى المفعول دون اللام. ومن هنا شذ قوم من علماء العربية فقالوا: (أحمده وأشكره) لحن، ولا يجوز (وأشكره) وإنما يجوز: (وأشكر له) ولكنهم غلطوا؛ لأن اللغة الفصحى هي (وأشكر له) ولكن (وأشكره) بتعدية الفعل إلى المنعم بلا واسطة حرف جر لغة معروفة مسموعة في كلام العرب، وقد بينا فيما مضى شواهدها. ومن شواهدها قول أبي نخيلة[1]:

شكرتُكَ إن الشكر حبلٌ من التُّقَى ... وما كل من أوليتَه نعمةً يقضي

فهذا الشاعر الفصيح. قال: «شكرتك» بالكاف ولم يقل: «شكرت لك» ومنه قول جميل بن معمر في شعره المشهور[2]:

خَليلَي عوُجَا اليومَ حتى تُسَلِّما ... على عَذْبة الأنيابِ طيبَة النشرِ
فإنكما إنْ عُجْتما لي سَاعَةً ... شكرتُكُما حتى أُغيَّبَ في قبري

فقال: «شكرتكما» ولم يقل: «شكرت لكما» فتبين من هذا أن مادة (شكر) تتعدىٰ إلى النعمة مفعولًا بنفسها، وإلى المنعم باللام في اللغة الفصحىٰ، وربما تعدت إلى المنعم بنفسها بدون حرف جر. وهذا معنى قوله: ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٨].

والتفصيل ضد الإجمال[3]، أي: نأتي بها مفصلة مفصلة، آية بعد آية، وموعظة بعد موعظة، في أسلوب بعد أسلوب.

﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نِعَمَنا في ذلك البيان؛ لأن بيان الله فيما ينفع وما

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.
(٢) السابق.
(٣) قرأ الشيخ (رحمه الله) الآية: (نفصل) وهي: (نصرف) ثم فسرها بناء ذلك.

يضر من أعظم مننه ونعمه على خلقه. وهذا معنى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: آية ٥٩] قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا الكسائي: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ وقرأ الكسائي من السبعة: ﴿ما لكم من إلهٍ غيْرِهِ﴾[(١)].

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿إنيَ أخاف عليكم﴾ بفتح ياء المتكلم. وقرأ الباقون: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ بإسكان الياء[(٢)]. والجميع لغة.

أما قراءة الكسائي: ﴿ما لكم من إله غيْرِه﴾ فـ (غيْرِه) نعت للإله وهو مجرور بـ (من). وأما على قراءة الجمهور: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فالنعت راجع للمحل؛ لأن الأصل: (ما لكم إله غيره) فَجُرَّ المبتدأ بـ (من) لتوكيد النفي، فهو مخفوض لفظاً مرفوع محلًا، والتابع للمخفوض لفظاً المرفوع محلًا يجوز رفعه نظراً إلى المحل، وخفضه نظراً إلى اللفظ كما هو معروف في علم العربية[(٣)].

واللام في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ هي جواب قسم محذوف: والله لقد أرسلنا. وهذه اللام الموطئة للقسم إذا جاءت مع الفعل الماضي لا تكاد العرب تجردها من (قد)، تأتي معها بـ (قد) التحقيقية دائماً، حتى زعم بعض العلماء أن (قد) واجبة معها إن كانت بعد اللام الموطئة للقسم قبل فعل ماض. والتحقيق أنه لغة فصحىٰ كثيرة ربما نطقت العرب بغيرها فجاءت

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٠.

(٢) المصدر السابق ص٢١٩، الإتحاف (٥٣/٢).

(٣) انظر: حجة القراءات ص٢٨٦، الإتحاف (٥٢/٢).

باللام والماضي دون (قد)، وهو مسموع في كلام العرب، ومنه قول امرىء القيس[١]:

حلفتُ لها بالله حَلفَةَ فاجرٍ لناموا فما إن من حديثٍ ولا صَالي

ولم يقل: لقد ناموا.

والله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ﴿نُوحًا﴾ هو نبي الله نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام. والمؤرخون يقولون: إنه ابن لمك بن متوشَلَخ بن خنوخ، ويزعمون أن خنوخ هو إدريس، وأن نوحاً من ذرية إدريس. هكذا ذكره غير واحد من المفسرين[٢]. وأن إدريس قبل نوح، وجاء في بعض روايات حديث الإسراء ما يدل على أن نوحاً ليس من ذرية إدريس، لأنه إذا سلم على أجداده كإبراهيم ونوح ومن جرىٰ مجراهم يقولون: مرحباً بالنبي الصالح والابن الكريم. وإدريس لم يقل مرحباً بالنبي الصالح والابن، وإنما قال: والأخ. كما جاء في بعض روايات حديث المعراج[٣] كما هو معروف، وأكثر المؤرخين على هذا.

ونوح هو أول نبي بعثه الله في الأرض بعد أن صار الكفر في الأرض، وعُبدت فيها الأصنام، وعُبد فيها غير الله. فأول رسول أُرسل بمنع عبادة الأصنام وتوحيد الله بعبادته هو نبي الله نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقد ثبت في أحاديث الشفاعة التي تكاد أن تكون متواترة أن آدم يقول لهم: اذهبوا إلى نوح فإنه أول نبي بعثه الله في الأرض[٤]. وذكر المؤرخون وأصحاب الأخبار أن بين نوح وآدم عشرة قرون كلها كانت على دين الإسلام، وكان في قوم نوح رجال صالحون من أفاضل الناس في العبادة والزهد وطاعة الله، وهم: وَدّ، ويغوث، ونَسْر، ويعوق[٥]، فلما

---

(١) البيت في ديوانه ص١٢٥، و «الصالي»: المستدفىء بالنار.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٨٤) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٦١) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٥) لم يذكر سواعا.

ماتوا صَوَّر قومهم صورهم وبنوا عليهم مساجد، وصاروا إذا نظروا إلى صور أولئك الصالحين بكوا بكاءً شديداً ونشطوا في العبادة لما يعلمون من صلاح أولئك القوم وما كانوا عليه من العبادة، فتطاول بهم الزمان حتى مات أهل العلم وبقي الجهال فجاءهم الشيطان فقال لهم: إنما كانوا يعبدون هؤلاء ويُسقون بها. فعبدوهم، وذلك أول كفر وقع في الأرض.

وعُلم بذلك أن أول كفر وقع في الأرض إنما جاء عن طريق التصوير، فكثير من الناس الذين لا يفهمون يقولون: هؤلاء المنتسبون للعلم يشددون النكير في التصاوير ويحرمون التصوير، والتصوير ليس فيه جناية على مال، ولا على نفس، ولا على عرض، فأي ذنب عظيم في التصوير، وأي بأس فيه؟ ويظنون لجهلهم أن أمره خفيف.

والتصوير له أثره البالغ في إفساد الدنيا وإفساد الدين أولًا وآخراً، أما أولًا: فالتصوير هو سبب أول كفر وقع في الأرض تحت السماء، أوله تصوير صور أُولئك القوم الصالحين الذين صوروهم بقصد حسن، وكانوا إذا رأوا صورهم بكوا وأنابوا إلى الله، وجَدُّوا في العبادة بما كانوا يعلمون من صلاح أولئك القوم الذين صوروا صورهم، ثم تطاول بهم الزمان إلى أن كانت تلك الصور أوثاناً تعبد من دون الله؛ ولذا عارضوا نبي الله نوحاً في عبادتهم أشد المعارضة ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [نوح: الآيتان ٢٣، ٢٤] فعُلم أن التصوير كان أول جناية شركية وقعت في الدنيا. وهذا الأثر السيء التاريخي يدل على عظم شره قبحه الله.

وكذلك في الآخِر كان من أعظم الأسباب التي ضيعت أخلاق المسلمين وذهبت بعقولهم ومكارمهم؛ لأن الذين يريدون ضياع الإسلام يسعون كل السعي في أن يُصوروا النساء عاريات الفروج، ويطبعون صورها في الصحف والمجلات، ويرسلونها لأقطار الدنيا. فإذا رأى الشاب الغِرُّ المسكين صورة فرج الخبيثة بادياً تحركت غريزته، وقامت شهوته، وسافر إلى البلاد التي تمكنه فيها الحرية وإشباع رغبته الغريزية التي لم يقيدها تقوىٰ، ولم يزمها إيمان ولا ورع ولا مروءة. فصار التصوير في الأحوال الراهنة له أيضاً أثره البالغ في ضياع الأخلاق، وانتشار الرذيلة، والقضاء

على مكارم الأخلاق ـ قبحه الله ـ ويكفيه أن الله (جل وعلا) له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، ومن أسمائه العظيمة التي تحتها غرائب وعجائب تفتت الأكباد: اسمه (المصور) جل وعلا، فهو جل وعلا من أسمائه الأزلية التي سمى بها نفسه (المصور) واسمه (المصور) تحته من غرائب صنعه وعجائب قدرته ما يبهر العقول لمن كان له عقل أو ألقىٰ السمع وهو شهيد، ومما يوضح عظمة هذا الاسم وما يشير إليه من كمال قدرة الله وعظم علمه وإحاطته بكل شيء أن ينظر الواحد منكم إلى الحجيج يوم جمرة العقبة فيجد الناس بهذه الكثرة العظيمة مع اختلاف ألوانهم وأشكالهم وبلادهم وهيئاتهم، ويجد الجميع مصبوبين صبة واحدة، الأنف موضوع في محله، والعينان في محلهما، والأذنان في محلهما، والفم في محله، وكل عضو موضوع في موضعه من الجميع. والله يصور كل واحد منهم صورة مستقلة يطبعه عليها بعلمه وقدرته لا يشاركه فيها أحد ألبتة، فلا يشتبه منهم اثنان، وكل صورة طُبع عليها واحد منهم فهي كانت في علمه الأزلي قبل أن يقع ذلك الإنسان، فلما وقع وقع مصوراً بالصورة التي كانت مهيأة له في العلم السابق، ولو جاء ملايين أضعاف الحصىٰ من البشر لم يضق علم الله عن أن يخترع لكل واحد منهم صورة تخصه لا يشاركه فيه غيره، حتى إن أصواتهم لم تتشابه، وآثارهم في الأرض لا يختلط بعضها ببعض، وبصمات أصابعهم في الأوراق لا يشابه بعضها بعضاً عند من يعرف ذلك، فالله سمى نفسه (المصور) لما تحته من هذه الأسرار العظام والعجائب والغرائب التي تبهر العقول، فيأتي هذا الإنسان الضعيف المسكين لينزل نفسه منزلة العظيم الجبار المصور ويفعل كفعله؛ ولذا جاء عن النبي ﷺ في تشديد عذاب المصورين في الأحاديث الصحيحة أنهم أشد الناس عذاباً، وأن ما صوروه في الدنيا يؤمرون بأن يحيوه ويعذبون عليه عذاباً شديداً.

والحاصل أن التصوير هو سبب أول شرك وقع في الدنيا، وله أثره الفعّال الآن في فساد الأخلاق، وضياع شباب المجتمع كما هو معروف؛ لأن من أعظم أسباب الفساد وتغيير فطر شباب المسلمين أن يروا في أوراق

الصحائف والمجلات فروج النساء ـ صورها ـ عاريات، فإذا رأى صورة المرأة على هيئتها متجردة من كل شيء، بادية الفرج، فلا شك أن الشباب الذي ليس عقله مزموماً بإيمان كامل، وورع ومروءة تامة أن ذلك يُحرك غريزته ويهيج طبيعته، فتراهم كثيراً يسافرون باسم العلاج، وباسم كذا وكذا من الأعذار الكاذبة، وإنما مقصدهم في الحقيقة هو أن يُشبعوا رغباتهم الغريزية مما عاينوا منتشراً من الفساد في قعر بلادهم نعوذ بالله من ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: آية ٥٩].

ذكر بعض العلماء أن قوم نوح كانوا خلقاً كثيراً منتشرين في أقطار الدنيا. وبعضهم يقول: إنهم كانوا في بعض الأرض دون بعضها. ولم يقم دليل صحيح على عددهم وكثرتهم، وهل كانوا يشغلون جميع نواحي المعمورة أو بعضاً منها؟ ولم يأت مَن هم. والله في القرآن لم يسمهم إلا بقوم نوح. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ يعني: بعد أن عبدوا الأصنام، وعبدوا صور أولئك الصالحين: وَدّاً ويغوثَ ويعوقَ ونسراً، وبعد أن فعلوا ذلك أرسل الله إليهم نبيه نوحاً ليتركوا عبادة الأصنام ويعبدوا الله وحده، فقال لهم نوح: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] حذف ياء المتكلم، والأصل: (يا قومي) والمنادى المضاف إلى ياء المتكلم أصله فيه الخمس اللغات المعروفة[١] منها حذف ياء المتكلم.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] أصل العبادة في لغة العرب[٢]: الذل والخضوع، فكل خاضع ذليل تسميه (عابداً) وكل ما خُضّع وذُلل فقد عُبِّد، ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته[٣]:

تُباري عِتاقَ النَّاجِيَاتِ وأَتبعتْ ... وظيفاً وظيفاً فوق مَوْرٍ مُعَبَّدِ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) انظر: المفردات (مادة: عبد) ص٥٤٢.

(٣) شرح القصائد المشهورات (١/٦٠).

وقوله: «تباري» أي: تعارض. والعتاق: الكرام. والناجيات: السريعات. والوظيف: عظم الساق. والمور: الطريق. والمعبد: المذلل.

أي: فوق طريق مذلل بأقدام المشاة. وهذا معروف في كلام العرب.

والعبادة في اصطلاح الشرع[١]: هي التقرب إلى الله (جل وعلا) وإفراده بذلك التقرب والعبادة في جميع ما أمر أن يتقرب إليه به على سبيل الذل والخضوع والمحبة، فلا يكفي الذل والخضوع دون المحبة، ولا تكفي المحبة دون الذل والخضوع، فلا بد من الجمع بين الأمرين. فإن كان الذل والخضوع دون محبة فالذليل الخاضع قد يكون مبغضاً كارهاً لمن أذله وأخضعه، ومن أبغض ربه وكرهه فهو في دركات النار. والمحبة وحدها إذا لم يكن معها خوف قد يتجرأ صاحبها ويكون ذا دلال فيتجرأ على المقام الأقدس بما لا ينبغي. فلا بد أن تكون هناك محبة، وأن يكون هناك خوف وذل وخضوع لله. وضابطها: هي التقرب إلى الله بما أمر أن يُتقرب إليه به بإخلاص، على النحو الذي شرع، فلا يرضى الله أن يعبد بغير ما شرع. فلا بد أن تكون بما شرع مطابقة للشرع، مُخْلَصاً فيها لله وحده (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] ليس لكم من إله غيره.

قوله هنا: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] أصله مبتدأ زيدت قبله (من) والمقرر في فن الأصول: أن النكرة في سياق النفي ظاهرة في العموم، أما إذا دخلت عليها (من) المزيدة لتوكيد النفي فإنها تنقلها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم[٢]. فلو قيل: «ما لكم إلهٌ غيره» كان ظاهراً في العموم. فإن قيل: «ما لكم من إله غيره». كان نصاً صريحاً في العموم، وقد تزاد (من) قبل النكرة في سياق النفي لتنقله من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم، تطَّرد زيادتها هكذا بهذا المعنى في اللغة العربية في ثلاثة مواضع لا رابع لها[٣]:

الأول: أن تُزاد قبل المبتدأ كما هنا، كقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ أصله: (ما لكم إلهٌ غيره).

---

(١) انظر: الكليات ص٥٨٣.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

الثاني: أن تزاد قبل الفاعل، نحو: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ﴾ [المائدة: آية ١٩] الأصل: (ما جاءنا بشير) فالمجرور بها فاعل أصلاً.

الثالث: أن تزاد قبل المفعول به، نحو: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ [الأنبياء: آية ٢٥] الأصل: (وما أرسلنا من قبلك رسولاً).

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] على قراءة الجمهور فـ ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ نعت لمحل الإله؛ لأن أصله مرفوع. وعلى قراءة الكسائي فهو نعت للفظ الإله؛ لأنه مجرور بـ (من)[1] وقد قدمنا أن (الإله). (فِعَال) بمعنى (مفعول) أي: معبود، فالإلهة في اللغة: العبادة. والإله: المعبود. وفي قراءة ابن عباس: (ويذرك وإلاهتك) أي: وعبادتك. فالإله معناه المعبود الذي يعبده خلقه بذُل وخضوع ومحبة إليه (جل وعلا). وقد قدمنا أن إتيان (الفِعَال) بمعنى (المفعول) مسموع في اللغة وليس بمطرد، ومنه: (إله) بمعنىٰ: مألوه، و(كتاب) بمعنىٰ: مكتوب، و(لباس) بمعنى: ملبوس، و(إمام) بمعنى: مؤتم به، في أوزان معروفة، وهذا معنى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[2].

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن لم تفردوا ربكم بالعبادة وتخلصوا له بالعبادة وتتركوا عبادة الأوثان ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن متم على ذلك ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو [يوم القيامة، يعنى][3] أن من مات يعبد غير الله لقيه العذاب العظيم. والعظيم هنا نعت لليوم، خلافاً لمن زعم أنه نعت للعذاب جُرَّ بالمجاورة؛ لأن من عادة العرب أن تنوه بالأيام وتُشنّعها مع أنها ظروف وأزمان نظراً لما يقع فيها. يقولون: يوم ذو كواكب، يوم أشنع، يوم عصيب. ومنه قول نبي الله لوط: ﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: آية ٧٧] ونظيره قول الشاعر[4]:

وكُنتُ لِزَازَ خَصْمِكَ لَمْ أُعَرِّدْ ... وقَدْ سَلَكُوكَ فِي يَومٍ عَصِيبِ

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٠، حجة القراءات ص٢٨٦.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.
(٣) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
(٤) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: آية ١٧] فاليوم[١] تذكره العرب وتُهوِّل شأنه نظراً لما يقع فيه، أما نفس اليوم في حد ذاته فهو ظرف من الظروف، وإنما المراد تهويله بما يقع فيه. وهذا معنى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] والآية لها صورتان: إن كان مقصوده أنه يخاف عليهم عذاب يوم عظيم في دار الدنيا وقت طمعه في إيمانهم فلا إشكال في الآية. ومعنى خوفه عليهم: أنه يخاف ألا يتوبوا فيموتوا كافرين. فيكون الخوف في موقعه، وهو أنهم في دار الدنيا يحتمل أن يؤمنوا فلا يُعذبوا، ويُخاف أن يتمادوا على الكفر حتى يموتوا فيعذبوا. فيكون الخوف في موقعه. وعلى قول من يقول: أخاف عليكم العذاب إن متم على الكفر فيتعين أن تُحمل (أخاف) بمعنى أعلم؛ لأن نوحاً عالم كل العلم بأنهم إن ماتوا كفاراً عُذِّبوا عذاباً عظيماً لا شك فيه. والعرب تطلق الخوف وتريد به العلم كما هو معروف في لغتها. وقال بعض العلماء: منه قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: آية ٢٢٩] قالوا: معناه: إلا أن يعلما ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾: فإن علمتم. وقد ذكرنا مراراً أن من شواهد إتيان الخوف بمعنى العلم قول أبي محجن الثقفي في أبياته المشهورة[٢]:

إذا مِتُّ فادفني إلى جنب كَرْمةٍ تُروِّي عظامي بالمماتِ عُروقُها
ولا تدفنني بالفَلاةِ فإنني أخافُ إذا ما متُّ ألا أذوقها

وهو يعلم علماً يقيناً أنه إذا مات ليس شارباً للخمر بعد موته كما لا يخفىٰ. وهذا معنى قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

فأجابه قومه شر جواب وأخسه وأقبحه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: آية ٦٠] الملأ: أشراف الجماعة وذكورها الذين ليس فيهم امرأة. قيل سُموا (ملأ) لأنهم يملؤون صدور المجالس بقامتهم الوافية، أو يملؤون صدور الناظر لأبهتهم وجمالهم، أو أنهم يتمالؤون على العقد والحل

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

فيتفقون عليه. أي: قال أشراف جماعته ورؤساؤهم وأهل الحل والعقد منهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ لنعتقدك يا نوح ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: آية ٦٠] أي: في ذهاب عن طريق الحق بَيِّن واضح حيث جئتنا لتصرفنا عما كان يعبد آباؤنا، فهذا التوحيد الذي جئتنا به وإفراد الله بالعبادة نراك في ضلال وذهاب عن الحق مبين واضح.

وقد قدمنا[١] أن (المُبِيْن) هو اسم فاعل (أبان) وأن العرب تستعمله استعمالين كلاهما في القرآن. تقول العرب: أبان الأمر يبين. من (أبان) اللازمة. فهو بيِّن ومُبِينْ. وعلى هذا فالمُبِيْن صفة مشبهة من (أبان) اللازمة بمعنى (بيِّن) وعليه: في ضلال بَيِّن. أي: واضح لا إشكال فيه. وهذا المعنى كثير في كلام العرب - إطلاق (أبان) لازمة - ومنه قول كعب بن زهير[٢]:

قَنْوَاءُ في حُرَّتَيْها للبصيرِ بها عتقٌ مبينٌ وفي الخدينِ تسهيلُ

قوله: «عتق مبين» أي: كرم ظاهر. ومن (أبان) لازمة بمعنى: (بان) قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي[٣]:

لو دَبَّ ذرٌ فوقَ ضاحي جلدهَا لأبانَ من آثارهنَّ حُدورُ

يعني: لظهر من آثار النمل على جلدها ورم لرقة بشرتها. ومنه قول جرير[٤]:

إذا آباؤُنا وأبوكَ عُدُّوا أَبانَ المُقْرِفَاتِ من العِرابِ

أي: ظهر المقرفات من العراب.

الوجه الثاني: تستعمل (أبان) اسم فاعل (أبان) المتعدية، أبانه يبينه.

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

فاسم الفاعل (مبين) واسم المفعول (مُبان) كما هو معروف. والظاهر أن هذه هنا من اللازمة.

ومعنى: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي: في ضلال بيِّن واضح، من (أبان) اللازمة.

قال نوح مجيباً لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ [الأعراف: آية ٦١] هم قالوا: إنه في ضلال كثير. وهو نفى أن تكون معه ضلالةٌ فردٌ واحد، وإذا انتفى عنه فرد واحد من أفراد الضلالة فانتفاء غيره أنفى وأنفى ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ ولا حيدودة عن طريق الحق، بل أنا على حق وعلى طريق مستقيم، ولكني غير ضال.

﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: آية ٦١] أرسلت إليكم من خالق السماوات والأرض وما بينهما ومدبر شؤون الجميع. وقد بين في الشعراء أن (العالمين) يشمل السماء والأرض ومن فيهما وما بينهما في قوله: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤﴾ [الشعراء: الآيتان ٢٣، ٢٤].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ﴾ قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا أبا عمرو: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ [الأعراف: آية ٦٢] بفتح الباء وتشديد اللام. وقرأه أبو عمرو وحده: ﴿أُبلِغكم رسالات ربي﴾[1] الأولى: من التبليغ، والثانية من الإبلاغ[2]. وسمى رسالاته رسالات؛ لأنها في نواح متعددة[3].

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٠.

(٢) انظر: حجة القراءات ص٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٣) في هذا الموضع وقع للشيخ (رحمه الله) وَهْم حيث ظن أنه تكلم على الآية رقم (٦٨) والتي فيها قول نبي الله هود (عليه الصلاة والسلام)؛ ولذا قال (رحمه الله) هنا: «﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ هذا قول نبي الله نوح، والذي فسرنا الآن قول نبي الله هود كما سيأتي في قصته» ا.هـ. والواقع أن كلام الشيخ (رحمه الله) في تفسير الآية على وجهه لم يقع فيه وَهْم في الحقيقة؛ ولذا لم نثبت استدراك الشيخ (رحمه الله) في الأصل وإنما اكتفينا بالتنبيه على ذلك في الحاشية. وانظر ما ذكره عند تفسير الآية (٦٥) من هذه السورة.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ العرب تقول: نصحه ونصح له، و(نصح له) أكثر. ومعناه: ﴿أَنصَحَ لَكُمْ﴾ أبغي لكم النصيحة خالصة من شوائب الغش جميعه، بل إنما أعطيكم النصيحة صافية خالصة من شائبة الغش، أدعوكم إلى الله ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: آية ٦٢] أعلم من ربي ما لا تعلمونه، ومن جملة ذلك أنكم إن عصيتموني، ومتم على كفركم أنكم تلقون العذاب العظيم والإهانة الكبرى والخلود في دركات النار، وأنكم إن أطعتموني دخلتم الجنة وخلدتم في نعيم الله، وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: بوحي من الله جل وعلا.

١١/أ / قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ٦٣ ـ ٦٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ٦٣، ٦٤].

هذا مما قص الله علينا من قصص أنبيائه مع أممهم. لما قال نوح لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] وردوا عليه ذلك الرد القبيح الشنيع، وقالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: آية ٦٠] وقابل سفاهتهم وجهلهم وقبح ردهم بالكلام اللطيف، والجواب الكريم الخالي من بذاءة اللسان، اللين كما هي عادة الرسل في مخاطباتهم مع الكفرة الجهلة: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ٦١، ٦٢] قال أيضاً لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٦٣] أجرى الله العادة بأن الأمم إذا بُعث فيهم

رسل منهم يقولون: لو كان الله مرسلاً رسولاً لما جعله بشراً يأكل الطعام، ويشرب كما نشرب، ويروح إلى السوق ليقضي حاجته، ويتزوج، ويولد له! لو كان مرسِلاً رسولاً لأرسل الملائكة؛ لأن لهم هيبة ليست عند الآدميين، وعلامات تميزهم عن الآدميين. ويقولون للرسل: أنتم بشر مثلنا، تأكلون كما نأكل، وتشربون كما نشرب، وتذهبون إلى الأسواق لقضاء حاجاتكم كما نفعل، وتتزوجون كما نتزوج، ويولد لكم كما يولد لنا، فأنتم بشر مثلنا لا يمكن أن نكون لكم تبعاً، وأن تكونوا أفضل منا بحيث تكونون آمرين ناهين علينا!! هذه عادة أجراها الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: آية ٩٤] كيف يبعث الله بشراً يأكل ويشرب، ويذهب إلى السوق؟ وهذا كثير في القرآن[1] ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر: آية ٢٤] لا يمكن هذا ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ﴾ [التغابن: آية ٦] ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: آية ١٥] ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٣٣، ٣٤] فيعجبون من أن الله يبعث الرسل من البشر، ويستنكرون هذا الأمر. والرسل تبين لهم أن هذا لا عجب فيه؛ لأن الله ما أرسل إلى الأمم إلا رسلاً منهم، كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: آية ١٠٩] لم نرسل قبلُ ملائكة. وقال (جل وعلا) لما قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ﴾ [الفرقان: آية ٧] قال الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ﴾ [الفرقان: آية ٢٠] إلى غير ذلك. ومن هذا القبيل قال نبي الله نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٦٣] هذه الهمزة التي تأتي بعدها أداة عطف كالواو، والفاء، وثم، الأكثرون من علماء العربية على

(١) انظر: أضواء البيان (٢/٣٢٣).

أن الهمزة تتعلق بجملة محذوفة، وأن الواو إنما فُتحت لأنها عاطفة على الجملة المحذوفة الذي دل عليه المقام[١]. وهذا هو الوجه المختار من الوجهين، واعتمده ابن مالك في الخلاصة بقوله[٢]:

وحذف متبوعٍ بَدَا هُنَا اسْتَبِحْ ....

وتقدير المحذوف: أكفرتم وكذبتموني وعجبتم أيضاً من أن جاءكم ذكر من ربكم، أي: أكفرتم وعجبتم؟ إنكار لكفرهم، وإنكار لعجبهم المعطوف عليه؛ لأن كل هذا ليس محل استنكار.

والعَجَب معروف، وهو أن يستغرب الإنسان الشيء ويستبعده كأنه ليس من المألوف وجود نظيره ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ﴾ [الأعراف: آية ٦٣] أي: أكفرتم وعجبتم؟ أي: تعجبتم واستغربتم من ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؟ [الأعراف: آية ٦٣] أي: جاءكم ذكر. أي: موعظة. المراد بالذكر هنا: موعظة الله التي أنزلها على نبيه نوح من توحيد الله الخالص وعبادته وحده (جل وعلا)، والوعظ الذي يلين القلوب، والزجر عن عبادة غير الله، فهذا الذكر الذي جاءهم، (ذكر) أي: وعظ نازل من الله.

﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٦٣] على لسان رجل منكم بعثه الله فيكم نبياً، بعثه الله بهذا الوعظ لأجل أن ينذركم. وقد قدمنا أن[٣] (الإنذار) أنه الإعلام المقترن بتهديد خاصة. فكل [إنذار إعلام وليس كل إعلام إنذاراً][٤]، أي: لينذركم. أي ليخبركم برسالات الله، مبلغكم أوامره ونواهيه، مبيناً لكم أنكم إن لم تتقوه وتطيعوا رسوله أنكم ستلقون العذاب الأليم والنكال الشديد. وكون الإخبار مقترناً بهذا التهديد والتخويف من عذاب الله ونكاله هو معنى الإنذار. أي: (لينذركم) لأجل أن ينذركم، يخوفكم عقاب الله وشدة نكاله وبأسه إن تماديتم على كفركم.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

(٤) في الأصل: «فكل إعلام إنذار، وليس كل إنذار إعلاماً» وهو سبق لسان.

﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ [الأعراف: آية ٦٣] علة أخرى. أي: جاءكم ذكر من ربكم على لسان رجل منكم لأجل أن تتقوا الله وتجعلوا بينكم وبين سخطه وعذابه وقاية، هي امتثال أمر الله واجتناب نهي الله؛ ولأجل أن تُرحموا. (لعل) هنا الظاهر فيها أنها تعليلية؛ لأنها معطوفة على موضعين من لام كي؛ لأن قوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ﴾ كلتاهما لام كي، فعطف (لعل) عليهما يدل على أنها للتعليل. وقد قال بعض علماء التفسير[1]: كل (لعل) في القرآن ففيها معنى التعليل إلا التي في سورة الشعراء ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: آية ١٢٩] قالوا: هي بمعنى: كأنكم تخلدون. هكذا قالوا والله أعلم. ولا شك أن (لعل) تأتي في القرآن للتعليل، وكذلك تأتي في كلام العرب، فمن إتيانها في القرآن ظاهرة في التعليل واضحة فيه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: آية ٧٨] أي: أنعم عليكم بنعمة الأبصار والأفئدة لأجل أن تشكروا نعمه فتؤمنوا به. ومن إتيان (لعل) في كلام العرب بمعنى التعليل قول الشاعر[2]:

فقلتُم لنا كُفُّوا الحروبَ لعلنا نكفُّ ووثَّقْتُم لنا كل موثقِ

فقوله: (كفوا الحروب لعلنا) أي: كفوا الحروب لأجل أن نكف. وهذا معنى قوله: ﴿وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هذا الذكر الذي أنزله الله عليكم على لسان رجل منكم لا عجب فيه وإنما أنزل الله هذا الذي تعجبتم منه لصلاحكم، أولًا: لأجل أن تتقوا الله بإنذار هذا النبي الكريم الذي هو منكم، الثاني: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ يخوفكم عقاب الله، وتتقوا الله، ولأجل أن يرحمكم الله برحمته الواسعة إذا أقلعتم عن الكفر واتقيتم الله؛ لأن رحمة الله وسعت كل شيء، ولكن الله بَيَّن من يكتب لهم رحمته في قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: الآيتان ١٥٦، ١٥٧] هؤلاء هم الذين يكتب الله لهم رحمته؛ ولذا قال نبي الله نوح لقومه: لا تعجبوا فهذا ليس محل عجب، وهذا أمر لا يُعجب منه؛ لأن الله أنزل عليكم ذكراً على لسان رجل منكم ليخوفكم من الله، من عبادة غيره؛ ولأجل أن تتقوا ربكم بما يعلمكم ويبلغكم عن الله؛ ولأجل أن يرحمكم الله إن أنتم فعلتم ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ثم أعاد الكلام فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ لأنه ذكر أولًا أنهم كذبوه تكذيباً شنيعاً حيث قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: آية ٦٠] فلما أعاد عليهم الكلام، وبين لهم أن بعثه إليهم لا يُستعجب منه، وأنه لصلاحهم ليخوفهم من معاصي الله، وليتقوا الله فيرحمهم الله، عادوا إلى التكذيب. وقال الله هنا: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ عادوا إلى تكذيبهم الأول. والظاهر أنه قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ولم يذكر شناعة قولهم لأنهم تمادوا على مثل قولهم الأول من التكذيب ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ يعني لما كذبوه ـ في الكلام اختصار ـ صبر على أذاهم، ومكث تسعمائة وخمسين سنة وهو يدعوهم إلى الإسلام صابراً على ما يلقى منهم من الأذى، حتى إن ربه تعالى قنَّطه منهم وبين له أنه لا يؤمن منهم أحد أبداً كما قال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: آية ٣٦] فتيقن نوح أنه لم يبق يرجى منهم خير، وإنما فيهم الشر، وتعذيب نوح و إهانته بما ينال منهم من السوء، وأنهم كلهم شر لا يرجى منهم خير أبداً، ولا من نسلهم بعد أن مكث فيهم هذا الزمن الطويل الذي بينه الله في العنكبوت في قوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: آية ١٤] لما أعلمه الله أنهم لا يُرجى لهم صلاح، ولا يُرجى لهم خير، وأنه لا يؤمن منهم ولا من ذرياتهم أحد، لما حصل هذا اليأس عند ذلك دعا عليهم في قوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: آية ٢٦] دياراً: أي: داخل دار، أو عامر بيت، فأَهْلِكْهم كلهم. ثم قال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: آية ٢٧]

وإنما قال نوح: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ لأن ربه أخبره بأنهم لا يؤمن منهم أحد في قوله في سورة هود: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: آية ٣٦] فلما دعا عليهم نوح وبين الله دعاءه عليهم في آيات كثيرة: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: آية ١٠] ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ [الأنبياء: الآيتان ٧٦، ٧٧].

لما مكث فيهم هذا الزمن الطويل وهم يكذبونه ويؤذونه، وكانت امرأته خبيثة تدلهم على من أسلم من القليلين الذين أسلموا معه فيعذبوهم ويهينونهم أهلكها الله معهم، وصارت مع الكافرين، ودخلت النار والعياذ بالله، وضربها الله مثلًا مع امرأة لوط لمن يكون في صحبة أفاضل الناس وخيار الأنبياء ولا يكون في نفسه طيباً فلا ينتفع بتلك الصحبة الكريمة لخبث نفسه، قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: آية ١٠] ومعنى (خانتاهما) أي: بالكفر وإطلاع الكفار على أسرارهما، وليس المراد أنهما خانتا خيانة زنى كما توهمه بعض الناس، وأن امرأة نوح خانته فزنت! واستدلوا بأن الله لما قال نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ قال: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ﴾ [هود: الآيتان ٤٥، ٤٦] فهذا غلط، بل غلط عظيم فاحش. والمحققون من أهل العلم أن الله أكرم مناصب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وطهر فرشهم فلم تزن امرأة نبي قط، والولد الكافر الذي أُغرقَ هو ابن نوح لا شك فيه؛ لأن الله ـ وهو أصدق من يقول ـ صرح بأنه ابنه حيث قال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [هود: آية ٤٢] وقول الله له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ﴾ يعني بحذف الصفة، من أهلك الموعود بنجاتهم وإركابهم في السفينة في قوله: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت: آية ٣٣] لأنه فارق دينكم وكان كافراً.

فلما تطاول الزمن على نوح وهو يدعوهم، ولا يزيدهم دعاؤه إلا فراراً وبعداً عن الحق؛ دعا عليهم فأجاب الله دعوته، فأرسل السماء مدراراً، وفجر عيون الأرض، فالتقى الماء من أعلى وأسفل، حتى صار طوفاناً غطى على الجبال. والدليل على أنه غمر الجبال: أن نوحاً لما قال لولده: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وقال الولد: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أجابه نوح فقال: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: الآيتان ٤٢، ٤٣] فدل على أنه ليس هناك معتصم في الجبال؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٞ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنْهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونٗا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٖ قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾ [القمر: الآيات ١٠ ـ ١٢] فصار طوفاناً جارفاً أهلك جميع من على وجه الأرض، من كل ما هو حي إلا من كان في تلك السفينة، كما قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: آية ١٥] وأمر الله نبيه نوحاً بأن يجعل تلك السفينة ـ ويجعلها بالنجارة ـ وكان ينجرها والأرض يَبَس، وهم يضحكون منه ويسخرون ويقولون: كنت نبياً فصرت نجاراً! وهو يقول لهم: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: الآيتان ٣٨، ٣٩] فلما قرب الوعد المحدد لإهلاكهم قيل لنوح: اركب في السفينة واحمل فيها أهلك ومن آمن معك، ثم قال: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: آية ٤٠] وأُمر أن يأخذ من كل شيء من جميع الحيوانات زوجين. أي: ذكراً وأنثى؛ لأن جميع من على وجه الأرض سيهلكه الطوفان، ولن يبقى إلا مَنْ في تلك السفينة، فيكون كل جنس من أنواع الحيوانات موجود معه منه ذكر وأنثى ليتناسل ذلك الذكر بتلك الأنثى وينشأ منهما ذلك النوع من أنواع الحيوانات كما يأتي في قوله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: آية ٤٠] وفي القراءة الأخرى[(١)]: ﴿**من كلِّ زوجين اثنين**﴾ أي: ذكراً وأنثى ليقع منهما التناسل وينتشر منهما ذلك النوع؛ لأن من على وجه الأرض سيهلكه ذلك الطوفان. وذلك يبين أن ذنوب بني

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٣٩.

آدم قد يهلك الله بها الجميع حتى الحيوانات. قال بعض العلماء: قد تهلك الحبارىٰ في وكرها، والجُعَل في جُحْره بذنوب بني آدم، وقد يهلك الله بني آدم بذنوب بعضهم. فإذا انتشر الفساد في الأرض وكان الناس قادرين على أن يكفوه فلم يكفوه نزل البلاء فعم الصالح والطالح، كما جاء في الأحاديث الكثيرة وفي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: آية ٢٥] ومن أوضح ذلك حديث النعمان بن بشير الثابت في الصحيح ـ المشهور ـ الذي ضرب فيه النبي ﷺ مثلاً للناس إن أَخَذَتْ على أيدي السفهاء، ومنعتهم من معاصي الله، وأمرت بالمعروف، ونهت عن المنكر، وإن لم تفعل ذلك، فضرب لهم مثلاً بقوم استهموا على سفينة، فكان بعضهم في أسفل السفينة، وكانوا إذا أرادوا أن يشربوا من الماء صعدوا فَمَرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لا ينبغي لنا أن نصعد ونمر على من فوقنا بل تخرق السفينة مما يلينا، ونشرب مما يلينا فلا نصعد حتى نمر على من بأعلاها. فبين النبي ﷺ أنهم إن تركوهم وما أرادوا وخرقوا السفينة دخل الماء فيها فامتلأت فغرق الجميع، وإن زجروهم وكفوا أيديهم نجوا ونجا الجميع. نقلنا الحديث بالمعنى، وهو حديث صحيح، ثابت في الصحيح[1]، مشهور، وهو واضح في أن السفهاء إن لم يؤمروا بالمعروف ويُنهوا عن المنكر ويُضرب على أيديهم أنهم يُهْلِكُون الجميع، فيهلك الجميع بذنوبهم. وفي الحديث الصحيح المشهور من حديث أم المؤمنين أم الحكم زينب بنت جحش (رضي الله عنها): أنها لما سمعت النبي ﷺ يقول: «**ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج هكذا**». وعقد التسعين مثل هذا. أنها (رضي الله عنها) لما سألته فقالت: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخَبَث**»[2].

---

(١) البخاري في الشركة، باب هل يقرع في القسمة، والاستهام فيه. حديث رقم (٢٤٩٣) (١٣٢/٥)، وطرفه في (٢٦٨٦).

(٢) البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**ويل للعرب...**» حديث رقم (٧٠٥٩)، (١١/١٣)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة باب: اقتراب الفتن... حديث رقم: (٢٨٨٠)، (٢٢٠٧/٤).

فإذا انتشرت المعاصي وكثر الخَبَث ولم يُضرب على أيدي السفهاء أوشك الله أن يعمهم بعذاب من عنده؛ ولذا عم جميع من في الأرض بذنوب من كذبوا نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ولما دعا عليهم نوح قيل لنوح: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: آية ٤٠] الذي سبق عليه القول من أهله: زوجته الكافرة - قبحها الله - وابنه الكافر - والمؤرخون يزعمون أن اسمه كنعان - فلما ركب نوح في السفينة، وفجّر الله عيون الأرض، وأنزل الماء من السماء فالتقى الماء على أمر قد قُدر، أهلكهم الله بذلك الطوفان، ولم يُبق منهم باقية. وفي قصتهم: أن الله (تبارك وتعالى) لو كان يرحم أحداً منهم لرحم امرأة منهم في القصة؛ لأن عندها ولداً صغيراً تحبه حباً شديداً، كانت كلما طلع الماء ارتفعت بالولد إلى الجبل، حتى صارت على رأس الجبل، فطم الماء على الجبل، فكان الماء كلما بلغ شيئاً منها رفعت الولد، حتى بلغ حلقومها، رفعت يدها بالولد حتى أغرق الله الجميع[1]، ودمر الله الجميع. واعتذر نبي الله نوح عن دعائه عليهم - مع أن الله أعلمه أنهم خبثاء ليس فيهم خير - قال يقول لربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝﴾ إلى آخر ما ذكر. [نوح: الآيات ٥ - ١٠] فالقصة اختُصِرت هنا في سورة الأعراف وبسطها الله في سور أخرىٰ متعددة؛ ولذا قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ [الأعراف: آية ٦٤] أي: أنجيناه هو والذين معه في الفلك، وهم قليل؛ لأن الله قال: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: آية ٤٠]. وبعض المؤرخين يقولون: هم أربعون رجلاً وأربعون امرأة، هم ثمانون نفساً. وبعضهم يقول: هم تسعة أنفس. والله تعالى أعلم. ولكن الله بين أنهم قليل حيث قال: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا

(١) انظر: البداية والنهاية (١/١١٣ - ١١٤).

قَلِيلٌ﴾ وقال: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: آية ٣٦] فصارت تلك السفينة تجري بهم تتلاطم عليها الأمواج كما قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: آية ٤٢] الأمواج كأنها الجبال، وهذا يدل على عظم الطوفان وارتفاعه فوق الأرض حيث شبه أمواجه بالجبال كما قال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ فأهلكهم الله ودمرهم، واستوت السفينة على الجودي ثم لما قضى الله أمره ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: آية ٤٤] فلما أرسل الله الرياح ونشفت الأرض، ويبست من آثار ذلك الطوفان نزل نوح ومن معه، وتناسل من معه، وصار جميع الدنيا من أولاده الثلاثة الذين كانوا معه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: آية ٧٧].

والمؤرخون يسمون نوحاً: آدم الأصغر؛ لأن جميع من بعده من الدنيا من نسله. وأولاده الذين معه: سام، وحام، ويافث. وبعض المؤرخين يقولون: إن جميع الموجودين في الدنيا راجع إلى تلك الأصناف التي هي من نسل هؤلاء الرجال، ويزعمون أن ساماً من نسله: العرب، والروم، والفرس، وأن حاماً من نسله: القبط، والسوادين، والبربر، وأن يافث من نسله: الصقالبة، ويأجوج ومأجوج، والترك. وأن جميع أنواع الناس يرجع في الأصل إلى هذه العناصر، هكذا يقولون، والله تعالى أعلم[١]. ولذا قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [الأعراف: آية ٦٤].

الفلك: السفينة. وهذه السفينة تمشي في البحر تحمل الناس، آية من آيات الله، كما قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّٰتِهِمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: آية ٤١] وفي القراءة الأخرى[٢]: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس: الآيات ٤١ ـ ٤٤] الفلك: السفينة،

(١) انظر: البداية والنهاية (١/١١٥).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٧١.

ويطلق على جمع السفن، فهو يطلق على المفرد وعلى الجمع. قال بعض علماء العربية[1]: إن أُطلق على المفرد فضمة (فُلْك) كضمة (قُفْل)، وإن أُطلق على الجمع فضمة (فُلُك) كضمة (كُتُب) و(رُسُل). هكذا يقولون، وقد يجوز تذكيره وتأنيثه، وإذا جاء في القرآن مجموعاً كان مؤنثاً دائماً كقوله في الفلك: ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل: آية ١٤] إلى غير ذلك من التأنيث. وربما جاء (الفلك) مذكراً مفرداً في قوله: ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: آية ٤١] ولم يقل: (المشحونة) أي: الموقر بالناس. أي: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ [الأعراف: آية ٦٤] أي: في السفينة التي أُمر بنجرها، وأن الله وعده بأنه سيهلك قومه بالغرق في الطوفان.

وهذا مما يدل على أن الآدميين ينبغي لهم معرفة الصنائع، وأن لا يكونوا متواكلين متكاسلين، فالصنائع والحِرَف الصناعية ينبغي للمجتمع أن يتعلموها، ألا ترون أن النجارة هي من جملة الصنائع وكثير من الناس يأنف عن أن يتعاطاها، مع أن معلمها الأول هو جبريل ـ عليه السلام ـ وتلميذها الأول هو نوح ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ كما في قوله: ﴿أَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: آية ٣٧] فمعلمها الأول جبريل، وتلميذها الأول نوح، ثم إنها هي السبب في وجود الموجودين من بني آدم على ظهر الأرض؛ لأن من لم يكن في تلك السفينة المصنوعة عن طريق النجارة لم يبقَ منهم أحد، لم تبق منهم عين تطرف، بل ماتوا كلّهم كما قال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: آية ١٥] وقال هنا: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ [الأعراف: آية ٦٤] وهذا يدل على أنّ الحِرفَ الصناعية ينبغي للمجتمع الاهتمام بها؛ ولذا كان أوّل نجّارٍ في الأرض نوح، وأول مُعلّم للنجارة جبريل، وأول حدّاد في الأرض هو داود ـ عليه السلام ـ كما قال الله له: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ [سبأ: الآيتان ١٠، ١١] والله يعلّمه أصول الحدادة كقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: آية ١١] لأن

(١) انظر: المفردات للراغب ص٦٤٥.

قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ من أعظم تعاليم أصول الحدادة؛ لأن معنى: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ السرد في لغة العرب(١): نسج الدرع، تسميه العرب سرداً وزرداً، وتسمي ناسج الدروع: سرَّاداً زرَّاداً، ودرع مسرودة كما هو معروف، ومنه قول أبي ذؤيب(٢):

وعليهما مَسْرُودَتَان قضاهما داودُ أو صَنَعُ السوابِغِ تُبَّعُ

وقول الآخر(٣):

نَقْرِيهِمُ لَهْذَمِيَّاتٍ نَقُدُّ بها ما كانَ خاطَ عليهم كُلُّ زَرَّادِ

فمعنى: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: آية ١١] أي: اجعل المسامير والحِلَق في نسج الدروع بأقدار متناسبة متلائمة؛ لأن المسمار إن كان أكبر من الحلقة جدّاً كسرها، وإذا كان أصغر منها جداً لم يشدّها كما ينبغي، فإذا كانت المسامير والحِلَق بأقدار متناسبة كانت الدروع مشدودة كما ينبغي، تردّ وقع السلاح من السيوف والسهام. وهذا مما يدل على أن الحِرَف الصناعية لا ينبغي التكاسلُ فيها ولا عدم تعاطيها؛ لأن أول من تعاطاها الرسل الكرام ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وكانت آثارها الكريمة ظاهرة في المجتمع؛ لأن الموجودين في الدنيا كانوا موجودين بفضل الله ثم بسبب تلك الصناعة التي هي النجارة؛ لأن من لم يكن في تلك السفينة المصنوعة عن طريق حرفة النجارة كلهم هلكوا وماتوا من ذلك الطوفان، كما قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأعراف: آية ٦٤] أي: الكفار الذين كذّبوا نوحاً أغرقناهم جميعاً بذلك الطوفان، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: الآيتان ١٤ ـ ١٥] ولذا قال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾

---

(١) انظر: المفردات (مادة: سرد) ص٤٠٦، القرطبي (٢٦٧/١٤).

(٢) البيت في القرطبي (٢٦٨/١٤).

(٣) البيت للقطامي، وهو في الكامل (٨٣/١)، أسرار البلاغة ص٤٠، ٤٥.

[الأعراف: آية ٦٤] ﴿إِنَّهُمْ﴾: أي: الكفار الذين كذبوا نوحاً الذين أهلكهم الله بالإغراق بالطوفان ﴿كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾. والعمون جمع العمي، ووزن العمي: (فَعِل) أصله: (عميٌ) تطرفت الياء بعد الكسر فصار ناقصاً[١]. والعمي هو أعمى القلب ـ والعياذ بالله ـ.

وقراءة الحجة من القراء، منهم السبعة، بل والعشرة: ﴿قَوْمًا عَمِينَ﴾ جمع عَمِي، والعمي هو: الذي قلبه أعمى لا يعرف الحق، ولا يميز بين الشر والخير، ولا الباطل والحق، ولا الحسن ولا القبيح.

أمّا قراءة «قوماً عامِين» على وزن (فاعل) فهي من القراءات الشاذة[٢]، فلا تجوز القراءة بها. وإن كان المقرر في علوم العربية أن الصفة المشبهة سواءً كانت على وزن (فَعِلٍ) كما هنا في قوله: ﴿عَمِينَ﴾ [الأعراف: آية ٦٤] أو وزن (فعيل) أو غيرهما إذا أُريد بها التجدد والحدوث جاءت على وزن (فاعل)[٣]. هذا معنىً معروف مقرر في علوم العربية، كثيرٌ في القرآن وفي كلام العرب، إلا أنه لا يجوز قراءةً هنا وإن كان سائغاً لغة؛ لأن الصفة المشبهة إذا أُريد بها التجدد والحدوث عُبّر عنها بصيغة الفاعل، سواء كانت من (فَعيل)، أو من (فَعِل)، أو (فَيعِل) أو غيرهما كما هو معروف. فالعرب مثلاً تقول: ضاق صدره يضيق فهو ضيِّق. فالضيِّق صفة مشبهة من (ضاق) على وزن (فَيْعِل) فإذا أُريد به التجدد والحدوث عُدل عن (ضَيِّق) وقيل: ضائق. ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: آية ١٢] لم يقل: (ضَيِّق) لأنه أراد تجدد الضيق وحدوثه، وهو كثير في كلام العرب، ومنه قول الشاعر العكلي حيث قال[٤]:

بِمَنْزِلَةٍ أَمَّا اللَّئِيمُ فَسَامِنٌ بِهَا وَكِرَامُ النَّاسِ بَادٍ شُحُوبُهَا

---

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٩٤. وفيه: «أصله: (عميين) استُثقِلت الكسرة على الياء فحُذِفت، فالتقى ساكنان فحُذِفت اللام» ا.هـ.

(٢) انظر: الدر المصون (٣٥٨/٥).

(٣) انظر: التوضيح والتكميل (٩٣/٢).

(٤) البيت في البحر المحيط (٢٠٧/٥)، والدر المصون (٢٩٤/٦). وهو لأبي حزام غالب بن الحارث العكلي وقد عزاه أبو حيان لبعض اللصوص يصف السجن.

سامن: أصله سمين. صفة مشبهة. ولما أراد به التجدد والحدوث عبّر عنه بوزن (فاعل). ومنه على وزن (فعيل) قول لبيد بن ربيعة رضي الله عنه[١]:

رأيتُ التقىٰ والجُودَ خيرَ تجارةٍ رَبَاحاً إذا ما المرءُ أصبحَ ثاقِلاً

أصله: ثقيل. صفة مشبهة من (ثَقُل) فهو ثقيل، فلما أراد به التجدد والحدوث قال: ثاقل. ومن هذا المعنىٰ قول قيس بن الخطيم لما قال[٢]:

أبلغ خداشاً أنني ميِّتٌ كل امرىء ذي حسب مائتُ

فلما أراد التجدد والحدوث قال: (مائت). وهذا كثير في كلام العرب يكفينا منه ما ذكرنا الآن. والشاهد أنّ قراءة الحجة من القراء: ﴿قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: آية ٦٤] جمع تصحيح للعمي على وزن (فَعِل) صفة مشبهة من عَمِيَ يعمى فهو عَمٍيٌ إذا كان أعمى القلب. وأن قراءة: (عامين) قراءة شاذة لا تجوز القراءة بها وإن كان مثلها يجوز لغةً إذا أُريد التجدد والحدوث، وما كل ما يجوز لغة يجوز قراءة؛ لأن القراءة سنة متبعة. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: آية ٦٤] والعياذ بالله؛ لأن الله يُعمي بصائر الكفار حتى يهلكوا ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: آية ٥٧] ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦] وصرّح في سورة الرعد بأن جميع الذين يعرفون حقيّة هذا القرآن أنهم لم يمنعهم من ذلك إلا عمى بصائرهم - والعياذ بالله - والعين العمياء لا يمكن أن ترى الشمس ولو كانت في رابعة النهار.

.... إذ لا ترى الشمسَ عينٌ تشتكي العَوَرَا[٣]

إذا لم يكن للمرءِ عينٌ صحيحةٌ فلا غروَ أن يرتابَ والصبحُ مسفرُ[٤]

---

(١) البيت في ديوانه ص١١٩.

(٢) البيت في ديوانه ص٢١١.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

والآية التي بيّن الله بها ذلك من سورة الرعد هي قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: آية ١٩] فصرّح أن الذي لا يعلم أنه الحق أن ذلك إنما جاءه من قِبَل عماه، فالقرآن نور أوضح من نور الشمس، والذي لا يرى أحقيته إنما جره لذلك عماه، والأعمى لا يرى الشمس، وعدم رؤيته للشمس لا يجعل في الشمس لبساً ولا ريباً ولا شكاً كما بيّنا. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: آية ٦٤].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٦٥ ـ ٦٨].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] وتقرير المعنى: والله لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، وقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً.

وهذه الأمم يقص الله خبرها على هذه الأمة لتستفيد من ذلك فوائد عظيمة ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [يوسف: آية ١١١] فيخاف المكذبون للرسل، الجاحدون بآيات الله أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك من المثلات، ومن عذاب الله المستأصل المتصل بعذاب النار، وكذلك يُعَلِّم الناس الآداب، وآداب الدعاة إلى الله في لينهم وعطفهم، ولين كلامهم، وكرم مخاطبتهم، وعدم بذاءتهم وكلامهم بكلام الجاهلين؛ هذا نبي الله نوح لما قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: آية ٦٠] هو يعلم أنهم هم الضالون، وأنه هو المهتدي، والذي يعيبك ويلمزك بعيب أنت تعلم أنه فيه هو، وأنك أنت بريٌ منه هذا مما يستدعي الغضب، والكلام الشديد، والرد العنيف، فنبي الله نوح لم يقل لهم شيئاً من ذلك، ولم يرد عليهم رداً عنيفاً، وإنما رد بأكرم العبارة، وألطف الرد، فقال: ﴿يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: آية ٦١] فلم يقل: أنتم هم الكفرة الفجرة الضُلال، ولم يقذع فيهم بلسانه، بل بالعبارات اللطيفة اللينة، وهذا تعليم من الله لخلقه أن الداعي المتبع لآثار

الرسل إذا قابله الجهلة ببذاءة اللسان وعابوه وتكلموا له بالقبيح أنه لا يقابلهم إلا بالقول اللين اللطيف، والحكمة والموعظة الحسنة، كما هي عادة الرسل في خطاباتهم لأممهم.

وقوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: آية ٦٥] والله لقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. عاد قبيلة عظيمة، والمؤرخون يقولون: إن عاد بن إرم بن عوص[١]، وهو من ذرية سام بن نوح بلا خلاف بين المؤرخين. ويزعمون أن قبيلة عاد كانوا أعظم الناس أجساماً. يزعم أهل القصص والأخبار أن أقصرهم قامته ستون ذراعاً، وأن الواحد منهم يكون مئة ذراع. وعلى كل حال فهم من أشد الناس قوة كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: آية ٢٥] وهم قبيلة إرم المذكورة في القرآن؛ لأن عاد بن إرم، وقيل: ابن عوص بن إرم. فهو من أولاد إرم. و(إرم) اسم رجل تُسمىٰ به القبيلة، وعاد من ذريته؛ ولذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ ثم أبدل منها فقال: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر: الآيات ٦ ـ ٨] قوله: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ يدل على عظمة أبدانهم وشدة طولهم وبدانتهم وقوتهم كما هو معروف. أرسل الله إلى هذه القبيلة العاتية الشديدة القوىٰ والبطش أرسل إليهم أخاهم هوداً ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ وكان نبي الله هود عربي اللسان، وإنما مُنع من الصرف قال بعضهم: لأنه عربي، والعجمي إذا كان علماً على ثلاثة حروف وسطها ساكن يكون مصروفاً كما هو معروف، كما صُرف نوح ولوط وهما علمان أعجميان كما هو معروف[٢].

---

(١) عامة كتب التاريخ تذكر نسب عاد أنه ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وبعضهم يقول: عاد بن عوص بن سام بن نوح. ولم أقف على من قال بأنه ابن إرم بن عوص. ووقع في معجم البلدان لياقوت عند الكلام على (دمشق) و (إرم): «عاد بن إرم بن سام بن نوح». ولعل الذي وقع للشيخ (رحمه الله) هنا سبق لسان، خاصة أنه قال بعدها بأسطر في نسب هود (عليه السلام): «ابن إرم بن نوح» وقال عن عاد: «عاد بن إرم. وقيل: ابن عوص بن إرم» ا.هـ. وانظر: تاريخ ابن جرير (١/١١٠)، البداية والنهاية (١/١٢٠).

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٢٧٨).

ويزعمون أن هود بن عبدالله بن رباح من ذرية إرم من سام بن نوح[١]. هو من نفس القبيلة، كما قال: ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: آية ٦٥] خلافاً لمن زعم أن أصله ليس منهم، وأن (أخاهم) صاحبهم. والتحقيق أنه منهم، وأنه أخوهم ومن قبيلتهم كما يأتي في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٦٩] فبين أنه منهم؛ ولذا قال هنا: ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ بعث الله إليهم نبيه هوداً. وصرح الله في سورة الأحقاف بأن منازلهم في الأحقاف، والأحقاف جمع الحِقْف، والحِقْف حبل الرمل[٢]. وهم يزعمون أنها حبال الرمل التي في أطراف اليمن أو حضرموت، كانوا إلى تلك الجهة كما يأتي في قوله: ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: آية ٢١] والأحقاف جمع الحِقْف، والحِقْف: هو الحبل الممتد العالي من الرمل، فهم في رمال هناك، كانت منازلهم في رمال تتخللها أودية في نواحي اليمن أو حضرموت، كما يأتي في سورة الأحقاف.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ماذا قال هود؟ قال دعوة الرسل التي جاؤوا بها كلهم وهي عبادة الله وحده، فهم متفقون على وتيرة واحدة وهي الدعاء إلى أن يُعبد الله وحده، ويُخلص له في توحيده، فهذه دعوة الرسل التي جاؤوا بها عامة، وهي التي فيها المعارك بينهم وبين أممهم، والقرآن بيّن ذلك جملة وتفصيلاً، أما بيانه بالتفصيل كقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ماذا قال نوح؟ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ماذا قال هود؟ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: آية ٦٥] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ ماذا قال صالح؟ ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: آية ٧٣] وهكذا في جميع الرسل. ومن الأدلة العامة المبينة لذلك: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: آية ٣٦] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَىٰ إِلَيْهِ﴾ [الأنبياء: آية ٢٥] وفي القراءة

---

(١) انظر: تاريخ ابن جرير (١/ ١١٠)، البداية والنهاية (١/ ١٢٠). وفيهما أقوال أخرى في نسب هود عليه السلام.

(٢) المفردات (مادة: حقف) ص٢٤٨.

الأخرى[١]: ﴿نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: آية ٤٥] فإخلاص العبادة لخالق السماوات والأرض هو دعوة الرسل التي جاؤوا بها كلهم عليهم صلوات الله وسلامه؛ ولذا أُمر نبينا ﷺ في سورة الأنبياء أن يقول: إنه لم يُوح إليه شيء إلا عبادة الله وحده، وإفراده بالعبادة في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الأنبياء: آية ١٠٨] و (إنما) من صيغ الحصر كما هو مقرر في المعاني في مبحث القصر[٢]، وفي الأصول في مبحث العام[٣]؛ لأن كلمة (لا إله إلا الله) هي التي قامت عليها السماوات والأرض، وهي المتضمنة توحيد العبادة بنفيها وإثباتها، فنفيها يتضمن: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله في جميع العبادات، وإثباتها يتضمن: إفراده - جل وعلا - بالعبادة دون غيره، وهذا معنى قولهم: (لا إله) نفي (إلا الله) إثبات. وهذه الكلمة الشريفة التي قامت عليها السماوات والأرض، وخُلقت من أجلها الجنة والنار، وهي التي جاء بها جميع الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - ولذا قال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾ [الأعراف: آية ٦٥] قد بينا معنى هذه الجملة والقراءات فيها في قضية نوح[٤]، ومعنى الكلمتين واحد لا فرق بينهما. ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾ إلا أن نوحاً قال لقومه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] وهوداً قال لقومه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: آية ٦٥] يعني: أتكفرون بالله فلا تتقونه، فلا تتخذون بينكم وبينه وقاية تقيكم من سخطه وعذابه، هي امتثال أمره واجتناب نهيه. وكان رد الكفار متشابهاً لتشابه قلوبهم في الكفر، كما قال تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [البقرة: آية ١١٨] فقوم نوح قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ﴾

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٠١.

(٢) انظر: الإيضاح للقزويني ص١٢٥.

(٣) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/٥١٥)، وهي تذكر عادة في كتب الأصول في الكلام على المفاهيم.

(٤) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأعراف.

[الأعراف: آية ٦٠] وقوم هود قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: آية ٦٦] والسفاهة: (فَعَالة) من السفه، وأصل السفه في لغة العرب هو: الخفة والطيش، فكل شيء خفيف طائش تسميه العرب سفهاً[١]. وتقول العرب: تَسَفَّهَت الريح الريشة إذا استخفتها فطارت بها كل مطار. وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[٢]:

مشين كما اهتزتْ رماحٌ تسفَّهت أَعَالِيَهَا مرُّ الرياحِ النَّواسِمِ

معنى (تسفهت أعاليها) أي: استخفتها فهزتها. هذا أصل معنى السفه في لغة العرب.

وهو في الاصطلاح المشهور: هي خفة العقل وطيش الحلم، بحيث يكون السفيه لا يهتدي إلي مصالحه، ولا يعرف مضاره من مصالحه، لا يميز بين الضار والنافع، ولا الحسن ولا القبيح لخفة عقله وطيشه وعدم رجاحته[٣]؛ ولذا كان السفيه يجب التحجير عليه، وجَعْل ماله تحت يدي ولي يحفظ له ماله؛ لأن عقله الطائش وحلمه الخفيف يجعله يضيع ماله.

والعلماء مختلفون في السفه الذي يُحجر به على الرجل البالغ ويُولَّى عليه في ماله[٤]، فكان مالك بن أنس (رحمه الله) وعامة أصحابه ومن وافقه من العلماء يرون أن السفه الذي يُحجر به على السفيه في ماله ويولَّىٰ عليه غيره إنما هو السفه في خصوص المال، بحيث يكون طيش عقله وخفة حلمه في نفس التصرف المالي، بحيث يضيع عن المعاملات، ولا يحسن حفظه ولا التصرف فيه. فمن كان عند مالك يحسن التصرف في المال، ويحفظه، ولا يُخدع، بل هو عارف بوجوه التصرفات وحفظ المال فماله يُدفع إليه عند مالك وأصحابه، ولا يسمىٰ سفيهاً، ولو كان سكِّيراً شرِّيباً للخمر، مرتكباً للمعاصي:

---

(١) انظر: المفردات (مادة: سفه) ص٤١٤.
(٢) البيت لذي الرمة. وهو في القرطبي (٢٠٥/١)، (٢٣٦/٧).
(٣) انظر: الكليات (٣٤٩، ٥١٠)، القاموس الفقهي ص١٧٣ ـ ١٧٤.
(٤) انظر: القرطبي (٢٨/٥ ـ ٣١).

وشاربُ الخمرِ إذا ما ثَمَّرَا   لما يلي من مالهِ لم يُحْجَرَا[(١)]

هذا مذهب مالك وأصحابه. وذهب الشافعي في جماعة من العلماء إلى أن من كان يتعاطى المعاصي كالشِّرِّيب السكِّير الذي يشرب الخمر، ويتعاطى المعاصي أنه سفيه لا يُمكَّن من ماله أبداً حتى تصلح حاله الدينية مع حاله الدنيوية. قال: لأنه لا أحد أخف حلماً وأطيش عقلًا من الذي يتسبب في أن يحرق نفسه بالنار، فهذا خفيف الحلم طائش العقل، لا يُعطىٰ له ماله، فهو السفيه بمعنى الكلمة.

وهذا كلام معروف في فروع المذاهب مشهور؛ ولذا نسب قومُ هود هوداً إلى خفة العقل وطيشه، قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: آية ٦٦] أي: في خفة عقل وطيش حلم؛ لأنك تدعونا إلى أن نترك ديننا ونذهب إلى دين آخر جديد ما نعرفه، فلا عقل عندك ولا حلم، بل أنت سفيه خفيف العقل طائش الحلم. هذا قولهم لعنهم الله.

﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: آية ٦٦] نظنك كاذباً؛ لأنك بشر مثلنا، فلا زيادة لك علينا ولا فضل لك علينا؛ لأنا من عنصر واحد آدميون جميعاً نشرب ونأكل جميعاً، فما نظنك إلا كاذباً، وأنك سفيه خفيف العقل طائشه. فقابلهم هود بهذا الرد الكريم اللطيف، والتأني الكريم، والتؤدة العظيمة، وقال: ﴿يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: آية ٦٧] ليس بي شيء من طيش العقل ولا من خفته، وإنما أنا راجح العقل ثابته، ثابت الحلم، لست بطائش ولا خفيف.

﴿وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: آية ٦٧] رسول مرسل إليكم من رب العالمين. قد بينا فيما مضى[(٢)] أن الرسول (فَعُول) بمعنى (مُفْعَل) أي: مُرسَل من رب العالمين أرسلني إليكم. وأن أصل الرسول:

---

(١) البيت لابن عاصم المالكي، وهو أحد أبيات تحفته المسماة: (تحفة الحكام) انظر: البهجة في شرح التحفة (٢/٢٩٤)، وهو في الأضواء (٢/٢٨١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

مصدر سُمي به، وإتيان المصدر على وزن (فعول) قليل جداً في العربية، مسموع في أوزان قليلة، كالقَبُول، والوَلُوع، والرسُول. وأصل الرسول مصدر بمعنى الرسالة، وهو مشهور في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[١]:

لقد كذبَ الواشونَ ما فُهتُ عندهم بقولٍ ولا أرسلتُهم برسولِ

يعني: ما أرسلتهم برسالة. وقول الآخر[٢]:

ألا أَبلغ بني عمرو رسولاً بأني عن فُتَاحَتِكم غني

١١/ب أي: (بني عمرو رسولًا) أي: رسالة. وهذا معروف في كلام العرب/ ومن فوائد كون الرسول أصله مصدر تُحل إشكالات في القرآن؛ لأن العرب إذا نعتت بالمصدر ألزمته الإفراد والتذكير[٣]، وربما تناست المصدرية فيه وعملت بالوصفية العارضة فجمعته وثنته؛ ولذا جاء الرسول مفرداً في القرآن والمراد به اثنان، وجاء مفرداً في كلام العرب والمراد به جمع نظراً إلى أن أصله مصدر.

فإذا قال لك قائل: الله يقول عن موسى وهارون في سورة طه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: آية ٤٧] بالتثنية، ويقول في القصة بعينها في سورة الشعراء: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: آية ١٦] بالإفراد، ولم يقل: «رسولا رب العالمين».

فالجواب: أن الإفراد نظراً إلى أصل الرسول، وأن أصله مصدر، والعرب إذا نعتت بمصدر ألزمته التذكير، وأن التثنية في قوله: ﴿رَسُولَا﴾ والجمع في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ [البقرة: آية ٢٥٣] نظراً إلى الوصفية العارضة؛ لأن العرب نقلته من المصدرية فجعلته وصفاً؛ ولأجل كون أصله مصدراً تطلقه العرب مفرداً وتريد به الجمع على عادة النعت بالمصادر، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[٤]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٨) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

أَلِكْني إليها وخَيرُ الرسو لِ أعلمهم بنواحي الخبر

فقوله: «أعلمهم» رد الجمع على الرسول مفرداً نظراً إلى أن أصله مصدر. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ هي كالقراءات التي قدمنا في كلام نوح[1]، قرأها أبو عمرو: ﴿أبلِغُكم رسالات ربي﴾ والباقون: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ وتفسيرها كتفسير الذي قبلها بلا زيادة.

﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وأنا لكم ناصح فيما أقول، لا أغشكم ولا أخدعكم، أمين فيه لا أكذب، وأنتم تعلمون أني فيما مضىٰ في غاية النصح والأمانة؛ لأني رجل منكم قد جربتموني قبل الرسالة فما جربتم فيّ إلا النصح والأمانة، فأنا لكم ناصح. وكُلُّ خالص لا شائبة فيه تُسَمِّيه العرب (ناصحاً) والناصح: هو السالم من جميع الغش والخديعة. والأمين: هو الذي لا خيانة معه. أنا لكم ناصح فيما جئتكم به، لا غش معي ولا خديعة، أمين فيما أقول لكم، في غاية الصدق، ليس فيه كذب، هذه حقيقتي، أما السفاهة التي رميتموني بها فليست بي سفاهة. ولم يقل لهم: «بل أنتم السفهاء» لكرامة رد الرسل، ومعاملتهم للجهلة الحمقى بالتي هي أحسن. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ الرسالات جمع رسالة، وهي اسم لما يُرسِل به المرسِل رسولًا إلى غيره. ورسالات الله هي ما بعثه به إليهم من الإيمان بالله وطاعته وامتثال أمره واجتناب نواهيه.

قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٦٢) من سورة الأعراف.

مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٦٩ ـ ٧٢].

يقول الله جلّ وعلا: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: آية ٦٩].

هذه الآية التي هي قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ فسرناها أمس؛ لأنها اتفق فيها قول نوح وقول هود، فكل منهم قالها لقومه؛ لأن كلًا من قومهما عجبوا من أن يبعث الله بشراً، وكذلك عادة الأمم أن تعجب من بعث الرسل، ويقولون: لا يمكن أن يبعث الله رسولًا يأكل ويشرب ويتزوج ويُولد له، حتى إن الله (جل وعلا) بيّن أن هذه الشبهة الكاذبة كانت هي المانع الأكبر من إيمان الناس، حيث قال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: آية ٩٤] كأنه قال هنا: ما منعهم من الإيمان إلا استغراب بعث البشر واستعجابهم منه، كما أن الذين بُعث فيهم بنبينا ﷺ عجبوا من بعث البشر كما قال تعالىٰ في أول سورة يونس: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: آية ٢] وقال في أول سورة ق: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق: آية ٢] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد بينا[1] أن أظهر الوجهين في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ أن الهمزة تتعلق بمحذوف، والواو مفتوحة؛ لأنها عاطفة على ذلك المحذوف، وتقديره: أكفرتم وعجبتم أن يأتيكم ذكر من ربكم على رجل منكم؟ وقد فسرنا الآية بالأمس، وبينا أن الذكر هو المواعظ والأوامر والنواهي التي تأتيهم بها الرسل، وأن قوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ على لسان رجل منكم، لأن أنبياء الله رجال كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: آية

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

١٠٩] فلم يرسل الله امرأة قط؛ ولذا قال: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ كما أوضحناه بالأمس في مقاولة نوح لقومه.

ثم إن نبي الله هوداً قال هنا لقومه ما لم يقله نوح لقومه، وهو قوله: ﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: آية ٦٩] ﴿وَاذْكُرُوٓا۟﴾ نعم الله عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ﴾ خلفاء في الأرض، يعني: بأن أهلك قوم نوح واستخلفكم في الأرض فجعلكم خلفاء في الأرض آمنين فيها، عليكم نعم الله مسبلة.

والخلفاء: جمع خليفة، وهو من يُستخلف بعد من كان قبله. قال بعض العلماء: إنما قيل لهم (خلفاء) لأنهم صاروا خلفاً من قوم نوح حيث أهلك الله أولئك وأسكن هؤلاء في الأرض بعدهم، فكانوا خلفاً من بعدهم، وخلفاء من بعدهم. وقال بعضهم: إنهم خلفاء أي: فيهم ملوك، والعرب تسمي الخليفة الذي يكون ملكاً بعد من قبله: خليفة. ولفظه مؤنث[١] ومعناه مذكر، فيجوز تذكير الضمائر الراجعة عليه نظراً إلى المعنى، ويجوز تأنيثها كما قال الشاعر[٢]:

أبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى ... وأنتَ خَلِيفَةٌ ذاكَ الكَمالُ

﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: آية ٦٩] الخلفاء: جمع الخليفة؛ لأنه جعلهم خلفاً منهم يسكنون الأرض، أو جعلهم ملوك الأرض. يزعم أصحاب القصص والأخبار أنهم كان عددهم كثيراً جداً، وأنهم منتشرون فيما بين حضرموت إلى عمان[٣]، وأنهم كانوا يظلمون غيرهم ويقهرونهم لما أعطاهم الله من القوة. ولكن الله بين أن منازلهم كانت في الأحقاف حيث قال في سورة الأحقاف: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: آية ٢١] وقد بينا[٤] أن الأحقاف جمع حِقْف، والحِقف في لغة

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/٥٠٧).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٦٠) من سورة الأعراف.

العرب: الحبل من الرمل، الرمل المرتفع تسميه العرب حِقفاً، فالأحقاف: الرمال. والمفسرون يقولون: إنها رمال في جوانب اليمن وحضرموت، وأنهم كانوا في تلك الرمال بينها أودية يزرعون فيها ويعيشون. وسيأتي في سورة الفجر قول من قال من العلماء: إنهم كانوا رُحّلاً يذهبون بالمواشي؛ لأنه أحد القولين في قوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧﴾ [الفجر: آية ٧] لأن أحد القولين في معنى: ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ أنهم أصحاب عمود يرتحلون ويبنون خيمهم على العمد؛ ولذا قيل لهم: ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ على أحد الوجهين.

والوجه الثاني: أنهم لقوة أجسامهم وعظمها وطولها وبدانتها قيل فيهم: ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ لشدة اعتماد أجسامهم وقوتها كما يأتي هناك[(١)]. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾ [الأعراف: آية ٦٩] أي: في الأرض في عافية وطمأنينة ورفاهية من الدنيا من بعد قوم نوح. والآية تشير إلى تهديد، يعني: كما أن قوم نوح لما كذبوا نوحاً دمَّرهم الله وأهلكهم، وجعلكم خلفاء في الأرض من بعدهم فاحذروا أن تفعلوا مثل فعلهم؛ لئلا يهلككم ويجعل خلفاء الأرض بعدكم غيركم. فيه تهديد وتذكير بالنعمة. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾.

وبعض علماء العربية[(٢)] يقولون: (إذ) ها هنا مفعول به لا مفعول فيه. أعني: أنها مفعولاً وليست ظرفاً. والمعنى: ﴿ٱذۡكُرُوٓاْ﴾ تذكروا الوقت الذي جعلكم فيه خلفاء من بعد قوم نوح تذكراً يحملكم على شكر نعمة الله، والخوف من نِقَمِه أن ينزل بكم مثل ما أنزل بقوم نوح. وهذا معنى قوله: ﴿إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف: آية ٦٩] الذين أهلكهم الطوفان إهلاكاً مستأصلاً.

﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾ [الأعراف: آية ٦٩] في هذا الحرف قراءتان سبعيتان[(٣)]: ﴿بصطة﴾ بالصاد، و ﴿بسطة﴾ بالسين. فقوله:

---

(١) انظر: ابن كثير (٤/٥٠٧).

(٢) وهو قول الزمخشري في الكشاف (٢/٦٩). وانظر: الدر المصون (٥/٣٦٠).

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٤٨.

﴿وزادكم في الخلق بصطة﴾ بالصاد هي قراءة نافع، والكسائي، وقراءة ابن كثير في رواية البزيّ خاصة، وقراءة عاصم في رواية شعبة خاصة، وقراءة ابن عامر في رواية ابن ذكوان خاصة. أما حمزة فقرأها عنه خلاد بالوجهين: ﴿بصطة﴾ بالصاد، و﴿بسطة﴾ بالسين. فقد قرأها خلاد عن حمزة بالوجهين، وقرأها نافع، وأبو عمرو، والبزي عن ابن كثير، وشعبة عن عاصم، وابن ذكوان عن ابن عامر، كل هؤلاء قرؤوا: ﴿بصطة﴾ بالصاد. وقرأها الباقون بالسين، والباقون الذين قرؤوها بالسين هم: أبو عمرو، وعاصم في رواية حفص، وابن عامر في رواية هشام، وابن كثير في رواية قنبل، وحمزة في رواية خلف، كل هؤلاء قرؤوا: ﴿بسطة﴾.

وما ذكره الشاطبي[١] وغيره من أن ابن ذكوان له عن ابن عامر فيها: (السين والصاد) كقراءة خلاد عن حمزة ليس يصح عند المحققين؛ لأن جميع روايات الشاطبي إنما هي من طريق أبي عمرو الداني، وأبو عمرو الداني لم يذكر عن أحد ممن ذكر عنهم القراءات عن ابن ذكوان في قراءة ابن عامر إلا ﴿بصطة﴾ بالصاد خاصة، ولم يرو عنه السين عن أحد، فهذان هما القراءتان السبعيتان. والبسطة والبصطة معناهما واحد، وإنما أُبدلت السين صاداً في قراءة من قرأ: ﴿بصطة﴾ بالصاد نظراً إلى حرف الإطباق الذي بعد السين وهو الطاء، ولذلك تُبْدَل السين صاداً كثيراً إذا كان بعدها حرف من حروف الإطباق، والأصل (بسطة) بالسين.

والبسط: أصله الزيادة. والمعنى: زادكم في خلق أجسامكم بسطة. أي: زيادة على خلق الناس في الطول وعظم الأبدان وقوتها وبدانتها، كما يأتي في سورة فصلت قول بعض العلماء: إنهم ـ قبحهم الله ـ زعموا أنه لا يمكن أن تقهرهم قوة ولو قوة الله (عز وجل) ـ قبحهم الله ـ كما يأتي قول من قال بذلك في قوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: آية ١٥] من هو الذي يكون أشد منا قوة حتى يقهرنا؟ ثم إن الله بين أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة. ولما أرسل

---

(١) انظر: الوافي في شرح الشاطبية ص٢٢٠.

عليهم الريح العقيم علموا أنهم ضعاف غاية الضعف إذا جاءتهم قوة رب العالمين التي يهلكهم بها ويسلطها عليهم، وهذا معنى قوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾.

﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ ذكَّرهم نبي الله هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، أمرهم أن يذكروا آلاء الله. وآلاء الله: نعمه المتواترة عليهم، من الصحة والعافية وقوة الأبدان، وما يسر لهم من الأرزاق والرفاهية في الدنيا. والآلاء: النعم، واحده (إِلىً) بكسر الهمزة وفتح اللام مقصوراً، كعنب وأعناب. ويقال فيه: (إِلْيٌ) و (أَلْوٌ) و (أَلْآء) وأكثرها في مفرد الآلاء: (إِلىً) بكسرٍ ففتح[١]، والمراد به النعمة. والآلاء: النعم ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: تذكروا نعم الله الكثيرة التي لا تُحصى، التي أنعمها عليكم ذكراً يحملكم على طاعة الله، وتصديق رسوله، وعبادته وحده، وترك عبادة الأصنام.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والآية تدل على أن من تذكر نعم الله عليه ذكراً يحمله على شكر تلك النعمة والخضوع لله والإنابة إليه بطاعته أنه يفلح؛ ولذا رتب على قوله: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فإنكم إن ذكرتم آلاء الله يرجى لكم الفلاح، بناء على أن (لعل) على بابها من الترجي بحسب ما يظهر لهود (عليه الصلاة والسلام). وعلى أنها حرف تعليل فالمعنى: اذكروا نعمة الله لأجل أن تفلحوا.

وقد بينا مراراً[٢] أن العرب تقول: أفلح الرجل يفلح فلاحاً. والفلاح: اسم المصدر، والقياس في مصدرها: (إفلاحاً)؛ لأن المقرر في فن التصريف: أن كل ماض جاء على وزن (أفعل) فالقياس في مصدره أن يكون (إفعالًا) ما لم يكن معتل العين، فإن كان معتل العين سقطت العين بالاعتلال وعُوضت منها التاء على الرواية الكثيرة الفصيحة، كما هو معروف في علم العربية، موضح في فن التصريف. فالفلاح اسم مصدر.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/٥٠٦)، القرطبي (٧/٢٣٧)، الدر المصون (٥/٣٦٠)، تفسير المشكل من غريب القرآن ص٨٥.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٨) من هذه السورة.

والفلاح في لغة العرب: يطلق على معنيين كما بيناه مراراً، يطلق الفلاح في لغة العرب على الفوز بالمطلوب الأكبر، تقول العرب: أفلح فلان. إذا فاز بأعظم مطلوب كان يطلبه. فمن نال رغبته وحصَّل مطلوبه تقول له العرب: أفلح. وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول لبيد بن ربيعة(١):

فاعقلي إن كنت لمَّا تعقلي ولقد أفلح من كان عَقَل

يعني: من أعطاه الله نور العقل فاز بالمطلوب الأكبر، لأن العقل يعقله عما لا ينبغي، ويميز به الحسن والقبيح، والنافع والضار، والحق والباطل.

ويطلق الفلاح في لغة العرب أيضاً على البقاء السرمدي الدائم في النعيم، تقول العرب: أفلح فلان. إذا كان باقياً في نعيم سرمدي. وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول لبيد بن ربيعة أيضاً في رجزه(٢):

لو أن حَياً مدرك الفلاحِ لنالَه مُلاعبُ الرماحِ

وقوله: «مدرك الفلاح» أي: مدرك البقاء في الدنيا بلا موت. ومنه بهذا المعنى قول كعب بن زهير، أو الأضبط بن قريع في الشعر المشهور(٣):

لكلِ همٍّ من الهمومِ سَعَة والمُسْيُ والصبحُ لا فلاحَ معه

يعني أنه لا بقاء في الدنيا مع تخالف الإمساء والإصباح. وبهذين المعنيين اللذين هما البقاء السرمدي في النعيم، والفوز بالمطلوب الأكبر، بكل واحد منهما جاء تفسير حديث الأذان والإقامة في قوله: «حي على الفلاح» فقال بعض العلماء: «حي على الفلاح» هلم إلى الفوز بالمطلوب الأكبر وهو الجنة ورضىٰ الله؛ لأن أعظم أسباب ذلك: الصلاة.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١١) من سورة الأنعام.

(٣) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

القول الثاني: «حي على الفلاح» هلم إلى البقاء السرمدي في جنات النعيم؛ لأن أكبر أسباب ذلك: الصلاة كما هو معروف في تفسير حديث الأذان والإقامة. وهذا معنى قوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: آية ٦٩] هذه عادة الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - بعظم التذكير، وشدة النصح، ولطافة الأسلوب، والاجتهاد في هدى قومهم، ولكن الهدى بيد الله ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: آية ٤١].

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)﴾ [الأعراف: الآيات ٧٠، ٧٢].

لما نصح نبي الله هود قومه هذا النصح الكريم، وذكَّرهم بآلاء الله ونعمه، وأشار لهم إلى أن الله أهلك من كان قبلهم لما عصوا وتمردوا، وكان قد خوفهم قبل هذا وهددهم بأنهم إن لم يؤمنوا بالله أهلكهم الله وعذبهم، قالوا له هذا الجواب الخبيث الذي هو في غاية الخبث وبذاءة اللسان والعتو والتمرد على الله ﴿قَالُوا﴾ أي: قال: قوم هود لهود: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ يا هود بهذه الدعوى التي جئت بها، والدين الذي تزعم وتدعو إليه لتصرفنا عن آلهتنا التي كنا نعبدها ﴿لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ نعبد إلهاً واحداً لا نشرك به شيئاً آخر من الآلهة ﴿وَنَذَرَ﴾ أي: ونترك ﴿مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الآلهة. فقوله: ﴿وَنَذَرَ﴾ معناه: نترك. وهذا الفعل لا يوجد منه في العربية إلا مضارعه وأمره، تقول: «يذر الأمر» بمعنى: يتركه، و (ذر) بمعنى: اترك. ولا يُستعمل منه في العربية إلا الأمر والمضارع، فماضيه: (ترك)، واسم فاعله: (تارك)، واسم مفعوله: (متروك)، ومصدره: (الترك)؛ لأنه لا يوجد منه إلا الأمر والمضارع[1]. فمعنى ﴿لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ [الأعراف: آية ٧٠] أي: لنفرد خالق السماوات والأرض وحده

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

بالعبادة ﴿وَنَذَرَ﴾ أي: ونترك ﴿مَا كَانَ﴾ أي: عبادة ما كان يعبده آباؤنا من قبلنا من هذه الآلهة والأصنام.

وكانت عندهم أصنام يسمونها، كما دل عليه قوله: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ [الأعراف: آية ٧١] والمؤرخون وأهل الأخبار يزعمون أن منها صنماً يُسمى: صداء أو (صمدا)، وصنماً يسمى: (صمودا) وصنماً يسمى: (الهباء)[١]. وهم يعبدون هذه الأصنام ويسمونها بهذه الأسماء.

﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ﴾ هذا إنكار منهم، وهم ينكرون أعظم الحق وأوضح الحجج، وهي توحيد رب العالمين. ﴿وَنَذَرَ﴾ أي: ونترك ﴿مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من قبلنا. ثم قالوا له: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ نحن لا نصدقك أبداً ولا نؤمن لك أبداً، فالعذاب الذي تهددنا به عجّل به علينا، فإن كان عندك شيء أو صدق فأت بالذي تهددنا به وتخوفنا به، إن كنت صادقاً في ذلك الوعيد فهات العذاب وعجله. وهذا أعظم طغيان وتمّرد، كما قال كفار مكة: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: آية ٣٢] وقالوا: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: آية ١٦] فاستعجلوا بالعذاب وأظهروا التمرد النهائي، وأنهم لا يرتدعون ولا ينكفون عن كفرهم. ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: بالذي تعدنا به من العذاب، وعذاب الله لنا في زعمك إن كنت من جملة الصادقين فهات الذي تهددنا به، تمرداً على الله، وتعجيزاً لرسوله، واستخفافاً بدعوة نبيه ـ قبحهم الله ـ فأوحي إلى هود في ذلك الوقت أن القول حقّ عليهم، وأن العذاب وجب عليهم، وأن الله قضى أمره فيهم فقال ـ بسبب ذلك ـ هود: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: آية ٧١] جزم بأنه وقع عليهم بالفعل؛ لأن [المتوقع

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٢١/١)، وفي تفسير ابن جرير (٥٠٧/١٢)، «صُداء» و «صمود» و «الهباء». وفي ابن كثير (٢٢٥/٢)، كما في الأصل عدا الأخير (الهنا) وهو تحريف كما لا يخفى. وانظر: (تكملة أسماء الأصنام) وهو ملحق في آخر كتاب الأصنام لابن الكلبي ص١١٠، ١١١، وانظر كذلك: الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام ص١٤٨ ـ ١٤٩.

كالواقع][1]؛ لأن الله حكم به. ومن أساليب اللغة العربية: إطلاق الفعل الماضي مراداً به المستقبل إيذاناً بتحقق الوقوع، وهو كثير في القرآن العظيم جداً وفي كلام العرب[2]، ومنه في القرآن: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ يعني القيامة، بدليل: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: آية ١] وأكثر الله منه في سورة الزمر حيث قال: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ [الزمر: الآيات ٦٩ - ٧٣] كل هذه الأفعال الماضية المذكورة في الزمر معناها: الاستقبال، وإنما عُبِّر عنها بالماضي إيذاناً بتحقق الوقوع.

والرِّجْز هنا: العذاب. قال بعض العلماء: أصله من الارتجاز، وهو الاضطراب؛ لأن المعذب يبقى في الاضطراب. وهو (رجس) بالسين هنا. ﴿رِجۡسٌ﴾ أي: عذاب. وربما يقال للرجس: (رجز) بالسين والزاي. ومعناه: العذاب. والمعنى: وقع عليكم عذاب وغضب كائن من ربكم فمعناه أن الله غضب عليكم، وأنه معذبكم عذاباً مستأصلًا لا محالة.

والغضب وصْفٌ وصَفَ الله به نفسه إذا انتُهكت حرماته. فنحن معاشر المسلمين نمشي على ما كان عليه السلف الصالح نُمر كل الصفات كما جاءت، ونصدق ربنا فيما وصف به نفسه مع التنزيه التام الكامل عن مشابهة صفات المخلوقين، على نحو: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] كما أوضحناه في آية: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: آية ٥٤].

ثم قال لهم نبي الله هود: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي﴾ معناه: تخاصمونني وتنازعونني ﴿فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ أنا أدعوكم إلى عبادة الواحد الجبار، خالق السماوات والأرض الذي هو يرزقكم ويميتكم ويحييكم، وأنتم تخاصمونني وتجادلونني لتعبدوا أسماء بلا مسميات، لا حقيقة لها، لا تنفع ولا تضر، فهذا أمرٌ جدير بأن يُنكر.

والمجادلة: المخاصمة. قال بعض العلماء: أصل اشتقاقها من

---

(١) في الأصل: «الواقع كالمتوقع». وهو سبق لسان.

(٢) راجع ما مضى عند تفسير الآية (١٤٨) من سورة الأنعام.

(الجِدَالة)، والجِدَالة: الأرض، وجدّله: إذا تركه صريعاً في الأرض. قالوا: كأن المتضاربَيْن في الخصام كلٌ منهما يريد أن يُسقط صاحبه حتى يُجَدِّله. هكذا قال بعضهم والله أعلم[1].

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ﴾ أي: في أصنامكم، وإنما هي أسماء بلا مسميات؛ لأنكم تزعمون أنها آلهة، وأنها معبودات!! ومعنى الإلهية واستحقاق العبادة منفيٌ عنها نفياً باتاً، فهي اسم بلا مسمىً؛ شيءٌ اختلقته ألسنتكم لا حقيقة له في نفس الأمر. تجادلونني فيها زاعمين أنها لا بد أن تُعبد مع الله، وأنها شركاء له يُصْرَف لها من الحقوق كما يُصرف له.

﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ هم الذين اخترقوا لها هذه الأسماء بلا مسميات، إذ الأسماء التي وضعتم لها ليس لها أساس من الحقيقة ولا من الصحة. فليست بآلهة ألبتة، وليست بمستحقة للعبادة ألبتة، كما صرح الله بذلك في قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: آية ٦٦] يعني: هؤلاء الذين يتبعونهم ليسوا شركاء ألبتة في الحقيقة.

ثم قال: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ﴾ لأن هذه الآلهة التي تعبدون ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: بعبادتها واستحقاقها للعبادة ﴿مِن سُلْطَٰنٍ ۚ﴾ أي: من حجة واضحة أبداً، بل الذي نزّله الله من الحجج القاطعة مَنْعَ عبادتها، وكُفْرَ عابدها، وخلوده في النار.

ثم قال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ انتظروا ماذا يحدث عليكم من الله وهو الغضب والهلاك الذي وعدتكم به أنه وجب وحقَّ عليكم.

﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ وسوف تعلمون عن طريق ذلك الانتظار هل يقع عليكم ما وعدتكم به أو لا يقع. وهو تهديد عظيم.

ثم إن الله بيّن مصير الجميع، قال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [الأعراف: آية ٧٢] فأنجينا هوداً والذين آمنوا معه ـ وهم طائفة قليلة ـ

---

(١) انظر: المفردات (مادة: جدل) ص١٨٩.

أنجيناهم برحمةٍ مِنَّا. وذلك الإنجاء من عذاب شديد، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: آية ٥٨].

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ قوله: «قطع الله دابرهم» معناه: استأصلهم عن آخرهم؛ لأن النسل كأنه دابر للآباء، فالدابر هو الذي يتبعك عند دبرك، فكأن الآباء أمة سالفةٌ، ونسلهم شيءٌ تابعٌ أدبارهم، ناشيءٌ بعدهم. فإذاً قَطْع الدابر معناه: أُهلكوا عن آخرهم فلم يبق منهم نسل يَدْبُرهم، أي: يمشي في دبرهم سالكاً الحياة بعدهم. فقَطْع الدابر معناه: إهلاكهم المستأصل بحيث لا يبقىٰ لهم نسل في الأرض يكون حياً عن دبرٍ منهم، بل أهلكهم الله جميعاً، ولم يترك منهم داعياً ولا مجيباً.

والمفسرون يذكرون قصتهم[(١)] هنا، ويذكره الأخباريون[(٢)] وبعضها جاء به بعض الأحاديث، كما جاء في حديث عن الإمام أحمد[(٣)].

والذي يعرف التاريخ معرفةً لا بأس بها يظهر له أن كثيراً مما يزعمه المؤرخون في قصة عاد أنه ليس من الشيء الصحيح. ومعلوم أن التاريخ والسير كالإسرائيليات، منها ما هو صحيح، ومنها ما ليس بصحيح، فتُحكىٰ ليُعتبر بما فيها من الغرائب والعجائب، ويُنتفع بما تشير إليه من اجتلاب المصالح وتجنب المضار، ولا يُحكم بصحة شيءٍ منها إلا شيء قام عليه دليل من كتاب أو سنة.

والمفسرون يذكرون في قصتهم أنهم لما تمردوا هذا التمرد العظيم على نبي الله هود، وأراد الله أن يُهلكهم أمسك عنهم المطر ثلاث سنين،

---

(١) انظر: ابن جرير (٥٠٨/١٢)، ابن كثير (٢٢٥/٢).

(٢) انظر: البداية والنهاية (١٢٦/١).

(٣) أحمد (٤٨١/٣، ٤٨٢)، والترمذي في تفسير القرآن، باب: «ومن سورة الذاريات» حديث رقم (٣٢٧٣، ٣٢٧٤)، (٣٩١/٥، ٣٩٢)، وابن ماجه في الجهاد مختصراً باب: (الرايات والألوية). حديث رقم (٢٨١٦)، (٩٤١/٢)، وابن جرير (٥١٣/١٢، ٥١٦).
وانظر: صحيح الترمذي، حديث رقم (٢٦١١)، وصحيح ابن ماجه، حديث رقم (٢٢٧٢)، والسلسلة الصحيحة (١٣٧/٥).

فقحطت أرضهم وأجدبوا وجاعوا، وأضعفهم القحط وكاد يُهلكهم. ويزعمون أن عادة الناس في ذلك الزمان أن من أصابه كربٌ أو بلاء يرسلون من يدعو الله لهم عند بيته الحرام؛ لأنهم يظنون أن الله إذا دُعي عند بيته الحرام لا يَرُدُّ من دعاه ولا يخيّبه. فلما وقع بهم ما وقع جهزوا وفداً منهم، يزعمون أنه يقرب من سبعين رجلًا، كبيرهم: قَيْل بن عنز، المشهور في التاريخ، وأرسلوا معه جماعة من كبرائهم ـ يزعم المؤرخون أن منهم: نعيم بن هزَّالة، ومنهم: مرثد بن سعد. وكان مرثد بن سعد فيما يزعمون ممن آمن بهود، وكان يكتم إيمانه ـ ويزعمون أن الذين عند مكة في ذلك الوقت العمالقة، والعمالقة: أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وأن رئيسهم في ذلك الزمان يُسمَّىٰ: معاوية بن بكر، وأن أخواله عاد، وهم أخواله وأصهاره، وأنه كان نازلًا بظاهر مكة خارجاً عن الحرم، وأن الوفد الذي أُرسله عاد ليستسقي الله لهم عند بيت الله الحرام نزلوا عند معاوية بن بكر رئيس العماليق، وكان عادٌ أخوالَه وأصهارَه، وكان عنده قينتان يغنيان، اسمهما: الجرادتان، وأن رئيس العماليق ـ وهو معاوية بن بكر ـ مكث عنده الوفد العادي شهراً، يسقيهم الخمر، ويُحسن إليهم، وتغنيهم الجرادتان، حتى نسوا ما جاؤوا من أجله.

وكان معاوية بن بكر ـ فيما يزعمه المؤرخون والمفسرون ـ رق لأخواله وأصهاره عاد، وأساءته حالة وفدهم، ولم يقدر أن يبين لهم شيئاً لئلا يظنوا أنه مستثقل بضيافتهم، فاستشار قينتيه فقالا: قل شعراً تنبههم به ونغنيهم بذلك الشعر لينتبهوا، وأن معاوية بن بكر ابتدع الشعر المذكور المعروف الذي نبههم به، وأن الجرادتان [غنتاهم][1] بذلك الشعر، [وأنهم لما غنتاهم][2] الجرادتان به انتبهوا وذهبوا إلى بيت الله الحرام فقام قَيْل يدعو عند البيت، ويزعم المؤرخون والمفسرون أنه طلعت سحابات، وناداه منادٍ: اختر أيها شئت؟! وأنه اختار السوداء، وأنه سمع فيها قائلًا يقول:

---

(١) في الأصل: «غنتهما».
(٢) في الأصل: «وأنهما لما غنتهما».

اخْتَرتَ رماداً رمدداً، لا يترك من عادٍ أحداً، لا والداً ولا ولداً. وأن تلك السحابة ذهبت إليهم وجاءت من قِبَل وادٍ لهم يسمونه: المغيث، ففرحوا بها وقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: آية ٢٤] ويزعم المؤرخون أن منهم امرأة تسمى: مميد[1]، أنها صُعقت، فلما أفاقت قالوا: ما بالك؟ قالت: رأيتُ في العارض الذي تظنونه مطراً، شيئاً كالنار معهُ رياح، تقوده رجال، وفيه هلاك. فأرسل الله عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة: الآيتان ٦، ٧] إلى غير ذلك من الآيات.

والشعر الذي اخترعه معاوية بن بكر ونبّه به وفد العاديين هو قوله فيما يذكر المفسرون وأصحاب السير والأخبار، أنه قال[2]:

ألا يا قَيْلَ ويْحكَ قُم فَهَيْنِم ... لعل الله يسقينا غَماماً
فيسقي أرضَ عادٍ إنّ عاداً ... قد أهْمَموا أمْسَوا لا يُبْينُون الكلامَا
من العطشِ الشديدِ فليسَ نرجُوا ... به الشيخَ الكبيرَ ولا الغُلامَا
وقد كانت نساؤُهم بخيرٍ ... فقد أمستْ نساؤُهم أيَامَا
وإن الوحشَ تأتيهم جِهَاراً ... ولا تخشَى لعاديّ سِهَامَا
وأنتمُ هَا هُنَا فيما اشتهيتُم ... نهاركم وليلكم التمامَا
فَقُبِّح وفدكم من وفدِ قومٍ ... ولا لُقُّوا التحيةَ والسلامَا

هكذا يزعمه المفسرون والمؤرخون، ويزعمون أنّ وقت إهلاك عاد أن الذين على مكة أنهم العمالقة. والناظر في التاريخ يستريب في هذا ولا يصدقه؛ لأن المعروف في التاريخ أن بيت الله الحرام لما اندرس من أيام طوفان نوح أنه لم يُبْنَ قبل أن بناه إبراهيم وإسماعيل بناءهما المشهور

---

(١) هكذا في تفسير ابن كثير (٢/٢٢٦)، وفي البداية والنهاية (١/١٢٧): (فهد).
وفي تفسير ابن جرير (١٢/٥١٢)، : (مَهْدَد).

(٢) الأبيات في تفسير ابن جرير (١٢/٥١٠)، تفسير ابن كثير (٢/٢٢٥ ـ ٢٢٦)، البداية والنهاية (١/١٢٦ ـ ١٢٧).

المذكور في القرآن العظيم، وأنه قبل ذلك كان مندرساً لا يُعرف له محل كما قال الله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: آية ٢٦] ووجدوه في ذلك الوقت كان محل مربض لغُنيمة لرجل من جرهم.

والمؤرخون يذكرون أنّ الله لما أنبع ماء زمزم لهاجر وإسماعيل أن أول من ساكنها العمالق، وهم أولاد عمليق. وهم من العرب البائدة؛ لأن العرب نوعان: عربٌ بائدة[١]: أي: هلكوا عن آخرهم ولم يبقَ لهم نسل، وهم قبائل معروفة، منهم عاد وجرهم، ومنهم ثمود، ومنهم أُميم وعبيل، وجديس وطسم من العرب البائدة المعروفة الذين هلكوا عن آخرهم[٢]. وجاء في بعض الأحاديث ما يدل على أنّ أول من ساكن هاجر جرهم[٣] ويمكن أن يُحْمَل على أنهم أول من ساكنها بعد زوال العمالق[٤].

والمذكور في التاريخ[٥] المعروف عند المؤرخين أنّ ماء زمزم لما نبع لهاجر وإسماعيل مرّ بهم قوم من العماليق كانوا مسافرين، وكانت مكة في ذلك الوقت لا يُعْرَف بها ماء، فَرَأَوا طير الماء، فجاؤوا فوجدوا هاجر وإسماعيل واستأذنوهم في المساكنة، واشترطت عليهم هاجر أنّ الماء لها، ولم يزل العمالق معهم حتى بغوا وطغوا في الحرم، وشبّ إسماعيل، فسلّط الله عليهم جرهماً ـ وهم من العرب البائدة، من ذرية سام بن نوح، خلافاً لمن قال من المؤرخين: إن نفس جرهم كان مسلماً من الذين دخلوا في السفينة مع نوح. والصحيح الذي عليه جمهور المؤرخين: أنه من ذرية سام بن نوح ـ فسلّط الله عليهم جرهماً، وكان رئيسهم مضاض بن عمرو

---

(١) وهم العرب العاربة. ولم يذكر النوع الثاني وهم العرب المستعربة.

(٢) انظر: البداية والنهاية (١/١٢٠)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١/٢٩٤ ـ ٢٩٨)، صبح الأعشى (١/٣١٣)، فما بعدها.

(٣) يشير إلى الحديث الطويل في قصة هاجر وإسماعيل ونبع ماء زمزم. وهو في البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: يزفون: النسلان في المشي، حديث رقم (٣٣٦٤)، (٣٣٦٥)، (٦/٣٩٦ ـ ٣٩٩).

(٤) قال الحافظ في الفتح: (٦/٤٠٣): «وقيل إن أصلهم من العمالقة» ا.هـ.

(٥) انظر: تاريخ الطبري (١/١٣٠).

الجرهمي، الذي زوّج ابنته رَحْلَة لإسماعيل، وهي صاحبة القصة المشهورة الذي قال لها إبراهيم، إذا جاء زوجك فقولي له: ليثبت عتبة بابه(١). ولم تزل جرهم حتى شب فيهم إسماعيل، وتزوج منهم، وتعلّم منهم العربية، وكانت سدانة البيت عند أولاد إسماعيل إلى آخرهم نابت بن إسماعيل، فلما مات نابت أخذ الجرهميون مفاتيح الكعبة، وصارت عندهم سدانة البيت، كما قال شاعرهم لما أجلتهم خزاعة(٢):

وكُنا ولاةَ البيتِ من بعد نابتٍ نَطُوفُ بذاك البيتِ والخيرُ ظاهرُ

فأُرسل نبي الله إسماعيل لجرهم في مكة المكرمة، ثم مات إسماعيل وكبار أولاده، وأخذ الجرهميون سدانة البيت، ولم يزل البيت عند جرهم، وقد بنوه جرهم أيام ولايتهم عليه، كما قال زهير بن أبي سُلمى في معلقته(٣):

فأقسمتُ بالبيتِ الذي طافَ حولَه رجالٌ بَنَوهُ من قريشٍ وجُرْهُم

ولم يزل جرهم هم أهل بيت الله الحرام حتى طغوا وبغوا.

ويزعم المؤرخون أنّ رجلًا منهم يُسمى (إسافاً) وامرأة تسُمى (نائلة) دخلا جوف الكعبة فزنى بها في جوف الكعبة، وأن الله مسخهما حجرين، وأنهما هما الصنمان اللذان أخذهما الخبيث الخسيس اللعين: عمرو بن لُحي ـ الذي ضيَّع بقايا دين إبراهيم، وجاء بعبادة الأصنام، وبحَّر البحائر والسوائب ـ ووضع أحدهما على الصفا، والثاني على المروة، وكانوا يسجدون لهما في المسعى!! وأشار لهما أبو طالب في لاميته المشهورة حيث قال(٤):

وحيثُ يلقي الأشعرون رحالهم بملقى الرفاق من أسافٍ ونائلِ

---

(١) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٢) البيت لعمرو بن الحارث بن مضاض من قصيدة له ذكرها ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٨٦/٢).

(٣) شرح القصائد المشهورات (١٠٨/٢).

(٤) البيت في البداية والنهاية (١٩١/٢).

فلما بغى جرهم وطغوا في الأرض سلّط الله عليهم خزاعة. وخزاعة أصلهم من العرب المذبذبة، أكثر المؤرخين يقولون: إنهم من سبأ، وأن الله لما أرسل سيل العرم على سبأ ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ صارت خزاعة منهم إلى الحجاز ونزلوا على جرهم في بيت الله الحرام[١].

وبعض العلماء يزعم أنّ خزاعة من أبناء قَمَعَة الذين منهم عمرو بن لحي بن قَمَعَة[٢]، وقمعة بن إلياس. وإلياس أولاده هم الذين يسمون: خِنْدَفاً؛ لأن إلياس بن مضر جد النبي ﷺ يزعم أهل السير والأخبار[٣] أن امرأته تُسمى: ليلى، وهي بنت الحارث بن قضاعة[٤]، وأن إبلهم ضاعت فتبعها عمرو بن إلياس فأدرك الإبل فسُمِّي مدركة، وهو جد النبي ﷺ، مدركة بن إلياس. وأن قمعة قمع بالبيت فقام به فسُمِّي قمعة[٥]. ومن نسله عمرو بن لُحي الخبيث[٦].

وخزاعة على قول من يقول: إنهم خِنْدَفيون لا أنهم من سبأ، وأن أحد أولاده[٧] اصطاد أرنباً فطبخه فسُمي طابخة، وهو جد تميم، وأن تميم بن مر بن أُد بن طابخة، وقبائل الرِّباب: بنو تيم، وبنو عدي، وبنو عكل، وضبة وبنو ثور وبنو عجل[٨] وهم قبائل الرباب الذين تحالفوا على

---

(١) المصدر السابق (٢/١٨٧)، السيرة لابن هشام (١/١٠٦).
(٢) انظر: السيرة لابن هشام (١/٨٨)، البداية والنهاية (٢/١٩٩).
(٣) انظر: السيرة لابن هشام (١/٨٨)، البداية والنهاية (٢/١٩٩).
(٤) في طبقات ابن سعد (١/٣٦)، تاريخ الطبري (٢/١٨٩) ومعجم البلدان (٢/٥٠٨)، ومعجم ما استعجم (٣/٨٥٩): «ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة». وتُسَمَّى أيضاً: خِنْدَفاً.
(٥) في تاريخ الطبري (٢/١٨٩): «وانقمع عمير في الخباء فلم يخرج، فسميّ قمعة» ا.هـ. والروايات في مدركة وطابخة متناقضة، فبعضها كما ذكر الشيخ هنا، وبعضها على العكس حيث تقول: إن عَمراً هو طابخة، وأن أخاه عامراً هو مدركة.
(٦) انظر: تاريخ الطبري (٢/١٨٩)، السيرة لابن هشام (١/٨٨)، البداية والنهاية (٢/١٩٩).
(٧) أي: أولاد إلياس.
(٨) انظر: المعارف لابن قتيبة ص٧٤، الأنساب للسمعاني (٣/٣٩)، بلوغ الأرب (١/٢١)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١/٤٠٢).

رُبٌ[١] مع تميم وصاروا ينسبون إليهم وقال فيهم الشاعر[٢]:

يَعُدُّ الناسِبُون إلى تميم ... بيوتَ المجدِ أربعةً كباراً
يعدون الربابَ وآل سعدٍ ... وعَمْراً ثم حنظلة الخيارا
ويسقط بينها المرّي عفواً ... كما ألغيتَ في الدية الحُوارا

وكذلك بنو مزينة الذين منهم زهير وأولاده، وهم من أُد بن طابخة. هكذا يقول المفسرون. ثم لم يزل البيت عند خزاعة فسلطهم الله على جرهم فطردوهم شر طردة، وسلط الله الأمراض على جرهم، ولما طلع الجرهمي على أحد جبال مكة ورأى خزاعة مستولين على البيت ينحرون أباعر جرهم قال أبياته المشهورة المعروفة[٣]:

كأنْ لم يكنْ بين الحُجونِ إلى الصَّفَا ... أَنيسٌ ولم يَسْمرُ بمكةَ سَامِرُ
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صُروفُ الليالي والجُدُودُ العَواثِرُ
وكُنا ولاة البيتِ من بعد نَابتٍ ... نطوفُ بذاكَ البيتِ والخيرُ ظاهرُ

الأبيات المشهورة، ثم إن قصياً كان في الطائف ومعه أبو غُبْشَان سيد خزاعة الذي بيده مفاتيح الكعبة، فسقاه خمراً حتى سكر، واشترى منه البيت

---

(١) جاء في الأنساب (٣٩/٣): «وإنما سموا الرباب لأنهم تربوا ـ أي: تحالفوا ـ على بني سعد بن زيد مناة. وقال الكلبي في كتاب الألقاب قال: إنما سموا الرباب... أنهم غمسوا أيديهم في رُب فتحالفوا على بني تميم فسموا الرباب جميعاً، وخُصت تيم بالرباب» ا.هـ. ولم أقف على من عَدَّ بني عجل من الرباب، ففي الأنساب: نقلاً عن أبي عبيدة: «تيم الرباب: ثور وعدي وعكل ومزينة بنو عبد مناة بن أُدّ، وضبة بن أُدّ» ا.هـ. ونقل عن ابن الكلبي أنهم: «تيم وعدي وعوف والأشيب وثور أطحل وضبة بن أُدّ» ا.هـ. وفي بلوغ الأرب (٢١/١) (هامش): «الرباب ـ بالكسر ـ خمس قبائل تجمعوا فصاروا يداً واحدة، وهم: ضبة وثور وعكل وتيم وعدي» ا.هـ.

(٢) الأبيات في بلوغ الأرب (٢١/١). وصدر البيت الأخير: «ويذهب فيهما المري لغواً».

(٣) الأبيات لعمرو بن الحارث بن عمرو بن مُضاض، وهي في السيرة لابن هشام (١٣١/١)، البداية والنهاية (١٨٥/٢).

وقد سقط هنا ـ بعد البيت الأول ـ بيت من أبياتها وهو قوله:

فقُلتُ لها والقَلبُ منيّ كأنما ... يُلَجلِجهُ بين الجَنَاحَيْنِ طائرُ

الحرام وسدانته، وأخذ مفاتحه وباعه له وهو سكران بِزِقٍّ من خمر، وكتب عليه صك البيع، ولما استفاق ذلك وصحا من سكره ندم وصار بين قريش وخزاعة بعض حروب على ذلك، وفي الواقعة يقول الشاعر[١]:

باعَتْ خُزاعةُ بيتَ الله إذْ سكِرَتْ ... بِزِقِّ خمرٍ فَبِئْسَتْ صَفْقَتُ البَادي

وقع بينهم بعض الحروب والقتلىٰ فيما يذكره الأخباريون وأهل السير، فاستعان قصي بأخيه لأمه سيد قضاعة، وكانت القتلى أكثر في خزاعة، ثم تحاكموا إلى يَعْمَر الشَدَّاخ (يعمر الكناني) الذي يقول فيه امرئ القيس[٢]:

كِنَانِيَّة بانَتْ وفي الصَّدرِ وُدُّها ... مُجاوِرَةٌ غَسَّانَ والحي يَعْمُرا

وكان من حكام العرب، فحكم بأن تُشْدَخ دماء خزاعة، أي: تُهدر، وحكم بصحة البيع، وأن الكعبة لقصي[٣]. فأخذها قصي، وأخذ الوظائف المشهورة، وأعطاها لبني عبدالدار في خبر يطول.

والمقصود عندنا من هذا أن العمالق إنما سكنوا مكة بعد أن نبع ماء زمزم لهاجر وإسماعيل، وهذا هو المعروف في التاريخ. والمعروف أن عاداً هلكوا بأزمنة طويلة قبل وجود إبراهيم، وأن هوداً كان قبل إبراهيم، وهذا مما يشكك في أن هذه الأخبار السيرية ليست بصحيحة كما هو معروف، والله تعالى أعلم. إلا أن المفسرين يذكرون القصة كما ذكرنا.

ومعنى قوله: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: آية ٧١] الرجس هنا العذاب، قال بعضهم: أصله من الارتجاس، وهو: الاضطراب؛ لأن المُعذب يضطرب من شدة العذاب. والغضب: هو غضب الله الذي حل بهم.

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ السلطان: الحجة الواضحة التي لا تترك في الحق لبساً. قال بعض العلماء: هي من السلطنة والقهر؛ لأن المتمسك بها يقهر خصومه. وقال

(١) البيت في نهاية الأرب (١/٢٤٧).

(٢) ديوان امرىء القيس ص٥٩.

(٣) انظر: السيرة لابن هشام (١/١٤٠)، البداية والنهاية (٢/٢٠٧).

بعض العلماء: الألف والنون فيها زائدتان، وأصلها من السليط الذي يُوقد به ضوء المصباح؛ لأن الحجة الواضحة ضوؤها يكشف ظلام الجهل، وهو معروف، ومنه قول الشاعر(١):

كضوءِ السراجِ السَّليـ ... ـط لم يجْعَل الله فيه نُحاسَاً

ثم قال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: آية ٧١] صيغة الأمر هنا في قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ للتهديد وقد تَقَرَّر في فن المعاني في مبحث الإنشاء(٢)، وفي فن الأصول في مبحث الأمر(٣): أن من [المعاني التي ترد لها صيغة:](٤) (افعل) التهديد.

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ومعنى الانتظار: هو التربص لشيء يأتي.

﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي: أنجينا هوداً وأنجينا الذين آمنوا مع هود ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ لأنهم مؤمنون بنا ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: استأصلناهم بالهلاك، وذلك الهلاك بالريح العقيم.

ويذكرون في قصتهم أن الريح تقلع الرجل من مكانه فترفعه إلى السماء كأنه ريشة ثم تلقيه في الأرض منكساً على رأسه فينكسر رأسه، وتسقط أم رأسه. ويدل على هذه قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر: آية ٢٠] والنخل المنقعر معناه: المنقلع من الأرض بعروقه. وهذا يدل على عظم أجسادهم وطولها، وأن الله شبههم بقوله: ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ وإن كان العرب يشبهون القتلى مطلقاً بالنخل المنقعر، ومنه قول العباس بن مرداس السلمي(٥):

حتى رفَعْنَا وقتلاهُم كأنهُم ... نخلٌ بظاهرةِ البطحاءِ مُنقعرُ

(١) البيت للجعدي، وهو في تاريخ دمشق (٤٢/٤٦١)، وفي اللسان (مادة: سلط)، و(مادة: نحس)، جمهرة أشعار العرب للقرشي (١/١٣٧)، الكامل للمبرد (١/٤٧٧). وصدره في بعض المصادر: «يُضيء كضَوء سِرَاجِ...». وفي بعضها: «تُضيءُ كمثلِ سِراجِ الذُّبال».

(٢) انظر: الإيضاح للقزويني ص١٤٨.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٤) في الأصل: «صيغ».

(٥) البيت في ديوانه ص٧٢، وأوله: «حتى تولوا..».

وهذا معنى قوله: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: آية ٧٢] وإنما عُبِّر عن الاستئصال بقطع الدابر لأن الدابر هو الذي يمشي وراءك عند دبرك. تقول: مشى زيدٌ فَدبَرَهُ عمرو. معناه: كان يمشي في أثره عن دبر منه. والأولاد ـ النسل ـ كأنه دابر للآباء، إذا مات هؤلاء برز هذا دُبرهم يمشي من بعدهم حياً خلفهم. وقطْعُ الدابر معناه: إهلاك الجميع حتى لا يبقى به نسل يكون خلفاً من الآباء. بل الله دمر الجميع وأهلكهم عن آخرهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهذا يدل على أن التكذيب بآيات الله مستوجب للهلاك المستأصل.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ تأكيد. وما كانوا في علم الله مؤمنين أبداً؛ لأن الله طبعهم على الشقاوة ـ والعياذ بالله جل وعلا ـ.

ويزعم المفسرون أن نبي الله هوداً هو ومن معه إنما جاءهم من الرياح ريح باردة لينة قدر ما يكون مُستلذاً من الريح، ولم يَنَلْهُم منها شيء[1].

وزعم بعضهم أن هوداً توفي هنالك بجنب رمال حضرموت. وعن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أنه وصف لرجل من حضرموت كوماً من الرمل فيه أشجار وكذا وكذا حتى عرفه الحضرمي بالعلامات، فزعم له أن قبر هودٍ عنده[2].

وأكثر المؤرخين يقولون: إن هوداً لما أهلك الله قومه سار هو ومن آمن معه إلى الحجاز، وماتوا كلهم بمكة، هكذا يقولون والله تعالى أعلم. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

١٢/أ / قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٥١٣/١٢)، البداية والنهاية (١٣٠/١).

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١٣٥/١/١)، وابن جرير (٥٠٧/١٢)، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (١٣٠/١).

ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (٧٥)﴾ [الأعراف: الآيات ٧٣ ـ ٧٥].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾ [الأعراف: آية ٧٣].

هذه هي القصة الثالثة من قصص الأنبياء التي قص الله علينا في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأعراف ـ ذكر لنا قصة نوح وماذا قال لقومه، وماذا قالوا له، وماذا كان مصيرهم [ثم ذكر لنا قصة هود][١] مع عاد وماذا قال لهم وقالوا له، وماذا كان مصيرهم. ثم ذكر لنا القصة الثالثة وهي قصة صالح مع قومه ثمود، والله ـ جل وعلا ـ يُبين لنا هذه القصص ليس المراد مطلق تاريخ فقط وإنما يبينها للاعتبار، وليحذر الناس من معاصي الله، والتمرد على أوامره، وتكذيب رسله؛ لئلا ينزل بهم من الهلاك ما نزل بمن قبلهم كما قال نبي الله شعيبٌ لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩)﴾ [هود: آية ٨٩].

وقوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ﴾ عطف على قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] أي: لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ﴾ [الأعراف: آية ٦٥] أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ﴾. أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً.

ثمود: قبيلة من قبائل العرب البائدة الذين انقطع نسلهم، فهم من العرب البائدة. والمؤرخون يزعمون أنّ ثمود أنه ابن عابر، وبعضهم يقول: جاثر أو جائر بن إرم بن سام بن نوح[٢]. ونبي الله صالح ـ من نسبهم ـ من أوسطهم نسباً وأكرمهم بيتاً وحسباً، بعثه الله فيهم، وهو صالح بن عبيد بن

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (١٢/٥٢٤)، القرطبي (٧/٢٣٨)، البداية والنهاية (١/١٣٠).

آسف، من ذرية أروم من إرم بن سام بن نوح[١] من قبيلة ثمود، وهو من أوسطهم نسباً كما هي عادة الأنبياء. وهو نبي عربي كريم، أرسله الله إلى قبيلة عربية من العرب البائدة، كانت منازلهم بين الشام والحجاز في وادي القرى وما حوله، منازلهم معروفة إلى الآن، وآثار نحتهم للجبال باقية إلى الآن، كما يعرفه من يمر عليهم في طريقه إلى الشام من الحجاز، وبلادهم هي المسماة بالحِجر، وتأتي في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الحجر: الآيات ٨٠ ـ ٨٣].

لمّا أهلك الله عاداً استخلف في الأرض بعدهم قبيلة ثمود، وأكثر الله عليهم الأرزاق والنعم، ووسع لهم في المعاش، وعاثوا في الأرض وأفسدوا فيها، وعبدوا الأصنام، فأرسل الله إليهم نبيه صالحاً يُذكِّرهم، والمفسرون يقولون: لم يزل يدعوهم إلى الإسلام حتى بدا فيه الشَّمط، وهو البياض الذي يبدو في اللحية، أو الشيب الذي يدخل في الرأس يخالطه سواد، وهو يدعوهم إلى الله، وهم لا يزدادون إلا عتواً وتمرداً؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [النمل: آية ٤٥] ثمود جدهم. وأجمع من يُعْتَد به من القراء في هذا الحرف على عدم صرف ثمود، قرؤوا كلهم: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: آية ٧٣] مجرورٌ بالفتحة؛ لأنه غير منصرف؛ لأنه عَلَم مؤنث؛ لأن المراد عَلَم القبيلة، فاجتمعت فيه العلمية والتأنيث، فمُنِع من الصرف. ومن قرأ: ﴿وإلى ثمودٍ أخاهم صالحاً﴾ فهي قراءةٌ شاذة[٢]، والقراءات السبعية بعضها يأتي فيه صرف ثمود،

---

(١) في طبقات ابن سعد (١/٢٧): «صالح بن آسف بن كماشج بن أروم بن ثمود بن جاثر بن إرم بن سام بن نوح». وفي تاريخ الطبري (١/١١٥): «صالح بن عبيد بن آسف بن ماسخ بن عبيد بن خادر بن ثمود بن جاثر بن إرم بن سام بن نوح». وفي تفسير القرطبي: (٧/٢٣٨): «صالح بن عبيد بن آسف بن كاشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود». وفي البداية والنهاية (١/١٣٠): «صالح بن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجز بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح». كما ذكر المعلق في الهامش عن بعض النسخ ما يغاير بعض ما سبق. ولا يخفى أن بعض هذه الفروقات بسبب الأخطاء المطبعية.

(٢) انظر: إتحاف فضلاء البشر (٢/٥٣).

[وبعضها][(١)] يأتي فيه منعها من الصرف كما هو معروف. فمنعها من الصرف نظراً إلى تأنيث القبيلة، وأنه عَلَمٌ مؤنث، والعلمية والتأنيث مانعان من الصرف، ومن صرف ثمود فقال: (ثموداً) بتنوين الصرف، أراد جدهم الأكبر الذَّكَر ولم يُرد القبيلة فلم تجتمع علامتان مانعتان من الصرف، وهذا هو وجه كونه ينصرف في بعض المواضع ولا ينصرف في بعضها[(٢)].

أرسلنا إليهم ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾ أخاهم في النسب لا في الدين؛ لأن دينه يخالف دينهم، فلما جاءهم نبي الله صالح جاءهم بدعوة جميع الأنبياء وهي عبادة الله وحده ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ ليس لكم معبود يستحق أن يُعبد وحده سواه، بل هو (جلَّ وعلا) المعبود وحده، المستحق لأن يُفرد في العبادة ويُخْلَص له الدين؛ لأنه الخالق الرازق المحيي المميت الذي بيده الأمر، وإليه يصير كل شيء، فهو المعبود وحده.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾ البيّنة: هي الدليل الذي يقوم على الحق فيتركه واضحاً لا شبهة فيه، ومنه قيل للشهود على الحق: (بينة) لأنهم يثبتونه ويظهرون أنه حق حتى يبقى لا لبس فيه. فكل دليل يُظْهر الحق ويُبينه حتى لا يبقى فيه لبس تسميه العرب: (بينة). وهذه البينة جاءتهم من ربهم. (مِن) لابتداء الغاية. أعني: مبدأ إتيانها من ربكم. أي: خالقكم وسيّدكم ومدبر شؤونكم. فكأن قائلًا قال: ما هذه البيّنة والمعجزة الواضحة التي لم تترك في الحق لبساً، وأنّ صالحاً رسولٌ من ربِّ العالمين؟ فسر البينة بقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: آية ٧٣] يذكرون في قصتهم أن سيدهم كان رجلاً يُسمى: جندع بن عمرو. وبنو عمرو من سادات ثمود وبطونهم الكبار العظام، فلما ألحّ عليهم صالح في الدعاء إلى الله زعم المؤرخون[(٣)] والمفسرون[(٤)]

---

(١) في الأصل: «وبعضهم».

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (١٢/٥٢٥)، القرطبي (٧/٢٣٨)، الدر المصون (٥/٣٦١).

(٣) انظر: البداية والنهاية (١/١٣٤).

(٤) انظر: تفسير ابن جرير (١٢/٥٢٨).

أنهم قالوا له: «اذهب معنا إلى عيدنا الذي نجتمع فيه، فنذهب بأصنامنا وندعوا أصنامنا وتدعُو أنت إلهك، فإن استُجيب لأصنامنا اتَّبِعْنَا وإن استُجيب لإلهك اتبعناك. فقال لهم: نعم. فخرج معهم فدعوا أصنامهم فلم يستجيبوا لهم بشيء ـ كما هو معلوم لا يخفىٰ ـ فاقترح عليه سيّدهم، أو جماعتهم ـ تعنتاً ـ قالوا: هذه الصخرة ـ يزعمون أنها كانت صخرة كبيرة كالهضبة، ويزعمون أنها تُسمىٰ (الكاثبة) ـ أخرج لنا منها ناقة مخترجة. معناه: هي كالبختية، تكون جوفاء وبراء عُشراء، فإن أخرجتها لنا على هذا الوصف اتبعناك. فأخذ صالحٌ عليهم عهود الله ومواثيقه أنه إن أَخْرَجَ لهم الله تلك الناقة من تلك الصخرة الصّماء اتبعوه، فلما أخذ عليهم المواثيق يقول المفسرون: إنه قام فصلَّى ركعتين ودعا الله تعالى وهم ينظرون، فلما دعا الله تحركت الصخرة وتمخضت تمخض النَّتُوج عن ولدها، فانشقت عن تلك الناقة، عُشراء، وبراء، جوفاء، ضخمة بالغة في غاية الضخم. ثم إنها ولدت فصيلاً ضخماً مثلها وهم ينظرون، فلما عاينوا هذا أسلم رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه من الرهط الذين يطيعونه، وحاول كُبراء ثمود أن يُسلموا كلهم لما عاينوا من آيات الله، فجاءهم خبثاء منهم، منهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد، بعضهم يقول: ابن عمرو بن أسد، والحُباب صاحبا آلهتهم التي يسدنونها، ورباب بن صمعر، وجماعة من رؤسائهم، فزينوا لهم الارتداد، وأن لا يتبعوا صالحاً، فثبتوهم على الكفر والعياذ بالله. وكان فيهم رجل يُسمى: شهاب بن خليفة، ابن عم سيدهم جندع بن عمرو، كان من أعز الفتيان في ثمود، ومن أفاضلهم وأماثلهم المتَّبعين، فدعاه من أسلم من قومه من بني عمرو ليُسلم فمنعه الخبيث ذؤاب بن عمرو ورباب ومن معهم من الأعزاء من كفرة ثمود. وكان شاعرهم المُسلم يقول في ذلك[١]:

وكَانَتْ عُصْبَةٌ مِنْ آل عمروٍ إلى دينِ النبي دَعَوا شِهَاباً
عزيزَ ثمودَ كُلَّهُمُ جميعاً فهمَّ بأن يُجيبَ ولو أجابَا
لأصبحَ صالحٌ فينا عزيزاً وما عدلُوا بصاحِبِهم ذُؤَابَا

(١) الأبيات في ابن جرير (١٢/٥٣٠)، البداية والنهاية (١/١٣٤).

إلى آخر الأبيات المعروفة. فأسلمت تلك الطائفة القليلة مع صالح، وبقي أكثرهم في غاية الكفر والعتو والتمرد على الله. ولما أخرج لهم الناقة أمره الله بأن يقول لهم: إن بئرهم التي يشربون منها: نهار منها للناقة لا يشرب منها غيرها أبداً، والنهار الثاني لجميعهم يسقون مواشيهم وأنفسهم ويدخرون ما شاؤوا من الماء، كما قال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر: آية ٢٨] وقال: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: آية ١٥٥] يذكر المؤرخون أن يوم شرب الناقة أنها تأتي من بين الجبلين فتدخل رأسها في البئر ولا تترك في البئر قطرةً من الماء، ثم إنها تُفَرّج فخذيها فيحلبون منها كلما شاؤوا فيملؤون جميع أوعيتهم، ويدخرون من لبنها كلما شاؤوا فيغنيهم ذلك عن الماء[1]، ولبنها من أصفى اللبن وأعذبه وأحلاه. فلما طال عليهم ذلك عقروها ـ والعياذ بالله ـ كما جاء في آياتٍ قرآنيةٍ كثيرة، وسبب عقرها يقول المفسرون والمؤرخون[2]: إنه كانت فيهم عجوزٌ كافرة، هي امرأة ذؤاب بن عمرو بن لبيد، أو ابن عمرو بن أسد، هي من أقبح الناس وأشدهم كفراً وعداوةً لصالح، تُسمى: عُنيزة بنت غُنم، وتكنى: أم غنم[3]، وكانت ذات بنات حسان، وهي زوج ذؤاب بن عمرو ـ قبحّها الله ـ وأنها جاءت للقبيح قُدار بن سالف ـ وكان قُدار بن سالف قصيراً أحمر، أزرق العينين عزيزاً في قومه، وجاء في الحديث وصفهُ بأنه عارم عزيزٌ في قومه[4]. والعارم: شديد الشر ـ وقالت له: إن أنت عقرت هذه الناقة أعطيتك أي بناتي شئت. وكان عندها بنات حسان، ذوات جمال، ويزعمون أنّ امرأة منهم أخرىٰ تُسمى: صدقة أو صدوق[5] بنت المُحَيّا، وكانت ذات جمالٍ بارع، وكلتا المرأتين لهما أغنامٌ وآبال وأبقار

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/٥٣٠ ـ ٥٣١).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (١٢/٥٣١)، البداية والنهاية (١/١٣٥).

(٣) في البداية والنهاية (١/١٣٥): «عنيزة بنت غنيم بن مجلز وتكنى: أم عثمان».

(٤) أخرجه البخاري في التفسير (تفسير سورة والشمس وضحاها) حديث رقم (٤٩٤٢)، (٨/٧٠٥)، وأطرافه (٣٣٧٧، ٤٩٤٢، ٥٢٠٤، ٦٠٤٢).

(٥) في البداية والنهاية (صدوق) (١/١٣٥)، وفي تفسير ابن جرير (١٢/٥٣١): (صدوف).

كثيرة، وكانت الناقة لعظمها إذا رأتها مواشيهم تفر منها خوفاً منها، وكانت الناقة زمن الصيف تخرج عن حرّ الوادي، فإذا رأتها مواشيهم نفرت منها واضطُرت إلى حرّ الوادي، وإذا كان في الشتاء دخلت الناقة في الوادي لِتَتَدَفَّأَ به، فنفرت منها مواشيهم، فتضرروا بذلك، وكانوا يتمنون عقرها. وأكثر المفسرين يقولون: إن السبب فيه هاتان المرأتان، وأنّ قُدار بن سالف ـ لما أغرته الخبيثة عنيزة بنت غنم ـ قبحها الله ـ وخيّرته في بناتها مع جَمَالهن إن هو عقر الناقة ـ انتدب واحداً من قومه يسمونه مصدع، وأن هذين الرجلين اتبعهما سبعة من قومهم فصاروا تسعة، وأنهم هم المذكورون في سورة النمل: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: آية ٤٨] وأنهم ذهبوا إلى الناقة وكمنوا لها يوم شربها عندما صدرت من الماء، والمؤرخون يزعمون أنها لا يمكن أن تصدر من الفج الذي جاءت منه لعظمها[١]؛ لأنها يصعب عليها أن تنثني، فتطلع من فج آخر، فكمنوا لها وهي صادرة من الماء. يقول المفسرون والمؤرخون[٢]: إن مصدع كمن لها في أصل صخرة، وكمن قدار بن سالف في صخرة أخرى، فمرت بهما الناقة فرماها مصدع فانتظم بسهمه عضلتها، ثم مرت على قدار بن سالف يزعمون أن الخبيثة ـ المرأة ـ كشفت له عن بنتها الجميلة وحرضته على عقر الناقة فضرب عرقوبها فسقطت، فضرب في لبتها فنحرها، وأنهم اقتسموا لحمها.

واختلفت روايات المؤرخين والمفسرين في الفصيل[٣]، ولا شيء في ذلك ثابت، فمنهم من يقول: إنّ مصدعاً تبعه فأخذه ونحره معها واقتسموا لحمه مع لحمها. ومنهم من يقول: إنه رغا مرات، وصار فوق جبل، وانفتحت له صخرة فدخل فيها، حتى إن قوماً ليزعمون أنه هو الدابة التي تأتي في آخر الزمان! وكل ذلك قصصٌ لا معول عليها ولا ثبوت لها. والله أعلم بقصة الفصيل؛ لأن القرآن لم يبين ماذا كان مصيره، ولم يبينه ولم

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٢/٥٣٥)، البداية والنهاية (١/١٣٥).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (١٢/٥٣١).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (١٢/٥٣٣)، البداية والنهاية (١/١٣٥).

يثبت خبره بوحي صحيح، وإنما هي روايات يحكيها المؤرخون والمفسرون.

فلما عقروا الناقة ـ والعياذ بالله ـ والذي تولى عقرها قدار بن سالف ـ قبحه الله ـ هو أشقى الأولين، ويُزْعَم أن أصله ابن زنية، وُلد على فراش سالف، وهو خبيث أحمر أزرق، عزيز في قومه عارم، أنه لما عقروها والقرآن أكثر من ذكر عقرهم لها، فبيّن أن عاقرها واحد، وأسند عقرها للجميع حيث قال: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: آية ٢٩] وقال في آيات كثيرة إنّ الذي عقرها الجميع كقوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: آية ٧٧] وكقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: الآيات ١١ ـ ١٤] إلى غير ذلك من الآيات[(١)]. وأجاب العلماء عن أن الله مرة نسب العقر إلى واحد وهو قوله: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ وتارة نسب العقر إلى الجميع، قالوا: لأنهم كلهم متمالئون، وأنه لم يذهب لعقرها حتى اتفق جميعهم، حتى إنه ليستأذن المرأة في خدرها فتقول: نعم. فوافقوا جميعاً على عقرها، والمتمالئون على شيء، المتفقون عليه، كأنهم فعلوه كلهم، وإن كان المباشر واحداً منهم. هكذا قاله بعض العلماء، مع أنّ عادة اللغة العربية إسناد الفعل للناس وفاعله بعضهم[(٢)]، وهو معروف في كلام العرب، وكثير في القرآن العظيم، ومما يوضحه غاية الإيضاح: قراءة[(٣)] حمزة والكسائي **﴿فإن قتلوكم فاقتلوهم﴾**[(٤)] [البقرة: آية ١٩١] لأنه لا يصح أنه إن قتلوكم ومتم فاقتلوهم بعد أن قُتلتم ومتم. هذا ليس من المعقول! والمعنى: فإن قتلوا بعضكم فليقتلهم البعض الآخر، فأطلق [الكل وأراد البعض][(٥)]. وهذا كثيرٌ في كلام العرب، ومنه

---

(١) راجع المصدرين السابقين.

(٢) انظر: الأضواء (٢/٣٢٤ ـ ٣٢٥).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

(٤) السابق.

(٥) في الأصل: «فأطلق البعض وأراد الكل». وهو سبق لسان.

قول ابن مطيع يوم حرة واقم لما جاءت جيوش يزيد بن معاوية يرأسها (مجرم) الذي يُسمى: مسلم بن عقبة، وفعلوا بالمدينة ما فعلوا، وكان الشاعر يقول[١]:

فإنْ تقتُلونا عند حرةِ واقمٍ فلسنا على الإسلامِ أول مَنْ قُتِل

فقوله: «فإن تقتلونا» لو كان هو ميتاً مقتولًا لما كان حياً يُرزَق يقول الشعر، وإنما المراد: فإن تقتلوا بعضنا.

فلما عقروا الناقة واقتسموا لحمها، قيل: وكذلك فصيلها. وقيل: دخل فصيلها في الصخرة فانفرجت له. ويزعم بعض المؤرخين: أنّ صالحاً لما علم أنهم عقروها قال لهم: أدركوا فصيلها لعل الله يكشف عنكم العذاب. وأنهم لم يستطيعوا أن يدركوه، فلما أخبروا نبيهم صالحاً قال لهم ما حكى الله عنه: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: آية ٦٥] يعني: لكم متعة ثلاثة أيام وبعد اليوم الثالث يأتيكم العذاب المستأصل. قالوا له: وما علامة ذلك؟ يذكر المفسرون والمؤرخون أنه قال لهم: تصبحون في اليوم الأول وألوانكم مصفرة، ثم في اليوم الثاني تحمرّ ألوانكم، ثم في اليوم الثالث تسودّ ألوانكم، ثم في اليوم الرابع يأتيكم عذاب الله المستأصل فيهلككم الله. هكذا يقولون.

ويزعم المفسرون والمؤرخون: أن عقر الناقة كان يوم الأربعاء ـ وكانوا يسمون الأيام بغير هذه الأسماء المعروفة ـ فلما كان يوم الخميس أصبحت وجوههم مُصفرة، وصار بعضهم يقول لبعض: ألا ترى هذه الصفرة التي في وجهك؟ فعلموا بالهلاك، وأيقنوا صدق النبي صالح، فلما كان يوم الجمعة ـ فيما يزعمون ـ أصبحت ألوانهم محمّرة، فازدادوا يقيناً بالهلاك، فلما كان يوم السبت أصبحت ألوانهم مسوّدة[٢]. وبعض أهل العلم يقول: هو اليوم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (١٢/٥٣٥)، البداية والنهاية (١/١٣٦).

الثالث من عقرها، فهلاكهم يوم السبت. وبعضهم يقول: هو صبيحة الأحد. ولما أيقنوا بالهلاك يزعمون أنهم تحنطوا بالأشياء المصبِّرة، ولبسوا الأشياء التي هي كالأكفان مستعدين للهلاك، فلما ارتفعت شمس اليوم بعد اليوم الثالث جاءتهم الصيحة، سمّاها الله في آياتٍ صيحة، كما قال: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: آية ٦٧] والمراد بهم قوم صالح، وسمّاها هنا رجفة فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: آية ٧٨] ولا منافاة بين تسميتها صيحة وتسميتها رجفة؛ لأن الصيحة يصيح بهم الملك من فوقهم نازلاً من السماء، فإذا صاح بهم رجفت بهم الأرض وارتعدت من شدة صيحة الملك، ففارقت أرواحهم أبدانهم فلم يبق منهم داعٍ ولا مجيبٍ والعياذ بالله جلّ وعلا[(١)]. وهذا معنى قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: آية ٧٣] ﴿ءَايَةً﴾: حال مقدّرة، والعامل فيها معنى الإشارة، أشير إليها في حال كونها آية. أي علامة واضحة على أنّي نبي مُرْسَلٌ من الله جئتكم. والتحقيق: أنها إنما كانت آية لانفلاق الصخرة عنها، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ ثم قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: آية ٥٩] خلافاً لمن زعم أنّ كونها آية: عِظَمهَا، وأنها تشرب البئر كلّها، ولا توجد ناقة من إبل الدنيا تشرب بئراً كلها وحدها في وقتٍ واحد!! وخلافاً لمن زعم أنّ كونها آية: كثرة ما يُحلب منها من اللبن؛ لأنها يُحلب بها من اللبن ما يسعُ خلائق كثيرة، كل هذا قيل به، والأظهر هو ما عليه جمهور المفسرين، ويدل عليه ظاهر القرآن أنها معجزة جعلها الله لنبيه صالح، وهذا معنى قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: آية ٧٣].

﴿فَذَرُوهَا﴾: معناه اتركوها ﴿تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن الأرض التي تأكل فيها ليست لكم، والعشب الذي تأكله ليس من إنباتكم، بل هي أرض ربها، والنبات الذي أنبته مَنْ خَلَقَهَا، فليست الأرض لكم، ولستم أنتم الذين أنبتم النبات ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١/١٣٦)، الدر المصون (٥/٣٦٩)، الأضواء (٢/٣٢٥).

أي: لا تتعرضوا لها بشيء فيه سوء: من عقرٍ، ولا نحر، ولا طرد، ولا منعها من نصيبها من الماء، إلى غير ذلك.

﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهذه فاء السببية، والمضارع منصوب بـ(أن) مضمرةٍ بعدها يجب حذفها، والمعنى: لا تمسوها بسوء فيتسبب عن ذلك أن يأتيكم عذابٌ أليمٌ. والأليم معناهُ: المؤلم. والصحيح: أن (الفعيل) في لغة العرب تأتي بمعنىٰ (المُفْعِل) وما يذكره بعض علماء العربية عن الأصمعي من إنكاره إتيان (الفَعِيْل) في اللغة بمعنى (المُفْعِل) واغتر به بعض المفسرين فقال: أليم معناه: مُتَأَلَّم منه، فجعله بصيغة اسم المفعول. كل ذلك غير صحيح، بل غلط، والتحقيق: أن (الفَعِيْل) تأتي في اللغة العربية بمعنىٰ (المُفعِل)[1] كقوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بمعنىٰ: مؤلم. ومنه قول الشاعر[2]:

ونرفعُ من صدورِ شَمَرْدَلاَتٍ ... يَصُكُّ وجُوهَهَا وَهَجٌ أليم

أي: وهجٌ مؤلم. ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: منذر. فالنذير بمعنى المنذر. وقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي في مطلع عينيته المشهورة[3]:

أَمِنْ ريحانة الداعي السَّميع ... يُؤرقني وأصحابي هُجوع

فقوله: «السميع» يعني: الداعي المسمع. فأطلق على المسمع السميع. ومنه قوله فيها أيضاً[4]:

وخَيْلٍ قد دَلَفْتُ لها بخيلٍ ... تَحِيَّةُ بينهم ضربٌ وَجِيْع

أي: ضرب موجع. فهذا هو التحقيق.

---

(١) انظر: تفسير الألوسي (١/١٥٠)، التحرير والتنوير (١/٢٨٢).

(٢) البيت لذي الرمة. وهو في القرطبي (١/١٩٨)، الدر المصون (١/١٣٠). والشمردلات: الإبل الطوال. ونرفع: أي: نستحثها في السير. والوهج: الحر الشديد.

(٣) البيت في ابن عطية (١/١١٧)، (شرح الكافية الشافية) لابن مالك (٢/١٠٣٤)، الدر المصون (٢/٨٥)، تفسير الألوسي (١/١٥٠)، التحرير والتنوير (١/٢٨٢).

(٤) البيت في الكتاب لسيبويه (٢/٣٢٣)، الدر المصون (٢/٤٧).

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ فيتسبب عن مسكم إياها بالسوء أن يأتيكم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ العذاب: نكال الله (جلّ وعلا) الذي يأتي به لمن يستحقه بسبب ارتكاب الذنب. ﴿عَذَابٌ﴾ من الله ﴿أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم، وهذا معنى قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾.

قوله: ﴿تَأۡكُلۡ﴾ المضارع مجزوم بجواب الأمر، ويجوز رفعه، إلّا أنّ عامة من يُعتد به من القراء على الجزم، وأكثر علماء العربية: أن المضارع المجزوم في جواب الطلب أن أصله مجزوم بجملة شرطية محذوفة[١] وتقرير المعنى: إن تذروها تأكل في أرض الله. وهذا معنى: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ يعني: إن تتركوها وتذروها تأكل في أرض الله.

ومعنى قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ أي: بأي أذىً من أنواع الأذى، من عقرٍ، أو نحر، أو ضرب، أو تنفير، أو منع من المرعى، أو منع نصيبها من الماء ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

ثم إن نبي الله صالحاً ذكّر قومه أيضاً بنعم الله قال: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: آية ٧٤] أي: نعم الله ﴿إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾ يعني: في الأرض من بعد عاد، مثلما قال [هود][٢] لقومه: ﴿إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف: آية ٦٩] وهذا قررناه بالأمس فيما مضىٰ، أي: أهلكهم وجعلكم مستخلفين في الأرض بعدهم تتمتعون فيها. واستدل بعض العلماء[٣] بهذه الآيات على أنّ الكافر يصدق عليه أنه منعم عليه في الدنيا؛ لأن نبي الله هوداً ـ وهو هو ـ قال لقومه: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ فصرّح بأن لله عليهم نعماً في الدنيا، وكذلك قال نبي الله صالح: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ فبين كل من هود وصالح أن لله في الدنيا على الكفرة آلاء ونعماً بما أعطاهم من الرزق والعافية ورغد العيش والتمتع بلذات الدنيا، هذه الآيات دلت على هذا.

وقال بعض العلماء: لا نعمة على الكافر أصلًا؛ لأن هذا استدراج،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٩) من سورة البقرة.

(٢) في الأصل: نوح. وهو سبق لسان.

(٣) انظر: القرطبي (٣٣٠/٤)، (٢٤٠/٧).

والله يقول: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف: الآيتان ١٨٢، ١٨٣] فمنزلته منزلة الطعام اللذيذ الذي فيه السم الفتّاك القاتل، فشربه ليس بلذيذ، والإنعام به ليس بإنعام!! وظاهر القرآن أولى بالاتباع؛ لأن الله سمّى هذه آلاء ونعماً عليهم على ألسنة رسله الكرام (صلوات الله وسلامه عليهم)، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ﴾.

﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: آية ٧٤] العرب تقول: (بوّأه يبوّئه) إذا جعل له مباءة. والمباءة في لغة العرب: المنزل. تقول العرب: (بوّأه يُبوّئه) أي: اتخذ له مباءة، أي: منزلاً. وتَبوَّأ الرجل يَتَبوَّأ: اتخذ مباءة، أي: منزلاً. والمُبوَّأ: هو المنزل[1]. وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب، فمنه في القرآن: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: آية ٧٤] أي: نتخذ من مباءاتها ومنازلها حيث نشاء ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: آية ٥٨] أي: لنجعلن الغُرف مباءات ومنازل لهم. وهذا في القرآن كثير ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس: آية ٩٣] أي: أنزلناهم مُنزلاً كريماً طيّباً كما هو معروف، وهذا كثير في القرآن. ومن إطلاقه في كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي[2]:

كم من أخٍ لي ماجدٍ بوّأته بيديَّ لَحْدا

أي: جعلتُ اللحد مباءة ومنزلًا له عند موته. وهذا معروف، وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: آية ٧٤] أي: جعل في الأرض لكم مباءات ومنازل متنوعة، منها ما تتبردون به في الصيف، ومنها ما تستدفئون به في الشتاء، وهذا معنى قوله: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أرضهم هي بين الحجاز والشام من وادي القرى فما حوله، كانت ديارهم هناك.

---

(١) انظر: المفردات (مادة: باء) ص١٥٨، اللسان (مادة: بوأ) (٢٨٣/٢ ـ ٢٨٤).

(٢) البيت في الكامل (١٣٧٧/٣)، الدر المصون (٣٧٩/٣)، شواهد الكشاف ص٣٢، وشطره الأول في هذه المصادر: «كم من أخ لي حازم». سوى شواهد الكشاف إذ فيه: «صالح».

﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ السهول: جمع سهل، وهو المكان المنخفض المستوي الذي لا وعر فيه. أي: تتخذون من أمكنتها السهلة التي ليست بجبال قصوراً، تبنون تلك القصور من سهل الأرض مما توقدون عليه من آجُرها وطينها وتؤسسونها بالحجارة، وكانوا في الصيف يسكنون القصور المبنية من الآجُر والطين؛ لأنها أشد برودة.

﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ نحت الشيء: هو أن تنحته شيئاً فشيئاً، ومنه قيل للمِبْرَد: (مِنحت) لأنه ينحت الشيء، ومعنىٰ نحتهم الجبال: أنهم يأخذون آلات حديد ـ وكانت سواعدهم قوية جداً ـ فيحفرون في الجبل، حتىٰ يجعلوا فيه أُوب البيوت، ثم يقطعون لها أبوابها وطاقاتها من نفس الجبل، ثم تكون تلك الأبواب والغرف والطاقات كلها من الجبال، ينحتونها بالحديد بقوة أيديهم نحتاً، إذا اشتد البرد زمن الشتاء دخلوها فكانت لشدة استدفائها لا يحسون بالبرد شيئاً، وهذا من نعم الله عليهم.

وقرأ هذا الحرف جماهير القراء: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بِيُوتًا﴾ بكسر باء: (بيوت) لمجانسة الياء. وقرأه بضم الباء على الأصل: ﴿بُيُوتًا﴾ أبو عمرو، وحفص عن عاصم، وورش عن نافع. لم يقرأه من القراء السبعة على الأصل: ﴿بُيُوتًا﴾ إلا عاصم في رواية حفص خاصة، ونافع في رواية ورش خاصة، وأبو عمرو. وغير ذلك من سائر القراء قرؤوا: ﴿**وتَنْحِتون الجبال بِيوتاً**﴾[١] أي: تنحتون من الجبال بيوتاً ينحتونها في الجبال.

وقراءة الحسن شاذة: ﴿**تَنْحَتُون من الجبال بيوتاً**﴾[٢] وإن كانت قياسية؛ لأن (فَعَل) إذا كانت حلقية العين أو اللام ينقاس في مضارعها الفتح[٣]، إلا أن السماع (تَنْحِتُون) بالكسر، وهي قراءة السبعة وغيرهم؛

---

(١) انظر: إتحاف فضلاء البشر (٢/٥٤).

(٢) المصدر السابق (٢/٥٣)، القرطبي (٧/٢٣٩)، البحر المحيط (٤/٣٢٩)، الدر المصون (٥/٣٦٤).

(٣) انظر: القرطبي (٧/٢٣٩).

وقراءة الحسن: «تَنْحَتون» شاذة، وأشذ منها قراءة من قرأ: «تَنْحَاتون» بإشباع الفتحة، فهذه قراءة شاذة جداً، أشذ من الأولى فـ«تَنْحَتون» بفتح الحاء شاذة، وإشباع الفتحة ألفاً أشذ وأشذ، وإن كان إشباع الفتحة بألف يسوغ في كلام العرب، هو مسموع في كلام العرب، إلا أنه لا يجوز قراءة، وهو موجود في كلام العرب، ومنه قول عبد يغوث بن وقاص[1]:

وتضحكُ مني شَيخةٌ عَبْشَمِيَّةٌ   كأنْ لم تَرَى قبلي أسيراً يَمَانيا

فأشبع الفتحة بالألف، وأصل الفعل مجزوم، فالأصل: «تر» بلا ألف، أشبع الفتحة ألفاً. وقول الآخر[2]:

إذا العجوزُ غَضِبَتْ فَطَلِّق   ولا تَرَضَّاها ولا تَمَلَّقِ

الأصل: (ولا ترضَّها) فأُشبعت الفتحة. ومنه في وسط الكلام قول عنترة في معلقته[3]:

يَنْبَاعُ من ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ   زَيَّافَة مثل الفَنِيقِ المُكْدَمِ

فقوله: (ينباع) أصله: (يَنْبَع) يعني: أن العرق ينبع من عظم ذِفراها، وهو العظم الذي خلف أذنها، أصله يسيل منه العرق من الإبل إذا سارت سيراً شديداً.

وقراءة الجمهور هي التي يجوز القراءة بها ﴿تَنۡحِتُونَ الجبال﴾ جمع جبل. ﴿بُيُوتًا﴾ جمع بيت. قرأه حفص عن عاصم، وورش عن نافع، وأبو عمرو: ﴿بُيُوتًا﴾ بضم الباء على الأصل[4]: جمع بيت، والبيت هو ما يُسكن فيه، سُمي بيتاً لأن الساكن يبيت فيه.

﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: نعم الله عليكم حيث جعلكم خلفاء في

(١) البيت في المحتسب (٦٩/١)، المفضليات ص١٥٨.
(٢) البيت لرؤبة، وهو في الخصائص (٣٠٧/١)، اللسان (مادة: رضي) (١١٧٩/١).
(٣) ديوان عنترة ص١٢٢.
(٤) راجع ما تقدم قريباً.

الأرض من بعد عاد ويسَّر لكم القصور في سهولها، ويسر لكم نحت الجبال في نفس الجبال لتنالوا من برد السكنى زمن الحر، ومن الاستدفاء زمن البرد، وكل هذا نعم الله وآلاؤه عليكم. وهذا معنى قوله: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: نعمه التي أنعمها عليكم.

وكان بعض العلماء يقول[١]: هذه الآية الكريمة تدل على بناء القصور الشامخات لأن الله امتن عليهم على لسان نبيهم، بأنهم يتخذون القصور. وقد جاء عن النبي ﷺ ما يدل في ظواهر كثيرة من الشرع أنه لا ينبغي للإنسان أن يتطاول في البنيان ويبني فوق حاجته ويضيع المال في ذلك، فينبغي للإنسان أن يبني قدر حاجته وألَّا يضيع المال فيما يزيد على قدر حاجته من القصور الشامخة، ولا سيما إن كان ذلك على سبيل المباهاة والتفاخر فلا خير فيه. وأكثر العلماء على أنه لا يمنع الرجل أن يبني بيتاً ليستغله فيؤجره ويأخذ منه؛ لأنه من أنواع التجارات وابتغاء فضل الله ـ جل وعلا ـ وكذلك ما يحتاج إليه هو ومن يعوله، فهذا من الأمور الضرورية.

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ...﴾ العِثِي والعثو معناهما: الفساد. وهذه الحال مؤكدة عاملها؛ لأن معنى: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾ لا تفسدوا. فـ (مفسدون) حال مؤكدة لعاملها، والحال قد تؤكد عاملها فيكون معناها هو معنى عاملها، وإلى هذه بعينها أشار ابن مالك في الخلاصة بقوله[٢]:

وعَامِلُ الحالِ بِها قد أُكِّدا ... في نَحْوِ لا تعثَ في الأرضِ مُفْسِدَا

معناها: لا تفسدوا في الأرض في حال كونكم مفسدين، فالحال مؤكدة لعاملها، والمقصود تأكيد النهي عن الفساد في الأرض بالإشراك بالله وعبادة غيره معه، وأذية من أسلم من قوم صالح، وتكذيب نبي الله صالح، إلى غير ذلك من أنواع الفساد.

---

(١) انظر: القرطبي (٧/٢٣٩).

(٢) الخلاصة ص٣٣.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٧٥ ـ ٧٩].

قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا ابن عامر قارىء أهل الشام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ بلا واو، وقرأه ابن عامر وحده: **﴿وقال الملأ الذين استكبروا﴾** بالواو. وفي المصاحف الشامية هذه الواو. وهما قراءتان سبعيتان[1]، إحداهما بالواو والثانية بلا واو، وكون بعض الحروف الصحيحة يزيد فيه حرف أو كلمة وينقص ذلك الحرف أو الكلمة في قراءة أخرى لأجل هذا السبب بعينه كان عثمان بن عفان (رضي الله عنه وأرضاه) ومن معه من الصحابة في جَمْعَةِ المصحف الأخيرة التي جمعها عثمان (رضي الله عنه) عددوا نسخ المصاحف العثمانية ليمكن أن تكون نسخة فيها هذه الواو ونسخة عارية من هذه الواو، والجميع كأنه نسخة واحدة، إلا أنهم نَوَّعُوها وعددوها ليمكن أن تأتي جميع القراءات مطابقة لها.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ قدمنا أن الملأ أشراف الجماعة ورؤساؤهم الذكور الذين ليس فيهم إناث.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي: تكبروا وعتوا ولم يؤمنوا استكباراً عن الإيمان ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي: من قوم صالح، وهم ثمود قالوا ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ وكان جُل من آمن بصالح ـ قبل أن يؤمن جندع بن عمرو ومن آمن معه ـ كان أغلبهم ضعافاً؛ لأن الله أجرى العادة بأن أكثر أتباع الأنبياء: الضعفاء، وأكثر من عادىٰ الأنبياء وأكثر أهل النار: أهل الترف في الدنيا والمكانة والمال والجاه. والسر في ذلك: أن المساكين الضعاف لا يحاربون

(١) انظر: السبعة لابن مجاهد ص٢٨٤، إتحاف فضلاء البشر (٢/٥٤).

عن رئاسة، ولا يستنكفون أن يكونوا تبعاً، فإذا سمعوا الحق آمنوا به، أما الرؤساء فإنهم لا يرضون أن يكونوا تبعاً، وأن يكونوا مرؤوسين غير رؤساء، فيجادلوا لتبقى لهم مكانتهم ورئاستهم؛ لأنهم إن أطاعوا الرسل كانوا تبعاً تحت أوامر الرسل لا رئاسة لهم ولا سيادة؛ ولذا في قصة هرقل الثابتة في الصحيح لما سأل أبا سفيان السؤالات المعروفة ـ المشهورة الثابتة في الصحيح ـ عن النبي ﷺ من جملتها أن قال له: أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم، قال هرقل: أولئك أتباع الرسل[1]. كما هو معروف.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: الرؤساء والقادة من قبيلة ثمود الذين تكبروا عن الإيمان وإجابة نبي الله صالح ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ أي: للضعفاء المستضعفين. وقوله: ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ أي: المستضعفين، أعني خصوص المؤمنين من المستضعفين ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ أتتيقنون وتجزمون بأن ﴿صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وأنه غير كاذب على الله؟ فأجابهم المستضعفون أحسن جواب وأبلغه، فلم يقولوا لهم: نعم نحن نجزم بأنه مرسل، ولكن جعلوا كونه مرسلاً أمراً لا ينبغي أن يُشك فيه، ولا أن يكون النزاع ولا الخلاف فيه، وقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ إنا مؤمنون بالأمر الذي أُرسل به، الذي لا ينبغي أن يُشك ولا أن يُختلف في أنه حق، ولهذه الحكمة عدلوا عن أن يقولوا: نعم، فأجابهم الملأ الكفار المتكبرون فقالوا: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ من رسالة صالح ﴿كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون والعياذ بالله، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

فلما تمردوا وطغوا ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ العرب تقول: عقر البعير إذا قطع عرقوبه. هذا أصل العقر، إذا قطع عرقوبه. وكانت عادة العرب إذا أرادوا أن ينحروا الإبل ضربوا عراقيبها بالسيوف حتى تسقط فينحروها، وصار العقر يُطلق على النحر، وعلى قطع العرقوب، وعلى كل جرح في البعير، حتى أنهم إذا جرح ظهره بدَبَر ونحوه تقول العرب: عقره، وهو معنى مشهور في

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٣) من سورة الأنعام.

كلام العرب[١]، ومنه قول أمرىء القيس في معلقته[٢]:

تقولُ وقد مالَ الغبيطُ بنا معاً عقَرْتَ بعيري يا امرأ القيسِ فانزِلِ

تعني أنه أثر بالدَّبَر في ظهره. فمعنى (عقروها): قتلوها. وقد بينا قصتها فيما ذكرنا الآن أن تينك المرأتين الخبيثتين استنفرا لها ذينك الرجلين وهما: قدار بن سالف، ومصدع، وأنهما استهويا سبعة من قومهم فكانوا تسعة رهط، وهم التسعة الرهط المذكورون في سورة النمل، وأن مصدعاً وقداراً كمنا لها عند صدورها من الماء في أصل صخرات، فانتظم مصدع عضلتها بسهمه، وعقرها قُدار بسيفه فقطع عرقوبها فسقطت ورغت، ثم طعن في لبتها فنحرها. وهذا معنى ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ بممالأة منهم.

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ هي ناقة الله التي أخرجها آية لهم ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ العتو: التكبر والتمرد، تمردوا وتكبروا عن قبول أمر ربهم، وعقروا الآية التي أجاءهم الله بها معجزة لنبيه، ثم قالوا في غاية الكفر والعناد: ﴿يَٰصَٰلِحُ﴾ سموه باسمه وقاحة منهم واحتقاراً وعدم حياء.

﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ قرأ هذا الحرف عامة القراء: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا﴾ بتحقيق الهمزة. وقرأه ورش عن نافع والسوسي عن أبي عمرو: ﴿وقالوا يا صالحُ اوتِنا﴾[٣] بإبدال الهمزة واواً. أما إذا كان الوقف على ﴿يَٰصَٰلِحُ﴾ فجميع القراء يقرؤون: ﴿إيتنا بما تعدنا﴾ بكسر الهمزة. فالقراءة في حالة الابتداء بـ ﴿إيتنا﴾ متفق عليها إذا وقفت فقلت: ﴿يَٰصَٰلِحُ﴾ قلت: في قراءة الجميع ﴿إيتنا بما تعدنا﴾ أصله ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أبدلت الهمزة الثانية مداً للأولى.

---

(١) انظر: المفردات (مادة: عقر) ص٥٧٧، القرطبي (٧/ ٢٤٠)، الدر المصون (٥/ ٣٦٦).

(٢) ديوان امرىء القيس ص١١٣.

(٣) رُسمت في المصحف المكتوب على وفق رواية ورش عن نافع هكذا: ﴿يَٰصَٰلِحُ إيتِنا﴾ والنقطة أسفل همزة الوصل تدل على الابتداء بها مكسورة. وقد وُضعت الكسرة قبلها مكان الهمزة التي نُقلت حركتها للساكن قبلها وحُذفت للدلالة على الابتداء بهمزة مضمومة.

وَمَدًّا أَبْدِل ثَانِيَ الهَمزين مِنْ كِلْمَةٍ أَن يَسْكُنْ كَآثِرْ وائْتَمِنْ[١]

أما في الوصل فعامة القراء يقرؤون: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا﴾ بتحقيق الهمزة. وقرأ ورش عن نافع، والسوسي عن أبي عمرو: ﴿يا صالح اوتنا﴾ بإبدال الهمزة واواً. هذه قراءة السبعة في الوصل والوقف[٢].

ومعنى: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ هذا العذاب الذي تعدنا به إن تعرضنا للناقة بسوء؛ لأنك قلت لنا: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فقد مسسناها بسوء، وهات العذاب الأليم الذي تعدنا به إن كنت من المرسلين، إن كنت رسولًا حقاً فهات العذاب الذي وعدت به. فلما قالوا ذلك ذكر المفسرون ما ذكرناه الآن، وقد قال الله إنه قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: آية ٦٥] فهذا قرآن لا شك فيه[٣]، والمفسرون يزعمون أنهم قالوا له: ما العلامة؟ وأنه بين لهم أن العلامة اصفرار الألوان في اليوم الأول، واحمرارها في الثاني، واسودادها في الثالث، ونزول العذاب صبيحة الرابع، وكان كما وقع. وهذا معنى قوله: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: آية ٧٨] سمَّاها هنا في الأعراف: (رجفة)، وسماها في مواضع أخر: (صيحة)، كقوله في سورة هود في قصة قوم صالح: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: الآيتان ٦٧، ٦٨] سماها (صيحة) في مواضع، وسماها هنا (رجفة)، وهي صيحة في الحقيقة ورجفة؛ لأن الملك يصيح بهم من السماء فترجف بهم الأرض وتزلزل من شدة الصيحة فتفارق أرواحهم أبدانهم[٤].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة البقرة.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/٣٣١)، الدر المصون (٥/٣٦٧).

(٣) انظر: الأضواء (٢/٣٢٥).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من هذه السورة.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ الدار هنا معناه: الديار، وفي بعض الآيات: ﴿فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: الآيات ٦٧، ٩٤] بالجمع، وفي بعضها: ﴿فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف الآيات: ٧٨، ٩١، العنكبوت: آية ٣٧] لأن الدار اسم جنس، وهو إذا أُضيف إلى معرفة فهو عام. فمعنى ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ و ﴿دِيَارِهِمْ﴾ واحد، والمقرر في الأصول: أن من صيغ العموم إضافة المفرد إذا كان اسم جنس إلى معرفة، فإنه يعم، ونظيره في القرآن: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: آية ٣٤] أي: نعم الله ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: آية ٦٣] أي: أوامره ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ [الحجر: آية ٦٨] أي: أضيافي، ونحو ذلك كثير معروف في الأصول وفي العربية[١].

ومعنى: ﴿جَاثِمِينَ﴾ هو خبر أصبحوا، والجاثمون جمع تصحيح للجاثم، والجاثم المتصف بالجثوم، وأصل الجثوم: هو أن يكون الإنسان منكباً على وجهه، ركبتاه في الأرض، ومكانه يُسمى (المَجْثَم) فالذي يفعله ولد الظبية إذا كان منبطحاً منكباً على وجهه يُسمى (جثوماً) ومكانه يُسمى (المَجْثَم) على القياس[٢]، ومنه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته[٣]:

بها العِينُ والآرامُ يَمْشِيْنَ خِلْفَةً وأطلاؤُها ينهضْنَ من كل مَجْثِم

فمعنى ﴿جَاثِمِينَ﴾ منكبين على وجوههم موتى، مفارقة أرواحهم أبدانهم، ليس منهم داع ولا مجيب، حلت بهم نقمة الله ـ جل وعلا ـ وعذابه المستأصل المتصل بعذاب الآخرة (والعياذ بالله)، وهذه النكالات التي وقعت في الأمم يجب الاعتبار بها، وأن يخاف الموجودون في الدنيا من عصيان الله، ومبارزة رسله بالمعصية ومضادة ما جاؤوا به لئلا يهلكهم الله وينزل بهم ما أنزل بغيرهم، وهذا معنى قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ٧٨].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٥٤٦/١٢)، القرطبي (٢٤٢/٧) عمدة الحفاظ (مادة: جثم) ص٨٨.

(٣) شرح القصائد المشهورات (١٠٠/١).

و (العِيْن): البقر. و (الآرام): الظباء. و(الأطلاء): أولادها. و (خِلْفَة): فوج بعد فوج.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ [الأعراف: آية ٧٩] فتولى نبي الله صالح عنهم، وهذا التولي للعلماء فيه وجهان[1]:

١٢/ب / أحدهما: أنه تولى عنهم لما تحقق الهلاك، وأنه نازل بهم تولى راجعاً عنهم وقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ والله ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ غاية النصح ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فكرهتم نصيحتي ورددتموها وستجدون غِبَّ ذلك.

وبعض العلماء يقولون: إن نبي الله صالحاً لم يقل لهم هذا إلا بعد أن نزل بهم عذاب الله وصاروا موتى، وفارقت أرواحهم أجسادهم، جاء إلى جثثهم ووبخهم هذا التوبيخ بعد أن ماتوا. وهذا الأخير هو ظاهر القرآن؛ لأن قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ مرتب بالفاء على قوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ والفاء تقتضي التعقيب، فكونه قال لهم هذا بعد أن ماتوا وأصبحوا في دارهم جاثمين هو ظاهر القرآن، وظاهر القرآن لا يجوز العدول عنه إلا لأمر يجب الرجوع إليه[2]. وقد وقع مثل هذا من نبينا ﷺ فقد ثبت في الصحيح أن كفار قريش لما ماتوا يوم بدر وجُعلوا في القليب - قبحهم الله - موتى كفاراً وقف عليهم النبي ﷺ وهم أموات بعد ثلاث وقال: - ناداهم بأسمائهم - يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً. ووبخهم وقرعهم. ولما قال له عمر بن الخطاب ما مضمونه: كيف تكلم قوماً قد جَيَّفُوا، هم جيف وأموات؟ قال له النبي ﷺ: **«ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون»**[3]. فلا مانع من أن يكون توبيخ صالح لقومه بعد الموت كتوبيخ النبي ﷺ للكفرة أصحاب القليب يوم بدر، وهذا ظاهر القرآن؛ لأنه رتب ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ بالفاء على قوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾. ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ

---

(١) انظر: القرطبي (٢٤٢/٧).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة البقرة.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب قتل أبي جهل، حديث رقم (٣٩٧٩، ٣٩٨٠، ٣٩٨١)، (٣٠١/٧)، ومسلم في الجنائز، باب الميت يُعذب ببكاء أهله عليه، حديث رقم (٩٣٢)، (٦٤٣/٢)، وأورده في موضع آخر، حديث رقم (١٧٩٤)، من حديث عائشة (رضي الله عنها) مختصراً.

وأخرجه البخاري في المغازي، باب قتل أبي جهل، حديث رقم (٣٩٧٦)، (٣٠٠/٧)، من حديث أنس عن أبي طلحة رضي الله عنهما.

﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ والله لقد أبلغتكم رسالة ربي ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ نصحاً خالصاً غير مشوب بغش بحقيقة، حذرتكم نِقَم الله ﴿وَلَكِن﴾ ولكنكم والعياذ بالله ﴿لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ بل تكرهون من ينصح لكم وتعصون أمره، وإذاً فقد وجدتم غِبَّ ذلك ونتيجته والعياذ بالله.

يقول جل وعلا: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٨٠ ـ ٨٤].

هذه هي القصة الرابعة من قصص الأنبياء الذين قص الله علينا أخبارهم مع أممهم في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأعراف ـ لنعتبر بما فيها ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ...﴾ [يوسف: آية ١١١] فبين لنا أن قوم نوح كذبوه، وأنه أهلكهم بطوفان أغرقهم فبادوا عن آخرهم، وأن قوم هود كذبوه فأرسل عليهم الريح العقيم فدمرتهم عن آخرهم، وأن قوم صالح كذبوه فأخذتهم الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين، ليس فيهم داعٍ ولا مجيب، كأن الله يقول: اعلموا معاملتي لمن عصاني وطغىٰ وتكبر وعادىٰ رسلي فإني سأهلكه الإهلاك المستأصل، وأجعل مصيره إلى النار. وهم ـ والعياذ بالله ـ مغضوب عليهم في الدنيا، مغضوب عليهم في الآخرة؛ ولأجل ذلك ثبت في الصحيحين من غير وجه[1] أن النبي ﷺ في سفره في غزوة تبوك مر بأرض الحِجْر ـ وهي ديار ثمود ـ فلما مر بها ﷺ تلثم وأسرع السير جداً ليجاوز أرض الغضب بسرعة، ونهى أصحابه أن يشربوا من مياهها، وكان قوم منهم قد عجنوا بمائها عجيناً، وقوم قد

---

(١) البخاري في المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر، حديث رقم (٤٤١٩، ٤٤٢٠)، (٨/١٢٥)، وفي أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ وقوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الأحاديث رقم (٣٣٧٨ ـ ٣٣٨١)، وفي التفسير، باب: «ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين» حديث رقم (٤٧٠٢).

ومسلم في الزهد والرقائق، باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين. حديث رقم (٢٩٨٠، ٢٩٨١)، (٤/٢٢٨٥، ٢٢٨٦).

حاسوا منه حيساً، فنهاهم أن يأكلوا العجين الذي عُجن بماء تلك الأرض، ونهاهم عن أن يأكلوا الحيس الذي بُلَّ بماء تلك الأرض. وفي بعض روايات الحديث أنه أذن لبعضهم في أن يُطعموا ذلك الحيس إبلهم، ونهاهم عن أكله.

ومعلوم اختلاف العلماء[1]: هل يجوز الوضوء بمياه أرضهم؟ وهل يرفع الحدث؟ وهو تجوز الصلاة في ديارهم أو لا تجوز؟ وإن وقعت فهل هي باطلة أو غير باطلة؟ خلاف العلماء في هذا معروف. ومما ينبغي أن يُتنبه له الآن أن النبي ﷺ نهى عن مياه أولئك القوم؛ لأنها مياه أرض غضب، وبين أن الشرب منها لا يجوز، وإذا كان الشرب منها لا يجوز فالطهارة التي هي طاعة الله يظهر أنها من باب أولى لا تجوز.

وصَرَّحَت الأحاديث المتفق عليها أنه لا يجوز لأحد أن يدخل ديارهم إلا باكياً، خوفاً أن ينزل به مثل ما نزل بهم[2]. فأرضهم أرض غضب. وكذلك جاء عن علي (رضي الله عنه) لما مر بأرض الخسف في بابل من أرض العراق أنه أسرع ولم يُصَلِّ حتى جاوزها[3].

ومن ذلك يُعلم أنه لا تجوز السكنىٰ في محل ديارهم، ولا الزراعة ولا الغرس في محل ديارهم، كل ذلك لا يجوز. لا يجوز الانتفاع بمياه أرضهم، ولا الازدراع فيها، ولا الشرب منها، ولا غرس شجر بها، كل ذلك حرام

---

(١) انظر: المجموع (٩١/١).

(٢) تقدم تخريجه في الصفحة الماضية.

(٣) ورد ذلك عن علي (رضي الله عنه) من غير وجه، فرواه أبو داود في الصلاة، باب في المواضع التي لا تجوز فيها الصلاة (٤٨٦، ٤٨٧)، (١٥٦/٢ ـ ١٥٨)، والبيهقي (٤٥١/٢) وفي آخره التصريح بأن النبي ﷺ نهاه عن الصلاة فيها. وقد ضعفه ابن حزم في المحلى (٨٢/٤)، والحافظ في الفتح (٥٣٠/١)، والخطابي في معالم السنن (١٦٧/١)، ونقل الصيني عن ابن القطان تضعيفه، وكذا ضعفه البيهقي في المعرفة وعبدالحق الإشبيلي. انظر: عون المعبود (١٥٨/٢).

وجاء من وجه آخر عن علي (رضي الله عنه) موقوفاً كما عند ابن أبي شيبة (٣٧٧/٢)، والبيهقي (٤٥١/٢)، والخطيب في تاريخه (٢٧٤/٨) من طرق عدة. وقال البخاري في صحيحه: «باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، ويُذكر أن علياً (رضي الله عنه) كره الصلاة بخسف بابل». انظر البخاري مع الفتح (٥٣٠/١).

ممنوع لا يجوز، كما دلت عليه الأحاديث النبوية الصحيحة. فيجب على من بسط الله يده إذا أراد بعض الجهلة أن يسكن في ديار قوم صالح وأن يشرب من مياهها ويزرع على مياهها ويغرس عليه الأشجار أن يمنعه من ذلك كله اقتداء بالنبي ﷺ وهو خير قدوة، فقد منع أصحابه من أن يشربوا من مائها، ومنعهم أن يأكلوا عجيناً عُجِنَ بمائها، وأن يأكلوا حيساً بُلَّ بمائها، وهو ﷺ خير أُسوة، وكل هذا ثابت في الصحيحين عن ابن عمر وغيره رضي الله عنهم.

فنهي النبي ﷺ عن الشرب من آبار ثمود ومنعه من أَكْل العجين الذي بُلّ بمائها، ومن أَكْل الحيس الذي بُلّ بمائها، وتلثمه ﷺ وإسراعه السير ليجاوز واديهم، وأمره أصحابه أن لا يشربوا إلا من البئر التي كانت تشرب منها الناقة يدل على أن بلادهم أرض غضب، وأنها لا يجوز السكنى فيها، ولا يجوز دخول ديارهم لأحد إلا وهو يبكي خوفاً من الله أن ينزل به مثل ما أنزل بهم. فالذي يدخل بلادهم ليتفرج وينظر غير باك ففعله حرام لا يجوز للأحاديث الصحيحة النبوية الثابتة عنه ﷺ، ولا يجوز أن يُترك أحد يزدرع في ديارهم، ويشرب من مائها، ويأكل من الحب المزروع بمياههم، كل ذلك لا يجوز؛ لأنها أرض غضب ملعونة لا يجوز المقام فيها ولا الانتفاع بمائها.

ثم ذكر تعالى القصة الرابعة وهي قصة لوط، قال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: آية ٨٠] اختلف العلماء في وجه نصب ﴿لُوطًا﴾ في قوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ على وجهين متقاربين[١]:

قال بعض العلماء: هو معطوف على ما قبله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: آية ٦٥] أي: وأرسلنا هوداً إلى عاد ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: آية ٧٣] أي: وأرسلنا صالحاً إلى ثمود، وأرسلنا لوطاً أيضاً فقال لقومه كذا وكذا.

وبعض العلماء يقول: هو منصوب بـ «اذكر» محذوفاً. واذكر لوطاً حين قال لقومه. وعليه يكون ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ بدل اشتمال من قوله: ﴿لُوطًا﴾ كما قاله غير واحد.

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٣٧٠).

ولوط: هو لوط بن هاران ابن أخي إبراهيم.

والمؤرخون يزعمون أن أبا إبراهيم اسمه (تارح) والقرآن صرح بأن اسم أبيه (آزر) حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: آية ٧٤] ولا مانع من أن يكون له اسمان، أو اسم ولقب(١). وهم يقولون: إن نبي الله لوطاً ابن أخي إبراهيم، وأنه لما أنجى الله إبراهيم من نار النمرود وسافر من سواد العراق مهاجراً إلى الشام أن لوطاً كان ممن هاجر مع إبراهيم ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ﴾ [العنكبوت: آية ٢٦] فنزل إبراهيم فلسطين، وكانت محل مهاجره، ونزل لوط بالأردن ـ والأُرْدُنُّ بضم الهمزة والدال وتشديد النون ـ يقولون: إنه نهرٌ وكورة(٢) في أعالي الشام، فأرسل الله نبي الله لوطاً إلى قوم لوط، وهم قُرى، يزعم بعض المفسرين أنها أربعة، وبعضهم يقول: هي خمسة وعاصمتها ـ البلد الكبير ـ تسمى: (سدوم) وبعض علماء العربية يقولون: (سذوم) بذال المعجمة، وهو قول الجوهري(٣)، ونصره القاموس. وبعضهم يقول: هي (سدوم) بالدال المهملة(٤)، وهي أكبر قراهم، فأرسل الله فيهم نبيه لوطاً (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام)، وجرى لهم معه ما قصه الله علينا في آيات متعددة، منها آية الأعراف هذه ﴿وَلُوطًا﴾ أي: وأرسلنا لوطاً، أي: واذكر نبي الله لوط بن هاران إذ قال لقومه الذين أُرسل إليهم وهم بلد سدوم والقرى التي حولها، وهي المعروفة بالمؤتفكات؛ لأن المؤتفكات قرى قوم لوط، والمؤتفكة بالإفراد يمكن أن يكون المراد بها جميع القرى؛ لأن مثل ذلك يُطلق عليه ما يطلق على المؤنثة المفردة المجازية التأنيث. وقيل لقرى قومه: (المؤتفكات) لأن جبريل عليه السلام أفكها أي: قلبها بهم فاقتلعها من

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٤) من سورة الأنعام.

(٢) أي: مدينة أو صقع؛ لأنه يدور على ما فيه من قرى.

(٣) المُثبت في الصحاح: (سدوم) بالدال. (١٩٤٩/٥) قال في القاموس: «وسدوم: لقرية قوم لوط، غلط فيه الجوهري، والصواب: (سذوم) بالذال المعجمة» ا.هـ (مادة: سدم) ص١٤٤٧. وللتوسع انظر اللسان (مادة: سدم) و (مادة: سذم).

(٤) انظر: معجم البلدان (٢٠٠/٣)، معجم ما استعجم (٧٢٩/٣).

الأرض ورفعها إلى السماء ثم جعل عاليها سافلها، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: آية ٨٢] وجَعْل العالي هو السافل هو معنى القلب والأَفْك؛ لأن العرب تقول: أفك الشيء يأفكه إذا قلبه، ومنه سُميَ أسوأ الكذب (إفكاً) لأنه قلب للحقيقة عن ظاهرها الصحيح إلى شيء آخر باطل.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف: آية ٨٠] ﴿أَتَأْتُونَ﴾ هنا همزة إنكار، أنكر نبي الله لوط عليهم الفاحشة، وقد قدمنا أن الفاحشة[1] في لغة العرب أنها كل خصلة متناهية في القبح تسميها العرب فاحشاً، وكل شيء بالغ نهايته تسميه العرب فاحشاً، ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته[2]:

أَرَى الموتَ يعْتَام الكِرامَ ويصطَفي عقيلَة مالِ الفاحشِ المُتَشَدِّدِ

فسماه فاحشاً لما بلغ نهايته في البخل. فالفاحشة: الخصلة المتناهية في القبح والشناعة، وهذه الخصلة الخسيسة القبيحة هي فاحشة اللواط - قبحها الله وقبح مرتكبها - ولذا أنكرها نبي الله لوط عليهم، وبين أنه مبغض لها غاية البغض في قوله: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء: آية ١٦٨] أي: من المبغضين الكارهين أشد البغض والكراهية. ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: الخصلة الذميمة الخسيسة الدنية البالغة غاية الدناءة والخبث والفحش والقباحة، وهي إتيان الرجال في أدبارهم، وهي فاحشة اللواط - قبحها الله وقبَّح مرتكبها - فإنها فاحشة خسيسة قبيحة لم يسبق إليها أحدٌ قومَ لوط، كما قال هنا: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الباء هذه تأتي بعد (سبق) كقوله ﷺ: «**سبقك بها عكاشة**»[3] وهي للتعدي؛ لأن الفعل لا يتعدى إلى الضمير إلا بها ﴿مَا سَبَقَكُم﴾ بهذه الفاحشة ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (من) الأولى أصلها دخلت على الفاعل، والأصل: ما سبقكم أحد

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) البخاري في اللباس، باب: البرود والحبر والشملة، حديث رقم (٥٨١١)، (١٠/٢٧٦)، وأخرجه في موضع آخر، انظر: حديث رقم (٦٥٤٢)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب. الأحاديث رقم (٢١٦، ٢١٨، ٢٢٠)، (١/١٩٧).

بها. إلا أن النكرة في سياق النفي إن زيدت قبلها (من) نقلتها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم[١].

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تبعيضية، أي: ما سبقكم أحد من بعض جميع العالمين إلى هذه الفاحشة المنكرة والخصلة القبيحة الخسيسة - قبحها الله جل وعلا - ولذا بينها فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأعراف: آية ٨١].

قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا حفصاً عن عاصم ونافعاً: **﴿أئنكم لتأتون الرجال﴾** بهمزة استفهام إلاَّ أن أبا عمرو وابن كثير سهَّلا الهمزة الثانية بين بين، وأبا عمرو يُدخل بينهما الألف المعروفة بألف الإدخال، والباقون من القراء قرؤوها بتحقيق الهمزتين **﴿أئنكم﴾** بهمزتين ولم يدخل بين الهمزتين المحققتين ألفاً من عامة القراء إلا هشام عن ابن عامر، فهشام وحده عن ابن عامر قرأ: **﴿ءائنكم﴾** بألف بين الهمزتين المحققتين، وعامة القراء غير هشام عن ابن عامر الذين حققوا الهمزتين لم يُدخلوا بينهما ألفاً، والذين سهلوا الهمزة الثانية - وهما: أبو عمرو وابن كثير - ابن كثير منهم لم يُدخل الألف، وأبو عمرو أدخل الألف، فتحصَّل أن في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ ثلاث قراءات سبعيات[٢]: قرأه نافع وحفص عن عاصم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ بهمزة واحدة على الخبر لا على الاستفهام، وقرأه أبو عمرو وابن كثير: **﴿أينكم﴾** بتسهيل الهمزة الثانية، إلا أن أبا عمرو زاد ألف الإدخال، وابن كثير لم يزده. وقرأها الباقون بتحقيق الهمزتين، ولم يُدخل ألفاً مع تحقيق الهمزتين أحد منهم إلا هشام في روايته عن ابن عامر. هذه القراءات في الآية.

أما على قراءة[٣]: **﴿أئنكم لتأتون الرجال﴾** [الأعراف: آية ٨١] فهو توبيخ بعد توبيخ، وتقريع بعد تقريع؛ لأن الاستفهام للإنكار، وهو يتضمن التوبيخ والتقريع، فهو يكرر لهم التوبيخ والتقريع المرة بعد المرة، والإنكار بعد الإنكار؛ لأن فعلهم القبيح الشنيع يستحق ذلك التوبيخ والتقريع والإنكار.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٠.

(٣) في توجيه هذه القراءات انظر: حجة القراءات (٢٨٧، ٢٨٨).

أما على قراءة نافع وحفص عن عاصم ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ فبعض العلماء يقول: إنه خبر لا استفهام فيه، والأظهر أنه فيه استفهام إلا أن الاستفهام حُذف لدلالة القراءة الثانية عليه؛ لأن المقام أليق بتكرير التوبيخ والتقريع من غير ذلك، وهمزة الاستفهام إذا دل الدليل عليها جاز حذفها، وهو قياسي عند الأخفش، وسماعي عند غيره. وهو موجود بكثرة في كلام العرب مع (أم) ودون (أم)، ومع ذكر الجواب، ودون ذكر الجواب[1]، قال بعض العلماء منه في القرآن: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: آية ٣٤] قالوا: الأصل: أفهم الخالدون. فاكتفى بالاستفهام الأول عن الثاني، وزعم بعضهم أن منه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ [الشعراء: آية ٢٢]. قالوا: الأصل أو تلك نعمة تمنها علي؟ وزعم بعضهم أن منه قوله: ﴿قَالَ هَـٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: آية ٧٦] أي: أهذا ربي؟ باستفهام الإنكار. والدلالة على حذف الهمزة هو توحيد إبراهيم وعدم شكه في ربوبية الكوكب. وأنشد سيبويه (رحمه الله) في كتابه لحذف همزة الاستفهام إذا دل المقام عليها قول الشاعر[2]:

لَعَمْرُكَ ما أدري وإن كنتُ دَارِياً   شُعيث بن سهمٍ أم شعيث بن مِنْقَرِ

وأنشد له سيبويه أيضاً في كتابه قول الأخطل[3]:

كَذَبَتْكَ عينُك أَمْ رأيتَ بواسطٍ   غَلَسَ الظلامِ من الربابِ خَيَالاً

فبيت الأخطل هذا، أورده سيبويه في كتابه مُجَوِّزاً أن تكون همزة الاستفهام محذوفة، وأن الأصل: أكذبتك عينك؟ فحُذفت همزة الاستفهام. وإن كان الشيخ الخليل بن أحمد يخالف سيبويه في معنى بيت الأخطل هذا ويقول: إنه خبر[4]، وأن المراد به ما يسميه علماء البلاغة: الرجوع، وهو

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

من البديع المعنوي عندهم، وهو أن يأتي الإنسان بأمر ثم ينقض ذلك الأمر بعينه ليدل على أنه قاله أولًا، وهو في غيبة عن رشده من شوق أو وَلَه أو نحو ذلك، ثم يراجعه رشده، وينفي الأمر للأول الذي كان كذباً ويأتي بالحق[١]، ويمثلون له بقول زهير[٢]:

قفْ بالديارِ التي لم يَعْفها القدَمُ بلى وغَيَّرَهَا الأرواحُ والدِّيمُ

يزعمون أن زهيراً قال: «لم يعفها القدم» لما رأى دار المحبوب خامره الشوق والحب حتى طاش عقله، فعبر بغير الواقع، ثم راجعه عقله فرجع للصواب، وأن الخليل يقول: إن بيت الأخطل من هذا القبيل، وسيبويه (رحمه الله) يقول: إنه حُذفت فيه همزة الاستفهام.

وحذف همزة الاستفهام مع ذكر الجواب، وعدم ذكر الجواب، ومع (أم) ودون (أم) كثير في اللغة العربية عند من تتبعها[٣]، فمنه دون (أم) ودون ذكر الجواب، كقول الكميت[٤]:

طَربتُ وما شَوْقاً إلى البيضِ أَطْربُ ولا لَعِباً مني وذو الشَّيبِ يلعبُ

يعني: أَوَ ذو الشيب يلعب؟ فحذف همزة الاستفهام، دون (أم) ودون ذكر الجواب ومنه قول خويلد الهذلي[٥]:

رفوني وقالوا يا خويلدُ لم تُرَعْ فقلتُ ـ وأنكرتُ الوجوه ـ هُمُ هُمُ

يعني: أهم هم؟ كما هو التحقيق. ومنه مع ذكر الجواب قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي المعروف المشهور، في شعره المشهور[٦]:

---

(١) انظر: الصناعتين للعسكري ص٤٤٣، علوم البلاغة للمراغي ص٣٢٧.
(٢) البيت في ديوانه ص٩٠.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الأنعام.
(٤) السابق.
(٥) السابق.
(٦) تقدم هذا الشاهد ص والبيت الأول من قصيدة في ديوانه ص٤٥، والبيتان الأخيران من قصيدة أخرى. وهي في الديوان ص٥٩ ـ ٦٠، وبين البيتين أربعة أبيات.

شـف عـنـهـا مـرقَّـقٌ جَـنَـديٌّ فهي كالشمسِ من خِلاَلِ السحابِ
أبـرزوهـا مِـثـل الـمـهـاةِ تـهـادَى بـيـن خـمـسٍ كـواعـبٍ أتـراب
ثـم قـالـوا تـحـبُـهـا قـلـتُ بَـهْـرَا عـدد الـنـجـمِ والـحـصَـى والـتـرابِ

فقوله: «تحبها» يعني: أتحبها؟ على التحقيق، وهو كثير في كلام العرب. ومنه مع (أم) قول عمر بن أبي ربيعة هذا(١):

بَدَا ليَ منها مِعْصَمٌ يومَ جمَّرتْ وكَـفٌّ خَـضِـيـبٍ زُيِّـنَـتْ بـبـنـانِ
فـوالله مـا أدري وإنـي لـحـاسـبٌ بـسـبـعٍ رميـتُ الـجـمـر أم بـثـمـانِ

يعني: «أبسبع رميت الجمر أم بثمان» ومنه بهذا المعنى قول أُحَيْحَة بن الجُلاح الأنصاري(٢):

لعمركَ ما تدري وإن ذَمَّرتَ سَقْباً لـغـيـركَ أم يـكـونُ لـك الـفـصـيـل

يعني: ألغيرك أم يكون لك.

وقول الخنساء الشاعرة بنت عمرو بن الشريد السُلمية(٣):

قـذى بـعـيـنـيـكَ أم بـالـعـيـنِ عُـوَّارُ أم خِلْتَ إذ أَقْفَرَتْ من أهلها الدارُ

يعني: أَقَذَى بعينيك؟ ومنه قول امرىء القيس(٤):

تَـروحُ مـن الـحَـي أَمْ تَـبْـتَـكِـرْ ومَـاذَا عـلـيـكَ بـأَنْ تـنـتَـظِـر

يعني: أتروح؟ وهو كثير في كلام العرب معروف، ويكفينا منه ما ذكرنا على سبيل المثال. وعلى هذا فقراءة نافع وحفص حُذفت فيها الهمزة

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الأنعام.
(٢) السابق.
(٣) السابق، ولفظه في الديوان:
قَـذَىً بِـعَـيْـنِـكِ أم بـالـعـيـن عُـوَّارُ أم ذَرَفَـتْ إذْ خَـلَـتْ مـن أهـلـهـا الـدار
(٤) السابق، وفي الديوان: «أو تبتكر».

لدلالة المقام عليها، فهي لا تخلو أيضاً من إنكار وتوبيخ كالتي قبلها، وهذا أليق بالمقام، خلافاً لمن قال: لم تُقدر هناك همزة استفهام، وإنما الجملة خبرية لا استفهام فيها، فكأنه حكم عليهم بأنهم يفعلون هذا الأمر لما وبَّخهم عليه.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ [الأعراف: آية ٨١] جمع رجل وهم الذكور ﴿شَهْوَةً﴾ شهوة هنا في إعرابه أوجه متقاربة[١]، بعضهم يقول: مفعول لأجله، أي: تأتون الرجال لأجل شهوتكم لهم دون النساء. وبعضهم يقول: هو مصدر منكَّر حالًا، أي: في حال كونكم مشتهين الرجال دون النساء. وبعضهم يقول: هو ما ناب عن المطلق، من قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ فإنه مضمن معنى: تشتهون الرجال شهوة.

والشهوة: هي ميل النفس إلى الشيء ورغبتها فيه.

﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لأن النساء هن أزواجكم اللاتي خلقهن الله لكم، لتتمتعوا بهن تمتعاً نزيهاً طاهراً يكون عنه النسل وبقاء الجنس الآدمي، فتركتم هذا الأمر الطيب الكريم وهو إتيان النساء، وهي الأزواج التي خلقهن الله لكم، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ١٦٥، ١٦٦] فبين الله شدة قبح فعلهم هنا حيث أنكر عليهم في قوله: ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ معناه يأتونهم في أدبارهم بفعل فاحشة اللواط قبحهم الله جل وعلا ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ اللاتي هن أزواجكم وخُلقن لكم لتتمتعوا بهن تمتعاً طاهراً كريماً لائقاً بالمروءة يتبعه النسل وبقاء الجنس الآدمي، فتركتم هذا الأمر الطيب الذي خلق الله النساء له، وذهبتم إلى هذا الأمر الوسخ القبيح النجس الذي يقضي بانقطاع نسل الإنسان؛ لأن الرجال إذا اكتفوا بالرجال عن النساء، انقطع النسل كله وضاع جنس بني آدم؛ ولذا وبخهم الله.

وفاحشة اللواط ـ قبحها الله وقبح مرتكبها ـ أول من فعلها من أهل الدنيا قوم لوط، وهي من خسائس الذنوب الجامعة بين الخسة ودناءة صاحبها

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٣٧٢).

ورداءته، وشناعتها وكثرة مفاسدها، فإن لها مفاسد عظيمة، مع أنها لا يرتكبها إلا أخس الناس، وأرذل الناس، وأقبح الناس ديناً، ومروءة وإنسانية، الذين يرتكبونها أشبه شيء بالبهائم قبحهم الله، وقبح فعلهم القبيح.

ومن خسائس هذه الفاحشة: أنها إن انتشرت في الناس واستغنى الرجال بالرجال صار ذلك سبباً لانقطاع الجنس الإنساني ودمار الدنيا، وخصلة إذا تمادى الناس فيها كانت خراباً لجميع الدنيا، هي من أخس الخصال. ويزعم الناس الذين مارسوا أضرار هذه الخسيسة أن الإنسان المفعول به إذا نزل مني اللائط فيه أن ذلك المني ـ والعياذ بالله ـ يورثه أضراراً قبيحة: يجعله ديوثاً، ويضيع همته، ويخرب إنسانيته وكيانه، فيبقى القبيح الخسيس الخنزير كلا شيء، وكذلك اللائط ـ قبحه الله وقبح فعله ـ يذهب إلى أنتن محل وأقذره ومحل النجاسات ليتمتع بهذا! فهو من أخس الناس وأنتنهم، والمحل الذي يريد التمتع منه هو أنجس شيء، وأنتنه وأقبحه. وفعله الخسيس يقتضي بانقضاء النسل، وربما أورث الخبيث الخسيس أمراضاً كما هو مشاهد عند من يعلم ذلك ويعلم الطب؛ لأن الله جعل في أرحام النساء خاصية لجذب مني الرجال، إذا هاج مني الرجل لينزل وهو يجامع امرأته كان في رحم امرأته خاصية لجذب ماء الرجل، فتجذب رحمُها مَنِيَّه، فيخلص من بقايا المني، أما إذا كانت القضية لواطاً ـ قبح الفاعل فيه والمفعول به فيه، قبح الله الجميع ـ فإنه لا يكون في دبر الرجل استعداد لجذب ماء الرجل الآخر، فيتهيأ الماء للخروج، ويبقى في المجاري، فينتن ويتعفن، ثم تنشأ منه أمراض وأورام وأسقام عظيمة ـ قبح الله الجميع ـ.

والحاصل أنها خصلة من أقبح الخصال وأخسها وأكثرها ضرراً، صاحبها في الدنيا تؤذن بأنه ساقط المروءة، ساقط الدين، لا يخاف الله، وتدخله يوم القيامة النار، ومن ارتكبها أجمع العلماء على أنه يعاقب في الدنيا عقوبة زاجرة.

واختلف العلماء في عقوبة اللائط[١]، المرتكب هذه الفاحشة الخبيثة ـ قبحها الله وقبح مرتكبها ـ فذهب جماعة من العلماء، وحكى عليه غير واحد إجماع الصحابة، وهو مذهب مالك وعامة أصحابه، ورواية عن الشافعي،

---

(١) انظر: المجموع (٢٠/٢٧)، المغني (١٢/٣٤٨)، القرطبي (٧/٢٤٣).

ورواية عن الإمام أحمد أنهما يقتلان: الفاعل والمفعول به يقتلان معاً، إلا أن العلماء الذين قالوا يقتلان، اختلفوا في كيفية قتله، فمنهم من قال: يقتل بالسيف، ومنهم من قال: يُرجم بالحجارة حتى يموت، ومنهم من قال: يُحرق الخبيث بالنار حتى يُقتل تحريقاً، ومنهم من قال: يُرفع على شاهق ثم يُرمى من الشاهق ويُتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط الذين هم أول من ارتكب هذه الفاحشة، رفعهم إلى أعلى ثم قذف [بهم إلى][1] الأرض وأرسل عليهم حجارة من سجيل.

والذين قالوا: يُقتل اللائط والملوط استدلوا بالحديث الذي رواه عكرمة عن ابن عباس، وأخرجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم، أن النبي ﷺ قال: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»[2]. وقال ابن حجر في رجال هذا الإسناد: إنهم موثقون. وذكر فيه بعض اختلاف[3]. وأكثر العلماء يثبتون هذا الحديث، وكم من واحد قال: إنه حديث ثابت. وما جاء عن يحيى بن معين من أن في إسناده عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب، وأنه اتهمه في هذا الحديث[4]، مردود بأن عَمْراً المذكور من الحفاظ المشهورين، الذين روى لهم مالك والشيخان، فلا يقدح فيه هذا، فهذا الحديث الذي رواه هؤلاء عن ابن عباس هو حجة من قال: يقتل الفاعل والمفعول به، سواء كانا محصنين أو غير محصنين.

والذين قالوا: يقتلان بالسيف؛ لأن النبي قال في الحديث: «**فاقتلوا الفاعل والمفعول به**». والقتل إذا أُطلق ينصرف إلى القتل بالسيف.

والذين قالوا: يُرجمان، استدلوا بآثار جاءت في ذلك، جاء عن علي بن أبي طالب أنه رجم لوطياً[5]، جاء عنه من بعض الوجوه. وروي

---

(١) في الأصل: «قذف الأرض بهم».

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

(٣) بلوغ المرام ص٢٥٩.

(٤) انظر: الدراية (٢/١٠٣).

(٥) أخرجه عبدالرزاق (١٣٤٨٨)، وابن أبي شيبة (٩/٥٣٠)، والبيهقي (٨/٢٣٢)، وانظر: الدراية (٢/١٠٣).

عن ابن عباس أيضاً أن هذه اللوطية الكبرى، أن فيها الرجم[١]. فقد رُوي عن علي وابن عباس وغيرهم.

والذين قالوا: يُحرق بالنار، استدلوا بما رواه البيهقي وغيره من أن خالد بن الوليد (رضي الله عنه) أرسل إلى أبي بكر الصديق أيام خلافته أنه وجد في بعض نواحي بلاد العرب رجلًا يُنكح ـ والعياذ بالله ـ كما تنكح النساء، وأن أبا بكر جمع الصحابة، فاستشارهم فكان أشدهم في ذلك قولًا علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، فقال: يا أمير المؤمنين إن هذه فاحشة لم ترتكبها من الأمم إلا أمة واحدة، وقد فعل الله بها ما علمتم في كتابه، فأرى أن يُحرق بالنار، واتفق الصحابة على ذلك[٢]. ذكر هذه القصة البيهقي وإسناده فيها مرسل، وجاءت من وجه آخر عن علي (رضي الله عنه) أنه حرق رجلًا ورجمه[٣].

والذين قالوا: يُرفع من عال إلى أسفل، ثم يُتبع بالحجارة، قالوا: إن الله كذلك فعل بقوم لوط.

هذا هو القول الأول ـ أنه يُقتل الفاعل والمفعول ـ وهو أقوى الأقوال دليلًا، وهو مذهب مالك وعامة أصحابه، وحكى عليه غير واحد إجماع الصحابة، وهو رواية عن أحمد، وقول عن الشافعي.

المذهب الثاني في عقوبة اللائط: أن اللواط كالزنى، إن كان اللائط محصناً رُجم، وإن كان غير محصن جُلد مائة وغُرِّب سنة، كما هو معروف. وهذا هو الرواية التي رجع إليها الشافعي في قول الربيع وغيره[٤]، وهو الرواية الأخرى عن الإمام أحمد، قالوا: إنه كالزنى: واستدلوا بحديث لا يصح، وهو أن النبي ﷺ قال: «**إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان، وإذا أتت المرأة المرأة**

---

(١) أخرجه بنحوه عبدالرزاق (١٣٤٩١)، وابن أبي شيبة (٩/٥٣٠)، وأبو داود في الحدود، باب: فيمن عمل عمل قوم لوط (٤٤٣٩)، (١٢/١٥٥)، والبيهقي (٨/٢٣٢)، والدارقطني (٣/١٢٥)، وانظر: صحيح أبي داود (٣٧٤٦).

(٢) أخرجه البيهقي (٨/٢٣٢)، وعزاه الحافظ في الدراية (٢/١٠٣)، لابن أبي الدنيا والواقدي في الردة. وقال: «ضعيف جداً» ا.هـ.

(٣) البيهقي (٨/٢٣٢ ـ ٢٣٣)، بنحوه.

(٤) السابق (٨/٢٣٣).

فهما زانيتان»[١] وهذا الحديث لا يصح إسناده، وإن جاء من وجهين، فلا يصح إسناده. واستدل من قال هذا القول بالقياس، قاسوه على الزنى، قالوا: بجامع أن كلاً منهما إيلاج فرج في فرج محرم شرعاً مشتهى طبعاً. وهذا رواية عن الشافعي، وروي عن أحمد، وقال به جماعات كثيرة من فقهاء الأمصار، وممن رُوي عنه هذا من الصحابة: ابن الزبير وجماعات من التابعين، وفقهاء الأمصار، وهذا هو الرواية الأخرى عن الإمام أحمد، والقول الآخر عن الشافعي. وعن الربيع: أن الشافعي رجع إلى هذا القول.

المذهب الثالث: أنه لا يُقتل ولا يُحد حد الزنى، وإنما يعزر بحسب ما يراه الإمام من ضرب أو سجن. وهذا مذهب أبي حنيفة، إلا أن صاحبيه خالفاه فيما ذكر بعضهم أنهما في هذا وافقا الشافعي وغيره في أنه كالزاني. ومذهب أبي حنيفة احتج له بأن الصحابة اختلفوا فيه، فدل على أنه ليس فيه نص صريح، والحدود تُدرأ بالشبهات، وقال: قياسه على الزنى غير مقبول؛ لأن الزنى له اسم يخصه، واللواط له اسم يخصه، واستدل له بعض الحنفية ببيت أبي نواس[٢]:

من كَفِّ ذَات حِرٍ في زي ذي ذَكَر   لـهـا مـحـبـان لـوطـي وزنَّـاءُ

قالوا: الزنى له اسم يخصه، واللواط له اسم يخصه، والقياس لا يصح مع وجود الفارق. قالوا: لأن الزنى يضيع الأنساب ويورث الشبهة في الفراش، واللواط لا يضيع نسباً ولا يورث شبهة في فراش؛ لأن اللواط لا يقع منه ولد، بخلاف الزنى فقد تشتبه به الفرش، وتختلط به الأنساب. قالوا: والداعية في الزنى من الجانبين؛ لأن الزاني والزانية كل منهما يتلذذ، واللواط من جهة واحدة؛ لأن المفعول به ـ قبحه الله ـ قد لا يتلذذ ـ قبح الله الجميع ـ واستدل أبو حنيفة أيضاً بتفسير مجاهد في قوله تعالى:

---

(١) أخرجه البيهقي (٢٣٣/٨)، قال الحافظ في التلخيص (٥٥/٤): «... البيهقي من حديث أبي موسى، وفيه محمد بن عبدالرحمن القشيري كذبه أبو حاتم... ورواه أبو الفتح الأزدي في الضعفاء، والطبراني في الكبير من وجه آخر عن أبي موسى، وفيه بشر بن الفضل البجلي وهو مجهول. وقد أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده عنه» ا.هـ. وضعفه الألباني في الإرواء (٢٣٤٩).

(٢) البيت في ديوانه ص٢٨.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَـٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ [النساء: آية ١٦] قال: اللذان يأتيانها: الرجلان يفعلان فاحشة اللواط، فآذوهما بالسب والضرب بالنعال ونحو ذلك[١]. كما قال به بعض العلماء في تفسير الآية.

هذه مذاهب العلماء في عقوبة الخنزير الخبيث اللائط ـ قبحه الله ـ.

واعلموا أن أوجه التلذذ المحرمة على أنواع: منها: أن يأتي الرجل الرجل، ومنها: أن يأتي الرجل المرأة حراماً، ومنها: أن تأتي المرأة المرأة ـ قبح الله الجميع ولعن من يفعل ذلك ـ.

أما إتيان الرجل الرجل فهو فاحشة اللواط الذي كنّا نذكره الآن.

وأما إتيان الرجل المرأة غير زوجه ولا سريته فهو الزنى، وسيأتي إيضاح الكلام عليه ـ إن شاء الله ـ في سورة النور، حيث أوضحه الله وبين ما يترتب عليه. وكذلك إتيان المرأة المرأة. وإتيان الرجل زوجه في دبرها هو من هذه المحرمات الخسائس[٢]. والعلماء يسمونه: اللوطية الصغرى. فيجب على كل مسلم أن يعلم أن إتيان الرجل امرأته في دبرها حرام، وقد قال أبو عبدالله القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسيره[٣]: إن حرمته رواها عن النبي ﷺ إثنا عشر صحابياً من الصحابة الكرام. وناهيك بالتحريم شيء يروي حرمته عن النبي ﷺ إثنا عشر صحابياً من الصحابة الكرام (رضي الله عنهم). وأحاديثهم معروفة موجودة، أخرجها الإمام أحمد في مسنده، وأصحاب السنن، وهي معروفة بكثرة، وفيها الوعيد الشديد والتهديد لمن يأتي امرأته في دبرها.

وما رُوي عن بعض السلف: ـ كما يذكرونه عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري وجماعة من الصحابة والتابعين ـ من أنهم رخصوا للرجل أن يأتي امرأته في دبرها، كل ذلك بين أمرين[٤]: إما مكذوب لا أصل له، وإما

---

(١) أخرجه ابن جرير (٨/٨٢)، وابن أبي حاتم (٣/٨٩٥)، وعزاه في الدر (٢/١٣٠)، لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.
(٢) انظر: القرطبي (٣/٩٠ ـ ٩٥)، المغني (١٠/٢٢٦)، فتح الباري (٨/١٩٠ ـ ١٩٢).
(٣) تفسير القرطبي (٣/٩٥).
(٤) انظر: السابق (٣/٩٣ ـ ٩٦).

محرف عن حقيقته، مصور بصورة غير حقيقته؛ لأن الذين قالوا من السلف ذلك، وجوزوا إتيان النساء من الأدبار يعنون أن يأتي الرجل امرأته من جهة دبرها في قبلها، وكم من رجل يجامع امرأته في قبلها من جهة دبرها، وهذا معروف، وتدل على هذا وجوه صحيحة ثابتة، منها: ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن جابر بن عبدالله (رضي الله عنه) أن اليهود كانوا يقولون: إذا جامع الرجل امرأته في قبلها من جهة دبرها جاء ولدها أحول. فأنزل الله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[1] [البقرة: آية ٢٢٣] وهذا تفسير من جابر (رضي الله عنه) للآية الكريمة بمعنى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي: وأتوا نساءكم في محل الحرث وهو القُبل خاصة، أنى شئتم، سواء كانت المرأة باركة على وجهها فلا يكون الولد أحول، أو مستلقية على قفاها، أو على جنب. والمقرر في علوم الحديث: أن تفسير الصحابي إذا كان له تعلق بسبب النزول فحكمه حكم المرفوع إلى النبي ﷺ[2]. وحديث جابر هذا له حكم الرفع، وهو حديث ثابت في الصحيحين، يبين أن المعنى: إتيانها في قبلها من جهة دبرها. وما اشتهر عن عبدالله بن عمر أنه أذن ورخص في ذلك فهو باطل، بدليل ما رواه الدارمي (رحمه الله) في مسنده بإسناد صحيح أن عبدالله بن عمر (رضي الله عنه) سأله رجل فقال له: أيُحَمِّض للجواري؟ فقال: وما التحميض؟ فذكر له الدبر، فقال عبدالله بن عمر: وهل يفعل هذا أحد من المسلمين؟![3] هذا إسناد صحيح في مسند الدرامي (رحمه الله)، يبين أن ما ذكر عن ابن عمر أنه كذب، وأنه لا يقصد إتيان المرأة في دبرها. ومن رُوي عنه من السلف ما يوهم ذلك فمراده أنه يجوز أن يأتي الرجل امرأته في قبلها من جهة دبرها وهذا لا نزاع فيه، وهو الذي نزلت فيه آية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٢٣].

---

(١) البخاري في التفسير، باب (نساؤكم حرث لكم) حديث رقم (٤٥٢٨)، (٨/١٨٩)، ومسلم في النكاح، باب: جواز جماعه امرأته في قبلها من قدامها ومن ورائها من غير تعرض للدبر. حديث رقم (١٤٣٥)، (٢/١٠٥٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣١) من هذه السورة.

(٣) الدارمي (١/٢٠٨)، (١١٤٧).

وما يستدل به بعض من لا يعلم معاني القرآن من أن الله أذن للرجل أن يأتي امرأته حيث شاء لأنه قال: ﴿أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ أي: كيف شئتم. وقوله: ﴿أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ يقتضي سواء كان ذلك في القبل أم في الدبر!! فهذا جهل وعُجْمة، وعدم فهم للقرآن؛ لأن هذا مرتب بالفاء على قوله: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ فرتب على كون النساء حرثاً أي: محل ازدراع الأولاد بقوله: ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ ولا حرث في الدبر ألبتة، فلا يدخل في الآية ألبتة[1].

ومما استدل به العلماء - مع رواية اثني عشر صحابياً عن النبي ﷺ تحريم إتيان النساء في أدبارهن، مما استُدل به من غير النصوص -: القياس، فمن ذلك أن الله (تعالى) حرم على الرجل إتيان امرأته في فرجها أيام الحيض. وعلل ذلك بأن الحيض أذى ينزه الرجال عن أن يتلبسوا بأذى الحيض وقذره حيث قال: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى﴾ ثم بين علة الاعتزال بأنه أذى فقال: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [البقرة: آية ٢٢٢] وقوله: ﴿مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ هو القُبُل؛ لأن الله قال: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ﴾ [البقرة: آية ٢٢٣] والمأمور بإتيانه: محل الحرث، ومعلوم أن محل حرث الأولاد ليس الدبر، وتدل عليه آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [البقرة: آية ١٨٧] لأن معنى: ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ أي: من الأولاد على أصح التفسيرين، وعليه جمهور العلماء، يعني: باشروهن ولتكن تلك المباشرة في محل ابتغاء الأولاد، ومعلوم أن الدبر ليس محل ابتغاء الأولاد؛ ولذا كانت المرأة أيام حيضها يمنع على زوجها جماعها حذراً من أذى الحيض ونجاسته، فالدبر أنجس وأنجس من محل الحيض؛ لأنه محل الغائط، ومحل النتن والخبث والنجاسة الدائمة، فهو أنجس وأنجس والعياذ بالله.

ومما استدل به بعض العلماء[2]: قالوا: إن الرجل إذا تزوج امرأة

---

(١) انظر: القرطبي (٩١/٣ - ٩٣).

(٢) انظر: السابق (٩٤/٣).

فوجدها رتقاء ـ والرتقاء هي التي فرجها مسدود، ليس فيها محل يمكن أن يجامعها فيه؛ لأن فرجها مسدود بالكلية ـ قالوا: إن هذا عيب تُرد به بإجماع العلماء، ولو كان الدبر محل تلذذ لما رُدت الرتقاء؛ لأن عنده محلًا آخر يتمتع به غير القُبل المسدود، وهو دبرها. وحكى القرطبي إجماع العلماء على أن الرتق عيب يُرد به، وأن الرجل إذا تزوج امرأة فوجدها مسدودة الفرج بالكلية أنه عيب يردها به، ولا يلزمه شيء من نصف الصداق. وقال الإمام ابن عبدالبر (رحمه الله)[1]: إن عامة العلماء أجمعوا على أن الرتق عيب تُرد به الرتقاء، ولم يعلم في ذلك خلاف، إلا شيء ضعيف لم يثبت، رُوي عن عمر بن عبدالعزيز (رحمه الله) أنها لا ترد بالرتق. فإن قيل: قد يكون الرتق عيباً؛ لأن الرتقاء لا تلد، والعقم عيب. أجاب عنه بعض العلماء: بأن العقم ليس بعيب، ومن تزوج امرأة فوجدها عقيماً لا تلد، لا يكون هذا عيباً يردها به، وإن طلقها لزمه نصف الصداق إن كان قبل الدخول؛ لأن العقم في النساء ليس عيباً يُرد به. وحكى القرطبي (رحمه الله) في تفسير قوله: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٢٣] إجماع العلماء على أن عقم المرأة ليس من العيوب التي يردها به الرجل[2]، ويدل على ذلك ظواهر آيات. هذا زكريا ﷺ يقول: ﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: آية ٤٠] ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ [مريم: آية ٥] وهو مقيم معها على ذلك، وذلك يدل على أن ذلك الأمر لو كان مما لا ينبغي البقاء عليه لما بقي هو عليه. ولا ينافي هذا ورود أحاديث كثيرة بتزوج الولود؛ لأن النبي ﷺ يكاثر بنا الأمم، فالولود قطعاً خير من العقيم، وكثرة النسل خير من قلته كما لا يخفى.

والحاصل أن الوجوه المحرمة من التلذذ أنواع: منها إتيان الرجل امرأة غير زوجه ولا سريته، وهذا هو الزنى أعاذنا الله والمسلمين منه. ومنها إتيان الرجل الرجل، وهذا هو اللواط ـ قبحه الله ولعن مرتكبه ـ وهو الذي كنا

---

(١) الاستذكار (١٦/١٠٠).

(٢) القرطبي (٣/٩٤).

نتكلم عليه ومنها: إتيان امرأة الرجل في دبرها، فلا يحل له أن يأتي امرأته في دبرها، وذلك يسمى اللوطية الصغرىٰ، وهو الذي كنا نبين رواية اثني عشر صحابياً حرمته عن النبي ﷺ والتشديد فيه.

ومن ذلك إتيان المرأة المرأة، المعروف بالمساحقة؛ لأن بعض النساء الخبيثات الخسيسات التي لا مروءة لهن ولا خُلق ولا حياء يجامع بعضهن بعضاً، فتتلاقىٰ عوراتهن، وتحك هذه فرجها بفرج هذه ـ قبح الله الجميع، الخسيسات ـ فإن هذا الفعل من أخس الأفعال وأقبحها، وهو من المحرمات الخسيسة الخبيثة التي لا ترتكبها إلا ساقطة مروءة، وساقطة دين، خبيثة لا حياء لها ولا مروءة ولا إنسانية، وهذه من أقبح الأفعال وأحرمها وأشنعها، وإذا ثبتت على امرأة، يجب على من بسط الله يده أن يعزرها التعزير البالغ الرادع لها ولأمثالها من الخسيسات الخبيثات القبيحات، وهذه المساحقة ـ قبحها الله وأخزاها، وقبح من ترتكبها وأخزاها ـ هي من قبائح الذنوب، وخسائس الفضائح، وربما نشأت عنها بلايا عظام، ربما نشأ عنها مثل الزنى بعينه؛ لأن المُساحِقَات ربما حملت إحداهن عن طريق المساحقة فتيقن الناس أنها زانية؛ وذلك أن التي تتخذ أخداناً مساحقات ـ قبحها الله ـ قد تكون ذات زوج فيجامعها زوجها فيستقر ماء زوجها في رحمها، ثم تأتي أخرى خدنتها التي تساحقها وماء زوجها مستقر في رحمها فتحك ذلك العضو منها بالعضو من الأخرى فتتحرك الشهوة منهما، وعند تحرك الشهوة ينزل ماء زوجها من رحمها فيدخل في رحم الأخرى عند ثوران شهوتها فيختلط بمنيها المنعكس إلى رحمها فينشأ من ذلك الحمل، فيقدر الناس أن الخبيثة الكلبة زانية قبحها الله وقبح فعلها وقبح من يرتكب هذه الخسائس الشنائع، فإن الإنسان حتى ولو كان غير ذي دين لا ينبغي له إن كان ذا إنسانية أو مروءة أن يرتكب هذا، وقد صدق الوليد بن عبدالملك بن مروان حيث قال: إنه لو لم يسمع اللواط يذكر في القرآن لما صدق أن ذكراً ينزو على ذكر؛ لأن النفوس الطبيعة والفطر السليمة تستقذر هذا وتستخبثه كل الاستخباث، حتى ولو ضُربت عنق الرجل السليم الفطرة أن يفعل هذا لما فعل ـ قبح الله من يرتكب هذه الخسائس والخبائث ـ فهذه هي الأمور التي

لا يجوز أن تفعل، وهي إتيان الرجل امرأة أجنبية، وإتيانه زوجته في دبرها، وإتيان الرجل الرجل، وإتيان المرأة المرأة، كل هذا خبيث قبيح.

١٣/أ / أما استمناء الرجل بيده ـ لأن الرجل إذا اشتدت غلمته فيجعل مثل صابون أو غاسول في يده ويحكه على ذكره حتى ينزل منه الماء ـ فالتحقيق أن هذا الاستمناء باليد المعروف في اصطلاح الأدباء بجَلْدِ عُمَيْرَة[1] ويسمى (الخضخضة) فالتحقيق الذي لا شك فيه أنه فعل قبيح وأنه حرام[2]، وإن كان الإمام أحمد ـ مع جلالته وعظم قدره في العلم ـ. يُذكر عنه أنه يرخص في هذا كالترخيص بإخراج الدم بالفصادة إذا خيف منه أذى[3]. إلا أن التحقيق مع الجمهور، وأن الاستمناء باليد المعروف بجلد عميرة المُسمىٰ بالخضخضة ـ قبحه الله ـ أنه حرام، وظاهر القرآن يدل على أنه حرام ظهوراً بيناً، ولم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله شيء يعارض ظاهر آية ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ الدالة على تحريم الاستمناء باليد، وهي قوله تعالى في ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ و(سأل سائل): ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: الآيتان ٥، ٦] و [المعارج: الآيتان ٢٩، ٣٠] فلم يستثن الله إلا نوعين وهو قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ ثم جاء بحكم عام شامل قال: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: آية ٧] و [المعارج: آية ٣٠] ولا شك أن الناكح يده ممن ابتغىٰ وراء ذلك فهو داخل في قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ خلافاً لمن يجيز ذلك. والسفهاء يفعلون هذا كما قال شاعرهم[4]:

---

(١) انظر: المنتخب في كنايات الأدباء ص١٠٥، القاموس (مادة: عمر) ص٥٧٢، البحر المحيط لأبي حيان (٦/٣٩٧).

(٢) انظر: القرطبي (١٢/١٠٥)، المجموع (٢٠/٣١ ـ ٣٤).

(٣) المذهب عند الحنابلة أنه حرام، ونقله في الإنصاف عن جميع الأصحاب، وإنما يُباح حال الخوف من الزنا مع عدم القدرة على النكاح أو التسري، وزاد بعضهم ما إذا خاف على نفسه وبدنه. وفي رواية عن الإمام أحمد التحريم بإطلاق. انظر: الإنصاف (١٠/٢٥١)، الفروع (٦/١٢١)، كشاف القناع (٦/١٢٥)، شرح منتهى الإرادات (٣/٣٦٢).

(٤) البيت في القرطبي (١٢/١٠٥)، المجموع (٢٠/٣٣).

إذا حَلَلتَ بوادٍ لا أَنيسَ به فاجلدْ عُميرةَ لا عارٌ ولا حرج

وهذا من الشيء الذي لا ينبغي أن يُختلف في تحريمه، وإن قال به هذا الإمام الجليل ما قال، وكل كلام فيه مقبول ومردود كما قال إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله.

ففاحشة اللواط ـ قبحها الله ـ وما يتبعها يجب على المسلمين الحذر منها، وأظهر الأقوال دليلًا: أن مرتكبها يُقتل، يُقتل الفاعل والمفعول.

أما من يزني ببهيمة[1] فقد جاء فيه حديث أنه يُقتل هو والبهيمة التي زنى بها[2]، والحديث الذي ورد في ذلك قد يكون لا يقل عن درجة الاحتجاج، وأكثر أهل العلم على أن من زنى ببهيمة لا يُقتل هو ولا البهيمة؛ واستدلوا بحديث ابن مسعود الثابت في الصحيحين: **«لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث»**[3]. والثلاث معروفة ليس منها نكاح البهيمة. قالوا: هذا الحصر القوي اليقيني أقوى من الأحاديث الواردة في قتل من أتى بهيمة.

وبعض العلماء يقول: إذا أتاها جاز أكلها. وهو مذهب مالك، وبعضهم يقول: تُقتل ولا يؤكل لحمها. والله (جل وعلا) أعلم بذلك.

وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ﴾ [الأعراف: آية ٨١] النساء: اسم جمع لا واحد له من لفظه، واحدته امرأة.

﴿شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ هذا النوع من الإضراب يسمى (إضراباً انتقالياً).

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ والإسراف مجاوزة الحد؛ لأن الله خلق لهم النساء وجعل فيهن الجمال، وركب فيهن الشهوة؛ لأن الله إنما ركب الشهوة في الرجال والنساء، الحكمة الكبرى في ذلك أن يقع التناسل ويبقى نوع

---

(١) انظر: المجموع (٢٠/٢٩)، المغني (١٢/٣٥١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

الإنسان؛ لأن المرأة إذا كانت لا تشتهي الجماع لا يمكن أن تقبله بحال أبداً، فلا يمكن أن يرغمها على قبول جماع الرجل لها إلا شهوتها في ذلك الفعل، فلو كانت لا تشتهيه ألبتة لما قبلته أبداً ولتمنعت النساء عن ذلك الفعل فانقطع نسل بني آدم، وكذلك الرجل إن كان لم تُركب فيه شهوة هذا الفعل لا يقبل ذلك الفعل أبداً. فجعل الله الشهوة في الرجال إلى النساء، وفي النساء إلى الرجال؛ لتجتمع الشهوة والشهوة فيقع بذلك التناسل، ويبقى نوع الإنسان. فمن صرف الشهوة إلى غير محلها وجعلها في الذكر أسرف؛ لأنه جاوز الحد ووضع الأمر في غير موضعه؛ لأنه لو اقتصر الرجال على الرجال وتركوا النساء لانقطع النسل وانقطع بنو آدم وخرب العالم كله؛ ولذا قال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ ولما قال لهم لوط هذا الكلام قال الله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٨٢] ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ أي: لوطاً ومن معه، وقد بين القرآن أن لوطاً لم يؤمن معه إلا أهل بيته فقط، وهم بناته. وزوجته بين القرآن أنها كافرة، وأنها هلكت مع الهالكين في آيات كثيرة، والآية التي دلت على أنه لم يؤمن معه إلا أهل بيته هي قوله في الذاريات: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾ [الذاريات: الآيتان ٣٥، ٣٦] وهو بيت لوط، هو وابنتاه؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم﴾ أي: لوطاً وأهله ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ سدوم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ﴾ أي: جماعة وناس ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ يتطهرون من أدبار الرجال، ويتنزهون عن إتيان الرجال في أدبارهم، فكأنهم يعيبونهم بما ليس بعيب، فهم يعيبونهم بالتطهر من أقذار أدبار الرجال، وهذا العيب الذي عابوهم به هو غاية المدح والنزاهة:

وعَيَّرها الواشونَ أنّي أُحبُّها   وتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عنكَ عَارُهَا[1]

قال بعض العلماء: عابوهم والله بما ليس بعيب، بل هو غاية المدح. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

---

(١) البيت في الفائق للزمخشري (٤٤٥/٣)، روح المعاني (٢٢/١)، (١٦١/١٣)، (١١/٢٣)، اللسان (مادة: ظهر) (٦٥٩/٢).

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ [الأعراف: آية ٨٣] اخْتُصِرت القصة هنا وبُسطت في مواضع أخر كثيرة، وذلك أن الرسل لما جاؤوا إلى إبراهيم وبشروه بغلام عليم، ووقع ما وقع من ذبحه لهم العجل، وخوفه منهم، وسؤاله لهم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الذاريات: الآيات ٣١ ـ ٣٣] وجاؤوا لوطاً وسيء بهم لوط ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: الآيتان ٧٧، ٧٨] وحاورهم المحاورة المعروفة المتكررة في القرآن ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحجر: آية ٧٠] وجاؤوا يكسِّرون الباب، يظنون أن جبريل والملائكة معه جاؤوا في صفة شباب حسان الوجوه، حسان الثياب، حسان الريح، فجاؤوا يريدون أن يفعلوا بهم فاحشة اللواط، فلما غلبوا لوطاً على الباب وكادوا أن يكسروه، وقال لوط كلامه المحزن: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: آية ٧٨] عند ذلك أخبره جبريل والملائكة معه: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ [هود: آية ٨١] وأمروه بالإسراء بأهله ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: آية ٨١] وقالوا له: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [هود: آية ٨١] الخبيثة الكافرة بقيت معهم؛ ولذا قال هنا: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ [الأعراف: آية ٨٣] حيث أمرناه بأن يسري ليلاً وإنَّا مهلكوهم مع الصبح ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: آية ٨١] فأهلكهم الله.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود: آية ٨١] كانت امرأته قبيحة خبيثة مع الكفار كافرة وضرب الله لها مثلاً هي وامرأة نوح في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: آية ١٠] قبحها الله[1].

وقراءة الجمهور ما عدا ابن كثير وأبا عمرو لا إشكال؛ لأن الجمهور قرؤوا: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ وعلى قراءة النصب لا إشكال في

---

(١) انظر: الأضواء (٣٢٦/٢).

الآية ألبتة، وأن المعنى: فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك فلا تسر بها فاتركها مع الهالكين ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ [هود: آية ٨١] لأنها كافرة منهم.

أما على قراءة أبي عمرو وابن كثير: ﴿إلا امرأتُك﴾ بالرفع[1] ففي الآية إشكال متعارض مع قوله: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ لأن قوله: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ بالفتح يدل على أنه لم يسر بها، وعلى قراءة ﴿إلا امرأتُك﴾ يدل على أنه سرى بها، وأنها لم يلتفت أحد إلا هي.

وجمع بعض العلماء بين القراءتين بأن الله أعلمه أنها هالكة لا محالة، وأنه لم يسر بها إسراء إلى حيث النجاة، سواء بقيت معهم أو ذهبت معهم قليلًا فالتفتت فأصابها حجر فأهلكها كما أهلك قومها، فهي هالكة على كلا القولين سواء أسرى بها فالتفتت فهلكت، أو بقيت معهم، فهي هالكة على كل حال. وفائدة إسرائه بمن معه هي النجاة، وهي محرومة من هذه الفائدة. وإذاً يكون معنى القراءتين كالشيء الواحد. هكذا قال بعض العلماء. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾.

﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [الأعراف: آية ٨٣] (الغابرين): جمع الغابر، والغابر اسم مشترك من الأضداد، يُطلق على الماضي وعلى الباقي، تُقال (الغابر) للماضي، و (الغابر) للباقي. والمراد بها هنا: الباقين. ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي: من الباقين في الهلاك. فعلى القول بأنه لم يسر بها فالكلام ظاهر، وعلى القول بأنه أسرى بها: عندما خرج بها التفتت فهلكت، فكأنها بقيت معهم، فهي باقية معهم في الهلاك ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ [هود: آية ٨١] والله بين هذه القصة في آيات كثيرة من كتابه وأوضحها؛ لأن الرسل لمَّا قالوا لإبراهيم: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ وبينوا له أنهم سيهلكون القرية قال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ [العنكبوت: آية ٣٢] القبيحة، فلما كان وقت الصبح الذين جاؤوا يريدون كسر الباب وفاحشة اللواط بجبريل والملائكة معه لما قال جبريل للوط: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ [هود: آية ٨١] ذكر المفسرون

---

(١) انظر: السبعة ص٣٣٨، حجة القراءات ص٣٤٧، الدر المصون (٦/٣٦٥ ـ ٣٦٩).

أن الله أذن له في النكال بهم، فجاء في صورته، وعليه ما عليه من الوشاحات والأجنحة، ثم مسح أعينهم بريشة من جناحه، فبقيت وجوههم كأنها لم تكن فيها عيون أصلاً، كما سيأتي في قوله في القصة بعينها: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾ [القمر: الآيات ٣٧ ـ ٣٩] ويذكرون أن جبريل عليه السلام اقتلع أرضهم من الأرض، وأدخل جناحه من تحتها، واقتلعها من الأرض، ورفعها حتى قربت من السماء، ثم ألقاها منكساً لها، جاعلاً عاليها أسفلها، وأنهم أتبعتهم الملائكة حجارة السجيل، كما يأتي في قوله: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: آية ٨٢] والتحقيق: أن السجيل: أنه الطين؛ لأن الله قال: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الذاريات: آية ٣٣] وخير ما يفسر القرآن القرآن[1]، إلا أنه طين مشوي بالنار، شديد الحرارة، لا يأتي على شيء إلا خرقه. وهذه القصة مذكورة في مواضع كثيرة من كتاب الله؛ ولذا قال هنا: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ [الأعراف: الآيتان ٨٣، ٨٤] لم يذكر هنا أنه جعل عالي أرضهم سافلها، وذكره في هود حيث قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: الآيتان ٨٢ ـ ٨٣] ذكر هنا مطر الحجارة وقال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ وهذا المطر مطر من حجارة السجيل كما قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: آية ٧٤] وقال: ﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفرقان: آية ٤٠] وهي حجارة السجيل. وقال في بعض الآيات: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: الآية ١٧٣، النمل: الآية ٥٨] وقال هنا: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ انظر يا نبي الله ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ٨٤].

العاقبة: هي ما يؤول إليه الأمر عقب الأمر الأول، وتؤول إليه الحقيقة في ثاني حال.

---

(١) انظر: الأضواء (٢/٣٢٦).

والمجرمون جمع المجرم، والمجرم مرتكب الجريمة، والجريمة: الذنب الذي يستحق صاحبه العذاب والنكال[1] ﴿فَانظُرْ كَيْفَ﴾ الحال التي يؤول إليها أمر المجرمين وعاقبتهم، وهو الدمار والنكال، والعذاب المستأصل المتصل بعذاب الآخرة. وهذا معنى قوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ يخوف الله خلقه أن يقع بهم مثل ما وقع بهؤلاء، ومن أعظم ما يخوف الطغاة الفجرة من فاحشة اللواط ـ قبحها الله وقبح مرتكبها ـ أن الله بين في كتابه أن مرتكبيها أرسل عليهم حجارة السجيل، ثم بين أن تلك الحجارة موجودة، وأنها لم تعدم، وأنها ليست ببعيد من الظالمين الذين يفعلون مثل فعلهم حيث قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: الآيتان ٨٢ ـ ٨٣] فقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ على أشهر التفسيرين وأصحهما فيها أعظم تهديد وأكبر زجر وتخويف لمن يرتكب الخسيسة القبيحة وهي فاحشة اللواط. وهذا معنى قوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٨٥ ـ ٨٧].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ﴾ [الأعراف: آية ٨٥].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ معناه: وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً فهو معطوف على قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] لأنَّا في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأعراف ـ تكلمنا فيما مضى في الدروس السابقة على قصة نوح، وقصة هود، وقصة صالح، وقصة لوط مع أصحابهم، وكنا واقفين عند قصة شعيب مع مدين، وابتداء ما ذُكر قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ثم قال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: آية ٦٥] أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً، ثم قال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا﴾ [الأعراف: آية ٧٣] أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً، إلى أن قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً. أكثر المفسرين والمؤرخين يقولون: إن (مدين) اسم مدين بن إبراهيم، وأن هذه الأمة التي أُرسل إليها شعيب أنها من ذرية مدين بن إبراهيم، وأن شعيباً أخاهم في النسب، وكانت ديار مدين بأرض مَعَان من أطراف الشام مما يلي الحجاز، قريباً من بحيرة قوم لوط. وقال بعض أهل العلم: (مدين) اسم بلدة. واختلف المؤرخون والمفسرون[1] في نسب شعيب اختلافاً كثيراً لا يقوم شيء على دليل قاطع منه، فكثير من المؤرخين يقولون: هو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم. وبعضهم يقول: هو ابن صيفور أو ضيفور بن عيفاء أو عنقاء. وبعضهم يقول: هو شعيب من ذرية يشجر بن لاوي بن يعقوب. والأقوال في نسبه كثيرة جداً، ولم يقم برهان على شيء منها. وقد جاء في حديث أبي ذر المشهور في الأنبياء عند ابن حبان أن النبي ﷺ ذكر لأبي ذر أن أربعة من الأنبياء عرب قال: «**وهم هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر**»[2] وكان السلف الصالح يسمون شعيباً خطيب الأنبياء[3] لحسن مراجعته لقومه، ووضوح أدلته التي يدعوهم بها إلى الدين.

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٢/٥٥٤)، القرطبي (٧/٢٤٧)، البداية والنهاية (١/١٨٤ ـ ١٨٥)، معجم البلدان (٥/٧٧)، البحر المحيط (٤/٣٣٦).

(٢) أخرجه ابن حبان (الإحسان (١/٢٨٧)، حديث رقم (٣٦٢).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (١٢/٥٦٧)، القرطبي (٧/٢٤٨)، البداية والنهاية (١/١٨٥)، الدر المنثور (٣/١٠٢).

وسيأتي في سورة هود كلام الناس وما يُختار منه على قولهم في تفسير قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: آية ٩١] أنه كان أعمى.

وقد يشكل على طالب العلم كون شعيب عربياً فمن أين تَعَرَّب ومن أين أخذ العربية عمن؟ لأن إبراهيم أعجمي، وإسماعيل أبو العرب العاربة[١]، معلوم أنه تعرب من العرب العاربة البائدة الذين ساكنوه عند زمزم كجرهم، وقد أُرسل إلى جرهم وتعلم منهم اللسان العربي على الصحيح.

ذكر بعض العلماء ـ وممن ذكره حافظ المغرب أبو عمر بن عبدالبر، وذكره ابن حجر في الإصابة أيضاً وغيرهم ـ ذكروا في ترجمة سلمة بن سعد ـ ويُقال: سلمة بن سعيد ـ أنه وفد على النبي ﷺ وانتسب له وهو عنزي، وأن النبي ﷺ قال: «**نعم الحي عنزة مبغي عليهم منصورون، أولئك قوم شعيب، وأختا موسى**». هذا حديث رواه الطبراني وغيره، وذكره ابن عبدالبر في الاستيعاب وغيره[٢].

قال بعض العلماء: لو كان هذا الحديث محفوظاً صحيحاً لكان دالّاً على أن شعيباً من قبيلة من قبائل العرب البائدة تُسمى: عنزة، ولكنه لم يصح. وعنزة هؤلاء المذكورون في هذا الحديث ليس المراد بهم بنو عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار، المعروفون؛ لأن شعيباً قبلهم بكثير، كما قاله غير واحد، وعلى كل حال فالكلام في شعيب ونسبه كثير، واختلاف العلماء فيه كثير، وغلط بعض العلماء وبعض المؤرخين ـ كصاحب صبح الأعشى ـ فزعم أن شعيباً كان بعد موسى[٣]. وهذا لا شك أنه غلط؛ لأن

---

(١) هكذا في الأصل. ولعله سبق لسان إذ من المعلوم أنه أب للعرب المستعربة.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٥/٥٥)، والبزار (كشف الأستار (٣/٣١٣)، وأورده ابن عبدالبر في الاستيعاب (٢/٩١)، والحافظ في الإصابة (٢/٦٥)، والهيثمي في المجمع (١٠/٥١)، وقال: «وفيه من لم أعرفهم» ا.هـ.

وقال الحافظ في الإصابة (٢/٦٥)، عن إسناده عند الطبراني: «وفي الإسناد من لا يعرف» ا.هـ.

(٣) في (١/٣١٤) من صبح الأعشى عدّ (مدين) من قبائل العرب البائدة. وهذا يعني أنه يرى تأخر موسى عن زمان شعيب (عليهما السلام). والله تعالى أعلم.

شعيباً قبل موسى، وقد دلت عليه آيات القرآن في سورة الأعراف هذه وغيرها؛ لأن الله في سورة الأعراف هذه لما ذكر قصة نوح وقصة هود وصالح ولوط وشعيب مع قومهم قال بعد ذلك في الآيات الآتية: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ [الأعراف: آية ١٠٣] فدل على أن بعث موسى بآيات الله بعد هؤلاء الرسل وأممهم، كما هو نص القرآن العظيم. وزعم بعض العلماء أن شعيباً ابن بنت لوط. وقال بعض العلماء: هو ممن آمن مع إبراهيم لما نجا من النار، وهاجر معه[1]. وكلها أقوال لا دليل عليها، وغاية ما يفيده القرآن: أن الله بعث نبيه شعيباً إلى أهل مدين. وذكر الله في آيات أُخرى متعددة ـ كما سيأتي في سورة «الحجر»، وفي سورة «الشعراء»، وفي سورة «ص» وغير ذلك ـ أن شعيباً أُرسل أيضاً إلى أصحاب الأيكة، كما سيأتي في قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الشعراء: آية ١٧٦] والعلماء مختلفون: هل أصحاب الأيكة هم مدين أنفسهم فيكون شعيب أُرسل إلى أمة واحدة، أو مدين أمة وأصحاب الأيكة أمة أخرىٰ، فيكون شعيب قد أرسل إلى أمتين؟ هذا خلاف معروف بين العلماء، وأكثر أهل العلم على أنهم أمة واحدة كانوا يعبدون أيكة، أي: شجراً ملتفاً، وأن الله سماهم مرة بنسبهم (مدين) ومرة أضافهم إلى الأيكة التي يعبدونها. وجزم بصحة هذا ابن كثير في تاريخه وتفسيره[2] وممن اشتهر عنه أنهم أمتان قتادة[3] وجماعة، وهو خلاف معروف.

والذين قالوا: إنهما أمتان قالوا: في (مدين) قال: إنه أخوهم حيث قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الأعراف: آية ٨٥] أما أصحاب الأيكة فلم يقل: إنه أخوهم بل قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: الآيتان ١٧٦، ١٧٧] ولم يقل: أخوهم شعيب.

وأُجيب عن هذا بأنه لما ذكر مدين ذكر الجد الذي يشمل القبيلة ومن جملتها شعيب، ذكر أنه أخوهم من النسب. أما قوله: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١/١٨٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٥٥٦)، البداية والنهاية (١/١٨٥، ١٨٩ ـ ١٩٠).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (١٤/٤٨).

فمعناه: أنهم يعبدونها، ولما ذكرهم في مقام الشرك وعبادة غير الله لم يدخل معهم شعيباً في ذلك وهم أمة واحدة. هكذا قاله بعضهم[١] والله أعلم.

وعلى كل حال فشعيب هذا معروف أنه نبي من الرسل الكرام، وقد ذكر الله قصته مع قومه مفصلة في آيات من كتابه، ذكرها هنا، وذكرها في سورة هود، وفي سور أخرى كما سيأتي إن شاء الله. هذا معنى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً، ماذا قال لهم؟ وماذا أُرسل به إليهم؟ قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: آية ٨٥].

قوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هو حظ الإثبات من لا إله إلا الله. وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ حظ النفي منها. وهذه الكلمة التي هي (لا إله إلا الله) هي التي قامت عليها السماوات والأرض، وخلقت لأجل الحساب عليها الجنة والنار وأُرسل بها الرسل، وهي محل المعارك بين الرسل وأممهم، وجميع الرسل ما أُرسل منهم نبي إلا بهذه الكلمة وما تتضمنه من الشرائع والأحكام. إذا نظرت في رسائل الرسل إجمالًا وتفصيلًا وجدت ذلك كما قلنا، ومما يدل عليه تفصيلًا: أن كل رسول إذا أُرسل إلى قومه يبين القرآن أن أول ما يقول لهم هو مضمون (لا إله إلا الله) كقوله في قصصهم في هذه السورة الكريمة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ماذا قال لهم؟ قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] ثم قال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ماذا قال لهم؟ قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: آية ٦٥] ثم قال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: آية ٧٣] وكذلك قال في شعيب: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: آية ٨٥] وهكذا. وكذلك بالإجمال قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَىٰٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: آية ٢٥] وفي القراءة الأخرى[٢]: ﴿إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١/١٩٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٥) من هذه السورة.

أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وهو حظ الإثبات منها، ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النمل: آية ٣٦] وهو حظ النفي منها ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: آية ٤٥] وهكذا. وهذا من تاريخ الأنبياء والقصص القرآنية يدل على عظمة هذه الكلمة، وأنها هي رسالة الله في أرضه لخلقه، حتى إنه (جل وعلا) حصر جميع الوحي فيها في سورة الأنبياء في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنبياء: آية ١٠٨] وغير ذلك من الآيات و(إنما) أداة حصر لشدة أهمية هذه الكلمة.

وهي مركبة من نفي وإثبات، إثباتها قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وهي الأمر بعبادته وحده. أصل العبادة: الذل والخضوع، ومنه قيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه بين يدي سيده، فكل خاضع ذليل يقال له: عبد وعابد. فالعبادة: الذل والخضوع، وهو معنى معروف في كلام العرب مشهور، ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته[1]:

تـباري عـتـاقاً نـاجـياتٍ وأَتـبْـعـتْ ... وظـيـفـاً وظـيـفـاً فـوقَ مـوْرٍ مُـعَـبـدِ

يعني: فوق طريق مذلل. ومعناها في الاصطلاح[2]: هي الذل والخضوع لخالق السماوات والأرض (جل وعلا) بكل ما أمر أن يتقرب إليه به على وجه الذل والخضوع والمحبة. فلا تكفي المحبة عن الذل والخضوع، ولا الخضوع عن الذل والمحبة؛ لأن الذليل الخاضع إذا كان غير محب لمعبوده قد يكون مبغضاً له، ومن أبغض معبوده فهو كافر ضال. والمحبة وحدها لا تكفي، لأن الذي لا يخاف قد يحمله التدلل على أن يسيء الأدب مع المحبوب الذي يحبه، فإذا اجتمع الحب والذل والخضوع كان الأمر كما ينبغي. وهذا معنى قوله: ﴿يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: آية ٨٥] (ما) هنا نافية، والإله (فِعَال) من الإلهة وهي العبادة. أي: ما لكم من معبود يعبد حقاً غيره (جل وعلا)؛ لأنه هو المعبود وحده.

---

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

(٢) السابق.

والإله: قال بعض علماء العربية: هو (فِعَال) بمعنى: (مفعول) أي مألوه، أي: معبود يعبده خلقه على وجه الذل والخضوع والمحبة. وإتيان (الفِعَال) بمعنى (المفعول) مسموع في أوزان معروفة في اللغة العربية، كالإله بمعنى المعبود، والكتاب بمعنى المكتوب، واللباس بمعنى الملبوس، والإمام بمعنى المؤتم به، في أوزان غير كثيرة[1].

والإلهة: العبادة، وفي قراءة ابن عباس ـ وهي من قراءات الصحابة الشاذة[2] ـ: (ويذرك وإلاهتك) أي: وعبادتك. وقد قال رؤبة بن العجاج في رجزه وهو عربي قح فصيح[3]:

لله دَرُّ الغانياتِ المُدَّهْ سبَّحنَ واستَرْجَعْنَ من تَألُّهي

وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ [الأعراف: آية ٨٥] نادى شعيب قومه باسم (القوم) وحذف ياء المتكلم، وحذْف ياء المتكلم من المنادى الصحيح الآخر أحد اللغات المشهورة المعروفة فيه. قال بعض علماء العربية: القوم في وضع اللسان العربي الذي نزل به القرآن: يختص بالذكور دون الإناث، وربما دخل فيه الإناث بحكم التبع[4]. قالوا: والدليل على اختصاص القوم بأصل الوضع بالذكور دون الإناث قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: آية ١١] قالوا: لو دخلت النساء بالوضع في القوم لكفى ذلك عن قوله: ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ ونظير آية الحجرات هذه قول زهير بن أبي سُلمىٰ[5]:

وما أدْري وسوفَ إخالُ أدري أقَومٌ آل حصنٍ أم نساءُ

والدليل على دخول النساء باسم القوم بحكم التبع: قوله تعالى في

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.
(٢) تقدمت هذه القراءة عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.
(٣) البيت في تفسير ابن جرير (١٢٣/١)، زاد المسير (٩/١)، ابن كثير (١٩/١)، اللسان (مادة: أله) (٨٨/١).
(٤) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة النساء.
(٥) السابق.

سورة النمل في ملكة سبأ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: آية ٤٣].

وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ (إله) هنا: نكرة في سياق النفي زيدت قبلها (من) وقد تقرر في الأصول ـ وذكره الشيخ عمرو سيبويه (رحمه الله) ـ: أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها لفظة (من) لتوكيد النفي انتقلت بذلك من الظهور في العموم إلى كونها نصاً صريحاً في العموم[١]. فهذا نص صريح في عموم النفي لجميع الآلهة غيره (جل وعلا) وحده.

وينقاس زيادة (من) قبل النكرة في سياق النفي في توكيد العموم ينقاس بقياس مطرد في اللغة في ثلاثة مواضع[٢]:

أحدها: زيادة (من) قبل النكرة التي هي مبتدأ، كما في قوله هنا: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ الأصل: (ما لكم إله غيره) مبتدأ سوغ الابتداء به النفي، وجرته (من) هنا. فدخول (من) على النكرة التي هي مبتدأ لتوكيد العموم مطرد في اللغة العربية.

الثاني: دخول (من) على النكرة إن كانت فاعلًا، نحو: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [القصص: آية ٤٦] ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ﴾ [المائدة: آية ١٩].

الثالث: زيادتها قبل المفعول، نحو: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ [إبراهيم: آية ٤] أي: ما أرسلنا رسولاً.

وقوله: ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ إنما رُفع (غيرُه) مع أن المنعوت مجرور بـ(من) لأنه في محل رفع، أصله مرفوع مبتدأ، فروعي في نعته محلُّه؛ ولذا قيل: ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ مراعاة للمحل كما هو معروف. أي: ما لكم إله سواه.

ثم قال نبي الله شعيب: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٨٥] (قد) هنا حرف تحقيق لمجيء البينة، ولا شك أن المراد بالبينة في هذه الآية: المعجزة التي تُثبت صدق شعيب وتوجب الإيمان بما جاء به. والبينة: هي الحجة الواضحة التي لا تترك في الحق لبساً، وهي هنا: المعجزة بلا نزاع إلا من شذ، فمعنى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ أي: جاءتكم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

معجزة من الله عرفتموها وعاينتموها على أني رسول الله. وهذه البينة التي جاءهم بها شعيب وذكرها الله هنا على سبيل الإجمال لم تأت مفصلة في القرآن وإنما جاءت مجملة، كما أن أكثر معجزات نبينا ﷺ لم تأت مفصلة في القرآن بل غالباً يُنَوَّه منها عن القرآن حيث إنه معجزة عظمى. وقد ثبت عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح أن الله ما أرسل رسولًا قط إلا وأعطاه معجزة تقوم الحجة بها على الخلق؛ لأنه إذا لم يعطه برهاناً قاطعاً من المعجزات؛ تقوم الحجة به على الخلق قياماً لا لبس فيه؛ تزعم الأمة أنه مدعي لا دليل على دعواه؛ ولذا وجب أن كل نبي جاء بمعجزة، وقد صرح النبي ﷺ بذلك في الحديث الصحيح الذي يقول فيه: «**ما من نبي من الأنبياء إلا أُوتي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»[1] وقد بين تعالى أن رسله مصحوبون بالمعجزات في قوله: ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [التغابن: آية ٦] ونحو ذلك من الآيات. وأعظم البينات، وأكبر البينات، وأوضح المعجزات: هو هذا القرآن العظيم الذي نفسره ونتكلم فيه؛ لأنه معجزة عظمىٰ، وبينة كبرىٰ تتردد في آذان بني آدم إلى يوم القيامة. أما غيره من المعجزات: فقد ينقضي مع انقضاء وقته، كناقة صالح، فإنا لا نجدها الآن، وكما تقدم من معجزات الأنبياء لم يبق بعدهم منه شيء تراه الناس بعدهم، بخلاف هذا القرآن فمعجزته الكبرى [باقية إلى آخر الزمان][2] وذلك في قوله منكراً عليهم ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ [العنكبوت: آية ٥١] الآية. وهذا معنى قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: جاءتكم على يدي معجزة واضحة مبدأ مجيئها كائن من ربكم (جل وعلا). وربهم: هو الله، وأصل الرب في لغة العرب التي نزل بها القرآن: مشترك بين عشرة معانٍ، منها[3]: أن العرب تطلق الرب على الذي يسوس الأمور ويدبرها، وعلى السيد الذي إليه

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

المرجع. فالله (جل وعلا) هو السيد الذي إليه المرجع، وهو الذي يدبر الأمور والشؤون، وهذا معروف في كلام العرب، فالعرب تقول للرجل الذي يدبر شأن البلدة: هذا ربها، أي: مدبر شؤونها، وهو معروف في كلامهم، ومنه قول علقمة بن عبدة التميمي[١]:

وكنتُ امرءاً أفضت إليك ربابتي وقبلك ربَّتني ـ فضعتُ ـ رُبوبُ

أي: قبلك ساستني سادة فضيعوني. وهذا معروف في كلام العرب، وأنتم تعرفون في التاريخ والسيرة في غزوة حنين، أن النبي ﷺ لما فتح مكة وترك صفوان بن أمية بن خلف ينتظر في شأنه، واقترض منه السلاح المعروف، وذهب معه صفوان إلى حنين، وكانت هوازن في غزوة حنين جمعها مالك بن عوف النصري ـ في مضيق من مضايق وادي حنين ـ ودخل النبي وأصحابه بعد صلاة الصبح في بقية ظلام الغلس، وشد عليهم هوازن شدة رجل واحد حتى كأن الرماح والنبال مطر تزعزعه الريح، ووقع ما وقع مما ذكره الله في قوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢٥] وفي ذلك الوقت قال رجل كان مع صفوان بن أمية: بطل سِحْرُ محمد. زاعماً أن الذي عنده سِحْر، وأن هوازن غلبوه وهزموا أصحابه، وأن السِّحْرَ بطل، فقال له صفوان بن أمية ـ وكان عدواً للنبي ﷺ؛ لأنه قتل أباه أمية بن خلف يوم بدر، وقتل معه أخا صفوان وهو: علي بن أمية، وقتل عمه أُبي بن خلف بيده الكريمة يوم أُحد، فلما قال صاحبه: بطل سِحْرُ محمد. قال له صفوان وقد أخذته العصبية والحمية النسبية ـ: اسكت فُضَّ فوك، والله لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن[٢]. وهو محل الشاهد؛ لأنه أطلق (يربني) على معنى يسوسني ويسودني ويدبر شؤوني هذا معناه.

﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٨٥] ربنا وسيدنا

---

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

وخالقنا ومدبر شؤوننا هو الله (جل وعلا)، وأصل (البينة) صفة مشبهة من بان يبين فهو بيِّن، والأنثى يقال لها: (بينة) والتأنيث ليس بحقيقي. ومعنى البينة: الحجة الواضحة التي هي المعجزة التي لا تترك في الحق لبساً.

وهذه المادة التي منها (البينة) (الباء، والياء، والنون) جاء استعمالها في القرآن وفي لغة العرب على أربعة أضرب[١]: جاءت في كلها لازمة، وفي ثلاثة منها ربما جاءت متعدية. والرابع: لازم على كل حال، فإن هذه المادة جاء فعلها الماضي مجرداً وهو قولهم: (بان يَبين فهو بيّن) وهو الذي منه الصفة المشبهة التي هي (البينة) فهي صفة مشبهة من (بان يَبين). وقد تقرر في علم الصرف: أن الثلاثي الأجوف تكثر الصفة المشبهة منه على وزن (فَيْعِل) سواء كان واوي العين أو يائيها، كـ(هان) فهو هيِّن، و(بان) فهو بيِّن، و(مات) فهو ميِّت، و(ساد) فهو سيِّد، وما جرى مجرى ذلك. هذا أحدها، وهو مجردها أعني: (بان يَبِينُ فهو بَيِّن) ولم يُسمع هذا في اللغة العربية إلا لازماً. أما الأوزان الثلاثة المزيدة من هذه المادة فهي قولهم[٢]: (أبان) وقولهم: (بَيَّن) وقولهم: (استبان) يأتي مزيده على: (أَفْعَل) وعلى: (فَعَّل) وعلى: (اسْتَفْعَل). وهذه الأوزان الثلاثة من (بان يبين) مزيدة تكون متعدية ولازمة، وقد جاءت كلها في القرآن، وجاء كلام العلماء في تعديها ولزومها في القرآن. أما (أبان) مزيدة بالهمزة على وزن (أفعل) فالعرب تعديه وتقول: «أبان الأمر يُبينه إبانة» فهي (أَفْعَل) متعدية للمفعول واسم الفاعل منه

---

(١) قال: قال الشيخ (رحمه الله) عند تفسير الآية رقم (١٠١)، من هذه الدروس في سورة الأعراف: «وقد ذكرنا فيما مضى في الكلام على قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ تصريف هذه الكلمة وما جاء من أمثلتها في القرآن ببعض أمثلتها، وكان ذلك الذي ذكرنا هنالك سقط منه قسم نسياناً، وكنا نتحرى إن جاءت لها مناسبة أخرى أن نبين القسم الذي سقط من كلامنا سهواً لئلا يضيع على بعض طلبة العلم الذين يسمعون هذه الدروس... وقد ذكرنا فيما مضى أن البينة جاء من تصاريفها في القرآن ولغة العرب أربعة تصاريف، واحد منها مجرد وثلاثة مزيدة ـ وهذا محل النسيان ـ لأنها جاءت على خمسة أنواع، أربعة منها مزيدة وواحد مجرد، ومن هنا وقع الغلط، وكنا نريد إذا جئنا بمناسبة كهذه أن نتدارك النسيان السابق لنبين القسم الذي سقط...» إلى آخر ما ذكر (رحمه الله) فليراجع هناك.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(مُبِيْن) واسم المفعول (مُبان) وقد تأتي (أبان) لازمة، ويكثر لزومها في القرآن، تقول العرب: «أبان الشيء يُبِيْن» بمعنى: بان في نفسه وظهر، لازماً، وهو معروف في كلام العرب، ومنه: «كتاب مبين» أي: بين ظاهر واضح. ومن إتيان (أبان) لازمة غير متعدية للمفعول قول جرير وهو عربي قح[١]:

إذا آبــاؤنــا وأبــوكَ عُــدُّوا أبَـانَ الـمـقـرفـات مـن الـعِـرَابِ

أي: ظهرت واتضحت. من غير تعدية للمفعول، ونظيره قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي، وهو عربي قح أيضاً[٢]:

لـو دَبَّ ذرٌ فـوقَ ضَـاحـي جِـلْـدِهَـا لأبــان مــن آثــارهــنَّ حُــدُورُ

أي: لظهر واتضح من آثارهن حدور، أي: ورم. هذا معروف.

الوزن الثاني: (بيّن) وقد يأتي لازماً ومتعدياً، تقول العرب: «بينت له الأمر أُبينه تبييناً». متعدياً، وتقول العرب: «بَيَّن الأمر» بمعنى: بان واتضح، ومنه المثل المعروف (بيّن الصبح لذي عينين)[٣] أي: بان واتضح. ومن شواهدها المعروفة: قول قيس بن ذُريح[٤]:

ولـلـحـب آيـاتٌ تَـبَـيَّـنُ بـالـفـتـىٰ شحوبٌ وتعرى من يديه الأصابعُ

فهذا البيت روايته المشهورة: (شحوبٌ) بضم الباء، والمعنى: وللحب علامات تَبَيَّنُ أي: تظهر وتَبِيْنُ بالفتى، وهي شحوب إلى آخره. وأنشد بيت ابن ذُريح هذا ثعلبُ:

ولـلـحـب آيـات تُـبَـيِّـنُ بـالـفـتـى شــحــوبــاً ....

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

بالنصب، وعليه فلا شاهد في البيت. ومن هذا المعنى قول جرير التميمي يمدح عمر بن عبدالعزيز[(١)]:

رأى الناسُ البصيرةَ فاستقلوا   وبيَّنَتِ المراضُ من الصحاح

أي: ظهرت واتضحت. الوجه الثاني: (استبان) وقد جاء في القرآن، والقراءتان في الآية على إحداهما تكون (استبان) لازمة، وعلى الأخرىٰ متعدية، وهي قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: آية ٥٥] **﴿ولتستبين سبيلَ المجرمين﴾** فعلى رفع ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فـ(استبان) لازمة. أي: تستبين سبيلُ المجرمين: تتضح وتظهر. وعلى قراءة النصب: **﴿ولتستبينَ سبيلَ المجرمين﴾** فـ (تستبين) متعدية و (سبيلَ) مفعول به، لتستبين أنت يا نبي الله سبيل المجرمين[(٢)].

هذا أصل هذه المادة، وما جاء منها في القرآن، وما جاء من لغاتها. والعادة في التفسير أن الكلمة التي يكثر تكررها في القرآن يُشبع الكلام عليها في موضع واحد لا يُعاد؛ ولذلك تكلمنا عليها هنا.

ومعنى قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٨٥] أي معجزة واضحة لم تترك لكم عذراً في التكذيب.

وقوله: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ كان قوم شعيب الذين أُرسل إليهم من أخس الخلق معاملة، كانوا يطففون المكيال والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم، ويأخذون المكوس، ويقطعون الطريق، ويصدون من أراد الإسلام عن الإسلام، فبعث الله إليهم هذا النبي الكريم؛ لينهاهم عن هذه المنكرات؛ ولذا قال لهم: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ لا شك أن إيفاء الكيل يستلزم إيفاء المكيال، وإيفاء المكيال يستلزم إيفاء الكيل حيث إنه آلته، فإذا استوفىٰ الفعل استوفى كيل الآلة، وإذا استوفى ملء الآلة فقد استوفى الفعل، فهما متلازمان، كل منهما يكفي عن الآخر؛ ولذا فهو

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(جل وعلا) تارة يعبر بالكيل كقوله هنا: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ وقوله في الشعراء: ﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الشعراء: آية ١٨١] وتارة يعبر بآلة الكيل التي هي المكيال، كقوله في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ﴾ [هود: آية ٨٤] / فتعبيره تارة بالمكيال وتارة بالكيل يدل ١٣/ب
على أن العبارتين متلازمتان، وكل منهما تؤدي معنى الأخرى، وهو كذلك؛ لأن من أوفى فعل الكيل لا بد أن يملأ الآلة كما ينبغي، ومن استوفى الآلة أي: ملأها تماماً فقد استوفى فعل الكيل، فهما متلازمان.

﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: آية ٨٥] عبر في أحدهما بالمصدر وفي الثاني بالميزان الذي هو آلة الوزن، وقال قوم: الميزان هنا كالكيل، اسم مصدر كالميعاد بمعنى الوعد، والميلاد بمعنى الولادة. والياء في الميزان منقلبة عن واو، أصله: (مِوْزَان) بالواو، سكنت الواو بعد كسر فوجب إبدالها ياءً على القاعدة التصريفية المشهورة[1].

والله (جل وعلا) من حِكَمه البالغة، وتشريعاته الرائعة وضعه المقاييس كالمكاييل والموازين؛ لأن الله خلق الإنسان محتاجاً للنساء، ومفتقراً للغذاء، وخلق له ما في الأرض جميعاً، ولم يتركه سدىً، فهو محتاج للطعام الذي عند أخيه، فجعل الله المقادير والمقاييس؛ ليأخذ قدراً معيناً معلوماً بدقة ويدفع ثمنه فينتفع به، وهو وصاحبه كلٌ منهما طيب النفس. ولو لم تجعل مقاييس وموازين وأشياء دقيقة يعلم بها كلٌ ما أخذ وما دفع لكانوا يتهارشون على الحاجات الضرورية تهارش الكلاب، وفسد نظام الدنيا، وهذا من تشريع خالق السماوات والأرض. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: آية ٨٥] والله (جل وعلا) في كتابه شدد في إيفاء الكيل والوزن تشديداً بالغاً، وهدد من يخون تهديداً بالغاً، كما سيأتيكم في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: الآيات ١

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٢٧٩.

ـ ٦] وذلك لأن الطعام المكيل عليه أساس الدنيا؛ لأن البشر لا حياة لهم دينية ولا دنيوية إلا بشيء يأكلونه، والله يقول في الأنبياء الكرام: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: آية ٨] فلما كانت المكيلات والموزونات غالباً أساس الحياة جاء الوحي المنزل والتشريع السماوي في شريعتنا وغيرها على شدة المحافظة عليها.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: آية ٨٥] كانوا يبخسون الناس جميع أشيائهم. والبخس في لغة العرب التي نزل بها القرآن: النقص، العرب تقول: بخسه حقه إذا نقصه منه؛ ولذلك سموا المكس (بخساً) لأنه أخذ من أموال الناس ونقص لها، ومنه قول الشاعر(١):

أَفــي كــلِّ أســواقِ الــعــراقِ إِتَــاوة وفي كل ما باعَ أَمْرِؤٌ بَخْسَ درهمِ

يعني: في كل ما باع امرؤ مكس درهم. وكانوا ينقصون أشياء الناس: تارة يخدعونهم عنها، وتارة يعيبونها ويزهدونهم فيها، إلى غير ذلك من أنواع البخس. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: آية ٨٥] والأشياء: جمع شيء، وهو ـ على التحقيق ـ ممنوع من الصرف، وقد قدمنا في الدروس الماضية اختلاف أهل العلم في الموجب الذي منع لفظة (أشياء) من الصرف.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن المسلم الإنسان لا يجوز له أن يبخس أخاه شيئه ولا ينقصه، فيحرم عليك أيها المسلم أن تعيب سلعة أخيك، وأن تزهده فيها، وأن تخدعه عنها، كل ذلك من أفعال الكفرة ـ الحرام ـ وهذا يدل على أن أموال الناس محترمة، وأنه لا يجوز لأحد أن يبخس أحداً شيئاً، ولا أن ينقصه شيئاً، فأموال الناس لا يجوز أخذها.

وقد بين الله (جل وعلا) في سورة النساء ما يدل على أن الله عالم بأنه سيأتي قوم يتخذون سبيلًا ووسيلة من قولهم: «هذا غني وهذا فقير» إلى

---

(١) البيت لزهير، وقيل: لجابر بن حيي التغلبي. وهو في شواهد الكشاف ص١١٦ وشطره الثاني:

.... وما كل ما باع امرؤ مكس درهم

أن يظلموا هذا الغني بادعاء أنهم يردون من ماله على الفقير للمساواة والعدالة!! والله حذر من هذا غاية التحذير، ونهىٰ عنه غاية النهي، وهذا المحكم المنزل لا تأتي معضلة في الزمان ولا يقع شر إلا هو موجود فيه وموجود فيه دواؤه وشفاؤه، قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: آية ١٣٥] فلا تقولوا: هذا غني وهذا فقير، والعدالة الإنسانية تستوجب أن نبتز غِنى هذا لندفعه لهذا لنساويهم!! لا. لا ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ فبين أن أخذ أموال الناس وابتزاز ثرواتهم بطريق: (هذا غني وهذا فقير) اتباع للهوى ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ ثم قال: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٨٥ ـ ٨٩].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: آية ٨٦].

هذا من كلام نبي الله شعيب يذكر قومه بنعمة الله عليهم كي يشكروا نعمة الله فيتوبوا إلى الله ويصدقوا رسوله ويؤمنوا به.

وقوله: ﴿إِذْ﴾ قال بعض العلماء: هو مفعول به لا مفعول فيه. أي: اذكروا الوقت الذي كنتم فيه قليلين فكثركم الله وأنعم عليكم بالكثرة.

وقال بعض العلماء: هو مفعول فيه ووقت للذكر[1].

وقوله جل وعلا: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ اذكروا يا قوم ﴿إِذۡ كُنتُمۡ﴾ حين كنتم ﴿قَلِيلٗا﴾ قليلاً عددكم ﴿فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾ الله فجعل عددكم كثيراً. والكثرة تستلزم القوة؛ لأن الجمع الكثير أقوى عادة من الجمع القليل.

يقول المفسرون: إن مدين بن إبراهيم تزوج إحدىٰ ابنتي لوط فولدت له فرمىٰ الله في نسلها البركة والنماء[2]؛ فلذا قال: ﴿إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾ [الأعراف: آية ٨٦] كَثَّرَه: أي: جعله كثيراً بعد أن كان قليلاً. والمعروف أن الكثرة بعد القلة أنها من نعم الله التي تستوجب الشكر[3]، ومن هنا يُعلم أن الذين يأتون بتشاريع الشيطان دائماً يعكسون نور الوحي النازل على الأنبياء!! فنبي الله شعيب يُذَكِّر قومه بنعمة الكثرة بعد القلة، وأولياء الشيطان وأنصار نظام إبليس يقولون: يجب على الأمة تحديد النسل (...)[4] إشفاقاً، كما بيناه في قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ [الأعراف: آية ٨٥].

واعلموا أن ما قاله بعض المفسرين من أن الكثرة لا تستلزم العزة!! وأن الأقلّين ربما كانوا أعز من الأكثرين!! ويستدلون على هذا بشعر للسموأل بن عاديا (...)[5] في قوله[6]:

تُعيِّرنَا أنَّا قليلٌ عديدُنَا ... فقلتُ لها إن الكرامَ قليلُ
وما ضرَّنَا أنَّا قليلٌ وجارُنا ... عزيزٌ وجار الأكثرينَ ذليلُ

---

(١) انظر: الدر المصون (٣٧٨/٥).

(٢) انظر: البحر المحيط (٣٤٠/٤).

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

(٤) في هذا الموضع كلام غير واضح. ويمكن استدراك النقص بمراجعة كلام الشيخ (رحمه الله) في هذه المسألة عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

(٥) في هذا الموضع كلام غير واضح. والكلام مستقيم بدونه.

(٦) البيتان في البحر المحيط (٣٤٠/٤)، الأمالي (٢٦٩/١)، العقد الفريد (٢٠٨/١)، وبينهما بيت آخر، وهو قوله:

وما قلَّ من كانت بقاياهُ مثلَنَا ... شبابٌ تسَامَى للعُلاَ وكُهولُ

وهذا لا حجة فيه؛ لأن هذا الشاهد [من قول][١] بعض الشعراء [الذين لا عبرة بقولهم][٢] والله يقول فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية. [الشعراء: الآيات ٢٢٥ ـ ٢٢٧] ولا شك أن الكثرة هي مظنة العزة والقوة، ونعمة تستحق الشكر، وهو الصحيح؛ ولذا قال الأعشى ميمون بن قيس في مناظرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل[٣]:

عَلْقَمَ، لاَ لَسْتَ إلى عامرٍ   الناقضِ الأوْتارَ والواتِرِ

إلى أن قال:

ولَسْتَ بالأكثرِ منهُم حَصَىً   وإنما العِزَّةُ للكاثِرِ

فصرح بأن الكثرة تستلزم العزة، فهذا أفضل من قول السموأل كما هو معروف، وهذا معنى قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾.

﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: آية ٨٦] العاقبة: من أسماء المصادر التي جاءت على وزن اسم فاعل، فقد تقرر في علم العربية: أن المصدر ربما جاء بوزن (...)[٤] كأن يأتي بوزن اسم الفاعل أو اسم المفعول، فمن المصادر الآتية على وزن (فاعل): (عاقبة) بمعنى: العقبى. اسم مصدر و(الفاعلة) أصلها وزن (اسم فاعل). ومنه (العافية) بمعنى: المعافاة في أوزان قليلة معروفة. ومن إتيان المصدر بمعنى اسم المفعول قولهم: مأسور ومقتول ومعقول (...)[٥] كما هو معروف في محله.

والعاقبة هي ما يؤول إليه الأمر في حاله آخراً، سُمِّيت (عاقبة) لأنها

---

(١) في هذا الموضع كلام غير واضح. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) في هذا الموضع كلام غير واضح. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) ديوان الأعشى ص٩٢، ٩٣.

(٤) في هذا الموضع كلمة غير واضحة.

(٥) في هذا الموضع كلام غير واضح.

تبين الحقائق عقب الأمر الأول (...)[١] وما يؤول الشيء إليه (....)[٢] كما تقدم[٣]. ومعنى هذا أن نبي الله شعيباً ذكّر قومه نعم الله، أن ينيبوا إلى الله ويشكروا له، وحذرهم من الإفساد في الأرض، وبيّن لهم عاقبة السوء كما كانت عاقبة قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وكان لوط غير بعيد من أهل مدين كما تقدم في أحد التفسيرين في قوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: آية ٨٩] وهذا معنى قوله: ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأعراف: آية ٨٧].

قد آمنت لشعيب طائفة من قومه كما يأتي في قوله عن الكفار منهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ الآية [الأعراف: آية ٨٨] فهذه الطائفة أقل الطائفتين، فكانت طائفة آمنت بشعيب وطائفة كفرت به، فكانت تهدد شعيباً وقومه بالإخراج من الوطن والنفي من البلد أو يرجعوا إلى كفر الكفار فيكونوا معهم في كفرهم كما سيأتي قريباً.

فقال لهم نبي الله شعيب: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ﴾ لم تدخل تاء التأنيث هنا في قوله: (كان) لأن تأنيث الطائفة تأنيث غير حقيقي؛ والفعل إذا أسند إلى مؤنث تأنيثاً غير حقيقي جاز تجريده من التاء [كلفظ][٤] الطائفة كما هو معروف[٥]. ﴿طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا﴾ ردّ الضمير في قوله: ﴿آمَنُوا﴾ ضمير جمع على (الطائفة) نظراً إلى المعنى؛ لأن الطائفة اسم جمع تدل على أفراد كثيرة. وهذا معنى قوله: ﴿طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ أي: آمنوا بما أرسلني الله به من إثبات التوحيد لله، وإيفاء المكيال والميزان، وعدم بخس الناس أشياءهم، وعدم الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، ونحو ذلك.

---

(١) في هذا الموضع كلام غير واضح. والكلام مستقيم بدونه.

(٢) في هذا الموضع كلام غير واضح. والكلام مستقيم بدونه.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٤) من سورة الأعراف.

(٤) في هذا الموضع كلمة غير واضحة. وما بين المعقوفين [ ] زيادة ينتظم بها الكلام.

(٥) مضى عند تفسير الآية (١٣٥) من سورة الأنعام.

﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ أخرى ﴿لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾ بي بل كفروا، وصارت الطائفتان طائفتين مختلفتين كل منهما تقول: إننا على الحق والأخرىٰ على الباطل ﴿فَٱصْبِرُواْ﴾ انتظروا قضاء الله وحكمه حتى يحكم بيننا وهو خير من يحكم. وفي هذا أعظم تهديد، فالكفار يرون حكم الله سيأتي بإهلاك الظالم الكافر وإنجاء المسلم، وقد حكم الله بينهم هذا الحكم المنتظر في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ ثم قال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ۝٩٥﴾ [هود: الآيتان ٩٤، ٩٥] هذا حكم الله جاء مبيناً في سورة هود، وستأتي الإشارة إليه هنا في سورة الأعراف[1]. وهذا معنى قوله: ﴿فَٱصْبِرُواْ﴾ [الأعراف: آية ٨٧] أي: انتظروا وتربصوا.

﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ﴾ حتى حرف غاية، والفعل المضارع بعدها منصوب بـ (أن) مضمرة، وهو في محل جر بمعنىٰ ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ إلى أن يحكم الله ﴿بَيْنَنَا﴾ إلى أن يأتي حكم الله بيننا. فالمقصود أن حكم الله عاقبته لنا فيهلك الكافر وينجي المسلم كما لا يخفىٰ.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ٨٧] جل وعلا. (خير) هنا صيغة تفضيل؛ لأن من الناس من يحكم، في الدنيا حكام يحكمون، ربما حكموا بعدل وتشريف وطهر، إلا أن الله خير من يحكم ـ جل وعلا ـ لأنه لا يخفىٰ عليه الحق من الباطل، ولا يفعل إلا ما هو في غاية الصواب والسداد والحكمة؛ ولذا قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ۝٨٨﴾ [الأعراف: آية ٨٨].

لما قال الله (جل وعلا) عن شعيب هذا الكلام العظيم الذي خاطب به قومه أجاب أشراف قومه بهذا الجواب السخيف الخسيس: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾

---

(١) انظر: الأضواء (٣٢٧/٢).

الملأ: أشراف الجماعة من الذكور[١]، قال بعض العلماء: سُمّوا ملأً لأنهم يملؤون صدور المجالس بقاماتهم الوافية، وقال بعض العلماء: سُمّوا ملأً لأنهم هم الذين يتمالؤون على العقد والحل حيث إنهم أشرف رجال البلد.

قوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أي: تكبروا عن أن يكونوا أتباعاً لشعيب ويُقرّوا بقوله. قالوا: لشعيب رادين عليه أخس رد وأسخفه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ﴾ اللام موطئة لقسم محذوف، والمعنى: والله لنخرجنك يا شعيب ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ قوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ معطوف على الضمير المنصوب. ومعلوم في علم العربية أن الضمائر المنصوبة يجوز العطف عليها بلا قيد ولا شرط، والذي يذكرون فيه بعض الشروط هو العطف على الضمائر المرفوعة المتصلة، والضمائر المنخفضة، كما هو مقرر في محله. وكان من سفاهتهم ووقاحتهم أن نادوه باسمه مجرداً ﴿يَا شُعَيْبُ﴾ كما يُنادىٰ أحد الناس، وهو نبي كريم!! ولنخرجن ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ فـ (أو) هذه هي التي يسميها النظار: مانعة الخلو. وكما أنهم أقسموا أن لا يخلو المقام من إحدىٰ حالتين: إما أن يُخرجوا شعيباً، وأما أن يعود هو وقومه في ملتهم، فلا بد من إحدى الاثنتين؛ فهي مانعة خلو. والمعنى: أن إقسامهم أن الحال لا يخلو من أحد أمرين: إما إخراج شعيب ومن آمن به، أو يدخل في ملة الكفار. لا بد من أحدهما. وهذا معنى قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف مشهور؛ لأن ظاهر القرآن هنا أن شعيباً قد دخل في ملتهم سابقاً يوماً؛ لأن قولهم مخاطبون له: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وقول شعيب مجيباً لهم: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: آية ٨٩] يدل بظاهره على أنه قد كان فيها سابقاً يوماً ما. وأكثر العلماء يقولون: إن الأنبياء (صلوات الله

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٠) من هذه السورة.

وسلامه عليهم) معادن وحي، ومحل الخير، والله يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: آية ١٢٤] وفي القراءة الأخرى[١]: ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رسالاتِه﴾ فلا يكفرون بالله لأن فطرتهم التي وُلدوا عليها لا يُبدلها الله بالكفر لمكانتهم عنده، فبعض العلماء يقول: لو فرضنا أنهم وقع منهم بعض الشرك وأنابوا إلى الله [فإنهم يصيرون إلى مثل حالهم][٢] قبله وصار كأنه لم يكن.

وأكثر الأصوليين وعلماء التفسير أن شعيباً لم يكن كافراً يوماً ما. ويجاب عن ظاهر الآية بجوابين[٣]:

أحدهما: أن العرب تطلق لفظة (عاد) تطلقه إطلاقين:

أحدهما: عاد إلى أمر كان فيه سابقاً.

والثاني: تقول العرب: «عاد كذا كذا» بمعنى (صار) إلى كذا من جديد[٤]، ومنه [قولهم: عاد الطين خزفاً، وعاد الخمر خلّاً][٥] ولا شك أن هذا الاستعمال موجود في (عاد) تقول العرب: عاد [رجلًا][٦] فلان. أي: صار إلى [الرجولة][٧] ولم يتقدمه [وصف مماثل قبلها][٨] ومنه بهذا المعنى قول الشاعر:

[وربيتُه حتى إذا ما تركته أخا القوم واستغنى عن المسح شاربه
وبالمحض حتى عاد جعداً عَنَطْنَطا إذا قام ساوى غاربَ الفحل غاربُه][٩]

قالوا: معناه [صار جعداً][١٠].

(١) انظر: إتحاف فضلاء البشر (٢/٢٩)، حجة القراءات ص٢٧٠.
(٢) في هذا الموضع كلام غير واضح. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
(٣) انظر: القرطبي (٧/٢٥٠)، البحر المحيط (٤/٣٤٢)، الدر المصون (٥/٣٧٩).
(٤) انظر: فقه اللغة للثعالبي ص٣٥٥.
(٥) في هذا الموضع كلام غير واضح. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
(٦) في هذا الموضع كلام غير واضح. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
(٧) في هذا الموضع كلام غير واضح. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
(٨) في هذا الموضع كلام غير واضح. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
(٩) في هذا الموضع كلام غير واضح. والبيتان بين المعقوفين في الدر المصون (٥/٣٧٩).
(١٠) في هذا الموضع كلام غير واضح، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

الوجه الثاني: وبه قال غير واحد: أن نبي الله شعيباً كان معه جماعة من قومه آمنوا به، فالذين آمنوا به من قومه كانوا كفاراً على ملة قومهم، وهم عدد كثير، وهو رجل واحد [فعُبِّر][1] باسم العدد الكثير وغلبوه على ذلك الواحد، والتزم معهم شعيب في هذا الخطاب تغليباً لقومه الأكثرين. وظاهر كلام ابن جرير (رحمه الله) في تفسير هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف ذاهباً أن شعيباً كان معهم ـ سابقاً ـ على ملتهم، وكذلك قال صريحاً عن إبراهيم في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: آية ٧٦] فنقل ابن جرير عن ابن عباس أن إبراهيم كان يظن ربوبية الكوكب في ذلك الزمن. ونحن نقول: إن قوله في الخليل إبراهيم غلط محض لا شك فيه، وإن نسبه إلى ابن عباس؛ لأن الآيات القرآنية صَرَّحت بأن إبراهيم لم يكن من المشركين، ونفى عنه الشرك في الكون الماضي، والكون الماضي يستغرق كل الزمن، كقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: آية ٦٧] قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نفى الشرك عن إبراهيم في الكون الماضي، والكون الماضي مستغرق. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: آية ١٢٠] ونحو ذلك من الآيات، فنفي هذا عن إبراهيم صريح، ونفيه عن شعيب لم يقم دليل عليه في الصراحة كإبراهيم. وأقوال أهل العلم قد ذكرناها لكم الآن فيه. وهذا معنى قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ الملة: الشريعة والدين. قال بعض العلماء: أصلها مشتقة من الإملال، والإملال ـ بلامين ـ هو الإملاء، وهو أن تُلقي على الكاتب الجملة ليكتبها ثم تلقي عليه جملة أخرى، قالوا: [وجه كون][2] الشرائع كالإملاء: أنها تقع كذلك مفرقة شيئاً بعد شيء كما تقع جملة الكتابة إملاء مفرقة حتى تتم. وعلى كل حال فالمِلّة: الشريعة والدين، وملتهم كافرة ـ والعياذ بالله ـ.

---

(١) في هذا الموضع كلام غير واضح، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) في الأصل: «وهو» وما بين المعقوفين [ ] زيادة ينتظم بها الكلام.

قال لهم نبي الله شعيب: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: آية ٨٨] والتحقيق من القولين أن همزة الاستفهام هنا تتعلق بمحذوف، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، هذا أظهر القولين الذين بيناهما مراراً في هذه الدروس[١]، وإليه يلمح ابن مالك في خلاصته بقوله في باب العطف:

وحذف متبوع بدا هنا استبح ....[٢]

كما هو معروف في محله، ويكون المعنى: أَتُكْرِهُونا على العَوْد في ملتكم وإن كنا كارهين فتخرجوننا من مقامنا قهراً ولو كنا كارهين لذلك؟! هذا معنى قوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ الاستفهام هنا للإنكار، أنكر عليهم هذا القول السخيف [مع بيان كراهته له][٣].

ثم قال: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأعراف: آية ٨٩] فهذه الجملة معلقة على شرط، والمعلق على الشرط لا يُعرف كذبه ولا صدقه إلا بوجود الشرط أو عدمه، وهذا معنىً معروف في كلام العرب، تقول: قد وقع كذا إن كان كذا. فإذا كان الشرط منفياً انتفى المشروط، والمعنى: قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم. المعروف عند البصريين أن الشرط إذا تقدمه ما يكون جزاء أنه يكون دليلاً على الجزاء المقدّر، والكوفيون لا يمنعون تقدم الجزاء على الشرط. فعلىٰ قول الكوفيين لا مانع من أن يكون المعنى: إن عدنا في ملتكم فقد افترينا على الله الكذب، وأن قوله: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا﴾ هو جزاء الشرط قُدّم عليه في قوله: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾. والثاني: على مذهب البصريين من النحاة: أن جزاء الشرط لا يتقدم عليه ولكنه يدل عليه، وعلى قولهم فجزاء الشرط مقدر تقديره: إن عدنا في ملتكم فقد افترينا على الله كذباً، والمعنى: أن ملة الكفار كلها كذب وزور وبهتان، يدَّعون لله الأولاد،

---

(١) انظر: البحر المحيط (٣٤٣/٤)، الدر المصون (٣٨١/٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

(٣) في هذا الموضع كلام غير واضح، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

ويجعلون له الأنداد، ويُكَذِّبونه ويُكَذِّبون رسله، فكلها كذب وافتراء، والعائد إليها عائد إلى أعظم الكذب والافتراء، وهذا معنى قوله: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

الصحيح أن الكذب هو: عدم مطابقة الكلام للواقع في نفس الأمر(١)، والأقوال فيه معروفة يذكرها البلاغيون في فن المعاني.

﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ أي: رجعنا إليها، وهذا بالنسبة إلى غير شعيب ظاهر أي أُلجئنا إليها بالنظر إلى شعيب كما ذكرناه.

﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: آية ٨٩] وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ قرينة على أنه عود بعد ملابسة سابقة لقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ لأن الجماعة الذين آمنوا لشعيب كانوا كافرين، وهذا معنى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ أنقذنا الله من الكفر وعبادة الأوثان وغير ذلك بأن بعث إلينا نبياً كريماً معه المعجزات الواضحة تدل على صدقه، كما تقدم في قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ...﴾ الآية [الأعراف: آية ٨٥].

ثم قال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ ﴿مَا يَكُونُ لَنَآ﴾ [الأعراف: آية ٨٩] معناه: ما يصح لنا، وما ينبغي منّا، ولا يمكن لنا ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ أن نرجع إليها، أو أن نصل إليها كما قيل، فنبي الله شعيب لمّا تبرّأ من الملة الكافرية، وقال إنهم إن عادوا إليها فقد افتروا على الله كذباً، فوّض جميع أمره إلى الله، وبيّن أن الأمور كلها بيد الله، فهو الذي بيده الهداية وإليه الضلال، فإن نبي الله شعيباً وإن كان من خيار المرسلين لا يهديه ويوفقه إلا ربه - جل وعلا - وهذه عادة العارفين بالله يعلمون أنه لا توفيق إلا بتوفيق الله ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: آية ٤١] ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: آية ٣٧] ونحو ذلك من الآيات.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٣) من سورة الأنعام.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ يريد ربنا بمشيئته الكونية القدرية شيئاً فلا مفر ولا موئل عما شاء وقدّر.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾ (علماً) هنا: تمييز محوَّل عن الفاعل، أصله فاعل (وسع) فأُعطي الفعل فاعلًا آخر وحُوِّل التمييز عن الفاعل. معنى ﴿وَسِعَ رَبُّنَا﴾ علماً أي: وسع علمه كل شيء، فالله يعلم كل شيء، ويعلم ما هو أعم من الشيء؛ لأن المعدوم في مذهب أهل السنة والجماعة ليس بشيء[1]، والله يعلم المعدوم الذي ليس بشيء، فهو (جل وعلا) يعلم الموجودات والمعدومات والجائزات والمستحيلات، فإنه بإحاطة علمه ليعلم المعدوم الذي سبق في سابق علمه أنه لا يوجد، وهو يعلم أن ذلك المعدوم الذي لا يوجد أن لو وُجد كيف يكون، فهو يعلم مثلًا: أن أبا لهب لن يؤمن، ومع ذلك يعلم لو آمن أبو لهب أيكون إيمانه تاماً أو ناقصاً، كما لا يخفىٰ، وكونه (جل وعلا) يعلم المعدوم الذي لا يوجد أن لو وُجد كيف يكون، دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله، من الآيات الدالة على ذلك: أن الكفار يوم القيامة إذا رأوا النار، وعاينوا صدق ما جاءت به الرسل، وندموا وقد فاتت الفرصة، ندموا حيث لا ينفع الندم، وتمنّوا أن يردوا إلى الدنيا مرة أخرىٰ ليُصدقوا الرسل، والله يعلم أنه لا يردهم إلى الدنيا مرة ثانية، فقد بيّن في سورة الأنعام أن هذا الرد الذي علم أنه لا يكون، بيّن أنه لو كان لعلم كيف يكون؛ ولذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] فهو يعلم أنهم لا يُردون ويعلم لو رُدّوا ماذا يكون، كما صرح بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً؛ لأن الله هو الذي ثبّطهم عنها بإرادته لحكمة، كما بيّنه بقوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: آية ٤٦] وهذا الخروج الذي لا يكون قد علِم (جل وعلا) أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ الآية [التوبة: آية ٤٧]. وهذا كثير في كتاب الله كقوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: آية ٧٥] هذا هو العلم المحيط بكل شيء في الجائزات والمعدومات والمستحيلات، والمعدوم الذي لا يوجد أن لو وُجد كيف يكون، أما الخلق فإنهم لا يعلمون من العلوم إلا ما علمهم خالق السماوات والأرض (جل وعلا). وسنوضح لكم ذلك بأمثلة قرآنية:

فمما لا يخفى عليكم أن أعلم المخلوقات وأفضلهم الملائكة والرسل عليهم جميعاً صلاة الله وسلامه، فالملائكة جميعاً ـ مع علمهم ـ لمّا قال لهم الله: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: آية ٣١] أطبقوا كلهم على جواب واحد: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: آية ٣٢] فقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ بُنِيَت النكرة مع (لا) وذلك لا يكون إلا في لا التي لنفي الجنس، فالملائكة نفوا جنس العلم من أصله عنهم، ولم يستثنوا إلا ما علمهم الله إياه.

وكذلك وقائع الرسل القرآنية ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ هذا سيد الخلق، وأعلم الناس، وأفضل الرسل، سيدنا محمدٌ (صلوات الله وسلامه عليه)، رُميت أحب أزواجه إليه ـ أم المؤمنين عائشة ـ بأعظم فرية وأكبر منكر أنها فعلته مع صفوان بن معطل السلمي، وهو ﷺ لا يعلم ما قالوه عنها أهو حق؟!! أم هو كذب؟!! ولذا كان يقول: كيف تيكم؟ وقالت (رضي الله عنها) إنها في ذلك المرض أيام قول الناس عليها مسألة الإفك قالت: فقدت من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أعرفه منه. وهي لا تدري ما قيل عنها. وكان يقول لها: «**يا عائشة إن كنت قد فعلت شيئاً فتوبي، فإن الله يتوب عليك، وإن كنت بريئة فسيبرؤك الله**». ولم يدر عن الحقيقة، حتى علّمه الحكيم الخبير خالق السماوات والأرض الذي لا تخفى عليه خافية وقال له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ...﴾ الآيات العشر إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا

يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [النور: آية ٢٦] ولذا لمّا قالت لها أمها أم رومان: قومي إليه فاحمديه. قالت: والله لا أحمده، ولا أحمد اليوم إلا الله؛ لأنه هو الذي برأني(١).

وهذا نبي الله إبراهيم ـ وهو هو ـ صلوات الله وسلامه عليه جاء بتاريخ القرآن أنه ذبح عجله للملائكة يظن أنهم يأكلون، وتعب في إنضاجه، ولم يدر أن ضيوفه ملائكة؛ ولذا خاف منهم وأخبرهم بأنه خاف منهم في سورة الحجر في قوله تعالى عنه: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: آية ٥٢] ولم يدر عنهم شيئاً حتى أخبروه. ولما جاؤوا لنبي الله لوط ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ [هود: آية ٧٧] فظن أنهم شباب يفعل فيهم قومه فاحشة اللواط، حتى جاؤوه يُدافعونه عن الباب ليدخلوا عليهم فيفعلوا بهم فاحشة اللواط، حتى قال ذلك الكلام المؤثر: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: آية ٨٠] حتى أعلمه جبريل أنهم ملائكة الله ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ [هود: آية ٨١] فعند ذلك علم.

وهذا نبي الله نوح مع جلالته وعظمة رتبته في الأنبياء من أُولي العزم، قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هود: آية ٤٥] كان يظن أن ذلك الابن الكافر من الأهل الموعود بنجاتهم، ولم يعلم الحقيقة حتى قال له الله: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: الآيتان ٤٦، ٤٧].

وهذا نبي الله يعقوب قال الله فيه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ [يوسف: آية ٦٨] ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: آية ٨٤] ولا يدري عن ولده يوسف شيئاً حتى كان يقول: ﴿ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: آية ٨٧].

وهذا سليمان سخر له الله الرياح والجن، الريح غدوها شهر ورواحها شهر، ما كان عنده علم عن مأرب ـ قريباً من صنعاء باليمن ـ حتى جاءه الهدهد وتَمَدَّح عليه بما علم من علم جغرافية وتأريخ اليمن وسليمان يجهله، وكان سليمان توعد الهدهد في قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل: آية ٢١] فلما جاء الهدهد معه بعض العلم عن تاريخ مأرب ـ جماعة بلقيس من سبأ ـ بعض تاريخ وجغرافية عنهم، صمد أمام سليمان ولم يرعه الوعيد الشديد من نبي ملك، فنسب الإحاطة إلى نفسه، ونفاها عن سليمان، وقال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ
١/١٤ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ الآية [النمل: آية ٢٢]/ كما هو معروف. وإنما أشرنا إلى هذا لنبين أن العالم الحقيقي هو الله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: آية ٦٥] فالملائكة والرسل لا يعلمون إلا ما علمهم الله، والله يعلم رسله وملائكته ما شاء من وحيه[(١)]، وقد علّم نبينا (صلوات الله وسلامه عليه) علوماً كثيرة؛ ولو حفظ الناس عنه ما أخبرهم به من الغيوب لما مضى عليهم شيء من البلايا والزعازع إلا وقد كان عندهم خبر منه ﷺ، فهو أخبر بكثير من الأمور، بعضها حُفظ، وأكثرها لم يحفظه الناس، صارت تشاهد منه اليوم غرائب عديدة؛ لأنه ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي بيده** (...)»[(٢)] القلاص فلا يُسعى عليها هذا الحديث العظيم من غرائب وعجائب الإخبار بالغيب؛ لأنه ما كان أحد في الدنيا يصدق أن الإبل تترك ولا تقطع عليها

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) لم يتضح الكلام لضعف التسجيل ولفظ الحديث عند مسلم: « **والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، ولتُتركن القلاص فلا يُسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد**».
مسلم في الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ. حديث رقم (٢٤٢)، (١/١٣٦).

المسافات، فنحن في هذا الزمان شاهدنا صدق هذا الحديث بأعيننا، نرى [ونشاهد][(١)] الإبل محمولة مع المتاع في السيارات!! وهذا من غرائب وعجائب الوحي التي أخبر بها ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ومن ذلك قوله: «لتتبعن سنن من قبلكم...» الحديث المشهور[(٢)] ألا ترون كيف اتبع المسلمون النصارى واليهود ـ عياذاً بالله؟! وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾.

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾ [الأعراف: آية ٨٩] هذا كلام نبي الله شعيب، وتقديم المعمول الذي هو الجار والمجرور يدل على القصر[(٣)]، أي: لا نتوكل إلا عليه وحده جل وعلا.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ الفُتاحة في لغة حمير القديمة معناها: الحكم. كان الحميريون وغيرهم من قبائل اليمن من قحطانيين يطلقون اسم الفُتاحة على القضاء، والفَتَّاح على الحاكم، والفتح على الحكم، والقرآن جاءت فيه لغات العرب[(٤)].

ومعنى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا﴾ [الأعراف: آية ٨٩] أي: احكم بيننا وبين قومنا بالحق، ومعلوم أن الله لا يحكم إلا بالحق.

﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ أي: الحاكمين. وجاء في القرآن إطلاق الفتح على القضاء كثيراً، كقوله: ﴿قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ﴾ [السجدة: آية ٢٩] وقوله جل وعلا: ﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سبأ: آية ٢٦] إلى غير ذلك من الآيات.

[﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ۝٩٠﴾ [الأعراف: الآية ٩٠].

---

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) البخاري في أحاديث الأنبياء، باب ما ذُكر عن بني إسرائيل، حديث رقم (٣٤٥٦)، (٤٩٥/٦)، وأخرجه في موضع آخر، حديث رقم (٧٣٢٠)، ومسلم في العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، حديث رقم (٢٦٦٩)، (٢٠٥٤/٤).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من سورة البقرة.

قدمنا الكلام على قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾.

وقوله: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ ذكر هنا أمرين كلاهما يحتاج][1] إلى جواب، أحدهما القسم المدلول عليه باللام. والثاني: الشرط الذي من أدواته (إن) والقاعدة المقررة في علم العربية أنه إذا اجتمع قسم وشرط جيء بجزاء السابق منهما، وحُذف جزاء الثاني؛ لدلالة جزاء الأول عليه[2]. والسابق هنا القسم، وإذا كان الجواب هنا جواب القسم[3] لم يُقرن بالفاء كما هو معروف في محله، وهو قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: آية ٩٠] أي: وقال الملأ الذين كفروا من قوم شعيب، أي: لمن دونهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ والله لئن اتبعتم نبيّ الله شعيباً ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ التحقيق أن الدليل في قوله: ﴿إِذًا﴾ أنه [يدل على الجواب][4] والمعنى: إن اتبعتموه خسرتم، ومعنى خسرانهم هنا: يزعمون أنهم عند ذلك يشترون الضلالة بالهدى زاعمين أن الهدى هو الكفر الذي كانوا عليه، وأن اتباع نبي الله ضلال كما هو مذكور في إفساد الأرض بعد إصلاحها، ومن خسرانهم المزعوم: أنهم كانوا ينتفعون بأموال الناس إذا أضلوهم وبخسوهم أشياءهم وطففوا لهم المكيال والميزان، ونبي الله شعيب يضيق عليهم هذه المصالح الدنيوية فيخسرون ما كانوا يأخذونه من أموال الناس ظلماً. هذا من خسرانهم المزعوم. وهذه الآية تبين أن الكافر الضال يدّعي بكفره وضلاله أنه هو عين الهدى، وأن الهدى هو الخسران والضلال كما كنا نبيّنه في آية: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: آية ٨٥] وهذا معنى قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

(٣) لعله سبق لسان، والمراد: جواب الشرط كما هو معلوم. وفي وجوب اقترانه بالفاء تفصيل معروف. راجع: التوضيح والتكميل (٢/٣١٦).

(٤) في هذا الموضع كلمة غير مفهومة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: آية ٩١] الفاء سببية، وقد تقرر في علم الأصول في مبحث مسلك الإيماء والتنبيه، وفي مبحث النص والظاهر[١] أن الفاء تُذكر في التعليل لدلالتها على السببية، كقوله: «سهى ﷺ فسجد» أي: لعلة سهوه. «سرق السارق فقُطعت يده». أي: لعلّة سرقته قالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: بسبب كفرهم وإلحادهم.

وقوله: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٩٠ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الرجفة: معناه الزلزلة القوية التي تؤدي إلى تحريك قوي عنيف، فكل ما تحرك تحريكاً قوياً عنيفاً فقد رَجَفَ، فالرجفة زلزلة قوية حرّكت الأرض من تحتهم حتى اهتزت بهم هزاً عنيفاً أدى إلى موتهم. وهذا معروف في كلام العرب، ومنه: زلزلة القيامة لزلزلتها الأرض وتحريكها إياها تحريكاً عنيفاً ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [النازعات: الآيتان ٦، ٧] فهو معنى معروف في كلام العرب مشهور، ومنه قول عنترة[٢]:

متى ما تَلْقَني فَرْدين تَرجُفْ رَوَانِقُ أليتَيكَ وتُستَطَارا

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف مشهور عند العلماء وطلبة العلم، وهو: أن الله في هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف بين أن الذي أهلك الله به قوم شعيب رجفة، حيث قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩١﴾ [الأعراف: آية ٩١] جاثمين: أي: موتى، وكل واحد منهم منكب على وجهه لا روح في جسده، والجاثم: الذي يلزم محلاً واحداً، لربما كان على وجهه كما هو معروف، ومنه قول زهير في معلقته[٣]:

بها العِيْنُ والآرامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً وأَطْلاؤُها ينهضْنَ من كلِّ مَجْثِمِ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) ديوان عنترة ص٦١.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٨) من هذه السورة.

المجثم: مكان الجثوم، وهو المكان الذي كان فيه منكباً على وجهه غالباً. وهنا قال إن سبب إهلاكهم بالرجفة، وصرح بسورة هود بأن سبب إهلاكهم صيحة، حيث قال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: آية ٩٤] وصرح في سورة الشعراء أن قوم شعيب أصحاب الظلة كان عذابهم في ظُلَّة، المذكور في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: آية ١٨٩] تارة يعبّر عن سبب إهلاكهم بالرجفة، وتارة بالصيحة، وتارة بالظلّة، فهذا هو وجه السؤال المعروف في هذه الآيات[١].

وحاصل الجواب: أن العلماء اختلفوا ـ كما قدمنا ـ هل شعيب أُرسل إلى أمة واحدة أو أُرسل إلى أمتين[٢]؟ وكان قتادة (رحمه الله) في طائفة من العلماء يقولون: أُرسل شعيب إلى أُمتين، أُرسل إلى مدين فأهلكهم الله بالصيحة، وأرسل إلى أصحاب الأيكة بعد أن هلك أصحاب مدين فأهلكهم الله بالظلّة. وهذا القول قال به بعض العلماء، واستدلوا باختلاف نوع العذاب، وفي أن الله قال في أهل مدين: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: آية ٨٥] ولم يقل في أصحاب الأيكة: أخاهم. وأكثر العلماء على أن أهل مدين هم أهل الأيكة، وأنها أمة واحدة، وأنهم نُسبوا إلى جدهم مدين بن إبراهيم وأنه كانت لهم أيكة ـ غيضة ـ ملتفة من الشجر يعبدونها، وبعض المؤرخين يقولون: كانت أيكتهم من شجر الدوم والله تعالى أعلم.

الجواب عن هذا[٣]: هو ما قال به غير واحد، وممن ألم به ابن كثير (رحمه الله) في تفسيره: أن كل ذلك وقع لقوم شعيب، وأن أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة، والاسم مختلف فيهما والمسمىٰ واحد. قالوا: لمّا أراد الله أن يهلكهم صاح بهم الملك صيحة شديدة؛ ولذا قيل: ﴿وَأَخَذَتِ

---

(١) انظر: الأضواء (٣٢٧/٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٨٥) من هذه السورة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٥) من هذه السورة.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: آية ٩٤] فلما صاح الملك اهتزت الأرض بهم هزاً عنيفاً، ورجفت بهم رجفة قوية، فصار هو معنى قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [الأعراف: آية ٩١] ثم إن الله أضرم عليهم الظلّة ناراً فاحترقوا، فاجتمعت لهم الصيحة من أعلىٰ، والرجفة من أسفل، وأحرقهم الله، واجتمع لهم ذلك كله ـ والعياذ بالله تعالى ـ قال بعض العلماء: وممن ذكره ابن كثير[١]: أنهم كان لهم كاهنان أحدهما يُسمىٰ: سُميراً، والثاني يسمىٰ عمران بن شداد، وأن رجلاً منهم يُقال له: عمر بن جلهاء نظر إلى الأيكة ورأى فيها العذاب فأطلعه الله عليه، وأنه كان يقول لهم أبياته المعروفة، يقول لهم[٢]:

يَا قَوْم، إنَّ شُعَيْباً مُرسَلٌ فَذَرُوا ... عنكم سُمَيْراً وعمرانَ بنَ شدَّادِ
إني أرى غَبْيَة يا قومِ قد طَلَعتْ ... تدعو بصوتٍ على صَمَّانَةِ الوادي
وإنَّكم لن تَرَوا فيها ضَحَاءَ غَدٍ ... إلا الرقيمَ يُمَشِّي بين أَنْجَادِ

والرقيم: كلبهم. يقول: في ضحى غد لا يُرى إلا الكلب وحده يمشي. لكونهم قد أبادهم الله.

وزعم جماعة من المؤرخين[٣] أن أبا جاد، وهوز، وحطي، وكلمن، وسعفص، وقرشت أنها أسماء ملوك مدين الذين أُرسل إليهم شعيب، وأن (...)[٤] كان في ذلك الوقت ملك مدين المسمى (كلمن)، وأنه لما أهلكه الله قال قالت ابنته، وبعضهم يقول: أخته تبكيه:

كلمن قد هَدَّ رُكْنِي ... هُلْكُهُ وَسْطَ المَحَلَّةْ
سيدُ القومِ أتاهُ الـ ... حَتْفُ ناراً وسط ظُلَّةْ[٥]

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٣٢)، البداية والنهاية (١/١٨٩).
(٢) الأبيات في ابن جرير (١٢/٥٦٧).
(٣) انظر: ابن جرير (١٢/٥٦٨).
(٤) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وفي ابن جرير (١٢/٥٦٨): كلمون.
(٥) البيتان في ابن جرير (١٢/٥٦٨)، ومعهما بيت ثالث.

وعلى كل حال فقد أهلكهم الله ودمرهم بالرجفة والصيحة والإحراق بعذاب يوم الظّلة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا معنى قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ [الأعراف: آية ٩١] الدار هنا: اسم جنس مفرد، أضيف إلى معرّف فهو يعم أي: في ديارهم. وألف الياء منقلبة عن واو؛ لأن أصلها (دَوَر) ولذا تُصغّر على (دُويرة) لا على دُييرة[١]، والجاثم هو المستلقي على وجهه، والمراد أنهم أصبحوا منكبين على وجوههم موتىٰ لا أرواح في أجسادهم، وانتقلوا إلى الشقاء الأبدي - عياذاً بالله - وهذا معنى قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩١ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩١-٩٢] فردّ الله على الذين قالوا ما قالوا في شعيب: تولّى الله الرد عنه عليهم؛ لأنهم قالوا لقومهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: آية ٩٠] فردّ الله عليهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ [الأعراف: آية ٩٢] أُهلكوا وكأنهم لم يقيموا فيها أحياء أبداً، ثم قال وهو محل الشاهد من الردّ: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وهو الخسران الحق لا الذين اتبعوه.

ومعنىٰ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ (الذين) هنا اسم موصول، ومحله من الإعراب: مبتدأ، وخبر المبتدأ جملة: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ و (كأنْ) مخففة من الثقيلة، وإذا خففت من الثقيلة نُوي اسمها وقُدّر محذوفاً كثيراً، وربما ظهر كما هو معروف في محلّه. والمعنى: كأنهم، أي: كأنه أي: الأمر والشأن لم يغنوا فيها أبداً.

وقوله: ﴿يَغْنَوْا۟﴾ هو مصدر (غَنِيَ يَغْنَىٰ غَنى) بفتحتين على القياس؛ لأن المقرر في فن العربية: أن (فَاعِل) مكسورة العين إذا كانت لازمة ينقاس مصدرها على (فَعَل) بفتحتين، والعرب تقول: «غَنيَ بالمكان يَغْنَى به غَنَاء». إذا أقام به في رفاهية، ومكان إقامته يُسمى: (المَغْنَى) ويُجمع على

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١١٣.

(المَغَاني) وهو معروف في لغة العرب كثيراً[١]، ومنه قول الشاعر[٢]:

ولقد غَنَوا فيها بأنعمِ عيشةٍ في ظلِّ مَلْكٍ ثابتِ الأوتادِ

(غنوا) أي: أقاموا في نعمة ورفاهية. وهذا معروف في كلام العرب، وقد تقول العرب: «غنينا في كذا» أي: عشنا به مقيمين عليه. ومنه قول حاتم[٣]:

غَنِينَا زَماناً بالتَّصَعْلُكِ والغِنَى فكل سقاناه بكأسيهما الدهرُ
فما زَادَنَا بَغْياً على ذي قَرَابَةٍ غِنَانَا ولا أَزْرَى بأحسابِنَا الفقرُ

هذا معروف، وهذه المادة جاءت منها خمس لغات في اللغة العربية[٤]، جاء منها: (الغَنَىٰ) بالفتح والقصر، و (الغِنَى) بكسر والقصر، و (الغَنَاء) بالفتح والمد، و(الغِنَاء) بالكسر والمد. و (الغُنى) بالضم والقصر، ولم يأتي منها (الغُنَاء) بضم فمدّ.

أما (الغَنىٰ) بفتح وقصر فهو محل الشاهد هنا، وهو مصدر غَنِيَ بالمكان يغنىٰ به غَنَاء إذا أقام به على الدوام.

أما (الغَنَاء) بفتح الغين مع المد إلى الهمزة فهو المَلَاء. تقول العرب: «ماله غَنَاء» أي: ماله مَلَاء. ومنه قول الشاعر[٥]:

قَلَّ الغَنَاءُ إذا لاقى الفتى تَلَفاً قول الأَحبة: لا تبعد وقد بعدا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأعراف.

(٢) البيت للأسود بن يعفر، وهو في الدر المصون (٣٨٧/٥).

(٣) ديوان حاتم ص٢٤، وهي في الديوان هكذا:

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى كما الدهر في أيامه العسر واليسر
كسينا صروف الدهر ليناً وغلظة وكلاً سقاناه بكأسيهما الدهر
فما زادنا بأواً على ذي قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

ولفظها في القرطبي (٢٥٢/٧): كما ذكر الشيخ (رحمه الله) إلا أن محقق الكتاب أضاف الشطر الثاني من البيت الأول، والشطر الأول من البيت الثاني ليوافق ما في الديوان.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من هذه السورة.

(٥) السابق.

و(الغِنَىٰ) بكسر فقصر هو ضد الفقر، وهو أن يكون الإنسان غنياً مؤسراً.

وأما المطرب الخسيس الخبيث ـ الأصوات المطربة ـ فهو (الغِنَاء) بكسر الغين ومدّها إلى الهمزة.

فالغِنَاء بالكسر والمد هو المطرب، والغِنَى بالكسر والقصر ضد الفقر، والغَنَى بالفتح والقصر هو الإقامة، والغَنَاء بالفتح والمد هو المَلَاء، ومنه قول الشاعر:

قَلَّ الغَنَاءُ إذا لاقَى الفتى تَلَفاً قول الأَحبة: لا تبعد وقد بعدا

ومنه قول هبيرة ابن أبي وهب المخزومي ـ على إحدىٰ الروايتين في بيته ـ يخاطب زوجه أم هانىء بنت أبي طالب لما هرب يوم الفتح إلى نجران ومات بها كافراً، أرسل لها يخاطبها[1]:

لَعَمريَ مَا وَلَّيْتُ ظَهْرِي محمداً وأَصْحَابَهُ جبناً ولاَ خيفَةَ القَتْلِ
ولكنني قلَّبتُ أمري فلم أجِدْ لسيفي غَنَاءً إنْ ضَرَبْتُ ولا نَبْلِيَ

يعني: غناء أي: نفعاً.

وقفتُ فلما خفتُ ضَيَعَةَ موقفي رجعتُ كضرغَامِ هِزَبْرِ أبي شِبْلِ[2]

أما (الغُنى) بضم الغين مع القصر فهو جمع غُنْية، والغُنية: ما يقتنيه الرجل من المال ليسد به خلّته وفقره.

فهذا ما جاء من هذه المادة في اللغة العربية، ومحل الشاهد منه هنا أن العرب تقول: «غني بالمكان، يَغْنَى به غَنَاء» على القياس، إذا أقام به.

والمعنى: الذين كذبوا شعيباً دمرهم الله وأهلكهم إهلاكاً مستأصلًا حتى كأنهم لم يقيموا في دارهم يوماً من الدهر أبداً ولم يوجدوا، والذي

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأعراف.

(٢) لفظ هذا البيت في السيرة لابن هشام:

وقَفْتُ فلما لم أجِدْ لي مُقَدَّماً صَدَرْتُ كَضِرْغَام هِزَبْرٍ أَبِي شِبْلِ

زال زوالًا كلياً تقول العرب: كأنه لم يكن يوماً ما، كما قال أحد الجرهميين لما طردهم الخزاعيون من مكة[١]:

كأنْ لم يكن بين الحُجُونِ إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمر بمكة سَامرُ

كأن ذلك لم يوجد أصلًا. وهذا معنى قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ﴾ [الأعراف: آية ٩٢] أي: كأنه. أي: الأمر والشأن لم يقيموا في دارهم أبداً للهلاك المستأصل الذي دمرهم.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فردَّ عليهم كذبهم ردّاً فصيحاً بليغاً، يعني: ليس الخاسر من اتبع شعيباً ولكن من كذّب شعيباً هم الخاسرون، وهذا معنى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ والإتيان بالضمير بعد (كان) يدّل على التوكيد.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً معنى (الخُسران) وما ضرب العلماء له من الأمثال[٢]. فالخاسرون: جمع الخاسر، وأصل الخسران في اللغة هو: ذهاب بعض مال التاجر، كأن يُرزأ بشيء من ماله من ربح كان أو رأس مال، ولكن الخسران أقسم[٣] الله في كتابه على أنه لا يُنَجّىٰ منه أحد إلا بأمور معينة بيّنها في سورة عظيمة من كتابه وهي قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ أي: إن كل إنسان كائناً من كان لفي خُسر ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ فهؤلاء هم الذين يخرجون من هذا الخسران.

وقد ضرب العلماء لهذا الخسران مثلين معروفين يعطيان موعظة لطالب العلم وفكرة صادقة. قالوا: أحد هذين المثلين: أن الله تبارك وتعالىٰ أعطى كل نفس رأس مال، وأمرها بالتجارة معه فيه ـ ورأس هذا المال المذكور قد قدمنا مراراً في هذه الدروس بيانه، وكررناه المرة بعد المرة ـ قصداً ـ لنعظ

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة الأعراف.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩) من سورة الأعراف.

(٣) السابق.

به إخواننا المسلمين ونحاول نفعهم بلين قلوبهم على ضوء القرآن العظيم- قالوا: رأس المال هذا المذكور المُنَوَّه عنه: هو الجواهر النفيسة العظيمة الذي لا يوجد في الدنيا شيء يماثلها أبداً، وهذه الجواهر النفيسة، والأعلاق العظيمة، هي - أيها الإخوان - هي ساعات العمر ولحظاته، فهذا رأس مال الإنسان، وهو أنفس شيء يعطاه الإنسان، وخالق السماوات والأرض يأمرنا أن نتجر معه في رأس هذا المال، فنحرك رأس هذا المال، وهي هذه اللحظات والدقائق من ساعات العمر المعدودة، فنتجر مع خالق السماوات والأرض فيها، فننظر ما يتوجه إلينا طول حياة العمر ودقائقه من أوامر الله ونواهيه فنبادر بإرضاء خالق السماوات والأرض بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهىٰ عنه، وربنا (جل وعلا) يُعطينا أرباحاً هائلة بائنة على هذا: يسكننا الجنة، وهي: زوجة حسناء، وغرفة عالية، ونهر مطرد، وشجرة مثمرة، وملك لا ينفد أبداً، فنربح ربحاً لا نفاد له، وعافية لا كدر فيها، وحياة لا موت بعدها، وصحة لا يخالطها مرض أبداً، فمن حرّك رأس هذا المال علىٰ الوجه الكيِّس الصحيح مع رب العالمين ربح الأرباح الهائلة، فإنه يربح منه مجاورة رب العالمين في دار كرامته، والنظر إلى وجهه الكريم. وإن كان صاحب رأس هذا المال - وهو ساعات العمر ودقائقه - كان رجلًا غير عاقل - يعني أخرق لا يفهم الحقائق ولا يقدِّر قدر عمره - فإن المسكين يضيع هذه الأعلاق النفيسة، وهذه الجواهر العظيمة في قال وقالوا، ولا يراقب ما يتوجه إليه من قِبل خالقه بالامتثال والاجتهاد فيضيعها دائماً، وربما صرفها فيما لا يُرضي الله من المعاصي والملاهي - والملائكة تكتب عليه - حتى ينقضي الوقت المحدد فيذهب إلى القبر وهو مفلس - والعياذ بالله - فعند ذلك يندم حيث لا ينفع الندم، فعلينا جميعاً، ما دامت الفرصة ممكنة أن نعتبر في رأس هذا المال، وأن لا نضيعه، ولا نكون حمقىٰ جهلاء، بل نعتبر به، ونتصرف مع الله بتجارة مرضية؛ لأن طاعتنا لله وإثابته لنا سمَّاه في كتابه: (تجارة) (بيعاً) (شراء) إلى غير ذلك، قال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآيات [الصف: الآيتان ١٠، ١١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾

إلى أن قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: آية ١١١] وسماه (قرضاً) في قوله: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: آية ٤٥] إلى غير ذلك. ومقصودنا ـ أيها الإخوان ـ أن ننبهكم وأنفسنا إلى مكانة العمر وعِظمها، وأن من خسره خسر كل شيء، وأن من كان حازماً في تحريكه والعمل فيه ربح كل شيء كما لا يخفى، فعلى هذا القول يكون خُسران الإنسان في رأس ماله الذي أعطاه الله ـ وهو عمره إذا ضيّعه، ولم يُبق منه شيئاً ـ كان أخسر الخاسرين، وإذا خسر هو رأس المال عُلم أنه ليس هناك ربح أبداً كما هو معروف.

واعلموا ـ أيها الإخوان ـ أن العمر كما أن الله (جل وعلا) جعله رأس المال، وهو التجارة الرابحة من خسرها خسر كل شيء، فإنه مع ذلك جعله حجة على المعمَّر، فأعماركم كما أنها رؤوس أموالكم، وأصل فوائدكم، فكذلك هي حجة عليكم؛ لأن الله جعل العمر مع الرسول لأن كُلًّا منهما حُجة على المعمّر كالمرسل إليه، كما قال تعالى في العُمر: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: آية ٣٧] فجاء بالعمر والرسول مقترنين؛ لأن الرسول ينذرك ويعظك، والعمر مهلة تقدر فيها أن تتدارك ما فات وتصلح الخلل، وتنيب إلى الله، وترجع من ما يسخطه إلى ما يرضيه، فهذه الآية العظيمة من عظام مواعظ القرآن ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ احتج به على أهل النار الذين لم يُحركوا أعمارهم في خير، ولم يعتبروا بها؛ ولذا قال: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: آية ٣٧] والعياذ بالله جل وعلا. هذا أحد المثلين المضروبين، الذين جعلهما العلماء لهذا الخسران.

المثل الثاني: ما ذكره بعض العلماء من أن الله (جل وعلا) خلق لكل إنسان كائناً من كان ـ جعل له ـ منزلًا في الجنة ومنزلًا في النار، فكل إنسان له منزل في الجنة وله منزل في النار، فإذا أدخل الله أهل الجنة الجنة أطْلعهم على مساكنهم في النار ـ لو أنهم كفروا وعصوا ـ لتزداد غبطتهم وسرورهم وفرحهم بما هم فيه، فيقول الواحد منهم عند ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: آية ٤٣] أي:

إنه (جل وعلا) يطلع أهل النار على منازلهم في الجنة لو أنهم آمنوا وأطاعوا لتزداد ندامتهم وحسرتهم ـ والعياذ بالله ـ وعند ذلك يقول الواحد منهم: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: آية ٥٧] ثم إن الله (جل وعلا) يجعل منازل أهل الجنة في النار لأهل النار، ومنازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة، ومن كانت معاملته أن استبدل منزل غيره في النار بمنزلته في الجنة فمعلوم أن صفقته صفقة خاسرة كما لا يخفى، ومضمون هذا جاء في حديث عن النبي ﷺ، والظاهر أن سنده لا بأس به والله تعالى أعلم[١].

هذان المثلان اللذان ضربهما العلماء في الخسران الذي أقسم الله أنه لا ينجو منه أحد إلا من استثنى في قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: الآيات ١ ـ ٣] وبهذا تعرفون أنَّ هذه السورة العظيمة سورة العصر التي قال الإمام الشافعي: «إنها لو لم ينزل من القرآن إلا هي لكَفَتْ»[٢]؛ لاشتمالها على جميع تشاريع الإسلام، بيّن الله فيها الأسس الكبار، والأصول العظام من وجه التجارة بالعمر مع خالق السماوات والأرض الذي يحصل منه الربح الأبدي الذي لا ينتهي، وأنه تحريك العمر والتجارة فيه مع الله، بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: آية ٣] فإن الآية شملت إيمان القلوب وأعمال الجوارح، ودعت إلى النفع إلى الغير بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فجاء بها كل شيء، فسبحان العليم الكريم ما أعلمه وما أعظم تعليمه وأوضحه، وهذا معنى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: آية ٩٢].

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ۝٩٣﴾ [الأعراف: آية ٩٣].

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ ضمير الفاعل المستتر في قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ راجع إلى

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩) من هذه السورة.

(٢) أورده ابن كثير في التفسير (٥٤٧/٤).

شعيب، ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ هو أي: نبي الله شعيب رجع مولياً عنهم ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ﴾ خاطبهم وقد أهلكهم الله، وهذا الخطاب بعض العلماء يقول[1]: قاله لهم في آخر حياتهم لما أراد أن يخرج عنهم كما في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: آية ٩٤] وقد أمره الله بالخروج عندما قرُب نزول العذاب فيهم. وبعض العلماء يقول: قال لهم هذا بعد أن هلكوا ودمرهم الله رجع وقاله لهم. ولا مانع من هذا، وقد وقع مثله؛ لأنه ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ جمع صناديد قريش يوم بدر ـ أصحاب القليب ـ ووبّخهم وقال لهم: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: آية ٤٤] فوبخهم[2]، وبيّنّا أنهم يسمعون كلامه، وأنهم الآن يعرفون الحقيقة كما هو معروف.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ قد تكلمنا عن القوم فيما سبق قريباً[3].

﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ [الأعراف: آية ٩٣] اللام موطئة لقسم محذوف (والله لقد أبلغتكم رسالات ربي) وهذا النبي الكريم أقسم في هذه الآية الكريمة على أنه أبلغ رسالة ربه؛ لأن الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم) يجب عليهم الإبلاغ على أكمل الوجوه وأتمها. فكل مُشرِّع يأتي بتشريع ودين لم يأتِ به نبينا ﷺ فكأنه يدعي عليه أنه لم يبلغ. وهو (صلوات الله وسلامه عليه) بلّغ كل شيء أُمر بتبليغه، كما أقسم شعيب على أنه بلّغ رسالة ربه، فثبت عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: من زعم أن محمداً ﷺ كتم حرفاً مما أُنزل عليه فقد افترىٰ على الله الكذب، والله لو كان كاتماً شيئاً لكتم قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[4] [الأحزاب: آية ٣٧] وقد شهد الله لنبينا ﷺ في آيات عديدة أنه بلّغ، كما شهد شعيب لنفسه هنا بقوله: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٧٩) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أُخرى، وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء؟) حديث رقم (١٧٧)، (١/١٦٠).

رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ فمن الآيات التي شهد الله فيها لنبينا بالإبلاغ قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: آية ٣] فلو كان لم يبلغ جميعه على ما ينبغي لما قال: ﴿أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ للنقص في الذي لم يُبلغ، وقال له: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ٥٤﴾ [الذاريات: آية ٥٤] ولو كتم شيئاً لكان ملوماً. وقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ [النور: آية ٥٤] إلى غير ذلك من الآيات، فهو (صلوات الله وسلامه عليه) لنا بمنزلة الوالد الشفيق يُعلمنا حتى إنه من شدة رأفته ورحمته بنا وحرصه على هُدانا يُعلمنا، كل شيء، حتى إنه يعلم الرجل إذا راح إلى بيت الماء ليقضي حاجته ـ أكرمكم الله ـ كيف يفعل؟ وبماذا يستجمر؟ وما لا يفعل مع القبلة، وفي أي اليدين يستجمر، وماذا يتقي عند الاستجمار كما هو معروف في محلّه.

وهذه الآيات تدل على أن أنبياء الله (صلوات الله وسلامه عليهم) نصحوا لأممهم وبلّغوا أكمل البلاغ وأتمه، وصبروا على الأذى، وعلى أتباعهم من المنتسبين للعلم أن يبلغوا العلم على الوجه الأكمل، وأن يصبروا على أذى الناس؛ لأن كل من يأمر بخير وينهى عن منكر لا بد أن يلحقه الأذىٰ من الناس، وهذا أمر معروف؛ لأن كل من يتعرض للناس في مهوياتهم وينهاهم عما يهوون، ويأمروهم بما لا يهوون يكونون أعداء له؛ ولذا كان لقمان الحكيم لما أوصىٰ ولده وقال له: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [لقمان: آية ١٧] أتبع ذلك بقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ لأنه يعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستلزم اتباع إصابة الأذىٰ من الناس كما لا يخفىٰ، فعلىٰ طلبة العلم أن يعتبروا بأمثال هذه الآيات، وينصحوا لأمة محمد ﷺ، ولا يكتموا العلم عند الحاجة إليه، ويبلغوه على الوجه الأكمل بالإيضاح والحكمة والصبر على الأذىٰ.

ونحن معاشر هذه الأمة سيثبت بقولنا وشهادتنا على الأمم فصل القضاء يوم القيامة[1]، يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٦) من سورة الأعراف.

ينفذهم البصر، ويُسمعهم الداعي، كما جاء في القرآن العظيم، وذلك أنه إذا اجتمعت الخلائق سأل الله الرسل والمرسل إليهم كما [مضى][١] في قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ فالكفار الذين كفروا من الأمم يقولون: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: آية ١٩] فالرسل الذي أرسلتَ إلينا هم الذين خانونا وكتموا عنا رسائل ربنا، ولو جاءتنا رسالة ربنا لكنا أطوع الناس لها وأتبعها لها!! فيقول الله ـ وهو أعلم ـ للرسل: هل عندكم بيّنة على التبليغ؟ فيقولون: نعم، أمة محمد ﷺ تشهد لنا. فتُدعىٰ هذه الأمة الكرام الذين قال الله فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: آية ١١٠] فيقال لهم: أتشهدون أن هؤلاء الرسل الكرام بلّغوا هؤلاء الكفرة؟ فنقول على رؤوس الأشهاد في ذلك اليوم العظيم: نعم، نحن نشهد أنهم بلّغوهم أكمل البلاغ وأتمه، وأن هؤلاء الكفرة آذوهم وتعرضوا لهم بكل سوء، ولجّوا في الكفر بعد أن بيّنوا لهم كل شيء، وتحمّلوا منهم كل الأذىٰ. فيحتج علينا الأمم فيقولون: كيف تشهدون علينا وأنتم في وقت إرسال الرسل إلينا في ظلمات العدم لم توجدوا إذ ذاك، كيف تشهدون على شيء وقع قبل أن تُخلقوا؟

فنقول: نعم إننا نضع أداء الشهادة على حصول العلم اليقين، وقد حصل لنا العلم اليقين بما شهدنا، فما شهدنا إلا بما علمنا؛ لأن الله أرسل إلينا نبياً كريماً، وأنزل إليه أعظم الكتب، وهو أصدق كلام، وكل ما في كتاب الله فنحن نقطع به ونجزم به ـ لأنه كلام خالقنا ـ أشد من جزمنا بما رأته أعيننا وسمعته آذاننا، فقد قصّ الله علينا قصصكم مفصّلة ومجملة، فأنتم يا قوم نوح قص الله علينا في كتابه ما جرى منكم معه في دار الدنيا وأنه قال: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ إلى آخر الآيات. [نوح: الآيات ٧ ـ ٩]. وأنتم يا قوم هود قص الله علينا من خبركم كذا وكذا، وقولكم له: ﴿إِن نَّقُولُ

---

(١) في الأصل: «يأتي». وهو سبق لسان.

﴿إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: آية ٥٤] وما صبر على أذاكم وما جاءكم به من الإنذار العظيم. وكذلك قوم صالح، فنفصّل ما فُصِّل، ونُجمل ما أُجمل، فيثبت الحكم عليهم بشهادتنا كما سيأتي في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: خياراً عدولاً ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: آية ١٤٣] فهذه الآية وأمثالها كقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: آية ١١٠] فيها الدلالة القرآنية الواضحة على أن هذه الأمة هي خير الأمم وأفضلها، ويؤيد ذلك ويوضحه ما جاء في السنن من حديث معاوية بن حيدة القشيري (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال في هذه الأمة: **«أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»**[1]. أما قوله في بني إسرائيل: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: آية ٤٧] فلا يتناول هذه الأمة؛ لأنها في ذلك الوقت لم توجد، والمعدوم ليس بشيء حتى يُفضّل عليه غيره؛ فبعد أن وُجدت واستقر كيانها صح تفضيلها على جميع الأمم، واستقراء القرآن قد دلّ على ذلك دلالة واضحة، وإيضاح ذلك[2]: أن الفضل العظيم إنما يعرف بالاختبار، فعند الامتحان (...)[3].

١٤/ب / ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: آية ٩٣] لما علم نبي الله شعيب أن الله مهلك قومه تولى راجعاً عنهم، وقال مخاطباً لهم: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾ والله لقد أبلغتكم رسالات ربي التي لو اتبعتموها لما وقعتم فيما وقعتم فيه ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ بذلت لكم غاية النصح، وبينت لكم، وأمرتكم بما فيه لكم الخير، ونهيتكم عما فيه لكم الشر، ولكن تمردتم حتى أهلككم الله ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ آسى: معناها أحزن، فالعرب تقول: أَسِيَ الرجل يَأسَى بمعنى: حزن يحزن، و(آسى) فعل مضارع، والهمزة الأولى همزة المتكلم، والألف مبدلة من فاء الفعل، والمعنى: فكيف أحزن أنا. ﴿ءَاسَىٰ﴾ أي: أحزن ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ متمردين على الله؛ أعداء الله

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.
(٢) السابق.
(٣) في هذا الموضع انقطع التسجيل. ويمكن استدراك النقص بمراجعة كلام الشيخ (رحمه الله) في هذه القضية فيما مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

ورسله، فهؤلاء لا يُحزن عليهم، كما قال الله لنبينا: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: آية ١٢٧] ونحو ذلك من الآيات[١]. وهذه الآية تدل أن قوم الرجل إذا كانوا أعداء لله فأهلكهم الله بذنوبهم لا ينبغي له أن يحزن عليهم؛ لأنهم ليسوا أهلاً للحزن عليهم لعداوتهم لله ورسله.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ٩٤، ٩٥].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأعراف: آية ٩٤] بين الله (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة أنه لم يرسل نبياً قط من الأنبياء إلى أمة إلا كذبت تلك الأمة، وبعد تكذيبها ابتلاها الله أنواع الابتلاء، ثم بيّن مصيرها النهائي. وهذا العموم في (ما) عام لم يخرج منه شيء إلا قوم يونس فإن الله أخرجهم من هذا العموم في قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: آية ٩٨] لم يخرج من هذا العموم إلا قوم يونس فقط كما دلت عليه آية يونس هذه.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ المدينة تُسمى (قرية)[٢] لأن الناس يجتمعون فيها، من قولهم: قريتُ الماء. إذا جمعته في الحوض. والأصل: ما أرسلنا نبياً. فالمفعول نكرة زيدت قبلها لفظة (من) لتأكيد العموم، وقرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا نافعاً ﴿مِّن نَّبِىٍّ﴾ بالتشديد، وقرأه نافع وحده: ﴿من نبيء﴾ بالهمزة[٣]. أما على قراءة نافع فالنبيء مُشتق من النبأ، والنبأ: الخبر الذي له شأن. فكل نبأ خبر، وليس

---

(١) انظر: الأضواء (٢/٣٢٧ ـ ٣٢٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤) من سورة الأعراف.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.

كل خبر نبأ؛ لأن النبأ اسم للخبر الذي له شأن، تقول: جاءنا نبأ الجيوش، وجاءنا نبأ الأمير. ولا تقول: جاءنا نبأ حمار الحجام؛ لأنه لا خطب له. أما على قراءة الجمهور فقال بعض العلماء: (النبي) أيضاً من (النبيء) أُبدلت الهمز ياء. وقال بعضهم: هو من (النَّبْوَة) بمعنىٰ الارتفاع، وهذا معروف ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا﴾ كلما أرسل الله نبياً إلى قوم كذبوه وناصبوه العداء ثم أخذهم الله أولًا ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأعراف: آية ٩٤] البأساء: الفقر والجوع. الضراء: الأمراض. يبتليهم أولاً بالفقر والجوع والجدب، ثم يبتليهم بالأمراض ونحوها، وإذا لم ينفعهم هذا الابتلاء بالشر ابتلاهم بالخير؛ لأن الابتلاء تارة بالشر وتارة بالخير فبين ابتلاءه لهم بالخير بعد ابتلائه لهم بالشر في قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: آية ٩٥] بدلنا مكان السيئة الحسنة، **(الحسنة)** و**(مكان)** هما مفعولا **(بدلنا)** على التحقيق، خلافاً لمن زعموا أن **(مكان)** ظرف، فهما مفعولان لبدلنا.

ومعنى: ﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي: بدلنا لهم الخصب مكان الجدب، والصحة والعافية مكان الأمراض، فجعلنا لهم الشيء الحسن بدلًا من الشيء السيء؛ لنبتليهم أخيراً بالحسن بعد أن ابتليناهم أولًا بالسيء.

وأصل (السيئة) أصلها: (سَيْوِئَة) حروفها الأصلية هي: السين وهو فاؤها، والواو وهو عينها، والهمزة وهي لامها، وياء (فَيْعِلَة) زائدة، فأبدلت الياء الزائدة بالواو التي هي عين الكلمة بعد إبدالها ياء على القاعدة التصريفية المشهورة المعروفة[١].

و (الحسنة) صفة مشبهة من: حَسُنَ الشيء فهو حسن، وكذلك (السيئة) صفة مشبهة من: ساء يسوء فهو سيء؛ لأن السيئة تسوء صاحبها يوم القيامة إذا رآها في صحيفته.

والحسنة: أصلها صفة مشبهة تأنيث الحسن إلا أنها اشتهر استعمالها

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٦٠) من سورة الأنعام.

حتى استُعملت استعمال الأسماء الجامدة كالصالحة والحسنة والخصال الطيبة، وهو معنى معروف في كلام العرب.

ومعنى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: آية ٩٥] بدلنا لهم مكان الجدب خصباً ورزقاً، ومكان الأمراض عافية وصحة؛ لنبتليهم بذلك أيضاً.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ يعني: كثروا. العرب تقول: «عفا الشيء» بمعنى: كثر، فـ(عفوا) معناه: كثروا. كثرت أنفسهم ـ بالعافية والصحة ـ وأموالهم، حتى نموا ونمت أموالهم، وكل شيء كثُر تقول فيه العرب: (عفا) ومنه: إعفاء اللحية، وهو تكثير شعرها وتوفيره لا حلقه وقصّه. فمعنى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ حتى كثروا، وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[١]:

ولكنَّا نُعِضُّ السيفَ منها بأسْوُقِ عَافياتِ الشحمِ كُومِ

فهو معنىً معروف في كلام العرب. حتى عفوا وكثروا وزال عنهم الجوع والقحط وخصبوا وأنعموا، لما زال عنهم هذا كله ابتليناهم بالحسنات، ولم ينفع فيهم الابتلاء بالحسنات أيضاً، وقالوا: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ معناه عندهم: أن هذه حياة الدهر، تارة يجيء بخير، وتارة يجيء بشر، وهو أمر طبيعي ليس من الابتلاء ولا الفتنة(. . .)[٢] ثم إن الله قال إنه بعد أن لم ينفع ابتلاؤنا [أهلكناهم بغتة][٣] ولذا قال: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أخذناهم بالعذاب والهلاك بغتة. أي: في حال كوننا مباغتين لهم. أي: أخذهم فجأة. والمباغتة أشد وأعظم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يعلمون بذلك فأهلكهم الله بغتة (والعياذ بالله) وهذا معنى قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

---

(١) البيت للبيد بن ربيعة، وهو في الدر المصون (٣٨٩/٥).

(٢) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، والكلام مستقيم بدونها.

(٣) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: آية ٩٦].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ (لو): حرف الشرط لا تلي إلا الجمل الفعلية و (أنَّ) هنا حرف مصدري، ليست جملة فعلية، إلا أن الفعل محذوف، ولو وقع ﴿أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ﴾ لو كان أهل القرى الذين دمرهم الله وأهلكهم الله آمنوا بالله وأطاعوا رسله ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قرأ هذا الحرف عامة القراء غير ابن عامر: ﴿لَفَتَحْنَا﴾ بالتخفيف، وقرأه ابن عامر: ﴿لَفَتَّحنا عليهم﴾ بالتشديد[1].

﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ البركات: الخيرات، وبركات السماء: ما ينزل منها من الأمطار، وبركات الأرض: ما يخرج منها من النباتات والزروع والحبوب ونحو ذلك.

وهذه الآيات تدل على أن الناس إن أطاعوا الله أغدق الله عليهم رزقه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: الآيتان ٢، ٣] وقال نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: الآيات ١٠ ـ ١٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: آية ٦٦] في آيات كثيرة.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ [الأعراف: آية ٩٦] ولكنهم لم يطيعوا الله فكذبوا ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ أهلكناهم بسبب ما كانوا يكسبون من الذنوب والكفر والمعاصي.

وقد نقتصر الآن على هذه الكلمات القليلة؛ لأن البارحة أخذنا دواء أثَّر علينا، فمعي الآن بعض الأثر.

---

(١) انظر: السبعة ص٢٨٦.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٩٧ ـ ١٠١].

يقول الله جل وعلا: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

بيّن الله (جل وعلا) هنا إنكاره على أهل القرى الذين كفروا به وكذبوا رسله وعارضوا [شرعه][1] وأمنوا مكره، وبيّن (جل وعلا) تفاهة عقولهم وعدم علمهم، وأنكر عليهم بأداة همزة الإنكار ليفتحوا آذانهم ويخافوا عقاب الله ولا يأمنوا مكره.

ولذا قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: آية ٩٧] قدمنا مراراً كثيرة[2] كلام العلماء على همزة الاستفهام التي بعدها أداة عطف كالفاء والواو وثم. والهمزة هنا للإنكار، ومعنى إنكاره على أهل القرى جمعهم بين الكفر به، وتكذيب رسله، وعدم خوفهم من بطشه ونكاله، فهذا يدل على غاية الجهل بالله؛ ولذا قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ جمع قرية على غير قياس ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي: يأتيهم عذابنا ونكالنا وإهلاكنا المستأصل، والبأس: العذاب والنكال من الله (جل وعلا) بسبب كفرهم بنا وتكذيبهم لرسلنا.

﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [الأعراف: آية ٩٧] قوله: ﴿بَيَٰتًا﴾

---

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

أي: ليلًا، والحال: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [أي: في غفلة][١] فيأتيهم في تلك الغفلة ﴿بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا فنهلكهم. وهذا معنى قوله: ﴿بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أي: ليلًا في حال كونهم نائمين. والليل معروف، وهو الذي تشاهدونه من ظلام.

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: آية ٩٨] في هذا الحرف قراءتان سبعيتان: قرأه جماهير القراء غير الحرميين والشامي: ﴿أَوَ أمن أهل القرىٰ﴾ بفتح الواو، كأنه تكرير للجملة بما يماثلها. وقرأه الحرميان ـ أعني: نافعاً وابن كثير ـ والشامي ـ أعني ابن عامر ـ: ﴿أَوْ أمن أهل القرى﴾ بـ(أو) العاطفة، وهما قراءتان معروفتان، ولغتان فصيحتان[٢].

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ الضحى: هو وقت ارتفاع النهار.

﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ لاهون يشتغلون بما لا يجديهم شيئاً، وكل مشتغل بما لا ينفعه يُسمىٰ لاعباً كما هو معروف. والمعنى: أن الله (جل وعلا) قادر على إهلاكهم في الليل في حالة نومهم، وإهلاكهم في أول النهار في حالة لهوهم ولعبهم، كيف يأمنون مكره مع الكفر به وتكذيب رسله وقدرته على إهلاكهم؟ وهذا معنى قوله: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

ثم كرر الإنكار عليهم فقال: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: آية ٩٩] كان بعض العلماء يقول: إن المكر من الصفات التي لا تطلق إلا على سبيل المشاكلة. وهذه الآية من سورة الأعراف بيّنت أن المكر يُطلق في غير المشاكلة.

والمشاكلة: هذا اللفظ من اصطلاحات علوم البلاغيين[٣]، يذكره

---

(١) في هذا الموضع كلام غير واضح. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٠ ـ ٢١١.
(٣) انظر: التلخيص للقزويني ص٣٥٦، جواهر البلاغة ص٢٩٩.

علماء البلاغة في (البديع المعنوي) يقولون: منه قسم يُسمىٰ (المشاكلة) وبعضهم يقول: إن ما يُسمىٰ (المشاكلة) هو مما يسمونه: بعض علاقات المجاز المرسل.

وهذا الذي يقولون له (المشاكلة) هو: أن يأتي لفظ موضوع في معنى غير معناه، بل موضوع في معنىً أجنبي من معناه الأصلي، إلا أنه وُضع فيه لأجل المشاكلة والمقارنة بينه وبين لفظ آخر مذكور معه، ومن أمثلته عندهم قول الشاعر[(١)]:

قالوا اقترح شيئاً نُجِد لك طبخَه   قلتُ اطبخوا لي جُبَّةً وقميصَا

فقوله: «اطبخوا لي جبة» يعني: خيطوا لي جبة، فأطلق الطبخ وأراد الخياطة ـ والطبخ أجنبي من الخياطة ـ للمشاكلة بينهما. والتحقيق أنه هنا لا مشاكلة، وأن الله ذكر مكره وحده ولم يذكر مكر عبده كما قال هناك: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: آية ٣٠] ذكر مكرهم ومكره، وهنا ذكر مكره وحده؛ ولذا قال: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: آية ٩٩].

والتحقيق أن المكر صفة أطلقها الله على نفسه، ولا يجوز إطلاقها على الله إلا في الموضع الذي يُطلقها هو على نفسه أو رسوله ﷺ، وقد أجمع جميع العلماء أنه لا يجوز أن يُشتق له منها اسم، فلا تقل: من أسمائه الماكر؛ لأن ذلك لا يجوز إجماعاً.

ومعنى (مكر الله) أنه (جل وعلا) يستدرجهم ويغدق عليهم النعم والصحة والعافية حتى يكونوا أغفل ما كانوا، ثم يأخذهم بغتة ويهلكهم في غاية الغفلة، وهذا فعل أحسن ما يكون وأبلغ ما يُتصور، وقد ضربوا مثلًا ـ ولله المثل الأعلى ـ قالوا لو فرضنا أن هنالك رجلًا شديد البلية على الناس، يقتل هذا، ويظلم هذا، وجميع الناس في غاية التأذي منه، ثم إن رجلًا صالحاً كريماً طيباً احتال عليه بحيلة شريفة، حتى قتله وأراح الناس منه،

---

(١) البيت في المصدرين السابقين.

فكلهم يقول: جزاك الله خيراً. والله إن قَتْلَك له في صورة خفاءٍ إنه أحسن ما يكون.

وعلى كل حال فالله لا يصف نفسه إلا بما هو في غاية الحسن والجمال واللياقة، فوصف نفسه هنا بأنه يهلك الكافرين بمكره، وأن كيده متين كما قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: آية ١٨٣] ونحن قد قدمنا لكم في هذه الدروس مراراً ـ وكررناه مراراً[(١)] من شدة الحاجة إليه ـ: أن المذهب المُنجي في صفات الله تبارك وتعالى التي ازدحمت فيها عقول العقلاء، وضلّ آلاف الناس من جهة التعطيل، وضلّ آلاف الناس من جهة التشبيه، والتمثيل، أن المذهب المنجي عند الله ـ الذي لا شك فيه، وأنه الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام وسلف هذه الأمة ـ: وهو ما يقال له: «مذهب السلف» في اصطلاح الناس، أن انتهاجه هو الصواب، وهو المنجي عند الله، وهو العمل بنور القرآن الذي لا شك فيه، فقد أوضحناه لكم مراراً سنين متعددة، ولا نزال نوضحه ونكرره لشدة الحاجة إليه، وكثرة من غلط فيه من فحول النظار.

اعلموا أيها الإخوان ـ وفقنا الله وإياكم لما يرضيه ـ أن العمل بضوء هذا المحكم المنزل الذي لا شك أنه على قدم الصواب أن تُجرى آيات الصفات على ثلاثة أصول، إن لقيتم الله وأنتم على هذه الأصول الثلاثة ـ لم تُخلّوا بواحد منها ـ فلا شك أنكم تلقون ربكم وأنتم على عقيدة صحيحة، وصلة بالله متينة، ومذهب حق. وإن أخللتم بشيء منها أدخلتم أنفسكم في بلية. واحذروا من قال وقيل، وعلم الكلام، وغير ذلك.

وهذه الأصول الثلاثة:

الأول منها: ـ أيها الإخوان ـ هو أساس التوحيد الأكبر، وهو الحجر الأساسي للصلة بالله صلة صحيحة. هذا الأساس الأعظم هو تنزيه خالق السماوات والأرض (جل وعلا) عن أن يشبه شيئاً من خلقه في شيء من

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأنعام.

ذواتهم أو صفاتهم أو أفعالهم، وكيف يشبهونه؟! أليسوا صنعة من صنائعه؟ بلى هم صنعة من صنائعه ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: آية ٨٨] ومعلوم أن الصنعة لا تشبه صانعها بحال. هذا أصل التوحيد الأعظم في آيات الصفات، وأساسها الأكبر، وهو تنزيه رب العالمين تنزيهاً كاملاً تاماً لائقاً بكماله وجلاله عن مشابهته لشيء من صفات خلقه أو ذواتهم أو أفعالهم، وهذا الأصل الأعظم نصّ الله عليه في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: آية ٤] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النمل: آية ٧٤] ونحو ذلك من الآيات.

الأساس الثاني ـ: هو أيها الإخوان إذا حققتم هذا الأصل الأعظم الذي هو التنزيه، فالأصل الثاني ـ: هو الإيمان بما جاء عن الله في كتابه المنزل، والإيمان بما جاء عن رسول الله ﷺ في سنته الصحيحة إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه؛ لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: آية ١٤٠] ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤].

هذان الأساسان العظيمان الذي هما: تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة خلقه.

والثاني: تصديق الله والإيمان بما مدح به نفسه إيماناً مبنياً على أساس التنزيه.

وهذان الأصلان العظيمان أيها الإخوان لم أقلهما لكم من تلقاء نفسي لا، لا، وكلا، وإنما بينتهما لكم علىٰ ضوء هذا الوحي المحكم المنزل الذي هو نور الله وهداه. وإيضاح ذلك: أن الله أوضح هذين الأساسين وارتباط أحدهما بالآخر في غاية الإيضاح في أوجز عبارة وأتمها وأكملها، وذلك بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] فنؤمل ـ أيها الإخوان ـ أن تتأملوا في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وتربطوا أول الآية بآخرها، وآخرها بأولها

لتهتدوا كما ينبغي، وإيضاح ذلك: أن السمع والبصر ـ ولله المثل الأعلى ـ هما صفتان يتصف بهما ـ من حيث هما سمع وبصر ـ سائر الحيوانات، فجميع الحيوانات تسمع وتبصر، والله (جل وعلا) يسمع ويبصر ـ سبحانه وله المثل الأعلى ـ ولكن لما أراد أن يبين لنا أنه يسمع ويبصر وضع الأساس الأعظم أولًا فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] لأن الأساس لإثبات الصفات هو التنزيه عن المماثلة وعن التشبيه، فوضع التنزيه هو الأساس الأول فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ مبنياً على أساس: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي: سمعاً وبصراً لا يماثلهما سمع مخلوق ولا بصره أبداً ألبتة في حال من الأحوال. فكان أول هذه الآية الكريمة يدل على التنزيه التام من غير تعطيل، وآخرها يدل على الإيمان بالصفات إيماناً حقيقياً من غير تشبيه ولا تمثيل. فعلينا أن نعتقد أولها: وهو التنزيه. ونعتقد آخرها: وهو إثبات الصفات إثباتاً حقيقياً على أساس ذلك التنزيه، فكأن الله يقول لك: يا عبدي، يا عبدي تفهَّم وكن عاقلًا، ولا تذهب بسمعي وبصري إلى سمع المخلوقين وأبصارهم حتى تقول: هذه الصفة توهم غير اللائق فيجب تأويلها والإتيان بغيرها!! لا، لا، لا يا عبدي، بل لاحظ أولًا أن صفتي في غاية الكمال والجلال والتنزيه عن مشابهة صفات المخلوقين ليمكنك على ذلك الأساس أن تؤمن بها إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، كما بينت لك في قولي: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قولي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] هذا أيها الإخوان بيان واضح لا لبس فيه.

الأساس الثالث: هو أن تعلموا ـ أيها الإخوان ـ أن العقول البشرية مخلوقة، وأنها واقفة عند حدها، وأنها متقاصرة عن إدراك الإحاطات والكيفيات بصفاته (جل وعلا)، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: آية ١١٠] فنفى إحاطة العلم البشري نفياً باتاً عنه (جل وعلا) لأن الخلق مخلوق، والخالق (جل وعلا) أعظم شأناً من أن يحيط به خلقه.

هذه الأسس الثلاثة ـ أيها الإخوان ـ من لقي منكم الله وهو عليها لقيه

على هدىً ونور من ربه، وعلى عمل بالقرآن. ومن حاد عنها تخبط في ظلام لا يدري في أي وقت يخرج منه. وأنا أقول لكم: إن هذه اللحظات من الأيام والليالي سائرة بنا إلى المحشر سيراً حثيثاً، كصاحب السفينة يكون نائماً في مُتكئه في البحر يظن أن السفينة واقفة وهي تقطع فيه المسافات العظيمة في الدقائق والثواني!! فنحن تسير بنا الأيام والليالي إلى ربنا (جل وعلا)، وعن قريب سينكشف لكم الغيب، ونكون جميعاً في صعيد واحد أمام رب العالمين (جل وعلا) والله قد يسألكم عن كل شيء كما قال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: آية ٦] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٩٢، ٩٣] ويوشك أن يسألكم الله عن ماذا كنتم تقولون فيما مدح به نفسه من صفات الكمال، كاستوائه على عرشه، وكصفة اليد والأصابع، وغير ذلك من الصفات التي أثنىٰ الله بها على نفسه، وكالتي في قوله هنا: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: آية ٩٩] فإذا قال لكم رب العالمين: ماذا كان موقفكم في دار الدنيا من صفاتي التي مدحت بها نفسي، وأثنىٰ علي بها رسولي ﷺ، وبلّغكم إياها عني في كتابي وسنة رسولي، هل كنتم تصدقونني، وتؤمنون بي، أو كنتم تنفون صفاتي وتكذبونني وتكذبون رسولي؟! فلا يخفى على أحد منكم ـ على طريق الإنصاف ـ أنه إن كان جوابه لربه في هذا التعليم الذي علمناكم في نور القرآن أنه تعليمٌ صاحبهُ ناج من هذه المشكلات، ولا تأتيه بليّة، بل إنك إن قلت لله: أما أنا فكنت في دار الدنيا أنزه صفاتك عن صفات المخلوقين، وأعتقد اعتقاداً جازماً أنك لا يماثلك ولا يشابهك شيء من خلقك، لا في ذاتك، ولا في صفاتك، ولا في أفعالك. فهذا الجواب لا شك أنه لا يسبب لك بلية، ولا مشكلة من الله ولا لوماً، ولا تقريعاً، ووالله لا يقول لك الله موبخاً: لم كنت تنزهني عن مشابهة صفات خلقي؟ لا، لا والله.

ثم إنك إذا قلت: أنا كنت أؤمن بصفاتك، وأصدقك بما تمدح به نفسك، وأُصدق رسولك، ولا أكذبه فيما كان يثني به عليك من الصفات،

ولكن ذلك الإيمان والتصديق مبني على أساس تنزيهك وتعظيمك وإجلالك عن مشابهة صفات الخلق. والله لا يقول لك الله: لم كنت تصدقني في دار الدنيا، وتصدق رسلي، ولم لا تكذبني وتنفي صفاتي؟ لا، لا. هذا طريق سلامة محقق لا شك فيه. ولا يقول لك الله في الثالث: لم كنت[1] تدعي أن عقلك لا يحيط بصفاتي، ولا بكنهها؟؟ فهذه طرق حق واضحة، وعمل بنور القرآن، معلوم أنها ليس وراءها تبعة ولا بلايا ولا مشكلة؛ لأنها خروج من مأزق عظيم في ضوء نور كتاب الله (جل وعلا)، وهو المخرج من كل بلية، والمنقذ من جميع أنواع الضلال. واعلموا ـ أيها الإخوان ـ أن كثيراً من أجلاء المتعلمين من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من النظار ـ بعد أن نشأ علم الكلام ـ غلطوا غلطاً شديداً في هذه المسألة على كثرتهم وقوة علمهم وفهمهم، وهم كما قال الإمام الشافعي (رحمه الله) ـ قصدهم حسن، ولا يريدون سوءاً ولا يريدون إلا تعظيم الله وتنزيهه، ولكنهم غلطوا في طريق ذلك، وأخذوا غير الطريق الصواب فغلطوا، فهم كما قال الإمام الشافعي رحمه الله[2] ـ:

رَامَ نَفْعاً فَضَرّ من غير قَصْدٍ   ومن البِرِ ما يكونُ عُقُوقَا

وسنضرب لكم مثلاً في صفة من الصفات كصفة الاستواء مثلاً، هذه من الصفات التي اشتهر غلط كثير من الطوائف فيها من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من أنواع الطوائف. فمعلوم أن الاستواء هو صفة من صفات الله الذي أثنىٰ الله بها على نفسه في سبع آيات من كتابه، وما ذكرها، مادحاً بها نفسه إلا مقرونة بأنواع من صفات الكمال والجلال تبهر العقول بعظمها، فالسلفي إذا سمع الله يمدح نفسه بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: آية ٢] امتلأ قلبه من الإجلال والتعظيم والإكبار لصفة الاستواء، واعتقد اعتقاداً جازماً أنها منزهة كل التنزيه، مقدسة كل التقديس عن مشابهة استواء المخلوقين بجميع أنواعه، فكانت أرض قلبه طيبة طاهرة،

---

(١) في الأصل: «كنت لا تدعي».

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٤٨) من سورة الأنعام.

وعلى أساس هذا التنزيه العظيم وتنزيل صفات الله بما يليق بالله سهُل عليه أن يؤمن بها إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه على غِرار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] لأن الاستواء ليس أوغل في صفات المخلوقين من السمع والبصر، فيكون هذا السلفي أولاً: منزهاً صفة الله عن مشابهة صفات المخلوقين. وثانياً: مؤمناً بها على أساس ذلك التنزيه في ضوء: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ عالماً بأنه عاجز عن إدراك الكيفية والإحاطة بالكلّ، فهو مُنَزِّه أولًا، مؤمنٌ مصدق ثانياً على أساس التنزيه، واقف عند حدّه وعلمه، فلا يأتيه خطر، ولا يحول حوله غلط.

أما من غلط من النُظّار ـ مثلًا ـ فإن بلية الغلط جاءته أولًا من تفسير صفات الله بما لا يليق بالله، فصار مبتدئاً بنوع من التشبيه، فجاءته القلاقل والبلابل من التشبيه؛ لأن أقذر قذر عرفه الإنسان: هو تشبيه خالق السماوات والأرض بخلقه ـ سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ فيقول مثلًا: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: آية ٥] الاستواء: معناه الانتصاب المعروف كانتصاب المخلوقين، وهذا مستحيل في حق الله!! فجاءته البلية من أنه حمل استواء الله على مشابهة استواء الخلق، وهذا رأس الغلط ومنشأ البلية، وليس له فيه حق، كان حقه أن ينزه استواء الله، ويعلم أنه صفة الخالق، والخلق صنعة، فصفة الصانع لا تشبه صفة صنعته، وأنها صفة كمال وجلال منزهة عن جميع أنواع التشبيه. فلما حصل في ذهنه التشبيه أولاً وقع في بلايا لا يقصدها، وشر عظيم لا يريد الوقوع فيه، كما قلنا:

رَامَ نَفْعاً فَضَرّ من غير قَصْدِ ومن البر ما يكونُ عُقُوقَا[1]

فيقول أولًا: الاستواء معناه: انتصاب المخلوق هذا الانتصاب المعروف، وهذا لا يليق بالله. فكان مبتدأ قضيته بتشبيه صفة الله التي مدح بها نفسه بصفة الخلق، وهذا منشأ الغلط وسبب البلية، فلما وقع في ذهنه شيء من أنجاس التشبيه، وأقذار تشبيه الخالق بخلقه سبَّب له بليّة عظمىٰ،

---

(١) مضى قريباً.

ومشكلة كبرىٰ، قال: إذاً لما كان الاستواء غير لائق بالله لا بد أن ننفيه ونؤوله بغيره من صفة لائقة، فقال: إذاً معنى الاستواء: الاستيلاء. والعرب تطلق (استوى) ـ كما يزعم ـ وتريد (استولى) ويستدل ببيت الرجز المشهور[1]:

قد استوىٰ بِشْرٌ على العراقِ   من غيرِ سيفٍ ودمٍ مهْراقِ

يقول: «قد استوى بشر» معناه: قد استولى، وإذاً: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: آية ٢] ثم استولى على العرش. وهذا ـ أيها الإخوان ـ غلط فاحش، وإن قال به من قال به، واعتقده من اعتقده، إلا أن المسلم يجب عليه الإنصاف والنظر في آيات الله، ولا سيما في صفات خالق السماوات والأرض، فليحذر من التعصب. وأنا أوضح لكم هذا غاية الإيضاح: فنحن مثلاً لو قلنا لمن قال: استوى معناه: استولىٰ. و«قد استوىٰ بشر على العراق». قلنا له: أيها الإنسان أما تخاف الله؟!! أما تستحي من الله؟ في أي مسوِّغ من كتاب أو سنة، أو أي نقل أو عقل سوَّغت لنفسك أن تُشَبِّه استيلاء الله على عرشه ـ الذي زعمت ـ باستيلاء بشر بن مروان على العراق؟! هل يعقل في الدنيا تشبيه أخس وأنتن وأوضع من تشبيه استيلاء الله على عرشه باستيلاء بشر بن مروان على العراق؟! هذا أخسّ تشبيه عرفه التاريخ وأدناه/ وأسفهه وأسحقه، فمن أين ١٥/أ
سوّغت لنفسك تشبيه العرش بالعراق، وتشبيه الله ببشر بن مروان؟! ومن بشر بن مروان حتى تشبه استيلاء الله باستيلائه على العراق؟! وما هو العراق حتى تشبهه بالعرش؟! فأنت أعظم المشبهين نصيباً في التشبيه، وأكثرهم تشبيهاً، وهذا الباب الذي فتحت، فتحت فيه عن بحور من أنواع التشبيه لا سواحل لها؛ لأنك كنت مشبهاً استيلاء الله على عرشه ـ الذي زعمت ـ بكل مخلوق قهر مخلوقاً فغلبه فاستولى عليه، صرت تشبّه استيلاء الله باستيلاء كل مخلوق قهر مخلوقاً فغلبه فاستولى عليه!! وهذا تحته من بحور التشبيه بحور لا سواحل لها. وهذا لا ينبغي أيها الإخوان.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأنعام.

ولا شك أن هذا الذي حمل الاستواء على محمل غير لائق، ثم اضطره ذلك إلى أن نفى الاستواء، وجاء بدله بالاستيلاء، هو مضطر أن ينزه أحد اثنين: إما أن ينزه الاستواء الذي نص الله عليه أولاً، أو ينزه الاستيلاء الذي فسره به. فنقول: الاستيلاء الذي ذكرت استيلاء منزه عن استيلاء المخلوقين، وكيف ينزه عن استيلاء المخلوقين وأنت تسميه استيلاء بشر بن مروان على العراق؟ أليس بشر بن مروان من المخلوقين؟ واستيلاؤه من استيلاء المخلوقين؟ ولكن نحن نقول: هب أنك تقول: إنك لا بد أن تنزه أحدهما فهو الاستواء الذي نص الله عليه في كتابه، أو الاستيلاء الذي جئت به من قِبَل نفسك. ونحن تقول: أيهما أحق بالتنزيه؟ الاستواء الذي نص الله عليه في كتابه، وأنزل به ملكاً من فوق سبع سماوات قرآناً يُتلىٰ بكل حرف منه عشر حسنات، وهو قرآن يتلى، أهذا أحق بأن ينزه أم آلاستيلاء الذي جاء به قوم غير مستند لآية من كتاب الله، ولا حديث من سنة رسول الله، ولا لغة صحيحة معروفة من لغة العرب؟! الجواب: آلاستواء أحق بالتنزيه؛ لأنه كلام رب العالمين، وصفات رب العالمين أحق بالتنزيه كما بيناه في الأساس الأول في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] فعلينا ـ أيها الإخوان ـ أن لا نمشي مع من تكلم في آيات الصفات بما لا يليق بالله، وحَمَلَها على محامل غير طيبة وغير لائقة ثم نفاها على ذلك الأساس، كل هذا لا ينبغي لنا، والذي ينبغي لنا أن نجزم ونعتقد أن الوصف الذي مدح الله به نفسه أنه بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فهو في غاية التنزيه وغاية القداسة والكمال والجلال والتباعد عن شبه صفات الخلق، وعلى هذا الأساس الكريم نؤمن بتلك الصفة على أساس قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ هذا هو الذي ينبغي لنا، ومن مات منا عليه مات على طريق واضحة لا لبس فيها ولا إشكال. مات غير مشبِّه ربه بأحد، ولا بقلبه قذر من أنجاس التشبيه، ولا في قلبه تعطيل، ولا جحود بشيء من الصفات، ولا بليّة من البلايا.

فنحن في هذه السور الماضية في تفسير آي هذا القرآن ـ المرة الأولى والثانية التي نحن فيها ـ بالغنا في بيان هذا جداً، ومراراً نذكر مذاهب المتكلمين في الصفات، وما يسمون به كل صفة منها، وتقاسيمهم لها، ونبين أنها جميعها جاءت في كتاب الله موصوفاً بها الخلق من جهة، وموصوفاً بها الخالق من جهة، وأن صفة الخالق حق، وهي لائقة بالخالق، وصفة المخلوق حق، وهي لائقة بالمخلوق، وبين صفة الخالق والمخلوق من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق، كررنا هذا مراراً[1].

وسأضرب لكم منه بعض الأمثال الآن للتذكار والفائدة: لا يخفى عليكم أن من تقاسيم المتكلمين للصفات ـ في العلم المعروف بعلم الكلام ـ أنهم يقسمون الصفات إلى صفة معنى، وما يسمونه: صفة معنوية، وما يسمونه: صفة سلب، وما يسمونه: صفة جامعة، وما يسمونه: صفة فعل، كما هو معروف عندهم.

فمن صفات المعاني عندهم ـ وهي الصفات في اصطلاحهم الدالة على معاني وجودية قائمة بالذات زائدة على الذات، وهؤلاء الذين يؤولون الصفات ينكرون جميع المعاني الثابتة في كتاب الله وسنة رسوله إلا سبعاً منها ـ وهي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام. وينفون غيرها من المعاني الثابتة. وهذا غلط لا شك فيه؛ لأن جميع الصفات من باب واحد، فنحن أولًا نقول في صفات المعاني: إن الله وصف نفسه بالقدرة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: آية ١٤٨] ووصف بعض خلقه بالقدرة فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: آية ٣٤] ونحن نعلم أن الله في كتابه صادق في وصف نفسه بالقدرة، وصادق في وصف بعض خلقه بالقدرة، وأن لله قدرة حقيقية لائقة بكماله وجلاله، وللمخلوق أيضاً قدرة مناسبة لحاله وعجزه وافتقاره والفناء، وبين القدرة والقدرة من المنافاة كمثل ما بين الذات والذات، فنثبت قدرة الخالق لائقة بالخالق، منزهة عن مشابهة قدرة المخلوق، ونثبت قدرة

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٧) من سورة الأنعام.

المخلوق منحطّة لائقة بالمخلوق، منحطّة عن مشابهة قدرة الخالق.

ووصف (جل وعلا) نفسه بالسمع والبصر فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: آية ١] ووصف بعض خلقه بذلك فقال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: آية ٢٨] ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: آية ٢] ونحن - أيها الإخوان - لا نشك في أن الله صادق في كتابه أن الله سميع بصير، وأن بعض خلقه سميع بصير، إلا أنّا نعلم أن سمع الله وبصره لائقان بكماله وجلاله، منزهان عن مشابهة سمع المخلوق وبصره، وأن سمع المخلوق وبصره ثابتان له حقاً ثبوتاً لائقاً به، متقهقراً منحطّاً عن مشابهة صفة الخالق جل وعلا.

وقد وصف الله نفسه بالحياة فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: آية ٥٨] ووصف بعض خلقه بالحياة فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: آية ٣٠] ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم: آية ١٩] ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: آية ١٥] ونحن لا نشك أن الله صادق في وصفه نفسه بالحياة، وصادق في وصفه خلقه بكتابه بالحياة، ونعتقد أن لله حياة حقيقية لائقة بكماله وجلاله، منزهة عن مشابهة صفات المخلوقين، كما أن للمخلوقين حياة حقيقية لائقة بحالهم، متقهقرة منحطّة عن مشابهة صفة خالق السماوات والأرض (جل وعلا) كانحطاط ذواتهم عن ذاته (جل وعلا).

وقد وصف (جل وعلا) نفسه بالعلم فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: آية ٧٥] ووصف بعض خلقه بالعلم فقال: ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: آية ٥٣] ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: آية ٦٨] فنحن لا نشك أن الله صادق في وصفه - في كتابه - نفسه بالعلم، وصادق في وصفه بعض خلقه بالعلم، إلا أن صفة الله لائقة بالله، وصفة المخلوق مناسبة للمخلوق، وبينهما من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق كما لا يخفى.

وقد وصف (جل وعلا) نفسه بالكلام قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: آية ١٦٤] ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: آية ١٤٤] ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٦] ووصف بعض خلقه بالكلام فقال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف: آية ٥٤] ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [يس: آية ٦٥] إلى غير ذلك، ونحن نجزم بأن لله كلاماً حقاً لائقاً بكماله وجلاله، وللمخلوق كلام أيضاً مناسب لحاله، وبين هذا وهذا كما بين ذات الخالق وذات المخلوق كما لا يخفى. إلى غير هذا من صفات المعاني.

وكذلك ما يسمونه: (صفات السلوب) والسلبية عندهم هي ما يسمونه: القِدم، والبقاء، والمخالفة للخلق، والغنى المطلق الذي يعبرون عنه بالقيام بالنفس، والوحدانية. هذه هي صفات السلوب المعروفة عندهم. وقد جاء في القرآن وصف الخالق والمخلوق بها على نحو ما ذكرنا، فما يسمونه: القِدم والبقاء ويزعمون أن الله وصف بهما نفسه في قوله: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [الحديد: آية ٣] قد جاء وصف الله نفسه بهما، وهو أعني الأولية والآخرية حيث قال: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ ووصف المخلوقين بالأولية والآخرية قال: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٧﴾ [المرسلات: الآيتان ١٦، ١٧] ووصف الخلائق بالبقاء فقال: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ [النحل: آية ٩٦] فوصف ما عند الله من بعض مخلوقاته بأنه باق وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ٧٧﴾ [الصافات: آية ٧٧] ووصف بعض المخلوقين بالقِدَم في قوله: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يوسف: آية ٩٥] ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يس: آية ٣٩].

واعلموا أن جماعة من السلف أنكروا وصف الله بالقِدَم وقالوا: إنه من مبتدعات المتكلمين، ولا يجوز وصف الله بالقِدَم؛ لأن القِدَم في لغة العرب التي نزل بها القرآن هو تقادم زمن الشيء قديماً مع كونه مسبوقاً بعدم. وبعض العلماء خالف في هذا وقال: عُرف في الشرع إطلاق القِدم على ما يطلقه عليه المتكلمون؛ لأن القِدَم في اصطلاح المتكلمين هو عبارة عن كل

ما لا أول له بشرط أن يكون وجودياً، فالقِدَم عند المتكلمين أخف مما يسمونه (الأزل)؛ لأن الأزل في اصطلاحهم هو كل شيء لا أول له، سواء كان وجودياً كذات الله ـ جل وعلا ـ متصفة بصفات الكمال والجلال؛ لأن وجود ذاته الكريمة متصفة بصفاتها الكريمة لا أول له، فهي عندهم يُقال له: (أزلي) ويُقال له: (قديم) في اصطلاحهم، أما المعدوم فلا يقال له قديم عندهم، وإنما يُقال له: أزلي. فكل ما لا أول له من الأعدام فهو أزلي عندهم، ولا يُسمى قديماً كأعدام ما سوى الله، فنحن هؤلاء الموجودون هنا قبل أن نولد كنا معدومين، وعدمنا السابق لا أول له، فأعدامنا أزلية؛ لأنها لا أول لها، ولا نقول: إنها قديمة.

والأظهر أنه جاء ببعض الأحاديث عن النبي ﷺ ما يدل على أن إطلاق المتكلمين للقِدَم على ما لا أول له من الموجود أن له أصلًا، وأنه لا ينبغي أن يُنكر، وقد جاء في سنن أبي داود في دخول المسجد: «**أعوذ بالله العظيم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم**»[1] فأطلق اسم القِدَم على سلطان الله، ومعلوم أنه لا يريد بقِدم سلطان الله شيئاً سبقه عدم، فقد أخرج الحاكم في المستدرك في بعض الطرق التي يزعم أنها صحيحة أن القديم من أسمائه (جل وعلا)[2] والله (جل وعلا) أعلم[3].

---

(١) أبو داود في الصلاة، باب ما يقول الرجل عند دخوله المسجد. حديث رقم (٤٦٢)، (١٣٢/٢)، والبيهقي في الدعوات الكبير، حديث رقم (٦٨).

قال الحافظ في نتائج الأفكار (٢٨١/١): «حسن غريب، ورجاله موثقون، وهم رجال الصحيح إلا إسماعيل وعقبة» ا.هـ. وقال النووي في الأذكار ص٤٦: «حديث حسن، رواه أبو دواد بإسناد جيد» ا.هـ. وانظر: صحيح أبي داود ص٤٤١، صحيح الجامع (٤٥٩١).

(٢) وذلك في الزيادة على حديث الصحيحين: «إن لله تسعة وتسعين اسماً». وهي الزيادة المعروفة التي فيها ذكر الأسماء. وهي زيادة لا تصح، وقد أخرجها الحاكم من طريقين، وجاء اسم (القديم) في إحدى روايتي الحديث عنده. وعقَّب هذه الرواية بقوله: «وعبدالعزيز بن الحصين بن الترجمان ثقة وإن لم يخرجاه، وإنما جعلته شاهداً للحديث الأول» ا.هـ. (المستدرك ١٧/١). وسيأتي تخريجه عند تفسير الآية (١٨٠) من سورة الأعراف.

(٣) انظر: الفتاوى (٢٤٥/١)، لوامع الأنوار (٣٨/١)، (تعليق البابطين رحمه الله)، شرح الطحاوية ص٥٧ ـ ٥٨، كتاب مناهل العرفان دراسة وتقويم ص٢١٢، ٧٢٥.

فالحاصل أن جميع أنواع أقسام الصفات التي يذكرها المتكلمون جاء في القرآن وصف الخالق والمخلوق بها، والكل منهما حق، وهذا لائق بموصوفه، وهذا لائق بموصوفه، وبينهما من الفرق كما بينّا.

ومن أكبر ذلك: الصفات التي يسمونها: (الصفات الجامعة) التي تدل على العظمة واستلزامها لجميع الصفات، كالكِبَر، والعِظَم، والعلو، والملك، وما جرى مجرى ذلك، فقد وصف (جل وعلا) نفسه بأنه عَلِيّ عظيم قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥] ووصف بعض خلقه بالعلو فقال: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: آية ٥٧] ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: آية ٥٥] ووصف بعض خلقه بالعِظَم فقال: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: آية ٦٣] ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: آية ٤٠].

وصف نفسه بالمُلك فقال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ [الجمعة: آية ١] ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: آية ٢٣] وقد وصف [بعض خلقه][1] بالملك ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ﴾ [يوسف: آية ٥٤] ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: آية ٢٦] إلى غير ذلك من الآيات.

ووصف (جل وعلا) نفسه بالكِبَر فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: آية ٣٤] ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: آية ١٠] ووصف بعض خلقه بالكِبَر فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: آية ٧] ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٣١] ونحو ذلك من الآيات.

وكذلك الصفات التي هي من صفات المعاني على التحقيق، والمؤولون من الكلاميين يزعمون أنها من صفات الأفعال، وهي صفات معنى لا شك فيها، كالرأفة، والرحمة، وما جرى مجرى ذلك. فإن الله وصف بها نفسه قال: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: آية ٤٧] ووصف بها بعض خلقه فقال في صفة نبينا (صلوات الله وسلامه عليه): ﴿لَقَدْ

(١) في الأصل: «نفسه». وهو سبق لسان.

جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: آية ١٢٨].

وصف نفسه بالحلم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: آية ٥٩] ووصف بعض خلقه بالحلم ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: آية ١٠١] ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: آية ١١٤] ونحو ذلك من الآيات.

وكذلك صفات الأفعال وصف نفسه بها ووصف خلقه بها، وصف نفسه بأنه المعلّم قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ [الرحمن: الآيتان ١، ٢] ووصف مخلوقه بأنه يعلّم، وجمع الوصفين في قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: آية ٤].

ووصف نفسه بأنه المُنبىء قال: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: آية ٣].

ولو تتبعنا هذا لأطلنا فيه الكلام، فحاصل هذا أن جميع الصفات التي يذكرها علم الكلام جاء بالقرآن العظيم وصف الخالق بها ووصف المخلوق، فيجب علينا أن نتمشىٰ مع القرآن، ونسلك طريق الحق الواضح الذي لا تبعة فيه، ولا غرر فيه، ولا سخط من رب السماوات والأرض يستوجبه، فنضع كل شيء في موضعه، فنثبت للخالق صفته على وجه الكمال والجلال وغاية التنزيه عن مشابهة الخلق، ونثبت للمخلوق صفته على الوجه الملائم للمخلوق، المناسب للمخلوق، المتواضع المنحط المتسافل عن صفة الخالق (جل وعلا)، ونعلم أن كلّا حقّ في موضعه، وأنه لا مناسبة بين صفة الخالق والمخلوق حتى نشبهها بها، أما الذهاب بصفة الخالق إلى صفة المخلوق فهذا غلط لم يقله أحد من السلف الصالح، وهو غلط حدث من مقالات الكلام؛ لأنه لما دخل علم الكلام وصارت الناس تُحكم العقول، ولو كان كذا لكان كذا، وتُجري العقائد على الأقيسة المنطقية جاءت البلايا؛ لأن كلًا يظن صحة الربط بين هذا اللازم والملزوم فينتج منهما قضية، ويكون الربط بينهما منفكاً فيأتي الآخر ويبين انفكاك الربط بينهما، وصارت مقالات وطوائف كل منهما تكذّب الأخرىٰ، وتُقيم الدليل والبرهان العقلي في زعمها على أن الحق معها والغلط مع غيرها.

ونحن نقول: إن الفصل في كل شيء هو هذا المحكم المنزل، والنور الذي أنزله رب العالمين على لسان سيد الخلق ﷺ، فهو الذي يوضح الحقائق، ويكشف ظلمات الجهل، ويبين الحقيقة ناصعة واضحة على وجهها الأكمل، وقد بين لنا الطريق المثلىٰ، والمعتقد الصواب الذي لا شك فيه، وهو أنَّا ننزه ربنا عن مشابهة صفات الخلق، ونؤمن بماوصف به نفسه، ونصدقه على أساس ذلك التنزيه، ونقف عند حدنا، ونعرف قدرنا وقدر عقولنا، ولا نتجاوز حدنا. هذه طريق القرآن، وهي طريق مأمونة لا غائلة وراءها ولا عاقبة سيئة، وعلى هذا فقوله جل وعلا: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: آية ٩٩] نقول: هذه صفة مدح الله بها نفسه، وهذا الذي أثنى به على نفسه فهو لا شك أنه في غاية اللياقة والكمال والجلال، والسلامة من النقص والمباعدة عن مشابهة مكر المخلوقين وصفاتهم، فنثبته ونصدق الله بما وصف به نفسه منزهين ربنا غاية التنزيه، معترفين بالقصور والوقوف عند حدنا كما بين في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: آية ١١٠] وقد بينا أن بعض مكر المخلوقين ـ ولله المثل الأعلى ـ قد يكون في غاية الاستحسان عند الناس، كما بينا أنه لو كان الرجل في غاية الشر وعِظَم الأذية على العامة، يقتلُ هذا، ويسبي هذا، ويأخذ مال هذا، ويظلم هذا، والناس عاجزون عنه، حتى جاءه رجل عظيم معروف بالفضل والمروءة والخير واحتال عليه بطرق خفيّة حتى قدر على قتله وأراح المسلمين منه، فكل الناس يقولون: إن كيدك هذا لفي غاية الكمال، وفي غاية الحسن، وفي غاية اللياقة والقبول عند عقول المخلوقين. هذا في كيد مخلوق، فما ظنك ـ ولله المثل الأعلى ـ بخالق السماوات والأرض ـ جل وعلا ـ.

يقول الله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف: آية ١٠٠].

قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ قال جمهور علماء

التفسير: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ معناه: أولم يُبيِّن للذين؟ ف (هدى) تستعمل في معنى (بيّن) ومنها هذه كما رُوي عن غير واحد من علماء التفسير من الصحابة فمن بعدهم. فمن إطلاق (هدىٰ) بمعنىٰ (بيّن): قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: آية ١٧] أي: بيّنا لهم على لسان نبينا صالح. فهو هداية بيان لا هداية توفيق، بدليل قوله بعده: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ الآية. ومن إطلاق (هدىٰ) بمعنى البيان والإرشاد: قوله تعالى في الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: آية ٣] أي: بينّا له السبيل. وليست هداية توفيق، بدليل قوله بعده: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ وهذا معنى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٠] أَوَ لَم يُبَيِّن للذين ﴿يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ اعلموا أولاً أن هذه الآية الكريمة من الآيات التي تشكل على كثير من المنتسبين للعلم، ويتبين معناها ببيان إعرابها وإيضاح موضع الفاعل والمفعول منها، وفي ذلك ثلاثة أوجه معروفة لا يُكذب بعضها بعضاً[1]:

الأول: أن الفاعل لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ ضمير عائد إلى الله ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ هو، أي الله. أي: يبين هو، أي: الله ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ وعلى هذا فالمفعول في محل المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ والمعنى: ألم يبين لهم الله أنه لو شاء إصابتهم بذنوبهم لأصابهم بها - وكون الفاعل هنا ضميراً يعود إلى الله تدل عليه قراءة بعض السلف: ﴿أَوَلَمْ نَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ﴾ بالنون[2]، فهي وإن كانت غير سبعية إلا أنها قرأ بها بعض السلف، وهي تفيد في التفسير. وعلى هذا المعنىٰ أن الله بين لهؤلاء الأمم الذين أورثهم الله في الأرض بعد أن أهلك أهلها، بيّن لهم بإهلاك الظالمين المكذبين للرسل واستخلافهم بعدهم، بيّن لهم بهذا إصابته لهم بذنوبهم لو شاء أن يصيبهم بها كما أصاب من قبلهم، وهذا وجه لا إشكال فيه.

---

(١) انظر: الدر المصون (٣٩٣/٥).
(٢) انظر: البحر المحيط (٣٤٩/٤، ٣٥٠)، الدر المصون (٣٩٣/٥).

الوجه الثاني: أن الفاعل في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ ضمير عائد على ما كان يُذكر من قصص الأمم الماضية، والمعنى: ألم يبين قصص الأمم الماضية من إهلاك الله لها لما كذبت رسلها ألم يبين ذلك للذين يرثون الأرض أن الله قادر على إهلاكهم بذنوبهم كما أهلك من كان قبلهم لما كفروا وكذبوا رسله؟ وعلى هذين الوجهين فالمصدر المنسبك من (أن) المخففة من الثقيلة وصلتها في محل نصب على المفعول به.

الوجه الثالث: أن مفعول (يهد) محذوف، وفاعلها هو المصدر المنسبك من (أن) وصلتها، والمعنى: أولم يبين للذين يرثون الأرض إصابتُنا الأمم الماضية وإهلاكنا إياهم ألم يبين لهم ذلك أنَّا لو شئنا لأهلكناهم؟ أولم يبين لهم ذلك وخامة عاقبة أمر من عصى الله؟

وهذا هو حاصل معنى كلام العلماء في هذه الآية، يدور على أن الله (جل وعلا) أهلك الأمم الماضية التي كذبت الرسل كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وبيّن أن ذلك يدل على أن من أهلكهم بذنوبهم لو شاء لأهلك من جاء بعدهم بذنوبهم كما أهلك الأولين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: الآيات ١٦ ـ ١٨] وهذا معنى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٠٠] معنى: ﴿يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ يخلفون أهلها الذين هلكوا ويسكنون أرضهم بعدهم؛ لأن هؤلاء الجيل يبيدهم الله فيموتوا فيسكن مواطنهم قوم آخرون، فذلك معنى إيراثهم الأرض بعدهم. فالإرث هنا معناه: انتقال شيء كان عند أحد إلى أحد آخر، ولو لم يكن على سبيل الإرث المعروف؛ لأن العرب تطلق في لغتها الإرث على مجرد الانتقال من ميت إلى حيّ كما هو معروف. وهذا معنى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٠٠] أي: الذين كانوا يسكنونها ودمرهم الله.

﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ﴾ (أن) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن كما هو معروف في محله، وخبرها جملة: ﴿لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أنه أي: الأمر والشأن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم.

اعلموا أن المقرر في علوم العربية أن فعل المشيئة إن اقترن بأداة الشرط فإن مفعوله يُحذف لدلالة جزاء الشرط عليه، وتقدير المفعول المحذوف هنا: أن لو نشاء إصابتهم بذنوبهم أصبناهم بذنوبهم. فحذف المفعول لدلالة جزاء الشرط عليه، وربما أُظهر نادراً كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: آية ١٧] الأغلب أن يُقال: لو أردنا لاتخذنا لهواً، ولكنه هنا ذكر مفعول الإرادة مع جزاء الشرط، وذلك يوجد في كلام العرب في بعض الحِكم، ومنه قول الشاعر[(١)]:

ولو شئتُ أن أبكي دماً لبكيتُه عليك ولكن ساحةُ الصبرِ أَوْسَعُ

هذا معنى قوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: آية ١٠٠].

قرأ هذا الحرف جماهير القراء غير نافع، وابن كثير، وأبي عمرو: ﴿لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ بتحقيق الهمزتين. وقرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: ﴿أن لو نشاءُ وَصَبْنَاهُم﴾ بإبدال الهمزة الثانية واواً[(٢)]، وهما قراءتان سبعيتان صحيحتان ولغتان معروفتان فصيحتان. وصيغة الجمع في قوله: ﴿نَشَآءُ﴾ وفي قوله: ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ كِلتاهما للتعظيم. وقوله: ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ أي: بالعذاب، أصبناهم بالعذاب والإهلاك بسبب ذنوبهم، والذنوب: جمع ذنب، والذنب معروف. أهلكناهم بسبب ذنوبهم ككفرهم ومعاصيهم، وهذا معنى قوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

وأقرب الأقوال وأصحها في قوله: ﴿وَنَطْبَعُ﴾ أنها جملة مستأنفة على التحقيق، أي: ونحن نطبع على قلوبهم. والطبع هنا على القلب معناه الختم عليه والاستيثاق منه حتى لا يصل إليه خير ولا يخرج منه شر، فمعنى (طَبْعُ الله على القلوب) أنه ـ والعياذ بالله ـ يختم على قلب المجرم ويطبع عليه بحيث لا يخرج منه شر ولا يدخل إليه خير، كالقارورة إذا ختمتها وطبعت عليها لا يخرج شيء مما فيها، ولا يصل إليها شيء آخر.

---

(١) البيت لأبي يعقوب الخزيمي، مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأنعام.
(٢) انظر: إتحاف فضلاء البشر (٢/٥٥).

وهذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن تصحح عقيدة من عقائد السلف المشهورة التي وقع فيها القيل والقال والخلط الكثير، وذلك لا يخفاكم - أيها الإخوان - أن هذه المسألة التي هي مسألة (الجبر والاختيار والكسب) أنها هي أصعب مسألة في دين الإسلام، وأعقد تخلصاً على العوام؛ لأن الناس انقسمت فيها إلى ثلاث طوائف: طائفة ضلّت في الإفراط، وطائفة ضلت في التفريط، وطائفة خرج من هضمها حقاً صافياً كاللبن يخرج من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين. وهو أفعال العبد؛ لأن أفعال العبد، وقدرة العبد، وإرادته، هي أصعب شبهة وقعت في دين الإسلام وأعسرها تخلصاً. ونحن في بعض المرات نهاب أن نثيرها لئلا يقع منها شيء في قلوب بعض الناس الذين لا يعرفون، فيعسر عليهم التخلص منه، وتارة نستعين بالله ونذكرها ونبينها ليرزق الله الهدى في ذلك وتستنير قلوب من وفقه الله.

اعلموا أولًا أن من يَتَسَمَّون باسم المسلمين من طوائفهم التي هي على الحق والباطل انقسمت في كسب العبد إلى ثلاثة أقسام: فطائفة قالت: إن العبد يخلق أعمال نفسه بلا تأثير لقدرة الله فيها - والعياذ بالله - كالمعتزلة. وهذا المذهب ينصره محمود الزمخشري في تفسيره دائماً، يزعم أن الله لا يريد الشر ولا يخلق الشر، وأن الله أنزه من أن يريد الشر، وأن الشر بمشيئة العبد وإرادته وقدرته من غير تأثير لقدرة الله فيه. وهذا - والعياذ بالله - مذهب باطل باطل، صاحبه يريد أن يسلب الله قدرته - سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً - وهذه الطائفة ضلت في التفريط؛ لأنهم فرطوا في قدرة الله حتى زعموا أنه تقع في ملكه أفعال العبيد من غير قدرته ولا مشيئته!! وهذا تفريط في صفات الخالق (جل وعلا)، فإنه (جل وعلا) لا يمكن أن يقع في خلقه تحريكة ولا تسكينة ولا طرفة عين إلا بمشيئته وإرادته (جل وعلا) وله الحكمة البالغة في كل ما يشاء. وهذا المذهب الذي يقول: إن العبد يخلُق أعمال نفسه بلا تأثير لقدرة الله فيها هو الذي ردّت عليه هذه الآية الكريمة الرد الواضح كما ترون؛ لأن الله إذا بيّن أنه هو الذي طبع على قلبه فمنعه من سماع الحق لحكمة كيف يقول الإنسان إن ذلك

الشر لم يقع بمشيئته (جل وعلا) فهذه الآية وأمثالها تردّ رداً صريحاً على مذهب المعتزلة أقوى رد وأعظمه، فهم ينتحلون شُبهاً وتأويلات كل عاقل يعرف أنها باطلة.

المذهب الثاني: هو مذهب الجبرية، وهؤلاء ضلّوا بالإفراط حيث زعموا أن العبد لا تأثير له ولا فعل له، وأن هذا كله فعل الله، وأن الله لا يعذب العبد بذنب؛ لأن الله هو الذي شاءه وقدّره عليه، وهذا من أخطر الباطل كما ترون.

المذهب الثالث الذي هو الحق: مذهب المسلمين وسلف هذه الأمة وجماعتها: أن العبد خَلَقَ الله له قدرة وإرادة، وله مشيئة وفعل يختار ويفعل ويقدر، إلا أن قدرة الله وإرادته تصرفان قدرة العبد وإرادته إلى ما سبق به العلم الأزلي فيأتيه طائعاً مختاراً.

وهنا سنّة سنتكلم عليها لعل الله ينفع بها، فلنضرب مثلًا: مناظرة للجبريّ ومناظرة للقدري:

أما مناظرة الجبري فانقطاعه فيها قريب، وهي واضحة؛ لأن الجبري لو قال: أنا لا فعل لي، وهذا فعل الله، وأنا لا أوخذ بشيء من ذلك؛ لأن الله فعل هذا ولا ذنب لي. فإنك لو فقأت عينه، أو ضربته ضرباً مؤلماً، أو قتلت ولده لا يجعل لك القدر حجة، ولا يقول: هذا فعل الله وأنت بريء، لا وكلا، بل يسارع كل المسارعة في ضربك وقذفك والانتقام منك مصرحاً بأن هذا فعلك!! وانقطاعه قريب.

وأما المشكلة القوية فهي مشكلة المعتزلة الذين يزعمون أن العبد يخلق أعمال نفسه بلا تأثير لقدرة الله فيها. وسنبين لكم إن شاء الله الجواب عنها موضحاً من كتاب الله:

اعلموا أولًا أنّا لو فرضنا رجلًا يعتنق هذا المذهب ورجلًا من أهل السنة يتناظران، فقال معتنق هذا المذهب: إن كانت ذنوبي التي أُآخذ عليها بمشيئة الله، ولست مستقلًا بمشيئتي، فمن أي وجه هو يشاء الذنب فيعذبني أنا عليه؟ وأنا غير مستقل المشيئة، إذ لو كنت مستقل المشيئة لما فعلت إلا

ما يرضيه، وقد كتب على البعيد قبل وجوده أنه يرتكب هذا الكفر وهذا الذنب، ولا بد أن يرتكبه؛ لأن علم الله لا يتغير، وما سبق في علمه الأزلي لا بد أن يقع؛ لأن علمه لا يستحيل جهلًا. فيقول: إذا كان الله قدّر عليه - عياذاً بالله - أنه يكفره ويعصيه، ولا قدرة له على التخلص من قدر الله، فبأي ذنب يُؤخذ؟ وأي استقلال له في فعله حتى يؤخذ عليه؟! هذه حجته وأقصى شبهته.

فيقول له السُّنّي: جميع الأسباب التي أعطى الله للمهتدين الذين اهتدوا بسببها أعطاكها جميعها، إلا شيئاً واحداً هو الذي حصل به الفرق، لا حجة لك فيه ألبتة على ربك، فإن هؤلاء الذين اهتدوا، وأطاعوا الله، ودخلوا الجنة، جميع أسباب الهدى التي اهتدوا بها كما أعطاهم الله أعطاك، فالعيون التي أصابوا بها آيات الله، واستدلوا بها على قدرته وعظمته، وأنه الرب المعبود وحده أعطاك عينين مثلها، وكذلك القلوب التي عقلت عن الله، وأدركت وحي الله، وصارت سبباً للإيمان أعطاك مثلها، فجميع أنواع الأسباب التي أعطاها الله للمهتدين أعطاك مثلها. بقي هنالك شيء واحد هو الذي حصل به التفاوت لم يعطكه وهو تفضله بالتوفيق، فقد تفضّل على هؤلاء بالتوفيق، ولم يتفضل عليك بالتوفيق، فمن هنا حيث إنه تفضّل على هؤلاء ولم يتفضل عليك من هنا حصل الفرق بينكما، وتفضله ليس واجباً لك عليه حتى تحتج به عليه. ويوضحه بعض المناظرات، فإن المناظرة المشهورة التي دارت بين أبي إسحاق الإسفراييني وعبدالجبار من كبار المعتزلة توضّح هذا المعنى، وقد بينّاها في هذه الدروس مراراً[(١)]، وذلك أن المعتزلي الكبير المشهور عبدالجبار جاء يتقرب بهذا المذهب الباطل، وناظره أبو إسحاق الإسفراييني وقطعه في جمع بهذه الحجة التي أصلها القرآن كما سنبينه، فجاء عبدالجبار وقال: سبحان من تنزّه عن الفحشاء. يعني أنه تنزه عن أن تكون السرقة والزنى بمشيئته، فيزعم أن الله أنزه وأجل وأعظم من أن تكون السرقة والزنى والضلالة بمشيئته، وقال في هذا: سبحان من تنزّه عن الفحشاء.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

١٥/ب فقال أبو إسحاق: كلمة حق أُريد بها باطل، ثم قال/: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال عبدالجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه؟.

فقال أبو إسحاق: أتراك تفعله جبراً عليه؟ أأنت الرب وهو العبد؟.

فقال عبدالجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدىٰ، وقضىٰ عليّ بالردى، دعاني وسدّ الباب دوني، أتراه أحسن إليّ أم أساء؟!.

فقال أبو إسحاق: أرىٰ أن هذا الذي منعك إن كان حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء، وإن كان ملكه المحض فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل، فبُهت عبدالجبار!! وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب[١].

وهذا الجواب الذي أجاب به أبو إسحاق هو مضمون قوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: آية ١٤٩] حجته البالغة على خلقه هي تفضله بالهدىٰ، فمن شاء أن يتفضل عليه بالهدىٰ فهو فضل منه، ومن لم يتفضل عليه فما ظلمه، وقد أنصفه من جميع النواحي، ومن أعطىٰ فضله ففضل، ومن منعه فعدل كما ذكرنا.

ومما يوضح هذا ما يذكرون عن عمرو بن عبيد[٢] ـ وهو من كبار المعتزلة المشهورين المعروفين بالعبادة والنسك ـ أنه جاءه بدوي وقال له: يا شيخ ادعُ الله أن يردَّ عليّ دابتي، سرقوها. فقام عمرو بن عبيد يتقرب بهذا المذهب الباطل، وقال: اللهم إنها سُرقت ولم تُرد سرقتها؛ لأنك أكرم وأنزه وأجلّ من أن تريد هذه القذرة القبيحة. فالبدوي أعرابي جاهل، قال له: ناشدتك الله يا هذا إلا ما كففت عني من دُعائك الخبيث، إن كانت سُرقت ولم يُرد سرقتها، فقد يُريد ردّها ولا تُرد، فربٌّ يقع في ملكه ما لا يشاء لا ثقة لي به. فألقمه حجرا!!

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

والتحقيق في هذا المعنىٰ أن الله خلق للعباد قُدراً وإرادات يقدرون بها ويريدون، والله (جل وعلا) أقام عليهم الحجة من جميع الوجوه، فتفضّل على بعضهم بالتوفيق، ولم يتفضّل على بعضهم، وتفضُّله فضل منه، وعدم تفضّله بملكه المحض عدل منه، فهو (جل وعلا) يصدُر منه إما فضل وإما عدل، وليس هنالك ظلم لأحد. أما المخلوقون فلا شك أن لهم قُدراً وإرادات، وعامّة العقلاء يطبقون علىٰ أن هنالك فرقاً بين حركة اليد الاختيارية والحركة الارتعاشية كحركة [المحموم][1] كما لا يخفىٰ على أحد، وأن الله خلق للعبد قدرة وإرادة، وأقدره بتلك القدرة والإرادة على فعل ما يشاء مما هو في مقدوره، إلا أن قدرة الله وإرادته تصرف قدرة العبد وإرادته إلى ما سبق به العلم الأزلي، فيأتيه العبد طائعاً في غاية الطوع، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: آية ٣٠] فصرح بأن للمخلوقين مشيئة، وأنهم لا يشاؤون إلا ما شاءه الله، والله (جل وعلا) قد علم في أزله ما تستحقه عبيده، فمنهم من هو أهل للخير وفقه للخير، ومنهم من هو أهل للشر وفّقه للشر، كما قال ﷺ لما سأله أصحابه عن هذه الشبهة، قال: «**كل ميسر لما خُلق له**»[2]. والمعنى: أن الله خلقهم وأمرهم وسيوفق كلاً منهم إلى ما سبق له به العلم الأزلي في الكتاب.

وهذا كلام موجز عن قضية الكسب، فعلينا أن نعلم أن الله خلق لنا قُدراً وإرادات نؤاخذ بها، وأنّا نأتي الأفعال طائعين، ولنا قدرة مخلوقة وإرادة مخلوقة كلتاهما خلقها الله بقدرته وإرادته، فربنا يصرف إراداتنا ومشيئاتنا وقُدرنا إلى ما سبق به علمه الأزلي فنأتيه طائعين. نرجو الله (جل وعلا) أن يوفقنا إلىٰ ما يرضيه منّا، ولا يصرف قلوبنا إلا لما يرضيه. وهذا معنى قوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٠].

اعلموا أن السمع في القرآن وفي اللغة يُطلق إطلاقين: يُطلق السمع على ما سمعه الإنسان وسمعته أذنه فوعاه قلبه. ويُطلق السمع علىٰ القبول

---

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

والاستجابة، ومن إطلاق السمع على القبول والاستجابة: قوله في الصلاة: «سمع الله لمن حمده» أي: لمن أطاعه فاستجاب له. فالعرب تقول: سمعاً وطاعة. أي: إجابة وقبولًا. ومنه هذه الآية. فقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ السمع المنفي هنا هو سمع الطاعة والقبول. أي: إن الله إذا طبع على القلوب فالأسماع تسمع ولكن ذلك السمع لا ينشأ منه طاعة ولا قبول، والله (جل وعلا) بيّن أنه إذا وقع على القلوب مثل هذا الطبع وما جرىٰ مجراه أنهم لا يستطيعون أن يسمعُوا. ونفي الاستطاعة ذكره في آيات كقوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: آية ٢٠] فنفىٰ عنهم استطاعة السمع. وكقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: آية ١٠١] وقال (جل وعلا) في الفرقان: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: آية ٩] وهذه الاستطاعة نفيها إنما هو بحسب مشيئة الله من معاقبة الإنسان على ذنب، لأن هذه الآيات فيها سؤال معروف مشهور لطالب العلم أن يسأل عنه ويُجاب عنه، وهو أن يقول طالب العلم: إن الله في غاية الإنصاف والعدالة، فهو (جل وعلا) منصف عدل في غاية الإنصاف والعدالة؛ وفي هذه الآيات بيّن أنه طبع على قلب هذا الإنسان، قال في بعض الآيات: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: آية ٧] ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: آية ١٠٠] ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: آية ٥٧] ومن جُعل على قلبه الطبع والختم، وجُعل في عينه الغشاوة، وفي أذنه الوقر، فهذا في حكم العاجز، فعلىٰ هذا يكون في هذه الآيات شبهة للجبرية، فنحن نقول: إن القرآن العظيم بيّن أن هذا الطبع وهذا الختم والإزاغة النهائية عن الحق لا يأتي الإنسان إلا بسبب ذنب من ذنوبه، فهو جزاء وفاق على بعض الذنوب، وذلك ما دلت عليه آيات كثيرة أن الله (جل وعلا) يُسبب للإنسان الضلالة بسبب ارتكاب الذنوب كما يسبب له الهدىٰ بسبب الطاعات، فالعبد إذا سارع إلى الكفر، وتكذيب الرسل، وإلى ما يُسخط الله عاقبه الله بأن زاده ضلالاً فوق ضلاله، وظلاماً على ظلامه، وجاءه هذا الطبع بسبب كفره وبغيه وتمرده على الله. وقد بيّن (جل وعلا) هذا في

آيات كثيرة كقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: آية ١٥٥] (الباء) في قوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ سببية، فبيّن أن هذا الطبع بسبب كفرهم الذي سارعوا إليه، وكقوله جل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: آية ٣] وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: آية ٥] ما أزاغها بالطبع والختم حتىٰ بادروا إلى الذنوب والكفر فعاقبهم الله وجزاهم جزاء وفاقاً، وكقوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: آية ١٠] وكقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ١٢٤، ١٢٥] والآيات القرآنية كثيرة في هذا، ومن هنالك يُعلم أن الحسنات وطاعة الله أن الله يجعل ذلك سبباً لهدىٰ عبده، كما أن السيئات والمبادرة إلى ما لا يرضيه تكون سبباً للرّين علىٰ القلوب والطبع عليها كما قال: ﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: آية ١٤] وقال في الهدى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: آية ١٧] ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: آية ٦٩] وأمثال ذلك من الآيات.

قوله جل وعلا: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٠] قوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بيّن هنا أن موضع هذا الطبع القلوب، والقلوب: جمع القلب، وهو عضو من الإنسان معروف على هيئة شكل حب الصنوبر وهو معروف، وكون الطبع محله على القلوب يبين أن مركز العقل هو القلب كما أشرنا له مراراً(١)، وإنما بينّا هذا مراراً لئلا تبقى الناس مصدّقة للكفرة الملاحدة الإفرنج، مكذّبة لله ولرسوله، فالقرآن العظيم في عشرات الآيات، والسنة النبوية في أحاديث صحيحة كلها مطبقة على أن مركز العقل هو قلب الإنسان لا دماغه؛ لأن الله يقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: آية ٤٦] فصرح بأن العقل

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

والإدراك بالقلوب لا بالأدمغة، ثم قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦] ولو كان الإدراك ليس في القلب الذي في الصدر لما كان له عمى ولا إبصار، ولم يقل الله يوماً ما: ولكن تعمىٰ الأدمغة التي في الرؤوس. لم يقل هذا أبداً، وإنما قال: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ وقال جل وعلا: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ فبين أن الفِقه منفي عن محله الذي يفقه به وهو القلب، والآيات علىٰ هذا لا تكاد تحصيها في المصحف الكريم، أن العقل الذي به الإدراك محلّه في القلب، والآيات الدالة على هذا كثيرة، والأحاديث لا تكاد تحصيها، والنبي ﷺ قد قال: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله**» ثم فسرها صلوات الله وسلامه عليه قال: «**ألا وهي القلب**»[1]. ولم يقل: «ألا وهي الدماغ». هذا أمر معروف، ومعروف أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية طافحة بهذا. والغريب أنك ترى عامّة من ينسبون للإسلام يضربون بهذه النصوص الحائط، ويزعمون كلهم بأن مركز العقل الدماغ!! ونحن نعلم أن الله هو الذي خلق العقل، وهو الذي وضعه في محله، ولا شك أن من خلقه وأبرزه من العدم إلى الوجود، ووضعه في محله أنه أعلم بمحله من الملاحدة الذين يبرهنون على ما يزعمون بفلسفات قد لا تكون مبنية على مقدمات يقينية، ولا ينبغي للمسلم أن يضرب بالقرآن عرض الحائط. فالآيات القرآنية لا تكاد في المصحف تحصيها دالة علىٰ أن العقل في القلب؛ لأنه دائماً يذكر القلوب ويجعل الإثم مكانه القلب، والتقوى مكانه القلب فالله، يقول: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: آية ٢٨٣] [ولم يقل:][2] «إنه آثم دماغه» يوماً ما!! وقال جل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: آية ٣٢] ولم يقل: «من تقوى الأدمغة» يوماً ما. فالقرآن طافح بهذا بكثرة، والسنة النبوية طافحة بهذا بكثرة.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

أما الذين يقلدون ملاحدة الإفرنج فهم على نوعين: من جاء منهم بطريق لا تُكذب القرآن فما علينا منه، ومقالته لا نتعرض لها؛ لأن كل ما يصعب علينا هو ما يعارض نصوص السماء التي أنزلها خالق السماوات والأرض، فإذا جاء بما يخالفه مخالفة قطعيّة وجب علينا أن نرد عليه ونكذبه، وإن كان لم يكن هناك مخالفة فمن عنده دليل خاص فليبرزه، ومن ليس عنده فليسكت.

وهنا تجب مسألة: يجب على المسلمين أن يتحفظوا كل التحفظ من أن يُحَمِّلُوا القرآن ما لا يحتمله، فعلينا أن لا نقول: إن الله قال في كتابه هذا إلا بعد اليقين الجازم والتحري العظيم، خوفاً أن يكون ذلك الظاهر الذي نفهمه غير المراد فنقول على الله بغير حق، ويكون الحق عند غيرنا. هذا أمر يجب أن يُتحفظ منه. ولكن الآيات القرآنية الدالة على أن العقل في القلب لا تكاد تحصيها، وهو أمر قطعي لا نزاع فيه.

أما الذين قالوا من فلاسفة الملاحدة: إن مركز العقل مثلًا: القلب، ولكن نوره روحاني يمتد نوره فيتصل شعاعه بالدماغ؛ ولذا من قال إنه في الدماغ لم يكذب لاتصال أحد طرفيه به، من قال هذا وجاء بهذا فما علينا منه، وقد يمكن أن يكون صادقاً، ولم يأتِ بما يخالف نصوص ربنا، فلو قال هذا فهو أهون. أمّا الذي يقطع علاقة العقل بتاتاً بالقلب، ويقول: كله في الدماغ. فهذا الذي نقول له: كذاب، كذاب، كذاب؛ لأن الله يقول: إنه في القلب.

وهذه الفكرة أن شعاعه يتصل بالدماغ، وأنه بين هذا وهذا، فمن قال في القلب فقد صدق، كما جاء به الوحي، ومن قال في الدماغ بهذا الاعتبار فقد صدق لاتصال نوره به. من قال هذا فقوله أهون، والمسألة على قوله أسهل؛ لأنها لا تستلزم تكذيب الله.

ومعلوم أن البحث في العقل بحث فلسفي معروف، وأن الفلاسفة بحثوا في العقول أكثر من مائة نوع من البحوث مختلفة، ومنها بحثهم في محل مركزه، وقدماء الفلاسفة كانوا يستدلون على أن مركز العقل الدماغ، ويستدلون بما إذا نُظر في الاصطلاح إذا هو شرطيّ مركب من شرطية متصلة لزومية، يظنون أنها لزوميّة وهي اتفاقية!! وإيضاح ذلك: أنهم بحسب

الاستقراء والتتبع وجدوا كل ما يؤثر علىٰ الدماغ من جميع المؤثرات يضر بالعقل، وهذا أمر مُشاهد لا نزاع فيه؛ لأن كل ما يضرّ بالدماغ يؤثر على العقل. فزعموا من هنا أن مركزه الدماغ لتأثره بما يؤثر عليه، فقالوا: في الشرطية المتصلة المذكورة: لو لم يكن محله الدماغ لما تأثر بجميع المؤثرات علىٰ الدماغ، لكنه تأثر بها، ينتج: محله في الدماغ.

ومتأخروهم يزعمون أن عندهم آلات رصدوه بها حتى رأوا حركة الفكر أنها في الدماغ.

وعلى كل حال فهذه النظرات الفلسفية إنما يُنظر فيها إذا لم تخالف نصوص كتاب الله، ومقصودنا أن ننبهكم على أن لا تنجرفوا مع أقوال الكفرة، ضاربين بقول خالق السماوات والأرض الحائط، وأن لا تقبلوا إلا شيئاً يمكن ألا يكون مخالفاً لكتاب الله كما أشرنا إليه، وهذا معنى قوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٠].

ثم إن الله قال: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٠١] الإشارة في قوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة للقرىٰ، ومعلوم أن (القرىٰ) وما جرىٰ مجراها أنه يعامل معاملة المؤنثة المجازية التأنيث. والقرىٰ: جمع قرية على غير مثال. والقرىٰ المشار إليها هي ما تقدم ذكرها في آيات سورة الأعراف الماضية، كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب كما تقدم قصصهم مفصلاً[١].

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ بعضهم يقول: ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، و ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ خبره، و ﴿نَقُصُّ﴾ جملة حالية، كقوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: آية ٧٢] على أن (هذا) مبتدأ، و(بعلي) خبره، و (شيخا) حال، ولهم فيه غير ذلك[٢]. وبعضهم يقول: إن (تلك) مبتدأ و (القرىٰ) نعته. وهذا مبنيٌ على ما يقوله جماعة من النحويين أن أسماء الأجناس الجامدة

---

(١) انظر: الأضواء (٢/٣٢٨).

(٢) انظر: الدر المصون (٥/٣٩٧).

أنها ربما نُعِت بها ووُصِفَ بها، وبه قال جماعة من علماء النحو كما هو معروف في محله.

وقوله: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٠١] صيغة الجمع للتعظيم، ومعنىٰ: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا﴾ نتلوا عليك أخبارها في هذا الكتاب العظيم. والأنباء: جمع النبأ وهو الخبر، وقد قدمنا مراراً[1] أن النبأ أخص من الخبر، فكل نبأ خبر وليس كل خبر نبأ؛ لأن النبأ لا يطلق إلا على الخبر الخاص، وهو الخبر الذي له خطب وشأن، كما قلنا: إنك لا تقول: «جاءني اليوم نبأ عن حمار الحجام» لأن حمار الحجام لا خطب له ولا شأن، فلا يطلق فيه النبأ، وإنما يطلق فيه الخبر. وإنما كانت هذه الأنباء عن هذه القرىٰ أخبار لها خطب وشأن؛ لأنها دلت على كمال قدرة الله، وعلى صبر أنبيائه، وعلىٰ شدة بطشه وعدالته وإنصافه، وإهلاكه للظالمين، وأن فيها من التخويف للموجودين من عذاب الله وسخطه ما ينهاهم أن يقع منهم مثل ما وقع من الأولين؛ ولذا كان لها شأن وخطب؛ ولذا قال: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٠١].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ﴾ اللام موطئة لقسم محذوف، وقوله: ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ ضمير جماعة الذكور راجع إلى سكان القرىٰ المعبّر عنهم بقوله: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ فأنث في قوله: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا﴾ نظراً إلى لفظ القرىٰ، وذكّر في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ﴾ نظراً إلى سكانها.

وبعض العلماء يقول: القرىٰ تطلق إطلاقين: تطلق على الأبنية، كما تطلق على السكان. وعلى هذا فلا إشكال.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ﴾ قد قدمنا فيما مضى[2] أن البينات جمع بينة، وأن البينة هي الحجة القاطعة التي لا تترك في الحق لبساً، ومنه (البينات في الشهادات)؛ لأنها شهادات قوم عدول لا تترك في الحق لبساً، فالبينات: الحجج الواضحة البينة التي لا تترك في الحق لبساً. ومعنىٰ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(البينات) هنا على التحقيق: المعجزات؛ لأن الله ما أرسل نبياً قط إلا ومعه معجزة تُقارب التحدي، يعجز عنها الخلق، فتثبت بها نبوته؛ لأن إثبات الله للمعجزات للرسل هي بمثابة قوله لهم: أنتم صادقون في خبركم عني. فهي تصديق من الله لهم؛ لأنه ما خرق لهم العادة وقت التحدي وجاء بهذا العلم الخارق الذي لا يقدر عليه غيره إلا ومعناه عنده: أنت صادق يا عبدي فيما تنقل عني. فهو تصديق من الله؛ ولذا سُمي معجزة؛ لأن المعجزة فعل خارق يحصل عند التحدي لا يقدر عليه البشر[١].

وقد ذكرنا فيما مضىٰ في الكلام على قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ [الأعراف: آية ١٠١] تصريف هذه الكلمة، وما جاء من أمثلتها في القرآن ببعض أمثلتها[٢]، وكان ذلك الذي ذكرنا هنالك سقط منه قسم نسياناً، وكنا نتحرىٰ إن جاءت لها مناسبة أخرىٰ أن نبيّن القسم الذي سقط من كلامنا سهواً لئلا يضيع على بعض طلبة العلم الذين يسمعون هذه الدروس. ذكرنا فيما مضى أن (البينة) أنها صفة مشبهة من (بان يبين) فهو (بيّن) والأنثى (بينة) بمعنى: وضح. وأنها المعجزة الواضحة، وأن النبي ﷺ صرح في الحديث الصحيح أن الله ما أرسل رسولاً إلا أتاه بمعجزة كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**ما من نبي من الأنبياء إلا أُوتي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»[٣]. هذا حديث صحيح صرح فيه النبي ﷺ أن الله ما بعث نبياً قط إلا أعطاه ما آمن عليه البشر، أي: معجزة تفحم الناس وتلزمهم الحق كما هو واضح.

وقد ذكرنا فيما مضى[٤] أن البينة جاء من تصاريفها في القرآن ولغة العرب أربعة تصاريف، واحد منها مجرد، وثلاثة مزيدة ـ وهذا محل النسيان

---

(١) في هذا الموضوع راجع: كتاب مناهل العرفان للزرقاني دراسة وتقويم (١/٢٩٢ ـ ٣١٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

ـ لأنها جاءت على خمسة أنواع، أربعة منها مزيدة وواحد مجرد، ومن هنا وقع الغلط، وكنا نريد إذا جئنا بمناسبة كهذه أن نتدارك النسيان السابق لنبين القسم الذي سقط. اعلموا أولًا: أن هذه المادة أعني مادة (الباء والياء والنون) (ب، ي، ن) جاء منها لفظ (بان) ثلاثياً مجرداً، ومنه هذه؛ لأن قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف: آية ١٠١] البينات: وزنه (فيعلات) وهو من (بان) الثلاثية بلا نزاع عند من يعرف فن الصرف معرفة معروفة، فـ(بان) الثلاثي المجرد دل عليه قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ﴾ ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأنعام: آية ١٥٧] لأنها (فَيْعِلَة) وهي من (بان) الثلاثية المجردة بلا نزاع عند من له إلمام بموازين الصرف وأصوله. هذا الوجه المجرد، وهذا لازم في القرآن، وفي اللغة العربية، ولم يُسمع متعدياً بقية الأوزان الأربعة المزيدة التي تُستعمل لازمة ومتعدية. ذكرنا فيما مضى منها ثلاثة، وهي: (أبان) بزيادة الهمزة على وزن (أفعل) ومن هذه المادة قوله في جميع القرآن: ﴿وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ [الدخان: آية ٢] ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: آية ١] لأن المبين هو الوصف من (أبان) الرباعية بالهمزة بلا نزاع عند من له إلمام بالفن.

[وقد قدمنا الكلام على هذه المسألة][(١)] فقد بينا[(٢)] أن (أبان) بالهمزة تكون متعدية وتكون لازمة، وذكرنا شواهد ذلك، وقلنا: إن من إتيانها متعدية: أبان حجته، وأبان للناس ما كان يخفى عنهم، وأنها تأتي لازمة، ومنه: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: البين الواضح، ومنه لازماً قول كعب بن زهير[(٣)]:

قَنْواء في حُرتيها للبصيرِ بها ... عِتْقٌ مبينٌ وفي الخَدين تَسْهيلُ

وقد بينا هذا فيما مضى.

الثاني من الأوزان المزيدة: (بيّن) بالتشديد على وزن (فعّل) بتضعيف العين، وهذه في القرآن كثيرة كما قال: ﴿نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَٰتِ﴾ [المائدة: آية

(١) في هذا الموضع كلام غير واضح. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

٧٥] وهي كثيرة في القرآن العظيم، وهي تأتي في كلام العرب أيضاً متعدية ولازمة، وذكرنا شواهدها لازمة كما في مثل: (قد بيَّنَ الصبحُ لذي عينين)[١] إلى آخر ما ذكرنا من شواهدها.

الثالث: (استبان) على وزن (استفعل) وقد ذكرنا أنها تأتي متعدية أيضاً ولازمة، وأن تعديها ولزومها جاء مثالهما في القراءتين في قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: آية ٥٥] لأنه فيه قراءتان سبعيتان[٢] ﴿ولتستبين سبيلَ المجرمينِ﴾ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فعلى قراءة: ﴿سَبِيلُ﴾ بالرفع، ف (تستبين) لازمة معناه: تظهر وتتضح، وعلى قراءة: ﴿سبيلَ المجرمين﴾ ف (تستبين) متعدية للمفعول، تستبين أنت يا نبي الله ﴿سبيلَ المجرمين﴾ أي: تعلمها وتعرفها حتى تتضح لك، هذه الأوزان التي ذكرنا، والذي نسيناه في ذلك، وهو سبب الرجوع لهذا الكلام:

الوزن الرابع من المزيد وهو قوله: (تبيَّن) على وزن (تفعَّل) بزيادة التضعيف والتاء، وهذا موجود في القرآن بكثرة، وفي كلام العرب، ومن أمثلته في القرآن: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: آية ١١٤] ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [الرعد: آية].

(وتبين) أيضاً بزيادة التاء مع التضعيف تأتي في لغة العرب لازمة ومتعدية، مثال إتيانها لازمة: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: آية ٤٥] ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ وقد سُمعت في كلام العرب متعدية، ومن سماعها متعدية قول الشاعر[٣]:

ولما تزايقا من الجزعِ والنأى ... مشرق ركب مصعداً عن مغرب
تبينتُ ألاَّ دارَ من بعدِ عالجٍ ... تُسرّ وألاَّ خُلَّة بعد زَينبِ

فالمصدر المنسبك في قوله: «أن لا دار» في محل المفعول لـ (تبين).

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٣) البيتان للبحتري، وهما في ديوانه ص(٨٨/١) وقد ذكر الشيخ (رحمه الله) البيت الأول بلفظ مغاير، لكن لما كانت بعض الكلمات غير واضحة بسبب ضعف التسجيل أثبته كما في الديوان.

فنحن نذكر هذه المناسبات لأننا نعلم أن القرآن العظيم هو مصدر العلوم، وله في كل علم بيان، فنتطرق الآية من وجوهها، وقصدنا انتفاع طلبة العلم؛ لأن القرآن أصل عظيم تُعرف به أصول التصريف والنحو وأصول الفقه والتاريخ والأحكام إلى غير ذلك من جميع النواحي، فنحن جرت عادتنا بأن نتطرق الآية من جميع نواحيها بحسب الطاقة لينتفع كل بحسبه.

١٦/أ / يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٠١ ـ ١٠٥] اللام موطئة لقسم محذوف، والله لقد جاءتهم. والضمير في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ﴾ عائد إلى الأمم المذكورة في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ والله لقد جاءت تلك القرى التي قصصنا عليك من أنبائها رسلهم بالبينات، فجاء نوح قوم نوح، وهود عاداً، وصالح ثمود، وقوم لوط لوط، وقوم شعيب شعيب. هذه الرسل جاءت هذه الأمم. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والله ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ [الأعراف: آية ١٠١] من عندنا، أي: من عند خالقهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالأدلة الواضحة، وهي المعجزات؛ لأن الله ما أرسل نبياً قط إلا ومعه معجزة تثبت قوله وتقوم بها الحجة على من أُرسل إليهم.

وقوله: ﴿رُسُلُهُم﴾ الرسل[1] جمع رسول، والرسول هو من أُرسل بشيء إلى غيره، وأصل الرسول مصدر، وإتيان المصادر على (الفعُول) قليل، كالقبول والولوع والرسول، وإنما قلنا: إن أصل الرسول مصدر لأن ذلك يزول به بعض الإشكالات في القرآن؛ لأن الرسول أصله مصدر بمعنى الرسالة، ومنه قول الشاعر[2]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

لقد كذبَ الواشُونَ ما فُهتُ عندهم بقولٍ ولا أرْسَلتُهم برسولِ

أي: ما أرسلتهم برسالة، وإنما قلنا: إنه مصدر لأن كونه مصدراً يزيل بعض الإشكالات؛ لأن المصادر إذا وُصف بها ونُعت بها جاز إفرادها وتذكيرها من غير جمع؛ ولذلك جاز إفراد الرسول في حالة التثنية والجمع نظراً إلى أن أصله مصدر، ومن إفراده في التثنية: قوله تعالى في الشعراء: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: آية ١٦] وقد ثنَّاه في طه في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: آية ٤٧] فإفراده وهو تثنية نظراً إلى أن أصله مصدر، وتثنيته اعتباراً بوصفيته الطارئة وقطعاً للنظر عن مصدريته الأصلية، وسُمع في كلام العرب إطلاق الرسول على الجمع بلفظ المفرد، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[(١)]:

أَلِكْني إليها وخيرُ الرسولِ أعلمهم بنواحي الخَبَر

إذا علمت أن أصل الرسول مصدر، وأنه وُصف به، فإذا جُمع كقوله: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ أو ثُنّي كقوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: آية ٤٧] فذلك للاعتداد بالوصفية العارضة، وإذا أُفرد كقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: آية ٦١] فذلك نظراً إلى المصدرية الأصلية كما لا يخفىٰ.

قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات.

وقوله: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: آية ١٠١] هذه الآية الكريمة فيها أوجه عديدة من التفسير، معروفة عند علماء التفسير[(٢)]، لا يرجحون منها شيئاً، وأظهرها عندي واحد لدلالة القرينة القرآنية هنا عليه، وكثرة ما يدل عليه في القرآن، فمن هذه الأوجه المذكورة في تفسير هذه الآية: أن المعنى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ بعد الموت إذا بُعثوا وردوا ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ في دار الدنيا التي هي وقت الإيمان. وهذا الوجه قال به جماعة من العلماء، واستدلوا له بمطابقته لقوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] ومن أوجه

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ابن جرير (٧/١٣)، القرطبي (٧/٢٥٥)، الأضواء (٢/٣٢٨).

التفسير في هذه الآية: ما قاله بعض أهل العلم: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ بعد مجيء الرسل بالمعجزات ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ قبل مجيء الرسل بالمعجزات. واستأنس أهل هذا القول بقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: آية ٦].

وقال بعض العلماء: هي لقوم لم يؤمنوا طوعاً ليلة أخذ الميثاق التي سيأتي الكلام موضحاً عليها - إن شاء الله - في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: آية ١٧٢] على أحد الوجهين: أن الله أخرجهم من أصلاب آبائهم في صفة الذر، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، وأن بعضهم شهد كرهاً لا طوعاً، وهو بطوعه ليس بمؤمن، قالوا: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأعراف: آية ١٠١] بعد مجيء الرسل بما كذبت أرواحهم ليلة طلب الإيمان منهم كالذر. وهذا قال به جماعة من أهل العلم، ولا يخلو من بُعد، إلى غير ذلك من أوجه التفسير في الآية. والذي يظهر لنا صوابه لدلالة القرينة هنا عليه، والآيات القرآنية عليه: هو أن معنىٰ هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف هو الذي قدمناه موضحاً في سورة الأنعام، وإيضاح ذلك: أن الله إذا أرسل الرسل إلى خلقه قام المتنطعون الكفرة فبادروا إلى الكفر وتكذيب الرسل، والمبادرة إلىٰ ذلك التكذيب يكون ذنباً عظيماً يمنعهم الله بسببه أن يؤمنوا بعد ذلك، فيزيغ قلوبهم ويطبع عليها ويختم، ويبعدهم عن الخير نتيجة لمسارعتهم إلى ذلك الشر.

وإنما قلنا: إن هذا الوجه هو أظهر الأوجه لدلالة القرآن عليه لأمرين:

أحدهما: القرينة المقترنة به هنا، وهو أنه قال: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: لأن الله طبع على قلوبهم بسبب تكذيبهم السابق؛ ولذا قال بعده مقترناً به: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٠١] كذلك الطبع الذي منعهم من أن يؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك الطبع يطبع الله على قلوب الكافرين، وقد صرح (جل وعلا)

في آيات من كتابه أن هذا الطبع يقع بسبب كفر سابق كما قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: آية ٣] فبين أن الطبع بسبب كفر سبقه. وكذلك قال: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: آية ١٥٥] ومن أوضح ما يوضح هذا المعنىٰ آية الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٠] على أظهر التفسيرات، أي: نقلب أفئدتهم وأبصارهم بالطبع والختم والغشاوة عليها وإزاغتها عن الحق ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كما أنهم سارعوا إلى الكفر أول مرة عاقبناهم بعدم الهدىٰ ـ والعياذ بالله ـ كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: آية ٥] ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: آية ١٠] ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: آية ١٢٥] ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: آية ٨٢] ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: آية ٦٤] وهذا معنى قوله: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: آية ١٠١] أي: كذلك الطبع الذي طبع الله على قلوب هؤلاء الأمم الذين كذبوا رسلهم يطبع الله على قلوب الكافرين طبعاً مانعاً لهم من الإيمان لتكذيبهم السابق ومبادرتهم إلى الكفر والعياذ بالله.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: آية ١٠٢].

(ما): نافية. وصيغة الجمع في (وجدنا) للتعظيم، و (وجد) هنا علمية. والمعنى: ﴿مَا وَجَدْنَا﴾ ما علمنا. ومعلوم أن (وجد) في اللغة من أخوات (عَلِمْ) وهذا أظهر الأقول فيها هنا[1]. ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ أي: لأكثر الأمم السابقة. وقال بعض العلماء: لأكثر الخلق ما وجدنا لهم ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ (مِن) دخلت على المفعول به، فالأصل: ما وجدنا لهم عهداً. ولكن (من) إذا دخلت على النكرة في سياق النفي نقلتها من

(١) انظر: الدر المصون (٥/٤٠٠).

الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم[١].

والعهد: هو ما تجب المحافظة عليه والوفاء به. والأصل: ما وجدنا لأكثرهم عهداً.

ويُفهم من قوله: ﴿لِأَكْثَرِهِم﴾ أن هنالك عدداً قليلًا لهم عهد. وهذا هو ظاهر الآية؛ لأن الذين هم الأكثر لا عهد لهم.

ثم قال: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ (إن) هذه وهذه (اللام) فيها خلاف معروف بين البصريين والكوفيين، المذهب المشهور عند علماء العربية وهو مذهب البصريين أن (إن) مخففة من الثقيلة، وأنها مهملة، وأن (اللام) فارقة بين (إن) المخففة من الثقيلة، وبين (إن) النافية، ولا يكاد هذا يوجد إلا مع الفعل الناسخ كما هنا؛ لأن (وجد) كـ (علم) وغيرها من أفعال القلوب.

ومذهب الكوفيين يقولون: إن (إن) نافية، و (اللام) بمعنى (إلا). وهو غريب. والمعنى عندهم: وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين.

والناس على ارتضاء مذهب البصريين دون مذهب الكوفيين في هذه[٢].

وقوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: آية ١٠٢] بيّن الله في هذه الآية الكريمة أن أكثر الناس لا عهد لهم ـ والعياذ بالله ـ لأن من لا عهد له لا خير فيه؛ لأن كل التكاليف عهود. ومن لا يفي بعهد لا يطيع الله في شيء، وقد جاءت آيات قرآنية كثيرة تبين أن أكثر الخلق لا خير فيهم كقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: آية ٥٩] ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: آية ١٠٠] ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: آية ١٠٣] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الشعراء: آية ٨] ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات: آية ٧١] إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المصدر السابق (٥/٣٩٩ ـ ٤٠٠).

وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أن نصيب الجنة من الألف واحد، وأن نصيب النار من الألف تسع وتسعون وتسعمائة. ولما شق ذلك على أصحابه ﷺ أخبرهم بكثرة الكفار، وأنه يمكن أن يكون من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد، وهذا يدل على أن أكثر الخلق ضُلال[1] ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ [الأنعام: آية ١١٦] وأهل الهدى قلة، وهذا قضاء الله وقدره في الجميع. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: آية ١٠٢].

هذه الآية فيها سؤال معروف: وهو أن يقال: إن أكثر الكفار لهم عهد، ولكن لا يوفون بهذا العهد، والعهد على قسمين: عهد مُوفى به، وعهد يُنقض، والمذموم هو العهد الذي يُنقض به، والممدوح هو الذي يُوفى به، فبعض العلماء يقول[2]: إن معنىٰ ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ أن الذي ينقض العهد تقول العرب: لا عهد له. فالذي لا وفاء له كأنه لا عهد له؛ ولذا قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ وهذا لا يتعين، وقد يظهر للناظر في الآية أن فيها حذف الصفة، وهو في نظري أقرب مما يذكرون، أن فيها حذف الصفة؛ لأن حذف الصفة إذا دل المقام عليها أسلوب معروف واضح في القرآن العظيم وفي غيره لا لبس فيه. وعلى هذا فالمعنى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: آية ١٠٢] . أي: ما وجدنا لهم من عهد مُوفىٰ به. أي: ما وجدنا لهم من عهد يحصل فيه الوفاء خاصة. أما العهد المنقوض فقد يُوجد لكل من الفجرة. وهذا الوجه ظاهر لا خفاء به، ونظيره في القرآن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: آية ٧٩] والمعنى: يأخذ كل سفينة صحيحة صالحة؛ لأنه لو كان يأخذ السفينة التي خُرقت لما كان خرق الخضر لتلك السفينة فيه فائدة؛ لأن الخضر صرح بأنه خرقها لِتَتَعَيَّب بذلك الخرق، ويكون ذلك سبباً لسلامتها من غصب ذلك الملك لها؛ ولذا قال: ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ وظاهره يعم

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: القرطبي (٧/٢٥٥).

المخروقة وغيرها، فالصفة محذوفة دلّ المقام عليها.

ونظيره قوله: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ [الإسراء: آية ٥٨] يعني: من قرية ظالمة، بدليل قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: آية ٥٩] وحذف النعت موجود في كلام العرب بكثرة، وإن قال ابن مالك في خلاصته: إنه يقل[١]. فهو كثير في كلام العرب. ومن أمثلته في كلامهم: قول المرقَّش الأكبر[٢]:

وَرُبَّ أسيلة الخدينِ بِكْرٍ مُهَفْهَفَةٍ لها فرعٌ وَجِيْدُ

فقول المرقش الأكبر: «لها فرع وجيد» يعني: لها فرع فاحم وجيد طويل. فحذف الصفة لدلالة المقام عليها. ومنه قول عبيد بن الأبرص الأسدي[٣]:

من قولُه قولٌ، ومن فَعْلُه فِعْلٌ، ومن نائِلُهُ نَائِلُ

يعني: من قوله قول فصل، ومن فعله فعل جميل، ومن نائله نائل جزل. فحذف النعوت لدلالة المقام عليها، ومن هذا القبيل قول الآخر[٤]:

أَكُلَّ امرىء تحسبينَ امْرَأً ونارٍ توقَّدُ بالليلِ ناراً

يعني: كل امرىءٍ تحسبينه امرأً طيباً له شأن، وكل نار تحسبينها ناراً. يعني: ناراً موقدةً للقِرىٰ. فحذف الأوصاف لدلالة المقام عليها كما هو معلوم في محله.

قوله: ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٢] (إن)

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧١) من سورة البقرة وهو قوله:

وما من المنعوت والنعت عُقل يجوز حذفه وفي النعت يقل

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) البيت لأبي داؤد الإيادي. وهو في الكتاب (١/٦٦)، شواهد الكشاف ص٤٧، الدر المصون (٥/٦٣٤).

مخففة من الثقيلة، والتقدير: وإنه، أي: الأمر والشأن وجدنا أكثر الناس لفاسقين. (اللام) هي الفارقة على التحقيق بين المخففة من الثقيلة والنافية، كما هو معروف في محله.

والفاسقون: جمع تصحيح للفاسق، والفسق في لغة العرب: الخروج، فكل من خرج عن الطريق فقد فسق، ومنه قول الراجز[(١)]:

يَهْوَيْنَ فِي نَجْدٍ وغَوْراً غائراً فَوَاسِقاً عن قَصْدِهَا جَوَائِراً

أي: خوارج عن قصدها الذي تمشي عليه. هذا أصل الفسق في لغة العرب[(٢)]، ومنه قولهم: فسقت الرطبة. أي: خرجت. وهو في اصطلاح الشرع: الخروج عن طاعة الله. كما قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: آية ٥٠] أي: خرج عن طاعة ربه والخروج عن طاعة الله قد يكون أعظم أنواع الخروج وهو الكفر، وقد يكون خروجاً دون خروج وهو المعاصي، ومن هنا أُطلق في القرآن الفسق على الكفر والمعاصي. فمن إطلاقه على الكفر قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: آية ٢٦] ومن إطلاقه على المعاصي دون الكفر: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: آية ٦] وهذا معنى قوله: ﴿وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٢].

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٠٣﴾ [الأعراف: آية ١٠٣].

معلوم أن (ثم) حرف عطف مع الترتيب والانفصال، و ﴿بَعَثۡنَا﴾ معناه: أرسلنا. وصيغة الجمع للتعظيم ﴿مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾ من بعدهم أي: من بعد الرسل المذكورين في هذه السورة، وهم: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، ﴿بَعَثۡنَا﴾ من بعد هؤلاء نبينا موسى، بعثناه ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وهي الآيات التسع والمعجزات التي جاء بها فرعونَ، كاليد البيضاء، والعصا الآتية في

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

هذه السورة، وبعض الآيات المذكورة في سورة الأعراف كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [الأعراف: آية ١٠٣] الملأ[١]: أشراف الجماعة من الذكور. و (فرعون) هو ملك مصر. يقولون: إن كل من مَلَكَ مصر يُسمى (فرعون) كما هو معروف من تسمية (كسرى) و (قيصر) لكل من مَلَك ذلك المحل المعروف، وبعض العلماء يقول: (فرعون) لفظ عربي من تفرعن الرجل إذا كان ذا مكر ودهاء، وعلى تقدير أن (فرعون) لفظ عربي فوزنه: (فِعْلَول) باللام لا (فِعْلَون) بالنون. وبعضهم يقول: هو اسم أعجمي. وهو الأظهر؛ لأنه لو كان عربياً لما مُنع من الصرف؛ لأن هذا الوزن إذا كان عربياً قد لا يُمنع من الصرف[٢]. وفرعون المذكور هنا هو ملك مصر الذي جاءه موسى وأُرسل إليه، وقصّ الله من خبره ما قص، والمؤرخون والمفسرون بعضهم يقول: اسمه: (طالوس). وبعضهم يقول اسمه: الوليد بن مصعب بن الريان كما هو معروف في تاريخه.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشراف جماعته ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأعراف: آية ١٠٣] أي: بمعجزاتنا التي جاء بها موسىٰ.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٣] أن المحققين من علماء العربية يقولون: إن أصل الآية (أَيَيَة) فوزنها (فَعَلَة) وفاؤها همزة، وعينها ولامها كلاهما ياء (أَيَيَة) وقد اجتمع فيها موجبا إعلال؛ لأن العين واللام كلتاهما ياء مفتوحة قبلها فتحة أصلية. فالإعلال تكرر مُوجبه هنا، وقد عُرف في فن الصرف أن الإعلال إذا تكرر موجبه يكون الإعلال غالباً في الأخير. وهنا خولف الأغلب، وصار الإعلال في الأول، فأُبدلت الياء الأولىٰ ألفاً، وصُححت الياء الثانية، وفيه أقوال غير هذا ولكن هذا أشهرها عندهم.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٠) من هذه السورة.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

والآية في لغة العرب: تطلق إطلاقين:

أحدهما: تطلق الآية ويراد بها العلامة. وهذا إطلاقها المشهور. تقول: آية كذا. أي: علامة كذا. وقد جاء في شعر نابغة ذبيان ـ وهو عربي جاهلي ـ تفسير الآية بالعلامة، وذلك في قوله[1]:

تـوهـمـتُ آيـاتٍ لـهـا فـعـرفْـتُـهـا لِـسِـتَّـةِ أعـوامٍ وذا الـعـام سـابـعُ

ثم فسر الآية بأنه يريد بها علامات الدار، وما تشخص من آثارها بقوله:

رمـاد كـكُـحْـلِ الـعـيـنِ لأيـاً أُبـيـنُـه ونُؤيٌ كـجِـذْمِ الحوضِ أثْـلَمُ خاشِعُ

الإطلاق الثاني: هو إطلاق الآية على الجماعة؛ لأن العرب تقول: جاء القوم بآيتهم. أي: بجماعتهم. ومنه قول برج بن مسهر الطائي أو غيره[2]:

خـرجـنـا مـن الـنـقـبـيـن لاحيَّ مثلِنَا بـآيـتـنـا نـزجـي الـلـقـاحَ الـمَـطَـافِلاَ

أي: بجماعتنا.

والآية هنا بمعنى العلامة؛ لأن المعجزات أفعال خارقة للعادة هي علامات واضحة قاطعة على أن الله مصدق لمن أعطاه إياها مقارنة للتحدي كما هو معروف[3].

وقوله: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ الباء في قوله: (بها) عدَّى به. و(ظلموا) فيه وجهان معروفان لعلماء التفسير[4]:

أحدهما: أن (ظلموا) معناه: كفروا. أي: فكفروا بها، وإذا كان (ظلموا) بمعنى: كفروا فلا إشكال في الباء، والظلم كثيراً ما يُطلق بمعنى

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠١) من سورة الأعراف.

(٤) انظر: القرطبي (٢٥٦/٧)، الدر المصون (٤٠٠/٥).

الكفر كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: آية ١٠٦] وعلى هذا فالظلم بمعنى الكفر، وتعديته بالباء واضحة، وبعض العلماء يقول: فظلموا بسببها، حصل منهم الظلم الكبير بسببها حيث كذبوا بها ولم تدلهم على الحق وعاندوا. وذلك الظلم قد بين (جل وعلا) أنهم أيقنوا أن الآيات حق، وأنهم ظلموا عدواناً منهم، كما قال في قوم فرعون لما علموا الحق من آيات موسىٰ في أول سورة النمل: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: آية ١٤] فقوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ في النمل يوضح قوله: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: بسببها، وقد قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: آية ١٠٢] أي: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ أي: دلالات قاطعة لا تترك في الحق لبساً، وهذا معنىٰ: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[1]: أن الظلم في لغة العرب، هو وضع الشيء في غير موضعه، فكل من وضع شيئاً في غير موضعه فقد ظلم، وأكبر أنواع وضع الشيء في غير موضعه: وضع العبادة في غير من خلق، ثم يليه: وضع الطاعة في الشيطان دون الله (جل وعلا)، والعرب كلُّ من وضع شيئاً في غير موضعه تقول له: ظَلَم. ومن هذا المعنىٰ قالوا للذي يضرب لبنه قبل أن يروب: إنه ظالم؛ لأن الضرب وقع في غير موضعه؛ لأنه يُضيع زُبده؛ ولذا كانوا يُسمّون الذي يضرب [لبنه][2] قبل أن يروب: ظالماً، ففي لُغز الحريري يقول: «هل يجوز أن يكون الحاكم ظالماً؟ قال: نعم إذا كان عالماً»[3]. فقوله: «ظالماً» يعني: يضرب لبنه قبل أن يروب، وهذا معنىٰ معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[4]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.
(٢) في الأصل: (زبده) وهو سبق لسان.
(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة الأنعام.
(٤) السابق.

وقائلةٍ ظلمتُ لكم سِقَائي وهل يخفى على العَكَدِ الظَّلِيمُ

وقول الآخر(١):

وصاحبِ صدقٍ لم تربني شَكَاتُه ظلمتُ وفي ظَلْمي له عامداً أَجْرُ

فهذا معروف في كلام العرب بكثرة، ومنه قيل لمن وضع شيئاً في غير موضعه: (ظالم)؛ ولذا سموا الحفر في الأرض التي ليست محلّا للحفر والماء سموها: (مظلومة)، ومنه قول نابغة ذبيان(٢):

إلا الأَوَارِيَّ لأياً ما أُبَيِّنُها والنُّؤيُ كالحوضِ بالمظْلُومةِ الجَلَدِ

وسمّوا تراب القبر: (ظليماً)؛ لأنه يُحفر وهو ليس محلّا للحفر أصلًا، ومنه قول الشاعر(٣):

فأَصْبَحَ في غَبْراءَ بعد إِشَاحةٍ من العيش مردودٍ عليها ظَلِيمُها

هذا معروف في كلام العرب، ولم يأت الظلم في القرآن إلّا بهذا المعنى، إلا في موضع واحد في سورة الكهف: الظلم منه بمعنى النقص، وهو قوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم﴾ [الكهف: آية ٣٣] يعني: ولم تنقص ﴿مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾.

إذا عرفتم هذا فكل من كفر بالله فقد وضع العبادة في غير موضعها، ومن عصى ربه وأطاع الشيطان فقد وضع الطاعة في غير موضعها، ووضع المعصية في غير موضعها، ومن هنا كان الظلم يُطلق على الكفر وعلى المعاصي، قد قدمنا إطلاق الظلم على الكفر آنفاً في قوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: آية ١٠٦] وقد يطلق الظلم على معصية الله ولو لم تكن كفراً

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: آية ٣٢] ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: آية ٣٦] لا تعصوا الله فيهن. هذا معنى قوله: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: بسببها.

﴿فَٱنظُرْ﴾ يا نبي الله ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٣] ماذا يؤول إليه أمر المفسدين من الوبال والدمار والخسار فإن جميع الأمم الماضية كانت عاقبة إفسادها عاقبة وخيمة جداً، فأهلك الله قوم نوح بالطوفان، وقوم هود بالريح العقيم، وقوم صالح بالصيحة، وقوم شعيب بالصيحة والرجفة والظّلة، وأهلك قوم موسىٰ ـ فرعون وقومه ـ بالغرق كما سيأتي إيضاحه، وهذا معنى قوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أهل الإفساد، وقد قدمنا أنهم الذين يحاولون أن يعملوا في الأرض بغير ما أنزل الله (جل وعلا) على رسله.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٠٤، ١٠٥] قرأ هذا الحرف جماهير القراء، منهم السبعة كلهم غير نافع: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وقرأه نافع وحده من السبعة: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ **حقيق عَلَيَّ أنْ لا أقول على الله إلا الحق**﴾[1]، وقراءة الجمهور فيها إشكال معروف سنُلم به الآن إن شاء الله[2].

معنى الآية: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ نبي الله موسىٰ يعلم أن فرعون ينكر رسالته كما بيّنه تعالى في الشعراء بقوله: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١١.

(٢) في توجيه هذه القراءات انظر: حجة القراءات ص٢٨٩، ابن جرير (١٣/١٣)، القرطبي (٢٥٦/٧)، البحر المحيط (٣٥٥/٤)، الدر المصون (٤٠١/٥).

[الشعراء: الآيتان ١٨، ١٩] من يقول فرعون عنه هذه الأوصاف لا يصدقه، وموسى يعلم ذلك. فأكد له في هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف أنه رسول حقيق الرسالة، ليست رسالته بكذب ولا بزعم باطل، أنها رسالة صحيحة حق لا شك فيها، وأنها كائنة من رب العالمين، وهذا معنى قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ﴾ ناداه باسمه ﴿إِنِّي رَسُولٞ﴾ رسالته مبدؤها ﴿مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (العالَمون) تشمل من في السماوات والأرض وما بينهما كما يأتي في الشعراء في قوله: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٢٣، ٢٤] ﴿إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (من) لابتداء الغاية.

﴿حَقِيقٌ﴾ أصل مادة (الحاء والقاف والقاف) في لغة العرب تدل على الثبوت وعدم الاضمحلال. معناه: إني رسول حقيق. أي: رسالتي لا شك فيها، وأني رسول ثابت في ديوان المرسلين، رسالتي حق لا شك فيها، وأني رسول مبدأ رسالته من رب العالمين.

أما على قراءة نافع فمعنىٰ الآية واضح.

ومعنى ﴿عَلَيَّ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يلزمني ويجب علي أن لا أقول على الله إلا الحق، فما أخبرتك يا فرعون إلا بالحق، وأني رسول من رب العالمين، ولو ربيتني وقتلتُ القبطي قتلة متقدمة، كل ذلك لا ينافي أني رسول، وأني صادق في مقالتي.

ومعنى: ﴿عَلَيَّ أَن لَّآ أَقُولَ﴾ يلزمني ويجب علي أن لا أقول على الله إلا الحق، فما قلت على الله إنه أرسلني إليك إلا وأنا قائل عليه بالحق لا كاذب عليه ولا متخرص، ومعنى قراءة نافع هذه واضح.

أما على قراءة الجمهور فمعنىٰ الآية الكريمة مشكل؛ لأن معنى ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ فهذا معناه لم يتبادر إلى الذهن. وللعلماء في تفسير هذه الآية أجوبة معروفة عن هذا الإشكال، أقربها عندي واحد دلت عليه القرينة القرآنية، ولا ينبغي العدول عنه ومع أنه أصوب الأقوال فيما يظهر يَقِلُ من يتطرقه من العلماء، فأكثر

أقوال المفسرين لا يذكرونه فيها، والظاهر أنه الصواب وإن قلَّ من يذكره منهم، وسنذكر الآن أقوال أهل العلم في الآية - على قراءة الجمهور - الكريمة: أن (على) بمعنىٰ (الباء)، وقالوا: إن حروف الجر يخلف بعضها بعضاً، قالوا: و (الباء) تأتي بمعنىٰ (على)، و (على) تأتي بمعنى (الباء). قالوا فمن إتيان الباء بمعنى (على): ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ أي: على كل صراط، كما زعموا. ومن إتيان (على) بمعنى (الباء) قالوا: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ﴾ أي: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أي: حقيق أي: جدير وخليق بأن لا أقول على الله إلا الحق. وهذا التفسير تشهد له قراءة أُبي بن كعب رضي الله عنه ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾[1] قرأها أُبيّ هكذا، وهي وإن كانت قراءة شاذة فإنها تفيد بالنسبة إلى التفسير. ومما لا ينافي هذا قراءة بعض الصحابة غير أُبي: ﴿**إني رسول من رب العالمين حقيق ألا أقول على الله إلا الحق**﴾. لأن هذه تحتمل تقدير الباء أيضاً. فهذا قول.

القول الثاني: هو ما زعمه بعضهم من أن قوله: ﴿حَقِيقٌ﴾ مُضمّن معنىٰ (حريص) على قراءة الجمهور، قالوا: ﴿**حقيق على أن لا أقول**﴾ [الأعراف: آية ١٠٥] أي: حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق، واستشهد لهذا التضمين صاحب الكشاف في كشافه[2] بالبيت الذي أنشده سيبويه في الكتاب[3]، قال: ومثله تضمين بيت الكتاب (هيجني) بمعنى: ذكّرني. والبيت الذي يعني هو البيت المشهور في كتاب سيبويه وهو قول الشاعر[4]:

إذا تَغَنَّى الحمامُ الوُرْقُ هَيَّجَنِي ولو تَسَلَّيْتُ عنها أُمَّ عَمَّارِ

---

(١) انظر: القرطبي (٢٥٦/٧)، البحر المحيط (٣٥٦/٤)، الدر المصون (٤٠٥/٥).
(٢) الكشاف (٨٠/٢).
(٣) الكتاب (٢٨٦/١).
(٤) البيت للنابغة، وهو في ديوانه ص٢١.

قالوا: (هَيَّجَنِي) معناه: ذكَّرني أم عمار ولو تسلَّيت عنها، وهذا القول من الأقوال التي لا تظهر، فلا يخلو عندي من بعُد، والله أعلم.

وقال بعض العلماء[١]: في الآية الكريمة قلب. وهذا القلب الذي يعنون هنا هو المعروف بالقلب العربي الذي فيه النزاع بين البلاغيين والنحويين كما هو معروف في محله. وهذا القلب أنكره جماعة من العلماء، وقال به جماعة. والحق أن هذا القلب العربي وإن أنكره البلاغيون وقالوا لا يجوز في العربية إلا إذا تضمن اعتباراً لطيفاً، وسراً من أسرار اللغة العربية، وبغير ذلك لا يجوز. والنحويون يجيزه أكثرهم أنه أسلوب عربي إذا دل المقام عليه، وهو موجود في القرآن، وكثير في كلام العرب كما سنُلم به الآن إن شاء الله.

واعلموا أن القلب يُطلق إطلاقين: يطلق في البديع، وهذا ليس من غرضنا؛ لأنه في فن البديع يسمىٰ نوع منه القلب، وهو أن يكون الكلام إذا جئته من آخره قرأته كما جئته من أوله، فيكون الكلام يُقرأ معكوساً كما يُقرأ مرتباً[٢]، كقوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر: آية ٣] وقوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ [الأنبياء: آية ٣٣] وقول الشاعر[٣]:

مَوَدَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَولٍ ... وَهَل كُلٌّ مودتُه تدومُ

فالآيتان والبيت تقرؤهما بالانعكاس كما تقرؤهما بالاطراد، وهذا ليس من غرضنا.

النوع الثاني: القلب الذي يُذكر في المعاني، وهو القلب الذي يكون فيه قلب الفاعل مفعولًا مثلًا. وهذا أسلوب عربي معروف إذا دل المقام عليه، وهو موجود في كلام العرب، وفي القرآن العظيم، ومن أمثلته في القرآن العظيم: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [القصص:

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٤٠١ ـ ٤٠٢).

(٢) انظر: التلخيص للقزويني ص٤٠٤.

(٣) البيت في المصدر السابق ص٤٠٤.

آية ٧٦] فالآية تقول: إن المفاتح تنوء بالعصبة، والمقصود القلب العربي؛ لأن العصبة من الرجال هي التي تنوء بالمفاتح، أي: تنهض بها بمشقة وجهد كما هو واضح، قال بعضهم: ومنه في القرآن: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ﴾ [القصص: آية ٦٦] قالوا: يعني: فعموا عن الأنباء؛ لأن الإنسان
١٦/ب هو الذي يعمى والأنباء لا تعمى، في أمثلة قرآنية. وهذا المعنى/ إن دلت عليه القرائن، كثير في كلام العرب، ومنه قول كعب بن زهير[(١)]:

.... وقد تَلَفَّعَ بالقُورِ العَسَاقِيل

لأن الكلام مقلوب؛ لأن (القُور) وهي الحجارة هي التي تتلفع. أي: تلتحف بالعساقيل، وهو السراب، فهو قال: إن السراب يلتحف بالعساقيل. والكلام مقلوب؛ لأن الحجارة هي التي تتلفع بالسراب، وهذا معنى قوله:

.... وقد تَلَفَّعَ بالقُورِ العَسَاقِيل

ومنه قول الآخر[(٢)]:

.... كما طَيَّنْتَ بالفِدَنِ السَّيَاعَا

يعني: كما طينت الفدن بالسياع. أي: طينت القصر بالطين. وهو معروف في كلام العرب بكثرة، ومنه قول الشاعر[(٣)]:

نزلت بخيلٍ لا هوادةَ بينها وتشقى الرماحُ بالضَّياطِرةِ الحُمر

---

(١) هذا هو الشطر الثاني من البيت، وشطره الأول هو قوله:
كأن أوب ذراعيها إذا عرقت ....
شرح قصيدة بانت سعاد للتبريزي ص٢٧.

(٢) البيت للقطامي، وهو في اللسان (مادة: سيع) (٢/٢٥٣)، الأمالي (٢/٢١١)، مغني اللبيب (٢/٢٠٠)، وصدره: «فلما أن جرى سِمَنٌ عليها».

(٣) البيت لخداش بن زهير، وهو في الدر المصون (٥/٤٠١)، شواهد الكشاف ص٤٦، والضياطرة: جمع ضيطار، وهو الضخم.

يعني: وتشقى الضياطرة بالرماح. وهذا النوع من القلب أنكره علماء البلاغة وقالوا: لا يجوز إلا بما تضمن اعتباراً وسراً لطيفاً كقلب التشبيه. فالتشبيه المقلوب يُقلب فيه المشبه مشبهاً به، والمشبه به مشبهاً. قالوا: إنما جاز هذا لنكتة، وهي إيهام أن الفرع أقوىٰ في وجه الشبه من الأصل كقوله[1]:

وبَــلَــدٍ مُــغْــبــرةٍ أرجــاؤُهُ كــأنَّ لــونَ أرضِــهِ سَــمَــاؤُه

والذين قالوا: في الآية قلب قالوا: المعنى: حقيق على أن لا أقول على الله، كأنه جعل نفسه حقيق على أن لا يقول على الله إلا الحق. والمراد: قلب الكلام. أي: يجب عليه، حقيق عليه هو ﴿أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ﴾ فكأنه جعله هو الحقيق على القول. والمقصود: أن القول هو الحقيق عليه أن لا يقوله إلا بالحق، وفي الكلام قلب كما ترىٰ، وهذا لا يلزم، وأنكره كثير من علماء العربية.

والوجه الذي يظهر أنه أصوب الأوجه ولا ينبغي العدول عنه وإن قلّ من تنبه إليه من علماء التفسير: هو إن معنى الآية الكريمة: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ حَقِيقٌ﴾ [الأعراف: الآيتان ١٠٤، ١٠٥] وأما قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ تتعلق بمعنى الرسالة المشار إليها في الرسول، أي: أُرسلت مشترطاً علي، أُرسلت ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ﴾ أي: أرسلني ربي على شرط ووتيرة معينة، وهي أن لا أقول عليه إلا الحق.

وقال بعض العلماء: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ﴾ تتعلق بقوله: ﴿رَسُولٌ﴾ ﴿إِنِّي رَسُولٌ﴾ أي: رسول ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ﴾.

وبعضهم يقول: هذا لا يجوز. والنحويون من البصريين يقولون: إن العامل إذا أخذ نعته ـ نُعت ووُصف ـ لا يعمل بعد ذلك. وعلى هذا

(١) البيت لرؤبة، وهو في شذور الذهب ص٣٢٠، مغني اللبيب (٢/٢٠٠).

لا يجوز إعمال (رسول) في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ﴾ لأنه نُعت بقوله: ﴿حَقِيقٌ﴾ ولكن الأصوب في هذا أن يُقدّر عامل من جنس الرسول، فيكون المعنى: إني رسول حقيق من رب العالمين أُرسلت. أي: أرسلني رب العالمين، أرسلني على أن لا أقول عليه كذباً، ولا أقول على الله إلا الحق، وهذا الوجه واضح لا إشكال فيه، ليس فيه تعسف ولا تكلف، فلا ينبغي العدول عنه إلى غيره وإن قل من انتبه إليه من علماء التفسير. وهذا معنى قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: آية ١٠٥].

الحق في لغة العرب: الثابت الذي ليس بزائل ولا بمضمحل، وعكسه الباطل. والمراد بالحق هنا: هو الشيء المطابق للحقيقة والصواب والواقع في نفس الأمر.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قد قدمنا أن البينة[١] هي الدليل الواضح الذي لا يترك بالحق لبساً.

﴿بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (من) لابتداء الغاية، والرب هو السيد الخالق المدبر الذي يدبر أمور الناس، وهو مُشْتَرك بين عشرة معان كما قدمنا[٢].

﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (إسرائيل) هو نبي الله يعقوب (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام)، ومعنى: (إسرائيل): عبدالله، و(إسرائيل): هو يعقوب، و(بني إسرائيل): أولاد يعقوب؛ لأنكم عرفتم في القرآن في قصة يوسف أنه لما أرسل إليهم وجاؤوه في آخر حياة يعقوب، واجتمعوا به في مصر، سكنوا بعد ذلك في مصر وتناسلوا، وحتى سلط الله عليهم فرعون وأهانهم الإهانة المشهورة المعروفة بالقرآن، وسيأتي بيانها في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأعراف ـ وكان الله (جل وعلا) سلط فرعون مصر على الإسرائيليين فكان يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم ويستعمل

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

الموجودين منهم بالخدمة الشاقة، وأنقذهم الله منه على يد موسىٰ بن عمران (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام). يزعم بعض المفسرين والمؤرخين أن بين مجيء يعقوب وأولاده ليوسف في مصر وبين مجيء موسىٰ من مدين ـ لينقذهم من فرعون ـ يزعمون أن بينهما أربعمائة سنة والله أعلم. ويزعمون أيضاً أن مجيء يعقوب وأولاده أنهم كانوا حول الثمانين، وأن خروج الإسرائيليين الآتي ذكره من مصر عند فلق البحر لهم وإغراق فرعون وقومه أنهم كانوا يزيدون على ستمائة ألف والله تعالى أعلم.

وهذا معنى قوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ معنى (أرسل معي بني إسرائيل) ارفع يدك عنهم، ولا تعذبهم، ولا تتعرض لهم بسوء، وخلّهم يذهبون معي إلى حيث يشاؤون. هذا معنى قوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٥].

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ [الأعراف: آية ١٠٦] في هذه السورة الكريمة لم يذكر عن فرعون أنه تعرض لموسى بكلام وإنما أجابه على طبق السؤال؛ لأن موسىٰ قال: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ورتب عليه بالفاء ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٥] قال فرعون مجاوباً على طبق السؤال: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ﴾ يعني إن كنت صادقاً في قولك: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فالبينة[1]: الدليل الذي لا يترك في الحق لبساً. والآية: العلامة على الصدق، وهي المعجزة كما ترى هنا. ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ يعني: إئتنا بها وبين لنا إن كنت من الصادقين ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ جزاء الشرط فيه محذوف دل عليه ما قبله، أي: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فأت بها. عند البصريين، ولا مانع عند الكوفيين من تقدم جزاء الشرط عليه فيكون قوله: ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾ جواب شرط ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهذا عند الكوفيين لا مانع منه.

---

(١) مضى قريباً.

(...)[١] تجيب بها إلا كلاماً لا نفي فيه، لا تكاد تجد (نعم) في كلام العرب إلا جواباً لكلام إثبات لا نفي فيه؛ لأن الكلام إذا كان فيه نفي كان جوابه بـ(بلى) لا بـ(نعم). فلو قلت لك: هل جاء زيد؟ أعندك ذا؟ تقول: نعم. ولو قلت لك: ألم يأت كذا؟! تقول لي: بلى ولا تقول: نعم. وإذا سُمع عن العرب إتيان (نعم) في كلام فيه نفي فإنه يُحفظ ولا يُقاس عليه؛ لأنه لا ينقاس، ولكنه سماع يُحفظ ولا يقاس عليه، وقد سُمع عن العرب إتيان (نعم) جواباً لسؤال مقترن بنفي. فالمحل إذْ ذاك بـ(بلى) لا بـ(نعم)، إلا أنهم جاؤوا بـ (نعم) سماعاً، ومنه قول الشاعر[٢]:

أَلَيْسَ اللَّيلُ يجمعُ أُمَّ عمروٍ ... وإيَّانَا فذاك بنا تَداني
نَعَم وتَرىٰ الهِلالَ كما أراهُ ... ويعلُوها النهارُ كما عَلاني

فالمحل هنا لـ(بلى) لا لـ(نعم)، ولكنه جاء بـ(نعم) هنا، وقد نص علماء العربية أنها لو سمعت عن العرب في مثل هذا حُفظ ولا ينقاس عليه[٣].

قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: ولكم عندي زيادة على الجُعل الذي تطلبون وهو كونكم من المقربين، أي: من أهل المكانة والوجاهة والجاه العظيم عندي، ذلك زيادة لكم على ما سألتم من الجعل. هذا معنى قوله: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف: آية ١١٤].

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، والكلام الآتي متعلق بالآية رقم (١١٤)، وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾...﴾.

(٢) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأعراف.

(٣) في الكلام على هذه المسألة راجع ما مضى عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأعراف.

﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١١٥ ـ ١٢٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١١٥، ١١٦].

بين (جل وعلا) في سورة طه أنه عند هذه المناظرة والمغالبة نصح [موسى][١] السحرة وقال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ وفي القراءة الأخرى[٢]: ﴿فَيَسْحَتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [طه: آية ٦١] ثم ذكر عن السحرة ما ذكر في قوله: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه: الآيات ٦٢ ـ ٦٤]. لما أجمعوا كيدهم وجاؤوا صفاً قالوا لموسى: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: آية ١١٥] (إما) هذه أداة تقسيم معروفة، والمصدر المنسبك من (أن) وصلتها في إعرابه للعلماء وجهان:

أحدهما: أنه في محل نصب بمفعول محذوف. والمعنى: إما أن تختار أن تلقي أولًا، أي: تختار إلقاءك قبلنا، وإما أن تختار كوننا من الملقين؟ ومفعول الإلقاء لم يذكر هنا إلا أنه ذكر في آيات أُخر، فإلقاء موسى مفعوله العصا، والمعنى: إما أن تلقي عصاك وإما أن نكون نحن الملقين حبالنا وعصينا؛ لأن الذي يلقيه هو: هو عصاه، والذي يلقونه: هو حبالهم وعصيهم كما قال هنا: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [الأعراف: آية ١١٧] فبين أن الذي يلقي هو عصاه، وذكره في طه والشعراء، وبين في سورة الشعراء أن الذي يُلقيه السحرة هو حبالهم

---

(١) في الأصل: (فرعون) وهو سبق لسان.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٩٥.

وعصيهم كما قال: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء: آية ٤٤] هذا معنىٰ قوله: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾.

الوجه الثاني: أن المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في محل رفع مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: إما إلقاؤك أولَ، وإما كوننا نلقي أولَ.

وقال بعض العلماء: هو خبر مبتدأ محذوف: إما الأمر إلقاؤنا، وإما الأمر إلقاؤك. والكل متقارب. وهذا معنى قوله: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾.

يقول جماعة من علماء التفسير هنا: إن هذا حُسن أدب من السحرة، تأدبوا مع موسىٰ هل يحب أن يكون هو أول من يلقي، أو يلقي هو الآخِر. وحتىٰ قال بعضهم[1]: لما تأدبوا مع نبي الله كان من حكمة الله أن تفضّل عليهم بالهدىٰ والإيمان. والتحقيق الذي يظهر: أن السحرة في ذلك الوقت كفرة فجرة قبل أن يهديهم الله، وأن هذا كأنه إظهار ثقتهم بأنفسهم وسحرهم واعتقادهم أنهم غالبون، يعنون: إن ألقيت قبلنا غلبناك، وإن ألقينا قبلك غلبناك، فإن شئت فتقدم، وإن شئت فتأخر!! هذا هو الأظهر، وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: آية ١١٥] قال لهم نبي الله موسى: تقدموا أنتم أولاً وألقوا قبلي. ومفعول (ألقوا) محذوف، ألقوا ما أنتم ملقون.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء: آية ٤٤] فلما قال لهم نبي الله موسى: «ألقوا» يعني: ألقوا ما أنتم ملقون. يزعم بعض المفسرين أنهم نحو من سبعين مائة ألف عند كل واحد منهم عصا ضخمة، وحبل ضخمة، وأن كل واحد منهم جعل السحر في عصاه وحبله، حتى كانت الدنيا كأنها حيات كالجبال يركب بعضها بعضاً، وخاف الخلق جميعاً خوفاً عظيماً. وذكر الله في سورة طه أن موسى داخله

(١) انظر: القرطبي (٧/٢٥٩).

بعض الخوف كما يأتي في قوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾ [طه: آية ٦٧] حيث قال: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾ [طه: الآيات ٦٥ ـ ٦٧] وهذا الترتيب بالفاء لأن نبي الله موسىٰ أوجس في نفسه الخيفة من عِظَم سحرهم كما قال هنا: ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: آية ١١٦].

وبعض المفسرين يقولون: لم يخف نبي الله من سحرهم، وإنما خاف أن يتفارق الناس ويهربوا قبل أن يُقيم حجته أمامهم. هكذا قاله بعضهم والله أعلم، هذا معنى قوله: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟﴾.

وهذه الآية فيها سؤال معروف، وهو أن يُقال: إن نبي الله موسىٰ بن عمران (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) رسول كريم، والرسول لا يأمر بمنكر، وقوله لهؤلاء السحرة: ﴿أَلْقُوا۟﴾ أمر بمنكر؛ لأنه أمرهم بأشد المنكر، وهو الإتيان بالأسحار تُعارض بها معجزات الله التي أيَّد بها رسله؟

والجواب عن هذا معروف[1]: وهو أن نبي الله موسىٰ (صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم) لا يريد أمرهم بإلقاء الحبال والعصي سحراً خبيثاً تُعارض به آيات الله، وإنما مراده إبطاله؛ لأنه في ذلك الوقت لا طريق إلى إبطاله إلا هذا، وهي أن يبرزوه ثم تأتي آية الله ومعجزة الله التي هي هذه العصا فتبتلع جميع ذلك وتترك الميدان خواء ليس فيه شيء، ولما كان هذا هو الطريق الوحيد للحق اضُطر إليه (صلوات الله وسلامه عليه)، وهذا معنى قوله: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟﴾.

وفي الكلام حذف دل المقام عليه، أي: ألقُوا حبالكم وعصيكم فألقَوا، فلما ألقَوا حبالهم وعصيهم ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ دل قوله: ﴿أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ على أن سحرهم من جنس الشعبذات؛ لأنهم جاؤوا بسحر أخذ بعيون الناس حتى صارت ترى تخييلات ليست بحقيقية، وترىٰ

---

(١) انظر: القرطبي (٢٥٩/٧).

العصي والحبال تظنها حيات - ثعابين - من أضخم الحيات، بالمئات والآلاف مكدّسة كالجبال، يركب بعضها بعضاً، حتى خاف الخلق منها خوفاً شديداً، فقوله هنا: ﴿أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ يدل على أنه تخييل بالنسبة للعين لا حقيقة. وقد صرح بذلك في طه بقوله: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: آية ٦٦] وزعم بعض المفسرين أن الزئبق كان متوفراً عندهم، وأنهم ملؤوا داخل العصي والحبال من الزئبق وطرحوها حتى تأثر الزئبق بحرّ الشمس فلما تأثر الزئبق تحركت العُصي والحبال صار بعضها يلتوي على بعض ويركب بعضها بعضاً!! هكذا يقول بعضهم(١). ويظهر أنه سحر أخذوا به عيون الناس حتىٰ صار يَتَراءىٰ لهم هذا من الحيات العظام الكبار الضخام يركب بعضها بعضا. وهذا معنى قوله: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾. ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ قد تقرر في فن العربية أن تأتي (اسْتَفْعَل) مزيدة بهمزة الوصل والسين والتاء بمعنىٰ (أَفْعَل) وهو موجود في القرآن وفي كلام العرب، ومن أمثلته في القرآن: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: آية ١٩٥] يعني: أجاب. ومما يدل عليه من كلام العرب قول سعد بن كعب الغنوي(٢):

وداعٍ دَعَا يا من يُجيبُ إلى الندىٰ فلم يَسْتجبه عند ذَاكَ مجيبُ

فإنه جاء بـ (مجيب) التي هي اسم فاعل (أجاب) جاء بها فاعلًا لـ(استجاب)، فدل علىٰ أنه أطلق (استجاب) وأراد (أجاب) كما هو واضح.

معنىٰ: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أرهبوهم. والرهب: الخوف. يعني: خوفوا الناس خوفاً شديداً. قال بعض العلماء: استرهبوهم: استدعوا رهبتهم وخوفهم بهذا السحر العظيم.

وفي هذه الآية من سورة الأعراف سؤال معروف: وهو أن يُقال: دلت آية الأعراف هذه علىٰ أن سحر سحرة فرعون من نوع الشعبذات والأخذ

---

(١) انظر: المصدر السابق (٧/٢٥٩).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

بالعيون حتى يتراءىٰ للإنسان غير الواقع في الحقيقة؛ لأنه قال: ﴿أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ وصرح بما يدل على ذلك في قوله في طه: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: آية ٦٦] وهاتان الآيتان ـ آية طه وآية الأعراف ـ كلتاهما تدل على أن سحر سحرة فرعون من نوع الخيالات والشعبذات، ومع هذا وصفه الله بالعِظَم في قوله: ﴿بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ هذا هو وجه السؤال؟؟

وللعلماء عنه جواب[١]: وهو أنه في الحقيقة تخييل وأخذ بالعيون حتى صار يَتَراءَىٰ لها غير الواقع، وإنما وصفه بالعِظَم قالوا: لكثرة العصي والحبال وضخامتها. فهذا التخييل وإن كان تخييلًا خيل للناس هذا العدد الضخم الكبير من هذه الحيات العظام الكبار كأنها جبال يركب بعضها بعضاً، فصار بهذا المنظر الهائل مع التخييل وكثرته كأنه عظيم، وصار في نفس الأمر أخذاً بالعيون وتخييلًا، وفي هذا يزول الإشكال بين الآيات، وهذا معنى قوله: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: أخافوهم. والرهب: الخوف. أرهبه: أخافه. والإرهاب: التخويف ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أرهبوهم، أي: أخافوهم. فجاؤوا بسحر عظيم لكثرة تلك الحبال والعصى وضخامتها وكبرها، وكون بعضها يركب بعضاً حتى امتلأ الوادي بالحيات العظام والأفاعي، حتى خاف جميع الناس، وهذا معنى قوله: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: آية ١١٦].

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١١٧ ـ ١١٩].

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

في هذا الحرف ثلاث قراءات سبعيات[٢]: قرأه جمهور القراء غير

(١) انظر: القرطبي (٧/٢٥٩).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٣، حجة القراءات ص٢٩٢.

حفص عن عاصم والبزي عن ابن كثير: ﴿فإذا هي تَلَقَّفُ ما يأفكون﴾ وقرأه البزي وحده عن ابن كثير: ﴿فإذا هي تَّلَقَّفُ ما يأفكون﴾ بتشديد التاء بإدغام إحدىٰ التاءين في الأخرىٰ؛ لأن أصله: (تتلقف) وقرأه حفص عن عاصم: ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ مضارع لقِفه بكسر القاف يلقَفه بفتحها. فَتَحصَّل أن قراءة الجمهور: ﴿تَلَقَّف ما يأفكون﴾ وهو مضارع (تَلَقَّفه يَتَلَقَّفه) إذا ابتلعه بسرعة هائلة. والمعنى: كلِ من التقم شيئاً بسرعة تقول العرب: «تَلَقَّفَه ولَقِفَه». فقراءة الجمهور حُذف فيها إحدىٰ التاءين، أصلها: فإذا هي تتلقف ما يأفكون، أي: تبتلعه وتلتقمه بسرعة، وعلى قراءة البزي فأصله: فإذا هي تَّلَقَّف ما يأفكون. في الصلة خاصة، فهي واضحة؛ لأن (تفعّل) و (تفاعل) يجوز فيها الإدغام. واستجلاب همزة الوصل، وهو كثير، كاطّيرنا بمعنى: تطير، وازيّنت بمعنىٰ: تزين، وادّارك بمعنىٰ: تدارك، وهو كثير، ومن أمثلته في الماضي في كلام العرب قول الشاعر[1]:

تُولي الضجيعَ إذا ما اْلتَذَّهَا خَصِراً عَذْبَ المَذَاقِ إذا ما اتَّابَعَ القُبَلُ

يعني: تتابع القُبل. وهذا لا إشكال فيه.

أما على قراءة حفص عن عاصم: ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ فهو مضارع لقفه يلقفه إذا ابتلعه بسرعة. فمعنى القراءتين واحد.

ومعنى: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: آية ١١٧] يأفكون: مضارع أفكه يأفكه بالكسر، وأصل المادة الهمز والفاء والكاف (أَفَكَ) معناه: قَلْبُ الشيء وصرفه، فالأَفْك قلب الشيء وصرفه؛ ولذا سُمي الكذب إفكاً لأنه قلب للكلام وصرف له عن حقيقته الواقعة إلى الكذب والباطل، ومن أجل هذا سُميت قرىٰ قوم لوط: (المؤتفكات)، سمَّاها الله: (المؤتفكات) وسماها: (المؤتفكة) في قوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝﴾ [النجم: آية ٥٣] وإنما سماها: (مؤتفكة) لأن جبريل عليه السلام أَفَكَها بإذن الله. أي: قلبها، ومعنى أَفْكِهِ لها هو قلبها وجعل عاليها سافلها كما صرح الله به في قوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

سَافِلَهَا﴾ [الحجر: آية ٧٤] وما جُعل عاليه سافله فقد أُفك، أي: قُلب حتى صار أعلاه أسفله. هذا أصل الإفك[١]. ومعنىٰ: (يأفكون) يختلقون ويكذبون ويفترون من أن هذه العصي والحبال أنها حيات حقيقية مثل العصا التي عند موسىٰ. سماه إفكاً لأنه قلب [لحقيقة الأمر][٢] وصرف له عن حقيقته الصحيحة إلى الكذب والافتراء.

ومعنى الآية الكريمة: أن سحرة فرعون لما جاؤوا بذلك السحر العظيم أوحىٰ الله إلى نبيّه موسىٰ أن يلقي عصاه؛ ولذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ وصيغة الجمع للتعظيم؛ يعني: فألقىٰ عصاه بأمر من الله ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ فاجأ ذلك من العصا، إذا هي ﴿تَلْقَفُ﴾ أي: تبتلع جميع ما يأفكون. فلما ألقاها موسى من يده، وانقلبت إلى ذلك الثعبان العظيم، وجاءت بسرعة وقوة هائلة وعناد هائل، قال ابن زيد: كانت مناظرة موسىٰ وسحرة فرعون في الإسكندرية من مصر، وكان ذَنَبُ العصا لما انقلبت حية وراء البحر كما يزعمون والله أعلم.

وعلى كل حال فقد صرّح الله بأنها ابتلعت جميع ما في الميدان من الحبال والعصي. يقولون: انقلبت إلى ذلك الثعبان العظيم، وجاءت تبتلع ذلك الموجود حبلًا حبلًا، عصاً عصاً، تلتقم ذلك وتبتلعه ولا يظهر في ضخم جثتها ولا يزيد فيها حتى تركت الميدان ليس فيه حبل وليس فيه عصا!!

ويقول المؤرخون والمفسرون[٣]: إن الخلق خافوا خوفاً شديداً، وأنه مات منهم عدد من الآلاف كثير من شدة الزحام هرباً من خلقها!! ويزعمون أن فرعون كان في مجلس له هو وقومه ينظر، وأنه داخله خوف شديد حتى قال بعضهم: إنَّهُ سَلَحَ ثلاثمائة سلحة[٤]!!

وقال بعضهم: كان لا يأتي الغائط في أربعين يوماً إلا مرة واحدة وفي ذلك اليوم وقع منه ذلك أربعون مرة كما يقولون!! والله أعلم.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأعراف.

(٢) في هذا الموضع كلام غير واضح، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) انظر: القرطبي (٢٥٨/٧ ـ ٢٥٩).

(٤) قال في المصباح المنير: «سلح الطائر من باب (نفع) وهو منه كالتغوط من الإنسان» ا.هـ. (مادة: سلح) ص١٠٨.

وعلى كل حال لما ألقىٰ موسىٰ العصا واستحالت إلى هذا الثعبان العظيم والتقمت جميع ما كانوا يكدّسونه من الحبال والعصي ولم يبق فيهم شيء، وجاء موسى وأخذها بيده فإذا هي عصاه، ولم يوجد أثر ولا عين لتلك الحبال والعصي، عرف السحرة أن هذا أمر من خالق السماوات والأرض فخرّوا ساجدين لله بإيمان صحيح، وإخلاص عظيم رغم فرعون، وقالوا: آمنا بالله رب العالمين، رب موسىٰ وهارون، وداخلتهم بشاشة الإيمان مداخلة هائلة عظيمة، فعبّر الله عن شدة عظم البرهان بقوله: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠﴾ [الأعراف: آية ١٢٠] عبر بقوله: ﴿وَأُلْقِيَ﴾ كأن إنساناً أمسكهم وألقاهم ساجدين بالقوة لقوة البرهان الذي رأوا به الحق، ومن هنا تعلم أنه قد يكون الشيء الخسيس الحقير وفيه بعض النفع كما قالوا:

(. . .)[1] لأن علم السحر ـ قبّحه الله ـ من أخسّ العلوم وأقبحها، وقد صرح الله (جل وعلا) في المحكم المنزل في سورة البقرة أن تعلمه يضر ولا ينفع، فهو ضرر محض لا نفع فيه كما قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ ولكن الله قد نفع هؤلاء القوم بهذا العلم الخسيس الخبيث، فتبين أن قوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: آية ١٠٢] من جميع الحيثيات غير هذه الحيثية وهو انتفاعهم به أنهم كانوا عالمين بالسحر عارفين بحدوده التي ينتهي إليها، فلما جاءت العصا والتقمت جميع الحبال والعصي ولم يجدوا حبلاً ولا عصا عرفوا أن هذا من الله؛ لأنهم يعرفون السحر ويعرفون مدىٰ تأثيره، فمعرفتهم بالسحر كانت نفعاً لهم بأن عرفوا أن العصا ليست من جنس السحر، فلو كانوا جاهلين بالسحر لظنوا أن عصا موسىٰ من جنس السحر والشعوذة، وهم لما عرفوا السحر تماماً عرفوا أن البرهان خارج عن طور السحر، وأنه لا يدخل فيه، وأنه أمر إلهي؛ ولذا ذُكر عنهم أنهم قالوا: لو كانت العصا من جنس السحر لوجدنا حبالنا وعصينا، فما انعدمت حبالنا وعصينا من أصلها إلا ببرهان من السماء. قيل: وقد قالوا لفرعون: إن كان هذا من سحر أهل الأرض فتق

---

(١) في هذا الموضع كلام غير واضح.

بأنا نغلبه، والذي لا طاقة لنا به هو شيء يأتي من السماء، فإن كان عنده شيء يأتي من السماء فلا طاقة لنا به، فلما كان من أمر العصا ما كان علموا أنه من السماء وأنه من أمر الله فآمنوا هذا الإيمان العظيم؛ ولذا قال الله عنهم: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠﴾ [الأعراف: آية ١٢٠].

ومعنى قوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ لما ابتلعت العصا كل ما في الميدان مما أفكوه واختلقوه من الحبال والعصي لما ابتلعت العصا ذلك كله قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١١٨﴾ رتب على ذلك وقوع الحق بالفاء، قال بعض العلماء: (وقع الحق) معناه: حصل وانثبت. وجماهير المفسرين يقولون: (وقع الحق) هنا معناه: ظهر واستبان واتضح، حيث ظهر الحق واستبان واتضح، وبطل الباطل واضمحل، وعُرفت الحقيقة على بابها. والعرب يطلقون الوقوع على الظهور، قال بعضهم: الوقوع في لغة العرب: ظهور الشيء بوروده منحدراً إلى مستقره. وعلى كل حال فأكثر العلماء منهم ابن عباس وغيره يقولون: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر واستبان واتضح الحق أنه مع نبي الله موسى، وبطل ما كان يعمله السحرة من المخطط في الحبال والعصي.

وهذا معنى قوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١١٨﴾ [الأعراف: آية ١١٨].

وكان نبي الله موسى قبل أن يلقي عصاه عالماً أن سحرهم باطل، وأنه سيبطله ويضمحل كما جاء عنه في سورة يونس: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ٨٢﴾ [يونس: الآيتان ٨١، ٨٢].

﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ١١٩﴾ [الأعراف: آية ١١٩] معروف أن (هنالك) إشارة لمكان بعيد، والواو في قوله: ﴿فَغُلِبُوا۟﴾ راجع إلى السحرة، (غُلبوا هنالك) غلبهم موسى ببرهان العصا لما ابتلعت جميع ما عندهم من الحبال والعصي ﴿وَٱنقَلَبُوا۟﴾ أي: السحرة وكل من كان معهم كفرعون وحزبه ﴿وَٱنقَلَبُوا۟﴾ رجعوا صاغرين. أي: أذلاء حقيرين داخرين، وهذا معنى قوله:

﴿وَانقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ الصاغر: هو وصف من الصَّغَار، والصَّغَار: الهوان والدخور والذلة كما هو معروف، وهذا معنى قوله: ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١١٩، ١٢٠] بعد أن غُلبوا عرفوا برهان الله وآمنوا بالله إيماناً صحيحاً. وهو أمر في الحقيقة فيه عجب؛ لأنهم أول النهار كانوا يجادلون بالباطل ويعارضون آيات الله بالسحر، وفي آخر النهار صاروا من أولياء الله، وصار تعذيب الدنيا وما فيها كله ليس عندهم بشيء لقوة الإيمان الداخل في قلوبهم؛ ولذا هدّدهم فرعون بأعظم تهديد وهو أن يقطع يد الواحد اليمنىٰ ورجله اليسرىٰ ويصلبه على جذع النخلة، وجذع النخلة هو أخشن جذع خلقه الله في الأشجار، وهذا عذاب شديد، ومع هذا احتقروا عذابه ولم يكن عندهم بشيء، كما قال الله عنهم: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: الآيتان ٤٩، ٥٠] أي: لا ضرر علينا في ذلك. حتىٰ قالوا له في سورة طه: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَٰتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَآ﴾ [طه: آية ٧٢] أي: وليس فيها شيء يهم؛ [لسرعة زوالها][1] وانقضائها، نحن نرغب فيما عند الله، ولا نبالي بما في الدنيا، كما يأتي في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأعراف: آية ١٢٥] ونحو ذلك.

فالإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب هان على صاحبه كل شيء، وصغرت في عينه الأذيَّات والتعذيب، ورجا ما عند الله كهؤلاء السحرة.

وقوله هنا: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأعراف: آية ١٢٠] هم وقت إلقائهم ساجدين ليسوا بسحرة، بل إنما هم من عباد الله المكرمين المؤمنين الأفاضل، ولكنه سماهم سحرة نظراً لحالهم الماضية كما سمىٰ البالغين (يتامىٰ) نظراً لهم في حالهم الماضية في قوله: ﴿وَءَاتُواْ الْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: آية ٢] كما هو معروف، وهذا معنى قوله: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ أي: لله إيماناً بالله.

---

(١) في الأصل: (لزوال سرعتها). وهو سبق لسان.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٢١﴾ [الأعراف: آية ١٢١] أي: خالق السماوات والأرض وما بينهما؛ لأن (العالمين) تشمل السماوات والأرض وما بينهما، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ الآية [الشعراء: الآيتان ٢٣، ٢٤].

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾ [الأعراف: آية ١٢٢] الذي أنزل عليهما هذه المعجزة العظيمة الدالة على صدقهما وعلى ربوبيته وحده جل وعلا.

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ قرأ هذا الحرف حفص عن عاصم وحده من السبعة قال: ﴿ءَامَنتُم﴾ بلا همزة استفهام على الخبر، وقرأه الجمهور: ﴿ءآمنتم به﴾[1] وهم على أصولهم في تسهيل الهمزتين، من يسهل الثانية ويأتي بألف الإدخال. ومن يحققهما كما هو معروف في محله: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي: آآمنتم به أيها السحرة؟ آمنتم بموسىٰ قبل أن آذن لكم في ذلك؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي تواطأتم أنتم وهو عليه ﴿لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الأعراف: آية ١٢٣] لحيلة احتلتموها وتوافقتم عليها وتواطأتم عليها لتخرجوا أهل البلد من بلادهم ـ وهم القبط ـ وتُسكنوا في أرضهم بني إسرائيل، وتتفقوا معهم على ذلك!! وهذا فعله فرعون مكراً منه وخداعاً، وخوفاً منه أن تتبع الناس السحرة فيؤمنوا بموسىٰ!! فجعل أن موسىٰ والسحرة تواطؤوا على مكر خبيث يريدون ظلم أهل البلد وإخراجهم من بلدهم وإسكان غيرهم فيه ـ قبّحه الله ـ وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ﴾ يعني: إيمانكم أنتم بموسىٰ وسجودكم لربه وموافقتكم له ﴿مَكۡرٞ﴾ أي: حيلة احتلتم أنتم وإياه بها، احتلتم بها على أهل البلد لتخرجوهم من بلادهم، وهذا معنىٰ قوله: ﴿لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ بعضهم يقول: المدينة التي وقع فيها: الإسكندرية. والله تعالى أعلم.

﴿لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ﴾ لأجل أن تخرجوا منها أهلها باتفاقكم عليهم ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: فسوف تعلمون ما أُنكلكم به من التعذيب على

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٣.

مكركم وموافقتكم مع موسىٰ على المكر، وإخراج أهل الأرض منها. ثم
١/١٧ بين ما يعدهم به/ فقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ [الأعراف: آية ١٢٤] الأيدي: جمع يدٍ، ووزنه (أَفْعُل) والأرجل كذلك وزنه (أَفْعُل) ومعلوم أن (أَفْعُل) من جموع القلة، إلا أن المقرر في الأصول وفي علوم العربية: أن جموع القلة لا تكون جموع قلة إلا إذا كانت مُنكَّرة خاصة، أما إذا أُضيفت إلى معارف فهي صيغ عموم، وهي إذاً من جموع الكثرة.

ومعنى قوله: ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾ أي: من جهتين مختلفتين بأن يقطع اليد اليمنىٰ من شِق فيضعف ذلك الشّق باليد [ويقطع][١] الرجل اليسرىٰ من الشق الآخر فيكون كل من الشّقين قد ضعف.

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لم يبيّن هنا في الأعراف ولا في الشعراء ما ذا الذي يصلبهم عليه، وقد بيّن في سورة طه أنه يصلبهم في جذوع النخل[٢] كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: آية ٧] وجذع النخل هو أخشن جذع من جذوع الشجر خلقه الله ـ جل وعلا ـ وأصعب على المصلوب الصلب عليه. وعلماء البلاغة يقولون: إن قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: آية ٧١] فيه ما يسمونه (استعارة تبعية) في معنى مُتَعَلَّق الحرف[٣]. والأظهر أنه أسلوب عربي معروف، فالعرب تقول: صلبه على الجذع، وصلبه فيه، وهو معنىٰ معروف في كلام العرب، ومن قولهم: «صلبه في الجذع» قول الشاعر[٤]:

همو صلبوا العَبْديَّ في جِذْعِ نخْلةٍ ... فلا عطستْ شيبانُ إلا بأَجْدَعَا

وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٤] لأصلبنكم في جذوع النخل أجمعين.

---

(١) في الأصل: «ويضعف». وهو سبق لسان.
(٢) انظر: الأضواء (٢/٣٣٠).
(٣) انظر: جواهر البلاغة ص٢٤٨.
(٤) البيت في اللسان (مادة: فيا) (٢/١١٥٨).

وهذا يدل على أن أولياء الله يُمتحنون دائماً في الله، فخير ما تكون به المحنة: المحنة في الله، فعلىٰ المسلم إذا بُلي في دينه وامتُحن في الله أن يصبر ويصمد، ويعرف أن هؤلاء السحرة وُعدوا بقطع أيديهم وأرجلهم، والصلب على جذوع النخل، ومع هذا هم صامدون صابرون لا يلتفتون إلى فرعون، بل يقولون له: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: آية ٧٢] فالله قصّ علينا خبر هؤلاء لنعتبر بهم كما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ﴾ [يوسف: آية ١١١] فإذا جاءتنا أذيّة وبلايا في ديننا فعلينا أن نصبر على المحن بالغة ما بلغت، ولا نتلاشىٰ ولا نضعف، ولا نضيع ديننا؛ لأن خير ما يُبلىٰ الإنسان فيه ويصمد ويصبر هو دينه.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا
لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ
مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ
وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ
لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن
تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٢٥ ـ ١٢٩].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ هذا جواب السحرة لفرعون لما آمنوا بالله إيماناً عظيماً، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وقال لهم فرعون إنهم هم وموسىٰ تواطؤوا واتفقوا على إخراج أهل قريتهم من مدينتهم مكراً منهم، وتواطؤوا على الظلم، ووعدهم بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبهم في جذوع النخل، لمّا توعدهم فرعون هذا الوعيد الشديد، وعابهم هذا العيب المختلق أجابوه هذا الجواب الإيماني العظيم، وقالوا له كأنهم يقولون له: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ [طه: آية ٧٢] وأوعد من العذاب ما أنت واعد فنحن لا نبالي بك ولا نرائي بك ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٥] راجعون إلى رب رحيم كريم عظيم الجزاء سنجد عنده من النعيم ما يُنسينا جميع مضار الدنيا وما فيها من البؤس، كأنهم برغبتهم فيما عند الله وعلمهم بما يجازيهم به الله من النعيم سقط من أعينهم عذاب الدنيا،

وصاروا يعتقدونه كَلاَ شيء، وهذا هو الصحيح بالآية، وقد بيّنه الله في سورة الشعراء، وبيّنه بإيضاح: أنه لما ذكر في سورة الشعراء أن فرعون توعدهم هذا التوعد بالعذاب في قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: آية ١٢٤] أجابوه قائلين كما قصّ الله عنهم في سورة الشعراء: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: آية ٥٠] (لا ضير) الضير معناه: الضرر. قالوا: ضَارّه يضيره ضيراً، وضره يضره ضراً بمعنىً واحد، كما قدمنا إيضاحه بشواهده في قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ على قراءة: ﴿لا يَضِرْكُم كيدهم شيئاً﴾ [آل عمران: آية ١٢٠][١].

وقوله: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ بناه مع (لا)، والنكرة المبنية مع (لا) تدل على أن (لا) هي التي لنفي الجنس، فكأنهم نفوا جنس الضرر في عذاب الدنيا واحتقروه وهان في أعينهم ورأوه لا شيء بالنظر إلى ما عند الله. ثم بيّنوا علّة انتفاء ذلك الضرر في أعينهم فقالوا: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٥] كما يوضح آية الأعراف هذه.

ثم قالوا موضحين: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء: آية ٥١] فالمؤمن الحق إذا علم ما عند الله من النعيم والثواب هان وصغر في عينه كل عذاب وبلاء في الدنيا، كما قالوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: آية ٧٢] أي: وليس فيها شيء يهم [لسرعة زوالها][٢] وانقضائها. فهذا معنى قوله: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٥].

هذا الانقلاب ينقلب به كل أحد كائناً ما كان، فينبغي لكل إنسان أن يُحسّن منقلبه إلى الله؛ لأن الله يقول: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: آية ٢٢٧] فمعنىٰ: ﴿مُنقَلِبُونَ﴾ أنهم يموتون فيبعثون فيُقلبون إلى الله، يرجعون إليه فيجازيهم، هذا معنى قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأعراف: آية ١٢٥].

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٦٨.

(٢) في الأصل: «لزوال سرعتها». وهو سبق لسان.

ثم بيّنوا لفرعون أنه ظالم لهم وليس لهم ذنب يعيبهم به ولا يعذبهم لأجله، وقالوا: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ العرب تقول: (ما تنقم مني)؟ معناه: ما تعيب مني وما تَنْتَقِدُ مِنيّ؟ وأقوال علماء التفسير متقاربة[1]، كلها راجعة إلى شيء واحد، فبعضهم يقول: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ ما تعيب منا، ما تُنكر منا، ما تكره منا؟ ونحو ذلك، فهي أقوال معروفة، والعرب تقول: نقم عليّ فلان كذا ونَقِمَهُ. أي: انتقده وأنكره عليّ وكرهه مني. فكأنهم يقولون لفرعون: ما تعيب وتكرهه منا وتنكره حتىٰ تجعله سبباً لتعذيبنا إلا أعظم الأشياء وأحسنها وأشدها استجلاباً للمودة والمحبة، فهو الإيمان بالله أي: ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ يعني: ما تعيب علينا شيئاً ولا تكره منّا شيئاً فعلناه ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ [الأعراف: آية ١٢٦] واضحة لا لبس فيها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾.

ولما بينوا لفرعون أنهم ما فعلوا شيئاً يستوجبون عليه تعذيباً سألوا الله أن يرزقهم الصبر على العذاب الدنيوي، وأن يميتهم وهم على إسلامهم، سألوه سؤالين عظيمين:

أحدهما: أن يعطيهم الصبر ويعينهم عليه.

والثاني: أنه يثبتهم على إيمانهم وإسلامهم حتىٰ يموتوا ويلقوه مسلمين؛ ولذا قال الله عنهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ الإفراغ في لغة العرب التي نزل بها القرآن: الصبُّ الشديد الذي يترك الإناء فارغاً لا شيء فيه ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا﴾ معناه: اصبب علينا صبراً من عندك. ونكّر الصبر هنا للإشعار بالتعظيم. أي: صبراً عظيماً جميلًا عظيماً نواجه به تعذيب هذا الجبار ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ أمِتْنا، ﴿مُسْلِمِينَ﴾ أي: ونحن على إسلامنا لا تزغ قلوبنا ولا تُشقنا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

وهذه الآية الكريمة نظائرها كثيرة في القرآن وفي كلام العرب، وأسلوبها الذي جاء بها هو الذي يقول له البلاغيون: (تأكيد المدح بما يشبه الذم)[2]

---

(١) انظر: ابن جرير (٣٥/١٣)، القرطبي (٢٦١/٧).

(٢) انظر: التلخيص للقزويني ص٣٨٢.

ونظيرها في القرآن قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: آية ٧٤] ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: آية ٨] وهو كثير في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[١]:

ما نقِموا من بني أميةَ إلا أنهم يَضْرِبُون فَيَغْلِبُون

وهو كثير في كلام العرب، كقوله: ﴿أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: آية ٤٠] ومنه قول نابغة ذبيان[٢]:

ولا عَيْبَ فيهم غير أن سيوفَهم بهنَّ فُلُولٌ من قِراعِ الكَتائبِ

وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [الأعراف: آية ١٢٦] اصبب علينا صبراً عظيماً نواجه به نكال هذا الجبار.

والصبر في لغة العرب التي نزل بها القرآن: هو حبس النفس عن المكروه، تقول: صبرت نفسي. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ ومادته تتعدىٰ وتلزم، ومن تعديها قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ [الكهف: آية ٢٨] وقول عنترة العبسي[٣]:

فصبرتِ عارفةً بذلك حُرةً ترسُو إذا نفسُ الجبانِ تَطَلَّعُ

كما هو معروف.

والصبر في اصطلاح الشرع[٤] خصلة عظيمة يندرج فيها جميع خصال الإسلام؛ ولذا قال الله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: آية ١٠] ومن سادات الصابرين: الصائمون؛ لأنهم صبروا لله عن شهوات بطونهم وفروجهم طاعة لربهم.

---

(١) البيت لعبيدالله بن قيس الرقيات. وهو في اللسان (مادة: نقم) (٧١٠/٣)، البحر المحيط (٧٣/٥)، الدر المصون (٨٧/٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٤) السابق.

والصبر في اصطلاح الشرع يستلزم الصبر عن جميع المعاصي ولو اشتعلت نار الشهوات، والصبر على الطاعات وإن كان كالقابض على الجمر، والصبر على البلايا عند الصدمة الأولى كما طلبه هؤلاء؛ لأنهم في بليّة ومحنة كبرىٰ يطلبون الصبر عليها، ويدخل فيه الصبر على الموت تحت ظلال السيوف عند التقاء الصفين(١).

وقوله: ﴿مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٦] قدمنا مراراً معنى الإسلام والإيمان، وأن الإسلام في لغة العرب معناه: الإذعان والانقياد، فكل مذعن منقاد فهو مسلم. وأسلم له إذا أذعن وانقاد(٢)، وهو معروف في كلامهم، ومنه قول زيد بن نفيل مؤمن الجاهلية(٣):

وأسلَمتُ وجهي لمن أسلَمَتْ ... له الأرضُ تحملُ صخراً ثِقَالا
دَحَاهَا فلما استوتْ شَدَّها ... جميعاً وأَرْسَىٰ عليها الجِبَالا
وأسلَمْتُ وجهي لمن أسلَمَتْ ... له المزنُ تحمل عذباً زُلالا
إذا هي سِيْقَتْ إلى بلدةٍ ... أَطَاعَتْ فصبت عليها سجالا

فقوله: أسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ له الأرض، وأسلمتْ له الصخر.

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له الريح تُصْرَفُ حالاً فحالا

معناه: أذعنتُ وانقدتُ لمن أذعن له الريح والمزن والحجارة. هذا أصل معنىٰ الإسلام في لغة العرب.

وهو في اصطلاح الشرع(٤): الإذعان والانقياد التام من جهاته الثلاث، أعني: انقياد القلب بالاعتقاد والنيات، وإذعان اللسان بالإقرار، وإذعان

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٢) انظر: المقاييس في اللغة. كتاب السين، باب السين واللام وما يثلثهما ص٤٨٧.

(٣) مضت هذه الأبيات عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأعراف. ولفظ البيت الثاني في السيرة لابن هشام (٢٤٧/١):

دحاها فلما رآها استوت ... على الماء أرسى عليها الجبالا

(٤) انظر: شرح الطحاوية ص٤٨٨.

الجوارح بالعمل. أي: توفنا منقادين لك ولطاعتك بقلوبنا وألسنتنا وجوارحنا حتىٰ نلقاك وأنت راض عنا. وهذا معنى قوله: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٦].

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: آية ١٢٧].

لما وقع ما وقع وآمن السحرة لله حرّض أشرافُ جماعة فرعون حرضوا فرعون على موسى وقومه يريدون أن يقتلهم أو يُنكّل بهم؛ ولذا قال الله عنهم: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: أشراف جماعة فرعون قالوا لفرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ﴾ (أتذر موسى) معناه: أتترك موسىٰ وقومه الذين هم معه مؤمنون به وهم بنو إسرائيل، أتذرهم أي: تتركهم لأجل أن يفسدوا في الأرض؟

وهذا الفعل الذي هو (تذر) لم يُسمع منه إلا مضارعه وأمره، تقول العرب: (ذر) بمعنىٰ اترك. و (تذر) بمعنىٰ: تترك. ولم يُسمع منه غير هذا[1]. فلم يأت من كلامهم فعل ماض، ولا مصدر، ولا اسم فاعل، ولا اسم مفعول، فاسم فاعله: تارك. واسم مفعوله: متروك. وهكذا نطقت به العرب أمراً ومضارعاً فقط. أي: أتترك موسى وقومه؟

واللام في قوله: ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هذه لام التعليل المعروفة بلام كي، وأصلها تُشكل على طلبة العلم: كيف جاءت هذه اللام المُعَلِّلة بهذا الوضع؟

والجواب عن ذلك: أن الملأ من قوم فرعون زعموا أن مجرد تركه لهم هو علة لإفسادهم في الأرض، فجعلوا مجرد ترك فرعون لموسىٰ وقومه، وعدم قتلهم أو التنكيل بهم جعلوه هو نفس علّة الإفساد في الأرض؛ ولذا جاؤوا بعد قولهم: ﴿أَتَذَرُ﴾ باللام في قوله: ﴿لِيُفْسِدُوا﴾ [الأعراف: آية ١٢٧] كما يزعمون: (إن السّفيه إذا لم يُنه مأمور)[2]؛ لأنك إن لم تنهم فتضرب على أيديهم فكأنك قد أمرتهم بالإفساد في الأرض!!

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة المائدة.

(٢) انظر: جمهرة الأمثال للعسكري ص٥١٢، معجم الأمثال العربية (٣٦٦/٢).

وقد قدمنا مراراً أن الكفرة الفجرة يزعمون العمل بكتب الله واتباع رسله إفساداً في الأرض. وقد أوضحنا ذلك فيما مضىٰ. فمعنىٰ إفسادهم في الأرض: أنهم يزعمون أنهم يؤمنون بموسىٰ، ويكونون معه، ويكونون حرباً على القبط فيخرجوهم من بلاد مصر، هذا معنىٰ إفسادهم في الأرض المزعوم.

﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ نصب ﴿وَيَذَرَكَ﴾ عطفاً على ﴿لِيُفْسِدُوا﴾ وقيل: إنه منصوب بـ (أن) بعد الواو؛ لأن الواو هي أخت الفاء، فبعد الاستفهام يُنصب بعدها المضارع بـ (أن) مضمرة، كما هو معروف، كقول الحطيئة[1]:

ألَمْ أكُ جاركم ويكون بيني ... وبينكم المودة والإخَاء

كما هو معروف في محلّه، وأظهر القولين: أنها عطف على الفعل المنصوب في ﴿لِيُفْسِدُوا﴾.

﴿وَيَذَرَكَ﴾ يعني: يتركك وآلهتك، لا يعبدك ولا يعبد آلهتك. يزعم المؤرخون أن لفرعون آلهة يأمر قومه بعبادتها، وهم يتقربون إليه هو بعبادتها، وهو كأنه هو الإله الكبير، كما يأتي في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: آية ٢٤] عليه لعائن الله، وقراءة الجمهور ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ ويذرك فلا يعبدك ويذر آلهتك فلا يعبدها، وقراءة ابن عباس: ﴿ويذرك وإلاهَتَكَ﴾[2] أي: وعبادتك. وهي قراءة شاذة، فـ (الإلاهة): العبادة. قال فرعون لهم: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾، سنُنكل بهم ولا نمهلهم، ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾، كل من يولد لهم قتلناه ﴿وَنَسْتَحْيِۦ نِسَاءَهُمْ﴾ نترك بناتهم ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (...)[3] يعني: فوقيّة مكانة ومنزلة، قاهرون لهم، مذللون لهم تحت سلطاننا.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن فرعون ذبح أولاد بني إسرائيل تذبيحتين:

التذبيحة الأولى التي كانت سبباً لجعل أم موسىٰ موسى في التابوت،

---

(١) البيت في ديوانه ص٥٤، والقرطبي (٢٧٥/١).

(٢) مضت عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

(٣) في هذا الموضع وقع مسح يسير في التسجيل، وهو لا يؤثر؛ لأن المعنى مستقيم بصورته الحالية.

كما سيأتي خبرها مفصَّلًا في سور من كتاب الله، حيث قال لها: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: آية ٧] وخوفها عليه أي من قتل فرعون للأولاد حذراً من ذلك الغلام الذي سيزول ملكه عليه.

وتذبيح الأولاد الثاني: هو بعد أن جاءهم موسىٰ نبياً من الله، كما صرح الله به هنا، وأوضحه في سورة المؤمن في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر: آية ٢٥] وهذا معنى قوله: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ وقرأ بعضهم: ﴿سَنَقْتُل أبناءهم﴾[١].

﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٧] لما هددهم فرعون هذا التهديد بقتل الأبناء جزع الإسرائيليون، جزعوا جزعاً شديداً من ذلك، وخافوا منه خوفاً شديداً، فصار نبي الله موسىٰ يهدئهم ويشير لهم إلى الوعد الذي عنده من الله، قال موسى لقومه: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: آية ١٢٨] استعينوا: معناه اطلبوا العون من الله، والياء في (استعينوا) مُبدلة من واو؛ لأن المادة واوية العين، ووزن (استعينوا): (اسْتَفْعِلُوا)[٢] والسين والتاء للطلب، أي: اطلبوا العون من الله على هذا الطاغية العظيم، وهذا الجبار الكافر، وترقبوا ما عند الله من الفرج، ﴿وَاصْبِرُوا﴾ احبسوا نفوسكم على المكروه حتى يخلصكم الله بفضله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ الأرض بجميعها ويدخل فيها أرض مصر ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يجعلها في آخر الأمرين لمن يشاء أن يجعلها له من عباده ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾[٣]: الحال الحسنة التي تكون في آخر الأمرين، وما يؤول إليه الحال ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. وقد قدمنا مراراً في هذه الدروس[٤] أن المتقي اسم فاعل الاتقاء، وأن (الاتقاء) في لغة العرب التي نزل بها القرآن

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٣.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٤) من سورة الأعراف.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

معناه: اتخاذ الوقاية. تقول مثلًا: اتقيت الرمضاء بنعلي، والسيوف بِمِجَنِّي. وكل شيء جعلت بينه وبينك وقاية فقد اتقيته، ومنه قول نابغة ذبيان[١]:

سَقَطَ النَّصِيْفُ ولم تُرِدْ إسقَاطَهُ فَتَنَاوَلَتْهُ واتَّقَتْنَا باليَدِ

أي: جعلت يدها وقاية بيننا وبين وجهها لئلا نراه.

وأصل مادة التقوى من (وقي) ففاؤها واو، وعينها قاف، ولامها ياء[٢]. فهي مما يسميه الصرفيون: لفيفاً مفروقاً[٣]، هذا أصلها.

والاتقاء: اتخاذ الوقاية، والاتقاء في الشرع: هو اتخاذ الوقاية التي تقي سخط الله وعذابه، وهذه الوقاية التي تقي الإنسان سخط ربه وعذابه هي امتثال أمره واجتناب نهيه (جل وعلا). فالاتقاء: امتثال الأمر واجتناب النهي، وهو اتخاذ الوقاية التي تقي سخط الله وعذابه، وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٨].

لما هدَّأ موسىٰ قومه، وأمرهم بالصبر، وأشار لهم إلى وعد الله، وأن العاقبة لمن اتقى الله وهم المؤمنون لا الكافرون قال له قومه: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ [الأعراف: آية ١٢٩] حُذف الفاعل هنا وهو معروف، أي: آذانا فرعون وقومه من قبل أن تأتينا من مدين بعد أن صرت نبياً، وذلك الإيذاء هو ذبح أولادنا، واستحياء نسائنا، وإهانتنا بالأعمال الشاقة. وقعت لنا منه هذه الإهانات وأنت هنالك في مدين قبل أن تأتينا ووقع لنا ذلك بعد ما جئتنا، فتراه الآن يقول: إنه يذبح أبناءنا!! فقد حصل لنا الأذىٰ في كل الأوقات قبل مجيئك وبعده. وهذا معنى قولهم: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ فهدَّأهم نبي الله موسى، وأشار لهم إشارة أكبر من الأول إلى الوعد بنصر الله لعباده المؤمنين، وإهلاك الكفرة الظالمين، قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ (عسىٰ) فعل ترجي يدل على رجاء اتصاف المبتدأ بالخبر، وخبره غالباً إنما يكون فعلًا مضارعاً مقروناً بـ (أن) وربما جُرِّد من (أن) كما

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) لأن حروف العلة غير متوالية فيه، بخلاف اللفيف المقرون.

هو معروف في محله. أي: فأرجو لكم رجاءً قوياً من عند خالقكم (جل وعلا)، أي: من خالقكم ومدبر شؤونكم عسى أن يهلك عدوكم فرعون وقومه بأمر من عنده ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يجعلكم خلفاء في الأرض من بعدهم ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فذلك يدل على أن المستخلفين في الأرض لم يُستخلفوا فيها لأجل الإنعام بها عليهم، بل كل ذلك للابتلاء والامتحان، فيطيعون الله فيما استخلفهم فيه أو يعصونه.

وهذه الآية الكريمة فيها وعيد شديد، وتخويف عظيم، لمن استخلفه الله في الأرض بعد عدوِّه الذي كان يقاومه وبسط يده بالأرض، فإذا كان عنده عقل فإنه يخاف من نظر الله إليه كيف يفعل، فيطيع الله في كل ما يفعل كما لا يخفى. فهذه من أعظم المواعظ وأكبرها التي يعظ الله بها الذين يُستخلفون في الأرض بعد الذي كانوا فيها. وهذا معنى قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٩].

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٣٠ ـ ١٣٥].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٠، ١٣١].

اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا﴾ موطئة للقسم، وصيغة الجمع للتعظيم،

والمراد بـ (آل فرعون): فرعون وقومه[١]، والمعنىٰ: أن السحرة لما غُلبوا، وأظهر الله معجزة نبيه، وعرف فرعون وقومه أنه الحق، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النمل: آية ١٤] امتحنهم الله بآيات فيها بعض العذاب، أخذهم أولاً بالسنين ونقص من الثمرات، كما قال هنا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ﴾ والله لقد أخذنا ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: فرعون وقومه.

﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ والمراد بالسنين: الجدب والقحط حتى تقل بسببه الأرزاق. يعني: هذا البلاء بالسنين، العرب تقول: هذه سنة، وهذه سنون. يعنون أنها عام أو أعوام جُدب، يقلّ فيه المطر، ويكثر فيه الجدب، ويقل فيها الأرزاق. وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قوله ﷺ: «**اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»[٢] حتى إن العرب ليقولون: أسنت القوم. أي: أصابتهم السنة الشهباء المجحفة، التي فيها جدب وعدم المطر. ومنه قول ابن الزبعرى السهمي[٣]:

عمروُ العُلا هَشَم الثريد لقومهِ ورجالُ مكةَ مُسْنِتُون عِجَافُ

(مسنتون): أصابتهم السنة بالقحط وعدم المطر حتى جاعوا، وهذا معنىٰ قوله: ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: وأخذناهم بنقص من الثمرات بحيث لا تثمر أشجارهم. قال بعضهم: كانت النخلة قد تكون فيها تمرة واحدة. قال بعض العلماء: السنين: هي الجدب بباديتهم، ونقص الثمرات: قلة الزروع والثمرات لأمصارهم[٤].

وعلى كل حال فالمراد أن الله يُقل عليهم المطر حتى تقل أرزاقهم من زروع وثمار وغيرها، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ [الأعراف: آية ١٣٠] أي: يتعظون.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأنعام.

(٣) البيت في القرطبي (٢٦٤/٧)، الدر المصون (٤٢٧/٥).

(٤) انظر: ابن جرير (٤٦/١٣).

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[١] أن أشهر معاني (لعل) معنيان:

أحدهما: أنها حرف ترجّي كما هو معروف، إلا أن الترجّي فيها بالنسبة إلى خصوص علم المخلوقين؛ لأن الله (جل وعلا) عالم بما كان وما سيكون وما تؤول إليه عواقب الأمور. وعلى هذا فمعنى قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: آية ٤٤] أي: على رجائكما أنتما أنه يتذكر، أما الله فهو عالم أنه لا يتذكر ولا يخشى.

المعنى الثاني: هو ما ذكره بعض العلماء من أن كل (لعل) في القرآن هي بمعنى التعليل إلا التي في سورة الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: آية ١٢٩] قالوا: هي بمعنى: كأنكم تخلدون. هكذا ذكر بعضهم، ومن المعلوم أن (لعل) تأتي في القرآن مُراداً بها التعليل، منه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: آية ٧٨] أنعم عليكم بهذه النعم لأجل أن تشكروا. ومن شواهد إتيان (لعل) مراداً بها التعليل قول الشاعر[٢]:

وقُلتُم لنا كُفُّوا الحروبَ لعلنا ... نكفُّ ووثَّقْتُم لنا كل مَوْثِقِ

يعني: كفوا الحروب لأجل أن نكف عنكم. وهذا معنى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون بما سلط الله عليهم من السنين ونقص الثمرات، وهذا معنى قوله: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٠].

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ﴾ المراد بالحسنة هنا بإجماع المفسرين: هو ذاك الخصب، وكثرة المطر، وكثرة الأرزاق والعافية. أي: فإذا جاءهم الله بالحسنة فأدر عليهم السماء، وأنبت لهم الزروع والثمار، وأكثر غلات مواشيهم من ألبان، وأسمان، وأزباد، ولحوم، وشعور، وأوبار، وأصواف، إلى غير ذلك مما ينتفعون به من متاع الدنيا، إذا جاءتهم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

هذه الحسنة ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ المعنى: هذه لنا ونحن نستحقها، وما أُعطيت لنا إلا أننا قوم عظام يستحقون هذه الكرامة، فهذا مما نستحقه. افتراء وكذباً على الله.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [الأعراف: آية ١٣١] المراد بالسيئة هنا في أقوال المفسرين: هو ضد الحسنة، والمراد: إذا جاءهم قحط، وكان في الأرض جدب، وقلَّت أرزاقهم، وجاءتهم الأمراض. والمعنى: أن الله إذا قلّل عليهم الأرزاق، وأمسك عنهم المطر، وجاءتهم الأمراض، إن جاءتهم هذه البلايا ﴿يَطَّيَّرُوا۟﴾ أصله: يتطيروا ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: آية ١٣١] والتطير في لغة العرب: التشاؤم. أي: يتشاءموا بموسىٰ ومن معه، ويقولون: هذا الجدب، وهذه قلة الأرزاق، وهذه الأمراض ما جاءنا إلا بسبب شؤمكم، وسبب ما جئتم به من دين موسىٰ، كل هذه البلايا بسبب شؤمكم. وهذه عادة الكفار إذا تمردوا على الله، وعصوا الله، وكذبوا رسله، وعذبهم الله على ذلك، زعموا أن ذلك جاءهم من قِبل الأنبياء[1]. ونظائره في القرآن كثيرة، كما قال الكفار لنبينا ﷺ مثل ذلك لما ذكره الله عنهم في سورة النساء في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النساء: آية ٧٨] وكما قال عن الرسل المذكورين في يس إن قومهم قالوا: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ﴾ [يس: الآيتان ١٨، ١٩] وكما ذكر عن قوم صالح أنهم قالوا له: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: آية ٤٧] والتطير معناه: التشاؤم، والتشاؤم هو أن يقول: جاءني هذا بشؤمك. وأصل التطير[2] مشتق من الطير،/ لأن عادة العرب أن أكثر ما كانوا يتشاءمون به ١٧/ب
الطير، وهو الطيرة المعروفة، كانوا يأتون الطير ويطيرونها من مواقعها، فإذا طارت على اليمين قالوا: هذا سانح. وتيمنوا به، وإذا طارت إلى الشمال

---

(١) انظر: الأضواء (٢/٣٣٠ ـ ٣٣١).

(٢) انظر: القرطبي (٧/٢٦٤).

قالوا: هذا بارح، وتشاءموا له، كما قال علقمة بن عبدة التميمي[(١)]:

ومن تعرض للأطيار يزجرها على سلامته لا بد مشؤوم

وكانوا يدّعون أنهم يعرفون أمور الغيب من طيران الطيور، وجِهَات طيرانها، وأصواتها، والأشجار التي تنزل عليها، وكان من المشتهرين بذلك بنو لِهْب من قبائل العرب، وفيهم قال الشاعر[(٢)]:

خبيرٌ بَنُو لِهْبٍ فلا تَكُ مُلْغِياً مَقَالَةَ لِهْبِيٍ إذا الطيرُ مرتِ

وقد جاءت أحاديث عن النبي ﷺ تنهى عن الطيرة، وتحذر المسلمين منها، حديث ابن مسعود في سنن أبي داود وغيره أنه ﷺ قال: **«الطيرة شرك»**[(٣)] وفيه أحاديث كثيرة معروفة تنهى عن ذلك، وجاء ببعض الأحاديث إن الإنسان إذا وجد شيئاً منها يقول: **«اللهم لا خير إلا خيرك، ولا ضرر إلا ضرك»**[(٤)]. الحديث المشهور.

وعلى كل حال فالتطير والتشاؤم من صفات الكفار، وعلى المسلمين

---

(١) البيت في ديوانه ص٥٦، وشطره الأول في الديوان هكذا:

ومن تعرض للغربان... ....

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنعام.

(٣) أخرجه أحمد (٣٨٩/١، ٤٣٨، ٤٤٠)، والبخاري في الأدب المفرد، حديث رقم (٩١٢)، وأبو داود في الكهانة والتطير، باب: في الطيرة. حديث رقم (٣٨٩٢)، (٤٠٥/١٠)، والترمذي في السير، باب ما جاء في الطيرة. حديث رقم (١٦١٤)، (١٦٠/٤)، وقال: «حسن صحيح» ا.هـ. وابن ماجه في الطب، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة. حديث رقم (٣٥٣٨)، (١١٧٠/٢)، والحاكم (١٧/١ ـ ١٨)، والطيالسي في المسند ص٤٧، والطحاوي في المشكل (٣٥٨/١)، وشرح المعاني (٣١٢/٤)، وابن حبان (الإحسان (٦٤٢/٧)، والبيهقي (١٣٩/٨)، والبغوي في شرح السنة (١٧٧/١٢ ـ ١٧٨)، من حديث ابن مسعود (رضي الله عنه). وهو في صحيح الأدب المفرد برقم (٦٩٨)، السلسلة الصحيحة برقم (٤٢٩)، صحيح أبي داود (٣٣٠٩)، صحيح ابن ماجه (٢٨٥٠)، غاية المرام (٣٠٣)، صحيح الترمذي (١٣١٤).

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٠/٢)، وابن السني في عمل اليوم والليلة ص١١٧، ولفظه: **«اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»**.

اجتنابه، وأن يتوكلوا على الله، ولا ينبغي لهم أن يمنعهم التطير من سفر، ولا أن يجزعوا من التطير. واعلموا أن الأمور بيد الله، وأن الشؤم الحقيقي الذي يستجلب كل الضرر هو مخالفة رب العالمين (جل وعلا)، أما كل فعل لم يخالف به الله فهذا لا ضرر فيه ولا طيرة؛ لأن الله ما أباحه إلا لأنه لا ضرر فيه. وعلى المسلم أن يتحرز من هذا كله، ولا يتشاءم بشيء، وأن يبني الأمور على التوكل على الله، ومراعاة أوامره ونواهيه، كما هو معلوم لا يخفى. وهذا معنى قوله: ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أظهر الأقوال في هذه الآية الكريمة: أن الله لمّا ذكر أنهم يكفرون به، ويتمردون ويعارضون رسله، وأنهم مع ذلك يزعمون أن الذي يصيبهم [إنما هو بسبب شؤم نبيهم موسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين، فأكذبهم][1] الله ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: الطائر المشؤوم التي جاءتهم البلايا منه عند ربهم وذلك إنما جاءهم بسبب كفرهم بالله ومعصيتهم لله؛ لأن الكفر بالله ومعصية الله هو الطائر المشؤوم الذي يأتي صاحبه بسببه كل سوء ومكروه في الدنيا والآخرة. وقال بعض العلماء: طائرهم وحظهم عند الله هو الذي يأتيهم بالخير ويأتيهم بالشر، وليس ما جاءهم من قِبلنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون أن ذلك هو الحق فيكذبون على الله ويتقولون على موسىٰ ومن معه أن ما أصابهم بسبب شؤمهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٣١].

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٢، ١٣٣].

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف: آية ١٣٢].

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(. . .)[١] و (ما) الثانية مؤكدة لها تأكيداً لها؛ لأن تكريرها يفيدها تأكيداً، وأصلها: ما ما بتكرير لفظة (ما) وأنهم استثقلوا توالي حرفين متجانسين فأبدلوا ألف (ما) الأولى هاء، وقالوا: (مهما) هذا قول الخليل، واختيار جُلّ البصريين.

وقال جماعة آخرون: إن (مهما) أصلها: (مه) التي هي اسم فعل بمعنى: اكفف. وأن (ما) الأخرى هي (ما) التي تُعلِّق الشرط بالجزاء، والمعنى: اكفف. اكفف يا موسى ما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين أي: كف عنا مجيئك بالآيات، ما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين.

وعلى هذين القولين فأصل (ما) مركبة لا بسيطة.

وقال جمهور علماء العربية: إن (مهما) أصلها حرف بسيط وضعته العرب هذا الوضع تُعلِّق به الجزاء على الشرط، وهو عند الأصوليين من صيغ العموم، وعمومها من جهة الأحوال والأوضاع. والمعنى: أي شيء تأتينا به كائناً ما كان من آية. الضمير في قوله: (به) راجع إلى (مهما) وكذلك الضمير المؤنث في قوله: (بها) راجع إلى الآية التي هي مبنية لـ(مهما)، فكلا الضميرين راجع في الحقيقة إلى (مهما) إلا أن الضمير المذكر رُوعي به لفظ (مهما) والضمير المؤنث روعي به معنى الآية المبينة لـ(مهما). ومن علامات الاسم عند علماء العربية: رجوع الضمير، فمن علامات أن (مهما) اسم: رجوع الضمير إليها، وقد رجع إليها ضمير مذكر باعتبار اللفظ، وضمير مؤنث باعتبار المعنى، كما جاء ذلك فيها في قول زهير[٢]:

---

(١) في هذا الموضع ذهب بعض التسجيل كما ترى، ويمكن أن يُستدرك بعضه مما ورد في الدر المصون (٤٣١/٥)، وهو قوله: «واختلف النحويون في (مهما) هل هي بسيطة أم مركبة؟ والقائلون بتركيبها اختلفوا: فمنهم من قال: هي مركبة من ما ما، كُررت (ما) الشرطية توكيداً فاستُثقل توالي لفظين فأبدلت ألف (ما) الأولى هاء. وقيل: زيدت (ما) على (ما) الشرطية كما تُزاد على (إنْ) في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ فعُمل العمل المذكور للثقل الحاصل. وهذا قول الخليل. . .».

(٢) البيت في معلقته (شرح القصائد المشهورات ١٢٥/١)، البحر المحيط (٣٧١/٤)، الدر المصون (٤٣٢/٥).

ومهما تكنْ عند امرئٍ من خليقةٍ ولو خَالَها تخفىٰ على الناس تُعْلَمِ

﴿تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ﴾ (من) بيانية. والآية بيان لـ(مهما). أي: من شيء تأتينا به مبنياً كونه آية.

وفي الآية سؤال: كيف أقروا بأنه آية، وزعموا أنه جاء بها ليسحرهم؟

وأُجيب عن هذا: بأن قولهم: ﴿مِن ءَايَةٖ﴾ أي: بزعمك ودعواك، لا أنهم يُقرون بذلك.

﴿لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا﴾ لتصرفنا بها عن ديننا وتخدعنا عما نحن فيه.

﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ بوجه من الوجوه، ولا بحال من الأحوال، ولو أتيت بما أتيت به من الآيات؛ لأن (مهما) عموم شامل يدل على أنه لو جاء بجميع الآيات لكانوا كما قالوا، فلما تمردوا هذا التمرد العظيم، وعاندوا هذا العناد الكبير، ولجوا هذا اللجاج الشديد، عاقبهم الله معاقبات دنيوية بعضها يتبع بعضاً، قال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣] قد تقرر في فن الأصول في الكلام على مسلك الإيماء والتنبيه: أن (الفاء) من حروف التعليل[(١)]، يقولون: سهىٰ فسجد. أي: لِعِلَّة سهوه. سرق فقُطعت يده. أي: لِعِلَّة سرقته، قالوا: ﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ أي: لِعِلَّة عنادهم وضلالهم وكفرهم وعدم إيمانهم بآيات الله. وصيغة الجمع في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ للتعظيم.

﴿عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ قال بعض العلماء: أصل الطوفان مصدر من: طاف يطوف، كالرجحان، والكفران، والغفران، نُعت به وللعلماء في الطوفان المذكور هنا أقوال متقاربة[(٢)]:

أشهرها وعليه الجمهور أن المراد بالطوفان: الماء الكثير كما صرح الله بذلك؛ لأنه أهلك قوم نوح بالطوفان، وأن الله أولًا عذبهم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٤٩)، القرطبي (٧/٢٦٧).

بالماء الكثير، فأرسل عليهم مطراً كثيراً حتى دخل الماء بيوتهم، وصار الواحد منهم في بيته والماء إلى ترقوته، وإذا جلس غرق في الماء، ومنعهم الماء حراثتهم أن يحرثوا أو يزرعوا أو يعملوا شيئاً، صار يكاد يهلكهم. هذا هو الأظهر في الآية، أن المراد بالطوفان: الماء الكثير بأن أرسل الله عليهم الأمطار الغزيرة حتى فاض الماء على وجه الأرض ودخل بيوتهم. يقول المفسرون والمؤرخون(١): حتى إن الماء ليبلغ تراقيهم، ومن جلس منهم غرق في الماء، فمنعهم النوم وحالة المعائش والعمل في أرضهم، وكاد يقضي عليهم. وهذا هو القول المشهور الذي عليه أكثر العلماء.

وقال جماعة من علماء التفسير: الطوفان: الجدري. وهو قول غريب، وإن ذكره غير واحد.

وقال بعض العلماء: الطوفان: المُوتان. والمُوتان بضم الميم: موتٌ كثيرٌ يأتي الحيوانات فيقع فيها موت كثير، وربما أُطلق على الطاعون؛ لأنه يموت به موت كثير. وكان بعض علماء السلف يقول: الطوفان: هو كل ما طاف بك ليهلكك ولا قدرة لك عليه(٢)، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [القلم: آية ١٩].

فالحاصل أن أشهر أقوال علماء التفسير: أن المراد بالطوفان هنا: الماء الكثير. وقيل: إنه الجدري. وقيل: المُوتان، وهو موت الحيوانات الكثير، أي: الطاعون. والأظهر هو القول الأول: أنه الماء الكثير الذي دخل بيوتهم ومنعهم من أن يعملوا شيئاً. وبعض علماء التفسير يقولون: مكث عليهم سبعة أيام، من السبت إلى السبت. ومنهم من يقول: أربعون يوماً، ومنهم من يقول غير ذلك(٣). فلما شق عليهم وأجهدهم شكوا إلى فرعون، فجاء فرعون إلى موسى وقال له: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٦٥).

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٥٢)، القرطبي (٧/٢٦٨).

(٣) انظر: ابن جرير (١٣/٦٥، ٦٩)، القرطبي (٧/٢٦٨).

﴿ٱلرِّجْزَ﴾ أي: هذا العذاب والله ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٤، ١٣٥] فكشفه الله عنهم. قال المفسرون: وأنبتت أرضهم من ذلك الماء أكثر ما كانت تنبته، وجاءهم نعيم، فرجعوا إلى كفرهم، وقالوا: والله إنه لساحر.

ثم إن الله بعد الطوفان ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ﴾ سلط الله عليهم الجراد. والتحقيق أن الجراد هو هذا الجراد المعروف الذي يطير، الذي تعرفونه. وبعض العلماء يقولون: إن أصله نثرات الحوت. وقد جاء ذلك في حديث عند ابن ماجه من حديث أنس وجابر (رضي الله عنهما)[1]. وتسليط الجراد عليهم: أكثر الله عليهم الجراد. قال بعض العلماء: حتى كانوا لا يرون شعاع الشمس من كثرة الجراد، وأنه [كثر عليهم][2] وملأ بيوتهم، وأكل أبوابهم ومساميرها، وسقوف البيوت، حتى تساقطت البيوت، وأكل جميع ما عندهم من غلات وثمار وزروع، وكاد يهلكهم.

والجراد هو الحيوان المعروف، وهو يؤكل، يجوز أكله على التحقيق[3]، كما ثبت في الصحيح عن ابن أبي أوفى قال: «غزونا مع

---

(١) وهما في الترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في الدعاء على الجراد. حديث رقم (١٨٢٣)، (٢٦٩/٤)، وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه» ا.هـ. وابن ماجه في الصيد، باب صيد الحيتان والجراد. حديث رقم (٣٢٢١)، (١٠٧٣/٢)، والخطيب في تاريخ بغداد (٤٧٨/٨، ٤٧٩)، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١٤/٣)، وعقبه بقوله: «هذا لا يصح عن رسول الله ﷺ» ا.هـ. وقال البوصيري في مصباح الزجاجة: (٦٤/٣ ـ ٦٥): «هذا إسناد ضعيف» ا.هـ. وقال السيوطي في اللآلىء المصنوعة (٢٣٢/٢ ـ ٢٣٣): «أخرجه ابن ماجه عن هارون به وأسقط والد زياد. والله أعلم» ا.هـ. كما ذكره الكناني في تنزيه الشريعة (٢٥١/٢ ـ ٢٥٢)، وعزاه للخطيب ثم قال: «وأخرج الحاكم في تاريخ نيسابور والطبراني عن ابن عمر أن جرادة. . .» وذكر نحوه. كما ذكره الفتني في تذكرة الموضوعات ص١٥٤، ١٥٥، وضعفه الحافظ في الفتح (٦٢١/٩).

(٢) في هذا الموضع كلام غير مفهوم، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) انظر: القرطبي (٢٦٨/٧).

رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد»[١] وفي ابن ماجه: «كان أزواج النبي ﷺ يتهادين الجراد على الأطباق»[٢].

وعامة العلماء على أن الجراد كالسمك، ميتته حلال، ولم نعلم مخالفاً في هذا إلا مالك بن أنس (رحمه الله) وأصحابه يقول: لا يؤكل الجراد إلا إذا ذُكّي بما يموت به. أي: ولو مات حتف أنفه فهو ميتة لا يؤكل[٣].

واحتج جمهور العلماء بحديث ابن عمر المشهور: **«أُحل لنا ميتتان ودمان، أما الميتتان: فالسمك والجراد، والدمان: الكبد والطحال»**[٤].

ومالك يقول ـ وهو صادق ـ: إن هذا الحديث لم يأتِ من طريق صحيحة مرفوعة، فجميع طرقه المرفوعة ضعيفة لا تقوم الحجة بشيء منها.

واحتج على المالكية من خالفهم بأنه جاء من رواية موقوفة على ابن عمر من طريق سليمان بن بلال، وهي طريق صحيحة، وهي موقوفة على ابن عمر، إلا أن لها حكم الرفع؛ لأن طريق سليمان بن بلال صحيحة، وكونها موقوفة على ابن عمر لا يضر؛ لأن لها حكم الرفع، وكل ما هكذا له حكم الرفع؛ لأن من المعلوم أنه لا يُحله إلا هو ﷺ.

أما المالكية فقالوا: نعم، نحن نعلم طريق سليمان بن بلال هذه، ونعلم أن هذا له حكم الرفع، ولكن كونه له حكم الرفع هذا من صناعة

---

(١) البخاري في الذبائح والصيد، باب أكل الجراد. حديث رقم (٥٤٩٥)، (٩/٦٢٠)، ومسلم في الصيد والذبائح، باب إباحة الجراد. حديث رقم (١٩٥٢)، (٣/١٥٤٦)، من حديث ابن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه عبدالرزاق (٤/٥٣٣)، وابن أبي شيبة (٨/١٣٨)، وابن ماجه في الصيد، باب صيد الحيتان والجراد. حديث رقم: (٣٢٢٠) (٢/١٠٧٣)، والبيهقي (٩/٢٥٨) وانظر: ضعيف ابن ماجه (٦٩١).

(٣) انظر: القرطبي (٧/٢٦٩).

(٤) أحمد (٢/٩٧)، وابن ماجه في الصيد، باب صيد الحيتان والجراد. حديث رقم (٣٢١٨)، (٢/١٠٧٣)، وأخرجه في موضع آخر، حديث رقم (٣٣١٤)، والدارقطني (٤/٢٧٢)، وعبد بن حميد (المنتخب) (٨١٨)، والبيهقي (١/٢٥٤)، والعقيلي (٢/٣٣١)، وابن عدي (١/٣٥، ٣٨٨).
وانظر: السلسلة الصحيحة (١١١٨)، صحيح ابن ماجه (٢٦٠٧).

الحديث التي اتفق أهل الحديث عليها، لا من قول الله، ولا من قول رسوله، ونحن يجب علينا أن نتمسك بعموم كلام الله وهو قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: آية ٣] وميتة الجراد داخلة في عموم الميتة، فلا ننصرف عن تحريم الله للميتة إلا بدليل جازم يجب الرجوع إليه من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ.

هذا كلام العلماء فيه، ووجه اختلاف وجهات نظرهم في ذلك، وهو معروف. وجاء في سنن ابن ماجه من حديث أنس وجابر أن النبي ﷺ دعا على الجراد وقال: «**اللهم أهلك كباره، واقتل صغاره، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخذ بأسرابه عن معائشنا وأرزاقنا إنك سميع الدعاء**». وأن جابراً لما سمعه يدعو عليه قال له: كيف تدعو على جند من جند الله؟ وأنه قال له: «**هو نثرة حوت**»(١). هكذا ذكروا في سنن ابن ماجه (رحمه الله) عن هذين الصحابيين. وذكر القرطبي في تفسير هذه الآيات(٢) أن الجراد إن هجم على زروع الناس اختلف العلماء: هل تجوز مقاتلته ومكافحته؟؟ وأن أظهر القولين أنه تجوز مكافحته وقتله لكف أذاه عن الناس، وهذا القول هو الذي لا ينبغي العدول عنه لجريه على ظاهر النصوص؛ لأن المسلم إذا تعدىٰ علىٰ أموال الناس لزم دفعه عنها ولو أدى إلى القتال، فكيف بالجراد!! وهذا معنى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣].

لما أنهكهم الجراد وكاد يهلكهم جاؤوا إلى فرعون وشكوا إليه، فذهب فرعون إلى موسىٰ وقال له: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ يعني الجراد ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ...﴾ [الأعراف: آية ١٣٤] إلى آخر القصة.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: آية ١٣٥] يقول بعض المفسرين: فمكثوا شهراً في عافية(٣).

---

(١) مضى قريباً في تفسير هذه الآية.

(٢) القرطبي (٢٦٨/٧).

(٣) انظر: ابن جرير (٦٦/١٣).

وبعضهم يقول: سنة. فأرسل الله عليهم القُمَّل، هذا القُمَّل الذي أرسل الله عليهم فيه للعلماء أقوال متقاربة[١]:

كان ابن عباس (رحمه الله) يقول: هو سوس الحنطة. أرسل الله عليهم سوس الحنطة ـ على قول ابن عباس ـ فتكدس عليهم، وملأ عليهم بيوتهم وآنيتهم وأطعمتهم، وكان يدخل بين الواحد وبين ثيابه، فبلغوا منه أذى شديداً.

وقال بعض العلماء: القُمَّل: صغار الدَّبَى، والدَّبَى: صغار الجراد قبل أن تنبت له أجنحة.

وكان أبو عبيدة في طائفة من علماء التفسير يقول: القُمَّل هو المعروف بالحمن[٢]، ويقال له: الحمنان، وهو نوع من القراد صغير، وأن الله ملأ عليهم الأرض منه. وذكر بعضهم: أن موسىٰ جاء لكثيب أعفر[٣] وضربه بعصاه، فجعله الله قُمّلًا[٤]. وأنه تكدس عليهم فملأ بيوتهم وآنيتهم وأطعمتهم، وامتص دماءهم تحت ثيابهم حتىٰ بلغوا منه غاية الجهد.

والحاصل أن القُمَّل هنا فيه أقوال متقاربة، بعضهم يقول: هو الحمنان المعروف بالحمن، وهو نوع من القردان صغير، وبعضهم يقول: هو صِغار الدَّبى، والدَّبى: الجراد الصغار قبل أن تنبت له أجنحة، وبعضهم يقول: هو البراغيث[٥]. هذه أقوال فيه لا يُكذب بعضها بعضاً، وعلى كل حال فهو شيء من خلق الله سلّطه الله عليهم فعذبهم به، وآذاهم إيذاءً كثيراً، حتىٰ ضجوا وزعموا أنهم يتوبون، فهذا معنى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣] لما عذبهم

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٥٤)، القرطبي (٧/٢٦٩).

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٥٦)، القرطبي (٧/٢٦٩).

(٣) في ابن جرير: (١٣/٦٤): «فمضى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه...» ا.هـ.

(٤) انظر: ابن جرير (١٣/٦٤ ـ ٦٦).

(٥) انظر: هذه الأقوال في المصدر السابق (١٣/٥٤ ـ ٥٧).

القُمَّل ـ سواء قُلنا: إنه البراغيث، أو قُلنا: إنه الدَّبى، أو قلنا: إنه سوس الحنطة، أو قلنا: إنه الحمن والحمنان، وقال بعضهم: هو حيوانات تُشبه القُراد الكبير لها ريح منتنة سلطها الله عليهم ـ قال بعض المفسرين[١]: مكث عليهم أيضاً سبعة أيام، من السبت إلى السبت، فشكوا إلى فرعون، فجاء فرعون موسى فقال: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٤، ١٣٥] والقمل هذا كان يأتي بعض الناس فيتأذى به كما هو معروف، قال بعضهم: ومنه قول الأعشىٰ[٢]:

قَوْماً يُعالجُ قُمَّلاً أبناؤهُم وَسَلاَسِلاً أُجُداً وباباً مؤصداً

أن هذا القمل يؤذيهم، وقد عرفنا أقوال العلماء في تفسيره، وهذا معنى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣].

لما رفع الله عنهم القُمَّل وأزاله ولم يبق له أثر مكثوا شهراً في عافية، كما قال بعضهم، وقال بعضهم غير ذلك[٣]، فأرسل الله عليهم الضفادع، والضفادع جمع ضفدع، وهو الحيوان المعروف، وكان بعضهم[٤] يزعم أن الضفادع كانت بريّة، وأنها لم تكن من حيوانات البحر كما زعموا، فلما عذّب الله بها قوم فرعون صارت تقتحم في قدورهم وهي تفور، وتقتحم في تنانيرهم في شدة حرها، ومنعتهم الطعام، كان الرجل يجلس في الضفادع إلىٰ عنقه، وإذا أراد أن يتكلم بادرته الضفدع فجاءت في فِيه، ولقوا منها العذاب الشديد ـ والعياذ بالله ـ فلما لقوا منها ذلك كانوا ليس عندهم شيء إلا به الضفادع، لا يرفعون ثوباً ولا إناء إلا وبه الضفادع، وبيوتهم ملأى منها، والواحد جالس في

---

(١) انظر: ابن جرير (٦٧/١٣).

(٢) ديوان الأعشى ص٥٤. والأُجد: مُحكمة الربط.

(٣) انظر: ابن جرير (٦٧/١٣).

(٤) انظر: السابق (٦٣/١٣).

الضفادع إلى عنقه، تتساقط لهم في قدورهم وأطعمتهم وتنانيرهم، وكادت تهلكهم، فمكثت عليهم - يقولون - سبعة أيام، من السبت إلى السبت، فشكوا ذلك إلى فرعون، فجاء فرعون موسىٰ فقال: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٤] إلى آخر ما ذكرنا[١].

والضفادع حيوانات تكون برية وتكون بحرية، والتحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه أنها لا يجوز أكلها ولا قتلها، وقد ثبت في السنن من حديث صحيح أن النبي ﷺ سأله طبيب في ضفدع يجعلها في دواء فنهى ﷺ عن قتلها[٢] هذا جاء في السنن في حديث صحيح عن النبي، وما نهىٰ النبي ﷺ عن قتله لا يجوز أكله؛ لأنه لا يوصل إلى أكله إلا بقتله بالذبح، هذا هو التحقيق. فالذين يأكلون الضفادع يرتكبون الحرام الذي لا شك فيه، وظاهر هذا الحديث سواء كانت بريّة أو بحرية، وهو الأظهر والله تعالى أعلم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣].

ولمّا رفع الله عنهم الضفادع، وبقوا في عافية شهراً أو غير ذلك، وهم راجعون لأشد ما هم فيه من العذاب، وقالوا: تبيّن لنا أن هذا الرجل هو رئيس السحرة وكبيرهم، كما قص الله عنهم في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: آية ٧١] عندما آمن السحرة لرب موسىٰ وهارون، فلما رجعوا إلى كفرهم بعد ذلك أرسل الله عليهم الدم، والدم: هو الدم هذا المعروف الذي تعرفونه، وأصل الدم (دَمَيٌ) بالياء، فهو من الأسماء الثلاثية

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٣/٥٨ - ٦٩).

(٢) أبو داود في الطب، باب في الأدوية المكروهة. حديث رقم (٣٨٥٣)، (١٠/٣٥٢)، وأخرجه في موضع آخر. انظر: حديث رقم (٥٢٤٧)، والنسائي في الصغرى، كتاب الصيد والذبائح، باب الضفدع. حديث رقم (٤٣٥٥)، (٧/٢١٠)، وفي الكبرى، كتاب ما قذفه البحر، باب الضفدع: حديث رقم (٤٨٦٧)، (٣/١٦٦)، والبيهقي في الصغرى، كتاب الصيد والذبائح، باب ما يحرم من جهة ما لا تأكله العرب. حديث رقم (٤٢٣٢)، (٢/٤١١)، والطيالسي في المسند ص١٦٣، والطحاوي في المشكل (٢/٣١٢ - ٣١٣).

التي حذفت العرب لامها وعاضتها على العين. والتحقيق أن لامه المحذوفة ياء، خلافاً لمن زعم أنها واو، فهو (دمي) على وزن (فَعَل)[١] وربما ظهرت ياؤه المحذوفة عند التثنية وغيرها، ومن ظهورها عند التثنية قول سحيم بن وثيل الرياحي[٢]:

فلو أنّا على حَجَرٍ ذُبحنا جرى الدَّمَيَانِ بالخبرِ اليقين

وهذه الياء المحذوفة من الدم تظهر في كثير من التصاريف، تظهر في الفعل الماضي، وتظهر في المضارع، ومن ظهورها في الفعل الماضي المشتق من الدم قول الراجز[٣]:

هل أنتِ إلا أصبعٌ دميتِ وفي سبيل الله ما لَقِيْتِ

لأن الياء من (دَمِيَ) (فَعِلَ). و (دمي) معناها: جاء منها الدم. وكذلك تظهر في المضارع، ومنه قوله[٤]:

ولسنا على الأعقابِ تدمىٰ كُلُومنا ولكن علىٰ أقدامنا تقطُرُ الدما

ومعنى: (تَدْمَىٰ) أصله: (تَدْمَيُ) (تَفْعَلُ) أُبدلت الياء ألفاً لسبق الفتحة قبلها كما هو معروف، هذا أصل الدم.

ومعنىٰ تعذيبهم بالدم[٥]: أنهم كانوا كلما أخذوا الماء ليشربوا فإذا ذلك الماء دمٌ أحمر قانٍ عبيط، ليس لهم ماء، فإذا صبوا من أوعيتهم ماء فإذا ذلك الماء دم، وإذا استقوا من الأنهار فإذا الماء الذي استقوا منها دم، وإذا استقوا من الآبار فإذا هو دم.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٥) من سورة الأنعام.

(٢) البيت للمثقب العبدي، وهو في ديوانه ص٩٩، رصف المباني ص٢٤٢، اللسان (مادة: أخا) ص٣٢، (مادة: دمي) ص١٠١٧، ونسبه بعضهم لعلي بن بدال.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٤٥) من سورة الأنعام.

(٤) السابق.

(٥) انظر: ابن جرير (١٣/٥٨ ـ ٦٨).

يذكرون أن فرعون كان يجمع القبطي والإسرائيلي، والإسرائيلي يشرب الماء من إناء واحد فما أخذ منه الإسرائيلي فهو ماء، وما أخذه القبطي يكون دماً، حتى إنهم زعموا أن القبط لما أضرّ بهم العطش؛ لأن جميع مياههم صارت دماً، وصار كل ماء استقوه دماً عبيطاً، أن القبطية كانت تقول لجارتها الإسرائيلية: اجعلي الماء في فيك ومُجيه في فيّ لأتبرد به، فإذا مَجَّتْه في فيْها نزل من فم الإسرائيلية ماء، فإذا وصل فم القبطية إذا هو دم عبيط!! هكذا يقولون[١].

والمفسرون يقولون: إن هذا الذي وقع كله للقبطيين لم يقع منه شيء للإسرائيليين، فلم يدخل الماء بيوتهم، ولم يأتهم القمل، ولم تأتهم الضفادع، ولم يأتهم الدم كما يقولون ـ والله تعالى أعلم.

قالوا: زعموا أن فرعون ـ قبّحه الله ـ أضرّ به العطش، وعطش عطشاً شديداً؛ لأنه صار كلما استقىٰ ماء فإذا هو دم عبيط، وأنه اضطر إلى مصّ مياه الشجر التي تكون في الشجر، قالوا: فإذا مصّ ماء الشجرة فوصل فاه فإذا هو دم ـ والعياذ بالله تعالى ـ قالوا: مكث عليهم الدم سبعة أيام، من السبت إلى السبت، فلما تأذوا به كثيراً شكوا إلى فرعون، وجاء فرعون موسىٰ وقال: الآن حُق لنا أن نتوب التوبة النصوح فـ ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٤] فلما كشفه عنهم رجعوا إلى أخبث كفرهم وأشده، وهذا من اللجاج؛ ولأجل هذا ـ اللجاج والكفر وإخلاف الوعد ـ غضب موسىٰ عليهم غضباً شديداً، ودعىٰ ربه ذلك الدعاء الحاد العظيم حيث ذكره الله في سورة يونس في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾ [يونس: آية ٨٨] وفي قراءة أخرى[٢]: ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٣/٦٤).

(٢) مضت عند تفسير الآية (٥٥) من هذه السورة.

حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: الآيتان ٨٨، ٨٩] لأن [هارون][1] قال: آمين. والمُؤَمِّن أحد الداعيين. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣] (آيات) حال. أرسلنا عليهم هذه الأشياء في حال كونها آيات. أي: علامات ودلالات واضحات لا شك في الحق معها.

وقوله: ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ قال بعض العلماء: ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي: بينات واضحات لا لبس فيها أنها من الله، وأنها حق، وأن هؤلاء الكفرة عاندوا الحق الواضح.

وقال بعض العلماء: مفصلات: بينها فصل؛ لأنه كلما جاءتهم آية وعذبهم الله بها وضَجُّوا إلى فرعون، وضَجَّ فرعون إلى موسىٰ، وقال: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٤] فكشف عنهم الرجز ومكثوا زمناً في عافية فصار بين الآيات فصل من العافية بين هذه وهذه، وأن ذلك هو معنى قوله: ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي: متتابعات بين كل اثنتين منها فصل، هكذا قاله بعضهم، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: تكبروا عن قبول الحق مع مشاهدة هذا عندما ينزل بهم العذاب يستكينون ويخضعون قهراً لا رغبة في الخير، فإذا رُفع عنهم أعرضوا إلى ما كانوا عليه، هذا معنىٰ: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٤] قدمنا مراراً[2] أن القوم في لغة العرب التي نزل بها القرآن: اسم جمع لا واحد له من لفظه، يختص في الوضع في الذكور دون الإناث، وربما دخل فيه الإناث بحكم التبع، والدليل على اختصاصه بالذكور في الوضع قوله تعالى في الحجرات: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ فلو دخل النساء في اسم القوم وضعاً لما قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾

---

(١) في الأصل: «موسى». وهو سبق لسان.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

[الحجرات: آية ١١] ونظيره من كلام العرب قول زهير بن أبي سلمى(١):

وما أدري وسوفَ إِخَالُ أَدْرِي أقومٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

ومن الدليل على أن النساء ربما دخلن في القوم بحكم التبع: قوله تعالى في بلقيس: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: آية ٤٣] وهذا معنى قوله: ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣].

المجرمون: جمع تصحيح للمجرم، وهو اسم فاعل الإجرام، والمجرم هو مرتكب الجريمة، والجريمة: الذنب الذي يستحق صاحبه التنكيل والعذاب، وهذا معنى قوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣].

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٤، ١٣٥].

هذه الآية كأنها تُقرأ عند كل واحدة من الآيات السابقة ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: آية ١٣٠] قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣] أي: ولما عُذبوا بالطوفان ووقع عليهم رجز الطوفان ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ فلما رفعه عنهم ووقع عليهم رجز الجراد ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٤].

[وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾](٢) هم بنو إسرائيل بإجماع العلماء(٣)، وكونهم ﴿كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ [الأعراف: آية

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) انظر: الأضواء (٢/٣٣١).

١٣٧] كان فرعون يستضعفهم ويأخذهم أخذ الضعيف الذي لا حيلة له فيقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويستخدمهم في الأعمال الشاقة، إلى غير ذلك من الإهانات، كما يأتي في قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: آية ١٤١].

فقوله: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: آية ١٣٧] جماهير العلماء على أن مشارق الأرض هو المفعول الثاني لـ(أورثنا)[١]، أورثنا المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها. أي: جعلناها آيلة إليهم بعد أن أهلكنا الكفار الذين كانوا فيها، وهذا هو التحقيق خلافاً لما نُقل عن الكسائي والفراء[٢] من أنه منصوب بنزع الخافض، وأن المعنىٰ: وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون في مشارق الأرض ومغاربها، وعلىٰ هذا القول فمفعول الإيراث محذوف. ولا يخفىٰ أن هذا القول غير صواب، وإن نقل عن الكسائي والفراء وغيرهم، وأن التحقيق أن الإيراث واقع على بني إسرائيل، وأن قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ﴾ أن (أورثنا) تطلب مفعولين، المفعول الأول: هو قوله ﴿ٱلَّذِينَ﴾ والمفعول الثاني: هو قوله: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أورثناهم مشارق الأرض كما جاء موضحاً في آيات أُخر، كقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: آية ٢٨] ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: آية ٥٩] ونحو ذلك من الآيات.

ومعنىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ قال أكثر المفسرين[٣]: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ﴾: الشام، ومغاربها: مصر. وأن الله أهلك فرعون وقومه وأورث بني إسرائيل أرضهم كما صرح بذلك في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: آية ٢٨] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: آية ٥٩] وهي ما تركوا من

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٤٣٨).

(٢) انظر: القرطبي (٧/٢٧٢).

(٣) أكثر السلف على القول الثاني. راجع: ابن جرير (١٣/٧٦)، الدر المنثور (٣/١١١ ـ ١١٣).

جنات وعيون، وزروع، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وأن مشارق الأرض: هي الشام، أورثهم الله إياها بعد أن أهلك الجبارين الكنعانيين وأبادهم. هذا يقوله أكثر العلماء، ويزعمون أن في التوراة: أن هذه المشارق والمغارب من الفرات، وأنها من الفرات إلى المحل الذي خرجوا من البحر منه [وطلبهم][(١)] منه فرعون!!

وبعض العلماء يقول[(٢)]: مشارق الأرض ومغاربها: الشام فقط؛ لأنه أورثهم أرضه من مشرقها ومغربها، أي: ما يلي المشرق منها وما يلي المغرب.

واعلموا أن الآيات القرآنية دلت دلالة واضحة على أن الله أورث بني إسرائيل ما كان عند فرعون وقومه من الجنات والعيون، والزروع والكنوز، والمقام الكريم، هذا جاء في آيات متعددة، جاء موضحاً في سورة الشعراء، وفي سورة الدخان، وأُشير له هنا في الأعراف.

وبعض العلماء يقول: في إيراثهم ديار مصر وأمواله، وديار قومه وأموالهم، فيه إشكال؛ لأنه لم يُعلم في التاريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد أن أنجاهم الله من عذاب فرعون وفلق لهم البحر ـ والله تعالى أعلم ـ ولأجل ذلك قال بعض العلماء: أراضي الشام، ومشارقها: ما يلي جهة المشرق من أرض الشام من أطرافها، وما يلي جهة المغرب. هذا أقوال العلماء في الآية.

وقوله: ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أي: أكثرنا فيها البركات من كثرة المياه والزروع والثمار ونحو ذلك من بركات الأرض وخيراتها. وهذا معنى قوله: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: آية ١٣٧] جماهير العلماء[(٣)]

---

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٧٦)، القرطبي (٧/٢٧٢).

(٣) انظر: ابن جرير (١٣/٧٧)، القرطبي (٧/٢٧٢)، الأضواء (٢/٣٣١).

على أن المراد بهذه الكلمة التي صرح الله بأنها تمت على الإسرائيليين أنها هي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: الآيتان ٥، ٦] ومعنىٰ تمام الكلمة: أنها أولاً كانت وعداً، فلما أُنجز هذا الوعد فقد تم ذلك بإنجازه كما لا يخفىٰ. وهذا معنى قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الحسنىٰ: تأنيث الأحسن، والأحسن: الذي يفوق غيره في الحسن ويفضُله.

وقوله: ﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تمت عليهم: أي: مضت عليهم وكملت عليهم بإنجازها لما كانت وعداً.

وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ الباء سببية، و (ما) مصدرية، أي: بسبب صبرهم. وذلك يدل على أن الصبر سبب للفرج كما هو معروف، وكما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: آية ٤٥] وهذا معنىٰ قوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾.

وقوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ التدمير: الإهلاك التام. والمعنىٰ: دمرنا وأهلكنا ما كان يصنعه فرعون وقومه من القصور التي كان يبنيها، والبنايات التي كان يضعها في الأرض دمرها الله، وهدمها وأهلكها.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ قرأ هذا الحرف جماهير القراء غير ابن عامر وشعبة عن عاصم: ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ بكسر الراء مضارع عَرَشَه يعرشه. وقرأ من السبعة: ابن عامر وشعبة عن عاصم: ﴿**وما كانوا يَعْرُشُون**﴾[1] وهما لغتان وقراءتان صحيحتان، (يعرُشون) بضم الراء لغة بني تميم.

ومعنى: ﴿يَعْرِشُونَ﴾ فيه وجهان للعلماء[2]: قال بعض العلماء: ﴿يَعْرِشُونَ﴾ أي: لجنات الكرم، وهو العنب يجعلون لها العريش لتمتد عليه، كما تقدم في قوله: ﴿جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: آية ١٤١].

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٤.

(٢) انظر: ابن جرير (١٥٦/١٢)، (٧٨/١٣)، القرطبي (٢٧٢/٧).

وقال بعضهم: عَرَشَه إذا رفع بناءه، والعرش أصله السقف، وعروش الأبنية: سقوفها. يعني: ودمرنا ما كانوا يرفعونه من البناء كصرح هامان المشهور، ونحو ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٧].

١٨/أ / ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٨، ١٣٩].

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ العرب تقول: جاوز الشيء وجاوز به غيره إذا جازه وتعدّاه، و (فَاعَلَ) هنا بمعنى المجرد بمعنى: جاز. أي: إذا تخطاه وتعداه، وذلك أن الله (جل وعلا) لما أمر نبيه موسى أن يُسري ببني إسرائيل ويرفع عنهم يد قهر فرعون، وأسرى بهم ليلًا ذاهبين إلى جهة البحر الأحمر، وأن فرعون استيقظ من الصباح فلم يجد من الإسرائيليين أحداً، فأرسل فرعون في المدائن حاشرين، وزعم أن الإسرائيليين قليل ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٥٤، ٥٥] وأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً، فلما ارتفع النهار تراءا الجمعان: بنو إسرائيل على شاطىء البحر، وفرعون يتبعهم من ورائهم، فخاف الإسرائيليون خوفاً شديداً كما أوضحناه سابقاً في سورة البقرة، فقالوا: إن تقدمنا فالبحر أمامنا، وإن تأخرنا ففرعون وجنوده من ورائنا. فقال الله لهم ما قال في سورة طه: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ وفي قراءة أخرى: ﴿**لا تخف دركاً ولا تخشىٰ**﴾[1] [طه: آية ٧٧] دركاً مما وراءك من فرعون وجنوده، ولا تخشىٰ من البحر أمامك، سيجعل الله لكم مخرجاً.

وعند ذلك أوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر فضرب البحر بعصاه فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم. يعني صار البحر كأنه جبال عظام بينها طرق، وأرسل الله عليها الريح ـ كما يقول المفسرون ـ فيبست كما أشار له تعالىٰ بقوله: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: آية ٧٧] يزعم المفسرون

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٩٦.

أنه كانت في البحر اثنتىٰ عشرة طريقاً، وأن الأمواج ممسكة بين الطرق بقدرة الله وإرادته كأنها الجبال الشامخة، كما قال تعالى: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: آية ٦٣] أي: كالجبل الشامخ المنيف، ويزعم المفسرون أن الله جعل بينها فُرجاً كالكَوة التي تكون في البيوت حتى صار ينظر بعضهم إلى بعض[١]، وأنهم سلكوا في تلك الطرق قاطعين للبحر، وأن فرعون لما وجدهم دخلوا البحر يزعمون أنه كان على جواد ذكر من الخيل، وأن جبريل جاء أمامه على فرس وديق ـ وهي التي تحب الفحل، وإذا كانت تحب الفحل كان يُشم فيها ريح ذلك ـ وأن الجواد شم فيها ريح ذلك واقتحم، فاقتحموا في البحر مع تلك الطرق[٢]، ولما جاوز موسىٰ البحر ببني إسرائيل أراد أن يضرب البحر بعصاه ليلتئم، فقيل له: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدخان: آية ٢٤] أي: خَلِّه ساكناً منفلقاً. ليدخل فرعون وقومه فيغرقوا؛ لأنه لو التطم لرجع إلى حالته ولرجعوا، فلما تكامل خروج بني إسرائيل ومجاوزتهم البحر، وتكامل دخول القبط ـ فرعون وقومه ـ أطبق الله عليهم البحر، وتلاطمت أمواجه، فلم يبق منهم داع ولا مجيب، كما أوضحناه سابقاً في البقرة[٣]. وذلك معنىٰ قوله: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ [الأعراف: آية ١٣٦].

لما ماتوا كلهم وأنجىٰ الله بني إسرائيل، ووقع الغرق بالقبط وهم ينظرون، كما تقدم في قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: آية ٥٠] لما وقع هذا وجاوزوا البحر كانوا في الحقيقة قوماً غير طيبين؛ لأنهم لما جاوزوا البحر أتوا على قوم يعبدون الأصنام، أتوا على قوم يعكفون وراء البحر لما جازوه، وهؤلاء القوم يقول بعض المؤرخين: إنهم من لخم قبيلة العرب المشهورة. وبعضهم يقول: من لخم وجذام. وبعضهم يقول: هم من الكنعانيين الذين أُمروا بقتالهم في البلاد المقدسة[٤]. وكان ابن جريج يقول: أصنامهم أمثلة البقر، فلما رأوا أمثلة البقرة كأنهم من ذلك الوقت أحبوا

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٢٧١/١).

(٢) انظر: ابن جرير (١٩٥/١٥).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٠) من سورة البقرة.

(٤) هذه الأقوال ذكرها ابن جرير في التفسير (٨١/١٣).

عبادة البقر[١]؛ ولذلك أخرج لهم السامري العجل كما هو معروف، وكان بعض المؤرخين يقول: هم قوم كانوا نازلين بالرّقة من مصر. ويقولون: إنها من الريف، قريب من الساحل، يُوصَل منها إلى الفيوم. هكذا يقولون ـ والله تعالى أعلم ـ.

وعلى كل حال فلما جاوز الله بهم البحر بعد هذه الآيات والعبر وهذه النعم العظيمة طلبوا من نبيهم عبادة الأوثان ـ والعياذ بالله ـ وهذا يدل على عدم الطيب؛ ولذا قال: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ معناه: مروا على قوم.

﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ قرأ هذا الحرف جمهور القراء منهم السبعة غير حمزة والكسائي: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ بضم الكاف. وقرأه من السبعة حمزة والكسائي: ﴿يَعْكِفُون على أصنام لهم﴾ بكسر الكاف[٢]. وهما قراءتان سبعيتان صحيحتان، ولغتان عربيتان فصيحتان.

والعكوف: معناه الإقامة، أي: يقيمون ملازمين عبادة الأصنام.

﴿عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ يعكفون مقيمين عليها دائماً يعبدونها، يُقال: إنها تماثيل بقر كما قاله ابن جريج.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ صنماً مثل أصنام هؤلاء نعبده ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ (ما) بقوله: ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ قيل: هي كافة للكاف؛ ولذا جاءت بعدها جملة. وبعضهم يقول: هي مصدرية. وبعضهم يقول: موصولة. والخطب في ذلك سهل[٣]. والمعنى: كما أن هؤلاء لهم آلهة فاجعل لنا إلٰهاً كآلهتهم نعبده ـ والعياذ بالله ـ وبعض العلماء يقول: هم كفروا بهذا القول؛ لأن من طلب عبادة غير الله فقد كفر. وقال بعض العلماء: كانوا قوماً يتمكن منهم الجهل، يظنون أن من تقرب إلى الله بعبادة

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٣/٨٠).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٤.

(٣) انظر: الدر المصون (٥/٤٤٢).

غيره أن ذلك يقربه إلى الله!! ويعتقدون أن ذلك يصح! وهذا غاية الجهل، كما قال لهم نبي الله موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وصفهم بالجهل المطلق، وجاء بصيغة المضارع يشير إلى أن الجهل كأنه معهم في الحال والمستقبل لا يفارقهم، ثم أجابهم هنا قال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين يعبدون هذه الأصنام ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: آية ١٣٩] المُتَبَّر: اسم مفعول (تبَّره) والعرب تقول: تبّره يتبّره تتبيراً، إذا كسّره ودمره، والإناء المُتَبَّر: معناه المكسر. والذهب المتبَّر: المكسر. والتِّبر: قطعة من الذهب إذا تُبِّر، أي: إذا كُسِّر. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٧] هذا الذي فيه هؤلاء من عبادة الأوثان مُدَمَّر، مُحْرِقٌ، مُكسر لا خير فيه؛ لأنه كله باطل، ولا ينبغي لأحد أن يفعله[1] ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وأظهر أوجه الإعراب في هذا[2]: أن قوله: ﴿مُتَبَّرٌ﴾ هو خبر (إن) وأن قوله: ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ نائب فاعل (مُتبَّر) وكذلك ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فاعل به لقوله: ﴿وَبَٰطِلٌ﴾. هذا أجود الأعاريب في الآية. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٣٩﴾ الباطل: هو الزائل المضمحل الذي لا بقاء له؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان: آية ٢٣] فهذا معنى قوله: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ [الأعراف: آية ١٤٠] بهمزة استفهام الإنكار، ينكر عليهم إنكاراً شديداً، والعرب تقول: أبغيك وأبغي لك. معناه: أطلب لك. أفغير الله أطلب لكم إلهاً؟ ﴿إِلَٰهًا﴾ غير الله. والهمزة للإنكار، أنكر عليهم هذا الطلب إنكاراً شديداً، أولاً وصفهم بالجهل، وبيّن لهم بطلان عبادة الأصنام، ثم أنكر عليهم طلبهم إلهاً غير الله؛ ولذا قال: ﴿أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أبغي لكم وأطلب لكم معبوداً غير الله سبحانه عن ذلك وتعالى علواً كبيراً ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والحال: هو فضلكم على العالمين. ومن تفضيله لكم: أن أهلك عدوكم وأنجاكم وأنقذكم من هذا

(١) انظر: القرطبي (٢٧٣/٧).

(٢) انظر: الدر المصون (٤٤٤/٥).

الطاغية العظيم، وهم في ذلك الوقت ـ جميع الناس كفرة ـ وهم عندهم إيمان، فهم أحسن الموجودين على ما كان منهم مما لا ينبغي، وهذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقد بيّنا مراراً النصوص الصحيحة الدالة على أن هذه الأمة الكريمة أفضل منهم مراراً[1]، وهذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٤٠].

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: آية ١٤١].

قرأ هذ الحرف عامة السبعة غير ابن عامر: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وقرأه ابن عامر وحده من السبعة: **﴿وإذ أنجاكم من آل فرعون﴾** من غير ياء ولا نون[2]. فعلى قراءة ابن عامر: اذكروا إذ أنجاكم الله. أنجاكم هو، أي: الله. وعلى قراءة الجمهور: ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾ فالنون للتعظيم، والله هو المتكلم بذلك معظماً لنفسه. وقوله: واذكروا ﴿إِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ حين أنجيناكم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: من فرعون وقومه.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال بعض العلماء: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يبغونكم سوء العذاب، كما تقول لمن طلب السلعة: سامها. والعلماء يقولون: سامه كذا. إذا أذاقه إياه، ومنه: سامه العذاب إذا أذاقه العذاب وكلفه إياه. وهو معنى مشهور في كلام العرب، ومنه قول عمرو بن كلثوم في معلقته[3]:

إذا ما المَلْكُ سَامَ الناسَ خَسْفاً ... أَبَيْنَا أنْ نُقِرَّ الذُلَّ فينا

ومعنى ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: يذيقونكم ويكلفونكم سوء العذاب، والإضافة في قوله: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ من إضافة الصفة إلى موصوفها. أي: يذيقونكم العذاب الموصوف بسوء من يقع عليه. أي: العذاب السيء الشديد.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٤.

(٣) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وقرأه نافع وحده: ﴿يقْتُلون أبناءكم﴾ بسكون القاف وضم التاء[1]. وقرأ مع نافع ابن كثير: ﴿سَنَقْتُلُ أبناءهم﴾[2] [الأعراف: آية ١٢٧] والجمهور يقرؤون: ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ و﴿يُقَتِّلُونَ﴾ بصيغة التضعيف؛ لأن التضعيف يدل على التكثير، يقتل أولادهم كثيراً. وهذا معنىٰ قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: إناثكم يتركوهن حيات.

وفي هذه الآية الكريمة ونظائرها في القرآن سؤال معروف، وهو أن التحقيق في قوله: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ كأنه بدل من قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: آية ١٤١] فتقتيل الأبناء واستحياء النساء هو من نفس سوء العذاب الذي كان يسومهم. ووجه السؤال هو أن يُقال: أما تقتيل الأبناء فكونه من العذاب الذي يسومهم به [فظاهر][3]، وأما استحياء النساء فمن أين كان يُعد من جملة العذاب الذي يسومهم؛ لأن استحياءها قد يسبق إلى الذهن إنه خير من موتها، وأن بقاء أحد الولدين خير من موتهما جميعاً، والإناث هبة من الله أيضاً، كما قال تعالىٰ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: آية ٤٩] فوجه السؤال: كيف عدّ استحياء النساء من جملة العذاب الذي يسومهم، مع أن ترك قتلهم أهون، كما قال[4]:

حمدتُ إلهي بعد عُروة إذ نَجا ... خراشٌ وبعضُ الشَّرِّ أهونُ من بعضِ

فما وجه جعل استحياء النساء من جملة العذاب الذي يسومهم؟ هذا وجه السؤال.

وأجاب بعض العلماء عن هذا السؤال: بأن استحياء الأُنثىٰ قد يكون خيراً[5] [من تذبيح الكل، كما قال الهذلي:

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٤.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٣.

(٣) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

(٥) في هذا الموضع ذهب بعض التسجيل. وتجد جواب هذا السؤال فيما مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة وما بين المعقوفين نقلته منه (بتصرف).

حمدتُ إلٰهي بعد عروة إذْ نجى ... خِراشٌ وبعض الشر أهون من بعض

لكن استحياءهم للنساء هنا هو من جملة العذاب؛ لأنهم يفعلون ذلك لإعمالهن في الأعمال الشاقة، وليفعلوا بهن ما لا يليق من العار والشنار، ولا شك أن بقاء البنت ـ وهي عورة ـ تحت يد عدو لا يشفق عليها، ويفعل بها ما لا يليق، ويكلّفها ما لا تطيق أن هذا من سوء العذاب، وقد قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ...﴾ الآية [النساء: الآية ٩] وهذا معروف، وقد كان العرب إنما وأدوا بناتهم وفعلوا ذلك الفعل القبيح يخافون أن تبقىٰ بعدهم فيهينها الناس، أو يتزوجها غير الأكفاء، فإهانة البنت وفضيحتها عذاب على وليها؛ ولذا كان العرب يتمنون الموت لبناتهم خوفاً من العار، وخوفاً من الأذيّة والفضيحة والاضطرار لتزويج غير الأكفاء. وهذا كثير معروف في كلامهم، وكان شيخ كبير له بنت تُسمى (مودّة) كان يقول فيها[1]:

مـودةُ تـهـوىٰ عُـمْـرَ شـيـخٍ يَـسـرُّهُ ... لها الموت قبل الليل لو أنها تدري
يـخـافُ عـلـيـهـا جَفْوةَ الـنـاسِ بعده ... ولا ختـنـاً يُـرجـى أود من الـقـبـر

ولما خُطِبَتْ عند عقيل بن عُلَّفَة المري ابنته الجرباء قال[2]:

إنـي وإن سـيـق إلـيَّ الـمَـهْـرُ ... ألـفٌ وعُـبـدان وذَوْدٌ عَـشْـرُ
أحـبُّ أصـهـاري إلـيَّ الـقـبـرُ

وفي شعر الحماسة[3]:

تـهوى حياتي وأهوى موتَها شَفَقاً ... والـمـوتُ أكـرمُ نَـزَّالٍ عـلـى الـحُـرَمِ

والله يقول في كتابه: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء: آية ٩] قال

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.
(٢) السابق.
(٣) السابق.

بعض العلماء: هذا وجه كون استحياء النساء من جنس العذاب[١]، ولا شك أن الرجل المسلم إذا خُيّر بين أن يقبض الله ابنته إليه ويسترها برحمته وعفوه، وبين أن تبقىٰ تحت يد الكفرة الفجرة يفعلون بها ما يشاؤون من الفواحش والعار والعيب والشنار، ويُعملونها بالأعمال الشاقة والخدمة العظيمة والإهانة، أنه يختار لها ما عند الله، أنها تصير إلى الله، وأن بقاءها بعده فيه تعذيب لقلبه، حتى إن الإنسان إذا كانت بناته بعده تجوع أو تعرىٰ يألم من ذلك ويحزن كما قال الحماسي[٢]:

لقد زَادَ الحياةَ إلي حُبّاً بناتي، أنهن من الضِّعَافِ
فأكره أن يَرَيْنَ البُؤسَ بعدي وأنْ يشربن كدراً بعد صافي

ولا سيما التعذيب والفواحش ونحو ذلك والعياذ بالله، وهذا معنى قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ مرجعها فيه وجهان معروفان[٣]:

أحدهما: أنها راجعة إلى الإنجاء: أنجيناكم وفي ذلك الإنجاء بلاء، أي: بلاء بالنعمة من الله عظيم عليكم.

القول الثاني: أن الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ راجعة إلى ما يسومهم من سوء العذاب من تقتيل الأبناء، وعليه فقوله: ﴿بَلَآءٌ﴾ [الأعراف: آية ١٤١] أي: بلاء بالشر ـ والعياذ بالله ـ عظيم من ربكم.

والبلاء يكون بالخير ويكون بالشر كما هو معروف[٤]، ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٨].

---

(١) السابق.
(٢) البيتان لعمران بن حطان، وقيل لعيسى بن فاتك، أو محمد بن عبدالله الأزدي، أو لأبي خالد القناني. وهما في تاريخ دمشق (٥٠٠/٤٣)، عيون الأخبار (٩٧/٣)، الكامل ص١٠٨٢، وطرف البيت الثاني: «مخافة...»، وشطره الثاني: «وأن يشربن رَنقاً...».
(٣) انظر: القرطبي (٣٨٧/١)، الدر المصون (٣٤٨/١).
(٤) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأنعام.

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: آية ١٤٢].

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير أبي عمرو ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ﴾ بألف بين الواو والعين من المواعدة. وقرأه أبو عمرو وحده: **﴿ووعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾** من غير ألف بين الواو والعين[١]. ومعنىٰ القراءتين واحد.

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ﴾ صيغة الجمع في قوله: ﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾ للتعظيم، كان الله وعد نبيه موسىٰ أنه إن أهلك عدوه وأراح قومه من تعذيب فرعون وإهانته لهم أن الله يُنزل عليه كتاباً فيه شرع تام، وأوامر ونواهي، وشريعة كاملة؛ وذلك الكتاب الموعود به هو التوراة، فلما جاوزوا البحر جاء وقت الميقات فذهب موسىٰ إلى الميقات، وكان أولًا ثلاثين، وقال لبني إسرائيل: إن الميقات ثلاثون فقط؛ لأنه ما كان يدري عن العشرة التي صار بها أربعين. والمفسرون يقولون: إن سبب العشرة: أن الله وعد موسىٰ ثلاثين ليلة - يقول جماهير من أهل التفسير: إنها هي شهر ذي القعدة، أولها من ذي القعدة، وأن العشر الذي تُمم بها أربعون: عشر ذي الحجة[٢]، وأن إعطاء التوراة كان يوم النحر في اليوم العاشر، انتهاء العشر. يقولون: إن الله لما أراد الميعاد مع موسىٰ واعده ثلاثين ليلة - ليصوم فيها وينقطع للعبادة لمناجاة الله، فلما صام الثلاثين يقول المفسرون[٣]: إنه لما صام ثلاثين يوماً أحس بخلوف فمه - خلوف فم الصائم - فاستاك فغير السواك ريح خلوف الفم، وأن الملائكة قالوا: كنا نشم من فِيك ريح المسك فأفسدته بالسواك، وأنه لما استاك بعد الثلاثين أمره الله أن يصوم عشرة أيام أُخر لأجل أن يرجع له خلوف الفم، ويكون وقت المناجاة عند انتهاء الميقات وفمه فيه خلوف الصائم، وخلوف فم الصائم معروف، وفي الحديث عنه ﷺ:

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٢٩.
(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٨٦)، ابن كثير (٢/٢٤٣)، القرطبي (٧/٢٧٤).
(٣) انظر: ابن كثير (٢/٢٤٣)، القرطبي (٧/٢٧٤).

«لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[(١)]. وهذا معنى قوله: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾ يصوم أيامها ويتعبد هذه المدة قبل المناجاة، وذلك يدل أنه ينبغي العبادات والانقطاع إلى الله قبل مناجاته.

﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾ كما ذكرنا.

﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف: آية ١٤٢] بالعشر التي زيدت على الثلاثين، ومعلوم أن العشر إن زيدت على الثلاثين صارت أربعين كما قال: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ [البقرة: آية ١٩٦] وبعضهم يقول[(٢)]: نصّ على الأربعين لئلا يتوهم متوهم أن الثلاثين تُممت بعشر من الثلاثين، بل بين أنها تُممت بشيء زائد على الثلاثين، وهذا معنى قوله: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾ ليصومها ويتعبد فيها فيناجيه الله وينزل عليه الكتاب المعروف التوراة ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾ للسبب الذي ذكرنا ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف: آية ١٤٢] يقولون: إن انتهاءها عاشر ذي الحجة، وأن الله أنزل عليه التوراة في عشر ذي الحجة.

قال بعض العلماء[(٣)]: هذه الآية الكريمة يؤخذ منها بعض الأحكام: وهي أن ضرب التأجيل وتحديد المُدة للميعاد ونحوه أنه أمر معروف قديم، فيدل على ضرب الأجل، والتحديد بثلاثين أو أربعين لموعد ونحو ذلك كدين أو غيره مما يحتاج إلى الآجال.

وقال جماعة من العلماء[(٤)]: هذه الآية من سورة الأعراف دلت على أن التأريخ بالليالي لا بالأيام، وذلك هو المقرر في فن العربية كما دلت عليه هذه الآية أن التأريخ بالليالي لا بالأيام، فتقول: وقع هذا لكذا وكذا ليلة. ولا تقول: لكذا يوماً. فالتأريخ بالليالي؛ لأن الليالي أوائل الشهور

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب فضل الصوم. حديث رقم: (١٨٩٤)، (١٠٣/٤). وأطرافه في: (١٩٠٤، ٥٩٢٧، ٧٤٩٢، ٧٥٣٨). ومسلم في الصوم، باب: فضل الصيام حديث رقم: (١٦١ ـ ١٦٥)، (٨٠٦/٢).

(٢) انظر: القرطبي (٢٧٥/٧).

(٣) انظر: المصدر السابق (٢٧٥/٧).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

وهي سابقة للأيام، فالتأريخ بها لا بالأيام، وهذه الآية نص صريح في ذلك؛ لأن الله قال: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾ ولم يقل: ثلاثين يوماً. وقال: ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾ حذف منها التاء ولم يقل: «بعشرة»؛ لأن الليالي مؤنثة، ولو أراد الأيام لقال: «بعشرة». بالتاء كما هو معروف في محله، وهذا معنى قوله: ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ الميقات: (مِفْعَال) من الوقت، أي: الزمان المؤقت لهذه المناجاة وإعطاء هذا الكتاب العظيم الذي هو التوراة ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف: آية ١٤٢] أي: ولمّا تم ذلك الميقات ناجاه الله وكلمه الله. وسيأتي تكليمه له قريباً في الآيات الآتية، وأعطاه التوراة كما سيأتي موضحاً في هذه السورة الكريمة، ولما أراد موسىٰ أن يغيب عن قومه وكّل أخاه هارون على قومه؛ لأن موسىٰ هو الذي نُبىء وأُرسل أولاً، وهو الذي شفع لأخيه في الرسالة فكأنه هو الأصل في هذا كله، وهارون إنما نبّأه الله لمّا سأله موسىٰ ذلك كما في قوله: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾ [طه: آية ٣٦] لما أراد السفر إلى الميقات للمناجاة قال: يا هارون ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ معنى: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ أي: كن خليفتي فيهم ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾ [الأعراف: آية ١٤٢] يعني: أصلح كل ما يحتاج إلى الإصلاح من أمرهم، وإذا رأيت من يريد الفساد كمن يريد عبادة العجل لا تتبع سبيله، بل كن على الإصلاح دائماً، كن خليفتي فيهم وافعل فيهم ما كنت أفعل، وكن مصلحاً كل ما يحتاج إلى الإصلاح، ولا تتبع سبيل من أراد الفساد. هذه وصية موسىٰ لأخيه هارون لما أراد السفر، ولما عجل عن قومه، وجاء ربه للميقات، وسأله ربه عن سبب عجلته عنهم ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾ [طه: الآيتان ٨٣، ٨٤].

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف: الآيتان ١٤٣، ١٤٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: آية ١٤٣].

(لما) هذه هي التي تربط شرطاً بجزاء، وقد قدمنا أن علماء العربية اختلفوا فيها: هل هي حرف أو اسم؟[1].

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ﴾ نبي الله موسى بن عمران ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾ أي: جاء للوقت الذي حددناه له للميعاد للمناجاة وإعطاء التوراة بعد انتهاء الأربعين يوماً كما تقدم إيضاحه، كما تقول: جاءني فلان لستة خلون من شهر كذا، لما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه وسمع كلام الله (جل وعلا) اشتاق موسى إلى رؤية الله لما كلّمه الله، قال موسىٰ لربه: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾ (رب) أصله: يا ربي. حُذفت أداة النداء، وحُذفت ياء المتكلم اكتفاء عنها بالكسرة. وحَذْفُ ياء المتكلم إحدىٰ اللغات الخمس المشهورة في المنادىٰ إن كان صحيح الآخر، مضافاً إلى ياء المتكلم كما هو معروف في محله[2].

وقوله: ﴿أَرِنِى﴾ قرأ هذا الحرف جماهير القراء منهم السبعة غير ابن كثير وأبي عمرو ﴿أَرِنِيٓ﴾ بكسر الراء كسرة تامة. وقرأ هذا الحرف ابن كثير والسوسي عن أبي عمرو: ﴿أرْني أنظر إليك﴾ بسكون الراء. وقرأه الدوري عن أبي عمرو بكسرة مُختلسة. فتحصّل أن جميع القراء غير ابن كثير، وأبي عمرو قرؤوا: ﴿أَرِنِيٓ﴾ بكسرة تامة، وأن ابن كثير قرأ بسكون الراء، وكذلك قرأه السوسي عن أبي عمرو، وقرأ الدوري عن أبي عمرو بكسرة مُختلسة[3] ـ وقد قدمنا ـ بأن هذه القراءات في: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾ هي بعينها في قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: آية ١٢٨].

---

(١) انظر: الحروف العاملة في القرآن الكريم ص٥٩٦.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.
(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٣٦.

وفي إسكان الراء في القراءة السبعية إشكال، فلطالب العلم أن يقول: ما وجه إسكان الراء ﴿**أرْني أنظر إليك**﴾ في قراءة ابن كثير والسوسي عن أبي عمرو؟.

والجواب عن هذا السؤال: أن من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن أنها ربما اعتبرت العين كأنها لام، وكانت العين وراءها حرف لين محذوف لأمر أو لجزم - مثلًا - فتتخيل العرب العين كأنها اللام وتُنزّلها منزلة الحرف الأخير فتسكنها، ونظير هذا في القراءات: قراءة حفص في سورة النور[1]: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ [النور: آية ٥٢] بسكون القاف، قوله: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ كقوله هنا: ﴿**أرْني**﴾ في قراءة ابن كثير والسوسي، وهذا معروف في كلام العرب، ومن أساليب اللغة أن العين المتحركة إذا كانت بعدها لام محذوفةٌ حرف علّة أنهم ربما اعتدوا بالعين فتخيلوا أنها اللام فسكنوها للأمر، وعليه قراءة: ﴿**ويخش الله ويتقْه**﴾ وقوله: ﴿**أرْنا مناسكنا**﴾ [البقرة: آية ١٢٨] ﴿**أرْني أنظر إليك**﴾ ونظيره من كلام العرب قول الشاعر[2]:

أَرْنَا إِدَاوَةَ عبدالله نَمْلَؤُهَا ... من ماءِ زَمْزَمَ إن القومَ قد ظَمِئُوا

وقول الآخر[3]:

ومن يَتَّقْ فإن الله مَعْه ... فَرِزْقُ الله مُؤْتَابٌ وغَادِ

ومن شواهده المشهورة قول الراجز[4]:

قَالتْ سُلَيْمىٰ اشْتَرْ لَنا سَوِيْقاً ... وهَاتِ خُبزَ البُر أو دَقِيقَا

لو كنتُ يا سلمى لذا مُطيقاً ... ما كان عيشي عندكم طَميقَا

فقوله: «اشتر» أصله: (اشتري) وهو كقوله: ﴿أَرِنَا﴾ في القراءة

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.
(٢) السابق.
(٣) السابق.
(٤) السابق.

المذكورة، وهذا معنى قوله: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾.

قال بعض العلماء: مفعول (أرني) الثاني محذوف[١]. أي: أرني نفسك أنظر إليك، والفعل المضارع مجزوم بجواب الطلب، فقد قدمنا أن علماء العربية[٢] يقول جماعة منهم: إن المضارع المجزوم في جواب الطلب إنه مجزوم بشرط محذوف. أي: إن تُرني أنظر إليك.

ولما قال موسىٰ هذا وسأل ربه أن يُريه ينظر إليه، طلب الله النظرَ إليه (جل وعلا)، قال الله مجيباً لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: آية ١٤٣] (لن) هنا حرف نفي ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ يعني: لن تراني في هذه الدار الدنيا كما سنوضحه قريباً إن شاء الله، والمعنى: أنت أضعف يا موسىٰ من أن تقدر على رؤية خالق السماوات والأرض؛ لأن شأنه أعظم وأمره أكبر وأجلّ من أن يقدر على رؤيته أحد في الدنيا؛ لأن الناس في الدنيا مركّبون تركيباً لا يبلغ غاية القوة، معرضون للموت والهلاك، فأنت بهذه الدار لا تقدر أن ترىٰ رب السماوات والأرض، وهذا هو التحقيق في الآية كما سنوضحه إن شاء الله. ثم إن الله كأنه يقول له: هذا الجبل لا شك أنه أقوى منك وأصلب، فهو إذن سأتجلىٰ له، فإنْ تحمّل الجبل رؤيتي وتجلّيَّ له فأنت يمكن أن تقدر وستراني، وإن عجز الجبل عن ذلك ـ صار دكاً وصار فتاتاً تراباً ـ علمتَ أن الشيء الذي يدك الجبال لا يقدر عليه الدم واللحم منك يا موسى، وهذا معنىٰ قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ مع قوته وصلابته ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ وتحمّل تجلّيّ له فيمكن أن تراني، وإن صار الجبل فتاتاً فالذي يدك الجبال لا تقدر عليه أنت يا موسى، فأنت أضعف من أن تتحمل ذلك، وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ جاء في حديث عند الحاكم[٣] أن الله كشف من

(١) انظر: الدر المصون (٥/٤٤٩).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٩) من سورة البقرة.

(٣) أخرجه أحمد (٣/١٢٥، ٢٠٩)، والترمذي في التفسير، (ومن سورة الأعراف) حديث رقم (٣٠٧٤)، (٥/٢٦٥)، وقال: «حديث حسن غريب صحيح، لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة» ا.هـ. والحاكم (٢/٣٢٠)، وقال: «صحيح على شرط مسلم» ا.هـ. ووافقه =

نوره شيئاً قليلًا بقدر بعض الخنصر، فلما كشفه وظهر للجبل صار الجبل دكاً، اندك الجبل حتى استوىٰ بالتراب، وصار تراباً.

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ الصحيح أن معنى قوله: ﴿صَعِقًاۚ﴾: مغشياً عليه، خلافاً لقتادة القائل: (خرّ صعقاً) أي: ميتاً[1]. وفي الآية الكريمة قرينة تدل علىٰ أن معنىٰ (صعقاً): مغشياً عليه، وهي قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ لأن الإفاقة من الغشية والموت يقال: بعثه بعد الموت. لا أفاق بعد غشيته منها. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِىۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾.

قرأ هذا الحرف عامَّة القراء غير حمزة والكسائي ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول، وقرأه حمزة والكسائي: **﴿فلما تجلىٰ ربه للجبل جعله دكّاءَ وخر موسىٰ صعقاً﴾**[2].

أما على قراءة الجمهور: صار الجبل دكاً، أي: مدكوكاً[3]، والدك: أصله طحن الجبال، فطحنه الله. قال بعضهم: حتى استوى بالتراب وصار فتاتاً تراباً لعظمة رب العالمين (جل وعلا). فتبين لموسىٰ أن الله لو تجلىٰ له - يعني - لما أطاق ذلك؛ ولأن ما فتت الجبال لا يقدر على حمله موسىٰ، هذا معنى الآية.

ومعلوم أن المعتزلة والخوارج وبعض الضُلَّال يستدلون بهذه الآية من سورة الأعراف على أن رؤية الله مستحيلة بتاتاً في الدنيا والآخرة، ويزعمون

= الذهبي. وابن جرير (٩٨/١٣)، والطبراني في الأوسط (٢٣٢/٢)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٥٥٩/٥)، (١٥٦٠)، وابن عدي في الكامل (٦٧٧/٢)، وأورده البغوي في التفسير (١٩٧/٢)، وابن كثير (٢٤٤/٢)، والسيوطي في الدر (١١٩/٣)، وعزاه لأحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي وأبي الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الرؤية. وقد صحح سند الحديث ابن كثير في التفسير (٢٤٤/٢)، ومحمود شاكر في التعليق على ابن جرير (٩٨/١٣). وقد أخرج ابن جرير (رحمه الله) نحوه موقوفاً على ابن عباس (رضي الله عنهما) (٩٧/١٣).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٦١/٥)، وأورده ابن كثير (٢٤٤/٢)، والسيوطي في الدر (١٢٠/٣)، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٤.

(٣) انظر: حجة القراءات ص٢٩٥.

أن (لن) في قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ أنها للنفي المؤبد في المستقبل/ وأنها تنفي ١٨/ب
الرؤية مستقبلًا بتاتاً في الدنيا والآخرة، وأن موسى تاب إلى الله من هذا الطلب، حيث قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[1].

والتحقيق الذي لا شك فيه الذي يجب على كل مسلم اعتقاده في شأن رؤية الله (جل وعلا) أنها بدار الدنيا جائزة عقلًا غير واقعة شرعاً، أما جوازها عقلًا فمن أعظم الأدلة عليه: أن نبي الله موسىٰ طلبها من ربه، ولا يخفىٰ علىٰ موسى الجائز عقلًا من المستحيل عقلًا، فمن المحال الباطل أن يكون نبي الله موسى يجهل المستحيل بحق الله ويعلمه أشياخ القدرية الجهلة الضُّلال!! أشياخ المعتزلة الجهلة الضُّلّال!! هذا مما لا يكون ولا يقع!! فقول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ يدل على أن رؤية الله في دار الدنيا جائزة عقلًا، والذي منع منها عجز الآدميين عن تحمّلها؛ لأن الله لما تجلىٰ للجبل اندك الجبل، فما بالك باللحم والدم؟! فهي في دار الدنيا جائزة عقلًا، وأما في الآخرة فلا شك أنها واقعة، ومن أنكرها فهو ملحد في دين الله، ضال مُضل منابذ للسنة المتواترة والقرآن العظيم. فلا شك أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بأبصارهم، وقد جاءت آيات تدل على ذلك كقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣] وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: آية ١٥] يفهم من دليل خطابه ـ أعني مفهوم مخالفته ـ أن المؤمنين ليسوا يومئذ محجوبون عند ربهم، وقد استحسن العلماء استدلال الإمام الشافعي (رحمه الله) بهذه الآية على رؤية الله يوم القيامة[2]، أما الأحاديث فحدث ولا حرج، فقد تواترت الأحاديث الصحاح في الصحيحين وغيرهما من السنن والمسانيد والأجزاء عن نحو من عشرين صحابياً كراماً فضلاء عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، ولا يكاد ينازع من له إنصاف، في تواتر أحاديث رؤية الله يوم القيامة[3].

---

(١) انظر: شبهتهم هذه والجواب عنها في شرح الطحاوية ص٢١٢، الأضواء (٣٣٢/٢)، دفع إيهام الاضطراب ص١٢٠ ـ ١٢٢ وراجع ما سبق عند تفسير الآية (١٠٣) من سورة الأنعام.

(٢)(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠٣) من سورة الأنعام.

وجاء في الصحيحين وغيرهما [أحاديث كثيرة تدل على ذلك، وقد][(١)] روىٰ رؤية الله يوم القيامة عن النبي ﷺ نحو من عشرين صحابياً، والأحاديث في ذلك متواترة مشهورة منها: «**إنكم ترون ربكم عياناً هل تُضارون في رؤية الشمس ليس دونها حجاب؟ هل تضارون في رؤية القمر ليس دونه سحاب؟ إنكم ترون ربكم كذلك**»[(٢)] «**إنكم ترون الله كما ترون القمر**» وأحاديث الرؤية صحيحة متواترة لا يطعن فيها إلا ملحد، والمعتزلة يحاولون دفعها، وهي لا تُدفع بالتأويلات الباطلة، والكلام الذي لا طائل تحته، فتحصّل أن التحقيق أن رؤية المؤمنين لربهم أنها في دار الدنيا جائزة عقلاً، وأنها في الآخرة واقعة شرعاً، فهي في دار الدنيا جائزة عقلاً غير واقعة شرعاً، وفي الآخرة واقعة شرعاً بلا نزاع ممن يُعتد به لتصريح النبي ﷺ بذلك في الأحاديث المتواترة.

وما استدل به المعتزلة على استحالة رؤية الله: أما الأدلة العقلية التي يزعمون فكلها فلسفات باطلة لا طائل تحتها، كزعمهم أن رؤية الله تستلزم الجهة، وأن ذلك محال، وتستلزم أنواعاً من المقابلات، وأن كل ذلك محال، وأنهم يقولون: لو خيلنا أن بين العبد وربه حين يراه شكلًا مثلثاً،

---

(١) في هذا الموضع كلام غير واضح، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) جاء ذلك من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾... حديث رقم: (٧٤٣٧)، (١٣/٤١٩).

ومسلم في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية. حديث رقم: (١٨٢)، (١/١٦٣)، ومن حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) عند البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾... حديث رقم: (٧٤٣٩)، (١٣/٤٢٠)، ومسلم في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية. حديث رقم: (١٨٣)، (١/١٦٧).

ومن حديثهما كما في البخاري (الكتاب والباب السابقان). حديث رقم: (٧٤٣٨)، (١٣/٤٢٠)، ومسلم (الكتاب والباب السابقان). حديث رقم: (١٨٢)، (١/١٦٣).

ومن حديث جرير البجلي (رضي الله عنه) عند البخاري في مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر. حديث رقم: (٥٥٤)، (٢/٣٣). وأطرافه: (٥٧٣، ٤٨٥١، ٧٤٣٤، ٧٤٣٥، ٧٤٣٦).

ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب: (فضل صلاتي الصبح والعصر). حديث رقم: (٦٣٣)، (١/٤٣٩).

فشعاع العين الذي يمشي مع المستقيم يسبق إليه (جل وعلا) قبل الذي يمشي مع الزاوية المنفرجة فيسبق هذا هذا، وهذا محال. وهو كلام كله باطل وضلال لا طائل تحته!!

وما استدلوا به من قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ فقد أجاب العلماء عنه بأن المنفي بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: آية ١٠٣] الإدراك المشعر بالإحاطة، أما مطلق الرؤية فليس هو المنفي في ذلك بدليل قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣] فما يدّعونه من الاستحالات العقلية لا طائل تحته.

وما تمسكوا به من النقل لا حجة لهم فيه، والتحقيق الذي لا شك فيه أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة لا يضارون في ذلك، كما صرّح به الصادق المصدوق ورواه عنه نحو عشرين صحابياً من أصحابه (رضي الله عنهم). هذا هو التحقيق في هذا المقام.

وقول المعتزلة: «إن (لن) حرف نفي يدل على نفي الشيء للمستقبل نفياً باتاً» هو كذب أيضاً، وتَقَوُّلٌ على اللغة العربية بما ليس منها!! والذي دلت عليه أدلة العربية الواردة في القرآن الذي هو في الطرف الأعلىٰ من الفصاحة والإعجاز دلّ على أن قول المعتزلة هذا بأن (لن) إنها للنفي في المستقبل نفياً أبدياً باتاً هذا باطل كذب.

وقد دلت ثلاث آيات من كتاب الله على كذب هذا القول، وأنه ليس بصحيح:

إحداها: أن (لن) لو كانت نصاً صريحاً في النفي المستقبل البات الأبدي لما جاز تقييد نفيها في يوم ولا ظرف معين، وقد جاء بالقرآن تقييد نفيها بيوم معين، في قوله: ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: آية ٢٦] لو كان نفي (لن) للكلام نفياً مؤبداً إلى يوم القيامة لكان قول مريم مناقضاً لذلك التأبيد كما ترىٰ.

الموضع الثاني: أن (لن) لو كانت تقتضي التأبيد الأبدي لما كان الله يقول بعد نفيها (أبداً)؛ لأن لفظة (أبداً) تكون تكراراً مع التأبيد الذي دلت عليه (لن) كقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: آية ٩٥] لأن قوله: ﴿أَبَدًا﴾

على زعم المعتزلة يكون تكراراً مع النفي الأبدي الذي زعموا أنه تدل عليه (لن) فلما قال الله بعد نفيها: ﴿أَبَدًا﴾ عرفنا أنهم كاذبون في ذلك.

الموضع الثالث: أن (لن) لو كانت تدل على النفي المؤبد الباتّ إلى الأبد لما جاز أن يوقّت نفيها بغاية معينة، وقد جاء في القرآن أن الله غيّا نفيها بغاية معينة، وكونه غيّاه بغايَة معينة يناقض أنه إلى الأبد، كما في قوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ [يوسف: آية ٨٠] قَصْرُ هذا النفي على وقت الإذن ينافي كون (لن) هي نصّ في النفي الباتّ كما ترىٰ، فتبين من هذا أن قول المعتزلة: إن (لن) للنفي المستقبل الباتّ الأبدي ولو فرضنا أن العربية تساعدهم على ما يقولون - فرض جدل - لما كان لهم في ذلك حجة؛ لأن النبي ﷺ - وهو الصادق المصدوق - بيّن في الأحاديث الصحيحة المتواترة أن نفي ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ منقطع يوم القيامة، فصرح بأنهم يرونه يوم القيامة كما لا يخفىٰ، وهذا معنى قوله: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾.

قرأ هذا الحرف من السبعة: عاصم وأبو عمرو وحمزة: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ بكسر نون (لكن) على قاعدة التخلص من التقاء الساكنين.

وقرأه باقي السبعة: ﴿ولكنُ انظر إلى الجبل﴾ بضم النون إتْباعاً لضمة الراء كما هو معروف[1].

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ﴾ الجبل ﴿مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ أي: ظهر (جل وعلا) وكشف نوره للجبل انهد الجبل، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أي: مدكوكاً، قال بعض العلماء: رفاتاً تراباً مختلطاً بالأرض. وعلى قراءة حمزة والكسائي: ﴿جعله دكّاءَ﴾[2] [الأعراف: آية ١٤٣] كأنه شبهه بالناقة الدكّاء، والعرب تقول: ناقة دكّاء، وجبل أدك. فالناقة الدكّاء هي التي لا سنام لها. أي: لا ارتفاع في ظهرها، فظهرها كله مستو غير مرتفع، فكانت أرض الجبل كأنها لا ارتفاع فيها،

---

(١) انظر: الإتحاف (٢/٦١).

(٢) مضى قريباً.

وأنها دكّاء مستوية بالأرض، خلافاً لبعضهم القائل: إن دكّاء مرادها: المرتفعة عن الأرض قليلاً كالدكة، وعلى كل حال فالله (جل وعلا) لما تجلّى للجبل دك الجبل وأزاله وكسّره، وصار رُفاتاً لعظمة خالق السماوات والأرض على القراءتين: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ ﴿جعله دكّاء﴾.

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ خرّ نبي الله موسىٰ من شدة الخطب الذي دك الجبل، خرّ في حال كونه صعقاً، أي: مغشياً عليه، خلافاً لقتادة القائل: ميتاً، وأن الله أحياه.

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ أي: نبي الله موسىٰ أفاق من غشيته قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ (سبحان) كلمة تدل على التنزيه. معناه: تنزيهاً لك عن كل ما لا يليق بكمالك وجلالك[1]، وهذه الكلمة أعربها الشيخ سيبويه بأنها مصدر منصوب بفعل يُحذف دائماً[2]، أي: أُسبحك سبحانك. أي: تسبيحاً أنزهك عن كل ما لا يليق بكمالك وجلالك. ولفظة (سبحان) ملازمة للإضافة إلى المفرد، وسُمع نادراً إتيانها غير مضافة، ومنه قول الأعشى: في شعره بالمنافرة بين علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل المشهورة[3]:

فَقُلْتُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الفَاخِرِ

وهذا معنىٰ قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك عما لا يليق بكمالك وجلالك، ومن ذلك أن يتحمل أحد رؤيتك في دار الدنيا، فإن عظمتك تدكّ الجبال.

وقال بعضهم: قوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ لأن موسىٰ تجرّأ على سؤال الرؤية من غير إذن[4]، وقد كان يظن أن قدرته تتحملها، فالذي جهله موسىٰ هو مدىٰ قدرة نفسه، أما ما يجوز في الله وما يستحيل فلا يجهله نبي الله موسىٰ كما هو معروف.

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٢٦٥).

(٢) الكتاب (١/٣٢٢ ـ ٣٢٧).

(٣) ديوان الأعشى ص٩٣، وأوله: «أقول...».

(٤) انظر: القرطبي (٧/٢٧٩).

﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ هذا الحرف عامّة القراء غير نافع: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من غير مدّ النون. وقرأه نافع وحده: ﴿تبت إليك وأنآ أول المؤمنين﴾[1].

قال بعض العلماء[2]: أول المؤمنين من بني إسرائيل. وقال بعضهم: أول المؤمنين بأن البشر لا يقدرون على رؤيتك في دار الدنيا. هكذا قاله بعضهم[3]، والله أعلم. هذا معنى قوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال الله ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ قرأه بعض السبعة: ﴿إنـيَ اصطفيتك﴾[4] اصطفيتك: معناه: اخترتك. والطاء مبدلة من تاء الافتعال؛ لأن المقرر في فن الصرف: أن تاء الافتعال إذا جاء بعد حرف من حروف الإطباق أُبدل طاءً كما هو معروف في محله[5].

والاصطفاء معناه: الاختيار. أي: اخترتك على الناس ﴿بِرِسَٰلَٰتِى﴾.

قرأ هذا الحرف جمهور القراء غير نافع وابن كثير: ﴿بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ بصيغة الجمع المؤنث السالم، وقرأه من السبعة نافع وابن كثير: ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالتي﴾ بالإفراد[6]، ومعنى القراءتين واحد؛ لأن الرسالة أُضيفت إلى معرفة فهي تعم، وتكون بمعنى الجمع كما هو معروف.

﴿بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ الذي كلمتك به ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾. ﴿مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ وهو التوراة. يعني: خذها كما يأتي: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٤٥].

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٤٤] لله على هذه النعم العظام حيث كلمك، وأهلك عدوك، وكتب لك هذا الكتاب العظيم الذي هو التوراة.

---

(١) انظر: الإتحاف (٢/٦٢).

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/١٠٤).

(٣) المصدر السابق (١٣/١٠٢ ـ ١٠٣).

(٤) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٩.

(٥) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٤١٨ ـ ٤١٩. وراجع ما سبق عند تفسير الآية (١١٩) من سورة الأنعام.

(٦) انظر: السبعة ص٢٩٣.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الشاكرون جمع الشاكر، وهو اسم فاعل الشكر. وقد قدمنا مراراً[١] أن الشكر في لغة العرب: الظهور، ومنه: (ناقة شكور) يظهر عليها السِّمَن، و (الشكير): الغصن الذي يظهر في الجذع الذي كان مقطوعاً كما هو معروف.

والشكر في القرآن يطلق من الرب لعبده، ومن العبد لربه، كما قال في شكر الرب لعبده: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: آية ١٥٨]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: آية ٣٤] ومعنىٰ شكر الرب لعبده: هو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل. ويطلق الشكر من العبد لربه كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: آية ١٣] ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: آية ١٤] وضابط شكر العبد لربه: هو أن يصرف نعمته بما يرضيه.

اعملوا أيها الإخوان أن شكر خالقنا واجب علينا[٢]، فهذه العيون التي فتح الله في أوجهكم من أعظم نعمه عليكم، فمِنْ شُكْرِها: أن لا تنظروا بهذه العيون إلا ما يرضي من خلقها وتفضل عليكم بها، أما النظر في المحرمات فلا ينبغي للعبد أن يستعمل نعمة الله فيما يغضب الله ويسخطه، فهذا أمر فظيع شنيع!! منّ الله عليكم بهذه الأيدي، وفرّق أصابعها، وأبعد إبهامها من الأصابع ليمكنكم العقد والحل، وشد رؤوسها لكم بالأظفار، فَشُكْر هذه الأيدي: ألا تبطشوا بها، ولا تتناولوا بها إلا ما يرضي من خلقها وامتنّ عليكم بها، وهكذا في سائر الأعضاء والجوارح، والجاه والمال، وغير ذلك، فلا تستعينوا على سخط الله بنعم الله، بل اشكروا لله نعمه، واصرفوا نعمه فيما يرضيه، واعلموا أن من أقبح القبائح وأرذل الرذائل أن يكون العبد الضعيف الحقير يمُنّ عليه خالق السماوات والأرض (جل وعلا) مع عظمته وجلاله بنعمه ثم إنه يصرف نعمه فيما يغضبه ويسخطه!! هذا من أقبح الأفعال وأخسها، ومن له عقل يستحي من أن يفعل ذلك.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

واعلموا أن مادة (الشكر) تتعدىٰ إلى النعمة بنفسها بالإجماع، كقوله: ﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل: آية ١٩] أما تعدي مادة (الشكر) إلى المنعم فاللغة الفصحىٰ أنها تتعدىٰ باللام، وبالغ قوم من علماء العربية فقالوا: لا يجوز تعديها بنفسها[1]، وهذا إفراط شديد!! فمثلاً لو قلت: نحمد الله ونشكره. هذا لا ينبغي أن يُقال!! وليس هو الأولى. وزعم بعضهم أنه لا يجوز. فيقول: نحمد الله ونشكر له. ولا يقول: ونشكره. ومن ادعىٰ أن: (ونشكره)، وأن تعدي مادة الشكر إلى المفعول الذي هو المنعم بنفسها لا يجوز؛ خلاف التحقيق.

والحق الفصل الذي لا شك فيه في هذا المقام: أن اللغة الفصحىٰ أن تتعدىٰ إليه باللام لا بنفسها، وأن تقول: نحمد الله ونشكر له. هذه اللغة الفصحىٰ بلا نزاع. وهي لغة القرآن، يقول: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: آية ١٤] ولم يقل: أن اشكرني. ويقول: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: آية ١٥٢] ولم يقل: واشكروني. أما قولهم: إن مثل قوله: «أحمده وأشكره» أنه لحن لا يجوز. فليس بصواب، بل (أشكره) لغة مفضولة، و (أشكر له) هي اللغة الفصحىٰ، وقد جاء عن العرب أنهم يُعَدُّونَ ـ مثلاً ـ الشكر إلى المنعم بلا واسطة الحرف، وهو متبوع في كلامهم، ومن أمثلته في كلامهم قول أبي نخيلة[2]:

شكرتُكَ إن الشُكْرَ حبلٌ من التُقَىٰ ... وَمَا كُلُّ من أَوْلَيْتَهُ نعمةً يَقْضِي

ولم يقل: شكرت لك. وإنما قال: شكرتك. ومنه بهذا المعنىٰ قول جميل بن معمر[3]:

خَلِيْلَيَّ عُوجَا اليومَ حتى تُسَلِّمَا ... على عَذْبَةِ الأَنْيَابِ طَيِّبَةَ النَّشْرِ
فإنكُما إنْ عُجْتُمَا لِيَ ساعةً ... شكرتُكُمَا حتى أُغَيَّبَ في قبري

فإنه عربي قح، وقد قال: شكرتكما. ولم يقل: شكرت لكما.

---

(١)(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

وقول الله في هذه الآية: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: آية ١٤٤] صفة الكلام هي التي جاء بها الذين يبحثون عن الكلام(١)، وجاؤوا ببلايا، وجاؤوا بعلم الكلام، وغيّروا عقائد الناس، وجاءت البلايا من ذلك الوقت لما دخل علم الكلام في المسلمين، وصاروا يحكِّمون العقل في صفات الله تعالىٰ، وينفون الصفات بالتأويلات، بزعمهم أن العقل يمنعها، جاء من ذلك شر كبير، ومصدر هذا الشر الكبير، عسىٰ الله أن يعفو عن المأمون فيه؛ لأنه هو أول من ترجم الكتب اليونانية، وكان منها هذه المقاييس المنطقية، وقد قدمنا لكم مراراً(٢) أن الطريق الأحوط الذي يُنجي المسلم ويخلصه من القيل والقال والبلايا كلها حتى يلقىٰ الله سالماً على أساس صحيح في نور القرآن العظيم هو أن يلتزم الأسس الثلاثة التي أكثرنا من تكرارها في هذه الدروس، ونحن كررناها قصداً لشدة الحاجة إليها، وكثرة من غفل عنها من المتعلمين، وقد بيّنا لكم مراراً أن من أراد منكم أن يلقىٰ الله سالماً ويتخلص من هذا المأزق في آيات الصفات، كصفة الكلام، وصفه اليد، والاستواء وجميع الصفات أن يبنيه على ثلاثة أُسس:

أولها: وهو أساس العقيدة الصحيحة: تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة خلقه في شيء من ذواتهم أو صفاتهم أو أفعالهم. والخلق صنعة، وهو (جل وعلا) صانعها، والصنعة لا تشبه صانعها لا في ذاته، ولا في فعله، ولا في صفته. فإذا استقر هذا الأساس الأعظم في القلوب وطهرت من أقذار التشبيه، وغلب عليها تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة خلقه سهل عليها:

الأساس الثاني: وهو أن تؤمن بصفات الله الثابتة في كتابه وسنة رسوله الصحيحة ﷺ إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه. ونحن نكرر لكم مراراً أن هذا التعليم ما قلناه من تلقاء أنفسنا، لا والله وكلا، ولكنا نقوله في ضوء المحكم المُنَزَّل، كلام رب العالمين؛ لأنه أوضح هذا إيضاحاً شافياً لا يترك

---

(١) يريد أنهم جاؤوا فيها بالخوض في الباطل، وإلا فمن المعلوم أن صفة الكلام ثابتة في الكتاب والسنة.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأنعام.

في الحق لبساً، وذلك أنه لما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أتبعه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فجميع الحيوانات تبصر - ولله المثل الأعلى - فكأن الله يقول لك في هذه الآية: يا عبدي لا تتنطع وكن عاقلًا، ولا تذهب بصفتي إلى صفة خلقي فتكون مشبهاً، وتضطر إلى التأويلات والبلايا، بل لاحظ في إثبات الصفات أني لا مثيل لي ولا نظير، وأثبت لي صفاتي على ذلك الشرط المعين؛ ولذا جاء بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] أي: أثبت لي سمعي وبصري، ولا تذهب بهما إلى مشابهة أسماع الخلق وأبصارهم، بل أثبتهما على أساس ما ذكرتُ قبلهما، وهو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فتثبت له سمعه وبصره على أساس التنزيه والتقديس والتكريم عن مشابهة صفات المخلوقين، فتكون أولًا مُنَزِّهاً، وثانياً مُثْبِتاً على أساس التنزيه، وإن جئت يوم القيامة لا يأتيك لوم ولا توبيخ من أنك نزهت الله، واللهِ لا يقول لك الله: لِمَ كنت تنزهني في دار الدنيا عن مشابهة خلقي؟ لا أبداً. هذا طريق سلامة محقق. ولا يقول لك: لِمَ كنت تصدقني في صفاتي التي مدحت بها نفسي وأثنى عليّ بها رسولي ﷺ؟ وعليك أن تقف عند حدّك[١].

هذا ذكرناه مراراً مطولًا ومختصراً، فعلينا أن ننزّه خالقنا عملًا بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: آية ٤] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: آية ٧٤] وعلينا أن نصدقه بما وصف به نفسه، ولا نقول: هذا نص يوهم غير اللائق!! فنثبت: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ على أساس: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] ولا نقول: هذا نص يوهم غير اللائق؛ لأن الحيوانات تسمع وتبصر فنؤوّله!! لا نفعل ذلك، ونقف عند حدّنا ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: آية ١١٠] ونعلم أن الله وصف نفسه بأنه كلم موسى، وأكد ذلك التكليم في سورة النساء بالمصدر في قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ

---

(١) لم يذكر الأساس الثالث وقد ذكره في الموضع السابق عند الكلام على هذا الموضوع، وهو قطع الطمع عن إدراك كيفيات الصفات.

تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: آية ١٦٤] يجب علينا أن نعلم أن الكلام صفة الله الأزلية، وأنه لم يتجرد يوماً ما عن أنه متكلم، وأنه في كل يوم يتكلم بما شاء، كيف شاء، على الوجه اللائق بكلامه وجلاله المنزّه عن مشابهة كلام المخلوقين من جميع الجهات، ونُمِرُّه كما جاء مع تنزيه الله وتعظيمه، ولا نأتي بشيء من المحالات والبلايا.

وهنا للمتكلمين ضلالات طويلة، وكلام باطل طويل في الكلام لا يسعه هذا المقام.

١/١٩ / ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ [الأعراف: الآيات ١٤٨ ـ ١٥٠].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾.

﴿قَوۡمُ مُوسَىٰ﴾ هم بنوا إسرائيل، أي: واتخذ بنو إسرائيل ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾ أصل هذا الحلي للقبط استعاره منهم الإسرائيليون لعُرس أو ليوم زينة عندهم كانوا يتزينون فيه، وأُمر موسىٰ أن يسري ببني إسرائيل قبل أن يردوا الحلي للقبط، فسافروا به، وأهلك الله فرعون وقومه، وبقي ذلك الحلي المستعار منهم عند الإسرائيليين، فاتخذ السامري العجل من ذلك الحلي. وهنا قال: ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾ قال بعض العلماء: لأن الله أورثهم أموالهم بعدهم كما في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩﴾ [الشعراء: آية ٥٩] ولذا أضافه إليهم بعد هلاك فرعون وقومه. وقال بعض العلماء: الإضافة تقع بأدنىٰ ملابسة، فلما كان تحت أيديهم عاريةً عندهم أضافه إليهم بهذه الملابسة، وقد بيَّن في «طه» أنه من زينة قوم آخرين كما ذكر عن الإسرائيليين أنهم قالوا: ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ [طه: آية ٨٧] وهي حلي

القبط. هذا وضابط ذلك أن السامري ـ قبّحه الله ـ موسى بن ظفر رأى جبريل لما جاء على فرس ليأخذ موسىٰ إلى الميعاد، أو ليمشي أمام فرعون وقومه، والأكثرون يقولون: إن موسىٰ لما أراد الله إتيانه للميعاد أرسل إليه جبريل. قالوا: وكان جبريل راكباً علىٰ فرس فلاحظها السامري، كل شيء مسه حافر تلك الفرس ينبت فيه النبات، فعرف السامري أن الله (جل وعلا) جعل في أثر تلك الفرس خاصة الحياة، فجاء وقبض قبضة من التراب الذي مسه حافر ذلك الفرس ثم أمسك ذلك التراب عنده، وكان السامري ـ قبّحه الله ـ صائغاً فصاغ ذلك العجل. يقول بعض المؤرخين: إنه بعد غيبة موسىٰ قال لهارون: هذا الحلي صار غنيمة، والغنائم لا تحل لكم فاجعلوه في النار ليكون قطعةً واحدةً ليكون ذلك أيسر لأمره حتىٰ يأتي نبي الله موسىٰ فيرىٰ رأيه فيه، وأنهم لما جعلوه في النار صاغه السامري علىٰ صورة عجل، ولما صاغ ذلك الحلي على صورة عجل جعل فيه ذلك التراب الذي كان مُدخُراً له ـ الذي مسه حافر فرس جبريل وجعل الله فيه خاصة الحياة ـ فصار ذلك العجل جسداً له خوار. وقد أشار الله إلى هذا في سورة (طه) في قوله عن موسىٰ والسامري: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ يعني من أثر حافر فرس الرسول، يعني جبريل ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ [طه: الآيتان ٩٥، ٩٦] أي: على العِجْل. فجعله الله جسداً له خوار، فلما ألقى السامري ذلك التراب على العِجْل وصار ذلك العِجْل المصوغ من الحلي جسداً له خوار. الخوار في لغة العرب: هو أصوات البقر خاصة، تقول العرب: خارت البقر تخور وتخاورت البقر. أي: صَوَّت بعضها إلى بعض، وهذا معروف في كلامهم، ومنه قول العباس بن مرداس السُلمي في غزوة حنين في معرض مدحه لسليم[1]:

لا يغرسونَ فَسِيْلَ النخلِ حولهم ولا تَخَاوَرُ في مَشْتَاهُم البقرُ

---

(١) البيت في السيرة لابن هشام (١٣١٧/٤)، وسيأتي في سياق أبيات القصيدة عند تفسير الآية (٢٥) من سورة التوبة. وشطره الأول:

«لا يغرسون فسيل النخل وسطهم»

فالخوار: صوت البقر.

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائي: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ بضم الحاء وتشديد الياء[1]. والحُلي أصله: (حُلُوْي) جمع حَلْي (فَعل) مجموع على (فُعُولَ) وجمعه (حُلُوْي) كفَلْس وفُلُوس، وظَهْر وظُهُور، وحَلي وحُلُوْي، اجتمعت فيه الواو والياء، أولاهما ساكنة غير عارضة ولا عارضة السكون، فوجب إبدال الواو ياءً، وقُلبت ضمة اللام كسرة لمجانسة الياء فقيل: من حُليِّهم[2].

وقرأه حمزة والكسائي: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حِلِيِّهِمْ﴾ بكسر الحاء إتباعاً للاَّم، وأصل الحاء مضمومة[3].

وقوله: ﴿عِجْلًا﴾ العجل ولد البقرة، ويجمع على عجاجل على غير قياس[4].

وقوله: ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ [الأعراف: آية ١٤٨] قال بعض العلماء: الجسد هو البدن الذي فيه اللحم والدم، ويدل لهذا قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾ [الأنبياء: آية ٨] واختلف العلماء في هذا العجل هل جعل الله فيه لحماً ودماً وجعله حياً، أو هو عجل باقٍ في صورة الذهب والفضة إلا أن الرياح إذا دخلت في منافذه كان يُسمع في داخله صوت يشبه أصوات البقر؟ قال بكلٍ منهما بعض العلماء[5].

وظاهر قوله: ﴿جَسَدًا﴾ أن الله جعله عجلًا، والله (جل وعلا) قادرٌ على كل شيء لا يتعاصى على قدرته شيء. وقوله الآتي: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ [طه: آية ٥٧] على أن التحريق معناه التحريق بالنار كما قاله جماعة من العلماء، فيظهر أن العجل صار

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٤.

(٢) انظر: معجم مفرادت الإبدال والإعلال ص٨٦.

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٤.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٥) انظر: ابن جرير (٦٣/٢)، فما بعدها.

جسداً لحماً ودماً؛ لأن اللحم والدم إذا أُحرق بالنار يبس وأمكن دقه ونسفه في البحر؛ لأن الذهب والفضة لا يمكن دقهما ونسفهما في البحر، وأما على أن المعنىٰ لنحرّقنّه: نبردنّه بالمبارد كما تشهد له القراءة الأخرى: ﴿لَنَحْرُقَنَّه﴾[1] [طه: آية ٩٧] فعلىٰ هذا المعنىٰ فالأليق أن يكون بقي ذهباً وفضةً إلا أنه يصوّت صوت البقر إذا دخلت الريح في داخله.

وقوله: ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ مفعول (اتخذ) الثاني محذوف لدلالة المقام عليه، أي: اتخذوا عجلًا جسداً إلهاً معبوداً من دون الله. فحذف المفعول الثاني لدلالة المقام عليه، وهذا هو التحقيق، والنكتة في حذفه: أنه لا ينبغي أن يُتلفظ بأن عجلًا مصطنعاً إلهاً[2] فحذف لهذه النكتة كما قاله بعضهم.

﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ قال في سورة طه: إنّ السامري لمّا اصطنعه لهم قال لهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: آية ٨٨] فنسي موسى أن هذا إلهه، وذهب يطلبه في موضع آخر. وقال هنا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ﴾ قرر علماء التفسير أن كل فعل مضارع مجزوم بـ (لم) إذا جاءت همزة الاستفهام قبل لم ففيه في جميع القرآن وجهان معروفان لعلماء التفسير[3]:

أحدهما: أن المضارع تنقلبُ مُضَارَعَتُه مَاضَوِيَّة، وينقلب نفيه إثباتاً، فيصير قوله هنا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ينقلب المضارع ماضياً، والنفي إثباتاً، فيصير المعنى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ﴾ أي: رأوا أنه لا يكلمهم، أي: علموا بذلك، وعليه فيكون معنىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ [الشرح: آية ١] شرحنا لك. ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ [الكهف: آية ٧٥] قلت لك، ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ [البلد: آية ٨] جعلت له عينين، وهكذا.

أما انقلاب المُضَارَعَة مَاضَوِيَّة فلا إشكال فيه؛ لأن (لم) حرف قلب،

(١) انظر: إتحاف فضلاء البشر (٢/٢٥٦)، وانظر: القرطبي (١١/٢٤٢).
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة. وانظر: الأضواء (٢/٣٣٣).
(٣) انظر: الحروف العاملة في القرآن الكريم ص٦٣٣.

تقلب المضارع من معنى الاستقبال إلى معنى الماضي، كما هو معروف لا إشكال فيه.

أما وجه قلب النفي إثباتاً: فالهمزة الداخلة على (لم) مضمنة معنى الإنكار، ففيها معنى النفي، فيتسلط النفي الكامن فيها على النفي الصريح في (لم) فينفيه، ونفيُ النفي إثبات.

الوجه الثاني: أن الاستفهام في (ألم) في جميع القرآن هو استفهام تقرير[1]، والمقرر في فن المعاني أن المراد باستفهام التقرير: هو حمل المخاطب على أن يقر ويقول: بلى[2]. وعلى هذا فالمراد بالاستفهام: حمل المخاطبين على أن يقروا ويقولوا: بلى هو لا يكلم، ولا يهدي سبيلًا، وليس بشيء يستحقُ أن يُعبد. وهذا معنى قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ ألم يروا أن هذا المعبود الذي افتروه واختلقوه لا يكلمهم؟. والمعبود الحق لا بد أن يكون يُكلم، ومعبود أهل السماوات والأرض بالحق يقول عن كلام نفسه: ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: آية ١٠٩] وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: آية ٢٧] هذه صفة المعبود حقاً، أمّا الذي لا يقدر على أن يتكلم كلمةً واحدة فهذا ليس بمعبود.

وقوله: ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ المعبود هو الذي يهدي، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ [يونس: آية ٣٥] أما الذي لا يهدي سبيلاً أي: طريقاً كائناً ما كان فلا يمكن أن يكون برب ولا بمعبود. فلما قرر (جل وعلا) أن هذا العجل الذي اتخذوه إلهاً تنتفي عنه الصفات التي يجب أن تكون للإله صرح بأنهم عبدوه وهم ظالمون في ذلك فقال: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ اتخذوه إلهاً ﴿وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ ظالمين في ذلك.

---

(١) انظر: الإتقان (٣/٢٣٥)، الحروف العاملة في القرآن الكريم ص٦٣٤.

(٢) انظر: البرهان للزركشي (٢/٣٣٣)، (٤/٢٣٥)، جواهر البلاغة ص٧٨.

وقد فسرنا الظلم مراراً[١]، وبيّنا أن أصله في لغة العرب: وضع الشيء في غير موضعه، وأكبر أنواع وضع الشيء في غير موضعه: وضع العبادة في عجلٍ مصطنع جماد!! من عبد هذا وأعطاه حق الله فقد وضع العبادة في غير موضعها، وأكبر أنواع الظلم: وضع العبادة في غير موضعها كظلم هؤلاء بعبادة هذا العجل؛ ولأجل ذلك كثر في القرآن إطلاق الظلم على الشرك بالله كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] وقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: آية ١٠٦] أي: من يعبد عجلاً مصطنعاً فهو من الظالمين الواضعين العبادة في غير موضعها كما هو ظاهر.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأعراف: آية ١٤٩].

قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن شدة الندم، فكل من أصابه ندمٌ شديد حتى بقي حائراً من شدة ندمه تقول العرب: سُقط في يده[٢]. فمعنى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ لما ندموا غاية الندم وبقوا متحيرين على كفرهم بالله وعبادتهم لعجلٍ مصطنع ﴿وَرَأَوْا۟﴾ رأى هنا بمعنى علم[٣]. أي: وعلموا علماً يقيناً ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾ ضلوا عن طريق الصواب والرشد، وقد بيّنا في هذه الدروس مراراً[٤] أن الضلال جاء في القرآن إطلاقه على ثلاثة معان، وهي إطلاقات معروفة مشهورة في كلام العرب مستفيضة فيه، فمن إطلاقات الضلال: إطلاقه على الذهاب عن الإيمان إلى الكفر، وعن طريق الجنة إلى طريق النار، وهذا أكثر إطلاقاته. ومنه بهذا المعنى:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) انظر: القرطبي (٧/٢٨٥)، الدر المصون (٥/٤٦٢).

(٣) انظر: الدر المصون (٥/٤٦٤).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: آية ٧] وإطلاق الضلال مراداً به الذهاب عن علم شيء، فليس من الضلال في الدين، فكل من ذهب عن علم شيء تقول العرب: ضل عنه. ومنه بهذا المعنىٰ قول أولاد يعقوب لأبيهم: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: آية ٩٥] أي: ذهابك عن معرفة حقيقة يوسف، هو قد مات من زمان وأنت كل يوم تسأل عنه. وكقولهم فيه: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: آية ٨] لا يعنون الضلال في الدين، وإنما يعنون الذهاب عن حقيقة الأمر حيث زعموا أنه فَضَّل يوسف وأخيه عليهم، وأنهم أكثر نفعاً على أبيهم من يوسف وأخيه. ومنه بهذا المعنىٰ قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ أي: تذهب عن علم معرفة المشهود به ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: آية ٢٨٢]، ومنه بهذا المعنى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾ [طه: آية ٥٢] أي: لا يذهب عنه علم شيء سبحانه وتعالى عن ذلك،، ومنه بهذا المعنى قول الشاعر[(١)]:

وتظنُّ سلمىٰ أنني أَبْغي بها بدلاً أراهَا في الضلالِ تَهِيْمُ

أي: في عدم معرفة الحقيقة حيث ظنت أني أبغي بها بدلًا، والأمر على خلاف ذلك.

الاستعمال الثالث: هو استعمال العرب الضلال في الغيبة والاضمحلال، يقولون لكل شيء غاب واضمحل يقولون فيه: ضل، كقولهم: ضل السمن في الطعام. إذا غاب واضمحل فيه، ومنه بهذا المعنى قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٤] وقوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: آية ١٠] يعنون: إذا ضلت عظامهم في الأرض؛ أي: أكلها التراب واختلطت به وغابت واضمحلت فيه. ومن أجل هذا كانت العرب تسمي الدفن (إضلالاً) لأن من دُفن يضل في التراب، وتأكل الأرض عظامه، ويختلط بها؛ ولذا كانوا

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

يسمون الدفن إضلالاً، ومنه قول نابغة ذبيان[(١)]:

فـجـاء مُـضـلُّـوهُ بـعـيـنٍ جـلـيـةٍ وغُـودرَ بـالـجـولانِ حـزمٌ ونـائـلُ

مضلوه: يعني دافنيه. وقول المخبل السعدي يرثي قيس بن عاصم المنقري التميمي[(٢)]:

أَضلتْ بنو قيس بن سعدٍ عَميدهَا وفَارِسَهَا في الدهرِ قيسَ بن عَاصمِ

ومن إطلاق العرب الضلال على الغيبة والاضمحلال قول النصراني الشاعر الأخطل[(٣)]:

كنتَ القذى في موجٍ أكدر مُزْبدِ قَـذَفَ الأَتِـيُّ بـه فَـضَـلَّ ضَـلاَلاَ

أي: إذا غاب غيبوبة واضمحل اضمحلالًا، ومنه بهذا المعنى قول الآخر[(٤)]:

ألـم تـسـأل فـتُـخـبـرك الـديـارُ عن الـحـي الـمُـضـلـلِ أيـن سـارُوا

أي: المغيب.

زاد بعض العلماء: أن العرب تُطلق الضلال على الحبّ، وهذا إطلاق غير مشهور معروف كهذه الإطلاقات الثلاثة التي ذكرنا.

﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ أي: علموا أنهم قد ضلوا عن طريق الإيمان إلى طريق الكفر، أنابوا إلى الله وتابوا ملتجئين إلى الله.

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾ [الأعراف: آية ١٤٩] قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائي: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾ بـ (ياء الغيبة) و ﴿رَبُّنَا﴾ مرفوعٌ فاعل: ﴿يَرۡحَمۡنَا﴾.

وقرأه حمزة والكسائي من السبعة: **﴿قالوا لئن لم ترحمنا ربَّنا وتغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾**[(٥)].

---

(١)(٢)(٣)(٤) مضت عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام، وصدر بيت النابغة كما في الديوان: «فآب....».

(٥) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٥.

فمعنى قراءة حمزة والكسائي[(١)]: لئن لم ترحمنا يا ربنا، وتغفر لنا يا ربنا لنكونن من الخاسرين.

أمّا على قراءة الجمهور: فالمعنى: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ أي: يتداركنا برحمته ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ الغفران: هو محو الذنوب حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها بعد ذلك.

﴿وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ والله لنكونن من الخاسرين. وأصل الخسران: نقصان مال التاجر من ربح أو رأس مال، وهو قد يُطلق في الشرع وفي القرآن على غبن الإنسان في حظوظه من ربه، وأكبر الخسارة غبن الإنسان بحظوظه من خالقه جل وعلا.

وقد بيّنا في هذه الدروس مراراً وكررنا[(٢)] أن هذا الخسران أقسم الله في سورة عظيمة من كتابه أنه لا ينجو منه أحد إلا بشروط معينةٍ منصوصة في كتاب الله، كما أوضح الله ذلك في قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الألف واللام للاستغراق، فهو بمعنى: أن كل إنسان كائناً من كان ﴿لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: الآيات ١ ـ ٣].

وقد كررنا في هذه السور الماضية مراراً[(٣)] أن العلماء ضربوا لهذا الخسران مثلين، في كلٍ منهما موعظة يتعظ بها المؤمن في دار الدنيا وقت إمكان الفرصة، كررناها مراراً، ولا نزال نكررهما لعل الله أن يرسل موعظة لقلوب إخواننا تهديهم إلى ما يرضي الله، وتنهاهم عما يكرهه خالقهم، فمن ذلك:

أن العلماء قال بعضهم: إن الله (جل وعلا) أعطى كل إنسان رأس مال، وأمره بالتجارة فيه مع خالقه، ورأس هذا المال المعطى لكل إنسان هو الجواهر النفيسة، والأعلاق العظيمة التي لا مثيل لها في الدنيا، ألا وهي: ساعات العمر ودقائقه وثوانيه. فليعلم كلٌ منا أن رأس ماله الذي أعطاه

---

(١) انظر: حجة القراءات ص٢٩٦، القرطبي (٢٨٦/٧)، الدر المصون (٤٦٥/٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩) من سورة الأعراف.

(٣) السابق.

خالقه جواهر لا مثيل لها في الدنيا، ولا نظير لها، ولا يوجد شيءٌ أكبر منها فائدة إذا أُعملت على الوجه الأتم، ألا وهي: ساعات عمره ودقائق حياته وثوانيها.

هذا رأس مالك أيها الإنسان، وأنت مأمور بتحريكه والتجارة فيه مع خالق السماوات والأرض، فإن كنت رجلًا عاقلًا يقدر الأمور ويخاف العواقب السيئة حركت عمرك وتاجرت فيه مع خالق السماوات والأرض تجارة، وذلك أن تصرف ساعات العمر وأوقاته ودقائقه وثوانيه فيما يرضي ربك، وتحذر أن تصرف شيئاً منه فيما يسخط خالقك (جل وعلا) فتنظر في أوقات عمرك الوقت الذي يتوجه إليك فيه أمرٌ من السماء - كأوقات الصلوات وأوقات الصوم وأوقات الحج وما جرىٰ مجرىٰ ذلك - فتبادر إلى امتثال أمرك بنفس طيبة مُسارعة راغبة فيما عند الله، والأوقات الذي لم يتوجه عليك طلب مخصوص تستزيد من الخير بالنصوص العامة التي تحثك على طلب الخير ومرضاة من خلقك (جل وعلا) وتحذر كل الحذر من أن ترتكب شيئاً يغضب خالقك ويسخطه، فإذا اتجرت مع الله هذه التجارة في رأس هذا المال فحركته فيما يرضيه ربحت أيها الأخ ربحاً عظيماً، ربحت الحور العين والولدان، ومجاورة رب غير غضبان، وسكنى الجنة ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: آية ١٧] وقد سمىٰ الله هذه المعاملة معه من عبده سماها: (تجارة) وسماها: (بيعا) وسماها: (شراءً) وسماها: (قرضاً) قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: آية ٢٤٥] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقال: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التوبة: آية ١١١] وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [الصف: الآيتان ١٠، ١١].

أما إذا كان الإنسان المسكين أحمق أهوج لا يبالي بالعواقب السيئة، ولا يعرف حقيقة الأمر فإنه يزدري الجواهر التي أعطاه الله وهي أيام عمره، كصاحب المزبلة تكون عنده اليواقيت وهو يظنها حجارة عادية لا يعرف قيمتها، فيضيع رأس ماله وأيام عمره في قال وقيل، وفيما لا يجدي، حتى

تضيع، وربما أعملها فيما لا يرضي خالقه (جل وعلا) حتى ينتهي العمرُ المحددُ له، وينفد رأس ماله، فيُذهب به إلى القبر وهو مفلس لا رأس مالٍ عنده، فإذا عدم رأس المال فالربح معدوم!! والآخرة ـ أيها الإخوان ـ دارٌ لا تصلح للمفاليس؛ لأنها ليس فيها إرفاق وليس فيها بيعٌ ولا شراء ولا هبة، ليس فيها للإنسان إلا ما قدم أيام حياته.

لا دارَ للمرءِ بعدَ الموتِ يسكنُهَا إلا التي كانَ قبلَ الموتِ يبنِيْهَا
فإن بناها بخير طابَ مسكنُه وإن بنَاهَا بشرٍ خَابَ بانيهَا[1]

فعلى العاقل أن يتَّجر مع الله، ولا يضيع رأس ماله، والعمر كما جعله الله رأس مال فمن ضيعه فقد خسر الخسران الأعظم، كذلك جعله حجة على العبد؛ ولذا عده مع النذير في قوله في سورة فاطر: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: آية ٣٧] فجعل تعمير الإنسان عمراً يتذكر فيه وينيب إلى ربه حجةً عليه كالرسول، فعلينا جميعاً ألا نضيع أعمارنا، ونعرف قدر قيمتها، ونُعملها فيما نتمتع به بعد الموت مما يرضي خالقنا؛ لأن رأس المال إن ضاع خسر الإنسان كل شيء وندم حيث لا ينفع الندم.

المثل الثاني الذي ضربه العلماء لهذا الخسران: هو حديث جاء عن النبي ﷺ[2] أن الله تعالى جعل لكل إنسان منزلًا في الجنة ومنزلًا في النار، فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أطلع أهل الجنة على مساكنهم في النار لو أنهم كفروا وعصوا؛ لتزداد غبطتهم وسرورهم بما هم فيه، وعند ذلك يقول الواحد منهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: آية ٤٣] ثم يطلع أهل النار على منازلهم في الجنة لو أنهم آمنوا وأطاعوا؛ لتزداد ندامتهم وحسرتهم وعند ذلك يقول الواحد منهم: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: آية ٥٧] ثم إن الله

(١) هذان البيتان تقدم ذكرهما عند تفسير الآية (٩) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

يجعل منازل أهل الجنة في النار لأهل النار، ومنازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة، ومن عُوِّض منزل غيره في النار بمنزله في الجنة فصفقته صفقة خاسرة، وهو من الخاسرين كما لا يخفى.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٥٠ ـ ١٥٥].

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف: آية ١٥٠].

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ لما رجع موسى إلى قومه من الميقات، عندما انتهى الميقات، وكلّم ربه وناجاه، وكتب له التوراة في الألواح، ورجع إلى قومه ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ رجع في حال كونه ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ (غضبان) حال من فاعل (رجع) رجع في حال كونه غضبان. وقوله: ﴿أَسِفًا﴾ حال أخرى. والأسف: شدَّةُ الغضب، فمعنى: ﴿غَضْبَٰنَ﴾ شديد الغضب. والتحقيق: أن ﴿أَسِفًا﴾ هنا معناه: شديد الغضب، فهو كالتوكيد لغضبان. ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: فلما أغضبونا انتقمنا منهم وأغرقناهم.

قوله: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ هذان حالان من قوله: ﴿رَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ أي: في

حال كونه غضبان أَسِفاً[١]. وجمهور علماء العربية: أن الحال تتعدد وعاملها واحد وصاحبها واحد[٢]، خلافاً لجماعة من علماء العربية منهم أبو الحسن ابن عصفور ومن وافقه قالوا: لا يجوز تعدد الحال، وإنما تتداخل، فزعموا أن ﴿أَسِفًا﴾ حال من الضمير المستكن في ﴿غَضْبَٰنَ﴾ وأن العامل فيها هو ﴿غَضْبَٰنَ﴾ فقالوا: الأحوال متداخلة، والجمهور يقولون: إنها متعددة لا متداخلة، وأن الحال تتعدد من غير تداخل مع العطف وبدون العطف. ومن أمثلتها بدون العطف قوله هنا: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ وقول الشاعر[٣]:

عليَّ إذا ما زُرْتُ ليلىٰ بخُفْيَةٍ زيارةُ بيتِ الله رَجْلَانَ حافِيا

أي: في حال كوني ماشياً على رجلي غير منتعل. وتأتي أيضاً مع العطف كقوله: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا﴾ [آل عمران: آية ٣٩] فهي أحوال متعددة متعاطفة.

والأَسِفُ: شديد الغضب، وشذ بعض العلماء هنا فقال: الأسِفُ: الحزين، أي: غضبان حزيناً. والأول هو الأظهر[٤]، وغضبه وشدة أسفه مما فعله قومه من عبادة العجل.

﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ﴾ قرأ هذا الحرف جمهور القراء: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ بتحقيق الهمزة، وقرأه ورش عن نافع، والسوسي عن أبي عمرو: ﴿بيسما خلفتموني﴾ بإبدال الهمزة ياءً.

ومعروف أن (بئس) في العربية فعل جامد لإنشاء الذم، وإذا جاءت بعدها (ما) فالخلاف فيها مشهور: هل فاعل (بئس) ضمير محذوف و «ما» نكرةٌ مميزةٌ لذلك الضمير؟ أو (ما) هو الفاعل؟ خلافٌ معروفٌ[٥]، وأقوال لأهل العلم فيها، أظهرها: أن الفاعل ضمير محذوف، وأن «ما» نكرة ميزت

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٤٦٥).
(٢) انظر: شرح الكافية (٢/٧٥٤)، التوضيح والتكميل (١/٤٨٤)، ضياء السالك (٢/٩٦).
(٣) البيت في ضياء السالك (٢/٩٦)، الدر المصون (٢/٥٠٠).
(٤) انظر: ابن جرير (١٣/١٢٠).
(٥) انظر: الدر المصون (١/٥٠٧ ـ ٥٠٩).

ذلك الفاعل المحذوف، بئس هو ما. أي: شيئاً خلفتموني به.

ومعنىٰ ﴿خَلَفْتُمُونِى﴾ قمتم مقامي في غيبتي فيه، وكنتم خليفتي فيه، وهو عبادة العجل، على أن هذا راجعٌ للسامري ومن عبد معه العجل. وعلى أنه راجع للوجهاء من بني إسرائيل ـ هارون ومن معه ـ فتكون خلافتهم التي ذمها: أنهم لم يمنعوا مَنْ عَبَدَ العجل عن عبادة العجل، يعني: لم تخلفني يا هارون في قومي خلافةً حسنة حيث لم تكفف هؤلاء عن عبادة العجل. وهذا أظهر؛ لأنه قال لهارون: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٤٢] ولم يقل للسامري وعَبَدةِ العجل إنهم يخلفونه في قومه، وهذا معنىٰ قوله: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾.

﴿خَلَفْتُمُونِى﴾ تدل على أنه غير موجود، فهي قد تغني عن قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِى﴾ قال بعض العلماء: وإنما زاد من بعدي مع أن ﴿خَلَفْتُمُونِى﴾ تدل عليها ليشير إلى أنه ما دام موجوداً كان معروفاً بالتوحيد، والقمع عن الشرك، والحمل على ما يرضي الله جل وعلا.

ثم قال منكراً عليهم: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ للعلماء في هذه الآية أقوالٌ متقاربة[1]، وخير ما يفسر به القرآن: القرآن؛ لأن آية طه كالتفسير لآية الأعراف هذه، وعلى ذلك فالمعنى: أنّ الله أمركم بأمر، ووعدكم وعداً، وقال لكم على لسان نبيه: إن موسىٰ يذهب إلى الموعد، وأن الله يناجيه وينزل عليه كتاباً وفيه كل خير، وكل هدى ونور، يصلح الله لكم به دنياكم ودينكم وآخرتكم، وهذا وعدٌ عظيمٌ من الله، كما أشار له في قوله: ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [طه: آية ٨٠] على أحد التفسيرين. فلما وعدكم الله هذا الوعد العظيم الذي فيه كل هذا من الخير عجلتم أمر ربكم بذلك الوعد، أي: عجلتم عنه، وسبقتموه، وعبدتم العجل، ولم تنتظروا الخير الذي وعدكم الله به، وجئتم قبله بكل شر وسوء وخبث. والدليل على أنّ هذا هو تفسير الآية الصحيح: أنّ الله قال في سورة طه: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ

(١) انظر: القرطبي (٧/٢٨٨).

وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ [طه: آية ٨٦] هذا هو الأظهر في معنىٰ الآية الكريمة: ﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ أعجلتم عن أمر ربكم بانتظار موسىٰ، وانتهاء الوعد، وإتيانكم بكل خير تصلح به دنياكم وآخرتكم، عجلتم عن هذا كله، وعبدتم العجل، وكفرتم بالله والعياذ بالله.

﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ جاء في حديث رواه ابن أبي حاتم وغيره أن النبي ﷺ قال: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[1] واستدل لهذا بأن موسى لما قال له ربه: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ هذا خبرٌ يقينٌ من الله، لم ينفعل موسىٰ، ولم يلق الألواح، فلما جاء حاملًا ألواح التوراة، ونظر إليهم يعبدون العجل، ويعكفون حوله، لم يتمالك حتى ألقىٰ الألواح، وانفعل عند المعاينة انفعالًا لم ينفعله عند الخبر اليقين، ومن هنا عُرِفَ أن الخبر ليس كالمعاينة. وهذا معنى قوله: ﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ

---

(١) روى هذا الحديث جماعة من الصحابة منهم:

١ ـ ابن عباس عند أحمد (١/٢٧١)، والحاكم (٢/٣٢١، ٣٨٠)، وابن حبان (الإحسان (٨/٣٢)، والطبراني في الأوسط (١/١٢)، (٧/١٠٤)، وابن أبي حاتم (٥/١٥٧٠)، والخطيب في تاريخه (٦/٥٦)، (٨/١٢)، وابن عديّ (٤/١٥٨٠)، (٧/٢٥٩٦)، وذكره السيوطي في الدر (٢/١٢٧)، وعزاه لعبد بن حميد وأحمد البزار وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه. وهو في المشكاة (٥٧٣٨)، وصححه الألباني، وهو في الكنز (٤٤١١١)، (٤٤١٢٦).

٢ ـ أنس عند الطبراني في الأوسط (٧/٩٠) والخطيب في تاريخه (٣/٣٦٠)، وابن عدي (١/٢٠٣)، وقال: «هذا حديث باطل بهذا الإسناد» ا.هـ. وفي (٤/١٥٨٠)، وذكره الهيثمي في المجمع (١/١٥٣)، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات» ا.هـ. وهو في الكنز (٤٤١١٠)، (٤٤١٢٦).

٣ ـ ابن عمر عند ابن عدي (٧/٢٤٩٣)، وذكره الهيثمي في المجمع (١/١٥٣)، وقال: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح، وصححه ابن حبان» ا.هـ.

٤ ـ أبو هريرة عند الخطيب في تاريخه (٨/٢٨)، هو في الكنز (٤٤١١٠)، (٤٤١٢٦)، وانظر في الكلام على هذا الحديث: كشف الخفاء (٢/٢١٨)، تذكرة الموضوعات (٢٠٤)، إتحاف السادة المتقين (٦/٣٦٣).

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ يعني: طرح ألواح التوراة التي هي مكتوبة فيها من شدةِ غضبه لانتهاك حرمة الله، وعبادة العجل معه. وكثيرٌ من المفسرين يقولون: إنه ألقاها إلقاءً قوياً حتى تكسرت، وأنه رُفع شيءٌ منها مع المكسر منها. وكل هذا لا دليل عليه، ولم يقم عليه دليل صحيح لا من كتابٍ ولا من سنة[1]، وظاهر القرآن أنها لم تتكسر، ولم يَضِع منها شيء؛ لأنه قال: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٤] و (أل) هنا عهدية، وهي الألواح المعهودة التي ألقاها.

١٩/ب / يقول الله جل وعلا: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٠] لما غضب موسى، وألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، استعطفه أخوه وقال له: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾، معناه: يا ابن أمي ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ يعني: أن القوم الذين عبدوا العجل لما نهاهم كما شهد الله له بذلك في سورة طه في قوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: الآيتان ٩٠، ٩١] فلما ناصبوه وقالوا له علناً: «لن نبرح عاكفين على عبادة هذا العجل حتى يرجع موسى». دل ذلك على أنهم استضعفوه، أي: تقوَّوا عليه واستذلوه، ورأوه ضعيفاً عاجزاً عن مقاومتهم.

﴿وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ قاربوا قتلي وما قصَّرت، ثم إنه بيّن عذره في طه؛ لأن موسى قال له: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ استعطفه واعتذر له أيضاً وقال: ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: الآيتان ٩٣، ٩٤] وقال له هنا: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ يعني: لا تفعل بي فعلاً سيئاً يفرح به أعدائي. فالشماتة هي سرور العدو بما ينال عدوه الآخر من مكروه أو

---

(١) بل ثبت في بعض الروايات ما يدل على ذلك، وللوقوف على هذه الروايات انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٥٦٣/٥)، الإتقان للسيوطي (١٢٣/١)، التفسير الصحيح (٣٥٠/٢)، جامع التفسير من كتب الأحاديث (٧٤٦/٢، ١٠٩١).

سوء. فإذا أتى الله إنساناً بمكروه أو سوء ومصائب نزلت به وفرح عدوه بما أصابه فذلك الفرح يُسمىٰ: الشماتة، والذي تسبب فيه يقال: أشمته به يُشمته، ونفس العدو: شامت أي: فرح مسرور بما يصيب عدوه من الأذى. وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول الأعشى أو غيره(١):

كَمْ شامتٍ بي إنْ هلكتُ وقائلٍ للهِ درُّه

وفي شعر الحماسة(٢):

إذا ما الدهرُ جرَّ على أُناسٍ كَلاكِلَه أناخَ بآخَرِيْنَا
فقُلْ للشامتين بنا أفيقُوا سيلقىٰ الشامتُون كما لقينا

يعني: لا تشمت بي الأعداء، لا تفعل لي فعلًا سيئاً يفرح به أعدائي، لا تفعل لي ذلك: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا تجعلني مع عَبَدَة العجل كأني ممالىء لهم وموافقهم على ذلك، فأنا بريء من ذلك، وقد نصحتهم غاية طاقتي وجهدي. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فلما قال هارون هذا لموسىٰ رجع موسى ودعا لنفسه ولأخيه، قال موسىٰ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ واغفر ﴿وَلِأَخِى﴾ هارون ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ اجعلنا ممن شملته رحمتك الواسعة ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٥١] لأن الله (جل وعلا) أرحم الراحمين، أرحم بعباده من الأم بولدها كما هو معروف.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٥٢، ١٥٣].

---

(١) البيت يُنسب للبيد، وهو ملحق في ديوانه ص٢٣٥، ونسبه بعضهم للنابغة الذبياني، وهو ملحق في ديوانه ص١٢٢، ونسبه بعضهم للنابغة الجعدي.

(٢) البيتان في القرطبي (٢٩١/٧).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً فعبدوه من دون الله ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الغضب صفة وصف الله بها نفسه إذا انتُهكت حرماته، فنحن نصفه بها كما وصف بها نفسه، وننزه خالقنا أتمَّ التنزيه وأكمله عن مشابهة صفات المخلوقين؛ لأن جميع الصفات من بابٍ واحد، فكما أنه (جل وعلا) ذات لا تشبهها شيء من الذوات فكذلك لها صفات لا يشبهها شيء من صفات خلقه، أي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً فعبدوه من دون الله ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾ هذا الغضب كائنٌ ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ معناه: يغضب الله عليهم، ومن غَضِبَ الله عليه فقد هلك.

﴿وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذلة: الصغار والهوان.

قال جماعة من العلماء[١]: هذه الآية من سورة الأعراف في طائفة من بني إسرائيل أُشربت قلوبهم حُبَّ العجل، ولم يتوبوا فيمن تاب، بل بقوا غير تائبين، وعدهم الله هذا الوعيد، وهددهم هذا التهديد، وهذا هو الأظهر؛ لأن المعروف أن أكثر الإسرائيليين تاب من عبادة العجل تلك التوبة العظيمة التي بيَّناها مفصَّلة في سورة البقرة، حيث قدموا أنفسهم للقتل تائبين إلى الله، الواحد منهم يجود بنفسه فيُقتل مرضاةً لله وإنابةً إليه، كما تقدم إيضاحه في قوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: آية ٥] فمن تاب هذه التوبة النصوح العظيمة لا يُعقل أن الله يهدده هذا التهديد، ويتوعده هذا الوعيد؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، فيظهر هنا ما ذكره جماعة أنها في طائفة أُشربت قلوبهم حب العجل ولم يتوبوا ـ والعياذ بالله ـ ووعدهم الله هذا الوعيد: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ﴾ الجزاء الذي جزينا به هؤلاء الذين عبدوا العجل: ﴿نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ كان العلماء

---

(١) انظر: القرطبي (٧/٢٩٢)، ولابن جرير (رحمه الله) تحقيق جيد في معنى الآية فراجعه في تفسيره (١٣/١٣٤).

يقولون: كل من افترىٰ في الدين وابتدع في الدين سلط الله عليه الذلة، وكان الحسن يقول في المبتدعين المفترين في دين الله: والله إن الذلة على أكتافهم ولو هملجت بهم البَغْلَاةُ، وطقطقت بهم البراذين[١]. وقال هذا غير واحدٍ من العلماء، أن كل مبتدع في الدين مفتر فيه آتٍ بِنِحْلَة ليست بحق لا بد أن يسلط الله عليه الذلة ولو بلغ ما بلغ، كما صرح بذلك في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ فعلىٰ المسلم أن يخاف من الذلة والغضب، ولا يفتري في دين الله، ولا ينتحل ولا يبتدع، بل يبقىٰ على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ كالذين عبدوا العجل، ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد تلك السيئات، ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟﴾ يعني من بعد ذلك الذي ارتكبوه من السيئات ﴿وَءَامَنُوٓا۟﴾ داموا على إيمانهم، أو أخلصوا في إيمانهم، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: تلك السيئات والفعلات، وقال بعضهم: ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: التوبة المفهومة من قوله: ﴿تَابُوا۟﴾. ﴿لَغَفُورٌ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة لعباده.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن من ارتكب السيئات العظام ثم تاب إلى الله تاب الله عليه، والله يقول: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [طه: آية ٨٢] ويقول للذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة ـ يستعطفهم ليتوب عليهم مع شناعة كفرهم حيث يقول لهم ـ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: آية ٧٤] والتوبة واجبة على كل مسلم ومسلمة من كل ذنب كائناً ما كان[٢]، ولا يجوز تأخيرها، فإذا اقترف ذنباً وأَخَّر التوبة منه كان تأخير التوبة ذنباً يستوجب توبة أخرىٰ.

وقد أجمع العلماء على أن التوبة تتركب من ثلاثة أركان[٣]:

أحدها: الإقلاع عن الذنب إن كان متلبساً به.

---

(١) أورده ابن كثير في التفسير (٢/٢٤٨).

(٢)(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

والثاني: الندم على ما صدر منه من الذنب (الندم الشديد).

والثالث: النية ألا يعود إلى الذنب أبداً.

هذه أركان التوبة التي أجمع عليها العلماء. وفي اثنين من أركانها في كلٍّ واحدٍ منهما إشكالٌ معروف[١]:

أحدهما: الندم، فالندم أجمع العلماء على أنه ركن التوبة، والتوبة واجبة بالإجماع، كما أوجبها الله بقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: آية ٣١] وركن الواجب واجب إجماعاً، فلا خلاف بين العلماء أن الندم ركنٌ من أركان التوبة واجب. وفي هذا إشكالٌ معروف شديد، وهو أن الندم من الانفعالات والتأثرات النفسية لا من الأفعال الاختيارية كما هو معروف، فترى البائع المغبون يندم وهو يحاول أن يطرد عنه الندم فلا يستطيع؛ لأن الندم انفعال وتوتر نفساني لا فعل اختياري، ومعروف أن الانفعالات والتأثرات النفسانية ليست تحت قدرة العبد، وقد أجمع العلماء أن الله لا يكلف عبده إلا بفعل اختياري هو في طاقة العبد، ولذلك كان في التكليف بالندم هنا الإشكال المعروف. هذا السؤال الأول في الندم، وأجاب بعض العلماء عن هذا، قالوا: نعم إن الندم انفعال وتأثر نفساني ليس تحت طاقة العبد، لأنّا نرى الإنسان يحاول أن يندم فلا يندم، ويحاول أن يطرد الندم فلا يطرده، يُشاهَد البائع المغبون يحاول أن يطرد الندم عن نفسه، والندم يضعه على الأرض من شدته، وهو لا يقدر أن يدفعه عن نفسه، وكذلك بعض عوام المسلمين قد ينال الواحد منهم قُبْلةً ـ مثلاً ـ من امرأةٍ بارعةٍ في الجمال يعشقها غاية العشق، فإذا أراد أن يندم على ذلك دعاه خيال ذلك الجمال ولذة ذلك الشيء القبيح فلا يستطيع أن يندم كما هو مشاهد، وإذا كان انفعالاً لا قدرة للعبد عليه فما وجه التكليف به؟!

أجيب عن هذا: بأن المراد بالتكليف بالندم: التكليف بأسبابه الموصلة إليه، ومن تعاطى أسبابه الموصلة إليه تعاطياً حقًّا لم يُحاب فيه نفسه لا بد

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

أن يندم، وضرب العلماء لذلك مثلًا، قالوا: كل العقلاء إذا قَدَّمت إلى واحدٍ منهم شراباً لذيذاً ولكنه فيه السم القَاتل الفتَّاك، فجميع العقلاء لا يستلذُّون ذلك الشراب ولا يعدّون لذته لذة؛ لأن السم القاتل الذي هو فيه يبطل لذته وينفِّر منها. ولا شك أن حلاوات المعاصي ـ قبّحها الله ـ ولذاتها تتضمن سماً قاتلًا فتّاكاً هو سخط رب العالمين، وغضبه والخوف من عقابه العاجل والآجل، فإذا أخذ الإنسان نفسه أخذاً حقاً، وعرف أن حلاوة المعاصي يضاف فيها السم القاتل الفتّاك من سخط رب العالمين فلا بد أن يندم، والذي لا يندم إنما جاءه ذلك من أنه يحابي نفسه، وينجرف معها بالمعاصي، فلا يأخذها بالأسباب أخذاً حقّاً، ولمّا كان الندم أسبابه متيسرة ومن تعاطاها حقّاً حصل عليه، صار كأنه فعلٌ في طاقة المخلوق فكُلّف به.

وأما الإشكال الثاني: فهو في الإقلاع؛ لأن بعض الناس قد يتوب ويندم ولا يقدر على إكمال الإقلاع، كالذي بث بدعةً وعمل بها الناس في مشارق الأرض ومغاربها، والنبي يقول: «**من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً**»[1] إذا تاب هذا الإنسان وبدعته متمادية يُعمل بها في مشارق الأرض ومغاربها، هل نقول: هو مقلع؛ لأنه فعل طاقته وما يقدر عليه؟ أو نقول: ركن التوبة هنا معدوم؛ لأن الإقلاع معدوم؛ لأن ذنبه متمادٍ جار في أقطار الدنيا؟! وكذلك الإنسان إذا رمىٰ إنساناً من بعيد بسهم أو رصاصة ثم بعد أن زايل السهم تاب ذلك الإنسان قبل أن يصل السهم إلى المرمى، هل نقول: هو تائب؛ لأنه فعل قدر طاقته؟ أو نقول: لا تقبل توبته؛ لأن الإقلاع ركن في التوبة، ولم يتحصّل؛ لأن فساده متمادي، وسهمه رائحٌ إلى المسلم ليقتله؟ وكذلك من غصب ـ مثلاً ـ أرضاً عشرين كيلاً، ثم إنه ندم وخرج منها، هل هو في أثناء الخروج قبل أن ينفصل عن الأرض لو أدركه الموت نقول: أدركه الموت تائباً؛ لأنه فعل قدر طاقته؟ أو نقول: لم تحصل توبته؛ لأن الإقلاع لم يكن؛ لأنه ما زال يشغل فراغاً مغصوباً بجسمه استولىٰ عليه بغير حق شرعي؟.

---

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأعراف.

والصحيح عن الأصوليين أن هذا الأخير تقبل توبته وإن كان الإقلاع لم يصح منه؛ لأنه عاجزٌ عنه، وقد جاء في توبته بما يستطيع، والله لا يكلف إلا بما يستطيعه عبده ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٦] وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا أمرتكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتم**» الحديث[١]. وهذان السؤالان في التوبة. وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ﴾.

﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: السيئات، ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾ داموا على إيمانهم؛ أي: أخلصوا في إيمانهم وتوبتهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: التوبة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أو ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد السيئات التي تاب العبد منها ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كثير الغفران والرحمة لعباده.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: آية ١٥٤] سكت عن موسى الغضب معناه: سكن غضبه وطفىء. لما طفىء غضبه وسكن، وفي بعض القراءات الشاذة: ﴿**ولما سكن عن موسى الغضب**﴾[٢] يعني: لما سكن غضبه وطفىء، وذلك باعتذار أخيه حتىٰ عرف صدق عذره، وبتوبة الذين عبدوا العجل حتىٰ قدموا أنفسهم للموت طائعين مرضاةً لربهم.

﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ طرح الألواح من أجل الغضب، ولما سكن الغضب أخذها. و (أل) في الألواح عهدية، وظاهر هذه الآية أن الألواح لم تتكسر، وأن التوراة لم يُرفع منها شيء، ومعلوم كثرة أقوال المفسرين أنها تكسَّرت، وأنّ رضاضها لم يزل عند الملوك الإسرائيليين، وأنها رُفع منها كل التفاصيل، وبقي منها الهدىٰ والرحمة. ولكن هذا لم يقم عليه دليل يجب الرجوع إليه، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي: أخذها ليعمل بما فيها؛ لأن ربه قال له: خذها بقوة.

﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ النسخة هنا (فُعْلَة) بمعنىٰ (مفعول)، أي: المنسوخ فيها، أي: المكتوب فيها من التوراة من كلام رب العالمين، وفيه ﴿هُدًى﴾ أي: دلالة وإرشاد إلى الخير، ورحمة تقي عذاب الله وسخطه لمن عمل به.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: البحر المحيط (٣٩٨/٤)، الدر المصون (٤٧١/٥).

﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ الذين هم يخافون الله، وخصَّهم لأنهم هم المنتفعون به، وجرت العادة في القرآن أن الله يخص المنتفعين[1]، كما قال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: آية ١١] وهو منذر للأسود والأحمر، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: آية ٤٥] وهو منذر للجميع، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: آية ٤٥] وهو مذكر لمن يخاف ومن لا يخاف كما هو معلوم.

واللام في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ففيها أوجه[2]، وأظهرها أن المعمول إذا قُدّم على عامله ضعفت تعديته إليه، فإذا جيء باللام تقوَّت التعدية، ونظيره قوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: آية ٤٣]. وقال بعض العلماء: هي اللام الأجلية التعليلية، يرهبون يخافون لأجل ربهم، لا للسمعة ولا الرياء، كما قاله بعضهم. ومعنى: ﴿يَرْهَبُونَ﴾: يخافون، والرَّهَب: الخوف، والمعنى: أن في المنسوخ المكتوب في تلك الألواح هدىً ورحمةً لمن يخاف الله؛ لأنه هو الذي يعمل به وينتفع به، وهذا معنى قوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي: يرهبون ربهم، أي: يخافونه، ولما قُدم المعمول ضعف تعدي الفعل إليه فأُكِّد باللام كقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: آية ١٥٥] جمهور العلماء على أن ﴿قَوْمَهُۥ﴾ منصوب بنزع الخافض؛ لأن أصل الفعل يتعدىٰ إليه بـ (من) فحذفت (مِن) فتعدىٰ الفعل إليه بنفسه فنُصب، والأصل: واختار موسى من قومه سبعين رجلًا، فحُذفت (مِن) ونُصب ﴿قَوْمَهُۥ﴾، وهذا الأسلوب معروف في كلام العرب، ومنه قول الفرزدق[3]:

مِنّا الذي اختيرَ الرجالَ سَماحةً وَجُوداً إذا هَبَّ الرياحُ الزعازعُ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.
(٢) انظر: الدر المصون (٤٧٢/٥).
(٣) البيت في القرطبي (٢٩٤/٧)، الدر المصون (٤٧٤/٥).

معناه: (اختير الرجال) أي: اختير من الرجال؛ لأجل سماحته وجوده. ومنه قول الراعي يمدح رجلاً[(١)]:

اخترتُكَ الناسَ إذا رثّت خلائقُهـم ... واختلَّ مَنْ كان يُرجىٰ عنده السُّولُ

يعني: اخترتك من الناس، هذا أسلوب معروف لا إشكال فيه. وزعم الأخفش الصغير ـ سليمان بن علي ـ أن النصب بنزع الخافض مطرد قياسي إذا أُمن اللبس، وجماهير علماء العربية يقولون إنه سماعي يُحفظ ما سُمع منه ولا يُقاس عليه، كما هو معلوم في محلّه[(٢)].

واختار موسى من قومه سبعين رجلًا. اعلم أن هذه السبعين لا شك أن الله أمر موسىٰ أن يختارها، ووقَّت لها وقتاً معيناً يأتيه بها في محل معين، إلا أنه مُخْتَلَف في ميقات هذه السبعين ما هو؟ وما سببه؟ اختلف العلماء في ذلك[(٣)]، فذهب بعض العلماء إلى أن ميقات السبعين هذه المذكور هنا في قوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ زعم بعضهم أنه الميقات الأول الذي قال فيه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: آية ١٤٣] وأن الله لما أمر موسىٰ بذلك الميقات أمره أن يأتيه في سبعين رجلاً من قومه يختارها، وتكون من خيارهم، وأنه جاءه بسبعين منهم، وسأل الله أن يُسمعهم كلام الله، فسمعوا كلام الله يكلم موسىٰ، يأمره وينهاه، افعل ولا تفعل، وأنه لما انقضت المناجاة، وارتفع عمود الغمام الذي كانوا فيه قالوا له: يا موسى ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: آية ٥٥] وأنهم أخذتهم الصاعقة، كما سيأتي تفصيله، وعلى هذا القول فالميقات ميقات السبعين هو ميقات موسىٰ للمناجاة وإنزال التوراة. وهذا القول ليس بظاهر؛ لأن ما وقع في الميقاتين والقصتين كله مختلف، فيظهر أنه ميقات آخر وقصة أُخرىٰ، وللعلماء فيه أقوال:

---

(١) البيت في القرطبي (٧/٢٩٤)، البحر المحيط (٤/٣٩٨)، الدر المصون (٥/٤٧٣).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/٣٩٨)، الدر المصون (٥/٤٧٤).

(٣) انظر: ابن جرير (١٣/١٤٠)، ابن كثير (٢/٢٤٩).

قال بعض العلماء: لما عبدوا العجل أمره الله أن يأتي إلى الطور بسبعين يختارها من خيارهم ليعتذروا إلى ربهم من عبادة قومهم للعجل حتى يتوب عليهم، وأن هذا هو ميقات السبعين التي اختيرت من أجله.

وقال بعض العلماء: ذهب موسىٰ وهارون ومع هارون ابنه شبر وابنه شبير، جاؤوا إلى جبل فوجدوا عند ذلك الجبل كرسياً فاضطجع عليه هارون وقبض الله روحه، فلما رجع موسىٰ لبني إسرائيل قالوا: أين هارون؟ قال: مات. قالوا: بل قتلته وحسدتنا على لين خلقه، أنت الذي قتلته!! وأنه قال: كيف أقتله ومعي ابناه؟ وأن الله أعطاه وعداً يختار منهم سبعين حتى يُحيي لهم هارون ويسألوه، وأن السبعين ذهبت حتى جاء هارونَ وقال: من قتلك؟ قال: ما قتلني أحد ولكن الله توفاني. إلى أقوالٍ كثيرةٍ من هذا النمط لا دليل عليها.

هذه هي الأقوال في الميقات، وعلى كل حال فهم سبعون رجلًا من خيار الإسرائيليين اختارها موسى لميقاتٍ وقَّته الله له، ولما جاؤوا ذلك الميقات أخذتهم الرجفة، والرجفة: الزلزلة الشديدة، والهزَّة العظيمة.

واختلف العلماء في سبب هذه الرجفة وهذه الهزة اختلافاً مبنياً على الميقات الذي كنا نقول[١]، فقال بعضهم: إنه ذهب بهم ليعتذروا من عبادة العجل، وأن الله أسمعهم كلامه لنبيه، وأنهم قالوا له: لن نؤمن لك حتى نرىٰ الله جهرة، فامتنعوا من الإيمان والتصديق حتىٰ يروا الله، فأخذتهم الصاعقة، وتلك الصاعقة هي التي أرجفتهم، وقال هنا: ﴿أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: آية ١٥٥].

وقال بعض العلماء: هؤلاء الطائفة لم يفعلوا ذنباً لكنهم لما ذهبوا مع موسىٰ وسمعوا كلام الله داخلتهم هيبة شديدة وخوف عظيم حتى كادت مفاصلهم يبين بعضها من بعض. وهذا القول لا يتجه؛ لأنه يقول: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ وهذا يدل علىٰ أن هنالك بعض الشيء.

---

(١) انظر: المصدرين السابقين.

وقال بعض العلماء: إن الله لما أمر موسىٰ أن يأتي الميقات بسبعين، اختار السبعين وهم في نظره أفضل بني إسرائيل، وما كان يظن أنهم قد عبدوا العجل مع من عبده، وهم قد عبدوه، وموسى لا يدري عن ذلك، فلما جاؤوا الميقات جاءتهم الرجفة والهزة العنيفة بسبب عبادتهم للعجل.

وقال بعض العلماء: لم يعبدوا العجل ولكنهم داهنوا من عَبَدَه فلم يزجروه زجراً قوياً، فجاءتهم الرجفة لعدم زجرهم كما ينبغي.

هذه أقوال المفسرين، وفيها غير هذا، ولا شيء يقوم عليه الدليل القاطع منها، والله تعالى أعلم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الهزة الشديدة، سواءً قلنا إنها بسبب قولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: آية ٥٥] أو بسبب أنهم عبدوا العجل، أو أنهم لم ينهوا من عَبَدَ العجل، أو غير ذلك من الأسباب، ضاق الأمر بموسىٰ، وعلم أنهم إن ماتوا وقعت بنو إسرائيل في بليةٍ لا مخرج منها؛ لأنه لو ماتت تلك السبعون من خيارهم وجاءهم فقالوا: أين السبعون؟ فقال: ماتوا. يقولون: أنت الذي قتلتهم!! ويقع فيهم الخلاف والشقاق والفساد الذي لا حد له، ومن هنا كان نبي الله موسىٰ حريصاً جداً على أن الله يحييهم ـ على القول بأنهم ماتوا ـ أو يرفع عنهم الرجفة ـ على القول بأنهم سقطوا مغشياً عليهم غير ميتين ـ كما هو معروف. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ قال موسىٰ متضرعاً لربه ألّا يقتلهم في ذلك الوقت الحَرِج، وذلك الظرف العصيب الذي له عواقب سيئة في قومه: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ يا رب لو شئت إهلاكهم أهلكتهم من قبل هذا الوقت؛ لأنه مرت أوقات لو هلكوا فيها ما كان في إهلاكهم عاقبة سيئة، فلو قتلتهم بمحضر قومهم وهم ينظرون لما كانوا يتهمونني ولا نشأ عن ذلك فساد ولا بلايا ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ﴾ أي: وأهلكتني معهم في غير هذا الظرف كان ذلك أهون عليّ وأقل أذيةً لي.

ثم إنه قال مناجياً ربه، وهذا الاستفهام ـ على التحقيق ـ استفهام استعلام مع تذللٍ واستعطاف ﴿أَتُهۡلِكُنَا﴾ تهلكني أنا وإياهم. وقال بعض العلماء: تهلك جميع بني إسرائيل؛ لأنهم إن ماتوا في ذلك اتهموا نبيهم ووقع فيهم الخلاف والقيل والقال الذي لا يرتفع.

﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ السفهاء: جمع سفيه. والمراد بهم هنا: الذين فعلوا الموجب الذي أخذتهم الرجفة بسببه، سواء قلنا: إنه قولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة: آية ٥٥] ولا سفه أكبر من ذلك، أو عبادتهم العجل، أو عدم نهيهم من عَبَدَ العجل، إلى غير ذلك.

والسفهاء: جمع سفيه، والسفه في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناه: الخِفَّة والطيش[١]، تقول العرب: «تَسَفَّهَت الريحُ الريشةَ» إذا استخفتها فطارت بها كل مطار.

وهو في الاصطلاح: خِفَّةُ العقل وعدم رجاحة الحلم، حتى يفعل الأشياء التي تضره وهو لا يدري أنها تضره[٢].

والسفه في اصطلاح الفقهاء الذي يحجر به على المال[٣] اختلف علماء الفقه في تحقيق مناطه[٤]، فذهب مالك بن أنس ومن وافقه من العلماء أن مناطه على حفظ المال وحسن النظر فيه، فلو كان الإنسان يحفظ ماله ويحسن النظر فيه لم يكن سفيهاً عند مالك، وأُعطي له ماله ولو كان فاسقاً شِرِّيباً سكِّيراً عاصياً لله.

وذهب الشافعي في طائفةٍ من العلماء إلى أنه إن كان يعصي الله فهو أسفه السفهاء، وأنه لا يستحق ماله إلا وهو مطيع لله؛ لأن من عصى الله سفيه خفيف العقل طائشه لا يعلم مصلحته.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٦) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

وشاربُ الخمر إذا ما ثَمَّرا   لما يلي من ماله لم يُحْجَرا[١]

أي: عند مالك، خلافاً للشافعي ومن وافقه ـ رحم الله الجميع ـ وهذا معنى ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾.

ثم قال موسى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ الذي جرأ موسى على أن يضيف الفتنة إلى الله هو أن الله قال له: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: آية ٨٥] فأسند الله هذه الفتنة لنفسه بقوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ فجرأ ذلك موسى على أن يقول: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ سواء قلنا: إنَّ الرجفة أخذتهم بسبب قولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ فهذا امتحان وابتلاء من الله، أو بسبب أنهم عبدوا العجل فذلك ابتلاء وامتحان من الله، أو بسبب أنهم لم ينهوا من عَبَدَ العجل فذلك ابتلاء وامتحان من الله. وهذا معنى قوله: ﴿إِنْ هِىَ﴾ أي: الفتنة التي فتنوا بها، ما هي إلَّا ﴿فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً أن (الفتنة) أُطلقت في القرآن إطلاقاتٍ معروفة مشهورة[٢]، فمن أشهر إطلاقاتها: الاختبار والامتحان، ومنه قوله: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: الآيتان ١٧] ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: آية ٣٥] فأشهر إطلاقاتها: الامتحان والابتلاء.

ومن إطلاقات الفتنة هو: الإحراق بالنار كقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النازعات: آية ١٣] أي: يحرقون، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: آية ١٠] أحرقوهم بنار الأخدود على القول بذلك.

ومن إطلاقات الفتنة: نتيجة الاختبار إن كانت سيئة خاصةً، كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: لا يبقى شرك على وجه الأرض،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٦) من سورة الأعراف.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

بدليل قوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»[١] وتدل على ذلك الآيتان في سورة البقرة وسورة الأنفال، لأن الله قال في البقرة: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: آية ١٩٣] فقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ معناه: أنه لا يبقىٰ شرك في الأرض؛ لأن الشرك ما دام في الأرض فالدين بعضه للشركاء، وآية الأنفال قوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: آية ٣٩] كما هو ظاهر.

وأُطلقت الفتنة في سورة الأنعام على الحُجة في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿فتنتَهم﴾[٢] أي: حجتهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٣].

﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ كما أضللت الذين عبدوا العجل والذين قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: آية ٥٥] ﴿وَتَهْدِى﴾ بها ﴿مَن تَشَآءُ﴾ فلا تفتنه.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ الولي في لغة العرب التي نزل بها القرآن: هو من انعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويواليك[٣]، والله ولي المؤمنين ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة: آية ٥٥] والمؤمنون أولياء الله ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: الآيتان ٦٢، ٦٣] فهم يوالونه بالطاعة وهو يواليهم بالثواب الجزيل والرحمة والغفران. وهذا معنى قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ الغفر في لغة العرب: معناه الستر، ومنه سُمي المغفر مغفراً لأنه يستر الرأس، والمراد به ستر الذنوب ومحوها حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها[٤].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٩٢.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٤) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الغين، باب الغين والفاء وما يثلثهما، (مادة: غفر) ص٨١١، المفردات (مادة: غفر) ص٦٠٩.

﴿وَٱرْحَمْنَاۖ﴾ الرحمة صفة معروفة من صفات الله تظهر آثارها في خلقه، وهي على التحقيق صفة معنى قائمة بالذات، غلط كثيرٌ من المتكلمين زعم أنها من صفات الأفعال ـ كما هو معلوم في محله ـ.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ الذين يغفرون الذنوب؛ لأن من غفر في الدنيا قد يغفر لتحسن سمعته (. . .)[1].

١/٢٠ / ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

يقول الله عز وجل: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ هذا من بقية دعاء موسى بن عمران (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام)، قال: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قوله: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا﴾ معناه قدر لنا واقض لنا، أي: اجعل ذلك قدراً مقدوراً وقضاءً مقضياً لنا ﴿فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ في هذه الحياة

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل.

(الدنيا) تأنيث الأدنىٰ لدنوّها أو لدناءتها بالنسبة إلى الآخرة. ﴿حَسَنَةً﴾ قد قدمنا في سورة البقرة في الكلام على قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: آية ٢٠١] أن أظهر الأقوال أنّ الحسنة المطلوبة في الدنيا شاملة، فهي شاملة للتوفيق، والحياة الطيبة، والرزق الحسن، والعافية، وأن حسنة الآخرة المسؤولة هي الجنة ونعيمها والنظر إلى وجه الله الكريم، فطلب موسى حسنة الدنيا الشاملة لعافيتها وتوفيقها ورزقها، وحسنة الآخرة التي هي التنعم في الجنة، والنظر إلى وجهه الكريم، هذا معنى قوله: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: وفي الآخرة حسنة. فحُذفت لدلالة ما قبلها عليها.

وقوله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ العرب تقول: هاد يهود. إذا تاب ورجع، وهذا هو المعنى المشهور الصحيح في هذه الآية ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا ورجعنا إليك. وهذا كالتعليل لما قبله؛ لأن التوبة والإنابة والرجوع إليه من الأسباب التي يكتب الله بها حسنة الدنيا وحسنة الآخرة العرب تقول: هد أيها الرجل. تُبْ إلى الله من ذنوبك وارجع. وهاد: أي: تاب. والهُود: جمع هائد وهو التائب. وقد قال بعضهم[1]:

يا راكب الذنب هُدْ هُدْ واسجُد كأنك هدهد

معنى: ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا ورجعنا منيبين إليك.

قال الله جل وعلا: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ قرأ هذا الحرف جماهير القراء: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ بإسكان ياء المتكلم. وقرأه نافع: ﴿**عذابيَ أصيب به من أشاء**﴾ وهما لغتان فصيحتان وقراءتان صحيحتان[2].

﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ﴾ أعذب به وأهين به ﴿مَنْ أَشَآءُ﴾ أي: من أشاء إهانته به. والقراءة الصحيحة التي قرأ بها الجمهور: ﴿مَنْ أَشَآءُ﴾ بالشين المعجمة المثلثة وضم الهمزة.

---

(١) تقدم عند تفسير الآية (١٤٦) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٩.

أما القراءة التي تُذكر عن الحسن وغيره أنه قرأ: «قال عذابي أصيب به من أساء ورحمتي وسعت كل شيء»[١] فهي قراءة شاذة لا تجوز القراءة بها. ومعلوم أن أهل الأهواء والبدع من قدرية وغيرهم يستدلون بتلك القراءة: «أصيب به من أساء» يستدلون بها لشيء من مذاهبهم، ولما كانت قراءةً شاذةً لا تجوز القراءة بها فلا معول عليها ولا طائل لما أخذوه منها واستدلوا به لمذاهبهم الباطلة.

وقوله: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ الرحمة صفة من صفات الله اشتق منها لنفسه اسمه (الرحمن) واسمه (الرحيم)، وهي على التحقيق من صفات المعاني القائمة بذاته (جل وعلا)، وكثيرٌ من المتكلمين الذين يُؤَوِّلون صفات الله ويحملونها أولًا على محامل غير طيبة ثم يُلْجِؤُهم ذلك إلى تأويلها يزعمون أنها صفة فعل. وذلك ليس بحق، والحق أنها صفة ذات من صفات المعاني القائمة بذات الله، ولا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين، ليس فيها رقة مخلوقية، ولا انعطاف مخلوقي، لا وكلّا، بل هي صفة كمال وجلال لائقة برب العالمين، منزهةٌ كل التنزيه، مقدسةٌ كل التقديس، لم تشبه شيئاً من صفات الخلق.

وقوله: ﴿وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ رحمة الله واسعةٌ لا تضيق عن شيء، فهي تسع كل شيء كائناً ما كان. و(الشيء) عند أهل السنة والجماعة يُطلق على الموجود، ولا يُطلق على المعدوم[٢]، فكل موجود يُطلق عليه اسم (الشيء) عند أهل السنة والجماعة، ولا يُطلق (الشيء) على [المعدوم][٣]. وجاز إطلاقه على الله كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: آية ٨٨] وقال: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ [الأنعام: آية ١٩]، ولا يطلق على المعدوم بدليل أنّ الله صرح بأن المعدوم ليس بشيء كقوله: ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: آية ٩] فصرح بأن المعدوم ليس بشيء.

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤٠٢/٤)، الدر المصون (٤٧٧/٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٣) في الأصل: «الموجود» وهو سبق لسان.

والمعتزلة يقولون: إنّ المعدوم يصدق عليه اسم (الشيء) ويتعسفون الاستدلال لذلك من آية من كتاب الله، قالوا: إن الله قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ فسماه (شيئاً) قبل أن يريده، وقبل أن يقول له: «كن» وهو في ذلك الحين معدوم. وهذا لا دليل فيه؛ لأنه لما تعلقت إرادة الله به صار كأنه موجود بالفعل؛ لأن المتوقع وجوده كالموجود بالفعل. هذا معنى قوله: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

يقول بعض المفسرين: إنه لما عمم سعة رحمته لكل شيء أن إبليس طمع ومد عنقه، وأنه لما قال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أنه يئس ورجع. هكذا يقولون، والله أعلم بصحته[1]. ويزعمون أن أهل الكتابين قالوا: نحن ممن يتقي. فلمّا جاء بعض الصفات علموا أنها لا تنطبقُ كل الانطباق إلا على هذه الأمة الكريمة المرحومة[2]؛ ولذا قال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أجعلها مكتوبة مقدرةً مقضيةً لهم، والعرب كل شيء لازم محتوم تسميه مكتوباً، وهو معروف في لغتهم، ومنه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: آية ١٨٣] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة: آية ١٧٨] لأن (كَتْب الشيء) معناه: جعله لازماً، وهذا معروفٌ في لغة العرب، ومنه قول الشاعر[3]:

يا بنت عمّي كتاب الله أخرجني عنكم فهل أمنعنَّ الله ما فعلا

قوله (كتاب الله) أي: ما كتبه وقضاه وحكمه. ومنه بهذا المعنى قول ابن أبي ربيعة[4]:

كُتبَ القَتْلُ والقتالُ علينا وعلى الغانياتِ جَرُّ الذُيولِ

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/١٥٧).

(٢) المصدر السابق (١٣/١٦٣).

(٣) البيت في ابن جرير (٣/٣٦٥)، المقاييس في اللغة (٥/١٥٩).

(٤) البيت في البيان والتبيين (٢/٢٣٦)، عيون الأخبار (٢/٤٩)، جمهرة خطب العرب (٣/٣٥٧)، الأغاني (٩/٢٦٤).

وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: يجعلون بينهم وبين غضب خالقهم وعقابه وقاية تقيهم سخط ربهم وعذابه. وتلك الوقاية هي امتثال أمره واجتناب نهيه (جل وعلا) كما بيّناه مراراً[(١)]. أي: يتقون الشرك والمعاصي، ويمتثلون أوامر الله، هذا معنى قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾.

أكثر العلماء على أن معنى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ يُعطون الحقوق الواجبة في المال المقررة المفصلة في السنة في المواشي والزروع والثمار والمعادن والذهب والفضة والتجارة وما جرى مجرىٰ ذلك مما تجب فيه الزكاة، وأن هذا هو المراد بالزكاة الحقوق الواجبة في المال.

وقال بعض العلماء: هي زكاة الأبدان وتطهيرها من أدران الذنوب والمعاصي والشرك بطاعة الله (جل وعلا)؛ لأن من أطاع الله زكىٰ، أي: طهر من أدناس الذنوب وأرجاسها كما قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: آية ٢١] هذا معنى قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا﴾ الشرعية التي أنزلنا على رسلنا ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون الرسل فيها، ويشمل ذلك عند بعضهم: ﴿بِآيَاتِنَا﴾: الكونية القدرية، كما نصبنا من العلامات على قدرتنا، وأني أنا المستحق العبادة وحده، يؤمنون بذلك فيعلمون أنها دالة على ربوبية من نصبها، واستحقاقه للعبادة وحده.

ويفهم من هذه الآية من مفهوم مخالفتها: أن الذين لا يتقون الشرك ولا المعاصي، ولا يؤتون الزكاة لا تكتب لهم هذه الرحمة، وقد بيّن تعالى ذلك في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ الآية [فصلت: الآيتان ٦، ٧] وهذا معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٦].

ثم ذكر من صفاتهم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ﴾ [الأعراف: آية

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

١٥٧] للعلماء كلامٌ كثير في الفرق بين الرسول والنبي، وأشهر الفوارق المعروفة عندهم: أن الرسول من أُرسل إليه وحي وأُمر بتبليغه، وأن النبي من أُوحي إليه سواء أُمر بتبليغه أو لم يؤمر(١). وهذا الفرق مشهورٌ على ألسنة العلماء، تأباه آية من سورة الحج، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ الآية [الحج: آية **٥٢**] فإنه صرح فيها بأن هناك نبياً مرسلاً ورسولاً مرسلاً، ومع أنهما مرسلان فهما متغايران كما دل عليه العطف؛ ومن أجل هذه الآية قال بعض العلماء: الرسول: من أُنزل إليه كتاب مستقل كمحمد ﷺ وموسىٰ، والنبي: من أُمر بأن يتعبد بكتاب منزل على غيره كأنبياء بني إسرائيل الذين يؤمرون بالتعبد بما في التوراة، كما بينا ذلك سابقاً في المائدة في الكلام على قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: آية **٤٤**] أي: يحكمون بها بأمرٍ من الله أنهم يحكمون بما فيها، إلى غير ذلك من الفوراق(٢). وفي حديث البراء الثابت في الصحيح أنّ البراء لما قال: «آمنت برسولك الذي أرسلت» قال له النبي ﷺ: «**بنبيك الذي أرسلت**»(٣). وذلك يدل على أنه لو قال: «رسولك الذي أرسلت». يكون الكلام تكراراً محضاً، فلما قال: «**ونبيك الذي أرسلت**» صار الكلام ليس تكراراً محضاً. هذا معنى قوله: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: آية **١٥٧**].

الأمي: هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، وكان نبينا ﷺ لا يعرف الكتابة ولا يعرف قراءة الكتب. وقد عرفتم في السيرة والتاريخ في صلح الحديبية أنه لما كتب عليّ (رضي الله عنه) وثيقة الصلح التي وقعت بين النبي ﷺ في صلح الحديبية مع سهيل بن عمرو العامري قال: هذا ما اتفق عليه

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص**١٥٥**، لوامع الأنوار البهية (**١/٤٩**).

(٢) من المفيد في هذا الموضوع مراجعة كتاب النبوات لشيخ الإسلام ص**٥٥**، وانظر: الرسل والرسالات للأشقر ص**١٤**، **١٥**.

(٣) مضى عند تفسير الآية (**٥٩**) من سورة البقرة.

محمد رسول الله ﷺ مع قريش. قال له: امحُ عنّا هذا، لو كنا نقرّ بأنك رسول الله لما صددناك عن البيت الحرام وأنت محرم. فقال لعلي: **امحها**. فامتنع علي أن يمحوها، فطلب منهم أن يرُوه محلها - لا يعرفها - حتى محاها[١]. هذا يُذكر في الأخبار والسيرة ولكن الله نص على ما يدل على هذا في سورة العنكبوت حيث قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: آية ٤٨] وهذا معنى (الأمي): الذي لا يقرأ ولا يكتب.

واختلف العلماء في منشأ النسبة إلى الأمي هذه[٢]، فقال بعض العلماء: منسوب إلى أمة العرب؛ لأنهم أمةٌ أميون لا يكتبون ولا يحسبون؛ ولذا كانوا يعدون بالحصى؛ لأنهم لا يكتبون ولا يحسبون. (الأمي) أي: من أمة - منسوب إلى أمة - لا تحسب ولا تكتب ولا تقرأ.

قال بعض العلماء: منسوبٌ إلى أم القرى وهي مكة المكرمة حرسها الله.

وجماعةٌ من العلماء يقولون: الأمي: الذي لا يقرأ ولا يكتب، منسوب إلى أمِّه؛ لأنه كأنه على الحالة التي ولدته بها أمُه لم يتعلم بعدها كتابة ولا قراءة. هكذا زعمه بعضهم والله تعالى أعلم.

﴿يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧].

قوله: ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ معناه يجدون صفته الكاشفة ونعوته الواضحة مكتوبةً عندهم في التوراة والإنجيل؛ لأن الله بَيّن صفات هذا النبي الكريم ونعوته الكاشفة التي لا تترك في النبي لبساً، بَيَّنها في التوراة، وهو الكتاب الذي أنزل على موسى، وبَيَّنها في الإنجيل، وهو الكتاب الذي أنزل على عيسى (عليهم وعلى نبينا صلاة الله وسلامه)، فصفاته موجودةٌ عندهم، حتى إن الله قال عنهم: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: آية ١٤٦] لشدةِ إيضاحه

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب عمرة القضاء، حديث رقم (٤٢٥١)، (٧/٤٩٩).

(٢) انظر: القرطبي (٧/٢٩٨)، الدر المصون (٥/٤٧٨).

بالصفات الكاشفة التي لا لبس فيها بُينت لهم صفاته موضحة، وأُخذت عليهم المواثيق إن بعثه الله ليؤمنن به ولينصرنه، وأخذ الله ذلك الوعد على جميع الرسل، وعلى جميع أمم الرسل على ألسنة الرسل، كما أوضحه الله (تعالى) في سورة (آل عمران) وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ آتيناكم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿لما ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾[١] هو محمد ﷺ على أصح التفسيرين، وهو الحق الذي لا شك فيه - إن شاء الله - وجزم به غير واحد. ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ٨١، ٨٢] أخذ عليهم هذه العهود المؤكدة العظيمة بالإيمان به ﷺ وبيّن لهم صفاته الكاشفة ونعوته الواضحة، كما قال هنا: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا﴾ أي: صفته ونعته الذي يوضحه ولا يترك فيه لبساً.

﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧] قرأ هذا الحرف عامة القراء غير أبي عمرو: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وروي عن الدوري أنه اختلس الضمة، وقرأه أبو عمرو: ﴿يأمرْهم بالمعروف﴾ بسكون الراء[٢]. وجزْم الفعل المضارع بلا جازم للتخفيف لغةٌ موجودةٌ في كلام العرب، جاءت بها قراءات صحيحة في كتاب الله لا إشكال فيها[٣]، وأنشد بعض علماء العربية لجزم المضارع من غير جازم تخفيفاً قول امرىء القيس[٤]:

اليومَ أشرَب غير مُستَحقب إثـمـاً مـن الله ولا وَاغِـلِ

ومعروف أن بعضهم كَوَرْش يُبدل الهمزة ألفاً، تقول: ﴿يامُرُهُم

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٦٧.

(٢) للوقوف على القراءات في الراء من (يأمرهم) انظر: السبعة (١٥٦)، النشر (٢/٢١٢)، الإتحاف (٢/٦٥).

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.

(٤) السابق.

بالمعروف﴾ ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ﴿يأمُرْهم بالمعروف﴾[(١)].

(المعروف): هو كل ما عرفه الشرع وكان منه، كعبادة الله وحده، وصلة الأرحام، ومكارم الأخلاق، وغير ذلك مما جاء به ﷺ.

﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ المنكر: اسم مفعول (أنكره) وهو ما أنكره الشرع ولم يكن منه، ولم يأمر به، كعبادة الأوثان، وادعاء الأولاد لله، وكالخصال السيئة، وارتكاب المعاصي.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ اختلف العلماء في معنى الطِّيْب والخُبث في هذه الآية الكريمة ونحوها من الآيات في كتاب الله[(٢)]، واختلافهم هذا من الاختلاف الذي ينبني عليه بعض الأحكام الشرعية، فذهب جماعة من العلماء إلى أن الطيبات هنا طِيْبُها على نوعين: طِيْب شرعي، وهو أن يكون الله أباحها وجعلها حِلّاً لخلقه، فالله لا يُحِلُّ إلا الطيب، ولا يبيح إلا الطيب. ومعنى هذا ـ أنها طيبات ـ أن الله أباحها لخلقه واستطابها لهم، أي: يحل لهم الأشياء التي لا تحريم فيها.

وقال بعض العلماء: الطيبات لأنها مستلذة يستطيبها من يستعملها.

وكذلك يُحرِّم عليهم الخبائث، قال بعض العلماء: هي التي دل الشرع على خبثها بنهيه عنها، كالميتة والدم ولحم الخنزير وما جرىٰ مجرى ذلك.

وقال بعض العلماء: كل ما استخبثه الطبع العربي الذي صاحبه ليس ببالغ من الجوع غايةً تجعله يستطيب غير الطيب أنه يحرِّم ذلك.

فالذين قالوا: إن المراد بالطيبات هو الطِيْب الشرعي، وأن الله أباحها لخلقه مما يستلذه خلقه، وأنّ الخبائث هي ما خبث شرعاً مما منعه الله (جل وعلا) على خلقه كمالك بن أنس ـ وهو ممن قال هذا القول ـ فإنه لا

---

(١) للوقوف على القراءات في الهـ ـة وإبدالها ألفاً من (يأمرهم) انظر: النشر (٢٧٦/١، ٢٧٧، ٣٩٠ ـ ٣٩١)، الإتحاف (١٩٩/١ ـ ٢٠٠).

(٢) انظر: ابن جرير (١٦٥/١٣)، القرطبي (٣٠٠/٧)، ابن كثير (٢٥٤/٢).

يجعل استخباث الطبع العربي علة للتحريم؛ ولذا جاز عند مالك أكل المستخبثات التي يستخبثها الطبع العربي السليم، فإنه يجيز أكل الحيات إذا أُمن سمها، والعقارب والحشرات، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك. ولا شك أن هذه الأشياء مما يستخبثه الطبع العربي السليم. وكانت جماعة من العلماء منهم الإمام الشافعي (رحمه الله) يقول: دلَّ قوله: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ أن كل ما استخبثه الطبع العربي السليم الذي لم يتضرر بالجوع ـ لأن من آذاه الجوع جداً قد يستطيب الخبيث لشدة جوعه كما قال بعض شعراء العرب(١):

أكلنا الرُّبى يا أُمَّ عمروٍ ومن يكنْ لديكم غريباً يأكل الحشراتِ

أي: لشدة جوعه، وسُئل أعرابي عن جماعته من البدو: ما تأكلون؟ قال: نأكل كل ما دب ودرج إلا أم حُبين. فقال: لِتَهْنِ أم حُبين العافية. وأم حبين دويبة معروفة، يفر الإنسان ويستقذرها إذا رآها. فعلى هذا القول فالاستخباث الطبعي من العرب الذين لم تلجئهم ضرورة الجوع ـ قد يكون عنواناً للتحريم عند بعض العلماء، وهو مذهب الشافعي (رحمه الله) ومن وافقه. قال:/ دلت هذه الآية وأمثالها في القرآن على أن كل ما يستخبثه ٢٠/ب الطبع العربي السليم الذي لم يشتد جوعه أنه لا يجوز؛ لأنه يصدق عليه اسم الخبيث في لغة العرب التي نزل بها القرآن. والخبائث حرمها الله في كتابه على لسان رسوله، وتحريم هذا النبي الكريم للخبائث من أعلام نبوته (صلوات الله وسلامه عليه) لأنه مكتوبٌ في الكتب السابقة أنه إذا بُعث: من صفاته أنه يحرم الخبائث، فإذا جاء محرماً لها كان ذلك من معجزاته ومصداقاً لنبوته ﷺ.

والحاصل أن الذي يستخبثه الطبع السليم العربي كأشياء كثيرة كالخنفساء والحشرات، وما جرى مجرى ذلك، والعقارب والحيات: بعض

---

(١) البيت في اللسان (مادة: ربا) (١/١١١٧)، وفي القرطبي (٧/١٢٠)، وشطره الثاني في اللسان هكذا: «غريباً بأرض يأكل الحشرات». وفي القرطبي: «غريباً لديكم. . .».

العلماء يقول: هو حرام لهذه الآية الكريمة، كالشافعي، وأن الذين أجازوا ذلك كمالكٍ وأصحابه قالوا: ليس المراد بالخبث استخباث الطبع، وإنما المراد به ما دل الشرع على خبثه كما هو مقرر في مذاهب الأئمة، وهذا معنى قوله: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن عامر: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ بكسر الهمزة وإسكان الصاد. وقرأه ابن عامر وحده: **﴿ويضع عنهم آصَارهم والأغلال التي كانت عليهم﴾**[(١)] فالآصار جمع إصر (فِعْل) مجموع على (أَفْعَال) والإصر في اللغة العربية التي نزل بها القرآن: الثقل الذي كان من التكليف على من قبلهم؛ لأن من قبلنا كانت عليهم من التكليف آصارٌ وأغلال. الآصار: الأثقال التي تثقل صاحبها[(٢)]، منها ما قدمنا أن توبة الذين عبدوا العجل لم يقبلها الله إلا بتقديمهم أنفسهم للموت، فهذا ثقلٌ عظيم؛ لأنه لا حادث في الدنيا أعظم من الموت.

والمَوتُ أعظَمُ حادثٍ فيما يمرُّ على الجِبِلَّةْ[(٣)]

فرفع هذا الثقل عن هذه الأمة صلى الله على نبيّها فصار من ارتكب أعظم كفر وأشنع ذنب يكفيه أن يتوب إلى الله، وأن يُقلع عن الذنب، ويندم على ارتكابه، وينوي ألا يعود، فيتوب عليه ربه بذلك، فهذا من رفع الآصار. والإصر: هو الثقل المعروف، ومنه قول الشاعر[(٤)]:

.... وحامل الإصر عنهم بعدما غرقوا

---

(١) انظر المبسوط لابن مهران ص٢١٥.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/١٦٦)، القرطبي (٧/٣٠٠)، المفردات (مادة: أصر) ص٧٨.

(٣) البيت في المحرر الوجيز (١٢/٧٨)، القرطبي (١٣/١٣٦)، البحر المحيط (٧/٣٠)، الدر المصون (٨/٥٥٠).

(٤) هذا هو الشطر الثاني من بيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١٦٢، وشطره الأول:
يا مانع الضيم أن يغشى سراتَهُمُ ....

وقوله: ﴿وَٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾ الأغلال جمع غُل، والغُلّ هو القيد المعروف؛ لأن التكاليف القوية الشديدة كأنها أغلال يُغَلُّون بها، مثل أن الواحد منهم كان لا يصلي إلا بالماء، ولا يصلي إلا في الكنيسة، وإذا مست النجاسة شيئاً من ثوبه لزم أن يقرضه بمقراض، إلى غير ذلك من التشديدات[١]؛ بخلاف هذه الأمة فقد رُفع عنها ذلك، فجُعلت لها الأرض كلها مسجداً وطهوراً، وأُجيز لها إزالة النجاسة بالماء، وسهل لها كل شيء كان مُصَعَّباً على من قبلها. وهذا معنى قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾.

وهنا عَبَّر عن التكاليف الشاقة بالأغلال؛ لأن الأغلال كأنها تقيد صاحبها وتمنعه، وكذلك التكاليف الشاقة والأغلال التي كانت عليهم جاء النبي بوضعها كلها، وجاء بحنيفيةٍ سمحة، فالأرض فيها طهور، والأرض كلها مسجد، والماء يطهر كل شيء، وكل من استعصىٰ عليه شيء وشق عليه رخص له فيه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: آية ٧٨] أي: من ضيق ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: آية ١٨٥] والآيات في مثل ذلك كثيرة، وهذا معنى قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي: أثقال التكاليف التي كانت عليهم جاء ﷺ بإزالتها ووضعها؛ لأنه (صلوات الله وسلامه عليه) جاء بالحنيفية السمحة الذي لا حرج فيها. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾ أي: صدقوا به ﷺ وبما جاء به: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ قرأ الجمهور: ﴿عزَّروه﴾ وفي بعض القراءات ـ غير السبعة ـ: بتخفيف الزاي[٢].

قال بعض العلماء: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: مدحوه وأثنوا عليه ثناءً عظيماً.

قال بعض العلماء: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: منعوه من أن يناله أحدٌ بسوء، حتى لا يقوىٰ أحدٌ على أن يصل إليه، ولا يؤذيه بأذيةٍ ما. والمعاني في

---

(١) انظر: القرطبي (٣٠٠/٧).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤٠٤/٤)، الدر المصون (٤٨١/٥).

التعزير تدور حول هذا؛ لأن أصله يُشعر بالتعظيم، وهذا معنى قوله: ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾.

﴿وَنَصَرُوهُ﴾ النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم، أي: أعانوه على أعدائه الذين ظلموه وكذبوه، وكل من كذبه فهو ظالمٌ له، وهذا معنى قوله: ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾.

﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ النور الذي أُنزل معه ﷺ هو هذا القرآن العظيم؛ لأنه النور الذي أنزله الله من السماء يبصر الناس ببصائرهم في ضوئه الحق حقاً، والباطل باطلاً، والحسن حسناً، والقبيح قبيحاً، فهو أعظم نور يُكشفُ به ظلمات الباطل ويُرى في ضوئه الحق واقعاً كما ينبغي. وقد سماه الله نوراً في آياتٍ كثيرةٍ كقوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: آية ٨] وقوله: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ﴾ [الشورى: آية ٥٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء: آية ١٧٤] فهذا النور العظيم لمّا صرح الله في آياتٍ كثيرةٍ من كتابه أنه نوره الذي أنزله مع سيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه) ليكشف به ظلمات الجهل والباطل كان على المؤمن ألا يطلب الضوء إلا في نوره، ولا يطلب الهدىٰ إلا منه، فالذين يتركون هذا النور ويطلبون الهدى في الظلام الذي جاءت به الكفرة الفجرة دليل على أنهم خفافيش البصائر يعميهم النور، والله قد صرح في سورة الرعد أن من لم يعلم أحقية هذا القرآن وأنه الحق الذي لا شك فيه أن ذلك إنما جاءه من قِبل عماه؛ لأن الأعمىٰ إذا كان يعجز عن رؤية الشمس لا يؤثر ذلك في ظهور الشمس شيئاً!! فنحن نقول: لا شك في وضوح الشمس وإن كان الأعمىٰ لا يراها!! كذلك القرآن معجزته ونوره أوضح وأعظم من نور الشمس، ولا ينافي ذلك أن هنالك عميان لا يرون الشمس في رابعة النهار!!

إِذَا لَمْ يكنْ للمرءِ عَيْنٌ صَحِيْحَةٌ فلا غَرْوَ أنْ يَرْتَابَ والصُّبْحُ مُسْفِرُ[(١)]

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

والله صرح بهذا في سورة الرعد في قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: آية ١٩] فصرح أن الذي منعه من أن يعلم أنه الحق إنما هو عماه.

.... ولا ترى الشمسَ عينٌ تشتكي العورا

كما هو معروف. فهؤلاء ـ والعياذ بالله ـ الذين يعدلون عن هذا النور الذي هو أعظم من نور الشمس في رابعة النهار، وأوضح وأشد كشفاً وإيضاحاً لحقائق الأشياء وإيضاح الحق من الباطل، والحسن من القبيح، والنافع من الضار، هم خفافيش البصائر قطعاً والخفاش إذا ارتفع شعاع الشمس، وانتشر ضوؤها على الدنيا، وصار جميع الناس يمشون في ذلك الضوء، يقضون جميع حوائجهم، أعمىٰ ذلك الضوء الخفافيش، فإذا جاء الظلام وزال النور قام الخفاش يفرح ويمرح، وذلك الظلام عنده كأنه ضوء.

خَفَافِيشُ أعمَاهَا النهارُ بِضَوئِهِ فَوَافَقَها قِطْعٌ من الليلِ مُظْلِمُ[1]

فإذا رأيت من لا يقبل كتاب الله ولا يطلب الهدىٰ فيه، ويذهب ويزعم أن الهدى في زبالات أذهان الكفرة الفجرة الخنازير الحمير فاعلم أنه خفاش البصيرة يقيناً لا شك في ذلك، وأنه إنما عمي عن نور القرآن الذي هو أعظم من نور الشمس كما أعمى نور الشمس الخفاش، كما هو مشاهد:

مثل النهارِ يزيدُ أبصارَ الورَى نوراً ويُعمي أعْيُنَ الخُفَاشِ[2]

كما هو معروف، وهذا معنى قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧] المفلحون: جمع المفلح، وهو اسم فاعل (أفلح) والعرب تقول: «أفلح» إذا نال الفلاح، والفلاح يُطلق في اللغة العربية إطلاقين معروفين صحيحين[3]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨) من سورة الأعراف.

أحدهما: تُطلق العرب الفلاح على الفوز بالمطلوب الأكبر، فمن فاز في مطلوبه الأكبر تقول العرب: «أفلح»، ومنه قول لبيد بن ربيعة[(١)]:

فاعْقِلي إن كُنتِ لمَّا تَعْقِلي ولَقَد أَفْلَح مَنْ كَانَ عقَل

يعني: فاز بأكبر المطلوب من كان عنده العقل؛ لأنه رأس الخيرات.

وتُطلق العرب الفلاح على البقاء والدوام في النعيم، وكل من بقي بقاء سرمدياً في النعيم تقول له العرب: «أفلح» وتقول لذلك البقاء: «فلاح» ومنه بهذا المعنى قول الأضبط بن قُريع. وقيل: كعب بن زهير[(٢)]:

لكُلِّ هَمٍ من الهُمُومِ سعة والمُسْيُ والصُبحُ لا فَلاَحَ مَعَه

يعني: أن تعاقب الليل والنهار لا بقاء للحي معه، ومنه بهذا المعنى قول لبيد بن ربيعة أيضاً[(٣)]:

لو أن حَياً مدركَ الفلاحِ لَنَالَهُ مُلاعِبُ الرمَاحِ

يعني: لو أن حياً ينال البقاء ولا يموت لناله ملاعب الرماح.

وفي هذين المعنيين بكل منهما فُسِّر حديث الأذان والإقامة في قوله: «حي على الفلاح» فقال بعضهم: (حي على الفلاح) أي: الفوز بالمطلوب الأكبر وهو الجنة. وقال بعضهم: (حي على الفلاح) هلمّ إلى البقاء السرمدي في النعيم الذي لا ينقطع في الجنة؛ لأنكم تنالون ذلك بالمواظبة على الصلوات. وهذا معنى قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ كان بعض أفاضل العلماء يقول: هذه الأخيرة وهي قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ هي التي جاءت منها البلية إلى عمه ﷺ أعني أبا طالب؛ لأن أبا طالب من الذين آمنوا برسول الله، فهو مؤمن

(١) مضى عند تفسير الآية (٨) من سورة الأعراف.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.
(٣) مضى عند تفسير الآية (١١١) من سورة الأنعام.

برسول الله يقيناً، ولا يشك في نبوّته ورسالته، وقد صرح بذلك كثيراً في شعره كقوله في شعره[(١)]:

لقد عَلِموا أن ابننا لا مُكذَّبٌ لَدَيْنا ولا يُعْنَى بقولِ الأَباطِلِ

وقوله في شعره الآخر[(٢)]:

ولقد علمتُ بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

فهو يعتقد أنه رسول الله حقاً ولا يشك في ذلك، فهو ممن آمن به قلبه وآمن به لسانه (. . .)[(٣)].

١/٢١ / ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: آية ١٥٨].

معنى قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ قل يا نبي الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ (أيّ) هنا نُودي ليُتوصل به إلى نداء الاسم المقترن بـ (أل)؛ لأن ياء النداء لا تجتمع مع (أل)، فجعلت (أي) متصلة بالياء مناداة ليكون ذلك اتصالاً إلى نداء ما فيه الألف واللام؛ لأن ياء النداء والألف واللام لا يجتمعان. و(الهاء) هاء تنبيه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: مرسلٌ من الله ﴿إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ولم يرسل قبله نبي لعامة الخلق، إنما كان يرسل النبي لقومه ونحو ذلك، وهو ﷺ أُرسل للأسود والأحمر، وهذه من الأشياء التي فضله الله بها على جميع الرسل. ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ مرسل من الله إليكم أُبيّن لكم ما يأمركم به ربكم من عقائد وحلالٍ وحرام وغير ذلك.

---

(١) هذا أحد أبيات قصيدته المشهورة التي يذب فيها عن رسول الله ﷺ. وقد ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية (٣/٥٣ ـ ٥٧).

(٢) البيت في الإصابة (٤/١١٦).

(٣) في هذا الموضع انقطع التسجيل.

وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ يُعرب حالًا، ويُفسر بأنه توكيد، أي: إني رسول الله إليكم في حال كونكم جميعاً مجتمعين لم يتخلف منكم أحداً ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾.

﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ قال بعض العلماء: هو في محل خَفْضٍ نعتٌ لله، إني رسول الله الذي. وهذا على هذا القول لم يمنع من تبعيته له الفصل بينهما بقوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾.

وقال بعض العلماء: الفصل بينهما بقوله: ﴿إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ يمنع من الإتْبَاع و ﴿ٱلَّذِي﴾ في محل نصب منصوباً على المدح، أو محل رفع خبر مبتدأ محذوف، كما لا يخفىٰ، وهذا معنىٰ قوله: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ هذا الذي جئتكم مرسلًا منه ينبغي أن يُهاب، وأن يُخاف منه، وأن تُحترم رسله، وتطاع أوامره، وتجتنب نواهيه لشدةِ عظمته، وشدة الخوف من بأسه، وشدة الرغبة فيما عنده، فلا ينبغي أن يُعصى، فهذا الذي أرسلني؛ لأن هذه صفاته ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ هو ملك السماوات والأرض وهو المعبود وحده.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود يُعبدُ بحق لا في السماء ولا في الأرض ولا في غيرهما إلا هو وحده جل وعلا.

﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ هو الذي يحييكم ويميتكم. والكفار كانوا يقرون بإماتتين وإحياءة وينكرون إحياءة، ويوم القيامة أقروا بالإحياءتين والإماتتين فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ [غافر: آية ١١] فالإماتتان: الأولىٰ منهما: هي أطوارك أيها الإنسان قبل أن تحيا، فالذي تمكث وأنت نطفة كأنك ميت، والذي تمكثه في بطن أمك وأنت علقة كأنك ميت، والذي تمكثه وأنت مضغةٌ كذلك، فإذا نفخ الله فيك الروح فقد أحياك الإحياءة الأولى بعد الإماتة الأولى. ثم إذا أماتك المرة الثانية وصرت إلى القبر فقد مِتَّ الموتة الثانية، ثم يحييك حياة البعث، وهي الإحياءة الثانية التي كانوا ينكرون؛ ولذا قالوا لما أحياهم الإحياءة الثانية وعاينوها وبُعثوا: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ [غافر: آية ١١]

وقد أوضح الله هاتين الإحياءتين والإماتتين في سورة البقرة في قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الآية [البقرة: آية ٢٨] هذا معنى قوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ ومن كان يحيي ويميت فهو الذي يُخاف منه غاية الخوف؛ لأنه لا يقع على الإنسان في هذه الدار الدنيا حادث أعظم من الموت الذي يقطعه عن كل شيء.

والموتُ أعظمُ حادثٍ فيما يمرُّ على الجِبِلَّةْ[1]

ولا شيء أعظم ـ من التصرفات ـ من إحياء الإنسان بعد موته والإتيان به حياً بعد أن صار عظاماً رميماً ـ سبحان ربنا وخالقنا ما أعظمه، وما أعظم قدرته، (جل وعلا) وما أظهر براهين توحيده ـ وهذا معنى قوله: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ﴾ أي: صدقوا به وبكل ما يجب له، وآمنوا برسوله محمد ﷺ.

﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ [الأعراف: آية ١٥٨] قرأ نافع هنا في الموضعين وفي جميع القرآن (النبيء) بالهمزة إلا في موضعين من سورة الأحزاب قرأ في رواية قالون بالإدغام موافقة للجمهور[2].

وعلى قراءة نافع فالنبيء من (النبأ)، والنبأ[3]: هو الخبر الذي له الشأن، فكل نبأ خبر، وليس كل خبر نبأ.

وعلى قراءة الجمهور: فقيل هي كقراءة نافع، أصلها من (النبأ) إلا أنّ الهمزة أُبدلت ياءً، وأُدغمت فيها الياء التي بعد الباء. وقال بعض العلماء: (النبي) في قراءة الجمهور من النَّبْوَة وهي الارتفاع؛ لارتفاع شأن الأنبياء ومكانتهم بالوحي الذي فضلهم الله به. وهذا معنى قوله: ﴿وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ ويؤمن بكلمات الله، ومن كلمات الله: كتبه

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٧) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.

المنزلة؛ لأن النبي ﷺ يؤمن بكتب الله كما شهد الله له بذلك في قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: آية ٢٨٥] وقراءة الجمهور: ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وفي بعض القراءات الشاذة: **﴿يؤمن بالله وكلمته﴾**[1]، قال بعض العلماء: كلمته هي عيسى؛ لأن الله قال لمريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: آية ٤٥] كما قال عن زكريا: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: آية ٣٩] هذا معنى قوله: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٨] أمر الله هذه الأمة أن تتبع سيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه) ومعنى اتباعه: هو الاقتداء به فيما جاء به من عقائد وأفعالٍ وأقوال، هذا هو معنى الاتباع. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: لأجل أن تهتدوا، أو على رجائكم الهداية باتباعه ﷺ، وهذا معنى قوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: آية ١٥٩] بيّن الله أن قوم موسى - وهم بنو إسرائيل - منهم قوم ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو كتاب الله الذي أنزله على نبيه، يهدون بما فيه من الحق، يأمرون الناس فيه بالخير الذي يرضي الله جل وعلا ﴿وَبِهِۦ﴾ أي: بذلك الحق الذي هو ضد الباطل ﴿يَعْدِلُونَ﴾ من العدل الذي هو ضد الجور. جرت عادة المفسرين بعضهم يذكر عند هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف قصةً غريبةً معروفة عن بعض بني إسرائيل الله أعلم بها[2]، يزعمون أن طائفةً من بني إسرائيل آمنوا وثبتوا وأطاعوا الله تماماً، ولم ينجرفوا مع الذين غيروا وبدلوا وكفروا وعصوا، وسألوا الله أن يثبتهم على ما هم فيه، وأن الله شق لهم نفقاً من الأرض، وأنهم مشوا في ذلك النفق أكثر من سنة، وأنهم خرجوا من وراء بلاد الصين، وأنهم كانوا هناك في بلاد شاسعة وراء بلاد الصين، وأنهم على

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٤٠٦)، الدر المصون (٥/٤٨٣).

(٢) وهي في ابن جرير (١٣/١٧٣).

إيمانهم. يزعمون كثيراً هذا، ويذكره جماعة منهم عند هذه الآية من سورة الأعراف، والله أعلم بذلك.

وظاهر القرآن: أن الله أثنى على قوم موسى أن منهم أمة يهدون الناس بالحق الذي علموه من كتاب الله، وأنهم يعدلون به العدل الذي هو ضد الجور، هذا هو الظاهر[(١)].

يقول الله جل وعلا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: آية ١٥٨].

أمر الله (جل وعلا) نبينا ﷺ في هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف أن يقول لجميع الناس أسودهم وأحمرهم: إنه رسولٌ إليهم من رب السماوات والأرض، وهذه من المسائل التي فضله الله بها (صلوات الله وسلامه عليه) على جميع الرسل؛ لأنه فُضل بخصال لم يُعْطَها أحد قبله من الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم)، كما جاء مبيناً في الأحاديث عنه ﷺ، فقد أحلت له الغنائم ولم تُحل لأحد قبله، كانوا يحرقونها بالنار، وقد جُعلت له الأرض مسجداً وطهوراً، وقد نصره الله بالرعب مسيرة شهر، وأرسله إلى كافة الناس (صلوات الله وسلامه عليه) فهو (صلوات الله وسلامه عليه) أفضل الرسل، وخير العالمين ﷺ، ومنذ بعثه الله لم تبلغ دعوته أحداً من الخلق ولم يؤمن به إلا دخل النار، فالذين يقولون: إن محمداً ﷺ

(١) تنبيه: هذا الموضع هو آخر درس للشيخ (رحمه الله) في رمضان سنة (١٣٩٠هـ) كما هو مُثبت على إحدى النسخ. وقد قال (رحمه الله) في خاتمة هذا المجلس: «ونستودعكم الله - أيها الإخوان - ونرجو أن تكون مجالسنا هذه من مجالس الخير، وأن نكون من الذين يتعاونون على البر والتقوى؛ لأنّا نريد العمرة إلى مكة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ا.هـ ولعل هذا الدرس كان في (١٣٩٠/٩/٢٤هـ) لأن الدرس الذي قبله كان في (١٣٩٠/٩/٢٣هـ). ثم لما بدأ (رحمه الله) في درس التفسير في اليوم الأول من رمضان المبارك عام (١٣٩١هـ) [كما هو مثبت على إحدى النسخ] أعاد تفسير الآيتين (١٥٨، ١٥٩). وهذا سبب التكرار الذي قد يتساءل عنه القارىء الكريم.

أُرسل إلى العرب ولم يُرسل إلى غيرهم كفرة ملاحدة، كفرة بالله، مكذبون كتاب الله، مخالفون الضروري من دين الإسلام، فهو ﷺ مرسل إلى جميع الخلائق كما صرحت به هذه الآية الكريمة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وجاء في آيات أُخر من كتاب الله وأحاديث صحيحة معروفة، فمن الآيات الدالة على ذلك[١]: قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: آية ١] فصرح بأنه نذير للعالمين، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ [الأنعام: آية ١٩] فكل من بلغه هذا القرآن فهو مُنذَر برسالة محمد ﷺ، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: آية ٢٨] أي: إلا للناس كافة على التحقيق، خلافاً لمن زعم من علماء العربية أن صاحب الحال إذا كان مجروراً باللام أنه لا تتقدم عليه الحال[٢]. والمتأخرون من علماء العربية قالوا: إن ذلك جائز وتدل عليه الآية التي ذكرنا، وهي قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: آية ٢٨]. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ﴾ [هود: آية ١٧] وكل من سمع برسالة محمد ﷺ وبلغته ولم يؤمن به دخل النار؛ لأنه رسول الله إلى الأسود والأحمر، وإلى الخلق كافة (صلوات الله وسلامه عليه)، مرسل إلى الجن والإنس، عام الرسالة، باقيها إلى يوم القيامة؛ لأن الله لما أرسله رسالة عامة وجعلها باقية على مر العصور جعل معجزتها ـ وهي هذا القرآن العظيم ـ قائمة باقية تتردد في آذان الخلق إلى يوم القيامة، محفوظة من رب العالمين، لو أراد إنسان أن يزيد حرفاً أو ينقصه، أو نقطاً أو ينقصه لرد عليه الآلاف من صبيان المسلمين في أقطار الدنيا؛ لأن الله تولى حفظ هذا المُنزَّلَ المحكم الذي هو أساس هذه الرسالة العامة الخالدة (صلوات الله وسلامه على من جاء بها). وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

---

(١) انظر: الأضواء (٢/٣٣٤).

(٢) انظر: الدر المصون (٩/١٨٦).

الرسول هنا (فَعُول) بمعنى (مُفْعَل) إني مرسل من الله إليكم جميعاً.

وقد قدمنا مراراً[١] أن علماء العربية يقولون: إن أصل الرسول أصلُه مصدر وُصف به فجيء به بمعنى اسم المفعول، وإتيان المصادر على وزن (فَعُول) مسموع في أوزان قليلة كالقبول والولوع والرسول، في أوزان قليلة. وفائدة ذكرنا أن أصل الرسول مصدر وُصف به وجيء به بمعنى اسم المفعول: لنزيل بذلك إشكالًا في كتاب الله، وإيضاح ذلك: أن المعروف عند علماء العربية أن المصادر إذا نُعِت بها ـ أعني أُجريت مجاري الأوصاف ـ أنها تُلْزَمُ الإفراد والتذكير باللغة الفصحىٰ[٢]، فتقول: هذا رجل عدل، وهذه نساءٌ عدل، وهذه امرأة عدل، وهؤلاء رجال عدل. هذا في اللغة الفصحىٰ، وربما تُنُوسي أصل المصدر وعُومل معاملة الأوصاف نظراً إلى وصفيته الطارئة، فالرسول على هذا تارة في القرآن يلاحظ فيه أصله الذي هو المصدر، وتارة يُلاحظ فيه الوصفية العارضة التي جُعل بمعناها. وإيضاح هذا: أن الرسول على أن أصله مصدر يُفرد عند حالة التثنية والجمع، تقول: هذان رسول، وهؤلاء رسول. وربما جُمع الرسول نظراً إلى الوصفية وتناسياً لأصل المصدرية، فَمِن جَمْع الرسول اعتباراً بالوصفية: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ [البقرة: آية ٢٥٣] ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ﴾ [النساء: آية ١٦٥] ومن تثنيته: قوله في سورة طه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: آية ٤٧] فقد ثَنَّىٰ الرسول اعتباراً بوصفيته، وفي سورة الشعراء أفرد الرسول مع أن المراد به اثنان نظراً إلى أصله الذي هو المصدر، وذلك في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: آية ١٦] ولم يقل: إنا رسولا. فنطقت العرب بلفظ الرسول مفرداً مراداً به الجمع، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[٣]:

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وخَيرُ الرسُولِ ... أعلَمُهُم بِنَواحي الخَبَرِ

فجمع الضمير في قوله: «أعلمهم» وهو عائد إلى الرسول المفرد نظراً

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

إلى أصل مصدريته. والرسول مسموع في كلام العرب بمعنى المصدر، ومنه قول الشاعر[١]:

لَقَدْ كَذَبَ الواشُونَ ما فُهْتُ عندهم ... بقولٍ ولا أَرْسَلْتُهم برسولِ

أي: برسالة. وقول الآخر[٢]:

ألا مَنْ مبلغ عَمْراً رسُولاً ... بأنّي عن فُتَاحتِكُم غني

أي: رسالة. وهذا معنى قوله: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: مرسل من الله إليكم أيها الناس جميعاً. فقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ يُعرب حالًا ويُفسَّر توكيداً. ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ في حال كونكم مجتمعين لم يشذ أحد منكم، بل رسالتي عامة لجميعكم في حال كونها شاملة لكم مجتمعين فيها. هذا معنى قوله: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

ولما بيّن أنه مرسل من الله ذكر الله (جل وعلا) من صفات هذا الرب المُرسِل ما يدعو خلقه إلى القبول والامتثال، فبين أن هذه الرسالة جاءتكم من عند عظيم العظمة الكاملة، فهو جدير بأن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وألَّا تكذَّب رسله ولا يُعصى؛ ولذا قال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

اختلف علماء العربية والتفسير في موضع قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الإعراب[٣]: فقال قوم: إنه في محل خفض نعتٌ للجلالة في قوله: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إني رسول الله الذي له ملك السماوات والأرض. قالوا: ولا يضر الفصل بين الصفة والموصوف بقوله: ﴿إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ لأنه معمول المضاف الذي هو ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ قالوا: وربما حيل بين النعت والمنعوت حتى ولو بأجنبي، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: آية ٧٦].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٨) من سورة البقرة.

(٣) انظر: الدر المصون (٥/٤٨٢).

وقال قوم: هذه الحيلولة بين الصفة والموصوف لا تُغتفر، وأعربوا: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بأنه في محل نصب ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أعني ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذا القطع هو الذي يسميه علماء العربية: النصب على المدح ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الله (جل وعلا) الذي يرسل الرسل ويشرع الأحكام هو الذي له ملك السماوات والأرض.

وهذه الآية الكريمة دالة على أنه لا يشرع للخلق ويأمرهم وينهاهم ويحرم عليهم إلا الملك الذي هو نافذ التصرف نفوذاً مطلقاً، وله الكلمة العليا، وهو فوق كل شيء. هذه الآية تدل على هذا، وبذلك يُعلم أن الضعيف المسكين العاجز لا تشريع له، ولا يصح منه أن يحلل ولا أن يحرم، فالذي يحلل ويُحرم ويُشرع هو خالق هذا الكون (جل وعلا)، لأنه لا يشرع إلا الملك الأعظم الكبير الأكبر، كما قال هنا فيمن يرسل ويشرع على ألسنة الرسل: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: آية ١٥٨] فالذي يشرع قانوناً وضعياً إن كان له ملك السماوات والأرض، وهو الذي يحيي ويميت، وهو المعبود وحده فليتقدم وليشرع، وإن كان عاجزاً مسكيناً مربوباً فليعلم قدره، وليقف عند حده، وليعلم أن من يحلل ويحرم هو الكبير الأكبر، والملك العظيم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: آية ١٢] فالعلي الكبير الذي هو أعلى وأكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وهو الملك الأعظم، هذا هو الذي له حق التشريع، والتحليل والتحريم. وبهذا تعلمون أن الأمر ما أمر الله به، والنهي ما نهىٰ الله عنه، والحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، وأن القوانين الوضعية خزي ووبال وكفر على أصحابها، يعطون مُستَحَق خالق السماوات والأرض لأجهل خلق الله، وأخسهم وأكفرهم سبحانه (جل وعلا) أن يكون له في حكمه شريك، كما تقدس (تعالى) أن يكون له في عبادته شريك، فحكم الله (جل وعلا) كعبادته، فكما أن من أشرك به في عبادته كافر به فكذلك من أشرك به في

حكمه فهو كافر به. والقرآن بين استواءهما، قال في الإشراك في العبادة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: آية ١١٠] وقال في حكمه: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: آية ٢٧] ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية
٢١/ب ٢٦] وقرأه ابن عامر من السبعة: **﴿ولا تُشْرِك في حكمه أحداً﴾**[1] / فالحكم لخالق السماوات والأرض، لا تشريع لغيره، لا تحليل إلا لله، ولا تحريم إلا لله، ولا تشريع إلا لخالق السماوات والأرض ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾ [يونس: آية ٥٩] فما جعل (جل وعلا) بين إذنه والافتراء عليه واسطة.

وقد ذكرنا مراراً[2] أن هذه الآيات القرآنية تدل على أن الذين يتحاكمون إلى نظم وضعية وقوانين لم يشرعها خالق السماوات والأرض زاعمين أنها هي الكفيلة بتنظيم الحياة، ومسايرة ركب الحضارة، والكفالة للناس بحقوقهم، زاعمين ـ لطمس بصائرهم وقلة عقولهم ـ أن نور السماء الذي أنزله خالق السماوات والأرض على سيد الخلق من تشريع رب العالمين لا يمكن أن يكون كفيلاً بذلك!! فهؤلاء كفرهم لا يخفىٰ، ولا يشك في كفرهم وبعدهم من الإيمان إلا من طمس الله بصيرته. وهذا كثير في القرآن لا تكاد تحصيه في المصحف الكريم.

وقد بيّنا لكم مراراً في هذه الدروس والمناسبات[3] أن ذلك الأمر وقعت فيه مناظرة بين حزب الشيطان وحزب الرحمن، وكل يتمسك بمستنده، فحزب الشيطان يتمسك بوحي الشيطان وفلسفة إبليس، وحزب الرحمن يتمسك بهذا الوحي المنزل الذي لا يضل من اتبعه في الدنيا ولا يشقىٰ في الآخرة. ولما تناظرت الفئتان تولىٰ الحكم بينها خالق السماوات

---

(١) مضت عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.
(٣) السابق.

والأرض بفتوىٰ سماوية تتلى في كتاب الله على آذان الخلق. وهذا أوضحناه في هذه الدروس مراراً، وأكثرنا من ذكره في المناسبات لشدة الحاجة إليه، ذلك أن إبليس أوحىٰ من وحيه الشيطاني إلى إخوانه من كفار قريش: أن سلوا محمداً ﷺ عن الشاة تصبح ميتة من هو الذي قتلها؟ فأجابهم: «بأن الله قتلها» فاستدلوا على إباحة الميتة بفلسفة إبليس ووحي الشيطان فقالوا: ما ذبحتموه بأيديكم ـ يعنون المُذَكَّى ـ تقولون: هو حلال. وما ذبحه الله بيده الكريمة ـ يعنون الميتة ـ تقولون: حرام. فأنتم إذاً أحسن من الله؟! فهذه طائفة تتمسك بوحي إبليس، وفلسفة الشيطان، وتقول: إنه أحسن، وأن ذبيحة الله أحل من ذبيحة الناس!! وهذه طائفة أُخرى تتمسك بهذا المحكم المنزل في تحريم الميتة ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] هؤلاء يستدلون بالقرآن وهؤلاء بوحي الشيطان، فتناظرا هذه المناظرة، فتولىٰ الله الفتيا فيها قُرآناً يُتلىٰ في سورة الأنعام، فأنزل في هذا: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعني: الميتة. أي: وإن زعموا أنها ذبيحة الله، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي: خروج عن طاعة الله، ثم قال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ يعني وحي الشيطان وفلسفة إبليس ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ بوحي الشيطان: ما ذبحتموه حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذن أحسن من الله!! ثم أفتىٰ بين الفريقين، وحكم بين الخصمين قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فحكم على هؤلاء المسلمين أنهم إن أطاعوا حزب الشيطان واتبعوا نظام إبليس وتشريعه وقانونه بالفلسفة الإبليسية أن ما ذبح الله أحل مما ذبح الناس أنهم مشركون.

وهذه الآية الكريمة من سورة الأنعام هي عند علماء العربية مثال لحذف اللام الموطئة للقسم[1]. قالوا: هنا قسم، واللام الموطئة محذوفة، والأصل: ولئن أطعتموهم إنكم لمشركون. قالوا: والقرينة الدالة على لام القسم الموطئة المحذوفة: أنه لو لم يكن هناك قسم وكانت (إن) الشرطية

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

في قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ خالية من قسم لوجب اقتران الجملة بالفاء في قوله: فإنكم لمشركون. فلما عريت من الفاء دل خلوها من الفاء على حذف القسم. وهذا وجيه. فما زعمه قوم من أن الفاء في جملة الجزاء التي لا تصلح أن تكون فعلًا للشرط أنه يجوز سقوط [الفاء][1] منها اختياراً؛ فهو غير صحيح، والتحقيق في لغة العرب: أنها لا بد من اقترانها بالفاء، وأن سقوط الفاء من آية الأنعام هذه نظراً للقسم المحذوف، وما احتجوا به من قراءة نافع وابن عامر[2] في سورة الشورى في قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ بما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: آية ٣٠] قالوا: لم تكن في قراءة نافع وابن عامر الفاء، بل قرأا: **﴿وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم﴾** وكذلك هو في مصحف عثمان بن عفان الذي بقي عنده بالمدينة ليس فيه فاء ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ﴾ وكذلك في المصاحف التي أُرسلت إلى الشام. والتحقيق أن قراءة نافع وابن عامر هذه من السبعة: **﴿وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾** لا تدل على خلو جملة الجزاء من الفاء إن كانت لا تصلح أن تكون فعلاً للشرط، بل (ما) من قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ على قراءة نافع وابن عامر موصولة لا شرطية. والمعنى: والذي أصابكم من المصائب كائن وواقع بسبب ما كسبت أيديكم. أما على قراءة بقية السبعة: فـ(ما) شرطية؛ ولذلك اقترنت الجملة بالفاء في قراءتهم وفي المصاحف التي أُرسلت إلى أقطارهم.

وهذا الشرك في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] أجمع العلماء على أنه شرك أكبر مخرج عن ملة الإسلام؛ لأن من حكَّم تشريع غير الله فقد كفر بالله. وهذا الشرك هو الذي وبخ الله صاحبه ويوبخه على رؤوس الأشهاد في سورة (يس) ويبين مصيره وقراره النهائي - والعياذ بالله - وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ معنى عبادتهم للشيطان: هي اتباع نظامه وتشريعه وقانونه فيما أحل لهم من الكفر والمعاصي لله، المخالفة لما جاء به الرسل: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ

---

(١) في الأصل: «الجزاء».

(٢) مضت عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف. وانظر: الأضواء (٧/١٧٠).

اَعْبُدُونِيْ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: الآيات ٦٠ ـ ٦٢] أضل الشيطان منكم خلائق كثيرة لا تحصى، ويدخل فيها الدخول الأولي: الذين اتبعوا نظامه وقانونه وتشريعه، وفضلوه على نور السماء الذي أنزله خالق الخلق على خيرته من خلقه وهم الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم). ثم قال: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: آية ٦٢] لم تكن هنالك عقول ترشدكم إلى أن الذي يتبع تشريعه ويطاع في تحليله وتحريمه هو خالق هذا الكون الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت، وأن ذلك ليس للشيطان ولا لأتباع الشيطان. ثم بيّن المصير والقرار النهائي لمن كان يتبع تشاريع إبليس ونظمه وقوانينه: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: الآيات ٦٣ ـ ٦٥].

وهنالك قوم قد أرادوا التحاكم لغير ما أنزل الله، وزعموا أنهم مؤمنون، فعجَّب الله نبيه من دعواهم الكاذبة الخائنة الفاجرة؛ لأنها حقيقة بأن يعجب منها، وما ذلك إلا لشدة كذبها وبعدها عن الحق، وذلك بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: آية ٦٠] فالله قال مستبعداً لحجة هؤلاء مستبعداً لصدقها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ﴾ إرادتهم للتحاكم للطاغوت أبعدت دعواهم عن أن يُقبل منهم أنهم مؤمنون. والآيات القرآنية الدالة على هذا كثيرة؛ ولذا ثبت أن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) سأل النبي ﷺ عن قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣١] كيف اتخذوهم أرباباً من دون الله؟ قال: «**ألم يحلوا لهم ما حرم الله، ويحرموا عليهم ما أحل الله؟**» قال: بلى. قال: «**بذلك اتخذوهم أرباباً**»[1] والعياذ بالله. ولذلك

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

بين هنا صفات من يُتبع تشريعه ويُعمل به ليبين للخلق أن التشريع لا يُقبل ولا يُتبع إلا ممن هو أهل لأن يشرع؛ ولذا لما ذكر أنه أرسل هذا النبي الكريم لجميع الناس كافة بيَّن أن الذي أرسله بهذا التشريع وهذه الأوامر والنواهي والحلال والحرام أنه الذي له ملك السماوات والأرض، لا إله إلا هو يحيي ويميت. هذه صفات المشرع الذي يحلل ويحرم، وأما غير مَنْ هذه صفاته فليس له حق في ذلك، فاتباع تشريعه كفر برب العالمين كما أوضحناه مراراً. وهذا معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنه (جل وعلا) هو ملك السماوات والأرض النافذ تصرفه فيها، لا يُسأل فيها عما يفعل، لا معقب لحكمه؛ ولذا كان أمره ونهيه هو اللازم أن يُتبع. وهذا معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال بعض العلماء: هو في معنىٰ البدل والبيان من: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأن المعبود الذي يستحق أن يُفرد بالعبادة وحده هو الذي له ملك السماوات والأرض، الذي يحيي ويميت؛ ولذا قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود يعبد بالحق إلا هو وحده (جل وعلا) وقد ذكرنا مراراً أن الإله في[1] لغة العرب: بمعنىٰ المعبود، والإلهة: العبادة. وتألّه إذا تعبَّد، فالإله (فِعَال) بمعنى: (مَفْعُول) بمعنى: مألوه. أي: معبود على سبيل المحبة والخوف والتعظيم. وإتيان (الفِعَال) بمعنى (المفعول) مسموع في أوزان من لغة العرب، وليس قياسياً فيها، فمنه: الكتاب بمعنى المكتوب، واللباس بمعنىٰ الملبوس، والإله بمعنى المألوه. أي: المعبود. والإمام بمعنىٰ المُؤتم به، في أوزان قليلة. والعرب تُسمي التأله تعبداً، والإلاهة عبادة. وفي قراءة ابن عباس[2] ـ وإن كانت شاذة ـ: ﴿ويذرك وإِلَـٰهتَك﴾ وفي رجز رؤبة[3]:

لله دَرُّ الـغَـانِـيَـاتِ الـمُـدَّهِ سبَّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ من تَألُّهي

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة المائدة.

(٢) مضت عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٥) من هذه السورة.

أي: لا معبود يُعبد بالحق إلا ملك السماوات والأرض (جل وعلا)، الذي يحيي ويميت، الذي أرسلني إليكم فأنا مرسل ممن هو جدير بأن يُطاع ولا يُستهزأ بأوامره ونواهيه. وهذا معنى قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ يحيي من شاء أن يحييه، ويميت من شاء أن يميته، فحذف المفعول للتعميم.

وهذا الإحياء والإماتة تدخل فيه الإماتتان والإحياءتان دخولًا أوليًا المذكورتان في سورة المؤمن ـ سورة غافر ـ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: آية ١١] وهاتان الإماتتان والإحياءتان اختلف فيهما العلماء[1]، والتحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه: أن الإماتة الأولىٰ هو كونهم في بطون أمهاتهم علقاً ومُضَغاً لا حياة فيهم قبل أن تُنفخ فيهم الروح، وأن الإحياءة الأولى هي إحياءتهم في بطون أمهاتهم التي خرجوا بها إلى الدنيا. والإماتة الثانية: الإماتة إلى القبور، والإحياءة الثانية: الإحياءة من القبور بالبعث إلى الحساب والجزاء. وهذا المعنى أوضح الله أنه المراد في سورة البقرة في قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ...﴾ الآية [البقرة: آية ٢٨] والله (جل وعلا) قد يحيي غير هذا الإحياء ويميت غير هذه الإماتة، فهو يميت الأرض ويحييها كما قال جل وعلا: ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: آية ٥٠] وكذلك يحيي الإنسان لسؤال الملكين في قبره كما جاء في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، ولذا قال: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ الفاء سببية، وهذه الرسالة لما أُرسل بها هذا الأمين الكريم من قِبَل هذا الملك العظيم الأعظم ملك السماوات والأرض، المعبود وحده، الذي بيده الحياة والموت، هذا يتسبب للإيمان بها، وعدم الكفر بها؛ ولذا جاء بالفاء المؤذنة بالسبب في قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾.

قال بعض علماء العربية: العرب تطلق الإيمان لغة على التصديق، وهذا موجود في لغتها وإن أنكره بعض أهل العلم، كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ

---

(١) انظر: القرطبي (٢٩٧/١٥)، ابن كثير (٧٣/٤).

﴿بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: آية ١٧] أي: بمصدقنا في أن يوسف أكله الذئب ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: آية ١٧].

والإيمان في الشرع: هو التصديق الكامل من جهاته الثلاث، أعني: تصديق القلب بالاعتقاد والنية الصالحة، وتصديق اللسان بالإقرار، وتصديق الجوارح بالعمل(١).

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمد ﷺ. قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ بالإدغام. وقرأه نافع وحده: **﴿ورسوله النبيء الأمي﴾** ونافع في جميع القرآن قرأ (النبيء) و (النبيئين) و(الأنبئاء) بالهمزة المحققة إلا حرفين في سورة الأحزاب وافق الجمهور فيهما بالتشديد في رواية قالون عنه خاصة دون ورش، كما هو معروف في قراءته(٢).

أما على قراءة نافع: **﴿ورسوله النبيء الأمي﴾** فالنبيء: فاعل من النبأ، والنبأ في لغة العرب: هو الخبر الذي له خطب وشأن، فالنبأ أخص من مطلق الخبر، فكل خبرٍ نبأ وليس كل نبأ خبراً؛ لأن العرب لا تكاد تُطلق النبأ إلا على خبر له شأن وخطب(٣)؛ فلو قال قائل: «جاءنا اليوم نبأ عن حمار الحجام» لما كان هذا من كلام العرب؛ لأن خبر حمار الحجام لا أهمية له ولا خطب له، فلا يُسمىٰ نبأ وإنما يقول له: خبر. هكذا حققه بعض علماء العربية.

أما على قراءة الجمهور: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أن معناه كمعنى قراءة نافع، وأن الهمزة أُبدلت ياء، وأُدغمت الياء في الياء، كقراءة ورش عن نافع(٤): **﴿إنما النَّسِيُّ زيادة في**

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٢) تقدمت هذا القراءات وتوجيهها عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

الكفر﴾ [التوبة: آية ٣٧] بإدغام الياء في الياء، والأصل: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ كقراءة الجمهور. وعلى هذا فمعنى القراءتين واحد.

وقال قوم: النبي على قراءة الجمهور مشتق من النَّبْوَة وهي الارتفاع، والعرب تسمي المرتفع من الأرض نبياً، ومنه قوله[1]:

لأَصْبَحَ رتْماً دُقاقُ الحَصَى مكان النبي من الكَاثِبِ

النبي: يعني به رملًا مرتفعاً. هكذا قاله العلماء[2]. وهذا معنى قوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ هذه صفاته ﷺ. وقد أجرىٰ الله العادة أنه يصف المرسلين والملائكة بما يصف به مطلق عوام المؤمنين؛ لأن قوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ كل عامي من المسلمين يؤمن بالله، وقد وصف نبيه ﷺ بصفة يتصف بها جميع المسلمين، وذلك للإيذان بشرف الإيمان بالله وكلماته وعِظَمِه كما قال جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ وصفهم بالإيمان ووصف المسلمين بالإيمان ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: آية ٧] وبين أن ذلك الإيمان الذي اتصف به حملة العرش وأهل الأرض من بني آدم صار الرابطة العظمى بينهم التي عطفت قلوبهم عليهم من فوق سبع سماوات فدعوا لهم ذلك الدعاء القرآني العظيم المذكور في قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ إلى آخر دعائهم الكريم [غافر: الآيتان ٧، ٨]. وهذا معنى قوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾.

الأمي: هو الذي لا يقرأ ولا يكتب؛ لأن نبينا ﷺ كان لا يقرأ ولا يكتب ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ

---

(١) البيت لأوس بن حجر، وهو في ديوانه ص١٠ ـ ١١، اللسان (مادة: كثب) (٢٢٣/٣)، الدر المصون (٤٠٢/١).

(٢) قال في اللسان (مادة: كثب ٢٢٣/٣)، معقباً على هذا البيت: «يريد بالنبي: ما نبا من الحصى إذا دُق فندر. والكاثب: الجامع لما ندر منه. ويقال: هما موضعان» ا.هـ.

ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: آية ٤٨] وكونه لا يقرأ ولا يكتب مع هذه العلوم التي لا يُطلَع عليها إلا بالوحي يدل على أن هذا إنما عَلِمَه بوحي من الله (جل وعلا).

وقوله: ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ قال بعض العلماء: معنى كلماته: كتبه التي أنزلها على خلقه[١]، كما قال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾ [البقرة: آية ٢٨٥] والتحقيق: أن كلمات الله أعم من كتبه[٢]، وأنها لا يحصيها إلا هو (جل وعلا) كما نوّه عنها في أُخريات الكهف وأُخريات لقمان في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: آية ١٠٩] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ﴾ [لقمان: آية ٢٧] وكلمات الله لا يعلمها إلا الله (جل وعلا)، ولو كانت البحور مداداً لكلماته لنفدت البحور وتلاشت قبل أن تنفذ كلماته (جل وعلا). والكلام صفته الأزلية التي لم يتجرد عنها يوماً ما، فهو (جل وعلا) متصف بكلامه الأزلي الذي لم يتجرد عنه يوماً ما، وفي كل يوم يتكلم بما شاء كيف شاء على الوجه اللائق بكماله وجلاله سبحانه (جل وعلا) ما أعظم شأنه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ الضمير المنصوب في قوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ لهذا النبي الأمي (صلوات الله وسلامه عليه). أمر الله باتباعه؛ لأن اتباعه هو عين طاعة الله جل وعلا ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: آية ٨٠] ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: آية ٣١].

وقوله: ﴿لعلكم تهتدون﴾ أشهر معاني (لعل) في القرآن عند المفسرين معنيان[٣]:

---

(١) انظر: القرطبي (٣٠٢/٧).

(٢) انظر: ابن جرير (١٧١/١٣)، الأضواء (٣٣٤/٢).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

أحدهما: أنها بمعنىٰ التعليل، وهو الأنسب هنا. قال بعض علماء العربية: كل (لعل) في القرآن فهي للتعليل إلا التي في سورة الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: آية ١٢٩] قالوا: هي بمعنىٰ: كأنكم تخلدون. وإتيان (لعل) بمعنىٰ التعليل صحيح معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[1]:

فقلتُم لنا كُفُّوا الحُروبَ لعلَّنَا نكُفُّ ووثَّقْتُم لنا كُل موثِقِ

«كفوا الحروب لعلنا نكف» أي: كفوا لأجل أن نكف.

وقال بعض العلماء[2]: (لعل) هي للرجاء، يعني: على رجائكم أيها الخلق الذين لا تعلمون العواقب وما تؤول إليه الأمور، أما الله (جل وعلا) فهو عالم بما تؤول إليه الأمور فلا تجري له (لعل)؛ ولذا قال لموسىٰ وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ﴾ يعني فرعون ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: آية ٤٤] على رجائكما أن يتذكر أو يخشى ومبلغ علمكما، أما الله فهو عالم بأنه لا يتذكر ولا يخشىٰ، ولا يجري عليه (لعل). هذان الوجهان معروفان، والتعليل هنا أنسب.

وقوله: ﴿تَهْتَدُونَ﴾ تكونون على طريق الهدىٰ التي هي موصلة إلى القصد والصواب من رضا الله (جل وعلا) ونيل ما عنده من الخلود في الجنة.

٢٢/أ [3] / ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٥٩، ١٦٠].

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) جاء في أول الشريط المسجل لهذا الدرس (كما في إحدى النسخ) ما نصه: «اليوم: يوم الخميس، الموافق ٢/ رمضان المبارك سنة (١٣٩١هـ)....» ا.هـ، وهو التاريخ المثبت كتابياً على إحدى النسخ.

يقول الله (جل وعلا): ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٩] موسى هو نبي الله موسى بن عمران (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام). وقومه: هم بنو إسرائيل.

وأصل (القوم) في لغة العرب: اسم جمع لا واحد له من لفظه، وُضع للذكور دون الإناث، وربما دخلت الإناث فيه بحكم التبع[١]. والدليل على أن لفظ القوم يختص بالوضع بالذكور دون الإناث قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ فلو دخل النساء في اسم القوم لما كان لقوله: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: آية ١١] فائدة، وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول زهير بن أبي سلمى[٢]:

وما أدري وسوفَ إِخَالُ أَدْري ... أقومٌ آلُ حصنٍ أم نساءُ

فدل على أن العرب تخص به الذكور، والدليل من القرآن على أن النساء ربما دخلن في اسم القوم بحكم التبع: قوله تعالى في ملكة اليمن: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: آية ٤٣].

وقوله: ﴿أُمَّةٌ﴾ مبتدأ سوَّغ الابتداء به وهو نكرة اعتماده على المجرور قبله. والأمة: الطائفة الكثيرة المتفقة في دين ونحوه، وقد جاء في القرآن العظيم إطلاق الأمة على أربعة معان كلها صحيح موجود في كتاب الله[٣]، ومنه إطلاق الأمة على الطائفة المتفقة في دين ونحوه، وهذا أكثر إطلاقات الأمة، كقوله هنا: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: آية ٢١٣] ونحو ذلك من الآيات.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.
(٢) السابق.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأنعام.

الإطلاق الثاني: إطلاق الأمة على الرجل المقتدى به، كقوله في إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: آية ١٢٠].

الإطلاق الثالث: إطلاق الأمة على القطعة والبرهة من الزمان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: آية ٤٥] أي: تذكر بعد برهة من الزمان وقطعة من الدهر. ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [هود: آية ٨] أي: إلى مدة معينة في علمنا.

الإطلاق الرابع: إطلاق الأمة على الشريعة والدين، وهذا الإطلاق مشهور في القرآن، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: آية ٢٣] أي: على شريعة وملة ودين، ومنه بهذا المعنى قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: آية ٩٢] أي: دينكم وشريعتكم شريعة واحدة. وهذا الإطلاق معروف مشهور في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان[1]:

حلفتُ فلم أترُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وهلْ يَأْثَمَنْ ذُو أُمةٍ وهو طائعُ

يعني: أن من كان صاحب دين وشريعة لا يرتكب الإثم قاصداً أبداً، وهذا يقوله جاهلي، فكيف بالمسلم، فما ينبغي له أن يقول؟! وهذا معنى قوله: ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يهدون الناس بالحق، والمراد بالحق الذي يهدون به الناس: هو شرع الله ودينه الذي أنزله على رسله. ﴿وَبِهِۦ﴾ أي: بالحق المذكور ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يصيبون العدالة المتجافية عن طرفي الإفراط والتفريط. فالعدالة: المشي على الصواب وطريق القصد المتجافي عن طرف الإفراط والتفريط.

وهذه الآية الكريمة دلت على أن من قوم موسى أمة طيبة على الحق،

---

(١) السابق.

وهذا المعنى جاء مُصرحاً به في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ١١٣، ١١٤] وكقوله جل وعلا: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: آية ١٩٩] وكقوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا...﴾ الآية [الإسراء: الآيتان ١٠٧، ١٠٨] وكقوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ﴾ [الرعد: آية ٣٦] في أهل الكتاب الذين يفرحون بما أُنزل إليه ﷺ، وقد بيّن القرآن أن هذه الطائفة من أهل الكتاب ـ التي كانت متمسكة بشريعة موسى وبما في التوراة إذا كانت على ذلك حتى آمنت بنبينا محمد ﷺ ـ أنها تُؤتى أجرها مرتين، أجر إيمانها الأول بموسى وكتابه، وإيمانها بمحمد وكتابه، نص الله على هذا في سورة القصص في قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ الآية [القصص: الآيات ٥١ ـ ٥٤]. وهذا معنى قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: آية ١٥٩].

وقد قدمنا في سورة المائدة أن ظاهر القرآن أن هذه الأمة هي الأمة المقتصدة المذكورة في قوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: آية ٦٦] وهذه الأمة غاية ما نوّه الله به عنها أنها مقتصدة، وهذه الأمة الكريمة التي هي أمة محمد ﷺ لمَّا نوّه عنها وعن كتابها جعل فيها مرتبة أعظم من المقتصدة، وذلك في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: آية ٣٢] فجعل فيهم سابقاً بالخيرات فوق المقتصد، ووعد الجميع ممن أورثوا هذا الكتاب بقوله:

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ الآية [فاطر: آية ٣٣]. فآية فاطر هذه تدل دلالة عظيمة واضحة على عظيم هذه الأمة المحمدية، وعلى عظيم نعمة هذا الكتاب والرحمة والنور الذي أنزل الله إليها من السماء على لسان سيد الخلق ﷺ؛ لأن الله لما قال: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ بيّن أن إيراث هذا الكتاب علامة الاصطفاء ـ وهو الاختيار من الله ـ ثم قسم هذه الأمة التي اصطفاها الله بإيراث هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام[1]: قال: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ ثم نوّه عن أن إيراث هذا الكتاب فضلٌ عظيم من الله قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إيراثه إياكم ذلك الكتاب ﴿هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ من الله عليكم. ثم وعد الجميع والأول منهم الظالم لنفسه بوعده الصادق إن الله لا يخلف الميعاد ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ۝٣٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ۝٣٥﴾ [فاطر: الآيات ٣٣ ـ ٣٥] ولم يبق عن الطوائف الثلاثة الموعودة بالجنة ـ ممن لا يخلف الميعاد ـ إلا الكفار؛ لأن الله ذكر في مقابلتهم الكفار في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ۝٣٦﴾ [فاطر: آية ٣٦].

وكان بعض العلماء يقول[2]: «حُق لهذه الواو ـ في سورة فاطر ـ أن تُكتب بماء العينين» يعني واو ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ لأنها واو شاملة بالوعد الصادق من الله بجنات عدن لجميع هذه الأمة التي أُورثت هذا الكتاب، وعلى رأسهم الظالم لنفسه.

وأصح التفسيرات في (الظالم، والمقتصد، والسابق بالخيرات) في آية فاطر هذه: أن الظالم: هو الذي يطيع الله تارة ويعصيه أُخرىٰ، وهو من الذين قال الله فيهم: ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

[التوبة: آية ١٠٢] والمقتصد: هو الذي ينتهي عن المحرمات، ويأتي بالواجبات، ولا يتقرب بالنوافل التي هي غير ترك الحرام أو أداء الواجب. والسابق بالخيرات: هو الذي يمتثل الأوامر، ويجتنب النواهي، ويتقرب إلى الله بالنوافل[(١)].

وقد ذكرنا مراراً أن العلماء اختلفوا في السبب الذي قُدم من أجله الظالم لنفسه في هذا الوعد العظيم من الله[(٢)] - الذي لا يخلف الميعاد - بجنات عدن وما فيها من النعيم، فمن أين للظالم لنفسه أن يُقَدَّم على السابق بالخيرات والمقتصد؟.

فقال بعض العلماء: هذه الآية من سورة فاطر مقام إظهار كرم رب العالمين، وشدة رحمته ولطفه بعباده، فقدم الظالم لئلا يقنط، وأَخَّر السابق بالخيرات لئلا يعجب بعمله فيحبط.

وقال بعض العلماء: قدم الظالم لنفسه لأن أكثر أهل الجنة الظالمون لأنفسهم الذين خلطوا عملًا صالحاً وآخر سيئاً؛ لأن السابقين قليل، والمقتصدون أقل من الظالمين، وهذا معنى قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: آية ١٥٩] وسيأتي حديث عند قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف: آية ١٨١] فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «**هذه لكم وقد أُعطي القوم مثلها**»[(٣)] يعني قوم موسى في قوله هنا: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ ولكن آية فاطر هذه التي ذكرناها زادت بالسابق بالخيرات، وبالوعد بالجنات للجميع، ففيها من إظهار فضل هذه الأمة ما لم تتناوله إحدى الآيتين هنا في سورة الأعراف.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٣/٢٨٦)، عن قتادة مرسلاً. وأورده السيوطي في الدر المنثور (٣/١٤٩)، كذلك عن قتادة، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير. وعزاه الزيلعي للثعلبي كما في تخريج أحاديث الكشاف (١/٤٧٤).

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: آية ١٦٠].

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾، الضمير في ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ عائد إلى قوم موسى، فقوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ فيه وجهان معروفان من التفسير، وبحسبهما يكون القولان في إعراب قوله: ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾[1] قال بعض العلماء: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ أي: صيرناهم قطعاً. وعلى هذا فقطعنا تطلب مفعولين لتضمينها معنى (صيرنا)، ومفعولها الأول: هو الضمير ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾، ومفعولها الثاني: ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ أي: صيرناهم اثنتي عشرة فرقة.

وقال بعض العلماء: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ معناه: فرقناهم وميزنا بعضهم عن بعض؛ لأنهم أبناء اثني عشر رجلًا، وكل رجل صار من نسله قبيلة، والسبط في أولاد إسحاق بمعنى القبائل في أولاد إسماعيل، ويعقوب (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) كان له اثنا عشر ابناً كل ابن منهم وُلد له نسل، فصار كل ابن منهم قبيلة، والقبائل عندهم تسمى (أسباطاً)[2]. والمفسرون يذكرون أسماء هؤلاء الأسباط الذين تفرعت منهم القبائل[3]، وذِكْرُها إنما هو عن طريق الإسرائيليات؛ ولذا اختلفوا فيها، فمنهم من يقول: هم روبيل، وشمعون، ويهوذا، وربالون، ويشجر، ودان، ونفتالي، وجاد، وآشر، ويوسف، وشقيقه بنيامين. ومنهم من يذكر غير ذلك[4]، ولا طريق صحيحة تثبت ذلك، إلا أن الأظهر أن هؤلاء الاثنتي عشرة أن كل واحدة

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٤٨٤).

(٢) انظر: القرطبي (٢/١٤١).

(٣) انظر: ابن جرير (٢/١٢١).

(٤) انظر: تاريخ الطبري (١/١٦٣)، التفسير له (٣/١١١ - ١١٣)، القرطبي (٩/١٣٠)، البداية والنهاية (١/١٩٥). والذين ذكرهم الشيخ (رحمه الله) أحد عشر. والثاني عشر هو: (لاوي) على اختلاف في ضبط أسمائهم.

منهم من سبط من أولاد يعقوب كما تقدم في قوله: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: آية ١٢] لأن كل سبط من هذه الأسباط بعث الله موسىٰ فيه نقيباً سيداً يتفقد شؤونه وأحواله؛ لتكون تلك الرجال الإثنى عشر يُطلعون موسىٰ على سرائر قومهم فيهون عليه الإصلاح من شؤونهم؛ ولذا قال هنا: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ [الأعراف: آية ١٦٠] فعلى أن (قطعنا) بمعنى (صيرنا) فـ(اثنتى عشرة) هو المفعول الثاني، وعلى أن (قطعنا) بمعنى (ميزنا) بعضهم عن بعض، وفرقنا بعضهم عن بعض؛ لنجعل على كل فرقة منهم نقيباً، فقوله هنا: ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ هي حال جامدة مؤولة، أي: ميزناهم وفرقناهم في حال كونهم بالغين هذا العدد الذي هو اثنتي عشرة، واختلف العلماء في مميز ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾(١) وظاهر القرآن أن مميزه ﴿أَسْبَاطًا﴾ ولكن المعروف في لغة العرب أن العدد كله من الثلاثة إلى العشرة يميز بالجمع مضافاً إليه العدد، أما غيره من الأعداد فإنه يميز بالمفرد التمييز المطابق للعربية المعروفة لو قيل: قطعناهم اثنتي عشرة سبطاً. وذهب بعض العلماء في الجواب عن هذا إلى أن الأسباط هنا جمع سبط مضمَّن معنى القبيلة، وأن الأسباط: القبيلة تكون فيها أسباط كثيرة، وعليه فالمعنى: قطعناهم اثنتي عشرة قبيلة. فالأسباط بمعنى القبيلة. وهذا مردود لما ذكرنا من أن الأسباط في ذرية إسحاق بمعنى القبائل في ذرية إسماعيل. والذي اختاره غير واحد من المحققين: أن المُميِّز محذوف دل المقام عليه: وقطعناهم اثنتي عشرة فرقة. وقوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل من ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ و﴿أُمَمًا﴾ بدل بعد بدل على الصواب، ولا مانع من إتيان البدل بعد البدل كما هو معروف في علم العربية، فقد وُجد في كلام العرب. وهذا معنى قوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ كل سبط منهم أمة، أي: خلق وقبيلة كثيرة كثيفة العدد.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ ذكر (جل وعلا) هنا بعض ما أنعم الله به على الإسرائيليين في التيه يُذكِّر الموجودين منهم زمن نبينا نعمه عليهم، ويُذكِّرهم

(١) انظر: الدر المصون (٥/٤٨٤).

أيضاً كثرة ما هم فيه من الخلاف وعدم طاعة الله ورسله؛ لأن سبب هذا التيه: أن الله لما أنجا موسىٰ وقومه من فرعون، وفلق لهم البحر، وأمرهم بقتال الجبارين، أصابهم الجبن الذي قدمنا شرحه في سورة المائدة، وقالوا لنبيهم موسىٰ: ﴿لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ فأصابهم الجبن والخوف، فقال موسىٰ: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ فضرب الله عليهم التيه أربعين سنة ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: الآيات ٢٤ ـ ٢٦] يصبحون حيث أمسوا، فإذا مشوا النهار كله أصبحوا من حيث كانوا أمس!! الله ضرب عليهم هذا التيه. وأصحاب الأخبار والتاريخ يطبقون على أن موسى وهارون (عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام) توفيا في التيه[1]، ثم صار الخليفة بعد موسى يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف (عليهم السلام) وهو الذي فتح الله على يديه كما سيأتي هنا وتقدم في سورة البقرة. ولما كان بنو إسرائيل في التيه هذه الأربعين سنة أصابهم العطش وشكوا إلى موسى فأوحىٰ الله إليه أن اضرب بعصاك الحجر، فضربه فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً. وشكوا له من حر الشمس فظلل الله عليهم الغمام يقيهم حر الشمس، وشكوا له من الجوع فأنزل الله عليهم المن والسلوىٰ كما تقدم في سورة البقرة[2] وكما هو مذكور هنا في سورة الأعراف.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ [الأعراف: آية ١٦٠]

أوحىٰ الله إلى نبيه موسىٰ حين استسقاه قومه. الإيحاء في لغة العرب: هو كل إلقاء بشيء في سرعة وخفاء فهو إيحاء. فهذا معناه اللغوي، والوحي له معنى لغوي ومعنى شرعي كغيره من المعاني[3]. فالوحي الشرعي معروف، وهو: ما يوحي الله لنبيه بواسطة الملك مثلاً، وربما أوحى إلى النبي بغير واسطة كما أعطى نبينا ﷺ ليلة الإسراء الصلوات الخمس وخواتيم سورة

(١) انظر: تاريخ الطبري (٢٢٣/١)، البداية والنهاية (٣١٦/١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

البقرة، فظاهر حديث ابن مسعود عند مسلم أنه من غير واسطة الملك[١]. وقد يكون الوحي بواسطة الملك وهو على أنحاء كثيرة معروفة. وأصل الإيحاء في لغة العرب: هو كل إلقاء جامع بين الخفاء والسرعة تسمية العرب (وحياً)، فكل من ألقى شيئاً بخفاء وسرعة فهو وحي في كلام العرب؛ ولأجل ذلك كانت العرب تطلق اسم الوحي على الكتابة، وعلى الإشارة، وعلى الإلهام؛ لأن كلاً من هذه إلقاء في سرعة وخفاء. ويطلقون الوحي على الإلهام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ [النحل: آية ٦٨] أي: ألهمها. ويطلق الوحي على الإشارة، وهو أصح القولين في قوله عن زكريا: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: آية ١١] أي: أشار إليهم. وتطلق العرب الوحي على الكتابة؛ لأنها معان تلقى بأفعال سريعة خفية، وإطلاق الوحي على الكتابة إطلاق كثير مشهور في كلام العرب، وكان بعض المفسرين يقول: منه قوله في زكريا: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: كتب لهم، والأظهر: الإشارة، كما يدل عليه قوله: ﴿إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ [آل عمران: آية ٤١] وإطلاق العرب الوحي على الكتابة مشهور جداً في كلامها، كثير جداً في أشعارها، ومنه قول لبيد بن ربيعة في معلقته[٢]:

فَمَدافِعُ الرَّيَانِ عُرِّيَ رَسْمُها ... خَلَقاً كما ضَمِنَ الوُحيَّ سِلامُها

الوُحيُّ: جمع وحي، وهو الكتابة، وهو (فَعْلٌ) مجموع على (فُعُول)، كَفَلْس وفلوس، ومنه قول عنترة[٣]:

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى. حديث رقم: (١٧٣)، (١٥٧/١). ولفظه: «لما أُسري برسول الله ﷺ انتُهي به إلى سدرة المنتهى - إلى قوله - قال: فأُعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: أُعطي الصلوات الخمس، وأُعطي خواتيم سورة البقرة، وغُفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المُقْحِمَات».

(٢) شرح القصائد المشهورات (١٣٠/١)، والمدافع هنا: الأودية التي يتصل بعضها ببعض، كأن بعضها يدفع السيل إلى بعض. و «الريان»: واد. و «عُري»: خلا. و «الرسم»: الأثر. و«خلَقاً»: متجرداً بعد جدته.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

كوحي الصَّحائفِ منْ عهدِ كسرى فـأهْـدَاهَـا لأعْـجَـمَ طِـمْـطِـمـي

وقول نابغة ذبيان(١):

دارٌ لأَسْـمَـاءَ بـالـغَـمْـريـنِ مـاثـلـةٌ كالوَحْيِ ليسَ بها من أهلها أَرِمُ

وقول نابغة ذبيان أيضاً(٢):

لـمـن الـديارُ غَشِيْتُـهـا بـالـفَـدْفَـدِ كالوَحْي في حَجَرِ المَسِيلِ المُخْلِدِ

ومنه قول ذي الرمة(٣):

سوى الأربعِ الدُّهم اللواتي كأنها بقيَّة وحي في بطونِ الصحَائفِ

وقول جرير(٤):

كـأنَّ أَخَـا الـكـتـابِ يَـخُـطُّ وحْـيـاً بـكـافٍ فـي مـنـازلـهـا ولامُ

وهو كثير مشهور، وهذا معنى قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ نبي الله موسى بن عمران ﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ حين استسقاه قومه. والمقرر في فن التصريف أن (استفعل) من أبنية الطلب؛ لأن السين والتاء تدلان على الطلب، فاستسقىٰ معناه طلب السقيا، واستطعم طلب الطعام، واستنزل طلب النزول، إلى غير ذلك.

﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ طلبوا منه السقيا، أن يسأل الله لهم فيسقيهم.

وقوله: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ﴾ (أن) هذه هي التي يسميها علماء العربية: (أن المُفسِّرة) وضابطها: أن يتقدمها معنى القول ولا يكون فيه حروف القول(٥)؛ لأن ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ يتضمن معنى (قلنا لموسىٰ)

---

(١) البيت في اللسان (مادة: أرم) (٣/٨٩٣)، ونسبه لزهير. وليس في ديوان النابغة.
(٢) البيت في ابن جرير (١٣/٢٧٠)، القرطبي (٧/٣٢٢).
(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.
(٤) السابق.
(٥) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

وليس فيه [حروف][(١)] القول، ومعنى كونها تفسيرية: أن ذلك الذي أُوحي إلى موسىٰ يفسره ما بعد (أن) وهو الأمر بضرب الحجر لتنبجس منه اثنتا عشرة عيناً. وبعض علماء العربية يقولون: لا مانع من دخول أن المصدرية على الأفعال الطلبية، وعليه فتكون مصدرية على هذا القول.

قوله: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٠] العصا معروفة، يعرفها كل أحد، وألفها مبدلة من واو، فلو ثنيت لقيل فيها: (عَصَوَان) ومنه قول ذي الرمة ـ غيلان بن عقبة[(٢)] ـ:

فجاءَتْ بنَسْجِ العنكَبُوتِ كأنَّه على عَصَوَيْهَا سابِرِيٌّ مُشَبْرَقُ

وقوله: ﴿ٱلْحَجَرَ﴾ قال بعض العلماء: هذه الألف واللام تدل على عهد، وأنه حجر كان معهوداً عند موسى. وبعض العلماء يقول: هي لمطلق الجنس. وفيه هنا مقالات إسرائيلية لا يثبت شيء منها[(٣)]. قوم زعموا أنه حجر مربع كان يحمله في التيه معه في مخلاته ويضربه [بالعصا][(٤)] فكل جهة من جهاته الأربع تنفجر فيها ثلاث عيون، ويكون المجموع اثنتا عشرة عيناً. وقال بعض العلماء: هو كلما نزل في محل أخذ حجراً منه وضربه فانفجرت منه تلك العيون. وقال بعض العلماء: هو الحجر الذي هرب بثوبه وقصته مشهورة، وسيأتي الكلام عليها في تفسير سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ [الأحزاب: آية ٦٩] لأن نبي الله موسىٰ كان بنو إسرائيل في زمنه يذهبون إلى البحر فيغتسلون بعضهم ينظر إلى بعض وهم عراة، وكان نبي الله موسى لا يغتسل حيث يراه أحد، بل يُبعد ويغتسل من حيث لا يراه أحد، وكانوا يقولون: ما منعه أن يغتسل بمرأى منا إلا أنه آدر، والآدر: المصاب بالأُدرة، والأُدرة انتفاخ إحدى الخصيتين حتى تعظم وتكبر من مرض. فيوماً وضع ثوبه على حجر

(١) في الأصل: «معنى» وهو سبق لسان.
(٢) البيت في اللسان (مادة: عصا) (٢/٨٠٢).
(٣) انظر: ابن جرير (٢/١٢٠).
(٤) في الأصل: «بالحجر» وهو سبق لسان.

فأجرىٰ الله الحجر بالثوب إلى جماعة بني إسرائيل، فاشتد موسى يعدو في أثر الحجر يقول: ثوبي يا حجر، ثوبي يا حجر، حتى رآه بنو إسرائيل كأحسن ما يكون من الرجال، سالماً من الأُدرة كل السلامة، فقالوا: والله ما بموسىٰ من بأس[١]. ويذكر بعضهم أنه قيل له: احتفظ بهذا الحجر فإن له لشأناً، وأنه هو الذي كان يضربه بعصاه. وكل هذه مقالات إسرائيلية لا ثبوت لشيء منها، هذا معنى قوله: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.

قال في سورة البقرة: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: آية ٦٠] وقال في سورة الأعراف هنا: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وأكثر علماء العربية على أن معنى (الانبجاس) و (الانفجار) أن معناهما واحد واللفظ مختلف، فكل من الانبجاس والانفجار انشقاق واسع ينحدر منه الماء بقوة[٢]. وزعم قوم أن الانبجاس أنه يكون أولًا قليلًا ثم لم يزل يكثر حتى يكون انفجاراً. وعلى هذا فقد ذكر في سورة الأعراف بدء انفجار الماء، وفي سورة البقرة منتهاه، والأظهر أنهما سواء، وهو معروف في كلام العرب، وقد قال العجاج[٣]:

وانحَلَبتْ عيناهُ من فَرْطِ الأَسَى وَكِيْفَ غَرْبَيْ دالجٍ تبجَّسا

يعني بقوله: «تَبَجَّسَا» أي: أفرغ ماء كثيراً في الحوض، وهذا معروف في كلام العرب.

---

(١) أخرجه البخاري في الغسل، باب من اغتسل عرياناً وحده. حديث رقم: (٢٧٨)، (٣٨٥/٢) وأطرافه: في (٣٤٠٤، ٤٧٩٩). ومسلم في الفضائل، باب من فضائل موسى. حديث رقم: (٣٣٩)، (١٨٤١/٤) وفي الحيض، باب جواز الاغتسال عرياناً في الخلوة. حديث رقم: (٣٣٩) (٢٦٧/١).

(٢) انظر: القرطبي (٤١٩/١)، الدر المصون (٣٨٥/١)، (٤٨٧/٥).

(٣) البيت في شواهد الكشاف ص٦٣، وشطره الثاني في اللسان (مادة: بجس)، (١٦١/١)، والوكيف: مصدر، أي: وكفت. والغرب: الدلو العظيم. والدالج: من يأخذ الدلو من البئر فيفرغه في الحوض. والمعنى: انصبت دموع عينيه من شدة الحزن كانصباب دَلْوَي رجل مفرغ لهما في الحوض.

وقوله: ﴿ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ العين معروفة، وهو كل ماء كثير تسميه العرب عيناً.

﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ﴾ (الأناس) اسم جمع لا واحد له من لفظه، والمعنى: أن كل أمة من أمم بني إسرائيل علموا مشربهم، أي: عينهم التي يشربون منها؛ لأنهم اثنتا عشرة أسباطاً أمماً، والحجر فيه اثنتا عشرة عيناً، وكل أمة لها عين، وكل أمة عرفت عينها تشرب منها؛ وهذا معنى قوله: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾.

﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ﴾ الغمام: هو السحاب، وهو وعاء الماء. قالوا: وهو سحاب أبيض رقيق يظللهم الله به ويقيهم حر الشمس.

﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾ أكثر المفسرين على أن (المن) هو الترنجبين، والترنجبين شيء يشبه العسل الأبيض ينزل كنزول الندى والثلج ثم يجتمع كثيراً، لونه أبيض، وطعمه طعم العسل، فهو عسل أبيض، أو شيء يشبه العسل الأبيض، بالغ في الحلاوة واللذاذة.

وقال بعض العلماء: المن أعم من هذا، واستدلوا بحديث الصحيحين الثابت عن النبي ﷺ من حديث سعيد بن زيد (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: «**الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين**»[(١)] وفي بعض رواياته: «**من المن الذي أُنزل على موسى**» جاءت في بعض روايات الحديث. فبعض العلماء يقول: الظاهر أن المن كان أعم من الترنجبين. وأكثر علماء التفسير يقولون: هو الترنجبين، والحديث على نوع التشبيه. وظاهر حديث النبي ﷺ أن الكمأة من ذلك المن الذي أُنزل إليهم[(٢)].

وقوله: ﴿وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾ التحقيق أن المراد بالسلوىٰ طائر، وعليه جماعة المفسرين[(٣)]، قال بعض العلماء: هو طائر يشبه السُّمَانَى، وقال بعض

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة البقرة.

العلماء: هو السُّمانَى بعينه، وهو طائر. فالترنجبين شِبْه الشراب والفاكهة، والسُّمَانَى لحم طير لذيذ. فهو أكل وغذاء عظيم لذيذ.

أما تفسير السلوىٰ بالعسل فقوم زعموا أن العرب لا تطلق السلوى على العسل. والتحقيق خلاف هذا، وأن إطلاق السلوى على العسل إطلاق صحيح معروف في كلام العرب، إلا أنه صحيح في العربية وليس صحيحاً في التفسير؛ لأن المراد بالسلوىٰ في الآية ليس العسل، وإن كانت السلوىٰ تطلق على العسل إطلاقاً صحيحاً معروفاً. ومنه قول الهُذلي[1]:

فقاسَمْتُها بالله جَهْداً لأنْتُمُ ألذ … من السَّلوَى إذا ما نشورها

السلوى: العسل. ونشورها: نستخرجها. والشَّوْر استخراج العسل خاصة. هذا معنى قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾.

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: وقلنا لهم. و﴿كُلُوا۟﴾ هذا أمر إباحة.

فيه ثلاثة أفعال في اللغة العربية مبدوءة بالهمزة يجوز حذف همزتها في الأمر ولا نظير لها، وهي: أخذ، وأمر، وأكل[2]. تقول: في الأمر منها: (خُذ، مر، كل) بقياس مُطَّرد، إلا أن (أَمَرَ) إذا كان قبل الهمزة واو أو فاء كان إثبات الهمزة في الأمر أفصح. ومنه قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: آية ١٣٢] فإن لم يكن قبلها واو ولا فاء فإسقاط الهمزة في الأمر أفصح، كقوله ﷺ: **«مروهم بالصلاة لسبع»**[3] **«مره فليراجعها»**[4] ونحو ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ كهذا الطائر اللذيذ الذي هو السُّمانَىٰ وهذه الفاكهة العظيمة التي هي المن، أو غير ذلك على أنه أعم من الترنجبين. والطِّيب هنا شامل طِيبَ الإباحة وطِيبَ اللذاذة؛ لأن

---

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

الطِّيِّبَ يطلق إطلاقين: يطلق طَيِّباً من جهة الإباحة وعدم الشُّبْهة، ويُطلق طَيِّباً من جهة اللذاذة وحسن المأكل، وهو جامع لهما هنا في قوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٠] فهؤلاء اليهود لما أنعم الله عليهم هذه النعم وخالفوا ادخروا من المن والسلوى وهم منهيون عن الادخار، وسيأتي ما بدلوا من القول والفعل ما سلط الله عليهم بسببه من العذاب، قال الله: إن مخالفاتهم عند الإنعام عليهم، ومقابلاتهم إنعام الله بمعاصيه أنهم ما ظلموا الله في ذلك، وما ظلموا إلا أنفسهم، أي: وما ظلمونا بمقابلتهم إنعامنا بالمعاصي ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ هو نص صريح على أن نفي الفعل لا يدل على إمكانه؛ لأن الله نفى ظلمهم له، ونفيه (جل وعلا) ظلمهم له لا يدل على إمكان ذلك سبحانه عن ذلك علواً كبيراً[1].

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ قدم المفعول لأجل الاختصاص. أي: لا يظلمون بذلك إلا أنفسهم.

٢٢/ب / يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأعراف: آية ١٦١].

واذكر يا نبي الله خسائس هؤلاء اليهود العريقة في أسلافهم؛ ليُعلم بذلك أن تكذيبهم لك وإنكارهم لما عندهم من صفاتك أنه أمر أصله فيهم وفي أسلافهم. واذكر ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ حين قال لهم الله على ألسنة أنبيائه ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ قوله: ﴿ٱسْكُنُوا۟﴾ أمر من السكنى لا من السكون الذي هو ضد الحركة؛ لأن الأمر بالسكون الذي هو ضد الحركة سجن وحبس، فهو أمر بالسُكنى، وأن يتخذ ذلك البلد مسكناً، وكون البلد مسكناً له لا ينافي أن يتجول في أنحائه ويتنعم فيها، كما قال هنا بعد الأمر بقوله:

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

﴿اسْكُنُوا﴾ ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ هذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾.

وأكثر المفسرين على أن هذه القرية هي بيت المقدس. وبعض المفسرين يقول: هي أريحا. وبعضهم يقول غير ذلك. فهي قرية في فلسطين من قرى الشام[1]؛ لأن الشام كان يطلق أولًا على ما يضم دمشق وفلسطين والأردن وغير ذلك من نواحيه، وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾. القرية: هي المحل الذي يجتمع فيه السكان، من: قريتَ الماء في الحوض، إذا جمعته.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا﴾ أي: كلوا من ثمارها وحبوبها وزروعها حيث شئتم؛ لأنهم كانوا في التيه يتمنون الأكل من ذلك كما قدمنا في سورة البقرة في الكلام على قوله: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ وقد قال لهم: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: آية ٦١] ولما أُمروا بدخول هذه القرية وبسُكْناها أُمروا بالأكل من ذلك أمر إباحة وتكريم ﴿وَكُلُوا مِنْهَا﴾ أي: من ثمارها وحبوبها وزروعها وغير ذلك.

وقوله: ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أصل (حيث) في لغة العرب كلمة تدل على المكان كما تدل (حين) على الزمان، وربما ضُمِّنت معنى الشرط، ويجوز في العربية لا في القراءة تثليث فائها وإبدال يائها واواً كما هو معروف في علم العربية[2].

قوله: ﴿شِئْتُمْ﴾ أي: من أي مكان من هذه القرية أردتم أن تأكلوا من ثمارها وحبوبها، وهذا معنى قوله: ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ وهذا الأكل رغداً بدليل ما تقدم في سورة البقرة: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: آية ٥٨].

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

وقوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ لما كان في التيه مات نبي الله هارون أولاً، ثم مات موسىٰ في التيه كما أطبق عليه المؤرخون(١). ثم إن خليفة موسىٰ كان يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف، وهو الذي فتح الله عليه هذه القرية قرية الجبارين بيت المقدس أو أريحا، وقيل غير ذلك. لما فتح الله عليهم أَمَرَهم أن يشكروا لله نعمته التي أنعمها عليهم فأمرهم بقول، وأمرهم بفعل، أما الفعل: فقد أمرهم بأن يدخلوا الباب سُجَّداً، أي: يدخلوا من باب القرية التي فتحها الله لهم سُجَّداً. قال بعض العلماء: المُراد بالسجود هنا: الركوع تواضعاً وانحناءً وتعظيماً لله، وشكراً له على نعمة الفتح. وقال بعض العلماء: هو السجود على الجبهة، يسجدون(٢). ثم إنهم أُمروا أيضاً بقول، وهو أن يدخلوا الباب وهم يقولون: (حطة) وأكثر المفسرين - وهو ظاهر القرآن والأحاديث الصحيحة - أنهم تُعبدوا بهذه اللفظة (حطة). وقراءة الجمهور التي لا يجوز العدول عنها: ﴿حِطَّةٌ﴾ بالرفع، وهي خبر مبتدأ محذوف، أي: مسألتنا حطة، والحطة فِعْلة من الحط الذي هو الوضع. والمعنى: مسألتنا لربنا هي حِطَّةٌ لذنوبنا وأوزارنا. معناه: مسألتنا لك أن تحط عنا ذنوبنا وأوزارنا. فهي كلمة استغفار تؤذن بحط الذنوب ووضع الأوزار، وهي خبر مبتدأ محذوف، (فِعْلَة) من الحط، بمعنى الوضع، هذا معناه. وقال بعض العلماء: الحطة: الكلمة التي تحط الذنوب، وهي لا إله إلا الله، والقول الأول أظهر. وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) أنهم أُمروا بقول وأمروا بفعل، وأَمْرهم بالقول والفعل كلاهما مذكور في القرآن؛ لأن الله أمرهم بأن يدخلوا الباب سجداً، وهو الفعل الذي أُمروا به، وأمرهم أن يقولوا: حطة، وهو القول الذي أُمروا به، وفي حديث أبي هريرة عند البخاري وغيره أنهم بدلوا القول الذي قيل لهم بقول غيره، وبدلوا الفعل الذي قيل لهم بفعل غيره؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [الأعراف: آية

(١) السابق.
(٢) السابق.

١٦٢] قال بعض العلماء: في الكلام حذفان، أي: فبدل الذين ظلموا بالقول الذي قيل لهم قولاً غير الذي قيل لهم، وبالفعل الذي قيل لهم فعلاً غير الذي قيل لهم، فالفعل الذي قيل لهم ـ وهو دخولهم الباب سجداً ـ بدلوه فدخلوا يزحفون على أستاههم، كما ثبت في حديث البخاري المذكور[1]، وبدلوا القول الذي قيل لهم فقالوا مكان حطة: حبة في شعرة. وفي بعض روايات الحديث في غير البخاري: حنطة في شعرة. فبدلوا القول وبدلوا الفعل، وقابلوا نعم الله بالكفران والمعصية في الأقوال والأفعال ـ عياذاً بالله ـ وهذا معنى قوله: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: آية ١٦١].

في هاتين الكلمتين بضميمة إحداهما إلى الأخرى أربع قراءات سبعيات كلها صحيحة متواترة عن النبي ﷺ[2]، فقرأه نافع وحده من السبعة **﴿وادخلوا الباب سجداً تُغفَر لكم خطيئاتُكم﴾** بضم تاء (تُغفَر) وفتح الفاء مبنياً للمفعول. و (خطيئاتُكم) هو جمع مؤنث سالم، هو نائب فاعل (تُغْفَر) فهذه قراءة نافع وحده.

وقرأه الشامي ـ أعني ابن عامر ـ وحده من السبعة: **﴿وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً تُغْفَر لكم خطيئَتُكم﴾** فقراءة ابن عامر كقراءة نافع إلا أن نافعاً قال: **﴿خطيئاتُكم﴾** بالجمع، وابن عامر قرأ **﴿خطيئتُكم﴾** بالإفراد، واكتسبت العموم من إضافتها إلى الضمير.

وقرأ أبو عمرو وحده: **﴿وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نَغْفِر لكم خطَاياكم﴾** بـ (نغفر) بنون العظمة، و (خطاياكم) جمع تكسير.

وقرأ الباقون من السبعة وهم: ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ بكسر التاء جمعاً مؤنثاً سالماً، والكسرة علامة النصب. هذه القراءة ـ في الآية ـ الصحيحة، ومعناها شيء واحد كما ترون.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٥، وراجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

الغفران في لغة العرب: هو الستر والتغطية.

والخطايا والخطيئات: جمع خطيئة وهي الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه النكال يُقال لها: (خَطِيئَة) و (خِطْء) ومنه قوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٣١] ويقال لمرتكبها عمداً: (خاطىء) ومنه قوله: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العلق: آية ١٦] وقوله: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة: الآيتان ٣٦، ٣٧] فالخاطىء بصورة الفاعل إنما هو على مرتكب الخطيئة عمداً، أما مرتكب الذنب غير عامد فهو المُسمى بالمخطىء، فلا يقال له: خاطىء كما هو معلوم.

وعلى قراءة (نغفر) فصيغة الجمع للتعظيم، عظم الله (جل وعلا) نفسه. هذا معنى قوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾.

﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٦١] هذا استئناف، فكأن قائلاً قال: وماذا بعد غفران الخطايا؟ قال: سنزيد المحسنين. السين للتنفيس، وهو وعد صادق من الله.

واختلفت عبارات المفسرين في المراد بالمحسنين، ولا ينبغي أن يُختلف فيه؛ لأن خير ما يُفسر به كتاب الله بعد كتاب الله سنة نبينا محمد ﷺ، وقد فسر المحسنين تفسيراً ثابتاً في الصحيح فلا ينبغي العدول عنه لغيره وذلك ما هو مشهور في حديث جبريل لما جاء في صورة الأعرابي وقال للنبي ﷺ: «يا محمد أخبرني عن الإحسان». فقال ﷺ: **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[1]. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[2] أن سؤال جبريل هذا ليُعَلِّم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان أنه سؤال عظيم مُحتاج إليه غاية الحاجة، وذلك أن الله (جل وعلا) بيّن في آيات من كتابه أن الحكمة التي خلق من أجلها خلقه وسماواته وأرضه هي أن يبتلي الخلق، أي: يختبرهم في شيء واحد هو إحسانهم العمل ليظهر من يحسن منهم عمله ومن لا يُحسنه، كما قال تعالى

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

في أول سورة هود: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ثم بيّن الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: آية ٧] ولم يقل: أيكم أكثر عملاً. وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بيّن الحكمة بقوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: آية ٧] وقال في أول سورة الملك ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ثم بيّن الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: آية ٢] فاتضح في هذه الآيات أن الإحسان[١] هو الذي خُلقتم من أجل الابتلاء فيه ـ ولا ينافي هذا قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: آية ٥٦] أي: إلا لآمرهم بالعبادة على ألسنة رسلي فأبتلي محسنهم من غير محسنهم، كما لا يخفى ـ صار الإحسان محتاجاً إلى معرفته؛ ولذا سأل جبريل عنه وأجابه النبي ﷺ بأنه: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». والإحسان مصدر أحسن العمل يحسنه إحساناً إذا جاء به حسناً متقناً لا نقص فيه ولا وصم. وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون (جل وعلا).

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٢] أن العلماء أجمعوا على أنه لم ينزل الله واعظاً من السماء إلى الأرض ولا زاجراً أكبر من واعظ المراقبة المعبر عنه هنا بالإحسان، وقد ضرب العلماء لهذا مثلًا قالوا: لو فرضنا أن في هذا البراح من الأرض ملكاً عظيم البطش، شديد النكال، وسيّافه قائم على رأسه، والنطع مبسوط، والسيف يقطر منه الدم ـ ولله المثل الأعلى ـ وهذا الملك الذي هذا بطشه وشدته ينظر، أترى أن أحداً من الحاضرين يهتم بريبة مع بناته أو زوجاته أو نسائه؟! لا، كلهم خاشع الطرف، ساكن الجوارح، أمنيته السلامة ـ ولله المثل الأعلى ـ فرب العالمين أعظم اطلاعاً وأشد بطشاً، وحِمَاه في أرضه محارمه، فمن لاحظ أن رب السماوات والأرض مطلع عليه، وأنه يرى كل ما يفعل إن كان عاقلًا لا بد أن يُحاسِب.

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

ولو علم أهل بلد أن أمير ذلك البلد بات مطلعاً على كل ما يفعلون من القبائح والخسائس لكفوا عن كل ما لا ينبغي، ولم يرتكبوا إلا ما يجمل - ولله المثل الأعلى - فكيف بخالق السماوات والأرض الذي يعلم خطرات القلوب، وكيف يجهل خطرات القلوب خالق خطرات القلوب؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: آية ١٤] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: آية ١٦] معناه: أن المحسنين الذين يراقبون الله ويعبدونه كأنهم يرونه أن الله يزيدهم على هذه المراقبة وهذه النية وهذا الإحسان للعمل يزيدهم أجراً على أجرهم. وقد جاءت آية في سورة يونس تدل على أن إحسان العمل يزيد الله صاحبه النظر إلى وجهه الكريم كما يأتي في تفسير قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [يونس: آية ٢٦] فقد جاء في الصحيح أن المراد بالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم[١]. وبذلك فسر بعض العلماء قوله تعالى في (ق): ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ۖ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: آية ٣٥] ومعنى الآية: أن المحسنين الذين يراقبون الله عند الأعمال ويعبدونه كأنهم يرونه يزيدهم أجراً، ولا مانع من أن يكون مما يزيدهم: النظر إلى وجهه الكريم كما فُسرت به آية يونس المذكورة آنفاً. وهذا معنى قوله: ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٦١].

وقوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأعراف: آية ١٦٢] لم يقل: فبدلوا. وعدل عن الضمير إلى الظاهر ليسجل عليهم ظلمهم وينيط ما نزل عليهم باسم الظلم الذي ارتكبوا. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٢] أن الظلم في لغة العرب التي نزل بها هذا القرآن العظيم هو وضع الشيء في غير محله، فكل من وضع شيئاً في غير موضعه فقد ظلم في لغة العرب، وهذا معروف في كلامهم، ومنه قالوا للذي يضرب لبنه قبل أن يروب قالوا: هو ظالم؛ لأنه وضع ضرب اللبن في غير موضعه؛ لأن ضَرْبَه قبل أن يروب يفسد

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٣) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

زبده فهو ظلم؛ لأنه وضع للضرب في غير موضعه، وفي لُغز الحريري في مقاماته: «هل يجوز أن يكون الحاكم ظالماً؟ قال: نعم إذا كان عالماً»[(١)] يجوز أن الحاكم إذا كان يضرب لبنه قبل أن يروب لا مانع من توليته إذا كان من أهل العلم. وهذا معنى مطروق في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[(٢)]:

وقائلةٍ ظلمتُ لكم سقائي ... وهل يخفى على العَكَدِ الظَّلِيم

(ظلمت لكم سقائي) أي: ضربته لكم قبل أن يروب. والعَكَد: عصب اللسان، لا يخفى عليه اللبن المضروب قبل أن يروب من غيره. ونظيره قول الآخر[(٣)]:

وصَاحبِ صدقٍ لم تردني شَكَاتُه ... ظَلمتُ وفي ظَلْمِي له عامداً أجرُ

يعني سقاءه ضربه قبل أن يروب. ومن هذا المعنى قيل للأرض التي حُفر فيها وليست محلاً للحفر مظلومة، ومنه قول نابغة ذبيان[(٤)]:

إلا الأَوَارِيَّ لأْياً ما أُبَيِّنُها ... والنُّؤيُ كالحوضِ في المظلومةِ الجَلَدِ

وقالوا لتراب القبر: ظليم. فعيل بمعنى مفعول؛ لأنه مظلوم؛ لأن القبر يُحفر غالباً في محل ليس محتاجاً للحفر سابقاً، ومنه قول الشاعر يصف رجلًا مقبوراً[(٥)]:

فأَصْبَحَ في غَبْراءَ بعد إِشَاحَةٍ ... من العَيشِ مردودٍ عليها ظَلِيْمُها

هذا معروف في كلام العرب، وإذا عرفتم أن الظلم في لغة العرب معناه: وضع الشيء في غير موضعه فاعلموا أن أعظم أنواع وضع الشيء في غير

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

موضعه: وضع العبادة في غير من خلق، فمن أكل رزق الله الذي خلقه ورزقه وعبد غيره فقد وضع العبادة في غير موضعها فهو ظالم ولذا كثر في القرآن إطلاق الظلم على الشرك بالله، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: آية ١٠٦] وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه فسر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ٨٢] قال: بشرك. ثم تلا قوله تعالى عن لقمان الحكيم: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] [لقمان: آية ١٣] فوضع العبادة في غير من خلق هو أكبر أنواع الظلم. وكذلك وضع الطاعة في غير موضعها، كالذين يعصون الله ويطيعون الشيطان وذريته فقد وضعوا الطاعة في غير موضعها حيث أطاعوا عدوهم إبليس ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: آية ٥٠]. وقد عصوا الله فوضعوا المعصية في غير موضعها، والطاعة في غير موضعها. ومن هنا كان الظلم ظلمان: ظلم بالكفر المخرج عن الإسلام، وظلم دون ظلم، وهو ظلم النفس بارتكاب المعاصي؛ لأن كلاً منهما وضع الشيء في غير موضعه، وقد جاء في موضع واحد من القرآن في سورة الكهف وضع الظلم بمعنى النقصان، وهو قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: آية ٣٣] يعني: ولم تنقص منه شيئاً كما سيأتي. وهذا معنى قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأعراف: آية ١٦٢] يعني وضعوا الأمر في غير موضعه حيث قابلوا نعم الله بالعصيان، وعصوا الله، وأطاعوا إبليس. بدَّل الذين ظلموا بالقول الذي قيل لهم وهو (حطة) بدلوه قولاً غير الذي قيل لهم فقالوا: حبة في شعرة، أو حنطة في شعيرة، أو غير ذلك من الألفاظ. وقد قدمنا أن كون الذي قالوه (حبة في شعرة) ثابت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة[2].

---

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ هو معنى: ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ [البقرة: آية ٥٩] عليهم في سورة البقرة.

﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الرجز بكسر الراء: العذاب. قال المفسرون: هو طاعون أنزله الله بهم فأهلك منهم سبعين ألفاً في مدة قليلة.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٢] الباء سببية و(ما) مصدرية. أي: بسبب كونهم ظالمين واضعين الأمر في غير موضعه حيث يعصون الله ويطيعون الشيطان، ويقابلون النعم بالمعاصي. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٢].

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: آية ١٦٣].

قصة هذه القرية كان يخفيها اليهود لأنها سُبة عليهم، وإخبار النبي ﷺ لهم بها وسؤالهم عنها مع أنه نبي أمي من معجزاته وأدلة نبوته؛ لأنه ما علمها إلا عن طريق الوحي.

وسنذكرها ملخصة موجزة ثم نذكرها مفصلة في الآيات التي شَرَحَتْها. وقد ألممنا بهذه القصة في هذه الدروس في سورة البقرة(١) في الكلام على قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة: آية ٦٥] فآيات سورة الأعراف هنا بسط وشرح لقوله في البقرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾.

هذه القرية يزعم المفسرون ـ أغلبهم وأكثرهم ـ أنها قرية تُسمىٰ (أيلة) قريب من العقبة، على ذلك الشاطىء، بين الطور ومدين، وأنها في زمن داود (عليه السلام) كان محرم عليهم الاصطياد في السبت كما تقدم في قوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ﴾ [المائدة: آية ٧٨] وكان يشتد قرمهم إلى لحم السمك ـ والقَرَمُ بفتحتين: شهوة

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

اللحم ـ وكان الله افتتنهم فتنة، كان إذا كان يوم السبت جاءهم السمك على وجه البحر أفواجاً أفواجاً كالكباش البيض حتى يتمكن كل إنسان من أخذ ما شاء منه في أحسن حال وأسمنها، فإذا غربت شمس يوم السبت تمنَّع في البحر فلا يقدرون على شيء منه!! وهذا ابتلاء وامتحان لهم. فمكثوا من الزمن بهذا ما شاء الله، ثم بعد ذلك اشتدت شهوتهم إلى اللحم فصاروا يحتالون على السمك يوم الجمعة ـ مثلاً ـ فيحفرون فَيُجْرُون في الماء أخاديد يسيل فيها الماء، فإذا انتهت حفروا حُفراً عميقة، فإذا جاء الحوت مع تلك الأخاديد المائية نزل في الحفر فلا يقدر على الرجوع فأخذوه يوم [الأحد]!![1] وكان بعضهم ـ فيما يقولون ـ يجعل في ذنب الحوت خيطاً ويدق وتداً على الشاطىء، ويمسك رأس الخيط فيه، فيبقى الحوت في الماء ممسكاً بالخيط، فإذا غربت شمس يوم السبت جاء وأخذه، فلمّا فعلوا هذه الحيل ولم يعاجلهم العذاب كأنهم تجرؤوا وتشجعوا وقالوا: لعل حرمة صيد السمك رفعها الله؛ لأنه لم يفعل بنا بأساً، فلم يزالوا يتدرجون في الحيل حتى صار بعضهم يصطاده علناً ويملحونه ويبيعونه في الأسواق، وكانوا ثلاث طوائف:

طائفة باشرت العدوان يوم السبت واصطياد السمك، وطائفة نهتهم عنه وقالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٤] وطائفة قالوا للذين نهتهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، والله بيّن أن الذين اعتدوا في السبت عذبهم عذاباً بئيساً وهو مسخهم قردة، وقيل: بعضهم خنازير، كما يأتي تفصيله، كما ذكره في قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: آية ١٦٦] وفي قوله: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٥].

والطائفة الذين نهت أنجاهم الله كما ذكره بقوله: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ [الأعراف: آية ١٦٥] وبقيت الطائفة التي قالت: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ فبعض العلماء يقول: هم مع الهالكين، والمحققون يقولون:

---

(١) في الأصل: «السبت». وهو سبق لسان.

هم ناجون؛ لأنهم كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا لقومهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: آية ١٦٤] وذكروا عن عكرمة أنه كان يقول: إن ابن عباس ما كان يدري هل نجوا أو هلكوا حتى أقنعه عكرمة بأنهم نجوا فكساه حُلَّة[1]. ومن أظهر الأدلة في أنهم نجوا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾ [البقرة: آية ٦٥] فرتب بالفاء قوله: ﴿قِرَدَةً﴾ لخصوص الذين اعتدوا، وهؤلاء لم يعتدوا بل إنما لم يُذكر عنهم أنهم نهوا. ولما كانوا يفعلون هذا، وصاروا يصطادون السمك علناً، ونهاهم قومهم قال لهم قومهم: والله لا نساكنكم؛ لأنا نخاف أن ينالنا العذاب الذي سينزل عليكم. فيذكر المفسرون في قصتهم أنهم قسموا القرية، ويزعمون أن الذين اصطادوا قُرباً من سبعين ألفاً، وأن الذين نهوا قُرباً من اثني عشر ألفاً، والله أعلم. فهي إسرائيليات لم يثبت فيها شيء. قالوا: فجعلوا بينهم حائطاً، وقسموا القرية بينهم نصفين، لكل منهم مدخل ومخرج غير مدخل الثاني ومخرجه، فمكثوا على ذلك ما شاء الله، ثم لما كان ذات يوم فإذا قرية المعتدين لم يفتح بابها، ولم يخرج منها أحد، فتسوروا عليهم الحائط فوجدوهم ـ والعياذ بالله ـ مُسخوا قردة. يذكر المفسرون أن الواحد من القردة يعرف نسيبه من الآدميين الذين لم يُمسخوا فيجيئه ويتمسح به ويبكي، وأن الآدميين يقولون: ألم ننهكم عن انتهاك حرمات الله؟ وأنهم يشيرون برؤوسهم أن نعم ـ هكذا ـ وسيأتي هذا مفصلًا بحسب الآيات التي ذكره الله فيها من سورة الأعراف هذه. وهذا معنى قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ يا نبي الله.

قرأه أكثر السبعة: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ وخفف بعضهم بنقل الحركة[2] **﴿وسَلْهُم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾**.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٣/١٨٧، ١٨٨، ١٩٣)، وأورده السيوطي في الدر (٣/١٣٨) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر. وقد جاء في هذا المعنى رواية أخرى أخرجها عبدالرزاق (١٢/٢٤٢)، وابن جرير (١٣/١٨٩ ـ ١٩٠)، وذكره السيوطي في الدر (٣/١٣٧) وعزاها لعبدالرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن.

(٢) انظر: الإتحاف (٢/٦٦).

﴿حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ معناها: مبنية على شاطئه بحضرته قريباً منه، وهو على ما يقوله أكثر المفسرين قرية تسمى (أيلة) خلافاً لمن زعم أنها (مدين)، ومن زعم أنها (طبرية)، ومن زعم أنها تُسمى مَعَنَّى[١]، ومن زعم أنها تُسمى (مقنات) فكل هذا إسرائيليات، ولكن أكثر الأخبار والروايات أنها (أيلة) كما ذكرنا[٢]. وهذا معنى قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [الأعراف: آية ١٦٣] اسألهم عنهم حين ﴿يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾.

﴿يَعْدُونَ﴾ معناه: يجاوزون حدود الله، وينتهكون أوامره باصطياد السمك يوم السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾ حين تأتيهم ﴿حِيتَانُهُمْ﴾ الحيتان: جمع حوت، وياؤه مبدلة من واو؛ لأن أصل الحوت ثلاثي واوي العين، زيدت في جمعه الألف والنون وأُبدلت الواو ياء لسكونها بعد كسرة، كما في (الميزان) من الوزن، و(الميعاد) من الوعد، و(الميقات) من الوقت، و (الحيتان) ياؤه مبدلة من واو جمع حوت[٣].

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ السبت مصدر سَبَتَ اليهود سَبْتاً إذا عظموا يوم السبت بالانقطاع للعبادة فيه وترك صيد السمك. وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ [الأعراف: آية ١٦٣] ﴿شُرَّعًا﴾ جمع شارع. قال بعض العلماء: تأتيهم مقبلة، تأتيهم الحيتان مقبلة ظاهرة على وجه الماء كأنها صفوف كثيرة حتى تستر وجه الماء من

---

(١) جاء في تفسير مبهمات القرآن (٤٩٥/١) ما نصه: «... وقيل: (مقْنا) بالقاف ساكنة، ويُقال: (مقْنات)، و(مغَنَّى) بالغين المفتوحة ونون مشددة، وهي ساحل مدين» ا.هـ. وقد أفاد محقق الكتاب أن (مَغَنَّى) كُتبت في جميع نُسخ الكتاب بالعين المهملة المفتوحة، وقد اعتمد في كتابتها بالغين على المحرر الوجيز لابن عطية؛ لأن المؤلف صرح بنقلها عنه. والمقصود أن (معَنَّى) سواء كانت بالغين أم بالعين هي و(مقْنات) مكان واحد.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/١٨٠ ـ ١٨٢)، القرطبي (٣٠٤/٧)، الدر المنثور (١٣٦/٣)، تفسير مبهمات القرآن للبلنسي (٤٩٤/١ ـ ٤٩٥).

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٨٧.

كثرتها، فالشُرَّع على هذا بمعنىٰ الظاهرة المقبلة على وجه الماء، والعرب تقول: شرعت على فلان فوجدته يفعل كذا. معناه: أقبلت عليه حتى قربت منه فوجدته يفعل كذا.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي يوم لا يعظمون السبت؛ لأنه يوم آخر من أيام الأسبوع ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ فتنة لهم وامتحاناً ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ البلاء العظيم ﴿نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. ﴿نَبْلُوهُم﴾ معناه: نختبرهم بسبب كونهم فاسقين، فقد ابتُلوا بالطمع ولم ينجحوا، وقد ابتُلوا بالخوف ولم ينجحوا، لأن الابتلاء الذي يميز ذهب الرجال من زائفهم هو الطمع والخوف، فإن المحن الذي يظهر بها ذهب الرجال وإِبرِيزهم إنما هي محن الخوف والطمع، وقد ابتلىٰ الله أمة موسىٰ بالخوف والطمع، وابتلى أمة محمد بالخوف والطمع، فنجح أمة محمد ولم تنجح أمة موسىٰ؛ لأن الطمع الذي ابتلى الله به بني إسرائيل هو هذه القرية التي ذكرنا، وسيأتي أنهم اصطادوا السمك في السبت فمُسخوا قردة كما يأتي في قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ [الأعراف: آية ١٦٦] والعياذ بالله؛ لأنهم لم يصمدوا أمام الطمع، ولم تَقْوَ شكائمهم أمام الطمع، بل ذابوا وانْمَاعُوا أمام طمع شهوة اللحم. وكذلك لما ابتلاهم بالخوف في جهاد الجبارين وقال لهم: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: آية ٢١] فجبنوا ولم يشجعوا. وقال تعالى عنهم إنهم قالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة: آية ٢٢] وقد قالوا لنبيهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: آية ٢٤] فلم يثبتوا أمام عواصف الطمع، ولم يثبتوا أمام عواصف الخوف، بخلاف هذه الأمة الكريمة أمة محمد ﷺ، فقد ابتلاهم بالطمع بنفس الصيد، وذلك في غزوة الحديبية في ذي القعدة من عام ست، ابتلاهم الله وهم في سفر وشدة قَرَم - أعني شدة شهوة إلى اللحم - ابتلاهم بأن يسر لهم جميع أنواع الصيد وهم محرمون، كبير الصيد وصغيره من أنواع الوحوش والطير وغير ذلك فلم يمد رجل منهم يده إلى شيء من ذلك، فنجحوا ولم تُزعزعهم عواصف الطمع، بل ثبتوا أمامه ثبوت

الرجال، وهذا قد تقدم[١] في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [المائدة: آية ٩٤] فثبتوا ولم تزعزعهم عواصف الطمع، وكذلك ابتلاهم بالخوف لما سافر النبي ﷺ سفره في غزوة بدر الكبرى كما سيأتي تفاصيله في سورة الأنفال ـ إن شاء الله تعالى ـ وقد خرج لأجل عير في ثلاثمائة رجل وثلاثة عشر رجلاً يريدون عيراً ليأخذوها، فجاءهم جيش عرمرم، نفير مسلح، فلما علم النبي ﷺ بالجيش وذكر أمرهم لقومه ـ وهو أمر مخيف؛ لأنه جيش عظيم في عَدَدِه وعُدَدِه وهم قليلون كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: آية ١٢٣] هم قليل عَددهم وعُددهم بالنسبة إلى عدوهم فلما عرض ذلك عليهم ـ قال له المقداد بن عمرو المعروف بالمقداد بن الأسود من بني بهراء من قبائل اليمن، حليف قريش، قال له: والله لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا من دونه معك، ولو خضت بنا البحر لخضناه، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى. فلما أعاد الكلام قال له سعد بن معاذ (رضي الله عنه وأرضاه): كأنك تعنينا معشر الأنصار؟ قال: **نعم**. لأن الأنصار اشترطوا عليه ليلة العقبة أنهم يحمونه مما يحمون منه أبناءهم ونساءهم في نفس المدينة، ولم يشترطوا له الخارج عن بلادهم، فكان ﷺ يتخوف ألا يكونوا معه في الخارج عن ديارهم، فلما قال له سعد بن معاذ (رضي الله عنه): كأنك تعنينا معشر الأنصار؟ قال له: **نعم**. قال كلامه المعروف المشهور في المغازي والتاريخ ـ العظيم الدال على عظيم الثبات ـ الذي يقول فيه: والله إنا لقوم صُبُرٌ في الحرب، صدقٌ عند اللقاء، ووالله ما نكره أن تلقى بنا عدوك حتى ترى منا ما يقر عينك، والله لقد تخلف عنك بالمدينة أقوام لو علموا أنك تلقى كيداً ما تخلف عنك منهم أحد[٢]. ونحو هذا من الكلام؛ فثبتوا وصمدوا عند هذا الخوف العظيم، وثبتوا أمام هذا الطمع العظيم، بخلاف الإسرائيليين

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

ـ كما بيّنا وكما جاء هنا في الأعراف ـ من سقوطهم أمام الطمع، وكما قدمنا في سورة المائدة من سقوطهم أمام الخوف. وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٣] البلاء معناه الاختبار، وهو يقع بالخير والشر، كما قال: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٨] ولم ينجحوا في هذا البلاء إلا الذين عصمهم الله جل وعلا.

٢٣/أ / ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٦٤ ـ ١٧٠].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأعراف: آية ١٦٤].

قرأ هذا الحرف عامة القراء منهم السبعة غير عاصم في رواية حفص خاصة: ﴿معذرةٌ إلى ربكم﴾ بضم التاء، وقرأهُ عاصمٌ وحده في رواية حفص: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ بنصب التاء[1].

أما على قراءة الجمهور فـ﴿مَعْذِرَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: موعظتنا لهؤلاء معذرة عند الله. أو هذه الموعظة معذرة.

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٦.

أما على رواية حفص عن عاصم: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ففي إعرابه وجهان:

أحدهما[١]: أنه مفعول من أجله، أي: وعظناهم لأجل المعذرة. أي: لنقيم عذرنا عند الله.

الثاني: أنه مفعول مطلق، أي: نعتذر بذلك معذرة عند الله جل وعلا[٢].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ واذكر يا نبي الله ﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ حين قالت أمة منهم ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ الميم في قوله: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ هي ما الاستفهامية. والمقرر في علم العربية أنّ ما الاستفهامية إذا جُرَّت حُذف ألفها كما هو معروف، والمعنىٰ: لأي موجب تعظون؟ (تعظون) مصدر وعظه يعظه إذا كلّمه كلاماً يلين له قلبه لينتهي عما لا يرضي الله. ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ لأي موجب وأي حكمة تعظون قوماً متمردين متمادين على العصيان وعدم الانكفاف ﴿ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ إهلاك استئصال ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لجراءتهم عليه وانتهاكهم حرماته.

وهذه الطائفة قال بعض العلماء: هي أشد الذين نَهوا، وإنما قالت: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ لأنها جرّبت وعظهم وعلمت أنهم لا فائدة فيهم ولا ينزعون ولا يُقْلعون. وقال بعض العلماء: هذه الطائفة الثالثة التي لم تباشر الاعتداء في السبت ولم تنهَ الذين اعتدوا في السبت. وقد ذكرنا بالأمس أنّ العلماء اختلفوا فيها، وأنّ أظهر القولين: أنها نجت كما أقنع به عكرمة ابن عباس (رضي الله عنه)، وكما يدل عليه ترتيبه بالفاء في قوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ [البقرة: آية ٦٥] في سورة البقرة على خصوص الاعتداء في السبت خاصة في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ فرتب قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ على خصوص الاعتداء في السبت. وهذا

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٦.
(٢) انظر: حجة القراءات ص٣٠٠، القرطبي (٣٠٧/٧)، الدر المصون (٤٩٥/٥).

معني قوله: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ إهلاكاً مستئصلاً ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ نعتذر بموعظتنا إياهم معذرة إلى ربكم. أو وَعظناهم لأجل المعذرة عند ربكم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ولرجائنا أيضاً أن تؤثر فيهم الموعظة فيتقوا الله ويكفوا عن ما هم مصرون عليه من ارتكاب هذا الذنب العظيم الذي هو صيد السمك يوم السبت.

وهذا الآية الكريمة جاء فيها بيان حكمتين من حِكَم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن استقراء القرآن دل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له حِكَمٌ ثلاث تضمنت هذه الآية من سورة الأعراف من تلك الحكم الثلاث اثنتين، أمّا الحِكَم الثلاث[1]:

فالأولىٰ منها: أن يقيم الإنسان عذره أمام ربه، ويخرج بذلك الأمر من عهدة التقصير في الأمر بالمعروف؛ لئلا يدخل في قوله: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: آية ٧٩] وهذه الحكمة أشاروا لها بقوله: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

الحكمة الثانية: هي رجاء انتفاع المذكر، كما قال هنا عنهم: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وذكر الله هذه الحكمة في قوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: آية ٥٥].

الحكمة الثالثة: من حِكَم الأمر بالمعروف التي لم تذكر في هذه الآية الكريمة: هي إقامة الحجة لله على خلقه في أرضه نيابةً عن رسله؛ لأن الله يقول: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: آية ١٦٥] فأهل العلم يقيمون حجة الله على خلقه بإقامة الحجة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نيابةً عن الرسل في ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٤].

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ [الأعراف: آية ١٦٥] يعني فترك المأمورون الموعوظون تركوا أمر الله ولم يلتفتوا إلى ذلك التذكير؛ ولذا قال تعالى:

---

(١) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (أصوله، وضوابطه، وآدابه) ص٦٨، ٣٤٨.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ اعلموا أن النسيان يطلق في القرآن العظيم إطلاقين[١]:

أحدهما: نسيان الشيء بأن ينساهُ الناسي ويزول علمه منه فيكون ناسياً له غير ذاكر.

والثاني: يطلق النسيان على ترك العمل عمداً وهو المقصود هنا، منه قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾ [التوبة: آية ٦٧] أي: تركوه فتركهم؛ لأن الله لا ينسى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: آية ٦٤] ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: آية ٥٢] فالنسيان هنا معناه الترك عمداً، وهو أسلوبٌ عربي معروف، تقول العرب: نسي الأمر وتناساه. إذا صدّ عنه وأعرض وتركه عمداً. ومنه على أصح التفسيرين قوله عن آدم: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: آية ١١٥] أي: ترك ذلك الأمر لما قاسمه الشيطان، كما تقدّم إيضاحه، وهذا معنى قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ المراد بالسوء هنا هو معصية الله (جل وعلا) وانتهاك حرمته باصطياد السمك في السبت، وكل معصية من معاصي الله فهي من السوء؛ لأنها تسوء صاحبها إذا نظرها في صحيفته يوم القيامة.

﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: ارتكبوا الجريمة وعصوا الله واصطادوا السمك في السبت.

﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ في هذا الحرف أربع قراءات سبعيات[٢]: قرأ هذا الحرف ابن كثير والكوفيون ـ أعني عاصماً وحمزة والكسائي ـ: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ على وزن (فعِيْل). والعذاب البئيس: هو العذاب الشديد العظيم الذي وقْعُه شديد على صاحبه.

وقرأه نافع في روايتي ورش وقالون: ﴿**وأخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بِيْسٍ بما كانوا يفسقون**﴾ بباء مكسورة بعدها ياء ولا همزة فيه. وأصل هذه

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٦، حجة القراءات ص٣٠٠، الدر المصون (٥/٤٩٦).

القراءة كما قاله بعض العلماء: (بَئِس) على وزن (فَعِلْ) فخففت، كما تقول في (كَبِدٍ): (كِبْد) فقيل: (بِئْس) وخففت الهمزة أيضاً فقيل: (بِيْس) ومعناه عائد إلى الأول.

وقرأه ابن عامر: ﴿بعذاب بِئْسٍ بما كانوا يفسقون﴾ كقراءة نافع إلا أن ابن عامر همز الياء فقال: ﴿بعذَابٍ بِئْسٍ بما كانوا يفسقون﴾.

أما أبو بكر ـ أعني شعبة عن عاصم ـ فله روايتان: أحدهما توافق قراءة الجمهور، وهي قوله: ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ وروى أبو بكر شعبةُ روايةً أخرى عن عاصم: ﴿بعذابٍ بَيْئَس بما كانوا يفسقون﴾ (بيْئس) على وزن (ضَيْغَم) والعذاب البيئَس: هو الشديد أيضاً، ورجل بَيْئَس: شديد البأس، ومنه قول امرىء القيس بن عابس الكندي[1]:

كِلاهُما كان رئيساً بَيْئَساً يَضْرِبُ في يومِ الهياجِ القَوْنَسا

وهذا معنى قوله: ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٥] الباء سببية، و ﴿مَا﴾ مصدرية. والفسق في لغة العرب معناه: الخروج عن طاعة الله. كل من خرج عن شيء فقد فسق[2]. والعرب تقول: «فسقت هذه الرواحل عن قصدها». أي: جارت عن طريقها، ومنه قول رؤبة بن العجّاج[3]:

يَهْوِيْنَ في نَجْدٍ وغَوْراً غائِراً فَوَاسِقاً عن قَصْدِهَا جَوَائِراً

والفسق في الشرع: الخروج عن طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: آية ٥٠] أي: خرج عن طاعة ربه. هذا هو معنى الفسق. والخروج عن طاعة الله قد يكون خروجاً أعظم وهو الخروج المخرج عن دين الإسلام، وقد يكون خروجاً دون خروجٍ وهو الفسق بارتكاب كبيرة. ولأجل هذا المعنى كان الفسق

---

(١) البيت في ابن جرير (٢٠٠/١٣)، البحر المحيط (٤١٣/٤)، الدر المصون (٤٩٦/٥).

(٢)(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

يطلق في القرآن على الخروج عن طاعة الله بمعناه الأعظم وهو الكفر بالله كقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: آية ٢٦] وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: آية ٢٠] وقد يطلق الفسق على خروج دون خروج بارتكاب بعض الكبائر كقوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: آية ٤] وقوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: آية ٦] وهذا معنى قوله: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: آية ١٦٦] (لمّا) هذه هي التي تربط جملة بجملة رَبْط الشرط بالجزاء. و (لما) تأتي في اللغة العربية على ثلاثة أنواع[(١)]: فتأتي نافية نحو ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ [البقرة: آية ٢١٤] وتأتي مُثْبِتَة على لغة هذيل بن مدركة كقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ [الطارق: آية ٤] أي: ما كل نفسٍ إلا عليها حافظ. وهاتان حرفان بلا خلاف بين علماء العربية. الثالثة: (لمّا) هاته ـ التي تربط جملةً بأخرى ربط الشرط بالجزاء ـ يختلف فيها علماء العربية، فبعضهم يقول: هي حرف؛ لأنها لم يعد إليها عائد ولم يرجع إليها ضمير فهي حرف. وبعض علماء العربية يقول: هي اسم، وهي ظرفٌ مُضَمَّنٌ معنى الشرط، واختار هذا غير واحد. وما زعمه بعضهم مستدلاً بآية من كتاب الله: أنّ (لمّا) أنها حرف لا يستقيم كل الاستقامة.

والحاصل أن فيها خلافاً معروفاً بين علماء العربية: هل هي حرفٌ أو ظرف؟ وهذا معنى قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ والعرب تقول: «عتا يعتو» إذا تمرد وتكبر. أي: فلما تمردوا وتكبروا.

وقوله: ﴿عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ في الكلام حذفُ مضافٍ دل المقام عليه،

---

(١) انظر: الدر المصون (١/١٥٩ ـ ١٦٠)، الحروف العاملة في القرآن الكريم ص٥٩٦، ٦٣٨، ٧٠٣.

وحذف المضاف إذا دل المقام عليه وإقامة المضاف إليه مقامه أسلوبٌ عربيٌ معروفٌ مشهورٌ، وتقدير المضاف المذكور: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ أي: فلما تمردوا وتكبروا عن ترك ما نُهوا عنه وهو صيد السمك يوم السبت ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ صيغة الجمع للتعظيم، والقائل هو الله (جل وعلا). وصيغة الأمر في قوله: ﴿كُونُوا﴾ هي المعروفة بأنها للتكوين.

والقردة: جمع قرد، والقرد هو الحيوان المعروف الذي يعرفه كل الناس.

وقوله: ﴿خَاسِئِينَ﴾ جمع تصحيح للخاسىء، والخاسىء في لغة العرب معناه: الحقير الذليل الخسيس؛ ولذا كانت (اخْسَأ) خطاباً للكلاب، كما قال تعالى لأهل النار مخاطباً لهم بالخطاب الذي يؤذن بالخسة والصغار: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: آية ١٠٨].

ومعلوم أن الله إذا قال لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ لا بد أن يكونوا قردة؛ لأنه يقول: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: آية ٤٠] ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: آية ٨٢] يذكرون في قصتهم[(١)] أنّ المعتدين في السبت لمّا تمادوا في عتوهم وظلمهم ولم يسمعوا نصيحة قومهم خاف قومهم من البلاء والهلاك الذي سينزل بهم فقسموا القرية بينهم، وجعلوا بينهم حائطاً، وصار لهؤلاء باب ولهؤلاء باب، فبينما هم ذات يوم إذ أصبحوا والمعتدون لم يخرج منهم أحد، وبابهم مقفول، فتسوروا الحائط عليهم فوجدوهم ـ والعياذ بالله ـ قردة، فلما فتحوا الباب ودخلوا عليهم يذكرون في القصة أن القردة تعرف أنسابها من الإنس، والإنس لا يعرفون أنسابهم من القردة، وأن القردة تأتي إلى أنسابها فتشمها وتبكي، وأنهم يقولون لهم: ألم ننهكم عن انتهاك حرمات الله؟ فيشيرون برؤوسهم أن نعم، والعياذ بالله تعالى.

واعلموا أنّ العلماء اختلفوا في الممسوخين هل يمكن أن يكون لهم

(١) انظر: ابن جرير (١٣/١٨٨ ـ ١٩٨)، ابن كثير (١/١٠٦)، (٢/٢٥٨).

نسل وعقب[١]؟ اختلف العلماء في هذا، فذهب جماعة من أهل العلم إلى أنه لا مانع من أن يكون الممسوخون لهم نسلٌ وأعقاب، وأن يكون بعض الحيوانات من نسلهم. وممّن انتصر لهذا القول: ابن العربي المالكي.

واستدل أهل هذا القول ببعض الأحاديث الثابتة في الصحيح، منها حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما (رحمهما الله) أن النبي ﷺ قال: «**فُقدتْ أمة من بني إسرائيل لا يُدرى ما فعلت**». وفي رواية: «**ولا أُرى إلا أنها الفأر، ألا ترون أنها إذا وُضعت لها ألبان الإبل لم تشرب، وإذا وُضعت لها ألبان الشاء شربت**»[٢] هذا حديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) ذكر فيه النبي ﷺ أن أمة من بني إسرائيل فُقدت، وأنه يظن أنها الفأر. والفأر هو الحيوان المعروف. واستدل على ذلك بأن أصل الإسرائيليين لا يشربون ألبان الإبل، ولا يأكلون لحومها، كما قدّمنا إيضاحه في سورة آل عمران في تفسير قوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ [آل عمران: آية ٩٣] فقد ذكرنا سابقاً في تفسير هذه الآية أن المفسرين يقولون: إن نبي الله يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ أصابه مرض عرق النَّسَا فنذر لله إن شفاه الله ليتركن لله أحب الطعام والشراب إليه، فكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل، وأحبُ الشراب إليه ألبانها، فحرمهما على نفسه. ويقولون: إن هذا النوع من النذر كان جائزاً في شرعه، وأن اليهود صارت لا تشرب ألبان الإبل ولا تأكل لحومها. وأن الفأر لا يشرب لبن الإبل ولكنه يشرب لبن الشاء، أي: الغنم!! فكأن النبي ﷺ ظن أنه مُسخ. وعلى أن الفأر مَسْخٌ فالفأر يتناسل. ومما استدل به أهل هذا القول: ما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ أُتي بضب فأبى

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/٤٤٠ ـ ٤٤٣).

(٢) البخاري في بدء الخلق، باب: خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، حديث رقم (٣٣٠٥)، (٦/٣٥٠)، ومسلم في الزهد، باب: في الفأر وأنه مسخ، حديث رقم (٢٩٩٧)، (٤/٢٢٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أن يأكله وقال: «**لعله من القرون الأولى التي مُسخت**»[١] وهذا الحديث الذي رواه مسلم عن جابر روى مسلم أيضاً نحوه عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنهم)[٢]. فهذا الحديث المتفق عليه، وحديث مسلم هذا كأن النبي ﷺ جوّز فيه أن يتناسل الممسوخ.

وذهب آخرون من العلماء إلى أن الممسوخ لا يعيش فوق ثلاثة أيام، ولا يشرب ولا يأكل، ولا يكون له نسل ولا عقب. واستدل أهل هذا القول بما أخرجه مسلم في صحيحه من رواية عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقباً**»[٣] هذا لفظ النبي ﷺ في صحيح مسلم من حديث ابن مسعود، نفىٰ عنه النسل والعقب، وكان أبو عبدالله القرطبي (رحمه الله) في تفسير سورة البقرة[٤] في الكلام على قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة: آية ٦٥] يقول: إن الصحيح أن التحقيق أن الممسوخ لا يولد له، ولا يكون له نسل ولا عقب، ولا يعيش، وأن هذا الحديث الثابت في صحيح مسلم من حديث عبدالله بن مسعود، الذي أخرجه مسلم في كتاب القدر يدل على أنّ النبي ﷺ كان في أول الأمر يظن بعض الشيء، وأن الله علّمه فجزم بأنه لا يكون له نسل ولا عقب. وهذا أظهر وأقرب، وقد بيّن النبي ﷺ في حديث مسلم هذا الأخير المذكور من حديث ابن مسعود أن القردة والخنازير كانوا موجودين قبل مسخ بني إسرائيل، وهذا هو الأقرب، والله تعالى أعلم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: آية ١٦٦].

القردة: جمع القرد، وهو الحيوان المعروف، وهو من أخس

---

(١) مسلم في الصيد والذبائح، باب إباحة الضب، حديث رقم (١٩٤٩)، (١٥٤٥/٣)، من حديث جابر (رضي الله عنه).

(٢) مسلم في الصيد والذبائح، باب إباحة الضب، حديث رقم (١٩٥١)، (١٥٤٦/٣)، من حديث أبي سعيد (رضي الله عنه).

(٣) مسلم في القدر، باب: بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر، حديث رقم (٢٦٦٣)، (٢٠٥٠/٤).

(٤) القرطبي (٤٤١/١ ـ ٤٤٢).

الحيوانات، والدليل على أنه من أخس الحيوانات أن الله مسخ في صورته من أراد إذلالهم وإهانتهم وصَغَارَهم، وهذا معروف أن القرد من أخس الحيوانات. وقد قال الشاعر[١]:

قد يُكْرِمُ القردُ إعجاباً بخسته ... وقد يُهانُ لِفَرطِ النخْوةِ الأَسَدُ

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: آية ١٦٧].

(تأذن) تفعَّل من الأذان، والأذان في لغة العرب: الإعلام، ومنه أذان الصلاة؛ لأنه الإعلام بدخول وقتها مع الدعاء لها، وقد قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: آية ٣] والعرب تقول: آذنني: أعلمني. ومنه قول الحارث بن حِلِّزَة اليشكري[٢]:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أسماءُ ... ربَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثواءُ

فتأذن معناه تَفَعَّل من الأذان بمعنى الإعلام، أي: أعلم الله الخلق. وقال بعض العلماء[٣]: (تأذن) بناء هذا الفعل على (تفعّل) يجعله كأفعال القسم؛ ولذا جاء اللام في قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ معناه أعلم الله جل وعلا. وهذا الإعلام في معنى القسم، أو كأنه مؤكد بالقسم بدليل اللام في قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾.

﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ليسلطن عليهم، أي: اليهود ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يسومهم معناه: يُذيقهم سوء العذاب. العرب تقول: «سامه العذاب» إذا أذاقه إياه وعذّبه به، وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول عمرو بن كلثوم في معلقته[٤]:

إذا ما المَلْكُ سَامَ الناسَ خَسْفاً ... أبَيْنا أن نُقِرَّ الذلَ فينا

(١) لم أقف عليه.
(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.
(٣) انظر: الدر المصون (٥/٥٠٠ ـ ٥٠١).
(٤) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يوم القيامة إنما سُمي يوم القيامة لأن الناس يقومون فيه لخالق السماوات والأرض، كما قال جل وعلا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: آية ٦] وقيل له (القيامة) كما قيل الحِيَازَة والصِيَانَة وغير ذلك من الحَوز والصَّون، وهذا معنىٰ قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: آية ١٦٧].

وهذه الآية الكريمة من سورة الأعراف فيها التنصيص الصريح من رب العالمين أنه يُسلّط على اليهود في دار الدنيا حتى تقوم الساعة من يذيقهم سوء العذاب، ويعذبهم أشد التعذيب وأتمّه، وهذا قد بيّنا بعضه مراراً؛ لأن الله سلّط عليهم سابقاً بختنصر وأهانهم تلك الإهانة الشديدة، وملك الرومان، وسلّط عليهم نبيه محمداً ﷺ بعد ذلك لما كفروا وتمردوا، فأجلى بني النضير وبني قينقاع، وذبح مقاتلة بني قريظة، وأجلى خيبر، وربنا يقول: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: آية ٨] وقد بيّنا في سورة بني إسرائيل[1] طرفاً من هذا؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ [الإسراء: الآيتان ٤، ٥] يعني: أنهم يجوسون ـ يمشون ـ في الأزقة خلال ديارهم محتليها يهينونهم ويعذبونهم، ثم قال في الثانية: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٧] المفسرون والمؤرخون يقولون[2]: إن إحدى المرتين تسليط بختنصر عليهم، والثانية: تسليط ملك الرومان، وأن كلاً منهما قتلهم وسبى نساءهم وذراريهم. والله بعد ذلك قال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: آية ٨] فعادوا لأكبر الفساد والمنكر زمان النبي ﷺ فعاد الله لقهرهم وإذلالهم بأن سلّط عليهم رسوله ومَنَعَ إقامتهم في جزيرة العرب، فكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إذا

(١) ولا يرد عليه أن سورة بني إسرائيل تأتي بعد سورة الأعراف وبينهما سور متعددة؛ لأن الشيخ (رحمه الله) فسر القرآن كاملًا في المسجد النبوي قبل ذلك. وهذه الدروس التي وقفنا عليها هي من تفسيره في المرة الثانية.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢٥/٣)، البداية والنهاية (٣٤/٢).

جاء منهم تاجر أجَّل له ثلاثة أيام يبيع ويشتري ثم يخرج، ولا يرضى بجلوسهم في جزيرة العرب.

وفي هذه الآية من سورة الأعراف تأذن الله وأعلم أنه سلّط عليهم من يسومهم سوء العذاب، إلا أنهم يرد الله لهم الكرة حتى يجتمعوا ويكونوا أمة؛ لأنهم لو بقوا مقطعين في الأرض لن تقوم لهم قائمة ـ كما قال: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: آية ١٦٨] ـ ولم يكن العذاب والهلاك، ولم يجد موقعاً يقع عليه، فصار من عادة الله أن يَردّ لهم الكرة ويجعلهم أمة حتى يكونوا أمة فيسلّط عليهم من يعذبهم ليكون العذاب واقعاً موقعه، والله (جلّ وعلا) أصدق من يقول، وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ السرعة ضد البطء؛ لأنه سريع العقاب؛ لأنه يقول للشيء: (كن) فيكون، وما أمره إلا واحدة كلمح بالبصر. والعقاب: هو التنكيل بسبب الذنب؛ لأنه يأتي عقب الذنب، والعرب تقول: «عاقَبَه معاقبةً وعقاباً» إذا نكَّلَه بسبب ذنب ارتكبه، وهو معنىً مشهور في كلامهم، ومنه قول نابغة ذبيان[1]:

وَمَنْ عصاكَ فَعَاقِبهُ مُعَاقَبَةً تنهى الظَّلُومَ ولا تَقْعُد على ضمد

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ جل وعلا ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: كثير المغفرة لعباده المؤمنين التائبين؛ الرحيم بهم.

وقد جرت العادة في القرآن أن الله (تعالى) يجمع فيه بين الوعد والوعيد؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين: هما جلب المصلحة، ودفع المضرة، والله (جل وعلا) يأتي بالوعد والوعيد ليستحث الناس بذلك إلى طاعته كما قال هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن أطاعه. فهذا الوعد يطمعنا فيما عنده، وهذا الوعيد يخوّفنا مما عنده، كما قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾

(١) ديوان النابغة ص١٣.

وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٤٩، ٥٠] وكما قال تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر: الآيات ١ ـ ٣] والآيات في مثل هذا كثيرة، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: آية ١٦٧].

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: آية ١٦٨].

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾ معناه: جعلناهم قطعاً متفرقين في أرض الله لا تكاد تجد أرضاً إلا وفيها شِرذِمَةٌ منهم. أجرى الله العادة بتفريقه اليهود في أقطار الدنيا لحكمة يعلمها هو (جلّ وعلا)؛ ولذا قال: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي: طوائف متفرقة في أنحاء الدنيا. ثم قال: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ منهم قوم صالحون مطيعون لله، وهم الذين كانوا على شرع موسى بن عمران، لم يغيروا ولم يبدلوا حتى ماتوا على ذلك، أو أدركوا محمداً ﷺ فآمنوا به، كعبدالله بن سلام. وبعض العلماء يقول: من هؤلاء الأمم الصالحين: السبط الذين خرجوا من بين أظهر بني إسرائيل. وجرت عادة المفسرين أن يذكروا قصة غريبة عنهم في آية ذكرناها قبل هذا من سورة الأعراف[1] وهي قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: آية ١٥٩] لأن هذه الآية من سورة الأعراف يذكر المفسرون عندها قصة غريبة: يزعمون أن واحداً من أسباط بني إسرائيل لما عصى الإسرائيليون، وقتلوا الأنبياء، وارتكبوا المناكر تبرؤوا منهم، وطلبوا من الله أن يُفَرِّق بينهم وبينهم، ويزعمون أن الله فتح لهم نفقاً في الأرض فدخلوا فيه وساروا فيه سنة ونصف السنة، حتى خرجوا من وراء الصين، وأنهم كانوا وراء الصين على دينٍ صحيح يعبدون الله. هكذا يقولون. وتكثر هذه القصة ـ يكثر ذكرها ـ في كلام المفسرين عند هذه الآية الكريمة، وقد ألممنا بالآية ولم نذكرها، لأنها لم يثبت عندنا فيها شيء.

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة الأعراف.

وبعضهم يقول: من هؤلاء الأمم الصالحة ذلك السبط الذين ساروا في النفق في الأرض سنة ونصف السنة حتى خرجوا من وراء الصين. وعلى كل حال فقد كان في اليهود قوم هم على دين موسىٰ حتى ماتوا على ذلك، وقوم كانوا على دين موسى وآمنوا بمحمدٍ ﷺ. وهؤلاء الذين كانوا على دين موسى وأدركوا محمداً ﷺ فآمنوا به هم الذين ذكر الله في سورة القصص أنّ لهم أجرهم مرتين: أجر إيمانهم الأول، وأجر إيمانهم الثاني، كما نص الله على ذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ الآية [القصص: الآيات ٥١ ـ ٥٤]. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ومنهم أمة وناسٌ آخرون دون ذلك الصلاح. أي: منحطون عن مرتبة الصلاح، قاصرون عنها؛ لارتطامهم في المعاصي أو الكفر بالله جلّ وعلا.

وهذا الحرف قرأه عامة القراء: ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ بفتح النون ظرفاً غير متصرف، ولم يقرأه أحدٌ اسماً. وكونه اسماً يجوز لغةً لا قراءة؛ لأن العرب تطلق (دون) إطلاقين[1]: تطلقها ظرفاً جامداً غير متصرف، وتطلقها اسماً بمعنىٰ الشيء الردي، ومن إطلاقها اسماً: قول الشاعر[2]:

إذا ما علا المرءُ رامَ العَلاَء ويقْنَعُ بالدونِ من كان دُونَا

فالرواية في قوله: «من كان دونا» أصله: «من كان دوناً» بالتنوين، أي: حقيراً. وهذه الآية لم يُقْرأ فيها بجعله اسماً متصرفاً. هذا معنى قوله: ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ومنهم أمة، كقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصافات: آية ١٦٤] أي: وما منا أحد إلا له مقام معلوم. أي: ومنهم طائفة ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: منحطون عن رتبة الصلاح لكفرهم أو معاصيهم.

---

(١) انظر: اللسان (مادة: دون) (١/١٠٣٨).

(٢) البيت في اللسان (مادة: دون) (١/١٠٣٨)، فتح التقدير (١/٥٢).

وقوله: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾ البلاء: الاختبار. والحسنات جمع الحسنة، والحسنة المراد بها هنا الخصلة الطيبة كالخصب والعافية؛ لأن الله يبتلي بالطيبات ويبتلي بالبلايا. يبتلي الناس بأن يُغدق عليهم نعمه ويرزقهم العافية والأموال والأمطار ليبتليهم أيشكروا نعمة الله؟ وكذلك يبتلي بالسيئات كالجدب والمرض وغير ذلك من البلايا هل ينيبوا إلى الله؟ فالله (جل وعلا) ذكر هنا أنه ابتلى اليهود بالحسنات كسعة الرزق والخصب والصحة والعافية، والسيئات كالأمراض والجدب والزلازل والبلايا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لأجل أن يرجعوا فينيبوا عند أحد الابتلاءين. ودلت الآية على أنّ منهم طائفة كانوا صالحين كما بيّناه مراراً./ ٢٣/ب
كقوله: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران: آية ١١٣] وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية[آل عمران: آية ١٩٩]. وهذا معنى قوله: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِالْحَسَنَٰتِ وَالسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

السيئات: جمع سيئة، وعلماء العربية يقولون: إن أصل السيئة: (سَيْوِئَة)، فهي على وزن: (فَيْعِلَة)، ووزنها بالميزان الصرفي: (فَيْعِلَة)، والزائد فيها: ياء (الفَيْعِلَة)، وحروفها الأصلية هي: السين في مكان الفاء، والواو في مكان العين، والهمزة في مكان اللام. أصل حروفها الصحيحة: (سَوَء) بسين، وواو، وهمزة. وياء (الفَيْعِلَة) زائدة، أصلها: (سَيْوِئَة) فاجتمعت الياء والواو، وسكنت أولاهما غير عارضة ولا عارضة السكون، فوجب قلب الواو ياء، وإدغام الياء في الياء، على القاعدة التصريفية المشهورة[1]. فقوله: (السيئة) هذه الياء المشددة فيها حرفان: أولاهما: ياء (الفَيْعِلَة) الزائدة، والثانية: الواو الواقعة عين الكلمة المبدلة ياء. وإنما سُميت السيئة (سيئة) لأنها تسوء صاحبها يوم القيامة إذا نظر إليها في صحيفته. وهذا معنى قوله: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِالْحَسَنَٰتِ وَالسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٨] أي: يرجعون إلى ما يرضي ربهم من طاعته جلّ وعلا.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٦٠) من سورة الأنعام.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ كان بعض العلماء يقول[١]: (الخَلَف) بفتح اللام هم من يخلفون من قبلهم خلافة حسنة. و (الخَلْف) بسكون اللام هم الذين يخلفون من كان قبلهم بسوء. وهذا اصطلاح أغلبي؛ لأن (الخَلَف) ربما أُطلق في خَلَف سيء. و (الخَلْف) بالسكون ربما أُطلق في خَلَفٍ صالحٍ، ومنه قول حسّان[٢]:

لنَا القَدَمُ الأولى إليك وخَلْفُنَا   لأَوَّلِنَا في طاعةِ الله تابعُ

وقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: من بعد هؤلاء الذين قطّعناهم وجعلنا منهم الصالحين خلف ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ من ذرياتهم من اليهود ﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ معنى وراثتهم للكتاب: أن التوراة بقيت عندهم ورثوها عن أسلافهم فصارت التوراة لديهم، وصاروا عياذاً بالله يغيرون أحكامها. ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني: خلف من بعد أولئك خلف من ذرياتهم من اليهود ورثوا الكتاب، معناها: بقي كتاب الله التوراة في أيديهم وراثة عن أسلافهم. وكان هذا الخَلْف خلفاً خبيثاً يأكلون الرُّشَا ويبيعون حكم الله بأعراض الدنيا ـ والعياذ بالله ـ فعابهم الله هنا بذلك؛ ولذا قال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ معنى: ﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ورثوا التوراة عن أسلافهم فبقي عندهم، وهو كتاب الله الذي كتب فيه العقائد والحلال والحرام وتفصيل كل شيء يُحتاج إليه.

﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ والعياذ بالله إذا عرض لهم عرض من حطام الدنيا. العَرَض: المراد به الشيء الزائل؛ لأنه عارض زائل مُضْمَحِل.

وقوله: ﴿هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ إشارة إلى متاع الدنيا وحطامها الزائل القليل الذي لا جدوى فيه ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ يستعيضونه عما في كتاب الله؛ لأنهم يأكلون الرُّشَا ويغيرون الأحكام.

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٠٩/١٣)، القرطبي (٣١٠/٧)، الدر المصون (٥٠٢/٥).

(٢) ديوان حسان ص١٥٥.

وبعض العلماء يقول: الخَلْف المذكورون هم اليهود الذين كانوا موجودين في زمن مبعث النبي ﷺ، عندهم التوراة فيها صفات رسول الله ﷺ، وأخذ العهود والمواثيق عليهم باتباعه فكتموه وغيّروا صفاته وبدّلوها، حتى إنهم يجدون في التوراة عندهم أنه (رَبْعَة) يعني: متوسط القامة، فيكتبون: طويلًا مُشذّباً. وكل وصف يحرّفونه ويغيرونه، يأخذون قراطيس يكتبونها عندهم محرفة كما تقدّم في الأنعام في قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: آية ٩١] يقولون: إنهم كان إذا تخاصم إليهم اثنان وأعطاهم صاحب الحق رشوة حكموا له بكتاب الله التوارة، فإذا أعطاهم المُبْطِل الرشوة تركوا التوراة وجاؤوا بالكتب التي كتبوها بأيديهم، التي قال الله عنها: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: آية ٧٩] يأتون بالكتاب الذي كتبوه ويحكمون له به بدل الرشوة. ومما ذكر العلماء أنهم كتموا صفة النبي ﷺ لعرض زائل من أعراض الدنيا؛ لأنهم كانوا يأكلون بالرئاسة الدينية، فلما بُعث محمد ﷺ لو أخبروا بأنه نبي الله لزالت عنهم الرئاسة الدينية فضاع المأكل الذي كانوا يأكلون بها، فكتموا وغيّروا صفاته حرصاً على ما كانوا يتعاطونه برئاستهم الدينية ـ قبّحهم الله ـ هذا معنى قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾.

العرض: حطام الدنيا الزائل، سُمّي عرضاً لأنه شيء عارض لا بقاء له. والإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا﴾ إلى متاع الدنيا وحطامها الزائل. و ﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾ لدنوه أو لدناءته ورذالته وعدم أهميته. يعني: يأخذون هذا العرض مُعْتَاضين منه العمل بكتاب الله وتحقيق ما أنزل الله، فهم يأكلون الرُّشَا ليغيروا أحكام الله ولا يقيموا حكمه في كتابه والعياذ بالله.

وهذه الآية وإن كانت في اليهود فكل من فعل فعلهم فهو أخوهم يناله من وعيدها وعذابها ما نالهم. فيجب على المسلم إذا كان في منصبٍ يوصل فيه الحق لصاحبه بإنابة من بسط الله يده ألّا يغير أحكام الله ويأخذ الرُّشَا

بدلًا منها(١)، فإنه إن أخذ الرشوة وغيّر وبدّل فهو أخو اليهود، وهو من هذا الخلْف السيء القبيح. وأقبح شيء يأكله الإنسان هو الرُّشَا وما جرى مجراها من أنواع السحت؛ لأن السارق خيرٌ من المرتشي، لا شك أن السارق أخف شراً من المرتشي؛ لأن السارق يأخذ مال الناس بغير حق مع أنه عالم أنّ فعله خسيس وأنّه خبيث، ولا يدعي أبداً أنّ فعله طيّب، بخلاف المرتشي ـ قبّحه الله ـ فإنه يأكل مال الناس بالباطل وهو يزعم أنّ هذا دين الله وشرعه الذي أنزل به رسله ـ والعياذ بالله ـ فمن أقبح المآكل وأخسها الرُّشَا.

وأعظم أنواع الرُّشَا خطراً ارتشاء القاضي الذي هو منصوبٌ ليحكم بين الناس بما أنزل الله، فإذا ترك ما أنزل الله وتعوّض عنه عرض هذا الأدنى ـ والعياذ بالله ـ فهو أخس خلق الله، والسارق قد يكون أخف شراً منه؛ لأن السارق هو سارق، ولا يدعي سرقته، ولا يجعلها على الله، ولا على رسوله، ولا يقول: الله أمرني أن أسرق. بخلاف القاضي المرتشي فإنه يزعم أن الله أمره بهذا القضاء، وأن هذا حكم الله، وهو سارق شر سرقة.

وكذلك كل من كان في مصلحة ـ ولو غير قضاء ـ جعله فيها ولي أمر المسلمين، وأعطاه ماهية شهرية يتقاضاها، فإنه لا يجوز له أن يعطل حقوق الناس ويقول لهم: بُكْرة، وبعد بُكْرة، إلى ألف بُكْرة!! ليرتشي منهم. فإن هذا أمر خسيس قبيح، وفاعله أخو اليهود، لا خير فيه ألبتة، فلا دين له ولا مروءة.

فيجب على المسلمين أن ينزهوا ضمائرهم، وأن يكونوا أمة ـ ناساً ـ كالرجال، ولا ينحطوا أمام هذه المطامع الخسيسة المدنسة المخزية، لأنه رُبَّ أكلة قبيحة أعقبت صاحبها شراً عظيماً. ألا ترون إلى هؤلاء القوم من اليهود أكلوا سمكاً فانظروا ما أعقبتهم هذه الأكلة من الوبال، صاروا قردة ـ والعياذ بالله ـ فهذه الآية وإن كانت في اليهود فكل من أخذ بشيء منها فهو أخو اليهود بقدر ما أخذ منها، وسيناله من الوعيد بقدر ما أخذ منه. وهذا معنى قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: هذا المتاع والحطام الزائل

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

الأدنى القريب العاجل. أو (الأدنى) لدناءته ورذالته، ومع هذا هم يأكلون الرُّشَا ويغيرون أحكام الله، ويدَّعون على الله أنه يغفر لهم هذه الذنوب!! فهذا من الجراءة والجهل وطمس البصائر لا يعلمه إلا الله.

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ سيغفر الله لنا أكلنا لهذه الرُّشَا وتبديلنا لهذه الأحكام. وهذا هو الذي جاء فيه: «والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[١] أتبع نفسه هواها فأكل الرُّشَا، وتمنّى على الله أن يغفر له، والله لا يغفر للمُصِرِّين؛ ولهذا بيّن تعالى أنه يدعي أن الله يغفر له وهو مصر على أكله الرُّشَا وتَعَوُّضِه حطام هذه الدنيا وعَرَضها الزائل من أحكام الله؛ ولذا قال: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف: آية ١٦٩] وإن أصابوا عرضاً آخر زائلاً من الدنيا أخذوه وأكلوه، ومع هذا يزعمون أن الله يغفر لهم!! فهم مُصِرُّون على أكل الحرام وتغيير أحكام الله بالرُّشَا، ومع هذا هم جازمون بأن الله يغفر لهم!! وهذا هو الغرور، فإذا رأيت المسلم أو من يدعي أنه مسلم ينتهك حرمات الله ويصر ويثق بالمغفرة فاعلم أنه مغرور، وأنه أخو اليهود، ولا يغفر الله له[٢]. هذا معنى قوله: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الميثاق[٣]: معناه العهد المؤكد، فكل ميثاق عهد، وليس كل عهد ميثاقاً؛ لأن العهد لا يُسمى ميثاقاً إلا إذا كان مؤكداً خاصة. وقد قدّمنا في هذه الدروس مراراً[٤] أنّ كل فعل

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٤/٤)، والترمذي في صفة القيامة، حديث رقم (٢٤٥٩)، (٦٣٨/٤)، وقال: «هذا حديث حسن» ا.هـ. وابن ماجه في الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له. حديث رقم (٤٢٦٠)، (١٤٢٣/٢)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٦٦/١ - ٢٦٧)، (٣٥٤/٢)، وفي الصغير (الروض الداني) (١٠٧/٢)، وابن عدي (٣٩/٢)، والحاكم (٥٧/١)، (٢٥١/٤)، والبغوي في شرح السنة (٣٠٨/١٤)، وهو في ضعيف ابن ماجه حديث رقم (٩٣٠)، المشكاة حديث رقم: (٥٢٨٩).

(٢) لو قال: «وقد لا يغفر الله له» لكان هو اللائق.

(٣) انظر: المفردات (مادة: وثق) ص٨٥٣.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١٤٨) من سورة الأعراف.

مضارع مجزوم بـ (لم) إذا تقدمته همزة الاستفهام قبلها (لم) كقوله هنا: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أنّ فيه وجهين معروفين من التفسير في جميع القرآن:

أحدهما: أنه تنقلب مُضَارَعَتُه مَاضَوِيَّة، وينقلب نفيه إثباتاً. فيكون معنى هذا المضارع المنفي بـ (لم) ماضياً مثبتاً، فيكون معنى ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أخذ عليهم ميثاق الكتاب. ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ [البلد: آية ٨]: جعلنا له عينين ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح: آية ١]: شرحنا لك صدرك. وهكذا. ووجه هذا:

أما وجه قلب مُضَارَعَته مَاضَوِيَّة فلا إشكال فيه؛ لأن (لم) حرف قلب يقلب المضارع من معنى الاستقبال إلى معنى الماضي، وهذا لا إشكال فيه.

أما قلب نفيه إثباتاً فهو الذي يحتاج إلى نظر. وقال بعض العلماء: وجه صيرورة نفيه إثباتاً: أنّ (لم) حرف نفي صريح، وأنّ الهمزة التي قبلها همزة استفهام إنكار، والإنكار مُضَمَّنٌ معنى النفي، فيتسلط النفي الكامن في الهمزة على النفي الصريح في (لم) فينفيه، ونفي النفي إثبات، فيؤول إلى معنى الإثبات. هذا وجه في التفسير في جميع القرآن في كلّ ما جاء فيه «ألم».

الوجه الثاني: أن الاستفهام لا يُراد به أصل الاستفهام وإنّما يُراد به حمل المخاطب على أن يقر فيقول: بلى. وهو المعروف في فنّ المعاني باستفهام التقرير(١). والمعنى: أن المراد ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أن يقولوا: بلى أُخذ علينا ميثاق الكتاب.

وقوله: ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أُخذ عليهم العهد المؤكد أن لا يقولوا على الله شيئاً إلا الشيء الحق، فلا يقولوا: إن الحكم هكذا. وهو باطل ليتعوضوا الرُّشَا ويأخذوا عرض هذا الأدنى.

---

(١) السابق.

﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ أي: في الكتاب الذي هو التوراة، درسوه: معناه تعلّموه وفهموا معانيه وعلموا أنه لا يجوز تغيير أحكام الله واستعاضة الرُّشَا منها.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ هي دار القيامة خير من حطام الدنيا وعرض هذا الأدنى الذي أخذوه ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ يتقون الله جلّ وعلا: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ وقُرِىء: ﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٩][١].

ثم قال جلّ وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ ولا يأكلون الرُّشَا ولا يتعوضون منه عرض هذا الأدنى ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هي داخلة في التمسك بالكتاب إلا أنه خصّها، لِعِظَم شأنها؛ ولأنها أعظم دعائم الإسلام بعد الشهادتين ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٠] الأصل: إنا لا نضيع أجرهم [وقرأ العامّة: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ بالتشديد مِنْ مَسَّك بمعنى تمسَّك، حكاه أهلُ التصريف، أي: إنَّ (فعَّل) بمعنى (تفعَّل)، وعلى هذا فالباء للآلة كهي في: تمسَّكْتُ بالحبل. وقرأ أبو بكر عن عاصم ـ ورُوِيت عن أبي عمرو وأبي العالية ـ: ﴿يُمْسِكون﴾ بسكون الميم وتخفيف السين مِنْ أَمْسَك، وهما لغتان، يقال: مَسَكْت وأَمْسكت، وقد جمع كعب بن زهير بينهما في قوله:][٢].

وما تَمَسَّكُ بالعَهْدِ الذي زَعَمَتْ إلاّ كما يُمْسِكُ الماءَ الغَرَابيلُ[٣]

وفي رواية شعبة عن عاصم[٤]: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمۡسِكُون بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠﴾ [الأعراف: آية ١٧٠] أظهر في محل الإضمار، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ

(١) انظر: الإتحاف (٢/٦٨).

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة نقلتها بحروفها من الدر المصون (٥/٥٠٨) وبها يتم الكلام.

(٣) شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام ص١٣٨.

(٤) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٦.

أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: آية ٣٠] والمصلحون: هم الذين يصلحون أعمالهم بامتثال أمر الله واجتناب نواهيه.

﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٧١ ـ ١٧٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: آية ١٧١].

الظرف في قوله: ﴿وَإِذۡ﴾ يقول المفسرون: هو منصوب بـ (اذكر) مقدرا[١]. والدليل على أن العامل في هذا الظرف المحذوف هو (اذكر) كثرة ورود لفظة (اذكر) عاملة في (إذ) في القرآن، نحو قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ﴾ [الأحقاف: آية ٢١] ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾ [الأنفال: آية ٢٦] ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا﴾ [الأعراف: آية ٨٦] ونحو ذلك من الآيات. واذكر يا نبي الله عناد اليهود ولجاجهم القديم في أسلافهم، ومن جملة ذلك العناد واللجاج والكذب العريق في أسلافهم تكذيبهم برسالتك وإنكارهم لصفاتك الموجودة في كتبهم عندهم.

وقوله: ﴿نَتَقۡنَا﴾ العرب تقول: «نتق الشيء» إذا رفعه. وبعض العلماء يقول: النتق أخص من مطلق الرفع؛ لأن النتق رفع مع حركة قوية، تقول العرب: «نتقت السِّقاء» إذا رفعته وهززته هزاً قوياً ليخرج زُبْده[٢].

والجبل هنا هو الطور. وقد ذكرنا رفع الطور عليهم في سورة البقرة

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٢١٧، ٢١٩)، الدر المصون (٥/٥٠٩).

وفي سورة النساء. وبعض العلماء يقول[1]: كل جبلٍ طور. وبعض العلماء يقول: الطور أخص من مطلق الجبل، فالطور هو خصوص الجبل الذي تحف به أشجار مثمرة. وعلى هذا القول فكل طور جبل، وليس كل جبل طوراً.

والنتق في هذه الآية من سورة الأعراف هو الرفع المصرّح به في البقرة والنساء.

والجبل المذكور في الأعراف هو الطور المصرّح به في سورة البقرة وفي سورة النساء؛ لأن الله ذكر رفع هذا الجبل عليهم في سورة البقرة فقال جلّ وعلا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: آية ٦٣] وقال في سورة النساء: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ الآية [النساء: آية ١٥٤]. ورفع الطور عليهم لأن نبي الله موسى (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) لما كتب الله له كتابه التوراة بيَّن فيه الحلال والحرام والعقائد وتفصيل كل شيء يُحتَاج إليه من أمور الدنيا والآخرة، كانت فيه أوامر ونواهي زعم اليهود أنها شاقةٌ عليهم فامتنعوا من قبولها، فلما عرض عليهم نبي الله موسى التوراة قالوا: لا نقبل هذا الكتاب، ولا نتحمل هذه الأوامر والنواهي التي هي فيه؛ لأن فيها مشقة علينا. فأمر الله المَلَك فهزّ الطور فاقتلعه ورفعه فوقهم قدر معسكرهم. والمؤرخون يقولون: هم قدر فرسخ في فرسخ، فصار الجبل فوقهم بقدرة الله كأنه ظُلّة، كأنه غمامة تظلهم فوق رؤوسهم، وقيل لهم: إنما هي واحدة من اثنتين: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: آية ٦٣] التزموا ما في التوراة من الأحكام بقوة، أي: بجدٍ واجتهادٍ بالعمل بما فيه والمحافظة عليه، وإلاّ سقط عليكم هذا الجبل. فلما نظروا الجبل فوقهم كأنه ظلّة خروا ساجدين، كل واحدٍ منهم خرّ ساجداً على شِقّ جبهته الأيسر، فسجود الواحد منهم بحاجبه الأيسر وعينه اليمنىٰ ناظرة إلى الجبل خوفاً من سقوطه إليه، والتزموا العمل بما في التوراة، فرفع الله عنهم الجبل. وكان سجود

---

(١) انظر: المفردات (مادة: طور) ص٥٢٨، القرطبي (٤٣٦/١).

اليهود على شِقِّ الجبهة الأيسر يقولون: هذا السجود هو الذي رفع الله عنا بسببه العقوبة، وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي: رفعنا فوقهم الطور لما امتنعوا أن يقبلوا ما في التوراة ﴿كَأَنَّهُ﴾ أي: الجبل الذي هو الطور ﴿ظُلَّةٌ﴾ كأنه غمامة أو مُزنة تظلهم من فوق رؤوسهم، فخافوا أن يسقط عليهم فالتزموا ما في التوراة.

وقوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ مَحْكِيُّ قَوْلٍ محذوف، والمقرر في علم العربية: أنّ حذف القول وبقاء مقوله قياسي مُطّرد معروف لا تكاد تحصيه في لغة العرب وفي القرآن العظيم، أمّا عكسه ـ وهو ثبوت القول وحذف المقول ـ فهو نادر يُحْفَظ ولا يُقَاس عليه. قال بعض علماء العربية: ومنه قول الشاعر(١):

لَنَحْنُ الأُلى قُلتُم فأنَّى مُلِئْتُم   برؤْيَتِنَا قبل اهتمامٍ بكم رعبا

قال: «قلتم» هنا حذف مقوله، أي: قلتم: نقاتلهم فأنى ملئتم رعباً منا قبل أن نقاتلكم. وهذا معنى قوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم﴾.

﴿مَا آتَيْنَاكُم﴾ معناه: أعطيناكم في هذا الكتاب المشتمل على خير الدنيا والآخرة، وصيغة الجمع في قوله: ﴿آتَيْنَاكُم﴾ للتعظيم ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزمٍ وجدٍ واجتهادٍ.

ويُفْهَم من هذه الآية أنه يجب على من خوطب بأوامر الله في كتبه المنزلة أن يلتزمها بقوةٍ ونشاطٍ واجتهادٍ، فلا يضعف فيها، ولا يُفَرط فيها؛ لأنها لا تُمْتَثَل على الوجه الأكمل إلا بالقوة والجد والاجتهاد ـ أعاننا الله على امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والقيام بما في كتابه ـ وهذا معنى قوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ وهو هذا الذي آتيناكم، يعني: التوراة اذكروا ما فيه من العقائد والأوامر والنواهي، اذكروه ذِكْرَ مدارسة وعمل، فتعلموا ما فيه، واعملوا بما فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لأجل أن تتقوا بذلك سخط الله وعذابه؛ لأن ما يُتقى به سخط الله وعذابه هو معرفة

(١) البيت في البحر المحيط (١٨١/٥)، الدر المصون (٢٤٧/٦).

أوامره ونواهيه، واجتناب النواهي وامتثال الأوامر كما هو معروف. وهذا معنى قوله: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٧٢، ١٧٣].

واذكر يا نبي الله ﴿وَإِذْ أَخَذَ﴾ حين أخذ ﴿رَبُّكَ﴾ جلّ وعلا. ﴿رَبُّكَ﴾ معناه: خالقك وسيدك ومدبر شؤونك؛ والرب يطلق في لغة العرب على عشرة معانٍ، منها[1]: السيد الذي يدبّر الشؤون ويسوس الأمور، تقول العرب: «فلان رب هذه البلدة» أي: سيدها الذي يدبر شؤونها ويسوس أمورها، ومنه قول علقمة بن عَبَدة التميمي[2]:

وكنتُ امرأً أفضتْ إليكَ رَبَابَتي وقبلكَ رَبَّتْني فَضِعْتُ ربوبُ

أي: سادتني سادة وساسوني.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ من أولاد أبينا آدم. وقوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدل من ﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بدل بعضٍ من كل.

وقوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ هذا الحرف ابن كثير والكوفيون ـ أعني عاصماً، وحمزة، والكسائي ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بصيغة الإفراد، والذرية بالإفراد تعم، وقرأه نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذُرِّيَّاتِهِم﴾ بجمع السلامة. وكلتاهما قراءة صحيحة متواترة ومعناها صحيح[3].

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ اختلف العلماء في معنى هذا الأخذ

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.
(٢) السابق.
(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٦.

ـ أخذ الذرية ـ من ظهور بني آدم على قولين[١]: فذهبت جماعة من المفسرين إلى أنّ معنى أخذهم من ظهور بني آدم هو وجودهم قرناً بعد قرنٍ، وجيلًا بعد جيلٍ، على طريق التناسل، والمعنى: أنّ الله خلق بني آدم وخلق من هؤلاء ذرية، فينقضي هذا القرن ويخلق من هذا القرن ذرية كما قال: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: آية ١٣٣] وعلى هذا القول فالأخذ من ظهورهم: هو استخراج النطف من أصلابهم على طريق التناسل قرناً بعد قرن. وعلى هذا القول فقوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الذين قالوا هذا القول قالوا: أشهدهم على أنفسهم بلسان الحال لا بلسان المقال؛ لأن الله نصب لهم من الأدلة الواضحة الظاهرة على كمال قدرته وأنه المعبود وحده ما لا يُحتَاج معه إلى شيء ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ يعني: أَثْبَتَ لهم ربوبيته واستحقاقه للعبادة بما ركز فيهم من الفطرة والعقول، وما نصب لهم من الأدلة، وعلى هذا القول فقوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ قالوا ذلك أيضاً بلسان حالهم، والعرب قد تطلق المقال على مقال لسان الحال، قال بعض العلماء: منه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: آية ١٧] أي: بلسان حالهم ـ على القول بذلك ـ ومنه قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [العاديات: آية ٧] أي: بلسان حاله عند من يقول ذلك. والذين قالوا هذا القول ـ واختاره غير واحد من المحققين المتأخرين ـ قالوا: الدليل على أنّ هذا هو المراد أن الله لم يخلق أحداً من بني آدم ذاكراً الميثاق ليلة الميثاق وهم كالذر، وما لا يذكره الإنسان لا يكون حجة عليه، وهذا كأنه جُعل حجة مستقلة عليه، كما يدل عليه قوله: ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: الآيتان ١٧٢، ١٧٣] فعلى هذا القول فأخذ الذريات من ظهور بني آدم هو إيجادهم منهم قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيلٍ عن طريق التناسل المعروف. وعلى هذا القول فالإشهاد

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٢٢/١٣)، ابن كثير (٢٦١/٢ ـ ٢٦٤)، القرطبي (٣١٤/٧)، أحكام أهل الذمة (٥٢٣/٢)، فما بعدها، شرح الطحاوية (٣٠٢ ـ ٣١٦)، الروح لابن القيم (٢٤٤ ـ ٢٦٥)، الأضواء (٣٣٥/٢).

عليهم بلسان الحال بما نصب لهم من الأدلة، وما ركز فيهم من الفطرة. واختار هذا ابن كثير(١)، والزمخشري(٢)، وغير واحدٍ من المتأخرين.

القول الثاني: وعليه أكثر المتقدمين من السلف، وهو الذي يدل له بعض الأحاديث الصحيحة، والقرآن قد يُرْشِدُ إليه: أنه هو الأخذ يوم الميثاق المعروف، أن الله تبارك وتعالى أخذ من ظهر آدم ومن ظهور ذرياته كل نسمةٍ سبق في علمه أنها مخلوقة إلى يوم القيامة، فأخذهم بيده (جلّ وعلا) بعضهم للجنة وبعضهم للنار، وجعل فيهم إدراكاً وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقالوا: بلى. إلّا أن هذا العهد لا يولد أحد إلا وهو ناسٍ له، والله (جلّ وعلا) أرسل الرسل يُذَكرون بهذا العهد، وما ثبت عن الرسل هو وما حضره الإنسان في التحقيق واحد؛ لأن ما قاله رسول الله ﷺ نحن نجزم بوقوعه أشد مما نجزم بما شاهدناه ولاحظناه وتذكرناه.

وهذا القول قال به كثير من السلف، ودلت عليه أحاديث كثيرة من أصحها وأدلها عليه ما ثبت في الصحيحين ـ صحيح البخاري وصحيح مسلم ـ من حديث أنس بن مالك (رضي الله عنه) أنّ النبي ﷺ قال: **«يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: أرأيت لو كان عندك كل شيء أكنت مفتدياً به؟ فيقول: نعم. فيقول الله: أردتُ منك أهون من ذلك، أخذتُ عليك في ظهر آدم ألاّ تُشرك بي فأبيتَ إلا أن تشرك بي»**(٣) فهذا الحديث ثابتٌ في الصحيحين من حديث أنس، وقد ذكر فيه النبي ﷺ أن عدم الإشراك أُخِذ عليهم وهم في ظهر آدم، فدل ذلك على أن قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أنه استخراج الله لهم، وإشهاده عليهم، ثم ردهم في ظهر أبيهم آدم. ومما يدل على هذا: أن الذين قالوا: إن معنى

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٦٤).

(٢) الكشاف (٢/١٠٣).

(٣) البخاري في أحاديث الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته، حديث رقم (٣٣٣٤)، (٦/٣٦٣)، وأخرجه في مواضع أُخرى، انظر الأحاديث رقم: (٦٥٣٨)، (٦٥٥٧).
ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب في الكفار، حديث رقم (٢٨٠٥)، (٤/٢١٦٠).

أخذهم من ظهورهم: هو تناسلهم قرناً بعد قرنٍ، وجيلًا بعد جيلٍ، أنهم جعلوا ما ركب فيهم من الفطرة السليمة والعقول، وما نصب لهم من الأدلة القطعية كافياً في قيام الحجة عليهم. والقرآن يدل على عدم صحة هذا القول؛ لأن القرآن العظيم ـ وهو كلام ربّ العالمين ـ دل على أنه لا يُقطع عذر أحد بنصب الأدلة، وتركيز الفطرة، وخلق العقول؛ بل لا ينقطع عذر بني آدم إلا بإرسال الرسل في دار الدنيا، وإنذارهم مؤيّدين بالمعجزات؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: آية ١٥] ولم يقل: حتى نخلق عقولاً ونركز أدلة وننصب فطرة. لم يقل شيئاً من هذا، وقال جلّ وعلا: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: آية ١٦٥] فبيّن أن حجة الناس لا يقطعها إلا إعذار الرسل وإنذارهم له.

وهذه الحجة التي بَيَّن في سورة النساء أنه أرسل الرسل لقطعها بقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أوضحها في أُخريات سورة طه وأشار لها في القصص، قال في سورة طه: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: آية ١٣٤] ولم يقل: لولا خلقت لنا عقولاً، ونصبت لنا أدلة، وركّبت فينا فطراً. لم يقل شيئاً من هذا. وأشار لها في القصص بقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص: آية ٤٧] لأنه قال: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ ولم يقل: لولا خلقت لنا عقولًا، وركزت فينا فطرة، ورتبت لنا أدلة. لم يقل شيئاً من هذا. وقد صرّح (جلّ وعلا) بأن جميع أفواج النّار الذين يدخلونها يوم القيامة أنهم جميعهم أنذرتهم الرسل في دار الدنيا، وقطعت أعذارهم قبل الموت، وذلك في قوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: الآيتان ٨، ٩] فقوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ يدل على أن جميع الأفواج التي دخلت النار أنذرتهم الرسل في دار الدنيا. وقد صرّح الله بذلك في سورة الزمر ـ التي ذكر فيها

القيامة كأنك تنظر إليها ـ قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: آية ٧١] وكذلك لما قسم الله (جل وعلا) الخلائق قسمين في سورة فاطر جعل المسلمين ثلاث طوائف في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: آية ٣٢] ثم ذكر الكفار فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ﴾ [فاطر: الآيتان ٣٦، ٣٧] فقوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ﴾ هو محل الشاهد و ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عام لما تقرر في الأصول أن صيغ الموصولات أنها من صيغ العموم؛ لأن الموصول من المعلوم أنه يعم كل ما تشمله صلته كما هو معروف في محله[(١)].

وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ على القول الأول: بلسان [الحال][(٢)]، وعلى الثاني: بلسان [الحال][(٣)] ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ﴾ أنت ربنا.

واعلموا أن لفظة (بلى) تأتي في القرآن وفي اللغة العربية لمعنيين لا ثالث لهما[(٤)]: أحد معنيي (بلى) المشهورين في كلام العرب وفي القرآن العظيم: أنّ (بلىٰ) يُجاءُ بها لنفي نفيٍ قبلها، فهي نقيضة (لا)؛ لأن (لا) لنفي الإثبات، و (بلى) لنفي النفي، فيتقدم قبلها نفي فيُؤتى بـ (بلى) لتنفي ذلك النفي فيصير ما بعدها إثباتاً؛ لأنّ نفي النفي إثبات، وهذا الوجه كثيرٌ في القرآن ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ﴾ [سبأ: آية ٣] نفوا إتيان الساعة

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

(٢)(٣) وقع للشيخ (رحمه الله) في هذا الموضع سبق لسان، فالعبارة في الأصل: «على القول الأول: بلسان المقال، وعلى الثاني: خلق فيهم عقولًا أدركوا بها ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بلسان المقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ﴾ أنت ربنا». وقد جرى تصويبه بين المعقوفين [ ].

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأعراف.

فنفىٰ الله نفيهم إياها وأثبته، قال: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: آية ٣] ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: آية ٧] وهذا الوجه كثير في القرآن ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: آية ٢٨].

الوجه الثاني: أن يُؤتىٰ بلفظة (بلى) جواباً لاستفهام مقترن بالنفي خاصة، ولا يُجاب بـ (بلى) استفهامٌ إلا الاستفهام المقترن بالنفي خاصة، وإذا جاءت (بلى) أحالت ذلك الاستفهام المقترن بالنفي إلى طريق الإثبات أيضاً، كقوله هنا: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: آية ١٧٢] وإذا أجابت العرب استفهاماً مقترناً بالنفي بغير (بلىٰ) فإنه ليس على القواعد العربية، فهو يُحفظ ولا يُقاس عليه. قال بعض علماء العربية: ربما أجابت العرب بـ (نعم) سؤالاً مقترناً بنفي، وهو شاذ يُحفظ ولا يُقاس عليه. قالوا: ومنه قول الشاعر[(١)]:

أَلَيْسَ الليلُ يَجْمَعُ أم عَمْرو ... وإيانا فذاكَ لنا تَدَاني
نعم، وترى الهلالَ كما أَراهُ ... ويعلوها النهارُ كما علاني

فالقياس أن يقول هذا الشاعر: «بلى» ولا يقول: «نعم» ولما قال: «نعم» صار يُحفظ ولا يُقاس عليه. وربما أجابت العرب استفهاماً غير مقترنٍ بالنفي بـ (بلى) إذا كان ذلك الاستفهام يُقْصَدُ به الاستبعاد والنفي، وهذا معروف في كلامهم؛ ولذا لما قال الأخطل يُعَيِّر الجَحّاف[(٢)]:

ألاَ فاسأل الجَحَّافَ هل أنت ثَائرٌ ... بقَتْلَى أُصيبَتْ من نُمير بن عامرِ

قال: «هل أنت ثائرٌ» ولكن هذا الاستفهام بـ (هل) يُضَمِّنه معنى: أنه لا يثأر بهم، ولا يقتل قَتَلَتَهم، ففهم ذلك وأجاب بـ (بلىٰ) لأن الأخطل لما قال:

ألاَ فاسأل الجَحَّافَ هل أنت ثَائرٌ ... بِقَتْلَى أُصيبتْ من نُمير بن عامرِ

---

(١) السابق.

(٢) ديوان الأخطل ص١٣٠.

أجابه الجَحّاف بـ (بلى) لينفي النفي الذي ضَمَّنَه في (هل) بقوله[١]:

بلى سَوفَ نبكيهم بكل مُهَنَّدٍ ونبكي نُميراً بالرماحِ الخَواطِرِ

وهذا معنى قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾.

وقوله: ﴿شَهِدْنَا﴾ اختلف العلماء هو من كلام من[٢]؟!.

فقال بعض العلماء: هو من كلام الملائكة.

وقال بعض العلماء: من كلام الله والملائكة. وعلى هذا القول يحسن الوقف على قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ لما استخرجهم في صورة الذر ليلة الميثاق، وأخذ عليهم الميثاق، وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ أنت ربنا، قال الله والملائكة: ﴿شَهِدْنَا﴾ عليكم بهذا الإيمان وهذا الميثاق الذي التزمتم.

﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ وقرأ هذا الحرف عامة القُراء غير أبي عمرو: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ وقرأه أبو عمرو وحده من السبعة: **﴿أن يقولوا يوم القيامة إنَّا كنا عن هذا غافلين (١٧٢) أو يقولوا إنما أشرك أباؤنا من قبل﴾** [الأعراف: الآيتان ١٧٢، ١٧٣] بالياء التحتية الدالة على الغيبة[٣].

والمعنىٰ: أن الله شهد عليهم والملائكة لئلا يقولوا بعد هذا: كنا غافلين عن هذا، أو آباؤنا هم الذين سَنّوا الكفر وجعلوه طريقةً لنا.

فإن قيل: هذا لا يُولد أحدٌ إلا وهو ناسٍ له. قلنا: بأن الرسل تُذكرهم به، وتذكير الرسل إياهم به يجعله قطعياً كأنهم متذكرون سماعه من الله كما ذكرنا.

وقال بعض العلماء: يشهدُ بعضهم على بعض فيقول هؤلاء: شهدنا عليكم أيها القوم لئلا تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين. ويقول

---

(١) البيت في الكامل للمبرد ص٦٢٤.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٢٥٠)، القرطبي (٧/٣١٨)، شرح الطحاوية ص٣٠٨.

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٦.

البعض الآخر لمن شَهِدَ عليهم من الآدميين: شهدنا أن تقولوا يوم القيامة.

وعلى هذا القول فالشهادة من شهادة بني آدم لما استخرجوا من ظهور آبائهم ليلة الميثاق في صورة الذر يشهد بعضهم على بعض، وهذا معنى قوله: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ لم نعلم.

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ أولاداً سرنا على ما كان عليه آباؤنا، ولم نخترع الكفر، ولم نتخذه طريقاً ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٣] قد قدّمنا مراراً[١] أنه إذا جاءت همزة استفهام بعدها أداة عطف كالفاء، والواو، وثم أنها فيها وجهان من التفسير للعلماء:

أحدهما: أن همزة الاستفهام تتعلق بمحذوف، والفاء عاطفة عليه. وهذا الذي مال إليه ابن مالك في الخلاصة حيث قال[٢]:

وحذف مَتْبُوعٍ بَدَا هُنَا اسْتَبِحْ ....

وعلى هذا القول: أتعاملنا بغير ما فعلنا فتهلكنا بما فعل المبطلون؟.

وقال بعض العلماء: همزة الاستفهام أصلها بعد الفاء، إلا أن للاستفهام صدر الكلام، فتزحلقت الهمزة قبل الفاء، والفاء قبل الهمزة في الرتبة، فتكون الفاء عاطفة للجملة المصدرة بالاستفهام على ما قبلها. والأول أظهر. وهذا معنى قوله: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

المبطلون: هم الذين يأتون بالباطل وهو ضد الحق، الذين عبدوا غير الله (جلّ وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٣].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ وكذلك التفصيل الواضح. الكاف في محل وصفٍ لمصدر، أي: نُفَصِّل الآيات تفصيلاً كذلك التفصيل

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

الواضح، كما بيّنا أخبار هذه الأمم، وما جرى عليها، وسبب إهلاك من هلك منها، ونجاة من نجى منها. والتفصيل ضد الإجمال ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ﴾ ونوضحها كذلك التفصيل ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولأجل أن يرجعوا إلى طريق الهدى فَصَّلنَاهَا ذلك التفصيل. فالظاهر أنّ متعلق الجملة محذوف، أي: ولأجل أن يرجعوا فصلناها ذلك التفصيل ليعتبروا به ويهتدوا به فينيبوا. وهذا معنى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: آية ١٧٤].

٢٤/أ / قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٧٥ ـ ١٧٧].

اتل معناه: اقرأ عليهم يا نبيّ الله. نبأ: أي خبر هذا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها. وهذا الذي آتاه الله آياته أكثر المفسرين يقولون[١]: إنه رجل من بني إسرائيل. وبعض العلماء يقول: هو رجل من الكنعانيين الجبارين الذين أمر الإسرائيليون بقتالهم.

واعلموا أن قول من قال من العلماء إن معنى: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا﴾: آتيناه النبوة. أنه قول باطل لا يُشك في بطلانه، كما أوضحه الماورديّ وغيره[٢]؛ لأنّ الأنبياء لا يفعلون هذه الأفعال ولا ينسلخون من آيات الله؛ لأنّ الله لم يجعل نبوّته إلا في من يعلم أنه أهل لها، كما قدمنا إيضاحه في الأنعام في الكلام على قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رسالاته﴾ [الأنعام: آية ١٢٤] على إحدى القراءتين[٣]، وهي أخبار إسرائيلية لم يدل شيء على صحة

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٥٢/١٣)، القرطبي (٣١٩/٧)، ابن كثير (٢٦٤/٢).

(٢) النكت والعيون (٢٧٩/٢).

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٨٦، الكشف عن وجوه القراءات السبع (٤٤٩/١) وراجع منه ص٤١٥.

تعيين هذا ﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ وأكثر المفسرين والمؤرخين يقولون: إنه رجل من بني إسرائيل يُقال له: بلعام بن باعوراء. وبعضهم يقول: بلعم بن باعر، وفيه غير ذلك.

ومعنى ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ لا يقتضي النبوة، فكل من أُعطي شيئاً من كتاب الله بواسطة نبي من الأنبياء فقد أوتي الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [البينة: آية ٤] وهم ليسوا أنبياء، وقال في هذه الأمّة: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ [فاطر: آية ٣٢] ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: آية ٦٣] فإنْ إيتاء الآيات قد يكون بالأخذ عن الرسل. والمفسرون يقولون: إن هذا الرجل الذي هو بلعام بن باعوراء ـ قبّحه الله ـ ويقال: بلعم بن باعوراء، أو ابن باعر، أو غير ذلك أنه أعطاه الله الاسم الأعظم، وبعضهم يقول: علمه الله شيئاً من كتبه المنزّلة، فكان يعلم بعض كتب الله التي أنزلها. وهذا معنى ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ سواء قلنا: إن الله علّمه بعض الكتب المنزلة، أو أنه علّمه الاسم الأعظم.

﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ ـ والعياذ بالله ـ انسلخ منها: خرج منها ـ والعياذ بالله ـ ولم يعلق به شيء منها.

والمفسرون يقولون: إنه بلعام بن باعوراء، وأنه أغراه الكنعانيون الجبارون بالمال فقالوا له: ادع على نبيّ الله موسىٰ وقومه ـ مع أنّ نبيّ الله موسىٰ الذي يذكر المفسرون أنه مات في التيه، وأنّ الذي دخل القرية وفتح الله على يديه يوشع بن نون، وهم يزعمون في قصته أنهم أمروه أنْ يدعو على موسىٰ ـ فقال: كيف أدعوا على من معه الملائكة؟ ولم يزالوا به يغرونه بالمال حتى دعا على موسى.

وبعض العلماء يقول: إنه دعا على موسىٰ فكان ذلك سبب التيه. وهذا بعيد جداً.

فعلى كل حال يقولون: إنه دعا على نبيّ الله موسىٰ فلما أراد أنْ يدعوا عليه حوّل الله دعاءه على القوم الذين يريدونه أنْ يدعو على موسى، فقالوا: دعوت علينا. فقال: ما أقدر على غير هذا.

وقال بعض العلماء: إنه كان له ثلاث دعوات مجابة أعطاه الله إياها، وأنه كان يعلم الاسم الأعظم فأعطاه الله ثلاث دعوات ـ وكل هذه إسرائيليات ـ يزعمون أن هذه الدعوات الثلاث المجابة أنه ضيّعها في امرأته كانت من أقبح نساء بني إسرائيل فلم تزل به حتى دعا الله أنْ يجعلها أجمل امرأة، فدعا الله فصارت أجمل امرأة، فلما بلغت هذا الجمال تكبرت عنه وطلبت غيره، فدعا الله عليها فصارت كلبة نبّاحة، فآذىٰ ذلك أولادها، ولم يزالوا به حتى دعا الله عليها أنْ يرجعها إلى حالتها الأولى، فذهبت الدعوات كلها. وهذه إسرائيليات لا معوّل عليها، يذكرها المفسرون.

وقال بعض العلماء: أغروا امرأته بالمال فلم تزل به حتى دعا على نبيّ الله موسىٰ، وأنه لما دعا عليه اندلع لسانه فصار على صدره، وصار يلهث كما يلهث الكلب، وأنه قال لهم: إنه ـ والعياذ بالله خسر الدنيا والآخرة قال لهم ـ: لم يبق إلا المكر والحيلة؛ إن الله يبغض الزنا، فأرسلوا النساء متزينات إلى بني إسرائيل فإنْ زنوا أهلكهم الله. فأرسلوا لهم النساء فيما يزعمون فوقع منهم الزنا، فأرسل الله عليهم الطاعون. وغير هذا من روايات كثيرة إسرائيلية يحكيها المفسرون في تفسير هذه الآية من سورة الأعراف لا طائل تحتها ولا دليل على شيء منها[١].

وكان بعض العلماء يقول[٢]: هذه الآية الكريمة تدل على أنّه لا ينبغي للإنسان أن يقلّد غير معصوم ويثق به كل الثقة؛ لأنّ هذا الإنسان ذكر الله أنه آتاه آياته وبعد ذلك صار مآله إلى أخس مآل وأقبحه ـ والعياذ بالله ـ حيث قال: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾.

وقال بعض العلماء: هذه الآية نزلت في أميّة بن أبي الصلت الثقفي، وكان يقرأ الكتاب الأوّل، ويتعلم من الكتب الأولىٰ، وكان يعلم عن الله بعض كتبه، وكان يعلم بأن جزيرة العرب سيُبعث فيها نبيّ، وكان يرجو

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: القرطبي (٣٢٣/٧).

أن يكون هو ذلك النبيّ، فلما بعث الله نبينا ﷺ حسده وكفر. وقصة استنشاد النبيّ أخته الفارعة لشعره مشهورة في التاريخ معروفة، ويذكر المؤرخون أنّ النبيّ لما حكت عليه شعره قال: آمن شعره وكفر قلبه[١]. والله تعالى أعلم.

وبعض العلماء يقول: نزلت هذه الآية في أبي عامر الراهب ابن صيفيّ (قبّحه الله). وأبو عامر هذا رجل من الأنصار هو: والد حنظلة الغسيل (رضي الله عنه وأرضاه)، الذي يذكر الأخباريّون وأصحاب المغازي أنّ الملائكة غسلته يوم أُحد؛ لأنه كان قريب عرس بتزوج جميلة بنت عبدالله بن أبيّ بن سلول، وأنّه كان يغتسل فاستخفّه القتال فلم يكمل غسله، فمات شهيداً يوم أُحد، وأن الملائكة غسلته[٢]. هكذا يقول أصحاب المغازي والأخباريون. فوالده هو أبو عامر هذا الخبيث الذي يُقال له: أبو عامر

---

(١) الرواية التي فيها استنشاد النبي ﷺ شعره، وأنه قال فيه: «**فلقد كاد يُسلم في شعره**» أخرجها مسلم في الشعر، حديث رقم (٢٢٥٥)، (١٧٦٧/٤)، من حديث الشريد رضي الله عنه.
وأما رواية: «**آمن شعره وكفر قلبه**» فقد أخرجها الخطابي في غريب الحديث (٤٤٤/١)، في قصة وفود الفارعة بنت أبي الصلت ـ أخت أمية ـ على رسول الله ﷺ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (مختصر تاريخ دمشق) (٤٨/٥)، عن عكرمة قال: قلت لابن عباس: أرأيت ما جاء عن النبي ﷺ في أمية بن أبي الصلت: «**آمن شعره وكفر قلبه**»؟ إلخ.
وذكره السيوطي في الجامع الصغير (فيض القدير) (٥٧/١)، وعزاه لأبي بكر الأنباري في المصاحف، والخطيب وابن عساكر ورمز له بالضعف.
وقال المناوي في الفيض (٥٩/١): «ورواه عنه أيضاً الفاكهي وابن مندة» ا.هـ.
وقال في أسنى المطالب ص٣١: «رواه الخطيب وهو ضعيف» ا.هـ.

(٢) أخرجه الإمام قوام السنة الأصبهاني في دلائل النبوة (٩١٦/١ ـ ٩١٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣٥٧/١)، من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.
كما أخرجه البيهقي (١٥/٤)، والحاكم (٢٠٤/٣)، وقال: «صحيح على شرط مسلم» ا.هـ. وأخرجه ابن حبان (الإحسان) (٨٤/٩)، من حديث يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن جده.
وأخرجه البيهقي (١٥/٤)، عن عاصم بن عمر بن قتادة، وعامر الشعبي مرسلاً.

الراهب، وهو الذي حفر الحفر في الميدان يوم أُحد التى جاء النبيّ في واحدة منها وانتشله منها علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيدالله، كما هو مذكور في المغازي في غزوة أحد[١]. كان هذا الخبيث أبو عامر يقول للنبي ﷺ: إنّه على دين إبراهيم. فبيّن له النبي ـ فيما يذكرون ـ أنّه على الحنيفية بعد التغيير. وأنّه قال للنبي ﷺ: أمات الكاذب منا وحيداً طريداً[٢]. وسافر إلى الشام، وراح إلى بعض الملوك يريد جيشاً يُخرج به النبي ﷺ من المدينة، وهو الذي أوعز للمنافقين أنْ يبنوا له مسجد الضرار بقباء ليدبروا الشؤون فيه. وهو المذكور في قوله: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: آية ١٥٧] هو أبو عامر هذا[٣].

وقول من قال: إنّ آية الأعراف هذه في أمية بن أبي الصلت أو أبي عامر الراهب كله لا دليل عليه، وأكثر المفسرين يقولون: إنها في رجل علّمه الله علم الكتاب من بني إسرائيل. وشذ قوم فقالوا: من الكنعانيين. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾.

﴿ءَايَٰتِنَا﴾ هنا: آيات كتابه الشرعية.

﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾: خرج منها والعياذ بالله كما تنسلخ الحيّة من ثوبها، ولم يعلق به منها شيء.

﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ العرب تقول: «أَتبعه وتبعه واتّبعه» بمعنى واحد ومعنى: (أتبعه الشيطان): اتّبعه الشيطان حتى لحق به وأدركه وجعله قريناً له يذهب معه حيث يذهب. هذا معنى قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

والشيطان في لغة العرب[٤]: هو كل عات متمرّد، فكل من كان عاتياً متمرداً فهو شيطان في لسان العرب. سواء كان من الجن أو من الإنس، أو

---

(١) المغازي (٢٤٤/١)، ابن هشام ص٦٢٠ ـ ٦٢١.
(٢) ذكره ابن هشام في السيرة ص٦٢٠ ـ ٦٢١، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٩٣/١ ـ ٩٤).
(٣) أخرجه ابن جرير (٤٧٠/١٤)، عن ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من سورة الأنعام.

من غيرهما. وجاء في القرآن العظيم: إطلاق الشياطين على العتاة المتمردين من الإنس والجنّ، كما قال جل وعلا: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: آية ١١٢] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ﴾ [البقرة: آية ١٤] أي: رؤسائهم وعتاتهم المتمردين، وفي الحديث: «**الكلب الأسود شيطان**»[١] وقد قال جرير وهو عربي قحّ[٢]:

أَيامَ يَدعُونَني الشيطانَ من غَزَلٍ ... وكنَّ يَهْوَيْنَني إذْ كُنتُ شيطانَا

يعني: عاتياً متمرداً. واختلف العلماء في وزن الشيطان بالميزان الصرفي على قولين[٣] أشار إلى كل واحد منهما سيبويه في كتابه، فقال المحققون: وزن الشيطان: (فَيْعَال) بالميزان الصرفي، فالزائد فيه: الياء والألف. وحروفه الصحيحة: الشين في مكان الفاء، والطاء في مكان العين، والنون في مكان اللام (شَطَن) وأنّ هذا أصله، وأن اشتقاق المادة من البُعد؛ لأنّه بعيد من رحمة الله تعالى غاية البُعد، والعرب تقول: نوىً شطون. أي: بعيد، وبئر شطون: بعيدة القعر، ومن هذا المعنى قول الشاعر[٤]:

نَأَتْ بِسُعَادَ عنكَ نَوىً شَطُون ... فَبَانَتْ والفُؤادُ بِهَا حَزِينِ

ويؤيد هذا القول ـ أن وزن الشيطان بالميزان الصرفي (فَيْعَال) وأنه من (شَطَنَ) ـ قول أمية بن أبي الصلت، وهو عربي قح فصيح[٥]:

أيُّما شَاطِنٍ عصَاهُ عكَاهُ ... ثم يُلقَى في السّجْنِ والأَكْبالِ

فصرح عن الشيطان بالشاطن، وهو اسم فاعل (شَطَنَ) من غير نزاع.

وقال قوم آخرون ـ وأشار له الشيخ عمرو أعني سيبويه في موضع من

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من سورة الأنعام.
(٢) السابق.
(٣) السابق.
(٤) السابق.
(٥) السابق.

كتابه[١] ـ: بأن وزن الشيطان (فَعْلَان) وأن الألف والنون زائدتان، وعلى هذا فأصله من (شَاطَ) فعلى هذا القول ففاء المادة شين، وعينها ياء، ولامها طاء. من (شاط) وأصله: (شَيَط) والعرب تقول: «شاط يشيط». إذا هلك؛ لأن الشيطان هالك لبعده عن رحمة الله. ومِن شاط بمعنى هلك قول الأعشى في شعره[٢]:

قَدْ نُخْضِبُ العِيْرَ من مَكْنُونِ فَائِلِهِ وقد يَشِيْطُ على أَرْمَاحِنَا البَطَلُ

أي: يهلك. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٥].

الظاهر أن (كان) هنا بمعنى (صار) وقد تقرر في علم العربية: أن (كان) تطلق ويراد بها صار. ومعنى قوله: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ صار من الكافرين. وإطلاق (كان) بمعنى (صار) إطلاق معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[٣]:

بتَيْهَاءَ قَفْرٍ والمَطِي كأنَّها قَطَا الحَزْنِ قد كانت فِرَاخاً بيُوضها

يعني: قد صارت فراخاً بيوضها. و ﴿الْغَاوِينَ﴾ جمع الغاوي، والغاوي: صاحب الغي، والغي: الضلال (والعياذ بالله) فكان من الضالين أشد الضلال.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٧٦] القاعدة المقررة في علم العربية: أن فعل المشيئة إذا قُرن بالشرط حذف مفعوله؛ لأن جزاء الشرط يغني عن المفعول، فالمفعول محذوف، والأصل: ولو شئنا رفعه بها لرفعناه بها. ولا تكاد العرب تنطق بالمفعول ـ مفعول فعل الإرادة مع ربطه بالجزاء ـ وقد يذكر نادراً، وجاء ذكر المفعول في مواضع

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) البيت لعمرو بن أحمر الباهلي. وهو في المقتصد في شرح الإيضاح (٤٠٢/١)، اللسان (مادة: عرض) (٧٤٥/٢).

من القرآن مع أنه مصدر منسبك من (أن) وصلتها في آيات غير كثيرة، كقوله جل وعلا: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ﴾ [الزمر: آية ٤] فجملة ﴿أَن يَتَّخِذَ﴾ في محل مفعول (أراد) ولم يكتف هنا بجزاء الشرط، ونحو ذلك من الآيات. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ رفعه بها ﴿لَرَفَعْنَاهُ﴾ لو شئنا رفع هذا الذي آتيناه آياتنا بتلك الآيات لوفقناه للعمل بها فعمل بها حتى مات عليها فكان مرفوع الدرجة رفيع الذكر في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ معناه: ركن ومال إلى لذات الدنيا وحطامها وشهواتها فآثرها على آيات الله فسلخه الله من آياته (والعياذ بالله). والعرب تقول: «أخلد إلى الشيء» إذا ركن ومال إليه، وأصل الإخلاد: هو ملازمة الشيء والدوام فيه. فالعرب تقول: أخلد بهذا المكان. إذا لازمه ودام فيه، وهو معنى معروف في كلامها[(١)]، ومنه قول زهير بن أبي سُلمىٰ[(٢)]:

لـمـن الـديـارُ غَشِيـتُـهـا بـالـفَـدْفَـدِ كالوَحْي في حَجَر المَسِيْلِ المُخْلِدِ

أي: اللازم محله. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ الهوى بفتحتين: مَيْلُ النفس، ولا يكاد يطلق إلا على ميلها لما لا ينبغي، وقد يُطلق في غير ذلك[(٣)]. واتباع الهوى (والعياذ بالله) هو أعظم الآفات.

ثم إن الله ضربه مثلًا قال: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي: فصفته (والعياذ بالله) في خساسته وقبحه وملازمته الخساسة في جميع الأحوال ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ وهو الحيوان المعروف. وجملة: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ جملة شرطية، وهي في محل نصب في موضع الحال على ما حققه بعض علماء العربية من أنه لا مانع من أن تأتي الجمل الشرطية

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٢٧٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٦٠) من سورة الأعراف.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة الأنعام.

أحوالًا[١]. المعنى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ في حال كون الكلب متصفاً بأخس حالاته وهو مداومته اللهث في جميع حالاته.

﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ معنى ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ إن تشد عليه وتطرده وتُجْهِدَه يلهث وإن ﴿تَتْرُكْهُ﴾ في رخاء ودعة ﴿يَلْهَث﴾ والعرب تقول: لَهَثَ الكلب ـ بفتح الهاء ـ يَلْهَث. بفتحها؛ لأنه حلقي العين، لَهْثاً ولُهاثاً: إذا فتح فاه ومدَّ لسانه وصار يلهث، يطلع النَّفَسَ ويردها بقوة كفعل الذي أصابه إعياء وتعب شديد. وجميع الحيوانات لا يلهث شيء منها إلا إذا أصابه إعياء شديد، أو تعب شديد، أو عطش شديد، إلا الكلب وحده فإنه يلهث دائماً، في حالة الري يلهث، وفي حالة العطش يلهث، وفي حالة الشد عليه والطرد والتعب يلهث، وفي حالة الرخاء يلهث، فهو يلازم اللهْث في جميع حالاته[٢]. واللهث من أخس حالاته لأنه فاتح فاه، مادٌ لسانه، يُطْلِع النفس وينزلها بقوة، وهذه من أخس الحالات وأقبحها، فضربه الله مثلًا لهذا الكافر، إن وعظته وذكرته بآيات الله فهو كافر لا محالة، لا يسمع ولا يتعظ، كلهث ذلك الكلب في حالة الرخاء وعدم العطش. وإن ﴿تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ إن وعظته لم يتعظ، وإن تركته لم يتعظ، فهو ملازم ـ والعياذ بالله ـ كفرانه وعصيانه على جميع الحالات. وهو في أخس تلك الحالات كالكلب الذي يلازم لهثه في جميع الأحوال، وهي حالة من أخس حالاته والعرب تسمي الذي أصابه شيء حتى بَهَظَه تقول: هذا لاهث، وتقول: فلان ملجأ للاهث. معناه: ملجأ للمحزوب المحزون الذي فدحه الأمر، وهو معنى معروف في كلامها، ومنه قول الشاعر وهو بعض الأزديين[٣]:

فنِعْمَ فتى الجُلَّى ومُسْتَنْبَط النَّدىٰ ... ومَلْجَأ محزوب ومَفْزَع لاهِث
عياذ بن عمرو بن الحُليس بن جابر ... ابن زيد بن منظور بن زيد بن وارث

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٥١٦).
(٢) انظر: القرطبي (٧/٣٢٢)، الدر المصون (٥/٥١٧).
(٣) البيتان لابن دريد، وهما في ديوانه ص١٠٤.

وهذا من تتابع الأعلام، ويسميه البلاغيون في البديع: اطراداً. وشاهده المشهور عندهم قول الشاعر[(١)]:

إنْ يقتلوكَ فقد ثَلَلْتُ عروشَهُم بعتيبةَ بن الحارثِ بن شهابِ

والمعنى: أن هذا الخبيث الكافر ضُرب له المثل بالكلب في أخس حالاته، فكما أن الكلب لا يفارق هذه الحالة الخسيسة من فتح فيه ومدّ لسانه وإخراج النفس بقوة فكذلك هذا الكافر لا يفارق هذه الحالة الخسيسة من الكفر وعدم الاتعاظ في جميع أحواله، إن وعظته لا يتعظ، وإن تركته فكذلك، كما أن الكلب إذا شددت عليه وطردته وأتعبته ـ وهو معنى: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ ـ لهث، وإن تركته في رخاء ودعة لهث، فهو متصف بهذه الحالة القبيحة على كل حال. وكذلك هذا الخبيث متصف بتلك الحال القبيحة على كل حال. هذا معنى قوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾.

وأما قول من قال: إن بلعام بن باعوراء لما دعا على نبي الله موسى اندلع لسانه فصار على صدره، فصار لسانه متدلياً ـ كلسان الكلب ـ يلهث كلهاث الكلب، وأن هذا معنى قوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ الآية. هذا التفسير غير صحيح، بل الصحيح أنه مثل مضروب كما بيّنا، ويدل عليه قوله: ﴿ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ وصفتهم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ في ملازمتهم حالة الكفر والتكذيب القبيحة كمثل هذا الكلب في ملازمته حالة اللهث القبيحة في جميع أحواله.

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ ﴿فَاقْصُصِ﴾ معناه: اقصص عليهم يا نبي الله ﴿الْقَصَصَ﴾ أي: هذا الخبر كخبر بلعام بن باعوراء وغيره ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لأجل أن يتفكروا ويُعملوا أفكارهم فيتعظوا بمثلات الله وما أوقعه بالذين عصوه في الزمن الماضي لينزجروا وينكفوا. وهذا معنى قوله: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٦].

وقوله: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ﴾ (ساء) بمعنى: بئس. و (مثلًا) مُمَيِّز.

(١) البيت في البحر المحيط (٢/٢٨٥)، الدر المصون (٢/٥٦٠)، فتح القدير (٢/٢١١).

و (القوم) فاعل بئس[١] ﴿مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ساء مثلهم والعياذ بالله؛ لأنه مثل السوء ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ[٢] كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٧].

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٧٨ ـ ١٨٦].

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: آية ١٧٨] لما ذكر (جل وعلا) قصة الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ـ والعياذ بالله ـ وبيّن أنه لو شاء رفعه بتلك الآيات وهداه إلى العمل بها في قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ صرّح بأن المهتدي هو من هداه الله، والضال هو من أضله الله ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ الأصل: من يهده الله. فحذف المفعول لدلالة المقام عليه.

﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ﴾ والمهتدي هو السالك طريق الهدى التي تستلزم رضا الله ونيل ما عنده من الرضوان والجنات.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ حذف المفعول أيضاً و «من» شرطية في الموضعين، أي: ومن يضلله الله. مضارع أَضَلَّه يَضِلُّه إضلالاً. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

وهذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن بكثرة حجة على القدرية الزاعمين

---

(١) هذا الإعراب لا يخلو من إشكال، وللوقوف على كلام المعربين انظر: القرطبي (٣٢٤/٧)، البحر المحيط (٤٢٥/٤)، الدر المصون (٥١٨/٥).

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وبقية الآية معروفة.

أن الله لا يضل أحداً، فقد تكلمنا في هذه الدروس مراراً على مسألة القدر[١]، وأن التحقيق أنه لا تقع في الكون تسكينة ولا تحريكة إلا بمشيئة خالق السماوات والأرض ـ جل وعلا ـ والعباد لا يخلقون أعمالهم بل ما يشاؤون إلا أن يشاء الله، كما صرح الله به، والقدرية على كثرتهم وكثرة حججهم وجدالهم يأتون بشبه فلسفية يزعمون أنهم ينزهون الله بها، وهم يقعون في أعظم مما فروا منه بأضعاف، يقولون: إن الله أعظم وأنزه وأَجَلّ وأكرم من أن يريد الإضلال والقبائح والمعاصي. قالوا: فهو أَجَلُّ وأعظم وأكرم وأنزه من أن يكون الزنى بمشيئته، وأن تكون السرقة بمشيئته ونحو ذلك. فأرادوا أن ينزهوه عن أن يشاء السرقة والزنى والإضلال والقبائح، ووقعوا في الداهية الكبرىٰ والطامة العظمىٰ، هو أنهم جعلوا بعض خلق الله إلى غيره من خلقه، وجعلوا أن المكلف يخلق أعمال نفسه، فصارت عندهم أعمال المكلفين ليست بمشيئة الله، فسلبوه ملكه وقَدَره ومشيئته وكل شيء ـ قبّحهم الله ـ.

والتحقيق في هذه المسألة: أن الله (جل وعلا) سبق في علمه وسابق أزله أن بعض من يخلقهم مجبولون على الخبث، وأنه سيشاء منهم أن يشاؤوا أعمال أهل النار حتى يدخلوها، وأن قوماً آخرين قوم طيبون، وأنه يشاء منهم أن يعملوا أعمال أهل الجنة فيدخلوها، ثم إن الله (جل وعلا) يصرف بقدرته ومشيئته مشيئة العبد وقدرته حتى يأتي العبد ما سبق له في كتابه من شقاوة أو سعادة يأتيه طائعاً مختاراً ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: آية ٣٠] فلو فرضنا أن قدرياً قال لسني: هذه الأعمال كتبها الله في سابق الأزل وجفت الأقلام وطُويت الصحف، أو هو شيء مُستأنف؟ فمذهب أهل السنة والجماعة ـ وهو الحق ـ هو إثبات القدر، وأن كل شيء قضاه الله وقدَّره، وأن الكائنات صائرة إلى ما شاءه الله وقدَّره (جل وعلا)، وأنه خلق خلقاً وقال: هؤلاء للنار ولا أُبالي، وخلق للجنة خلقاً، فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: **«إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف**

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

سنة»[١] والله يقول: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: آية ٤٧] مثلا لو قال القدري: هذه المعاصي والذنوب التي كانت سبب كونه في النار، قال البعيد: قدرها الله عليه، وسبق في علمه أنه مرتكبها، وأنه هو لو شاء لقلب العِلْم الأول السابق في ذلك جهلاً لا يمكنه ذلك فما شاءه الله وعلمه وقدره في الأزل واقع لا محالة. فيقول البعيد: هو إذن مجبور. فإن السني يقول له: جميع الأسباب التي أعطاها الله للمهتدين أعطاك مثلها، فالعيون التي أبصروا بها آياته حتى آمنوا أعطاك عينين مثلها، والقلوب التي فهموا بها عن الله آياته حتى اهتدوا أعطاك مثلها، والآذان التي سمعوا بها آيات الله واتعظوا بها حتى اهتدوا أعطاك مثلها، ولكن وقع التفاوت في شيء واحد: وهو أن الله (جل وعلا) وفق هؤلاء لما يرضيه، وصرف قدرتهم ومشيئتهم بقدرته وإرادته إلى عمل أهل الجنة، وأنت لم يوفقك لما يرضيه، وهذا التوفيق ليس واجباً لك عليه حتى تدعي عليه أنه ظلمك!! وقد ذكرنا مراراً[٢] أن هذا أَوْضَحَتْهُ مناظرة أبي إسحاق الإسفراييني مع عبدالجبار ـ من كبار المعتزلة القدريين القائلين بهذا المذهب ـ وأن عبدالجبار جاء يتقرب بهذا المذهب فقال عند أبي إسحاق: سبحان من تنزه عن الفحشاء. يعني أنه تنزه عن أن تكون السرقة والزنى ونحوها بمشيئته.

فقال أبو إسحاق: كلمة حق أُريد بها باطل. ثم قال أبو إسحاق: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال عبدالجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه؟.

فقال أبو إسحاق: أتراك تفعله جبراً عليه أأنت الرب وهو العبد؟.

فقال عبدالجبار: أرأيت إن دعاني للهدىٰ وقضى علي بالردى، دعاني وسد الباب دوني أتراه أحسن إلي أم أساء؟.

---

(١) أخرجه مسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى (عليهما السلام). حديث رقم: (٢٦٥٣)، (٢٠٤٤/٤). ولفظه عند مسلم: «كتب الله مقادير الخلائق...».
وفي لفظ عند البيهقي في الأسماء والصفات: «قدر الله المقادير...» وفي لفظ: «فرغ الله (عز وجل) من المقادير وأمور الدنيا...».

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

قال أبو إسحاق: أرىٰ هذا الذي منعكه إن كان حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء، وإن كان ملكه المحض فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل. فبُهت عبدالجبار، وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب!! ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: آية ١٤٩] مَنُّهُ بالتوفيق على قوم وعدم مَنِّهِ بالتوفيق على آخرين حجته البالغة.

وذكروا أن عَمْرَ بن عبيد ـ كبير المعتزلة، المشهور بالعبادة والنسك، وهو من كبار أهل هذا المذهب الخبيث ـ جاءه بدوي أعرابي يقول له: إن دابته سُرقت. يريد أن يدعو الله ليردها عليه، فأراد عمرو بن عبيد التقرب بهذا المذهب الخبيث فقال: اللهم إنها سُرقت ولم تُرد سرقتها فارددها عليه. فقال له الأعرابي البدوي الجاهل: ناشدتك الله يا هذا إلا ما كففت عني من دعائك الخبيث، إن كانت قد سُرقت ولم يُرد سرقتها فقد يريد ردها ولا تُرد(١)، فالذي يُفعل الشيء دونه ولا بمشيئته فأنا لست على ثقة منه أن بيده شيئاً.

فالحاصل أنهم وقعوا في شر مما فروا منه. والدليل القاطع الذي لا يترك لهم شبهة هو دليل العلم، وإيضاح ذلك أنك تقول للمعتزلي القدري إذا ناظرته: هل أنت مقر بأن الله (جل وعلا) يعلم ما يكون قبل أن يكون؟ فلا بد أن يقول: نعم؛ لأن كل من يقر بالإسلام يقر بهذا. فتقول له: إذن هذا العمل الذي زعمت أن العبد يخلقه بقدرته وإرادته من غير مشيئة لله آلله عالم أنه يقع من هذا العبد؟ فيقول: نعم. فقل له: لو شاء العبد أن يعمل ذلك العمل ويستقل به مخالفاً لما سبق به علم الله الأزلي [فهل يمكنه ذلك؟](٢) فقولك إنه مستقل به يقتضي أنه يمكنه أن يعمل عملًا مستقلًا غير ما سبق به العلم، فينقلب علم الله جهلًا ـ سبحانه وتعالىٰ عما يقول الظالمون الفجرة علواً كبيراً ـ فإذن لا بد أن يكون العمل مطابقاً لما سبق به علم خالق السماوات والأرض في أزله.

فالحاصل أن الله (تبارك وتعالى) خلق للنار خلقاً علم أنهم من أهل

---

(١) السابق.

(٢) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

النار وأنها أولى بهم، وخلق للجنة خلقاً علم في أزله بأنهم أهل لها، ثم إن الله (تبارك وتعالى) يُيَسِّر كُلًا من الفريقين لما خلقه له، فيعمل هؤلاء بعمل أهل الجنة حتى يدخلوها، وهؤلاء بعمل أهل النار حتى يدخلوها، وقد جاءت أحاديث صحيحة ثابتة عن النبي ﷺ بمثل هذا، منها حديث عمران بن حصين المتفق عليه المشهور أنهم لما سألوا النبي ﷺ وأخبرهم أن الأمر قُضي وفُرغ منه قالوا له: ففيم العمل؟ أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال لهم ﷺ: «**اعملوا فكل مُيسر لما خُلق له**»[1] فالله (جل وعلا) لا يقع في ملكه شيء إلا بمشيئته، يَصْرف قُدر قوم وإراداتهم إلى ما هو أليق بهم، ويَصْرف قُدر قوم وإراداتهم إلى ما هو أليق بهم فيعمل هؤلاء بعمل أهل الجنة، وهؤلاء بعمل أهل النار، وإنما كان ذلك من حكمته (جل وعلا) لتظهر بذلك أسرار أسمائه وصفاته في خلقه؛ لأنه لو لم يصرف قدرة قوم ومشيئتهم إلى ما لا يرضيه حتى يعذبهم لم يظهر بطشه وقوته وشدة نكاله التي تستوجب الخوف منه، فخلق قوماً فصرف قُدرهم وإراداتهم لما يستوجبون به النار ليظهر بذلك سر أسمائه وصفاته، من جبروته وقوته وبطشه وشدة عذابه ليخافه خلقه، وصرف قُدر قوم وإراداتهم إلى ما يستوجبون به جنته ليظهر بذلك أسرار بعض أسمائه وصفاته من رحمته ولطفه وعدله (جل وعلا) وغير ذلك؛ ولذا قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: آية ١٧٨] من أضله الله فقد ضل (والعياذ بالله)، وكل الناس ضال إلا من هداه الله، ولا مهتدي إلا من هداه الله.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[2] أن لفظ الضلال يطلق في القرآن العظيم وفي اللغة العربية إطلاقات مشهورة معروفة، من أشهرها ثلاثة إطلاقات معروفة في القرآن وفي كلام العرب:

منها: إطلاق الضلال على الضلال عن طريق الهدىٰ إلى طريق الزيغ،

---

(١)(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

وعن طريق الجنة إلى طريق النار، كما في هذه الآية ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: آية ٧] وقوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: آية ٧٧] وهذا أغلب استعمال الضلال والعياذ بالله منه.

الاستعمال الثاني: هو إطلاق الضلال على الغَيْبَةِ والاضمحلال، تقول العرب: «ضل هذا الشيء». إذا غاب واضمحل ولم يبق له وجود. تقول العرب: «ضل السمن في الطعام» إذا غاب فيه واضمحل ولم يبق له أثر. وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الأخطل[(١)]:

كُنْتَ القَذَى في مَوْجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ ... قَذفَ الأَتِيُّ به فَضَلَّ ضَلالاً

أي: غاب غيبوبة واضمحل اضمحلالاً. ومنه بهذا المعنى قول الآخر[(٢)]:

أَلَمْ تسألْ فتخبركَ الديارُ ... عن الحي المُضَلَّلِ أينَ سَارُوا

ومعنى (المُضَلَّل): الذي ذهب على مرّ العصور ولم يبق لهم أثر. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: آية ٣٠] أي: غاب واضمحل ولم يبق له أثر. ولأجل إطلاق العرب اسم الضلال على الغيبة والاضمحلال أطلقوه على الدفن في القبر، تقول العرب: أضلوا الميت في قبره. إذا دفنوه فيه؛ لأنه إذا دُفن فيه يؤول إلى أن تختلط أجزاؤه وعظامه في الأرض فيغيب فيها ويضمحل كما يغيب السمن في الطعام، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [السجدة: آية ١٠] يعنون بقولهم: ﴿ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنه اضمحلت عظامهم ولحومهم وجلودهم فيها فأكلتها واختلطت بها. وإطلاق العرب

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

الإضلال على الدفن مشهور في كلامهم وأشعارهم، ومنه قول المُخَبَّل السعدي يرثي قيس بن عاصم التميمي المنقري المشهور[١]:

أَضَلَّتْ بنُو قيسِ بن سعدٍ عَمِيْدَهَا وفَارِسَهَا في الدهْرِ قيسَ بن عَاصِمِ

وقوله: «أضلت» يعني: دفنته في قبره. ومنه بهذا المعنى قول نابغة ذبيان يرثي بعض ملوك الغسانيين الذين كانوا بالشام، وقد مات ودُفن بالجولان، وسمع أولًا أنه مات، وجاء تكذيب موته، حتى جاء الذين دفنوه وأخبروه بموته وقال شعره المشهور فيه، الذي منه[٢]:

فإنْ تَحْيا لا أملكْ حياتي وإنْ تَمُتْ فما في حياتي بعدَ موتِكَ طائِلُ
فـآبَ مُـضِـلُّـوهُ بـعـيـنٍ جَـلِـيَّـة وغُـودِرَ بـالـجَـولانِ حَـزمٌ ونَـائِـلُ

٢٤/ب / فقوله: «مضلوه» يعني دافنيه. وقوله: «بعين جلية» أي: بخبر يقين أنه مات حقاً؛ لأنهم هم الذين أضلوه ودفنوه في قبره. وهذا معنى معروف في كلام العرب، يكثر في كلامها.

وأما الإطلاق الثالث من إطلاقات الضلال: فإنه جاء في القرآن وفي لغة العرب إطلاق الضلال على الذهاب عن علم الشيء، فكل ما لم يهتدِ إلى علم شيء تقول العرب: ضل. أي: لم يهتد إلى علم هذا الشيء بعينه. وهو بهذا المعنى يكثر في القرآن وفي كلام العرب، فمنه في القرآن قول أولاد يعقوب: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: آية ٨] أي: ذهاب عن علم الحقيقة حيث يُفَضِّل يوسف على هذا[٣] من الرجال. وقوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف: آية ٩٥] أي: ذهابك عن حقيقة العلم بالشيء؛ لأنك تظن يوسف حياً. ولا يريدون الضلال في الدين؛ لأنهم لو أرادوا الضلال في الدين لكانوا كفرة لتضليلهم نبياً من الأنبياء. ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: آية

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.
(٢) هذان البيتان مضى ذكرهما مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.
(٣) أي: الجمع.

٥٢] أي: لا يذهب عنه علم شيء ولا ينسى شيئاً. ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: آية ٢٨٢] ﴿أَن تَضِلَّ﴾ يعني: تذهب عن علم حقيقة المشهود به فتذكرها الأخرى. قال بعض العلماء: ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: آية ٧] على القول بذلك، ووجهه أن المعنى: ووجدك يا نبي الله ضالاً. أي: ذاهباً عن هذه العلوم التي لا تُعلم إلا بالوحي فهداك إليها وعلمك إياها بالوحي كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: آية ٣] فالغافلون ضالون ذاهبون عن علم حقيقة هذه العلوم، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ الآية [الشورى: آية ٥٢]. ومن إطلاق الضلال على الذهاب عن حقيقة علم الشيء قول الشاعر(١):

وتَظُنُّ سَلْمَىٰ أنَّنِيْ أَبْغِيْ بِهَا ... بَدَلاً أُرَاهَا فِي الضَّلَالِ تَهِيْمُ

معناه: أراها في عدم معرفة حقيقة الشيء وهذه المعاني للضلال، وبعضهم يذكر أنه يُطلق على (الحُب) وليس إطلاقاً معروفاً مشهوراً كمعرفة هذه الإطلاقات. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

والخاسرون جمع الخاسر. وبعض العلماء يقول: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: الهالكون. وأصل الخسران(٢): هو ذهاب مال التاجر، سواءً كان ربحاً أو رأس مال، وكل من خسر شيئاً من ماله فقد خسر. وخسران الناس: المراد به غبنهم حظوظهم من ربهم (جل وعلا)(٣)، وقد أقسم الله (جلّ وعلا) على أن هذا الخسران لا ينجو منه أحد إلّا بتلك الصفات المقررة المعروفة في تلك السورة الكريمة، أعني قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى

---

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩) من سورة الأعراف.

(٣) السابق.

خُسۡرٍ ۝٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ الألف واللام للاستغراق، فهو بمعنى: إن كل إنسان كائناً من كان لفي خسر، أي: في غبن من حظوظ ربه (جل وعلا) ونقص ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر: الآيات ١ ـ ٣].

وخسران الناس: أي: غبنهم في حظوظهم من ربهم (جل وعلا).

ذكرنا في هذه الدروس مراراً أنه جرت عادة بعض العلماء في أن يضربوا له مثلين يبين بهما حقيقته[١]:

المثل الأول: قالوا: إن كل إنسان معمر أعطاه الله (جل وعلا) رأس مال، ورأس هذا المال هو الجواهر الذي لا يزنها في الدنيا شيء، ولا يقوم مقامها شيء، وهي رأس مال كل إنسان. ونعني بهذه الجواهر: ساعات العمر وأيامه؛ لأن رأس مال الإنسان هو ساعات عمره وأيامه، وهذا هو أنفس شيء وأعظم شيء يُعطى للإنسان، وهو رأس ماله، وكما أن الله لما جعله رأس ماله جعله أخا الرسول أيضاً في إقامة الحجة عليه به حيث قال: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ [فاطر: آية ٣٧] فإذا كان الإنسان المُعمر ـ سواء عُمِّر تعميراً طويلاً أو غيره كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ﴾ [فاطر: آية ١١] فإن كان هذا المُعمر ـ حاذقاً لَبقاً يعرف كيف يحرك رؤوس الأموال، وكيف يستفيد منها، حرك رأس هذا المال ـ أعني ساعات عمره وأيامه حركها ـ فيما يرضي الله، فراقب اللحظات والأيام والليالي والدقائق والثواني لئلا يضيع شيء منها في غير طاعة الله، فنظر الأوقات التي تتوجه فيها أوامر من ربه ـ كأوقات الصلاة، وأوقات الحج، وغير ذلك من المطلوبات التي لها أوقات تتوجه عند وجودها ـ فقام لله بذلك أحسن قيام، ثم إنه في الأوقات التي لا تتوجه بها وظائف من رب العالمين، وأوامر معينة يكفُّ شرَّه ويخاف الله (جل وعلا) ويستكثر من الخير ما استطاع، فإذا حرك هذا رأس هذا المال هذا التحريك العظيم وتَجِر مع رب العالمين هذه التجارة الرابحة ربح منها مُلكاً لا ينفذ، ربح منها الحور العين، والجنات، والولدان، ومجاورة رب

(١) السابق.

غير غضبان، والنظر إلى وجه الله الكريم. وقد سمى الله تحريك رأس هذا المال معه (جل وعلا) على الوجه الذي ذكرنا سمَّاه (بيعاً) وسماه (شراء)، وسماه (تجارة)، وسماه (قرضاً)؛ لأنَّ صاحبه حرَّك رأس ماله ـ وهو أيام عمره ـ تحريكاً حسناً لائقاً؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [الصف: الآيتان ١٠، ١١]. فصرح بأن ذلك تجارة مع الله، وقال جل وعلا: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: آية ٢٩] وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: آية ١١١].

وقال جل وعلا: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: آية ٢٤٥] فإذا كان صاحب رأس هذا المال المسكين رجلاً أحمق لا يعرف حقائق الأشياء، ولمْ يتنور باطنه بنور الوحي، لمْ يعرف قيمة رأس هذا المال، ولا قدر هذه الجواهر التي أعطاه الله فضيعها في قال وقيل، ولمْ يكتسب منها شيئاً حتى ينتهي الأجل المحدد له فيُجر إلى القبر وهو صفر الكفين، والآخرة أيها الإخوان دار لا تصلح للمفاليس، لا تصلح للفقراء؛ لأنَّ ليس فيها إرفاق، ولا عارية، ولا صدقة، ولا خلة، ليس فيها للإنسان إلا ما قدَّمه من عمله، فلا ينبغي للإنسان أن يقدم عليها مفلساً، فيجب على المسلمين كُلاً أن يحترموا رأس هذا المال.

إذا كان رأسُ المالِ عمركَ فاحتَرِزْ عليه من الإنفاقِ في غيرِ واجبِ[(١)]

فلا ينبغي للمسلم أن يضيع أوقات عمره في لعب الأوراق، وفي قيل وقال، فإن هذا فعل السفهاء، ولا يدري في أيِّ وقت يموت. وأنا أؤكد لكم كل التوكيد أنه إن مات ندم غاية الندم بعد فوات الفرصة على ضياع هذه الأعلاق النفيسة، والجواهر الثمينة ـ التي هي أيام عمره ـ في قال وقيل، ولعب أوراق، وربما كان ضيعه في أشياء لا ترضي من خلقه (جل وعلا). فهذا لا ينبغي، فعلينا معاشر المؤمنين أن نعرف قدر رأس مالنا،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩) من هذه السورة.

وأن نُقدِّر أعمارنا، ونعرف قصرها، ولا ندري في أيِّ وقت تنخرم كما سيأتي قوله في هذه [السورة][1]: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: آية ١٨٥] فلا نضيعه فيما لا يعني كألعاب الأوراق، والمجون والعبث، وغير ذلك مما لا يفيد، فهذا فعل السفهاء، وسيعلم صاحبه إذا انتهى إلى ربه أنه فعل السفهاء الذي لا يُجدي، فعليه أنْ يكفَّ عنه، ويكون رجلاً جديًا، ويصدق المعاملة فيما بينه وبين ربه (جل وعلا)، ولا يترك أوقاته تضيع هدراً؛ لأن هذا تضييع لجواهر عظيمة، وأعلاق نفيسة، لا يعرف قدرها إلاّ من علمه الله ذلك.

المثل الثاني المضروب لهذا: هو ما ذكره بعض العلماء، وقد جاء به حديث عن النبي ﷺ، والظاهر أن سنده لا يقل عن درجة القبول[2] أن الله (جل وعلا) جعل لكل إنسان مسكناً في الجنة ومسكناً في النار، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أطلع أهل الجنة على مساكنهم في النار لو أنهم كفروا بالله وعصوه لتزداد غبطتهم وسرورهم بما هم فيه، وعند ذلك يقول الواحد منهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: آية ٤٣] ثم إنه يُري أهل النار منازلهم في الجنة لو أنهم آمنوا بالله وأطاعوه لتزداد ندامتهم وحسرتهم والعياذ بالله. وعند ذلك يقول الواحد منهم: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: آية ٥٧] ثم إن الله يجعل مساكن أهل النار في الجنة لأهل الجنة، ومساكن أهل الجنة في النار لأهل النار، ومن استبدل مسكنه في الجنة بمسكن غيره في النار فصفقته خاسرة، فهو خاسر لا محالة، وذلك طرف من هذا الخسران الذي دلت عليه آيات القرآن العظيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٨].

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: آية ١٧٩] اللام موطئة لقسم محذوف، و (قد) حرف تحقيق تضمنت معنى التوكيد.

---

(١) في الأصل: (الآية) وهو سبق لسان.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩) من هذه السورة.

و﴿ذَرَأْنَا﴾ معناه: خلقنا. العرب تقول: ذرأ الله الخلق. أي: خلقه. فصيغة الجمع في قوله: ﴿ذَرَأْنَا﴾ صيغة تعظيم؛ لأن الله خلق خلقاً للنار فقال: هؤلاء في النار ولا أُبالي.

وقوله: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ بعض العلماء يقول: هي طبقة من طبقات جهنم، ولكنها تطلق على جميع طبقات النار، كما قال تعالى في جهنم: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: آية ٤٤] فجهنم تطلق على جميع طبقات النار، وإن كان بعض العلماء يزعم أنها طبقة من طبقاتها السبع.

واختلف العلماء في لفظة (جهنم) هل أصلها عربية أو مُعَرَّبة[١]؟ بناء على قول من يقول: إن في القرآن كلمات مُعَرَّبة[٢]. والتحقيق الذي هو الأشبة أن القرآن كله عربي إلا الأعلام. وما دمنا نقول: أخذ العرب هذه الكلمة من الجيل العجمي الفلاني فلِمَ لا نقول: إن ذلك الجيل الأعجمي أخذها عن العرب؟ الكل محتمل ولا دليل على أنه أخذها خصوص هؤلاء عن هؤلاء، فعلينا أن نتمسك بالعموم في قوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: آية ١٩٥] ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: آية ٢] ولا خلاف في الأعلام أن فيه أعلاماً عجمية. هذا لا نزاع فيه؛ لأن العَلَم يُحكىٰ بلفظه في أي لغة كان كما هو معروف.

وقال بعض العلماء الذين يقولون إن في القرآن مُعَرَّباً: إن (جهنم) أصلها فارسية. والذين قالوا هذا القول يزعمون أن في الفارسية القديمة إطلاق (كَهَنَّام) على النار، وأنها عَرَّبتها العرب وأبدلت الكاف جيماً، والله أعلم بصحة هذا.

وقال جماعة من علماء العربية[٣]: أصل الكلمة عربية، ووزنها بالميزان الصرفي (فَعَنَّل) فالنون المشددة زائدة، وأصل الحروف الأصلية: الجيم في

---

(١) انظر: اللسان (مادة: جهنم) (١/٥٢٥)، الدر المصون (٢/٣٥٥).

(٢) في هذه المسألة انظر: الرسالة (٤١ ـ ٥٣)، ابن جرير (١/١٣)، ابن عطية (١/٣٦)، القرطبي (١/٦٨)، ابن كثير (١/٨)، البحر المحيط للزركشي (١/٤٤٩)، (٢/١٧٠)، شرح الكوكب (١/١٩٢).

(٣) انظر: الدر المصون (٢/٣٥٥).

مكان الفاء، والهاء في مكان العين، والميم في مكان اللام، من: جَهَمَه يَجْهَمُه وتَجَهَّمَهُ إذا عبس في وجهه وقَطَّبَ وجهه وعقده فيه. قالوا: سُميت (جهنم) لأنها تلقى من يدخلها بوجه عابس مقطب متجهم، وأنهم تعبس وجوههم، وتَجَهَّم فيها من شدة ما يلاقون من عذابها والعياذ بالله. وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول عمرو بن الفضفاض الجهني[١]:

لا تَجْهَمينَا أُمَّ عمرو فإنما بنا داء ظَبْيٍ لم تخُنْهُ عوامِلُه

ومن هذا المعنى قول مسلم بن الوليد الأنصاري، وإن كان شعره يصلح مثالًا لا شاهداً لتأخر وقته[٢]:

شكوتُ إليها حُبَّهَا فَتبَسَّمَتْ ولَمْ أَرَ شَمْساً قَبْلَهَا تَتبَسَّمُ
فقلتُ لها جُودي فأَبدتْ تَجَهُّماً لتقتلني يا حُسْنها إذ تَجَهَّمُ

وهذا معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: خلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ أي: لصيرورتهم إلى النار يوم القيامة ﴿كَثِيرًا﴾ خلقاً كثيراً ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ لأن الجن يدخلون النار بلا خلاف إذا عصوا الله كما قالوا: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: آية ٣١] ولا خلاف بين العلماء أن النبي ﷺ مرسل للإنس والجن، وأن كفار الجن يدخلون النَّار، وإنما اختلفوا في المؤمنين من الجن هل يدخلون الجنة أو لا يدخلونها[٣]؟ فشذ قوم وقالوا: إن المؤمنين من الجن لا يدخلون الجنة وإنما جزاؤهم الإجارة من النار، واستدلوا لهذا بدليل لا ينهض، وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قالوا: دلت الآية على أن إجابتهم داعي الله والإيمان به إنما ينالون منها غفران الذنوب والإجارة من العذاب دون دخول الجنة. والظاهر أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنَّة كالمؤمنين من الإنس، وقد دلت على هذا آيات من كتاب الله قال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ

---

(١) البيت في اللسان (مادة: جهم) (٥٢٤/١)، الأضواء (٤٧٣/٢).
(٢) البيتان في ديوانه ص١٤٣، وهما في الأضواء (٤٧٣/٢).
(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأعراف.

﴿قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: آية ٥٦] فَفُهم منه أن في الجنة جاناً يطمثون النساء. ومن أصرح الأدلة - أن الجن يدخلون الجنَّة - قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمن: آية ٤٦] فهذا شامل للإنس والجن يقيناً بدليل قوله بعده مخاطباً للجن والإنس: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمن: آية ١٣] وهذا نصٌّ قرآني لم يقم ما يعارضه فلا ينبغي العدول عنه. وهذا معنى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: آية ١٧٩].

ثم إنه تعالى ذكر صفات الكفار الأشقياء الذين سبق في علم الله أنه خلقهم للنّار، وأنهم يعملون بعمل أهل النار، ذكر صفاتهم الكاشفة قال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ بين أنه خلق لهم قلوباً، وخلق لهم أعيناً، وخلق لهم آذاناً، إلا أنهم لا يفقهون بقلوبهم الحق، ولا يبصرون بأعينهم الحق، ولا يسمعون بآذانهم الحق والعياذ بالله كما قال تعالى عنهم: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الأحقاف: آية ٢٦]، ولذا قال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٧٩] القلوب: جمع قلب، وهو عضو من الإنسان معروف يزعمون أنه على هيئة حَبّ الصنوبر.

وقوله: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الفقه في لغة العرب معناه: الفهم والإدراك، أي: لا يفهمون بهذه القلوب عن الله؛ لأن الله لم ينفعهم بها (والعياذ بالله)، كما قال: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: آية ٢٦] ونفيه الفقه عن القلوب يدل كما ذكرنا مراراً[1] على أن مركز العقل هو القلب لا الدماغ كما يقوله الإفرنج، ومما يؤسفنا أن عامة المسلمين لا يكاد في الوقت الحاضر - لجهلهم - لا يكاد يختلف من عامتهم اثنان في أن العقل في الدماغ. ويقولون: هذا ليس له مخ. يعنون: ليس له دماغ، قاطعين بأن العقل في الدماغ، والله يصرح بأن العقل في القلب. ولا شك أن الذي خلق نور العقل وجعله في العبد ونوّره به هو أعلم بالموضع الذي وضعه فيه من كفرة الإفرنج - قبّحهم الله - ومن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

فلسفتهم الكاذبة. فالذي يقول: ليس الفقه في القلوب كالذي يقول: ليس الإبصار بالعيون، وليس السماع بالآذان؛ لأن الله قال: ﴿قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ ﴿أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ﴿ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ فدل على أن الإبصار بالعين، والسماع بالأذن، والفقه بالقلب.

وهذا أمر معروف لا تكاد تحصي الآيات الدالة عليه في القرآن؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الله (جل وعلا) نفىٰ عنهم الفقه بتاتاً. أي: الفهم، ونفىٰ عنهم الإبصار، ونفىٰ عنهم السماع، والمراد بهذا كما دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله: أن الفقه المنفي هو الفقه عن الله النافع الذي يوصل لطاعة الله والإيمان به، والإبصار المنفي: هو إبصار الآيات النافع الذي يرشد صاحبه إلى الإيمان، والسماع المنفي: هو السماع النافع الذي يسمع صاحبه به ما ينفعه. وهذا أسلوب من أساليب اللغة العربية؛ لأنَّ القرآن العظيم نزل بلسان عربي مبين، ومن أساليب اللغة العربية: أنهم يطلقون الصمم على السماع الذي لا جدوىٰ فيه، فإذا كان الإنسان لا ينتفع بسمعه انتفاعاً صحيحاً يقولون: «هذا أصم» وهو يسمع. وهذا أسلوب معروف في كلامهم، ومنه قول قَعنب بن أم صاحب[١]:

صُمٌ إذا سَمِعُوْا خَيْراً ذُكِرْتُ به وإنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدهُم أَذِنوا

فقال: «صُمٌ إذا سمعوا» فصرح بأنهمْ صمٌ، وأنهمْ يسمعون؛ لأنَّ ذلك السماع الذي لمْ تترتب عليه فائدة حكمه حكم الصمم، ومنه قول الآخر[٢]:

أَصَمُّ عنِ الأَمْرِ الذي لا أُرِيدُهُ وأَسْمَعُ خَلْقِ الله حينَ أُريدُ

وقول الآخر[٣]:

قُلْ ما بَدىٰ لك من زُورٍ ومن كَذِبِ حِلْمِيْ أَصَمّ وأُذني غير صَمَّاء

---

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

(٢) البيت في شواهد الكشاف ص٢٦، وأوله: «أصم عن الشيء...».

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

وقول الآخر[١]:

فـأَصْـمَـمْـتُ عَـمْـراً وأَعْـمَـيْـتُـه عـن الـجُـودِ والـفَـخْـرِ يـومَ الـفَـخَـارِ

وهذا أسلوب معروف مطروق في كلام العرب، نزل به القرآن لأنه بلسان عربي مبين. وهذا معنى قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ الآذان: جمع أذن. والأعين: جمع عين، وجمعهما على (أَفْعُلٌ) و (أفعال) ليس للقلة. والمقرر[٢] في علم العربية: أن جموع القلة لا تكون إلا في النكرات؛ لأنها بالمعرفات تكتسي العموم من أداة التعريف فتكون جمع تكثير. وهنا هي مُنَكَّرات وهي جموع قلة، إلا أن محل كونها جموع قلّة ما لم يقم دليل على أنها تُراد بها الكثرة كما هنا، وكما هو معروف في محله.

وقوله: ﴿ءَاذَانٌ﴾ أصله (أَأْذَان) جمع (أُذن) مجموعة على (أَفعال) أُبدلت الهمزة الثانية مداً للأُولى على القاعدة التصريفية المجمع عليها[٣]. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون الذين ذرأهم الله للنار، ولم ينفعهم بقلوبهم، ولا بأسماعهم، ولا بأعينهم ﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الأنعام: تقدم في سورة الأنعام أنها أصناف الإبل والبقر والغنم؛ لأن الأنعام إذا صاح بها راعيها تسمع ما يقول ولكنها لا تنتفع به؛ فلو صاح بإبله أو غنمه وقال: اذهبي إلى عُدْوَةِ الوادي الفلانية فإن فيها خصباً، واحذري من عُدْوَتِه الفلانية فإن فيها جدباً وسباعاً. فإنها تسمع صوته ولكن لا تفهم هذا ولا تنتفع به، كما تقدم إيضاحه في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: آية ١٧١] ولذا قال هنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ تسمع الأصوات ولا تفهم ما فيها فهماً ينفع، كما أن هؤلاء يسمعون الأصوات ولا يفهمون عن الله فهماً يجرهم إلى الإيمان. ثم أضرب، قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام؛ لأن الأنعام ربما تهتدي لبعض

---

(١) البيت في الخصائص (٣/٢٥٤)، شواهد الكشاف ص٤٠. وشطره الثاني هكذا: «عن الفخر والجود...».

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٢٠.

مصالحها، تذهب إلى المحل الذي فيه المرعى فترعى فيه، وتروح عن محل الجدب، وإذا رأت صاحبها الذي يسقيها ويطعمها فرحت به وتبعته، وهؤلاء يعادون ربهم ولا يفعلون شيئاً ينفعهم ـ والعياذ بالله ـ فهم أضل من الأنعام.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الذين استولت على قلوبهم الغفلة لا يفهمون عن الله شيئاً ـ والعياذ بالله ـ. وهذا معنى قوله: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٩].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: آية ١٨٠] لله (جل وعلا) الأسماء الحسنى، والحسنى: تأنيث الأحسن، وهو صيغة تفضيل الأحسن الذي هو أحسن من غيره، والحسنى التي هي أحسن من غيرها. وأفرد نعت الأسماء في قوله: ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لما تقرر في علم العربية من أن ثلاثة من الجموع أعني جمع المكسر بنوعيه، وجمع التأنيث، كلٌّ منها يجري مجرى الواحدة المؤنثة المجازية التأنيث[1]، ومثله كثير، كقوله: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: آية ١٨] ﴿لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: آية ١٩].

قال بعض العلماء: سبب نزول هذه الآية: أن رجلًا من المسلمين قال: يا الله، يا رحمن. فقال واحد من كفار مكة: كيف يقول محمد: إن الإله واحد، ثم إنه يدعو إلهين: أحدهما: الله، والثاني: الرحمن؟! فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وأنزل قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: آية ١١٠][2].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أسماء الله حسنى، أي: هي أحسن شيء؛ لأن الحسنى صيغة تفضيل، هي أفضل من كل شيء في الحُسن والجمال لمَّا تدل عليه من صفات الكمال والجلال الموصوف بها خالقنا (جل وعلا) تقدس وتعاظم وتنزه؛ لأن أسماءه تدل على صفات كماله وجلاله جل وعلا.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٤) من سورة الأنعام.

(٢) الأثر بهذا السياق ـ من دون الآية الثانية ـ أورده القرطبي عن مقاتل من غير ذكر من خرّجه. وقد وردت بعض الآثار في سبب نزول الآية الثانية ذكرها السيوطي في الدر (٢٠٦/٤)، وكلها مرفوعة إلى النبي ﷺ وليس هذا الأثر منها.

﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ فادعوه بتلك الأسماء كأن تقول: يا رحمن ارحمنا، يا رحيم ارحمني. قال بعض العلماء: تقول: يا رحيم ارحمني، يا رازق ارزقني، يا حكيم احكم لي. ولا تقول: يا حكيم اغفر لي، أو: يا رزاق ارحمني. والتحقيق أن هذا كله جائز؛ لأن أسماء الله متلازمة، كل صفة في واحد منها تستلزم جميع الصفات الأخرىٰ لعظمة صفاته (جل وعلا)، واستلزام كل واحدة منها غاية الكمال والجلال، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة**»(١) هذا حديث صحيح معروف، وقد جاء عَدُّ أسمائه عن بعض الناس، ذكره الترمذي، وذكر غيره روايات فيها بعض الأسماء، والرواية التي ذكرها الترمذي تقريباً مائة وواحد تزيد باثنين(٢)، وهي معروفة(٣)، وجاءت روايات في السنن وأخرج

---

(١) البخاري في الشروط، باب: ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار والشروط التي يتعارفها الناس. حديث رقم (٢٧٣٦)، (٥/٣٥٤)، وأخرجه في مواضع أخرى كما في الأحاديث (٦٤١٠)، (٧٣٩٢)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها. حديث رقم (٢٦٧٧)، (٤/٢٠٦٢)، من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) دون سرد الأسماء.

(٢) أي: على التسعة والتسعين.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات، حديث رقم (٣٥٠٧)، (٥/٥٣٠)، وعقبه بقوله: «هذا حديث غريب، حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث. وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، ولا نعلم في كَثِيرِ شيءٍ من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. وقد روى آدم بن أبي إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وذكر فيه الأسماء وليس له إسناد صحيح» ا.هـ. (٥/٥٣١، ٥٣٢)، وأخرجه ابن ماجه في الدعاء، باب أسماء الله عز وجل. حديث رقم (٣٨٦١)، (٢/١٢٦٩ ـ ١٢٧٠)، والحاكم (١/١٦، ١٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص١٥، وفي الاعتقاد ص١٣، وفي شعب الإيمان (١/٢٧٧)، وفي سننه (١٠/٢٧ ـ ١٨)، والبغوي في شرح السنة (٥/٣٢)، كلهم من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه). وهذه الرواية لا تصح والله أعلم. وقد أطال الحافظ (رحمه الله) في الكلام على هذا الحديث سنداً ومتناً. انظر الفتح (١١/٢١٤ ـ ٢١٩). وانظر: الفتاوى (٦/٣٧٩ ـ ٣٨٢)، (٢٢/٤٨١ ـ ٤٨٦)، درء التعارض (٣/٣٣٢)، وقد صرح جمع من أهل العلم بأن سرد الأسماء في الرواية أنه مدرج. انظر: سبل السلام (٤/٢٤)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/١٠٤٠).

الحاكم بعضها وصححه تذكر بعض أسماء الله جل وعلا.

والمحققون من العلماء يقولون: إن أسماء الله لا تُحصر في ذلك، كما دل عليه الحديث المشهور حديث ابن مسعود الذي بيّن فيه النبي ﷺ أن كل من أصابه حزن ـ مثلًا ـ أو غم إذا دعا به أذهب الله حزنه وأبدله له سروراً، وهو حديث معروف مشهور: **«اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور بصري، وشفاء صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي»**[(١)]. ومحل الشاهد منه: قوله ﷺ فيه: **«أو استأثرت به في علم الغيب عندك»** فدل أن له أسماء استأثر بها في علم الغيب عنده. وهذا هو الأصح؛ لأن صفاته (جل وعلا) الحسنى لا تحصىٰ، وأسماءه لا يحصيها غيره (جلّ وعلا). وقد جاء في رواية الترمذي[(٢)] أنه لمّا ذكر الحديث الذي أصله في الصحيحين: **«إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائةً إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو جلَّ وعلا وتر يحب الوتر** ـ أنه سردها كما يلي ـ **هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن، الرحيم، الملك، القُدُّوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارىء، المُصَوِّر، الغفار**[(٣)]**، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المُعِزُّ، المُذِل، السميع، البصير، الحَكَم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المُقِيت، الحسيب، الجليل، الكريم،**

---

(١) أحمد (٣٩١/١، ٤٥٢)، والحاكم (٥٠٩/١ ـ ٥١٠)، وقال: «صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه؛ فإنه مختلف في سماعه من أبيه» ا.هـ. والبيهقي في الأسماء والصفات ص١٨، وابن حبان (الإحسان) (١٦٠/٢)، وأبو يعلى (١٩٨/٩ ـ ١٩٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة ص١٣٣، وقال أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٢٦٦/٥): «إسناده صحيح» ا.هـ. ويشهد له أيضاً حديث أبي موسى (رضي الله عنه) عند الطبراني وابن السني.

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٣) يأتي بعده في رواية الترمذي: (القهار) وقد سقط هنا.

الرقيب، المُجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المُحصي، المُبدىء، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد[١]، الفرد[٢]، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البَرُّ، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المُقْسِط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور». هكذا ذكره، وذكر بعضهم في السنن وغيره زيادات على هذا ونقصاً[٣]. وبعض المحققين يقولون: إن هذا مدرج في الحديث الصحيح جمعه العلماء من القرآن[٤]. وكان ابن العربي يقول: إنه جمع حوالي ألف اسم من القرآن العظيم والأحاديث الصحيحة[٥].

---

(١)(٢) هذان الاسمان غير موجودين في رواية الترمذي التي أشار لها الشيخ رحمه الله. و(الأحد) ضمن الأسماء المذكورة في أحد روايتي الحاكم (١/١٧)، وهو عند ابن ماجه في السنن، كتاب الدعاء، باب أسماء الله عز وجل. حديث رقم: (٣٨٦١)، (٢/١٢٧٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص١٩، وعقبه بقوله: «تفرد بهذه الرواية عبدالعزيز بن الحصين بن الترجمان وهو ضعيف الحديث عند أهل النقل، ضعفه يحيى بن معين ومحمد بن إسماعيل البخاري» ا.هـ. وأخرجه أيضاً في كتاب الاعتقاد ص١٤. وأبو نعيم في جزئه في الأسماء الحسنى ص٢٠ (١٨)، وابن خزيمة في صحيحه كما في الفتح (١١/٢١٦).

وأما الفرد فقد ساق فيه البيهقي حديثين في كتابه الأسماء والصفات ص١٧، الأول منهما: عن جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما) مرفوعاً. والثاني: عن محمد بن طلحة عن رجل مرفوعاً إلى النبي ﷺ. وعقبهما بقوله: «ليس هذا بالقوي وكذلك ما قبله» ا.هـ. كما ورد هذا الاسم من طريق الوليد بن مسلم عند أبي نعيم في تعداد الأسماء في جزئه في الأسماء الحسنى، وانظر الفتح (١١/٢١٦).

(٣) تقدم ضمن تخريج الحديث المتقدم قريباً.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٢٢/٤٨٢)، فتح الباري (١١/٢١٤ ـ ٢١٩).

(٥) قال في أحكام القرآن (٢/٨٠٨): «وعددناها على ما ورد في الكتاب والسنة وذكره الأئمة فانتهت إلى ستة وأربعين ومائة» ا.هـ. ثم سردها وعقب ذلك بقوله ص٨١٥: «هذا منتهى ما حضر من ذكر الأسماء للتضرع والابتهال، وقد بقي نحوٌ من ثلاثين اسماً ضمنّاها كتاب الأمد، هذه أصولها» ا.هـ. قال الحافظ في الفتح (١١/٢٢٠): «وحكى =

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: آية ١٨٠] (ذروا) معناه اتركوا: وصيغة الأمر هنا للتهديد على التحقيق، وقد تقرر في فن الأصول في مباحث الأمر، وفي فن المعاني: أنَّ من الصيغ التي تأتي لها (افْعَل) أنها تأتي للتهديد[(١)]. والتحقيق أن الصورة هنا للتهديد، وهو قوله: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ بدليل قوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[(٢)].

والعرب تقول: أَلْحَد يُلحِدُ، ولَحَدَ يَلْحَدُ. إذا مال عن الحق، أصل (اللَّحد) في لغة العرب والإلحاد: الميل عن القصد والجور عنه، ومنه اللحد في القبر؛ لأنه حفر أُميل به عن وضعه الأول إلى جهة القبلة ولم يكن على سمت الحفر الأول.

وقرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حمزة: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ وقرأه حمزة من السبعة: **﴿وذروا الذين يَلْحَدُون في أسمائه﴾** بفتح الياء والحاء. وهما قراءتان صحيحتان[(٣)]، ولغتان عربيتان فصيحتان.

ومعنى إلحادهم بالأسماء[(٤)]: قال بعض العلماء: يلحدون فيها: يميلون فيها عن الحق، كاشتقاقهم اللات من اسم الله، واشتقاقهم العُزى من اسم العزيز، واشتقاقهم مناة من اسم المنان. وقال بعض العلماء: إلحادهم في أسماء الله: إنكارها، ومن أمثلة ذلك أن الله يقول: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾ [الصافات: آية ٤] وهم يلحدون في اسمه الواحد، ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ

= القاضي أبو بكر بن العربي عن بعضهم أن لله ألف اسم. قال ابن العربي: وهذا قليل فيها» ا.هـ ونقله أيضاً الأبي في شرحه لمسلم (١١٦/٧). وقال ابن القيم في زاد المعاد (٨٨/١): «وأما إن جُعل له ـ أي: النبي ﷺ ـ من كل وصف من أوصافه اسم تجاوزت أسماؤه المائتين... وفي هذا قال من قال من الناس: إن لله ألف اسم وللنبي ﷺ ألف اسم. قاله أبو الخطاب بن دحية، ومقصوده الأوصاف» ا.هـ.

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: الأضواء (٣٣٩/٢).

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٦.

(٤) في هذه المسألة انظر: بدائع الفوائد (١٦١/١ ـ ١٧٠)، القواعد المثلى ص١٦، المنهاج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (٥٥/١)، النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى (٣٦/١).

﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: آية ٥] وهذا من أعظم الإلحاد وأكبره. وقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سيجزيهم الله يوم القيامة جزاء ما كانوا يعملونه في الدنيا، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً إلحادهم في أسمائه (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ۝١٨١﴾ جاء في بعض الآثار عن النبي ﷺ أنه قرأها وقال: «**هذه لكم وقد أُوتي القوم بين أيديكم مثلها**»(١) يعني قوم موسى. ثم قال: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ۝١٥٩﴾ [الأعراف: آية ١٥٩] وهذه الأمة لا شك أنها أمة ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾، وأنها تهدي بالحق وبه تعدل، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث معاوية بن أبي سفيان أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم أو من خالفهم حتى يأتي أمر الله**»(٢) أو كما قال ﷺ، وهذا معنى قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٩) من هذه السورة.

(٢) روى هذا الحديث جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، منهم:

١ ـ المغيرة بن شعبة عند البخاري في المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر. حديث رقم (٣٦٤٠)، (٦/٦٣٢)، وأطرافه في: (٧٣١١، ٧٤٥٩)، ومسلم في الإمارة، باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق. حديث رقم (١٩٢١)، (٣/١٥٢٣).

٢ ـ معاوية بن أبي سفيان عند البخاري في المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر. حديث رقم (٣٦٤١)، (٦/٦٣٢)، وأخرجه في موضع آخر برقم (٧٤٦٠)، ومسلم في الإمارة، باب: قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة...**» إلخ. حديث رقم (١٠٣٧)، (٣/١٥٢٤).

٣ ـ ثوبان عند مسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: «**ولا تزال طائفة...**» إلخ. حديث رقم (١٩٢٠)، (٣/١٥٢٣).

٤ ـ جابر بن عبدالله. عند مسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: «**ولا تزال طائفة...**» إلخ. حديث رقم (١٩٢٣)، (٣/١٥٢٤).

٥ ـ عقبة بن عامر. عند مسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة...**» إلخ. حديث رقم (١٩٢٤)، (٣/١٥٢٤ ـ ١٥٢٥).

=

﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ معناها: يهدون الناس بالحق، وهو اتباعه ﷺ والعمل بهذا القرآن ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعملون هم في أنفسهم؛ لأن من عمل به عدل وأصاب العدالة وتنحى عن طرف الإفراط والتفريط؛ لأن العدالة هي التوسط بين الأمرين، والتجافي عن طرف الإفراط وطرف التفريط. وهذا معنى قوله: ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

٢٥/أ / ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٨٢ ـ ١٨٧].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٨٢، ١٨٣].

بيّن الله (جل وعلا) في هذه الآية أنه سيستدرج الكافرين فيغدق عليهم نعمه وهم يصرون على الكفر به، حتى تبطرهم النعم وتتزايد غفلتهم، فيستمروا على ذلك حتى تنتهي آجالهم فيأخذهم الله (جل وعلا) في غفلتهم بعذابه وإهلاكه ثم يصيرون إلى النار.

= ٦ ـ معاوية بن قرة عن أبيه. عند أحمد (٤٣٦/٣)، (٣٤/٥)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في الشام. حديث رقم: (٢١٩٢)، (٤٨٥/٤). وقال الترمذي: «وفي الباب عن عبدالله بن حوالة، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عمرو. وهذا حديث حسن صحيح» ا.هـ. وأخرجه ابن ماجه في المقدمة. باب اتباع سنة رسول الله ﷺ. حديث رقم (٦)، (٤/١ ـ ٥)، والروياني (١٢٩/٢ ـ ١٣٠).

٧ ـ عمر بن الخطاب عند الدارمي (١٣٣/٢)، والطيالسي ص٩، والحاكم (٤٤٩/٤).

٨ ـ أبو هريرة عند ابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ. حديث رقم: (٧)، (٥/١)، وابن عدي في الكامل (٢٥٤٥/٧). وانظر في تخريجه: السلسلة الصحيحة (٢٧٠).

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: في محل مبتدأ والخبر جملة ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والتكذيب: الجحود والإنكار.

والآيات: جمع آية وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[1]: أنّ للآية في لغة العرب إطلاقين عربيّين مشهورين، وأنّ لها في القرآن إطلاقين أيضاً.

قال علماء التصريف[2]: التحقيق في الآية أنّ أصلها: (أَيَيَة)، ووزنها: (فَعَلَة) فهمزها: فاء، وعينها: ياء، ولامها: ياء، والياءان المفتوحتان بعد الهمزة قد اجتمع فيهما موجبا إعلالٍ، والمقرر في فنّ التصريف: أنه إنْ اجتمع موجبا إعلال كان الإعلال في الأخير، إلا أنّه ربما وقع الإعلال في الأول كما هنا، فأعلوا الياء الأولى وأبدلوها ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها؛ ولو جرىٰ على الأغلب في اللغة، لكان الإعلال في الياء الأخيرة وقيل فيها: (أَيَاه)؛ وهنا أُعلّت الياء الأولى فأُبدلت ألفاً فقيل: آية.

والآية تطلق في اللغة العربية إطلاقين، أشهر إطلاقيها: أنْ تُطلق الآية على العلامة، تقول العرب: آية كذا، أي: علامته، ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ أي: علامة ملكه ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ [البقرة: آية ٢٤٨] فالآية: العلامة؛ وقد جاء في شعر نابغة ذبيان ـ وهو جاهلي ـ تفسير الآية بالعلامة حيث قال[3]:

توهمتُ آياتٍ لها فعرفْتُها لستةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

ثم بيّن أن مقصوده بالآيات: علامات الدار وآثارها حيث قال[4]:

رَمَادٌ ككُحْلِ العَيْنِ لأياً أُبِينُه ونُؤيٌ كجذمِ الحوضِ أَثْلَمُ خاشعُ

هذا الإطلاق في الآية المشهور.

الإطلاق الثاني: وهو أنّ العرب تطلق الآية وتريد بها الجماعة،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(٤) السابق.

يقولون: «جاء بنو فلان بآيتهم» أي: بجماعتهم جميعاً وهو إطلاق معروف في كلام العرب، ومنه قول برج بن مسهر[(١)]:

خَرَجْنَا من النَّقْبَيْن لاَ حَيَّ مِثْلنا ... بآيَتِنَا نُزْجِي اللقَاحَ المَطَافِلاَ

أي: بجماعتنا. فهذان إطلاقا الآية في اللغة.

والآية في القرآن تطلق إطلاقين: تطلق الآية على الآية الكونية القدرية، وهي من الآية بمعنى: العلامة، وهي ما نصبه الله (جل وعلا) من آياته جاعلًا لها علامات على كمال قدرته، وأنه الربُّ وحده، المعبود وحده، كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ...﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] أي: لعلامات ودلالات واضحات على أنه الرب المستحق أنْ يُعبد وحده.

الإطلاق الثاني: تطلق الآية في القرآن على الآية الشرعية الدينيّة، كآيات هذا القرآن العظيم، وهو المراد هنا.

والآية الشرعية الدينية قال بعض العلماء: هي من العلامة أيضاً؛ لأنها علامة على صدق من جاء بها، لما تضمّنته من الإعجاز، أو لأن فيها علامات تعرف بها مبادئها ومقاطعها.

وقال بعض أهل العلم: الآية الشرعية من الآية بمعنى الجماعة؛ لأنها جماعة من كلمات القرآن مشتملة على بعض ما اشتمل عليه القرآن من الإعجاز والحلال والحرام والعقائد، وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ككفّار مكة وكل من كذب بآيات الله ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا وعيد الله. والسين حرف تنفيس، وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أصله: (نَسْتَفْعِلُهم) ومنه: الاستدراج، والاستدراج: استفعال من الدَّرَجَة، والدرجة: واحدة طبقات السلَّم على أصح الأقوال. والمعنى: أنه يستنزلهم درجة درجة ومرتبة مرتبة، حتى يدنيهم إلى ما يشاء من إهلاكهم. فالعرب تقول: «استدرجه» إذا

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

أنزله درجة درجة إلى أنْ وصل إلى ما يقصده منه، أو استعلاه درجة درجة؛ وهذا معروف في كلام العرب أنّ الاستدراج هو الاستنزال درجة بعد درجة حتى يصل الإنسان إلى السوء الذي يراد منه؛ لأن الكفار أراد الله (جل وعلا) أنْ يهلكهم بعذابه المُسْتَأصل ويدخلهم النار لما كذبوا بآياته. فمعنى استدراجه لهم: أنّه يرسل عليهم هذه النعمة فيكثر خصب بلادهم وأرزاقهم وعافيتهم، وتلد نساؤهم ذكوراً، وتتزايد عليهم النعم وتتواتر، فعند ذلك يزدادون بطراً وكفراً فيقربون من الهلاك درجة، ثم إن الله (جل وعلا) يغدق عليهم نعماً أخرىٰ فتزيدهم بطراً إلى بطرهم، وكفراً إلى كفرهم، وغفلة إلى غفلتهم، فيقربون درجة أخرىٰ إلى هلاكهم، حتى إذا انتهت تلك الدرجات التي يستدنيهم الله فيها لما يريد منهم: جاءهم عذاب الله فأهلكهم وصاروا منه إلى الخلود في النار، كما قال (جل وعلا): ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٤٤] والعرب تعرف الاستدراج في لغتها وأنه تقريب الشيء درجة درجة إلى ما يراد منه، وهو معنى معروف في كلامها، ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس[(١)]:

لئنْ كُنتَ في جُبٍّ ثمانينَ قَامةً ... ورُقِّيتَ أسبابَ السماءِ بسُلَّمِ
ليسْتَدْرِجَنْكَ القولُ حتى تَهرَّهُ ... وتَعْلمَ أني عنكم غيرُ مُفْحَمِ
وتَشْرق بالأمرِ الذي قد أذَعْتَه ... كما شَرِقَتْ صدرُ القناةِ من الدمِ

ومحل الشاهد منه قوله: «ليستدرجنك القول» أي: لينزلنك درجة درجة حتى ترىٰ ما تكرهه، وهذا معنى قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي: سنستدنيهم إلى إهلاكهم بتوافر النعم وتزايدها عليهم ليزدادوا بطراً وغفلة حتى يهلكهم الله وهم في أشدّ الغفلة.

﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقد قدمنا[(٢)] أنّ (حيث) كلمة تدل على

(١) ديوان الأعشى ص١٨٣.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

المكان كما تدل (حين) على الزمان، وربما ضُمِّنت معنى الشرط، يجوز في اللغة لا في القراءة تثليث فائها وإبدال (يائها) واواً كما هو معروف في محلِّه.

﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من المكان الذي لا يعلمون أنّا سنستدرجهم، بل هم يظنون أن تلك النعم مسابقة لهم في الخيرات، وأنهم ينالون بعد ذلك أحسن منه، كما قال جل وعلا: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٥٥، ٥٦].

ثم قال جل وعلا: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: آية ١٨٣] عبّر في الفعل الأول بصيغة الجمع للتعظيم قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ وعبّر في الثاني بهمزة المتكلم ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ ومعنى قوله جل وعلا: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أي: سأملي لهم، وأصل مادة (أملى): وأملى يملي أصلها من (المَلَاوَة) بالواو، فلام المادة: واو. والمَلَاوَة: الزمن. ومعنى ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾: أُؤَخِّرهم وأمهلهم مَلَاوَة، أي: زمناً غير قليل كما هو معروف، فالعرب تقول: «أمليت له» و «أملى له» إذا أخَّره مَلَاوَة من الزمن، فأصل الياء مبدلة من واو، والمَلَاوَة: هي الزمن، ومنه قوله تعالى عن أبي إبراهيم: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: آية ٤٦] أصل إحدى الياءين واو. أي: زمناً غير قصير. وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول المهلهل يرثي أخاه كليباً[1]:

فتصدعتْ صُمُّ الجبالِ لفقده وبكتْ عليه المُرمِلاتُ مليّا

أي: مَلَاوَة من الزمن غير قليلة.

ومن هنا كانت العرب تقول لليل والنهار: المَلَوَانِ، ومنه قول تميم بن مقبل[2]:

أَلاَ يا دِيَارَ الحيِّ بالسَّبُعَان أملَّ عليها بالبِلَى المَلَوَان

---

(١) البيت في القرطبي (١١١/١١)، البحر المحيط (١٩٥/٦)، الدر المصون (٦٠٦/٧). وشطره الأول: «فتصدعت صم الجبال لموته».

(٢) البيت في الطبري (٤٢١/٧)، اللسان (مادة: ملا) (٥٣٢/٣).

وتقول العرب: «مَلَوُ الليل والنهار» معناه: زمن الليل والنهار، ومنه قوله[١]:

نَـهـارٌ ولَـيْـلٌ دائِـمٌ مَـلَـواهُـمـا عـلـى كِـلِّ حـالِ الـمَـرءِ يَـخْـتَـلِـفَـانِ

وتقول العرب: «تمليت العيش» و «تملى فلان العيش» أي: عاش في حياته مَلَاوَة من الزمن، وهو معنى معروف في كلامها، ومنه قول الأعلم بن جرادة السعدي ـ أو شاعر آخر من شعراء تيم، أعني تيم الرباب ـ قوله[٢]:

ألَمْ تَرَ ما لاقيتُ والدهر أعصرٌ ومن يتملَّ العيش يَرْأَى ويسمعُ

فقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ﴾ أي: أُمهلهم وأُؤخرهم ملاوة من الزمن ـ والملاوة مثلثة الميم ـ أي: زمناً غير قصير، وأُنعم عليهم حتى يغتروا بتلك النعم فأُهلكهم وهم في أشد غفلة، هذا معنى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ﴾، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) أنّ النبي ﷺ قال: «**إن الله ليملي للظالم**» يعني: يمهله ويؤخره ملاوة من الزمن «**حتى إذا أخذه لم يفلته**» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾[٣] [هود: آية ١٠٢].

قوله: ﴿إِنَّ كَيْدِى﴾ الكيد: في لغة العرب معناه: المكر، وهو أن يكون الفاعل يبطن غير ما يظهر، وسمى الله هذا الاستدراج كيداً لأن ظاهره إنعام وإغداق نعم وباطنه استدراج يستدنيهم به ويستدرجهم إلى الموت والعذاب الدائم الذي يخلدون فيه؛ ولذا قال: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي: استدراجي لهم بالنعم التي تبطرهم وتزيدهم غفلة وبطراً وتكبّراً عن قبول آيات الله، حتى يهلكوا وهم في أشد حالة من الحالات كفراً؛ هذا الكيد كيد الله (جل وعلا) ووصفه بأنه متين، والمتين من كل شيء: القوي الشديد القوة، وكيد الله (جل وعلا): متين، وكيد الله (جل وعلا) من أحسن ما

---

(١) البيت في اللسان (الموضع السابق).

(٢) البيت في المحتسب (١/١٢٩).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأنعام.

يكون، واقع موقعه، تصرف حكيم خبير، حيث أغدق النعم على هذا الكافر فغفل فأخذه في غرّة وغفلة، وعامله بما يستحقه من كفره، وهذا معنى قوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [الأعراف: آية ١٨٤] قد تكلمنا مراراً على الواو والفاء وثم إذا جاءت بعد همزة الاستفهام[١] ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ يعني: يُعملوا أفكارهم، التفكر: هو أنْ يُعمل الإنسان فكره حتى يدرك حقيقة الشيء.

﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ المراد بـ (صاحبهم) نبينا محمد ﷺ و (الجِنَّة) معناه: إصابة الجنون، معناه: أن محمداً ﷺ ليس بمجنون، فإنهم لو تفكروا وأعملوا أفكارهم وعقولهم علموا أنّه (صلوات الله وسلامه عليه) بعيد غاية البعد من الجنون، وأنه تام العقل، رصين العقل، يدعو إلى أحسن الطرق وأعظمها وأبينها، فليس به جنة، وهذا معنى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ أولم يتفكر هؤلاء الكفار المكذبون الزاعمون أنّ رسول الله ﷺ مجنون. ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ ويُعملوا أفكارهم ويرجعوا إلى عقولهم فيتحققوا أن صاحبهم ما به من جنة، ليس به جنون، بل هو (صلوات الله وسلامه عليه) بعيد من الجنون تام العقل، رؤوف رحيم بهم، يدعوهم إلى السعادة الأبدية، وصلاح الدنيا والآخرة.

قال بعض العلماء: صعد ﷺ على الصفا ودعا قبائل قريش، فدعاهم فخذاً فخذاً، وحذرهم عذاب الله ونقم الله، وقال واحد منهم: إن هذا لمجنون. فأنزل الله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾[٢]. وهذا الجنون الذي رموه به نفاه الله عنه في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم: آية ٢] ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٨٩/١٣)، وابن أبي حاتم (١٦٢٤/٥) عن قتادة مرسلاً. وأورده السيوطي في الدر (١٤٩/٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: آية ٢٩] ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: آية ٤٦] فهذا معنى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ [الأعراف: آية ١٨٤] ليس بمجنون صلوات الله وسلامه عليه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ما هو ﷺ إلا نذير مبين. النذير: فعيل بمعنى (مُفعِل) من الإنذار، والإنذار هو: الإعلام المقترن بتهديد خاصة، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً، والنذير بمعنى المُنْذِر، اسم فاعل: أنذره ينذره إذا أعلمه إعلاماً مقترناً بتهديد وتخويف من الله[(١)] إذا لم يطع أوامره (جل وعلا). والتحقيق: أن (الفعيل) في لغة العرب يأتي بمعنى (المُفْعِل) وهو موجود في القرآن وفي كلام العرب، فما يحكيه بعض علماء العربية عن الأصمعي من أن (الفعيل) لا يأتي في اللغة بمعنى (المُفْعِل) إن كان ثابتاً عنه فهو غير صحيح[(٢)]. و (الفَعِيْل) في اللغة والقرآن يأتي بمعنى (المُفْعِل) منه: النذير بمعنى المنذر، والأليم بمعنى المؤلم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم يؤلم وقعه صاحبه ـ والعياذ بالله ـ ومنه قول ذي الرمَّة[(٣)]:

وَيَـرْفَـعُ مـن صُـدورِ شَـمَـرْدَلاَتٍ يَـصُـكُّ وجُـوهَـهَـا وهَـجٌ أَلِـيْـمٌ

أي: وهج مؤلم.

وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي في مطلع عينيته المشهورة[(٤)]:

أَمِـنْ رَيْـحَـانَـة الـدَّاعـي الـسَّـمـيـع يُـؤرقـنـي وأَصْـحَـابـي هُـجُـوعُ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

وقوله: «السميع» معناه: المُسمع، ومنه قوله أيضاً فيها[١]:

وخيلٍ قَدْ دَلَفْتُ لها بخيلٍ تحيَّةُ بينهم ضربٌ وَجِيْع

أي: ضرب موجع. وهو معروف.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ المبين: اسم فاعل أبان يُبين، قال بعض العلماء: هو من (أبان) المتعدية. وعليه فالمفعول محذوف لعمومه، والمعنى: مُبِيْن نذارته، مصرح لكم في غاية البيان بما ينذركم الله به ويحذركم منه. وأكثر العلماء على أنّ قوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة مشبهة هي الوصف من: (أبان) اللازمة، والعرب تقول: أبان الأمر يبين فهو مبين. لازمة بمعنى: وضح واتضح، وقد قدمنا هذا مراراً أنّ (أبان) بصيغة (أَفْعَل)، و(بيَّن) بصيغة (فعَّل) كلتاهما تأتي متعدية للمفعول وتأتي لازمة[٢]، فإتيان (أبان) متعدية معروف مشهور كقوله: «أبان له هذا الأمر، وأبان له حقيقة أمره» كما هو معروف، والعرب تقول: «أبان الشيء يبين». إذا ظهر واتضح، غير متعد للمفعول، وهو معنى معروف في كلامها، والصفة المشبهة منه (مبين)، وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي[٣]:

لو دَبَّ ذَرٌّ فوقَ ظاهرِ جِلْدِهَا لأَبَانَ من آثارهن حُدورُ

يعني: لظهر واتضح وبان من آثار النمل ورم. ومنه قول جرير[٤]:

إذا آباؤُنَا وأبوكَ عُدُّوا أَبَانَ المُقْرِفَات من العِرَابِ

أي: ظهرت واتضحت، والمُبِيْنُ من هذا بمعنى: البين الواضح، ومنه قول كعب بن زهير في (بانت سعاد)[٥]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من هذه السورة.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.
(٣) السابق.
(٤) السابق.
(٥) السابق.

قَنْواءُ في حُرَّتَيْها للبصيرِ بها عِتْقٌ مُبينٌ وفي الخَدَّيْنِ تَسْهيلُ

فقوله: «عتقٌ مبينٌ» أي: كرم بيّن ظاهر.

وقد قدّمنا هذا مراراً. فعلى القول الأول (مبين): أي: مُبَيِّنٌ ما ينذركم ويحذركم به، موضح له بالتفصيل.

وعلى الثاني أنّه الصفة المشبهة من: (أبان) اللازمة، فمعنى: (مبين): نذير بيّن الإنذار واضحه، لا إشكال في إنذاره، وهذا معنى قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: آية ١٨٤].

ثم قال جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ [الأعراف: آية ١٨٥] النظر هنا هو النظر بالقلوب والتفكر والتدبر بها؛ لأن الله يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦].

والملكوت: مصدر مَلَكَ يَمْلِك مُلْكاً ومَلَكُوتاً. والواو والتاء زيدتا للمبالغة، فالملكوت: الملك العظيم الهائل، كما دل على عظمه: زيادة الواو والتاء. ومعروف أن (الفَعَلُوت) بزيادة الواو والتاء في المصادر معروف في كلام العرب، كالرَّحَمُوت، والرَّغَبُوت، والرَّهَبُوت، والمَلَكُوت. فالملكوت معناه: المُلْك العظيم ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: في ملك الله العظيم في السماوات والأرض حيث رفع السماء بغير عمد ترونها وجعلها لا تتشقق ولا تتفطر ولا تحتاج إلى ترميم. والكفرة الفجرة أبناء الكلاب والخنازير الذين يدَّعون أنه ليس فوقنا سماء، وإنما هو فضاء ولا سماء فيه يُكذبون خالق السماوات والأرض لجهلهم وظلام قلوبهم بالكفر، فهي سبع سماوات مبنية وصفها الله بالشدة في قوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ [النبأ: آية ١٢] وبيّن أنه بناها بقوّة هائلة ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: آية ٤٧] وأبعد سمكها ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: آية ٢٨]، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا

فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨﴾ [ق: الآيات ٦ ـ ٨] وهذا معنى قوله: ﴿فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ لفظة (ما) في محل خفض معطوف على المجرور ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وينظروا في ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ في السماوات من النجوم والشمس والقمر، وفي الأرض من البحار والجبال والثمار والمعادن والدواب ونحو ذلك مما يدل على كمال قدرة خالقه (جل وعلا). وأنه الرب المعبود وحده.

ثم قال: وينظروا أيضاً في ﴿أَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ﴾ (أنْ) هذه هي المخففة من الثقيلة، وإذا كان الفعل بعدها غير متصرف لا تحتاج إلى فصل بينها وبينه. إلى أنه ـ أي: الأمر والشأن ـ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ﴾ وربما استُغني بالمصدر في (أن) وصلتها وصار فاعل (عسىٰ) واستغني به عن غيره.

قوله: ﴿قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ﴾ أي: قد دنا وقت موتهم فيبادروا إلى تدارك ما يرضي الله لئلا يهلكوا.

وهذه الآية قد استدل بها علماء الأصول على أن صيغة الأمر تدل على الفور لا على التراخي[1]، كما رُوي عن الشافعي (رحمه الله)؛ لأن الله أمرهم بالنظر في ملكوته ليستدلوا على أن صانع هذا الكون واحد (جل وعلا)، وأنه المعبود وحده، وأنه يجب أن يُطاع وتُصدق رسله وتُمتثل أوامره. قال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: آية ١٠١] ثم قال: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: آية ١٨٥] وهددهم باحتمال اقتراب آجالهم خوف أن يفاجئهم الموت قبل أن ينظروا فيصيروا إلى النار. ولا شك أن هذه الآية تدل على أن أوامر الله ينبغي أن تكون على الفور وتُمتثل بسرعة؛

(١) انظر: مذكرة أصول الفقه ص١٩٦.

لأن الإنسان عسىٰ أن يكون قد اقترب أجله فيخترمه الموت قبل أن يمتثل. فاستدلال علماء الأصول بهذه الآية الكريمة على اقتضاء الأمر الفور استدلال صحيح وواقع موقعه، وقد دلت على ذلك اللغة أيضاً قال علماء العربية: لو قال السيد لعبده: «اسقني ماء». ثم إن العبد توانىٰ وأبطأ فأدبه سيده فليس للعبد أن يقول: صيغة الأمر في قولك: «اسقني ماء» لا تقتضي الفور، وإنما هي على التراخي، وكنت متراخياً في الامتثال؛ لأن الصيغة كذلك أفادت!! بل اللغة العربية تقتضي الفور كما دلت عليه هذه الآية. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾.

ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن العظيم مع وضوح أدلته، واتضاح معجزته، وكرامة ما يدعوا إليه من توحيد الله ومكارم الأخلاق والأفعال الحسنة، إذا كانوا لمْ يؤمنوا بهذا ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ﴾ أي: بأي حديث غيره ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا بأحق الأحاديث بأن يُؤْمَنَ به، وأن يُصدق، وأن يُعظم، وأن يُعمل به، إذا لم يؤمنوا به فبأي حديث آخر يؤمنون؟! والمعنىٰ: أن من ترك الإيمان بما هو أحق شيء بأن يُؤْمَن به لا يؤمن بشيء أبداً، إذ لو كانوا يؤمنون بشيء لآمنوا بهذا القرآن. فهو أسلوب عربي معروف، إذا كان الشيء أولىٰ من غيره بالمسألة يُقال: فبأي شيء بعد هذا تفعل؟ إذا لمْ تفعله بأحق شيء فبأي شيء غيره تفعل؟! كما هو معروف في كلام العرب، ومن هذا المعنى قول الأعشى[1]:

صَدَّتْ هُريرةُ عنَّا ما تُكلمُنا جَهْلاً بأُمِّ خُليدٍ حَبْلَ مَنْ تَصِلُ

يعني: إذا لمْ تصل حبالنا ونحن أكرم الناس وأحقها بوصل الحبال فمن تصل حبله بعدنا؟! وهذا أسلوب عربي معروف.

والله (جل وعلا) قد سمىٰ كتابه حديثاً؛ لأنه كلام رب العالمين ﴿ٱللَّهُ

---

(١) ديوان الأعشى ص١٣١.

نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: آية ٢٣] ولذا قال هنا: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٨٥].

ثم قال: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ (مَنْ) شرطية، ويضلله الله: يصرف إرادته وقدرته بإرادته وقدرته إلى طريق النار عن طريق الجنة والعياذ بالله.

﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: آية ١٨٦] ليس أحد يهديه بعد الله ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: آية ٤١] ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: آية ٣٧] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: آية ٥٦] فمن هداه الله لا مضل له، ومن أضله الله لا هادي له. وهذا معنى قوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)﴾.

في هذا الحرف ثلاث قراءات سبعية متواترة عن النبي ﷺ كلها صحيح لا نزاع فيها[١]: قرأه نافع وابن كثير وابن عامر: ﴿**ونذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾ (بالنون) وصيغة الجمع يُراد بها التعظيم، عظَّم الله نفسه. وقرأه من السبعة: أبو عمرو، وعاصم في رواية حفص وشعبة: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ بياء الغيبة وضمّ الراء. وقرأه حمزة، والكسائي من الكوفيين: ﴿**ويَذَرْهم في طغيانهم يعمهون**﴾.

وهذ الفعل المضارع معطوف على جزاء الشرط الذي هو قوله: ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾؛ والمقرَّر في علم العربيَّة ـ كما هو مشهور في العربية ـ أنّ كل فعل عُطف على جزاء الشرط بفاء أو واو ففيه ثلاث لغات[٢]: يجوز فيه: الرفع، ويجوز فيه: الجزم، ويجوز فيه: النصب. فكلّه جائز، ولغات عربيّة

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٧.

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٣١٨).

معروفة، وقراءات صحيحة معروفة؛ لأنّ ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ جزاء الشرط، وجزاء الشرط في محل جزم، فقراءة حمزة والكسائي جزموا ﴿ويذرهم﴾ لأنه معطوف على جزاء الشرط وأصله مجزوم؛ والذين رفعوه لغة فصيحة وقراءة صحيحة[١]. وأما النصب: فهو لغة فصيحة، ولكنّه لم يقرأ به أحد من السبعة مع أنه لغة.

و (الطغيان) في لغة العرب[٢]: مجاوزة الحدّ؛ وهو مصدر: طغى يطغىٰ إذا جاوز حدّه، زيدت في مصدره الألف والنون كما زيدتا في: (الكفران) و (الرجحان) وطغى الشيء إذا جاوز حدَّه، ومنه قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١﴾ [الحاقة: آية ١١] أي: جاوز الحدود التي يبلغها الماء عادة.

وقوله: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ قال بعض علماء العربية: (العَمىٰ) بالألف يُطلق على عمىٰ العين وعمىٰ القلب، أما (العَمَه) بالهاء فلا يُطلق إلّا على عمىٰ القلب خاصة[٣]. فمعنى ﴿يَعْمَهُونَ﴾: يترددون حائرين لا يعرفون حقاً من باطل، ولا حسناً من قبيح، ولا ضلالاً من هدى لعمىٰ قلوبهم ـ والعياذ بالله ـ ومن تركه الله يتردد في ضلالته ولم يهده فهو الضال ـ والعياذ بالله ـ وهذا معنى قوله: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٨٦].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٧﴾ [الأعراف: آية ١٨٧].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ الساعة: القيامة، غلب عليها ذكر هذا اللفظ مع أن الساعة أصلها تطلق على كل وقت من الزمن. والتغليب ـ بأن يغلب الشيء العام على بعض ما يُراد به ـ أسلوب عربي معروف، كإطلاق العرب النجم على الثريا، مع أنه لكل نجم ونحو ذلك.

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٥٢٧).

(٢)(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٠) من سورة الأنعام.

والذين سألوه: قال بعض العلماء[١]: هم كفار مكة. وقال بعض العلماء: نفر من اليهود. ولا مانع من أن يكون كلٌّ منهم سألوه عنها. ولا شك أن كفار مكة كانوا يسألونه عن الساعة وينكرون مجيئها ويزعمون أنها لا تأتي، كما في قوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: آية ٦٣] وبيّن أن كفار مكة يستعجلون بها إنكاراً منهم لها، كما في قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: آية ١٨] سواءٌ قلنا: إن السائلين عنها كفار مكة أو اليهود.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ﴾ (أيان): ظرف زمان بمعنى (متىٰ)[٢]. قال ابن جني: وزنه (فَعلان) أصله من «أيِّ» أي وقت يكون فيه هذا؟ فزيد فيه الألف والنون وبُني على الفتح لشبهه بالحرف الشبه المعنوي، كما هو معروف في محلِّه.

وعلى كل حال فـ (أيان) سؤال عن زمن، فهي من ظروف الزمان بمعنىٰ (متىٰ) وربما ضُمِّنت معنىٰ الشرط فجزمت فعلين.

وقوله: ﴿مُرْسَىٰهَاۖ﴾ المُرسَى: اسم زمان، والمعنىٰ: في أي وقت يكون زمان رُسُوِّها، أي: وجودها وثبوتها. وقد تقرر في علم التصريف: أن كل فعل زاد ماضيه على ثلاثة حروف من الرباعي فصاعداً أنه يستوي وزن مصدره الميمي، واسم مكانه، واسم زمانه، وكلها بصيغة اسم المفعول، كما هو مقرر في محله مشهور[٣].

فالمُرْسىٰ هنا وزنه: (مُفْعَل) بصيغة المفعول، والألف في آخره أصلها مبدلة من واو، والمقرر في علم التصريف: أن كل ألف مبدلة من واو إذا كانت متطرفة رابعة فصاعداً أنها تُقلب ياءً بقياس مطرد في جميع اللغة

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٩١/١٣).

(٢) انظر: الدر المصون (٥٢٩/٥)، اللسان (مادة: أين) (١٤٨/١).

(٣) انظر: التوضيح والتكميل (٨٣/٢).

العربية[١]. فالمُرْسَىٰ وزنه: (مُفْعَل)[٢] بصيغة اسم المفعول، وهو اسم زمان، والفعل إذا زاد ماضيه على ثلاثة كان اسم زمانه واسم مكانه ومصدره الميمي كلها بوزن اسم المفعول كما هو معروف مقرر في محلّه[٣].

ومعنى: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ في أي وقت يكون رُسوها؟ أي: ثبوتها ووجودها بالفعل قائمة. وهذا سؤال منهم عن الوقت الذي يتحقق فيه وجود الساعة. ﴿قُلْ﴾ لهم يا نبي الله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ قد تقرر في فن الأصول في مباحث دليل الخطاب[٤] ـ أعني مفهوم المخالفة ـ وفي فن المعاني ـ في مبحث القصر ـ أن (إنّما) من صيغ [الحصر، فهي كالنفي][٥] والإثبات. وهو الصحيح ـ إن شاء الله ـ من كلام العلماء، والدليل عليه: أن (إنّما) توضع مكان النفي والإثبات، فدل ذلك على أنها صيغة حصر؛ لأن أعظم صيغ الحصر: النفي والإثبات، كقوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الصافات: آية ٣٩] ووضع موضعه في محل آخر: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: آية ١٦] ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: آية ٧٣] ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء: آية ١٧١] وهذا يدل على أن (إنما) أداة حصر، وهو التحقيق إن شاء الله.

﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ يُحصر علمها في خالق السماوات والأرض، لا يعلم وقت مجيئها لا رسول مرسل ولا ملك مقرب، ولا يعلمه إلّا الله. وهذا معنى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي: خالقي ومدبر شؤوني استأثر به عن خلقه. وقد قدمنا أنه ثبت في صحيح البخاري وغيره تفسير النبي ﷺ قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: آية ٥٩] بأنها الخمس المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ الآية[٦] [لقمان: آية ٣٤].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٢/٤٩٤).

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٢٥.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٩٨) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٦٥) من سورة الأعراف.

(٥) في الأصل: «العموم، فهي كالحصر» وهو سبق لسان.

(٦) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي: علم وقت رسوها ومجيئها وثبوتها عند ربي وحده لا يعلمه أحد من خلقه؛ لأنه لم يطلع عليه أحداً من خلقه.

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ يجليها مضارع جلَّاها. والعرب تقول: جلى الأمر يُجَلِّيه إذا أظهره وأبرزه وبيّنه. ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ أي: لا يظهرها ويبرزها ويوجدها بالفعل في وقتها إلَّا هو[1]. قال بعض العلماء: اللام للتوقيت، فهي بمعنىٰ الفاء. أي: لا يظهرها في وقتها المقدر لها إلا هو وحده، فلا يعلم غيره وقتها. والعرب ربما جاءت باللام بمعنى في. يقولون: «وقع هذا الأمر لثلاث من الشهر الفلاني». أي: في تاريخ ثلاث.

وقال بعض العلماء: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا﴾ أي: لا يُظهر حقيقة خبرها ويكشف عن مكان وقتها بالتحقيق إلا هو وحده جل وعلا.

ثم قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اختلف العلماء في معنىٰ ثقلها في السماوات والأرض على قولين[2]: قال بعض العلماء: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خفيت عليهم فثقل عليهم خفاؤها؛ لأن كل شيء خفي على الإنسان ولمْ يعلمه ثقُل عليه. وهذا الوجه وإن كان ليس قريباً من الظاهر هو الذي اختاره كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري (رحمه الله)، واستدل على اختياره له بأن ما بعده من الكلام وما قبله كله في معرض علم الساعة؛ لأن قبله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ وبعده: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ فاختار أن المراد بقوله: ﴿ثَقُلَتْ﴾ أي: خفي علمها وثقل علىٰ الناس جهلها.

وقال بعض العلماء: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: كبرت الساعة وعظمت على أهل السماوات والأرض؛ لأنَّ ما فيها من الأهوال والأوجال يصعب على جميع الخلائق. وهذا أقرب.

(١) انظر: ابن جرير (٢٩٤/١٣).

(٢) انظر: ابن جرير (٢٩٥/١٣)، القرطبي (٣٣٥/٧).

وقال بعض العلماء: لا تطيقها السماوات والأرض؛ لأن السماوات تعجز عن حملها فتتشقق، وتتناثر النجوم، وتُلَفُّ الشمس، ويُخسف القمر، وأن الأرض تُرفع جبالها، وتُبدل الأرض غير الأرض فلا تطيقها السماوات والأرض وأنها تعظم وتثقل وتكبر على أهلها لشدة ما فيها من عظم الأهوال والأوجال. ولا شك أن الشيء الذي يدك الجبال؛ تُنزع الجبال من أماكنها، وتُسير بين السماء والأرض، ثم تُفتت وتطحن؛ لأن الله (جل وعلا) ذكر تغيير نظام هذا العالم، فبين في ذلك اليوم إن الجبال تُنزع من الأرض وتُطيَّر بين السماء والأرض، وهو قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ: آية ٢٠] وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: آية ٤٧] وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي: في ذلك اليوم بعد أن تُنزع من الأرض وتُسير بين السماء والأرض.

وما يزعمه بعض من لا علم له بأن ذلك في دار الدنيا، وأن الجبال سائرة في دورة الأرض، فهو تحريف لكتاب الله وتفسير له بغير معناه، وصاحبه سلخ آخر الآية من أولها؛ لأن أول الآية: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثم قال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ [النمل: الآيتان ٨٧، ٨٨] أي: ويوم ينفخ في الصور فيفزع من في السماوات والأرض ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ في ذلك اليوم ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ﴾ [النمل: آية ٨٨] ومرورها ذلك اليوم هو سيرها المعبَّر عنه بقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النبأ: آية ٢٠] وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: آية ٤٧] ثم إنّ رب السماوات والأرض يطحن تلك الجبال بقوته، فقساوة الجبال وشدتها عنده لا شيء لعظمته وكمال قدرته فيطحنها (جل وعلا) ويفتتها؛ وبعد تفتيتها: مرّة شُبهت بالبسيسة ـ والبسيسة: دقيق ملتوت بسمن ـ وهو قوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ [الواقعة: آية ٥] أي: فُتت حتى صارت كالبسيسة. وتارة شبهها في لينها وانتزاع القسوة منها بالعهن المنفوش، كقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾ [القارعة: آية ٩]. وتارة شبّهها بالرمل الليّن المتهايل في قوله: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: آية ١٤]. ثم إن الله (جل وعلا) يصيرها في آخر أمرها سراباً كما

قال: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ والسراب يقرب معناه من الهباء المنبث، فهذا معنى قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما كان هكذا: يفتت الجبال، ويزعزع الأرض لا ترىٰ فيها عوجاً ولا أمتاً، وتتشقق فيه السماء، وتتناثر النجوم، ويسقط الشمس والقمر، وتفجّر البحار بعضها مع بعض فلا يخفىٰ ثقل هذا اليوم على أهل السماوات والأرض لشدّة أهواله وأوجاله.

وقوله: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ حكم الله (جل وعلا) أنّ القيامة لا تقوم على الناس إلا بغتة، أي: في حال كونها باغتة لهم، أي: مفاجئة لهم، وقد ثبتت الأحاديث عن النبي ﷺ: أن الساعة تقوم على الناس وهمْ في أشغالهم، الرجل منصرف بلبن لقحته فتقوم الساعة قبل أن يشربه، والرجلان يتبايعان ثوبهما فتقوم الساعة قبل أن يتبايعا، والرجل يصلح حوضه ليسقي فيه فتقوم الساعة قبل أن يصلحه، وهكذا. وقد يذهب الرجل ليأتي أهله بحاجة من السوق فتقوم الساعة ولا يقدر على أن يوادعهم ولا أن يوادعوه، كما قال جل وعلا: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾ [يس: آية ٥٠] فهي تفاجيء الناس وهم في أشدّ غفلة، فتأتيهم فتهلكهم جميعاً، وهذا معنى قوله: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ في قوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ وجهان من التفسير(١):

أحدهما: أن الحفيّ هو من الحفاوة، والحفاوة: الكرامة، تقول: فلان حفيٌّ بي. أي: أنا كريم عليه، ولقيت منه حفاوة. أي: كرامة ولطفاً. ومنه قول إبراهيم: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: آية ٤٧] والذين ذكروا هذا القول زعموا أن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: ليس منا فخذ إلا بينك وبينها قرابة؛ فلأجل القرابة التي بيننا وبينك أَسِرّ لنا الوقت الذي تقوم فيه القيامة، أَسِرَّهُ إلينا عن الناس. فأنزل الله الآية(٢). وعلى هذا القول

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٩٧/١٣)، القرطبي (٣٣٦/٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٩٨/١٣)، عن قتادة مرسلاً.

ففي الآية تقديم وتأخير ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ عنها، عن وقت رُسُوّها ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ﴾ كأنك صديق لهم وقريب لهم لتخبرهم بما لم تخبر به الناس. هذا القول قاله جماعة من العلماء. وأظهر القولين: أن المراد بالحفيّ هنا: الذي يستحفي السؤال ويتقصيه[1]، العرب تقول: «فلان يستحفي السؤال». معناها: يبالغ في السؤال عن الأمر ويتقصاه حتى يعلم حقيقته. يعني: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: مبالِغ في تقصّي أخبارها ممن عنده خبرها حتىٰ تحققت جميع أخبارها والأمر بخلاف ذلك. والعرب تقول: «فلان حفيّ» أي: كثير السؤال عن هذا الشيء، يتقصّىٰ السؤال عنه حتىٰ يعرفه، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الأعشى[2]:

فإنْ تَسْألي عَنّي فيا رُبَّ سَائِلٍ ... حَفيٌّ عن الأعشَىٰ به حيثُ أَصْعَدَا

والوجهان متقاربان، والأخير أقرب. وهذا معنى قوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم يا نبي الله ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ كَرَّرَ ردَّ علمها إلى الله ليُعْلِم الخلق أنها لا يعلمها إلا الله.

وقال بعض العلماء: العِلْمَان ليسا شيئاً واحداً ـ أعني قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ـ قال بعض العلماء[3]: أحد العلمين: عِلْم عِظمها وفظاعتها، فلا يعلمُ قدرها إلَّا من يجليها لوقتها. الوقت الثاني: علم وقت مجيئها بالتعيين. والظاهر أنه توكيد، والتوكيد أسلوب عربيّ معروف ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [النبأ: الآيتان ٤، ٥] وما جرى مجرى ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله (جل وعلا) استأثر بعلمها فهو (تعالىٰ) مستأثر بعلمها كما صرح به في آيات متعددة كقوله هنا: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقوله في سورة الأحزاب: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ

---

(١) هكذا في الأصل، وهو من سبق اللسان، وصوابه: ويتقصَّاه.

(٢) ديوان الأعشى ص٥٠.

(٣) انظر: القرطبي (٣٣٦/٧).

﴿ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: آية ٦٣] وقوله في النازعات: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: الآيات ٤٢ ـ ٤٤] وقد ثبت في الصحيح في حديث جبريل لما أتى النبي ﷺ في صورة أعرابي وسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان، قال له: أخبرني عن الساعة. قال ﷺ: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»[(١)]. يعني لا نعلمها أنا ولا أنت؛ لأن الله استأثر بعلمها، والله (جل وعلا) استأثر بعلمها لَمْ يُطلع عليه نبياً مرسلاً ولا ملكاً مقرباً.

٢٥/ب / ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٨٨ ـ ١٩٠].

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: آية ١٨٨].

أمر الله (جل وعلا) نبيه في هذه الآية الكريمة أن يقول معلناً لجميع الناس إنه (صلوات الله وسلامه عليه) ـ وهو أفضل خلق الله وأكرمهم على الله أنه لا يملك لنفسه نفعاً يجلبه إليها، ولا ضراً يدفعه عنها. فالكلام على حذف مضاف دل المُقام عليه ﴿نَفْعًا﴾ أي: جلب نفع لنفسي أنتفع به. وقوله: ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ أي: دفع ضرٍّ عن نفسي.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ خالقي (جل وعلا) أن يملكني إيَّاه ويعينني عليه ويقوِّيني عليه فإني أملكه بمعونة الله وقدرته ومشيئته. وهذه عادة الرسل الكرام (صلوات الله عليهم)، يبينون للخلق أن النافع والضار هو خالق

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

السماوات والأرض (جل وعلا) ليوجه الخلقُ إليه جميع رغباتهم ورهباتهم، وأولى الناس بهذا الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) وأتباعهم فإنهم يوجهون جميع رغباتهم ورهباتهم إلى من بيده النفع والضّر لينفعهم ويدفع عنه الضر، وهذا معنى قوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: ولا أعلم الغيب أيضاً. كما أمره أن يعلن ذلك ويقوله في سورة الأنعام في قوله مخاطباً لنبينا ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ الآية [الأنعام: آية ٥٠]. فأول رسول بعثه الله لأهل الأرض بعد أن كفروا هو نوح (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام)، أمره الله أن يقول هذا: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: آية ٣١] وآخر رسول بعثه الله وختم به الأنبياء: نبينا محمد ﷺ أمره أيضاً بذلك حيث قال له في الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: آية ٥٠] وقوله هنا، كأنه قال: ولا أعلم الغيب ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ اعلموا أولاً أن قول جماعة من المفسرين أن معنى: ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: من العمل الصالح قول لا شك في أنه ليس بصحيح؛ لأنه ﷺ مستكثر من العمل الصالح على كل حال، وعمله ديمة (صلوات الله عليه وسلامه). وفي الآية للمفسرين أقوال معروفة[١]، التحقيق إن شاء الله فيها أن معنى قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف: آية ١٨٨] من المال ومن غير المال؛ لأنَّ من يعلم ما يكون يعلم الأسباب الذي تستوجب الأمراض فيتقيها فيبقىٰ صحيحاً، ويعلم أوقات الغيب التي يأتي الله فيها بالربح والغلاء والرخص فيدخر للغلاء عدته وللرخص عدته، ويعلم الغيب فيما إذا باع هذا أنه يربح وإذا اشترى هذا أنه يخسر، إلى غير ذلك، فهو دائماً يستكثر من الخير؛ لأن الناس إنما يُغبنون فيشترون شيئاً يخسرون فيه، أو يفعلون فعلاً يضرهم، أو يكون سبباً

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٣٠٢)، القرطبي (٧/٣٣٦).

لمرضهم إنما ذلك من عدم علمهم بالغيب. أمَّا من يعلم الغيب ويعلم ما يكون فإنه إذا اشترى هذه السلعة هو عالم هل يربح منها أو يخسر فيها، فلا يخسر أبداً، وكذلك يعلم إذا اشترىٰ المواشي والرقيق أن هذا يموت بسرعة وهذا يعيش كثيراً، وأنه إن فعل كذا أصابه المرض، فتجنب أسباب الغبن، وأسباب الأمراض، وصار لا يعمل إلاَّ ما فيه خير له لاطلاعه على عواقب الأمور، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ معطوف على جواب (لو) فهو في معنى جواب (لو) أي: ولو كنت أعلم الغيب ما مسني السوء؛ لأن من يعلم الغيب ويعلم متى يأتيه السوء وما سببه يتجنب أسباب السوء من أول، فلا يصل إليه السوء، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ فهو أعم من المال كما بيّنا.

﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ يعني: ما أنا مالك لنفسي النفع ولا الضر، ولا أنا عالم بالغيب، كل ذلك إلى ربي، ولكني رسول من رب العالمين أُنذر من عصى الله بعقابه، وأُبشر من أطاع الله برضوانه وجنته، كما قال هنا: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٨٨] (إن) هنا هي النافية، والمعنى: ما أنا. وهذا القصر قصر إضافي ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ قد قدمنا(١) بالأمس أن النذير بمعنى المنذر، وأن الإنذار هو الإعلام المقترن بتهديد، فكل إنذار إعلام وليس كل إعلام إنذاراً. ومعنى: (نذير) أي: منذر لمن عصى ربي وكفر به بالنار ﴿وَبَشِيرٌ﴾ أي: مبشر للمؤمنين بالجنة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: آية ٩٧] ونحو ذلك من الآيات.

والبشارة في لغة العرب أكثر ما تطلق على الإخبار بما يسرّ، فَبَشَّرَه وبَشَرَه معناه: أخبره بما يسره. قال بعض العلماء: قيل لها بشارة لأن السرور تظهر به حركة الدم فيظهر على بشرة الوجه آثار السرور. وربما

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

أطلقت العرب البشارة على الإخبار بما يسوء، والظاهر أن إطلاق العرب البشارة على الإخبار بما يسوء أسلوب عربي معروف، فما هو مقرر في علم البلاغة[١]: أن إطلاق البشارة على الإخبار بما يسوء أنه من نوع الاستعارة التي يُسمونها بالعنادية[٢] ـ ويقسمونها إلى تهكمية وتمليحية ـ الظاهر أن كل ذلك لا حاجة إليه وإن أطبق عليه المتأخرون؛ لأنها أساليب عربية نطقت بها العرب ونزل بها القرآن.

والعرب تطلق البشارة على الإخبار بما يسوء، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾ [الجاثية: الآيتان ٧، ٨] وإطلاق البشارة على ما يسوء إطلاق معروف، وأسلوب عربي معروف تكلمت به العرب في لغتها، ونزل به القرآن، ومنه في كلام العرب قوله[٣]:

يُبَشِّرُني الغُرابُ بِبَيْنِ أَهْلِي فقُلتُ لهُ ثكِلتُكَ من بَشيرِ

وقول الآخر[٤]:

وبَشَّرْتَني يا سَعْدُ أن أَحِبَّتي جَفَوني وقالوا: الودُّ موعدُهُ الحَشْرُ

هذا إخبار بما يسوء، وهذا معنى قوله: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٨٨].

الظاهر أنه (جل وعلا) في هذه الآية خص النذارة والبشارة بخصوص المؤمنين؛ لأنهم هم المنتفعون بها، [لأن غير المنتفع بها هي في شأنه كلا شيء. ونظير الآية من القرآن: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: آية ٤٥] مع أنه تذكير للأسود والأحمر، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

﴿ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: آية ١١] وهو منذر للأسود والأحمر، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ [فاطر: آية ١٨] وهو منذر للأسود والأحمر. أي: بأنهم هم المنتفعون.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فالنفس الواحدة هي آدم عليه السلام، وزوجها حواء. و(جعل) تأتي في كلام العرب على أربعة أنحاء، ثلاثة منها في القرآن، والرابع موجود في لغة العرب وليس في القرآن. وهذه المعاني هي:

الأول: (جعل) بمعنى اعتقد. وهي تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ أي: اعتقدوا الملائكة إناثاً.

الثاني: (جعل) بمعنى (صيَّر) ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾... أي: صيرنا شياطين الإنس والجن عدواً لكل نبي. وهي أيضاً...][1] تنصب المبتدأ والخبر أيضاً.

الثالث: جعل بمعنى (خلق)[2] ومنه قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: آية ١] أي: خلق الظلمات والنور، بدليل قوله: ﴿خَلَقَ﴾ قبله.

والظاهر أن هذا المعنى هو الذي منه قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: آية ١٨٩] أي: وخلق منها زوجها. وخير ما يُفسر به القرآن القرآن، وقد بيّنت آية النساء أن (جَعَل) هنا في سورة الأعراف وفي سورة الزمر معناها (خلق) لأن الله قال في أول سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وقد تم استدراك النقص المتعلق بتفسير الآية (١٨٨) من كلام الشيخ (رحمه الله) عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام. كما تم استدراك النقص الواقع في تفسير الآية (١٨٩) من كلام للشيخ (رحمه الله) عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام. وجعلت ذلك كله بين معقوفين.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: آية ١] فقوله في النساء: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ دليل قرآني على أن قوله في الأعراف: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وقوله في الزمر: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: آية ٦] أن (جعل) فيهما بمعنىٰ (خلق) وهذا هو الأظهر لدلالة القرآن عليه(١).

وقوله: ﴿زَوْجَهَا﴾ يعني: حواء، وقد قدمنا(٢) أن امرأة الرجل يُقال لها: (زوجُه) بلا تاء، وهذه هي اللغة الفصحىٰ، وهي لغة القرآن، وشذ قوم من علماء العربية فزعموا أن الزوجة بالتاء لحن، وأنها من كلام الفقهاء المَلْحُون، والتحقيق أن (الزوجة) بالتاء - لامرأة الرجل - أنها لغة لا لحن، إلَّا أن اللغة المشهورة الفصحىٰ أن تقول لامرأة الرجل: «هذه زَوجُه». ولو قلت: «هذه زوجته» لكانت لغة، ولم يكن لحناً، خلافاً لما ذكره بعض علماء العربية. ومن إطلاق الزوجة بالتاء على امرأة الرجل في كلام العرب: قول الفرزدق، وهو عربيٌ فصيح(٣):

وإنْ الذي يَسْعَى لِيُفْسِدَ زَوْجَتي ... كَسَاعٍ إلى أُسْد الشرى يستبيلها

وقول الحماسي(٤):

فبكىٰ بناتي شَجْوَهُنَّ وزوجَتي ... والظَّاعنُونَ إليَّ ثم تَصَدَّعُواْ

وفي صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال في صفية: «**إنها زوجتي**»(٥) على القول بأن الحديث يُستدل بألفاظه في العربية. فقوله:

---

(١) وبقي المعنى الرابع من معاني (جعل) لم يذكر هنا وقد ذكره عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام، وهو بمعنى (شرع) وذكر هناك أنه ورد في اللغة ولم يرد في القرآن. فراجعه إن شئت.

(٢) انظر: القرطبي (١/٢٤٠)، اللسان (مادة: زوج).

(٣) البيت في المصدرين السابقين. و(الشرى) مأسدة بجانب الفرات يُضرب بها المثل. ومعنى (يستبيلها) أي: يأخذ بولها في يده.

(٤) البيت لعبدة بن الطبيب، وهو في الخصائص (٣/٢٩٥)، المفضليات ص١٤٨، أوضح المسالك (١/٣٥٩).

(٥) مسلم في السلام، باب بيان أنه يُستحب لمن رُؤي خالياً بامرأة وكانت زوجة أو محرماً له أن يقول: هذه فلانة ليدفع ظن السوء به. حديث رقم (٢١٧٤)، (٤/١٧١٢).

﴿جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: خلق من هذه النفس الواحدة التي هي آدم زوجها، أي: امرأة آدم، التي هي الأم حواء. وقد بيّن (جل وعلا) أنه خلق حواء من آدم في ثلاث آيات من كتابه: الأولىٰ قد قدمناها في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: آية ١] وقال هنا في الأعراف: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء. وقال في الزمر: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: آية ٦] فهذه الآيات الثلاث لها شأن عظيم، وخطب جليل، وإشارات إلى أمور عظيمة، سنُلمّ بأطرافها بعض الإلمام: فاعلموا أيها الإخوان أن هذا القرآن العظيم هو كلام رب العالمين ونوره المبين الذي أنزله على خلقه ليستضيئوا بنوره، وقد يشير إلى جميع الأشياء ولا تكون في الدنيا مشكلة إلا أشار لها، وهذه الآيات الثلاث تضمنت حِكَماً لا بد من الإلمام بها والتنبه لها، كما على المسلمين أن يتفهموا ذلك.

اعلموا أن الله في هذه الآيات الثلاث من كتابه في سورة النساء، وفي سورة الأعراف، وفي سورة الزمر بيّن أنه خلق المرأة الأولىٰ ـ التي هي مبدأ نشأة إيجاد النساء خلقها ـ من ضلع الرجل الأول؛ لتعلموا بذلك أن ابتداء نشأة الأنثىٰ ومبدأ خلقها أنها لم تُخلق مستقلة في الوجود عن الرجل، بل خُلقت في أصل نشأتها الأولىٰ التي أنشأها الله عليها وجودها تابع لوجود الرجل، ومستندة في وجودها على وجوده. وهذا الأمر أمر كوني قدري جبل الله عليه إيجاد الأنثىٰ حيث أوجدها، وهذا الأمر الكوني القدري تحته لوازم عظيمة من عدم مساواة الرجل والأنثىٰ في عشرات الميادين لعدم مساواتهما في النشأة الأولىٰ والإيجاد الأول. فالرجل وُجد ونشأ أولًا مستقلًا بوجوده عنها، لم يتوقف وجوده على وجودها، وهي في نشأتها الأولىٰ وإيجادها الأول أُنشئت جزءاً منه، وجودها تابع لوجوده مستند إليه.

ولوازم هذه المسألة الكونية القدرية لم يهملها رب السماوات والأرض لأنه الحكيم الخبير، فَتَحْتَ هذه الإيجاد الأول لوازم تابعة له كثيرة قد جاءت مبينة في الحس والعقل والشرع الكريم، نُلم بشيء منها، وبهذا

تعلمون أن ملاحدة الإفرنج الكفرة وأتباعهم من الخفافيش الذين يزعمون أنهم مسلمون، الذين يقولون: «إن الأُنثىٰ كالرجل في جميع الميادين» يكذبون أولًا في النشأة الأولىٰ والإيجاد الأول، فإنهما عندما أراد الله إيجادهما لمْ يبدأ إيجادهما بالتسوية، بل جعله إيجاداً متفاوتاً متبايناً، فجعل إيجاد هذا مستقلًا عن هذا، وجعل إيجاد هذا تابعاً لإيجاد هذا ومستنداً إليه، وهذا التبع الذي هو منشأ الأمر وأصله له لوازم رعاها الشرع (جل وعلا)، ورعاها الحسّ والعادة، وهي أمور سنبيّن أطرافاً منها ليعلم الناس أن ما قدَّره الله في كونه وأزله أنه قد يُراعه في شرعه، وأن من يريد أن يُغالب قدر الله هو المغلوب فالله (جل وعلا) هو خالق هذا الكون، وهو المتصرف فيه بما شاء، وهو المميز بين أجزائه، والمخالف بين أنواعه، وما خالف الله بينه منها لا يمكن أحداً أن يماثله، ومن أراد أن يماثله فإنه مغلوب عاجز لا محالة، كما قال كعب بن مالك في قريش[١]:

زعمتْ سَخِينَةُ أن ستغلب ربها   فليُغلبنَّ مُغالب الغلاَّبِ

فمن لوازم كون المرأة تابعٌ وجودها لوجود الرجل، ومستند عليه، ليس مستقلًا له: أنه كان الطلاق بيد الرجل لا بيد المرأة، ونسبة الأولاد إلى الرجل لا إلى المرأة، والرجل يُفضل في الميراث على المرأة، والرجل يجمع بين امرأتين وثلاث وأربع، والمرأة لا تجمع بين رجلين ولا ثلاثة، إلى غير ذلك من الفوارق الشرعية، وهي حسية عقلية مستندة إلى فوارق كونية قدرية جبل الله عليها الجميع عندما أراد إيجاده، وسنلم ببعض الأطراف من هذا ليظهر للناس خزي فلسفة هؤلاء المتفلسفين الكفرة الفجرة ومن قلدهم من الخفافيش التي أعمت أنوار القرآن أبصارها.

---

(١) البيت في تاريخ دمشق (١٢/٤٠٥)، (٥٠/١٩١)، الاقتضاب شرح أدب الكُتَّاب للبطليوسي (١/٧٦)، اللسان (مادة: سخن)، (٢/١١٦)، أساس البلاغة (س، خ، ن)، تهذيب اللغة (٧/١٧٧)، (٨/١٣٨)، جمهرة اللغة (٥٨٣، ٦٠٠، ٨١٦)، تاج العروس (١/٤١٥)، (٦/٢٤٨)، (٩/٢٣٢).

خَفَافيشُ أعماها النهارُ بضَوئِهِ ووافَقَهَا قِطْعٌ من الليلِ مُظْلمُ(١)

يقولون مثلًا: لِمَ كان الطلاق بيد الرجل؟ ولِمَ لمْ يؤخذ رأي المرأة فيه؟ وهذا ظلم من شرع الإسلام للمرأة؛ لأن ابتداء العقد أولًا لمْ يقع حتى أُخذ رأيها فيه وأُخذ رأيهما معاً، فمن أين أعطىٰ الاستقالة للرجل وحده دون إذنها؟ ويُفلسفون هذه الفلسفات.

ونحن نقول: إنَّ كون الطلاق بيد الرجل هو الأمر المعقول الذي يشهد له الحس والفطرة والشرع، والنشأة الأولىٰ؛ لأنَّ من خلق الرجل وخلق المرأة ـ هو خالق هذا الكون، وهو أعلم بحقائقه وما يُصْلِحُ كُلًّا منه ـ صرح في محكم كتابه ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ أن النساء حروث ومزارع، قال تعالى في محكم كتابه: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٢٣] ولو حاول الإفرنج ما حاولوا أن يكذبوا قوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ لمْ يقدروا على كل حال؛ لأنه قول من خلق الجميع وفعلُه وكونُه وقدرُه لا يمكن أحد أن ينفيه؛ لأن الرجل لمْ يكن في بطنه رحم يتربىٰ فيها الولد، والنطفة المشاهدة أن تبذر في بطن المرأة، وأن تتربىٰ فيها كما يتربىٰ البذر في الأرض حتى يحصد تاماً، هذا أمر مشاهد يشهده الحس والعقل، لا يمكن المكابر أن ينكره: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ ومعلوم أن الحارث المزدرع فاعل، وأن الحقل المزروع مفعول به بطبيعة الحال وحقيقة الأمر الواقع المحسوس الذي لا يمكن أن ينكره المكابر. ومما يوضح هذا: أن آلة الازدراع ـ آلة التناسل ـ هي مع الرجل، فلو قلنا كما يقوله الإفرنج: إنه لا يتركها إلَّا برضاها، وأن ترضىٰ مفارقته إيَّاها، وصار مكرهاً عليها لا يريدها، فهو زارع مُرْغَم على حقل لا يريد الزراعة فيه، فإنها لو أرادت أن تجامعه لتحصل منه على ولد فأنا أؤكد لكم أنها لا تقدر، ولا ينتشر ذكره، ولا يقوم إليها، ولا تقدر أن تأخذ البذر منه بحال من الأحوال، بخلاف الرجل الذي هو بطبيعة الحال فاعل، والذي هو زارع ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٢٣] فإنه قد

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

يُحبلها وهي كارهة، فتكون في أشدِّ التمنع والكراهة ويُرغمها ويقهرها فتحمل. وقد كان العرب يقولون: إن المرأة التي حملت وهي مكرهة على الغَشَيان أن ولدها لا يطاق أبداً، وهو أمر معروف عندهم مشاهد، ومنه قول أبي كبير الهذلي يصف رجلاً لا يطاق؛ لأن أُمَّه حملته شادَّة حزامها ونطاقها غير راضية بالمسيس[١]:

ممنْ حَمَلْنَ به وهُنَّ عواقدٌ   حُبكَ النِّطاقِ فَشَبَّ غير مُهبَّلِ
حملتْ به في ليلةٍ مَزْؤودَةٍ   كَرْهاً وعَقْدُ نطاقها لم يُحْلَلِ

فهذا يُحبلها راغمة كارهة، وهي لا تقدر، فدل على أنه فاعل، وعلى أنها مفعول، والمباينة بين الفاعل والمفعول معروفة، ومن أراد أن يسوي بين الفاعل والمفعول فهو مطموس البصيرة يُنكر القَدَر والأمور الحقيقية المحسوسة كما هو معروف.

وكذلك زعمهم أن تفضيل الرجل على الأنثى في الميراث أنه ظلم من الشرع؛ لأنَّ الرجل والمرأة يدليان للميت بقرابة واحدة، فكيف تكون المرأة والرجل يمتان للموروث بقرابة واحدة ونصيب الرجل أكثر من نصيب الأُنثى؟! وهذا قولهم وفلسفتهم الشيطانية، والله (جل وعلا) في آية الصيف ـ أعني الآية الأخيرة النازلة في المواريث من آخر سورة النساء ـ بيّن (جل وعلا) فيها أن من سوَّىٰ بين الذكر والأنثى في الميراث أنه ضال ولا شك في ذلك الضلال؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: آية ١٧٦] ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ تفضيل الذكر على الأنثىٰ في الميراث ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ كراهة أن تضلوا عن الطريق المستقيم، أو لأجل أن لا تضلوا. فالمسوِّي بينهما ضال بنص المحكم المنزل لا شك في ذلك، وإيضاح هذا بالمحسوس المعقول الذي لا يماري فيه إلَّا مكابر: أن الله (تبارك وتعالى) جعل الذكورة بطبيعتها جمالًا وكمالًا وقوة خلقية، فنفس الذكورة جمال طبيعي،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأعراف.

وكمال خلقي، وقوة طبيعية، كما أن الله (جلّ وعلا) أوجد الرجل ـ إيجاده الأول ـ إيجاداً مستقلًا، والأنوثة هي بحقيقة ذاتها وطبيعتها نقص جِبِلِّي خلقي، وضعف خلقي لا ينكره إلا مكابر، والله (جل وعلا) بين في كتابه أن الأنوثة أنها بطبيعة حالها ضعف جِبِلِّي ونقص خِلْقي منحط عن درجة الذكورة حيث قال: ﴿أَوَمَن يَنشَأُ فِى ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِى ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف: آية ١٨] وفي القراءة الأخرى[(١)]: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِى ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٍ﴾ أي أتجعلون لله ولداً وبعد ذلك تجعلون له أضعف الولدين وأنقصهما وأحوجهما إلى التكميل الذي يُنَشَّأُ في الحلية من مدته وهو صغير. وتنشئة الأنثىٰ في الحلية: تُثقب آذانها، وبعضهم يثقب أنفها، ويحطون لها الخلاخيل والأسورة والدماليج والثياب الجميلة، وسائر الحلي والحلل، ولا يفعلون شيئاً من هذا للذكر. وهذا يدل على أنها جِبِلَّة طبيعية بشرية عامة أن جمال الذكورة وكمالها أغنى عن الحلي والحلل، وأن الضعف الملموس في الأنثىٰ يحاول جبره بهذه الزينات ليجبر ذلك النقص، وقد صدق من قال[(٢)]:

وَمَا الحَلْيُ إلا زِيْنَة من نَقِيْصَةٍ يُتَمِّمُ من حُسْنٍ إذا الحُسْنُ قَصَّرا
وأَمَّا إذَا كَانَ الجمالُ مُوَفَّراً كحُسْنكِ لَمْ يحتَجْ إلى أن يُزَوَّرا

كذلك قال في المرأة: ﴿وَهُوَ فِى ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٍ﴾ لأنَّ أغلب طبيعة النساء أن المرأة لا تُجابه ولا تقدر على مخاصمة فحول الرجال في الميادين التي تزدحم فيها الناس؛ لضعفها الخلقي، ونقصها الجِبِلِّي، ومما يدل على أن هذا أمر جِبِلِّي مركوز في طبائع العقلاء: أن ضعف أركان المرأة وضعف عظامها ولينها وخنوثتها جمال فيها يستوجب محبتها ويزيد الميل إليها، وكذلك عدم إبانتها في الخصام من جميع محاسنها ولين أُنوثتها الذي يجلب القلوب إليها بخلاف الرجال، وهذا كلام جاء في جِبِلَّات العقلاء فإنهم

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٩٧.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من هذه السورة.

يُشَبِّبُون ويذكرون من محاسن النساء لينها وضعف أركانها، وعدم إبانتها في الكلام، ألا ترون إلى قول جرير وهو عربي فصيح[١]:

إن العُيونَ التي في طَرْفِهَا حَوَرٌ   قَتَّلْنَنَا ثم لم يُحْيِيْنَ قَتْلانَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللّبِّ حتى لا حِرَاكَ به   وهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ الله أَرْكَانَا

فقوله: «وهن أضعف خلق الله أركانا» مما يجر القلوب إليهن ويزيدهن محبة، وذلك يدل على أن الطبيعة كما ذكرنا، كذلك قال ابن الدمينة في امرأة لا تقدر أن ترد عن نفسها ما رُميت به من ريبة[٢]:

بَنَفْسِي وأَهْلي مَنْ إذا عَرَضُواْ لَهُ   لبعضِ الأذَىٰ لم يَدْرِ كيفَ يُجيبُ
وَلَمْ يَعْتَذِرْ عُذْرَ البَرِيءِ ولم يزلْ   بِه سَكْتَةٌ حتى يُقالَ مُرِيبُ

فشبب بها بهذا. وهذا الضعف الخلقي الجِبِلِّي أمر مشاهد لا ينكره العقلاء، فالإفرنج الذين يقولون: إن المرأة كالرجل في جميع الميادين الكذبة الفجرة الخاسئون يجعلون صبغ الحمرة على فم الأنثىٰ ولا يجعلونه على فم الرجل، ألا ترون أنهم يضعون الحمرة على فم الأُنثىٰ ولا يضعونها على فم الرجل!! ما هذا الفرق إلَّا لفوارق طبيعية جُبل عليها عامة العقلاء حتى الإفرنج الذين عقولهم كعقول البهائم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٩].

فلما كانت الأُنوثة ضعفاً خلقياً وعدم كمال جِبِلِّي، والذكورة كمال جِبِلِّي وقوة طبيعة خلقية؛ ولذا لا ترى ذكراً في الدنيا تُثقب آذانه ليُجعل فيها الحلي، ولا يُثقب أنفه، ولا تُجعل له الأساور والحلي ليكمل به؛ لأن شرف ذكورته وكمالها يكفيه عن التزين بالحلي. لما كان هذا النوع من أنواع الإنسان الذي خُلق في مبدأ خلقه مستقلًا أقوىٰ وأكمل من هذا النوع الآخر

---

(١) البيتان في ديوانه ص٤٥٢.

(٢) البيتان في ديوان مجنون ليلى ص٢٩، وفي عيون الأخبار (١٠٣/٣)، الشعر والشعراء ص٤٩٢، ونسبه لابن الدمينة.

الذي خُلق في مبدأ خلقه وجوده تابعاً لوجود هذا ومستنداً إليه كما أجرىٰ الله عادته وقدره بذلك كان اللازم أن يكون هذا القوي في خلقته الكامل في طبيعته، قائماً على ذلك الضعيف بجِبِلَّته ليوصل له ما يعجز عن إيصاله من النفع لنفسه، ويدفع عنه ما يعجز عن دفعه من الضرَّ عن نفسه، وهذا هو الأمر الكوني القدري المُعَضَّد بنور السماء ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ إنما جعل الرجال قوَّامين على النساء لأن كمال الرجال بذكورتهم وقوتهم الطبيعية جعلتهم يقومون على النساء لضعفهن الخلقي الجِبِلِّي كما قال: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء: آية ٣٤] فلما اقتضت طبيعة قوة الرجل وكمال ذكورته أن يكون قائماً على الأنثىٰ، واقتضىٰ ضعف الأُنثىٰ الخلقي، وعدم استقلالها في نشأتها، وتبعية وجودها في نشأتها لوجود الرجل، وعدم استغنائها عنه اقتضىٰ ذلك أن يكون هذا الكامل القوي قائماً على هذا الضعيف في خلقته ليدفع عنه ما لا يقدر علىٰ دفعه من أنواع الضر، ويجلب له ما لا يقدر على جلبه من أنواع النفع وصار الرجال قوَّامين على النساء، ومن هنا صار الرجل يترقب النقص دائماً؛ لأنه ينفق على نسائه، ويدفع لهن المهور، فهو يترقب النقصان دائماً، والمرأة بحال طبيعتها ونقصها الجِبِلِّي تترقب الزيادة دائماً، فإن المرأة تترقب رجلاً يدفع لها مهراً ضخماً ويقوم بلوازمها في الحياة من مطعم ومشرب ومأكل وملبس إلى غير ذلك، فالمرأة تترقب الزيادة والأخذ دائماً، والرجل يترقب النقصان والغرم دائماً، والميراث ما تَعِبَا فيه، ولا مسحا فيه عرقاً، ملكهما الله إياه ملكاً جبرياً بحكمته وفضله، فاقتضت حكمة الخبير الحكيم العليم أن يُؤثر مترقب النقص دائماً، ويكثر نصيبه على مترقب الزيادة دائماً؛ ليكون في ذلك جبراً لبعض نقصه المترقب. ولو رأيت أحداً قد يعطي اثنين شيئاً وأحد هذين الاثنين يترقب النقص دائماً، وأحدهما يترقب الزيادة دائماً، وآثر في عطائه مترقب النقص ليجبر من نقصه لقلت: أن تأثيره له حكمة واقعة موقعها على أحسن ما يكون.

واعلموا أن الله تبارك وتعالىٰ خلق المرأة ـ لما جبل عليها من الطبيعة خلقها ـ مستعدة للمشاركة في بناء المجتمع الإنساني على أكمل الوجوه

وأبدعها وأحسنها، ولا تقل خدمتها عن خدمة الرجل، إلَّا أن الله جعل تلك الخدمة التي تقوم بها المرأة لمجتمعها جعلها في داخل بيتها في عفاف وصيانة وستر، ومحافظة على الشرف ومكارم الأخلاق، فيذهب الرجل يكدح في الحياة يبيع ويشتري، أو يناجز الأقران في ميدان القتال، والمرأة في بيتها عاطفة على الصغير من أولادها، عاطفة على المريض، عينها من وراء جميع ما في البيت، ترضع الرضيع، وتعالج المريض، وتفعل كل شيء، فإذا جاء قرينها الآخر من عمله وكدِّه في الحياة وجد كل شيء حاضراً، وجد أولاده الصغار مرضعين، والمرضى ممرضين، وكل شيء جاهز، فهذه الخدمة التي قامت بها في داخل بيتها لا تقل عن خدمته هو في الخارج في ميدان الحياة، ومع هذا هي في صيانة وستر، ومحافظة على الشرف والفضيلة، ومرضاة لخالق السماوات والأرض (جل وعلا) ولا شك أن هذا التعاون بين الرجل والمرأة أنه تعاون كريم نزيه بمقتضى جبلتهما وما طبعهما الله عليه، وأنه يغيظ الشيطان ولا يرضي إبليس، فإبليس يحب أن يكون الأمر لا ينبغي، وأنه على حالة خبيثة، فيقرأ فلسفته في آذان أوليائه فيفلسفون في أذن المسكينة فيضللونها بالشعارات الزائفة والكلمات الكاذبة السخيفة من اسم الحضرية، والتمدن، والحضارة، والتقدم، ويقولون للمرأة التي كانت في بيتها تخدم زوجها وأولادها ومجتمعها على أكمل الوجوه وأتمها، في صيانة وستر، ومحافظة على الشرف والفضائل، ومرضاة لخالق هذا الكون، يحسدهم الشيطان على هذا، ويغضبه هذا التعاون الكريم النزيه، فيقول لأوليائه أن يقولوا للمرأة: أنت محبوسة في البيت، أنت مجرمة، أنت دجاجة، فلك أن تخرجي وتشمّي الهواء، وتفعلي كما يفعل الرجل!! وهذا خديعة لها وغرور للمسكينة الجاهلة؛ لأنها تخرج من حيائها وسترها وخدمة بيتها، فإذا خرجت تكدح في الحياة مع الرجل عَرَّضت جمالها لأعين الخائنين؛ لأن المرأة هي أعظم شيء يتعرض لخيانة الخائنين؛ لأن العين الفاجرة الخائنة إذا نظرت في جمالها استغلّت ذلك الجمال والنعمة الإلٰهية مكراً وغدراً وجناية على الشرف والفضيلة وعلى الإنسانية، وإذا مسها واحد - مس بدنها في الزحام - بدعوى أنها تخرج باسم التقدم

والحضارة والمدنية. وما هذه إلا ألفاظ جوفاء خبيثة كلبة خنزيرة يراد بها ضياع الشرف والفضيلة ـ والعياذ بالله جل وعلا ـ فإذا خرجت بقي جميع خدمات البيت ضائعة، بقي الرضيع من الأولاد ليس عنده من يرضعه، والمريض ليس عنده من يمرضه، وليس هناك من يهيئ طعاماً لهم إذا جاؤوا، فلو قدرنا أنهم أجَّرُوا إنساناً ليجلس مكان المرأة كان هذا الإنسان الأجير هو الذي يأكل عَلَقَة الدجاج والحبس، صار هو المحبوس في البيت ولا ذنب له، وإنما حُبس هذا لتخرج المرأة وتضيع شرفها وفضيلتها وكرامتها، والمرأة إذا ضاع شرفها وفضيلتها وكرامتها وصارت مائدة لعيون الخونة فإنها لا خير لها في الحياة، فبطن الأرض خير لها من ظهرها ولا شك في ذلك.

فهذه الفلسفات الكاذبة تُضَلَّلُ بها المسكينة باسم الحضارة، واسم التقدم، واسم التمدن، وأنها ليست بدجاجة ولا مجرمة محبوسة بالبيت؛ لتُخرج من حيائها وتُجعل مائدة لخونة الأعين الخائنة (والعياذ بالله) ويضيع شرفها، وتضيع دنياها وآخرتها ـ والعياذ بالله ـ.

فعلينا ـ معاشر المؤمنين ـ أن نعلم أن بين الأنثى والذكر فوارق طبيعية جبلهما الله عليها لا يمكن لأحد أن يجهلها ولا يتجاهلها، ومن أراد أن يكسر هذه الحواجز التي بين الذكر والأنثى لبعدها وقوتها فهو ملعون في كتاب الله وعلى لسان رسول الله ﷺ لأنه قد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس أنه قال: «لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال»[1] فالتي تترجل تحاول التشبه بالرجل في جميع الميادين هي ملعونة على لسان رسول الله ﷺ؛ لأنها أرادت أن تحطم فوارق وحواجز وضعها خالق السماوات والأرض كوناً وقدراً وشرعاً لا يمكن لأحد أن يحطمها بوجه من الوجوه.

والعجب كل العجب أن المرأة إذا ضُلِّلت وسُفِّه عقلها بالشعارات

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس، باب المتشبهون بالنساء، والمتشبهات بالرجال. حديث رقم: (٥٨٨٥)، (١٠/٣٣٢). وأطرافه في (٥٨٨٦، ٦٨٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الزائفة، والفلسفات المضلة باسم التقدم، والحضارة، والتمدن، وأنها ليست بدجاجة، ولا مجرمة محبوسة في البيت؛ ليُضَيِّع شرفها وتُعَرض للرذائل وضياع الشرف وسخط رب العالمين، فهي مع هذا تحاول أن تترجل، وأن تكون كالرجل في كل شيء، ولو كشفت ثيابها وكشف الرجل ثيابه لعُلم أن هنالك مغايرة محسوسة طبيعية لا يمكن الإفرنج ولا أذناب الإفرنج أن يكسروها ولا يحطموها؛ لأنه قدر خالق السماوات والأرض وأفعال رب العالمين لا يمكن أن تُكسر، ومع هذا فالمؤسف كل المؤسف أن الرجال يتأنثون ويناعون، ويترك الواحد حرمه ـ امرأته وبناته ـ ذاهبة في هذه التيارات المخزية الكافرة الفاجرة الملحدة!! ووالله لقد صدق المتأخر في قوله[1]:

وما عجب أن النساء ترجّلت ... ولكن تأنيث الرجال عُجاب

فالعجب كل العجب أين ضاعت رجولة الرجال، وغيرة الرجال، وضمائر الرجال، أين ضاع هذا وتلاشى وانماع؟! فالرجل إذا كانت حرمه تخرج مائدة لأعين الفجرة، متجردة من الدين والشرف وأخلاق الإسلام على فلسفات كاذبة خسيسة ملعونة جاء بها الإفرنج، كلها شعارات زائفة كاذبة: تمدن، حضارة، تقدم؛ ليضيع الشرف.

ومعلوم عند الناس أن كل البلاد الإسلامية التي كات متمسكة غاية التمسك، ورجالها فيهم غيرة على بناتهم، لما دخل عليها هذا التيار، وجاءتها هذه الشعارات: تمدن، حضارة، تقدم، أن نساءهم ـ والعياذ بالله ـ صاروا فيما لا يُعَبَّر عنه، ولا يحتاج أحد أن يُنَوِّه عنه لشهرته من المجون والفسق، وضياع الشرف والفضيلة، وانعدام الحياء رأساً، والمرأة إذا ضاع شرفها وفضيلتها فبطن الأرض خير لها من ظهرها.

ومعلوم أن الله تبارك وتعالى فرّق بين الذكر والأنثى جِبِلَّةً وكوناً وقدراً وشرعاً، فمن يقول: إن المرأة كالرجل في جميع الميادين، وأنها تزايل ما يزايله الرجل فهو مجنون كاذب مغلوب؛ لأنه يعاند القدر، ومن أراد أن

(١) لم أقف عليه.

يعاند قدر الله فهو المغلوب، مع أن المرأة التي يقولون: إنها كالرجل في جميع الميادين بطبيعة حالها تمر عليها أوقات وهي لا تقدر على عمل، فهي في أوقات الحمل إذا صارت لها ستة أشهر ونحوها فإنها يثقلها الحمل، ولا تقدر على فعل شيء وفي بطنها إنسان، فأين هذه من الذكر؟! الذكر لا يمكن أن يكون في بطنه إنسان، ولا يعجزه هذا الإنسان الذي في جوفه عن العمل، فأين الاتحاد، وأين المماثلة؟! وكذلك إذا نُفِسَت فإن النفاس يمرضها ويضعفها، والرجل لا يُنفس، فأين هذه المساوة، وأين هذا من هذا؟! فهذه فوارق قدرية كونية، تترتب عليها فوارق شرعية وحسّية، وهذا من المعلوم. فقد بيّنا في هذه الآية أن الحواجز والفوارق بين الرجل والمرأة أنها موجودة عند نشأة الرجل الأول، وعند نشأة المرأة الأنثى؛ لأن المرأة الأنثى الأولى ما نشأت ولا وُجدت وجوداً مستقلّاً عن الرجل، بل خُلقت من ضلع الرجل، فهي جزء منه، وجودها تابع لوجوده، مستندة في وجودها إليه، وهذا الأمر الكوني القدري الطبيعي الذي فعله خالق السماوات والأرض الحكيم الخبير لوازمه سارية في جميع ميادين الحياة، والإفرنج يحاولون أن يحطموا هذه الفوارق كلها وأتباعهم من الخفافيش!! والغريب كل الغريب أنوثة الرجال وميوعة ضمائرهم!! فإنا لله وإنّا إليه راجعون.

وما عجب أن النساء ترجّلت ولكن تأنيث الرجال عُجاب

أين غيرة الرجال، وأين شهامة الذكور؟!

٢٦/أ / ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٨٩ ـ ١٩٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٨٩، ١٩٠].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ قد ذكرنا بالأمس أن التحقيق أن المراد بهذه النفس الواحدة آدم، وأن زوجها التي خلق منها أنه حواء، وتكلمنا بهذه المناسبة على أن الرجل الأول والمرأة الأولى اللذان هما سبب إيجاد الرجال والنساء جميعاً كما تقدم في قوله في صدر سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: آية ١] أن نشأة - بدء - هذا الرجل وهذه المرأة كانت المرأة وجودها تابع وجود الرجل، ومستندة في وجودها إليه، وأن هذا الأمر اختلاف أساسي من أصل الوجود والمبدأ، وأن ذلك الاختلاف قد ترتب عليه لوازم من المخالفة الضرورية بين الرجل والمرأة، وذكرنا بعض الأشياء التي يشنع الملحدون فيها على دين الإسلام، ويزعمون أنه لم ينصف المرأة فيها، كجعل الطلاق بيد الرجل، وتفضيله على المرأة في الميراث، وجواز تعدد الزوجات. وقد بيّنا بالأمس حكمة كون الطلاق بيد الرجل، وحكمة تفضيل الرجل في الميراث، وبيّنا أن الرجل يترقب النقص دائماً؛ لأنه ينفق الأموال في مهور النساء ونفقاتهن ونوائب الدهر، والمرأة تترقب الزيادة دائماً، تترقب رجلاً يدفع لها مهراً ويقوم بإنفاقها ولوازمها في الحياة، فمن أعطى اثنين وآثر مترقب النقص منهما على مترقب الزيادة كان إيثاره واقعاً موقعه، مطابقاً للحكمة، ولا سيما إن كان ذلك من العظيم الخبير العالم بخبايا الأمور، الذي بيّن في كتابه أن من زعم استواء الرجل والأنثى في الميراث أنه ضال؛ لأن الله لما قال: ﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أتبع قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ بقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النساء: آية ١٧٦] يعني: هذا الذي فضل الذكر على الأنثى في الميراث عليم بكل شيء، فهو أعلم بخفايا الأمور وخباياها، وبدقائق المصالح وجلائلها، بيّن لكم هذا البيان ﴿أَن

تَضِلُّواْ﴾ كراهة أن تضلوا، أي: لأجل أن لا تضلوا فتسوّوا بينهما في الميراث.

وأردنا الآن أن نتكلم على بقية قليلة من ذلك، فنبين حكمة تعدد الزوجات، وأن الذين أنكروا ذلك وعابوه على دين الإسلام كفرة ملاحدة طمس الله بصائرهم بظلام الكفر ـ والعياذ بالله ـ فالله (جل وعلا) أباح للرجل أن يجمع أربع زوجات بشرط أن يقدر على العدل بينهن، وقد بيّن القرآن أن العدل بينهن قسمان: عدل ممكن، وعدل غير ممكن. أما العدل الممكن بين الزوجات: فهو تسويتهن في الحقوق، وإنصاف بعضهن من بعض في اللوازم اللازمة، فهذا ممكن يقدر كل أحد عليه، وهذا الذي نهى الله عن الميل فيه، قال: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ﴾ [النساء: آية ١٢٩]. وعدلٌ بينهن ليس تحت طاقة البشر ولا يُقدر عليه، وهو المساواة بينهن في المحبة الطبيعية والميل النفساني؛ لأن المحبة ليست من الأفعال الاختيارية، وإنما هي من الانفعالات والتأثرات النفسانية التي لا تدخل تحت قدرة العبد. وهذا العدل في المحبة والميل الطبيعي النفساني لا يُقدر عليه، وهو الذي قال الله فيه: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ﴾ [النساء: آية ١٢٩] وكان ﷺ يقسم بين أزواجه فيعدل، ثم يقول مبيّناً هذين القسمين: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك**»[1]. يعني الميل الطبيعي والمحبة؛ لأن هذا ليس تحت قدرة البشر، فالله (جل وعلا) أباح للرجل أربع زوجات بشرط قدرته على العدل بينهن في الحقوق الشرعية، وإن كان الميل الطبيعي والمحبة النفسانية ليس بيده، إلا أن المساواة بالحقوق الشرعية هي في مقدوره، فإن كانت

---

(١) أحمد (١٤٤/٦)، والدارمي (٦٧/٢)، وأبو داود في النكاح، باب في القسم بين النساء. حديث رقم (٢١٢٠)، (١٧١/٦ ـ ١٧٢)، والترمذي في النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر. حديث رقم (١١٤٠)، (٤٣٧/٣)، والنسائي في عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض. حديث رقم (٣٩٤٣)، (٦٣/٧ ـ ٦٤)، وابن ماجه في النكاح، باب القسمة بين النساء، حديث رقم (١٩٧١)، (٦٣٤/١)، والحاكم (١٨٧/٢)، وابن حبان (الإحسان) (٢٠٣/٦).

هذه أحب إليه طبيعة، وهو أميل إليها بالمحبة؛ فإنه يمكنه أن يسوّي بينها وبين الأخرىٰ، وينصف بينهما في الحقوق الشرعية كمال الإنصاف كما لا يخفى. فإذا كان الإنسان لا يقدر على العدل بينهن يلزمه الاقتصار على واحدة؛ لأن غير العدل جور والجور لا يُؤذن فيه في الشرع الكريم، أو ما ملكت يمينه من الإماء، وقد نص الله على هذا بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝﴾ [النساء: آية ٣] أي: لا تجوروا في الحقوق. وكونه (جل وعلا) أباح للرجل جمع أربعة وحرم عليه الخامسة فما فوقها، وجعل ذلك بشرط العدل، هذا تشريع الحكيم الخبير، تشريع خالق السماوات والأرض، الذي هو أعلم بالمصالح، وأعلم من خلقه؛ لأن الأربع وسط بين القلة والكثرة، فهي دون الكثرة التي هي مَظِنَّة عدم القدرة على القيام بلوازم الجميع، وهي فوق القلة التي هي مَظِنَّة تعطل بعض حقوق الرجل كما سيأتي إيضاحه.

والله (جل وعلا) أباح تعدد الزوجات لمصلحة نفس المرأة، ومصلحة نفس الرجل، ومصلحة نفس أمتهما، فتحت ذلك مصالح عظيمة لا ينكرها إلا من طمس الله بصيرته. ففيه مصلحة المرأة من جهات عديدة منها: أن الله (جل وعلا) أجرىٰ عادته أن عدد النساء في أقطار الدنيا على مر العصور أكثر من الرجال؛ لأن الرجال أقل من النساء، وأكثر تعرضاً لأسباب الموت، فلا تجد محلًا إلا ونساؤه أكثر من رجاله، كما أجرىٰ الله العادة بذلك، وقد جاءت الأحاديث عنه ﷺ أن كثرة النساء أنهن سيكثرن جداً، وأن الرجال سيقلون جداً[1]، ولما كانت عادة الله أن جعل عدد الرجال في أقطار الدنيا على مر العصور أقل من عدد النساء ـ لأن الرجال أكثر تعرضاً لأسباب الموت وخروجاً في الأسفار والمقاتلة والحروب من النساء ـ وكان عدد النساء أكثر، فلو قُصر الواحد على الواحدة لبقي من النساء عدد ضخم

---

(١) البخاري، كتاب الحدود، باب: إثم الزناة، حديث رقم (٦٨٠٨)، (١٢/١١٣)، ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان. حديث رقم (٢٦٧١)، (٤/٢٠٥٦).

هائل لا أزواج له، فيضطررن بذلك إلى ارتكاب فاحشة الزنى ورذائل الأخلاق، وبقين لا عائل لهن، فتشريع الحكيم الخبير يجمع الرجل فيه بين النساء فيحسن إليهن وينفق عليهن ويُعف الجميع؛ لأن الرجل الواحد قد يُعف أربع نساء ويُخدِمهن ويطعمهن ويكسوهن، بحيث لا يَكُنَّ فيهن حاجة إلى شيء.

وكذلك أجرى الله العادة أن المستعدات من النساء للتزويج أكثر من المستعدين من الرجال؛ لأن عامة النساء مستعدات للزواج، وكثير من الرجال غير مستعدين للزواج لفقرهم وعجزهم عن لوازم الزوجية من صداق ونفقات وما يتبع ذلك من مُؤَن، فلو قصرنا الواحد على الواحدة لبقي أيضاً ذلك العدد الضخم بلا أزواج فألجأهن ذلك إلى ارتكاب الفاحشة والعمل بما لا يليق. ومن ذلك أن المرأة الواحدة لو قُصر الرجل عليها فإنها تعتريها أعذار طبيعية تمنعها من القيام بأخص لوازم الزوجية؛ لأنها تمرض وتحيض وتُنفس، وهي في زمن حيضها تتعطل منافع زوجها، وكذلك في زمن نفاسها، فلو قُصر على الواحدة لكان كلما تعطلت تعطلها الطبيعي تعطل معها، فيكون الرجل كأنه يُنفس كما تنفس، ويحيض كما تحيض، وهذا ليس بإنصاف!! والأمة محتاجة إلى الكثرة، وقد حضها ﷺ على التزوج وكثرة الولادة ليكاثر بها الأمم. ومن الغريب كل الغريب، والمؤسف كل المؤسف أنك ترىٰ كثيراً من الأمم المتسمية باسم الإسلام تحضر المؤتمرات التي أصل عقدها من الكفرة الفجرة فيما يسمونه (تحديد النسل)[1] وهذا أعظم شيء مخزي يخجل منه الإنسان الذي في باطنه شيء من نور القرآن؛ لأن منشأ ذلك أن الكفرة ـ عليهم لعائن الله ـ لا يؤمنون بالله، ولا يحسنون به ظناً، ولا يتوكلون عليه، ويظنون أنهم إذا نظروا دخل البلاد القومي وقدر ما يتزايد من النسل أن الناس يكثرون على قدر الدخل، وتعتريهم الفاقة والجوع، فيعقدون المؤتمرات لتحديد هذا النسل خوفاً من الفاقة والفقر والجوع!! وهذه أفكار الخنازير والقردة الذين لا يُقِرّون بخالق السماوات

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

والأرض، ولا يعلمون فضله ورحمته وكثرة خزائنه، ولا يتوكلون عليه. والكثرة هي نعمة من نعم الله (جل وعلا)، والله يقول ممتناً على أمة شعيب: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٨٦] الكثرة نعمة وقوة، وهؤلاء يأتيهم الشيطان ليتخلصوا من نعمة الله والقوة!! والله (جل وعلا) قد بيّن أن قوماً فيما مضى قد أرادوا قتل أولادهم من أجل الجوع الواقع، وأن بعضهم أراد قتل الأولاد من خوف الجوع المتوقع، فبيّن لهم خالق السماوات والأرض أن ذلك الجوع المتوقع لا يكون، وأن خالق السماوات والأرض الذي بيده خزائن السماوات والأرض عليه رزق الجميع، قال في الذين يقتلون أولادهم من الفقر الواقع حالاً: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] وهذا وعد من الله، والله لا يخلف الميعاد. وقال في الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر المترقب: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: آية ٣١] ونحن نؤكد لكم كل التوكيد أن الأمة لو كثرت كل الكثرة وبلغت الملايين والآلاف المؤلفة أن كل نفس منفوسة يُقدر الله لها رزقها على أحسن ما يكون، وأن الله يفتح من أبواب الرزق وخزائنه ما لم يكن في حسبان الملاحدة الإفرنج الكفرة وأذنابهم من الخنازير الذين طُمست بصائرهم، ولا سيما إن كانت تلك الأمة على طاعة الله - جل وعلا - وتقواه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: الآيتان ٢، ٣] فبيّن أن هذا الرزق ليس من قبيل الدخل القومي المحدود الذي يحسبه الإفرنج ويُحدونه، لا، بل يأتي به الله من أمور لا يعلمها إلا هو - جل وعلا - ولما أراد المنافقون أن يضربوا على النبي ﷺ وأصحابه حصاراً اقتصادياً وقالوا في ذلك: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: آية ٧] ومن كان عنده خزائن السماوات والأرض كيف يُحدد رزقه، وتُقتل الأولاد وتُقلل خوفاً ألا يرزقها؟! فهذا من أُضحوكات الشيطان وأعمال الصبيان الذي لا يصدق عاقل أن رجلاً عاقلاً يشتغل بهذا - عياذاً بالله -.

ثم إن من مصالح تعدد الزوجات أن فيه مصالح عظمىٰ شرعه الله لها، منها: أن فيه مندوحة عن الطلاق؛ لأن الرجل إذا تزوج المرأة حتى كبرت معه ومضىٰ جمالها وصارت لا رغبة فيها للرجال إذا قُصِر عليها ولم تكن عنده مندوحة لزوجة أخرىٰ يتسلى بها ويأت بها فإنه يضطر لفراقها ولو بالمحاكمة حتى يتخلص منها!! أما تعدد الزوجات ففيه مندوحة وفرج من هذا الأمر المحرج؛ لأنه يتزوج أخرىٰ ويبقى مع الأولىٰ ملاطفاً لها، محسناً إليها، منفقاً إليها، ويجد غيرها ممن يسليه ويوسع صدره. وهذا أمر لا يخفىٰ، فالله (جل وعلا) أباح تعدد الزوجات لمصلحة النساء لئلا يتعطلن عن الزواج؛ لأنهن أكثر من الرجال؛ ولئلا يُضطر أزواجهن إلى طلاقهن، ولمصلحة الرجال لئلا تُعطل منافعهم عند حيض المرأة الواحدة ونفاسها ومرضها، ولمصلحة الأمة ليتكاثروا، وليكونوا جمعاً ضخماً يقف في وجه العدو، ويرد الحقوق المسلوبة، ويوقف الكافر عند حده، ويعلي كلمة الله (جل وعلا) فهذه مصالح معروفة موجودة عامة لا ينكرها إلا مطموس البصيرة.

وما يزعمه ملاحدة الإفرنج من أن تعدد الزوجات تلزمه المشاغبة الدائمة، وأن الإنسان لا ينبغي أن يعمل بتشريع يجر له المشاغبة الدائمة والقال والقيل والخصام الذي لا ينقضي. قالوا: إذا تزوج ضرتين فإن أرضىٰ هذه سخطت هذه، فهو دائماً بين سخطتين، وفي شغب وفي خصام وجدال، فلا تكون له حياة هنية، وأن هذا التشويش لا ينبغي. وهذا من جهالتهم وطمس بصائرهم؛ لأن المشاغبة والمشاحة التي تقع بين العائلة أمر طبيعي لا مفر منه، وهي لا خطب لها ولا شأن لها؛ لأنها تقع بين الرجل وأولاده، وبينه وبين أمه وأبيه، وبينه وبين أخواته، وتقع بينه وبين زوجته الواحدة. ولو فرضنا أن فيها بعض الشيء فإنه يُغتفر لأجل المصالح العظمىٰ التي بيّنا من المصالح العامة من صيانة جميع النساء، وعدم تعطل منافع الرجال، ومصلحة الأمة. والمقرر في الأصول: أن الشيء ولو كان مفسدة - على زعمهم - إلا أنها مفسدة صغيرة مرجوحة فإنها تُلغى لأجل المصلحة الكبرىٰ، وهذا لا نزاع فيه بين العلماء أن المصالح العامة الكبرىٰ لا يُنظر

معها لأجل المفاسد الجزئية المرجوحة كما لا يخفىٰ، وهذا معروف في الأصول[١]، ومن ذلك أن الكفار إن أسروا بعض أسارى المسلمين ففداهم المسلمون فإن فداء الأسارىٰ من الكفار وإعطاءهم المال هو مفسدة في الجملة، إلا أن مصلحة إنقاذ المسلمين منهم أرجح من هذه الجملة من هذه المفسدة؛ ولأجل ذلك أطبق جميع العلماء على جواز غرس شجر العنب.

وانظر تدلي دَوَالي العِنَبِ   في كلِ مَشْرقٍ وكل مَغْربِ[٢]

مع أنها تعصر منها الخمر التي هي أم الخبائث، ولكن لما كانت مصلحة وجود العنب والزبيب في جميع أقطار الدنيا مصلحة عامة راجحة، وكون العنب قد يعصر منه بعض السفلة خمراً، فهذه مفسدة مرجوحة ألغاها الشرع في جنب تلك المصلحة الكبرىٰ العظمىٰ. وكذلك مساكنة الرجال والنساء في البلد الواحد؛ لأن مساكنة الرجال والنساء في البلد الواحد يرمقون هذا في بيته معه زوجاته وبناته وأخواته، وهذا لصيق له، وعنده أيضاً بيته فيه بناته وزوجاته وأخواته، هذا ـ وهو وجود الجنسين الرجال والنساء في البلد الواحد ـ قد يكون سبباً للزنى، فإن الناس المختلطة في المحل الواحد قد يكون اختلاطها في البلد الواحد ذريعة إلى الزنى فينظر الرجل فترمي إليه المرأة من الغرفة ورقة فيها وعد، أو يكلمها من فوق السطح كما كان نصر بن حجاج السلمي يقول[٣]:

ليتني في المُؤَذنينَ نَهَارا   إنَّهم يَنْظُرونَ مَنْ في السطُوحِ
فيُشيرونَ أوْ يُشارُ إليهم   حَبَّذا كل ذاتِ دلٍّ مَليحِ

إلا أن هذا وإن كان قد يكون سبباً لتمكن بعض السفلة من الفاحشة، فمصلحة اجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد متعاونين على دينهم ودنياهم أرجح فأُلغيت من أجلها هذه المفسدة، فلم يقل أحد من

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

العلماء أبداً: إنه يجب أن يُعزل جميع من في البلد من النساء ويُجعلن وحدهن ليس معهن رجل وتُجعل عليهن حصون من حديد قوية، وأبواب من حديد، ومفاتح من حديد، عند رجل ذي شيبة مأمون معروف بالتقى!! لم يقل أحد هذا!! والحاصل أن المفاسد الصغيرة المرجوحة مُلغاة لدىٰ المصالح العامة الكبرىٰ كما هو معروف في محله.

وهذه نتف قليلة أشرنا بها إلى أن تشريع خالق هذا الكون، ونور هذا القرآن العظيم هو العدل الكامل، والإنصاف التام، والحكمة البالغة ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: آية ٩] فما يقوله الكفرة والملاحدة ومن قلدهم من الخفافيش لا ينبغي لأحد أن يصغي إليه، ولا أن يبالي به.

ومعنى قوله جل وعلا: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: جعل من تلك النفس الواحدة التي هي آدم. وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ إنما أنث الضمير نظراً إلى تأنيث النفس، والتأنيث اللفظي قد تجري به أحكام التأنيث ومنه قول الشاعر[1]:

أبـوكَ خَـلـيـفـةٌ ولـدتْـه أُخْـرىٰ وأنـتَ خـلـيـفـةٌ ذاكَ الـكـمـالُ

وقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ جاء بالضمير مذكراً ﴿لِيَسْكُنَ﴾ هو، أي: آدم المُعبر عنه بالنفس الواحدة ﴿إِلَيْهَا﴾ أي: إلى تلك الزوج التي خُلقت منه وهي حواء؛ لأن الرجل يسكن إلى امرأته ويطمئن إليها، وهذا السكون والطمأنينة والألفة التي كانت من الرجل الأول للمرأة الأولى جعله الله سُنة كونية قدرية في ذريتهما كما يأتي في سورة الروم في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الآية [فاطر: آية ١١].

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ تغشاها معناه: جامعها، والعرب تقول: «غشي الرجل امرأته وتغشاها». إذا جامعها، والتغشي: أصله لبس الغشاء، وهو الغطاء ونحوه. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: جامعها ﴿حَمَلَتْ﴾ من ذلك الجماع ﴿حَمْلًا

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

خَفِيفًا﴾ إنما وصف الحمل بأنه خفيف لأن المرأة في أول حَبَلها ما دام حَبَلها نطفة فَعَلَقَة فمضغة يكون خفيفاً كأنها ليس في بطنها شيء، تذهب وتجيء ولا تجد ثقلًا له إلى حوالي خمسة أشهر، فبعد ستة أشهر يعظم الجنين في بطنها وتُثقل، وتكون الحركة ثقيلة عليها لعظم الجنين في بطنها؛ ولذا قال: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ في أول أشهرها فاستمرت به وذهبت به مقبلة ومدبرة لا يثقلها؛ لأن ذلك هو العادة في أول حملها. ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ يعني تطاولت الأشهر وعظم الجنين في بطنها. وأثقلت، أي: صارت ثقيلة من عظم الجنين في بطنها، خافت هي وزوجها، والظاهر أن هذا في الحمل الأول الذي حملته حواء خافت أن يكون هذا الذي في بطنها بهيمة، أو أنه لا يخرج منها، أو يَشُق بطنها فتموت؛ ولذا ﴿دَّعَوَا﴾ أي: الرجل والمرأة، آدم وحواء ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ دعاءً أخلصا له فيه قائلين: والله ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ لئن أعطيتنا من هذا الحمل ولداً صالحاً، أي: ذكراً، وقال بعض العلماء: بشراً سوياً يخرج بسلام، ليس ببهيمة، ولا مشوّه الخلقة ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾ لك يا ربنا على ذلك ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

الشاكرون: جمع شاكر، والشاكر: اسم فاعل الشكر، وأصل الشكر في لغة العرب[1]: الظهور، تقول العرب: «ناقة شكور» إذا كان يظهر عليها السِّمَن، والشكير: هو العُسْلُوج الذي ينبت في الجذع الذي كان مقطوعاً؛ لأنه يظهر فيه بعد أن لم يكن ظاهراً.

وهو في الاصطلاح: ظهور نعم المُنْعِم على من أنعم عليه، والشكر: هو فعل يُنبىء عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعماً. وقد جاء في القرآن إطلاق الشكر من الله لعبده، وإطلاق الشكر من العبد لربه كما هنا. ومن إطلاق الشكر على العبد لربه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: آية ١٤] ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٨٩] ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: آية ١٣]. ومن إطلاق الشكر من الله لعبده: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

[فاطر: آية ٣٤] ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: آية ١٥٨] فمعنىٰ شكر الرب لعبده: قال بعض العلماء: شكر الرب لعبده: هو أن يثيبه ثوابه الجزيل من عمله القليل، وحقيقة شكر العبد لربه المنطبق على جزئياته: هو أن يستعمل العبد جميع نعم ربه فيما يرضي ربه، إن فعل هذا فإنه يكون إن شاء الله من الشاكرين. فهذه العيون[١] التي فتحها الله في وجوهكم هي نعمة من ربكم عليكم تبصرون بها، فشكر هذه النعمة أن لا تنظروا بها في شيء إلا في شيء يُرضي من خلقها وأكرمكم ومنّ عليكم بها، وهذه الأيدي التي جعل لكم تبطشون بها نعم من الله عليكم، فشكرها أن لا تبطشوا بها إلا في شيء يرضي من خلقها وأكرمكم ومنّ عليكم بها، وكذا الرِّجل إلى غير ذلك، وكذا جميع النعم. أما الذي يستعمل نعم الله فيما يسخط الله ويغضبه فهذا ليس من الشاكرين، وهذا من أوقح ما يتصوره العقل أن يكون هذا العبد المسكين الذليل الضعيف ينعم عليه ربه الغلي الأعلى الأعظم بهذا الإنعام ثم يبلغ من الوقاحة والسفاهة والجهل وعدم الحياء أن يصرف نعم خالقه (جل وعلا) فيما يسخط ربه، هذا أمر عظيم يعرق له الجبين، ويخجل منه العاقل، فلا ينبغي للإنسان أن يصرف نعم الخالق العظيم (جل وعلا) إلا فيما يرضي من خلقه ومنّ عليه بها.

ومادة (شكر) هي في لغة العرب تتعدىٰ للنعمة وتتعدىٰ للمنعم، فإن تعدّت للنعمة تعدت إليها بلا حرف بلا نزاع بين علماء العربية[٢]. تقول: «شكر نعمته، وأشكر نعمة الله». وتَعَدِّي الشكر للنعمة بلا حرف أسلوب عربي لا نزاع فيه، وهو في القرآن وفي غيره، أما إذا تعدّى الشكر إلى المنعم كأن تقول: «نحمد الله ونشكر له» فاللغة الفصحىٰ أن تقول: «نحمد الله ونشكر له» ولا تقول: «ونشكره». وقال بعض العلماء: لا يتعدى الشكر للمنعم إلا باللام فتقول: «أحمد الله وأشكر له» ولا تقول: «وأشكره». وشذّ قوم فزعموا أنك لو قلت: «وأشكره» كان لحناً، وأنه يجب

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

أن تقول: «وأشكر له». والتحقيق: أن (وأشكر له) ـ مُعدىً باللام ـ هي اللغة الفصحىٰ، وهي لغة القرآن العظيم، ولم يأت في القرآن العظيم لفظ الشكر مُعدّى إلى المنعم إلا باللام نحو: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: آية ١٤] ولم يقل: أن اشكرني واشكر والديك. ونحو ذلك من الآيات، إلا أن (شَكَرَه) ـ متعدياً للمنعم بلا حرف ـ لغة مسموعة في كلام العرب وليست لحناً، إلا أن التعدية باللام أفصح منها، أما (أحمده) و (أشكره) فالتحقيق أنه ليس بلحن، وأنها لغة عربية مسموعة، ومن شواهدها قول أبي نخيلة[١]:

شَكَرتُكَ إن الشُكْرَ حبْلٌ من التُّقَىٰ وما كُل من أَوْلَيْتَه نَعْمةً يَقْضِي

قال: (شكرتك) ولم يقل: (شكرت لك) ومنه بهذا المعنى قول جميل بن معمر[٢]:

خَليلَيَّ عُوجَا اليومَ حتى تُسَلِّما على عَذْبةِ الأنيابِ طيبة النَّشْرِ
فإنكما إن عُجْتُما لي ساعةً شَكَرْتُكُمَا حتى أُغَيَّبَ في قَبْرِي

قال: شكرتكما، ولم يقل: شكرت لكما. هذا هو التحقيق.

قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ يعني فلما أعطىٰ الله آدم وحواء صالحاً، أي: أعطاهما ولداً بشراً سوياً ليس ببهيمة، وخرج منها بسلام.

﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ قرأ هذا الحرف جميع القراء منهم ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص خاصة: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ جمع شريك. وقرأه نافع وأبو بكر شعبة وحده عن عاصم: ﴿جعلا له شِرْكاً فيما آتاهما﴾[٣] وكلاهما لغة فصيحة وقراءة سبعية صحيحة لا كلام فيها.

---

(١) السابق.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.
(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٧.

والضمير في قوله: ﴿جَعَلَا﴾ لآدم وحواء. وفي هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف وجهان معروفان من التفسير للعلماء[١]، أحدهما جاءت به أحاديث وآثار، والتحقيق أنها لا يثبت شيء من تلك الأحاديث والآثار، وإن صحح بعض العلماء بعضها. والثاني دلّ عليه القرآن، وما دلّ عليه القرآن أرجح من غيره.

أحد الوجهين في هذا: أن إبليس ـ لعنه الله ـ لما عظُم الجنين في بطن حواء جاءها وقال لها: إنه إذا خرج قد يشق بطنك، وقد يكون بهيمة، فهل أدلك على شيء إن فعلته خرج منك بسلام، وخرج بشراً سوياً؟ وهو أن تسميه عبدالحارث. ويزعمون أن الحارث من أسماء الشيطان، وأنها سمته عبدالحارث، وأنها جعلت لله شركاً حيث نسبت ذلك الولد الصالح الذي أعطاها الله نسبت عبوديته للشيطان، هذا المعنى جاء عن بعض الصحابة[٢]، وجاء في بعض الأحاديث المرفوعة، وصحح الحاكم بعضها وغيره[٣].

والتحقيق أنها لم يثبت في الحقيقة شيء منها والأغلب أن من رويت عنه من الصحابة أخذوها عن بعض الإسرائيليين.

الوجه الثاني: أن الآية الكريمة على أسلوب عربي معروف، وهو أنه جرت العادة في القرآن أن يسند فعل الآباء إلى الأولاد، وربما أسند فعل الأولاد إلى الآباء، وأن الفعل هنا أُسند لآدم وحواء (جعلا) بألف التثنية

---

(١) انظر: ابن جرير (٣٠٨/١٣)، القرطبي (٣٣٨)، ابن كثير (٢٧٤/٢)، الأضواء (٢٤٠/٢).

(٢) ساق ابن جرير (٣٠٩/١٣ ـ ٣١٥)، وابن أبي حاتم (١٦٣١/٥ ـ ١٦٣٤)، وابن كثير (٢٧٥)، والسيوطي في الدر (١٥١/٣ ـ ١٥٢)، جملة من الروايات في هذه الآية.

(٣) من ذلك ما أخرجه أحمد (١١/٥)، والترمذي في التفسير، باب (ومن سورة الأعراف). حديث رقم (٣٠٧٧)، (٢٦٧/٥ ـ ٢٦٨)، وقال: «حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة. ورواه بعضهم عن عبدالصمد ولم يرفعه. عمر بن إبراهيم شيخ بصري» ا.هـ. والحاكم (٥٤٥/٢)، وابن جرير (٣٠٩/١٣)، وابن أبي حاتم (١٦٣١/٥) وذكره ابن كثير في التفسير (٢٧٤/٢)، وأعله من ثلاثة أوجه. وعزاه لابن مردويه وابن أبي حاتم.
كما ذكره السيوطي في الدر (١٥١/٣)، من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.
وأخرجه الترمذي في التفسير، باب: (ومن سورة الأعراف) حديث رقم (٣٠٧٨)، (٢٦٨/٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الواقعة على آدم وحواء، والمراد ذريتهما التي أعطاها الله التناسل يخرج هذا بشراً سوياً، ويخرج بسلام، ومع ذلك يكفرون بالله (جل وعلا) ويعبدون غيره، والدليل على أنه أطلق آدم وحواء وأراد ذريتهما من القرآن أنه قال بعده: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٩٠] ثم قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ بصيغة الجمع ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٩١] ثم ذكر علامات الأصنام التي يُشرك بها أولادهم كما هو واضح. وهذا القول أرجح، واختاره غير واحد من المحققين لدلالة القرآن عليه، ونظيره من القرآن: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ [الأعراف: آية ١١] لأن معنى ﴿صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ هنا: صورنا أباكم آدم. فنسب التصوير إليهم والمُصوَّر أبوهم آدم، بدليل أنه قال: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟﴾ وأمر الملائكة بالسجود قبل تصوير بني آدم الآخرين كما لا يخفى.

وهذا معنى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ القول الأول: سمّيا الولد عبدالحارث، وعلى الثاني: المُراد: ذريتهما جعلت لله شركاء، فأشركت بالله (جل وعلا) الأصنام، وشاركوه في جميع ما أعطاهم من النعم والأولاد حتى قال الله للشيطان: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ [الإسراء: آية ٦٤] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: آية ١٣٦] وكونه أسند الفعل لآدم وحواء وأراد ذريتهما وهو الذي دل عليه القرآن؛ ومثل هذا كثير في القرآن؛ لأنه يقول لبني إسرائيل في زمن النبي: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: آية ٥٧] ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: آية ٦٣] والمفعول بهم هذا أسلاف أسلافهم لا هؤلاء الموجودين كما هو معروف. وهذا معنى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: تقدس وتعاظم وتنزه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به، وهو (جل وعلا) منزّه عن الشريك، وهو الواحد الأحد في عبادته وأسمائه وصفاته وأفعاله لا شريك له في شيء من ذلك.

٢٦/ب / ثم قال منكراً عليهم: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ بالله وهو خالق كل شيء ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ [الأعراف: آية ١٩١] هذا ليس بإنصاف، وقد جرت العادة في القرآن في آيات كثيرة أنه يجعل سبب العبادة التي تُستحق

به هو الخلق والإبراز من العدم إلى الوجود، فمن يبرزكم من العدم إلى الوجود، ويوجدكم بعد أن كنتم عدماً هذا هو ربكم الذي يستحق أن تعبدوه وحده، أما الذي يحتاج إلى من يخلقه فهو عبد مربوب فقير مثلكم، عليه أن يَعْبُدَ مَنْ خَلَقه؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: آية ٢١] وقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: آية ١٦] أي: وخالق كل شيء هو المعبود وحده جل وعلا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ [الحج: آية ٧٣] ومن لم يخلق شيئاً لا يمكن أن يكون معبوداً؛ ولذا قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ [الأعراف: الآيتان ١٩١، ١٩٢] لا يقدرون أن ينصروهم إذا دعوهم وعبدوهم ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ النصر في اللغة: هو إعانة المظلوم. يعني: إن ظُلموا لا يَدفع عنهم الظلم، ولو ظُلم نفس الأصنام لا يقدرون أن ينتصروا لأنفسهم لأنهم جماد، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: آية ٧٣].

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٩٣، ١٩٤].

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ قرأ هذا الحرف جماهير القراء، منهم عامة السبعة غير نافع: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ مضارع اتبعه يتّبعه، وقرأه نافع وحده من السبعة: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يَتْبَعُوكُم﴾ وتبعه واتّبعه بمعنى واحد، فكلتاهما قراءتان صحيحتان، ولغتان فصيحتان معناهما واحد[1]. عبّر عن الأصنام هنا بضمائر أصحاب العقول وهي لا تعقل؛ لأن الكفار نزلوها منزلة العقلاء أو أعظم من العقلاء.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي: تدعوا هؤلاء المعبودين الأوثان التي تعبدونها من

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٧.

دون الله التي لا تخلق شيئاً وهي تُخلق ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ معناها: تدعوهم إلى طريق الهدى ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ لأنهم جماد. ومن إذا دُعي إلى الهدى لا يتبع كيف يُطلب منه الهدى؟ ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: آية ٣٥] وهؤلاء إن هُدوا لا يهتدون!! وهذا معنى قوله: ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ هذه الهمزة التي هي قوله: ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ هي التي تسميها علماء العربية: همزة التسوية، وهي وما بعدها ينسبك منهما مصدر من غير حرف سابك. وأجود الإعرابين في ذلك: أن المعنىٰ: دعاؤكم لهم وصمتُكم عنهم سواء، أي: مستويان. فـ (سواء) خبر مقدم، وهو اسم مصدر بمعنىٰ الوصف. وقوله: ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ في محل مبتدأ مصدر مسبوك بلا سابك، وما بعده معطوف عليه. والمعنى: دعاؤكم إياهم إلى الهدىٰ، وصُماتكم إياهم عن ذلك سواء. أي: مستويان، لا يتبعوكم في حالة من الحالتين، لا في حالة دعاؤكم لهم، ولا في حالة صمتكم عنهم، وهذا معنى معروف في كلام العرب، ونظيره في القرآن: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: آية ٦] أي: إنذارك لهم وعدمه سواء. أي: مستويان، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، والأجود فيه أن (سواء) خبر مقدم، ونظيره من كلام العرب قول ابن قيس الرُّقَيَّات(١):

تخطت بي الشهباءُ نحو ابن جعفر ... سواءٌ عليها ليلُها ونهارُها

يعني: ليلها ونهارها سواء، أي: مستويان. وقول الآخر(٢):

وليلٍ يقول المرءُ من ظُلُماته ... سَواءٌ صحيحاتُ العيونِ وعُورُها

أي: صحيحات العيون وعُورها سواء، أي: مستويات لشدة ظلامه لا

---

(١) البيت في ديوانه ص١٦٣، ابن جرير (٢٥٦/١)، الكامل للمبرد (٨٢٨/٢)، تاريخ دمشق (٢٧٢/٢٧)، (٢٨٥/٣٣)، (٩١/٣٨) وصدره في بعض هذه المصادر: «تغذُّ»، وفي بعضها: «تَقَدَّتْ».

(٢) البيت لمضرس بن ربعي. وهو في ابن جرير (٢٥٦/١)، القرطبي (١٨٤/١)، الدر المصون (١٠٧/١).

يبصر فيه البصير كما لا يبصر الأعمى. وهذا معنى قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ إلى الهدىٰ أم صَمَتُّم عنهم. وعبَّر بالجملة الإسمية، يعني: إذا صَمَتُّم عنهم دائماً فلم يهتدوا، وإذا دعوتهم فلن يهتدوا، فلا يهتدون إلى الهدىٰ في حالة من الأحوال!! ومن كانت هذه حاله فكيف يتخذه العاقل رباً يعبده من دون الله؟! فهذا يدل على أنهم أقوام لا عقول لهم. وكان ابن عباس (رضي الله عنهما) يقول: إذا أردت أن تعرف عدم عقول العرب فاقرأ الآية الفلانية من سورة الأنعام قدر كذا. يعني: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: آية ١٤٠][(1)] رزقهم الله الأولاد والمال فقتلوا الأولاد وحرموا المال على أنفسهم. فهؤلاء قوم لا يعقلون؛ لأن الكفر يطمس البصائر، ويترك الإنسان أعمىٰ لا يعرف حقاً من باطل. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦] وهذا معنى قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٩٣].

/ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ 1/27
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ
يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾
إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا
يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ
وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ
ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾
وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا
ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٩٤ ـ ٢٠٣].

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب قصة زمزم وجهل العرب، حديث رقم (٣٥٢٤)، (٥٥١/٦).

يقول الله (جل وعلا): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف: آية ١٩٤].

في هذه الآيات الكريمة من سورة الأعراف بيّن الله (جل وعلا) سخافة عقول المشركين حيث عبدوا من هو دونهم وهم أكمل منه، قال أولًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه الأصنام والأوثان التي تعبدونها من دون الله. سوَّاها أولًا بهم في هذه الآية، قال: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ إنما أطلق على الأصنام اسم العباد وعبّر عنها بضمائر العقلاء لأن الكفار يصفونها بصفات من هو خير من مطلق العقلاء، أنها معبودات، وأنها تشفع وتقرب إلى الله زلفىٰ، فبهذا الاعتبار أجرىٰ عليها ضمائر العقلاء، وعبّر عنها بالعباد. ووجه مماثلتهم هنا: أن الكفار العابدين، والأصنام المعبودات كلهم مخلوقات لله لا تقدر أن تجلب لنفسها نفعاً ولا أن تدفع عنها ضراً. فهم من قبيل تسخير الله لهم، وخلقه للجميع، وقدرته على الجميع، بهذا الاعتبار هم سواء؛ ولذا قال: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ بهذا الاعتبار، وفي الآية التي بعدها سيبيّن انحطاط درجة المعبودين عن العابدين، كما سيأتي إيضاحه قريباً إن شاء الله.

وقوله: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ يعني: ادعوا هذه الأصنام واطلبوا منها النفع، أو ادعوها إلى الهدىٰ ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنها معبودات من دون الله، وأنها تنفع وتقرب إلى الله زُلفىٰ وتشفع ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ إذا دعوتموهم إلى الهدىٰ تبعوكم أو نفعوكم بشيء ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ جمهور علماء العربية على أن جزاء الشرط لا يتقدم عليه، إلا أن ما تقدم دليل الجزاء، أي: إن كنتم صادقين في أنها تعبد وتنفع فادعوها فلتستجب لكم، ولا تستجيب لكم أبداً، كما صرح الله بذلك وأوضحه في آيات من كتابه كقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: الآيتان ١٣، ١٤] وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ

كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: الآيتان ٥، ٦] وقال: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وفي القراءة الأخرى[1]: ﴿مَّوَدَّةُ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [العنكبوت: آية ٢٥] وقال جل وعلا: ﴿وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: الآيتان ٨١، ٨٢] ولذا قال هنا: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ولن يستجيبوا لكم أبداً، ومن يدع من دون الله من لا يستجيب له لا أضل منه، كما صرح الله به في قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: آية ٥] وهذا معنى قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٩٤].

ثم بيّن انحطاط درجة المعبودات عن درجة العابدين، وكأنه يقول لهم: بلغت عقولكم من السخافة حتى عبدتم من أنتم خير منه وأكمل!! ومعبود يكون عابده أكمل منه فهذا لا ينبغي لأحد أن يعبده، كما قال تعالى في الأصنام المعبودات وهي جمادات معبّراً بهمزة الاستفهام ـ استفهام الإنكار ـ المضمنة معنى النفي: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ أنتم أيها العابدون كل واحد منكم ذو رجلين يمشي عليهما ويتصرف، والذي يعبده جماد لا يقدر أن يتحرك ولا يمشي، فكيف تعبدون من أنتم أكمل منه وأقدر؟! هذا عمىً وسخافة؛ ولذا قال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: آية ١٩٥].

الأيدي جمع يد، ووزنه (أفعُل) لأن الرِّجْلَ هنا واليد والعين كلها مجموعة على (أفعُل) أرجل، أعين، أيدي، أصله: (أيديٌ) على وزن (أَفعُل) إلا أن الضمة قُلبت كسرة للياء المتطرفة بعدها؛ لأن الأيدي منقوص، والمنقوص إذا نُكر نوِّن على العين كما هو معروف في محله، ويُرفع بضم مقدر، ويُخفض بكسر مقدر، ويظهر نصبه كما هو معروف في

---

(١) وفيه قراءات غير ما ذكر، انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٤٤، السبعة ص٤٩٨.

محله. والأيدي جمع تكسير لليد، واحده يد. وأصل اليد (يَدَيٌ) ففاؤها ياء، وعينها دال، ولامها ياء، فحرفها الأول: ياء، وحرفها الأخير: ياء، وبين الياءين دال، إلا أن العرب حذفت الياء الأخيرة التي في محل اللام ولم تُعوض منها شيئاً، وأعربت (اليد) على العين ولم تُعوض من اللام المحذوفة شيئاً[١]. وهذا فعلته في كلمات معدودة، كـ (يد) و (دم)، و (هَنٍ) و (غد) و (دَب) ونحو ذلك، إلا أن اليد أصلها تعرب على العين، تقول: «قطع يده، وأعطاه هذا بيده، ومدته له يده» بحذف الياء، إلا أن العرب إذا صغَّرت اليد أو جمعتها جمع تكسير رجعت الياء المحذوفة؛ لأن المقرر في فن التصريف: أن جمع التكسير والتصغير كلاهما يَردّ الأمر إلى أصله، فصغرت العرب اليد على يُديَّة، وجمعت اليد على أيدي. يظهر نصبه كقوله: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: آية ٣٨] فرجعت في جمع التكسير الياء المحذوفة، وسُمع عن العرب نادراً ذكر الياء في المفرد، وهو نادر، وإذا ذُكرت فيها الياء كانت من المقصور على الألف، فتقول العرب: (اليدى) كالفتى؛ لأن أصل الفتى (فَتَيٌ) وأصل اليد: (يَدَيٌ) وهذا سُمع قليلاً في كلام العرب - وجود الياء من أصلها، وإبدالها ألفاً، وجعل اليد من المقصور - ومنه بهذا المعنى قول الراجز[٢]:

يـا رُبَّ سـارٍ بَـاتَ مـا تَـوَسَّـدا ... إلا ذِرَاعَ الـعَـنْـسِ أو كـفَّ الـيَـدَا

فـ(اليدَا) هنا مردود إلى الأصل فيه (الياء) وأُبدل منها الألف كما هو معروف.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ قرأه بعض السبعة: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ﴾ بكسر اللام على الأصل في التخلص من الساكنين بكسر أولهما، وقرأه بعض السبعة: ﴿قُلُ ادعوا﴾ بضم اللام إتباعاً للضمة كما لا يخفى[٣]. وهذا معنى قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾

---

(١) انظر: الدر المصون (١/٤٥١)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٢٩٤.

(٢) البيت في الدر المصون (١/٤٥٢).

(٣) انظر: الإتحاف (٢/٧٢).

[الأعراف: آية ١٩٥] أجرىٰ الله العادة أنه إذا أرسل الأنبياء وعابوا الأصنام وقالوا: إنها لا تنفع ولا تضر، وأن عبادتها كفر بالله مُخلّد في النار، أن أصحاب الأصنام الذين يعبدونها يقولون للرسل: ستضركم هذه الآلهة، ستخبلكم وتخرب عقولكم، ويأتيكم منها الضر؛ لأنكم عبتموها!! والرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) لا يخافون هذا؛ لأن الخوف من الأصنام كفر بالله وعدم توكل عليه، فقد خوفوا النبي ﷺ بأن أصنامهم تضره؛ لأنه عابها، كما سيأتي إيضاحه في الزمر في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: آية ٣٦] وقد خوفوا بها نبي الله إبراهيم كما قال الله عنه أنه قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ [الأنعام: آية ٨١] وقد قالوا لنبي الله هود: إن آلهتهم اعترته بسوء فَخَبَّلَته وجننته، فزعموا أنه مجنون، وأن الذي أضر عقله آلهتهم، كما في قولهم لهود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: الآيتان ٥٤، ٥٥] هذا الذي قال لهم نبي الله هود هو الذي قال لهم نبينا محمد ﷺ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ وتعاونوا معهم وكل من قدرتم عليه ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ يعني: امكروا بي وافعلوا بي ما تستطيعون من الكيد والمكر ثم لا تنظرون، لا تمهلون؛ إلا أن نبي الله هوداً قال: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: آية ٥٦] ونبينا (صلوات الله وسلامه عليه) قال: ﴿إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: آية ١٩٦] وقد أجرىٰ الله عادة الشياطين أنهم يخوفون الناس من أولياء الشياطين كما تقدم إيضاحه في تفسير قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ الأصل: يخوفكم أولياءه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: آية ١٧٥] وأنواع تخويف الشيطان الناس من أوليائه مختلفة كما هو معروف؛ ولذا قال هنا: ﴿فَكِيدُونِ جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: آية ١٩٥].

ثم قال (صلوات الله وسلامه عليه): ﴿إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ﴾ الولي في لغة

العرب: وهو المولى، وهو الذي انعقد بينك وبينه سبب ولاية يجعلك تواليه ويواليك[(١)]. والله (جل وعلا) انعقد بينه وبين رسوله موجب الولاية، الرسول يوالي ربه بالطاعات، والله يوالي نبيه بالإعانة والنصر والثواب الجزيل، والرسول ولي المؤمنين، والمؤمنون أولياؤه ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: آية ٦] والله ولي المؤمنين، والرسول ولي المؤمنين ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة: آية ٥٥] والمؤمنون المتقون أولياء الله ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس: الآيتان ٦٢، ٦٣].

قوله: ﴿نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ [الأعراف: آية ١٩٦] هو هذا القرآن العظيم. وقال بعض العلماء: المراد جنس الكتاب. فالمعنى: أنه نزل جميع الكتب المنزلة، فيها هذا الكتاب الذي هو الأخير منها، الذي جمع الله فيه علوم الأولين والآخرين، وهذا القرآن سُمي كتاباً، وهو (فِعَال) بمعنى (مَفْعُول) أي: مكتوب؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾ [البروج: الآيتان ٢١، ٢٢] ومكتوب في صحف عند الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦﴾ [عبس: الآيات ١٣ ـ ١٦] وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[(٢)] أن مادة الكاف، والتاء، والباء. (كَتَبَ) معناها في لغة العرب: الضم والجمع، فكل شيء ضممت بعضه إلى بعض وجمعته فقد كتبته. ومنه سُميت الكتيبة كتيبة، وهي القطعة العظيمة من الجيش؛ لأنها انضم بعضها إلى بعض واجتمع بعضها مع بعض، ومنه قول نابغة ذبيان[(٣)]:

ولا عيب فيهم غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُم بِهِنَّ فُلولٌ من قِرَاعِ الكَتَائِبِ

ولذلك أُطلقت الكتابة على الخياطة؛ لأن الخياطة يُضم فيها طرف الثوب أو طرف الأديم يضم بعضها إلى بعض ويُجمعان بالخيط الذي يخيط

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

به الخائط كما هو معروف، وفي ألغاز الحريري[1]:

وكَـاتِـبِـيْـنَ ومـا خَـطَّـتْ أَنَـامِـلُـهـمْ حَرْفاً ولا قرؤوا ما خُطَّ في الكُتُبِ

يعني الخياطين؛ ولذلك سمّت العرب الرقعة التي تكون في السقاء، والسير التي تُخاط به سَمَّتْهُمَا (كُتبة) لأنه شيء يُلصق بشيء ويُضم إليه، وهو معنى معروف في كلامها، ومنه قول غيلان ذي الرمة[2]:

ما بَالُ عَيْنَيْكَ منها الماءُ يَنْسَكِبُ كـأنـهُ مـن كُـلَـى مَـفْـرِيـةٍ سَـرَبُ
وفْـراءَ غَـرْفِـيَّـة أَثْـأَى خَـوَارِزهـا مَشْلْشَلٌ ضَيَّعَتْهُ بينها الكُتَبُ

ومن هذا قيل للخياط: كاتب، ومنه قول الشاعر يهجو بني فزارة ويعيرهم بأنهم يفعلون الفاحشة مع إناث الإبل[3]:

لا تَـأْمَـنَـنَّ فَـزَاريـاً خَـلَـوْتَ بـه على قَلُوصِكَ واكتُبها بأَسْيَارِ

فقوله: «واكتبها بأسيار» يعني: خِط ثفرها بأسيار لئلا يفعل بها الفزاري الفاحشة. هذا أصل هذه المادة في لغة العرب. والكتابة مصدر سيَّال معناه أنك تجمع نقوشاً وتضم بعضها إلى بعض، وتجمع بعضها مع بعض، هي هذه الحروف، حتى تصير دالة على المعاني. هذا معنى الكتاب، وهو (فِعال) بمعنى (مفعول) مكتوب. وهذا معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾.

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ وهو (جل وعلا) يتولى الصالحين، وسيدهم وخيرهم هو النبي ﷺ، فقد تولاه، ولا يضره شيء مع كلاءة الله وحفظه له ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: آية ٦٧] ومعنى كونه يتولاهم أي: يتولاهم بالنصر والحفظ والكلاءة والجزاء ونحو ذلك.

والصالحون جمع صالح، وهو ضد الطالح، وهو الذي يطيع الله (جل وعلا) فيما أمره به ونهاه عنه. وهذا معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

---

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ أي: إعانتكم من ظالم ظلمكم، لا يقدرون أن يدفعوا عنكم شيئاً ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٩٧].

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟﴾ كما تقدم بيانه.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٩٨] في هذه الآية الكريمة أوجه معروفة من التفسير[(١)]: قال بعض العلماء: الضمير في ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ عائد إلى الكفار الذين يعبدون الأصنام. يعني: تراهم ينظرون إليك وتظن أن عيونهم مبصرة وهم لا يبصرون شيئاً؛ لأنهم عمي، إذ لو كانوا يبصرون شيئاً لما عبدوا حجارة لا تنفع ولا تضر!!

وقال بعض العلماء: الضمير في قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ عائد إلى الأصنام. والذين قالوا هذا اختلفوا إلى قولين:

أحد القولين: أنهم كانوا يمثلون تماثيل ويجعلون لها أعيناً تشبه عيون الناس، حتى إنه إذا قابلك الصنم كأنه إنسان ينظر إليك. قالوا: وعلى هذا تراهم فيما يتراءىٰ للناظر ينظرون إليك وهم لا يبصرون؛ لأنهم في الحقيقة جمادات. وذكر ابن جرير[(٢)] وغير واحد أن العرب تقول لكل مقابل شيء إنه ناظر إليه، تقول: دار فلان تنظر إلى داري. معناه: أنها مقابلة لها. وقالوا: إن هذا أسلوب عربي معروف، نزل به القرآن. وعلى هذا القول: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ مقابلين لك ليس بينك وبينهما حاجز ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ لأنها جمادات لا تنفع ولا تضر. هذه الأقوال الثلاثة هي حاصل كلام أهل العلم في الآية. وهذا معنى قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٩٨].

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٩٩، ٢٠٠].

هذه الآية الكريمة من أخريات سورة الأعراف إحدىٰ ثلاث آيات[(٣)] في

---

(١) انظر: ابن جرير (٣٢٤/١٣)، القرطبي (٣٤٤/٧).

(٢) تفسير ابن جرير (٣٢٥/١٣).

(٣) انظر: الأضواء (٣٤١/٢).

كتاب الله بيّن الله (جل وعلا) فيها آداباً اجتماعية يجب على كل مسلم أن يتفهمها ويتدبرها ويعمل بها؛ لأنه ينتفع بها في طول حياته انتفاعاً تاماً، وهي من تعاليم خالق السماوات والأرض، وسنلم بهذه الآيات ونذكر هذه الآداب الاجتماعية التي دلت عليها التي يحتاج إلى تعليمها كل إنسان، ثم نرجع إلى الآية فنفسر مفرداتها.

اعلموا أولًا أن الله أجرىٰ العادة بأنه لا يخلو أحد كائناً من كان من عدو مناوىء له من بني آدم ومن الشياطين، لا بد للإنسان من عدو يناوئه من بني جنسه ومن الشياطين. وهذا أمر غالباً، وخير الناس الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ والله يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ [الأنعام: آية ١١٢] فلا يخلو إنسان من عدو من بني جنسه وعدو من الشياطين.

لَيسَ يَخْلُو المرءُ من ضدٍ ولَو ... حَاوَلَ العُزلَة في رَأسِ جَبَل[١]

وفي هذه الآية والآيتان الأخريان بيان ما يتلقى الإنسان به العدو من جنسه والعدو من الشياطين؛ ليكتفي شرهما ويكسر أصل هذه العداوة المضرة الشنيعة التي لا يسلم منها أحد[٢]، وذلك أن عدوك من بني جنسك أنك تقابل إساءته بالإحسان، ومنكره بالمعروف، وإساءته بالحلم والصفح، فإن ذلك الإحسان وذلك الحلم والصفح يقضي على إساءته ويذهبها حتى يُضطر إلى أن يصير في آخر الأمر من أصدق الأصدقاء.

وأما إذا كان العدو من الشياطين فإن الملاينة لا تفيد فيه، وأنت لا تراه ولا لك فيه حيلة إلا الاستغاثة بخالق السماوات والأرض والاستعاذة به منه. قال هنا فيمن يتسلط عليك من الإنس: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: آية ١٩٩] وقال في صاحبه الآخر من شياطين الجن: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ لا دواء له إلا ذلك ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٠].

---

(١) هذا البيت من لامية ابن الوردي. وهي ضمن مجموع (كفاية الإنسان من القصائد الغر الحسان) ص١٦٨.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

الموضع الثاني: في سورة (قد أفلح المؤمنون) قال تعالى في عدوك من بني جنسك: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يعني: ادفع سيئات المسيئين بمقابلتها بالتي هي أحسن ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ثم قال في العدو الثاني من شياطين الجن: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ٩٦ ـ ٩٨].

الموضع الثالث: في (حم. السجدة) زاد فيه تعالىٰ أن هذا الدواء السماوي والعلاج القرآني الذي يكسر عداوة هذين العدوين لا يعطيه الله لكل أحد، وإنما يخص به من شاء ممن له عنده الحظ الأعظم، وزاد أن هذا دواء نافع وعلاج عظيم حيث قال في العدو من الإنس: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: آية ٣٤] في غاية الصداقة؛ لأن مقابلة إساءته بالإحسان تخجله وتقضي علىٰ عداوته حتى يُضطر إلى أن يرجع صديقاً. وقال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ [فصلت: آية ٣٥] هذه الخصلة وهذا التعليم القرآني لا يُعطاه كل الناس، لا يعطيه الله إلا لصاحب الحظ والبخت العظيم عنده من الصابرين؛ ولذا قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ ثم قال في رفيقه الآخر: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: الآيتان ٣٥، ٣٦] فهذا علاج قرآني ودواء سماوي نافع يحتاج إليه كل مسلم، ومحل هذا في غير الكفار المناصبين الناس بالعداوة، فالملاينة لهم لا تجوز؛ لأن الكفار يجب عليهم الغلظة والقوة والعزة، ولا يُلاينون، ولا تُقابل سيئاتهم بالحسنات، كما وصف الله بذلك نبينا ﷺ وأصحابه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: آية ٢٩] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: آية ٧٣] مع أنه يقول: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: آية ٨٨] ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: آية ٢١٥] ويقول في غيرهم: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: آية ٧٣] وقد مدح الله قوماً بلين جانبهم لإخوانهم المسلمين وقوتهم على الكفرة ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: آية ٥٤] وقد قال الشاعر في نبينا ﷺ:

وما حَمَلَتْ من نَاقَةٍ فوقَ رَحْلِهَا أَشَدَّ على أَعدائِهِ من محمدِ[١]

صلوات الله وسلامه عليه. ومن شعر مالك بن نمط الهمداني لما قدم على النبي ﷺ في وفد همذان:

وما حَمَلَتْ من نَاقَةٍ فوقَ رَحْلِهَا أَبَرَّ وأَوفىٰ ذمةً من محمدِ
وأَعْطَىٰ إذا ما طالِبُ العُرْفِ جَاءَهُ وأَمْضَى بحدِّ المَشْرَفِيِّ المُهَنَّدِ

والحاصل أن الشدة في محل اللين حمق وخرق، واللين في محل الشدة ضعف وخور، وكل مقال له مقام. وقد صدق أبو الطيب المتنبي في قوله[٢]:

إذا قِيلَ حِلْمٌ فقل للحلمِ موضعٌ وحِلْمُ الفتىٰ في غيرِ موضَعِهِ جَهْلُ

وقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال بعض العلماء: لما نزلت هذه الآية سأل النبي ﷺ عنها جبريل فقال له: حتى أسأل ربي، ثم رجع له وقال: ربك يقول: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: صِل من قطعك، وأعطِ من حرمك. ونحو ذلك[٣]... فإن

---

(١) هذا البيت وما ذكره الشيخ بعده لمالك بن نمط. وقوله: «أبر وأوفى ذمة من محمد» ليس في أبياته التي أوردها ابن هشام في السيرة (١٤٥٥/٤)، وإنما هو باللفظ الأول الذي ذكره الشيخ (أشد على أعدائه من محمد). والبيت المذكور (أبر وأوفى ذمة من محمد) ذكره الصالحي في (سبيل الهدى والرشاد) (٤١٩/١) منسوباً لأُسيد بن أبي إياس الدؤلي. ونقل عن أبي علي الحاتمي قوله: «اتفق أهل الأدب على أن أصدق بيت قالته العرب هو قول أبي إياس الدؤلي...» وذكره. كما أورده الحافظ ابن حجر في الإصابة (١٣٢/١) في ترجمة أنس بن أُسيد بن أبي إياس بن زنيم الكناني. وقال الحافظ بعد أن أورده: «هذا البيت من قصيدة أنس بن زنيم» ا.هـ. وأورده في ترجمته (٦٩/١)، وانظر ما قاله الحافظ (رحمه الله) في ترجمة أسيد بن أبي إياس بن زنيم الكناني الدؤلي (٤٧/١).

(٢) البيت في ديوانه (بشرح العكبري (١٨٧/٣)، وشطره الأول: «إذا قيل رفقاً قال...».

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٣٠/١٣)، وابن أبي حاتم (١٦٣٨/٥)، عن سفيان بن عيينة عن أُمَيّ مرسلاً. وأخرجه ابن أبي حاتم (١٦٣٨/٥) وأورده السيوطي في الدر (١٥٣/٣)، عن الشعبي مرسلاً، وعزاه لابن أبي الدنيا وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن جرير. والذي عند ابن جرير عن أُمَيّ كما تقدم.
كما أورده في الدر عن جابر (رضي الله عنه) وقيس بن سعد بن عبادة وعزاه لابن مردويه.

هذا هو العفو، بأن تصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، قال له: صِلْ من قطعك، واعف عمن ظلمك. هذا هو الأخذ بالعفو، وقد ثبت في صحيح البخاري في تفسير هذه الآية الكريمة أن عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري المعروف من رؤساء فزارة وهو الذي يُقال: إنه مطاع أحمق، وكان ابن أخيه الحر بن قيس من خيار المسلمين ومن القُراء، وكان له مكانة عند عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)؛ لأن عمر (رضي الله عنه) كان جلساؤه القراء صغاراً كانوا أو كباراً، فقال عيينة لابن أخيه الحر بن قيس: لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لنا عليه. فاستأذن له عليه، فلما دخل عيينة على عمر (رضي الله عنه) ـ وكان عيينة بدوياً جافياً ـ فقال: هِيْ يا ابن الخطاب!! ما تعطينا الجزل، ولا تقسم بيننا بالعدل!! فغضب عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حتى همّ به، فقال له الحرّ بن قيس: يا أمير المؤمنين إن الله يقول لنبيه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ وإن هذا من الجاهلين. فما جاوزها عمر، وكان عمر (رضي الله عنه) وقّافاً عند كتاب الله[(١)].

قال بعض العلماء[(٢)]: (العفو) هو ما تسهّل لك من أخلاق الناس، خذ ما وجدته سهلًا من أخلاق الناس، ما وجدت منهم من طيب خذه، وما جاءك منهم من غير ذلك تجاوز عنه واصفح عنه.

والعفو في لغة العرب يطلق على ضد الجهد، فكل شيء متيسر لا مجهود فيه تسمية العرب عفواً[(٣)]. وقد قدمنا إيضاحه في تفسير قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: آية ٢١٩] أي: الشيء الزائد الذي لا يُجهد الزائد على قدر الخَلَّة الضرورية على أصح التفسيرين. وهو معنىً معروف في كلام العرب، تقول لك: «خذ العفو مني» خذ ما تسهّل لك مني، وما تعصّىٰ عليك لا تكلمني فيه. ومنه

---

(١) البخاري في التفسير، باب (خذ العفو...) حديث رقم (٤٦٤٢)، (٨/٣٠٤).
(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٣٢٦).
(٣) انظر: المفردات (مادة: عفا) (٥٧٤).

قول أسماء بن خارجة وقيل حاتم الطائي(١):

خذي العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سَوْرَتي حين أغضبُ

ومنه قول حسان (رضي الله عنه) يمدح المهاجرين في شعره المشهور الذي فاخر به وفد تميم(٢):

خُذْ منهمُ ما أَتَوا عَفْواً إذا غَضِبُوا ولا يكُن همُّكَ الأَمرَ الذي منعُوا

وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الآخر(٣):

إذا ما بُلغة جاءتْكَ عَفْواً فخذها فالغِنَى مرعىً وشُربُ

فعلى هذا ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ ما تسهَّل لك من أخلاق الناس ووجدت منهم طيباً بلا كلفة فخذه، وما جاءك من غير ذلك فاصفح عنه وتجاوزه، كما قال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ العرب تطلق لفظة العُرف والمعروف والعارفة على كل خصلة جميلة تستحسنها العقول وتطمئن إليها النفوس(٤). معناه: وأمر بكل معروف جميل تطمئن إليه النفوس. وهذا معنى قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الحطيئة(٥):

من يفعل الخير لا يَعْدَم جَوَازِيَه لا يذهبُ العُرف بينَ الله والناسِ

---

(١) البيت في تاريخ دمشق (٩/٥٧، ٥٨)، شواهد الكشاف ص٩، مع عزوه لأسماء بن خارجة. وذكره ابن قتيبة في عيون الأخبار (٣/١١)، (٤/٧٧)، وعزاه لأبي الأسود الدؤلي. وذكره ابن القيم في روضة المحبين ص٧١ ، والشيخ (رحمه الله) في الأضواء (١/٤٦).

(٢) ديوان حسان ص١٥٣.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) انظر: القرطبي (٧/٣٤٦).

(٥) البيت في القرطبي (٧/٣٤٦).

يعني: أؤْمُر بالعرف أي: بكل جميل حسن تطمئن إليه النفوس وتستحسنه العقول، كالإعراض عن الجاهل، والعفو عن المسيء، وكان بعض علماء الأصول يقول: إن هذه الآية يدخل فيها ما يتعارف عليه الناس في معاملتهم وبيوعاتهم ونحو ذلك[(١)]، أن الناس إذا جرت عادتهم بعرف بينهم في جميع معاملاتهم يجب على الحاكم أن يأخذه؛ ولذا قال العلماء: إذا جاء قاض إلى بلد وهو غريب عنها ليس من أهلها لا يجوز له أن يحكم ولا أن يفتي حتى يسأل عن عرفهم وعاداتهم في ماذا يريدون بالصيغ والألفاظ المعاملات؛ لأن الأحكام تختلف باختلاف الأعراف، قد يكون الناس يطلقون هذه الكلمة على معنى معين لا يريدون غيره فيحملها القاضي على لفظها اللغوي فيظلمهم، ويُحَمِّلَهُم ما لا يقصدون. ومن هذا كان بعض علماء الأصول يقول: هذه المسألة التي دخلت في عموم هذه الآية إحدىٰ القواعد الخمس التي أُسس عليها الفقه الإسلامي[(٢)]. وبعضهم يقول: أصلها أربعة، زاد بعض الأصوليين فيها خامسة[(٣)]، وهي قواعد خمس:

أولها: (الضرر يُزال) هذه قاعدة عظيمة من قواعد التشريع الإسلامي (إزالة الضرر)، ويشهد لها حديث: **«لا ضرر ولا ضرار»**[(٤)].

---

(١) انظر: نشر البنود (٢/٢٧٢)، العرف وأثره في التشريع الإسلامي ص١٢٢.

(٢) للوقوف على هذه القواعد انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص٧، فما بعدها، نشر البنود (٢/٢٧٠)، نثر الورود (٢/٥٧٩).

(٣) انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص٧ ـ ٨.

(٤) روى هذا الحديث جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم) منهم:

١ ـ أبو سعيد الخدري. عند الحاكم (٢/٥٧ ـ ٥٨)، وقال: «صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه» ا.هـ. ووافقه الذهبي. ورواه الدارقطني (٣/٧٧)، (٤/٢٢٨)، والبيهقي (٦/٦٩).

٢ ـ عبادة بن الصامت. عند أحمد (٥/٣٢٦ ـ ٣٢٧)، وابن ماجه في الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره. حديث رقم (٢٣٤٠)، (٢/٧٨٤)، والبيهقي (٦/١٥٧)، (١٠/١٣٣).

٣ ـ ابن عباس عند أحمد (١/٣١٣)، وابن ماجه في الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره. حديث رقم (٢٣٤١)، (٢/٧٨٤)، الدارقطني (٤/٢٢٨)، والطبراني في =

الثانية: (المشقة تجلب التيسير) هذه من قواعد الفقه الإسلامي التي أُسس عليها، ومن فروع هذه القاعدة: التسهيلات والرخص، كقصر المسافر للصلاة، وفطره في رمضان، وغير ذلك من الرخص والتسهيلات المنتشرة في الشرع.

الثالثة: (لا يرتفع يقين بشك) وهذه من أمثلتها: أن الذمة تُحمل على براءتها حتى يُتحقق بالبينة شغلها. وكذلك إذا ثبت أن الذمة شُغِلَتْ بدَيْنٍ وجب استصحاب ذلك الشغل حتى تقوم البيّنة على أنه قضاه. وهكذا في مسائل كثيرة.

الرابعة: قولهم (العُرفُ مُحَكَّم) وهو أن الناس في معاملاتها وما يجري بينها في بيوعها ونكاحها وإجاراتها وطلاقها وغير ذلك من العقود أنها يُرجع بها إلى عرفها وما تعتاده في مخاطبتها وتقصده، ولا تُحمَّل بمطلق ألفاظ اللغة التي يخالفها عرفها.

القاعدة الخامسة: (الأمور تبع المقاصد) وهذه قاعدة عظيمة يشير إليها قوله ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»**[1] وهذا معنى قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الإعراض عن الجاهلين خُلُق سماوي أمر الله

= الكبير (١١/٣٠٢). والأوسط (٤/١٢٥). وعزاه في نصب الراية (٤/٣٨٤) لعبدالرزاق وابن أبي شيبة.

٤ ـ عائشة. عند الدارقطني (٤/٢٢٧)، والطبراني في الأوسط (١/٩٠).

٥ ـ أبو هريرة. عند الدارقطني (٤/٢٢٨).

٦ ـ عمرو بن يحيى المازني عن أبيه. عند مالك في الموطأ (مرسلاً)، كتاب الأقضية، باب القضاء في المرفق. حديث رقم (١٤٢٦)، ص٥٢٩.

٧ ـ ثعلبة بن أبي مالك. عند الطبراني في الكبير (٢/٨٦).

٨ ـ جابر بن عبدالله. عند الطبراني في الأوسط (٥/٢٣٨).

وانظر: إرواء الغليل (٨٩٦)، السلسلة الصحيحة (٢٥٠)، صحيح الجامع (٧٥١٧).

(١) البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي. . ، حديث رقم (١)، (١/٩). وأطرافه في: (٥٤)، (٢٥٢٩)، (٣٨٩٨)، (٥٠٧٠)، (٦٦٨٩)، (٦٩٥٣).
ومسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: **«إنما الأعمال بالنية»**. حديث رقم (١٩٠٧)، (٣/١٥١٥).

به نبيّه لِيُعَلِّم خَلْقَه هذا الخُلق الكريم، والأدب السماوي العظيم، أنه إذا جهل عليك جاهل فأساء إليك أن تعرض عنه ولا تأخذه بزلته، كما قال جل وعلا: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: آية ٧٢] ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: آية ٥٥] ونحو ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٠] (إما) هذه أصلها (إن) الشرطية زيدت بعدها (ما) المزيدة لتوكيد الشرط[١] والكثير في كلام العرب: أن (إن) الشرطية إذا أُكِّدت شرطيتها بـ (ما) المزيدة بعدها كان الفعل المضارع لا بد أن تكون فيه نون التوكيد المُثَقَّلة، حتى قال بعض العلماء: كل مضارع قبله (إما) لا بد أن يتصل بنون التوكيد الثَقيلة[٢]. والتحقيق أن هذا وإن كان هو لغة القرآن لم يوجد في القرآن فعل مضارع قبله (إما) إلا وهو مقترن بنون التوكيد المُثَقَّلة ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٠] ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ [الزخرف: آية ٤١] ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: آية ٢٦] إلى غير ذلك؛ إلا أن التحقيق أن إتيان نون التوكيد بعده هو اللغة الفصيحة ولو لم تأت بعده لكان جائزاً، وسُمع في أشعار العرب بكثرة عدم توكيد الفعل بعد (إما)، ومنه قول الأعشى[٣]:

فَإِمَّا تَرَيْنِي ولي لِمَّةٌ ... فإنَّ الحَوَادثَ أودَى بها

قال: «تريني» ولم يأت بنون التوكيد. ومنه قول الحماسي[٤]:

زَعَمتْ تُمَاضِرُ أنَّني إمَّا أَمُت ... يَسْدُدْ أُبَيْنُوهَا الأَصَاغِرُ خُلَّتي

ومنه قول الشنفرى[٥]:

---

(١) انظر: الدر المصون (١/٢٩٨).
(٢) انظر: المصدر السابق (١/٢٩٩).
(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من هذه السورة.
(٤) السابق.
(٥) السابق.

فإما تريني كابنةِ الرَّمْلِ ضَاحِياً   علـى رِقَّـةٍ أَحْـفَـى ولا أَتَـنَـعَّـلُ

وقول لبيد بن ربيعة[١]:

فَإِمَّا تريني اليومَ أصبحتُ سَالماً   فلَسْتُ بِأَحْيَا من كلابٍ وجعفرِ

وهو كثير في كلام العرب. وزعم قوم أن حذف نون التوكيد لضرورة الشعر. وقال جماعة من علماء العربية: إنه لغة صحيحة لا ضرورة، كما هو معروف في محله. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٠] أسند الفعل هنا إلى مصدره، كقول العرب إذا جدَّ الأمر: «جدَّ جِدُّ هذا الأمر». والأصل يعنون: جدَّ الناس في ذلك الأمر. وإسناد الفعل إلى مصدره أسلوب عربي معروف، منه قول أبي فراس الحمداني وإن كان شعره لا يصلح إلا مثالاً لا شاهداً[٢]:

سَيَذْكُرني قَومي إذا جَدَّ جِدُّهُم   وفي الليلةِ الظَّلماء يُفْتَقَدُ البدرُ

قال بعض العلماء[٣]: النزغ والنغز معناه: النخس. وإما ينخسنك الشيطان. ونخس الشيطان كأنه يأتي بشيء محدد ينخس في الإنسان ويغرزه فيه ليثيره إلى ما لا يرضي الله من المعاصي. وهذا النزغ هو فساد الشيطان على الإنسان إما بالوساوس، وإما بشدة الغضب، ونحو ذلك مما يحمله عليه الشيطان من انتهاك حرمات الله وتضييعها. إذا نزغك هذا النزغ من الشيطان بأن وسوس لك حتى زين لك أن تعصيه، أو أغضبك حتى خرجت عن حدود الطاعة، وكان هذا النزغ سيؤديك إلى أن تفعل ما لا ينبغي ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من الشيطان. (استعذ) معناه: اطلبه أن يعيذك منه. والإعاذة: هي الحفظ والتمنع والتوقي، عكس اللياذ؛ لأن اللياذ بالإنسان لاذ به يلوذ إذا كان يريد أن يجلب له

(١) السابق.

(٢) البيت في ديوانه ص١٦١.

(٣) انظر: القرطبي (٣٤٧/٧).

مصالحه. واستعاذ به يستعيذ ليمنعه ويقيه مما يخاف، كما قال[1]:

يَا مَنْ أَعُوذُ به فيما أُحَاذِرُه ومن أَلُوذُ به فيما أُحاوله

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: اطلب أن يعيذك، أي: يمنعك ويقيك من هذا الشيطان الرجيم ﴿إِنَّهُۥ﴾ جل وعلا ﴿سَمِيعٌ﴾ لدعائك، سميع لما يوسوس لك من الشيطان ﴿عَلِيمٌ﴾ بوسوسة الشيطان لك، وبالتجائك إليه، وبكل ما يقوله ويفعله خلقه، فهو الذي بيده إنجاؤك منه، وهذا معنى قوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٠].

٢٧/ب / [﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٠١] قوله: ﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ قرأه ابن كثير وأبو عمرو: ﴿طَيْفٌ من الشيطان﴾. وقرأه نافع وابن عامر وعاصم وحمزة: ﴿طَٰٓئِفٌ﴾. فعلى القراءة الأولى ﴿طَيْفٌ﴾ أي: لَمَّةٌ وخَطْرَة، فإذا وقع لهم شيء من ذلك أعرضوا عنه][2] إلى ما يرضي الله ويسخط الشيطان. وعلى قراءة الآخرين: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الأعراف: آية ٢٠١] فالطائف: اسم فاعل طاف يطوف فهو طائف. ﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الشيء الذي يطوف بهم من قِبَل الشيطان من وساوسه وإغضابه لهم. ومعنى القراءتين متلازم، إلا أن الأول يقول: ﴿طيف من الشيطان﴾ أي: لَمَّة منه. والثاني يقول: ﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ كما قال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [القلم: آية ١٩] ومعنى القراءتين راجع إلى شيء واحد.

وقوله: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أي: تذكروا عقاب الله وثوابه ففاجأهم الإبصار. والإبصار هنا معناه: الإبصار بالقلب الذي يحمل الإنسان على الرجوع إلى

---

(١) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه (شرح البرقوقي) (٢/٢٢٥)، وقد وقع فيه هنا تقديم وتأخير، ولفظه في الديوان:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وتم استدراك النقص بالرجوع إلى كتب القراءات والتوجيه. وقد جعلت ذلك بين معقوفين. انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٨، حجة القراءات ص٣٠٥، القرطبي (٧/٣٤٩)، الدر المصون (٥/٥٤٥ ـ ٥٤٧).

ما يرضي الله ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦].

وقد قدمنا أن (إذا) الفجائية فيها ثلاثة أقوال(١):

أحدها: أنها حرف.

والثاني: أنها ظرف زمان.

الثالث: أنها ظرف مكان. كما هو معروف في محله.

وهذا معنى قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ وهذا معنى قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: آية ٢٠١].

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ الآخرين، إخوانهم في النسب لا في الدين، الذين لا يبصرون﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ يمدهم الشياطين. فالإخوان الأولون من الإنس. وقوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ يعني: تمدهم الشياطين. ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ الآخرين من عتاة الإنس ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ أي: تمدهم الشياطين. هذا الذي ذكره غير واحد، أن المراد بالإخوان: العتاة من الآدميين، والذين يمدونهم: هم إخوانهم من الشياطين.

وقال بعض العلماء: إن الإخوان الأولين: الشياطين يمدون إخوانهم من عتاة الإنس. وعلى كل الأحوال فالمعنى: أن المتمردين من بني آدم، العصاة والكفرة لهم إخوان من الشياطين يمدونهم في الغي. ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ معناه يكونون لهم مدداً في الغي، ويزيدونهم فيه، فيزيدونهم طغياناً إلى طغيانهم، وكفراً إلى كفرهم بما يزينون لهم من الكفر والمعاصي ويعينونهم عليه.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٢] أي: لا يقصر الشياطين الذين يمدون عتاة الإنس لا يقصرون في ذلك أبداً؛ لأن الشيطان لا يحصل منه تقصير البتة في فعل السوء، فهو طبيعته متمادٍ فيه أبداً. والعرب تقول: أقصر عن الأمر يُقصر. إذا كف ونزع عنه وقلل منه، وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول امرىء القيس(٢):

---

(١) انظر: الدر المصون (١/١٣٣)، (٤/٤٠)، مغني اللبيب (١/٧٩)، معجم الإعراب والإملاء ص٥٠.

(٢) ديوان امرىء القيس ص٥٩، و (قَوّ) اسم واد في جزيرة العرب. و (عرعر) اسم موضع آخر.

سَمَا بك شوقٌ بَعْدَ ما كانَ أَقْصَرَا وَحَلَّتْ سُليمَى بَطْنَ قَوٍّ فعَرعَرَا

ومعنى الآية بالإجمال: أن المؤمنين المتقين إذا أصابتهم لَمَّة من الشيطان ونزغ منه فوسوس لهم ليحملهم على المعاصي، أو أغضبهم ليوقعهم بالغضب في المعاصي، تذكروا الله فأبصرت قلوبهم عقاب الله وثوابه، فرجعوا إلى ما يرضي الله، وأن غيرهم من الكفرة و [أصحاب][(١)] المعاصي إذا جاءتهم لَمَّاتُ الشياطين وطائف الشياطين مدوا لهم وزادوهم ضلالًا إلى ضلال، فلا يبصر هؤلاء ولا يبصر هؤلاء. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: آية ٢٠٢].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف: آية ٢٠٣] ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم﴾ (إذا) أصلها ظرف مضمن معنى الشرط، ومن أحكامه عند علماء العربية: أنه يدل على تحقق وجود المشروط. فلو قلت لعبدك وهو يعرف معنى اللغة العربية: «إن جاءك زيد فأعطه درهماً». فهو يعلم أن معنى الكلام: أن زيداً محتمل أن يجيء ومحتمل أن لا يجيء؛ لأن (إنْ) حرف شرط لا يقتضي وجود الشرط. أما إذا قلت له: «إذا جاءك زيد فأعطه درهماً» وهو يعرف معنى اللغة فإنه يعلم أن زيداً آتٍ لا محالة؛ لأن (إذا) تدل على تحقق وقوع الشرط، وهي لا تقتضي التكرار على التحقيق إلا إذا اقترنت بقرينة تدل على ذلك[(٢)]. فمن قال لزوجته: «إذا دخلت الدار فأنت طالق» ثم دخلتها فإنها تطلق، ولو دخلتها مرة أخرى لا يكون عليه طلاق جديد؛ لأن (إذا) ليس أداة تكرار. قال بعض علماء العربية: وربما دلت على التكرار إن احتفت بقرينة يُفهم منها ذلك. والتحقيق أن (إذا) قد تأتي أداة تكرار إذا دلت قرينة على ذلك، ومنه بذلك المعنى قوله[(٣)]:

---

(١) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر: البرهان للزركشي (١٩٠/٤، ٢٠٣)، شرح الكوكب المنير (٢٧٢/١)، الفروق للقرافي (٩٧/٢).

(٣) البيتان لعروة بن أُذينة. وهما في الشعر والشعراء ص٥٨٠، تاريخ ابن عساكر =

إذا وجدت أُوار النار في كبدي ذهبت نحو سقاء القوم أبترد
هبني بردت ببرد الماء ظاهره فمن لنار على الأحشاء تتقد

فإن معنى «إذا وجدت أُوار النار في كبدي»: كلما وجدت الحرارة الشديدة في كبدي بردتها بالماء.

وقوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ كانت عادة الكفار اقتراح الآيات على رسول الله ﷺ[1]، تارة يقترحون عليه آيات قرآنية تُتلىٰ غير هذا القرآن، كما سيأتي في سورة يونس، وفي تفسير قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [يونس: آية ١٥] وتارة تكون الآيات المقترحات آيات كونية قدرية كما في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ وفي القراءة الأخرى[2]: ﴿حَتَّىٰ تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾[الإسراء: الآيتان ٩٠، ٩١] إلى آخر الآيات المقترحات، وهي كثيرة في كلام العرب.

ومن العلماء ما ظاهر كلامه أن الآية المقترحة هنا آيات أُخر من جنس القرآن غير ما أنزل، وعلى هذا القول فلا إشكال في الكلام؛ لأن المعنى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ تقرأ عليهم آيات أُخر غير ما أنزل عليك ﴿قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ (لولا) هنا حرف تحضيض، والتحضيض: الطلب بِحَثٍّ. معناه: أطلب منك طلباً حثيثاً شديداً أن تجتبيها.

و ﴿ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ أصل الاجتباء معناه المشهور في لغة العرب: الاختيار والاصطفاء. هذا أشهر معانيه المعروفة، ومنه قوله: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: آية ١٢٢] قال بعض العلماء: لولا اخترتها واصطفيتها

= (٢٠٥/٤٠، ٢٠٦، ٢٠٧)، زاد المعاد (٢٩/٤)، روضة المحبين ص٤٦، زهر الآداب (١٦٧/١)، وفيات الأعيان (٣٩٤/٢)، مع شيء من الاختلاف في بعض الألفاظ.

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٧١.

وجئت بها. وقالت جماعة من المفسرين: العرب تقول: اجتبيت الكلام. إذا اختلقته واخترعته من وقته، ولم يكن عندك فيما سبق، بل جئت به اختلاقاً واختراعاً في وقته. ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ﴾ هلَّا جئت بها مخترعة مختلقة في عجلة؛ لأنهم يزعمون أن كل القرآن اختلاق ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: آية ٧] ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٥] كما أن هذا الذي تقرأ مختلق في زعمهم فاقرأ الآية المطلوبة منك مختلقة أيضاً كهذا الذي تقرأ. وهذا تكذيب منهم ـ قبّحهم الله ـ بالقرآن. وعلى هذا القول فلا إشكال في قوله: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ﴾ أي: هلَّا اخترعتها واختلقتها وقرأتها علينا كما طلبناك، كما اختلقت هذا القرآن كله ونسبته إلى الله بغير حق. هذا قولهم لعنهم الله.

وذهبت جماعة أخرى من أهل التأويل إلى أن الآية المطلوبة هنا آية كونية قدرية، كما قال: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: آية ٩٠] وقد قالوا له ﷺ: اجعل لنا الصفا ذهباً، وباعد عنا بين جبال مكة لنزدرعها، وهاتنا بالرياح لنركبها إلى الشام كما كان يفعل سليمان، وأحيي لنا قصياً نسأله عنك هل أنت رسول أو لا؟ إلى غير ذلك من الآيات المقترحات.

وعلى أن الآية المطلوبة هنا كونية قدرية قال بعض العلماء: معنى ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ﴾ هلا اقترحتها وتلقيتها من تلقاء ربك؛ لأنك تزعم أن كل ما سألت منه يعطيك إياه. يعني فتقلب لنا الصفا ذهباً، وتحيي لنا قصياً نسأله عنك، إلى غير ذلك من الآيات المقترحات. وعلى هذا القول فالاجتباء هنا بمعنى تلقيها من الله مقترحة، وإجابة الله إلى ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ﴾ قل لهم يا نبي الله: ليس من شأني اختلاق الآيات التي تُقرأ وتتلى، وليس من شأني اقتراح الآيات الكونية القدرية، إنما أنا عبد مأمور أفعل كما أمرني ربي ولا أتجاوزه إلى شيء آخر.

﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ﴾ ما أتبع إلا ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فهذا الذي أتلوه عليكم أوحاه

ربي إلي، وهو الذي أقرأه عليكم، أما شيء آخر لم يُوح إلي فلا أقوله لكم ولا أقترح على ربي شيئاً. والله (جل وعلا) قد بيّن في سورة بني إسرائيل أنه إنما لم يرسله بخارق مثل خارق الرسل المتقدمة كناقة صالح ونحو ذلك أنه إن فعل ذلك كذبوا فأهلكهم، كما قال: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ [الإسراء: آية ٥٩] لأن الله تبارك وتعالى لما اقترحوا هذه الآيات بيّن لهم هنا وفي سورة العنكبوت أنه أنزل لهم آية هي أعظم من جميع الآيات وأكبر، وهي هذا القرآن العظيم، فهذا القرآن العظيم أعظم آية من ناقة صالح، ويد موسى البيضاء، وعصاه التي تكون ثعباناً. ومما يدل على أنها أعظم الآيات: أنها تتردد في أسماع الخلائق إلى يوم القيامة، وأنها كلام رب العالمين الذي يعجز عن الإتيان بمثله جميع الخلائق، وقد تحدى الله العرب بسورة من هذا القرآن العظيم في سورة البقرة قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: آية ٢٣] وتحداهم بسورة منه في سورة يونس قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: آية ٣٨] وتحداهم بعشر سور في سورة هود ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: آية ١٣] وتحداهم به كله في سورة الطور: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: آية ٣٤] ثم بيّن في سورة بني إسرائيل أن عامة الخلائق لو تعاونوا واجتمعوا لا يقدرون على الإتيان بمثل هذا القرآن: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: آية ٨٨] فلما كان معجزة يعجز عن مضاهاتها جميع الإنس والجن، وهي معجزة باقية تتردد في آذان الخلائق إلى يوم القيامة، محفوظة، تولى رب العالمين حفظها، لو أراد أحد أن يزيد في هذا القرآن العظيم نقطة واحدة، أو يغير شكلة حرف لرد عليه الآلاف من صغار أطفال المسلمين في أقطار الدنيا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: آية ٩] ولأجل عظم هذه الآية وكبرها

وأنها أعظم الآيات وأكبرها أنكر (جلّ وعلا) على من طلب آية غيرها إنكاراً شديداً في سورة العنكبوت حيث قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ ثم أنكر عليهم طلب آية غيره قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ الآية [العنكبوت: الآيتان ٥٠ ـ ٥١]. فمن لم يكتف بهذه الآية العظمىٰ عن جميع الآيات فهو جدير بأن ينكر عليه؛ ولذلك قال هنا في أخريات الأعراف لما قال عنهم إنهم قالوا: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ بيّن لهم أن هذا القرآن العظيم أعظم آية، لا ينبغي للإنسان أن يطلب آية غيره حيث قال: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٣] فمن لم تهده هذه البصائر، والأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، والمعجزة العظمى، والهدى والرحمة فلا آية تهديه ألبتة. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ لا أختلق آية ولا أقترح أخرى.

ثم قال: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ الإشارة في (هذا) إلى هذا القرآن العظيم. أي: هذا القرآن الذي هو أعظم آية وأنتم تقترحون آيات غيره ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ البصائر جمع البصيرة، والبصيرة المراد بها: البرهان القاطع والدليل الساطع الذي يُبْصَر في ضوئه الحق واضحاً لا لبس فيه. فالبصائر: الحُجج القاطعات، والبينات الواضحات التي لا تترك في الحق لبساً، وواحدها (بصيرة)، ومنه قوله تعالى في أخريات يوسف: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: آية ١٠٨] وإنما كان المبتدأ الذي هو (هذا) إشارة إلى مذكر، والخبر جمع تكثير جمع تكسير (بصائر)؛ لأن (هذا) وهو إشارة إلى القرآن، والقرآن يتضمن حُجَجاً كثيرة، وبراهين قاطعة بكثرة؛ ولذا عبر عنه بـ (هذا) وأخبر عنه بقوله: ﴿بَصَآئِرُ﴾ و ﴿وَهُدًى﴾ أي: بيان ودلالة؛ لأن القرآن العظيم يُطلق هداه الهدى العام، ويُطلق هداه الهدى الخاص، والقرآن العظيم قد بيّن تعالى أن له هدى عاماً للأسود والأحمر، وهدى خاصاً لمن وفقه الله.

أما الهدى العام: فمعناه بيان الطريق، وإيضاح المحجة البيضاء، وبيان الحق من الباطل، والنافع من الضار، والحسن والقبيح. تقول العرب: «هديته» إذا أرشدته إلى الخير، سواء تبعه أم لا. ومنه بمعناه العام: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: بينا لهم الحق على لسان نبينا صالح، وهو هداية إرشاد وبيان لا هداية توفيق؛ لأن الله قال: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ الآية [فصلت: آية ١٧].

ومن إطلاق الهدى بمعناه العام الذي هو البيان والإيضاح والإرشاد قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بينا له طريق الحق وطريق الباطل، بدليل قوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: الآيتان ٢، ٣] لأن الهداية في قوله: ﴿هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ لو كانت هداية توفيق لما قسم من هداه الله بها إلى شاكر وإلى كفور.

المعنى الثاني: هو إطلاق الهدى بمعناه الخاص، والهدى بمعناه الخاص: معناه توفيق الله (جل وعلا) لعبده حتى يهتدي إلى ما يرضي ربه، ويكون سبب دخوله الجنة. ومنه بهذا المعنى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ [الأعراف: آية ١٧٨] وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: آية ٩٠].

وكون الهدى يُطلق إطلاقاً عاماً وإطلاقاً خاصاً إذا فهم الإنسان ذلك زالت عنه إشكالات في كتاب الله، ومناقضات يظنها الجاهل ببعض آيات الله، كقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: آية ٥٦] مع قوله فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: آية ٥٢] فنفى عنه الهدى في آية وأثبته له في آية، فالهدى المُثبت له في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو الهدى بمعناه العام، وهو البيان والإيضاح. وقد بين ﷺ هذه المحجة البيضاء حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، صلوات الله وسلامه عليه.

أما الهدى المنفي عنه في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

[القصص: آية ٥٦] فهو التفضل بالتوفيق وسعادة المرء؛ لأن هذا بيد الله وحده ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ الآية [المائدة: آية ٤١]. . ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ﴾ [النحل: آية ٣٧] في القراءة الأخرى[1]: ﴿لا يُهْدَى من يُضِل﴾ أي: لا يُهْدَى أحد أضله الله. إلى غير ذلك من الآيات؛ ولذا قال في آية في هدى القرآن العام: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ﴾ [البقرة: آية ١٨٥] وقال في هداه الخاص: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: آية ٢] وبهذا تعلم أن هداه المخصوص بالمتقين في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والمخصوص بالمؤمنين كقوله هنا في آية الأعراف هذه: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٣] أن المخصوص بالمؤمنين هو الهدى الخاص، وهو توفيق الله (جل وعلا) لهم وتيسيره لهم إلى الأعمال التي ترضيه؛ ولذا كان القرآن العظيم لمن وفقه الله هدى بهذا المعنى، وكان حجة على غيره ـ والعياذ بالله ـ يدخله الله بها النار، كما بينه تعالى في آيات كثيرة كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: آية ٤٤] وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: آية ٨٢] وقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ١٢٤، ١٢٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ﴾ [المائدة: آية ٦٤، ٦٨] في الموضعين في سورة المائدة كما تقدم، وهذا معنى قوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ لأن القرآن بصائر، أي: حجج واضحات، وبينات قاطعات، وبراهين ساطعة لا تترك في الحق لبساً. ﴿وَهُدًى﴾ أي: إرشاداً ودلالة

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأنعام.

للمسلمين يبين لهم بياناً لا خفاء معه ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ لمن وفقه الله للعمل به يرحمه الله به ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أما القوم الذين سبق لهم الشقاء فهو حجة عليهم يدخلون به النار، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: آية ٤٤] لأن الله (تبارك وتعالى) منذ أنزل هذا الكتاب المنزل كان واجباً شرعاً ألا يدخل أحد الجنة كائناً من كان إلا عن طريق العمل به، وألا يدخل أحد النار إلا عن طريق الإعراض عنه ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ الآية [هود: آية ١٧]. فالعمل به مفتاح الجنة، والإعراض عنه سبب دخول النار. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: آية ٢٠٤] قال بعض العلماء: كان كفار مكة لا ينصتون للقرآن ولا يستمعون له، ولا يرضون أحداً أن يسمعه، بل يُخَلِّطُوا فيه بالأصوات والتصدية والمكاء من تصفيق وتصفير، ويأتون باللغط واللغو ليمنعوا الناس من سماعه وتدبره كما نص الله على ذلك عنهم في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: آية ٢٦] فأمر الله المؤمنين أن ينصتوا له ويستمعوا.

قال بعض العلماء: هو أمر للكافرين أن يكفوا عما يفعلون في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ وقد أجرى الله العادة أن الكفرة يكرهون كل الكراهة سماع كلام رب العالمين ـ والعياذ بالله ـ هذا أول الأنبياء الذين أُرسلوا لأهل الأرض بعد أن كفروا، نوح (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) فانظروا كيف يكره قومه سماع كلامه؛ لأنه يقول عنهم: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح: آية ٧] كراهة أن يسمعوا الحق الذي يقوله لهم ذلك النبي الكريم. وهؤلاء الذين بُعث فيهم خاتم الرسل (صلوات الله وسلامه عليه) يقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: آية ٢٦] فقد بين ـ جل وعلا ـ في أُخريات سورة الحج شدة كراهتهم لتلاوة القرآن عليهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ [الحج: آية ٧٢] أي: لشدة كراهتهم وبغضهم لتلاوتها؛ ولذا قال هنا: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾.

وكثير من علماء السلف يقولون: هذه في الصلاة خاصة إذا كان الإمام يقرأ صلاة جهرية، فإذا قرأ الإمام قراءة جهرية فعلى المأمومين أن يستمعوا وينصتوا. وكان بعض العلماء من هذا المعنى يقول: ليس على المأموم قراءة؛ لأن قراءة الإمام تكفيه في الجهرية. وبعضهم يقول: تكفيه مطلقاً، وفي الحديث الصحيح: «**إنما جُعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبَّر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا**»(١) فجماعات كثيرة من علماء السلف يقولون: هي في الصلاة إذا كان الإمام يقرأ جهراً. إذا قرأ الإمام القرآن في الصلاة ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ الاستماع: هو أن تتفهم هذا الذي يقال حتى تفهم معانيه، والإنصات: هو السكوت وترك الكلام لأجل استماع الكلام. هذا معنى: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾.

وكان بعض العلماء يقول: هي في خطبة الجمعة.

وبعضهم يقول: هي في الفطر، والأضحى، وخطبة الجمعة، وكل ما يجهر فيه الإمام(٢).

وكونها في خطبة الجمعة وإن قال به جماعة كثيرة من السلف فإنه لا يخلو من بُعد لمسائل منها: أن القرآن غير كثير فيها. ومنها: أن الجمعة ما

---

(١) البخاري في الصلاة، باب الصلاة في السطوح والمنبر والخشب. حديث رقم (٣٧٨)، (٤٨٧/١). وأطرافه في (٦٨٩، ٧٣٢، ٧٣٣، ٨٠٥، ١١١٤، ١٩١١، ٢٤٦٩، ٥٢٠١، ٥٢٨٩، ٦٦٨٤)، ومسلم في الصلاة، باب ائتمام المأموم بالإمام. حديث رقم (٤١١)، (٣٠٨/١)، من حديث أنس رضي الله عنه. وقد أخرجه من حديث عائشة برقم (٤١٢)، وبمعناه من حديث جابر برقم (٤١٣)، وأبي هريرة برقم (٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧).

(٢) للوقوف على أقوال السلف في هذه الآية انظر: ابن جرير (٣٤٥/١٣)، القرطبي (٣٥٣/٧)، ابن كثير (٢٨٠/٢).

شُرعت إلا بالمدينة، وهذه الآيات من سورة الأعراف مكية؛ لأن سورة الأعراف من القرآن النازل بمكة قبل الهجرة كما هو معلوم.

وهنا كان خلاف بين العلماء: هل إذا قرأ الإمام يسكت المأموم ويكتفي بقراءة الإمام، أو لا بد أن يقرأ الفاتحة؟ في هذا خلاف مشهور بين العلماء[(١)]، فبعض العلماء يقول: أما في الجهرية فإن المأموم يسكت؛ لأن الله أمره في قوله: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ والله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: آية ٦٣].

ومن العلماء من لا يرى الفاتحة واجبة على المأموم؛ لأن الإمام يحملها عنه. وهذا مذهب مالك، وروي عن أبي حنيفة مثله، وقال به بعض العلماء. قالوا: دل القرآن على أن الذي يسمع ويُؤَمِّن أنه كالذي كان يتكلم. قالوا: والدليل على ذلك أن الله قال في محكم كتابه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ موسى وحده لم يكن معه هارون ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ وفي القراءة الأخرى[(٢)]: ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ ثم قال: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: الآيتان ٨٨، ٨٩] قالوا: كيف يكون الداعي واحداً ـ وهو موسى ـ وتكون الدعوة المجابة من اثنين؟! قالوا: لأن هارون كان ينصت لدعاء موسى ويُؤَمِّن عليه، فصار أحد الداعيين لإنصاته وتأمينه، فدل ذلك على أن المنصت المُؤَمِّن كالذي كان يقرأ. هذا قال به جماعة من العلماء.

وقالت طائفة أخرى: ينبغي للمأموم أن لا يترك قراءة الفاتحة، فلو سكت الإمام وأعطاه الفرصة بالسكوت لبادر أن يقرأ الفاتحة في سكتة الإمام، وإن لم يعطه فترة في ذلك قرأها. قالوا: نعم ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ

---

(١) انظر: الاستذكار لابن عبدالبر (٢٢٣/٤ ـ ٢٤٨)، المجموع (٣٦٥/٣)، تفسير القرطبي (١١٧/١ ـ ١٢٤)، المغني (١٤٦/٢ ـ ١٥٦) وقد أفرد هذه المسألة في التأليف الإمامان: البخاري والبيهقي رحمهما الله، وكتاباهما مطبوعان.

(٢) مضت عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأعراف.

﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ هذا نص عام في قراءة القرآن، إلا أن قوله ﷺ: **«لا صلاة لمن لم يقرأ بأم الكتاب»**(١) أخص منه، فهو تخصيص عموم القرآن بحديث نبوي، فتخصيصات عمومات القرآن بالأحاديث كثيرة جداً. وقد روي حديث في خصوصه أنه يقرأ وراء الإمام في الجهرية. فإن كان ثابتاً محفوظاً فلا كلام.

وعلى كل حال فقوم من العلماء منعوا القراءة في حال جهر الإمام، وقوم أوجبوا قراءة الفاتحة خصوصاً. والأحوط في هذا ألا يترك الفاتحة؛ لأن الصلاة دعيمة عظيمة من دعائم الإسلام، وهي أعظمها بعد الشهادتين، فلا ينبغي للإنسان أن يفعل صلاة يقول بعض الناس: إنها غير مجزئة، فينبغي أن يعمل عملًا يتفق الناس فيه على أن صلاته مجزئة، والله تعالى أعلم. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾.

الاستماع: هو التدبر في الشيء والإصغاء إليه، الإصغاء إلى الشيء بتدبر.

والإنصات: هو السكوت وترك الكلام؛ لأجل سماع ما يقال. هذا معنى قوله: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٤].

ثم إن الله علم نبيه ﷺ آداب الذكر، وجعل له الذكر على نوعين على التحقيق: ذكر نفساني، وذكر لساني، أما الذكر النفساني فهو هذا الذي يذكره العبد في نفسه بالتدبر والتفكر والاعتبار ولا ينطق به. وما قاله ابن عطية(٢) (رحمه الله) من أنه لا ذكر إلا بحركة اللسان خلاف ظاهر هذه الآية

---

(١) البخاري في الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلاة كلها...، حديث رقم (٧٥٦)، (٢٣٦/٢ ـ ٢٣٧)، ومسلم في الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، حديث رقم (٣٩٤)، (٢٩٥/١)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) عبارة ابن عطية: «والجمهور على أن الذكر لا يكون في النفس، ولا يراعى إلا بحركة اللسان» ا.هـ. المحرر الوجيز(٢٣٩/٧).

الكريمة؛ لأن الله قال لنبيه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٥] أي: فيما بينك وبين ربك في نفسك من غير كلام، فتذكر عظمته وكماله وجلاله وصفاته، وما عنده من الثواب لمن أطاعه، ومن العقاب لمن عصاه، ويكون هذا التذكر والتفكر في عظمة الله (جل وعلا) وفي صفاته العظمى، وفي ثوابه وعقابه يكون في نفسك لأجل التضرع والخوف.

وقوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ قيل هما مفعولان لأجلهما. أي: لأجل التضرع. والتضرع معناه: التذلل والتخشع والتواضع. أي: لأجل التذلل والتخشع والتواضع لرب العالمين. وقال بعض العلماء: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ مصدران مُنكَّران بمعنى الحال. أي: في حال كونك متضرعاً خائفاً. والكل محتمل.

وقوله: ﴿خِيفَةً﴾ ياؤه مبدلة من واو، أصله: (خِوْفَة) لأنها (فِعْلَةٌ) من الخوف[1]؛ لأن المادة من الأجوف الذي هو واوي العين، والقاعدة المقررة في التصريف: أن الواو إذا سكنت بعد الكسر أُبدلت ياءً بقياس مطرد[2]. فـ (الخيفة) هي (فِعْلَة) من الخوف، فالياء مبدلة من واو، وتُجمع على (خِيَف) لأن الإعلال الذي في المفرد هو موجود أيضاً في الجمع، وشذ بعض العلماء فقال: تُجمع على (خِوَف).

والفرق في لغة العرب بين الخوف والحزن[3]: أن الخوف هو غم من أمر مستقبل، والحزن غم من أمر فائت. هذا أكثر ما يستعمل فيه الخوف والحزن، إلا أنهما ربما استعمل أحدهما في موضع الآخر. فقوله: ﴿خِيفَةً﴾ أي: غماً من أمر مستقبل، وهو سخط رب العالمين وعقابه؛ لأن الخائف من سخطه وعقابه المغموم مما يقع من ذلك في المستقبل يُطيع الله (جل وعلا) في دار الدنيا وقت إمكان الفرصة. وربما أطلقت العرب اسم الخوف على العلم، تقول العرب: «خفت كذا». أي: علمته. وإطلاق الخوف على

---

(١) انظر: اللسان (مادة: خوف) (٩٢١/١)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٠٣.

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (٤٩١/٢ ـ ٤٩٢).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

العلم أسلوب عربي معروف، قال بعض العلماء: منه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: آية ٢٢٩] أي: علمتم ألا يقيما حدود الله ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: آية ٢٢٩] إلا أن يعلما ألا يقيما حدود الله، على القول بذلك. ومن إطلاق الخوف بمعنى العلم قول أبي محجن الثقفي في أبياته المشهورة[١]:

إذا مِتُّ فادفنِّي إلى جَنْبِ كَرْمَةٍ ... تُرَوِّي عِظَامي بالمماتِ عُروقُها
ولا تَدفنَنِّي بالفَلاةِ فإنَّني ... أخافُ إذا ما مِتُّ ألاَّ أذوقُها

فإنه يعلم أنه إذا مات ليس شارباً الخمر بعد موته، فمعنى (أخاف) أي: أعلم. كما هو ظاهر. وهذا معنى قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ﴾ ذكرين، أمَّا الذكر النفساني فهذا الذي يكون في نفسك لا يعلمه منك إلا ربك، من أن تتفكر في عظمته وسلطانه وجبروته وصفاته وعقابه وثوابه، متضرعاً خائفاً منه (جلّ وعلا). وهذا النوع من الذكر القلبي عظيم جداً.

الثاني: ذكر لساني، وقد علمهم (جلّ وعلا) آداب الذكر اللساني، وأنهم لا يرفعوا صوته جداً ولا يُخافتوا به جداً، كما قال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: آية ١١٠] والمخافتة: الإسرار الشديد. وقال هنا: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾ أي: واذكر ربك بالقول دون الجهر، لا تجهر به وترفع صوتك جداً؛ لأن رفع الصوت الكثير بالدعاء وبالأذكار لا ينبغي. والله (جلّ وعلا) يعلم نبيه ﷺ أن لا يرفع صوته به جداً ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يعني: دون الجهر وفوق الإسرار: المخافتة. لا تجعله سراً جداً كالمخافتة، ولا تجعله جهراً جداً بل سبيلاً بين ذلك كما قال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: آية ١١٠].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

وقوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ الغدو: قال بعض العلماء: هو مفرد مصدر غدا غدواً. وقال بعض العلماء: هو جمع (غُدوة)[١].

والآصال: جمع (أصيل). وقيل جمع (أُصُل). وبعضهم يقول: (الأُصُل) جمع (أصيل)، و (الآصال) جمع الجمع، ولا داعي إليه؛ لأن (الأصيل) يُجمع على (آصال)، كما تُجمع اليمين على الأيمان، والأُصُل أيضاً يُجمع على الآصال. والأُصُل يطلق مفرداً وجمعاً[٢].

والغدو: أوائل النهار، والآصال: أواخره. فالآصال: من العصر فما وراءه إلى الليل. والغدو: من أول النهار.

قال بعض العلماء: كان قبل فرض الصلاة ليلة المعراج يصلون صلاتين: آخر النهار، وأوله، وأنه هو المُراد هنا.

وقال بعضهم: خص هذين الوقتين من النهار ـ أول النهار وآخره ـ لفضلهما.

قال بعض العلماء: الذكر بالغدو: صلاة الصبح، وبالآصال: صلاة العصر. والله تعالى أعلم، وهذا معنى قوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ معلوم أنه ﷺ لا يغفل عن ذكر ربه ولكنه يُؤمر ويُنهىٰ ليُشرِّع لأمته على لسانه. وفي هذه الآية الكريمة نهي للمسلمين عن الغفلة عن ذكر الله (جل وعلا)، فعلينا معاشر المسلمين ألا نغفل عن ذكر الله، وأن نذكر الله في أنفسنا تضرعاً وخيفةً، وأن نذكره بقولنا دون الجهر من القول، أول النهار وآخره، وفي كل وقت؛ لأن الله أثنىٰ على عباده بالذكر عليه في كل حال، ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: آية ١٩١] هذا التفكر في خلق السماوات والأرض من ذكرك ربك في نفسك تضرعاً وخيفةً كما لا يخفىٰ. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٥].

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٥٥٢).

(٢) انظر: المصدر السابق، القرطبي (٧/٣٥٥).

ثم إن الله لما أمر عباده المؤمنين بهذه الآداب السماوية وهذه الأوامر الكريمة بين لهم أن ملائكته المقربين يطيعونه ويعبدونه ولا يستكبرون عن عبادته فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٦] وهم ملائكته (جل وعلا) صلوات الله وسلامه عليهم: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ لا يتكبرون عنها أبداً، بل هم خاضعون متذللون عابدون لربهم (جل وعلا). وأصل العبادة في لغة العرب[١]: معناها الذل والخضوع. فالعبادة: الذل والخضوع على وجه المحبة خاصة. وكل مُذلّل مُخضَع تسميه العرب (مُعَبَّداً) وقيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه لسيده، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته[٢]:

تُباري عِتَاقاً نَاجِيَاتٍ وأَتْبَعَتْ وَظِيفاً وَظِيفاً فَوْقَ مور مُعَبَّدِ

أي: طريقاً مذللاً لدوس الأقدام. وإنما قلنا: إن العبادة هي الذل والخضوع لله على وجه المحبة خاصة فلا تكفي المحبة دون الذل والخضوع، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة؛ لأن الإنسان إذا كان ذله متجرداً عن محبة كان يُبغض الذي هو يذل له، ومن أبغض ربه هلك. وإذا كانت محبةً خالصةً لا خوف معها فإن المُحب الذي لا يُداخله خوف يحمله الدلال على أن يسيء الأدب، ويرتكب أموراً لا تنبغي، والله (جل وعلا) لا يليق به شيء من ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾.

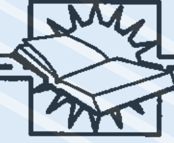
﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ جلّ وعلا. التسبيح في لغة العرب: معناه الإبعاد عن السوء، فسبحتُ الشيء معناه: أبعدته عن السوء.

وهو في اصطلاح الشرع: تنزيه رب العالمين (جل وعلا) عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ سجود تواضع وتذلل وخضوع سبحانه وتعالى.

فإذا كان ملائكته المقربون مع عظمهم ومكانتهم عنده لا يستكبرون عن عبادته وينزهونه ويخضعون ويتذللون له فكيف بنا معاشر بني آدم؟!

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.
(٢) السابق.



تفسير سورة الأنفال

١/أ /﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ
بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ
ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ
دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ
وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ
إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنفال: الآيات ١ ـ ٦].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: الآية ١].

الجماهير من العلماء[1] على أن سبب نزول هذه الآية الكريمة أنها نزلت في غنائم بدر، لما اصطف المسلمون لقتال المشركين كانت المشيخة رِدْءًا لهم، وكان الشباب تلقى العدو، وكان قوم يحرسون رسول الله ﷺ لما بُني له العريش يوم بدر. فلما هزم الله المشركين، وأخذ المسلمون غنائمهم، وقع خلاف ومشاجرة بين الصحابة، قال الذين أخذوا الغنيمة: نحن الذين احتويناها وحُزناها فليس لغيرنا نصيب فيها!

---

(١) انظر: ابن جرير (٣٢٧/١٣)، القرطبي (٣٦٠/٧)، ابن كثير (٢٨٣/٢)، الأضواء (٣٤٢/٢).

وقال المشيخة: نحن كنا رِدْءًا لكم فلو انهزمتم لانحزتم إلينا، فلستم أحق منا!

وقال الآخرون: نحن ليس بنا جبن ولا بخل، وإنما خفنا أن ينال العدو غِرَّة من رسول الله ﷺ فكنا نُحْدِق بنبي الله نحرسه من العدو، فلستم بأحق منا! فوقع هذا الخلاف والتنازع، وهذا سبب نزول هذه الآية الكريمة كما عليه جماهير العلماء، وحديث عبادة بن الصامت فيه (رضي الله عنه) عند أحمد وأصحاب السنن مشهور[1]، قال: فينا معاشر المسلمين نزلت، لما أخذنا غنائم بدر ساءت أخلاقنا وتنازعنا فأنزل الله الآية، وبيّن أن الأمر فيها إلى الله وإلىٰ رسوله، ففعل فيها رسول الله ما أرضىٰ الله، وما أصلح به ذات البين بين الجميع، وما حصل به تقوىٰ الله، كما يأتي إيضاحه، وهذا القول ـ أنها نزلت في غنائم بدر جميعها ـ هو المعروف عند جماهير العلماء.

وفي سبب نزولها أربعة أقوال أُخر معروفة عند العلماء.

قال بعض العلماء: (. . .)[2] خاصة دون بعض، والذين قالوا هذا القول استدلوا بحديث سعد بن أبي وقاص عند أحمد وغيره قال سعد: لما قُتِلَ أخي عمير يوم بدر ـ لأن عمير بن أبي وقاص من شهداء بدر كانوا يقولون: إنه قتله عمرو بن عبد ود[3] فكان أخوه سعد (رضي الله عنه) أصابه من قتل أخيه أمر عظيم، وحمل علىٰ الكفار وقتل سعيد بن العاص، وأخذ سيفه، وكان يسمىٰ (ذو الكتيفة) قال: فجئت به رسول الله ﷺ فقلت: أعطنيه

---

(١) أحمد (٥/٣٢٤)، والحاكم (٢/١٣٥، ١٣٦، ٣٢٦). وقال: صحيح على شرط مسلم، وأقره الذهبي، والبيهقي (٦/٢٩٢)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٣٢، وابن جرير(١٣/٣٧٠، ٣٧١).
وقال الهيثمي في المجمع (٦/٩٢): «ورجال أحمد ثقات» ا.هـ وانظر أيضاً: (٧/٢٦) منه.

(٢) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل. والمراد: أنها نزلت في الشيء الخاص يُسأل من الغنيمة قبل أن تُقسم. انظر ابن جرير (١٣/٣٧١).

(٣) في البداية والنهاية (٣/٣٢٧) أن الذي قتله: العاص بن سعيد. وقال الحافظ في الإصابة (٣/٣٥): «يقال: وقتله عمرو بن عبد ود العامري الذي قتله علي يوم الخندق» ا.هـ وقال في آخر الترجمة (٣/٣٦): «وأخرج البغوي من طريق محمد بن عبدالله الثقفي عن سعد قال: «لما كان يوم بدر قُتل أخي عمير، وقتلت أنا سعيد بن العاص. كذا فيه، والصواب: العاص بن سعيد بن العاص» ا.هـ.

يا رسول الله. فقال: «**ليس لي ولا لك فاطرحه من حيث أَخَذْتَه، واجعله في القَبَض**» ـ يعني محل غنائم المسلمين ـ قال: فخرجت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سَلَبي. قال: ثم رجعت إليه فقلت: أعطنيه؟ فرفع لي صوته: «**اطرحه من حيث أخذته**»، إلى الثالثة، قال: فذهبت به فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ قال: فدعاني رسول الله ﷺ فقال: «**إنك سألتني السيف وفي ذلك الوقت ليس لي، والآن صار لي فخذه**»[١]. فأعطاه إياه. فاستدلوا بهذا على أن الأنفال المسئول عنها: الشيء الخاص، كهذا السيف ينفله النبي ﷺ أو الإمام لبعض الناس.

وقال بعض العلماء: هي نزلت في خُمس الغنيمة[٢].

وقال بعض العلماء: نزلت في خُمس الخمس خاصة.

كل هذا قال به جماعة من العلماء.

وقال عطاء وغيره[٣]: نزلت فيما يشذُّ إلى المسلمين من الكافرين من غير قتال، كالفرس يأتي المسلمين من الكفار بلا قتال.

هذه الأقوال جاءت في سبب نزول هذه الآية الكريمة، والذي عليه جماهير المفسرين: أن نزولها في غنائم بدر كما بينّا، لما اختلف الصحابة فيهم، وقال قوم: لا نصيب فيها لغيرنا؛ لأنا نحن الذين احتويناها. وقال الآخرون: كنا رِدْءًا لكم فلو انهزمتم لانحزتم إلينا، فلستم أحق منّا، وقال الآخرون: نحن كنا نشتغل بحراسة رسول الله ﷺ فلستم أحق منا. ولذا لما اختصموا هذا الخصام كأن الله لامهم وقال لهم: لا تصرف لكم فيها، فالأمر فيها إلى الله وإلى رسوله. فقسمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء، وكان بعض العلماء يقول: إنه لما التقى الجيشان رغّب وقال: من أسر أسيراً

---

(١) الحديث أصله في مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. حديث رقم: (١٧٤٨) (١٨٧٧/٤)، وفي الجهاد والسير، باب الأنفال. حديث رقم: (١٧٤٨)، (١٣٦٧/٣). وهو في مسند الإمام أحمد (١٧٨/١، ١٨١، ١٨٦). وللتوسع في تخريجه راجع الطبعة المحققة من المسند (١٥٣٨، ١٥٦٧، ١٦١٤).

(٢) انظر: ابن جرير (٣٦٥/١٣).

(٣) المصدر السابق (٣٦٣/١٣)

فله كذا، ومن قتل قتيلًا فله كذا. فقال له بعض أصحابه: لو وفيت لهم بهذا لم يبق للآخرين شيء!! ووقع بعض الخصام(١).

وقال بعض العلماء: كان الخصام بسبب النفر الثمانية الذين قسم لهم رسول الله ﷺ في غنائم بدر ولم يشهدوا بدراً. والحق أن هذا ـ وإن ذكره الأخباريون وأصحاب المغازي ـ أنه لم يُنْزل الخلاف، ومعروف عند أصحاب المغازي أن ثلاثة من المهاجرين وخمسة من الأنصار ضرب لهم النبي ﷺ بسهامهم في مغانم بدر ولم يشهدوها(٢)، أما ثلاثة المهاجرين فهم: عثمان بن عفان (رضي الله عنه)؛ لأن النبي ﷺ لما خرج إلى بدر الكبرىٰ كانت ابنته رقية (رضي الله عنها) مريضة، وكانت إذ ذاك زوجة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، فأمره أن يبقىٰ يمرضها، وتوفيت يوم مجيء زيد بن حارثة بالبشارة بما فتح الله علىٰ النبي ﷺ وأصحابه يوم بدر، فقسم له في المغنم. قال بعضهم: والأجر، والآخران من المهاجرين: طلحة بن عبيدالله، وسعيد بن زيد، أرسلهما النبي ﷺ يتجسسان علىٰ عير أبي سفيان قبل وصولها لبدر إلى جهة الشام، ففاتت بدرٌ ولم يحضرا، فقسم لهما، وأما خمسة [الأنصار](٣): فمنهم: أبو لبابة بن عبد المنذر كان النبيّ ﷺ خلّفه علىٰ المدينة، ومنهم الحارث بن الصمة، وخوّات بن جبير (رضي الله عن الجميع) أصابهما مرض فردهما رسول الله ﷺ، ومنهم الحارث بن حاطب رده النبي ﷺ إلى قباء ليكون علىٰ بني عمرو بن عوف حتى يرجع ﷺ، وعاصم بن عدي العجلاني خلّفه النبيّ ﷺ علىٰ العوالي.

والتحقيق الذي عليه الجمهور: أنها نزلت في اختلاف الصحابة في غنائم بدر؛ ولذا قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: الآية ١] الأنفال:

---

(١) أخرجه عبدالرزاق من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. رقم: (٩٤٨٣) (٥/٢٣٩). وهذا الإسناد لا يصح. وقد عزاه في الدر (٣/١٦٠) لعبد بن حميد وابن مردويه. وهو عند ابن أبي شيبة في كتاب المغازي المفرد (١٢٨) ص١٧٨ مختصراً دون ذكر قول بعض الصحابة هذا. ورجال إسناده ثقات.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/٣٢٧).

(٣) في الأصل: «المهاجرين» وهو سبق لسان.

جمع نَفَل - بفتحتين - وأصل النفل الزيادة، فكل زائد يُسمىٰ نَفَلا، ومنه قيل للزائد على الواجبات: نفل. وإنما سُميت المغانم أنفالاً لأن الله زادها من الحلال لهذه الأمة، لم تكن تحل لمن قبلها. والنَفَل: المغنم، والأنفال: المغانم. وهذا معروف في كلام العرب[١]، وقد نزل به القرآن، ومن إطلاق النَفَل على المغنم قول لبيد بن ربيعة[٢]:

إن تـقـوىٰ ربِّـنَـا خَـيْـرُ نَـفَـلْ   وبـإِذْنِ الـلّـهِ ريـثـي وعَـجَـلْ

يعني: تقوىٰ الله خير غنيمة يغتنمها الإنسان في حياته، ومن إطلاق الأنفال علىٰ المغانم قول عنترة[٣]:

إِنَّـا إذا احـمـرَّ الـوَغَـىٰ نُـروي الـقَـنـا   ونَـعـفّ عـنـد تَـقَـاسُـمِ الأنـفـالِ

أي: قسم المغانم كما هو معروف. قل لهم يا نبي الله مجيباً عن سؤالهم: الأنفال - الغنائم - أي: وعلىٰ الأخص غنائم بدر: هذه ﴿لِلَّهِ﴾؛ لأنه هو مالكها الذي أقدركم علىٰ أخذها، المتصرف فيها كيف يشاء ﴿وَٱلرَّسُولِۖ﴾ ذكر الرسول ﷺ لأنه جعل أمرها إليه وفوضه إليه، ليس لأحد فيها كلام؛ لينقطع خصامهم، ويضمحل نزاعهم، فقسمها رسول الله ﷺ بينهم علىٰ السوية قسمة عدل علىٰ أحسن ما يكون، والتحقيق: أن النبي ﷺ خَمَّسَ غنائم بدر - أخرج منها الخُمس - كما يدل عليه الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في قصة الشارفين من الإبل اللتين ذبحهما حمزة بن عبد المطلب لما كان به سُكْر قبل تحريم الخمر. قال: إن أحدهما من سهمه يوم بدر، وإن الشارف الثانية أعطاها له رسول الله ﷺ من خُمس الغنيمة يوم بدر[٤]. فدلّ ذلك على أنه خَمَّسَها.

---

(١) انظر: ابن جرير (٣٦١/١٣)، القرطبي (٣٦١/٧).

(٢) البيت في ابن جرير (٣٦٦/١٣)، الكامل للمبرد (١٣٥١/٣).

(٣) ديوانه ص١٠٧.

(٤) أخرجه البخاري في البيوع، باب ما يُكره من الحلف في البيع. حديث رقم: (٢٠٨٩)، (٣١٦/٤) وأطرافه في (٢٣٧٥، ٣٠٩١، ٤٠٠٣، ٥٧٩٣). ومسلم، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، حديث رقم: (١٩٧٩) (١٥٦٨/٣).

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: إذا قررتم أن سبب نزول الآية في المغانم جميعها لا في خصوص الذي يشذ من الكفار إلى المسلمين، ولا في خصوص الذي يُنفّله الإمام لبعض الجيش، ولا في تنفيل الإمام لبعض السرايا التي يرسلها، ولا في خصوص الخُمس، ولا في خصوص خُمس الخُمس، فكيف تكون لا حق فيها للغانمين؟ والله يقول: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية [الأنفال: الآية ٤١]. وهذه الآية من هذه السورة الكريمة نص في أن أرباع الغنيمة أنها ملك للغانمين استحقوها، وأن الخارج عنهم منها هو الخمس؟ هذا سؤال معروف وقد أجاب العلماء عنه بجوابين[١]:

أحدهما: ما ذكره أبو عبيدة وعزاه القرطبي لجمهور العلماء أن آية ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ [الأنفال: الآية ١] منسوخة بآية ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية [الأنفال: الآية ٤١].

القول الثاني: ـ وليس ببعيد ـ أن معنىٰ أنها لله: أنه هو المتصرف فيها، وأن نسبتها للرسول ﷺ من حيث أنه القاسم، الذي يقسمها علىٰ ما يرضي الله (جل وعلا)، فلا ينافي أن لهم حقوقاً فيها، كما قسمها ﷺ عليهم بالسواء. وسيأتي لهذا زيادة إيضاح كثيرة في تفسير قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية [الأنفال: الآية ٤١] إن شاء الله، وهذا معنىٰ قوله: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اتقوا الله بامتثال أمره واجتناب نهيه، ولا تتخاصموا هذا الخصام بحضرة رسول الله ﷺ لعرض من الدنيا.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ معنىٰ: ﴿ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ أي: الأحوال الكائنة فيما بينكم مما يستوجب المحبة والوئام، وما يستوجب النُفرة

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٣٨٠)، القرطبي (٨/٢)، الأضواء (٢/٣٤٥).

والوحشة والفراق، هذه الأحوال التي تكون فيما بينكم أصلحوها لتكون جارية علىٰ ما ينبغي وعلىٰ ما يرضي الله، وقد اشتهر في كلام العرب إطلاق (إصلاح ذات البين) علىٰ أن يصلح ما بين هذا وهذا من الأحوال حتى يكون الشيء الذي بينهما علىٰ الحالة التي تنبغي، خالياً من النزاع والخصام والنفرة وغير ذلك.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ طاعة الله (جل وعلا) هي: امتثال أمره واجتناب نهيه، ومن ذلك أن لا تختصموا في عَرَضٍ من الدنيا عند رسول الله ﷺ، وأطيعوا رسوله ﷺ واقبلوا وارضوا بما يفعله بينكم من قَسْم هذه الغنائم.

قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (إنْ) هذه أصلها تُشكل علىٰ بعض أهل العلم؛ لأن المعروف في كلام العرب أنَّ (إنْ) الشرطية تدل علىٰ الشك في الشرط، وهم مؤمنون لا شك في إيمانهم، فكيف يتقيّد إيمانهم بالشرط مع أنهم مؤمنون؟!!

(إنْ) هذه أصلها من مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين[(١)]، فعلماء الكوفيين يقولون: إنَّ (إنْ) هنا بمعنىٰ (إذ) التعليلية **﴿واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾** قالوا: واتقوا الله إذ كنتم مؤمنين، أي: لأجل كونكم مؤمنين فاتقوا الله؛ لأن إيمانكم سبب يحملكم علىٰ تقوىٰ الله، قالوا: وإتيان (إنْ) بمعنىٰ (إذ) أسلوب عربي معروف، قالوا: ومنه قول الفرزدق وهو عربي فصيح[(٢)]:

أَتَغْضَبُ إِنْ أُذْنَا قُتَيبَةَ حُزَّتَا ... جِهَاراً ولم تَغْضَبْ لقَتْلِ ابنِ خَازِمِ

معناها: أتغضب لأجل حزّ أذني قتيبة.

والبصريون يقولون: إنَّ (إنْ) هذه تستعمل استعمالين:

أحدهما: يراد به التهييج والحض على الفعل، وأن ذلك أسلوب

---

(١) انظر: الحروف العاملة في القرآن الكريم ٦٣٩، ٦٤٧، ٧٠٤ ـ ٧١١، وراجع ما سبق عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

عربي معروف، كما تقول للرجل الكريم: «إن كنت ابن الكرام فاقض حاجتي». وأنت تعلم أنه ابن الكرام، إلا أنك تهيجه بهذا الكلام وتستثيره وتحمله علىٰ الامتثال، والاستثارة بأداة الشرط في هذا المعنىٰ أسلوب عربي معروف، العرب تقول: «إن لم أفعل كذا فلست ابن فلان»، و«إن كنت ابن فلان فافعل كذا» تهيجه على الفعل وتحضه عليه. فعلىٰ هذا فالمراد بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تهييجهم وتحريضهم إلى امتثال أمر الله جل وعلا.

الثاني: في بعض الأشياء التي لا يُحتمل فيها هذا كقوله تعالىٰ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: الآية **٢٧**] وقوله ﷺ في حديث زيارة القبور: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**»[(١)]. فإنهم لاحقون قطعاً، وداخلون المسجد قطعاً، قال بعض العلماء: جيء بـ (إنْ) في مثل هذا ليُعلِّم الناس أنهم لا يتحدثون عن المستقبل إلا معلقين بمشيئة الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: الآية **٢٤**] فلما كانت المشيئة يُعلق بها في الشيء الواقع لا محالة فما بالك بغيره؟!! هكذا قالوا، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية **١**].

ثم بيّن صفات المؤمنين الذين هم مؤمنون حقاً بمعنىٰ الكلمة قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: الآية **٢**] (إنما) أداة حصر كما بينّا. أي: إنما المؤمنون الكاملون في إيمانهم كمالاً كما ينبغي ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ أي: إذا سمعوا ذكر الله ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الوجل في لغة العرب معناه: الخوف. أي: خافت قلوبهم عند ذكر الله إعظاماً لله (جل وعلا) وإجلالاً له، وخوفاً من بأسه وبطشه، فالمؤمن الحقيقي إذا سمع ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف قلبه استعظاماً لرب العالمين، وإجلالاً له، وخوفاً من عقابه، وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ والعرب تقول: «وَجِلَ من

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

الأمر، يَوجَل، وجلاً» إذا خاف منه، ومنه قول إبراهيم للملائكة لما لم يرَ أيديهم تصل إلى العجل الذي قربه إليهم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٥٢، ٥٣] فالوجل الخوف.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[١] أي: قُرأت عليهم آياته، والياء في ﴿تُلِيَتْ﴾ أصلها مُبدلة من واو؛ لأن مادة التلاوة من الناقص الذي لامه واو[٢]، وأصل التلاوة مصدر سيال، والعرب تقول: «تلاه يتلوه» إذا تبعه، تقول العرب: «هذا يتلو هذا» أي: يتبعه، ومنه قيل للجمل الذي يتبع النوق لضرابها: (التالي)؛ لأنه يتبع إناث الإبل كما هو معروف، ومنه قول غيلان ذي الرمة[٣]:

إذا الجَافِر التالي تَنَاسَيْنَ عهده وعارضْنَ أنفاسَ الرياحِ الجَنَائِبِ

وإنما قيل للقراءة (تلاوة) لأن القراءة مصدر سيال لا بد من حرف يتلوه حرف، يتلوه حرف، يتلوه حرف، حتى يتجمع من هذا المتلو: المقروء. ﴿تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: قُرأت عليهم آياته ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي: تصديقاً بالله إلى تصديقهم، وإيماناً إلى إيمانهم.

وهذه الآية وأمثالها في القرآن نصوص صريحة على أن الإيمان يزيد كما أنه ينقص[٤]؛ لأن الآيات الدالة على أن الإيمان يزيد متعددة في كتاب الله، كقوله هنا: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ وقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.
(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٣٣٩.
(٣) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.
(٤) انظر: الإيمان لأبي عبيد ص٢٤، الإيمان للعدني ص٩٤، الإيمان لابن منده (٣٤٥/١)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٨٩٠/٥)، الشريعة للآجري ص١١١، أصول السنة لابن أبي زمنين (رياض الجنة ص٢١١)، تعظيم قدر الصلاة (٣٥٦/١) الإيمان لابن تيمية ص٢١١، تفسير ابن كثير (٢٨٥/٢، ٤٠٢)، (٧٤/٣)، شرح الطحاوية ص٤٦٦، زيادة الإيمان ونقصانه لعبدالرزاق البدر، الأضواء (٣٤٦/٢).

أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ إلى قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٢٤] ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: الآية ٤] ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: الآية ٣١] ونحو ذلك من الآيات، وهذه الآيات المصرحة بزيادة الإيمان تدل بدلالة الالتزام على أن الإيمان ينقص بنقص الأعمال، وقد جاء مصرحاً بذلك من النبيّ ﷺ في أحاديث الشفاعة المتواترة: «**يَخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن حبة من إيمان**»[١] ونحو ذلك من الآيات، فالذي ليس في قلبه إلا وزن حبة أو شعيرة من إيمان فلا شك أن إيمانه ناقص، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد بزيادة الأعمال الصالحة، وينقص بنقصانها، كما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقول المتكلمين: «إنه لا يزيد ولا ينقص، وإنما ذلك بحسب التعلقات» قول لا يخفى بطلانه على متأمل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ التوكل على الله هو: الثقة به (جل وعلا) وتفويض جميع الأمور إليه، فهنا ذكر من صفات المؤمنين أولاً: الخوف من الله (جل وعلا)، والثانية: زيادة الإيمان، والثالث: تفويض الأمر إلى الله والتوكل عليه في كل شيء.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: إن الله (جل وعلا) ذكر في هذه الآية الكريمة من صفات المؤمنين أنهم إذا سمعوا ذكر الله ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت قلوبهم، مع أنه ذكر في موضع آخر أن ذكر الله يكون سبباً لطمأنينة القلوب، كما قال تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: الآية ٢٨] قالوا كيف جمع بين الوجل والطمأنينة عند ذكر الله؟!!

والجواب عن هذا[٢] مشهور عند العلماء لا إشكال فيه، وهو أن الطمأنينة

---

(١) البخاري في الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه. حديث رقم: (٤٤) (١٠٣/١) وأطرافه: (٤٤٧٦، ٦٥٦٥، ٧٤١٠، ٧٤٤٠، ٧٥٠٩، ٧٥١٠، ٧٥١٦). ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. حديث رقم: (١٩٣) (١٨٢/١).

(٢) انظر: تفسير القاسمي (٩/٨).

إنما تعتري قلوبهم إذا سمعوا ذكر الله لِمَا انشرحت له صدورهم من معرفة الحق وتيقنه، فقلوبهم مطمئنة غاية الطمأنينة إلى معرفة الحق، عالمون أنه حق لا يخالجهم شك، ومع هذا يخافون من الله أن لا يتقبل منهم أعمالهم ونحو ذلك، وهذه صفة المؤمنين يطمئنون باليقين ويخافون ربهم (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٢].

ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنفال: الآية ٣] إقامة الصلاة: وهو الإتيان بها على الوجه الأكمل المطلوب، كالمحافظة على شروطها، وأوقاتها، وصلاتها في الجماعات، وإعطائها حقها في السجود والركوع ونحو ذلك من الأركان.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال بعض العلماء: يعني الزكاة؛ لأنها رديفة للصلاة في القرآن، والأظهر أنه أعم من الزكاة، أنهم ينفقون مما رزقهم الله النفقة الواجبة وغيرها من النفقات المستحبات المرغب فيها من مواساة الفقراء، وصِلاَت الأرحام، ونحو ذلك[1]، وهذا معنى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: الآية ٤] أولئك الذين هذه صفاتهم هم المؤمنون حقاً، قال بعض العلماء: قوله: ﴿حَقًّا﴾ نعت لمصدر محذوف، أي: المؤمنون إيماناً حقاً، والتحقيق المعروف عند علماء العربية: أن (حقاً) هنا من نوع المصدر المُؤَكِّد لعامله، وهو الجملة قبله؛ لأن قوله: ﴿حَقًّا﴾ مُؤكِّد للإسناد الخبريّ في قوله: ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أُحِقُّ ذلك حقاً، وأُؤكِّد ذلك الإيمان توكيداً[2].

﴿لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الدرجات: جمع درجة. قال بعض العلماء[3]: هي درجات الجنات يوم القيامة؛ لأن الناس لهم درجات يوم

---

(١) انظر: ابن جرير (٣٨٨/١٣).

(٢) انظر: الدر المصون (٥/٥٥٨ ـ ٥٥٩).

(٣) انظر: ابن جرير (٣٨٩/١٣).

القيامة في الجنة بحسب أعمالهم ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأحقاف: الآية ١٩] وقد يكون بعض الناس يتراءىٰ أصحاب الغُرف كالكوكب الدُّري ينظره أهل الأرض لمباعدة ما بينهم، ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٢١].

وقال بعض العلماء: الدرجات: المقامات، والأول أظهر، ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ﴾ (مَفْعِلَة) من غفران الذنوب. وأصله ستر الذنوب وتغطيتها بحلم الله حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها[1].

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هو رزق الجنة، من مآكلها ومشاربها، كما جاء مبيناً في مواضع من كتاب الله، وهذا معنىٰ قوله لهم: ﴿مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال: الآيتان ٥، ٦].

الكاف في قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ اختلفت فيها عبارات المفسرين إلى خمسة عشر قولاً[2]، كثير منها لا يظهر، بل يظهر سقوطه لعدم الدليل عليه، وعدم تمشيه مع لغة العرب، فهي من الآيات التي كثر فيها غلط المفسرين حتى اختلفوا فيها إلى خمسة عشر طريقاً معروفة في كتب التفسير، والآية في الجملة دلت على تشبيه شيء بشيء بناء علىٰ الصحيح من أن الكاف للتشبيه.

وأظهر الأقوال وأقربها: أن الله شبه فيها قصة بقصة؛ لأنه وقع في أول غزوة بدر قصتان:

إحداهما: أن الله تبارك وتعالىٰ لما هزم المشركين ونفَّل المسلمين غنائمهم، وحصلت عند المسلمين غنائم اختلفوا فيها، فجعل الله الأمر فيها إلى رسوله فقسمها رسوله ﷺ وبعضهم في نفسه غير راغب في تلك

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٣٩١)، القرطبي (٧/٣٦٧)، الدر المصون (٥/٥٥٩).

القسمة؛ لأنه كان يرىٰ أنه أولىٰ من غيره، فقد قضىٰ الله عليهم شيئاً ليس هو رغبتهم لكنه هو المصلحة لهم في دينهم ودنياهم، هذه المسألة المشبّهة.

والمسألة المشبه بها: أن الله أخرج نبيه من بيته في المدينة ـ هنا[1] ـ أخرجه إلى غزوة بدر الكبرىٰ، فقد كان ﷺ خرج لحكمة الله (جل وعلا)، خرج وكأنه يقصد عير أبي سفيان ليأخذ المال ليس دونه قتال، فلما خرج ﷺ يريد أخذ مال لا قتال دونه في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا من أصحابه، وشاء الله أن أبا سفيان سَاحَلَ بِعِيْرِه إلى جهة ساحل البحر، وأرسل إلى قريش ضمضم بن عمرو الغفاري ليبادروا عِيرهم، قال: لا يأخذها محمد ﷺ كما فعل بعِير ابن الحضرمي بنخلة، وجاء النفير، وأُخبر النبي ﷺ أن نفير قريش جاءهم جيش عرمرم في عَدده وعُدده، والله (تبارك وتعالىٰ) أراد أن يُخرجهم إلى عِير ليسهل عليهم الخروج ويجعلهم ليسوا مستعدين للقتال ليُجَرِّىء عليهم نفير قريش؛ ليقضي الله أمره ـ كما سيأتي تفاصيله ـ وسنذكر في هذه السورة الكريمة ـ إن شاء الله ـ حاصل غزوة بدر وما فيها من المهمات؛ لأنها مذكورة في هذه السورة الكريمة ـ أعني غزوة بدر ـ والحاصل أنهما قصتان كأن إحداهما شُبّهت بالأخرىٰ، كما أن الله وكل قسم الغنائم إلى رسوله ﷺ وبعضهم لا يرغب في هذا؛ لأنه يرىٰ أنه أحق من غيره، كذلك أخرج رسوله إلى أخذ مال من عِير فجاءها نفير، فصار بعض الصحابة يكره ملاقاة النفير ويقول: ما خرجنا مستعدين لقتال الرجال الذين هم في عَددهم وعُددهم، إنما خرجنا لأخذ عِير لا قتال دونها ولا سلاح، فهم كرهوا ملاقاة النفير ـ جيش قريش ـ مع أن ملاقاته فيها لهم المصلحة، فالذي كرهوه من قَسْم غنائم بدر هو الذي لهم فيه مصلحة الدنيا والآخرة، والذي كرهوه من خروج رسول الله ﷺ بهم الذي آل إلى قتال جيش قريش كرهوه وهو أيضاً خير لهم في دينهم ودنياهم، فالله (تبارك وتعالى) كأنه أشار بالتشبيه على هذا القول إلى أنه أعلم بمصالحهم من

(١) معلوم أن الشيخ (رحمه الله) كان يلقي هذه الدروس في المسجد النبوي.

خلقه، وأن خلقه يكرهون شيئاً والمصلحة لهم فيما يختاره لهم ربهم كما قال جل وعلا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: آية ٢١٦] هذا أقرب الأقوال، وكثير من الأقوال ساقط سقوطاً بيّناً، وهذا أقربها، واختاره غير واحد.

وقال بعض العلماء: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ كما أن إخراج ربك إياك حق لا شك فيه.

وقال بعض العلماء: هي التي تدل على المجازاة والتعليل، كما تقول لعبدك: «كما أحسنتُ إليك فأطعني». وتقول لمن ترسله إلى مهمة: «كما قطعت عِللك ووفرت لك جميع الأسباب فافعل ما ينبغي». وأنه على هذا كأنه يقول: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وغشاكم النعاس، وثبتكم بالملائكة، وأنزل عليكم ماء السماء ليطهركم به، وليربط على قلوبكم ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: الآية ١٢] ولا يخلو هذا من بُعد، وأقربها هو ما ذكرنا من أنهما مسألتان كلاهما أراد الصحابة فيها غير الأصلح، وكره بعضهم ما هو الأصلح لهم فيها، فبيّن الله لهم أنهم في المسألتين كرهوا ما هو الأصلح لهم، وأن الله (جل وعلا) فعل بهم ما هو الأصلح ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٢١٦].

قوله: ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ﴾ التحقيق أن المراد به خروجه من بيته في المدينة إلى عِير أبي سفيان، وقد تمخض هذا الخروج عن قتال جيش قريش في بدر الكبرى. هذا هو التحقيق، خلافاً لقوم زعموا أن معنى: ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: من مسقط رأسك مكة أخرجك ربك بسبب معاداة قومك لك ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا خلاف التحقيق، والأول هو الصحيح(١).

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ لكارهون للخروج لما علموا أن

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٣٩٤).

القتال قتال النفير، وأن الأمر ليس أمر العير، وذلك كما سيأتي شرحه وإيضاحه أن عير أبي سفيان وفيها أموال قريش، فيها أموال كثيرة، وقد ذهبت إلى الشام في رحلة الصيف، كما في قوله: ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ [قريش: الآية ٢] وقد سمع بها ﷺ أنها ذهبت إلى الشام، فتلقاها وهي واردة إلى الشام حتىٰ بلغ العُشيرة ـ وهي غزوة العُشيرة ـ ففاته أبو سفيان ولم يدركه، ثم كان يترقب قفول العير ليعترض لها فيستعين بما فيها من الأموال، فلما حان قُفول العير استنهض ﷺ مَنْ خَفَّ من أصحابه، وكانوا لا يرون أنه قتال؛ ولذا راحوا في قلة من العَدد والعُدد، خرج معه ثلاثمائة ١/ب
وثلاثة عشر رجلاً يريدون عير أبي سفيان وسيأتي/ شرح هذه القصة، وغزوة بدر[(١)]، وعلىٰ كل حال أنه لما خرج ﷺ وقرُب من بدر أرسل بسبس[(٢)] بن عمرو الجهني وعدي بن أبي الزغباء يتنظرون خبر القوم[(٣)]، ثم راح هو وأبو بكر وجاؤوا إلىٰ شيخ من بني غفار[(٤)]، لأن بدراً أصله ماء لبني غفار سُمّي برجل من غفار يُسمىٰ (بدراً) هو الذي حفر بئر بدر، فقال له ﷺ: «**أخبرني عن أبي سفيان؟**» قال له: لا أخبرك حتىٰ تخبرني، قال له ﷺ: «**إن أخبرتنا أخبرناك**»، فقال له الشيخ: ذاك بذاك؟! قال: «**نعم**»، قال: أُخبرت أن محمداً ﷺ خرج في تاريخ كذا وإن كان المخبر صادقاً فهو الآن في محل كذا ـ وهو نفس المحل الذي فيه رسول الله ﷺ وأصحابه ـ وأن أبا سفيان خرج بِعِيْرِه بتاريخ كذا، وإن كان المخبر صادقاً فإنه يكون في محل كذا ـ للمحل الذي فيه أبو سفيان، فلما أعطاهم الخبر قال: أنجزوا لي الوعد، فأخبروني؟ فقال له ﷺ: «**نحن من ماء**». وصار الشيخ يقول: من ماء؟ من ماء العراق؟ لا يدري ما يقصده رسول الله ﷺ[(٥)]. فبعد أن ذهب رسول الله

---

(١) انظر تفاصيل الغزوة في السيرة لابن هشام (٦٤٣/٢) فما بعدها.

(٢) في صحيح مسلم (١٩٠١): «بُسَيْسَة». قال النووي في شرح مسلم (٤٧/١٣): «هكذا هو في جميع النسخ» ا.هـ ونقل عن القاضي قوله: «والمعروف في كتب السيرة: بسبس... وهو بسبس بن عمرو» وعقبه النووي بقوله: «يجوز أن يكون أحد اللفظين اسماً له والآخر لقباً» ا.هـ. وانظر: إكمال المُعلم (٣٢٢/٦).

(٣) انظر: السيرة ص٦٥٣.

(٤) وهو سفيان الضمري كما في ابن هشام.

(٥) ابن هشام ص٦٥٤ والبداية والنهاية (٢٦٤/٣).

وأبو بكر جاء أبو سفيان أمام عِيره يتجسّس الخبر، فقصّ عليه الغفاري قصة ما جرىٰ له مع النبيّ ﷺ[1]، فقال: هل أناخ بعيره؟ قال: نعم، فأراه الموضع الذي أناخ فيه رسول الله، فجاء فوجد بعر البعير ففتته فإذا فيه النوىٰ، قال: هذه والله علائف يثرب؛ لأنهم يعلفون مواشيهم النوىٰ، وآجر في ذلك الوقت ضمضم بن عمرو الغفاري يقرن بين مشي الليل والنهار لينذر قريشاً أن عِيرَهُم تعرضها محمد ﷺ، وذهب هو بالعِيْر وسَاحَل بها إلى جهة ساحل البحر، وأبعد بها عن بدر، ولم يلبث الغفاري أن جاء قريشاً فاستنفروا بسرعة وجاؤوا، فلما جاؤوا علم بهم رسول الله ﷺ أن الجيش أتىٰ، وأن العِيْر سلمت، وكان الصحابة يكرهون هذا، وكان الله ـ جل وعلا ـ وعد نبيه بأنه يعطيه إحدىٰ الطائفتين إما العير وإما النفير، وكان أصحابه (رضي الله عنهم) يرغبون في أن يكون الوعد بالعِيْر لا بالنفير كما سيأتي في قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٧] فلما علموا أنه النفير وعلم ﷺ بجيش قريش أنه أقبل يريده، وقص خبره علىٰ أصحابه، كره جماعة منهم ملاقاته غاية الكراهة، حتىٰ قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦] من شدة خوفهم وكراهتهم؛ ولذا قال لنبيه: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: الآية ٦] الحق تبين أن الله أمرك بالخروج ووعدك إحدىٰ الطائفتين: إما أن يمكنك من العير، وإما أن ينصرك ويظفرك بالنفير.

وهذا حق ووعد من الله لا شك فيه، وهم يجادلون في هذا الحق بعد ما أوضحه الله لرسوله فيقولوا: نحن ما استعددنا أولًا لقتال النفير، إنما

---

(١) المعروف أن بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء أتيا بدراً فأناخا إلى تل قريب من الماء، وكان مجدي بن عمرو الجهني على الماء... ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ... وأقبل أبو سفيان حتى ورد الماء، فقال لمجدي: هل أحسست أحداً؟ فقال: ما رأيت أحداً أُنكره إلا أنني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل... إلخ. كما في سيرة ابن هشام ص٦٥٥.

خرجنا لنأخذ عيراً ولم نستعد للقتال فدعْنا نرجع حتىٰ نستعد للقتال. وهذا إخراجه من بيته الذي كرهوه وكان خيراً لهم؛ ولذا قال: ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنفال: الآية ٥] وهذا الحق الذي أخرجه من بيته متلبساً به هو نصرة دينه، وإعزاز كلمته، وإعلاء كلمة الله (جل وعلا) لأن أول وقعة عظُمت فيها قوة الإسلام، وارتفعت فيها كلمة الله وعلت، وعزّ بها المسلمون وانتصروا هو غزوة بدر الكبرىٰ هذه، وسنُلم بتفاصيلها - إن شاء الله - في هذه الآيات المقبلة؛ لأن الله ذكر في هذه الآيات الآتية من سورة الأنفال غزوة بدر الكبرىٰ؛ ولذا قال هنا: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين هم معك ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾ لذلك الخروج لما علموا أنه آيل إلى قتال الجيش لا إلى العير ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ [الأنفال: الآية ٦] وهو أن الله (جل وعلا) أمرك أن تخرج خروجاً متلبساً بالحق، ووعدك إحدىٰ الطائفتين: إما العير وإما النفير، فأنت ظافر لا محالة، فخروجك خروج حق مصحوب بالوعد من الله بالنصر والظفر إما بالعِيْر وإما بالنفير، ومع هذا يخاصمون ويجادلون في الحق بعد ظهوره فيقولون: نحن ما كنا مستعدين للقتال، فما خرجنا إلا لنأخذ عيراً لا حرب دونها.

وهذا معنىٰ قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ من شدة كراهتهم لقتال العدو ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ لأن من يساق إلى الموت وهو يرىٰ وينظر هذا أعظم شيء عليه، وهذا في بعضهم لا في كلهم، كما قد أشرنا إليه سابقاً من أن النبيّ ﷺ لما سمع بأنهم استنفروا النفير وأنه آتيهم، قال بعض العلماء: كان الذي أرسله له سراً بذلك عمه العباس بن عبد المطلب ـ والله تعالىٰ أعلم ـ فلما أخبر قومه به جادل قوم في الحق، وقالوا: ما خرجنا للقتال، وإنما خرجنا للعير، فدعنا نرجع فنستعد للقتال، وتكلم أبو بكر وعمر فأحسنا، وتكلم المقداد بن عمرو ـ وهو المقداد بن الأسود، وهو المقداد بن عمرو (رضي الله عنه) ـ وقال كلامه المشهور: والله لو سرت بنا إلى بَرْكِ الغِمَاد لجالدنا من دونه معك، لا نقول لك كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: الآية ٢٤] إلى آخر

كلامه[١]. وأنه لما أعاد الكلام مراراً، قال له سعد بن معاذ: كأنك تريدنا معشر الأنصار؟ قال: نعم، وقال له كلامه العظيم الذي يقول في جملته: لقد بايعناك على الحق، وعلمنا أنك رسول الله ﷺ، وإنا لقوم صُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء[٢].

[وهذا يدل على أن الصحابة تباينت مواقفهم فما][٣] كرهوا كلهم هذا الخروج بل بعضهم رغب فيه وحبَّذه وصرح بالإعانة عليه، خلافاً للبعض الآخر. وهذا معنى قوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦] لشدة كراهتهم لقتال ذلك الجيش.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٧ ـ ١١].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٧، ٨].

المراد بالطائفتين هنا كما أطبق عليه عامة المفسرين: هما العِير والنفير. العِير: الإبل تحمل المتاع، والنفير: الجيش في سلاحه وعدده وعُدده.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

وقد ذكرنا فيما مضىٰ أن بدراً (الكبرىٰ) هذه؛ لأن بدراً ثلاث غزوات كلها تسمىٰ بدراً، وهي: بدر الأولىٰ، وبدر الكبرىٰ ـ هي هذه التي يُقال لها بدر العظمىٰ ـ وبدر الأخيرة بعد أُحد في العام القادم كما تقدم إيضاحه في تفسير سورة آل عمران، وقد ذكرنا فيما تقدم أن أبا سفيان خرج إلىٰ الشام في الرحلة إلى الشام معه عير فيها كثير من أموال قريش، وقد علم النبي ﷺ بذهابها إلى الشام فتلقّاها وهي ذاهبة إلى الشام ليأخذ المال الذي يشترون به من الشام ففاتته العير، وبلغ (العُشيرة) ورجع منها إلى المدينة، وهي غزوة العُشيرة، ثم بعد ذلك صار يترقب رجوع عِيْر أبي سفيان، فلما حان وقت قفولها وعلم أنها راجعة استنفر من خفّ من أصحابه وتلقاها وقال لهم: «**اخرجوا إليها لعل الله يُنَفِّلكُمُوها**»؛ ليستعينوا بها على أمور دينهم ودنياهم؛ لأنهم في ذلك الوقت ينقص عليهم المال، فاستنفر ﷺ من كان ظهره حاضراً من القوم ولم يخرجوا معدّين للقتال، لكن خرجوا يتلقّون عِيْراً، والمؤرخون يقولون: إن العِيْر فيها أربعون رجلاً أو ثلاثون رجلاً من قريش، فيهم رئيسهم أبو سفيان بن حرب، وفيهم عمرو بن العاص، ومخرمة بن نوفل، وغيرهم من قريش[١]. فسار إلى العِيْر في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من أصحابه ليس عندهم من السيوف إلا ثمانية سيوف، ولا من الخيل إلا فرسان. يقولون: إن إحداهما تحت المقداد بن عمرو، والثانية تحت الزبير بن العوام، وذكر بعض أصحاب المغازي أن إحداهما عند مصعب بن عمير (رضي الله عنهم أجمعين)، والأول هو المشهور عند أصحاب المغازي. عندهم ثمانية سيوف ـ فيما يقولون ـ وفرسان، ونحو من سبعين بعيراً يعتقبون عليها، كل ثلاثة يعتقبون على بعير، وذكروا أن النبيّ ﷺ كان هو وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون علىٰ بعير[٢]، وكانت إذا جاءت عقبة رسول الله ﷺ قالوا: «اركب حتىٰ نمشي عنك» فلم يرض إلا أن يمشي كما يمشون، ويقول

---

(١) انظر: السيرة لابن هشام ص٦٤٣.

(٢) المصدر السابق ص٦٥١.

لهم: «**لستم بأقوىٰ مني، ولست بأغنى عن الأجر منكما**»[(١)]. وما ذكره بعض المؤرخين وأصحاب المغازي من أن اللَّذَين كانا يعتقبان مع النبي ﷺ هما: علي وأبو لبابة بن عبد المنذر لا ينافي ما عليه الأكثرون من أن الثالث هو مرثد بن أبي مرثد الغنوي؛ لأنّا قدمنا أن أبا لبابة بن عبد المنذر ردّه النبيّ ﷺ من الروحاء وخلفه على المدينة، ردّه إليها من الروحاء، فلعل مُعاقبة أبي لبابة كانت قبل رجوعه، وبعد أن ردّه النبي ﷺ إلى المدينة صار مكانه مرثد بن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه[(٢)].

ثم إنهم ذهبوا في طريقهم ذلك حتىٰ قربوا من بدر، وقد أرسل النبي ﷺ قبل ذلك طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد يتجسسان أخبار عِيْر أبي سفيان إلى جهة الشام، وقد انتهت الوقعة قبل رجوعهما، وأرسل أيضاً بسبس بن عمرو الجهني ـ حليف بني ساعدة ـ وعدي بن أبي الزغباء (رضي الله عنهما) يتجسسان الخبر، وقد جاءاه ببعض الخبر لأنهم لما جاءا بئر بدر وأناخا بعيريهما سمعا ـ عدي بن أبي الزغباء هذا، وبسبس بن عمرو (رضي الله عنهما) ـ سمعا جاريتين تُداين إحداهما الأخرىٰ، والتي تُطالَبُ تقول لها: إن عِيْر أبي سفيان ستنزل هنا غداً فأشتغل عندهم وأقضيك من ذلك، وعلى الماء رجل من بني غفار[(٣)]، فقال للجارية الطالبة: صدقت فسترد العير وستقضيك إذا اشتغلت عندها، فأخبرا رسول الله ﷺ بذلك[(٤)]. وقد جاء رسول الله ومعه أبو بكر وسأل الشيخ الغفاري الذي كان على الماء واسمه سفيان[(٥)] كما ذكرنا بالأمس. وأخبرهما عن موقع النبي ﷺ وعن

---

(١) أحمد (٤١٨/١، ٤٢٢)، والنسائي (في الكبرى) في السير، باب الاعتقاب في الدابة. حديث رقم: (٨٨٠٧) (٢٥٠/٥) والحاكم (٢٠/٣)، والبيهقي في الدلائل (٣٩/٣)، والبزار (كشف الأستار (٣١٠/٢)). وذكره الهيثمي في المجمع (٦٩/٦) وعقبه بقوله: «وفيه عاصم بن بهدلة وحديثه حسن، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح» ا.هـ.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٢٦١/٣).

(٣) الذي على الماء: مجدي بن عمرو الجهني، كما في ابن هشام ص٦٥٦.

(٤) المصدر السابق.

(٥) اسمه: سفيان الضمري. (ابن هشام ص٦٥٤) والبداية والنهاية (٢٦٤/٣). وهو آخر غير الجهني الذي جاءه بسبس وصاحبه.

موضع أبي سفيان، وقد قال له النبي: «**نحن من ماء**» كما ذكرنا.

وذكر الأخباريون[١] أن أبا سفيان جاء وفَتَّت بعض أبعار النواضح، بعضهم يقول: فتت بعر بعير بسبس وعدي بن أبي الزغباء فوجد في بعر البعير النوىٰ فقال: هذه علائف يثرب. ولم يشك في أنها من النبيّ ﷺ وأصحابه، فرجع مسرعاً وردّ العِيْر عن بدر أصلًا وسَاحَل بها إلى جهة البحر، وأسرع بها هناك، وآجر ضمضم بن عمرو الغفاري على أن يسير سيراً مسرعاً إلى قريش ويخبرهم أن محمداً ﷺ تعرض لعِيْرِهم فيها أموالهم، والمؤرخون يقولون: إن هذه العير فيها ألف بعير كلها تحمل الأموال، وفيها أربعون أو ثلاثون رجلًا من قريش، وهي تحمل مالًا كثيراً، فأسرع ضمضم بن عمرو الغفاري إلى قريش بمشي سريع وجاءهم بسرعة، ولما قرُب منهم جدع أُذني البعير الذي هو عليه. وحوَّل الرحل، وشق القميص، وصاح بصوت مزعج: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة. واللطيمة: الإبل تحمل المتاع، كما قال نابغة ذبيان[٢]:

.... يطوفُ بها وسطَ اللطيمة بائعُ

إن محمداً تعرض لعِيْرِكم يريد أن يأخذها كما أخذ عِير ابن الحضرمي. وبعضهم يقول: إن بين وقعة بدر وبين قضية عِيْر ابن الحضرمي شهران فقط والله تعالى أعلم.

وقبل مجيء ضمضم بن عمرو الغفاري بثلاث ليالٍ رأت عاتكة بنت عبد المطلب (رضي الله عنها) رؤيا هائلة عجيبة أَسَرَّت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه)، قالت له: إني رأيت في منامي رؤيا عجيبة أخاف أن يصل إلى قومك منها شر. قال: وما هي؟ قالت: رأيت راكباً علىٰ بعير له، لما جاء بالأبطح رفع صوته ونادىٰ: ألا انفروا إلى مصارعكم في ثلاث. قالت: وأناخ بعيره علىٰ ظهر الكعبة فيما ترىٰ في نومها وصرخ بهم

---

(١) ابن هشام ص٦٥٦، والبداية والنهاية (٣/٢٦٥).

(٢) هذا الشطر الأخير من بيت أوله: «على ظهر مبناه جديد سيُورُها» وهو في ديوانه ص٥٣.

مرات: ألا انفروا إلى مصارعكم في ثلاث، وفعل كذلك على جبل أبي قبيس، وأرسل صخرة عظيمة من أبي قبيس فلما جاءت إلى أسفل الجبل ارفَضَّت - أي انكسرت وتفرقت شظاياها - فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا دخله منها شيء. كانت أسرّت هذه الرؤيا إلى العباس أخيها واستكتمته عليها، فأَسَرَّها العباس إلى بعض أصدقائه من بني ربيعة، فأَسَرَّها ذلك إلى غيره حتى فشى الخبر وتناقلها الناس، فأتى العباس البيت ليطوف وإذا أبو جهل في نفر من قريش، فقال له أبو جهل: إذا انتهيت من طوافك فأتنا. فلما أتاهم قال له أبو جهل: يا أبا الفضل متى حَدَثَتْ فيكم هذه النبية الجديدة؟!! أما كفاكم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم!! هي قالت: إنّا ننفر إلى مصارعنا في ثلاث، فسننتظر هذه الثلاث، وإن انقضت ولم يكن فيها شيء كتبنا عليكم أنكم أكذب بيت من العرب، فالعباس في ذلك الوقت لم يغضب ولم يقل شيئاً إلا أنه أنكر وجحد أن أخته رأت شيئاً، فلما كان بالليل ورجع إلى أهله وجد نساء بني عبد المطلب كلهن في شدة الغضب، وقالوا له: هذا الفاسق يسب رجالنا ثم شرع يسب نساءنا وأنت لا تغيّر شيئاً؟!! فأوغرن صدره عليه، وغضب العباس وندم على ما فات منه، وأصبح ينوي التعرض لأبي جهل لإن عاد إلى ذلك لينتقمن منه، وكان ذلك هو اليوم الثالث من أيام الرؤيا، فجاءه في المسجد يتعرض إليه وأبو جهل مشغول؛ لأنه يسمع صوت ضمضم بن عمرو والعباس لا يسمعه، كان أبو جهل حديد السمع، فرآه مشغولًا حتى وثب إلى باب المسجد فإذا ضمضم على بعيره يقول: «اللطيمة، اللطيمة». إلى آخر ما ذكرنا[1]، فاشتغلوا وتجهزوا سراعاً إلى النبي ﷺ وقالوا: يظن محمد أنها كعِيْر ابن الحضرمي!! لا والله ليكونن غير ذلك، ثم إنهم تجهزوا مسرعين ولم يبق من أشراف قريش أحد.

وتخلف من أشرافهم: أبو لهب بن عبد المطلب - قبحه الله - واستأجر العاصي بن هشام بن المغيرة لِدَيْنٍ كان له عليه، أنه يذهب مكانه وبدله إلى بدر - قبحه الله - ثم إنهم لما تهيؤوا للسفر قالوا: إن بينكم وبين بني بكر بن

(١) ابن هشام ٦٤٤ - ٦٤٧.

عبد مناة بن كنانة حرباً، إن خرجتم عن دياركم لعل بني بكر أن تأتي بلدكم بعدكم وتأخذ نساءكم وصبيانكم وأموالكم ليس دونهم رجال، وكان بين قريش وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة حرب[١] سببها أن رجلًا من بني عامر بن لؤي وهو ابن لحفص ـ رجلٌ من بني عامر بن لؤي، أخو مكرز بن حفص (رضي الله عنه) الصحابي المشهور ـ كان قتله رجل من بني بكر بن كنانة، فأخذ مكرز بن حفص بثأره فقتل الكناني، فصارت بين قريش وبين كنانة قاتل ومقتول، وصارت بينهم حرب، فلما خافوا كنانة جاءهم إبليس اللعين علناً متمثلًا لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم (رضي الله عنه)، وهو الذي ساخت به قوائم فرسه لما تبع النبيّ ﷺ في سفر الهجرة، وهو سراقة بن مالك بن جعشم (رضي الله عنه) صار من أصحاب رسول الله ـ أسلم ـ وهو سيد بني مدلج من بني بكر بن كنانة، جاء الشيطان في صورته، وهم يعرفون سراقة، كأنه سراقة لا ينكرون منه شيئاً، وهو الشيطان متمثل في صورة ذلك الرجل، وقال لهم: أنا سراقة بن مالك بن جعشم، إني جار لكم من كنانة، لا يمكن أن يصلوا إليكم بسوء. كما سيأتي تفاصيل هذا في هذه السورة الكريمة؛ لأنه قال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] هو الشيطان لما تمثل لهم بصورة سراقة بن مالك (رضي الله عنه)، ولم يزل معهم يَقِيلُ معهم حيث قالوا، ويبيت معهم حيث باتوا، حتى تراءى الجمعان يوم بدر، ورأى الشيطان الملائكة ينزلون من السماء ـ لنصر دين الله ـ لما رأى الملائكة خاف القبيح وقال لهم: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ نكص على عقبيه وقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[٢] [الأنفال: الآية ٤٨]، وبعد ذلك يقول قريش: خذلنا سراقة وهرب عنا. ولم يعلموا أنه الشيطان حتى أسلموا وسمعوا قصته تُتلىٰ في سورة الأنفال هذه[٣]، فلما قال

---

(١) المصدر السابق ص٦٤٨.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/٢٥٩، ٢٨٣).

(٣) خبر مجيء الشيطان يوم بدر على صورة سراقة بن مالك (رضي الله عنه) جاء في روايات عدة عن جماعة، منهم: =

لهم الشيطان: إني جار لكم من بني بكر. وخرجوا، وكان أمية بن خلف ـ من سادات قريش ـ هَمَّ أن لا يخرج؛ لأنه كان صديقاً لسعد بن معاذ (رضي الله عنه) في الجاهلية، وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل عند سعد، وكان سعد إذا مر بمكة أو جاء معتمراً نزل عند أمية، وكان سعد (رضي الله عنه) بعد أن وصل إليهم النبيّ ﷺ في هجرته ذهب معتمراً إلى مكة ونزل عند أمية بن خلف، فقال له: انظر لي وقتاً يكون البيت ليس عنده أحد لأطوف. فراح به منتصف النهار ليطوف ببيت الله الحرام، فرآه أبو جهل يطوف فقال: من هذا؟ قال: أنا سعد بن معاذ. قال: تطوف بالبيت آمناً وأنتم آويتم محمداً وأصحابه؟! فقال له سعد: والله إن منعتني من مكة لأمنعنك مُتَّجرك إلى الشام!! ورفع صوته، وقال له أُمية بن خلف: يا سعد لا ترفع عليه صوتك!! هذا سيد أهل الوادي، فغضب سعد وقال لأمية: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنهم قاتلوك**»، فجزع أمية جزعاً شديداً لعلمه أن النبي ﷺ لا يقول إلا حقاً، ورجع إلىٰ امرأته فقال: يا أم صفوان أما سمعتي ما قال أخي اليثربي؟!! قالت: ماذا قال؟ قال: إنه سمع محمداً ﷺ يقول: إنه قاتلي، فقالت: والله ما يكذب محمد ﷺ. هم مع كفرهم وعنادهم يعلمون أنه لا يكذب!! فلما تهيؤوا للنفير أراد أمية أن يتخلف، فجاءه أبو

= ١ ـ ابن عباس. عند ابن جرير (٧/١٤) (من طريق ابن أبي طلحة)، وابن أبي حاتم (١٧١٥/٥)، والبيهقي في الدلائل (٧٩/٣). وعزاه في الدر (١٩٠/٣) لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والواقدي.

٢ ـ رفاعة بن رافع الأنصاري. وقد ذكره الهيثمي في المجمع (٧٧/٦) وعزاه للطبراني، وقال: «وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف» ا.هـ وعزاه في الدر (١٩٠/٣) للطبراني وأبي نعيم في الدلائل.

٣ ـ السدي. عند ابن جرير (٨/١٤).

٤ ـ عروة بن الزبير. عند ابن جرير (٨/١٤).

٥ ـ ابن إسحاق عند ابن جرير (٨/١٤).

٦ ـ محمد بن كعب عند ابن جرير (١١/١٤).

٧ ـ يحيى بن عُباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عُباد. عند ابن أبي حاتم (١٧١٥/٥).

وقد ذكر ابن كثير (٣١٧/٢) بعض هذه الروايات وأورد غيرها من طريق الواقدي وابن إسحاق.

جهل وقال: يا أبا صفوان أنت من سادة أهل الوادي إذا تخلفت تخلف الناس، فلا بد أن تذهب، فلم يزل به حتىٰ ذهب[١].

وقال بعضهم[٢]: جاءه عقبة بن أبي معيط بطيب ومجمر فقال له: تبخر بهذا فإنما أنت من النساء!! فلم يزالوا به حتىٰ خرج، وخرجوا مُوْعِدِين للحرب، لم يبق من سادات قريش وقادتها أحد إلا ما ذكرنا عن أبي لهب ـ قبحه الله ـ وذكر أصحاب المغازي المطعمين منهم[٣] فقالوا: عندما خرجوا من مكة نحر لهم أبو جهل عمرو بن هشام ـ قبحه الله ـ عشراً من الإبل، ثم من الغد نحر لهم أمية بن خلف بعسفان تسعاً من الإبل؛ لأنهم يوماً ينحرون عشراً ويوماً تسعاً، ثم نحر لهم بقديد سهيل بن عمرو عشراً من الإبل، ثم من قُديد ذهبوا إلىٰ المياه إلىٰ جهة ساحل البحر فأقاموا هناك يوماً، فنحر لهم شيبة بن ربيعة تسعاً من الإبل، ثم أصبحوا بالجحفة فنحر لهم عتبة بن ربيعة عشراً من الإبل، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم منبه ونبيه ابنا الحجاج السهميان عشراً من الإبل، ثم نحر لهم العباس عشراً من الإبل، ونحر لهم أبو البختري بن هشام علىٰ ماء بدر عشراً من الإبل، وأرسل لهم إيماء بن رحفة الغفاري عشراً من الإبل. وغير ذلك كانوا يأكلون من أزوادهم، فلما نجىٰ أبو سفيان أرسل إلى قريش: أن ارجعوا فإنكم كنتم تريدون أن تمنعوا أموالكم وعيركم وقد نجاها الله فارجعوا فلا حاجة لكم بقتال محمد وأصحابه. فقال اللعين أبو جهل: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً، وتعزف علينا القيان، ونشرب الخمور، وتسمع العرب بنا فتهابنا. وكانت بدر موسماً من مواسم العرب في الزمن القديم، وكان الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة، فلما سلمت العير ونجت وكان فيها رجل واحد من بني زهرة، بعضهم يقول: هو مخرمة بن نوفل، فقال الأخنس بن شريق: والله لترجعن يا بني زهرة، وهذا ابن بنتكم إن غلب

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب ذكر النبي ﷺ من يُقتل ببدر. حديث رقم: (٣٩٥٠) (٢٨٢/٧). وطرفه في (٣٦٣٢).

(٢) البداية والنهاية (٢٥٨/٣).

(٣) ابن هشام ص٧٠٧.

الناس كُلّا فَعِزُّهُ وشرفه لكم، وإن غلبته العرب كفتكم إياه. فرجع ببني زهرة ولم يشهدها زهري أبداً، ولم يخرج من مكة فيها عدوي أبداً، فبنو عديّ وبنو زهرة لم يشهد بدراً أحد منهم مع الكفار[١]. بعد ذلك كان للأخنس بن شريق شرف في بني زهرة، وهو حليف لهم، أصله من بني ثقيف، وابنه أبو الحكم بن الأخنس هو الذي قتل عبد الله بن جحش المُجَدَّع يوم أحد كما تقدم في تفسير سورة آل عمران، وعندما جاؤوا ونزلوا وراء الكثيب وراء العقنقل بالعدوة القصوىٰ من بدر كان النبي ﷺ نزل بواد فيه دهس ورمل تسوخ فيه الأقدام من وراء عدوة بدر الدنيا التي تلي المدينة، وكان أولئك نزلوا وراء العقنقل ـ الكثيب الكبير ـ فأرسل الله مطراً تلك الليلة التي وقعة بدر من صبيحتها، وكانت ليلة الجمعة، وهي الليلة السابعة عشرة من رمضان عام اثنين من الهجرة، فكان المطر الذي نزل علىٰ رسول الله وأصحابه واقعاً موقعه؛ لأن المحل الذي كانوا فيه كان الوادي فيه دهس، يعني رمل تسوخ فيه الأقدام، وكانوا في عطش، وناموا تلك الليلة؛ لأن الله سلط عليهم النعاس كما هو أحد التفسيرين علىٰ ما سيأتي في قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: الآية ١١] فجاءهم الشيطان ووسوس لهم وسوسة ثقلت علىٰ بعض الصحابة ثِقلاً شديداً، فقال لهم: أنتم تقولون إنكم علىٰ الحق. ـ هذه وسوسة إبليس التي أثر عليهم بها ـ أنتم تقولون إنكم علىٰ الحق، وفيكم نبي الله، وأنتم في عطش، وعليكم الجنابة لا تجدون ماء تغتسلون به، فسيجهدكم العطش حتىٰ إذا علم القوم أن العطش قطع أعناقكم جاؤوكم فقتلوا من شاؤوا، وأخذوا من شاؤوا، فأرسل الله المطر حتى سال الوادي فاغتسلوا من الجنابة، وتطهروا وشربوا وسقوا دوابهم، وثَبَّتَ لهم المطر الأرض الدهسة، حتى صار المشي عليها ليس فيه كلفة عليهم، وكانت العدوة القصوىٰ التي بها الكفار لما جاءها المطر كان بها وحل ـ أي طين ـ تسوخ به الأقدام، فلم يقدروا علىٰ الرحيل منها في ذلك الوقت، ثم بعد ذلك لما خرجوا وجاؤوهم متصوبين من

---

(١) المصدر السابق ص٦٥٧.

الكثيب الكبير العقنقل، وكان النبي ﷺ أول الليلة التي من صبيحتها بدر أرسل طائفة من أصحابه فيهم علي، والزبير بن العوام (رضي الله عنهم) فوجدوا واردة لقريش، منهم غلام لمنبه ونبيه ابني الحجاج من بني سهم وغيرهم فأخذوهم فجاؤوا بهم والنبي يصلي ﷺ والصحابة (رضي الله عنهم) كانوا يحبون أن تكون الراوية الواردة لأبي سفيان؛ لأنهم يحبون العير ويكرهون النفير، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٧] فإذا قالوا لهم: أين أبو سفيان؟ قالوا: لا علم لنا بأبي سفيان، ولكنا مع قريش: فلان بن فلان. . ، ويعدون لهم سادات قريش: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ومنبه ونبيه ابني الحجاج، وغير ذلك من صناديد قريش، فإذا قالوا لهم هذا ضربوهم، فإذا ضربوهم تخلصوا منهم وقالوا: نحن واردة أبي سفيان. فإذا قالوا ذلك تركوهم!! حتىٰ انصرف النبي ﷺ من صلاته وقال: «**إذا صدقوكم ضربتموهم، وإذا كذبوكم تركتموهم؟!! والله إنهم لواردة الجيش**»، وسألهم النبي ﷺ: «**كم عددهم**»؟!! فقالوا: كثير ولا ندري عددهم. فقال: «**كم ينحرون؟؟**» قالوا: يوماً عشراً من الإبل، ويوماً تسعاً، قال: «**القوم ما بين التسعمائة والألف**» وهو كما قال ﷺ. قال: «**من فيهم؟؟**» فعدّوا صناديد قريش وأشرافها فذكروا أبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وحكيم بن حزام، وزمعة بن الأسود، وأبا البختري، وعمرو بن عبد ود، وذكروا جميع سادة قريش وقادتها، وقال لهم ﷺ: «**هذه مكة رمتكم بأفلاذ كبدها**»[1].

وقد أرسل القوم عمير بن وهب الجمحي (رضي الله عنه) وهو في ذلك الوقت كافر مع الكفار، وقالوا له: اذهب فاحزر لنا القوم، فجاءهم عمير وقال لهم: حزرت القوم فوجدتهم ثلاثمائة يزيدون قليلًا أو ينقصون قليلًا، ولكن أنظروني أنظر هل للقوم كمين؟ فركب فرسه وجال في الوادي حتى أبعد ورجع إلى قومه فقال: والله ما لهم كمين، وقال لهم: والله لا

---

(١) المصدر السابق ص٦٥٤ ـ ٦٥٥.

يُقتل رجل منهم حتىٰ يَقْتُل رجلًا منكم، والله لقد رأيت نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، رأيت البلايا تحمل المنايا، فالرأي عندي أن ترجعوا عن هؤلاء. فسمع كلامه حكيم بن حزام بن خويلد (رضي الله عنه) فجاء إلى عتبة وقال له: قريش لا تطلب عند محمد ﷺ شيئاً إلا ثأر عمرو بن الحضرمي ـ الذي قُتل في سرية نخلة ـ وهو حليفك، فتول أمره وارجع بقريش، فقال عتبة بن ربيعة: هو حليفي، وعليَّ جبنها وعَقْلُ حليفي عليَّ، وارجعوا من هنا، ولا حاجة لكم بقتال محمد وأصحابه، فاتفق رأي حكيم، وعمير بن وهب، وعتبة بن ربيعة علىٰ رجوع القوم. فقال عتبة بن ربيعة لحكيم: الصواب أنه نرجع ولكن انظر إلىٰ ابن الحنظلية ـ يعني أبا جهل ـ فلما جاءه من عند عتبة وقال له: إن عتبة يقول لك إنه حمل عقل صاحبه، وحمل جبنها، فارجع بالناس فقال أبو جهل: انتفخ سَحَرُ عتبة من الجبن ـ والسَّحَر: الرئة، هم يقولون: إن الإنسان إذا اشتد خوفه انتفخت رئته في صدره فملأت صدره ـ كذا قال ـ فغضب عند ذلك عتبة وقال: سيعلم مصفر استك غداً من الجبان!! وأمر أبو جهل ـ قبحه الله ـ عامر بن الحضرمي أخا عمرو بن الحضرمي أن ينشد ثأره، فقام عامر بن الحضرمي وقال: واثأراه، واعمراه، فاحتدم الناس للقتال، وأفسد أبو جهل كل ما أراد عتبة وحكيم وعمير أن يصلحوه[١]، فلما وقع ذلك قال بعض المؤرخين[٢]: أول قتيل قُتل من الكفار قبل المبارزة: الأسود بن عبد الأسد، جاء وأراد أن يقتحم الحوض الذي بناه ﷺ وأصحابه؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه سبقوا إلى بدر، وأقام النبي ﷺ عند أول قليب فجاءه الحُباب بن المنذر بن الجموع (رضي الله عنه) وقال له: يا نبي الله إن كان هذا وحياً من الله فلا ينبغي لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه، وإن كان الرأي والحرب والمكيدة فلنا منه حول. فقال: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**». قال: الأصلح في ذلك أن نذهب إلى أقرب قليب من القوم ونُغَوِّر جميع القُلُب، ونترك ذلك القليب

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٣/٦٤)، وانظر المصدر السابق ص٦٦١ ـ ٦٦٣.

(٢) انظر: السيرة لابن هشام ص٦٦٣.

ونبني عليه حوضاً، ونلقي فيه الأواني، فإن غلبنا القوم: شربنا ومنعناهم من الماء، وإن غلبونا قدرنا على أن نشرب[١]. فذلك الحوض لم يشرب منه أحد إلا مات، إلا حكيم بن حزام جاء الأسود هذا ليشرب منه فقتله حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه) ثم إنه لما احتدم القتال جاء ﷺ وصف أصحابه للقتال، وبُني له عريش (صلوات الله وسلامه عليه)، وكان في العريش هو وأبو بكر، وسعد بن معاذ متوشحاً سيفه في قوم من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ فجاء النبي ﷺ وصف الصفوف ورجع للعريش يهتف بربه ويناديه: «**رب أنجز ما وعدتني، رب أنجز ما وعدتني**»، فلما نظر إلى قريش مُتَصَوِّبَة من كثيب بدر من العقنقل الكبير فإذا هم ألف مقاتل، وإلى أصحابه فإذا هم نيف وثلاثمائة رجل هتف [ﷺ][٢] بربه، وألح في مسألة ربه والاستغاثة به كما يأتي في تفسير قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: آية ٩] فصف ﷺ الصفوف فلما جاء القوم برز عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وولده الوليد بن عتبة بن ربيعة ـ وربيعة: ابن عبد شمس بن عبد مناف ـ برزوا للقتال، فبرز لهم نفر من الأنصار، وقالوا إنهم: معاذ ومعوذ ابنا الحارث، وهما المعروفان بـ(ابني عفراء)، أمهما (عفراء) اشتهرا بها؛ لأن أولاد الحارث الثلاثة ـ وهم: عوف، ومعوذ، ومعاذ ـ اشتهروا بالنسبة إلى أمهم عفراء (رضي الله عن الجميع) قال بعض المؤرخين: قال العبشميون للأنصار: لا حاجة لنا بقتالكم إنما نريد بني عمنا من قريش. وقال بعض المؤرخين: قالوا: أكفاء كرام، ولكنا نريد بني عمنا. فطلبوا مبارزين من بني عمهم، فأخرج النبي ﷺ إليهم عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ـ وهو أسن أهل بدر جميعاً، وقد شهد بدراً أخواه، وهما: الحصين والطفيل، شهدها من بني الحارث بن المطلب ثلاثة: عبيدة بن الحارث أحد المبارزين، وأخواه: الطفيل والحصين ـ قال: قم يا

---

(١) رواه الحاكم (١٢٦/٣، ١٢٧)، وأورده ابن هشام في السيرة.
وكذا الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢٦٧/٣). وضعفه الألباني في تعليقه على فقه السيرة ص. ٢٤٠

(٢) في الأصل: (جل وعلا). وهو سبق لسان.

عبيدة بن الحارث، ويا حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب. فجاؤوهم فقالوا: من أنتم؟ لأنهم لا يعرفونهم؛ لأن القوم مقنعون في الحديد، فانتسب كل واحد منهم. فقال عبيدة: أنا عبيدة بن الحارث بن المطلب. وقال حمزة: أنا حمزة ابن عبدالمطلب. فلما انتسبوا لهم قالوا: أكفاء كرام. فكانت المبارزة بين عبيدة وعتبة، وبين حمزة وشيبة، وبين الوليد وعلي، أما علي (رضي الله عنه) فلم يلبث أن قتل الوليد، وأما حمزة (رضي الله عنه) فلم يلبث أن قتل شيبة، وأما عبيدة وعتبة فاختلفا ضربتين فأثبت كل واحد منهما صاحبه، وكان عتبة قطع قدم عبيدة بنصف ساقه، فَذَفَّفَ عليه عليٌّ وحمزة فقتلا عتبة، وحملا صاحبهما عبيدة حتى وضعاه عند النبي ﷺ ورجله تشخب دماً، سقطت قدمه بنصف ساقه، وعند ذلك قال: يا رسول الله لو كان أبو طالب حياً لعلم أنا أحق منه بقوله[1]:

ونمنعه حتى نُصَرَّعَ حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وحملوه ومات بالصفراء، وهم قافلون من بدر.

فلما وقع هذا التحم القتال، واختلط الحابل بالنابل، واشتدت مناجاته ﷺ واستغاثته بربه، فأنزل الله الملائكة مدداً، فقال هنا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ﴾. [الأنفال: آية ٩] وقد قدمنا في سورة آل عمران أن مددهم إلى خمسة آلاف كما تقدم في قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ١٢٤ ـ ١٢٥] وبعض العلماء يقول: هذه الخمسة الآلاف التي ذُكرت في آل عمران دلت عليها آية الأنفال هذه؛ لأنه في قراءة الجمهور (...)[2]/ نافع من السبعة: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدَفِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٩] بصيغة المفعول[3]. ١/٢

(١) البيت في البداية والنهاية (٣/٢٧٤).
(٢) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل.
(٣) ستأتي القراءات عند تفسير الآية.

واختلف العلماء: هل باشرت الملائكة القتال أو لم تباشره؟؟ فكثير من المؤرخين ـ وقد جاء في بعض الآثار وبعض الأحاديث ـ أن الملائكة باشرت القتال يوم بدر، وأن بعض الصحابة يتبع رجلًا حتىٰ يسقط أمامه لا يدري من قتله؟ قال بعضهم: كنت أتبع رجلًا من الكفار فسمعت صوت سوط ضربه، فإذا وجهه منشق، وجميع وجهه قد اخضرّ ومات[(١)]، وبعضهم قال: أردت أن أمدّ سيفي إلى رجل فسقط رأسه قبل أن يصل إليه سيفي[(٢)]. لأن الملائكة تقتلهم، وأظهر القولين: أن الملائكة في ذلك اليوم قاتلت، خلافاً لمن قال: إنها للتثبيت والعدد والمدد، وأنها لم تباشر القتال. والذين قالوا: لم تباشر القتال قالوا: لأن مَلَكاً واحداً لو شاء أن يفني ما علىٰ وجه الأرض لما أتعبه ذلك، فإن جبريل لما صاح بثمود أهلكهم مرة واحدة، ولما رفع قرىٰ قوم لوط أهلكهم مرة واحدة، لو أراد أن يمسحهم بريشة من جناحة لما ترك لهم أثراً.

وقال بعض العلماء: لا مانع من قتال الملائكة، ولم يُنسب الأمر إلى الملائكة ليجعلهم عدداً ومدداً، فيكون الفتح والظفر والنصر كأنه علىٰ أيدي الصحابة، إذ لو كان المَلَك أهلكهم لما كان للصحابة في هذه الوقعة العظيمة مزية، فلما اختلطوا يعني صاروا يقتلونهم فأنزل الله المدد من السماء، وثبَّت قلوب المؤمنين، وألقىٰ الرعب في قلوب الكافرين، كما سيأتي في قوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: الآية ١٢].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر. حديث رقم: (١٧٦٣) (١٣٨٣/٣).

(٢) أورد السيوطي نحوه في الدر (١٧٣/٣) عن أبي داود المازني رضي الله عنه، وعزاه لعبد بن حميد وابن مردويه. وقد أخرجه ابن جرير (١٧٥/٧ ـ ١٧٦)، وذكره ابن هشام في السيرة ص٦٧٢.
وأخرج البيهقي في الدلائل (٥٦/٣) بهذا المعنى عن سهل بن حنيف (رضي الله عنه).
وعند البيهقي في الدلائل (٥٦/٣)، وابن إسحاق عن أبي واقد الليثي، كما نقل ابن كثير في البداية والنهاية (٢٨١/٣).

وقد نهى ﷺ في ذلك اليوم عن قتل بعض الناس(١)، نهىٰ عن قتل العباس بن عبد المطلب عمه (رضي الله عنه). وقد بدرت من أبي حذيفة بن عتبة (رضي الله عنه) تلك البادرة التي ندم عليها، وصار في خوف دائماً، حتى استشهد فيمن استشهد من الصحابة في اليمامة أيام قتال مسيلمة؛ لأن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة (رضي الله عنه) - أعني أبا حذيفة - لما نهى ﷺ عن قتل العباس قال: أنقتل أبناءنا وإخواننا ونترك العباس؟ والله إن لقيته لألجمنه السيف(٢). ولما قالها ندم وجزع منها وصار خائفاً منها دائماً حتى استشهد، وكذلك لما جُرّ قتلىٰ قريش إلى القليب، وكان أبوه عتبة يُجرّ إلى القليب، رُؤيت الكراهة في وجهه فاعتذر إلى رسول الله ﷺ وقال: إن الكراهية التي ظهرت في وجهي ليست انتصاراً لكافر، ولكن عتبة هذا كنت أعهد فيه عقلًا وحزماً وحلماً، كنت أظن أن عقله وحِجَاه يمنعه من ميتة السوء هذه، وأنه يؤمن بالله!! فاعتذر بهذا(٣).

وممن نهىٰ عنه ﷺ ذلك اليوم: أبو البختري بن هشام الذي كان من أحسن الناس معاملة لرسول الله وبني هاشم، لم يؤذهم قط، وأيام حصار قريش لهم في الشِّعب كان معهم، وهو من النفر الذين سعوا في نقض الصحيفة التي كتبوا فيها مقاطعتهم، فلم يؤذهم قط، فلم يجدوا منه إلا الإحسان، فنهىٰ ﷺ عن قتله، فالتقىٰ به الْمجذَّر بن زياد البلوي (رضي الله عنه) حليف الأنصار، فقال له: يا أبا البختري: إن نبينا ﷺ نهانا عن قتلك فلا نتعرض لك. وكان مع أبي البختري زميل يُسمى جنادة بن مليحة، فقال له أبو البختري: والزميل؟ قال: لم ينهنا ﷺ عن قتل الزميل. قال: أما أنا فلا يُقتل زميلي حتى أُقتل دونه، وذكر رجزه المشهور:

لا يُسْلِمُ ابنُ حُرةٍ زَميلَه حَتَّى يَمُوتَ أو يَرَىٰ سَبيلَه
ولا يفارق جزعاً أكيله(٤)

---

(١) السيرة لابن هشام ص٦٦٨، البداية والنهاية (٣/٢٨٤).
(٢) البيهقي في الدلائل (٣/١٤٠)، السيرة لابن هاشم ص٦٦٨، البداية والنهاية (٣/٢٨٤).
(٣) السيرة لابن هشام ٦٨٠، البداية والنهاية (٣/٢٩٤).
(٤) السيرة لابن هشام ص٦٦٩.

ولذا صار يقاتل المُجَذَّرَ دون ذلك الزميل فقتله المُجَذَّر (رضي الله عنه) وكان المُجَذَّر بن زياد البلوي (رضي الله عنه) يرتجز في ذلك رواجز، ومن جملة ما يقول فيها[١]:

أَنَا الذي أزعمُ أَصْلي من بَلِي أضربُ بالحربةِ حتى تَنْثَني

ويروى عنه: «بالصَّعْدَةِ حتى تنثني». فجاء واعتذر إلى النبي ﷺ من قَتْلِهِ بأنه ما تعرض له حتى قاتله دون زميله[٢].

فمنح الله المسلمين أكتاف الكافرين، فقتلوا سبعين من خيارهم، وأسروا سبعين، وكان ممن قُتل في ذلك اليوم: أبو جهل بن هشام ـ لعنه الله ـ وقد صح عن عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه) أنه لما صف النبي ﷺ الصفوف كان بجنب عبد الرحمٰن ـ وكان رجلًا له قامة ـ كان بجنبه رجلان صغيران في القدر، وهما: معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن الحارث المشهور: بمعاذ بن عفراء، فكأن عبد الرحمٰن بن عوف استنقصهما وظن أن الَّذَيْن بجانبيه ليسا رجالًا يمنعانه؛ لأن الرجل إذا كان في صف القتال بجنبه الرجال كانوا يمنعونه ويشدون أزره، فهو استنقص هذين واستحقرهما لصغر قدرهما، فإذا أحدهما يكلمه خفية من صاحبه ويقول: يا عمي أرني أبا جهل. قال: ما حاجتك به؟!! قال: سمعت عداوته لرسول الله ﷺ، والله إن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا. ولم يلبث إذ الآخر يُسائله سراً من صاحبه ويقول له مثل ما قال صاحبه. قال: فعلمت أن الَّذَيْن بجنبي أنهما رجال، ورأيت أبا جهل يدور في قريش كالحَرَجَة ـ والحرجة: الشجرة الكبيرة في الغابة يحتف بها الشجر من جميع جوانبها ـ وقريش يحتفون به ويقولون: أبو الحكم لا يُخلص إليه، وهو ـ قبحه الله ـ يرتجز ويقول[٣]:

---

(١) السابق، ولفظ البيت هناك:
أنا الذي يُقال أصلي من بلي أطعن بالصعدة حتى تنثني

(٢) السابق ص ٦٦٩.

(٣) هذا الرجز ذكره ابن هشام في السيرة ص٦٧٣.

مـا تَـنْـقِـمُ الـحـربُ الـعَـوَانُ مـنـي بَـازِلُ عَـامَـيـنِ حـديـثٌ سِـنِّـي
لِـمِـثْـلِ هـذا ولَدَتْـنـي أُمِّـي

فقلت لهما: هذا صاحبكما. فابتدراه بسيفيهما فأطارا رجله بنصف ساقه، كأنها نواة طائرة من تحت مرضخة من شدة الضربة، فسقط صريعاً وبقي - قبحه الله - في المعركة حتى انهزم عنه قومه، فجاءه عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) ووجده في آخر رمق فاحتز رأسه. قالوا: لما أخذ لحيته وأراد أن يقطع رأسه قال له: ارتقيت صعباً يا رويعي الغنم!! وقال له: أخبرني لمن الدائرة؟؟ قال: لله ولرسوله[١]. فجيء ﷺ برأس أبي جهل وهو في العريش (صلوات الله وسلامه عليه)[٢]، وهزم الله الكفار، وقُتل من أشرافهم سبعون، وقتلاهم مشهورون[٣]، ممن قُتل منهم: أبو جهل، وأمية بن خلف، وزمعة بن الحارث بن الأسود، ومنبه ونبيه ابني الحجاج، وممن قُتل في ذلك اليوم: النفر الذين قالوا: إنا كنا مستضعفين في الأرض، وهم علي بن أمية، والحارث بن زمعة بن الأسود، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة بن عبد الله ابن عمرو بن مخزوم، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ابن عمه، والعاص[٤]. هؤلاء النفر كانوا أسلموا وآمنوا بالنبي ﷺ وادعوا أنهم عجزوا عن الهجرة، وخرجوا يوم بدر مع قريش فقُتلوا جميعهم - والعياذ بالله - وأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

---

(١) السابق ص٦٧٣ - ٦٧٥ .وأما خبر قتل أبي جهل فهو ثابت في الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن عوف وأنس بن مالك، وعند البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) خبر قطع ابن مسعود رأس أبي جهل أخرجه البيهقي في الدلائل (٨٦/٣، ٨٨)، والبزار (كشف الأستار (٣١٧/٢) وذكره الهيثمي في المجمع (٧٩/٦) وعزاه للطبراني والبزار، وقال: «وفيه أبو بكر الهذلي وهو ضعيف» ا.هـ. وذكره ابن كثير في تاريخه (٢٨٨/٣) وعزاه لابن إسحاق. كما ذكره الحافظ في الفتح (٢٩٥/٧) وعزاه لابن إسحاق والحاكم.

(٣) السيرة لابن هشام ص٧٤٧.

(٤) هو العاص بن منبه بن الحجاج.

﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾[1] [النساء: الآية ٩٧] ـ والعياذ بالله ـ فقُتل هذا من أشراف قريش، وأُسر من أشرافهم سبعون. وممن أُسر منهم: العباس بن عبد المطلب، وابنا أخيه وهما: عقيل بن أبي طالب (رضي الله عنه)، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب (رضي الله عنه)، وممن أُسر: سهيل بن عمرو (رضي الله عنه)، كان أسره مالك بن الدخشم، وكان يقول[2]:

أسرتُ سُهيلاً فلا أبتغي ... أسيراً به من جميع الأُمم
وخِنْدفُ تعلمُ أن الفتى ... سهيلاً فتاها إذ يُظَّلَمْ

فمنح الله المسلمين أكتاف الكفار يقتلون ويأسرون، وكسر الله شوكة الكفر، وأعلىٰ كلمته، وأيد دينه.

ولما جمع النبيّ ﷺ الأسارىٰ مكث في عرصة بدر ثلاثة أيام، ثم في اليوم الثالث أمر بناقته فرُحِّلت، فتبعه أصحابه وقالوا: ما ذهب إلا لشأن!! فأمر بأربعة وعشرين من صناديد قريش، ثم ناداهم بأسمائهم: **«يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أمية بن خلف، يا فلان بن فلان، إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟!!»** ولما قال له عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): ماذا تخاطب من أجساد لا أرواح لها؟ قال له: **«ما أنتم بأسمع منهم ولا لما أقول، ولكن لا يقدرون علىٰ أن يجيبوا»**[3]. أو كما قال ﷺ.

ولما اجتمعت عنده الأُسارىٰ، وهزم الله الكافرين، وقتل سبعين من خيارهم، وأُسر من أشرافهم سبعون، استشار أصحابه فيما يفعل بالأُسارى؟ مع أن سعد بن معاذ (رضي الله عنه) كان متوشحاً بسيفه علىٰ عريش رسول الله ﷺ، وقد رأىٰ النبي في وجهه الكراهة، فقال: **«ما بالك؟؟»**

---

(١) السيرة لابن هشام ص٦٨١، البداية والنهاية (٣/٢٩٦).
وأصل الحديث في الصحيح من غير تسميتهم، كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾. حديث رقم: (٤٥٩٦) (٨/٢٦٢).
(٢) السيرة لابن هشام ص٦٩٠.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة الأعراف، وانظر السيرة لابن هشام ص٦٧٨.

قال: رأيت شيئاً أكرهه، رأيت الناس يأسرون الرجال، وهذا أول مشهد في الإسلام، وكان الإثخان في القتل أحب إلي من أسر الرجال واستبقائهم[(١)]. فلما استشارهم اختلفوا له، فكان أبو بكر (رضي الله عنه) يقول: هم بنو عمك فاستبق منهم؛ لعل الله أن يهديهم أو يهدي من أصلابهم، وتستعينوا بفدائهم علىٰ أمر الحرب. وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول: اقتلهم جميعاً، أعط العباس لعلي فليقتله، وأعط كل رجل لقريبه فليقتله؛ ليعلم الله أن لا هوادة بيننا وبين الكفار. قال بعضهم: وقال عبد الله بن رواحة: إنك في واد كثير الحطب فأضرم عليهم ناراً. قالوا: والنبي ﷺ فيما ذكره المؤرخون قال: «**إن أبا بكر قال كما قال عيسىٰ بن مريم**: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: الآية ١١٨]، **وإن عمر قال كما قال موسىٰ**: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: الآية ٨٨] **وإن ابن رواحة قال كما قال نوح**: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ [نوح: الآيتان ٢٦، ٢٧]» فاستقر أمره علىٰ أنهم يأخذوهم ليستعينوا بفدائهم علىٰ الحرب؛ لأنهم كانوا يحتاجون إلى المال[(٢)].

وقال بعض المؤرخين: إن جبريل قال للنبي ﷺ: خَيِّر أصحابك أن يقتلوهم أو يفدوهم ويستعينوا بالمال علىٰ أن يُقتل منهم قدر الأسارىٰ في العام القادم. وأنهم قالوا: نستعين بالمال الآن وينال الشهادة منا هذا العدد في العام القادم[(٣)]. ذكر بعضهم هذا، وأنه قُتل منهم سبعون يوم أحد لما

---

(١) السيرة لابن هشام ص٦٦٧، البداية والنهاية (٢٨٤/٣).

(٢) أحمد (٣٨٣/١) وابن أبي شيبة (٤١٧/٥)، وعبد الرزاق (٢٠٨/٥)، والترمذي في الجهاد، باب ما جاء في المشورة، حديث رقم: (١٧١٤) (٢١٣/٤). وأخرجه في موضع آخر، انظر الحديث رقم: (٣٠٨٤)، والحاكم (٢١/٣)، وابن أبي حاتم (١٧٣١/٥)، والبيهقي في الدلائل (١٣٩/٣). وذكره السيوطي في الدر (٢٠١/٣) وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه.

(٣) أخرجه الترمذي في السير، باب ما جاء في قتل الأُسارى والفداء. حديث رقم: (١٥٦٧) (١٣٥/٤)، والنسائي في الكبرى، كتاب السير، باب قتل الأسرى. حديث رقم: (٨٦٦٢) (٢٠٠/٥)، والبيهقي في السنن (٦٨/٩)، وفي الدلائل (١٣٩/٣)، =

أسروا السبعين هذه. هكذا قاله بعض المؤرخين، والذي جاء به القرآن أن الذين رأوا أن يقتلهم ويضعفوا شوكة الكفر بقتلهم أن رأيهم كان هو الصواب، وأن الله تعالىٰ تجاوز لأهل بدر ولو ارتكبوا غير ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: الآية ٦٧] ومعنىٰ: ﴿يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يوجع فيها قتلاً ليضعف شوكة الكفر بقتل الرجال وقتل الصناديد والرؤوس، ثم قال: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٨] ثم بعد ذلك قال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: الآية ٦٩].

وقال النبي ﷺ للعباس: «**افد نفسك وابني أخويك: عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب**». فقال: لا مال عندي. قال له ﷺ: «**عندما أردت الخروج أخذت المال الفلاني ودفنته في محل كذا وقلت لأم الفضل: إن لم أرجع فاستعينوا بهذا**». فقال: والله لا يعلم هذا غيري وغير أم الفضل، وأشهد أنك رسول الله. وفدىٰ نفسه وابني أخويه وحليفاً له[1]. وأنزل الله فيه ـ مع أنها في الأسارىٰ كلهم، إلا أن المفسرين يجعلونها في العباس؛ لأنه من أشهر من نزلت فيه ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٧٠][2] فلما جاء النبي ﷺ مال البحرين وجاء

= والحاكم (١٤٠/٢) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ا.هـ. ووافقه الذهبي. وابن حبان (الإحسان ١٤٣/٧) عن علي (رضي الله عنه). وقال ابن كثير (٢٩٨/٣) «غريب جداً» ا.هـ.

وأخرجه عبد الرزاق (٢١٠/٥)، وابن سعد (١٤/٢) عن عبيدة مرسلاً.

(١) أخرجه الحاكم (٨١/٣) وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ا.هـ ووافقه الذهبي. والبيهقي في الدلائل (١٤٣/٣)، وفي السنن (٣٢٢/٦)، وأبو نعيم في الدلائل (٢٧١/٢)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٤١ .وذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢٩٩/٣) وعزاه لابن إسحاق. وذكره السيوطي في الدر (٢٠٤/٣).

(٢) جاء ذلك صريحاً في سياق الرواية المخرجة في الهامش السابق. وقد أورد ابن جرير (٧٢/١٤ ـ ٧٥) جملة من الروايات في هذا المعنى، وكذا ابن كثير (٣٢٧/٢)، والسيوطي في الدر (٢٠٤/٣ ـ ٢٠٥).

العباس وقال: يا نبي الله فاديت نفسي وعقيلاً. فقال له: «**خذ من هذا الذهب**». فهال منه العباس في ثوبه حتى أراد أن يقوم فَنَاءَ به ولم يقدر أن يقوم، فطلب أحداً يساعده، فقال له النبيّ ﷺ: «**لا يساعدك أحد، ولا تحمل منه إلا قدر ما تقدر علىٰ حمله**». فهال منه عن ثوبه حتى قدر على حمله[1] ثم قال: «أما أحد الأمرين فقد عايناه، وهو: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ فقد آتانا خيراً مما أُخذ منا، وأما الثانية وهي قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فإنا نرجوها من الله جل وعلا»[2].

وفي ذلك اليوم استُشهد وقُتل من أصحاب رسول الله شهيداً يوم بدر أربعة عشر رجلًا[3]، ستة من المهاجرين، والبقية من الأنصار، ستة منها من الخزرج، واثنان من الأوس. فشهداء بدر: ستة منهم من المهاجرين، وستة منهم من الخزرج، واثنان منهم من الأوس؛ لأن الأوس في ذلك اليوم أقل من الخزرج؛ لأن ديار الخزرج في داخل المدينة قرب رسول الله، وديار الأوس في العوالي وقباء، كديار بني عمرو بن عوف، فالذين في داخل المدينة أكثرهم من الخزرج؛ ولذا كانوا هم الحاضرين فتمكنوا من الخروج، والنبي لم ينتظر الغائبين[4].

والستة الذين استُشهدوا من المهاجرين هم: عبيدة بن الحارث بن المطلب الذي ذكرنا أن قدمه بنصف ساقه قطعها عتبة بن ربيعة في المبارزة، ومنهم: عمير بن أبي وقاص (رضي الله عنه)، أخو سعد بن أبي وقاص، قتله عمرو بن عبد ود، وقد كان أخوه سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه)

---

(١) خبر مجيء المال من البحرين وأخذ العباس منه أخرجه البخاري في الصلاة، باب القسمة وتعليق القنو في المسجد. حديث رقم: (٤٢١) (٥١٦/١). وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الأحاديث رقم: (٣٠٤٩، ٣١٦٥).

(٢) مضى تخريجه قريباً.

(٣) السيرة لابن هشام ص٧٤٦.

(٤) قال ابن هشام في السيرة (ص٧٣٢): «فجميع من شهد بدراً من الأوس مع رسول الله ﷺ ومن ضرب له بسهمه وأجره: واحد وستون رجلاً» ا.هـ. ونقل عن ابن إسحاق (ص٧٤٥): «فجميع من شهد بدراً من الخزرج مائة وسبعون رجلاً» ا.هـ.

قتل ذلك اليوم العاص بن هشام، ومن الذين استُشهدوا ـ أول من قُتل من المسلمين في ذلك اليوم ـ مِهْجَع مولىٰ عمر بن الخطاب[(١)]، ومِهْجَع هذا أصله رجل من بني عك، أصابه سباء فأعتقه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فكان مولاه، ويقال له مهجع عمر، وهو أول قتيل من المسلمين استشهد يوم بدر، ومات بعده من المسلمين رجل من الخزرج يُسمىٰ حارثة بن سراقة (رضي الله عنه)[(٢)]، وهو الذي سألت أمه النبي ﷺ عنه فقال لها: «**إنه أصاب جنة الفردوس**»[(٣)].

والحاصل أن الستة الذين ماتوا شهداء من المهاجرين يوم بدر هم: عبيدة بن الحارث بن المطلب، وعمير بن أبي وقاص، وعاقل بن البُكَير، وصفوان بن وهب المعروف بصفوان بن بيضاء، وذو الشمالين، واسمه: عمير بن عبد[(٤)]. هؤلاء الستة هم الذين استشهدوا من المهاجرين: عبيدة بن الحارث بن المطلب، وعمير بن أبي وقاص، ومهجع مولىٰ عمر، وذو الشمالين، وصفوان بن وهب، وعاقل بن البُكَير. هؤلاء ستة من المهاجرين[(٥)].

والاثنان اللذان ماتا في سبيل الله يوم بدر من الأوس هم[(٦)] مبشر بن عبد المنذر ـ أخو أبي لبابة بن عبد المنذر ـ وسعد بن خيثمة (رضي الله عنه)، فإن سعداً هذا قُتل شهيداً يوم بدر، وأبوه خيثمة قُتل شهيداً يوم أحد.

---

(١) السابق ص٦٦٦.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٢٧٤/٣).

(٣) البخاري في الجهاد، باب من أتاه سهم غرب، حديث رقم: (٣٩٨٢) (٢٥/٦)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (٣٩٨٢، ٦٥٥٠، ٦٥٦٧).

(٤) المثبت في ابن هشام ص٧٤٦، والتمهيد (٣٦٣/١ ـ ٣٦٤)، والاستذكار (٢٣٣/٢)، نظم الفرائد للعلائي ص٦١ ـ ٧٠، والبداية والنهاية. (٣٢٧/٣): ذو الشمالين بن عبد عمرو.

(٥) السيرة لابن هشام ص٧٤٦.

(٦) السابق ص٧٤٧.

والستة الذين استشهدوا من الخزرج ـ ماتوا شهداء ـ منهم[١]: يزيد بن الحارث بن قيس بن مالك بن أحمر الخزرجي (رضي الله عنه)، وعوف ومُعَوِّذ ابنا عفراء، أولاد الحارث بن عفراء، وهما أخوان ماتا ذلك اليوم، ورافع بن المعلىٰ، وعمير بن الحمام (رضي الله عنه)، عمير بن الحمام بن الجموح، كان يأكل تمرات فسمع النبي ﷺ يقول: «**أيها المسلمون قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، والله لن يقتل هؤلاء رجلاً منكم مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة**». فقال له عمير بن الحمام (رضي الله عنه): أما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ قال: «**نعم**»، فلفظ التمرات من فِيه وقال: إني إن أكلت هذه التمرات إنها لحياة طويلة، ثم أخذ سيفه (رضي الله عنه) فقاتل القوم حتى قتلوه[٢].

هذه أربعة عشر رجلًا، ستة من المهاجرين وستة من الخزرج، واثنان من الأوس قُتلوا شهداء يوم بدر (رضي الله عنهم وأرضاهم).

وكانت في بدر أشعار كثيرة ومداولات بين المشركين وغيرهم، تكلم فيها كثير من شعراء المسلمين والكفار، فيها من شعر حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه)، وحسان بن ثابت، وغيرهما، وفيها من شعر الكفار: شعر ضرار بن الخطاب الفهري وغيره من شعراء قريش، وذلك باب إذا ذكرناه يطول بنا المقام، فنذكر منه قليلًا: فحسان (رضي الله عنه) شاعر رسول الله ﷺ، ومن أشهر ما كان من المداولات في بدر ما كان بين حسان وبين الحارث بن هشام (رضي الله عنه) أخي أبي جهل بن هشام؛ لأن حسان دائماً يُعيِّر الحارث بن هشام بفراره يوم بدر، وقتل إخوانه، وبقاء أخيه طريحاً في الملحمة ـ أعني أبا جهل قبحه الله ـ وكان حسان (رضي الله

---

(١) السابق.

(٢) مسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد. حديث رقم: (١٩٠١) (١٥٠٩/٣) وفيه التصريح أن ذلك يوم بدر. وأخرج البخاري نحوه في المغازي، باب غزوة أحد. حديث رقم: (٤٠٤٦) (٣٥٤/٧) وليس فيه تسمية صاحب القصة. وفيه التصريح أن ذلك يوم أحد. وقد ذهب الحافظ إلى أنهما قصتان. الفتح (٣٥٤/٧).

عنه) ذكر تَمَثُّل إبليس لهم في أبيات قال ـ يعني تمثل إبليس في صورة سراقة بن مالك ـ قال في ذلك[١]:

سِرْنَا وسَارُوا إلى بدر لِحَيْنِهِمُ لو يَعْلَمُونَ يَقينَ الأَمْرِ ما سَارُوا
دَلاَّهُمُ بغرورٍ ثم أَسْلَمَهُم إن الخَبِيثَ لمن والاهُ غَرَّارُ
وقال إني لكم جَارٌ فَأَوْرَدَهُم شَرَّ المَوَارِدِ فيه الخِزْيُ والعَارُ

وكان حسان (رضي الله عنه) يذكر في أشعاره بدراً، له فيها قصائد، وفيها لحمزة بن عبد المطلب وغيرهم من الصحابة، وفيها لجماعة من قريش، منهم ابن الزبعرىٰ، ومنهم ضرار بن الخطاب الفهري وغير ذلك، وكان حسان (رضي الله عنه) قال[٢]:

لَقَدْ عَلِمَتْ قُريشٌ يومَ بدرٍ غداةَ الأَسْرِ والقَتْلِ الشَّدِيدِ
بأنّا حينَ تشْتَجِرُ العَوَالي حُمَاةُ الحرب يومَ أبي الوليدِ
قَتَلنا ابني ربيعةَ يومَ سارُوا إلينا في مضاعَفَةِ الحديدِ
ومرَّ بها حكيمٌ يومَ جَالَتْ بنُو النجارِ تخطرُ كالأُسودِ
وَوَلَّتْ عند ذاكَ جموعُ فِهْرٍ وأَسْلَمَها الحويرثُ من بعيدِ

الحويرث: يعني الحارث بن هشام؛ لأنه ينكد عليه في شعره دائماً، كقوله هنا:

وأَسْلَمَهَا الحويرثُ من بعيد

وكتعييره له في ميميته المشهورة التي هي من أشهر ما قيل في بدر[٣]:

تَبَلَتْ فُؤادَكَ في المَنَامِ خريدةٌ تَسْقِي الضَّجيعَ بِبَارِدٍ بَسَّامِ
كالمِسْكِ تَخْلِطُهُ بماءِ سَحَابَةٍ أو عَاتِقٍ كَدَمِ الذَّبيحِ مُدَامِ

---

(١) الأبيات في السيرة لابن هشام ص٧٠٦.
(٢) ديوانه ص٨٧ ـ ٨٨.
(٣) ديوانه ص٢١٣ ـ ٢١٤.

نُفُجُ الحَقِيْبَةِ بَوْصُهَا مُتَنَضِّدٌ بَلْهَاءُ غَيْرُ وشِيكَةِ الأَقْسَام[(١)]
أما النهارُ فلا أُفَتِّرُ ذِكْرَهَا والليلُ تُوزِعُني بها أَحْلاَمي[(٢)]
يا مَن لِعَاذِلَةٍ تلوم سفاهة ولقد عصيتُ على الهوى لُوَّامي[(٣)]
إن كنتِ كاذبةَ الذي حَدَّثْتِني فَنَجوتِ مَنْجىٰ الحارِثِ بن هشَامِ
تَرَكَ الأَحِبَّةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُم ونَجَا بِرأسِ طِمِرَّةٍ ولِجَامِ

وأجابه الحارث بن هشام (رضي الله عنه)، وكان المؤرخون يقولون: أحسن اعتذار اعتذر به معتذر عن جواب: اعتذار المَخْزُومِيَّيْن، أعني: اعتذار الحارث بن هشام يخاطب حسان لما قال له:

إن كنتِ كاذبةَ الذي حَدَّثْتِنِي فنجوتِ مَنْجَىٰ الحارثِ بن هشامِ
تَرَكَ الاحبةَ أن يُقَاتِلَ دونهم ونَجَا برأسِ طِمِرَّةٍ ولِجَامِ

أجابه الحارث يعتذر عن فراره قال[(٤)]:

اللهُ يعلمُ ما تركتُ قتالَهُم حتى رموا فَرسي بأَشْقَرَ مُزْبِد
وعَلمتُ أني إنْ أُقَاتِلْ واحداً أُقْتَلْ ولا يَضْرُرْ عَدُوي مَشْهدي
فَصَدَدْتُ عنهم والأَحِبَّةُ فيهم طمعاً لهم بقتال يوم مُرْصِدِ

هذا هو المخزومي الأول، والمخزومي الثاني: هبيرة بن أبي وهب، زوج أم هانىء بنت أبي طالب (رضي الله عنها)، فإن النبي ﷺ لما فتح مكة عام ثمان هرب هبيرة بن أبي وهب المخزومي إلى نجران ومات بها كافراً ـ والعياذ بالله ـ وكان يعتذر عن فراره من رسول الله وأصحابه يوم الفتح، ويخاطب زوجه أم هانىء بنت أبي طالب (رضي الله عنها):

---

(١) بعد هذا البيت بيتان أسقطهما الشيخ رحمه الله.
(٢) بعد هذا البيت بيت أسقطه الشيخ رحمه الله.
(٣) بعد هذا البيت بيتان أسقطهما الشيخ رحمه الله.
(٤) الأبيات في ديوان حسان (رضي الله عنه) ص٢١٦ وهي أربعة أبيات أسقط الشيخ (رحمه الله) البيت الثاني منها. وفي السيرة ص٧٧٣ ثلاثة أبيات.

لعمرك ما وليتُ ظهري محمداً وأصحابَهُ جبناً ولا خيفةَ القَتْلِ
ولكنني قَلَّبْتُ أمري فلم أجدْ لسيفي غَنَاءً إن ضربتُ ولا نبلي
وقفتُ فلما خفتُ ضَيْعَةَ موقفي رجعتُ لِعَوْد كالهزبرِ أبي الشبلِ[١]

فهذا اعتذاره كاعتذار الحارث بن هشام.

ولما أخذ ﷺ الغنائم، ومكث في عرصة بدر ثلاثة أيام، ورجع قافلًا إلى المدينة، وأرسل ابن رواحة إلىٰ العوالي يبشرهم، وزيد بن حارثة إلى أهل المدينة يبشرهم بما فتح الله على نبيه[٢]، لما نزل وادي الصفراء راجعاً قدَّم النضر بن الحارث للقتل[٣]- النضر بن الحارث بن كلدة العبدري، وكان من بني عبد الدار، وكان شديد العداوة لرسول الله، له قينتان تغنيانه بهجاء رسول الله - قدمه للقتل فقُتل صبراً، ولم يُقتل من الكفار في وقعة بدر صبراً إلا رجلان: النضر بن الحارث هذا، وعقبة بن أبي معيط، قتل أولًا النضر بن الحارث في قُفوله في وادي الصفراء؛ فلما بلغ موضعاً آخر بعده يقولون: إن اسمه عرق الظبية قدم عقبة بن أبي معيط فقتله أيضاً[٤]، ولما قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث بن كلدة العبدري ـ قبحه الله ـ الذي سيأتي خبره في قوله في هذه السورة الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يأتي خبره في هذه السورة، وفي سورة الروم، وفي سورة المعارج ـ سورة (سأل سائل) ـ لما قتله ﷺ صبراً وبلغ مقتله إياه بلغ أخته قتيلة بنت الحارث العبدرية وقد أسلمت بعد ذلك وصارت صحابية (رضي الله عنها) أرسلت إلى النبي ﷺ شعرها المشهور، الذي لما قُرأ عليه ﷺ بكىٰ حتى أَخْضَلَ الدمع لحيته لشدة رحمته وشفقته، وذكروا أنه

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأعراف، ولفظ البيت الثالث عند ابن هشام:
وقفتُ فلما لم أجد لي مُقدَّماً صدرتُ كضرغامٍ هِزَبرٍ أبي شِبلِ
(٢) السيرة لابن هشام ص٦٨٢.
(٣) السابق ص٦٨٤.
(٤) السابق.

قال: لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوت عنه[١]. لأنه رؤوف رحيم (صلوات الله وسلامه عليه)، وكان شعرها الذي أرسلت إليه به الذي أبكاه ﷺ وقال: لو بلغه قبل أن يقتله لعفى عنه. هو قولها[٢]:

يا راكباً إن الأُثَيْلَ مَظِنَّةٌ ... من صُبح خامسةٍ وأَنْتَ موفَّقُ
أبلغْ بها مَيْتاً بأن تحيةً ... ما إن تزالُ بها النجائبُ تَخْفِقُ
مني إليكَ وعبرةً مسفوحةً ... جَادَتْ بِوَاكِفِهَا وأُخْرىٰ تخنُقُ
هل يسمعنَّ النضرُ إن ناديتُه ... أم كيف يسمعُ ميتٌ لا ينطقُ
أمحمدٌ يا خيرَ ضَيْءٍ كريمة ... في قومِهَا والفَحْلُ فحلٌ مُعْرِقُ
ما كان ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ وربَّما ... مَنَّ الفَتىٰ وهو المغيظُ المُحْنَقُ[٣]
فالنَّضْرُ أقربُ مَنْ أَسَرْتَ قرابةً ... وأحقُّهم إن كانَ عِتْقٌ يُعْتَقُ
ظَلَّتْ سيوفُ بني أبيهِ تَنُوشُه ... للهِ أرحامٌ هُنَاكَ تُشَقَّقُ
صَبْراً يُقادُ إلى المنيةِ مُتْعَباً ... رَسْفُ المُقَيَّدِ وهو عانٍ مُوثَقُ

ولما أراد قتل عقبة بن أبي معيط قال: أأُقتل بين قريش صبراً؟ من للصبية؟ قال له ﷺ: «**لهم النار**»[٤]. وذكر بعض المؤرخين أنه قال: أأُقتل بين قريش صبراً؟؟ قال: «**إنما أنت من يهود صفورية**»[٥] كما ذكره بعضهم[٦].

وعقبة هذا كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ ذكروه أنه مرّ عليه يوماً

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة ص٨٠٣.

(٢) السابق ص٨٠٢ ـ ٨٠٣.

(٣) أسقط الشيخ (رحمه الله) بيتاً بعد هذا البيت.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٥/٢٠٥، ٢٠٦)، وأبو داود في المراسيل ص٢٣١، والبيهقي (٩/٦٤ ـ ٦٥) والحاكم (٢/١٢٤). وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ا.هـ ووافقه الذهبي.

(٥) لم أقف على هذه الجملة الأخيرة إلا في «معجم ما استعجم» (٣/٨٣٧).

(٦) السيرة لابن هشام ص٦٨٤ .وفي البزار كشف الأستار (٢/٣٢٠): «**بكفرك بالله وافترائك على رسول الله ﷺ**».

ساجداً فوضع رجله علىٰ عنق رسول الله ﷺ وهو ساجد حتى آذاه ـ قبحه الله ـ فقتله الله وأراح المسلمين منه.

وهذا طرف من هذا المشهد العظيم والغزوة الكبيرة سنُلمّ في بعض أطرافه بعد هذا، وهذه السورة الكريمة كلها نازلة في هذه الغزوة، وسيُكرر بعض هذا ويأتي ما لم يذكر فيه في مناسبة قرآنية من هذه السورة الكريمة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١﴾ [الأنفال: الآيات ٧ ـ ١١].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال: الآيتان ٧، ٨].

قد ذكرنا فيما سبق أن النبيّ ﷺ لما خرج من مدينته هذه ـ حرسها الله ـ يتلقى عِيْر أبي سفيان، وأن أبا سفيان سَاحَل بالعِيْر، أي: تيامن بها إلىٰ جهة الساحل، وأرسل ابن عمرو الغفاري يستنفر جيش قريش، فاستنفر الجيش، وصار أصحاب رسول الله ﷺ لما علموا بذلك يُحتمل عندهم أن يلتقوا بالجيش، وأن يلتقوا بالعِيْر، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ ووعده إحدى الطائفتين: إما أن يعطيه العِيْر فيغتنمها، أو يسلطه على النفير فيهزمه. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ حين يعدكم الله وعده الصادق ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ (وَعَدَ) من الأفعال التي تطلب مفعولين، فقوله ﴿إِحْدَى﴾ هو مفعولها الثاني.

وقوله: ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل من (إحدى) أي: وعدكم الله إحدى الطائفتين أن الله جعلها لكم، إما أن يكون لكم العِيْر فتغتنموها، أو يكون لكم النفير فتهزموه وتنتصروا عليه. هذا معنى قوله ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٧].

ولما بشر النبي ﷺ أصحابه بنصر الله، وأنه وعده إحدى الطائفتين، كان أصحاب رسول الله يتمنون أن تكون الطائفة التي هي لهم عير أبي سفيان؛ لأنه مال كثير ليس دونه قتال، وهذا معنى قوله: ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ خطاب للنبي وأصحابه ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ والذي ودّها في الحقيقة إنما هو بعض أصحاب رسول الله ﷺ. والودادة معناه: التمني ﴿وَتَوَدُّونَ﴾: تتمنون وتحبون أن تكون الطائفة التي سيحقق الله لكم إنجاز الوعد بها أن تكون الطائفة التي هي ﴿غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾، يعني: العِيْر، أصل الشوكة: واحدة الشوك؛ لأن رأسها فيه حِدَّة، والعرب تطلقها على كل سلاح حديد تسميه (شوكة)، فتقول للرجل الحديدِ السلاح: «فلان شائك السلاح، وشاكي السلاح». على القلب؛ لأن قولهم: «فلان شاكي السلاح». أصله: شائك السلاح. قلبوه وأخّروا الهمزة فأبدلوها ياءً، همزة مبدلة من الواو، وهو معنى معروف في كلامهم، ومنه قوله(١):

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلاَحِ مُقَذَّفٍ   لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لم تُقَلَّمِ

تتمنون أن الطائفة الضعيفة التي لا حِدَّة عندها ولا سلاح - وهي العير - أنها هي التي يتحقق لكم فيها الوعد، وأن لا تجتمعوا بالنفير؛ لأنه جيش له شوكة وسلاح وَحِدَّة. وهذا معنى قوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٧] كأن الله يقول: الله يريد هنا غير ما تريدون، ويحب لكم غير ما تحبون لأنفسكم؛ لأن الله يعلم وأنتم لا تعلمون، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

(١) البيت لزهير بن أبي سُلمى، وهو في ديوانه ص٨٤.

﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: الآية ٢١٦] ويريد الله (جل وعلا) أن يجعل الطائفة الموعود بها - التي سينجز فيها وعده، ويحقق بها نصر نبيه - يريد أن يجعلها الطائفة ذات الشوكة، وهي: النفير، الجيش في عَدَدِه وَعُدَدِه؛ لأن الله يريد، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الحق هو في نفسه حق، الحق حق مهما كان، ومعنى ﴿أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: يظهره على الدين كله، ويجعله عاليًا غير سافل، ويجعل الكلمة والسلطة والقوة له. هذا معنى إحقاق الحق، أي: إظهاره وإعلاؤه، أما الحق فهو حق في نفسه مهما كان، هذا معنى قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ أن يحقق لكم الوعد في الطائفة ذات الشوكة؛ لأن الله يريد بذلك ﴿أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: يظهر دين الإسلام ويعليه، ويعلي كلمته، ويضعف الكفرة ويهزمهم، ويهزم دينهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ معنى إحقاقه الحق بكلماته فيه أوجه متقاربة من التفسير لا يكذب بعضها بعضا[1].

قال بعض العلماء: المراد بكلماته التي يريد أن يحق بها حقه هي: كلمته التي أمر نبيه بها ﷺ أن ينهض وأن يقاتل النفير إذا لم يكن إلا هو، فَأَمْرُهُ (جل وعلا) بقتالهم وإلزامهم ذلك بعد أن نجت العير وصار النفير، أمره بهذا القتال هي كلمته التي أراد أن يحق الحق بها، أن يذل دين الكفر، ويقتل صناديده، ويعز دين الإسلام، ويعلي كلمته.

وقال بعض العلماء: كلماته التي يريد أن يحق بها حقه هي الكلمات التي وعد فيها بالنصر يوم بدر، والله (جل وعلا) وعد بالنصر يوم بدر في آيات من كتابه على ما قاله جماعة من المفسرين، منها في الدخان، ومنها في السجدة، ومنها في غير ذلك؛ لأن جماعة من أهل العلم قالوا: إن الله في سورة الدخان بشر بقصة بدر مع أن سورة الدخان مكية نازلة قبل الهجرة. قال غير واحد من كبار العلماء: قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ هو بطشه بنفير قريش يوم بدر على أيدي أصحاب النبي ﷺ والملائكة ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: الآية ١٦] أي: من سادة الكفرة يوم بدر

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٤٠٧).

بما فعلنا بهم[١]. وقالت هؤلاء الجماعة: هو العذاب الأدنى في السجدة في قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [السجدة: الآية ٢١] قالوا: هو عذاب النفير يوم بدر كما سلط الله عليهم رسوله وأصحابه فقتلوا منهم وأسروا[٢].

وقال بعض العلماء هو: اللزام؛ لأنه عذاب دنيوي يلازمه عذاب الآخرة في كونه لزاماً[٣].

ولا شك أن سورة القمر من القرآن النازل في مكة قبل وقعة بدر، وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه ما كان يعلم شيئاً عن معنى قوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ ويقول: من هذا الجمع المهزوم الذين يولون الدبر؟! ولم يفهم معنى الآية إلا يوم بدر لما كشف الله المشركين ونصر نبيه ﷺ فإذا رسول الله ﷺ يثب في درعه ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾[٤] [القمر: الآية ٤٥] وعند ذلك عرف عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن آية ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ وإن كانت من سورة القمر وهي من القرآن المكي النازل بمكة قبل الهجرة بلا خلاف أن الله وعد فيها في مكة نصر المؤمنين على الكفار يوم بدر، قالوا: فهذه كلمات الله التي وعد بها نبيه أن ينصره فحق الحق وأنجز وعده، كما قال

---

(١) انظر: ابن كثير (٤/١٤٠).

(٢) المصدر السابق (٣/٤٦٢).

(٣) المصدر السابق (٣/٣٣٠).

(٤) خبر وثوبه ﷺ في الدرع وقراءته الآية ثابت في الصحيح، كتاب التفسير، باب: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ حديث رقم: (٤٨٧٥) (٨/٦١٩). وأخرجه في مواضع أخرى، حديث رقم: (٢٩١٥، ٢٩٥٣، ٤٨٧٧)، وأما أثر عمر فقد أخرجه ابن جرير (٢٧/١٠٨) عن عكرمة، كما أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/٣٥٧)، وابن أبي حاتم (١٠/٣٣٢١) عن عكرمة مرسلاً. وعزاه في الدر (٦/١٣٧) لعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه. كما أخرجه الطبراني في الأوسط (٩/٥٨) من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، وأورده السيوطي في الدر (٦/١٣٦) وعزاه لابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه. كما أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/١٤٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

هنا: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الدابر: الآخِر. وإذا كان جماعة يمشون فالذي يمشي وهو الآخر منهم تسميه العرب: دابراً؛ لأنه يمشي عند دبر من قدامه، والعرب تعبر به عن الآخر، ويقولون: «قطع الله دابرهم». معناه: أهلكهم واستأصلهم ولم يبق منهم أحداً، هذا معنى قطع الدابر وأصله لغة. ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يهلكهم ويستأصلهم إما بالموت، وإما بانقضاء دينهم وقهره حتى لا يبقى كافر، وكانت وقعة بدر هي أول عز الإسلام وظهوره، وهي أول وقعة ذل فيها الكفر وأهله؛ ولذا قال: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٨] واختلف العلماء في متعلق اللام في قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ اختلفوا في متعلقها[1]، قال بعض العلماء: تتعلق بما قبلها؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قطع دابر الكافرين لأجل أن يحق الحق، بأن يظهر الحق بإضعاف الكافرين وقطع دابرهم، وذهب جماعة من العلماء إلىٰ أن متعلق اللام محذوف، قالوا: ويقدر مؤخراً ليدل على الحصر، قالوا: وإيضاح تقديره: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ فعل ذلك الذي فعل بالكفار، أي: ما فعل بهم ذلك إلا لأجل أن يحق الحق ويبطل الباطل. والمراد بالحق هنا: دين الإسلام. وأصل الحق في لغة العرب: الشيء الثابت الذي لا يزول ولا يضمحل، وكذلك دين الإسلام فهو ثابت، وأعماله ثابتة في الدنيا والآخرة، يجدها صاحبها ثابتة في الآخرة، جزاؤها عظيم، كما صرح الله بضرب المثل لذلك بالنخلة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٤] أما الباطل فهو زائل مضمحل لا ثبوت له، كما ضرب له المثل بالشجرة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فلا ثبوت لها، بل هي تضمحل وتزول، وكل زائل مضمحل تسميه العرب باطلاً، ويجمعونه على أباطيل على غير قياس، ومنه قوله[2]:

(١) انظر: الدر المصون (٥/٥٦٤).

(٢) شرح قصيدة بانت سعاد للتبريزي ص١٧.

كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مَثَلاً   وما مَواعيدُهَا إلا الأبَاطِيلُ

هذا كعب بن زهير جمع الباطل على (أباطيل) على غير قياس، ويجوز جمعه على القياس، وجمع الباطل على القياس أن يقال في جمعه: (بواطل) كما هو معروف؛ لأن (الفاعل) إذا كان اسماً أو وصفاً لغير عاقل اطَّرد جمعه على (فواعل) كما هو معروف في محله.

قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٨] يعني يفعل ذلك والحال لو كره المجرمون ذلك، والمجرمون[1]: جمع تصحيح للمجرم، والمجرم اسم فاعل الإجرام وهو مرتكب الجريمة، والجريمة: الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه عليه النكال. وهذا معنى قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٨].

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ٩، ١٠].

﴿أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٩] قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير نافع وحده: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بكسر الدال، بصيغة اسم الفاعل. وقرأه نافع من السبعة وحده: ﴿مردَفين﴾ بفتح الدال بصغية اسم المفعول[2].

وقوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ قال بعض العلماء (إذ) منصوب بـ (اذكر) مقدراً، وقد ذكرنا أنه يكثر في القرآن نصب الظرف الذي هو (إذ) بلفظة (اذكر) كقوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ﴾ [الأحقاف: الآية ٢١] ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ [الأعراف: الآية ٨٦] ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: الآية ٢٦] ونحو ذلك. قال بعض العلماء: (إذ) في قوله:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٠.
انظر: الدر المصون (٥/٥٦٥).

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ بدل من (إذ) في قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: الآية ٧] و ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ معناه: تطلبون الإغاثة من ربكم (جل وعلا). تقول العرب: استغاث يستغيث إذا طلب الغوث. وهذه الاستغاثة كانت من رسول الله ﷺ على ما ثبت في الأحاديث الصحيحة، وعليه جمهور العلماء. خلافاً لمن قال: كانت من جميع الأفراد الذين شهدوا بدراً، وذلك أن النبي ﷺ لما بُني له العريش يوم بدر وجلس فيه ورأىٰ جيش قريش متصوبين من العقنقل ـ كثيب بدر ـ فإذا عددهم كبير، وهم حول ألف مقاتل، فنظر إلى أصحابه فإذا هم قليل ـ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ـ قام في ذلك الوقت وتوجه إلى القبلة وهتف بربه (جل وعلا) واستغاث بخالقه يسأله ويدعوه، وألح في المسألة أشد إلحاح، ورداؤه علىٰ منكبيه يناشد ربه؛ ربي أنجز ما وعدتني، اللهم عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه الطائفة لن تُعبد في الأرض. ويناجي ربه ويهتف به، ويلح عليه في المسألة، ويستغيث به (جل وعلا) حتى سقط رداؤه عن منكبيه (صلوات الله وسلامه عليه)، فجاءه أبو بكر من خلفه وجعل رداءه على منكبيه وقال: «**يكفيك مناشدتك ربك، فإن ربك منجز لك ما وعدك**»[(١)]. هذا معنىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٩].

وهذه الآية وأمثالها في القرآن، تُؤخذ منها أسرار ينبغي لنا معاشر المسلمين أن نسير عليها، هذا سيد الخلق محمد (صلوات الله وسلامه عليه) لما جاءه أعظم كرب يكون كرباً للأنبياء؛ لأن الكروب إنما تعظم على الأنبياء من جهة ضياع الدين؛ لأن الدنيا لا أهمية لهم فيها. وهذه الطائفة جزم ﷺ أنها لو هلكت وقُتلت لانكسرت شوكة الإسلام، ولضاع الإسلام، ولم يُعبد الله في أرضه، وانتشر الكفر، وظهرت قوته، وطائفة الإسلام قليلة ضعيفة ليست بذات عددٍ ولا عُدد، وطائفة الكفر كثيرة قوية؛ هذا أعظم كرب دهم رسول الله ﷺ فلما دهمته هذه الكروب جعل التجاءه الصادق إلى خالق السماوات والأرض. ومن ذلك يُعلم أن من دهمته الكروب وجاءته

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر. حديث رقم: (١٧٦٣) (١٣٨٣/٣).

البلايا والزلازل أنه في ذلك الوقت إنما يكون التجاؤه كما كان التجاء رسول الله ﷺ إلىٰ خالق السماوات والأرض (جل وعلا)، فعلى كل مسلم أن يفهم هذا ويعقله، ويفهم أن العبد إذا دهمته الكروب، وجاءته البلايا والمحن والزلازل، أن التجاءه في ذلك الوقت يجب انصرافه إلى ما صرف إليه النبي ﷺ التجاءه في ذلك الوقت، وهو الاستغاثة بخالق السماوات والأرض جل وعلا.

والله قد بين لنا معاشر المسلمين أن الإنسان إذا اضطر بأن دهمته الكروب، وأحدقت به النوائب والحوادث، أن الالتجاء في ذلك الوقت من خصائص خالق السماوات والأرض (جل وعلا)، فلا يجوز صرفه لغيره كائناً من كان. وأوضح الله لنا هذا إيضاحاً شافياً في آيات كثيرة من كتابه، من أوضح تلك الآيات: آيات سورة النمل، لأنه إيضاح لا لَبْسَ فيه كهذا النهار؛ لأن الله يقول: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [النمل: الآية ٥٩] وفي القراءة الأخرى: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]. ثم شرع تعالى يُعدد خصائص ربوبيته التي لا حق فيها لغيره ألبتة فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ الجواب: لا ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ثم ذكر خاصية أخرى من خصوص الربوبية فقال: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ الجواب: لا إلٰه مع الله. ثم قال: وهو محل الشاهد: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النمل: الآيات ٦٠ ـ ٦٢] الجواب: لا والله، فهذه توضح ما وضَّحه رسول الله ﷺ بفعله أن من ألجأته الكروب واضطرته النوائب والزلازل أنه لا إله مع الله في ذلك الوقت يرفع إليه ذلك إلا خالق السماوات والأرض؛ ولذا كان ﷺ في ذلك الوقت الضنك، والموقف الحرج، رفع ذلك الالتجاء إلى خالقه (جل وعلا)، وأثنى الله عليه في ذلك، وأجابه بمدد السماء

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٣٤.

٢/ب ملائكة منزلين [وهكذا شأن][1]/ الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم) يلتجئون إليه في تلك الظروف الحرجة والأوقات الضنكة. وكان الكفار - لأن عندهم عقلاً معيشياً دنيوياً - إذا نزلت بهم البلايا ودهمتهم الكروب أخلصوا في ذلك الوقت الدعاء لله، وأعطوا الحق لمن له الحق، حتى إذا أنقذهم الله من ذلك رجعوا إلى كفرهم. والآيات الدالة على هذا لا تكاد تحصيها في المصحف الكريم ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أي: وخافوا من الموت من هيجان تلك الأمواج ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: الآية ٣٢] ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ أي: ودهمتهم الأمواج، وعاينوا الهلاك ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٥] ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: الآيتان ٢٢، ٢٣] ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩)﴾ [الإسراء: الآية ٦٧ - ٦٩] والآيات بهذا المعنى لا تكاد تحصيها في المصحف، والمعروف في التاريخ أن سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل (رضي الله عنه) أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) لما فتح مكة - وكان عكرمة شديد العداوة له ﷺ - هرب من مكة ذاهباً إلى الحبشة، فركب في البحر الأحمر ذاهباً إلى الحبشة، فلما لَجَّجُوا في البحر هاجت عليهم عواصف الريح، واضطربت عليهم الأمواج، فخافوا الهلاك وعاينوا الموت، فإذا كل من في السفينة يتناذرون ويقول بعضهم لبعض: لا تدعوا في هذا الوقت غير الله؛ لئلا تغرقوا؛ لأن هذه الكروب لا ينجي منها إلا الله (جل وعلا) وحده. ففهمها عكرمة وقال: والله إن كان لا ينجي

(١) في هذا الموضع مسح في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

في ظلمات البحر إلا هو فلا ينجي من كربات البر إلا هو. ثم قال: اللهم لك علي عهد إن أنجيتني من هذه لأضعن يدي في يد محمد ﷺ فلأجدنه رؤوفاً رحيماً[١]. وأمثال هذا في القرآن لا تحصى، فعلينا معاشر المسلمين أن نضع كل شيء في موضعه، ونمشي في نور القرآن العظيم، ونعلم أن الواحد منا إذا نزلت به البلايا ودهمته الكروب أن الالتجاء في ذلك الوقت من خصائص خالقه (جل وعلا)، فخصوص ذلك لخالقه (جل وعلا) مما يرضي الله، ويرضي رسوله، ويكفل له النجاح. وهذا سيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه) صرحت هذه الآية من سورة الأنفال أنه لما دهمه هذا الكرب العظيم صدق في ذلك الالتجاء، وصرفه إلى من له الحق في ذلك، وهو خالقه (جل وعلا). ومن حِكَم ذلك أن يعلم أمته الاقتداء به في ذلك، فعلينا معاشر المسلمين محبة لنبينا وتعظيماً له ورغبة في اتباع ديننا أن نفعل كما كان يفعل نبيّنا ﷺ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية ٣١] ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: الآية ٨٠] ونصرف الحقوق لمستحقها، ولا نصرف حق خالقنا إلى بشر، ولا إلى ملك مقرب، ولا إلى مخلوق كائناً من كان؛ لأن إعطاء حقوق الله لله مما يرضي الله ويرضي رسول الله، وهو الذي يتّبع صاحبه المرسلين (صلوات الله وسلامه عليهم). وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الفاء سببية والإجابة مسببة عن الاستغاثة بالله. وهذا يدل على أن من استغاث بالله كانت استغاثته بالله سبباً للإجابة وإزالة المكروه عنه؛ ولأجل هذا الذي كنا نقرر لما أنزل الله مدد السماء من الملائكة علّم أصحاب نبيه أن لا يعتمدوا عليهم فقال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ١٠] لا تظنوا أن النصر من الملائكة وإن نزلت عليكم الآلاف المؤلفة منهم، الذي بيده النصر وبيده كل شيء ويُفزع إليه في كل شيء، ويُطلب منه كل شيء، هو خالق الملائكة وخالق الرسل (جل وعلا) صلوات الله وسلامه عليهم.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٠) من سورة الأنعام.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ استجاب لهم بأنه ممدهم. وقوله: ﴿مُمِدُّكُم﴾ أي: جاعلها لكم مدداً يمدكم الله ويعينكم بها. وقد أوضح وجه هذا الإمداد وبينه في هذه الآيات في قوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: الآية ١٢] وهذا معنى قوله: ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ العرب تقول: أَمَدَّنا الإمام بكذا ـ معناه: جاءنا بزيادة من الجيش مدداً. أي: زائدة على الأول. فقوله: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٩] قراءة الجمهور: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ قال بعض العلماء: كان الإمداد يوم بدر بألف واحدة بدليل آية الأنفال هذه.

وقوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ معناه: متتابعين يتبع بعضهم بعضاً، ذكروا في بعض الأحاديث أن النبي ﷺ خفق في العريش خفقة ـ أصابته نعسة وغفوة خفيفة ـ فاستيقظ يتبسم وقال لأبي بكر: أبشر جاء نصر الله. فذكر له أنه رأى جبريل نازلاً وعلى ثناياه النقع[1] ـ والنقع: الغبار الذي يكون على الثَّنِيَّتَيْن من أسنان الرجل فيكون عليها.

قال بعض العلماء: نزل جبريل في خمسمائة من الملائكة على الميمنة وفيهم أبو بكر، ونزل ميكائيل في خمسمائة من الملائكة على الميسرة وفيهم علي[2]. والأظهر أن المدد يوم بدر كان أكثر من ألف كما قدمناه في سورة آل عمران؛ لأن أصح القولين أن المدد من الملائكة المذكور إلىٰ خمسة في آل عمران أنه في بدر، وأن قول من قال: «إنه وُعد به في أُحد والصحابة لم يفوا بالشرط». أن ذلك خلاف الظاهر وخلاف التحقيق؛ لأن الله قال في سورة آل عمران مشيراً إلى وقعة بدر هذه، التي بسطها وشرحها في الأنفال

---

(١) هذا الحديث أورده ابن هشام في السيرة ص٦٦٦، وابن كثير في البداية والنهاية (٢٧٦/٣)، وقد أورده السيوطي في الدر (١٨٨/٣) وعزاه لابن إسحاق وابن المنذر.

(٢) أورد ابن كثير في تفسيره (٢٩٠/٢) والبداية والنهاية (٢٧٥/٣). في هذا المعنى أثراً عن ابن عباس (رضي الله عنهما) من طريق علي بن أبي طلحة.

مشيراً إلىٰ النصر بالملائكة والإمداد بهم: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: الآيتان ١٢٣، ١٢٤] والتحقيق: إذ تقول لهم يوم بدر لما أمدكم الله بالملائكة ـ ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ١٢٤، ١٢٥] والقصة هذه المذكورة في آل عمران هي قصة بدر هذه المذكورة في الأنفال والسياق واحد كما ترى؛ لأنه قال في الأنفال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: الآية ١٠] وقال في آل عمران: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٢٦] وقال هنا: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٧] وقال في آل عمران: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ [آل عمران: الآية ١٢٧] فالسياق هو السياق.

ولكن هنا سؤال، وهو أن يُقال: المدد الذي ذكرتم أنهم إلى خمسة آلاف، وأن ذلك في يوم بدر، فكيف يجمع به مع الاقتصار على ألفٍ واحدة هنا في الأنفال في قوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٩].

أُجيب عن هذا: بأنه لا تعارض؛ لأن آية الأنفال هذه أشارت إلى أن المدد من الملائكة لا يقتصر على الألف؛ لأن قوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ على قراءة الجمهور معناه: يتبع بعضهم بعضاً، من أردف الرجل الرجل إذا كان وراءه رِدْفاً له، فدل على أنهم وراءهم شيء أُردفوا به، ويوضح هذا المعنى قراءة نافع: ﴿مُرْدَفِين﴾ بصيغة اسم المفعول، معناه: مردَفين بغيرهم، أنهم متبوعون بغيرهم.

وقال بعض العلماء: الوعد بخمسة آلاف كان يوم أُحد، ولكن الله شرط عليهم شرطاً وقال: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: الآية ١٢٥] قالوا: ولم يصبروا ولم يتقوا ذلك اليوم؛ لأنهم زلت بهم أقدامهم كما نص الله عليه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: الآية ١٥٥] قال: ولما لم يثبتوا لم

ينزل عليهم ملك واحد؛ لأنهم لم يفوا بالشرط. هذا قاله جماعة من أهل العلم. والأول أظهر، والسياق واحد. وهذا مبني على قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ فصرح تعالى أن ذلك ببدر والكلام متصل آخره بأوله ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٢٣] إلى أن قال: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ في ذلك اليوم الذي نصركم الله فيه وأنتم أذلة ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾ [آل عمران: الآية ١٢٤].

والحاصل أنه مختلف في المدد هل هو ألف واحدة أو إلى خمسة آلاف؟ وأظهر القولين: أن المدد المذكور في آل عمران هو المذكور في الأنفال هذه، وأنه خمسة آلاف، ومما يؤيده: أنه لم يعلم أن الملائكة نزلت للقتال ظاهراً إلا يوم بدر، وغير ذلك تنزل جنوداً لم يرها الناس كما جاء في حنين وغيره والأحزاب؛ لأن الله بين أن الملائكة نزلت في الأحزاب وفي حنين حيث قال في الأحزاب: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: الآية ٩] وقال في قصة حنين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: الآية ٢٦] ولم يقل أحد من العلماء: إن جنود الملائكة التي نزلت في غزوة الأحزاب وفي غزوة حنين أنهم قاتلوا. وإنما اختلفوا في ذلك في [بدر][1]، فذهب جماعة من أهل العلم وجاءت به آثار: أن الملائكة قاتلوا. وظاهر سياق آية الأنفال هذه تدل على أن الملائكة هم الذين أُمروا بالضرب فوق الأعناق وضرب البنان؛ لأنه قال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ فهذا السياق للملائكة ﴿أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: الآية ١٢] فهذا السياق ظاهر في الملائكة، وقد ذكرنا بالأمس روايات عن بعض الصحابة أن بعضهم قال: بينما أنا أتبع رجلاً إذ سقط ميتاً أمامي، وسمعت ضربة سوط فوجدت وجهه مشقوقاً مخطوماً واخضر محل الضربة كله[2]. وأن رجلاً قال: أردت أن

---

(١) في الأصل: «أُحد» وهو سبق لسان.

(٢) تقدم تخريجه في بداية تفسير الآية.

أقتل رجلاً فسقط رأسه قبل أن أضربه[١]. وأنهم أَعْلَموا النبي ﷺ، وأنه قال: «**ذلك من مدد السماء**».

والذين قالوا: إن الملائكة لم تقاتل يوم بدر لا حجة قوية معهم؛ لأنهم إنما استدلوا علىٰ ذلك بأن ملكاً واحداً يقدر على إبادة جميع الناس، وأن جبريل رفع مدائن قوم لوط على ريشة من جناحه. ولا مانع من أن الله يجعل الملائكة مدداً وعوناً يَقْتُلُون معهم ليكون شرف الهزيمة لأصحاب محمد ﷺ؛ لأن الملك لو أهلكهم ما كان للصحابة في ذلك من فضل ولا من شرف، ولكن الله أعانهم ليكون النصر بأيديهم، وإهانة الكفار بأيديهم، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ الآية [التوبة: الآية ١٤]، وهذا معنى قوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ [الأنفال: الآيتان ٩، ١٠] هذه الآية مما استدل بها من قال: إن الملائكة لم تقاتل؛ لأن الضمير في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ﴾ راجع إلى الإمداد بالملائكة الذين يتبع بعضهم بعضاً ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: إمدادكم بالملائكة يقاتلون معكم ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي: إلا بشارة لكم بالنصر، قالوا: فالله (جل وعلا) قصره على البشرىٰ، ولم يقل: إن فيه قتالاً. وبعضهم يقول: لما قيل لهم: إنهم معكم، يقاتلون معكم، كانت البشرى أعظم؛ لأنهم يعاونونهم في قتل عدوهم. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ فالبشرى (فُعْلىٰ) مؤنث بألف التأنيث اللفظية. والبشرى: هي الإخبار بما يسر. وقد قدمنا مراراً أن العرب تسمي الإخبار بما يسر (بشرى) و (بشارة)، وتقول: «بَشَّرَه وبَشَرَه». إذا أخبره بما يسره، كما هو معروف. وقد قدمنا: أن من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن: إطلاق البشرى أيضاً على الإخبار بما يسوء، كأن تقول له: بشّره بما يسوءُه، بشره بويل وعذاب. كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ [الجاثية: الآيتان ٧، ٨] ومعلوم أن العرب تطلق

(١) تقدم تخريجه في بداية تفسير الآية.

البشارة في لغتها على الإخبار بما يسر أكثر، وربما أطلقتها على الإخبار بما يسوء. ومن إطلاق البشارة على الإخبار بما يسوء قول الشاعر(١):

وبشرتني يا سعدُ أن أَحِبَّتي جَفَوني وقالوا: الود موعده الحشْرُ

وقول الآخر(٢):

يُبشرنُي الغرابُ ببينِ أَهْلي فقلتُ له ثكلتُكَ من بشيرِ

وعلماء البلاغة يقولون: إن البشارة بما يسوء من نوع ما يسمونه (الاستعارة العنادية) ويقسمون الاستعارة العنادية إلى (تهكمية، وتلميحية) كما هو معروف في فن البيان عندهم(٣).

ونحن نقول: إن الذي يظهر أن هذه أساليب عربية، نطقت بها العرب، ونزل بها القرآن. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [آل عمران: الآية ١٢٦] أي: فعل الله ذلك لكم لأجل أن يبشركم؛ ولأجل أن تطمئن قلوبكم به. الطمأنينة معناه: السكون وعدم القلق والانزعاج. ومحل الطمأنينة والانزعاج: القلب؛ لأنه محل الإدراك؛ ولذا قال ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ لأن أصحاب رسول الله ﷺ كان عددهم قليلاً، فلما نزل المدد من السماء وثقوا من النصر، وسكنت قلوبهم، واطمأنت، وزال عنها الخوف والقلق والانزعاج، وهذا معنى قوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ ثم إن الله بيّن أن الخير كله من قِبَله فكأنه يقول للمسلمين: لا تظنوا ـ وإن أنزلت عليكم ألفاً من ملائكة السماء لا تظنوا ـ أن النصر بيد الملائكة، لا، النصر بيدي وحدي؛ ولذا قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ١٠] هذا حصر بالنفي والإثبات، وهو أبلغ غايات الحصر. معناها: لا نصر يوجد ألبتة كائناً من كان إلا من عند الله (جل وعلا). وأصل النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

﴿ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ العزيز في لغة العرب: هو الغالب. والعزة في لغة العرب: الغلبة. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: الآية ٨] أي: ولله الغلبة ولرسوله ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: الآية ٢٣] غلبني في الخصام. والعرب تقول: (مَنْ عَزَّ بَزَّ)[١] يعنون: من غلب استلب. وقد قالت الخنساء في شعرها[٢]:

كأنْ لم يكونوا حِمىً يُختشى إذْ الناسُ إذْ ذاكَ مَنْ عزَّ بَزّا

تعني: من غلب استلب.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: غالب لا يغلبه شيء؛ ولذا قهر جند أبي جهل ورؤساء الكفر وقمعهم وقتلهم بعزته حيث كانت العزة له، وأعز عباده المؤمنين، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: الآية ٨].

وقوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ الحكيم في الاصطلاح: هو من يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها. ولا تتم الحكمة إلا بتمام العلم، فكل نقص في الحكمة إنما يتسبب عن نقص في العلم، فترى الرجل القُلَّب البصير الحاذق يفعل الأمر يظنه في غاية السداد ثم ينكشف الغيب عن أن فيه هلاكه ومضرة عظيمة عليه، فيندم وقد فات الأوان، ويقول: ليتني لم أفعل، لو فعلت لكان كذا!!

لَيْتَ شِعْري وأين مني ليت إنَّ ليتاً وإنَّ لوّاً عَناءُ[٣]

لأن: (ليتني فعلت)، و(لو فعلت كذا لكان أصوب!!) كل هذا في اختلال الحكمة من عدم العلم بعواقب الأمور.

أُلامُ على لوٍّ ولو كنتُ عالماً بأذنابِ لوٍّ لم تفتني أوائلهُ[٤]

الله (جل وعلا) وحده هو الذي لا يجري عليه: (لو فعلت كذا لكان

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.
(٢) السابق.
(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

أصوب). أو: (ليتني لم أفعل)؛ لأنه عالم بعواقب الأمور وما تؤول إليه، فلا يضع أمراً إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه؛ لإحاطة علمه (جل وعلا) بالخبايا والخفايا، وبما يكون وبما ينكشف عنه الغيب؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ١٠].

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: الآية ١١].

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ في هذا الحرف ثلاث قراءات سبعيات[1]: قرأه ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ مضارع غشَّاه يُغَشِّيه. ومنه بهذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم: الآية ٥٤]. وقرأه نافع وحده من السبعة: ﴿إذ يُغشِيكُم النعاس﴾ مضارع أغشىٰ يُغشي، من قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: الآية ٩]. وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿إذ يَغْشَاكم النعاسُ أمنة منه﴾.

فعلىٰ قراءة نافع: (النعاس) منصوب مفعول: ﴿يُغْشِيكُم﴾ وكذلك هو علىٰ قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ هو مفعول ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ ولا فرق بين قراءتهم وبين قراءة نافع، إلا أن الفعل علىٰ قراءتهم مُعدّىٰ بالتضعيف، وعلىٰ قراءة نافع مُعدّىٰ بالهمزة، والتعدية بالهمز والتضعيف معروفان متساويان، أما علىٰ قراءة ابن كثير، وأبي عمرو: ﴿إذ يَغْشَاكم النعاسُ أَمَنَةً مِنهُ﴾ (النعاسُ) مرفوع، فاعل ﴿يغشاكم﴾[2] وقد جاء النعاس فاعلاً - كقراءة أبي عمرو، وابن كثير هنا جاء ذلك - في سورة آل عمران في قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٤] أي: النعاس ﴿طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ كما قال هنا: ﴿إذ يَغْشَاكم النعاسُ أمنة منه﴾ النعاس: معروف، وهو أوائل النوم.

---

(١) انظر المبسوط لابن مهران ص٢٢٠.
(٢) انظر حجة القراءات ص٣٠٨.

وأجرى الله العادة أن النعاس لا يكون للخائف ـ أن الخائف يطير منه النعاس ويطير منه النوم فلا ينعس ولا ينام ـ وأن الذي يصيبه النعاس فينام هو الآمن؛ ولذا كانوا يقولون: «الأمن مُنيم، والخوف مُسهر»؛ لأن صاحب الأمن ينعس فينام، فترىٰ الآمن ناعساً ونائماً، والخائف قلقاً لا يأتيه النعاس ولا النوم. وأجرى الله العادة أنه إذا أراد نصر حزبه ألقىٰ عليهم النعاس؛ لأن النعاس لا يغشاهم إلا وقد زال من صدورهم الخوف وقلق الجزع والحزن، وهذا تأمين منه لهم، وتثبيت لهم، كما تقدم في قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٤] وقد قدمنا في تفسيرها في آل عمران عن أبي طلحة أنه ذكر أنه سقط منه سيفه ثلاث مرات وهو قائم في الصّف من شدة النعاس(١)، وأنهم يميدون تحت السلاح لشدة نعاسهم. وقد ذكر هنا أنه غشاهم النعاس في وقعة بدر.

وقوله: ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: الآية ١١] مفعول من أجله. إذ يغشيكم (جل وعلا) النعاس لأجل الأَمَنَة منه. والأَمَنَة: مصدر أَمِن يأمن أَمَنَةً وأمناً وأماناً. والأَمَنَة والأمان ضد الخوف. أي: لأجل أن تكونوا آمنين ليس في قلوبكم خوف ولا جزع ولا قلق، وهذا من تثبيت الله لعباده المؤمنين.

وقد اختلف العلماء في وقت هذا النعاس الذي صرّح الله أنه غشّاه أهل بدر، فقال بعض العلماء: كان هذا النعاس غشاهم الله إياه في الليلة التي في صبيحتها وقعة بدر، وكانت ليلة الجمعة، وهي السابعة عشرة من شهر رمضان، في عام اثنين من الهجرة. المفروض أنهم كانوا يكونون في خوف وقلق؛ لأنهم غداً يتلاقون مع عدوهم، وهو جيش عرمرم قوي، فالعادة أن من هو إذا أصبح يلاقي جيشاً عرمرماً، وينتظر الموت أنه يبيت والنعاس طائر عنه، والنوم طائر من عينيه لما يصيبه من خوف الموت والفزع والقلق، إلا أن الله خرق العادة لحزبه هنا، وغشاهم النعاس. قالوا: ففي تلك الليلة ناموا ملء عيونهم نوماً مستغرقاً كنوم الآمنين في غاية الأمن حتى احتلموا وأصبح

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ حديث رقم: (٤٠٦٨) (٧/٣٦٥)، وأخرجه في موضع آخر، حديث رقم: (٤٥٦٢).

كثير منهم جُنباً من الاحتلام!! والغالب أن الرجل لا يحتلم إلا إذا كان نومه مستغرقاً، والنوم لا يكون ثقيلًا مستغرقاً إلا للآمن الذي لا يخالجه خوف؛ لأن الخائف والقلق ولو قدرنا أنه أصابته غفوة فعن قليل يستيقظ فزِعاً مرعوباً، فهم في تلك الليلة غشاهم الله النعاس فباتوا في أمن ونوم عميق نائمين، وأجنبوا تلك الليلة. قالوا: ومن حكمة ذلك أن النوم الثقيل العميق تستريح منه الأعضاء من التعب، فأصبحوا مستريحين قادرين علىٰ كفاح العدو، قال المفسرون: أُخبر النبي ﷺ وأصحابه أن نفير قريش سبقهم إلى الماء، وكانوا في العدوة الدنيا من بدر، وكان الوادي الذي هم فيه فيه رمال دهسة، يصعب المشي فيها؛ لأن الأقدام تسوخ فيها، وأجنبوا وعطشوا، فجاءهم إبليس برِجْزِه فوسوس لهم وسوسة عظيمة ثقلت علىٰ بعض الصحابة، وقال: تزعمون أنكم علىٰ الحق وأنتم في عطش، والقوم قد سبقوكم إلىٰ الماء وغلبوكم عليه، فإذا أجهدكم العطش جاؤوكم فقتلوا من شاؤوا، وأسروا من شاؤوا، وأنتم تُصلّون بالجنابة في عطش، وأرجلكم تسوخ في الرمل، والعدو بخلاف هذا[١]!! فأنزل الله مطراً من السماء، وسلط عليهم النوم، فسال الوادي، فاغتسلوا من الجنابة، وشربوا، وسقوا دوابهم، ولبّد لهم الأرض حتى صارت الخُطا تثبت عليها، والأقدام تثبت عليها ولا تسيخ فيها؛ لأن الرمل المتهائل إذا ضربه المطر اشتد وصار الإنسان يمشي عليه ولا تسوخ قدمه فيه، وإن كان يابساً صعُب المشي فيه؛ لأن الرِّجْل تسوخ فيه.

وقال بعض العلماء: النعاس الذي غشاهم إياه: بعد أن التحم القتال أصاب المسلمين نعاس يوم بدر كما أصابهم يوم أحد. والله تعالىٰ أعلم[٢].

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: الآية ١١] لأجل الأمن، سواء قلنا: إنه في الليل، أو إنه في النهار وقت التحام الصفين. هذا معنىٰ قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو هذا المطر الذي كنا نذكر خبره الآن.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/٢٨٢).

(٢) انظر: الأضواء (٢/٣٤٦).

وقرأه السبعة غير ابن كثير وأبي عمرو: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بتشديد الزاي وفتح النون. مضارع نَزَّله يُنَزِّله. وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾[1] أي: من الجنابة كما طهر باطنكم طَهّر لكم ظاهركم من الجنابة.

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: وسوسة الشيطان الذي أثقل عليكم بها: أنكم تصلون بالجنابة، وأنكم عطاش يهلككم العطش فيأخذكم العدو. أذهب عنكم بنزول ذلك الماء. أنزل ذلك المطر ليطهركم من الجنابة، وكل حدث أصغر وأكبر. ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: وسوسته التي كان يوسوس لكم بها.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ حيث أزال عنكم وسوسة الشيطان: أن العطش يُضعفكم، وأن القوم يأخذونكم حيث شربتم من ذلك المطر وتقويتم ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ معناه: يشدها ويقويها حيث أزال وساوس الشيطان التي أثقل عليكم بها.

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ يعني: يثبت بالمطر أقدامكم علىٰ دهس الرملة؛ لأنها قبل المطر كانت تسوخ فيها الأقدام. وعلىٰ هذا القول أكثر المفسرين. وقال بعض العلماء[2]: الربط علىٰ القلوب وتثبيت الأقدام هنا: الربط على القلوب: هو تثبيت الجأش والشجاعة. وتثبيت الأقدام: هو تثبيتها في الميدان، وأن السبب المُسَبِّب لهذا هو الإمداد بالملائكة. وهذا يبعد من ظاهر القرآن، والذي عليه الجمهور: هو ما ذكرنا أن تثبيت الأقدام هنا تثبيت حسي؛ لأن المطر لبّد الأرض الدهسة فصارت الأقدام تثبت عليها ولا تسوخ فيها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

يقول الله جل وعلا: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ

---

(١) انظر: الإتحاف (٢/٧٧).

(٢) انظر هذا القول والرد عليه في ابن جرير (١٣/٤٢٧ ـ ٤٢٨).

ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: الآية ١٢].

قال بعض العلماءِ: قوله: (إذ) بدل من (إذ) قبله. قالوا: قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ [الأنفال: الآية ١١] بدل من قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: الآية ٧] وقوله: ﴿إِذْ يُوحِى﴾ بدل من قوله: ﴿يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾. وقال بعض العلماء: العامل في (إذ) ﴿إِذْ يُوحِى﴾ هو العامل في (إذ) المتكررة قبلها. وقال بعض العلماء: العامل فيه: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ١١] حين يوحي إلى الملائكة. وقال بعضهم: منصوب بقوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ﴾ [الأنفال: الآية ١١] أي: يثبتهم حين أوحى إلى الملائكة أن ثبتوا الذين آمنوا[(١)].

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ [الأنفال: الآية ١٢] يمكن أن يكون وحي إلهام، وأن يكون وحي إعلام، كل ذلك جائز للملائكة (صلوات الله وسلامه عليهم). يوحي إليهم الله: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ معيّة نصر وإعانة ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني النبي ﷺ وأصحابه يوم بدر. وتثبيت الملائكة لهم كان من جهات متعددة[(٢)]: منها: أن الملائكة يلقون في قلوبهم الأمن والطمأنينة، كما يلقي الله الرعب في قلوب الكفرة. ومنها: أنهم يثبتونهم بالقتال معهم وإعانتهم؛ لأنهم بذلك يوقنون بالنصر فتقوى قلوبهم وتثبت أقدامهم. وقال بعض العلماء: كانوا يثبتونهم بغير ذلك، كان الملك يتمثل للناس بصفة رجل يعرفونه ويمشي بين الصفوف ويقول: أبشروا فإن الله ناصركم عليهم ومظهركم عليهم، وكان الملك يتمثل في صورة الرجل يعرفونه ـ كما قال به بعض العلماء ـ ثم يقول للمسلمين: أبشروا فإني سمعتهم يخافون منكم ويقولون: إنكم إن حملتم عليهم انكشفوا هاربين عنكم. لتقوى قلوب المؤمنين وتثبت، ويستحقرون الكفرة. هذا معنى قوله: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٥٧٧).

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٤٢٨)، القرطبي (٧/٣٧٨)، ابن كثير (٢/٢٩٢).

﴿كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ كان بعض من شهد بدراً كافراً أسلم بعد ذلك، وكان الناس يسألونه ويقولون له: صِفْ لنا الرعب الذي ألقىٰ الله في قلوبكم يوم بدر. فيأخذ حصاة ويضربها على طشت من الحديد فيُسمع لها دويّ عظيم، فيقول: كنا نسمع مثل هذا في أجوافنا من شدة الخوف(١)؛ وهذا معنى قوله: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾.

قرأ هذا الحرف من السبعة: نافع، وابن كثير، وعاصم، وحمزة - كل هؤلاء الأربعة - من السبعة قرؤوا: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ بإسكان العين من قوله: ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ وقرأه ابن عامر، وحمزة(٢)، والكسائي: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعُب﴾ بضمتين. فالذي قرأ: (الرُّعُب) بضم العين: هو ابن عامر، وحمزة(٣)، والكسائي. والذي قرأ (الرُّعْب) بسكون العين: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم(٤)، هؤلاء الأربعة قرؤوا: (الرُّعْب) بسكون العين، وأولٰئك الثلاثة قرؤوا: (الرُّعُب) بضمتين(٥). وهما لغتان فصيحتان وقراءتان صحيحتان.

والرعب شدة الخوف في قلوب الذين كفروا؛ لأن القلب هو محل الإدراك، وهو الذي يكون فيه الأمن ويكون فيه الخوف. وهذا معنى قوله: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾.

وقوله: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ المأمور بالضرب في قوله: ﴿فَٱضْرِبُواْ﴾ أصله فيه وجهان معروفان(٦):

أحدهما: أن المأمور به الملائكة، قال بعض العلماء: ما كان الملائكة يعرفون مَقَاتِلَ الضرب حتى علمهم الله ذلك يوم بدر فقال: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ

(١) ابن جرير (٨٨/١٤)، البيهقي في الدلائل (٨٠/٣)، (١٤٥/٥)، البداية والنهاية (٣٣٣/٤).

(٢)(٣) ذِكْر حمزة هنا وهم، وإنما قراءته بإسكان العين كما ذكر الشيخ قبل ذلك.

(٤) ومعهم حمزة.

(٥) انظر: السبعة ص٢١٧، المبسوط لابن مهران ص١٧٠.

(٦) انظر: القرطبي (٣٧٨/٧).

ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وكون هذا الخطاب للملائكة (صلوات الله وسلامه عليهم) هو أظهر القولين؛ لأن ظاهر السياق يقتضيه؛ لأن هذا في الظاهر من جملة ما أوحي إلى الملائكة.

والقول الثاني: أن المأمور بقوله ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ المسلمون من أصحاب محمد ﷺ.

وقوله: ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ المراد بالفوقية هنا فيه أوجه معروفة للعلماء لا يكذب بعضها بعضاً[١]: أما الذين قالوا: إن لفظة (فوق) زائدة، وأن المراد: فاضربوا الأعناق، واستدلوا بقوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: الآية ٤] فهذا القول لا يجوز أن يقال به في القرآن؛ لأن لفظاً جاء في القرآن لا ينبغي لأحد أن يحكم عليه بأنه زائد لا معنى له.

وقال بعض العلماء: (فوق) هنا بمعنى (علىٰ) العرب تقول: «ضربته على عنقه، وضربته فوق عنقه» وعلى هذا القول فمفعول الضرب محذوف، أي: فاضربوهم فوق الأعناق، أي: فاضربوهم علىٰ الرقاب، وهذا قول ليس ببعيد.

وقال بعض العلماء: المراد بما فوق الأعناق: الرؤوس؛ لأن الرأس فوق العنق، قال: ومعناه فاضربوا رؤوسهم، والعرب معلوم أنها في الحرب تبادر لضرب الرؤوس، ويمدحون الرجال بضرب الرؤوس وفلق الهام، وهو معنى مشهور، كثير في كلام العرب وفي أشعارها، قال الشاعر[٢]:

غَشَّيْتُه وهو في جَأْوَاءَ باسلةٍ عَضْباً أَصَابَ سَواءَ الرأسِ فانْفلقا

يفتخر بضرب الهام. ومنه قول عمرو بن الإطنابة[٣]:

---

(١) انظر: ابن جرير (٤٢٩/١٣)، القرطبي (٣٧٨/٧).

(٢) البيت لبلعاء بن قيس، وهو في البحر (٤٧٠/٤)، الدر المصون (٥٧٩/٥).

(٣) البيتان في وفيات الأعيان (٢٤١/٥)، سير أعلام النبلاء (١٤٢/٣) مع اختلاف في بعض الألفاظ والبيت الثاني في اللسان (٣٩٠/٢)، الدر المصون (٥٧٩/٥).

أَبَتْ لي هِمَّتي وأَبَى إِبَائي وأَخْذِيْ المَجْدَ بالثمنِ الرَّبيحِ
وإِقْدامي على المَكْروهِ نفْسي وضَربي هَامةَ البطلِ المُشيحِ

والآخر قال[١]:

نُفَلِّقُ هَاماً من رجالٍ أَعِزَّةٍ علينا وهُم كانُوا أَعَقَّ وأَظْلَمَا

وضرب الهام مشهور في كلام العرب وفخرها وأشعارها، ومن مدح الرجل للفارس: هذا يضرب القوانس، وهذا يضرب القونس. والقوانس: جمع القونس، والقونس: هو مقدم البيضة من الحديد على رأس الفارس. وقال بعض العلماء: القونس على البيضة، وضرب القوانس: كناية عن ضرب الهام، وهي فوق الرقاب. ومن هذا المعنى قول امرىء القيس بن عابس الكندي[٢]:

كلاَهُما كان رَئِيساً بَيْئَسَا يضربَ في يوم الهياج القَونَسَا

ومنه شعر العباس بن مرداس ـ المشهور ـ السلمي[٣]:

فَلَمْ أَرَ مثل الحي حياً مُصَبَّحاً ولا مثلنا يوم التقَيْنَا فوارسَا
أكرّ وأَحْمَى للحقيقةِ منهمُ وأضرب منا بالسيوفِ القوانسَا

هذا قال به بعض العلماء، أن المراد بما فوق الأعناق: الرؤوس؛ لأن الرأس فوق العنق، أي: فاضربوا رؤوسهم وفَلِّقُوا هامهم. وأظهر الأقوال وأقربها للصواب ما قاله بعض العلماء: أن الله علّم الملائكة أو أصحاب النبي ﷺ حز الرؤوس، وبين لهم مفصل الرأس الذي يُطير الرأس عن الجثة، وأنه فوق الأعناق؛ لأن الرقبة المحل الذي تركب منه في الرأس هو مفصل للحز إذا ضربه الإنسان طار الرأس بسرعة، وكان ذلك أهون لإبانة الرأس؛ ولذا كانت العرب تفتخر بضرب القَمَاحِدِ، والقَمَاحِدُ جمع قُمْحُدَة

---

(١) البيت في ابن كثير (٢/٢٩٣).
(٢) مضى عند تفسير الآية (١٦٥) من سورة الأعراف.
(٣) مضى هذان البيتان عند تفسير الآية (١١٧) من سورة الأنعام.

وهو العظم الذي خلف الأذن؛ لأنه تحت عظم الرأس وفوق عظم الرقبة، وذلك وهو مفصل الرقبة وموضع حزها الذي يسهل به إطارة الرأس وإبانته عن الجثة كما هو معروف، ومن هذا المعنى قول الشاعر يمدح خالد بن الوليد رضي الله عنه(١):

رأيت رجالاً من قريش كثيرةً ... ولم أرَ في القوم القيام كخالد
كَسَاكَ الوليدُ بن المغيرة مجده ... وعلَّمكَ الشيخان ضَرْبَ القَمَاحِدِ

والقَماحِد جمع القُمْحُدَة، وهي العظم الذي خلف الأذن؛ لأنه نازل عن عظم الرأس، مرتفع عن عظم الرقبة، محله من جوانب الرقبة محل المذبح، تسهل منه إبانة الرأس وإطارته عن الجثة، وهذا معنى قوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: الآية ١٢].

قال بعض العلماء: واحد البنان بنانة. والتحقيق أن البنان أطراف الأصابع، كما هو معناه المشهور في كلام العرب، والعرب يعرفون ضرب البنان؛ لأن الرجل إذا ضُرِبَ أطراف يده ـ أصابِعِهِ ـ بالسيف لا يقدر أن يحمل سيفاً ولا رمحاً، فبقي لا بأس فيه ولا نكاية عنده، من جاءه قدر على قتله. فالضرب الذي عُلِّمُوه على نوعين: إصابة المقاتل، وإصابة الشَّوَى، وهي الأطراف التي تمنع صاحبها من أن يفعل شيئاً، وكانت العرب تعرف هذا، ومنه قول عنترة بن شداد(٢):

وكانَ فتى الهيجاءِ يَحْمي ذِمَارَهَا ... ويضربُ عند الكربِ كلَّ بَنَانِ

والعرب تسمي أطراف الأصابع: بناناً، ومنه قول عنترة أيضاً(٣):

وإنَّ الموتَ طوعُ يدي إذا ما ... وصَلْتُ بنانها بالهندُواني

وما زعمه بعض علماء العربية من أن المراد بالبنان هنا يصدق بجميع

---

(١) البيت لحزن بن أبي وهب المخزومي. وهو في الإصابة (٣٢٥/١) مع اختلاف يسير في لفظ صدر البيت الأول، وبين البيتين بيت آخر.

(٢) البيت في القرطبي (٣٧٩/٧)، الدر المصون (٥٨٠/٥).

(٣) ديوانه ص١٤٨.

المفاصل وبالوجه والعينين، هو خلاف التحقيق المعروف من اللغة؛ لأن المعروف في اللغة: أن البنان أطراف الأصابع، بعضهم يقول: أطراف أصابع اليد. وبعضهم يقول: تدخل فيه أطراف أصابع الرِّجْل، والإطلاق المشهور: إطلاق البنان علىٰ أطراف أصابع اليد. والعرب تقول: «بنانٌ مُطَرَّف، ومُطَرَّفَة» إذا خضبت المرأة أطراف أصابعها بالحناء، وهذا هو المعنى المشهور المتعارف في كلام العرب، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي[(١)]:

بَدَا ليَ منها مِعْصَمٌ يَوْمَ جَمَّرَتْ ... وكَفٌ خَضيبٌ زُيِّنَت بِبَنَانِ
فوالله ما أدري وإني لحاسبٌ ... بسبع رميتُ الجَمْرَ أمْ بثَمَانِ

فقوله: «كف خضيب زُيِّنَتْ ببنان» أي: بأصابع. والبنان مؤنثة، وربما ذكَّرتها العرب نادراً، ومن تذكيرها النادر قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي أيضاً[(٢)]:

وأَرْسَلَتْ فَجَاءني ... بنانُها المُطَرَّف

ولم يقل: المُطَرَّفَة، والمُطَرَّف: هو الذي خُضب أعاليه بالحناء، وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: الآية ١٢].

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي ذاقوه من ضرب الأعناق، وضرب البنان، وتسليط الله عليهم أصحاب رسوله وملائكته، ذلك كله واقع بسبب أنهم ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾. شاقوه: معناه خالفوه ولم يتبعوا أمره، بل كذبوا رسوله وتمردوا على أوامره، وعبدوا معه الأصنام، وجعلوا له الأولاد والأنداد، فالمشاقة في لغة العرب: المخالفة. وفلان وفلان في شقاق، أي: في خلاف. وقد تقدم إيضاحه في تفسير قوله: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ [البقرة: آية ١٣٧] أي: في خلاف، ومن المعنى قوله الشاعر[(٣)]:

---

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الأنعام.
(٢) البيت في ديوانه ص٢٥٢.
(٣) البيت لبشر بن أبي خازم. وهو في الدر المصون (٢٧٦/٤).

وإلأ فـاعـلـمـوا أنَّـا وأنـتـم بـغـاةٌ مـا بـقـيـنـا فـي شِـقَـاقِ

قال بعض العلماء: أصل اشتقاق الشقاق من الشِّق؛ لأن المُتَخَالِفَين المُتَعَادِيَيْن كل منهما يكون في الشق الذي ليس فيه الآخر. فقيل: هو من شَقِّ العصا بمعنىٰ الاختلاف، وقيل: هو من المشقة؛ لأن كلّا من المُتَخَالِفَين المُتَعَانِدَين يطلب لصاحبه الإيقاع في المشقات. فمعنى مشاققتهم لله: مخالفتهم لأوامره ونهيه وتكذيبهم رسله، وجعلهم له الأنداد والشركاء. وهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: الآية ١٣] وشاقوا رسوله محمداً ﷺ، ثم قال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ﴾ الظاهر أن جواب الشرط في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ﴾ محذوف، دل عليه قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والتقدير: من يشاقق الله يعاقبه، فإن الله شديد العقاب لمن عاقب، والشدة: ضد اللين. والعقاب: هو التنكيل على الجريمة. قال بعض العلماء: سُمي عقاباً لأنه يأتي عقب الذنب من أجله. وهو معروف في كلام العرب، يقولون: عَاقِب هذا عقاباً ومعاقبة. أي: نَكِّل به لأنه عصاك أو أجرم إليك. وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان يخاطب النعمان بن المنذر[1]:

ومـن عـصـاكَ فـعـاقِـبْـهُ مُـعَـاقَـبَـةً تَنهى الظلومَ ولا تَقْعُد على ضَمِدِ

والله (جل وعلا) هو شديد العقاب وحده، ولا عقاب هو العقاب الشديد إلا عقاب الله (جل وعلا)، فعلىٰ المسلمين أن يحذروا عقاب الله، ولا يتعرضوا لسخط الله الموجب لعقابه؛ لأن الله لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد؛ لأن أعظم جبار من ملوك الدنيا ليس في وسعه من التعذيب والتنكيل إلا قدر ما يستوجب الموت مرة واحدة، فإن شدد التعذيب على المُعَذَّب إلى قدر يقتل صاحبه عادةً مات وانتهى ذلك العقاب، أما خالق السماوات والأرض شديد العقاب فإنه ينكل المذنب بآلاف التنكيل المستوجبة للموت وصاحبه لا يموت. فهذا هو العقاب الذي لا ينقطع ولا ينجي منه موت، فهو الذي يجب أن يُحذر ويُخاف منه، وتتجنب أسبابه في

(١) مضى هذا الشاهد عند تفسير الآية (١٦٧) من سورة الأعراف.

دار الدنيا وقت إمكان الفرصة، والله (جل وعلا) يقول: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: الآية ١٧] ويقول تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾ [النساء: الآية ٥٦] هذا هو العذاب الذي يُخشى، والعقاب الذي يجب على (...)[1]/ لأن الأمر كله بيد الله؛ ولأجل فهم النبي ﷺ لهذا كان يكثر في ١/٣
دعائه: **(يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)**[2].

اعلموا كُلّا أيها الناس أن قلوبكم بيد خالقكم (جل وعلا) يُصرفها كيف شاء، يوفق من شاء، ويضل من شاء ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: الآية ٨٨] وعلينا معاشر المسلمين أن نتفهم في هذه الآية، وأن نبتهل ونتضرع إلى ربنا أن يُثبتنا، وأن لا يزيغنا، وأن لا يُحوِّل قلوبنا إلا لما يرضيه (جل وعلا)؛ لأن هذه الآية يخافها العاقل جداً، فقد جاء عن النبي ﷺ أن كل إنسان قلبه بين أصبعين من أصابع الرحمٰن (جل وعلا) يصرفه كيف يشاء[3]. فيا مقلب القلوب، مثبت من شاء، ومضل من شاء، وهادي من شاء، ومضل من شاء؛ [ثبت قلوبنا على دينك][4] ولذا أثنى (جل وعلا) على عباده الراسخين في العلم بأنهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ﴾ [آل عمران: الآية ٧] إلى أن قال عنهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران: الآية ٨].

ومعنى: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: الآية ٢٤] إنما عبر بالقلب لأن القلب محل العقل الذي به الإدراك، لا كما يقوله الملاحدة: إن محله الدماغ[5]. يحول بينه وبين قلبه فيصرف قلبه حيث شاء، وكيف شاء، يصرفه من هُدى إلى ضلالة، ومن ضلالة إلى هدى، قال بعض العلماء[6]:

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وما بعده متعلق بتفسير الآية رقم (٢٤).
(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٠) من سورة الأنعام.
(٣) السابق.
(٤) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.
(٥) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.
(٦) انظر: القرطبي (٣٩١/٧).

وكذلك يصرفه من أمنٍ إلى خوف، ومن خوف إلىٰ أمن، كما نقل قلوب أصحاب النبي ﷺ من الخوف إلىٰ الأمن، وقلوب الكفرة من الأمن إلى الرعب والخوف الذي ألقاه في قلوبهم، والأول هو الصحيح في معنى الآية؛ لأن هذه الآية تدل علىٰ أن الأمور كلها بيد الله، وأنه يصرف القلوب كيف يشاء، فيهدي من يشاء هداه، ويضل من يريد إضلاله.

وما يزعمه المعتزلة من أن الله لا يريد الشر، وأن العبد يخلق معاصيه باستقلال مشيئة العبد وقدرته مذهب لا يخفىٰ سقوطه علىٰ عاقل، فإن خالق السماوات والأرض لا يمكن أن يكون في ملكه شيء إلا بمشيئته وقدرته جل وعلا.

﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٢٤] ﴿وَأَنَّهُۥٓ﴾ أي: الله ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وحده. الحشر في لغة العرب معناه: الجمع. تقول: حشر الإمامُ العلماءَ أي: جمعهم، وحشر الناس أي: جمعهم. ومنه قوله: ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١١١] أي: جامعين يجمعون لك السحرة. فالحشر في لغة العرب: الجمع. والناس كلهم يُجمعون يوم القيامة إلى رب السماوات والأرض كما قال: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٧] وقد بين في سورة الأنعام أنه يحشر جميع الدواب والطير وجميع ذلك كله، يحشرهم ويجمعهم يوم القيامة، كما تقدم في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: الآية ٣٨] فكما أنه يحشر الناس كذلك يحشر الدواب والطير وغير ذلك. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

(...)[1] وهذه الآية جاءت ناهية عن ذلك، مبينة أن الناس إذا رأوا المنكر يُرتكب علناً ولم يغيروه وهم قادرون على أن يغيروه أن الله يعم الجميع بعذاب من عنده، ولا يصيب ذلك خصوص الذين ظلموا وارتكبوا المعاصي، بل يصيب الجميع، هؤلاء بمعصيتهم، وهؤلاء بسكوتهم على المعصية وعدم نهيهم عنها. هذا الذي عليه جمهور المفسرين.

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل والكلام الآتي يتعلق بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ [الأنفال: الآية ٢٥] قد قدمنا في هذه الدروس مراراً أن الفتنة أُطلقت في القرآن إطلاقات متعددة[١]:

أُطلقت الفتنة بمعنى الابتلاء. وهذا أكثر إطلاقها، ومنه قوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: الآية ٣٥] أي: ابتلاء، ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: الآيتان ١٦ ـ ١٧] أي: لنختبرهم، ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: الآية ١٥] أي: امتحان وابتلاء واختبار.

وأصل الفتنة في لغة العرب[٢]: هي الوضع في النار، تقول العرب: «فتنت الذهب» إذا وضعته في النار وأذبته فيها ليظهر أخالص هو أم زائف. ولذا كان أحد إطلاقات الفتنة: هي الإحراق بالنار، ومنه بهذا المعنى قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: الآية ١٣] أي: يُجعلون فيها ويحرقون فيها، ومنه على أصح التفسيرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: الآية ١٠] أي: أحرقوهم بنار الأُخدود.

وتُطلق الفتنة على نتيجة الاختبار إن كانت سيئة خاصة، ومن هنا أُطلقت الفتنة على الكفر وعلى المعاصي، كما قال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: الآية ١٩٣] أي: لا يبقى شرك على وجه الأرض، كما يدل له قوله ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»[٣]. وجاء في سورة الأنعام إطلاق الفتنة على الحجة في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: الآية ٢٣] وفي القراءة الأخرى: ﴿فِتْنَتَهُمْ﴾[٤] (...)[٥] وهذا معنى قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾. ودخول نون

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.
(٢) السابق.
(٣) مضى تخريجه في الموضع السابق.
(٤) مضت عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.
(٥) في هذا الموضع انقطع التسجيل.

التوكيد على ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ [مع أنه في غير قسم، ولا طلب، ولا شرط، فيه سؤال معروف،][١] واختلف علماء العربية في توجيهه[٢]، والذي يظهر أنه يُفهم من هذا أن نون التوكيد تدخل في مثل هذا الأُسلوب، إذ لا حاجة إلىٰ التعسفات التي يرتكبها من يريد الجواب عن هذا، مع أن القرآن في أعلىٰ درجات الإعجاز.

و ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ معناه: ارتكبوا المعاصي فظلموا أنفسهم.

﴿خَآصَّةً﴾ أي: في حال كونها خاصة بهم لا تتعداهم إلىٰ غيرهم؛ بل هي تتعداهم إلى غيرهم، أي: لا تصيب خصوصهم بل تعمّ وتصيب الجميع. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ العقاب: هو النكال علىٰ الذنب، قيل: سُمي عقاباً لأنه يأتي عَقِبَه من أجله.

فعلينا معاشر المسلمين أن نتفهم هذه الآية، وأنّا إذا رأينا السفهاء ومن لا يطيعون الله يتعالنون بمعاصي الله أن نغيرها بحسب استطاعتنا؛ لئلا يعُمنا الله بعذاب من عنده، وقد بين النبي ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) مراتب تغيير المنكر فقال: «**من رأىٰ منكم منكراً فليغيره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وهو أضعف الإيمان**»[٣].

فمن قدر منا أن يُغير بيده فليغير بيده، ومن لم يقدر على التغيير باليد فباللسان، ومن عجز عن ذلك كله فبالقلب، وهو أضعف الإيمان. ويوشك أن المعاصي إذا لم تزل تُرتكب ولا ينهى عنها أحد أن ينزل عذاب من الله

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
(٢) انظر: الدر المصون (٥/٥٨٩ ـ ٥٩٣).
(٣) مسلم في الإيمان، باب (بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص..) حديث رقم: (٤٩) (١/٦٩).

عام يعم الصالح والطالح، والعاجز حقيقة يبعثه الله علىٰ نيته، ولا يناله شيء من إثم أولئك الآثمين، إلا أن العذاب وقت نزوله يعم الجميع كما جاءت الأحاديث بذلك. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢٥] كونه شديد العقاب فيه تحذير شديد وتخويف لمن يُقصر في امتثال أمره واجتناب نهيه، فليس للمسلم أن يُقصر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما وجد إلىٰ ذلك سبيلاً.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢٦].

[أي: واذكروا حين كان](١) عددكم قليل جداً مستضعفون في الأرض، أي: يستضعفكم أعداؤكم، يرونكم ضعفاء، ويعاملونكم معاملة القوي للضعيف، وهذا قبل هجرة النبي ﷺ؛ لأنهم كانوا في [مكة](٢) قبل الهجرة عددهم قليل، والكفار يستضعفونهم، ويضربونهم، ويعذبون بعض أصحاب رسول الله ﷺ، وكانوا مختفين في دار الأرقم بن أبي الأرقم قبل إسلام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وكان لهم بعض عزة نسبياً بإسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما). واذكروا نعمة الله وتذكروا ما نقلكم به من حال الضعف إلى حال القوة، ومن حال القلة إلى حالة الكثرة، وتذكروا هذا الإنعام لتشكروا لمن أنعم عليكم به. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ القليل: ضد الكثير، والمستضعف: الذي يراه غيره ضعيفاً ويعامله معاملة القوي للضعيف.

﴿فِي الْأَرْضِ﴾ هي: أرض مكة التي كانوا فيها قبل الهجرة.

﴿تَخَافُونَ﴾ الخوف في لغة العرب: هو الغم من أمر مستقبل. والحزن

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) في الأصل: «المدينة» وهو سبق لسان.

في لغة العرب: الغم من أمر فائت[١] ـ أعاذنا الله منهما ـ وربما وضعت العرب الخوف في معنىٰ الحزن، والحزن في معنىٰ الخوف.

﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [الأنفال: الآية ٢٦] التخطف: هو أن يقع منهم الخطف مرة بعد مرة. والخطف في لغة العرب معناه: الأخذ بسرعة، فكل ما أخذته بسرعة شديدة فقد خطفته ﴿أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ لقلتكم وضعفكم ليست لكم مناعة بكثرة ولا بقوة، فالناس قادرون على أن يتخطفوكم ويأخذوكم بسرعة واحداً واحداً فيقتلوكم.

﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ جل وعلا، أي: ضمكم إلى عزة ومنعه بأن ضمكم إلى هذه المدينة ـ حرسها الله ـ وقواكم بالأنصار، هداهم فأسلموا، وكان لكم محل مأوى وقوة.

﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ العرب تقول: «أَيَّدَهُ» إذا قَوَّاه. و«رجل أَيِّدٌ». معناه: قوي، و (الأَيْد) في اللغة و (الآد) معناه: القوة[٢]، ومنه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ [الذاريات: الآية ٤٧] أي: بقوة. فليست من آيات الصفات. ووزن (أَيْد): (فَعْل)[٣]، أما (الأيدي) التي هي جمع (يَد) فوزنها بالميزان الصرفي (أَفْعُل)[٤]، فوزن قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ أَيْد معناه: (فَعْل) من (أَيَدَ) بمعنىٰ: القوة، والعرب تقول: «فلان أَيِّد» أي: قوي، و«رجل ذو أَيْد وآد» أي: ذو قوة ﴿وَأَيَّدَكُم﴾ قواكم بنصره.

والنصر في لغة العرب: إعانة المظلوم. نصرهم الله بالأنصار، وقواهم بكثرة المؤمنين وقوة شوكتهم، وبما أوقع بالكفار يوم بدر، وبإنزال الملائكة تثبتهم، وتلقي الرعب في قلوب عدوهم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ كأن في الكلام محذوفاً دل المقام عليه ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فقراء لا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.
(٢) انظر: القاموس (مادة: آد) ص٤١.
(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٤١.
(٤) السابق ص٢٩٤.

أموال لكم ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ الله وقواكم بنصره وجعل لكم الأموال ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ كما رزقكم بغنائم يوم بدر، وهو مال طيب أطابه الله لهم بعد أن لامهم عليه لوماً شديداً، وقال: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٨] ثم قال بعد ذلك: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: الآية ٦٩] وهي الطيبات التي رزقهم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٢٦] لله نعمه.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[(١)] أن الشكر في القرآن يُطلق من الرب لعبده، ويُطلق من العبد لربه.

فإطلاق الشكر من الرب لعبده كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: الآية ٣٤] ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ١٥٨].

وإطلاقه من العبد لربه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: الآية ١٣] ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٥].

فشكر الرب لعبده معناه: أن يُثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل.

وشكر العبد لربه قال بعض العلماء: ضابطه المنطبق على جزئياته: هو أن يستعمل جميع نعم الله فيما يرضي الله، فهذه العيون التي فتحها في أوجهكم تبصرون بها، نعم عظمىٰ منه إليكم، فشكرها: أن لا تستعملوها إلا في طاعة الله، ولا تنظروا بها إلا فيما يرضي من خلقها ومنّ عليكم بها، وهكذا الأيدي والأرجل وسائر النعم. أما العبد المسكين الضعيف الذي يُنعم عليه خالق السماوات والأرض بنعمه ثم يصرف نعمه فيما يسخطه ويغضبه فهذا مجنون. وهذا معنىٰ قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لأجل أن تشكروا علىٰ ذلك الإنعام.

ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ قال جماعة من المفسرين[(٢)]: نزلت هذه الآية الكريمة في أبي

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٣) من سورة البقرة.

(٢) انظر: القرطبي (٣٩٤/٧)، ابن كثير (٣٠٠/٢).

لبابة بن عبد المنذر الأوسي الأنصاري (رضي الله عنه)، كان بنو قريظة حلفاء الأوس من الأنصار، وكان أبو لبابة صديقاً لهم، وكان في بني قريظة أمواله وأهله، فلما حاصر النبي ﷺ بني قريظة وأرادوا أن يُحكّموا فيهم سعد بن معاذ (رضي الله عنه) قال بنو قريظة ـ أرسلوا ـ للنبي أن يرسل إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر (رضي الله عنه)، وكان مناصحاً لقريظة يثقون فيه أشد الثقة، فلما جاءهم استشاروه: هل ينزلون على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار بيده إلى حلقه، يعني: أنه الذبح إذا نزلتم على حكمه. قال أبو لبابة (رضي الله عنه): والله ما برحت قدماي مكانهما حتى علمت أني خنت الله ورسوله وخنت أمانته. فندم أبو لبابة (رضي الله عنه) ندماً شديداً، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ، فرجع من قريظة إلى هذا المسجد الشريف ـ مسجد رسول الله ﷺ ـ فربط نفسه في سارية من سواري هذا المسجد، وحلف بالله أن لا يأكل ولا يشرب حتى يموت أو يتوب الله عليه، فمكث سبعة أيام لا يأكل ولا يشرب حتى خرّ مغشياً عليه، فأنزل الله التوبة عليه، وقيل له: «تيب عليك فحُل عنك الرباط» فقال: «والله لا أحله ولا يُحله عني غير رسول الله ﷺ» فجاء فحله عنه[(١)].

وكان بعض العلماء يقول: إن الآية التي تاب الله عليه فيها هي التي بعد هذه وهي قوله: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٢٩] فهو قد اتقى الله بالندم على ما فات منه، ونية أن لا يعود، وتأنيبه نفسه على الزلة التي صدرت منه بالعطش والجوع حتى خرّ مغشياً عليه، واعترافه بما وقع منه، وجعل الله له فرقاناً أي:

---

(١) روى هذا الحديث جماعة منهم:
١ ـ الزهري. عند ابن جرير (٤٨١/١٣). وعزاه في الدر (١٧٨/٣) لسنيد.
٢ ـ عبدالله بن أبي قتادة مرسلاً (مختصراً). عند ابن جرير (٤٨٢/١٣)، وابن أبي حاتم (١٦٨٤/٥)، وعزاه في الدر (١٧٨/٣) لسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.
٣ ـ الكلبي. وعزاه في الدر (١٧٨/٣) لعبد بن حميد.
٤ ـ السدي. وعزاه في الدر (١٧٨/٣) لأبي الشيخ.
وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٢٣٥ من غير تعيين راويه.

مخرجاً من ذلك بأن تاب عليه كما يأتي في شرحها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: الآية ٢٧] خيانة الله: هي تقصيرهم في امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وخيانة الرسول: هي التقصير في طاعته كهذا الصحابي الذي أفشىٰ سره إلى يهود بني قريظة، فقد خان الله ورسوله ثم تاب الله عليه.

﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ لأن جميع التكاليف كلها أمانات عند المكلفين كما سيأتي إيضاحه في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: الآية ٧٢].

وكان بعض العلماء يقول[١]: الأمانات: أوامر الله ونواهيه التي لا يطّلع عليها أحد ولا يعلمها إلا هو؛ لأن الإنسان في بيته قد تكون عليه الجنابة لا يعلم بها الناس، وقد يكون عليه الحدث، وقد يجيء المسجد ولم يغتسل ولم يصل، وقد يغتسل وقد يصلي. هذه أمانات أَمَّنَها الله عند هذا لا يعلمها إلا هو، فليس عليه أن يخونها.

والتحقيق: أن الأمانة تشمل جميع التكاليف.

٣/ب / [وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢٨].

نزلت هذه الآية في أبي لبابة (رضي الله عنه) حين قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار][٢] بيده إلى حلقه أنه الذبح إن نزلتم على حكم سعد بن معاذ (رضي الله عنه). كان سبب ذلك أن أولاده وماله في بني قريظة فأشفق علىٰ أولاده وماله، فأنزل الله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ أيها الناس ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٣] أي: ابتلاء واختبار كما أوقع الأموالُ والأولادُ ـ

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٤٨٥).

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) في الروايات التي وقفت عليها أن الآية النازلة فيه هي الآية قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ...﴾. وذلك أنه كان حليفاً لهم، فلما قدم إليهم قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقَّ لهم... إلخ.

الإشفاقُ عليهم ـ أوقع أبا لبابة في الزلة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أجر الله أعظم من الأموال والأولاد، فما عند الله خير من غيره، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال: الآية ٢٨].

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: الآيات ٢٩ ـ ٣٣].

يقول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الأنفال: الآية ٢٩] نادىٰ الله المؤمنين في هذه الآية الكريمة باسم الإيمان، وبين لهم أنهم إن اتقوا الله فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه أنه يجعل لهم بسبب ذلك فرقاناً فيغفر لهم الذنوب ويكفر عنهم السيئات ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أيها المؤمنون بامتثال أمره واجتناب نهيه ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ روى ابن وهب وابن القاسم عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة (رحمه الله) أنه سُئل عن قوله: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ قال: معناه يجعل لكم مخرجاً. وتلا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾[1] [الطلاق: الآية ٢] والعرب تسمي المخرج من الشيء: فرقاناً. كأنه مصدر زيدت فيه الألف والنون؛ لأن من كان في كرب من كروب الدنيا أو الآخرة وقد فارقه ووجد منه مخرجاً كأنه وجد فارقاً يفرق بينه وبينه ويفصل بينه وبينه. وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومن إطلاق الفرقان بمعنىٰ المخرج قول الراجز[2]:

---

(١) انظر: القرطبي (٣٩٦/٧).

(٢) البيت في السابق.

مـا لَـكَ مـن طـول الأسـى فـرقـانُ بـعـد قَـطِـيـن رحـلـوا وبـانـوا

أي: ما لك من طول الأسىٰ مخرج، ومنه قول الآخر(١):

وكيف أُرَجِّي الخُلد والموتُ طالبي ومـالـي مـن كـأس الـمـنـيـة فـرقـانُ

أي: ما لي من الموت مخرج ولا بد.

وقال بعض العلماء: ﴿فُرْقَانًا﴾: نصراً وتأييداً؛ لأن الله سمىٰ يوم بدر: (يوم الفرقان) في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] لأنه يوم نصر فَرَقَ الله به بين الحق والباطل بأن نصر الفئة المؤمنة القليلة علىٰ الفئة الكافرة الكثيرة.

قال بعض العلماء: فرقاناً: فتحاً.

وقال بعض العلماء: يجعل الله لكم بسبب تقوىٰ الله فرقاناً، أي: علماً تُفرِّقُون به بين الحق والباطل، والحسن والقبيح. والأقوال متقاربة(٢). وتقوىٰ الله (جل وعلا) كفيلة بكل خير من خيري الدنيا والآخرة ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٢٩] مادة الكاف والفاء والراء في لغة العرب أصل معناها: الستر والتغطية(٣). فمعنى: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: يسترها ويغطيها بحلمه وعفوه حتى لا يظهر لها أثر تتضررون به ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ كذلك الغفران معناه أيضاً: الستر والتغطية؛ لأنه (جل وعلا) يغفر الذنوب، أي: يسترها ويغطيها(٤). فالتعبير بالتكفير والغفران كلاهما معناه ستر الذنوب وتغطيتها حتى لا يظهر لها أثر. وفي ذلك التوكيد من الترغيب في التقوى ما لا يخفىٰ، ﴿وَٱللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ففضله عظيم، ومن فضله ما تفضل عليكم به، وما نصركم به يوم بدر، وغير ذلك من فضله وإنعامه العظيم. قال بعض علماء التفسير: هذه الآية

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: الأضواء (٣٤٩/٢).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

الكريمة من سورة الأنفال هي التي نزلت فيها توبة الله على أبي لبابة لما قال ما قال لبني قريظة، وجاء تائباً إلىٰ الله نادماً، وربط نفسه في سارية من سواري هذا المسجد الكريم، وحلف أن لا يأكل ولا يشرب حتى يموت أو يتوب الله عليه، وأُغشي عليه بعد سبع فتاب الله عليه، قالوا: هذه فيها توبته؛ لأنه اتقى الله بالندم على ما فات، والإقلاع، وربطه نفسه، واعترافه بالزلة، فجعل الله له من زلته في بني قريظة فرقاناً، أي: مخرجاً أخرجه به من مأزق الذنب. وتاب عليه (جل وعلا)، هكذا قاله بعض العلماء والله تعالى أعلم. وهذا معنى قوله: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: الآية ٢٩] فضله عظيم على خلقه إذ يتفضل عليهم بخيرات الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: الآية ٣٠].

قال بعض العلماء: هذه الآية من سورة الأنفال مكية[1]، مع أن الأنفال مدنية. والأظهر أن هذه الآية كغيرها من سورة الأنفال مدنية؛ وذلك أن الله لما فتح على نبيه، ونصره يوم بدر، وأنزل سورة الأنفال في وقعة بدر، ذكَّر نبيه بنعمه الماضية عليه في مكة قبل هجرته منها، وعرَّفه إنعامه عليه حيث أنجاه من مكر أعدائه ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠]. واذكر يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أيام كنت في مكة بعد أن مات عمك الذي كان ينصرك ويحوطك، وهو أبو طالب، وتمكنت قريش من أن يؤذوك ويخرجوك، ودبروا لك ذلك المكر العظيم، اذكر إنعامي حيث مكرتُ بهم وجعلتها عليهم لا لهم. واذكر إذ ﴿يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المكر: المكيدة، وهو إخفاء الكيد ليوصل الشر إلى الممكور به في خفاء.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كفار مكة؛ وذلك أن أشراف قريش اجتمعوا في دار

---

(١) انظر: ابن جرير (٥٠٢/١٣).

الندوة يتشاورون في أمر محمد ﷺ، وجاءهم شيخ في صفة شيخ جليل، فقالوا له: ممن أنت؟ فقال: أنا شيخ من أهل نجد، وهو الشيطان، تمثل لهم في صورة ذلك الشيخ، قال لهم: لست من أهل تهامة وإنما أنا من أهل نجد ـ وكان أهل نجد في ذلك الوقت كفاراً، وقريش يثقون فيهم لكفرهم، وأن الجميع على ملة واحدة ـ قال لهم إبليس في صفة ذلك الشيخ اللعين: سمعت أنكم تجتمعون لتتشاوروا في رأي هذا الرجل فجئتكم، ولا تعدمون مني رأياً حسناً في هذا الأمر.

فقال بعض قريش ـ فقالوا: ممن قاله: أبو البختري ـ: خلونا نكبله بالحديد، ونسجنه في دار، ونقفل بابها، ولا تترك إلّا كوة ندخل إليه منها الطعام والشراب ونتربص به الدوائر حتى يموت كما مات من قبله من الشعراء، زهير والنابغة وأمثالهم من الشعراء، وفي ذلك يقول الله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: الآية ٣٠] وهذا الرأي هو المراد بقوله: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] أي: يكبلوك بالحديد ويسجنوك ويتربصوا بك الدوائر حتى تموت.

وقال بعضهم ـ ويروى أن ممن قاله هشام بن عمرو ـ: اطردوه عنا، نجعله على بعير ونبعده من أرضنا وما علينا ما فعل.

فلما قال أبو البختري الرأي الأول قال له ذلك الشيخ الذي في صورته الشيطان: بئس الرأي رأيك، هذا ليس برأي؛ لأنكم إن أثبتموه بقيود الحديد وأغلقتم عليه الأبواب جاء قومه فأخرجوه وقاتلوكم عليه حتى يخرجوه، وهذا ليس برأي.

فلما قال الثاني: نبعده ونطرده من بلادنا وما علينا فيما فعله هو وسائر العرب. فقال ذلك اللعين: بئس الرأي الذي رأيت، أنتم تعلمون حلاوة لسانه، واستجلابه لقلوب الناس، فإذا خرج عنكم فلا يأمن أن يأخذ بقلوب الناس حتى يكونوا تبعاً له، ثم يغزوكم في بلادكم.

فقال اللعين عمرو بن هشام بن المغيرة المعروف بأبي جهل: الرأي عندي الذي لا رأي غيره: أن تأخذوا من كل قبيلة من قريش شاباً، وتعطوه

سيفاً صارماً، فيأتيه ذلك الشباب من جميع قبائل قريش فيبتدرونه فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في قبائل قريش، ولا أرى هذا الحي من بني هاشم يقدرون على محاربة جميع قريش، فعند ذلك سيرضون بالدِّية، فإذا رضوا بديته دفعنا لهم عقله واسترحنا منه.

فقال ذلك اللعين: هذا هو الرأي الذي لا رأي غيره، أما هذا الفتى فهو أجودكم رأياً. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: بالسجن وقفل الأبواب عليك ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَۚ﴾ إلى غير مكة من البلاد ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ قتلة رجل واحد حتى يتفرق دمك في قبائل قريش. ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ هذا المكر ليوصلوا إليك الشر في خفية. ﴿وَٱللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] ـ مكر لك بهم، وأخرجك، ونجاك، وأظفرك بهم يوم بدر حتى قتلتهم وأسرتهم، هذا مكرهم وهذا مكر الله.

ولما أجمعوا على هذا الرأي، واتفقت عليه كلمة الجميع، جاء جبريل إلى النبي ﷺ فأخبره بجميع ما قالوا، وقال له: «لا تَبِت الليلة في موضع مبيتك» فنادى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وأمره أن ينام في المحل الذي كان ينام فيه رسول الله ﷺ، وخرج رسول الله، وقريش محدقون بمنزله، ينتظرون أن يخرج فيقتلوه القتلة التي أشار عليهم بها أبو جهل وإبليس، فأعمى الله عيونهم، وخرج رسول الله ﷺ، وهو يقرأ أوائل سورة (يس) وفي يده تراب، فَذَرَّ التراب على رؤوسهم ويقرأ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1] [يس: الآية ٩] وأذن له في ذلك الوقت في الهجرة فخرج هو وصاحبه إلى الغار، فانتظر قريش حتى الصبح، فوثبوا عليه ليقتلوه، فوجدوا المكان فيه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري!! فاقتصوا أثره حتى جاؤوا الجبل الذي فيه الغار فخفي عليهم أثره، وجاؤوا الغار، قال بعض علماء السير: فوجدوا

---

(١) مصنف عبدالرزاق (٣٨٩/٥)، الطبقات لابن سعد (١٥٣/١)، تاريخ الطبري (٢٤٢/٢)، تفسير الطبري (٢٩٤/١٣، ٤٩٨)، السيرة لابن هشام ص٥٠٢.

على الغار نسج العنكبوت[١]، فقالوا: لو دخل هنا لما كان على الغار نسج العنكبوت، ومكث هو وصاحبه في الغار ثلاث ليال - كما قاله بعضهم - واتفقوا مع عبد الله بن الأريقط من بني دُئل من كنانة، وأعطوه مراكبهم، وجاءهم في الوعد؛ لأنهم في ذلك الوقت محتاجون إلى دليل خبير بالأرض فيما بين مكة والمدينة؛ لأن الطرق السابلة المعروفة عليها العيون والرصد؛ لأن قريشاً جعلت الجعائل والأموال الطائلة لمن يأتيها بمحمد ﷺ، فصار يحتاج إلى أن يمشي في طرق غير معهودة، وسبل غير معروفة، فآجر لذلك عبد الله بن الأريقط الدئلي، فلما كان بالموعد وأيس قريش من أن يجدوه ورجعوا جاءه فركبوا، وأخذ بهم طرقاً غير الطرق المعهودة فلم يطلع عليهم أحدٌ من العرب، حتى مروا ببلاد بني مدلج بن بكر بن كنانة، ذكرهم أحد فقال: أخاف أن يكون هو الرجل الذي يطلبه قريش. فقال له سراقة بن مالك بن جعشم (رضي الله عنه): ليس هو. يريد أن يستأثر بأخذه؛ ليأخذ المال من قريش، فركب على فرسه في أثرهم، وقصته مشهورة، وعلماء التاريخ يقولون: إن فرسه ساخت به في الأرض، وكاد أن تبتلعه الأرض مرات، وأنه طلب النبي ﷺ أن يكتب له أماناً[٢] ورجع خائباً لم ينل النبي ﷺ بسوء. وسافر في الهجرة، ومر في سفره هذا بالجحفة، ونزلت عليه في الطريق في الجحفة آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[٣] [القصص: الآية ٨٥] حتى جاء الأنصار (رضي الله عنهم). وهذا

---

(١) قصة نسج العنكبوت هذه أخرجها أحمد (٣٤٨/١)، وعبد الرزاق (٣٨٩/٥)، وابن سعد (١٥٤/١)، وابن جرير في التفسير (٤٩٧/١٣). وقد حسنها الحافظان: ابن كثير وابن حجر. انظر: البداية والنهاية (١٨١/٣) وقال: «وهذا إسناد حسن، وهو من أجود ما رُوي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار» ا.هـ. يعني إسناد الإمام أحمد. وانظر الفتح (٢٣٦/٧)، أحاديث الهجرة ص١٣٨ - ١٤٠.

(٢) البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم. حديث رقم: (٣٦٥٢) (٨/٧). وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الحديثين رقم: (٣٩٠٦، ٣٩٠٨). ومسلم في الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة. حديث رقم: (٢٠٠٩) (٢٣٠٩/٤). كما أخرجه في موضع آخر قبله (١٥٩٢/٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن الضحاك مرسلًا (٣٠٢٦/٩). وانظر ابن كثير (٤٠٢/٣ - ٤٠٣).

معنى قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٠].

وفي قصة الهجرة هذا دليل يبين للناس ويوضح لهم حقيقة أمر ضل فيه الآن أكثر الناس؛ لأن غالب الناس الآن ـ وإنا لله وإنا إليه راجعون ـ اجترفتهم التيارات، فذهبوا يقلدون كل ناعق من كفرة الإفرنج وملاحدتهم؛ لأنهم رأوا عندهم بعض القوة المادية وبعض الصنائع، ولو كانوا يقتفون أثر رسول الله ﷺ ويعلمون كيف كان يفعل لعرفوا ما يأخذون من ذلك وما يتركون؛ لأن المسلمين يجوز لهم أن يأخذوا من الكفار ما ينفعهم من علوم الكفار الدنيوية، وألّا يتبعوهم في شيء مما يمس دينهم وطاعة ربهم ـ جل وعلا ـ وهذا النبي ﷺ لمّا تكالبت عليه قوى الشر، واتفق الكفار وشيخهم إبليس على أن يمكروا به، واضطر إلى خبير له خبرة بالأرض، ووجد رجلًا كافراً هو عبد الله بن الأُريقط لم يمنعه كفره من أن يستفيد من خبرته الدنيوية، فاستفاد من خبرته حتى أوصله المدينة بسلام، ومع ذلك لم يأخذ عنه من الكفر شيئاً، بل هو مرضٍ ربه. فعلى المسلمين أن يعتبروا بأمثال هذا، وينتفعوا من الكفار بخبرتهم الدنيوية، ولا يتبعوهم فيما يضر دينهم ويسخط ربهم. وأمثال هذا كثيرة، وسنضرب لكم بعض الأمثلة منها:

من ذلك ما يأتي في تفسير سورة الأحزاب من تفاصيل وقعة الخندق وأن النبي ﷺ فيما يذكره الأخباريون لما سمع بمقدم أهل الأحزاب قال له سلمان الفارسي: كنّا إذا خفنا خندقنا[1]. والخندق هذا هو خطة عسكرية ابتدعتها أفكار الفرس، وهم قوم يعبدون النار، فالنبي ﷺ لعلمه ومعرفته بالخير والشر لم يمنعه من هذه الخطة العسكرية أن الذين اخترعوها كفرة، بل انتفع بعلم الكفرة الدنيوي وخَنْدَق، مع أنه لا يقلدهم في شيء يضر بدينه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

ومن أمثلة ذلك ما ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه هَمَّ أن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

يمنع وطء النساء المراضع؛ لأن العرب كانوا يزعمون أن الرجل إذا أتى امرأته في رضاعها أن ذلك يُضعف ولدها، ويضعف عظمه، وكانوا إذا ضرب الرجل ونبا سيفه عن الضريبة ولم يقطع قالوا: هذا وُطئت أمه وهو يرضع؛ لأن الغيلة تضعف الرجال، وكان شاعرهم يقول[1]:

فَوارسُ لم يُغالُوا في رَضَاعٍ فَتَنْبُو في أكُفِّهم السُّيُوفُ

فأخبرته فارس والروم أنهم يفعلون ذلك ولا يضر أولادهم[2]. فأخذ هذه الخطة الطبية من فارس والروم وهم كفرة، وأخذ تلك الخطة العسكرية من الفرس وهم كفرة، وانتفع بخبرة ذلك الخبير الكافر وهو كافر.

وهذا يعلمنا أن نفرق بين حضارة الإفرنج ـ عليهم لعائن الله ـ ونفصل بين ضارها ونافعها، فننتفع بنافعها وهو منافعها الدنيوية، ونجتنب سمومها الفتاكة القاتلة، وهي ما تدعوا إليه من سوء الأخلاق وضياع كل قيمة، والتمرد على خالق السماوات والأرض (جل وعلا). ففيها ماء زلال وسم قاتل، فعلينا أن نجتنب السم، ونأخذ الماء الزلال كما كان ﷺ يفعل كما مثلنا له[3].

ومن المؤسف كل المؤسف أن الذين صار عندهم شيء من هذه القشور التي يعبرون عنها بالتقدم والحضارة وأمثال ذلك لا يأخذون عن الكفار إلا السم القاتل الفتاك، من الانحلال الخلقي، وضياع الأخلاق، والتمرد على نظام السماء، ومجاهرة رب العالمين بالمعاصي، والتزهيد في القرآن وفي الرسل، في الوقت الذي لا ينتفعون من مائها الزلال وقوتها المادية شيئاً!! فإنا لله وإنا إليه راجعون من عاقل يأخذ السم ويترك الماء، فهذا من طمس البصائر لا يعلمه إلا من رآه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٢) تقدم تخريجه في الموضع السابق.

(٣) السابق.

ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] مكرهم: هو ما أرادوا من قتل النبي ﷺ بعدما أجمعوا عليه، وتفرق دمه في قبائل قريش. ومكر الله: هو أن نجاه منهم، وأنقذه منهم، وأدخله في الغار لحكمة يعلمها (جل وعلا). مع أنه قادر على أن يهلكهم بالجنود، ومع أنه مختفٍ منهم في الغار، فجنود السماء حوله تحوطه لا يقدر أحدٌ أن يأتيه، كما سيأتي في براءة في قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠] تلك الجنود يعلمها الله ويراها، والناس لا يرونها، فالكفار لا يقدرون على شيء معها، ولكن الله أمره بهذه الأسباب، مع أن جنود الملائكة تحوطه لحكمة يعلمها هو (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ لأن مكره بالغ من الجمال ما لا يخفى؛ لأنه لا يوصل الشر فيه إلا لمن يستحق الشر، ولا يدفع الشر فيه إلا عمن هو أهل أن يدفع عنه الشر كما لا يخفى.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣١].

قال بعض العلماء[1]: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث بن كلدة العبدري، كان ذهب في تجارته إلى بلاد فارس، وجاء الحيرة وغيرها، واشترى كتباً وفيها تاريخ رستم وإسفنديار، وكان إذا وجد النبي ﷺ يقرأ القرآن ويقص فيه أخبار الأمم الماضية. جلس هو يقرأ عليهم من تلك الأساطير من أخبار رستم وإسفنديار ويقول لهم: أنا آتي بمثل ما يأتي به محمد.

وقال بعض العلماء: إن قريشاً كذبوا فقالوا: نحن نقدر على أن نتكلم بمثل هذا القرآن. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٥٠٣)، تفسير ابن أبي حاتم (٥/١٦٨٩). ابن كثير (٢/٣٠٤).

قَدْ سَمِعْنَا﴾ [الأنفال: الآية ٣١] سمعنا هذا الذي يتلوه لو نشاء معارضته بمثله لقلنا مثله، وقدرنا على الإتيان بمثله. وهذا كذب محض منهم، سواء قلنا: إن قائله النضر بن الحارث، وأنه يعارضه بأساطير الأولين مما أتى به من تاريخ فارس، أو قلنا: إنه قاله غيره من قريش، ومعلوم أن القرآن العظيم لا يقدر أحدٌ أن يأتي بمثله، وأن هذه الدعوى كاذبة، وأن صاحبها من أظلم الظالمين كما قدمنا إيضاحه في سورة الأنعام في تفسير قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية ٩٣] أي: لا أحد أظلم من هذا ولا هذا. فقد ذكرنا مراراً أن الله تبارك وتعالى تحدىٰ الكفار بسورة من هذا القرآن العظيم، في سورة واحدة، في سورة البقرة وسورة يونس، قال في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٣] ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: الآية ٢٤] فصرّح بأنهم لن يفعلوا أبداً ولا يقدرون أبداً، وتحداهم بسورة واحدة أيضاً في سورة يونس في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: الآية ٣٨] وتحداهم في سورة هود بعشر سور، قال في هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: الآية ١٣] ثم أوضح عجزهم وأنه منزل من رب العالمين حيث قال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: الآية ١٤] ثم تحداهم في سورة الطور بالقرآن كله، وذلك في قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: الآية ٣٤]. ثم صرّح في سورة بني إسرائيل وهي سورة (سبحٰن الذي أسرى) أن جميع البشر من الإنس والجن لا يقدرون على معارضة هذا القرآن، ولا الإتيان بمثله حيث قال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: الآية ٨٨] وبذلك يُعلم كذب النضر بن الحارث وغيره من قريش في قوله: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: الآية ٣١] مفعول (نشاء) محذوف ـ لو شئنا قولاً مثل هذا لقلناه. وقد قدمنا مراراً[١] أن فعل المشيئة إذا عُلق بأداة الشرط يُحذف مفعوله؛ لأن جزاء الشرط يكفي عنه، وهو الغالب في القرآن وفي لغة العرب، وربما ذكر المفعول في القرآن، ولم أجده مذكوراً في كتاب الله إلا إن كان مصدراً منسبكاً من (أن) وصلتها، كقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: الآية ١٧] ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: الآية ٤] وربما ذُكر مثل هذا في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[٢] ـ:

ولو شئتُ أن أبكي دماً لبكيتُه ... عليك ولكن ساعةَ الصَّبرِ أوسَعُ

وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. (إن) هذه هي النافية، والإشارة في (هذا) إلى القرآن المعبَّر عنه بالآيات التي تتلى في قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: تُلي عليهم هذا القرآن قالوا: كذا وكذا، وقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ ما هذا القرآن المعبَّر عنه بالآيات التي تتلى ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الأساطير: جمع أسطورة أو إسطارة، وهي ما كتبته الأمم الماضية من تاريخ ونحوه[٣]، كما كان النضر بن الحارث يأتي بالأساطير التي كانت مكتوبة عن فارس. وهذا معنى قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣١] يزعمون أن النبي استملاها من غيره، فأملاها عليه غيره فكتبها، كما قال في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: الآية ٥] قبحهم الله، ما أوضح كذبهم!! وهذا معنى قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣١].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) انظر: المفردات للراغب (مادة: سطر) ص٤٠٩، المعجم الوسيط (مادة: سطر) (٤٢٩/١).

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ٣٢، ٣٣] ثبت في صحيح مسلم والبخاري من حديث أنس بن مالك أن قائل هذه المقالة: أبو جهل ـ لعنه الله ـ عمرو بن هشام بن المغيرة[(١)]. والأكثرون من المفسرين يقولون[(٢)]: إن قائل هذه المقالة: النضر بن الحارث. وهذا الدعاء هو العذاب الأليم المذكور في أول سورة المعارج سورة سأل سائل[(٣)] ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ﴾ أي: دعا داعٍ ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [المعارج: الآيتان ١، ٢] قالوا: هو قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: الآية ٣٢]. ولن يُعْقَل أحمق من قريش حيث قالوا: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾. ولو كانوا في مرتبة أدنى العقلاء لقالوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه!! زعم بعضهم[(٤)]: أن يهودياً مر بابن عباس وقال له: أنت من قريش؟! قال: نعم. قال: إن قومك من أجهل خلق الله حيث قالوا: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ ولم يقولوا: فاهدنا إليه!! فقال له ابن عباس: وكذلك قومك أنت من أجهل خلق الله فإنهم وأرجلهم بها بلل البحر الذي أنقذهم الله منه وأهلك به عدوهم ـ قالوا في ذلك الوقت لنبيهم ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ فقال نبيهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٨] فسكت اليهودي مفحماً. وعلى كل حال

---

(١) البخاري في التفسير، باب: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ حديث رقم: (٤٦٤٨) (٨/٣٠٨). ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. حديث رقم: (٢٧٩٦) (٤/٢١٥٤).

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٥٠٥)، ابن كثير (٢/٣٠٤).

(٣) النسائي في التفسير (٢/٤٦٣)، والحاكم (٢/٥٠٢)، وابن أبي حاتم (٥/١٦٩٠)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٤٥، وعزاه في الدر (٦/٢٦٣) للفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٤) نقله القرطبي (٧/٣٩٨) مُصَدِّراً له بقوله: «حُكي عن ابن عباس...». ولم يعزه.

من يقول مقالة قريش هذا فهو من أجهل خلق الله، وأشدهم تمرداً وعتواً على الله.

وقوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ذكروا عن سفيان بن عيينة أنه ما جاء في القرآن العظيم المطر إلا بمعنى العذاب. أما الماء النازل قال: فإن العرب تقول له الغيث[١]. كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى: الآية ٢٨] واستدرك عليه بعض العلماء[٢]، قال: في سورة النساء كلمة أطلق فيها المطر على النازل من السماء وهي قوله: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ [النساء: الآية ١٠٢].

ومعنى: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾. معناه: أنزلها من السماء متتابعة كما ينزل المطر، وهي حجارة السجيل التي تنزل من السماء محماة بالنار في غاية الحرارة. والحجارة: جمع حجر، وجمع (فَعَل) على (فِعَالَة) موجود في أوزان قليلة، كحجر وحِجَارة، وجَمَل وجِمَالة، وذَكَر وذِكَارَة. وهذا الجمع وجوده قليل، وهو من جموع الكثرة.

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تكون هذه الحجارة نازلة من السماء، وذلك مفهوم من قوله: ﴿فَأَمْطِرْ﴾ إلا أن هذا النوع من التوكيد أسلوب عربي معروف كثير في القرآن وفي كلام العرب[٣]، كقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨] ومعلوم أنه لا يطير إلا بجناحيه وقوله: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٧٩] ومعلوم أنه لا يكتبونه إلا بأيديهم. ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ﴾ [النساء: الآية ١٠] وهم لا يأكلون إلا في بطونهم. وكذلك قوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مع أنه لا مطر إلا من السماء.

---

(١) أورده البخاري في التفسير، في ترجمة باب ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ...﴾. الفتح (٣٠٨/٨).

(٢) انظر: فتح الباري (٣٠٨/٨)، فقه اللغة للثعالبي ص٣٥٣، المفردات للراغب ص٧٧٠، تفسير ابن عاشور (١٢٤/١).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة، والآية (٤٨) من سورة الأنعام، وانظر: الدر المصون (٥٩٧/٥).

وهذا معنى قوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قرأه بعضهم بتسهيل الهمزة الثانية، وبعضهم بتحقيقها، وبعضهم بإبدالها ياءً. وكلها قراءات معروفة[١]. وهذا معنى قوله: ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: الآية ٣٢] أي: مؤلم شديد الألم.

ثم إن الله قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٣] هذه الآية الكريمة تُشكل كثيراً على العلماء وعلى من يتعاطون التفسير[٢]، ونحن - إن شاء الله - سنوضح ما فيها من الإشكال حتى يفهمها طالب العلم فهماً واضحاً - حاصل هذا أنه أولاً جعل لهم أمانين من العذاب:

أحد الأمانين: وجود رسول الله ﷺ بين أظهرهم، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ لأن الله (جل وعلا) لم ينزل العذاب بأمة ونبيها موجود فيها، بل إذا أراد إنزال العذاب بهم أمر نبيهم أن يخرج عنهم فينزل عليهم العذاب بعد أن فارقهم.

الأمان الثاني هو المذكور في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

ومع ذكر الأمانين قال بعده: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: آية ٣٤] أيُّ شيء ثبت لهم يمنعهم من التعذيب ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، ويفعلون ويفعلون؟ فيقول طالب العلم: كيف يقول: إن لهم أمانين ويصرح بأنه لا شيء يمنعهم من العذاب؟ هذا محل الإشكال الذي أشكل على كثير من المنتسبين للعلم.

والجواب عن هذا من أربعة أوجه:

---

(١) مضت عند تفسير الآية (٧٧) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٥٠٩)، ابن كثير (٢/٣٠٥).

أحدها: أن المعنى: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، فخرج رسول الله ﷺ فبقي المستغفرون.

واعلموا أن هذا الاستغفار فيه أقوال معروفة عند العلماء متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً، كل واحد منها مروي عن جماعة من السلف من علماء التفسير[١]، قال بعض العلماء: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ هذا من إطلاق المجموع مُراداً به بعضه، وأن المراد بالمستغفرين خصوص المؤمنين المستضعفين. الكائنين بين أظهرهم، ومن أساليب اللغة العربية: إطلاق المجموع مراداً بعضه[٢]. كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: الآية ١٤] والعاقر واحد، كما قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: الآية ٢٩] ومما يوضح هذا قراءة حمزة والكسائي[٣]: ﴿فإن قتلوك فاقتلوهم﴾ [البقرة: الآية ١٩١] بالفعلين من القتل بالفعل المجرد؛ لأن المقتول لا يقتل قاتله - والمعنى: فإن قتلوكم، أُسند الفعل إلى مجموعهم الصادق ببعضهم وهو المقتولين، والمراد بالقتال: الذين بقوا ولم يُقتلوا منهم. وهذا أسلوب عربي معروف، ونظيره في القرآن بأن الله بين في سورة الحديبية أن وجود أولئك المستضعفين كان سبباً مانعاً من نزول العذاب الدنيوي بالكفار، كما سيأتي إيضاحه في تفسير قوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: الآية ٢٥] ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي: لو يتميز بعضهم عن بعض، فتميز المشركون عن ضعفاء المسلمين الكائنين فيهم لعذبناهم عذاباً شديداً فرفع الله عنهم العذاب لوجود ضعفاء المسلمين الكائنين بين أظهرهم. والذين قالوا هذا القول قالوا: خرج رسول الله ﷺ فبقي لهم أمان، وهو استغفار المؤمنين الكائنين فيهم، منع الله به أن ينزل العذاب؛ لأنه إذا نزل عَمَّ الصالح والطالح. فبعد ذلك خرج المؤمنون الذين كانوا

---

(١) المصدران السابقان.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

يستغفرون فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤] وقد زال عنهم الأمانان بخروج رسول الله ﷺ وخروج المستضعفين الذين كانوا يستغفرون.

واختار كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير (رحمه الله)[1] أنه جعل لهم أمانين: أحدهما على التعليق والمعنى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال: الآية ٣٣] لو استغفروا. إلا أنك أنت خرجت وهم لم يستغفروا فانتفى الأمانان فحق عليهم العذاب؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤]. وهذا معنى معروف في كلام العرب؛ لأن المعنى: وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون لو استغفروا، إلا أنهم لم يستغفروا فصار لا مانع من العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝١١٧﴾ [هود: الآية ١١٧] أي: لو كانوا مصلحين لما نزل بهم العذاب، لكنهم لم يصلحوا فنزل بهم العذاب.

وقال بعض العلماء: المستغفرون هم المشركون، وذلك أنهم كانوا إذا لبوا تلبيتهم المعروفة وقالوا: «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» ابتهلوا بعد ذلك يستغفرون وقالوا: «غفرانك ربنا، غفرانك ربنا، غفرانك ربنا» قال بعض العلماء: هذا الاستغفار الدنيوي دفع الله عنهم به العذاب. وهذا أضعفها وأبعدها.

القول الثاني: أن معنى ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾: يتوبون إلى الله من كفرهم ويُسلمون؛ لأن الله علم بأن في أهل مكة وقت قولهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٢] علم بعلمه الأزلي أن فيهم ناساً وطائفة سينيبون إلى الله ويستغفرونه ويؤمنون بالله كما آمنت خلائق منهم يوم الفتح وناس قبل ذلك. وعلى هذا القول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ﴾ في علمه ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ويتوبون من الكفر إلى الإيمان، فلذلك أخّر عنهم العذاب.

---

(١) جامع البيان (١٣/٥١٧).

وعلى هذا القول: فقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ في الذين علم في سابق علمه أنهم لا يسلمون ولا يتوبون، وهم الذين عذبهم الله وقتلهم يوم بدر، وجعل لهم عذاب الآخرة متصلاً بعذاب الدنيا والعياذ بالله.

وهذه هي الأوجه في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٣] ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أيُّ شيء ثبت لهم يمنعهم من تعذيب الله لهم ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤] (يصدون) تستعمل استعمالين[1]: تستعمل متعدية ولازمة، فإذا استعملت متعدية فمصدرها (الصَّد) على القياس، ومضارعها (يَصُد) بضم الصاد لا غير، وإذا استُعملت لازمة فمصدرها (الصدود) على الأغلب، وفعلها المضارع يجوز في عينه الكسر والضم، تقول: صَدَّ زيدٌ عَمْراً يَصُدُّه صَدّاً. ويَصُد بالضم لا غير، وتقول: صَدَّ زيدٌ عن هذا الأمر إلى غيره، يَصِدُّ ويَصُدُّ صدوداً، وعلى ذلك القراءتان[2] في قوله: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: الآية ٥٧] ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ﴾ [الزخرف: الآية ٥٧] والفعل هنا متعدي، والمفعول محذوف، أي: يصدون الناس عن بيت الله الحرام، عن المسجد الحرام، كما صدوا النبي ﷺ وأصحابه في غزوة الحديبية، كما سيأتي في قوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح: الآية ٢٥] وكما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [المائدة: الآية ٢] وإخراجهم النبي ﷺ وأصحابه من مكة من صدهم عن المسجد الحرام. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤] وكانت قريش إذا صدوا بعض الناس عن المسجد الحرام قالوا: هذا البيت بيتنا، ونحن أولياؤه، فولايته لنا، فنترك من نشاء، ونصد من نشاء!! فبيّن الله كذبهم فقال: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤] ما أولياء هذا البيت ولاية حقيقية

(١) انظر: المفردات (مادة: صدد) ص٤٧٧ .

(٢) مضت عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

إلا الذين يؤمنون بالله ويتقون الله، أما الكفرة الفجرة فليسوا بأوليائه، وإن زعموا أنهم أولياؤه. فهذا معنى قوله: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال بعض العلماء[1]: عبر هنا بالأكثر عن الجميع، والعرب تعبر بالأكثر عن الجميع، وبالقلة عن لا شيء، وهو أسلوب معروف.

وقال بعض العلماء: الأكثر على ظاهره؛ لأن بعضهم يعلم أن ولاية بيت الله لمن هو مطيع لله لا من هو عاصٍ له. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤].

١/٤ / ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٣٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٣٧﴾ [الأنفال: الآيات ٣٥ ـ ٣٧].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٣٥﴾ [الأنفال: الآية ٣٥].

بين الله (جل وعلا) في هذه الآية أن كفار مكة الذين يزعمون أنهم أولياء البيت، ما كانوا يصلون عنده، ولايعبدون الله عنده، يعني: ليس لهم من الصلاة فيه إلا شيء هو بعيد كل البعد عن الصلاة، يعني: ما كان صلاتهم عند البيت الذي هو أول بيت وضعه الله للناس ما كانت صلاتهم عنده إلا مكاء وتصدية والتحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه في معنى المكاء والتصدية[2]: أن المكاء هو: الصفير، والتصدية هي: التصفيق.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٨/٥٥)، البحر المحيط (٤/٤٩١)، وراجع ما مضى عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٥٢١)، ابن كثير (٢/٣٠٦)، الأضواء (٢/٣٥١).

كان قريش يجتمعون ويطوفون بالبيت عراة، يصفرون ويصفقون، يزعمون أن هذا التصفير والتصفيق والعري عند بيت الله أنه عبادة، ومن أغراضهم بالتصفير والتصفيق: ألّا يسمع الناس ما يتلوه النبي ﷺ؛ لأن التصفيق والتصفير أصله من إلغائهم ليمنعوا من سماع القرآن، الآتي في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: الآية ٢٦].

العرب تقول: مَكَا، يَمْكُو، مَكْواً، ومُكَاً، ومُكَاءً، إذا: صفر.

والصفير: هو الصوت الذي يخرجه الإنسان من فيه، المعروف، وهذا معنىً معروف في كلام العرب، يُسمون التصفير: المكاء. وقد أطلقه عنترة في معلقته على صوت الطعنة العظيمة يشخب منها الدم ويُسمع لها صوت كالصفير في قوله(١):

وَحَلِيلِ غَانِيةٍ تركت مُجَدّلاً تَمكُو فريصتُه كَشِدْق الأَعْلَمِ

قال بعض العلماء: أصله كصوت المُكَّاء. والمُكَّاء: طائر أبيض معروف يصوّت تصويتاً كالصفير، وهذا الطائر معروف في كلام العرب، وفيه يقول الشنفرى(٢):

ولا خَرِقٍ هَيْقٍ كأن فؤاده يظل به المُكَّاءُ يعلُو ويسفُلُ

وقال بعضهم(٣):

إذا غَرَّدَ المُكَّاء في غير رَوْضَةٍ فَوَيْلٌ لأهْلِ الشَّاءِ والحُمُراتِ

وقوله: ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ التحقيق أنه مصدر (صدّىٰ، يُصدِّي، تصدية) إذا صفَّق. لأن التصفيق يرتفع به صدى الصوت، هذا هو الصحيح في المعنى خلافاً لمن قال: إن أصله: تَصْدِيْدَة أُبدلت الدال الأخيرة ياء، وأنها (تَفْعِلَة)

---

(١) ديوانه ص١٢٣.

(٢) البيت في ديوانه ص٥٧.

(٣) البيت في القرطبي (٤٠٠/٧)، الدر المصون (٦٠٠/٥).

من الصَّد؛ لأنهم يصدون الناس عن المسجد الحرام[1]. والأول هو الصحيح. والمعنىٰ: أن هؤلاء الكفار الذين يزعمون أنهم أولياء البيت الحرام كيف يكونون أولياءه، وكيف يمتنعون من نزول العذاب ولا صلاة لهم عند البيت إلا الصفير والتصفيق؟ هذه صلاتهم عند البيت!! وإذا كانوا لا صلاة لهم عند البيت إلا الصفير والتصفيق فمعنىٰ ذلك أنهم لا صلاة لهم أصلاً عنده ألبتة. وهذا أسلوب عربي معروف، تقول العرب: «لا له كذا إلا كذا» ويكون ذلك بعيداً منه، فيدل على الانتفاء المطلق، وهذا أسلوب عربي معروف يكثر في القرآن وفي كلام العرب، قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: الآية ٢٩] إن كانوا لا يُغاثون إلا بهذا الماء الذي يشوي الوجوه فلا إغاثة لهم أبداً، وهذا كثير في كلام العرب، ومنه قول بشر بن أبي حازم[2]:

غَضِبَتْ تَميمٌ أن تُقتَّل عامرٌ يَوْمَ النسار فأُعْتِبُوا بالصَّيْلَمِ

معناه: أُرضوا بالسيف، فإن كانوا لا عُتْبَى لهم ولا رضا إلا السيف معناه: لا عُتْبى ولا رضاً لهم أصلًا، ومنه قول الآخر يصف ناقته[3]:

شَجْعَاءَ جرتها الذميل تلوكُه أصلاً إذا راح المطي غراثا

يقول: إن ناقته ليس لها من الجِرَّة إلا الذميل. والذميل: ضرب من السَّيْر. والجِرَّة: هي أن الناقة - مثلًا - في النهار تأكل المرعى، فإذا كان الليل أخرجت ما في بطنها فمضغته لترققه، يعني: إن كانت لا جرة لها إلا جرر المشي فلا مأكل لها ولا جرة. وأمثال هذا كثيرة في كلام العرب،

---

(١) قال في الدر المصون (٥/٦٠١) ما ملخصه: والتصدية فيها قولان:
أحدهما: أنها من الصَّدى، وهو ما يُسمع من رجع الصوت في الأمكنة الخالية الصلبة. يُقال منه: صَدِي يَصْدَى تَصْدِيَة. وقيل: هي مأخوذة من التَّصْدِدَة وهي الضجيج والصياح والتصفيق، فأُبدلت إحدى الدالين ياءً تخفيفاً.
والثاني: أنه من الصَّد، وهو المنع، والأصل: (تَصْدِدَة).

(٢) البيت في الدر المصون (٩/٥٦).

(٣) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ص٦٦.

وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ أيها الكفرة الزاعمون كذباً أنكم أولياء البيت وأنكم قُطّان بيت الله الحرام، وأنكم أهدىٰ من محمد ﷺ ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الباء سببية، و(ما) مصدرية، أي: بسبب كفركم.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن التصفيق والتصفير ليسا من العبادة في شيء، وبه يُعلم أن ما يفعله كثير من الجهلة المدعين للتصوف كذباً من الرقص والتصفيق والصراخ، زاعمين أنه عبادة أن ذلك من الخذلان وتلبيس الشيطان، وأن ذلك لا يكون عبادة أبداً، بل أول من رقص وصفق في شيء يظنه عبادة هم عبدة العجل، وكان ذلك من أفعال الكفار، فالنبي ﷺ وأصحابه كانوا في مجالسهم كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا رأيتم الذين يصفقون ويضربون بالمعازف، ويزعمون أن هذا دين وأحوال ووجدان، فهو غرور من الشيطان، فلا ينبغي أن يُغتر بهم، كما ظن قريش أن مكاءهم وتصديتهم عند بيت الله الحرام عبادة، فقد وبخهم الله على ذلك في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٥].

ثم قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦] قال بعض العلماء[١]: نزلت هذه الآية في المطعمين في بدر الذين ينحرون عشراً أو تسعاً، وقد ذكرناهم في ذكرنا لهذه الغزوة[٢]، وبينّا أن المؤرخين يقولون: إن أول من نحر لهم: أبو جهل عشراً من الإبل، ثم نحر لهم أمية بن خلف تسعاً بعسفان، ثم نحر لهم سهيل بن عمرو عشراً بقديد، ثم ذهبوا إلى المياه من ناحية الساحل، وأقاموا هناك يوماً، فنحر لهم شيبة بن أبي ربيعة[٣] ذلك القدر من الإبل، ثم أصبحوا بالجحفة، فنحر لهم أخوه

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٤٩٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥) من سورة الأنفال.

(٣) هكذا في الأصل، والصواب: ابن ربيعة.

عتبة، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم منبه ونبيه ابنا الحجاج السهميان المشهوزان الذين هم ممن قُتلوا يوم بدر، ثم نحر لهم العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه)، ونحر لهم أبو البختري بن هشام عشراً على ماء بدر، فهذه الإبل التي ينحرون ينفقونها ليصدوا عن سبيل الله.

وقال بعض العلماء[1]: نزلت في أبي سفيان بن حرب، أنفق أربعين أوقية على جماعة من الأحابيش - والأحابيش: جمع أُحبوش، وهم جماعة متجمعون ساكنون في ظواهر مكة، أنفق عليهم - أربعين أُوقية ليذهب معه جماعة منهم إلى أُحُد.

والذي عليه جمهور العلماء من المفسرين وأصحاب المغازي والتاريخ: أن هذه الآية من سورة الأنفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦] نزلت في قضية قريش مع عير أبي سفيان؛ لأن عير أبي سفيان لما نجت وقُتل من قُتل من أشرافهم يوم بدر اجتمع أشراف قريش وطلبوا كل من كانت له تجارة في تلك العير أن يمنحهم ذلك المال ليستعينوا به ويستعدوا على حرب النبي ﷺ طالبين منهم إدراك الثأر، فكانت إمكانيات أُحد هي من أموال تجارات تلك العير، وأن ذلك هو معنىٰ إنفاقهم ليصدوا عن سبيل الله. هذا هو الأصوب إن شاء الله، وعليه جماهير العلماء.

﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ كإنفاقهم أرباح تجارة عير أبي سفيان ليحاربوا بها النبي ﷺ، ليصدوا الناس عن سبيل الله، في زعمهم أنهم يأخذون ثأرهم من محمد ﷺ فيُضْعِفُون الإسلام ويُقَوُّون الكفر. هذا معنىٰ صدهم عن سبيل الله.

وقد قدمنا مراراً[2] أن لفظة (صد) تستعملها العرب استعمالين، تستعملها (صد) متعدية إلى المفعول ومضارع هذه (يصُد) بالضم على

(١) انظر: ابن جرير (٥٢٩/١٣)، ابن كثير (٣٠٧/٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

القياس لا غير، ويستعملون (صد) لازمة لا متعدية، ومضارع هذه فيه الضم والكسر، ومصدرها (الصدود)، تقول: «صد زيدٌ عَمْراً، يصُده صَداً، وصد عمرو عن هذا الأمر، يَصِد ويصُد صدوداً». هذا معروف في كلام العرب، ومن اللازمة ولُغتَيْها: القراءتان[1] في قوله: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ﴾ [الزخرف: الآية ٥٧] وهذه متعدية، والمفعول محذوف لدلالة المقام عليه، وحذف الفضلة إذا دل الدليل عليها مطرد شائع في القرآن وفي كلام العرب، أي: ليصدوا الناس عن سبيل الله، لإضعاف الإسلام في زعمهم وقوة شوكة الكفر، حتىٰ يسيطر على الناس فلا يتركهم يسلمون. هذا معنىٰ قوله: ﴿لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ كأنه قال: إن الذين أرادوا ذلك سيفعلونه وينفذونه، ثم تكون العاقبة وخيمة ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ الحسرة: أشد الندامة، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ﴾ [البقرة: الآية ١٦٧] أي: ندامات شديدة ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس: الآية ٣٠] أي: يا ندامتهم احضري فهذا وقتك، وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ندامة شديدة حيث أضاعوها ولم تُجدِ عنهم شيئاً، بل كانت الدائرة منتهاها عليهم، والغلبة عليهم، وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦] ثم يكون المآل أن يُغلبوا ويُقهروا كما كان المآل أن قُتل هؤلاء وفُتحت مكة يوم فتح مكة، وصاروا الطلقاء، وضاعت تلك الأموال، ولم تُجْدِ عنهم شيئاً، ولم تغن لهم شيئاً.

وهذه الآية الكريمة أشارت إلى ركنٍ من ركني ما يسمىٰ (الاقتصاد)؛ لأن القرآن العظيم تنزيل رب العالمين، يوضح الله به أصول جميع الأشياء التي يحتاج لها البشر، والنبي ﷺ يبسط ذلك ويبينه، وهذا الذي يعبر الناس عنه اليوم في عرفهم بـ (الاقتصاد)، أشارت هذه الآية الكريمة إلىٰ أحد ركنيه، وإيضاح ذلك أن ما يسمى بـ(الاقتصاد) أن جميع مسائله المتشعبة راجعة في الحقيقة إلى أصلين لا ثالث لهما:

---

(١) مضت عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

أحد هذين الأصلين: هو حسن النظر في اكتساب المال، ومعرفة الوجوه التي يحصل بها ذلك.

والثاني منهما: هو حسن النظر في صرف المال في مصارفه، ولا بد لأحدهما من الآخر، فالاقتصاد إذن عمل مزدوج لا يصح أحد ركنيه دون الآخر؛ لأن الذي لا يقدر على اكتساب المال، ولا يعرف الطرق التي يكتسبه بها لا يكون صاحب اقتصاد، وكذلك الذي يعرف طرقه وهو ماهر في تحصيله، إذا كان لا يعرف صرفه بالحكمة فإنه لا يجديه شيئاً؛ لأن الإناء المخروق لو جعلت فيه البحر لما ملأه، فلا بد من حسن النظر في الاكتساب أولًا، ثم حسن النظر في الصرف ثانياً. وهذه الآية الكريمة من سورة الأنفال أشارت إلى أحد الركنين، وهو حسن النظر في الصرف في المصرف؛ لأن الصنيعة إذا لم تطابق مصرفها فلا فائدة فيها:

إن الصَّنيعة لا تُعدّ صنيعةً حتى يُصَاب بها طريق المَصْنَعِ[١]

والبذل فيما لا يجدي ليس من الاقتصاد في شيء، وإنما هو تبذير، وقد ذم بعض الأدباء من يعطي ويمنع غير مركز ذلك على الحكمة فقال[٢]:

لا تَمْدَحَنَّ ابنَ عباد وإن هَطَلتْ يداهُ كالمُزنِ حتى تُخجِل الدِّيَما
فإنها فلتات من وَساوسه يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرما

فقوله في هذه الآية: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: الآية ٣٦] بينت أن الصرف فيما لا يرضي الله أنه ندامة وحسرة، وأنه إخلال بأحد ركني الاقتصاد، فلا بد أن يكون الصرف واقعاً موقعه فيما يرضي من خلق هذا الكون.

وهذا الأمر - الذي هو الاقتصاد - أمر عظيم؛ لأن المال شريان الحياة، ولا سيما في هذا الزمن التي كانت طرق الاقتصاد إنما مهّدها ومهد

---

(١) البيت في تاريخ دمشق (٢٧/٢٩٤)، الكامل ص١٧٩ وذكره الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (١/٤٧) وهو لعيسى بن يزيد البجلي، أو للهذيل الأشجعي.

(٢) البيتان لدعبل بن علي الخزاعي، وهما في ديوانه ص١٧٠.

جميع الطرق إلى اكتساب الأموال كائنة ما كانت، مهدها كفرة فجرة لا يدينون لله، ولا يأتمرون بأمره، فجعلوا أسسها مبنية على الربا وعلى الحرام، وعلى الغرر وعلى جميع المعاملات التي لا ترضي الله، ومع الأسف كان المتسمون باسم الإسلام ذَنَباً لهم يرتكبون المحرمات في تلك المعاملات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونحن نلم بشيء قد دلت عليه هذه الآية كأصول لهذا الأمر المهم، لأن هذه الآية، والآيات غيرها من كتاب الله دلت على أن له أربعة أمور، إذا نظر الناس فيها وأتقنوها كان اقتصادهم على الوجه المطلوب؛ لأنا ذكرنا الآن أن جميع مسائل الاقتصاد وإن تشتت وتشعبت راجعة في الحقيقة إلىٰ أصلين لا ثالث لهما، هما: حسن النظر في اكتساب المال، وحسن النظر بعد أن يحصل المال في صرفه في مصارفه. وهذان الركنان لا بد لكل منهما من نظرتين مختلفتين، فتكون أربعاً من ضرب اثنين في اثنين، والنظرتان المختلفتان لا بد منهما لكل من الركنين.

أما أحدهما: فهو معرفة حكم الله (جل وعلا) في نوع ذلك الاكتساب، وفي نوع ذلك الصرف؛ لأن الله (جل وعلا) خلق الإنسان محتاجاً للنساء، ومفتقراً للغذاء، وخلق له ما في الأرض جميعاً، ولم يتركه سدىً يتصرف فيه باختياره، بل التصرف لا بد أن يكون بإذن مالك الملك، خالق هذا الكون (جل وعلا)، فالنظرة الأولىٰ إذا أردت أن تكتسب مالاً بوجه من أوجه الاكتساب، أو تصرف مالاً في وجه من أوجه الصرف أن تعرض هذا الاكتساب أو هذا الصرف على ضوء هذا المحكم المنزل، ونور هذا الوحي الذي جاء به محمد ﷺ، فتنظر أيجيزه أو يمنعه؟ فإن عرفت أنه يمنعه تركته؛ لأن خالق هذا الكون المشرع لهم ما جعل عليهم تضييقاً في التشريع، وما شرع لهم إلا ما فيه السعة الكاملة لهم تكفيهم كل مهماتهم، وإذا نظرت في حكم الله، في طرق الاكتساب، وفي حكم الله في صرف المال؛ لأن بعض المصارف التي يصرف فيها المال قد تكون على صاحبها حسرة ثم يغلب، كما قال هنا: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦] وبهذه النظرة أن تنظر في وجه اكتساب المال

وفي وجه صرفه في مصرفه إذا عرضتها على ضوء القرآن، وما جاء به محمد ﷺ كفاك هذا من الفِكَر الهدامة، والمذاهب المفقرة الخسيسة - عليها وعلى من جاء بها لعائن الله - كنظرة الماركسيين، واللينيِّين، وأتباعهم - دمرهم الله جميعاً - فإن هذا إذا عرضته على كتاب الله وجدت ذلك الذي يدعون إليه ويبنون عليه نحلتهم لا يجيزه الله ولا يرضاه، فاكتفيت شره بالكلية.

ثم بعد ذلك إذا عرضت وجه الاكتساب ووجه الصرف على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وعرفت أنه جائز؛ فالنظرة الثانية: هي تحقيق المناط وتطبيق هذا، فقد يكون هذا الوجه الاكتساب به حلالًا إلا أنه ما كل الناس يقدر على تحصيل هذا الوجه والاكتساب بهذه الطريق، فيُنظر له من يعرف ذلك بالخبرة الدنيوية ليقدر على تحصيل المال به في ضوء الشرع الكريم، وكذلك الصرف في المصارف يحتاج إلى من يقدر عليه؛ لأن بعض المصارف لا يقدر كل الناس أن يقوم به، ولا سيما ما يسمونه (المشاريع العامة) فإنه ما كل الناس يقدر على تنفيذها، فإن المشروع العام الذي عُرف أن الشرع يجيزه، وأن فيه مصلحة لجميع المسلمين، وأن ولي أمر المسلمين إذا بذل فيه من مال المسلمين كان ذلك البذل جائزاً، لعظم المصلحة العائدة لعامة المسلمين منه، فإنه يحتاج إلى خبراء دنيويين يعرفون كيف ينفذون ذلك الصرف على الوجه المطلوب.

فهذه الأركان الأربعة أشارت إليها هذه الآية، وهي أصول الاقتصاد، ولو وفق الله المسلمين ونظروا في أصول الاقتصاد، وما جاء به من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ لأمكنهم استغلال ثرواتهم، والانتفاع بها في ضوء كتاب الله على طريق يغمرهم فيها المال، ولا يزاولون ما يسخط ربهم (جل وعلا)؛ لذا قال تعالى: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦]، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: الآية ٣٦] ومن جملتهم: الذين ينفقون المال ليصدوا بإنفاقه عن سبيل الله ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: إلى النار، كما قال

(جل وعلا)، في أصحاب جهنم: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: الآية ٤٤] والعياذ بالله ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يُجمعون يوم القيامة، وقد بين الله كيفية جمعهم إليها في آيات كثيرة من كتابه، كما قال: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: الآية ٨٦] وقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآية [الزمر: الآية ٧١] وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ وتقديم المعمول الذي هو الجار والمجرور يؤذن بالحصر. أي: لا يحشرون إلى شيء غير النار والعياذ بالله جل وعلا.

وقوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٧] قال بعض العلماء[١]: اللام في قوله ﴿لِيَمِيزَ﴾ تتعلق بقوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦].

قرأه حمزة والكسائي: ﴿**ليُمَيِّزَ الله الخبيث من الطيب**﴾ وقرأ باقي السبعة: ﴿لِيَمِيزَ﴾ بفتح الياء وكسر الميم[٢].

كما أن حمزة والكسائي قرءا: ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: الآية ٣٥] بإشمام الصاد الزاي[٣]. وقرأ غيرهم من السبعة: ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ بالصاد الخالصة غير المشمة بالزاي.

وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ حشرهم الله إلى جهنم ليميز بذلك ـ يزيّل ويفرق ـ بين الخبيث والطيب، فالخبيث أهل النار، والطيب أهل الجنة، فالله حشر هؤلاء إلى شر دار، وحشر هؤلاء إلى خير دار ليميز ويفرق ويُزيّل بين الخبيث والطيب، وعلى هذا القول فالمَيْزُ بينهم في الآخرة، وقال بعض العلماء[٤]: هي تتعلق بقوله: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦] يعني: أقدر الله الكفار على

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤٩٣/٤).
(٢) انظر: الإتحاف ص (٧٩/٢).
(٣) السابق.
(٤) انظر: ابن كثير (٣٠٧/٢).

عداوة الإسلام والصد عنه ومحاربته ليُميز للناس ويبين لهم الخبيث من الطيب. وهذا التفسير مثله قد جاء موضحاً في سورة آل عمران، حيث قال الله جل وعلا: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٩] إلى آخر القصة. وهذا معنى قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: يجعل كل واحد منهما متميزاً عن الآخر، منفصلاً عنه لا لبس بينهما، ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ﴾ وهو الكفار، الكفر وأهله. قال بعضهم: ويدخل فيه المال المنفق ليصد به عن سبيل الله. وعلى هذا القول فالمال الذي ينفقه الإنسان ليصد به عن سبيل الله، يركم معه في النار، كما قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٣٤ ـ ٣٥] فصرح في هذه الآية من براءة أن ذلك الذهب والفضة الذي كانوا يكتنزونه يدخل معهم في النار ويكوون به فيها، فهذا يشابه هذا التفسير الذي قال: إن المال الخبيث الذي صرفه صاحبه في الدنيا للصد عن سبيل الله أنه يركم معه في جهنم، فيعذب به، وقد ثبتت الأحاديث عنه ﷺ أن الذي كانت عنده ماشية ولا يزكيها تُجعل لها في ضحضاح من جهنم، فتدوسه بأرجلها[1] (والعياذ بالله)، هذا معنى قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ﴾ من أهل الكفر وما كانوا ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله ﴿بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾، العرب تقول: ركمه يركمه، إذا جعله ركاماً متراكماً، أي: يركب بعضه بعضاً، ويعلو بعضه بعضاً، كما في قوله: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: الآية ٤٣] فيجعله كله في النار ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ هؤلاء الذين يُجمعون كلهم فيركمون في جهنم موصوفون بصفة الخبث هم الخاسرون الذين غُبنوا في حظوظهم من ربهم (جل وعلا)، وخسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

---

(١) مسلم في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة. حديث رقم: (٩٨٧) (٢/٦٨٠).

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٣٨ ـ ٤٠].

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٨].

لما بين الله (جل وعلا) أن الكفار يُحشرون إلىٰ جهنم، وأنهم يضم بعضهم إلى بعض فيُركم بعضهم فوق بعض فيجعلون في نار جهنم، أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: إنهم إن انتهوا عما هم عليه من الكفر، ورجعوا إلىٰ ما يرضي ربهم فآمنوا به وصدقوا رسوله، يغفر لهم جميع ما سلف منهم من الكفر، ولا يكون عليهم ذنب من جميع ما مضىٰ. ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ يا نبي الله قل لهم ﴿إِن يَنتَهُوا۟﴾ لم يقل له: خاطبهم، حتىٰ يقول: إن تنتهوا يغفر لكم ما قد سلف. كأنه أمره بتبليغهم: إن ينتهوا عما هم عليه من الكفر يُغفر لهم. وحذف الفاعل لأن من المعلوم أنه لا يغفر ما سلف إلا الله وحده، فليس هنالك غيره، يحتمل أن يكون هو الفاعل؛ ولذا حذف الفاعل للعلم به وعدم الحاجة إلى ذكره؛ لأنه معروف ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾. وقوله: ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: ما مضىٰ قبل انتهائهم من جميع ما ارتكبوه من أنواع الكفر والمعاصي، وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ ﴿وَإِن يَعُودُوا۟﴾: اختلف العلماء في المراد بالعود هنا[1]، فقال بعض العلماء: هذه الآيات من سورة الأنفال نزلت بعد وقعة بدر، والمعنىٰ ﴿وَإِن يَعُودُوا۟﴾ للقتال كما فعلوا يوم بدر ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: طريقة الله فيما مضىٰ بين رسله وأتباعهم وبين الكفرة[2].

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٥٣٦)، القرطبي (٧/٤٠٣).

(٢) المصدران السابقان.

قال بعض العلماء: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني الذين هلكوا منكم فقتلوا وأُسروا يوم بدر، مضت سنة الله فيهم، فأظهر عليهم نبيه، ونصره عليهم، فإن عدتم إلىٰ القتال أجرىٰ عليكم تلك السنة؛ لأنه لا تجد لسنة الله تبديلاً. وقال بعض العلماء: المراد بالأولين الأمم الماضية ممن قبلنا؛ لأن كل أمة كذبت رسولها وتمردت علىٰ ربها أهكلها الله (جل وعلا)، يعني: وإن تعودوا إلى ذلك الكفر والطغيان أهلككم كما فعل بجميع الأمم قبلكم ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٤٤] وهذان الوجهان في قوله ﴿سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سنة الله فيهم، وأصل السنة: الطريقة والشريعة، والشريعة في اللغة: الطريق، والشرائع: الطرق، وكون السنة هي الطريق الذي يُمشىٰ عليه، أمر معروف في كلام العرب، ومنه قول لبيد بن ربيعة في معلقته[١]:

من معشر سنَّتْ لهم آباؤهم ولكلِّ قومٍ سنَّةٌ وإِمَامُها

أي: طريقة متبعة، وطريقة الله مع الكفرة أنهم إن كذبوا رسله وتمردوا عليه أهلكهم، كما نطقت به الآيات القرآنية بكثرة، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

وقال بعض العلماء: المراد بالعَوْد هنا: الاستمرار، أي: وإن يستمروا على ما هم عليه من الكفر فقد مضت سنة الأولين. وربما أطلقت العرب ابتداء الفعل على دوامه، مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: الآية ١] أي: استمر ودم على تقواه. هذان الوجهان في قوله: ﴿وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٨].

وأمر الله النبي ﷺ وأصحابه قال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: الآية ٣٩] (لا تكون) مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة بعد (حتىٰ)، و (لا) النافية لا تمنع من ذلك النصب ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال أكثر العلماء[٢]: المراد بالفتنة هنا: الشرك. أي: حتىٰ لا يبقىٰ شرك على

(١) شرح القصائد المشهورات (١/١٠٤).

(٢) انظر ابن جرير (١٣/٥٣٨).

وجه الأرض. ويدل لهذا المعنىٰ قوله بعده ـ يليه ـ: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ لأن الدين لا يكون كله لله إلا إذا لم يبق على وجه الأرض شرك، فعندئذٍ يكون الدين كله لله. ويؤيد هذا المعنىٰ وهذا التفسير الذي دلت عليه القرينة القرآنية قوله ﷺ: **«أُمرت أن أُقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»**[1]. هذا هو الأظهر. وجاء في صحيح البخاري في تفسير هذه الآية عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) ما يدل على أن المراد بالفتنة: فتنة الرجل عن دينه، كالمستضعف الذي إذا آمن حبسوه وأوثقوه، أو قتلوه حتىٰ يترك دينه[2]، يعني: قاتلوهم حتىٰ ينتشر الإسلام، وتتكسر شوكة الكفر، بحيث لا يقدرون على رد إنسان عن دينه، ولا قتل إنسان ولا ضربه ولا إيثاقه بسبب الإسلام؛ لأنهم كانوا في أول الإسلام يفتنون الضعفاء عن دينهم، فكان أمية بن خلف ـ قبحه الله ـ يعذب بلالاً فيضجعه في نهار الصيف في رمضاء مكة، فيضع الحجارة على صدره ويعذبه ليكفر بمحمد ﷺ، وهو يقول: أحد أحد. وكذلك أوذوا كثيراً، فقُتل في ذلك أبو عمار بن ياسر وأمه، وأما هو فلما أرادوا أن يفعلوا به ذلك وخاف القتل قال كل ما يريدون منه، فسب رسول الله ﷺ، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ إيضاح قصته في الآية النازلة به في سورة النحل في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ الآية [النحل: الآية ١٠٦]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: الآية ٣٩] والقول الأول يدخل فيه هذا؛ لأنه إذا انتفى الشرك لا يكون هناك كافر يفتن المسلمين عن دينهم، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن كفرهم وأسلموا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿بِمَا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

(٢) البخاري في التفسير، باب: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾. حديث رقم: (٤٦٥٠) (٨/٣٠٩). وانظر الحديث بعده رقم: (٤٦٥١).

﴿يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو بصير بعملهم يجازيهم عليه، ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ [الأنفال: الآية ٤٠] أعرضوا ولم يرجعوا عن كفرهم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم عليهم، لا يحزنكم توليهم وإعراضهم وإصرارهم على الكفر، فالله مولاكم ناصركم عليهم، و (المولى) وزنه في الميزان الصرفي (مَفْعَل) من الولاية، والمولى في لغة العرب[1]: هو كل من ينعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويواليك؛ ولذا كثر إطلاق المولى على ابن العم؛ لأن عصبية العمومة تجعله ينتصر لك وتنتصر له. وقد أطلق الموالي على العصبة في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: الآية ٣٣] العصبة الوارثون. ومنه قول الفضل بن العباس من ذرية أبي لهب[2]:

مَهْلاً بني عَمِّنَا مَهْلاً مَوَالِينا ... لا تظهروا لنا ما كان مَدْفُونَا

ومن هذا المعنى قول طرفة بن العبد[3]:

وأَعْلَمُ عِلْماً لَيْسَ بالظَّنِّ أَنَّهُ ... إذَا ذَلَّ مَوْلَى المرءِ فهو ذَلِيلُ

ولكون المولى في لغة العرب يطلق على كل من بينك وبينه سبب موالاة يواليك بها وتواليه بها، وكثرت معانيه فأطلق على بني العم، وعلى العصبة، وعلى المعتَقِيْن، والمُعْتِقِين بالفتح والكسر، وعلى الناصر، وعلى الصاحب؛ لأن كلّاً ينعقد بينك وبينه سبب، فلما انعقد بين الكفار وبين النار سبب تجعلهم يدخلونها، ويخلدون فيها، وهي تؤذيهم بحرها قال تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الحديد: الآية ١٥] فجعل النار مولاهم لانعقاد السبب بينهم وبينها بكفرهم، وكونها دار الله التي يُعذب بها أعداءه، فهذا معنى قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٠] وهذه ولاية نصر.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) البيت في الكامل للمبرد (١٤١٠/٣)، القرطبي (٧٨/١١)، الدر المصون (٥٦٧/٧). وقائله هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب، من شعراء بني أمية. وصدر الشطر الثاني: «لا تنبشوا بيننا».

(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.

وقد أُطلقت الولاية في القرآن بالنسبة إلىٰ الله (جل وعلا) إطلاقين: أُطلق المولىٰ بمعنىٰ الولاية الخاصة، وهي: النصر والتمكين والتوفيق، كقوله هنا: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ [التحريم: الآية ٤] وهذا كثير في القرآن؛ ولذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمد: الآية ١١] أي: لا مولى لهم ولاية نصر وتمكين. وأطلق المولىٰ صادقاً بالكفار؛ لأنها ولاية خلق وقدرة وربوبية وملك، وهو في قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ﴾ [الأنعام: الآية ٦٢] وهي في الكفار؛ لأنه مولى الكفار ولاية ملك وتصرف ونفوذ قدرة، ومولى المؤمنين ولاية نصر وتمكين وثواب. فهذا معنىٰ قوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾.

﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (نعم) فعل جامد لإنشاء [المدح][١]. والتحقيق أنه فعل ماض جامد[٢]؛ لأن تاء التأنيث تدخل عليه:

نِعْمتْ جَزَاءُ المتقين الجنَّة دارُ الأَمَاني والمُنَى والمنَّة[٣]

خلافاً لمن زعم أن (نِعْم) اسم. قالوا: لأن أعرابياً قيل له: ولدت امرأتك بنتاً. فقال: ما هي بنعم الولد[٤]، فأدخل عليها حرف الجر الذي هو الباء، ودخول حرف الجر من علامات الاسم. والمحققون من علماء العربية: أن (نِعْم وبئس) فعلان ماضيان جامدان لإنشاء [المدح أو][٥] الذم. قالوا: وقول الأعرابي: ما هي بِنِعْم الولد. وقول الآخر: نِعْمَ السَّير على بِئْسَ العَيْر[٦]. محكي قول محذوف، أي: ما هي بولد مقول في جنسه نِعْم، نِعْمَ الولد.

---

(١) في الأصل: «الذم». وهو سبق لسان.
(٢) انظر: شرح شذور الذهب ص٢١، ضياء السالك (١/٤٠)، (٣/٩١).
(٣) البيت في شرح شذور الذهب ص٢١.
(٤) انظر: ضياء السالك (١/ص٤٠)، (٣/٩١).
(٥) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.
(٦) المصدر السابق.

وقوله: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (المولىٰ) فسرناه الآن، و (النصير): (فَعِيْلٌ) بمعنىٰ (فَاعِل)، بمعنىٰ الناصر، وأصل النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم، وتخليصه بالإعانة من الظلم، فالله (جل وعلا)، كأنه في هذه الآية بيَّن الثناء على نفسه، الثناء الكامل الذي يستحقه في ولايته لأوليائه، ونصره لهم.

قال بعض العلماء: بين (المولى) و(النصير) عموم وخصوص من وجه، يجتمع (المولىٰ) و(النصير) في بني عمك وعصبتك إذا كانت لهم قدرة على نصرك، وإعانتك على عدوك، فإذا جاء دونك بنو عمك وعصبتك ومنعوك من أعدائك، اجتمع فيهم أن كل واحد منهم مولى، وأنه نصير، وينفرد (المولى) عن (النصير) في قرابتك وعصبتك إذا كانوا ضعفاء، لا يقدرون علىٰ نصرتك، فالواحد منهم مولى وليس بنصير، إذ لا طاقة له على النصر، وينفرد (النصير) عن (المولىٰ) بالأجنبي الذي ليس بينك وبينه سبب ولاية إذا نصرك وأعانك ومنعك من عدوك، فهو نصير وليس بمولىٰ. وهذا واضح.

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ٤١، ٤٢].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤١].

(اعلموا) معناه: تيقنوا؛ لأن العلم إذا أُطلق في القرآن معناه اليقين في

جميع القرآن، وقد جاء في حرف في سورة الممتحنة إطلاق العلم مراداً به الظن الغالب، وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: الآية ١٠] ﴿عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: الآية ١٠] أي: غلب على ظنكم، ظناً قوياً مزاحماً لليقين، ولا يكاد العلم في غير هذا الموضع يُطلق في القرآن إلا مراداً به اليقين الجازم، الذي لا يخالجه ظن ولا وَهْمٌ ولا شك.

﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ (ما) موصولة، و (أن) مصدرية، أن الذي غنمتم من شيء، وصيغ الموصول قد تقرر في علم الأصول أنها من صيغ العموم[1]؛ لأن الموصول يعم كل ما تشمله صلته، و ﴿مِن شَيْءٍ﴾ بيان للموصول، من شيء كائناً ما كان، إلا ما سنذكره مما أخرجه دليل مُخصِّص.

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ قراءة جماهير القراء، منهم السبعة: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ وفي بعض الروايات الضعيفة عن بعض السبعة: ﴿فإن لله خمسه﴾ وقد رواه الجعفي عن أبي عمرو[2]، أما الرواية التي عليها جمهور القراء، وهي رواية السبعة الصحيحة عنهم: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ وهنا محذوف دل عليه المقام: فحقه أن لله خمسه، أو: فواجب حتم أن لله خمسه. والخُمس معروف، ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذه الآية الكريمة من سورة الأنفال قد تضمنت أحكاماً كثيرة من أحكام الجهاد، ومن أحكام الغنائم[3]، وقد يحتاج لها المسلمون؛ لأنا نرجو الله (جل وعلا) أن يرفع علم الجهاد، ويقوي كلمة لا إله إلا الله، وأن تخفق رايات المسلمين في أقطار الدنيا، فيحتاجون إلى تعلم ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أحكام الجهاد، ولما كان القرآن العظيم هو مصدر جميع العلوم؛ لأنه الكتاب الذي حوىٰ جميع العلوم، وكانت أصول جميع الأشياء كلها فيه، أردنا هنا أن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: البحر (٤٩٩/٤).

(٣) انظر: هذه التفاصيل في الأضواء (٣٥١/٢).

نبين جُملاً من الأحكام التي أشارت إليها هذه الآية الكريمة، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ معناه: الذي غنمتم، وهي الغنائم التي يحوزها المسلمون من أموال الكفار إذا انتصروا عليهم فقهروهم، وأموال الكفار على قسمين[1]:

قسم: ينتزعه المسلمون منهم بالقوة والغلبة.

وقسم: يصل إلى المسلمين من غير انتزاع بالقوة من أهله الكفار.

والاصطلاح المشهور عند الفقهاء أن بينهما فرقاً، أن الغنيمة هي ما ينتزعه المسلمون بالقوة من الكفار، أما ما ييسرُهُ الله للمسلمين بلا قتال فهو المُسمى بـ (الفيء) وحكمهما مختلف على التحقيق الذي عليه جماهير العلماء ودل عليه القرآن؛ لأن الفيء هو المال الذي يناله المسلمون من الكفرة من غير أن ينتزعوه بالقوة، ولا أن يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب، كأموال بني النضير، فإنهم نزلوا على حكم النبي ﷺ، ومكنه الله من أموالهم من غير أن تنتزع منهم بالقوة، وقد سمح لهم النبيّ ﷺ أن يحملوا على الإبل ما قدروا أن يحملوه، واستثنى السلاح كما ستأتي تفاصيله في سورة الحشر؛ لأنها كلها نزلت في قصة بني النضير، هذا هو الفيء، وهو المذكور في سورة الحشر، وقد نص الله في سورة الحشر على أن مصارفه هي مصارف خُمس الغنيمة؛ لأنه قال هنا: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] وقال هناك: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ فبين بقوله: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: الآية ٦] الفرق بين الفيء والغنيمة؛ لأنه مال لم تنتزعوه بالقوة والسلاح من أهله، ولم تسرعوا في انتزاعه على الخيل والركاب التي هي الإبل. ثم قال مبيناً مصارفه وأنها هي مصارف الخُمس: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: الآية ٧] مثل ما ذكر هنا في مصارف الخُمس سواء بسواء، وشذ بعض العلماء فقال: إن الفيء والغنيمة

(١) السابق (٣٥٢/٢).

سواء. وهذا القول مشهور عن قتادة وطائفة من العلماء، وهو قول وإن كانت تساعده اللغة فالشرع والحقيقة الشرعية لا تساعده؛ لأن العرب تُطلق في لغتها الفيء علىٰ جميع ما يُغنم، وهو معنىٰ معروف في كلامها، ومنه قول مهلهل بن ربيعة التغلبي أخي كليب[١]:

فلا وأبي جليلة ما أفأنا ... من النعم المؤبل من بعير
ولكنا نهكنا القوم ضرباً ... على الأثباج منهم والنحور

يعني: لم نشتغل بالغنائم، وإنما اشتغلنا بقتل الرجال.

وربما أُطلق الفيء في القرآن مراداً به كل غنيمة، كقول قتادة، وذلك في قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٠] لأن المسبيات حكمها في هذا سواء، سواء كانت فيئاً أو غنيمة، إلا أن الاصطلاح المعروف هو التفرقة بين ما أُوجف عليه بالخيل والركاب، وبين ما أُخذ عفواً من غير انتزاع بالقوة، كما قال هنا: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ فبيّن أنهم غنموه وانتزعوه منهم قهراً، وقال في الآخر الذي هو الفيء: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: الآية ٦] فكيف تستحقونه ولم تنتزعوه بالقوة، ولم توجفوا عليه بالخيل ولا الإبل؟!

والإيجاف: الإسراع كما هو معروف.

وهذه الآية الكريمة دلت علىٰ أن أربعة أخماس الغنيمة [أنه][٢] للمجاهدين الغانمين الذين غنموها؛ لأن قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية يدل علىٰ أن المعنىٰ: وأما الأخماس الأربعة فهي للغانمين المجاهدين، ويدل علىٰ ذلك إسناده غنيمته إليهم في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ وهذا هو

---

(١) البيتان من قصيدة يرثي فيها أخاه كليباً، ونص البيتين كما في ديوانه ص٤١، وفي «شعراء النصرانية قبل الإسلام» ص١٧٠ هكذا:

فلا وأبي أُميمة ما أبوها ... من النعم المؤثل والجزور
ولكنا طعنا القوم طعناً ... على الأثباج منهم والنحور

والبيتان ذكرهما الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٢/٣٥٣) كما هنا.

(٢) في الأصل: «أنهم».

التحقيق، وعليه جماهير العلماء، أن أربع أخماس الغنيمة للمسلمين المجاهدين الذين غنموها، تُقسم بينهم بالسواء، وأن خُمس الغنيمة هو يُصرف في هذه المصارف المذكورة وسنوضحها ـ إن شاء الله ـ واحداً واحداً. هذا هو المذهب الحق وعليه جماهير العلماء، وخالف في هذا قوم من العلماء ـ منهم طائفة من علماء المالكية وغيرهم[1] ـ قالوا: إن الغنائم كلها والفيء شيء واحد، وأن التصرف فيه كله لرسول الله ﷺ يعطي الغانمين ما شاء ويمنعهم ما شاء. وهذا القول وإن قال به جماعة من المالكية وغيرهم من العلماء فهو خلاف التحقيق.

والذين قالوا هذا القول استدلوا بأدلة كلها مردودة مجاب عنها، قالوا: من أدلته أن الغنائم هي الأنفال، وقد تقدم في أول السورة قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: الآية ١] فصرح بأنها لله وللرسول ﷺ ولم يجعل للغانمين فيها حقاً مستقلاً إذا لم يشأ الرسول ﷺ أن يعطيهم. قالوا: ويتأيد هذا بأمور، منها: أن النبي ﷺ لم يقسم مكة حين افتتحها عنوة، وأنه (صلوات الله وسلامه عليه) في غزوة حنين لما أخذ غنائم هوازن أعطىٰ صفوان بن أمية ما ملأ بين جبلين من الغنم، وأعطى عيينة بن حصن مائة من الإبل، والأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطىٰ عطايا كثيرة، ولم يعط الأنصار منها شيئاً، حتى غضب الأنصار وقالوا: يعطي الغنائم عنا لقريش وسيوفنا تقطر من دمائهم!! فعلم النبي ﷺ بما قالوا فأرسل مَنْ جمعهم وقال: «**ألم أجدكم متعادين فألف الله بين قلوبكم بي؟!**» قالوا: بلىٰ. قال: «**ألم أجدكم علىٰ شفا حفرة من النار فأنقذكم الله منها بي؟**» قالوا: بلىٰ يا رسول الله ـ ﷺ ـ. فلما عدّد عليهم بعض النعم التي أنعم الله عليهم بسبب رسول ﷺ اعترفوا بذلك كله وسكتوا، قال لهم: «**ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟!**» قالوا: وكيف نجيب رسول الله ﷺ؟؟! قال: «**قولوا: ألم يكذبك الناس فصدقناك؟ ألم يُعادك الناس فآويناك ونصرناك؟!**» ثم قال: «**يا معشر الأنصار ألا ترضون بأن يرجع الناس إلى بيوتهم بالشاة والبعير، وترجعون إلى بيوتكم برسول الله ﷺ؟**» قالوا: رضينا

---

(١) انظر: المغني (٩/٣٠٤) القرطبي (٨/٢)، الأضواء (٢/٣٥٤).

برسول الله ﷺ قسمة. وطابت نفوسهم[١]. قال قائل هذا القول من المالكية وغيرهم من العلماء كقتادة: لو كانت الغنيمة مستحقة للغانمين ولم يكن للإمام أن يفعل فيها كيف يشاء، كيف يفضّل النبي ﷺ المؤلفة قلوبهم كالأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وصفوان بن أمية ويمنع الأنصار، والأنصار أحق؟! وكيف يفضّل الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري علىٰ العباس بن مرداس السلمي وهو حسن الإسلام جداً؟! وقد غار منهم العباس بن مرداس حتىٰ قال شعره المشهور، قاله أمام النبي ﷺ لما أعطىٰ عُيينة مئة، والأقرع مئة، وأعطىٰ العباس بن مرداس قليلاً، قال: مخاطباً لرسول الله ﷺ[٢]:

أتجعل نهبي ونهب العُبيدِ ... بين عُيينةَ والأقْرعِ
وما كان حصن ولا حابس ... يفوقانِ مرداسَ في مجمعِ
وما كنت دون امرىء منهما ... ومن تضع اليومَ لاَ يُرفعِ
وقد كنت في الحرب ذَا تُدْرَإٍ ... فلم أُعطَ شيئاً ولم أُمنعِ

---

(١) أصل هذا الخبر في البخاري، (من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه) كتاب المغازي، باب: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان. حديث رقم: (٤٣٣٠) (٤٧/٨) وأخرج بعضه برقم (٧٢٤٥). ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام...، حديث رقم: (١٠٦١) (٧٣٨/٢). ومن حديث أنس عند مسلم في نفس الكتاب والباب، حديث رقم: (١٠٥٩) (٧٣٣/٢ ـ ٧٣٧). وأخرجه أحمد (٧٦/٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) جاءت هذه الأبيات في روايات متعددة على تفاوت بينها في بعض الألفاظ مع زيادة في بعض الأبيات، ففي صحيح مسلم (١٠٦٠) وغيره الاقتصار على الأبيات الثلاثة الأولى، وبعضهم يزيد رابعاً، وأكثر ما وقفت عليه سبعة أبيات وهي عند ابن هشام في السيرة، وفي سُبل الهدى والرشاد (٣٩٩/٥) هكذا:

كَـانَـتْ نِـهَـابـاً تَـلاَفَـيْـتُـهَـا ... بِـكَـرِّي عَـلَـى الْـمُـهْـرِ فِـي الأَجْـرَعِ
وَإِيـقَـاظِـيَ الْـقَـوْمَ أَنْ يَـرْقُـدُوا ... إِذا أَهْـجَـعَ الـنَّـاسُ لَـمْ أَهْـجَـعِ
فَـأَصْـبَـحَ نَـهْـبِـي وَنَـهْـبُ الْـعُـبَـيْـ ... ـدِ بَـيْـنَ عُـيَـيْـنَـةَ وَالأَقْـرَعِ
وَقَـدْ كُـنْـتُ فِـي الْـحَـرْبِ ذَا تُـدْرَإٍ ... فَـلَـمْ أُعْـطَ شَـيْـئـاً وَلَـمْ أُمْـنَـعِ
وَإِلاَّ أَفَـائِـلَ أُعْـطِـيـتُـهَـا ... عَـدِيـدَ قَـوَائِـمِـهَـا الأَرْبَـعِ
وَمَـا كَـانَ حِـصْـنٌ وَلاَ حَـابِـسٌ ... يَـفُـوقَـانِ مِـرْدَاسَ فِـي الْـمَـجْـمَـعِ
وَمَـا كُـنْـتُ دُونَ امْـرِئٍ مِـنْـهُـمَـا ... وَمَـنْ تَـضَـعِ الْـيَـوْمَ لاَ يُـرْفَـعِ

وإلا أبــاعــيــرَ أُعــطــيــتُــهــا عــديــدَ قــوائــمــه الأربــعِ
وكــانــت نِــهَــابــاً تــلافــيــتُــهــا بِكَرّي على المُهْرِ في الأَجْرَعِ
وإيــقــاظِــيَ الــقــومَ أن يــرقُــدُوا إذا هَــجَــعَ الــنــاسُ لــم أهــجَــعِ

إلى آخر شعره. قالوا: لو كانت الغنيمة للغانمين لما فضل الأقرع وعيينة على العباس بن مرداس وهو أحسن منهما إسلاماً، ولما فضل المؤلفة قلوبهم على الأنصار وهم أحسن منهم إسلاماً. قالوا: فعطايا النبي هذه ـ ﷺ ـ كما أعطى من مئات الإبل، وأعطىٰ من الورق والرقيق، وأعطىٰ صفوان بن أمية ما ملأ بين جبلين من الغنم، قالوا: هذا يدل على أن الغنيمة ليست استحقاقاً محضاً للغانمين، وإنما يفعل الإمام فيها ما يشاء، قالوا: وكذلك لما فتح مكة لم يغنم أموال أهل مكة، ولم يقسم دورها ولا أرضها [فلو كان قَسْمُ الأخماس الأربعة على الجيش واجباً لفعله ﷺ لما فتح مكة. قالوا: وكذلك غنائم هوازن في غزوة حنين، أعطى منها عطايا عظيمة جداً للمؤلفة قلوبهم. وأجاب الجمهور عن كونه ﷺ][1] / أعطى ٤/ب
المؤلفة قلوبهم، وأعطىٰ عيينة مئة، والأقرع مئة، وصفوان ما ملأ بين جبلين غنماً ونحو ذلك من العطايا، أنه فعل ذلك بعدما استطاب نفوس الغانمين عنه، وأن الغانمين طابت له نفوسهم بذلك للمصلحة العامة، وهي تأليف قلوب الرجال الذين لهم شوكة عظيمة وأتباع كثيرون ليقوىٰ بهم الإسلام، وقد فعل ذلك برضا الغانمين وطيب أنفسهم عن ذلك له ﷺ، أما عدا كونه لم يقسم دور مكة ورباعها فقد أجاب عنه الشافعي (رحمه الله) جواباً لكنه غير ناهض بالحقيقة والإنصاف[2]؛ لأن الشافعي (رحمه الله) مع جلالته وعلمه يرى أن مكة المكرمة ـ حرسها الله ـ أنها فتحت صلحاً لا عنوة، ويظن أن قوله ﷺ: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن ألقىٰ السلاح فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو**

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وتم استيفاء النقص من كلام الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٢/٣٥٥) وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) انظر: الأضواء (٢/٣٥٦).

آمن»[١]. يظن أنها نوع صلح أو شبه صلح، والتحقيق الذي لا شك فيه: أن مكة - حرسها الله - إنما فُتحت عنوة وقهراً بالسيف لا صلحاً، وتأمين النبي ﷺ لبعض الناس لا يقتضي الصلح؛ لأن الصلح أمر عام. والدليل على أنها فتحت عنوة أمور كثيرة وأدلة واضحة لا لبس فيها[٢]، منها: ما ثبت في صحيح مسلم وغيره من وقوع القتال فيها يوم فتح مكة؛ لأن النبي ﷺ جعل خالد بن الوليد يوم فتح مكة على المُجَنِّبَة اليمنىٰ، وجعل الزبير بن العوام على المُجَنِّبَة اليسرىٰ، وجعل أبا عبيدة على الحُسَّر[٣] وأخذوا بطن الوادي، ولم يتلقهم أحد إلا أناموه، فقتلوا من قريش قوماً كما هو معروف. وهذا ثابت في الصحيح وغيره، ورجز حماس بن قيس المشهور يدل على ذلك؛ لأن حِمَاس بن قيس هذا رجل حليف لقريش، وكان يقول لزوجته: إنه يجعل لها أزواج رسول الله ﷺ خدماً، وكان يقول لها: إذا جئتك فارّاً فأغلقي الباب دوني، وكان يرتجز ويقول[٤]:

إنْ يُقْبِلُوا اليَومَ فما لي عِلَّهْ ... هَذَا سِلاَحٌ كَامِلٌ وأَلَّهْ
وذُو غِرَارَيْنِ سَرِيعُ السَّلَّهْ

وكان يوم فتح مكة اجتمع مع الجماعة الذين جاءهم خالد بن الوليد، فرأىٰ القتل وجاءها منهزماً، فقالت له: أين الذي كنت تقوله أنك تُخدمني نساءهم، وأني أغلق الباب دونك؟! فقال لها رجزه المشهور، وهو معروف عند علماء التاريخ وأصحاب المغازي[٥]:

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب فتح مكة. حديث رقم: (١٧٨٠) (١٤٠٥/٣) من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه). وأخرجه أبو داود في الخراج والإمارة، باب ما جاء في خبر مكة. حديث رقم: (٣٠٠٥، ٣٠٠٦) (٢٥٦/٨، ٢٥٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: صحيح مسلم (١٤٠٥/٣)، زاد المعاد (٤٢٩/٣)، الأضواء (٣٥٦/٢، ٣٧٣).

(٣) وهم الذين لا دروع لهم.

(٤) الأبيات في ابن هشام ص١٢٤٩، الأضواء (٣٧٥/٢).

(٥) تقدمت هذه الأبيات، ونصها في ابن هشام (ص١٢٥٠):

إنك لو شهدت يوم الخندمه ... إذ فر صفوان وفر عكرمه
وأبو يزيد قائم كالمؤتمه ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجمجمه ... ضرباً فلا يُسمع إلا غمغمه
لهم نَهِيتٌ خلفنا وهمهمه ... لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه

إنَّكِ لو شَهِدتِ يومَ الخَنْدَمَهْ إذ فرَّ صفوانُ وفرَّ عِكْرِمَهْ
واسْتَقْبَلَتْنا بالسيوفِ المسلمه لهم نَهِيتٌ خَلفنَا وهَمْهَمَه
يَقْطَعْنَ كلَّ سَاعِدٍ وجُمجُمه ضرباً فلا تسمع إلا غمغمه
لم تنطقي باللَّومِ أدنى كَلِمَه

وهذه الأدلة وغيرها تدل على أن مكة فُتحت عنوة لا صلحاً. ومن الأدلة على ذلك: ما ثبت في الصحيح أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) أمر بقتل مقيس بن صبابة، وابن خَطَل، وجاريتين معهما، ولو وُجدوا متعلقين بأستار الكعبة. ولو كانت مكة صلحاً لما أمر بقتل مقيس بن صبابة، وابن خَطَل، والجاريتين المذكورتين معهما[١]، كما هو ثابت معروف، ومما يدل على أنها فتحت عنوة ما ثبت في الصحيح عن أم هانىء أنها أجارت رجلًا من أحمائها بني مخزوم؛ لأن زوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي أجارته، وجعلت له الأمان، فجاءه علي ابن أبي طالب (رضي الله عنه) ليقتله، فشكته إلى النبي ﷺ، فقال ﷺ: **«أجرنا من أجرت يا أم هانىء»**[٢] فلو كانت مكة مفتوحة صلحاً لما أخذ علي السيف ليقتل المخزوميين الذين أجارتهما أخته أم هانىء (رضي الله عنها)، إلى غير ذلك من الأدلة.

ولكن التحقيق أن الأرض المغنومة لها حكم خاص سنبينه الآن؛ لأن الغنيمة أقسام[٣]، منها: ما هو كالذهب والفضة والحيوان، وهذا لا خلاف

---

(١) البيهقي في الدلائل (٥/٥٩)، وابن سعد في الطبقات (٢/١/٩٨). وذكره ابن هشام في السيرة ص١٢٥١، وابن القيم في بالزاد (٣/٤١١)، وابن كثير في تاريخه (٤/٢٩٧ - ٢٩٩) وأخرج الشيخان من حديث أنس (رضي الله عنه): «أن رسول الله ﷺ دخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر، فلما نزعه جاء رجل فقال: إن ابن خَطَل متعلق بأستار الكعبة. فقال: **«اقتلوه»**. البخاري في جزاء الصيد، باب دخول مكة بغير إحرام. حديث رقم: (١٨٤٦)، (٤/٥٩) وأطرافه: (٣٠٤٤، ٤٢٨٦، ٥٨٠٨). ومسلم في الحج، باب جواز دخول مكة بغير إحرام. حديث رقم: (١٣٥٧) (٢/٩٨٩).

(٢) البخاري في الصلاة، باب الصلاة في الثوب الواحد ملتحفاً به. حديث رقم: (٣٥٧) (١/٤٦٩)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى... حديث رقم: (٣٣٦) (١/٤٩٨).

(٣) انظر: القرطبي (٨/٤)، الأضواء (٢/٣٦٧).

عند من يُعْتَدُّ به من العلماء أنه يُقسم ويُخمَّس، أما أرض العدو التي فتحها المسلمون فللعلماء فيها أقوال[١]: فبعض العلماء يقول: عندما يستولي عليها المؤمنون تصير وقفاً عاماً للمسلمين. وهذا مذهب مالك (رحمه الله) وجماعة من العلماء.

وبعض العلماء يقول: يجب قسم الأرض المغنومة كما قسم النبي ﷺ أرض خيبر وأرض بني قريظة.

وجماعة من العلماء قالوا: الإمام مخير في ذلك، إن رأىٰ المصلحة في قَسْمِها قَسَمَها، وإن رأىٰ المصلحة في إبقائها وقفاً للمسلمين تركها وقفاً للمسلمين، فإذا اقتضىٰ نظر الإمام أن يقسمها قسمها وكانت مملوكة للغانمين، وكانت أرض عشورٍ لا أرض خراج، وإن رأىٰ الإمام أن يتركها لعامة المسلمين خزانة لهم ـ كما هو رأي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ـ تركها وقفاً للمسلمين، وكانت أرض خراج لا أرض عشور، يؤخذ الخراج ممن هو يستغلها ويكون لعموم المسلمين. وهذا المذهب بالتخيير هو الحق ـ إن شاء الله ـ والنبي ﷺ اختار أن يقسم أرض قريظة وأرض خيبر، واختار أن يترك قسمة دور مكة. وقد فهم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من فعل النبي ﷺ أن الأرض التي غنمها المسلمون واحتلوا بلادها بالقوة أن الإمام مخير فيها، فَهِمَ ذلك من فعل النبي ﷺ؛ ولذا ثبت عنه في الصحيح أنه قال: لولا آخر المسلمين لما فتحت علي قرية إلا قسمتها على الغانمين كما قسم رسول الله ﷺ أرض خيبر[٢]. وعمر لم يفعل هذا الصنيع متهجماً على كتاب الله في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾ الآية [الأنفال: الآية ٤١]. وإنما فهم من فعل رسول الله ﷺ التخيير في ذلك، وكلامه صريح في أنه يعتقد أنه مخير؛ لأنه قال: ـ «لولا آخر المسلمين لما فُتحت علي قرية إلا قسمتها كما قسم النبي ﷺ أرض خيبر» وهذا فيه مصلحة عظمىٰ؛ لأن الغانمين لو قسموا الأرض عندما غنموها فإن آخر المسلمين يكونون لا غلة

(١) القرطبي (١٨/٢٢ ـ ٢٣)، الأضواء (٢/٣٦٧).

(٢) البخاري في فرض الخمس، باب الغنيمة لمن شهد الوقعة. حديث رقم: (٣١٢٥) (٦/٢٢٤).

لهم، ويكون الإسلام وجيوش الإسلام والأموال التي يحتاج بها لحماية بيضة الإسلام وقمع الكفار وإقامة الجهاد يكون ذلك لا يوجد له شيء، فوجود تلك الأرضين الكثيرة لها خراج كثير عظيم يستعين به المسلمون على شراء السلاح، وتهيئة الجيوش، وتعبئة الرجال للقتال في سبيل الله (جل وعلا)، أن هذا هو المصلحة؛ ولأجل تخيير الإمام لم يقسم النبي ﷺ مكة، وقد ثبت أن النبي ﷺ قسم بعض خيبر ولم يقسم بعضها، قال بعض العلماء: البعض من خيبر الذي لم يقسمه رسول الله ﷺ إنما ترك قسمه لهذا الاختيار؛ لأنه مخير في القسم والإبقاء. والصحيح أن الذي لم يقسمه من أرض خيبر كان فيئاً؛ لأن بعض البساتين وبعض الأطراف من خيبر كانوا لم يُفتحوا ولم يؤخذوا عنوة ولم يُوجف عليهم بالخيل والركاب، فلما أُخذت قريظة نزلوا على حكم النبي ﷺ من غير أن يُؤخذوا بالقهر فكان فيئاً، وسمع بهم أهل فدك ففعلوا كذلك، فكانت فدك فيئاً للنبي ﷺ، هي وذلك البعض من قريظة. ومعلوم أن فدك وبعض قريظة كانا من الفيء الخالص لرسول الله ﷺ، وقد طلبته فاطمة (رضي الله عنها) أن يقطعها فدك فأبىٰ، وأقطعها أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) لمروان بن الحكم ظناً منه (رضي الله عنه وأرضاه) أن ما كان للنبي ﷺ ينتقل الحق فيه لولي أمر المسلمين بعده، وأن ذلك انتقل إليه، وأنه غني عنه بأمواله فوصل به بعض قُرَبَائه، وهو ابن عمه مروان بن الحكم رضي الله عن عثمان وأرضاه وعن جميع أصحاب النبي ﷺ[١].

وحاصل هذا أن التحقيق الذي لا شك فيه ـ إن شاء الله ـ أن الأموال المغنومة التي انتزعها المسلمون من الكفار أنها نوعان: الأرض، وغير الأرض. أما الأرض فلا يتعين قسمها بينهم، والإمام مخير فيها، فإن رأىٰ مصلحة المسلمين في قَسْمِها قَسَمَها، وإن رأىٰ مصلحة المسلمين في إبقائها وقفاً عليهم أبقاها وقفاً ينتفع بها آخر المسلمين. قال بعض العلماء: والقرآن يشير لهذا؛ لأنه لو لم يكن يبقىٰ لآخر المسلمين شيئاً لما قال الله في

(١) انظر: الأضواء (٢/٤١٢).

المستحقين: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ [الحشر: الآية ١٠] لأنه قال أولاً: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾ [الحشر: الآيات ٨ ـ ١٠] وقال بعض العلماء: لا دليل للغنيمة في آية الحشر هذه؛ لأنها في الفيء، قد أفتى مالك بن أنس (رحمه الله) أن الذين يسبون أصحاب رسول الله ﷺ أنهم لا حق لهم في فيء المسلمين، ولما نُوقش في ذلك قال: «هؤلاء الذين سَبُّوا أصحاب رسول الله ﷺ لا حق لهم في فيء المسلمين؛ لأن الله لما ذكر الذين يعطون فيء المسلمين من الأصناف قال: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ أهؤلاء من الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم؟» قالوا: لا. قال: «أهم من الذين قيل فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾» قالوا: لا. قال: «وأنا أشهد أنهم ليسوا من الصنف الثالث الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بل هؤلاء جاؤوا يسبونهم ويعيبونهم فليسوا منهم قطعاً، فتبين أنهم لا حق لهم»[1].

وعلى كل حال فجميع المال المغنوم يقسم بين الغانمين، والأرض فيها للعلماء ثلاثة مذاهب معروفة كل واحد منها لصاحبه عليه أدلة[2]:

أحدها: أنها تكون غنيمة وتقسم، وهو مذهب الإمام الشافعي، واستدل بعموم قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] وكان مالك بن أنس (رحمه الله) يرى أن أرض الكفار عندما

---

(١) استنباط مالك (رحمه الله) ذكره القرطبي في التفسير (٣٢/١٨) ونصه: «من كان يُبغض أحداً من أصحاب محمد ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غل فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ...﴾». وهو في ابن كثير (٣٣٩/٤).

أما المحاورة التي أوردها الشيخ (رحمه الله) فقد أورد نحوها السيوطي في الدر (١٩٨/٦) عن ابن عمر (وليس في موضوع الفيء). وأورد القرطبي (٣٢/١٨) نحوها عن علي بن الحسين كذلك (وليس في موضوع الفيء).

(٢) انظر: الأضواء (٣٦٧/٢).

يفتتحها المسلمون تصير بمجرد استيلاء المسلمين عليها وقفاً للمسلمين آخرهم يستوون فيها جميعاً لمصلحة الإسلام العامة، وللإعانة على تعبئة الجيوش، والرد عن بيضة الإسلام، والدفاع عن المؤمنين في المستقبل.

وقوم قالوا: يخير الإمام إن رأى قَسْمها مصلحة قسمها. وهذا مذهب الإمام أحمد، ويُروى عن أبي حنيفة نحوه والله تعالىٰ أعلم. وهذا القول بالتخيير هو أقواها دليلًا؛ لأنه تنتظم به الأقوال، وتجتمع به النصوص، والجمع واجب إذا أمكن. أما الأخماس الأربعة من الأرض المقسومة إذا اقتضى نظر الإمام أن يقسمها أو من غير الأرض كالذهب والفضة والخيل والإبل ونحو ذلك، أما هذه الأخماس الأربعة فهي للغانمين تقسم بينهم.

واختلف العلماء: هل يجوز للإمام أن ينفل من هذه الأخماس الأربعة شيئاً؟[1] فكان مالك بن أنس رحمه الله ـ إمام دار الهجرة ـ يرىٰ أن الإمام لا يجوز له أن ينفل شيئاً من هذه الأخماس الأربعة، وإنما ينفل من الخمس الذي قال الله فيه أنه لله وللرسول ولذي القربىٰ إلى آخر مصارفه.

وذهبت جماعة من العلماء إلىٰ أن للإمام التنفيل منه. وكون الإمام له التنفيل منه هو الحق ـ إن شاء الله ـ الذي قامت عليه النصوص الذي لا تكاد تدفع.

وتنفيل الإمام من الأخماس الأربعة التي هي للمجاهدين يكون على أنواع، منها: أن ينفل السرايا ويقول للسرية: أخرجي إلى أرض الكفار فما غنمت فقد نفلتك منه كذا، وقد جاء حديث ثابت عن النبي ﷺ أنه نفل السرايا في البدء الربع، وفي العودة الثلث. هذا حديث ثابت رواه مكحول[2] عن حبيب بن مسلمة[3]، وهو صحابي،

---

(١) السابق (٢/٣٥٧).

(٢) الحديث من رواية مكحول عن زياد بن جارية عن حبيب بن مسلمة.

(٣) أخرجه أحمد (٤/١٥٩، ١٦٠)، والدارمي (مع شيء من المغايرة في اللفظ والمعنى) (٢/١٤٧)، وأبو عبيد في الأموال ص٢٨٩، والحميدي (٢/٣٨٤)، وأبو داود في الجهاد، باب: فيمن قال: الخمس قبل النفل. حديث رقم (٢٧٣٣) (٢/٤٢٤)، وابن ماجه في الجهاد، باب: النفل. حديث رقم (٢٨٥٢) (٢/٩٥١)، وابن حبان الإحسان (٧/١٦١)، والحاكم (٢/١٣٣)، (٣/٣٤٧، ٤٣٢)، وابن الجارود (٣/٣٣٤). وانظر: صحيح أبي داود (٢/٥٢٥)، صحيح ابن ماجه (٢/١٣٩).

لا تابعي صغير[١]، ورواه بعضهم عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه[٢] ـ وهو ثابت، ومعنىٰ تنفيل الربع في البدءة وتنفيل الثلث في العودة: أن للإمام إذا كان المسلمون متوجهين إلى أرض الكفار أن يقول للسرية: اذهبوا إلى الكفار فما غنمتم منهم فقد نفلتكم ربعه. ولا ينفلهم أكثر من الربع، فيكون الربع خالصاً لهم، والباقي هم والمسلمون فيه سواء. وأما تنفيل الثلث في العودة: أن المسلمين إذا رجعوا من أرض الكفار ـ رجعوا من الغزو إلى بلادهم ـ فيجوز للإمام أن ينفل بعض السرايا في ذلك الوقت الثلث. والفرق بين البدءة والعودة: أن البدءة الكفار في غفلة، والمسلمون متوجهون لبلادهم فخبرهم أهون، وأما في الرجعة فالكفار في حذر ويقظة والمسلمون منصرفون عن بلادهم، فقضيتهم أصعب؛ ولذا نفل أكثر في الحالة الصعبة من الحالة التي هي أقل صعوبة[٣]. هذا ثابت ولا ينبغي أن يُختلف فيه، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله[٤].

وهذا الذي ذكرنا يدل على أن الجيوش إذا خرجت للقتال في بلاد الكفر، وذهبت سرية وغنمت شيئاً، أن الجيش كله شركاء لهم في ذلك الذي غنموه، ولا يختص به دونهم، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء؛ لأن العلماء مجمعون على أن جميع الجيش معهم فيما غنموا إلا ما نفلهم الإمام من ربع في البدءة أو ثلث في العودة.

ومن أنواع التنفيل الجائزة للإمام الثابتة عن النبي ﷺ: أن يرسل الإمام سرية ثم ـ مثلًا ـ يعطيهم أنصباءهم من الغنيمة وينفلهم ما شاء، فقد ثبت

---

(١) انظر: الإصابة (٣٠٩/١) الأضواء (٣٨٥/٢).

(٢) أخرجه الدارمي (١٤٧/٢)، وأبو عبيد في الأموال ص٢٩٠، والترمذي في السير، باب ما جاء في النفل. حديث رقم: (١٥٦١) (١٣٠/٤). وقال: «وفي الباب عن ابن عباس، وحبيب بن مسلمة، ومعن بن يزيد، وابن عمر، وسلمة بن الأكوع. وحديث عبادة حديث حسن» ا.هـ وانظر: ضعيف الترمذي ص١٨٤.

(٣) انظر: الأضواء (٣٨٦/٢).

(٤) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١١/١١)، مسائل ابن هانىء (١٠٥/٢)، المغني (٥٣/١٣).

في الصحيحين عن ابن عمر (رضي الله عنه) أنه أرسله النبي ﷺ مع سرية قبل نجد، فغنموا، وكانت سهمانهم اثني عشر بعيراً، اثني عشر بعيراً، ونُفِّلوا بعيراً بعيراً[١]، فنفلهم نصف السدس؛ لأن الواحد من الاثني عشر نصف سدسها. وهذا ثابت عن النبي ﷺ.

ومن أنواع التنفيل التي تجوز للإمام: أن ينفل بعض الجيش المقاتلين، ويعطيه شيئاً خاصاً لقوته وشدته على المشركين[٢]، وقد قدمنا حديث سعد بن أبي وقاص الدال على هذا في أول سورة الأنفال؛ لأن سعد بن أبي وقاص قُتل أخوه عمير بن أبي وقاص يوم بدر، قتله عمرو بن عبد ود العامري، ثم إن سعداً (رضي الله عنه) حمل [على][٣] المشركين، وقتل العاص بن هشام[٤]، وأخذ سيفه، وكان من أجود السيوف، فطلب النبي ﷺ أن ينفله إياه. وفي بعض روايات حديثه الثابتة أنه قال: ربما أعطاه النبي ﷺ لرجل لم يُبل بلائي. والنبي ﷺ منعه أولًا ثم أعطاه إياه آخراً، وقد ثبت في صحيح مسلم والبخاري أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يأكلون جالسين في بعض مغازيهم، حتىٰ جاءهم أعرابي على بعير، فقيد بعيره وجلس يأكل معهم، ونظر إليهم حتىٰ اطلع على علاتهم وعوراتهم، وهو جاسوس للعدو من المشركين، ثم ذهب يشتد، فجلس على بعيره وأثاره، فسار بعيره سيراً حثيثاً، فكاد أن يفوت الصحابة، فجرىٰ عليه رجل بناقة فلم تدركه، فجرىٰ عليه سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) وكان من السابقين على أرجلهم، وقد ضرب له النبي ﷺ سهمين في غزوة (ذي قرد) كما هو معروف، فذهب سلمة يشتد في أثره حتىٰ جاوز الناقة، ثم كان عند ورك البعير، ثم تقدم فأخذ بخطامه وأناخه، واخترط سيفه وضرب الأعرابي على الرأس فقتله،

---

(١) البخاري في فرض الخمس، باب: ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين. حديث رقم: (٣١٣٤) (٦/٢٣٧). وأخرجه في موضع آخر برقم: (٤٣٣٨).
ومسلم في الجهاد والسير، باب الأنفال. حديث رقم: (١٧٤٩) (٣/١٣٦٨).

(٢) انظر: الأضواء (٢/٣٨٦).

(٣) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٤) مضى عند تفسير الآية الأولى من هذه السورة، وراجع التعليق عليه في الحاشية هناك.

فقال النبي ﷺ: «**من قتل الرجل؟**» قالوا: سلمة بن الأكوع. قال: «**له سلبه أجمع**»[١]. فنفله إياه لأنه أدركه وهو في غاية الخفّة والسرعة، أدركه على رجليه فنفله سلبه.

ومن أنواع التنفيل الجائزة[٢]: قول النبي ﷺ: «**من قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه**»[٣]. وهذا قاله النبي ﷺ فثبت عنه في الصحيح يوم حنين. وذكر بعض العلماء أنه قاله يوم بدر أيضاً.

وكان مالك بن أنس (رحمه الله) يقول: ليس للإمام أن يقول هذا إلا بعد أن تنتهي المعركة، أما قبل انتهاء المعركة فلا يجوز للإمام أن يقول هذا؛ لأنه إن قال هذا قبل انتهاء المعركة أفسد نيات المجاهدين؛ لأن المجاهد يكون يقاتل الرجل ليأخذ سلبه فيكون يقاتل للدنيا لا لإعلاء كلمة الله، أما بعد أن تنتهي المعركة ويزول هذا المحذور فلا بأس أن يقول الإمام: من قتل قتيلًا فله سلبه. لأنه في ذلك الوقت لا محذور فيه من إفساد النية[٤]. وجماهير العلماء على أنّه لا مانع من أن يقول ذلك ابتداءً؛ لأن المسلمين وإن كان لهم رغبة في الغنيمة فكل من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله كما قاله ﷺ. وقد قال النبي ﷺ يوم حنين: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**»[٥]. والذي قتل هذا القتيل يكون له سلبه.

واختلف العلماء: هل يكون له سلبه دون تنفيذ الإمام، أو لا يملك السلب إلا إذا نفذه له الإمام[٦]؟ قولان معروفان بين العلماء، يستدل قائل كل من القولين عليه بأدلة كثيرة، وقد كان أبو قتادة (رضي الله عنه) يوم حنين

---

(١) مسلم في الجهاد، باب استحقاق القاتل سلب القتيل. حديث رقم: (١٧٥٤) (٣/١٣٧٤).

(٢) انظر: الأضواء (٢/٣٨٧).

(٣) البخاري في فرض الخمس، باب «من لم يخمس الأسلاب...» حديث رقم: (٣١٤٢) (٦/٢٤٧). ومسلم في الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل. حديث رقم: (١٧٥١) (٣/١٣٧٠).

(٤) انظر: المدونة (٢/٣١)، الكافي لابن عبد البر ص٢١٥.

(٥) تقدم تخريجه قريباً.

(٦) انظر: القرطبي (٨/٥)، المغني (١٣/٧٠)، الأضواء (٢/٣٩٠).

رأى رجلًا من المشركين يريد أن يقتل رجلًا من المسلمين فجاءه من خلفه فضربه على حبل عاتقه بالسيف، قال: فرجع إلي فضمّني ضمّة شممت منها ريح الموت ثم أدركه الموت فأرسلني. ثم لما جلس النبي ﷺ بعد انتهاء المعركة وقال: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**». قلت: من يشهد لي ـ بعد مرات ـ فقال رجل: صدق يا رسول الله سلبه عندي، أرضه منه. وقال له أبو بكر (رضي الله عنه): لا هاالله لا يعمد إلى أسد من أسود الله يقاتل عن الله ورسوله ويعطيك سلبه. فقال النبي ﷺ: «**صدق، أعطه سلبه**» قال أبو قتادة (رضي الله عنه): فاشتريت به مخرفاً ـ يعني حائطاً يُخْرف منه الثمار ـ وكان أول مال تأثلته في الإسلام[1]. هكذا قال أبو قتادة رضي الله عنه.

واعلموا أن بعض العلماء قال: إن النبي ﷺ إذا قال: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**». هل يملك القاتل سلب القتيل بمجرّد قتله، أو لا بد أن ينفذه له الإمام؟ فقال بعض العلماء: يملكه؛ لأن ذلك هو مقتضى كلامه ﷺ.

وقال بعض العلماء: لا يملكه إلا بتنفيذ الإمام. واستدلوا لهذا بأدلة منها: ما ثبت أن أبا جهل ـ لعنه الله ـ يوم بدر ابتدره معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء (رضي الله عنهما) فأطارا قدمه بنصف ساقه، ثم جاءا النبي ﷺ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته. فقال: «**هل مسحتما سيفكما؟**» قالا: لا. فنظر في السيفين وقال: «**كلاكما قتله**»[2]. وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح. قالوا: لو لم يتوقف هذا على تنفيذ الإمام لكان معاذ بن عفراء شريكاً لمعاذ بن الجموح؛ لأن النبي ﷺ صرّح بأنهما قتلاه، في أدلة أُخرى غير هذا.

---

(١) البخاري في فرض الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب. حديث رقم: (٣١٤٢) (٦/٢٤٧)، ومسلم في الجهاد، باب استحقاق القاتل سلب القتيل. حديث رقم: (١٧٥١) (٣/١٣٧٠).

(٢) البخاري في فرض الخُمس، باب «من لم يخمس الأسلاب...». حديث رقم: (١٣٤١) (٦/٢٤٦). وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الحديثين (٣٩٦٤، ٣٩٨٨). ومسلم في الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل. حديث رقم: (١٧٥٢) (٣/١٣٧٠ ـ ١٣٧٢).

قال علماء الأصول: منشأ هذا الخلاف: خلاف العلماء في قول النبي ﷺ: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**» هل يملكه دون تنفيذ الإمام أو لا بد من تنفيذ الإمام؟ منشأ الخلاف: هل قوله ﷺ: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**» حكماً منه، أو فتوى[١]؟ فعلى أنه حكم يختص بمن قيل له ولا يعم، وعلى أنه فتوى يعم. وذكروا عن أبي طلحة (رضي الله عنه) أنه في يوم حنين قتل عشرين رجلاً. وفي بعض الروايات: واحداً وعشرين رجلاً، وأخذ أسلابهم كلهم[٢]. وكان يقول في يوم حنين[٣]:

أنا أبو طلحة واسمي زيد وكل يوم في سلاحي صيد

رضي الله عنه وأرضاه.

قال بعض العلماء: من قتل قتيلًا له سلبه مطلقاً.

وقال بعضهم: لا يكون له سلبه إلا بتنفيذ الإمام. وتوسط قوم فقالوا مذهباً ثالثاً، قالوا: إن كان السلب قليلًا استحقه دون تنفيذ الإمام، وإن كان كثيراً توقف على تنفيذ الإمام. واستدلوا لهذا بما جاء في رواية صحيحة في السنن وغيرها أن مددياً من حمير كان مع خالد بن الوليد يقاتل يوم مؤتة، وإذا رجل عظيم من الروم يقتل المسلمين، فجلس له المددي الحميري وراء صخرة حتى مضى عليه فعقر به فرسه وعلاه بالسيف فقتله وأخذ سلاحه. وكان سلاحه كله مذهّباً، وكان ثميناً جداً، فلما جاء خالد بن الوليد (رضي الله عنه) أرسل إليه وأخذه منه، وسمعها عوف بن مالك (رضي الله عنه) فقال لخالد: لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ ثم لما جاء قصّ الخبر على رسول الله ﷺ، فقال: «**مَا لَكَ لا تعطيه سلبه؟ أعطه سلبه**». ثم لما قال ذلك قال له عوف بن مالك: يا خالد أما قلت لك إني مُعَرِّفُكَها عند رسول الله؟ فسمعها ﷺ فأغضبته وقال: «**لا تتركون لي أصحابي؟ لا تعطه يا**

---

(١) انظر: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للقرافي ص١١٦ ـ ١١٩، الأضواء (٢/٣٩٣).

(٢) أحمد (٣/١١٤، ١٢٣، ١٩٠، ٢٧٩)، الدارمي (٢/١٤٧)، أبو داود، كتاب الجهاد، باب في السلب يُعطى القاتل. حديث رقم: (٢٧٠١) (٧/٣٨٨).

(٣) البيت في الاستيعاب لابن عبدالبر (٤/١١٣)، تاريخ دمشق (١٩/٣٩٧)، الإصابة (٤/١١٣).

خالد، لا تعطه يا خالد»[١]. قالوا: هذا يدل على أنه إن كان كثيراً لا يعطي؛ لأنه لما سأل خالداً قال: **«لِمَ لا تعطيه؟»** قال: استكثرته يا رسول الله؛ لأنه مالٌ كثيرٌ جداً؛ لأن سلاح الرجل فيه ذهب كثير وسلاحه كله مذهّب.

واختلف العلماء في حقيقة السلاح[٢]، قال بعض العلماء: هو يقتصر على ما يأخذه لِلأْمَةِ الحرب، كالسيف والدرع والرمح ونحو ذلك. والثياب تدخل فيه إجماعاً.

أما إذا وُجد في هميانه أي: في مِنْطَقَتِه التي يُشدّ بها وسطه إذا وجدت فيها دنانير، أو دراهم، أو جواهر، فإنها ليست من سلبه إجماعاً.

واختلفوا في فرسه الذي يقاتل عليه هل هو من سلبه أو لا؟ فقال جماعة: هو من سلبه يستحقه القاتل. وقال قوم: لا. كما هو خلاف معروف بينهم.

واعلموا أن التحقيق أن الرجل الذي يقاتل على فرس أن له في الغنيمة ثلاثة أسهم: سهمان لفرسه وسهم للرجل، هذا هو التحقيق الذي لا شك فيه ـ إن شاء الله ـ وعليه جماهير العلماء، منهم الأئمة الثلاثة[٣]، وهو ثابت في الصحيح ثبوتاً لا مطعن فيه. وخالف في هذا الجمهورَ الإمامُ أبو حنيفة (رحمه الله) وقال: إن له سهمين فقط: سهم للفرس، وسهم لصاحبه. والتحقيق أن له ثلاثة أسهم: سهمين للفرس، وسهم للراكب. وقد استدلّ الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) بظاهر حديث جاء في ذلك، إلا أن غيره أصح منه وأصرح دلالة في محل النزاع.

واختلف العلماء في البراذين والهجن هل يقسم لها كما يقسم للخيل

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد، باب استحقاق القاتل سلب القتيل. حديث رقم: (١٧٥٣) (١٣٧٣/٣).

(٢) انظر: القرطبي (٩/٨)، المغني (٧٢/١٣)، الأضواء (٣٩٧/٢).

(٣) انظر: القرطبي (١٤/٨ ـ ١٥)، المغني (٨٥/١٣)، الأضواء (٣٩٩/٢).

العِرَاب، أو لا يقسم لها[1]؟ فسئل عن هذا مالك بن أنس (رحمه الله) فقال: ما أرى أن الهجن والبراذين إلا هي من الخيل؛ لأن الله قال: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: الآية ٨] أترون أن الهجن من البغال؟ قالوا: لا. أترون أنها من الحمير؟ قالوا: لا. قال: هي من الخيل، فتتناولها النصوص الواردة في الخيل[2].

وقال بعض العلماء في الهجين: والهجين: هو ما أحد أبويه من الخيل رديء من البراذين أبوه أو أمه، فإذا كانت أمّه من العِرَاب الحرائر وأبوه ليس كذلك فهو المعروف بالمُقْرِف[3]، ومنه قول هند بنت النعمان بن بشير[4]:

وما هندُ إلا مُهْرةٌ عربيةٌ سليلةُ أفراسٍ تجلَّلها بغْلُ
فإن ولَدتْ مُهْراً كريما فبالحَرَى وإن يكُ إقرافٌ فما أنْجبَ الفحلُ

فالمقرف: هو الذي أمه من الخيل العِرَاب الجياد وأبوه ليس كذلك، ومن هذا المعنى قول جرير[5]:

إذَا آباؤُنا وأَبُوكَ عُدُّوا أَبَانَ المُقْرِفَات من العِرَابِ

فالحاصل أن الهجن والبراذين قال بعض العلماء: يقسم لها كما يقسم للخيل الجياد العِرَاب. وقال بعض العلماء: يقسم لها سهم واحد، نصف ما يقسم للخيل العراب الجياد. وقال بعض العلماء: إن كان لها غَنَاء يقرب من غَنَاء الخيل الجياد قُسِمَ لها مثل قَسْمِها وإلا فنصف قَسْمِها. وشذّ بعض

---

(١) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١/١٦٠ ـ ١٦٣)، القرطبي (٨/١٦)، المغني (١٣/٨٦)، الأضواء (٢/٤٠١).

(٢) المدونة (٢/٣٢)، الكافي لابن عبد البر ص٢١٤.

(٣) انظر: المغني (١٣/٨٧)، الهُجْنَة تكون من قِبَل الأم، والإقراف من قِبَل الأب. كما في أدب الكاتب ص٤١، المصباح المنير (مادة: هجن) ص٢٤٣، فتح الباري (٦/٦٧).

(٤) البيتان في في المغني (١٣/٨٧)، أدب الكاتب لابن قتيبة ص٤١، الاقتضاب شرح أدب الكاتب للبطليوسي (١/١٦٥)، (٢/٤٣٩)، الأضواء (٢/٤٠٣). ولفظ البيت الثاني:
فَإنْ نُتِجَتْ مُهراً كريماً فَبِالحَرَى وإنْ يكُ إقرافٌ فَمِنْ قِبَلِ الفحلِ

(٥) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

العلماء فقال: لا يُقْسَم لها شيء؛ لأنه حيوان لا يقوم مقام الخيل فأشبه الحمير والبغال. وقد كان رجل من حمير من بني وادعة من بطون حِمْيَر أميراً على جيش فسبق الخيل الجياد وتأخر البراذين والهجن فقيل له: اقسم للبراذين والهجن فلم يعطها إلا نصف ما أعطى للخيل الجياد وقال: لا يمكنني أبداً أن نجعل ما لم يدرك كالذي يدرك. فسمعها عمر بن الخطاب فاستحسنها جداً، وقال: هبلت الوادعي أمه، لقد ذكَّرنيها[١]. وكان الشاعر الحميري يفتخر بمقالة الوادعي الحميري هذه فيقول[٢]:

ومنَّا الذي قد سنّ في الخيل سنّة ... وكانت سواء قبل ذاك سهامها

أما إذا كانت عنده خيول كثيرة[٣] فبعض العلماء يقول: لا يأخذ إلا نصيب فرس واحد. وهذا به قال جماعة من العلماء؛ لأنه لا يركب إلا على واحد. وقال جماعة من العلماء: يعطى خمسة أسهم، نصيب فرسين فقط، أما الفرسان فلهما أربعة أسهم، والسهم الخامس له، ولا يزاد على ذلك[٤]. ولا خلاف بين العلماء أنه لا يعطى أكثر من نصيب فرسين ألبتّة، ولو كان عنده خيل كثيرة. ومن قال: يعطى نصيب فرسين قال: لأنه قد يحتاج إلى فرسين ولا يحتاج إلى الثالث غالباً؛ لأن الفرس إذا طال ركوبه قد يضعفه ذلك عن الكرِ والفر، فيكون عنده فرس آخر جنيب فيه قوة ونشاط يزاول به في الميدان؛ ولذا قال بعض العلماء: يعطى نصيب فرسين ولا يزاد عليهما، ولم يقل أحد: إنه يعطى أكثر من نصيب فرسين.

فإن كان مقاتلًا على بعير[٥] فقال بعض العلماء: ليس للإبل نصيب ألبتّة[٦]. وعليه جماهير العلماء. وذهب بعض العلماء إلى أن البعير إذا لم

---

(١) سنن سعيد بن منصور (٢/٢٨٠)، والشافعي في الأم (٧/٣٣٧)، والبيهقي (٦/٣٢٨)، وذكره الحافظ في الفتح (٦/٦٧).
(٢) البيت في فتح الباري (٦/٦٧)، الأضواء (٢/٤٠٢).
(٣) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١/١٥٧ ـ ١٥٩)، الأضواء (٢/٤٠٠).
(٤) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١/١٥٧ ـ ١٥٩، القرطبي (٨/١٥ ـ ١٦)، المغني (١٣/٨٩).
(٥) انظر: الأضواء (٢/٤٠٣).
(٦) وحكى عليه ابن المنذر الإجماع، كما في الأوسط (١١/١٦٢).

يجد غيره كان له نصيب نصف نصيب سهم الفرس، وهذا رواية عن الإمام أحمد[١]، ومن قال به قليل، واستدل قائل هذا القول بأن الله لما ذكر الموجب الذي استحقوا به الغنيمة ذكر منه الرِّكاب مع الخيل، والرِّكاب: هي الإبل، قال: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ [الحشر: الآية ٦] وله وجه من النظر، إلا أن جماهير العلماء أن الإبل لا يقسم لها، وقد كان عندهم يوم بدر سبعون بعيراً فلم يقسموا لها، ولم تخل غزواته من الإبل، ولم يقل أحد إنه ﷺ قسم لبعير شيئاً.

أما إذا كان يقاتل على الفيلة[٢] كما كانت الأعاجم تقاتل فلم يختلف اثنان من العلماء أن الفيل لا يقسم له شيء إذا قاتل عليه صاحبه. قالوا: ليس كالبعير؛ لأن البعير حيوان يُسَابَقُ عليه ويجوز المسابقة عليه بالسبق، وهو إعطاء العوض لمن غلب، كما في حديث: «**لا سبق إلا في خفٍ أو نصلٍ أو حافرٍ**»[٣]. أما الفيل فلم يقل أحد من العلماء: إنه يستحق نصيباً إذا قوتل عليه، أما كونه يسابق عليه فقد قاله بعض العلماء، وهو مبني، على الخلاف في قاعدة أصولية معروفة، وهي: هل إذا جاءت عن الله (جل وعلا) أو عن رسوله ﷺ نصوص عامة هل تدخل فيها الصور النادرة أو لا تدخل[٤]؟ قال بعض العلماء: تدخل الصور النادرة. وقال بعض العلماء: لا تدخل الصور النادرة. وهذه القاعدة الأصولية تحتها فروع اختلف فيها العلماء، من هذه الفروع: من خرج منه المني بغير لذة، كالذي ينزل في ماء حار فينزل منه المني، أو تلدغه عقرب في ذكره فينزل منه المني، أو تهزه دابة فينزل منه

---

(١) انظر: المغني (٨٩/١٣).

(٢) انظر: الأضواء (٤٠٤/٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٦/٢، ٣٥٨، ٣٨٥، ٤٢٥، ٤٧٤) وأبو داود في الجهاد، باب في السبق. حديث رقم: (٢٥٥٧) (٢٤١/٧)، والترمذي في الجهاد، باب ما جاء في الرهان والسبق. حديث رقم (١٧٠٠) (٢٠٥/٤)، والنسائي في الكبرى، كتاب الخيل، باب السبق. حديث رقم: (٤٤٢٦) (٤١/٣)، وابن ماجه في الجهاد، باب السبق والرهان، حديث رقم: (٢٨٧٨) (٩٦٠/٢).

(٤) انظر: البحر المحيط للزركشي (٥٥/٣)، نثر الورود (٢٤٥/١).

المني، فنزول المني من غير لذة كبرى صورة نادرة، فعلى أن الصور النادرة تدخل في عمومات النصوص يدخل في عموم قوله: «**إنما الماء من الماء**»[١] فيجب عليه الغُسل، وعلى أنها لا تدخل في النصوص فلا يجب عليه الغسل. قالوا: ومن فروع هذه القاعدة المسابقة بِسَبَقٍ على الفيل؛ لأن الفيل ذو خفٍ فَرِجْل الفيل كَرِجْل البعير، فهو من ذوات الخفاف. والفيل صورة نادرة قد لا تخطر في ذهن المتكلم، فعلى أن الصور النادرة تدخل في عمومات النصوص تجوز المسابقة على الفيل، وعلى هذا القول لا يبعد أن يكون فيه مثل القول الذي في الإبل، وعلى أن الصور النادرة لا تدخل في النصوص لا تجوز المسابقة على الفيل. هذا من حكم الغنائم.

وقد ذكرنا الآن أن الغنيمة إن كانت أرضاً فللإمام فيها ثلاثة أقوال[٢]، وإن كانت غير أرض فإنها تقسم على التحقيق بين المجاهدين، وأن التحقيق أن للإمام أن ينفّل منها في الصور التي ذكرنا[٣] كتنفيله الربع في البدأة، والثلث في العودة، وتنفيل بعض الرجال لشدة شكيمته وغَنَائه، وتنفيله من أَخَذَ السَّلَب كما قال: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**»[٤]. واختلاف العلماء فيه هل هو فتوى فيعم، أو حكم فيخص؟. ولأجل هذا اختلفوا في قول النبي ﷺ لهند بنت عتبة بن ربيعة لما قالت له: أبو سفيان رجل يمسك ولا يعطيني ما يكفيني وولدي. فقال: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**»[٥]. فعلى أنه فتوى فهو يعم جميع النساء[٦]، فتكون كل امرأة بخل عليها زوجها بالإنفاق اللازم جاز لها أخذه بغير إذنه. أو هو حكم فيكون خاصاً كقضية: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**».

---

(١) مسلم في الحيض، باب إنما الماء من الماء. حديث رقم: (٣٤٣) (٢٦٩/١).

(٢) انظر: الأضواء (٣٦٧/٢).

(٣) انظر: الأضواء (٣٨٥/٢).

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

(٥) البخاري في البيوع، باب «من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع...» حديث رقم: (٢٢١١) (٤٠٥/٤). وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (٢٤٦٠، ٣٨٢٥، ٥٣٥٩، ٥٣٦٤، ٥٣٧٠، ٦٦٤١، ٧١٦١، ٧١٨٠). ومسلم في الأقضية، باب قضية هند. حديث رقم: (١٧١٤) (١٣٣٨/٣).

(٦) انظر في هذه المسألة: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للقرافي ص١١٢ ـ ١١٤.

واعلم أن من أحكام الغنيمة: حرمة الغلول[١]، والغلول في الشرع[٢]: هو أن يسرق الإنسان من الغنيمة، فإذا سرق الإنسان من الغنيمة قبل أن تقسم، أو زنى ببعض المسبيات في الغنيمة قبل أن تقسم فجماهير العلماء ـ منهم الأئمة الثلاثة ـ أنه لا يجلد حد الزنى، وأنه لا تُقطع يده في السرقة[٣]؛ لأن له شبهة في الغنيمة؛ لأنه من المستحقين لها وهو مشارك فيها. ومذهب مالك بن أنس رحمه الله في هذه المسألة مشكل غاية الإشكال؛ لأن مالكاً (رحمه الله) يرى أنه إن سرق من الغنيمة قبل القسم، أو وطىء جارية من المغنم قبل القسم أنه يُحدُّ حدّ السرقة وحد الزنى[٤]، مع أنه يرى أنه لو مات في ذلك الوقت لورث عنه وارثه نصيبه من الغنيمة! كيف يكون فيه نصيب يُورث عنه ولا يكون شبهة تدرأ عنه الحد؟ ففي هذا المذهب إشكال، وإن قال به هذا الإمام العظيم الجليل المعروف.

واعلموا أن الوقت الذي يستحق فيه الغانم نصيبه من المغنم اختلف فيه العلماء[٥]: فقال بعض العلماء: إذا أخذوا في الدرب، والدروب هي: الطرق الموصلة إلى بلاد الكفار من العجم ونحوهم إذا أخذوا فيها فكل من مات منهم له نصيبه من الغنيمة، ولو مات قبل أن تُحاز الغنيمة. وهذا قائله قليل وليس بوجيه.

وقال بعض العلماء: لا يورث عنه نصيبه ويستحقه حتى يحوز المسلمون الغنيمة، ويخرجون بها من ديار الحرب إلى بلاد الإسلام، فعند ذلك الوقت يستقر مُلْكُهم لها، ويورث عنه نصيبه، ويُروى نحو هذا عن أبي حنيفة رحمه الله.

---

(١) انظر: القرطبي (٤/٢٥٨)، الأضواء (٢/٤٠٧).
(٢) انظر: القرطبي (٨/٢٥٦)، القاموس الفقهي ص٢٧٧، الأضواء (٢/٤٠٤).
(٣) انظر: القرطبي (٤/٢٦١)، المغني (١٣/١٩٥، ١٩٦)، الأضواء (٢/٤٠٧).
(٤) انظر: الكافي لابن عبدالبر ص٢١٢، الأضواء (٢/٤٠٧).
(٥) انظر: المغني (١٣/٩١)، الأضواء (٢/٤٠٨).

وأظهر الأقوال: أنه إن مات بعد أن حاز المسلمون الغنيمة وأخذوها من الكفار يورث نصيبه عنه، وإن مات قبل أن تُحاز لم يورث عنه شيء[١]؛ لأنه مات قبل أن يحصل شيء يكون ملكاً له حتى يورث عنه، هذا هو الأظهر. هذه أحكام من أحكام الغنيمة.

واعلموا أن العلماء اختلفوا في الغال هل يُحرق رحله أو لا[٢]؟ فقد جاءت عن النبي ﷺ أحاديث تدل على أن الغال ـ السارق من الغنيمة ـ يُحرق رحله ومتاعه، وهذا جاء عن النبي ﷺ، والخلفاء وغيرهم ربما حرقوا متاع الغَالّ وربما تركوا حرقه. وأظهر الأقوال في هذه المسألة أنها من التعزيرات المالية الموكولة إلى نظر الإمام إن رأى المصلحة في حرق متاعه حرقه وله ذلك، وإن رأى إبقاءه أبقاه، وإن كان فيه مصحف فإنه لا يحرقه، وقد غلّ رجل في بعض الغزوات فيها بعض المسلمين فحرقوا متاعه ووجدوا فيه مصحفاً فباعوا المصحف وتصدقوا بثمنه[٣] كذا قال بعضهم والله أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] قال بعض العلماء[٤]: الخمس ستة أنصباء: نصيب لله، ونصيب للرسول ﷺ، ونصيب لذي القرابة، ونصيب لليتامى، ونصيب للمساكين، ونصيب لابن السبيل. ومن قال: إنها ستة أنصباء، لم أعلم أحداً اشتهر عنه هذا القول إلا أبا العالية (رحمه الله) فإنه قال: الخمس يُجعل ستة أنصباء، قال: ونصيب الله هو أنه إذا جاء المال يأخذ الإمام ويملأ يده منه ويجعلها في رِتَاج[٥] الكعبة.

---

(١) انظر: المغني (١٣/٩١).

(٢) انظر: القرطبي (٤/٢٥٩ ـ ٢٦٠)، المغني (١٣/١٦٨ ـ ١٧٢) الأضواء (٢/٤٠٤).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور (٢/٢٦٩)، والدارمي (٢/١٤٩)، وأبو داود في الجهاد، باب في توبة الغال. حديث رقم: (٢٦٩٦) (٧/٣٨١)، والترمذي في الحدود، باب ما جاء في الغال ما يصنع به. حديث رقم: (١٤٦١) (٤/٦١).

(٤) انظر: ابن جرير (١٣/٥٥٠)، القرطبي (٨/١٠)، الأضواء (٢/٣٥٧).

(٥) قال في المصباح المنير: «والرِّتاج: بالكسر الباب العظيم، والباب المغلق أيضاً. وجعل فلان ماله في رتاج الكعبة، أي: نذره هدياً. وليس المراد نفس الباب» ا.هـ (المصباح المنير: مادة: رتج) ص٨٣.

فعنده: نصيب الله يُصرف في مصالح الكعبة. وهذا القول لا يخفى ضعفه؛ لأنه لا دليل عليه. والتحقيق - إن شاء الله - الذي عليه جماهير العلماء: أن نصيب الله ونصيب الرسول ﷺ واحد، وأن اسم الله ذُكر للاستفتاح والتعظيم لشأنه (جل وعلا)[1]؛ لأن كل شيء له جل وعلا ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل: الآية ٩١] فنصيب الله هو نصيب الرسول ﷺ. والتحقيق: أن نصيب رسول الله ﷺ من الخمس كان يردُّه على مصالح المسلمين لا يأخذ منه شيئاً؛ لأنه كان يأخذ خلته الضرورية من فيء بني النضير، وربما أخذ منه بعضاً من فيء قريظة، وأن نصيبه إنما يجعله في مصالح المسلمين، كما جاء عنه ﷺ في حديث ثابت رواه بعض أصحاب السنن والإمام أحمد وغيرهم أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «**ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخُمس، والخُمس مردود عليكم**»[2]. فصرح بهذا الحديث بأن الخمس مردود عليهم.

واختلف العلماء في نصيب النبي ﷺ بعد موته[3]: فجماهير العلماء على أن نصيبه ثابت بعد موته ولا يسقط بموته، وكذلك نصيب قرابته، وأن الإمام بعده يصرفه في مصالح المسلمين كما كان يصرفه رسول الله ﷺ فيها، وكذلك كان يفعل أبو بكر وعمر يصرفان نصيبه ﷺ في مصالح المسلمين العامة من الكراع والسلاح وغيره كما كان ﷺ يفعله. وخالف في

---

(١) انظر: ابن جرير (٥٤٨/١٣)، الأضواء (٣٥٨/٢).

(٢) روى هذا الحديث جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، منهم:

١ - عبد الله بن عمرو. عند أبي داود في الجهاد، باب في فداء الأسير بالمال. حديث رقم: (٢٦٧٧) (٣٥٩/٧)، والنسائي في قسم الفيء، حديث رقم: (٤١٣٩) (١٣١/٧).

٢ - عمرو بن عبسة. عند أبي داود في الجهاد، باب في الإمام يستأثر بشيء من الفيء لنفسه. حديث رقم: (٢٧٣٨) (٤٣٤/٧).

٣ - عبادة بن الصامت. عند مالك في الموطأ. حديث رقم: (٩٨٥) ص٣٠٤، والنسائي في قسم الفيء حديث رقم: (٤١٣٨) (١٣١/٧).

(٣) انظر: ابن جرير (٥٥٦/١٣) القرطبي (١١/٨)، الأضواء (٣٦٠/٢).

هذا الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) فقال: بعد موته ﷺ يسقط نصيبه ونصيب قرابته، فما يبقى إلا ثلاثة أنصباء، وهي نصيب اليتامى والمساكين وابن السبيل. وجماهير العلماء على خلاف هذا.

وقوله: ﴿وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] اختلف العلماء في المراد بـ(ذي القربى)[١] فقال بعضهم: بنو هاشم. وقال بعضهم: قريش. والتحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه: أن المراد بـ(ذي القربى) بنو هاشم وبنو المطلب خاصة، وقد ثبت هذا في الصحيح عن النبي ﷺ فلا ينبغي العدول عنه. هذا هو المذهب الحق الذي لا شك فيه، وهو مذهب الإمام الشافعي وأحمد (رحمهما الله)، ويُروى عن أبي حنيفة. أما ما ذهب إليه مالك من أنهم خصوص بني هاشم. وما قاله بعض القرشيين من أنهم قريش كلهم فهو خلاف التحقيق. والدليل على هذا القول: هو ما ثبت في صحيح البخاري وغيره أن النبي ﷺ لما قسم أموال خيبر وأخرج خُمسها أعطى نصيب القرابة من خُمس خيبر لخصوص بني هاشم وبني المطلب، ولم يعط لأخوانهم الآخرين. أعني بني عبد شمس وبني نوفل، فجاء عثمان بن عفّان وهو من بني عبد شمس، وجبير بن مطعم وهو من بني نوفل، فقالوا: يا رسول الله ﷺ أعطيت إخواننا من بني المطلب ونحن وهم بالنسبة إليك سواء، فلِمَ تعطهم وتمنعنا؟ فأعطنا كما أعطيتهم. فقال ﷺ: «**إنّا وبنو المطلب شيء واحد**». وفي بعض رواياته: «**لم نفترق في جاهليةٍ ولا إسلام**»[٢]. لأن هؤلاء الأربعة إخوة؛ لأن عبد مناف أولاده أربعة: وهم هاشم جدّ النبي ﷺ، والمطلّب، وعبد شمس، ونوفل[٣]. أما الثلاثة الأوّلون منهم أشقّاء، وأمهم عاتكة بنت مرة، إحدى عواتك النبي ﷺ؛ لأن بعض أصحاب المغازي والأخباريين

---

(١) انظر: ابن جرير (٥٥٣/١٣) القرطبي (١٢/٨)، الأضواء (٣٦١/٢).

(٢) البخاري في فرض الخمس، باب من الدليل على أن الخمس للإمام. حديث رقم: (٣١٤٠) (٢٤٤/٦). وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الحديثين: (٣٥٠٢، ٤٢٢٩).

(٣) انظر: القرطبي (١٢/٨)، الأضواء (٣٦٢/٢).

ذكروا عنه ﷺ أنه قال في بعض مغازيه: **«أنا ابن العواتك من سليم»**[١]. وعواتك سليم هذه التي انتسب إليها النبي ﷺ ثلاث عواتك معروفة[٢]: الكبرى منها عمّة الوسطى، والوسطىٰ عمّة الصغرى كما هو معروف. وسُليم بن منصور من قبائل قيس عيلان بن مضر، وسليم أخو هوازن. والعواتك هذه: صغراهن: عاتكة بنت الأوقص بن مرّة بن هلال، وعمتها: عاتكة بنت مرة، وعمّة هذه: عاتكة بنت هلال. أما الصغرى منهما ـ وهي عاتكة بنت الأوقص ـ فهي والدة وهب والد آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ، فهي جدّته من قبيل والد أُمّه، وأما عمتها وهي: عاتكة بنت مرة: فهي أم هاشم جده ﷺ وأخويه الشقيقين: المطلب وعبد شمس، أما أخوهما نوفل فهو ليس بشقيقهما، وأمه تُسمى واقدة بنت أبي عدي، واسم أبي عدي: نوفل. سمّت عليه ولدها نوفل هذا. والحاصل أن النبي ﷺ لما عاداه المشركون، وقاطعوا بني هاشم، واضطروهم إلى أن يرحلوا إلى الشِّعْب كان بنو المطّلب معهم في كل بلية، ولم يفارقوهم في شيء، وكان إخوانهم الآخرين بني عبد شمس وبني نوفل كانوا معادين لهم مع قريش، ولم ينصروهم عليهم، وكان أبو طالب يقول لهم في لاميته المشهورة[٣] ـ:

جَزَى اللّهُ عَنَّا عبد شمسٍ ونوفَلا ... عُقُوبةَ شرٍ عاجلاً غير آجلِ
بميزان قسطٍ لا يخيسُ شعيرةً ... له شاهدٌ من نفسه غيرُ عائلِ
لقد سفهتْ أحلامُ قوم تبدَّلوا ... بني خَلَفٍ قيضاً بنا والغياطلِ
ونحن الصَّميمُ من ذُؤَابةِ هاشم ... وآلِ قصي في الخطوبِ الأوائلِ

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٨٤٠، ٢٨٤١)، والطبراني في الكبير (١٦٨/٧ ـ ١٦٩)، والبيهقي في الدلائل (١٣٥/٥، ١٣٦)، وابن عساكر (تهذيب تاريخ دمشق (٢٨٩/١)، والعلائي في جامع التحصيل ص٢٣٤، وذكره الهيثمي في المجمع (٢١٩/٨) وقال: «رجاله رجال الصحيح» ا.هـ، وابن كثير في تاريخه (٣٢٨/٤). وهو في الكنز (٣١٨٧٤، ٣٥٥٠٤) والسلسلة الصحيحة (١٥٦٩).

(٢) انظر: تهذيب تاريخ دمشق (٢٨٩/١) الأضواء (٣٦٢/٢).

(٣) القصيدة في البداية والنهاية (٥٣/٣ ـ ٥٧)، الأضواء (٣٦٣/٢).

فعرف النبي ﷺ لبني المطلب انسجامهم معهم في كل البلايا وصبرهم عليهم في الشدائد فجعلهم من القرابة، وأعطاهم من خُمس خيبر سهم ذي القرابة، ولم يعط إخوانهم الآخرين، أعني بني عبد شمس وبني نوفل شيئاً. وهذا هو التحقيق في ذي القرابة.

واختلف العلماء في ذي القرابة هل يُفضل ذكرهم على أُنثاهم[1]؟ فذهب الشافعي وأحمد أنهم يُعْطون للذكر مثل حظ الأنثيين، قالوا: نالوه بالنبي ﷺ، وهم عصبته، والمعروف أن المال المستحق للعصبة يكون فيه الذكر له حظ الأنثيين.

وقال بعض العلماء: ذكرهم وأنثاهم سواء. وهذا أقربها؛ لأن تفضيل الذكر على الأنثى يحتاج إلى دليل، ولم يرو أحد أنه فضّل ذكرهم على أُنثاهم. ولا يشترط فيهم على التحقيق الفقر[2]، فيعطى بنو هاشم والمطلب غنيّهم وفقيرهم.

أما نصيب اليتامى والمساكين فلا يعطى إلا لفقرائهم، فلا يُعطي يتيمٌ غنيٌ ولا مسكين غني.

واليتيم من بني آدم: هو من مات أبوه[3]. وغلط قوم فقالوا: اليتيم من الآدميين: من مات أبوه وأمه. قالوا: قال مجنون ليلى[4]:

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكا ... إلـى الله فـقـد الـوالـديـن يـتـيـم

فسمّاه يتيماً بفقد الوالدين. والصواب: فقد الأب وحده يكفي في يتمه.

وابن السبيل: هو المنقطع عن بلاده. والسبيل: الطريق. وإنما قال له: ابن السبيل كأنه يقول: ولد الطريق. وتسميته ولد الطريق فيه للعلماء وجهان:

---

(١) انظر: القرطبي (١٢/٨).

(٢) انظر: السابق.

(٣) تقدم عند تفسير الآية (١٥٢) من سورة الأنعام.

(٤) البيت في ديوانه ص١٨٨.

أحدهما: أنه كثر سلوكه لها، والعرب إذا كثرت ملازمة الشيء للشيء قالوا ابنه. ومنه قول غيلان ذي الرمة[١]:

وردتُ اعتِسَافاً والثُّريا كأنَّها على قمةِ الرأسِ ابن ماءٍ مُحَلِّقِ

فسمى طير الماء الملازم له: ابن الماء، فلما كان المسافر ملازماً للطريق قيل له: ابن الطريق.

وقال بعض العلماء: كأن الفلاة تمخضت عنه كما تتمخّض النتوج عن ولدها فرمتنا به كما ترمي الحامل بما في بطنها. وهذا المعنى أوضحه مسلم بن الوليد الأنصاري صريع الغواني إيضاحاً كاملًا ـ وإن كان الشعر هنا لا يصلح شاهداً لتأخر زمنه ولكن يصلح مثالًا للإيضاح ـ فإنه قال في رجل يزعم أن بيداء ـ وهو الفلاة الواسعة ـ ولدته وتمخّضت عنه وصار ابنها كما تتمخّض النتوج عن ولدها قال[٢]:

تمخَّضتْ عنه تِمّاً بعد مَحْمله شهرينِ بَيْداءُ لم تُضرب ولم تَلدِ
ألقتْه كالنَّصْلِ معطوفاً على هِمَم يعمدن منتجعَاتٍ خيرَ مُعتمِدِ

وابن السبيل: هو المحتاج الآن، وهو منقطع عن بلده، ولو كان غنياً في بلده، فيعطى من الخمس ما يوصله إلى بلده حتى يرجع إلى محله. هذا معنىٰ: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١].

١/٥ / ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ
وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ
ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ
ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ
أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ
لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ

---

(١) البيت في تاريخ دمشق (٢٤/٢٥٢).

(٢) البيت في ديوانه ص٧١، وفي شرحه للدهان ص٨٤.

وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٤١ ـ ٤٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤١] تكلمنا بالأمس على جمل من الأحكام الداخلة تحت هذه الآية من أحكام المغانم، ومن جملة ما ذكرنا: أن العلماء اختلفوا في خُمس الغنيمة، فقال بعضهم: يُجعل ستة أقسام، قسم لله، وقسم للرسول ﷺ، وقسم لذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وكان أبو العالية (رحمه الله) يقول: إن قسم الله (جل وعلا) يُجعل للكعبة. وزعم أن النبي ﷺ كان يضرب بيده في الخمس فيأخذ منه ويجعله للكعبة، وأن هذا هو نصيب الله[١]. وأكثر العلماء على أن نصيب الله والرسول ﷺ واحد، وأن اسم الله إنما ذكر تعظيماً وإجلالاً واستفتاحاً للكلام بذكر اسمه؛ لأن كل شيء كائناً ما كان فهو له ـ جل وعلا ـ ونصيب الرسول ﷺ كان يصرفه في مصالح المسلمين كما دل عليه حديث: «**ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخُمس، والخُمس مردود عليكم**»[٢].

وقد قدّمنا أن أصح الأقوال: في (ذي القربى) أنهم بنو هاشم وبنو المطلب، وأن النبي ﷺ بيّن أنهم هم المرادون بآية الأنفال هذه؛ لأنه لما خَمَّس خيبر أَعطى خُمس الخمس لبني هاشم وبني المطلب باسم أنه سهم ذي القربى. وهذا ثابت عن النبي ﷺ في صحيح البخاري وغيره؛ لأن البخاري (رحمه الله) أخرج الحديث هذا في صحيحه في مواضع متعددة: جاء عثمان بن عفان، وجبير بن مطعم إلى النبي ﷺ لما أعطى بني هاشم وبني المطلّب خمس ذي القربى من غنائم خيبر، قال العبشميون والنوفليون: نحن

---

(١) مضى قريباً.

(٢) مضى قريباً.

من رسول الله ﷺ قرابتنا مثل قرابة بني المطلب، فجاء عثمان وهو من بني عبد شمس؛ لأن أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) هو ابن عفّان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، وعبد شمس أخو المطلب. وهاشم، وجبير بن مطعم هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل، ونوفل هذا أخو هاشم والمطلب، فجاء جبير وعثمان يطلبون النبي ﷺ أن يسوي بني نوفل وبني عبد شمس ببني المطلب، فأبى النبي ﷺ وبيّن أن بني المطلب وبني هاشم هم المرادون بالقرابة، وأنهم هم المستحقون خُمس خُمس الغنيمة. وهذا ثابت في الصحيح عن النبي ﷺ[1] فلا ينبغي الخلاف فيه. وإن كانت جماعة من العلماء منهم مالك وأصحابه قالوا: أن ذي القربى أنهم الهاشميون. وجماعة قالوا: إنهم قريش كلهم. فأصح الأقوال وأثبتها دليلًا أن المراد بذي القربى: بنو هاشم وبنو المطلب ابني عبد مناف دون إخوتهم الآخرين من بني عبد شمس وبني نوفل، فهذا هو الصواب ـ إن شاء الله ـ؛ لأنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنه فعله مبيّناً به معنى هذه الآية الكريمة.

وقد ذكرنا أن العلماء اختلفوا في ذي القربى، فجمهور العلماء على أن نصيبهم باق، وأنه لم يسقط بموته ﷺ خلافاً لأبي حنيفة. وقد قدّمنا أن أكثر العلماء على أنه يعطى منه غنيّهم وفقيرهم ولا يختص بفقرائهم، وأن بعض العلماء قال: يُفضّل ذكرهم على أنثاهم كالميراث. وبعضهم قال: يُسوّى فيه الذكر والأنثى.

وأن المراد بنصيب اليتامى: قال بعض العلماء: يجعل خُمُس الخُمس لسد خلّات اليتامى الفقراء الذين لم يترك لهم آباؤهم مالًا.

والمساكين: جمع مسكين، والمسكين إذا أُطلق وحده ـ لم يذكر معه الفقير ـ تناول الفقير. وعلماء التفسير يقولون: المسكين والفقير إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. يعني: إن ذُكرا معاً مجتمعين افترق حكمها فكان أحدهما أشد فقراً من الآخر، وإن افترقا ـ بأن ذكر المساكين دون الفقراء، أو الفقراء دون المساكين ـ اجتمعا. أي: شمل المسكينَ حكمُ الفقير،

(١) تقدم تخريجه قريباً.

والفقيرَ حكمُ المسكين(١). ومعلوم اختلاف العلماء في الفقير والمسكين أيهما أحوج(٢)، فذهب بعض العلماء، وهو رأي مالك بن أنس وطائفة من العلماء إلى أن المسكين أشد حاجة. واستدلوا بأن الله قال: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: الآيات ١٤ ـ ١٦] فوصف المسكين بأنه (ذو متربة) ومعنى (ذو متربة): لاصق بالتراب ليس له شيء غير التراب، وأنه (مِفْعِيل) من السكنى؛ لأن يده سكنت عن التصرف، وجوارحه عن النشاط من الجوع والفاقة.

وقال مالك: إن العرب تطلق الفقير على من عنده مال لا يكفيه. واستدل بقول راعي نمير وهو عربي فصيح(٣):

أما الفقيرُ الذي كانتْ حَلُوبتُه وَفْقَ العِيَالِ فلم يُترك له سَبَدُ

فسمّاه فقيراً وعنده حلوبة قدر عياله.

وقال جماعة آخرون من العلماء: إن الفقير أشد حاجة، واستدلوا بأن الفقير كأن الفاقة قصمت فقارته لشدتها. قالوا: وقد سمى الله قوماً مساكين وعندهم سفينة عاملة في البحر في قوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: الآية ٧٩] فسماهم مساكين مع أن عندهم سفينة عاملة بالإيجار، هكذا قال بعض العلماء.

وابن السبيل معناه: ولد الطريق. يُعطى من خُمس الخُمس ما يبلغه أهله. وابن السبيل مصرف محتاج، ولو كان غنياً في محله؛ لأن ماله في محله الذي هو متغرّب عنه لا يدفع فقره في حالته الراهنة في حال كونه متقطعاً في سبيله.

وهذا معنى قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] هذه الآية

---

(١)(٢) انظر: ابن جرير (١٤/٣٠٥)، الفروق اللغوية ص١٤٥، القرطبي (٨/١٦٨)، ابن كثير (٢/٣٦٤).

(٣) البيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص٩٠، القرطبي (٨/١٦٩). وقوله: «سبد»، أي: وبر، وقيل: شعر. وذلك كناية عن الإبل أو الغنم.

الكريمة من سورة الأنفال يعظّم الله فيها شأن الخُمس، كأنه جعل أداء الخمس من الإيمان. يعني: إن كنتم آمنتم بربكم (جل وعلا) وما أنزل على نبيّه فاعلموا وتيقّنوا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه، ونفّذوا ذلك؛ ولذا ذكر البخاري (رحمه الله) في كتاب الإيمان أن أداء الخُمس من الإيمان[١]؛ لأن الله قال لما ذكر أداء الخمس قال: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] وفي حديث وفد عبد القيس الثابت في الصحيح المشهور أن النبي ﷺ لما عدّ خصال الإيمان عدّ منها أداء الخُمس[٢]. وذلك لأن الله قال بعد ذكره أداء الخُمس: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾.

واعلموا أن جماعة من العلماء منهم مالك وأصحابه[٣] قالوا: إن هذه المصارف الخمسة[٤] لا تعيّن كلها بل الأمر موكول إلى اجتهاد الإمام يضعه حيث يشاء، إلا أن الله أرشد إلى أن هذه الخمسة هي المصارف الذي لا ينبغي أن يتجاوزها به. وهذا رأي مالك ونصره غير واحد، والظاهر الذي هو الاحتياط: أن يجعله خمسة أنصباء[٥]، كما قال الله (جل وعلا)؛ لأن الله شدّد في ذلك في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ ﴿عَبْدِنَا﴾: هو محمد ﷺ. وصيغة الجمع في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ للتعظيم. وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ معطوف على اسم الجلالة، أي: إن كنتم آمنتم بالله وآمنتم بالذي أنزلنا على عبدنا محمد ﷺ من هذه الآيات القرآنية؛ لأن الله أنزلها عليكم، ونصركم عند نزولها، وأمركم فيها بأداء الخُمس إن كنتم مؤمنين، فإن كنتم مؤمنين بما أنزل الله على نبيه فاعلموا

---

(١) البخاري (مع الفتح) (١٢٩/١).

(٢) البخاري في الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان. حديث رقم: (٥٣).
وأخرجه في مواضع أُخرى، انظر الأحاديث: (٨٧، ٥٢٣، ١٣٩٨، ٣٠٩٥، ٣٥١٠، ٤٣٦٨، ٤٢٦٩، ٦١٧٦، ٧٢٦٦، ٧٥٥٦).
ومسلم في الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين. حديث رقم: (١٧، ١٨) (٤٦/١).

(٣) انظر: القرطبي (١١/٨)، قوانين الأحكام الشرعية لابن جزي ص١٦٩ ـ ١٧٠.

(٤) أي: للخُمس.

(٥) انظر: الأضواء (٣٦٥/٢).

أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه؛ لأن ذلك من جملة ما أنزل الله في هذه الآيات النازلة يوم بدر.

وقال بعض العلماء: المراد بقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: إن كنتم آمنتم بالذي أنزلنا على عبدنا قالوا هو قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾ [الأنفال: الآية ١] وقد أمر الرسول ﷺ أن يخرج خُمسها ويصرفه في هذه المصارف المذكورة ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم﴾ [الأنفال: الآية ٤١] بذلك المنزّل فاعلموا أنما غنمتم من شيء فخمسه لله. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ لأن العبد من أشرف الصفات؛ لأن أشرف الصفات: العبودية له (جل وعلا)؛ ولذا إذا أراد الله أن يرفع من شأن نبيّه ويعظّم الموقف الذي هو فيه عبّر عنه بلفظ العبد؛ لأنها أعظم صفة وأكرمها كما قال: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: الآية ١] وقال هنا: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يوم الفرقان هو يوم بدر، لم يكد يُختلف في ذلك، وإنما قيل لبدر يوم الفرقان لأنه يوم فرق الله به بين الحق والباطل، أوضح حجة الإسلام أنه الحق، وأن الكفر باطل إيضاحاً يشاهده الجاهل والعالم والغبي؛ لأنه التقت فئتان: فئة كافرة تقاتل في سبيل الشيطان، وهي فئة قوية في عددها وعُددها، وفئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، هي ضعيفة في عددها وعُددها، فنصر الله [الضعيفة على القوية][1] وغلبتها وقتلت صناديدها وأشرافها وأَسَرَتْهم، فتبيّن بهذا بياناً واضحاً شافياً يراه الناس بحواسهم أن الإسلام دين الحق، وأن الله فرّق بين الحق والباطل بوقعة بدر، إذ ليس من المعقول أن تكون الفئة الضعيفة القليلة في عددها وعُددها هي الغالبة القاهرة إلا بتأييد من خالق السماوات والأرض (جل وعلا)، وهذا التأييد لا يكون منه إلا لأنها هي المحقّة؛ ولذا سمّى الله بدراً (فرقاناً) وسمّاه (بيّنة) وسمّاه (آية). سمّاه (فرقاناً) في قوله هنا: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] وسماه (بيّنة) في قوله في هذه الآية ﴿لِّيَهْلِكَ

---

(١) في الأصل: «القوية على الضعيفة» وهو سبق لسان.

مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] لأنه سيأتي تفسيره، أي: ليبقى على كفرِه من كفر على وضوح من أمره أن الكفر باطل، ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ بالإيمان ﴿مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ وضوح ظاهر لا شك فيه أن الإسلام حق لنصر الفئة القليلة الضعيفة على الفئة الكافرة القوية. وسمّاه (آية) في سورة آل عمران في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٣] آية: أي: علامة على أن دين الإسلام هو الحق الذي لا شك فيه.

وهذه الآية القرآنية تدل على أن من علامات دين الإسلام وأنه الدين الحق الذي لا يقبل الله غيره كما قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: الآية ٨٥] وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: الآية ١٩] وقال ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية ٣] تُبيّن أن من خصائص هذا الدين ومن علاماته: أن الفئة القليلة المتمسكة به تغلب الفئة القوية الكافرة التي لم تتمسك به، وقد جاءت لهذا أمثلة عديدة في القرآن سنذكر لكم بعضها ليتضح معنى الآية[1]: من ذلك ما قصّه الله (جل وعلا) علينا في سورة الأحزاب في غزوة الخندق لما جاء الكفار في عَددهم وعُددهم وحاصروا النبي ﷺ وأصحابه بالمدينة ـ هذه حرسها الله ـ وحاصروهم ذلك الحصار العسكري التاريخيّ العظيم الذي نوّه الله بشأنه، وبيّن شدّته وعظمه في سورة الأحزاب في قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١] هذا الحصار العظيم جاء وعدد الكفار ضخم، وعُددهم قوة، وأصحاب النبي ﷺ في ضعف وقلةٍ من المال والسلاح، وفي جوع، حتى إن في غزوة الخندق وسيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه) كما يذكره المؤرخون والأخباريون وغيرهم يشد حزامه على الحجارة من شدة الجوع، وهم في ذلك الوقت الناس جميعاً مقاطعوهم سياسياً واقتصادياً، ليس بينهم وبين أحد

---

(١) انظر: الأضواء (٣/٤٥٣).

من أهل الأرض علاقات اقتصادية، ولا علاقات سياسية، آخر قوم كانت بينهم وبينهم عهود: يهود بني قريظة، فلما نزل الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم وحاصروهم هذا الحصار العسكري التاريخي العظيم المنوَّه عنه في القرآن، في ذلك الوقت غدر بنو قريظة ونبذوا العهود، وصاروا مع الكفار، فلم يبق لهم تحت أديم السماء صديق ولا معين إلا الله (جل وعلا) وحده، ولما أرسل النبي ﷺ سعد بن عبادة وسعد بن معاذ (رضي الله عنهما) إلى بني قريظة يعرف خبرهما هل هما على عهودهما أو نقضوا العهود وصاروا مع المشركين؟ قال لهم (صلوات الله وسلامه عليه): «**إن وجدتم القوم نقضوا العهود فكنُّوا لي ولا تصرِّحوا بإشارة نفهمها ولا يفهمها غيري**»؛ لأن النبي ﷺ يخاف أن يداخل الناس شدة الجبن والجزع؛ لأنهم ما كان لهم من الأصدقاء إلا القرظيون من اليهود، فإذا غدروا وصاروا مع الكفار في هذا الوقت الضنك وهذا الموقف الحرج كان الأمر أعظم واشتد على غير أقوياء القلوب من المسلمين، فجاء سعد وسعد إلى بني قريظة فوجدوا سيّدهم كعب بن أسد ـ قاتله الله ـ فَتَنَه اللعين حيي بن أخطب سيد بني النضير، ونقضوا العهود، وغدروا، وصاروا مع المشركين على رسول الله ﷺ. فجاؤوا إلى النبي ﷺ وقالوا: هم عضل. ليفهمها رسول الله ﷺ ولا يفهمها غيره. وعضل: يعني هم وبنو القارة من الذين غدروا ببعث الرجيع. فأشاروا له بأنهم في الغدر كبني عضل وبني القارة، ففهمها رسول الله ﷺ[1]، ففي هذا الموقف الضنك الحرج كان الذي واجه المسلمون به هذا الموقف الضنك العظيم والحصار العسكري العظيم [هو الإيمان والتسليم كما أخبر الله ـ تعالى ـ عنهم بقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾][2] ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٢] وكان من نتائج هذا الإيمان العظيم والتسليم الكبير ما قصّه الله علينا في محكم كتابه في سورة الأحزاب في

---

(١) سيأتي تخريجه عند تفسير الآية (٥٧) من هذه السورة.

(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

قوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٢٥] يقول: إن كنتم أذلاّء ـ لستم بأعزاء ولا أقوياء ـ فهو (جل وعلا) قويٌ عزيز لا يُغْلب من استند إليه، فالفئة القليلة المستندة إليه يقويها بقوته ويعزّها بعزّته، فلن تُغْلب، إلى أن قال: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٢٧] يعني: إن كانت قدرتكم ناقصة وأنتم عاجزون فهو (جل وعلا) على كل شيء قدير، فالفئة المستندة عليه يجعل لها القدرة والتمكين بقدرته، ومن أمثلة هذا أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) لما صدَّه المشركون مع أصحابه في غزوة الحديبية وهم محرمون كما سيأتي في قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: الآية ٢٥] وأرسل عُثمان بن عفان (رضي الله عنه) بالهدايا لينحرها في الحرم، وتلقّاه بنو عمه؛ لأنه أراد أولاً أن يرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له عمر: إن بني عدي لا يقدرون أن يحموني من قريش، ولكن أدلك على رجل أعزّ مني في قريش هو عثمان بن عفان رضي الله عنه: فأرسل عثمان رضي الله عنه بالهدايا وتلقّاه بنو عمه يقولون[1]:

أَقْبِلْ وأَدْبِرْ لا تَخَفْ أَحَدَا بَنُو سَعِيدٍ أَعِزَّةَ الحَرَمِ

فأُخبر النبي ﷺ بخبر كاذب أن الكفار قتلوه، فبايعه أصحابه تحت سمرة من شجر الحديبية بيعة الرضوان، وعندما بايعوه علم الله في ذلك الوقت من قلوبهم الإخلاص الكامل والإيمان كما ينبغي بالله (جل وعلا)، فكان من نتائج ذلك الإيمان الكامل والإخلاص الذي اطّلع الله عليه في قلوبهم أنه بيّن لهم أنه يجعلهم قادرين على من هم عاجزون عنه كما أوضح هذا في سورة الفتح في قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: الآية ١٨] أي: علم الله ما في قلوبهم من قوة الإيمان والإخلاص لله، فنوّه عنه بالاسم المبهم الذي هو

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة الأنعام.

الموصول، فكان من نتائج هذا الإيمان والإخلاص كما ينبغي ما قصّ الله علينا في سورة الفتح حيث قال: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ [الفتح: الآية ٢١] فصرّح بأن إمكانياتهم العددية والعُددية لا تُقدرُهم عليها، ثم قال: ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: فأقدركم عليها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: الآية ٢١] إن كانت قدرتكم ناقصة فقدرته (جل وعلا) كاملة، والطائفة الضعيفة القليلة المستندة إليه يقويّها بقوته، ويعزّها بعزّته، ويُقدرها بقدرته. وهذه أمثلة تدل المسلم على أن دين الإسلام حق، وأنه هو هو، وأن صلته بالله هي هي، وأن المتمسّك به لا يُغلب ولا يُقهر[1]، ولكن المسلمين تنكروا لدينهم فتركوه ولم يعملوا به، فتركوا الآلة القاهرة التي يُقهر بها العدو، فبقوا لقمة سائغة يضطهدهم الكفرة في أقطار الدنيا، ويبتزون ثروات بلادهم؛ لأنهم تركوا السلاح الأعظم لقهر العدو وهو دين الإسلام كما بينّا؛ ولذا قال هنا: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] يعني: جمع المسلمين وجمع المشركين يوم بدر.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤١]. جرت العادة بذكره قدرته عند نصره الضعاف من عباده المتمسكين بدينه كما قال هنا: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال في الأحزاب: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٧]. وقال في الحديبية: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: الآية ٢١] كل هذه الآيات على وتيرةٍ واحدة، معناها: إن كنتم ضعافاً عاجزين فهو (جل وعلا) قادر قوي لا يعجز عن شيء، فإنه ينصر أولياءه ويقويّهم ويقدرهم على من هو أقوى منهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالله (جل وعلا) قادر على كل شيء، فهو قادر على ما شاءه، وقادر على ما لم يشأه، فهو قادر على هداية أبي بكر، وقد شاء هذا المقدور، وقادر على هداية أبي جهل كما قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: الآية ١٣] ولكنه لم يشأ هذا المقدور، فتبيّن أنه قادر على ما شاء، وقادر على ما لم يشأ.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٦) من سورة الأنعام.

وقوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] قال بعض العلماء[١]: هو بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] لأن يوم الفرقان يوم التقاء الجمعان هو الظرف المُعبَّر عنه بكينونتهم في العدوة الدنيا وأعداؤهم في العدوة القصوى، وهذا ظاهر.

وقرأ هذا الحرف من السبعة: ابن كثير وأبو عمرو: **﴿إذ أنتم بالعِدوةِ الدنيا وهم بالعِدْوَةِ القصوى﴾** بكسر العين في الموضعين. وقرأه باقي السبعة: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ بضم العين في الموضعين[٢].

والعِدوة والعُدوة معناهما واحد. وأصل العِدوة والعُدوة: شاطىء الوادي وجانبه، فكل ما صاحب شاطىء الوادي وجانبه من الفضاء تسميه العرب: عُدوة وعِدوة، وهو عدوة الوادي[٣].

وقوله ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: عدوة وادي بدر ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾. و (الدنيا) تأنيث الأدنى، أي: العدوة الدنيا التي هي أدنى للآتي من المدينة ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ و (القصوى) تأنيث الأقصى، و (الدنيا) تأنيث الأدنى. أي: لأن العدوة التي فيها الكفار هي التي هي أشد قُصُواً وبعداً من الآتي من المدينة، والتي فيها النبي ﷺ وأصحابه هي الأقرب للآتي من المدينة.

﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ المراد بالركب: الجماعة الذين هم في عِيْر أبي سفيان بإجماع المفسّرين. والمؤرخون يذكرون أنهم أربعون رجلاً في تلك العِيْر، سمّاهم ركباً. وأكثر علماء العربية يزعمون أن الركب اسم جمع، وأنه ليس بجمع؛ ولذا لم يجعل علماء العربية من جموع التكسير صيغة (فعْل) فأهملوها بالكلية. والذي يظهر من استقراء القرآن العظيم واللغة العربية أن (فَعْل) بفتح فسكون من صيغ جموع التكسير للكثرة في (فَاعِل) إذا كان وصفاً، وإنما قلنا: إن هذا هو الأظهر لكثرة وروده باستقراء اللغة العربية ـ في العربية وفي القرآن ـ فالركبُ هنا على أظهر القولين ـ وإن لم تكد ترى أحداً يقول به من علماء الصرف ـ أن الركب جمع راكب،

---

(١) انظر: الدر المصون ص (٥/٦٠٩).
(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢١.
(٣) انظر: ابن جرير (١٣/٥٦٣).

والعرب تطلق الركب تريد به جمع راكب، فقولهم: إنه اسم جمع لا دليل عليه، والأظهر أنه جمع؛ ولذا فإن العرب يكثر في كلامها إطلاق اسم الركب مراداً به الركبان، جمع راكب، كما قال[1]:

بزينبَ أَلْمِم قبل أنْ يظعن الركبُ ... وقُلْ إن تَمَلَّيْنَا فما مَلَّكِ القَلْبُ

ويُرجعون إليه ضمائر الجموع كما قال غيلان ذو الرمة[2]:

استحدثَ الركب عن أشياعهم خبرا ... أَمْ راجع القلب من أَطْرابِهِ طَرَبُ

ومن إتيان (فَعْل) جمعاً لـ (فَاعِلْ) قولهم: «صَاحِبٌ وصَحْب». ومنه: «آلُه وصَحْبُه» ومنه قول امرىء القيس[3]:

وقُوفاً بها صَحْبي عَليَّ مَطِيَّهم ... يقُولون: لا تهلك أسى وتَجَمَّلِ

فالصحب جمع صاحب، ومن هذا المعنى: جمع (شَارِب) على (شَرْب) بفتح فسكون، ومنه قول نابغة ذبيان[4]:

كأَنَّهُ خارجاً من جنبِ صَفْحَتِهِ ... سَفُّودُ شَرْبٍ نسوهُ عند مُفْتَأَدِ

فرد عليهم ضمير الجماعة في قوله: «سفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عند مُفْتَأَدِ» ومنه السَّفْر جمع السَّافِرْ، وفي الحديث: **«أتموا فإنا قوم سفر»**[5]، ومنه قول

---

(١) البيت لنصيب بن رباح، وهو في تاريخ دمشق (٦٢/٦٠، ٦١، ٦٢).

(٢) البيت في ديوانه ص٥٩.

(٣) ديوانه ص١١١.

(٤) ديوانه ص١٢.

(٥) أخرجه أحمد (٤٣٠/٤، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٤٠) وابن أبي شيبة (٤٥٠/٢، ٤٥٣)، وأبو داود في الصلاة، باب متى يتم المسافر. حديث رقم: (١٢١٧) (٩٦/٤)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في التقصير في السفر. حديث رقم: (٥٤٥) (٤٣٠/٢)، والبيهقي (١٣٥/٣، ١٥٣)، والطيالسي ص١١٥، والطحاوي في شرح المعاني (٤١٧/١) من حديث عمران بن حصين (رضي الله عنه) مرفوعاً.

وقد جاء نحوه موقوفاً على عمر (رضي الله عنه) عند مالك في الموطأ، ص١٠٥، وعبد الرزاق (٥٤٠/٢)، والطحاوي في شرح المعاني (٤١٩/١). وراجع الكلام على هذا الحديث في نصب الراية (١٨٧/٢)، التلخيص (٢٥٢/٢)، إتحاف السادة المتقين (٣٦٨/٤).

الشنفرى[١]:

كـأنَّ وغـاهَـا حـجـرتـيـه وجَـالَـه أَضَـامـيـم مـن سفْـرِ الـقـبـائـل نُـزَّلِ

ومنه: طائر وطير ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ﴾ [النحل: الآية ٧٩] فجعل (مسخّرات) جمعاً نظراً إلى الطير. وهذا يكثر في كلام العرب، والأظهر أن (الفَعْل) هنا جمع (الفَاعِل) وصفاً. وعامة علماء العربية ممن تكلموا في جموع التكسير لم يجعلوا (فَعْلا) من صيغ الجموع، ويزعمون أن هذه الذي ذكرنا أن الأظهر جموع أنها أسماء جموع. هكذا يقولون. والمراد بالركب هنا: الجماعة الذين هم في عِيْر أبي سفيان.

وقوله: ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ ظرف والخبر واقع في هذا الظرف. وقراءة: ﴿أسفلُ منكم﴾[٢] شاذة وقراءة الجمهور: ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ هو في مكان، وهذا المكان أسفل، ومعنى كونه أسفل: أن وادي بدر ذاهب إلى جهة البحر، فكل ما قَرُب من البحر منه فهو أسفل، وما بَعُد منه فهو أعلى.

قال بعض العلماء: في هذه الآية الكريمة سؤال، وهو أن يُقال: ما الفائدة في تعيين أن النبي ﷺ وأصحابه في عُدوة وادي بدر الدنيا، وأن المشركين في عُدوة وادي بدر القصوى، وأن الركب أسفل من الجميع، ما الحكمة في هذا، وأي فائدة في معرفة مواضع القوم كلهم[٣]؟

أجاب بعض العلماء عن هذا بأن فيه سراً لطيفاً، قالوا: المعنى نَصركم الله وفرق بين الحق والباطل بأن نصركم عليهم وظروفكم الراهنة تساعدهم على أن يغلبوكم؛ لأن العُدوة الدنيا كانت أرضها خباراً[٤]، أرضاً

---

(١) البيت في ديوانه ص٦١.

(٢) انظر: البحر (٤/٥٠٠).

(٣) السابق.

(٤) قال في القاموس: «والخَبَار كسحاب: ما لان من الأرض واسترخى» ا.هـ (مادة: الخبر) ص٤٨٩.

رخوة تسوخ فيها الأقدام، ولا يتيسر فيها المشي، ولا ماء فيها، فمن فيها عطاش. والعُدوة القصوى كانت بخلاف ذلك يسهل المشي عليها، فهم في هذا كانوا أولى بأن يسبقوكم على الماء ويمنعوكم منه فيقتلوكم، وأنه في ذلك الوقت عيرهم نجت، وتمّت نعمتهم، وأموالهم متكاثرة، وهم في الموضع الذي هو أحسن من موضعكم، ومع هذا كله فقد نصركم الله عليهم؛ لأن الله لما أرسل المطر المتقدّم في قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: الآية ١١] كانت العدوة القصوى طيناً ووحلاً، وكانت العدوة الدنيا رملها متلبد تمشي عليه الأقدام بخفّة، فكان هذا أنسب؛ ولهذا قال: ﴿أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] ثم قال في حكمته وقع هذا ونزل هذا الفرقان وأنتم على هذه الحالة تكادون أن تجتمعوا على غير ميعاد؛ لأنه لو تواعدتم وضرب بعضكم لبعض أجلاً وميعاداً لاختلفتم في الميعاد لو كنتم في هذا العدد من الضعف وكان بينكم وبينهم موعد سابق لجبنتم ولفشلتم عنهم، ولما تجرأتم على الإقدام عليهم، ولو كنتم مستعدّين وعندكم جمع قوي لفشلوا وجبنوا ولم يتجرؤا عليكم، فجمعكم الله بغير ميعاد لحكمته (جل وعلا)؛ لأن غزوة بدر شيء جعله الله (جل وعلا) بقدرته لم تَتَسَنَّ أسبابه، إلا أن الله (جل وعلا) سبّبها، ولذا قال: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أي: واعد بعضكم بعضاً في الموضع الذي تلتقون فيه والمكان الذي تلتقون فيه، ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ﴾ أي: لخاف بعضكم من بعض، وجَبُن بعضكم عن بعض، ولما اتّفقتم ليحصل ما حصل، ولكن الله جمعكم على غير ميعاد بحكمته (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ ولكن الله جمعكم على غير ميعاد فخرجتم أيها المسلمون إلى عِيْر أبي سفيان، وخرج الكفار إلى إنقاذ عِيْرهم، وشاء الله أن تجتمعوا ويوقع الله ما أوقع. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا﴾ هو إعزاز دين الإسلام، وبيان برهانه ودليله، وفرق الحق من الباطل بإعزاز الدين، وإعلاء كلمة الله، وإذلال الكفر، وقتل رؤسائه وصناديده. كان هذا أمراً مفعولاً لا محالة، شاءه الله وقدّره وهو واقع لا

محالة إذا جاء وقته المحدّد له في مكانه المحدّد له في علمه جل وعلا. وهذا معنى قوله: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

قوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ٤٢، ٤٣].

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] قرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير في رواية البزّي، وعاصم في رواية شعبة أبي بكر: ﴿ويحيَىٰ من حَيِيَ عن بينةٍ﴾ بفك الإدغام في (حَيِيَ) وقرأه بقية السبعة: ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ﴾ بإدغام الياء في الياء(١). وهذه الكلمة إنما كتبت في المصاحف العثمانية بحاءٍ وياءٍ واحدة، ولكنه عند الضبط الذين يقرؤون (حيي) بياءين بفك الإدغام يكتبون ياءً حمراء يبيّنون بها أنها لم تكن في رسم المصحف العثماني. فهما قراءتان سبعيتان، ولغتان فصيحتان ﴿ويحيى من حيِيَ عن بينة﴾، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ﴾.

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ﴾ إنما أوقع الله ما أوقع في بدر من الفرق بين الحق والباطل المبيّن في قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ﴾ هذه (لام كي) المضارع بعدها منصوب بـ (أن) مضمرة. والمعنى: فرق بين الحق والباطل بإيضاح أن دين الإسلام حق، وأن عبادة الأوثان باطل؛ لأجل أن يهلك من هلك؛ لأجل أن يهلك بكفره المتمادي على الكفر بعد وضوح بطلانه عن بينة، أي: عن دليل واضح وبرهان قاطع لا يُشك في الحق معه؛ لأن البراهين المحسوسة يدركها الغبي ولا تختص بالعالِم. ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ بدين الإسلام ﴿مَنْ حَيَّ﴾ به ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي: عن دليل واضح؛ لأن ذلك الفرقان جعله الله بوقعة بدر ليؤمن المؤمنون على برهان

---

(١) انظر: السبعة ص٣٠٦ الإتحاف (٢/٨٠).

وبصيرة وبيان قاطع، ويكفر الكافرون على وضوح أيضاً وبيان وبرهان قاطع.

والبيّنة[١]: كل دليل لا يترك في الحق لبساً تسميه العرب (بيّنة) ومنه قيل للشهود الشَّاهِدِين على الحق: (بيّنة)؛ لأنهم يبيّنون ويوضّحون من له الحق ومن عليه الحق. وهذا هو التحقيق في معنى قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع كل ما يقوله خلقه، ويعلم كل ما يفعله خلقه.

وكونه (جل وعلا) سميعاً عليماً هذا هو البرهان الأكبر والزاجر الأعظم الذي لا تكاد تقلب ورقة واحدة من المصحف الكريم إلا وجدته فيه؛ لأن المصحف الكريم لا تكاد تنظر في موضع منه إلا وتجد فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٣١] ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٣] ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٤] ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: الآية ٥] لا تكاد تحصي هذا؛ لأن هذا أكبر واعظ وأعظم زاجر أنزله الله من السماء إلى الأرض، وأنه هو الذي يحصل به النجاح في محكّ الاختبار الإنساني بأسره.

وإيضاح هذا الكلام: أن الله (جل وعلا) بيّن في آيات من كتابه أن الحكمة التي خلق السماوات والأرض والخلائق من أجلها هي أن يبتلي خلقه في نقطة واحدة هي: إحسان العمل[٢]، وليست بكثرة العمل، قال في أول سورة هود: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧] ولم يقل: أكثر عملاً، وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بيّن الحكمة فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

[الكهف: الآية ٧] ولم يقل: أكثر عملاً. وقال في أول سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ثم بيّن الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: الآية ٢] ولم يقل: أكثر عملاً. فدلّت هذه الآيات على أن محكّ الاختبار هو إحسان العمل؛ ولذا كل الناس يقول: «ليتني أدركت ما أنجح به في هذا الاختبار، وعرفت الطريق الذي يُتوصّل بها إلى أن أكون أحسن عملاً». وكان جبريل (عليه الصلاة والسلام) لاحظ شدة الحاجة إلى هذه النقطة الحسّاسة فأراد أن يبيّنها لأصحاب رسول الله ﷺ ليعلّمهم هذا العلم العظيم، فجاء في صورة أعرابي في حديثه الصحيح المشهور، وقال للنبي ﷺ في جملة ما سأله عنه: يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أخبرني عن الإحسان. يعني: وهو الذي خُلق الخلق للاختبار فيه، فبيّن له النبي ﷺ أن طريق الإحسان ووسيلته الوحيدة هي هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم الذي هو مراقبة خالق هذا الكون (جل وعلا). فقال له: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(١)]. ولأجل تأكد هذا العلم وإحضاره في ذهن كل مسلم كنت لا تقلب ورقة من المصحف الكريم إلا ووجدت فيها هذا الزاجر الأكبر والواعظ الأعظم: **أن ربّك مطّلعٌ على** كل ما تقول وكل ما تفعل. ولو علم أهل بلد أن أمير ذلك البلد يعلم كل ما يفعلونه بالليل من الخسائس لباتوا متأدّبين لا يفعلون إلا ما لا يجر لهم ضراً، وهذا خالق السماوات والأرض (جل وعلا) يعلم خطرات القلوب، ومع هذا لا يبالون بهذه الزواجر العظام والمواعظ الكبار.

وقد ضرب العلماء لهذا مثلاً[(٢)] قالوا: ولو فرضنا ـ ولله المثل الأعلى ـ أن في هذا البراح من الأرض ملكاً عظيماً شديد البأس والبطش إذا انتُهكت حرماته، وحوله نساؤه وجواريه وبناته، وحوله جلوس، هل يخطر في ذهن أحد أن أحداً من أولئك الجلوس يهتم بريبة، أو غمزة عين، أو إشارة؟ لا وكلا، كلهم خاضع خاشع الجوارح، أمنيته السلامة.

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

والله (جل وعلا) - وله المثل الأعلى في السماوات والأرض - أعظم بطشاً وأشد نكالًا، وأعظم اطلاعاً، وحِمَاه في أرضه محارمه، فالمسلمون إذا ذكروا هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم حاسبوا، ولم يفعلوا ما يخجلهم أمام ربهم (جل وعلا)؛ ولذا كثر في القرآن هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم بعد كل أوامر وكل نواهي، ومنه قوله هنا: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢].

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٣] قال بعض العلماء: (إذ) بدل من الظروف قبله. وقال بعضهم: منصوب بـ (اذكر) مقدراً[1].

ومعنى الآية الكريمة: أن النبي ﷺ رأى على التحقيق فيما يرى النائم - ومعلوم أن رؤيا الأنبياء وحي لا شك فيها - أراه الله في نومه أن المشركين قليل جداً. وبعض العلماء أنكر معناها الواضح المتبادر للذهن؛ لأنه لم يفهم الحقيقة. قالوا: كيف يُريهم قليلًا في منامه ورؤيا الأنبياء حق، والنبي ﷺ يعلم أنهم حوالي ألف، كيف يعلم أنهم قريبون من الألف ويرى في المنام خلاف ما هو يعلم مع أن رؤيا الأنبياء حق[2]؟ وغفل من قال هذا القول وإن قال به جماعة من أجلاء العلماء؛ لأن رؤيا النبي ﷺ حق، وتأويلها حق، كما قال يوسف: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: الآية ١٠٠] لأن معنى رؤياه هو ما سيأتي في قوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٣]. لأن الله قلّل كلاً من الطائفتين في عين الأخرى في اليقظة حتى إنهم لما تصوبوا من عقنقل بدر قال ابن مسعود (رضي الله عنه): قلت لصاحبي: أتراهم يبلغون السبعين؟ قال: أظنّهم يبلغون المئة[3]. من شدة تقليل الله لهم في عيون الصحابة، والله قلل الصحابة في عيون المشركين

(١) انظر: الدر المصون (٥/٦١٥).

(٢) انظر: البحر (٤/٥٠١).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٣/٥٧٢). وعزاه في الدر (٣/١٨٩) لابن أبي شيبة، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه.

حتى قال أبو جهل: إنهم أَكَلَة جزور. يعني: الجزور قد يأكلها ناس قليلون. فقلّل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء، فبعد أن التحم القتال والتقى الصفّان أكثر الله المؤمنين في أعين الكافرين حتى صاروا يظنونهم ضعفيهم، كما تقدّم في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ﴾ إلى قوله ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: الآية ١٣] لأن الكفار بعيونهم يرون أن المسلمين أكثر منهم بالضِّعْف؛ لأن الله فعل كل ذلك لحكمة قبل أن يتلاقى هؤلاء وهؤلاء، جعل هؤلاء قليلاً في أعين هؤلاء، وهؤلاء قليلاً في أعين هؤلاء، ثم لما التحم القتال والتقى الصفان أَكْثَر المسلمين في أعين الكافرين فظنوا أنهم أكثر منهم مرتين؛ ولذا قال هنا: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٣] لأن النبي ﷺ أراه الله الكفار في النوم قليلاً وأخبر بها أصحابه ففرحوا بذلك وقويت قلوبهم وتهيؤوا للقتال، والله (جل وعلا) صدّق تلك الرؤيا بأن قلّلهم في أعينهم يوم بدر، كما يأتي الآن، ثم قال: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ لو أراك في النوم أنهم عدد ضخم كثير كالألف وأخبرتهم بذلك لخافوا وقالوا: لم نستعد لهؤلاء، وإنما خرجنا للعير!! كما تقدم في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۞ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: الآيتان ٥، ٦] وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ الفشل ضد النجاح، وهو الجبن والخور. أي: لأصابكم الخور والجبن وتنازعتم في هذا الأمر، هذا معنى قوله: ﴿لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ بأن قال قوم: نذهب إليهم وإن كانوا كثيراً. وقال آخرون: ما ذهبنا إلا للعير، وما ذهبنا مستعدين لنفير كثير. وحصل فيكم الفشل والتنازع في الأمر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿سَلَّمَ﴾ من هذا الفشل ومن هذا التنازع بأن أرى رسوله ﷺ في المنام أنهم قليلون لتتجرؤوا عليهم، وقللكم في أعينهم فعلاً يقظة رأي العين، وقللهم في أعينكم تصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ هذا معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ المراد بذات الصدور: ما يصاحب الصدور ويكمن فيها من الخواطر والهواجس، وقد علم أنه لو أراه إياهم

كثيراً لتنازعتم في ذلك الأمر ولفشلتم، فهو يعلم بما يهجس في الصدور، وما يخطر فيها، وما توسوس به النفوس، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٣].

ثم قال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٤] فهذا رأي في العين تصديقاً لرؤياه ﷺ واذكر حين يريكموهم الله في منامك قليلاً. الصحيح أن (قليلاً) هنا و (كثيراً) أنهما حالان، وأنها (رأى) البصرية عُديت بالهمزة فتعدت إلى مفعول آخر، وأن (قليلاً) ليس مفعولاً ثالثاً، خلافاً لمن قال من بعض العلماء: إنها عُديت هنا إلى المفعول الثالث. والأصوب: أن (قليلاً) هنا حال، وأنها ليست بمفعول ثالث؛ لأن (رأى) هذه بصرية لا علمية على التحقيق[1]. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ يعني ترونهم كأنهم شيء قليل لتتجرؤوا عليهم وتشجعوا وتقوى نفوسكم عليهم، وقد جاء عن ابن مسعود (رضي الله عنه) أنهم لما تصوبوا من كثيب بدر قال لرجل معه: أتظنهم يبلغون سبعين ـ وهم ألف ـ فقال الرجل: أرى أنهم يبلغون المئة[2]. هذا من شدة تقليلهم في أعينهم ليتجرؤوا عليهم، كذلك ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ لما رأوهم قالوا: هؤلاء أَكَلَةُ جزور ليسوا بشيء. وقال أبو جهل: لا تقتلوهم بل خذوهم واربطوهم لنذهب بهم حيث نشاء. من شدة استقلاله لهم، وظنه أنهم لا شيء!! وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ ليتجرأ هؤلاء على هؤلاء، وهؤلاء على هؤلاء؛ لأجل أن يقضي الله أمره، وينفذ إرادته ومشيئته بتهيئته أسباب ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ﴾ بذلك ﴿أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ في علمه، وأزله، منفذاً في وقته لا محالة؛ لأن الله (جل وعلا) يقضي ويقدّر، فيقدر كل ما شاء ثم يقضيه منجزاً في أوقاته في أماكنه على هيئته وصوره التي سبق بها علمه

(١) انظر: الدر المصون (٥/٦١٥).
(٢) مضى قريباً.

(جل وعلا) ولذا قال: ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ﴾.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ جل وعلا وحده ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ قرأ هذا الحرف ابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو[1]: ﴿وإلى الله تَرجِعُ الأمور﴾ ببناء الفعل للفاعل. وقرأه بقية السبعة: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ ببناء الفعل للمفعول. فـ (الأمور) على الأول فاعل (ترجع) وعلى القراءة الثانية: نائب فاعل (تُرجع)[2]. و (الأمور) جمع أمر، ويعم كل الشؤون. والمعنى: مدار الأمور ومصيرها إليه (جل وعلا) كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى: الآية ٥٣] وقد صار إليه هذا الأمر وآل إليه فنفذ فيه مشيئته وقدرته، وهيأ الأسباب حتى هزم الكفرة وقتل صناديدهم ورؤساءهم وكسر شوكتهم على أيدي أوليائه المسلمين، ونصر نبيه ﷺ وأصحابه وأيّدهم بنصره، وهذا قضاؤه وقدره (جل وعلا)، والله يهيئ الأسباب، ولو شاء فعل بلا سبب، إلا أنه اقتضت حكمته أن يرتب المسبّبات على أسباب، ويسبب للأشياء (جل وعلا) سبحانه وتعالى.

٥/ب / ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨﴾ [الأنفال: الآيات ٤٥ ـ ٤٨].

يقول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥﴾ [الأنفال: الآية ٤٥].

---

(١) قرأه بالبناء للفاعل: ابن عامر وحمزة والكسائي.
وبالبناء للمفعول: ابن كثير وأبو عمرو ونافع وعاصم.
انظر: السبعة ص١٨١، المبسوط لابن مهران ص١٤٥، إتحاف فضلاء البشر (٢/٨٠).

(٢) انظر: حجة القراءات ص١٣٠ ـ ١٣١.

هذه الآية الكريمة تضمنت تعليم الله لنبيه وأصحابه بعض الخطط العسكرية، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ناداهم باسم الإيمان ليكون ذلك مدعاة للقبول: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي: طائفة. أي: جيشاً من جيوش الكفار يقاتلونكم إذا لقيتموهم في ميدان القتال والتحمتم أنتم وهم ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ يعني: لا تنهزموا، ولا تولوهم الأدبار، فاصمدوا أمامهم واثبتوا، ولا تتزعزعوا، ولا تنهزموا، ولا ترجعوا القهقرى. وهذا تعليم من خالق السماوات والأرض للمسلمين إذا التحم القتال أن يثبتوا ويصمدوا صمود الرجال، ولا ينهزموا ولا يرجعوا القهقرى.

ثم إنه علمهم التعليم الأكبر الذي هو سبب للنصر والظفر في جميع الميادين، قال: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (كثيراً): نعت لمصدر محذوف. أي: ذكراً كثيراً ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: لأجل أن تفلحوا[1]. وهذا هو التعليم السماوي للخطط الميدانية التي يحصل بها انهزام الكفر وانكسار شوكته، كأنه يقول لهم: في هذا الوقت الضنك الحرج الذي التحمتم فيه مع جيوش الكفار في هذا الوقت قوّوا صلتكم بمن خلقكم ـ جل وعلا ـ واذكروه ذكراً كثيراً. والمعنى: أنكم عند هذه الشدائد، وعند التحام القتال والمفروض أن الرجال تنزل رؤسهم عن أعناقهم، في هذا الوقت الضنك الحرج وثّقوا صلتكم بالله، واذكروا ربكم ذكراً كثيراً، فبذلك ينزل عليكم المدد من السماء، ويتسنى لكم النصر، وتقهرون الكفار، وتنكسر شوكة الكفر. هذه عادة التعاليم السماوية، تجمع للناس بين ما تنتعش به أرواحهم، وبين ما تتقوى به أجسامهم[2]، فالتعاليم السماوية تعطي الإنسان نصيب جزئيه، أعني: نصيب جسمه ونصيب روحه، وإذا أُهمل أحد النصيبين تحقق الفشل والخور والهزيمة؛ لأن هذا الإنسان هو حيوان مركب من عنصرين مختلفين اختلافاً أساسياً جوهرياً؛ أحدهما: يُسمىٰ الجسم، والثاني: يُسمىٰ الروح، فالإنسان جسم وروح، فأحد عنصريه اللذين هما أساساه: الروح، والثاني:

---

(١) انظر: الأضواء (٤١٣/٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

الجسم. والروح والجسم مختلفان اختلافاً أساسياً جوهرياً، وبحسب اختلافهما الأساسي تختلف متطلباتهما في هذه الحياة، فللجسم متطلبات لا بد له منها، وللروح متطلبات لا بد له منها، ولا تغني متطلبات هذا عن متطلبات هذا. والقرآن العظيم يعطي كُلّاً من العنصرين حقه كما ينبغي. يقول: أعطوا الأجسام حقها بالثبوت والصمود، وأعطوا الأرواح حقها بتغذيتها بصلتها بخالقها وتقويتها، وانتظار المدد من السماء.

ونظير هذه الآيات: إذا قرأتم آيتين من سورة النساء فهمتم هذا المعنىٰ كما ينبغي، وهما الآيتان اللتان أنزلهما الله في صلاة الخوف، فإنه يقول لنبيه: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ [النساء: الآية ١٠٢] هذا وقت التحام الكفاح المسلح، فالمفروض أن الرجال تنزل رؤسهم عن أعناقهم في هذا الوقت الضنك الحرج، فالقرآن الذي هو تنزيل رب العالمين يوضح الخطة العسكرية كما ينبغي[1]، علىٰ الوجه الذي يردون فيه العدو، وليتسنىٰ لهم في ذلك الوقت الاتصال بخالق السماوات والأرض وأداء أدب من الأداب الروحية الذي هو الصلاة في الجماعة في ذلك الوقت، فالصلاة في الجماعة وقت التحام ذلك الكفاح المسلح هي من ذكر الله المأمور به هنا في سورة الأنفال في قوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ فالمؤمنون إن ساروا في ضوء هذه التعاليم السماوية، وكانوا في طاعة الله، وفي ذكر الله، وتقدموا صابرين في الميدان فإنهم لا يقوم أمامهم شيء، كما هو مشاهد في التاريخ لأن هؤلاء الرجال الذين عُلِّمُوا هذا التعليم في آية الأنفال هذه ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ وفي سورة النساء: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: الآية ١٠٢] ليصلّوا الجماعة في ذلك الوقت الحرج، ويقوّون صلتهم بالله، هؤلاء الذين أخذوا بهذه التعاليم هم الذين أخذوا كنوز قيصر وكسرىٰ، وحملوا نور الإسلام في مشارق الدنيا، ودان لهم جميع الأمم،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٦) من سورة الأنعام.

ورفعوا رايات الإسلام في جميع أقطار الدنيا. أما هؤلاء الذين يبيتون يشربون الخمور، وتعزف عليهم القيان، وهم في المجالس الماجنة الخليعة، ثم بعد ذلك يصبحون في الميدان فهؤلاء ليسوا برجال ميدان، ولا يُرجى منهم تحقق شيء، ولا رد مسلوب من بلاد، ولا من مجد، ولا من شيء!! فما دام الذين يتقدمون في خطوط النار الأمامية فجرة، شَرَبَة للخمور، أصحاب معازف وغواني وملاهي، فهؤلاء من يريد النصر ويُؤمّله من ورائهم فهو مغفل؛ لأن هؤلاء ليسوا برجال ميدان، فلا يمكن أن يردوا مسلوباً من مجد ولا من بلاد، ولا أن ينتصفوا من أحد كائناً ما كان؛ لأنهم تركوا التعاليم السماوية والخطط العسكرية التي هي كفيلة بقمع الكفار، وإيقافهم عند حدهم، وكسر شوكة الكفر، وإعلاء كلمة الله جل وعلا.

فالحاصل أن السلاح الأكبر في ميادين القتال هو ذكر الله ـ جل وعلا ـ وطاعته وامتثال أمره؛ لأنه هو الذي منه النصر والمدد. والله كذلك يأمر خلقه ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ﴾ أما الذين إذا لقوا فئة فلا يذكرون الله، وليس في قلوبهم خشية من الله، ولا عمل بدينه، فهؤلاء لا يُؤمّل من ورائهم فائدة إلا مغفل مثلهم لا يفهم شيئاً. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ذكراً كثيراً؛ لأن ذكركم لله كثيراً تتقوىٰ به أرواحكم، وتتصلون به بربكم، وينزل لكم بسببه المدد من خالق السماوات والأرض.

والصحابة (رضي الله عنهم) كذلك كانوا يفعلون، يذكرون الله ويخافونه في الميدان فيأتيهم النصر؛ ولذا قهروا الدنيا بأسرها، وأخذوا كنوز قيصر وكسرىٰ كما هو معلوم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قال بعض العلماء[1]: (لعل) في القرآن كلها مشمة معنىٰ التعليل، فهي تفيد معنىٰ التعليل، إلا التي في الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: الآية ١٢٩] قالوا: فهي بمعنىٰ:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

كأنكم. والتحقيق أن لفظة (لعل) تأتي في اللغة العربية مُراداً بها التعليل، وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[١]:

فقُلتمُ لنا كُفُّوا الحُروبَ لعَلنَّا نكُفُّ ووثَّقْتمُ لنا كُلَّ مَوْثِقِ
فلما كفَفْنا الحربَ كانتْ عُهودُكمْ كشِبْهِ سَرَابٍ بالفلا مُتألقِ

فقوله: «كفوا الحروب لعلنا نكف» أي: لأجل أن نكف عنكم.

وقوله: ﴿تُفۡلِحُونَ﴾ هو مضارع (أَفلح الرجل، يُفلح، فهو مُفْلح). إذا نال الفلاح. والفلاح يُطلق في لغة العرب إطلاقين معروفين مشهورين[٢]:

أحدهما: تطلق العرب الفلاح بمعنىٰ الفوز بالمطلوب الأكبر، فكل من فاز بالمطلوب الذي كان يهتم به جداً، وهو من أكبر مطالبه، تقول العرب: أفلح هذا. أي: فاز بما كان يطلب، وهذا معنىً معروف في كلامها، ومنه قول لبيد بن ربيعة[٣]:

فَاعْقِلي إن كُنتِ لمَّا تَعْقِلي ولَقَد أَفْلَحَ من كانَ عَقَل

أي: من رزقه الله العقل ففاز بالمطلوب الأكبر في الدنيا.

الإطلاق الثاني: هو إطلاق العرب الفلاح على البقاء السرمدي في النعيم، فالعرب تقول: أفلح هذا، إذا كان باقياً خالداً في نعيم سرمدي، وهذا المعنىٰ معروف مشهور في كلام العرب أيضاً، ومنه قول لبيد بن ربيعة أيضاً[٤]:

لو أنَّ حياً مُدرك الفلاحِ لنَالَهُ مُلاعِبُ الرماحِ

يعني بقوله: «مدرك الفلاح»، أي: مدرك البقاء بلا موت، ونظيره من كلام العرب: قول كعب بن زهير، أو الأضبط بن قريع، كما قيل بكل منهما[٥]:

---

(١) السابق.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٨) من سورة الأعراف.
(٤) مضى عند تفسير الآية (١١١) من سورة الأنعام.
(٥) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

لِـكُـلِّ هَـمٍّ مِـن الـهُـمُـوم سَـعَـة والـمُـسْـيُ والـصُّـبـحُ لا فـلاحَ مـعـه

أي: لا بقاء في الدنيا مع تكرر الليل والنهار.

إذا عرفتم معنيي الفلاح فمن أطاع الله (جل وعلا) وذكره كثيراً نال الفلاح بمعنييه، ففاز بمطلوبه الأكبر وهو الجنة ورضا الله، ونال البقاء السرمدي الأبدي في نعيم الجنات.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن الذين إذا لقوا فئة من فئات الكفار في ميدان القتال ولم يثبتوا أو لم يذكروا الله كثيراً، أنهم لا يفلحون. وهو كذلك؛ لأن النصر من الله. كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ١٠] قال في بدر: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مع أنه أنزل ملائكة السماء ناصرين، يعني: لا تظنوا أن الملائكة ينصرونكم، الناصر هو الله وحده (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٥].

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] هذه التعاليم السماوية الكفيلة بالنصر والظفر وقمع القردة الكفرة وإيقافهم عند حدهم ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما يأمركم به على لسان رسوله ﷺ، وأطيعوا رسوله ﷺ فيما يبلغكم عن ربكم ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤].

والياء في قوله: ﴿أَطِيعُوا۟﴾ الياء التي بين الطاء والعين أصلها (واو) لأن المادة من (الطَّوع) فهو أجوف واوي العين، أصلها: «أَطْوِعُوا» من «الطَّوع» لا يائي من (الطَّيْع)[1].

ومعنى إطاعة الله: هي الانقياد لامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، في النيات والأفعال وكل شيء، وهذا معنى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

---

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٤٢١، ٤٢٢.

﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟﴾ أصله: لا تتنازعوا، لا ينازع بعضكم بعضاً وتختلفوا؛ لأن الناس غالباً تختلف نحلُهُم ووجهات نظرهم. يعني: إذا اختلفت وجهات نظركم لا تتنازعوا وكل منكم ينصر ما رآه فيخالف أخاه، بل كونوا متفقين دائماً؛ لأن الله (جل وعلا) شرع لكم طريقة تتفقون عليها وهي اقتفاء نبيكم ﷺ والسير في ضوء الكتاب الذي أنزله عليه والسنة التي تركها ﷺ. وما دام هو ﷺ موجوداً بين أظهرهم فمعلوم أن المصير إلى ما يقوله ﷺ، وهذا معنىٰ: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟﴾ فإنه نهاهم عن النزاع؛ لأن التنازع أكبر أسباب الفشل.

والتنازع غالباً يكون بسبب الأغراض الشخصية، وتقديم الأغراض الشخصية الدنيوية على المصالح العامة، فهذه البلية سوسة في الدنيا، وهي أضرّ أدواء هذا العالم، وهي تقديم المصالح الشخصية علىٰ المصالح العامة، وقد نزلت بسببها بليّة يتضمنها إشكال أزاله الله بفتوىٰ سماوية من عنده؛ لأن الله (جل وعلا) ربما سلط بعض الكفار على بعض المسلمين، وهي مشكلة واقعة الآن، يقول هؤلاء الشباب ـ الذين هم خفافيش أعماهم نور الإسلام، فصاروا يتطلبون النور في ظلام آراء الكفرة الفجرة ـ يقولون: كيف نكون على الحق وديننا دين حق ونحن مستضعفون مضطهدون في أقطار الدنيا، والكفار الذين تقولون: إنهم على باطل وليسوا على حق هم الذين معهم القوة والسيطرة، يبتزون ثرواتنا، ويضطهدوننا في أقطار الدنيا؟ وهذه المشكلة إنما يسببها التنازع والفشل، والأغراض الشخصية، وتقديمها على المصالح العامة. وهذا الإشكال بعينه قد استشكله أصحاب رسول الله ﷺ والنبي ﷺ موجود بين أظهرهم، والمَلَك يروح ويغدو بالوحي، فأفتىٰ الله فيه فتوىٰ سماوية هي قرآن يتلىٰ في سورة آل عمران، وذلك أن النبي ﷺ يوم أحد لما صفّ الصفوف، والتحم القتال بين المسلمين والمشركين، وكان المسلمون سبعمائة مقاتل، والمشركون ثلاثة آلاف مقاتل، أخذ عبدالله بن جبير ـ أخا خوّات بن جبير ـ (رضي الله عنهم) وأمّره على طائفة الرماة، وقال له: «**كونوا عند سفح هذا الجبل** ـ يعني جبل أحد ـ **ولا تأتونا أبداً، إن غَلَبنَا القوم فلا تأتونا،**

وإن غلبناهم فلا تأتونا»[(١)]، وأمرهم بأن يثبتوا عند سفح الجبل لئلا يأتيهم القوم من الوراء من بينهم وبين الجبل، فلما التحم القتال في المرة الأولىٰ، وهلك حملة اللواء من بني عبد الدار، وانهزم المشركون هزيمة منكرة، ترك الرماة أمر رسول الله ﷺ لمصالحهم الشخصية، وهي الانتفاع بمال الغنيمة، فقال لهم رئيسهم عبدالله بن جبير (رضي الله عنه): أما أنا فلا أُخالف قول رسول الله ﷺ. وبقي معه نفر قليل. والآخرون راحوا يطلبون الأغراض الشخصية الدنيوية، وتركوا أمر الرسول. فنظر المشركون فإذا الجبل ليس دونه رجال، فجاؤوا من سفح الجبل وأتوهم من وراء ظهورهم، ودارت عليهم رحىٰ الحرب، وأوقع الله ما أوقع بالمسلمين، كما قصّه في سورة آل عمران في يوم أحد، قُتل من خيار الأنصار سبعون رجلاً، وقُتل عم رسول الله ﷺ أسدالله حمزة بن عبد المطلب، وقُطع أنفه وأُذناه، وأُخذ بعض كبده لهند بنت عتبة، وقُتل ابن عمته عبدالله بن جحش، وقُتل حامل رايته مصعب بن عمير العبدري (رضي الله عنه). وشماس بن عثمان المخزومي، وأوقع الله ما أوقع بسبب تلك الأغراض الشخصية وتقديمها علىٰ أمر الرسول ﷺ، وجُرح ﷺ وشُقت شفته السفلىٰ اليمنىٰ، وكُسرت رباعيته، وشُج حتىٰ غاص في جبهته بعض حِلَق المغفر الذي هو على رأسه، وانتزعه أبو عبيدة بن الجراح (رضي الله عنه) فسقطت معه ثنيتاه العليبان لقوته، فكان أثرم (رضي الله عنه)، أي: ساقط الثنيتين. لما وقع هذا استشكله أصحاب رسول الله ﷺ هذا الاستشكال، وقالوا: كيف يُدال منا المشركون، وتكون لهم دولة علينا، ويقتلوننا ويجرحوننا وفينا رسول الله ﷺ ومعنا الحق؟ فهذا هو وجه الإشكال. فأفتىٰ الله بإزالة هذا الإشكال فتوىٰ سماوية، قرآناً يُتلى في آل عمران، قال: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ [آل عمران: الآية ١٦٥] يعني بقتل السبعين الذين قُتلوا منكم يوم أُحد ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ سابقاً يوم بدر بأن

(١) البخاري في الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب. حديث رقم: (٣٠٣٩) (٦/١٦٢). وأطرافه في (٣٠٤٣، ٣٩٨٦، ٤٠٦٧، ٤٥٦١).

قتلتم سبعين وأسرتم سبعين على أصح التفسيرين وأكثرهما قائلًا، ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ وهو محل الشاهد، هذا استشكال الصحابة ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ من أين جاءنا هذا، وكيف يُدالون منا، ونحن على حق، وهم على باطل، وفينا رسول الله ﷺ، وعلينا ينزل القرآن؟ كيف يُدالوان منا؟ هذا الاستشكال نص عليه الله في قوله: ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ فأجاب الله بفتواه الإلهية السماوية قال لرسوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ من قِبَلِكم جاءت البلية، وأنتم الذين جنيتموها على أنفسكم، وقوله: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ فيه إجمال أوضحه الله في آية سورة آل عمران هذه، أوضحه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٢] يعني: بالنصر على الأعداء ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ يعني تقتلونهم قتلًا ذريعاً يطفأ معه الحس، ويزول الحس بعده. ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ من هذه البلايا جاءت البلية ووقع ما وقع؛ ولذا نهىٰ الله عن هذا قال: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] وأكبر أسباب النزاع: تقديم المصالح الشخصية والأغراض الدنيوية على المصالح العامة. وهذه أكبر البلايا التي يأتي من قِبَلِها الشر للمسلمين؛ لأنه قد يخالف بعض المسلمين فتكون العقوبة عامة للجميع. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال: الآية ٤٦].

الفشل: ضد النجاح. قال بعض العلماء: معناه تضعفوا ويستولي عليكم الخور[1] ﴿فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ الإنسان إذا كان في عمل يدبره ليُحصّل وراءه نتيجة فإن تم له عمله ووقع ما أراد قالت العرب: نجح في أمره. وإن كان عكس ذلك قالوا: فشل في أمره، لم ينجح. وقال بعض العلماء: ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ يستولي عليكم الضعف والخور؛ لأن النزاع من أكبر أسباب الضعف والخور وعدم انتظام الكلمة، وهذا النزاع والاختلاف هو مشكلة عظمىٰ في أقطار الأرض؛ لأن من يتسمّون باسم المسلمين ينازع

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٥٧٥).

بعضهم بعضاً، ويعادي بعضهم بعضاً، وقد بين تعالىٰ في سورة الحشر أن اختلاف القلوب، والمنازعات الشديدة، وتشتت الآراء والأفكار، وعدم الاتحاد، أن سبب هذا الذي يجتلبه به إنما هو ذهاب العقل وعدم العقل؛ لأن العاقل لا يتسبب في المخالفة؛ لأنك إذا اختلفت أنت وأخوك كان تدبيره وكُلّ ما عنده من قوة يعمل ضدك، فإذا كنت عاقلًا ـ ولو عقلًا دنيوياً ـ كان تسببك في أن يكون معك؛ لأن كون قوته وما أعطاه الله في صالحك خير لك من أن يكون في غير ذلك؛ ولذا بيّن تعالىٰ أن سبب اختلاف القلوب هو ضعف العقول وعدمها، قال في قوم ـ وهم اليهود لعنهم الله ـ ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: الآية ١٤] أي: مختلفة مفترقة، فرق متعادية مختلفة. ثم بين العلة التي أوجبت تشتت تلك القلوب قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ وقد تقرر في علم الأصول أن العلل تعمّم معلولاتها وتخصصها كما هو معلوم في محله[(١)]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] الفاء سببية. والمعنىٰ: أن التنازع سبب للفشل، والفشل: عدم النجاح والضعف والخور وعدم التمكن. والفاء سببية، والمضارع منصوب بعدها بـ (أن) المضمرة كما هو معلوم في محله. وقوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ معطوف على المنصوب بـ (أن) المضمرة قبله.

وقوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ للعلماء في المراد بالريح هنا أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً[(٢)]:

قال بعضهم: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ معناه: تذهب قوتكم. وهذا كالتوكيد لقوله: ﴿فَتَفْشَلُوا۟﴾ لأن من فشلوا فقد ذهبت قوتهم، وحاصل الريح هذه في كلام العرب أنهم يريدون بها الدولة أعني: وتذهب دولتكم ويكون الأمر إلى غيركم؛ لأن العرب تقول: «هبت ريح فلان». أي: دالت دولته وجاء وقته الذي يتمكن به. وهذا معنىٰ معروف في كلام العرب وفي لغتها التي نزل

---

(١) انظر: نشر الورود (٢/٤٧٣).

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٥٧٥)، القرطبي (٨/٢٤)، البحر (٤/٥٠٣)، الأضواء (٢/٤١٤).

بها القرآن، وهو معنىٰ مشهور معروف. «هبت ريحك فاغتنم» أي: دالت دولتك وجاء الوقت الذي أنت تتمكن فيه. هذا معنىٰ معروف في كلام العرب، وعلىٰ هذا المعنىٰ ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: تنعدم دولتكم وتضيع، ويصير الأمر إلى غيركم، وهذا المعنىٰ معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر(١):

يا صاحِبَيَّ ألا لا حيّ بالوادي ... إلا عبيداً قعوداً بين أذواد
أَتَنْظُرانِ قليلاً رَيْثَ غفلتِهِمْ ... أمْ تَعْدُوانِ فإنَّ الرِّيحَ للعادي

فقوله: «إن الريح للعادي» أن الدولة والظفر للذي يعدو فينهب فيأخذ، هذا معنىٰ قوله. وهذا معنىٰ معروف في كلام العرب، ومنه قول الآخر(٢):

إذا هبَّت رياحُكَ فاغْتَنِمها ... فإنَّ لِكُلِّ عَاصِفَةٍ سُكُون

قال بعضهم: (إن) هنا اسمها ضمير الشأن، والمبتدأ وخبره خبرها، ومعنىٰ: (هبت رياحك) أي: دالت دولتك فاغتنم الفرصة (فإن لكل عاصفة سكون) أي: لكل دولة تولٍّ ودبور، هكذا قاله بعض العلماء. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هذه وصايا سماوية، وتعاليم من رب العالمين عظيمة، من أخذ بها ظفر، ومن تركها فشل وذهبت ريحه لا شك.

وقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ الصبر في لغة العرب معناه: حبس النفس(٣). تقول العرب: فلان صبر نفسه. أي: حبسها على المكروه، وشجعها على الشيء الصعب، هذا معنىٰ الصبر في لغة العرب، ومادته تتعدىٰ وتلزم،

---

(١) البيتان في الأغاني (٢٠/٣٩١)، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (١/٣٤٠)، والبيت الثاني في البحر (٤/٥٠٣)، الدر المصون (٥/٦١٧)، وقد ذكرهما الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٢/٤١٥).

(٢) البيت في القرطبي (٨/٢٤)، البحر (٤/٥٠٣)، الدر المصون (٥/٦١٧).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

تقول العرب: صبر فلان فهو صابر أي: كان متصفاً بالصبر، وصبر نفسه أي: حبسها على المكروه. متعدياً للمفعول. ومن أمثلة تعديه للمفعول قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية [الكهف: الآية ٢٨]. وقول عنترة، أو غيره(١):

فصَبَرْتِ عارفةً بذلكَ حُرَّةً ترسُو إذا نفسُ الجَبانِ تَطَلَّعُ

يعني: حبست نفساً عارفةً بذلك على القتال. هذا أصل معنىٰ الصبر.

والصبر في الشرع يتناول أموراً كثيرة منها(٢): الصبر تحت ظلال السيوف؛ لأن الجنة تحت ظلال السيوف. ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ أي: ويتناول ذلك الصبر صبركم تحت ظلال السيوف في الميدان، ويتناول الصبر أيضاً: الصبر عن معصية الله وإن اشتعلت نار الشهوات، والصبر على طاعة الله وإن كنت كالقابض على الجمر. يتناول الصبرُ الصبرَ علىٰ هذا كله، والصبر علىٰ المصائب عند الصدمة الأولىٰ. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ ومعيته للصابرين معية نصر وتأييد وتوفيق؛ لأن الله (تبارك وتعالىٰ) ذكر في كتابه معية خاصة للمتقين والصابرين والمحسنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: الآية ١٢٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠] فهذه المعية الخاصة هي بالنصر والتوفيق ونحو ذلك. والمعية العامة هي بالإحاطة الكاملة، ونفوذ العلم، وإحاطته ـ جل وعلا ـ بكل شيء معلومة، وهي المذكورة في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: الآية ٧] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: الآية ٤] لأن جميع الكائنات بسماواتها وأرضها في يد خالق السماوات والأرض أصغر من حبة خردل،

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

فهو مع جميعها بالإحاطة الكاملة العظيمة وبالإحاطة العلمية ونفوذ التصرف كما لا يخفىٰ. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦].

لما أمرهم جل وعلا بالأوامر النافعة الكفيلة بالنجاح والسلامة من الفشل وذهاب الريح نهاهم عن أضدادها المستوجبة للفشل وذهاب الريح والانهزام قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] النهي معطوف على الأمر، لأن قوله: ﴿فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] أمر. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ نهي. والأمر والنهي كلاهما إنشاء، يُعطف كل منهما علىٰ الآخر بلا نزاع. وإنما الخلاف بين العلماء في عطف الإنشاء علىٰ الخبر، أو الخبر على الإنشاء، فمنعه جماعة من العلماء. والتحقيق الذي دل عليه القرآن العظيم واستقراء اللغة العربية: هو جواز عطف الخبر علىٰ الإنشاء، والإنشاء على الخبر[1]، وإن ظن منعه جماعة من علماء البلاغة[2] ومن النحويين. ومن عطف الإنشاء على الخبر في القرآن العظيم قوله تعالىٰ عن أبي إبراهيم: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: الآية ٤٦] فقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ الآية، خبر، وقوله: ﴿وَاهْجُرْنِي﴾ إنشاء؛ لأنه أمر، فهو إنشاء معطوف على خبر، وهذا المعنىٰ معروف في كلام العرب، ومنه قول امرىء القيس[3]:

وإن شِفائي عَبْرةٌ إنْ سَفَحْتُها وهلْ عند رسْمٍ دارسٍ من معول

لأن الشطر الأول خبر، والشطر الثاني إنشاء، وهو معطوف عليه. ونظيره قول الآخر[4]:

تُنَاغي غزالاً عند بابِ ابن عامرٍ وكَحِّلْ مآقيك الحسان بإثمدِ

---

(١) انظر: ضياء السالك (٣/٢١٤، ٢٢٠)، التوضيح والتكميل (٢/١٨٩).
(٢) انظر: المقتصد (٢/٩٥٨).
(٣) ديوانه ص١١١.
(٤) البيت لحسان (رضي الله عنه)، وهو في ديوانه ص٨٣، وله روايات متعددة.

وهو عطف إنشاء على خبر، وهذا هو الصواب.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] أيها المؤمنون كالكفرة الفجرة أصحاب الفخر والخيلاء والرياء، فإن الفخر والخيلاء والرياء أوصاف ليست بأوصاف المسلمين، وليست بأوصاف المقاتلين الناجحين الظافرين في الميدان ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم﴾ هم كفار مكة، وهم نفير الجيش الذي التقوا معه يوم بدر بإجماع المفسرين خرجوا من ديارهم في مكة المكرمة ـ حرسها الله ـ ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ النَّاسِ﴾ أي: لأجل البطر ومراءات الناس، وقال بعضهم: هو مصدر مُنكَّر بمعنى الحال. خرجوا في حال كونهم متصفين بالبطر والرياء. وكونه مفعولاً لأجله أظهر[١].

البطر في لغة العرب: هو التكبر عن قبول الحق مع غمط الحقوق. وتكبرهم هذا المشار إليه هنا هو الذي بينا في قصة أبي جهل[٢]؛ لأن الكفار لما كانوا بالعدوة القصوىٰ من بدر، وأرسلوا عمير بن وهب الجمحي (رضي الله عنه) ـ وكان إذ ذاك كافراً ـ وقالوا له: أحزر لنا القوم. فجاء فحزرهم، فقال: القوم ثلاثمائة يزيدون قليلًا أو ينقصون قليلًا، ولكن دعوني أنظر هل لهم كمين؟ فجال في فرسه في وادي بدر حتىٰ أبعد، قال: ليس للقوم كمين، ولكني يا قوم رأيت البلايا تحمل المنايا، رأيت نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، والله لا يُقتل رجل منهم حتى يَقْتُل رجلًا منكم، وإن مات منكم أعدادهم فلا خير في الحياة بعد ذلك، فرأيي أن تنصرفوا. فأيده حكيم بن حزام (رضي الله عنه)، وذهب إلىٰ عتبة بن ربيعة وقال له: يا أبا الوليد إن عِيْر قريش نجت من محمد ﷺ وليس لهم لديه مطلب إلا دية ابن الحضرمي ـ عمرو بن الحضرمي ـ الذي قُتل في سرية نخلة، وهو حليفك فتحمَّل ديته وخلِّ الناس يرجعون فإنه لا خير لهم في لقاء محمد ﷺ. فاجتمع عتبة وحكيم وعمير بن وهب علىٰ هذا الرأي، ولكن قال له عتبة:

---

(١) انظر الدر المصون (٥/٦١٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥) من سورة الأنفال.

يا بن حزام إذهب إلىٰ ابن الحنظلية ـ يعني أبا جهل عمرو بن هشام ـ قبحه الله ـ فقل له هذا. فلما جاءه قال له: انتفخ سحر عتبة ـ يعني انتفخت رئته من الخوف ـ فغضب عندها عتبة وقال: سيعلم مصفرّ أسته غداً من الجبان!! ثم إن أبا جهل ـ لعنه الله ـ قال لابن الحضرمي: أنت ترى ثأرك فلا يردّنك هؤلاء عن ثأرك فتقدم واطلب ثأر أخيك، فتقدم عامر بن الحضرمي وقال: واعَمْرَاه، واعَمْرَاه. ينشد ثأره من أخيه عمرو الذي قتلته سرية عبدالله بن جحش (رضي الله عنه) في نخلة كما هو مشهور، فلما قالوا له: ارجع بنا. قال ـ وهو محل الشاهد ـ قال: والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ـ وكان بدر موسماً من مواسم العرب، وسوقاً يبيعون فيه في السنة ـ ونشرب الخمور، وننحر الجزور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا!! فهذا هو فخره وخيلاؤه وبطره ورئاؤه الذي بينه بقوله: تسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] هو الذي يفعل الفعل لأجل أن يراه الناس فيحمدونه عليه، ويعظمونه عليه لا لوجه الله. وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا﴾ أي: لأجل البطر. أو: بطرين متكبرين عن الحق، متصفين بالفخر والخيلاء.

وقال بعض العلماء: البطر التكبر عن الحق مع غمط الناس حقوقهم.

قال بعضهم: البطر سوء احتمال النعمة، فمن أنعم الله عليه نعمة وصار يعمل فيها عمل الإسراف فيما لا يرضي فهو من البطرين. وعلىٰ كل حال فهم بطرون لأنهم تكبروا عن قبول الحق، وغمطوا الناس حقوقهم، وجاؤوا في فخر وخيلاء. وفي قصة بدر أن النبي ﷺ لما رآهم متصوبين من كثيب بدر قال: «**اللهم هذه قريش أقبلت تحادّك وتكذب رسولك، هذه قريش أقبلت بفخرها وخيلائها** ـ وهو محل الشاهد ـ **تحادّك وتكذب رسولك، اللهم أحنهم الغداة**»[1] كما هو معروف في محله. وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ هم أبو جهل وأصحابه من النفير الذين قُتل أشرافهم، وأُسروا على شفير بدر كما هو معروف.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩) من هذه السورة.

وكان بعض العلماء يقول(١): أفخر بيت قالته العرب بيت حسان ابن ثابت (رضي الله عنه) في بدر حيث يقول(٢):

وفي بئرِ بدرٍ إذْ يصد وجُوهَهُم   جبريلُ تحتَ لِوَائِنَا ومحمد ﷺ

وهذا معنى قوله: ﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذه (صدَّ) المتعدية(٣)، والمفعول محذوف لدلالة المقام عليه، أي: يصدون الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والسبيل في لغة العرب(٤): الطريق، وهي تُذكّر وتُؤنّث. وجاء في القرآن تذكير السبيل في قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦] ولم يقل: يتخذوها. ومن تأنيثها في القرآن قوله: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: الآية ١٠٨] ولم يقل: هذا سبيلي، وقوله: ﴿تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿تَبْغُونَهَا﴾ [آل عمران: الآية ٩٩] يعني السبيل كما هو معروف. وسبيل الله: دين الإسلام، وإنما قيل له: سبيل الله لأنه الطريق التي شرعها الله، وأصّل أصولها، وأمر بالسير عليها، ووعد من سار عليها الجنة، ومن تجنبها النار. فلذلك كانت سبيله؛ لأنه الذي شرعها، وأمر بسلوكها، ووعد من سلكها الخير، ومن لم يسلكها الشر؛ ولذا أُضيفت إليه فقيل لها: سبيل الله، ولذا قال: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾ جل وعلا بكل ما ﴿يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾؛ لأنه (جل وعلا) محيط بكل شيء. وفيه تهديد ووعيد لهم، فقد أحاط بهم وبأعمالهم، ومكّن منهم نبيه ﷺ فقتل رؤساءهم وأسرهم كما قدمنا إيضاحه. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤٧].

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/٢٧٩).

(٢) لفظ الشطر الأول في المصدر السابق:

«وببئر بدر إذ يكف...»

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٤) مضى عند تفسير الآيتان (٥٥، ١١٦) من سورة الأنعام.

وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ [الأنفال: الآية ٤٨].

﴿وَإِذْ زَيَّنَ﴾ حين زين ﴿لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] وهؤلاء الذين زين لهم الشيطان أعمالهم هم الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله، هؤلاء زين لهم الشيطان أعمالهم. زينها لهم معناها: صيرها في أعينهم متصفة بالزين، والزين: ضد القبح، أي: زينها لهم، حسنها لهم حتىٰ صارت حسنة عندهم بتزيينه ووسوسته وإن كانت أقبح شيء.

والأعمال جمع عمل، وهو ما يصدر عن الإنسان. وقد عُلم باستقراء الشرع أن العمل الذي يزينه الشيطان ويُعاقب عليه ويُثاب عليه أنه أربعة أقسام، دل علىٰ هذا استقراء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واللغة العربية، أن ما يصدق عليه اسم العمل الذي يزينه الشيطان ويُثاب الإنسان عليه ويُعاقب عليه أربعة أنواع لا خامس لها[1]:

الأول منها: فعل الجوارح كالسرقة والزنا.

والثاني منها: القول؛ لأن القول فعل اللسان، وقد سمى الله في سورة الأنعام القول فعلًا حيث قال جل وعلا: ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: الآية ١١٢] فسماه فعلاً.

الثالث: العزم المصمم؛ لأن عزم الإنسان وتصميمه على الفعل بحيث لا يمنعه منه إلا العجز عنه هذا الفعل الذي صمم عليه وعزم عليه فكأنه عمله بعزمه وتصميمه، فهو عمل يزينه الشيطان ويُؤخذ به فيثاب ويعاقب عليه، والدليل على أن هذا العزم المصمم أنه من جملة العمل الذي يدخل صاحبه النار مثلًا: ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما ـ أعني البخاري ومسلماً رحمهما الله ـ من حديث أبي بكرة رضي الله

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

عنه: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» قالوا: يا رسول الله قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟!» فهؤلاء الناس سألوا رسول الله ﷺ أن يُبرز لهم ويبين العمل الذي دخل بسببه المقتول النار؛ لأنه لم يَقتُل!! فأجابهم ﷺ في هذا الحديث الصحيح المتفق عليه: «**إنه كان حريصاً على قتل أخيه**»(١). والجواب على طبق السؤال، فبيّن أن عمله الذي أدخله النار حرصه على قتل أخيه، وهو عزمه المصمم وإن لم يتمكن منه.

أما العزم الغير المصمم بأن يخطر في ذهنه أنه يفعل كذا ثم يراقب الله فيتركه، فتلك السيئة التي همّ بها تكتب له حسنة؛ لأنه تركها خوفاً من الله. وهو معنى قوله ﷺ: «**ومن هم بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة**»(٢) لأنه تركها خوفاً من ربه فكان ذلك حسنة؛ ولذلك كان جابر بن عبدالله (رضي الله عنه) وهو من بني سلمة، وبنو سلمة وبنو حارثة - من الأنصار - هم الذين أنزل الله فيهم يوم أحد: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: الآية ١٢٢] قال: ﴿هَمَّت طَّآئِفَتَانِ﴾ هذا الهمّ ليس بعزم مصمم؛ لأن الله قال بعده: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ فكان جابر يقول: مع أن الله ذكر أنّا هممنا أن نفشل وهذه وصمة فينا، ولكن والله ما نحب أن الله لم ينزلها لأنه قال بعدها: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ فالتي بعدها تداويها وتزيد، هذا معنى كلامه (رضي الله عنه)(٣). فالعزم المصمم من العمل الذي يزينه الشيطان ويدخل صاحبه بسببه النار.

الرابع: الترك، والتحقيق أن التروك أفعال يزينها الشيطان، يدخل صاحبها بها النار، ويُثاب بها فيدخل بسببها الجنة. هذا هو التحقيق إن شاء الله. وقد كان ابن السبكي - تاج الدين - في بعض كتبه في علم الأصول في بحث أهل الأصول في الترك هل هو فعل أو ليس بفعل؟ قال:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

طالعت كتاب الله فوجدت من كتاب الله آية في سورة الفرقان يفهم منها أن الترك فعل[١].

ونحن نقول: إن هذه الآية التي أوردها ابن السبكي لا يظهر لنا وجه الدلالة منها كل الظهور، إلا أنا اطلّعنا على آيتين من سورة المائدة كلهما صريحة في أن الترك من الأفعال، وأنه من الأعمال التي يؤاخذ بها الإنسان. وإيضاح ذلك: أنك لو تركت الصلاة حتى خرج وقتها، أنت ما فعلت شيئاً إلا أنك تركت الصلاة، فهذا الترك فعل يُقتل صاحبه بسببه، ويدخل به النار، ويكفر به عند من قال ذلك. فلولا أن الترك فعل لما كان تارك الصلاة كافراً عند من يقول بذلك، ولما وجب قتله كفراً عند أحمد في مشهور مذهبه، وحداً عند مالك والشافعي في مشهوري مذهبهما، وإيضاح هذا أن ابن السبكي قال: قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان: الآية ٣٠] قد فهمت من هذه الآية في سورة الفرقان أن الترك فعل؛ لأن الأخذ: هو التناول، والمهجور: المتروك، أي: تناولوه متروكاً. فدل علىٰ أن الترك فعل يُؤتى بالتناول، وهذا لا يظهر لي كل الظهور.

أما الآيتان اللتان عثرنا عليهما في سورة المائدة، الدالتان علىٰ أن الترك فعل من الأفعال:

فإحداهما قوله تعالىٰ: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾ ثم قال: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: الآية ٦٣] وإنشاء الذم بقوله ﴿بِئۡسَ﴾ هنا متوجه على ترك الربانيين والأحبار النهي، وقوله: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ أي: بئس ما يصنعه الربانيون والأحبار وهو تركهم. فسمّى تركهم الأمر بالمعروف صُنعاً، والصُّنع أخص من مطلق الفعل، وهذا هو التحقيق في معنى الآية، وهو نص صريح في أن الترك من الأفعال.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

والآية الأخرىٰ: قوله في المائدة أيضاً: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: الآية ٧٩] وهو عدم تناهيهم عن المنكر، فسمّى تركهم التناهي عن المنكر (فعلاً) وذمه أيضاً بالفعل الجامد الذي هو لإنشاء الذم أعني: (بئس) لأن (نِعْمَ) لإنشاء المدح، و(بئس) لإنشاء الذم، كما هو معروف في محله[١].

وقد أجرىٰ العلماء علىٰ هذا الاختلاف فروعاً كثيرة في المذاهب[٢]، هل الترك فعل أو لا؟

قالوا: فبناء على أن الترك فعل: إذا كان الإنسان عنده خيوط من حرير مثلًا، وشُق بطن واحد من رفقته، وأمسك عنه خيوط الحرير تخاط بها بطنه حتىٰ هلك. فعلىٰ أن الترك فعل فقد أهلكه بتركه، فتلزمه ديته، وعلىٰ أن الترك [ليس][٣] بفعل لا غرامة عليه.

وكذلك من كان عنده ماء يفضل عن سقي زرعه، وجف زرع جاره إذا أمسك عنه الماء الفاضل عنه، فعلىٰ أن الترك فعل يضمنه؛ لأنه أفسده بفعله، وعلىٰ أنه ليس بفعل فلا.

ومن هذا: ناظرو الأوقاف، والأوصياء على اليتامىٰ، إذا تركوا إيجار دورهم وقت الإيجار حتى فاتت الفرصة، فعلىٰ أن الترك فعل يضمنون، وعلى أنه ليس بفعل لا يضمنون، وهي قاعدة كثيرة الفروع في مذاهب الأئمة (رحمهم الله) بسطها وبسط فروعها مقرّر في مذاهبهم. وأصح القولين: أن الترك فعل، وأنه عمل من الأعمال التي يزينها الشيطان، وكان ﷺ أيام بنائه لهذا المسجد الشريف ـ يسرّ الله له العمارة بطاعة الله وعبادته ـ كان النبي ﷺ ممن يعمل فيه وبعض الصحابة جلوس، فقال بعضهم[٤]:

لئن قعدنا والنبيُّ يعملُ   لَذاكَ منّا العملُ المُضَلَّل

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٠) من سورة الأنفال.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٣) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها الكلام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

فسمىٰ قعودهم وتركه العمل سماه «عملًا مضللًا» وهذا معروف، ويدل عليه قوله ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[١] فسمىٰ ترك الأذىٰ إسلاماً، ومعلوم أن الإسلام لا يكون بالعدم إلا بأفعال، وهذا يبين أن الأعمال التي يزينها الشيطان فيؤآخذ الإنسان بها أربعة: أعمال الجوارح (وهي الأفعال)، وأعمال اللسان (وهي الأقوال)، والعزم المُصَمِّم، والترك، كما لا يخفىٰ، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] الله هنا في هذه الآية من سورة الأنفال صرح بأن الشيطان (قال) ولم يقل: (وسوس) فصرح بالقول ولم يذكر الوسوسة؛ لأن الشيطان تمثل لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي البكري (رضي الله عنه)؛ لأن قريشاً لما جاءهم ضمضم بن عمرو الغفاري ـ أرسله لهم أبو سفيان ـ وتأهبوا للخروج وأجمعوا عليه، وبينهم وبين بني بكر بن كنانة عداوة، فخافوا أن يأتوهم من ورائهم فيأخذوا نساءهم وذراريهم، فجاءهم إبليس في صورة سراقة بن مالك، وكان سيد بني مدلج، وهو من سادات بني بكر بن كنانة، وقال لهم: إني جار لكم، أجيركم من كنانة فلا يصل إليكم منهم سوء، وزين لهم هذه الأعمال، وقال: أنتم على حق، هذا الرجل الذي سفه أحلامكم، وفرق كلمتكم، وعاب آلهتكم، وسفّه آباءكم، فاذهبوا إليه ولا تتركوه يأخذ عِيْرَكم، ونحو هذا من التزيين، ولا غالب لكم لشرفكم وقوتكم، وأنكم قطّان بيت الله الحرام، زين لهم هذا التزيين، وقال لهم: إنه جار لهم يجيرهم من بكر بن كنانة، وذهب معهم وهم يعتقدونه سراقة بن مالك[٢]، فلما فرّ عنهم صاروا يعيبون سراقة ولم يعلموا أنه الشيطان حتىٰ أسلموا وسمعوا القرآن يُتلىٰ أنه الشيطان تمثل لهم في صورة سراقة،/ وفيه يقول حسان: ١/٦

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٠) من هذه السورة.

سرنا وساروا(١) [إلى بدر لحينهم لو يعلمون يقين الأمر ما ساروا

دلاهم بغرور ثم أسلمهم إن الخبيث لمن والاه غرار

وقال: إني لكم جار فأوردهم شرَّ الموارد فيه] الخزي والعار

هذا معنىٰ قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] فلما صف معهم للقتال ـ وكان حاضراً إذ ذاك ـ رأىٰ الملائكة تنزل، وكان إبليس اللعين لما رأىٰ الملائكة عرفها، ولما عرف الملائكة خاف خوفاً شديداً؛ لأن الشياطين أخوف ما تخافه الملائكة (صلوات الله وسلامه عليهم)، فعند ذلك ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: رجع القهقرى. والعقب: مؤخر الرجل؛ لأن الراجع القهقرى يمشي على عقبيه، أي: منعكساً متقهقراً. ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ تبرأت منكم، كما هي عادة الشيطان، يورد الإنسان الهلاك حتىٰ إذا أوقعه فيه تبرأ منه؛ لأنه غرار خداع كما قال تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: الآية ١٦] وقد يتبرأ منهم ـ لعنهم الله ـ كما سيأتي في خطبة الشيطان خطبته الفصيحة العظيمة الصادقة التي يخطبها في أوليائه يوم القيامة، التي نص الله عليها في سورة إبراهيم الخليل؛ لأنه إذا اجتمعت الخلائق ورأى الكفار ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: الآية ٥٣] جاؤوا لإبليس اللعين وقالوا: أنت كنت سيدنا وكنا نطيعك، فإن كان عندك شيء اليوم فأت به. قال بعض العلماء: ينصب له منبر من نار(٢) ـ والله أعلم ـ بمثل هذا. ونصب المنبر له من النار شبه إسرائيليات، والخطبة صحيحة ذكرها الله في سورة إبراهيم الخليل، وهو قوله لهم: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا

---

(١) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، والأبيات ذكرها الشيخ (رحمه الله) فيما مضى عند تفسير الآية (١١٢) من هذه السورة، فنقلتها هنا وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) انظر: ابن جرير (٥٦٣/١٦).

تَلُومُونِي وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٢] وهو صادق في كلامه هذا، وقد يصدق الكذوب، فعند ذلك يمقتون أنفسهم حيث اتبعوا هذا الخائن الغدار الغرار، وعندما يمقتون أنفسهم في ذلك الوقت قال بعض العلماء: ينادون: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: الآية ١٠] ولذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] تراءت: (تفاعلت) من (رأىٰ) البصرية. أي: كان كل من الفئتين يرىٰ الأخرى ببصره رأي العين كما تقدم في قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: الآية ٣٣] ﴿تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ أي: فئة المسلمين وفئة الكفار، صار هؤلاء يرون هؤلاء عياناً بأعينهم، وهؤلاء كذلك. قال بعض العلماء: ونزل الملائكة لنصر المسلمين، ورأىٰ إبليس الملائكة، ويدل علىٰ هذا قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يشير إلىٰ الملائكة؛ لأن الكفار لم يروها وهو قد رآها، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ قال بعض العلماء: هو الملائكة. وعبّر عنه بـ (ما) لأنه أبهمه عليهم ولم يبين لهم أنه من العالِم ولا العاقل. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أن ينزل بي عقابه ونكاله، فالله (جل وعلا) شديد العقاب. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[١] أن الخوف في لغة العرب: هو الغم من أمر مستقبل. والحزن في لغة العرب: الغم بسبب أمر فائت ـ أعاذنا الله منهما ـ وربما وضعت العرب الخوف مكان [الحزن، والحزن][٢] مكان الخوف. وقوله: ﴿أَخَافُ﴾ الألف بعد الخاء مبدلة من واو، وأصل مادته (فَعِل) بالكسر، أصل ماضيه: (خَوِفَ) بكسر الواو (يَخْوَفُ) بفتحها، فوقع فيه الإعلال المعروف المشهور في التصريف[٣].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٢) في الأصل: «الغم، والغم» وهو سبق لسان.

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٣٦٦.

﴿أَخَافُ اللَّهَ﴾ يعني: أترقب الغم من سبب ما يصلني منه في المستقبل. ﴿وَاللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب فعقابه شديد.

والعقاب: هو التنكيل بسبب الذنب. قال بعض العلماء: سمي عقاباً لأنه يأتي عقبه من أجله. وقد قدمنا أنه (جل وعلا) هو وحده شديد العقاب؛ لأنه لا شدة عقاب يملكها غير الله (جل وعلا)؛ لأن أكبر طاغية من جبابرة أهل الأرض لا يقدر على شيء من العذاب إلا قَدْرَ ما يستوجب الموت مرة واحدة، فإذا عذب المجرم بقدر ما يستوجب الموت مات. والله وحده يعذب المجرمين بالآلاف والملايين مما يستوجب الموت ومع ذلك لا يموتون ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٧] ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: الآية ٥٦] فهذا هو العذاب الشديد والنكال العظيم الذي يجب الحذر منه والخوف منه ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: الآيتان ٢٥، ٢٦].

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٤٩ ـ ٥٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤٩].

قوله: «إذ» ظرف بدل من «إذ» قبله، أو منصوب بـ (اذكر) مقدراً. اذكر إذ يقول المنافقون.

المنافقون: جمع التصحيح للمنافق، وهو المتصف بالنفاق، والنفاق:

هو إظهار الإيمان وإبطان الكفر. والمنافق هو المعروف في اصطلاح الفقهاء بالزنديق، فالمنافقون الذين يلقون المسلمين ويقولون: إنهم مؤمنون. وهم في باطن الأمر بخلاف ذلك.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ اختلف العلماء في المراد بالذين في قلوبهم مرض على أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً(١).

قال بعض العلماء: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم نفس المنافقين، وإنما كان العطف نظراً إلى مغايرة الصفات، كأنه يقول: الجامعون بين النفاق ومرض القلوب قالوا كذا وكذا، ومعلوم في اللغة العربية التي نزل بها القرآن أن عطف الشيء على نفسه مذكوراً بصفات مختلفة نظراً إلى أن تغاير الصفات كتغاير الذوات أسلوب عربي معروف في كلام العرب، وهو موجود بكثرة في القرآن(٢)، كقوله في أول سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: الآيات ٢ ـ ٤] والمعطوفون هم الأولون، إلا أن الصفات اختلفت فجاء العطف نظراً لتغاير الصفات. ونظيره في القرآن أيضاً قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝﴾ [الأعلى: الآيات ١ ـ ٤] فالمتعاطفات شيء واحد عُطف بعضها على بعض نظراً لتغاير الصفات، وهذا الأسلوب معروف في كلام العرب، ومن شواهده العربية قول الشاعر(٣):

إلى المَلكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَام   ولَيْثِ الكتيبة في المُزْدَحَم

فهو إنسان واحد، وذُكرت العطوف نظراً لتغاير الصفات. ومما يؤيد هذا القول: أن الله وصف المنافقين بأن في قلوبهم مرضاً في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: الآية ١٠] وهي في المنافقين بلا نزاع.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٢) القرطبي (٨/٢٧)، ابن كثير (٢/٣١٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

ومرض القلوب جاء في القرآن على معنيين:

أحدهما: مرض القلوب بمعنىٰ ما يداخلها من الشرك والشك والنفاق، كقوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: الآية ١٠].

المعنى الثاني: إطلاق مرض القلب على القلب الذي يهوىٰ الفجور والزنىٰ ونحو ذلك، ومنه بهذا المعنى قوله في سورة الأحزاب مخاطباً أزواج النبي ﷺ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٢] أي: يطمع في نيل الريبة منكن الذي في قلبه مرض. ميل إلى الفجور وما لا ينبغي، والعرب تعرف هذا، الذي ينطوي قلبه على أمور خسيسة، تقول العرب: في قلبه مرض، ومن هذا المعنى قول الأعشى ـ ميمون بن قيس ـ وهو عربي فصيح يمدح رجلاً[1]:

حافظ للفرج راضٍ بالتقىٰ ليس ممن قلبه فيه مرض

وقال بعض العلماء: ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المشركون، إذ لا مرض في القلوب أكبر من انطوائها على الشرك بالله.

وذهبت جماعة من العلماء إلى أن ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ في هذه الآية من سورة الأنفال خُصّ بها أناس معروفون هم الذين بسط الله قصتهم في سورة النساء، وهم قوم تكلموا بكلمة الإسلام فقالوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله في مكة، ثم إنهم أبوا أن يهاجروا، وفي قلوبهم إسلام وإيمان ضعيف في قلوبهم على حرف هكذا وهكذا. وإذا قيل لهم: لِمَ لا تهاجرون وأنتم مسلمون؟ قالوا: نحن مستضعفون في الأرض. وهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الآية [النساء: الآية ٩٧]. قالوا: جاؤوا مع كفار قريش فلما رأوا قلة المسلمين ـ وكان الله قلل المسلمين في أعين الكفار، والكفار في أعين المسلمين كما أوضحناه قريباً في قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: الآية

(١) لم أقف عليه.

٤٥] لما رأوا قلتهم وقللهم الله في أعينهم جداً ـ قالوا: هؤلاء قوم مغرورون، غرهم دينهم!! وزعموا أنهم على دين يُؤَيِّد القليل المتمسك به على الكثير فاغتروا من هنا، وهؤلاء سيُغلبون ويقتلون قطعاً!! وهؤلاء المستضعفون الذين نزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النساء: الآية ٩٧] نفر من قريش معروفون، آمنوا بالله إيماناً ضعيفاً ولم يهاجروا، وجاؤوا مع الكفار يوم بدر، قال بعض العلماء: وهم الذين قالوا مع المنافقين: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٩] وهم معروفون، وهم: العاص بن منبه بن الحجاج السهمي، وعلي بن أمية بن خلف الجمحي، وأبو قيس بن الفاكه ابن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، وابن عمه أبو قيس بن الوليد ابن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، هؤلاء هم النفر المعرفون الذين قالوا: إنا ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾ [النساء: الآية ٩٧] وعلىٰ كل حال فلما التقىٰ المسلمون والمشركون يوم بدر كان الذين في قلوبهم مرض من المنافقين، أو المشركين، أو هؤلاء النفر القليلين الذين آمنوا إيماناً ضعيفاً في مكة وخرجوا مع الكفار يوم بدر وقتلوا كفاراً ـ والعياذ بالله ـ قالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ الإشارة في قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى النبي ﷺ وأصحابه و ﴿دِينُهُمْ﴾ فاعل ﴿غَرَّ﴾ يعني: غرهم دينهم حيث اغتروا به وظنوا أن المتمسك بهذا الدين ولو كان قليلًا ضعيفاً يغلب القوي العظيم فاغتروا، وسيكون هذا الغرور سبباً لهلاكهم!! والعرب تقول: «غرّه يغرّه غروراً» على غير قياس. فالفاعل: غارّ، والمفعول: مغرور، إذا خدعه. وهم نسبوا هنا الغرور إلى الدين زاعمين أنهم انخدعوا في دينهم حيث يظنون أن القليل المتمسك به يغلب القوي غير المتمسك به، وهذا المعنىٰ معروف في كلام العرب، تقول: غرّه يغره. إذا خدعه، ومنه سُمي الشيطان غروراً لكثرة غروره للآدميين بتزيينه ووساوسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: الآية ٥] ومن هذا المعنىٰ قول ابن أبي ربيعة أو غيره[1]:

---

(١) البيت في شذور الذهب ص١٧٤.

إنَّ امـرأً غَـرَّهُ مـنـكـنَّ واحـدةٌ بعدي وبعدكِ في الدنيا لمغرور

ثم إن الله أجاب ربنا (جل وعلا) عما قاله المنافقون والذين في قلوبهم مرض قال لهم الله: لا. كأن المعنى: لا، لم يغر هؤلاء دينهم، وهم على بصيرة من أمرهم وعلى حق، ولكنهم توكلوا على الله، ومن توكل على الله توكل على قوي الجناب عزيز منيع لا يُضام من توكل عليه؛ ولذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ التوكل معناه: الثقة الكاملة، وتفويض الأمور إليه (جل وعلا). ﴿يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يثق بالله ثقة كاملة ويسلم إليه أموره، ويفوض له تفويضاً تاماً توكلًا عليه. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الضمير الرابط محذوف دل المقام عليه. ومن يتوكل على الله فإنه يعزه بعزته وينصره؛ لأن الله عزيز حكيم.

والعزيز: هو الغالب الذي يقهر غيره ويغلبه فالله (جل وعلا) عزيز غالب على أمره. والعزة في لغة العرب: الغلبة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: الآية ٨] أي: ولله الغلبة ولرسوله. ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: الآية ٢٣] يعني: غلبني في المخاصمة. والعرب تقول: «من عزّ بزّ»[١] يعنون: من غلب استلب؛ لأنه كان الغالب ينهب مال المغلوب، ويقولون: «من عزّ بزّ»، وقد قالت الخنساء بنت عمرو الشريد السلمية الشاعرة[٢]:

كأن لـم يـكـونـوا حـمـىً يُـخـتـشـى إذ الـنـاس إذ ذاك مـن عـزّ بـزّا

تعني: من غلب استلب. والحكيم[٣]: هو ذو الحكمة البالغة، الذي لا يضع الأمر إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه. فاقتضت عزته وقهره وسلطانه ألَّا يُضام وليه المتوكل عليه المستند إليه، وألا يُقهر. واقتضت حكمته البالغة ألَّا يجعل وليه كعدوه، وألا يسوي بينهما بل ينصر وليه على عدوه. والحكمة لا تتم إلا بالعلم؛ لأن تمام الحكمة بتمام العلم؛

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

ولذا لا تتم الحكمة تماماً كلياً إلا لله وحده (جل وعلا)؛ لأنه هو العالم بخفايا الأمور وخباياها وما تؤول إليه، فالله وحده هو الذي لا يجري عليه: لو فعلت كذا لكان خيراً. أما غيره فإنه قد يفعل الأمر يظنه صواباً، وأنه في غاية الحكمة، ثم يتبين له بعد ذلك أن غيره أصوب منه، فيقول: لو فعلت كذا لكان كذا!! وليتني لم أفعل!! وفي الحديث النهي عن (لو) لأنها تفتح باب الشيطان. لو فعلت كذا لكان كذا[1].

ليت شِعْرِي وأينَ مني (ليتُ) إن (ليتاً) وإن (لواً) عناءُ[2]

العناء: التعب وكثرة: ليتني فعلت، وليتني لم أفعل، ولو فعلت كذا لكان كذا. كل هذا يقع من عدم العلم بعواقب الأمور، والله (جل وعلا) وحده لا يجري عليه: لو فعلت كذا لكان أصوب. لعلمه بما تنكشف عنه الغيوب، وما تؤول إليه الأمور، فالحكمة الكاملة له، أما غيره (جل وعلا) فقد يفعل الأمر يظنه حكمة وصواباً ثم ينكشف الغيب عن خلاف ذلك كما قال[3]:

أُلامُ علىٰ (لوٍ) ولو كنتُ عالماً بأذناب (لوٍ) لم تفُتني أوائله

وهذا سيد البشر محمد ﷺ علمه الله العلوم العظيمة كان يقول في آخر عمره في حجة الوداع: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة**»[4] فكيف بغيره ﷺ؟! وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ﴾ ـ جل وعلا ـ ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤٩].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا۟ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ٥٠، ٥١].

---

(١) مسلم في القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز...، حديث رقم: (٢٦٦٤) (٢٠٥٢/٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

(٤) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا نبي الله. (لو) حرف شرط تقلب المضارع ماضياً غالباً. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ هنا بمعنىٰ: لو رأيت. لأن (لو) من حروف الشروط التي تختص بالمعنىٰ الماضي غالباً، وفي أغلب أحوالها إذا جاء بعدها مضارع تقلبه إلىٰ معنىٰ المُضِي، وقد لا تقلبه إلىٰ معنىٰ المُضِي فيأتي بعدها مضارع، وهو ليس بكثير، ولكنه موجود في كلام العرب، ومن إتيان المعنىٰ بعدها مضارعاً ولو كان ماضياً: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ [النساء: الآية ٩] لأن تركهم للذرية مستقبل؛ لأنهم في ذلك الوقت أحياء. ومن إتيانه مستقبلاً غير مصروف إلىٰ الماضي قول المجنون[١]:

فلو تلتقي أصْداؤُنا بعد موتنا ومن دون رمسينا من الأرض منكبُ
لظَلَّ صَدَىٰ صوتي وإنْ كنتُ رمة لصوت صَدَىٰ ليلي يهش ويطْرَبُ

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى﴾ ترىٰ حين يتوفىٰ الملائكة.

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير ابن عامر: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بالياء. وقرأه ابن عامر وحده: **﴿ولو تَرَى إِذ تتوفى الذين كفروا الملائكةُ﴾**[٢].

وتتوفاهم: أصل التوفي في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناه[٣]: أخذ الشيء وافياً، تقول العرب: «توفيت دَيْني»، أي: أخذته وافياً. وكان حقيقة عرفية في أخذ الروح من البدن. فصار التوفي حقيقة عرفية في أخذ الروح وافية كاملة من البدن بحيث لم يبق فيه روح ألبتة.

والملائكة: جمع ملك. والتحقيق عند جماعة من العلماء: أن اشتقاق الملك من الألوكة، والألوكة: الرسالة[٤]؛ لأن لطالب العلم أن يقول: مفرد

(١) البيتان في ديوانه ص٢٤.
(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢١.
(٣) مضى عند تفسير الآية (١٤٦) من سورة الأنعام.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

الملائكة ملك، وجمعه: الملائكة - بالهمزة - فمن أين جاءت هذه الهمزة؟ وما الجالب لها؟

والجواب عن هذا: ما قاله بعض العلماء: أن أصل الملك: (مألك) (مَفْعَل) من الألُوكَة. والألُوكَةُ في لغة العرب: الرسالة. وألكني إليه: احمل إليه مألكتي، أي: رسالتي، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[1]:

أَلِكْني إليها وخَيْر الرسول أَعْلَمُهم بنواحي الخَبر

فأصله: (مألك) لأنهم يحملون مألك الله، أي: رسالات الله، منهم من يُرسل لتسخير المطر، ومنهم من يُرسل لقبض الأرواح، ومنهم من يُرسل لضبط الأعمال، ومنهم من يُرسل لحفظ بني آدم أن تتخطفهم الشياطين، كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: الآية ٥] فلما كانوا يحملون المآلك، أي: الرسائل من الله في الشئون الشتىٰ قيل فيه: (مألك). ثم وقع فيه قلب فجُعل الفاء مكان العين، والعين مكان الفاء، وهذا القلب معروف في الصرف، فقيل فيه: (ملك) ووزنه: (مألك) (مَفْعَل) فقُلب فصار (ملك) علىٰ وزن (مَعْفَل) ثم نُقلت حركة الهمزة للام فقيل فيه: (ملك). فكان عند جمع التكسير تظهر الهمزة التي هي في أصله في محلها الذي قُلبت فيه، قال بعض العلماء: هذا أصله[2]. و ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فاعل ﴿تَتَوَفَّى﴾ أي: تقبض أرواحهم من أجسادهم كاملة. والفعل المضارع في قوله: ﴿يَضْرِبُونَ﴾ جملته حالية. وأصل الفعل المضارع المُثبت إذا كانت جملته حالية لا تُربط بالواو بل بالضمير كما هنا ﴿يَضْرِبُونَ﴾ أي: الملائكة. يعني: يتوفونهم يأخذون أرواحهم في حال كونهم ضاربين وجوههم وأدبارهم. الوجوه: جمع الوجه. والأدبار: جمع الدبر، وقال جماعة من السلف[3]: المراد بالأدبار: الأستاه - أكرمكم الله جل وعلا - قالوا: ولكن الله (جل وعلا)

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) انظر: ابن جرير (١٤/١٥).

حيي كريم يكني، فكنى عن الاست بالدبر؛ ولذا قال: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ مقول قول محذوف، أي: ويقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق.

اختلف العلماء في وقت ذوقهم عذاب الحريق[١]، قال بعض العلماء: هو عند وفاتهم عندما يأخذون أرواحهم يضربونهم بسياط من نار فتشتعل ناراً فيقولون لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

وقال بعض العلماء: هي للملائكة الذين قاتلوا في بدر يضربون الكفار، ويأخذون أرواحهم، ويضربونهم بسياط النار فتشتعل في جروحهم فيقولون لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

وقالت جماعة من العلماء: هذا يوم القيامة، وممن قال به: الحسن البصري، أي: يضربون وجوههم وأدبارهم الآن عند الاحتضار، ويبشرونهم يوم القيامة بما هو أدهى وأمر من ذلك، وهو عذاب الحريق. وهذا معنى قوله: توفاهم ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: الآية ٥٠].

والتحقيق أن هذا ليس خاصاً بالذين قُتلوا من الكفار يوم بدر، بل هو عام، وأن الملائكة تضرب الكفار عند احتضارهم على الوجوه والأدبار، كما جاء مصرحاً به في سورة القتال، وجاء مشاراً إليه في الأنعام؛ لأن الله قال في الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: الآية ٩٣] باسطوها إليهم بالضرب ـ والعياذ بالله ـ وقال (جل وعلا) في سورة القتال: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ وفي القراءة الأخرى[٢]: ﴿إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ

---

(١) انظر: القرطبي (٢٨/٨).

(٢) انظر: المبسوط ولابن مهران ص٤٠٩.

﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ۝٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٢٨﴾ [محمد: الآيات ٢٥ ـ ٢٨] فدلت آية القتال هذه علىٰ أنها عامة في كل من كره رضوان الله وأحب سخط الله، فكل من اتبع ما يسخط الله يأتيه هذا الوعيد الشديد، ومن أعظم الناس نصيباً فيه هؤلاء الذين يأتون الكفرة الفجرة الذين يكرهون القرآن وما أنزل الله، ويقولون لهم: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ [محمد: الآية ٢٦] وأحرىٰ إن أطاعوهم في كل الأمر، هؤلاء أكثر الناس نصيباً في ضرب الملائكة عند الاحتضار علىٰ الوجوه والأدبار ـ والعياذ بالله ـ وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٠] قال بعض العلماء: الضرب علىٰ الوجوه والأدبار أشد وقعاً. وقال بعض العلماء: علىٰ القول بأنها في أهل بدر أنهم يضربون وجه المشرك مقبلاً، فإذا فرّ مدبراً ضربوا دبره. وقد قدمنا أن التحقيق العموم، وأنها لا تختص بمن قُتل في بدر. وهذا معنىٰ قوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. قال بعض العلماء: ذوق عذاب الحريق عند الاحتضار؛ لأن المقامع التي يضربونهم بها تلتهب عليهم ناراً.

وقال بعض العلماء: يبشرونهم بالحريق يوم القيامة. ولا مانع من وقوع الكل. هذا معنىٰ قوله: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. وجواب (لو) في هذه الآية محذوف، وتقديره: لو ترىٰ يا محمد حين يتوفىٰ الملائكة الكفرة في حال كونهم ضاربين وجوههم وأدبارهم مبشرين لهم بالحريق، لو ترىٰ ذلك الوقت لرأيت أمراً فظيعاً شنيعاً يجب الحذر منه، وجواب (لو) حَذْفُه إذا دل المقام عليه أسلوب عربي معروف يكثر في القرآن العظيم وفي لسان العرب[1]، ومنه في القرآن العظيم: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر: الآية ٥] أي: لو تعلمون علم

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام، وما سيأتي عند تفسير الآية (٥٩) من سورة التوبة.

اليقين لما ألهاكم التكاثر حتىٰ زرتم المقابر، ونظيره من كلام العرب في حذف جواب (لو) قول الشاعر[١]:

فأُقسِمُ لو شَيءٌ أتانا رسولُه سِواكَ ولكن لم نجد لك مَدْفَعاً

أي: لو شيء سواك لرددناه.

وقال جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: الآية ٣١] ولم يذكر جواب (لو) وقال بعض العلماء: جوابه: لو أن قرآناً سُيرت به الجبال لكان هذا القرآن علىٰ حد قوله[٢]:

ولو طار ذو حافر قبلها لطارت ولكنه لم يطر

وقال بعض العلماء: جواب (لو) المحذوف في آية الرعد ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ لو سيرنا الجبال بالقرآن وقطعنا به الأرض لكفرتم بالرحمٰن. ويدل علىٰ هذا التقدير الأخير قوله قبله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ الآية [الرعد: الآية ٣٠]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الأنفال: الآيتان ٥٠، ٥١].

قال بعض العلماء: هذا مما يقول لهم الملائكة عند توفيهم إياهم وضربهم وجوههم وأدبارهم، يقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق. ويقولون لهم: ذلك العذاب الفظيع الشديد بسبب ما قدمت أيديكم.

وقال بعض العلماء: هو كلام مُؤْتَنَف، أي: ذلك العذاب الكائن الواقع لكم بسبب ما قدمت أيديكم. جرت العادة في لسان العرب الذي نزل به القرآن أن يُضاف جميع الأعمال إلىٰ الأيدي وإن كان بعضها ليس بأيدي، فإن الشرك الذي يُعذبون عليه محله القلب واللسان واليد، والزنى محله

(١) البيت لامرىء القيس وهو في ديوانه ص١٠٠.

(٢) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.

الفرج، وأكل الربا محله البطن، ولكن كل هذا يُنسب إلى الأيدي على الأسلوب العربي المعروف؛ لأن أكثر ما يزاول الإنسان أعماله بيده فنسب إليه على التغليب ومراعاة الأغلب[١].

والمراد ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ما كسبتم من المعاصي والكفر، سواء كان الذي اجترمته القلوب، أو الألسنة، أو الأيدي، أو غير ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٥١﴾ [الأنفال: الآية ٥١].

قال بعض العلماء: المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ في محل خفض معطوف على الموصول المجرور (بما) أي: ذلك بسبب الذي قدمته أيديكم، وبسبب أن الله لا يظلم، فبكفركم وبعدالة ربكم وكمال إنصافه جاءكم العذاب؛ لأن بهذين السببين يتوجه إليكم العذاب، كونكم اقترفتموه واكتسبتموه بأيديكم، وكون ربكم (جل وعلا) حَكَماً عدلاً منصفاً، فتعذيبه ومؤاخذته للعاصي، كما أنه يثيب المطيع، فظلمكم وعداوة ربكم كل ذلك اقتضى لكم ما وقع لكم من العذاب والعياذ بالله جل وعلا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيه في هذه الآية الكريمة والآيات المماثلة لها من القرآن إشكال عربي معروف يدور فيه سؤال مشهور على ألسنة العلماء وطلبة العلم، وهو أن يُقال: الله (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة نفى المبالغة؛ لأنه قال: ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ﴾ و (ظلاّم) (فعّال) و (الفعّال) صيغة مبالغة، والمقرر في اللغة العربية التي بها نزل القرآن أن نفي المبالغة لا يقتضي نفي أصل الفعل من حيث هو[٢]، فلو قلت: زيد ليس بِقَتّال للرجال، نفيت عنه المبالغة في القتل، ولا ينافي أنه ربما قتل رجلاً أو رجلين، ولو قلت: زيد ـ مثلاً ـ ليس بضرّاب لنسائه. يدل على انتفاء كثرة الضرب عنه، ولا ينافي أنه ربما وقع منه ضرب قليل كما هو معروف، فنفي المبالغة هنا لا يقتضي نفي

---

(١) انظر: ابن عطية (٣٠٨/٣)، القاسمي (٣٠٨/٤).

(٢) انظر: الإتقان (٢٣٣/٣)، الكليات ٨٨٩.

أصل الفعل من حيث هو، والمقام مقام تنزيه، ونفي الأدنىٰ أبلغ من نفي الأعلىٰ، فلِمَ عُبِّر هنا بصيغة المبالغة ولَم يقل: ليس بظالم. أَو ليس بذي ظلم للعبيد؟!

أجاب العلماء علىٰ ذا بأجوبة[1]: قالوا جرت العادة في القرآن أن بعض الآيات قد يكون فيها شبه إجمال وتبينه آيات أُخر، وقد أوضحت آيات أخر أن الله لا يظلم شيئاً، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: الآية ٤٠] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: الآية ٤٤] فالآيات الواضحات بينت هذا وأوضحته غاية الإيضاح.

وقال بعض العلماء: المبالغة هنا لا يقصد بها أصل المبالغة؛ لأن التكثير نظراً إلىٰ كثرة العبيد؛ لأن الظلم لما تعلق بالعبيد وكان العبيد في كثرة هائلة كان الظلم كثيراً جداً لكثرة من هو منفي عنهم؛ ولذا كان نفيه نفيه من أصله؛ لأن الكثرة فيه والمبالغة بحسب العبيد اللذين يقع عليهم الظلم.

وقال بعض العلماء: ـ وهي نكتة حسنة ـ أن هذا العذاب الذي يعذبهم الله به هو عذاب فظيع هائل لا يُقَادَر قدره ولا يُماثل مثله، فلو وقع منه ظلماً لكان مبالغاً في غاية الظلم مبالغة عظيمة، فنفى المبالغة بهذا الاعتبار، ومعناها نفي الفعل من أصله. وهذا الوجه حسن جداً، إلا أن فيه دقة. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: الآية ٥١].

وقوله (جل وعلا) في هذه الآيات الكريمة ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٢] الكاف في قوله: ﴿كَدَأْبِ﴾ في محل

---

(١) انظر: البحر المحيط (٣/١٣١)، الدر المصون (٣/٥١٥)، فتح الرحمٰن بكشف ما يلتبس في القرآن ١٠١، الإتقان (٣/٢٣٣)، الكليات ٨٨٩، القاسمي (٤/٣٠٩).

رفع خبر مبتدأ محذوف. أي: دأبهم دأب كفار مكة، أبي جهل وأصحابه. دأبهم: أي: عادتهم، ودينهم، وديدنهم كدأب آل فرعون؛ لأن فرعون وقومه كان دأبهم الكفر، وتكذيب الرسل، والتمرد على الله، والكفر بالآيات، وجحودها بعد الاستيقان؛ لأن فرعون ـ لعنه الله ـ متيقن كل اليقين أن نبي الله موسىٰ صادق، وقد أوضح الله يقينه بذلك في موضعين: أحدهما قوله فيه [في سورة النمل: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الثاني: قوله تعالى إخباراً عن قول موسى لفرعون في سورة الإسراء: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ وهذا كان دأب المكذبين من الأقوام الذي بُعث فيهم الرسل كقوم نوح][(١)].

٦/ب / وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط، كل هؤلاء كانوا في غاية التمرد والعتو وتكذيب الرسل بعد قيام المعجزات ووضوح الحق. بيّن الله (جل وعلا) أن كفار قريش دأبهم كدأب أولئك. والدأب في لغة العرب: العادة. فكل من يجري علىٰ سَنَن مطرد وعادة ووتيرة تقول العرب: هذا دأبه. أي: عادته وديدنه الذي يسير عليه دائماً. ومنه قول امرىء القيس في إحدىٰ روايتي بيته[(٢)]:

كدأبكَ من أمِّ الحُويرث قَبلَها وَجارَتِها أُمِّ الرَّبابِ بمأسلِ

وقرأ هذا الحرف عامة القراء غير أبي عمرو في رواية السوسي: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ بتحقيق الهمزة، وقرأه أبو عمرو في رواية السوسي عنه خاصة: ﴿كَدَابِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ بإبدال الهمزة ألفاً في الموضعين.

والمعنىٰ: دأب هؤلاء الكفرة دأبهم وديدنهم ودينهم مثل دأب آل فرعون في تكذيب الرسل؛ لأن فرعون كلما جاءته آية يقول: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٤، ١٣٥]

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) ديوانه ص١١١.

حتىٰ صارحوه في آخر الأمر وقالوا له: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٢] يعني: دأب هؤلاء الكفرة من قريش ومن سار سيرهم كدأب الكفرة العتاة المتمردين من الأمم الماضية آل فرعون والذين من قبلهم، كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقد قدمنا قصصهم مفصلة في سورة الأعراف وغيرها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٢].

ثم فسر دأب آل فرعون ومن قبلهم وبيّن عادتهم، قال: ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كفروا بها: جحدوا بها. وآيات الله: ما تتلوه عليهم الرسل من آياته الشرعية الدينية، وما يعاينونه من المعجزات من آياته الكونية القدرية، وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٢] العرب تقول: «أخذه الله» إذا عاقبه عقاباً شديداً أليماً. وقد روىٰ البخاري ومسلم في صحيحيهما (رحمهما الله) من حديث أبي موسىٰ الأشعري (رضي الله عنه) أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «**إن الله ليملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يفلته**» ثم تلا ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: الآية ١٠٢][1] ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أهلكهم وعاقبهم العقاب الشديد بسبب ذنوبهم. والذنب: هو الجريمة التي يستحق صاحبها النكال. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾ القوة: ضد الضعف، وقد بين (جل وعلا) أن القوة ضد الضعف في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً...﴾ الآية [الروم: الآية ٥٤]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾ لأن الله (جل وعلا) قوي، هو أقوىٰ من كل شيء، حتىٰ لما قال عاد ما قالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: الآية ١٥].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأنعام.

﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ العقاب: النكال الشديد لأجل الذنب. قال بعض العلماء: سُمي عقاباً لأنه يأتي عقب الذنب من أجله. وقد بينا مراراً أن الله (جل وعلا) في كتابه ينوه بشدة عقابه ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ﴿شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥] ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ١٧٤] ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٢] ونحو ذلك من تشنيع عذابه وفظاعته، وإن الأمر كذلك؛ لأنه ليس يوجد عذاب هو في غايته شديد فظيع إلا عذاب الله (جل وعلا) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: الآيتان ٢٥، ٢٦] لأن الناس إذا عذبوا المجرمين، والملوك الطغاة البغاة إذا أرادوا أن يعذبوا لا يستطيعون من العذاب إلا قدر ما يستوجب الموت مرة واحدة، فإذا شددوا العذاب على المعذب بقدر ما يميته مات وانتهى الأمر، أما خالق السماوات والأرض (جل وعلا) فإنه يعذبه بالآلآف مما يستوجب الموت وهو لا يموت. ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٧] وقال جل وعلا: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: الآية ٥٦] ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: الآية ٣٦] ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: الآية ٧٧] فهذا العذاب الذي لا تقطعه الموت ولا غيرها هو الذي يُخاف منه ويُحذر منه، وهو الشديد بمعنى الكلمة، فعلى كل عاقل أن يتحفظ منه ويتحرز منه في دار الدنيا مع إمكان الفرصة قبل أن يفوت الأوان ويندم حيث لا ينفع الندم، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: الآية ٥٢].

ثم قال جل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٣] الفعل المضارع مجزوم بـ (أن) بعد (حتىٰ)، و (حتىٰ) حرف جر بمعنى الغاية. والأصل: إلىٰ أن يغيروا. أي: إلىٰ تغييرهم ما بأنفسهم. فهو غاية ذلك المذكور مما أنزل الله بهذه الأمم من المثلات، وما أنزل بكفار مكة من العذاب يوم بدر والقتل والأسر متصلاً بعذاب الآخرة الذي لا ينقطع بسبب أن الله جل وعلا ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً﴾ (يكن) مضارع كان يكون، وحذف النون

في الفعل المضارع معروف بقياس مطرد نطقت به العرب كذلك، سواء كان بعده (أل) أو لم تكن بعده (أل) كما هو معروف ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ نعمة: مفعول به لاسم الفاعل. والنعمة: مصدر بمعنىٰ الإنعام، وهو ما ينعم الله ويتفضل به علىٰ خلقه. أنعم بها ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي: جماعة من الناس كقريش وغيرهم من الأمم ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا﴾ والمعنىٰ: أن عدم تغييره للنعمة مُغَيًّا بغاية، تلك الغاية هي أن يغيروا ما بأنفسهم، فإذا غيروا ما بأنفسهم بأن ارتكبوا سوءاً يستوجب العذاب والغضب غيرنا النعم بسبب تغييرهم إياهم.

وهذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن يجب الاعتبار بها، وأن الإنسان لا يتسبب في تغيير نعمة الله عنه بتغييره ما في نفسه، بل يدوم علىٰ طاعة الله وتقواه؛ لأنه إذا تنكر لربه قد يغير نعمته عنه وينقله من النعمة إلىٰ النقمة، ومن السلامة إلىٰ العذاب.

وفي هذه الآية الكريمة إشكال معروف، وسؤال مشهور، وهو أن يُقال: إن هؤلاء الكفرة كل أحوالهم خبيثة وخسيسة، فما غيروا الكفر إلا إلىٰ كفر، فهم كانوا كفرة ولم يكونوا في حالة محمودة حتىٰ يكونوا غيروا ما بأنفسهم، فالذي كانوا فيه خبيث خسيس، والذي غيروا به خبيث خسيس، فبأي موجب كانت تتمادىٰ عليهم النعمة الأولىٰ، وبأي سبب كانوا يدخلون في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ وهذا الإشكال قوي، ووجهه واضح جداً، ولا يمكن أن يُخرج من الآية لأن الآية نازلة في الكفار، فرعون ومن سار علىٰ سيره، وكفار مكة الذين شُبِّه دأبهم بدأبه، والمقرر في علم الأصول: أن صورة السبب لا يمكن أن تُخرج من العام بمخصص، وهو التحقيق إن شاء الله[١]. فبان استحكام هذا الإشكال وقوته.

وأجاب بعض العلماء[٢] عن هذا بأنهم كانوا في نعمة من الله لأنهم لم

---

(١) انظر: نثر الورود (٣١٣/١)، المذكرة في أصول الفقه ص٢١٠ .

(٢) انظر: البحر المحيط (٥٠٧/٤).

يأتهم رسول، وكانوا معذورين بالفترة، فأرسل الله إليهم الرسل، وبين لهم المعجزات، وأقام عليهم الحجج، فصاروا يحادون الله، ويكذبون رسله، ويعلمون الحق ويجحدونه عناداً وطغياناً وتكبراً علىٰ ربهم، فانتقلوا من حال سيئة إلىٰ حال أسوأ منها بأضعاف، فلما انتقلوا إلىٰ حال أسوأ كانوا غيروا فغير الله ما بهم لما غيروا ما بأنفسهم بانتقالهم من سيء إلىٰ أسوأ. وهذا معنىٰ قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يعني: ما بأنفسهم بأن ينتقلوا من خير إلىٰ شر. ودل هذا الجواب علىٰ أنه أيضاً بأن ينتقلوا من سيء إلىٰ أسوأ منه وأفظع كما ذكرنا. وهذا معنىٰ قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ عطف علىٰ ما قبله بأنه لم يك مغيراً، وبأنه سميع عليم لا يخفىٰ عليه شيء من أقوال المغيرين المستوجبين لتغيير النعمة، ولا من أفعالهم.

وقد قدمنا مراراً[١] أن مثل هذا هو الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم، وأوضحناه مراراً كثيرة. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٥٣].

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] هذا كالتوكيد لما قبله، كرره ليبين بعض ما أجمله هناك، فبين في هذه الآية الأخيرة أن من كفرهم المذكور في قوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا﴾ بين أن منه التكذيب بآيات الله، وبين أنه عاقبهم وأغرق منهم آل فرعون.

ومعنىٰ قوله: كدأبهم ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ فرعون: تطلق علىٰ كل من مَلَك مصر. والمراد بهذه: فرعون موسىٰ.

واختلف العلماء في لفظة (فرعون) هل هو عربي أو أعجمي[٢]؟ فقال

---

(١) انظر: ص.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

بعضهم: أعجمي. وقال بعضهم: هو عربي مشتق من (تفرعن) الرجل إذا كان ذا دهاء ومكر، فكل من كان ذا دهاء ومكر هو متفرعن، وعلىٰ أنه عربي فوزنه بالميزان الصرفي (فِعْلَوْلْ) فعلول بلامين لا (فعلون) بنون[١].

وفرعون هو الوليد بن الريان أو غيره علىٰ ما شرحنا، وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ معناه: أهله وجماعته. والتحقيق في ألف (الآل) أنها مبدلة من واو؛ لأن العرب تصغره علىٰ (أُويل). وبعضهم يقول: هي مبدلة من هاء، أصله: (أهل)[٢] ولا يقال: (الآل) إلا لمن له شأن وخطب، وإنما قيل لفرعون: (آل فرعون) مع أنه خسيس خبيث وضيع لعظمته ومكانته عند قومه أيام إرسال موسىٰ له؛ لأنه كان يقول: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: الآية ٥٢] ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: الآية ٥١] ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: الآية ٢٤] ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: الآية ٣٨] فهذه العظمة الزائفة والأبهة المختلقة كأنه قيل له بها (آل).

﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كذب قوم نوح بآيات الله التي أرسل بها نبيه نوحاً، وقوم هود بآيات الله التي أرسل بها نبيه صالحاً إلىٰ آخره. وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾.

﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ وقد قدمنا تفصيل إهلاك هؤلاء الأمم، فبين في آيات كثيرة أنه أهلك قوم نوح بالطوفان ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ [الفرقان: الآية ٣٧] وبين أنه أهلك قوم هود بالريح العقيم ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: الآية ٤٢] وأنه أهلك قوم صالح بصيحة صاح بهم الملك ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: الآية ٦٧] وأنه أهلك قوم شعيب تارة قال: بصيحة، وتارة قال:

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

برجفة، وتارة بظُلَّة. والتحقيق أن قوم شعيب ـ أهل مدين ـ اجتمعت لهم الصيحة والرجفة والظلة؛ لأنه صاح بهم الملك من فوق فرجفت بهم الأرض من تحتهم، ثم إن الله أرسل عليهم ظُلَّة فأحرقتهم ـ علىٰ القول بأن أصحاب الظُّلة هم أصحاب الصيحة والرجفة، وهو أظهر الأقوال وأقربها ـ كما قدمنا إيضاحه في سورة الأعراف ـ وبينا أن قوم لوط أخذ الملك أرضهم فرفعها وقلبها عاليها سافلها؛ ولذا كانت قرىٰ قوم لوط تسمىٰ (المؤتفكات) والمؤتفكات: مفتعلات من الأَفْك[1]، والأَفْك في لغة العرب هو القلب. من أَفَكَ الشيء إذا قلبه فجعل أسفله أعلاه. ومنه قيل لأسوأ الكذب (إفكاً) لأنه قلب للحقائق عن مواضعها. فقال (جل وعلا) فيهم: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: الآية ٨٢] لأنها أَفَكَها الملك أي: قلبها. فالمؤتفكات: المنقلبات المجعول أسفلها عاليها، تارة عبر عنها بالمؤتفكة نظراً إلىٰ سدوم التي هي عاصمتها، وتارة عبر عن جميع القرىٰ، قال في موضع: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣﴾ [النجم: الآية ٥٣] وقال في موضع: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [التوبة: الآية ٧٠] إلىٰ غير ذلك، وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ بين هنا ما فعل بآل فرعون؛ لأنه أغرقهم لما أسرىٰ موسىٰ ببني إسرائيل وضرب بعصاه البحر فانفلق البحر وصار فيه اثنىٰ عشر طريقاً يبساً، وسلكها موسىٰ وقومه، فجاء فرعون في قومه وأُبَّهَتِه فوجدوا الطرق يابسة، فدخلوا فيها حتىٰ تكامل خروج بني إسرائيل علىٰ الشاطىء، ودخول القبطيين في البحر، أمر الله البحر فاضطرب عليهم، كما جاء مبيناً في سور كثيرة من كتاب الله. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾.

﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] وكل من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، والكفرة الذين كذبوا محمداً ﷺ كل هؤلاء الكفرة كانوا ظالمين، ظالمين بكفرهم.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأعراف.

وقد قدمنا مراراً[١] أن أصل الظلم في لغة العرب التي نزل بها القرآن: هو وضع الشيء في غير محله، فكل من وضع شيئاً في غير محله فهو ظالم، هذا هو لسان العرب الذي نزل به القرآن، كل من وضع شيئاً في غير موضعه فقد ظلم؛ ولذا كانوا يقولون لمن يضرب لبنه قبل أن يروب: ظالم. ويقولون للسقاء المضروب قبل أن يروب: مظلوم. لأن الضرب وقع في غير موقعه؛ لأن ضربه قبل أن يروب يُذهب زبده ويضيعه، فكان في غير موضعه، وهو معنىً معروف في كلامها، ومنه قول الشاعر[٢]:

وقائلة ظلمتُ لكم سِقَائي   وهل يخفىٰ علىٰ العَكَدِ الظَّليم

العكد: عصب مؤخر اللسان. والظليم: اللبن المظلوم المضروب قبل أن يروب. معناه: أن ذوق اللسان يفهم ما ضُرب منه قبل أن يروب، وما ضُرب بعد أن راب، ونظيره قول الآخر[٣]:

وصاحبِ صدقٍ لم تردني شَكَاتُه   ظلمت و في ظَلْمي له عامداً أَجْرُ

ظلمته: أي: ضربته قبل أن يروب، وهذا المعنىٰ المعروف في كلام العرب، ومنه قيل للأرض التي ليست محلّا للحفر إذا وقع بها حفر: مظلومة، ومنه قول نابغة ذبيان[٤]:

إلاّ الأوَارِيَّ لأيـاً مـا أُبَـيِّـنُـهـا   والنؤي كالحوضِ بالمظلومةِ الجَلَدِ

لأن حفر النؤي الذي يحول بين خيمة البدوي وبين السيل وقع في أرض ليست محلّا للحفر، ومنه قيل للتراب المنزوع من القبر: (الظليم)، أي: مظلوم؛ لأنه محفور في غير محل حفر عادة، ومنه قول الشاعر يصف رجلًا مقبوراً[٥]:

فأَصْبَحَ في غَبْرَاءَ بعد إِشَاحَةٍ   من العَيشِ مردودٍ عليها ظَلِيْمُها

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.
(٢) السابق.
(٣) السابق.
(٤) السابق.
(٥) السابق.

هذا معنىٰ الظلم في لغة العرب. وجاء في القرآن معنىٰ الظلم: الظلم بمعنىٰ النقص في موضع واحد، هو قوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: الآية ٣٣] - يعني ولم تنقص - وهو راجع في المعنىٰ إلىٰ ما ذكرناه.

إذا عرفتم أن الظلم في لغة العرب: هو وضع الشيء في غير محله فاعلموا أن أعظم أنواعه وأشنعها هو وضع العبادة في غير من خلق. من خلقه الخالق ورزقه - جل وعلا - فعبد غيره فقد وضع عبادته وطاعته في غير موضعها فهو ظالم الظلم بمعناه الأكبر ومعنىٰ الكلمة تماماً؛ ولأجل هذا المعنىٰ كثر في القرآن إطلاق الظالم علىٰ الكافر المشرك، كقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٤] وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: الآية ١٠٦] ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣] وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] قال: «بشرك»، ثم تلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣][1] وكذلك يطلق الظلم علىٰ المعصية التي لا تبلغ الكفر؛ لأن العاصي أطاع الشيطان وعصىٰ الله، فقد وضع طاعته في غير موضعها، ووضع معصيته في غير موضعها فهو ظالم بهذا الاعتبار، فهذا معنىٰ قوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] والتنوين في قوله: ﴿وَكُلٌّ﴾ تنوين عوض، عوض عن كلمة المضاف إليه، أي: وكلهم كانوا ظالمين. فعوض التنوين عن المحذوف كما هو معروف في محله.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٥٥ ـ ٦١].

يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٥٥ ـ ٥٨].

نزلت هذه الآيات في بني قريظة من اليهود[1]، كانوا تعاهدوا مع النبي ﷺ أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه عدواً، ثم إنهم نقضوا العهد وأعانوا كفار مكة بالسلاح، وذهب إليهم كعب بن الأشرف ـ قبحه الله ـ إلىٰ أهل مكة يشجعهم علىٰ قتال النبي ﷺ ويكذب عليهم ويقول لهم: أنتم أهدىٰ طريقاً من محمد ﷺ كما قدمنا الكلام عليه في تفسير قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: الآية ٥١] نقض بنو قريظة العهد أولاً فأعانوا قريشاً بالسلاح علىٰ النبي ﷺ ـ والإعانة بالسلاح نقض للعهد الأول ـ فلما كلمهم ﷺ في نقض ذلك العهد قالوا: نسينا وأخطأنا فلا تأخذنا بها. وأكدوا معه العهد مرة أخرىٰ، ثم نقضوا العهد ومَالَؤُوا الأحزاب علىٰ النبي ﷺ يوم الخندق، وكانوا حرباً عليه مع المشركين؛ لأن حيي بن أخطب سيد بني النضير كان فتن سيد قريظة كعب بن أسد حتىٰ نقضوا العهد وصاروا مع الأحزاب حرباً علىٰ النبي ﷺ فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٥].

الدواب: جمع دابة، وقد جرت العادة في القرآن أن الآدميين لا يعبر عنهم بالدواب، لكنه هنا عبر عن هؤلاء الكفرة باسم الدواب، ليشير إلىٰ أنهم كالأنعام بل هم أضل، كما قال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: الآية ٤٤] والدواب: جمع دابة. وأصل الدابة وزنه (فَاعِلَةٍ) (دَابِبَة) جاء فيه

(١) انظر: ابن جرير (٢١/١٤).

الإدغام. وجمع (الفَاعِلَة) مطلقاً علىٰ (فَوَاعِل) جمع تكسير مقيس بقياس مطرد كما هو معروف في محله[١]. أي: إن شر جميع ما يدب علىٰ وجه الأرض من الدواب هم الكفار؛ لأنهم شر كل ما يدب علىٰ وجه الأرض، فقوله هنا: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ هي صيغة تفضيل، أصله: إن أشر الدواب، أي: أكثرها وأعظمها نصيباً في الشر الذين كفروا. إلا أن (خيراً) و (شراً) لكثرة الاستعمال فيهما حذفت العرب منهما همزة أفعل التفضيل، وهما صيغتا تفضيل، فقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ أي: أكثر الدواب التي تدب علىٰ وجه الأرض شراً وأعظمها نصيباً في الشر ـ وهو ضد الخير ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كبني قريظة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأن الكفر متغلغل في أعماقهم لا يقلعون عنه، وهم أشقياء قد سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون. ثم زادهم بياناً وإيضاحاً بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٦] فـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ قبله. قال بعض العلماء: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ إنما جيء بـ (من) لأنه مضمن معنىٰ: أخذت منهم العهود. قال بعض العلماء: (من) تبعيضية؛ لأنهم وإن كانوا كفرة كلهم فهم كلهم شر الدواب، إلا أن العهد إنما يعقد مع رؤسائهم الذين لهم العقد والحل، وبذلك الاعتبار دخلت (من) التبعيضية.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ المقرر في فن التصريف: أن كل فعل جاء علىٰ وزن (فَاعَل) كقوله هنا ﴿عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ أو علىٰ وزن (تفاعَل) إنه يقتضي اشتراك المصدر بين فاعلين[٢]. فمعنىٰ ﴿عَٰهَدتَّ﴾ أخذت عليهم العهد وأخذوا عليك العهد؛ لأن (فَاعَل) تقتضي الطرفين.

والعهد: كل شيء مؤكد لا يجوز نقضه تسميه العرب عهداً. والميثاق: العهد المؤكد. ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ وهم يهود بني قريظة ألا يحاربوك وألا يعاونوا عليك محارباً آخر ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا العهد المؤكد ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ قال بعض العلماء: (ثم) هنا للاستبعاد؛ لأنه يُسْتَبْعَد من العاقل الذي عنده عقله أن يجعل علىٰ نفسه العهود والمواثيق المؤكدة ثم ينقض

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

ذلك؛ لأن هذا الفعل خسيس قبيح يستبعد من العقلاء. وقد تقرر في كلام العرب وفي القرآن أن لفظة (ثم) التي هي للانفصال والتراخي قد تأتي للاستبعاد، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: الآية ١] لأن من خلق السماوات والأرض وخلق الظلمات والنور يستبعد كل الاستبعاد أن يُجعل له عديل ونظير، ولذا قال: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١] أي: يجعلون له عِدْلاً ونظيراً. تقول: عَدَلْت به إذا جعلت له عدلاً ونظيراً، ومنه قول جرير[1]:

أثعلبة الفوارس أو رياحاً عدلت بهم طُهيَّةَ والخِشَابَا

فـ (ثمَّ) للاستبعاد، ومن شواهد إتيان (ثم) للاستبعاد قول الشاعر[2]:

ولا يكشفُ الغَمّاء إلا ابن حُرةٍ يرىٰ غَمَرَاتِ الموتِ ثمَّ يزورُها

لأن زيارة غمرات الموت بعد معاينتها من الأمور المستبعدة.

﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ نقض العهد هو عدم الوفاء به ونكثه ﴿عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ كما نقضوا في المرة الأولىٰ حيث أعانوا كفار مكة بالسلاح، ونقضوا في المرة الثانية حيث صاروا مع الأحزاب علىٰ النبي وأصحابه ﷺ ورضي عنهم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ لا يتقون الله (جل وعلا) فيجترئون علىٰ نقض العهود وعلىٰ كل جريمة، ليس لهم تقوىٰ من الله تحملهم علىٰ امتثال أمره واجتناب نهيه ـ وهذه والعياذ بالله ـ أمور قبيحة حيث كانوا شر الدواب، وكانوا كافرين، ولا يؤمنون، وينقضون العهود، ولا يتقون الله، فهذا منتهىٰ الذم ـ والعياذ بالله ـ هذا معنىٰ قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٦].

وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾ [الأنفال: الآية ٥٧] ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ هذه (إن) هي الشرطية زيدت بعدها (ما) المزيدة لتوكيد الشرط. والأصل: فإن تثقفهم فشرد بهم. والفاء في قوله: ﴿فَشَرِّدْ﴾

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٤) من سورة البقرة.

لأن الجملة الطلبية جزاء الشرط، والمقرر في علم العربية أن جزاء الشرط إن كان لا يصلح أن يكون فعلاً للشرط وجب اقترانه بالفاء[١]، يعني: إن تثقفهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم، والعرب تقول: ثقفه يثقفه في الحرب إذا كان له في الحرب ثقافة، أي: بصيرة وعلم قَدَرَ بها علىٰ أن يتمكن من قِرنه ويظفر به. يعني: إن كانت ثقافتك في الحرب وبصرك به خوَّل لك أن تتمكَّن منهم وتقدر عليهم ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ (من) مفعول (شرِّد) ومعنىٰ: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ افعل لهم فعلاً فظيعاً وعقاباً منكراً هائلاً عظيماً يكون ذلك العقاب عظة لمن خلفهم ومن وراءهم فيتفرقوا ويتبددوا عنك ويخافوا. وكان بعض الفرسان الشجعان لما سُئل: بأي طريق صار الفوارس يخافونك؟ قال: إذا ظفرت بفارس ضربته ضرباً فظيعاً منكراً ليخاف من وراؤه فلا يجترئوا علي!! فمعنىٰ: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: افعل بهم عقاباً منكراً فظيعاً يكون ذلك العقاب المنكر الفظيع سبباً لتشريد من وراءهم لتفريقهم وتبددهم عنك وخوفهم منك، وإن كان عند أحدهم عهد فإنهم يخافون من نقضه ويفون به لئلا تفعل بهم ما فعلت بهم، وهذا هو التحقيق في معنىٰ الآية، أي: شرِّد من خلفهم، أي: فرِّق من خلفهم وخَوِّفهم وبَدِّدهُم بسبب فعلك فيهم؛ لأنك إذا فعلت في هؤلاء الناقضين للعهد ذلك التنكيل العظيم خافك غيرهم فتفرقوا وتبددوا عنك، وخافوا منك، وحافظوا علىٰ العهود إن كانت لهم عهود لئلا توقع بهم مثل ما أوقعت بهؤلاء. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾.

والضمير في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ راجع لـ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: من خلفهم، من وراءهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ يعتبرون ويتعظون بالفعل العظيم الذي فعلت بهؤلاء فلا يجترئوا عليك بعدها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٧] ولما مكن الله النبي ﷺ من بني قريظة وحكم فيهم سعد الأوس سعد بن معاذ (رضي الله عنه)؛ لأن النبي كان ﷺ

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٣١٦).

لما ظفر بيهود قينقاع جاءه عبد الله بن أُبَيّ رئيس المنافقين من الخزرج، وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج، فقال للنبي ﷺ: شفعني في حلفائي. فشفعه فيهم، فأُجلوا إلىٰ نواحي الشام، وطُردوا من المدينة إلىٰ نواحي الشام، فلما نزلوا[1] علىٰ حكم النبي ﷺ وأمكن منهم جاءت الأوس ـ كما ذكره غير
٧/أ واحد من أهل السير والأخبار ـ فقالوا للنبي ﷺ/ شفَّعت إخواننا الخزرج في حلفائهم بني قينقاع، وهؤلاء بنو قريظة حلفاؤنا ـ لأن قريظة حلفاء الأوس ـ فَشَفِّعْنا فيهم كما شَفَّعْت إخواننا في حلفائهم، والنبي ﷺ وسلم يكره ألا يجيب دعاءهم، ويكره ألا يُشرِّد ببني قريظة ويفعل فيهم الأفاعيل، فتخلص من هذا وقال: «**أُحَكِّم فيهم رجلاً من خياركم هو سعد بن معاذ**». فقالوا: رضينا. فحكّم فيهم سعد بن **معاذ** (رضي الله عنه)، وكان سعد (رضي الله عنه) جُرِح في غزوة الخندق، جَرَحَهُ حبان بن العَرَقَة، أصابه في أكحله ـ وهو العِرْق الذي في العنق ـ وكان لما سال الدم من عِرْقه وخاف الموت كان دعا الله وقال: اللهم إن كنت أبقيت بين نبيك وبين كفار مكة حرباً فأبقني لها لأني لا أحب أن أقاتل قوماً مثل القوم الذي أخرجوا نبيك من بلده وفعلوا له وفعلوا، وإن كان في علمك أنه لم يبق بينه وبين قريش حرب فاجعل لي هذا الجرح شهادة، ولا تمتني حتىٰ تقر عيني في بني قريظة. فلما حكمه النبي ﷺ فيهم فجاء علىٰ حمار، لما جاء للتحكيم، فقال لهم النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**قوموا لسيدكم**» قال سعد (رضي الله عنه): حكمت فيهم بأن يقتل رجالهم، وتُسبىٰ نساؤهم وذراريهم. فأخبره ﷺ أن هذا حكم الله فيهم من فوق سبع سمٰوات[2].

---

(١) يعني: قريظة.

(٢) خبر حكم سعد بن معاذ في بني قريظة مخرج في الصحيحين من حديث:
١ ـ عائشة (رضي الله عنها) عند البخاري في الصلاة، باب الخيمة في المسجد للمرضىٰ وغيرهم. حديث رقم: (٤٦٣) (١/٦٦٣). وأطرافه في (٣٩٠١، ٤١١٧، ٤١٢٢). ومسلم في الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد...، حديث رقم: (١٧٦٩) (٣/١٣٨٨).
٢ ـ أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) عند البخاري في المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب. حديث رقم: (٤١٢١) (٧/٤١١).

=

لأنهم الذين نزل فيهم؛ ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾. وكان بعض العلماء يقول: كل هذه الآيات نازلة في كفار مكة؛ لأن هذه السورة كلها في وقعة بدر والله تعالىٰ أعلم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٧].

ثم قال تعالىٰ معلماً نبيه ﷺ؛ لأن الله (جل وعلا) علم نبيه ﷺ في هذه السورة الكريمة تعاليم عظيمة، وهي كلها تعاليم من أصول الجهاد، علمه الثبات والصمود أمام العدو، وعلمه فيها الاتصال بخالق السمٰوات والأرض عند التحام الصفوف، وعلمه كيف يخيف أعداءه بشدة الوقيعة فيمن قدر عليهم، وعلمه هنا كيف يصالحهم، وكيف ينبذ صلحهم، كل هذه تعاليم جهادية عسكرية من رب العالمين (جل وعلا) للنبي وأصحابه؛ لأن هذا المحكم المنزل ينير معالم الطريق في جميع ميادين الحياة كائنة ما كانت؛ ولذا قال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال: الآية ٥٨] ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ كقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٧] فهي (إن) الشرطية زيدت بعدها (ما) لتوكيد الشرط. وبعض علماء العربية يقول: إن (إن) الشرطية إذا زيدت بعدها (ما) المؤكدة وجب اقتران المضارع بنون التوكيد، وهو كذلك في القرآن، ما جاء في القرآن (إما) إلا والفعل المضارع بعدها مؤكد بنون التوكيد الثقيلة[(١)]، إلا أن التحقيق أنها هي اللغة الفصحىٰ ولا تتعين، فيجوز عدم توكيد الفعل بعد (إما) (. . .)[(٢)] وكقول لبيد بن ربيعة[(٣)]:

= ومسلم في الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد. . .، حديث رقم: (١٧٦٨) (١٣٨٨/٣). إلا أن الحديث الذي في الصحيحين مختصر، وهو بسياقه الطويل مخرج في المسند (١٤١/٦ ـ ١٤٢)، وذكره ابن هشام في السيرة (١٠٣١/٣)، وابن كثير في تاريخه (١٠٣/٤).

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل. ويظهر أن الشيخ (رحمه الله) ذكر بعض الشواهد الشعرية. ويمكن الوقوف على الكلام علىٰ هذه المسألة بشواهدها في كتاب شرح الكافية (١٤٠٩/٣ ـ ١٤١٠)، وفي كلام الشيخ (رحمه الله) فيما سبق عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

فإما تريني اليوم أصبحت سالماً فلستُ بأحظى من كلاب وجعفر

وقول الحماسي[(١)]:

زعمت تُماضر أنني إما أمت يَسْدُد أُبينُوها الأصاغر خلتي

وهو كثير في كلام العرب. وزعم جماعة من علماء العربية أن حذف النون في هذه الشواهد لضرورة الشعر، وأن النون واجبة. وزعم جماعة آخرون أنها لغة فصيحة لا ضرورة شعرية.

ومعنىٰ قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ نزلت هذه الآية الكريمة في بني قريظة، قال بعض العلماء: في هذه الآية إشكال معروف؛ لأن قوله: ﴿تَخَافَنَّ﴾ الخوف يطلق علىٰ الظن الذي لا يستلزم اليقين، والعهد شيء مؤكد متيقن، فكيف ينتقل عن حكم يقين العهد إلىٰ ظن نقض العهد، والقاعدة المقررة في الأصول: أن اليقين لا يرتفع بالشك[(٢)]؟

وأجاب العلماء عن هذا بجوابين[(٣)]:

أحدهما: هو ـ ما قدمنا مراراً ـ أن العرب ربما أطلقت الخوف وأرادت به العلم، كقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية **٢٢٩**]. علمتم من قرائن أحوالهما ألا يقيما حدود الله. ﴿**إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله**﴾ أي: يعلما ألا يقيما حدود الله. ولا شك أن العرب تطلق الخوف علىٰ العلم اليقين، ومن شواهده قول أبي محجن، مالك بن حبيب الثقفي[(٤)]:

إذا مِتُّ فادفنِّي إلىٰ جَنْبِ كَرْمَةٍ تُرَوِّي عِظامي في المماتِ عُرُوقُها
ولا تدفنني بالفَلاةِ فإنَّني أخافُ إذا ما مِتّ أن لا أذُوقُها

وهو يتيقن علماً يقيناً أنه إذا مات لا يذوقها، فقد أطلق (أخاف) وأراد

---

(١) السابق.

(٢) انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص٥٣، القواعد الفقهية الخمس الكبرى من مجموع فتاوى ابن تيمية ص١٨٧، شرح القواعد الفقهية للزرقا ص٣٥.

(٣) انظر: القرطبي (٨/٣١).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(أعلم) وهو عربي فصيح. وعلىٰ هذا القول فـ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ أي: إما تعلمن من قوم خيانة. وقال أكثر العلماء: إن كان بينك وبين قوم عهود ومواثيق ـ كالعهود التي كانت بينه ﷺ وبين يهود بني قريظة ـ إن تخافن من هؤلاء القوم الذين كانت بينك وبينهم عهود تخافن منهم خيانة، أي: خيانة بنقض تلك العهود بأن يخونوك وينقضوا العهود. و (ياء) الخيانة مبدلة من واو؛ لأن أصل مادة الخيانة أجوف واوي العين، من: خان يخون. أصلها: (خِوَانَة) فأُبدلت الواو ياء[1]، كالحيازة من الحَوْز، والصيانة من الصون، والصيام من الصوم. إن تخف يعني من قوم بينك وبينهم عهود ومواثيق تخف منهم خيانة، أي: غدراً ونقضاً للعهود ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ يعني بأن يكون خوف الخيانة ظهرت له أمارات ومبادىء وقرائن يُستدل بها عليه، كما ظهر من بني قريظة أنهم لما عاضدوا المشركين وناصروهم ولم يصرحوا بنبذ العهد كانت مناصرة المشركين ومعاضدتهم قرائن واضحة وأمارات لائحة علىٰ أنهم ناقضون للعهد.

وعلىٰ كل حال فالذي دل عليه استقراء القرآن ودلت عليه الوقائع ـ وهو الصحيح إن شاء الله ـ أن الأمر له حالتان: تارة يكون الكفار الذين بيننا وبينهم عهد ومصالحة تصدر منهم أشياء تدل علىٰ نقض العهد، لدلالة قرائن على ذلك، أنهم صدرت منهم مبادىء نقض العهد، ففي هذه الحالة لا ينبغي للإمام أن يبقىٰ علىٰ عهدهم وقد ظهر له منهم أمارات الخيانة لئلا يصيبوا المسلمين بغائلة، ففي هذه الحالة يجب علىٰ الإمام أن يصارحهم ويقول لهم: رأينا منكم ما يدل علىٰ نقضكم العهد وهو كذا وكذا وكذا، فهذا عهدنا إليكم قد طرحناه إليكم، ونبذناه إليكم، وألقيناه إليكم، وأعلمناكم أنه ليس بيننا وبينكم عهد، خَوفَ أن تظنوا أنا نخدعكم ونكيدكم ونحاربكم غفلة منكم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ النبذ في لغة العرب: الطرح. ومفعول (انبذ) محذوف، أي: فاطرح إليهم عهدهم، وألقه إليهم في حال كونك أنت وهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ علىٰ استواء في العلم بأنك حرب لهم وهم حرب لك، ليس أحد منكما يدلس للآخر. وعلىٰ هذا

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٠٤.

فقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: في العلم؛ بأنك لست على صلحك الأول لما رأيت من علامات غدرهم ونقضهم له.

قال بعض العلماء: فانبذ إليهم عهدهم حال كون ذلك النبذ على سواء. أي: على عدالة وطريقة محمودة؛ لأن العرب تسمي العدالة (سواء)، وتسمي الطريق العدل الواضح (سواء) و (سوياً) ومن هذا قول الراجز[1]:

واضــرب وجــوه الــغُــدَّر الأَعْــدَاءِ　　حــتــىٰ يُــجــيــبُــوكَ إلــىٰ الــسَّــوَاءِ

أي: إلى العدالة والإنصاف من غير ميل ولا جور. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ أي: إن خفت يا نبي الله خيانة من قوم كان بينك وبينهم عهد بأن ظهرت لك أمارات الغدر وعلاماته وأوائله منهم ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم، وألق إليهم العهد في حال كونك وإياهم على ﴿سَوَآءٍ﴾ أي: مستوين في العلم بالحالة الواقعة وأنه لا عهد بينك وبينهم. وقد جاء عن معاوية (رضي الله عنه) أنه كان بينه وبين الروم مصالحة وعهود ثم إنه (رضي الله عنه) سار إليهم وهم لا يشعرون ليقرب منهم، فإذا انقضت مدة العهد كان قريباً منهم فحمل عليهم، فإذا رجل على فرس له - وفي بعض روايات الحديث في السنن وغيرها - على دابة له، ذلك الرجل يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء ولا غدر، فلما جيء معاوية به وجده عمرو بن عبسة (رضي الله عنه) فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن كانت بينكم وبينهم عهود فلا تشدوا العقدة ولا تحلوها حتى تنقضي المدة أو تنبذوا إليهم على سواء**». قالوا: فرجع معاوية رضي الله عنه[2].

ومعنى الآية الكريمة: إن تخف الخيانة من قوم بينك وبينهم عهد - والخيانة هنا: الغدر ونقض العهد - ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: فاطرح إليهم

(١) البيت في ابن جرير (٢٧/١٤) القرطبي (٣٣/٨).

(٢) أخرجه الترمذي في السير، باب ما جاء في الغدر. حديث رقم: (١٥٨٠)، (١٤٣/٤). وأبو داود في الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير نحوه. حديث رقم: (٢٧٤٢) (٤٣٩/٧). وانظر صحيح الترمذي حديث رقم: (١٢٨٥)، صحيح أبي داود، حديث رقم: (٢٣٩٧).

عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أنت وهم مستويان في العلم بنقض العهد، ولا تدلس لهم فيظنوا أنك على عهد حتى تمكر بهم وهم في غفلة، بل أعلمهم بنقض العهد ليستعدوا للحرب ولا تحاربهم في غفلة. وهذا من كمال إنصاف دين الإسلام؛ لأن التعاليم السماوية والكتب الإلهية هي في غاية العدالة والإنصاف، حتى مع الكفار نهى نبيه أن يحاربهم وهم في غفلة من ذلك، بل أمره أن يعلمهم وينبذ إليهم العهد علناً حتى يستوي الجميع في العلم بالحال الواقعة ليستعدوا للحرب والقتال؛ ولئلا يؤخذوا على غرة، فهذه مكارم الأخلاق والعدالة الكاملة. ولا شك أن هذا التشريع تشريع ممن هو عالم بأن أولياءه لهم النصر والظفر لا حاجة له في استعداد الكفار وعلمهم وقوتهم؛ لأنه يعلم أنهم مغلوبون مقهورون، وأن الدائرة عليهم، وهذا معنى قوله: ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٨].

أما إذا تُيقن نقض العدو للعهد بأن قتلوا المسلمين، وفعلوا الأفاعيل، وصرحوا بنقض العهد علناً فهؤلاء لا حاجة لإعلامهم؛ لأن أمرهم واضح، وهم لا يشكون في نقضهم العهد؛ ولأجل ذلك لما عقد النبي ﷺ مع كفار قريش صلح الحديبية في ذي القعدة من عام ست من الهجرة عقده بينه وبينهم على يد سهيل بن عمرو العامري ـ رضي الله عنه وكان في ذلك الوقت كافراً ـ وانعقد هذا الصلح، ودخل خزاعة في عهد النبي ﷺ، وأعداؤهم من البكريين في عهد قريش، وكان صلح الحديبية وقع على المهادنة تسع سنين، فغدر قريش غدراً علناً، وأعانوا البكريين على خزاعة فقتّلوهم، لما كان هذا الغدر علناً ظاهراً لا إشكال فيه ولا لبس فيه لم ينبذ إليهم رسول الله على سواء، بل غزا قريشاً غزوة الفتح، وأهل الأخبار والسير يقولون: إنه قال: «**اللهم خذ الأخبار والعيون عن قريش حتى نبغتها في ديارها**»[1]، وما دروا إلا والمسلمون بمر الظهران كل رجل يوقد ناراً؛ لأن نقضهم للعهد هنا لا يتناوله ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ لأنهم خانوا بالفعل وقتلوا الخزاعيين قتلاً ذريعاً، كما قال صاحبهم الذي استنجد لهم

---

(١) السيرة لابن هشام ص١٢٣٨ من طريق ابن إسحاق، وكذا أورده ابن كثير في تاريخه (٢٨٣/٤).

رسول الله ﷺ وهو عمرو بن سالم الخزاعي (رضي الله عنه)؛ لأن قريشاً لما نقضوا العهد وقتلوا خزاعة مع البكريين أرسل الخزاعيون عمرو بن سالم (رضي الله عنه) فجاء إلىٰ النبي ﷺ في المدينة ـ هذه حرسها الله ـ قام عمرو بن سالم الخزاعي وذكر رجزه المشهور الذي يصرح فيه بأنهم قتلوهم، وأن نقضهم للعهد كالشمس لا شك فيه حيث قال للنبي ﷺ في رجزه المشهور:

يـاربِّ إنـي نـاشـدٌ مُـحـمَّـداً حِـلْـفَ أبـيـنَـا وأَبـيـهِ الأتْـلَـدَا

ثم قال[١]:

إنَّ قُـريـشـاً أَخْـلـفـوكَ الـموعِـدَا وَنَـقَـضُـوا مـيـثـاقَـكَ الـمُـؤَكَّـدَا
هـم بَـيَّـتُـونَـا بـالـوتـيـرِ هُـجَّـدَاً وقَـتَـلُـونَـا رُكَّـعـاً وسُـجَّـداً
وزَعَـمُـوا أنْ لـسْـتَ تـدعـو أحـداً وهُــم أذلّ وأقــلّ عَــدَداً
فـادع عـبـاد الله يـأْتُـوا مَـدَداً فـيـهـم رسـولُ الله قـد تـجـرَّدا
فـي فـيـلـقٍ كـالـبـحـر يـجـري مـزبـدا إن سـيـم خـسـفـاً وجـهـه تـربـدا
فـانـصـر هـداك الله نـصـراً أيـدا

إلىٰ آخر رجزه المعروف. وذكر أصحاب السير والأخبار أنه ﷺ قال: «**لا نصرني الله إن لم أنصرك**»[٢]. ولم ينبذ إلىٰ قريش علىٰ سواء، بل تجهز إليهم في غزوة الفتح في رمضان من عام ثمان، وأنه (صلوات الله وسلامه

---

(١) نص هذه الأبيات في ابن هشام ص١٢٣٥، البداية والنهاية (٢٧٨/٤) هكذا:

يـا رب إنـي نـاشـد مـحـمـداً حـلـف أبـيـنـا وأبـيـه الأتـلـدا
قـد كـنـتـم وُلْـداً وكـنـا والـدا ثُـمت أسـلـمـنـا فـلـم نـنـزع يـدا
فـانـصـر هـداك الله نـصـراً أعـتـدا وادعُ عـبـاد الله يـأتـوا مـددا
فـيـهـم رسـول الله قـد تـجـردا إن سـيـم خـسـفـاً وجـهـه تـربـدا
فـي فـيـلـق كـالـبـحـر يـجـري مـزبـدا إن قـريـشـاً أخـلـفـوك الـمـوعـدا
ونـقـضـوا مـيـثـاقـك الـمُـؤكَّـدا وجـعـلـوا لـي فـي كَـدَاء رصـدا
وزعـمـوا أن لـسـتُ أدعـو أحـدا وهـم أذلّ وأقـلّ عـددا
هـم بَـيَّـتُـونـا بـالـوتـيـر هُـجَّـدا وقـتـلـونـا رُكَّـعـاً وسُـجَّـدا

(٢) الذي نقله ابن هشام ص(١٢٣٦)، وابن كثير في تاريخه (٢٧٨/٤) قوله ﷺ: «**نُصرت يا عمرو بن سالم**».

عليه) لم يعلموا به حتىٰ قرُب من ديارهم، وكان ما وقع مما هو مشهور يوم الفتح. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٨] وكل شيء لا [يحبه][1] الله دل علىٰ أن صاحبه مرتكب جريمة وذنباً عظيماً. والخائنون: جمع خائن، وأصل الهمزة في ﴿ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ مبدلة من واو؛ لأن (الفاعل) من الأجوف تبدل عينه همزة، سواء كانت واواً أو ياءً، والهمزة في محل الواو؛ لأن المادة واوية العين كما بينا[2]. فالله (جل وعلا) يبغض الخائنين، فلا ينبغي للإنسان أن يخون، وهذا من مكارم الأخلاق، وغاية عدالة الكتب السماوية وإنصافها.

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ٥٩﴾ [الأنفال: الآية ٥٩] في هذا الحرف ثلاث قراءات سبعية[3]: قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي: ﴿**ولا تحسِبَنَّ الذين كَفَرُوا**﴾ بالتاء الفوقية وكسر السين من (تَحسِبَن). وقرأه عاصم في رواية شعبة وحده أعني أبا بكر: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ بالتاء الفوقية للمخاطب وفتح سين (تَحسَبن)، وقرأه ابن عامر وحمزة وعاصم في رواية حفص: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ﴾ بياء الغيبة التحتية وفتح سين (يحسَبن).

أما علىٰ قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو والكسائي: ﴿**ولا تحسِبن**﴾ وقراءة شعبة: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾ فالآية الكريمة لا إشكال فيها، وكلا القراءتين واضح لا إشكال فيه ولا كلام.

أما قراءة ابن كثير[4] وحمزة وحفص عن عاصم: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ﴾ بالياء، فهذه القراءة أصلها مشكلة، ومعناها مشكل[5]. وتجرأ أقوام جراءة لا

---

(١) في الأصل: «يبغضه» وهو سبق لسان.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٠٣.

(٣) انظر: السبعة ص٣٠٧.

(٤) سبق لسان، والصواب: ابن عامر.

(٥) انظر: حجة القراءات ص٣١٢، ابن جرير (٢٨/١٤)، القرطبي (٣٣/٨) الدر المصون (٦٢٣/٥).

تليق ـ وإن كان فيهم معرفة وعلم وجلالة كأبي حاتم وأبي عبيد، حتى ابن جرير رحمه الله ـ وأنكروا هذه القراءة، وقالوا: إنها بعيدة من كلام العرب، وأنها لا وجه لها من الفصاحة، كما أنكر ابن جرير وغيره قراءة ابن عامر: ﴿أَنَّهُم لاَ يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٩] ـ بفتح همزة (أن) ـ.

والتحقيق أن قراءة ابن عامر: ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء، و ﴿أَنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾ بفتح الهمزة، وقراءة حمزة وحفص عن عاصم: ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ وقراءة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ كلها قراءات سبعيات فصيحة متواترة عن النبي ﷺ لا وجه للطعن فيها.

٧/ب / أما على قراءة من قرأ: ﴿ولا تحسِبن الذين كفروا﴾ فاعلموا أولاً أن (حَسِب) بكسر السين في مضارعها لغتان فصيحتان وقراءتان سبعيتان في جميع القرآن: (حَسِب يَحْسَب، وحَسِبتَ تَحْسَبُ). بفتح السين على القياس، و(حَسِبَ يَحْسِبُ) بكسر السين على السماع لا على القياس، وهما لغتان فصيحتان مستفيضتان وقراءتان سبعيتان.

فقراءة شعبة عن عاصم لا فرق بينها وبين قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو والكسائي، وإنما الفرق بين قراءة التاء وقراءة الياء. أما على القراءة بتاء الخطاب فمعنى الآية واضح لا إشكال فيه، والحُسبان في لغة العرب: الظن. والمعنى: لا تظن يا نبي الله الذين كفروا سبقوا. فـ (الذين) في محل المفعول الأول، وجملة (سبقوا) في محل المفعول الثاني، و (سبقوا) معناه: غلبوا وفاتوا، فكل شيء فاتك ولم تدركه وعجزتَ عنه تقول العرب: سبقك. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ [الواقعة: الآيتان ٦٠، ٦١] لسنا بمغلوبين ولا معجَّزين عن أن نبدل أمثالكم. أي: لا تظنن يا نبي الله الذين كفروا سبقوا، لا تظنن الكفار فائتين سابقين يعجز عنهم ربهم (جل وعلا)، لا وكلا ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ولا يسبقون، فهم تحت قهره وقدرته وسلطنته يفعل فيهم كيف يشاء، ولا يسبقونه ولا يفوتونه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: الآية ٤] أي: يفوتوننا ويعجزوننا، لا ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٤]، وكذلك قراءة شعبة عن عاصم: ﴿ولا تَحْسِبن الذين كفروا﴾ هي معناها وهذه القراءة واحد.

أما على القراءة الأخرىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ۚ﴾ فتفسير الآية مشكل؛ لأنه لا يُدرى أين مفعولا (حَسِب)، ولا يُدرى الفاعل أين هو؟!

وللعلماء فيها أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً:

قال بعض العلماء: هذه الآية الكريمة حُذفت منها (أن) المصدرية، وحذف (أن) المصدرية إذا دل المقام عليها أسلوب عربي معروف موجود في القرآن وفي كلام العرب. قالوا: من أمثلته في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ [الروم: الآية ٢٤] الأصل.: ومن آياته أن يريكم البرق. ونظيره من كلام العرب قول طرفة بن العبد في معلقته[1]:

ألا أيـهَـذا الزَّاجري أحْـضُـرَ الـوغـىٰ ....

ويُروى:

ألا أيـهـذا الزَّاجري أحْـضُـرُ الـوغـىٰ وأَنْ أشهدَ اللذاتِ هل أنْتَ مُخْلِدي

قالوا: الأصل: ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا. قالوا: والمعنىٰ: أنهم سبقوا. فيصير المفعولان في قوله: «أن سبقوا» لا يظنوا أنفسهم سابقين، أي: فائتين معجزين ربهم. قالوا: وغاية ما في هذا حذف (أن)، وهو موجود في القرآن وفي كلام العرب.

وقال بعض العلماء: ضمير الفاعل يعود إلىٰ النبي ﷺ بدلالة أن ضمير الفاعل في الخطاب واقع عليه، أي: لا تحسبن أنت يا نبي الله، ولا يحسبن هو، أي: نبي الله، لا يحسبن الذين كفروا سبقوا. ومعلوم أنه لا يحسب ذلك ولكنه يُنهى ليشرّع علىٰ لسانه لغيره كما قيل له: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: الآية ٢٢] ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ [الإسراء: الآية ٢٩] ونحو ذلك من الأشياء التي هو لا يفعلها، ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ

(١) شرح القصائد المشهورات (١/ ٨٠).

كَفُورًا﴾ [الإنسان: الآية ٢٤] وعلىٰ هذا القول فتكون قراءة التاء قرينة دالة علىٰ الفاعل؛ لأن الفاعل في قراءة التاء ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أنت يا نبي الله. فيكون المعنىٰ في قراءة الياء: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ هو أي: نبي الله، لا يظنن الذين كفروا سبقوا. أي: فاتوا وعجز عنهم ربهم سبحانه عن ذلك. وعلىٰ هذا القول فـ (الذين) في محل المفعول الأول، و (سبقوا) في محل المفعول الثاني.

وقال بعض العلماء: (الذين) في محل رفع علىٰ الفاعل، وأحد المفعولين محذوف. قالوا: المعنىٰ: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا. أي: لا يظنون أنفسهم سابقين، قالوا: وربما حُذف المفعول كما حُذف في قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٥] أصله: يخوفكم أولياءه لكن (حَسِبَ) و (خَوَّفَ) ليسا من باب واحد؛ لأنه (حسب) تنصب المبتدأ والخبر، و (خوف) لا تنصب المبتدأ والخبر بل مفعولاها أصلهما ليسا بمبتدأ وخبر.

وقال بعض العلماء: لا يحسبن الكفار الذين كفروا سبقوا.

هذه الأقوال في هذه الآية الكريمة وفي نظيرتها في سورة النور علىٰ قراءة الياء. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾.

﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن عامر: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ وقرأه ابن عامر ﴿أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بفتح الهمزة[١].

وكان كبير المفسرين أبو جعفر ابن جرير الطبري (رحمه الله) يقول: إن قراءة ابن عامر هذه لا وجه لها[٢]. والكمال لله، لأن قراءة ابن عامر ـ رحمه الله ـ وجهها ظاهر جداً؛ لأنها تطابق قراءة الجمهور في المعنىٰ، إلا أن قراءة ابن عامر أظهر في المعنىٰ وإن خفي ذلك علىٰ الإمام ابن جرير (رحمه الله)؛ لأن الكمال والعلم لله وحده.

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٢.

(٢) تفسير ابن جرير (١٤/٢٨).

والحاصل أنه قد تقرر في الأصول في مسلك (الإيماء والتنبيه)[١] أن من الحروف الدالة على التعليل، (إنّ) المكسورة المشددة، تقول: اضربه إنه مسيء. أي: اضربه لعلة إساءته، أكرمه إنه محسن. أي: أكرمه لعلة إحسانه. فـ (إن) من حروف التعليل. وعلى قراءة الجمهور فـ (إنّ) المكسورة دلت على التعليل. لا تظننهم سابقين فائتين معجزين ربهم، لا وكلا ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ لا يعجزون ربهم ألبتة، فيكون النهي عن قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ۚ﴾ لأجل أنهم لا يعجزون أبداً، فلا يخطر في قلبك ذلك الحسبان الباطل.

أما على قراءة ابن عامر: ﴿أَنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾ فـ (أن) قد تقرر في علم النحو أن المصدر المنسبك من (أنّ) وصلتها و (أنْ) وصلتها يجوز جره بحرف محذوف بقياس مطرد[٢]. فالأصل: لا تحسبن الذين كفروا سبقوا؛ لأنهم لا يعجزون. غاية ما في الباب حذف حرف الجر قبل المصدر المنسبك من (أنّ) وصلتها، وهو واضح مطرد لا إشكال فيه، وقد عقد اطراده ابن مالك في خلاصته بقوله[٣]:

.... وإنْ حُذِف فالنَّصْبُ لِلمُنْجَرّ
نقلاً وفي (أنَّ) و (أنْ) يطَّرِدُ مع أَمْنِ لبسٍ كَعَجِبْتُ أنْ يَدُو

فقراءة ابن عامر دالة على التعليل الذي دلت عليه قراءة الجمهور بقياس عربي واضح مطرد لا إشكال فيه، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾ (يعجزون) مضارع (أعجز)، أعجزه: إذا صيَّره عاجزاً عنه، فكل شيء غلبك ولم تقدر عليه تقول العرب: أعجزك

---

(١) جرى الأصوليون على اعتبار (إنَّ) ضمن مسلك النص، وبعضهم يعتبرها من قبيل النص الصريح، ويرى آخرون أنها من قبيل النص غير الصريح (الظاهر).
انظر: شرح الكوكب المنير (١١٩/٤)، نثر الورود (٤٨٠/٢)، مباحث العلة في القياس عند الأصوليين ص٣٥٥.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

وسبقك وفاتك. بمعنىٰ واحد ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ربهم. أو: لأنهم لا يعجزون ربهم، بل ربهم قادر عليهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: الآية ٢] وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩)﴾ [الأنفال: الآية ٥٩].

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)﴾ [الأنفال: الآيتان ٦٠، ٦١].

قوله: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] أمر من الإعداد، والإعداد في لغة العرب التي نزل بها القرآن: معناه اتخاذ الشيء، وادخاره إلىٰ وقت الحاجة إليه، فكل شيء اتخذته وجعلته عندك تنتظر به وقت الحاجة إليه فقد أعددته. والأمر في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ للوجوب؛ لأن المقرر في الأصول: أن صيغة (افعل) تدل علىٰ الوجوب مالم يصرف عن ذلك صارف[(١)] [من][(٢)] كلام الله وكلام رسوله ﷺ. ونعني بصيغة (افعل): الصيغ الأربع الدالة علىٰ الأمر الذي هو اقتضاء طلب الفعل. والصيغ الدالة علىٰ الأمر أربعاً[(٣)]: فعل الأمر، كقوله هنا: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ وكقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [الإسراء: الآية ٧٨] والفعل المضارع المجزوم بلام الأمر، كقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ [الحج: الآية ٢٩] واسم فعل الأمر، نحو: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ [النساء: الآية ١٠٥] والمصدر النائب عن فعله، نحو: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: الآية ٤] أي: فاضربوا رقابهم.

ولعلماء الأصول اختلاف في صيغة (افعل) إذا جاءت في كلام الله أو كلام نبيه ﷺ وتجردت عن القرائن ماذا تفيده عند الإطلاق[(٤)]، هل

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأنعام.

هو الإيجاب المتحتم، أو الندب، أو الطلب؟ إلىٰ غير ذلك من الأقوال.

والتحقيق الذي دلت عليه الأدلة: أن النصوص الشرعية واللغة العربية التي نزل بها القرآن كلها يدل علىٰ أن صيغة (افعل) تقتضي الوجوب ما لم تقترن بدليل يصرفها عن ذلك، والدليل علىٰ ذلك من القرآن: أن الله (جل وعلا) قال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: الآية ٦٣] فلو كانت مخالفة الأمر غير معصية، وامتثال الأمر غير واجب لما شدد عليه هذا الوعيد العظيم في قوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقال تعالىٰ لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢] والأمر بصيغة (افعل) وهو قوله: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ [الأعراف: الآية ١١] فعنفه التعنيف الشديد الذي لا يفعل إلا لتارك الواجب علىٰ مخالفته لصيغة (افعل) التي هي: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ وقد قال نبي الله موسىٰ لأخيه هارون: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [طه: الآية ٩٣] يعني قوله: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ الآية [الأعراف: الآية ١٤٢]. والمعصية لا تسمىٰ إلا لارتكاب الحرام المستوجب للإثم، وقد وبخ الله (جل وعلا) قوماً توبيخاً شديداً لمخالفتهم لصيغة (افعل) في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: الآية ٤٨] (اركعوا) صيغة (افعل) وقد وبخ من لم يمتثلها وعنَّفه تعنيفاً شديداً في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن تكون لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٦] وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1] فجعل أمر الله وأمر الرسول موجباً للامتثال قاطعاً للاختيار. وقال في الملائكة: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: الآية ٦] فدل علىٰ أنهم لو لم يمتثلوا ما أمرهم لكانوا عاصين، حاشاهم من ذلك.

وأما اللغة العربية: فإنك لو قلت لعبدك: اسقني ماءً. أمرته وألزمته

---

(١) مضت عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

بصيغة (افعل) ثم ترك ولم يمتثل فأدبته، فقال لك العبد: تأديبك لي ليس واقعاً في موقعه؛ لأن صيغة (افعل) في قولك: «اسقني» لم تلزمني ولم توجب علي!! فكل من يعرف معنىٰ اللسان العربي يقولون له: صيغة الأمر ألزمتك وأوجبت عليك، ولكنك عصيت وخالفت.

ومرادنا بهذا: أن هذا أمر خالق السموٰات والأرض، أمر رب العالمين بإعداد القوة التي يمكن أن تحصل في الاستطاعة، هذا الأمر واجب، وتضييعه حرام لا شك فيه، وبذلك يُعلم أن تواكل من يسمون باسم المسلمين في أقطار الدنيا، وعدم سعيهم في إعداد القوة الكافية لقمع العدو أنه تمرد علىٰ نظام السماء، وعدم عمل بإرشادات خالق هذا الكون ـ جل وعلا ـ وامتثال أوامره، فالله (جل وعلا) في هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن رسم الطريق وبين للنبي ﷺ وأصحابه الطريق التي إذا فعلوها وساروا عليها كانت كفيلة بنصرهم، وذل أعدائهم، وقمع كلمة الكفر وإذلاله؛ لأنه هنا أمر بإعداد القوة التي يمكن أن تدخل تحت الاستطاعة كائنة ما كانت، تطورت القوة مهما تطورت، وانتقلت من حال إلىٰ أي حال، فالآية تساير التطور بدلالة مطابقتها مهما كان وما تحول الأمر؛ لأن لفظها الصريح موجب أمر إيجاب سماوي من الله إعداد كل ما يمكن أن يدخل في الاستطاعة من القوة لقمع الكفرة (قبحهم الله)، فهذا أمر واجب، فلو عمل الناس بهذا الأمر، وبذلوا ما عندهم من الإمكانيات والثروات في إعداد القوة الكاملة من جميع وجوهها، حتىٰ في تعليم الأمور التي تطورت إليها الحياة الراهنة؛ لأن كل حال له مقال، وكل حالة لها مواجهات بأمور تلائقها. ودين الإسلام مرن غاية المرانة، كل شيء يقابله بما يصلح له، وذلك في نور السماء الذي شرعه الله علىٰ لسان محمد ﷺ، فإن القوة التي يقوىٰ بها عسكر المسلمين، ويحمون حوزتهم، ويردون المسلوبات منهم إذا أعدوا القوة الكافية التي تدخل تحت الاستطاعة، ثم حول هذه القوة كانوا متكاتفين غير متنازعين غير متفرقين، كلمتهم واحدة، وذكروا الله كثيراً، وتعلقت أرواحهم بربهم، وطلبوا المدد من السماء، كانت أسباب النصر كلها متوفرة لديهم لقوتهم الكافية، ولعدم

فشلهم؛ ولأنهم إذا فشلوا وتفرقوا دخل العدو بينهم، ورمىٰ بعضهم ببعض كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣] لا تتفرقوا، هذه أوامر الله، والقرآن يوضح الطريقة التي لو سلكها الناس لكانت كفيلة لهم بالنصر والظفر؛ لأن منها إعداد القوة الكافية، وكل من عنده مال فباستطاعته كل شيء؛ لأن المال سبب لكل شيء، وهو شريان الحياة، ويسخر الله به لمن أعطاه إياه كل الإمكانيات من تعليم حتى يتعلم ما تعلمه الكفرة ويصل إلىٰ ما وصلوا إليه، ويستعين به في جميع الميادين ليكتسب به القوة الكاملة.

ومعلوم أن هذه أوامر الله، وأنها متروكة، وأن دين الإسلام هو هو، وصلته بالله هي هي، وأن المتسمين باسم الإسلام هم الذين تنكروا للدين، وفارقوا الآلة الجبارة القاهرة التي كانوا يقهرون بها أعداء الله، وهي طاعة الله وامتثال أمره واجتناب نهيه، ولا شك أنه يجب علىٰ المسلمين امتثال أوامر الله، وأن يتفطنوا ويتحرزوا، ويفرقوا بين النافع والضار؛ لأن من طبيعة أدنىٰ العقلاء التفريق بين ما ينفع وما يضر، ولا شك أن ما يسميه الناس (الحضارة الغربية) دل الاستقراء الصحيح اليقين أن فيها ماءً زلالًا نافعاً وسماً قاتلًا فاتكاً، ونضرب لهذا مثلًا[1]: لأنك مثلًا أيها الإنسان إذا وجدت إناء فيه ماء زلال وإناء فيه سم قاتل وأنت خارج من العمران في فلاة بعيدة شاسعة، فحالك لا يخلو من أربعة أحوال: إما أن تشرب الماء والسم معاً، وإما أن تتركهما معاً، وإما أن تشرب السم وتترك الماء، وإما أن تشرب الماء وتترك السم. فافرض مثلًا أنك وجدت ماءً زلالًا وسمّاً فاتكاً قتّالًا في موضع واحد، وأنت في فلاة معطشة بعيد جداً من العمران، فلك مع هذا أربع حالات: إما أن تشربهما معاً، وإما أن تتركهما معاً، وإما أن تشرب السم وتترك الماء، وإما أن تشرب الماء وتترك السم، ولا خامسة البتة. وهذا تقسيم صحيح، فنرجع لهذا التقسيم الصحيح بالسبر الصحيح فنقول:

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

إذا شربتهما معاً لم ينفعك الماء؛ لأن السم الفتاك يقتلك ويقضي عليك، وإن تركتهما معاً هلكت، ولم تبلغ العمران، ولم تلتحق بالركب، وإن أخذت السم وتركت الماء فأنت مجنون أهوج أحمق حيث أخذت ما يضرك وتركت ما ينفعك!! وإن كنت عاقلًا يصدق عليك مطلق اسم العاقل أخذت الماء وتركت عنك السم. وهذا مثال لما جاءت به الحضارة الغربية، فإن ما أحدثته من القوة المادية وأنواع التنظيمات في جميع ميادين الحياة هو ماء زلال مُحتاج له جداً لا بد منه/ في تطور هذه الحياة الراهنة حسب ما ١/٨
تطورت إليه من الأوضاع، وفيها سم قاتل فتاك لا شك فيه، وهو ما جنته من الكفر، والانحطاط الخلقي، والتمرد علىٰ نظام السماء، ومعاداة خالق السمٰوات والأرض. فالموقف الطبيعي للمسلمين في الأوضاع الراهنة أن يتأملوا فإذا أخذوها كلها بنافعها وضارها أهلكهم ضارها ولم ينتفعوا بالنافع، وإذا تركوها كلها - تركوا النافع منها والضار - بقوا ولم يلحقوا، وبقوا مستضعفين، وإذا أخذوا ضارها دون نافعها فهم قوم مجانين، هم حمقىٰ لا عقول لهم، وإن أخذوا النافع وتركوا الضار فهذا هو الأمر الطبيعي لكل عاقل.

والمؤسف كل الأسف أنّ غالب من يتسمّىٰ باسم الثقافة والحضارة والتمدّن لا يأخذ منهم إلّا القشور المهلكة، والسموم الفاتكة، من الانحطاط الخلقي، والتمرّد علىٰ نظام السماء، والتنكّر لخالق هذا الكون، في الوقت الذي لا يستفيد فيه من مائها الزلال - الذي هو قوّتها - شيئاً!! وهذه مسألة معكوسة جمع صاحبها بين الكفر والإفلاس.

ما أحسنَ الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبَحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرجلِ[1]

وإذا كان ربنا يقول في هذا المحكم المنزّل آخر الكتب السماوية عهداً برب العالمين: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] مهما تطوّرت القوّة، ومهما بلغت كائنة ما كانت ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾ كان وقت نزولها أقوىٰ القوة وأعظم العدة الخيل وما جرىٰ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأنعام.

مجراها من الرمي، وقد ثبت في صحيح مسلم عن عقبة بن عامر الجهني (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ **ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**». كرّرها ثلاثاً[١]. لأن الرمي في ذلك الوقت وإعداد الخيل والسيوف هذا هو أقوى القوّة وأعظمها في ذلك الوقت، والإعداد في ذلك كان يكون بمثل هذا، حتى قال الشاعر[٢]:

وَأَعْـدَدْتُ لِـلْـحَـرْبِ أوزَارَهَـا رِمَـاحـاً طِـوالاً وخـيـلاً ذكـوراً

وقال عمرو بن معد يكرب الزبيدي[٣]:

أَعْـدَدْتُ لِـلْـحَـدْثَـانِ سَـا بِـغَـةً وَعَـدَّاءً عَـلَـنْـدَى

يعني: درعاً وفرساً ذكراً.

أما الآن فقد تطوّرت الحياة عن ذلك في ظروفها الراهنة، وصارت الخيل والدروع والرماح لا تغني شيئاً، فصار الأمر يتطلّب شيئاً زائداً على ذلك يساير الأحوال، ويساير التطوّر في حالاته الراهنة، فعلى المسلمين أن يُعدّوا كل ما في الاستطاعة منه، ولكنهم ـ وإنا لله وإنا إليه راجعون ـ لا يُعدّون في أغلب أقطار المعمورة شيئاً، والكفار يتقوّون ويسلّطهم الله عليهم بذنوبهم. أمّا التعاليم السماويّة فهي لا تشجّع على الضعف والتواكل والتسليم للأعداء، لا، إنما تأمر بالقوّة وإعداد القوة المستطاعة، والكفاح القوي، وعدم التنازع، وعدم التفرّق، والاتّصال مع هذا كله بخالق السماوات والأرض، وامتثال أوامره، واجتناب نهيه ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] إلى غير ذلك من الآيات. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب: فضل الرمي والحث عليه. حديث رقم: (١٩١٧) (١٥٢٢/٣).

(٢) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٧١، تاريخ دمشق (١٤٠/٢٠).

(٣) البيت في الدر المصون (٢٠٧/١)، شواهد الكشاف ص٣٢.

أَسْتَطَعْتُم﴾ إعداده ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ الرباط: تطلقه العرب علىٰ عين الخيل المربوطة، يقولون: هذا رباط. أي: خيل مربوطة في سبيل الله. قال بعضهم: هو جمع ربيط، فرس ربيط: مربوط في سبيل الله، قالوا: كفصيل وفصال، وربيط ورباط، فالرباط اسم لذات الخيل المربوطة في سبيل الله؛ لأن الخيل كانت من أقوى القوة وأعظم العدة التي تُقهر بها الأعداء في وقتها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ والخيل هو الحيوان المعروف. قال بعضهم: هو جمع (خايل)؛ لأن في مشيها خُيلاء كمشية المتكبّر المتبختر. وبعضهم يقول: هو جمع (خائل) واحده (خائل). وقد قدّمنا أن التحقيق عندنا أن (الفَاعِل) يُجمع علىٰ (فَعْل) إذا كان وصفاً. وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾ الإرهاب: التخويف، تخوّفون به عدو الله. والعدو يُطلق علىٰ المفرد وعلىٰ الجمع، معناه: أعداء الله، كقوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: الآية ٤] ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ [النساء: الآية ٩٢] أي: أعداء. وهذا معنىٰ قوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ككفّار مكّة وغيرهم من الكفّار.

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ معنى ﴿مِن دُونِهِمْ﴾ آخرين غيرهم لا تعلمونهم. كان بعض العلماء يقول: هم قريظة. وبعض العلماء يقول: هم فارس والروم. وبعض العلماء يقول: هم المنافقون[1].

واستدل من قال: إنهم المنافقون؛ لأن الله قال فيهم: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٠١] وقال كثير من العلماء: هم مردة الجن، وزعم بعض العلماء أن الجن يخافون من الخيل، وأنهم يفرون من صهيلها!! وجاء في ذلك بعض الأحاديث.

والتحقيق أنه لم يثبت فيه شيء عن النبي ﷺ. وقال بعض العلماء: البحث عن هؤلاء الآخرين لا طائل تحته؛ لأنّ الله صرّح بأنّا لا نعلمهم فكيف نتكلّم فيما قال ربّنا إنّنا لا نعلمه، والله يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ

(١) انظر هذه الأقوال في ابن جرير (٣٥/١٤)، القرطبي (٣٨/٨)، ابن كثير (٣٢٢/٢).

بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾ [الإسراء: الآية ٣٦][(١)] وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ﴾.

ولما أمر الله بإعداد القوة المستطاعة كائنة ما كانت، وكان إعدادها يحتاج إلىٰ مادّة رغب المؤمنين في الإنفاق في سبيل الله، لينفقوا ويعينوا علىٰ إعداد القوة، قال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (ما) شرطية، و ﴿مِن شَىْءٍ﴾ بيان لـ (ما)، و ﴿تُنفِقُوا۟﴾ معناه: [تبذلونه][(٢)] لوجه الله وابتغاء مرضاته ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في طريقه التي ترضيه، ويدخل فيها دخولاً أولياً: ما يعين علىٰ الجهاد من إعداد القوة، ومن رباط الخيل.

﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: يعطكم الله ثوابه يوم القيامة وافياً غير منقوص، الحسنة بعشرة أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ ما شاء الله من الأضعاف.

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] لا تنقصون شيئاً من حقوقكم.

﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٦١ ـ ٦٩].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ

---

(١) انظر: القرطبي (٣٨/٨).

(٢) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٦١ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٣﴾ [الأنفال: الآيات ٦١ ـ ٦٣].

قرأ هذا الحرف عامّة القرّاء السبعة غير عاصم في رواية شعبة أبي بكر: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ﴾ بفتح السين. وقرأه شعبة عن عاصم: **﴿وإن جنحوا للسِّلم﴾**[1].

و (السَلم) بفتح السين و (السِلم) بكسرها لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان، والمراد بالسَلم: الصلح. العرب تسمي الصلح: سَلماً، وسِلماً. وربما سمّتها: (سلاماً).

والجنوح في لغة العرب: الميل، تقول العرب: جنح فلان إلىٰ كذا، وجنح له. أي: مال إليه، وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول غيلان ذي الرمة[2]:

إذا ماتَ فوقَ الرحلِ أحييتُ روحَهُ بذكراكِ والعيسُ المَراسيلُ جُنَّحُ

أي مائلات الأعناق في السير.

معناها: إن مال الكفار يا نبي الله إلىٰ السِلم وودّوها وطلبوها فاجنح لها. أي: وافقهم في ذلك، وملْ إلىٰ السلم وصالحهم وسالمهم كما طلبوا ذلك منك.

و (السلم) مؤنَّثة في اللغة الفصحىٰ، كالحَرب فهي مؤنثة أيضاً، ومنه قول العبّاس بن مرداس[3]:

السِّلْمُ تأخذُ منها ما رَضيتَ به والحربُ تكفيكَ من أَنْفَاسِهَا جُرَعُ

والمعنىٰ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾ أي: الكفار ﴿إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ إلى الصلح، أي:

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٢.

(٢) البيت في القرطبي (٨/٣٩)، الدر المصون (٥/٦٣٠).

(٣) البيت في الدر المصون (٢/٣٥٩)، (٥/٦٣١).

مالوا إلىٰ المصالحة، وأحبوا أن تكون معهم في صلح ﴿فَٱجْنَحْ﴾ يا نبي الله إليها، أي: إلىٰ الصلح، فَمِلْ إلىٰ الصلح وسالمهم.

وكان بعض العلماء يزعم أن هذه الآية من سورة الأنفال بينها وبين آية القتال تعارض أو إشكال(١)، والحق أنه لا تعارض بينهما؛ لأن آية الأنفال هذه قيدت أمر النبي ﷺ بجنوحه إلىٰ السلم بأن يكون الكفار هم الذين جنحوا إليه أوّلًا وطلبوه ومالوا إليه. أما آية سورة القتال - سورة محمد - فهي لا تعارض هذا؛ لأن الله نهاهم فيها عن ابتداء طلب الصلح، وذلك لا ينافي إجابة الكفار إليه بعد أن طلبوه. ونعني بالآية المذكورة: قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: الآية ٣٥] لأن آية القتال فيها النهي عن أن يكونوا هم البادئين بالدعاء إلىٰ الصلح؛ لأن الداعي إلىٰ الصلح يظهر من قرينة حاله أنه كأنه خائف، وأنه يحس بالغلبة فيريد الصلح. أما القوي الآمن الذي لا يظن أنه مغلوب فلا داعي له إلىٰ طلب الصلح. فلا معارضة بين الآيتين. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾ أي: إن مال الكفار إلىٰ الصلح فاجنح لها.

أما قراءة: ﴿فاجْنُحْ لها﴾ فهي شاذّة وليست من القراءات السبعية(٢). أي: فَمِلْ إليها ووافقهم علىٰ ذلك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: إن صالحتهم فلا تخف مما يدبّرون لك من المكر والغدر والحيل في مدّة تلك المصالحة، لا تهتم بذلك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثق إليه، وفوّض إليه جميع أمورك، فإنه (جل وعلا) يكفيك ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: الآية ٣] وهذا معنى قوله: ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الله ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولونه من المنكر والغوائل التي يتربّصونك بها في مدة الصلح ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل ما يبطنون ويضمرون من المكر والخديعة والحيل أثناء المدة التي صالحتهم فيها، فهو (جل وعلا) لا يفوته شيء مما قالوا ولا مما عملوا،

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٤١)، القرطبي (٨/٣٩).

(٢) انظر: المحتسب (١/٢٨٠).

فهو مطّلع عليهم وكافيكهم، لا تهتم بذلك، واجعل ثقتك بالله وتوكلك عليه، فإنه يكفيك.

واعلم أن جماعة من العلماء من الصحابة فمن بعدهم زعموا أن هذه الآية من سورة الأنفال منسوخة بآية السيف النازلة في براءة[(١)]؛ لأنها نازلة بعدها؛ لأن براءة نزلت في رجوع النبي ﷺ من غزوة تبوك، وذلك العام عام تسع بلا خلاف، لم يعش النبي ﷺ بعده إلّا سنة واحدة، وسورة الأنفال هذه نزلت في وقعة بدر، وكانت في العام الثاني من الهجرة كما أوضحناه. قالوا: فهي منسوخة بآية السيف، كقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: الآية ٥].

والتحقيق أن هذه الآية ليست منسوخة، وأن المصالحة والمهادنة لم تُنسخ، وأن الإمام يخيّر وينظر في مصالح المسلمين، فإن رأى المصلحة في الصلح حتى يتقوّى المسلمون فيجتمع شملهم ويقدروا على القتال صالح، وإن رأى المصلحة في عدم الصلح لم يصالح، فالكل واسع وجائز إن شاء الله. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦١].

﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٢] ﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾[(٢)] أي: الكفار الجانحون للسلم الطالبون للصلح ﴿أَن يَخْدَعُوكَ﴾ بذلك الصلح ويتمكنوا في مدة المصالحة من تدبير المكر والمكائد ليضروك بها؛ لأن بعض الكفار يصالح غدراً ومكيدة، لا محبة في المصالحة. وكان قريظة بعد أن أعانوا كفار مكة بالسلاح وصالحوه المرة الأخرى ليس في نيتهم الدوام على المصالحة، بل يتربّصون به الدوائر، ويريدون أن يعينوا عليه الكفار. إذا كان قصدهم بالصلح الذي طلبوه وجنحوا إليه المخادعة فلا يهمّنّك ذلك، ولا تكترث بقصدهم الخداع فإنهم لا يضروك شيئاً؛ لأن الله يكفيك ذلك كله؛ ولذا قال: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ﴾ الخديعة: الغرور، وهو

(١) راجع المصادر في الحاشية قبل السابقة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

إبطان الشر ومحاولة إيصال الشر بطريق خفية لا ظاهرة واضحة.

﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ حَسْبك: معناه كافيك الله (جل وعلا). العرب تقول: حَسْبُه كذا. معناه: كافيه كذا. وهذا معنىً معروف في كلامها مشهور، ومنه قول جرير يهجو قوماً ممن كان يهجوهم[١]:

ولقد رأيتُ من المكارمِ حسبكم أن تلبسوا خَزَّ الثيابِ وتشبعوا
فإذا تُذوكِرَت المكارم مرةً في مجلسٍ أنتم به فتقنَّعُوا

فقوله: حسبكم يعني: يكفيكم من المكارم أن تأكلوا وتشربوا، وهذا غاية الذم كما هجا الحطيئةُ الزبرقان بن بدر لما قال له[٢]:

دع المكَارِمَ لا تَرْحَلْ لبُغْيَتِهَا واقْعُد فإنكَ أنتَ الطاعمُ الكَاسِي

وحبسه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ كافيك الله، يكفيك شرهم وشر خداعهم، فثق به وتوكل عليه ولا تكترث بإرادتهم بالصلح الخداع. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ ﴿هُوَ﴾ أي: الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ أيدك: معناه قوّاك. فالعرب تقول: أيّده يؤيّده تأييداً. إذا قوّاه. وتقول: رجل أيِّد. إذا كان قوياً. و (الأيد) و (الآد): القوة[٣]. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات: الآية ٤٧] أي: بنيناها بقوّة. وليست من (الأيدي) جمع (يد) فليست من آيات الصفات، بل معناها: القوة. هذا معنى: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ أي: قوّاك وعزّزك بنصره. وأصل النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوّاك أيضاً وأيّدك بالمؤمنين، ويدخل فيهم دخولاً أولاً: الأنصار ـ الأوس والخزرج ـ الذين آووه ونصروه وأيّده الله بهم. كان الأوس والخزرج وهما بطنا الأنصار أبناء قَيْلة، أولاد حارثة الغطريف كانوا

(١) البيت في تاريخ دمشق (١٨١/٢٩) ونسبه لحسان (رضي الله عنه) وليس في ديوانه، ونسبه في شواهد الكشاف ص٧٠ لجرير.

(٢) البيت في ديوانه ص١٠٨.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٢٦) من هذه السورة.

مكثوا سنين كثيرة بينهم حروب دامية، وقتال هلك فيها أشرافهم، وقُتل فيها ساداتهم، وبينهم عداوات وإحن وأضغان مستحكمة قديمة متوارثة لا يكاد أن تزول من صدورهم أبداً، فلما أرسل الله إليهم نبيه محمَّداً ﷺ وآووه ونصروه، وأيده الله بنصره وبهم، أزال تلك الأضغان والعداوات الكامنة، وجعل مكانها المحبة الصادقة والمودة والإخاء الكامل؛ ولذا امتنَّ الله عليهم بذلك هنا، وقد قدمنا نحوه في سورة آل عمران؛ لأنه قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: الآيتان ٦٢، ٦٣] قال بعض العلماء: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: الأنصار. وقال بعض العلماء: هي أعمّ من الأنصار؛ لأن العرب الذين هم أول من دخل في دينهﷺ كانوا أمّة بينها ضغائن وحروب ومقاتلات لا تكاد تجتمع على رجل واحد، فجمع الله شتاتها ولمَّ شعثها وألّف قلوبها على الإيمان. وأكثر المفسرين على أن المراد بهم الأنصار(١)، كانوا في العداوات الشديدة، ومكثوا سنين كثيرة في حروب دامية، واستحكمت بينهم العداوات والإحن والأضغان، فألّف الله بين قلوبهم بنبيه ﷺ كما قال هنا: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ التأليف في لغة العرب معناه: الجمع. أي: جمع بين قلوبهم فصارت على قلب رجل واحد، نيتها إعلاء كلمة الله، ونصر دينه، ونصر نبيّه، ومحبة كل للآخر بعد أن كانت قلوبهم غير مجتمعة ولا متألفة، بل هذا يريد قتل هذا، وهذا يريد قتل هذا، بقلوب شتّى لا تتألف؛ ولذا قال: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يعني: لو صرفت ما في الأرض جميعاً لتؤلّف بين قلوبهم ما أمكن ذلك أبداً. ومن أعظم الأسباب الدنيوية لكل شيء: المال، فإنه يؤلف القلوب ويزيل العداوة. يعني: لو أنفقت جميع ما في الأرض ما قدرت على أن توفّق بين قلوبهم ولا أن توحّدها، ولكن الله العظيم بقدرته وجلاله ألّف بين قلوبهم؛ لأنه تعالى وحده هو الذي يملك القلوب ويصرّفها كيف يشاء، إذ كل إنسان قلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبه كيف يشاء، كما قدّمنا بسطه في تفسير قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ الآية [الأنفال:

---

(١) انظر: ابن جرير (٤٥/١٤)، القرطبي (٤٢/٨).

الآية ٢٤]. الذي بيده القلوب يصرّفها كيف يشاء، ويقلبها كيف يشاء هو وحده الذي يقدر على تأليف قلوبهم، وجمع كلمتهم، ولمّ شعثهم، وإزالة ما كان بينهم كما تقدم في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣] وهذا معنى قوله: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال: الآية ٦٣].

وقد قدمنا مراراً أن العزيز هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، والعزة: الغلبة ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: الآية ٨] أي: ولله الغلبة ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص: الآية ٢٣] غلبني في الخصام. ومن كلام العرب: (مَنْ عزَّ بزّ)[1] يعنون: من غلب استلب، وقد نظمته الخنساء السلمية الشاعرة في قولها[2]:

كأنْ لَمْ يكُونُوا حمى يُخْتَشَى إذْ النـاسُ إذْ ذاكَ مـنْ عـزَّ بـزَّا

أي: من غلب استلب. والحكيم: هو الذي يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها[3]. فاقتضت عزّته وغلبته أن يقهر أعداءك، وأن لا يضرّوك بخداعهم ونيّتهم المكر والخداع؛ لأن ربك غالبٌ قاهر لا يغلبه شيء، واقتضت حكمته أن يؤلّف بين قلوب أنصارك الذين نصروك، ويوحّد كلمتهم، ويجعلهم كرجل واحد، هذا اقتضته عزّته وحكمته، وإن كانت حكمته تقتضي العدل الكامل، وكمال التمام في كل ما يدبّره في شرعه وقدره وغير ذلك. وعزّته تقتضي أنه غالبٌ لكل شيء، ويدخل في ذلك قهره للكفار الجانحين للسلم الذين يريدون بذلك الخداع، ويدخل في حكمته جمعه بين قلوب أصحابك ليجتمعوا علىٰ نصرة دين الله وإعلاء كلمته. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال: الآية ٦٣].

ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾ [الأنفال:

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

الآية ٦٤] قرأ هذا الحرف عامّة القراء غير نافع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾. وقرأه نافع وحده من السبعة: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيءِ حَسْبُكَ اللهُ﴾ بالهمزة[١].

أما على قراءة نافع فهو من النبأ بلا خلاف. وقد قدّمنا مراراً[٢] أن النبأ في لغة العرب: الخبر الذي له خطب وشأن، فكل نبإٍ خبرا وليس كل خبر نبأً، لأن النبأ أخص من مطلق الخبر، إذ لا تكاد العرب تطلق النبأ إلا على الإخبار بما فيه أهمية وله خطب وشأن، فلو قلت: جاءنا اليوم نبأ الأمير، أو نبأ الجيوش. كان هذا من كلام العرب؛ لأنه خبرٌ له خطبٌ وشأن، ولو قلت: بلغني اليوم نبأٌ عن حمار الحجّام. لما كان هذا من كلام العرب؛ لأن خبر حمار الحجّام لا أهمية له ولا شأن ولا خطب له.

أما على قراءة الجمهور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ فقال بعض العلماء: معناه كمعنى قراءة نافع، إلا أن الهمزة أُبدلت ياءً كما أُبدلت همزة (النسيء) في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: الآية ٣٧] أُبدلت ياءً في قراءة سبعية صحيحة[٣] ﴿إِنَّمَا النَّسِيُّ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ﴾ وبها قرأ ورش عن نافع وغيره، وعلى هذا القول فالقراءتان معناهما واحد.

وقال بعض العلماء: (النبي) على قراءة الجمهور ليس من النبأ الذي هو الخبر وإنما هو من (النَّبْوَة) بمعنى الارتفاع؛ لأن النبي يوحى إليه وحيٌ، وهو خبرٌ له شأنٌ وخطب؛ ولأن له مكانةً رفيعة، والشيء المرتفع تسمّيه العرب (نبيّاً) والنّبْوة: الارتفاع، ومنه قيل لكثيب الرمل: (نبي) أي: لأنه مرتفع، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[٤]:

إلى السيد الصعبِ لو أنه ... يقوم على ذروةِ الصاقبِ
لأَصْبَحَ رَتْماً دُقَاقُ الحصى ... مكان النبي من الكاثِبِ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.
(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.
(٤) مضى عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأعراف. ولفظ الشطر الأول من البيت الأول في ديوانه:
على الأروع السقب لو أنه ... .

يعني بالنبي: كثيب رمل مرتفع. وهذا معنى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيك الله من أمور الدنيا والآخرة، فإنه يكفيك أعداءك، ويعينك على من ناوءك منهم.

وقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه وجهان من التفسير معروفان[١]: قال قومٌ من علماء التفسير: إن قوله: ﴿وَمَنِ﴾ في محل رفع، وأنه معطوف على لفظ الجلالة، أي: حسبك الله وحسبك من اتبعك من المؤمنين، يعينك الله ويؤيدك الله بالمؤمنين. وهذا مرويٌ عن الحسن البصري. والذين قالوا هذا القول قالوا: هذه الآية مكيّة جُعلت في سورة الأنفال وهي مدنية بأمرٍ من النبي ﷺ، وزعموا أنها نزلت عندما أسلم عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ والنبي وأصحابه مختفون في دار الأرقم ابن أبي الأرقم في مكة، وأن عمر أظهر إسلامه حتى صلوا في المسجد، وما كانوا يقدرون، وأن الله أنزلها في مكة، وأن النبي ﷺ أمر بجعلها في هذه السورة المدنية أعني سورة الأنفال.

والتحقيق الذي دلّ عليه استقراء القرآن العظيم، وبه قال أكثر علماء التفسير المشهورين: أن قوله ﴿وَمَنِ﴾ عطفٌ على الضمير في قوله: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ معناه: كافيك الله وكافي معك من اتبعك من المؤمنين، فالله يكفيك المُؤن وشرور الأعداء وكل بليّة، كما أنه يكفي أتباعك من الصحابة فمن بعدهم (رضي الله عنهم). وهذا القول هو التحقيق، وقد دلّ استقراء القرآن عليه؛ لأن الحسْب ـ الذي هو الكفاية ـ من خصائص رب العالمين، ولم يسنده لأحدٍ من خلقه حيث قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: الآية ٥٩] فجعل الإيتاء لله والرسول، والحسب لله وحده. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٤] فجعل الحسب له وحده، والتأييد بنصر الله وبالمؤمنين. وقد أثنى الله (جل وعلا)

---

(١) انظر: ابن جرير (٤٩/١٤)، القرطبي (٤٣/٨)، الأضواء (٤١٦/٢)، ولابن القيم (رحمه الله) تحقيق جيد في معنى الآية ذكره في زاد المعاد (٣٥/١).

على قوم أفردوه بالحسب ـ وهو الكفاية ـ كما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٧٣] الله وحده ولم يذكر معه غيره، فأثنى عليهم بإفراد الخالق بهذا الحسب الذي هو الكفاية. ونظيره قوله في خاتمة براءة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: الآية ١٢٩] هذا هو التحقيق - إن شاء الله - أن المعنى: يكفيك الله ويكفي جميع أتباعك.

وفي هذين ترغيب عظيم في الإسلام؛ لأن من اتبع النبي ﷺ كفاه الله كما كفى نبيّه ﷺ.

وهذا التفسير هو الذي عليه جمهور علماء المفسرين، وهو الذي دل عليه استقراء القرآن كما بيّنا، إلا أنه يَرِدُ عليه سؤال عربي نحوي: وهو أن يقول طالب العلم: قررتم أن التحقيق أن (من) من قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوفة على الكاف في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾[1] أي: حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين. والمقرّر عند جماعة من علماء العربية أن الضمير المخفوض لا يجوز العطف عليه إلا بإعادة الخافض، وهنا لم يُعد الخافض.

وأُجيب عن هذا السؤال من أربعة أوجه[2]:

أحدها: أن هذه القضية غير مسلّمة[3]، وأن جماعة من علماء العربية أصحاب علم وتحقيق قالوا: لا مانع من العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض. وهو رأي ابن مالك ـ رحمه الله ـ لأنه لما ذكر المذهب الأول بقوله في خلاصته[4]:

وعَوْدُ خَافضٍ لدى عَطْفٍ عَلَى ضَميرِ خَفْضٍ لازِماً قد جُعِلا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.
(٢) انظر: البحر المحيط (٥١٥/٤)، الدر المصون (٦٣١/٥)، الأضواء (٤١٧/٢).
(٣) أطال ابن مالك (رحمه الله) في إبطالها. انظر شرح الكافية (١٢٤٦/٣ ـ ١٢٥٥)
(٤) الخلاصة ص٤٨.

قال بعده:

وليسَ عندي لازماً إذْ قد أَتَى في النظم والنَّثْرِ الصحيحِ مُثْبَتَا

ومراده بالنثر الصحيح: قراءة حمزة ـ رحمه الله ـ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ والأرحامِ﴾ [النساء: الآية ١] بخفض ميم الأرحام معطوفة على الضمير المجرور في قوله: (به) من غير إعادة الخافض، وهي قراءة سبعية صحيحة[1]، فمعلوم أن اللغة التي جاءت بها لا بد أن تكون لغة عربية صحيحة، وهو كذلك. وقد اشتهر في أشعار العرب العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، وأنشد له الشيخ سيبويه في كتابه[2]:

فاليومَ قرَّبْتَ تَهْجُونَا وتَشْتِمُنَا فَاذْهَبْ فما بِكَ والأيَّامِ منْ عَجَبِ

فعطف الأيام على الضمير المجرور بالباء من غير إعادة الخافض، وهو كثير في أشعار العرب، ومنه قول الآخر[3]:

نُعَلِّقُ في مثْلِ السَّوارِي سُيُوفَنَا وَمَا بَيْنَهَا والكَعْبِ مهوى النفانف

فقوله: «والكعب» معطوف على الضمير المجرور من غير إعادة الخافض. ونظيره قول الآخر[4]:

لقد رام آفاق السماء فلم يجد له مصعداً فيها ولا الأرض مقعداً

فعطف الأرض على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، ونظيره قول الآخر[5]:

أمر مع الكتيبةِ لا أُبالي أَحَتْفي كان فيها أَمْ سِوَاهَا

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٧٥.

(٢) الكتاب (٣٨٣/٢)، وهو في شرح الكافية (١٢٥٠/٣).

(٣) البيت في شرح الكافية (١٢٥١/٣).

(٤) لم أقف عليه.

(٥) البيت في شرح الكافية (١٢٥٢/٣) وهو للعباس بن مرداس.

فعطف (سواها) بـ (أم) على الضمير المخفوض، وهو كثير في كلام العرب.

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ في محل نصب معطوف على المحل؛ لأن الكاف من قوله ﴿حَسْبُكَ﴾ وإن كان في محل خفض مضاف إليه ما قبله فأصله مفعول؛ لأن الحسب بمعنى الكفاية، والأصل: يكفيك. فالكاف في محل المفعول، والمعروف في علم العربية أن المخفوض بالإضافة الذي أصله النصب يجوز العطف عليه مخفوضاً، وتجوز مراعاة محله فينصب المعطوف عليه وهو معروف في محله.

الوجه الثالث: وهو أظهرها وأبينها وأقلها تكلفاً: أن قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في محل نصب على أنه مفعول معه، بناء على القول بأن العطف ضعيف، وهو العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض فيتعيّن حينئذٍ النصب على المفعول معه (حسبك الله مع من اتبعك من المؤمنين) وهذا واضح لا إشكال فيه، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر(١):

إذا كانَتِ الهيجاءُ وانْشَقَّتِ العَصَا فَحَسْبُكَ والضحاكَ سيفٌ مهنّدٌ

فنصب (والضحاك) مفعولًا معه. أي: حسبكَ مع الضحاكِ.

الوجه الرابع: أن قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ في محل رفع على أنه مبتدأ خبره محذوف دلّ ما قبله عليه. أي: ومن اتبعك من المؤمنين فحسبهم الله أيضاً. وهذا معنى قوله: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٤].

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾ [الأنفال:

---

(١) البيت في القرطبي (٤٢/٨)، الدر المصون (٣٨٤/١)، ذيل الأمالي ص١٤٠، ونسبه لجرير، وليس في ديوانه.

الآية ٦٥] التحريض: هو الحض على الشيء والحث عليه بشدّة. حرّضهم على القتال، أي: حثهم وحرّصهم عليه بشدّة؛ لأنّ القتال فيه خير الدنيا والآخرة، ثم إنه كان في أول الأمر يجب على المسلمين لقلّتهم أن يصابر الرجل الواحد منهم عشرة من الكفار، كان الرجل الواحد من المسلمين يجب عليه أن يصبر أمام عشرة مقاتلين من الكفار، فلذا قال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: الآية ٦٥] فإذا قابلت العشرين بالمائتين كان كل رجل مقابل لعشرة كاملة ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ صابرون محتسبون لله في ميدان الحرب.

ثم قال: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر: **﴿وإن تكن منكم مائة﴾** بالتاء الفوقية. وقرأه العراقيون أعني أبا عمرو البصري والكوفيين الثلاثة - عاصماً وحمزة والكسائي - قرؤوه كلهم: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا﴾ بالياء التحتية كما قبله[1]؛ لأن المائة إذا قابلت ألفاً فكل واحد بعشرة.

وكأن قائلًا قال: لِمَ كان الواحد من المسلمين يغلب العشرة من الكفار، ويجب عليه أن يصبر لها، والله لم يوجب عليه ذلك إلا لعلمه بأنه قِرْنٌ لها وكفؤٌ لها عند الضرورة قبل أن يكثر المسلمون، فما موجب هذا حيث يكون الواحد من هؤلاء يقاوم العشرة من هؤلاء؟ فبيّن الله (جل وعلا) الحكمة في ذلك،/ وهذه الحكمة التي بيّن الله بهذه الآية من سورة الأنفال ٨/ب
حكمة سماويّة عظيمة تحتها أسرار هائلة يجب على كل مسلم أن يتصفّحها ويتعقّلها ويتدبّر معانيها، وخصوصاً كل الخصوص تحتّمها على العسكريين من المسلمين، يجب عليهم كل الوجوب أن يتأملوا هذه الآية من سورة الأنفال، وأن يتصفّحوا معناها، فإن فيها سراً عظيماً لو تعقّله المسلمون لفهموا الحقائق، ولما ساروا في الظلام؛ لأن الله لما قال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٢.

عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بيّن علّة ذلك وأوضحها فقال: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وهو كون الواحد يغلب عشرة منهم ويصابرها بسبب أنهم قوم لا يفقهون. أي: لا فقه عندهم ولا فهم عن الله، والذي لا يفقه عن الله ولا يفهم ما عنده فهو كالبهيمة ليس له مبدأ يقاتل عليه، والذي يتقدم إلى الميدان في خطوط النار الأمامية ليس عنده مبدأ نبيلٌ يقاتل عليه فهو مائع، هزيمته قريبة سريعة، لا يقاوم أبداً. فإذا التقى من لا فقه عنده بمن عنده فقهٌ عن الله فالمسلم القائم في الميدان للعشرة يفقه عن الله ويفهم، ويقول: إن ربي اشترى مني هذه الحياة القصيرة في هذه الأيام المعدودة، وهي حياة مكدّرة بالأمراض والأسقام والمصائب والبلايا والأحزان، اشتراها مني بحياة سرمدية أبدية لا انقطاع فيها ولا كدر ولا ألم ولا حزن، وهذا المال القليل اشتراه مني بالحور العين والولدان وغرف الجنان ومجاورة رب غير غضبان، فهو ينتظر ما عند الله، فاهمٌ عن الله، يفقه عن الله، فهو متقدّمٌ في الميدان، لا يُهزم أبداً، ولو قُتل لكانت هي أمنيته، فهذا الذي يقاتل على هذا المبدأ النبيل، وهذا الغرض الصحيح، فاهماً عن الله، يفقه عن الله، هذا لا يقاومه الأهوج الجاهل الذي لا يفقه شيئاً، ولا يقاتل على مبدأ، فحياته أهمّ عنده مما يقاتل عليه، فالذين لا يفقهون عن الله من الجنود العسكريين لا يمكن أن يردّوا سليباً، ولا أن يُعلوا كلمة الله؛ لأنهم لا مبدأ لهم، وهم قومٌ لا فقه لهم، فلا يقاتلون على شيء ترخص بسببه نفوسهم عندهم ويرغبون فيما عند الله.

وهذا سرٌ لطيف عظيم، وتعليمٌ سماوي هائل، يفهم به المسلمون أن أول شيء من الأساسيات للاستعداد للميدان هو الفقه والفهم عن الله، فيجب كل الوجوب أن يُعلَّم العسكريون عن الله حتى يفقهوا؛ لأنهم إذا كانوا فاهمين عن الله، عارفين بنبل المبدأ الذي يقاتلون عليه، كانوا شجعاناً وصابرين، لا يرجعون القهقرى ولا يُهزمون، كما سجّله التاريخ لأوائل هذه الأمة. وإن كانوا لا يفقهون عن الله شيئاً، جَهَلَةً كالأنعام لا مبدأ لهم يقاتلون عليه، فهم ليسوا بأساس ولا معوَّل عليهم، يُهزمون مع كل ناعق

كما بيّنته هذه الآية العظيمة الكريمة من سورة الأنفال. وهذا معنى قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٥].

الفقه في لغة العرب: معناه الفهم ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: الآية ٩١] أي: ما نفهمه؛ لأنهم لا يفهمون عن الله شيئاً. وهذا معنى قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

فلما انتشر الإسلام وكثر المسلمون خفف الله (جل وعلا) عن المؤمنين وجوب مصابرة واحد لعشرة إلى مصابرة واحد لاثنين قال: ﴿الْآنَ﴾ (الآن) يعبّر بها عن الوقت الحاضر الذي أنت فيه، ﴿خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٦] تكليفه الأول وهو مصابرة الواحد للعشرة، وجاءكم بتخفيف بدله وهو مصابرة الواحد للاثنين.

﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ قرأه جماهير القرّاء منهم عامة السبعة غير عاصم وحمزة: **﴿وعلم أن فيكم ضُعفاً﴾** بضمّ الضاد. وقرأه عاصم وحمزة: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾[1] والضَعف والضُعف لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان **﴿خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفاً﴾**.

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ هذا الحرف الأخير الذي هو قوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ لم يقرأه بالياء من السبعة إلاّ الكوفيون الثلاثة ـ وهم عاصم وحمزة والكسائي ـ أما أبو عمرو البصري هنا فقد وافق غيره، فصار نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو يقرؤون: **﴿فإن تكن﴾** بالتاء، وعاصم وحمزة والكسائي يقرؤون: ﴿فَإِن يَكُن﴾ بالياء[2]. وهما لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ الواحد لاثنين ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ الواحد لاثنين ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ جل وعلا ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ معيّة نصر وتوفيق وتأييد. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ

---

(١) (٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٢.

ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٦٧ ـ ٦٩].

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٧].

لما انهزم المشركون يوم بدر كان سعد بن معاذ (رضي الله عنه) قائماً متوشّحاً سيفه على العريش الذي فيه رسول الله ﷺ، رآه النبي ﷺ ينظر كأنه ينظر إلى شيء يكرهه فقال: «**كأنك تنظر إلى شيء تكرهه!!**» قال: نعم، رأيتهم يأسرون الكفار ورغبتي أن يُقتلوا؛ لأن قتل الكفار أقوى للإسلام وأشدّ مناعة لشوكته، ويحصل به ضعف المشركين وانكسار شوكة الكفر، فقتلهم هنا أحبّ إليّ[١].

ولما اجتمع الأسارى عند رسول الله ﷺ استشار أصحابه، فجاءت روايات متعدّدة أن ممن أشار عليه أبو بكر وعمر وعبد الله بن رواحة، ومن أكثرها إشارة أبي بكر وعمر، وأن أبا بكر قال له: يا رسول لله: إنهم قومك وعشيرتك فلا تعجل عليهم وهم كفار، فاستبقهم وأمهلهم لعل الله أن يهديهم، وخذ من فدائهم ما يتقوّى به المسلمون على الجهاد في سبيل الله. وقال له عمر: هؤلاء قوم كذبوك وأخرجوك وهم رؤساء الكفر فاقتلهم، فأعط عقيل بن أبي طالب لأخيه علي ـ وعقيل من الأسارى ذلك اليوم ـ يقتله، وادفع العباس لحمزة ليقتله، وأعطني فلاناً ـ رجلٌ كان بينه وبين عمر نسب ـ ليعلم الله أن لا هوادة بيننا وبين الكفار، فإن قتل رؤساء الكفر هو الذي يكسر شوكة الكفر ويذلّه، ويعزّ دين الإسلام ويُعلي كلمة الله. فكأن النبي ﷺ كان أمْيَل إلى ما قاله أبو بكر (رضي الله عنه). وذكروا في هذه الروايات أنه قال لأبي بكر: «**قلت كما قال عيسى:** ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾» الآية [المائدة: الآية ١١٨]. وفي رواية أنه قال له: «**قلت كما قال إبراهيم:** ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾»

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

[إبراهيم: الآية ٣٦] وفي بعض الروايات قال لعمر: «**قلت كما قال موسى**: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾» [يونس: الآية ٨٨] وفي بعضها أنه قال له: «**قلت كما قال نوح**: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾» الآيات [نوح: الآية ٢٦]. وفي بعض الروايات أن معهم عبد الله بن رواحة (رضي الله عن الجميع)، وأنه قال له: أنت في وادٍ كثير الحطب فأضرم عليهم النار[١]. وعلى كل حال فلما أَخَذُوا الأُسارى أَخَذَهُم الذين أسروهم أولاً ولم يأمرهم رسول الله ﷺ بأسرهم، وكانوا يرغبون في الفداء ليتقووا بالمال، فلما استقروا تحت أيديهم كان ذلك الرأي ليس مستبعداً عنده ﷺ، ولم ينزل فيه وحي، فبعد أن أخذوا الأسارى جاءهم هذا اللوم من الله، وهذا الأمر العظيم، وقرب العذاب منهم لولا الكتاب السابق. ولما كان من الغد جاء عمر (رضي الله عنه) ووجد رسول الله ﷺ وأبا بكر يبكيان، فقال: ما يبكيكما، أخبراني بما يبكيكما؟ فإن وجدت بكاءً بكيت معكما، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال له رسول الله ﷺ: «**عُرض عليّ عذاب أصحابك كهذه الشجرة** ـ لشجرة قريبة منه[٢] ﷺ ـ لأن الله قال لهم: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٨] ثم إن الله بعد ذلك أحل لهم ذلك المغنم وطَيَّبَه لهم في قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: الآية ٦٩] ويدخل فيه فداء الأُسارى.

ومعنى قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ٦٧] أن يأسر الرجال ويستعين بالمال بفدائهم حتى يثخن في الأرض. الإثخان: معناه الإيجاع في الأرض قتلاً، حتى يوجع في الأرض قتلاً، ويقتل الصناديد الكفرة والرؤساء العظام التي تضعف بهم شوكة الكفر وأهله. والإثخان: أصل الإثخان شدة الإيجاع في الأرض بالقتل[٣]. وقالوا:

---

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١٢) من هذه السورة.

(٢) مسلم في الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم. حديث رقم: (١٧٦٣) (٣/١٣٨٣).

(٣) انظر: القرطبي (٨/٤٨)، الدر المصون (٥/٦٣٧).

أثخنوهم أي: أوجعوا فيهم قتلاً شديداً ذريعاً، وأثخنته الجراحة: اشتدت عليه حتى أثبتته. وهذا الذي لامهم عليه هنا وبيّن لهم أنه ما كان هو الصواب، ولا هو الأولى أوضحه وشرحه في سورة القتال في قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ [محمد: الآية ٤] أي: أوجعتموهم قتلاً، قتلاً يضعف شوكة الكفر ويذلّ أهله، بعد ذلك ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ وهو الأسر ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ ولذا قال هنا: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني ما كان ينبغي لكم ولا يصح منكم أولاً أن تلتزموا أول وقعة نصركم الله فيها بالأسرى تريدون المال، لا ينبغي هذا منكم، وما كان هو الأولى لكم، كان الأولى لكم قتلهم وحصدهم حتى يذل الكفر ويستكين أهله، وتقوى شوكة الإسلام ويعز أهله. وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يوجع فيها قتلاً؛ لأن ذلك القتل الوجيع هو الذي يذل الكفر ويكسر شوكته، ويعز الإسلام ويرفع كلمة الله (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ثم لامهم لوماً شديداً عظيماً من الله قال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: حطام الدنيا الزائل. فسماه عرضاً لأنه عارض الوجود يعروه الزوال عن قريب، كما قدمنا في قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٩] والله (جل وعلا) لا يريد عرض الدنيا بل يريد الآخرة، يريد لكم الآخرة بأن تقتلوا الكفرة، وتكسروا شوكة الكفر، وتذلوا أهله وأهلها، وتعزوا كلمة الله وتعلوا دين الله في أرضه، وهذه هي الآخرة التي يريدها لكم، وهذه الإرادة إرادة شرعية دينية، ولو كانت إرادة قدرية كونية لنفذت على كل حال؛ لأن الله إذا أراد بإرادته الكونية القدرية شيئاً لا بد أن ينفذ كائناً ما كان ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: الآية ٨٢] فهذه إرادته الشرعية الدينية لكم كان الأولى لكم شرعاً وديناً أن تقتلوهم فتعلوا كلمة الله، وتذلوا كلمة الكفر، وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: حطامها الزائل؛ لأنه عارض ينقضي ويزول ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: الدار الآخرة. ومن أعظم

أسباب الخلود في جناتها إعلاء كلمة الله، وإذلال كلمة الكفر، وأكبر أسباب ذلك قتل الرؤساء قادة الكفار وساداتهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قدمنا الكلام عليه قريباً.

وقوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٨] (لولا) في علم العربية هي حرف امتناع لوجود، والمعنى: امتنع أن يمسكم عذاب الله بسبب [الكتاب السابق في الأزل][1] ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولو أن فرعونَ لما طغى وقال على الله إفْكاً وزورا
أنابَ إلى الله مُستغفِراً لما وَجَد الله إلا غفورا[2][3]

١/٩ / قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٧٠ ـ ٧٥].

يقول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن

---

(١) في هذا الموضع كلام غير واضح، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) لم أقف على البيتين.

(٣) هذا هو الدرس الأخير من دروس الشيخ رحمه الله في شهر رمضان عام (١٣٩١) وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين منه.

يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ [الأنفال: الآية ٧٠].

جرى على ألسنة العلماء من المفسرين والأصوليين أن هذه الآية الكريمة من أخريات سورة الأنفال نزلت في العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه)[١]. والتحقيق أنها نزلت في جميع أسارى بدر، ولو فرضنا أنها نزلت في العباس فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، وإنما قالوا: إنها نزلت في خصوص العباس مع أنها نازلة في جميع أسارى بدر؛ لأن العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) هو أكثرهم نصيباً وأوفرهم حظاً فيها؛ لأنه أُخذ منه في الفداء ما لم يؤخذ من غيره، فصار كأنه أخص منهم بهذه الآية؛ ذلك لأن العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) كان من أشراف قريش الذين ضمنوا لهم الإطعام في غزوة بدر، وكان يوم بدر هو اليوم الذي عليه هو أن يطعم ـ كما قاله أصحاب المغَازي والسير ـ فاشتغل الناس بالقتال عن الإطعام، وكان جعل معه عشرين أوقية من ذهب ليطعم بها الناس، فلما أسره المسلمون أخذوا العشرين معه. وذكر بعض أصحاب المغَازي أنه كان رجلًا موسراً فأمرهم النبي أن يُضعفوا الفداء عليه[٢]، فأخذوا منه ثمانين أوقية، وضاعت له عشرون أوقية، فكان المجموع: مائة أوقية. وأمره النبي ﷺ أن يفدي ابني أخويه وهما عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب كانا أسيرين معه، أُسرا يوم بدر. وذكر بعضهم أنه ﷺ أمر العباس أيضاً أن يفدي حليفه وهو عتبة بن عمرو (رضي الله عنه)، أخو بني الحارث بن فهر، كان حليفاً للعبّاس بن عبد المطلب[٣]، وكان النبي ﷺ في يوم بدر كما ذكره أصحاب المغازي قال: «**إن بعض من يلقونكم في هذا الجيش خرجوا**

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

(٢) انظر: دلائل النبوة (١٤١/٣)، الدر المنثور (٢٠٤/٣)، سُبُل الهدى والرشاد (٧١/٤)، وأورده القرطبي (٥٢/٨) وعزاه للنقَّاش.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

مستكرهين فمن لقي منكم العباس فلا يقتله؛ لأنه أكرهه قومه على الخروج، ومن لقي أبا البختري فلا يقتله». وكان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة (رضي الله عنه) وقعت منه زلّة يوم بدر، وكان يقول: منذ سقطت مني تلك الكلمة وأنا أخافها لا آمن منها أبداً حتى يكفّرها الله عنّي بالشهادة. فقُتل شهيداً أيام اليمامة (رضي الله عنه). وذلك أن النبي ﷺ لما قال: «**من لقي منكم العباس فلا يقتله فإنه خرج مُستكرهاً**». قال أبو حذيفة بن عتبة (رضي الله عنه): أنقتل آباءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس! والله إن لقيته لألجمنّه السيف. فسمع بها رسول الله ﷺ، فذكروا أنه قال لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «**يا أبا حفص**» ـ قال عمر: ما كنّاني أبا حفص قبل ذلك اليوم ـ «**أيُضرب وجه عمّ رسول الله ﷺ**»؟ فقال: إنه نافق دعني أقتله[1].

وكان أبو حذيفة (رضي الله عنه) يتخوّف من كلمته هذه حتى رزقه الله الموت شهيداً أيام اليمامة. وكذلك نهى عن أبي البختري؛ لأنه كان يُحسن إلى بني هاشم أيام كونهم في الشِّعب لما قاطعهم قريش، وكان يعاملهم معاملة حسنة ولم يؤذهم، فجاءه المُجَذَّر بن زياد البلوي (رضي الله عنه) فقال: أما أنت فقد نهانا عنك رسول الله ﷺ. وكان له زميل، فقال له: وزميلي؟ فقال: أما زميلك فلم ينهنا عنه رسول الله ﷺ. وأراد المجذّر أن يقتل زميله، فتعرّض دونه وقال[2]:

لا يُسْلِمُ ابنُ حُرَّةٍ زَميلَهُ حتّى يموتَ أو يَرَى سبيلَه
ولا يفارقْ جَزَعاً أكيلَه

وتراجز هو والمجذّر (رضي الله عنه) وكان ذلك يقول[3]:

أنا الذي أزعمُ أصلي من بِلِي أَضرِبُ بالحربة حتى تَنثَني

---

(١) السابق.
(٢) السابق.
(٣) السابق.

فقتله المجذر لما جاء دون زميله. وكان العباس (رضي الله عنه) أسره رجل قصير ليس بالقوي من الأنصار هو كعب بن عمرو (رضي الله عنه) وهو المشهور بكنيته أبي اليسر، وهو أخو بني سلمة. ذكر بعض أصحاب المغازي[1] أن العباس كان يئنّ أنيناً في الأسر، فسمع رسول الله ﷺ أنينه فلم يستطع أن ينام حتى خففوا عليه الوثاق فسكت، فلما سكت نام ﷺ. وعلى كل حال فالعباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) لما أرسل قريشٌ في فداء أسراهم كان الأسير يُفدى بأربعين أوقية، قال أصحاب المغازي: أمرهم النبي ﷺ أن يُضعفوا الفداء على العبّاس فأخذوا منه ثمانين أوقيّة، وضاعت له عشرون أوقيّة أخذوها منه لما أسروه، وفدى ابني أخويه عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وفدى حليفه عتبة بن عمرو أخا بني الحارث بن فهر، فصار دفع مالًا كثيراً لم يدفعه غيره، فمن هنا قالوا: نزلت فيه هذه الآية الكريمة مع أنها نازلةٌ في جميع أسرى بدر، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، فلفظ الآية عام. وهذه القاعدة قاعدة معروفة قويّة يستدل بها علماء الأصول على أن الآيات النازلة في أسباب خاصة أحكامها عامة، ولا تخصّص بأسبابها[2]، ومن المشهور في أمثلتها: المثال لها بهذه الآية من أخريات سورة الأنفال، أنها نزلت في العباس بن عبد المطلب وحكمها عام. ومن الأدلّة الدالة على هذه القاعدة الأصولية المهمة المُعِينَة في التفسير - وهي أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب - دلّ عليها الحديث الصحيح واللغة، أما ما دلّ على ذلك من الأحاديث فهو ما سيأتي في سورة هود - إن شاء الله - من أن سورة هود نزلت فيها آيات مدنية وهي سورة مكيّة كما قال غير واحد من العلماء أن قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: الآية

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (١٤١/٣) من طريق ابن إسحاق، وعنهما أورده ابن كثير في تاريخه (٢٩٩/٣).

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

١١٤] نزلت في الأنصاري الذي جاءته المرأة تبتاع تمراً فأعجب بجمالها، وكان زوجها غائباً في الجهاد، فقال لها: إن في البيت تمراً أحسن من هذا. فلما دخلت البيت كان بينه وبينها بعض ما لا يليق من صغائر الذنوب، ثم إنه ندم وأخبر النبي ﷺ بذلك فأنزل الله فيه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ تعني: فصلواتك الخمس تذهب عنك هذه السيئة التي اقترفت من هذه المرأة. فقال الرجل ـ كما في صحيح البخاري وغيره ـ ألي هذا وحدي يا رسول الله؟ وسؤال هذا الأنصاري هو سؤال عن هذه النازلة، كأنه يقول: آلعبرة بي لأنني سبب النزول، أو العبرة بعموم لفظ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فأجابه ﷺ: «**بل لأمتي كلهم**»[(١)]. فدلّ على أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، ومن النصوص الدالة على هذه القاعدة: هو ما ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح أنه أيقظ فاطمة وعليّاً (رضي الله عنهما) ليصليا بالليل، فقال له علي (رضي الله عنه): إن أرواحنا بيد الله إن شاء بعثنا. فولّى ﷺ يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: الآية ٥٤][(٢)]. مع أن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ نزلت في الكفار الذين يجادلون في كتاب الله، فاعتبر النبي عمومها حتى جعله شاملاً لخصام علي له ومجادلته له؛ بأن أرواحهم بيد الله؛ لأن الله قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الكهف: الآية ٥٤] الكافر مع وضوح القرآن وأدلته وتصريف أساليبه ﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ وخصاماً بالباطل.

ومما يدل على هذا من اللغة: إجماع أهل اللسان العربي أن الرجل لو كان له أربع زوجات فقامت إحداهن وسبّت هذا الرجل وأغضبته فقال: أنتن كلكن طوالق. فإنهن كلهنّ يطلقن بحسب المدلول العربي ولا يختص بالمرأة التي أغضبته فاستوجبت الطلاق كما لا يخفى. وهذه الآية الكريمة نزلت في

(١) مضى عند تفسير الآية (٣١) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

العباس بن عبد المطلب، وحكمها عام لمن معه، وظاهرها يشمل جميع الأسرى؛ لأنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ [الأنفال: الآية ٧٠] قرأ هذا الحرف عامّة القراء غير نافع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم﴾ بالإدغام.

وقرأه نافع وحده من السبعة: ﴿يا أيها النبيء﴾ بالهمزة من غير إدغام، ونافع قرأ لفظ النبيء والأنبئاء في جميع القرآن بالهمزة المحققة في رواية ورش في جميع القرآن، وفي رواية قالون عنه في جميع القرآن إلا في حرفين من سورة الأحزاب فقط، وهما قوله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٠] وقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣] فهذين الحرفين قرأهما عنه قالون كقراءة الجمهور، وقرأهما عنه ورش بالهمزة المحققة كغيرهما في سائر القرآن[1].

وقوله ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ قرأه عامّة السبعة غير أبي عمرو: ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ وقرأه أبو عمرو وحده من السبعة: ﴿**يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِمَن في أَيْدِيكُمْ مِنَ الأسارى إِن يَعْلَم الله في قُلُوبِكُمْ خَيْراً يؤتكم خيرا**﴾[2] ومعنى الآية الكريمة: أن الله (جلَ وعلا) أمر نبيّه أن يقول لمن في أيدي المسلمين من أسارى بدر يقول لهم هذا الكلام.

(الأسارى) جمع أسير، و (الأسرى) جمع أسير، إلّا أنّ (الأسير) يُجمع على (أسرى) قياساً مطَّرداً، وقاعدة معروفة؛ لأن (الفَعِيل) المتّصف بما يُرثى له به يطرد جمعه تكسيراً على (فَعْلَى)[3] كمريض ومرضى، وقتيل وقتلى، وجريح وجرحى، وصريع وصرعى، وأسير وأسرى[4].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٣.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

(٤) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

أما على قراءة ﴿أُسَـٰرَىٰ﴾ فهو جمعٌ مسموع، وإتيان الجموع على (فُعالى) أو (فَعَالى) مسموع ولا يطرد منه شيء قياساً، ككسالى، وأسارى، ويتامى، وحيارى، وما جرى مجرى ذلك[١].

وقوله: ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم﴾ المراد بـ ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم﴾ من كانوا تحت أيديكم من الأسارى، وكل شيء كان في قبضة الإنسان وتحت قدرته وتصرّفه تقول العرب: هو في يده؛ لأن اليد هي التي تزاول بها الأعمال وتُؤخذ بها الأشياء عادة[٢].

والأيدي جمع (يد)، واليد من الألفاظ التي حذفت العرب لامها ولم تعوّض منها شيئاً، وأعربتها على العين، فدال اليد في محل العين، وهي مُعربةٌ على عينها وهو الدال، نُزّل منْزلة لامها، وحذفت لامها، وتنوسيت، وهي إحدى ألفاظ معروفة كذلك، كيدٍ، ودَمٍ، وغدٍ، ودِدٍ، وهنٍ، وما جرى مجرى ذلك[٣]. وأصل لامها المحذوفة ياء، أصلها (يدي) فاؤها ياء، وعينها دال، ولامها ياء. ولامها المحذوفة إنما تُرَدّ عند التصغير وجمع التكسير، ففي تصغيرها تقول: (يُدَيَّه) وفي جمعها تقول: فاقطعوا أيديهما. وأصله: (أَيْدُيهما) على وزن (أفعُل) لأن الأيدي أصل وزنه (أفعُل) (فَعَل) محذوف اللام مجموعٌ على (أفعُل) إلّا أن ضمّة العين تُجعل كسرة لمجانسة الياء، وربما نطقت العرب باليد مثبتة لامها إثبات المقصور على الألف كالفتى. سُمع هذا عنهم قليلًا، ومنه قول الراجز[٤]:

يـا رُبَّ سَـارٍ بـاتَ مـا تَـوَسَّـداً   إلا ذِرَاعَ الـعِـيْـس أو كـفَّ الـيـدا

فردّ اللام كما هي في (الفتى) وهذا نادر.

---

(١) انظر: حجة القراءات ٣١٤، الدر المصون (٥/٦٣٧).
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنفال.
(٣) مضى عند تفسير الآية (١٩٥) من سورة الأعراف.
(٤) السابق.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الأسرى جمع أسير، والأسير (فَعِيْل) بمعنى (مَفْعُول) وهو اسم المفعول من (أَسَره) العرب تقول: أسره يأسره أسراً. فالفاعل (آسر) والمفعول (مأسور) إذا شدّه بالوثاق. وأصل هذه المادة مأخوذة من الإيسار، والإيسار: القِدّ. والقِدّ: هو جلد البعير غير المدبوغ؛ لأن جلد البعير إذا لم يُدْبَغ تسمّيه العرب قِدّاً. وكانوا يشدّون الأسير بالجلد عند سلخه طريّاً، فإذا يَبس اشتدّت قوّته ولا يقدر أحدٌ على حلّه ولا قطعه ولا نزعه، ومن هنا قيل لكل مشدود شدّاً محكماً: إنه مأسور. وأصله من (الإيسار) وهو الشدّ بالإسار، أعني القِدّ وهو جلد البعير إذا كان غير مدبوغ. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ [الإنسان: الآية ٢٨] المراد بقوله ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ أحكمنا شدّ العظام بعضها إلى بعض بإحكام وإتقان شديد كما يُشدّ الشيء شدّاً قوياً بالقِدّ فييبس عليه فيمسكه إمساكاً قوياً[(١)]. وهذا صار معنىً معروفاً في كلام العرب، مشهور في كلامهم، فكل شيء شددته شدّاً محكماً تقول العرب: أسرته. ومنه سُمّي الأسير، أي: لأنه يُشد بالإسار، وهو جلد البعير غير المدبوغ. وهذا معروف في كلامهم، ومنه: أسر مراكب النساء؛ لأن أعواده تُشدّ بالقدّ حتى يتحكّم بعضه مع بعض، ومنه قول حميد بن ثور الهلامي[(٢)]:

وما دخَلَتْ في الخَذْب حتى تَنَقَّضَتْ ... تـآسـيـر أعـلـى قِـدّه وتـحـطّـمـا

وهذا معنى معروف في كلام العرب. يعني: قل يا نبيّ الله لهؤلاء الذين أخذتموهم وكانوا في قبضتكم وتحت تصرّفكم: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ العبّاس بن عبد المطّلب قال للنبي ﷺ: يا نبيّ الله: احسب لي العشرين أوقية التي أخذوها منّي، كانت من مالٍ معي. قال: «**لا، ذلك مالٌ أعطاناه الله منك فلا نحسبه**

(١) مضى عند تفسير الآية (١١) من سورة الأعراف.

(٢) البيت في ديوانه ص١٩.

لك أبداً». وضاعف عليه الفداء، وأمره بمفاداة ابني أخويه. فقال للنبي ﷺ: يا نبي الله لقد تركتني أتكفّف قريشاً إلى يوم القيامة فقيراً. فقال له النبي ﷺ: «**أين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل لما أردت الخروج**»؟ فقال له: وما ذلك المال؟ قال له: «**الذهب الذي دفنته أنت وأم الفضل، وقلت لها: ما أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث في سفري هذا فهذا المال لك وَلِبَنِي: الفضل، وعبد الله، وعبيد الله، وقثم. ودفنتم المال**». فقال: أشهد أنك رسول الله، والله ما علم بهذا أحدٌ غيري وغير أم الفضل[1]. وهي لبابة الصغرى بنت الحارث، أم أولاد العبّاس بن عبد المطلب، وهي هلالية مشهورة. لما أخذوا منهم هذا المال وكان الأسارى يأتون النبي ﷺ ويقولون: نحن مسلمون آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أنك رسول الله، ووالله لننصحنّ لك على قومنا، ولا تأخذ منّا شيئاً. فأنزل الله فيهم: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ (خيراً) هنا جاء مرتين ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ الأولى منهما ليست صيغة تفضيل، والثانية منهما صيغة تفضيل، والدليل على أنها صيغة تفضيل اقترانها بـ(من) لأن صيغة التفضيل المجردة تُقترن بـ (من) دائماً لفظاً أو تقديراً. معناه: إن يعلم الله في قلوبكم إسلاماً وإيماناً صحيحاً وتصديقاً كما تزعمون يؤتكم خيراً، أي: شيئاً أخير وأفضل مما أخذ منكم من الفداء. يعني من حطام الدنيا وعرضها، ومن نعيم الجنة، ويغفر الله لكم أيضاً.

وقوله ﴿يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ يدل على أن محل نظر الله من عبده إنما هو القلوب كما جاء بذلك الحديث؛ لأن القلب هو الذي ينظر الله إليه فيعلم فيه الخير والشر؛ ولذا قال: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ والله (جل وعلا) عالمٌ بما في الضمائر وما يخطر في القلوب ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية ١٦] وقد بيّن القرآن العظيم في مواضع

---

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١٢) من هذه السورة.

منه أنّ علم الله الإيمان والإخلاص في قلب الإنسان تكون له فوائد عظيمة، من تلك الفوائد: ما ذكره هنا في أُخريات الأنفال في قوله: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ ومنها قوله في سورة الفتح: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: الآية ١٨] فكنّى عما في قلوبهم بالاسم المبهم الذي هو الاسم الموصول. يعني أنه إيمان كما ينبغي وإخلاص كما ينبغي، ترتّب على ذلك نتائج عظيمة كثيرة كقوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ﴾ [الفتح: الآية ٢٠] وكقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح: الآية ٢١] أي: فأقدركم عليها، وكقوله جل وعلا: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٢] هذا الإيمان والتسليم الذي علمه الله في قلوبهم رتّب عليه نتائج عظيمة مفيدة منها قوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: الآية ٢٥] إلى آخر الآيات.

وهذه الآيات ينبغي لنا أن نعتبر بها فنطهّر قلوبنا، ويكون ربنا يعلم منها الخير، ولا يعلم منها الشر؛ لأن ذلك يسبب لنا نتائج عظيمة كصلاح الدنيا والآخرة؛ لأن هؤلاء الأسارى قال لهم: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ من المال ﴿مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ ويزيدكم على ذلك المغفرة. قال العباس بن عبد المطلب: كان يقرأ: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ قال: إن العشرين أوقية الذي ضاعت لي يوم بدر أبدلني الله خيراً منها، أعطاني عشرين عبداً كلهم يتاجر بمالٍ كثير، وهم لي، وأموالهم لي[١]. ولما جاء مال البحرين ـ أرسله ابن الحضرمي من البحرين ـ ذلك المال الكثير الذي ما دخل المدينة مالٌ أكثر منه في زمن النبي ﷺ، ونثره في المسجد ووزّعه، جاء العبّاس وقال: يا نبيّ الله أعطني! فاديت نفسي وعقيلاً. فقال له: «**احثُ من هذا المال**». فحثا العباس في خميصة كانت عليه، ولم يزل يحثو

(١) تقدم تخريجه في الموضع السابق.

فيها من المال حتى أراد أن يقوم فما قدر على أن يقوم، فقال للنبي ﷺ: مُر أحداً منهم يرفع معي المال!! فتبسّم ﷺ حتى بدى ضاحكه أو نابه وقال: «**لا يعينك عليه أحد**». فقال له: ارفعه أنت عليّ. فقال: «**لا، اردد طائفة من المال حتى تستطيع حمله**». فحثا عنه حتى استطاع أن يحمله، وحمله على كاهله. قال بعضهم: لم يزل ﷺ ينظر إليه حتى اختفى، لشدّة حرصه على أخذ هذا المال. وقال العباس حينئذٍ: أما الأولى منهما فقد رأيناها: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ والله لقد أعطانا خيراً مما أخذ منا، وإنا لنرجوا الثانية التي هي: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[1]. وهذا معنى قوله: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ بعلمه المحيط بكل شيء﴿فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ أي إيماناً صحيحاً وتصديقاً وإخلاصاً لله ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ أي: يعطكم خيراً، أي: مالاً في الدنيا، وثواباً في الآخرة خيراً ﴿خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أي: أفضل وأعظم مما أُخذ منكم. والعرب استغنت بـ(خير) و (شر) عن (أخير وأشر)، فهما صيغتا تفضيل، والأخيرة منهما صيغة تفضيل، وقد قال ابن مالك في كافيته[2]:

وغالباً أغْنَاهُم خيرٌ وشر عن قولهم أَخْيَرُ منه وأَشَرّ

فالأخيرة هنا تفضيل أي: يؤتكم أخير وأفضل، أي: أكثر خيراً وأعظم منه، وذلك كما وقع في مال البحرين أعطى العباس أكثر بأضعاف مما أُخذ منه يوم بدر من الفداء، وأعطاه عشرين عبداً. وقال العباس: وأعطاني الله زمزم أيضاً ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة. فعوضه الله مئات الأضعاف على ما أُخذ منه يوم بدر. وهذا معنى قوله: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أي: مما أخذه المسلمون منكم كالعشرين أوقية التي أُخذت من العباس، وما أُخذ في فدائهم من المال. وحذف الفاعل هنا للعلم به ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: يغفر لكم ذنوبكم. حذف فاعل (أُخذ) ومفعول (يغفر) والمعنى: يعطيكم خيراً مما أخذه منكم

(١) تقدم تخريجه في الموضع السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

المسلمون يوم بدر، ويغفر لكم ذنوبكم كلها، وشرككم المتقدم وكفركم بالله. وهذا معنى قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين، ولا سيما إذا علم في قلوبهم الإيمان والإخلاص له (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧١] ضمير واو الفاعل في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ راجع على الأسارى الذين في أيدي النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنهم كانوا يقولون: آمنا بك وشهدنا أنك رسول الله، ووالله لننصحن لك على قومك، ولنكونن معك. ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ بهذا الكلام، إن كان هذا الكلام أرادوا به الخيانة والمكر والخديعة فلا تهتم بشأنهم ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ ظرف مقطوع من الإضافة مبني على الضم. أي: قد خانوا الله من قبل يوم بدر بالكفر، وعبادة الأصنام، وتكذيب رسوله ﷺ فأمكن الله منهم. هذا الفعل الذي هو (أمكن) يتعدى إلى مفعول، ومفعوله محذوف، والمعنى: فأمكنكم الله منهم. وَحَذْفُ الفضْلة إذا دل المقام عليه شائع مطرد في القرآن وفي كلام العرب، والعرب تقول: «أمكنني من كذا». إذا هيأه لي وجعله في قبضتي، وهو معنى معروف في كلامها، وهو متعد إلى المفعول كما هو معروف، فالمفعول هنا محذوف، وليس الفعل لازماً كما لا شك فيه، ومما يدل على ذلك من كلام العرب قول كُثَيِّر عزَّة وهو عربي قح، ذكروا أنه ناداه عبد العزيز بن مروان، وأحضر عزَّة وجعل دونها سجفاً؛ أعني: ستراً. وقال لكُثَيِّر: تمنَّ، فما تتمن فهو حاضر. فتمنى إبلاً سوداً برعائها، أو غير ذلك من الأموال. فقال للغلام: ارفع السجف يا غلام. فرفعه عن عزة فإذا هي، فقال: لو تمنيت هذه لأعطيتكها وزوجتك إياها. فندم كُثَيِّر وقال ـ وهو محل الشاهد[1] ـ:

---

(١) البيتان في ديوانه ص٢٦٧ مغني اللبيب (١٩/١) (بشرح الأمير)، والثاني في رصف المباني ص٦٦.

حلفتُ بربِ الرَّاقصَاتِ إلى مِنَى يجوب الفيافي نصها وزميلها
لإن عَادَ لي عبد العزيز بمثلها وأمكنني منها إذا لا أُقيلها

ومحل الشاهد منه قوله: «وأمكنني منها» أي: جعلها في قبضتي وتحت تصرفي. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: أمكنك الله أنت وأصحابك منهم يا نبي الله، فلا تهتم بخيانتهم.

وقوله: ﴿خِيَانَتَكَ﴾ الياء فيه منقلبة عن الواو؛ لأن مادة (الخيانة) أصلها من أجوف واوي العين، أصلها من (خَوَن) ولذا يقال في المبالغة منها: (خوَّان). ولو كانت يائية لقيل: (خيان) ويقال في ماضيها: خان يخون. ولو كانت يائية لقيل: يخين. إلا أن القاعدة المقررة في التصريف أن الواو إذا تقدمتها كسرة وجاء بعدها ألف وجب إبدالها ياءً، كالخيانة من الخون، والحيازة من الحوز، والصيانة من الصون، والقيامة من قام يقوم[1]. قال بعض علماء العربية: على القول بجمع المصادر تُجمع الخيانة على (خيائن) اعتداداً بالياء المبدلة من الواو، والقياس أن تُجمع على (خوائن) إلا أنهم فرقوا بين جمع (خيانة) وبين جمع (خائنة) فجعلوا هذه بالياء وإن كان أصلها الواو.

﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ خيانتهم لله هي كفرهم بالله، وعبادتهم للأصنام، وتكذيبهم لنبيه ﷺ ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَلِيمٌ﴾ (الفعِيل) من صيغ المبالغة، وعلمه (جل وعلا) يستحق أن يُبالَغ فيه؛ لأن علمه محيط بكل شيء، وهو (جل وعلا) يعلم الموجودات والمعدومات والواجبات والجائزات والمستحيلات، حتى إنه من إحاطة علمه لَيَعْلَم المعدوم الذي سبق في علمه أنه لا يُوجد، فهو يعلم أَنْ لو وُجد كيف يكون، وإن سبق في علمه أنه لا يكون؛ لإحاطة علمه بكل شيء، فهو يعلم أن أبا لهب لم يؤمن، ويعلم لو آمن أيكون إيمانه تامّاً أو ناقصاً مثلاً، والآيات القرآنية الدالة على هذا المعنى

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال.

كثيرة جداً، من ذلك: أن الكفار إذا عاينوا القيامة ورُفع عنهم الغطاء، وشاهدوا الحقائق تمنوا الرد إلى الدنيا مرة أخرى ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: الآية ٢٧] وفي القراءة الأخرى[1]: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ وهذا الرد إلى الدنيا الذي تمنوه الله عالم بعلمه الأزلي أنه لا يكون، ومع علمه بأنه لا يكون فهو عالم أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٨].

والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً؛ لأن الله خَلَّفَهم عنها لحكمة وإرادة إلٰهية كما قال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: الآية ٤٦] ومع كون خروجهم لا يكون هو عالم أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ الآية [التوبة: الآية ٤٧]. ونظائر هذا كثيرة في القرآن، فعلم الله محيط بكل شيء. و (الفعيل) صيغة مبالغة.

وقوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ فالعليم والحكيم من أسمائه (جل وعلا) وكلاهما تتضمن صفة من صفاته (جل وعلا)؛ لأنه حكيم عليم. قال بعض العلماء: الحكيم لأنه حكيم في أقواله وأفعاله وتشريعاته، فلا يقول إلا ما هو في غاية الإحكام، ولا يفعل إلا ما هو في غاية الإحكام ولا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا يجازي بالشر إلا الشر، ولا بالخير إلا الخير. وكان بعض العلماء يقول: الحكمة هي العلم النافذ الذي يعصم الأقوال والأفعال أن يعتريها الخلل.

وهي في الاصطلاح: إيقاع الأمور في مواقعها ووضعها في

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠١) من سورة الأنعام.

مواضعها[١]، ولا تتم الحكمة إلا بالعلم، فلا تتم الحكمة إلا بتمام العلم، وفي قدر ما يكون في العلم من النقص يكون في الحكمة؛ لأنك ترى الحاذق القُلّب البصير يعمل الأمر يظن أنه في غاية الإحكام، وغاية الإتقان، وأنه وضعه في موضعه، وأوقعه في موقعه، ثم ينكشف الغيب بعد ذلك أن فيه هلاكه أو ضرراً عظيماً عليه فيندم ويقول: ليتني لم أفعل، ولو فعلت لكان كذا، كما قال[٢]:

لـيـتَ شِـعْـرِي وأيْـنَ مـنِّـي لـيـتُ إنَّ (لـواً) وإنَّ (لـيـتـاً) عـنـاءُ

وفي الحديث: **إن (لو) تفتح الباب للشيطان**[٣]. قال الشاعر[٤]:

أُلامُ عـلـى (لـوٍ) ولـو كـنـتُ عـالـمـاً بـأذنـابِ (لـوٍ) لـم تَـفُـتْـنـي أوائـلُـه

والله وحده (جل وعلا) لا يجري عليه لو فعلت كذا لكان أصوب؛ لأنه عالم بخفايا الأمور، وما تنكشف عنه الغيوب، وما تجري به الأقدار، فلا يجري عليه شيء من ذلك، فلا يفعل فعلًا إلا وهو في غاية الإحكام، ولا عملًا ولا تكليفاً ولا جزاءً إلا هو في غاية الحكمة، والوضع في الموضع، والإيقاع في الموقع؛ ولذا قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وهذان الوصفان من أسمائه (جل وعلا) من أعظم ما يستدعي الإنسان إلى أن يطيع ربه ولا يعصيه، وأن يذكره ولا ينساه، فلأن كونه عليماً تعرف به أن علمه المحيط بكل شيء يقتضي أنه لا يدعوك إلا لما لك فيه الخير والعواقب الحسنة الجميلة؛ لأنه يعلم عواقب الأمور، وما تؤول إليه، وما تنكشف عنه الغيوب، وما تجري به الأقدار، فلا يأمرك إلا بما هو خير مؤكد بلا شك وبكل يقين، وكونه حكيماً يدل على أنه لا ينهاك إلا عن شر، ولا يأمرك إلا بخير، فإن كان مبالغاً في الحكمة والعلم كان ذلك مدعاة لأن يتبع في كل ما يأمر به وكل ما ينهى عنه؛ لأن علمه يعلم به أنه ما يدعو إليه خير،

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.
(٢) السابق.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من هذه السورة.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

وما ينهى عنه شر، وحكمته يفهم منها أنه لا يضع الأمر إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[1] أنك لا تكاد تنظر ورقة واحدة [من المصحف الكريم إلا وجدت فيها إشارة إلى هذا الواعظ الأعظم، والزاجر الأكبر مما يبعث العبد على الإحسان والمراقبة في جميع أحواله
٩/ب وأعماله، وقد بين الله (جل وعلا) أن الغاية والحكمة التي][2]/ خلق الله من أجلها الخلق هي أن يبتليهم، أي: يختبرهم أيهم أحسن عملًا، كما قال في أول سورة هود: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧] وقال تعالى في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: الآية ٧] وقال في أول سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: الآية ٢] ولم يقل: أكثر عملاً، فإذا عرف العبد أنه خُلق لأجل أن يُختبر في إحسان العمل كان حريصاً على الحالة التي ينجح بها في هذا الاختبار؛ لأن اختبار رب العالمين يوم القيامة من لم ينجح فيه جُرَّ إلى النار، فعدم النجاح فيه مهلكة، وقد أراد جبريل (عليه السلام) أن ينبه أصحاب رسول الله ﷺ على عظم هذه المسألة وشدة تأكدها[3] فقال للنبي ﷺ في حديثه المشهور: يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أخبرني عن الإحسان؟ أي: وهو الذي خلق الخلق من أجل الاختبار فيه، فبين له النبي ﷺ أن طريقه الوحيدة هي هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم، الذي هو طريق المراقبة والعلم فقال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[4].

---

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.
(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

وقد قدمنا ضرب العلماء مراراً[١] مثلًا لهذا بأن الحاضرين أمام ملك لا يُنتهك حماه، شديد العقاب لمن انتهك حرماته، لا يقدر أحد منهم أن يفعل شيئا يكرهه وهو ناظر إليه!! ورب السموات والأرض مطلع على ما يسره خلقه، ومع هذا فإنهم لا حياء عندهم ولا ماء في وجوههم، لا يستحون ممن خلقهم (جل وعلا) وهو معهم أين ما كانوا، مراقب على خطرات قلوبهم وجميع أعمالهم. فعلى العاقل أن ينتبه لهذه الآيات، ويعلم أن ربه حكيم عليم، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية ١٦] فيعلم أن ربه ناظر إليه مطلع عليه، فلا يفعل أمام ربه إلا ما يرضي ربه (جل وعلا)، أما أن يبارز ربه بالمعاصي بوجه لا حياء فيه ولا ماء فهذا مما لا ينبغي؛ ولذا يقول (جل وعلا) بعد كل أمر ونهي: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي بمعناها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال: الآية ٧٢].

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير حمزة وحده: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾ بفتح الواو، وقرأه من السبعة حمزة وحده: **﴿ما لكم من وِلايتِهم من شيء﴾** بكسر الواو[٢]. والتحقيق أن الوَلاية والوِلاية معنيان صحيحان، ولغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان، فما يذكر عن الأصمعي من أنه يقول: «إن قراءة حمزة خطأ». هو الذي أخطأ فيه[٣]، أما قراءة حمزة فهي قراءة صحيحة، ولغة معروفة فصيحة، فالوَلاية والوِلاية كالدَلالة والدِلالة، فهما لغتان عربيتان وقراءتان سبعيتان فصيحتان.

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٤.

(٣) انظر: الدر المصون (٥/٦٤٠).

وكان المسلمون في أول الإسلام يتوارثون بالهجرة والمؤاخاة دون القرابات؛ لأن النبي ﷺ لما نزل المهاجرون بالأنصار والمهاجرون فقراء آخى بين المهاجرين والأنصار، فصاروا يتوارثون بتلك الأخوة دون القرابات، فإذا مات واحد منهم ورثه أخوه الذي آخى النبي ﷺ بينه وبينه دون قرابته، وكان الذين لم يهاجروا لا إرث لهم في إخوانهم الذين هاجروا؛ لأنها كانت بالهجرة والمؤاخاة، ونسخ الله ـ تعالى ـ ذلك بقوله: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥] كما سيأتي إيضاحه.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذه أولاً في المهاجرين، الله (جل وعلا) كأنه قسم المؤمنين طوائف، طائفة هم المهاجرون ذكرهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟﴾ آمنوا بالله ورسوله وهاجروا أوطانهم وديارهم وأموالهم في سبيل الله (جل وعلا) وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم؛ لأنهم جعلوا أموالهم في مؤن الجهاد من شراء السلاح، والمراكب للقتال، ومؤن القتال، وجاهدوا بأنفسهم حيث عرَّضوها للموت وللخطر في الجهاد، كل هذا في سبيل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟﴾ الهجرة كانت هجرة متعددة متنوعة أولها الهجرة إلى الحبشة ـ وقد هاجروا إلى الحبشة مرتين ـ ثم الهجرة إلى المدينة، وكانت الهجرة إلى المدينة واجبة، وكان الذي أسلم ولم يهاجر كالذي يسلم ويبقى في البوادي من الأعراب لا يرث من أخيه المسلم المهاجر شيئاً، وكان الذين أسلموا ولم يهاجروا لا نصيب لهم في الغنائم، ولا في الخُمُس، ولا في شيء مما عند المسلمين، وليس لهم على المسلمين من النصر إلا إن استنصروهم على عدو في الدين خاصة كما سيأتي إيضاحه.

الطائفة الثانية: هم الأنصار، أهل المدينة، الذين كانوا قبلهم.

الطائفة الثالثة: هم الذين هاجروا بعد ذلك، فهم مهاجرون وأنصار وطائفة جاؤوا بعد ذلك كما سيأتي تفاصيله وإيضاحه؛ ولذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بالله ورسوله وبكل ما يجب به الإيمان ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾ هاجروا أوطانهم وأموالهم وديارهم. والمهاجرة: هجر الشيء أصله المباعدة منه.

وقد هاجروا أولاً إلى الحبشة، وثانياً إلى المدينة. ثم إن هذه الهجرة التي كان بها التوارث ولا يقبل من أحد إلا أن يفعلها نُسخت بفتح مكة، وقال فيه النبي ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة**»[1].

والتحقيق أن الهجرة لا تنقطع أبداً، إلا أن الهجرة المخصوصة التي كانت إلى النبي ﷺ وأصحابه بالمدينة هي التي انقطعت بفتح مكة لانتشار الإسلام في جزيرة العرب، أما الهجرة التي لا تنقطع فهي أن كل إنسان تُعُرِّض له في دينه، وصار لا يقدر على إقامة شعائر دينه في محل فواجب عليه بإجماع العلماء أن ينتقل من هذا المحل، ويبذل في ذلك كل مجهود حتى يصل إلى محل يتمكن فيه من إقامة شعائر دينه، وهذه الهجرة التي لا تنقطع. والمهاجر الحقيقي هو من هجر ما نهى الله عنه ورسوله كما هو معلوم. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] مفعول (آووا) ومفعول (نصروا) كلاهما محذوف لدلالة المقام عليه. والمعنى: آووا الذين هاجروا إليهم وهم النبي ﷺ وأصحابه ونصروهم. وهؤلاء الذين آووا ونصروا هم الأنصار أبناء قَيْلَة، الذين كانوا من سكان المدينة، الذين هاجر إليهم النبي ﷺ وأصحابه.

وقوله: ﴿ءَاوَواْ﴾ العرب تقول: آواه يؤويه إيواءً إذا جعل له مأوى ينضم إليه. أي: جعل له مسكناً ومنزلاً يسكن إليه؛ لأنهم أسكنوهم في ديارهم، وشاطروهم أموالهم، وهيؤوا لهم كل أسباب الراحة، وذلك معنى إيوائهم لهم. ونصروهم، النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم. أي: أعانوهم على أعدائهم حتى تمكن الإسلام وانتشر وفُتحت مكة، وفُتحت جميع جزيرة العرب، وانتشر بعد ذلك الإسلام في أقطار الدنيا. ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام. حديث رقم: (١٨٦٤) (١٤٨٨/٣) من حديث عائشة (رضي الله عنها) مرفوعاً. وقد أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ. حديث رقم: (٣٨٩٩) (٢٢٦/٧) موقوفاً على ابن عمر. وأطرافه (٤٣٠٩، ٤٣١٠، ٤٣١١).

ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ والمعنى: إن المهاجرين والأنصار بعضهم أولياء بعض. فعبَّر عن المهاجرين بلفظ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وعبَّر عن الأنصار بـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ لأنهم آووا النبي ﷺ وأصحابه ونصروهم على أعدائهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أصل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، والمبتدأ وخبره خبر المبتدأ الأول، فلما دخلت (إن) صار المبتدأ الأول اسمها، والمبتدأ الأخير وخبره خبر (إن) كما هو معروف لا يخفى. هذا معنى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾. معناه: أن المهاجرين أولياء الأنصار، والأنصار أولياء المهاجرين، فبعض المهاجرين أولياء المهاجرين والأنصار، وبعض الأنصار أولياء المهاجرين والأنصار، فهم أولياء بعضهم على بعض. وكانت هذه الولاية يتوارثون بها دون غيرهم، وهذه الولاية ولاية نصر ومعاونة ومساعدة وميراث تعم ذلك كله. وهذا معنى قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ الأولياء جمع ولي، والولي: كل من ينعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويواليك تسميه العرب ولياً[1]؛ ولذا كان الله ولي المؤمنين ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لأنهم يوالونه بالطاعة ويواليهم بالجزاء والمغفرة، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض. وهذا معنى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

والأولياء جمع الولي، وقد تقرر في فن التصريف أن (الفعيل) بمعنى اسم الفاعل يطرد جمعه على (فُعَلَاء) إلا إذا كان معتل اللام أو مُضَعَّفاً فينقاس جمع تكسيره على (أَفْعِلَاء)[2] فمثاله في المعتل: ولي وأولياء، وتقي وأتقياء، وسخي وأسخياء، وشقي وأشقياء، ونبي وأنبياء. ومثاله في المُضَعَّف: شديد وأشداء، وحبيب وأحباء. وما جرى مجرى ذلك.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ التنوين في قوله ﴿بَعْضٍ﴾ تنوين عوض، عوض من الإضافة. أي: بعضهم أولياء بعضهم. فحذف المضاف إليه وعوض منه التنوين، ومعلوم أن من أقسام التنوين ما يسمَّى «تنوين العوض» سواء كان

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

عوضاً عن حرف، أو عن كلمة، أو عن جملة كما هو معروف في محله. هذا معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا على أقسام: منهم الذين يرجعون إلى قبائلهم في البادية من الأعراب، ومنهم من يكون في أهل مكة، وهؤلاء الذين في أهل مكة منهم من يؤمن ولم ينزل بين أظهر الكفار اختياراً كالذي وقع ممن ذكرنا في سورة الأنفال، وهم العاص بن نُبيه، والحارث بن زمعة بن الأسود، وعلي بن أمية، وأضرابهم الذين نزل فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِۚ قَالُوٓا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾. ثم إن الله استثنى منهم المستضعفين الذين لا حيلة لهم فعذرهم فقال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: الآيات ٩٧ ـ ٩٩]. كان ابن عباس يقول: أنا من المستضعفين من الولدان، وأمي من المستضعفات من النساء(١). قبل هجرتهم، أما الذين أسلموا ورجعوا إلى ديارهم في البادية كأبي ذر وأمثاله ممن أسلموا، ثم رجعوا ولم يهاجروا، بل بقوا في البادية فهؤلاء لا يرثون إخوانهم المهاجرين، بل يرثهم قبلهم إخوانهم من الأنصار والمهاجرين، وليس لهم في غنيمة المسلمين ولا في خُمس الغنائم شيء، إلا أنهم يحكم لهم بحكم الإيمان، وإذا استنصروا المسلمين استنصار دين خاصة فعليهم أن ينصروهم، إلا إذا استنصروهم على من بينهم وبينهم مهادنة وعهود كما يأتي تحريره قريباً إن شاء الله. وهذا معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

قال بعض العلماء: الولاية المنفية هنا هي ولاية الميراث خاصة، وهو مروي عن ابن عباس(٢) وجماعة من الصحابة فمن بعدهم.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ (٤٥٨٧، ٤٥٨٨)، (٨/٢٥٥).

(٢) ابن جرير (١٤/٧٨) من طريق علي بن أبي طلحة.

وقال بعض العلماء: هي جميع الأنواع: الموالاة من الميراث والمعاونة.

والتحقيق: أنها عامة إلا ما استثني منها وهو النصر الديني خاصة؛ لأن الله استثناه بقوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ هذا الذي بقي من ولايتهم مع عدم هجرتهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ وقد بيَّن عذر المستضعفين وعدم عذر الذين كانوا على قدرة وبقوا بين أظهر الكفار المحاربين للنبي ﷺ حتى يهاجروا.

ثم قال: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾. الاستنصار طلب النصر، وقد تقرر في علم العربية: أن من معاني السين والتاء: الطلب. استغفر: طلب المغفرة، واستطعم: طلب الطعام، واستسقى: طلب السقيا، واستنصر: طلب النصر، ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ أي: طلبوا نصركم في الدين.

قوله: ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ يدل على أنهم لو استنصروهم نصر قومية وعصبية أنهم ليس عليهم أن ينصروهم، وأن المناصرة إنما هي في الدين، فلا مناصرة في العصبيات، ولا في القوميات، ولا في الأراضي الفاسدة، وإنما المناصرة في الله، وفي دين الله (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ والمراد بالدين: دين الإسلام كما قال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: الآية ١٩] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: الآية ٨٥]. وقد بيَّن النبي ﷺ في حديث جبريل أن الدين شامل للإيمان والإحسان والإسلام حيث سأله عن الإيمان وفسره له، والإسلام وبيّنه له، والإحسان كذلك. ثم قال: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»[(١)]. فعلم من قوله: «**يعلمكم دينكم**» أن اسم الدين شامل لكل من الإحسان والإسلام والإيمان كما لا يخفى. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ أي: فواجب عليكم نصرهم. أي: إعانتهم الإعانة الدينية لا الإعانة

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

العصبية القومية فذلك لا يكون؛ لأن الإعانات والانتصارات إنما هي في سبيل الله، وعلى كتاب الله، لا في سبيل الشيطان، ولا على سبيل العصبيات وقضايا الجاهلية الأولى كما لا يخفى. وهذا معنى قوله: ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ الجار والمجرور في قوله: ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ يتعلق بمحذوف، إلا إن استنصروكم على قوم فلا تنصروهم على قوم بينكم وبينهم ميثاق.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[1] أن لفظ القوم يختص في الوضع العربي بالذكور دون الإناث، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: الآية ١١] فعطفه النساء على القوم في آية الحجرات هذه يدل على أن القوم لا يتناول النساء وضعاً، ومثل الآية الكريمة قول زهير وهو عربي جاهلي قح[2]:

وما أدْرِي وسَوفَ إخَالُ أدْرِي ... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

فعطف النساء على القوم فدل على عدم دخولهن فيهم، وقد دل القرآن العظيم على أن المرأة قد تدخل في اسم القوم بحكم التبع إذا اقترن المقام بما يدل على ذلك، كقوله في ملكة سبأ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: الآية ٤٣] وما جرى مجرى ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

المراد بالميثاق: المهادنة والمعاهدة، وأصل الميثاق في لغة العرب: العهد المؤكد[3]، فكل عهد كان مؤكداً تسميه العرب ميثاقاً. وعلى هذا فكل ميثاق عهد، وليس كل عهد ميثاقاً. وياء الميثاق مبدلة من واو، ووزنه بالميزان الصرفي (مِفْعَال) وفاؤه واو، وأصله: (موثاق)[4] كميعاد من الوعد، وميزان من الوزن، وميثاق من الوثوق؛ ولذا يُصَغَّر على (مُوَيْثيق) لأن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٦٩) من سورة الأعراف.

(٤) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٢٧٣.

التصغير يرد العين إلى أصلها. ويُجمع جمع التكسير على (مواثيق) على القياس. وما سمع عن العرب من تكسيره على (مَيَاثِق) كقول عياض بن درة الطائي[1]:

حِمىً لا يُحَلّ الدهر إلا بإذننا ولا نسألُ الأقوامَ عقدَ المَيَاثِقِ

فهو سماع يحفظ ولا يقاس عليه؛ لأنه اعتد بالعارض هنا على غير القياس. وهذا معنى قوله: ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعني: لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهذا هو الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم الذي كنا نتحدث عنه الآن ونخبر بكثرته في القرآن العظيم لشدة عظم موعظته وزجره لمن كان له قلب. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٧٣ ـ ٧٥].

يقول الله (جل وعلا): ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾. هذه الآية الكريمة من الآيات العظام التي يعتبر بها؛ لأن ما ذكره الله (جل وعلا) فيها وما حذّر منه من الفتنة والفساد الكبير إن لم يوال المسلمون بعضهم بعضاً، ويقطعوا موالاة الكفار، ويتركوا الكفار بعضهم يوالي بعضاً، ما حذر به من أنهم إن لم يحافظوا على صدق الموالاة بينهم ومقاطعة أعدائهم تقع في الأرض الفتنة والفساد الكبير، فهو واقع منتشر الآن، يدل على عظم هذا القرآن العظيم

(١) البيت في الخصائص (١٥٧/٣)، اللسان (مادة: وثق) (٨٧٦/٣).

وأنه كلام رب العالمين، وأن تحذيره حق، وترغيبه حق، والله في هذه الآيات من أخريات سورة الأنفال بيّن أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قال في المهاجرين والأنصار: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ وهم في ذلك الوقت سادات المسلمين جميعاً في أقطار الدنيا؛ لأنهم هم الأغلبية والكثرة التي فيها رسول الله ﷺ.

ثم أتبع ذلك بأن الكفار بعضهم أولياء بعض، ويُؤخذ من هذا ـ من قطع الولاية أولًا بين الكفار والمؤمنين ـ أنه لا يرث كافر مسلماً ولا مسلم كافراً؛ لأن الميراث لا بد له من ولاية بين الوارث والموروث، وقد قطع الله الولاية بينهما، وما دل عليه ظاهر هذه الآية الكريمة جاء مصرحاً به في الحديث الصحيح عنه (صلوات الله وسلامه عليه) حيث يقول: «**لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر**»[١] وهذا لا نزاع فيه بين المسلمين، دل عليه عموم هذه الآيات الكريمة، وصرح به النبي ﷺ. ومن هذه الموالاة قال بعض العلماء[٢]: منها ولاية النكاح، فالمرأة المؤمنة لا يلي عقدها أبوها الكافر؛ لأن الله قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين، والله يقول: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٤١] وقد قدمنا أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب[٣].

وكذلك قال العلماء: لو كانت كافرة ذمية وأراد مسلم تزويجها ولها ولي ابن عم أو أب من المسلمين فإنه لا يتولى عقد نكاحها ولو للمسلم، لانقطاع الولاية بين الكفار والمسلمين، وإنما يزوجها أقرباؤها من أهل دينها أو أساقفتهم. وشذ في هذه المسألة أصبغ ـ أحد أصحاب مالك بن أنس رحمه الله ـ فقال: إن الكافرة إذا كان لها ولي مسلم يزوجها من مسلم،

---

(١) اخرجه البخاري في الفرائض، باب: لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم. حديث (٦٧٦٤) (١٢/٥٠) ومسلم في الفرائض، في فاتحته، حديث رقم: (١٦١٤) (٣/١٢٣٣).

(٢) انظر: القرطبي (٨/٥٧)

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

قال: فعقد المسلم لها خير للمسلم من عقد الكافر[١]. وهذا القول ليس بصواب؛ لأنه لا ولاية بين مسلم وكافر ألبتة، والكفار بينهم ولاية الكفر، ولاية الشيطان والكفر، كما قال الله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

وهذه الآية تدل على أن الكفار بعضهم ولي بعض، وظاهرها أن الكافر يرث الكافر ولو اختلفت مللهما من الكفر، وبهذا الظاهر تمسك من قال يرث النصراني اليهودي واليهودي النصراني، كما يتوارث غيرهم من أهل الملل. والصواب أنه لا يتوارث أهل ملتين للحديث الوارد في ذلك عن النبي ﷺ «**لا يتوارث أهل ملتين**»[٢] وهو الأصوب، وهو أخص؛ لأنه يبين المراد بعموم هذه الآية الكريمة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مبتدأ، و ﴿بَعْضُهُمْ﴾ مبتدأ آخر، و ﴿أَوْلِيَاءُ﴾ خبر الثاني، والثاني وخبره خبر الأول كما هو واضح. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٣] أن مادة الكاف والفاء والراء (كَفَرَ) أن معناها في لغة العرب التي نزل بها القرآن: الستر والتغطية، فكل شيء غطيته وسترته فقد

---

(١) انظر: القرطبي (٨/٥٧).

(٢) روى هذا الحديث غير واحد من الصحابة (رضي الله عنهم)، ومنهم:

١ - جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما)، عند الترمذي في الفرائض، باب: لا يتوارث أهل ملتين. حديث رقم: (٢١٠٨) (٤/٤٢٤). وهو في صحيح الترمذي (١٧١٢)، الإرواء (٦/١٢١، ١٥٥).

٢ - عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما)، عند أحمد (٢/١٧٨، ١٩٥)، وأبي داود في الفرائض، باب: هل يرث المسلم الكافر. حديث رقم: (٢٨٩٤) (٨/١٢٢)، وابن ماجه في الفرائض، باب: ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك. حديث رقم: (٢٧٢٩) (٢/٩١٢)، والدارقطني (٤/٧٢، ٧٥)، وابن الجارود (٣/٢٣٢). وانظر: صحيح أبي داود (٢٥٢٧) وصحيح ابن ماجه (٢٢٠٧)، الإرواء (٦/١٢٠).

٣ - أسامة بن زيد (رضي الله عنهما). عند الحاكم (٢/٢٤٠). وانظر: الإرواء (٦/١٢٠).

٤ - عن الشعبي مرسلاً. عند الدارمي (٢/٢٦٧).

وساق الدارمي في هذا المعنى جملة من الآثار عن بعض الصحابة (رضي الله تعالى عنهم).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

كفرته، وهذا معنى معروف في كلام العرب مشهور مبتذل في كلامهم جداً، ومنه سمت العرب الليل كافراً؛ لأنه يكفر الأجرام ويغطيها عن العيون بظلامه، ومنه قول لبيد بن ربيعة (رضي الله عنه) في معلقته[١]:

حتى إذا أَلقتْ يَداً في كَافرٍ وأَجنَّ عورَاتِ الثغُورِ ظَلاَمُهَا

ومن هذا المعنى قول لبيد أيضاً في معلقته هذه[٢]:

يعلُو طريقة متنُها متواترٌ في ليلةٍ كَفَرَ النجومَ غَمَامُهَا

يعني: ستر النجوم وغطاها غمامها. هذا أصل المادة، وتكفير السيئات من هذه المادة؛ لأن الله يغطيها ويسترها بحلمه حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها، وإنما قيل للكافر (كافر) لأنه يغطي أدلة التوحيد بجحوده مع وضوحها، ويغطي نعمة الله ويسترها كأنه ليس عليه إنعام من الله حيث يأكل رزقه ويتقلب في نعيمه ويعبد غيره.

وقوله (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ هي (إن) الشرطية أُدغمت في (لا) النافية. والمقرر في علم العربية: أن (إن) الشرطية التي تجزم فعلين إن جاءت بعدها (لا) النافية لا تمنع عملها من الجزم، فهي (إن) الشرطية، وفعل الشرط هو قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ مجزوم بحذف النون، وجزاء الشرط هو قوله: ﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾ والتحقيق: أن (تكن) أنه هنا تام، وأن (فتنة) فاعله، وليس من الأفعال الناقصة الناسخة كما هو الصواب، والضمير في قوله: ﴿تَفْعَلُوهُ﴾ أما الضمير المرفوع الذي هو الواو فهو عائد إلى النبي ﷺ وأصحابه، وهو يتناول جميع المسلمين إلى يوم القيامة. وأما الضمير المنصوب فهو ضمير الواحد الغائب ـ أعني الهاء في قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ ـ فلعلماء التفسير في مرجع هذا الضمير أقوال معروفة[٣] سنذكر طرفاً منها ونبيّن الصواب فيها ـ إن شاء الله ـ: قال بعض العلماء: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ راجع إلى الميراث المفهوم من قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ لأنه يدخل فيها

---

(١)(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٣) انظر: الدر المصون (٦٤١/٥).

ولاية الميراث، إلا تتركوا الكافر يرث الكافر، والمسلم يرث المسلم دون الكافر تكن فتنة. وهذا مروي عن ابن عباس[١] وغيره، ومعه أقوال شبهه.

والتحقيق الذي لا شك فيه - إن شاء الله - أن الضمير - الهاء - في قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ عائد إلى ما ذكره الله (جل وعلا) من ولاية المسلمين بعضهم بعضاً ومقاطعتهم للكفار، وولاية الكفار بعضهم بعضاً، وقد جرت العادة في كلام العرب الذي نزل به القرآن، وفي القرآن العظيم، أنه يرجع الضمير أو ترجع الإشارة إلى أشياء متعددة ويرجع الضمير إليها بصيغة الإفراد[٢]، كأنه يعني بالضمير أي: ما ذكر من الأشياء المتعددة من اثنين فصاعداً، وهذا موجود في الضمائر، وفي كلام العرب، ولما أنشد رؤبة بن العجاج في رجزه[٣]:

فيها خُطوطٌ من سَوادٍ وَبَلَقْ كأنَّه في الجِلْدِ تَوْلِيْعُ البَهَقْ

قال له رجل: لِمَ قلت: «كأنه» إذا كنت تعني الخطوط فالصواب أن تقول: «كأنها» وإذا كنت تعني السواد والبلق فهلا قلت: «كأنهما» فأي وجه لقولك: «كأنه»؟ قال: كأنه أي: ما ذُكر. ومن أصرح الأدلة القرآنية في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ﴾ (به) أي: بجميع ما ذُكر من سمعكم وأبصاركم وقلوبكم كما لا نزاع فيه. وهذا معنى معروف في كلام العرب، وقد قدمنا بعض شواهده في سورة البقرة في الكلام على قوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[٤] أي: بين ذلك المذكور من الفارض والبكر. ومن نظيره في الإشارة قول ابن الزبعرى السهمي[٥]:

إن للخيرِ وللشرِ مَدَى وكِلاَ ذلك وجْهٌ وقَبَل

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/٨٦) من طريق علي بن أبي طلحة.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.
(٣) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.
(٤) راجع الموضع السابق، وكذا ما ذكره عند تفسيره للآية (٦٩) من سورة البقرة.
(٥) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

أي: كلا ذلك المذكور.

والمعنى: إلا تفعلوا ذلك الذي ذكرنا من موالاة بعضكم لبعض موالاة صدق، ومقاطعتكم للكفار مقاطعة كاملة، وترك الكفار يوالي بعضهم بعضاً إلا تفعلوا هذا ﴿تَكُن﴾ أي: تقع ﴿فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ وهذا المشاهد الآن، فإن من يسمون بالمسلمين تولوا الكفار وقاطعوا المسلمين، وصار هذا الكافر وهذا المسلم يزعمان أنهما أَخَوَان، وأنهما تجمعهما العصبية الفلانية، أو القومية الفلانية، وأن هذه الدولة الكافرة صديقة، وأن هذين الشعبين شقيقان وما جرى مجرى ذلك.

فلم يفعلوا ما أمر الله بأن يفعلوه فكانت فتنة في الأرض وفساد كبير. ومن عِظَم هذه الفتنة اختلاط الحابل بالنابل؛ لأن المسلمين إذا صادقوا الكفار أعانوهم على أذية المسلمين وقتلهم وكل ما يريدونه بهم، وأطلعوهم على عوراتهم، إلى غير ذلك، فانتشر في الدنيا الفساد العريض العظيم، وانتشرت الفتنة، وهذا مشاهد يجب على المؤمنين أن يعتبروا بهذا فيقطعوا ولايتهم من جميع الكفار، ويصدقوا ولاية بعضهم لبعض لئلا تتمادى بهم هذه الفتنة والفساد الكبير.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[1] أن الفتنة جاءت في القرآن لمعاني معروفة، أشهر معاني الفتنة: أن أصل الفتنة هي وضع الذهب في النار ليُمتحن بسبكه في النار: أخالص هو أم زائف؟ تقول العرب: فتنت هذا الذهب. أي: جعلته في النار وأذبته فيها؛ لأنه إذا ذاب تبيّن أخالص هو أم زائف؟ ولذا صار يأتي في القرآن وفي كلام العرب إطلاق اسم الفتنة على مطلق الوضع في النار، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: الآية ١٣] أي: يوضعون فيها ويحرقون. ومنه على أحد التفسيرين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: الآية ١٠] يعني: أحرقوهم بنار الأخدود. هذا معنى من معاني الفتنة.

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

ومعناها الثاني: أن الفتنة تطلق على الاختبار، وهذا أشهر معانيها، وهو في الحقيقة راجع إلى الأول؛ لأن وضع الذهب في النار ليختبر بالنار أخالص هو أم زائف؟ وإطلاق الفتنة على الاختبار إطلاق مشهور مستفيض في القرآن العظيم وفي كلام العرب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: الآيتان ١٦، ١٧] ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: الآية ٣٥] أي: اختباراً وامتحاناً. إلى غير ذلك من الآيات.

وإطلاق الفتنة الثالث: تطلق الفتنة على نتيجة الاختبار بشرط كونها سيئة خاصة؛ لأن المختبر إذا كانت نتيجة اختباره سيئة كان ضالًا؛ ولذا تطلق الفتنة على الكفر والضلال، يقولون: فَتَنَه عن دينه. أي: أضله. وهذا مفتون. أي: ضال في دينه. ومنه بهذا المعنى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: الآية ٣٩] أي: لا يبقى في الدنيا شرك على أصح التفسيرين؛ لأن قوله ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ غاية غَيَّا فيها القتال لئلا يكون في الدنيا شرك. وهذا بيّنه النبي ﷺ بياناً صريحاً صحيحاً في قوله: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وإني رسول الله**»[1].

قال بعض العلماء: جاء للفتنة إطلاق رابع في سورة الأنعام، وهو أنها أُطلقت على الحجة. قال: ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ وفي القراءة الأخرى[2]: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٢٣] فهذه الفتنة هي في الحقيقة المعنى الثاني من هذه المعاني التي ذكرنا، وهي نتيجة الاختبار إذا كانت سيئة؛ لأنه إذا اتصل الكافر بالمسلم، والمسلم بالكافر صار الكافر صديق المسلم، وصار المسلم صديق الكافر، فكل هذا ضلال مخالف لما جاء من الله، تتسبب عنه المحن والبلايا كما هو معروف.

وقوله: ﴿وَفَسَادٌ﴾ الفساد في لغة العرب هو ضد الإصلاح، فكل أمر ليس على وجهه الصحيح الذي هو إصلاح تسمية العرب فاسداً. ووصف

---

(١) السابق.

(٢) مضت عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

هذا الفساد بالكبير لأنه ضياع دين، وضعف إسلام، وقوة كفار، وإطلاعهم على عورات المسلمين بواسطة من يصادقهم ويواليهم من المسلمين، إلى غير ذلك من البلايا. وقد بيّن الله (جل وعلا) قبل هذا آيات تبيّن هذه الآية، فبيّن أن موالاة الكافر للمسلم لا يرخص منها في شيء إلا بقدر ما يدفع الضرورة عند الخوف، ويكون ذلك باللسان لتفادي الخوف فقط، كما تقدم في قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: الآية ٢٨] أي: تخافوا منهم خوفاً كما قاله بعض العلماء. وقد قدمنا أنه (جل وعلا) بيّن أن الذي يتولى الكفار اختياراً رغبة فيهم وفي دينهم أنه منهم، كما تقدم في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة: الآية ٥١] فهذه الآيات الكريمة في القرآن العظيم وبالأخص هذه الآية من أخريات سورة الأنفال تبين للمسلم أنه تجب عليه مقاطعة الكافر والمباعدة، منه واعتقاد أنه حرب عليه، وقد جاءت أحاديث كثيرة تؤيد هذا المعنى، ففي بعض الأحاديث في رجل أخذ النبيُ ﷺ عند إيمانه قال: «**وأن لا ترى نار مشركٍ إلا وأنت حرب عليه**»[1] وفي الحديث الآخر: «**لا تتراءى نار مسلم وكافر**»[2] فالعداوة يلزم أن تكون بين المسلمين والكفار/ [كما قال ١٠/أ
تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾][3] ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: الآية ٤] هذا الذي ينبغي أن يسير عليه المسلمون ويتجنبوا هذه الفتن والفساد الكبير والبلايا التي طبّقت

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١١/٣٣٠ ـ ٣٣١)، وابن جرير (١٤/٨٢ ـ ٨٣) عن الزهري مرسلاً.

(٢) لفظ الحديث: «**أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين**». قالوا: يا رسول الله لم؟! قال: «**لا تراءى ناراهما**». أخرجه أبو داود في الجهاد، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود. حديث رقم: (٢٦٢٨) (٣٠٣/٧)، والترمذي في السير، باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين. حديث رقم: (١٦٠٤، ١٦٠٥) (١٥٥/٤)، والنسائي في القسامة، باب القود بغير حديدة، حديث رقم: (٤٧٨٠) (٣٦/٨). وانظر: الإرواء (٢٩/٥ ـ ٣٣)، السلسلة الصحيحة (٢٣٠/٢).

(٣) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

الدنيا بسبب موالاة المسلم للكافر ومجافاة المسلم للمسلم؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٣] والله ما فعلوه اليوم، والله إن في الدنيا اليوم لفتنة وفساداً كبيراً منتشراً.

وقد تكون الفتنة والفساد الكبير بأسباب أُخر غير هذا، وقد تقرر في فن الأصول أن جزاء الشرط يجوز أن يكون أعم من شرطه، لا مانع من ذلك، فلا يلزم أنه لا تكون فتنة وفساد كبير إلا من هذا، فقد تكون فتنة وفساد كبير لأسباب أُخر، فإنك لو قلت مثلًا: إن بلت انتقض وضوؤك. لا يلزم من هذا أنه لا ينتقض وضوؤك إلا من البول، فقد تكون نواقض أُخر غير هذا؛ ولذا قد يوجد الفتنة والفساد الكبير لأسباب أُخر غير هذا المذكور؛ ولذا جاء في السنن وغيرهم من حديث أبي حاتم المزني (رضي الله عنه) وحديث أبي هريرة أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخُلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**» في بعض روايات الحديث: «**وفساد عريض**» وفي بعضها: «**وفساد كبير**». قالوا: يا رسول الله وإن كان فيه؟ قال ﷺ: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**» أو «**فساد كبير**»[1].

وهذا أيضاً يدل على أن الفتنة والفساد الكبير تتعدد أسبابها وهو كذلك، فإن للافتتان والفساد الكبير المنتشر في الدنيا أسباباً كثيرة، ومن أعظم تلك الأسباب وأبرزها: مقاطعة المسلم للمسلم وموالاته للكافر، فهذا

---

(١) حديث أبي حاتم المزني أخرجه الترمذي في النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه. حديث رقم: (١٠٨٥) (٣٨٦/٣)، والبيهقي (٨٢/٧)، والدولابي في الكنى (٢٥/١). وانظر: السلسلة الصحيحة (١٠٢٢)، الإرواء (١٨٦٨).
وحديث أبي هريرة أخرجه الترمذي (الموضع السابق) حديث رقم: (١٠٨٤) (٣٨٥/٣)، وابن ماجه في النكاح، باب الأكفاء. حديث رقم: (١٩٦٧) (٦٣٢/١)، والدوري في (جزء فيه قراءات النبي ﷺ) ص١٠٣ ـ ١٠٤، والحاكم (١٦٤/٢، ١٦٥)، والخطيب (٦١/١١).
وانظر: الإرواء (٢٦٦/٦).
تنبيه: ورد في هذا المعنى أيضاً حديث عن ابن عمر (رضي الله عنهما). وهو في الكامل (١٧٢٨/٥) والدولابي في الكنى (٢٧/٢).

مما لا ينبغي، وهو من الأسباب العظيمة؛ لأن الله يقول لنبيه: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: الآية ٩] فاللين للكفار والمحبة والمؤاخاة لهم ليست من شأن المسلمين، ولا من خلق النبي وأصحابه، فالله (جل وعلا) أثنىٰ علىٰ محمد ﷺ وعلىٰ أصحابه بأنهم لا يضعون اللين إلا في موضع اللين، ولا يضعون القسوة إلا في موضع القسوة، قال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ ليسوا بأصدقاء لهم ولا محبين ولا أولياء ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: الآية ٢٩] هذه عادة المسلم أن يكون شديداً عظيماً علىٰ الكافر، رحيماً رفيقاً ذليلاً علىٰ المسلم، هذه عادة المسلمين وصفات المسلمين، وقد مدح الله بها قوماً في سورة المائدة حيث قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ - يعني لا يهتم بهم المسلمون لعدم صعوبتهم وذلهم وتواضعهم للمسلمين - ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: الآية ٥٤] أشداء، وقد صدق من قال[(١)]:

فما حَمَلَت من ناقةٍ فوقَ رَحْلِها أشد علىٰ أعدائِهِ من محمدِ

(صلوات الله وسلامه عليه)، فهو لا يوالي الكفار، بل هو ولي المسلمين ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦] ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية [المائدة: الآية ٥٥] إلى غير ذلك من الآيات، فيجب علينا الاقتداء بالنبي ﷺ فنوالي المؤمنين ونلين لهم، ونرفق بهم، ونعادي الكفار ونكون أشداء عليهم؛ لأن الشدة في محل اللين خرق وحمق، واللين في محل الشدة خور وضعف، والصحيح أن يكون كل شيء في محله، وهذا في موضعه، وهذا في موضعه، كما لا يخفىٰ، وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٣].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال: الآية ٧٤] [شرع][(٢)] الله (جل وعلا) وبيَّن للمؤمنين أن يكونوا أولياء للمؤمنين، والكفار بيَّن أنهم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٩٩) من سورة الأعراف.

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

أولياء الكفار، وأثنىٰ على المهاجرين والأنصار؛ لأن بعضهم أولياء بعض، مدح المهاجرين والأنصار وزكاهم وهو المطلع على ضمائرهم وخبايا ما يضمرون، بيَّن أن إيمانهم أنه إيمان حق لا شك فيه لا نفاق ولا ضعف، فأثنىٰ عليهم ومدحهم مدحاً عظيماً من رب العالمين، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ـ بالله ورسوله وكل ما يجب به الإيمان ـ ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾ ـ أوطانهم وأموالهم وديارهم ـ ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فسرناه بالأمس.

وهذه الصفات كله يُقصد بها المهاجرون الذين هاجروا إلى المدينة هذه، وهم النبي ﷺ وأصحابه الذين هاجروا معه رضي الله عنهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟﴾ يعني: آووهم، قد قدمنا أن العرب تقول: «آواه يؤويه إيواء» إذا ضمه إليه وجعل له مأوىً يأوي إليه، والمأوىٰ: المسكن والمنزل؛ لأن الأنصار هيؤوا للمسلمين أمكنة ينزلون فيها وهيؤوا لهم كل ما يستعينون به، وآخىٰ النبي ﷺ بينهم، كان يقول: «**فلان أخو فلان**». فيتوارثان بذلك الإخاء، وكان الأنصار يشاطرونهم أموالهم، وقد آخىٰ ﷺ بين عبدالرحمٰن بن عوف الزهري (رضي الله عنه) وسعد بن الربيع الأنصاري (رضي الله عنه)، ذكر بعض أهل المغازي والأخبار أن النبي لما آخىٰ بينهما جاء سعد إلىٰ عبدالرحمٰن وقال: أرخص ما عندي نعلاي، فهذه إحداهما، وأعظم ما عندي زوجتاي أنزل لك عن إحداهما، فإن تمت عدتها تزوجتَها!! ـ وقد كان عبدالرحمٰن بن عوف (رضي الله عنه) وأغلب المهاجرين تعففوا واتجروا ـ فقال له عبدالرحمٰن بن عوف: أقرضني درهماً. فأقرضه درهماً فاتّجر به، فراح وعنده درهمان، ردّ إليه درهمه واتجر بالثاني، فراح عنده درهمان، ولم يزل يتَّجر حتىٰ انتشر عليه المال وكان من أغنياء الصحابة[1] (رضي الله عنهم). فهم آووهم حيث هيؤوا لهم المساكن

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب ما جاء في قول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ رقم: (٢٠٤٨)، (٢٨٨/٤). وطرفه في (٣٧٨٠). عن عبدالرحمٰن بن عوف (رضي الله عنه). وأخرجه أيضاً عن أنس (رضي الله عنه) (الموضع السابق) برقم (٢٠٤٩). وأطرافه في: (٢٢٩٣، ٣٧٨١، ٣٩٣٧، ٥٠٧٢، ٥١٤٨، ٥١٥٣، ٥١٥٥، ٥١٦٧، ٦٣٨٦).

والأموال، وشاطروهم أموالهم، وأحسنوا إليهم كل الإحسان، كما في قوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩] هذا ثناء الله ومدحه للمهاجرين والأنصار، ثم قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الإشارة في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ شاملة للمهاجرين والأنصار معاً، فالمهاجرون هم المعبّر عنهم بـ ﴿ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والأنصار هم المعبّر عنهم بقوله: ﴿ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟﴾ أي: آووا النبي وأصحابه ونصروهم علىٰ أعدائهم، هؤلاء جميعاً ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ حق إيمانهم حقاً؛ لأنهم صدقوا إيمانهم بهجرتهم وجهادهم في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وبإيمانهم، وأولئك حققوه بإيوائهم ونصرتهم لله؛ لأن الأنصار قامت موقفاً عظيماً حيث تحمّلت عداوة جميع أهل الدنيا في نصرة النبي ﷺ وأصحابه؛ ولذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ - هـؤلاء - ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ بمعنىٰ الكلمة الإيمان الذي هو لا قيل فيه ولا قال، بل هو الإيمان كما ينبغي.

وهذه من الآيات الدالة علىٰ تزكية الصحابة لا سيما المهاجرين والأنصار، ووصفهم بالعدالة وصحة الإيمان، فإذا روىٰ لنا مهاجري أو أنصاري حديثاً فلا نقول: هل هذا عدل أو غير عدل؟؟ لأنه لا مزكيّ أعظم تزكية من الله، ولا تزكية أعظم من قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤] والله (جل وعلا) نوّه بشأن المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم، ونَوّه بشأن جميع الصحابة وزكاهم في غير ما آية، فمن الآيات التي أثنىٰ بها علىٰ المهاجرين والأنصار قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: الآية ١٠٠] وفي قراءة ابن كثير: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[1]. والمصحف الذي أرسله عثمان إلىٰ مكة فيه: ﴿مِن تَحْتِهَا

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٨.

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بذكر لفظة (من) وقراءة الجمهور والمصاحف التي أُرسلت إلىٰ الشام وإلىٰ الكوفة والبصرة فيها: ﴿**تحتها الأنهار**﴾ بغير لفظة (من). فقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ ـ لم يشترط فيهم شيئاً بل قال: ـ ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: الآية ١٠٠] ـ وهذه أعظم تزكية، والذين اتبعوهم ـ اشترط فيهم شرطاً وهو الإحسان؛ لأن قوله: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ اشترطه في خصوص الذين اتبعوهم، ومن هذه الآيات قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ [الحديد: الآية ١٠] ثم قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ كُلاً من جميع الصحابة ممن أنفق وقاتل قبل الفتح وبعده وعد الله الحسنىٰ.

ومن هذه الآية الكريمة قال ابن حزم: يجب علىٰ كل مسلم أن يعتقد أن الصحابة كلهم في الجنة؛ لأن الله صرح بذلك ولا يخلف الله الميعاد حيث قال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ ـ ثم صرح في الجميع بوعده الصادق الذي لا يخلفه قال: ـ ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1]. وقال (جل وعلا) ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨﴾ [الحشر: الآية ٨] فزكاهم بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ ثم ذكر الأنصار قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الدار: هي المدينة ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: وانتهجوا الإيمان، فهو مفعول فعل محذوف دل المقام عليه[2] ﴿مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ قال جماعة من أهل العلم: إن المهاجرين أفضل من الأنصار؛ ولذا كان الأنصار لا يكون في صدورهم شيء من فضل المهاجرين عليهم، هكذا قاله غير واحد[3]. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩] ثم ذكر من يأتي بعدهم

---

(١) الإحكام ص٦٦٤.

(٢) انظر: القرطبي (١٨/٢٠).

(٣) انظر: ابن كثير (٤/٣٣٧).

فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: الآية ١٠] ومن هذه الآيات أخذ مالك بن أنس (رحمه الله) إمام دار الهجرة أن الذين يسبون بعض أصحاب النبي ﷺ لا نصيب لهم في فيء المسلمين أبداً، وقال لبعضهم: هل أنتم من الفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله؟ قالوا: لا، لسنا من هؤلاء. قال: هل أنتم من الذين قال فيهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾؟ قالوا: لا، لسنا من هؤلاء. قال: وأنا أشهد أنكم لستم من الطائفة الثالثة التي قال الله فيها: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ فأنتم تسبّون الصحابة وتلعنوهم، فلستم من جملة من جعل الله لهم شيئاً من المسلمين فلا شيء لكم ألبتة[(١)].

وهذه الآيات وأمثالها في القرآن تدل على أن الذين يسبون بعض أصحاب النبي ﷺ أنهم ضُلّال، منابذون لهدي الله، مخالفون لكتاب الله الذي هو آخر الكتب السماوية نزولًا من عند رب العالمين (جل وعلا) وهذا معنى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: الآية ٧٤].

قال بعض العلماء: (حقاً) مصدر[(٢)]، أي: حق ذلك حقاً، أي: لما حققوه به من الإيمان والهجرة والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله، إلى غير ذلك من الصفات.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ المغفرة (مَفْعِلَة) من الغفران، وأصل مادة الغين والفاء والراء (غفر) أصلها معناها الستر والتغطية أيضاً كمادة (الكفر) لأن الله يستر بحلمه وفضله ذنوب التائبين إليه حتى لا يظهر لها أثر يتضررون به[(٣)].

﴿وَرِزْقٌ﴾ هو ما يرزقهم الله في الجنة.

---

(١) تقدم.

(٢) انظر: القرطبي (٨/٨).

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ كل شيء حسن مبالغ في الحسن والجمال تسميه العرب كريماً، وإنما وصف رزقهم بأنه كريم لأن ما في الجنة من الأرزاق كله كريم ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: الآية ٢٥] وأرزاق الجنة مبيّنة في القرآن العظيم من مآكلها ومشاربها وغير ذلك. وهذا معنىٰ قوله: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٤].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: الآية ٧٥].

للعلماء أقوال في المراد بالظرف في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ فقوله: ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ ظرف منقطع من الإضافة مبني على الضم، وتقدير مضافه هذا ـ المحذوف ـ فيه للعلماء أقوال متقاربة[1]:

قال بعض المحققين: أظهر الأقوال فيه أن المراد به: من بعد صلح الحديبية. وهذا القول له اتجاه لمن عرف تاريخ النبي ﷺ وأصحابه وتاريخ الهجرة وأهميتها؛ وذلك لأن النبي ﷺ كان عنده التشديد العظيم في الهجرة، فلا بد لمن آمن أن يهاجر وإلا لم تكن له ولاية عند المسلمين كما قدمناه في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] لأن البلاد كلها كانت بلاد حرب، والإيمان في المدينة، والذي أسلم إما أن يبقىٰ في دار حرب وإما أن يروح إلىٰ النبي ﷺ والمسلمين، فلما كان صلح الحديبية ـ وقد كان صلح الحديبية وقع في ذي القعدة من عام ست من الهجرة بإجماع المؤرخين ـ خرج النبي ﷺ معتمراً، وساق معه بعض البُدن، وذلك في ذي القعدة من عام ست، فلما بلغ الحديبية سمع به المشركون فتعرضوا له، وقالوا: والله لا يقتل أبناءنا ببدر ويدخل علينا بلدنا ويطوف ببيتنا أبداً! فوقع ما وقع مما هو مشهور. ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح: الآية ٢٥] أي: وصدوا الهدي معكوفاً أن يبلغ

---

(١) انظر: القرطبي (٨/٨).

محله، وقد نزلت في قفوله من الحديبية سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: الآية ١] نزلت في رجوعه من الحديبية كما قاله غير واحد، وقد وقع ما وقع، ولم يزالوا يراسلونه ليردوه عنهم، أرسلوا له عروة بن مسعود سيد ثقيف، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو وأضرابهم، حتىٰ انعقد بينه وبينهم الصلح علىٰ يد سهيل بن عمرو علىٰ المهادنة عشر سنين، وأغلظوا له في الصلح بأن من جاءه من قريش مسلماً رده إليهم، والذي جاء إلىٰ قريش مرتداً عن الإسلام لا يردونه، وهذا معروف.

وقد كان النبي ﷺ قَبِلَ لهم هذه الشروط، وكتب وثيقة الصلح بينه وبينهم، وعقدها معه سهيل بن عمرو العامري (رضي الله عنه) - من بني عامر بن فهر من قريش (رضي الله عنهم) - وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) اغتاظ من تغليظ هذه الشروط، وقال: يا رسول الله ألسنا علىٰ الحق؟ ألسنا نحن الذين علىٰ الحق؟ كيف نرضىٰ لهم بهذه الدنية؟! وأبو بكر يقول له: استمسك بغرز رسول الله ﷺ فهو أعلم منك. وكان هذا الصلح أول الفتح العظيم الذي فتح الله به علىٰ المسلمين؛ لأن النبي ﷺ يعلم ما فيه من المصلحة؛ لأنه لما وقعت الهجرة والمهادنة، وأمن الناس بعضهم بعضاً صار الصحابة يرجعون إلىٰ قبائلهم ويبثون فيهم الإسلام، فانتشر في الناس دين الإسلام، حتىٰ إن الكفار مكثوا سنتين لم ينقضوا العهد، وقد نقضوا العهد الذي أبرمه النبي ﷺ معهم في الحديبية؛ لأن بني بكر كانت بينهم وبين خزاعة دماء وحروب، ودخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ، وبنو بكر في عهد قريش، فَعَدَت بنو بكر علىٰ خزاعة، فأعانهم قريش عليهم بالسلاح، ونقضوا العهد بعد سنتين، وكان ذلك سبب غزوة النبي ﷺ لهم غزوة الفتح، ولم يمكثوا إلا سنتين؛ لأن صلح الحديبية وقع من ذي القعدة عام ست، وغزو النبي ﷺ لهم في فتح مكة وقع في رمضان عام ثمان، وهذا كله لا خلاف فيه بين العلماء والمؤرخين، فأقاموا سنتين، ونقضوا العهود، إلا أن هذا الصلح كان فتحاً عظيماً علىٰ المسلمين؛ لأن الصحابة انتشروا في قبائلهم، ووجدت الدعوة

إلىٰ الله طريقها، فاتصل المسلم بالكافر يدعوه إلىٰ الإسلام، فكثر الإسلام في أقطار الجزيرة العربية، ومما يوضح هذا أن أهل بيعة الرضوان التي وقعت في صلح الحديبية، الذين بايعوه تحت شجرة الحديبية ـ لأن النبي ﷺ ذكر بعض أصحاب المغازي والمؤرخين أنه أراد أن يرسل بالهدايا إلىٰ مكة ـ، وقال لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «**اذهب بها إلىٰ مكة**». فقال له عمر: إن بني عدي بن كعب ـ يعني قبيلة عمر من قريش ـ لا يستطيعون أن يحموني من قريش، ولكني أدلك علىٰ رجل عزيز في مكة لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه، وهو عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وهو عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. فأرسل عثمان بالهدايا لينحرها بالحرم، فتلقىٰ له بنو عمه من بني سعيد بن العاص، وقالوا له[1]:

أَقْبِلْ وأَدْبِرْ ولا تَخَفْ أحداً بَنُو سَعِيدٍ أَعِزَّةَ الحَرَمِ

وجاء، وقالوا له: إن شئت طُف بالبيت. فقال: والله لا أطوف ببيت مصدود عنه النبي ﷺ وهو محرم[2]، وكان هذا مما يدل علىٰ شرف عثمان (رضي الله عنه) لأنه امتنع أن يطوف لأن رسول الله ﷺ ممنوع من الطواف وهو محرم. ثم إن قائلًا قال: إن قريشاً قتلوا عثمان بن عفان ـ وهو كاذب ـ فسمع بها المسلمون فقالوا: قُتل عثمان!! قالوا: لما قتلوا عثمان ما هنالك إلا القتال والموت!! فبايعوه بيعة الرضوان تحت سمرة الحديبية، وهي الشجرة التي قال الله فيها: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: الآية ١٨] ومحل الشاهد من هذه القصة، وأن صلح الحديبية كان أول فتح علىٰ المسلمين، وأول انتشار للإسلام، أن أهل بيعة الرضوان ـ كانوا ألفاً وأربعمائة تقريباً، كما ثبت ذلك صحيحاً عن بعض أصحاب النبي ﷺ، ولما غزا فتح مكة غزاه بآلاف متعددة، غزاه بعشرة آلاف

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

مقاتل، فدل هذا علىٰ أن هذه العشرة الآلاف كانت من مزايا صلح الحديبية حيث وجدت الدعوة طريقها، واتصل المسلمون بالكفار فدعوهم إلىٰ الإسلام فانتشر الإسلام في المسلمين؛ ولذا كانت الهجرة بعد صلح الحديبية أقل عظماً وأخف وقعاً مما كانت قبل ذلك؛ لأنه في ذلك الوقت جازت مخالطة المسلم لقبيلته ليدعوهم إلىٰ الإسلام، فخف شأن الهجرة من ذلك الوقت؛ لأنها كاد الله أن يُغني عنها، فلما غزا النبي ﷺ مكة في رمضان من سنة ثمان، وفتح مكة، قال ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية**»[1]. وهذه الهجرة انقطعت بالفتح وخفت بالحديبية؛ ولذا قال فيه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: بعد أن خف شأن الهجرة بصلح الحديبية، واتصل المسلمون بالكفار، وانتشر المسلمون في أقطار الجزيرة العربية، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥] ـ قبل فتح مكة وبعد صلح الحديبية، كما قاله بعض العلماء ـ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ معكم وينالهم الفضل العظيم، وإن كان شرف الأسبقية لا يناله من جاء بعدهم كما قال: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ [الفتح: الآية ١٠].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ أي: هم من جملتكم وإن كان بعضكم أفضل من بعض.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ (أولوا الأرحام) معناه: أصحاب الأرحام، وهم ذوو القرابات. و (أولوا) اسم جمع لا واحد له من لفظه، هو يُعرب إعراب الجمع المذكر السالم، يُرفع بالواو وينصب ويخفض بالياء، وهو من الأسماء الملازمة للإضافة. والأرحام: جمع رحم، والرحم مؤنثة، وشذ قوم هنا وقالوا: إن المراد بها أرحام العصبات خاصة، وممن نصر هذا القول: أبو عبدالله القرطبي في تفسيره[2]. وهو ليس بصواب، وما

---

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٧٢) من هذه السورة.

(٢) تفسير القرطبي (٨/٨).

استدلوا به في ذلك لا ينهض حجة؛ لأنهم قالوا: إن العرب كثيراً ما تُطلق الرحم علىٰ قرابة العصبات دون قرابات غيرهم، قالوا: تقول العرب: وصلتك رحم. يعنون به رحم العصبات لا غيرها. وقالت قتيلة بنت الحارث، أو بنت النضر بن الحارث في رجزها المشهور لما قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث في رجوعه من بدر ـ كما أوضحنا قصته في أول هذه السورة الكريمة سورة الأنفال ـ قالت في شعرها، تقول[١]:

ظَلَّتْ سُيوفُ بني أبيهِ تَنُوشُه ... لِلهِ أرحـامٌ هُـنـاكَ تـشـقَّـقُ

فصرحت بأن مرادها بالأرحام بنو الأب، يعني من بني عمه وعصبته. وهذا يجوز، ولكنه لا ينفي غيره من إطلاق ذوي الأرحام علىٰ جميع القرابات[٢]. وهذه الآية ثبت في الصحيح وغيره ـ ولا يكاد يُختلف فيه بين العلماء ـ أنها نسخت للموارثة التي كانت تقع بالهجرة والمؤاخاة والحلف؛ لأنهم كانوا يتوارثون بالهجرة والمؤاخاة ولا يرث القريب من قريبه شيئاً إذا كان لم يهاجر، كما تقدم في قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] وأن الله نسخ ذلك بالقرابات، وأن المراد: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ﴾ أي: أصحاب القرابات من قرابة الأب والأم، بعضهم أولىٰ ببعض في الميراث. أي: من المهاجرين الذين آخىٰ النبي ﷺ بينهم وبين الأنصار كما هو معروف، فنسخ الله ذلك الميراث أولًا بميراث القريب قريبه، والولي وليه.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي: في الميراث.

﴿فِي كِتَٰبِ اللَّهِ﴾ قال بعض العلماء: المراد بكتاب الله أي: في حكم الله وأمره الذي كلف به خلقه وألزمهم إياه، والعرب كل شيء مكتوب
١٠/ب مؤكد تسميه كتاب الله./ وقال بعض العلماء: كتاب الله: هو اللوح

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

(٢) انظر: الأضواء (٤١٨/٢).

المحفوظ لأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ[١] كما قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا...﴾ [الأحزاب: الآية ٦] فآية الأحزاب كأنها بيّنت آية الأنفال هذه، وقال بعض العلماء: المراد بكتاب الله: القرآن؛ لأن الله بيّن المواريث في كتاب الله في القرآن في سورة النساء بيّنها بآية الصيف وآية الشتاء، فآية الشتاء هي: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء: الآية ١١] إلىٰ آخر الآيات، وآية الصيف هي التي في آخر السورة: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ﴾ [النساء: الآية ١٧٦].

وقد قدمنا[٢] أن الكتاب بمعنىٰ المكتوب، وأن إتيان (الفِعَال) بمعنىٰ (المفْعُول) مسموع في كلام العرب موجود في أوزان معروفة، ككتاب بمعنىٰ مكتوب، ولباس بمعنىٰ ملبوس، وإلٰه بمعنىٰ مألوه، أي: معبود، وإمام بمعنىٰ مُؤتم به. وقد قدمنا[٣] أن مادة الكاف والتاء والباء في لغة العرب (كَتَبَ) أن معنىٰ هذه المادة في اللغة التي نزل بها القرآن معنىٰ (كتب): ضم وجمع، فالكَتْب في لغة العرب معناه: الضم والجمع، وكل شيء ضممته وجمعت بعضه إلىٰ بعض فقد كتبته، ومنه سميت الكتيبة من الجيش؛ لأنها قطعة عظيمة ضم بعضها إلىٰ بعض، وجُمع بعضها مع بعض، حتىٰ صارت جملة عظيمة من الجيش، ومنه قول نابغة ذبيان[٤]:

ولا عَيْبَ فيهم غَيرَ أن سُيُوفَهم بهنَّ فُلُولٌ من قِراعِ الكَتَائِبِ

ومن هذا المعنىٰ سميت الكتابة كتابة؛ لأنك تضم نقش حرف إلىٰ حرف إلىٰ حرف حتىٰ يتألف من مجموع هذا نقوش تُقرأ بها ألفاظ؛ ولأجل هذا قيل للخياطة (كَتْب) فالخياط يسمىٰ كاتباً؛ لأنه يضم أطراف الأديم

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٩٠).
(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.
(٣) السابق.
(٤) السابق.

بعضها إلىٰ بعض، وأطراف الثوب بعضها إلىٰ بعض فيخيطها، فالخياطون كُتّاب، وفي لُغَز الحريري(١):

وكَـاتِـبِـيـنَ ومـا خَـطَّـتْ أَنَـامِـلُـهـم حرفاً ولا قرؤوا ما خُطَّ في الكُتبِ

يعني: الخياطين، ومنه قيل للسير الذي تُشد به الرقعة في السقاء: كُتْبة، وقيل لنفس الرقعة كُتبة؛ لأنها تضم في السقاء يُرقع بها، ومنه قول غيلان بن عقبة ذي الرمة(٢):

ما بالُ عينيك منها الماءُ يَنْسَكِبُ كـأنّـهُ مـن كُـلَـى مَـفْـرِيَّـةٍ سَـرَبُ
وفْـرَاءُ غَـرْفِـيَّـة أَثْـأَى خَـوَارِزَهَـا مُشَلْشَلٌ ضَيَّعَتْهُ بينها الكُتَبُ

يعني: ماء يسيل ضيعته الرقع والسيور المشدودة بها الرقع في السقاء يسيل منها، شبَّه دمعه به. ومن تسمية الخياطين (كتَّابين) قول ابن دارة يهجو فزارة(٣):

لا تـأْمَـنَـنَّ فَـزَاريـاً خَـلـوتَ بـه علىٰ قَلُوصِكَ واكْتُبها بأَسْيَارِ

يعني: خِط فرجها بأسيار لئلا يزني بها. هذا أصل معنىٰ الكتابة.

وجمهور العلماء علىٰ أن معنىٰ: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: في حكم الله الذي هو حكمه الذي استقر عليه أمره، أن الميراث بالرحم والقرابات لا بالهجرة والمؤاخاة، فهذا نسخ هذا كما هو الذي عليه جمهور العلماء ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥].

اختلف العلماء في المراد بـ ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ في هذه الآية(٤)،

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.
(٢) تقدم هذا الشاهد في الموضع السابق.
(٣) تقدم هذا الشاهد في الموضع السابق.
(٤) انظر: ابن جرير (١٤/٩٠)، القرطبي (٨/٨)، المغني (٩/٨٢)، ابن كثير (٢/٣٣٠)، الأضواء (٢/٤١٨).

فذهب جماعة من العلماء إلىٰ أن المراد بأولي الأرحام هم خصوص الذين أعطاهم الله مواريث من عصبات، أو أصحاب فروض، وأن هذه الآية بيّنتها آيات المواريث، وأن من لم يبيّن الله له نصيباً في كتابه لا شيء له ولا يدخل في هذا، وهذا قال به جماعة من العلماء، وممن ذهب إليه: مالك والشافعي (رحمهم الله)، قالوا: لا ميراث إلا لمن سمّىٰ الله له شيئاً، والمراد بـ (أولوا الأرحام) هذا مجمل بيّنته آيات المواريث، فلا ميراث لمن لم يجعل الله له سهماً. ومن أصرح أدلتهم في هذا حديث: «**إن الله أعطىٰ كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث**»[1]

---

(١) روىٰ هذا الحديث جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، ومنهم:

١ ـ أبو أمامة (رضي الله عنه)، عند أحمد (٢٦٧/٥) وأبي داود في الوصايا، باب: ما جاء في الوصية للوارث. حديث رقم: (٢٨٥٣) (٧٢/٨)، والترمذي في الوصايا، باب: ما جاء: «لا وصية لوارث». حديث رقم: (٢١٢٠) (٤٣٣/٤)، وابن ماجه في الوصايا، باب: لا وصية لوارث. حديث رقم: (٢٧١٣) (٩٠٥/٢). والبيهقي (٢٦٤/٦)، والطيالسي (١١٢٧).

وانظر: التلخيص (٩٢/٣) وحسّن الحافظ إسناده، ونصب الراية (٤٠٣/٤)، والإرواء، (٨٨/٦).

٢ ـ عمرو بن خارجة (رضي الله عنه)، عند أحمد (١٨٦/٤، ١٨٧، ٢٣٨ ـ ٢٣٩)، والدارمي (٣٠٢/٢) والترمذي في الوصايا، باب ما جاء: «لا وصية لوارث». حديث رقم: (٢١٢١) (٤٣٤/٤) وابن ماجه في الوصايا، باب: لا وصية لوارث. حديث رقم: (٢٧١٢) (٩٠٥/٢)، والبيهقي (٢٦٤/٦)، والطيالسي (١٢١٧)، والدارقطني (١٥٢/٤).

وانظر: التلخيص (٩٢/٣)، نصب الراية (٤٠٣/٤)، الإرواء (٨٨/٦).

٣ ـ أنس بن مالك (رضي الله عنه)، عند ابن ماجه في الوصايا، باب لا وصية لوارث، ،حديث رقم: (٢٧١٤) (٩٠٦/٢)، والبيهقي (٢٦٤/٦)، وابن عدي في الكامل (١٥٧٥/٤).

وانظر: التلخيص (٩٢/٣)، نصب الراية (٤٠٤/٤)، الإرواء (٨٩/٦).

٤ ـ ابن عباس (رضي الله عنهما) (بلفظ مقارب) عند البيهقي (٢٦٣/٦)، الدارقطني (٩٧/٤، ٩٨، ١٥٢)، وابن عدي في الكامل (٣٠٧/١)، (١٥٧٠/٤).

وانظر: التلخيص (٩٢/٣) (وحسن إسناده)، ونصب الراية (٤٠٤/٤)، الإرواء (٨٩/٦، ٩٦).

=

قالوا: هذا الحديث فيه كلام معروف، والتحقيق أنه لا يقل عن درجة الاحتجاج، بيّن النبي فيه أن الله أعطىٰ كل ذي حق حقه، قالوا: نص هذا الحديث علىٰ أنه ما بقي لصاحب حق حق أبداً إلا أعطاه الله إياه، فالذي لم يُسم له حق فليس له شيء، وهذا معروف، وممن ذهب إلىٰ هذا من الأئمة: مالك والشافعي.

وقالت جماعة آخرون: المراد بأولي الأرحام: من لا ميراث لهم بفرض ولا تعصيب، وأنهم يرثون من لا وارث له، واستدلوا بهذه الآية الكريمة وبأحاديث أُخر، منها ما هو ثابت في ميراث الخال، ومنها بعض جاء في ميراث العمة والخالة، والذين قالوا هذا قالوا: إن هؤلاء يصدق عليهم (أولوا الأرحام) بالوضع العربي، فلا يجوز إخراجهم منه، قالوا: ولأنهم من جملة المسلمين، وهم يزيدون بقرابة، ولو فرضنا أنه لبيت المال كان لخصوص المسلمين، فمن أدلىٰ بسببين وهما الإسلام

= ٥ ـ جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما). عند الدارقطني (٤/٩٧)، وقال: «الصواب: مرسل» ا.هـ. وابن عدي في الكامل (١/٢٠٢). وانظر: التلخيص: (٣/٩٢)، نصب الراية (٤/٤٠٤)، الإرواء (٦/٩٢).

٦ ـ علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) (بلفظ مقارب) عند الدارقطني (٤/٩٧)، والبيهقي (٦/٢٦٧)، وابن عدي (٧/٢٥١١).

وانظر: التلخيص (وضعف إسناده) (٣/٩٢)، نصب الراية (٤/٤٠٥)، الإرواء (٦/٩٤).

٧ ـ عبدالله بن عمرو (رضي الله عنهما) عند الدارقطني (٤/٩٨)، وابن عدي (٢/٨١٧). وانظر: التلخيص (٢/٩٢)، نصب الراية (٤/٤٠٤)، الإرواء (٦/٩١، ٩٧).

٨ ـ معقل بن يسار (رضي الله عنه). عند ابن عدي (٥/١٨٥٣). وانظر: التلخيص (٣/٩٨).

٩ ـ زيد بن أرقم والبراء (رضي الله عنهما). عند ابن عدي (٦/٢٣٤٩). وانظر: نصب الراية (٤/٤٠٥).

١٠ ـ مجاهد (مرسلاً) عند البيهقي (٦/٢٦٤). وانظر: التلخيص (٣/٩٢).

١١ ـ جعفر بن محمد عن أبيه (مرسلاً) عند الدارقطني (٤/١٥٢).

والقرابة أولىٰ ممن يُدلي بسبب واحد وهو الإسلام. والذين قالوا هذا قالوا: إن المراد بأولي الأرحام من لا فرض لهم في كتاب الله وليسوا بعصبة، وهم أحد عشر حيّزاً معروفة عند العلماء، وممن قال بتوريث أولي الأرحام بهذا المعنىٰ: الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ وأحمد بن حنبل ـ رحمهم الله ـ وجماعة كثيرة من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار.

والذين قالوا بتوريث أولي الأرحام معروف أنهم اختلفوا في كيفية توريثهم اختلافاً متشعباً يرجع إلىٰ أمرين[1]:

أحدهما: قول من يقال لهم: أصحاب التنزيل.

والثاني: قول من يُسمون بأصحاب القرابات.

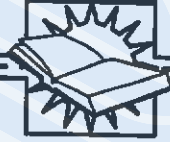
وأصحاب التنزيل: هم الذين مشىٰ علىٰ مذهبهم أحمد بن حنبل وأصحابه. وأصحاب القرابات: هم الذين مشىٰ عليهم أبو حنيفة وأصحابه، والذين قالوا بالتنزيل قالوا: إن كل واحد من أولي الأرحام يُنَزَّل منزلة من يدلي به، فيُعطىٰ ميراث من يُدلي به، فإذا كان واحداً أخذ جميع المال، وإذا كانوا جماعة وكانوا نازلين قُرّبُوا درجة درجة ثم نُظر جميع من يُدلون به وعُرف ميراث كل واحد منهم فأُعطي كل واحد منهم نصيب من يدلي به، وهذا معروف، وهو مشهور مذهب الإمام أحمد.

وأما أصحاب القرابات الذين ذهب إلىٰ مذهبهم أبو حنيفة (رحمه الله) فهم يعملون بالأقرب فالأقرب، قالوا: ما دام أبو الإنسان يوجد شيء من أولاده كأولاد بناته وأبناء بناتهم ونحو ذلك لا يُعطى شيء يُدلي بجده ويعطى بنو جد دِنْيَه قبل الجد الذي فوقه وهكذا،

(١) انظر: المغني (٩/٨٥)، الأضواء (٢/٤٢٤).

ولم يزل يُعطى من يدلي بمن هو أقرب ثم من هو أقرب حتىٰ ينتهي الأمر في ذلك. وتفاصيل مذاهبهم معروفة في فروعهم - رحم الله الجميع -.





تفسير سورة التوبة

١/١أ / يقول الله (جل وعلا): ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ
مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ
بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ
غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ
مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة: الآيات ١ ـ ٤].

نزلت هذه السورة الكريمة عام تسع، رجوع النبي ﷺ من غزوة تبوك، وكان بعض الصحابة يقول: آخر سورة نزلت بتمامها من القرآن براءة[١].

واعلم أن الصحابة (رضي الله عنهم) لم يكتبوا في المصاحف العثمانية سطر ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قبل هذه السورة الكريمة، مع أنهم كتبوه في كل سورة من سور القرآن غير سورة التوبة هذه، والعلماء لهم أقوال معروفة في سبب [عدم][٢] كتب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[٣].

قال بعض العلماء: كانت سورة براءة طويلة قدر سورة البقرة،

---

(١) البخاري عن البراء (رضي الله عنه)، كتاب التفسير، باب ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ...﴾ حديث رقم: (٤٦٥٤) (٨/٣١٦).

(٢) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٣) انظر: القرطبي (٨/٦١)، ابن كثير (٢/٣٣١)، الأضواء (٢/٤٢٦).

فنسخ الله أولها، فلما سقط أولها وكانت فيه البسملة سقطت البسملة مع المنسوخ الساقط منها.

وقال بعض العلماء: البسملة رحمة وأمان، وبراءة نزلت بالسيف والقتال ونقض العهود؛ فلذا لم تكتب فيها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

وقال بعض العلماء: لما أرادوا كتب المصاحف العثمانية اختلفوا في براءة، فقال بعضهم: هي والأنفال سورة واحدة، وقال بعضهم: كلتاهما سورة مستقلة، فلما اختلفوا جعلوا بياضاً بين السورتين ليدل على قول من قال: إنهما سورتان، وتركوا سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ليدل على قول من قال: هما سورة واحدة، فرضي الفريقان، وقامت حجة كل منهما في المصحف الكريم.

وأظهر الأقوال هو ما رُوي عن عثمان بن عفان (رضي الله عنه) رواه بعض أصحاب السنن وغيرهم عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: سألت عثمان بن عفان (رضي الله عنه) لِمَ عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وجعلتموها في السبع الطوال؟!!

فأجابه عثمان (رضي الله عنه) بما معناه: أن النبي ﷺ كان ينزل عليه القرآن، تنزل عليه السور والآيات ذوات العدد فيأمر بعض من يكتب له ويقول: ضعوا هذا في السورة التي يُذكر فيها كذا، وضعوا كذا في محل كذا، وكانت [«الأنفال من أوائل ما أُنزل بالمدينة» وبراءة من آخر القرآن، فكانت قصتها شبيهةً بقصتها، فقُبض رسول الله ﷺ ولم يبيّن لنا أنها منها، وظننت أنها منها..][1] كأنهما سورة واحدة، فمن ثم واليت بينهما وجعلت

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام نقلتها من بعض روايات الحديث.

بينهما فصلًا، ولم أكتب بينهما ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[(١)].

وهذه السورة الكريمة نزلت عام تسع [وكان النبي ﷺ قد بعث أبا بكر (رضي الله عنه) ليقيم للناس الحج][(٢)] وأرسل في أثره علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) على ناقته العضباء، وأمره أن يكون هو المتولي للأذان ببراءة في موسم الحج، وأن يقول للناس: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. فكان علي بن أبي طالب ذهب في أثر أبي بكر فأدركه، قال بعض العلماء: أدركه بالجحفة، فقال له: أأمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور. وأخبره أن النبي ﷺ أرسله بصدر هذه السورة الكريمة يُنادي به في الموسم[(٣)] - في موسم الحج - عام تسع من الهجرة،

---

(١) أخرجه أحمد (٥٧/١، ٦٩)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (١٠٠/٢)، وفي غريب الحديث (١٤٧/٣ ـ ١٤٨)، (١٠٤/٤) وأبو داود في الصلاة، باب من جهر بها. رقم: (٧٧١) (٤٩٥/٢)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة براءة. رقم: (٣٠٨٦) (٢٧٢/٥)، وابن حبان (الإحسان ١٢٦/١)، والحاكم (٢٢١/٢، ٣٣٠)، والبيهقي في الكبرى (٤٢/٢)، والدلائل (١٥٣/٧)، وابن أبي داود في المصاحف ص٣٩، وابن جرير (١٠٢/١)، والطحاوي في شرح المعاني (٢٠١/١ ـ ٢٠٢)، وفي مشكل الآثار (٣٨/١)، (١٥١/٢ ـ ١٥٦)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٣٩٦/٢)، وأورده السيوطي في الدر (٢٠٧/٣) وعزاه لابن أبي شيبة والنسائي وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه. وضعفه أحمد شاكر في تعليقه على: المسند (٣٢٩/١)، ابن جرير (١٠٢/١).

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) بعث النبي ﷺ علياً (رضي الله عنه) في حجة أبي بكر (رضي الله عنه). رواه جماعة من الصحابة منهم:

١ ـ أبو هريرة (رضي الله عنه)، عند البخاري في الصلاة، باب ما يستر من العورة. حديث رقم: (٣٦٩) (٤٧٧/١) وأطرافه (١٦٢٢، ٣١٧٧، ٤٣٦٣، ٤٦٥٥، ٤٦٥٦، ٤٦٥٧)، ومسلم (من غير ذكر علي رضي الله عنه) في الحج، باب: لا يحج البيت مشرك.. حديث رقم (١٣٤٧) (٩٨٢/٢).

٢ ـ أنس (رضي الله عنه)، عند الترمذي في التفسير، باب: ومن سورة براءة. حديث رقم (٣٠٩٠) (٢٧٥/٥).

٣ ـ ابن عباس (رضي الله عنه)، عند الترمذي في التفسير، باب: (ومن سورة براءة) حديث رقم (٣٠٩١) (٢٧٥/٥) وانظر: الإرواء (٣٠٣/٤).

=

فكان أبو بكر هو أمير الحج الذي يُقيم للناس حجهم، وكان علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) يؤذن في الناس بأول هذه السورة الكريمة، بعضهم يقول: بأربعين آية منها. وبعضهم ينقص، وبعضهم يزيد، والروايات متفقة على أنه أرسله بهذه السورة الكريمة، بشيء منها يؤذن بها في المواسم.

ومضمون ما كان يؤذن به علي (رضي الله عنه) راجع إلى أربع جمل: إحداها: أن لا يحج بعد العام مشركٌ، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ومن كان له عهد فعهده إلى مدته.

وكان يؤذن في الناس بهذا. فعلم الكفار أنه لا عهود بينهم وبين النبي ﷺ، ومن العام القابل وهو عام عشر لم يحج البيت كافر، ولم يطف بعدها عريان، فحجّ النبي ﷺ.

ومعنىٰ قوله: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ البراءة مصدر كالشناءة والدناءة. وإعرابه[1] قال بعض العلماء: هو مبتدأ خبره محذوف، أي: هذه براءة من الله ورسوله.

وقال بعض العلماء: لا مانع من كون قوله: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ مبتدأ، وسوّغ الابتداء بالنكرة لأنها وُصفت بقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ كما قال[2]:

.... ورَجُـلٌ مـن الـكِـرَامِ عـنـدنَـا

= ٤ ـ زيد بن أُثَيع أنه سأل علياً (رضي الله عنه)... عند أحمد (٧٩/١)، والدارمي (٣٩٤/١)، والحميدي (٤٨) والترمذي في التفسير. باب (ومن سورة براءة) حديث رقم: (٣٠٩٢) (٢٧٦/٥) وانظر الإرواء (٣٠١/٤).

وأخرجه أحمد (٣/١) عن زيد بن أُثَيع عن أبي بكر (رضي الله عنه).

٥ ـ جابر (رضي الله عنه)، عند النسائي في الحج، باب الخطبة يوم التروية. حديث رقم: (٢٩٩٣) (٢٤٧/٥).

(١) انظر: ابن جرير (٩٥/١٤)، الدر المصون (٥/٦).

(٢) هذا هو الشطر الثاني من أحد أبيات الخلاصة ص١٧، وشطره الأول:
«وهل فتى فيكم فما خل لنا» ....

وأن قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ خبر المبتدأ، والوجهان من الإعراب كلاهما صحيح، والمعنى: هذه براءة من الله. أو براءة من الله واصلة إلى الذين عاهدتم من المشركين. ولفظة (من) في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هي المعروفة بابتداء الغاية، أي: ابتداء هذه الغاية ومنشؤها كائن من الله. ومعنى براءة الله منهم: أنه (جلّ وعلا) برئت ذمته من عهودهم فلا يلتزم لهم عهداً ولا ذمة؛ لأنهم نقضوا العهود أو كادوا.

واعلم أن النبي ﷺ لما غزا غزوة تبوك كان المنافقون يرجفون أراجيف كثيرة، فسمع بها الكفار فأرادوا نقض العهود وتغيروا؛ لأن النبي ﷺ كانت بينه وبين بعض القبائل عهود ومواثيق، مصالحات ومهادنات، فلما سمع الكفار بأراجيف المنافقين نقض بعضهم، وبعضهم خيف منه النقض، فأنزل الله براءته من جميع الكفار إلا ما سيأتي استثناؤه إن شاء الله.

واعلم أن الكفار أقسام[1]: منهم من كان له عهد مؤجل بأجل، وهؤلاء قسمان: من عهده أقل من أربعة أشهر، ومن عهده أكثر من أربعة أشهر، ومنهم من لا عهد له أصلًا، ومن له عهد مطلق لم يقيد بزمن معين، فهذه فرق الكفار، وهذه الآية تضمنت نقض العهود في هذه كلها إلا في صورة واحدة على التحقيق.

أما من كان له عهد إلى مدة أقل من أربعة أشهر فالتحقيق عند جمهور العلماء أنه يرفع عهده إلى أربعة أشهر ثم بعد الأربعة أشهر هو حرب للّه ولرسوله، ومن كان له عهد مطلق فله أربعة أشهر يسيح فيها ويذهب في الأرض مقبلًا ومدبراً آمناً، ثم بعد انتهاء تلك الأربعة الأشهر هو حرب للّه ولرسوله.

ومن لم يكن عنده عهد أصلًا فقال بعض العلماء: له هذه الأربعة الأشهر. وهذا أظهر القولين، بناء على أن قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ [التوبة: آية ٥] أنها أشهر الإمهال هذه الأربعة، لا الأشهر الحرم الأربعة.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٩٦)، القرطبي (٨/٦٤)، الأضواء (٢/٤٢٨).

وقال بعض العلماء: هي الأشهر الحرم الأربعة، وعلى ذلك لم يبق من عهده إلا خمسون يوماً، عشرون من ذي الحجة، والشهر الذي بعده الذي هو المحرم، فتنقضي عهودهم على خمسين يوماً على هذا القول.

فقوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذه البراءة كائنة من الله ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ يعني النبي وأصحابه. وإنما خاطبهم جميعاً وإن كان النبي ﷺ هو الذي يتولى عقد العهود لأنهم أتباعه وأعوانه، وهم معه في كل شيء من حَلّ وعقد، فكل حَلّ وعقد فعله النبي ﷺ فهم أصحابه وأعوانه وأتباعه، فهم معه فيه؛ ولذا قال: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الكفار الذين يعبدون الأصنام ويشركون بالله (جل وعلا).

والتحقيق: أن هذه ما نزلت إلا في غزوة تبوك، وما زعمه ابن إسحاق ومقاتل وغيرهما من أن صدر هذه السورة نزل قبل عام الفتح، بعد نقض قريش وبني بكر لمعاهدة صلح الحديبية؛ فهو خلاف الظاهر، مع أنه قال به ابن إسحاق ومقاتل وغيرهما[1]. قالوا: كان أول هذه السورة نزل قبل هذا؛ لأن النبي ﷺ لما عقد صلح الحديبية بينه وبين كفار قريش بواسطة سهيل بن عمرو العامري (رضي الله عنه) كان خزاعة دخلوا في حلف النبي ﷺ، ودخلت بنو بكر في حلف قريش، وكان ذلك الصلح دخلت فيه قبائل من بني كنانة منهم بنو الديل ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وبنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، وبنو مدلج بن بكر بن كنانة، وبنو ضمرة بن بكر بن كنانة، فهي أربع قبائل من كنانة دخلوا في ذلك الصلح مع النبي ﷺ، وكان قبل ذلك بين كنانة وخزاعة دم، وكان الدم في خصوص بني الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة من قبائل كنانة، فانتهزوا الفرصة وعدوا على خزاعة، وأعانهم قريش على خزاعة الإعانة المشهورة التي هي سبب غزوة الفتح؛ لأن بني الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة لما عدوا على خزاعة ونقضوا عهد

---

(١) انظر: القرطبي (٨/ ٦٤ ـ ٦٥).

النبي ﷺ وصلحه الذي أبرمه معهم في الحديبية، وأعانتهم قريش على ذلك بالسلاح، بل بعض رجال قريش دخل معهم في قتالهم، كما قاله بعض العلماء، وأرسل خزاعة عمرو بن سالم (رضي الله عنه) إلى النبي ﷺ بالمدينة يستنصره، وجاءه هنا في المدينة - حرسها الله - وأنشده رجزه المشهور[١]:

يا رَبِّ إني ناشدٌ محمداً ... حِلْفَ أبينا وأبيهِ الأَتْلَدَا
كنتَ لنا أباً وكنَّا ولداً[٢] ... ثُمَّتَ أسلمنا ولم ننزعْ يدا
إن قريشاً أخلفوكَ الموعِدَا ... ونقضُوا ميثاقَكَ المؤكدا
وزعموا أن لست تنجي أحداً ... وهم أذلُّ وأقلُّ عددا
فادعُ عبادَ الله يأتُوا مَددا ... فيهم رسولُ الله قد تَجَرَّدا
أبيض مثل الشمس يجري صُعداً ... في فَيْلَقٍ كالبحرِ يجري مُزْبدا
إن سِيمَ خسفاً وجْهُهُ تربَّداً ... هم بَيَّتُونا بالوَتِيْرِ هُجَّدا
وقتلونا ركَّعاً وسُجَّداً ... فانصر هداكَ الله نصراً أَيِّدَا

فقال ﷺ: **«لا نُصرت إن لم أنصركم»**[٣].

وكان ذلك سبب غزوة [الفتح][٤]. هكذا قالوا إن هذا هو الذي جاءت فيه هذه الآيات، وأن قريشاً وبنو الديل من بني بكر بن كنانة نقضوا وبقيت قبائل كنانة الآخرين، وهم: بنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة، وبنو مدلج، وبنو ضمرة لم ينقضوا العهود كما سيأتي في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: آية ٧] هكذا قالوا أنها نزلت قبل غزوة الفتح.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال، ووقع فيها هنا تقديم وتأخير كما وقع في الموضع السابق. وقد أثبتنا نص الأبيات هناك في الهامش فليراجع. وانظر: القرطبي (٨/٦٥).

(٢) في ابن هشام (١٢٣٥): «قد كنتم وُلْداً وكنا والداً».

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال.

(٤) في الأصل: «بدر» وهو سبق لسان.

والتحقيق أنها ما نزلت إلا بعد غزوة تبوك، وأرسل النبي بها أبا بكر (رضي الله عنه) ينادي في الناس بها، ثم أتبعه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه).

ومعنى الآية الكريمة: هذه براءة من الله، أو براءة من الله إلى الذين عاهدتم من المشركين جميعاً. يعني: من كان له منهم عهد أقل من أربعة أشهر، ومن لا عهد له أصلًا، ومن كان له عهد مطلق، ومن له عهد مؤقت إلا أنه خيف منه أن ينقض؛ لأن المُعاهَد من المشركين إذا خيف منه النقض وظهرت منه علامات ذلك وبوادره وجب إعلامه بنبذ العهد إليه ونقض عهده، كما قدمناه في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: آية ٥٨] فعرفنا أن قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: آية ١] صادق بمن لهم عهد غير مؤقت، وعهد مؤقت بأقل من أربعة أشهر، وعهد مؤقت بأكثر منها إن خيفت منهم الخيانة، بقي قسم واحد هو الآتي استثناؤه مرتين وهو من كان له عهد مؤقت معين محدد بوقت معين أكثر من أربعة أشهر، وهو ثابت على عهده لم ينقض ولم يُخف منه نقض لثبوته على عهده، فهؤلاء باقون على عهدهم على التحقيق الذي لا شك فيه. وما قاله بعض العلماء من نقض عهودهم جميعاً؛ خلاف التحقيق؛ لأن الله يقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: آية ٤] ويقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٧] كما سيأتي إيضاحه؛ لأن المراد بالذين عاهدوه عند المسجد الحرام عند الحديبية وأُطلق عليها: «المسجد الحرام» قال بعض العلماء: لأن بعضها الذي وقعت فيه المعاهدة كان من الحرم، والمسجد يطلق غالباً على جميع الحرم، وسيأتي هناك ـ إن شاء الله ـ أن هؤلاء الذين عاهدوا دخل فيهم قبائل من كنانة مع قريش، وأن الذي غدر: بنو الديل من كنانة فقط وقريش، وبقية قبائل كنانة الأخرى

ثابتة على عهدها. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: آية ١].

ثم هنا التفات من الغيبة إلى الخطاب، أي فقولوا للذين عاهدتم من المشركين: سيحوا في الأرض أربعة أشهر (سيحوا في الأرض) معناه: اذهبوا في أرض الله مقبلين ومدبرين حيث ما أردتم، وأين أحببتم أن تتوجهوا، آمنين لا خوف عليكم، لا ينالكم منا سوء؛ لأنها أشهر أمان وإمهال لا ينالكم منا فيها سوء.

والحكمة في أن الله (جل وعلا) أجّلهم هذه الأشهر الأربعة ليروا رأيهم، ويتأملوا في شأنهم لعل الله أن يهديهم إلى صوابهم. وهذا معنى قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: اذهبوا في جوانب أرض الله مقبلين ومدبرين آمنين، لا خوف عليكم في مدة هذه الأشهر الأربعة.

ثم قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ أي: أيقنوا علماً يقيناً لا يتطرق إليه الشك ﴿أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ ﴿مُعْجِزِى﴾ أصله: معجزين بالنون، فحذفت النون للإضافة. والمعجزون جمع المعجز، وهو اسم فاعل (أعجزه) العرب تقول: «أعجزه يُعجزه» إذا صار غير قادر عليه. أنكم لا تفوتونه ولا تتعذرون عليه، بل أنتم في قبضته وتحت سلطانه وقهره، هو قادر عليكم واعلموا أيضاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢] المخزي: اسم فاعل أخزى، ومعنى إخزائه للكافرين: أنه مذلهم ومهينهم، يذلهم في الدنيا بالقتل والأسر، ويهينهم بذلك وفي الآخرة بعذاب الله، كما سيأتي في قوله: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ الآية [التوبة: آية ١٤] وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ جملة معطوفة على جملة؛ لأن جملة: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ [التوبة: آية ٣] معطوفة على قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [التوبة: آية ١] ويجوز في قوله: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من الإعراب الوجهان الجائزان في

(براءة)[١] يجوز أن يكون (أذان) خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا أذان من الله. ويجوز أن يكون (أذان) مبتدأ سوغ الابتداء فيه بالنكرة كونها وُصفت بقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾.

والأذان معناه: الإعلام، وهو اسم مصدر (أذَّن) (يؤذِّن) (أذاناً)، (وآذن) (يوذن) (أذاناً) والعرب ربما جعلت (الفَعَال) قائماً مقام «التفعيل»؛ لأن العرب تقول: آذنته أعلمته، وأذّنت أعلمت. ومعروف في علم التصريف أن (فعّل) بالتضعيف ينقاس مصدرها على (التفعيل)، ولكنه يُسمع كثيراً إتيان المصدر منها على (الفَعَال) كما قالوا: سلّم عليه سلاماً، أي: تسليماً. وكلّمه كلاماً، أي: تكليماً. وطلّقها طلاقاً، وبيّنه بياناً. إلى غير ذلك من الأوزان. وكذلك ربما جاء (الفَعَال) في موضع (الإفعال) كقول العرب: آمنته أُوْمِنُه إيماناً. إذا جعلته في أمان. فإنهم يقولون: آمنه أماناً، وآذنه أذاناً، أي: أعلمه إعلاماً. والأذان في لغة العرب: الإعلام. قال بعض العلماء: هو الإعلام المقترن بنداء؛ لأن اشتقاقه من الأُذن؛ لأن النداء يقع في الأذن فيحصل بذلك الفهم والإعلام، ومنه الأذان للصلاة؛ لأنه إعلام بها بنداء. وكون الأذان بمعنى الإعلام معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الحارث بن حلِّزة[٢]:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ ... رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

يعني أعلمتنا ببينها.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا الأذان كائن مبدؤه من الله ورسوله ﴿إِلَى﴾ جميع ﴿ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: آية ٣] أصل الحج في لغة العرب جرى على ألسنة العلماء أنهم يقولون: الحج في اللغة القصد[٣]. والحج في لغة

(١) انظر: الدر المصون (٦/٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: القاموس (مادة: الحج) ٢٣٤، المفردات (مادة: حج) ٢١٨، المصباح المنير (مادة: حج) ص٤٧.

العرب أخص من مطلق القصد؛ لأن الحج في اللغة لا يكاد تطلقه العرب إلا على قصد متكرر لأهمية في المقصود. فكل حج قصد، وليس كل قصد حجاً؛ لأن الحج هو القصد المتكرر لأجل الأهمية الكائنة في المقصود. وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول المخبَّل السعدي حيث قال[١]:

أَلَمْ تَعْلَمي يا أُمَّ أسعد أنما تَخَطَّاني رَيْبُ المنون لأكْبَرا
وأشهدُ من عوفٍ حُلُولاً كثيرةً يحجُون سِبَّ الزِّبْرِقان المُزَعْفَرا

«سِبَّه» يعني به عمامته، أي: يقصدون عمامته ـ عبر بها عن شخصه ـ قصداً كثيراً متكرراً لأهمية ما يرونه عنده من النوال هذا أصل الحج.

ومعروف أن الحج في اصطلاح الشرع[٢]: هو الأفعال والأقوال التي تقال في المنسك المعروف.

قال بعض العلماء: وإنما قال له الأكبر؛ لأن العرب ربما كانوا يقولون: حج أصغر، وحج أكبر، يعنون بالأصغر: العمرة لنقصان أعمالها عن أعمال الحج[٣].

واختلف العلماء في يوم الحج الأكبر[٤] فذهبت جماعة من العلماء إلى

---

(١) البيتان في المشوف المعلم (١/٢٣١)، ولفظ البيت الأول فيه:
ألم تعلمي يا أم عمرة أنني تخطاني ريب الزمان لأكبرا

(٢) انظر: القاموس الفقهي ص(٧٦ ـ ٧٧).

(٣) انظر: التمهيد (١/١٢٥)، ابن جرير (١٤/١٢٩)، وابن أبي حاتم (٦/١٧٤٧)، والبغوي (٢/٢٦٨)، وابن عطية (٨/١٢٨)، والمجموع (٨/٢٢٣)، وابن كثير (٢/٣٣٢)، والدر المنثور (٣/٢١١)، حصول الأجر في أحكام وفضل العمل في أيام العشر ص١٢٢.

(٤) انظر: سنن سعيد بن منصور (٥/٢٣٦ ـ ٢٤١)، التمهيد (١/١٢٥)، ابن جرير (١٤/١١٣)، القرطبي (٨/٦٩)، المجموع (٨/٢٢٣)، تفسير البغوي (٢/٢٦٨)، تفسير ابن عطية (٨/١٢٧)، تهذيب السنن لابن القيم (٢/٤٠٦)، زاد المعاد (١/٥٤)، تفسير ابن كثير (٢/٣٣٢ ـ ٣٣٥)، فتح الباري (٨/٣٢١)، الدر المنثور (٣/٢١١)، حصول الأجر في أحكام وفضل العمل في أيام العشر ص١١٦.

أن المراد به يوم عرفة. وعليه فمبدأ النداء بالأربعة الأشهر كائن ابتداء تأجيله من يوم عرفة. وقالت جماعة آخرون: هو يوم النحر. وخلاف العلماء في يوم الحج الأكبر هل هو يوم عرفة أو يوم النحر مشهور معروف، وكان بعض المحققين يختار أنه يوم النحر لأمور، منها: أنه جاءت بذلك روايات صحيحة، كرواية أبي هريرة في صحيح البخاري[1]. وقالوا: ولأن أكثر أفعال الحج إنما تكون يوم النحر؛ لأنه هو اليوم الذي يطاف فيه طواف الإفاضة، وينحر فيه، ويحلق فيه، ويقضى فيه التفث، وأن يوم عرفة لا يختص بشيء خاص من مناسك الحج؛ لأن الوقوف وإن كان ركناً من أركان الحج فنفس اليوم لا يختص به عن الليلة لإجماع العلماء على أن من وقف بعرفة ليلة النحر أن ذلك يجزئه، بعضهم يقول: يلزمه دم لفوات النهار، وبعضهم يقول: حجه كامل ـ كمالك وأصحابه ـ ولا دم عليه. وقولهم: «الحج عرفة»، قالوا: لا يرد على هذا؛ لأن عرفة شامل لليل والنهار، فالوقوف الذي هو الركن الأعظم في الحج يكون في الليل، ولا يشترط أن يكون في النهار، والكلام في خصوص اليوم.

وقال بعض العلماء: يوم الحج الأكبر هو جميع أيام الحج؛ لأن العرب تقول: يوم صفين، ويوم الجمل، ويوم بُعَاث، وهو زمن يتناول أياماً معدودة متعددة، وأنه يشمل الجميع. وهذا أيضاً لا بأس به.

وجمهور العلماء على أن ابتداء تأجيل هذه الأشهر الأربعة هي من يوم النحر، وأن انقضاءها في العاشر من ربيع الثاني؛ لأن هذه الأشهر الأربعة عشرون منها من ذي الحجة من يوم الحج الأكبر، ثم منها المحرم كاملًا، وصفر كاملًا، وربيع الأول كاملًا، وعشر من ربيع الثاني، فتتم هنالك الأشهر الأربعة، وعلى هذا جماهير العلماء.

وقد اشتهر قول هنا عن الزهري لا شك في غلطه، وإن كان قائله جليلًا؛ لأنهم ذكروا عن الزهري (رحمه الله) أن أول هذه الأشهر الأربع أنه من ابتداء

---

(١) ولفظه: «بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين، بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى...» البخاري في التفسير، باب ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا ...﴾ حديث رقم: (٤٦٥٥) (٣١٧/٨).

شوال، وأنها شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وتنتهي بانتهاء المحرم[١]. وهذا لا يتمشى مع أن ابتداء الأذان صرح الله بأنه يوم الحج الأكبر. فالتحقيق هو ما قاله الجمهور لا ما قاله الزهري (رحمه الله)، إن صح عنه فهو غلط منه. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ عامة ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ هذا الإعلام هو إعلام بأن الله بريء من المشركين، ورسوله بريء منهم أيضاً، فالله بريء من المشركين بريء من ذمتهم وعهدهم، لا عهد لهم عليه يأمر به، ولم يلتزم لهم بشيء، وكذلك رسوله ﷺ.

ثم قال لهم: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ عن ذنوبكم وكفركم وشرككم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وصيغة التفضيل هنا ليست على بابها؛ لأن الكفر بالله لا خير فيه أصلًا، فلا معنى للتفضيل فيه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: ثبتم على كفركم وما أنتم عليه من الشرك.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ فسرناه الآن.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ اعلم أن التحقيق أن (البشارة) في لغة العرب هي الإخبار بما يسر، والإخبار بما يسوء أيضاً. فمن أخبرته بما يسره فقد بشرته، ومن أخبرته بما يسوؤه فقد بشرته[٢]؛ ولذا قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: آية ٢١] والقرآن في غاية الفصاحة والإعجاز، وإطلاق البشارة على الإخبار بما يسر معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[٣]:

أبشرتني يا سعدُ أنَّ أحبتي   جَفُوني وقالوا الودُّ موعدُه الحشْرُ

وقول الثاني[٤]:

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/١٠١)، وابن أبي حاتم (٦/١٧٤٧)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٢/٤١٢)، وذكره السيوطي في الدر (٣/٢١١) وعزاه لعبدالرزاق وابن أبي حاتم.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

يُبَشِّرني الغرابُ ببينِ أَهْلي فقلتُ له ثَكِلْتُكَ من بشيرِ

هذا هو التحقيق أنها أساليب عربية، وأن البشارة تغلب للإخبار بما يسر، وأنها تطلق على الإخبار بما يسوء، هذا هو الظاهر، ومعلوم أن علماء البلاغة يقولون: إن البشارة حقيقة في الإخبار بما يسر، وأما البشارة بما يسوء فهي مما يسمونه الاستعارة (العنادية) المعروفة عندهم، وهي منقسمة إلى تهكمية وتمليحية كما هو معروف مقرر في علم البيان عند أهله[١].

ونحن نقول دائماً: إن مثل هذا أساليب عربية نطقت بها العرب، وكلها أسلوب عربي فصيح في محله، وهذا معنى قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ﴾ [آل عمران: آية ٢١] الظاهر أن تنكير العذاب هنا للتفخيم والتعظيم، ومن المعاني التي يستجلب لها التنكير: التفخيم والتعظيم، ويدل على هذا قوله: ﴿أَلِيمٌ﴾ والأليم: (فَعِيْل) بمعنى (مُفْعِل) أي: مؤلم. واعلم أن إتيان (الفعيل) بمعنى (المُفْعِل) واقع في القرآن وفي كلام العرب، فما ذكروا عن الأصمعي أن (الفعيل) لا يكون في اللغة بمعنى (المُفعل) فهو خلاف التحقيق[٢]. فمعنى أليم: مؤلم، أي: شديد الألم، وإتيان (الفعيل) بمعنى: (المُفْعِلْ) أسلوب عربي معروف يكثر في كتاب الله وفي لغة العرب، ومن إتيانه في القرآن قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: آية ٤٦] وقوله: ﴿نَذِيرٌ﴾ أي: منذر فهو (فعيل) بمعنى (مُفْعِل) ﴿أَلِيمٍ﴾. بمعنى مُؤلم. وقوله: ضرب وجيع. بمعنى: موجع، وهذا معنى معروف في كلام العرب، وله أمثلة في القرآن كقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ﴾ [البقرة: آية ١١٧] أي: مبدعهما ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: منذر، ومن نظائره من كلام العرب قول غيلان بن عقبة ذي الرمة[٣]:

ويرفع من صدر شَمَرْدَلاَتٍ يصُكُّ وجوهها وهَجٌ أليم

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.
(٣) السابق.

وقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي (رضي الله عنه)[١]:

أَمِنْ ريحانةِ الداعي السَّميعِ يُؤرِّقُني وأصْحابِي هُجُوعُ

فقوله: «السميع» يعني: المسمع. وقوله في قصيدته هذه[٢]:

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ تحيةُ بينهم ضربٌ وجيعُ

أي: ضرب موجع. وهذا معنى قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: آية ٣].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤].

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾ استثناء من قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: الآيتان ١، ٢] هذه البراءة والتأجيل بخصوص أربعة أشهر لجميع الكفار المعاهدين وغيرهم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ [التوبة: آية ٤] ثم وفوا لكم بالعهود ولم ينقصوكم شيئاً، وكان بعض العلماء يقولون[٣]: هؤلاء أهل مكة، ومعلوم أن أهل مكة نقضوا. والتحقيق أنها في قبائل من كنانة بقوا على عهدهم ولم ينكثوا فأُمر النبي ﷺ بأن يفي لهم بعهدهم حتى تنتهي مدتهم، ومعلوم أن صلح الحديبية قد عاهد النبي فيه قبائل من كنانة، ذكرنا أن منهم بني الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وبني ضمرة، وبني مدلج، وبني جذيمة بن عامر، وقد قدمنا في تفسير سورة النساء في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٨٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [النساء: الآيتان ٨٩، ٩٠] إن هؤلاء القوم الذين بينكم وبينهم ميثاق الذين شرطوا أن من وصل إليهم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

(٣) انظر: ابن جرير (١٤/١٣٣).

فحكمه كحكمهم، منهم هلال بن عويمر الأسلمي، وسراقة بن مالك بن جعشم حيث عقد العهد لبني مدلج مع النبي ﷺ، وبنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، فهؤلاء القبائل كانت أربع قبائل من كنانة، وكان غيرهم عقد ذلك، كبني أسلم عقد لهم الصلح هلال بن عويمر الأسلمي، فهؤلاء لم ينقضوا.

وجرى على ألسنة علماء التفسير(١) أنه في هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: آية ٤] وفي الآية الآتية: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٧] يقولون: هؤلاء الذين ثبتوا وأمر النبي أن يفي لهم بعهدهم حتى تنقضي مدتهم هم خصوص بني ضمرة من قبائل بكر بن عبد مناة بن كنانة، ومنهم عمرو بن أمية الضمري المشهور. والتحقيق أن قبائل كنانة لم يُعرف أنه نقض منهم العهد إلا بنو الديل هم وقريش، أما قبائلهم الأخرى كبني جذيمة بن عامر وبني مدلج وبني ضمرة فلا يعلم أنهم نقضوا عهد رسول الله ﷺ وإن جرى على ألسنة العلماء أنها في خصوص بني ضمرة دون غيرهم من قبائل كنانة، ومعنى الآية الكريمة: هذا الحكم الذي ذكرنا من نقض العهود وتأجيلهم أربعة أشهر فقط، كل هذا في جميع المعاهدين ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ﴾ من الشروط التي اشترطتم عليهم شيئاً، ولم يخيسوا بشيء من عهدكم، ولم ينقصوكم مالاً ولا نفساً ولا دماً، بل ثبتوا على عهدهم ولم ينقضوا، ولم يظاهروا عليكم أحداً، ولم يعينوا عليكم أحداً كقريش الذين أعانوا بني الديل بن بكر على خزاعة ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ ولا تعدوا عليهم حتى ينتهي عهدهم كاملاً إلى مدتهم التي اتفقتم أنتم وهم عليها أنها مدة الصلح والمهادنة بينكم حتى تنقضي.

(١) انظر: القرطبي (٨/٧١).

قال بعض العلماء: كان وقت نزول هذه البراءة بقي من عهد هؤلاء تسعة أشهر فأمر النبي ﷺ أن يفي لهم بها[١]. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤] ومن المتقين الذين يوفون بعهدهم ولا ينقضونه، فدلت الآية على أن الوفاء بالعهود وعدم النكث والنقض أنه من تقوى الله (جل وعلا) وهو كذلك.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٢] أن المتقين جمع تصحيح للمتقي، وأن أصل هذه المادة من (وقى)، ففاء هذه المادة واو، وعينها قاف، ولامها ياء. مادة التقوى فاؤها واو، وعينها قاف، ولامها ياء، فهي مما يسميه الصرفيون «اللفيف المفروق» هذا أصلها، إلا أنها دخلها تاء الافتعال كما تقول في قرب: اقترب، وفي كسب: اكتسب، وفي قطع: اقتطع، وفي «وقى» اوتقى.

والقاعدة المقررة في التصريف: أن كل فعل (مثال) ـ أعني معتل الفاء بالواو ـ إذا دخله تاء الافتعال وجب إبدال الواو تاء، وإدغام التاء في التاء، فقيل فيها: «اتقى». هكذا[٣].

وأصل الاتقاء في لغة العرب[٤]: هو أن تتخذ وقاية تكون بينك وبين ما تكرهه فتقيك منه. تقول العرب: اتقيت الرمضاء بنعلي، واتقيت السيوف بمجني، ومنه قول نابغة ذبيان[٥]:

سَقَطَ النَّصِيْفُ ولم تُرِدْ إسْقاطَهُ   فَتَنَاولَتْهُ واتَّقَتْنا باليَدِ

أي: جعلت يدها وقاية بيننا وبين وجهها. وتفسير من قال: اتقتنا: استقبلتنا. تفسير بالمعنى الإجمالي لا بالحقيقة. وهذا أصله معنى التقوى.

---

(١) انظر: البحر المحيط (٨/٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

وهي في اصطلاح الشرع: أن يجعل العبد وقاية بينه وبين عذاب ربه، هذه الوقاية مركبة من شيئين هما: امتثال أمر الله، واجتناب نهي الله[1]، والوفاء بالعهود من ذلك؛ لأن الوفاء بالعهود امتثال لأمر الله، وترك النقض انتهاء عما نهى الله عنه. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤].

قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨﴾ [التوبة: الآيات ٥ ـ ٨].

يقول الله (جل وعلا): ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [التوبة: آية ٥].

اختلف العلماء في المراد بهذه الأشهر الحرم[2]: فقال بعض العلماء: المراد بها الأشهر الحرم المعروفة الآتي ذكرها في قوله في هذه السورة الكريمة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: آية ٣٦] وهذه الأشهر الأربعة الحرم ثلاثة منها سرد وواحد منها فرد، فثلاثتها المتتابعة هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وآخر: رجب الفرد. هذه هي الأشهر الحرم.

وقال بعض العلماء: هذه هي المراد هنا في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ وعلى هذا القول فالباقي عن انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النداء بهذه الآيات من أول براءة في موسم الحج عام تسع، الباقي منها خمسون يوماً

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/١٣٤)، القرطبي (٨/٧٢)، الأضواء (٢/٤٣٠).

فقط، وهي العشرون الباقية من ذي الحجة وتمام المحرم، فبانقضاء الخمسين تنتهي على هذا القول./ وهذا القول قاله بعض العلماء، وهو مبني على أن ١/ب
تحريم الأشهر الحرم لم ينسخ، ومعلوم أن العلماء مختلفون في تحريم الأشهر الأربعة المذكورة هل هو باق إلى الآن أو نسخ[١]؟ فكانت جماعة كثيرة من العلماء يقولون: إنه منسوخ. واستدلوا على ذلك بأن النبي ﷺ حاصر ثقيفاً في غزوة الطائف في ذي القعدة من عام ثمان، وهذا ثابت أن النبي ﷺ بعض الزمن الذي حاصر فيه ثقيفاً في غزوة الطائف كان من ذي القعدة[٢]. قالوا: فلو لم ينسخ تحريم الأشهر الحرم لكف وانصرف عنهم بإهلال ذي القعدة. وكنا نرى هذا القول أصوب، مكثنا كثيراً من الزمن ونحن ننصر هذا القول ونقرر أنه الأصوب، ثم ظهر لنا بعد ذلك أن أصوب القولين وأولاهما بالصواب أن تحريم الأشهر الحرم باقٍ لم ينسخ. ومن أصرح الأدلة في ذلك: أنه دلت عليه الأحاديث الصحاح في حجة الوداع في آخر حياة النبي ﷺ؛ لأن قوله (صلوات الله وسلامه عليه) في حجة الوداع قبل موته بنحو ثمانين يوماً قوله: «**إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**»[٣] نص دال على أن تحريم الأشهر الحرم

---

(١) انظر الناسخ والمنسوخ لأبي عبيد ص٢٠٦، الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/٥٣٥)، ابن جرير (٤/٣١٣)، القرطبي (٣/٤٣)، (٨/١٣٤)، ابن كثير (٢/٣٥٥).

(٢) البخاري في المغازي، باب غزوة الطائف في شوال. حديث رقم: (٤٣٢٥) (٨/٤٤). ومسلم في الجهاد والسير، باب غزوة الطائف. حديث رقم: (١٧٧٨) (٣/١٤٠٢) وليس في رواية الصحيحين ما يدل على أن بعض الحصار وقع في ذي القعدة. ولكن أشار إلى ذلك الحافظ في الفتح (٨/٤٤).

(٣) رواه عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، منهم:

١ ـ ابن عباس، عند البخاري في الحج، باب الخطبة أيام منى. حديث رقم: (١٧٣٩) (٣/٥٧٣) وطرفه (٧٠٧٩).

٢ ـ أبو بكرة (رضي الله عنه)، عند البخاري في الحج، باب الخطبة أيام منى. حديث رقم: (١٧٤١) (٣/٥٧٣) وأطرافه (٦٧، ١٠٥، ٣١٩٧، ٤٤٠٦، ٥٥٥٠، ٧٠٧٨، ٧٤٤٧) ومسلم في القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال. حديث رقم: (١٦٧٩) (٣/١٣٠٥).

٣ ـ عبدالله بن عمرو، عند البخاري في الحدود، باب ظهر المؤمن حمى إلا في حد =

باقٍ لم ينسخ، وهذا هو الأظهر، والله أعلم.

القول الثاني في هذه الآية الكريمة: أن المراد بقوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ أنها أشهر الإمهال الأربعة التي قدمنا بالأمس أن التحقيق أن أولها من يوم النحر من ذي الحجة عام تسع، وأنها تنقضي بالعشر من ربيع الثاني من ذلك العام، وإنما قيل لها «حُرُم» لأن الله حرّم فيها قتال المشركين، وقال لهم فيها: سيحوا في الأرض أربعة أشهر، أي: آمنين مدبرين ومقبلين، قتالكم والتعرض لكم حرام. وهذا أظهر القولين هنا؛ لأن اللام في قوله: ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ [التوبة: آية ٥] الألف واللام فيها للعهد، والأشهر الحُرم المذكورة لم تكن معهودة هنا، والمعهود هنا هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: آية ٢] وعلى هذا فانسلاخها هو ما قدمنا بعد انتهاء العشر الأول من ربيع الثاني كما لا يخفى. وقد بيّنا أن قول الزهري (رحمه الله) أن ابتداء أشهر الإمهال من شوال[1] [أنه إن صح عنه فهو غلط منه. والصحيح قول الجمهور، وهو أن ابتداء تأجيل هذه الأشهر الأربعة من يوم النحر، وتنقضي في اليوم العاشر من ربيع الثاني].

وانسلاخ الأشهر: معناه انقضاء مدتها، يقول العرب: «انسلخ الشهر، وانسلخ العام» إذا مضى زمانه، وسلخته: إذا كنت في آخر يوم من أيامه وقد مضى علي. وهذا معروف في كلام العرب[2]، ومنه قول لبيد في معلقته[3]:

حتّى إذا سَلَخا جُمَادى ستَّةً جُزْءاً فطَالَ صيامُه وصيامُها

= أو حق. حديث رقم: (٦٧٨٥) (١٢/٨٥) وأطرافه (١٧٤٢، ٤٤٠٣، ٦٠٤٣، ٦١٦٦، ٦٨٦٨، ٧٠٧٧) ومسلم في الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ: **«لا ترجعوا بعدي كفاراً...»** حديث رقم: (٦٦) (١/٨٢).

٤ ـ سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه. عند الترمذي في التفسير، باب: ومن سورة التوبة. حديث رقم: (٣٠٨٧) (٥/٢٧٣). وأخرجه في موضع آخر، حديث رقم: (٢١٥٩). وقال: وفي الباب عن أبي بكرة وابن عباس وجابر وحُذيم بن عمرو السعدي.

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) انظر ابن جرير (١٤/١٣٣ ـ ١٣٤)، القرطبي (٨/٧٢)، الدر المصون (٦/١١).

(٣) شرح القصائد المشهورات (١/١٤٤).

والأَشْهُر: جمع شهر. و«الأفعُل» جمع قِلّة؛ لأنها أربعة.

والحُرم: جمع حرام، وهو الصفة المشبهة من حَرُمَ الشيء فهو حرام.

وإنما قيل للواحد منها «حرام» لأن الله حرّم فيه القتال[١]. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ على القولين المذكورين ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يشركون بالله (جلّ وعلا)، اقتلوهم كلهم ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (حيث): كلمة تدل على المكان، كما تدل (حين) على الزمان، وربما ضُمنت معنى الشرط، ويجوز فيها لغةً لا قراءة إبدال يائها واواً وتثليث ثائها[٢].

ومعنى ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾: في أي مكان من أمكنة الأرض وجدتموهم فاقتلوهم. وقال بعض العلماء: هذا ما لم يكونوا في الحرم[٣]. وقال: عموم هذه الآية يخصصه عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: آية ١٩١]. وعلى هذا القول يكون القتال لا يجوز في الحرم إلا إذا بدؤوا بالقتال. بهذا قال جماعة من العلماء. وقال جماهير من أهل العلم: إنهم يقتلون في كل مكان، كما دلّ عليه عموم (حيث) هنا، وإن كانوا في الحرم. قالوا: أمّا آية: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ﴾ [البقرة: آية ١٩١] فإنها كانت من مراحل تشريع القتال. وإيضاح هذا المعنى: أنه جرت العادة في كتاب الله أن الله (تبارك وتعالى) إذا أراد أن يُشرِّع أمراً عظيماً شاقاً تشريعه على النفوس إنما يُشرِّعه على سبيل التدريج لا مرة واحدة؛ لأنه حكيم عليم. وهذا أمثلته كثيرة: فمنها: أنه لمّا أراد تحريم الخمر وكانت ـ قبّحها الله ـ تصعب مفارقتها على من ألفها وتعهّدها حرّمها

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٣٦)، القرطبي (٨/٧٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٣) انظر: القرطبي (٢/٣٥١، ٨/٧٣).

تدريجاً، ذمّها أولاً فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: آية ٢١٩] فبدأ بعيبها، وأن فيها الإثم الكبير، وقال: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ لتبتدىء نفس المؤمن تشمئز منها، ثم بعد ذلك حرمها في أوقات الصلاة، يعني أنها حُرمت عليهم في بعض الأوقات دون بعض، فحرّم عليهم شربها في الوقت التي تقرب فيه أوقات الصلاة، وكانوا إذاً لا يشربونها إلا من بعد صلاة الصبح؛ لأن من شربها بعد صلاة الصبح يصحو قبل صلاة الظهر، وكذلك بعد صلاة العشاء؛ لأن مَن شربها بعد صلاة العشاء يصحو عادة قبل صلاة الصبح، أمّا غير هذا من الأوقات فحرُم عليهم شربها، كما قال تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: آية ٤٣]. ثم لما أَنِست نفوسهم بتحريمها في الجملة، وعيبها أولاً، حرّمها تحريماً باتاً في سورة المائدة بقوله: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: آية ٩٠] وعلق الفلاح على اجتنابه، فكان هذا أسهل للتدريج الذي وقع في تحريمها.

وكذلك لمّا أراد تشريع الصوم ـ والصوم عبادة شاقّة على النفوس؛ لأن فيها منع البطون والفروج عن شهواتهما ـ شرّعها تدريجاً: كان أول ما بُدِىء: وجوب الصوم بثلاثة أيام من كل شهر مثلًا، ثمّ لما فُرِض رمضان فُرِض أولًا على سبيل الخيار بين الصوم وبين الإطعام كما تقدّم في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: آية ١٨٤] فلما أَنِسَتْ النفوس بالصوم في الجملة وتمرنتْ عليه أوجب الصوم إيجاباً تاماً بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: آية ١٨٥].

وكذلك القتال ـ وهو محل الشاهد ـ لمّا كان عظيماً شاقاً على النفوس؛ لما فيه من تعريض المُهج والأموال للتلف أذِن فيه أولًا من غير أمْرٍ به في قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: آية ٣٩]. أَذِنَ فيه أولاً ثم بعد ذلك أوجبهُ في حال دون حال، فأوجب عليهم قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم

ـ وهو محل الشاهد ـ في قوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: آية ١٩١] ثم لمّا استأنست النفوس بالقتال وتمرنت عليه أوجبه إيجاباً باتاً عاماً بقوله هنا: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥].

فهذه الآية الكريمة قوله: ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هو صيغة عموم، فالألف واللام فيه تدل على العموم؛ لأن (المشركين): جمع (المشرك)، وهو اسم فاعل، والألف واللام الداخلتان على اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة ـ على أحد القولين ـ يقول علماء العربية: إنها موصولة، والموصولات من صيغ العموم كما تقرر في الأصول[١]. وعلى القول بأن هذا اللفظ قد تُتناسى وصفيته فتكون الصفة غير صريحة فيؤول إلى الأسماء ـ أسماء الأجناس الجامدة ـ فيكون عموماً، فهو لفظ عام على كلا التقديرين يصدق بكل مشرك، إلا أن النبي ﷺ بيّن تخصيص هذا العموم بنهيه عن بعض من يتصف بالشرك، من ذلك: النساء والصبيان من الكفار فإنهم من المشركين، وقد نهى ﷺ عن قتلهم، وكذلك الرهبان في الصوامع نهى عن قتلهم، وكذلك الشيوخ الفانية نهى عن قتلهم، إلا إذا كان الشيخ الفاني يُستعان برأيه فإنه يُقتل؛ لأن رأيه عظيم على المسلمين؛ ولأجل ذلك قتل الصحابة دُريد بن الصمة يوم حنين، وكان ذا شيبة أعمى للاستعانة برأيه؛ لأنه وضع لهم الرأي الحكيم السديد، وخالفه مالك بن عوف النصري كما سيأتي إيضاحه في غزوة حنين في هذه السورة الكريمة. وكذلك المُعاهدون.

وهذه الآية الكريمة قال بعض العلماء[٢]: قد لا تتناول أهل الكتاب؛ لأن آيتهم مذكورة في هذه السورة؛ لأن الله يقول: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: القرطبي (٨/٧٢).

صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: آية ٢٩] فالكتابي إذا أعطى الجزية يخرج من عموم هذه الآية.

واعلم أن بعض العلماء[1] قالوا: إن الكتابيّ لا يدخل في اسم المشركين. قالوا: لأن الله غاير بينهما في آيات كثيرة كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: آية ١] فعطف المشركين على أهل الكتاب، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: آية ٦] وقال: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ [آل عمران: آية ١٨٦]. وقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ﴾ الآية [المائدة: آية ٨٢] فَدَلَّت هذه الآية على المغايرة بين المشركين وأهل الكتاب، والتحقيق أنَّ الكتابيين نوعٌ من المشركين، وقد أوضح الله في هذه السورة الكريمة أنَّ أهل الكتاب من المشركين حيث قال فيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: آية ٣١] فَصرَّح تعالى بأنهم مشركون إلا أنَّهم نوعٌ خاصٌّ من المشركين، ربما أُدخِل في عمومهم، وربما أُفرد منهم، كأنَّه غيرُ داخلٍ فيهم؛ للفوارق التي بين الكتابيين وعبَدَة الأصنام كما هو معروف، وهذا معنى قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥].

قال بعض العلماء: يؤخذ من عموم هذه الآية أنَّ المسلم لو قدر على اغتيال الحربي لجاز له أن يغتاله.

وأخذ بعض العلماء من هذا قالوا: إذا لم يُقدر عليهم إلا بالقتل بالنار كالضرب بمنجنيق من بعيدٍ ونحو ذلك، أنَّ هذا يتناوله العموم[2]. وبعض العلماء يقول: هذا مُثْلة، وقد نهىٰ ﷺ عن المُثلة[3]. وهذا معنى قوله:

---

(١) السابق.

(٢) انظر: السابق (٨/٧٢).

(٣) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمُجثَّمة. حديث رقم: (٥٥١٦) (٩/٦٤٣) من حديث عبدالله بن يزيد (رضي الله عنه).
وأخرجه في المغازي (باب قصة عكل وعرينة) عن قتادة - بلاغاً - «بلغنا أن النبي ﷺ =

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي: في أي مكانٍ من أمكنةِ الأرض وجدتموهم.

وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ يعني: بالأسر، فمعنى ﴿وَخُذُوهُمْ﴾: أؤسروهم.

وهذه الآية الكريمة من براءة - وهي من آخر ما نزل من القرآن - تدل على أنه يجوز قتل المشركين وأخذهم بالأسْر. وقال بعض العلماء: هذه الآية من سورة براءة نسخت قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: آية ٤] فليس هناك إلا القتل(١). وقال بعض العلماء: بل آية القتال هي التي نسخت آية براءة، فلا يقتل الأسير، إما أن يُمَنَّ عليه وإما أن يُفدى(٢).

والتحقيق: أنَّ كل هذه الآيات محكم، وأنها لا ينسخ بعضها بعضاً؛ لأن النبي ﷺ منذ قاتل الكفار، ربما قتل الأسير، وربما فدى الأسير، وربما مَنَّ على الأسير، كل هذا يفعله ﷺ، فمعلومٌ أنَّه قتل بعض الأُسارى يوم بدر، قتل النضر بن الحارث يوم بدر أسيراً(٣)، وقتل عقبة بن أبي معيط يوم بدرٍ أسيراً(٤)، وقد دلت القصة التي ذكرناها في غزاة بدر في سورة الأنفال على أنَّ قتله للنضر بن الحارث لم يكن عن وحي(٥)، ولذا لما جاءه شعر أخته - أو ابنته - قُتيلة بنت الحارث - أو قُتيلة بنت النضر بن الحارث - لما أرسلت شعرها المشهور إلى النبي ﷺ الذي أبكاه حتى أخضل الدمع لحيته،

= بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة». وقد وصله الحافظ (رحمه الله) في الفتح (٤٥٩/٧).

وفي الباب أحاديث كثيرة رواها جماعة من الصحابة منهم: يعلى بن مرة، والمغيرة بن شعبة، وعمران بن حصين، والحكم بن عمير، وعابد بن قرط، وعلي بن أبي طالب، وأبو أيوب الأنصاري، وابن عمر، وزيد بن خالد، وأسماء بنت أبي بكر، وعمر بن الخطاب، وغيرهم (رضي الله عنهم أجمعين).

(١)(٢) انظر: القرطبي (٧٢/٨).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

وقال فيه: «**لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوتُ عنه**»[(١)] فدلَّ على أنَّه لم يقتله بوحي من الله. وشعرها مشهورٌ قدمناه برمته في سورة الأنفال[(٢)]، تقول فيه:

يا راكباً إن الأثيل مَظِنَّةٌ ... من صُبحِ خامِسةٍ وأنتَ مُوفَّقُ
أبلغْ بها مَيْتاً بأن تحيةً ... ما إن تزالُ بها النجائبُ تَخْفِقُ
مني إليك وعبرةً مسفوحةً ... جادتْ بواكِفِها وأُخرىٰ تخنُقُ
هل يسمعنَّ نضرُ إن ناديتُه ... أم كيف يسمعُ ميِّتٌ لا ينطقُ
أمحمدٌ يا خيرَ ضِنْءِ كريمة ... في قومها والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ
ما كان ضركَ لو مَنَنْتَ وربَّما ... منَّ الفتى وهو المغيظُ المُحْنَقُ
فالنضر أقربُ من أَسَرْتَ قرابةً ... وأحقُّهم إن كان عتقٌ يُعتقُ
ظلَّتْ سيوفُ بني أبيه تنوشُه ... للَّه أرحامٌ هناك تُشقَّقُ
صبراً يُقادُ إلى المنيةِ مُتْعباً ... رسْفُ المقيَّدِ وهو عانٍ مُوثقُ

فهذا يدل على أنَّ الأمر في ذلك إلى الإمام، إن رأى المصلحة للمسلمين القتل قَتَل، وإن رأى أنها الفداء فدى، وإن رأى أنها المنُّ مَنَّ، وهذا هو التحقيق ـ إن شاء الله ـ وأنَّ الآياتِ كلها محكمة لم ينسخ بعضها بعضاً، والنبي ﷺ قد فعل كل ذلك، أطلق أبا عزةَ في غزاة بدر لما قال له: إنَّه ذو بنات. ولما أمسكه بحمراء الأسد من صبيحة أُحد بعد أن اشترط عليه ألَّا يعين عليه المشركين وقال له: يا محمد، عفوك مرةً أخرى. فقال له: لا والله، لا تحك عارضيك بين نساء مكة وتقول: غررت محمداً مرتين!! فقتله (صلوات الله وسلامه عليه)[(٣)]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَٱقۡتُلُوا

---

(١) السابق.

(٢) السابق. وقد سقط بعد البيت الخامس بيت من القصيدة، وهو قولها:

أو كنتَ قابلَ فديةٍ فَلَيُنفقَن ... بأعزِّ ما يغلو به ما يُنفِقُ

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٦/٣٢٠)، (٩/٦٥)، وأورده الشافعي في الأم (٤/٢٣٨)، وابن سعد في الطبقات (٢/٣٠)، والطبري في تاريخه (٣/١٠)، وابن هشام في سياقه لغزوة أُحد.

﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ﴾ [التوبة: آية ٥] بالأسر ﴿وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾ معناه: ضيقوا عليهم واحصروهم في معاقلهم حتى لا يستطيعوا أن يخرجوا وينتشروا في الأرض، فضلًا عن أن يصلوا إليكم، فالمراد بالحصر هنا: حصرهم في أماكنهم وفي معاقلهم، والتضييق عليهم ومنعهم من الانتشار في الأرض. هذا معنى قوله: ﴿وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾.

﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾: المراد بالمرصد هنا: اسم مكان، وقد تقرر في فن التصريف: أن جميع المصادر الميمية، وأسماء الأمكنة، وأسماء الأزمنة إذا لم تكن يعني: من واوي الفاء كانت كلها على (مَفْعَل)، إلا اسمُ الزمان والمكان خاصة إذا كان من (فَعَلَ) بالفتح (يَفْعِلُ) بالكسر[1]. والمرصد هنا: القياس فيه: (المَفْعَل) وهو اسم مكان. معناه: مكان الرصد. والرصد: هو مراقبة الشيء ليُتمكن منه في حالة غِرته.

﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ أي: في كل مكانٍ ترصدونهم وترقبونهم فيه، حتى يمروا عليكم فتأخذوهم، فكل شيء هو في طريق شيء مختفياً عنه لتمكنه غرته فهو رصد له. وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول عامر بن الطفيل[2]:

ولقد علمت وما إخالك ناسياً ... أنَّ المنية للفتىٰ بالمَرْصَدِ

ومن هذا قولُ الآخر، وهو عدي بن زيد حيث قال[3]:

أَعاذلَ إن الجهل من لذة الفتى ... وإنَّ المنايا للنفوس بمرصدِ

ومن هذا معنى قوله: ﴿يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ [الجن: آية ٩] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾ [الفجر: آية ١٤] فمعنى: ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾: اقعدوا لهم في جميع الطرق التي ترصدونهم فيها ليمروا عليكم في حال غرتهم فتتمكنوا منهم. والعرب تقول للإنسان الذي يختفي عند الماء لترد

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٨٣ ـ ٨٤).

(٢) البيت في القرطبي (٨/٧٣).

(٣) السابق.

عليه الوحش في الليل فيرميها: هذا راصد لها، ومكانه الذي هو فيه: مرصدٌ لها، وهذا معنى معروف.

وقوله: ﴿كُلَّ مَرْصَدٍۚ﴾: قال بعض العلماء: هو منصوبٌ على أنَّه ظرف، ولمَّا قاله الزجاج[1] غلَّطهُ فيه أبو عليٍّ الفارسي[2] وقال: إنَّ مثل هذا لا ينصب على الظرف؛ لأنَّ الطريق مكانٌ محصور كالمسجد والبيت، فلا يكون ظرفاً، وإنما هو منصوبٌ بنزع الخافض، ويدل على أنه منصوبٌ بنزع الخافض: هو ما قدمنا في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: آية ٨٦] فعدَّاهُ بالباء التي هي حَرفُ الجر، ومعلومٌ عند علماء العربية أنَّ النصب بنزع الخافض لا يكون على المشهور قياساً مطرداً، يُحفظ ما سُمع منه ولا يقاس عليه، خلافاً للأخفش الصغير، وهو علي بن سليمان؛ لأنه يقول: إنَّ النزع بالخافض مطردٌ في كل ما أُمِنَ فيه اللبس، وقد عقد مذهبه ابن مالكٍ في الكافية فقال[3]:

وابنُ سُليمانَ اطرادَه رَأى ... إنْ لم يُخَفْ لَبْسٌ كـ (مَنْ زَيْداً نَأى)

وعلى هذا فمعنى ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ﴾: اقعدوا لهم في كل طريق ترقبونهم وترصدونهم فيها حتى تأخذوهم في غرتهم، وعلى هذا فهو منصوبٌ بنزع الخافض. ونظيره من كلام العرب - في نصب الطريق، المرصد: هو الطريق، في نصبه وتقدير حرف الجر الذي هو منصوبٌ بنزعه - قول ساعدة بن جُؤَيَّة الهذلي في بيته المشهور الذي هو من شواهد سيبويه في كتابه[4]:

لَدْنٌ بِهَزِّ الكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ ... فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ

يعني: كما عسل - أي: جرى العَسَلان - الثعلبُ في الطريق.

---

(١) معاني القرآن (٢/٤٣١).
(٢) انظر: الدر المصون (٦/١١).
(٣) شرح الكافية (٢/٦٣٣).
(٤) الكتاب (١/٣٦، ٢١٤).

وقال بعضُ العلماء: اختار بعض المتأخرين أنّه ظرف، وإن كان محصوراً[١]، وبذلك أعرب قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: آية ١٦] وهذا معنى: ﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ﴾: اقتلوهم أولًا، وأسروهم، وحاصروهم في معاقلهم وأماكنهم، وخذوا عليهم الطرق، وارصدوا لهم فيها لتأخذوهم.

وهذه أوامرُ من الله بأنه يُبذل في التضييق على المشركين وقتلهم وأخذهم كل غاية المجهود. وهذا معنى قوله: ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ﴾.

﴿فَإِن تَابُواْ﴾ من كفرهم ورجعوا عن شركهم ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أقاموا صلاة المسلمين ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهي الحقوق الواجبة عليهم في الأموال، فالصلاة والزكاة معروفتان، وإقامة الصلاة: هي الإتيان بها على وجهها الأكمل من مراعاة أركانها، وشروطها، وسننها، وصلاتها في الجماعات، وأوقاتها، إلى غير ذلك. وإقامة الزكاة: هي إعطاء الواجب من الأنصباء التي بيّنها النبي ﷺ. إذا فعلوا هذا كله، بأن تابوا من شركهم، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ﴾ السبيل[٢] في اللغة: الطريق. والتخلية: معناه الترك. فمعنى ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ﴾ اتركوا طريقهم لا تقعدوا عليها، والعرب تقول: خَلِّ سبيل فلان. أي: اترك له الطريق، ولا تقعد له في طريقه، ولا تتعرض له. فإذا خَلَّيت له طريقه يمر ويذهب بها كيف شاء، معناه: أنك لم تتعرض له، وهذا معروف في كلام العرب كثيرٌ مبتذل، يقولون: خَلِّ سبيله، أي: اتركه ولا تتعرض له؛ لأن سبيله: طريقه الذي يمشي بها، فإذا لم تقعد له فيها ولم تتعرض له فقد تركته يذهب ويقبل ويدبر من غير أن تتعرض له، وهو المعروف، ومن هذا المعنى قول ربيعة بن مكدم في رجزه المشهور في قصته مع دريد بن الصمة وأصحابه[٣]:

(١) انظر: البحر (١٠/٥)، الدر المصون (١٢/٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.

(٣) هذا الرجز في الأمالي (٢٧١/٢).

خَلِّ سبيل الحرة المنيعة إنك لاقٍ دونها ربيعه
في كَفِّه خطية مطيعة أو لا فخذها طعنة سريعه
والطعن مني في الورى شريعة

معنى: «خَلِّ سبيلها» لا تتعرض لها واترك طريقها تذهب فيها وتتوجه كيف شاءت. ومن هذا المعنى قول كعب بن زهير(١):

فقُلتُ خَلُّوا سَبِيلي لا أبا لكُم فكُلُّ ما قَدَّر الرحمنُ مَفْعُولُ

وقوله: (خَلِّ سبيلها) من كنايات الطلاق المعروفة عند الفقهاء في المذاهب. هذا معروف في كلام العرب، فكلُّ من تركته، وتركت له طريقه يذهب معها ويمر مقبلًا ومدبراً حيث شاء، فقد خليت سبيله، أي: تركته ولم تتعرض له، ومن هذا قول جرير يهجو عمر بن لجيءٍ التيمي(٢):

خلِّ السبيل لمن يبني المنار به وابرز ببرزة حيث اضطرك القدر
قد خفت يا ابن التي ماتت منافقة من خبث بَرْزة أن لا ينزل المطرُ

وهذا معنى: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ﴾.

وهذه الآيةُ وأمثالها في القرآن هي التي تمسّك بها الصدِّيق أبو بكر (رضي الله عنه) في قتالِ أهل الردة، لما منعوا الزكاة، فإنَّ الصحابة أولًا قالوا: كيف نقاتلهم وهم يشهدون أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله؟! ومن مثل هذه الآية استدلَّ أبو بكر (رضي الله عنه) لأنَّ الله قال: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ﴾ بعد ثلاثة شروط، وهي: توبتهم من الشرك، وإقامتهم الصلاة، وإيتاؤهم الزكاة. وقد تقرر في علم الأصول، أنَّ الشرط المشروط بشروطٍ متعدِّدة لا يحصل المشروط إلا بجميعها. فلو قلت لعبدك: إن صام زيد،

---

(١) شرح قصيدة بانت سعاد للتبريزي ص(٣١).

(٢) البيتان في ديوانه ص(٢١١)، شواهد الكشاف ص(٤٧) وبين البيتين سبعة عشر بيتاً. ولفظ الشطر الأول من البيت الأول:
(خـــل الـــطـــريـــق...)

وصلى، وقام وقعد فأعطه ديناراً، فإنه لا يستحق الدينار إلا إذا فعل جميع الشروط كلها، ولذا تخلية سبيلهم مشروطةٌ بهذه الشروط كلها؛ لأنَّ ما عُلِّق على شرطين أو شروط لا يتحصل إلا بجميع تلك الشروط، كما هو مقرر في الأصول. وأخت هذه الآية آتية قريباً في قوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: آية ١١] مفهومه: أنَّهم إن لم يتوبوا، أو لم يقيموا الصلاة، أو لم يؤتوا الزكاة فلا تخلوا سبيلهم، وليسوا إخوانكم في الدين، أي: وهو كذلك.

وهذه الآية الكريمة قال بعض العلماء: يؤخذ منها أنَّ من قال: «تُبْتُ» فقط لا يجتزىء بذلك حتى يفعل أفعالًا تدل على صحة ما يقول؛ لأنَّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة براهين وأدلة على صدقه في توبته التي قال. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٥] كثير المغفرة والرحمة، ومن رحمته ومغفرته الكثيرة توبته ورحمته للذين تابوا من شركهم، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فهو كثير المغفرة والرحمة، يرحم هؤلاء ويغفر لهم؛ لأنَّ من تاب تاب الله عليه ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: آية ٣٨].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة: آية ٦].

(إنْ) هي الشرطية. وقوله: ﴿أَحَدٌ﴾: يقول علماء العربية: إنَّه مرفوعٌ بفعل محذوف يفسره ما بعده. أي: وإن استجارك أحدٌ من المشركين؛ لأن ﴿إِنْ﴾ أداة شرط لا تتولى إلا الجمل الفعلية، فلا تتولى الجمل الاسمية؛ ولذا يقدَّر فعل بعدها. فـ﴿أَحَدٌ﴾ عند علماء العربية فاعلُ فعلٍ محذوف يفسرهُ ما بعده[١].

والأحد معناه: الواحد، وأصل همزته مبدلة من واو، أصل الأحد: (وَحَد) بواو؛ لأنَّ هذه المادَّة أصلها واوية الفاء، وكثيراً ما تقول العرب في

---

(١) انظر: القرطبي (٧٧/٨).

الوَحَدِ: الأحد، وربما نطقت بلفظ الْوَحَد على أصله[١]. ومن ذلك قول نابغة ذبيان[٢]:

كأن رحلي وقد زال النهار بنا بذي الجليل على مُسْتَأْنِسٍ وَحِدِ

وقوله: ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ قد قَدَّمنا أنَّ السين والتاء للطلب فمن معاني (استفعل) أنَّ السين والتاء للطلب، كقولهم: «استغفر ربه» أي: طلبه المغفرة. و«استطعم» طلب الطعام، و«استسقى» طلب السقيا، و«استنجد» طلب النجدة. وهكذا. فقوله: ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ طلب الإجارة منك. والإجارة: هي الأمان. أن تجيره وتؤمنه من أذى قومك حتى يسمع ما أُنزل إليك. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ قال بعض العلماء: لما نادى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في الموسم بهذه الآية من سورة براءة، أتاه قوم فقالوا: إن انتهت هذه الأشهر الأربعة وانقضت أشهر الإمهال، وكان الواحد منا يريد أن يسمع من محمدٍ ما يقول لينظر هل يتبعه أو لا، يُقتل؟! فقال لهم علي: لا يُقتل؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾[٣].

معنى هذه الآية الكريمة بإيضاح: أنَّ بعض المشركين إذا أراد أن يسمع ما يقوله رسول الله ﷺ ليفهم معنى ما ينزل عليه ويعرف الأوامر التي يأمر بها، والنواهي التي ينهى عنها، والأشياء التي يدعو إليها، ليستيقن في قرارة نفسه أهو حقٌّ فيتبعه أو يعلم أنَّه ليس بحق فيصد عنه، وطلب أن يجار، أن يُؤَمَّن، وألا يصل إليه أذى حتى يسمع القرآن، ويفهم ما أنزل على النبي؛ ليكون على بصيرةٍ من أمره في الأخذِ والترك، فإنه يجب أن يعطى ذلك الأمان حتى يسمع ويُتلى عليه القرآن، ويُفَهَّم بما فيه من الزواجر والمواعظ، ثم بعد ذلك إن أسلم

---

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٢٧٥.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧١) من سورة البقرة.

(٣) هذا الأثر ذكره القرطبي في التفسير عن سعيد بن جبير مرسلًا (٧٦/٨) وأبو السعود (٤٤/٤)، والألوسي (٥٣/١٠).

فبها ونعمت، وإن أصرَّ على كفره وجب أن يرد إلى مأمنه وهو محل داره التي يأمن فيها. هذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ طلبك أن تجيره وتؤمنه.

﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ هو هذا القرآن العظيم. وهذه الآية الكريمة من سورة براءة نص صريح في أنَّ هذا الذي نقرؤه ونتلوه هو بعينه كلامُ الله، فالصوت صوت القارىء، والكلام كلام البارىء؛ لأنَّ الله صرَّح بأنَّ هذا المشرك المستجير يسمع كلام الله يتلوه عليه نبي الله ﷺ. فهذا المحفوظ في الصدور، المقروء في الألسنة، المكتوب في المصاحف، هو كلام الله (جَلَّ وعلا) بمعانيه وألفاظه. ولا شَكَّ أنَّ أصل الكلام صفة الله (جَلَّ وعلا).

ونحن لا نحب إكثار الخوض فيه؛ لأنَّ هذه الصفة هي منشأ البلايا والمحن[1]، ولكن نقول: إنَّ الكلام صفة الله التي لم يزل متصفاً بها، فلم يتجرد يوماً عن كونه متكلماً، فالكلام صفته المتصف بها أزلًا لم يتجرد، ومع كونه متكلماً فهو في كل وقت يتكلم بما شاء كيف شاء، على الوجه اللائق بكماله وجلاله، فكلامه صفته ليس بمخلوق.

وقد أشرنا ـ مراراً ـ إلى المحنة التي ابتلى اللَّهُ بها المسلمين في أيام الدولة العباسية بالامتحان بالقول بخلق القرآن؛ لأنَّ محنةَ القول بخلق القرآن نشأت في أيام المأمون، ولم تزل في أيام المأمون حتى مات، واستفحلت في أيام المعتصم واستحكمت، وفي أيامه ضُرِب سيد المسلمين في زمانه أحمد بن حنبل (رضي الله عنه وأرضاه)، يُضرب حتى يُرفع من محل الضرب لا يعرف ليلًا من نهار، وإذا أفاق قالوا له: قل: القرآن مخلوق. فيقول: لا، القرآن كلام الله، منه بدأ وإليه يعود. وكذلك مضى زمن الواثق والمحنة قائمة على ساق وقدم، وقد أزالها الله على يد المتوكل غفر الله له وعفا عنه؛ لأنَّ محنة القول بخلق القرآن أزالها المتوكل على الله بعد أن مضت في زمن المأمون والمعتصم والواثق. وكان بعض المؤرخين يقولون: إنها في أخريات أيام الواثق أنها بردت وانكسرت شوكتها وضعف شرها.

---

(١) يريد (رحمه الله) ما نشأ بسبب الاختلاف في هذه الصفة، وإلا فهي صفة كما من كل وجه.

وقد قدمنا في هذه الدروس السابقة[١] أنَّ ذلك على يد ذلك الشيخ الشامي، صاحب القصة المشهورة، وأنه شيخ جيء به من الشام أيام الواثق بالله، جيء به مكبلًا بالحديد ليمتحن ويقتل في محنة القول بخلق القرآن، وجيء به، وجلس الواثق يوماً - والرواية رواها الخطيب البغدادي عن ابن الواثق محمد من طرق أسانيدها فيها ما يُنكر، ولكنها قصةٌ معناها صحيح، تلقاها العلماء بالقبول - وذلك أنّ الواثق لما أراد قتل ذلك الشيخ الشامي (رحمه الله) كان إذا أراد قتل أحد أحضر ولده محمداً - وهو الذي روى الخطيب هذه القصة من طريقه - فجيء بالرجل مقيداً بالحديد، فقال للواثق: السلام عليك يا أمير المؤمنين!! قال: لا سلَّمك الله. فقال الشيخ: بئس ما أدَّبك مؤدبك يا أمير المؤمنين!! الله يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: آية ٨٦] والله ما حَيَّيت بأحسن منها ولا رَددتها. فقال الواثق: ائذنوا لأبي عبدالله - يعني الخبيث أحمد بن أبي دؤاد، عامله الله بما هو أهله؛ لأنه سبب هذه البلايا والمحن - وأحضره، فقال له ابن أبي دؤاد: الرجل متكلم!! فقال الواثق لابن أبي دؤاد: ناظر هذا الرجل. فقال الشيخ الشامي: ابن أبي دؤاد أحقر من أن يناظرني - كما جاء في بعض روايات قصته - فقال له ابن أبي دؤاد: ما تقول في القرآن؟ فقال الشيخ: يا ابن أبي دؤاد: ما أنصفتني. يعني: أنَّ الذي يراد أن يقدم للقتل أحق بأن يكون هو السائل. فقال له: سلْ. فقال: ما تقول يا بن أبي دؤاد في القرآن؟ قال: أقول إنَّه مخلوق. قال: مقالتك هذه التي تدعو الناس إليها، وتأمرهم بها، ويفتن الخلفاء فيها يمتحنون فيها الناس بفتياك ورأيك، هل كان رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون - أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعلي - هل كانوا عالمين بها أو لا؟ فقال ابن أبي دؤاد: ما كانوا عالمين بها. فقال الشيخ الشامي: ما شاء الله!! ما شاء الله!! جهلها رسول الله وخلفاؤه الراشدون وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعلمها ابن أبي دؤاد!!، فقال ابن أبي دؤاد: أقلني، والمناظرةُ على بابها. فقال له: ذلك لك. ثم قال له: ما

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٤) من سورة الأنعام.

تقول في القرآن؟ قال: مخلوق. قال: مقالتك هذه التي تدعو الناس إليها هل كان رسول الله وخلفاؤه الراشدون عالمين بها أو لا؟ قال: كانوا عالمين بها، ولكنهم لم يدعو الناس إليها. فقال له الشيخ الشامي: يا بن أبي دؤاد: ألم يسعك في أمة محمد ﷺ ما وسع رسول الله في أمته، ووسع خلفاءه الراشدين في رعاياهم؟! فألقمه حجراً وسكت، وقام الواثق وجلس في محل خلوته واضطجع، وجعل رجله على ركبته وقال: جهلها رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعلمها ابن أبي دؤاد؟ ما شاء الله!! ما شاء الله!! ثم قال: علمها رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون ولم يدعوا الناس إليها، ألم يسعك يا بن أبي دؤاد ما وسع رسول الله وخلفاءه الراشدين في أمةِ محمد ﷺ؟ ثم دعا بالحداد وقال له: اذهب وفكَّ قيد هذا الشيخ الشامي. وأعطاه أربعمائة دينار، وقال له: انصرف راشداً إلى أهلك. وذكر الخطيب في بعض روايات هذه القصة بأسانيد ليست قائمة أنّه بعد ذلك لم يمتحن أحداً. بل روى ـ أيضاً ـ عنه أنَّ الواثق رجع عنها في أُخريات حياته.

وعلى كل حال فالقرآن كلام الله وصفته الأزلية، ليس بمخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وهو صفته الأزلية لم يتجرد عن كونه متكلماً يوماً ما، وهو في كل يوم يتكلم بما شاء، كيف شاء، على الوجه اللائق بكماله وجلاله (جَلَّ وعلا) من غير مشابهةٍ للخلق، ومن غير تعطيل له من صفته (جلَّ وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[التوبة: آية ٦] أبلغه إياه: أوصله إليه. والمأمن هنا: اسم مكان ـ أيضاً ـ كالمرصد، فالمأمن والمرصد كلاهما اسم مكان، فالمرصد مكان الرصد، والمأمن: مكان الأمن، أي: أبلغه مكان أمنه، وهو داره الذي جاء منها، وأهله الذي جاء من قِبَلِهم. وهذا معنى قوله: ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأمر بإجارة المشرك المستجير حتى يسمع كلام الله ويتفهمه واقع بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون الوحي، ولا يفهمون عن الله، فإذا طلبوا أن يعلموا ويتعلموا ويسمعوا ما جاء عن الله فلا تمنعوهم من ذلك، فأمّنوهم حتى

يسمعوا ويتفهموا ويعرفوا الحق لعلَّ الله يهديهم، وهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة: الآيات ٧ ـ ١١].

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ [التوبة: آية ٧].

لما أنزل الله أول هذه السورة ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [التوبة: آية ١] فنبذ العهد إلى كل المعاهدين، وأعلمهم بأنهم حرب بعد مضي أربعة أشهر، ولم يستثنِ من ذلك إلا القوم الذين ثبتوا على عهدهم ولم ينقضوه، ولم يظاهروا أحداً على المؤمنين، بيَّن في هذه الآية الكريمة أنَّ ذلك الحكم المذكور في أول هذه السورة أنَّه حكم واقع في محله، وأنَّ نبذ العهود إلى المشركين أمرٌ في غاية الإحكام والصواب؛ لأنه قال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (كيف) هنا حرف يدل على الاستبعاد، يُستبعد جداً أن يكون للمشركين عهد يُحفظون به ويأمنون به على أنفسهم وأموالهم، مع خبث ما يبطنونه من العداوة للمسلمين.

٢/أ / والمعنى: أنَّ نبذ عهودهم إليهم حكم في غاية الصواب واقع في موقعه، موضوع في موضعه؛ لأنهم أهل خبثٍ وأهل عداوةٍ ومكرٍ للإسلام، يستحقون بنبذ عهودهم إليهم، وأن يكونوا حرباً، إلا الطائفة الذين ثبتوا. وهذا معنى قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ يأمنون به على أنفسهم

وأموالهم ﴿عِندِ ٱللَّهِ﴾ يأمر نبيه بالوفاء به ﴿وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ ﷺ يعملُ لهم بمقتضاه ﴿إِلَّا﴾ الطائفة الثابتة التي لم يوجد منها غدر ولا مكر فهؤلاء مستثنون كما تقدم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ [عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾][١] [التوبة: آية ٧] لأن صلح الحديبية الذي عقده النبي ﷺ مع قريش بواسطة سهيل بن عمرو العامري (رضي الله عنه) دخل في حلف قريش ودخل في صلحهم معهم قبائل من كنانة بن مدركة، منهم: بنو الديل، وبنو ضمرة، وبنو مدلج أولاد بكر بن عبد مناة بن كنانة، وبنو جذيمة بن عامر، عامر هو ابن عبد مناة بن كنانة أخو بكر. فهم أربع قبائل من كنانة، هؤلاء القبائل الأربع من كنانة بن مدركة كانوا أهل عهد مع النبي ﷺ مع قريش، ثم نقض العهد منهم بنو الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بأن عَدَوا على خزاعة، ونقض معهم قريش حيث أعانوهم على الخزاعيين، وبقي بنو ضمرة وبنو جذيمة بن عامر وبنو مدلج على عهدهم لم ينقضوا، وهم الذين استثناهم الله[٢].

وهذه المعاهدة وقع عهدها في الحديبية كما عليه جميع المؤرخين. والله (جلّ وعلا) ذكر أنها في المسجد الحرام، والتحقيق أن الحديبية بعضها في الحلّ وبعضها في الحرم. وهذه الآية تدل على أن معاهدة الحديبية وقعت في الطرف منها الذي هو من الحرم؛ لأنه جرت العادة أن الله ربَّما أطلق المسجد الحرام وأراد به جميع الحرم، فالمراد به هنا: إلا الذين عاهدتم في حرم الله عند الحديبية.

وأطلق على اسم الحرم «المسجد الحرام» لأنه من أهم أجزائه، وهو أسلوبٌ عربي معروف[٣]، ومن إطلاق المسجد الحرام على جميع الحرم: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ﴾ [البقرة: آية ١٩١] أي: لا

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وقد أكملت بقية الآية وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٣) سيأتي عند تفسير الآية (٢٨) من هذه السورة.

تقاتلوهم في جميع الحرم؛ ولأجل هذه الإطلاقات سيأتيكم أن قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: آية ٢٨] أنَّ المراد به لا يقربوا الحرم كلَّه بعد هذا العام. وهذا معنى قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ﴾ في صلح الحديبية ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ﴾ (ما) مصدرية ظرفية، وهي منصوبة بـ«استقيموا»[1]، أي: استقيموا لهم وأوفوا لهم بالعهد إلى تمام مدتهم في جميع المدة التي استقاموا فيها لكم، ولا تبدؤوهم بنقض العهد. وهذا معنى قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ كما تقدم في قوله: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: آية ٤] هذا معنى قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾. والذين قالوا: إنها نزلت في قريش[2]. يظهر أن قولهم خلاف التحقيق؛ لأن قريشاً نقضوا العهد وحاربهم النبي ﷺ في فتح مكة قبل نزول هذه الآيات من براءة؛ لأنها نزلت عام تسع، وأرسل النبي بها عليَّ بن أبي طالبٍ (رضي الله عنه) بعد أبي بكر ينادي بها في الموسم عام تسع. وفي ذلك الوقت أهل مكة قد نقضوا قبل هذا بزمان، وغزاهم النبي ﷺ وفتح مكة عنوة على التحقيق، وظفر بهم، وسمُّوا الطلقاء، وأعطى عهداً لمن أراد منهم أن يتربَّص كصفوان بن أميَّة ومن في معناه. وهذا معنىً قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ويدخل في المتقين دخولًا أولياً: الذين لا ينقضون العهود ويوفون بالعهود؛ لأن الوفاء بالعهد وعدم نقضه ونكثه من تقوى الله (جلَّ وعلا)، والمتصف بالتقوى يحبّه الله. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم

---

(١) انظر: الدر المصون (٦/١٥).

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/١٤٣).

﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [التوبة: آية ٨].

هذا تأكيدٌ بعد تأكيد؛ لأن حكم الله بنبذ العهود إلى الكفار أمرٌ في غاية الإحكام والصواب، واقعٌ في موقعه، موضوعٌ في موضعه، والفعل هنا محذوف دلَّ ما قبله عليه[١]. أي: كيف يكون لهم عهدٌ عند الله وعند رسوله وحالهم أنهم ﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: إن يغلبوكم ويقهروكم ويجدوا فرصة يهينونكم بها لا يراعون فيكم العهود ولا الذمم، ولا يراعون شيئاً، بل يقتلونكم، فمن كانوا بهذه المثابة من الغدر والمكر والخيانة وسوء الطوايا والنيات، نبذ عهودهم إليهم هو أمرٌ في غاية الحكمة والإصابة. وهذا معنى قوله: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا﴾ كيف يكون لهم ـ للمشركين ـ عهد والحال أنهم إن يظهروا، وقد عُلِمَ من اللغة العربية أن العرب ربّما تحذف الفعل بعد (كيف) إذا تقدم ما يدلّ عليه؛ لأن (كيف) هنا حُذف بعدها قوله: ﴿كَيْفَ﴾ يكون لهم عهدٌ عند الله وعند رسوله والحال أنهم وغِرَةُ صدورهم، حرب أضداد ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ ونظير هذا من كلام العرب في حذف الفعل بعد كيف إذا دلّ المقام عليه قول الشاعر[٢]:

وَخَبَّرْتُمَانِي أَنَّمَا المَوتُ بِالقُرَىٰ فَكَيفَ وهَاتَا هَضْبَةٌ وقَلِيبُ

ويُروىٰ: «فكيف وهاتا هضبة وكثيب»، هذا قاله بدويّ أعرابي قال له قوم: إن القرى والمدن والحضر فيها الوباء، يموت الناس فيها غالباً. والصحة أجود في الصحاري؛ لأن أهلها أقلّ موتاً!! فخرج إلى الصحراء، فلما خرج إلى الصحراء فإذا قبر في الصحراء بجنب كثيب وهضبة فقال:

وَخَبَّرْتُمَانِي أَنَّما المَوتُ بِالقُرَىٰ فَكَيفَ وهَاتَا هَضْبَةٌ وقَلِيبُ

أي: فكيف مات هذا وهو في البادية وليس في القرى؟ وهذا معنى قوله: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ ﴿يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ معناه: يغلبوكم

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٤٥)، القرطبي (٨/٧٨).

(٢) البيت لكعب بن سعد الغنوي. وهو في ابن جرير (١٤/١٤٥)، القرطبي (٨/٧٨).

وينتصروا عليكم، تقول العرب: ظهروا عليهم: إذا غلبوهم وانتصروا عليهم. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: آية ١٤] أي غالبين منتصرين؛ لأن أصل (ظَهَره): علاه فطلع على ظهره، والغالب كأنه يعلو المغلوب حتى يقف على ظهره، ومنه قوله: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يعلوا ظهره[١] ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: آية ٩٧]. كيف يكون لهم عهد وهم بهذه المثابة من خبث النيّات والطويّات، وشدة العداوة، وغِرَةٌ صدورهم، والحال ﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يغلبوكم ويقهروكم وينتصروا عليكم ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ أي: لا يراعوا فيكم.

﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ ولا يحفظوا لكم ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ اعلموا أن المراد بـ (الإلّ) هنا فيه لعلماء التفسير أقوالٌ متقاربة[٢]:

قال بعض العلماء: (الإلُّ) اسم الله بالعبرانية. واستأنسوا لهذا ببعض القراءات الشاذة: (لا يرقبوا فيكم إِيْلًا ولا ذمة)[٣] والإيل من أسماء الله بالعبرية. فجبرائيل معناه: عبدالله، وإسرافيل: عبدالله، وإسرائيل: عبدالله. وهذا القول قال به جماعة من العلماء، أن (الإيل والإلّ) تطلق على الله، ومعروفٌ في قصة أبي بكرٍ الصديق (رضي الله عنه) أنه لما جاءه قوم من أصحاب مسيلمة الكذَّاب وقال لهم: اقرؤوا علي مما يدّعي أنه ينزل عليه. فقرؤوا عليه شيئاً من ترّهات مسيلمة الكذّاب، فقال: أنتم تعلمون أن هذا لم يخرج من إلّ، أن هذا كلام لم يصدر من الله. وعلى هذا القول فالمراد: إن يظهروا عليكم ويغلبوكم لا يراقبوا فيكم الله، ولا يراعوا فيكم الله، ولا العهود. هذا قال به قوم.

وقالت جماعات من العلماء: (الإلّ) هنا المراد به القرابة، أي: لا يراعون فيكم قرابة، بل يقتلونكم وإن كنتم من قراباتهم. وبهذا قال جماعات

---

(١) انظر: القرطبي (٧٨/٨).

(٢) انظر: ابن جرير (١٤٦/١٤ ـ ١٤٩)، القرطبي (٧٩/٨)، الدر المصون (١٧/٦ ـ ٢٠).

(٣) انظر: المحتسب (٢٨٣/١).

من علماء التفسير، وإطلاق الإلِّ على القرابة معنى معروف في كلام العرب مشهور، ومنه قول تميم بن مقبل[١]:

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خَلَفُوا قَطَّعُوا الإِلَّ وأَعْرَاقَ الرَّحِمْ

أي: قطعوا القرابات ولم يصلوها، ومنه بهذا المعنى قول حسان بن ثابت رضي الله عنه[٢]:

لَعَمْرُكَ إنَّ إِلَّكَ فِي قُرَيْشٍ كَإِلِّ السَّقْبِ مِنْ رأْلِ النَّعَامِ

يعني: إنّ قرابتك في قريش كذب كقرابة السقب الذي هو الحوار ـ أعني ولد الناقة ـ من رألِ النعام، ولا قرابة بين أولاد الإبل وأولاد النعام، ومن هذا المعنى قول يزيد بن مفرغ الحميري في شعره الذي ينفي به نسب زياد بن أبيه عن قريش، ويعاتب معاوية في استلحاقه له؛ لما كان بينه وبين عبّاد بن زياد من العداوة، وما أهانه به عبّاد بن زياد كما هو معروف، قال يزيد بن مفرّغ الحميريُّ في ذلك أبياته المشهورة التي يقول فيها[٣]:

ألاَ أَبْلِغْ معاويةَ بن حربٍ مغلغلةً من الرجلِ اليماني
أَتَغْضَبُ أن يُقال أبوك عفٌ وترضىٰ أن يُقال أبوك زاني

إلى أن قال في ابن زياد:

فأشهدُ أن إِلَّك من قريشٍ كإلِّ الجِلِّ من وَلَدِ الأَتَانِ

أي: إن قرابتك في قريش، وهذا معنى معروفٌ في كلام العرب، وعلى هذا القول ﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾ أي: لا يراعون ولا يحفظون فيكم ﴿إِلًّا﴾ أي: قرابة ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: لا قرابة ولا عهداً، وقال بعض العلماء: الإلّ

---

(١) البيت في ابن جرير (١٤/١٤٨).

(٢) ديوانه ص(٢٤٢) والسقب: ولد الناقة. والرأل: ولد النعام.

(٣) الأبيات في تاريخ دمشق (٦٥/١٨٠ ـ ١٨١) ولفظ البيت الثالث فيه:

فأشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان

هو الحلف، فالعرب تقول: بيني وبين فلان إلٌّ. إذا كان بينكما حلف. قالوا: واشتقاق (الإلّ) أنهم كانوا إذا تحالفوا وتماسحوا بالأيدي عند الحلف رفعوا أصواتهم، والعرب تقول: «ألّ، يؤل» إذا صرخ ورفع صوته، ومنه: «أليل المريض» أي: أنين المريض المرتفع، والعرب تقول: «دعت الجارية أَلَلَيْهَا» إذا ولولت؛ لأن الأليل صراخٌ وصوت. ومن قولهم: «دعت الجارية ألليها» إذا ولولت قول الكميت(١):

وأنتَ ما أنت في غَبْراءَ مُظْلمةٍ إذا دَعَتْ أَلَلَيْها الكَاعِبُ الفُضُلُ

وقال قومٌ آخرون: إن (الإلّ) معناه العهد. وعلى هذا القول فهو شيءٌ معطوفٌ على نفسه باختلاف اللفظين، وقد قدّمنا في هذه الدروس مراراً(٢) أن عطف الشيء على نفسه بلفظين مختلفين أنه أسلوبٌ عربيّ معروف؛ لأن المغايرة في اللفظ ربما نزلتها العرب كمغايرة المعنى. وهذا الأسلوب في اللغة العربية وفي القرآن، فمن أشهر أمثلته في القرآن قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: الآيات ١ ـ ٤] لأن (الذي) و(الذي) كلها واقعة على شيء واحد هو الله (جلّ وعلا)، إلا أنه لما اختلفت الألفاظ صار العطف بسبب اختلافها، وهو أسلوب معروف في العربية، ومن شواهده المشهورة قول الشاعر(٣):

إلى الملك القَرْمِ وابن الهُمام ولَيْثِ الكتيبة في المُزْدَحَم

وهو كثير في كلام العرب، ومما أنشده له صاحب اللسان قول الشاعر(٤):

إني لأعظم في صدر الكَمِيّ على ما كان في زمن التجدير والقِصَرِ

(١) البيت في اللسان (مادة: ألل) (٨٦/١)، الدر المصون (٢٠/٦).
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.
(٣) السابق.
(٤) البيت في اللسان (مادة: جدر) (٤١٧/١).

وقول عنترة في معلقته(١):

حُيِّيتَ من طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُه أَقْوَىٰ وأَقْفَرَ بعد أُمّ الهيثم

لأن (الإقواء) و(الإقفار) معناهما واحد. و(التجدير) و(القصر) معناهما واحد.

واختار كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ أن هذه المعاني كلها يجب حمل (الإلّ) عليها؛ لأنه شاملٌ للعهد والقرابة، والحلف(٢)، أي: لا يراعون فيكم عهداً، ولا قرابة، ولا حلفاً، ولا يراعون الله فيكم. وهذا الذي ذهب إليه هو من حمل المشترك على معانيه، وحمل المشترك على معنييه أو معانيه مما اختلف فيه علماء الأصول، والذي حرره المحققون من أصوليي أصحاب المذاهب الأربعة هو جواز حمل المشترك على معنييه أو على معانيه(٣)، فيجوز أن تقول مثلًا: عدا اللصوص البارحة على عين زيد. تعني: أنه عَوَّروا عينه الباصرة، وغَوَّروا عينه الجارية، وسرقوا عينه التي هي ذهبه وفضّته فتحمله على الجميع إذا قصدت ذلك وكان في كلامك ما يدل عليه، وهذا معنى قوله: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

﴿يَرْقُبُوا﴾ معناه: يحفظوا ويراقبوا ويراعوا. والذمة: معناه العهد، وكل ما تجب المحافظة عليه ويؤاخذ بنكثه تسميه العرب (ذمة). وهو هنا: العهد، وهذا معنى قوله: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني: يبذلون لكم الكلام الطيب الحلو باللسان دون ما في القلوب؛ لأن ما في قلوبهم من البغض وإضمار العداوة والشحناء لا يساعد وما تجري به ألسنتهم، فالألسنة تقول شيئاً وما تنطوي عليه الصدور

---

(١) البيت في ديوانه ص١١٨.

(٢) تفسير ابن جرير (١٤٨/١٤).

(٣) انظر: شرح الكوكب المنير (١٨٩/٣ ـ ١٩٥)، البحر المحيط في أصول الفقه (١٢٦/٢ ـ ١٤٨، ١٦٦/٣ ـ ٤٧٢)، مجموع الفتاوى (٣٤٠/١٣ ـ ٣٤١)، زاد المعاد (٦٠٦/٥)، قواعد التفسير (٨١٩/٢).

شيءٌ آخر. وهذا معنى قوله: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ أن توافق ما ينطقون به بأفواههم لما هي منطوية عليه من الكفر والبغض وشدة العداوة لكم. وهذا معنى قوله: ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ والقلوب هنا جمع قلب. وهذه الآيات وأمثالها تدلُّ على أن الذي يدرك ويقع فيه الإباء والانقياد وجميع أنواع الإدراك كلّه القلب[١]. وذلك أمرٌ لا شكَّ فيه؛ لأن الذي خلق العقل ومنّ بالعقل أعلم حيث وضع العقل، فالله (جلّ وعلا) في آيات كتابه يبيّن دائماً أنه جعله في القلب كقوله: ﴿قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٧٩] وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦] ولم يقل الله يوماً ما: «ولكن تعمى الأدمغة التي في الرؤوس». ولم يقل: «فإنها لا تعمى الأدمغة» أبداً؛ لأن العقل محلُّه القلب هذا جاء به الوحي الصحيح وكلام من خلق القلب وتفضّل بالقلب، فلم يأت في آية واحدة ولا في حديثٍ واحد أن مركز العقل في الدماغ أبداً، لم يقل الله: «لهم أدمغة يفقهون بها» أبداً، ولكن يقول: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾، و﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ ولم يقل: «وتأبى أدمغتهم» أبداً، والذي خلق القلب ومنَّ به ووضعه لا شكّ أنه أعلم بالمحل الذي وضع به من فلسفات الكفرة الفجرة الجهلة وأذنابهم، وهذا معنى قوله: ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ الفسق: الخروج عن طاعة الله، فكل خارجٍ عن طاعة الله فهو فاسق، ومنه قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: آية ٥٠] أي خرج عن طاعة ربه، والعرب تقول: «فسق عن الطريق» إذا خرج منها. ومنه قول الراجز[٢]:

يَـهْـوَيْـنَ فـي نَـجْـدٍ وغَـوْراً غَـائِـراً فَـوَاسِـقـاً عـن قَـصْـدِهَـا جَـوَائِـرَا

فواسقاً: أي: خارجات عن طريقهن.

والمراد بالفسق شرعاً: هو الخروج عن طاعة الله. والخروج عن

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

طاعة الله قد يعظم، وقد يكون بعضه أعظم من بعض، فالخروج الأكبر هو الكفر بالله، والمعاصي والكبائر خروج دون خروج؛ ولذا سُمِّي الكافر فاسقاً؛ لأنه خارج عن طاعة الله الخروج الأعظم، كقوله جل وعلا: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: آية ٢٦] وقد يطلق الفسق على خروج دون خروج، كالمرتكب لبعض الذنوب، كقوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: آية ٦].

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يُقال: لِمَ قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وهم جميعهم فاسقون، أكثرهم وأقلهم، كلهم فاسقون، فما وجه التعبير بقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾؟.

أجاب جماعة من العلماء عن هذا السؤال بأن المراد بالفسق هنا فسق خاص، وهو فسق نقض العهود وعدم الوفاء بها[1]، أي: وأكثرهم ناكثون، ناقضون للعهود، فاسقون هذا النوع الخاص من الفسق، وإن كان الجميع مشتركين في أنواع الفسق والكفر. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾ [التوبة: آية ٩].

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الاشتراء في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناه: الاستبدال، فكل أحد استبدل شيئاً من شيء تقول العرب: اشتراه، فالاشتراء في لسانها يتناول كل استبدال كائناً ما كان، ومن هذا المعنى قول الراجز[2]:

بُدِّلْتُ بالجُمَّةِ رَأْساً أَزْعَرَا وبالثَّنَايَا الواضِحَاتِ الدُّرْدُرَا
كما اشترى المُسْلِمُ إذْ تَنَصَّرَا

أي: كما تبدل المسلم، إذا أخذ النصرانية بدل الدين.

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٥٠)، البغوي (٢/٢٧١)، القرطبي (٨/٨٠).
(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة.

والثمن في لغة العرب: تطلقه على كل عوض كائناً ما كان، تسميه العرب ثمناً. أما إطلاق (الشراء) على الثمن والمثمن، وتسمية المبيع (مُثمناً)، والمدفوع فيه (ثمناً) فهو اصطلاح خاص للفقهاء في البيوع. ومن إطلاق (الشراء) على الاستبدال و(الثمن) على كل عوض في اللغة العربية قول علقمة بن عَبَدَة التميمي[١]:

والحَمْدُ لا يُشتَرى إلا له ثَمَنٌ ... مما تَضِنُّ به النفوسُ معلومُ

ومن هذا المعنى قول ابن أبي ربيعة المخزومي[٢]:

إن كنت حَاوَلْتَ دُنيا أو أَقَمْتَ لها ... ماذا أَخَذْتَ بتركِ الحَجِّ من ثَمَنِ

أي: من عوض يخلفه لك. وهذا معنى ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ استبدلوا بآيات الله الشرعية - التي هي هذا القرآن العظيم - تركوها وتعوضوا منها ثمناً قليلًا. واختلف العلماء بالمراد بهذا الثمن القليل[٣]، فقال جماعة من العلماء: هي نزلت في قوم من الأعراب الذين كانوا عاهدوا النبي ﷺ فدعاهم أبو سفيان بن حرب، وأطعمهم أُكْلَة، ونقضوا العهود بسبب ذلك. وهذا قاله جماعة كثيرة من المفسرين في هذه الآية. وهو مستبعد جداً؛ لأن هذه الآية من براءة نزلت بعد إسلام أبي سفيان؛ لأن أبا سفيان أسلم عام الفتح عام ثمان، وهذه نزلت عام تسع.

وقال بعض العلماء: هي في اليهود؛ لأنهم هم الذين تبدلوا الرُّشَا من بيان الحق، وهو ضعيف أيضاً.

والتحقيق - إن شاء الله - أن المعنى: أن الكفار تبدلوا من آيات الله والعمل بما جاء عن الله ثمناً قليلًا من متاع الحياة الدنيا، وهو - مثلًا - عدم التقيد بالشرع، وبقاؤهم على ما كانوا عليه، واتباعهم أهواءهم، كما قال

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) انظر: ابن جرير (١٤/١٥٠)، البغوي (٢/٢٧١)، القرطبي (٨/٨٠).

(جل وعلا): ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [البقرة: آية ٩٠] فتعوضوا من هذا اتباعهم هواهم، وبقاءهم على ما كانوا عليه؛ لأنه أحب إليهم. وهذا شيء تافه تعوضوا منه سعادة الدنيا والآخرة. وهذا معنى قوله: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ الظاهر أن (صد)[1] هنا هي المتعدية، والمفعول محذوف. أي: فصدوا الناس عن سبيله؛ لأن صدودهم في أنفسهم معلوم من قوله: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لأن من اشترى بآيات الله ثمناً قليلًا فهو صاد عن سبيل الله، فبيّن أنهم ضُلّال بقوله: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا﴾ وبيّن أنهم مضلون بقوله: ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: صدوا غيرهم عن سبيل الله (جل وعلا).

والسبيل: معناه الطريق. وسبيل الله: دين الإسلام؛ لأنه طريق الله التي أمر بها ووعد الجزاء الحسن لمن اتبعها؛ ولذا سُميت: (سبيل الله) أي: طريقه التي يدعو إليها، والتي توصل إلى رضاه، وإلى نيل ما عنده من الكرامة.

وقد قدمنا أن (السبيل) تُذكّر وتؤنث[2]، فمن تذكيرها في القرآن: قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ﴾ [الأعراف: آية ١٤٦] برجوع الضمير مذكراً على السبيل. ومن تأنيث السبيل: ﴿هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: آية ١٠٨] ولم يقل: «هذا سبيلي أدعو إلى الله».

وهذا معنى قوله: ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: آية ٩].

﴿سَاءَ﴾: فعل جامد لإنشاء الذم. هو بمعنى (بئس)؛ لأن (ساء) بمعنى (بئس) وتعمل عمل (بئس) (...)[3].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٥، ١١٦) من سورة الأنعام.

(٣) في هذا الموضع كلمة غير واضحة.

و(ما) إذا جاءت بعد (بئس) أو (نِعم) قال بعض العلماء: يجوز أن تكون نكرة مميزة للفاعل الذي هو الضمير المحذوف، ويجوز أن تكون هي فاعل (بئس) و(ساء) و(نِعم)[١]. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فعلى أنها مميّزة فالتقدير: (ساء هو) أي: بئس هو شيئاً كانوا يعملونه. وعلى أنها فاعل فالأمر واضح. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ﴾ [التوبة: آية ١٠] كائناً من كان ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: قرابة ولا عهداً. أو: لا يرقبون في مؤمن الله، لا يرقبون الله ولا يخافونه في المؤمنين فيتقون الله فيهم.

ثم قال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ المعتدي: (مُفْتَعِل) من العدوان، والعدوان: مجاوزة الحد. والمراد بالمعتدين: الذين يجاوزون ما أحل الله إلى ما حرَّم. وهذا معنى قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾.

ثم قال: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: آية ١١] فسرناها بالأمس.

﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين. مفهومه: أنهم إن لم يتوبوا من الشرك، أو لم يقيموا الصلاة، أو لم يؤتوا الزكاة لا يكونون إخواننا في الدين. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ آيات هذا القرآن العظيم، نفصلها معناه: نبينها ونوضحها، ولا نترك بها إجمالًا.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إنما خص القوم الذين يعلمون لأنهم هم المنتفعون بها؛ لأن من لم يرزقهم الله علماً لا ينتفعون بها. وجرت العادة في القرآن أنه يخص بالشيء العام المنتفعين به دون غيرهم، كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (١١٧/٢).

يَخْشَنهَا ﴿٤٥﴾ [النازعات: آية ٤٥] لأنه المنتفع بالإنذار، وإن كان منذراً للأسود والأحمر ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس: آية ١١] لأنه المنتفع مع أنه منذر للأسود والأحمر ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: آية ٤٥] لأنه هو المنتفع، وإن كان يُذكِّر جميع الخلق بالقرآن[١]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى. ونرجو الله (جلّ وعلا) أن نكون ممن يفهم عن الله تفصيله لآياته؛ لأن هذا القرآن العظيم فصل الله فيه كل شيء، وأوضح فيه كل شيء ﴿وَلَقَدْ جِئْنَهُم بِكِتَبٍ فَصَّلْنَهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾ الآية [الأعراف: آية ٥٢].

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: الآيات ١٢ ـ ١٦].

[هذه][٢] الآياتُ من سورة براءة يكاد المفسِّرون من الصحابة فمن بعدهم يُجمعون على أنها نازلة في نقض أهل مكة للعهد الذين عقدوه مع النبي ﷺ بالحديبية[٣]، وذلك يدل على أن بعض هذه الآيات من سورة براءة نزلت قبل التاريخ الذي كنا نقول؛ لأن هذا نازل قبل عام تسع على القول بأنها في أهل مكة، وعامة المفسرين يقولون: إنها فيهم، ولا نعلم أحداً ممن اشتهر عنهم أخذ العلم يقول في غيرهم إلا القول المروي عن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع وُجد انقطاع يسير في التسجيل وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) انظر: ابن جرير (١٤/١٥٤)، القرطبي (٨/٨٤).

حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) أن هذه في قوم لم يقاتَلوا بعدُ وقت نزولها(١). وعلى هذا القول فلا تُحفظ تفاصيل لهذا النكث والنقض، بل الظاهر والسياق يقتضي أنها في أهل مكة؛ لأن قوله: ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة: آية ١٣] الذين هموا بإخراجه هم أهل مكة، وعلى هذا عامة المفسرين.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ [التوبة: آية ١٢] النكث في لغة العرب: هو تفكيك طاقات الشيء المفتول، فالحبل المفتول ـ مثلاً ـ إذا فككتَ طاقاته، وجعلت كل واحدة منها على حدة فقد نكثته، وقد نقضته، كما في قوله: ﴿كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: آية ٩٢] جمع نِكْث. وعلماء البلاغة يقولون: إن النكث والنقض حقيقة في الحسيات، كل مفتول فككت بين طاقاته فقد نقضته وقد نكثته، وأنها في المعنويات كالعهود مستعارة(٢). ونحن دائماً نقول: إنها أساليب عربية نطقت بها العرب منذ تكلمت بلغتها، ونزل بها القرآن، يطلق النكث على تفكيك طاقات الحبل، ويطلقه أيضاً على الإخلال بالعهود ونقضها وإبطالها.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم﴾ الأيمان: جمع يمين. قال بعض العلماء: هي العهود(٣). وقال بعض العلماء: هي الأيمان التي تؤكّد بها العهود؛ لأنهم إذا أُخِذَت عليهم العهود أكدوها بالأيمان.

وقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي: من بعد العهد الذي عقدوه مع النبي ﷺ.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ الطعن في

(١) أخرجه ابن جرير (١٥٦/١٤)، وابن أبي حاتم (١٧٦١/٦)، وأورد البغوي (٢٧٢/٢) عن مجاهد قوله: «هم أهل فارس والروم».

(٢) انظر: المفردات (مادة: نكث) (٨٢٢)، القرطبي (٨١/٨)، فتح القدير (٣٤١/٢)، التحرير والتنوير (٧٣/٩).

(٣) انظر: ابن جرير (١٥٦/١٤).

الدين معناه: استنقاصه وثلبه بالمعايب. يقولون: إن دين الإسلام ليس بشيء، وأنهم يعيبونه إذا نقضوا العهد وعابوا الدين وثلبوه.

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ الأصل: فقاتلوهم، إلا أن هؤلاء الذين ينقضون العهود ويسبون الدين أجرى الله العادة أنهم الرؤساء المتبوعون؛ لأن الله أجرى عادته بأن الذين يناصبون الرسل بالعداوة هم القادة المتبوعون المترفون، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ [الزخرف: آية ٢٣] المتنعمون الكبار منها. وهذه سنة الله في خلقه؛ ولذلك لما سأل هرقل أبا سفيان في حديثه الصحيح المشهور: أأشراف الناس يتبعونه أم ضعافهم؟ فقال: بل ضعافهم. قال: أولئك أتباع الأنبياء[١]. وهذه سنة الله في كونه؛ ولذا قال: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾.

قرأ هذا الحرف من السبعة نافع وابن كثير وابن عامر: ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ بجعل الهمزة الأخيرة بين بين[٢]، وقرأه عامة الباقين من السبعة: ﴿أَئِمَّةَ﴾ بتحقيق الهمزتين.

والأئمة جمع إمام، وأصله: أَأْمِمَة وزنه: (أَفْعِلَة) جمع (فِعَال) كمثال وأمثلة. توصَّلَ فيه إلى الإدغام بتسكين الميم الأولى، ونُقِلَت حركتها إلى الهمزة فقيل فيه: (أئمة)[٣] والأئمة جمع الإمام، والإمام هو: المقتدىٰ به. وللكفر أئمة يقتدى بهم فيه ـ والعياذ بالله ـ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ الآية [القصص: آية ٤١].

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي: رؤساء الكفر وعظماءه الذين عابوا دينكم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٣) من سورة الأنعام.

(٢) قال ابن مجاهد في كتاب السبعة ص٣١٢: «قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: (أَيِمَة) بهمز الألف وبعدها ياء ساكنة. غير أن نافعاً يُختلف عنه في ذلك... وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: (أَئِمة) بهمزتين» ا.هـ. وانظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٥، النشر (٣٧٨/١ ـ ٣٧٩) وقد فصل في كيفية تسهيل الهمزة الثانية، ونقل مذاهب القراء في ذلك.

(٣) انظر: القرطبي (٨٤/٨)، حجة القراءات ص٣١٥، الدر المصون (٢٥/٦)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٢٧.

ونقضوا عهودكم. والعادة أن الذي يتصدى لتكذيب الرسل وعنادهم وعداوتهم الرؤساء المتبوعون، شياطين الإنس. وما جرى على ألسنة كثير من العلماء هنا أنهم: أبو جهل وأمية بن خلف وسهيل بن عمرو إلى أشراف المذكورين في غزوة بدر، فهو خلاف الظاهر[١] للإجماع على تأخر هذه الآيات كثيراً إلى عام تسع، أو إلى أنها نزلت قبل الفتح عام ثمان، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾.

قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن عامر: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ بفتح الهمزة. وهو جمع يمين، وقرأه ابن عامر من السبعة: **﴿إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون﴾**[٢].

فعلى قراءة الجمهور[٣]: ﴿لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ جمع يمين، التحقيق فيها: أن نفي أيمانهم على قراءة الجمهور إنما يراد به أنهم لا يوفون بها وهي عندهم كَلَا أيمان؛ لأنهم ينقضونها، وهذا أسلوب عربي معروف؛ تقول العرب لمن يكذب وينقض العهود: لا تغتر بيمين هذا فلا يمين له، يعني: لا يفي بها ولا يبرّها ولا يوفي بعهد، وهذا المعنى مشهور في كلام العرب، ومنه قول الحماسي[٤]:

وإن حلَفَت لا يَنْقُضُ البَيْنُ عَهْدَهَا   فليسَ لِمَخْضُوبِ البَنَانِ يَمينُ

يعني ليس للنساء أيمان؛ لأنهن ينقضنها غالباً. هذا مراده.

وقد تمسك الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ بظاهر هذه الآية فقال: لا

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٥٤)، ابن عطية (٨/١٤١)، القرطبي (٨/٨٤)، فتح القدير (٢/٣٤١).

(٢) انظر: السبعة ص(٣١٢)، المبسوط لابن مهران ص(٢٢٥).

(٣) في توجيه القراءتين انظر: ابن جرير (١٤/١٥٧)، القرطبي (٨/٨٥)، حجة القراءات ص(٣١٥)، الدر المصون (٦/٢٥).

(٤) البيت في القرطبي (٨/٨١)، الدر المصون (٦/٢٦) وفي القرطبي: «لا يَنْقُضُ النأيُ» وفي الدر المصون: «لا تَنْقُضُ الدهرَ».

تُقبل يمين من كافر، ويمين الكافر كلا شيء، فلا يمين له، لأن الله يقول: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾[(١)].

وعلى قراءة ابن عامر: **﴿إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون﴾** ففي معنى الآية الكريمة وجهان واضحان معروفان من التفسير:

أحدهما: أن المراد بالإيمان المنفي عنهم هو الإيمان الذي هو دين الإسلام، يعني: لا إسلام لهم ولا دين.

القول الثاني: ـ وهو أظهرهما ـ أنه مصدر: (آمَنَه يؤمِنُه إيماناً) إذا أمَّنه وجعله في مأمن. فالعرب تقول: «آمنت فلاناً أومنه» معناه: أمّنته وجعلت له الأمان، وهو معنىً مشهور في كلام العرب؛ منه قول الشاعر[(٢)]:

أَيَانَ نُؤْمِنْكَ تُؤْمَنْ غَيْرَنَا وإذا   لم تُدْرِكِ الأَمْنَ منّا لم تَزَلْ حَذِرَا

وهذا أظهر القولين؛ لأن نفي الإيمان عن أئمة الكفر معروف واضح. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾.

قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ متعلق بقوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ فقاتلوهم لأجل أن يكون قتالكم لهم رادعاً وسبباً لانتهائهم.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[(٣)] أن من أشهر معاني (لعل) في القرآن معنيان:

أحدهما: أنها على معناها الظاهر من الترجي، والمعنى: قاتلوهم على رجائكم أن ذلك القتال يكون موجباً لانتهائهم عن الكفر والطعن في الدين، وهذا بحسب ما يظهر للناس الذين يجهلون العواقب، أما الله (جلّ وعلا) فهو عالم بما كان وما يكون، وعلى هذا المعنى فقوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا

---

(١) انظر: المبسوط للسرخسي (١٤٧/٨).

(٢) البيت في البحر المحيط (٤١٩/٤)، الدر المصون (٥٢٩/٥).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: آية ٤٤] أي: على رجائكما بقدر علمكما أن يكون ذلك سبباً لأن يتذكر أو يخشى.

الوجه الثاني: هو ما قاله بعض علماء التفسير من أن كل (لعل) في القرآن فهي بمعنى: التعليل، إلا التي في الشعراء ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾ [الشعراء: آية ١٢٩] قالوا: هي بمعنى كأنكم تخلدون. وإتيان «لعل» بمعنى التعليل معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[(١)]:

فقُلتُم لنا كُفُّوا الحروبَ لعلَّنا نكفُّ ووثَّقْتُم لَنا كلَّ موثِقِ

فقوله: «كفوا الحروب لعلنا نكف» أي: كفوا لأجل أن نكف عنكم.

وقوله: ﴿يَنتَهُونَ﴾ أي: يرتدعون ويكفون وينزجرون عما هم عليه من الكفر والطعن في الدين.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة من سورة براءة: أن الذي يطعن في دين الإسلام بلسانه ويستخف به أنه يُقتل[(٢)]، أما إذا كان ذمياً عُقِدَت له ذمة المسلمين فطعن في الإسلام أو سبَّ النبي ﷺ فالجمهور على أنه يُقتل[(٣)]؛ لأن ذلك ينتقض به عهده ويبطل به عهده. وقال بعض العلماء: إنه لا يقتل ولكنه يُؤدَّب ويُعزَّر؛ لأنه أُعطي له الأمان وهو على كفره. والأول أظهر. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أي: قاتلوهم لعلهم ينتهون عن كفرهم.

٢/ب / قال تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣﴾ [التوبة: آية ١٣].

(ألا) هنا حرف تحضيض، والتحضيض معناه الطلب بِحَثٍّ وشدة.

---

(١) السابق.

(٢) انظر: القرطبي (٨٢/٨).

(٣) السابق (٨٣/٨).

والمعنى: إن الله هنا طلب منهم بِحَثّ وشدة أن يقاتلوا هؤلاء الكفَرَة أئمة الكفر، وبيّن لهم أن قتالهم إياهم الذي حضَّض عليهم فيه أن له أسباباً متعددة، كل واحد منها يستوجبه بانفراده، فكيف بها مجموعة؟

الأول منها: أنهم نكثوا أيمانهم.

الثاني: أنهم هموا بإخراج الرسول (صلوات الله وسلامه عليه).

الثالث: أنهم بدؤوكم بالقتال.

فهذه الأسباب حرية بأن يُقاتَل الذين اقترفوها وجاؤوا بها. وهذا معنى قوله: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا﴾.

قد قدمنا مراراً[١] أن (القوم) اسم جمع لا واحد له من لفظه، وأنه في الوضع العربي يختص بالذكور دون الإناث، بدليل قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: آية ١١] وأن المرأة ربما دخلت في اسم (القوم) بحكم التبع إذا اقترن بما يدل عليه، كقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: آية ٤٣].

وقال بعض العلماء: سمي قوم الرجل قوماً لأنه لا قوام للإنسان إلا بجماعة ينضم إليها ويدخل في جملتها. وهذا معنى قوله: ﴿قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ أي: نقضوا عهودهم، أو نقضوا العهود وأخلُّوا بالأيمان التي حلفوها توكيداً للعهود.

﴿نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ [التوبة: آية ١٣] الجماهير على أن هؤلاء الذين هموا بإخراج الرسول هم كفار مكة[٢] حين دبروا له المكيدة التي قدمناها موضحة في سورة الأنفال[٣] في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: آية ٣٠] والله (جل وعلا) نص في بعض الآيات أنهم أخرجوه بالفعل؛ لأنهم في الحقيقة

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: القرطبي (٨/٨٦)، الأضواء (٢/٤٣٠).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

اضطروه وألجؤوه (صلوات الله وسلامه عليه) إلى الخروج؛ لأن عمه أبا طالب ما دام حياً كان يكفهم عنه، ويردعهم عنه، ولا يقدرون أن يبلغوا منه المبلغ الذي بلغوا بعد أن مات، وكان يقول له[١]:

والله لنْ يصلوا إليكَ بجَمْعِهم حتى أُوسَّد في التراب دَفينا
اصدع بأمركَ ما عليك غضاضةٌ ....

فلما توفي أبو طالب ضيّقوا عليه حتى خرج (صلوات الله وسلامه عليه) ودخل هو وصاحبه الصديق في الغار كما ستأتي قصة ذلك مفصلة في هذه السورة الكريمة ـ سورة براءة ـ حيث نصّ الله عليه فيها. وقد قال جل وعلا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: آية ١٣] فصرّح بأنهم أخرجوه. وقال (جلّ وعلا): ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: آية ١] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: آية ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآية [الإسراء: آية ٧٦] إلى غير ذلك من الآيات.

والرسول هو سيدنا محمد (صلوات الله وسلامه عليه). وأصل الرسول (فَعُول) بمعنى (مُفْعَل) رسول بمعنى مُرسل. وأصل الرسول مصدر، وإتيان المصادر على وزن (الفعول) مسموع بقلة، كرسول بمعنى الرسالة، وقبول، وولوع، في أوزان قليلة[٢]. والتحقيق أن أصل الرسول مصدر، ومن إطلاقه مصدراً قول الشاعر[٣]:

لقد كَذَبَ الواشُونَ ما فُهْتُ عندهم بقولٍ ولا أرسَلْتُهم برسولِ

يعني: ما أرسلتهم برسالة. ومن فوائد كون أصل الرسول مصدراً؛ لأن هذا الأصل يُحل به بعض الإشكالات في القرآن؛ لأن من المقرر في

---

(١) الأبيات في البداية والنهاية (٤٢/٣)، ولفظ البيت الثاني هناك:
فامض لأمرك ما عليك غضاضة أَبْشِرْ وقَرَّ بذاكَ منك عيونا
(٢) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.
(٣) السابق.

علم العربية أن المصدر إذا نُعت به أُلزم الإفراد والتذكير، وربما تنوسي كونه مصدراً فجُمع[١]، وقد جاء (الرسول) مجموعاً بلفظ المفرد، وقد جاء مثنى بلفظ المفرد؛ لأن الله قال في سورة طه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا﴾ [طه: آية ٤٧] فثنى، وقال في سورة الشعراء: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالإفراد. ووجه الإفراد في آية الشعراء: أن أصل الرسول مصدر، والمصادر إذا نُزِّلت منزلة الأوصاف أُفردت وذُكِّرَت، ويدل لهذا أنه سُمع في لغة العرب إطلاق الرسول مراداً به الجمع؛ لأن أصله مصدر، ومنه بذلك المعنى قول أبي ذؤيب الهذلي[٢]:

أَلِكْنِي إليها وخَيْرُ الرسولِ أَعْلَمُهُم بنَوَاحي الْخَبَر

يعني: وخير الرسل. وهذا معنى قوله: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾.

ثم قال: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: آية ١٣] حذف المتعلق لقوله: ﴿بَدَءُوكُمْ﴾ والظاهر أن المعنى: بدؤوكم بالقتال والعدوان عليكم أول مرة، واختلف العلماء في وجه ذلك على قولين[٣]:

أحدهما: أن ابتداءهم للقتال هو ما قدمناه مفصلاً في سورة الأنفال في غزوة بدر؛ لأن النبي ﷺ خرج فيها للعير خاصة ولم يخرج للقتال، فلما سَاحَل أبو سفيان بالعير، ونجت العير، واستنفر النفير، وجاءهم الخبر أن عيرهم قد سلمت، كان من حقهم في ذلك الوقت أن يرجعوا، كما أشار عليهم به عمير بن وهب وعتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام، ولكن الخبيث أبا جهل قال: والله لا نرجع حتى نرد بدراً ـ وكانت من مواسم العرب ـ وتعزف علينا الغواني، ونشرب الخمر. وفي بعض الروايات أنه قال: لا نرجع حتى نستأصل محمداً وأصحابه[٤]. فلما

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.
(٣) انظر: القرطبي (٨/٨٦).
(٤) مضى عند تفسير الآية (٥) من سورة الأنفال.

نجت عيرهم وجاؤوا بعد ذلك إلى بدر معناه أنهم يريدون الشر، فكان هذا ابتداؤهم بالشر.

وقال بعض العلماء: ـ وهو أظهرهما ـ أن معنى: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾ أي: بدؤوكم بنقض العهود وقتل من كان داخلًا في حلفكم كما وقع من قريش في إعانتهم لبني الديل بن بكر على خزاعة فقتلوهم، كما قال راجزهم(١):

هم بَيَّتُونا بالوَتِيْرِ هُجَّدَا وقَتَلُونَا رُكَّعاً وسُجَّدَا

فابتداء هذا القتل كأنهم بدؤوا بالقتل ونقض العهود، وخزاعة في ذلك الوقت لهم حكم أصحاب النبي ﷺ لدخولهم في عهده. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كان في المرة الأولى ابتداء السوء حاصلًا منهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: آية ١٣].

ثم إن الله لما أمر النبي ﷺ وأصحابه بقتال الكفار أنكر عليهم أن يخافوا الكفار، قال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ بهمزة الإنكار. يعني: لا تخشوا هؤلاء أبداً فإنهم كفَرَة فجَرَة، والله (جل وعلا) أحق أن تخشوه فتمتثلوا أمره، وتقاتلوا أئمة الكفر الذين همُّوا بإخراج الرسول، وبدؤوا بالشر أول مرة. وهذا معنى قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾.

﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (إن) في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تشكل دائماً على المتعلمين وبعض العلماء(٢)، و(إن) هذه هي التي اختلف فيها البصريون والكوفيون، وهي كثيرة في القرآن، فالبصريون يقولون: إن (إن) هذه أنها صيغة شرط جيء بها مراداً بها التهييج وقوة الحمل على الامتثال، وهو أسلوب عربي معروف، أن العرب تنطق بأداة الشرط ولا تريد به حقيقة تعليق جزاء على شرط،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

وإنما تريد به التهييج والدعوة الصارمة إلى الامتثال، كما تقول للرجل: «إن كنت ابن فلان فافعل لي كذا» وأنت تعلم أنه ابن فلان، إلا أنك تستنهضه وتستحثه، ومن هذا المعنى قول واحد من أولاد الخنساء لما أوصتهم بالجهاد في سبيل الله[١]:

لستُ لخنساءَ ولا للأَخْرَمِ ولا لعمرو ذي السَّناءِ الأقدَمِ
إن لم أَرِدْ في الجَيْشِ جَيْشَ الأَعْجَمي ماضٍ على الهولِ خِضَمّ خِضْرِمِ

يعني: إن لم أرد في الجيش فلست ابناً لأبي ولا لأمي. لا يقصد التعليق وإنما يقصد تحريض نفسه على هذا. هذا معناها عند البصريين فيما يصح فيه هذا وفيما لا يصح فيه هذا كقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: آية ٢٧] وهم داخلوه قطعاً. وقوله ﷺ في أحاديث الزيارة: «**وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**»[٢] وهم لاحقون بهم قطعاً، قالوا: السر في هذا التعليق ليُعَلِّم الله خلقه أنهم لا يتكلمون عن مستقبل إلا بتعليقه على مشيئة من له المشيئة، ولو كان أمراً واقعاً لا محالة فكيف بغيره.

أما الكوفيون فإنهم يقولون: إن (إن) هذه بمعنى (إذ) وأنها تعليلية، ويقولون: «فالله أحق أن تخشوه إذ كنتم مؤمنين» أي: لأجل كونكم كنتم مؤمنين فذلك يستوجب منكم الخشية، وإطلاق (إن) بمعنى (إذ) ربما سمع في كلام العرب، وأنشد له بعض علماء العربية قول الفرزدق[٣]:

أتغضبُ إن أُذْنَا قُتيبة حُزَّتا جِهاراً ولم تَغْضب لقتل ابنِ خازم

يعني: أتغضب لأجل «إذ حُزَّت أذنا قتيبة؛ لأجل أن حُزَّتا» وهذان الوجهان في قوله: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ١٣].

---

(١) هذان البيتان سبق ذكرهما عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥﴾ [التوبة: الآيتان ١٤، ١٥].

[﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ][١] وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾.

لما أمر الله النبي ﷺ وأصحابه بمقاتلة أئمة الكفر وعدهم وعده الجميل - وهو لا يخلف الميعاد - ليستنشط هممهم بهذا الوعد على امتثال الأمر ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ أي: قاتلوا الكفرَة وأئمة الكفر ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ «يعذب» فعل مضارع مجزوم بجزاء الطلب، وجماهير من علماء العربية يقولون: إن جزم المضارع في جزاء الطلب أن أصله مجزوم بشرط مقدر دل الأمر عليه، وتقديره: إن تقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم. وهو جائز[٢]، فالجزم يجوز، ولو لم يجزم لكان جائزاً؛ لأن الجزم في جزاء الطلب لم يتعين. ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ هذا التعذيب الذي يعذبهم الله بأيديهم هو القتل بالضرب الوجيع الذي يصل به صاحبه إلى النار.

﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ أي: يذللهم ويهينهم بالأسر، فإن القتل تعذيب، والأسر خزي وإهانة وإذلال، وهذا معنى قوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ﴾.

﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ويعنكم عليهم حتى تقتلوا منهم وتأسروا.

﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ١٤] (يشف) معناه: يداوي داء قلوبهم؛ لأن المؤمن يكون وَغِر الصدر حانقه على الكافر، كأن قلبه مريض لما فيه من شدة الغضب، وكون صدره وَغِراً على الكفار لكفرهم بالله وقتلهم للمسلمين فإذا أمكنه الله منهم وقتلهم وأسرهم شفى ذلك صدره لأن الغيظ كأنه داء كامن في صدره، والتمكن من الأعداء والتسليط عليهم وقتلهم وأسرهم يشفي ذلك الداء الكامن في الصدر،

---

(١) أول الآية ذهب من التسجيل. وقد أثبتُّ أولها وجعلته بين معقوفين.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٩) من سورة البقرة.

فينشرح الصدر، ويزول ما كان فيه من كامن المرض الدفين والحقد على الكفار. وهذا معنى معروف في كلام العرب مشهور مبتذل جداً، ومنه قول مهلهل بن ربيعة[١]:

ولكنّا نَهَكْنَا القومَ ضَرْباً على الأثباج منهم والنحورِ
هتَكْتُ به بيوتَ بني عُبادٍ وبعضُ القتلِ أشفى للصدورِ

لأن طالب الثأر كأنه وَغِر الضمير حران فإذا قتل صاحبه بردت غلته وشُفي ما في صدره. وهذا كثير معروف في كلام العرب مشهور. وهذا معنى قوله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ١٤] قال جماهير من أهل التفسير: إن المراد بالقوم المؤمنين أنهم خزاعة[٢] حيث تمالأ عليهم البكريون وقريش وقتّلوهم في الحرم، واستنجدوا بالنبي ﷺ لما أرسلوا عمرو بن سالم في قوم منهم بديل بن ورقاء، وقال عمرو رجزه الذي ذكرنا قبل هذا. وعن النبي ﷺ أنه قال: «**لا نصرت إن لم أنصر بني كعب**»[٣] يعني من خزاعة، وقد كان ذلك سبباً لغزاة الفتح، وقد قتل جماعة من المشركين يوم الفتح، قال بعض المؤرخين: قتل منهم اثنا عشر رجلاً يوم فتح مكة، والأظهر كما قدمنا مراراً أن أهل مكة قُتلت منهم جماعات. وقد جاء في صحيح مسلم ما يدل على ذلك[٤]، ويدل على ذلك رجز حماس بن قيس المشهور الذي هو مشهور عند العلماء؛ لأن حماس بن قيس كان في مكة، وكان يقول لامرأته: لأُخدمنك نساء محمد ﷺ، ولأجعلهن لك خدماً. وكان يقول لها: إذا جئتك منهزماً فأغلقي الباب دوني. فكان في ذلك اليوم في الطائفة التي وقع فيها القتل والقتال فجاءها مذعوراً منهزماً، وكان يقول قبل يوم الفتح[٥]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.
(٢) انظر: ابن جرير (١٤/١٦٠)، القرطبي (٨/٨٧).
(٣) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال.
(٤) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.
(٥) تقدمت هذه الأبيات عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال، وقد أثبتنا نصها هناك من بعض المصادر.

إنْ يُقبِلُوا اليوم فما لي علَّة   هذا سلاحٌ كامِلٌ وألَّه
وذُو غِرارَيْنِ سَرِيْعُ السَّلَّه

فلما جاء زوجته ووجهه كأنه زعفران من الخوف، وقال لها تفتح له الباب، فقالت له: أين الذي كنت تقول؟ فقال[1]:

إنكِ لو شهدتِ يومَ الخَنْدَمَة   إذْ فَرَّ صَفْوانٌ وفَرَّ عِكْرِمَة
واسْتَقْبَلَتْنَا بالسيوفِ المُسْلمةِ   لهم نهيتٌ خلفنا وهَمْهَمَة
يَقْطَعْنَ كلَّ سَاعِدٍ وجُمْجُمة   ضرباً فلا تسمعُ إلا غَمْغَمَة
لم تَنْطقي باللومِ أدنى كَلِمَة

وهذا صريح في أنهم قاتلوا وقتلوا. وفي صحيح مسلم: أنهم لم يتعرض لهم ذلك اليوم أحد إلا أناموه[2] كما هو معروف. وقد ذكرناه مفصلًا في سورة الأنفال[3]. فهذا القتل قتل قريش وإذلالهم وقهرهم، شفى صدور الخزاعيين حيث أخذوا بثأرهم وأذل الله عدوهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: الآيتان ١٤، ١٥] لِمَا نالوا من شفاء غليل صدورهم من قهر أعدائهم كما قال الشاعر[4]:

تعلَّمْ شِفَاءَ النَّفسِ قَهْرَ عدوِّهَا   فبالغْ بلطفِ في التحيُّلِ والمَكْرِ

وهذا معنى ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾.

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ قراءة الجمهور: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ لأنها ليست معطوفاً على الجزاء، والأفعال المعطوفة على الجزاء جُزمت، والقراءة هنا هي الجزم.

أما اللغة فيجوز في الأفعال المعطوفة على الشرط والجزاء معاً بعد أن

---

(١) تقدمت هذه الأبيات عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام، وقد أثبتنا نصها هناك من بعض المصادر.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

(٣) السابق.

(٤) البيت في أوضح المسالك (١/٢٩٥)، شذور الذهب ص٣٦٢.

تستكمل أداة الشرط شرطها وجزاءها، فالأفعال المعطوفة عليها معلوم أنها يجوز فيها ثلاث لغات: الجزم كما في قراءة هذه الآيات، والرفع، والنصب، وهو معنى معروف في كلامهم، وفي أوجه العربية الثلاثة يروى قول نابغة ذبيان[1]:

فإن يَهْلِكْ أبُو قابوسَ يَهلِكْ ربيعُ الناسِ والشهرُ الحرامُ
ونأخذْ بعده بِذِنابِ عيشٍ أجَبَّ الظَّهر ليسَ لهُ سَنامُ

فيه: «ونأخذْ»، «ونأخُذُ»، «ونأخُذَ» بالجزم، والنصب، والفتح. وهذا معنى قوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ بعد ذلك يتوب الله على من يشاء أن يتوب عليه، قد يوفق بعض المشركين فيتوبون إلى الله ويتوب عليهم. وتوبة الله على عبده هي أن يقيل عثرته، ويقبل منه رجوعه حتى يكون الذي صدر منه كأنه لم يكن.

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أن يتوب عليه، فمفعول المشيئة محذوف.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كثير العلم يبالغ في علم نفسه لإحاطة علمه بكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ لأنه حكيم في شرعه وفي أقواله وأفعاله وتدبيره وجزائه، فهو حكيم في كل شيء، وله الحكمة البالغة (جلّ وعلا).

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة: الآيات ١٦ ـ ١٩].

---

(١) ديوان النابغة ص١٥٧.

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: آية ١٦].

(أم) هنا هي المنقطعة. ومعنى (أم) المنقطعة عند علماء العربية: أنها تأتي بمعنى استفهام الإنكار، وبمعنى (بل) الإضرابية، وتأتي بمعناهما معاً، وهو أجودها[١].

و(حسبتم) معناه ظننتم. والإنكار الذي في قوله: «أم» يتوجه إلى من ظن أنه يدخل الجنة من غير ابتلاء ولا امتحان. والمعنى: أحسبتم، أي: أظننتم أن الله يترككم من غير أن يختبركم بالمشاق التي يظهر بالاختبار بها المطيع من العاصي، والمحق من المبطل، والصادق من الكاذب؟ والمعنى: لا بد أن يبتليكم الله ويمتحنكم بأنواع الابتلاء، ومن أعظمها: الأمر بالجهاد في سبيل الله الذي فيه تعريض المهج والأموال للتلف والضياع؛ لأن ذلك يظهر به الزائف من الخالص، ويتبين به الصادق من الكاذب، وهذا معنى قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ يعني أظننتم؟ الحسبان معناه الظن ﴿أَن تُتْرَكُوا۟﴾ أن يترككم الله من غير اختبار ولا امتحان ولا ابتلاء؟ لا. لا يكون ذلك أبداً ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ هي (لم) النافية دخلت عليها (ما) المزيدة لتوكيد النفي، وهي تدل على توقع حصول الأمر ولم يحصل بالفعل. وقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ أي: يترككم الله ولم يختبركم اختباراً يُعلم به من هو الصادق منكم ومن هو الكاذب، ومن هو المخلص وغيره.

وهذه الآيات وأمثالها في القرآن التي ربما يفهم الجاهل منها أن الله يختبرهم ليطرأ له علم بذلك الاختبار، هذا لا يُراد؛ لأن عالم الغيب والشهادة، عالم بما كان، وما سيكون، وما يقع، وعالم بالمعدومات والموجودات، والجائزات والمستحيلات، حتى إنه من إحاطة علمه ليعلم المعدوم الذي سبق في علمه أنه لا يوجد وأنه لا يكون

(١) انظر: الكليات ص١٨٢، معجم الإعراب والإملاء ص٧٨.

يعلم أن لو كان كيف يكون، كما أوضحناه مراراً[١].

وجرت العادة في القرآن أن الله تبارك وتعالى إذا جاء عنه بعض الآيات التي فيها شبه خفاء لا بد أن يبيّنه ويوضحه في بعض المواضع، وقد أوضح هذا في آية من سورة آل عمران قدمناها مراراً، أوضح فيها أنه يختبر ويبتلي ليُظهر للناس حقيقة الناس، ويعلموا المخلص من الزائف، والصادق من الكاذب، وتلك الآية هي قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: آية ١٥٤] بيّن أن ما أوقع بهم يوم أحد من تسليط المشركين عليهم وقتل سبعين منهم أنه فعل ذلك لأجل أن يبتليهم ويختبرهم ويمحص ما في قلوبهم، فظهر المنافقون من الصادقين، ومع هذا قال بعد قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾ قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: آية ١٥٤] ومن هو عالم بما يخطر في الضمائر لا يستفيد بالاختبار علماً سبحانه (جلّ وعلا) عن ذلك. فالمراد بـ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ هنا إظهار معلومه للناس، أو العلم الذي يترتب عليه الثواب والجزاء؛ لأن الله عالم بأفعالهم قبل أن يفعلوها، وعلمه بها أولاً لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وعالم أيضاً بها وقت فعلها وذلك العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب. وقال البغوي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ يعني: أحسبتم أن يترككم الله ولم يرَ الله عملكم حتى يتبيّن للناس المخلص من غيره[٢].

وعلى هذا التفسير الذي فسرها به فالمعنى يشبه قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: آية ١٠٥] وعلى كل حال فيجب على كل مسلم أن يعتقد أن علم الله محيط بكل شيء، لا يخفى عليه شيء، يعلم ما كان، وما سيكون، وما سبق في علمه أنه لا يكون يعلم أن لو كان كيف يكون. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٣] الآيات الكثيرة الدالة على إحاطة

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) تفسير البغوي (٢/٢٧٣).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

علمه حتى بالمعدومات الذي سبق في علمه أنها لا توجد، وأنه عالم بأنها لو وُجدت أنها لا تكون، وأنها لو كانت يعلم كيف تكون، دلت على هذا آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله في سورة الأنعام: ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٧] إذا رأى الكفار الحقائق يوم القيامة ندموا على تكذيب الرسل وتمنوا أن يُردوا إلى الدنيا مرة أخرى ليؤمنوا ويصدقوا الرسل، وهذا الرد الذي تمنوه الله عالم بأنه لا يكون، ومع ذلك فقد صرح بأن هذا الرد الذي لا يكون هو عالم أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً؛ لأن الله ثبطهم عنها لحكمة وإرادة كما صرح به في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٤٦] وخروجهم هذا الذي لا يكون صرح بعلمه أن لو كان كيف يكون حيث قال: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ...﴾ الآية [التوبة: آية ٤٧].

ونظائر هذا كثيرة في كتاب الله (جلّ وعلا) وهذا معنى قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ [التوبة: آية ١٦] يعني: يعلمهم علماً يظهرهم به للناس حتى يتميزوا به، أما هو فهو عالم بكل ما يصنعون وما يؤولون إليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون: آية ٦٣] يعلمها قبل أن يعملوها. وهذه الآية نصّ الله على ما دلت عليه هنا في آيات كثيرة كقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: الآيتان ١، ٢] لا يكون ذلك ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ ومن نظائرها قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران: آية ١٤٢] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ﴾ الآية [البقرة: آية ٢١٤]. وقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ

نَافَقُوا۟﴾ [آل عمران: الآيتان ١٦٦، ١٦٧] أي: يميز بينهم بما يعمله من الاختبار ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: آية ١٧٩] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: آية ٣١] إلى غير ذلك من الآيات القرآنية المصرحة بأنه قد اقتضت حكمة الله أن لا يترك خلقه من غير ابتلاء وامتحان بل لا بد أن يمتحنهم ويبتليهم بالشدائد والعظائم ليظهر الذي هو على الحق من الذي هو على الباطل، ويتبين الصادق من الكاذب. وهذا معنى قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ﴾ [التوبة: آية ١٦].

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟﴾ معطوف على فعل الصلة، والمعنى: ولما يعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الذين لم يتخذوا من دون الله وليجة. والمعنى: لا بد أن يمتحنكم حتى يُعلم المجاهد في سبيل الله والمخلص الذي لم يتخذ وليجة من دون الله ولا رسوله؛ لأن بعض الناس ظهر نفاقهم وبعضهم ظهر اتخاذهم الوليجة من دون الله.

واعلم أن الوليجة في لغة العرب: كل شيء أدخلته في شيء فهو وليجة[1]. والمراد بها هنا: بطانة السوء؛ لأنهم يدخلون في المسلمين وليسوا منهم؛ لأن كثيراً من غير المخلصين يتخذون أعداء الله أولياء، ويفشون إليهم أسرار المسلمين، ويطلعونهم على حقائقهم، وهم أعداء للمسلمين، كما كان عبدالله بن أُبي وأصحابه يفعلون، هم مع الكفار واليهود، والمعنى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولم يتخذوا من دون رسول الله، ولم يتخذوا من دون المؤمنين وليجة، أي: أولياء وبطانات سوء يوالونهم دون المسلمين؛ لأن الأعداء خارجون عن المسلمين، فإدخالهم فيهم كأنه وليجة لهم وإدخال لمن ليس منهم فيهم.

---

(١) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الواو، باب الواو واللام وما يثلثهما. (مادة: ولج) ص١١٠٣.

فالوليجة هنا: بطانة السوء، وأولياء السوء، يتخذهم بعض غير الصادقين في إيمانهم أولياء، كما تقدم في قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: آية ٢٨] فاتخاذ هذه الأولياء هو الوليجة؛ لأن العدو الموالى من المسلمين المُدخل فيهم وليجة فيهم وليس منهم، والعرب تقول للرجل في القوم ليس منهم: هو وليجة. يعني داخل فيهم وليس منهم. ووليجة الأمر: دخيلته، وهؤلاء وليجة فلان، معناه: أصحاب سره وداخله، وتطلق على المفرد والجمع. وهذا معنى ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: آية ١٦] أي: دخيلة من الأعداء يتخذونهم أولياء، ويوالونهم، ويفشون إليهم أسرار المسلمين، كما كان يفعله المنافقون، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول أبان بن تغلب:

فبئس الوليجة للهاربين والمعتدين وأهل الرِّيَب(١)

وهذا معنى قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بطانة سوء وأولياء يدخلونهم ويولجونهم في المسلمين وليسوا من المسلمين، بل هم أعداء المسلمين، يفشون إليهم أسرار المسلمين، كما قال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعني: الخبير أخص من العالم، والخبرة أخص من العلم؛ لأن العلم يطلق على كل علم، والخبرة لا تطلق في اللغة إلا على علم خاص، وهو علم الشيء الذي من شأنه أن يخفى، فالعرب تقول في الشيء الذي شأنه أن يخفى: على الخبير سقط، وأنا خبير بهذا. فلو قلت مثلاً: أنا عالم بأن الواحد نصف الاثنين، وأن الكل أكبر من الجزء، كان هذا كلاماً عربياً، ولو قلت: أنا خبير بأن الواحد نصف الاثنين، وأن الكل أكبر من الجزء، لما كان هذا كما ينبغي؛ لأن العرب لا

(١) البيت في القرطبي (٨/٨٨).

تكاد تطلق الخبرة إلا على المعرفة بما من شأنه أن يخفى، كما قال الشاعر في العيافة[١]:

خبير بنو لهْبٍ فلا تكُ مُلغيا مَقَالةَ لهْبي إذا الطيرُ مَرَّتِ

ومعنى خبرته (جلّ وعلا): أنه يعلم الخفايا والخبايا كما يعلم الظاهر، فلا تخفى عليه خافية. وهذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم الذي نوّهنا عنه مراراً كثيرة ولا نزال ننوه عنه. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ١٧﴾ [التوبة: آية ١٧] ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ مساجد هنا ذكرت مرتين: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ والثانية في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾. أما الأولى منهما وهي قوله: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، فقد قرأه عامة السبعة غير ابن كثير وأبي عمرو: ﴿أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ بصيغة جمع التكسير. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو: **﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مسجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾**[٢].

أما مساجد الثانية وهي قوله: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ فقد أجمع جميع القراء على قراءتها بصيغة الجمع ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ ولم يقرأها أحد بالإفراد كما هو معروف.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ سبب نزولها أن كفار قريش صدوا النبي ﷺ عن البيت الحرام، وقالوا: هو بيتنا ونحن أولياؤه، وافتخروا بعمارة المسجد الحرام، كما يأتي. يفتخرون دائماً ببيت الله الحرام وأنهم عمّاره وأهله، كما سيأتي في قوله: ﴿فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ٦٦ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ٦٧﴾ [المؤمنون: الآيتان ٦٦، ٦٧] وفي

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٦.

القراءة الأخرى: ﴿تَهْجُرُونَ﴾[(١)]. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: بالبيت، على أظهر التفسيرين؛ لأنهم يتكبرون به بأنهم قطّانه وعمّاره وأولياؤه، فردّ الله عليهم في هذه الآية الكريمة. وقد قدمنا طرفاً من ذلك في سورة الأنفال في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال: آية ٣٤]. وقال هنا: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما يصح ولا ينبغي ولا يمكن هذا التناقض؛ لأن المساجد بيوت الله، أُسّست على طاعته والتقرب إليه بما يرضيه، والمشركون كفَرَة فجَرَة، أعمالهم في المساجد كلها كفر وتمرد على الله وعدوان، كيف يكون هذا يجتمع مع هذا؟! لأن المساجد إنما بُنيت لطاعة الله، وتُؤسس على ما يرضي الله (جلّ وعلا) وهؤلاء كفَرَة أعمالهم كلها كفر وصد عن سبيل الله، فهذا من الشيء الذي لا يمكن أن يجتمع؛ لأن فيه اجتماع النقيضين. وهذا معنى قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: آية ١٧] وفي قراءة ابن كثير وأبي عمرو: ﴿**يعمروا مسجد الله**﴾ هو المسجد الحرام، مسجد مكة حرسها الله.

وقوله: ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ هذا محل التناقض؛ لأن عمارة المسجد الحرام فعل المطيعين والمتقربين إلى الله، كيف يفعلون هذا في وقت الحال التي هم شاهدون فيها على أنفسهم بالكفر؟

وقوله: ﴿شَاهِدِينَ﴾ حال من واو الفاعل في قوله: ﴿يَعْمُرُوا﴾ أي: يعمروها في حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر.

قال بعض العلماء[(٢)]: شهادتهم على أنفسهم بالكفر إنما هي بأفعالهم؛ لأن من سجد ووضع جبهته للصنم فقد شهد على نفسه ونادى بأعظم الكفر وأفظعه. وعلى هذا فهي شهادة حال.

---

(١) السابق ص٣١٣.

(٢) في معنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر. انظر ابن جرير (١٤/١٦٥)، القرطبي (٨/٨٩)، ابن كثير (٢/٣٤٠).

/ وقال بعض العلماء: هي شهادة مقال أيضاً، فهم شاهدون بالحال ١/٣أ
والمقال. قالوا: يُراد بذلك أنهم في تلبيتهم وطوافهم بالبيت في المسجد الحرام يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك [وقال بعض العلماء: شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن الكافر إذا قلت له: ما دينك؟ فيقول:][(١)] النصراني نصراني، والصابىء صابىء، والمشرك يقول: مشرك؛ لأنه يعبد مع الله غيره. والله (جلّ وعلا) ذكر مثل هذا من شهادتهم على أنفسهم في غير هذا الموضع كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ [العاديات: الآيتان ٦، ٧] أي: الإنسان، وفيه الأقوال المذكورة هنا. وهذا معنى قوله: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ لأن عمارة مساجد الله هي من القربة والطاعة لله لا تمكن من أحد هو في حال وقت فعله إيّاها شاهد على نفسه بأنه كافر.

وعمارة المسجد الحرام تشمل أمرين:

أحدهما: العمارة الحسية، وهي مَرَمَّته وبناؤه وتزيين بنائه.

والثانية: عمارته المعنوية، وهي عبادة الله وطاعته فيه، واللائق بالكفار هنا هو الأول؛ لأنهم كانوا يسدنون البيت وقد بنوه، كما قال زهير[(٢)]:

وأَقْسَمْتُ بالبيتِ الذي طافَ حولَهُ ... رجالٌ بَنَوهُ من قريشٍ وجُرْهُمِ

وبناء قريش له معروف، حضره النبي ﷺ في صغره كما هو معروف. وهذا معنى قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: آية ١٧].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الكفرة الشاهدون على أنفسهم بالكفر ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ ومنها عمارتهم للبيت الحرام؛ لأن الكفر يحبط جميع الأعمال. ومعنى

---

(١) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

انظر: ابن جرير (١٤/١٦٥)، ابن أبي حاتم (٦/١٧٦٥)، القرطبي (٨/٩٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة الأعراف.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ اضمحلت وكانت لا فائدة فيها؛ لأن أفعال الكفار تضمحل ولا تنفعهم يوم القيامة؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ ويقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: الآيتان ١٥، ١٦] أما أفعال الكافر من قُرَبِه فإنها تنفعه في الدنيا؛ لأن الكافر إذا أطاع الله في الدنيا مخلصاً في طاعته لوجه الله كأن يبر والديه، ويصل الرحم، ويقري الضيف، وينفس عن المكروب، ويعين [المظلوم][1]، فإذا فعل الكافر هذه القرب يقصد بها وجه الله فإن الله يعاوضه في الدنيا ويعطيه ثوابه في الدنيا من الصحة والرزق والمال، ولا شيء له يوم القيامة، كما دلت على هذا آيات من كتاب الله، كقوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾، ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: آية ٢٠]. وثبت معناه في صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله عنه[2]. وهذا معنى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [التوبة: آية ١٧] النار - والعياذ بالله - هي دار الخزي التي أعد الله لأعدائه يوم القيامة. والألف التي بين النون والراء منقلبة عن واو، فأصلها من مادة الأجوف واوي العين، أصلها (نَوَرٌ) ولذا يقولون في النظر من بعيد إلى النار: تنورتها. فلو كانت يائية العين لقالوا: تنيرتها. قالوا واشتقاقها من: نارت الظبية. إذا ارتفعت جافلة؛ لأن طبيعة النار الارتفاع[3].

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ خلود الكفار في النار خلود أبدي سرمدي لا انقطاع له، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٩٧]، ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: آية ٣٠]، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: آية ١٦٢].

---

(١) في الأصل: «الظالم» وهو سبق لسان.

(٢) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأعراف.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

ومعروف في هذا إيراد يورده الكفرة الملاحدة وأذنابهم ومن تعلق بهم يقولون: إن الله (جلّ وعلا) في غاية الحكمة والعدالة، وهو العدل الحكيم (جلّ وعلا) والكافر إنما عصى في الدنيا أياماً معدودة، قالوا: فكيف يكون العمل في أيام معدودة محدودة والجزاء دائم لا ينقطع أبداً؟ وأين الحكمة والإنصاف في هذا؟ قبّح الله من يقول هذا!! وهذا يتمسك به الملاحدة وأذناب الكفرة[1].

والجواب عن هذا أن الكافر - قبّحه الله - خبثه الذي ينطوي عليه الذي هو سبب كل ما جاءه من البلايا هو دائم أبداً لا يزول ولا ينقطع، فكان جزاؤه دائماً لا يزول ولا ينقطع، والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: آية ٢١] (خيراً) نكرة في سياق الشرط وهي تعم، فلا يكون في قلوبهم خير أبداً في وقت ما كائناً ما كان. ومما يوضح ذلك: أنهم لمّا عاينوا النار، وشاهدوا الحقائق، وكشف الله غطاءهم عنهم، وعاينوا كل شيء، وتمنوا الرد إلى الدنيا مرة أخرى، صرّح الله بأن ما طُبعوا عليه وما جُبلوا عليه من الكفر لا يزول أبداً، وأنه لو ردهم إلى الدنيا لرجعوا إلى كفرهم؛ لأنهم منطوون عليه لا يفارقهم أبداً، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] فهذا يدل على أنهم لا ينفكون عن كفرهم، وأنهم دائمون عليه أبداً، فكان جزاؤه دائماً عليهم أبداً، جزاءً وفاقاً، ولله (جلّ وعلا) الحكمة في كل ما يفعله، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير. وهذا معنى قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: آية ١٨].

[المقرر][2] عند علماء العربية أن (إنما) أداة حصر وإثبات. يعني: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ العمارة المعنوية بالعبادات وذكر اسم الله فيها،

---

(١) راجع هذه الشبهة والجواب عنها، عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

والعمارة الحسية، من بنائها وترميمها، هذا كله من شأن المؤمنين، لا من شأن الكفار، وهذا قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾. (من) فاعل قوله ﴿يَعْمُرُ﴾ الذي آمن بالله هو الذي يعمر مساجد الله، لا الكافر الذي عمله ضد لما بنيت له المساجد، فهذا تناقض لا يمكن أن يكون عامراً للمساجد، وعمله ضد ما بُنيت له المساجد، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أي: صدّق به (جلّ وعلا) وبكل ما يجب التصديق به.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ هو يوم القيامة. وجرت العادة أن الله يذكر الإيمان باليوم الآخر مع الإيمان به؛ لأن الكفر باليوم الآخر سبب لكل البلايا وأنواع الكفر والجحود؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين: هما: جلب النفع، ودفع الضر، والذي لا يصدق بيوم القيامة لا يرغب في خير في ذلك اليوم، ولا يخاف من شر في ذلك اليوم، فلا ينزجر عن شيء، ولا يرعوي عن شيء؛ ولذا كان التكذيب بالبعث من أشنع أنواع الكفر بالله (جلّ وعلا) وقد صرّح الله بأن المكذبين بالبعث والشاكّين فيه من حطب جهنم في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: آية ١١] وقوله في المنكرين للبعث: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ استفهام إنكار منهم في الخلق الجديد بعد الموتة الأولى، قال الله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: آية ٥]. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني: الصلوات المكتوبات الخمس. ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الحقوق الواجبة في الأموال كما بيّناه مراراً.

﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ جماهير العلماء يقولون: (عسى) من الله واجبة[1] لأن الله كريم لا يُطمع في شيء إلا هو فاعله لشدة كرمه (جلّ وعلا) وفضله.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة الأنعام.

﴿أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي: السالكين طريق النجاة والصواب الموصلة إلى الجنة، وقد جاء عن النبي ﷺ من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان**»(١) لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [التوبة: آية ١٨] وقال أبو بكر بن العربي في الكلام على هذا الحديث في قوله: «**فاشهدوا له بالإيمان**» اشهدوا له شهادة ظاهرة؛ لأن فعله يدل عليها، وتعاهد المساجد يدل على إيمانه ظاهراً كما دل عليه قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ أما حقيقة الباطن فهي عند الله جلّ وعلا. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ لم يخف أحداً إلا الله. وفي هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن سؤال معروف، وهو أن يقال: لا يوجد أحد إلا هو يخشى من غير الله، ويخاف من غير الله؛ لأن كل المخاوف والمحاذير جُبلت طبائع البشر على الخوف والخشية منها، والذي لم يخشَ شيئاً من المخاوف والمحاذر هذا أمر صعب.

والعلماء يجيبون عن هذا بجوابين(٢):

بعضهم يقول: الخشية التي هي شرك بالله التي يحذّر الله منها هي خشية الأصنام، والخوف من المعبودات من دون الله، وهذا النوع دلت عليه آيات كثيرة؛ لأن عبَدَة الأصنام يخوفون من يسب الأصنام بأن الأصنام ستفعل له وتفعل، كما قالوا لنبي الله هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا

---

(١) أخرجه أحمد (٦٨/٣، ٧٦)، والدارمي (٢٢٢/١)، والترمذي في التفسير، باب: ومن سورة التوبة. حديث رقم: (٣٠٩٣) (٢٧٧/٥)، وابن ماجه في المساجد والجماعات، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة. حديث رقم: (٨٠٢) (٢٦٣/١)، والبيهقي (٦٦/٣)، والحاكم (٢١٢/١، ٣٣٢/٢)، وابن حبان (الإحسان ١١٠/٣). وابن أبي حاتم في التفسير (١٧٦٦/٦)، وانظر: ضعيف ابن ماجه ص٦٢، المشكاة (٧٢٣)، ضعيف الجامع (١٨٤/١).

(٢) انظر: القرطبي (٩٠/٨).

بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية [هود: الآيات ٥٤ ـ ٥٦] وكذلك لما خوّفوا منها نبي الله إبراهيم (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) وقالوا له: سوف تفعل بك أصنامنا وتفعل، قال لهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: آية ٨١] وخوّفوا بها نبي الله (صلوات الله وسلامه عليه)، كما نصّ الله عليه في سورة الزمر في قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ ثم قال رداً عليهم: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥۖ﴾ [الزمر: آية ٣٦] وفي القراءة الأخرى[1]: ﴿**بكاف عباده**﴾ وهذا كثير في القرآن، فهذه الخشية التي يخاف صاحبها من عاقبة الأصنام هذا كفر بالله وشرك به.

وقال بعض العلماء: هي الخشية الدنيوية من الناس إذا كانت تحمل الإنسان على أن يعصي الله، كالذي يخشى من الكفار ويجبن عن الجهاد في سبيل الله، كما تقدّم في قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ١٣] أما ما يعرض للإنسان من الخوف من الأشياء والمحاذير بجبلته فهذا أمر لا مؤاخذة به؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها كما هو معلوم، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: آية ١٨].

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة: آية ١٩].

قال بعض العلماء: نزلت هذه الآية الكريمة في العباس بن عبدالمطلب، ذلك أنه لما أُسر يوم بدر كان علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) يلومه ويشدد عليه في قتاله للنبي ﷺ، وكان الصحابة

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٨٤.

يعيرونه وأصحابه بالشرك بالله، فقال لهم: تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا!! فقال له علي: ألكم محاسن؟ قال: نعم، نحن نعمر بيت الله الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني، ونفعل ونفعل[(١)].

وقال بعض العلماء: نزلت في عثمان بن طلحة، أو شيبة بن طلحة، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبدالمطلب. قال العباس: أنا صاحب السقاية. وقال صاحب بني عبدالدار: أنا سادن البيت، عندي مفتاح الكعبة، لو أشاء لبت فيها. وقال علي بن أبي طالب: صليت إلى القبلة قبل أن يصلي الناس إليها، وذكر الجهاد ونحو ذلك، فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾[(٢)].

وأكثر المفسرين أن سبب نزولها هو افتخار الكفار بسقايتهم الحاج،

---

(١) أخرج نحوه ابن جرير (١٧٠/١٤)، وابن أبي حاتم (١٧٦٨/٦) وإسناده صحيح، والواحدي في أسباب النزول ص(٢٤٤)، وأورده السيوطي في الدر (٢١٨/٣) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما). كما أورده عنه مختصراً وعزاه لابن مردويه.
وقد جاء في هذا المعنى جملة من الآثار منها:
١ ـ الشعبي: أخرجه ابن جرير (١٧١/١٤)، وابن أبي حاتم (١٧٦٨/٦)، وأورده السيوطي في الدر (٢١٨/٣) وعزاه لابن مردويه وعبدالرزاق وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
٢ ـ عبدالله بن عبيدة: أورده السيوطي في الدر (٢١٨/٣) وعزاه لابن أبي شيبة وابن مردويه وأبي الشيخ.
٣ ـ ابن سيرين: أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص(٢٤٤)، وعزاه في الدر (٢١٨/٣) للفريابي.
٤ ـ الضحاك: أخرجه ابن جرير (١٧٢/١٤).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٧١/١٤) والواحدي في أسباب النزول ص(٢٤٤) عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً. وقد جاء بمعناه عدة آثار منها:
١ ـ عن الحسن البصري: أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص(٢٤٤)، وعزاه في الدر (٢١٩/٣) لعبدالرزاق.
٢ ـ أنس بن مالك (رضي الله عنه): أورده السيوطي في الدر (٢١٩/٣) وعزاه لأبي نعيم في فضائل الصحابة، وابن عساكر.
٣ ـ السدي: أخرجه ابن جرير (١٧٢/١٤).
٤ ـ الشعبي: أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٦٧/٦).

وعمارتهم المسجد الحرام، وجعلهم ذلك مثل إيمان المؤمنين، وأن لهم من الأجر مثل ما للمؤمنين، فأنكر الله عليهم.

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية الكريمة حديث مشكل، لأنه خرَّج جماعة عن النعمان بن بشير (رضي الله عنه)، ومن جملة من خرّج حديثه مسلم بن الحجاج (رحمه الله) في صحيحه، أن سبب نزولها أن النبي ﷺ كان يوم جمعة وعند منبر النبي ﷺ رجال، فقال واحد منهم: لا أبالي أن أفعل شيئاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال الثاني: لا أبالي أن أفعل شيئاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال الثالث: الجهاد في سبيل الله أفضل من هذا كله. فزجرهما عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ. وكان هذا يوم جمعة. فإذا صلى الجمعة استفتيت رسول الله فيم اختلفتم فيه. وأنه استفتى النبي ﷺ فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ سبب نزول هذه الآية على هذا السياق أخرجه مسلم في صحيحه وجماعة[1]، وهو مشكل جداً؛ لأنا لو فرضنا أن نزولها في المؤمنين لا يناسب قوله في آخرها: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: آية ١٩] فدل على أن الصحيح أنها في الكفار، وهذا الحديث أصله فيه إشكال معروف في سبب نزول هذه الآية الكريمة، وقد أورد أبو عبدالله القرطبي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية إزالة هذا الإشكال[2]، وكلامه فيه أجود ما وقفت عليه في إزالة إشكاله، قال: إنهم لما اختلفوا وذكر واحد منهم عمارة المسجد، وذكر الثاني سقاية الحاج، وذكر الثالث الجهاد، وسأل عمر بن الخطاب النبي ﷺ، أن النبي إنما قرأ الآية - وكانت نازلة قبل - مستدلاً بها لحكم ما اختلفوا فيه، وهي قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ فظن الراوي أن قراءة النبي لها أن ذلك وقت نزولها، وذلك ليس بوقت نزولها، فهي نازلة قبل ولكنه ذكرها استشهاداً واستدلالاً لما اختلفوا فيه. وهذا هو الأظهر والله تعالى أعلم.

---

(١) مسلم في الإمارة، باب: فضل الجهاد والخروج في سبيل الله. حديث رقم: (١٨٧٩) (١٤٩٩/٣).

(٢) تفسير القرطبي (٩٢/٨).

وقوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ الظاهر أن (جعل) هنا هي التي بمعنى اعتقد، وأنه أنكر عليهم اعتقادهم تساوي هذين الأمرين وهما بعيد من المساواة، بينهما بون عظيم، وبون شاسع.

وكان بعضهم يقول: لا يبعد أن تكون هي التي بمعنى (صيَّر) أي: صيرتم هذا كهذا وادعيتم أنه مثله.

وقد ذكرنا في هذه الدروس مراراً[1] أن لفظة (جعل) تأتي في اللغة العربية لأربعة معان، ثلاثة منها موجودة في كتاب الله، ورابعها موجود في اللغة العربية ولم يوجد في كتاب الله، من هذه المعاني الأربعة: كون (جعل) بمعنى (اعتقد) وجعل التي بمعنى اعتقد أصلها تنصب المبتدأ والخبر مفعولين، ومنها قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: آية ١٩] وفي القراءة الأخرى[2]: ﴿**الذين هم عند الرحمٰن إناثاً**﴾ والمعنى جعلوا الملائكة إناثاً، أي: اعتقدوهم إناثاً؛ لأنهم لم يصيروهم إناثاً ولا يقدرون، فهي (جعل) بمعنى (اعتقد).

والثانية (جعل) بمعنى (صيَّر) ومنه قوله: ﴿جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: آية ١٥] أي: صيرناهم. وهذه أيضاً تنصب المبتدأ والخبر مفعولين.

والثالثة (جعل) بمعنى (خلق) وهي تتعدى إلى مفعول واحد، ومن هذا قوله في أول سورة الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: آية ١] أي: خلق الظلمات والنور، بدليل عطفه على قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

هذه ثلاثة معاني كلها في القرآن: (جعل) بمعنى (اعتقد)، (جعل) بمعنى (صيَّر)، (جعل) بمعنى (خلق).

الرابع منها: (جعل) بمعنى (شرع) جعل يفعل كذا إذا شرع فيه. وهذه

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٠، ١١٢) من سورة الأنعام والآية (١٨٩) من سورة الأعراف.

(٢) مضت عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

ليست موجودة في كتاب الله، وهي موجودة في كلام العرب بكثرة، ومنه قول الشاعر(١):

وقد جعلتُ إذا ما قمتُ يُثْقِلُني ثوبي فأنهضُ نَهْضَ الشَّاربِ السَّكِرِ

وهذا معنى قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ [التوبة: آية ١٩].

والسقاية هي إحدى الوظائف؛ لأن قصي بن كلاب ـ وهو مُجَمِّع ـ لما جمَّع قريشاً وأخذ سدانة الكعبة من خزاعة، وجمّع قريشاً وكان يُسمى مُجَمِّعاً؛ لأنه جمع قبائل قريش بمكة، وهو الذي يقول فيه ابن حذافة(٢):

أبوكُم قُصَيٌّ كان يُدعَى مُجَمِّعَاً به جَمَعَ اللّهُ القَبَائلَ من فِهْرِ

جعل الوظائف وهي السقاية والرفادة والندوة واللواء وحجابة البيت هذه الوظائف كلها جعلها لعبدالدار بن قصي؛ لأن أولاد قصي أربعة: عبد بن قصي، وكان عبدالدار بن قصي، وعبدالعزى بن قصي، وعبد مناف بن قصي. وكان عبدالدار بن قصي أقل أولاده شرفاً وأكثرهم خمولاً، فأعطاه جميع الوظائف. وجعل إلى عبدالدار السقاية، والرفادة، والحجابة، ودار الندوة، واللواء.

اللواء هو حمل اللواء في الميدان عند التحام الحرب.

ودار الندوة: هي الدار التي كانوا لا يعقدون ولا يحلون إلا بها، اشتراها بعد ذلك حكيم بن حزام وباعها وتصدق بثمنها(٣). ولما قالوا له: يا أبا خالد: بعت مأثرة قريش!! قال لهم: الشرف بالدين لا بالديار.

والسقاية: كان قصي يجمع أموالًا على قريش يجعل منها الرفادة والسقاية.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.
(٢) تقدم هذا البيت في سبيل الهدى والرشاد (١/٢٧٥).
(٣) أخرجه الطبراني من طريقين (٣/١٨٦ ـ ١٨٧) وقال في المجمع (٩/٣٨٤): «رواه الطبراني بإسنادين أحدهما حسن» ا.هـ.

الرفادة: مال يكون عندهم يكون رفداً لمن تعطل، إذا مات بعير حاج اشتروا له بعيراً، وإذا افتقر أحد أو انقطعت به النفقة زودوه منه حتى يصل إلى أهله. كل هذا يفعله قصي ويأخذ هذا المال على قريش.

والسقاية: كانوا يأخذون النبيذ والشراب الطيب ويجعلونه في الموسم في الأماكن التي تغشاها الناس، فيأتي الناس فيشربون مجاناً. وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن أعرابياً جاء واستسقاهم من سقايتهم فسقوه نبيذاً، فقال الأعرابي: سبحان الله إن الناس يسقون في سقايتهم اللبن والعسل وأنتم تسقون النبيذ!! يعيبهم بأن سقايتهم نبيذ. فأخبره ابن عباس أن النبي ﷺ مرّ بهم وسقوه من نبيذها، وأمرهم أن يسقوا الناس منه. قال: لا نزيد على ما أمرنا به رسول الله ﷺ[1]. ومعلوم أن هذا النبيذ الذي أمر النبي بسقيه على تقدير صحة هذا أنه نبيذ لا يسكر كثيره؛ لأن النبيذ الذي يسكر كثيره لا ينبغي أن يقدم على شربه؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أسكر كثيره فقليله حرام**»[2] كما هو معروف. فهذه هي سقاية الحاج.

والرفادة والحجابة التي هي سدانة البيت كانت كلها لعبدالدار، ولما شبّ أولاد عبد مناف وأرادوا نزع هذه الأشياء من بني عبدالدار، ووقعت المخالفة بين قريش، وتحالفوا للقتال الحلف الذي يقال فيه «حلف المطيبين» و«حِلْفُ لَعَقَةِ الدم» كما هو معروف، ثم اصطلحوا على أن تبقى السقاية والرفادة أن ترد لبني عبد مناف، ويبقى للعبدريين اللواء والندوة وحجابة البيت، أي: سدانة الكعبة حرسها الله. فهذه السقاية كانوا يفتخرون بها ويقولون: نحن نسقي الحاج ونعمر بيت الله!! ويجعلون هذا أفضل ممن يؤمن بالله، فأنكر الله عليهم فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ [التوبة: آية ١٩] الحجاج يقدمون عليكم فتسقونهم ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ كترميمه وبنائه.

﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ لا بد أن يقدر مضاف في أحد الأمرين[3]. قال

---

(١) أخرجه ابن سعد (١٣١/٢)، وأورده السيوطي في الدر (٢١٩/٣) وعزاه لابن سعد.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: القرطبي (٩١/٨)، الدر المصون (٣١/٦).

بعض العلماء: يقدر في الأول، والمعنى: أجعلتم أصحاب سقاية الحاج، أو أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن، أي: كالذين آمنوا بالله؟

وقال بعض العلماء: يقدر المضاف في الثاني ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ﴾ كعمل من آمن بالله. والأمران جائزان، وأظهرهما: تقديره في الأول، والمعنى: أجعلتم أهل سقاية الحاج وأصحاب عمارة المسجد كالذين آمنوا بالله، لا يكونوا مثلهم أبداً. ويُستأنس لهذا بالقراءة الشاذة المروية عن ابن الزبير وأبي بن كعب وأبي وجزة وغيرهم في قوله: «أجعلتم سُقاة الحاج وعَمَرة المسجد الحرام»[1] السُقاة: جمع الساقي، كقاضي وقضاة. والعَمَرَة: جمع عامر، ككاتب وكَتَبَة، وظالم وظلمة. فهي قراءة شاذة إلا أنها يُستأنس بها للمعنى.

والحاج: اسم جنس لكل من يحج بيت الله الحرام، وسقايتهم: كما كانوا يسقون النبيذ والشراب الحلو في المواسم أيام الحج.

﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ كما بناه قريش في صغر النبي ﷺ. جعلتم واعتقدتم هذا ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ لا يكون مثله.

ثم قال: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يستوي هؤلاء وهؤلاء؛ لأن عمل هؤلاء باطل للكفر؛ لأن الله قال: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: آية ١٦] وقال (جلّ وعلا): ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: آية ٢٣] وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: آية ١٩] أي: ومنهم الكفرة الذين يفتخرون بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، فهم قوم ظالمون لا يهديهم الله (جلّ وعلا).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ

(١) ذكرها ابن جني في المحتسب (١/٢٨٥)، والقرطبي (٨/٩١)، وأبو حيان في البحر (٥/٢٠) ولم أجد من عزاها لأبي بن كعب.

وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: الآيات ٢٠ ـ ٢٤].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: الآيات ٢٠ ـ ٢٢].

لما قال أهل مكة مفتخرين بأنهم يسقون الحاج، ويعمرون المسجد الحرام، ويفكون العاني ـ أي: الأسير ـ وافتخروا بمثل هذه الخصال، وأنكر الله عليهم تسويتهم بين ذلك وبين الجهاد والإيمان في قوله الذي ذكرنا أمس ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: آية ١٩] صرح هنا بأن الإيمان بالله والهجرة والجهاد في سبيل الله أعظم درجة وأفضل مما يفتخر به أهل مكة. والظاهر أن صيغة التفضيل هنا لمطلق الوصف؛ لأن كفار أهل مكة لا درجة لهم في سقاية الحاج ولا عمارة المسجد؛ لأن الله يقول: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ١٧] ومعنى الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وبكل ما يجب به الإيمان ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾ أوطانهم وديارهم وأموالهم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولإعلاء كلمة الله هؤلاء ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ (درجة): تمييز محول عن الفاعل، أي: أرفع رتبة ومكانة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المذكورون ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ الظافرون بالحظ الأكبر؛ لأن العرب تقول: «فاز فلان». إذا ظفر بما كان يتمنى، وظفر بأكبر مطلوب، يقولون: «فاز»: نال الفوز، ومنه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾ [آل عمران: آية ١٨٥]. والإتيان بضمير الفصل بين المسند والمسند إليه في قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ يدل على اختصاصهم بالفوز

دون الذين قالوا: نحن نسقي الحاج ونعمر المسجد الحرام. وهذا معنى قوله: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ [التوبة: آية ٢١] قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ مضارع بشَّره يُبشِّره. وقرأه حمزة من السبعة[١]: ﴿يَبْشُرُهُمْ ربهم برحمة منه﴾ الآية، فعلى قراءة حمزة: ﴿يَبْشُرُهُم﴾ مضارع (بَشَرَه) ثلاثياً مجرداً (يَبْشُرُهُ) بالضم. وعلى قراءة الجمهور: ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ مضارع (بَشَّره) بالتضعيف (يُبَشِّرُه، تبشيراً).

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٢] أن البشارة في لغة العرب هي الإخبار بما يسر، فكل من أخبرك بما يسرك فقد بشَّرَك، وبَشَرَك على اللغة الأخرى، وأنه يطلق أيضاً على البشارة بما يسوء، فالعرب أيضاً تسمي الإخبار بما يسوء (بشارة) إذا اقترن بما يدل على ذلك، وهو كثير في القرآن، كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: آية ٣٤] وقد ذكرنا أنه أسلوب عربي معروف. تقول العرب: «بَشَّره بكذا». إذا أخبره بما يسوؤه، ومنه قول الشاعر[٣]:

يُبَشِّرُنِي الغُرَابُ بِبَيْنِ أهلي ... فقلتُ له ثَكِلْتُكَ من بَشِيرْ

وبَيْنُ أهله مما يسوؤه الإخبار به. وقول الآخر[٤]:

أَبَشَّرْتَني يا سَعْدُ أن أَحِبَّتِي جَفَوْنِي ... وقالوا الودُّ موعده الحشْرُ

فجفاء الأحبة إخبار بما يسوء. ومعلوم أن الذين تكلموا في البلاغة والذين كانوا يقسمون الكلام إلى حقيقة ومجاز يقولون: إن البشارة حقيقة في الإخبار بما يسر، وهي في الإخبار بما يسوء استعارة عندهم، ويجعلونها من الاستعارة المسماة في اصطلاح البيانيين بالاستعارة العنادية، ويقسمونها

---

(١) انظر: الإتحاف (٨٩/٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٤) السابق.

إلى تهكمية وتمليحية كما هو معروف في محله[1]. ونحن نقرر دائماً أنها أساليب عربية، كلها حقيقة في محله، وقد وضعنا في ذلك رسالة تُسمى (منع جواز المجاز في المنزّل للتعبد والإعجاز) وهذا معنى قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: آية ٢١] الرحمة: مصدر رَحِمَه، والرحمة من صفات الله (جلّ وعلا)، ونحن معاشر المسلمين نصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، ونثبت له ما أثبت لنفسه، منزهين خالق السماوات والأرض عن مشابهة الخلق، فلا نميل إلى التعطيل، ولا إلى التمثيل، بل نقر بصفات الله ونؤمن بها على سبيل المخالفة لصفات الخلق، كما علّمنا الله في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] ومراراً نوضح مذهب السلف في آيات الصفات عند كل المناسبات.

ومعنى قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: آية ٢١] قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير شعبة ـ أبي بكر ـ عن عاصم: ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ بكسر الراء. وقرأه شعبة عن عاصم ﴿ورُضوان﴾ بضم الراء[2] وهما لغتان فصيحتان، وقراءتان صحيحتان؛ لأن العرب تقول في مصدر رضي تقول: رضي يرضى رضاءً ورضواناً. وتزيد فيه الألف والنون، والألف والنون تزادان في بعض المصادر كثيراً كالكفران والرجحان والغفران والرضوان. والكسر والضم لغتان فيه، ورضوان الله: رضاه (جلّ وعلا)، والرضا أيضاً صفة من صفات الله (جلّ وعلا) أثبت لنفسه الاتصاف بها إذا امتُثلت أوامره واجتُنبت نواهيه، كما قال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة: آية ٨] ونحن دائماً نوصي أنفسنا وإخواننا وعامة المسلمين أن يعتقدوا في مذهب السلف المعتقد الواضح الذي هو في ضوء القرآن العظيم، الذي لا إشكال فيه ولا قيل ولا قال، وصاحبه يلقى الله سالماً من البلايا التي وقع فيها الناس الذين أكثروا الخوض في ذلك بقيل وقال.

---

(١) السابق.

(٢) انظر: الإتحاف (٨٩/٢).

وإيضاح مذهب السلف في آيات الصفات كما بيّنه القرآن وأوضحه هذا المحكم المنزل أنه يتأسس على ثلاثة أصول من جاء بها كاملة لقي الله سالماً، ومن أخلّ بواحد منها أوقع نفسه في بلية فلا يدري هل يتخرج منها أو لا[(١)]؟.

أول هذه الأسس: هو الأساس الأعظم للتوحيد، والحجر الأساسي لمعرفة الله على طريق صحيح، هذا الأساس الأعظم هو: أن يعتقد الإنسان أن خالق السماوات والأرض منزه عن مشابهة جميع خلقه في جميع صفاتهم وأفعالهم وذواتهم، فالخلق صنعة، والخالق (جلّ وعلا) صانع ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: آية ٨٨] والصنعة لا تشبه صانعها، فمن رزقه الله فهم هذا الأساس عن الله وعلم أن الخلائق صنعة، وأن خالقهم هو صانعهم ومدبرهم ومنشئهم علم أنه لا مناسبة بين صفاته وصفاتهم، وأنه منزّه كل التنزيه، مقدس كل التقديس عن مشابهة خلقه، لا في ذواتهم، ولا في صفاتهم، ولا في أفعالهم. هذا الأساس الأعظم، فمن رزقه الله هذا الأساس، وفهمه عن الله، وطهر قلبه من أدران التشبيه، وأقذار التمثيل، كان يهون عليه بعد ذلك أن يصدق الله فيما وصف به نفسه، ويؤمن بصفات الله على الوجه اللائق بكماله وجلاله[(٢)].

وهذا الذي أقوله لكم ليس من تلقاء نفسي بل هو من تعليم خالق السماوات والأرض في المحكم المنزل الذي هو أعظم كتاب أنزله الله على أشرف رسول، لأن الله يقول فيه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] فوضع الأساس الأول الذي هو أساس التنزيه ومخالفة الخلق في ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشورى: آية ١١] ثم وضع بعده الأساس الثاني وهو الإيمان بصفات الله على أساس ذلك التنزيه، لا إيماناً دنساً وسخاً ذاهباً إلى صفات الخلق، لا.. لا، بل هو إيمان منزّه مبني على أساس التنزيه. وقوله: ﴿وَهُوَ

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأنعام.

(٢) وهذا هو الأساس، والأصل الثاني من الأصول الثلاثة المُشار إليها.

﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فيه سر أعظم، ومغزىً أكبر، وتعليم عظيم من رب العالمين، كأنه يقول لك: تَعَقَّل يا عبدي وتفهّم، ولا تنفي عني سمعي وبصري بدعوى أن المخلوقات تسمع وتبصر، وأن إثبات ذلك فيه تشبيه، لا.. لا..، راع في إثبات السمع والبصر أول الآية، وابنه على نفي المماثلة والمخالفة، واربط أول الآية بآخرها، فأولها تنزيه، وآخرها إيمان بالصفات على أساس ذلك التنزيه، فلا تقطع أول الآية من آخرها، ولا آخرها من أولها، بل اربط بينهما، ولا تقل: المخلوقات تسمع وتبصر، وإثبات السمع والبصر لله تشبيه. لا، أثبت السمع والبصر، ولكن إثباتاً مبنياً على ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لا إثباتاً وسخاً نجساً قذراً ذاهباً إلى صفات الخلق، لا.. لا، فأول الآية تنزيه بلا تعطيل، وآخرها إيمان بالصفات وإثبات لها بلا تمثيل.

الأصل [الثالث][1] من هذه الأصول الثلاثة: هي أن يعلم الإنسان قدره، ويقف عند حده؛ لأن خالق السماوات والأرض أعظم وأجلّ وأكبر من أن تحيط به العقول المخلوقة المسكينة، والله يقول: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: آية ١١٠] فنفى الإحاطة للعلم البشري عن خالق السماوات والأرض نفياً باتاً.

فمن لقي الله وهو متمسك بهذه الأسس الثلاثة في ضوء كتاب الله لقيه في سلامة وفي غير ندامة. ونحن الآن في طريقنا في إسراع وحث إلى الوقوف بين يدي الله (جلّ وعلا)؛ لأن هذه اللحظات والدقائق والثواني يظن الجاهل أنها هادئة، وأنها واقفة، وهي تقطع بنا آلاف الأميال إلى المحشر، فعن قريب ونحن قائمون بين يدي الله في صعيد واحد، ينفذنا البصر ويسمعنا الداعي، ويسألنا الله، والله يقول: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: آية ٦] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٩٢، ٩٣] فيوشك أن يقول لنا: ماذا كان موقفكم من صفاتي التي كنت أثني بها على نفسي في كتابي، ويثني بها عليّ رسولي ﷺ؟

---

(١) في الأصل: «الثاني»، وهو سبق لسان.

[ولا يقول لك الله: لِمَ نزهتَني عن مشابهة خلقي؟ لا والله، لا يقول لك ذلك][١] / أبداً بل تنزيه رب السماوات عن مشابهة خلقه في ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم طريق سلامة محققة لا شك فيه، ولا يقول لك الله: لِمَ صدقتني فيما مدحت به نفسي، وأثنيت به على نفسي، وأنزلته في كتابي معلماً خلقي أن يمدحوني به؟! لا يقول لك: هذا أبداً، ولا يقول لك: لِمَ تقف عند حدك، وتقر بما لا تعلم؟ لأن الله يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ بل هي كلها طرق سلامة محققة. ٣/ب

واعلموا أيها الإخوان أن أول البلايا ومنشأ الرزايا كله من أنجاس القلوب بسبب التشبيه، كل البلايا منشؤها الوحيد بسبب أنجاس القلوب من أقذار التشبيه. هذا أصل البلاء والمحن والفتن الذي طبقت وجللت هذه المعمورة؛ لأن السلفي - مثلاً - العامل بضوء القرآن، إذا سمع الله يثني على نفسه بصفة من الصفات التي أثبتها لنفسه، سواء كانت صفة ذات أو صفة فعل، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان: آية ٥٩] امتلأ قلبه إجلالاً وتعظيماً وإكباراً، وعلم أن هذا الاستواء الذي أثنى الله به على نفسه في سبع آيات من كتابه أنه بالغ من غايات الكمال والجلال والتنزيه والتقديس والمباعدة عن صفات المخلوقين ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين. أما إذا كان قلب الإنسان فيه بعض أقذار التشبيه فأول ما يسبق إلى ذهنه أن هذا الاستواء ظاهره استواء المخلوقات - سبحان الله وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً - فيخطر في ذهنه أنه انتصاب كانتصاب هذا، فيتقذر القلب من أقذار التنجيس والتشبيه، فعند ذلك تأتي البلايا، وبعد ذلك إذا قال: ظاهر هذا هو مشابهة صفات المخلوقين جاءت البلايا من هنا، ثم إنه دعاه شؤم هذا التشبيه إلى أن ينفي هذه الصفة عن الله، ومن ينفي عن الله وصفاً أثبته لنفسه فهو «أجرأ من خاصي الأسد»[٢]. ثم إذا نفى هذه الصفة عنه ذهب يتلمس إلى وصف في زعمه

---

(١) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

(٢) انظر: الأمثال لأبي عبيد ص٣٧٥.

ملائم، ثم يبدل الاستواء بالاستيلاء فيقول: استوى معناه استولى!! ويضرب لهذا مثلاً بقول الراجز في بشر بن مروان[١]:

قد استَوَى بِشْرٌ على العراقِ   من غير سَيْفٍ ودَمٍ مهراقِ

فهذا غلط شديد كبير أيها الإخوان!! ونحن نرجو الله أن الذين وقعوا فيه من العلماء أن يعفو الله عنهم ويغفر لهم لحسن نياتهم، فهم كما قال الشافعي رحمه الله[٢]:

رَامَ نَفعاً فَضَرَّ من غير قَصْدِ   ومن البرِّ ما يكونُ عُقُوقاً

ونرجو الله ألا يكونوا كالذين قال الله فيهم: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: آية ٥٩]. وهذا الذي ذهبوا إليه أعظم وأشر وأضر من الذي فروا منه؛ لأنا نقول: أيها الإنسان الذي ضربت مثلاً لاستيلاء الله على عرشه الذي فسرت به الاستواء من تلقاء نفسك باستيلاء بشر بن مروان على العراق وضربت له المثل ببيت الرجز المذكور:

قد اسْتَوى بشْرٌ على العراقِ   من غيرِ سيفٍ ودمٍ مهْرَاقِ

أما تستحي من الله؟ أما تخاف الله؟ وبأي مبرر سوغت لنفسك أن تشبّه استيلاء الله على عرشه الذي زعمت باستيلاء بشر بن مروان على العراق؟ وهل يوجد في الدنيا تشبيه أنتن وأخس وأقبح من هذا؟! شبهت العرش بالعراق، ورب السماوات والأرض ببشر بن مروان، وهذا يفتح باباً إلى بحور من أنواع التشبيه لا ساحل لها أبداً؛ لأنه فيه تشبيه استيلاء الله على عرشه المزعوم بكل مخلوق قهر مخلوقاً فغلبه فاستولى عليه!! فمن هنا يضطر هذا القائل أن يقول: الاستيلاء الذي فسرت به الاستواء استيلاء منزّه عن استيلاء المخلوقين. ونحن نقول: كيف تنزهه وأنت تضرب له المثل

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٤٨) من سورة الأنعام.

باستيلاء بشر بن مروان؟ ثم نقول: إذا لزمنا أن ننزّه أحد الكلمتين: إما الاستواء الذي نصّ الله عليه في كتابه وأنزله في سبع آيات من القرآن كتاباً يتلى أو الاستيلاء الذي جئت به، أيهما أحق بالتنزيه؟ والجواب: ولا شك أن كلام رب العالمين الذي أنزله وحياً يُتلى من فوق سبع سماوات أحق بالتنزيه من غيره. فمقصودنا أن نبيّن لإخواننا أن المدار على حفظ القلب والمحافظة عليه من أقذار التشبيه، وأن يعلم الإنسان أن كل وصف وصف الله به نفسه فهو بالغ من غاية الجلال والكمال والإعظام والإكبار والتقديس ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فيحمل على أطهر المعاني وأعظمها وأقدسها وأليقها بالله (جلّ وعلا) وأبعدها عن مشابهة صفات المخلوقين.

ولو قال قائل: نحن لا نعقل استواءً تدركه عقولنا إلا مثل استواء المخلوقين. فنقول له: وهل عقلت كيفية الذات المقدسة المتصفة بهذا الاستواء؟ فلا بد أن يقول: لا. فنقول: معرفة كيفية الصفات متوقفة على معرفة كيفية الذات، والله يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: آية ١١٠] والأشياء تختلف بإضافاتها، فالصفة المضافة والمسندة إلى الله تخالف المضافة والمسندة إلى غيره كمخالفة ذات الله لذوات خلقه، فصفات الخلق حق، وصفات الله حق، إلا أن صفات الله لائقة بذات الله، منافية لصفات المخلوقين كمنافاة [ذات الخالق لذوات][1] الخلق، والإضافات تتغير بها المخلوقات فكيف بما بين الخالق والمخلوق؟ فمثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ كلمة (رأس) أعني: كلمة (الراء والهمزة والسين) (رأس) هذه الكلمة إذا أضفتها إلى الإنسان وقلت: رأس الإنسان. وأضفتها إلى الوادي فقلت: رأس الوادي. وأضفتها إلى المال فقلت: رأس المال. وأضفتها إلى الجبل فقلت: رأس الجبل، أليست هذه الإضافات مختلفة في حقائقها، متباينة كل التباين؟ مع أنها مخلوقات حقيرة ضعيفة تباينت وتخالفت لاختلاف إضافاتها، فما بالك بالاختلاف الواقع بين الخالق والمخلوق؟ لا مشابهة هناك ولا مناسبة بين خالق ومخلوق. فعلينا أن نمشي

(١) في الأصل: «صفة الخالق لصفات». وهو سبق لسان.

على هذا النمط، وإذا سمعنا الله يثني على نفسه بصفة أن نعتقد أنها صفة بالغة من غايات التنزيه والكمال والإجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينها وبين صفات المخلوقين، ونؤمن بها على خصوص هذا الأساس من التنزيه، ولا نؤمن بها إيماناً وسخاً قذراً ذاهباً إلى المشابهة بصفات الخلق، لا. . لا، ثم نقطع الطمع عن إدراك الكيفيات والإحاطة العلمية؛ لأن الله نفاها نفياً باتاً في قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: آية ١١٠] فإننا إذاً نكون منزّهين ربنا، مصدقين لربنا، واقفين عند حدنا، وتنزيه الله طريق مأمونة، وتصديق الله ورسوله طريق مأمونة، والوقوف عند الحد طريق مأمونة. وسنبسط على هذا الكلام - إن شاء الله - في بعض المناسبات الآتية. وهذا معنى قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: آية ٢١].

الجنات: جمع تصحيح للجنة، والجنة في لغة العرب[1]: البستان، فإن العرب تسمي كل بستان جنة، وسيأتي قوله: ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: آية ١٧] والبستان صاحب القصة المعروفة. وإطلاق الجنة على البستان إطلاق معروف مشهور، ومنه قول زهير بن أبي سلمى[2]:

كأنَّ عَيْنَيَّ في غَرْبَي مُقَتَّلَةٍ   من النَّواضِحِ تَسْقي جَنَّةً سُحُقاً

هذا أصل الجنة في لغة العرب، وهي في اصطلاح الشرع: دار الكرامة التي أعد الله لأوليائه يوم القيامة، فهي شجرة مثمرة، ونخلة مضطردة، وغرفة عالية، وزوجة حسناء، نرجو الله أن يرزقنا الجنة وما قرب إليها من قول وعمل نحن وإخواننا المسلمين. وهذا معنى قوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

النعيم: خفض العيش ولينه، وهو ضد البؤس كما هو معروف.

وقوله: ﴿مُّقِيمٌ﴾ أي دائم أبداً لا يزول، وهذا كمال النعمة؛ لأن كمال النعمة الإقامة فيها وعدم الانتقال عنها؛ لأن أعظم ما يكدر النعم والمسارّ هو أن يفكر الإنسان في أنه يفارقها. فترى الإنسان في لذاته وفي

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

نعمه وترفه، إذا فكر في أنه غداً يموت عنها، وتنكح نساؤه، وتقسم أمواله، ويذهب عنه كل شيء فزع من ذلك، وأظلمت الدنيا في عينيه، ولم يتلذذ بما هو فيه، وقد صدق أبو الطيب حيث يقول[1]:

أَشَدُّ الغمِّ عندي في سُرورٍ تيقَّنَ عنهُ صاحبُهُ انتقالاَ

وهذا معروف عندهم، فكمال اللذة والنعمة إنما هو بالإقامة أبداً، والله (جلّ وعلا) نص في آيات من كتابه على أن نعيم الجنة لا ينقطع ولا يزول، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: آية ١٠٨] فقوله: ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غير مقطوع أبداً، وكذلك قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: آية ٩٦] أي: باق لا نفاد له أبداً، والآيات الدالة على هذا متعددة في كتاب الله، وهذا معنى قوله: ﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [التوبة: الآية ٢٢] على الدوام لا يزولون، كما قال جلّ وعلا: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: آية ١٠٨] لا يتحولون عنها إلى غيرها.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ (جل وعلا) ﴿عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الأجر في لغة العرب: جزاء العمل. ومعنى ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: جزاء عملهم وهو الجنة، ووصفه بالعظم لِمَا في الجنة من عظيم الشأن؛ لأن الله يقول فيها: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: آية ١٧] ولأجل هذا وصف هذا الجزاء بالعظم. وقد جاء مفصلاً في القرآن جميع ملاذه، كالمناكح في النساء التي هن في غاية الجمال، والملابس التي هي في غاية الجمال، والمشارب، والأواني، والحلي، والولدان، والغلمان إلى غير ذلك من نعيم الجنة المفصل في آيات هذا القرآن العظيم، وهذا معنى قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: آية ٢٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: آية ٢٣].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأعراف.

سبب نزول هذه الآية الكريمة أنه كان رجال من المسلمين يؤمنون بالله ويريدون الهجرة، فإذا أراد الواحد منهم أن يهاجر إلى رسول الله ليشارك المسلمين فيما هم فيه من الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله جاءته امرأته وأولاده وأبوه وأخوه يناشدونه بالله ألا يذهب عنهم، ويقولون له: إلى من تكلنا؟ ويثبطونه، فبعضهم يمكث من أجل هذا. فنهاهم الله عن هذا، وسيأتي في سورة التغابن آية التغابن النازلة في عوف بن مالك الأشجعي، وهي قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: آية ١٤] لأنها نزلت في عوف بن مالك، كان كلما أراد الهجرة جاءت امرأته وأولاده وناشدوه بالله، وقالوا: إلى من تكلنا؟ فيتثبط، فلما هاجر بعد ذلك وجد المسلمين سبقوه بكل خير، فندم وأراد أن يضرب امرأته وأولاده بسبب تثبيطهم إياه. فأمر الله المسلمين أن يتحفظوا من الأولاد والأزواج لئلا يثبطوهم عن الجهاد في سبيل الله، وأنهم إن وقع منهم شيء أن لا يؤاخذوهم، بل يعفوا عنهم ويصفحوا[(١)]، كما قال في آية التغابن: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: آية ١٤] ثم قال: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: اصفحوا عنهم واغفروا لهم ولا تؤاخذوهم. وهذا معنى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ [التوبة: آية ٢٣] قالوا: لم يذكر الأولاد هنا وذكرها في غير هذا الموضع، لا تتخذوهم أولياء توالونهم إذا كانوا يريدون أن يقطعوكم عن الهجرة.

﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ قرأ الهمزة الثانية من قوله: ﴿أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ نافع وابن كثير وأبو عمرو مسهلة بين بين، والباقون بتحقيقها كما هو معلوم[(٢)].

ومعنى ﴿اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ﴾ معناه: اختاروه وآثروه على الإيمان، إن

---

(١) الترمذي في التفسير، باب: ومن سورة التغابن. حديث رقم: (٣٣١٧) (٤١٩/٤)، والحاكم (٤٩٠/٢)، وابن جرير (١٢٥/٢٨) وانظر: صحيح الترمذي (١٢١/٣).

(٢) انظر: الإتحاف (٨٩/٢).

آثروا الكفر واختاروه على الإيمان لا تتخذوهم أولياء، بل قاطعوهم وهاجروا ولا تركنوا إليهم. ويتعدد في القرآن إطلاق (استحب) بمعنى: (اختار) و(آثر) ومنه قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: آية ١٧] أي: فاختاروه وآثروه عليه. ومنه قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: آية ٣] أي: يؤثرونها ويقدمونها عليها. وهذا معنى قوله: ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: آية ٢٣] فيكون معهم فيما هم فيه ويترك الهجرة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[١] أن أصل مادة (الظلم) مادة الظاء واللام والميم، (ظَلَم) أنها في لغة العرب التي نزل بها القرآن أصلها في الوضع العربي: هو وضع الشيء في غير محله. فمن وضع شيئاً في غير محله تقول العرب: إنه ظلم؛ لأنه وضع الشيء في غير محله. ومنه قالوا للذي يضرب لبنه قبل أن يروب: «ظالم»؛ لأنه وضع الضرب في غير محله؛ لأنه يفسد زبده، ومنه قول الشاعر[٢]:

وقـائـلـة ظـلـمـتُ لـكـم سِـقَـائـي وهـل يـخـفـى عـلى الـعَـكَـدِ الـظَّـلـيـمُ

وقول الآخر[٣]:

وصاحب صدق لم تَرِبْني شَكَاتُه ظلمتُ وفي ظَلْمِي لهُ عامداً أجرُ

أصل الظلم هو وضع الشيء في غير محله، وجاء في القرآن في موضع واحد بمعنى النقص، وهو: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: آية ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئاً. وأصل الظلم وضع الشيء في غير محله، وأعظم أنواع وضع الشيء في غير محله: الكفر بالله؛ لأنه وضع للعبادة في غير من خَلَق، فالذي يأكل رزق الله، ويتقلب في نعيمه، ويعبد غيره قد وضع عبادته في غير موضعها، فهو ظالم، وهذا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

أكبر أنواع الظلم؛ ولأجل هذا يكثر في القرآن العظيم إطلاق الظلم على الكفر، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] وقد ثبت في صحيح البخاري[1] أن النبي ﷺ فسّر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ٨٢] قال: بشرك. ثم تلا آية لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ هذا أصل الظلم. وقد يكون ظلم دون ظلم؛ لأن من أطاع الشيطان وعصى ربه بغير ما يكفر به قد وضع الطاعة في غير موضعها، ووضع المعصية في غير موضعها حيث عصى ربه وأطاع عدوه. ومن كفر بالله وضع العبادة في غير موضعها؛ ولذلك هنالك ظلم هو كفر، وهنالك ظلم دون ظلم هو خروج عن طاعة الله لا يبلغ بصاحبه الكفر، وهذا معنى قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنهم وضعوا الأمر في غير موضعه فاتخذوا من يضرهم أولياء، وتركوا ما ينفعهم من الهجرة والجهاد في سبيل الله. وهذا معنى قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: آية ٢٤].

سبب نزولها هو ما أشرنا له آنفاً؛ لأن بعض الناس كان إذا أسلم عاقته هذه العوائق عن الهجرة والجهاد في سبيل الله (جلّ وعلا) بأن تعطله عن ذلك الأبناء والآباء والإخوان والعشائر والزوجات والأموال المكتسبة والتجارات التي يُخاف أن تضيع بالكساد ويضيع ربحها، إن كان هذا كله أحب إليكم من الله ومن رسوله ومن الجهاد في سبيله ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ هو أمر تهديد كما يأتي.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

وقوله: ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ اسم كان. و﴿أَحَبَّ﴾ خبرها.

ومعنى الآية الكريمة: قل يا نبي الله لهؤلاء المتخلفين عن الهجرة في سبيل الله بسبب هذه العوائق الآتية، قل لهم: إن كانت هذه الأمور التي عاقتكم أحب إليكم من الله ومن رسوله ومن جهاد في سبيله فانتظروا أمراً يأتيكم من الله. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾.

الآباء جمع الأب، والعرب تقول: «أبٌ» إذا نكرتها تعربها على العين وتحذف لامها ولا تعوض منه شيئاً، وهي من الأسماء التي تعرب على العين عند التنكير والتعريف. أما إذا أُضيفت فإن لامها ترجع لها[1]، وأصل لام (الأب) واو، أصله (أبوٌ) فلام الكلمة واو، فإنها إذا أُضيفت ـ مثلًا ـ أُعربت بالواو والألف والياء، فرجعت لها لامها كما هو معروف. وإذا نُكِّرت أو عُرِّفت أسقطت لامها وأُعربت على العين[2].

والإخوان جمع أخ. وأصل (أخ) أيضاً لامه المحذوفة واو؛ ولهذا رجعت في جمع التكسير في قوله: ﴿وَإِخْوَانُكُمْ﴾ فالأخ أصله (أخوٌ) بالواو، فلامه المحذوفة واو[3]، وهو كالأب في جميع ما كنا نذكر. هذا معنى قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾. الأبناء جمع الابن وهو معروف.

﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ الأزواج جمع زوج، وزوج الرجل امرأته، ومفرده (زوج) بلا هاء، وهذه هي اللغة الفصيحة. العرب تقول: هذه زوجه، أي: امرأته، وزعم بعض علماء العربية أن قولهم (زوجته) بالتاء أنها من لحن الفقهاء، وأنها لا أساس لها في العربية. والتحقيق أن اللغة الفصحى في امرأة الرجل أنها (زوجه) بلا تاء، وأن التاء لغة فيها مسموعة وليست لحناً كما يقوله بعضهم[4]. ومن إطلاق الزوجة بالتاء على امرأة الرجل قول

---

(١) انظر: شرح قطر الندى ص٤٦.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٧.

(٣) انظر: المصدر السابق ص١٧.

(٤) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٨٩) من سورة الأعراف.

الفرزدق، همام بن غالب، وهو عربي قح[١]:

وإنَّ الذي يَسْعَى ليُفْسِدَ زَوجَتي   كساعٍ إلى أُسْدِ الشرىٰ يستبيلها

ومنه قول الحماسي[٢]:

فبكا بناتي شجوهن وزوجتي   والظاعنون إليّ ثم تصدّعوا

وفي صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال في صفية: إنها زوجتي[٣]. فالتحقيق أن الزوجة بالتاء لغة لا لحن، وأن اللغة الفصحى في امرأة الرجل أن يقال فيها: (زَوْجُه) بلا هاء. وهذا معنى ﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ أي: نساؤكم.

﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ قرأ هذا الحرف عامة السبعة - غير أبي بكر عن عاصم - (أعني بأبي بكر: شعبة) قرؤوه كلهم ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ بالإفراد. وقرأه شعبة عن عاصم: ﴿وعشيراتكم﴾[٤] بجمع التصحيح، جمع عشيرة، وعشيرة الرجل ثبت في صحيح البخاري وغيره ما يدل على أنها تشمل إلى الجد العاشر؛ لأنه ثبت في الصحيح[٥] أن النبي ﷺ لما نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: آية ٢١٤] أنه امتثلها فنادى بني فِهْر، وفِهْر هو جده العاشر ﷺ، فدلّ هذا الحديث الصحيح على أن العشائر تشمل إلى الجد العاشر من الرجل، وهذا معنى ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾.

﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ الاقتراف في لغة العرب معناه الاكتساب، أموال

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) انظر: المبسوط لابن مهران ص(٢٢٦).

(٥) البخاري في التفسير، باب: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ حديث رقم: (٤٧٧٠) (٨/٥٠١) وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٤٩٧١) ومسلم في الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ حديث رقم: (٢٠٨) (١/١٩٣) من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما). وقد جاء نحوه عن أبي هريرة وعائشة وغيرهما رضي الله عنهم أجمعين.

اكتسبتموها تخافون إن سافرتم عنها أن تضيع ﴿وَتِجَـٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا﴾ تخافون إذا هاجرتم عنها أن تكسد ولا تجد رواجاً وربحاً، وكان بعض العلماء يقول: إن التجارة التي يخاف كسادها من عنده بنات - مثلاً - إذا خرج كسدن ولم يجدن أزواجاً يتزوجونهن(١). والأول هو ظاهر القرآن، وهو ظاهر اللغة، وإن كان الثاني قال به جماعة.

﴿وَمَسَـٰكِنُ﴾ جمع المسكن وهي الديار والقصور ﴿تَرۡضَوۡنَهَآ﴾ يعني ترضونها سكناً وتحبون الإقامة والسكنى فيها، إن كان هذا كله أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ قد ثبت في الصحيح(٢) عن النبي ﷺ أنه لا يؤمن أحد حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليه من أهله وولده بل ومن نفسه التي بين جنبيه، فلا يؤمن أحد حتى يكون ﷺ أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه ومن كل شيء كائناً ما كان. وكذلك محبة الله (جلّ وعلا)، فالمسلم يحب الله (جلّ وعلا) ويحب رسوله ﷺ. واعلموا أيها الإخوان أن العلامة الواضحة لمحبة الله ورسوله هي امتثال أمر الله واجتناب نهي الله فيما بلغه عنه رسوله محمد ﷺ. هذا هو علامة المحبة. واعلموا أن كل من يدّعي محبة رسول الله ﷺ وهو يخالفه أنه كذاب، كذاب، لا يحب الله ولا رسوله، ومن يخالف الله فالحب منتقص بقدر المخالفة، والمحب جداً لا يخالف محبوبه، فعلامة حب الله وحب رسوله الواضحة والشهادة به القاطعة هي اتباع ما جاء عن الله على لسان رسوله محمد ﷺ، ومصداق هذا في كتاب الله: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: آية ٣١] فمحبة الله ومحبة رسول الله علامتها

---

(١) انظر: القرطبي (٨/٩٥).

(٢) البخاري في الإيمان، باب: حب رسول الله ﷺ من الإيمان. حديث رقم: (١٥) (٥٨/١)، ومسلم في الإيمان، باب: وجوب محبة الرسول ﷺ. حديث رقم: (٤٤) (٦٧/١)، من حديث أنس (رضي الله عنه). وأخرجه البخاري في الموضع السابق (١٤) من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه). وقد ذكره الشيخ بمعناه، ولفظه: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»** وفي بعض الألفاظ: **«من أهله وماله والناس أجمعين»**.

القاطعة اتباع رسول الله، فكل من يدّعي أنه يحب الله ويحب رسول الله ويرتكب الأمور المخالفة لما جاء به رسول الله عن الله فهو كذاب، كذاب في دعواه المحبة. وهذا أمر معروف عند الناس؛ لأنه من الجبلة المعروفة عند العامة أن المحبة تقتضي الاتباع:

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع[1]

وقد صدق من قال[2]:

قالت وقد سألتْ عن حال عاشِقِهَا بالله صِفْهُ ولا تَنْقُصْ ولا تَزِدِ
فقلتُ لو كان رهن الموت من ظمأ وقلتِ قفْ عن ورود الماءِ لم يردِ

هذا في محبة مخلوق على وجه غير لائق فكيف بمحبة الله ورسوله؟ فالمحب للّه هو مطيع الله، والمحب لرسول الله ﷺ هو متبع رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ التربص في لغة العرب: الانتظار، ومنه: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: آية ٢٢٨].

تَرَبَّصْ بها ريْبَ المَنُونِ لعلَّها تُطَلَّق يوماً أو يموتَ حَلِيلُها[3]

قال بعض العلماء: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الظاهر أنه واحد الأمور، ولا شك أن في هذه الآية تهديداً وتخويفاً لمن دام على إيثاره هذه الأشياء على الله وعلى رسوله ﷺ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ﴾ جلّ وعلا ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

---

(١) البيت في تاريخ دمشق (٣٧٩/١٣) ونسبه للحسن بن محمد بن الحنفية.

(٢) البيتان في ديوان يزيد ص٨٣، وهي أيضاً في (قرى الضيف) ص١١٨، بالإسناد إلى أبي المطاع ذي القرنين بن ناصر الدولة أبي محمد من شعره. وذكرهما الأبشيهي في المستطرف (٣٨٥/٢)، وابن الجوزي في المدهش ص٣١٤، بدائع الفوائد (٢١٦/٣) ولفظهما هناك:

قالت لطيف خيال زارها ومضى بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقال: خلفته لو مات من ظمأ وقلتِ: قف عن ورود الماء لم يرد
قالت: صدقت الوفا في الحب شيمته يا برد ذاك الذي قالت على كبدي

(٣) البيت في القرطبي (١٠٨/٣)، واللسان (مادة: ربص) (١١٠٦/١)، والدر المنثور (١٢٠/٦) وعزاه لابن الأنباري في الوقف والابتداء، وهو أيضاً في فتح القدير (٢٣٢/١) (٩٩/٥).

مثل هذه الآيات فيه سؤال معروف للعلماء، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالله (جلّ وعلا) نفى هدايته للفاسقين، ونفى هدايته للظالمين، مع أنّا نشاهد بعض الفاسقين الظالمين يهديه الله، وكم من كافر شديد في الكفر، ظالم فاسق يهديه الله. هذا وجه الإشكال.

وأجاب العلماء عن هذا بجوابين:

أحدهما: أن قوله: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ من العام المخصوص، وأن المراد بها الذين سبق في علم الله أنهم لا يهتدون من الفسَقَة والظلمة الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ الآية [يونس: الآيتان ٩٦، ٩٧].

وقال بعض العلماء: لا يهديهم ما زالوا متصفين بالظلم والفسق، فإذا نزعوا عن ذلك برحمة الله وهدايته زال عنهم اسم الفسق والظلم، فلا مانع إذاً من هداهم. هكذا قاله بعض العلماء والله تعالى أعلم. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: آية ٢٤].

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة: الآيات ٢٥ ـ ٢٧].

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ اللام جواب قَسَم محذوف، والله لقد نصركم الله. أي: أعانكم على أعدائكم ﴿فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي: في مشاهد ومواضع كثيرة، كما نصركم يوم بدر، ويوم الأحزاب، ويوم فتح مكة، إلى غير ذلك ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: آية ٢٥] بيّن الله في هذه الآية الكريمة أن النصر من عند الله وحده، لا

بكثرة العدد ولا بكثرة العُدد، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: آية ٢٤٩] لأن أكثر غزاة قبل تبوك غزاها النبي ﷺ غزوة حنين، كانوا اثني عشر ألفاً، عشرة آلاف مقاتل فتح بهم مكة، وألفان من مسلمة الفتح من قريش ومن معهم وهم الطلقاء. وكان بعض العلماء يقول: إنه دخل مكة وفتحها باثني عشر ألفاً. فيكون المجموع: أربعة عشر ألفاً. ذكروا أن الصحابة قالوا: لن نُغلب اليوم من قلة. بعضهم يقول: إن هذه قالها أبو بكر (رضي الله عنه)، وقيل: قالها رجل آخر. فلما أعجبتهم الكثرة وأنهم كانوا اثني عشر ألفاً، أو أربعة عشر ألفاً، وقيل: ستة عشر ألفاً. وأكثر الروايات أنهم كانوا اثني عشر ألفاً، عشرة آلاف فتح بهم مكة، وألفان من أهل مكة أسلموا وغزوا معه. ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾ هذه الكثرة ﴿شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ وهذا نص الله فيه على ما وقع بالمسلمين أول وقعة حنين، يبيّن لهم أن النصر من عنده (جلّ وعلا) وحده لا من كثرة العدد والعُدد.

ونحن دائماً في هذه الدروس إذا جاءت غزوة من مغازي رسول الله ﷺ في الآيات القرآنية نفصلها ونذكر تفاصيلها لتمام الفائدة كما أوضحنا فيما مضى غزوة أحد في سورة آل عمران، وغزوة [بدر][(١)] في سورة [الأنفال][(٢)]، وسيأتي في سور القرآن العظيم أكثر مغازيه ﷺ.

وهذه الغزوة التي أشار لها الله هنا وبيّن أن الصحابة أعجبتهم كثرتهم فيها، وأن كثرتهم لم تغنِ عنهم شيئاً، وأنهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين، هي غزوة حنين، وسنشير الآن إلى هذه الغزوة ونذكر تفاصيلها.

أما حنين فهو وادٍ من أودية تهامة بين مكة والطائف غير بعيد من ذي المجاز، وأما الذين غزاهم فهم هوازن، وهوازن قبيلة من قبائل قيس

(١) في الأصل: «الأنفال». وهو سبق لسان.

(٢) في الأصل: «بدر». وهو سبق لسان.

عيلان بن مضر؛ لأن هوازن هو ابن منصور بن خصفة بن عكرمة[١] بن قيس عيلان بن مضر.

قال بعض أصحاب المغازي والسِّير[٢]: لما سمع هوازن بخروج النبي ﷺ من [المدينة][٣] ظنوا أنه يقصدهم في غزاة الفتح فتجمعوا، جمعهم رئيسهم في ذلك الوقت، ورئيسهم في ذلك الوقت مالك بن عوف النصري من بني نصر بن بكر بن هوازن. ثم لما بلغهم أن النبي ﷺ فتح مكة جمعهم مالك بن عوف وعزموا على مقاتلة النبي ﷺ، فسمع النبي ﷺ بأخبارهم فأرسل إليهم عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي (رضي الله عنه) عيناً يعرف له أخبارهم، فدخل في القوم مختفياً وسمع أخبارهم، وعرف أنهم عازمون على حرب النبي ﷺ. وكان النبي ﷺ قد فتح مكة في رمضان من سنة ثمان.

قال بعض أصحاب المغازي[٤]: فتحها لعشرين خلت من رمضان وعشر بقيت، وأنه أقام العشر الأواخر من رمضان بمكة بعد أن فتح مكة وخمس ليال من شوال، ثم غزا بعد خمس عشرة ليلة من فتحه مكة غزا هوازن باثني عشر ألفاً من أصحابه، عشرة آلاف الذين فتح بهم مكة، والألفان الذين أسلموا وخرجوا غازين معه من الطلقاء أهل مكة، ثم إن النبي ﷺ سمع بأن هوازن تجمعوا له في وادي حنين فقصدهم (صلوات الله وسلامه عليه) وقد صلى (صلوات الله وسلامه عليه) الصبح، وفي مخرجه هذا من مكة إلى حنين. مرّ بذات أنواط، وهي سدرة خضراء كبيرة كان المشركون يأتونها يوماً من السنة يذبحون عندها، ويعكفون عندها، ويعلقون عليها سلاحهم تسمى «ذات أنواط» وكان كثير ممن معه حديث عهد بالإسلام، فقالوا له: يا نبي الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال (صلوات الله وسلامه عليه): الله أكبر قلتم والذي نفسي بيده ما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾

---

(١) في ابن هشام (١٧٦/١) ابن عكرمة بن خصفة.

(٢) السابق ص١٢٨٣.

(٣) في الأصل: «مكة». وهو سبق لسان.

(٤) السابق ص١٢٨٢.

[الأعراف: آية ١٣٨][(١)] وكان العباس بن مرداس السلمي قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قاصداً هوازن قال قصيدة يصف فيها جيش رسول الله ﷺ وما يعزم عليه من غزو هوازن منها أنه يقول[(٢)]:

أَبْلِغْ هَوَازِنَ أَعْلاَهَا وأَسْفَلَها ... عني رِسَالَةَ نُصْحٍ فيهِ تِبْيَانُ
إني أظُنُّ رسولَ اللّهِ صَابِحَكُم ... جَيْشاً لهُ في فَضَاء الأرضِ أرْكَانُ
فيهم سُلَيم أخوكم غيرَ تارككُم ... والمسلمونَ عبادُ الله غَسَّانُ
وفي عضادته اليمنى بنو أسد ... والأجربان بنو عبسٍ وذُبيانُ
تكادُ ترجُفُ منه الأرضُ رهبَتَهُ ... وفي مقدِّمِهِ أوس وعثمانُ

يعني بـ (أوس وعثمان) قبيلتي مزينة من قبائل أُدّ بن طابخة بن إلياس، ومزينة أمهم. فتوجه إليهم رسول الله ﷺ، فلما كان قريباً منهم كان مالك بن عوف جمع جميع من طاوعه من هوازن، وكانت خرجت معه بنو نصر كلها (بنو نصر بن بكر بن هوازن)، وبنو جُشم كلها، (جُشم بن بكر بن هوازن) وبنو سعد كلهم، (سعد بن بكر بن هوازن)، ولم يخرج معه كثير من بني عامر بن صعصعة من قبائل هوازن، تخلّف عنه بنو ربيعة، وبنو كلاب، وجاء معه أوزاع قليلة من بني هلال بن عامر بن صعصعة، وجماعة من بني عمرو بن عامر بن صعصعة، وبني عوف بن عامر بن صعصعة، وجاء معه ثقيف كلها، وكانت ثقيف كلها ترجع إلى قبيلتين، وثقيف أهل الطائف، وثقيف هو ابن بكر بن منبه بن هوازن، هم من قبائل هوازن، وإن كان كثير من الناس يظن أنهم مع هوازن، فهم من هوازن؛ لأن ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن جاءت معه ثقيف كلها لم يبق منهم أحد، وكان رئيس الجميع مالك بن عوف النصري، وكان في ثقيف أهل الطائف رئيسان، رئيس

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٨/٥)، وعبدالرزاق (٢٠٧٦٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٧٦)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء «لتركبن سنن من كان قبلكم» حديث رقم: (٢١٨٠) (٤٧٥/٤)، والحميدي (٨٤٨)، والطيالسي (١٣٤٦)، والطبراني في الكبير (٣٢٩٠، ٣٢٩٤)، وابن حبان (الإحسان ٢٤٨/٨)، وابن نصر في السنة ص١٦، ١٧، وابن جرير (٨١/١٣، ٨٢).

(٢) القصيدة في سيرة ابن هشام ص١٢٨٧.

الأحلاف، ورئيس بني مالك؛ أما رئيس الأحلاف ذلك اليوم فهو قارب بن الأسود بن مسعود بن المُعتِّب، ورئيس بني مالك هو ذو الخمار، وهو سبيع بن الحارث، وأخوه أحمر بن الحارث. وجاء دريد بن الصمة من بني جشم بن بكر، وكان سيداً عظيماً من سادات هوازن، مُجَرِّباً في الحروب، وكان في ذلك الوقت شيخاً فانياً يرتعش، لا فائدة فيه إلا التيمن برأيه، جاء راكباً في شِجَار[١] له، وكان جماع الناس إلى مالك بن عوف النصري، فقال دريد: هذا المحل الذي أنتم فيه أي وادٍ أنتم فيه؟ قالوا: نحن الآن بوادي أوطاس. قال: نِعم مجالُ الخيل، لا حزنٌ ضَرْس ولا سهل دهس. ثم إنه قال: ما لي أسمع بكاء الصغير، ونهاق الحمير، ورغاء البعير، ويعار الشاء؟ قالوا له: جمع مالك بن عوف مع هوازن مواشيهم وأموالهم ونساءهم وذراريهم!! فقال: أين مالك؟ فدُعي له مالك بن عوف، فقال: يا مالك!! لقد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم له ما بعده، فما لي أسمع رغاء البعير، وبكاء الصغير، ونهاق الحمير، ويعار الشاء؟ قال: سُقت مع الناس أموالهم ونساءهم وأولادهم. قال: ولِمَ؟ قال: أريد أن يكون عند ظهر كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ولا يفر. فقال دريد يهزأ بمالك (أَنْقَض به) ـ أي أَخْرَجَ من فمه صوتاً استهزاءً به ـ وقال: راعي ضأن والله، هل يرد المنهزم شيء؟! هذا ليس برأي؛ لأنها إن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك، فكان الأولى أن تردهم إلى متمنَّع بلادهم وعُليا قومهم، فإن كانت لك فإنه لا ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك. فقال مالك: والله لا أفعل غير هذا. ثم قال: يا معشر هوازن والله لتطيعنني أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري!! فقالوا: أطعناك. فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني. ثم قال: هل حضر أحد من بني كعب أو كلاب؟ قالوا: ما حضرها أحد من بني كعب ولا كلاب. يعني كعباً وكلاباً أولاد عامر بن صعصعة. قال: غاب الجد والحد[٢] لو كان

---

(١) الشجار: يشبه الهودج لكنه غير مُغطًى من الأعلى.

(٢) الحد: يعني الحدة والشجاعة.

يوم رفعة وعلاء لم يغب عنه كعب وكلاب. قال: من حضرها من عامر؟ قالوا: بنو عوف بن عامر، وبنو عمرو بن عامر. قال: ذانك الجذعان من عامر لا ينفعان ولا يضران. ثم قال دريد[1]:

١/٤ يا ليتني فيها جَذَعْ / أَخُبُّ فيها وأَضَعْ
أَقُودُ وطْفَاءَ الزَّمَعْ[2] كأنها شاةٌ صَدَعْ[3]

ثم إن مالك بن عوف أمرهم فكمنوا للنبي ﷺ وأصحابه في مضايق وادي حنين وأحنائه، كانوا في مضايق الوادي بجنبتي الوادي كامنين له.

وقال لهم ملكهم ـ مالك بن عوف النصري ـ: إذا أقبل عليكم القوم فشدوا عليهم شدة رجل واحد. فصلّى النبي ﷺ الصبح وسار بأصحابه في الغَلَس ـ يعني: بقية ظلام الليل مختلطة بضياء الصبح ـ فانحدروا في وادي حنين يمشون، فلم يشعروا بشيء إلّا وقد دخلوا في مكمن القوم، فشدوا عليهم شدة رجل واحد، وصارت الرماح والسهام كأنها رِجْل جراد منتشر عليهم، فوقع ما وقع، وزلّ المسلمون، ووقع ما قال الله: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ فثبت رسول الله ﷺ وهو علىٰ بغلته البيضاء، وبعضهم يقول: الشهباء؛ لأن لونها بياض فيه شُهبة. والعباس بن عبدالمطلب (رضي الله عنه) آخذ بزمامها. وبعضهم يقول: آخذ بركابها الأيمن، أو حَكَمَتِها، وآخذ بركابها الثاني أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان مع النبي جماعة من آل بيته، منهم علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، والعباس بن عبدالمطلب، وأبو سفيان بن الحارث، والفضل بن العباس بن عبدالمطلب (رضي الله عنهم)، وربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، وأسامة بن زيد،

---

(١) ذكرهما ابن هشام في السيرة ص١٢٨٥، مرويات غزوة حنين (٢٣٤/١).

(٢) الوطفاء: طويلة الشعر.
الزمع: الشعر الذي فوق مربط قيد الدابة. فهو يذكر صفة فرس.

(٣) الشاة هنا: الوعل.
والصدع: الفتى القوي الشاب من الأوعال ونحوها.

وأيمن بن أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ. وثبت رسول الله ﷺ ذلك الثبات العظيم، وكان يركض البغلة في نحر العدو يسرع إليهم ويقول:

أنــــا الـــنـــبـــي لا كــــذب أنـــا ابـــن عـــبـــدالـــمـــطـــلـــب

وهذا من الشجاعة منقطع النظير[1]؛ لأنه على بغلة لا تحسن الكرّ ولا الفر، لا تصلح لكرٍّ ولا لفر، وقد انكشف عنه أصحابه (صلوات الله وسلامه عليه)، وليس معه إلّا قوم قليل، ومع هذا يركض في وجه العدو وينوه باسمه ليعرفه من لم يكن يعرفه!! وقال للعباس بن عبدالمطلب ـ وكان رجلًا ضخماً قوياً جهير الصوت جداً ـ ناد: يا أصحاب السَّمُرة. فنادى العباس بأعلى صوته: يا أصحاب السَّمُرة. والسَّمُرة هي شجرة الحديبية التي وقعت تحتها بيعة الرضوان، وقد بايعوه فيها على أن لا يفروا عنه. وفي بعض المرات يقول: يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة. يدعوهم. فسمعوا نداءه فقالوا: يا لبيك. وتراجع إليه المسلمون من كل فج، وقد أعجزهم أن يردوا الأباعر التي يركبونها؛ لأنها آلمها وقع السهام، فلم يقدروا على ردها ولا عطفها.

قال العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه): فوالله لمّا ناديتهم فسمعوا صوتي فكأنما عطفوا عليه عطفة البقر على أولادها. وكان (صلوات الله وسلامه عليه) أخذ قبضة من تراب فرمى بها في أوجه القوم وقال: شاهت الوجوه. وذكر ابن عبدالبر وغير واحد أنه روى من طرق كثيرة عن أولاد أولئك الجيش الذين أسلموا بعد ذلك أنهم قالوا: لقينا أصحاب محمد ﷺ فما لبثنا أن هزمناهم واتبعناهم حتى أتينا على صاحب البغلة الشهباء فزجرنا زجراً قوياً، وأخذ قبضة من تراب وحصى فرمى بها في أوجهنا فلم تبق عين ولا فم إلا امتلأت من ذلك الحصى. ورجعوا منهزمين، فمن ذلك الوقت الذي رمى تلك القبضة في أوجههم وكان حدهم كليلًا وأمرهم مدبراً. ثم إنه (صلوات الله وسلامه عليه) وكان العباس بن عبدالمطلب (رضي الله عنه) في ذلك اليوم شديد الشجاعة يُنوِّه بالنفر الذين

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

بقوا معه، والذي يقوله العباس في شعره أنهم عشرة فقط حيث يقول[١]:

ألا هل أتىٰ عرسي مُكري ومقدمي   بوادي حنين والأسنّة تشرع

إلىٰ أن قال:

نصَرْنا رسولَ الله في الحربِ تسعة   وقد فرّ من قد فرّ عنه فأقشعوا
وعَاشِرُنا لاقى الحِمَامَ بنفسِه   لما مسَّه في اللّهِ لا يَتَوَجَّعُ

يعني بعاشرهم الذي لاقىٰ الحِمَام أي: الموت: أيمن بن أم أيمن (رضي الله عنه)، أمه أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ، فرجع المسلمون لما سمعوا نداء العباس، فاجتمع عليه من أوائلهم مئة رجل، فأمرهم النبي ﷺ أن يصدقوا الحملة علىٰ القوم، فاجتلد الناس اجتلاداً شديداً، فنظر إليهم رسول الله ﷺ فإذا هم يجتلدون ويتقاتلون قتالًا شديداً، فقال (صلوات الله وسلامه عليه): «**الآن حمي الوطيس**»[٢]. وكانت من الكلمات التي لم يُسبق قبلها، قال بعض من روىٰ قصة حنين هذه: فوالله ما تراجع المسلمون إلا والأسرىٰ بجنب رسول الله ﷺ[٣]. وكان ممن ثبت ذلك اليوم ثباتاً عظيماً أم سليم امرأة أبي طلحة، وهي حامل في ذلك الوقت بعبدالله بن أبي طلحة، كانت تشدّ وسطها ببرد وفي يدها خنجر، وهي ممسكة بعير أبي طلحة، ولما سألوها عن الخنجر قالت: إذا قرب مني بعض المشركين بعجت به بطنه[٤]. فهي عظيمة في الشجاعة والثبات، فرجع أصحاب رسول الله ﷺ وركبوا أكتاف العدو يقتلونهم ويأسرونهم، ثم إنهم فروا وانهزموا، طائفة منهم فيها سيدهم مالك بن عوف انهزموا ورجعوا إلىٰ حصن الطائف

---

(١) البيت الأول أورده ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٩٩/٢٦) ويليه بيتان غير المذكورين هنا. والبيتان الأخيران ذكرهما ابن عبدالبر في الاستيعاب (٩٦/٣) (مع بعض الاختلافات)، والقرطبي (٩٨/٨)، والحافظ في الفتح (٣٠/٨) دون الأول. وهما في مرويات غزوة حنين (١٨٣/١).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب في غزوة حنين. حديث رقم: (١٧٧٥) (١٣٩٨/٣ ـ ١٣٩٩) بلفظ: «**هذا حين حمي الوطيس**».

(٣) السيرة لابن هشام ص(١٢٩٢).

(٤) مسلم في الجهاد، باب غزوة النساء مع الرجال. حديث رقم: (١٨٠٩) (١٤٤٢/٣).

فتحصّنوا به، وطائفة عسكروا في أوطاس. وأوطاس محل هو وحنين يجمعهم واد واحد، إلا أنهم عسكروا في محل بعيد منه، فأرسل النبي ﷺ في أثرهم سرية أمّر عليها أبا عامر الأشعري (رضي الله عنه)، ومعه في تلك السرية ابن عمه أبو موسىٰ الأشعري، فأدرك أبو عامر فَلَّهم، وأخذ ما عندهم من السبايا أيضاً، واستُشهد أبو عامر، أصابه سهم في ركبته فمات، واسْتَحَرَّ القتل ذلك اليوم في ثقيف خاصة، ثم في بني مالك فقُتل منهم سبعون رجلاً، أو أكثر، وقتل قوم من أصحاب رسول الله ﷺ، وكثير من هوازن، فهزمهم الله تبارك وتعالى، وفي ذلك اليوم قال رسول الله ﷺ: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**»[(١)].

وكان أبو قتادة (رضي الله عنه) كما ثبت عنه رأىٰ رجلًا عليه رجل من المشركين يريد أن يقتله، فجاء فضرب المشركَ من ورائه علىٰ حبل عاتقه فقطع درعه وقطع حبل عاتقه، قال: فرجع إليّ فضمني ضمّة شممت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلني. ثم إنه بعد ذلك سأل عن درع ذلك الرجل ليأخذها؛ لأنه قاتِلُه، والنبي ﷺ قال: «**من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه**» فنادىٰ أبو قتادة: من يشهد لي؟ فلم يجد أحداً يشهد له، فأخبر رسول الله ﷺ، فقال رجل من القوم: هو عندي يا رسول الله، فأرضِه منه. قال له أبو بكر: لاها الله لا يعمد إلىٰ أسد من أسود الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه!! قال له ﷺ: «**صدق أبو بكر**»[(٢)].

فهذه القصة أولًا انهزم فيها المسلمون، وقد ثبت في الصحيح[(٣)] عن البراء بن عازب (رضي الله عنه) أنه سأله رجل: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ قال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر (صلوات الله وسلامه عليه)، وكان يقول: «**أقبلوا إليّ عباد الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله.**

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب»

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

(٢) السابق.

(٣) البخاري في المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...﴾ حديث رقم: (٤٣١٥ ـ ٤٣١٧) (٨/٢٧ ـ ٢٨).

ثم إن النبي ﷺ جمع جميع سبي هوازن، وكان فيه آلاف عديدة من السبايا من النساء والذراري، ومن الأموال ما لا يحصيه إلا الله، من الإبل والشاء وجميع الأموال، وكان قد نَفَّل بعض أصحابه، فأعطىٰ علي بن أبي طالب جارية تسمىٰ ريطة بنت هلال، وأعطىٰ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) جارية تسمىٰ زينب بنت حيان، في أشياء كثيرة[1]. ثم إن النبي ﷺ رجع بنفسه يتبع فلّهم إلىٰ الطائف، فحاصر أهل الطائف؛ لأن أهل الطائف ـ ثقيفاً ـ لما مات منهم ما مات في غزوة حنين ورجعوا تحصنوا بحصن الطائف، وصاروا يُخرجون السهام من كوىٰ الحائط يُرامون بها أصحاب رسول الله ﷺ، فمكث رسول الله ﷺ زمناً يحاصرهم، ومات في حصارهم جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم متحصنون لم يؤذن له في فتحهم، فسأل عنهم معاوية بن نوفل الديلي: ماذا ترى؟ قال: أرىٰ أنَّ هؤلاء القوم كالثعلب في جحره، إن أطلت المقام علىٰ جحره أخذته، وإن ذهبت عنه لا يضرك بشيء[2]، فسألوا رسول الله ﷺ أن يدعو عليهم فأبىٰ أن يدعو عليهم، وقال: «**اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم**»[3] ثم بعد ذلك أسلموا، وجاؤوا وافدين إلىٰ رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ أمر بالسبايا والمغانم فذهب بها رجل أَمَّره عليها إلىٰ الجعرانة وكانت هناك حتىٰ رجع رسول الله ﷺ من حصاره إلىٰ الطائف، فلما رجع جاءه وفد هوازن مسلمين، وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صرد أمام النبي ﷺ وقال له: يا نبي الله إنَّا أصل وعشيرة، وإنه قد وقع بنا ما ترى، وإنا تبنا إلى الله ورجعنا مسلمين. ولو وقع ما وقع بنا وجئنا الحارث بن أبي شمر الغساني أو النعمان بن المنذر لرجونا عائدته بالخير وعطفه علينا، وأنت خير مكفول، وكذا وكذا، فرُد علينا أموالنا

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة ص١٣٤٢.

(٢) ذكره ابن كثير في تاريخه (٣٥٠/٤) وعزاه للواقدي.

(٣) أخرجه أحمد (٣٤٣/٣)، والترمذي في المناقب، باب مناقب ثقيف وبني حنيفة. حديث رقم: (٣٩٤٢) (٧٢٩/٤)، والواقدي في المغازي (٩٣٦/٣ ـ ٩٣٧)، وابن سعد في الطبقات (١١٤/٢) والطبري في التاريخ (١٣٣/٣) وذكره ابن القيم في الهدي (٤٩٧/٣)، وابن كثير في التاريخ (٣٥٠/٤)، والحافظ في الفتح (٤٥/٨).
وانظر: ضعيف الترمذي ص٥٢٧، مرويات غزوة حنين (٣٣٦/١ ـ ٣٣٧).

ونساءنا. قال لهم ﷺ: «**اختاروا أيهما أحب إليكم: أسبيكم أم أموالكم؟**» فقالوا: خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا فنختار نساءنا وأولادنا. فقال لهم النبي ﷺ: «**أما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم**» فقال المهاجرون: ما كان لنا منها فهو لرسول الله. وقال الأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله. وقال الأقرع بن حابس التميمي: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن الفزاري: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس السلمي: أما أنا وبنو سليم فلا. فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال لهم العباس: وهَّنتموني حيث لم تجيزوا ما قلت عليكم. ثم إن النبي ﷺ ردّ لوفد هوازن جميع سباياهم، جميع نساءهم وأولادهم[(١)].

واختلفت عبارات المؤرخين وأصحاب المغازي هل كان ردهم لهم قبل أن تقسم الغنائم، أو بعد قسمها[(٢)]؟ وظاهر كلام ابن إسحاق ومن وافقه أنه كان قبل قسم الغنائم، وموسىٰ بن عقبة وغيره من أئمة المغازي يقولون: إنه كان بعد أن قسمت غنائمهم. قال ابن عمر (رضي الله عنه): كانت الجارية التي أعطاني عمر بن الخطاب أرسلتها إلى أخوالي من بني جُمح يصلحونها ويزينونها لي حتىٰ أطوف بالبيت وأرجع فأدخل بها، فلما رجعت أنوي الدخول بها إذا أصلحها لي أخوالي فإذا الناس يشتدون، قلت: ما بالكم؟ قالوا: رد إلينا رسول الله ﷺ نساءنا وأولادنا، فقال: اذهبوا إلى صاحبتكم في بني جُمح فخذوها[(٣)]. ثم إن زهير بن صُرد خطيب هوازن الذي خطب لهم رسول الله ﷺ استعطفه بخطبة نثرية، وبشعر أيضاً، فمن شعره الذي يستعطفه به[(٤)]:

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (١٣٥/٣) من طريق ابن إسحاق، وذكره ابن هشام في السيرة ص١٣٤٠، وابن كثير في تاريخه (٣٥٢/٤) وأصل قدومهم على النبي ﷺ وتخييره لهم بين الأموال والذراري في البخاري، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...﴾ حديث رقم: (٤٣١٨) (٣٢/٨).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣٥٤/٤).

(٣) أخرجه أحمد (٦٩/٢)، وابن جرير في تاريخه (١٣٥/٣)، وذكره ابن هشام في السيرة (١٣٤٢)، وابن كثير في تاريخه (٣٥٤/٤).

(٤) أخرجه البيهقي في الدلائل (١٩٤/٥)، والطبراني في الكبير (٢٧٠/٥، ٢٧١)، والأوسط =

امنُن علينا رسولَ الله في كَرَم فإنكَ المرءُ نرجوهُ وننتظرُ
امنُن على بيضَةٍ قد عاقها قَدَرٌ ممزقٌ شملُها في دهرِها غِيرُ
امنُن على نسوةٍ قد كنتَ تَرْضَعُها إذْ فُوكَ تملؤُه من مَحْضِها الدررُ
امنن على نسوةٍ قد كنتَ تَرْضَعُها وإذ يزينك ما تأتي وما تذرُ

وقد كان قال له في خطبته: إنما وراء هذه الحضرة من نساء هوازن خالاتك وحواضنك[1]. ثم إن النبي ﷺ ردّ عليهم جميع نسائهم وأولادهم، وكان عيينة بن حصن قد أخذ عجوزاً وقال: هذه العجوز لها حسب ونسب في قومها، فيكون فداؤها شيئاً كثيراً غالياً. فالنبي ﷺ خيّر: من أراد أن يعطي شيئاً من سبايا هوازن ليُرد إلى أهله مجاناً فعل، ومن أراد العوض عنه قال له رسول الله ﷺ: **«سنعوضك عنه من أول ما فتح الله علينا، ومن أول ما أفاء الله علينا ست فرائض»**.

والظاهر أن مراده بالفرائض رؤوس من الإبل؛ لأن حِقَّة الزكاة تسمىٰ (فريضة) ثم إن عيينة بن حصن قيل له: خذ عن هذه ستاً. فقال: لا. فامتنع وقال: لا آخذ عنها شيئاً. يطمع في فداء كثير!! فقال له زهير بن صرد: والله ما فوها ببارد، ولا ثديها بناهد، ولا بطنها بِوَالِد، ولا زوجها بواجِد. فلما قال له هذا الكلام قَبِلَ معاوضتها بما عوض به بقايا السبي[2]، ثم إن أهل الغزاة الذين حضروها من الأعراب وغيرهم خافوا أن يرد النبي ﷺ على

= (٤٥/٥)، والصغير (٢٣٦/١)، والخطيب في تاريخه (١٠٦/٧)، والطبري في تاريخه (١٣٤/٣)، وابن عبدالبر في الاستيعاب (٥٧٦/١)، وذكرها الذهبي في الميزان، وابن كثير في تاريخه (٣٥٣/٤). وقد سقط هنا بعد البيت الثاني بيتين، وفي بعض الروايات ثلاثة أبيات. وأما البيتين الثالث والرابع هنا فهما بيت واحد ورد في بعض الروايات باللفظ الأول وفي بعضها باللفظ الثاني. وانظر: مرويات غزوة حنين (٤٥٦/٢ ـ ٤٦٠). وقد حسنه الحافظ في اللسان (٩٩/٤ ـ ١٠٤)، والفتح (٣٤/٨)، وانظر: الإصابة (٥٥٣/١).

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (١٣٤/٣)، وذكره ابن هشام ص١٣٤٠، وابن كثير في تاريخه (٣٥٢/٤) وانظر المصادر في الهامش السابق.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (١٣٥/٣)، وذكره ابن هشام (١٣٤٢) وابن كثير في تاريخه (٣٥٥/٤).

هوازن الأموال أيضاً، فضيقوا عليه فقالوا: يا نبي الله اقسم علينا فيئنا، حتى ألجؤوه إلى سمرة فخطفت رداءه فقال: **«ردوا عليَّ ردائي، فوالله لو كان لكم من الفيء مثل شجر تهامة لقسمته كله عليكم، ولا تجدوني جباناً ولا كذاباً ولا بخيلاً»**[1]. (صلوات الله وسلامه عليه)، فأعطى ذلك اليوم المؤلفة قلوبهم، أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وعيينة بن حصن مائة من الإبل، وأعطى أبا سفيان مائة من الإبل، وابنه معاوية مائة من الإبل، وصفوان بن أمية مائة من الإبل؛ لأن النبي ﷺ لما عزم على غزاة حنين استعار من صفوان بن أمية الجمحي أدراعاً كانت له وسلاحاً، فقال له: أغصباً يا محمد؟ قال: **«بل عارية مضمونة»**[2] وكانت تلك الأدراع قد فُقد منها شيء في القتال، فلما أراد النبي ﷺ أن يعوضه قال له: إن في قلبي اليوم ما لم يك في قلبي بالأمس، إني صرت أرغب في الإيمان. ولم يأخذ عوض أدراعه، قال بعض العلماء: لما أراد الخروج استسلف من ربيعة المخزومي آلافاً كثيرة يستعين بها، وأعطى المؤلفة قلوبهم.

ولما وقع بالمسلمين ما وقع أولًا وولّوا مدبرين كان بعض قريش إيمانهم في ذلك الوقت لم يكن قوياً حتى ذكروا مثله عن أبي سفيان بن حرب (رضي الله عنه) قالوا: كان في ذلك الوقت إيمانه مدخولًا، فقال: هزيمتهم لا يردها البحر[3]. وكان مع صفوان بن أمية أخوه لأمه - وصفوان بن أمية في ذلك الوقت على شركه، ومعه أخوه لأمه - بعضهم يقول: اسمه كلدة بن الحنبل. فلما وقع بالمسلمين ما وقع أولًا وولّوا

---

(١) البخاري في الجهاد، باب: الشجاعة في الحرب والجبن. حديث رقم: (٢٨٢١) (٣٥/٦) وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٣١٤٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤٠١/٣)، (٣٦٥/٦)، وأبو داود في البيوع، باب في تضمين العارية. حديث رقم: (٣٥٤٥ - ٣٥٤٧) (٤٧٦/٩ - ٤٧٨)، والحاكم (٤٧/٢)، والبيهقي (٨٩/٦) من حديث أمية بن صفوان عن أبيه. وبعضهم يرويه عن أُناس من آل عبدالله بن صفوان، وبعضهم: عن ناس من آل صفوان، وللحديث شاهد من حديث جابر (رضي الله عنه) عند الحاكم (٤٨/٣ - ٤٩). وانظر: الإرواء (٣٤٤/٥).

(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٢٨/٥)، والطبري في تاريخه (١٢٨/٣)، وذكره ابن هشام ص١٢٩٠، وابن كثير في تاريخه (٣٢٧/٤) وانظر: مرويات غزوة حنين (١٦٣/١).

مدبرين قال: الآن بطل سحر محمد. فقال له صفوان بن أمية وهو مشرك: اسكت فضّ الله فاك، والله لأن يربني رجل من قريش أحب إليَّ من أن يربني رجل من هوازن[١].

وكان شيبة بن عثمان بن أبي طلحة قُتل أبوه عثمان بن أبي طلحة يوم أحد في حَمَلَة اللواء من بني عبدالدار، وعمه طلحة بن أبي طلحة وغيره من أعمامه، وكان حنقاً على النبي ﷺ، فخرج في غزاة حنين وهو على كفره يريد أن يصادف غرة من رسول الله ﷺ ليقتله ويأخذ بثأره، فلما انكشف المسلمون ووقع ما وقع قال شيبة: جئت من طرف بغْلته الأيمن فإذا عمه ممسك بركاب بغلته، قلت: هذا عمه ولن يخذله، فجئت من الطرف الثاني فإذا أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ممسك ركابه من الجنب الآخر، فقلت: وهذا ابن عمه لن يخذله، فجئت من ورائه فلما قربت منه وأردت أن أساوره بالسيف وقلت: الآن آخذ ثأري فأقتل محمداً ﷺ، في بعض الروايات أنه قال: جاءني عنق من نار كأنه برق خاطف فصرت أرجع القهقرى خوفاً منه، فالتفت إليَّ رسول الله ﷺ فقال: «**ادن يا شيب!!**» فمسح صدره ودعا له الله. قال: والله ما رفع يده عنّي حتى صار أحب إليّ من كل شيء. وفي بعض روايات هذه القصة عن شيبة بن عثمان بن أبي طلحة (رضي الله عنه)، قال: لما أردت أن أضربه وأقتله جُعل في فؤادي شيء لا أدري ما هو منعني منه، فتيقنت أنه ممنوع منّي، ثم دعا لي فصار أحب الناس إليّ[٢]. فصار شيبة بعد أن كان يريد قتل النبي ﷺ يقاتل معه في إخلاص ونصح.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (١٢٨/٣)، والطبراني في الكبير (٢٩٩/٧)، والبيهقي في الدلائل (١٢٨/٥، ١٤٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (مختصر ابن منظور ٩/١١ ـ ١٠) وساق ابن هشام بعضه ص١٢٩٠، كما ساق ابن كثير في تاريخه (٣٣٣/٤) رواية البيهقي وابن إسحاق. وكذا في التفسير (٣٤٥/٢)، وابن القيم في زاد المعاد (٤٧٠/٣)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٨٤/٦)، والحافظ في الإصابة (١٦١/٢)، والسيوطي في الخصائص (٩٤/٢ ـ ٩٥) وعزاه لأبي القاسم البغوي وأبي نعيم وابن عساكر، وانظر: مرويات غزوة حنين (١٦٧/١ ـ ١٦٩). ولا يصح في سبب إسلامه شيء من الروايات.

ثم إن النبي ﷺ لما قسم غنائم حنين أعطىٰ المؤلفة قلوبهم، فأعطىٰ مائة من الإبل، مائة من الإبل، وأعطىٰ ما ملأ بين جبلين غنماً لرجل، وكان أعطىٰ عيينة بن حصن مائة من الإبل، والأقرع بن حابس مائة من الإبل، ولم يعطِ العباس بن مرداس السلمي. فغار العباس بن مرداس السلمي وعاتب رسول الله ﷺ في شعره المشهور وقال له[1]:

أتجعلُ نَهْبي ونَهْبَ العُبَيْد بَيْنَ عُيَيْنَةَ والأقرع

والعُبيد: فرسه. قال:

أتجعلُ نهبي ونهبَ العُبيد بين عُيينة والأقرعِ
فما كان حصنٌ ولا حابسٌ يفوقانِ مرداسَ في المجمعِ
وما كنتُ دون امرىء منهما ومن تضعِ اليومَ لا يُرفعِ
كانت نِهَاباً تلافيتُها بِكرِّي على المُهْرِ في الأجْرعِ
وإيقاظي الحيَّ أن يرقُدوا إذا هجَعَ الناسُ لم أهجعِ
وقد كنتُ في الحربِ ذا تُدْرَإٍ فلم أُعطَ شيئاً ولم أُمنعِ
إلا أَفَائِلَ أُعطِيتُها عَدِيدَ قوائِمِها الأَرْبَعِ

فقال ﷺ: **«اقطعوا عني لسانه فكملوا له مائة من الإبل»**[2].

ولما أعطىٰ قريشاً ورؤساء قبائل العرب ولم يعطِ الأنصار شيئاً وجد الأنصار في أنفسهم موجدة، وقالوا: يعطي قريشاً الغنائم وسيوفنا تقطر من دمائهم!! فسمع رسول الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل سعد بن عبادة (رضي الله عنه) يجمع له الأنصار، فجمع له جميع الأنصار، فأخبره أن القوم

---

(١) تقدمت هذه الأبيات عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال. وقد وقع فيها شيء من التقديم والتأخير.

(٢) هذا الحديث أصله في صحيح مسلم من غير قوله: (اقطعوا عني لسانه) مسلم في الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه. حديث رقم: (١٠٦٠) (٢/٧٣٧) وهو بالسياق الذي ذكره الشيخ (رحمه الله) في سيرة ابن هشام ص(١٣٤٦). وقد ذكره ابن كثير في تاريخه (٤/٣٥٩) من طريق موسى بن عقبة وعروة بن الزبير وابن إسحاق.

اجتمعوا، فجاءهم، قال: «**ما شيء سمعته عنكم يا معشر الأنصار؟**» قالوا: وما هو؟ قال: «**سمعت أنكم تقولون: يعطي قريشاً ولا يعطينا وسيوفنا تقطر من دمائهم، أو كلام نحو هذا**» فقالوا: قد قال هذا بعض سفهائنا، وأما أهل الحلم منا فلم يقولوه. فقال لهم: «**يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلاَّلاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ وأعداء فألّف الله بين قلوبكم بي؟**» قالوا له: للّه المنة ولرسوله ﷺ. قال: «**أوَلا تجيبونني يا معشر الأنصار؟**» قالوا: ماذا نقول؟ قال: «**لو شئتم لقلتم: ألم تأتِنا مُكَذَّباً فصدقناك؟ وطريداً فآويناك؟ ومخذولاً فنصرناك؟**» ثم قال: «**يا معشر الأنصار ألا يرضيكم أن يذهب الناس بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم؟ لو سلكت الناس وادياً والأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار وشعب الأنصار**» فبكى القوم حتى أخضل الدمع لحاهم، وقالوا: رضينا يا رسول الله ﷺ[(١)].

وكانت قيلت في حنين أشعار، ونحن لا نريد الإكثار من إيراد الأشعار فيها، لكن نذكر طرفاً منها، ومن أشهر ما قيل في غزوة حنين: شعر العباس بن مرداس السلمي (رضي الله عنه)، يفخر بقومه بني سليم، ويذكر الفتح وحنين في قصائده، ومن ذلك قوله في رائيته المشهورة[(٢)]:

ما بَالُ عَيْنِكَ فيها عَائِرٌ سَهِرٌ ... مثلُ الحَمَاطَةِ أغْضَى فَوقَها الشُّفُرُ
عينٌ تأوَّبها من شجْوِهَا أرَقٌ ... فالماءُ يغمرُها طوراً وينْحَدِرُ
كأنهُ نظمُ دُرٍّ عند ناظِمةٍ ... تَقَطَّعَ السلكُ منه فهو مُنتثرُ
يا بُعدَ منزلِ مَنْ ترجُو مودَّتَه ... وقد أتى دُونَه الصَّمَّانُ فالحَفَرُ
دعْ ما تقدم من عهدِ الشبابِ فقد ... ولَّى الشبابُ وزار الشيبُ والزَّعَرُ
واذكُر بلاء سُليم في مواطِنِهَا ... وفي سُليم لأهلِ الفخرِ مُفْتَخرُ
قومٌ هُمُ نصروا الرحمٰنَ واتبعوا ... دينَ الرسولِ وأمرُ الناس مُشْتَجرُ

(١) البخاري في المغازي، باب: غزوة الطائف. حديث رقم: (٤٣٣٠) (٨/٤٧)، وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٧٢٤٥)، ومسلم في الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه. حديث رقم: (١٠٦١) (٢/٧٣٨).

(٢) الأبيات في ابن هشام ص١٣١٧ ـ ١٣١٨، والبداية والنهاية (٤/٣٤٢ ـ ٣٤٣).

لا يغرسون فسيلَ النخلِ وسْطَهُمُ ولا تَخاوَرُ في مشْتَاهُمُ البقرُ
إلا سَوابِحَ كالعِقْبَانِ مُقْرَبَةً في دَارَةٍ حَوْلَهَا الأخطارُ والعَكَرُ
تُدعَى خُفَافٌ وعَوفٌ في جوانبها وحَيُّ ذكوانَ لا مِيلٌ ولا ضُجُرُ
الضاربُونَ جنودَ الكفرِ ضاحيةً ببطنِ مكةَ والأرواحُ تُبْتَدَرُ
حتى رفَعْنَا وقتلاهُم كأنهُمُ نخلٌ بِظَاهِرَةِ البطحاءِ مُنقعرُ
ونحنُ يومَ حنينٍ كان مشهدُنَا للدين عزاً وعند الله مُدَّخَرُ
إذ نركبُ الموتَ مُخْضَراً بطَائِنُهُ والخيلُ يَنْجَابُ عنها ساطعٌ كَدِرُ
تحت اللوامع والضحاك يَقْدُمُنَا كما مَشَى الليثُ في غاباتِهِ الخَدِرُ
في مأزِقٍ من مَجَرِّ الحربِ كَلْكَلُها تكادُ تأفُل منه الشمسُ والقمرُ
وقد صبرنا بأوطاسٍ أسِنَّتَنَا للّه ننصُرُ من شِئْنا ونَنْتَصِرُ
فما ترى مَعْشَراً قلُّوا ولا كثرُوا إلا وأصبحَ منا فيهُمُ أثَرُ

وهو في شعره دائماً ينوّه بالضحاك بن سفيان (رضي الله عنه)، قالوا: لأن النبي ﷺ جعله بمائة رجل، وكان عليه لواء سُليم، وكانت سُليم ألف مقاتل، كما بيّنه العباس بن مرداس في شعره حيث يقول في عينيته المشهورة[1]:

عفَا مِجْدَلٌ من أهْلِهِ فَمُتَالِعُ فَمَطْلَى أريك قد خَلاَ فالمَصَانِعُ
ديارٌ لنا يا جُمْلُ إذ جُلّ عَيْشُنَا رَخيٌّ وصَرْفُ الدَّارِ للحيّ جامعُ
حُبَيِّبَةٌ أَلْوَتْ بها غُرْبَةُ النَّوى لِبَيْنٍ فهل ماضٍ من العيشِ راجعُ
فإن تبتغي الكفارَ غير ملومةٍ فإني وزيرٌ للنبي وتابعُ
دعانا إليهم خيرُ وفدٍ علمتُهُم خزيمةُ والمرَّارُ منهم وواسِعُ
فجئنا بألفٍ من سُليم عليهم لَبُوسٌ لهم من نَسْجِ داودَ رائعُ
فَجُسْنَا مع المهدي مكةَ عَنْوَةً بأسيافنا والنقعُ كابٍ وساطِعُ

(١) هذه القصيدة ذكرها ابن هشام ص١٣١٣ ـ ١٣١٤، ابن كثير في تاريخه (٣٤١/٤) وقد أسقط الشيخ منها هنا ـ بعد البيت السادس ـ بيتاً نظراً لما في معناه من الإيهام. والله أعلم.

علانية والخيلُ يغشى مُتونَها حميمٌ وآنٍ من دَمِ الجوفِ ناقعُ
ويومَ حنينٍ حينَ سارتْ هوازنٌ إلينا وضاقتْ بالنفوسِ الأضالِعُ
صَبَرْنَا مع الضحاكِ لا يستفِزُّنَا قِرَاعُ الأعادي منهم والوقائعُ
أمام رسول الله يخفقُ فوقَنَا لواءٌ كَخُذْرُوفِ السحابةِ لامعُ

ولم نُرد الإكثار من إيراد من تكلم فيها والذين قالوا شعراً في حنين غير كثير.

ولما قسم ﷺ غنائم حنين، وأعطىٰ هذا العطاء العظيم، وأرضىٰ الأنصار بما أرضاهم به كان (صلوات الله وسلامه عليه) خلّف على مكة عتّاب بن أَسِيْد بن أبي العيص بن أمية (رضي الله عنه)[(١)]، وكان إذ ذاك ابن عشرين سنة.

هذا طرف أشرنا له من هذه الوقعة التي نوّه الله (جلّ وعلا) بها في كتابه، ولم نرد الإطالة فيها كثيراً، وسنرجع ـ إن شاء الله ـ في اليوم الآتي إلى معنى الآية ونفسرها؛ لأنا الآن ما ذكرنا إلا بسط سبب نزولها الذي نزلت فيه. وكان بعض العلماء يقول: هذه أول آية نزلت من سورة براءة. فهذه الآية نزلت قبل أولها.

يقول الله جلّ وعلا: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

اللام توطئة قسم محذوف، أي: والله ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أعانكم على أعدائكم ﴿فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ المواطن: جمع موطن، وموطن الحرب معناه مشهده وموقفه، وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[(٢)]:

وكم موطن لولاي طِحْتَ كما أرى بأجرامه من قُلَّة النِّيْقِ مُنْهوي

(١) أورده ابن هشام ص١٢٨٦، وابن كثير في تاريخه (٣٢٥/٤).

(٢) البيت ليزيد بن أم الحكم، وهو في الكتاب (٣٧٤/٢)، البحر المحيط (٢٣/٥)، الدر المصون (٣٧/٦). وقوله: «طحت» أي: هلكت. والأجرام: جمع جِرْم وهو الجسد. والقُلَّة: ما استدار من رأس الجبل. والنِّيْقِ: أعلى الجبل.

أي: كم مشهد حرب. لقد أعانكم الله على أعدائكم في مواقف ومشاهد عديدة، كما نصركم يوم بدر، ويوم الخندق، ويوم قريظة، ويوم النضير، ويوم الحديبية، ويوم فتح مكة، إلى غير ذلك من المواقف التي تخرجون منها وأنتم ظاهرون منصورون.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ قيل التقدير: في أيام مواطن، ويوم حنين أيضاً، أي: ولقد نصركم يوم حنين ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ يوم حنين حين التقوا بهوازن، وكانوا كمنوا لهم في مضايق وادي حنين ومخارمه وأحنائه، ثم شدوا عليهم شدة رجل واحد، وكانوا في هذه الوقعة قبل ملاقاة العدو كأن الصحابة أُعجبوا بكثرتهم لأنهم اجتمع منهم ذلك اليوم شيء لم يجتمع مثله قط فيما مضى، وقالوا: لن نُغلب اليوم من قلة. فبيّن لهم الله أن النصر من عنده وحده، لا بالعدد ولا بالعُدد ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: آية ١٢٦] ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ أعجبتم بكثرة عددكم وقلتم: لن نُغلب اليوم من قلة ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ هي، أي: الكثرة التي أعجبتكم لم تغن ﴿عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ لم تُفِدْكُم ولم تُجْدِكُم قبل أن يُنزل الله عليكم سكينته وينصركم. وهذا امتحان من الله وابتلاء وبيان لخلقه أن النصر بيده وحده لا بكثرة العدد ولا بكثرة العُدد؛ ولذا لمّا أمدّهم بالملائكة بيّن لهم مع ذلك أن النصر به وحده، قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: آية ١٢٦] ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: آية ٢٥] فلم تنفعكم ولم تُجدِ عنكم شيئاً. والعرب تقول: هذا لا يغني شيئاً، وما أغنى عني هذا شيئاً. يعنون: ما نفعني وما أجداني.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[١] أن أصله من الغَنَاء بالفتح والمد، فالغَنَاءُ في لغة العرب: ـ كسحاب ـ معناه: النفع. ومعنى (لا يغني عنه) أي: لا يحصل له به غَنَاء. أي: نفع. وقد قدمنا لغات

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨)، والآية (٩٢) من سورة الأعراف.

هذه المادة مراراً في هذه الدروس، وبيّنا أن الغَنَاءَ بالفتح والمد ـ غَنَاءٌ كسحاب ـ أن معناه: النفع. ومنه قول بعض شعراء بني أسد بن خزيمة[1]:

وقلَّ غناء عنك مال جمعته إذا صار ميراثاً وواراك لاحد

«قل غناء عنك» أي: قلَّ نفعاً لك. تمييز مُحَوَّلٌ عن الفاعل.

وأن (الغَنىٰ) بالمد والقصر أنه الإقامة في الموضع، فالعرب تقول: غَنِيَ بالمكان يغنىٰ به غَنىً ـ على القياس ـ أي: أقام به. ومنه في هذا المعنىٰ قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: آية ٢٤].

والغِنَاءُ ـ بكسر الغين والمد إلى الهمزة، غِنَاء ككتاب ـ معناه: الألحان المطربة ـ قبّحها الله ـ.

والغِنىٰ بالكسر والقصر هو ضد الفقر، والغُنىٰ بالضم والقصر جمع غنية وهو المال الذي يقتنيه الإنسان فيغتني به في حياته.

والغُناء بضم فمد لا أعرفه في لغة العرب. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ الباء بمعنى (مع)، و(ما) مصدرية. والمعنىٰ: ضاقت عليكم الأرض مع سعتها ورُحْبِها، والرُّحْب بالضم: هو الاتساع، والرَّحْبُ: وصف، تقول: مكان رَحْب، يعني: وسيع، وصدر رَحْب أي: وسيع. والرُّحْبُ: معناه السعة، والرَّحْبُ بالفتح المصدر فـ (الباء) بمعنى (مع) و(ما) مصدرية. والمعنى: ضاقت عليكم الأرض في حال كون ذلك مع سعتها ورُحبها متلبسة بسعتها ورُحبها. والجار والمجرور في موضع الحال، كقولك: زرته بثيابي. أي مع ثيابي. أي: في حال كوني متلبساً بها. والخائف يضيق عليه فضاء الأرض الواسع؛ لأن من اشتد خوفه ضاقت الأرض في عينه وإن كانت

(١) البيت في ديوان الحماسة (٥١/٢)، المزهر (٣٠٦/٢).

طويلة عريضة واسعة، كما قال الشاعر[١]:

كـأنَّ بـلادَ الله وهـي عـريـضـةٌ على الخَائفِ المطلوبِ كِفَّةُ حابِلِ

وهذا معنىٰ ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾.

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ مولين الأدبار منهزمين؛ لأنهم أول المرة في ذلك اليوم انهزموا. وعن سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) أنه انهزم فيمن انهزم، وكان لابساً بردين متزراً بأحدهما مترديًا بالآخر، فلما اشتد منهزماً هارباً انحل الإزار الذي يتزر به وعجل عن أن يشده فصار جامعاً له بيديه، ومرّ على النبي ﷺ في هذه الحالة والنبي (صلوات الله وسلامه عليه) في غاية الثبات والطمأنينة، فالتفت إليه وقال: «**رأى ابن الأكوع فزعاً**»[٢] وهو هارب، فرجعوا مدبرين. هذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢٥] ﴿مُّدْبِرِينَ﴾ معناه: مولين عدوكم بأدباركم، فارين منه.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ السكينة: فعيلةٌ من السكون، ومعناها: الطمأنينة والأمنة المستوجبان لأكمل الثبات ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ [التوبة: آية ٢٦] أي: أمنته من الخوف، وطمأنينته في القلوب المستوجبة لأكمل الثبات على رسوله محمد ﷺ حيث كان على بغلته الشهباء (دُلْدُل) يركضها إلى نحور العدو ويقول: «**أقبلوا إلي عباد الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله**

«أنـا الـنـبـي لا كـذب أنـا ابـن عـبـدالـمـطـلـب»[٣]

﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وأنزل سكينته أيضاً على المؤمنين. قال بعض العلماء: المراد بالمؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم: من ثبتوا معه ﷺ. وقال بعض العلماء: يدخل فيهم الذين رجعوا بعد الفرار والهزيمة وقاتلوا

---

(١) البيت في القرطبي (١٠٠/٨).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد، باب في غزوة حنين. حديث رقم: (١٧٧٧) (١٤٠٢/٣).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

معه عدوه. والتحقيق: أن الله أنزل سكينته على الجميع، الذين بقوا معه ولم يفرّوا والذين رجعوا إليه.

واختلف العلماء فيمن بقي معه ولم ينهزم[١]، وكان بعض العلماء يقول: عشرة رجال أو أحد عشر رجلًا، وقد ذكرناهم بالأمس، ومن جملتهم: شيبة بن عثمان بن أبي طلحة كان يريد الغدر بالنبي ﷺ فآمن في ذلك الوقت، وكان من الثابتين المقاتلين مع رسول الله ﷺ. وكثير من أصحاب المغازي يقولون: ثبت معه نحو من مائة رجل أو ثمانين. وبعض العلماء يوفق بين القولين يقول: أما العشرة أو الأحد عشر فلم يتحركوا، وأما المائة أو الثمانون فهم الذين رجعوا بسرعة وحملوا على عدو النبي ﷺ، ذكروا أن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قتل ذلك اليوم أربعين رجلًا بيده، وذكروا عن أبي طلحة أنه لما قال النبي ﷺ: **«مَنْ قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه»**[٢] أنه قتل عشرين رجلاً فأخذ أسلابهم، وكان علي (رضي الله عنه) ذلك اليوم هو الذي أسقط الجمل الذي عليه راية هوازن؛ لأن رايتهم كانت عند رجل على رمح طويل راكب على جمل أحمر، يتقدم أمام الناس، فإذا أدرك الناس طعنهم بالرمح، وإذا فاتوه رفع لواءه على الرمح ليراه مَنْ بَعْدَه!! فابتدره علي (رضي الله عنه) ورجل من الأنصار فضرب عليّ الجمل على عرقوبيه فسقط على عجزه، فابتدر الأنصاري الرجل فأطنّ رجله بنصف ساقه وانجعف عن رحله[٣].

ثم إن الله قال: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هذه الجنود هي الملائكة لم يرها المؤمنون ولكن الكفار رأوها، فذكر ابن عبدالبر أنه روى من طرق كثيرة عن أولاد أولئك الذين

---

(١) انظر: ابن هشام ص(١٢٨٩)، البداية والنهاية (٣٢٦/٤، ٣٣٠)، فتح الباري (٢٩/٨)، مرويات غزوة حنين (١٦٩/١ ـ ١٨٤).

(٢) مضى قريباً عند تفسير الآية (٢٥) من هذه السورة.

(٣) أخرجه الواقدي (٩٠٢/٣)، والبيهقي في الدلائل (١٢٧/٥)، والطبري في التاريخ (١٢٨/٣)، وذكره ابن هشام ص١٢٨٩، وابن كثير في تاريخه (٣٢٦/٤) وانظر: مرويات غزوة حنين (١٦٤/١).

كانوا من الكفار شهدوا حنيناً عن آبائهم أنهم قالوا: لقينا أصحاب محمد ﷺ فما وقفوا لنا حلب شاة، فهزمناهم واتبعناهم، حتى إذا انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء أو البغلة الشهباء رأينا رجالًا بيضاً على خيل بُلق وقالوا لنا: «ارجعوا، شاهت الوجوه»[(١)]، وقد كان النبي قال أيضاً هذه الكلمة «شاهت الوجوه، انهزموا». وجاء من روايات أُخر أن مالك بن عوف النصري سيد هوازن أرسل عيوناً يتجسسون له أخبار النبي ﷺ، فجاؤوه وقد انخلعت أوصالهم. أي: كأن ما بين عظامهم متفكك. فقالوا: رأينا رجالًا بيضاً على خيل بلق فما تمالكنا أن وقع بنا ما ترى[(٢)].

والله (جلّ وعلا) في هذا القرآن العظيم ذكر التأييد بجنود الملائكة في أربع سور من كتابه، في ثلاثة منها يقول: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وفي الرابعة لم يقل: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

٤/ب / أما الثلاث التي قال فيها: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فمنها: الملائكة الذين نزلوا في غزوة الخندق ـ غزوة الأحزاب ـ الآتي ذكرهم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَآ﴾ [الأحزاب: آية ٩].

الثانية: الملائكة المنزلون في غزوة حنين هذه، المذكورون في قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: آية ٢٦].

الثالثة: الملائكة الذين نزلوا بنبينا ﷺ يوم دخل في الغار هو وصاحبه، وسيأتي بسط قصتهم ـ إن شاء الله ـ في هذه السورة الكريمة سورة براءة، وذلك في قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: آية

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٤/١٨٦، ١٨٨)، وذكره ابن عبدالبر في الدرر في اختصار المغازي والسير ص١٦٨، وانظر: مرويات غزوة حنين (١/٢٠٨ ـ ٢٠٩).

(٢) أخرجه الواقدي في المغازي (٣/٨٩٢)، وابن سعد في الطبقات (٢/١٠٨)، والطبري في التاريخ (٣/١٢٧)، وذكره ابن هشام في السيرة، وابن القيم في الهدي (٣/٤٦٧)، وابن كثير في تاريخه (٤/٣٢٣)، وابن الأثير في الكامل (٢/١٧٨).

٤٠] ففي هذه المواضع الثلاثة كلها يقيد بـ (لم تروها) (لم تروها) لأنه ينزل ملائكة لا يراهم بنو آدم؛ لأنهم ليسوا من شكلهم ولا من جنسهم حتى يروهم. وفي الموضع الرابع لم يقيد بقوله: (لم تروهم) وهو الملائكة النازلون يوم بدر، المذكورون في الأنفال وآل عمران، حيث قال الله في الأنفال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ الآية [الأنفال: آية ١٢]. وذكرهم أيضاً في سورة آل عمران في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ...﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ١٢٣، ١٢٤] وقد قدمنا في سورة الأنفال(١) أن أظهر الأقوال أن الملائكة قاتلت يوم بدر، وأنها لم تقاتل في غيرها بل تأتي لتجبين الكفار وتقوية قلوب المؤمنين ونصرتهم، هذا هو الظاهر، وقد ذكر (جلّ وعلا) فرقاً شاسعاً بين من يفر في غزوة بدر ومن فرّ في غيرها؛ لأنه شدّد غاية التشديد فيمن يفر في غزوة بدر كما تقدم في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: آية ١٦] بهذا التشديد العظيم، ولم يقل مثل هذا فيمن انهزم من الصحابة يوم أُحد، ولا فيمن انهزم منهم يوم حنين؛ لأن بعض الصحابة انهزموا يوم أُحد، وبعضهم لم يرجعوا إلى النبي ﷺ، فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: آية ١٥٥] ثم قال هنا: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: آية ٢٧] فأشار إلى أنه تاب عليهم من هزيمتهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم هوازن، عذبهم بأيدي المؤمنين حيث قتلوهم قتلًا وجيعاً وأسروهم وأخذوا أولادهم ونساءهم وأموالهم مصداقاً لقوله: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة:

(١) مضى عند تفسير الآية (٩) من سورة الأنفال.

آية ١٤] ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الذين كانوا يقاتلون النبي وأصحابه كهوازن ﴿وَذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢٦] ثم الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: آية ٢٧] قال بعض العلماء: ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ يدخل فيه المنهزمون الذين انهزموا عن رسول الله ﷺ، مَنْ رجع منهم وكَرَّ ومَنْ لم يرجع. قالوا: ويدخل فيه الكافرون الذين قال الله: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التوبة: آية ٢٦] لأن كثيراً منهم تابوا فتاب الله عليهم. وقد كان رئيس هوازن مالك بن عوف (رضي الله عنه)، أسلم وكان من أصحاب رسول الله ﷺ؛ لأنه لما انهزمت هوازن راح مع فَلِّ الطائف ـ والفَلُّ هو بقية المنهزمين ـ وتحصّن بحصن الطائف، فأرسل إليه النبي ﷺ سراً: أنه إن قدم إليه رد إليه أهله وولده وأعطاه. فخاف إن أعلم ثقيفاً بذلك أن يمنعوه، فأمر أن يُرحل جمله في محلٍّ عيّنه لهم، ثم جاءه مختفياً، وسار إلى رسول الله ﷺ، وجاء إلى النبي ﷺ مسلماً فأكرمه رسول الله ﷺ، وردّ إليه أهله وولده، وأعطاه مائة من الإبل كما أعطى المؤلفين. وقد كان مالك بن عوف سيد هوازن مدح النبي ﷺ ببعض أشعاره، ومن ذلك قوله لما رد له رسول الله ﷺ ما رد له وأعطاه مائة من الإبل[(١)]:

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثله ... في الناسِ كلهم بمثلِ محمدِ

هذا يمدحه به رئيس الذين كانوا أعداءه بالأمس يقاتلونه، رجع في هذا الزمن القريب إلى مدحه والثناء عليه هذا الثناء الجميل:

مَا إنْ رأيت ولا سمعتُ بمثله ... في الناسِ كلهم بمثلِ محمدِ
أَوْفَى وأَعْطَى للجَزِيلِ إذا اجْتُدِي ... ومتى تَشَأْ يُخْبِركَ عَمَّا في غَدِ[(٢)]
وإذا الكتيبةُ عرَّدَتْ أنيابُها ... بالسَّمْهَرِيِّ وضَرْبِ كُلِّ مُهنَّدِ
فكأنَّه ليثٌ على أشبالِهِ ... وسْطَ الهَبَاءَةِ خادرٌ في مَرصَدِ

---

(١) هذا الخبر مع الأبيات أخرجه البيهقي في الدلائل (١٩٨/٥)، وأورده ابن هشام ص١٣٤٣، وابن كثير في تاريخه (٣٦١/٤). وانظر: مرويات غزوة حنين (٤٦٩/٢).

(٢) معلوم أنه لا يعلم ما في غد إلَّا الله تعالى.

وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢٦] فقسم النبي ﷺ غنائم هوازن بعد أن رد إليهم أولادهم ونساءهم، قسم غنائمهم بالجعرانة في ذي القعدة عام ثمان - ثم إنه أحرم بعد أن قسمها بعمرة[١] - من الهجرة.

وكانت في السبايا التي جيء بها رسول الله ﷺ: الشيماء بنت الحارث بن عبدالعزىٰ، أمها حليمة السعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، كانت تقول لهم: مهلًا عليّ لا تزعجوني فإني أخت صاحبكم من الرضاعة، فلما جاءت أخبرت النبي ﷺ فسألها عن العلامة فقالت له: عضة عضضتنيها في كتفي وأنا متوركتك. فعرف ﷺ العلامة فبسط لها رداءه وأجلسها عليه وأكرمها غاية الإكرام، وخيرها أن تبقىٰ معه محببة مكرمة أو أن يردها إلى أهلها ويمتعها. فاختارت الرد إلى أهلها فمتعها. كانوا يقولون: من جملة ما أعطاها جارية وغلاماً، زَوَّجَت الغلام من الجارية، قالوا: وكان عقبهما فيهم لا يكاد ينقطع[٢]. وهذا من كرمه ووفائه (صلوات الله وسلامه عليه)، فإن الإنسان إذا استعرض شيئاً من سيرته (صلوات الله وسلامه عليه) رأىٰ العظمة الهائلة من الشجاعة الكاملة، والحلم الكامل، والكرم الكامل، والوفاء الكامل (صلوات الله وسلامه عليه). وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: آية ٢٧] على من يشاء أن يتوب عليه، وهذه يفهم منها أنه تعالى تاب على الذين انهزموا وإن لم يصرح بها. أما الذين انهزموا يوم أحد

---

(١) عمرته ﷺ بعد قسم غنائم حنين خرَّج حديثها البخاري في صحيحه، كتاب العمرة، باب: كم اعتمر النبي ﷺ؟ حديث رقم: (١٧٧٨) (٦٠٠/٣)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث رقم: (١٧٧٩، ١٧٨٠، ٣٠٦٦، ٤١٤٨)، ومسلم في الحج، باب بيان عدد عمر النبي ﷺ وزمانهن. حديث رقم: (١٢٥٣) (٩١٦/٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الواقدي (٩١٣/٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٩٩/٥، ٢٠٠)، والطبري في تاريخه (١٣١/٣)، وابن عبدالبر في الاستيعاب (٣٤٤/٤)، وأورده ابن حزم في جوامع السيرة ص٢٤٥، وابن هشام ص١٣٠٦، وابن كثير في تاريخه (٣٦٣/٤) وابن الأثير في أُسد الغابة (٢٥٧/٥)، (١٦٧/٧)، والكامل (١٨٠/٢)، والحافظ في الإصابة (٤٥٦/٣)، (٣٤٤/٤)، وانظر: مرويات غزوة حنين (٢٦٥/١).

فقد صرح بأنه تاب عليهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ [آل عمران: آية ١٥٥].

وقوله هنا: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ التوبة تطلق من الله على عبده، ومن العبد إلى ربه، فإذا أُطلقت التوبة من العبد إلى ربه عُدِّيت بـ (إلى) ولم تُعدَّ بـ (على) تقول: تبت إلى الله. ولا تقول: تبت على الله. وإذا توجهت من الرب إلى عبده عُديت بـ (على) تقول: تاب الله عليه. ولم تقل: تاب إليه. أما التوبة الواقعة من المخلوقين فإن الوصف منها يطلق على (تائب) وعلى (توّاب) بصيغة المبالغة. أما توبة الله على عبده فلم يأتِ الوصف منها إلا على (توّاب).

وقد قدمنا مراراً[١] أن توبة العبد إلى ربه المستوجبة لتوبة الله على عبده أنها واجبة فوراً من كل ذنب، وأن من أخَّرَهَا كان ذلك ذنباً تجب منه التوبة.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٢] أن في التوبة إلى الله (جلّ وعلا) إشكالين معروفين عند العلماء:

أحدهما: إطباق العلماء على أن توبة العبد إلى ربه هي مركبة من ثلاثة أركان، وهي: إقلاعه عن الذنب إن كان متلبساً به، وندمه على ما صدر منه، ونيته أن لا يعود. فهذه هي الأركان التي تتألف منها توبة العبد النصوح إلى ربه، الذي إذا فعلها جاءته توبة الله؛ لأن الله يتوب على من تاب عليه، كما قال (جلّ وعلا): ﴿تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [التحريم: آية ٨] وهم يقولون: «عسى من الله واجبة»[٣]. هذا فيه إشكالان معروفان:

أحدهما: أن التوبة واجبة بإجماع العلماء فوراً من كل ذنب يُجترم. فعلينا جميعاً إذا صدر من الواحد منّا ذنب أن يرجع إلى الله ويتوب إليه فوراً ولا يؤخر التوبة من ذلك، فإن أخرها كان تأخيرها ذنباً يحتاج إلى توبة

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة الأنعام.

أخرىٰ. والندم من أركانها بالإجماع، وركن الواجب واجب إجماعاً، فالندم على الذنب واجب؛ لأنه من أركان التوبة، وركن الواجب واجب، والإشكال هنا في الندم؛ لأن المعروف أن الندم من الانفعالات النفسية والتأثرات، لا من الأفعال الاختيارية كما هو مشاهد، والعلماء مجمعون على أنه لا تكليف إلا بفعل اختياري، وأن الانفعالات والتأثرات النفسانية لا يملكها أحد، فكيف يكلف بالندم ويُوجب عليه وهو انفعال وتأثر نفساني ليس تحت طاقته، وأنت تشاهد الإنسان يجاهد نفسه ليطرد عنها الندم، كالبائع المغبون يتجلد ويتقوىٰ ويريد أن لا يندم وهو يندم غصب أنفه؛ لأنه انفعال وتأثر، كما أن بعض الناس يريد أن يندمَ ولا يندمْ إذا كان الذنب الذي وقع فيه ـ والعياذ بالله ـ مما كان يشتهيه جداً، كالذي يظفر بقبلة من امرأة يعشقها، إذا أخطر ذلك على قلبه يصعب عليه أن يندم عليه؛ لأنها أُمنيته التي كان يرجوها فإذا كان الندم قد يريده الإنسان ولا يجده، وقد يدفعه عنه ولا يندفع، وهو انفعال وتأثر نفساني فكيف يكون ركناً من أركان التوبة، ويكون واجباً، ومعلوم إجماع العلماء على أن الله لا يكلف إلا بفعل؟

هذا الإشكال أجاب عنه العلماء بأن المراد بإيجاب الندم هو إيجاب الأخذ في أسبابه؛ لأن الإنسان إذا أخذ بأسباب الندم أخذاً صحيحاً ولم يحاب نفسه لا بد أن يندم، ومن كانت أسبابه الموصلة إليه متيسرة في طوع المكلف فكأنه متيسر في طاقة المكلف؛ لأن الإنسان إذا أخذ نفسه أخذاً حقيقياً وعرَّفها في داخل قرارة نفسه أنه لا يوجد في الدنيا إنسان يبلغ من البله والتغفيل ما يستلذ به طعاماً أو شراباً حلواً وفيه سم قاتل؛ لأن عامة العقلاء لا يحبون الطعام الحلو ولا الشراب الحلو ولو كان في غاية اللذاذة والحلاوة إذا كان في داخله سم فتاك قاتل، هذا يعافه جميع الناس ويكرهونه، ولا شك أن حلاوات المعاصي ولذاذاتها عند الجَهَلة، وإنما هي منطوية عليه من السم القاتل الفتاك، وهو سخط خالق السماوات والأرض وغضبه، أن العاقل إذا تأمل في هذا تأملًا حقيقياً ولم يحاب نفسه وأخذها بالتحقيق لا بد أن يندم؛ لأن الإنسان لو نال ما نال من حلاوة الذنب فهو يعلم أن تلك الحلاوة منطوية على أشد السموم وأفتكها وهو سخط خالق

السماوات والأرض وغضبه؛ لأنه قد يستوجب هلاكه في الدنيا وعذابه السرمدي في الآخرة، وهذا معروف؛ لأنه لا يأخذ الإنسان في أسباب الندم أخذاً صحيحاً حقيقياً ويعرف عواقب الذنب وسرعة انقضاء حلاوته.

فلا تقرب الأمر الحرامَ فإنَّما حلاوته تفنى ويبقى مريرُها[(١)]

تفنى اللذاذةُ ممن نال صَفْوَتَها من المعاصي ويبقى الإثْمُ والعَارُ
تبقى عواقبُ سُوءٍ من مغبَّتها لا خير في لذةٍ من بعدها النارُ[(٢)]

فمن عرف حقارة لذة المعصية وشدة السموم الفتاكة المنطوية عليها، وأعمل عقله تعميلًا صحيحاً لا بد أن يندم، فلما كانت الأسباب الموصلة إلى الندم متيسرة لا يعجز عنها إلا من حابى نفسه ولم يستعمل أسباب الندم صار الندم كأنه في طوق الإنسان.

الإشكال الثاني: هو ما ذكره العلماء في الإقلاع؛ لأن الإقلاع عن الذنب والكف عن شر الذنب، وعدم التمادي فيه، هذا ركن من أركان التوبة، فلا توبة مع عدم الإقلاع؛ لأن المتلبس بالذنب الذي لم يقلع عنه لا توبة له بإجماع العلماء، والإشكال في هذا أن بعض الناس يتوب مع تعذر الإقلاع عليه، كالذي كان ينشر بدعة من البدع حتى طارت في أقطار الدنيا، وصار يُعمل بها في مشارق الأرض ومغاربها، ومعلوم أن من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً. ثم إنه ندم على بدعته وأراد الإقلاع والرجوع عنها، لكن شره منتشر مستطير في أقطار الدنيا؛ لأن البدعة التي بثّ وهي إلى الآن في أقطار الدنيا يتناقلها الناس بعضهم عن بعض، ويضلون بها بعضهم عن بعض، فهل نقول: هذا مقلع؛ لأنه فعل غاية ما يستطيع، أو نقول: ليس بمقلع؛ لأن فساده لم يزل فهو منتشر في أقطار الدنيا الآن؟

---

(١) البيت في تاريخ دمشق (٣٣٤/١٤) ونسبه للحسين بن مطير.

(٢) البيتان في الآداب الشرعية (٢٢٧/٢)، شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ص٥١٦، وقد نسبها بعضهم لعثمان بن عفان (رضي الله عنه).

ومن هذا القبيل: من غصب أرضاً، كأن غصب أرضاً مثلًا عشرين ميلًا في عشرين ميلًا وهو جالس في وسطها، ثم إنه ندم على الغصب وأراد أن يخرج من الأرض المغصوبة نادماً، الزمن الذي يمكثه قبل أن يخرج منها لو أدركه الموت وهو فيها هل نقول: هل هذا تائب؛ لأنه فعل غاية ما يستطيع؟ أو نقول: لم يقلع؛ لأنه إلى الآن لم يتخل عن الشيء الذي غصبه، بل هو في حوزته إلى الآن، وهو يشغله بجسمه؟ ومن هذا المعنىٰ: من رمىٰ إنساناً من بعيد بسهم ثم لما فارق السهم ندم والسهم في الهواء فتاب إلى الله (جلّ وعلا) والسهم في الهواء، ثم بعد أن تاب أصاب السهم في الرمية فقتله، هل نقول: هو تائب؛ لأنه فعل في ذلك الوقت ما يستطيع، أو نقول: ليس بتائب؛ لأن فساده منتشر، وأثر جريمته باق لم ينقطع؟ هذه مسائل اختلف فيها علماء الأصول حول الإقلاع عن الذنب في التوبة[١]. والمحققون من علماء الأصول أن الإنسان إذا فعل غاية ما في وسعه وندم على ما صدر منه أن الله يغفر له بذلك ويتوب عليه؛ لأن الله يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٦] وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ مفعول المشيئة محذوف، أي: ويتوب الله على من يشاء أن يتوب عليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ (جلّ وعلا) ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كثير المغفرة والرحمة لعباده؛ لأن الله غفور رحيم، فقد جاء في غزوة حنين هذه أن النبي ﷺ رأىٰ امرأة من السبي تصيح تطلب ولدها وهي في غاية التشويش إليه حتى وجدته فجعلت تقبّله وتضمه إليها من شدة شفقتها عليه، فقال النبي ﷺ لأصحابه: أترون هذه طارحة ولدها هذا في النار؟ قالوا: لا. قال: ولِمَ؟ قالوا: لشفقتها عليه. قال: الله أرحم بكم من هذه بولدها[٢]. فالله (جلّ وعلا) أرحم من كل شيء.

فـلـو أن فـرعـونَ لـمـا طَـغَـى   وقـالَ عـلـى الله إفْـكـاً وزُوراً

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته. حديث رقم: (٥٩٩٩) (١٠/٤٢٦)، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه، حديث رقم: (٢٧٥٤) (٤/٢١٠٩).

أنابَ إلى اللهِ مُستغفِرًا لما وجدَ اللهَ إلا غفورا[١]

الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة فجاؤوا بأشنع كفر كيف يستعطفهم الله ويقول لهم: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: آية ٧٤] هذا الاستعطاف والكلام اللين العظيم في الاستعطاف والوعد بالمغفرة للذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة يدل على عظمة رحمة الله وسعة مغفرته (جلّ وعلا) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: آية ٣٨] كائناً ما كان من شدة رحمة الله ومغفرته.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٢٨، ٢٩].

يقول الله جلّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة: آية ٢٨] هذه مما كان ينادي به علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في مواسم عام تسع، ولم يحج بعدها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، خاطب الله عباده في هذه الآية الكريمة باسم الإيمان ليكون ذلك أدعى وأبعث على الامتثال، آمراً لهم أن يبعدوا الكفار عن مسجده ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ صرح في هذه الآية الكريمة بأن المشركين نجس، والنجس أصله مصدر نجس الشيء ينجس نجساً فهو نجس بفتح فكسر، أصله مصدر. وهذا من النعت بالمصدر، والمصدر إذا نُعت به أفرد وذُكّر، تقول: مشرك نَجَس، ومشركة نَجَس، ومشركان نَجَس، ومشركات نَجَس، ومشركون نَجَس.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة الأنفال.

تطلقه بالإفراد على الواحد والاثنين والجمع من الذكور والإناث.

قال بعض العلماء: هي نجاسة كالنجاسة الحسية؛ ولذا قال بعض العلماء: ذات المشرك نجس كالكلب والخنزير. وعن الحسن البصري رحمه الله: مَنْ صافح مشركاً فليتوضأ[1].

وجماهير العلماء ـ وهو الصواب إن شاء الله ـ على أن النجاسة في هذه الآية الكريمة معنوية، فهو نجس معنى، والمعنى أعظم من الحس؛ لأن شركه بالله أنتن شيء وأقذره وأنجسه، وكان بعض العلماء يقول: نجاسته أيضاً لأنه لم يتطهر من جنابة، ولم يتوضأ ولم يجتنب شيئاً من القاذورات والأنجاس، فهو ملازم للنجاسة. وأكثر العلماء على أن الكافر الذي لم يتلبس بدنه بنجاسة أن نجاسته معنوية لا حسية، وأنه لأجل هذه النجاسة المعنوية أمر الله أن يُبعد عن المسجد الحرام ولا يقرب منه.

قال عطاء (رحمه الله) وغير واحد من العلماء: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: آية ٢٨] المراد بالمسجد الحرام: الحرم كله[2]، أي: لا يقرب المشركون حرم الله كله، بل يجب إبعادهم عن الحرم وعدم قربانهم إياه. وهذا القول هو الحق والصواب ـ إن شاء الله ـ لأنه دلّ استقراء القرآن العظيم على أن الله يطلق المسجد الحرام على جميع الحرم، وهذه الآية من جملة الآيات التي أُطلق فيها المسجد الحرام وأراد الحرم كله، كقوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: آية ١] والصحيح أن الإسراء وقع به من بيت أم هانىء بنت أبي طالب في مكة في الحرم لا في نفس المسجد، وقد قدمنا في الآيات الماضية قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [التوبة: آية ٧] والمعاهدة في طرف الحرم من الحديبية، فهذه الآيات دلت على أن منع الكفار والمشركين من القربان عام لجميع الحرم لا لخصوص المسجد وحده، خلافاً لمن قام مع اللفظ.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/١٩٢).

(٢) السابق.

والفاء في قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ دل مسلك الإيماء والتنبيه من مسالك العلة في الأصول على أنها أداة تعليل، وكذلك قُرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل[(١)]، كقولهم: سهى فسجد. أي: لعلة سهوه. وسرق فقطعت يده. أي: لعلة سرقته. وأساء فأُدِّب. أي: لعلة إساءته. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: آية ٢٨] لعلة نجاستهم التي يجب أن تبعد من المسجد ويُتَوَقَّى إياها. والحاصل أن الصحيح ـ إن شاء الله ـ أنه لا يجوز أن يدخل جميع حرم مكة مشرك[(٢)]. والصواب ـ إن شاء الله ـ أنها لا يدخلها الكتابيون من يهود ولا نصارى[(٣)]، خلافاً لما ذهب إليه جماعة من العلماء، وهو مروي عن أبي حنيفة (رحمه الله) أنه لا مانع من دخول اليهودي والنصراني الذمي ـ مثلاً ـ الحرم، بل المسجد. قالوا: لأن الله إنما منع منه خصوص المشركين. قالوا: وأهل الكتاب ليسوا من المشركين[(٤)]. واستدلوا بآيات من كتاب الله ظاهرها المغايرة بين أهل الكتاب والمشركين، كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: آية ١] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: آية ٦] وقوله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ [آل عمران: آية ١٨٦] وقوله: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: آية ١٠٥] وقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: آية ٨٢] إلى غير ذلك من الآيات التي عطف الله فيها أهل الكتاب على المشركين، قالوا: والعطف يقتضي المغايرة، فدل أنهم ليسوا من المشركين، والتحقيق الذي لا شك فيه ـ إن شاء الله ـ أن أهل الكتاب من المشركين، وقد نصّ الله على أنهم من المشركين في هذه الآية الكريمة من سورة براءة؛ لأنه لما ذكر أهل الكتاب وقال: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) في هذه المسألة انظر: ابن جرير (١٤/١٩١)، القرطبي (٨/١٠٤)، إعلام الساجد للزركشي ص١٧٣.

(٣) انظر: المغني (١٣/٢٤٥).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥) من هذه السورة.

وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [التوبة: آية ٢٩] ثم صرح بأن أهل الكتابين من المشركين في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٣٠، ٣١] فصرح بأنهم مشركون بعد أن صرح بمنع المشركين من المسجد الحرام أتبعه بأن الكتابيين من نفس المشركين، وهذا برهان واضح.

وقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا...﴾ [التوبة: آية ٣١] ومعلوم أن الذي اتخذ الأحبار والرهبان أرباباً من المشركين شرك ربوبية كما لا يخفىٰ. وسيأتي في هذه الآيات الكريمة من سورة براءة بيان أن كل من اتبع تشريع أحد ونظامه واتبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الله كل متبع لتشريع الشيطان الذي يشرعه على ألسنة أوليائه تاركاً تشريع الله الذي شرعه على ألسنة رسله كافرٌ مشرك بالله[1]، كما سنوضحه في هذه الآيات الآتية. ومن أصرح الأدلة عليه أنه لما وقعت تلك المناظرة المشهورة بين حزب الرحمٰن وحزب الشيطان في حكم من أحكام الحلال والحرام، وحزب الشيطان يقولون: إن ذلك الحكم حلال، ويستدلون بوحي شيطاني، وحزب الرحمٰن يقولون: إن ذلك الحكم حرام. ويستدلون بوحي قرآني، لما اختصموا وأدلىٰ كل بحجته تولىٰ الله الفصل بينهم فأفتىٰ بينهم فتوىٰ سماوية تتلىٰ قرآناً في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعني الميتة؛ لأن الكفار أوحىٰ إليهم الشيطان: أن سلوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ فقال لهم: الله قتلها. فقالوا: إذن ما ذكيتموه وذبحتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة حرام، فأنتم أحسن من الله. فهؤلاء استدلوا بوحي إبليسي!! ما ذبحتموه حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذن أحسن من الله!!

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

والمسلمون استدلوا بوحي قرآني، وهو ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾. فلما أدلىٰ كل بحجته فصل الله بينهم فأفتىٰ في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ منه الميتة، أي: وإن زعموا أنها ذبيحة الله. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] أي: الأكل منها فسق. ثم قال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ يعني قولهم: ما ذبحتموه حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذن أحسن من الله. ثم قال، وهو محل الفتيا السماوية من رب العالمين: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فصرح بأن من أطاع تشريع الشيطان في حِل الميتة أنه مشرك برب العالمين، ولا شك أن اليهود والنصارىٰ أطاعوا الشيطان فيما هو أعظم من إباحة الميتة كما لا يخفىٰ، والشيطان عالم بأن الذين يتبعون نظامه وقانونه أنهم مشركون به، عالم هذا في قرارة نفسه، ولكنه في الدنيا يدلس لهم ويجحد، فإذا كان يوم القيامة الذي تظهر فيه الدفائن، وتبرز فيه الحقائق أوضح لهم تبرؤه من شركهم به كما سيأتي في سورة إبراهيم الخليل في الخطبة العظيمة التي ذكرها الله عن الشيطان، وهي قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: آية ٢٢] فصرح بأنهم كانوا مشركين به من قبل، ولا شك أن اليهود والنصارىٰ داخلون في هذا دخولاً أولياً، وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: آية ١٠٠] واليهود والنصارى داخلون فيهم بلا شك، وهذا الشرك الشيطاني باتباع نظامه وشرعه هو الذي وبَّخ الله مرتكبه في سورة (يس)، وبيّن مصيره النهائي في قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ [يس: الآيتان ٦٠، ٦١] إلى أن قال موبخاً لهم ناعياً عقولهم: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: آية ٦٢] ثم بيّن مصيرهم النهائي الأخير في قوله: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾ [يس: الآيتان ٦٣، ٦٤] وهذا الشرك الشيطاني بالاتباع هو الذي نهى إبراهيم عنه أباه في قوله: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: آية ٤٤] وقال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ: الآية

٤١] وسيأتي لهذا المبحث زيادة إيضاح بالآيات القرآنية قريباً في الآيات الآتية - إن شاء الله - في الكلام على قوله: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣١] فهذه النصوص ولا سيما آية براءة هذه التي صرحت أن خصوص أهل الكتاب من المشركين تدل على منعهم من دخول الحرم، وما نُقل عن بعض العلماء ورُوي عن الإمام أبي حنيفة من أنهم لا مانع من دخولهم الحرم، فيه نظر، والأصوب والأظهر أنهم يمنعون منه؛ لأنهم نجس؛ ولأن الله صرّح بأنهم مشركون. والتحقيق - إن شاء الله - أن المراد بالمسجد الحرام فيها الحرم كله، فلا يجوز أن يدخل حرم مكة مشرك بالله ولا كافر، كتابياً أو غيره، وما روي عن جابر (رضي الله عنه) من أنه خصص هذه الآية الكريمة وقال: لا يدخل فيها العبد والأمة، إذا كان للمسلم عبد ذمي أو أمة ذمية مملوكان فلا مانع من دخولهما المسجد(١). وروي فيه حديث مرفوع، والتحقيق عند المحدثين أن الموقوف على جابر هو الأثبت الصحيح والمرفوع ليس بصحيح(٢). وقولٌ قاله جابر لا يمكن أن يُخصص به النص الصريح، ولا سيما النص المبني حكمه على العلة؛ لأنه صرح بأنهم نجس، وأشار بالفاء إلى أن تلك النجاسة هي سبب منعهم من قربان المسجد.

وعلى كل حال فالمشركون كعَبَدة الأوثان أجمع جميع العلماء على منعهم من دخول المسجد، واختلفوا في الكتابي وفي غير المسجد من سائر الحرم، وقد بينا أن الصواب - إن شاء الله - منعهم من ذلك كله.

ولو جاءت من المشركين رسالة إلى سلطان المسلمين - وهو بمكة - لا يُدخل الرسول، بل يخرج إليه خارج الحرم حتى يسمع منه ما يقول، ويعطيه الرد خارج الحرم، أو يرسل إليه من ينوب عنه في ذلك(٣).

قال بعض العلماء(٤) - وبه قال جماعة من المالكية - إن الواحد منهم

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/١٩٦) من طريق عبدالرزاق.

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣٣٩، ٣٩٢) وقال عنه ابن كثير: «تفرد به الإمام أحمد مرفوعاً، والموقوف أصح إسناداً» ا.هـ. تفسير ابن كثير (٢/٣٤٦).

(٣) انظر: القرطبي (٨/١٠٤).

(٤) السابق، وانظر: إعلام الساجد للزركشي ص١٧٥.

إن دخل مختفياً ومات ودفن في الحرم واطُّلع عليه أنه ينبش قبره، وتخرج عظامه من الحرم، ولا يترك في حرم الله؛ لأنه نجس قذر - قبّحه الله - فالتحقيق أنه لا يجوز أن يدخل حرم الله كافر، وأن الله نهى عن قربانهم إياها، لا يقربوه فضلًا عن أن يدخلوه.

واختلف العلماء في غير المسجد الحرام من المساجد هل يدخل الكفار المساجد غير المسجد الحرام[1]؟ اختلف العلماء في ذلك، فذهب مالك (رحمه الله) وأكثر أصحابه في طائفة من العلماء إلى أنه لا يجوز أن يدخل كافر مسجداً من مساجد الله كائناً من كان في أي قطر من أقطار
١/٥ الأرض في حرم أو حل./ واستدل مالك لهذا الحكم بأدلة، قالوا: من تلك الأدلة أن الله (جلّ وعلا) صرّح بالعلة فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ وقد تقرر في علم الأصول أن العلة تارة تعمم معلولها وتارة تخصصه[2]، وقد جاءت مواضع من كتاب الله وسنّة رسوله لا خِلاف فيها بيّن العلماء أن العلة تعمم معلولها، قالوا: ومن أمثلة ما تعمم فيه العلة معلولها قوله (صلوات الله وسلامه عليه) في حديث أبي بكرة الثابت في الصحيح: «**لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان**»[3] نص[4] النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح على منع علة الحاكم الغضبان من الحكم؛ لأن الغضب يشوش فكره، فيمنعه من تقصي فهم أقوال الخصوم، وفهم ما يحكم عليهم به. قالوا: إذا كان الحاكم في غاية الجوع والعطش المفرطين، أو في غاية الحزن والسرور المفرطين، أو في غاية الحقن والحقب المفرطين - والحقن: مدافعة البول. والحقب: مدافعة الغائط - إذا كان في أمر من هذه الأمور يشوش الفكر تشويشاً عظيماً مثل تشويش [الغضب][5] أو أشد لا يجوز له أن يحكم، فتعليله بالغضب المستلزم لتشويش الفكر علة عممت هذا الحكم

(١) انظر: القرطبي (٨/١٠٤)، إعلام الساجد ص٣١٨.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنفال.
(٣) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.
(٤) في الأصل: «هذه الآية الكريمة نص فيها النبي...». وهو سبق لسان.
(٥) في الأصل: «الفكر». وهو سبق لسان.

وعدته إلى كل شيء يشوش فكر الإنسان. قالوا: فكذلك قوله: ﴿نَجَسٌ﴾ قذر، ومعلوم أن المساجد بيوت الله، وأن الله قال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: آية ٣٦] وأن شيئاً صرّح الله بأنه نَجَس، ومعلوم قذارة النَّجَس، لا ينبغي أن يُدخل في بيوت الله التي أُسست لعبادة الله وعلى الطهارة وعلى تجنب الأقذار. هذا من أدلة مالك، واستدل الإمام مالك أيضاً بما قدمنا من آية سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ [البقرة: آية ١١٤] قال: معناه لا يدخلونها أبداً إلا خائفين من المسلمين أن يطلعوا عليهم فينكلوا بهم. فسر الآية هذا التفسير، واستدل بعمومها.

وذهب آخرون من العلماء، منهم الأئمة الثلاثة، إلى أن دخول الكافر لمسجد غير المسجد الحرام قالوا: لا مانع منه ولا يُمنع، وبعضهم يقيد بقوله: إن دعت إلى ذلك حاجة، وبعضهم يُطلق. واستدلوا على ذلك بأدلة، منها: أن النبي ﷺ ربط ثمامة بن أُثال سيد بني حنيفة ـ لما أُخذ أسيراً ـ ربطه وهو كافر في سارية من سواري مسجده هذا[(١)]. قالوا: وأنزل وفد نجران في المسجد وهم كفار[(٢)]، ومعلوم أن في هذا البحث مناقشة، وأن من قال: يمنع دخول الكفار المساجد، أجابوا عن كل بجواب، فقالوا في حديث ثمامة: إنه وقع قبل تحريم دخول المساجد. وجاؤوا بأدلة احتجوا بها، وحاصل ما للعلماء فيها هو ما ذكرنا.

وكان بعض العلماء يقول[(٣)]: إذا أسلم الكافر لزمه أن يتطهر؛ لأنه

---

(١) البخاري في المساجد، باب الاغتسال إذا أسلم، وربط الأسير أيضاً في المسجد. حديث رقم: (٤٦٢) (١/٥٥٥) وأطرافه (٤٦٩، ٢٤٢٢، ٢٤٢٣، ٤٣٧٢).

(٢) خبر قدوم وفد نجران على النبي ﷺ أورده ابن سعد في الطبقات (١/٢/٨٤)، وابن هشام في السيرة ص٦١٠، وابن كثير في التفسير (١/٣٦٨)، وابن القيم في الزاد (٣/٦٢٩). وليس في الخبر أنه أنزلهم المسجد، وإنما دخلوا عليه في المسجد، وأنهم صلوا فيه إلى المشرق.

(٣) انظر: المغني (١/٢٧٤ ـ ٢٧٦)، القرطبي (٨/١٠٣).

نَجَس، وقال بعضهم: يجب على الكافر الطهارة إذا أسلم، قالوا: لأنه لا بد أن تكون كانت عليه جنابة. وهذا قال به جماعة من العلماء، ويدل له: أمره ﷺ ثمامة بن أُثال الحنفي لما أسلم أن يغتسل(١). قالوا: ذهب إلى حائط أبي طلحة واغتسل فيه. وقالوا أيضاً: أمر قيس بن عاصم لما أسلم أن يغتسل بماء وسدر(٢). وكان ابن وهب من أصحاب مالك يقول: لا يجب عليه إذا أسلم غُسل؛ لأن الإسلام يَجُبُّ كل شيء قبله، ويَجُبُّ الجنابات، ويَجُبُّ كل شر وسوء كان قبله. هذا معنى قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾.

﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾، وعامهم هذا هو عام تسع على التحقيق، وخالف قوم منهم قتادة(٣) وأبو بكر بن العربي(٤)، قالوا: هو عام عشر. وقال أبو بكر بن العربي المالكي: عجباً لعاقل يقول: إن هذا العام عام تسع!! ونحن نقول: العجب كل العجب من كلام ابن العربي هذا!! والعام بلا شك أنه عام تسع، والإشارة بقوله: ﴿هَـٰذَا﴾ إلى العام الذي هم فيه في ذلك الوقت الراهن، وهو عام تسع بلا نزاع، والذي غلط في هذا من العلماء وقال: هو عام عشر. التبس عليه ما بين المضاف والمضاف إليه؛

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠٤/٢، ٤٨٣)، وعبدالرزاق (٩/٦)، وابن خزيمة (١٢٥/١)، وابن حبان (٢٦٩/٢)، والبيهقي (١٧١/١)، وابن الجارود (٢٤/١) وأصله في الصحيحين كما في الحديث المتقدم قريباً وفيه: أنه ربطه بسارية من سواري المسجد. وليس فيه أنه أمره بالاغتسال. وانظر: الإرواء (١٦٤/١).

(٢) أخرجه أحمد (٦١/٥)، وعبدالرزاق (٩/٦)، وأبو داود في الطهارة، باب الرجل يسلم فيؤمر بالغسل. حديث رقم: (٣٥١) (١٩/٢)، والترمذي في الصلاة، باب ما ذكر في الاغتسال عندما يسلم الرجل. حديث رقم: (٦٠٥) (٥٠٢/٢)، والنسائي في الطهارة، باب غُسل الكافر إذا أسلم. حديث رقم: (١٨٨) (١٠٩/١)، وابن الجارود (٢٥/١)، وابن خزيمة (١٢٦/١)، وابن حبان (٢٧٠/٢)، والبيهقي (١٧١/١) وانظر: الإرواء (١٦٣/١).

(٣) الرواية التي نقلها ابن جرير (١٩٢/١٤) عن قتادة (رحمه الله) مصرحة بأنه عام تسع. ولعل الشيخ (رحمه الله) عزا ذلك لقتادة متابعة للقرطبي (١٠٦/٨)، وابن العربي في أحكام القرآن (٩١٥/٢).

(٤) أحكام القرآن (٩١٥/٢).

لأن المضاف هو لفظة (بعد)، والباء والعين والدال ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ البعدية المضافة إلى عامهم هذا، فعامهم هذا هو عام تسع يقيناً لا شك فيه، وما بعد عام تسع أوله عام عشر؛ لأن الشيء إذا انتهى عام تسع فالزمن الذي بعد انتهائه يسمى أنه بعده. فالبعدية واقعة بعام عشر، أما العام المذكور في قوله: ﴿عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ المضاف إليه البعدية، فهو عام تسع بلا نزاع كما لا يخفى.

ثم قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ وهذه الآية تدل على أن الكفار يُمنعون من الإتيان إلى الحرم لأن أهل مكة كانوا في الموسم تحج إليهم قبائل العرب من أقطار الدنيا فيأتون بالأموال والطعام يبيعونها، فلما مُنعوا من أن يحجوا، وأُمر المشركون بتجنب الحرم، قالوا: من أين نعيش؟ كنا نعيش مما يأتي به هؤلاء في مواسمهم فإنا سنفتقر، ولن يبقى لنا شيء نعيش به إن مُنع هؤلاء من القدوم علينا؛ لأنا كنا نعيش بما يوردونه من الأطعمة والأموال ونحو ذلك. فقال لهم الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ ﴿خِفْتُمْ﴾ من الخوف. أصل ﴿خِفْتُمْ﴾ من خاف يخاف.

هذه المادة فاؤها خاء، وعينها واو، ولامها فاء، وقد يُشكل على طالب العلم من أين جاءت هذه الكسرة التي كُسر بها الخاء في قوله: ﴿خِفْتُمْ﴾ مع أن المادة من الأجوف الواوي العين. فسبب كسر الخاء من قوله: ﴿خِفْتُمْ﴾ أن ماضي (خاف) أصله (خَوِف) بكسر الواو، قُلبت الواو ألفاً فقيل فيه: (خاف) والواو المبدلة من الألف أصلها مكسورة، فإذا بُني الفعل إلى ضمير الرفع كالتاء هنا سقطت العين بالاعتلال وجُعلت كسرة الواو الساقطة بالاعتلال نقلت إلى الفاء ليدل على أن العين كانت مكسورة كما هو مقرر معلوم في فن التصريف[١].

وقد ذكرنا[٢] أن الخوف في لغة العرب هو الغم من أمر مستقبل. وأن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنفال.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

الحزن هو الغم من أمر فائت. وربما أطلقت العرب أحدهما في موضع الآخر كما هو معروف.

وقوله: ﴿عَيۡلَةً﴾ العيلة في لغة العرب: معناها الفقر. تقول العرب: عال الرجل يعيل عيلة. إذا افتقر فقراً. فـ (العيلة) من أجوف يائي العين عال يعيل عيلة إذا افتقر. وعال يعول بالواو إذا جار وعدل عن الحق. وذكر بعضهم أنه مسموع عن العرب أيضاً: عال يعول ـ بالواو ـ إذا افتقر[1]. وهو غريب!!

أما (عيلة) فمعناه فقراً. وعال يعيل بمعنى افتقر، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول أُحيحة بن الجُلاح الأنصاري[2]:

وما يدري الفقيرُ متى غِنَاهُ وما يدري الغنيُّ متى يَعِيْلُ

أي: لا يدري الغني متى يفتقر، ومنه بهذا المعنى قول جرير[3]:

واللّهُ نزل في الكتابِ فريضةً لابن السبيلِ وللفقيرِ العائلِ

وصفه بنفسه توكيداً لاختلاف اللفظين. فالمعنى: إن خفتم فقراً فسوف يغنيكم الله من فضله، ولا شك أن الله أغناهم من فضله. قال بعض العلماء: أغناهم من فضله بما فتح من باب الجزية. قالوا: والدليل عليه أن الآية التي بعدها آية الجزية، فأخذ المسلمون الجزية من الكفار واستغنى بها المسلمون. وقال بعض العلماء: أغناهم بإنزال المطر، وأخصبت الأرض، فأخصبت بلاد اليمن، وأخصبت تبالة وجُرش، وجلبوا لهم من الطعام والودك، وأسلم قبائل العرب في اليمن وفي نجد وفي غيره، فكانوا يحجون كل سنة ويأتونهم بمثل ما كانوا يأتونهم به من الطعام والأموال فأغناهم الله بذلك[4]. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةً فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٩٣).
(٢) البيت في ابن جرير (١٤/١٩٢).
(٣) البيت في ديوانه ص.٣١٣
(٤) هذه المعاني ذكرها القرطبي (٨/١٠٦).

قال بعض العلماء[١]: يؤخذ من هذه الآية الكريمة حكم، وهو أن تعلق القلب بأسباب الرزق والمعيشة لا ينافي التوكل ولا يقدح في توكل الإنسان؛ لأن هؤلاء القوم لما تخيل لهم أن الطريق التي كانوا يعيشون منها أنها انقطعت بمنع المشركين من الحج، وخافوا الفقر من هذا الطريق ما عنف الله عليهم ولا عابهم بل قررهم على ذلك، فقال لهم: إن خفتم الفقر من هذا الطريق، ومن أن السبب الذي كنتم تعيشون به أنه انقطع فسوف يغنيكم الله بأسباب أخر. وهذا معنىً معروف، أن الأسباب لا تنافي التوكل، فالمسلم الذي يعلم ما جاء عن الله يتسبب ويتعاطى جميع الأسباب لحياته، ويتسبب في أسباب الرزق والمعيشة على الوجوه الشرعية غير المزرية، ومع ذلك فهو متوكل على الله، والذي يترك جميع الأسباب ويقول: توكلت على الله!! هذا مخالف للشرع، مخالف لما جاء عن الله، والذي يعتمد في كل شيء على الأسباب ولا ينظر إلى ربه هذا أيضاً ضال مضل، والذي يستعمل الأسباب كما شرعها له ربه، ويكون اعتماده في الحقيقة على ربه فهذا هو المؤمن. ألا ترون أن نبي الله يعقوب، وقد قال الله فيه: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: آية ٦٨] علَّم أولاده السبب في التحرز عن العين فقال لهم: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ فهذا تسبب في التحرز عن العين؛ لأنها تضر، ثم صرح مع ذلك بتوكله الكامل على الله حيث قال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: الآية ٦٧] فالأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل كما هو معروف، وقد قال الله لمريم: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم: آية ٢٥] ولا شك أنه لو أراد أن يتساقط عليها رطبها من غير سبب لتساقط من غير سبب، ولكنه أجرى العادة بأن جعل للأرزاق والمعايش والأشياء أسباباً، ربط بين الأسباب ومسبباتها بما شاء بقدرته وحكمته:

---

(١) السابق (٨/١٠٧).

ألــم تــرَ أن الله قــال لــمــريــم وهُزِّي إليكِ الجذْعَ يسَّاقَطُ الرُّطَب
ولو شَاءَ أن تَجْنيهِ من غيرِ هزِّه جنتْه ولكن كلُّ شيءٍ له سبب(١)

فالأخذ في الأسباب مع مراعاة الشرع، وتعلق القلب بالله، وتوكله على الله، هذه طريقة الأنبياء، والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ [المائدة: آية ٣] يعني: أن من اضطر إلى أكْلِ الميتة أكَلَ الميتة وتسبّب في إمساك رمقه بأكل الميتة، ولم يقل له فانتظر وتوكل على الله حتى ينزل لك رزق من السماء!! لم يقل هذا تعليماً للناس بالأخذ بالأسباب، وتعلق قلوبهم بربهم، وتوكلهم عليه. وهذا معنى قوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ إن شاء أن يغنيكم. فعلق الغِنى بمشيئته، فلا يكون شيء إلا بمشيئته (جلّ وعلا)؛ لأن الأرزاق مقسومة بمشيئته (جلّ وعلا)، فهو الذي تولى قسمها بنفسه ولم يكله إلى أحد، كما سيأتي في سورة الزخرف في الكلام على قوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: آية ٣٢] ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ [النحل: آية ٧١]. هذا معنى قوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ (جلّ وعلا) ﴿عَلِيمٌ﴾ محيط علمه بكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل ما يفعل، وكل ما يقول، وكل ما يشرع، فأفعاله كلها في غاية الحكمة، وأقواله وتشريعه وجزاؤه كله في غاية الحكمة، هذا معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٢٨].

قــال تــعــالــى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ

---

(١) تقدم ذكرهما في الحاشية عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف، والبيتان في المستطرف (٢/١٢٨، ٥٤٨)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (١/٥٩٠).

وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: الآيات ٢٩ ـ ٣١].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: آية ٢٩].

كان الصحابة (رضي الله عنهم) ينتظرون نزول هذه الآية الكريمة بسبب آية نزلت على النبي ﷺ هي من المُنسأ الذي قدمناه في قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: آية ١٠٦] على قراءة: ﴿نَنْسَأها﴾[1] يعني: نؤخرها؛ لأن الله يؤخر بعض الآيات إلى أمد معلوم، ثم يأتي ببدلها، تارةً يأتي ببدلها ناسخاً، وتارةً تكون مُنسأة لا منسوخة؛ لأنها كانت معلوماً أنها مغياة بغاية. وإيضاح هذا: أن الله أنزل آيات في أهل الكتاب تدل على عدم قتالهم، كقوله في سورة البقرة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: آية ١٠٩]. ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾ أي: عن أهل الكتاب ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: حتى يأتيكم الأمر الأخير من الله. وكانت هذه الآية من سورة براءة فيها الأمر الذي كانوا ينتظرونه في آية البقرة، فأنزل الله: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [التوبة: آية ٢٩]. لأن أهل الكتاب من يهود ونصارى وإن قالوا لا إله إلا الله وأقروا بالقيامة فهم كمن أنكر وجود الله وأنكر وجود القيامة؛ لأنهم لما اتخذوا الأرباب معه وأشركوا به في الأرباب وقالوا: إن عُزيراً ابنه، وإن المسيح ابنه!! هذا قول من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر؛ لأن الكافر إذا كفر بالله من وجه لا ينفعه الإيمان به من وجه آخر، فمن قال: لا إله إلا الله، وادعى لله ولداً، أو شريكاً، أو رباً معه، فهذا لا يؤمن بالله ﴿وَلَا

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٣٤.

﴿بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، وهو يوم القيامة، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بل يحلون ما حرّم الله ويحرمون ما أحلّ الله، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾، الذي هو دين الإسلام.

وفي قوله: ﴿دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ وجهان من التفسير(١):

أحدهما: أن (الحق) هو ضد الباطل، وأن دين الحق من إضافة الموصوف إلى صفته. أي: الدين الذي هو الحق الذي هو دين الإسلام. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: آية ٨٥]. ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: آية ١٩].

الوجه الثاني: أن الحق هو الله، فالحق من أسماء الله. ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: دين الله الذي شرعه على لسان نبيه محمد ﷺ.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بيان للذين أُمروا بقتالهم الموصوفون بأنهم لا يؤمنون بالله إلى آخر ما ذكر.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من يهود ونصارى.

وعندما نزلت تجهز ﷺ لقتال النصارى في غزوة تبوك كما ستأتي تفاصيله في هذه السورة الكريمة.

﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾: (حتى) حرف غاية، والمغيَّا هنا ﴿قَٰتِلُوا۟﴾ أي: قاتلوهم وأمد ذلك القتال إلى غاية هي أن ﴿يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ إذا لم يؤمنوا بالله، فإن آمنوا بالله فذلك، وإلا فلا بد أن يعطوا الجزية.

الجزية: (فِعْلة) وقد تقرر في علم العربية أن (الفِعلة) بكسر الفاء تأتي لبيان الهيئات، من هيئات المصدر. وأصلها من جزى يجزي؛ لأن

(١) انظر البحر المحيط (٥/٢٩).

الكفار - أهل الكتاب -: ينعم عليهم المسلمون بحقن دمائهم وعدم قتلهم. والمدافعة عنهم، ومنع كل من أراد أن يظلمهم، فهذا الإحسان يجازونه نوعاً من الجزاء عُبِّر عنه بالجزية من (جزى يجزي) إذا كافأ ما أُسدي إليه، تقول العرب: أحسن إلي فجزيته، أي: كافأته بما أسدى، ومنه قول الشاعر[1]:

يجزيك أو يثني عليك وإن من أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿عَن يَدٍ﴾ فيه أوجه من التفسير معروفة عند العلماء لا يكذب بعضها بعضاً[2]: قال بعض العلماء: ﴿يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾: أي: عن قهر وتحت ذل وكل ما أعطاه الإنسان مقهوراً ذليلاً تقول العرب: أعطاه عن يد. وقال بعض العلماء: يعطيه عن يد معناه يسلمه بيده ولا يرسل به غيره، فالدافع واقف والآخذ جالس. وقال بعض العلماء: ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: نقداً متسلماً باليد لا نسيئة. وقال بعض العلماء: ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: عن اعترافهم بنعمة المسلمين عليهم حيث قبلوا منهم العوض ولم يقتلوهم. والحال في هذا ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ الصاغرون: المتصفون بالصغار. والصغار في لغة العرب معناه: الذل والحقارة والهوان. ومعنى: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: حقيرون ذليلون. وسنبين هنا - إن شاء الله - بعض أحكام الجزية:

اعلموا أولًا أن النبي ﷺ نزل عليه القرآن بجواز أخذ الجزية من أهل الكتاب، ولكنه (صلوات الله وسلامه عليه) بيّن أنهم وإن أُخذت منهم الجزية فلا يجوز بحال من الأحوال ولا بوجه من الوجوه أن يُتركوا يسكنون في جزيرة العرب، فإقامة الكفار وسكناهم في جزيرة العرب ممنوع لا يجوز بحال، فيجب على المسلمين أن يخرجوهم من جزيرة العرب جميعها ولا يتركوا فيها كافراً. وهذا من آخر ما أوصى به

---

(١) البيت في القرطبي (١١٤/٨)، البحر المحيط (٣٠/٥).

(٢) انظر: القرطبي (١١٥/٨)، البحر المحيط (٣٠/٥).

محمد ﷺ، وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: اشتد برسول الله ﷺ وجعه يوم الخميس، وأوصى عند موته بثلاث، قال: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم**» قال الراوي: ونسيت الثالثة(١). فهذا حديث صحيح أوصى به النبي عند موته. وقد أخرج مسلم وغيره أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «**لأُخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً**»(٢). وروى الإمام أحمد وغيره عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال: «**لا يترك بجزيرة العرب دينان**»(٣). وروى أحمد وغيره عن أبي عبيدة بن الجراح (رضي الله عنه) قال: آخر ما قاله رسول الله ﷺ: «**أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب**»(٤).

فهذه الأحاديث وأمثالها تدل على أنه لا يجوز أن يسكن كافر بجزيرة العرب كائناً ما كان، وأن على المسلمين إخراج الكفار من جزيرة العرب، ولكنهم لا يمنعون من الإتيان إليها لتجارة أو نحوه من غير إقامة بها، وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إذا أراد بعض اليهود دخول الحجاز لتجارة أذن له وأجّل لهم ثلاثة أيام يبيعون فيها ويشترون ثم يذهبون(٥).

---

(١) البخاري في الجزية والموادعة، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب. حديث رقم: (٣١٦٨) (٦/٢٧٠)، ومسلم في الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه. حديث رقم: (١٦٣٧) (٣/١٢٥٧).

(٢) مسلم في الجهاد والسير، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب. حديث رقم: (١٧٦٧) (٣/١٣٨٨) من حديث عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

(٣) أخرجه أحمد (٦/٢٧٥) وقال الهيثمي في المجمع (٥/٣٢٥): «رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع» ا.هـ.

(٤) أخرجه أحمد (١/١٩٥، ١٩٦)، وأبو يعلى (١/٨٧٢)، والحميدي (٨٥)، والدارمي (٢/١٥١ ـ ١٥٢)، والطيالسي (٢٢٩)، والبيهقي (٩/٢٠٨). وانظر: السلسلة الصحيحة (١١٣٢).

(٥) أخرجه البيهقي (٩/٢٠٩).

واعلموا أن الجزية إذا أسلم الكافر اختلف العلماء هل تسقط عنه الجزية[١]؟ وأظهر القولين: أنه تسقط عنه الجزية لما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا جزية على مسلم**»[٢] ولأنه لا تؤخذ منه وهو صاغر؛ لأن المسلم لا يُحقر ولا يُهان.

وقال الشافعي في طائفة من العلماء: إذا أسلم لم تسقط عنه الجزية؛ لأنها بقيت دَيناً فيه، فهي كسائر الديون، إلا أنه عند أدائها يؤديها غير صاغر ولا مهان؛ لأجل إسلامه، ولكنها تقررت في ذمته.

واختلف العلماء: في القدر الذي يؤخذ من أهل الجزية[٣]، وممن تؤخذ الجزية[٤]؟ فقال جماعة من العلماء: تؤخذ الجزية من كل كتابي عجمياً كان أو عربياً، والجزية بالأديان لا بالأنساب. وهذا القول هو الصحيح والأظهر.

وقال بعض العلماء: تؤخذ من مشركي العجم ولا تؤخذ من مشركي العرب. وهو قول أبي حنيفة رحمه الله[٥].

والحق أن الجزية تؤخذ من كل كتابي عربياً كان أو غيره، وقد أمر النبي ﷺ معاذاً لما أرسله إلى اليمن أن يأخذ من كل حالم من كفار أهل اليمن ـ أهل الكتاب ـ الذين لم يسلموا أن يأخذ من كل حالم ديناراً

---

(١) انظر: بدائع الصنائع (١١٢/٧)، المغني (٢٢١/١٣ ـ ٢٢٢)، القرطبي (١١٣/٨ ـ ١١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٣/١، ٢٨٥)، وأبو عبيد في الأموال ص٤٩، وأبو داود في الخراج والفيء، باب الذمي الذي يسلم في بعض السنة. حديث رقم: (٣٠٣٧) (٣٠٥/٨)، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء: ليس على المسلم جزية. حديث رقم: (٦٣٣) (١٨/٣)، والبيهقي (١٩٩/٩)، والدارقطني (١٥٦/٤، ١٥٧)، وابن عدي (١٨٤٥/٥)، (٢٠٧٢/٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢٣٢/٩). وانظر: الإرواء (٩٩/٥).

(٣) انظر: بدائع الصنائع (١١/٧ ـ ١١٢)، المغني (٢١١/١٣ ـ ٢١٢)، القرطبي (١١١/٨)، أحكام أهل الذمة (٢٦/١).

(٤) انظر: الأم (٢٤٠/٤، ٢٨١)، القرطبي (١١٠/٨)، المغني (٢٠٢/١٣) فما بعدها، أحكام أهل الذمة (١/١) فما بعدها.

(٥) انظر: المدونة (٤٦/٢ ـ ٤٧)، بدائع الصنائع (١١٠/٧ ـ ١١١)، المغني (٢٠٦/١٣ ـ ٢٠٧، ٢٠٨).

منهم[(١)]. وبعث خالد بن الوليد إلى أُكيدر فأخذ من أُكيدر الجزية[(٢)]. وأُكيدر دومة معلوم أنه عربي، أصله من كندة، كما قاله غير واحد.

وأخذ الجزية من أهل نجران[(٣)]. وأكثر أهل نجران نصارى عرب. وهذا هو التحقيق، فالحق الذي لا شك فيه أن الكتابي الذي كان على دين أهل الكتاب قبل أن يُبعث محمد ﷺ تؤخذ منهم الجزية بنص هذه الآية؛ ولأنها لم تُفَصِّل.

وأما المجوس فقد ثبت عن النبي ﷺ أنهم تؤخذ منهم الجزية، فقد روى البخاري في صحيحه عن عبدالرحمٰن بن عوف (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر[(٤)]. وقد أخذ الجزية من أهل البحرين[(٥)] وأكثرهم في ذلك الوقت كانوا مجوساً.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٣٠، ٢٣٣، ٢٤٠، ٢٤٧)، وعبدالرزاق (٤/٢١)، وابن أبي شيبة (٣/١٢٦ ـ ١٢٧)، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء في زكاة البقر. حديث رقم: (٦٢٣) (٣/١١) وقال: «هذا حديث حسن. وروى بعضهم هذا الحديث عن سفيان عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق أن النبي... وهذا أصح» ا.هـ. وأبو داود في الزكاة، باب في زكاة السائمة. حديث رقم: (١٥٦١ ـ ١٥٦٢) (٤/٤٥٧) وفي الإمارة، باب في أخذ الجزية. حديث رقم: (٣٠٢٢، ٣٠٢٣) (٨/٢٨٧)، وابن ماجه في الزكاة، باب صدقة البقر. حديث رقم: (١٨٠٣) (١/٥٧٦)، والنسائي في الزكاة، باب زكاة البقر. حديث رقم: (٢٤٥٠ ـ ٢٤٥٢) (٥/٢٥ ـ ٢٦)، والحاكم (١/٣٩٨)، والبيهقي (٤/٩٨)، (٩/١٩٣)، وابن خزيمة (٤/١٩)، وابن حبان (الإحسان ٧/١٩٥). وقال ابن عبدالبر في التمهيد (٢/٢٧٥): «إسناده متصل صحيح ثابت» ا.هـ.
وانظر: التلخيص (٢/١٥٢)، الإرواء (٧٩٥)، صحيح أبي داود (٢/٥٨٩)، صحيح ابن ماجه (١/٣٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود في الخراج والإمارة والفيء، باب في أخذ الجزية. حديث رقم: (٣٠٢١) (٨/٢٨٦)، والبيهقي (٩/١٨٦، ١٨٧). وانظر: صحيح أبي داود (٢/٥٨٩).

(٣) أخرجه أبو داود في الإمارة، باب في أخذ الجزية. حديث رقم: (٣٠٢٥) (٨/٢٩١)، والبيهقي (٩/١٨٧).

(٤) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب. حديث رقم: (٣١٥٧) (٦/٢٥٧).

(٥) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب. حديث رقم: (٣١٥٨) (٦/٢٥٧)، وطرفه (٤٠١٥، ٦٤٢٥)، ومسلم في الزهد =

فالحق الذي لا شك فيه أنها تؤخذ من المجوس لما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»[(١)] وثبت عن عبدالرحمٰن بن عوف أنه قال: أشهد فقد أخذ رسول الله الجزية من مجوس هجر. وكان عمر بن الخطاب توقف في أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبدالرحمٰن بن عوف (رضي الله عنه)[(٢)]. والشافعي (رحمه الله) يقول: لا تؤخذ إلا من الكتابي عربياً كان أو عجمياً، أو من المجوسي بالسنة. أما المشركون من عبَدَة الأوثانِ وما جرى مجراهم[(٣)] قال الشافعي: لا تؤخذ منهم الجزية. وقال به جماعة من العلماء. قالوا ووجهه: أن الله في المشركين ما نص إلا على القتل ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥] وفي أهل الكتاب قال: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: آية ٢٩] وفي المجوس ثبت أخذ الجزية منهم بالسنة. فالمشركون لهم السيف، وأهل الكتاب لهم الجزية بالقرآن، والمجوس لهم الجزية بالسنة، وبهذا قال جماعة من العلماء منهم الشافعي.

وقال مالك بن أنس (رحمه الله) في جماعة من العلماء: إنها تؤخذ من كل كافر وثنياً كان يعبد الأصنام أو مجوسياً، أو كتابياً، فتؤخذ من جميع الكفار. هذا قول مالك في طائفة من العلماء.

= والرقائق. حديث رقم: (٢٩٦١) (٢٢٧٣/٤) من حديث عمرو بن عوف الأنصاري (رضي الله عنه).
وقد أخرجه الترمذي في السير، باب ما جاء في أخذ الجزية من المجوس، حديث رقم: (١٥٨٨) (١٤٧/٤) من حديث السائب بن يزيد. وعقبه بقوله: «وسألت محمداً عن هذا فقال: هو مالك عن الزهري عن النبي ﷺ» ا.هـ.
وقد أخرجه مالك ص١٨٧ عن الزهري بلاغاً.

(١) أخرجه مالك في الموطأ ص١٨٨، والبيهقي (١٨٩/٩) من حديث عبدالرحمٰن بن عوف (رضي الله عنه). وقال ابن عبدالبر في التمهيد (١١٤/٢): «هذا حديث منقطع» ا.هـ. وله شاهد من حديث السائب بن يزيد (رضي الله عنه). قال في المجمع (١٣/٦): «رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه» ا.هـ. وانظر: الإرواء (٨٨/٥).

(٢) مضى تخريجه قريباً.

(٣) انظر: المدونة (٤٦/٢)، الأم (١٧٢/٤ ـ ١٧٤)، المغني (٢٠٣/١٣ ـ ٢٠٤، ٢٠٨).

وأقل ما جاء في قدر الجزية على الرجل من أهل الكتاب دينار[١]. قال جمهور العلماء: لا تنقص الجزية عن دينار. وبعضهم يقول: لا حد لها، فما صالح عليه الإمام هو الذي يؤخذ.

وكان عمر بن الخطاب أخذ الجزية من أهل الشام[٢]، وأخذها من أهل السواد[٣]. وكان النبي ﷺ أمر معاذاً أن يأخذ الجزية من أهل اليمن من كل حالم ديناراً[٤].

والتحقيق أنها لا تؤخذ من الصبيان والنساء، بل من الرجال المقاتلين، كما دلّ عليه حديث معاذ: «**خذ من كل حالم ديناراً**»[٥]. يعني: لا صبياً، ولا امرأة؛ ولأن الصبيان والنساء ليسوا من المقاتلين ولا يجوز قتلهم. والله يقول في المقاتلين: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾. فدل أن الذي يعطي الجزية هم المقاتلون لا غيرهم. كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أخذ الجزية من أهل الشام على الواحد أربعة دنانير[٦].

وعن ابن أبي نجيح أنه سأل مجاهداً (رحمه الله): ما بال أهل اليمن أُخذ منهم في الجزية دينار، وأهل الشام أربعة دنانير؟ قال: ذلك باعتبار الفقر واليسار، وهؤلاء فقراء أُخذ منهم دينار، وهؤلاء موسرون أُخذ منهم أربعة دنانير[٧]. وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أخذ الجزية من أهل السواد، فأخذ من الفقير والمراد به الفقير الذي له حرفة وتَسَبُّب اثني عشر

---

(١) كما جاء في حديث معاذ (رضي الله عنه) لما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن، وأمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً. وقد مضى تخريجه قريباً.

(٢)(٣) سيأتي تخريجهما قريباً.

(٤) مضى تخريجه قريباً.

(٥) مضى تخريجه قريباً.

(٦) أخرجه البيهقي (١٩٥/٩).

(٧) البخاري في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب (٢٥٧/٦).

درهماً، ومن المتوسط أربعة وعشرين درهماً، ومن الغني ثمانية وأربعين درهماً"[(١)].

وبعض العلماء يقول هذا، وبعضهم يقول: أربعة دنانير، وبعضهم يقول: دينار. وقد أمر النبي بدينار، وأخذ عمر من أهل الشام أربعة دنانير، ومن أهل السواد اثني عشر [درهماً][(٢)] للفقير، وأربعة وعشرين للمتوسط، وثمانية وأربعين للغني.

والتحقيق ـ إن شاء الله ـ أن كل هذا واسع بحسب ما يراه الإمام، إلا أنه لا ينبغي أن ينقص الجزية عن دينار. وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [التوبة: آية ٢٩] لأن الله تبارك وتعالى ما أذن في تركهم إلا بهذا.

واختلف العلماء في العوض الذي أُعطيت عنه الجزية[(٣)]: قال بعض العلماء: عوضها حقن دمائهم. وعلى هذا القول إذا أسلم سقطت عنه الجزية؛ لأن دمه حقنه الإسلام. وقال بعضهم: عوضها حقن دمائهم، والمدافعة عنهم، ومنع من أراد أن يظلمهم. وعلى هذا تبقى الجزية فيه ولو أسلم. هكذا قاله بعض العلماء.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٣٠، ٣١].

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣٠] قرأ هذا الحرف عامة القراء

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٤١/١٢)، والبيهقي (١٩٦/٩).

(٢) في الأصل: «ديناراً». وهو سبق لسان.

(٣) انظر: المغني (٢٠٢/١٣)، القرطبي (١١٣/٨)، أحكام أهل الذمة (٢٥/١).

السبعة غير عاصم والكسائي: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ بلا تنوين على الراء. وقرأه عاصم والكسائي: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ بتنوين الراء[١]. وقرأ عامة السبعة غير عاصم: ﴿**يضاهُون قول الذين كفروا**﴾ بضم الهاء ليس بعدها همزة. وقرأ من السبعة عاصم وحده: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بكسر الهاء وهمزة بعده[٢].

وفي الآية التي قبل هذا أمر الله (جلّ وعلا) بعقوبة أهل الكتاب بقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟﴾ ثم بيّن موجب تلك العقوبة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ثم أكّد موجب عقوبته بقوله هنا: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ يعني: هؤلاء الذين أمرتكم بقتالهم مرتكبون من الجرائم ما يستوجب قتالهم ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: آية ٢٩] فأوجب على أهل الكتاب عقوبات شديدة، منها: قتالهم حتى يدفعوا الجزية ﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أخسّاء
٥/ب أذلّاء. وكذلك لحقارتهم على الله/ بيَّنا أن النبي ﷺ أوصى بإخراجهم من جزيرة العرب [وتطهيرها منهم][٣]. ومن آخر ما أوصى به النبي ﷺ تطهير جزيرة العرب من اليهود والنصارى وسائر المشركين[٤]. ولا شك أن هذا أمر مهم، لو لم يكن مهماً لما أوصى به النبي عند موته (صلوات الله وسلامه عليه)، ولكنه (صلوات الله وسلامه عليه) علّمنا في هذا الدين العظيم أن له عزائم ورخصاً، فهذا الدين العظيم أنزله الله منقسماً إلى عزائم ورخص، فعزائمه: تستعمل عند الأوقات المناسبة لها، ورخصه: تستعمل عند الأوقات المناسبة لها؛ لأن الدين السماوي لا بد أن يكون مشتملًا على مواجهة التطورات والأحداث حيث ما كانت وأياً ما كانت، ففي كل حال له فيها مواجهة.

ونريد هنا أن نبيّن بعض الأشياء التي يجوز أخذها من الكفار والتي

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٦.

(٢) السابق ص٢٢٦.

(٣) في الأصل: «وتطهيرهم منها». وهو سبق لسان.

(٤) مضى تخريجه قريباً.

لا يجوز أخذها؛ ليكون المسلم على بصيرة من ذلك، ويعلم ما ينبغي وما لا ينبغي، ويفرّق بين ما يضر وما لا يضر. لا شك أنه إن كانت القوة كاملة للمسلمين من غير حاجة للكفار في شيء أنهم يقومون بأنفسهم ويقيمون عزائم الله في المشركين من قتل حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وتطهير جزيرة العرب منهم إلى غير ذلك مما قدمنا أنه لا بد منه في كل الأحوال وفي كل الظروف، أي: إذا كان محل العزائم والمسلمون في قوتهم كما ينبغي، أما إذا كان المسلمون في ضعف عن ذلك، أو في حاجة ماسة ضرورية إلى الكفار فلكل حال مقال، وقد علّمنا النبي ﷺ المخرج في جميع هذه الأشياء، فهو (صلوات الله وسلامه عليه) لما أمكنه أن يجلي بني قينقاع من غير حاجة المسلمين ولا ضرورة عليهم أجلاهم من المدينة إلى الشام، ولما أمكنه بعد ذلك أن يجلي بني النضير أجلاهم من المدينة إلى أطراف الشام كما سيأتي في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ...﴾ إلى آخر الآيات [الحشر: آية ٢]. ولما كانت حاجة المسلمين ماسة إلى عدم إجلاء خيبر لم يجلهم بل عاملهم ليتولوا القيام على نخل خيبر وأرضها، وأعطاهم شطر ثمار نخل خيبر وما يخرج من أرضها، وهو ﷺ عازم على إخراجهم عندما أمكنت الفرصة، وصار وقت العزيمة، وانتهى وقت الرخصة؛ ولذا ثبت في بعض الروايات الصحيحة أنهم لما قالوا له: أقرنا على الأرض نقوم على نخلها وزرعها بشطرها. قال لهم ﷺ: **«نقيمكم على ذلك ما شئنا، وإن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم»**(١) لأنه عازم على إخراجهم (صلوات الله وسلامه عليه)، عندما تسنح الفرصة المواتية لذلك، فالعزيمة لها وقتها، وإذا كان الوقت للعزيمة لا يجوز أن تهمل بحال من الأحوال، فإذا كان الظرف مناسباً للرخص أُعملت الرخص؛ لأن دين الإسلام دين مرن صالح لمواجهة جميع التيارات والأحداث

---

(١) البخاري في الحرث والمزارعة، باب: إذا قال رب الأرض: أُقرك ما أقرك الله. حديث رقم: (٢٣٣٨) (٥/٢١)، ومسلم في المساقاة، باب: المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع. حديث رقم: (١٥٥١) (١١٨٧/٣).

والتطورات، وقد قدمنا في سورة [آل عمران][(١)] طرفاً جيداً من هذا في الكلام على قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: آية ٢٨] أي: إلا أن تخافوا منهم خوفاً فلذلك حال وحكم آخر.

واعلموا ـ أيها الإخوان ـ أن المؤسف كل المؤسف هو أن الذي يجوز لنا أن نأخذه من الكفار والذي يمتنع علينا أن نأخذه منهم معكوس في أقطار المعمورة الآن!! يأخذون منهم ما لا يحل أخذه، ويتركون ما لا ينبغي تركه، فيعكسون القضية عكساً تاماً!! وإيضاح هذا المعنى أنه يجوز للمسلمين أن ينتفعوا بأعمال الكفار التي هي أمور دنيوية بحتة ويحذروا كل الحذر من أن يقلدوهم في شيء من أوامر الدين. وسنذكر لكم أمثلة من هذا يتضح بها المقام[(٢)]: هذا سيد الخلق محمد بن عبدالله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لما تواطأت عليه قوى الشر واضطروه أن يخرج من مسقط رأسه ـ كما قدمنا في سورة الأنفال في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: آية ٣٠] ودخل هو وصاحبه في غار كما سيأتي تفصيله في هذه السورة الكريمة إن شاء الله ـ وجد في ذلك الوقت كافراً من بني دؤل بن كنانة يسمى عبدالله بن الأُريقط، وكان في ذلك الوقت كافراً من عبَدَة الأوثان، إلا أن عنده خبرة دنيوية بالطرق من مكة إلى المدينة؛ لأنه (صلوات الله وسلامه عليه) في ذلك الوقت محتاج إلى خبير بالطرق؛ لأن الطرق المعهودة السابلة أمسكها الكفار وجعلوا جعائل لكل من أتى بمحمد ﷺ أن يعطوه الأموال الكثيرة، فصار لا يمكن أن يسير في الطرق المعهودة والسبل السابلة، بل لا بد أن يذهب من بُنَيَّات طرق ليست هي المعهودة، وهذه تحتاج إلى خبرة خاصة، ووجد هذه الخبرة عند كافر من بني دؤل بن كنانة يسمى عبدالله بن الأريقط، فأودعه رواحله وأعطاه الموعد، وكان ذلك الكافر أميناً معه، فجاءه في الموعد

---

(١) في الأصل: «النساء». وهو سبق لسان.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

وذهب به وجاء به من طرق غير معهودة حتى أوصله المدينة بسلام[١]. فالنبي ﷺ عند الحاجة انتفع بخبرة هذا الكافر ولم يقل: هذه خبرةٌ نجسةٌ قذرة لأنها من كافر، بل انتفع بها على حد قولهم «اجتنِ الثمار وألقِ الخشبة في النار». وكذلك لما سمع بالكفار في غزوة الأحزاب قال له سلمان الفارسي ـ كما هو مذكور في الأخبار والسير ـ: كنا إذا خفنا خندقنا[٢]. فأشار إليه بالخندق، وهو خطة حربية عسكرية، فقام النبي ﷺ وانتفع بهذه الخطة الحربية العسكرية وإن كانت ابتدعتها أذهان فارس الذين هم كفَرَة يعبدون النار، ولم يقل: هذه خطة نجسةٌ قذرة؛ لأن أصلها من الكفار!! بل انتفع بما ينفعه في دنياه وهو محافظ على دينه. وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ همّ أن يمنع الرجال من أن يطؤوا نساءهم في حالة إرضاعهن؛ لأن العرب كانوا يظنون أن الرجل إذا أتى أبوه أمه وهي ترضعه أن ذلك يضعف عظمه ويترك فيه ضعفاً طبيعياً!! كانوا إذا ضرب الرجل ونبا سيفه عن الضريبة قالوا: هذا من آثار الغيلة، وهي وطء المرضع!! وكان شاعرهم يقول[٣]:

فوارسُ لم يُغالُوا في رضاعٍ فتَنْبُوا في أكُفِّهم السيوفُ

فأُخبر النبي ﷺ عن فارسَ والروم أنهم يفعلون ذلك ولا يضر أولادهم[٤]، فأخذ هذه الخطة الطبية من فارس والروم ولم يمنعه خبث من جاء بها عن أن يأخذها. فهذا تعليم الصادق المصدوق (صلوات الله وسلامه عليه).

ومما هو واضح أن ما جاء به الكفَرَة الفَجَرة الخنازير الذين يسمون أنفسهم (أهل الحضارة) أنهم جاؤوا بماءٍ زُلال، وجاؤوا بسم فتَّاك قتَّال؛ لأن ما في الحضارة الغربية من المنافع الدنيوية لا يحتاج أن يُنَوِّه عنه، فهم خدموا الإنسان ـ من حيث إنه جسم ـ خدمة هائلة ما كانت تخطر على

(١) السابق.
(٢) السابق.
(٣) السابق.
(٤) السابق.

البال. ولا يحتاج أن يُنوَّه عنها، ولكنهم بالنسبة إلى الروح وإلى عنصر الإنسان من حيث كونه روحاً مفلسون كل الإفلاس. فعلى المسلمين أن يميزوا بين ما يضرُّ وما لا يضر، فيأخذوا منهم الأمور الدنيوية فينتفعوا بخبرتهم في الأمور كما انتفع ﷺ في الأمور الدنيوية من الكفار، أما أنهم يأخذون عنهم كفرهم وتمردهم على الله وإفلاسهم الروحي النهائي فهذا مما لا يجوز ولا كان ينبغي لعاقل أن يفعله.

ونحن دائماً نبيّن الموقف السليم في الأوضاع الراهنة للإسلام والمسلمين، ونعرضه على الدليل العظيم المعروف عند علماء الأصول بـ (السبر والتقسيم)، وعند علماء المنطق. بـ (الشَّرْطي المُنْفَصِل)، وعند علماء الجدل بـ (الترديد والتقسيم)[١]، فنقول: إن موقف المسلمين مما أحدثته الحضارة الغربية التي صارت سبب ضلال ودمار مع ما أدخل في الثقافات من البلايا والويلات، نقول: وهو بالتقسيم الصحيح منحصر في أربعة أقسام حصراً استقرائياً[٢]، وقد تقرر في علم البحث والمناظرة، وعلم الأصول أن للحصر طريقين: إما عقل، وإما استقراء، فهو محصور في أربعة طرق بطريق الاستقراء: **أولها**: أن نقول: يجب علينا أن نأخذ جميع ما أنتجته الحضارة الغربية من مائها الزلال وسمها الفتَّاك القتَّال، فهذا قسم واحد، أو نقول: نتركهما معاً، أو نأخذ نافعها ونترك ضارها، أو نأخذ ضارها ونترك نافعها، فهي أربعة أقسام بالحصر الاستقرائي، فإذا رجعنا لهذه الأقسام الأربعة بالسبر الصحيح نجد ثلاثة منها باطلة، وواحداً صحيحاً، وهذه فائدة السبر والتقسيم، التقسيم: يحصر الأوصاف، والسبر: يميز بين خبيثها وطيبها وصالحها وطالحها. فلو قلنا: نأخذ جميع ما أنتجته الحضارة الغربية، فإن من أراد أن يأخذ الماء الزلال ممزوجاً بالسم الفتاك القتال لا ينتفع بالماء، ومن أراد تقدماً من الأمور الدنيوية التي عندهم مع ما فيها من الانحلال، وضياع الأخلاق، والتمرد على نظام السماء، والإلحاد والكفر

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٤) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

بخالق السماوات والأرض، فهذا لا ينفع معه شيء، إذا الدين لم يكن فلا كانت الدنيا. فهذا قسم باطل يقيناً، ولو قلنا: نتركهما جميعاً، فهذا القسم باطل أيضاً؛ لأن ترك الأخذ بالقوة تواكل وعجز وتمرد على نظام السماء؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: آية ٦٠]. فترك القوة والاستعداد للعدو مخالف للشرع الكريم، ومخالف للفطر السليمة، فالحياة بتطوراتها الراهنة لا يجوز للمسلمين أن يتركوا استعمال القوة وجميع أنواع الوسائل لتكون عندهم قوة يدافعون بها عن أنفسهم ودينهم، فهذا القسم باطل أيضاً.

القسم الثالث: وهو أن يؤخذ سمها فقط، ويترك زلالها، فمن وجد ماء زلالًا وسماً فاتكاً قتالًا، واختار السم على الماء فهذا مجنون أهوج!!

أما أن نأخذ نافعها ونترك ضارها، فهذا هو اللائق بكل عاقل أن يأخذ ما ينفعه ويترك ما يضره.

والمؤسف كل المؤسف أن الذين تأثروا بهذه الحضارة من الناس الذين أصلهم مسلمون لم يأخذوا من هذه الحضارة إلا سمها الفتّاك القتّال، ولم ينتفعوا بمائها الزلال، فتراهم يقلدونهم في الإلحاد والكفر بالله والمسخرة من الدين، والاستهزاء بآيات الله، في الوقت الذي لم يأخذوا عنهم شيئاً مما أنتجوه من الأمور النافعة في الدنيا.

ما أحسَنَ الدينَ والدنيا إذا اجتمعا وأقبحَ الكُفرَ والإفْلاَسَ بالرجلِ[1]

فهم يجمعون بين الكفر والإفلاس ـ والعياذ بالله ـ وهذا الشيء الذي طبق المعمورة وانتشر في أقطار الدنيا فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وعلى كل حال فدين الإسلام هو هو، وصلته بالله هي هي، دين عريق عظيم أُسُسُه قويمة عظيمة، لو لم يكن مبنياً على أسس عظيمة وكتابه محفوظ لطمسوا أثره في قرون!! ولكنه دين عريق ثابت الجذور لا يتغير ولا يتزعزع، وإنما تنكّر له المنتسبون إليه فصاروا خفافيش تقودهم الكفار إلى ما

(١) تقدم هذا البيت عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأنعام.

يشاؤون، فيقلدونهم في كل كفر وكل إلحاد، وكل انحطاط خلقي، وكل تمرد على نظام السماء، وكفر بخالق السماوات والأرض، في الوقت الذي لا ينتفعون بالأمور [الدنيوية][(١)]. وإنما حكينا هذا أسفاً من واقع نرجو الله أن يزيل هذا عن المسلمين.

ولما كان جزاء الكفار وعقوبتهم عظيمة بيّن بعض أسباب ذلك فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣٠] قال بعض العلماء[(٢)]: قالته جماعة من اليهود، منهم: سَلاَّم بن مشكم، وشأس بن قيس، ونعمان بن أوفى، ومالك بن الصيف من اليهود ـ قبّحهم الله ـ زعموا أن عُزيراً ابن الله.

وقال بعضهم: قاله القدماء من اليهود فاتبعهم الآخَرون.

وقال بعضهم: إن الذي قاله قبل اليهود في زمن محمد ﷺ، وأن سبب ذلك أنهم قتّلوا الأنبياء فرفع الله التوراة ومسخه من قلوبهم، أو أن بختنصر قتل علماءهم، وضاعت عليهم التوراة، وكان بعضهم دفنها في محل، وكان عُزير قد قدمنا قضيته أن الله أماته مائة عام ثم بعثه، وجاء وقد ضاعت التوراة عليهم، بقوا لم يحفظوا منها شيئاً، فعلّمه الله إياها فقرأها عليهم لم يخرم منها حرفاً، فقالوا: ما علّمه الله إياها إلا لأنه ابنه!! ومما يدل على أن هذه المقالة صدرت من اليهود أن هذا القرآن يتلى من قديم الزمان من نزول هذه الآية ولم يُعلم أن يهودياً في زمانها كذب بذلك وقال: ما قلنا هذا!! مع مسارعتهم إلى التكذيب.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ﴾ [التوبة: آية ٣٠] يعني عيسى بن مريم قالوا إنه ابن الله. ـ قبّحهم الله ـ فأشركوا.

وقوله: ﴿يُضَٰهُِٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: آية ٣٠] على قراءة الجمهور، وهو مضارع: (ضاهاه يضاهيه) إذا حاكاه وشابهه. وعلى قراءة

(١) في الأصل: «الدينية». وهو سبق لسان.

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/٢٠٢).

عاصم: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فهو بمعناه؛ لأن (ضاهأ) يقال فيها: (ضَاهَا) بلا همز، ويقال فيها: (ضَاهَأ) بالهمز، وهما لغتان صحيحتان وقراءتان سبعيتان صحيحتان[1].

ومعنى المضاهاة والمضاهأة معناها: المحاكاة والمشابهة. يعني: يحاكون ويشابهون قول الذين كفروا[2] من كفار مكة الذين قالوا: الملائكة بنات الله. وقال بعض العلماء: قالها المتأخرون من اليهود يحاكون المتقدمين منهم. وقال بعض العلماء: قال النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ يحاكون اليهود في قولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وهذا كله لا يكذب بعضه بعضاً، وهذا معنى قوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ وفي الكلام حذف مضاف دلّ المقام عليه، أي: يحاكي قولهم قول الذين كفروا من قبل.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال بعض العلماء[3] معناه: لعنهم الله.

وقال بعض العلماء: (قاتله الله) كلمة تعجب تقولها العرب إذا تعجبت من شيء يقولون: قاتل الله فلاناً ما أفعله لكذا. أو ما أشد استحقاقه لأن يُقتل، أو نحو ذلك.

قوله: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ (يُفعلون) من الإفك، والإفك: أسوأ الكذب؛ لأن أصل مادة (أَفَكَه) إذا قلبه. كل شيء قلبته فقد (أَفَكْته) ومنه قيل لقرى قوم لوط: (المؤتفكات) لأن جبريل أَفَكَها، أي: قلبها فجعل عاليها سافلها. وإنما سُمي أسوأ الكذب (إفكاً) لأنه صرف للكلام عن معناه الصحيح إلى معاني أخر كاذبة[4]. وهذا معنى قوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣٠].

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٦.

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/٢٠٥)، القرطبي (٨/١١٨).

(٣) انظر: ابن جرير (١٤/٢٠٧)، القرطبي (٨/١١٩).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأعراف.

هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: الآيات ٣١ ـ ٣٣].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: آية ٣١].

ذكر الله (جلّ وعلا) في هذه الآيات الكريمات من سورة براءة جرائم اليهود والنصارى فعد منها أنهم نسبوا له الأولاد، وأتبع ذلك بقوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣٠] كيف يُصرفون عن الحق مع وضوحه، ويَدَّعُون للواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، يَدَّعُون له الأولاد فيقولون: عُزير ابن الله، والمسيح ابن الله؟ سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثم ذكر من معائبهم وإجرامهم بلايا أُخر فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: آية ٣١] أي: واتخذوا المسيح بن مريم رباً من دون الله أيضاً. وهذه الآية جاء عن النبي ﷺ أنه فسرها لعدي بن حاتم (رضي الله عنه) لما سأله عنها، فقد أخرج الترمذي وغيره عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) أنه أتى النبي ﷺ وفي عنقهِ صليب من ذهب، فقال له ﷺ: «**اطرح هذا الوثن من عنقك**» وسمعه يقرأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ـ وكان عديٌّ في الجاهلية نصرانياً ـ فقال عدي: ما كنا نعبدهم من دون الله. فقال له النبي ﷺ: «**ألم يُحلوا لكم ما حرّم الله، ويحرموا عليكم ما أحلّ الله فتتبعوهم؟**» قال: بلى. قال: «**ذلك عبادتهم**»[1]. وهو معنى اتخاذهم أرباباً. وهذا التفسير النبوي المقتضي أن كل من يتبع مُشَرّعاً فيما أحل وحرم مخالفاً لتشريع الله أنه عابد له، متخذه رباً، مشركٌ به، كافر بالله هو تفسير صحيح

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

لا شك في صحته، والآيات القرآنية الشاهدة لصحته لا تكاد تحصيها في المصحف الكريم، وسنبين ـ إن شاء الله ـ طرفاً من ذلك:

اعلموا أيها الإخوان أن الإشراك بالله في حكمه والإشراك به في عبادته كلاهما بمعنى واحد، لا فرق بينهما ألبتة، فالذي يتبع نظاماً غير نظام الله، وتشريعاً غير ما شرّعه الله، وقانوناً مخالفاً لشرع الله من وضع البشر، معرضاً عن نور السماء الذي أنزله الله على لسان رسوله، من كان يفعل هذا هو ومن يعبد الصنم ويسجد للوثن لا فرق بينهما ألبتة بوجه من الوجوه، فهما واحد، فكلاهما مشرك بالله، هذا أشرك به في عبادته، وهذا أشرك به في حكمه، والإشراك به في عبادته، والإشراك به في حكمه كلاهما سواء، وقد قال الله (جلّ وعلا) في الإشراك به في عبادته: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: آية ١١٠].

وقال في الإشراك به في حكمه أيضاً: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ٢٦]. وفي قراءة ابن عامر من السبعة: **﴿ولا تشرك في حكمه أحدا﴾**[1] بصيغة النهي المطابقة لقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: آية ١١٠] فكلاهما إشراك بالله؛ ولذا بيّن النبي لعدي بن حاتم أنهم لمّا اتبعوا نظامهم في التحليل والتحريم وشرعهم المخالف لشرع الله كانوا عبدة لهم، متخذيهم أرباباً، والآيات القرآنية في المصحف الكريم المُصرِّحة بهذا المعنى لا تكاد تحصيها، ومن أصرحها: المناظرة التي أشرنا لها في الأيام الماضية، ووعدنا بإيضاح مبحثها هنا، وهي المناظرة التي وقعت بين حزب الرحمٰن وحزب الشيطان في حكم تحليل لحم الميتة وتحريمه، فحزب الشيطان يقولون: إن الميتة حلال، ويستدلون بوحي من وحي الشيطان، وهو أن الشيطان أوحى إلى أصحابه وتلامذته في مكة أن اسألوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة من هو الذي قتلها؟ فلما قال: الله قتلها. احتجوا على النبي وأصحابه في تحريمهم الميتة بفلسفة من وحي الشيطان وقالوا: ما

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من سورة الأنعام.

ذبحتموه وذكيتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة بسكين من ذهب تقولون حرام!! فأنتم أحسن من الله إذاً!! فهذا فلسفة الشيطان ووحي إبليس استدل بها كفار مكة على اتباع نظام الشيطان وتشريعه وقانونه بدعوى أن ما ذبحه الله أحلّ مما ذبحه الناس، وأن تذكية الله أطهر من تذكية الخلق، واستدل أصحاب النبي والنبي ﷺ على تحريم الميتة بوحي الرحمن في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: آية ٣] ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] فأدلى هؤلاء بنص من نصوص السماء، وأدلى هؤلاء بفلسفة من وحي الشيطان، ووقع بينهم جدال وخصام، فتولى رب السماوات والأرض الفتيا في ذلك بنفسه فأنزلها قرآناً يتلى في سورة الأنعام معلماً بها خلقه، أن كل من يتبع نظاماً وتشريعاً وقانوناً مخالفاً لما شرعه الله على لسان رسول الله ﷺ فهو مشرك بالله كافر متخذ ذلك المتبوع رباً، فأنزل الله ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ منه الميتة. أي: وإن قالوا: إنها ذكاة الله، وأنها أطهر. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي: إن الأكل من الميتة لفسق. أي: لخروج عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ من الكفرة ككفار مكة ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ لأجل أن يجادلوكم بوحي الشيطان، ما ذبحتموه حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم أحسن من الله. ثم قال ـ وهو محل الشاهد ـ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ أي: اتبعتموهم في ذلك النظام الذي وضعه الشيطان لأتباعه وأقام دليلًا من وحيه عليه ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ بالله، متخذون من اتبعتم تشريعه رباً غير الله. وهذا الشرك في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ هو الشرك الأكبر المخرج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين، وهو الذي أشار الله إليه في قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)﴾ [النحل: آية ١٠٠] وهو الذي صرّح به الشيطان في خطبته يوم القيامة المذكورة في قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: آية ٢٢] وهو المراد على أصح التفسيرين في قوله: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ: آية ٤١] يعبدون الشياطين باتباعهم أنظمتهم وتشريعاتهم على ألسنة

الكفار، وهو الذي نهى عنه إبراهيم أباه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [مريم: آية ٤٤] أي: باتباع ما يقرر لك من نظام الكفر والمعاصي مخالفاً لشرع الله الذي أنزله على رسله، وهذه العبادة بعينها هي التي وبّخ الله مرتكبها وبيّن مصيره الأخير في سورة يٓس في قوله: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠﴾ [يٓس: آية ٦٠] ما عبدوه بسجود ولا ركوع وإنما عبدوه باتباع نظامٍ وتشريعٍ وقانون شرع لهم أموراً غير ما شرعه الله فاتبعوه وتركوا ما شرعَ الله فعبدوه بذلك واتخذوه رباً كما بيّنه النبي ﷺ لعدي بن حاتم (رضي الله عنه)، فهذا أمر لا شك فيه، وهو المراد بقوله: ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾ [النساء: آية ١١٧] يعني: ما يعبدون إلا شيطاناً مريداً، أي: عبادة اتباع نظام وتشريع. واعلم أن قوماً زعموا أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى شرع الشيطان والذي وضعه، وادّعوا مع ذلك أنهم مؤمنون فَعَجَّب الله نبيه من دعواهم الكاذبة الفاجرة التي لا يمكن أن تصدق في سورة النساء في قوله (جلّ وعلا): ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: آية ٦٠]. وكل من تحاكم إلى غير ما أنزل الله فهو متحاكم إلى الطاغوت، وهؤلاء قوم أرادوا التحاكم إلى الطاغوت وزعموا أنهم مؤمنون بالله فعجّب الله نبيه من كذب هؤلاء وعدم حيائهم في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾ يُعَجِّبه منهم ﴿يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ الذي شرع لهم تلك النظم والأوضاع التي يسيرون عليها ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ وأقسم الله (جلّ وعلا) إقساماً سماوياً من رب العالمين على أنه لا إيمان لمن لم يُحَكِّم رسول الله فيما جاء به عن الله خالصاً من قلبه في باطنه وسره في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء: آية ٦٥] وبيّن الله (جلّ وعلا) في آيات كثيرة من كتابه أن الحكم له وحده لا شريك له في حكمه، وكلما ذكر اختصاصه بالحكم أوضح العلامات التي يعرف بها بين من يستحق أن يحكم

ويأمر وينهى ويشرع ويحلل ويحرم، وبين من ليس له شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: آية ٤٠] ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ [القصص: آية ٧٠] وسنبين لكم أمثلة من ذلك، من ذلك قوله في سورة الشورى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: آية ١٠] ثم إن الله كأنه قال: هذا الذي يكون المرجع إليه، والقول قوله، والكلمة كلمته، حتى يُرد إليه كل شيء، اختُلف فيه ما صفاته التي يتميز بها عن غيره؟ قال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ثم بيّن صفات من يستحق الحكم والتشريع والتحليل والتحريم والأمر والنهي فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الشورى: الآيات ١٠ ـ ١٢] هذه صفات من له أن يحكم ويحلل ويحرم ويأمر وينهى، أفترون أيها الإخوان أن واحداً من هؤلاء القردة الخنازير الكلاب أبناء الكلاب الذين يضعون القوانين الوضعية فيهم واحد يستحق هذه الصفات التي هي صفات من له أن يحكم ويحلل ويحرم ويأمر وينهى؟!! ومن الآيات الدالة على هذا النوع قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾. ثم بيّن صفات من له أن يحكم فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: الآيات ٧٠ ـ ٧٣] هل في الكفَرَة القردة الخنازير الكلاب أبناء الكلاب الذين يضعون النظم ويزعمون أنهم يرتبون بها علاقات الإنسان ويضبطون بها شؤونه هل في هؤلاء من يستحق أن يوصف بهذه الصفات التي هي صفات من له أن يحكم ويأمر وينهى ويحلل ويحرم؟! ومن ذلك قوله تعالى في

أخريات القصص: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ[1] [إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾] [القصص: آية ٨٨].

١/٦أ / والآيات القرآنية في مثل هذا كثيرة جداً. والحاصل أن التشريع لا يكون إلا للأعلى الذي لا يمكن أن يكون فوقه آمرٌ ولا ناهٍ ولا متصرف، فهو للسلطة العليا، أما المخلوق الجاهل الكافر المسكين فليس له أن يُحلل ويحرِّم، والعجب كل العجب من قوم كان عندهم كتاب الله ورثوا الإسلام عن آبائهم، وعندهم هذا القرآن العظيم، والنور المبين، وسنّة خير الخلق ﷺ، يبيّن الله ورسوله كل شيء، ومع ذلك يعرضون عن هذا زاعمين أنه لا يحسن القيام بشؤون الدنيا بعد تطوراتها الراهنة، يطلبون الصواب في زبالات أذهان كفرة خنازير، لا يعلمون شيئاً!! هذا من طمس البصائر - والعياذ بالله - لا يصدق به إلا من رآه، ولكن الخفافيش يعميها نور القرآن العظيم، فالقرآن العظيم نورٌ عظيم، والخفاش لا يكاد أن يرى النور:

خَفَافِيْشُ أعمَاهَا النَّهَارُ بضَوئِهِ   فَوَافَقَهَا قِطْعٌ من الليلِ مُظْلِمُ[2]

هذا القرآن العظيم ينصرفون عنه، وترى الواحد الذي هو مسؤول عنهم يعلن في غير حياء من الله ولا حياء من الناس بوجه لا ماء فيه، بكل وقاحة أنه يحكم في نفسه وفي الناس الذين هم رعيته الذين هو مسؤول عنهم يحكم في أديانهم، وفي أنفسهم، وفي عقولهم، وفي أنسابهم، وفي أموالهم، وفي أعراضهم، قانوناً أرضياً وضعه خنازير كفرة جهلة أنتن من الكلاب والخنازير، وأجهل خلق الله، معرضاً عن نور السماء الذي وضعه الله (جلّ وعلا) على لسان خلقه، فهذا من طمس البصائر لا يصدِّق به إلا من رآه - والعياذ بالله - اللهم لا تطمس بصائرنا ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

واعلموا - أيها الإخوان - أن كل من يتعالم أمام الخالق (جلّ وعلا) بلا

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وقد أكملت الآية وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

حياء في وجهه أنه يعرض عمّا أنزل الله على محمد ﷺ مدعياً أنه لا يقدر أن يقوم بتنظيم علاقات الدنيا يطلب النور والهدى في زبالات أذهان خنازير كفرة فجرة جهلة في غاية الجهل أنه هو وفرعون وهامان وقارون في الكفر سواء؛ لأنه لا يعرض عن الله، وعن تشريع الله، ويفضّل عليه تشريع الشيطان، ونظام إبليس الذي شرعه على ألسنة أوليائه إلا من لا نصيب له في الإيمان بوجه من الوجوه، كما رأيتم الآيات الكثيرة الدالة على ذلك، وتعجيب الله نبيه من ادعاء مثله الإيمان. فعلى المسلمين جميعاً أن يعلموا ويعتقدوا ـ ونحن نقول: لا شك يجب على كل مسلم كائناً من كان أن يعلم ـ أنه لا حلال إلا ما أحلّه الله، ولا حرام إلا ما حرّمه الله، ولا دين إلا ما شرّعه الله، فمن سِوَى الله لا تحليل له ولا تحريم؛ لأنه عبد مسكين ضعيف مربوب، عليه أن يعمل بما يأمر به ربه، فيتبع ما يشرعه ربه. وهذا معنى قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأحبار: جمع حَبْر بفتح الحاء وكسرها. والتحقيق أنهما لغتان. والأحبار: العلماء. والرهبان: المتعبدون المنقطعون في الصوامع، وهو جمع راهب، وشذّ قوم فقالوا: إن الواحد منهم يقال له (رهبان) واستدلوا بقول الراجز[1]:

لو كلَّمتْ رُهْبَانَ ديرٍ في الجَبَلْ ... لأقبل الرهْبَانُ يَهْوي ونَزَلْ

أنه واحد. والتحقيق: أنه جمع راهب.

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأرباب: جمع رب؛ لأنهم عبدوهم، والعبادة من صفات الرب (جلّ وعلا) وحده لا يُعبد سواه.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾ بما أمروا به من الدين ﴿إِلَّا﴾ لأجل أن يعبدوا الله وحده ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: معبوداً واحداً ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا هو وحده (جلّ وعلا) ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيهاً له أتم تنزيه عما يشركون به شرك ربوبية وشرك طاعة وشرك عبادة.

---

(١) البيت لعروة بن حزام، وهو في ديوانه ص٣١، فتح القدير (٦٨/٢) ولفظ الشطر الثاني:

«لزحف الرهبان يمشي وزحل»

وهذه الآية من سورة براءة بيّن الله فيها أن النصارى واليهود مشركون كما أشرنا إليه سابقاً. وهذا معنى قوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣١].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: آية ٣٢] قال بعض العلماء: نور الله هو هذا القرآن العظيم، وقد سمى الله هذا القرآن نوراً في آيات كثيرة كقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: آية ١٥] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا﴾ [النساء: آية ١٧٤] ﴿وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ [الشورى: آية ٥٢] ﴿وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧] ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: آية ٨] هو نور أضاء الله به كل شيء، وكل من لا يعلم أنه نور وأنه حق فإن ذلك إنما جاءه من قبل عماه؛ لأنه خفاش أعمى، والأعمى لا يرى الشمس، وقد بيّن الله هذا في سورة الرعد في قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: آية ١٩] فصرّح بأن الذي يمنعه من أن يعلم أنه الحق إنما هو عماه.

إذا لم يكنْ للمرءِ عينٌ بصيرة فلا غَرْوَ أن يَرْتَابَ والصبحُ مُسْفِرُ[1]

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ﴾ يعني يذهبوا أدلة هذا القرآن العظيم ويبطلوها ويمنعوا إقامة أدلته وإظهاره للحق والدين.

﴿بِأَفْوَٰهِهِم﴾ في قوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِم﴾ وجهان[2]:

أحدهما: أن المراد أن إطفاءه بأفواههم هو تكذيبهم به وقولهم: إنه شعر أو سحر أو كهانة أو أساطير الأولين أو مكذوب على الله. فهذا إرادتهم تكذيبه وإبطاله بأفواههم بالقول الكاذب.

وقال بعضهم: شبه فعلهم بمن رأى نوراً مستضيئاً ملأ أقطار الدنيا وأراد أن ينفخه ليطفئه بنفخة؛ لأن النفخ يطفىء النور الضعيف، ولا يقدر

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/٢١٣ ـ ٢١٤)، ابن كثير (٢/٣٤٩)، البحر المحيط (٥/٣٣).

على النور العظيم القوي. كأنه شبّه إرادتهم لإطفائه بمن يريد أن ينفخ في نور عظيم ملأ الأرض ليطفئه بالنفخ، وهذا لا يمكن أبداً ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ (جلّ وعلا) ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ للعلماء بحث لغوي في قوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ﴾[1] قالوا: لأن الاستثناء يكون من نفي قبله، وهنا ليس فيه نفي، والإثبات لا يُستثنى منه، فلا تقول: ضربت إلا زيداً، وأكرمت إلا عمْراً.

وأجاب بعض العلماء عن هذا بأن الإباء فيه معنى الامتناع، والامتناع مضمن معنى الجحد، هم يريدون كذا ولم يرد الله إلا أن يتم نوره. فهو في معنى النفي.

وقال بعض العلماء: هو متعلق بمحذوف: ويأبىٰ الله كل شيء إلا إتمام نوره، فهذا وحده لا بد أن يقع.

ثم قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فلو كره الكافرون إتمامه فهو متممه مهما كان.

﴿هُوَ﴾ أي: الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: آية ٣٣] هو محمد ﷺ.

﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ قال بعض العلماء: الهدى أيضاً هو هذا القرآن؛ لأن الله يقول: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: آية ١٨٥] قالوا: ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: بالقرآن الفارق بين الحق والباطل ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ هو دين الإسلام؛ الذي لا يقبل الله غيره ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: آية ١٩] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: آية ٨٥] وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: آية ٣].

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ الضمير في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ فيه وجهان للعلماء[2]: قال بعضهم وهو مروي عن ابن عبّاس[3]: الضمير عائد إلى

---

(١) انظر: الدر المصون (٦/٤٠).

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/٢١٥)، القرطبي (٨/١٢١)، ابن كثير (٢/٣٤٩).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٤/٢١٥) من طريق علي بن أبي طلحة.

النبي ﷺ. أي: أرسله بهذا الهدى ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ليطلعه على جميع الأديان فيبين لأهلها حقيقها من باطلها، كما قدمناه في قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: آية ٤٨] ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة: آية ١٥] ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: آية ٩٣] وغير ذلك من الآيات أن النبي ﷺ علم من كتاب الله ما جاء في جميع الكتب المتقدمة.

القول الثاني: ـ وعليه الأكثر ـ أن الضمير للدين ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أي: ليظهر دين الإسلام، أي: يعليه على جميع الأديان كلها. وهذا الإعلاء يدخل فيه إظهاره بالحجة والبرهان، فبراهينه قاطعة، وحججه ساطعة لا شك فيه، وكتابه محفوظ، فلا شيء يوازيه ولا يشابهه.

قال بعض العلماء: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أي: ينصره ويُغلِّبه على جميع الأديان، وقد وفَّى الله بهذا فيما مضى، وسيفي به ـ أيضاً ـ في المستقبل؛ لأن الدين فيما مضى ظهر على جميع الأديان، وأذلّ الدول الكبار العظيمة المعروفة، كالدولة الكسروية، والدولة القيصرية، لم يبق منهم إلا من هو يعطي الجزية عن يد وهو صاغر، أو مسلم، وانتشر في أقطار الدنيا من شرقها وغربها، وظهر على كل الأديان، وأذلّ أهلها، وسيأتي ذلك في آخر هذا الزمان أيضاً كما جاء في أحاديث صحيحة كثيرة أنه لا يبقى في آخر الزمان أحدٌ إلا كان مسلماً[(١)]، ولم يكن في المعمورة غير دين الإسلام. وهذا معنى قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣٣] إظهاره على الدين كله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى

(١) ساق ابن كثير في تفسيره (٣٤٩/٢) كثيراً من هذه الأحاديث المشار إليها.

كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة: الآيات ٣٤ ـ ٣٦].

قال الله (جلّ وعلا): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٣٤، ٣٥] لمّا ذكر الله (جلّ وعلا) أن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً بيّن أن الرهبان والأحبار لا ينبغي اتخاذهم أرباباً؛ لأن أكثرهم فجَرَة غير مستقيمين فقال: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: فكيف تتخذون هؤلاء أرباباً مع أن الإنسان لو اتخذ أشرف الأنبياء رباً أو أعظم الملائكة رباً لكان من كبار المشركين، أحرى من يتخذ الفجَرَة أرباباً ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: الآية ٨٠] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ...﴾ العلماء ﴿وَٱلرُّهْبَانِ﴾: المتعبدين في صوامعهم.

﴿لَيَأْكُلُونَ﴾ هذه أصلها لام الابتداء التي تزحلقها (إنّ) المكسورة عن المبتدأ إلى الخبر ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ قال بعض العلماء: يأخذون الرُّشا. وقال بعض العلماء: يأخذون من أتباعهم أموالًا باسم الدين ثم يأكلونها، قال بعضهم: يأخذون أموالًا باسم الكنيسة والبيعة ونحو ذلك مما يخيلون لأتباعهم أن أخذه من الدين ومرادهم الغرض الدنيوي[(١)].

وقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ لأن من استشار الرهبان والأحبار من أتباعهم هل يأخذ دين الإسلام يمنعونهم من ذلك، ويصدّونهم عن سبيل الله التي هي دين الإسلام.

(١) انظر: القرطبي (١٢٢/٨).

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ...﴾ العرب تقول: «كنزت الشيء» إذا جمعته وجعلت بعضه إلى بعض. وكثيراً ما يطلق على المال المجموع بعضه إلى بعض المدفون في الأرض، والكنز في اللغة يطلق على كل مجموع مضموم بعضه إلى بعض، ومنه: ناقة مكتنزة اللحم؛ لأن لحمها بعضه منضم إلى بعض. سواء كان في باطن الأرض أو على ظاهرها[١].

قال بعض العلماء: هذه في أهل الكتاب. قاله معاوية، واختلف معه أبو ذرٍ (رحمه الله). كان أبو ذرٍ في الشام فشكاه معاوية إلى عثمان فأشخصه عثمان إلى المدينة، وكان أبو ذرٍ (رضي الله عنه) عنده مذهب معروف مخالف لجميع أقوال الصحابة يضيق في اقتناء المال، وكان (رضي الله عنه) يقول: إن الإنسان إذا ادخر شيئاً زائداً عن خَلَّتِه الضرورية فهو كنز يكوى به وجهه وظهره وجنبه، وكان يذكر هذا للناس، ومن أجل هذا أمره عثمان (رضي الله عنه) أيام خلافته أن يخرج إلى الربذة وتوفي بها (رضي الله عنه وأرضاه)[٢]، وأبو ذر معذور؛ لأنه جاء النبي في أول الإسلام، وكان المسلمون في أول الإسلام فقراء ليس عندهم شيء، وكان التشديد في إمساك الذهب والفضة في ذلك الوقت عظيماً، فسمع من النبي شيئاً ورجع إلى أهله بالبادية، ثم أنزل الله فريضة الزكاة، وكثر المال واتسع الأمر، وزال التشديد، ولم يعلم (رضي الله عنه) بشيء من ذلك، فصار على التشديد الأول؛ لأنه سمعه من رسول الله ولم يسمع ما طرأ بعد ذلك. هذا قاله بعض الصحابة وهو الظاهر أنه الحق[٣].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ

---

(١) انظر: القرطبي (١٢٣/٨)، الدر المصون (٤٢/٦).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب: ما أُدي زكاته فليس بكنز. حديث رقم: (١٤٠٦) (٢٧١/٣) وأخرجه في موضع آخر، حديث رقم: (٤٦٦٠).

(٣) انظر: الأضواء (٤٣٤/٢).

ٱللَّهِ﴾ رد الضمير هنا على الفضة ولم يقل: «ولا ينفقونهما» وللعلماء في توجيهه في اللغة العربية أقوال[١]، والتحقيق أن من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن رجوع الضمير على أحد المتعاطفين بـ (الواو) أو (الفاء) أو (أو)، وهو في (أو) أظهر اكتفاء ببعضهما؛ لأن الآخر مفهوم منه، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب[٢]، فمن أمثلته في القرآن: ﴿يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا..﴾ ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا﴾ [البقرة: آية ٤٥] ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ [الأنفال: الآية ٢٠] ومن أمثلته بـ (أو): ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾ [النساء: آية ١١٢] ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: آية ١١] ومن رجوع الضمير إلى المتعاطفين بـ (أو) قوله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: آية ١٣٥] ومثال إفراده في المتعاطفين بـ (الفاء): قول امرىء القيس[٣]:

فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمُها ....

فرده على أحدهما. وهو في العطف بـ (الواو) كالآية كثير جداً في كلام العرب، منه قول نابغة ذبيان[٤]:

وقد أراني ونُعْماً لاهيينِ بهَا والدهْرُ والعيشُ لم يهمم بإمْرَارِ

ولم يقل: «ولم يهمما». ومنه قول حسان رضي الله عنه[٥]:

إن شَرْخ الشبابِ والشَّعْر الأ سْوَد ما لم يُعَاص كان جُنُونَا

وهو كثير في كلام العرب.

---

(١) انظر: الدر المصون (٦/٤٢).
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.
(٥) السابق.

وقوله: ﴿يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ التحقيق - إن شاء الله - الذي هو الصواب: أن كنز الفضة والذهب الذي يكوى به صاحبه هو ما منع فيه حق الله من الزكاة[1]، أما ما أُديت زكاته، وأُخرج حق الله الواجب فيه، فالباقي بعد هذا لا يُسمى كنزاً، وإن كان تحت الأرض، ولا يُكوى به صاحبه، هذا هو المذهب الحق - إن شاء الله - وأدلته واضحة، وبراهينه ساطعة لا شك فيها؛ لأن الله أوجب في مال الإنسان من ذهبه أو فضته أو ماشيته أو ثماره وزروعه وكل ذلك أوجب فيه حقاً معيناً في أقدار معينة بيّنها رسول الله ﷺ، بيّن أنها هي الحق في مال الإنسان، وأن أخذها يطهر الإنسان ويطهر له ماله، فإذا أدى ما أوجبه الله عليه وأمره به فقد طهر هو وطهر ماله، ولم يبق فيه شيءٌ عليه تبعه؛ لأن الله لو كان يكوي به جنبه ووجهه وظهره فلا فائدة في دفع الزكاة إذا كان المال يلزم أن ينفقه كله، فلا وجه للزكاة ولا محل للمواريث؛ لأن الفرائض والمواريث التي نزل بها كتاب الله إنما هي في أموال تبقى بعد صاحبها، فالتحقيق الذي لا شك فيه - إن شاء الله - أن الكنز الذي يكوى به صاحبه هو ما منع فيه حق الله ولم يؤدِّ زكاته، أما ما أدى زكاته وأعطى حق الله فيه فليس بكنز ولا يكوى به، فإن شاء أكثر من التطوع، وإن شاء أمسك لنفسه، والقدر الواجب أوجب الله أخذه معيناً بتحديد من رسوله ﷺ، ومما يوضح هذا قوله [لرسوله][2] ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: آية ١٠٣] وهي الزكاة، فعرفنا أن أخذها يطهرهم ويزكيهم. وفي حديث ضمام بن ثعلبة لمّا أمره النبي بدعائم الإسلام، وذكر له فرض الزكاة، قال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «**لا إلا أن تتطوع**»[3]. فهذا هو الحق - إن شاء الله - أنّ ما أُديت زكاته فليس بكنز ولو تحت الأرض، وما لم تؤد زكاته فهو كنز يكوىٰ به صاحبه وإن كان ظاهراً على وجه الأرض.

---

(١) انظر: الأضواء (٤٣١/٢ - ٤٣٤).

(٢) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأعراف.

قال: ابن خويز منداد من المالكية: هذه الآية من سورة براءة تضمنت زكاة العين[(١)]. يعني بالعين: النقدين، الذهب والفضة.

ونحن عادة في هذه الدروس إذا مررنا بآية من كتاب الله هي أصل باب من أبواب الفقه نتعرض إلى مسائله الكبار، ونبين عيونها ومسائلها التي لها أهمية، وهذه الآية الكريمة على التحقيق فيها كأنها تشير إلى الزكاة، وأن من لم يؤدها أنه يُكوى بذلك المال الذي لم يؤدِ زكاته كما سيأتي في حديث مسلم.

اعلموا أن المسلمين أجمعوا على وجوب زكاة الفضة والذهب، وأن النبي ﷺ - لا خلاف بين العلماء من كافة المسلمين أنه - بيّن قدر نصاب الفضة وقدر الواجب فيها، فبيّن أن نصاب الفضة مئتا درهم شرعي، وأنها خمسة أواق، والأوقية: أربعون درهماً، وأن قدر الواجب منها: ربع العشر[(٢)]، هذا أمر لا شك فيه، أن مائتي درهم ففيها زكاة يخرج منها ربع عشرها، وليس في أقل من مائتي درهم شرعي زكاة. والدرهم الشرعي: قال علماء المالكية بالتحديد: ينبغي أن يكون بوزن أهل مكة الأول المتعارف؛ لما ثبت عن ابن عمر عند النسائي وأبي داود أن النبي ﷺ قال: **«المكيال مكيال أهل المدينة، والوزن وزن أهل مكة»**[(٣)] فالخمسة الأوسق تعرف بصاع

---

(١) نقله القرطبي (٨/١٢٤)، والشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٢/٤٣٤).

(٢) انظر المدونة (١/٢٤٢ - ٢٤٤)، بدائع الصنائع (٢/١٦ - ١٨)، المغني (٤/٢٠٩ - ٢١٣)، الأضواء (٢/٤٣٤ - ٤٣٥).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب البيوع، باب قول النبي ﷺ: **«المكيال مكيال أهل المدينة»** رقم (٣٣٢٤) (٩/١٨٨)، والنسائي في كتاب الزكاة، باب كم الصاع، رقم (٢٥٢٠) (٥/٥٤)، في كتاب البيوع، باب الرجحان في الوزن. رقم (٤٥٩٤) (٧/٢٨٤)، والطبراني في الكبير (١٣٤٤٩)، والبيهقي (٦/٣١)، كلهم من طريق أبي نعيم الفضل بن دكين، عن سفيان عن حنظلة عن طاووس عن ابن عمر.

وأخرجه أبو عبيد في الأموال (١٦٠٧)، ومن طريقه البغوي (٢٠٦٣) عن أبي المنذر إسماعيل بن عمر عن سفيان به. وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٢/٩٩) من طريق الفريابي عن سفيان به.

وأخرجه ابن حبان (٣٢٨٣) من طريق أبي أحمد الزبيري عن سفيان فخالف من تقدم في متن الحديث وإسناده. انظر الإرواء (١٣٤٢) (٥/١٩١).

النبي ﷺ في المدينة، ومائتا درهم ـ نصاب الفضة ـ تعرف بالوزن الذي كان معروفاً عند أهل مكة.

وقد حرر علماء المالكية الأمرين[١] وقالوا: إن الدرهم المكي الشرعي وزنه خمسون وخُمسا حبة من مطلق الشعير. هكذا الذي يقولون، وزاد بعضهم: سُبع الحبة. والتحقيق عندهم هو هذا، فإذا كان عند الإنسان مائتا درهم شرعية فإنه يجب عليه زكاتها وإخراج ربع عشرها كما هو معلوم، وهذا لا نزاع فيه بين العلماء. وكل درهم ستة دوانق، وكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل، وأربعون درهماً هي الأوقية. وهذا معروف لا نزاع فيه.

وأكثر العلماء على أن الفضة لا وقص فيها[٢]، فإذا كانت عنده مائتا درهم أخرج ربع عشرها، وكل ما زاد فبحسابه. وقال بعض العلماء: إذا زاد عن مائتي درهم لم يكن عليه شيء حتى يبلغ الأربعين درهماً.

أما الذهب فقد ذكر بعض العلماء أنه لم يثبت فيه تحديد من النبي ﷺ لا في نصابه ولا في المُخرج منه[٣]، وهذا مروي عن الشافعي، وقاله ابن عبدالبر، وبالغ ابن حزم في نصره، أن النبي لم يثبت عنه شيء في تحديد نصاب الذهب ولا في قدر المخرج منه. والتحقيق أن النبي ﷺ ثبت عنه قدر نصاب الذهب وقدر المخرج منه، وأن نصاب الذهب عشرون ديناراً ليس فيما دونها صدقة، وأن في الذهب مثل ما في الفضة ربع العشر.

اعلموا أولًا أن الكتاب والسنة وإجماع المسلمين كل واحد منها قد دلّ على أن الزكاة تجب في الذهب، وقد دلّ عليه القرآن في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...﴾ الآية [التوبة: آية ٣٤]. ودلت عليه السنة الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، من ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: «**ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يخرج منهما حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفحت له صفائح من**

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤١) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: الأضواء (٤٣٦/٢).

(٣) انظر: الأم للشافعي (٤٠/٤)، الاستذكار لابن عبدالبر (٣٤/٩)، المحلى (٦٦/٦)، الأضواء (٤٣٨/٢).

نار فأُحمي عليها فيكوى بها جنبه وظهره ووجهه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، كلما بردت أُعيدت فأُحمي عليها حتى يقضي الله بين العباد فيرى سبيله إمّا إلى الجنة وإما إلى النار»[١] فهذا نص صحيح ثابت في صحيح مسلم أن الذهب تجب فيه الزكاة، وأن من لم يؤد زكاته يكوى به يوم القيامة، ويُصفح له صفائح من نار. إذا عرفتم أن أصل زكاة الذهب واجبة بالكتاب والسنة والإجماع، فبيان تحديد النصاب وقدر المخرج منه كأنه بيان لإجمال من كتاب الله، وقد جاء عن النبي ﷺ ما يبين هذا الإجمال ويوضحه، ويُعَيِّن قدر نصاب الذهب، وقدر الواجب إخراجه فيه، وهو ما رواه أبو داود في سننه من طريق أبي إسحاق عن عاصم بن ضمرة السلولي والحارث الأعور الهمذاني عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال ما معناه: **«إن في عشرين ديناراً من الذهب نصف دينار»**[٢]. وهذا بعينه تحديد النصاب بعشرين ديناراً، وتحديد الواجب فيه بربع العشر، هذا الحديث رواه أبو داود وسكت عنه. ومعروف أن كثيراً من العلماء ناقشوا في هذا الحديث وضعّفوه بالحارث الأعور، وقالوا: وعاصم بن ضمرة السلولي ضعيف أيضاً، فضعفوا هذا الحديث. ونحن نقول[٣]: إن هذا الحديث عند المناقشة الصادقة ليس بضعيف، وأن الحارث الأعور وإن كان ضعيفاً عند قوم ـ وإن وثقه ابن المديني وغيره[٤] ـ فقد ضعفه أكثر

---

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنفال.

(٢) أخرجه عبدالرزاق (٨٩/٤)، وأبو داود في الزكاة، باب في زكاة السائمة. حديث رقم: (١٥٥٧، ١٥٥٨) (٤٤٤/٤، ٤٤٧) مع تردد بعض رواته ـ عند أبي داود ـ في رفعه.
وأخرجه ابن أبي شيبة (١١٩/٣)، وأبو عبيد في الأموال ص٣٦٩ موقوفاً على علي (رضي الله عنه).
وانظر: الاستذكار (٢١/٩، ٣٤)، التلخيص (١٧٣/٢)، الإرواء (٢٩١/٣).

(٣) انظر: الأضواء (٤٣٨/٢ ـ ٤٤٢).

(٤) العبارة غير منضبطة من حيث المعنى كما ترى. ولعل الشيخ أراد أن يقول: «وإن كذبه ابن المديني وغيره..» فسبق لسانه إلى ذلك. لأن ابن المديني كذّب الحارث الأعور كما نقل ذلك الذهبي في الميزان (٤٣٥/١) ويدل على ذلك ما ذكره الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٤٣٩/٢). والحارث الأعور كذبه كذلك: الشعبي وأبو إسحاق السبيعي، =

العلماء. أما عاصم بن ضمرة فالتحقيق أنه صدوق أثنى عليه غير واحد، وهو لا بأس به، فروايته محتج بها وهي معتضدة بأشياء عديدة تقوم بها الرواية الضعيفة أحرى التي هي غير ضعيفة؛ لأن روايته معتضدة برواية الحارث الأعور، وهو يُقبل في المتابعات والشواهد، ومعتضدة بإجماع المسلمين على مقتضاه؛ لأن هذا الحديث أجمع على مقتضاه عامة المسلمين ولم يخالف منهم أحد إلا شيء يروى عن داود الظاهري وبعض أتباعه، أما فقهاء الأمصار والصحابة والأئمة الأربعة وأصحابهم وكافة العلماء المعروفين لم يخالف أحد منهم في أن نصاب الذهب عشرون ديناراً، وأن الواجب فيه ربع العُشر كالفضة، ورُوي عن الحسن البصري أن نصابه أربعون[1]، وعن

= وأبو خثيمة وذكر إبراهيم النخعي أنه اتُّهم، وقال أبو بكر بن عياش: «لم يكن الحارث بأرضاهم، كان غيره أرضى منه. قال: وكانوا يقولون: إنه صاحب كتب كذاب» ا.هـ. وقال جرير: «كان الحارث الأعور زيفاً» ا.هـ. وعن مغيرة: «لم يكن الحارث يصدق عن علي في الحديث» ا.هـ. وقال ابن حبان: «كان الحارث غالياً في التشيع واهياً في الحديث» ا.هـ. وضعفه الدارقطني، وقال ابن عدي: «عامة ما يرويه غير محفوظ» ا.هـ. وترك الاحتجاج به أبو زرعة وأبو حاتم وابن مهدي، وابن معين ضعفه، ومرة قال: «ليس به بأس» ا.هـ. وقال مرة: «ما زال المحدثون يقبلون حديثه» ا.هـ. وقال مرة: «ثقة». وتعقبه عثمان الدارمي بقوله: «ليس يتابع يحيى على هذا» ا.هـ. وكذا النسائي قال مرة: «ليس بالقوي» وقال مرة: «ليس به بأس» وقال ابن سيرين: «أدركت الكوفة وهم يقدمون خمسة: من بدأ بالحارث الأعور ثَنّى بعبيدة، ومن بدأ بعبيدة ثَنّى بالحارث» ا.هـ. وقال: «كان أصحاب ابن مسعود خمسة يُؤخذ عنهم، أدركت منهم أربعة وفاتني الحارث فلم أره وكان يُفضل عليهم» ا.هـ. وعن سفيان: «كنا نعرف فضل حديث عاصم بن ضمرة على حديث الحارث» ا.هـ. وقال فيه الذهبي: «من كبار علماء التابعين على ضعف فيه» ا.هـ. وقال: «والجمهور على توهين أمره مع روايتهم لحديثه في الأبواب» ا.هـ. وقد نقل الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٥٦/٢) قول بعض من رماه بالكذب ولم ينقل عن أحد توثيقه. فقول الشيخ (رحمه الله) هنا: «فقد ضعفه أكثر العلماء» ا.هـ. في محله، وإنما توسعت في هذا التعليق لأن عبارة الشيخ هذه أيضاً لربما توهم القارىء أنها من سبق اللسان وليست كذلك.

(١) أخرج عبدالرزاق في المصنف (٨٩/٤)، وابن أبي شيبة (١١٨/٣)، وابن عبدالبر في الاستذكار (٢٥/٩) عن الحسن: «ما زاد على المائتين فلا يؤخذ منه شيء حتى يبلغ أربعين» وجاء عنه رواية ثانية نقلها النووي في المجموع (١٧/٦) أنه لا زكاة فيما هو دون أربعين مثقالاً لا تساوي مائتي درهم.

طاووس أنه يقاس بالفضة، فما بلغ من الذهب قيمة مائتي درهم كانت فيه الزكاة، وما دون ذلك فلا. وهذا لا يكاد يلتفت إليه[١] لكثرة من خالفه من أجلاّء العلماء من الصحابة فمن بعدهم. فحديث عاصم بن ضمرة حجة، وهو معتضد برواية الحارث الأعور، وبإجماع المسلمين، وهذا إنما هو بيان لأمر ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنه واجب، ومعلوم أن البيان إرشاد ودلالة، وهو يصح في كل شيء يجلو الجهالة والإجمال.

وهذا هو التحقيق ـ إن شاء الله ـ أن نصاب الذهب عشرون مثقالًا، وأن الواجب فيها ربع العشر، وأنه لا وقص فيه فما زاد فبحسابه.

فإن كان عنده بعض النصاب من الذهب وبعضه من الفضة فهل يضم الفضة للذهب[٢]؟ ليس في ذلك نص عن رسول الله ﷺ، وأنظار العلماء اختلفت فيه، فذهب بعض العلماء إلى أنه لا يضم الذهب إلى الفضة ولا الفضة إلى الذهب في الزكاة، وتوقف في هذا الإمام أحمد بن حنبل في رواية الأثرم، وقطع في رواية حنبل أنه لا يضم أحدهما إلى الآخر[٣]. فمن كانت عنده عشرة مثاقيل ومائة درهم لا زكاة عليه على هذا، وبهذا قال الإمام الشافعي وأكثر أصحابه في طائفة كثيرة من العلماء. وقال مالك بن أنس وأصحابه: يضم الذهب إلى الفضة فيكون النصاب منهما معاً. وهو مروي عن أبي حنيفة (رحمة الله) على الجميع. وعلى هذا فلو كان عنده مائة درهم وعشرة دنانير وجبت عليه الزكاة، فأخرج من الدنانير ربع عشرها، ومن الدراهم ربع عشرها وهكذا.

---

(١) أخرج عبدالرزاق (٩٢/٤)، وابن عبدالبر في الاستذكار (٢٤/٩) عن طاووس قال: «إذا زادت الدراهم على مائتي درهم فلا شيء فيها حتى تبلغ أربعمائة درهم». قال في المغني (٢١٢/٤ ـ ٢١٣): «وقال عامة الفقهاء: نصاب الذهب عشرون مثقالاً من غير اعتبار حقيقتها، إلا ما حُكي عن عطاء وطاووس والزهري... أنهم قالوا: هو معتبر بالفضة، فما كان قيمته مائتي درهم ففيه الزكاة وإلا فلا؛ لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ تقدير في نصابه» ا.هـ.

(٢) انظر: الاستذكار (٤٠/٩)، المبسوط (١٩٢/٢)، المجموع (١٨/٦)، المغني (٢١٠/٤)، الأضواء (٤٤٤/٢).

(٣) انظر: المغني (٢١٠/٤).

واعلموا أن من توابع هذه المسألة أشياء اختلف فيها العلماء سنذكر طرفاً منها، من ذلك: إذا كان الذهب والفضة حلياً مصوغاً مباحاً تتزين به النساء، هل تجب فيه الزكاة أو لا[١]؟ اختلف فيه العلماء وفقهاء الأمصار والصحابة فمن بعدهم، فذهب كثير من العلماء إلى أنه لا زكاة في الحلي المباح، منهم مالك والشافعي وأحمد وأصحابهما وخلق لا يحصى من الصحابة فمن بعدهم. وذهب آخرون إلى أن الحلي المباح تجب فيه الزكاة، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه وخلق من الصحابة فمن بعدهم. واحتج كل بحجج، أما الذين قالوا: لا تجب فيه الزكاة فإنما احتجوا بحديث جاء في ذلك وآثار عن الصحابة، واحتجوا بوضع اللغة، أما الحديث الذي جاء في ذلك هو حديث رواه البيهقي في كتاب معرفة السنن والآثار، رواه من طريق عافية بن أيوب عن الليث بن سعد عن أبي الزبير عن جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما) أن النبي ﷺ قال: «**لا زكاة في حلي**»[٢].

هذا الحديث قال الآخرون: لا يجوز الاحتجاج به؛ لأن عافية بن أيوب مجهول وغالى البيهقي (رحمه الله) فقال: إن العمل بحديث عافية هذا من جنس العمل بأحاديث الكذابين.

ونحن نقول: إن هذه مغالاة منه (رحمه الله)؛ لأن عافية بن أيوب لم يقل فيه أحد إنه كذّاب، وغاية ما في الباب أن البيهقي ظنّ أنه مجهول، وقد وثقه غير البيهقي، فقد نقل ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل عن أبي زرعة أنه وثق عافية بن أيوب هذا وقال: لا بأس به[٣]. وقال ابن

---

(١) انظر: الاستذكار (٩/٦٦)، المبسوط (٢/١٩٢)، المجموع (٦/٣٢)، المغني (٤/٢٢٠)، الأضواء (٢/٤٤٥).

(٢) البيهقي في المعرفة (٣/٢٩٨) وقال: «لا أصل له مرفوعاً، إنما يُروى عن جابر من قوله غير مرفوع» ا.هـ. وقد رواه الشافعي في الأم (٢/٤١)، وعبدالرزاق (٤/٨٢)، وأبو عبيد في الأموال ص٣٩٩، والدارقطني (٢/١٠٧)، والبيهقي في السنن (٤/١٣٨) موقوفاً على جابر (رضي الله عنه). وانظر: تنقيح التحقيق (٢/١٤٢٠)، نصب الراية (٢/٣٧٤)، الإرواء (٣/٢٩٤)، الأضواء (٢/٤٤٦).

(٣) الجرح والتعديل (٧/٤٤).

الجوزي في جرحه وتعديله: لا أعلم فيه قادحاً ولا جرحاً[١]. فدعوى أنه من الكذابين ليس بصحيح.

واحتجوا بآثار من الصحابة كثيرة؛ لأنه جاءت آثار عن الصحابة أنهم لا يخرجون زكاة الحلي، وهو ثابت عن عائشة[٢] وابن عمر[٣] وجماعة من الصحابة (رضي الله عنهم) واحتجوا بالقياس، ومعلوم أن القياس يستعمل مع النص إذا كان لتعضيد النص لا ليخالفه؛ لأن النصوص لا مانع من اعتضاد بعضها بعضاً، وقد تقرر في الأصول[٤] أن النص الذي يوافق[٥] [القياس مقدم في حال الترجيح].

النوع الثاني من القياس: وهو المعروف عندهم بـ (قياس العكس)، وقياس العكس قال جماعة من الأصوليين: يُحتج به، وأبى الاحتجاج به جماعة آخرون[٦]. وقياس العكس قد نبّه عليه النبي ﷺ في الحديث الثابت في صحيح مسلم؛ لأنه ﷺ لما قال: «**وفي بضع أحدكم أجر**» قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته وله فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟**»[٧] فهذا قياس عكس، وهو إعطاء

---

(١) قال ابن الجوزي في كتاب التحقيق (كما في تنقيح التحقيق) (١٤٢١): «ما عرفنا أحداً طعن فيه» ا.هـ.

(٢) أخرجه البيهقي في المعرفة (٢٩٣/٣)، وفي السنن الكبرى (١٣٨/٤).

(٣) أخرجه البيهقي في المعرفة (٢٩٣/٣)، وفي السنن الكبرى (١٣٨/٤).

(٤) انظر: شرح الكوكب المنير (٦٩٥/٤)، الأضواء (٤٥٠/٢).

(٥) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
قال في الأضواء (٤٤٨/٢): «وأما القياس فمن وجهين: الأول: أن الحلي لما كان لمجرد الاستعمال لا للتجارة والتنمية أُلحق بغيره من الأحجار النفيسة كاللؤلؤ والمرجان، بجامع أن كلاً مُعَدّ للاستعمال لا للتنمية. وقد أشار إلى هذا الإلحاق مالك ـ رحمه الله ـ في [الموطأ] بقوله: فأما التبر والحلي المكسور الذي يريد أهله إصلاحه ولبسه فإنما هو بمنزلة المتاع الذي يكون عند أهله، فليس على أهله فيه زكاة. قال مالك: ليس في اللؤلؤ ولا في المسك والعنبر زكاة».

(٦) انظر: شرح الكوكب المنير (٢١٩/٤)، وانظر الكلام على هذا القياس مع الأمثلة والتطبيقات المذكورة في الأضواء (٤٤٩/٢ ـ ٤٥٠).

(٧) مسلم في الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع معروف. حديث رقم: (١٠٠٦) (٦٩٧/٢) من حديث أبي ذر (رضي الله عنه).

حكم عكس حكم لتعاكسهما في العلة[(١)].

قالوا: وكذلك هنا في الحلي المباح، فإن العروض لا تجب الزكاة في عينها، فإذا كانت للتجارة وجبت الزكاة في عينها، عكس الذهب والفضة، فإن الزكاة في عينها، فإذا انقطع عنها اسم النماء والتجارة صارت لا زكاة فيها، من قياس العكس.

ومن أمثلة قياس العكس عند المالكية مما اختلفوا مع غيرهم في القيء هل ينقض الوضوء أو لا؟ قالوا: لا ينقض الوضوء كثير القيء، قياساً على قليل القيء، عكس البول، فإنه لما انتقض الوضوء بقليله انتقض بكثيره. ومن أمثلة قياس العكس عند الحنفية قولهم: لا قصاص في القتل بكبير المُثقّل، كعمود الحديد والصخرة، قياساً على صغير المُثقّل، كالقضيب الذي لا قصاص في الضرب به، عكس المُحدّد، فإنه لما وجب القصاص في قليله وجب في كثيره. هذا هو غالب حجة أهل هذا القول الذين قالوا: لا زكاة في الحلي.

أما الذين قالوا: تجب في الحلي المباح زكاة فاحتجوا أيضاً بأحاديث جاءت عن النبي ﷺ، وبآثار عن السلف، وبوضع اللغة، وبالقياس أيضاً[(٢)].

أما وضع اللغة من حجة الأولين فقولهم: إنه ﷺ قال: «**وفي الرقة[(٣)] ربع العشر**»[(٤)] وقال: «**ليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة**»[(٥)].

---

(١) انظر: الأضواء (٢/٤٤٩).

(٢) انظر: الأضواء (٢/٤٥١).

(٣) قال في الأضواء (٢/٤٥٠): «قال أبو عبيد: الرقة عند العرب: الورق المنقوشة ذات السكة السائرة بين الناس، ولا تطلقها العرب على المصوغ، وكذلك قيل في الأوقية. قال مقيده ـ عفا الله عنه ـ: ما قاله أبو عبيد هو المعروف في كلام العرب، قال الجوهري في صحاحه: الورق: الدراهم المضروبة، وكذلك الرقة، والهاء عوض عن الواو. وفي القاموس: الورق ـ مثلثة، وككتف ـ: الدراهم المضروبة، وجمعه أوراق ووراق كالرقة» ا.هـ.

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة، باب: زكاة الغنم. حديث رقم: (١٤٥٤) (٣/٣١٧ـ٣١٨).

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة، باب: ليس فيما دون خمس ذوو صدقة. حديث رقم: (١٤٥٩) (٣/٣٢٢). وأخرجه في موضع آخر، انظر رقم: (١٤٨٤). ومسلم في الزكاة، =

قالوا: والورق لا تطلق إلا على الدراهم المنقوشة، ولا تطلق على الحلي. هذا من حجة الأولين بالوضع اللغوي.

وأما الذين قالوا: تجب الزكاة فيه فاحتجوا أيضاً بأحاديث جاءت عن النبي ﷺ، وآثار عن السلف، وبالقياس، وبوضع اللغة أيضاً.

ومن الأحاديث الدالة على ذلك: ما رواه أبو داود والنسائي من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ وجده: هو عبدالله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) ـ أن النبي ﷺ دخلت عليه امرأة ومعها ابنتها، وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب ـ يعني سوارين من ذهب ـ فقال لها: «**أتؤدين زكاة هذا؟**» فقالت: لا. فقال: «**أيسرّك أن يسوّرك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار؟!**» فخلعتهما فقالت: هما لله ولرسوله[1].

= حديث رقم: (٩٧٩) (٢/٦٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه). وأخرجه مسلم أيضاً من حديث جابر (رضي الله عنه) في الزكاة، حديث رقم: (٩٨٠) (٢/٦٧٥).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/١٥٣)، وعبدالرزاق (٤/٨٥ ـ ٨٦)، وأحمد (٢/١٧٨)، وأبو عبيد في الأموال ص٣٩٧، وابن زنجويه في الأموال (٣/٩٧٣)، وأبو داود في الزكاة، باب: الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي. حديث رقم: (١٥٤٨) (٤/٤٢٥)، والترمذي في الزكاة، باب: ما جاء في زكاة الحلي. حديث رقم: (٦٣٧) (٣/٢٠ ـ ٢١) وعقبه بقوله: «وهذا حديث قد رواه المثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب نحو هذا، والمثنى بن الصباح وابن لهيعة يضعفان في الحديث. ولا يصح في هذا الباب عن النبي ﷺ شيء» ا.هـ. وقال ص٢٠: «وقد رُوي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه رأى في الحلي زكاة. وفي هذا الحديث مقال» ا.هـ. والنسائي في الصغرى، في الزكاة، باب: زكاة الحلي. حديث رقم: (٢٤٧٩، ٢٤٨٠) (٥/٣٨) وفي الكبرى، في الزكاة، باب: زكاة الحلي. حديث رقم: (٢٢٥٨، ٢٢٥٩) (٢/١٩). والبيهقي في الكبرى (٤/١٤٠)، وابن حزم في المحلى (٦/٧٨) وأشار لضعفه. (بعضهم يرويه مرسلاً وبعضهم موصولاً) وقد ذكر له ابن الجوزي في التحقيق أربع طرق، وقد أعلها ابن عبدالهادي في التنقيح (٢/١٤٢٥) جميعاً. وقال الحافظ في الدراية (١/٢٥٨): «صححه ابن القطان، وقال المنذري: لا علة له. قلت: أبدى له النسائي على غير قادحة» ا.هـ. إلى أن قال: «وروى أحمد وابن أبي شيبة والترمذي من طريق المثنى بن الصباح وابن لهيعة وهما ضعيفان...» ا.هـ. وانظر: نصب الراية (٢/٣٧٠ ـ ٣٧١)، وقال في الإرواء (٣/٢٩٦): «وإسناده إلى عمرو عند أبي داود والنسائي وأبي عبيد جيد» ا.هـ. وانظر: آداب الزفاف ص٢٥٦، صحيح أبي داود (١/٢٩١)، صحيح النسائي (٢/٥٢٣).

هذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائي من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. والتحقيق أن رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ مع ما فيها من الكلام ـ أنها يصح الاحتجاج بها، وأنها ليست بضعيفة. وقال الترمذي في هذا الحديث: لم يرد من طريق صحيحة[1] وذكره من طرق كلها ضعيفة، ولم يطلع على رواية حسين المعلم له.

والتحقيق أنه جاء من رواية أقل درجاتها الحسن، فلا شك في الاحتجاج بهذا الحديث من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، وهذا روي أيضاً عن غيرها. وقد أخرج أبو داود في سننه أيضاً عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها كانت تلبس أوضاحاً من ذهب، فسألت رسول الله فقالت: أكنز هو يا رسول الله؟ قال: «**ما بلغ أن تُؤدى زكاته فأُديت زكاته ليس بكنز**»[2] فهذا يدل على أن الأوضاح التي تتزين بها من حليها أن فيها الزكاة. ويعتضد هذا بحديث عائشة (رضي الله عنها) أن النبي ﷺ دخل عليها وفي يدها فتخات من فضة ـ والفتخات: نوع من الخواتم لا فصوص له، وقد يكون في أصابع اليد، وقد يُجعل في أصابع الرجل ـ فقال: «**ما هذه؟**» قالت: فقلت: شيء صنعته لأتزين لك به! فقال: «**أتؤدين زكاتها؟**» قالت: لا، قال: «**هو حسبك من النار**»[3].

---

(١) سنن الترمذي (٣/٢٠، ٢١).

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب: الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي. حديث رقم: (١٥٤٩) (٤٢٦/٤) والدارقطني (١٠٥/٢)، والبيهقي في الكبرى (١٤٠/٤) وعقبه بقوله: «وهذا يتفرد به ثابت بن عجلان» ا.هـ. وفي الصغرى (٣٢٥/١ ـ ٣٢٦)، والحاكم (٣٩٠/١) وقال: «صحيح على شرط البخاري» ا.هـ. ووافقه الذهبي. وأخرجه الطوسي في مستخرجه على الترمذي (٢٢٨/٣) وقال: «هذا حديث حسن» ا.هـ. وذكره ابن حزم في المحلى (٧٩/٦) وعقبه بقوله: «عتاب مجهول» ا.هـ. وانظر: تنقيح التحقيق (١٤٢٣/٢، ١٤٢٦)، نصب الراية (٣٧١/٢). وقد حسن الألباني أحد طرقه في التعليق على المشكاة (٥٦٨/١)، وصحيح أبي داود (٢٩١/١).

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب: الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي. حديث رقم: (١٥٥٠، ١٥٥١)، والدارقطني (١٠٥/٢) وقال: «محمد بن عطاء مجهول» ا.هـ. والبيهقي في الكبرى (١٣٩/٤ ـ ١٤٠)، وفي الصغرى (٣٢٦/١) وعقبه بقوله: «وهذا إسناد حسن» ا.هـ. والحاكم (٣٨٩/١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ا.هـ. وابن =

واستدلوا أيضاً بحديث أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: دخلت على رسول الله ﷺ أنا وخالتي، وعلينا أساور من ذهب، فقال: **«أتؤديان زكاة هذا؟»** فقلنا: لا. فقال: **«أديا زكاته، أيسرّكما أن تسوَّرا بهما سوارين من نار يوم القيامة؟»**[(١)]. فهذه أربعة من أصحاب رسول الله يروون عنه وجوب الزكاة في الحلي: ابن عمرو بن العاص، وأم سلمة، وعائشة، وأسماء بنت يزيد، وعضدوا هذا أيضاً بالقياس. وورد فيه آثار عن الصحابة أيضاً، كان عبدالله بن عمرو بن العاص يأمر خازنه أن يُخرج زكاة حلي بناته[(٢)].

واستدلوا بالقياس، قالوا: تجب الزكاة في الذهب والفضة في المصوغ منهما كما جازت في المسكوك والمسبوك، بجامع أن الكل أصله من ذهب وفضة، أصله من عين وجبت فيها الزكاة.

واحتجوا بوضع اللغة، قالوا: إن أصل الحلي المصوغ أصله يقال له ذهب وفضة، والصنعة لا تُذهب حكم الأصل، ولا تنقل اسمه من كل الوجوه.

هذا حاصل ما احتج به هؤلاء، وما احتج به هؤلاء، ومعلوم أن العقول إذا ازدحمت في مثل هذا وتشابهت الأدلة أن النبي ﷺ ألقى على

= زنجويه في الأموال (٣/٩٧٣ ـ ٩٧٤) وذكره ابن حزم في المحلى (٦/٧٩) وقال: «يحيى بن أيوب ضعيف» ا.هـ.
وقال الحافظ في التلخيص (٢/١٧٨): «وإسناده على شرط الصحيح» ا.هـ. وصححه الألباني في الإرواء (٣/٢٩٧)، صحيح أبي داود (١/٢٩١).
وانظر الكلام على الحديث في تنقيح التحقيق (٢/١٤٢٣، ١٤٢٧)، نصب الراية (٢/٣٧١).

(١) أخرجه أحمد (٦/٤٦١)، والبيهقي (٤/١٤١). وقد أعله ابن عبدالهادي في التنقيح (٢/١٤٢٣، ١٤٢٦) بشهر بن حوشب، وعبدالله بن عثمان بن خثيم، وعلي بن عاصم. وقال الحافظ في الدراية (١/٢٥٩): «وفي إسناده مقال» ا.هـ. وانظر: نصب الراية (٢/٣٧٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣/١٥٤)، وعبدالرزاق (٤/٨٤)، وأبو عبيد في الأموال ص٣٩٨، ٤٤٥، والدارقطني (٢/١٠٧)، والبيهقي في الكبرى (٤/١٣٩)، وابن زنجويه في الأموال (٣/٩٧٥). وانظر: نصب الراية (٢/٣٧٤).

مثل هذا أنواراً نبوية وأضواء عظيمة من ضوء النبوة تبين المخرج الصحيح منه، وهو قوله ﷺ: **«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»**[(١)]، **«فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»**[(٢)] فلا ينبغي للإنسان إلا أن يزكي حلي امرأته وبناته للخروج من عهدة التكليف؛ لأن من زكاه لقي الله سالماً منه بلا نزاع، ومن [لم يزكه][(٣)] كان في قيل وقال، جماعة يقولون: لا عليك، وجماعة يقولون: إن زكاة الحلي واجب.

ومما يدخل تحت هذه المسألة: زكاة العروض المعدة للبيع والشراء[(٤)]. أجمع عامة علماء المسلمين على أن عروض التجارة تجب فيها

---

(١) أخرجه عبدالرزاق (١١٧/٣ ـ ١١٨)، والطيالسي ص١٦٣، والدارمي (١٦١/٢)، وأحمد (٢٠٠/١)، والترمذي في أبواب صفة القيامة، باب (٦٠). حديث رقم: (٢٥١٨) (٦٦٨/٤)، والنسائي في الأشربة، باب: الحث على ترك الشبهات. حديث رقم: (٥٧١١) (٣٢٧/٨)، والحاكم (١٣/٢) (٩٩/٤)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ا.هـ. وابن حبان (الإحسان ٥٢/٢)، والطبراني (٧٥/٣ ـ ٧٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢٦٤/٨)، وأبو يعلى (١٣٢/١٢). من حديث الحسن بن علي (رضي الله عنهما). وصححه الألباني في الإرواء (١٥٥/٧)، غاية المرام ص١٣٠ ـ ١٣١، المشكاة (٨٤٥/٢)، صحيح الترمذي (٣٠٩/٢)، ظلال الجنة ص١٧٩.

وللحديث شاهد من حديث واثلة بن الأسقع (رضي الله عنه) عند أبي يعلى (٤٧٦/١٣)، والطبراني (٧٨/٢٢) وقال في المجمع (٢٩٤/١٠): «وفيه عبيد بن القاسم وهو متروك» ا.هـ. ومن حديث أنس (رضي الله عنه) (موقوفاً) عند أحمد (١١٢/٣، ١٥٣).

ومن حديث ابن عمر عند الطبراني في الصغير (١٠٢/١) وعقبه بقوله: «تفرد به عبدالله بن أبي رومان» ا.هـ. قال الألباني في الإرواء (١٥٦/٧) وهو ضعيف، «وبقية رجاله ثقات» ا.هـ. وذكره الخطيب في التاريخ (٢٢٠/٢)، (٣٨٦/٦)، وأبو نعيم في الحلية (٣٥٢/٦). وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢٩٧٤): موضوع.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه. حديث رقم: (٥٢) (١٢٦/١). وأخرجه في موضع آخر برقم: (٢٠٥١)، ومسلم في المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات. حديث رقم: (١٥٩٩) (١٢١٩/٣).

(٣) في الأصل: «زكاه». وهو سبق لسان.

(٤) انظر: المبسوط (١٩٠/٢)، المحلى (١١٤/٦)، المجموع (٤٧/٦)، المغني (٢٤٩/٤ ـ ٢٦٢)، الموسوعة الفقهية (٢٦٨/٢٣)، الأضواء (٤٥٧/٢).

الزكاة، وأنها تُزكىٰ مثل زكاة العين، تُقَوَّم عند الحول، ما يُشترى منها بالذهب يُقوَّم بالذهب، وما يُشترى بالفضة يُقوَّم بالفضة. قال هذا بعض العلماء، ثم يخرج ربع عشرها، وهذا لا نعلم خلافاً فيه إلا شيء يُروى عن داود الظاهري وبعض أتباعه[١]. وأما عامة الصحابة، وفقهاء الأمصار، ومنهم الأئمة الأربعة، وأتباعهم، على وجوب الزكاة في عروض التجارة، واستدلوا لذلك بأدلة منها أحاديث جاءت بذلك عن النبي ﷺ منها: ما أخرجه الحاكم بإسنادين وقال: «كلاهما صحيح على شرط الشيخين» وأخرجه الدارقطني والبيهقي أن النبي ﷺ قال: **«في الإبل صدقتها، وفي الغنم صدقتها، وفي البقر صدقتها، وفي البزِّ صدقتها»**[٢] والبز: يشمل جميع ما يُلبس وهذه من عروض التجارة. وهذا الحديث فيه مناقشات طويلة عريضة معروفة يطول ذكرها. وجميع هذه المسائل قد بيّنا مناقشات العلماء فيها في الذهب والفضة، والتجارات، والمعادن، والديون في كتابنا أضواء البيان في الكلام على هذه الآية الكريمة من سورة براءة[٣].

والحاصل: أنه جاء عن أبي ذر وعن سمرة بن جندب الفزاري (رضي الله عنه) كلاهما جاء عنه حديث يدل على زكاة عروض التجارة، أما

---

(١) انظر: المحلى (٦/١١٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/٢١٣)، وأحمد (٥/١٧٩)، والترمذي في العلل الكبرى (١/٣٠٧) وعقبه بقوله: «سألت محمداً عن هذا الحديث فقال: ابن جريج لم يسمع من عمران بن أبي أنس. يقول: حُدِّثت عن عمران بن أبي أنيس» ا.هـ. وابن زنجويه في الأموال (٢/٧٨٣)، والبزار (٩/٣٤٠)، والبيهقي (٤/١٤٧)، والحاكم (١/٣٨٨) وقال: «على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ا.هـ. وتعقبه ابن عبدالهادي في التنقيح (٢/١٤٣٨) بقوله: «وفيه نظر» ا.هـ. وأخرجه الدارقطني (٢/١٠١ ـ ١٠٢). (بألفاظ متقاربة).
والحديث ضعفه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٢/٣٨٨)، (٥/٥٥ ـ ٥٦)، وذكر له الحافظ في التلخيص (٢/١٧٩) أربعة طرق ـ وهي عند الدارقطني ـ فضعف ـ الحافظ ـ ثلاثة منها وقال عن الرابع: «وهذا إسناد لا بأس به» ا.هـ.
وقال عن الحديث في الدراية (١/٢٦٠): «وإسناده حسن» ا.هـ.
وانظر في الكلام عليه في: تنقيح التحقيق (٢/١٤٣٦ ـ ١٤٣٧)، إتحاف المهرة (١٤/١٨١) نصب الراية (٢/٣٧٦)، أضواء البيان (٢/٤٥٨).

(٣) الأضواء (٢/٤٣٤) فما بعدها.

حديث أبي ذر فقد ذكرناه. وأما حديث سمرة بن جندب الذي رواه عنه أبو داود أن النبي ﷺ كان يأمرنا أن نخرج الزكاة مما نعد للبيع[1]. وفي مناقشات طويلة عريضة، فمن مضعِّف ومصحح، وجماعة صححوا حديث الحاكم، وصححه الحاكم، وانتصر كثير لتصحيحه، ولا شك أنه معتضد بإجماع المسلمين في عهد الصحابة فمن بعدهم على أن عروض التجارة تجب فيها الزكاة. وقد ثبت عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه أخذ زكاة الجلود من حِمَاس، فعن أبي عمرو بن حِمَاس أن أباه مرَّ بعمر بن الخطاب يحمل جلوداً فقال: هل أديت زكاة هذا؟ ـ في جلود يتَّجر بها ـ فقال: لا، قال: هذا مال، فحسبوه فوجدوا الزكاة قد وجبت فيه، فأخذ منه زكاة الجلود[2]. فهذا ثابت عن عمر بن الخطاب ولم يخالفه أحد من الصحابة فالتحقيق الذي لا شك فيهَ وجوب الزكاة في عروض التجارة.

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب: العروض إذا كانت للتجارة هل فيها من زكاة؟ حديث رقم: (١٥٤٧) (٤٢٤/٤)، والدارقطني (١٢٧/٢)، والبيهقي في الكبرى (١٤٦/٤ ـ ١٤٧)، والصغرى (٣٢٧/١)، والطبراني في الكبير (٢٥٣/٧، ٢٥٧)، وذكره ابن حزم في المحلى (٢٣٤/٥) وقال: «أما حديث سمرة فساقط؛ لأن جميع رواته ما بين سليمان بن موسى وسمرة (رضي الله عنه) مجهولون لا يُعرف من هم» ا.هـ. وقال الهيثمي في المجمع (٦٩/٣): «في إسناده ضعف» ا.هـ. وقال الذهبي في الميزان (٤٠٨/١) عن سلسلة هذا الإسناد: «وبكل حال هذا إسناد مظلم لا ينهض بحكم» ا.هـ.

وقال ابن عبدالهادي في التنقيح (١٤٣٥/٢): «انفرد أبو داود بإخراج هذا الحديث وإسناده حسن غريب» ا.هـ. والحديث سكت عنه أبو داود والمنذري، وحسنه ابن عبدالبر، وضعفه الحافظ في التلخيص (١٧٩/٢)، والدراية (٢٦٠/١) والألباني في التعليق على المشكاة (٥٦٨/١)، ضعيف أبي داود ص١٥٤.

وانظر: بيان الوهم والإيهام (١٣٩/٥)، إتحاف المهرة (٣٠/٦)، تنقيح التحقيق (١٤٣٥/٢) التعليق المغني على الدارقطني (١٢٧/٢ ـ ١٢٨)، أضواء البيان (٤٥٩/٢ ـ ٤٦٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٨٣/٣)، والشافعي (شفاء العي بتخريج وتحقيق مسند الشافعي (٤١٤/١)، وفي الأم (٤٦/٢)، وأبو عبيد في الأموال ص٣٨٤، وعبدالرزاق (٩٦/٤)، والبيهقي (٣٢٧/١)، وابن زنجويه في الأموال (٩٤١/٣ ـ ٩٤٢)، وذكره ابن حزم في المحلى (٢٣٤/٥ ـ ٢٣٥) وقال: «وأما حديث عمر فلا يصح؛ لأنه عن أبي عمرو بن حماس عن أبيه، وهما مجهولان» ا.هـ. وانظر: تلخيص الحبير (١٨٠/٢).

أما زكاة الديون، وهل تمنع الديون الزكاة من المال أو لا[١]؟ فليس في ذلك شيء عن النبي ﷺ؛ لأنه لم يرد عن رسول الله شيء في زكاة الدين، ولا هل هو مسقط للزكاة أو لا؟ والعلماء مختلفون فيه، فاختلفوا في زكاة الدين، فكان مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ يرى على التاجر المدير[٢] أن يزكي دينه، يزكي الحالّ منه على الموسرين بالعدد، والمؤجل يزكيه بالقيمة؛ لأنه يزكي الدين مع عروض التجارة. وإذا كان الدين على حال مليء موسر مقر وعليه بينة فمالك يقول: إن مثل هذا كمثل الشيء الذي في صندوقه؛ لأن القدرة على التحصيل حصول، فيزكيه بالعدد، وهذا مذهب الشافعي. وقال آخرون: لا يزكيه إلا إذا قبضه. في تشاعيب وأقوال معروفة.

وهل يُسقط الدينُ الزكاة أو لا[٣]؟ لا نص فيه عن رسول الله ﷺ، والعلماء مختلفون فيه، وأقوالهم مع كثرتها متشابهة ترجع إلى ثلاثة مذاهب: قوم قالوا: إن الدين لا يسقط شيئاً من الزكاة، وقوم قالوا: يسقطها كلها. وقوم فرقوا بين الأموال الظاهرة والباطنة، قالوا: يُسقط الدين الزكاة في الأموال الباطنة. والأموال الباطنة: هي الذهب، والفضة، وعروض التجارة، فهذه يسقطها الدين. والأموال الظاهرة: هي المواشي، والثمار، والحبوب، والمعادن، قالوا: زكاة هذه لا يسقطها الدين؛ لأنها ظاهرة، والزكاة واجبة في عينها في أقوال معروفة.

ومن المسائل التي اختلفوا فيها: زكاة المعادن[٤]، وقدر الواجب فيها،

---

(١) انظر: المبسوط (١٩٤/٢)، المحلى (١٠٣/٦)، المجموع (٢٠/٦)، المغني (٢٦٩/٤)، الموسوعة الفقهية (٢٣٨/٢٣).

(٢) قال في الأضواء (٤٥٧/٢): «فالمدير: هو الذي يبيع ويشتري دائماً، والمحتكر: هو الذي يشتري السلع ويتربص بها حتى يرتفع سعرها، وإن لم يرتفع سعرها لم يبعها ولو مكثت سنين» ا.هـ.

(٣) انظر: المبسوط (١٩٧/٢)، المحلى (٩٩/٦، ١٠١)، المغني (٢٦٣/٤)، الموسوعة الفقهية (٢٤٥/٢٣)، أضواء البيان (٤٦٢/٢).

(٤) انظر: المحلى (١٠٨/٦)، المجموع (٧٥/٦)، القرطبي (٣٢٣/٣ ـ ٣٢٤)، المغني (٢٣٨/٤)، الموسوعة الفقهية (١٩٧/٣٨)، أضواء البيان (٤٦٦/٢).

فذهب مالك والشافعي أنه: لا يجب في زكاة المعادن إلا في معدن الذهب والفضة خاصة؛ لأن الذهب والفضة من الذين فيهما الزكاة، وجمهور العلماء منهم مالك والشافعي وأحمد على أن زكاة المعدن ربع العشر، وفي مذهب مالك والشافعي: أن المعدن إذا كان معدن ذهب أو فضة كل ما يخرج منه من ذهب وفضة أُديت منه زكاته حالًا ولم يُنتظر به الحول، وهي ربع العشر، ولا زكاة عندهما في معدن إلا إذا كان ذهباً أو فضة. وكان الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله) يقول: تجب الزكاة في جميع المعادن، سواء كانت من الذهب والفضة، أو من الحديد، والنحاس، والرصاص، أو الزجاج، والزرنيخ، وسائر المعادن، حتى المعادن السائلة كالقار، والنفط، فإنها تجب فيها الزكاة عنده، فزكاتها عنده ربع العشر.

أما الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) فإن الواجب عنده من المعادن الخُمس؛ لأنه يرى الخُمس من الركاز، وقد جاء في ذلك حديث أنه ﷺ سئل عن الركاز؟ وأنه قال: **«الذهب والفضة المخلوقان في الأرض يوم خلق الله السماوات والأرض»**[1]، وهذا الحديث لا يصح.

---

(١) أصل الحديث (وهو قوله ﷺ: **«في الركاز الخُمس»**) متفق عليه، والزيادة المذكورة عند البيهقي في الكبرى (١٥٢/٤) وعقبه بقوله: «تفرد به عبدالله بن سعيد المقبري وهو ضعيف جداً جرحه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وجماعة من أئمة الحديث. وقال الشافعي: في رواية أبي عبدالرحمٰن الشافعي البغدادي عنه: قد روى أبو سلمة وسعيد وابن سيرين ومحمد بن زياد وغيرهم عن أبي هريرة حديثه عن النبي ﷺ: **«في الركاز الخُمس»** ولم يذكر أحد منهم شيئاً من الذي ذكر المقبري في حديثه، والذي روى ذلك شيخ ضعيف إنما رواه عبدالله بن سعيد المقبري، وعبدالله قد اتقى الناس حديثه فلا يُجعل خبر رجل قد اتقى الناس حديثه حجة» ا.هـ. وأخرجه أبو يعلى (٦٦٠٩) بنحوه. وذكره الهيثمي في المجمع (٧٨/٣) وقال: «فيه عبدالله بن سعيد بن أبي سعيد وهو ضعيف» ا.هـ. وذكره ابن عدي في الكامل (٨٣٣/٢) وقال: «هذا الحديث أخطأ إبراهيم بن راشد على الدولابي... والبلاء في هذا الحديث من إبراهيم بن راشد لا من الدولابي ولا من ابن حبان» ا.هـ. وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (٩/٢) بلفظ أبي يعلى وقال: «قال الدارقطني: هذا وهم؛ لأن هذا ليس من حديث الأعمش ولا من حديث أبي صالح، إنما يرويه رجل مجهول عن آخر عن أبي هريرة» ا.هـ. وانظر: تلخيص الحبير (١٨٢/٢)، نصب الراية (٣٨٠/٢).

ولا تجب الزكاة في المعادن عند أبي حنيفة إلا فيما ينطبع منها كالذهب، والفضة، والحديد، والنحاس، والرصاص، وما جرى مجرى ذلك. ومن ذلك قول له وجه من النظر قالت به جماعات من العلماء: أن المعدن إذا كان في استخراجه كلفة ونفقات أن زكاته ربع العشر، وإذا كان يخرج بلا كلفة ولا مشقة أن زكاته الخمس.

وأجمع المسلمون على أن الركاز فيه الخمس(١)، واشترط الشافعي أن يكون الركاز من ذهب أو فضة، وعامة العلماء على خلافه، والركاز عند غير أبي حنيفة: دفن جاهلي، وعند أبي حنيفة يشمل جميع المعادن. هذه أقوال العلماء ذكرناها مختصرة، وقد أوضحناها في كتابنا الذي أشرنا إليه.

(. . .)(٢) بهمزة محققة، وقرأه ورش وحده عن نافع: ﴿**إنما النسيُ زيادة في الكفر**﴾ [التوبة: آية ٣٧] بياء مشددة، وما زعمه بعضهم ـ وقال به ابن جرير ـ من أن قراءة ورش هذه عن نافع غلط(٣). خلاف التحقيق، بل هي قراءة سبعية صحيحة لا كلام فيها، قرأ بها ورش عن نافع ﴿**إنما النَّسِيّ زيادة في الكفر**﴾ أبدلت الهمزة ياء، ثم أُدغمت الياء في الياء كما يقرأ بعض القراء: ﴿**النبيء**﴾ بالهمزة وبعضهم يقرأ ﴿**النبيّ**﴾(٤) بتشديد الياء(٥).

وقرأ قوله: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن

---

(١) انظر: المجموع (٦/٧٥)، القرطبي (٣/٣٢٢ ـ ٣٢٤)، المغني (٤/٢٣١ ـ ٢٣٨)، الموسوعة الفقهية (٢٣/٩٨)، أضواء البيان (٢/٤٦٩).

(٢) ذهب جزء من التسجيل في هذا الموضع، ويمكن أن نستدرك بعض النقص فننقل القراءات الواردة في ﴿**النسيء**﴾ عن كتاب «السبعة» لابن مجاهد ص٣١٤، حيث يقول: «اتفقوا على همز ﴿**النَّسِيءُ**﴾ ومده وكسر سينه، إلا ما حدثني به محمد بن أحمد بن واصل، عن محمد بن سعدان، عن عبيد بن عقيل، عن شبل، عن ابن كثير أنه قرأ: ﴿**إنما النَّسْءُ زيادة**﴾ في وزن (النَّسْعُ). وحدثني ابن أبي خيثمة، وإدريس، عن خلف، عن عبيد، عن شبل، عن ابن كثير أنه قرأ: ﴿**إنما النَّسِيُّ**﴾ مشددة الياء غير مهموزة. وقد رُوي عن ابن كثير: ﴿**النَّسْيُ**﴾ بفتح النون وسكون السين وضم الياء مخففة. والذي قرأت به على قنبل: ﴿**النَّسِيءُ**﴾ بالمد والهمز مثل أبي عمرو. والذي عليه الناس بمكة: ﴿**النَّسِيءُ**﴾ ممدودة» ا. هـ.

(٣) تفسير ابن جرير (١٤/٢٤٤).

(٤) تقدمت عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٥) انظر: البحر المحيط (٥/٣٩)، الدر المصون (٦/٤٦).

عامر وشعبة عن عاصم: ﴿يَضِلُّ به الذين كفروا﴾ بفتح الياء وكسر الضاد، مضارع (ضَلَّ يَضِلُّ) مجرداً لازماً، وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بضم الياء وفتح الضاد مبنياً للمفعول(١).

أما قراءة ﴿يَضَلُّ به الذين كفروا﴾ و﴿يُضِلُّ به الذين كفروا﴾ فليستا سبعيتين(٢).

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿زُين لهم سُوءُ وَعمالهم﴾ بإبدال الهمزة الثانية واواً. وقرأه غيرهم من السبعة: ﴿سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾ بتحقيق الهمزة الثانية(٣). هذه هي القراءات السبعية في الآية.

وسبب نزول هذه الآية الكريمة هو ما أشرنا إليه بالأمس أن الكفار كانوا يتلاعبون في الأشهر الحرم(٤)، وبعضهم يقول: في أشهر الحج، فيحرمون منها ما لم يحرمه الله، ويحلون ما لم يحلله الله(٥). فبيّن (جلّ وعلا) في هذه الآية أن ذلك كفر على كفر، أنه كفر ازدادوا به كفراً على كفرهم الأول.

والعلماء مختلفون في أول من سنّ هذه السنة السيئة الخبيثة، وهي سنة النسيء. فكان بعض العلماء يقول: أول من أحدثه الملعون عمرو بن لحي بن قمعة بن إلياس بن مضر، وهو الخبيث الذي هو أول من جاء بالأصنام إلى جزيرة العرب، وهو أول من بحّر البحائر فيها، وسيَّب السوائب، وغيّر معالم دين إبراهيم التي كانت في جزيرة العرب عليه لعائن الله(٦).

وأكثر المؤرخين يقولون: إن أول من سنّ هذه السنّة القبيحة قوم من بطن من بني كنانة يسمى بني فقيم، وهم من أولاد مالك بن كنانة، يزعم العرب أنهم كانوا متمسكين بدين إبراهيم، وكانوا يشرعون لهم ما شاؤوا،

---

(١) انظر: السبعة ص٣١٤.

(٢) انظر: المحتسب (٢٨٨/١ ـ ٢٨٩).

(٣) انظر: الإتحاف (٩١/٢).

(٤) كما أخرج ذلك ابن جرير (٢٤٥/١٤) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرج ذلك ابن جرير (٢٤٨/١٤) عن مجاهد.

(٦) انظر: القرطبي (١٣٨/٨).

ويتبعونهم فيما شاؤوا، يقال: إن أول من فعل ذلك منهم رجل يسمى نعيم بن ثعلبة[(١)].

والذي قاله غير واحد من المؤرخين وأوضحه ابن إسحاق في سيرته أن أول من فعل هذا منهم رجل يُسمى القَلَمَّس. والدليل على ذلك موجود في أشعارهم. واسم القَلَمَّس هذا حذيفة بن عبيد بن فقيم، وبنو فقيم بطن من بني مالك بن كنانة. كان هذا الرجل الذي هو حذيفة المعروف بالقلمّس يقول لهم: سأؤخر عنكم تحريم المحرّم وأنسؤه إلى صفر، فاذهبوا فقاتلوا في المحرّم فإني حولت حرمته إلى صفر. فهم يتبعونه، ثم لما مات القَلَمَّس قام بهذا الأمر بعده ابنه العباد بن القَلَمَّس، فكان يحل لهم هذا التحليل وهذا التحريم، ثم لما مات العباد قام به بعده ابنه قَلَعُ بن عباد، ثم لما مات قام به بعده ابنه أمية بن قَلَع بن عباد، ثم لمّا مات قام به بعده ابنه عوف بن أمية، ثم لمّا مات قام به بعده ابنه جنادة بن عوف المعروف بأبي ثمامة، كنيته ككنية مسيلمة الكذاب، وهو الذي قام عليه الإسلام وهو بهذه السُّنة السيئة الخبيثة. كانوا إذا انتهت أيام حجهم وانقضت أيام منى ذهبوا إلى هذا الرجل الذي هو أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية الكناني فيقول: أنا الذي لا يُعاب ولا يُجاب، ولا مرد لما أقول، أخَّرت عنكم تحريم المحرم إلى صفر[(٢)]. فيتبعونه، فجاء الإسلام بتغيير هذا ورد كل شيء إلى محله.

وقد ذكرنا بالأمس أن العلماء اختلفوا في الأشهر الحرم هل حرمتها باقية إلى الآن؟ ويكون من نسأ النسيء الآن ازداد كفراً وفعل كفراً. أو هي منسوخة ولا تحريم في الأشهر الحرم، وأن قتال العدو يجوز في جميع الأشهر[(٣)]؟ وذكرنا بالأمس أن المشهور عند العلماء الذي عليه الأكثر أنه قد نُسخ تحريم الأشهر الحرم، واستدلوا على ذلك بظواهر

---

(١) السابق.

(٢) أخرجه ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (٢٤٥/١٤). وذكره ابن هشام في السيرة ص٥٦.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥) من سورة التوبة.

آيات ليست صريحة في ذلك، ومن أصرح ما استدلوا به هو ما ذكرنا من أنه ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ حاصر ثقيفاً في غزوة الطائف بعضاً من ذي القعدة[١]. وهذا ثابت في الصحيحين ثبوتاً لا مطعن فيه. قالوا: لم تنسخ لما حاصر النبي ﷺ ثقيفاً في ذي القعدة وهو شهر حرام. وقد ذكرنا بالأمس أن الذي كان يظهر لنا وننصره أن تحريم الأشهر الحرم قد نُسخ، وأن الذي تحققناه بعد ذلك وصرنا نجزم به أنها باقية التحريم إلى الآن، ولم يُنسخ تحريمها، كما كان يقسم عليه عطاء بن أبي رباح (رحمه الله)، كان يحلف أن حرمتها باقية[٢]. ومن أصرح الأدلة في ذلك هو الحديث الذي أشرنا إليه أمس؛ لأن النبي ﷺ خطب به يوم النحر في حجة الوداع عام عشر، ولم يعش بعد ذلك إلا نحو ثمانين يوماً، وقد صرّح فيه بأن ذلك الشهر حرام، وذلك اليوم حرام، وذلك البلد حرام[٣]، ولم يأت بعد ذلك شيء ينسخ هذا التحريم الثابت عنه (صلوات الله وسلامه عليه).

وهذه الآية الكريمة قبل أن نشرع في تفسيرها نشير إلى أن فيها حكماً يجب على كل مسلم أن يعتبر به وينظره؛ لأن هؤلاء القوم كفار، كانوا يسجدون للأصنام، فلما أحلّ لهم رجل شيئاً حرّمه الله، وحرّم عليهم شيئاً أحلّه الله، وهم يعلمون أن الله حرّم تلك الأشهر الحُرم، ولا يشكون في ذلك، وأن هذا الرجل الكناني أحلّ لهم ما حرّمه الله، وحرّم عليهم ما أحلّه الله، فاتبعوا تحريم هذا الإنسان، فصرّح الله بأن هذا كفر جديد ازدادوه إلى كفرهم الأول. فهذه الآية الكريمة من سورة براءة من أصرح النصوص القرآنية في أن كل من اتبع نظاماً غيرَ نظام الله، وتشريعاً غير تشريع الله، وقانوناً غير قانون الله، أنه كافر بالله، إن كان يزعم الإيمان فقد كفر، وإن كان كافراً فقد ازداد كفراً جديداً إلى كفره الأول. والآيات الدالة على هذا

---

(١) السابق.

(٢) أخرجه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ ص(٢٠٧)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٥٣٥/١)، وابن جرير (٣١٤/٤).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥) من هذه السورة.

المعنى لا تكاد تحصيها في هذا المصحف الكريم، الذي هو أعظم كتاب أنزله الله من السماء إلى الأرض، وهو آخر كتاب أنزله الله على أكرم نبي، وآخر نبي جمع فيه له علوم الأولين والآخرين. وسنذكر لكم طرفاً من ذلك كما ذكرناه قبل هذا مراراً[(١)] نبين به أن الحلال هو ما أحلّه الله، والحرام هو ما حرّمه الله، والدين هو ما شرعه الله، وأن كل من اتبع نظاماً وتشريعاً وقانوناً ـ ولو سماه ما سماه ـ غير ما أنزله الله في وحيه على نبيه ﷺ أنه كافر بذلك، فإن كان كافراً قبله ازداد كفراً جديداً إلى كفره الأول، وإن كان يزعم الإيمان فقد جاء بما يكفر به. ومن أصرح الأدلة في هذا: المناظرة العظيمة المشهورة التي وقعت بين الكفار والمسلمين في حكم من أحكام الحلال والحرام، فالمسلمون يقولون: إن هذا الأمر حرام. ويستدلون بنص من نصوص الوحي. وحزب الشيطان وتلامذته وأتباعه يقولون: إن هذا الحكم حلال. ويستدلون على ذلك بفلسفة من وحي الشيطان. ويأتي كل منهم بدليله، فلما تحاجوا وتخاصموا وحصل الجدال بينهم في ذلك أفتى الله تعالى بنفسه فتوى سماوية تُتلى علينا قرآناً في سورة الأنعام، وإيضاح هذا: أن الشيطان ـ لعنه الله ـ جاء كفار قريش وقال لهم: سلوا محمداً ﷺ عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ فأجابهم: الله قتلها. فقالوا: إذن ما ذبحتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة بسكين من ذهب تقولون: هو حرام، فأنتم إذن أحسن من الله!! فأنزل الله في ذلك بإجماع العلماء في سورة الأنعام هذه الفتوى السماوية بعد أن بيّن الله خصام المتخاصمين فيها فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الميتة. وإن زعم حزب الشيطان أنها ذبيحة الله، وأن ما قتله الله أحلّ مما قتله الناس. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ راجع إلى المصدر الكامن في جوف الفعل الصناعي في قوله: ﴿تَأْكُلُوا۟﴾ أي: وإنه أي: الأكل من الميتة ﴿لَفِسْقٌ﴾ أي: خروج عن طاعة الله، وإن زعم حزب الشيطان أنها ذبيحة الله، وأن ما قتله الله أحلّ وأطهر مما قتله الناس. ثم قال: ﴿وَإِنَّ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

﴿ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ ﴿لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ وحي الشيطان ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ بالوحي الشيطاني، وهو قولهم: ما ذبحتموه حلال، وما قتله الله حرام، فأنتم إذاً أحسن من الله!! ثم أفتى الله الفتوى السماوية التي تتردد في آذان الخلق مساءً وصباحاً بقوله: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] وإن أطعتم أتباع الشيطان في تحليل ما حرّمه الله ﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ بالله شركاً أكبر، كما قال في هؤلاء ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ [التوبة: آية ٣٧] وهذا الشرك شرك أكبر مخرج عن الملة؛ لأنه شرك طاعة، وشرك الطاعة شرك في الحكم، والشرك في الحكم كالشرك في العبادة لا فرق بينهما البتة؛ لأن الله هو الملك الجبار العظيم الأعظم لا يرضىٰ أن يكون معه شريك في عبادته ولا أن يكون معه شريك في حكمه سبحانه (جلّ وعلا) أن يكون له شريك في عبادته أو شريك في حكمه، وقد بيّن هذين الأمرين في سورة واحدة من كتابه وهي سورة الكهف، فقال في الإشراك به في عبادته: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: آية ١١٠] وقال في الإشراك به في حكمه: ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: آية ٢٦] فمن اتخذ تشريعاً غير تشريع الله، واتبع نظاماً غير نظام الله، وقانوناً غير ما شرعه الله ـ سواءً سماه نظاماً أو دستوراً، أو سماه ما سماه ـ هو كافر بالله؛ لأنه يقدم ما شرعه الشيطان على ألسنة أوليائه مما جُمع من زبالات أذهان الكفرة على نور السماء الذي أنزله الله (جلّ وعلا) على رسله ليُستضاء به في أرضه، وتنشر به عدالته وطمأنينته ورخاؤه في الأرض.

وهذا مما لا نزاع فيه، وهذا الشرك الذي هو شرك اتباع، اتباع قانونٍ ونظام وتشريع هو الذي يوبخ الله مرتكبه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد في سورة يٓس في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ...﴾ [يٓس: آية ٦٠] ما عبدوا الشيطان بأن سجدوا للشيطان، ولا ركعوا للشيطان، ولا صاموا له، ولا صلوا، وإنما عبادتهم للشيطان هي اتباع ما سنّ لهم من النظم والقوانين من الكفر بالله ومعاصي الله. ثم قال: ﴿وَأَنِ

اَعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: الآيتان ٦١، ٦٢] أي: خلائق كثيرة لا تحصىٰ.

ثم وبخ عقولهم فقال: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: آية ٦٢] ثم ذكر المصير النهائي للذي كان يتبع نظام إبليس، وقانون الشيطان في دار الدنيا ذكر مصيره النهائي في قوله: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ الآيات [يس: الآيتان ٦٣، ٦٤]. وهذا هو معنىٰ قول إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: آية ٤٤] أي: لا تتبع ما شرع لك الشيطان وسنه من الكفر بالله، ومعاصي الله، وهو معنىٰ قوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا﴾ [النساء: آية ١١٧] أي: ما يدعون إلا الشيطان، وهو دعاء عبادة باتباع نظامه وتشريعه. وهو أصحّ الوجهين في قوله (جلّ وعلا) في الملائكة: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: آية ٤٠] لأن الملائكة قالوا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ: آية ٤١] أي: يتبعون الشياطين ويعبدونهم باقتفاء ما يسنون لهم من القوانين والنظم، وهذا أمرٌ لا نزاع فيه، فكل من يتبع نظام أحد وتشريع أحد وقانونه فهو متخذه رباً؛ ولذا جاء في الحديث المشهور عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) أنه لما جاء النبي ﷺ وكان في عنق عدي صليب فقال له النبي: «**يا عديّ ألق هذا الوثن من عنقك**» وصادفه يقرأ سورة براءة هذه، سمعه يقول: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣١] وكان عدي نصرانياً في الجاهلية فقال: ما كنا نتخذهم أرباباً. فأجابه النبي بما معناه: ألم يحلوا لكم ما حرّم الله ويحرّموا عليكم ما أحلّ الله فتتبعوهم؟ قال: بلىٰ. قال: تلك عبادتهم، وبذلك اتخذتموهم أرباباً[1].

فهذه الآيات الكريمة تدل على أن كل من يتبع نظاماً غير نظام الله وإن سماه قانوناً أو دستوراً أو سماه ما سماه فهو كافرٌ بالله، ولو كان كافراً قبل ذلك وارتكب شيئاً يعلم أن الله حرّمه فحلّل ما يعلم أن الله حرّمه، أو حرّم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

ما يعلم أن الله حلّله، فإنه ولو كان كافراً قبل هذا يزداد بذلك كفراً جديداً إلى كفره الأول، كما قال هنا: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: آية ٣٧] وهذا معروف لا نزاع فيه بين العلماء، فالحلال هو ما أحلّه الله، والحرام هو ما حرّمه الله، والدين هو ما شرعه الله، ولا تشريع إلا لله؛ لأن التشريع والأمر والنهي لا يكون إلا للسلطة التي ليس فوقها شيء، والله (جلّ وعلا) هو خالق هذا الخلق، وخالق النعم التي أنعم بها عليه، فهو الملك فلا يرضىٰ أن يأمر فيه غيره وينهىٰ، بل الأمر له وحده، والنهي له وحده، والتشريع له وحده، فكل مشرع دونه ضال، وكل متبع تشريعاً غير تشريعه فهو كافر به - جلّ وعلا - وقد بيّن الله (جلّ وعلا) في آيات كثيرة هذا المعنىٰ، فكان قوم في زمن النبي ﷺ أرادوا أن يتحاكموا إلى غير شرع الله، وادّعوا أنهم مؤمنون فعجّب الله نبيه من كذب دعواهم، وأن دعواهم الإيمان لا تصحّ بوجه من الوجه مع إرادتهم التحاكم إلى غير الله، وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: آية ٦٠] فعجبه من دعواهم الإيمان وهم يريدون التحاكم إلى غير ما شرعه الله، وهذا لا يخفىٰ، وأقسم الله (جل وعلا) في آية من كتابه أنه لا يؤمن أحدٌ حتى يكون متبعاً في قرارة نفسه لما جاء به سيّد الرسل محمد (صلوات الله وسلامه عليه) وذلك بقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: آية ٦٥] هذا قسم من الله أقسم به ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فما ظنكم بالذين يحكمون فيما شجر بينهم قانون نابليون وما جرىٰ بعده من زبالات أذهان الكفرَة؟ ألا ترون أن الله أقسم في هذه الآية من سورة النساء أنهم لا يؤمنون؟ ومن أصدق من الله قيلًا ومن أصدق من الله حديثاً؟ فعلىٰ كل مسلم أن يعلم أن الحاكم هو الله، وأن الحكم لله وحده، وأنه لا يُحلّ إلا الله، ولا يُحرم إلا الله، فلا حلال إلا ما أحلّه الله، ولا حرام إلا ما حرّمه الله على لسان رسوله ﷺ، ولا دين إلا

ما شرعه الله. فما عمّت به البلوىٰ من انصراف جلّ من في المعمورة عن نور السماء الذي أنزله الله على سيّد خلقه وأعظم رسله، موضحاً له في أعظم كتاب أنزله من سمائه إلى أرضه، منصرفين عن هذا مع وضوح أدلته وقيام براهينه وصيانته لمقومات الناس؛ لأن القرآن العظيم والسنّة النبوية المبينة له جاء فيهما غاية الحفاظ على جميع مقومات الإنسان في دار الدنيا والآخرة، ولا سيّما الجواهر الستة التي يدور عليها نظام العالم في الدنيا ونظام العدالة والجور فيه، وهذه الأمور الستة لا يوجد شيء أشد محافظة عليها مما جاء به سيد الخلق محمد (صلوات الله وسلامه عليه)، ونعني بهذه الستة التي أشرنا إليها: المحافظة على الدين السماوي الذي هو الصلة بين السماء والأرض وبين الله وخلقه، ثم المحافظة على الأنفس من القتل والإزهاق، ثم المحافظة على الأنساب من الضياع والاختلاط وتقذير الفرش، ثم المحافظة على العقول من الضياع؛ لأن العقول إذا ضاعت صار المجتمع حيوانات يضرب بعضه بعضاً، ثم المحافظة على الأموال، ثم المحافظة على الأعراض. فدين الإسلام جاء بأعظم حياطة وصيانة للدين، وحياطة وصيانة للنفس، وحياطة وصيانة للعقل، وحياطة وصيانة للنسب، وحياطة وصيانة للمال، وحياطة وصيانة للعرض، وستأتي هذه الأشياء في هذه الدروس كُلٌّ في محله، وقد قدمنا ما جاء منها.

فهذا دين الإسلام الذي بيّن الله فيه كل شيء، وحافظ فيه على جميع المقومات، وأعطىٰ فيه الأجسام حقوقها، والأرواح حقوقها، وأرشد الإنسان إلى عملٍ مزدوج يقوم به الإنسان معاوناً جسمُه روحَه، وروحُه جسمَه؛ لأن من أخلّ بناحية الجسم أهمل، ومن أخلّ بناحية الروح فهو أضيع وأضيع. فعلينا جميعاً أن نعلم أنه لا بدّ من اتباع شرع الله ودين الله، وأن من طلب تشريعاً وتحليلاً وتحريماً في غير ما شرعه الله فهو ليس على دين الإسلام، أحرىٰ أن يكون من المؤمنين الذين يقولون: إن الله ينصرهم وأنه معهم وهم أعداؤه، وقد بيّن الله في القرآن أن الذي له التحريم والتحليل، والأمر والنهي لا يكون إلا له صفات ليست كصفات خلقه، بل صفاته مميزة عظيمة لائقة به دالة على أنه هو الذي يأمر وينهىٰ ويحلل ويحرّم، كقوله تعالى:

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وكأنه قال: أتريدون أن تعرفوا صفات من يكون له الحكم في الأشياء ولا يُصْدَر في حكم إلا عنه ما هي؟ ثم بينها في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: آية ١٠] ثم بيّن صفات من له الحكم ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: الآيات ١٠ ـ ١٢] هذه صفات من له الحكم، أما الكفَرَة الفجَرَة الخنازير أبناء الكلاب فليس لهم أن يحكموا في بلاد الله، ولا في عباد الله، ويحرموا ما شاؤوا ويحللوا ما شاؤوا، فمتبعهم هو أعمىٰ الناس بصيرة وأضلهم سبيلاً.

خفافيشُ أعماها النهارُ بضَوئِه   فَوافَقَها قِطْعٌ من الليلِ مظلم[1]

والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: آية ١٢] الذي له الحكم هو العلي الكبير الذي عُلُوُّه وعظمته فوق كل شيء، وهو أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء. ويقول (جلّ وعلا): ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: آية ٨٨] فلا يكون الحكم إلا لمن لا يهلك، ولمن كل شيء هالك إلا وجهه، هذه صفات من له الحكم، ويقول (جل وعلا): ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: الآية ٧٠] ثم بيّن صفات من له الحكم فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ إلى آخر الآيات [القصص: آية ٧١]. فالحكم لا يكون إلا للعظيم الأعظم الذي هو الخالق لكل شيء، الرازق لكل شيء، الفاعل ما يشاء في كل شيء، هذا الذي يُتبع تشريعه ويُحل ما أحل، ويحرّم ما حرّم، أما القوانين والنظم الملتقطة من زبالات أذهان الكفَرَة الفجَرَة فلا يتبعها ويعتقدها ويحكمها في

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

أموال المجتمع وعقوله وأنسابه وأديانه وأعراضه إلا من أعمىٰ الله بصائرهم، ومن أعمىٰ الله بصيرته فلا حيلة له ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: آية ٤٠] ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ...﴾ [الرعد: آية ١٩] لا ليس كمثله.

ومعنىٰ الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: آية ٣٧] اختلف العلماء في تحقيق كلمة (النسيء) هنا[1] فقال بعضهم: هو من (نسأ) الثلاثية وهو (فَعِيْل) بمعنى مفعول، فالعرب تقول: نسأه ينسؤه نَسْئاً، إذا أخره. والعرب تأتي بـ (الفعيل) مكان (المفعول) كما يقولون: قتيل مكان مقتول، وجريح مكان مجروح، ونسيء مكان منسوء، أي: مؤخر. فعلىٰ هذا القول فالنسيء (فعيل) بمعنىٰ (مفعول) وكقتيل بمعنىٰ مقتول، وجريح بمعنىٰ مجروح. وعلى هذا فهو من (نَسَأَ) الثلاثية.

والقول الثاني: أن النسيء اسم مصدر (أنسأ) الرباعية على وزن (أَفْعَل) لأن العرب تقول: أنسأ الأمر يُنْسِئه إنساءً ونسيئة. فالإنساء مصدر قياسي، والنسيء مصدر (أَنسَأَ) مصدراً سماعياً، كما جاء النذير مصدراً لأنذر، والنكير مصدراً لأنكر، والنسيء مصدراً لأنسأ، بمعنى: أخّر.

فعلى أن النسيء اسم مصدر بمعنىٰ الإنساء فلا إشكال؛ لأن الإنساء فعل الفاعل، وعلى هذا فلا إشكال في قوله: ﴿زِيَادَةٌ﴾ أي: لأن تأخير الشهر الحرام وإنساءه من نقله من المحرم وتأخيره منه إلى صفر. هذا التأخير والإنساء زيادة في الكفر؛ لأنه أحلّ ما حرّم الله وهو المحرّم، وحرّم ما أحلّه الله وهو صفر.

أما على القول بأن (النسيء) (فعيل) بمعنى (مفعول) وأنه من (نسأ) الثلاثية، وأن النسيء بمعنى الزمان المنسوء، فيكون في قوله: ﴿زِيَادَةٌ﴾ إشكال؛ لأن نفس الشهر المنسوء المؤخر ليس هو عين الزيادة؛ ولذا لا بدّ في هذا المعنى من تقدير مضاف، أي: إنما نَسْءُ النسيء زيادة في الكفر، أو

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٢٤٣)، القرطبي (٨/١٣٦)، الدر المصون (٦/٤٦).

إنما النسيء ذو زيادة، أي صاحب زيادة في الكفر حاصلة فيه. فاتضح من هذا أنه على أن النسيء اسم مصدر من (أَنْسَأَ) فلا تقدير في قوله: ﴿زِيَادَةٌ﴾. وعلى أنه (فعيل) بمعنى (مفعول) من (نسأ) الثلاثية فلا بدّ من تقدير مضاف إما قبل الزيادة أو قبل النسيء، فتقول: نَسْءُ المنسوء زيادة، أي: تأخير الشهر زيادة في الكفر. أو تقول: المنسوء ذو زيادة، أي: صاحب زيادة في الكفر لوقوعها بسببه. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ لأنهم كانوا كفاراً، فلما أحلّوا محرماً وهم يعلمون أن الله حرّمه، وحرموا صفراً وهم يعلمون أن الله ما حرّمه، صاروا بهذا التشريع مرتكبين كفراً جديداً كما بيّنا، ازدادوا بهذا الكفر كفراً جديداً إلى كفرهم الأول.

﴿يَضِلّ به الذين كفروا﴾ و﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ معناه: يضلهم الشيطان كما يأتي في قوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾.

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ قد أشرنا بالأمس أن هذه الآية الكريمة من سورة براءة والحديث الذي جاء في مضمونها أن الزمان قد استدار كهيئته.. الحديث[1]. غلط فيه خلق من كبار المفسرين، ومن تكلموا على الحديث، وأن الصورة الحقيقية التي قالت بها جماعة من السلف[2] ـ والقرآن يشهد لصحة قولهم ـ أنها التي كان يعملها الكنانيون القَلَمّس ومن بعده، وكان شاعرهم يفتخر بذلك ويقول شاعرهم وهو عمير بن قيس المعروف بـ (جذل الطِّعان)[3]:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق باب: ما جاء في سبع أرضين..، رقم (٣١٩٧) (٦/٢٩٣). وانظر الأحاديث: (٦٧، ١٠٥، ١٧٤١، ٤٤٠٦، ٤٦٦٢، ٥٥٥٠، ٧٠٧٨، ٧٤٤٧). وأخرجه مسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب: تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم (١٦٧٩) (٣/١٣٠٥). وهو جزء من حديث خطبة حجة الوداع.

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/٢٤٥)، القرطبي (٨/١٣٧)، ابن كثير (٢/٣٥٤).

(٣) الأبيات ذكرها ابن هشام ص٥٦، والبيت الثالث عند الشيخ جعله ابن هشام ثانياً، ولفظه عنده:

فأي الناس فاتونا بوتر ... وأي الناس لم نعلك لجاما

وقد مضى البيت الثاني منها عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

لقد علمتْ مَعَدٌّ أن قومي كرامُ الناسِ أنَّ لهم كِرَامَا
ألسنَا الناسئين على مَعَدٍّ شُهُورَ الحلِّ نجعلُها حراما
وأيُّ الناسِ لم يدرك بوتْرِ وأي الناسِ لم يعلك لجَامَا

أنهم كانوا يأتون جنادة بن عوف إذا صدروا من منى، فيقوم ويقول: أنا الذي لا أُجاب ولا أُعاب، ولا مردّ لما أقول هذا العام قد أخرت عنكم حرمة المحرم إلى صفر فقاتلوا في المحرم، ثم حرّموا مكانه صفراً ويأتي في العام القابل ويقول مثل مقالته: أنا الذي لا أُجاب ولا أُعاب، ولا مردّ لما أقول، قد حرّمت هذا العام محرماً وأبحت صفراً. كما هي العادة، فيحلّ لهم المحرّم عاماً ويحرّم مكانه صفراً، ويحرّم المحرّم عاماً ويترك الأشهر على حالها[1]. وهذا موافق لقوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ وموافق لقوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: آية ٣٧] أما الصور الأخرىٰ فلا تتفق مع الآية.

أما الذين زعموا أنه يقول لهم في بعض السنين: حللت لكم المحرم وصفر معاً فهما صفران، لا محرم في هذه السنة، وإنما فيها صفران. فيحل لهم المحرم ويترك صفراً على حلاله الأصلي، وفي السنة القابلة يقول: هما محرمان، المحرم الذي كان حراماً، وصفر بدل المحرم الذي حرّمناه في السنة القابلة. فهذا وإن قال به جماعة كبيرة من العلماء[2] فهو لا يصح؛ لأنهم على هذا القول في إحدىٰ السنتين ما حرّموا إلا ثلاثة أشهر، والأشهر الحرم أربعة، وفي السنة الثانية حرّموا خمسة أشهر، فلم يواطئوا ما حرّم الله لا في السنة الأولىٰ ولا في السنة الثانية. وكذلك قول من قال: إنهم كانوا يسمون صفراً محرماً، ويسمون ما بعد صفر صفراً، وكل شهر يسمونه باسم ما بعده، ويحجون في كل شهر عامين، وأن حجة أبي بكر عام تسع، وافقت ذا القعدة، وأن أبا بكر حجّ بالناس عام ذي القعدة، وإن النبي ﷺ حجّ بالناس حجّة موافقة ذا الحجة، وأن هذا معنى استدارة الزمان كهيئته

---

(١) تقدم عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/٢٤٩)، القرطبي (٨/١٣٩)، ابن كثير (٢/٣٥٦).

يوم خلق السماوات والأرض[١]. فهذا لا شك في أنه فاسدٌ باطل؛ لأن الله صرّح في كتابه بقوله في حجة أبي بكر بالناس عام تسع: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: آية ٣] وقد أذن ببراءة علي (رضي الله عنه) ومن معه يوم الحج الأكبر، ومعلوم أن الله لا ينزل في كتابه يوم الحج الأكبر يريد أنه من ذي القعدة! فهذا من الباطل الذي لا شك فيه، فهذا كله لا يصحّ، فالتحقيق أن هذه الصورة التي نزل بها القرآن التي كان يفعل لهم الكنانيون أنهم سنة يحرمون صفراً ويحلون المحرّم مكانه، وفي سنة يُبقون الأمر على حاله فيحلون المحرّم سنة ويحرّمونه سنة ويواطئوا بذلك ـ يوافقوا ـ عدة ما حرّم الله، وهي أربعة أشهر من السنة. وهذا معنى قوله: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾.

العام: السنة، والألف التي في مكان عينه منقلبة عن واو، فيُكَسَّر على (أعوام) فعينه واو.

﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: آية ٣٧] المواطأة: الموافقة، أي ليوافقوا عدة ما حرّم الله؛ لأن الله حرّم أربعة أشهر من السنة فهم يحرّمون قدر ما حرّم الله إلا أنهم يعصون الله بتغييره عن محله، فالعدة هي العدة ولكن عين الزمان ليست هي عين الزمان، فهم يصيبون في العدة ويخطئون في تعيين المعدود، ومن هنا كانوا عصاة بذلك. هذا هو الصحيح في معنى الآية الذي لا إشكال فيه، والصور الأخر فيها نظر، ليست بصواب، وإن قال بها من قال بها من العلماء. هذا معنى قوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾.

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ زين لهم الشيطان سوء أعمالهم الخبيثة. وهذا يدل على أن من أسوأ الأعمال وأخبثها تحليل ما حرّمه الله وتحريم ما أحلّ الله ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٣٧] هذه الآية وأمثالها

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٤٨/١٤)، القرطبي (١٣٧/٨)، ابن كثير (٣٥٦/٢ ـ ٣٥٧).

بالقرآن فيها سؤال معروف، وإشكال مشهور، وهو أن يقول طالب العلم: هذه الآية وأمثالها صرَّح الله فيها بأنه لا يهدي الكافرين، مع أنَّا نشاهد الله يهدي كثيراً من الكافرين، فالله يهدي من يشاء من الكفار، ويضل من يشاء، فما وجه تعميمه في قوله: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذا وجه السؤال.

وللعلماء عنه جوابان معروفان:

أحدهما: أن هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن من العامّ المخصوص، أي: لا يهدي القوم الكافرين الذين سبق في علمه عدم هدايتهم وشقاؤهم شقاءً أزلياً، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: الآيتان ٩٦، ٩٧] وقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾ [يس: آية ٧] ونحو ذلك من الآيات. وعلى أن هذه الآية الكريمة من العامّ المخصوص بآياتٍ أخر فلا إشكال.

وقال بعض العلماء: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ما دام الله (جلّ وعلا) مريداً منهم أن يكونوا كافرين، فإذا شاء الله أن [يهديهم هداهم. وقال بعض العلماء: لا يهديهم ما داموا مصرّين على كفرهم][(١)].

١/٧ / نقول[(٢)]: إن من عادتنا التي نجري عليها في هذه الدروس أن نتعرض لما نظن أنه يسأل عنه طلبة العلم، وقد مرّ في الآية الماضية أمس، سؤال معروف يتساءل عنه طلبَة أهل العلم، ونسينا أن نتكلم عليه، فأحببنا أن نستدركه الآن تتميماً للفائدة، ونعني بذلك: أنا ذكرنا في اليومين الماضيين، أن العلماء اختلفوا في نسخ الأربعة الحرم، وأن قوماً قالوا:

---

(١) انقطاع في التسجيل، ويمكن مراجعة جواب الشيخ (رحمه الله) على هذا الإشكال عند تفسير الآية (١٤٥) من سورة الأنعام. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) تنبيه: في تفسير الشيخ (رحمه الله) لهذه الآية بقي الجواب عن إشكال معروف وهو توجيه حصار النبي ﷺ لثقيف في الشهر الحرام. وقد استدرك الشيخ (رحمه الله) هذه المسألة والجواب عنها في بداية الكلام على الآية التي بعدها، فألحقته في موضعه هنا، وجعلت الآيات (٣٨، ٣٩)، بعد جواب الشيخ عن هذا الإشكال.

نُسخت، فجاز للمسلمين الجهاد في كل السنة، وأن جماعة من العلماء قالوا: إن تحريمها باق لم يُنسخ، وذكرنا أنّا كنّا أولًا نعتقد صحة نسخها، وأنّا عرفنا بعد ذلك أن الصحيح عدم نسخها، وذكرنا أن من أصرح الأدلة على نسخها ما ثبت أن النبي ﷺ حاصر ثقيفاً بالطائف في بعض ذي القعدة وهو شهر حرام، ولو لم يكن القتال فيها حلالًا لما حاصرهم فيها، فعلمنا من هنا أن طالب العلم يقول: إذا قررتم أن التحقيق عدم نسخها فما وجه حصار النبي ﷺ لثقيف في الشهر الحرام؟!

هذا هو السؤال الذي كنا نود أن نتعرض للإجابة عنه، وهذا السؤال أجاب عنه جماعة من العلماء بما ملخصه في نقطتين وهما[١]:

أن حصار النبي ﷺ لثقيف كان ابتداؤه في شهر حلال، والدوام قد يغتفر فيه ما لا يغتفر في الابتداء؛ لأن من المسائل ما يحرم فيها الابتداء ولا يحرم فيها الدوام، ألا تَرَوْن أن الرجل المحرم لا يجوز له أن يبتدىء تزويجاً، ولو تزوج قبل إحرامه ثم أحرم لم ينفسخ تزويجه بهذا الإحرام الطارىء على تزويجه، وكذلك الإحرام يمنع ابتداء الطيب فيه، فلو كان متطيباً قبله، لا يمنع الدوامَ على الطيب الأول الإحرامُ عند جماهير العلماء، فالشاهد أن الدوام في بعض الصور قد يُغتفر فيه ما لا يُغتفر في الابتداء، وفي هذه الصورة يتأكد بشيء آخر وهو ما قدمنا في العام الماضي في كلامنا على غزوة حنين[٢] في تفسير آية: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ﴾ [التوبة: آية ٢٥] أن النبي ﷺ لما فتح مكة في رمضان عام ثمان، ولم يكن يريد أن يغزو هوازن، سمع أن مالك بن عوف النصري، سيد هوازن جمع من أطاعه من هوازن وفيهم ثقيف؛ لأن ثقيفاً من هوازن؛ لأن ثقيفاً بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور، وأنهم تجمعوا له يريدون حربه، فهم الذين بدؤوا بإرادة الحرب، ولم يكن النبي ﷺ قاصداً حربهم في ذلك الوقت قبل ذلك، فلما هزمهم النبي ﷺ يوم حنين واستفاء أموالهم، رجع

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٥٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

فَلُّهم (والفَلُّ بقية المنهزمين) فتحصنوا بحصن الطائف. فحصاره ﷺ للطائف ليستنزل الذين كانوا يقاتلونه في غزوة حنين من تمام غزوة حنين، وكانوا هم البادؤن بالقتال، والأشهر الحُرم إذا بُدِىء المسلمون فيها بالقتال قاتلوا، كما تقدم في قوله: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: آية ١٩٤] وكما قدمناه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: آية ١٩١] فهذا هو الذي أجاب به العلماء عن حصار النبي ﷺ لثقيف على القول ببقاء حرمة الأشهر الحرم.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٣٨، ٣٩].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ [التوبة: آية ٣٨].

أجمع كافة العلماء، أن هذه الآية الكريمة من سورة براءة نزلت لما استنفر النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم(١)، وفي غزوة تبوك، كان ذلك في ساعة العسرة، كما يأتي منصوصاً في هذه السورة الكريمة، وكان وقت شدة الحر، والأرض في غاية الجدب، وكان في المدينة النخيل حين أزهت ثمرته، وطابت الظلال والمياه الباردة، فركنوا إلى الدعة، وإلى نعيم الدنيا في الظل والثمار والمياه والظلال الباردة، فركنوا إلى هذا؛ لأن العدو قوي وكثير العدد جداً، والشقة بعيدة، والزمان حار؛ ولذا من تكاسلوا منهم وبّخهم الله هذا التوبيخ العظيم في هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٢٥١)، القرطبي (٨/١٤٠)، ابن كثير (٢/٣٥٧).

ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ﴾ أي شيء ثبت لكم يقتضي نكولكم عن الغزو واختياركم للدعة والراحة على مرضاة الله وإعلاء كلمة الله؟ ﴿مَا لَكُمۡ﴾ أي شيء ثبت لكم. ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ﴾ أي: إذا قال لكم رسول الله ﷺ وأصحابه: ﴿ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ انفروا معناه: تهيؤوا خارجين متحركين لحرب الروم. ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأن القتال والجهاد في سبيل الله هو أعظم أنواع سبيل الله (جلّ وعلا).

﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أصله: (تثاقلتم) والمقرر في علم العربية: أن كل ماض على وزن (تفاعل) أو على وزن (تفعّل) إذا تقاربت حروفه الأولى، يكثر في اللغة العربية إدغام بعضها في بعض واجتلاب همزة الوصل لإمكان النطق بالساكن[١]، وهذا يكثر في القرآن في (تفاعل) و(تفعّل)، كقوله هنا في (تفاعل): ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أصله: (تثاقلتم)، ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ﴾ [البقرة: آية ٧٢] أصله: (تدارأتم)، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ﴾ [الأعراف: آية ٣٨] أصله: (تداركوا)، ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ﴾ [النمل: آية ٦٦] أصله: (تدارك علمهم). وكذلك هو في (فعّل) كقوله (جلّ وعلا): ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ [يونس: آية ٢٤] أصله: (تزينت) من (تفعّل)، ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا﴾ [النمل: آية ٤٧] أصله: (تطيرنا). وهذا أسلوب عربي معروف، ومن شواهده العربية المشهورة ما أنشده الفراء من قول الشاعر[٢]:

تُولي الضَّجِيعَ إذا ما استافها خَصِراً ... عَذْبَ المَذَاقِ إذا ما اتَّابَعَ القُبَلُ

يعني بقوله «ما اتّابع»: تتابع.

ومعنى ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ تثاقلتم، أي: تكاسلتم وتباطأتم وتقاعستم عن الخروج في سبيل الله لغزو الكفار.

ثم إن الله أنكر عليهم إنكاراً قوياً بأداة الإنكار التي هي الهمزة في قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ قد تقرر في علم العربية أن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة، وانظر: ابن جرير (٢٥٢/١٤)، الدر المصون (٤٩/٦).

(٢) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

لفظة (مِنْ) تأتي بمعنى البدل[1]، كقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزخرف: آية ٦٠] أي: لجعلنا بدلكم ملائكة في الأرض ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: بدل الآخرة، وإتيان (مِنْ) بمعنى البدل، أسلوب عربي معروف، ومنه قول الشاعر[2]:

فليتَ لنا من ماءِ زَمْزَم شَرْبةً مُبَرَّدَةً باتَتْ على طَهَيَانِ

يعني ليس لنا شربة باردة مكان زمزم؛ لأنه يؤخذ حار، ويُروَى:

فليتَ لنا من ماءِ حَمْنَانَ شَرْبةً مُبَرَّدَةً باتت على طَهَيَانِ

والطَّهَيَان: عود كانوا يجعلونه مرتفعاً في جانب البيت متلقياً للهواء يعلقون عليه الماء ليبرد[3].

وقوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الهمزة همزة إنكار؛ لأن أسفه الناس وأقلهم عقلًا هو من يرضى بالدنيا بدلًا من الآخرة؛ لأنه يعتاض القليل التافه من الكثير الذي لا يقدر قدره إلا الله، وفي هذا وبخهم؛ لأنه نقض ضمني للعقد الذي عقده معهم؛ لأن الله (جلّ وعلا) عقد عُقْدَة بينه وبين عباده المؤمنين وأبرمها، وهو أنه اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بالجهاد، يشتري من المؤمن حياته الدنيوية وهي حياة قصيرة مُنغَّصة مشوشة بالأمراض والمصائب والبلايا والمشاق، يشتريها منه بحياة أبدية سرمدية، لا شيب فيها ولا هرم ولا مرض ولا غضب ولا ألم ولا تشويش، ويشتري منه مالًا قليلًا وعرضاً زائلًا من الدنيا بالحور العين والوِلْدان وغُرف الجنة وأنهارها وثمارها، والنظر إلى وجه الله الكريم. فهذا هو البيع الرابح، والله يقول في هذه السورة الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٢٥٢)، القرطبي (٨/١٤١)، الدر المصون (٦/٥٠).

(٢) البيت ليعلى بن مسلم اليشكري، أو الأحول الكندي. وهو في القرطبي (٨/١٤١)، الدر المصون (٦/٥٠).

(٣) انظر: القرطبي (٨/١٤١).

حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: آية ١١١]. هذا هو البيع الرابح والمعاملة الراجحة، أما الذي ينقضها وينكثها ويقدم للدنيا على الآخرة فهذا سفيه يستحق أشد الإنكار؛ ولذا أنكر الله عليه بقوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِۚ﴾ فإنه لا يقنع بالدون إلا من هو في غاية الدون، وقد صدق من قال[1]:

إذا ما عَلاَ المرءُ رامَ العُلاَ ... ويقنعُ بالدُّونِ من كانَ دُوناَ

فلا يقنع بالدون إلا من هو دون كما لا يخفى، وهذا معنى قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِۚ﴾. قد قدمنا في هذه الدروس مراراً أن تسمية الله (جلّ وعلا) في كتابه للدار الذي نؤول إليها تسميته إيّاها (الآخرة) ينبغي للمسلم أن ينظر فيه ويعتبر فيه، وقد أوجب الله على كل إنسان أن ينظر في مبدئه، وإذا نظر في مبدئه دعاه ذلك إلى النظر في انتهاء أمره الذي يؤول به إلى مسمى الآخرة، وإيضاح ذلك أن الله قال بصيغة أمر سماوي من الله ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق: آية ٥] لام الأمر في قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ لام أمر صادرة من خالق السماوات والأرض، متوجهة إلى مسمى الإنسان، يأمره الله أن ينظر إلى الشيء الذي خُلق منه ليعلم مبدأ أمره ومن أين جاء؟ وما سبب وجوده؟ وعلى أي طريق جاء؟ ثم لينظر بعد ذلك في مصيره، وإلى أين يُذهب به، وإلى أين يصير، وإلى أين يكون آخر أمره؟ وقد بيّن لنا هذا المحكم المنزل الذي جمع الله به علوم الأولين والآخرين، مبدأ هذا الإنسان الضعيف ومنتهاه، ومصيره النهائي الذي لا يحيد عنه إلى شيء آخر، فبيّن أن أول الإنسان تراب بلّه الله بماء، وهو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: آية ٥] فمبدأ رحلة الإنسان ومنشؤه من التراب، بلّه الله بالماء، فصار طيناً، وهو قوله تعالى: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: آية ٦١] ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ [الصافات: آية ١١] ثم جعل نسله من سلالة من طين، ثم إن الله خمّر ذلك الطين حتى صار حَمَأً مسنوناً، ثم أيبسه حتى

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٦٨) من سورة الأعراف.

صار صلصالاً كالفخار، ثم خلق منه آدم وجعله لحماً ودماً، ثم خلق منه زوجه، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: آية ١] هي آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء. وذكر ذلك في الأعراف وفي الزمر كما هو معروف، ثم بعد أن حصل رجل وامرأة صار طريقة وجود الإنسان على طريق التناسل المعروفة، يكون أولًا من نطفة أمشاج من ماء الرجل وماء المرأة، ثم يخلق الله تلك النطفة علقة وهي الدم الجامد الذي إذا صُبّ عليه الماء الحار لم يذب، ثم يجعل الله تلك العلقة مضغة، ثم المضغة عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً، ويخلق هذا البشر السوي الذي تنظرون إليه، الذي كل موضع إبرة منه فيها من غرائب صنع الله وعجائبه ما يبهر العقول، وقد ذكرنا مراراً أن أعظم ما فُتن به ضعاف العقول من المسلمين حِذْقُ الإفرنج، في حالة الدنيا، ومن أبرع ما برعوا فيه الطب، وأنا أقول لكم: إنه لو اجتمع اليوم جميع من في المعمورة من مهَرَة الأطباء يريدون أن يعملوا عملية في جنين في رحم أمه فإنهم لا يقدرون أن يعملوا العملية حتى يشقوا بطنها ورحمها والمشيمة التي على الولد، ثم يأتوا بالأشعة الكهربائية ليمكنهم أن يروا، ثم يعملوا، فقد تموت وهو الأغلب!! وهذا خالق السماوات والأرض (جلّ وعلا)، ليس فينا ولا فيهم ولا في غيرنا أحد إلا وهو يعمل فيه آلاف العمليات الهائلة وهو في بطن أمه، من غير أن يحتاج إلى شق بطنها، ولا إلى شق رحمها، ولا إلى شق المشيمة التي على الولد ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: الآية ٦].

هذه الأعين قد فتحها الله (جلّ وعلا) وأنتم في بطون أمهاتكم، وصبغ بعضها بصبغ أسود، وبعضها بصبغ أبيض، وأنبت عليها هذا الشعر، وجعل لها هذا الوعاء من الجفون، وهذا الدماغ خلقه وجعله في هذا الوعاء، وخاط عليه هذه العظام هذه الخياطة الهائلة، وهذا الأنف خلقه وثقبه، وهذا الفم خلقه وثقبه، وجعل اللسان، وأجرى في الفم عيناً باردة هي الريق، يبتلع بها الطعام، لو أمسك عنه الريق لما ابتلع الزبد الذائب، وشقّ له مجاري البول، ومجاري الغائط، ومجاري العروق والشرايين للدورة الدموية، ولو نُظِر إلى موضع عضو واحد من الإنسان لوُجد فيه من غرائب صنع الله وعجائبه ما يبهر

العقول، ومع هذا كله فخالق السماوات والأرض يجعل هذه العمليات الهائلة فيكم وأنتم في بطون أمهاتكم، من غير أن يحتاج إلى بنج، بل بنج القدرة وعظمة الخالق، يُفعل للمرأة جميع هذا وهي تضحك وتفرح وتمرح وتعصي خالق السماوات والأرض، لا تشعر بشيء، لعظمة وقدرة هذا الإله الخالق العظيم (جلّ وعلا)، ثم إن الله (جلّ وعلا) يخلق هذا الإنسان بما فيه من الغرائب والعجائب الذي كل موضع إبرة منه يبهر العقول بما أودع فيه الله من بارع صنعه وغرائب عجائبه، ثم يخرجه من بطن أمه ويسهل له طريق الخروج من ذلك المكان الضيق كما يأتي في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ [عبس: آية ٢٠] ثم يلهمه أخذ الثدي وهو في ذلك الصغر، ويلطف به حتى يكبر ويعظم ويكون قوياً يجادل في ربه، وتلك المحطة هي التي نحن فيها الآن، فقد جاوزنا ما قبلها من المحطات، وهي التي نحن فيها الآن، وهذه المحطة التي نحن فيها هي المحطة التي يؤخذ منها الزاد، والسفر أمامها طويل، والشقة هائلة، فكأن الإنسان يُقال له: يا مسكين أنت في رحلة عظيمة، وآخرها أعظم من أولها، أشد مسافة وأكبر خطراً وأعظم غرراً، فخذ أهبتك في وقت الإمكان، وليس موضع يمكنك به أخذها إلا في هذا الزمن، الذي لا تدري في أي وقت يقطعك الموت فيه ويخترمك، فعلى الإنسان أن يبادر بأعظم ما يكون من السرعة ليأخذ زاده ويستعد عدته لبقية هذا السفر العظيم الهائل الشاق، ثم بعد هذه المرحلة ننتقل جميعاً إلى مرحلة تسمى مرحلة القبور، نصير جميعاً إلى القبور كما صار إليها من قبلنا. وذكروا أن أعرابياً بدوياً سمع قارئاً يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر: الآيتان ١، ٢]. قال: انصَرَفوا والله من المقابر إلى دار أخرى[١]. لأن الزائر منصرف لا محالة، ثم إنهم يوم القيامة يُخرجون من القبور إلى محطة أخرى وهي محطة عرصات الحشر، يجتمعون فيها جميعاً في صعيد واحد ينفذهم البصر ويُسمعُهم الداعي، ثم يقضي الله بين خلقه بالشفاعة الكبرى، شفاعة سيد الأنبياء محمد (صلوات الله وسلامه عليه)، فإذا انقضى حسابهم وتمت

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٤/٥٤٥).

مجازاتهم، عند ذلك صدروا أشتاتاً ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة: آية ٦] فمذهوب به ذات اليمين إلى الجنة، ومذهوب به ذات الشمال إلى النار، ولا يجتمعون بعد ذلك، وهذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾، وهذه الأشتات قد أوضح الله معناها في سورة الروم، في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: الآيات ١٤ ـ ١٦]. فإذا دخلوا أماكنهم دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وفي ذلك الوقت يُدعى بالموت في صورة كبش أملح، في مرأى كل منهم ثم يُذبح، ويُقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، وذلك هو معنى قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: آية ٣٩] إذ قُضي الأمر وذبح الموت واستقر كل في منزله استقراراً أبدياً، فهذا الاستقرار الذي لا تَحَوُّل بعده، من أجله قيل للدار (الآخرة) لأنها ليس بعدها محطة أخرى ينتقل إليها، فهي آخر المحطات التي ينتقل إليها، لا يبغون عنها حولاً في الجنة، ولا خروج لهم من النار، وهذا هو معنى قوله: (الآخرة).

قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: في جنبها وبالنسبة والإضافة إليها ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ جداً، قد جاء عن النبي ﷺ أنه ضرب لذلك مثلًا بمن وضع إصبعه في البحر، فلينظر بماذا يخرج به أصبعه من البحر[(١)]، فذلك بمثابة قلة الدنيا بجنب الآخرة، وهذا معنى قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ لأن الدنيا دار قليل ما فيها، وأهلها الذين كانوا يتمتعون بها إذا بُعثوا يحلفون أنهم ما مكثوا فيها إلا ساعة كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: آية ٥٥] وبيّن أن أقواهم عقلاً وأثبتهم نظراً

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا. حديث رقم: (٢٨٥٨) (٢١٩٣/٤).

يدّعي أنهم مكثوا يوماً أو بعض يوم، وهو قوله في طه: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: آية ١٠٤] وهذا معنى قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (الدنيا) تأنيث الأدنى، وهي في غاية الدناءة والدنو؛ لأنها قيل من الدنو بأنها عرض عاجل الآن، وقيل من الدناءة بالنسبة إلى الآخرة[1].

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: آية ٣٩].

قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾ هي (إن) الشرطية أُدغمت في (لا) يعني: إلا تنفروا، إن لم تمتثلوا أمر الله وتنفروا لجهاد أعداء الله وإعلاء كلمته فإن ذلك ضرره عليكم لا على الله ولا على رسوله.

وهذه الآية فيها سر عظيم يعلم به الإنسان أن كل ما يفعله إنما أثره راجع إلى نفسه، فإن كان شراً فهو يجني شراً على نفسه، وإن كان خيراً فهو يجلب الخير لنفسه ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: آية ٧]. فعلى كل عاقل في دار الدنيا أن يعتبر بمعنى هذه الآية وما في معناها من الآيات، وهو أن ما يفعله الإنسان لا يجنيه إلا هو، وأن حركات الإنسان في دار الدنيا يبني بها مسكنه الذي يصل إليه ويخلد فيه خلوداً أبدياً يوم القيامة، فهذه الحركات والسكنات في دار الدنيا يظن الجاهل أنها أمور لا طائل تحتها، ولا يلزم الاحتياط والنظر الدقيق فيها، وهذا من أشنع الغلط؛ لأن حركات الإنسان في دار الدنيا مقبلاً ومدبراً، ذاهباً وجائياً، متصرفاً هنا وهنا، كله يبني منزله ومقره النهائي، إما أن يبني بذلك غرفة من غرف الجنة يخلد فيها، أو يبني به سجناً من سجون جهنم، هذا هو الواقع، فعلى كل مسلم أن ينظر في أقواله وأفعاله، فيعلم أنه ينفع بالطيب منها نفسه، ويضر بالخبيث منها نفسه، ليحاسِب فيجتنب الخبيث ويجتلب الطيب، وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾ إلا تمتثلوا أمر الله ورسوله بالنفر إلى الأعداء لجهاد أعداء الله، وإعلاء كلمة الله، ونصر

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأعراف.

دين الله ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أنتم الذين تنالون الضر من ذلك ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الظاهر أن هذا العذاب شامل لعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، لأن التكاسل عن مقاومة الأعداء في دار الدنيا من أسباب عذاب الدنيا؛ لأنه يضعف المسلمين ويقوي أعداءهم فيُهينونهم في قعر بيوتهم كما هو واقع الآن، لأن المسلمين، أو من يتسمون باسم المسلمين معذبون في أقطار الدنيا من جهة الكفرة، يضطهدونهم، ويظلمونهم، ويقتلونهم، ويتحكمون في خيرات بلادهم، وهذا كله من أنواع عذاب الدنيا لتركهم الجهاد وإعلاء كلمة الله (جلّ وعلا)، وما ذكره غير واحد عن ابن عباس من أنه قال: إن هذه الآية نزلت في بعض قبائل العرب، استنفرهم النبي ﷺ إلى الغزو فامتنعوا، فمنع الله عنهم المطر، وأضرهم بالقحط[1]. هذا قد يدخل في الآية في الجملة، ولا يمكن أن يكون معناها؛ لأن الله يقول: ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾. فهذا يدل على أن المراد به ليس حبس المطر، وإن كان حبس المطر من أنواع العذاب التي تسببها مخالفة الله (جلّ وعلا)؛ لأن مخالفة الله وعدم القيام بأمره ونهيه هي سبب كل البلايا كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: آية ٣٠].

﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الأليم: معناه الموجع الذي يجد صاحبه شدة ألمه ووجعه، والتحقيق هو ما قدمناه مراراً[2]: أن الأليم بمعنى المؤلم، وأن (الفعيل) يأتي في لغة العرب بمعنى (المُفعل). فما ذكره بعضهم عن الأصمعي من أن (الفعيل) لا يكون بمعنى (المُفعل) وعليه أراد بعضهم أن يفسر الأليم بأنه يُؤلَم به أو يحصل بسببه ألم، فكله خلاف التحقيق، والتحقيق أن من أساليب اللغة العربية إطلاقهم (الفعيل) وإرادة (المُفعِل) وهذا معروف في كلامهم، ومنه ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام: آية ١٠١] أي:

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب: كراهية ترك الغزو، حديث رقم: (٢٤٨٩) (١٨٣/٧)، والبيهقي (٤٨/٩)، والحاكم (١١٨/٢)، وابن جرير (٢٥٤/١٤) وهو في ضعيف أبي داود ص٢٤٦.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

مبدعها، ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ [هود: آية ٢٥] أي: منذر لكم، ونظيره من كلام العرب قول غيلان بن عقبة المعروف بذي الرُّمة[(١)]:

ويـرفـعُ مـن صـدورِ شَـمَـرْدَلاَتٍ   يـصـكُّ وجُـوهَـهَـا وهَـجٌ ألـيـمٌ

أي: مؤلم، وقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي[(٢)]:

أَمِـنْ ريـحـانـة الـداعـي الـسَّـمـيـع   يُـؤرِّقُـنـي وأصـحـابـي هُـجُـوعُ

فقوله: «الداعي السميع» يعني: الداعي المسمع، وقول عمرو بن معد يكرب أيضاً[(٣)]:

وخـيـل قـد دَلَـفْـتُ لـهـا بِـخَـيْـلٍ   تـحـيـة بـيـنـهـم ضَـرْبٌ وجِـيْـع

أي: موجع. وهذا هو الصحيح.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أكثر الله (جلّ وعلا) في القرآن من ذكره أن الموجودين إذا لم يطيعوه ويمتثلوا أمره فهو غني عنهم قادر على إذهابهم وإزالتهم بالكلية والإتيان بمن يخلفهم، بل من يكون خيراً منهم، وقد قدمنا هذا مراراً وسيأتي أيضاً، فمن الآيات التي بيّن بها هذا قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: آية ١٣٣] وقوله في الأنعام: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام: آية ١٣٣] وقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: الآيتان ١٩، ٢٠]. وقوله في سورة القتال: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: آية ٣٨] ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: آية ٥٤] أي: بدلاً من هؤلاء المرتدين، وهذا معنى قوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة: آية ٣٩] أي: يأتي

---

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(٣) السابق.

بقوم يجعلهم بدلكم خيراً منكم، إذا استُنفروا نفروا، ولا يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، كما دلت عليه هذه الآيات المذكورة، وهذا معنى قوله: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

وقد ذكرنا مراراً[١]، أن لفظة (القوم) اسم جمع لا واحد له من لفظه، يطلق في اللغة العربية الإطلاق الأول على الذكور خاصة دون النساء؛ لأنه وُضع للذكور خاصة، وربما دخلت فيه النساء بحكم التبع إذا دلّ على ذلك قرينة، أما الدليل على أن القوم اسم جمع خاص بالرجال، في أصل وضعه: فقوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: آية ١١] ثم قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ فعطفه النساء على القوم يدل على عدم دخولهن في اسم القوم، ونظيره من كلام العرب قول زهير بن أبي سُلمى[٢]:

وما أدري وسوفَ إِخَالُ أدري ... أقومٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نساءُ

فعطف النساء على القوم، وربما دخلت النساء في اسم القوم بحكم التبع إذا دلت على ذلك قرينة خارجية، ومنه قوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: آية ٤٣].

وقوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ﴾ قال بعض العلماء: الضمير المنصوب في «تضروه» عائد إلى الله، أي: لا تضروا الله شيئاً بعدم امتثالكم أمره ولا سعيكم في إعلاء كلمته[٣]. وهذا الوجه هو الذي يشهد له القرآن كقوله (جلّ وعلا): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [محمد: آية ٣٢] وتدل على هذا الآيات القرآنية الكثيرة أن الله غني عن خلقه الذين

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) انظر: القرطبي (١٤٢/٨)، ابن كثير (٣٥٨/٢).

يدعوهم لطاعته، فإنما يدعوهم لنفعهم، فامتثالهم نفعه لهم، وتمردهم ضرره عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: آية ٦]، ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: آية ٨]، ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: آية ٧] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال بعض العلماء: الضمير المنصوب عائد إلى النبي ﷺ(١)، أي: لا تضروا النبي ﷺ بذلك؛ لأن الله تكفّل له بنصره، كما يأتي في قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ...﴾ الآية [التوبة: آية ٤٠] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: آية ٣٩] معناه: أنه (جلّ وعلا) قادر على كل شيء، فهو قادر على ما شاء، وقادر أيضاً على ما لم يشأ، فهو (جلّ وعلا) قادر على هداية أبي بكر الصديق، وقادر على هداية أبي لهب، لا شك أنه قادر على الأمرين، وقد أراد أحد المقدورين، وهو هداية أبي بكر، ولم يرد المقدور الثاني وهو هداية أبي لهب، فهو (جلّ وعلا) قادر على كل شيء، لا يتعاصى عليه شيء، يقول للشيء كن فيكون، خلقه لجميع البشر كخلقه لنفس واحدة ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: آية ٢٨] لأنه (جلّ وعلا) لا يتعاصى على قدرته شيء سبحانه (جلّ وعلا).

٧/ب / يقول الله جلّ وعلا: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة: آية ٤٠].

هذه الآية يقول الله (جلّ) فيها للذين تكاسلوا عن غزوة تبوك وتثاقلوا وتباطؤوا أن يغزوا الروم مع النبي ﷺ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ (إن) هي الشرطية مدغمة في (لا) والضمير المنصوب في (تنصروه) عائد إلى النبي ﷺ، يعني: إن تتقاعسوا وتتثاقلوا عن نصرة نبيه ﷺ في غزوة تبوك فإن الله ناصره

(١) انظر: القرطبي (١٤٢/٨).

لا محالة، سواء تثاقلتم أم لم تتثاقلوا. وقد بيّن (جل وعلا) أنه نصره في حالة الضعف والقلة، في حالة كان هو وصاحبه داخلين في غار مختفيين عن المشركين، فلما نصره الله في حالة الضعف والقلة فكيف لا ينصره في حالة الكثرة والقوة؟ وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ فالله ناصره على كل حال، ثم بيّن نصره له السابق في حالة الضعف والقلة ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ على أعدائه حيث أنجاه الله منهم، وخيّب مكرهم وأبطله، ثم أظهره عليهم بعد ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾.

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين أخرجه الذين كفروا وهم كفار مكة، ومعنى إخراجهم له أنهم اضطروه وألجؤوه إلى أن يخرج؛ لأن النبي ﷺ كان في حياة عمه أبي طالب يدفع عنه مكر قريش، ويحميه منهم، ويقول له[1]:

والـلّـهِ لَـنْ يَـصِـلُـوا إليكَ بِـجَـمْـعِـهِـم حـتـى أُوسَّـد فـي الـتُّـرابِ دَفِـيْـنَـا

فلما مات أبو طالب وجاء الأنصار وبايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة خاف قريش من النبي ﷺ، وعظم عليهم أمره، وهالهم شأنه، فقالوا: هذا الرجل صار له أتباع في القبائل الأخرى، فما نأمن أن يغزونا بأتباعه فيحتلنا. واعترموا على أن يقتلوه، وقد قدمنا السبب الذي ألجأ النبي ﷺ إلى الهجرة في سورة الأنفال، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[2] [الأنفال: آية ٣٠]. وذلك أن قريشاً لما هالهم أمر النبي ﷺ وعظم عليهم شأنه، وخافوا أن تتبعه قبائل العرب فيغزوهم بهم حاولوا أن يقتلوه، فاجتمعوا في دار الندوة، واجتمع جميع سادات قبائل قريش في ذلك الاجتماع، وجاءهم إبليس ـ عليه لعائن الله ـ في صورة شيخ جليل جائياً من بلاد نجد، وقال لهم: قد علمت بما اعترمتم عليه. وأراد أن يجلس معهم ليتبادل معهم الرأي، فأدخلوه معهم، فتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ، فقال قائل منهم، يقال هو أبو البختري: احبسوه ونتركه محبوساً حتى يموت. فقال ذلك الشيخ الذي هو إبليس في

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣) من سورة التوبة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

صورة ذلك الشيخ: ليس هذا لكم برأي؛ لأنكم إن حبستموه جاء بنو عمه وأتباعه فانتزعوه منكم، وغلبوكم عليه. فقال آخر: نرىٰ أن نخرجه من بلادنا وأرضنا ونصلح شأننا بعده إذا أخرجناه. فقال لهم إبليس اللعين في صورة ذلك الشيخ: ليس هذا والله برأي؛ لأنكم إن أخرجتموه فقد عرفتم حلاوة منطقه، وعذوبة لسانه، فقد يتبعه الناس فيغزوكم في دياركم فيغلبكم على أمركم. فقال أبو جهل لعنه الله: إن عندي لرأياً ما أراكم ذكرتموه، خذوا من كل قبيلة من قبائل قريش شاباً حدثاً قوياً وأعطوه سيفاً وأْمُرُوهُم يضربوه ضربة رجل واحد فيتفرّق دمه في قبائل قريش، فلن يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا جميع قريش، فيقبلوا منا عقله، فنعقله ونعطيهم ديته، ونستريح من شأنه. فقال لهم إبليس اللعين: هذا والله هو الرأي. فأجمعوا رأيهم على هذا وأنهم يقتلونه، واجتمعوا لتنفيذ ذلك عند باب الدار التي ينام فيها رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر (رضي الله عنه) قبل ذلك هاجر إلى الحبشة فيمن هاجر، فلقيه عمرو بن الدغنة سيد بني القارة، وهم بنو الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس، فقال لأبي بكر: أنت لا تذهب، وأنت في ذمتي. فرجع به في ذمته، وأعطاه قريش ذمة ابن الدغنة على أن لا يظهر قراءته ولا دينه، وأن يجعل دينه سراً في بيته، فلما طال ذلك على أبي بكر (رضي الله عنه) صار يُظهر صلاته وقراءته، فأرسلت قريش إلى عمرو بن الدغنة، الذي كان في ذمته أبو بكر (رضي الله عنه)، فقالوا: نحن لا نحب أن نخفر ذمتك، وإن صاحبك صار يفعل ما لم يحصل عليه الاتفاق، فكلم ابن الدغنة أبا بكر (رضي الله عنه) فقال: إما أن تفي بالشرط الذي توافقنا عليه، وإما أن ترد إلي ذمتي. فقال له أبو بكر (رضي الله عنه): رددت إليك ذمتك، وأنا في ذمة الله تعالى. وكان أبو بكر لما أراد أن يهاجر أشار له النبي ﷺ أنه يطمع أن يؤذن له في الهجرة، فقعد أبو بكر (رضي الله عنه) طمعاً في أن يُؤذن لرسول الله ﷺ في الهجرة فيكون رفيقه، واشترى راحلتين، وكان يعلفهما الخَبَط، وهو ورق السمر، شجر معروف، علفهما إياه أشهراً عديدة، أربعة، أو ستة، أو غير ذلك. فلما اجتمعت قريش لقتل النبي ﷺ وكان النبي ﷺ يأتي بيت أبي بكر كل يوم إما أول النهار أو آخره، فبينما هم ذات يوم إذ قدم عليهم رسول الله ﷺ في حر

الظهيرة، فقال أبو بكر: هذا وقت ما جاءنا به رسول الله، والله ما جاء إلا لأمر حدث. ثم لما دخل عليه رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: أقم من عندك. فقال: هم أهلك يا رسول الله، هم ابنتاي - يعني عائشة وأسماء (رضي الله عنهما) - فأخبر النبي أبا بكر (رضي الله عنه) أن الله أذن له في الهجرة، فقال: الصحبة يا رسول الله. فقال: الصحبة. قالت أسماء (رضي الله عنها): ما رأيت أحداً يبكي من الفرح قبل ذلك اليوم، فأبو بكر يبكي من الفرح. كذا قاله غير واحد من أهل الأخبار والسير، ثم إن قريشاً اجتمعوا لتنفيذ الخطة وقتل رسول الله ﷺ، فجاء جبريل فأخبر النبي ﷺ وأمره بالخروج، فنادى النبي ﷺ علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وأمره أن يضطجع في مكانه، وأن ينام في البُرد الذي كان ينام فيه رسول الله ﷺ، ثم إن الله أخذ بأعينهم فمر بهم النبي ﷺ وقرأ عليهم آيات من أول سورة يّس حتى بلغ ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يّس: آية ٩] ووضع على رأس كل واحد منهم التراب. ثم خرج هو وأبو بكر (رضي الله عنه). قال بعضهم: خرج من خوخة في قفى دار أبي بكر التي في بني جُمَح، وذهب هو وأبو بكر إلى الغار، وهو غار في جبل من جبال مكة يُسمى ثوراً، فدخل فيه هو والنبي ﷺ، وجاءه ليلاً، ومكثوا فيه ثلاث ليال بأيامها حتى يرجع الطلب، وآجروا رجلاً من بني دؤل بن كنانة يُسمى عبدالله بن الأريقط على دين كفار قريش، يُقال: إن له خؤولة في بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي، فأمَّنه واستأجره على راحلتيهما وواعده بعد ثلاث ليالٍ أن يأتيهم بالراحلتين في غار ثور، وكان كافراً أميناً، كتم سرهما وحفظ عليهما أمرهما، وجاءهما في الموعد، وكان عبدالله بن أبي بكر (رضي الله عنهما) غلاماً ثَقِفاً شاباً عاقلاً، كان يأتيهم بأخبار قريش وكل ما قالوا وتحدثوا به في شأنهم في النهار يأتيهم به في الليل في الغار، وكانت أسماء (رضي الله عنها) تأتيهم بالطعام، وكان عامر بن فهيرة الطائي (رضي الله عنه) مولى أبي بكر الصديق كان عبداً مملوكاً لأولاد أم رومان، وهي أم عائشة، كانت لها أولاد قبل أبي بكر، وكان عامر بن فهيرة هذا عبداً لهم، فاشتراه أبو بكر (رضي الله عنه) فأعتقه، فكان مولى لأبي بكر، كان يريح على النبي وأبي بكر غنماً لأبي بكر (رضي الله عنه) فيحلب لهم منها

فيشربون بالليل، ثم إذا كان في آخر الليل صاح بها فأصبح مع رعاء قريش، ولا يدرون أنه كان معهم. فمكثوا فيها ثلاث ليال، فجاءهم عبدالله بن الأريقط الدؤلي ـ رفيقهم ـ وركبا، وكان خرِّيتاً ماهراً، سار بهم في طرق غير معهودة؛ لأن الطرق المعهودة عليها الرصد والعيون، وكانت قريش أخذوا قائفاً خبيراً بقص الأثر يقال هو سراقة بن مالك بن جعشم، ويقال هو غيره، فاقتص بهم الأثر حتى بلغ الغار، وقال: من هاهنا ضاع الأثر. ويقول أصحاب الأخبار والسير: إن الله قيّض العنكبوت فنسجت على الغار[١]، وقيّض حمامتين وحشيتين فباضتا على فم الغار[٢]، فلما جاء كفار مكة ووصلوا فم الغار، قال أبو بكر لرسول الله ﷺ: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا. فقال له رسول الله ﷺ: «**ما بالك باثنين الله ثالثهما؟**»[٣] فرجعوا خائبين. فلما كان بعد ثلاث ليال ورجع الطلب جاءهم عبدالله بن الأُريقط براحلتيهما وركبا ومعهما عامر بن فهيرة. وكان عامر بن فهيرة رديف أبي بكر والنبي ﷺ على إحدى الناقتين اللتين اشتراهما أبو بكر لهذا الغرض، وهي ناقته العضباء المشهورة، ولما عرضها عليه أبو بكر (رضي الله عنه) أبى أن يقبلها إلا بالثمن (صلوات الله وسلامه عليه)، فخرج بهما في طريق يُسمى طريق الساحل، وجاء إلى طرق غير معهودة، وابن إسحاق ذكر المَحَالّ التي جاء منها[٤]، تارة يصلون إلى الطريق المعهودة، وتارة يخرجون عنها حتى وصلوا المدينة. ومن أشهر ما حصل في طريقهم إلى المدينة قصة أم معبد، وقصة سراقة بن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

(٢) أخرجه ابن سعد (١٥٤/١)، والبزار (كشف الأستار ٢٩٩/٢) ولا يصح في بيض الحمامتين شيء. وانظر: أحاديث الهجرة ص١٣٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب: مناقب المهاجرين وفضلهم، منهم أبو بكر رقم (٣٦٥٣) (٨/٧). وانظر الأحاديث رقم (٣٩٢٢، ٤٦٦٣).
وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر الصديق. رقم (٢٣٨١) (١٨٥٤/٤).

(٤) نقله عنه ابن هشام ص٥١٤ ـ ٥١٦، وابن كثير في البداية والنهاية (١٨٩/٣). وقد جاء ذلك في بعض الروايات عند الحاكم (٨/٣)، وابن سعد (١٥٧/١/١) وانظر مجمع الزوائد (٥٥/٦).

مالك بن جعشم. ومما نزل من القرآن في هذا السفر، نزلت فيه آيات من القرآن منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: آية ٨٥] قال بعض العلماء: نزلت في الجحفة في سفر الهجرة هذا، وفي هذا السفر مرّ على ديار بني مدلج، يقول بعضهم: هي قريب من قديد فقال رجل: رأيت أشخاصاً كأنهم القوم الذين يطلبهم قريش. فعلم سراقة بن مالك أنهم هم، ولكنه طمع بأن يأخذهم أو يقتلهم فينال الجعائل التي جعلتها قريش. فقال: لا، أولئك قوم خرجوا للكلأ. ثم بعد هنيهة خرج وأمر جاريته أن تسرج فرسه من وراء أَكَمَه، ثم خرج مختفياً فركب على فرسه، فلما قاربهما ساخت به قوائم فرسه في الأرض، في القصة المشهورة، فطلب الأمان من رسول الله ﷺ[1]، قال بعض أهل السير والأخبار: إن النبي ﷺ كتب له رقعة، وصار يثبط الناس ويردهم عن رسول الله ﷺ، فسمع بذلك الخبيث أبو جهل، وأرسل إلى بني مدلج يحذرهم من نصر سراقة لنبي الله ﷺ، ويقول أبو جهل لعنه الله في ذلك أشعاراً في غاية الكفر، ويعيب على سراقة نصره لنبي الله ﷺ، ومما يقول في ذلك[2]:

بني مُدْلجٍ إني أخافُ سَفِيْهَكُم ... سُراقة مُسْتَغْوٍ لِنَصْرِ محمدِ
عليكم به ألا يُفَرِّقَ شَمْلَكُم ... فيصبحَ شتّى بعد عزٍ وسُؤْدَدِ

فسمع بشعره سراقة بن مالك وأرسل إليه بأبياته المشهورة التي ذكرها غير واحد من المؤرخين وأصحاب السير وهو قوله (وكان أبو جهل يكنى أبا الحكم)[3]:

---

(١) خبر سراقة وما قبله مما يتعلق بالهجرة من روايات كل ذلك تقدم تخريجه في مواضع سابقة. منها عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

(٢) البيتان في البداية والنهاية (١٨٦/٣).

(٣) الأبيات في دلائل النبوة للبيهقي (٤٨٩/٢)، البداية والنهاية (١٨٦/٣) مع اختلافات يسيرة في الأبيات الثلاثة الأولى، أما البيت الأخير فنصه في البداية والنهاية:

بأمرٍ تودُ النصرَ فيه فإنهم ... وإنَّ جميعَ الناسِ طُراً مُسالِمُه

وفي الدلائل:

بأمر يود النصر فيه بِإِلْبِهَا ... لو أن جميع الناس طُرّاً تسالمه

أبا حكم واللّهِ لو كنتَ شاهداً لأمرِ جَوَادي إذ تسوخ قوائمه
علمتَ ولم تَشكُك بأن محمداً رسولٌ ببرهان فمن ذا يقاومه
عليكَ بكفّ القوم عنه فإنني أرى أمره يوماً ستبدو معالمه
بأمر يود الناس فيه بأسرهم بأن جميع الناس طراً يسالمه

ومر في هذه الطريق بعاتكة بنت خالد الخزاعية المعروفة بأم معبد (رضي الله عنها)؛ لأنها أسلمت وقد رويت قصتها عنها وعن أخيها حُبيش بن خالد ويقال خُنيس بن خالد وغيرهما[1] أنهم كانوا في شدة، وكانت أغنامهم عازبة، فمرّ بها رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعامر بن فهيرة وعبدالله بن الأريقط، فسألوها هل عندها لحم أو تمر يباع؟ فقالت: لا شيء عندها. وقالت: لو كان عندنا القِرَى ما أعوزكم. لأن الحي في شدة، والأغنام عازبة، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر خيمتها فقال: **«ما بال هذه الشاة؟»** قالت: خلّفها الجهد. قال: **«أتأذنين لي أن أحلبها؟»** قالت: إن وجدت فيها حليباً فاحلبها. فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح ضرعها وسمى الله، فتفاجت واجترت، ودعا بإناء عظيم فحلب فيه حتى امتلأ، فسقاها هي ومن معها، ثم سقى قومه، وشرب ﷺ وقال فيما يقول أهل الأخبار: **«ساقي القوم آخرهم شرباً»**[2] ثم أخذ الإناء وملأه مرة أخرى وتركه عندها وخرج. فلم تمكث إلا قليلاً أن جاء زوجها أبو معبد فوجد الإناء

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢٧٦/١)، (٤٩١/٢)، والحاكم (٩/٣)، وابن سعد (١٥٥/١/١)، وابن عساكر (انظر: تهذيب تاريخ دمشق ٣٢٦/١)، والآجري في الشريعة ص٤٦٥.

وذكره الهيثمي في المجمع (٥٥/٦) من حديث جابر (رضي الله عنه) مختصراً، وعزاه للبزار، وقال: «وفيه من لم أعرفه» ا.هـ. وأورده من حديث حبيش بن خالد (رضي الله عنه) (٥٥/٦) وقال (٥٨/٦): «رواه الطبراني في إسناده جماعة لم أعرفهم» ا.هـ.

كما أورده من حديث قيس بن النعمان (٥٨/٦) وقال: «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح» ا.هـ.

(٢) أخرجه ابن سعد (١٥٥/١/١) في خبر الهجرة. وهذه الجملة «ساقي القوم آخرهم شرباً» وردت أيضاً في مناسبة غير سفر الهجرة كما في حديث أبي قتادة (رضي الله عنه) عند مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة رقم (٦٨١) (٤٧٢/١).

مملوءاً من اللبن، فعجب منه وقال: كيف هذا اللبن؟ ولا حلوبة في البيت؟ فقالت: جاءنا رجل مبارك من صفته كيت وكيت، فقال: صفيه لي يا أم معبد. فوصفته وصفها المشهور، فقالت له: رأيت رجلاً ظاهر الوَضَاءة، حَسَن الخَلق، مليح الوجه، لم تعبه تُجْلَة[١]، ولم تُزر به صُعْلَة، قسيم وسيم، في عينيه دَعَج، وفي أشفاره حَوَر، وفي صوته صَحَل، أكحل أقرن أزج، في عنقه سَطَع، وفي لحيته كثافة. إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعليه البهاء، حلو المنطق، فَصْلٌ ليس بنزر ولا هَذْر، كأن منطقه خَرَزَات نظم يتحدَّرْن أو ينحدرن، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم من قريب، رَبْعَة لا تَنَسَؤُه عينٌ لطوله، ولا تقتحمه عينٌ لِقِصَره، إلى آخر ما ذكرت من أوصافه الكريمة الجليلة صلوات الله وسلامه عليه[٢].

وهذه المعاني الجليلة قد لا يفهمها كل الناس، سنُشير إلى ما لا يُفهم منها:

فقولها: (لم تعبه التُّجلَة)[٣]: بضم التاء والجيم معناه عِظَم البطن وكبرها. وقيل: ارتفاع الخاصرتين ونتوؤهما.

(ولم تُزْرِ به صُعْلَة): الصُّعْلَة: صغر الرأس صغراً مفرطاً. يعني: ليس ضخم البطن، ولا صغير الرأس جداً، بل هو ضامر البطن، رأسه ليس بصغير صغراً مزرياً.

وقولها: (في عينيه دَعَج): الدَّعَج: سواد العين مع سعتها.

وقولها: (في أشفاره وَطَف): الوَطَف: هو كثرة شعر الجفن.

وقولها (أَزَجّ) تعني: قليل شعر الحاجب.

وقولها: (أقرن): تعني أن شعر حاجبيه يمتد طرف هذا حتى يقرب من هذا مع الزَّجَجَ فيه.

---

(١) المُثبت في أكثر الروايات (تُجلة)، وفي بعضها: (نُحلَة). والتُّجلة: عظم البطن، والنحلة: الدقة والنحول.

(٢) هذه الأوصاف وردت في بعض الروايات عند الحاكم (٣/٩)، والبيهقي في الدلائل (١/٢٧٨ ـ ٢٧٩)، وابن سعد (١/١/١٥٦)، وابن عساكر (تهذيب تاريخ دمشق ١/٣٢٦ ـ ٣٢٧).

(٣) راجع الحاشية قبل السابقة.

وقولها: (في عنقه سَطَع): أي طول؛ لأنه ليس قصير العنق. إلى آخر ما ذكرته من أوصافه الجميلة.

فلما جاء زوجها قال: هذا والله صاحب قريش الذي يطلبونه ولأجهدن في أن أصحبه. وذكر غير واحد أنه أسلم بعد ذلك وهاجر إلى النبي ﷺ.

وفي صبيحة ذلك اليوم سمع قريش هاتفاً من الجن يسمعون صوته مرتفعاً، ولا يرون شخصه، يُنْشِد ذلك الشعر المشهور الذي يقول فيه[١]:

جَزَى اللّهُ ربُّ الناسِ خَيْر جَزَائِهِ رَفِيْقَيْنِ حَلاَّ خَيْمَتي أُمِّ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلاَ بالبِرِّ وارتَحَلا به فأَصْلَحَ من أَمْسَى رَفِيْقَ مُحَمَّدِ
فَيَا لَقُصَيٍّ ما زَوَى الله عَنْكُم بِهِ من فَعَالِ الله جاهاً وسُؤددِ
لِيَهْنِ بني كعبٍ مكان فَتَاتِهِم ومَقْعَدُهَا للمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدِ
سَلُوا أُخْتَكُم عن شَاتِهَا وإِنَائِهَا فَإِنَّكُم إن تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ

ولم يدرِ قريش أين ذهب النبي ﷺ حتى سمعوا هاتفاً من الجن على أبي قُبَيْس ينشد هذا الشعر، يسمعون أيضاً صوته ولا يرون شخصه:

فإن يُسْلِمْ السَّعْدَانُ يُصبحْ محمدٌ بمكَّةَ لا يخشى خلافَ المُخَالِفِ

فقال أبو جهل: ما هذان السعدان، سعد كذا أو سعد كذا[٢]. فسمِع بعد ذلك الهاتف يقول[٣]:

أَيَا سَعْدُ سَعْدَ الأَوسِ كُن أنْتَ ناصراً ويا سعدُ سعدَ الخزرجينِ الغَطَارِفِ
أجيبا إلى داعي الهدى وتمنَّيَا على الله بالفردوسِ مُنْيَةَ عارفِ
فإن جزاءَ الله للطَّالبِ الهُدى جنانٌ من الفردوسِ ذات رفارفِ

---

(١) هذه الأبيات ضمن الرواية المفصلة في قصة أم معبد، وقد سبق تخريجها قريباً.

(٢) القائل هو أبو سفيان. ومقالته: «من السعدان: أسعد بن بكر، أم سعد بن هُذَيم»؟ وهما قبيلتان.

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/٤٢٨ ـ ٤٢٩)، ونقله عنه ابن كثير في البداية والنهاية (٣/١٦٥).

ثم إن النبي ﷺ استمر في طريقه ذاهباً إلى هذه المدينة ـ حرسها الله ـ وكان الأنصار (رضي الله عنهم) سمعوا بخروج النبي ﷺ، وكان النبي في طريقه، لقي الزبير بن العوام كما ذكره البخاري[١] في قوم مسلمين جاؤوا تجاراً من الشام، فكساهم ثياباً بيضاً وجاؤوا يلبسون ثياباً بيضاً، وكان الأنصار كلما صلوا الصبح خرجوا إلى حرتهم ينتظرون رسول الله ﷺ فرحاً بقدومه، فلم يزالوا ينتظرونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال، والزمن زمن حر في ذلك الوقت، ولم يزالوا كذلك حتى رجعوا إلى بيوتهم وقت شدة الحر بعد أن غلبتهم الشمس على الظلال، فصعد رجل من يهود على أُطم من آطامهم فأبصر برسول الله ﷺ والذين معه في ثياب بيض يزول بهم السراب، فلم يتمالك أن نادى بأعلى صوته: يا بني قَيْلَة هذا جدُّكم الذي تنتظرون، فثار الأنصار في السلاح وتلقوه (صلوات الله وسلامه عليه)[٢]. وفي بعض الروايات الثابتة[٣] أنه لما قرب من المدينة جلس في ظل نخلة، وأن الأنصار جاؤوه في السلاح، وكان كثير منهم لم يرَ النبي ﷺ ولم يعرف هو أو أبو بكر جلس تحت ظل تلك الشجرة حتى تحول الظل عن النبي ﷺ فقام أبو بكر فظلّ عليه بردائه، فعلموا أنه هو. وجاء في بعض الروايات أنه جاء المدينة في حرّ الظهيرة[٤]. وفي بعضها[٥] أنه دخلها في الليل. وقد وفق بينهما بعض العلماء[٦] بأن أصل قدومه وقت الظهيرة، وأنه جلس تحت تلك النخلة حتى صار آخر النهار. فجاء بني عمرو بن عوف

---

(١) مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة. حديث رقم: (٣٩٠٦) (٢٣٨/٧ ـ ٢٣٩).

(٢) الكلام إلى هذا الموضع تابع لرواية البخاري.

(٣) أوردها ابن هشام (٥١٧ ـ ٥١٨)، وابن كثير في تاريخه (١٩٦/٣).

(٤) كما في رواية البخاري السابقة عن عروة.

(٥) كما في رواية مسلم من حديث الهجرة المخرج في الصحيحين من حديث البراء عن أبي بكر (رضي الله عنهما)، وقد تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

(٦) انظر: البداية والنهاية (١٩٦/٣)، فتح الباري (٢٤٤/٧).

في قباء، وقدم أولًا على بني عمرو بن عوف من الأوس في قباء ومكث فيهم مدة. واختلف العلماء في قدر المدة التي مكث فيهم[١]، فثبت في صحيح البخاري وغيره أنه مكث فيهم بضع عشرة يوماً[٢]، وجاء علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وأدرك النبي ﷺ وهو في بني عمرو بن عوف بقباء؛ لأن النبي ﷺ كانت تدعوه قريش (الأمين) وكان عنده كثير من الودائع يحفظها لأمانته عندهم، فخلف علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بعد أن هاجر هو وأبو بكر حتى يرد على الناس ودائعهم، ثم يتبعه ﷺ، فلحق به وهو في بني عمرو بن عوف بقباء. كان ابن إسحاق يقول: قدم النبي ﷺ على بني عمرو بن عوف بقباء يوم الإثنين لاثنتي عشرة مضت من ربيع الأول، ومكث فيهم يوم الاثنين ويوم الثلاثاء والأربعاء والخميس[٣]، ثم سار يوم الجمعة إلى المدينة. وهذا قول ابن إسحاق. وروى البخاري عن طريق الزهري ما يقتضي أنه مكث في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة[٤]. فلما خرج من بني عمرو بن عوف ذاهباً إلى المدينة، قال ابن إسحاق وغيره[٥]: وافته الجمعة حذاء مسجد بني سالم بن عوف، المسجد الذي في الوادي بين قباء والمدينة، فصلى فيه الجمعة. قالوا: وهي أول جمعة صلاها بالمدينة، فجاءه عتبان بن مالك (رضي الله عنه) وعباس بن عبادة بن نضلة في رجال من بني سالم بن عوف، وقالوا: يا نبي الله: أقم عندنا في العزة والعدد والمنعة. فقال يعني ناقته: **«خلوا سبيلها إنها مأمورة»** فخرجت ذاهبة إلى المدينة، فلما وازى دور بني بياضة تلقاه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو في رجال من بني بياضة فقالوا: يا نبي الله هلم إلينا في العدة والعدد والمنعة. قال: **«خلوا سبيلها إنها مأمورة»** فلما مرت بديار بني ساعدة من الخزرج تلقاه سعد بن عبادة (رضي الله عنه) والمنذر بن عمرو

---

(١) انظر: تاريخ ابن كثير (١٩٨/٣)، فتح الباري (٢٤٤/٧).

(٢) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٣) نقله ابن هشام ص٥٢٠.

(٤) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٥) نقله ابن هشام ص٥٢٠.

(رضي الله عنهم) وقالوا: يا نبي الله هلم إلينا في العدة والعدد والمنعة. قال: «**خلوا سبيلها إنها مأمورة**» فلما مرت ببني عدي بن النجار وهم أخواله الأقربون ﷺ؛ لأن جده عبدالمطلب أمه سلمى بنت عمرو بن زيد من بني عدي بن النجار، تلقاه منهم رجال منهم سليط بن قيس وأبو سليط. فقالوا: يا نبي الله هلم إلى أخوالك في العدد والعدة والمنعة. قال: «**خلوا سبيلها إنها مأمورة**» فلما مرت بديار بني الحارث بن الخزرج[١] تلقاه جماعة منهم، منهم سعد بن الربيع، وعبدالله بن رواحة، وخارجة بن زيد (رضي الله عنهم)، في رجال من بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا في العدد والعدة والمنعة. قال: «**خلوا سبيلها إنها مأمورة**» حتى بلغت ديار بني مالك بن النجار فبركت بجنب هذا المسجد. وكان إذ ذلك الوقت مربداً، والمربد موضع إصلاح التمر، وكان ليتيمين من بني مالك بن النجار هما سهل وسهيل ابنا عمرو، وابن إسحاق يقول[٢]: إنهما في حجر معاذ بن عفراء. وجاء في صحيح البخاري من طريق الزهري ما يقتضي أنهما في حجر أسعد بن زرارة (رضي الله عنه)[٣]. فبركت الناقة، فلما بركت قال ابن إسحاق[٤]: لم ينزل عنها رسول الله ﷺ حتى قامت ومشت قليلاً ثم التفتت ورجعت إلى مبركها الأول. وتحلحلت فيه ووضعت جرانها في الأرض. والجران: باطن عنق البعير، وكان أقرب بيت لذلك بيت أبي أيوب الأنصاري ـ خالد بن زيد (رضي الله عنه) ـ فأخذ رحل رسول الله ﷺ إلى بيته، ولم يزل ﷺ في بيت أبي أيوب حتى بنى هذا المسجد، وبنى مساكنه وحُجَره التي بجنبه فانتقل إليها.

هذا ملخص عما جاء في هذا السفر المبارك، سفر الهجرة، فيه بعض روايات ثابتة في الصحيح، وفيه كثير منه في السيرة والأخبار، والسير

(١) كان مروره ﷺ بديار بني الحارث بن الخزرج قبل مروره ببني عدي بن النجار كما في رواية ابن إسحاق.

(٢) نقله ابن هشام ص٥٢١.

(٣) تقدم تخريجها قريباً.

(٤) وعنه ابن هشام ص٥٢١.

والأخبار تُحكى، وإنما يُحتاج إلى التصحيح فيها لما يتوقف عليه بعض الأحكام الشرعية، وهذه القصة ذكر بعض العلماء فيها أحكاماً مفيدة كثيرة منها:

أن النبي ﷺ استأمن كافراً على سره وأمنه، وانتفع بخبرة كافر، ومثل هذا يحتاج إلى التنبيه عليه اليوم؛ لأن الناس اليوم بين مُفرِط ومفرِّط في الانتفاع من الكفار، فبين مُفرِط يزعم أن تقليد الكفار يلزم في كل شيء، حتى ولو كان الانسلاخ من دين الله، ومنهم مفرّطون يقولون: لا تأخذوا عنهم شيئاً ولو من أمور الدنيا البحتة. والتحقيق أنه يؤخذ عنهم ما يجوز أخذه، ولا يؤخذ عنهم ما لا يجوز أخذه. والنبي ﷺ علّم أمته ذلك في وقائع كثيرة، من ذلك أنه لما لم يجد إلا أميناً كافراً ائتمن هذا الأمين الكافر وعامله وانتفع بخبرته العظيمة في الطرق على حد قولهم: «اجتن الثمار وألق الخشبة في النار»[١] ولم يكن جامداً، ولم يقل: هذا كافر، والكافر خبيث، والانتفاع بالخبيث خبيث. بل تبرأ منه. لا، بل انتفع بخبرته واستأجره؛ ولهذا نظائر كثيرة، من ذلك: أن النبي ﷺ لما سمع بقدوم الأحزاب مع كثرتهم وقلة المؤمنين قال له سلمان الفارسي: كنا إذا خفنا خندقنا[٢]. فالخندق خطة عسكرية ابتدعتها أذهان فارس، وهم كفار يعبدون النار، فلم يقل النبي ﷺ: هذه خطة نجسة؛ لأن الكفار ابتدعوها. بل أخذ بها وانتفع بها وهو متمسك بدينه، وقد ثبت في صحيح مسلم ما يقتضي أن النبي ﷺ همّ بمنع الغيلة، وهي وطأ المرضع؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن المرأة إذا كانت ترضع ولدها إذا جامعها زوجها وهي ترضع ولدها أن ذلك يضعف ولدها ويضعف عظمه ويضره، وكانوا إذا ضرب الرجل فنبا سيفه عن الضريبة، قالوا: هذا من آثار الغيلة عليه، وُطِئت أمه وهو يرضعها حتى كان شاعرهم يقول[٣]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

فـوارسُ لـم يُـغَـالُـوا فـي رَضَـاعٍ فَـتَـنْـبُـوا فـي أكُـفِّـهـم الـسـيـوفُ

فسمع ﷺ عن الروم وفارس أنهم يفعلون هذا ولا يضر أولادهم فأخذ هذه الخطة الطبية عن الروم وفارس(١). وهذه الخطة العسكرية عن فارس والانتفاع بهذه الخبرة عن هذا الرجل الكافر الذي يعبد الوثن ليعلّم أمته أنهم يأخذوا من الكفار أمورهم الدنيوية البحتة، ولا يقلدهم في كفرهم وضلالهم، وهذا واضح لا إشكال فيه.

ومعنى الآية الكريمة: أن الله (جلّ وعلا) يقول: إلا تنصروا نبي الله وتتقاعسوا وتتباطؤوا عنه في غزوة تبوك فالله يكفيه ولا يحتاج إليكم وقد نصره في مواضع أعسر وأشد من هذا، فقد نصره الله حين أخرجه الذين كفروا بما ذكرنا من تواطئهم عليه وإلجائهم إلى الخروج. كان بعض العلماء يقول(٢): يؤخذ من هذه الآية من سورة براءة بعض الأحكام الفقهية، وأن الإنسان إذا أكره إنساناً على الاعتداء، كأن أكرهه على أن يقتل أو يتلف مالًا، أن المكرِه (بكسر الراء) أعني باسم الفاعل، يلزمه غرم ذلك والقصاص فيه، لأن [الله](٣) نسب الإخراج إليهم؛ لأنهم ألجؤوا النبي ﷺ إليه. فسمى المُكرِه فاعلًا، فهذا له وجه من النظر ظاهر. وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: آية ٤٠] كقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [محمد: آية ١٣] ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ [التوبة: آية ١٣] ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: آية ١].

وقوله: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ حال ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في حاله ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: واحداً من اثنين ليس معه إلا رجل واحد ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فـ (إذْ) الثانية بدل من (إذ) الأولى، ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ الغار هو الثقب في الجبل، والمراد

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: القرطبي (١٤٣/٨).

(٣) في الأصل: «النبي». وهو سبق لسان.

به الغار المذكور في جبل ثور من جبال مكة ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبي ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِۦ﴾ وقد أجمع جميع المسلمين أنه أبو بكر (رضي الله عنه). وفي هذه الآية من سورة براءة أعظم منقبة لأبي بكر (رضي الله عنه)، فما يحاول به الإمامية وغيرهم من الشيعة من الكلام في أبي بكر (رضي الله عنه) وتفنيد ما دلت عليه هذه الآية من فضله وعظمته، كله باطل لا يلتفت إليه، وقد قال بعض العلماء(١): من أنكر أن أبا بكر صاحب رسول الله كفر لتكذيبه بهذه الآية الكريمة.

﴿لَا تَحْزَنْ﴾ الحزن في لغة العرب(٢) هو الغم من أمر فائت، وربما تُطلقه العرب على الغم من أمر مستقبل نادراً، كما هنا. والخوف: الغم من أمر مستقبل، وربما أطلقته العرب على الغم من أمر فائت، أي: لا يداخلك حزن من الخوف.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: آية ٤٠] وقد قال أبو بكر في قصة الغار قصيدته الرائية المشهورة التي يبين فيها قول النبي ﷺ هذا له حيث يقول(٣):

قالَ الرسولُ ولم يجزعْ يُوقِّرُني ... ونحنُ في سُدفة من ظُلمة الغَارِ
لا تخشَ شيئاً فإن الله ثالِثُنا ... وقد تكفَّل لي منهُ بإظهارِ

إلى آخرِ القصيدة المشهورة، وهذا معنى قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ العرب تقول: (حَزِن) بكسر الزاء (يحزَن) بفتحها (حَزَناً) على القياس و(حُزْناً) إذا أصابه الحَزَن، وأكثر ما يستعمل الحزن في الغم من أمر فائت، وقد يُطلق على الغم من أمر مستقبل كما هنا.

---

(١) انظر: القرطبي (١٤٦/٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) البيتان ذكرهما ابن كثير في تاريخه (١٨٣/٣) ولفظهما هناك:

قال النبي - ولم أجزع - يوقرني ... ونحن في سُدُف من ظلمة الغار
لا تخش شيئاً فإن الله ثالثنا ... وقد توكل لي منه بإظهار

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ هذه معية خاصة، والله (جلّ وعلا) بيّن في كتابه أن له مع خلقه معية خاصة ومعية عامة. أما المعية الخاصة كقوله هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: آية ٦٢]، ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: آية ٤٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾، فمعنى هذه المعية: أن الله ناصرهم وحافظهم وكالئهم ومعينهم، هذه هي المعية المذكورة هنا.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ السكينة: (فعيلة) من السكون، وهي الطمأنينة وثبوت الجأش حتى لا يكون فيه خوف ولا حَزن. ﴿عَلَيْهِ﴾ التحقيق أن الضمير عائد إلى النبي ﷺ، وقال بعضهم: هو إلى أبي بكر[1]؛ لأنه هو الحزين الذي يتشوش ضميره ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ [التوبة: آية ٤٠] أي: أيّد نبي الله ﷺ أي: قواه ﴿بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ظاهر هذه الآية الكريمة أن وقت إتيان الكفار إلى الغار أن الله (جلّ وعلا) جعل عند النبي في ذلك الوقت جنوداً من الملائكة لم يرها الناس، لو أراد الكفار أن يفعلوا به شيئاً لأهلكوهم، وهذا هو ظاهر الآية، وأكثر المفسرين يقولون: إن معنى ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: ما وقع من نزول الملائكة يوم بدر، ويوم الأحزاب، ويوم حنين كما تقدم إيضاحه. وظاهر القرآن أن جنود الملائكة تحيط به في ذلك الوقت، والله الذي هو أعظم معه بنصره وعزه وقوته في ذلك الوقت لا يخاف شيئاً، ولكن الله (جلّ وعلا) يشرع بأفعال رسله وأقوالهم لخلقه، فالله (جلّ وعلا) مع عظمته وجلاله وتصريح النبي بأنه معه، وأن الله أيده بجنود الملائكة، مع هذا يدخل في غار في ظلمة الليل، والغار فيه الحيات وخشاش الأرض؛ ليسن للناس ويشرع لهم حمل أعباء تبليغ الرسالة والدعوة، وأن يتحملوا في شأن الدعوة إلى الله كل البلايا
١/٨ والمشاق، ويستهينوا فيها بكل عظيم، هذا هو السر في ذلك،/ وهذا معنى قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ﴾ السفلى: تأنيث الأسفل، وهو الذي يَفْضُلُ غيره في السفالة والخساسة والانحطاط، كلمة الكفار جعلها الله هي

---

(١) انظر هذه الأقوال في ابن جرير (١٤/٢٦١)، القرطبي (٨/١٤٨).

السفلىٰ، وكلمة الكفار هي كلمة الكفر، وعبادة الأصنام، وعبادة غير الله (جلّ وعلا). ومعنى كونها هي السفلىٰ: اندحار أهلها وقمعهم وإظهار كلمة الله.

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ كلمة الله: لا إله إلا الله وما تضمنته، صارت هي العليا، وصار الحكم لها، وصار صناديد الكفَرَة بين مقتول ومأسور ومسلم، وصارت أحكام الله هي التي تنفذ، وكلمته هي التي يُعمل بها في أرضه، ودحض الله الكفار وأهلكهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ العزيز: الغالب الذي لا يغلبه شيء. والعزة: الغلبة، ومنه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: آية ٨] أي: للّه الغلبة ولرسوله وللمؤمنين، ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: آية ٢٣] أي: غلبني في الخصام. ومن أمثال العرب: «من عزَّ بز»[١] يعنون من غلب استلب. ومنه قول الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية الشاعرة[٢]:

كأن لم يكونوا حِمىً يُخْتَشَى إذ الناسُ إذْ ذاكَ مَنْ عَزَّ بَزَّا

والحكيم[٣]: هو من يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها. وهذان الاسمان من أسماء الله (العزيز الحكيم) المتضمنان هاتين الصفتين من صفات الله، وهي عزه وحكمته وحكمه هما أبلغ شيء في امتثال أمره وطاعته (جلّ وعلا)؛ لأن عزته أي غلبته وقوته وقهره وسلطانه يجعلك أيها المسكين العظيم تخافه وتخضع لأمره ونهيه، وكونه (جلّ وعلا) حكيماً لا يأمرك إلا بما فيه لك الخير، ولا ينهاك إلا عما فيه لك الشر، ذلك يقتضي أيضاً أن تطيعه وتخضع لأمره ونهيه. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٤٠].

قال تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: الآيات ٤١ ـ ٤٣].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قال جماعة من العلماء: هذه الآية الكريمة هي أول آية نزلت من سورة براءة. قالوا: أول ما نزل منها: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ الآية، ثم بعد ذلك نزل أولها وآخرها[(١)].

وقوله: ﴿ٱنفِرُوا۟﴾ أمرٌ بالنفر، والنفر المراد به هنا: التهيؤ والحركة للجهاد في سبيل الله، وكل متحرك بسرعة لأمر من الأمور تقول العرب: نفر له، كقولهم: النَّفْر غداة كذا. يعنون: تفرق الناس من منى ذاهبين إلى أوطانهم؛ لأنهم تنقضي مهمة حجهم فيسرعون الحركة متفرقين إلى أوطانهم. كما قال ابن أبي ربيعة[(٢)]:

لا نلتقي إلا ثلاثَ منىً ... حتى يفرقَ بيننا النَّفْرُ

فمعنى قوله: ﴿ٱنفِرُوا۟﴾ تحركوا مسرعين للجهاد في سبيل الله.

وقوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ حالان، والخِفَاف جمع خفيف. والثقال: جمع ثقيل. و«الفَعِيْل» إذا كان وصفاً يكثر جمعه على (الفِعَال) جمع كثرة كما هو معروف في محله.

والمراد بقوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ جاء فيه لأهل العلم ما يقرب من خمسة عشر قولًا أو أكثر[(٣)]، والمراد بها كلها: إنما هو تمثيل الخفة

---

(١) ذكره ابن جرير بسنده عن أبي الضحى (١٤/٢٦٩، ٢٧٠) وعزاه القرطبي (٨/١٤٩) لأبي مالك الغفاري.

(٢) البيت في ديوانه ص١٩٠.

(٣) انظر ابن جرير (١٤/٢٦٢ ـ ٢٦٩)، القرطبي (٨/١٥٠).

والثقل. والمعنى الجامع لذلك كله: ﴿انفِرُوا﴾ تحركوا مسرعين إلى جهاد الروم إلى تبوك في حال كونكم خفافاً أو ثقالاً.

والمراد بالخفاف: الذين تخف عليهم الحركة لتهيؤ أسباب القوة والحركة عندهم.

والثقال: الذين يثقل عليهم ذلك لسبب من الأسباب. وأقوال العلماء في هذا كالأمثلة لذلك، كقول من قال: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ شباباً وشيوخاً. وقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ مراضاً وصحاحاً. وقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ نشاطاً وغير نشاط. وقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أصحاب عيال وغير أصحاب عيال. وقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: أصحاب ضياع وبساتين أو غير أصحابها. فهذه أقوال كثيرة. كقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ مشاغيل وغير مشاغيل. إلى ذلك (. . .)[1].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٤٤، ٤٥].

لما دعا النبي ﷺ المسلمين إلى النفر في غزوة تبوك جاء رؤساء المنافقين كعبدالله بن أبي بن سلول، والجد بن قيس، وهؤلاء أعظم المنافقين، ومن سار في ركابهم، جاؤوا إلى النبي ﷺ يستأذنونه في الجلوس والتخلف عن غزوة تبوك؛ لأنهم أعداء للإسلام في باطن أمرهم، فبيّن الله أن ذلك الاستئذان رغبة في التخلف ليس من فِعال المسلمين، وأنه من فِعال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. قال: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ . . .﴾. الجمهور يقرؤون: ﴿يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ والسوسي: ﴿يستاذنك﴾ بإبدال الهمزة[2].

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يصدقون بالله (جلّ وعلا)،

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل.

(٢) انظر: الإقناع لابن الباذش (٤١٢/١)، النشر لابن الجزري (٣٩٠/١).

وإيمانهم بالله الإيمان بالله إذا أطلق شمل الإيمان من الجهات الثلاث، وهو تصديق القلب بالاعتقاد، واللسان بالإقرار، والجوارح بالعمل. فالمؤمن بمعنى الإيمان الصحيح هو من آمن قلبه ولسانه وجوارحه. وهذا الاستئذان ليس من أفعال المسلمين ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ الإيمان باليوم الآخر كثيراً ما يجعله الله مذكوراً مع الإيمان به؛ لأن من لم يؤمن باليوم الآخر لا يخاف بأساً يوم القيامة ولا يطمع في خير، فهو يفعل ما يشاء، فالكفر باليوم الآخر رأس كل شرٍ، والإيمان به رأس كل خيرٍ.

﴿أَن يُجَـٰهِدُواْ﴾ (أنْ) هذه كلام العلماء فيها راجع إلى قولين[١]:

أحدهما: أنها هذه التي يُحذف قبلها حرف الجر. والمعنى على هذا: «لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله في أن يجاهدوا» أي: في الجهاد وترك الجهاد؛ لأن المؤمنين بالله مسارعون إلى مرضاة الله، منقادون إلى الجهاد، سائرون مع النبي ﷺ.

لا يستأذنون لأجل أن يؤذن لهم في التخلف، وقد تقرر في علم العربية أن حذف حرف الجر قبل المصدر المنسبك من (أنَّ) وصلتها و(أنْ) وصلتها مطرد لا نزاع في اطراده[٢]، ومحل المصدر بعد حذف حرف الجر أكثر علماء العربية يقولون منصوب، وهو الذي عليه كبراؤهم. وقال قوم: هو مخفوض. واستدلوا على خفضه بقول الشاعر[٣]:

فما زُرْتُ ليلَى أَنْ تكونَ حَبِيْبَةً إلـيّ ولا دَيْـنٍ بـهـا أَنَـا طَـالِـبُـه

قالوا: خفض «ولا دين» عطفاً على المصدر المنسبك من (أن) وصلتها بعد حذف حرف الجر. قالوا: والأصل: «وما زرت ليلى لكونها حبيبة، ولا لدين» والمحققون منهم يقولون: محله النصب. وهذا الذي عليه جمهورهم، قالوا: ولا شاهد في البيت لأنه مما يُسمى عند النحويين عطف التوهم. وحاصل عطف

(١) انظر: الدر المصون (٦/٥٧).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

التوهم عند النحويين أنه تكون الكلمة يجوز فيها الخفض وليست بمخفوضة، فيعطفون عليها المخفوض نظراً إلى جواز خفضها، وإن كانت غير مخفوضة في الواقع[١]. ومن شواهده المشهورة قول زهير بن أبي سُلمى[٢]:

بَدَا لِيَ أَنِّي لَسْتُ مُدْرِكَ ما مَضَى ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جَائِياً

فقوله: (ولا سابقٍ) بالخفض في رواية بيت زهير عطفاً على «مدرك» وهو منصوب، إلا أنه يجوز جره بالباء، فيجوز: لست بمدركٍ ولا سابق. ونظيره قول الآخر[٣]:

مَشَائِيمُ لَيْسُوا مُصْلِحِيْنَ عشيرةً ولا ناعِبٍ إلا بِبَيْنٍ غُرَابُها

كما هو معلوم في محله. ونحن نذكر هذه الأشياء العربية وإن كان أكثر المستمعين لا يفهمونها لأنا نريد أن تكون هذه الدروس القرآنية يستفيد منها كل الحاضرين على قدر استعداداتهم، والله يوفق الجميع للخير.

الوجه الثاني: أنّ (أنْ) هذه هي التي تُحذف قبلها (لا) أو مضاف كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ۗ﴾ [النساء: آية ١٧٦] ففي قوله: ﴿أَن تَضِلُّوا۟﴾ ونحوه وجهان. أي: يبين الله لكم لئلا تضلوا، أو كراهة أن تضلوا. هذان الوجهان في (أن) في القرآن فيما يماثل هذا كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ۗ﴾ وقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟﴾ [الحجرات: آية ٦] أي: لئلا تصيبوا، أو كراهة أن تصيبوا. وهذان الوجهان في قوله: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [التوبة: الآية ٤٤] بل إذا أمرت بالجهاد قاموا مسرعين ممتثلين أمر الله، راغبين في غزو الكفرة لأن تكون كلمة الله هي العليا. وهذه الآية تدل على أن المؤمن بمعنى المؤمن الصحيح من صفاته الكاشفة أن يكون مبادراً للجهاد في سبيل الله مضحياً بالنفيس والغالي من نفسه وماله

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٢) تقدم هذا الشاهد في الموضع السابق.

(٣) تقدم هذا الشاهد في الموضع السابق.

للجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله (جلّ وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿لَا يَسْتَـْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [التوبة: آية ٤٤] التقوى في قلوب الناس لا تخفى على الله، فالله يعلم ما في قلوب الناس، لا يخفى عليه برٌّ من فاجر، ولا متقٍ من عاصٍ.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: آية ٢٣٥] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: آية ١٦] ﴿عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ لا يخفى عليه المتقي من العاصي، فمن زعم للنبي أنه معه، وأنه يحب الإسلام والجهاد، إلا أنه معذور بكذا وكذا لأعذار كاذبة فالله عالم بكذبه، عالم بالمتقي حقاً وبغيره، لا يخفى عليه شيء من ذلك. وفي هذا تهديد للمنافقين الذين يدّعون التقوى ويضمرون غيرها، ووعد عظيم للمؤمنين الذين تنطوي قلوبهم على تقوى الله حقاً. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٤].

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٤٥] قد تقرر عند جماهير العلماء أن (إنما) أداة حصر، والصحيح أن (إنما) أداة حصر كما حرره علماء الأصول في مبحث (دليل الخطاب) أعني (مفهوم المخالفة) والبلاغيون في مبحث (القصر)[1] فـ (إنما) أداة حصر. يعني: لا يستئذنك هذا الاستئذان الذي يُراد به التخلف عن الجهاد والقعود لأعذار كاذبة.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الذين لا يصدقون بالله ولا يؤمنون باليوم الآخر فلا يرغبون فيما عند الله، ولا يخافون عذاب الله.

وقوله: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شكّت قلوبهم. فـ ﴿وَٱرْتَابَتْ﴾ معناه: شكّت. والتاء فيه تاء الافتعال. وأصل حروفه الأصلية: الراء في محل الفاء، والياء في محل العين، والباء في محل اللام، أصل المادة (رَيَبَ) بـ (راءٍ) فـ (ياء) فـ (باء) والتاء تاء الافتعال، وأصلها (وارتيبت قلوبهم)[2]

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٥) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٣٣، ٣٩١، ٣٩٣.

أي: داخلها الريب. أصل الريب في لغة العرب معناه الإزعاج والإقلاق. هذا أصل معناه الأصلي، تقول العرب: رابه الأمر. إذا أزعجه وأقلقه. وهذا هو معناه الحقيقي، ومنه قول توبة بن الحُمَيِّر الخفاجي[١]:

وكنتُ إذا ما زُرْتُ لَيْلَى تَبَرْقَعَتْ وقد رَابَنِي منها الغَداةَ سُفُورُها

أي: أزعجني وأقلقني، وكلما جاء الريب في القرآن والارتياب فمعناه الشك على كل حالٍ. وإنما سُمِّي الشاك مرتاباً وأُطلق اسم الريب على الشك لأن الشاك لا تطمئن نفسه إلى طرف الإيجاب، ولا إلى طرف السلب، فهو تارة يميل إلى الإيجاب، وتارة يميل إلى السلب، فنفسه منزعجة قلقة ليست مطمئنة إلى الثبوت ولا إلى النفي. ومعنى ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شكّت قلوبهم والعياذ بالله. وأسند الارتياب إلى القلوب لأن القلب هو محل الإدراك الذي يكون فيه الشك، ويكون فيه اليقين، ويكون فيه العلم والإدراك. وهذا الارتياب سيبينه لهم المؤمنون يوم القيامة كما يأتي بيانه في سورة الحديد؛ لأنه سيأتي في سورة الحديد ـ إن شاء الله ـ أن كل من كان يقول: لا إله إلا الله في دار الدنيا يعطيه الله نوراً، فيكون عند المنافقين نور، وعند المؤمنين نور، فإذا ـ مثلًا ـ اشتد الأمر وصار الناس في فصل الخطاب انطفأ نور المنافقين وبقوا في ظلام دامس، وعند ذلك يقول المؤمنون: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: آية ٨] ويقول المنافقون للمؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: آية ١٣] فإذا ضُرِبَ ذلك السور بين المنافقين والمؤمنين قال المنافقون للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [الحديد: آية ١٤] ألم نكن معكم في دار الدنيا؟ وكنا نحضر معكم المساجد والغزوات، ونأتي معكم المواطن؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ كنتم معنا ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ وهذا محل الشاهد. ذلك الارتياب الذي قال عنهم هنا: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: آية ٤٥] هو من الأسباب التي تجعلهم يوم القيامة وراء السور ـ والعياذ بالله ـ.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٢) من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ﴾ أي: فهم في شكهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يذهبون حائرين تارة يقدمون رِجلًا ويؤخرون أخرى، يذهبون ويرجعون، يتوجهون إلى الإيمان مرة ويكفرون مرة (والعياذ بالله جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٤٦، ٤٧].

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ هؤلاء المنافقون الذين جاؤوا يستأذنون النبي ﷺ في القعود كعبدالله بن أُبي، والجد بن قيس، وأضرابهم، قال الله لنبيه إنهم يستأذنون ويعتذرون الأعذار الكاذبة وهم في باطن أمرهم مصرّون على القعود وعدم الخروج، وبيّن دليل ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ لو أراد هؤلاء المنافقون المستأذنون الخروج معك إلى غزوة تبوك ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ معك ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ﴾ أي: للخروج ﴿عُدَّةً﴾ أي: لتأهبوا للخروج وتهيؤوا له؛ لأن من يعزم على الخروج إلى قتال العدو يتهيأ قبل ذلك ويستعد لذلك بإحضار العدة اللازمة لذلك، ولكن هؤلاء لم يعدوا شيئاً، ولم يُبالوا بشيء، فدل على أنهم مصرون عازمون على التخلف. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ﴾ [التوبة: آية ٤٦] أي: للخروج ﴿عُدَّةً﴾ أي: لتأهبوا له أُهبته وتهيؤوا له بإعداد ما يلزمه.

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ كره الله انبعاثهم كوناً وقدراً؛ لأن الله يعلم أنهم لو خرجوا مع رسوله ما كان في خروجهم له إلا الشر، فلا يجد منهم إلا الضرر والشر، فثبطهم عنه بحكمته لطفاً برسوله ﷺ ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ الانبعاث مصدر انبعث ينبعث إذا ذهب إلى الشيء. ومنه: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾﴾ [الشمس: آية ١٢] ومعنى ﴿انبِعَاثَهُمْ﴾ أي: خروجهم غازين معك إلى تبوك، كره الله خروجهم معك لضرر ذلك عليك، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ عن ذلك الخروج مراعاة لمصلحتك. والتثبيط: التبطئة

والتعويق وعدم الخروج، فثبطهم عنك مراعاة لمصلحتك ومصلحة من معك من المسلمين، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾.

﴿قِيلَ﴾ هنا مبني للمفعول حُذف فاعله، واختلف العلماء في فاعله المحذوف[1]، فقال بعض العلماء: قال بعضهم لبعض في سرهم وباطن أمرهم: ﴿ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ واستَأْذِنُوه لتقعدوا. وقال بعضهم: أذن لهم النبي ﷺ فقال: «﴿ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾» وعلى هذا القول ف (اقعدوا) هو الإذن. وبعضهم يقول: قوله: ﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أذن لهم إذناً صاحبه لا يرضى عنهم. والمراد بالقاعدين: الذين ليس من شأنهم الحضور، كالصبيان والزَّمْنَى والنساء، ونحو ذلك ممن ليس من شأنه الخروج للقتال.

وقال بعض العلماء: هو كوني قدري، الله يقول للشيء: «كن فيكون»، فقال: «اقعدوا». فكان قعودهم، واختار هذا بعض العلماء.

ثم إن الله قال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: آية ٤٧] لو خرج فيكم رؤساء هؤلاء المنافقين الذين يحركونهم ويرأسونهم في الشر كابن أُبي بن سلول والجد بن قيس ـ قبحهما الله ـ وأمثالهم ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم﴾ غازين إلى تبوك ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ ما حصلتم منهم على فائدة ولم يزيدوكم إلا خبالًا. والخبال معناه: الفساد. أي: ما زادوكم إلا فساداً؛ لأنهم يفسدون عليكم.

وقوله: ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ العرب تقول: أوضع يُوضع إيضاعاً. إذا أسرع في سيره. فالإيضاع: الإسراع في السير. واسم فاعله (مُوضِع) ومنه قول امرىء القيس[2]:

أَرَانَا مُوْضِعِيْنَ لأَمْرِ غَيْبٍ ونُسْحَرُ بالطعامِ وبالشرابِ

و﴿خِلَٰلَكُمْ﴾ معناه: بينكم، يعني: لا يزيدونكم إلا فساداً على فساد،

(١) انظر: القرطبي (١٥٦/٨)، البحر المحيط (٤٨/٥).
(٢) ديوانه ص٤٣.

ولأسرعوا فيما بينكم بالمشي بالنميمة وإلقاء المخالفات والأراجيف والأكاذيب التي تضر المسلمين ولا تنفعهم. وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ لأن العدو إذا كان في ثياب صديق يفعل كل شرٍ ويضر كل مضرة من حيث لا يشعر به، فهم لا يزيدونكم إلا الفساد. أي: لا يزيدونكم شيئاً كائناً ما كان إلا الفساد والخبال، فإنهم يفسدون عليكم وكأنهم يفسدون وهم في المدينة، فإذا سافروا كان خبالهم وفسادهم أكثر؛ لأنهم يلقون بينهم بالنمائم ويلقون الأراجيف والتخويف من المشركين وإلقاء التشاويش كي يخاف المسلمون، ولتفسد ذات بينهم، وهم أعداء - قبّحهم الله - وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ معناه يطلبون لكم الفتنة. ﴿الْفِتْنَةَ﴾ هي ما يوقعون بكم من الشر، من المعاداة بينكم بإلقاء النميمة والخوف من الأعداء بإلقاء الأراجيف الكاذبة ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ في هذا الحرف وجهان من التفسير للعلماء[١]:

قال بعض العلماء: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: عيون يسمعون الأخبار ويأتونهم بها ليقدروا بذلك على ما شاؤوا من الفساد والخبال.

وقال بعض العلماء: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ هم سادات وأشراف في قومهم، وفيكم من يسمع لهم لمكانتهم وشرفهم في قبيلته كابن أُبيّ والجد بن قيس ومن يكون له شرف وسيادة في قومه يسمعون منه وتؤثر دعايته السيئة عليهم بإلقاء الفتن والأراجيف. وهذا معنى قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ وهذه الآية الكريمة نصّ الله (جلّ وعلا) فيها على إحاطة علمه، وأنه (جلّ وعلا) من شدة إحاطة علمه بالأشياء يعلم الأشياء الذي سبق في علمه أنها لا تكون[٢]، هو يعلم أن لو كانت كيف تكون؛ لأن هؤلاء المتخلفين عن غزوة تبوك كالجد بن قيس وعبدالله بن أُبي بن سلول

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٨١/١٤)، القرطبي (١٥٧/٨)، ابن كثير (٣٦١/٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

لا يحضرونها أبداً؛ لأن الله كره انبعاثهم فثبّطهم عنها لحكمة إلهية، ومصلحة للمسلمين، فهم لا يحضرونها أبداً، وقد سبق في علم الله الأزلي أنهم لا يحضرونها أبداً، وأنهم لا يخرجون معه أبداً، وخروجهم هذا الذي سبق في سابق علمه أنه لا يكون صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، فعرفنا من هذا أنه (جلّ وعلا) يعلم الموجودات والمستحيلات والمعدومات والجائزات، حتى إنه من إحاطة علمه ليعلم المعدوم الذي سبق في سابق علمه أنه لا يوجد يعلم أن لو وُجد كيف يكون لشدة إحاطة علمه بالأشياء، فخروج هؤلاء لا يكون، وهو عالم ذلك الخروج الذي لا يكون أن لو كان كيف يكون، كما قال هنا: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ الآية [التوبة: آية ٤٧] والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً، من ذلك ما قدّمنا في سورة الأنعام من أن الكفار يوم القيامة إذا رأوا القيامة وعاينوا الحقيقة تمنوا أن يردوا إلى الدنيا مرة أخرى ليصدقوا الرسل ويؤمنوا بالله، وهذا الرد الذي تمنوه علم الله أنه لا يكون، وقد صرّح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، وذلك في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٢٧] هذا الرد الذي تمنوه هو عالم أنه لا يكون، وقد صرّح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون حيث قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] والآيات بمثل هذا كثيرة في كتاب الله كقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: آية ٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ الآية [النساء: آية ٦٦].

فهذه الآيات من كتاب الله دلت على إحاطة علم الله (جلّ وعلا) بكل شيء، حتى بالمعدومات التي سبق في علمه أنها لا توجد، فهو عالم أن لو وُجدت كيف يكون، فهو عالم بأن أبا لهب لن يؤمن، وهو يعلم لو آمن أبو لهب أيكون إيمانه تاماً أو ناقصاً، وهكذا. وهذا يدل على أن المحيط بالعلم هو الله (جلّ وعلا) وحده، وخلق الله لا يعلمون من العلم إلا ما علّمهم العليم

الخبير الأعظم كما دلّ عليه هذا القرآن في آيات كثيرة، وإيضاح ذلك أن أعلمَ المخلوقين الملائكة والرسل - على جميعهم صلوات الله وسلامه - فالملائكة لمّا قال لهم الله: ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [البقرة: الآيتان ٣١، ٣٢] قولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ (لا) فيه، هي (لا) التي لنفي الجنس، فنفوا جنس العلم من أصله عن أنفسهم إلا شيئاً علّمهم الله إياه ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.

وكذلك الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) مع علمهم وفضلهم وجلالتهم لا يعلمون من أمر الله إلا شيئاً علّمهم الله إياه ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: آية ٨٥].

هذا سيد الرسل وأكمل الخلق نبينا محمد (صلوات الله وسلامه عليه) - وهو هو - رُميت أحب أزواجه إليه بفرية وإفك، حيث رُميت بصفوان بن المعطّل السلمي في غزوة المريسيع، وهو لا يدري ما قيل عنها أحق أو كذب، وكان يقول لها: يا عائشة إن كنت ألممت بذنب فتوبي، فإن الله يتوب عليك[(١)]. ولم يدرِ هل ما قيل عنها حق أو كذب حتى أخبره العليم الخبير (جلّ وعلا) قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: آية ٢٦].

وهذا نبي الله إبراهيم إمام الأنبياء (صلوات الله عليهم جميعاً) ذبح عجله وتعب هو وامرأته في إنضاج العجل يظن أن الملائكة يأكلون، لا يدري من هم، حتى إنه لمّا رآهم لم يأكلوا خاف منهم كما في قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: آية ٧٠] وصرّح لهم بأنه خائف منهم حيث قال: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: آية ٥٢] حتى ضحكت امرأته، ولما ارتحلوا عنه ونزلوا بنبي الله لوط - وهو هو - ضاق بهم ذرعاً وقال: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: آية ٧٧] ولم يدرِ أنهم ملائكة حتى قال كلامه المحزن: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

[هود: آية ٨٠] وما علم أنهم ملائكة حتى قالوا له: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ الآيات [هود: آية ٨١].

وهذا نبي الله نوح ـ وهو هو ـ يقول لربه: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هود: آية ٤٥] ولا يدري أن ذلك الولد الذي يطلب ربه أن ينجيه أنه كافر ليس من أهله الموعود بنجاتهم حتى قال له العليم الخبير: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: آية ٤٦] فما قال نوح إلا أن قال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: آية ٤٧].

وهذا نبي الله يعقوب ـ وهو هو ـ قال الله فيه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ [يوسف: آية ٦٨] ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، وولده في مصر بينه وبينه مراحل لا يدري ما شأنه ﴿ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ الآية [يوسف: آية ٨٧].

وهذا نبي الله سليمان ـ وهو هو ـ أعطاه الله الرياح غدوها شهر ورواحها شهر، وسخّر له مردة الشياطين والجن، ما كان يدري عن مأرب وجماعة بلقيس حتى ذهب إليهم الضعيف المسكين الهدهد، ولمّا توعد الهدهد، وكان الهدهد حصّل منهم بعض علم الجغرافيا والتاريخ، وهذا العلم لم يكن عند سليمان في ذلك الوقت، وكان سليمان يهدد الهدهد ويقول: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١﴾ [النمل: آية ٢١] فجاء الهدهد لمّا عرف بعض علم جغرافية اليمن وتأريخها، وسليمان لا يدري عنه، أفاده هذا العلم قوة ووقف أمام سليمان وقفة الرجل الصامد، ونسب الإحاطة لنفسه ونفاها عن سليمان وقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا﴾الآيات [النمل: الآيات ٢٢ـ ٢٤] . فسليمان ما كان يدري عن هذا، ولم يقل له إلا أن قال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾ وأمثال هذا كثير. فالله (جلّ وعلا) هو العليم

الأعظم، والملائكة والرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) يعلمون من علم الله ما علمهم الله من غيبه وما لم يعلمهم لم يعلموه، وهو (جلّ وعلا) وحده هو المحيط علمه بكل شيء، العالم بما كان وما يكون، وبالمعدوم والموجود، والمعدوم الذي لا يوجد أن لو وُجد كيف يكون ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: آية ٦٥] وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٤٧].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٤] فقال في الأولى: إن تقوى المتقين لا تخفى عليه، وأن ظلم الظالمين لا يخفى عليه.

وقد قدّمنا في هذه الدروس مراراً[(١)] أن أصل معنى الظلم في لغة العرب هو: وضع الشيء في غير محله، مادة الظاء واللام والميم (ظَلَم) معناها وضع الشيء في غير محله. هذا هو أصل معنى هذه المادة، وأعظم أنواعها هو الشرك بالله؛ لأن الشرك بالله وضع للعبادة في غير موضعها؛ لأن من يأكل نعم الله ويتقلب في رزقه وعافيته إذا كان يعبد غيره فقد ظلم، أي: وضع العبادة في غير موضعها، كما قال تعالى عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] وقال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: آية ١٠٦] ولأجل هذا كان الظلم في القرآن يطلق على الشرك وعلى غيره من المعاصي والمخالفات، وثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ٨٢] قال: ولم يلبسوا إيمانهم بشرك[(٢)]. هذا أصل الظلم في لغة العرب.

وهو في الشرع على نوعين: ظلم أكبر، وظلم دون ظلم، فالظلم

---

(١)(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

الأكبر هو وضع العبادة في غير موضعها، وهو الشرك بالله. وظلم دون ظلم وهو أن يطيع عدوه إبليس ويعصي ربه، فالذي أطاع الشيطان وعصى الله قد ظلم نفسه؛ لأنه عرضها لسخط الله ووضع الطاعة في غير موضعها، والمعصية في غير موضعها. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٧] وهذا المعنى مشهور في كلام العرب، أن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، ومنه قد تقول العرب للذي يضرب لبنه قبل أن يروب: هو ظالم؛ لأنه وضع الضرب في غير موضعه؛ لأن ضربه قبل أن يروب يُضيع زبده، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[١]:

وقائلة ظلمتُ لكم سقائي وهل يخفى على العَكَدِ الظَّلِيمُ

«ظلمتُ لكم سقائي» تعني: ضربته لكم قبل أن يروب. والعَكَد: عصب اللسان. يعني: أن اللسان لا يخفى عليه الظليم وغير الظليم، أي الذي ضُرب قبل أن يروب وغيره، ومن هذا المعنى قول الآخر[٢]:

وصاحبِ صِدْقٍ لم تَرِدْنِي شَكَاتُه ظَلَمْتُ وفي ظَلْمِيْ لَهُ عَامِداً أَجْرُ

ومن هنا قالت العرب للأرض الذي حُفِر فيها وليست محلّا للحفر: «مظلومة» ومنه قول نابغة ذبيان[٣]:

إِلاَّ الأَوَارِيَّ لأياً ما أُبَيِّنُها والنؤي كالحوضِ بالمَظْلُومةِ الجَلَدِ

وقالوا للتراب المنزوع من القبر «ظليم» لأن أصل القبر يُحفر في محل لم يحفر قبل ذلك عادة، فهو حفر في محل ليس موضعاً للحفر، ومنه قول الشاعر[٤]:

---

(١) السابق.
(٢) السابق.
(٣) السابق.
(٤) السابق.

فَأَصْبَحَ فِي غَبْرَاءَ بعدَ إِشَاحَةٍ من العَيْشِ مردودٌ عليها ظَلِيْمُهَا

وجاء الظلم في القرآن الكريم بمعنى النقص في آية واحدة في سورة الكهف، وهي قوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: آية ٣٣] أي: لم تنقص منه شيئاً. هذه وحدها في القرآن جاء فيها الظلم بمعنى النقص. والعلماء يقولون: إن أصلها من المادة التي ذكرنا؛ لأن صاحب البستان ينفق ويصرف عليه المال، فإذا جاء بِغَلَّةٍ وثمرة طيبة فكأنه جاء بشيء في موضعه حيث ردّ لصاحبه المال ووجد منه ربحاً، أما إذا صرف فيه المال ولم يأتِ بشيء فقد ضاع المال المصروف فيه، ولم يأتِ شيء بخلفِ منه، فكأن هذا وضعٌ للشيء في غير موضعه للضياع والرزية. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٧].

قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: الآيات ٤٨ ـ ٥٢].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [التوبة: آية ٤٨].

لمّا بيّن الله (جلّ وعلا) للنبي والمسلمين أنه ثبط عنهم عظماء المنافقين للمصلحة، وأنهم لو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خبالًا، أي: فساداً ومشياً بالنميمة وتثبيطاً وإلقاءً للأراجيف، بيّن أن هذا الذي ينطوي عليه المنافقون من الشر كان موجوداً فيهم قبل ذلك، قبل أن يُنزل القرآن في شأنهم وأن تطّلعوا عليهم؛ لأن عظماء المنافقين بالمدينة كعبدالله بن أُبي بن سلول، والجد بن قيس أخي بني سلمة، عندما جاء رسول الله ﷺ المدينة

وآمن الأنصار شق ذلك عليهم وعظم، وأبوا أن يؤمنوا، وصاروا يفكرون في الحالة التي يبطلون بها دعوة دين الإسلام ويخرجوا النبي ﷺ ويمنعون الناس من الإيمان، فلما جاءت غزوة بدر عرفوا قوة المسلمين. قال لهم ابن أُبي: هذا أمر مُسْتَقْبِل فآمنوا ظاهراً[١]. وهم في الباطن يتربصون بهم الدوائر، يجيلون أفكارهم في الحالة التي يضرونهم بها.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟﴾ أي: طلبوا الفتنة، طلبوا لكم الفتنة قبل هذا من رد الناس عن الدين، وإبطال الدين، وعدم اتباع النبي ﷺ، والإفساد بين المسلمين.

﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ العرب تقول: قلَّب الأمور، وقلَّب الأمر. معناه: أن يتفكر بدقة ويدبّر في الأمور ويقلبها وجهاً إلى ظهر، وظهراً إلى وجه ليتأمل في الحالة التي يحصِّل بها مقصوده. فمعنى قلَّبوا الأمور: أجالوا الأفكار ونظروا في الدهر جنباً إلى جنب من هذا الأمر إلى هذا، واحتمال هذا وهذا ليصلوا بذلك إلى رد الناس عن النبي ﷺ، والقعود في وجه الدعوة إلى الله (جلّ وعلا)، وهذا معنىً معروف في كلام العرب، تقول العرب: قلّبت أمري، وقلّبت أموري، إذا أجلت فكري في المسائل ونظرت فيها وفي احتمالاتها لنعلم أي الأمور هو الذي يعينني على قصدي. وهذا معنى معروف في كلام العرب مشهور نزل به القرآن العظيم، منه قول هبيرة بن أبي وهب المخزومي زوج أم هانىء بنت أبي طالب (رضي الله عنها)، فإن زوجها هبيرة لما فتح النبي ﷺ مكة فرّ كافراً إلى نجران، ولم يزل بها حتى مات ـ والعياذ بالله ـ وقد أرسل إلى أم هانىء من هناك من نجران هذه الأبيات ـ وفيها محل الشاهد ـ وهو قوله لها[٢]:

لَعَمْرُكِ ما وَلَّيْتُ ظَهْرِيَ محمداً وأصحابه جفلاً ولا خِيْفَةَ القتلِ

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٣٦١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأعراف.

ولكنني قلَّبتُ أمري فلم أجد لسيفي غَنَاءً إن ضربتُ ولا نَبْلي
وقفتُ فلما خفتُ ضيعة موقفي رجعتُ لعودٍ كالهزبر أبي الشبلِ

ومحل الشاهد منه قوله «قلَّبتُ أمري» أي: أجلت فكري ونظرت وتأملت في الأمور فوجدت ثباتي وعدم فراري يؤدي إلى قتلي ولا نتيجة بعده. وهذا معنى قوله: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي: أجالوا أفكارهم وقلّبوا الأمور ونظروا في احتمالاتها لينالوا كيداً يكيدونك به من تثبيط عن الدين، أو إلقاء شر بين المسلمين، أو إعانة عدو عليك حتى يظفر بك ـ قبّحهم الله ـ.

﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾ جاء الحق وهو نصر الله لنبيه بدين الإسلام، وقتل صناديد قريش يوم بدر.

﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ معناها: غلب دين الله وظهر انتصاره واستقباله، فعند ذلك أسلموا إسلاماً غير حقيقي، وهم يتربصون الدوائر بالمؤمنين في باطنهم.

وقوله: ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ والحال هم كارهون ـ قبحهم الله ـ لأن كل ما يناله المسلمون من نصر وفتح وخير يكرهونه ويسوؤهم، وكل ما جاءهم من شرٍ يفرحون به، وهذه عادة الكفار، لا يزالون يحاولون رد المؤمنين عن الدين حتى يقنطهم الله من ذلك، كما قال الله في الكفار: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: آية ٢١٧] وبيّن أنهم لم يستطيعوا في قوله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ [المائدة: آية ٣] كذلك المنافقون كانوا يطمعون في ضياع الدعوة، وأن النبي ﷺ يضمحل أمره حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ذلك ـ قبحهم الله ـ وهذه من خسائس المنافقين يظهرها الله لنبيه ﷺ، ومن أسماء هذه السورة العظيمة: (الفاضحة) لأنها فضحت أسرار المنافقين كما تقدّم، وسيأتي فيها كثيراً. وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

٨/ب / وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي﴾ [التوبة: آية ٤٩] قرأ هذا

الحرف عامة السبعة غير ورش عن نافع والسوسي عن أبي عمرو: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ بهمزة محققة، وقرأه ورش والسوسي بإبدال الهمزة واواً مادةً للَّام ﴿ومنهم من يقول وذن لي﴾ أما عند الوقف فقد أجمع جميع القراء على أنك إن وقفت على ﴿يَقُولُ﴾ ابتدأت فقلت: ﴿ايذن لي﴾[(١)] وهو الأمر من أذِن له يأذن له. تقول العرب: أذِن له يأذن له. وإذا جاء منها أمر تقول: ائذن لي. أصله: إئذن لي. ولكن القاعدة المقررة في العربية: أن كل همزتين اجتمعتا في كلمة أُخراهما ساكنة وجب إبدالها حرف مد مجانساً للشكلة التي قبلها سواءً أكانت التي قبلها همزة وصل أو همزة قطع، وهذا حكم لا خلاف فيه بين القراء ولا بين علماء العربية ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ أي: ائذن لي في القعود ولا تكلفني بالشخوص إلى غزوة تبوك. وهذه الآية نزلت في الجد بن قيس الخبيث المنافق أخي بني سلمة، كان رجلًا سيداً فيهم، ولما قدم النبي ﷺ قال لبني سلمة: من سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: الجد بن قيس على أنا نبخِّله؛ لأنه بخيل لا يجود بالمال. فقال: وأي داء أدوأُ من البخل؟ إنما سيدكم هذا الشاب الأبيض الجعد[(٢)]. يعني بشر بن البراء بن معرور. وكان حسان

---

(١) انظر: الإتحاف (٢/٩٢).

(٢) في بعض روايات الحديث أن النبي ﷺ قال ذلك في عمرو بن الجموح (رضي الله عنه)، كما في الأدب المفرد رقم (٢٩٧) من حديث جابر (رضي الله عنه). وهو في صحيح الأدب المفرد رقم: (٢٢٧). وأخرجه الحاكم (٣/٢١٩) ـ وصححه ووافقه الذهبي ـ من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) بنحو حديث جابر. وأورده الحافظ ابن عبدالبر في الاستيعاب (١/١٤٦) وعزاه لابن إسحاق. كما أورده الحافظ في الإصابة (١/١٥٠)، وفي الفتح (٥/١٧٨).

أما الرواية التي فيها أن النبي ﷺ قال ذلك في بشر بن البراء (رضي الله عنه) فقد ذكرها الواحدي في أسباب النزول ص٢٤٧ ـ ٢٤٨، وأوردها الحافظ في الفتح (٥/١٧٩) وعزاه للوليد بن أبان في كتاب الجود من حديث كعب بن مالك (رضي الله عنه). وقد صحح الحافظ هذه الرواية وجمع بينها وبين الرواية الأخرى. بيد أن الحافظ ابن عبدالبر في الاستيعاب (١/١٤٦)، وابن الأثير في أسد الغابة (١/٢١٨) رجحا أنها في بشر بن البراء. والله أعلم.

(رضي الله عنه) يمدح بشر بن البراء بتسويد النبي ﷺ إياه ويقول[(١)]:

وسُوِّد بشر بن البراءِ بجُودِهِ وحُقَّ لبشر بن البرا أن يُسَوَّدَا
فتىً إن أتاهُ الوفدُ أتلفَ ماله وقال خذوه إنني عائد غدا

فنزلت هذه الآية في الجد بن قيس على ما عليه جماعة المفسرين ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ هو الجد بن قيس أخي بني سلمة. ذكر ابن إسحاق وغيره[(٢)] أن النبي ﷺ في وقت تجهيزه لغزوة تبوك قال له: **«يا جد هل لك في جِلادِ بني الأصفر؟»** يعني الروم. فقال له الجد: يا رسول الله - ﷺ - ائذن لي في الجلوس فإني رجل قد علم قومي أنني لا صبر لي عن النساء، وإن نساء بني الأصفر فيهن جمال ووضاءة وجوه أخاف إن رأيتهن أن لا أصبر عنهن، فائذن لي ولا تفتني بصباحة وجوههن إذا خرجت إليهن. وهذا عذر بارد وليس قصده إلا النفاق، فأنزل الله فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾، أي: بصباحة وجوه نسائهم على ما قاله غير واحد.

وقال بعض العلماء وأسنده ابن جرير[(٣)] إن النبي ﷺ قال له: **«يا جد بن قيس هل لك في جلاد بني الأصفر لتغنم منهم سراري ووصفاء؟»** فقال: ائذن لي ولا تفتني بالنساء. هذا منزع آخر ووجه في الآية.

وجمهور العلماء يقولون: هي في الجد بن قيس، وهو عذر نفاق لا شك فيه، وهو لا عذر له، وإنما يتلمس الأعذار الكاذبة ليجلس - قبحه الله - .

---

(١) البيتان عند الواحدي في أسباب النزول ص٢٤٨، القرطبي (١٥٩/٨) ونص البيت الثاني هناك:

إذا ما أتاه الوفد أذهب ماله وقال خذوه إنني عائد غدا

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٨٧/١٤) من طريق ابن إسحاق. وأخرجه الطبراني في الكبير (١٢٢/١٢) وقال الهيثمي في المجمع (٣٠/٧): «فيه يحيى الحماني وهو ضعيف» ا.هـ. وأورده أيضاً الواحدي في أسباب النزول ص٢٤٧، ولم يذكر السند.

(٣) ابن جرير (٢٨٨/١٤) عن ابن زيد مرسلاً.

ثم إن الله قال: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ۗ﴾ الفتنة التي يزعم أنه يتوقاها وهي خوفه أن يفتتن بجمال نساء بني الأصفر هذه ليست هي الفتنة، ولكن الفتنة العظيمة هذه التي سقط فيها ووقع فيها وهي تخلفه عن الجهاد واعتذاره الكاذب لرسول الله ﷺ ونفاقه، هذه هي الفتنة والضلال. فالمعنى: هذا الذي سقط فيه باعتذاره هو عين الفتنة العظيمة لا فتنة جمال نسائهم الذي يزعم أنه هو الذي يخاف فتنته. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾.

﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٩] في هذه الآية الكريمة وعيد شديد للمنافقين، وجهنم طبقة من طبقات النار، وتطلق على النار.

وقولُه: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لأنها تهلكهم وتغشاهم فتحتوي عليهم من جميع الجهات، وتُغَلّق أبوابها عليهم، ويُضَيّق عليهم فيها كما بيّن تعالى ذلك في آيات كثيرة، فبيّن إحاطة النار بهم في قوله في العنكبوت: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت: الآيتان ٥٤، ٥٥] وقوله تعالى في الكهف: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ...﴾ الآية [الكهف: آية ٢٩]. وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: آية ٣٩] ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ﴾ [الأعراف: آية ٤١] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على إحاطتها بهم. وبيّن (جلّ وعلا) أنها تُطبّق عليهم وتغلّق أبوابها، وهو قوله: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾ [الهمزة: الآيتان ٨، ٩] وأنها تضيق عليهم ضيقاً شديداً كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: آية ١٣] أعاذنا الله وإخواننا المؤمنين منها. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٩].

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ

أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة: آية ٥٠].

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ هذا مما أبداه الله لنبيه من أسرار المنافقين القبيحة ﴿إِن تُصِبْكَ﴾ يا نبي الله ﴿حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ المراد بالحسنة هنا: غلبة الأعداء والظفر والنصر. يعني: إن ظفرتم بأعدائكم وغلبتموهم ونصركم الله عليهم تسؤهم تلك الحسنة، ساءهم ذلك لأن العدو الشديد العداوة يسوؤه ما ينال عدوه من الخير، معناه: إن غزوتم ونصركم الله وغلبتم وظفرتم ساءهم ذلك وحزنوا من أجله ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ كأن يقتل قومك، أو لا ينصروا، أو يأتيك شيء يؤذيك ويؤذي قومك ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ إذا سمعوا أن سرية من السرايا أو جيشاً من الجيوش وقع فيهم قتل أو جراح قالوا: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ نحن خفنا من هذا وأخذنا لأنفسنا بالاحتياط فاستأذنا حتى جلسنا وسلمنا من تلك البلايا التي نالتهم من القتل والجراح ﴿وَتَوَلَّوا﴾ عن دين الله ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون من جهتين: أنكم أصابكم ذلك السوء، وأنهم هم ما كانوا معكم ـ سلموا منه ـ كما تقدّم إيضاح هذا المعنى في سورة النساء؛ لأن الله أوضحه فيها بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾ [النساء: آية ٧٢] معنى قوله: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضراً معهم فيصيبني ما أصابهم من القتل والجراح، وهو السبب الذي تولوا به وهم فرحون الآن. فالآية معناها: ﴿إِن تُصِبْكَ﴾ يا نبي الله ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: يعطك الله ظفراً ونصراً ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تلك الحسنة ﴿وَإِن تُصِبْكَ﴾ سيئة كقتل قومك وجراحهم وإدالة الكفار منهم ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ أخذنا لأنفسنا بالاحتياط وتخلفنا عن هذا الذي وقعوا فيه حذراً منّا واحتياطاً أن يصيبنا مثل ما أصابهم ﴿وَيَتَوَلَّوا﴾ عن دين الإسلام، ونصرة رسول الله، أو يتولى بعضهم راجعاً إلى بعض، والحال ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون بالسوء الذي أصابكم وسلامتهم منه، وأنهم لم يحضروه معكم. هذا معنى قوله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم إن الله (جلّ وعلا) أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ [التوبة: آية ٥١] لن يصيبنا أذى من الأذى لا قتل ولا جراح ولا مصيبة كائنة ما كانت إلا ما كتبه لنا ربنا في أزله. وقوله: ﴿مَوْلَىٰنَا﴾ أي سيدنا وناصرنا. والمولى: أصله (مَفْعَل) من الولاية. والمولى في لغة العرب يطلق على كل من ينعقد بينك وبينه معنى تكون تواليه ويواليك به[1]؛ ولذا كثر إطلاق المولى على ابن العم؛ لأن بني العم يوالوك بعصبية القرابة وتواليهم، ويطلق على المعتِق؛ لأن العتق ولاية حصلت بينه وبين المعتَق، فهو يطلق على المعتِق وعلى المعتَق. ويطلق المولى على الصديق، وعلى كل من بينك وبينه ولاية كائنةً ما كانت[2]. وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾ [النساء: آية ٣٣] أي: عصبة يرثون المال، كبني العم ونحوهم من العصبات، ومن هذا المعنى قول الفضل بن العباس من أولاد أبي لهب[3]:

مهلاً بني عمّنا مَهلاً مَوالينَا لا تُظهروا لنا ما كان مدفونا

وإطلاق المولى على ابن العم مشهور في كلام العرب، ومنه قول طرفة بن العبد[4]:

وأَعلَمُ عِلْماً لَيْسَ بالظَّنِ أنَّه إذا ذَلَّ مولى المَرءِ فهو ذليلُ

والله (جلّ وعلا) مولى المؤمنين؛ لأنه يواليهم بالنصر والثواب والرحمة وهم مواليه؛ لأنهم يوالونه بالطاعة، حتى إن كل شيء يوالي شيئاً يقال له: (مولى) ولذا جعل الله النار مولاهم كما قال: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: آية ١٥] لأنها تواليهم لما عملوا من الأعمال السيئة المؤدية لها. وهذا معنى قوله: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٠) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: آية ٥١] في أزله ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ سيدنا ومدبر شؤوننا ونحن متوكلون عليه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تقديم المعمول هنا في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ يدل على الحصر، أي: لا يُتوكّل إلا على الله وحده. والتوكل معناه: تفويض الأمور، وكَّلتُ الأمر إليه: فوَّضْتُها إليه.

وعلى العبد أن يفوض أموره إلى ربه (جلّ وعلا) ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبهُ. والتوكل على الله والتفويض عليه لا ينافي الأسباب، فيجب على المسلم أن يأخذ بالأسباب كما جاء به الشرع الكريم، ويكون في قرارة نفسه متوكلًا على الله، وهذا سيد المتوكلين (صلوات الله وسلامه عليه) مرّ عليكم في الأيام الماضية أنه مع شدة توكله على الله وثقته بالله يتسبب بالمحافظة من أعدائه بأن يدخل في غار مظلم في جبل ثور ليسن لأمته التوكل على الله والأخذ بالأسباب مع التوكل على ضوء الشرع الكريم، وهذا هو الحق الذي لا شك فيه، فترك الأسباب من الضلال، والاعتماد بالكلية عليها من الضلال، والحق هو أن يأخذ الإنسان بالأسباب حسب ما جاء به الشرع الكريم متوكلًا قلبه على الله، مفوضاً أمره إليه، عالماً بأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه كما قال هنا: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: آية ٥١] وقد أوضح الله لنا في سورة الحديد أن جميع المصائب وجميع الأمور لا يصيب الإنسان منها إلا شيء كان مقدراً قبل أن يخلق الخلق، وقبل أن توجد المصيبة، وربنا يقول لنا في آية الحديد الآتية ما معناه: بينت لكم أن جميع الأمور كتبتها وحسمتها عندي لتتحصلوا على أمرين: أحدهما: أن لا تفرحوا بشيء أتاكم فإنه آتيكم لا محالة، ولا تحزنوا على شيء فاتكم لأنه فائت لا محالة، وهذا نص عليه تعالى بقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي: أن نخلقها ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: آية ٢٢] إنما بيّنا لكم هذا القَدَر السابق الأزلي ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: آية ٢٣] لا تحزنوا على شيء فاتكم فهو فائت لا محالة؛ لأن الله كتب ذلك وقدّره ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾

فهو آت لا محالة. هذه الآيات القرآنية إذا تأملها المسلم وتدبّر معانيها فَهِم عن الله، وهانت عليه أمور الدنيا فلم تعظم في قلبه، وهذا معنى قوله: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: آية ٥١].

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: آية ٥٢].

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ كان المنافقون ـ قبحهم الله ـ في المدينة يداً مع الكفار واليهود على النبي ﷺ وأصحابه يُفشون إليهم أسراره، ويُلقون الأراجيف في قلوب المؤمنين، فهم يد مع الكفار والمنافقين على رسول الله ﷺ؛ ولذا كان المنافقون والكفار واليهود كأنهم طائفة واحدة ضد الإسلام والمسلمين؛ ولذا قال هنا: أنتم أيها المنافقون المتعاونون مع إخوانكم من الكفار واليهود الذين تتربصون الدوائر بنا.

التربص في لغة العرب: الانتظار، العرب تقول: «تربص»: إذا انتظر، وتربّص بالسلعة إلى وقت الغلاء: انتظر بها. وهذا معروف، وهو مشهور جداً في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[1]:

تربَّص بها ريبَ المنونِ لعلَّها ... تُطلَّقُ يوماً أو يموتَ حَلِيْلُهَا

فالتربص الانتظار. ومعنى الآية الكريمة: أنتم أيها المتربصون بنا عواقب الدهر ونوائبه راجين أن تدور علينا الدوائر فتهلكنا لا تتربصون بنا إلا واحدة من اثنتين كلتاهما أحسن من الأخرى. ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾ أصله: (هل تتربصون) حُذفت فيه إحدى التاءين. (هل) استفهام بمعنى النفي، ما تنتظرون بنا عاقبة إلا عاقبة هي إحدى الحسنيين. الحسنى: تأنيث الأحسن، وتُجمع على الحُسَن بضم ففتح، تقول: هذه الأنثى هي الحُسنى، أي: الأحسن من غيرها. وتجمعها على الحُسَن بضم ففتح كما هو معروف في

(١) مضى عند تفسير الآية (٢٤) من سورة التوبة.

محله. فالحسنىٰ صيغة تفضيل، والحسنيين تأنيث الحسنى، وهي صيغة تفضيل. والمعنى لا تنتظرون بنا إلا إحدى خصلتين كلتاهما أحسن من غيرها:

إحداهما: أن نغلب أعداءنا وينصرنا الله عليهم فنظفر بالنصر والغنيمة ورضى الله (جلّ وعلا)، وهذه الخلة لا يوجد أحسن منها، فعاقبتنا إن صارت إليها عاقبة كريمة محمودة.

والثانية: أن يقتلنا أعداؤنا فنموت فننال الشهادة، والشهادة هي أعظم فوز يناله المسلم في دار الدنيا، فهي أيضاً حسنى؛ لأنها أحسن من كل شيء.

وهذه الآية الكريمة من أعظم الآيات التي تجعل المسلم يشتاق إلى الجهاد غاية الاشتياق؛ لأنك لا تجد في الدنيا رجلًا مآله إلى خير عظيم على كل التقديرات إلا المجاهد في سبيل الله؛ لأنه إن مات نال أمنية الدنيا والآخرة، ونال الفوز والحياة الأبدية، والكرامة التي لا نظير لها، وإن نصره الله على عدوه فرجع ظافراً غانماً فائزاً فهذا أيضاً حسن، وهذا لا يكون لأحد إلا للمجاهد في سبيل الله، فمن تأمل معنى هذه الآية الكريمة اشتاق لا محالة إلى الجهاد في سبيل الله. وقد ذكر أصحاب المغازي أن النبي ﷺ لما أراد الخروج إلى المشركين في غزوة أُحد كان جابر بن عبدالله أبوه عبدالله بن عمرو بن حرام له بنات سبع، فجابر أخواته سبع، ذكروا أن النبي ﷺ أشار عليهم أن يبقى مع البنات واحد، الابن أو الأب لئلا يموتا فتبقى الإناث لا قيم عليهن، فقال الوالد وهو عبدالله بن عمرو بن حرام (رضي الله عنه وأرضاه): يا بني كل شيء أوثرك فيه على نفسي إلا الشهادة في سبيل الله، فوالله لا أُوثر على نفسي بها أحداً، واستشهد يوم أُحد (رضي الله عنه). ولا خلاف بين العلماء بأنه من الذين أنزل الله فيهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ إلى آخر الآيات [آل عمران: آية ١٦٩] وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ [التوبة: آية ٥٢] أي: ما تتربصون وتنتظرون بنا إلا واحدة من إحدى مسألتين كلتاهما أحسن من كل شيء ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ ظفر ونصر وفوز بالظفر والنصر، أو شهادة في سبيل الله. وهذا كله خير، فكل احتمال

صرنا إليه هو احتمال كريم، وهو أحسن من غيره. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾.

﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ﴾ ننتظر بكم خلاف ذلك: إحدى السوأيين، نحن ننتظر بكم إحدى السوأيين، كلتاهما أسوأ من الأخرى: أحدهما: أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، كأن ينزل عليكم عقوبة فيهلككم لكفركم وتمردكم وتصيرون إلى النار، أو يسلطنا عليكم ويأمرنا بقتلكم فنقتلكم كما قال في إخوانهم الكفار: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾ [التوبة: آية ١٤] وهذا معنى قوله: ﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾ إذا عرفتم أنكم لا تتربصون بنا إلا الخير ونحن لا نتربص بكم إلا الشر إذن فتربصوا ونحن متربصون أيضاً، فكلنا يصير إلى ما يتربص به الآخر إليه. وهذا معنى قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: آية ٥٢].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٣ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٥٤ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ٥٧﴾ [التوبة: آية ٥٣ ـ ٥٧].

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حمزة والكسائي: ﴿أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ بفتح الكاف، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿أو كُرهاً﴾ بضم الكاف[1].

وقرأ عامة السبعة أيضاً غير حمزة والكسائي: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ﴾ بالتاء. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿وما منعهم أن يُقبَل منهم نفقاتهم﴾ بالياء[2].

---

(١) انظر: الإتحاف (٢/٩٣).

(٢) انظر: السبعة ص٣١٤ ـ ٣١٥.

وهذه الآية الكريمة من الآيات النازلة في الجد بن قيس أخي بني سلمة؛ لأن النبي ﷺ لما دعاه إلى الخروج في غزوة تبوك واعتذر له أعذار المنافقين المتقدمة قال له: ائذن لي في القعود، وهذا مالي أعينك به، خذ مالي نفقة مني في سبيل الله واتركني أنا أتخلف[1]. فأنزل الله في إنفاقه الذي عرض على النبي ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا نبي الله لهؤلاء المنافقين ﴿أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: في حال كونكم طائعين أو كارهين لن يقبل الله منكم نفقة؛ لأنه يعلم أنكم كفار في الباطن، وصيغة الأمر في قوله: ﴿قُلْ أَنفِقُوا﴾ تقرر في الأصول[2] أن من الصيغ التي ترد لها (افعل) قصد التسوية بين الأمرين، فمن أساليب اللغة أن تأتي بصيغة (افعل) تقصد بذلك أن تسوي بين الأمرين، المذكورين بعد ذلك، ونظيره في القرآن: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: آية ١٦] يعني: صبركم وعدمه سواء لا ينفعكم ذلك. ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٨٠] يعني: استغفارك وعدمه سواء، لا ينفع استغفارك ولا عدمه، كذلك قوله هنا: أنفقوا طائعين أو مكرهين لا ينفعكم ذلك الإنفاق؛ لأن الله لا يقبل أعمال الكفرة. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [التوبة: آية ٥٣] طوعاً أو كرهاً: مصدران منكّران في موضع الحال. أي: في حال كونكم طائعين أو مكرهين. وإتيان التسوية بين الأمرين بصيغة (افعل) معروف في كلام العرب، ذكرنا له أمثلة في القرآن العظيم، ومن أمثلته في كلام العرب قول كثيّر عزة[3]:

أَسِيْئِي بِنَا أو أَحْسِنِي لا مَلُومةً لَـدَيْـنـا ولا مَـقْـلِـيَّـةً إنْ تَـقَـلَّـتِ

يعني: إن أسأت أو أحسنت إلينا فكل ذلك سواء لا يغير ودنا القديم بالنسبة إليك.

وقوله: ﴿لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ لن يقبل الله نفقتكم. قال بعض العلماء: لم يقبلها رسول الله فردها عليهم. وقال بعضهم: لا يقبلها الله، أي: لا

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/٢٩٤)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٢) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/٢٧).

(٣) البيت في ابن جرير (١٤/٢٩٣)، القرطبي (٨/١٦١).

يؤتيهم عليها أجراً؛ لأنها لا يُراد بها وجه الله.

ثم قال: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله. والفسق في لغة العرب[1] معناه الخروج. وفي اصطلاح الشرع[2]: الفسق الخروج عن طاعة الله. تارة يعظم ذلك الخروج فيكون كفراً، وتارة يكون خروجاً دون خروج، وفسقاً دون فسق، فيكون بارتكاب كبيرة؛ ولأجل هذا كان الفسق يطلق في القرآن على الكفر كقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: آية ٢٠] وتارة يطلق على ارتكاب المحرم الكبير كقوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: آية ٦] وقوله في القاذفين: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: آية ٤].

وهذه الآية معلوم تعلق المعتزلة بها في أن السيئات تبطل الحسنات، قالوا: لأن الله صرّح بأن فسقهم أبطل نفقتهم. ومن هنا زعموا أن كبائر الذنوب تبطل الأعمال. وهذا مذهب باطل لا شك في بطلانه، وهذه الآية التي تعلقوا بها بيّن الله (جلّ وعلا) بطلان حجتهم منها في قوله بعده ـ يليه ـ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾ فصرّح بأن المبطل للأعمال هو صريح الكفر. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾.

والضمير في قوله: ﴿أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾ منصوب في محل المفعول. أعني بقولي: (الضمير) المصدر المنسبك من (أنْ) وصلتها في قوله: ﴿أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾ المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾ في محل نصب مفعول به لـ (منع) ـ أي ما منعهم قبول نفقاتهم ـ بناءً على أن (منع) تتعدى للمفعول الثاني بنفسها، كمنعت زيداً كذا وكذا. وهو الصحيح[3].

وأما المصدر المنسبك من (أنّ) وصلتها في قوله: ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ فالتحقيق فيه أنه في محل رفع، وهو فاعل (منع) وتقرير

---

(١)(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

(٣) انظر: الدر المصون (٦/٦٦).

المعنى: ما منع قبول نفقاتهم إلا أنهم كفروا، أي: إلا كفرهم بالله. فإيضاح المعنى: ما منع قبول النفقات منهم إلا كفرهم بالله.

وقال بعض العلماء: إن فاعل (منع) ليس المصدر المنسبك من (أن) وصلتها، وأنه ضمير يعود إلى الله. أي: وما منع الله قبول نفقاتهم إلا أنهم كفروا، إلا لأجل أنهم كفروا. والأول هو الأظهر(١).

وقوله: ﴿إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ لأن المنافقين وإن كانوا يظهرون الإيمان ظاهراً فهم في باطن الأمر كفَرَة فجَرَة، فهم كافرون في باطن الأمر، والكافر لا يقبل منه صرف ولا عدل، ولا خلاف بين العلماء أن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة، فلا ينتفع الإنسان بعمل إلا إذا كان مبنياً على أساس العقيدة الصحيحة.

وقد قدّمنا في هذه الدروس مراراً(٢) أن العمل الصالح الذي يُثاب به صاحبه يوم القيامة هو ما استكمل ثلاثة أمور:

الأول: منها أن يكون مطابقاً لما جاء به النبي ﷺ؛ لأن الله لا يقبل أن يتقرب إليه إلا بما شرع على لسان رسوله ﷺ، فمن تقرب إليه بما لم يشرعه لم يقبله منه ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: آية ٢١].

الثاني: أن يكون العبد فيما بينه وبين الله في نيته التي لا يعلمها إلا الله مخلصاً في عمله لله؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: آية ٥] ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١﴾ [الزمر: آية ١١].

الثالث: هو هذا الذي نحن بصدده: أن يكون العمل مبنياً على أساس الإيمان بالله والعقيدة الصحيحة؛ لأن العمل كالسقف، والعقيدة الصحيحة والإيمان بالله كالأساس، والسقف لا يستقيم إلا على أساس؛ ولذا من عمل أعمالاً صالحة ليست مبنية على أساس الإيمان فهي باطلة منهارة لا ينتفع

(١) انظر: المصدر السابق (٦٦/٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

بها، والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: آية ١٢٤] فقيّد بقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا لا نزاع فيه؛ لأن كل عمل يعمله الكافر ولو كان مطابقاً للشرع، والكافر مخلصٌ فيه للّه، فإن بعض الكفار يبر والديه، ويصل رحمه، ويقري الضيف، ويعين المظلوم، وينفس عن المكروب، كل ذلك يقصد به وجه الله، فهذه قُرَبٌ صحيحة موافقة للشرع هو مخلص فيها للّه، لا ينفعه الله بها يوم القيامة؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: آية ٢٣] وقال (جلّ وعلا): ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: آية ١٦] ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ...﴾ [النور: آية ٣٩] ﴿كَرَمَادٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٨] ونحو ذلك من الآيات، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن عمل الكافر الصالح ـ كأن يبر والديه، وينفّس عن المكروب، ويقري الضيف، ويعين المظلوم، ويصل الرحم ـ يقصد بذلك وجه الله، فمثل هذا من الأعمال الصالحة إذا فعله الكفار أثابهم الله به في دار الدنيا فأعطاهم عرض الدنيا من المال وأطعمهم وسقاهم ورزقهم العافية، ولا يكون لهم عند الله جزاء، وقد ثبت هذا المعنى من حديث النبي ﷺ الذي رواه عنه أنس، ورواه مسلم في صحيحه من حديث أنس عن النبي ﷺ: أن الله يطعم الكافر بعمله الصالح في الدنيا، ويثيبه في الدنيا، فإذا جاء الآخرة لم يكن له عمل يُجازى عليه، أما المسلم فالله يثيبه بعمله في الدنيا ويدخر له في الآخرة[1].

والآيات الدالة على أن الكفار ينتفعون بأعمالهم في الدنيا جاءت في القرآن، كقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى آية: ٢٠] وما دلّ عليه هذا الحديث الصحيح من أن الكافر يُجازى بعمله في الدنيا ولا يجازى به في الآخرة، وما دلّ عليه بعض الآيات. وقال بعضهم: إن منه قوله

---

(١) مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب: جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا. حديث رقم: (٢٨٠٨) (٢١٦٢/٤).

تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: آية ٣٩] قال بعض العلماء: وفاه حسابه في دار الدنيا بما رزقه على عمله الصالح من العافية. وإن كان الوجه الآخر أصح في الآية، كل هذا الذي هو إثابة الكافر من عمله في الدنيا لا شك مقيد بمشيئة الله؛ لأن ذلك دلت عليه آية سورة بني إسرائيل، وهي قاضية على كل شيء في هذا الباب. أعني قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: آية ١٨] فقوله: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ قيد بالمشيئة للجزاء الثابت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ من حديث أنس. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: آية ٥٤].

قد قدمنا في هذه الدروس مراراً[١] أن أصل مادة الكاف والفاء والراء معناها التغطية والستر، فكل شيء غطيته وسترته فقد كفرته، ومنه قيل للزُّرَّاع: (كفار)؛ لأنهم يكفرون البذر في بطن الأرض، وقيل لليل: (كافر) والعرب تسمي الليل كافراً؛ لأنه يكفر الأجرام ويغطيها بظلامه. وكفر الشيء إذا غطَّاه وستره، ومن هذا المعنى قول لبيد بن ربيعة في معلقته[٢]:

يَعْلُو طريقةَ متنِها مُتَواتِرٍ ... في ليلةٍ كَفَرَ النجومَ غَمَامُهَا

أي: ستر النجوم وغطاها غمام تلك الليلة. وقوله أيضاً في معلقته هذه في تسمية الليل كافراً[٣]:

حتى إذا ألقَتْ يداً في كافرٍ ... وأَجَنَّ عوراتِ الثغورِ ظلامُها

هذا أصل معنى المادة في لغة العرب، ومنه قيل لتكفير الذنوب تكفير الذنوب؛ لأن الله يسترها ويغطيها بحلمه حتى لا يظهر لها أثر، من (كفرته) إذا سترته.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

والكافر يغطي أدلة التوحيد ويحاول جحدها وتغطيتها وهي كالشمس في رابعة النهار، أو يحاول تغطية نِعَم الله عليه بأكله رزقه وعبادته غيره.

قوله: ﴿إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: آية ٥٤] هو محمد ﷺ، والرسول بمعنى مُرسل، أي: بالإنسان الذي أرسله الله (تبارك وتعالى)، وهو نبينا. والرسول (فعول) بمعنى (مُفْعَل) وأصله مصدر، وإتيان المصادر على وزن (فَعُول) بفتح الفاء نادر موجود في كلمات معدودة[1] كالقبول، والولوع، والرسول بمعنى الإرسال والرسالة. والتحقيق أن أصل الرسول مصدر، والعرب تطلق الرسول وتريد المصدر الذي هو الرسالة، ومنه قول الشاعر[2]:

لقد كَذَبَ الواشُونَ ما فُهت عندهُم ... بقولٍ ولا أَرْسَلتُهم برسُولِ

أي: ولا أرسلتهم برسالة، وقول الآخر[3]:

ألاَ أَبْلِغْ بني عمرو رسولاً ... بأني عَن فُتَاحَتِكُم غني

أبلغ بني عمرو رسالة. وإنما قلنا: إن الرسول أصله مصدر لنبين بذلك أن في ذلك حلًا لبعض الإشكالات في القرآن العظيم؛ لأن الأشياء التي أصلها مصادر إذا تنوسيت فيها المصدرية واستعملت استعمال الأوصاف جاز أن يُراعىٰ فيها أصلها وهو المصدر، والعرب إذا نعتت بالمصدر التزمت الإفراد والتذكير، ومن هنا كان الرسول يجوز إفراده مراداً به الجمع أو التثنية؛ لأن أصله مصدر؛ ولذلك جاء مفرداً في سورة الشعراء في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: آية ١٦] نظراً إلى أصل مصدريته. وجاء مثنىٰ في سورة طه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: آية ٤٧] اعتداداً بالوصفية العارضة وإلغاءً للمصدرية الأصلية؛ ولذلك كانت العرب تطلق الرسول وتريد

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٨) من سورة البقرة.

به الجمع على عادتها إذا نعتت بالمصادر، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[١]:

أَلِـكْـنِـي إلـيـهـا وخَـيْـرُ الـرَّ سُولِ أعلمهم بنواحي الخبر

يعني: وخير الرسل. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ.

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هي هذه الصلاة المكتوبة، أقامها الله وأدامها ﴿إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ إلا والحال هم كسالى، والكسالى جمع الكسلان: المتكاسل عنها الذي هي ثقيلة عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: آية ٤٥] لأن الصلاة لا تَخِفُّ إلا على من يريد جزاء الله وثوابه، أما المنافقون والذين لا إيمان لهم، فهي أثقل شيء عليهم؛ ولذا لا يأتونها إلا متكاسلين في غاية الكسل يراؤون الناس ولو كانوا بانفرادهم لا يطلع عليهم الناس لما صلوها كما تقدم في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: آية ١٤٢] هذه حالة المنافقين ـ قبحهم الله ـ.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: آية ٥٤] فقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ معناه: أن المنافقين لا يخرجون نفقة طيبة بها أنفسهم، ولا يخرجونها إلا كرهاً لئلا يطلع المسلمون على نفاقهم فيجروا عليهم أحكام الكفرة. وبهذا تعلم أن قوله: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [التوبة: آية ٥٣] أنهم كارهون على كل حال، وأن المراد بالآية تسوية جميع الحالات، الحالة الواقعة وغيرها أنهم لا فائدة لهم في ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ أي: كارهون ذلك الإنفاق؛ لأنهم لا يطلبون ما عند الله ولا يرجون عاقبة ولا جزاء من الله، فالإنفاق في سبيل الله يعدونه مغرماً ويكرهونه غاية الكره كما سيأتي في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [التوبة: آية ٩٨].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٥٥ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾ [التوبة: الآيتان ٥٥، ٥٦].

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٥٥﴾ [التوبة: آية ٥٥].

نهىٰ الله نبيه ﷺ عن أن يستحسن ما أعطى للمنافقين من متاع الدنيا من الأموال والأولاد، لا يعجبك ما أعطيناهم من الأموال والأولاد فإنا أعطيناهم إياه استدراجاً منا وعاقبته سيئة ووخيمة عليهم في الدنيا والآخرة، لا تستحسن ذلك ولا تعجب به؛ ولا تمدن إليه عينيك كما قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١﴾ [طه: آية ١٣١] وقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: الآيتان ٥٥، ٥٦] ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: آية ٣٧] ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المسد: آية ٢] إلى غير ذلك من الآيات، لما بيّن الله في هذه الآيات من سورة براءة أن المنافقين لا حظ لهم من الله في الآخرة بين أن ما أعطاهم من زينة الحياة الدنيا من متاعها من الأموال والأولاد أيضاً لا ينبغي أن يستحسن، ولا أن يعجب به؛ لأنه تافه أُعطوه استدراجاً وعاقبته سيئة عليهم ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: آية ١٧٨] هذا معنىٰ قوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ العرب تقول: أعجبه الشيء يعجبه إذا استحسنه استحساناً يسره، فكل من استحسن الشيء استحساناً يُسرُّ به تقول العرب: أعجبه، أي: لا تستحسن ما أعطيناهم من متاع الدنيا استحسان سرور ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ بإعطائه إياهم ليعذبهم، هذه اللام التي تأتي في القرآن بكثرة وفي كلام العرب بعد فعل الإرادة فيها خلاف للعلماء؛ لأنه يكثر في القرآن وفي كلام العرب إتيان هذه اللام بعد فعل الإرادة كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: آية ٢٦] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: آية ٨] ونحو ذلك من الآيات، وقوله هنا: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: آية

٥٥] تكثر هذه اللام بعد فعل الإرادة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: آية ٨] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: آية ٢٦] وهي موجودة في كلام العرب نحو هذا، ومنه قول الشاعر[١]:

أُريد لأَنْسَىٰ ذِكْرَها فكأنَّما ... تمثل لي ليلىٰ بكل سبيلِ

هذه اللام التي تأتي في القرآن وفي كلام العرب بعد فعل الإرادة اختلف العلماء في معناها، وأظهر أقوالهم فيها قولان:

أحدهما: أنها لام نادرة المعنىٰ تأتي بمعنىٰ (أن)، وأنها لام مصدرية، وإن لم يكن علماء العربية عدوا حرف اللام من الموصولات الحرفية المصدرية، قالوا: فهذه اللام بمعنىٰ (أن) والدليل على هذا القول تعاقب هذه اللام و(أن) في قوله ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣٢] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: آية ٨] ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم﴾ [التوبة: آية ٥٥] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم﴾ في الآية الآتية. وعلى هذا القول فاللام مصدرية بمعنى (أن)، وهو قول يقل من يقوله من علماء العربية.

القول الثاني: أن المفعول محذوف، واللام لام تعليل لمحذوف، والمعنىٰ على هذا القول: إنما يريد الله إعطاءهم ومتاعهم بها لأجل أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ قال بعض العلماء: الضمير عائد إلى الأموال.

وفي هذه الآية وجهان معروفان من التفسير عند العلماء[٢]: قالت جماعة من العلماء: في الآية الكريمة تقديم وتأخير، والمعنىٰ: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها - أي في الآخرة - وعلى أن في الآية تقديماً وتأخيراً فلا إشكال في المعنىٰ. وهذا القول مروي عن ابن عباس[٣] وجماعة من السلف.

---

(١) البيت لكُثَيِّر عزة وهو في تاريخ دمشق (٥٠/٨٠).

(٢) انظر: القرطبي (٨/١٦٤)، البحر المحيط (٥/٥٤)، الدر المصون (٦/٦٧).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٤/٢٩٦) من طريق علي بن أبي طلحة.

وقال جماعة من العلماء منهم الحسن البصري وغيره[١]: إن الآية لا تقديم فيها ولا تأخير، وأن الله يعذب المنافقين بالأموال في الحياة الدنيا. وعلى قولهم فالضمير راجع إلى الأموال فقط دون الأولاد، ومعنىٰ كون الله يعذبهم بأموالهم في الحياة الدنيا أن الله يفرض عليهم فيها الزكاة ويفرض عليهم فيها الحقوق الواجبة فتؤخذ قهراً منهم رغم أنوفهم، وأعظم ما يعظم على الإنسان إذا كان يؤخذ الشيء من تحت يده وهو محب له كرهاً رغم أنفه لا يريد به وجه الله، وأن الله أيضاً يسلط عليها المصائب والبلايا فتحزن قلوبهم وتتعذب، ولأنه يتعبهم في جمعها أولًا فتأتيهم بمتاعب من جهات متعددة، منها: تعبهم ونصبهم في جمعها أولًا وما ينزل بها من المصائب، وتكليفهم دفع الزكاة فيها، وإنفاقها في سبيل الله للجهاد ونحو ذلك، فهذا تعذيب لهم؛ لأن أشد ما يؤلم المنافق أخذ ماله من تحت يده قهراً لعزة المسلمين ونصر دين الإسلام، هذا أمر يؤلم قلوبهم جداً، وكل ما يؤلم الإنسان يسمىٰ تعذيباً له. وعلى هذا القول فلا تقديم ولا تأخير في الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ويجمع لهم مع ذلك عذاب الآخرة ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: يموتوا ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فيتصل لهم عذاب الآخرة الذي لا ينقطع بعذاب الدنيا. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة: آية ٥٦] هذه عادة المنافقين يتقون بالأيمان الكاذبة ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ للنبي والمسلمين ﴿بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ في الباطن والظاهر، والله يقول: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ بل هم أعداؤكم ولا عاشروكم إلا مرغمين على ذلك لا يجدون عنه مفراً، كما يأتي في الآية الآتية بعد هذا ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ للنبي وأصحابه قائلين ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ باطناً وظاهراً، والله يقول: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ هم كفرة أعداء ليسوا منكم ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يفرقون معناه: يخافون. العرب تقول: فَرِقَ الرجل بكسر الراء يَفْرَق بفتحها على القياس فَرَقاً بفتحتين فهو فَرِق إذا كان خائفاً

---

(١) أورد هذه الروايات ابن جرير (١٤/٢٩٦).

شديد الخوف[1]. وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول أبي محجنِ الهذلي في أبياته المشهورة[2]:

القومُ أعلمُ أني لساعتهم إذا تطيشُ يد الرعديدةِ الفَرِقِ

الذي يرتعد إذا أراد أن يرمي فترتعد يده من الفرق وهو الخوف. أي: ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي: يخافون منكم فيتوددون ويحلفون لكم الأيمان الكاذبة أنهم منكم في الباطن وليسوا منكم في الباطن، بل هم أعداء كفَرَة فجَرَة، هم أعدىٰ الناس لكم كما سيأتي قريباً. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ ثم بيّن شدة عداوتهم لهم فقال: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ [التوبة: آية ٥٧] لو كانوا يجدون ملجأً يلجؤون إليه ويعتصمون به دونكم للجؤوا إليه.

﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ المغارات جمع مغارة، والمغارة: هي الغيران في الجبال. المغارة: الغار في الجبل، وهو بفتح الميم. والتحقيق أن أصل ألفه منقلبة عن واو؛ لأن المغارة من غار يغور إذا انحدر في أسفل، ومنه ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: آية ٣٠] أي: غائراً. وكل غائرٍ منسفل فهو غور. ومعنىٰ مغارة: أي: غاراً منسفلاً ينحدرون في أسفله ويختفون فيه عنكم.

﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ قراءة السبعة وجمهور القراء غيرهم: ﴿مُدَّخَلًا﴾ والمُدَّخل أصل وزنه [مفتعلًا] من دخل، أصله (مُدْتَخل) بالتاء، أُبدلت التاء دالًا وأُدغمت الدال في الدال[3]. والمُدَّخل هو المكان الذي يُدخل فيه كالسَّرَب والنفق في باطن الأرض. أي: لو يجدون غيراناً في الجبال أو أنفاقاً وسروباً في داخل الأرض يدخلون فيها، أو ملجأً يعتصمون به لولوا راجعين إليه

---

(١) انظر: المفردات (مادة: فرق) (٦٣٤).

(٢) البيتان لأبي محجن الثقفي. وهما في تاريخ دمشق (٤٦/٦٨، ٤٧) وفيه «أني من سراتهم».

(٣) انظر: القرطبي (١٦٥/٨)، الدر المصون (٦٨/٦ ـ ٦٩)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٠٧.

عنكم/ ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يجمحون مضارع جمح يجمح إذا أسرع في سيره ٩/أ
إسراعاً لا يرد وجهه شيء، ومنه: فرس جموح إذا كان اللجام لا يمسكه ولا يرده عن وجهته شيء، فكل مسرع في جريه لا يرده عن وجهه شيء تسميه العرب جموحاً وجامحاً. أي: لو وجدوا أي موضع يذهبون فيه إليكم ولا يصحبونكم لولوا إليه في غاية الإسراع لا يردهم عنه شيء، ولكنهم لا يجدون طريقاً أبداً غير معاشرتكم فهم مُلجؤون إليها يعاشرونكم مكرهين لا مفر ولا ملجأ لهم، ولو وجدوا أي مفر للجؤوا إليه، وهذا غاية العداوة، بيّن الله أسرارهم وشدة عداوتهم لنبيه ليتحرز منهم؛ لأن العدو إذا كان في ثياب صديق هو أشد الأعداء:

احذر عدوك مرة ... واحذر صديقك ألف مرة[1]

وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾ [التوبة: آية ٥٧].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾ [التوبة: الآيات ٥٨ ـ ٦٠] ذكر كثير من أهل العلم أن هذه الآية نزلت في حرقوص بن زهير ذي الخويصرة التميمي رأس المنافقين. قالوا: وجد النبي ﷺ يقسم مالاً فقال: يا نبي الله اعدل فإنك لم تعدل ـ قبّحه الله ـ وقصة ذي الخويصرة معروفة ثابتة في الصحيح[2]، ولكن

---

(١) نسبه في قرى الضيف (١٢٧/٣) إلى ابن حجاج، وفي محاضرات الأدباء للراغب (٢١/٣) نسبه إلى علي بن عيسى.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام. حديث رقم: (٣٦١٠) (٦١٧/٦) وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث (٤٣٥١، ٦٩٣١)، ومسلم في الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم. حديث رقم: (١٠٦٤) (٧٤١/٢) من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه).

الذي يظهر أن هذه الآية ليست نازلة فيه، وإن زعم كثير من كبراء المفسرين أنها نازلة في ذي الخويصرة، وإنما قلنا إن الأظهر أنها نازلة في غيره أن المعروف أن القسمة التي قال فيها حرقوص بن زهير التميمي المعروف بذي الخويصرة أصل الخوارج ـ قبّحه وقبّحهم الله ـ أن ذلك في قسم النبي لغنائم حنين، قال ذلك فيه، وهذه الآية يصرح الله فيها بأنهم لمزوه في قسم الصدقات وهي الزكوات والصدقات غير الغنائم(١)، فالأظهر أن الأصوب فيها هو ما قاله ابن جريج (رحمه الله) وغيره أنها نزلت في رجل من الأنصار من المنافقين حضر النبي ﷺ يقسم مالاً من الصدقات فقال: يا نبي الله اعدل فإنك لم تعدل ـ قبّحه الله ـ فنزلت هذه الآية فيه(٢).

وهذه الآيات من سورة براءة يبيّن الله فيها أصنافاً من المنافقين يقول: ومنهم من هو كذا، ومنهم من هو كذا، كما تقدم في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ [التوبة: آية ٤٩] وقال هنا: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ وسيأتي قوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ﴾ [التوبة: آية ٦١] هذه طوائف من المنافقين تعمل قبائح مختلفة الأصناف بيّنها الله في هذه السورة ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾ يا نبي الله، واللمز معناه:

---

(١) الذي يظهر أنهما واقعتان متشابهتان:

الأولى: في قسم غنائم حنين، وذلك في الجعرانة حيث قال له رجل: «يا محمد اعدل» كما في حديث جابر (رضي الله عنه) عند البخاري (٣١٣٨) ومسلم (١٠٦٣).

الثانية: في قسم ذُهيبة بعث بها علي (رضي الله عنه) من اليمن والنبي ﷺ في المدينة. وقد قسمها رسول الله ﷺ بين أربعة نفر، فقال رجل: يا رسول الله: اتق الله... الحديث. كما في حديث أبي سعيد الذي تقدم تخريجه قريباً. وقد جاء في بعض الروايات عند البخاري ومسلم التصريح باسمه وهو ذو الخويصرة التميمي. وكذا في رواية ابن جرير (٣٠٣/١٤) والواحدي في أسباب النزول ص٢٤٩، وفيهما أيضاً التصريح بأن هذه الحادثة كانت سبب نزول الآية.

قال الحافظ في الفتح (٦٨/٨): «تنبيه: هذه القصة غير القصة المتقدمة في غزوة حنين. ووهم من خلطها بها» ا.هـ.

وقال في (٢٩٣/١٢) «وقد ظهر أن المعترض في الموضعين واحد» ا.هـ.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٠٢/١٤) وقد رواه ابن جريج عن داود بن أبي عاصم، ولا يخفى أن هذا له حكم الإرسال.

العيب والطعن. تقول العرب: لمزه. إذا عابه وطعن فيه، ومنه قوله: ﴿يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ٧٩] ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: آية ١١] أي: لا يعب أحدكم أخاه ويطعن فيه ومنه ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ لأن اللُّمزة فُعَلة تدل على المبالغة، أي: كثير لمز الناس، أي: عيبهم والطعن فيهم. ومن هؤلاء المنافقين صنف آخر يلمزك يا نبي الله، يطعن عليك ويعيبك في قسم الصدقات ويقولون: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، ولم يراع فيها العدل كما ينبغي.

ثم إن الله بيّن قبائحهم وفضحهم بأن هذا القول الذي تجرؤوا عليه ما حملهم عليه إلا الطمع والشره ومحبة شيء يعطونه في خصوص أنفسهم؛ ولذا قال: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ﴾ فإن أعطوا من الصدقات رضوا ذلك العطاء وسكتوا وفرحوا ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ﴾ (إذا) حرف مفاجأة، وقد قدمنا في هذه الدروس أن (إذا) الفجائية فيها لعلماء العربية ثلاثة أقوال: قيل: هي حرف، وقيل: ظرف مكان، وقيل: ظرف زمان، كما هو مقرر في محله[1]. والمعنىٰ: إذا لم يُعطوا من الصدقات شيئاً فاجأ ذلك سخطهم، أي: غضبهم وعدم رضاهم. فبيّن الله أن سخطهم ورضاهم منوطان بمصلحتهم الخاصة إذا أُعطوا شيئاً رضوا وفرحوا، وإذا لم يعطوا شيئاً غضبوا وسخطوا. وهذه ليست حالة من يريد وجه الله ولا المصلحة العامة؛ ولذا قال: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ يسخطون مضارع (سخط الأمر) بكسر الخاء (يسخطه) بفتحها (سَخَطاً) على القياس، وسُخْطاً إذا كرهه، وسَخِط الرجل بمعنىٰ غضب، ومنه: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: آية ٨٠] أي: غضب عليهم ـ والعياذ بالله ـ.

ثم إن الله قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: آية ٥٩] معروف في علم العربية أن (لو) حرف شرط في الماضي، وأن حروف الشرط إنما تتولى الجُمل الفعلية، ومعلوم أن (أن) في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٢٠١) من سورة الأعراف.

﴿رَضُواْ﴾ في محل مصدر، والمصدر الذي هي في محله اسم. والعلماء يجيبون عن هذا بأن متعلق (لو) محذوف[١] عامل في قوله: ﴿أَنَّهُمْ﴾ والمعنى: ولو ثبت، أو لو وقع أنهم فعلوا كذا لكان خيراً لهم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ رضوا أصله: (رَضِيُوا) أصله (فعِلْ) وأصل لامه واو؛ لأن أصل رضي (رضِوَ) بالواو؛ لأنك تقول منها: الرضوان بالواو، ولا تقول: الرضيان بالياء. أصلها (رضِوَ) بالواو فتطرفت الواو بعد كسرة فوجب إبدالها ياء، فقيل فيها (رضي) بالياء مبدلة من الواو[٢] ومن المعروف في علم التصريف أن كل فعل ناقص ـ أعني معتل الآخر ـ إذا أُسند إلى واو الجمع حُذفت لامه، أصله (رضيو) والياء مبدلة من واو، فحُذفت اللام التي هي ياء أصلها واو وجُعلت كسرتها ضمة لمجانسة الواو، فلذا قيل فيه: (رضوا) وأصل وزن الكلمة بالميزان الصرفي (فَعِلوا) ووزنها الحاضر الآن (فَعُوا) لأنها محذوفة اللام. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ﴾ شيئاً ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (إذا) الفجائية تأتي جواباً للشرط كما هو معروف في محله. ثم إن الله قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ لو رضوا بنصيب الله الذي قسم لهم كما يُعطىٰ لسائر المسلمين من الصدقات وغيرها ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ حسبنا معناه: يكفينا الله (جلّ وعلا)؛ لأن في الله خلفاً من كل شيء، وكفاية من كل شيء، فمعنى ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ يكفينا الله ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ﴾ سيعطينا الله من فضله، أي: من فضل الله على يد رسوله ﷺ، وسيؤتينا رسوله ما أمره الله به أن يؤتينا، لو حسّنوا الظن بالله، وتوكّلوا على الله، ورغبوا فيما عند الله، وقالوا: إنا إلى ربنا راغبون. أي: رغبتنا إليه، ورهبتنا إليه؛ لأن طمعنا وأملنا كله فيه؛ لأن المؤمن بمعناه الصحيح رغبته إلى الله؛ لأنه يطيع الله ويتقيه ويرغب فيما عند الله (جلّ وعلا) من الخير، كما قال تعالى مادحاً للأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: آية ٩٠] وقال

(١) انظر: البحر المحيط (٥/٥٦)، الدر المصون (٦/٧٢).

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٣٨٨ ـ ٣٨٩.

لنبينا ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: الآيتان ٧، ٨] لأن الرغبات كلها إلى الله (جلّ وعلا)؛ لأنه هو الذي بيده الخير، وكل شيء بيده، فرغبة المؤمن إليه (جلّ وعلا) يستنزل رحمات الله وما يرجو من الله بطاعة الله (جلّ وعلا) وتقواه. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التوبة: آية ٥٩] جواب (لو) محذوف دل المقام عليه، والتقدير: لو أنهم فعلوا ذلك لكان خيراً لهم. وقد جاء في القرآن وفي كلام العرب حذف جواب (لو) إذا دلّ المقام عليه، فهو كثير في القرآن وفي كلام العرب فمن أمثلة حذف جواب (لو) في القرآن مع دلالة المقام عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر: آية ٥] أي: لو تعلمون علم اليقين لما ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: آية ٣١] فجواب (لو) محذوف واختلف العلماء في تقديره على قولين متقاربين[1]: قال بعضهم: تقدير جواب (لو) في آية الرعد هذه ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ لكان هذا القرآن على حد قوله[2]:

ولو طَارَ ذُو حَافِرٍ قبلها لَطَارت ولكنه لم يَطِرْ

وقال بعض العلماء: تقديره: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ لكفروا بالرحمٰن. ويدل لهذا قوله بعده: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الرعد: آية ٣٠] ومن حذف جواب (لو) في كلام العرب قول الشاعر[3]:

فأُقسِمُ لو شيءٌ أتانا رسُولُه سِوَاكَ ولكن لم نجد لك مَدْفَعَا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنفال وراجع ما تقدم عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنفال.

يعني: لو شيء أتانا رسوله سواك لدفعناه. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: آية ٥٩].

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: آية ٦٠].

لما كان من المنافقين طائفة يلمزون رسول الله ﷺ في قَسْم الصدقات ويفترون عليه أنه لم يعدل في قَسْمها بيّن الله لهم أن الله تولى قسمتها وبيّنها وهو ﷺ منفّذ لما أوضحه الله (جلّ وعلا) فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ المراد بالصدقات هنا: زكوات المال الواجبة، فالله (جلّ وعلا) بيّن في هذه الآية من سورة براءة مصارف زكاة المال التي هي إحدىٰ دعائم الإسلام الخمس، جعلها ثمانية، وهي: الفقراء، والمساكين، والعاملون عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمون، وفي سبيل الله، وابن السبيل، هي ثمانية، و(إنما): أداة حصر وإثبات، يعني: لا يثبت استحقاق الزكاة لشيء غير واحد من هذه المصارف الثمانية بإجماع العلماء.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ الفقراء: جمع فقير، والفعيل إذا كان وصفاً ينقاس جمعه جمع كثرة على (فُعَلَاء) على العادة ما لم يكن معتل اللام أو مُضعَّفاً. وهذا معروف[1]، كل (فعيل) في القرآن وفي كلام العرب بمعنى (فاعل) لم يكن معتل اللام ولا مُضعَّفاً ينقاس تكسيره جمع كثرة على (فُعَلَاء) ككريم وكرماء، وأديب وأدباء، وشريف وشرفاء، وعليم وعلماء، وفقير وفقراء. أما إذا كان معتل اللام أو مُضعَّفاً فالقياس أن يُكَسَّر على (أفعِلاء) فمثال معتل اللام: كتقي وأتقياء، وسخي وأسخياء، ونبي وأنبياء. وكذلك المُضعَّف: كحبيب وأحباء، وشديد وأشداء. كما هو معلوم في محله. فالفقراء جمع فقير، وهو جمع على القياس. والمساكين: جمع مسكين كذلك.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

واختلف العلماء في الفقير والمسكين أيهما أحوج وأسوأ حالًا[١]؟! والقاعدة المقررة عند علماء التفسير كما قالها غير واحد من المتأخرين ويكادون يطبقون عليها: أن الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. ومعنىٰ هذا الكلام: أنهما إذا افترقا بأن جاء في آية من كتاب الله أو حديث من سنّة رسول الله اسم الفقير وحده، أو المسكين وحده، شملهما معاً، دخل الفقير في المسكين، والمسكين في الفقير؛ لأن كونهما محتاجين يشمل كلًا منهما وإن كان أحدهما أشد فقراً من الآخر، وإن اجتمعا كما نُص عليهما موجودين كقوله هنا: ﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ فقد اجتمعا، فيلزم إذا اجتمعا أن يفترقا، فيكون للفقير معنىٰ خاص به، وللمسكين معنىٰ خاص به. والحاصل أنه إذا ذُكر الفقير وحده أو المسكين وحده دخل الفقير في المسكين والمسكين في الفقير، وإذا ذكرا معاً في محل واحد كهذه الآية وكمن أوصى للفقراء والمساكين كان لكل منهما معنىٰ يخصه.

والعلماء مختلفون في الفقير والمسكين أيهما أسوأ حالًا؟ فذهب جماعة من فقهاء الأمصار وأهل اللغة إلى أن الفقير أسوأ حالًا من المسكين، وهذا مذهب الشافعي (رحمه الله)، ورواية قوية عن أحمد (رحمه الله)، وبه قال جماعة من السلف، أن الفقير أحوج من المسكين. وقالت طائفة: إن المسكين أحوج من الفقير، وهو مذهب مالك وأصحابه، ومذهب أبي حنيفة (رحمه الله). وكل منهما يوجه قوله، أما مالك فقال: إن المسكين أحوج من الفقير لأن الله قال: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: آية ١٦] فوصف المسكين بأنه لاصق بالتراب لا شيء عنده، والعرب تطلق الفقير على من عنده شيء لا يغنيه، فعنده بُلغة ولكنها لا تغنيه، قال: ويدل لذلك قول راعي نمير وهو عربي قح[٢]:

أما الفقير الذي كانت حَلُوبتُه ... رَفْقَ العيال فلم يُترك له سَبَدُ

فسمَّاه فقيراً وعنده حلوبة قدر عياله. وأما الذين قالوا الفقير أحوج

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

(٢) السابق.

فإنهم قالوا: إن الفقير مشتق من فقرات الظهر؛ لأن الفاقة كأنها فقرت ظهره، أي: قصمته. وقالوا: المسكين: الله قال في سفينة الخضر وموسىٰ: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: آية ٧٩] فسمىٰ أهلها مساكين مع أن عندهم سفينة عاملة في البحر بالإيجار، فدلّ على أن الفقير أسوأ حالاً. وهذا خلاف بين أهل اللغة والعلماء معروف، جماعة يقولون: الفقير أسوأ حالاً، وجماعة يعكسون. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: آية ٦٠] معناه: أن السهم الثاني يعطى للعاملين عليها، وهم الذين يتعبون في تحصيل الزكاة، كالجباة الذين يرسلهم الإمام ليجمعوا الزكاة من أقطار الناس ويأتون بها ويذهبون بها ليفرقونها. فالعاملون عليها كالجباة للزكاة من خارج، والمفرقين لها على الناس، فهؤلاء لهم سهم في الزكوات وهو قدر أجرتهم. وأظهر الأقوال أنه لا يتقدر فيه شيء معين إلا بقدر أجرتهم، وكل ما يعطى أحد من هؤلاء فيه خلاف كثير[١]، وأظهرها أنه كله يوكل إلى اجتهاد الإمام، ونصيب العاملين عليها يكون بقدر أجرة مثلهم بحسب ما عانوه من التعب، يعطون على قدر ذلك، سواء كانوا فقراء أو أغنياء. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾.

والسهم الثالث للمؤلفة قلوبهم، والمؤلفة قلوبهم المراد بهم قوم كانوا في زمن النبي ﷺ عندهم إيمان إلا أن إيمانهم ليس بقوي ولهم مكانة وشوكة إذا حسن إسلامهم اعتزّ بهم الإسلام والمسلمون وقويت شوكة المسلمين، أو ناس لهم شرف إذا كانوا في الإسلام تابعهم غيرهم، فالمراد أنه يكون رجال دخلوا في الإسلام لهم مكانة وقوة وفائدة للإسلام فيهم، وإيمانهم ليس بقوي، فتجبر خواطرهم وتؤلف قلوبهم بالمال ليستحسنوا الإيمان ويتمكن الإسلام من قلوبهم فتكون في ذلك المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، ومعلوم أن المؤلفة قلوبهم يقسمهم كتب الفروع إلى أقسام متعددة[٢] وقصدنا هناك أن نذكر ما يكون مصرفاً للزكاة، وهو الإنسان الذي

---

(١) انظر: ابن جرير (٣١١/١٤)، القرطبي (١٧٧/٨).

(٢) انظر: ابن كثير (٣٦٥/٢).

يكون في إسلامه خير للمؤمنين، والظاهر أنه لا بد أن يكون مسلماً؛ لأن الزكاة لا تدفع للكافر وهي قربة لا يستحقها إلا المسلمون، فمن قال: إنها تدفع للكافر ليسلم فالظاهر أنه خلاف الظاهر.

واعلم أن النبي ﷺ كان في زمنه نصيب المؤلفة قلوبهم، وألغىٰ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) نصيب المؤلفة قلوبهم، ولم يكن بعد ذلك معروفاً في صدقات المسلمين وزكواتهم[1]. وهذه الفقرة دخل منها كثير من الذين ينتصرون للقوانين بشيطنة وخفية وراء الستار، ويزعمون أن الشرع يتغير بتغير الأوضاع، قالوا: لأن النبي دفع نصيب المؤلفة قلوبهم وعمر لما رأى المصلحة لا تحتاج إلى ذلك لم يدفعه لهم؛ ليتصلوا بذلك إلى أن الشرع تابع للمصالح، وأنه قابل للتغيير في كل وقت وزمان تبع المصالح والتطورات الراهنة، وهذا باطل؛ لأن الشرع أنزله الحكيم الخبير العظيم الجليل العالم بكل ما كان وما يكون، فجعله شرعاً خالداً إلى يوم القيامة، مسايراً لجميع التطورات، تمكن مجابهته لكل الأحداث مهما كانت، ولا إشكال في إلغاء عمر لنصيب المؤلفة قلوبهم؛ لأن هذه الأصناف الثمانية لا يعطىٰ منها إلا شيء موجود فإذا عُدم الشيء فإنما لم يجعل له سهم لعدمه، فالإنسان إذا قطعت يده مثلًا والله يقول في الوضوء: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة: آية ٦] لا نقول: هذا لم يغسل يده لأن يده سقطت!! فالإسلام لما عز وتمكن من قلوب المسلمين وقويت شوكة الإسلام لم يبق هنالك مؤلف، فلما ذهب هذا الصنف ذهب نصيبه بذهابه، وقد أجمع العلماء أن كل ما ذهب من هذه الأصناف الثمانية يذهب نصيبه معه، إذا لم يوجد ابن السبيل فلا نصيب لابن السبيل، فكل ما ذهب منها ذهب نصيبه معه، فعدم إعطاء عمر نصيب المؤلفة نظراً لعدم وجود المؤلفة بالكلية؛ لأن الإسلام قوي وتمكنت شوكته وصار لا تأليف لأحد. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

وعلى كل حال فالتحقيق في هذه المسألة أن حكم المؤلفة قلوبهم باق

(١) انظر: ابن جرير (٣١٥/١٤)، القرطبي (١٨١/٨)، ابن كثير (٣٦٥/٢).

إذا وجدوا وكان رجال لهم مكانتهم وقوتهم في دين الإسلام، والإسلام محتاج إليهم، والمسلمون محتاجون إليهم، فإنه يرجع نصيبهم لتألفهم للمصلحة العامة كما فعل النبي ﷺ وجاء به القرآن العظيم، وإن كان لا تأليف هنالك، ولا حاجة ولا ضعف في الإسلام ولا ضعف في الإيمان، بل المسلمون في قوة ونشاط وفي عزة وقوة ومنعة فالمؤلفة غير موجودين فيسقط نصيبهم لعدمهم، وكذلك هذه الأصناف الثمانية كل ما عدم منها سقط نصيبه معه.

واعلم أن العلماء مختلفون في هذه الأصناف الثمانية هل يجب أن تكون الزكاة موزعة بينها ثمانية أجزاء ولا يجوز أن يُحْرَم واحد منها، أو يجوز أن تعطىٰ الزكاة لواحد منها، أو لاثنين، أو ثلاثة دون تعميم الآخرين[1]؟ هذا خلاف معروف بين العلماء، فذهبت جماعة من العلماء منهم مالك وأبو حنيفة (رحمه الله) وجماعة كثيرة من فقهاء الأمصار إلىٰ أنه لا يلزم تعميم هذه الأصناف، بل يجوز أن تعطىٰ الزكاة لصنف واحد منها، وأن كل ذلك موكول إلى نظر الإمام يرى الأصلح فالأصلح فيؤثر أفقرها وأحوجها وأشدها مصلحة للعامة. هذا قول مالك وأبي حنيفة وجماعة كثيرة من العلماء، قالوا: والآية إنما بينت المصارف الذي لا يجوز أن تُتعدىٰ بها الزكاة إلى غيرها وصنف واحد منها يكفي. وكان بعض علماء المالكية يقول: أكبر دليل على عدم وجوب تعميم الأصناف أنا لو أعطينا الفقراء جزءاً فإنا لا يقول أحد أننا نعمم جميع الفقراء، وإذا أعطينا المساكين جزءاً فلا يمكننا أن نعمم جميع المساكين، فإذا كان الصنف الواحد لا يمكن تعميمه فلا يلزم تعميم الأصناف جميعها؛ لأنا لو مشينا مع التعميم لزمنا أن نعمم نصيب الفقراء على جميع الفقراء ولا نترك فقيراً واحداً، ونصيب المساكين على جميع المساكين ولا نترك مسكيناً واحداً. والحاصل أن هذا خلاف قديم اختلفت فيه أنظار العلماء، فمنهم من يقول: إن المراد بـ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ أنها لام التمليك، واستدلوا بحديث جاء عن النبي ﷺ

(١) انظر: ابن جرير (٣٢٢/١٤)، القرطبي (١٦٧/٨)، المغني (١٢٧/٤).

أن الله لم يكل قسمها إلى نبي وإنما جزَّأها ثمانية أجزاء، قالوا: واللام للتمليك، فهي شركة بين هؤلاء الثمانية، ومن حَرَمَ واحداً من هؤلاء الثمانية فقد ضمن له نصيبه؛ لأنه حَرَمَه ما أعطاه الله إياه.

وقالت جماعة من العلماء: المراد بالآية: أن هذه هي المصارف الذي لا يجوز تعديها إلى غيرها، ولم يلزم تعميمها، بل يوكل إلى نظر الإمام، فما رآه الإمام أحسن للمصلحة العامة فعله للمسلمين، فلو اقتضىٰ نظره أن يصرفها لواحد من هذه الثمانية دون غيرها لفعل. هذا ملخص كلام العلماء في هذا الموضوع.

وقوله: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ الغارمون معناه: أصحاب الديون الذين يُطلبون بالدَّين، والغارمون عند العلماء فيهم تفصيل[1]: منهم من يكون غارماً لمصلحة عامة للمسلمين، كالذي يجد بعض القبائل بينها شحناء وفتن وستقع بينها قتلىٰ وبلايا ثم يتحمل الديات ويكون غارماً لتلك الديات للمصلحة العامة، فمثل هذا النوع لم يختلف العلماء في أنه يعطىٰ من زكاة المسلمين ويغرم عنه ما تحمل للمصلحة العامة للمسلمين من زكوات المسلمين ولو كان غنياً. وبعضهم يقول: لا يعطىٰ عنه إلا إذا كان فقيراً. وأما إذا كان الإنسان تحمل الديون في خاصة نفسه، كالذي يتحمل لينفق [على][2] أهله وأولاده، وينفق في تجارته ثم يخسر، ونحو ذلك من الأمور فأكثر العلماء على أن هذا إذا كان لم يستدن في سرف، ولم يستدن في معصية، ولم يبذر المال في المعاصي أنه يدخل في الغارمين، وأنه يقضىٰ عنه قدر دينه من الزكاة، وبعض العلماء يقول: ولو عنده مال. وبعض العلماء يقول: لا يعطىٰ هذا الغارم من الزكاة إلا إذا كان لا شيء عنده، أو عنده شيء إذا أعطاه للغرماء بقي فقيراً لا شيء عنده. وأظهر القولين في هذا: أنه يقضىٰ عنه الدين إلا إذا كان ملياً يقدر على قضاء الدين ويبقىٰ عنده ما يكفيه. وبعض العلماء يقول: هو غارم على كل حال، يقضىٰ عنه سواء كان غنياً أو

---

(١) انظر: ابن جرير (٣١٧/١٤)، القرطبي (١٨٣/٨)، ابن كثير (٣٦٥/٢).

(٢) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

فقيراً. والأول أظهر. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾.

قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ اختلف العلماء في المراد به[1]، فذهبت جماعة من العلماء إلى أن المراد بالرقاب: إعانة المكاتبين خاصة. وذهب إلى هذا الشافعي في طائفة من العلماء، واستدلوا لهذا بقوله تعالى في سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾ [النور: آية ٣٣] قالوا: ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾ هو المذكور في قوله هنا: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ وعلى هذا القول الذي قاله الشافعي وجماعة من فقهاء الأمصار إذا كان المكاتب عليه نجوم من كتابته فإنه يعان بما عسر عليه من نجوم كتابته من زكاة المسلمين ليتخلص حراً.

وذهبت جماعة من العلماء منهم مالك بن أنس وأصحابه في طائفة من فقهاء الأمصار إلى أن معنىٰ قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أنه ليس معناه المكاتبين، قالوا: المكاتبون داخلون في قوله: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ لأن المكاتب غارم لسيده نجوم كتابته. قالوا: أما معنىٰ قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ فهو أنه يُشترىٰ من زكاة المسلمين عبيد ويكونون أحراراً ولاؤهم للمسلمين. قالوا: وهذا هو معنىٰ قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾. و﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ تكلمنا الآن عليه.

وقوله: ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا خلاف بين العلماء أن الغزاة الذين ليسوا في الديوان داخلون في سبيل الله، وإيضاح هذا أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لما جعل مسألة الديوان كتب أسماء الجند في ديوان قيد أسماءهم فيه، وكل قطر من الأقطار عدَّد ما فيه من المُقَاتلة وكتبهم في ديوان ليحفظوا الثغور ويعينوا على الجهاد، وكانت لهم أرزاق معروفة في بيت مال المسلمين، وهؤلاء إذا قتل واحد منهم عَقَل عنه الآخرون قبل عصبته، فهؤلاء قال العلماء: ليسوا هم المراد هنا؛ لأن

---

(١) انظر: ابن جرير (٣١٦/١٤)، القرطبي (١٨٢/٨)، الأضواء (٤٧٠/٢).

لهم أرزاقاً من بيت مال المسلمين وهم مدونون معروفون، وأن المراد بهؤلاء الغزاة: هم الذين يتطوعون ليقاتلوا ويسدوا الثغور مع المسلمين، مع أنهم لم تكن لهم أرزاق مكتوبة، ولم يكونوا مكتوبين في الديوان، فهؤلاء يعطون من زكاة المسلمين وإن كانوا أغنياء، ويعطون ما يشترون به السلاح والمراكب ليسدوا ثغور المسلمين فيجاهدوا في سبيل الله، وكون المراد في سبيل الله الغزاة هو قول الشافعي (رحمه الله) في طائفة من العلماء.

وقال الإمام مالك وأصحابه: إن المراد بسبيل الله كل ما يتعلق بالغزو والرباط فيدخل فيه جميع ما يتعلق بالغزو كشراء السلاح والكراع، والرباط في سد الثغور المخوفة التي يخشىٰ أن تدخل منها الكفار للمسلمين، أن هذا كله يدخل في سبيل الله.

وذهبت جماعة من العلماء وهو مروي عن الإمام أحمد بن حنبل أن (في سبيل الله) الحُجاج والعُمار، أنه يعطى من بيت مال المسلمين للعاجز عن الحج والعمرة ما يحج به ويعتمر. قالوا: والحج والعمرة في سبيل الله. هذا ملخص عيون كلام العلماء في هذه المصارف. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ السبيل في لغة العرب[1]: الطريق. ومعنىٰ (ابن السبيل) ولد الطريق، وإنما قيل للمسافر الغريب: (ابن السبيل) لأحد أمرين: قال بعض العلماء: لأنه ملازم للطريق لذهابه معها، وكل ملازم لشيء تقول له العرب ابنه، ومنه سمت الطير الملازم للماء (ابن الماء) كما هو معروف، ومنه قول غيلان ذي الرمة[2]:

وردت اعتسافاً والثُّريا كأنها ... على قمةِ الرأسِ ابنِ مَاءٍ مُحَلقِ

فسماه ابن الماء لملازمته للماء.

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

وقالت طائفة من علماء العربية: إنه إنما قيل له (ابن السبيل) لأن السبيل وهي الطريق كأنها تمخضت لنا عنه ورمتنا به كما ترمي النفساء الناس بولدها، كان غائباً في بطن الطريق فرمتنا به، كما تكون النفساء ولدها غائب في بطنها فترمينا به. وهذا المعنىٰ يوجد في كلامهم، وقد أوضحه مسلم بن الوليد الأنصاري ـ وإن كان كلامه إنما يذكر مثالًا لا استدلالًا؛ لأنه في زمن الدولة العباسية، ولكنه أوضح هذا المعنىٰ ـ بقوله حيث يقول يذكر رجلًا سافر في فلاة من الأرض شهرين إلى أمير ليمدحه قال له(١):

تمخضتْ عنه تمّاً بعد محمله شهرينِ بيداءُ لم تُضرب ولم تلدِ
ألقته كالنَّصْلِ معطوفاً على هِمَمٍ يعمدن منتجِعَاتٍ خيرَ مُعتمدِ

فصرح بأن هذه الفلاة تخمضت عن هذا وولدته وأنتجته، فكذلك الطريق كأنها تتمخض عنه وترميهم به. وأكثر العلماء يقولون: سُمي (ابن السبيل) لملازمته للطريق، وابن السبيل هو الإنسان الذي فنيت نفقته وانقطع زاده وهو متغرب عن أوطانه يعطى من زكاة المسلمين زاداً وما يبلغه إلى وطنه ولو كان غنياً في محله، ولا تتبع ذمته ولو كان غنياً في محله؛ لأنه مصرف للزكاة في ذلك الوقت وإن كان غنياً في بلده، وهذا من محاسن دين الإسلام وما فيه من مكارم الأخلاق. قال بعض العلماء: ويدخل في ابن السبيل ما لو كان له سفر يضطر إليه، كما لو كانت له أولاد في دار حرب أو في ضيعة وهو مضطر إلى الإتيان بهم ولا مال عنده فإنه يُعطىٰ ليذهب ويجيء ويكون داخلًا في ابن السبيل.

وقد أجمع العلماء على أن ابن السبيل إذا كان مسافراً في معصية لا يجوز أن يعطى من الزكاة شيئاً لأنه إعانة له على معصيته، والله يقول: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: آية ٢] وإن كان سفره في قربة فلا خلاف في أنه يعطى. وإن كان في مباح فقد اختلف العلماء في ذلك،

(١) هذان البيتان سبق ذكرهما في الموضع السابق.

فقالوا: لا يعطى؛ لأن المباح لا يلزم. وقال بعض العلماء: يعطى؛ لأن السفر المباح فيه جميع التسهيلات التي في السفر الواجب، فالسفر المباح تقصر فيه الصلاة، ويفطر فيه المسافر، ويفعل فيه كل الترخصات، فكذلك يعان صاحبه عليه. هكذا قال بعضهم والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مصدر، أي: فرض الله هذا فريضة عليكم ﴿وَٱللَّهُ﴾ جلّ وعلا ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها.

٩/ب / يقول الله (جلّ وعلا): ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة: آية ٦١].

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع: ﴿يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ﴾ بياء مشددة، وقرأه نافع وحده: ﴿يؤذون النبيء﴾ بهمزة[(١)]. وأبدل ورش ومن وافقه همزة ﴿يُؤْذُونَ﴾ فقرأ: ﴿يوذون﴾ وقرأ عامة السبعة غير نافع وحده: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ بضم الذال في الحرفين، وقرأه نافع وحده: ﴿أذْن﴾ بسكون الذال[(٢)].

وقرأ عامة السبعة غير الكسائي: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالرفع، وقرأ الكسائي وحده ﴿ورحمةٍ﴾ بالخفض[(٣)].

فعلى قراءة الجمهور فهو عطف على المضاف في قوله: (أُذُنُ خيرٍ لكم ورحمةٌ) وعلى قراءة الكسائي[(٤)] فهو عطف على المضاف إليه. أي: (أُذُنُ خيرٍ ورحمةٍ لكم)[(٥)].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام، وانظر: الإتحاف (٢/٩٤).

(٢) انظر: السبعة ص٣١٥، المبسوط لابن مهران ص٢٢٧.

(٣) قراءة الخفض إنما هي لحمزة وليست للكسائي. انظر: السبعة ص٣١٥، المبسوط لابن مهران ص٢٢٧، وقد استدرك الشيخ ذلك فنبّه على الصواب كما سيأتي قريباً.

(٤) الصواب: حمزة كما سبق.

(٥) انظر حجة القراءات ص٣٢٠، الدر المصون (٦/٧٤).

وقوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ هذا صنف آخر من أصناف المنافقين؛ لأن الله بيّن في هذه الآية أصناف المنافقين، قال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التوبة: آية ٤٩] ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: آية ٥٨] ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ [التوبة: آية ٦١] كان في المنافقين طائفة يبسطون ألسنتهم إلى رسول الله ﷺ بالكلام السيء فيعيبونه ويقولون فيه ما لا ينبغي، وهذا هو قوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ [التوبة: آية ٦١] أي: ومن المنافقين الطائفة الذين يؤذون النبي محمداً ﷺ بالاستطالة في عرضه.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ معنىٰ هذا أنه إذا قيل لهم: كيف تقدحون في نبي الله ﷺ وتعيبونه وهو إن علم بذلك فعل بكم وفعل بكم؟ فيقولون: لا يهمنا ذلك؛ لأنه أُذن!! العرب تقول: فلان أُذُن. وأُذْن بالسكون لغة فيه، إذا كان يسمع من كل من جاءه، فإذا كان الرجل كلما جاءه أحد وأخبره سمع منه وصدقه قالت العرب: هذا الرجل أذن. يعنون: هو كلما جاءه أحد بخبر صدقه، ونحن إن قيل عنا إننا آذيناه جئناه وكذبنا له وحلفنا له فيصدقنا، فنحن نؤذيه ولا تضرنا عاقبة ذلك؛ لأن مآلنا أن نكذب الحديث ونحلف له عليه، وهو أُذن يصدق كل من جاءه بخبر، فيصدقنا ولا ينشأ لنا من ذلك سوء. وهذا معنىٰ قوله: ﴿يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ لما عابوا النبي ﷺ آذوه وعابوه بأنه أُذن في زعمهم الباطل ـ قبّحهم الله ـ يعنون: يسمع من كل من حدثه، بيّن الله أنه أُذن ولكنه أُذن خير خاصة، لا أُذن شر، فإذا جاءه الناس بالخير وبالحق صدّقهم في الخير والشر، أما الباطل فليس بأُذن فيه ولا بمصدقٍ أحداً فيه، ولا ينفعكم اعتذاركم الباطل. وهذا معنىٰ قوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ هو أُذن خير لكم، أي: يسمع ـ هو سامع ـ ولكنه سامع خير، سامع من كل من جاءه بخير وبحق لا من كل من جاءه بشر وبباطل مثلكم فليس بأُذن له. وهذا معنىٰ قوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ يصدق بالله (جلّ وعلا) التصديق الكامل من الجهات الثلاث، يؤمن بالله تصديقاً صحيحاً من قلبه ولسانه وجوارحه (صلوات الله وسلامه

عليه) ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يصدق المؤمنين العدول الأتقياء إذا جاؤوه بمقالة، أما الكفَرَة الكذَبة أمثالكم فلا يصدقهم.

وجرت العادة باستقراء القرآن أن الله تبارك وتعالى إذا كان الإيمان بالله عداه بالباء، كأن يقول: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [الحجرات: آية ١٥، النساء: آية ١٣٦] ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: آية ١١٤] وإذا كان الإيمان معناه تصديق مخلوق فإنه يعديه باللام دائماً؛ ولذا قال هنا: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: ويصدق المؤمنين. ولا يكاد هذا التصديق المتعلق بالآدميين يوجد في القرآن إلا مجروراً باللام، كقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾ [العنكبوت: آية ٢٦] ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: آية ١٧] وقوله هنا: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويصدق المؤمنين الأتقياء في الخير الذي جاءه به، ولكن ليس بأذن للكفرة الفجرة أمثالكم. فقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ﴾ على قراءة الجمهور هو أُذُن خيرٍ، وهو أيضاً رحمة للمؤمنين، وقد أرسله الله رحمة للعالمين.

وفي هذه الآية سؤال معروف؛ لأن طالب العلم يقول: الله قال في آية براءة هذه: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فقيّد كونه رحمة للذين آمنوا، وفي سورة الأنبياء قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: آية ١٠٧] فلم يقيد كونه رحمة بالإيمان، بل قال لجميع العالمين، وهذا وجه السؤال.

والجواب عنه: أن الله (جلّ وعلا) أرسله (صلوات الله وسلامه عليه) رحمة لجميع الخلائق، إلا أن بعضهم قبل من الله التفضل بتلك الرحمة فحازها، فخص في قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وبعضهم لم يقبلها ولم يحزها، ولا ينافي ذلك أن الله أعطاه تلك الرحمة إلا أنه لم يقبلها ولم يحزها. وضرب العلماء لهذا مثلاً قالوا: لو أن سلطان البلد مثلاً ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ أرسل لجميع سكان البلد إنعاماً كثيراً كأن أجرىٰ لهم المياه تأتيهم، وأجرىٰ عليهم الأرزاق والنعم، وبعضهم امتنع أن يأخذ، وبعضهم أخذ فلا ينافي أنه أنعم على الجميع. فالله أرسله رحمة للعالمين، بعض

الناس قبل من الله فضله وبعضهم لم يقبل فضله، ولا ينافي ذلك أنه تفضّل عليه ببعثه (صلوات الله وسلامه عليه).

وأما على قراءة حمزة الذي قرأ: ﴿ورحمةٍ﴾ بالخفض ـ هو حمزة لا الكسائي[1] ـ أما على قراءة حمزة ﴿ورحمةٍ للذين آمنوا﴾ هو أُذن خيرٍ ورحمةٍ. معطوف على الخير؛ لأن الله (جلّ وعلا) جعل فيه الخير والرحمة فإذاً كان سامعاً من أحد فهو سماع لا يقود إلا إلى خير من خير ورحمة لا سماع شر. ولا يخفىٰ ما في قراءة حمزة من عدم ظهور المعنىٰ، وظهور المعنىٰ على قراءة الجمهور. وهذا معنىٰ قوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ بالاستطالة في عرضه بكلام السوء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من الله (جلّ وعلا)، وقد بيّن في الأحزاب أن ذلك العذاب مصحوب باللعنة أيضاً في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إلى آخر الآية [الأحزاب: آية ٥٧]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة: آية ٦٢] قال بعض العلماء: كانت جماعة من المنافقين ومعهم غلام حدث من الأنصار يسمىٰ عامر بن قيس، فقال بعض المنافقين لبعض: والله إن كان ما يقوله محمد ﷺ حقاً لنحن شر من الحمير، فغضب ذلك الغلام وقال: أَتَشُكُّون في حق ما يقوله، والله إن ما يقوله لحق، وإنكم لشرٌّ من الحمير، ثم نما الحديث إلى النبي ﷺ، فلما سألهم: ما حملكم على أن تقولوا ما قلتم، حلفوا بالله ما قلناه، قال من روىٰ هذه القصة في سبب هذا النزول: وكان ذلك الغلام الأنصاري يدعو الله ويقول: اللهم بيّن المحق منا من الكاذب، فأنزل الله هذه الآية من سورة براءة تصديقاً

---

(١) سبق التنبيه على ذلك قريباً.

لذلك الرجل وتكذيباً لأولئك المنافقين[١] ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ أنما قيل عنّا لَكَذِب، ولا نقول إلا خيراً، ولا نظهر إلا الخير ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ بذلك ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ في باطن الأمر، ولم يكونوا منافقين، ولم يقعوا في نبيه ﷺ بما لا ينبغي.

وقد رد الضمير هنا على الرسول وحده قال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ من أن يعيبوه. قال بعض العلماء[٢]: إنما اكتفىٰ بالضمير الواحد لأن إرضاء الله إرضاء لرسوله، وإرضاء الرسول إرضاء الله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: آية ٨٠] فلما تلازما صارا كأنهما شيء واحد.

وذهب غير واحد من علماء العربية وعلماء التفسير[٣] إلى أن رجوع الضمير على أحد المتعاطفين اكتفاءً به لأن الآخر مفهوم منه أسلوب عربي معروف كثير في القرآن العظيم وفي كلام العرب وهو كثير، أن العرب ربما حذفت بعض الأمرين واستغنت عنه بالآخر، سواء كان في ضمير أو غير ضمير، فمن أمثلته في غير الضمير قول قيس بن الخطيم[٤]:

نحنُ بما عندنا وأنت بما عندكَ   راضٍ والرأي مُختلِفُ

فحذف «راضون» لدلالة «راضٍ» عليها وقد أنشد هذا لهذا المعنى سيبويه في كتابه، وأنشد سيبويه لهذا المعنىٰ أيضاً قول عمرو بن أحمر الباهلي[٥]:

رَمَاني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي   بَرِيئاً ومن أجلِ الطويِّ رَمَاني

(١) أخرجه ابن جرير (٣٢٩/١٤) وابن أبي حاتم (١٨٢٨/٦) عن قتادة مرسلاً، وليس فيه تسمية الذي نقل ذلك إلى رسول الله ﷺ. وعزاه في الدر (٢٥٣/٣) لابن المنذر وابن أبي حاتم.
وقد ساق رواية عند ابن أبي حاتم عن السدي مرسلًا وفيها تسمية الأنصاري. وفي المطبوع من ابن أبي حاتم رواية عن السدي تتعلق بتفسير الآية لكن لا علاقة لها بسبب النزول أو تسمية الأنصاري.

(٢) انظر: القرطبي (١٩٤/٨)، الدر المصون (٧٥/٦).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٤) البيت في الكتاب لسيبويه (٧٥/١).

(٥) السابق.

أي: كنت بريئاً وكان والدي بريئاً، فحذف أحدهما لدلالة الآخر عليه، وأنشد له سيبويه في كتابه أيضاً: قول ضابىء بن الحارث البرجمي[(١)]:

فمن يكُ أمْسَى بالمدينةِ رحلُه ... فإني وقَيَّاراً بها لغريبُ

فإني لغريب وقيار لغريب. هذا من أمثلته في غير الضمير، وأمثلة حذف أحد الضميرين اكتفاءً عنه بالآخر كثيرة في كلام العرب وفي القرآن العظيم، فمن أمثلتها في القرآن في المتعاطفات بالواو كما هنا: قوله: ﴿يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ [التوبة: آية ٣٤] ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا﴾ [البقرة: آية ٤٥] ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ [الأنفال: آية ٢٠] وأمثال ذلك كثيرة في القرآن. ومن أمثلته في كلام العرب قول نابغة ذبيان وهو شاهده المشهور[(٢)]:

وقد أراني ونُعْماً لاهيين بها ... والدهرُ والعيشُ لم يهمم بإمرارِ

يعني: لم يهمما. فرد الضمير على واحد من العيش أو الدهر؛ لأن الآخر مفهوم منه، ومنه قول حسان رضي الله عنه[(٣)]:

إن شَرْخَ الشبابِ والشَّعَر الأ ... سْود ما لم يُعَاصَ كان جُنُونَا

فلم يقل: ما لم يعاصيا. وهو كثير.

وأما في المعطوف بـ(أو) فالقياس أن يرجع الضمير بالإفراد؛ لأن الضمير في المتعاطفات بـ(أو) يرجع إلى الأحد الدائر بينها، وهو القياس كقوله: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾ [النساء: آية ١١٢] وقد رده إلى أحدهما بعينه تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا[(٤)] [رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓا إِلَيْهَا﴾] [الجمعة: آية ١١].

وقد يرجع إلى أحدهما في المتعاطفات بالفاء، ومن أمثلة رجوعه إلى أحدهما في المتعاطفين بالفاء قول امرىء القيس في معلقته[(٥)]:

---

(١) الكتاب (٧٥/١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

(٤) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل. وقد أثبت تمام الآية وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٥) ديوانه ص١١٠.

فتُوضِحَ فالمِقرَاة لم يَعْفُ رسمها لِمَا نَسَجتها من جنوب وشمأل

فرده لإحداهما. وعلى كل حال فالمعنىٰ: يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين، ولكنهم لم يكونوا مؤمنين - قبّحهم الله -. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ٦٢].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة: آية ٦٣].

قدمنا في هذه الدروس مراراً[1] أن كل فعل مضارع مجزوم بـ (لم) إذا تقدمتها همزة استفهام بأن قيل فيه (ألم) كل فعل مضارع مسبوق بـ (ألم) فيه لعلماء التفسير وجهان في جميع القرآن:

أحدهما: أن تصير مضارعته ماضوية، ويصير نفيه إثباتاً، فأصله مضارع منفي بـ (لم) فتصير حقيقة معناه أنه ماضٍ مثبت فتنقلب المضارعة ماضوية، وينقلب النفي إثباتاً، وهذا مطرد كقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ معناه: علموا أن من حاد الله ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ [البلد: آية ٨] جعلنا له عينين ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح: آية ١] شرحنا لك صدرك. فإن قيل: بأي وجه انقلبت المضارعة ماضوية، وانقلب النفي إثباتاً، مع أن النفي والإثبات نقيضان؟ فالجواب: أن انقلاب المضارعة ماضوية أمر واضح لا إشكال فيه؛ لأن (لم) حرف قلب، تقلب المضارع من معنىٰ الاستقبال إلى معنىٰ الماضي، وهذا أمر معروف لا نزاع فيه ولا إشكال، أما انقلاب النفي إثباتاً فوجهه أن همزة الاستفهام التي قبل حرف (لم) هي استفهام إنكار، والإنكار مضمن معنىٰ النفي، فيتسلط النفي الكامن في الهمزة على النفي الصريح في (لم) فينفيه، ونفي النفي إثبات. هذا وجه من قال هذا القول.

القول الثاني: أن كل فعل مضارع مسبوق بـ (ألم) في جميع القرآن هو

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

استفهام تقرير، والمراد باستفهام التقرير هو حمل المخاطب على أن يقر فيقول: بلى، وليس المراد منه طلب فهم ألبتة. فالمراد بهذا على هذا القول أن يقولوا: بلىٰ نعلم أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم ﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ إنما فُك الإدغام هاهنا لأن الفعل مجزوم، ومعلوم أن المضعَّف إذا جزم أو صار أمراً جاز فيه الإدغام وفَكُّ الإدغام كما هو معروف في محله. ومعنىٰ قوله: ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ أي: يشاق الله ويخالفه ويعاصيه. وأصل المحادة: من الحد؛ لأن المحاد يكون في الحد الذي ليس فيه من حاده، تقول: زيد محاد لعمرو. أي: مشاق له ومعاد له ومعاند؛ لأنه في الحد الذي ليس فيه، فهذا في الحد الذي ليس فيه هذا وذلك بعكس ذلك أيضاً. وهذا معنىٰ معروف في كلام العرب، وأعظم محادة للّه هي إيذاء نبيه ﷺ والتجرؤ على ذلك بالأيمان الباطلة الكاذبة.

﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ إذا كانت (أن) مثلًا في جزاء الشرط بعد فاء جاز فيها الفتح كما هنا وجاز فيها الخفض أيضاً، وهما لغتان عربيتان. وقراءة الجمهور منهم السبعة هنا: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ﴾ بفتح الهمزة، ولو كسرت لجاز لغة لا قراءة؛ لأن القراءة الصحيحة بعكسه ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أضاف النار إلى جهنم لأن جهنم طبقة من طبقاتها.

﴿خَٰلِدًا فِيهَاۚ﴾ في حال كونه خالداً فيها، وهي حال مقدرة كما هو معلوم.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: الخلود في النار ـ عياذاً بالله ـ بسبب محادة الله ومشاقته، والخزي العظيم أي: الذل الأكبر والهوان الأعظم. فالخزي في لغة العرب: غاية الذل والهوان والانسفال. وقد صرح الله (جلّ وعلا) بأن من حاد الله في غاية الذل والمهانة والسفالة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة: آية ٢٠] فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ يبين أن الخزي هنا ـ عياذاً بالله ـ يتضمن أعلى الذل والحقار والصغار، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ [المجادلة: آية ٥] وذلك الكبت ملتزم لأصناف الذل

والمهانة والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ [آل عمران: آية ١٩٢] أي: أذللته وأهنته ـ والعياذ بالله أجارنا الله منها وإخواننا المسلمين ـ وهذا معنىٰ قوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الضمير ضمير الشأن، والجملة هي اسم (أن)، و(أن) الثانية فيها للعلماء أوجه[1] متعددة أصحها وأقربها للصواب أنها هي (أن) الأولى كررت لما طال الفصل بينهما، وتكرير (أن) إذا طال الفصل أسلوب عربي معروف كثير في كلام العرب، ومنه هذه الآية على الصحيح. ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.

﴿خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ الخلود معناه: المكث الطويل، والمراد بخلود أهل النار خلود لا انقطاع فيه البتة؛ لأن الله يقول: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: آية ٩٧] فليس للنار خبوة نهائية ليس بعدها زيادة سعير، وقد قدمنا في هذه الدروس[2] أن جماعة من العلماء زعموا أن النار تفنىٰ، وأنهم يخرجون منها، واستدلوا بقوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ: آية ٢٣] وبقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ في سورة هود [هود: آية ١٠٧] وبقوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] وبيّنا مراراً أن التحقيق في خلود أهل الجنة وخلود أهل النار أنه خلود أبدي لا انقطاع له أبداً لا يزول ولا يحول فهو باق بقاءً سرمدياً لا انقطاع له، أما خلود أهل الجنة فقد صرّح الله به في آيات من كتابه كقوله: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود: آية ١٠٨] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: آية ٥٤] وقوله (جلّ وعلا): ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ [النحل: آية ٩٦] إلى غير ذلك من الآيات، وأما خلود أهل النار فجاءت فيه آيات كثيرة كقوله: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: آية ٣٦] ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه: آية ٧٤] ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: آية ٣٦] ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: آية ٩٧] والحاصل أن من قال من

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٣٣٠)، القرطبي (٨/١٩٤)، الدر المصون (٦/٧٧).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام، والآية (٣٦) من سورة الأعراف.

السلف: «إن النار تفنىٰ ويبقىٰ محلها لا أحد فيه» يجب حملها كما صرح به البغوي في تفسيره[١] على الطبقة التي كان فيها عصاة المسلمين؛ لأن الله يخرجهم بعد أن تطهرهم النار فيؤولون إلى الجنة فتبقى طبقتهم التي كانوا فيها خاوية، أما الكفار فهم باقون معذبون لا يموتون ولا يخفف عنهم العذاب ولا تفنى النار عنهم، وقد نفى الله فناءها بقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ فمن يدّعي أن لها خبوة نهائية ليس بعدها زيادة سعير رُد عليه بهذه الآية الكريمة، وكذلك لا يخرجون منها؛ لأن الله يقول: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: آية ٢٠] ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: آية ٢٢] ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: آية ١٦٧] ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾ [المائدة: الآية ٣٧] وكذلك لا يموتون فيها كما قال: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾ [إبراهيم: آية ١٧] ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: آية ٣٦] إلى غير ذلك من الآيات كما أوضحناه في هذه الدروس.

/[٢] [أما آية النبأ، وهي قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ [النبأ: آية ٢٣] ١٠/أ
فقد بينتها غاية البيان آية سورة ص، وإيضاح ذلك أن المعنى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ أي: في النار ﴿أَحۡقَابٗا﴾ في حال كونهم في تلك الأحقاب ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ٢٤ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ٢٥﴾ [النبأ: الآيتان ٢٤، ٢٥] فإذا انقضت أحقاب] الحميم والغسّاق، عذبوا بأنواع أخر من أنواع العذاب لا نهاية لها ولا يعلمها إلا الله. وإنما قلنا: إن هذه الأحقاب، مختصة بأحقاب الحميم والغساق لأن الله بيّن ذلك وصرّح به في سورة (ص) وخير ما يفسّر به القرآنَ القرآنُ؛ لأن الله يقول في (ص): ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٥٦ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ٥٨﴾ [ص: الآيات ٥٥ ـ ٥٨] فبيّن أن هنالك أصنافاً أخر

---

(١) تفسير البغوي (٢/٤٠٣).

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وتم استيفاء النقص من كلام الشيخ (رحمه الله) على هذه المسألة عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأعراف. وجعلت ذلك بين معقوفين.

وأشكالاً من أنواع العذاب غير الحميم والغسّاق. فبيّنت آية (ص) هذه آية النبأ، بياناً واضحاً وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

وذكرنا[1] أن بعض الملحدين يقول: أين الإنصاف والحكمة في أن تكون أيام المعصية في دار الدنيا وأيام الكفر مدة محدودة والجزاء في مدة لا تنقضي، فأين العدل والميزان، في عملٍ في مدة معينة مع جزاءٍ في مُدَد لا تنقضي ولا تنتهي؟!

والجواب عن هذا: أن خبث الكافر الذي عُذّب بسببه هو باقٍ دائم لا يزول في جميع المُدد، فكان العذاب دائماً لا يزول؛ لأن سببه باقٍ لا يزول، والدليل على أن خبث الكفار باقٍ لا يزول أبداً فكان جزاؤه دائماً لا يزول أبداً لأنهم لما رأوا النار وعاينوا الحقائق يوم القيامة وندموا على تكذيب الرُّسل فتمنوا الردّ إلى الدنيا ليتوبوا ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٧] قال الله فيهم: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] فصرّح (جلّ وعلا) بأنهم لو رُدوا إلى الدنيا بعد معاينة النار والعذاب وبلايا القيامة لعادوا لما نهوا عنه.

وهو تصريح بأن خبثهم الطبيعي منطبعٌ فيهم دائم لا يزول، فلذلك كان جزاؤه دائماً لا يزول. والجزاء بحسب العمل؛ ولذا قال تعالىٰ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [النبأ: آية ٢٦] موافقاً لأعمالهم فخبثهم لا يزول وجزاؤهم لا يزول، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: آية ٢٣] فـ (خيراً) نكرة في[2] سياق الشرط وهي تعمّ، فعرفنا أن الله لم يعلم فيهم خيراً ما في وقتٍ ما كائناً ما كان، ولما كان الخير منتفٍ عنهم أبداً والشرّ ملازم لهم أبداً، كان جزاؤهم لازماً أبداً. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ﴾ [التوبة: آية ٦٣] ـ والعياذ بالله ـ ﴿ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الهوان والخزي الكبير. والعظيم صفة مشبهة من عَظُم الشيء يعظم فهو عظيم، وهو معنىً معروف لا خفاء به.

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: الآيات ٦٤ ـ ٦٨].

يقول الله (جل وعلا): ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: آية ٦٤].

قرأ هذا الحرف عامة القرّاء، غير ابن كثير وأبي عمرو: ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ بفتح النون وتشديد الزاي، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: **﴿أن تُنزل عليهم سورة﴾** ومعنى القراءتين واحد، فالله (جلّ وعلا) في هذه السورة الكريمة يفضح ما تنطوي عليه ضمائر المنافقين، فبيّن لنبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن المنافقين في غاية الخوف والقلق والحذر من أن ينزل الله على نبيّه قرآناً يكشف به أسرارهم، ويوضح ما تنطوي عليه ضمائرهم من الكفر والسوء فقال: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ مضارع حَذِر الأمر يحذره إذا كان يخاف وقوعه خوفاً شديداً.

قوله: ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ التحقيق أن المصدر المنسبك من (أنْ) وصلتها في محل نصب مفعول به ليحذر[1]؛ لأنه (يحذر) تتعدى بنفسها دون حرف، وأنشد سيبويه لتعدي (حذر) بنفسها قول الشاعر[2]:

حـذرٌ أمـوراً لا تـضـيـرُ وآمـنٌ   مـا لـيـس يـنـجـيـه مـن الأقـدار

فقوله: «أموراً» مفعول به لـ (حذر) وهو الوصف من حَذِر يحذر فهو حَذِرٌ ﴿أَن تُنَزَّلَ﴾ يعني: يحذر المنافقون تنزيل سورة من الله عليهم. أي:

---

(١) انظر: الدر المصون (٦/٧٩).

(٢) الكتاب (١/١١٣).

على النبي وأصحابه تفضح المنافقين، وقال بعض العلماء: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المنافقين؛ لأنها إذا نزلت في شأنهم مبيّنة فضائحهم وما تنطوي عليه أسرارهم فكأنها نُزلت عليهم ﴿قُلِ﴾ لهم يا نبيّ الله ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ صيغة الأمر هنا للتهديد، يعني: دوموا على ما أنتم عليه من الاستهزاء بآيات الله وبالله وبرسوله فستلقون جزاء ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ أي: مظهر لنبيه بما يوحىٰ إليه ما أنتم تسرونه وتبطنونه، ذلك الذي تحذرون أن يفضحكم الله فيه، إن الله مخرجه ومظهره، وقد أطلع الله نبيه ﷺ على حقائقهم بعد أن لم يكن يعلمها؛ لأن قوله هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ يدلّ على أن النبي في هذا الوقت لم يكن يعلمه كما يأتي في قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ﴾ [التوبة: آية ١٠١] وقد بيّن الله لنبيّه المنافقين، أشار له إلى معرفتهم بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ﴾ ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: الآيتان ٢٩، ٣٠] وقد أطلع الله نبيه عليهم في غزوة تبوك، وأطلع النبيّ حذيفة بن اليمان على جماعة منهم بأسمائها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: آية ٦٤].

قوله: ﴿مَّا﴾ في محل المفعول به لاسم الفاعل الذي هو (مخرج) والسؤال الذي يتبادر في هذا جوابه ظاهر، لأن (مخرج) هنا قد وقع وتعلق بالماضي، والمقرر في علم العربية أن اسم الفاعل إذا كان نكرة لا يعمل إلا بمسوّغ، ولا يعمل في الماضي، وهنا كأنه عمل في الماضي. والجواب واضحٌ؛ لأن هذه الآية تحكي ما كان في ذلك الوقت مستقبلًا؛ لأن وقت نزول هذه الآية يحكي الله (جلّ وعلا) فيها أنه سيفعل ذلك في المستقبل، فإذاً لم يتعلق اسم الفاعل بأمرٍ ماضٍ كما لا يخفى. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ﴾ [التوبة: آية ٦٥] نزلت هذه الآية في غزوة تبوك بإطباق المفسرين في قومٍ استهزؤوا بالله وآياته ورسوله. قال بعض العلماء: كان النبي ﷺ يسير في

غزوة تبوك وأمامه ركبٌ من المنافقين، فكان بعضهم يقول لبعضٍ: «يظن هذا أنه يفتح قصور الشام ويقدر على بلاد بني الأصفر، هيهاتَ هيهات» فأطلع الله نبيه على ذلك فاستوقفهم فسألهم: «**لمَ قلتم هذا؟**» قالوا: كنا نخوض ونلعب، لم نقل هذا عن طريق الجدّ، وإنما قلناه عن طريق الهزل واللعب. فأجابهم الله: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم﴾[1] [التوبة: آية ٦٥].

وذكر بعض العلماء أن النبي ﷺ ضلّت راحلته في غزوة تبوك فقال جماعة من المنافقين: انظروا إلى هذا الرجل يدّعي أنه يعلم علم الغيب، وأنه ينزل عليه الوحي وهو لا يدري أين ذهبت ناقته!! وأن جبريل أتاه فأخبره بموضعها، أمسكتها شجرة كذا بزمامها، فناداهم وقال: «**لمَ قلتم ما قلتم؟**» قالوا: كنا نخوض ونلعب[2].

وعلى كل حال فلا خلاف بين العلماء أن هذه الآية من سورة براءة نزلت في غزوة تبوك في قومٍ استهزؤوا بالنبي ﷺ واستَخَفُّوا به، فسألهم رسول الله ﷺ فأجابوا معتذرينَ اعتذاراً كاذباً قالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ﴾ في الحديث ﴿وَنَلْعَبُ﴾ نهزأ ونضحك فيما بيننا لا نقول ذلك عن جدّ وقصد. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم يا نبيّ الله: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعني تستهزئون بالله وبرسوله وبآياته؟! فالاستهزاء بالله وبآياته وبرسوله كفر بواح لا

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣٣٤/١٤)، وابن أبي حاتم (١٨٣٠/٦)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٥٠، عن قتادة مرسلاً. وعزاه في الدر (٢٥٤/٣) لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢٣٢/٥)، وذكره ابن هشام في السيرة ص١٣٧٥، من طريق ابن إسحاق. وانظر: الذهب المسبوك ص٢٤٩، وليس للآية ذكر في الرواية التي وقفت عليها. وقد أخرج ابن أبي حاتم (١٨٣٠/٦) وكذا أورده السيوطي في الدر (٢٥٤/٣) عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ قال رجل من المنافقين: يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا في يوم كذا وكذا وما يدريه بالغيب»؟! وعزاه السيوطي لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

عذر لصاحبه البتَّة. قال بعض العلماء[(١)]: يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن من استهزأ بالله وبرسوله وبآياته ولو كان هازلًا مازحاً أنه يكون كافراً؛ لأنه لا هزل في الكفر، وقد جاء في الحديث أن بعض المسائل هزلها كجدها، كالطلاق، والعتاق، وهي ثلاث مسائل معدودة في الحديث: «**ثلاث جدهن [جد]**[(٢)]: **الطلاق والعتاق...**» ونسيت الثالثة[(٣)] مع أنها مختلف فيها هل هي الرجعة أو غيرها.

وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ الاستهزاء: الاستخفاف، ولا تعتذروا هذا الاعتذار البارد الكاذب، ليس مقبولًا منكم حتى تتوبوا توبة نصوحاً ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أي: بعد إظهاركم الإيمان وإعلانكم إياه.

ثم قال: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ [التوبة: آية ٦٦] قرأ هذا الحرف عامَّة القراء السبعة، غير عاصم وحده: ﴿**إن يُعف عن طائفةٍ منكم تُعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين**﴾ بقولَه: ﴿**يُعف**﴾ بالياء وبناء الفعل للمفعول، و﴿**تُعذب**﴾ طائفة بالتاء، وضم طائفة على أنه نائب الفاعل، وقرأ عاصم وحده من السبعة: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾[(٤)] بنون العظمة ونصب طائفة الثانية. وفي نظم ابن المرحِّل[(٥)]:

---

(١) انظر: القرطبي (١٩٧/٨).

(٢) في الأصل: «هزل». وهذا سبق لسان، والصواب: جدهن جد وهزلهن جد.

(٣) الثلاث في أشهر الروايات هي: النكاح والطلاق والرجعة.
والحديث أخرجه أبو داود في الطلاق، باب: في الطلاق على الهزل، حديث رقم: (٢١٨٠) (٢٦٢/٦)، والترمذي في الطلاق، باب ما جاء في الجد والهزل في الطلاق. حديث رقم: (١١٨٤) (٤٨١/٣)، وابن ماجه في الطلاق، باب من طلّق أو نكح أو رجع لاعباً. حديث رقم: (٢٠٣٩) (٦٥٨/١)، والدارقطني (١٨/٤، ١٩)، والحاكم (١٩٨/٢)، وابن الجارود (٤٤/٣). وللوقوف على روايات الحديث وألفاظه انظر: التعليق المغني على الدارقطني (١٩/٤)، إرواء الغليل (٢٢٤/٦).

(٤) مضت عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأعراف.

(٥) السابق.

لـعـاصـم قـراءة لـغـيـرهـا مـخـالـفـة
إن نـعـف عـن طـائـفـة مـنـكـم نـعـذب طـائـفـة

فهذه قراءة عاصم وحده، برواية حفصٍ وشعبة عنه معاً.

وهذا معنىٰ قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾.

قال بعض العلماء[١]: هذا العفو نزل في [مخشي بن الحميِّر] لأنه كان من الذين خاضوا في الاستهزاء. قال بعض العلماء[٢]: كانوا ثلاثة نفر اثنان استهزؤوا وواحد ضحك لهما من كلامهما، ثم إن الثالث الذي هو مخشي بن الحميّر (رضي الله عنه) تاب إلى الله، وحسن إسلامه، وعفى الله عنه، وأنزل الله فيه: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾.

وقال غير واحد إن مخشياً (رضي الله عنه) تاب من نفاقه، وحسن إسلامه، وأناب إلىٰ الله، ودعا الله أن يموت شهيداً، وأن لا يطّلع أحدٌ على قبره، وقال من قال هذا: قتل باليمامة شهيداً. ولم يطلع عليه أحدٌ، ولم يعثر عليه (رضي الله عنه)، هكذا قال بعضهم[٣].

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ تابت إلى الله وأنابت إليه ورجعت عن النفاق إلى الإيمان الخالص والتوبة النصوح ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ أخرىٰ لم يتوبوا بل كانوا مصرّين على النفاق والاستهزاء بالله وآياته ورسوله بسبب أنهم ﴿كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ مرتكبين الجريمة، وهي الإصرار على الكفر والنفاق من غير إقلاعٍ ولا توبةٍ عنه، والمجرمون[٤] جمع المجرم، والمجرم مرتكب

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣٣٦/١٤) عن ابن إسحاق مرسلاً. وقد أخرج ابن أبي حاتم (١٨٣١/٦) كما أورد السيوطي في الدر (٢٥٤/٣) شاهداً له عن كعب بن مالك (رضي الله عنه). وعزاه لابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم. وأورده أيضاً عن ابن عباس وعزاه لابن مردويه.

(٢) انظر: القرطبي (١٩٩/٨).

(٣) جاء ذلك في أثر كعب بن مالك وابن عباس اللذين أشرنا إليهما قريباً.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

الجريمة، والجريمة هي الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه النكال العظيم و(مجرمون) هنا اسم فاعل (أجرم) بصيغة (أفعل) بالهمزة التي صار بها رباعياً، ويستعمل هذا الفعل استعمالين: أجرم رباعياً بصيغة (أفعل) وجرم ثلاثياً مجرداً. وما جاء مستعملًا في القرآن إلا بصيغة الرباعي فقط (مجرمون). ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ [المطففين: آية ٢٩] ولم يأت بصيغة الثلاثي المجرد في القرآن ولكنه جاء بذلك في لغة العرب، ومن ذلك قول الشاعر:

وَنَنْصُرُ مولانَا ونعلمُ أنه كما الناسُ مَجْرُومٌ عليه وجارمُ[1]

لأن المجروم اسم مفعول جرمه الثلاثي المجرد بلا نزاع، وهذا معنى قوله: ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾.

﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٦٧، ٦٨].

﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ [التوبة: آية ٦٧] المنافق هو من يظهر الإيمان، ويُسر الكفر، وهو المسمَّى في عرف الفقهاء بالزنديق. قال بعض العلماء: اشتقاقه من النافقاء وهي جحر اليربوع؛ لأن جحر اليربوع يكون له أبواب مختلفة يدخل من باب ويخرج من آخر، فالمنافق يخرج بغير ما دخل به، هكذا قيل.

﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ الذكور ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾ الإناث، هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن مما استدلّ به جماعة من أهل الأصول على مسألة أصولية مختلف فيها وإيضاحها أن الصفات التي يشترك فيها الذكور والإناث إذا جاءت في كتاب الله أو سنّة رسوله بصيغة خاصة بالذكور فهل يدخل فيها الإناث نظراً إلى اشتراكهنّ مع الذكور في أصل الوصف، أو يختص بها الذكور لأن البناء

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

مختص بالذكور؟! وإيضاح هذا، أن النفاق هو صفة تتصف بها الأنثىٰ والذكر، ولكن قوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ اختصّ بالذكور، فإذا جاء في كتاب الله جمع مذكر سالم أصل معناه يشترك فيه الذكور والإناث، هل يحكم بدخول الإناث أو لا يحكم بدخولهنّ إلا بدليلٍ منفصلٍ؟! هذا خلاف مشهور في الأصول[١]، قال أكثر أهل الأصول: إن الجموع المذكرة السالمة ونحوها مما يختص بجماعة الذكور، إذا ورد في كتاب الله أو سنّة رسوله ﷺ لا يدخل فيه النساء إلا بدليلٍ خاصٍ، لاختصاص الصيغة بالذكور، وإن كان الوصف شاملًا للجميع، واستدلوا على أن النساء لا يدخلن في الجموع المذكرة بمثل هذه الآية في القرآن، قالوا: لو كانت المنافقات الإناث يدخلن في اسم المنافقين بصيغة الجمع المذكر السالم لكفىٰ ذلك عن عطفهن عليهم، قالوا: والعطف دليل المغايرة وعدم الدخول، واستدلوا لهذا بكثرة نحوه في القرآن كقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: آية ٧٣] وقوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: آية ٣٠] ثم قال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النور: آية ٣١] فقالوا: فعطف النساء على الذكور المجموعين بصيغة الجمع المذكر يدل على عدم دخولهن فيه لاختصاص الصيغة بالذكور، وإن كان الوصف شاملاً للجميع. **وكتابه**

وذهبت طائفة أخرىٰ إلى أن النساء يدخلن في الجموع المذكرة وما جرىٰ مجراها؛ لأن الجميع سواءٌ في التكاليف، واستدلوا بآياتٍ من كتاب الله جاء مصرّحاً فيها بدخول الأنثىٰ في صيغة الجمع المذكر السالم، كقوله تعالىٰ في امرأة العزيز: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: آية ٤٣] فأدخل هذه المرأة في (الكافرين) وهو جمع مذكر سالم. وقوله في مريم ابنة عمران: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا **وكتابه**﴾ [التحريم: آية ١٢] وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[٢] فأدخل مريم وهي امرأة في اسم (القانتين)

---

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/٢٣٥).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٤٤٠.

وهو جمع مذكر سالم، قالوا: ونظيره قوله في امرأة العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: آية ٢٩] وهذا خلاف معروفٌ في الأصول. وأكثر الأصوليين يقولون: إنهنّ لا يدخلن. وأجمع العلماء على عدم دخول النساء في صيغة الذكور في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: الآيتان ٥، ٦] فلا يجوز للمرأة أن تتخذ عبدها وتتسراه؛ لأن الإناث لم يدخلن في هذه الصيغة المختصة بالذكور، وعلى كل حال فأظهر قولي الأصوليين ـ وعليه أكثرهم ـ أن أصل اللغة يقتضي تغليب الذكور على الإناث، وهذا لا نزاع فيه، أمّا التبادر عند الإطلاق، فهل يتبادر دخول النساء في الجموع المذكرة أو لا؟ فالظاهر أنه ما دخلن في جمع مذكر سالم إلا بقرينة زائدة دالة على ذلك، وأنه إذا تجرّد من القرائن لم يدخلن فيه، وعلى هذا أكثر علماء الأصول.

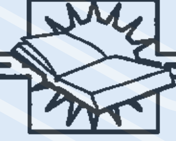
وقوله: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [التوبة: آية ٦٧] هذه الآية تضمنت تكذيب المنافقين المذكور في قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة: آية ٥٦] وصدقت قوله: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: آية ٥٦] كأن الله يقول: المنافقون يحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم. الحقيقة هم ليسوا منكم ولكن بعضهم من بعضٍ، وليسوا منكم ولستم منهم، بل هم بعضهم من بعضٍ؛ لأنهم هم المتشابهون في الأخلاق والأهداف، أخلاقهم واحدة وغرضهم واحد، فبعضهم من بعض وبعضهم أولياء بعض، وليسوا منكم ولستم منهم، فهذا معنىٰ قوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ ثم بيّن صفاتهم التي يجتمعون فيها وهي ضدّ صفات المؤمنين، على خط مستقيم، وهي قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ والمؤمنون يأمرون بالمعروف ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ والمؤمنون ينهون عن المنكر.

والمنكر: اسم مفعول أنكره، والمراد به كل ما أنكره الشرع ولم يأذن فيه. والمعروف: اسم مفعول (عرفه) وهو كل ما عرفه الشرع ودعا إليه وأمر به.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ المراد بقبض اليد هنا كناية عن البخل وعدم مدّ الأيدي بما ألزم الله بإعطائه، فهم لا يزكون ولا ينفقون، فالعرب تقول: فلان يتعوّد قبض اليد، ويده مقبوضة، ويقبض يده يكنون بذلك عن البخل. يعنون: لا يجود. فبسط اليد معناه الجود، وقبض اليد معناه البخل، قال بعض العلماء: قبضهم أيديهم: بخلهم بما يلزمهم من الزكوات وسائر الإنفاق. وقال (...)[1].



(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وهو آخر ما وُجد من دروس الشيخ (رحمه الله) في التفسير.



ثبت مصادر التعليق

١ ـ **الآحاد والمثاني**: ابن أبي عاصم. تحقيق: باسم الجوابرة. ط: دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

٢ ـ **آداب البحث والمناظرة**: محمد الأمين الشنقيطي. ط: شركة المدينة للطباعة والنشر، جدة.

٣ ـ **آداب الزفاف في السنة المطهرة**: محمد ناصر الدين الألباني. المكتبة الإسلامية، الأردن ـ عمان، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٤ ـ **الآداب الشرعية والمنح المرعية**: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي. ط: مؤسسة قرطبة، القاهرة.

٥ ـ **الآيات البينات**: أحمد بن قاسم العبادي الشافعي. تحقيق: زكريا عميرات. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

٦ ـ **الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير**: الحسين بن إبراهيم الجوزقاني. تحقيق: عبدالرحمٰن الفيروائي. ط: المطبعة السلفية بنارس. الناشر: إدارة البحوث الإسلامية، بالجامعة السلفية بنارس؛ الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٧ ـ **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة**: عبدالله بن محمد ابن بطة العكبري. تحقيق: رضا نعسان معطي، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٨ ـ **إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة**: حمود بن عبدالله التويجري. دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).

٩ ـ **إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر**: أحمد بن محمد البنا. تحقيق: شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

١٠ ـ **إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة**: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني. ط: مجمع الملك فهد ومركز خدمة السنة والسيرة النبوية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).

١١ ـ **الإتقان في علوم القرآن**: جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: المكتبة العصرية، بيروت، (١٤٠٧هـ).

١٢ ـ **أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء**: مصطفى سعيد الخِنّ. ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، بيروت، (١٤٠٢هـ).

١٣ ـ **الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة**: بدر الدين الزركشي. تحقيق: سعيد الأفغاني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٠هـ).

١٤ ـ **الأحاديث المختارة**: ضياء الدين محمد بن عبدالواحد المقدسي. تحقيق: عبدالملك بن دهيش. ط: مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

١٥ ـ **الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر**: حمود بن عبدالله التويجري. ط: مكتبة دار العليان، بريدة، الطبعة الثانية، (١٤٠٦هـ).

١٦ ـ **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان**: علاء الدين علي بن بلبان الفارسي. قدم له وضبط نصه: كمال يوسف الحوت. ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، (١٤٠٧هـ).

١٧ ـ **أحكام أهل الذمة**: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: صبحي الصالح. ط: دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، بيروت، (١٩٨٣م).

١٨ ـ **أحكام الجنائز وبدعها**: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

١٩ ـ **إحكام الفصول في أحكام الأصول**: أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي. تحقيق: عبدالله محمد الجبوري. ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، (١٤٠٩هـ).

٢٠ ـ **الإحكام في أصول الأحكام**: أبو محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري. تحقيق: أحمد شاكر. مطبعة العاصمة، القاهرة.

٢١ ـ **أحكام القرآن**: محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي. تحقيق: علي محمد البجاوي. ط: دار المعرفة، لبنان.

٢٢ ـ **أدب الكاتب**: عبدالله بن مسلم بن قتيبة. تحقيق: محمد الدالي. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).

٢٣ ـ **الأدب المفرد**: محمد بن إسماعيل البخاري. ترتيب: كمال يوسف الحوت. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

٢٤ ـ **الأذكار**: يحيى بن شرف النووي. تحقيق: بشر بن محمد بن عيون. ط: مكتبة المؤيد، الطائف، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٢٥ ـ **إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق**: يحيى بن شرف النووي. تحقيق: عبدالباري السلفي. ط: مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٢٦ ـ **إرواء الغليل**: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ).

٢٧ ـ **أسباب النزول**: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري. تحقيق: عصام الحميدان. دار الإصلاح، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

٢٨ ـ **أسباب النزول**: جلال الدين السيوطي. ط: دار ابن قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٢٩ ـ **الاستذكار**: أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر. تحقيق: عبدالمعطي أمين قلعجي. ط: دار قتيبة للطباعة والنشر ودار الوعي، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).

٣٠ ـ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر. ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٢٨هـ).

٣١ ـ **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**: عز الدين بن الأثير. تحقيق: محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور. ط: دار الشعب.

٣٢ ـ **أسرار البلاغة في علم البيان**: عبدالقاهر الجرجاني. تحقيق: محمد رشيد رضا. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٣٣ ـ **الأسماء والصفات**: البيهقي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان.

٣٤ ـ **أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب**: محمد درويش الحوت. دار الكتاب العربي، بيروت، (١٤٠٣هـ).

٣٥ ـ **الأشباه والنظائر**: جلال الدين السيوطي. تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد. ط: مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، (١٣٩٥هـ).

٣٦ ـ **أشراط الساعة**: يوسف بن عبدالله الوابل. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٣٧ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر. ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٢٨هـ).

٣٨ ـ **إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**: الحسين بن محمد الدامغاني. تحقيق: عبدالعزيز سيد الأهل. ط: دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، بيروت، (١٩٨٥م).

٣٩ ـ **الأصنام**: هشام بن محمد الكلبي. تحقيق: أحمد زكي. مصورة عن طبعة دار الكتب سنة (١٣٤٣هـ). الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

٤٠ ـ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.

٤١ ـ **الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة**: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. صححه: أحمد محمد مرسى. ط: المطبعة العربية، باكستان.

٤٢ ـ **الأعلام**: خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٩٨٠م).

٤٣ ـ **إعلام الساجد بأحكام المساجد**: محمد بن عبدالله الزركشي. تحقيق: مصطفى المراغي. الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).

٤٤ ـ **إعلام الموقعين عن رب العالمين**: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، (١٩٧٣م).

٤٥ ـ **أعلام النساء**: عمر رضا كحالة. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٣٩٧هـ).

٤٦ ـ **الأغاني**: عبدالستار أحمد فراج. ط: دار الثقافة، بيروت.

٤٧ ـ **الاقتصاد في الاعتقاد**: الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٤٨ ـ **اقتضاء الصراط المستقيم**: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية. تحقيق: ناصر العقل. توزيع: وزارة الشؤون الإسلامية. الطبعة السابعة، (١٤١٩هـ).

٤٩ ـ **الإقناع في القراءات السبع**: أبو جعفر أحمد بن علي ابن الباذش. تحقيق: عبدالمجيد قطامش. ط: دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٥٠ ـ **الإكسير في علم التفسير**: سليمان بن عبدالقوي الصرصري البغدادي. تحقيق: عبدالقادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة.

٥١ ـ **إكمال الإعلام بتثليث الكلام**: محمد بن عبدالله بن مالك الجياني. تحقيق: سعد بن حمدان الغامدي. ط: مكتبة المدني، الطبعة الأولى، جدة، (١٤٠٤هـ).

٥٢ ـ **إكمال إكمال المعلم**: أبو عبدالله الأبي. ط: مكتبة طبرية، الرياض.

٥٣ ـ **ألفية ابن مالك** (الخلاصة): محمد بن عبدالله بن مالك. ط: دار طيبة للنشر، الطبعة الثانية، (١٤٠٩هـ).

٥٤ ـ **الأم**: محمد بن إدريس الشافعي. ط: دار المعرفة، لبنان.

٥٥ ـ **الأمالي**: أبو علي القالي. ط: دار الكتاب العربي، لبنان.

٥٦ ـ **الأمثال**: أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: عبدالمجيد قطامش. ط: دار المأمون، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٠هـ).

٥٧ ـ **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصوله وضوابطه وآدابه**: خالد بن عثمان السبت. ط: المنتدى الإسلامي، الطبعة الأولى، لندن، (١٤١٥هـ).

٥٨ ـ **الأموال**: أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: محمد خليل هراس. ط: مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الثالثة، (١٤٠١هـ).

٥٩ ـ **الأنساب**: عبدالكريم بن محمد السمعاني. تحقيق: عبدالله البارودي. ط: الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٦٠ ـ **الإنصاف**: علاء الدين أبو الحسن بن سليمان المرداوي. تحقيق: محمد حامد الفقي. ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٧٦هـ).

٦١ ـ **أهل الفترة ومن في حكمهم**: موفق أحمد شكري. ط: مؤسسة علوم القرآن، عجمان، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٦٢ ـ **الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف**: محمد بن إبراهيم بن المنذر. ط: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٦٣ ـ **إيثار الحق على الخلق**: أبو عبدالله محمد بن المرتضى اليماني. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٤ ـ **الإيضاح في علوم البلاغة**: الخطيب القزويني. ط: الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٦٥ ـ **الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه**: مكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: أحمد حسن فرحات. ط: دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

٦٦ ـ **إيضاح المبهم من معاني السلم**: أحمد بن عبدالمنعم الدمنهوري. تحقيق: عبدالجليل العطا البكري. ط: مكتبة البيروتي، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).

٦٧ ـ **الإيمان**: أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط: دار الأرقم، الكويت.

٦٨ ـ **الإيمان**: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية. ط: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، (١٤٠١هـ).

٦٩ ـ **الإيمان**: محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده. تحقيق: علي بن ناصر الفقيهي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٦هـ).

٧٠ ـ **الإيمان**: محمد بن يحيى العدني. تحقيق: حمد الحربي. ط: الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٧١ ـ **الإيمان الأوسط**: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية. توزيع: مكتبة الفرقان ومكتبة الإيمان.

٧٢ ـ **الإيمان ومعالمه وسننه**: أبو عبيد القاسم بن سلاّم. تحقيق: الألباني. مطبعة المدني، مصر.

٧٣ ـ **البحر المحيط**: محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي الغرناطي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ).

٧٤ ـ **البحر المحيط في أصول الفقه**: بدر الدين محمد بن بهادر الشافعي الزركشي. تحقيق: عبدالستار أبو غدة. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ).

٧٥ ـ **بدائع الصنائع**: أبو بكر بن مسعود الكاساني. ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).

٧٦ ـ **بدائع الفوائد**: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. دار الفكر، بيروت.

٧٧ ـ **البداية والنهاية**: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠١هـ).

٧٨ ـ **البدع والنهي عنها**: محمد بن وضَّاح القرطبي. تحقيق: محمد أحمد دهمان. دار الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

٧٩ ـ **البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة**: عبدالفتاح بن عبدالغني القاضي. ط: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

٨٠ ـ **البرهان في أصول الفقه**: أبو المعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني. تحقيق: عبدالعظيم محمود الديب. ط: دار الوفاء للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، المنصورة، (١٤١٢هـ).

٨١ ـ **البرهان في توجيه متشابه القرآن**: محمود بن حمزة الكرماني. تحقيق: عبدالقادر عطا. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

٨٢ ـ **البرهان في علوم القرآن**: محمد عبدالله الزركشي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: دار المعرفة، لبنان، الطبعة الثانية، (١٣٩١هـ).

٨٣ ـ **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت.

٨٤ ـ **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**: محمود شكري الألوسي. تحقيق: محمد الأثري. ط: دار الكتب العلمية، لبنان.

٨٥ ـ **بلوغ المرام من أدلة الأحكام**: ابن حجر العسقلاني. تحقيق: محمد حامد الفقي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان.

٨٦ ـ **البهجة في شرح التحفة**: أبو الحسن علي بن عبدالسلام التسولي. ط: مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، (١٣٧٠هـ). وكذا: طبعة دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٣٩٧هـ).

٨٧ ـ **بهجة المجالس وأُنس المُجالس**: أبو عمرو يوسف بن عبدالبر. تحقيق: محمد مرسي الخولي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٨ ـ **البيان والتبيين**: أبو عثمان الجاحظ. تحقيق: عبدالسلام هارون. ط: دار الجيل، بيروت.

٨٩ ـ **تاج العروس من جواهر القاموس**: محمد مرتضى الزبيدي. دار مكتبة الحياة، بيروت.

٩٠ ـ **تاريخ الأمم والملوك**: ابن جرير الطبري. ط: دار الفكر، (١٣٩٩هـ).

٩١ ـ **تاريخ بغداد**: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي. ط: دار الكتاب العربي، بيروت.

٩٢ ـ **التاريخ الكبير**: إسماعيل بن إبراهيم البخاري. ط: دار الكتب العلمية، لبنان.

٩٣ ـ **تأويل مشكل القرآن**: ابن قتيبة. تحقيق: السيد أحمد صقر. المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠١هـ).

٩٤ ـ **التبصرة في أصول الفقه**: إبراهيم بن علي الشيرازي. تحقيق: محمد حسن هيتو. ط: دار الفكر، دمشق، (١٤٠٠هـ).

٩٥ ـ **التبيان في أقسام القرآن**: شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية. صححه وعلق عليه: محمد حامد الفقي. ط: دار المعرفة، بيروت.

٩٦ ـ **التبيان في شرح الديوان**: أبو البقاء العكبري. تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأنباري، وعبدالحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت.

٩٧ ـ **التحرير والتنوير**: محمد الطاهر ابن عاشور. ط: الدار التونسية للنشر.

٩٨ ـ **تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج**: عمر بن علي المعروف بابن الملقن. تحقيق: عبدالله بن سعاف اللحياني. ط: دار حراء للنشر، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

٩٩ ـ **تخريج الأحاديث الضعاف من سنن الدارقطني**: أبو محمد عبدالله بن يحيى الغساني. تحقيق: أشرف بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم. ط: دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

١٠٠ ـ **تخريج أحاديث منتقدة في كتاب التوحيد**: فريح بن صالح البهلال. دار الأثر، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).

١٠١ ـ **تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري**: أبو محمد عبدالله بن يوسف الزيلعي. تحقيق: سلطان بن فهد الطبيشي. ط: دار ابن خزيمة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).

١٠٢ ـ **تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد**: عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاري. تحقيق: عباس مصطفى الصالحي. ط: دار الكتاب العربي، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

١٠٣ ـ **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي. تحقيق: عبد الوهاب بن عبداللطيف. ط: المكتبة السلفية.

١٠٤ ـ **تذكرة الأريب في تفسير الغريب**: أبو الفرج ابن الجوزي. تحقيق: علي حسين البواب. ط: مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤٠٧هـ).

١٠٥ ـ **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. ط: دار الفكر، لبنان.

١٠٦ ـ **التراتيب الإدارية**: عبدالحي الكتاني. ط: دار الكتاب العربي، بيروت.

١٠٧ ـ **تسهيل المنطق**: عبدالكريم بن مراد الأثري. ط: سجل العرب، الطبعة الثانية، (١٩٨٤م).

١٠٨ ـ **التعريفات**: علي بن محمد الجرجاني. تحقيق: عبدالرحمٰن عميرة. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

١٠٩ ـ **تعظيم قدر الصلاة**: محمد بن نصر المروزي. تحقيق: عبدالرحمٰن الفيروزآبادي، مكتبة الدار، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

١١٠ ـ **تغليق التعليق على صحيح البخاري**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: سعيد عبدالرحمٰن موسى القزقي. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

١١١ ـ **تفسير سورة النور**: محمد الأمين بن محمد الشنقيطي. عناية: عبدالله بن أحمد الأهدل. ط: دار المجتمع للنشر، جدة، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).

١١٢ ـ **التفسير الصحيح**: حكمت بشير. ط: دار المآثر، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ).

١١٣ ـ **تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن أبي حاتم)**: عبدالرحمٰن بن محمد بن إدريس (ابن أبي حاتم). تحقيق: أسعد محمد الطيب. ط: مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).

١١٤ ـ **تفسير القرآن العظيم**: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. ط: دار المعرفة، بيروت، (١٤٠٢هـ).

١١٥ ـ **تفسير مبهمات القرآن**: أبو عبدالله محمد بن علي البلنسي. تحقيق: حنيف بن حسن القاسمي. ط: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، (١٤١١هـ).

١١٦ ـ **تفسير المشكل من غريب القرآن**: مكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: علي حسين البواب. ط: مكتبة المعارف، الرياض، (١٤٠٦هـ).

١١٧ ـ **تفسير المنار**: محمد رشيد رضا. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.

١١٨ ـ **تفسير النصوص في الفقه الإسلامي**: محمد أديب صالح. ط: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، (١٤٠٤هـ).

١١٩ ـ **تقريب التهذيب**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: صغير أحمد شاغف الباكستاني. ط: دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

١٢٠ ـ **التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر. تحقيق: عبدالله هاشم اليماني المدني.

١٢١ ـ **تلخيص كتاب الاستغاثة**: أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية. ط: الدار العلمية، الهند، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).

١٢٢ ـ **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**: أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري القرطبي. تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد بن عبدالكبير البكري. ط: المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).

١٢٣ ـ **تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق**: محمد بن أحمد بن عبدالهادي الحنبلي. تحقيق: عامر حسن صبري. ط: المكتبة الحديثة، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

١٢٤ ـ **التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل**: عبدالرحمٰن بن يحيى المعلمي اليماني. ط: حديث أكادمي، فيصل أباد، باكستان، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).

١٢٥ ـ **تهذيب الأسماء واللغات**: أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٦ ـ **تهذيب التهذيب**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

١٢٧ ـ **تهذيب سنن أبي داود**: ابن القيم الجوزية. تعليق: محمد حامد الفقي. ط: دار المعرفة، بيروت، (١٤٠٠هـ).

١٢٨ ـ **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**: أبو الحجاج يوسف المزي. تحقيق:

بشار عواد معروف. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).

١٢٩ ـ **تهذيب اللغة**: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري. تحقيق: عبدالسلام محمد هارون. دار القومية العربية للطباعة، (١٣٨٤هـ).

١٣٠ ـ **توضيح النحو**: عبدالعزيز محمد فاخر.

١٣١ ـ **التوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل**: محمد بن عبدالعزيز النجار، الطبعة الثانية، (١٣٩٩هـ).

١٣٢ ـ **تيسير التحرير**: محمد أمين المعروف بأمير بادشاه. ط: دار الكتب العلمية، لبنان. الناشر: دار الباز، مكة المكرمة.

١٣٣ ـ **تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان**: عبدالرحمٰن بن ناصر السعدي. ط: المطبعة السلفية.

١٣٤ ـ **جامع الأصول في أحاديث الرسول**: المبارك بن محمد بن الأثير الجزري. تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط. ط: دار الفكر، الطبعة الثانية، بيروت، (١٤٠٣هـ).

١٣٥ ـ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. تحقيق: محمود وأحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ومكتبة البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثالثة، (١٣٨٨هـ).

١٣٦ ـ **جامع بيان العلم وفضله**: أبو عمر يوسف بن عبدالبر. تحقيق: أبو الأشبال الزهيري. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).

١٣٧ ـ **جامع التحصيل في أحكام المراسيل**: خليل العلائي. تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي. ط: الدار العربية، الطبعة الأولى، (١٣٩٨هـ).

١٣٨ ـ **جامع التفسير من كتب الأحاديث**: أشرف على إخراجه: خالد آل عقدة. ط: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٢١هـ).

١٣٩ ـ **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم**: أبو الفرج عبدالرحمٰن بن شهاب الدين بن رجب الحنبلي. تحقيق: طارق عوض الله، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).

١٤٠ ـ **الجامع لأحكام القرآن**: أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٩٦٥م).

١٤١ ـ **الجامع لشعب الإيمان**: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: مختار أحمد الندوي. الدار السلفية، بومباي، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

١٤٢ ـ **الجدل على طريقة الفقهاء**: أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الحنبلي. الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، مصر.

١٤٣ ـ **الجهل بمسائل الاعتقاد وحكمه**: عبدالرزاق بن طاهر بن أحمد معاش. ط: دار الوطن، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤١٧هـ).

١٤٤ ـ **الجواب الواضح المستقيم في التحقيق في كيفية إنزال القرآن الكريم**: محمد بن إبراهيم آل الشيخ. مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، (١٣٦٩هـ).

١٤٥ ـ **جواهر البلاغة في المعاني والبيان البديع**: السيد أحمد الهاشمي. ط: دار الكتب، بيروت.

١٤٦ ـ **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية الزرعي الدمشقي، دار الفكر، بيروت.

١٤٧ ـ **حاشية البناني على جمع الجوامع**: ط: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الثانية، (١٣٥٦هـ).

١٤٨ ـ **حاشية الروض المربع**: عبدالرحمٰن بن محمد بن قاسم. ط: المطابع الأهلية، الرياض، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).

١٤٩ ـ **حاشية محمد علي الصبان على شرح علي بن محمد الأشموني لألفية ابن مالك**. دار الفكر، بيروت.

١٥٠ ـ **الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة**: إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني. تحقيق: محمد بن ربيع. دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

١٥١ ـ **حجة القراءات**: أبو زرعة عبدالرحمٰن بن محمد بن زنجلة. تحقيق: سعيد الأفغاني. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٤هـ).

١٥٢ ـ **حجج القرآن**: أحمد بن محمد الرازي. ط: دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).

١٥٣ ـ **الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين**: هادي عطية مطر الهلالي. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

١٥٤ ـ **حصول الأجر في أحكام وفضائل العمل في أيام العشر**: سعود الخماس. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤٢١هـ).

١٥٥ ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**: أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥٦ ـ **حلية الفقهاء**: أبو الحسين أحمد بن فارس. تحقيق: عبدالله التركي. ط: الشركة المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

١٥٧ ـ **الحماسة**: الوليد بن عبيد البحتري. ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٨٧هـ).

١٥٨ ـ **حياة الحيوان الكبرىٰ**: كمال الدين الدميري. المكتبة الإسلامية، بيروت.

١٥٩ ـ **الحيوان**: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق: عبدالسلام محمد هارون. ط: مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية.

١٦٠ ـ **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**: عبدالقادر بن عمر البغدادي. ط: دار صادر، بيروت.

١٦١ ـ **الخصائص**: أبو الفتح عثمان بن جني. تحقيق: محمد علي النجار. دار الكتاب العربي، بيروت.

١٦٢ ـ **الخصائص الكبرى**: جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد خليل الهراس. مطبعة المدين، مصر، دار الكتب الحديثة، مصر.

١٦٣ ـ **خلاصة البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير**: سراج الدين عمر بن علي بن الملقن. تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي. مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).

١٦٤ ـ **خير الكلام في القراءة خلف الإمام**: محمد بن إسماعيل البخاري. ط: مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).

١٦٥ ـ **درء تعارض العقل والنقل**: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية. تحقيق: محمد رشاد سالم. ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ).

١٦٦ ـ **الدراية في تخريج أحاديث الهداية**: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر. تحقيق: عبدالله هاشم اليماني المدني. ط: دار المعرفة، بيروت.

١٦٧ ـ **درة التنزيل وغُرة التأويل**: محمد بن عبدالله الإسكافي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

١٦٨ ـ **الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة**: جلال الدين السيوطي. تحقيق: خليل محيي الدين الميس، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

١٦٩ ـ **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**: أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي. تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).

١٧٠ ـ **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**: جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت.

١٧١ ـ **الدعاء المأثور وآدابه وما يجب على الداعي اتباعه واجتنابه**: أبو بكر الطرطوشي الأندلسي. تحقيق: محمد رضوان الداية. ط: دار الفكر، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

١٧٢ ـ **دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب**: محمد الأمين الشنقيطي (مطبوع في آخر أضواء البيان).

١٧٣ ـ **دلائل النبوة**: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: عبدالمعطي قلعجي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

١٧٤ ـ **ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس**: تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

١٧٥ ـ **ديوان الأقيشر الأسدي**: تحقيق: محمد علي دقه. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٧م).

١٧٦ ـ **ديوان امرىء القيس**: تحقيق: مصطفى عبدالشافي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

١٧٧ ـ **ديوان أوس بن حجر**: شرح: محمد بن يوسف نجم. الطبعة الثالثة، (١٣٩٩هـ).

١٧٨ ـ **ديوان البحتري**: ط: دار بيروت للطباعة والنشر، (١٤٠٨هـ).

١٧٩ ـ **ديوان بشار بن برد**: شرح وتكميل: محمد الطاهر بن عاشور. ط: لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (١٣٨٦هـ).

١٨٠ ـ **ديوان تأبط شراً**: تحقيق: طلال حرب. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٦م).

١٨١ ـ **ديوان حاتم الطائي**: شرحه: أحمد رشاد. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

١٨٢ ـ **ديوان حسان بن ثابت**: تحقيق: عبد الأمير مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

١٨٣ ـ **ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت**: تحقيق: نعمان محمد أمين طه. ط: مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
وكذا: بشرح أبي سعيد السكري. ط: دار صادر.

١٨٤ ـ **ديوان حميد بن ثور الهلالي**: صنعه: عبدالعزيز الميمني. ط: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٣٧١هـ).

١٨٥ ـ **ديوان ابن دريد**: تحقيق: عمر بن سالم. ط: الدار التونسية، (١٩٧٣م).

١٨٦ ـ **ديوان أبي دلامة الأسدي**: إعداد: رشدي علي حسن. ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، (١٤٠٦هـ).

١٨٧ ـ **ديوان الراعي النميري**: شرح واضح الصمد. ط: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

١٨٨ ـ **ديوان ابن الرومي**: شرح وتحقيق: عبدالأمير علي مهنا. ط: دار مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

١٨٩ ـ **ديوان ابن الرومي**: تحقيق: حسين نصار.

١٩٠ ـ **ديوان زهير بن أبي سلمى**: ط: دار صادر.

١٩١ ـ **ديوان شعر ذي الرمة**: تعليق: زهير فتح الله. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٥م).

١٩٢ ـ **ديوان الشنفرى**: ط: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٩٦م).

١٩٣ ـ **ديوان طرفة بن العبد**: تحقيق: درية الخطيب. مطبوعات مجمع اللغة العربية، مطبعة دار الكتاب، (١٣٩٥هـ).

١٩٤ ـ **ديوان الطرماح**: تحقيق: عزة حسن. ط: دار الشرق العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤١٤هـ).

١٩٥ ـ **ديوان العباس بن مرداس**: تحقيق: يحيى الجبوري. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

١٩٦ ـ **ديوان عبيد بن الأبرص**: تحقيق: حسين نصار، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٣٧٧هـ).

١٩٧ ـ **ديوان عروة بن حزام**: تحقيق: أنطوان محسن القوال، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

١٩٨ ـ **ديوان علقمة بن عبدة**: شرح: سعيد نسيب مكارم. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٦م).

١٩٩ ـ **ديوان علي بن أبي طالب**: جمعه: حسين الأعلمي. الناشر: مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ).
٢٠٠ ـ **ديوان عمر بن أبي ربيعة**: ط: الهيئة المصرية العامة، (١٩٧٨م).
وكذا: ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
٢٠١ ـ **ديوان أبي فراس**: ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
٢٠٢ ـ **ديوان قيس بن الخطيم**: تحقيق: ناصر الدين الأسد. ط: دار صادر، الطبعة الثالثة، (١٤١١هـ).
٢٠٣ ـ **ديوان كثير عزة**: شرح: قدري مايو. ط: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
٢٠٤ ـ **ديوان لبيد بن ربيعة**: ط: دار صادر، بيروت، (١٣٨٦هـ).
٢٠٥ ـ **ديوان المثقب العبدي**: شرح: حسن حمد. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٦م).
٢٠٦ ـ **ديوان مجنون ليلى**: شرح: عدنان زكي درويش. ط: دار صادر، (١٤١٤هـ).
٢٠٧ ـ **ديوان مهلهل بن ربيعة**: عناية: طلال بن حرب. ط: الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت، (١٤١٣هـ).
٢٠٨ ـ **ديوان النابغة الجعدي**: تحقيق: عباس عبدالساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
٢٠٩ ـ **ديوان أبي نواس**: شرح: عمر فاروق الطباع. ط: شركة دار الأرقم، بيروت، (١٤١٨هـ).
٢١٠ ـ **ديوان أبي الوليد مسلم بن الوليد**: ط: بريل، ليدن، (١٨٧٥م).
٢١١ ـ **ديوان يزيد بن معاوية**: ط: المجمع العلمي بدمشق. تحقيق: سامي الدهان.
٢١٢ ـ **الرؤية**: علي بن عمر الدارقطني. تحقيق: إبراهيم العلي وزميله. ط: مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
٢١٣ ـ **الرد على الجهمية**: عثمان بن سعيد الدارمي. تحقيق: زهير الشاويش وتخريج: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٢هـ).
٢١٤ ـ **الرد على من قال بفناء الجنة والنار وبيان الأقوال في ذلك**: أبو العباس بن

تيمية الدمشقي. تحقيق: محمد بن عبدالله السمهري، دار بلنسية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).

٢١٥ ـ **الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي**: عبدالمحسن العباد. ط: مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).

٢١٦ ـ **الرسالة**: محمد بن إدريس الشافعي. تحقيق: أحمد شاكر.

٢١٧ ـ **الرسل والرسالات**: عمر سليمان الأشقر. ط: مكتبة الفلاح، الطبعة الثالثة، الكويت، (١٤٠٥هـ).

٢١٨ ـ **رصف المباني في شرح حروف المعاني**: أحمد بن عبدالنور المالقي. تحقيق: أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

٢١٩ ـ **رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار**: محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٢٢٠ ـ **الروح**: أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: السيد الجميلي. ط: دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، بيروت، (١٤٠٨هـ).

٢٢١ ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: شهاب الدين الألوسي. ط: دار الفكر، بيروت.

٢٢٢ ـ **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٢٣ ـ **رياض الجنة بتخريج أصول السنة**: محمد بن عبدالله الأندلسي (ابن أبي زمنين). تحقيق: عبدالله البخاري. ط: مكتبة الغرباء، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).

٢٢٤ ـ **زاد المسير في علم التفسير**: أبو الفرج عبدالرحمٰن بن علي بن الجوزي. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٤هـ).

٢٢٥ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**: ابن قيم الجوزية. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبدالقادر الأرنؤوط. ط: مؤسسة الرسالة، سوريا، الطبعة الثانية، (١٤٠١هـ).

٢٢٦ ـ **الزهد**: عبدالله بن المبارك المروزي. تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي. ط: دار الكتب العلمية.

٢٢٧ ـ **زهر الآداب وثمر الألباب**: إبراهيم بن علي القيرواني. تحقيق: علي

محمد البجاوي. ط: عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية.

٢٢٨ - **زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه**: عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد. ط: مكتبة دار القلم والكتاب، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

٢٢٩ - **السبعة في القراءات**: ابن مجاهد. تحقيق: شوقي ضيف. دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.

٢٣٠ - **سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام**: محمد بن إسماعيل الصنعاني. تحقيق: محمد صبحي حلاق. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، (١٤٢١هـ).

٢٣١ - **سبل الهدى والرشاد**: محمد بن يوسف الصالحي. تحقيق: عادل عبدالموجود، وعلي معوض. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).

٢٣٢ - **سلسلة الأحاديث الصحيحة**: محمد ناصر الدين الألباني. (المجلد الأول والثاني) المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٥هـ)، (المجلد الثالث) نشر: الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ)، (المجلد الرابع) نشر: المكتبة الإسلامية، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ) (المجلد الخامس) مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

٢٣٣ - **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء على الأمة**: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، (١٣٩٨هـ).

٢٣٤ - **السنَّة**: عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني. تحقيق: الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٠هـ).

٢٣٥ - **السنَّة**: محمد بن نصر المروزي. تحقيق: أبو محمد سالم بن أحمد السلفي. ط: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٢٣٦ - **سنن الترمذي**: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي. تحقيق: إبراهيم عطوة عوض. مطبعة البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، (١٣٩٥هـ).

٢٣٧ - **سنن الدارقطني**: علي بن عمر الدارقطني. ط: حديث أكادمي، نشاط أباد، فيصل أباد، باكستان.

٢٣٨ - **سنن الدارمي**: الدارمي. تخريج وتحقيق: السيد عبدالله بن هاشم اليماني. ط: حديث أكادمي للنشر والتوزيع. باكستان، (١٤٠٤هـ).

٢٣٩ ـ **سنن سعيد بن منصور**: سعيد بن منصور. تحقيق: سعد بن عبدالله آل حميد. ط: دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).
٢٤٠ ـ **السنن الكبرىٰ**: أبو عبدالرحمٰن أحمد بن شعيب النسائي. تحقيق: عبدالغفار البنداري، وسيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
٢٤١ ـ **السنن الكبرىٰ**: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. ط: دار المعرفة، بيروت.
٢٤٢ ـ **سنن النسائي**: أبو عبدالرحمٰن أحمد بن شعيب النسائي. تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، دار البشائر، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
٢٤٣ ـ **سير أعلام النبلاء**: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وزملائه. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).
٢٤٤ ـ **السيرة النبوية**: أبو محمد عبدالملك بن هشام. تعليق جماعة من العلماء. ط: دار الفكر، القاهرة.
٢٤٥ ـ **شرح الأشموني على ألفية ابن مالك**: دار إحياء الكتب العربية، ط: مطبعة البابي الحلبي.
٢٤٦ ـ **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة**: هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي. تحقيق: أحمد سعد حمدان. ط: دار طيبة، الرياض.
٢٤٧ ـ **شرح تنقيح الفصول**: شهاب الدين أبو العباس القرافي. تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد. ط: مكتبة الكليات الأزهرية، دار الفكر، الطبعة الأولى، (١٣٩٣هـ).
٢٤٨ ـ **شرح الجلال شمس الدين محمد بن أحمد المحلي على متن جمع الجوامع**: ط: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية.
٢٤٩ ـ **شرح ديوان أبي تمام**: شاهين عطية. ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
٢٥٠ ـ **شرح ديوان جرير**: مهدي محمد ناصر الدين. ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ).
٢٥١ ـ **شرح ديوان الخنساء**: تحقيق: عبدالسلام الحوفي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٢٥٢ ـ **شرح ديوان زهير**: أبو العباس ثعلب. تحقيق: فخر الدين قباة. ط: دار الآفاق، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).

٢٥٣ ـ **شرح ديوان صريع الغواني**: مسلم بن الوليد الأنصاري. تحقيق: سامي الدهان. ط: دار المعارف بمصر.

٢٥٤ ـ **شرح ديوان أبي العتاهية**: دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٥٥ ـ **شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة**: عبد الأمير علي مهنا. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ).

٢٥٦ ـ **شرح ديوان عنترة**: (بدون مؤلّف). ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٢٥٧ ـ **شرح السنة**: البغوي. تحقيق: زهير الشاويش، وشعيب الأرناؤوط. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٠هـ).

٢٥٨ ـ **شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب**: عبدالله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري.

٢٥٩ ـ **شرح الشفا**: الملا علي القاري. ط: الكتب العلمية، بيروت.

٢٦٠ ـ **شرح صحيح مسلم**: محيي الدين النووي. تحقيق: عبدالله أحمد أبو زينة. ط: الشعب، القاهرة.

٢٦١ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**: علي بن علي بن محمد بن أبي العز. تحقيق: عبدالله التركي، شعيب الأرنؤوط. ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ).

٢٦٢ ـ **شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات**: ابن النحاس، أحمد بن محمد المرادي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٢٦٣ ـ **شرح قصيدة كعب بن زهير**: جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري. تحقيق: محمود حسن أبو ناجي. ط: مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الثالثة، دمشق، (١٤٠٤هـ).

٢٦٤ ـ **شرح القصيدة الميمية**: مصطفى عراقي. ط: مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

٢٦٥ ـ **شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام**: محمد محيي الدين عبدالحميد. ط: إحياء التراث، لبنان، (١٣٨٣هـ).

٢٦٦ ـ **شرح القواعد الفقهية**: أحمد الزرقاء. صححه وراجعه: عبدالستار أبو غدة. ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٢٦٧ ـ **شرح الكافية الشافية**: جمال الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن مالك الطائي الجياني. تحقيق: عبدالمنعم أحمد هريدي. ط: دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).

٢٦٨ ـ **الشرح الكبير**: شمس الدين أبو الفرج عبدالرحمٰن بن أبي عمر بن قدامة، دار الكتاب العربي، (١٣٩٢هـ).

٢٦٩ ـ **شرح الكوكب المنير**: محمد بن أحمد بن عبدالعزيز الفتوحي الحنبلي. تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، دار الفكر، بيروت، (١٤٠٠هـ).

٢٧٠ ـ **شرح مختصر الروضة**: نجم الدين أبي الربيع سليمان بن عبدالقوي الطوفي. تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٢٧١ ـ **شرح معاني الآثار**: أبو جعفر أحمد بن سلامة الطحاوي. تحقيق: محمد سيد جاد الحق. ط: الأنوار المحمدية، القاهرة.

٢٧٢ ـ **شرح مقامات الحريري**: يوسف بقاعي. ط: دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٨١م).

٢٧٣ ـ **شرح منتهى الإرادات**: منصور بن يونس البهوتي. ط: دار الفكر، بيروت.

٢٧٤ ـ **شرح المواقف في علم الكلام**: علي بن محمد الجرجاني. تحقيق: أحمد المهدي، مكتبة الأزهر.

٢٧٥ ـ **الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام**: يحيى الشامي، دار الفكر العربي، بيروت، (١٩٩٣م).

٢٧٦ ـ **الشريعة**: أبو بكر محمد بن الحسين الآجري. تحقيق: محمد حامد الفقي. ط: حديث أكادمي، باكستان، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٢٧٧ ـ **شعر الدعوة الإسلامي في عهد النبوة والخلفاء الراشدين**: جمعه وحققه: عبدالله الحامد. ط: دار الأصالة للثقافة والنشر، الطبعة الثانية، الرياض، (١٤٠٥هـ).

٢٧٨ ـ **الشعر والشعراء**: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة. تحقيق: محمد عبدالمنعم العمران، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٧هـ).

٢٧٩ ـ **شعراء مقلون**: حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٢٨٠ ـ **شعراء النصرانية قبل الإسلام**: لويس شيخو. دار المشرق، الطبعة الثالثة، (١٩٦٧م)، المطبعة الكاثوليكية، (١٩٨٢م).

٢٨١ ـ **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**: ابن القيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، (١٣٩٨هـ).

٢٨٢ ـ **شمائل الرسول ﷺ**: ابن كثير. تحقيق: مصطفى عبدالواحد. دار القبلة، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٩هـ).

٢٨٣ ـ **الصاحبي**: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق: السيد أحمد صقر. مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.

٢٨٤ ـ **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**: أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي. ط: كوستانتسوماس، القاهرة.

٢٨٥ ـ **صحيح الجامع الصغير وزيادته**: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٢هـ).

٢٨٦ ـ **صحيح ابن خزيمة**: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة. تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ).

٢٨٧ ـ **صحيح سنن الترمذي باختصار السند**: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٢٨٨ ـ **صحيح سنن أبي داود باختصار السند**: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٢٨٩ ـ **صحيح سنن ابن ماجه**: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٢٩٠ ـ **صحيح سنن النسائي باختصار السند**: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٢٩١ ـ **صحيح مسلم**: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري. تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، المكتبة الإسلامية، استانبول.

٢٩٢ ـ **الصواعق المرسلة**: شمس الدين ابن قيم الجوزية. تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله. ط: دار العاصمة، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤٠٨هـ).

٢٩٣ ـ **الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة**: أحمد بن حجر الهيتمي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٢٩٤ ـ **ضعيف الجامع الصغير وزيادته**: تأليف: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، (١٣٩٩هـ).

٢٩٥ ـ **ضعيف سنن ابن ماجه**: محمد ناصر الدين الألباني، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٢٩٦ ـ **ضياء السالك إلى أوضح المسالك**: محمد عبدالعزيز النجار.

٢٩٧ ـ **الطبقات الكبرى**: محمد بن سعد (كاتب الواقدي). ط: دار التحرير، القاهرة، (١٣٨٨هـ).

٢٩٨ ـ **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**: أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الزرعي المشهور بابن قيم الجوزية. راجعه: أحمد عبدالحليم العسكري. ط: دار الفكر، بيروت.

٢٩٩ ـ **طريق الهجرتين وباب السعادتين**: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن القيم. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).

٣٠٠ ـ **ظلال الجنة في تخريج السنة**: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٠هـ).

٣٠١ ـ **العُجاب في بيان الأسباب**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: عبدالحكيم محمد الأنيس. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ).

٣٠٢ ـ **العذب الفائض شرح عمدة الفارض**: إبراهيم بن عبدالله بن إبراهيم الفرضي. ط: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، (١٣٧٢هـ).

٣٠٣ ـ **العرف وأثره في التشريع الإسلامي**: مصطفى عبدالرحيم أبو عجيلة. ط: المنشأة العامة، طرابلس، الطبعة الأولى، (١٣٩٥هـ).

٣٠٤ ـ **عقد الدرر في أخبار المنتظر**: يوسف بن يحيى المقدسي. تحقيق: مهيب بن صالح البوريني. مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٣٠٥ ـ **العلل المتناهية في الأحاديث الواهية**: عبدالرحمٰن بن الجوزي. تحقيق: إرشاد الحق الأثري. إدارة ترجمان السنة، لاهور.

٣٠٦ ـ **العلل الواردة في الأحاديث النبوية**: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني. تحقيق: محفوظ الرحمٰن زين الله السلفي. ط: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٣٠٧ ـ **علماء ومفكرون عرفتهم**: المؤلف: محمد المجذوب. ط: دار الاعتصام، الطبعة الثالثة، القاهرة.

٣٠٨ ـ **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**: شهاب الدين أحمد بن يوسف الحلبي الشافعي. تحقيق: محمود السيد الدغيم. ط: دار السيد، تركيا، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٣٠٩ ـ **عمل اليوم والليلة**: أبو بكر بن السني. تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا. ط: دار المعرفة، لبنان، (١٣٩٩هـ).

٣١٠ ـ **عون المعبود شرح سنن أبي داود**: أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٣٩٩هـ).

٣١١ ـ **عيون الأخبار**: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. ط: دار الكتاب الإسلامي.

٣١٢ ـ **غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام**: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).

٣١٣ ـ **غريب الحديث**: أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي. ط: دار الكتاب العربي، الهند، الطبعة الأولى، (١٣٨٤هـ).

٣١٤ ـ **غوث المكدود بتخريج منتقى ابن الجارود**: أبو إسحاق الجويني الأثري. ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٣١٥ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. ط: دار المعرفة، لبنان.

٣١٦ ـ **فتح الرحمٰن بكشف ما يلتبس في القرآن**: زكريا الأنصاري. تحقيق: محمد الصابوني. ط: دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٣١٧ ـ **الفتح السماوي بتخريج أحاديث تفسير القاضي البيضاوي**: زين الدين عبدالرؤوف المناوي. تحقيق: أحمد مجتبي بن نذير عالم السلفي. ط: دار العاصمة، الرياض، النشرة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٣١٨ ـ **فتح القدير**: محمد بن علي الشوكاني. ط: دار الفكر.

٣١٩ ـ **فتح المجيد شرح كتاب التوحيد**: عبدالرحمٰن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب. تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط. ط: مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).

٣٢٠ ـ **الفروع**: محمد بن مفلح. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٢هـ).

٣٢١ ـ **الفروق**: شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس القرافي. ط: عالم الكتب، بيروت.

٣٢٢ ـ **الفروق اللغوية**: أبو هلال العسكري. تحقيق: حسام الدين القدسي. ط: دار الباز، مكة المكرمة، (١٤٠١هـ).

٣٢٣ ـ **فضائل الصحابة**: أحمد بن حنبل. تحقيق: وصي الله عباس. ط: مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٣٢٤ ـ **فضائل القرآن ومعالمه وآدابه**: أبو عبيد القاسم بن سلام. دراسة وتحقيق: أحمد بن عبدالواحد الخياطي. ط: مطبعة فضالة، المغرب، (١٤١٥هـ).

٣٢٥ ـ **فقه السيرة**: محمد الغزالي، بتخريجات الشيخ ناصر الدين الألباني، دار الكتب الحديثة، مصر، الطبعة السادسة، (١٩٧٦م).

٣٢٦ ـ **فقه اللغة وسر العربية**: أبو منصور الثعالبي. تحقيق: فائز محمد، وإميل يعقوب. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).

٣٢٧ ـ **الفقيه والمتفقه**: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي. تحقيق: عادل بن يوسف العزازي. ط: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، الدمام، (١٤١٧هـ).

٣٢٨ ـ **فيض القدير شرح الجامع الصغير**: محمد عبدالرؤوف المناوي. ط: دار المعرفة، الطبعة الثانية، بيروت، (١٣٩١هـ).

٣٢٩ ـ **القاديانية**: إحسان إلهي ظهير. الناشر: إدارة ترجمان السنة، باكستان، الطبعة الخامسة عشر، (١٤٠١هـ).

٣٣٠ ـ **القاموس الفقهي لغةً واصطلاحاً**: سعدي أبو حبيب. ط: دار الفكر، الطبعة الثانية، (١٤٠٨هـ).

٣٣١ ـ **القاموس المحيط**: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. تحقيق: مكتب تحقيق التراث. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

٣٣٢ ـ **القراءة خلف الإمام**: أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: محمد السعيد

زغلول. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
٣٣٣ ـ **قصص العرب**: محمد أبو الفضل إبراهيم وزملاؤه. ط: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الرابعة، (١٣٨٢هـ).
٣٣٤ ـ **القطع والائتناف**: أبو جعفر النحاس. تحقيق: أحمد خطاب العمر، مطبعة العاني، بغداد، (١٣٩٨هـ).
٣٣٥ ـ **القواعد**: محمد بن محمد المقري. تحقيق: أحمد عبدالله بن حميد مطبوعات جامعة أم القرى.
٣٣٦ ـ **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**: عز الدين عبدالعزيز عبدالسلام. تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد. ط: مكتبة ابن تيمية، مصر.
٣٣٧ ـ **قواعد الترجيح عند المفسرين**: حسين بن علي الحربي. ط: دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).
٣٣٨ ـ **قواعد التفسير جمعاً ودراسةً**: خالد بن عثمان السبت. ط: ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).
٣٣٩ ـ **القواعد الحسان لتفسير القرآن**: عبدالرحمٰن بن ناصر السعدي. ط: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، الدمام، (١٤١٣هـ).
٣٤٠ ـ **القواعد الفقهية الخمس الكبرى من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**: إعداد: إسماعيل بن حسن علوان. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ).
٣٤١ ـ **القواعد المثلىٰ في صفات الله وأسمائه الحسنىٰ**: محمد صالح العثيمين. دار ابن القيم، ومكتبة ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
٣٤٢ ـ **القواعد والفوائد الأصولية**: أبو الحسن علاء الدين ابن اللحام. تحقيق: محمد حامد الفقي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
٣٤٣ ـ **قواعد وفوائد لفقه كتاب الله**: عبدالله بن محمد الجوعي. ط: دار الوطن، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤١٤هـ).
٣٤٤ ـ **الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني [ملحق بتفسير الكشاف] دار المعرفة، بيروت.
٣٤٥ ـ **الكافي في فقه أهل المدينة المالكي**: أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٣٤٦ ـ **الكافية في الجدل**: عبدالملك عبدالله بن يوسف الجويني. تحقيق: فوقية حسين محمود. ط: عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، (١٣٩٩هـ).

٣٤٧ ـ **الكامل**: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد. تحقيق: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

٣٤٨ ـ **الكامل في التاريخ**: عز الدين بن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤٠٥هـ).

٣٤٩ ـ **الكامل في ضعفاء الرجال**: عبدالله بن عدي الجرجاني. ط: دار الفكر، لبنان، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).

٣٥٠ ـ **الكتاب**: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه). تحقيق: عبدالسلام هارون. ط: عالم الكتب، الطبعة الثالثة، (١٤٠٣هـ).

٣٥١ ـ **كتاب مناهل العرفان للزرقاني دراسة وتقويم**: خالد بن عثمان السبت، دار ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ).

٣٥٢ ـ **الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها**: نصر بن علي بن محمد الشيرازي الفارسي الفسوي. تحقيق: عمر حمدان الكبيسي. ط: الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).

٣٥٣ ـ **كتاب الوقوف من مسائل الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**: أحمد بن محمد الخلال. تحقيق: عبدالله بن أحمد الزيد. ط: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).

٣٥٤ ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**: محمود بن عمر الزمخشري. ط: دار المعرفة، لبنان.

٣٥٥ ـ **كشاف القناع عن متن الإقناع**: منصور بن يونس البهوتي. ط: عالم الكتب، بيروت، (١٤٠٣هـ).

٣٥٦ ـ **كشف الأستار عن زوائد البزار**: علي بن أبي بكر الهيثمي. تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي. ط: مؤسسة الرسالة، سوريا، الطبعة الثانية، (١٤٠٤هـ).

٣٥٧ ـ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**: إسماعيل بن محمد العجلوني. تحقيق: أحمد القلاش. ط: مؤسسة الرسالة، سوريا، الطبعة الثالثة، (١٤٠٣هـ).

٣٥٨ ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**: حاجي خليفة. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٣هـ).

٣٥٩ ـ **الكشف عن وجوه القراءات السبع**: مكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: محيي الدين رمضان. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٧هـ).

٣٦٠ ـ **كفاية الإنسان من القصائد الغرر الحسان**: جمع: محمد بن أحمد سيد أحمد. ط: دار ابن القيم، الدمام، (١٤٠٩هـ).

٣٦١ ـ **الكفاية في علم الرواية**: الخطيب البغدادي. ط: المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

٣٦٢ ـ **كلمة الحق**: أحمد شاكر، دار الكتب السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٣٦٣ ـ **الكليات**: أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي. تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

٣٦٤ ـ **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**: علي بن حسام الدين الهندي. تحقيق: بكري حياني. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤٠٥هـ).

٣٦٥ ـ **الكنى والأسماء**: أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي. ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت، (١٤٠٣هـ).

٣٦٦ ـ **الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية**: جمال الدين الأسنوي. تحقيق: محمد حسن عواد. ط: دار عمان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٣٦٧ ـ **لامية الشنفرى**: عناية: عبدالمعين الملوحي. ط: مديرية إحياء التراث القديم، دمشق.

٣٦٨ ـ **لباب النقول في أسباب النزول**: جلال الدين السيوطي. ط: دار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٣٦٩ ـ **لسان الميزان**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م).

٣٧٠ ـ **اللمع في أصول الفقه**: إبراهيم بن علي الشيرازي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٣٧١ ـ **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية**: محمد بن أحمد السفاريني. ط: المكتب الإسلامي، مكتبة أسامة.

٣٧٢ ـ **المبسوط**: السرخسي. ط: دار المعرفة، بيروت، (١٤٠٦هـ).

٣٧٣ ـ **المبسوط في القراءات العشر**: أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران الأصبهاني. تحقيق: سبيع حمزة حاكمي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق.

٣٧٤ ـ **مجالس ثعلب**: تحقيق: عبدالسلام هارون. ط: دار المعارف، مصر.

٣٧٥ ـ **المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين**: محمد بن حبان البستي. تحقيق: محمود إبراهيم زايد، نشر: دار الوعي، حلب، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).

٣٧٦ ـ **مجلة الحكمة**: مجلة بحثية علمية شرعية ثقافية. تصدر من بريطانيا.

٣٧٧ ـ **مجمع الأمثال**: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني. تحقيق: أبو الفضل إبراهيم. ط: البابي الحلبي.

٣٧٨ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي. ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٢هـ).

٣٧٩ ـ **مجمل اللغة**: أحمد بن فارس الرازي. تحقيق: شهاب الدين أبي عمرو. ط: دار الفكر، بيروت، (١٤١٤هـ).

٣٨٠ ـ **المجموع شرح المهذب**: أبو زكريا محيي الدين النووي. ط: دار الفكر.

٣٨١ ـ **مجموع فتاوى شيخ الإسلام**: أحمد ابن تيمية. جمع وترتيب: عبدالرحمٰن بن محمد بن قاسم وساعده ابنه محمد. طبع بإشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين.

٣٨٢ ـ **محاسن التأويل**: محمد جمال الدين القاسمي. ط: دار الفكر، لبنان، الطبعة الثانية، (١٣٩٨هـ).

٣٨٣ ـ **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**: أبو الفتح عثمان بن جني. تحقيق: علي النجدي وزملاؤه. يشرف على إصدارها محمد توفيق عويضة، القاهرة.

٣٨٤ ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: عبدالحق بن غالب بن عطية. تحقيق: المجلس العلمي بفاس، (١٣٩٥هـ).

٣٨٥ ـ **المحلى**: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم. ط: دار الفكر.

٣٨٦ ـ **محنة الإمام أحمد بن محمد بن حنبل**: تقي الدين عبدالغني المقدسي. تحقيق: عبدالله التركي. ط: هجر للطباعة والنشر، والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٣٨٧ ـ **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**: محمد بن مكرم المعروف بابن منظور. تحقيق: رياض عبدالحميد مراد وزملاؤه. ط: دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

٣٨٨ ـ **مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم**: محمد بن الموصلي. ط: مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

٣٨٩ ـ **مختصر العلو لعلي الغفار**: شمس الدين الذهبي. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).

٣٩٠ ـ **مختصر الفتاوى المصرية**: بدر الدين أبو عبدالله محمد بن علي الحنبلي البعلي. صححه: محمد حامد الفقي. ط: دار ابن القيم، الطبعة الثانية، الدمام، (١٤٠٦هـ).

٣٩١ ـ **مختصر قيام الليل**: أبو عبدالله محمد بن نصر المروزي. ط: المطبعة العربية، الطبعة الأولى، باكستان، (١٤٠٢هـ).

٣٩٢ ـ **مختصر المزني**: ط: دار المعرفة، لبنان.

٣٩٣ ـ **مختصر المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**: الزرقاني. تحقيق: محمد الصباغ. ط: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).

٣٩٤ ـ **مختصر من قواعد العلائي وكلام الأسنوي**: محمود بن أحمد الحمودي (ابن خطيب الدهشة). تحقيق: مصطفى محمود البنجويني، (١٩٨٠م).

٣٩٥ ـ مدراج السالكين بين منازل **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾**: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية الدمشقي. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٢هـ).

٣٩٦ ـ **المدخل إلى الصحيح**: الحاكم أبو عبدالله النيسابوري. تحقيق: ربيع بن هادي. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

٣٩٧ ـ **المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى**: أبو النصر أحمد بن محمد بن أحمد

السمرقندي المعروف بالحدادي. تحقيق: صفوان عدنان داوودي. ط: دار القلم بدمشق، دار العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٣٩٨ ـ **المدهش**: أبو الفرج جمال الدين ابن الجوزي. تعليق: مروان قباني. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).

٣٩٩ ـ **المدونة الكبرىٰ**: للإمام مالك التي رواها سحنون بن سعيد التنوخي عن ابن القاسم عن الإمام مالك. ط: مطبعة السعادة.

٤٠٠ ـ **مذكرة أصول الفقه**: محمد الأمين بن المختار الشنقيطي. ط: المكتبة السلفية، المدينة المنورة.

٤٠١ ـ **المراسيل**: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني. تحقيق: شعيب الأرناؤوط. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٤٠٢ ـ **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**: عبدالرحمٰن جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وزملاؤه. ط: دار التراث، القاهرة، الطبعة الثالثة.

٤٠٣ ـ **مسائل الإمام أحمد بن حنبل**: رواية صالح. تحقيق: فضل الرحمٰن دين محمد. ط: الدار العلمية، الهند، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٤٠٤ ـ **المساعد على تسهيل الفوائد**: بهاء الدين بن عقيل. تحقيق: محمد كامل بركات. ط: دار الفكر بدمشق، (١٤٠٠هـ).

٤٠٥ ـ **المستدرك**: أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم. ط: دار الباز، مكة المكرمة.

٤٠٦ ـ **المستصفى من علوم الأصول**: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. ط: دار العلوم الحديثة، بيروت.

٤٠٧ ـ **المسند**: أبو عبدالله أحمد بن حنبل. ط: المكتب الإسلامي.

٤٠٨ ـ **المسند**: أبو بكر عبدالله بن الزبير الحميدي. تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي. ط: عالم الكتب، بيروت، ومكتبة المتنبي، القاهرة.

٤٠٩ ـ **مسند أبي داود الطيالسي**: سليمان بن داود بن الجارود. ط: دار المعرفة، لبنان.

٤١٠ ـ **مسند أبي يعلى**: أحمد بن علي بن المثنى التميمي. تحقيق: حسين سليم أسد. ط: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

٤١١ ـ **المسودة في أصول الفقه**: أبو العباس الحنبلي الحراني. تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد. ط: دار الكتاب العربي، لبنان.

٤١٢ ـ **مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف**: محمد عليان المرزوقي الشافعي. [ملحق بتفسير الكشاف]، دار المعرفة، بيروت.

٤١٣ ـ **مشكاة المصابيح**: محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٥هـ).

٤١٤ ـ **مشكل الآثار**: أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي. ط: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند، الطبعة الأولى، (١٣٣٣هـ).

٤١٥ ـ **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي. تحقيق: عبدالسميع محمد أحمد حسنين، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٤١٦ ـ **المصباح المنير**: أحمد بن محمد الفيومي المقرىء. ط: مكتبة لبنان.

٤١٧ ـ **المصنف**: أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني. تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).

٤١٨ ـ **مصنف ابن أبي شيبة**: أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة العبسي. تحقيق: مختار الندوي. إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي، (١٤٠٦هـ).

٤١٩ ـ **معارج الصعود إلى تفسير سورة هود**: محمد الأمين بن المختار الجكني الشنقيطي. ط: دار المجتمع للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، جدة، (١٤٠٨هـ).

٤٢٠ ـ **معارج القبول**: حافظ بن أحمد حكمي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٤٢١ ـ **المعارف**: ابن قتيبة. تحقيق: ثروت عكاشة. ط: دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.

٤٢٢ ـ **معالم التنزيل**: أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي. تحقيق: خالد العك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

٤٢٣ ـ **معالم السنن**: أبو سليمان الخطابي. تحقيق: أحمد شاكر، ومحمد الفقي، دار المعرفة، لبنان.

٤٢٤ ـ **معاني القرآن**: يحيى بن زياد الفرّاء. تحقيق: أحمد يوسف نجاتي وزميله. ط: دار السرور.

٤٢٥ ـ **معاني القرآن وإعرابه**: إبراهيم بن السَّري الزجاج. تحقيق: عبدالجليل شلبي. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٤٢٦ ـ **معجم الأدباء**: ياقوت الحموي، دار الفكر، الطبعة الثالثة، (١٤٠٠هـ).

٤٢٧ ـ **معجم الإعراب والإملاء**: إميل بديع يعقوب. ط: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٩٨٨م).

٤٢٨ ـ **معجم الأمثال العربية**: رياض عبدالحميد مراد. ط: جامعة الإمام، (١٤٠٧هـ).

٤٢٩ ـ **المعجم الأوسط**: سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: أبو معاذ طارق عوض الله وزميله. ط: دار الحرمين، مصر، (١٤١٥هـ).

٤٣٠ ـ **معجم البلدان**: ياقوت بن عبدالله الحموي. ط: إحياء التراث العربي، بيروت، (١٣٩٩هـ).

٤٣١ ـ **المعجم الصغير**: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: عبدالرحمٰن محمد عثمان. المكتبة السلفية، المدينة المنورة، (١٣٨٨هـ).

٤٣٢ ـ **المعجم الكبير**: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي. ط: مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية.

٤٣٣ ـ **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**: عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي. تحقيق: مصطفى السقا. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٣هـ).

٤٣٤ ـ **معجم مفردات الإبدال والإعلال في القرآن الكريم**: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٤٣٥ ـ **المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية**: إميل بديع يعقوب. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).

٤٣٦ ـ **المعجم الوسيط**: مجمع اللغة العربية. ط: المكتبة الإسلامية، استانبول، الطبعة الثانية، (١٣٩٢هـ).

٤٣٧ ـ **معرفة الصحابة**: أبو نعيم الأصفهاني. تحقيق: محمد راضي بن حاج

عثمان. ط: مكتبة الدار بالمدينة المنورة، مكتبة الحرمين بالرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٤٣٨ ـ **المعرفة والتاريخ**: يعقوب بن سفيان البسوي. تحقيق: أكرم العمري. ط: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).

٤٣٩ ـ **المغازي**: محمد بن عمر بن واقد. تحقيق: مارسون جونس. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٤هـ).

٤٤٠ ـ **المغني**: موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة. تحقيق: عبدالله التركي، وعبدالفتاح الحلو. ط: دار هجر، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

٤٤١ ـ **مغني اللبيب**: جمال الدين بن هشام الأنصاري. ط: دار إحياء الكتب العربية.

٤٤٢ ـ **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة**: محمد بن أبي بكر ابن القيم. تحقيق: علي حسن عبدالحميد. ط: دار ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

٤٤٣ ـ **مفحمات الأقران في مبهمات القرآن**: جلال الدين السيوطي. تحقيق: إياد خالد الطباع. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

٤٤٤ ـ **مفردات ألفاظ القرآن**: الراغب الأصفهاني. تحقيق: صفوان عدنان داوودي. دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

٤٤٥ ـ **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**: جواد علي، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ).

٤٤٦ ـ **المفضليات**: المفضل بن محمد بن يعلى الضبي. تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام هارون. ط: دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة.

٤٤٧ ـ **المقاييس في اللغة**: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق: عبدالسلام هارون. دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

٤٤٨ ـ **المقتصد في شرح الإيضاح**: عبدالقاهر الجرجاني. تحقيق: كاظم بحر المرجان.

٤٤٩ ـ **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي. تحقيق: سعيد الفلاح. ط: دار الغرب، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٤٥٠ ـ **المنتخب**: عبد بن حميد. تحقيق: أبو عبدالله مصطفى بن العدوي. ط: دار الأرقم، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٤٥١ ـ **المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء**: أحمد بن محمد الجرجاني. تحقيق: محمد شمس الحق شمسي. ط: بإعانة وزارة المعارف والشؤون الثقافية للحكومة العالية الهندية، الهند، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٤٥٢ ـ **المنهاج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**: زين محمد شحاته. ط: مكتبة العواصم، دار بلنسية، الرياض، الطبعة العاشرة، (١٤٢٢هـ).

٤٥٣ ـ **منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد**: عثمان علي حسن. ط: دار إشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ).

٤٥٤ ـ **منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات**: محمد الأمين الشنقيطي. الدار السلفية، الكويت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٤هـ).

٤٥٥ ـ **الموافقات**: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي. تحقيق: مشهور حسن سلمان. ط: دار ابن عفان، الطبعة الأولى، الخبر، (١٤١٧هـ).

٤٥٦ ـ **الموسوعة الفقهية**: إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.

٤٥٧ ـ **الموضح في وجوه القراءات وعللها**: نصر بن علي بن محمد المعروف بابن أبي مريم. تحقيق: عمر حمدان الكبيسي. ط: بإشراف الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).

٤٥٨ ـ **الموضوعات**: أبو الفرج عبدالرحمٰن بن الجوزي. تحقيق: عبدالرحمٰن بن محمد بن عثمان. ط: دار الفكر، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).

٤٥٩ ـ **موطأ الإمام مالك**: رواية يحيى بن يحيى الليثي. ط: دار النفائس، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤٠١هـ).

٤٦٠ ـ **موقف ابن تيمية من الأشاعرة**: عبدالرحمٰن صالح المحمود. ط: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).

٤٦١ ـ **ميزان الاعتدال**: أبو عبدالله محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: علي بن محمد البجاوي. ط: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٨٢هـ).

٤٦٢ ـ **الناسخ والمنسوخ**: أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس. تحقيق: سليمان بن إبراهيم اللاحم. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

٤٦٣ ـ **الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز**: أبو عبيد القاسم بن سلاَّم. تحقيق: محمد المديفر. ط: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
٤٦٤ ـ **النبوات**: أحمد ابن تيمية. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٢هـ).
٤٦٥ ـ **نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار**: ابن حجر العسقلاني. تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي. ط: مكتبة المثنى، بغداد، (١٤٠٦هـ).
٤٦٦ ـ **نثر الورود على مراقي السعود**: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي. تحقيق: محمد ولد سيدي ولد حبيب الشنقيطي. ط: دار المنارة، الطبعة الأولى، جدة، (١٤١٥هـ).
٤٦٧ ـ **النحو الوافي**: عباس حسن. ط: دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة.
٤٦٨ ـ **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**: جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمٰن ابن الجوزي. تحقيق: محمد عبدالكريم كاظم الراضي. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
٤٦٩ ـ **النشر في القراءات العشر**: أبو الخير محمد بن محمد ابن الجزري الدمشقي. تحقيق: علي محمد الضباغ، دار الكتاب العربي.
٤٧٠ ـ **نصب الراية لأحاديث الهداية**: جمال الدين أبي محمد عبدالله بن يوسف الزيلعي. ط: دار المأمون، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٣٥٧هـ).
٤٧١ ـ **النكت والعيون**: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي. تحقيق: السيد عبدالمقصود. ط: المؤيد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
٤٧٢ ـ **نهاية السول**: جمال الدين عبدالرحيم الأسنوي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
٤٧٣ ـ **النهاية في غريب الحديث**: مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير. تحقيق: محمود محمد الطناحي، المكتبة الإسلامية، اسطنبول.
٤٧٤ ـ **النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى**: محمد الحمود. ط: مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، الطبعة الثانية، (١٤١٧هـ).
٤٧٥ ـ **نواقض الإيمان الاعتقادية**: محمد بن عبدالله بن علي الوهيبي. ط: دار المسلم، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤١٦هـ).
٤٧٦ ـ **نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار**: محمد بن علي الشوكاني. ط: دار القلم، بيروت.

٤٧٧ ـ **الهداية شرح بداية المبتدي**: أبو الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني. ط: مكتبة الحلبي، مصر.

٤٧٨ ـ **الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع**: عبدالفتاح عبدالغني القاضي. ط: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

٤٧٩ ـ **الوجيز في تفسير الكتب العزيز**: أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي. تحقيق: المجلس العلمي بفاس. ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٤٨٠ ـ **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**: أحمد بن الأمين الشنقيطي. ط: مطبعة المدني، مصر. الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، مؤسسة منير، موريتانيا، (١٤٠٩هـ).

٤٨١ ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان. تحقيق: إحسان عباس. دار صادر، بيروت.



فهرس الآيات القرآنية

• آل عمران •

• النساء •

● المائدة ●

• الأنعام •

• الأعراف •

• التوبة •

• يونس •

• يوسف •

٨٨	٢/٨٩١، ٣/١١٢٩، ١١٣٠
٨٩	١/١٩٣، ٢/٥٨٧
٩٠	١/١١٦
٩٢	٥/٢١٥٦
٩٦	٢/٧٧٢، ٩٠١، ٣/١١١١، ١٢٣٨، ٤/١٤٥٨، ٥/٢٣٩٩
٩٨	٣/٩٩٤
١٠٠	٥/٢٢٤٠، ٢٢٦٨
١٠٣	٢/٥١٣
١٠٦	٢/٦٢٩
١١١	١/٤٣٧
١١٥	١/٣٩٤، ٢/٦٢٦، ٧٣٦
١١٦	٣/١٠٨٤
١١٨	١/٣٩٥، ٢/٦٢٥، ٧٣٨
١٢٠	١/٢١٣، ٢/٥٣٦، ٣/١٠٩٨، ١٤١٨، ٤/١٦٣٣
١٢٣	١/٣٥١، ٣٥٢، ٢/٤٩٢، ٩٤٠، ٩٤٢
١٢٥	٢/٦١٥
١٢٦	٢/٧٣٧
١٢٧	٢/٥٢٧
١٢٨	٥/١٩٨٤

• الإسراء •

١	٥/١٩٥٨
٣	١/٢٨٧
(٤، ٥)	٤/١٦٧١
٧	٤/١٦٧١، ٥/٢٣١٩
٨	٤/١٦٧١
٩	٢/٩٣٧، ٤/١٧٦٩
(١٣، ١٤)	٣/١٠٠١، ١٠٠٨
١٤	٢/٥٤٣، ٩٣١، ٣/١٠١٣
١٥	٢/٦٧٤، ٦٧٦، ٦٧٨، ٦٨٢، ٦٨٤، ٤/١٦٨٨
١٨	٥/٢٣٧٠
١٩	٢/٥٤٦
٢١	٢/٦٨٨، ٤/١٨٢٢
٢٢	٥/٢٠٣١
(٢٣، ٢٤)	٢/٨٠٠

• الشعراء •

• ص •

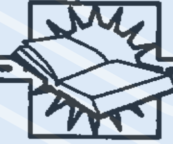
• الزمر •

• المرسلات •

• النبأ •

• النازعات •

* * *



فهرس الموضوعات